الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 113 - June 2008

مجلة شهرية . العدد المائة وثلاثة عشر . السنة العاشرة . يونيه ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

مصر .. «الجديدة» و«القديمة»



السنة / الشيعة : إلى أين نحن ذاهبون ؟
رضوان السيد

إبحار في عالم جديد
آلان جرينسبان

مصر الجديدة : مول . جلباب . خادمة آسيوية !
ماجدة بركة

النمو وحده لا يحقق العدالة !
محمود محيى الدين



السنة العاشرة
العدد ١١٣
يونية ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر


تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- آلان جرينسبان.. رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي السابق.
- بشير موسى نافع .. محاضر فى التاريخ الإسلامى وتاريخ الشرق الأوسط ـ لندن
- جميل حسن.. كاتب سورى
- جهاد فاضل .. كاتب وناقد لبنانى.
- رشدى سعيد.. أستاذ جيولوجيا مصرى مقيم فى الولايات المتحدة.
- رضوان السيد.. أستاذ الدراسات الإسلامية بالجامعة اللبنانية.
- صلاح الدين حافظ.. صحفى.
- عماد الغزالى.. صحفى.
- فضل مصطفى النقيب.. أستاذ فى جامعة واترلو ـ كندا.
- كرس شلنج.. أستاذ فى كلية السياسة الاجتماعية ـ جامعة كنت
- ماجدة بركة.. دبلوماسية وباحثة فى العلوم الاجتماعية
- محمود محيى الدين.. سياسى واقتصادى مصرى
- مريد البرغوثى .. شاعر فلسطينى يعيش فى القاهرة.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

أحداث لبنان الأخيرة تدعونا إلى دراسة هادئة وعميقة لتاريخ العلاقة بين السنة

رضوان السيد

يسود التوتر العلاقات بين السنة والشيعة فى أرجاء مختلفة من العالم الإسلامى، ويبلغ فى قوته ومدياته حدود القول إنه الموجة التاريخية الثالثة فى هذا السياق. والذى أقصده أن التجربة التاريخية للعلاقة بين الفريقين مرت من قبل بحقبتى توتر كبيرتين، وهما الحقبة الواقعة بين القرنين الرابع والسابع للهجرة، والحقبة الواقعة بين القرنين الثامن والحادى عشر للهجرة.ونعيش خلال الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجرى، حقبة التوتر الثالثة والحاضرة.

فى الحقبة الأولى، كان الصراع تكوينياً ومتشابكاً إذا صح التعبير. فقد كان القرن الرابع قرناً شيعياً بامتياز ساد فيه الفاطميون بالمغرب ثم بمصر والشام، وسيطر فيه البويهيون الشيعة على شرق العالم الإسلامى وصولاً إلى بغداد مقر الخلافة العباسية. ومن الناحية الفكرية والفرقية: فقد كان الفرع الاثنا عشرى من التشيع فى طور التكوين إلى جانب وفى تجاذب مع الفريقين الشيعيين الآخرين البارزين آنذاك: الإسماعيلى، والزيدى. أما السنة فقد كانوا أيضاً فى حقبة تكون من الناحية الفكرية والدينية. وأقصد بالتكون التمايز العقدى بين الأشعرى والأشعرية من جهة، والحنبلية والسلفية وأهل الحديث من جهة ثانية. ولذلك فقد كان للصراع التاريخى ذاك بعدان: بعد داخلى فى قلب العالمين الشيعى والسنى بدار الإسلام. وبعد اشتباكى بين السنة والشيعة. تمثل البعد الداخلى للصراع بين الشيعة فى بروز تيار جديد تقوم عقيدته الخلاصية على انتظار ظهور الإمام المهدى بعد دخوله فى الغيبة الكبرى، والتفكير فى الآليات الضرورية والمؤقتة للقيام على مسألتين: إدارة شئون الجماعة، وانتظار عودة الإمام والتمهيد له. وقد كان طبيعياً والمذهبان الإسماعيلى والزيدى قائمان فى دولتين بأئمتهما ومتكلميهما وفقهائهما: أن يمثلا التحدى الأبرز للاثنى عشرية. أما الخصومة مع السنة فقد بدأت وقتها فى بلاط عضد الدولة البويهى، وقد كانت فكرية وكلامية. كما ظهرت فى مناطق ومدن ظهور التشيع الاثنى عشرى حيث كانت هناك كثرة سنية أو شيعية مثل بغداد وحلب ونيسابور وبيهق. وما تطورت خصومة فكرية مع الاثنى عشرية فى القرن الخامس الهجرى حيث صعد الإحياء السنى، وتبلورت الأشعرية: بل ظل الصراع الفكرى والسياسى والعسكرى السنى مع الإسماعيلية التى سقطت دولتها فى خضم الصراع بين الدول السنية والصليبيين. وهكذا فطوال حوالى الثلاثة قرون بين الرابع والسابع للهجرة، تتحدث النصوص التاريخية، وتواريخ المدن عن صدامات فى الأحياء والنواحى بين السنة والشيعة(الاثنى عشرية): لكن الجدالات ضد فكرة «غيبة الإمام» وضد ربطها بالمهدى القائم فى آخر الزمان، ظلت تجىء فى الأساس من جانب الإسماعيلية والزيدية. وما تنبه لها الأشاعرة (والماتريدية) إلا بعد القرن السابع الهجرى.

ومع ذلك فقد كانت الحقبة الأولى للصراع هذه حاسمة لثلاث جهات: أنها المرة الأولى التى يقال فيها من جانب المؤرخين إن هناك صراعاً شيعياً/ سنياً، أو بين الخلافة والإمامة. وأنها المرة الأولى التى تعلن فيها الدولة العباسية عن نفسها باعتبارها دولة أهل السنة والجماعة (العقيدة القادرية)، وأخيرا لأن الإسماعيلية(والزيدية) شهدوا انحساراً كبيراً فى القرنين الخامس والسابع بحيث زالت الدول الإسماعيلية(بالمغرب ثم بمصر واليمن)، وظهر تيار مهدوى فى قلب الزيدية نفسها(= الشيعة الحسينية)، كما زالت دويلاتهم بالديلم وطبرستان، وتضاءلت باليمن. وبدا ذلك لأول وهلة باعتباره انتصاراً لأهل السنة (وليس للعباسيين الذين استمرت دولتهم فى التراجع بعد استفاقة قصيرة): لكن الظهور الاثنى عشرى أفاد من تراجع الزيدية بطبرستان وارتباكهم باليمن، كما أفاد أكثر من انحسار الإسماعيلية وانقسامهم. والواقع أن عقيدة «الغيبة» - وهى فكرة خلاصية قوية- وممارسة التقية أنقذتا التشيع كله، بعد أن بدا الفاطمى والزيدى باعتبارهما حاكمين عاديين لا يختلفان كثيراً ولا قليلاً عن الخليفة العباسى، ولا تتوافر فيهما- رغم تحدرهما من سلالة النبى(ص)- أية خصوصيات مهدوية. وزاد الطين بلة ظهور القرامطة ثم راديكاليى الإسماعيلية (=الحشاشين) الذين روعوا الأجزاء الشرقية من ديار الإسلام.

أما الحقبة التاريخية الثانية فى الصراع فقد بدأت فى القرن الثامن الهجرى. وكانت الخلافة العباسية قد سقطت على يد المغول، وقامت الدولة الإيلخانية/ المغولية شرق الفرات وعبر الهضبة الإيرانية، وصولاً لآسيا الصغرى من الناحية الثانية، كما قامت الدولة المملوكية فى غرب الفرات بالشام ومصر؛ وعملت كلاهما على ملء الفراغ الجيوسياسى (والأيديولوجى) الذى أحدثته الغزوات والحروب الصليبية والمغولية، والانحسارات والمتغيرات السالفة الذكر من الحقبة السابقة والتى انتهت فى القرن السابع الهجرى بسقوط الخلافة العباسية ببغداد.

بادر المماليك على أثر سقوط خلافة بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م إلى استجلاب أحد أبناء الأسرة العباسية إلى القاهرة حيث أعلنوه أميراً للمؤمنين، وأكملوا زعامتهم للإسلام السنى بالاعتراف بالمذاهب السنية الأربعة مع تقديم للمذهب الحنفى؛ لأن المماليك (الأتراك) كانوا من الأحناف. أما الإيلخانيون الذين بدأ الإسلام يتسلل إلى صفوف أمرائهم (وعلى المذهب السنى) فقد وقعوا فى حيص بيص. إذ إنهم كانوا بين أحد خيارين: إما أن يزيلوا الدولة المملوكية ويحتضنوا العباسيين من أجل المشروعية، وإما أن يعترفوا بالخليفة العباسى بالقاهرة، فيصبحون فى المنزلة الثانية بعد المماليك فى مسألة حماية الإسلام السنى وخلافته. ولأنهم عجزوا عن إسقاط الدولة المملوكية بعد عدة حملات؛ فقد آثروا خياراً آخر تماماً وهو اعتناق المذهب الإمامى الاثنى عشرى، فأبدعوا بذلك تقليداً جديداً لاءم عدة سياقات: أظهروا إمكان إقامة دولة شيعية رغم استمرار غياب الإمام، وتوافق ذلك مع مصلحتهم إذ لن يخضعوا لمرجعية حاضرة، وتوافق ذلك مع مطامح الإداريين والمثقفين الإيرانيين شبه القومية (عاد اسم إيران زمين - أى بلاد إيران- إلى التداول فى سجلات الدولة)؛ وبخاصة أن المذهب الاثنى عشرى كان قد كسب وقتها نصف السكان بإيران والعراق. ثم إن الفقهاء الشيعة الذين كانت سلطتهم أو ولايتهم قد شملت إدارة الشأنين الدينى والاجتماعى للجماعات الشيعية فى غياب الإمام، رأوا إمكان الإسهام فى المهمة الأخرى دون الانغماس فيها بأنفسهم وهى إقامة دولة التمهيد (انتظاراً لعودة الإمام أو ظهوره). ومع أن سلاطين الإيلخانيين لم يثبتوا جميعاً على المذهب لأن عدداً منهم عادوا إلى التسنن (تحت وطأة إقبال أقربائهم بآسيا الوسطى وأفغانستان وشبه القارة الهندية على التأسلم والتسنن)؛ فإنهم فتحوا الإمكانيات السالفة الذكر، فصار المسرح مهيئاً لأول مرة لصراع على مستويين: المستوى الجيوسياسى والجيواستراتيجى من جهة، والمستوى الدينى والاعتقادى من جهة ثانية. فى الحقبة الأولى التى استعرضناها ما كان الدين أو المذهب عنصراً أساسياً؛ إذ إن الفاطميين والزيدية إنما ظهروا على أرض عباسية. وكانت الدولة العباسية تصارع لاستعادة أراضيها من الدويلات التى تكاثرت، مستعينة بالأمم الإسلامية الأخرى التى أقبلت على الإسهام فى الصراع إلى جانب العرب والفرس والديلم. وكان أبرز تلك الأمم: الشعوب التركية التى اعتنقت بالإجمال المذهب السنى واتخذت من الخلافة العباسية (التى صارت سنية فعلاً بالمصلحة ثم بالانتماء) غطاء فى صراعها على السلطة فى دار الإسلام، مع الآخرين، وفيما بينها. وهكذا فقد جاء العامل الدينى فى الحقبة الأولى لاحقاً على العامل السلطوى والسياسى، وما كتب أبو حامد الغزالى كتابه: «المستظهرى فى الرد على الباطنية» (الإسماعيلية) إلا أواخر القرن الخامس الهجرى. أما فى الصراع الإيلخانى / المملوكى؛ فإن العاملين الجيوسياسى والدينى تساوقا وتوازيا، وإن ظل العامل الأول أظهر: لأن الصراع بدأ فى الواقع بين الإيلخانيين والمماليك قبل اكتشاف إمكانيات العامل الدينى، ولأن الفريقين السنى والشيعى، كانا لا يزالان على امتزاج شديد فى الشام وإيران والعراق، وأخيراً لأن الشيعة أنفسهم، ما كانوا قد اعتادوا على فكرة «دولة التمهيد» (السابقة على ظهور الإمام)، بعد أن أخلدوا لشىء من الهدوء على أثر عواصف الفاطميين والقرامطة والحشاشين، وإيثار المسالمة والتقية فى التعامل مع الجمهور، ومع السلطات.

وعلى أى حال، فقد كتب العلامة الحلى (فى مطالع القرن الثامن الهجرى) كتابه المشهور: منهاج الكرامة فى معرفة الإمامة، فرد عليه ابن تيمية من الشام ومصر بكتاب: منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية. يهتم الحلى بالتدليل بالعقل والنقل على الأصل النبوى للإمامة، وتسلسل الأئمة بالنص وليس بالتوريث، وعلى الغيبة باعتبارها حدثاً هائلاً يؤسس لخلاص الأمة والعالم

الشيعة والسنة

أو أنَّ مصيرهما يرتبط بذلك. ومع أنَّ الحلِّىَّ لا يقول شيئاً عن كيفية السلوك فى عصر الغيبة؛ لكنَّ المفهوم أنه يترك ذلك للفقيه، صاحب السلطة فى دراسة كل حالةٍ على حدة. وكان الشريف المرتضى (فى القرن الخامس الهجرى) قد رأى إمكانَ العمل مع السلطان العادل، واعتَبر ذلك وقتَها إذناً بالمُسالمة والصبر على الجور

واللا شرعية فى عصر الغيبة والتقية. ومعروفة الطرفة المنسوبة إلى ابن طاووس أمام هولاكو حين آثر الكافرَ العادلَ على المؤمن أو المسلم الجائر. أمّا فى السياق الذى كان الحلِّىُّ يكتب فيه؛ فإنَّ السلطان الشيعىَّ، يبقى طبعاً سلطاناً غير مكتمل الشرعية؛ لكنَّ شرعيته أو نُصرته وليس طاعته فقط؛ لا تستندُ إلى عدله وحسب ؛ بل إلى إيمانه بحق أهل البيت، وانتظاره مثل الجماعة الشيعية تماماً صاحبَ الزمان لكى يسلمه مقاليد الأمور، مكتسباً من الفقيه بهذا الاستعداد، شرعيةً إضافيةً باعتباره وكيلاً مؤتمناً على «دولة التمهيد». أمّا ابنُ تيمية، والذى كان عارفاً بعقيدة الغيبة، لكنه لم يكن واعياً لآثارها المحتملة على المستوى السياسى؛ فإنه آثر الردَّ والنقض على أمرين: عقيدة الإمامة أصولاً وفروعاً، وعقيدة الغيبة لدى الشيعة. والأمر الآخر: العقائد المعتزلية فى التنزيه والصفات وخَلق أفعال الإنسان مع أنَّ المعتزلة (الذين من ضمن أصولهم نفى القَدَر) كانوا قد انقرضوا تقريباً (وانتهى القدرية الأوائل فى القرن الثانى) ؛ لإيمانه بأن الشيعة يعتنقون الآراء المعتزلية أو يستندون إليها فى التدليل على أجزاءٍ من مذهبهم فى وجه أهل السنة. أما الإيلخانيون أنفسهم فقد اختار

لهم ابن تيمية مصيراً آخر، عندما اعتبر أنهم لا يزالون على كفرهم (كانوا شامانيين، أى بوذيين فى الأصل)، مستدلاً على ذلك باستحلالهم للكثير من المحرمات، وبمحاربتهم الدائمة للمسلمين (المماليك وشعوب مصر والشام)؛ وهذا ما صرّح به الرجل فى رسالته إلى السلطان الملك الناصر فى شأن التتار[1].

وما اعتبرتُ خمودَ الصراع بين الإيلخانيين والمماليك نهايةً لهذه الحقبة؛ لأنَّ الانزياحات الشعبية والجغرافية/ السكانية بين الطرفين استمرت بإيران وبالعراق وبخراسان وأذربيجان ومناطق آسيا الوسطى الأخرى وشبه القارة الهندية. وكان يمكن للأمر أن ينحسم لصالح الشيعة فى شرق العالم الإسلامى على الأقل، لولا ظهور العثمانيين،

قبل ظهور الصفويين بإيران. والصفويون هم الدولةُ الشيعيةُ الخالصةُ الأولى، التى خاضت حروباً دفاعيةً فى مواجهة العثمانيين على مدى أكثر من قرن، وغُلبت مراراً، كما غلبَ القاجاريون من بعدهم، وما خمد الصراع وهدأ على دَخَن إلاّ فى مطلع القرن الثانى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلادى. وخلال ذلك الصراع العسكرى والاستراتيجى على المجالات والموارد والمنافذ، والبشر، والذى استمرَّ زُهاء القرنين ونصف القرن، وخلّف خراباً وانزياحاتٍ سكّانية لا تقل هولاً عن الحروب المغولية وحروب تيمورلنك، اكتملت الأدبياتُ المذهبيةُ الجدالية النابذةُ والناقضةُ بين الطرفين، والتى لم يُضف عليها السلفيون، من مريدى طهورية ابن تيمية وتلامذة ابن عبد الوهاب، كثيراً فى الأزمنة الحديثة والمعاصرة. وقد بلغ من هول الصدام وتأثيراته العقائدية والاجتماعية أنَّ نادر شاه الأفغانى الذى

حكم إيران لمدة قصيرة، لم يرَ حلاً للنزاع المستشرى إلا بالتوحيد بين السنة والشيعة، ولذلك جمع- وهو السنى بالوراثة - فقهاء الطرفين وناقشهم وضغط عليهم، دون أن يتوصل لشىء!

إن هذه الحقبة الطويلة من الصراع والمعارك العسكرية (بين القرنين الثامن والحادى عشر الهجرى، والرابع عشر والسابع عشر الميلادى) حدَّدت فى الحقيقة الخطوط الاستراتيجية للإسلام الشيعى. وليس للإسلام السنى. فقد انحصر الإسلام الاثنا عشرى بإيران وجوارها، مع صمود جيوب شيعية فى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامى باستثناء جنوب شرق آسيا. وما تغيَّر المشهدُ كثيراً فى عصر الاستعمار، ولا فيما تلاه، حتى كانت الثورةُ الإسلاميةُ فى إيران، على أثر اندلاع إحياءٍ دينى شيعى وسنى متوازيين ومتقاربين فى البداية، طوال نصف القرن الماضى.



لا يصحُّ تجاهُلُ التاريخيات والمذهبيات فى التوتُّر الحاصل خلال العقدين الأخيرين بين السنة والشيعة. لكن من المؤكد أنه لا علاقة لما يجرى اليوم بما كان عليه الأمر بين العثمانيين والصفويين، أو بين الحنابلة والشيعة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى. بل إنَّ هذين الأمرين (التاريخى والمذهبى) لا يمكن حسابُهما فى مجال الذاكرة، وإن أمكن احتسابُهما فى مجال الوعى، أى بعد حصول التوتر. وهذا ما انتقدتُه على إدوارد سعيد (وعلى سائر القوميين والإسلاميين) الذين أعادوا أصولَ الصراع الحالى بين المسلمين والغرب إلى الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى. وقد دللوا على ذلك بأنَّ الرئيس بوش ذكر «الحرب الصليبية» فى مجال دفاعه عن تكتيكاته ضد «الإرهاب الإسلامى»، كما احتجوا بإشارات كثيرة فى الإعلام العالمى. إدوارد سعيد (فى كتابه: تغطية الإسلام) ما قال بالتواصل التاريخى أو بالذاكرة فى ذلك: كما فعل القوميون والإسلاميون: بل قال به فى مجال الوعى. أى أنَّ الأميركيين العاديين أو بعضهم يعون الصراع الدائر باعتباره صراعاً بين الحق والباطل، وبين المسيحية والإسلام. والذى أراد أنَّ هذا الوعى (إن كان) فهو مصطنَعٌ أو مستجد بعد اندلاع

التوتُّر ومداه ومصائره

أطلّت الأزمنة الحديثةُ على السنة والشيعة، ونُخَبُهُم على تواصُلٍ وتوادٍّ، وكثيرٌ منهم يُتقنُ الفارسية والتركية والعربية

الشيعة والسّنة

الصراع، وهو الذى يستدعى الذاكرة والتاريخ صوراً وأوهاماً.. وحقائق. والشأن كذلك فى التوتر بين السنة والشيعة؛ فهناك من يعيده إلى حياة النبى(ص)، والحساسية بين أم المؤمنين عائشة والإمام على. وهناك من يعيده إلى «يوم السقيفة» حين اختير أبو بكر ولم يختر على لرئاسة الدولة الجديدة، أو لخلافة النبى(ص). وقد سمعت قبل عام الشاعر العربى المعروف أدونيس (= على أحمد سعيد) يعيد الخلل فى إدارة الشأن العام لدى العرب والمسلمين إلى «يوم السقيفة» ذاك بالذات! بينما يذهب باحثون عرب كثيرون إلى أن النمط الاستبدادى فى القيادة إنما يعود إلى فكرة الخلافة ومؤسساتها بالذات! وكل ذلك ليس أكثر من جلد للذات، وتجنٍّ على التاريخ، وسوء فهم للواقع.

أطلّت الأزمنة الحديثة على المسلمين السنة والشيعة، ونخبهم على تواصل وتوادّ كبيرين، وكثير منهم ثنائى اللغة أو ثلاثيها، أى أنه يتقن الفارسية والتركية والعربية. ونعرف اليوم أن إيرانيين تجديديين كثيرين فى القرن التاسع عشر ومطالع العشرين، اعتمدوا فى معارفهم عن الغرب على الترجمات من اللغات الأوروبية إلى التركية والعربية، وعلى ما كانت تنشره المجلات العربية الجديدة. ومعروف التأثير الكبير الذى تركه جمال الدين الأفغانى الإيرانى الأصل فى سائر أنحاء العالم الإسلامى، دونما فرق بين الأوساط السنية والأخرى الشيعية. وقد صدرت أبحاث كثيرة وما تزال عن العلاقة بين طبائع الاستبداد للكواكبى، وتنبيه الأمة للنائينى. وما نزال نقرأ عرباً وإيرانيين وأتراكاً كتب المسلمين الهنود الصادرة فى القرنين التاسع عشر والعشرين، فى الدفاع عن الإسلام، وفى التجديد، دون أن نستطيع التمييز بين السنى والشيعى من المؤلفين، وما عرفت إلا قبل سنوات قليلة أن رحمة الله الهندى صاحب كتاب «إظهار الحق»، وسيد أمير على صاحب «روح الإسلام» و«حياة محمد» شيعيان. أما شبلى النعمانى ومحمد إقبال، فهما رائدان تجديديان لدى السنة والشيعة على حد سواء. ولو قرأنا اليوم تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب لوثروب ستودارد «حاضر العالم الإسلامى» عام ١٩٢٦، لوجدنا أنه يذكر المجددين من الفقهاء والمفكرين لدى الشيعة والسنة فى آسيا الوسطى وإيران والهند، دونما تمييز لمذاهبهم أو أصولهم الدينية والعرقية. وكانت هناك فكرة عند الشيخ محمد عبده مؤداها أنه ينبغى الإفادة من تقاليد «الاجتهاد» عند الشيعة، لفتح «باب الاجتهاد» المغلق عند السنة. وفى ثورة العشرين على البريطانيين بالعراق، تعاون العلماء الشيعة والسنة، كما تعاونت العشائر السنية والشيعية لمواجهة المستعمرين. وعندما ذهبت للدراسة بالأزهر عام ١٩٦٥ م وجدت أن بين المقررات الفقهية والمنطقية فى دروسنا بكلية أصول الدين ثلاثة كتب اثنان منها لزيديين، والثالث لاثنى عشرى.

ولا يعنى ذلك أن الأمور كانت كلها على ما يرام بين السنة والشيعة من الناحية الثقافية وحتى الاجتماعية. ففى مطالع الأزمنة الحديثة، كان هناك نهوض سلفى بنجد وباليمن وبالهند. وحدثت إغارات وهابية كما هو معروف على بعض المزارات الشيعية بالعراق، وظهرت أدبيات سجالية متبادلة وردود ونقائض. بيد أن ردود أهل السنة من أتباع المذاهب الفقهية على الوهابية الأولى لا تقل عنفاً عن الردود الشيعية عليها. وما وصلت تلك المجادلات إلى السلفية الهندية؛ لكنها لعبت دوراً



إنّ أبا الأعلى المودودى الذى أنشأ «الجماعة الإسلامية» بالهند عام ١٩٤١، حرص على أن يكون بين كوادرها سنةٌ وشيعة



صغيراً لدى السلفيين المصريين فى مطالع القرن العشرين. بيد أن أولئك كانوا يهاجمون الشيعة فى المسائل نفسها التى يهاجمون فيها تقليديى السنة من أتباع المذاهب الفقهية الثلاثة: الشافعية والأحناف والمالكية، أى زيارة القبور والتصوف والاحتفالات والموالد التى لم ترد بها النصوص. وقد بادر الشيعة والسنة، والشيعة قبل السنة، إلى تلافى تلك التباينات الطارئة بإنشاء جمعية التقريب بالقاهرة، والتى كان فيها علماء من الشيعة والسنة، عملوا لأكثر من ثلاثين عاماً فى شتى المجالات، من أجل فهم متبادل، واعتبار التباينات اختلافات فروعية، وليس خلافاً يتسبب فى التفرقة بين المسلمين. وكان أستاذنا بالأزهر الشيخ محمد أبو زهرة يحدثنا عام ١٩٦٨/١٩٦٩ فى دروس أصول الفقه عن اجتهادات المجتهدين الكبار بإيران والعراق، والتى استمع إليها، وعرف الكثير منها فى جلساته معهم بالقاهرة إلى جانب الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر أواخر الخمسينيات من القرن الماضى. وقد اشتهر عن الشيخ شلتوت إقدامه عام ١٩٥٩ لأسباب دينية وسياسية على اعتبار المذهب الجعفرى مذهباً فقهياً خامساً إلى جانب المذاهب السنية الأربعة يمكن تدريسه بالأزهر. وكان من ضمن زملائنا بالمعهد الدينى ببيروت (١٩٦٠-١٩٦٦) عدد من الشبان الشيعة، وذهب بعضهم معنا إلى الأزهر بمصر حيث اختاروا كلية اللغة العربية للتخصص العالى. وتزاملت بالأزهر (١٩٦٥-١٩٧٠) مع طلاب من الشيعة الإمامية من العراق وباكستان، وزيدية من اليمن، وعلويين من سورية وتركيا. وكانوا ينافسوننا على الولاء لمصر ولعبد الناصر. وكان واحد منهم يحرص على التصريح بالانتماء للأشاعرة، فى مواجهة السلفيين الذين بدأوا يظهرون بين الأساتذة والطلاب هناك فى تلك الفترة.

إن هذا التواصل والامتزاج ما عاد ممكن الحدوث الآن. وقد رأيت فى تسعينيات القرن الماضى بضعة طلاب من أصول زيدية وإمامية فى معاهد دينية سنية، لكنهم كانوا قد اعتنقوا السلفية كما رأيت عشرات الطلاب من أصول سنية فى معاهد وكليات بإيران، لكنهم كانوا قد تحولوا إلى التشيع الإمامى. ويدرس بالحوزات فى لبنان وسورية طلبة من أصول سنية من لبنان وسورية ومصر وفلسطين والمغرب، لكنهم الآن شيعة ملتزمون.



أما العوامل الأساسية للتأثير وللتغيير، ولدى الطرفين، فى القرن العشرين فتمثلت فى ثلاثة أمور: ظهور الدولة الوطنية أو القومية الحديثة، واندلاع حركة الإحياء الدينى لدى الطرفين، والحرب الباردة والسياسات الدولية خلالها وبعدها. وقد ظهر الإحياء القومى قبل الدينى، ثم ما لبثا أن تداخلا مع غلبة للثانى على الأول. لقد أكدت حركتا الإحياء على الهوية الخاصة والطبيعة الأصلية لكل من المذهبين.

وللوهلة الأولى ما بدا أن الإحيائية الإسلامية الجديدة سوف تفرق بين السنة والشيعة. فنواب صفوى زعيم فدائيان إسلام، كان صديقاً كبيراً للإخوان المسلمين المصريين. وحزب الدعوة الذى أنشئ بالعراق فى الخمسينيات أفاد من أفكار وتنظيمات الإخوان المسلمين المصريين[١]. بل إن أبا الأعلى المودودى الذى أنشأ «الجماعة الإسلامية» بالهند عام ١٩٤١، حرص على أن يكون بين كوادرها سنة وشيعة؛ لكنه ما لبث أن تخلى عن ذلك بالتدريج بعد قيام دولة باكستان وانتقاله إليها. كانت الإحيائيات الإسلامية الطهورية الطابع لدى الطرفين تتجه ضد الغريب والأجنبى، ثم ضد الأنظمة المحلية فى الدولة الوطنية. ولذلك ما أحس أحد بالتوجس من الآخر فى البداية. لكن الذاتيات الخاصة بدأت بالظهور والتبلور. وقد تبين لى فى بحث كتبته قبل عشر سنوات أن التطورات فى القرن العشرين (وقبل بروز الإحياء الدينى لدى الطرفين)، فى كل من مصر وإيران، متوازية بل ومتشابهة[٢].

والإحياء القومى لدى الإيرانيين والأتراك سابق للإحياء القومى عند العرب (لأن الهياكل القومية كانت قائمة فى دولة لدى الطرفين). وعندما بدأ ذلك الإحياء لدى العرب، برز بين أعلامه المسيحيون من لبنان وسورية وفلسطين.. والعراق، والقوميون المتطرفون فى إيران وتركيا. وقد اعتقد بعض هؤلاء (وساندتهم فى اعتقادهم الدولة التى أقامها مصطفى كمال بتركيا) أن الدولة القومية العلمانية تؤمن المساواة والعدالة والتقدم، شأن ما حصل فى أوروبا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد أثار صعود العصرانيين قلق الإحيائيين الإسلاميين الشيعة بإيران (حسن تقى زاده، وكسروى، وآخرين عديدين) والسنة عند العرب (فرح أنطون وشبلى شميل وإسماعيل مظهر، وتيار واسع صريح ومضمر). بيد أن التوتر تبلور وتزايد وتمايز ليس بسبب ظهور المتغربين وقوة أطروحاتهم فى بنية الدول الوطنية الجديدة، بل لأمرين آخرين تسببت بهما تنظيمات الدولة القومية البازغة، والسياسات الدولية بالمنطقة. فمن جهة ظهرت خلافات على الحدود غيرت ما استقرت عليه الأمور تاريخياً منذ القرن السابع عشر. فقد تكونت دولة وطنية فى عراق جرى تركيبه من ولايات عثمانية ثلاث، لم تحظ برضا الأتراك والإيرانيين على حد سواء. وقد شكا العرب من استيلاء تركيا على اسكندرون العربية، واستيلاء إيران على الأهواز العربية، واستيلاء اليهود على فلسطين. وشكا الأكراد من أنه ما حسب لهم حساب فى دولة رغم أعدادهم الكبيرة فى مناطق

تزاملتُ بالأزهر مع طلاب من الشيعة من العراق وباكستان، وسوريا واليمن وتركيا. وكانوا ينافسوننا على الولاء لمصر ولعبد الناصر



متقاربة بتركيا والعراق وسورية.. وإيران. وهناك مشكلات البنغاليين والبنجابيين والمهاجرين الظاهرة بباكستان بعد الحرب الثانية، ومشكلات البلوش بين باكستان وإيران وأفغانستان، ومشكلات الهزارة والطاجيك والأوزبك بأفغانستان.. الخ. والأمر الآخر الذي أحدثه ظهور الدولة الوطنية كان تسلل الإحساس إلى فئات وأقليات (منها المسيحيون والشيعة، ومنها الأكراد والبربر)، ورغم التغطية «القومية» أو بسببها، بالغبن والانظلام؛ وشأنهم في ذلك شأن السنة في الدول التي وجدوا أنفسهم أقليات فيها مثل الهند والفيليبين وتايلاند.. وحتى إيران. وصحيح أن «الحرب الباردة» بين الجبارين ضمن النظام العالمي بعد الحرب الثانية، تشبثت بالحدود الجديدة، وحاولت تجميد التوترات، وتثبيت الولاءات الوطنية الطالعة بحسب الانضواء في أحد المعسكرين؛ لكن الفئات ذات البعد الأقلوي ظلت تلتمس تحسيناً لأوضاعها، إما من طريق المشاركة في التغييرات الداخلية، أو من طريق التماس العون (ولو المعنوي) من الدول والمرجعيات التي تعتبرها الأقرب إليها. ولذلك فقد كان هناك تطلع من الأتراك بقبرص مثلاً إلى تركيا؛ ومن جانب الشيعة بباكستان والبحرين ولبنان والعراق وأفغانستان إلى إيران.. الخ. وإذا عدنا إلى المسألة بين السنة والشيعة بعد هذا الاستطراد الطويل؛ نجد أن هناك «ذاتية» شيعية ظهرت في الدول الجديدة، وغالباً من أجل المساواة والمشاركة، وليس من أجل الانفصال، وفي مناطق مثل العراق ولبنان والبحرين وباكستان وأفغانستان وتنزانيا ونيجيريا.. إلخ. وقد شكل هذا الوعي مزيجاً من الإحيائيات القومية واليسارية والدينية يقوم على «استعادة الهوية» الخاصة، وتطلب تبلورها سياسياً. وبالإجمال فقد غلبت القضايا الاثنية في حقبة الدول الوطنية الأولى، والتوترات الأيديولوجية اليسارية في زمن الحرب الباردة، والمشكلات الدينية في حقبة الإحياء الإسلامي، دون أن يخمد البعد الاثني والقومي الأول كلياً.

إن قيام الثورة الإسلامية في إيران لا تنحصر أسبابه بذلك طبعاً. بيد أن الإحياء الإسلامي، وقد تعددت أسبابه واجتياحاته، يحاول منذ عقود وعند السنة والشيعة جرف الدولة الوطنية التي قامت بالمشرق قبل قرابة القرن؛ وقد تمكن من ذلك في إيران عام ١٩٧٩ حين سقطت تلك الدولة في خضم ثوران هائل، ولصالح المؤسسة الدينية التقليدية[١]. ولأنه إحياء إسلامي شيعي بالدرجة الأولى - وليس إحياء قومياً إيرانياً- فقد ترك آثاراً هائلة على سائر الأقليات (والأكثريات) الشيعية في العالمين العربي والإسلامي والتي كانت تتطلع إلى إيران، على نحو ما، حتى أيام الشاه كما سبق ذكره.

في الإسلام، كما في الديانتين الإبراهيميتين الأخريين، اتجاهان كلاميان (لاهوتيان): اتجاه التنزيه والعدل، واتجاه الرحمة والعناية والفضل. والمعتزلة هم قادة الاتجاه الأول (والذي يقال إن المؤسس واصل بن عطاء تأثر فيه بالإمام زيد بن علي بن الحسين)، وقد تبعهم في ذلك الزيدية والإمامية الاثنا عشرية. أما الاتجاه الآخر، أعني اتجاه الرحمة والعناية (الإلهية) فهو اتجاه أهل السنة والجماعة. ويذكر مؤرخو علم الكلام لزوال المعتزلة أسباباً بينها ضغوط الأشعرية السنية؛ لكنني أحسب أن علة ذلك افتقار المعتزلة للجاذبية بين العامة، بسبب انشغالهم بمسألة العدل الإلهي، في تأكيد على ما يشبه الصراع بين الله والإنسان، ثم عدم متابعتهم لأصولهم الأولى، وبينها أصلهم الخامس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما في التشيع فإن العدل اتخذ منحى إنسانياً وسياسياً بالدفاع عن حق أهل البيت، إضافة للبعد الديني العميق في مبدأ أو أصل الحق الذي يواجه الباطل، ثم العقيدة الخلاصية المتمثلة في «الغيبة». والتي ترتبط ارتباطاً وثيقاً مرة أخرى بالحق الذي لا بد أن ينتصر على الباطل في النزوع المهدوي، مهما طال الزمان - وبالعدل المطلق الذي تنجزه عودة الإمام: «الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً». وكما لا يمكن تفسير التاريخ أو التجربة التاريخية للجماعات والأمم بالعقائد وحدها أو بالتبلورات القومية وحدها؛ فكذلك لا يصح اعتبار التجربة التاريخية أو العقيدة الشيعية لدى الإمامية مفتاحاً وحيداً لفهم السايكولوجيا الجماعية للشيعة (هل توجد سايكولوجيا جماعية؟!)، وإن لم يمكن تجاهلها. فالمظلومية الناجمة عن مقتل الأئمة، وعدم قدرة أوائلهم (باستثناء الإمام علي) على الوصول إلى السلطة، ثم الاضطهاد الذي لاحق الجماعات الشيعية في حقبة نشوئها الأولى؛ كل ذلك استقر في الذاكرة والوعي، وتمثل شعائرياً في طقوس التعزية الحسينية لدى الإمامية، التي هدفها إيقاظ ذاكرة المآسي، من طريق الوعي الواعي، حتى في إيران التي أنجز الشيعة دولتهم فيها قبل أكثر من أربعة قرون. وهكذا فقد أصبحت شعائر التعزية وطقوسها- بغض النظر عن وقائع الحياة السياسية والاجتماعية- ولدى العامة وسيلة رئيسية (واعية أحياناً وغير واعية أحياناً أخرى؛ لكنها عميقة المغزى في كل الحالات) للحفاظ على خصوصية الجماعة وتمايزها ووحدتها الشعورية واللاشعورية.





ولأن ذلك يقترن بيقينية عقيدة الحق (الذي يعلو على العدل أحياناً ويوازيه أحايين)، وعقيدة الغيبة المرتبطة به؛ فإن ذلك يصير الشيعة الإمامية والفرق الدينية في سائر الأديان ذات الصبغة الخلاصية، وفي أزمنة التحولات الروحية الكبرى (والإحياء الإسلامي، والآخر البروتستانتي، هما الأكثر دلالة وثوراناً في العالم اليوم)، إلى ما يشبه الأحزاب الصلبة، وبخاصة إذا توافرت لها قيادة كارزماتية قوية، وأحاطت بها حواجز وعوائق وموانع وعداوات وتوجسات، كما حصل مع الثورة الإسلامية في إيران. فالذاكرة الموقظة الملتاعة والغاضبة لا تحاسب نفسها بل الآخر، وهي لا تعتمد في ذلك على الأحداث التاريخية التي تستعاد أبداً فقط؛ بل وتبحث عن الخصوم الحاضرين والظالمين القائمين، تثبيتاً ليقينها، ولكي يظل الشر متجسداً أو قريباً من التجسد في الواقع كما هو في الوعي. والمأساوي أنه في لحظة الذروة لهذه التطورات بإيران(١٩٧٨-١٩٨٠)، والوعي الخصوصي والخلاصي الشيعي في أقصى درجات توتره، وقد صارت الولايات المتحدة الشيطان الأكبر، شن صدام حسين حربه الصاعقة عليها، فأيقظ ذلك تحليلات حديثة الطابع (التآمر مع الولايات المتحدة)، وأحاسيس ووعياً عميقاً في الذاكرتين القومية (الفتح العربي لإيران، وكراهية الشعوبيين القدامى للعرب والإسلام) والدينية (السنة ضد الشيعة) وكأن ذلك كله ما كان كافياً، إذ انصرفت الدعاية العراقية وغير العراقية والقومية والسلفية للتنديد بالفرس (المجوس)، وبالشيعة (العقائد السرية الباطنية، والقول بتحريف القرآن، وشتم الصحابة!). وليس المهم كم صدق الجمهور العربي (السني) ذلك؛ بل المهم الأثر الذي خلفته في نفوس الإيرانيين (وبين مثقفيهم كثيرون يعرفون العربية) وفي نفوس الشيعة العرب، ومنهم الكثرة العراقية التي استقر في وعيها أن النظام يمارس في حق عامتها تمييزاً مزدوجاً: باعتبارهم شيعة، وباعتبارهم عراقيين.

وما وقفت القيادة الثورية الإيرانية مكتوفة اليدين، أمام هذا التحدي الملحمي بينها وبين العرب، وبينها وبين الولايات المتحدة. ففي الوقت الذي هاجم صدام حسين دولة الثورة الإسلامية، صدر الدستور الإيراني الجديد، الذي يقيم نظام «ولاية الفقيه»؛ أي يسبغ على الدولة البازغة طابعاً ثيوقراطياً مهدوياً. وظهرت تنظيمات الباسيج والباسدران والحرس الثوري للدفاع عن «دولة التمهيد» الحق، واحتجز طلبة «خط الإمام» الدبلوماسيين الأمريكيين في السفارة الأمريكية (وكر الجواسيس) بطهران، وأقبل مئات ألوف المتطوعين إلى الجبهة المستعرة مع العراق، وبينهم ألوف سيقضون أثناء اندفاعهم لاقتحام حقول الألغام العراقية، ليبلغ ضحايا الحرب من الطرفين حوالي المليون، أكثرهم من الشيعة- دون أن ينسى الإمام الخميني اشتراع يوم للقدس، حطاً على العرب الذين تركوا القدس وفلسطين لمصيرهما، ومضوا لمقاتلة إيران!

بيد أن الأبرز والأكثر لفتاً للانتباه (وهو أمر ما جرى التنبه إليه إلا بعد سنوات طوال) طرائق إيران في عصر ولاية الفقيه (بل طريقتها لأنها واحدة) في التعامل مع الشيعة خارجها، في ديار العرب والإسلام، وفي العالم الأوسع. فهي ما اكتفت بكسب تأييد هؤلاء وحماسهم (ومعهم كثيرون من شبان السنة)، باعتبارها مرجعية شيعية وثورية. بل اقتضت دعوى القيادة الأوحد للشيعة في العالم من خلال ولاية الفقيه (وليس باعتبار نظامها نظاماً شيعياً وحسب كما في أيام الشاه)، إقامة تنظيمات داخل كل الجماعات الشيعية في العالم، تتبع الولي الفقيه في المسائل الدينية والحياة الشخصية والعامة. وقد تحولت تلك التنظيمات في البلدان التي تنتشر فيها الفوضى مثل لبنان وأفغانستان إلى تنظيمات مسلحة؛ في حين بقيت سرية في أكثر البلاد الإسلامية، مع التمايز في أسلوب الحياة، وانتشار التذمر في صفوفها، والمنافسات مع

باستثناء مصر؛ فإنّ علاقات إيران العربية الإسلامية تحسنت واستمرت فى التحسُّن

الشيعة والسّنة

الأنظمة القائمة؛ وبخاصة تلك التى ما كانت علاقتها بالنظام الجديد فى إيران جيدة بسبب علاقتها بالولايات المتحدة، أو دعمها للعراق فى الحرب عليها. كما أن النظام الثورى الإيرانى أنشأ واستقبل أو دعم تنظيمات معارضة(ما كانت شيعية كلها) من البلدان العربية والإسلامية استخدمها فيما بعد فى الجهات الأكثر إزعاجاً لخصومه ومناوئيه(من مثل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وحزب الدعوة بالعراق، والجهاد الإسلامى فى فلسطين، وحزب الوحدة فى أفغانستان، وفى العقد الأخير: حركة حماس).

وعندما انتهت الحرب العراقية-الإيرانية عام ١٩٨٨ وتوفى الإمام الخمينى بعدها بقليل، بدا أن الأمور بين السنة والشيعة، وبين العرب والإيرانيين هدأت بعض الشىء. فالعراق تلقى ضربة قاسية جداً على أثر مهاجمته للكويت. والسيد الخامنئى(الذى خلف الخمينى فى منصب المرشد الأعلى للثورة، الولى الفقيه) والرئيسان رفسنجانى(٨ سنوات)، وخاتمى(٨ سنوات) اتجهوا جميعاً للعض على الجرح، وإعادة البناء، والانفتاح على دول الجوار، وعلى العالم. وبذلت جهود كبيرة من جانب العرب والمسلمين الآخرين، ومن إيران، لتجاوز آثار وعقابيل النزاع الذى اتخذ وجوهاً عدة. وباستثناء مصر؛ فإن العلاقات العربية - الإيرانية الرسمية، والعلاقات الإيرانية - الإسلامية الرسمية تحسنت واستمرت فى التحسن بالفعل. لكن إلى جانب العلاقات الرسمية استمرت التنظيمات الشيعية والأخرى المدعومة من إيران فى العمل والفعالية. وقد نبهت إلى استمرار التنازع والتوجس بعض الأحداث هنا وهناك وفى العالمين العربى والإسلامى. وتمثلت فى التنافس بين إيران والسلفيين[5] فى المجال الجديد بجمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز، وهواجس وشائعات «تشييع» العوام السنة فى بعض النواحى والمناطق أخيراً[6]، وفى دورات العنف بين المتشددين السنة والشيعة فى باكستان، وفى عودة التوتر بين السنة والشيعة على أثر صعود طالبان فى أفغانستان، وحوادث متفرقة أخرى بين الجاليات الإسلامية ببلدان المهاجر، إذ انقسم هؤلاء إلى سنة وشيعة تصارعوا على المساجد، وعلى العلاقة بدول المهاجر. فالذاتية الشيعية التى بدأت قبل الثورة الإسلامية الإيرانية، وخارج إيران، بصورة تطلب هوية خاصة، تبلورت بعدها فى انفصال وانقسام عامودى ما اقتصر على الفئات المتدينة على النمط الجديد من الفريقين، بفعل التشدد السلفى لدى بعض أهل السنة، والعلاقة الولائية بإيران لدى كثرة من الشيعة.

وكانت الإحيائية الإسلامية الأخرى، أعنى السنية(المطعّمة بالسلفية)، وفى الوعى وليس فى الواقع، بين أسباب عودة التوتر إلى الاندلاع بين السنة والشيعة: وإن بشكل غير مباشر، بعد أن تهيأت أرضيته وأسبابه. فالإسلام السياسى السنى الذى تبلورت إليه تلك الإحيائية، وبخلاف الإحياء الشيعى، ما استطاع الوصول إلى السلطة فى دولة سنية رئيسية. بيد أن توقه لذلك ما توقف أو خبا. ويكون علينا أن لا ننسى أن الرئيس المصرى أنور السادات سقط برصاص جهاديى الإحيائيين السنة عام ١٩٨١، أى بعد عامين على وصول الإحيائيين الشيعة للسلطة بإيران. ولخالد الإسلامبولى شارع باسمه فى طهران حتى اليوم؛ لأن الإسلاميين الإيرانيين ما نسوا إيواء الرئيس السادات للشاه محمد رضا بهلوى بعد مغادرته لإيران، وعدم إلجائه بالولايات المتحدة! وفيما عدا الاشتراك فى الرؤية (ولاية الفقيه لدى الشيعة منهم والحاكمية لدى السنة)، والأهداف (الاستيلاء على السلطة)؛ ما تشابهت مصائر الأصوليتين.

فبالإضافة إلى عدم وصول الأصوليين السنة للسلطة فى دولة رئيسية من خلال حركة شعبية زاخرة(وصلوا إلى السلطة بالسودان من طريق الانقلاب العسكرى!)؛ اختلفوا عن نظرائهم الشيعة فى الانقسام إلى تيار رئيس، ما عاد يقول بالعنف، ويريد المشاركة فى الشأن العام سلماً ومن خلال المؤسسات القائمة - وتيار أقلوى متشدد سلك سبيل «الجهاد العالمى» أو الشامل، أى ضد القوى العظمى والغرب، وضد الأنظمة القائمة فى البلدان العربية والإسلامية. وما اصطدم الإحياء السنى بالآخر الشيعى حتى الآن بشكل ظاهر رغم الحساسيات العالية بينهما؛ إذ إن كلاً منهما لا يزال يناضل ضد خصومه الرئيسيين. لكن بعض المتشددين السنة، والذين يمثلون لقاء بين الجهاديين والسلفيين (ومن هنا تسمية القاعدة والتنظيمات المشابهة: السلفية الجهادية)، ورثوا سلبية أعلى تجاه الشيعة بشكل عام هى من مواريث السلفية (وقد ظهرت فى السنوات القليلة الماضية بالعراق). والأمر الأخير الذى يستحق الذكر فى اختلاف التطور بين الاتجاهين، أن الإحياء الشيعى استطاعت المؤسسة الدينية الشيعية استيعابه وقيادته من خلال تقليد ولاية الفقيه، وتمركز فى إيران جامعاً المواريث الدينية والمؤسسية والقومية للبلاد؛ بينما اصطدم الإحياء الدينى السنى بالمؤسسة الدينية السنية، كما اصطدم بالدولة، وبالمجتمع الدولى والعالم.

وما أعنيه بذلك أنه بعد أن صادم الجهاديون السنة الاتحاد السوفيتى ثم روسيا الاتحادية فى أفغانستان وفى آسيا الوسطى والقوقاز، والشيشان، شنوا حرباً على الولايات المتحدة والغرب بلغت ذروتها فى ١١ أيلول(سبتمبر عام ٢٠٠١) بـ«غزوة» نيويورك (برج التجارة العالمى) وواشنطن، ووزارة الحرب الأمريكية، ومقر المخابرات المركزية). وردت الولايات المتحدة ومعها الغرب والشرق بإعلان الحرب عالمياً على «الإرهاب الإسلامى»، السنى بالتحديد، ومن ضمن وقائع تلك الحرب المستعرة حتى اليوم احتلال أفغانستان أواخر عام ٢٠٠١، واحتلال العراق عام ٢٠٠٣ . وقد أفادت إيران من تلك الحروب (التى تشاورت الولايات المتحدة معها بشأنها وربما أكثر) بزوال نظامين كريهين بالنسبة لها هما نظام طالبان بأفغانستان، ونظام صدام حسين بالعراق. ويسود اليوم فى المناطق الشيعية بأفغانستان تنظيم شيعى موال لها، كما يحكم بالعراق اليوم أيضاً تنظيمان شيعيان كانا فى المنفى بإيران، وعادا منها إلى العراق مع الغزاة الأمريكيين. والأمر كذلك مع حزب الله بلبنان، والذى أنشأه الحرس الثورى الإيرانى أواخر العام ١٩٨٢، ودربه وسلحه لمقاتلة الاحتلال الإسرائيلى بجنوب لبنان، وهو يدين بالولاء لمرشد الثورة الإسلامية بإيران، كسائر التنظيمات الشيعية التى نشرتها إيران فى البلدان العربية والإسلامية والمهاجر. وقد هدأت الجبهة بين حزب الله وإسرائيل بعض الشىء بعد الانسحاب الإسرائيلى من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠، وعلى أثر المهادنة العملية الحاصلة بين إيران والولايات المتحدة. لكن الفشل الأمريكى بالعراق، وزيادة نفوذ إيران فى ذلك البلد، وبروز الاهتمامات النووية الإيرانية، وتغير السياسات الأمريكية بالمنطقة، ووصول المتشدد محمود أحمدى نجاد إلى رئاسة الجمهورية بإيران، وحملاته الشعواء على السياسة الأمريكية، وعلى إسرائيل؛ كل ذلك أعاد التوتر بين الدولتين. ولذلك فقد شن حزب الله غارة شعواء على إسرائيل فى ١٢ تموز (يوليو) عام ٢٠٠٦، أجابت عليها إسرائيل بحرب مدمرة على لبنان أبعدت خلالها الحزب عن الحدود مع فلسطين المحتلة، لكنها ما استطاعت القضاء عليه. وقد أدت حرب تموز(يوليو) إلى توتر كبير وانقسام فى لبنان، وبخاصة بعد تصريح السيد الخامنئى بأن إيران ستنزل هزيمة بالولايات المتحدة فى لبنان. وبالفعل فقد ارتد الحزب إلى بيروت، وحاول إسقاط رئيس الحكومة(السنى) وترافق ذلك مع خطابات نارية لزعيم الحزب السيد حسن نصر الله اعتبر فيها رئيس الحكومة اللبنانية ومشايعيه عملاء للولايات المتحدة وإسرائيل، وقال إنهم دفعوا إسرائيل لضرب حزب الله، وخططوا لتهجير الشيعة من طريق منعهم من العودة للجنوب! ولا يزال حزبيون من حزب الله، وبعض الفرقاء الموالين لسورية، يعتصمون أمام السراى الحكومى منذ أكثر من عام. وهكذا فبعد العراق وحروبه (التى تحولت فى وجه ضمن وجوهها المتعددة إلى مذابح بين السنة والشيعة فيه)، كاد التوتر السياسى والاجتماعى والطائفى أن يتحول إلى نزاع مفتوح بين السنة والشيعة بلبنان أيضاً. وقد حدثت جرائم طائفية بين الطرفين بالفعل؛ أمكن تجاوزها بتدخل سعودى وإيرانى، ولأن الطرفين السنى والشيعى بلبنان، لا يملكان ذاكرة نزاعية شأن نواح أخرى فى العالمين العربى والإسلامى. ولا يزال حزب الله (ومن ورائه جمهور شيعى زاخر) قائماً بسلاحه وأجهزته و«أمته»، فيما يشبه الكيان الذاتى المنفصل والمواجه للدولة اللبنانية (حسبما قاله كاتب لبنانى من أصل شيعى: دولة حزب الله، ١٩٩٤).

وفى الخلاصة: بين السنة والشيعة

علينا ألا ننسى أنّ السادات سقط برصاص الإحيائيين السنة عام ١٩٨١، أى بعد عامين على وصول الإحيائيين الشيعة للسلطة بإيران

بعد العراق وحروبه، كاد التوتر السياسى والاجتماعى والطائفى أن يتحولَ إلى نزاعٍ مفتوح بين السنة والشيعة بلبنان أيضا



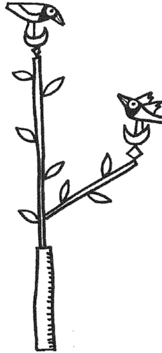
تمايُزاتٌ فى الاعتقاد والفقه ورؤية العالم. وقد أحدثت تلك التمايُزات التاريخية، والتى تبلورت اجتماعياً وسياسياً، احتكاكاتٍ ذات طابع مذهبى أحياناً. لكنها فى التاريخين القديم والحديث ما تحولت إلى فتَنٍ وحروبٍ إلاّ على مستوى الدول، أو بالأحرى: إنّ تلك العلاقات ما توتّرت حقاً إلاّ عندما كانت الحربُ تنشب بين إيران (الشيعية) وإحدى الدول السنية أو المدعية لذلك (العثمانيون قديماً وصدام حسين حديثاً)، ولأسبابٍ غير دينية أو مذهبية فى الأصل، أو عندما تفرض ذلك السياسات الدولية (كما فى حالةِ العراق وأفغانستان اليوم). بيد أنّ التوتّر الكبير الحاصل بين الطرفين فى الزمن المعاصر هو نتاج ثلاثة عوامل: الإحياء القومى، والإحياء الدينى، والسياسات الدولية الفاعلة أو المؤثّرة فى حقبتى الإحياءين. ظهر الإحياء القومى فى العالم الإسلامى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وفى ظلّه تكونت الدولةُ الوطنيةُ / القوميةُ لدى العرب، وتطورت بحسبه لدى الأتراك والإيرانيين. وفى حقبة «الإحياء» الأول هذا تبلورت ذاتياتٌ، وانتعشت حساسياتٌ، بفعل متغيرات الحدود، وظهور مشكلات الأكثرية والأقلية الاثنية والدينية والطائفية، والصراعات على السلطة، وفشل نظام الدولةِ الوطنية/ القومية فى إرضاء تطلّعات سائر الفئات؛ وبخاصةِ أهل الخصوصيات الاثنية والدينية والمذهبية الذين شعروا بالاختناق للنزوع الطاغى للدمج القسْرى المُلْغى للتمايزات. ومع اندلاع الإحياء الدينى لدى السنة والشيعة بعد الحرب العالمية الثانية، تصاعدت تلك الذاتيات وتبلورت دون أن يصطدم الإحيائيون الشيعةُ والسنةُ أحدهما بالآخر لانهماك كلٍ منهما فى استعادة «الهوية الذاتية» والخاصة، واتجاه كلٍ منهما لجرف الدولة الوطنية / القومية. فى الإحياءِ السنى بالوطنِ العربى لا يزالُ التصارعُ والتحدى قائماً وجارياً. أمّا الإحياء الإسلامى الشيعى فقد تمكّن من الاستيلاء على السلطة فى الدولة القومية الإيرانية، ومن طريق المرجعية الدينية التقليدية. وهناك أقام نظاماً ثيوقراطياً اعتبر نفسه القيادة الأكثر مشروعيةً للشعب الإيرانى منذ خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب، والزعامة الأوحديةَ للشيعة فى كلَ العالم. وفى ذروة الثوران الكبير للإحياء الشيعى بإيران وفى العالمين العربى والإسلامى، قام نظام صدام حسين بالعراق، وباسم العروبة تارةً، وباسم الإسلام(السنى) تارة أُخرى؛ بشن حربٍ شعواء على الجمهورية الجديدة، استمرت ثمانى سنوات. وقد أحدث الإحياء الدينى الشيعى، والحرب العراقية، والسياسات الدولية (الولايات المتحدة)؛ كلُ ذلك شرخاً عميقاً بين العرب وإيران، وشرخاً بين الشيعة والسنة. وأقبلت إيران من جهتها على إقامة تنظيماتٍ حزبية شيعية موالية لها دينياً، وأُخرى غير شيعية موالية لها سياسياً، فى البلاد العربية والإسلامية. وقد هدأت الأمور بين العرب وإيران بعض الشىء بعد توقف الحرب العراقية- الإيرانية عام ١٩٨٨. لكنّ النشاط الدينى والسياسىّ الإيرانىّ فى العالمين العربى والإسلامى لم يتوقف فى التسعينيات. وتطورت المُهادنة بين إيران والولايات المتحدة بعد العام ٢٠٠٠ بسبب التصادم بين أمريكا والإحياء الإسلامى السنى(متمثّلاً بالقاعدة والسلفية الجهادية)؛ فى الوقت الذى اشتدّ فيه التوجس الأمريكى (فى إدارة بوش الأولى التى سيطرت فيها رؤى وسياسات المحافظين الجدد) من الإسلام السنى، ومن العرب، فى الوقت نفسه. وهكذا أفادت إيران من الحرب الأمريكية على الإرهاب، وعلى الأنظمة الفاشلة، بالتخلص بواسطة الغزو الأمريكى من نظام طالبان بأفغانستان، ومن نظام صدام حسين بالعراق. لكنْ بسبب التجاذب مع الأمريكيين بعد العام ٢٠٠٥ على العراق، وعلى النووى، وعلى سياسات العزل والحصار، أيقظت إيران خلاياها وحلفاءها اليقظين والنائمين فى العالمين العربى والإسلامى، لصون مصالحها الوطنية من جهة، ولمشاركة الولايات المتحدة فى «الشرق الأوسط الجديد» من جهةٍ ثانية. فازداد الاضطرابُ الطائفى فِى العراق، -والذى أحدثه الغزو الأمريكى- تفاقُماً واستعاراً، واصطدم حزب الله فى لبنان بإسرائيل ثم بالحكومة اللبنانية، وتفاقم الاصطفاف فى البحرين، ويكاد الشيعة ينفصلون فى أفغانستان.. وكذلك فى العراق. فالحزبان الحاكمان هناك، والعاملان مع الولايات المتحدة وإيران فى الوقت نفسه(!) لا يسعيان للسيطرة على العراق كلّه بل يحاولون تقليد الأكراد، بالانفراد بالسيطرة فى مناطق الكثرة الشيعية الغنية بالنفط، وفيها المزارات الشيعية المقدّسة(تسع محافظات).



وفى المحصلة: هناك شرخٌ اليومَ بين الشيعة والسنة، وبين العرب وإيران، ولأنَ إيرانَ تستخدم تنظيماتها وحلفاءها فى الوطن العربى، فى تجاذُباتها مع الولايات المتحدة، ومنافراتها مع هذا النظام العربى أو ذاك: فلا سبيل لتهدئة التوتر فى المدى القريب إلاّ باستمرار التواصل الرسمى العربى مع إيران. أمّا فى المدى المتوسط، فقد يكون من المفيد متابعة وتقوية التواصل الدينى والتواصل الثقافى مع الجهات الدينية والثقافية بجمهورية إيران الإسلامية؛ وكذلك إجراء محاورة استراتيجية؛ بحيث نخرج من الاشتباك باتجاه التشابك، كما يوشك أن يحصل مع دولة الجوار العربى الكبرى الأخرى: تركيا. أما مع الشيعة العرب، وفى ديار العالم الإسلامى الأخرى، فلا بدّ من علاقاتٍ ووجوه تواصل أكثر حميميةً وتفهماً واستيعاباً ضمن المجتمعات الوطنية، وضمن المؤسسات الإسلامية الشاملة.

وتبقى المسألةُ الأساسُ والتى تفجرت وما عادٍ تجاهلُها ممكناً، وهى الفصاماتُ والتشققاتُ فى المجتمعات الوطنية على مدى الوطن العربى، والعالم الإسلامى، تارةً بسبب الأقليات والاثنيات، والأحاسيس والمشروعات المتناقضة، وتارةً بسبب الإحياء الدينى الأصولى أو المذهبى. فكما لم تحمنا الوحدةُ الاثنية واللغوية من بروز نوافر وراديكاليات ضمن الأقليات العرقية والثقافية: فإنّ الكثرة السنية الهائلة فى المدى العربى والإسلامى لا تُلغى الإدراكات الأخرى المذهبية أو السياسية؛ وبخاصةٍ فى عصر الإحياء الإسلامى (الشيعى والسنى)، والذى يؤكّد على التمايُزات، وعلى «العودة للذات»، بل ويعملُ ويفعلُ من خلالها. كما من خلال الإدراكات الوطنية والقومية.

إن الاجتماع التقليدى الإسلامى بترتيباته وتركيباته وتعدديته وآليات حركته، ما خلخلتْهُ السياسات الدولية التدخلية وحسْب: بل المتغيران الآخران اللذان أنتجتهما الحداثة ذاتها: الإحياء القومى(الدولة الوطنية)، والإحياء الدينى(الأصولية الإسلامية): وفى حين تلاقى الإحياءان بإيران من خلال قيام نظام ولاية الفقيه الشيعية فى تلك الدولة القومية الكبرى والعريقة، لا يزال الإحياء الدينى السنى، يتصارعُ مع الدولة الوطنية فى أكثر الكيانات ذات الأكثرية السنية. وفى كلّ الأحوال : فإن المخاض العميق لا يزالُ جارياً وشاسعاً ليس لدى الطرفين العربى والإيرانى، والسنى والشيعى فقط: بل ولدى الأطراف الصغرى الأخرى فى العالم الإسلامى: ﴿والله غالبٌ على أمره، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾. ■



هوامش

(١) لابن تيمية فتوى دعم فيها غزو الجيش المملوكى لمنطقة كسروان بجبل لبنان، والتى كان سكّانها من الشيعة، بحجة تآمُرهم مع بقايا الصليبيين(بقبرص). لكننى أُرجحَ أنّ أولئك كانوا من الإسماعيلية، وليسوا من الإمامية الاثنى عشرية؛ لأنه يعتبرهم من الباطنية، وأنه ليس فى مناطقهم مساجد. وهاتان سمتان لا تنطبقان على الإمامية.

(٢) علمتُ من الرئيس هاشمى رفسنجانى والسيد الخامننى أنهما انشغلا فى ستينيات القرن العشرين بترجمة كتب سيد قطب صاحب مقولة «الحاكمية» إلى الفارسية. وقد اختار المرشد الأعلى للثورة الإسلامية بإيران السيد على الخامننى لكتابه ذى الأجزاء الثلاثة والمنشور بلبنان عام ٢٠٠٦ عنوان: حاكمية الإسلام بين النظرية والتطبيق.

(٣) رضوان السيد: العرب وإيران، الدولة والإسلام والمجتمع المدنى: فى كتابى: سياسات الإسلام المعاصر، بيروت ١٩٩٧، ص ص ١١٢-١٥٦ .

(٤) قمت قبل أعوام بترجمة كتاب رؤى متحدة: بردة النبى، الدين والسياسة فى إيران، ونشر للمرة الأولى بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة (٢٠٠٤). وللمرة الثانية ببيروت عام ٢٠٠٧ . وهو مفيدٌ جداً فى فهم تركيبة الشخصية الإيرانية. وأسباب تمكّن رجل الدين الإيرانى من الوصول إلى السلطة.

(٥) يذكر ولى نصر فى كتابه(٢٠٠٦): Shia Revival (صحوة الشيعة) أن السلفية فى شبه القارة الهندية، وخارجها، هى السبب الرئيس للتوتر لدى الشيعة؛ وبالتالى لثورانهم هناك ثم فى كل مكان. وهذا لا دليل عليه لا فى الوطن العربى، ولا فى باكستان حيث فاز أخيراً فى الانتخابات حزب الشعب، الذى تدعمه الأقلية الشيعية هناك دعماً قوياً.

(٦) ظهر كلامٌ كثيرٌ فى الإعلام عن «التشيع» فى السودان وسورية ومصر وآسيا الوسطى وإندونيسيا ونيجيريا وتنزانيا.

"مغامرات في عالم جديد"

آلان جرينسبان

■■ في مساء الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) عام ٢٠٠١ كنت في طريقي إلى واشنطن على متن رحلة سويس اير رقم ١٢٨ عائداً من اجتماع روتيني لرجال البنوك العالميين في سويسرا. كنت أسير بالقرب من الكابينة عندما أوقفني رئيس الأمن بوب أجنيو الذي يصاحبني في رحلاتي إلى الخارج في ممر الطائرة. وبوب رجل استخبارات سابق، وهو شخص ودود غير، أنه ليس ثرثاراً. في تلك اللحظة بدا متجهماً، ثم قال بصوت خفيض: «سيدي الرئيس، قائد الطائرة يرغب في رؤيتك في المقدمة. فقد اصطدمت طائرتان بمركز التجارة العالمي». ويبدو أنه بدت على وجهي نظرة استغراب وعدم تصديق لأنه أضاف قائلاً: «إنني لا أمزح».

داخل الكابينة، بدا القائد مضطرباً إلى حد كبير. قال لنا إن هناك هجوماً رهيباً ضد البلاد. فقد اختُطفت عدة طائرات واصطدمت طائرتان بمركز التجارة العالمي وطائرة بالبنتاجون. وهناك طائرة مفقودة. وقال بإنجليزية ذات لكنة أجنبية بعض الشيء إن ذلك هو كل ما لديه من معلومات. كنا حينذاك عائدين إلى زيوريخ، ولم يكن يعتزم إعلان السبب للركاب الآخرين.

سألته: «هل نحن مضطرون للعودة؟ ألا يمكن أن نهبط في كندا؟» أجاب بالنفي، ذلك أن الأوامر صدرت له بالعودة إلى زيورخ.

عدت إلى مقعدي بينما كان القائد يعلن أن برج المراقبة وجّهنا إلى زيورخ. وعلى الفور أصبح هناك تزاحم على التليفونات الموجودة على المقاعد ولم أتمكن من الاتصال بالأرض. وكان زملائي في بنك الاحتياط الفدرالي الذين كانوا معي في سويسرا في عطلة نهاية الأسبوع تلك على رحلات أخرى. وبما أنه لم يكن أمامي من سبيل لمعرفة كيفية تطور الأحداث، لم يكن لدي ما أفعله سوى التفكير طوال الثلاث ساعات ونصف الساعة التالية. كنت أنظر من النافذة، بينما العمل الذي أحضرته معي، وأكوام المذكرات، وأكوام التقارير الاقتصادية منسية في حقيبتي. هل كانت تلك الهجمات بداية مؤامرة أكثر اتساعاً؟



كان همّي المباشر زوجتي. أندريه كبيرة مراسلي الشئون الخارجية بشبكة «إن بي سي» في واشنطن. لم تكن في نيويورك، وهو ما أراحني كثيراً، ولم تكن زيارة البنتاجون ضمن أجندتها في ذلك اليوم. افترضت أنها قد تكون في مكتب «إن بي سي» في وسط المدينة، منشغلة إلى حد كبير في تغطية الأخبار. قلت لنفسي إنني لست شديد القلق لذلك... ولكن ماذا لو كانت قد ذهبت في آخر لحظة لزيارة أحد الجنرالات في البنتاجون؟

كنت قلقاً على زملائي في بنك الاحتياط الفدرالي. هل هم في أمان؟ وماذا عن أسرهم؟ ربما يكون العاملون يتحركون بسرعة ليتجاوبوا مع الأزمة. فهذا الهجوم، وهو الأول على التراب الأمريكي منذ بيرل هاربر. سوف يُحدث اضطراباً في البلاد. وكانت المسألة التي أردت التركيز عليها هي ما إذا كان الاقتصاد سيُضار أم لا.

كانت الأزمات الاقتصادية المحتملة جميعها شديدة الوضوح. وكانت أسوأها انهيار النظام المالي، وهو ما ظننت أنه غير مرجح إلى حد كبير. فبنك الاحتياط الفدرالي مسئول عن نظام الدفع الإلكتروني الذي يحوّل أكثر من ٤ تريليونات دولار يومياً من النقود والأوراق المالية بين البنوك في أنحاء البلاد وجزء كبير من سائر بلدان العالم.

كنا نظن باستمرار أنه إذا أراد أحد إعاقة الاقتصاد الأمريكي فعليه بتدمير أنظمة الدفع. إذ سوف تُجبر البنوك على اللجوء إلى التحويلات المالية غير الكفء. وسوف تلجأ الأعمال التجارية إلى المقايضة وإقرارات الدين؛ سوف يهوي مستوى النشاط الاقتصادي في أنحاء البلاد كالحجر.

أثناء الحرب الباردة، وكإجراء احترازي ضد أي هجوم نووي، بنى بنك الاحتياط الفدرالي عدداً كبيراً من المكونات المتكررة داخل منشآت الاتصال والكمبيوتر التي يعتمد عليها النظام النقدي. وكان لدينا كل أنواع الاحترازات بحيث تُحفظ نسخ من ملفات بيانات أحد فروع بنك الاحتياط الفدرالي في فرع آخر للبنك على بعد مئات الأمتار أو في مكان ما بعيد. وفي حال وقوع هجوم نووي كنا سنعود بسرعة كبيرة للعمل من المناطق التي لم تتعرض للإشعاع. وكان هذا النظام هو ما يدعو إليه رودجر فيرجسون نائب رئيس بنك

عصر الإضطراب
مغامرات في عالم جديد
آلان جرينسبان
ترجمة: أحمد محمود
مراجعة: سامر أبو هواش
كلمة: أبو ظبي
دار الشروق - القاهرة - ٢٠٠٨

وُلد آلان جرينسبان في عام ١٩٢٦ في نيويورك. وبعد دراسة الكلارينيت وعمله كعازف محترف حصل علَى البكالوريوس والماجستير والدكتوراه في الاقتصاد من جامعة نيويورك. وفي عام ١٩٥٤ أسس شركة الاستشارات الاقتصادية «تاونسند وجرينسبان وشركاهما». وفي الفترة من ١٩٧٤ إلى ١٩٧٧ عمل رئيساً لمجلس المستشارين الاقتصاديين في عهد فورد. وفي عام ١٩٨٧ عينه ريجان رئيساً لمجلس إدارة بنك الاحتياط الفيدرالي، وهو المنصب الذي ظل يشغله حتى تقاعده في عام ٢٠٠٦.



الاحتياط الفدرالي الآن. وكنت واثقاً من أنه وزملاءنا سوف يتخذون الخطوات الضرورية للحفاظ على تدفق النظام الدولاري العالمي.

ومع ذلك فإنه حتى وأنا أفكر في هذا الأمر شككت في كون ما في ذهن الخاطفين هو إرباك النظام المالي مادياً. فالأرجح إلى حد كبير أن ما عنوه بذلك أن يكون عملاً رمزياً للعنف ضد أمريكا الرأسمالية. مثل القنبلة التي فُجرت في جراج مركز التجارة العالمي قبل ذلك بثماني سنوات. وما شغلني هو ذلك الخوف الذي سيخلقه ذلك الهجوم. وخاصة إذا كانت هناك هجمات ستتلوه. ففي اقتصاد بالقدر الذي عليه اقتصادنا من تعقيد يضطر الناس إلى التفاعل وتبادل السلع والخدمات باستمرار، وتقسيم العمل على قدر دقيق من الوضوح بحيث تعتمد كل أسرة معيشية على التجارة كي تحيا فحسب. وإذا انسحب الناس من الحياة الاقتصادية اليومية. أي إذا تخلص المستثمرون من أسهمهم، أو ابتعد رجال الأعمال عن التعاملات، أو بقي المواطنون في بيوتهم خوفاً من الذهاب إلى المراكز التجارية والتعرض للانتحاريين. فسوف يكون هناك تأثير كرة الثلج. فهذه هي النفسية التي تؤدي إلى حالات الفزع والكساد. ويمكن لصدمة كتلك التي تعرضنا لها للتو أن تُحدث انسحاباً ضخماً من النشاط الاقتصادي وانكماشاً كبيراً فيه. ويمكن للبؤس أن يتضاعف.

قبل أن تهبط طائرتي بوقت طويل، استنتجت أن العالم على وشك التغير على نحو لم يكن بإمكاني تحديده بعد. لقد تحطم ذلك الرضا بالذات الذي تبنيناه نحن الأمريكان طوال عقد من الزمان بعد انتهاء الحرب الباردة.

أخيراً وصلنا زيورخ بعد الثامنة والنصف مساء بالتوقيت المحلي. وكان الوقت لا يزال عصراً في الولايات المتحدة. قابلني مسؤولو البنوك السويسريون عندما خرجت من الطائرة واندفعوا بي إلى غرفة خاصة في صالة المغادرة. وهناك اقترحوا عرض فيلم يصور انهيار البرجين التوأم وحريق البنتاجون ولكني رفضت. لقد عملت في المنطقة التي بها مركز التجارة العالمي جزءاً كبيراً من حياتي وكان لي أصدقاء ومعارف هناك. وافترضت أن أعداد الموتى ستكون مرعبة وسوف تشمل أشخاصاً أعرفهم. لم أكن أرغب في رؤية الدمار. كنت أريد تليفوناً يعمل فحسب.

أخيراً وصلت إلى أندريه على تليفونها المحمول قبل التاسعة بدقائق معدودة، وشعرت براحة كبيرة لسماع صوتها. وما إن طمأن كل منا الآخر بأنه على ما يرام، قالت لي إنها لابد أن تسرع؛ فقد كانت في موقع التصوير وتوشك على الظهور على الهواء مع آخر أخبار أحداث اليوم. قلت: «أخبريني فحسب ماذا يحدث هناك».

كانت تمسك التليفون على إحدى أذنيها بينما منتج الأحداث الخاصة في نيويورك على السماعة التي في أذنها الأخرى يصرخ تقريباً قائلاً: «أندريه، توم بروكاو قادم إليك. هل أنت مستعدة؟» لم يكف ما لديها من وقت إلا لقولها «أنصت». وهنا وضعت التليفون المحمول مفتوحاً في حجرها وواجهت الكاميرات. لقد سمعت بدقة ما كانت أمريكا تسمعه في تلك اللحظة. لقد سقطت طائرة يونايتد فلايت، الرحلة رقم ٩٣، في بنسلفانيا.



استطعت في ذلك الحين الاتصال برودجر فرجسون في بنك الاحتياط الفدرالي. راجعنا معنا قائمة أزمات الإدارة، وكان كما توقعت تماماً مسيطراً على الأمور بدرجة كبيرة. وبما أن كل الرحلات المدنية المتجهة إلى الولايات المتحدة قد جرى إعادتها إلى الأرض، فقد اتصلت بأندي كارد، كبير موظفي البيت الأبيض طالباً منه إعادتي إلى واشنطن. وأخيراً عدت إلى الفندق يصاحبني أفراد الأمن المكلفون بحراستي، كي أنام قليلاً وأنتظر التعليمات.

عندما طلع النهار كنت محمولاً جواً من جديد على متن طائرة تنقل الوقود تابعة للقوات الجوية الأمريكية من طراز KC-10. ربما كانت الطائرة الوحيدة المتاحة. كان الطاقم معتاداً على طلعات إعادة تموين الطائرات بالوقود في الجو فوق المحيط الأطلسي. كانت الحالة المزاجية داخل الكابينة تتسم بالكآبة. قال لي قائد الطائرة: «لن تصدق هذا. انصت». وضعت أذني على السماعة ولكني لم أسمع سوى السكون. أوضح لي قائد الطائرة الأمر قائلاً: «في العادة يكون شمال الأطلسي مكتظاً بالاتصالات اللاسلكية. وهذا السكون غامض وغريب». يبدو أنه لم يكن هناك أحد سوانا في الجو.

عندما اقتربنا من الواجهة البحرية الشرقية ودخلنا المجال الجوي المحظور للولايات المتحدة، قابلتنا مقاتلتان من طراز F16 وبقيتا في صحبتنا. وحصل قائد الطائرة على إذن بالتحليق فوق ما كان موقع البرجين التوأم في الطرف الجنوبي من مانهاتن، وكان في ذلك الحين حطاماً يتصاعد منه الدخان. طوال عقود من الزمان كانت المكاتب التي أعمل بها لا تبعد سوى بضع مربعات سكنية عن المكان؛ وفي أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن العشرين كنت أراقب البرجين يوماً بعد آخر وهما يرتفعان. أما الآن فحطامهما الذي يتصاعد منه الدخان هو أوضح معالم نيويورك من على ارتفاع خمسة وثلاثين ألف قدم.

ذهبت مباشرة إلى بنك الاحتياط الفدرالي بعد ظهر ذلك اليوم تصحبني الشرطة عبر الشوارع التي أقيمت بها المتاريس. ثم بدأت العمل.

كان تدفق الأموال الإلكتروني يسير سيراً حسناً معظم الوقت. ولكن بما أن الخطوط الجوية المدنية قد أوقفت، فقد تأخر نقل ومقاصة الشيكات على النظام القديم (النظام الورقي). وكانت تلك مشكلة تقنية. وهي مشكلة كبيرة، غير أن العاملين في كل فرع من فروع بنك الاحتياط الفدرالي قادرون تماماً على معالجتها بمد البنوك التجارية بمزيد من القروض على نحو مؤقت.

أمضيت معظم وقتي في الأيام التالية أراقب وأتسمع علامات أي بطء اقتصادي مفجع. فطوال سبعة أشهر قبل الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) كان الاقتصاد يعاني من كساد ضئيل جداً، حيث كان لا يزال ينفض عن نفسه آثار انهيار شركات الدوت كوم (تكنولوجيا المعلومات) في عام ٢٠٠٠. ولكن الأمور بدأت تعود سيرتها الأولى. فقد خفضنا أسعار الفائدة، وبدأت الأسواق في الاستقرار. وفي أواخر أغسطس (آب) انتقل الاهتمام العام من الاقتصاد إلى جاري كونديت عضو الكونجرس عن كاليفورنيا الذي سيطرت تصريحاته، التي لا تتسم بالصراحة التامة بشأن فقدان إحدى الشابات، على نشرات الأخبار المسائية. ولم تستطع أندريه الظهور على الهواء بأي شيء ذي أهمية عالمية، وأتذكر التفكير في النحو الذي بدا عليه ذلك غير معقول. إذ لابد أن يكون العالم في حالة جيدة إلى حد كبير إذا كانت أخبار التليفزيون تركز بشكل أساسي على فضيحة محلية. وداخل بنك الاحتياط الفدرالي كانت أكبر مشكلة نواجهها هي مقدار تخفيض أسعار الفائدة.

بعد الحادي عشر من سبتمبر(أيلول) كانت التقارير والإحصاءات المتدفقة من فروع بنك الاحتياط الفدرالي تحكي قصة مختلفة إلى حد كبير. فمنظومة بنك الاحتياط الفدرالي تضم اثني عشر فرعاً موزعة على مواقع استراتيجية في أنحاء البلاد. وكان كل منها يقرض الأموال وينظم البنوك في منطقته. كما كانت فروع بنك الاحتياط الفدرالي كذلك نافذة على الاقتصاد الأمريكي. إذ كان الموظفون والعاملون على اتصال مستمر مع رجال البنوك ورجال الأعمال في مناطقهم، وكانت المعلومات التي يجمعونها بشأن أوامر الشراء وصفقات المبيعات تسبق البيانات الرسمية المنشورة بشهر على الأقل.



ما يخبروننا به الآن هو أن الناس في أنحاء البلاد توقفوا عن إنفاق أموالهم على كل شيء ما عدا الأصناف التي تُشترى استعداداً لهجمات أخرى محتملة: مبيعات البقالة، وأجهزة السلامة، وزجاجات المياه، كما زاد الإقبال على شراء وثائق التأمين، بينما انخفض ما يُنفق على السفر والترفيه والفنادق والسياحة وصناعة المؤتمرات. وعلمنا أن شحن الخضروات الطازجة من الساحل الغربي إلى الساحل الشرقي سيوقفه تعليق الشحن الجوي، ولكننا دهشنا إلى حد ما من الطريقة السريعة التي أضيرت بها أعمال أخرى. فعلى سبيل المثال، تباطأ بشدة تدفق أجزاء السيارات من وندسور وأونتاريو إلى مصانع دترويت من خلال المعابر النهرية التي تربط المدينتين. فكان ذلك أحد العوامل وراء قرار شركة فورد موتور إغلاق خمسة من مصانعها بشكل مؤقت. وقبل ذلك بسنوات تحول الكثير من المصانع إلى الإنتاج «أولا بأول» بدلاً من تخزين الأجزاء واللوازم في المصنع، وكانت تعتمد على الشحن الجوي في تسليم المكونات المهمة عند احتياجها. وأدى إغلاق المجال الجوي وتقييد حركة النقل على الحدود إلى حدوث النقص والاختناقات وإلغاء نوبات العمل.

في الوقت نفسه كانت الحكومة الأمريكية قد زادت من حركتها. ففي يوم الجمعة الرابع عشر من سبتمبر (أيلول) وافق



الكونجرس على تخصيص مبلغ مبدئي للطوارئ مقداره ٤٠ مليار دولار وخول الرئيس سلطة استخدام القوة ضد «الدول أو المنظمات أو الأشخاص» الذين هاجمونا. وحشد الرئيس بوش البلاد بما يرجح أن يكون أكثر خطبه فاعلية خلال فترة رئاسته. فقد قال «إن الهجوم يستهدف أمريكا لأننا ألمع علامات الحرية وفرص التقدم في العالم. ولن يمنع أحد هذا الضياء من أن يسطع». وازدادت معدلات شعبيته لتصل إلى ٨٦ بالمائة، وأصبحت السياسة مشاركة بين الحزبين، ولو لفترة قصيرة. وكانت أفكار كثيرة تتدفق على الكابيتول هيل «الكونجرس» من أجل مساعدة البلاد على العودة إلى ما كانت عليه. وكانت هناك خطط شملت ضخ أموال إلى شركات الطيران والسياحة والترويح. كما كانت هناك مجموعة كبيرة من المقترحات لتخفيض الضرائب عن الأعمال التجارية لتشجيع الاستثمار الرأسمالي. ونوقش التأمين ضد الإرهاب كثيراً. كيف نؤمِّن ضد تلك الأحداث المفجعة، وما هو دور الحكومة في ذلك، إن كان لها دور في ذلك؟

ظننت أنه من الملح عودة الطيران التجاري للتحليق كي نجهض كل الآثار السلبية المنتشرة. (وافق الكونجرس بسرعة على مشروع قانون لإنقاذ النقل بمبلغ ١٥ مليار دولار). ولكن فيما عدا ذلك كنت أعير قدراً أقل من الاهتمام لمعظم تلك المناقشات، لأنني كنت عازماً على رؤية الصورة الأكبر. وهي التي لم تكن واضحة لي بعد. كنت مقتنعاً بأن الحل لا يكمن في الخطوات الكبيرة المتعجلة باهظة التكاليف. فالعادة هي أن أوقات الطوارئ القومية الكبيرة هي التي يشعر فيه كل عضو من أعضاء الكونجرس أن عليه التقدم بمشروع قانون؛ ويشعر الرؤساء بالضغط كي يعملوا كذلك. وفي ظل تلك الظروف يمكن أن تحصل على سياسات قصيرة النظر وغير فعالة، بل وذات أثر عكسي كذلك، مثل تقنين البنزين الذي فرضه الرئيس نيكسون أثناء صدمة بترول أوبيك الأولى في عام ١٩٧٣. (أدت تلك السياسة إلى ظهور طوابير الحصول على البنزين في بعض أنحاء البلاد في ذلك الخريف). ولكن من خلال خبرة أربعة عشر عاماً من عملي كرئيس لبنك الاحتياط الفدرالي رأيت فيها الاقتصاد وهو يخرج سالماً من أزمات كثيرة. بما في ذلك أكبر انهيار ليوم واحد في تاريخ سوق الأوراق المالية، وهو ما حدث بعد خمسة أسابيع من تولية منصبي. وخرجنا سالمين من الانتعاش والكساد العقاريين في ثمانينيات القرن العشرين، وأزمة المدخرات والقروض، والاضطرابات المالية الآسيوية، ناهيك عن كساد ١٩٩٠. لقد تمتعنا بأطول فترة انتعاش لسوق الأوراق المالية في التاريخ ثم خرجنا سالمين من انهيار شركات تكنولوجيا المعلومات الذي أعقب ذلك. وأخذت شيئاً فشيئاً أعتقد أن أعظم قوى الاقتصاد الأمريكي تكمن في قدرته على التعافي. أي قدرته على استيعاب التمزقات والشفاء منها، وهو ما يكون غالباً على نحو وبسرعة لا يمكن التكهن بهما، ناهيك عن كون ذلك أمراً لابد منه. ومع ذلك ففي هذا الظرف المرعب لم يكن هناك من سبيل لمعرفة ما سوف يحدث.



ظننت أن أفضل استراتيجية هي المراقبة والانتظار إلى أن نفهم على وجه الدقة ما سوف تكون عليه النتائج اللاحقة للحادي عشر من سبتمبر (أيلول). وهذا هو ما قلته لقيادات الكونجرس في اجتماع عُقد بمكتب رئيس المجلس بعد يوم التاسع عشر من سبتمبر (أيلول). فقد اجتمع كل من رئيس المجلس دينيس هاسترت، وزعيم الأقلية بمجلس النواب ديك جيفارت، وزعيم الأغلبية بمجلس الشيوخ ترينت لوت، وزعيم الأقلية بمجلس الشيوخ توم داشل، بالإضافة إلى بوب روبين وزير الخزانة السابق في حكومة كلينتون، والمستشار الاقتصادي بالبيت الأبيض لاري ليندسي في غرفة اجتماعات عادية ملحقة بمكتب هاسترت في الجزء الخاص بمجلس النواب بالكابيتول هيل. وكان أعضاء الكونجرس يرغبون في سماع تقديرات الأثر الاقتصادي للهجمات من ليندسي، وروبين، ومني. وكانت هناك جدية كبيرة في متابعة النقاش. فلم يكن هناك استعراض. (أذكر أنني قلت لنفسي إن هذه هي الطريقة التي ينبغي أن تعمل بها الحكومة.)



عرض ليندسي الفكرة التي تقول إنه بما أن الإرهابيين وجهوا ضربة للثقة الأمريكية فإن أفضل طريقة للرد هي خفض الضرائب. وأبدى هو وآخرون تأييدهم لضخ حوالي ١٠٠ مليار دولار في الاقتصاد بأسرع ما يمكن. ولم يفزعني الرقم، فهو يساوي واحد بالمائة من المُخرَج السنوي الإجمالي للبلاد. ولكنني قلت لهم إنه ليست لدينا طريقة بعد لمعرفة ما إذا كان مبلغ المائة مليار أكثر من اللازم أو أقل من اللازم. ومع ذلك فقد تأثر مجالا الخطوط الجوية والسياحة تأثراً شديداً، وامتلأت الصحف بأخبار عن كل أنواع الاستغناء عن العاملين. إلا أن ما يدعو للدهشة أنه في يوم السابع عشر من سبتمبر (أيلول) نجحت سوق نيويورك للأوراق المالية (البورصة) في إعادة فتح أبوابها، وهي الواقعة على بعد ثلاثة مربعات سكنية من المنطقة صفر (موقع مركز التجارة العالمي). وكانت تلك خطوة مهمة لأنها أعادت الإحساس بالطبيعية إلى النظام. فقد كانت تلك بقعة مضيئة في الصورة التي كنا لا نزال نعيد تجميع أجزائها في بنك الاحتياط الفدرالي. وفي الوقت نفسه استرد نظام الدفع بالشيكات عافيته، ولم تتداعَ البورصة؛ إذ انخفضت الأسعار فحسب ثم استقرت، وهو مؤشر على أن معظم الشركات لم يكن يتعرض لمشاكل خطيرة. قلت لهم إن المسار الحكيم هو الاستمرار في وضع الخيارات على أن نلتقي مرة أخرى بعد أسبوعين، حيث نكون قد عرفنا المزيد.

أبلغت الرسالة نفسها في صباح اليوم التالي في جلسة استماع عامة بلجنة البنوك بمجلس الشيوخ، ناصحاً بالصبر: «ليس لدى أحد القدرة على أن يحدد بشكل تام ما سوف تسفر عنه مأساة الحادي عشر من سبتمبر (أيلول). إلا أنه في الأسابيع المقبلة، عندما تخف الصدمة، سوف نكون قادرين على أن نحدد بشكل أفضل الطريقة التي تُشكِّل بها الديناميكيات المستمرة لهذه الأحداث النظرة الاقتصادية المباشرة». كما قلت مؤكداً: «على مدى العقدين الماضيين أصبح الاقتصاد الأمريكي قادراً إلى حد كبير على تحمل الصدمات. فقد حسَّنت الأسواقُ المالية المحررة من القيود، وأسواقُ العمل الأكثر مرونة، ومؤخراً ذلك التقدم الذي شهدته تكنولوجيا المعلومات، قدرتَنا على استيعاب التمزقات والتعافي منها».

الواقع أنني كنت أحاول تجميل الوضع أكثر من خوفي مما قد يكون عليه الحال. فكشأن معظم من هم في الحكومة، كنت أتوقع إلى حد كبير المزيد من الهجمات. ولكن هذا الشعور مسكوت عنه في العلن، ولكن يمكنك رؤيته في أغلبية تصويت مجلس الشيوخ: ٩٨-٠ لصالح تخويل سلطة استخدام القوة ضد الإرهابيين، و١٠٠-٠ لمشروع قانون سلامة الطيران. وقد كنت مهموماً بشكل خاص بشأن سلاح الدمار الشامل، الذي قد يكون جهازاً نووياً استُولي عليه من الترسانة السوفيتية أثناء فوضى انهيار اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. فكرت كذلك في تلويث مستودعاتنا. ومع ذلك فقد اتخذت في أحاديثي المذاعة أو المنشورة موقفاً أقل تشاؤماً، لأنني إذا عبرت بشكل تام عما أظنها الاحتمالات فسوف أخيف الأسواق بشدة. ومع ذلك كنت أدرك أنني ربما لا أخدع أحداً؛ فسوف يسمعني الناس في الأسواق ويقول الواحد منهم «آمل بكل تأكيد أن يكون على حق».



في أواخر سبتمبر (أيلول) جاءت أصعب المعلومات. إذ من العادة أن يكون أول مؤشر واضح لما يحدث للاقتصاد هو عدد المطالبات الجديدة بإعانة البطالة، وهي الإحصاءات التي تجمعها وزارة العمل كل أسبوع. وبالنسبة للأسبوع الثالث من الشهر بلغت المطالبات ٤٥٠ ألفاً بزيادة قدرها حوالي ١٣ بالمائة عن مستواها في أواخر أغسطس (آب). وأكد الرقم مدى خطورة المصاعب التي نراها في التقارير الإخبارية بشأن الأشخاص الذين فقدوا وظائفهم. وقد تخيلت هؤلاء الآلاف من عمال الفنادق والمنتجعات وغيرهم في حالة لا يعرفون فيها كيف سيعيلون أنفسهم وأسرهم. وكنت على وشك الوصول إلى رأي مفاده أن الاقتصاد لن يعود سيرته الأولى بسرعة. ذلك أن الصدمة كانت من الشدة بحيث يجد حتى أكثر الاقتصادات مرونة صعوبة في التعامل معها.

كشأن غيرهم من المحللين، كان الخبراء الاقتصاديون في بنك الاحتياط

ظننت أن أفضل استراتيجية هي المراقبة والانتظار إلى أن نفهم على وجه الدقة ما سوف تكون عليه النتائج اللاحقة للحادي عشر من سبتمبر

الفدرالي يتطلعون إلى حزم الإنفاق وتخفيضات الضرائب المقترحة، والأعداد المرتبطة بها. وقد حاولنا في كل حالة التعامل مع التفاصيل لرصد ترتيب الحجم. ومن اللافت للانتباه أنها جميعاً داخل إطار المائة مليار دولار، وهو اقتراح لاري ليندسي المبدئي.

اجتمعنا مرة أخرى في غرفة اجتماعات هاسترت يوم الأربعاء الثالث من أكتوبر (تشرين الأول) كي نتحدث من جديد عن الاقتصاد. وكان أسبوع آخر قد مر وازداد عدد مطالبات إعانة البطالة الأولية سوءاً. إذ تقدم ٥١٧ ألف شخص آخر للحصول على إعانة البطالة. وفي ذلك الوقت كنت قد اتخذت قراري. فبينما كنت لا أزال أتوقع المزيد من الهجمات، لم تكن هناك طريقة لمعرفة مقدار ما قد تسببه من دمار أو كيفية حماية الاقتصاد مقدماً. أخبرت المجموعة أن الوقت قد حان بالفعل لأن يكون هناك محفز مصطنع. وما بدا صحيحاً تقريباً هو حزمة إجراءات بناء على المائة مليار دولار. وهو مبلغ كاف، إلا أنه ليس كبيراً بحيث يحفز الاقتصاد على نحو بالغ التأثير ويجعل أسعار الفائدة ترتفع. وبدا أن المشرعين موافقون.

عدت إلى بيتي في تلك الليلة وأنا أظن أن كل ما فعلته كان واضحاً ويعزز الإجماع: فقد صدر رقم المائة مليار دولار من لاري أولاً. وهكذا أدهشني أن أقرأ الرواية الإعلامية للاجتماع، حيث جعلت الأمر يبدو تقريباً كأنني كنت أدير المسألة كلها. وبينما كان من المشجع سماع أن الكونجرس والإدارة ينصتان لي، فقد وجدت أن تلك التقارير الصحفية مثيرة للقلق. إذ لم أكن في يوم من الأيام مستريحاً بالكامل لأن يعطي لي دور الشخص الذي يحدد السياسة. فمنذ سنوات حياتي المبكرة كنت أنظر إلى نفسي على أني خبير يعمل من وراء الكواليس، ومنفذ للأوامر وليس قائداً. وقد تطلب الأمر حدوث أزمة سوق الأوراق المالية في عام ١٩٨٧ كي أشعر بالراحة وأنا أتخذ قرارات سياسية مهمة. ولكنني لا أشعر حتى يومنا هذا بالراحة عندما أكون في دائرة الضوء. فأنا لست منبسط الشخصية.

كانت المفارقة بالطبع هي أنه بالرغم من قدرتي الإقناعية المفترضة فلم يتحقق شيء في الأسابيع التالية للحادي عشر من سبتمبر (أيلول) على النحو الذي توقعته. وربما كان توقع حدوث هجوم إرهابي آخر هو أسوأ ما تكهنت به. كما أن «المحفز المصطنع» المفترض أنني أعطيته الضوء الأخضر لم يحدث. إذ غاص في وحل السياسة ولم يقو على الحركة. والحزمة التي ظهرت في نهاية الأمر في مارس (آذار) من عام ٢٠٠٢ لم تكن متأخرة شهوراً عن موعدها فحسب، بل لم يكن بإمكانها عمل الكثير من أجل الرفاه العام. لقد كانت فوضى مربكة من المشروعات التي تفيد دوائر بعينها.

ومع ذلك فقد صحح الاقتصاد نفسه. إذ استعاد الإنتاج الصناعي عافيته في نوفمبر (تشرين الثاني)، بعد شهر واحد فحسب من الانخفاض البسيط. وبحلول ديسمبر (كانون الأول) كان الاقتصاد ينمو من جديد، وتراجع عدد مطالبات إعانة البطالة ليستقر عند معدله قبل الحادي عشر من سبتمبر (أيلول). وكان لبنك الاحتياط الفدرالي يد في هذا، غير أن ذلك لم يتم إلا من خلال زيادة ما كنا نقوم به قبل الحادي عشر من سبتمبر (أيلول)، حيث خفض البنك أسعار الفائدة كي ييسر على الناس الاقتراض والإنفاق.

لم يكن يهمني رؤية توقعاتي لم تتحقق، لأن استجابة الاقتصاد الملحوظة لما بعد الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) كانت دليلاً على حقيقة مهمة إلى حد بعيد: وهي أن اقتصادنا أصبح على قدر كبير من مقاومة الصدمات. فما قلته بقدر كبير من التفاؤل للجنة البنوك بمجلس الشيوخ تحقق. وبعد تلك الأسابيع الأولى الرهيبة، استعادت الأسر المعيشية والأعمال التجارية الأمريكية عافيتها. فما الذي ولد تلك الدرجة غير المسبوقة من المرونة الاقتصادية؟ كان هذا هو السؤال الذي سألته لنفسي.

يحاول الاقتصاديون منذ أيام آدم سميث الإجابة عن أسئلة كهذا السؤال. فنحن نظن أننا مشغولون اليوم بمحاولة فهم اقتصادنا المعولم. ولكن سميث كان عليه أن يخترع الاقتصاد من الصفر تقريباً كطريقة يحسب بها حساب تطور اقتصادات السوق المعقدة في القرن الثامن عشر. وأنا لست آدم سميث، غير أني لي الفضول نفسه بشأن فهم القوى العريضة التي تحدد عصرنا.

هذا الكتاب إلى حد ما قصة بوليسية. فقد عرفت بعد الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) أننا نعيش في عالم جديد: هذا إن كنت بحاجة إلى المزيد لتعزيز هذه المعلومة. فذلك هو العالم ذو الاقتصاد الرأسمالي العالمي الذي يتسم بقدر من المرونة ومقاومة الصدمات والانفتاح وتصحيح نفسه وسرعة التغير، يزيد عما كان عليه الحال قبل ربع قرن من الآن. وهو أيضاً ذلك العالم الذي يتيح لنا إمكانيات جديدة ضخمة بينما يفرض علينا في الوقت ذاته تحديات جسام. إن «عصر الاضطراب» هو محاولتي لفهم طبيعة هذا العالم الجديد: كيف وصلنا إلى ما نحن عليه، وما الذي نعيشه، وما الذي يوجد هناك وراء الأفق، خيراً كان أم شراً. وحينما يسمح الحال، فإنني أنقل فهمي في سياق تجربتي. وأنا أفعل ذلك من باب الإحساس بالمسئولية تجاه السجل التاريخي، لكي يعرف القراء من أين أتيت. ولهذا السبب ينقسم الكتاب إلى نصفين: النصف الأول هو سعيي لتتبع قوس منحنى تعلمي، والنصف الثاني جهد أكثر موضوعية لاستخدام ذلك كأساس أقيم عليه إطاراً مفاهيمياً لفهم الاقتصاد العالمي الجديد. وفي الطريق أستكشف العناصر النقدية للبيئة العالمية الناشئة: أي مبادئ حكمها التي نشأت عن عصر التنوير في القرن الثامن عشر، وبنية الطاقة التحتية الشاسعة التي تشغلها، والاختلالات المالية العالمية والتغيرات الضخمة في الديموجرافيا العالمية التي تهددها، والانشغال المزمن بشأن عدالة توزيع مكافآتها بالرغم من نجاحها الذي لا يشك فيه أحد. وأخيراً فإنني أجمع ما يمكن أن نفترضه على نحو معقول بشأن تركيبة الاقتصاد العالمي في عام ٢٠٣٠.

وأنا لا أدعي معرفة الحلول كلها. إلا أنه كانت لي من موقعي الإشرافي في بنك الاحتياط الفدرالي ميزة الوصول إلى أفضل ما كان يظن ويقال فيما يتعلق بقدر شاسع من الموضوعات. ذلك أنه كان بإمكاني الوصول إلى مجال الأدبيات العريض الذي يعالج الكثير من المشاكل التي كان علي وعلى زملائي في البنك أن نتصارع معها كل يوم. وبدون العاملين في بنك الاحتياط الفدرالي ما كان لي أن أتعامل بحال من الأحوال مع ذلك الكم الهائل من الإنتاج الأكاديمي، الذي كان البعض منه متميزاً والبعض الآخر يبعث على الملل. كما كانت لي ميزة استدعاء واحد أو أكثر من الاختصاصيين الاقتصاديين في مجلس إدارة بنك الاحتياط الفدرالي وسؤاله عن العمل الأكاديمي الخاص بالاهتمام الحالي أو القديم. وكنت أتلقى بعد قليل تقييمات مفصلة للآراء المؤيدة والمعارضة بشأن أي موضوع بالفعل، من أحدث ما وضع من النماذج الرياضية لتقييم تجاهل المخاطر إلى ظهور كليات منح الأراضي في الغرب الأوسط الأمريكي. ولم يمنعني شيء وأنا أحاول الوصول إلى الافتراضات الشاملة بعض الشيء.

غير عدد من القوى العالمية العالم كما نعرفه، شيئاً فشيئاً وعلى نحو خفي تقريباً. وكان الأكثر وضوحاً لمعظمنا هو التحول المتزايد للحياة اليومية بواسطة التليفون المحمول، وأجهزة الكمبيوتر الشخصي، والبريد الإلكتروني، وأجهزة البلاكبيري، وشبكة الإنترنت. وأدى استكشاف صفات السيليكون الإلكترونية بعد الحرب العالمية الثانية إلى صنع المعالج متناهي الصغر، وعندما اتحدت الألياف البصرية مع أشعة الليزر وأحدثت الأقمار الصناعية ثورة في قدرات الاتصالات، رأى الناس من بكين في ولاية إلينوي إلى بكين في الصين حياتهم تتغير. وأصبح بإمكان نسبة كبيرة من سكان العالم الحصول على التكنولوجيات التي لم يكن تخيلها ممكناً في بداية حياتي العملية الطويلة في عام ١٩٤٨ إلا في سياق الخيال العلمي. ولم تفتح هذه التكنولوجيات الجديدة أفقاً جديداً تماماً من الاتصالات منخفضة التكلفة فحسب، بل يسرت كذلك حدوث تقدم كبير في التمويل وحسنت إلى حد بعيد قدرتنا على توجيه المدخرات النادرة إلى الاستثمارات الرأسمالية الإنتاجية، التي تعد ممكناً مهماً للعولمة والازدهار اللذين يتسعان بسرعة.

قلت الحواجز الجمركية في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية نتيجة لاعتراف عام بأن النزعة الحمائية قبل الحرب أدت

إلى هبوط سريع للتجارة. وكان ذلك تصحيحًا لتقسيم العمل الدولي الذي أسهم في الانهيار الفعلي للنشاط الاقتصادي العالمي. فقد ساعد تحرير التجارة بعد الحرب العالمية على إتاحة موارد تمويل جديدة؛ واقترن ذلك بإنشاء مؤسسات ومنتجات مالية جديدة (جعلتها التكنولوجيات القائمة على السليكون إلى حد ما ممكنة)، ويسّر الانطلاق نحو رأسمالية السوق العالمية حتى خلال سنوات الحرب الباردة. وفي ربع القرن التالي ساعد تبني رأسمالية السوق الحرة على تثبيت التضخم وجعل أسعار الفائدة في أنحاء العالم من عدد واحد.

كانت اللحظة الحاسمة في اقتصادات العالم هي سقوط سور برلين في عام ١٩٨٩، مما كشف عن حالة من الخراب الاقتصادي وراء الستار الحديدي تزيد كثيرًا على توقعات أكثر الاقتصاديين الغربيين معرفةً. فقد انكشف التخطيط المركزي باعتباره فشلاً لا يمكن إصلاحه؛ وقد اقترن به ودعمه الوهم المتزايد بشأن السياسات الاقتصادية التدخلية الخاصة بالديمقراطيات الغربية، وبدأت رأسمالية السوق استبدال تلك السياسات بهدوء في جزء كبير من العالم. ولم يعد التخطيط المركزي موضع جدل ونقاش. ولم يعد هناك وجود لتلك الخطب التي تكيل له الثناء والمديح. فقد سقط من أجندة العالم الاقتصادية، ما عدا في كوريا الشمالية وكوبا.

لم يحدث فحسب أن تبنت اقتصادات الكتلة السوفيتية السابقة أساليب رأسمالية السوق، بعد فترة من الفوضى، بل تبناها كذلك ما كان يُعرف من قبل بالعالم الثالث. وهو تلك الدول التي التزمت بالحياد في الحرب الباردة ولكنها مارست التخطيط المركزي أو كانت على قدر من التنظيم جعلها تصل إلى الشيء نفسه. أما الصين التي كانت قد مالت إلى رأسمالية السوق في عام ١٩٧٨، فقد سرّعت تحرك قوتها العاملة الضخمة شديدة التنظيم. وكان عددها في ذلك الحين ٥٠٠ مليون شخص، نحو مناطق التجارة الحرة في دلتا نهر اللؤلؤ.

كان تحول الصين في اتجاه حماية حقوق ملكية الأجانب، بما اتسم به من براعة، من الضخامة بحيث أحدث انفجارًا حقيقيًا في الاستثمار الأجنبي المباشر في الصين بعد عام ١٩٩١. ومن مستوى ٥٧ مليون دولار في عام ١٩٨٠، ارتفع الاستثمار الخارجي المباشر ارتفاعًا كبيرًا ليصل إلى ٤ مليارات دولار في عام ١٩٩١، ثم تسارع الارتفاع بمعدل زيادة مقداره ٢١ بالمائة حيث بلغ ٧٠ مليار دولار في عام ٢٠٠٦. وأسفر الاستثمار مقرونًا بوفرة العمالة الرخيصة عن توليفة قوية مارست ضغطًا لأسفل على الأجور والأسعار في أنحاء العالم المتقدم. وفي وقت سابق كانت ما تسمى النمور الآسيوية الأصغر حجمًا بكثير، وخاصةً كوريا الجنوبية وهونج كونج وسنغافورة وتايوان، قد تقدمت المسيرة باستغلالها تكنولوجيات البلدان المتقدمة في رفع مستويات المعيشة بها ارتفاعًا حادًا من خلال الصادرات إلى الغرب.



فاق معدل النمو الاقتصادي لتلك البلدان ولكثير غيرها من الدول النامية معدل النمو في أي مكان آخر. وكانت النتيجة تحويل حصة كبيرة من إجمالي الناتج المحلي في العالم إلى العالم النامي، وهو الاتجاه الذي تفشت آثاره على نحو ضخم. وكان لدى الدول النامية في العادة معدلات ادخار أعلى بكثير مما لدى الدول الصناعية. وهو ما يعود إلى حد ما إلى أن شبكات السلامة الاجتماعية في الدول النامية أضعف، ولذلك كان من الطبيعي أن توفر الأسر المعيشية أموالاً أكثر لأوقات الحاجة والتقاعد. (كان لعوامل أخرى دور كذلك. ففي غياب الثقافات الاستهلاكية الراسخة، على سبيل المثال، كان لدى الأسر المعيشية ميل أقل نحو الإنفاق). وكان تحول حصص العالم من إجمالي الناتج المحلي منذ عام ٢٠٠١ من الدول المتقدمة منخفضة الادخار إلى الدول النامية مرتفعة الادخار قد زاد الادخار العالمي بشكل كبير بحيث تجاوز النمو الكلي للمدخرات في أنحاء العالم الاستثمارات المخططة إلى حد كبير. ولابد أن نفترض أن عملية السوق قد دفعت أسعار الفائدة (أسعار الفائدة الاسمية والحقيقية) على نحو بارز إلى الانخفاض. أو بعبارة أخرى، زاد عرض الأموال الباحثة عن عائد على الاستثمار بسرعة تفوق سرعة طلب المستثمرين.

ساعدت الزيادة الواضحة في المدخرات، مقرونة بالعولمة والزيادة التي تحركها التكنولوجيا في الإنتاجية وانتقال القوى العاملة من الاقتصادات المخططة مركزيًا إلى الأسواق التنافسية، على كبح جماح أسعار الفائدة الحقيقية والاسمية ومعدلات التضخم بالنسبة للدول المتطورة والدول النامية كلها في واقع الأمر. وهذا هو السبب في أن معدلات التضخم السنوية في كل مكان تقريبًا (باستثناء واضح لكل من فنزويلا وزيمبابوي وإيران) من عدد واحد في الوقت الراهن. وهذه واحدة من المرات القليلة، وربما المرة الوحيدة، التي حدث فيها ذلك منذ التخلي عن قاعدة الذهب وتبني العملات الورقية في ثلاثينيات القرن العشرين. والأمر المذهل إلى حد كبير بشأن هذه المجموعة من القوى هو أنها تجمعت كلها في بداية القرن الحادي والعشرين. ولم تكن سياسات البنوك المركزية النقدية المسبب الأساسي للانخفاض المستمر للتضخم وأسعار الفائدة طويلة المدى، غير أننا معشر رجال البنوك المركزية اخترنا تعديل سياساتنا لتحقيق أكبر قدر ممكن من الفوائد طويلة المدى لتلك التحولات التكتونية في التمويل العالمي. إلا أنه لأسباب سوف أعرض خطوطها العامة فيما بعد ليس من المرجح أن يدوم أي من تلك القوى. ومن الصعب كبح جماح التضخم في عالم العملات الورقية.

ارتبط انخفاض أسعار الفائدة الحقيقية طويلة المدى الذي حدث في العقدين الماضيين بنسب السعر إلى الأرباح الخاصة بالأوراق المالية والعقارات، بل وكل الأصول التي تحقق أرباحًا. وقد ارتفعت القيمة السوقية للأصول في أنحاء العالم فيما بين ١٩٨٥ و٢٠٠٦ بسرعة تزيد على إجمالي الناتج المحلي الاسمي (كانت الفترة ٢٠٠١-٢٠٠٢ استثناءً ملحوظًا). وخلق ذلك زيادة كبيرة في السيولة العالمية. وانضم إلى الانتعاش أسعار الأسهم والسندات، والمنازل، والعقارات التجارية، واللوحات الزيتية، ومعظم الأشياء الأخرى. واستطاع أصحاب المنازل في كثير من الدول المتطورة الحصول على أموال من أرباح منازلهم المتزايدة لتمويل مشتريات تعدت ما يمكن لدخولهم أن تموله. وامتص إنفاق الأسر المعيشية المتزايد، وخاصةً في الولايات المتحدة، جزءًا كبيرًا من موجة الصادرات من العالم النامي المتوسع بسرعة. وجاء في مجلة «إيكونوميست» في نهاية عام ٢٠٠٦: «بما أن الاقتصاد العالمي يزيد بمعدل سنوي مقداره ٣,٢٪ للفرد منذ عام ٢٠٠٠، فقد قطع الاقتصاد العالمي ما يزيد على نصف الطريق نحو إنجاز أفضل عقوده. وإذا ما استمر على تقدمه في هذه الفترة فسوف يتقدم على عقدي الخمسينيات والستينيات المفترض أنهما ممتازان من كل الأوجه. ويبدو أن رأسمالية السوق، وهي المحرك الذي يدير معظم الاقتصاد العالمي، تؤدي وظيفتها على نحو جيد». وهذه التطورات في مجملها موسعة وإيجابية. إذ انتشل رد الاعتبار للأسواق المفتوحة والتجارة الحرة خلال ربع القرن المنصرم مئات كثيرة من ملايين سكان العالم من الفقر. ولابد من الاعتراف بأن كثيرين غيرهم في أنحاء العالم لا يزالون يعانون من الحاجة، غير أن شرائح كبيرة من سكان الدول النامية باتت تنعم بقدر من الثراء، الذي ظل زمنًا طويلاً حكرًا على البلدان المتقدمة.



إذا كان لقصة ربع القرن المنقضي حبكة أحادية الخط فهي اكتشاف قوة رأسمالية السوق. فبعد إجبار رأسمالية السوق على التراجع نتيجة لهزيمتها في ثلاثينيات القرن العشرين وما أعقب ذلك من توسع في تدخل الدولة خلال الستينيات، عادت للظهور من جديد ببطء كقوة فعالة، حيث بدأت بداية حثيثة في السبعينيات إلى أن باتت تنتشر الآن في كل أنحاء العالم تقريبًا بدرجة تزيد أو تقل من مكان لآخر. وعزز انتشار حكم القانون التجاري، وخاصةً حماية حقوق الملكية، النشاط الاستثماري العالمي. وأدى هذا بدوره إلى خلق المؤسسات التي ترشد حاليًا في الخفاء قسمًا يتزايد باستمرار من النشاط البشري. وتلك هي النسخة الدولية من «اليد الخفية» عند آدم سميث.

قلّت نتيجة لذلك سيطرة الحكومات على حياة مواطنيها اليومية؛ وشيئًا فشيئًا حلّت قوى السوق محل بعض سلطات الدولة المهمة. كما تم القضاء على جزء كبير من التنظيم الذي يدعو إلى فرض قيود على الحياة التجارية. وخلال السنوات الأولى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، كانت تدفقات رأس المال تخضع للمراقبة، وكانت أسعار صرف العملات تخضع لتقديرات وزراء الخزانة. وكان التخطيط المركزي منتشرًا في كل من العالمين النامي والمتقدم، بما في ذلك بقايا التخطيط الموجّه الذي لا يزال بارزًا في أوروبا. وكان الشيء المُسلّم به هو أن

لا يمكن للاقتصاديين تحاشي كونهم دارسين للطبيعة البشرية، وخاصةً الحماسة الفياضة والخوف. والحماسة الفياضة احتفاء بالحياة



الأسواق تحتاج إلى إرشاد حكومي كي تعمل بكفاءة.

في اجتماعات منتصف سبعينيات القرن العشرين للجنة السياسة الاقتصادية التابعة لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية التي تضم واضعي السياسات من أربعة وعشرين بلداً، كان هانز تيتماير من ألمانيا الغربية وأنا فقط هما من يضغطان من أجل وضع سياسة تقوم على السوق. وكنا أقلية ضئيلة جداً في لجنة كبيرة جداً. وكانت آراء جون مينارد كينز الاقتصادي البريطاني العظيم، التي حلت محل آراء آدم سميث واقتصاده الكلاسيكي عندما لم يتبع الكساد العظيم في ثلاثينيات القرن العشرين نموذج سميث الخاص بالطريقة التي كان من المفترض أن تتصرف بها الاقتصادات. وقدم كينز إجابة رائعة من الناحية الرياضية للسؤال الخاص بسبب ركود الاقتصاد العالمي وكيفية إحداث الإنفاق للإنعاش الفوري للعجز الحكومي. وكانت النزعة التدخلية الخاصة بكينز نموذجاً مهيمناً بصورة ساحقة في منتصف السبعينيات، مع أنه كان من الواضح أنها على حافة الانهيار. وكان الإجماع داخل لجنة السياسات الاقتصادية هو أن السماح للسوق بتحديد الأجور أمر غير مناسب ولا يعول عليه ولابد من إلحاقه بـ«سياسات الدخل». وكانت تلك السياسات تختلف من بلد لآخر، ولكنها كانت تحدد القواعد الإرشادية للمفاوضات الخاصة بالأجور بين النقابات، التي كانت أكثر انتشاراً وأشد قوةً مما هي عليه الآن بكثير، وبين الإدارة. وكانت سياسات الدخول دون مستوى قيود الأجور والأسعار المكتملة بحيث بدت اختيارية على نحو واضح. ومع ذلك فقد كانت القواعد الإرشادية تدعمها بصورة عامة أدوات الحكومة التنظيمية التي كانت تُستخدم لـ«إقناع» من يخالفون الأوامر. وعندما كانت تلك السياسات تفشل، غالباً ما يصبح الحل هو القيود الرسمية المفروضة على الأجور والأسعار. وكانت القيود المفروضة على الأجور والأسعار المشئومة، رغم تمتعها بشعبية ضخمة في البداية في عهد الرئيس نيكسون عام ١٩٧١، من بين آخر آثار النزعة التدخلية العامة الخاصة بالأجور والأسعار في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية في العالم المتقدم.

في سنوات دراستي المبكرة تعلمت تقدير البراعة النظرية للأسواق التنافسية. وبعد ستة عقود تعلمت تقدير كيف تنجح النظريات (ولا تنجح أحياناً) في عالم الواقع. فقد أتيحت لي بشكل خاص فرصة التفاعل مع كل واضعي السياسات الاقتصادية المهمين في الجيل السابق، والحصول بطريقة لا مثيل لها على معلومات تقيس اتجاهات العالم، من الناحية العددية ومن ناحية الملاحظات. وكان من المحتم أن أطلق أحكاماً عامة على تجاربي. وقد قادني هذا إلى تقييم أعمق للأسواق الحرة التنافسية باعتبارها قوة تحقق المصلحة. والواقع أنه باستثناء بعض الوقائع الغامضة القليلة لا أظن أن هناك ظروفاً فشل فيها حكم القانون الموسع وحقوق الملكية المعززة في زيادة الرخاء المادي.

وبالرغم من ذلك فإن هناك شكاً مستمراً على نطاق واسع في عدالة الطريقة التي توزع بها المنافسة غير المقيدة مكافآتها. وأشير على امتداد هذا الكتاب إلى تناقض الناس الظاهري مع قوى السوق. وهناك تشديد على المنافسة لأن الأسواق التنافسية تخلق الفائزين والخاسرين. وسوف يحاول هذا الكتاب بحث تبعات التصادم بين الاقتصاد المعولم الذي يتغير بسرعة والطبيعة البشرية التي لا تتغير. وكان النجاح الاقتصادي الذي تحقق في ربع الألفية الماضي نتيجة لهذا الصراع؛ وكذلك القلق الذي خلقه ذلك التغير السريع.

نادراً ما نمعن النظر في تلك الوحدة العاملة الرئيسية في النشاط الاقتصادي، وهي الكائن البشري. من نحن؟ ما هو ذلك الشيء الثابت في طبيعتنا ولا يخضع للتغيير. وما مقدار ما لدينا من فطنة وإرادة حرة كي نعمل ونتعلم؟ إني في صراع مع هذا السؤال منذ أول مرة عرفت فيها كيف أطرحه.

بما أنني تجولت في العالم على مدى ستين عاماً تقريباً، فقد وجدت أنه تبدو على الناس تشابهات ملحوظة يمكن وصفها بدون حاجة إلى قدر كبير من الخيال بأنها ناتجة عن الثقافة أو التاريخ أو اللغة أو المصادفة. إذ يبدو أن الناس جميعاً يحركهم سعي متأصل من أجل الاعتداد بالذات الذي يعززه إقرار الآخرين له. ويحدد هذا السعي جزءاً كبيراً مما تنفق عليه الأسرة المعيشية مالها. وسوف يظل كذلك يحفز الناس على أن يعملوا في المصانع والمكاتب جنباً إلى جنب، حتى وإن صارت لديهم عما قريب القدرة على الإسهام في العمل منعزلين من خلال الفضاء الإلكتروني. فالبشر لديهم حاجة متأصلة إلى التفاعل مع غيرهم من البشر. وهذا ضروري إن كان علينا الحصول على إقرارهم الذي هو ما نسعى إليه. فالناسك الحقيقي شذوذ يندر وجوده. ويتوقف ما يسهم في الاعتداد بالذات على تلك المجموعة الكبيرة من القيم المتعلَّمة أو المختارة بوعي، التي يعتقد الناس، صواباً أو خطأً، أنها تُحسِّن حياتهم. ولا يمكننا العمل بدون نسق من القيم التي ترشدنا إلى اختيارات متعددة نقوم بها كل يوم. والحاجة إلى القيم أمر متأصل فينا. أما مضمونها فليس كذلك. ذلك أن الحاجة يحركها إحساس أخلاقي فطري داخل كل منا، وهو الأساس الذي تنشد بناءً عليه الأغلبية عن إرشاد الديانات المتعددة التي اعتنقتها البشرية على مر آلاف السنين. وجزء من هذا القانون الأخلاقي الفطري هو الإحساس بما هو عدل وصحيح. فجميعنا لدينا رؤى مختلفة لما هو عدل، ولكن لا يمكن لأحد تحاشي الضرورة المدمجة فينا الخاصة بإصدار تلك الأحكام. وهذه الضرورة المدمجة هي أساس القوانين التي تحكم كل مجتمع. إنها الأساس الذي يتحمل الأشخاص بناءً عليه مسئولية أعمالهم.



لا يمكن للاقتصاديين تحاشي كونهم دارسين للطبيعة البشرية، وخاصةً الحماسة الفياضة والخوف. والحماسة الفياضة احتفاء بالحياة. فلابد من فهم الحياة على أنه من المتع أن نسعى للحفاظ عليها. ومما يؤسف له أن موجة الحماسة الفياضة تجعل الناس في بعض الأحيان يتجاوزون ما هو ممكن؛ فعندما يلمس الواقع وتراً حساساً تتحول الحماسة الفياضة إلى خوف. والخوف رد فعل آلي فينا جميعاً تجاه الأخطار التي تهدد أعمق ميولنا الفطرية جميعاً، وهو إرادة الحياة. كما أنه أساس الكثير من ردود أفعالنا الاقتصادية، وهو ذلك العزوف عن المخاطرة الذي يحد من رغبتنا في الاستثمار والتجارة، وخاصةً بعيداً عن الوطن، ويحثنا هذا في الحالات المتطرفة إلى الانفصال عن الأسواق، مما يسفر عن حدوث انهيار حاد في النشاط الاقتصادي.

هناك جانب مهم في الطبيعة البشرية. وهو مستوى الذكاء البشري. له علاقة كبيرة بمقدار نجاحنا في كسبنا لوسائل العيش اللازمة للبقاء. وكما أوضح في نهاية هذا الكتاب، فإن الناس في الاقتصادات التي بها أحدث التكنولوجيات يبدون عاجزين عن زيادة مُخرَجهم في الساعة بما يتجاوز ٣ بالمائة سنوياً على امتداد فترة مطولة. ومن الواضح أن هذا هو أقصى معدل يمكن فيه للإبداع البشري تحريك مستويات الحياة قدماً. ومن الواضح أننا لسنا على قدر كاف من الذكاء لتحقيق ما هو أفضل من ذلك.

إن العالم الجديد الذي نعيش فيه الآن يعطي مواطنين عديدين الكثير مما يخافون منه، بما في ذلك اقتلاع الكثير من مصادر الهوية والأمن التي كانت مستقرة من قبل. وحيثما كان التغير أسرع ما يكون، تكون التفاوتات المتزايدة في توزيع الدخل هماً أساسياً. إنه بحق عصر الاضطراب، وسوف يكون من الحكمة والأخلاق أن نحد من التكلفة البشرية لتمزقاته. وفي مواجهة اندماج الاقتصاد العالمي المتزايد يواجه مواطنو العالم اختياراً شاملاً، وهو قبول الفوائد العالمية للأسواق المفتوحة والمجتمعات المفتوحة التي تنتشل الناس من الفقر وترفعهم على سُلَّم المهارات إلى حياة أفضل وأكثر أهميةً بينما يعون في أذهانهم قضايا العدالة الأساسية، أو رفض تلك الفرصة وقبول نزعة إحياء الثقافة المحلية والنزعة القبلية والنزعة الشعبوية، وكل «نزعة» تلجأ إليها المجتمعات عندما تتعرض هوياتها للحصار ولا يمكنها إدراك خيارات أفضل. وهناك عوائق ضخمة تواجهنا في العقود المقبلة، ويعود الأمر إلينا في التغلب أو عدم التغلب عليها. وبالنسبة للأمريكيين، لابد أن يحتل فتح حدودنا أمام القوى العاملة الماهرة في العالم وإصلاح التعليم مكانةً متقدمة على أجندة سياساتنا. ولابد كذلك من إيجاد حل لأزمتنا الخاصة بالرعاية الصحية. وهناك موضوعات سوف أعود إليها في نهاية الكتاب. وأنتهي في الفصل الأخير إلى أنه بالرغم من العيوب الكثيرة التي في البشر، فليس من قبيل المصادفة أننا نتسم بالدأب والتقدم في مواجهة الشدائد. فهذا أمر من طبعنا. وهذه حقيقة تدعم تفاؤلي بشأن مستقبلنا على مر العقود. ■



ترسم لنا المؤلفة مشهدا يختلط فيه «التمصير» أو التعريب أو «إحياء التراث» إلى مستويات ربما فاقت الماضي، بعولمة شرسة تختلف عن الكوزموبوليتانية الأوروبية القديمة



مصر «الجديدة!»

ماجدة بركة

■ بكتابها الأخير «الثقافات الاستهلاكية المتغيرة لمصر الحديثة، إعادة التشكل العمراني لمدينة القاهرة» الصادر عن دار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة، تدخل د. منى أباظة رئيس قسم الاجتماع بالجامعة مجالا جديدا على الكتابة السوسيولوجية في مصر هو مجال دراسة «الثقافة الاستهلاكية» الذى أصبح موضوعا لكتابات كثيرة فى العالم تحفل قائمة مراجع الكتاب بالكثير منها. وهى إذ تدرس الاستهلاك فى دلالاته الاجتماعية وليس فى حد ذاته، ينطوى رصدها لتطور أنماط الاستهلاك وحتى التسعينيات على رصد للتطورات الاجتماعية بشكل عام.

تقوم الباحثة برصد هذه الدلالات والتحولات من خلال مزج الدراسة الميدانية لظاهرة حديثة هى ظاهرة انتشار المولات التجارية من ناحية بدراسة أخرى تنطوى بدورها على عنصر «المراقبة - المشاركة» الـparticipant-observation هو نوع من السيرة الذاتية يذكرنا بمقال شائق فى نفس الاتجاه للمؤرخة عفاف لطفى السيد مارسو بعنوان The revolutionary gentlewomen in Egypt. فإذ تنحدر منى أباظة من أسرة كان فيها والد الجدة للأم أحد أبرز سياسيى العشرينيات، فإنها تستعيد ذكرياتها حول أنماط استهلاك وأساليب معيشة أسرتها خلال تلك الحقب بالعودة مستعينة ببعض المراجع من تلك المرحلة وبلقاءات أجرتها مع أفراد من العائلة وأصدقائها.

The Changing Consumer Cultures of Modern Egypt
Cairo's Urban Reshaping
(الثقافات الاستهلاكية المتغيرة لمصر الحديثة، إعادة التشكل العمرانى لمدينة القاهرة)
Mona Abaza
The American University in Cairo Press, 2006

الهوية وتغير أنماط الاستهلاك:

فى دراسة د. منى أباظة لأنماط الاستهلاك المتغيرة يلفتنا بوجه خاص دلالات تلك الأنماط فى تحديد وتعريف الهوية وخصوصا الهويتين الطبقية والجيلية. ومن أهم ما تفصله د. منى أباظة فى هذا السياق، الدلالات المتنوعة لظاهرة الحجاب الحديث. فهى تبرز لنا على سبيل المثال كيف استبدلت بنات الريف المتعلمات الجلباب الريفى القديم (بسفرته» التقليدية المستديرة على الصدر وكرانيشه فى الذيل) ومنديل الرأس بالحجاب التقليدى لإبراز تفوقهم على جيل أمهاتهم من خلال تبنى رمز «مدينى».

كما تبرز تخفيف وتهذيب ورفع المستوى الاجتماعى «gentrification» وتغيير المدلول «السياسى» لبعض أشكال الحجاب من الحجاب المتقشف الفضفاض القائم رمز الرفض الصريح وربما التطرف المرتبط «بالجماعات» الإسلامية فى فترة السبعينيات المقترنة باندلاع وانتصار الثورة الإيرانية، إلى أن يصبح رمزا أقرب للإسلام السعودى (اللاثورى) فى ظل ما شهدته العقود الثلاثة الأخيرة- التى تم فيها هذا التحول فى مظهر الحجاب ودلالته- من تزايد للهجرة المصرية إلى بلدان الخليج. وفى ذات السياق، ظهر الحجاب «الشبابى» بهيج الألوان الذى يختلف عن حجاب الأجيال الأكبر سنا ويعكس رغبة الشابات فى إبراز جمالهن.

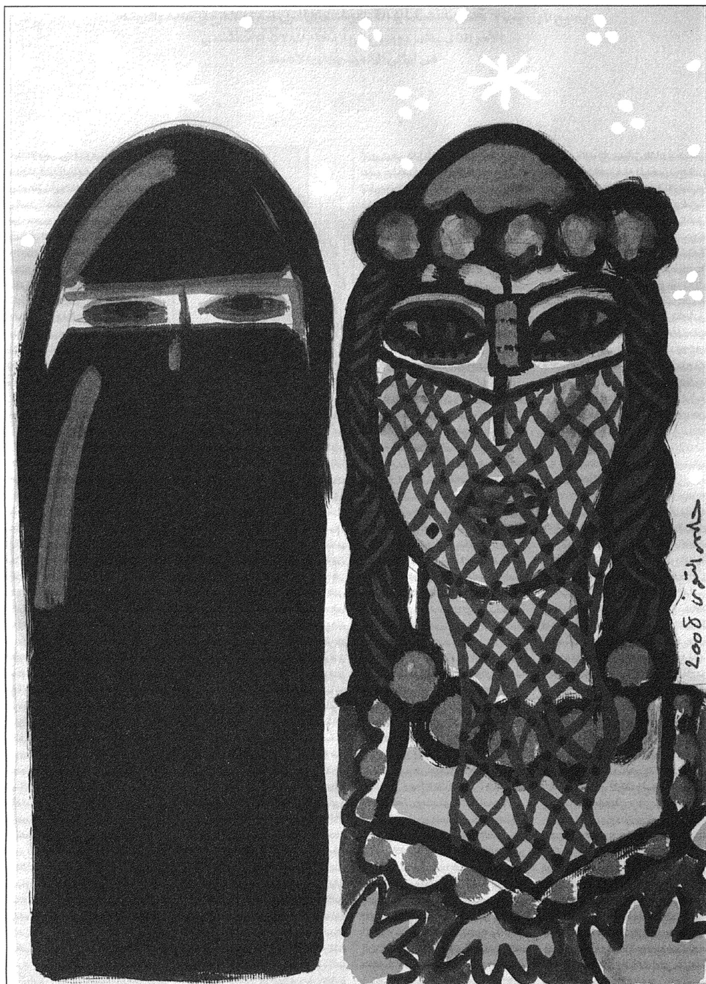
وبصفة أكثر عمومية، تذهب الكاتبة إلى أن وجود صناعة ملابس محلية معقولة التكاليف أدى الى مقرطة للذوق democratization of taste على نحو خفف من حدة التمييز الطبقى داخل مراتب الطبقة الوسطى وبينها وبين من يعلونها فى السلم الاجتماعى، فى الوقت الذى بقى فيه الجلباب الأسود ومنديل الرأس عنوانا طبقيا واضحا لمن يلبسنه من نساء الطبقات الشعبية.

وفى تناولها لمراتب الطبقة المتوسطة العليا، ترصد الباحثة تغيرا فى أنماط الاستهلاك من الرغبة الملحوظة فى اقتناء صالون الأوبيسون خلال النصف الأول من القرن العشرين إلى ظهور رغبة نزعة إلى العودة إلى صالون الأرابيسك خصوصا فى سبعينيات القرن، كما ترصد تحولا بين أفراد تلك الطبقة من النزوع إلى اقتناء أعمال مشاهير التصوير الزيتى فى الغرب إلى اقتناء أعمال الفنانين المصريين فى الوقت الحالى.

ولكنها وفى الاتجاه المعاكس أيضا، ترصد تحولا من استخدام الفصحى فى الأدب المصرى المكتوب باللغة العربية، إلى لغة أمثال أحمد العايدى فى رواية «أن تكون عباس العبد» وهى لغة متعددة المستويات تخلط الإغراق فى العامية بدرجاتها التى تصل إلى السوقية فى أقصى حالاتها مع مستويات عدة من اللغة العربية الفصحى وأيضا مع كلمات أجنبية أغلبها يتعلق بالوسائط التكنولوجية والإنترنت مثل «كت» و«بيست» والتى دخلت لغة التعبير اليومى.

كما تلحظ تحول استخدام كلمات أجنبية فى ثنايا الحديث اليومى من سمة للطبقة الكوزموبوليتانية القديمة المحصورة عدديا إلى ظاهرة فى الخطاب اليومى لعموم المصريين - ولو بنطق خاطئ - وظهور عناصر غربية جديدة فى الاستهلاك الغذائى للمصريين مثل الكابوتشينو ووجبات الهمبرجر والبيتزا السريعة وإن لم تنجح هذه فى القضاء على القهوة التركية وسندوتشات الفول والفلافل لرخص أثمانها.

وتربط الكاتبة ما بين إعادة تقدير التراث وإحيائه - فى العمارة والأثاث وبدرجة أقل فى الملابس- وبين حقبة السبعينيات التى تلت هزيمة حرب يونيو ٦٧ وما ارتبط بها من العودة للبحث عن الجذور وطلب


حلمى التونى 2008

الأصالة وحدوث قدر من الارتداد عن «تحديث» فترة الستينيات الناصرية الذى رأى البعض فيه سلبا للهوية. فلم يكن من قبيل الصدفة كما تؤكد الباحثة أن تكون مشروعات أسعد نديم للأثاث، والمسيرى للتلى، وعزة فهمى للحلى، ونجادة ومحرز للملابس، قد بدأت جميعا مع نهاية السبعينيات، كما أن تواكب هذه الفترة مع تدشين سياسة «الانفتاح» وفتح البلاد للسياحة يؤكد أن هذا الإحياء بقدر ما كان فى تناظر مع الغرب إن لم يكن فى مواجهته، بقدر ما تم من خلال عدسته التى ترفع من شأن الفن الإثنى(الغرائبى) وبمساعدته كسوق مستهلك.

تبرز التناقضات فى خطاب الهوية فى مجال الزى فالمقصود بالخطاب هنا لا يقتصر على اللغة المنطوقة، حيث «الملبس لغة» كما يقول الغربيون (fashion is a statement). ونحن نلحظ تناقضا بين ملحوظة مدرسة ألمانية للأزياء فى جامعة حلوان من أن «ثقافة الطبقة الوسطى لطالباتها تمنعهن من أن يكن مرنات وكوزموبوليتانيات»(ص٢٠١ من الكتاب) وبين الأسماء الغربية لبعض سلاسل المحجبات الشبابية مثل Suzzana وElleg Pour.

هنا ترسم لنا المؤلفة مشهدا يختلط فيه «التمصير» أو التعريب أو «إحياء التراث» إلى مستويات ربما فاقت الماضى، بعولمة شرسة تختلف عن الكوزموبوليتانية الأوروبية القديمة، إذ تتسم العولمة بمزيجها الذى تختلط فيه «الأمركة» «بالخلجنة». ومع أنها ترى فى انتشار بطاقات سحب النقود ATMs والموبايل والإنترنت والإيميل والمدن والقرى السكنية والمصايف والمشاتى المسورة ومحلات المكدونالدز وانتشار ظاهرة طلب المأكولات الجاهزة علامة أكيدة على دخول مصر عصر العولمة فهى تنتقد التبسيط المخل فى بعض من ينزعون إلى الربط التلقائى بين العولمة والتنميط فهناك ما يطلق عليه البعض تعبير الـ glocalisation ، حيث يتأثر ما هو عالمى بالبيئة المحلية والعكس مثل تقديم محلات السلاسل الغذائية الغربية أغذية آسيوية الطابع وأكل اليابانيين بأيديهم للمرة الأولى وظهور سلاسل «مؤمن» للسندوتشات فى مصر والتى تحاكى السلاسل العالمية مثل ماكدونالدز وغيرها. ويرتبط ما سبق بدوره بمفهوم «التهجين» hybridization فى أذواق



الملبس والغذاء وغيرها والذى تشير إليه الأدبيات السوسيولوجية الغربية وتستعين به الكاتبة حيث نعلم من ثنايا الكتاب على سبيل المثال لا الحصر أن هناك أصولا «نابوليونية» للسفرة المستديرة للجلباب الفلاحى التقليدى!

وإذ يظهر النزوع إلى تبنى الأغنياء الحاليين لما هو «محلى» فى بعض المجالات مثل اقتناء لوحات الفنانين المصريين بأكثر مما كان عليه الوضع فى الماضى، أو بنائهم لقصورهم فى المنصورية ومشاتيهم ومصايفهم فى الجونة على سبيل المثال لا الحصر وفق قباب وأقواس وأقبية عمارة حسن فتحى التى قصدها أصلا للفقراء، فإن من اللافت أن هذه الطبقة فشلت فى الحفاظ على الأزياء التقليدية كلباس يومى مقارنة بنظيرتها فى الخليج (الجلباب الرجالى السعودى الشفاف والجلابيب النسائية) أو حتى كلباس تقليدى احتفالى يعاقب اجتماعيا من يخرج عليه كما هو الحال فى الأفراح والاحتفالات التقليدية فى المغرب. وفى حين تبدى الطبقات المغربية الميسورة استعدادها للإنفاق على ما تتطلبه تلك الملابس من تطريز يدوى مرتفع التكلفة فإن نزوع الطبقة العليا المصرية هو لبذل هذه النفقات المرتفعة فى سبيل الملابس المستوردة بحيث يكون ارتداء الملابس «الفولكلورية» التقليدية المشتراة من المحلات الغالية لبعض مشاهير المصممات مثل شهيرة محرز على سبيل الاستثناء ومن خلال العين الغربية التى تبدى إعجابها بهذه الملابس فى الغالب «لغرابتها» exotism. أى أنه يمكن للمرء أن يرى فى هذا التبنى «استشراقا» يغلب على عنصر «الاعتزاز القومى» الذى ينفيه احتقار «المحلى» الذى يوصف بأنه «بلدى»..

قد يمكن لنا أن نعزو غياب الاعتزاز القومى باللباس المحلى مقارنة بالمغرب أو الخليج العربى بل وربما غياب وجود لباس قومى مصرى جامع إلى ما تشير إليه الكاتبة (عرضا) من أن مصر قد حكمها الأجانب قرونا طويلة فكانت هناك ثقافتان مختلفتان على الدوام حيث كان لاعتقاد الطبقات الحاكمة بتفوق الذوق الغربى أثره دون شك على أخلاق المصريين وأساليب حياتهم(ص١٩٨).

فى كل ما سبق يشعر من درس الطبقة العليا المصرية فى مراحل سابقة أنها كلاحقتها - لو صح التعبير- «تلفيقية» فى الذوق (eclectic) فهى لم تبتكر نمطا أو حتى مزيجا خاصا بها تكون له شخصيته الخاصة مثلما مثلت فكرة طراز «الآر نوفو» Art Nouveau نمطا مستقلا له شخصيته الخاصة رغم تألفه من مزيج من عناصر مختلفة كونت مذاقا جديدا، ويمكن قول نفس الشىء عن الشخصية المستقلة للفن الإسلامى رغم ما استمده من عناصر معمارية من مراحل زمنية سابقة.



فيما تناولته قد لا تكون د. منى أباظة قد قصدت إثارة موضوع دور المثقف فى التأثير على ثقافة بلده لكن ذلك بالتحديد هو ما أثاره فى نفسى ما تذكره حول دور مثقفين أو «فاعلين ثقافيين» مثل حسن فتحى فى مجال العمارة وأسعد نديم فى مجال الأثاث وشهيرة محرز فى مجال الملابس وعزة فهمى فى مجال الحلى ومجموعة الكتاب والأدباء التى بنت لها «جماعة متصورة» ومؤئلا فى قرية تونس بالفيوم. فهؤلاء - رغم ارتباط أنشطتهم بإحياء التراث المحلى والتركيز عليه - بقوا غرباء عن التيار العام لمجتمعاتهم، زبائنهم هم من الأجانب أو أثرياء الخليج وبعض المصريين الأغنياء المقدرين «للفن الإثنى» بعيون غربية استشراقية. وفى قرية تونس بقى هناك مجتمع هؤلاء منفصلا ومتمايزا تماما عن مجتمع فلاحى قرية تونس الأصلى.

ومع ذلك فلا يمكن إلا أن يحتفى المرء بدور «المجتمع المدنى» -على محدوديته- فى محاولة الارتفاع بمستوى معيشة الفلاحين فى قرية تونس من خلال مشروع تشكيل الفخاريات فى تلك القرية(السويسرية ايفلين)، أو من خلال إقامة صناعة للسجاد اليدوى فى قرية الحرانية (رمسيس ويصا واصف)، أو دور نوال المسيرى وأسعد النديم فى تدريب العمالة على النجارة العربية وتسويق حرفة التلى اليدوية لرفع المستوى المعيشى لأصحاب هذه الحرف. ويتساءل المرء عما إذا كان هناك ثمة ارتباط ارتفاع أسعار منتجات أمثال محرز والنديم وبين ما يقومون به من أدوار اجتماعية كنوع من إعادة توزيع للدخل بين محدوديه وبين الميسورين من داخل البلاد وخارجها.

«المول ـ كعالم جديد» :

يصعب تحديد طبيعة المول باعتباره مجالا تجاريا بحتا، إذ تعبر فكرة المول فى ذاتها عن محاولة لخلق «عالم كامل» يمزج ما بين المجالات أو الحقول المكانية الثلاثة السكنية (شقق سكنية كما فى مولات العقاد ومركز التجارة العالمى وسيتى ستارز) والترفيهية (سينمات، قاعات ديسكو، مراكز رياضية للياقة البدنية، قاعات بيلياردو وألعاب الكترونية، مطاعم ومقاهى والتجارية).

بل إنه إذا كان يمكن القول إن أول ما يتبادر إلى الذهن هو أن المول هو مجال تجارى، فإن تحليل د. منى أباظة يظهر علاقة أقوى للمول بالترفيه منه بالتجارة حتى أن الكاتبة تذهب فى موضع ما إلى مقارنة المول «بالنادى» باعتبار المول تعويضا عن عدم عضوية الكثير من الشباب للنوادى لارتفاع أسعار الحصول على تلك العضوية.

هكذا يصبح المول مجالا لالتقاء الشباب و«التسكع» بمعزل عن حرارة الشارع وزحامه وأتربته، الأمر الذى يظهر بوضوح فى ازدحام المولات الاستثنائى فى ليالى الخميس وفى الأعياد وهنا يصبح مول العقاد هو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة إذ استبعدت إدارته بالتحديد عن قصد أية مراكز ترفيهية واقتصرت على البعد «التجارى» بغية استبعاد «الشباب» من المول والتأكيد على طبيعته كمول «أسرى» للعائلات.

يصبح المول مجالا لالتقاء الشباب و«التسكع» بمعزل عن حرارة الشارع وزحامه وأتربته، الأمر الذى يظهر بوضوح فى ازدحام المولات الاستثنائى فى ليالى الخميس وفى الأعياد



وقد بات المول يقترن بما يمكن أن نطلق عليه تعبير «العبور الطبقى المؤقت»، حيث تتحدث الباحثة عن «أعداد كبيرة من الشباب قادمة من العشوائيات والأحياء الفقيرة تسير فى مجموعات ذكورية كبيرة». وإذ لم يعد بمثل ما كان عليه الأمر سابقا من سهولة تمييز الطبقات عن طريق الملبس، فإن ما يتم تقديمه للشباب داخل تلك الأماكن (المولات) المعزولة عما خارجها والمتميزة exclusive هو نوع من «المحاكاة» simulation، وهم يستشعرون نوعا من الارتقاء (من خلال الملبس) وشعروا بأنه بإمكانهم المشاركة فى عالم أفضل (منى أباظة ص٢٤١).

من الطريف أن هذا الإحساس بالارتقاء يتجاوز رواد المول إلى العاملين فيه من بائعات لا تتجاوز أجورهن نصف ما تتقاضاه الخادمات المستوردات لكنهن يشعرن بأنهن أفضل فيه مما لو كن يعملن فى «محلات الشارع»، بل إن «حارس الأمن» وهى الفئة التى بات المئات منها تعمل داخل المولات (والمبانى السكنية أيضا) يعتبر نفسه على الأغلب بزيه الخاص وقميصه وبنطاله أرقى من «حارس العقار» التقليدى أى «البواب» بجلبابه ودكته الخشبية.

ينتمى ما سبق ربما إلى الجانب الأكثر إيجابية للمول، لكن الكاتبة تبرز أيضا الجانب الأكثر إظلاما للمول أو ما يمكن أن نطلق عليه تعبير «أمراض المول»، ما بين شيوع المضايقات الجنسية للنساء بين الشباب، وشيوع السرقات من المحلات التجارية shoplifting خاصة بين النساء بحيث أصبح الأمران الهم الأساسى لأفراد الأمن المنتشرين فى تلك المراكز التجارية المسورة متعددة الطوابق.

ورغم ما يميز المول بشكل عام من انتشار المراقبة بالكاميرات واعتباره - مقارنة بالشارع- مجالا يخضع لدرجة أعلى من السيطرة والتنظيم، لم تستمر ظاهرتا المضايقات الجنسية والسرقات الصغيرة بإصرار فحسب بل لم تسلم المولات أحيانا من امتداد «الاقتصاد الأسود»- إذا جاز لنا التعبير- إلى داخلها، كما يظهر فى اقتباس د. منى أباظة من رواية أحمد العايدى «أن تكون عباس العبد»، حيث تقوم هند وهى مومس من طبقة شعبية بطباعة رقم هاتفها بأحمر الشفاه على الأبواب الداخلية للمرحاض العمومى بعدة مولات وتثبيته بحيث يصعب مسحه عن طريق تمرير ورقة كلينكس مشبعة بماء الصودا عليه، وكما يظهر أيضا فى الاتهامات التى عزت خروج أصحاب المحلات التجارية والعيادات من أحد المولات إلى انتشار بيع وتعاطى المخدرات فى أحد أدواره.

بين تناولها «لإيجابيات» المول وسلبياته، تنعى الكاتبة غياب أى حس نقدى فى توصيفه سواء من جانب مرتاديه أو القائمين عليه وشبه الاستسلام التام لما يمثله من غلبة للثقافة الاستهلاكية وما يرتبط بها من «تخدير» إزاء السياسات السياسية الأوتوقراطية. وتشير الكاتبة - فى ظل اختلاف ظروفنا عما هو سائد فى الغرب- إلى الحدود التى تقيد إمكان تطبيق النقد الغربى للاستهلاك فى السياق المصرى باعتباره «تعويضا نفسيا» عن ضعف الترابط الأسرى وافتقاد روابط عاطفية ومهنية طويلة الأمد. ورغم ما تشير إليه من وجود ظاهرة معاناة الفرد من الوحدة أينما وجد، فإن ارتفاع الكثافة السكانية لدينا وارتباطه بلغة إشارات جسدية نشطة فى الشوارع والأماكن العامة ارتباطا بضرورات ضيق المكان تلون مفهوم الوحدة لدينا بلون مختلف. تشير الباحثة كذلك إلى غياب النقد الأكاديمى لدينا فى تناول تلك الظاهرة أسوة ببعض الكتابات الهندية على سبيل المثال والتى تربط المول بما يواكب التحديث من إحساس «بالافتقاد» لجذور وتقاليد قديمة، ولا يمكن هنا الحديث عن الشعور بافتقاد الجذور ببساطة أيضا لأن «عقدة الخواجة» والتقليد لما هو غربى لدينا ترتبط - حتى فى تحليل د. منى أباظة - «بالأسلمة» واستمرار دور الأسرة، والإحياء للتراث والتقاليد الفنية ولو لم يكن ذلك بمعزل عما يعجب به السواح والغرب لدينا فى هذا المجال.

«مدن الأشباح»، المولات المحتضرة:

قدر أحد رجال الأعمال فى الكتاب «دورة حياة المول» بما بين ١٨ و٢٤شهرا فى المتوسط (ص٨٥). ورغم التحفظ الذى يثور حول دقة التقدير الزمنى فى هذا الخصوص، فإن ظاهرة احتضار المولات تحتاج إلى نظر متعمق وهى تثير التساؤل حول مصير كل ما ضخ فى تلك المولات المحتضرة من رؤوس أموال، هل



أفلس أصحابها؟ (لا يبدو الأمر كذلك)، هل كان استثمارهم نسبة ضئيلة من ثروتهم؟ (تعود ملكية مول اليمامة إلى الأمير بندر، فماذا عن مركز التجارة العالمى، لا يوضح السياق ما إذا كانت مجموعة أوراسكوم ضمن joint venture الملاك أم قامت فقط ببناء المشروع (ص١٧٥-١٧٦)، أم كان جزءا من الخسارة قد تم ترحيله إلى البنوك (آلت إلى البنك الأهلى ملكية مول الأمير وقد تؤول إليه ملكية أركاديا مول) وإلى الذين «اشتروا» محلات ولم يكتفوا بالتأجير؟ هل يعالج الملاك الموقف بانتظار أن يرتفع ثمن الأرض فيبيعونها أرضا بالإضافة إلى التفكير فى تغيير النشاط ؟ وما جدوى «دراسات الجدوى» التى أجريت لتلك المشاريع؟



لم تقدم لنا الباحثة إجابة محددة حول سبب احتضار المولات وقدمت محاولتها للإجابة فى صورة تساؤلات حول الأزمة الاقتصادية والموقع الخ. لكننا لا نفهم مثلا لماذا يعيش «مول طلعت حرب» ويموت «مول البستان»، أو يعيش «أركاديا مول» ويموت مركز التجارة العالمى وهم فى مواقع متجاورة أو متقاربة جدا ويقومون فى ظل نفس الظروف الاقتصادية العامة. ولأفعل كما فعلت الكاتبة فأتساءل بدورى هل لصعود المول أو سقوطه «عنصر نفسى» كذلك الذى تشهده أسهم البورصات بحيث ينشىء شروع واحد أو أكثر فى الهرب حالة من الهروب الجماعى؟

أشارت الكاتبة إلى أن مول الأمير فى حى شبرا لم يستطع أن ينافس «اقتصاد الرصيف» الأرخص بكثير فى الشوارع المجاورة فى ذلك الحى الشعبى، بحيث قد يفسر الموقع من حيث غلاء أسعار المولات أو معقوليتها مقارنة بالأحياء التى توجد فيها جانبا من النجاح أو الفشل. ففشل مول الأمير فى منافسة «اقتصاد الرصيف»، يقابله -حتى الآن- النجاح النسبى «للفرست مول» بأسعاره المرتفعة لوجوده فى منطقة غير شعبية (عزت الباحثة فشل مول اليمامة الموجود فى الزمالك إلى الذوق الذى لا يناسب معظم سكان هذا الحى)، وتنجح مولات مدينة نصر أكثر من غيرها للقوة الشرائية المرتفعة لغالبية سكان هذا الحى الذى يتميز بكثرة العائدين من سكانه من العمل فى بلاد النفط.

مدينة، مدينتان، أم مدن؟

إذا كان Robert FISHMAN قد تنبأ باتجاه عام لمستقبل المدن الحديثة تتميز المناطق الحضرية فيه باللامركزية (الكتاب ص٢٨)، فإن هذا بالفعل ما نلحظه فى المشهد الجديد لتحول حضرى مختلف عن ماض كانت فيه للمدينة أحياؤها السكنية الراقية يخدمها «وسط واضح للمدينة» تجاريا وترفيهيا centre ville خلق ثنائية مع المدينة التقليدية القديمة بأحيائها ومتاجرها. فلم يعد هناك الآن «واسطة عقد» تجارية للمدينة فلكل حى على نحو ما «مركزه التجارى» الخاص به ومولاته فى المعادى ومدينة نصر وغيرها، كما لم يعد هناك «مدينة قديمة تقليدية» واحدة بل عدة عشوائيات «حضرية» تختلف حتى عما كان يوصف «بريف المدينة» القديم الواقع على تخومها، بحيث يتلاصق الفقر والعشوائيات ويتجاوران مع آخر صيحات المولات البراقة والواجهات الزجاجية والمعدنية والطرق الالتفافية.

فى هذا السياق تلاحظ الباحثة تركز أكبر عدد من المولات فى اثنين من أحياء مدينة القاهرة هما بولاق- كورنيش النيل (شمال القاهرة) ومدينة نصر (شرقيها) وتلاحظ فى الوقت نفسه ملاصقة هذين الحيين لبعض أكبر تجمعات العشوائيات (الأحياء غير المخططة عمرانيا بشكل رسمى) فى

العاصمة وهى عزبة العرب وعزبة الهجانة وعزبة نصار ومنشية ناصر فى حالة مدينة نصر، والإسكان العشوائى فى تخوم حى بولاق المتداعى ذى التاريخ العريق.

هنا تبرز الكاتبة كيف أن لفظ «العزبة» (كعنوان على الفقر) قد تغير مدلوله الريفى القديم إلى مدلول مدينى، وإذا كان فيلم «حين ميسرة» قد لاقى نجاحا كبيرا (وإن جاء صادما لكثرة من رواد السينما ممن هم فى عداد الطبقة الوسطى)، فقد سبقت الكاتبة الفيلم إلى الإشارة إلى ما أصبحت كلمة «العشوائيات» تدل عليه فى الخطاب الرسمى من «فوضى السلوك والعلاقات و«لا تحضرها»(ص٢٤٤)».

وتقارن الدراسة بين حيين بنى كلاهما على تخوم الصحراء فى عهدين مختلفين: هليوبوليس باعتبارها نموذجا للخيال الكولونيالى الكوزموبوليتانى فى مرحلة أوائل القرن العشرين، «مدينة» نصر باعتبارها فخر إنجاز الحقبة الناصرية. وعلى حين انتشرت مع هليوبوليس الطرز المعمارية المتنوعة من بوذية إلى تنويعات على الطرز الإسلامية إلى طراز الأرديكو الغربى، فقد جاء طراز مدينة نصر كتنويعة رخيصة على طراز «البوهاوس» Bauhaus بما فيه من تجريد ونبذ لمختلف الإضافات المعمارية التجميلية.

وهنا تلاحظ المؤلفة أن «أحياء» مدينة نصر التى نشأت الواحدة تلو الأخرى تتميز بغياب مركز أو «قلب» لهذه المدينة الأمر الذى لا يبدو وكأنه يضايق سكانها الذين تعود الكثير منهم على هذا النمط «الشبكى» شبه الصحراوى من الشوارع الطويلة جدا والواسعة(العقاد، النحاس،الطيران).

أحـــيــاء ومــهـــن:

استلفت الباحثة فى حالة مينة نصر تركز المبانى المرتبطة بالجيش فى هذا الحى سواء كانت تلك المبانى مشروعات سكنية مدعمة سكنتها عائلات لأفراد من الجيش أو أعادت بيعها أو كانت تلك المبانى مؤسسية عائدة لأجهزة الجيش المختلفة مثل «القيادة المركزية للجيش والفنية العسكرية ووزارة الدفاع وأندية الضباط من مختلف الأفرع مثل المدرعات والمدفعية، ومباحث أمن الدولة



التى انتقلت من ميدان لاظوغلى (اعتبرته الكاتبة مبنى «عسكرى»)، والمصانع الحربية، والمتحف العسكرى ومستشفى عسكرى.. وبعض الفنادق»(ص٢٦٣).

وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أن تركز أفراد الجيش فى حى سكنى معين من أحياء القاهرة ليس بالظاهرة الجديدة تماما، فقد أظهرت دراسات سابقة ما شهده حى «العباسية» - حتى ثلاثينيات القرن العشرين حين بدأ قدر من الخروج من هذا الحى- من تركز سكنى لفئة الضباط إلى جانب تجار خان الخليلى والجمالية والحسين وملاك الأراضى الزراعية الذين تركوا سكنى الريف، وربما كان الجديد حاليا هو ما يشهده حى مدينة نصر من تركز للمبانى المؤسسية العسكرية وليست المبانى السكنية فحسب.



ويمكن تفسير هذا بأن الكثير من الأراضى التى تمتد من طريق صلاح سالم حتى مدينة نصر كانت فى السابق معسكرات للجيش قبل الامتداد السكانى لمدينة القاهرة وعندما انتقلت المعسكرات إلى خارج القاهرة تم استخدام هذه الأراضى على الوجه الذى سبق بيانه كما أن انتقال عدد من ضباط الجيش إلى حى العباسية حتى ثلاثينيات القرن الماضى كان بسبب قرب الحى من المعسكرات فى ذلك الوقت.

ولم يكن حى مدينة نصر وحده الذى شهد تركزا لفئة مهنية بعينها،«فمدينة المهندسين» التى خطط لها فى الخمسينيات وشرع فى بنائها فى أوائل الستينيات لإسكان المهندسين الذين نيط بهم بناء السد العالى وتوفير الكهرباء وإعطاء دفعة للصناعة والرى، تضمنت أقساما حملت أسماء مدينة الضباط، ومدينة الإعلاميين، والصحفيين،والأطباء وإن كانت فيلاته الصغيرة الأكثر تواضعا من فيلات العصر السابق قد مثلت تنويعا أكثر جمالا من طراز البوهاوس العملى الذى ميز عمارة الحقبة الناصرية.

٣-«تعقيم» بعض المناطق وتحويلها إلى أغراض سياحية وتجارية مع محاولة تغيير أو رفع مستواها الاجتماعى: فهنالك العملية التى تطلق عليها الكاتبة تعبير الـ gentrification (رفع مستوى) بعض الأحياء القديمة موردة مثال الجزء المطل على النيل من حى بولاق القديم لكن ذلك يأتى على حساب السكان الذين أخلى بعضهم من مساكنه كما أعيد توطين «ورش» الحى الصغيرة فى مناطق أخرى، وبيعت الأرض إلى المستثمرين بأسعار منخفضة كونها تقع «فى حى شعبى» حيث تم تجميل الأحياء القديمة بدهانها مع الإبقاء على سوء حالة مرافقها (٢٤٧) الأمر الذى يذكرنى بمقولة للاقتصادى د. محمود عبد الفضيل حول «الفقر الملون». وتبرز الدراسة معاناة سكان بعض هذه المناطق من عدم الأمان لتخوفهم من الإخلاء قسرا ومن شح فى المياه والكهرباء أحيانا والتى تستأثر المولات والمنشآت السياحية والتجارية بنصيب ضخم منها، حيث شهد نيل بولاق على سبيل المثال إنشاء فندق الكونراد وبرجى التجارة ومولات أركاديا ومركز التجارة ونايل ستارز، حيث ارتبط إقامة المولات بالأسماء الكبيرة فى عالم رجال الأعمال: عائلة صبور: أركاديا مول، عائلة سويرس: مركز التجارة العالمى وبرجى النيل، (عائلة عزمى المالكة لـ٩٠ بالمائة من المعادى جراند مول أقل شهرة)، بالإضافة إلى رأس المال السعودى فى حالات مولات اليمامة (الأمير بندر بن سلطان) وسيتى ستارز (الشربتلى والشبوكشى) ورأس المال الإماراتى فى حالة كارفور(ماجد الفطيم).

كما يمكن لنا رصد عدد آخر من التحولات:

من الداخل إلى الخارج وبالعكس:

أود أن أشير هنا إلى ما نوهت إليه د.منى أباظة من تحول «المحبين» من اللقاء فى الحدائق العامة كحديقة الحيوانات وحديقة الأسماك وغيرها مما كنا نراه فى أفلام الخمسينيات وأوائل الستينيات إلى التجول فى المولات، فقد ذكرنى ذلك بما أوردته فى دراستى للطبقة العليا المصرية فى أساليب حياتها وتطوراتها الطبقية، بشأن عصر «ازدهار الفاراندا» منذ بواكير القرن العشرين وما حدث من تغير اجتماعى تبدى فى إطلال «الفاراندا» على الخارج بعد أن كانت شرفات البيوت الإسلامية تطل على صحنها الداخلى بشجيراته وزروع زينته القليلة، ثم كيف توارى عصر الفاراندا بعد ذلك خلف ستار الزحام والتلوث والضوضاء فانتشر «إغلاق» الفارندات بالألومينيوم لعزلها عن الشارع وربما لكسب بضعة أمتار إضافية إلى مساحة البيت «الداخلية».

أى أن الاتجاه فى الواقع يتمثل الآن فى العودة من الخارج إلى الداخل مجددا ولكن بشكل مغاير وربما عكسى. فبينما كان «الداخل» قديما يرمز إلى الخصوصية فإن ما يرمز إليه الداخل- الخاص بالمولات على سبيل المثال- فهو تحويل «الخارج» أو المجال العام المشترك «public space» إلى «داخل» بما يسبغه عليه رفع الأسوار حوله من درجة من درجات الخصوصية.

٥- المزيد من المقرطة المكانية؟ وفى مجال المقارنة التاريخية فقد رصدت دراستى خلال النصف الأول من القرن العشرين نوعا من الفصل الطبقى المتزايد فى داخل أنواع ثلاثة من «المجالات المكانية» spaces المتميزة هى السكنية، والتجارية والترفيهية leisure ويتباين بوضوح ما رصدته فى المجال التجارى من تبضع الطبقات الموسرة فى المحلات الكبرى les grand magazines أو department stores وبقاء الطبقات الشعبية فى أسواقها ودكاكينها مع ما تظهره نتائج دراسة د. منى أباظة خلال النصف الثانى من القرن من كون المول نقطة للتقاطع الطبقى، رغم ما هنالك من تفاوت فى مستويات المولات ومرتاديها.

فعلى الرغم من الجهد المبذول فى اجتذاب المتبضعين الميسورين وإبعاد

«الدهماء» عنها، تلفت الباحثة إلى ما هنالك من مفارقة فى ارتباط نجاة المولات من الموت بكونها مطروقة من جانب الطبقات الشعبية ولو «للفرجة» والأكل فيما قد يوجد فيها من مطاعم رخيصة مما يشير إلى ارتباط المول بدرجة أعلى من «المقرطة» مقارنة «باقتصار الثقافة الكولونيالية الكوزموبوليتانية على القلة السعيدة، واقتصار النزعة الاستهلاكية فى العهد الناصرى على خدمة الطبقات الوسطى الصاعدة وعدم مشاركة الفلاحين.. فى الثقافة الاستهلاكية إلا فى عصر الانفتاح من خلال الهجرة» (ص٢٨٨).

وفى حين تشير الكاتبة أن دخول منطقة وسط البلد قديما كان فى حد ذاته مقصورا فى السابق على حد رواية أحد مصادرها على غير الحفاة مما منع أعدادا غفيرة من الطبقات الشعبية من ارتياد محالها، فإن اختفاء ظاهرة الحفاء (حتى بين الفقراء) والتغير العام فى نمط الملبس موه إلى حد كبير من حدة تلك التمايزات.

وأسارع فأقول أنه إذا كانت تلك التمايزات قد موهت فى المجال التجارى، فإن المجالين السكنى والترفيهى قد شهدا تفاقما فى حدة تلك التمايزات تبدى فى «رفع الأسوار» الفعلية المادية بين الطبقات فى الكومباوندات السكنية والتصييفية التى تستحق تناولا مستقلا.



وفى نفس السياق، فإزاء ما يشير إليه الكتاب من أنه - وعبر عملية «الكوزموبوليتانية - تميز أسلوب حياة الطبقة العليا بوجود الفيلات سكنيا، و«بيوت الأقسام» أو department stores تجاريا، ومدارس الإرساليات (خصوصا للبنات) تعليميا، والنوادى الرياضية ورياضات البولو والكريكيت وسباق الخيل ترفيهيا، يثور التساؤل عما أتت به العولمة لهذه الطبقة من جديد؟ يحتاج الأمر إلى دراسة مستقلة ويمكننا إلى ذلك الحين الإشارة فى عجالة إلى ملاعب الجولف (قلة من هذه الطبقة يبدو أنها تستخدمها بالفعل)، والمدارس «الدولية» والجامعات الخاصة والأجنبية و«الكومباوند» أو الـgated communities والخادمات الآسيويات والأفريقيات، والنوادى الاجتماعية الجديدة كنادى العاصمة نادى جاردن سيتى (سميح ساويرس وعمر مهنى).

وفى الخلاصة، فإنه من حيث ربط الجزئى بالكلى والعام بالخاص وأساليب حياة الأفراد والمجتمعات بالتطورات السياسية العريضة للمجتمع تخلص الدراسة إلى ارتباط التحديث الناصرى بأسلوب البوهاوس فى العمارة والأثاث، واستمرار أساليب حياة الطبقات العليا أو المتوسطة العليا السابقة على قيام الثورة تقريبا على ما كانت عليه إلى ما بعد التأميمات الاشتراكية فى عام ١٩٦٢، حيث لم تر الباحثة فى التحول من رأسمالية الدولة إلى سياسة الانفتاح الاقتصادى فى حقبة السبعينيات انقطاعا بل تغيرا فى نمط استمرار ما سبقه من تحالفات خلال الستينيات بين البرجوازية القديمة والبرجوازية الصغيرة الصاعدة فى العهد الناصرى وإن جاءت تلك الحقبة رمزا على استبدال المشروع العام لبناء الدولة بعد الهزيمة بالمشروع الخاص للخلاص الدينى والهجرة للخليج والتى حرمت الطبقة العليا القديمة مما استمرت فى السابق تتمتع به من عمالة رخيصة. وفى مقابل استراتيجيات البقاء للطبقات القديمة وحليفتها البيروقراطية الصاعدة، جاء التغيير عبر القادمين الجدد الذين ارتبط صعودهم بما تبلور خلال التسعينيات سياسات نيوليبرالية حديثة كانوا هم سادتها tycoons تميز عهدهم بالمضاربات المالية و«تصقيع» الأراضى وتطويرها(وهم شخصيات جديدة غير «القطط السمان» للعهد الساداتى..) تجد الكاتبة أن مفهومهم «للتنمية» هو المزيد والمزيد من الاستهلاك(بناء مولات، فنادق، منتجعات سياحية) مع عدم إيلاء أى اهتمام سواء منهم أو من الدولة للقطاعات الإنتاجية(ص٢٥).

وختاما، أستعيد هنا ما أوردته الكاتبة نقلا عن Zygmunt BAUMAN حول التفرقة بين أسلوبين للحياة أحدهما «معيارى» normative مبنى على الإنتاج، وآخر ظرفى سائل fluid مبنى على الاستهلاك كل شىء فيه يتم التخلص منه بعد استخدام قصير (diposable) بدءا من السلع مرورا بالعلاقات الإنسانية وانتهاء بقوة العمل (ص١٠) وهو أسلوب حياة تخشى المؤلفة أن يكون قد أصبح له اليد العليا فى مجتمعات من العالم الثالث منها مجتمعنا. ■

كتاب الزاوية



محمود محمد شاكر

رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا

هو شيخ العربية وإمام المحققين. عاش حياته مدافعًا وحارسًا لثقافة الأمة من خلال فك رموز وقراءة طلاسم كتب التراث التى حققها والمؤلفات الأخرى التى وضعها والتى استندت إلى ثقافة واسعة وعلم غزير.

ولد العلامة الشيخ محمود محمد شاكر «أبو فهر» عام ١٩٠٩ لأسرة من أشراف جرجا بصعيد مصر. وكان أبوه من علماء الإسكندرية وتولى منصب وكيل الأزهر لمدة ٥ سنوات وأخوه العلامة أحمد شاكر أحد كبار محدثى العصر. التحق بكلية الآداب لدراسة اللغة العربية عام ١٩٢٦ لكنه حين استمع لمحاضرات الدكتور طه حسين عن الشعر الجاهلى والتى قال فيها إن غالبية الشعر الجاهلى منتحل وإنما ابتدعه الرواة فى العصر الإسلامى، قرر أن يترك الجامعة وسافر إلى الحجاز عام ١٩٢٨ حيث أنشأ مدرسة ابتدائية إلا أنه عاد بعد عام واحد ثم قرر الرد على طه حسين فأصدر كتاب «المتنبى» عام ١٩٣٦ وكان فتحًا جديدًا وتحديًا لأدباء عصره. وواصل محمود شاكر دراساته وعزلته ورسخت مكانته وعقد ندواته الفكرية فى بيته وكان يحضرها أجيال من الدارسين من العالم الإسلامى. ودخل أبو فهر فى الستينيات معركة ثقافية حادة مع الدكتور لويس عوض حول المعرى أظهر خلالها ثقافته الموسوعية ونتج عنها كتابه الشهير «أباطيل وأسمار» وهو من كبار محققى التراث ومن أشهرها تفسير الطبرى وطبقات فحول الشعراء وتهذيب الآثار للطبرى. ولبى نداء ربه فى ٦ أغسطس ١٩٩٧. واختارت «وجهات نظر» مقتطفات من كتابه «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» من إصدار مكتبة الخانجى بالقاهرة. الطبعة الثانية ٢٠٠٦.

عائد من رام الله



السائق محمود!!



مريد البرغوثى

■■ ها نحن نصل سالمين إلى أريحا كما وعد. ما زلت لا أستوعب كيف تمكنا من ذلك. ربما هو الحظ، أو الهواتف النقالة أو دهاء القرويين والرعاة، أو ربما، وهذا هو الأرجح، أن القدر لم يسمح بعد للفلسطينيين أن يموتوا بسبب حوادث الطرق، لكن ما يشغل بالى فى الحقيقة هو السائق محمود.

أقف بانتظاره تحت مظلة باب الفندق فى رام الله. يصل فى موعده تقريباً. هذا ليس غريباً على «سفريات درويش» المعروفة بالدقة. يترك محرك التاكسى دائراً وينزل تحت المطر الخفيف باتجاهى:

- السيد برغوثى؟

يتناول حقيبة السفر الصغيرة عن الأرض (حقيبتى دائماً صغيرة هنا بسبب الحواجز) يسرع ليخترع لها مكاناً فى صندوق السيارة. جيد أنه لم يحملها على ظهر السيارة كالحقائب الأخرى، وجيد أنه جمع ركابه الستة أولاً، لن نضيع وقتاً آخر فى البحث عن عناوينهم فى تلال رام الله ومنخفضاتها، أجلس فى السيارة الصفراء. أقول لنفسى هذه بداية طيبة لليوم.

ينطلق بنا إلى أريحا دون أن ينطق بكلمة، كأنه يخفى سراً ويبحث عن توقيت مناسب لإفشائه. واضح أنه قرر تجنب «حاجز قلنديا». ماسحات الزجاج لا تجدى نفعاً فى إزاحة وطأة الضباب الذى اتخذ لون التوتياء، وتخسر سباقها مع المطر الآخذ فى الاشتداد. السيارات قليلة فى الشارع والمارة أقل.

نخرج من حدود رام الله.

يبدو كل شىء عادياً إلى أن يتلقى مكالمة على هاتفه النقال، ينهيها فى ثوان، ثم يزيد سرعته بشكل ملحوظ. بعد بضعة كيلومترات يخرج عن الطريق العام. يدخل قرية أراها للمرة الأولى، لا أعرف اسمها، وأخجل أن أسأل، ينحنى شارعها الوحيد الضيق ثم يتعرج بين البيوت قبل أن نخرج منه ثانية إلى الشارع الرئيسى المرصوف.

- صباح الخير عليكم جميعاً، اسمى محمود، هذه آخر سيارة إلى الجسر اليوم، إسرائيل أبلغت الدبلوماسيين الأجانب أن الاجتياح سيتم الليلة أو غداً وطلبت منهم أن يدبروا أنفسهم. أولاد الحرام، المهم عندهم الأجانب، كأننا لسنا بشراً. الجيش مستنفر، الطرق أغلقت دون إنذار، الحواجز الطيارة فى كل مكان. الطقس سيئ كما ترون، لكن لابد أن نصل الجسر بعون الله. قهوة؟ صب للجميع يا حاج، كبير القوم خادمهم.

لا يبدو على الركاب اضطراب استثنائى من خبر الاجتياح الإسرائيلى الوشيك الذى أعلنه محمود، بل إن الراكب البدين الجالس أمامى فى المقعد الأوسط علق متهكماً:

- كأن الفيلم ناقصه «أكشن»! يقتلوننا «بالفرد» يومياً، وبين فترة وأخرى يشتاقون لقتلنا «بالجملة»، المهم أنهم اجتاحونا مائة مرة بلا فائدة، أفلسوا. و«اللى بيجرب المجرب عقله مخرب». ما عندهم إلا الطخ والقتل.

وقال جاره:

- مسخرة! من ير اجتياحاتهم لقرانا ومخيماتنا يحسبهم خارجين لغزو الصين! مع أنه بإمكانهم اعتقال أى واحد منا أو ترحيله خارج البلاد أو حبسه أو قتله بلا دبابات وبلا مدرعات وبلا إف ١٦ حتى ياسر عرفات ذاته. مين بده يمنعهم؟

سكت لحظة ثم قال:

- تعودنا على قلة هداه البال يا عمى، يا الله...ما الذى سيصيبنا أكثر مما نحن فيه؟

أنا الذى ابتعدت ثلاثين سنة عن هؤلاء الناس من أبناء بلدى وعن تفاصيل حياتهم اليومية لا أستطيع أن أستخف بخطط شخص مرعب كشارون لاجتياح مدننا وقرانا بينما هم أنفسهم، أبناء هذه المدن والقرى الذين لم تقصهم المنافى، يحولون الأمر إلى مادة للتندر. هل هو التعود؟ أم هى المكابرة؟ أم هى الثقة التى تراكمها ثقافة الإقامة فى التفاصيل؟ أم هو فعل المقاومة الذى يجسدونه بمجرد بقائهم المادى فى المكان؟

قررت أنا الآخر أن أقنع نفسى أن الأمر عادى. لم أتبرع بإبداء قلقى وجزعى مما سيفعله مهندس مجزرة صبرا وشاتيلا عندما يطلق دباباته فى شوارعنا غداً أو بعد غد.

يتناول السائق من تحت قدميه ترمس قهوة، يعطيه للشيخ الراكب بجواره ويزوده بعامود من أكواب من البلاستيك الصغيرة.

مع سكب الكوب الأول تتسابق رائحة القهوة مع رائحة الهال سباقاً ماكراً، يصل الهال أولاً بالطبع.

- الله يهدها على شارون يا رب، تفضل يا بنى، انتبه، سخنة جداً، أعط الحاجة، تفضلوا.

يصلنى الكوب من يد الفتاة الجالسة أمامى فى المقعد الأوسط، ألمسه بحرص، أنظر إليه، أرفعه إلى شفتى وأرشف رشفة أولى. هذه قهوة. ربما ينقصها فنجان أنيق لتغدو قهوة أخرى، لكنها قهوة فى وقتها تماماً. يختلف الناس فى سر القهوة وتختلف آراؤهم: الرائحة، اللون، المذاق، القوام، الخلطة، الهال، شكل الفنجان، وغير ذلك من الصفات. أما أنا فأرى أنه «التوقيت». أعظم ما فى القهوة «التوقيت»، أن تجدها فى يدك فور أن تتمناها. فمن أجمل أناقات العيش تلك اللحظة التى يتحول فيها «ترف» صغير إلى «ضرورة».

والقهوة يجب أن يقدمها لك شخص ما. القهوة كالورد، فالورد يقدمه لك سواك، ولا أحد يقدم ورداً لنفسه. وإن أعددتها لنفسك فأنت لحظتها فى عزلة حرة بلا عاشق أو عزيز، غريب فى مكانك. وإن كان هذا اختياراً فأنت تدفع ثمن حريتك، وإن كان اضطراراً فأنت فى حاجة إلى جرس الباب.

والقهوة ألوانها مذاقات وأذواق، الشقراء والغامقة والمحروقة والوسط، ومن ملامح من يقدمها لك وظروف تقديمها تكتسب معانيها المختلفة. فقهوة التعارف الأول غير قهوة الصلح بعد الخصومة وغير قهوة يرفض الضيف احتساءها قبل تلبية طلبه، وقهوة العرس غير قهوة العزاء، وقهوة المنهمك فى الكتابة غير قهوة المستغرق فى القراءة، وهى فى السفر غيرها فى الإقامة، وفى الفندق غيرها فى البيت، وقهوة الموقد

النص الكامل يصدر قريبا فى كتاب



غير قهوة الآلة. وهى من وَجْه مَرِح مليح فى المقهى غيرها من وجهٍ متجهم منكود. وإن قال لك زائر الفجر وهو ينتزعك من عائلتك ويقتادك بلطف مصطنع وابتسامة مسلّحة، نريدك على فنجان قهوة «عندنا»، فهذا أحد أنواع الخطف أو القتل.

يجىء عرض محمود بتقديم القهوة فى وقته، فيُشيع فىَّ، مع المطر النشيط فى الخارج، بهجةً تتنافى مع الأخبار السيئة.

- لكن بلاش التدخين الله يرضى عليكم، كلها ساعة ونصل.

- أى ساعة يا حاج؟ قل ساعتين، ثلاث ساعات، أربع ساعات، يقول لك الأخ قد نصل وقد لا نصل.

ابتسم محمود وهو يصحح العبارة واثقاً:

- أنا قلت لا بد أن نصل.



وُلِدَ فى العشرينيات الأولى من عمره، عيناه الصغيرتان تجمعان السواد والبريق معاً، واثق كمصباح جديد، متحفز كمحام باغتته فكرة. حاسم الصوت بلا غلظة، نحيل حتى فى ملابسه الشتائية، ملامحه جادة لكنها مرتاحة ومريحة، مطمَئنةٌ ومطمْئنَة، ورغم صغر سنه يقود السيارة باكتراث المحترفين القدامى، الذى يشبه عدم الاكتراث.

بينى وبين السيدة المنقّبة فى المقعد الخلفى يجلس فتى حزين، أقول لنفسى لا بد أن وراءه قصة. كل واحد فى هذه الدنيا وراءه قصة، وأنا الذى لا أحب لأحد أن يسألنى «مالك؟» لا أسأله، لكنى فى التفاتة عابرة نحوه، أجده يبتسم ابتسامة خبيثة فتقودنى عيناه إلى منظر عجيب، السيدة المنقبة ترفع بيدها اليسرى طرف برقعها وتمطه إلى الأمام، مكونة بحركتها خرطوماً طويلاً من القماش الأسود السميك، تحته نفق سرى يتيح ليدها اليمنى أن تدس كوب القهوة من خلاله إلى فمها بسرعة مدروسة تنم عن خبرة فى هذا المجال، ثم تسدل القماش ثانية لتغلق النفق الغذائى، بنفس السرعة، قبل أن يتمكن أحد من رؤية ما تخفى.

أتشاغل عن المنظر رغم جدته بالنسبة لى، فلم يسبق لى فى الغربة أن رأيت منقّبة تتناول مشروباً أو طعاماً فى مكان عام. لكنى أسرق نظرة ثانية، فأجدها تعيد فتح نفقها الإجبارى، تدسّ فيه كوب القهوة بالحذر المدروس ذاته، وتتناول رشفة أخرى. يبدو الأمر روتينياً بالنسبة لها.

فى المقاعد الثلاثة الوسطى تجلس البنت الشابة ولا أرى منها إلا شعرها المعقود كذيل حصان وأذنيها الصغيرتين بلا أقراط، ورَجُلان لا بد أن أحدهما قصير القامة جداً، لأن حطته وعقاله غائصان فى المقعد، أتخيله ولا أراه، والثانى هو الرجل البدين المرح. قبل أن يقدم القهوة لجاره الغائص يقول لمحمود مداعباً:

- صاحبنا «خليلى». أعطيه قهوة؟

كلنا نضحك، حتى السيدة ذات النقاب فقد ضحكت عيناها بصوت عالٍ.

أقول لنفسى إذا فتح باب النكت على الخلايلة لن يغلق. يبدو أن محمود يريد التحريض على المزيد منها فقال:

- ما لهم الخلايلة؟

ثم أضاف مقلداً اللهجة المصرية:

- الخلايلة أجدع ناس، والخليل بلد الرجال والله

- انت خليلى يا أخ محمود؟

- كنت، وتعالجت.

يضحك الخليلى بصوت عال ونحن نضحك معه مرة أخرى،

أضاف محمود جاداً هذه المرَّة:

- أنا من مخيم الأمعرى

- والنِّعم. أجدع ناس

يتندر المصريون على أهل الصعيد، والسوريون على أهل حمص، والأردنيون على أهل الطفيلة، واللبنانيون على «أبو العبد»، والعنوان الدائم للتندر هو السذاجة أو القشر. الفلسطينيون يتندرون على أهل الخليل، والعنوان الدائم للتندر هو «يباس الرأس».

يسأل الناس عادة عن آخر نكتة، لكن محمود سأل الراكب الخليلى سؤالاً غريباً فعلاً عن أول نكتة أطلقت ضد الخلايلة.

قال الخليلى الغائص فى مقعده:

- والله لا أعرف لكن جدى مثلاً كان يروى عن الخليلى الذى وقع من الطابق السابع ولم يمت وقام صحيحاً معافى. قال له أحدهم «أعطيك مائة دينار واعملها مرة ثانية»، فرفض الخليلى قائلاً: «ومن يضمن لى أن أسقط على رأسى مرّة ثانية»؟

سأل محمود:

- وما هى أقسى أو أسوأ نكتة بالنسبة لأهل الخليل، أقصد النكتة التى لم تستطيعوا تقبلها؟

- لما المستوطن باروخ جولدشتاين أطلق النار على المصلين فى الحرم الابراهيمى فى الخليل وقتل ٢٩ خليلياً قال واحد بعد عدة أيام من المجزرة، «كان من الممكن أن يكون عدد الضحايا أكثر بكثير لو أن باروخ لم يصوِّب على رؤوسهم».

لم أكن قد سمعت بهذه النكتة من قبل رغم أن مجزرة الحرم الابراهيمى وقعت عام ١٩٩٤، لم أضحك. المجازر لفرط ما تكررت أصبحت موضع تندر ضحاياها. الضحية تسخر من المها تسامياً عليه واحتمالاً له. وفى هذا الصراع غير المتكافئ بين الفلسطينى الأعزل وجبروت الاحتلال المسلح بأحدث أسلحة العصر، يكره الفلسطينى أن يبدو مثيراً للشفقة. يتسلح بالضحك، والسخرية حتى من الذات، والتهكم على مأساته المتكررة دون ضوء فى آخر الاحتلال. لم تعد السجون وأوامر منع التجول والإغلاقات المتكررة والاجتياحات مادة للشكوى المأساوية بين الناس. وأنا أحار فيما إذا كان التعود ضعفاً أم قوة. فإذا كان تعود الظلم والقهر ملمحاً من ملامح العبودية واليأس، فإنه فى حالة وثوق صاحب الحق من حقه، يصبح كظْماً للغيظ ومراكمة لعناصر قوةٍ خفية. من علامات قوة المقهور السخريةُ من الأقوى، والاستعداد الصامت للرد فى وقت ما، حتى وإن طال. أثناء هذا الصبر يمارس المقهور شهوة الحياة بكل الحواس. ولا أكذبَ ممن يقول لك إن المقهور لا يفعل شيئاً بحياته وفى حياته إلا مقاومة القهر. المقهور يتشبث بأصغر المباهج المتاحة ولا يترك فرصة للحب والمرح واللعب ولهو الجسد ولهو الروح والظفر بالشهوات الغامضة والواضحة مهما عزّ عليه منالها ومهما صعب إليها السَّبيل.

> **جدى مثلاً كان يروى عن الخليلى الذى وقع من الطابق السابع وقام صحيحاً معافى. قال له أحدهم «أعطيك مائة دينار واعملها مرة ثانية»، فرفض قائلاً: «ومن يضمن لى أن أسقط على رأسى مرة ثانية»؟**

المحتل والسجين والمظلوم والمقموع والمغلوب على أمره يفكر أولاً بالمقاومة ويفكر أولاً أيضاً بالراحة والمسرة.

طربتُ لحكاية جميلة فعلاً رواها لى فى زيارة سابقة شاعرٌ شاب التقيته فى مكتبة الشروق فى رام الله، عن فرحه العظيم عندما أعلنت مكبرات الصوت فجأة أمراً من الجيش الإسرائيلى بإغلاق بلدته إغلاقاً تاماً ومنع الدخول إليها أو الخروج منها، وأنه كان، فى سره، ممتناً أعظم الامتنان للجيش ويكاد يرقص فرحاً تلك الليلة، لأن الفتاة التى يحبها كانت فى زيارة لأسرته وهى ستضطر لقضاء الليل كله عندهم بسبب الإغلاق ومنع التجول، دون أن تخشى اللوم من والديها. وعندما رفع منع التجول وفتحت الحواجز فى اليوم التالى ابتهجت القرية وابتأس صديقى العاشق.

رغم ذلك أتمنى أن لا يستمر الخليلى فى رواية النكت. تضحكنى الطرفة التى تولد تلقائياً فى سياق الحديث لأنها تدل على خفة الدم وسرعة البديهة أكثر من النكت المحفوظة. على أى حال ها هو يتوقف لحسن الحظ، ويسكت طوال الطريق.

تتسلق السيارة مرتفعاً خفيفاً ثم تستوى على الشارع المعبّد. أفكر فى تبادل الحديث مع الشاب الحزين بجوارى وأعدل عن الفكرة بسرعة.

السائق محمود يبدو مرتاحاً الآن على الشارع السلس، يبحث فى أزرار راديو السيارة، فجأة، يغلق الراديو ويلتقط هاتف النقال:

- طيب طيب شكراً

يخفف السرعة دون أن يشرح لنا شيئاً. ينظر يميناً ويساراً قبل أن يهبط عن الشارع إلى حقل مجاور ثم يستدير إلى الخلف. لم تدم متعة الأسفلت أكثر من بضع دقائق. يقطع مسافة قصيرة أخرى، ويشرح لنا الأمر.

- أفلتنا من حاجز طيار. لماذا تعبس يا حاج؟ تفاءلوا بالخير تجدوه. لكل شىء حل.

- كله على الله يا ولدى.

- هل سترجعنا إلى رام الله؟ أنا طيارتى الليلة وإذا ضاعت على سأفقد المنحة وتضيع علىّ الجامعة.

يقول الفتى الجالس بجوارى بصوت مهذب، كأنه



السائق محمود

يحدث نفسه رغم أنه يضع يده على كتف السائق ويستعد لسماع ما يطمئنه.

السائق يجيبه بصوت أبوي رغم تقاربهما فى العمر:

- أنا عمرى ما رجعت راكب مهما صار. بس ساعدونى إذا لزم الأمر. هذا كل ما أريده منكم. لا تخافوا. اضحك يا عمى وهون عليك. بدهم ايانا مشلولين ومرعوبين. هم مش عارفين إنا تعودنا. وانت يا صاحبى طيارتك لن تطير بدونك. أنا عمرى ما رجعت راكب. اتكلوا على الله وعلى. إن شالله كله خير.

بعد دقائق يخرج مرة أخرى إلى طريق ترابى.

صمته مستمر.



لا أعرف هذه الطرق التى يسلكها، ليس فقط لشحوب ذاكرتى الجغرافية فى سنوات المنفى فالحقيقة الحزينة المؤكدة فى كهولتى الآن هى أننى لم أعد أعرف جغرافية بلادى، لكن السيارة فى الحقيقة تخوض فى الخلاء ولا علامة لوجود شوارع معبدة أو إشارات مرور أو بشر على مرمى العين. إنها تسير فى الحقول، ولا أدرى كيف سيقودنا هذا إلى أريحا. رُقع مائية وحصى ونباتات برية متناثرة فى ضباب أخذ يخف تدريجيا.

على مرمى البصر أشجار زيتون ضخمة مُقتَلَعة من قراميها، ملقاة كجثث مُهانة فى العراء. أقول هذه الأشجار قتلى، وهذه البرية قبرها الجماعى المفتوح. وراء كل شجرة زيتون تقتلعها الجرافات الإسرائيلية ثمة شجرة أنساب رمزية لعائلات من الفلاحين الفلسطينيين تسقط عن الحائط. الزيتون فى فلسطين ليس مجرد ملكية زراعية، إنه كرامة الناس، هو نشرة أخبارهم الشفهية، حديث مضافاتهم فى ليالى السمر، بَنْكُهم المركزى ساعة حساب الربح والخسارة، نجم موائدهم، ورفيق لقمتهم وهو بطاقة الهوية التى لا تحتاج أختاما ولا صورا ولا تنتهى صلاحيتها بموت صاحبها، تظل تدل عليه، تحفظ اسمه وتباركه مع كل حفيد جديد وكل موسم جديد. الزيتون هو الثمرة نفسها، الحبة الخضراء بكل درجات الأخضر، أو السوداء بكل درجات الأسود، أو ذات اللون العنابى المصقول، لوزية أو مستطيلة أو بيضاوية أو كُروية، هو وصفات وفنون ومذاقات، الرصيص والمملوح والمكمور والمشطب والمحشو باللوز أو بالجزر أو بالفلفل الأحمر الحلو. الزيتون هو المُونة المُطمْئنة، هو سداد الدين من موسم إلى موسم، وهو مهر العروس، وهو المكانة بين الناس. موسم قطافه فى الخريف الساحر يحول رجال القرية ونساءها وأطفالها إلى شعراء ومُغنين وزجالين يرفعون بإيقاعاتهم العمل المرهق إلى مصاف النزهات البرية والفرح الجماعى. هو الزيت المعصور فى القفف الهائلة الحجم، سائلاً حائر اللون بين الأخضر البراق والذهبى الغامق، من قطفة عصيره البكر يتبادلون الهدايا، وفى جراره المصطفة فى أحواش الدور، يخزنون هدوء بالهم، والأساس الذى لا غنى عنه لقوتهم كفاف يومهم، وإن اعتل أحدهم فالزيت دواؤه أيضاً يدهنون به مواضع الألم فيسكن، (أو لا يسكن لكنهم هكذا يظنون). ومن أواخره وبقاياه يصنعون الصابون فى أحواش البيوت، أو يوزعونه على الدكاكين: «صابون الشكعة»، «صابون طوقان»، صابون «نابلسى حسن شاهين» وغيرها. من أخشاب فروعه الناتجة عن التقليم الموسمى ينحتون التُحف والمُجسمات الخشبية البديعة للمساجد والكنائس والصلبان وينحتون بكل إتقان لوحة العشاء الأخير والمذود ومشهد ميلاد المسيح، والسيدة مريم العذراء، وعلب الأرابيسك بأحجامها المختلفة المكسوة بأصداف البحر الميت، والعقود والمسابح، والخيول وقوافل الجمال. ينحتونها فى ملاسة العاج ولمعانه وصلابته المدهشة. ومن نوى الزيتون المجروش يستخرجون «الجفت» الناعم وقوداً لمواقدهم إلى جانب الفحم أو بدلاً منه، يشوون على ناره المطمْئنَة حبات الكستناء فى مربعانية الشتاء، ويتركون بكرج القهوة يغلى على مهله هادئاً، رائقاً، وسط انهيار جبال الرعد فى الخارج ثم تكونها لتنهار من جديد يسبقها البرق المتردد تارة والحاسم تارة أخرى، بين مكر دعاباتهم وتندرهم على أحوالهم القاسية، والتفنن فى النميمة على الغائبين، ونظرات الغَزل التى تمتزج فيها الجرأة بالحياء إذا ضمت السهرة ولداً وبنتاً فى زيارات الأقارب أو الجيران. من لا يفضل القهوة منهم له إبريق الشاى الأزرق وأوراق الميرمية بعطرها الجبلى المدوخ.

> الزيتون هو نشرة أخبارهم الشفهية، حديث مضافاتهم فى ليالى السمر، بَنْكُهم المركزى ساعة حساب الربح والخسارة، نجم موائدهم، ورفيقُ لقمتهم.

أقول هذه الأشجار قتلى. وهناك، فى مكانين مختلفين، فى اللحظة ذاتها، فلاح فارغ الكفين وجندى ممتلئ زهواً.

هناك، فى اللحظة ذاتها، فلاحٌ يحدق فى السقف، وجندى يحتفل.

الرذاذ يتواصل والطريق يزداد وعورة.

أكتافنا تتلامس مع كل اهتزاز. السيدة المنقبة تلتصق أكثر فأكثر بباب السيارة وقد جعلت حقيبة يدها عازلاً إضافياً بينها وبين جارها الشاب لتزداد اطمئناناً.

لم يتحدث أى منا فى أى موضوع. الكل مشغول بسلامة الوصول دون أن يبدو على أحد أنه مشغول بسلامة الوصول.

الأمر هكذا دائما: كما يبرهن السكران سكره بإنكاره تماماً فإن إنكار الجماعة لخوفها هو برهان عليه.

فجأة يتوقف كل شىء.

الآن وقد غرزت السيارة فى الطين، يوقف محمود المحرك على الفور لئلا يغوص الإطار أكثر فتتعقد الأمور.

ننزل لمعرفة ما الذى حدث.

يبدو الأمر بسيطاً والمشكلة يمكن حلها.

- دفعة صغيرة يا جماعة

نتجمع متراصين خلف السيارة، ندفعها معاً فى محاولات متلاحقة قبل أن ننجح فى زحزحتها، يدهشنى عدم تقاعس الشيخ وعزم الشابة وتحمسها، الرجل البدين يبدو أكثرنا تفانياً، أما الريفى الغائص فى مقعده فيثبت بالدليل القاطع أنه قصير جداً بالفعل. أكتم ضحكتى إذ أتذكر «صبحى الفار» ذلك الفلاح من دير غسانة، الذى عاد من بيادر القرية ليبشر رجال المضافة بوفرة محصول القمح تلك السنة وصاح بفرح زائد:

- القمح السنة ما شا الله عليه، مشيت فى البيادر قبل يومين وجدته طولى بالضبط.

فقال له أبو عودة صاحب اللسان الفصيح وملك النوادر فى المضافة، ملمحاً إلى قصر قامة الرجل:

- الله يرمل مرتك يا صبحى يا ابن الفار، يعنى متنا من الجوع السنة!

ينطلق محمود أمتاراً بالسيارة ويتوقف بانتظارنا. ننادى على السيدة المنقبة لتلحق بنا فقد كانت انتحت جانباً أثناء عملية الإنقاذ.

الطين عالق بملابسنا وأيدينا وأحذيتنا، محمود يحضر من صندوق السيارة جالوناً صغيراً من الماء

- تفضلوا بالدور، تفضلى يا اختى، اتفضل يا حاج، اتفضل يا أستاذ.

يسكب الماء بحساب ونحن واحداً بعد الآخر نغسل أيدينا. يقدم لنا قطعة قماش من داخل السيارة نستخدمها فى محاولة لإزالة بعض ما علق بملابسنا من بقع طينية ونستهلك علبة مناديل ورقية فى تجفيف وجوهنا.

ما زلنا فى النهار لكن الحقيقة أن المشهد ليلى إلى حد ما، بسبب كثافة الضباب فى الوادى. لا بد أن نظر محمود أفضل من ٦/٦ ولا شك أن التزامه بقلة الكلام يساعده على تركيز قوته البصرية إلى حدها الأقصى. ها هو يهمس أنه لمح دبابة مختبئة وأن علينا التوقف قليلاً حتى نرى إن كانت ستمضى فى سبيلها، نتوقف فعلاً ويقرر بعد دقائق أن الخطر زال ونواصل طريقنا.

أقول لنفسى: يمكن للماشى أن يقطع هذا الوادى على قدميه، يمكن للخيول والبغال أن تتدبر أمرها لاجتياز هذه التعريجات الوعرة، لكن كيف تستطيع ذلك سيارة تاكسى قديمة تحمل سبعة ركاب بحقائب سفرهم، يلاحقها الضباب والمطر وجيش «الدفاع» الإسرائيلى بكمائنه السرية خلف الأشجار؟

أقول هذا الشاب الفلسطينى يحاول صنع معجزة صغيرة دون أن يدرى، يمارس بطولة لا يعى أنها بطولة. هو سائق موظف، يريد أن يتقن عمله الروتينى الذى يتقاضى منه مرتبه الشهرى. الآن هو قائد هذه الرحلة ولا يريد أن يخذلنا. نحن الآن شعبه الكامل العدد المكون من شيخ وامرأتين، سافرة ومنقبة ورجل قصير القامة وآخر بدين



وطالب جامعي وشاعر يدهشه ما يرى ولا يريد خدشه بالكلام.

سألت نفسى ماذا لو كنت مكانه؟ هل أستطيع أن أكون قائداً لهذه الرحلة؟

أغلب الظن أننى لن أستطيع.

أنا كاتب. يعنى أنا لا «أفعل» شيئاً. أليس هذا بائساً؟ أم أننى أسارع بلوم نفسى كعادتى كلما ساءت الأمور من حولى؟ كم مرة تمنيت لو أننى تعلمت صنعة ما، مهنة يدوية، أليس جميلاً أن يكون المرء ميكانيكياً، حداداً، مزارعاً، نجاراً، أو حتى عامل بناء يرتقى مع كل طابق إضافى إلى مرتبة أعلى ويطل فى النهاية على كسل المدينة من أعلى أسطحها، دون أى فضل من أحد، فهو الذى رفع قدميه بعَرَق يديه، ورأى ما يراه الصقر، حتى وإن غادر مجده وظل منسياً بعد ليلة الافتتاح؟

رأتنى أمى ذات يوم بعيد، وعمرى اثنا عشر عاماً ومعى أخى الأصغر علاء نحمل فأسين نحاول أن ننكش حوض بصل أخضر فى حاكورة البيت ونحن نلهث، فقالت بابتسامة وهى تقف فوق درجات البيت:

- ليس لكم والله يا أولادى إلا المدرسة، ستموتون جوعاً إذا حكم عليكم الزمان بأن تشتغلوا بأيديكم.

ثم هبطت الدرجات القليلة وأخذت منى الفأس وتتالت ضرباتها فى الحاكورة ونحن نتفرج عليها ولا أدرى بماذا أحس علاء، وأنا أحسست بالغيرة والخجل. كنت فى طفولتى أظن أنى ضعيف العضلات لأنى نحيف الجسم. سمعت أحدهم يقول إن البطاطا «بتنصّح» فأخذت أبالغ فى أكل البطاطا بكل أشكالها... ليشتد عضلى! وكلما سألتنا أمى سؤالها الصباحى ونحن نتجه إلى باب البيت فى طريقنا إلى المدرسة:

- ماذا أطبخ لكم اليوم؟

أدرت عنقى إلى الوراء وسبقت إخوتى صائحاً:

- صينية بطاطا.

صدقتنى مرة ومرتين ثم أصبحت تسخر منى، وأصبحتُ فريسة سهلة لتندر منيف ومجيد وعلاء.

عندما نشرت ديوان شعرى الأول أعجبنى نحولى. كنت فى نوبات غبائى التى لم تطل لحسن الحظ، أستغرب «صحة» بابلو نيرودا لأنه بدين بدانة كتّاب النثر والصحفيين ومدراء الشركات. لم يخطر ببالى ممارسة أى نوع من أنواع الرياضة المنتظمة. كأن على الشاعر أن يبدو ذابل الجسم مخطوف اللون كأنه ساقط فى هُوَّة، أو مسحوب منها للتو.

نحن الآن أمام «هُوَّة» حقيقية.

السائق يوقف المحرك.

- انزلوا يا إخوان، سنرى ما يمكن فعله.

سننزل. وسنرى.



نحن الآن على حافة قطع عرضى ممتد فى الطريق، حولته الأمطار إلى خندق مرتجل موحل لا يمكن للسيارة اجتيازه إلا إذا حضر إله إغريقى واسع الحيلة، قادر على تغيير المصائر، فيخرجنا من هذه الورطة.

طريقنا الحالى اختلقه السائق اختلاقاً فى هذا الوادى الرمادى، كان بإمكانه السيطرة عليه، نسبياً، مادام طريقاً متصلاً، مهما تلوى أو تعرج أو ضاق، لكن الطريق انقطع الآن، لم يعد طريقا. وهذا الخندق العميق الممتد قادر فعلاً على ابتلاع عشرات السيارات.

محمود لا يبدو عليه الاضطراب، بل إنه يبدو واثقاً وهادئاً، كأن آلهة الإغريق هم أولاد عمه اللَّزَم!

ما هى إلا دقائق حتى ظهرت من بين الأشجار على الجانب المقابل من الخندق رافعةٌ ضخمة صفراء اللون تلمع تحت الرذاذ الشفاف، فيها شابان نحيلان يرتديان ملابس بسيطة، يشير أحدهما إلى محمود أن يستعد لترتيبات الإنقاذ.

محمود يأمرنا بالعودة إلى مقاعدنا داخل السيارة ليقوما هما بعملهما.

نجلس فى مقاعدنا وننتظر.

فى المستقبل، بعد سنوات من هذه الواقعة سأجتاز سيراً على الأقدام خندقاً مماثلاً عند حاجز سُردا بصحبة بعض الكتاب الأجانب، حيث يقتضى برنامجهم زيارة جامعة بير زيت، سينطلق موكب سياراتنا من رام الله ليتوقف عند حاجز سُردا فى منتصف الطريق إلى الجامعة. الجيش الإسرائيلى كان قد دمر هذا الطريق الجبلى صانعاً فيه ما يشبه خندقاً بطول ٥٠٠ متر أو أكثر قليلاً، لا يمكن اجتيازه إلا سيراً على الأقدام، وبشىء من الصعوبة. على تلة بجانب الطريق يوجد منزل كبير لأحد الفلسطينيين احتله الجيش وطرد سكانه منه وحوله إلى نقطة عسكرية لمراقبة كل شىء يتحرك، وغرفة عمليات تقرر إغلاق الطريق تماماً فى أى وقت تشاء، وغطى واجهة المنزل كلها بقماش عسكرى أخضر مخرَّم تظهر من فتحاته مواسير الرشاشات المصوبة على المارة من الحاجز. توقفت السيارات التى حملتنا من رام الله، ونزلن منها لنقطع الخندق سيراً على الأقدام. أواصل حديثاً عن المسرح مع وولى شوينكا ونحن نحاول تجنب التعثر وبجوارنا يواصل الآخرون نقاشاتهم الأدبية والسياسية وأجسامهم تدنو وتتباعد حسب وعورة الجرف: ساراماغو وجواتيسولو وبرايتنباخ وكونسولو وبانكس وبى داو ومحمود درويش ينقلون الخطى بحذر المسنين داخل ذلك الجرف ويردون تحيات المارة بجوارهم من طلاب وأساتذة وباعة متجولين، فهذا الخندق الوعر هو الطريق الوحيد لجميع المسافرين بين رام الله وكل قرى الشمال وهذا هو الوضع منذ عام كامل. يشدنى شوينكا جانباً ليفسح الطريق لشاب يحمل فلاحة مسنّة على ظهره، ويسير بها فى حذر شديد وهى تردد:

- الله يغضب عليهم دنيا وآخرة.

ثم تعيد غطاء رأسها ممسكة طرفه بين أسنانها حتى لا ينحسر تماماً عن شعرها الأبيض. سيدة أجنبية متقدمة فى السن تمشى بجوار حمار آخر وفى خُرجَيْه حقيبتا سفر تتأرجح من إحداهما بطاقة «ديلسى» تدل على ماركة الحقيبة الفخمة. لم تتخيل مصانع ديلسى أن تنقل الحمير حقائبها هنا. بعد أمتار قليلة نفسح الطريق لحمار آخر تركبه امرأة حامل ويقوده ولد عمره سبع سنوات أو أكثر قليلاً، واضح أنه يترزق بتأجير الحمار على الحاجز. يتلفت حوله مندهشاً من الوجوه الأجنبية فى هذه البقعة من العالم.

ساراماجو، وهو يتأمل المشهد ويتلفت إلى التلال وبيوت القرويين الفلسطينيين، وبنادق الجيش الإسرائيلى مصوبة علينا من بعيد، يقول بصوته العميق البالغ الوقار للِيلى شهيد، سفيرتنا لدى فرنسا:

- هذا يذكرنى بمعسكرات الاعتقال. الشعب هنا يعيش فى معسكر اعتقال، إنه معسكر اعتقال حقيقى. هذا ما أراه.

بعد اجتيازنا الخندق نصعد إلى الشارع العام، نركب سيارات أخرى أعدتها إدارة جامعة بير زيت لتكون بانتظارنا عند الطرف الآخر لنكمل طريقنا إلى الجامعة.

الوضع مختلف تماماً هذا الصباح.

نحن الآن أمام خندق مماثل لكننا فى سيارة أجرة ولا بد للسيارة ذاتها أن تجتاز بنا هذا الخندق. هذه السيارة ذاتها هى التى ستحملنا إلى أريحا، لا بديل لذلك فى هذه البرية.

تجىء تعليمات محمود:

- اربطوا الأحزمة. لا تخافوا. سنركب المراجيح

يتخذ مقعده خلف المقود بعد أن يتأكد من أن الأبواب محكمة الإغلاق، أنا أراقب ما يحدث كالمشدوه.

الذراع الضخمة للرافعة تعلو تدريجيا فى الفضاء حتى تصل إلى الارتفاع الذى قدره قائداها. ينزلانها بالتدريج نحونا، يميلان بها قليلاً نحو اليسار ثم قليلاً نحو اليمين ثم بحرص شديد إلى الأسفل حتى تلامس السيارة تقريباً، ثم تطبق عليها بأصابع حديدية هائلة تحيط بالسيارة كما تحيط أصابع الكف بحبة رمان، ثم ترتفع بها وبنا إلى أعلى ببطء مدروس.

الرافعة تتراجع قليلاً قليلاً إلى الخلف وذراعها الطائرة بنا فى ضباب الوادى تنقلنا بحذر من حافة هاويتنا إلى حافة هاويته فى الجانب المقابل.

تبتعد الأصابع المعدنية عن جسم السيارة، تتركها تلامس الأرض برفق. هبطت بنا الأرجوحة الميكانيكية بسلام.

ننزل جميعا وينضم إلينا الإلهان الإغريقيان.

يتعانق الجميع مع الجميع (باستثناء السيدة المنقبة التى انتحت جانباً بعيداً عن

> هذا الشاب الفلسطينى يحاول صنع معجزة دون أن يدرى، يمارس بطولة لا يعى أنها بطولة. هو سائق موظف، يريد أن يتقن عمله الذى يتقاضى منه مرتبه



❝ الســــائق محمــــود ❞

ازدحامنا العاطفي) نجد أنفسنا نصفق واقفين،

- شكراً يا شباب، الله يعطيكم العافية.

محمود يدير أكواب القهوة على الجميع. القهوة وتوقيتها مرة أخرى. خفت سخونتها بعض الشيء لكنها ظلت طيبة المذاق.

الرجل المسن يبتعد عنا دون استئذان، يختفي وراء شجرة قريبة لدقائق قليلة، يعود بعدها ويده تغلق إبزيم حزامه الجلدي معتذراً بحياء واضح عن تسببه في تأخيرنا:

- لعنة الله على السكري يا خال.

يتمنى لنا المنقذان الغامضان رحلة موفقة في باقي الطريق. يعيدان الرافعة إلى مخبئها وراء الأشجار، ربما بانتظار مهمة إنقاذ أخرى.

يدور المحرك من جديد. تنطلق سيارتنا في الوادي. بعد فترة من التقافز والاهتزاز يباغتنا حرير الإسفلت، ننظر إلى بعضنا في ارتياح وفرح كأننا حققنا أملاً. يقفز إلى رأسي بيت واحد من قصيدة لمحمد مهدي الجواهري الذي مات غريباً متحسراً على بغداد:

يا دجلة الخير قد هانت مطامحنا
حتى لأدنى طماح غير مضمون

أي والله أيها الشاعر. ألم يكن أقصى طموحنا في هذا الصباح المبارك الوصول إلى «الزفت»؟ إلى الإسفلت؟

هل تخيلت يوماً أن أيكون «الزفت» طموحاً يا أبا فرات؟

هل تخيلت يوماً أن شارعاً معبداً بالزفت يصبح حلماً من أحلام الشعوب؟

عليك أن تتخيل يا أبا فرات،

لا بد أن تتخيل.

وإلا ما معنى الاحتلال؟

نحظى بنعيم بضعة كيلومترات ناعمة على الطريق، نحظى بطموحنا، وتظهر في المدى أطراف أريحا.

في المستقبل سيشرح لي أصدقاء وأقارب ممن تعودوا على التنقل بين فلسطين والأردن عبر الجسر أن ما وقع لي في رحلتي الغريبة أمر متكرر ومألوف وخصوصاً حكاية الرافعة التي تنقذ السيارات العالقة. الإسرائيليون يعرفون اننا في أيام الإغلاقات نسلك طرقاً التفافية تجنباً لحواجزهم فصاروا يقطعونها بالديناميت وبالجرافات لتكوين قنوات وخنادق وجروف لا يمكن للسيارات اجتيازها. فما الذي حدث؟ اخترع القرويون والرعاة القريبون هذه الطريقة ليفيدوا ويستفيدوا. يستأجرون من إحدى الورش هذا الونش ويأخذون مائة شيكل من كل سيارة يقومون بإنقاذها. حقهم. تعبهم. المهم أن كل عقدة يضعها الاحتلال يخترع لها اليأس الفلسطيني حلاً.



يجيء صوت محمود:

- من الآن حتى أريحا، لا جيش ولا حواجز ولا ونشات ولا مراجيح في الهوا. الحمد لله على السلامة يا جماعة.

الرجل المسن يقول ضاحكاً:

- والله وركبتوني المراجيح على كبر يا أولاد. عمري ما تمرجحت إلا اليوم. كنت أدوخ من منظر دولاب الهوا وأستغرب كيف يركبه الصغار. ستضحك أم العيال علي وتجعلني فرجة أي والله. الله يهدها عليهم يا رب.

أردت أن أقص عليه كيف، في عاصفة عاتية، علق «تميم» وصديقه «زيد» على قمة دولاب الهواء في مدينة ملاهي الأطفال في بودابست وكيف تم إنقاذهما، لكني لم أجد ذلك مناسباً لما نحن فيه، هذا ثانياً، أما أولاً، فلأنني تعودت أن ألتزم الصمت إذا كنت في سيارة أو حافلة أو طابور انتظار بين أناس لا أعرفهم، والمرء لا يعرف إلى أي جهة قد يرسله الحديث مع رفاق سفر غرباء. قد يكون سؤالك، أو جوابك عن سؤال، محرجاً أو خطراً أو قد يستفز ذكرى مؤلمة. في ظروف الاحتلال قد تجد نفسك تعرف ما لا ينبغي أن تعرفه، ومن منا يدري أين يجره لسانه؟ قد تبدي إعجابك بالمقاومين والمطاردين في الجبال المطلوبين لإسرائيل وتحكي قصة واحد منهم تعرفه بحكم القرابة أو الصداقة أو الجيرة، ويكون محدثك أحد العملاء الذين جندتهم إسرائيل وهم للأسف بالآلاف، واشترطت اسرائيل (ووافق مفاوضونا العباقرة) أنه ليس من حق القيادة الفلسطينية معاقبتهم أو مطاردتهم أو حتى محاكمتهم، هم يسرحون بيننا وبعضهم معروف للناس وإنك قد تجد مجلس عزاء لشهيد بينما ابن خالته مثلاً أو ابن عمه أو صهره العميل يتلقى العزاء في قريبه البطل بحكم الروابط العائلية الريفية، ويكون حزن العميل على الفقيد أصيلاً أيضاً، لقد حدث هذا في دير غسانة كما أنه حدث ويحدث في سواها من القرى. ألم أقل في أكثر من مناسبة «إن الحياة تستعصي على التبسيط»؟ وقد تشكو مثلاً من الغلاء الفاحش وتشتم طمع التجار الذين لا يراعون أبناء بلدهم حتى في ظروف الحصار، فيكون من تشكو له تاجراً منهم، يحتكر سلعة أو يهربها. قد تشكو الفساد في السلطة الفلسطينية فتجد نفسك تشكو لفاسد كبير أو فاسد متوسط أو فاسد صغير أو لواحدة أو واحد من أقرباء الفاسدين. المحاذير الأخرى عديدة كأن تفسد على نفسك وعلى غيرك الجو بنكتة لا تضحك، كما فعل الخليلي.

❝ هل تخيلت يوماً أن يكون «الزفت» طموحاً يا أبا فرات؟ هل تخيلت يوماً أن شارعاً معبداً بالزفت يصبح حلماً من أحلام شعب؟ ❞

لكن المؤكد في كل الأحوال أن إضرابي عن الكلام يتسبب في خسارة صداقات جميلة وأحياناً نادرة تحتملها رفقة الأسفار في الظروف العادية. لكن الاحتلال لا يسمح أبداً «بالظروف العادية». الاحتلال يفسد المسافات بين البشر. أسرح متأملاً هذه الفكرة التي وردت بخاطري، وسأتأملها بعناية في وقت ما.

عندما يرتفع الإنسان عن الأرض فإن شيئاً من الوحشة والعزلة يخالط هذا السمو المفاجئ. هذا يحدث لأي سبب حتى ولو في أرجوحة أو في مصعد كهربائي أو طائرة: هكذا بلد تفكيري في وحشة السائق محمود المنتظرة وقلقي عليه.

هنا يولد في رأسي سؤال سيظل يشغلني لسنوات بعد ذلك: كيف سيعود محمود وحده إلى رام الله في هذه الظروف العجيبة؟

ألا يفكر في أن مخاطر هذه الطرقات الموحلة المحطمة ستكون بانتظار عودته إلى أهله بعد يوم عمل، كان يفترض أن يكون عادياً، ولم يكن عادياً أبداً؟ هل سيعود اليوم؟ هل سيقضي ليلته في أريحا انتظاراً لصباح الغد؟ وماذا لو دام الإغلاق أياماً؟ أنا فخور به، معجب باتزانه وحسن تدبيره، بل إن سلوكه وحيويته وشبابه وثقته تورطني الآن في نوبة تفاؤل بأن الفلسطينيين هم الأقوى في هذا الصراع الطويل مع الاحتلال. كل ما أريده الآن هو الاهتداء إلى وسيلة أشكر فيها هذا الفتى دون أن أجرح فعله بكلام يقلل الكلام.

في لحظة معانقته لي أقرر أن الصمت هو أفضل ما لدي. في أقل من ثانية أطرد فكرة عابرة بتقديم مال إضافي لهذا الشاب. وأتأمل مفارقة عجيبة: قد يدخل المرء بسهولة في مشاجرة مع خصم وقد ينزلق بلا تفكير إلى التلفظ بأبذأ الكلمات التي قد يندم عليها بعد حين، لكنه يجد صعوبة عند اختيار كلمة طيبة للثناء على صديق، فبعض الشكر يبخس الفضل أحياناً. وهذا ما أخشى ارتكابه الآن.

أنا فخور به حقاً ولا يمكنني أن أقول له ذلك لأن في العبارة مسحة من التعالي أو الأبوية أو التراتبية التي تلغي التساوي الإنساني. وهل يمكن أن أوصل له هذا الفخر... بالبقشيش؟

وأنا قلق عليه حقاً، أفكر أن أقول له «دير بالك على حالك» ولا أقولها، هذه العبارة المحببة الحنون هي من أجمل ما يمكن للمرء أن يسمعه من شخص يعنيه. تقولها لي أمي كلما خرجت من البيت، وكلما سافرت، وكلما غبت في مهمة أو عمل، كيف أدير بالي على حالي يا أمي؟ إذا أراد حاكم عربي اعتقالي فهو بلا شك سيعتقلني وإذا أراد شرطي ركلي بقدميه فهو بلا شك سيركلني، وإذا أرادت دولة عربية شقيقة محترمة أن تطردني فإنها ستطردني.

أريد أن أقول له «الله معك» فأتذكر طرفة لا تنسى حول مؤازرة الله للفلسطينيين بين تكرار الشيخ فيصر مؤذن مسجد دير غسانة أن الله لا يقف معنا لأننا ابتعدنا عن دينه، وبين تعليق الحاجة وصال، أم نبيل، حول هزيمة العرب في عام ١٩٦٧ وانتصار إسرائيل على مصر وسوريا والأردن في ستة أيام، عندما صرخت بأعلى صوتها رافعة ذراعيها في وجه مراسل صحفي لا تعرف لغته، وهي تكاد تفقد عقلها:

- لا نفعتنا صلاة ولا شفع لنا صوم يا بنيي، سبحانه طلع لابس برنيطة وشورت، وناقصه يرخي السوالف.



ثم تدرك أن السخط ورطها فى عبارة شائكة فتتمتم فى سرها:

- أستغفر الله العظيم

لا أقول لمحمود شيئاً. أقول لنفسى: سأكتبه. سأكتب السائق محمود. سأسجل ما فعل بالضبط. كما فعله بالضبط. سأكتبه. هذا واجبى. أنا كاتبٌ وهذا عملى. قام هو بعمله، وذات يوم سأقوم أنا بعملى أيضاً. وها أنا أفعل.

نصل إلى استراحة أريحا،

ننزل حقائبنا، يدفع كل منا من الأجرة لمحمود مضافاً إليها نصيب كل منا من أجرة الرافعة المباركة.

حافلة الجسر واقفة بانتظار ركاب يملأون مقاعدها. نضع حقائبنا فى الحجرات المخصصة لها أسفل الحافلة. نودع محمود. يصافحنا متمنياً لنا رحلة طيبة إلى عمان.

أقف فى طابور غير منتظم يتدافع فيه الناس، فى انتظار ختم أوراقى.

فى الطابور الطويل المجاور أرى السيدة المنقبة ترفع النقاب بتردد عن وجهها والشرطية الإسرائيلية تقول لها إرفعيه كله فتفعل بانصياع كامل. واضح أنها تريد للكاميرات الأمنية أو للضابط الجالس فى الكابينة العليا خلف الزجاج المدخن أن يتعرف على وجه المسافرة بوضوح. السيدة تعيد البرقع بسرعة وتتلفت يميناً ويساراً نحو الطوابير المجاورة تحيرها معرفة من منا رأى وجهها سافراً.

يتزاحم المنتظرون محاولين تخطى بعضهم وسط احتجاجات المتقدمين فى الطابور على مضايقيهم.

يعلو صوت رجل قصير القامة أصلع:

- يا جماعة صفوا بالدور. عيب عليكم، خلينا نخلص.

ولكن لا حياة لمن تنادى.

يلاحظ الضابط الإسرائيلى الجلبة، فيقف ويصرخ فى الجميع أن يقفوا صفاً واحداً.

يقفون صفاً واحداً على الفور.

الرجل الأصلع القصير أخذ يضرب كفاً بكف:

- عجبك يا أستاذ؟ شعبك لا يأتى بالحسنى، انبح صوتى ولم يسمع كلامى أحد لكن أصغر «شلومو» يحكمهم كلهم كالغنم! لا حول ولا قوة إلا بالله. حسبى الله ونعم الوكيل.

من نقطة الشرطة الإسرائيلية على الجسر إلى نقطة الشرطة الأردنية، علينا تبديل الحافلات، حافلتنا توصلنا إلى أرض ترابية تتناثر عليها حقائبنا بشكل همجى غالباً ما يؤدى إلى تلف أجزاء منها أو تناثر محتوياتها، واتساخها الأكيد فى كل الحالات خصوصاً فى الأيام الماطرة، وعلينا النزول مسرعين متزاحمين بشكل مثير للاشمئزاز كقطيع آدمىّ تصاعدت أنانية أفراده إلى حد تجاهل الأضعف من المسنين وثقيلى الحركة والمهذبين ليعثر كل راكب على حقيبته الملقاة وسط كوم عشوائى ليضعها بيديه فى الحافلة الجديدة التى ستقطع مسافة قصيرة إلى نقطة الشرطة الأردنية.

يصيح شخص أدركُ من لهجته أنه نابلسى:

- محمد، معك وضوء؟
- آ يابا، متوضى الحمدلله
- طيب يالله نخطف صلاة العصر
- إنت سمعت الأذان يابا؟
- الله يقصف عمرك شو أهبل. هو فى حدا بيأذّن هون؟ ولك ما فى إيدك ساعة قد ساعة الحيط؟ ولك صار ميعادها.

> **فى المستقبل سيدهشنى جدا أن أرى كل طاقم المضيفين فى شركة مصر للطيران يؤدون الصلاة على ارتفاع ٣٩ ألف قدم فى رحلة بين القاهرة ومدريد**

بين الحقائب المتناثرة يقف النابلسى وابنه للصلاة فينضم إليهم معظم الذكور من الركاب فنضطر جميعاً لانتظار انتهائهم من الصلاة، فمن يجرؤ على انتقاد الصلاة؟.

أتوقف قليلاً عند ظاهرة «العلنية الإسلامية» فى المجتمع الفلسطينى والعربى وهى ظاهرة تتجلى الآن فى الشوارع والأسواق ووسائل المواصلات والجامعات وحتى فى المدارس الابتدائية.

وأقول من الواضح أن المجتمع الفلسطينى بعد أن تكشفت له رذائل اتفاقية أوسلو فى الواقع اليومى الملموس بدأ يميل لحركة حماس لأنها تبدو له أقل فساداً، وربما فسرت الخلفية الفكرية لحماس القادمة من جماعة «الإخوان المسلمين» هذا التركيز العلنى على الزى والحجاب واللحية والصلاة على الأرصفة وفى أماكن العمل وفى الأسفار الذى يوحى بالانتماء إلى الجماعة.

فى المستقبل سيدهشنى جداً أن أرى كل طاقم المضيفين فى شركة مصر للطيران يؤدون الصلاة على ارتفاع ٣٩ ألف قدم فى رحلة بين القاهرة ومدريد.

نجلس فى الحافلة الجديدة بانتظارهم ثم نمضى نحو نقطة الشرطة الأردنية. نصل. يصعد شرطى أردنى، يجمع الهويات وجوازات السفر من كل الركاب ويغادر بعد أن يأمر سائق الحافلة بإبقاء الأبواب مغلقة علينا إلى حين تلقيه إذناً بفتحها من المسئولين بالداخل.

فى الصيف تصل حرارة الجو ورطوبته فى هذه البقعة من العالم أقصى ذراها، وقد تصل الخمسين درجة مئوية، وإن كانت هيئات الأرصاد الجوية تبقيها فى حدود الأربعينيات القصوى لسبب لا أعلمه. نحن الآن فى الشتاء والانتظار لا يضير، لكن تكرر الانتظار كل حين هو المزعج.

فى هذا الانتظار أيضاً أدخل فى صَدَفَتى. أغدو وحيداً مع أصوات ومشاهد وعلامات استفهام وعلامات تعجب تخصنى، كأن مخزناً هائلاً مهجوراً يفتح أبوابه لى أو كأنى أصبح مُتْحَف نفسى وزائره الوحيد وقد نام الحراس وأُغْلِقَت علىَ الأبواب. ألوم أفعالى أو قلّتَها. أواجه عيوبى كما يفعل بطل مسرحى شجاع. أو أختلق لنفسى المبررات والأعذار كأى جبان. أصبح قاضياً صارماً لا يقبل التواطؤ مع الحبيب أو القريب وفى نفس الوقت أصبح القاضى المرتشى المتهاون الذى ينسحب من الصعوبة إيثاراً للراحة وأفتح عينىّ الصغيرتين فجأة، على ما استقرَ فى جسدى من أمراض «المثقفين».

أقول لست إلا شاعراً فلماذا علىَ أن أنتظر على كل أنواع الحدود؟

لماذا أطرد من بلد وأسجن فى آخر؟

لماذا لا أستطيع أن أتحمل ما تتحمله الجدات البدينات والحراثون الشباب بوجوههم النحاسية الوسيمة والأطفال الذين «تعودوا» على الاحتلال حتى... أحرجوه؟

أسمع صوتاً بداخلى يعلن اشمئزازه من رخاوة بعض المثقفين وشكواهم الدائمة، أشعر أننى فى النهاية شخص سيئ إذا قورنت بأصحاب التضحيات الصابرين، أقول لنفسى:

- ما من كاتب يستحقّ مالاً أو مجداً بينما شعبُه يتعذّب، حتى لو كان أفضل من يُعَبِّر عن هذا العذاب.

أقول ليتنى كنت مزارعاً فالمزارع لا ينتظر إلا المطر، وهذا أسهل من انتظار تحرك هذه الحافلة قبل أن أفقد صوابى. أريد أن أصل إلى البيت وأريد أن أنام.

يسمح لنا الشرطى الأردنى بالنزول من الحافلة ونتجه إلى حاجز الجوازات ثم إلى حقائبنا ثم إلى الشارع. الوقت يدخل فى الغروب الآن. سأكون فى بيتنا فى الشميسانى قبل أن تذهب الوالدة للنوم.

عندما أجتاز الجسر وأدخل الأراضى الأردنية تحل فى جسدى السكينة، وأستعيد الشعور بأن الأمور عادية على الأقل، أصبح مسافراً مطمئناً أستطيع التلهى بمشاهدة الأشجار الراكضة بجانب السيارة وتأمل حقول الموز وأزهار الدفلى والشوارع الخالية من نقاط التفتيش والحواجز وأبراج الحراسة.

تبدو الأردن للخارج من فلسطين المحتلة نعمة حقيقية. لا حواجز ولا توقيف ولا مستوطنين ولا دبابات. هنا تستطيع أن تقيس المسافات نفس القياس دائماً، تعرف كم دقيقة تقريباً بقى لك لتصل من مكانك إلى أى مكان.

آخذ سيارة لوحدى إلى عمان. أريد أن أخلو بنفسى. أريد أن أستعيد هذه الرحلة من أولها حتى الآن. وأريد أن أدخل فى الطريق.

أمامى نصف ساعة حتى أصل. أضع شريحة رقمى الأردنى فى هاتفى النقال واتصل برضوى فى القاهرة:

- أخيراً أنا فى طريقى إلى الشميسانى،

ثم أتصل بالوالدة فى عمان،

- شو عندك عشا ياماه؟

فى الصباح، يتناثر القتلى والجرحى بالعشرات. شاشات التليفزيون تتلون بالأحمر وتكاد تفلقها قذائف الدبابات التى تدك الحياة بلا انقطاع. الثياب الطويلة المطرّزة على أجساد الفلاحات تميل على وجوه القتلى، وأذرعهن تهز الأجساد المسجاة لعلها تستيقظ، وتسبق الشفاه فى المناداة على من لن يسمع صوتاً ولن يردّ نداء، إلى الأبد.

كل نشرات الأخبار تبدأ بأنباء اجتياح الجيش الإسرائيلى لرام الله. ■

فضل مصطفى النقيب



"زمن" الحكيم

■■ كان الشاعر ت. س. اليوت يلخص القضية التى نحن بصددها بقوله: الشعراء السيئون يقترضون من الآخرين، أما الشعراء الجيدون فإنهم يسرقون الآخرين.

لم يكن جورج حبش شاعراً . فلقد عاش طوال حياته وهو يناضل من أجل استرداد ما سرقوه من أرضه وشعبه ووطنه.

ولقد تميز ذلك النضال، فى أن صاحبه تمكن من الاحتفاظ بالأهداف التى انخرط فى النضال من أجل تحقيقها ، وعلى امتداد ستة عقود، بينما تراجع كثير من القادة الفلسطينيين الآخرين عن تلك الأهداف. ولقد تمكن من ذلك لأنه فهم معنى النضال طوال حياته بطريقة واحدة، وهو أنه الوسيلة التى يستعملها من أجل الحصول على «القوة» لدعم «الحق» ولم يفهمه أبداً على أنه وسيلة استخدام «الحق» من أجل الحصول على «القوة». ولذلك كان من القادة القلائل الذين تصرفوا طوال تلك العقود على أساس أن الوطن هو «فلسطين» وليس «القضية الفلسطينية» ولذلك ظل قادراً على أن يفهم العلاقة الحقيقية التى تربط أى حدث بفلسطين. أى كيف تكونت بدايات ذلك الحدث فى «الماضى الفلسطينى» وكيف تطورت حتى وصلت إلى «الحاضر الفلسطينى» وما هى احتمالات صيرورة الحدث فى «المستقبل الفلسطينى». وبسبب هذا الفهم ظل دائماً قادراً على أن يتعامل مع الواقع بكل أبعاده المرئية والخفية وأن يتجنب الوقوع فى الأوهام التى تخلقها حوادث عارضة.

فى البداية تشكل فهم جورج حبش لحجم النكبة بشكل غريزى، ففى عمر ٢٣ سنة وجد نفسه فى الجامعة الأمريكية فى بيروت وقد تم طرده من بلده وتشريد معظم شعبه. وكان طبيعياً جداً أن يشعر بالدفء الغامر وهو يجد طلاباً عرباً ليسوا فلسطينيين يتحرقون مثله لعمل شىء من أجل فلسطين وكان طبيعياً جداً أن يتحول ذلك الشعور إلى تأمل وتفكير وهو يستمع إلى استاذ مرموق (قسطنطين زريق) يتحدث عن معنى النكبة وأنها نكبة لكل العرب وليست خاصة بفلسطين.

من ذلك الشعور الدافئ وذلك التأمل والتفكير تكرس فى وعى جورج حبش العلاقة الجدلية بين نكبة فلسطين وواقع التجزئة المفروض بقوة الاستعمار فى الوطن العربى. فنكبة فلسطين وقيام إسرائيل حدثا بسبب الضعف الذى كرسته التجزئة فى الوطن العربى وإسرائيل بدورها ستعمل على الإبقاء على الضعف العربى عن طريق الحفاظ على التجزئة ومنع الوحدة.

من ذلك التأمل والتفكير ولدت حركة القوميين العرب كرد فعل مباشر للنكبة ويلبى حاجتين غريزيتين شعر بهما كل رجل فلسطينى وكل امرأة فلسطينية بعد نكبة ١٩٤٨.



كانت هناك حاجة ملحة للانتماء لكيان أكبر من المخيم واللجوء والتشرد وفى حركة القوميين العرب كان الانتماء إلى الأمة العربية ذات التاريخ المجيد والتى كان لها دور أساسى فى تاريخ الحضارة الإنسانية.

وكانت هناك حاجة ملحة لاكتشاف طريق العودة إلى فلسطين وتحديد أساليب النضال القادرة على تمهيد ذلك الطريق والسير فيه بسرعة. وفى حركة القوميين العرب كان طريق العودة يتحدد فى الالتزام بالنضال الهادف إلى بناء المجتمع العربى الجديد على أسس نهضوية متحررة من كل أسباب التأخر والضعف حتى يكون قادراً على تحطيم التجزئة التى فرضها الاستعمار وإقامة دولة الوحدة وجيشها القادر على تحرير فلسطين.

تميزت حركة القوميين العرب بصفتين هامتين كان لهما تأثير كبير على مسيرتها السياسية. الصفة الأولى أنها لم تتبن «القومية» كأيديولوجية وإنما كانتماء نابع من التاريخ والجغرافيا والثقافة وكان ذلك واضحاً جداً بتأثرها بأفكار قسطنطين زريق وساطع الحصرى والصفة الثانية أنها التزمت بالأسلوب الثورى وليس بأسلوب التطور التدريجى فى العمل السياسى ولذلك كانت تنمو بأجواء مهيأة لتكريس الالتزام بمفهوم ضرورة الثورة على الأنظمة السياسية القائمة فى البلدان العربية واستبدالها بأنظمة مغايرة فى التوجه والممارسة وقادرة على مقاومة الاستعمار وتحقيق الوحدة والتصدى للمعركة التاريخية مع إسرائيل.

ولقد شكلت هاتان الصفتان السبب الرئيسى الذى جعل حركة القوميين العرب، بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو، من أشد المتحمسين والمؤيدين لنهج عبد الناصر الثورى ومن أول الداعين إلى التماهى والانخراط فى التيار الناصرى.: فلقد كان الالتزام الناصرى بالقومية العربية مبنياً أيضاً على أسس التاريخ والجغرافيا والثقافة وليس الفكر الأيديولوجى وكان التزام التيار الناصرى بالأسلوب الثورى قد ألهب عاطفة وخيال الجماهير العربية بشكل غير مسبوق.

كانت حركة القوميين العرب حركة حقيقية، متطورة، حية، وككل الكائنات الحية كان لها وقت حياة وكان لها وقت موت.

عاشت الحركة وناضلت طوال سنوات الخمسينيات والستينيات من أجل تحطيم التجزئة وإقامة دولة الوحدة، وعندما توقفت معارك النضال تلك بتأثير هزيمة ١٩٦٧ توقفت الحركة عن التنفس والنمو والحياة. وبذلك تجنبت حركة القوميين العرب مصير بعض الحركات السياسية التى تأسست قبلها أو بعدها وانتهت بعد عشرات السنين إلى كائنات غريبة عجيبة لا هى حية ولا هى ميتة.

طرحت هزيمة ١٩٦٧ مرة أخرى

موضوعي الانتماء وطريق العودة على التساؤل، وإذا كانت فداحة الهزيمة العسكرية للجيوش العربية قد كرست على الفور تغييراً جذرياً في مفهوم «طريق العودة» أسقط أسلوب الاعتماد على دولة الوحدة العربية القادرة على تعبئة الجماهير العربية وإعداد جيش قادر على خوض معركة التحرير، واستبدله بمفهوم الاعتماد على الشعب الفلسطيني في خوض معركة تحرير وطنه بأسلوب حرب التحرير الشعبية، فإن الإجماع على تبني ذلك الأسلوب لم يصاحبه إجماع في موضوع الانتماء. إذ أفرزت الهزيمة في مجال الانتماء تيارين جديدين في صفوف الشعب الفلسطيني.

التيار الأول رأى أن الهزيمة حدثت تحت راية «الانتماء القومي» الذي جعل الشعب الفلسطيني يغيب عن ساحة المعركة، ولذلك فإن الرد الطبيعي على الهزيمة يبدأ عندما يتسلم الشعب الفلسطيني زمام قضيته بيده ويحررها من «الوصاية العربية» ويشرع في بناء مشروع وطني فلسطيني يعتمد على الدعم العربي ولكنه في الوقت نفسه يحتفظ بالقدرة على القرار المستقل.

أما التيار الثاني فقد رأى أن الهزيمة أثبتت أنه ليس صحيحاً أن لكل طبقات الأمة العربية مصلحة واحدة في الصراع ضد إسرائيل وخوض معركة تحرير فلسطين، وأن هناك أنظمة تمثل مصالح فئات وطبقات عربية مرتبطة بالإمبريالية الأمريكية المتحالفة عضوياً مع إسرائيل، ولهذا فإن الصراع ضد إسرائيل هو بحكم طبائع الأمور صراع ضد الأنظمة الرجعية العربية وضد الطبقات البرجوازية العربية، أي أن أصحاب المصلحة الحقيقية في خوض ذلك الصراع والاستمرار فيه هم جماهير العمال والفلاحين المتضررة من تحالف الإمبريالية والرجعية وإسرائيل.



في البداية كان التركيز على «طريق العودة» فقط ولذلك ولدت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كتجمع جبهوي لبضعة تنظيمات فلسطينية مقاتلة ملتزمة بأسلوب الكفاح المسلح وحرب التحرير الشعبية. ولكن، بعد سنوات قليلة، برزت خلالها انقسامات وصراعات فكرية وسياسية كثيرة احتل موضوع «الانتماء» فيها مكاناً بارزاً، حسم الأمر واتجهت الجبهة إلى أن تصبح حزباً ثورياً مقاتلاً متسلحاً بالنظرية الماركسية- اللينينية.

وكما كان لجورج حبش دور رئيسي في تأسيس حركة القوميين العرب بعد نكبة ١٩٤٨ كان له أيضاً دور رئيسي في تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعد هزيمة ١٩٦٧.

حمل التوجه الجديد في الساحة الفلسطينية، بعد هزيمة ١٩٦٧، احتمالات إيجابية كثيرة كما حمل احتمالات سلبية كثيرة.ولا يوجد عاقل لا يعترف الآن، وبعد أكثر من أربعين سنة، أن المحصلة كانت على العموم سلبية على الرغم من كل التضحيات الهائلة التي قدمها الشعب الفلسطيني والشعب العربي في لبنان ومصر وسورية.. وفي هذا المجال يبرز دور جورج حبش في أنه كان نموذجاً من القادة القلائل الذين اتسمت قيادتهم باستمرار النضال من أجل دعم وتعزيز العوامل الإيجابية ومحاربة العوامل السلبية. ومن الممكن تحديد دور جورج حبش الإيجابي عبر استعراض سريع للتوجهات الثلاثة التي تكرست في الساحة الفلسطينية كنتيجة لهزيمة ١٩٦٧.

كانت حركة فتح من أول من طرح فكرة عدم جدوى خوض الصراع مع إسرائيل بأسلوب حرب الجيوش النظامية وضرورة التزام حرب التحرير الشعبية. وكان العامل الإيجابي في هذا الطرح هو أن فيه قراءة واقعية لميزان القوى بين الطرفين. ولكنه في نفس الوقت كان مبنياً على تناقض صارخ تمثل في أن فتح طرحت مقولة «عدم التدخل في الشئون العربية» في نفس الوقت الذي بدأت فيه بتكوين سلطة فلسطينية مقاتلة على الأراضي العربية، مما كان لا بد أن يقود إلى الاصطدام بسلطة الأنظمة العربية المعنية. وهذا ما حصل بالفعل في الحروب الأهلية التي اندلعت في الأردن ولبنان. وفي هذا المجال يمكن تسجيل نقطتين هامتين:

الأولى هي أنه بينما ارتكبت جميع الفصائل الفلسطينية بما فيها الجبهة الشعبية، في تلك الحروب، أخطاء وتجاوزات وحماقات كثيرة،إلا أنه من الممكن القول أن نصيب الجبهة الشعبية من تلك الإخفاقات كان الأقل.

والنقطة الثانية هي أن جميع التحالفات التي عقدتها الجبهة الشعبية خلال تلك الحروب كانت خاضعة بشكل صارم لتوجه الجبهة الأساسي ضد قوى الإمبريالية الأمريكية والرجعية العربية. وهذا لم يكن الحال بالنسبة لبقية الفصائل الفلسطينية.

وفي هاتين النقطتين كان لقيادة جورج حبش دور رئيسي في حسم خيارات الجبهة وعدم الانجرار وراء الممارسات الخاطئة التي شاعت في المشهد الفلسطيني.

وفي موضوع التوجه نحو إعطاء الشعب الفلسطيني الدور المحوري في تحرير أرضه واعتبار أن الدور العربي لا يتخطى دور الدعم والمساندة، فقد كان ذلك ينطوي في البداية على عوامل إيجابية كثيرة تتمحور حول تعريف العالم بالقضية الفلسطينية كقضية تخص شعباً محروماً من مزاولة حقه في تقرير المصير وليست مجرد قضية لاجئين. وقد حقق النضال الفلسطيني في ذلك المجال إنجازات هامة، وخصوصاً



فلسطين: ٦٠ عاما

تكرس في وعي جورج حبش العلاقة الجدلية بين نكبة فلسطين وواقع التجزئة المفروض بقوة الاستعمار في الوطن العربي



بعد اعتراف الجامعة العربية بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني. وكذلك اعتراف الأمم المتحدة بها ومنحها صفة مراقب. وبشكل عام فقد نجحت منظمة التحرير في تكريس مكانتها في العالم كحركة تمثل شعباً يخوض معركة التحرر الوطني.

إنما في الوقت نفسه، كانت هناك ممارسات من قبل قيادة فتح، التي احتكرت قيادة المنظمة طوال الوقت، أدت إلى فك ارتباط القضية الفلسطينية بالقضية القومية وحصول تلك القيادة على حرية اتخاذ القرارات وتقديم التنازلات. وهذا ما قاد أخيراً إلى اتفاقيات أوسلو والاعتراف بإسرائيل دون أن تعترف الأخيرة بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير، وإلى الكيان المشوه الذي نجم عن تلك الاتفاقيات والكوارث الداخلية والخارجية التي عصفت، وما زالت، تعصف به، والتي لا نرى حاجة هنا للدخول في تفاصيلها.

وقد تصدت الجبهة الشعبية بشكل دائم لتلك الممارسات وكان جورج حبش خلال سنوات السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات من أشد المعارضين لنهج القيادة غير المسئول في منظمة التحرير ومن أشد الداعين لإعادة بناء أجهزة المنظمة على أسس ديمقراطية سليمة تحررها من قبضة القيادة الفردية وتحرر مؤسساتها وأجهزتها من استشراء داء الفساد والفوضى وعدم المبالاة.

ولكن الجبهة الشعبية لم تكن في وضع يسمح لها بإحداث التغيير المطلوب في الساحة الفلسطينية لأن حجمها كان صغيراً ونفوذها بين الناس أقل كثيراً من نفوذ فتح، وبسبب ذلك الانشقاقات التي حصلت فيها وأدت إلى انفصال الجبهة الشعبية-القيادة العامة، ثم مجموعة أحمد زعرور، ثم الجبهة الديمقراطية، ولكن أساساً تبني الأيديولوجية الماركسية اللينينية بشكل صارخ ومتشنج أدى إلى إضعاف الجبهة ومنعها من أن تتطور لتكون ممثلة للمجرى الرئيسي لحركة التحرر الوطني الفلسطيني، وكرس وجودها كفصيل جانبي متطرف.

إن مشكلة التوجه الماركسي، الذي سارت فيه الجبهة الشعبية بعد هزيمة ١٩٦٧، المبني على أساس أن الهزيمة حصلت بسبب استلام الطبقة البورجوازية الصغيرة لقيادة حركة التحرر العربي شكل في جوهره قراءة خاطئة للواقع العربي في تلك الفترة. لقد كان من أهم أسباب عدم قدرة حركة التحرر العربية على أن تنجز مهمات التحرر الوطني غياب الممارسة الديمقراطية في صفوف أنظمتها وأحزابها، وليس صحيحاً أن هناك طبقات مؤهلة للممارسة الديمقراطية وأخرى غير مؤهلة.

وفي هذا المجال، يبدو أنه من الإنصاف القول أن تحول الجبهة الشعبية في الاتجاه

الأيديولوجى المتشنج ما كان ليتم على الشكل الذى تم به بدون تبنى جورج حبش لذلك الاتجاه ودعمه له. وفى الوقت نفسه فإن دواعى الإنصاف تقتضى القول بأن جورج حبش، بعد ذلك، لعب دوراً محورياً فى ترشيد ذلك الاتجاه وتحريره من الجمود الأيديولوجى وتطويره فى اتجاه استخدامه كمنهج جدلى لدراسة الواقع بأسلوب منفتح وخلاق[١] وهذا يعود إلى صفتين اتصف بهما جورج حبش طوال حياته. الصفة الأولى أنه لم يكن من الناس الذين يرتاحون بطبعهم للنظرة الأيديولوجية الضيقة فهو فى طبعه وفى ثقافته له حس التلميذ القادر على الانفتاح على المعطيات الجديدة ومراجعة الأفكار القديمة بشكل دائم. أما الصفة الثانية فهى أن جورج حبش كان يصوغ آراءه ومعتقداته، بشكل رئيسى نتيجة الدروس التى يستخلصها من الأحداث وليس من الكتب والنظريات الفكرية. ففى كل الأحاديث التى أدلى بها يبدو واضحاً أن تطوره الفكرى قد تم بتأثير أحداث الانفصال (١٩٦١) والهزيمة (١٩٦٧) وحرب رمضان (١٩٧٣) والانتفاضة الأولى (١٩٨٧) وأوسلو (١٩٩٣) ومن المهم أن ندرك أن قدرة جورج حبش على استخلاص الدروس والعبر السليمة من تلك الأحداث يعود إلى أنه وطوال كل تلك السنوات لم يتواجد فى أى موقع له مصالح ذاتية تتعارض مع استخلاص الدروس الموضوعية من الأحداث. ومما لا شك فيه أن ذلك التطور قد أسهم فى تصحيح نظرة الجبهة لمعضلة حركة التحرر العربى وفى فهم الدور المركزى للنضال من أجل الديمقراطية، ففى أحد أحاديثه لخص جورج حبش تلك النظرة بقوله: «لا يمكن تعبئة الجماهير إلا من خلال الديمقراطية.... بل إن قدرة الجماهير على القيام بدورها فى التقدم والدفاع عن أهدافها ومصالحها، مرتبطة بحريتها وتفجير طاقاتها وإبداعاتها،وهذا غير ممكن من دون حياة وقيم ديمقراطية. فالحرية والديمقراطية هما الشرط للسير نحو الوحدة والتحرر والتطور والتنمية واستثمار إمكانات الأمة فى مواجهة أعدائها القوميين وليس العكس» وفى مكان آخر يقول: «لا يجوز أن يكون هناك أى شىء على حساب الديمقراطية. ولا يمكن للشعب أن يحقق أهدافه الكبرى إلا من خلال الحياة الديمقراطية»[٢].

ومما لا شك فيه أن الجبهة الشعبية سارت خطوات هامة على طريق بناء أجهزتها بشكل ديمقراطى فهى تعقد مؤتمرات دورية بشكل دائم، وتنتخب هيئاتها من القاعدة إلى القمة كما تمارس عملية النقد الذاتى لسياستها باستمرار. ولقد كان من نتائج هذه الممارسة الديمقراطية تعاقب ثلاثة أمناء عامين على قيادة الجبهة، وهذا لم يحدث فى أى فصيل فلسطينى آخر. ومن المهم أن نلاحظ أن جورج حبش لم يتنح عن

زمن «الحكيم»



فى حركة القوميين العرب كان طريق العودة يتحدد فى الالتزام بالنضال الهادف إلى بناء المجتمع العربى الجديد على أسس نهضوية متحررة من كل أسباب التأخر والضعف



قيادة الجبهة من أجل أن يتقاعد. بل على العكس لقد ترك المهمات القيادية المباشرة لأنه أدرك أن دوره هو القيام بمهمات أخرى. وقد حدد تلك المهمات عند بلوغه السبعين من العمر بقوله:

أولاً: أريد أن أسجل تجربتى، أى أن أكتب مذكراتى وأن أتوقف أمام الأخطاء.

ثانياً:أريد العودة للعمل العربى.. أى العمل القومى.

ثالثاً: أريد إنشاء مركز دراسات، وعنوانه لماذا هزمنا[٣]؟

وقد قام بعد ذلك بسنوات بتأسيس مركز الغد العربى للدراسات الذى تحددت مهمته فى البحث فى «القضايا الاستراتيجية العربية وفى القلب منها القضية الفلسطينية ويسعى لتقديم أبحاث جادة ومعمقة من وجهات نظر متعددة بأفق قومى عربى جديد، على أمل النهوض بالفكر القومى العربى التقدمى الديمقراطى».

وقد اتضح من أحاديث جورج حبش اللاحقة عن المركز أنه سيركز على الاهتمام بقضايا ثلاث هامة. الأولى هى قضية الديمقراطية فى كل جوانبها النظرية والتطبيقية ومن حيث علاقاتها بالنظام الاقتصادى وموضوع العدالة الاجتماعية والرأسمالية والاشتراكية والليبرالية، والقضية الثانية هى قضية الوحدة العربية. وكيف يجب دراستها بأسلوب جديد يبتعد عن العواطف ويراعى خصوصيات البلدان العربية المختلفة ويكرس أسلوب الوحدة التدريجى فى المجالات التعليمية والاقتصادية والسياسية وكيف تقوم الممارسة الديمقراطية فى ضبط إيقاع الخطوات الوحدوية. والقضية الثالثة تتعلق بضرورة دراسة الصهيونية بأسلوب يبتعد عن النظرة الأحادية التى ترى فى الصهيونية حركة واحدة متجانسة وينحو باتجاه الأسلوب العلمى حتى يتم فهم التطور التاريخى للحركة ثم تكوين فكرة سليمة عن حاضرها الراهن فى كل مقوماتها وفى كل أطيافها السياسية المختلفة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وبشكل محدد فإنه يقول: «يجب أن نفهم الصهيونية بعمق وتجرد، نفهمها كيف تطورت، نفهمها كما يفهمها نتنياهو، زائد كيف يفهمها شمعون بيرس، زائد كيف تفهمها حركة ميرتس، زائد كيف يفهمها بعض اليهود الذين فعلاً لديهم عقل وضمير وبالتالى يقولون أنه يجب أن نتعايش مع الفلسطينيين من خلال دولة فلسطينية مستقلة».

فى الواقع، يمكن النظر إلى مضمون هذه القضايا الثلاث على أنها النواة الحقيقية لتجديد المشروع القومى العربى على أساس ديمقراطى يعتمد الأسلوب العلمى كطريقة ومنهج. ومن المهم أن نلاحظ أن السير فى هذا الاتجاه لم يكن فقط تعبيراً عن تجربة النضال الفلسطينى كما تمثلت فى تجربة الجبهة الشعبية ولكنه يمثل إلى حد بعيد تجربة النضال الفلسطينى ككل. فإذا دققنا فى تجربة الفلسطينيين الذين لم يغادروا فلسطين وعاشوا تحت الحكم الإسرائيلى نرى فى ذلك التطور نفس الخطوط العريضة. فتطور تلك التجربة مر أيضاً فى المرحلة القومية العاطفية (منظمة الأرض) ثم فى المرحلة اليسارية والتناغم مع فصائل منظمة التحرير (الحزب الشيوعى) وصولاً إلى الطرح القومى العربى بمضمون ديمقراطى (عزمى بشارة).

وهكذا نرى أن معنى تخلى جورج حبش عن منصب الأمانة العامة للجبهة الشعبية والمهمات القيادية المباشرة كان من أجل تحقيق هدف واحد وهو التحرر من أعباء القضايا اليومية والتفرغ كلياً لقضايا المستقبل.

وهكذا نرى أن القضايا الفكرية والسياسية التى كانت محور اهتمام جورج حبش فى سنواته وأشهره وأسابيعه وأيامه الأخيرة هى القضايا التى ستشكل محور اهتمام المناضلين على امتداد العالم العربى فى السنوات القادمة. فلقد كان دوماً مسكوناً بهموم المستقبل. المستقبل الذى لا يأتى من فراغ ولكن من إرهاصات وتراكمات الماضى والحاضر. فجورج حبش كان يجمع فى شخصه كل تجربة حركة القوميين العرب وكل تجربة الحركة الناصرية وكل تجربة نضال الشعب الفلسطينى فى الأربعين سنة الماضية. وكان متفائلاً.

ما هى الصفات الشخصية التى نعرفها عن هذا الإنسان الاستثنائى؟

تعرفت على جورج حبش وأنا فى المدرسة الثانوية سنة ١٩٥٤.

كنت مع مجموعة من التلاميذ، الفلسطينيين والسوريين فى دمشق،أعضاء فى جمعية سرية تعمل على النضال من أجل تحقيق الوحدة العربية وتحرير فلسطين، وكنا قد رأينا أعداداً من النشرة التى يتم توزيعها بشكل دورى فى المخيمات والمدارس الفلسطينية وتحمل اسم «الثأر» وتصدرها هيئة مقاومة الصلح مع إسرائيل. وكنا متلهفين لمعرفة من هى تلك الهيئة وكيف يمكن الاتصال بأعضائها. وفجأة وجدت أخى عصام، وكان فى سنته الأولى بعد التخرج من الجامعة، يحدث أبى وأمى عن شخص يدعى الدكتور جورج حبش الذى هو القائد البارز لحركة سياسية جديدة تدعى «الشباب القومى العربى». وأنه كان يصدر مجلة الرأى فى عمان وبعد إغلاقها من قبل الحكومة الأردنية وملاحقته حضر إلى دمشق ويقوم حالياً مع مجموعة من الشباب القومى العربى بالإعداد لإصدار المجلة فى دمشق.

بعد حوالى الأسبوعين من ذلك بدأت

مجلة الرأى تصدر من دمشق وبدأ أخى عصام مع مجموعة من الشباب القومى العربى يعقدون اجتماعاً أسبوعياً فى بيتنا كهيئة لتحرير المجلة، فتعرفت على الدكتور جورج حبش وهانى الهندى وعدنان فرج وفيصل الخضراء وغسان محاسنى وثابت المهاينى والحكم دروزة وبقية المجموعة وأخذ واحد منهم يعطينى خمسين عدداً من نشرة الثأر وخمسة وعشرين عدداً من مجلة الرأى لأقوم مع بقية أعضاء الجمعية بتوزيع النشرة على طلاب المدارس وبيع أعداد المجلة للأصدقاء.

دعانى ذلك الشاب بعد ذلك مع أعضاء الجمعية لتشكيل حلقة من حلقات «الشباب القومى العربى» وكان ذلك بداية انتسابى مع بعض أعضاء الجمعية لحركة القوميين العرب.

كما كان ذلك بداية زياراتنا اليومية لمقر مجلة «الرأى»، وكان عبارة عن غرفتين صغيرتين فى الطابق الرابع لعمارة فى شارع جمال باشا مقابلة لعمارة الهاتف الآلى، وهناك تعرفت على غسان كنفانى وكان قد أنهى الدراسة الثانوية ويعمل مدرساً فى الكويت كما تعرفت على بلال الحسن وكان مثلنا ما زال فى المدرسة الثانوية.

كنت مع أحمد خليفة وبلال الحسن وقتادة الشريف وبضعة أصدقاء آخرين نهتم بالأدب والثقافة بشكل خاص، فألفنا رابطة «الأدب والحياة» وأصبحنا نقوم بالإشراف على تحرير الصفحة ١٠ فى مجلة الرأى الخاصة بالشئون الثقافية مما جعلنا نتواجد فى مكتب المجلة بشكل يومى تقريباً.

منذ البداية، كنا نشعر بمعنى خاص للساعات التى نقضيها هناك، إذ كان الدكتور جورج موجوداً وكان اسمه قد أصبح بالنسبة لنا هو «الحكيم» فذلك كان الاسم الذى يناديه به جميع أصدقائه وهو الاسم الذى ينادى به الفلاحون فى فلسطين طبيب الصحة.

كان فى شخصية «الحكيم» جاذبية مميزة أسرة لأنك كنت تشعر فور التعرف عليه أنك قد تعرفت على شخص مهم وغير عادى، وبنفس الوقت كنت تشعر أنك تعرفت على شخص سيكون صديقاً لك ولن يكون بينك وبينه أى حاجز.

لقد رأينا فى شخصية الحكيم مزيجاً ساحراً من النشاط والعفوية والأصالة.لم نعهده من قبل.

كان دائم الحركة والنشاط، ففى مكتب الرأى كان دوماً يقضى وقته فى الكتابة أو القراءة أو الحديث مع أحد الزوار وكان عندما ينتهى من ذلك يترك المكتب حيث يكون على موعد لمزاولة نشاط آخر.ولا أعتقد أننى رأيته فى تلك الأيام مرة واحدة جالساً بدون أن يكون منهمكاً بعمل ما.:كان يكرس كل طاقاته وكل إمكاناته فى أى عمل يقوم به مهما كان ذلك العمل. وكان ذلك يشيع جواً من الحركة والنشاط من حوله، فترى أن كل الذين يعملون معه يجهدون ليقدموا كل ما عندهم من طاقات وإمكانات.

عندما يكون الحكيم موجوداً فى مكتب «الرأى»، كانت وتيرة العمل والنشاط أعلى بكثير من الوقت الذى لا يكون موجوداً فيه.

كان فى كل ما يقوم به عفوية وبساطة أسرة. فعندما كان يتناول الطعام فى مكتب الرأى كان يتناوله مع الشاب الذى يعمل كعامل فى المكتب. وفى ذات مساء كنت وإياه وحيدين فى المكتب وحضر لرؤيته أحد رجال السياسة فعرفنى عليه وأشركنى فى الحديث الذى دار معه، بالرغم من كون ذلك الزائر زعيم كتلة برلمانية كبيرة فى مجلس النواب السورى وأنا طالب فى المدرسة الثانوية..

وفى إحدى الأمسيات لم يكن فى المكتب إلا أنا أراجع بعض «مواد الصفحة ١٠»، والحكيم فى الغرفة الأخرى يكتب المقال الافتتاحى للعدد الجديد من المجلة.وعندما دخلت عليه لأرى إذا كان قد انتهى من كتابة المقال لكى آخذه إلى المطبعة فى طريق عودتى للبيت وجدته يمسح دموعه بأصابع يده، وعندما لاحظ أنى رأيت ذلك ابتسم وقال: إن من عادته أن تدمع عيناه عندما يكون متأثراً من شىء ما. ثم تابع الكتابة.

بعد يومين صدر عدد «الرأى» الجديد وفيه افتتاحية يرد فيها حديث عن المجازر التى ارتكبتها إسرائيل بحق الشعب الفلسطينى..

وكان فى أحاديثه السياسية دوماً شىء أكبر من السياسة. عندما كان يتحدث عن القومية العربية كنت تشعر وكأنه عاش فى الزمن العربى الذهبى وأنه يعرف كل أبطال التاريخ العربى معرفة شخصية. وعندما كان يتكلم عن الوحدة العربية كنت تحس وكأنه قد سافر للمستقبل العربى وعاش فى دولة الوحدة ثم عاد ليحدثنا عما رآه هناك. أما عندما كان يتحدث عن فلسطين فكنت تحس وكأنه ما زال يعيش فيها ولم يتركها للحظة واحدة.

كان من الواضح أن حديث الحكيم يحرك فى أعماقنا شيئاً ما.

كان من الواضح أن تصرفات الحكيم تستنهض فى نفوسنا طاقة ما.

ولهذا فقد أحببناه وأصبح كل واحد منا يعتقد أن الحكيم صديقه الشخصى.

وفى ربيع عام ١٩٥٦ شاركت فى مخيم أقامه «الشباب القومى العربى» فى برمانا فى لبنان وتعرفت فيه على شباب لبنانيين وعراقيين وفلسطينيين من الضفة الغربية ووجدت أن الذين يعرفون الحكيم منهم يتحدثون عنه بحرارة وحب مما يشير إلى أنهم يشاركوننى نفس الشعور نحوه.

فى مطلع عام ١٩٥٩ سافرت للدراسة فى الولايات المتحدة وبعد حصولى على شهادة الماجستير عدت لمدة سنتين للبلاد العربية ثم سافرت لكندا وحصلت على شهادة الدكتوراة وعملت أستاذا فى إحدى الجامعات الكندية التى ما زلت أعمل فيها حتى اليوم.وطوال كل تلك السنوات. باستثناء فترة ١٩٧٠-١٩٧٥، لم أنقطع عن رؤية الحكيم والتواصل معه بشكل مستمر.



فلسطين: ٦٠ عاما



كما كان لجورج حبش دور رئيسى فى تأسيس حركة القوميين العرب بعد نكبة ١٩٤٨ كان له أيضا دور رئيسى فى تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعد هزيمة ١٩٦٧



فى عقدى الثمانينات والتسعينيات كان الحكيم يقيم مع أسرته فى دمشق وفى زيارتى السنوية لأهلى كل صيف كان أخى أسامة (وهو من أقرب أصدقاء الحكيم منذ ١٩٥٦) يخبرنى عن موعد لقائنا مع الحكيم ونحن فى الطريق من المطار إلى البيت. وفى كل زيارة لدمشق كنت ألقاه عدة مرات. كما أننى التقيت به فى بيروت وعمان والكويت. وأحب هنا أن أتوقف عند أربع مناسبات فقط من تلك اللقاءات.

الأولى كانت فى بيروت فى صيف ١٩٧٥.

وصلت بيروت قادماً من كندا مع بدايات الاشتباكات التى قادت للحرب الأهلية وعلى الفور ذهبت لرؤية الحكيم مع الصديق نوبار فى مقر الجبهة الشعبية فى مخيم شاتيلا.

كنت قد التقيت بالحكيم أكثر من مرة بعد هزيمة ١٩٦٧ وبعد تأسيس الجبهة الشعبية ثم انقطعت عن لقائه لمدة خمس سنوات حدثت بها أحداث جسام وانتقل فيها الحكيم من شخصية معروفة على نطاق العالم العربى إلى شخصية معروفة على اتساع العالم ولذلك فقد ذهبت إلى ذلك اللقاء وأنا متلهف لرؤية الشخصية التى كنت أعرفها عن كثب فى الماضى ثم أصبحت أتتبع أخبارها من شاشات التليفزيون الأمريكى وعناوين الصحف العالمية.

كم كانت دهشتى وفرحتى عندما اكتشفت أن الحكيم لا يتغير.

لا أقول ذلك لأنه استقبلنى وتحدث معى تماماً وكأنى ألقاه بعد أيام من لقائى الأخير به.

وإنما لأن حديثى معه أعادنى إلى أجواء السياسة التى افتقدتها منذ سنوات. ففى بداية السبعينيات حدث تغير كبير فى طبيعة أحاديث رجال السياسة فى العالم العربى. لقد اختفت أجواء النقاش والحوار والتفاعل التى كانت سائدة فى الخمسينيات والستينيات، وحلت محلها أجواء الخطب والمحاضرات. لم أجتمع بقائد سياسى فى تلك الفترة عنده تساؤل أو شك حول أى موضوع. كانت عملية الاستماع لحديث أى سياسى عملية صعبة مملة لأنها كانت فى الواقع عبارة عن استماع إلى خطاب سياسى. ولهذا عندما وجدت الحكيم ما زال يستمع أكثر مما يتكلم، ويطرح مواضيع تشغل باله وتثير فى ذهنه تساؤلات، عندما وجدت أن الحكيم ما زال قادراً على الدهشة والحماس لأفكار جديدة، شعرت براحة نفسية كبيرة.

تحدثنا وتناقشنا وتناقلنا أخبار الأصدقاء المشتركين وعندما هممت بالانصراف وكانت الساعة قد قاربت العاشرة مساء قال

إنه ذاهب أيضاً إلى البيت ويستطيع توصيلي في سيارته إلى الفندق.

في الطريق ونحن نمر في منطقة شديدة الازدحام توقفت السيارة بسبب عطل مفاجئ في إحدى عجلاتها فنزلنا منها ووقفنا في الطريق ننتظر أن يفرغ السائق من عملية تركيب عجلة أخرى.

تبادلت مع نوبار نظرات قلق وترقب خوفاً على سلامة الحكيم بينما راح هو يتابع الحديث الذي كان قد بدأه في السيارة، وكان يسألني عن رأيي في مشكلة التضخم المالي التي كانت تعصف بالاقتصاد الأمريكي ذلك الوقت، وبدون أن يبدو عليه أي قلق أو ترقب.

ومع ذلك فعندما خلوت لنفسي في الفندق وجدت أن الحياة في خضم الأحداث والشهرة الإعلامية قد أحدثت تغييراً ما في شخصية الحكيم. لقد رسمت على وجهه مسحة حزن لم أعهدها في السابق. وأذكر أني ظللت لأيام، بعد ذلك، أتساءل بيني وبين نفسي: هل جاء ذلك الحزن من أحداث السنين الماضية، أم أنه نذير من السنوات القادمة؟

المناسبة الثانية التي أحب أن أتوقف عندها كانت في صيف سنة ١٩٨٠ في دمشق.

كنت أزور أهلي في الصيف وذات يوم جاء أخي أسامة مهموماً وأخبرني أن وعكة صحية مفاجئة قد ألمت بالحكيم وأنه سيحضر في المساء من بيروت لدمشق لإجراء الفحوصات الطبية.

حضر الحكيم إلى بيت أسامة في المساء ومعه زوجته هيلدا وأحد أصدقائه من الأطباء اللبنانيين. وعلى الفور أخذ الحكيم يتحدث معي كعادته بينما ذهب أسامة وهيلدا والطبيب إلى غرفة أخرى لإجراء الاتصالات بالأطباء والمراكز الصحية للحصول على مواعيد إجراء الفحوص وبعد أن فرغوا من ذلك انضموا إلينا واشتركوا بالحديث الدائر حول أوضاع المقاومة في لبنان.

في منتصف الليل تركته عائداً إلى بيتنا وقد نسيت تماماً أن الحكيم يعاني من عارض صحي حتى أنه عندما سألني أبي عن وضع الحكيم الصحي لم أستطع أن أزيد على ما قاله له أسامة قبل أن ألتقي بالحكيم. ولقد تكرر ذلك الموضوع فيما بعد أكثر من مرة. كل مرة ذهبت لأرى الحكيم وفي نيتي الاطمئنان على صحته عدت وأنا أفكر في أشياء أخرى لا علاقة لها بصحته. وفي إحدى تلك المرات أبديت استغرابي من ذلك الوضع لأخي أسامة. فابتسم وقال: «هذا هو الحكيم» وبعد فترة تأمل عاد يقول:

«كل من خاض تجربة التعذيب في السجون العربية يدرك أن السجين ينتصر في تلك التجربة على سجانيه عندما ينجح بينه وبين نفسه في عدم التفكير في مصير جسده باعتبار أنه فقد السيطرة عليه كلياً وأصبح تحت سيطرة السجان. إن القدرة على ذلك التصرف تمنح صاحبها قوة لا متناهية من العزيمة والإصرار والقدرة على

زمن «الحكيم»



حركة فتح كانت من أول من طرح فكرة عدم جدوى خوض الصراع مع إسرائيل بأسلوب حرب الجيوش النظامية وضرورة التزام حرب التحرير الشعبية



الصمود والتحدي..... وبنفس المنطق فإن الذي يميز الحكيم عن غيره من القادة هو قدرته منذ البداية على حسم موضوع الشأن العام والشأن الخاص فمنذ البداية وهو قادر على التصرف بدون أي اهتمام بقضاياه الشخصية، سواء أكانت مادية أو صحية، ولقد منحه ذلك التصرف قدرة هائلة على الاحتفاظ بمبادئه وقيمه وأخلاقه تحت أقسى الظروف..».

أما المناسبة الثالثة فكانت في صيف عام ١٩٨٢ وأيضاً في دمشق.

أبحرت سفن المقاومة من بيروت بعد الحصار التاريخي الذي استمر ثلاثة أشهر ووصلت السفينة التي تقل الحكيم إلى شاطئ طرطوس وجاء هو والمقاتلون إلى دمشق.

لن أنسى أبداً لقاءه بزوجته هيلدا وبناته ميساء ولما. وكانت هيلدا ولما قد تركتا بيروت وحضرتا إلى دمشق قبل ذلك بأيام والتقتا بميساء التي حضرت من ألمانيا الشرقية حيث كانت تدرس الطب في إحدى جامعاتها. في تلك الأمسية تعرفت على جانب من شخصية الحكيم لم أكن أعرفه في السابق وهو ما يخص حياته العائلية.

كانت في عيون هيلدا وعيون ميساء وعيون لما فرحة حب جارف تجلي لي يومها بأنه قادر على حماية الحكيم من كل شرور الأرض وخصوصاً وأنا أرى ذلك الحب يكبر ويتضاعف في عيون الحكيم.

بين العناق والقبل رأيته يمسح دموعه فعدت سنوات إلى الوراء عندما كنت أراه يمسح دموعه وهو يكتب افتتاحية مجلة «الرأي».

كان من الواضح لي أن الحكيم لم يكن يعتقد أنه سيخرج من بيروت حياً وأنه سيرى هيلدا وميساء ولما مرة أخرى فقد كان في عينيه فرح طفولي وكان مرحاً ومتحمساً للكلام والحديث بشكل أعاد إلى ذاكرتي الحكيم كما عرفته في الخمسينيات. روى لنا قصصاً حدثت أيام حصار بيروت وروى لنا قصصاً عن بطولة المقاتلين وعن امتنانه لتصرفات بعض الأصدقاء ومواقفهم معه في الأوقات الحرجة وبشكل عفوي وطبيعي انتقل من الحديث عن أيام حصار بيروت وراح يتحدث عن عبد الناصر ولقائه الأول به ثم عن عشائه معه في بيته في منشية البكري في القاهرة، وكيف كان عبد الناصر يعيش في منزل بسيط ويرتدي ثياباً بسيطة ويتناول عشاء بسيطاً ويتحدث بعفوية ودفء.

في الأيام التالية كان الحكيم يستقبل الزوار الذين حضروا ليسلموا عليه ويهنوه بسلامة الخروج من الحصار.

كان بعض الزوار يسأل الحكيم عن تصرفات بعض القادة الفلسطينيين أثناء الحصار وفي السؤال تلميح واضح يغمز من صلابة أولئك القادة. ومرة تلو الأخرى كان الحكيم يدافع عن الجميع ويرفض التعريض بأي واحد منهم، وأبعد ما وصل إليه هو القول بأن الوضع لم يكن عادياً وإنما كان وضعاً صعباً وبالغ التعقيد ويجب أخذ ذلك بعين الاعتبار عند تقييم تصرفات الآخرين.

تذكرت وأنا أستمع لرفض الحكيم المتكرر التعريض بتصرفات الآخرين كلمة قالها والدي قبل أكثر من عشر سنوات وهي أنه لم يسمع أبداً الحكيم يتحدث بشكل شخصي عن أي إنسان آخر. فعدت بذاكرتي أحاول أن أعثر على استثناء لذلك فلم أجد. نعم، كان دوماً يهاجم المواقف السياسية لكثير من القادة ولكنني لم أسمعه أبداً يتكلم بأسلوب التجريح الشخصي.

بعد أيام بدأت ألتقي لوحدي بالحكيم، وفي تلك اللقاءات ذكر لي لأول مرة بأنه يفكر في أن يتنحى عن منصب الأمانة العامة للجبهة الشعبية في أول فرصة يجدها ملائمة. وشرح لي أنه ينوي القيام بذلك لسببين. الأول هو أنه يعتقد أن على القائد السياسي إفساح المجال أمام العناصر الشابة بعد بلوغه الستين من عمره. والثاني هو رغبته في ترك مهمات المسئوليات اليومية المباشرة والتفرغ لمهمة دراسة المراحل الماضية من النضال وتقييمها من أجل استخلاص الدروس والعبر.

كان مؤمناً أن تجارب الماضي منذ بداية حركة القوميين العرب كانت تجارب غنية يجب دراستها ونقدها واستيعاب دروسها وأنه يجب مواجهة المستقبل بثقة لا تتوفر إلا بعد هضم كل دروس الماضي.

الذي أثار استغرابي في تلك الجلسات هو حماس الحكيم للدور الجديد الذي يطمح إلى ممارسته وتكريس كل وقته له. ولقد رأيت يومها أن ذلك الحماس ينبع من كون الحكيم، أولاً وقبل كل شيء آخر، تلميذا يحب أن يتعلم أشياء جديدة.

أما المناسبة الأخيرة فكانت قبل شهور وتخص لقاء لم يتم في دمشق.

كنت في بيروت في شهر أيلول الماضي واتصل بي من عمان وطلب مني لقاءه في دمشق وذلك من أجل التشاور في موضوع يخص أحد مشاريع مركز «الغد العربي للدراسات».

ذهبت إلى دمشق واتصلت به في عمان ولكنه لم يتمكن من الحضور إلا بعد يوم من عودتي إلى بيروت فاتفقنا على اللقاء مرة أخرى بعد شهر.

عندما ذهبت لدمشق في المرة الثانية وسألت أخي أسامة عن موعد مجيء الحكيم فاجأني بقوله أنه لن يتمكن من الحضور لأن وعكة صحية ألمت به.

سارعت بالاتصال به بالتليفون فردت على هيلدا وشرحت لي وضعه الصحي ثم أعطته سماعة التليفون ليتكلم معي فتصرف كعادة الحكيم، التي أعرفها جيداً. لم يذكر كلمة واحدة عن مرضه بل راح فوراً يناقشني في فحوى رسالة كنت قد كتبتها له من بيروت بالاشتراك مع أحمد خليفة ومحمود سويد تخص موضوعاً كان قد كلفنا به. ثم راح يتحدث معي عن موضوع آخر يخص مركز «الغد

كان قد طلب منى ومن بلال الحسن الاهتمام به.

يبدو أن حماس الحكيم قد انتقل إلىّ فأخذت أتكلم بقوة وبتصميم وفى النهاية قلت له مازحا: ها نحن يا حكيم، بلال وأحمد وأنا نعمل معك كما كنا أيام «الرأى» فانفجر بضحكة مجلجلة أعادتنى فعلاً إلى أيام الشباب فى منتصف الخمسينيات يوم كنت مع أحمد وبلال مسئولين عن تحرير الصفحة عشرة من مجلة «الرأى».

وضعت سماعة التليفون وأنا أشعر بالفرح والسعادة فتذكرت على الفور ما كان يبديه الكثيرون من الإعجاب بقدرة الحكيم المستمرة على العمل والتفاؤل تحت أقسى الظروف.



فى الواقع أن الكثيرين من الذين تعاملوا مع الحكيم فى السنوات الأخيرة كانوا يستغربون من قدرة الحكيم على الاستمرار فى العمل اليومى لساعات طوال فى الإشراف على عمل مركز «الغد العربى للدراسات» الذى أسسه وتفرغ له مباشرة بعد تخليه عن منصب الأمانة العامة للجبهة الشعبية، وهو الذى جاوز الثمانين من عمره، وعنده وضع صحى صعب.

وفى هذا المجال، أحب أن أقول أن كل من يعرف الحكيم عن قرب كان يعرف أنه إلى جانب حسه الوطنى المرهف واستعداده للتضحية بدون حدود، فإنه كان يحب عمله ويتمتع بتأديته على أفضل وجه. فالعمل السياسى بالنسبة له لم يكن، كما كان بالنسبة لبعض الساسة الآخرين، التزاماً تورط فيه فى سنوات الشباب والحماسة والبراءة، ولم يستطع التحرر منه بعد ذلك لأنه وجد نفسه بدون مهنة أخرى تؤمن له ما يحصل عليه من العمل السياسى. ففى كل مراحل حياته كان العمل السياسى بالنسبة له ناجماً عن اختياره الحر، لأنه كان دوماً يملك بدائل أخرى (لقد كان الأول فى صفه عندما تخرج من كلية الطب فى الجامعة الأمريكية وبدأ حياته كطبيب ما لبث أن كرس عيادته لمعالجة المحتاجين من المرضى).. ولذلك كان يمارس العمل السياسى بحب وشغف وتفاؤل.

وأهم من ذلك، كان الحكيم، فى العمل السياسى، يمثل حالة نادرة فى أنه كان يعرف من هو، وماذا يريد، وما هى حدود دوره؟

كان مناضلا ثورياً يعيش فى مرحلة الثورة المضادة. أى أنه يعيش خارج شرعية الأمر الواقع.

كان يريد أن يغير من ذلك الواقع عن طريق تهيئة الظروف الموضوعية للقيام بحركة نهوض وطنى شاملة تسحب الأرض من تحت قوى الثورة المضادة.

كان يؤمن بحتمية الانتصار فى تلك المهمة التاريخية مهما طال الزمن وفى نفس الوقت كان مدركاً بأن ذلك يحتاج لسنوات طوال وأنه شخصياً لن يعيش فى زمن الانتصار.

كان إيمانه العميق بأن ما يقوم به، بشكل يومى، يعمل على تقريب ذلك الزمن كافياً لأن يمنحه شعور الرضا والحرية والسلام.

كان شعوره بالرضا عن حياته وعن عمله نابعا من فهمه العميق لحركة التاريخ الإنسانى. كان يؤمن بأن لتلك الحركة على الأمد البعيد خطًا صاعداً باتجاه الحرية والتقدم وإن كانت فى الأمد القصير تسلك طريقاً متعرجة فيها هبوط وصعود حول ذلك الخط الصاعد.

كان ذلك الإيمان يحميه من صقيع الزمن الردىء الذى نمر به. ويبعث فى ضميره القدرة على تحدى هذا الزمن والإصرار على النضال للوصول إلى زمن تنتصر فيه مبادئ الحرية والعدالة والسلام.

كان من القلة النادرة التى تعيش دائما فى المركز الحقيقى للأحداث. فى قلب إرهاصات الثورة الإنسانية المستمرة.

ولهذا كان صوته يصل إلى كل الفلسطينيين فى المدن والقرى والمخيمات فيسمعون فيه صدى ما يجيش فى قلوبهم وعقولهم ووجدانهم من إيمان وإصرار وتمسك بالعودة إلى فلسطين..

كان صوت الحكيم صافياً يأتى على نفس موجات الأصوات الحقيقية التى تسمعها عندما تبرق العاصفة فى جبل الجرمق فتضىء سطور غسان كنفانى وتلمع فى أبيات محمود درويش وتتلألأ فى لوحات إسماعيل شموط وتتفجر فى خطوط ناجى العلى.

ذلك الصوت الذى هو فى الواقع الصدى المدوى لصوت يكاد لا يسمع فى هذا العالم وهو صوت يتامى وأرامل وثكالى مخيم جنين ومخيم جبالية ومخيم بلاطة ومخيم الأمعرى ومخيم صبرا ومخيم شاتيلا وقانا....و......و.....

ولقد تمكن الحكيم من الاحتفاظ بذلك الصوت طوال ستة عقود لأنه كان يتمتع بصفة نادرة لا يتمتع بها إلا الشعراء العظام. ألا وهى القدرة على سماع أصوات الصمت.

وهكذا أثبت جورج حبش أنه أعظم الشعراء على الإطلاق. فلقد سرق ضمير الشعب الفلسطينى طوال النصف الثانى من القرن العشرين.. ■

هــــوامــــش:

(١) تحدث جورج حبش فى مؤتمر عام ١٩٧٢ أن الجبهة الشعبية تعيش ظواهر المراهقة اليسارية والنزعة الانتهازية اليسارية

(٢) مؤسسة الدراسات الفلسطينية(١٩٩٨) مرجعيات ٣: حوار شامل مع جورج حبش. أجرى الحوار محمود سويد.

(٣) راجع عدد مجلة الشراع فى ٧ تموز ١٩٩٧.

كتاب الزاوية



رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا

محمود محمد شاكر

اعلم أنى قضيت عشر سنوات من شبابى، فى حيرة زائغة، وضلالة مضنية، وشكوك ممزقة، حتى خفت على نفسى الهلاك، وأن أخسر دنياى وآخرتى، محتقبًا إثمًا يقذف بى فى عذاب الله بما جنيت. فكان كل همى يومئذ أن ألتمس بصيصًا أهتدى به إلى مخرج ينجينى من قبر هذه الظلمات المطبقة علىَّ من كل جانب. فمنذ كنت فى السابعة عشرة من عمرى سنة ١٩٢٦، إلى أن بلغت السابعة والعشرين سنة ١٩٣٦، كنت منغمسًا فى غمار حياة أدبية بدأت أحس إحساسًا مبهمًا متصاعدًا أنها حياة فاسدة من كل وجه. فلم أجد لنفسى خلاصًا إلا أن أرفض متخوفًا حذرًا، شيئًا فشيئًا، أكثر المناهج الأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية التى كانت يومئذ تطغى كالسيل الجارف، يهدم السدود، ويقوض كل قائم فى نفسى وفى فطرتى.

ويومئذ طويت كل نفسى على عزيمة حذَّاء ماضية: أن أبدأ، وحيدًا منفردًا، رحلة طويلة جدًا، وبعيدة جدًا، وشاقة جدًا، ومثيرة جدًا. بدأت بإعادة قراءة الشعر العربى كله، أو ما وقع تحت يدى منه يومئذ على الأصح، قراءة متأنية طويلة الأناة عند كل لفظ ومعنى، كأنى أقلبهما بعقلى، وأروزهما (أى: أزنهما مختبرًا) بقلبى، وأجسهما جسًا ببصرى وببصيرتى، وكأنى أريد أن أتحسسهما بيدى، وأستنشى (أى: أشم) ما يفوح منهما بأنفى، وأسمع دبيب الحياة فيهما بأذنى، ثم أتذوقهما تذوقًا بعقلى وقلبى وبصيرتى وأناملى وأنفى وسمعى ولسانى، كأنى أطلب فيهما خبيئًا قد أخفاه الشاعر الماكر بفنه وبراعته، وأتدسس إلى دفين قد سقط من الشاعر عفوًا أو سهوًا تحت نظم كلماته ومعانيه، دون قصد منه أو تعمد أو إرادة.

قد يخفض معدل النمو من حدة الفقر، ولكنه لن يحقق عدالة في توزيع الدخل والثروة في المجتمع

التنميـــة فى عــالم متغيـر

محـمـود محـيـى الـديـن

■■ بعد عمل دام لمدة عامين متصلين، وتحديداً منذ أبريل ٢٠٠٦ وحتى أبريل ٢٠٠٨، انتهت لجنة النمو والتنمية من إعداد تقريرها الذى يحمل اسمها، ويقع فى ١٦٥ صفحة، ويتضمن خلاصة تجارب الدول التى حققت نجاحاً فى تحقيق النمو منذ الحرب العالمية الثانية.

ونسق لأعمال هذه اللجنة الدولية المستقلة عالم الاقتصاد البارز «مايكل سبنس» - الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد عام ٢٠٠١، وضمت فى عضويتها تسعة عشر عضواً من الاقتصاديين والمسئولين والسياسيين من عدد من الدول النامية فضلاً عن مشاركة الاقتصادى المخضرم «روبرت سولو» الحاصل أيضاً على جائزة نوبل فى الاقتصاد لتحليله لأسباب وآليات النمو الاقتصادى.

سينظر إلى هذا التقرير، فى تقديرى، باعتباره نقلة نوعية فى فهم أسباب النمو الاقتصادى وتحرراً من أسر ما يعرف «بتوافق واشنطن» Washington Consensus، إذ يؤكد التقرير على أهمية تبنى أسلوب مرن وبراجماتى فى سياسات النمو والتنمية دون وصفات جاهزة واجبة الاتباع، ويضع التقرير فى الوقت ذاته النمو الاقتصادى فى مركز الصدارة من حيث الأولوية فى السياسات المتبعة. ليس لأهمية النمو فى حد ذاته لكن باعتباره معيناً على تحقيق أهداف التنمية من مكافحة للفقر وإتاحة لفرص العمل وزيادة الدخول والإسهام فى توفير الخدمات العامة كالتعليم والصحة.

ويعول التقرير على قدرة الدولة، ممثلة فى حكومة فاعلة، فى تحقيق أهداف التنمية اعتماداً على تحقيق معدلات عالية ومطردة ومتواصلة للنمو الاقتصادى.



واستئناساً بتجارب ١٣ دولة حققت نقلة نوعية فى حياة شعوبها، أكد التقرير أن معدل النمو المتواصل لا يجب أن يقل عن ٧٪ فى المتوسط ولمدة لا تقل عن ٢٥ سنة. هكذا شهدت تجارب دول مثل الصين واليابان وكوريا وماليزيا والبرازيل وسنغافورة. وهكذا تنبئ أيضاً تجربة دول أخرى ستلحق بهذا الركب مثل الهند وفيتنام. وبتتبع خلاصة التجارب الناجحة فى النمو هناك دول أخرى يظهر بجلاء أن هناك دولاً أخرى على ذات الطريق إذا ما أحسنت صنعاً فى التعامل مع تحديات النمو التنمية.

ويتضح من الدراسات التفصيلية التى اعتمد عليها التقرير أن هناك خصائص مشتركة فى الدول التى حققت هذا النمو المطرد.

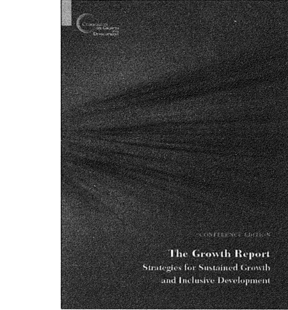
أولاً .. انفتاح هذه الدول على الاقتصاد العالمى والانتفاع بتدفقات الاستثمار الأجنبى وزيادة الصادرات السلعية والخدمية والاستفادة من تطور العلوم والمعارف فى الارتقاء بكفاءة العنصر البشرى فى هذه البلدان.

ثانياً .. تحقيق استقرار فى الاقتصاد الكلى خاصة فيما يتعلق بمعدلات التضخم وحسن الأداء المالى.

ثالثاً .. التوجه المستقبلى فى السياسات الاقتصادية بمزيد من الاعتماد على معدلات عالية من الادخار والاستثمار..

رابعاً.. الاعتماد على آليات السوق المنظمة فى توظيف الموارد وحسن توجيهها للاستخدام الأكفأ لها.

خامساً .. وجود قيادة فاعلة وتطبق قواعد الحكم الرشيد الملتزم بتنفيذ السياسات الدافعة للنمو وحريصة على شمول التنمية لكافة أبناء المجتمع دون استبعاد أو انحياز، ومن خلال جهاز إدارى كفء يقوم بأعبائه ومسئولياته على أفضل وجه.



ويؤكد التقرير فى أكثر من موضع على أن النمو ليس هدفاً ولكنه وسيلة لتحقيق أهداف وطموحات الأفراد والمجتمعات المختلفة التى لا يمكن تحقيقها بدونه. فالنمو هو السبيل لمكافحة فقر الأمم والتخفيف من شقاء الناس، ولا يظهر التاريخ الإنسانى أى سبيل آخر غير النمو لتحقيق هذه الأهداف.

فبغيبة من النمو لن تتحقق الموارد المطلوبة للرعاية الصحية وتوفير التعليم المناسب وغيرهما من حاجات البشر الأساسية. فالنمو ضرورة حتمية للنهوض بحياة البشر والارتقاء بالأمم .. ولكن رغم احتفاء التقرير بالنمو وأهميته يشدد على أنه لن يؤدى وحده إلى تحسين أحوال الناس جميعاً دون مساندة بسياسات وتدابير أخرى تعزز من عدالة الحصول على الفرص فى التعليم، والتدريب والحصول على الموارد اللازمة للارتقاء بمستوى المعيشة دخلاً ومكانة فى المجتمع.

فقد يخفض معدل النمو من حدة الفقر، ولكنه لن يحقق منفرداً عدالة فى توزيع الدخل والثروة فى المجتمع. بل قد يترتب على النمو تفاوت فى الدخل فى المراحل الأولى لارتفاعه باعتبار ما قد يكون فى المجتمع والاقتصاد من تمايز وتباين بين الأفراد والقطاعات والأقاليم الاقتصادية، يمكن بعضها دون البعض الآخر من الاستجابة السريعة لإجراءات الإصلاح والتطوير بينما تبطئ معوقات الحركة وما جلبته آليات العمل فى عهود التخلف الاقتصادى بشرائح المجتمع وقطاعات فى الاقتصاد وأقاليم فى الدولة عن الملاحقة والمنافسة.

وفى حين يظهر التقرير تفاصيل الخصائص الخمسة سالفة الذكر إلا أنه لا توجد وصفة واحدة تتبعها المجتمعات فتنهض بإحسان، أكسير يتعاطاه الاقتصاد فيتقدم بإنجاز.

فلكل مجتمع محدداته ومقوماته وما يضرب به فى التاريخ، سواء كان تاريخه عميقاً ثرياً فى الدول ذات الحضارات أو كان تاريخه من حيث النشأة قصيراً ضحلاً رغم ما قد يبدو عليه من إمارات القدم، إن دققت فيها وجدتها مستعارة.

ولا يحدث النمو على أية حال فجأة ولكنه يتطلب التزاماً طويل المدى من

The Growth Report
Strategies for Sustained Growth and Inclusive Development
تقرير النمو: استراتيجيات النمو المستدام والتنمية الشاملة
Commission on Growth and Development
The International Bank for Recons Reconstruction and Development The World Bank
Washington
May 2008

إذا ما أرادت الحكومة أن تسبغ حمايتها على من هم أولى، فلاشك أنهم البشر... من خلال تعليمهم وتطوير مهاراتهم وإعانتهم على تحقيق فرص للعمل اللائق



قبل قيادة مؤمنة بتطبيق إستراتيجية للإصلاح بصبر، ومثابرة ومرونة.

ولم يعرف التاريخ الاقتصادى نمواً مطرداً ومرتفعاً لما يتجاوز ٧٪ فى العام ولمدة تزيد على ٢٥ عاماً إلا فى النصف الثانى من القرن العشرين. فلم يكن هذا ممكناً من قبل، حيث مكن الاندماج الاقتصادى العالمى الدول الساعية للنمو أن تستجلب أفكاراً ومعارف من مواطن تطورها من خلال استقدام الاستثمار الأجنبى المباشر وإرسال البعثات التعليمية والتدريبية. ولما كان تعلم المستحدثات أيسر من استحداثها من عدم، تجد الدول الناهضة سرعان ما تلحق بالدول التى تقدمت عنها.. فالنمو الاقتصادى ليس مجرد مؤشر إحصائى يظهر حال اليوم مقارناً بالأمس، ولكنه كحصان السبق يمتطيه من أراد لحاقاً بما فاته وبمن تجاوزه فى مضمار سباق الأمم.

ويتيح الاقتصاد العالمى لمن يحسن التعامل مع تحدياته واقتناص فرصه، مجالاً لزيادة الإنتاج من خلال طلب المستوردين، مولداً بذلك فرصا للعمل وزيادة الدخول لم تكن لتتحقق لو انكفأ الاقتصاد على ذاته يعتصر منه ما لا تجود به موارده. ولا سبيل لذلك إلا بالتخصص والكفاءة التى يتيحها التنافس وفقاً للمزايا النسبية الكامنة وتلك التى تكتسب.

ويذكرنا التقرير بأن النمو الاقتصادى يقاس فعلاً بمؤشرات كلية، كقياسك لطول الأشجار تبين ما تنتهى إليه قممها، ولكن العمل، كل العمل وراء هذه القمم المتطاولة يحدث فى الجذور. فعند منابت الأشجار، تجد عملية الإحلال والتجديد، وتحل الكفاءة محل تدهور الأداء وتدنيه، وتتم أيضاً جهود المساندة للأضعف شأناً والأقل حظاً فى الأخذ بمتطلبات النمو، حماية لحقوقه واستنهاضاً لإمكانياته ليكون عوناً للنمو وليس عليه.

ويشير التقرير إلى قيود النمو فيذكر أن فى عالم اليوم الذى يشهد وفرة فى العمل وزيادة فى الطلب العالمى على المنتجات يكون القيد على سرعة النمو متمثلاً بالأساس فى حدود الاستثمار بشقيه الخاص والعام. ويحد من الاستثمار مدى وفرة المدخرات، فالمشاهد أن الدول ذات النمو المرتفع تبلغ نسبة الادخار القومى فيها ٢٠٪ إلى ٢٥٪ من إجمالى الناتج.

يمكن بطبيعة الحال الاعتماد على تدفق رؤوس الأموال لتمويل الاستثمار المطلوب ولكن هذه التدفقات الرأسمالية تعانى من التقلب الذى لا يمكن من الاعتماد عليها فى تمويل عملية الاستثمار والنمو فى الدول الراغبة فى النهضة والتحرير من أسر التراجع الاقتصادى، ولا يمكن اعتبار مدخرات الأجانب التى تستقدم من خلال الاستثمارات الأجنبية المباشرة وغير المباشرة أو الاقتراض بديلاً بحال من الأحوال عن المدخرات المحلية التى تستوجب رعاية فى تحفيزها وحسن تعبئتها من خلال قطاع كفء للوساطة المالية.

لم تحقق أى دولة نمواً اقتصادياً يذكر دون استثمارات عامة ضخمة فى البنية الأساسية والتعليم والرعاية الصحية. وهذه الاستثمارات لا يمكن اتهامها بمزاحمة الاستثمار الخاص أو تقليص دوره، بل إن هذه الاستثمارات التى طالما عزف القطاع الخاص عن الدخول فيها لانخفاض عائدها وطول فترة انتظاره، تمهد الطريق أمام المشروعات الإنتاجية من ناحية وتعجل بتوزيع ثمار النمو لتحسينها فرص المنافسة، وتحقيق العدالة بين أفراد مجتمع يتمتعون بذات القدر من التعلم والرعاية الصحية والقدرة على الانتقال من مكان لآخر فى وطنهم.

قد تكون المشاركة بين القطاع الحكومى والقطاع الخاص فى تمويل مشروعات البنية الأساسية والتعليم والصحة، قد حسنت من فرص دخول الاستثمارات الخاصة فى هذه المجالات ولكن تظل تحت رعاية وضمانات من الحكومة.. وفى أى حال تظهر خبرة الدول الناهضة اقتصادياً ارتفاعاً من الاستثمارات العامة فى مشروعات البنية الأساسية لم تقل عن ٥٪ إلى ٧٪ من الناتج المحلى الإجمالى..



من نافلة الذكر، أن يشار إلى أن التعليم مهم فى حد ذاته وليس فقط لفضله فى رفع معدلات النمو. ولكن المشاهد فى عدد من الدول التى تحتفى «بكم التعليم» مقاساً بمؤشرات سنوات يقضيها التلميذ فى الدراسة أفضل شأناً من نتائج هذا الكم سواء من حيث الإلمام بمبادئ المعرفة والتعامل مع الأرقام وإتقان بعض المهارات. ولن ينمو اقتصاد ولن ينهض مجتمع لمجرد مكوث أبنائه، وإن كثرت أعدادهم، لفترات طوال فى معاهد شيدت لتعليم ما لا ينفع.

يؤكد التقرير على أن هناك فارقا كبيرا بين حماية بعض المنشآت والصناعات وحماية الناس. فلا تؤدى حماية منشآت متدنية الكفاءة سيئة الإدارة لا توفر لقطاعاتها مزايا نسبية أو تنافسية على الاستثمار، إلا إلى ضرر اقتصادى كبير لعموم الناس الذين يتحملون خسائرها من خلال إهدار الموارد وضياع الإيرادات العامة فى إصلاحها وما قد تكبده هذه المنشآت من زيادة فى المديونية والخسائر وكذلك منع لبضاعة أفضل نوعاً واقل سعراً من الوصول إلى المستهلك.

وإذا ما أرادت الحكومة أن تسبغ حمايتها على من هم أولى، فلاشك أنهم البشر... من خلال تعليمهم وتطوير مهاراتهم وإعانتهم على تحقيق فرص للعمل اللائق... لائق لما تدربوا عليه ولائق أيضاً من حيث ما يولده من دخول تعينهم على الحياة ومطالبها.

لا يتوقف أمر الإصلاح والتطوير عند البنية الأساسية ولكن يمتد إلى إحداث تحول هيكلى فى الاقتصاد على أن يكون هذا التحول مبنياً على قواعد المنافسة وقد وجدنا فى عدة حالات أن التطوير قد يمتد إلى الأهداف السهلة غير ذات الحساسية فيتناول سوق السلع والخدمات ولا يمتد إلى سوق العمل لتنظيمه وتطويره وتحقيق المرونة الواجبة فيه لكى تتحرك العمالة من قطاع قليل أو منعدم الكفاءة إلى قطاع أكثر إنتاجية ومتقدم الكفاءة والتنافسية.

ولعله من المناسب أن تتحلى السياسات المتعلقة بسوق العمل على قدر عال من البراجماتية الممكنة من تحقيق أهداف التشغيل دون إحداث هزات غير مبررة فى مصائر من لم يكونوا سببا فى تدهور الأداء، ولعل هذه السياسات تأخذ وقتاً طويلاً حتى تؤتى ثمارها.

وحتى تظهر الثمار، فعلى الحكومة ممثلة للدولة أن توفر شبكة متكاملة ويعتمد عليها للضمان الاجتماعى لكل من يستحق، فتعين ذوى الحاجة وتساعد المضطر بالدخول النقدية أو بالسلع العينية.



وترى لجنة النمو والتنمية أنه لا أمل فى نجاح أى إستراتيجية للنمو دون التزام بعدالة الفرص المتاحة لكل مواطن.. وإن كان من البديهى أن نذكر أن عدالة الفرص، كحال الدخول فى أى سباق تنافسى، لن تؤدى إلى تساوى النتائج ... ولكن تظل العدالة جالبة لرضا الناس عن النتائج.. ولا يجب أن تكتفى الحكومة بهذا حتى لو كانت استراتيجياتها للنمو واضحة وتم تطبيقها بعدالة. فعلى الحكومة مسئولية تخفيض عدم العدالة فى توزيع الدخول وهى غالبا ما تحدث بالمراحل الأولى للنمو.. ولها فى ذلك أن تأخذ من الغنى لتعطى الفقير. وإن لم يكن السند الأخلاقى لهذا الرأى مقنعا فإن المبرر البراجماتى جدير



لم تحقق أى دولة نمواً اقتصادياً يذكر دون استثمارات عامة ضخمة فى البنية الأساسية والتعليم والرعاية الصحية



بالإقناع. فالتفاوت غير المبرر فى الدخول وتعريض شرائح من المجتمع لأوجاع الفقر، وتمتع شرائح أخرى بثروات فاحشة، لن يسفر إلا عن أضرار اجتماعية وسياسية وأمنية باهظة، بما يهدد مسيرة الإصلاح التى تنشد النمو والتنمية.

ويلاحظ المتابع لأداء الاقتصاد فى دول شهدت نمواً مرتفعاً، بعد انخفاض فيه لسنوات، ظاهرة التباين فى إدراك أثر النمو، بل وتفاوت هذا الأثر فعلياً خاصة فى المراحل الأولى للنمو .. ويظهر التباين بين قطاعات أو أقاليم ولهذا التباين علاج فى الأجل المتوسط من خلال السياسات ومن خلال ضخ الاستثمار فى البنية الأساسية.

ولكن هناك تبايناً أخطر أثراً يصعب علاجه إن لم يتم تداركه مبكراً، وهو ما قد يكمن بين الناس بسبب النوع، فليست الأنثى كالذكر من حيث حظها فى التعلم والتدريب، فإن هى أدرجت فى الدراسة لسنوات، سرعان ما انقطعت عنها دون إتمام إما لضيق ذات اليد، أو تفضيلاً لتوجيه موارد الأسرة للذكور أو خشية تعرضها لشر أو مكروه أو إعداد لها لزواج قد لا يتم أو لا يكتمل. وقد انطلق البعض خلال القرن الماضى مذكرين الناس ببديهية أن المرأة نصف المجتمع عدداً، وربما أوضحوا أنها كل المجتمع تهيئة وتنشئة وسنداً إذا ما أردنا له أن يكون طيب الأعراق.

إن فى تعليم المرأة وإشراكها فى تنمية المجتمع نفعا لها ولذويها. وربما تحقق قدر من التعليم الكمى للمرأة وربما ارتقى هذا التعليم نوعاً فى بعض المجتمعات، ولكن تظل مشاركة المرأة أدنى من طموحها، وما يستوجبه تطور مجتمعها. فهى إن شاركت فى سوق العمل قل متوسط دخلها عن دخل الرجل وإن تساويا فى الأداء، وهبط سقف ارتقائها عن شقائقها من الرجال. وقل مثل ذلك عن المشاركة الاجتماعية والسياسية ولكن بإشارة إلى أسقف أدنى لحدود الارتقاء، ومازال هذا التفاوت قائماً فى دول ارتفع دخلها وبانت عليها سمات العدل الظاهر.

من المشاهد فى بعض الدول التى حققت ارتفاعاً للنمو أنها لم تكن ساعية بالضرورة لتحقيق حرية الأسواق ولكنها اتبعت سياسات متنوعة لزيادة الصادرات ودفع التنافسية، بما فى ذلك اتباع سياسات لدفع الاستثمار فى بعض القطاعات الجديدة أو التدخل فى إدارة سعر الصرف، وتدخل بعضها فى حركة رؤوس الأموال، ولكن هذه السياسات جاءت بقدر كبير من الجدل والاختلاف حول نفعها مقابل تكلفتها ومخاطرها.

ولكن الدرس المستفاد من تجارب الدول هو التمتع بدرجة عالية من المرونة والبراجماتية فى الابتعاد عن هذه السياسات والإجراءات إذا لم تحقق نتائجها، وأن يتم التعامل معها كدواء يجب تعاطيه ويتم التوقف عنه فور تماثل المريض للشفاء .. وإلا أصبح الدواء علة من علل الإدمان ذات تكلفة باهظة يصعب البراء منها.

ومن المشاهد أيضا أن الدول صاحبة النمو المرتفع نزعت إلى إهمال البيئة فتلوث الهواء والماء بكافة أنواع وأشكال الأذى، بما يقرب آفة الإهمال بتكراره إلى جريمة العمد فى قصد إهدار حق الناس، فقيرهم وغنيهم، فى نوعية مقبولة للحياة. وحتى إذا ما تركنا ظاهرة تغيرات المناخ لدارسها المفسرة لأسبابه، فلتنظر إلى الإهدار الظاهر للبيئة من مخلفات الصناعة سائلة وصلبة، وما يتركه الناس من فضلات معيشتهم دون معالجة أو حد أدنى من مراعاة قواعد نظافة البيئة، فضلا عن ما تسببه سياسات دعم المحروقات والطاقة من توجيه للاستثمار بل ونمط الحياة إلى هدر إمكانية المجتمع وزيادة الصناعة الملوثة وأنماط الإنتاج والمعيشة كثيفة، وإن لم تكن سفيهة، الاستخدام للطاقة خاصة غير المتجددة.

قد يقال وعن حق أن الدول النامية قد تكون اقل إهدارا للبيئة من تلك المتقدمة وتكفى الإشارة فى ذلك إلى انبعاثات الكربون التى تتركز بالدول الصناعية الكبرى، ولكن هل اختلف نمط الإنتاج فى الدول النامية عن تلك التى سبقتها لتصبح أفضل للبيئة ممن سبقها إلى تدميرها؟ وأين دور هذه الدول النامية فى الحفاظ على حقها وحقوق أجيالها القادمة فى ظل هذا الجدل حول البيئة الذى صار معتركا دوليا وليس عملا يظنه البعض خيريا؟ وهل أعدت الدول النامية لأجهزتها المعنية بالبيئة أفضل إمكاناتها التى يمكن أن توفرها لفهم أخطر الظواهر التى تهدد سلامة البشرية من خلال التغيرات المناخية؟ وهل أخذت بالأسباب للتوقى من شرور هذه المتغيرات؟

ولا يتركنا التقرير دون أن يوضح مجموعة من التحديات بعضها يخص دولا بعينها وبعضها الآخر يأتى شاملا لكافة الدول وإن اختلف مدى تأثرها بهذه التحديات.

فالتقرير يخص دول أفريقيا جنوب الصحراء بالإشارة إلى مشاكلها الجغرافية وتدنى بنياتها الأساسية وتخلف نتج عن عهود من الاستنزاف لموارد طبيعية تحسنت أسعار بعض مستخرجاتها فى السنوات القليلة الأخيرة وهى تواجه تحديا يتمثل فى مدى القدرة على الاستمرار فى الانتفاع بأسعار هذه الموارد وتنويع صادراتها وزيادة قيمتها.

كما يشير التقرير إلى دول صغيرة من حيث العدد السكانى والمساحة والموارد بما يجعل أى إنفاق استثمارى لتطوير بنيتها الأساسية ذا تكلفة باهظة إذا ما قيس بمتوسط نصيب المنتفعين بهذا الإنفاق لافتقاده مزايا الحجم والقدرة على تنويع الاقتصاد.

ويشير التقرير أيضاً إلى بلدان غنية بالموارد الطبيعية ومدى قدرة هذه البلدان إلى التعامل مع نقمة الغنى المانعة من اتخاذ إجراءات حصيفة لإدارة الاقتصاد وبناء المجتمع بفضل ما يأتيها من موارد تغنيها فى ظاهر الأمر وفى الأجل القصير.. وكثيراً ما تقع هذه البلدان فريسة، وإن تغير شكل الافتراس، لمن يستنزف هذه الموارد من خارجها أو من داخلها، ويلهو الناس فيها ولو إلى حين بموارد ريعية تأتى بلا كد مذكور أو عمل مشكور. وتعانى اقتصاداتها من أوجاع «المرض الهولندى» الناجم عن تفاوت فى نمو القطاعات وتركز فى مصادر الثروة والدخل وعائد الصادرات، لا براء منه إلا بحسن استغلال وتوظيف الموارد فى الداخل والخارج وتبنى سياسات تعتمد على نمو الاقتصاد المحلى وبناء الإمكانات استثماراً فى البشر وفى البنية الأساسية الممكنة لهم من الإنتاج.

أما المجموعة الرابعة، فهى تلك التى تنتمى لها الدول متوسطة الدخل الساعية إلى النمو، والحفاظ عليه والتى يشتد عليها وطيس المنافسة كلما اشتدت اقتراباً من مصاف الدول الأعلى دخلاً وقللت من حجم الفجوة بينها. فكلما ارتفعت الأجور فى هذه الدول قلت درجة تنافسيتها وانخفضت المزايا النسبية فى صناعاتها كثيفة العمالة، فيصبح لزاما عليها الاعتماد على قطاعات تعتمد على المعرفة والابتكار والاستناد إلى رصيد أكبر من رأس المال المادى والبشرى، وعليها فى هذا أن تحسن الإمساك بدفة التحول إلى هذه القطاعات، بمزيد من التدريب والتأهيل للعمالة، لتلبية متطلبات القطاعات الجديدة خاصة بالنسبة للمهارات الدقيقة المطلوبة، وإلا واجهت بطالة ظاهرة أو مقنعة لعمالة متوسطة أو متدنية المهارة، وما يصحب هذا كله من تبعات.



وينتهى التقرير بالحديث عن التحديات العالمية الجديدة والتى تتمثل فى أربعة: التغيرات المناخية، وتغيرات الأسعار النسبية والمشاكل الديموجرافية، والحوكمة على مستوى العالم.

التغيرات المناخية: لعل ما يشهده العالم من تغيرات فى المناخ من أخطر التحديات التى تواجهه، ومن أوجه الخطر الذى يبدو داهماً أن المتسبب فيه لا يتحمل أثره ووزره وحده بل يتحمله آخرون معه وفى بعض الحالات البعض وزر الآثم .. فالدول الأفقر هى الأقل إسهاماً فى هذه التغيرات المناخية من حيث انبعاث الكربون أو تخليف الملوثات ولكنها تدفع الثمن صراحة أو ضمناً، بل قد يدفع الأفقر ثمناً أكبر بحكم عدم توفر وسائل التوقى لديه أو التحوط من تغيرات المناخ، وإذا ما اشتدت الأزمات بالدول الأفقر قد تجدها محل منحة أو هبة أو إعانة عاجلة من بعض المتسببين فى نشأة الأزمة.



الدول الأفقر هى الأقل إسهاما فى هذه التغيرات المناخية من حيث انبعاث الكربون أو تخليف الملوثات ولكنها تدفع الثمن صراحة أو ضمنا

ولعل الأولى بأصحاب المنح والهبات أن يمنعوا الضرر ابتداء بدلاً من محاولة إعانة المكروبين انتهاء. يمكن الاستناد إلى التكنولوجيا ومستحدثاتها وآلياتها للسيطرة على انبعاثات الكربون وترشيد استخدامات الطاقة. وإذا كان على أحد القيام بجهد فى هذا الشأن، فهو على الدول المتقدمة وليس سواها..

والتحدى العالمى الثانى: هو الانخفاض الملحوظ فى الأسعار النسبية للمنتجات المصنعة وارتفاع أسعار السلع الأولية والخامات فى ذات الوقت فى ظاهرة غير مشهودة من قبل. فالارتفاعات المتلاحقة فى أسعار المواد الأساسية والسلع الأولية والمنتجات الزراعية قد تحقق نفعاً لمنتجيها. وذلك فى وقت خفضت الصين «وأخواتها» من أسعار المنتجات المصنعة بما حقق ما يشبه الانقلاب فى شروط التبادل التجارى وآثاره الاقتصادية بما فى ذلك أوضاع موازين المدفوعات، وما يرتبط بمستقبل الطلب العالمى على السلع الأولية والمصنعة من تغيرات..

أما التحدى الثالث فيظهر فى المشاكل الديموجرافية .. فبفضل ارتفاع توقعات الحياة عند الولادة لتحسن نسبى فى الرعاية الصحية وعلاج الأمراض من ناحية وانخفاض معدلات الإنجاب والخصوبة أصبحت الهياكل السكانية للبشر تنزع إلى ارتفاع متوسط العمر.. ويترتب على ذلك تحديات فيما يتعلق بمعدلات النمو والطلب على المنتجات خاصة من قبل الدول المتقدمة، وارتفاع نسب الإعالة ممن يعملون لمن لا يعملون لتخطيهم سن التقاعد وما يرتبط بذلك من اختلالات فى نظم التأمينات الاجتماعية والمعاشات وعدم القدرة على التواؤم العاجل مع هذه التغيرات فى الدول التى تعانى منها وخاصة الدول الأوروبية. يصاحب ذلك ارتفاع فى معدلات الخصوبة والولادة وزيادة معدلات نمو السكان فى البلدان النامية بما يصحب ذلك من ارتفاع فى بطالة صغار السن فى حالة انخفاض معدلات النمو الاقتصادى أو تدنى معدلات إتاحة فرص العمل حتى مع ارتفاع معدلات النمو.

وفى ظل قيود مفروضة على حركة العمالة والهجرة من أجل العمل تتعقد المشكلة السكانية على مستوى العالم. ويتطلب هذا كله تنسيقاً دولياً وسياسات أكثر مرونة للسماح بانتقال العمالة، التى تعقد من مشاكل العولمة.

أما الحوكمة على مستوى العالم فهى التحدى الرابع والأخير الذى يرصده تقرير النمو والتنمية؛ فلقد عول التقرير كثيراً على القدرة على التنسيق الدولى والتفاعل على المستوى العالمى لمشكلات الاقتصاد التى لم تعد قطرية تدور فى حدود دولة من الدول أو حتى مجموعة من البلدان تجاورت فى موقعها الجغرافى.. وفى ظل تطور الأهمية النسبية للدول النامية وأثر التدفقات المالية واختلال التوازن بين الادخار والإنفاق بشكل عام. ولن تحقق الدول النامية نمواً يذكر دون مساندة من الدول الأكثر تقدماً والمساندة هنا ليست دعماً أو هبة، ولكنها تفعيل القدرة على النفاذ إلى الأسواق وزيادة الصادرات. ولن يحقق ذلك ما نراه من تعقيدات فى سبل حركة تجارة الدول النامية خاصة فى ظل التغيير الذى تشهده دورة الدوحة لمفاوضات التجارة فى إطار منظمة التجارة العالمية.

ومع تواتر أزمات الاقتصاد والتجارة والمال فى خلال السنين الماضية وما يشهده الاقتصاد العالمى من تحديات اقتصادية مستجدة يتطلب الأمر بناء مؤسسياً جديداً وقواعد عادلة وفاعلة لإدارة النشاط الاقتصادى العالمى، وهو ما قد يأخذ وقتاً طويلاً قد تتخلله أزمات حادة، فى عصر يشهد عدم توافق، غير موفق، بين زيادة الاعتماد المتبادل على المستوى العالمى وقدرة محدودة على التكيف والتنسيق والتعاون الملائم بين الدول الفاعلة فى النشاط الاقتصادى.

ولعل هذا النجاح المشهود لدول نامية فى مضمار الإنجاز الاقتصادى، وهذا البزوغ المعتبر لأنشطتها الإنتاجية يستدعى أسئلة طرحت فى الماضى عن حدود النمو ومدى استمراره وشموله لما فيه نفع للناس. ويؤكد التقرير على أنه لا توجد إجابة قاطعة على التساؤلات حول حدود النمو، أو أن النمو سينطلق مدفوعاً بتوفر أسبابه. ولكن بعض الإجابة تكمن فى القدرة على الإبداع وتوظيف التكنولوجيا والعلم النافع فى إنتاج سلع وخدمات يطلبها الناس فى حدود ما هو متوفر من موارد طبيعية يحسن استخدامها. وسيظل هذا هو التحدى الأكبر فى القرن الحادى والعشرين الذى يجب مواجهته بنمو اقتصادى مطرد ومستمر تشمل منافعه الناس جميعاً دون تمييز وبما يخفض الفقر ويجفف منابعه بسياسات مرنة براجماتية تتولى تنفيذها حكومات فاعلة لما يريده الناس منها، دون هدر للإمكانية أو إجراءات شعبوية قد تفرح بعض الناس يوماً وتحزنهم جميعاً فى الأيام التالية، وهذا ما لا يرجى من أى سياسة تنشد النمو أو تسعى للتنمية. ■

كتاب الزاوية



منهجى فى تذوق الكلام

محمود محمد شاكر

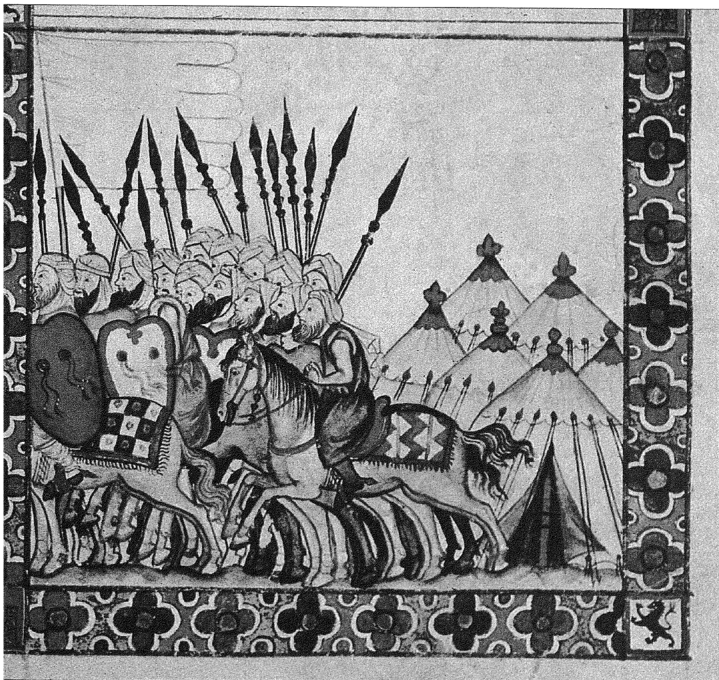
المنهج الذى استطعت أن أمهده لفكرى، كان نابعًا من صميم المناهج الخفية التى سنَّ لنا آباؤنا وأسلافنا طرقها، وأن كل جهدى فيه، هو معاناة كانت منى لتبين دروبها ومسالكها، ثم إزالة الغبار الذى طمس معالمها، ثم أن أجمع ما تشتت أو تفرق من أساليبها، معتمدًا على دلالات اللسان العربى، لأن كل ذلك مخبوء تحت ألفاظ هذا اللسان العربى، ومستكن فى نظم هذا اللسان العربى، وهذا يكاد يكون أمرًا مسلَّمًا ببديهة النظر فى شأن كل لغة وتراثها. والذى لا يملك القدرة على استيعاب هذه الدلالات وعلى استشفاف خفاياها، غير قادر البتة على أن ينشئ منهجًا أدبيًا لدراسة إرث هذه اللغة، فى أى فرع من فروع هذا الإرث، إلا أن يكون الأمر كله تبجحًا وغطرسة وزهوًا وغرورًا وتغريرًا، كما هو الحال فى حياتنا الأدبية هذه الفاسدة.

هذا هو جوهر حديثى عن منهجى فى «تذوق الكلام» كله شعرًا ونثرًا، وأخبارًا تروى، وعلمًا يُكتب أو يستخرج، لأن ذلك كله إنما هو إبانة عما تموج به النفوس، وتنبض به العقول. ففى نظم كل كلام وفى ألفاظه، ولابد، أثر ظاهر أو وسم خفى من نفس قائله وما تنطوى عليه من دفين العواطف والنوازع والأهواء من خير وشر أو صدق وكذب، ومن عقل قائله، وما يكمن فيه من جنين الفكر، (أى مستوره)، من نظر دقيق، ومعان جلية أو خفية، وبراعة صادقة، ومهارة مموهة، ومقاصد مرضية أو مستكرهة. فمنهجى فى «تذوق الكلام»، معنى كل العناية باستنباط هذه الدفائن، وباستدراجها من مكامنها، ومعالجة نظم الكلام ولفظه معالجة تتيح لى أن أنفض الظلام عن مصونها، وأميط اللثام عن أخفى أسرارها وأغمض سرائرها.

جهاد فاضل

الأندلس: هل كان غزوا؟!

■ فرسان مسلمون وخيالة.. تصوير من أناشيد الفونس العاشر، أواخر القرن الثالث عشر، مكتبة دير سان لورنزو دى الاسكوريال.



بعض الإسبان مازالوا يطاردون تاريخ العرب فى بلادهم إلى اليوم، وكأن حرب الملكين الكاثوليكيين فرديناند وايزابيلا ضد مسلمى الأندلس لم تضع أوزارها بعد



العرب لم يغزوا الأندلس
رؤية تاريخية مختلفة
أغناسيو أولاغى
نقله بتصرف من الإسبانية إلى العربية
إسماعيل الأمين
بيروت - رياض الريس للكتب والنشر

■ الأندلس بعيون إسبانية غير الأندلس بعيون عربية، فالإسبان، وحتى الساعة، لم تَصفُ نفوسهم إزاء الحقبة العربية الإسلامية فى شبه الجزيرة الأيبيرية التى استمرت ثمانية قرون بالتمام والكمال. ولكن إذا شئنا الدقة أكثر، قلنا إن الإسبان إزاء تلك الحقبة ينقسمون إلى قسمين: هناك من ينظر إلى الأندلس على أنها جوهرة تاريخ إسبانيا، ونواة حضارتها وحضارة أوروبا المعاصرة. فالأندلس هى التى نشرت عبر ابن رشد وعبر سواه من فلاسفتنا، الفكر العلمى والعقلانى فى الغرب. والأندلس كانت بداية عصر الديمقراطية والحرية والانفتاح والتسامح وحقوق الإنسان إلى أى دين انتسب، وهى القيم العزيزة على قلوب الغربيين. والأندلس فى صورة الإنسانية المعاصرة بل والمستقبلية من حيث تعايش الأديان والثقافات والشعوب. وإلى هذه الفئة من الإسبان ينتسب مفكرون ومؤرخون وباحثون كبار. منهم، على سبيل المثال لا أكثر، المؤرخ إمريكو كاسترو الذى يقول فى كتابه عن تاريخ إسبانيا إنه لولا المسلمين لما كانت إسبانيا على صورتها التى نعرفها اليوم، فـ «إسبانيا الإسلامية»، حسب قوله، هى التى وهبت إسبانيا المعاصرة كل خصائصها الثقافية والحضارية والقومية. وإلى هذه الفئة أيضًا ينتسب المستعرب الإسبانى الكبير «كوديرا» الذى دعا فى بدايات القرن الماضى، إلى تعريب أوروبا وأسلمتها على أساس أن ما ينقص أوروبا هو ثقافة الروح والوجدان، وهذه تشع من الإسلام على أفضل وجه. وكان الأمير شكيب

أرسلان الذى عرف كوديرا عن قرب، يقول إن أصله عربي، فهو من قبيلة «قديرة» وليس إسبانيًا صليبة.

أما القسم الثانى من الإسبان فهو ينظر إلى الحقبة الأندلسية نظرة طائفية ضيقة، فالعرب مستعمرون محتلون كأى مستعمرين أو محتلين، وإذا كانت هذه الفئة من الإسبان قد انحسر نفوذها مع الوقت، منذ سقوط غرناطة وصولاً إلى وقتنا الراهن، إلا أنها لا تعدم التعبير عن نفسها بين الآن والآخر. ويتضح بجلاء لمن يقرأ خطاب هذه الفئة، أن هذا الخطاب صادر عن فكر طائفى متعصب. فالعدو هو الإسلام ولا مكان للإسلام فى شبه الجزيرة الأيبيرية. بل لا مكان فى شبه الجزيرة الأيبيرية إلا للكاثوليكية دون سواها. والطريف أن إسبان القرون الوسطى لم يتسامحوا لا مع اليهود ولا حتى مع البروتستانت. لقد كالوا بمكيال واحد بالنسبة لهؤلاء جميعاً، فالواقع التاريخى يقول إن الإسبان طردوا مع العرب اليهود ولم يتساهلوا حتى بقيام كنيسة لوثرية بروتستانتية بين ظهرانيهم، فبقيت إسبانيا كاثوليكية خالصة.

وبالرغم من الهزيمة التاريخية المريرة التى لحقت بالعرب عام ١٤٩٢، بسقوط مملكة غرناطة، ثم بتهجير الموريسكيين بصورة همجية قسرية لم يعرف التاريخ مثيلاً لها، فإن بعض الإسبان مازالوا يطاردون تاريخ العرب فى بلادهم إلى اليوم، وكأن حرب الملكين الكاثوليكيين فرديناند وايزابيلا ضد مسلمى الأندلس لم تضع أوزارها بعد. وكأن محاكم التفتيش التى كانت تحاكم من بقى من مسلمى الأندلس متخفين، على ضمائرهم وسرائرهم لم تُنْه مهمتها بعد. وآخر ما سجل فى هذا الإطار صعود أحد الناشرين الإسبان فى «ملتقى ابن زيدون» الأخير فى قرطبة إلى المنبر ليدعو العرب إلى شراء كتاب إسبانى جديد للمؤرخ والأكاديمى الإسبانى الدكتور أغناسيو أولاغى، محوره أن العرب لم يغزوا إسبانيا عسكريًا بل غزوها ثقافيًا لا أكثر، وبالتالى فإن وجهة نظر العرب حول «فتح» مزعوم للأندلس، وحول عقبة بن نافع وطارق بن زياد، إنما هى من وحى الخيال لا أكثر. والأندلسيون أنفسهم لم يكن لديهم مثل هذا التفكير لوجودهم فى إسبانيا. ويخلص هذا المؤرخ إلى القول إن القاهرة كانت مصدر خرافة فتح العرب للأندلس. «ولكن هذه الخرافة عندما نقلت إلى أيبيريا، نمت وانتشرت بصورة واسعة لأنها وجدت لها مناخًا مشابهًا لمناخ الشرق».

المؤرخون العرب غائبون بالطبع عن مثل هذه النظريات، فأحدث ما لديهم حول تاريخ العرب فى الأندلس هو ما كتبه المؤرخ أو الباحث المصرى محمد عبدالله عنان فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى. أما ما كتبوه هم حول هذا التاريخ فمجرد تنويعات على ما كتبه عنان. ولأن الطريق إلى مكتبة الاسكوريال وباقى مكتبات إسبانيا وأوروبا لم يعد سالكًا منذ بداية عصر الانقلابات العسكرية العربية، فإن الساحة قد خلت للمؤرخ الإسبانى الدكتور أغناسيو أولاغى ولبقية المؤرخين والباحثين الإسبان الذين مازالوا حاقدين على العرب والمسلمين إلى اليوم. إذ كيف تمكن هؤلاء «البرابرة» من السيطرة على إسبانيا والبرتغال ثمانية

الحضارة العربية الإسلامية فى ثلاثة أرباع عالم تلك الأيام.



يقول جان بايرت فى مقدمة ملخص فرنسى لهذا الكتاب: فى عصرنا النووى هذا يمكننا أن نتخيل كارثة نووية تدمر الإنسانية، تاركة وراءها بعض المجموعات المتخلفة فى أستراليا مثلاً.

وبعد آلاف السنين تزدهر حضارة جديدة على الأرض، وتكتشف الأجيال المنحدرة من هؤلاء الناجين القارة الأوروبية، مركز الكارثة القديمة، ولا تجد سوى كتابين: رأس المال لكارل ماركس، ورواية عسكرية بحتة حول الهجوم الألمانى على روسيا سنة ١٩٤١.

قبل أن يحلل المؤرخ هذه النصوص



مصر وبلدان الشمال الأفريقى كله، كانت مهيأة لاعتناق الدين الجديد بحكم انتسابها من قبل إلى أرومة سكانية واحدة



قرون، وهى أطول فترة حكمت فيها دولة من الدول إسبانيا وبقية شبه الجزيرة الأيبرية؟

لا بأس بالطبع من بسط نظرية أغناسيو أولاغى كما وردت فى كتابه المذكور الذى لا يمكن لأحد اطلع عليه إلا أن يشهد له بالكفاءة والإحاطة وحسن «المرافعة» فى القضية التى أوكل إلى نفسه الدفاع عنها.

يقول المؤلف إن الدعوة الإسلامية فى إسبانيا لقيت مناخًا ملائمًا بحيث لم يُجبِر الإسبان الذين سادت فى مجتمعهم الديانة الأريوسية خلال القرن الثانى، إلا تعديلات طفيفة على معتقدهم وفكرهم وثقافتهم وعاداتهم ليتحولوا إلى الإسلام.

فالعرب والمسلمون لم يفتحوا إسبانيا عسكريًا، والتحول إلى الإسلام فى الأندلس لم يتم إلا عبر حركة الأفكار وتصارعها، ثم هيمنة ما يسميه المؤلف بـ «الفكرة/ القوة» التى شكلت عصب

القديمة يضع فرضية: اجتاح الألمان أوروبا الشرقية وفرضوا الماركسية.

أما بالنسبة للمعاصرين الذين شاركوا فى احتفالات الثورة الروسية فى سنة ١٩١٧، فإن هذه الفرضية تبدو مضحكة، لكنها أقل إضحاكًا من فرضية أخرى مقبولة عالميًا، هى أن العرب اجتاحوا شبه جزيرة أيبيريا وفرضوا الإسلام. ذلك لأن الألمان اجتاحوا روسيا فعلاً، بينما لم يدخل أى جيش عربى إسبانيا!

بالاستناد إلى وثائق لا تقل جزئية وتجزؤا عن تلك التى كان سيدرسها المؤرخون المفترضون أعلاه، اعتقد المؤرخون التقليديون أن بإمكانهم التأكيد على أن الحضارة العربية الإسلامية قد فُرضت على إسبانيا بقوة السلاح.

فى الواقع، إضافة إلى التمييز العقائدى لدى المسلمين والمسيحيين على السواء، استند المؤرخون من الطرفين إلى بضعة نصوص لم يعاصر أى منها أصلاً فترة تحول الأيبيريين إلى الإسلام.

أما الكنيسة الإسبانية فقد حكم رؤيتها للتاريخ هاجس إيجاد موضوعة تناسب موقفها، خصوصًا فى القرن السادس عشر. وإذا قيل إن أيبيريا تم غزوها من قبل قوة عسكرية هائلة، تتفادى الكنيسة الخجل من أنها ظلت خاضعة لهذا الغزو مدة ثمانية قرون.

أما الحقيقة فهى غير ذلك. كانت المسيحية فى أيبيريا فى نهاية القرن السابع فى حالة انحلال كامل، خصوصاً بعد قرن سيطرت فيه الأريوسية كديانة رسمية فى دولة مزدهرة.

ولم يكن الأمر فى شبه جزيرة أيبيريا سوى محاولات لاستعادة سلطة مسيحية، سياسية ودينية، مفقودة. أشعل الأمراء الرجعيون من متدينين وعلمانيين حرباً استمرت ثلاثة أرباع القرن، وانتهت بانتصار الأريوسيين الذين تابعوا تطورهم فى سياق منطقى واضح وأصبحوا مسلمين.

فى هذا المجال، يبدو من الضرورى، بنظر المؤلف، إعادة دراسة الانتشار الإسلامى منذ بدء الدعوة، هل تم هذا الانتشار عبر السجال العسكرى، أم اللاهوتى والسياسى، أم كليهما معاً؟ وما هو حجم الدور الفعلى لكل منهما؟

ألا يمكن، بدلاً من فتوحات عسكرية مستحيلة، أن يكون انتشار الدعوة الإسلامية فى أيبيريا وغيرها، قد جاء ثمرة لحركات اجتماعية وفكرية داخلية تبنت الدعوة وساندتها؟

يُجمع المؤرخون من عرب ولاتين، من متقدمين ومتأخرين، على أن عدد المسلمين الذين دخلوا إسبانيا بلغ سبعة آلاف على أقل تقدير، واثنى عشر ألفاً على أبعد تقدير، ويجمعون كذلك على أن معظمهم كان من البربر الذين كانوا لتوهم قد اعتنقوا الإسلام، ولم يكونوا قد تعلموا العربية بعد.

كيف تمكن بضعة الآلاف هؤلاء من السيطرة على عشرة ملايين أريوسى ومسيحى يعيشون فى أهم مدن العالم آنذاك ازدهاراً؟ إن أرقام الغنائم ولوائحها التى أوردها الإخباريون المسلمون تشير إلى هذا الازدهار، بل إلى غنى فاحش.

وكيف تمكن عدد مشابه من السيطرة على خمسة عشر مليون قبطى فى مصر لتتوفر لهم فيما بعد الفرصة والإمكانات لغزو كامل لشمال أفريقيا حتى بحر الظلمات؟

نحن العرب لدينا بالطبع أجوبتنا على مثل هذه الأسئلة. من هذه الأجوبة

عندما وصلت أخبار خرافة غزو العرب لأيبيريا إلى مصر، قال البعض بهدف السخرية من العرب إنهم لم يكونوا أكثر من ستة عشر رجلاً من بين جيش يتألف من اثنى عشر ألف رجل



أن الإسلام حمل فى داخله طاقات هائلة دفعت بمعتنقيه إلى حمل رسالته ونشرها فى سائر أنحاء العالم القديم. ومن هذه الأجوبة أن مصر وبلدان الشمال الأفريقى كله، كانت مهيأة لاعتناق الدين الجديد بحكم انتسابها من قبل إلى أرومة سكانية واحدة، فالبربر، الذين يسمون الآن بالأمازيغ، هم من أصول يمنية، ولغتهم هى لغة سامية أو عربية بدائية. أما جنوب إسبانيا فقد كان يؤلف مع طنجة وما جاورها فى مدن المغرب، ولاية إدارية واحدة، والتداخل السكانى بين الجنوب الإسبانى وبلدان الشمال الأفريقى كان على أشده فى فترة وصول الإسلام إلى الغرب. لذلك كان من الطبيعى أن يتم فتح الأندلس حربًا وسلمًا فى الوقت نفسه. فالعرب المعاصرون لا يضيقون صدرًا بنظرية تقول بانتشار سلمى للإسلام فى شبه الجزيرة الأيبيرية، ولكن ما لا سبيل للجزم به - فى الوقت الراهن على الأقل، وعلى ضوء ما تسمح به النصوص والوثائق التاريخية - هو القول بأن فتحًا عسكريًا للأندلس لم يحصل أصلاً.

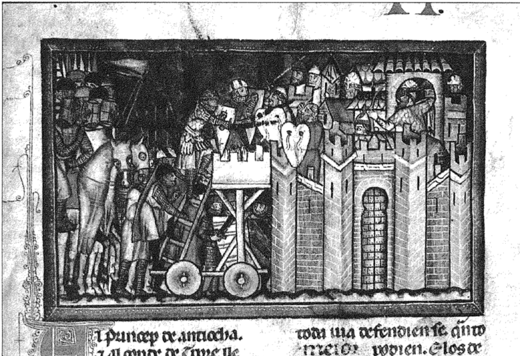


أقواس النشاب المستخدمة فى مملكة غرناطة فى عهد بنى نصر تصوير لمعركة La Higueruela بين خوان الثانى ملك قشتالة ومملكة بنى نصر سنة ١٤٣١، رسم جرانللو، كاتسللوم، تافارونى وأورازيو كامبياز، يعود إلى سنة ١٥٨٧ - ١٥٨٩، دير سان لورنزو دى الاسكوريال.

بحسب المؤرخ الإسبانى أغناسيو أولاغى، صاحب كتاب «الثورة الإسلامية فى الغرب»، نشأت فى إسبانيا فى المرحلة التى سبقت ما نسميه نحن العرب: «فتح العرب لإسبانيا»، أحداث سياسية ودينية مهدت لتدخل «قوة عسكرية» قادمة من شمال أفريقيا، وعلى التحديد من منطقة طنجة المحاذية للبر الإسبانى. هذه «القوة العسكرية» التى تدخلت لنصرة أبناء «غيطشة» على خصومهم المحليين فى شبه الجزيرة الأيبرية، إنما كان تدخلها، بنظر المؤرخ، لا لفتح الأندلس ونشر الإسلام فيه، إنما لواحد من سببين: فإما أنها تدخلت لأن طنجة مع ما يجاورها من أراض ومدن، كانت تابعة لمملكة القوط الإسبان، وبالتالى فإن تدخلها كان من ضمن عمليات ترتيب البيت الإسبانى لا أكثر ولا أقل، وإما أن تدخلها كان مأجورًا ومدفوع الثمن سلفًا!

ويضيف الباحث، كى يثبت وجهة نظره هذه، إنه ورد فى أخبار الرازى، أن أمراء القوط خافوا بعد موت غيطشة ألا يتمكن الملك الجديد الطفل من صد اجتياح لمملكته من قبل جيرانها: «بسبب صغر سن الملك، إذ كان من الممكن أن تخضع أيبيريا لسلطات أمم أجنبية: إما إمبراطورية القسطنطينية، وإما الإمبراطورية الرومانية». إذن حسب هذا النص لم يكن الخطر من دولة عربية إسلامية تمتد

حصار مدينة إسلامية من قبل القوات الصليبية المزودة بآلات الحرب. تصوير من منمنمة تعود إلى سنة ١٢٩٣ المكتبة الوطنية. مدريد.



حتى المغرب، إنما الخطر كان وافدًا من قبل أسياد العالم المسيحى. وقد أكد الرازى، الذى لم يتحدث عن وجود دولة إسلامية فى الجهة الأخرى من المضيق، والذى كان يكتب فى القرن العاشر، وأكثر من مرة، أن مثل هذه الدولة لم تكن موجودة فى بداية القرن الثامن. «ولا يمكننا أن نتصور أن بضعة آلاف من سكان الريف الذين عبروا المضيق مع طارق كانوا يتكلمون اللغة العربية. وحتى لو كان العرب قد وصلوا لتوهم إلى هناك، فإن هذه الشعوب لم تكن قد أسلمت فعلاً وتعلمت العربية».

ويرى المؤرخ أن بالإمكان الآن أن نفهم بصورة أدق كيف تمكن طارق ورجاله من اجتياز مضيق جبل طارق الخطير. لقد أرسل أبناء غيطشة رجال مدينة فاوس لنقلهم. كان هؤلاء الرجال بحارة وتجارًا. ولم تكن أهدافهم بالضرورة سياسية. بل أجَروا خدماتهم ونفذوا عملية نقل الجنود كأية عملية تجارية بحتة. فى تلك الفترة لم يكن البحر المتوسط بعد - كما هو الآن - خط تماس يفصل المسلمين عن المسيحيين. وكانت العلاقات من جميع الأصناف، وعلى جميع المستويات، قائمة وثابتة بين طنجة والبر الإسبانى تمامًا كما هو طبيعى أن تقوم مثل هذه العلاقة بين منطقتين تنتميان إلى الحضارة نفسها والدولة نفسها. وصول أبناء الريف لمساعدة الأيبيريين ليس حدثًا استثنائيًا. فعندما كاد القيصر جوليان أن يسقط ويفقد سلطته فى معركة مدينة ماندا بالقرب من قرطبة، استعان بفرسان زعيم أفريقى. وفى جميع الحقب، قدم المرتزقة من أبناء الريف فى مراكش خدماتهم لملوك القوط. كما استمروا فيما بعد فى تقديمها للأمراء والخلفاء الأيبيريين المسلمين.

حسب الروايات البربرية كان المحاربون الذين عبروا من أفريقيا إلى منطقة بتيكا لمساعدة أبناء غيطشة ضد لذريق من أصول مختلفة. كانت أكثريتهم من المراكشيين، أما البقية فمن مناطق بيزنطية. «وعندما وصلت أخبار خرافة غزو العرب لأيبيريا إلى مصر، قال البعض بهدف السخرية من العرب إنهم لم يكونوا أكثر من ستة عشر رجلاً من بين جيش يتألف من اثنى عشر ألف رجل. ربما كان موسى بن نصير من بين عناصر هذه الدزينة. ولكن حتى لو قبلنا بأن العدد كان أكثر بكثير، فلا يمكننا أن نقبل أنه كان هناك اتصال دائم برى أو بحرى بين هؤلاء المغامرين السمر وبين المركز الإسلامى الحيوى فى دمشق الذين يبعد أكثر من خمسة آلاف كيلو متر عن أعمدة هرقل».



يقول المؤرخ إن الأسطورة التى حيكت حول شخصية موسى بن نصير (القائد الأعلى للفتح بحسب وجهة النظر التاريخية العربية) لا تتطابق مع المعطيات التاريخية التى يمكننا اليوم تحديدها. فحسب الإخباريين العرب، ولد موسى بن نصير فى مكة سنة ٦٤٠ ومات سنة ٧١٨. فى سنة ٧١١ كان عمره ٧١ سنة. بالنسبة لتلك المرحلة كان هرمًا، بل طاعنًا فى السن. فى تلك الأيام كان يتعين على الجنرال أن يكون شابًا ليحتمل المشاق التى تفرضها حملة عسكرية طويلة. كان على موسى بن نصير، وفى هذه السن، أن يقوم بالرحلة من الشرق حتى أيبيريا. هذا العمل وحده يشكل بطولة مأثورة. أما تحويله إلى قائد عسكرى يقود غزو أيبيريا فيدخل فى باب الخرافة. والغزوات الآتية فى الشرق لا تصمد أمام الحس النقدى. فالجنرال فى غزواته تلزمه الجيوش. أية سطوة كان يمتلك موسى بن نصير ليجند المراكشيين الذين شكلوا - كما يقول الإخباريون العرب - الجزء الأساسى من جنوده؟ كيف كان يتفاهم مع زعمائهم الذين يتكلمون لغة غير لغته، وفى زمن لم يكن هناك مترجمون بعد؟ كانت اللغة العربية فى تلك المرحلة أكثر غرابة من الصينية اليوم. اتفق جميع المؤرخين القدماء على ألا يفسروا كيفية تمكن موسى من الوصول إلى مراكش ليجد هناك جيشًا تحت تصرفه، ويعبر به المضيق إلى أيبيريا، ويجتاحها فى ثلاث سنوات. لقد وصلت المبالغة، بنظر المؤرخ الإسبانى، حد السخرية!

يلخص المؤرخ المآثر التى نُسبت إلى موسى بن نصير بالقول إنها مجرد تذكارات غامضة، مأخوذة من كتب وروايات شعبية حول أحداث عسكرية خارقة عرف بها هناك فى الشرق، زعماء الإسلام الأوائل.

والحقيقة - كما يضيف - أننا لا نمتلك أية وثيقة رصينة حول شخصية موسى. أقدم النصوص التى تحدثت عن أعماله الخارقة هى نصوص مصرية تعود إلى بداية القرن التاسع. ويصعب علينا أن نقرر ما إذا كان الأمر يتعلق بشخصية خيالية، كما يعتقد الأسقف إيزودورو أم لا؟، وكذلك إذا ما وجدت فعلاً هذه الشخصية، فإنه يستحيل استنتاج خطوط سيرته العامة للتأكد من مجيئه إلى أيبيريا أو عدمه. فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار تلك الأجواء التى تهيمن على النصوص البربرية، يمكننا فى أحسن الأحوال أن نفترض وجود احتمالين: إما أن يكون موسى بن نصير شخصية



■ تصوير جدارى فى قصر البرطل فى مدينة الحمراء (غرناطة) يرجع إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر، نسخة تعود إلى عامى ١٩٢١ - ١٩٢٢.

كيف تمكن بضعة الآلاف هؤلاء من السيطرة على عشرة ملايين أريوسى ومسيحى يعيشون فى أهم مدن العالم آنذاك ازدهارا؟ إن أرقام الغنائم ولوائحها التى أوردها الإخباريون المسلمون تشير إلى هذا الازدهار، بل إلى غنى فاحش



خرافية، وبالتالى يتعين علينا استبعاد مآثره من التاريخ الرصين، وإما أن يكون لهذه الشخصية أساس فى الروايات المصرية والبربرية. وفى هذه الحالة، لا يكون موسى بن نصير قائدًا عسكريًا، بل مبشرًا دينيًا!

إن كاتب الأخبار البربرية: «أخبار مجموعة»، قدمه لنا كفقيه أكثر منه كقائد عسكرى. وعندما أحدثت الأزمة الثورية ذلك الهيجان فى جميع المناطق المتوسطية، نزل على الساحل الأيبيرى، منذ بداية الأحداث، أنماط كثيرة من الناس. جاء البعض بحثًا عن الثروة والمغامرة. وجاء آخرون ليبشروا بالدعوة الإسلامية. ولابد أن العرب قد تأثروا بانفجار الأزمة فى أيبيريا بين أنصار التوحيد الأحادى، الذين يعتبرونهم إخوتهم، وبين الثالوثيين الذين كانوا فى نظرهم مشركين بدرجة أو بأخرى. تأثروا لأن ذلك يذكرهم بالأحداث التى مرت فى بلادهم قبل قرن من الزمن. ولابد أن التبشير، بصورة الأكثر بساطة والأشد استقامة، قد دفعهم دون شك، إلى مساعدة هؤلاء الأيبيريين (بالفعل والكلام) الذين كانوا يحملون أفكارًا دينية قريبة جدًا من أفكارهم الإسلامية.

ونظرًا لاستحالة إرسال مساعدات عسكرية، بسبب بُعد المسافة وطبيعة وسائل النقل، أرسلوا لهم على وجه السرعة المبعوثين ليتحروا أوضاع إخوانهم فى الدين، ولينقلوا لهم تعاطفهم. ثم بعد أن تلقوا الأخبار السارة، وجهوا نحو أيبيريا السلاح والمال والكتب والمبشرين، آملين بدفع إخوانهم البعيدين إلى السير قدمًا على طريق التوحيد الأحادى، ودخول العائلة الإسلامية الكبيرة.



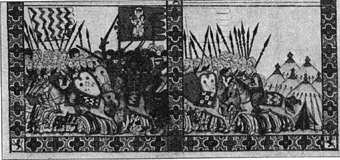
من هذه المجموعة من الدعاة الذين وصلوا إلى أيبيريا، خرج رجل استثنائى، إما بسبب نفوذه الفقهى، وإما بسبب الدور الذى لعبه، ربما كان موسى بن نصير يتحمل أعباء مهمة كلفه بها زعماء المسلمين، وربما الخليفة نفسه. وهى مهمة توطيد علاقات مستمرة مع التوحيديين الأحاديين فى أيبيريا التى كانت تشتمل على موحدين وعلى مثلثين. هكذا نفهم بصورة أفضل تلك الرحلات الشاقة التى قام بها هذا العجوز.

أما كتّاب الأخبار اللاحقون، فقد نسبوا خصائص عسكرية لهذا الداعية بعد أن نسوا الهيجان الدينى فى القرن الثامن، خصوصًا أن نموذج المسلم أيام المرابطين كان عسكريًا أكثر منه مبشرًا.

على هذه الصورة يتحدث المؤرخ الإسبانى أغناسيو أولاغى عن موسى بن نصير. ولكنه لا يوفر طارق بن زياد، رفيق موسى بن نصير فى الفتح، من ملاحظاته القاسية. فالمغالطة التاريخية، ومبالغات الإخباريين العرب، تنطبق أيضًا على شخصية طارق.

ويفترض أغناسيو أولاغى احتمالين أيضًا: فإما أن يكون طارق مجرد زعيم قبيلة بربرية تحت سلطة حاكم طنجة، وإما أن نقبل الرواية البربرية التى تقول إن طارق نفسه كان حاكم طنجة. «ولكن فى هذه الحالة، لابد أن يكون قوطيًا من أصل جرمانى، ذلك لأن اسمه المكتوب والمقروء باللغة القوطية TARIC يدفعنا إلى قبول هذه الفرضية. ويفسر هذا الأمر المهمة الخطيرة التى كلفه بها أبناء الملك غيطشة الذى عينه حاكمًا على طنجة، وظل يعتبر نفسه سيده. وهكذا عبر طارق المضيق مع جيوش من المرتزقة المراكشيين لدعم حزب الشرعية الذى يتبنى، فى الوقت نفسه، معتقده الدينى، أى التوحيد. كذلك تُفسر سلطته على المقاطعة التى هزم فيها لذريق. ذلك باعتباره حسب بعض الإخباريين، القائد الأعلى لجيوش حزب التوحيد الأحادى فى معركة وادى لكّة. لقد مات ريشندو، وكان أخيل حدثا، أما أوباس فكان رجل كنيسة. وفى هذه الحالة لم يبق سوى طارق، أعلى رجل مدنى فى حزب الملك فى بتيفا.

وفى أقدم الأخبار البربرية نجد أن طارقًا وأفراد جيشه قد تنكروا بلباس المراكشيين المستعربين. على أن المهم أن الأعمال العسكرية الحاسمة التى قام بها طارق وسواه من أنصاره وخصومه، لم تتم إلا على رقعة قصيرة لا تساوى أكثر من عُشر مساحة الأندلس. أما المؤرخون فقد



سحبوها على كامل مساحة أيبيريا وقسم من المقاطعات الفرنسية. ورأوا فى معركة وادى لكّة الحدث الذى لم يضع فقط نهاية لمحاولات لذريق استعادة مملكته، بل وضع حداً كذلك لنهاية المملكة القوطية بأكملها!

ولكن المؤرخ الإسبانى يثير أسئلة أخرى. فحتى لو قبلنا أن جيش طارق كان يعد ـ حسب بعض الروايات ـ ١٢ ألف رجل، وأن جيش لذريق كان لا يقل عن مائة ألف رجل، فكيف أمكن أن ينتصر جيش طارق على مثل هذا الجيش؟

ليفى بروفنسال، المؤرخ الفرنسى الذى كتب عن الأندلس يتساءل أيضاً «عما إذا كان كتاب الأخبار العرب قد عمدوا إلى التقليل من عدد جنود طارق ليجعلوا نتائج الحرب أكثر لمعاناً».. لكن هذا على الأغلب، وبنظر المؤرخ الإسبانى، غير صحيح. لأن العرب لم يكن لديهم فى تلك المرحلة وسائل نقل بحرية قادرة على نقل جيش كبير. وعلى أبعد تقدير، لم يكن جيش طارق يتجاوز السبعة آلاف رجل. لذلك من الخطأ الذى لا يُغتفر أن تُعتبر معركة وادى لكّة ـ كما اعتبرت معركة بواتييه فيما بعد ـ معركة تشكل نقطة تحول كبير فى تاريخ الغرب.

بمجرد النظر إلى الخريطة الجغرافية يظهر الخطأ واضحاً. فحتى لو حدثت فعلاً معركة وادى لكّة، فلم يكن بوسعها أن تقدم للغزاة أى تفوق استراتيجى. إنما فقط مجرد فرصة لوضع أقدامهم على الأرض الأيبيرية. وفى أفضل الأحوال، لا يهدد الغزاة بعد الانتصار فى هذه المعركة أكثر من السهل المنخفض الواقع غربى الأندلس. أما المناطق الواقعة بعد هذا السهل، فإنها تعتبر أراضى طمى مليئة بالمستنقعات وتسيطر عليها جبال ذات ممرات ضيقة جداً. ورغم أنها ليست عالية كثيراً، فهى كافية لتمكن جيشاً صغيراً من هزيمة جيش أقوى منه بكثير. وهذا ما حدث فعلاً عندما أسس ابن حفصون فى جبال رندا المشرفة على المضيق مملكة مسيحية صمدت أكثر من خمسين سنة أمام جيوش أمراء قرطبة الأغنياء!

على أن من أطرف ما يذكره المؤرخ الإسبانى أغناسيو أولاغى فى كتابه «تاريخ الثورة الإسلامية فى الغرب»، أن خرافة غزو العرب لإسبانيا عسكرياً ظهرت أول ما ظهرت فى مصر، أما كيف كان ذلك، فإن المؤرخ الإسبانى يشرحه على الوجه التالى:

عند الدفاع عن المعتقدات يُظهر الملتزمون الجدد بها، طاقة أكثر حيوية من الملتزمين القدماء، ويظهر فى إيمانهم نقاء أكثر من أسلافهم. ومسلمو أيبيريا، فى بداية القرن التاسع، لم يكونوا شواذ عن هذه القاعدة. هكذا، وبحماسة شديدة لهذا المعتقد الجديد (يقصد الإسلام) ذهب هؤلاء المؤمنون الشباب فى رحلات شاقة إلى القاهرة ليستمعوا إلى محاضرات ودروس علماء الإسلام. وكان من بين هؤلاء، ابن حبيب الذى اعتنق المذهب المالكى ونشره فى أيبيريا. كذلك قدّم إلى مواطنيه، فى كتابه، تاريخ المعلومات التى حصل عليها حول الأحداث التى جرت فى بلادهم فى القرن الثامن. وقد ارتدت هذه المعلومات أهمية كبيرة: اجتاح العرب إسبانيا. لقد امتلك ابن حبيب مفتاح السر.



يقول المستشرق دوزى فى كتابه (أبحاث) الذى نشره فى القرن التاسع عشر، وفى معرض التعليق على روايات ابن حبيب: «ألم يتكون لديكم انطباع بأنكم تقرءون نصوصاً من ألف ليلة وليلة؟ هل يجب علينا الاعتقاد بأن عرب إسبانيا قد نسوا خلال قرن واحد أخبارهم الوطنية لصالح خرافات غير معقولة؟ الحكايات التى نقلها ابن حبيب ليس لها أية علاقة بالتقاليد الشعبية فى إسبانيا. هو لم يجمعها من إسبانيا، وإنما من الشرق: من مصر. أشار إلى أسماء الشخصيات التى جمع المعلومات منها: إنهم علماء أجانب من بينهم عبدالله بن وهب المتوفى سنة ٨١٣ الفقيه الإسلامى المعروف فى القاهرة، والذى حدثه برواية غزو طارق لإسبانيا. وروى له الكثير عن مغامرات موسى بن نصير (تلك البلاد التى رأى فيها الشرقيون بلاد الخرافات). وكان ابن حبيب قد سمع الرواية من عالم مصرى آخر لكنه لم يذكر اسمه.

ويعلق أغناسيو أولاغى على ما كتبه المستشرق دوزى قائلاً: هكذا بدلاً من أن يسأل ابن حبيب مواطنيه عن رواية موسى وفتح أيبيريا من قبل طارق، فضل الإصغاء إلى علماء مصر وسماع محاضراتهم عن فتح العرب لإسبانيا.. وهكذا بسبب احتقارهم لمواطنيهم الذين كان علماء الشرق ينعتونهم بالجهلة، وبسبب احترامهم لأساتذتهم الذين كانوا يقدمون لهم ببراعة وعمق فائقين أسرار اللاهوت والعلوم، كان جميع طلاب إسبانيا العائدين من مصر، يعتبرون أن هؤلاء العلماء الذين امتلكوا هذا القدر من المعارف، لابد أنهم يعرفون عن إسبانيا أكثر من مواطنيها. لذلك كانوا يحرجونهم بالأسئلة حول هذا الموضوع. فهم لا يعرفون شيئاً عن غزو أيبيريا، إلا أنهم مشهورون بمعرفة شاملة، لا تفوتها شاردة ولا واردة. لكن ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا؟ كانوا يولون لطلابهم الخرافات الفكاهية المصرية.

وبرأى أغناسيو أولاغى، لم يفهم دوزى السياق التاريخى ليتمكن من تفسير الدور الذى لعبه ابن حبيب ورفاقه من خلال الرحلات الدراسية. وقد بدا له من المدهش أن ينسى الأبناء مآثر الأجداد. ذلك لأنه كان مقتنعاً بأن العرب غزوا إسبانيا بقيادة موسى بن نصير. «أما بالنسبة لنا فالمدهش كى لا نقول الفضيحة، هو أن أحداً لم يحاول أن ينقض هذه الخرافات غير المعقولة التى نُقلت من مصر، وأن أحداً لم يحاول إعادة صياغة سياق الأحداث، أو على الأقل تقدير احتمالاتها. إن القول بأن «عرب» أيبيريا قد نسوا مآثر أجدادهم بعد قرن من الزمن، لا يقل إثارة للدهشة من أن عربياً وضع قدمه فى هذه المنطقة من دون أن يكون غريباً مهاجراً.. ولو أن غزو أيبيريا من قبل العرب قد تم فعلاً فى سنة ٧١١، لكان عدد كبير من المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة شهوداً على هذا الحدث العظيم. لنفترض أن الحرب الأهلية قد أتلفت جميع الشواهد، غير أن أخبار القرن التاسع التى كتبت فى عهد من الاستقرار والازدهار، كان لابد لها من أن تشير إلى هذه الأحداث. ولابد من أن يصلنا، على الأقل، واحد من هذه النصوص، فعندما يتعلق الأمر بغزو ما، لا يمكن أن يكون دور الغزاة غامضاً. الغزاة والمغزوون يتمايزون عادة بشكل واضح خصوصاً إذا كان الغزاة من شعب غريب، ويحملون عادات ومفاهيم ثقافية تنتمى لحضارة مجهولة من أبناء البلاد المغزوة. لم يظهر شىء من هذا القبيل فيما نعرفه عن تلك الحقبة. والأخبار التى نقلها ابن حبيب وزملاؤه لم تترسخ جذورها وتنتشر فى الرأى العام إلا بعد جهود استمرت قروناً طويلة. وبعد أكثر من مائة سنة من نشر كتاب «تاريخ» لابن أبى الرقة، لم يقبل الرواة البربر. الذين نقلوا معظم روايات الكتاب ـ أساس نظريته. وقالوا إن غزو إسبانيا قد تم فعلاً ولكن من قبل المراكشيين».

كان يجب الانتظار حتى مجىء المؤرخين المسلمين بعد القرن الثانى عشر لتتخذ الخرافة بنية متآلفة وغير متناقضة. استبعد هؤلاء المؤرخون جميع المشكلات المادية وحولوا الحدث إلى معجزة قام بها المؤمنون الحقيقيون بمساعدة العناية الإلهية. ومع ذلك لقيت هذه الصيغة معارضة ومقاومة ثم تمكنت من فرض نفسها. وانطلاقاً من مبدأ ثابت فى تاريخ المجتمعات الإنسانية عندما تكون فى حالة اندفاع حضارية، نسى الأيبيريون الماضى، فهم الآن يسهمون فى عملية انتشار الحضارة العربية/ الإسلامية التى لا تقاوَم. وسواء أكان العرب، رجال العصر، اجتاحوا إسبانيا أم لا، فلم يعد الأمر مهماً، ربما لم يصلوا إلى إسبانيا بلحمهم ودمهم. ولكن من المؤكد أن عبقريتهم اجتاحت القلوب.

إذن، وحسب كتاب «الثورة الإسلامية فى الغرب»، ظهرت الجذور الأساسية «لخرافة» فتح العرب لإسبانيا ونتائجها فى مصر. وعندما نُقلت إلى أيبيريا، نمت وانتشرت بصورة واسعة لأنها وجدت لها مناخاً مشابهاً لمناخ الشرق. ومع ذلك، فلم يبدأ التطور الأيبيرى نحو الإسلام

إلا بعد قرون من بدئه فى الشرق، أى فى الفترة التى تفصل حقبتى الأزمتين الثوريتين والعودة إلى الهدوء.

نشأت هاتان الخرافتان: خرافة انتشار الإسلام بقوة السيف، وخرافة غزو أيبيريا، ونتائجهما عن الأسباب نفسها، ففى أيبيريا كان الوعى الجماعى يحتفظ بذكرى حروب أهلية لم تكن الأجيال التى جاءت بعدها بموقع يسمح لها بفهم أسباب اندلاعها. وبسبب غياب المنهجية فى علم التاريخ، لم يكن فهم هذه الظاهرة العظيمة وتحليلها ممكنًا إلا فى العصور الحديثة، وحتى المعاصرة. وبسبب النقص فى العدة المنهجية الضرورية لتثبيت الأفكار، عانت هذه الأجيال، فى تفسير أحداث الماضى، من مزاجية تلك الحقبة المليئة بالتحولات العميقة. أما المثقفون المسلمون فى الشرق الذين تثقفوا باللغة العربية، حسب مبادئ الإسلام، وتشربوا ديناميكية فكرته/ القوة، فإنهم لم يجدوا حلاً للمعضلة الناتجة عن جهل مواطنيهم للماضى، سوى تبسيط التاريخ بسبب غياب المنهجية.

لم يكن لدى المسلمين عند انطلاق دعوتهم خارج الجزيرة العربية سوى القرآن الكريم بفكرته/ القوة واللغة العربية. اللغة العربية الأدبية الخلاقة التى حلت محل أعظم لغتين فى ذلك العصر هما اليونانية واللاتينية. اليونانية واللاتينية تحملان العلوم والفلسفة وسطوتهما، والعربية تحمل القرآن الكريم وفكرته/ القوة. يمكن نقل العلوم إلى لغة أخرى، ولكن يستحيل نقل الفكرة/ القوة، لأن نقلها يعنى الانخراط فى حضارتها. وهذا ما حصل فعلاً فى مختلف المناطق التى انتشرت فيها الحضارة العربية الإسلامية.

كيف كان بإمكانهم أن يفسروا هذا الحدث العظيم: كتاب ولغة يجتاحان العالم. أمر مستحيل. لم يجدوا حلاً سوى القوة. فتوحات عسكرية تتبعها سيطرة الإسلام وحضارته.

ميزة هذا التفسير السطحى بنظر المؤرخ الإسبانى، أنه أرضى انحيازين مسبقين ومتناقضين: المسيحيون رأوا فى هذا التفسير حلاً لمعضلة ماضٍ مخجل، وحلاً لآمال مستقبل يحلمون به. اجتاحوا بلادنا بالسلاح، وما علينا إلا تحريرها بالسلاح!

أما المسلمون فقد وجدوا فيه حلاً لمعضلة ماضٍ عجزوا عن تفسير آلية تطوره، ولمستقبل بدأت بشائره تشعرهم بالحاجة إلى السلاح بعد أن بدأت القوة/ الفكرة تخبو فى بلاطات الخلفاء. «وقد تم دمج الصورتين المسيحية والإسلامية بشكل بطىء. ذلك أنه بدءًا من القرن الثالث عشر، أى القرن الذى وصلت فيه الحاجة لقوة السلاح إلى أوجها عند الطرفين، اتفق جميع المؤرخين، وفى جميع الاتجاهات على خرافة الغزو»!

لا يخفى على من يقرأ كتاب المؤرخ الإسبانى أغناسيو أولاغى الجهد العظيم الذى بذله لإثبات صحة نظريته أو فرضيته. عاد إلى مئات المراجع. هناك مائة وخمس صفحات فى نهاية الكتاب خصصها المؤرخ لسرد مراجعه. ومن جملة ما اعتمد عليه مكتبة الاسكوريال الإسبانية الشهيرة بمراجعها حول الحقبة العربية الأندلسية. ولكن ما يشعر به قارئ كتابه هو أنه نصب نفسه، من البداية، محاميًا للدفاع عن «قضية»، وقد بذل جهودًا مضنية من أجل ربح «دعواه». ولكن «الدعوى» بقيت بنظرنا «دعوى» مطروحة أمام محكمة التاريخ، لا «دعوى» فصل بها قاضٍ ثقة وانتهى الأمر. فالأمر لم ينته رغم كل هذا الجهد الذى بذله «المحامى» الشاطر.. خاصة أن القارئ يشعر عندما يقرأ كتاب أولاغى أن هذا الأخير صدر فى كل هذا الجهد الذى بذله فى كتابه، عن «شعور بالعار» أو بـ «المهانة»، لا عن شعور بضرورة تقديم خدمة بريئة ومنزهة لصالح التاريخ. لقد كنت أشعر وأنا أقرأ كتاب أولاغى، أن مؤلفه مسيحى متعصب هاله أن يخضع بلده إسبانيا «لاحتلال إسلامى» استمر ثمانية قرون.. فمضى يبحث عن كيفية فقدان إسبانيا لإرادتها، وبصورة خاصة عن بداية هذا الاحتلال وهل كان غزوًا عسكريًا أم عملية «انتشار أفكار» أعقبها فلتان للحدود ودخول تجار ومغامرين وباحثين عن الثروة، إلى أن حصل ما حصل.. ولكن كل ذلك لا يخفف من أهمية هذا الكتاب الذى يستدعى ضرورة قراءته والرد عليه من قبل مؤرخين عرب ذوى نزعة علمية.

وسواء دخل العرب إسبانيا حربًا أو سلمًا، فقد استمر وجودهم فيها، وفى بقية أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية، ثمانية قرون بالتمام والكمال، كانت قرطبة وأشبيلية وغرناطة وسرقسطة وطليطلة خلالها منارات حضارة وثقافة وعلم. وهذا ما لا ينكره المؤرخ الإسبانى، وإن كانت فجيعته بهؤلاء المسلمين الذين احتلوا بلده، فجيعة غير قابلة للشفاء! ■

كتاب الزاوية



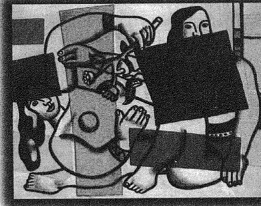
الدين والثقافة

محمود محمد شاكر

ورأس كل «ثقافة» هو «الدين» بمعناه العام، والذى هو فطرة الإنسان، أى دين كان - أو ما كان فى معنى «الدين» - وبقدر شمول هذا «الدين» لجميع ما يكبح جُموح النفس الإنسانية ويحجزها عن أن تزيغ عن الفطرة السوية العادلة، وبقدر تغلغله إلى أغوار النفس تغلغلاً يجعل صاحبها قادرًا على ضبط الأهواء الجائرة، ومريدًا لهذا الضبط، بقدر هذا الشمول وهذا التغلغل فى بنيان الإنسان، تكون قوة العواصم التى تعصم صاحبها من كل عيب قادح فى مسيرة «ما قبل المنهج» ثم فى مسيرة «المنهج» الذى ينشعب من شطره الثانى، وهو «شطر التطبيق».

وهذا الذى حدثتك عنه، ليس خاصًا بأمة، بل هو شأن كل جيل من الناس وكل أمة من الأمم، كان لها «لغة» وكان لها «ثقافة»، وكان لها بعد تمام ذلك «حضارة» مؤسسة على لغتها وثقافتها. فهذا «الأصل الأخلاقى» هو العامل الحاسم الذى يمكن لثقافة الأمة بمعناها الشامل، أن تبقى متماسكة مترابطة تزداد على الأيام تماسكًا وترابطًا، بقدر ما يكون فى هذا «الأصل الأخلاقى» من الوضوح والشمول والتغلغل والسيطرة على نفوس أهلها جميعًا، سواء فى ذلك النازلون فى ميدان «ما قبل المنهج» أو فى ميدان «المنهج» نفسه، وهم العلماء المفكرون والأدباء، والمتلقون عنهم: تلامذة كانوا، أو أشباه تلامذة من قارئ أو سامع أو كل متطلب للمعرفة. وكل اختلال يعرض فيضعف سيطرة هذا «الأصل الأخلاقى»، أو يؤدى إلى غموضه أو غيابه أو تناسيه أو قلة الاحتفال به، فهو إيذان بتفكك الثقافة وانهيار الحضارة إيذانًا صارخًا لا معدى عنه، مهما بلغت هذه الثقافة وهذه الحضارة، فى ظاهر الأمر أو فى العيان، مبلغًا سامقًا من الغلبة والانتشار، ومهما كان لها من اللألاء والتبرج والزينة ما يفتن العقول ويسبى القلوب.

Chris Shilling



The Body and Social Theory

Second edition

«تقول الكنيسة: الجسد خطيئة
يقول العلم: الجسد آلة
تقول الإعلانات: الجسد مشروع تجارى
يقول الجسد: أنا مهرجان»

ثقافة الجسد

كرس شلنج

■ تنامى قدر الاهتمام الأكاديمى بالجسد فى السنوات الأخيرة، حيث برز علم اجتماع الجسد مجالا متميزا للدراسة، وصدرت مجلة جديدة عام ١٩٩٥ تسمى Body & Society، بل إنه اقترح وجوب أن يوظف الجسد مبدأ منظما لعلم الاجتماع. فى ضوء هذا الهدف، استحدث براين ترنر مصطلح «المجتمع الجسدى» ليصف كيف أن الجسد فى الأنظمة الاجتماعية الحديثة قد أصبح «المجال الرئيس للنشاط السياسى والاجتماعى» (Turner, 1992: 12, 162).

طرأ أيضا تصاعد مكثف على اهتمام الجمهور بالجسد. هكذا نجد أن الصحف والمجلات والتلفزيون تعج بمواد عن صورة الجسد، والجراحة التجميلية وكيفية جعل الجسد يبدو فتيا، ومثيرا، وفاتنا، فى حين أصبحت ميزانية صناعة إنقاص الوزن والحفاظ على الرشاقة تعد بملايين الدولارات. فى المملكة المتحدة وحدها، تقدر قيمة تجارة اللياقة البدنية والنوادى الصحية بمليار دولار سنويا[1]. من المهم أيضا أن نلحظ أن الاهتمام بالجسد ليس أمرا جديدا. مثال ذلك أنه فى أزمنة الحرب دأبت الحكومات على العناية بصحة مواطنيها ولياقتهم الجسدية. على ذلك، فإن وضع الجسد ضمن الثقافة الجماهيرية المعاصرة إنما يعكس فردانية غير مسبوقة للجسد. لقد أصبح يتزايد عدد الناس الأكثر اهتماما بصحة وشكل ومظهر أجسادهم بوصفها تعبيرا عن هوياتهم الفردية. وكما يلحظ بيير بورديو (Bourdieu, 1984)، فإن هذه الظاهرة تتضح بشكل خاص عند الطبقات الوسطى «الجديدة». غير أنها تجاوزت فى السنوات الأخيرة هذه الحدود الضيقة.

الجسد فى عصر الحداثة العالية

محتم على أية محاولة جادة لفهم هذا الاهتمام المتصاعد بالجسد أن تتواءم مع الظروف التى شكلت سياق هذا التيار. فى هذا الخصوص، من المفيد أن نذكر بعض التطورات التى صاحبت ظهور الحداثة، وهى ظروف تغيرت بشكل متطرف فى الحقبة المعاصرة من الحداثة العالية.

تشير الحداثة بوجه عام إلى أنماط ونظم الحياة الاجتماعية التى ظهرت فى أوربا ما بعد الإقطاع، والتى تصاعد تأثيرها على مستوى العالم فى القرن العشرين. يمكن على وجه التقريب فهم الحداثة على أنها «العالم الصناعى»، رغم أنها تتكون من أبعاد مؤسساتية متعددة لكل منها مساراتها الخاصة (Giddens, 1990; Hall and Gieben, 1992). من ضمن آثار الحداثة الكثيرة إسهامها فى ارتفاع درجة تحكم الدول بوجه عام، والمهن الطبية بوجه خاص، فى أجساد المواطنين. أيضا، أفضت الحداثة إلى التقليل من نفوذ السلطات الدينية فى تعريف ماهية الجسد وتقنينه (Turner, 1982). الحال أن لعلاقة الحداثة بالدين تأثيرات مهمة على اهتمامنا المعاصر بالجسد.

جادل منظرو الحداثة منذ زمن مديد بأن عهد الحداثة، وإن أسهم تدريجيا فى سلب قداسة الحياة الاجتماعية، قد فشل فى الاستعاضة عن اليقينيات الدينية بيقينيات علمية من الطراز نفسه. ربما مكننا العلم من إحكام سيطرتنا على شئون الحياة (رغم أنه أخفق بشكل حاسم فى هزيمة الموت)، لكنه فشل فى طرح قيم توجه حياتنا (Weber, 1919 - 1984). عوضا عن ذلك، ثمة خوصصة متنامية لمعنى الحداثة، ما جعل عددا يتزايد من الأفراد يواجهون بمفردهم مهمة تأسيس قيمهم والحفاظ عليها بغية إهابة معنى لحياتهم اليومية.

استخدم أنتونى جيدنز تعبير «الحداثة العالية» لوصف التغييرات المتطرفة التى طرأت على التيارات الحديثة فى القرن الفائت. فى مواجهة نظريات ما بعد حداثية بعينها، يقترح جيدنز أنه لا الحداثة ولا الذات تشكل اهتمامات سوسيولوجية أناركية (فوضوية). تظل الاهتمامات الحداثية تشكل الحياة الاجتماعية، رغم أن مترتبات هذه الاهتمامات لم تتضح بشكل كامل إلا الآن. فى ضوء تفسخ أطر دينية صورية شكلت وعززت فى الغرب يقينيات وجودية وأنطولوجية تقبع خارج الفرد، وبحسبان حضور الجسد المكثف فى ثقافة المستهلك بوصفه حاملا لقيمة رمزية، ثمة نزوع عند الناس فى حقبة الحداثة العالية نحو منح قدر أكبر من الأهمية للجسد أداة لتشكيل الذات. لقد بدا لمن فقد إيمانه بالسلطات الدينية والسرديات السياسية الكبرى، ولم تعد بنى المعنى المتجاوزة للشخص توفر له رؤية واضحة للعالم أو الهوية الذاتية، أن الجسد يؤمّن أساسا صلبا لإعادة بناء معنى للعالم الحديث جدير بالثقة. الراهن أنه يمكن اعتبار السبل المسرفة فى تأمل الذات، التى يرتبط عبرها البشر بأجسادهم، إحدى علامات الحداثة العالية الفارقة. فضلا على ذلك، فإن مناطق الجسد البرانية، أو

صفحات، من كتاب للمؤلف بعنوان «The Body and Social Theory»
تصدر ترجمته العربية قريبا عن دار العين للنشر - القاهرة
ترجمة: منى البحر ونجيب الحصادى

> أصبحت ميزانية صناعة إنقاص الوزن والحفاظ على الرشاقة تعد بملايين الدولارات. فى المملكة المتحدة وحدها، تقدر قيمة تجارة اللياقة البدنية والنوادى الصحية بمليار دولار سنويا



سطوحه، هى التى ترمز إلى الذات فى وقت يحظى الجسد الفتى، النحيل، والمثير جنسيا بقيمة غير مسبوقة.

الجسد الملتبس

ليس فى وسع هذه الملاحظات الاستهلالية سوى أن تحدد معالم عامة للسياق الذى ظهر فيه الجسد قضية اجتماعية وأكاديمية أساسية فى الحقبة المعاصرة. على ذلك، فإنه من ضمن كل العوامل التى أسهمت فى جعل الجسد كيانا مرئيا، يحظى تطوران يبدوان متناقضين بأهمية خاصة. لدينا الآن السبل التى تمكن بدرجة غير مسبوقة من التحكم فى أجسادنا؛ غير اننا نعيش فى عصر ألقى بظلال شكوك قوية على درايتنا بماهية الأجساد وكيفية التحكم فيها.

نتيجة للتطورات التى طرأت فى مجالات تختلف باختلاف التناسل البيولوجى، والهندسة الوراثية، والجراحة التجميلية وعلوم الرياضة، أصبح الجسد تدريجيا ظاهرة بدائل وخيارات. لقد أسهمت هذه التطورات فى تنمية قدرات يمتلكها كثيرون منا على التحكم فى أجسادهم، وفى جعلهم عرضة لتحكم آخرين. هذا لا يعنى أننا سوف نمتلك الموارد أو قدر الاهتمام الذى يمكّننا من إعادة بناء جذرية لأجسادنا. الحال أن السبل التى يروم الناس التحكم عبرها فى أجسادهم تتخذ عادة أشكالا تقليدية، من قبيل الحمية والحفاظ على اللياقة البدنية. أيضا، من المرجح أن يكون الاهتمام بالجسد الذى يبديه مديرو الأعمال مختلفا كلية عن ذلك الذى يبديه المشردون الذين لا مأوى لديهم يقرون عنده. على ذلك، فإننا نعيش فى عصر إعلامى تشيع فيه المعرفة بمثل هذه التطورات، ومن المرجح أن الحرمان الذاتى الذى يعانيه من تعوزهم الموارد التى تمكن من التحكم فى أجسادهم والعناية بها سوف يتفاقم بامتلاكهم تلك المعرفة. ببساطة، لم يعد الجسد يخضع للقيود التى شكلت فى عهد عبر خصائصه. غير أن هذا الوضع لم يقتصر على تمكين النساء من التحكم فى أجسادهن، بل أثار فى نفوس الأفراد درجة عالية من التأمل فى ماهية الجسد، قدر ما أثار شكوكا حول كيفية التحكم فيه. بقدر ما يسهل العلم درجة التدخل فى الجسد، بقدر ما يزعزع ثقتنا فيما نعرف عنه، ويتجاوز قدرتنا على إصدار أحكام أخلاقية حول المدى الذى يتوجب عنده السماح للعلم بإعادة تشكيله. الحال أننا لا نمعن فى التبسيط حين نجادل بأنه بزيادة درجة تحكمنا وقدرتنا على تغيير حدود الجسد، ترتفع حدة شكوكنا حول ماهية الجسد، وما هو «طبيعى» بخصوصه. مثال ذلك، مكّن التخصيب الصناعى وتخصيب الصماء من فك الارتباط بين العلاقات الجسدية التى حددت تقليديا خبرة الجنسية الغيرية. الذعر الأخلاقى الذى أثارته «الولادة العذرية» فى بريطانيا إنما يوضح التهديد الذى تشكله هذه التطورات لما يعد عند الناس طبيعيا نسبة للجسد. وكما تقر إحدى صحف التابلويد البريطانية الشهيرة، Daily Mail، «فى مشروع يصيب صميم الحياة الأسرية، يصبح إنجاب الأطفال بمقدور نساء لم يسبق لهن أن مارسن الجنس» (Golden and Hope, 1991).

التطورات التى شهدتها مجالات من



> فى مشروع يصيب صميم الحياة الأسرية، يصبح إنجاب الأطفال بمقدور نساء لم يسبق لهن أن مارسن الجنس



قبيل جراحة نقل الأعضاء والواقع الافتراضى إنما تضاعف من حدة هذه الشكوك التى تساورنا حول الجسد، كونها تهدد بتقويض الحدود التى وجدت تقليديا بين الأجساد وبين التقنية والجسد (Bell and Kennedy, 2000). إن لهذا الأمر مترتبات واقعية. فكما يلحظ ترنر، فى مجتمع المستقبل، حيث تشيع وتتطور عمليات زرع الأعضاء ونقلها، تصبح الأحاجى الافتراضية التى كانت تشغل الفلاسفة التقليديين حول الهويات والأجزاء مسائل تحظى بأهمية قانونية وسياسية عظيمة. هل يمكن أن أكون مسئولا عن أفعال جسد لا يعد بشكل أساسى جسدى؟» (Turner, 1992a: 37). أيضا، تعد تلك التطورات بزيادة حدة مآزق تكتنف ملكية الأجساد سبقت إثارتها فيما يتعلق بقضايا من قبيل الإجهاض والأم البديلة (Diprose,1994).

المشاريع الجسدية

فى زمن الشك هذا، تتخذ الدراية بماهية الأجساد تدريجيا صيغة فروض: «مزاعم قد تكون صحيحة، لكنها قابلة دائما من حيث المبدأ للتعديل، وقد نتخلى عنها كلية فى وقت ما» (Giddens, 1991:3). يؤثر هذا الموقف فى مفهوم الفرد الحداثى للهوية الذاتية. مفهومه للذات كما تدرك بطريقة تأملية عبر سيرة جسده الذاتية. فى الغرب الغنى، يعتبر الجسد تدريجيا كيانا فى حال صيرورة؛ مشروعا يتوجب العمل عليه وإنجازه بوصفه جزءا من هوية الفرد الذاتية. بمقدورنا إرجاع بداية محاولات الفرد تشكيل جسده وقولبته إلى المسيحية المبكرة، بل حتى العهود القديمة (Brown, 1988; Foucault,1988). بيد أن المشاريع الجسدية تختلف عما كان يحدث فى المجتمعات التقليدية من زخرفة للجسد البشرى والنقش عليه وتغييره، كونها تشتمل على تصور انعكاسى ينأى عن النماذج التقليدية لأجساد مقبولة اجتماعيا تم تشكيلها عبر طقوس احتفالية جماعية (Rudofsky,1986 [1971]). تظل المشاريع الجسدية تختلف وفق جوانب اجتماعية بعينها، خصوصا فى حالة الجندر (النوع من حيث الذكورة والأنوثة)؛ غير أن سبل تطوير النساء والرجال أجسادهم تعددت فى السنين الأخيرة.

عند كثيرين من الحداثيين، تستلزم ملاحظة أنه أصبح مشروعا قبول أن مظهر الجسد، وحجمه وشكله، وحتى محتواه، قابلة لإعادة البناء وفق تصميمات صاحبه. معاملة الجسد على أنه مشروع لا يستلزم ضرورة انشغالا مستديما بتغييره كلية، رغم أنه بإمكانها أن تقوم بذلك. على ذلك، فإنها تستلزم أن يكون الفرد واعيا ومهتما بشكل فعال بترويض جسده وبمظهره وبالحفاظ عليه. يتضمن هذا اعترافا عمليا بأهمية الجسد موردا شخصيا ورمزا اجتماعيا يبعث برسائل عن هوية الشخص الذاتية. فى هذا السياق، يصبح الجسد كينونة طيعة يمكن تشكيلها وشحذها عبر ما يبدى صاحبه من حرص وما يبذل من جهد.

ربما نعثر على أفضل أمثلة على الجسد بوصفه مشروعا فى القدر غير المسبوق من الاهتمام الذى حظى به التشكيل الشخصى لأجساد معافاة (Schlling, 2002a). فى وقت تزداد حدة تعرض صحتنا لمخاطره عولمية، تحضنا جهات على الاضطلاع بمسئولية فردية تجاه أجسادنا عبر اتباع حميات رعاية ـ ذاتية صارمة. هكذا تعرض أمراض القلب والسرطان وغيرها بشكل متزايد على أنها أشياء يمكن للفرد تجنبها بتناول الأطعمة الصحيحة، الإقلاع عن التدخين وممارسة قدر كاف من الرياضة. أيضا، تتطلب حمية الرعاية ـ الذاتية من الفرد تبنى فكرة أن الجسد مشروع يمكن مراقبة بواطنه وظواهره، كما يمكن تغذيته والحفاظ عليه، بحيث يؤدى وظائفه كاملة. فيما تكرس مثل هذه الحميات مفهوما للجسد يرى فيه جزيرة أمان فى نظام عولمى تتهدده مخاطر جمة لا مناص منها (Beck, 1992).

لا تقتصر وظيفة حميات «التخسيس» على حمايتنا من الأمراض، بل تروم أيضا جعلنا نسعد بكيف تبدو أجسادنا لنا وللآخرين. تدريجيا أصبحت الصحة أكثر ارتباطا بالمظهر وما اصطلح ارفنج جوفمان (Goffman, 1996) على تسميته «عرض الذات». يسهم عدد لا حصر له من الكتيبات المساعدة للذات، ارشادات التجميل، ملاحق الحميات، وخطط التمرينات فى تلبية تلك الاحتياجات، بينما تتنافس السلع الاستهلاكية على محاولة جعل أجساد الناس تبدو جديرة بالثقة وقادرة على إثارة متع حسية، وهى توفر برامج لتحسين البشرة وتقوية العضلات بحيث تبعث برسائل عن الصحة عبر جعل المرء يبدو معافى وفتيا (Banner,1983). الراهن أن تأثير هذا المشروع الجسدى بالذات ألزم حتى الذين يسرفون فى التدخين وفى شرب الخمر وفى تعاطى مخدرات أخرى بالتفكر فى آثار سلوكهم هذا على صحتهم ومظهر أجسادهم. فى حقبة شيوع التوكيد السياسى على «مساعدة النفس» و«المسئولية الشخصية»، والتوكيد الاجتماعى على «الجسد الفاتن»، يغدو من تستهويه تلك العادات مثالا على الانحراف الأخلاقى الجديد. غير أن التأثير السائد لما ينعته روبرت كراوفورد (Crawford,1987) بـ «الوعى الصحى الجديد» ليس السبيل الوحيد الذى أصبح الجسد عبره مشروعا يتم تشكيله وفق هوية المرء الذاتية.

مكنت الجراحة التجميلية عددا صغيرا، لكنه يتعاظم بسرعة، من الأفراد من إعادة تشكيل أكثر تطرفا ومباشرة لأجسادهم على نحو يتسق مع مفهومهم للفتوة،

والأنوثة والرجولة. شد الوجه، شفط الدهون وثنايا البطن، عمليات تجميل الأنف والذقن، مجرد بنود فى قائمة تطول للإجراءات والعمليات المتاحة للأغنياء الراغبين فى إعادة تشكيل أجسادهم. منذ ستينيات القرن الفائت، أجريت فى الولايات المتحدة أكثر من مليون عملية زرع أثداء لنساء رغبن فى أجساد أكثر «أنوثة»، وثمة عدد متزايد من الرجال تأسى بهن بحثا عن مظهر أكثر فتوة. عمليات تضخيم القضيب متوفرة أيضا للراغبين فى أجساد «رجولية أكثر اكتمالا» (Grant,1992).

تثير الجراحة التجميلية بشكل حاد وعلى نحو خاص مسألة ماهية الجسد، عبر تمكين المرء من إنقاص شحمه ولحمه وعظمه. فى هذا الخصوص، تنشر على صفحات الصحف والمجلات مقالات عديدة تروى قصصا عن أناس أصبحوا عبر إجراء عمليات متعددة ممسوسين بحمى تغيير مظهر أجسادهم وحدودها على نحو يتسق مع صورة مثالية للذات. ربما نعثر على أفضل الأمثلة التى حظيت بتغطية إعلامية فى ملامح مغنى «البوب» مايكل جاكسون التى طرأت عليها تغييرات حاسمة.

أما بالنسبة لغير الراغبين أو غير القادرين على مواجهة مخاطر الجراحة، فثمة نشاط تزداد حدة رواجه: كمال الأجسام؛ وهو نشاط كان فيما مضى على تخوم صناعة التمارين الرياضية المنحرفة جنسيا. كمال الأجسام مثال توضيحى جيد على الجسد بوصفه مشروعا، لأن نوعية وحتى مجرد حجم العضلات الناجمين عن تلك العملية تتحديان مفاهيم نقبلها بخصوص ما هو طبيعى نسبة لأجساد الذكور والإناث. فى وقت تحل الآلات بشكل مطرد بديلا للعمل اليدوى الذى كان يقوم به الرجال فى المصانع، وتواصل المرأة تحديها دور الزوجة والأم المحدود الذى يعده المجتمع لها، يبدو أن بناء وعرض أجساد ضخمة «بشكل غير طبيعى» أو محددة بدرجة عالية يمكّن الناس من الجهر بأحكام شخصية قوية تتعلق بماهياتهم (Fussell,1991). وكما علقت امرأة فى دراسة روزن لنساء يهتممن بكمال أجسامهن، «عندما أنظر فى المرآة أرى شخصا يجد نفسه؛ شخصا قال مرة وإلى الأبد إن الدور الذى ألزمنى المجتمع بالقيام به لم يعد مهما. بمقدورى أن أقوم بما أرغب فى القيام به، وإننى لأشعر بالاعتزاز لقيامى به» (Rosen, 1983:72).

مشاريع الصحة والعمليات الجراحية وكمال الأجسام مجرد ثلاثة أمثلة على كيفية إيلاء الفرد الحداثى أهمية متزايدة لجسده. على ذلك، فإنها تبين الفرص والقيود المصاحبة لتوثيق عرى العلاقة بين الجسد والهوية الذاتية. يوفر مشروع



استثمار الجسد للمرء وسيلة للتعبير عن النفس والشعور بالغبطة وزيادة درجة التحكم فى جسده. إذا شعر المرء أنه عاجز عن إحداث تأثير فى مجتمع تزداد درجة تركيبه، فإنه يستطيع على الأقل أن يحدث تأثيرا فى حجم جسده وشكله ومظهره. قد يتم التحفظ بخصوص هذه الفرصة فى غياب معيار حاسم لتحديد الكيفية التى يتوجب وفقها معاملة الجسد، أو حتى لتحديد ماهيته، غير أنه لا يبرر التغاضى عن مناقب قد ينتفع بها الناس بسبب ظهور الجسد بوصفه مشروعا فى المجتمع الحديث.

أيضا فإن لاستثمار الجسد حدوده. الحال أن الجهود التى يبذلها المرء على جسده مآلها أن تخفق، فالأجساد تشيخ وتتفسخ، وواقعية الموت المحقق تبدو مزعجة بشكل خاص للفرد الحداثى الذى تشغله هوية ذاتية مؤسسة على الجسد. وفى نهاية المطاف، أى شىء أكثر إيحاء يشى بحدود انشغالنا بجسد فتى لائق صحيا، مثالى الرجولة أو الأنوثة، من حقيقة مرة مفادها خصر متخثن، ولحم يترهل، وموت محقق؟

ثمة قيود تفرض على الجسد ليس فقط بمعنى أنه مقضى عليه أن يقضى نحبه، بل أيضا بسبب مقاومته المستمرة لأن يتشكل وفق مشيئتنا. سيوسى اورباخ (Orbach,1988) وكم شرنن (Chernin,1983) كاتبتان من ضمن عدة كتّاب أشاروا إلى الصعوبات التى تواجهنا فى تغيير شكل الجسد عبر الحميات. أيضا توضح امل مارتن (Martin, 1989 [1987]) كيف أن النساء غالبا ما يكتشفن أن أجسادهن قد غدت بطرق متعددة خارج نطاق السيطرة، فيما يستبان أن محاولات تغيير حجم وشكل الجسد محفوفة بالمخاطر (مثال ذلك، يشهد حشد متزايد من الأدلة على المخاطر المرتبطة بالعمليات الجراحية والحميات المتكررة). ثمة مشكلة أخرى تتعلق بانشغالنا الانعكاسى بالجسد تتعين فى آثار هذا الانشغال المحتملة على أبنائنا. يقلق المرء على شكل جسده ووزنه حين يكون فى مقتبل العمر. وهناك أبحاث تفيد بأن عددا كبيرا من الفتيات والفتيان لم تتجاوز أعمارهم التاسعة غير راضين عن أجسادهم (Hall,1992). لا غرو إذن أن انشغالنا المعاصر بالجسد قد ارتبط بارتفاع مقلق فى حدة الاضطرابات الهضمية (Gorden, 2001; Grogan, 1999).

بهذا المعنى يضع الجسد القيود بقدر ما يوفر التسهيلات إبان فترة حياته وليس فقط لأنه يموت. على ذلك، تسرى إشارة زجمنت برومان إلى علاقة الجسد بالموت بوجه عام على انشغالنا بالجسد بوصفه مشروعا. وفق ما يجادل بروما، فى حالة الموت وحميات الرعاية - الذاتية، الانشغال الحداثى بالجسد «محاولة لتخطى حدود الجسد النهائية عبر خلاص متعاقب من قيوده الخاصة التى تتم مواجهاتها فى الوقت الراهن» (Bauman, 1992a:28). إن هذا التركيز البراجماتى محاولة لتأجيل مسائل وجودية تشغلنا تتعلق بقيد الجسد النهائى (الموت) و السبب الذى يلزم بجعل الجسد مهما للهوية الذاتية، كما تتعلق بماهية الجسد.

ثمة قيد آخر يرتبط بظهور الجسد بوصفه مشروعا يتعين فى إمكان تسخير الصور الفردية للجسد المرغوب فيه فى إدامة إجحاف اجتماعى راهن. فى هذا الخصوص، تبدو الطريقة التى أصبح بها الجسد مشروعا عند بعض النساء أقرب إلى أن تكون انعكاسا لتصميمات وتخيلات ذكورية منها لأن تكون تعبيرا عن الفردانية. مثال ذلك، قد نجادل بأن التمثيل وعرض الأزياء يشجع النساء على تغيير أجسادهن وفق تصور الذكور للجمال. وكما يلحظ روبرت جربر (Robert Gerber, 1992: 46)، «لقد أصبحت المرأة فاحشة الثراء التى أجريت لها عمليات جراحة تجميلية نقطة مرجعية فى الموضة».

علم الاجتماع والجسد

لهذه الأسباب، ولأسباب أخرى، أصبح الجسد مسألة اجتماعية مهمة. غير أن الجسد لم يصبح مركزيا فى الجدل النظرى العام فى أوربا وأستراليا إلا مؤخرا، بينما توجد درجة عالية من التردد فى تناول هذا الموضوع فى شمال أمريكا. تنزع التفسيرات المعاصرة «لوصول» الجسد المتأخر وغير المكتمل إلى عزوه إلى المقاربة اللاجسدية التى تبناها علم الاجتماع الكلاسيكى تقليديا فى هذا المجال. يتبنى بريان ترنر ضمن آخرين هذا الموقف فى كتابه Regulating Bodies (Turner, 1992a). إن تأثر علم الاجتماع الشديد بالفكر الديكارتى حدا به إلى تبنى موروث قديم فى الفلسفة عبر قبول مثنوية العقل/الجسد والتركيز على العقل بوصفه مكمن تفرد الإنسان كائنا اجتماعيا.

يحوز هذا التفسير قدرا لا يستهان به من القيمة، وهو يصف بدقة كيف نزع قطاع كبير من علم الاجتماع إلى مقاربة علاقة الجسد بالعقل. غير أنه لا يفى حق مقاربات بعينها تبناها علم الاجتماع فى تناوله الجسدية موضوعا مستقلا. ثمة قصور مشابه تعانى منه الرؤية التى تقر أنه بالمقدور «استعادة» الجسد بسهولة عبر إعادة النظر فى الكلاسيكيات (Williams and Bendelow,1998). على أقل تقدير، ثمة حاجة إلى بذل جهود شاقة فى التفصيل والتطوير قبل أن يتسنى لنا صياغة نظريات اجتماعية كلاسيكية شمولية فى الجسد. فى مقابل هاتين المقاربتين، أقترح أن تحرى الدقة يلزمنا بوصف علم الاجتماع الكلاسيكى على أنه يعرض مقاربة مزدوجة للجسد. عوضا عن أن يكون قد أغفل نهائيا، كان الجسد الحاضر الغائب فى علم الاجتماع. لقد كان الجسد غائبا عن علم الاجتماع الكلاسيكى بمعنى أن هذا الفرع المعرفى نادرا ما ركز بطريقة ثابتة على الجسد بوصفه مجالا مستقلا للبحث. مثال ذلك، نادرا ما تأخذ النظرية السوسيولوجية فى حسبانها حقيقة أن لدينا أجسادا من لحم ودم تمكنا من تذوق وشم ولمس وتبادل سوائل جسدية (Connell and Dowsett,1992). على ذلك، فإن انشغال علم الاجتماع الكلاسيكى ببنى ووظائف المجتمعات وطبيعة الفعل البشرى حتمت عليه التعامل مع جوانب مهمة من الجسدية البشرية.

بشكل متكرر، ظل اهتمام علم الاجتماع الكلاسيكى بالجسد ضمنيا بدلا من أن يكون صريحا. فضلا عن ذلك، نزع إلى التركيز على جوانب منتقاة من الجسدية البشرية. مثال ذلك، ركز علم الاجتماع على قضايا من قبيل اللغة والوعى دون ملاحظة أن هاتين القدرتين نفسيهما قدرات جسدية. وكما جادل نوربرت الياس (Elias,1991) فإن قدراتنا المتعلقة باللغة والوعى متضمنة فى أجسادنا وتشكل جزءا منها، كما أنها مقيدة بها. ثمة أمر آخر يتعلق بإغفال علم الاجتماع الكلاسيكى للجسد بوصفه جزءا مكملا للفاعل البشرى. أجسادنا هى التى تمكننا من الفعل والتدخل فى تيار الحياة اليومية وتغييره. الحال أنه لا سبيل للحصول على نظرية مناسبة فى الفعل البشرى لا تأخذ الجسد فى اعتبارها. بمعنى غاية فى الأهمية، الشخص الفاعل جسد فاعل.

أصبح مشروعا قبول أن مظهر الجسد، وحجمه وشكله، وحتى محتواه، قابلة لإعادة البناء وفق تصميمات صاحبه



على ذلك، فى حين لم يتعامل علم الاجتماع الكلاسيكى بطريقة ملائمة مع كل مترتبات الجسدية البشرية، فإن هذا لا يبرر الحكم بأن علم الاجتماع تبنى مقاربة لاجسدية كلية فى تناول موضوعه. مثال ذلك، عنى كارل ماركس (Marx,1954 [1887]) بمسألة استيعاب الجسد فى التقنية الرأسمالية. أيضا كتب جورج سيمل (Simmel,1990 [1907]; 1950) عن الميول الجسدية التى تدفع الناس نحو بعضهم البعض، والعواطف الاجتماعية التى أسهمت فى الحفاظ على العلاقات الاجتماعية، كما تقصى آثار اقتصاد المال الضارة على تلك العواطف. أعمال ماكس فيبر (Weber, 1985 [1904-05]; 1948 [1915]) تبدى اهتماما بعقلنة الجسد، و«الملاجئ» التى يوفرها الفن والحب والشهوة الجنسية، فيما يعتبر إميل دوركايم (Durkheim,1995 [1912]) الجسد مصدر وموضع تلك الظواهر الدينية التى أسهمت فى تماسك الأفراد فى كليات أخلاقيات. الواقع أن حضور الجسد الضمنى فى علم الاجتماع إنما توضحه حقيقة أن كثيرا من الأعمال الراهنة فى الجسد استطاعت أن تركن بشكل منتج إلى تركة علم الاجتماع الكلاسيكى. أعمال بيير بورديو فى الجسد، على سبيل المثال، إنما تطور انشغالا ماركسيا بالطبقة الاجتماعية والتكاثر الاجتماعى واهتمام دوركايمى بالوظائف الاجتماعية والمعرفية التى تقوم بها «التمثلات الجماعية» و«التصنيفات البدائية»، وتركيز فيبرى على أساليب الحياة الخاصة ومفاهيم الشرف والعار التى تسهم فى تحديد الرتب الاجتماعية (Brubaker, 1985; Shilling,1992).

يستبان أن دفع تهمة تبنى مقاربة لاجسدية كلية عن علم الاجتماع الكلاسيكى لا تعنى بحال التصديق على طريقته فى تناول موضوعة الجسد. فى هذا الخصوص، من المهم أن نذكر بعض منظرى علم الاجتماع الأحدث عهدا الذين حاولوا التغلب على المقاربة المزدوجة التى تبناها علم الاجتماع تقليديا. مثال ذلك أن ارفنج جوفمان وميشيل فوكو يضعان الجسد على التوالى فى قطب رحى تحليلات «نظام التفاعل» و«الأنساق البينية». مارس هذان الكاتبان تأثيرا غاية فى القوة على التحليلات المعاصرة للجسد بوصفه ظاهرة مشكلة اجتماعيا. ولكن، عوضا عن التغلب بشكل كامل على أوجه قصور علم الاجتماع الكلاسيكى، يمكن اعتبار أن كثيرا من أعمالهما إعادة انتاج فى صورة مغايرة للمقاربة المزدوجة التى نزع علم الاجتماع إلى تبنيها فى موضوعة الجسد. إن



أبعـــاد الجســـد!

التنظير الذى يحمل محمل الجد حشدا هائلا من العوارض إنما يربك الفهم، عوضا عن التمكين منه. ذلك أن الإمعان فى التفاصيل يورث الشواش، ويوجب من ثم الحاجة إلى هدرها. ولأن الفهم لا يكون إلا برد الأكثر إلى الأقل كثرة، ولأنه غاية كل تنظير ومعيار سلامته، فإن مآل كل منظّر يتقن عمله أن يتغاضى عن عرض بعض «الحقائق». وفق هذا، ثمة خطران يتهددان كل عملية تنظير: الهذر ـ الإبقاء على ما حقه الهدر ـ والاختزال ـ هدر ما حقه البقاء.

ما كان لقدرة الإنسان على فهم العالم من حوله أن تتنامى لو أنه أهدر أكثر مما يتوجب هدره من تفاصيل، وما كان له أن يمضى قدما فى فهم العالم لو أنه أبقى عليها، فما تاريخ الفكر الإنسانى إلا محاولة مستمرة لرصد الثابت فى المتحول، والاحتفاء بالجوهرى على حساب العارض.

يمكن معايرة النظرية بتحديد «التصنيفات البواقى» التى تخفق فى تفسيرها. إذا عجزت مقاربة سوسيولوجية فى الجسد عن تفسير الأهمية التاريخية التى يحظى بها فى الأنظمة الاجتماعية، أو فشلت فى تبيان لماذا أصبح الجسد يشغل إلى هذا الحد الكثير من أشياع الحداثة، فإن هذا إنما يثبت عجزها ويشى بهدرها من التفاصيل ما حقه الإبقاء.

اقترن توحيد تاريخ الأرض، هذا الحلم الإنسانى الذى أراد الله لأمر أن يتحقق، بعمليات اختزالية، فحتى قصص العشق الكبرى تنتهى بتقلصها إلى ذكريات هزيلة. طابع المجتمع الحديث يعزز هذه اللعنة: وهكذا تتقلص حياة الإنسان إلى وظيفته الاجتماعية، وتاريخ الشعوب إلى عدد من الأحداث، تتقلص بدورها إلى تفسير متحزب، فيما تختزل الحياة الاجتماعية بأسرها إلى صراع سياسى، وهذا الأخير إلى مواجهة بين قطبين (كونديرا).

تمارس الأنظمة الشمولية اختزالا مفهوميا وجسديا للرعية فى شخصية المستبد، بحيث يصبح الحاكم رمزا أوحد للوطن، وينكل بصاحب كل رأى مناوئ؛ فيما تختزل النزعات العرقية الجنس البشرى إلى عرق دون سواه، وتنتهك الشوفينية الذكورية حقوق الإناث، وتكرس النزعات الدوجماطيقية فهما بعينه للعالم تنكر كل ما عداه.

هكذا يصادر بعض المفكرين على أيديولوجيات ومفاهيم تكرس ضروبا بعينها فى فهم الوعى وفى تحديد محتواه، وتوجه بعض التيارات السياسية تهم عوز الوعى أو زيفه ضد من تعادى توجهاتهم الأيديولوجية. بالمقدور دوما تفريغ الوعى من الدور الفاعل الذى يقوم به فى التمكين من فهم العالم واستيعاب القضايا التى تشغل الأفراد، عبر اختزاله فى سردية كبرى، وقد يبلغ الاختزال درجة المماهاة بين الوعى الحقيقى واتخاذ مواقف دون سواها. لكن هذه ليست سوى أمثلة أخرى على خطر فعل الاختزال.

ثمة مستويات متعددة تتم عبرها عمليات الرد، تتدرج فى رتبها من حيث قدر تجريدها، لكنها تتفق فى إجماعها على تحديد القواسم المشتركة فيما يلحظ من ظواهر ومحاولة توظيف تلك القواسم فى إنجاز عملية الفهم. فى أكثر مستويات الرد تجريدا، نعثر على نماذج تقليدية لعملية رد الواقع بأسره إلى حد أدنى من الجواهر. من أشهر هذه النماذج النزعة المادية التى ترجع كل ما ليس بمادى إلى أصول مادية، والمثالية، التى ترجع كل مادى إلى أصول غير مادية، والثنائية، التى تقر وجود العقول بوصفها جواهر ذهنية تشكل موضوعات خارج المجال المادى وغير قابلة للرد إليه.

على مستوى أقل تجريدا، ثمة دعوة إلى وحدة العلوم تقر أن مآل كل العلوم أن ترد، دون أن تختزل، إلى أصول فيزيائية صرفة. هناك أيضا مستوى آخر أكثر عينية، لكنه يظل يحتفظ بقدر كاف من التجريد، يتعين فى رد نمط تفسيرى لكينونة بعينها إلى نمط تفسيرى آخر.

هذا الكتاب دراسة نقدية متميزة لمحاولات تندرج فى هذا الصنف الأخير، محاولات لرد البيولوجى فى الظاهرة الجسدية إلى الاجتماعى، ورد الاجتماعى فيها إلى البيولوجى، وهو يوجه تهمة الاختزال إلى تلك المحاولات، مؤكدا وجود علاقة تآثر بين المجالين، ومحاولا تبيان كيف أن الجسد ظاهرة بيولوجية واجتماعية فى آن. المقاربات الطبائعية لا ترى فى الجسد إلا أبعاده البيولوجية، وهى تبدى استعدادا مستمرا لتفسير كل ظاهرة اجتماعية بالركون إلى تلك الأبعاد. أما المقاربات السوسيولوجية فتختزل البيولوجى إلى الاجتماعى، حيث يتنزل الأخير عندها مرتبة محرك الأول.

وكما يقر مؤلف الكتاب، إذا كان جماح شطط المقاربات الطبائعية للجسد التى تختزل الاجتماعى إلى البيولوجى يظل فى حاجة إلى كبح، فإن النزعات التى تستبان فى كثير من المقاربات الثقافية، والتقنية، والسوسيولوجية للجسد، وتروم اختزال البيولوجى إلى السوسيولوجى، ليست أقل حاجة إليه.

تجمع المقاربات التى ينكرها المؤلف على أن الجسد ليس مهما إلا بقدر ما يقضى عليه بأن يكون كذلك من قبل عوامل خارجة عنه، أكانت بيولوجية أم سوسيولوجية. ليس لدى أشياع مثل هذه المقاربات إحساس بالجسد جزءا مكونا للفاعلية البشرية، وثمة نزوع عندهم نحو تبنى رؤى اختزالية فى الجسد، تخفق فى فهم أهمية الجسدية البشرية لتشكيل الأنظمة الاجتماعية. بيد أن خطل رؤية الجسد ظاهرة بيولوجية قبل ـ اجتماعية لا يقل ضررا عن خطل اعتباره كينونة اجتماعية بعد ـ بيولوجية.

هذا الكتاب محاولة لاستعادة الجسد كيانا فاعلا فى المجتمع، تحجم عن التغاضى عن العوامل الخارجية التى تسهم فى تشكيله. إنه يؤمّن نظرية اجتماعية يتعين واحد من أهم استحقاقاتها الأساسية فى دراية مكينة بالفلسفة والتاريخ وعلم النفس والأنثروبولوجيا. المقاربة التى يطرحها إنما تعنى بالجسد المهان، الجسد المدنس والمقموع، الجسد الذى يباع ويشترى رقيقا أبيض وأسود، الذى لا يعترف بكرامته وقدسيته إلا حين تلفظ روحه أنفاسها.

علم الاجتماع التطبيقى، الذى يركن إليها البعض تنكبا لأعباء التنظير، وإن ظل مهما، إنما يتأسس على رؤى النظرية الاجتماعية. والتغير الحقيقى الذى تستهدفه كل تنمية اجتماعية إنما يرتهن بمثل هذه الرؤى. ولأن ثقافتنا العربية المعاصرة لا تكاد تولى أى اهتمام كاف بالتنظير السوسيولوجى، ولأن رؤيتها فى الجسد تظل غالبا أسيرة للكثير من التابوهات، فإننا نعتبر ترجمة هذا الكتاب إلى العربية أقرب إلى الواجب المعاقب على تركه منها إلى النافلة المثاب على فعلها.

لن نفصل فى محتويات هذا الكتاب، فمؤلفه يحمل عنا هذا العبء فى فصله الأول. بيد أن هناك قصيدة لادواردو جوليانو تكاد تلخص التوجه العام الذى يكرسه هذا الكتاب، وتبين تعددية أبعاد الظاهرة الجسدية:

تقول الكنيسة: الجسد خطيئة
يقول العلم: الجسد آلة
تقول الإعلانات: الجسد مشروع تجارى
يقول الجسد: أنا مهرجان.

المترجمـــان

نظريات الرؤى البنائية فى الجسد إنما تنحو شطر إخبارنا بالكثير عن كيف غزا المجتمع وشكل وصنف الجسد وأعطاه أهمية، لكنها تخبرنا أقل من ذلك بكثير عن ماهية الجسد وعن سر اقتداره على الاستحواذ على مثل هذه الأهمية الاجتماعية. يعتبر الجسد فضاء نظريا، لكنه غالبا ما يتم التغاضى عنه بوصفه موضوعا واقعيا للتحليل. ربما يكون من الأدق أن نصف رؤى البنائية الاجتماعية الأكثر تطرفا فى الجسد بأنها أعراض للانشغال الحداثى بالجسد، عوضا عن أن تكون تحليلات له.

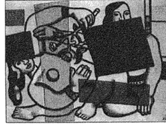
يتوجب أن يتضح من هذا أننى أعتقد أنه لم يتسن حتى الآن للمقاربات البنائية الاجتماعية طرح رؤى مرضية بشكل كامل فى الجسد. لا تثريب على إقرار أن الجسد مشكّل اجتماعيا، لكن هذا لا يخبرنا الكثير عن خصائص الجسد العينية. ما الذى يتم بناؤه على وجه الضبط؟ عوضا عن مواجهة هذا السؤال، وتمكيننا من فهم كيف تشكل القوى الاجتماعية ذواتنا المادية، تنزع البنائية إلى إخلاء الفاعل الجسدى من النظرية الاجتماعية. إننى أتفق فى هذا الخصوص مع ترنر حين يجادل بأننا فى حاجة إلى نظرية تأسيسانية فى الجسد (Turner, 1992a). الشروع فى إنجاز تحليل مناسب للجسد إنما يتطلب اعتباره ظاهرة مادية، فيزيقية وبيولوجية غير قابلة لأن تختزل إلى عمليات أو تصنيفات اجتماعية مباشرة. فضلا على ذلك، حواسنا، ومعارفنا، وقدراتنا على الفعل إنما تتعلق بشكل تكاملى بحقيقة كوننا كائنات جسدية. قد تؤثر العلاقات الاجتماعية بشكل قوى فى تطور أجسادنا فى كل جانب تقريبا: من حيث الحجم والشكل ومن حيث الكيفية التى نسمع بها ونلمس ونشم ونفكر (Duroche, 1990; Elias,1991)، لكنه لا سبيل للاستغناء ببساطة عن الجسد عبر هذه العلاقات. الأجساد البشرية تتغير نتيجة للعيش فى مجتمع، لكنها تظل كيانات مادية، فيزيقية، وبيولوجية.

علم الاجتماع الجسدى

بعد أن تطرقت إلى بعض المحاور الرئيسة التى تعنى بها فى هذه الدراسة، سوف أحاول أن أعرض مخططا للأهداف الخمسة الأساسية التى يتغياها هذا الكتاب، وبطرح وصفا موجزا لكل فصل من فصوله.

أولا: يطرح تحليل متميز لوضع وطريقة تناول موضوعة الجسد فى علم الاجتماع يجادل بأن الجسد كان تقليديا الحاضر الغائب فى هذا الفرع المعرفى.

ثانيا: يحاول الكتاب أيضا أن يطرح رؤية شاملة وواضحة ونقدية لبعض



المقاربات والنظريات الرئيسة المتعلقة بعلم اجتماع الجسد. محاولا تنظيم وتقصى بعض الدراسات المتنوعة إلى حد كبير التى نشرت فى السنوات الأخيرة والمتعلقة بعلم اجتماع الجسد.

فى معرض تقويم تلك المقاربات، أعنى خصوصا بفحص ما تمكننا وما تخفق فى تمكيننا من قوله عن الجسد فى المجتمع. ما الذى تكشف النقاب عنه بخصوص الجسد وما الذى تسكت عنه؟ وعلى حد تعبير تلكوت بيرسون (Pearson, 1968 [1937]:17)، ما «التصنيفات البواقى»: الحقائق أو الملاحظات التى لا يمكن تفسيرها أو أخذها فى الحسبان عبر «التصنيفات المحددة إيجابيا» فى مقاربة الجسد؟ مثال ذلك، هل تسمح لنا مقاربة بعينها فى الجسد أن نأخذ فى الاعتبار أهمية الجسد نسبة إلى الفاعل؟ هل تستطيع أن تفسر أهمية الجسد التاريخية المتغيرة فى الأنظمة الاجتماعية؟ هل تعين على تفسير لماذا أصبح الجسد يشغل إلى هذا الحد الكثير من الحداثيين؟ هل تمكننا مقاربة بعينها للجسد من معرفة لماذا تظل النظم الاجتماعية فى الغرب كأنها منشغلة بالحفاظ على رؤية فى جسد المرأة تختلف وتعد دونية نسبة إلى جسد الرجل؟

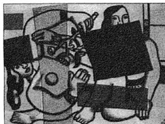
قد ينتقد نهجى هذا من قبل أولئك الذين يفضلون قائمة أنيقة من المعايير المعدة سلفا تقوّم النظريات وفقها. غير أن منقبة هذا النهج إنما تتعين فى تسهيل عرض رؤية شاملة وواسعة لمواطن قوة وضعف مقاربات بعينها للجسد فى وقت يظل علم اجتماع الجسد غضا نسبيا.

يتضمن الهدف الثالث من هذا الكتاب محاولة تجاوز وصف وتحليل المقاربات الراهنة للجسد فى علم الاجتماع، عبر تطوير مخطط ما أعتبره نهجا أكثر ملاءمة. يركن هذا النهج إلى المكاسب التى لا يستهان بها والتى تحققت عبر تحليل الجسد فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الفلسفية، وقد قاربت هذا النهج عبر انتقاء ما أعتبره الأكثر فائدة فى المقاربات التى يتم عرض مخططاتها فى الفصول الأولى من هذا الكتاب. سوف أوظف وصفى وتقويمى للأعمال الراهنة فى علم اجتماع الجسد فى تطوير رؤاها شطر توجه جديد، ورغم أننى لا أنوى تطوير نظرية كاملة فى

الجسد فى هذا الكتاب، من المفيد أن أقول شيئا مختصرا عن النهج الذى سوف أعمل على ترويجه.

سوف أجادل بأن أفضل طريقة لفهمة الجسد هى أن نعتبره ظاهرة بيولوجية واجتماعية غير مكتملة تتغير، ضمن قيود بعينها، نتيجة ولوجها ومشاركتها فى المجتمع. إن هذه النوعية البيولوجية والاجتماعية هى التى تجعل الجسد فى آن ظاهرة واضحة وغامضة إلى هذا الحد. من جهة، «كلنا يعرف» أن الجسد يتكون من لحم وعضلات وعظم ودم، وأشياء أخر، ويحتوى على قدرات تختص بالنوع تجعلنا بشرا. من جهة أخرى، حتى أكثر جوانب الجسد «طبيعية» تتغير عبر فترة حياة الفرد. مثال ذلك، حين يتقدم بنا العمر، تتغير وجوهنا، تضعف قدرتنا على الإبصار، تصبح عظامنا هشة، ويشرع لحمنا فى الترهل. حجم وشكل وطول الجسد تختلف وفق ما يحصل عليه من رعاية وغذاء، فى حين أن انفتاحية الجسد على العلاقات والبيئات الاجتماعية تسهم فى غموضه. مثال ذلك أن تنشئتنا تؤثر فى أجسادنا عبر عدد لا يحصى من السبل: تطور المرء بوصفه فتاة أو فتى يمشى ويتكلم وينظر ويجادل ويتشاجر ويتبول، إنما يرتهن بأنماط تدريب الجسد التى تعلمها من والديه وآخرين (Haug,1987). أيضا فإن التدخل الطبى والتقنى بوجه عام فى الجسد يسلط الضوء على الخصائص البيولوجية والاجتماعية التى يختص بها الجسد، وقد أسهمت فى جعل فهم ماهية الجسد مهمة أكثر صعوبة.

يشير التكوين البيولوجى والاجتماعى للجسد إلى مكون آخر فى النهج العام فى مقاربة الجسد الذى يروج له هذا الكتاب. فى محاولته تنكب عثرات النزعة الاختزالية البيولوجية، دأب علم الاجتماع تقليديا على اعتبار «الطبيعة» و«الثقافة» مجالين منفصلين، تنتمى تحليلاتهما إلى فرعين معرفيين مختلفين. وكما أشار آرثر فرانك (Frank,1991)، فإن هذا التقسيم يعكس بطريقة بائسة تشعيب الطبيعة/الثقافة الذى يسود أدب الجسد، والذى ينزع إلى افتراض أنه بالمقدور تحليل الجسد وتفسيره دون إشارة إلى خصائصه ونزوعاته «الطبيعية». بيد أن مثنوية الطبيعة/الثقافة



تفرقة لا مدعاة لها ولا نفع منها. لقد تطور الجسد البشرى عبر آلاف السنين وهو يؤسس أساسا صلبا للعلاقات الاجتماعية. فى مقابل البنائية الاجتماعية، من المفيد أن نلحظ أن الجسد ليس مقيدا أو مشحونا بالعلاقات الاجتماعية فحسب، بل يشكل أيضا قاعدة ويحوز قدرات منتجة تسهم فى تشكيل هذه العلاقات. قدرات الجنس البشرى التى نحصل عليها فى الولادة، من قبيل القدرة على المشى المنتصب، والقدرة على الكلام واستخدام الأدوات، تمكننا من تكوين علاقات اجتماعية، وتسهم فى تشكيلها. مثال ذلك، تعنى جسديتنا أننا لا نستطيع أن نكون فى مكانين فى الوقت نفسه، كما تفرض قيودا على عدد من نستطيع مقابلتهم والاتصال بهم فى أى وقت بعينه (Giddens,1984). قد يكون بمقدور العلاقات الاجتماعية أن تحدث تغييرات فى قدراتنا الجسدية بسبل عديدة، غير أنها تظل تحوز على أساس فى الجسد البشرى.

بالترويج لنهج عام فى دراسة موضوعة الجسد، أرغب أيضا فى اقتراح وجوب أن يقول علم اجتماع الجسد شيئا عن علاقة العقل/الجسد. هذا موضوع يغفله عادة علماء الاجتماع الذين يركزون على الجسد بوصفه لحما ودما، دون تطوير ذلك فى شكل رؤية فى الجسدية البشرية بوجه عام. وكما سوف يتضح، فإننى أفضل رؤية فى العقل والجسد تعتبرهما مرتبطين على نحو لا فكاك منه بسبب موضع العقل ضمن الجسد. على ذلك، لن أتقصى بأى تفصيل الجدل الفلسفى الطويل والمفصل الذى يركز على هذا الموضوع. عوضا عن ذلك، وبالتعويل على أعمال جورج لاكوف، مارك جونسون، وبوب كونيل، سوف أعنى بالمترتبات الاجتماعية الناجمة عن العلاقة الوثيقة القائمة بين هذه المقولات والمخططات التصنيفية التى نتعامل معها من جهة، ووجودنا الجسدى من أخرى. سوف أنجز هذا عبر نقاش صريح للقضايا المعنية فى الفصل الخامس، وعبر انشغال ضمنى بالنتائج الاجتماعية لموضع العقل ضمن الجسد فى الفصول السادس والسابع والثامن.

فى سياق تأسيس مخطط هذا النهج العام فى مقاربة موضوعة الجسد، يعد الفصل الخامس فصلا أساسيا، فهو يروم تجاوز ما أعتبره قصورا فى مقاربتى النزعة الطبائعية والبنائية الاجتماعية للجسد. سوف أعتبر بشكل موجز دور تطور البشر فى حصولنا على قدرات خاصة بالجنس البشرى، وأركن بحرية إلى أعمال بوب كونيل وبيتر فرند. لقد طرح هذان الكاتبان تحليلات مهمة «للجسد المجندر» و«الجسد العاطفى». إذا اعتبرنا أعمالهما معا، فإنها تقترح كيف تصبح التقسيمات الاجتماعية متجسدة فى النساء والرجال. يتعرض

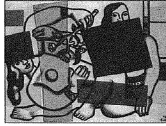
منذ ستينيات القرن الفائت، أجريت فى الولايات المتحدة أكثر من مليون عملية زرع أثداء لنساء رغبن فى أجساد أكثر «أنوثة»



الفصلان السادس والسابع لحجة أكثر إثارة للخلاف مفادها أنه يمكن توظيف أعمال بيير بورديو ونوبرت الياس فى التغلب على مثنويات البيولوجيا/المجتمع، العقل/الجسد، والثقافة/الطبيعة البارزة فى مقاربات النزعتين الطبائعية والبنائية للجسد. فضلا عن ذلك، عوضا عن الاقتصار على عرض مقاربات منهجية للجسد، يمكن تأويل تلك الأعمال على اعتبار أنها تطرح نظريات فعلية فى الجسد فى المجتمع.

سبق أن تم تأويل أعمال بورديو والياس بطرق عديدة، غير أنه لا يظن عادة أنها تطرح نظريات فى الجسد، رغم أن علماء اجتماع الجسد قاموا بتوظيفها. على ذلك، يتعين هدفى الرابع من هذا الكتاب فى عرض اقتراح مفصل مفاده أن لب أعمالهما إنما يتعين فى رؤى محددة فى الجسد تحمل محمل الجد المترتبات الاجتماعية الناجمة عن الجسدية البشرية بوصفها ظاهرة مادية. لقد سبق أن اقترحت أن علم الاجتماع التقليدى تبنى مقاربة مزدوجة فى دراسة الجسد، ولا ريب أن هذه المقاربة تظل تهيمن إلى حد كبير على علم الاجتماع المعاصر. غير أن هناك استثناءات، وأقترح أنه بالإمكان اعتبار أعمال بورديو نظرية فى الجسد كرأس مال مادى، فى حين تعنى أعمال الياس أساسا بالتفصيل فيما أسميته بنظرية الجسد المتحضر. إن كل من هذين الكاتبين يطرح لعلماء الاجتماع مقاربات فعالة متقابلة للجسد تعين على تجاوز المقاربة المزدوجة التى تبناها علم الاجتماع التقليدى فى دراسته لموضوعة الجسد. أيضا فإن لديهما الكثير لقوله بخصوص موضع الجسد فى المجتمع وتأثيره على إحساس الناس بهوياتهم.

يشير مفهوم بورديو للجسد بوصفه نوعا من رأس المال المادى إلى شيوع عملية تسليع الجسد؛ وهو موقف يربط هويات البشر بالقيم الاجتماعية التى يحصلون عليها بسبب حجم وشكل ومظهر أجسادهم. فى المقابل، يبين الياس كيف أصبح الجسد بشكل متصاعد فردانيا يعزل المرء عن أغياره. إنه يجمع بين هذا وتحليله لكيف أن كثيرا من الصراعات التى كانت تحدث بين الأجساد أصبحت تحدث الآن داخل الفرد الجسدى بسبب متطلبات التحكم فى العواطف. إن هذه العمليات تجعلنا نعيش وحيدين مع أجسادنا؛ بحيث نبذل المزيد من الجهود فى مراقبتها، وترويضها والعناية بمظهرها، مع فقد الرضا الذى كنا نتمتع به بسبب الانغماس فى الملذات وإشباع حاجات الجسد. إن لدى الياس أكثر مما لدى بورديو بخصوص «الجسد المعاش»، وكيفية اختبار أنفسنا وبيئتنا عبر أجسادنا. على ذلك، يمكن إقرار أن أعمال هذين المنظرين تقر الكثير



عن النزوع الحداثى لدينا شطر درجة عالية من التأمل فى أجسادنا، وعن السبب الذى يجعل الموت فى هذا السياق شيئا مزعجا للفرد الحداثى.

يحيلنى هذا إلى الهدف الخامس والأخير من هذا الكتاب: الترويج لتحليل الموت بحسبان أهميته المركزية فى علم اجتماع الجسد. خلافا لدراسات أخرى أجريت على موضوعة الجسد، أقترح أننا لا نستطيع فهم الظروف المرتبطة بالحياة كأشخاص جسديين فى عصر الحداثة العالية فهما تاما إلا باعتبار إمكان الموت.

وضع مخطط الجسد

رغم أن هذا الكتاب لم ينظم فى شكل أبواب، فإن محتواه ينقسم بوجه عام إلى أربعة مجالات مرتبطة. أولا، يطرح الفصل الثانى رؤية شاملة لوضع وصورة الجسد فى علم الاجتماع. ثانيا، يتقصى الفصلان الثالث والرابع مقاربات منهجية منفصلة لتحليل الجسد فى المجتمع. ثالثا، فى حين تواصل الفصول السادس والسابع والثامن والتاسع المقارنة بين مقاربات مختلفة للجسد، فإنها تحاول تفسير لماذا أصبح الجسد مشروعا عند كثير من الناس فى الفترة الراهنة من الحداثة العالية، وتحلل حدود هذا التوجه شطر الذوات المادية. رابعا، يحلل «التعقيب» ما آلت إليه مشاريع الجسد فى سياق ابتكارات تقنية أنجزت مؤخرا، كما يحلل مفاهيم بديلة للجسد والهوية الذاتية، ويروم إحداث المزيد من التطوير على النهج الواسع الذى يتبناه هذا الكتاب. يتضمن هذا إعادة تقويم بعض النظريات الأساسية التى سبق فحصها فى الأجزاء الرئيسة من الكتاب، وتحديد ما أعتبره توجها جديدا مهما فى عملية التنظير للجسد.

يطرح الفصل الثانى تقصيا مفصلا للمنزلة المزدوجة التى يتنزلها الجسد فى علم الاجتماع وظهور الجسد بوصفه موضوعا للدراسة. بعد فحص حضور الجسد الغائب فى علم الاجتماع المعاصر والكلاسيكى، ويبحث عن بعض الأسباب التى تفسر رواج الجسد المتصاعد فى علم الاجتماع. يتضمن هذا ظهور نسوية «الموجة الثانية»؛ تقدم السن بسكان المجتمعات الغربية؛ التحول الذى طرأ على بنية الأنظمة الاجتماعية الرأسمالية المتقدمة؛ المشكلة آنفة الذكر المتعلقة بمعرفتنا بماهية الجسد، والمرتبطة بعقلنة الجسد فى عهد الحداثة. تنعكس هذه «الأزمة» فى أعمال بعد - حداثية متأخرة فى الجسد تخلت، رغم تركيزها المثمر على الاختلاف، عن محاولة فهم الجسد بوصفها ظاهرة مادية. أيضا فإنها تنعكس فى تمثيلات الجسد فى الثقافة الشعبية.

يفحص الفصلان الثالث والرابع موروثين من أهم موروثات التفكير التى عنيت بها الدراسات المعاصرة فى الجسد، وركنت إليها واستجابت ضدها. يركز الفصل الثالث على الرؤى الطبائعية فى الجسد. المقاربة الطبائعية مظلة ينضوى تحتها نطاق واسع من الرؤى التى تمفهم الجسد بوصفه قاعدة بيولوجية تتأسس عليها بنى المجتمع الفوقية. المجتمع إنما ينبثق من الجسد وهو مقيد بالجسد، الذى يتشكل بدوره بواقعيات الطبيعة الثابتة. وفى حين أن الرؤى الطبائعية ترتبط غالبا بعلم الاجتماع، فإن لها تاريخا طويلا ومتنوعا، وقد أثرت، سلبا فى أغلب الأحيان، فى مفهوم علماء الاجتماع المعاصرين للجسد. تظل تلك الرؤى تحدث أثرها العميق فى التمكين من حدوث إجحاف اجتماعى، غير أنه تم تبنيها من قبل جماعات مضطهدة لتبرير اعتبار جسديتها منقبة.

على ذلك، استجابت معظم الأعمال السوسيولوجية المتأخرة بطريقة سلبية ضد الرؤى الطبائعية وركنت عوضا عنها إلى ما يبدو جملة مختلفة جذريا من الأعمال. فى الفصل الرابع أتقصى مجموعة منتقاة من رؤى البنائية الاجتماعية فى الجسد. تدرك هذه الرؤى معنى وأهمية وحتى وجود الجسد بوصفه ظاهرة اجتماعية. وعوضا عن أن يكون الجسد قاعدة المجتمع الطبيعية، فإنه يعد نتاج القوى والعلاقات الاجتماعية.

أثرت أربعة مصادر فى رؤى النزعة البنائية الاجتماعية فى الجسد: أنثروبولوجيا مارى دوجلاس؛ أعمال علماء التاريخ الاجتماعى فى الجسد؛ تحليلات ميشيل فوكو؛ ودراسات ارفنج جوفمان. بعد تحليل موجز لهذه الأعمال، يركز الفصل الرابع على فوكو وجوفمان. عادة ما يعتقد أن أعمال فوكو تطرح رؤى عميقة فى الجسد، ولا ريب أن فوكو قد بذل جهدا كبيرا فى جعل علماء الاجتماع يحملون الجسد محمل الجد. على ذلك، سوف أجادل بأن رؤيته الابستمولوجية فى الجسد، التى تقر أن الجسد لا يوجد إلا فى اللغة المستخدمة (الخطاب)، تعوق فى النهاية علم الاجتماع أكثر مما تقدم له يد العون. فى الخلاصة، أفحص نظريتين معاصرتين فى الجسد تركنان فيما يمكن أن نجادل إلى أعمال فوكو وجوفمان: نظرية ترنر فى «نظام الجسد»، ومقاربة آرثر فرانك («مشاكل الفعل») للجسد.

يبدأ الفصل الخامس بالدفاع عن تجسير الهوة الفاصلة بين الرؤية الطبائعية فى الجسد بوصفه ظاهرة بيولوجية ورؤية البنائية الاجتماعية فى الجسد التى تعتبره طيعا بشكل غير محدود. بعد ذلك، يناقش الفصل أعمال بوب كونيل وبيتر فرند، وهما كاتبان تحرز أعمالهما فى الجسد المجندر والجسد العاطفى تقدما شطر تحقيق ذلك الهدف.

المقصود من تحليل أعمال بورديو والياس فى الفصلين السادس والسابع هو التأسيس على الفصل الخامس عبر فحص كيف يمكن بسط مقاربة عامة للجسد بحيث تصبح نظرية فى الجسد فى المجتمع. أعتقد أن هذين الكاتبين يطرحان نظريتين من أقوى النظريات الراهنة فى الجسد.

يروم الفصل الثامن ضم شمل محاور هذه الدراسة عبر التركيز على علاقة الجسد، والهوية الذاتية، والموت فى عصر الحداثة العالية. هنا توصف ثلاث مقاربات مختلفة، تمكننا من حمل أهمية الموت والجسد محمل الجد. تركن الأولى إلى علماء الأنثروبولوجيا الفلسفية وأعمال بيتر برجر؛ فيما تركن الثانية إلى أعمال أنتونى جدنز فى الحداثة؛ أما الثالثة فتعول على ما سبق فحصه من أعمال بورديو، والياس بشكل أكثر خصوصية.

دأب علم الاجتماع تقليديا على العناية بقضايا الحياة، عوضا عن موضوع الموت. غير أننى أقترح أنه لا سبيل لفهم أهمية الجسد فى الحقبة المعاصرة حق الفهم إلا باعتبار مواجهة الفرد الحداثى للموت. فى وقت يشهد أفول فتنة السلطة الدينية، وسرديات شمولية أخرى فى الغرب، يفضل الفرد الحداثى أن يترك وحيدا مع جسده فى مواجهة الموت. إن أجسادنا تحظى بأهمية عظيمة بوصفها حاملة حياة، لكنها تبدو هشة وعديمة الأهمية بوصفها كيانات فانية محتم أن تموت. ■

هوامش

(١) وفق بحث أجرته صحيفة التايمز (١٩ أكتوبر ٢٠٠٢)، زادت تجارة اللياقة الصحية فى المملكة المتحدة نسبة قدرها ٨١٪ فى الفترة بين ١٩٩٤ و١٩٩٩. يوجد الآن حوالى ألفى نادى صحى خاص فى المملكة المتحدة. وقد أنشئ ١٥٦ ناديا فى عام ٢٠٠١ وحده، وهذا رقم قياسى.

جاء فى الأخبار أن شركة «تنتالوم مصر» التى كانت قد تكونت فى شهر ديسمبر سنة ٢٠٠٢ طبقًا لقانون الاستثمار رقم ٨ لسنة ١٩٩٧ مناصفة بين شركة جبسلاند الأسترالية للتعدين وهيئة المساحة الجيولوجية والمشروعات التعدينية المصرية ستبدأ فى نشاطها التعدينى لاستخراج معدن التنتالوم وعدد من المعادن الأخرى المصاحبة من جبلى أبو دباب والنويبع بسلسلة جبال الصحراء الشرقية المطلة على ساحل البحر الأحمر إلى الشمال من مدينة مرسى علم.

ويجىء هذا البدء بعد أن انتهت شركة جبسلاند المنفذة للأعمال دراسة جدوى استخراج هذه المعادن التى كانت هيئة المساحة الجيولوجية والمشروعات التعدينية قد اكتشفتها فى سنة ١٩٦٨ بالاشتراك مع الخبرة السوفيتية وبدأت فى تقييمها للاستخراج الاقتصادى بعد ذلك التاريخ وحتى عام ١٩٧٢.

وقد تذكرت عند قراءة هذا الخبر ما كنت قد كتبته عن هذا الاكتشاف الذى تم وقت أن كنت رئيسًا لهيئة المساحة الجيولوجية والمشروعات التعدينية والطريقة التى تم بها، أعيد نشره كما جاء فى الكتيب الذى أصدرته الهيئة فى سنة ١٩٧١ لأقدم به لنتائج الأعمال التى قامت بها الهيئة لتقييم هذا الخام منذ اكتشافه وحتى صدور الكتيب. وكنت قد طلبت من المرحوم الدكتور عاطف ثابت مدير مشروع التقييم أن يعد الكتيب ليعرض فيه للأعمال التى قامت بها فرق البحث الحقلى بالصحراء التى كانت تحت إشرافه، وكذلك تلك التى قامت بها فرق البحث العلمى بالقاهرة.

قصة «التنتالوم» فى مصر

بدأ مشروع استكشاف التنتالوم فى سنة ١٩٦٩ وانتهى فى أبريل سنة ١٩٧٢ وتكون من أربع بعثات حقلية قامت برفع الخرائط ودق الأبار (بمجموع ٤٤٣٦ مترًا طوليًا) وحفر الأنفاق بداخل الجبلين (بطول ١٧١٤ مترًا) والخنادق (بحجم ٧٠٠ متر مكعب) وجمعت أكثر من ٥٠٠٠ عينة كتلية وأسطوانية ومتالوجيينية تم تحليلها معدنياً وكيميائيا وطيفيا كما تم القيام بمسح جيوفيزيقى شمل قياسات جاذبية أرضية ومغناطيسية وكهربية وإشعاعية.

وعندما كنا نقوم بهذه الأعمال كان الأمل يحدونا لكى نبنى هيئة علمية متقدمة للبحث العلمى المنظم عن المعادن فى مصر قادرة ليس فقط على استكشاف ثرواتنا المعدنية، بل ولتنميتها واستخدامها لصالح مصر ودون الحاجة لمشاركة أحد.. واليوم وبعد قرابة أربعين سنة على كتابة هذا التقديم الذى أنشره بحذافيره فيما يلى فقد تدهور الحال حتى أصبحت مصر بلا هيئة للمساحة الجيولوجية، فقد ألغيت كلية بقرار انفرد بإصداره وزير لم يستشر أحداً ممن يعرفون شيئا عن التعدين أو أهمية البحث العلمى.

يحتوى هذا الكتيب الذى أعده الدكتور عاطف ثابت على نتائج تقييم المرحلة الأولى لعمليات الاستكشاف التعدينى على بعض مناطق الصحراء الشرقية حول منطقة العجلة والتى أدت إلى كشف كبير عن خامات المعادن النادرة كالتانتالم والنيوبيوم والليثيوم والبريليوم وبعض الخامات المعدنية الأخرى المصاحبة كالقصدير والفلوريت وغير ذلك، وعندما تتم المرحلة الثانية المقدر للانتهاء من تنفيذها نهاية عام ١٩٧٣ فإن أغلب الظن أن مصر ستكون قد وضعت يدها على ثروة كبيرة من هذه المعادن التى يبدو أن بعضاً منها يمثل جزءاً كبيراً من احتياطى هذه الخامات فى العالم.



ويعتبر هذا الكشف الكبير فريداً من عدة أوجه. فقد جاء أولاً نتيجة جهد علمى منظم ومركب يطبق لأول مرة فى عمليات الاستكشاف التعدينى بمصر بأحدث الطرق الحقلية والمعملية، كما يمثل من الوجهة الأخرى نتيجة عمل فرق متكاملة ينتظم فيها مختلف الإخصائيين لكى يعملوا فى تنسيق كامل يعالجون فيها عدة مئات الآلاف من القياسات والتحاليل التى تتناولها الأيادى لعدة مرات كما هو واضح من حجم العمليات المذكورة بهذا الكتيب، كما يمثل هذا الكشف فتحاً لآفاق جديدة لإمكانيات التعدين بمصر، فهذه هى المرة الأولى التى تعطى فيها صخور القاعدة المصرية معادن فلزية ذات قيمة اقتصادية فى تاريخ مصر الحديث.

وإنى لأعتقد أن تاريخ هذا الاكتشاف العظيم وتجربة العمل المتكامل التى أدى إليها لتحتاج إلى تسجيل، ففى صيف ١٩٦٨ وعقب أن توليت رئاسة مؤسسة التعدين كان عقد الخبرة الفنية السوفيتية المبرم مع المؤسسة على وشك الانتهاء مما دعا الجانب السوفيتى إلى أن يقدم للسيد وزير الصناعة اقتراحا بتوقيع عقد جديد لاستكمال الكشف التعدينى بالبلاد يتضمن عرضاً بالمعاونة فى رفع الخريطة الجيولوجية المصرية التى كانت تنقص الخبراء فى أى بحث علمى منظم عن معادن مصر، وكذلك على عرض باستكمال أبحاث فوسفات وادى النيل الذى كان يعمل فى الجزء الأكبر منه قد انتهى بالعقد السابق مع الخبرة السوفيتية.

ولما قمت بدراسة هذا الاقتراح رأيت أن العرض بالرغم من وجاهته لا يمثل ما كنت أتمناه من حيث بناء جهاز للمساحة الجيولوجية المصرية لا يتمشى والعصر، ولذلك اقترحت على السيد وزير الصناعة أن يترك لى ولزملائى من الخبراء الوطنيين عملية بناء الخريطة الجيولوجية وأن يؤجل النظر فى استكمال دراسة فوسفات وادى النيل فى الوقت الحاضر، إذ إن النتائج الأولى قد أثبتت احتياطياً كبيراً من خام قد لا تؤدى دراسته الاقتصادية إلى ما يضيف كثيراً إلى احتياطى الثروة المصرية وأن يسمح لنا بتغيير البرنامج المقترح فى العقد المذكور إلى برنامج آخر تطبق فيه طرق الاستكشاف التعدينى الحديثة والمركبة على بعض مناطق الصحراء التى تبدو وكأن بها علامات تعدين مأمولة. وقد قبل السيد الوزير اقتراحى هذا.

وفى مايو ١٩٦٩ سافرت على رأس وفد من أعضاء المساحة الجيولوجية لمناقشة الجانب الروسى فى موضوع عقد الخبرة المشار إليه وتم توقيع العقد وبه تحديد لبعض المناطق المأمولة لبدء العمل فيها بطرق الاستكشاف المعقدة هذه، وقد كان اختيار هذه المناطق أمرا تحملت مسئوليته بالكامل لأن السلسلة الطبيعية والواجبة الاتباع فى مثل هذه الأعمال هى ألا يتم الاستكشاف التعدينى لأى منطقة فى إقليم ما إلا بعد أن تتم الدراسات الأساسية العامة وترفع خرائط الإقليم الجيولوجية والجيوفيزيقية الجوية. ثم يحدد فى ضوء هذه المعلومات الأساسية المناطق المأمولة والمحدودة المساحة لإجراء عمليات الاستكشاف التعدينى الغالى النفقة والباهظ التكاليف عليها، إلا أنى شعرت أن مثل هذه السلسلة الطبيعية للأعمال ستؤخر البحث العلمى المنظم من المعادن طويلاً، خاصة أن رفع

اكتشاف خامات المعادن النادرة بالصحراء الشرقية
يوليو سنة ١٩٧١
القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩١هـ - ١٩٧١م

الخرائط الجيوفيزيقية الجوية التى تم تنظيم القيام بها بين بنود العقد الجديد المقترح ستتأخر كثيراً فى ضوء ظروف الحرب التى تخوضها البلاد، كما أن عملية رفع الخرائط الجيولوجية الكاملة للجمهورية هى عملية طويلة المدى. وقد شعرت أن معرفتى بجيولوجية البلاد التى بنيتها فى تصور ذهنى قائم على المعلومات المتفرقة المعروفة عنها فيه ما يكفى للبدء فى تنفيذ عمليات الاستكشاف التعدينى المعقدة على بعض المناطق التى تخيلت أنها ولابد معطية بعض الآمال. كما رسمت بالإضافة إلى ذلك خطة المساحة الجيولوجية على أساس استمرار العمل فى موازاة للقيام بالأعمال الأساسية اللازمة، فضمنت العقد بنداً للتصوير الجوى لأجزاء كبيرة من سطح مصر التى لم تكن قد صورت جوياً حتى ذلك التاريخ، وكذلك بنداً للمسح الجيوفيزيقى الجوى لأجزاء من صخور القاعدة المصرية كما قمت بوضع برنامج لرفع الخرائط الجيولوجية الإقليمية لمصر.



وفى نهاية عام ١٩٦٩ بدأ العمل فى المناطق المختارة بالطرق الحديثة والمعقدة للاستكشاف التعدينى، ولم يكن العمل بمثل هذه الطرق سهلاً فى مصر، فالتجربة جديدة وتحتاج لنجاحها إلى فرق متكاملة يناول العاملون فيها معارفهم الواحد للآخر فى نظام ورتابة متينين، وهذا طريق جديد تماماً لعالم تعمه الفردية المطلقة حتى إن أكثر نتائج الأعمال التى تمت بالهيئة لم تكن محفوظة لديها، بالإضافة إلى ذلك فإن التجربة تحتاج إلى خبرات جديدة لم تكن فى متناولنا، فالجيولوجيون ذوو الخبرة تدربوا على فروع أخرى من العلم وفى ظل نظام فردى مطلق، والجيولوجيون الجدد خارجون من الجامعة على مستوى متواضع جداً من العلم والمعرفة العامة. كما أن عمليات البحث هذه تحتاج إلى أدوات معملية متقدمة لم تكن لدينا أو إن كانت فقد رتبت للاستفادة منها فى أحجام صغيرة لا تتناسب أبداً وحجم العمل المنتظر، فقسم المعادن مثلاً لم يكن يعالج أكثر من خمسين عينة فى الشهر، وكذلك الحال بقسم التحليل الطيفى، كما أن المعامل الكيماوية كانت تعمل فى

خطوط تقليدية تختلف كل الاختلاف عما ينتظرها وهى تعالج تحاليل الفلزات وغيرها من المعادن التى لم تدخل أبداً فى خبرتها، وبدا العمل فى أوله عسيراً لدرجة مزعجة، إلا أن التعاون الصادق الذى رأيته من الجانب السوفيتى وتحت القيادة الرشيدة لدكتور عاطف ثابت الذى أخذ على عاتقه مسئولية القيام بهذه الأبحاث قد حلت معظم هذه المشاكل وبدأ العمل ينتظم فى شهور وانتقلت بذلك المساحة الجيولوجية المصرية إلى جهاز متقدم للبحث الجيولوجى فى ظرف أقل من سنة واحدة.

بدأنا العمل بمجموعة من الجيولوجيين والكيميائيين والجيوفيزيقيين المبتدئين اخترناهم فى امتحان شفاهى من بين مائة متقدم للإعلان عن وظائف ليس من بينهم أفضلهم علماً، ولكن من بين أفضلهم حباً للصحراء وتطلعاً للعمل المنظم فى فريق متكامل لا يعرف كل واحد فيه العمل الموكل إليه على وجه التحديد فقط، بل ومكانه وسلسلة قياداته وطريقة تسجيل معارفه ومناولة عيناته. وعلى مدى الشهور الأولى وفى ظل هذا الجو المنظم وبإذكاء روح الفريق استطعنا أن ننقل أبناءنا الجدد فى أقل من عام واحد ليس فقط إلى شباب يتقنون أعمالهم التى بدأوها بل وإلى مجموعة طيبة من العاملين فى فريق. وفيما يلى أسماء من تميزوا من هؤلاء الأبناء.

إخصائيون:

دكتور حسن الحكيم
جيوفزيائى وليم كامل عوض
جيوفزيائى محمد أحمد شعبان
جيولوجى محمد أحمد البديوى
جيولوجى سعد عوض
جيولوجى غبريال أسعد غبريال
جيولوجى عبدالله عبدالنبى
مهندس بديع مرجان
مهندس محمد عبدالمطلب
جيولوجى إبراهيم أبوالليل
جيولوجى إبراهيم خلف
جيولوجى عادل زخارى
جيولوجى سيد ضيف عزاز

كتبة:

سيد طه
حميدو أبوالعلا

سائقون:

سيد محمد على
عمر على حامد
حسن دهب

عمال مناجم:

عمر عرابى كرار
خلف الله العشابى

ومن الناحية الأخرى بدأنا نبنى معامل جديدة بالقاهرة تستطيع أن تجابه سيل العينات القادمة من الحقل، ولم يكن ذلك سهلاً فإيجاد المكان الجديد لتكسير وطحن وإعداد هذه العينات ثم معالجتها بالفصل ثم شراء أجهزة المعامل الجديدة وإصلاح ما تعطل منها وتعيين الفنيين المطلوبين لهذه العمليات وتدريبهم لم يتم إلا بشق الأنفس، ولكننا استطعنا فى أقل من عام واحد أن ننقل معاملنا من معامل متواضعة لا تعالج إلا ألفاً واحداً من العينات إلى معامل تعالج عشرات الآلاف من العينات. وعلى سبيل المثال فقد تم خلال عام ١٩٧١/٧٠ معالجة ٢١٥٢٩ عينة بالتحليل الطيفى لعدد ٢٤٥٨٦١ عنصراً، وعدد ٥٣٤٠ عينة للتحليل المعدنى لعدد ٣٤٨٩١ عنصراً بزيادة تزيد على عشرة أضعاف ما درجنا عليه فى العام الذى سبقه فقط.



وفى يونية ١٩٧١ كانت نتائج الفحوص والتحاليل المعملية لعينات الحقل قد بدأت تأتى فى كمية كافية لتبين أن إحدى المناطق التى اخترناها للقيام بأعمال الاستكشاف التعدينى عليها تحتوى كشفاً اقتصادياً كبيراً من بعض المعادن النادرة التى يمكن بحق تسميتها معادن المستقبل، ليس هذا فقط، بل إن هذه المعادن موجودة بكميات تبشر بالإمكانيات الهائلة لمستقبل باهر فى ميدان استخراجها، ولعلى لا أبالغ هنا عندما أقول إن مصر توشك بهذا العمل أن تضع يدها على ثروة عظيمة لن يقل أثرها على مستقبلها عن أثر البترول فى إمارات الخليج أو الكويت، فقائمة المعادن المكتشفة من الندرة والأهمية والقيمة الاستراتيجية ما لا يحتاج إلى بيان.

وإذا كان لهذه القصة من مغزى فهى أن أرض مصر بالرغم من قدمها وكثرة مرور المغامرين عليها مما عراها تعرية تكاد تكون تامة من كل ثروة معدنية سهلة الاستخراج على سطحها، لازالت بكراً أمام إنجازات العلم الحديث وكفاءة الإنسان التنظيمية وفكره الخلاق. ■

«النيوبيوم»..

فى أثناء عمليات المسح الجيولوجى لمنطقة وسط الصحراء الشرقية بواسطة فريق مشترك بين المساحة الجيولوجية المصرية ومجموعة الخبراء السوفييت عام ١٩٧٠ اكتشف وجود نوع فريد من الصخر اسمه Apo Granite يتميز بلونه الأبيض وبلوراته السكرية المظهر وسط صخور داكنة ويشغل مساحة لا تزيد على ٢ ـ ٣ كم^2. عند إجراء عمليات التحليل الطيفى Spectral Analysis لهذه الصخور اكتشف وجود معدن النيوبيوم ومعدن التنتاليوم بنسب بلغت ٠,٠٨٪ وهى نسبة عالية نسبياً ـ فى هذا الوقت كان السوفييت يهتمون بمعادن العناصر الأرضية النادرة فى بلادهم لاستخدامها فى الصناعة الإلكترونية والمعادن التى تصلح فى أبحاث الفضاء ـ ومن هنا كان الاهتمام بالكشف المصرى لوجود هذين المعدنين.

أسفرت الدراسات البتروجرافية والمعدنية عن أن الصخر الذى يحتوى على هذين المعدنين المهمين مكون من معادن الفلسبار الأبيض (الألباتيت والبلاجيوكليز) وهى خامات أساسية فى صناعة السيراميك مع نسبة عالية من معدن الكاستريت (كبريتيد القصدير) الذى ينتج منه القصدير. ولهذا الغرض تم حفر نفق أفقى طوله ٢٠٠ متر يخترق جسم الخام وتم جمع عينات منه أوصلت إلى النتائج الأولية التى أعلنت فى حينه.

فى ذلك الحين عام ١٩٧٠ أصدر الدكتور رشدى سعيد، رئيس الهيئة فى ذلك الوقت كتيباً باللغة العربية شارحاً فيه أهمية هذا الكشف الجديد ومستقبله وأنه يمثل أكبر احتياطيات للخام من هذا النوع ربما على مستوى العالم. إلا أن خروج السوفييت من مصر عام ١٩٧٢ ودخول البلاد فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وترك الدكتور رشدى سعيد لمنصبه بعد ذلك أدى إلى توقف كافة الجهود للسير فى تنمية هذا الكشف المهم وخاصة أنه لم يكن لهيئة المساحة الجيولوجية فى ذلك الوقت وحتى عام ١٩٨٤م سياسة واضحة لإقامة مشروعات مشتركة مع جهات خارجية متخصصة.

فى عام ١٩٩٢ عرضت الحكومة الإيطالية من خلال برنامج التعاون الدولى بها تقديم منحة مقدارها مليون دولار لإجراء استكشاف تفصيلى شمل: إجراء عمليات حفر من داخل النفق المشار إليه عاليه لأعماق ٥٠ ـ ١٠٠م إلى أعلى النفق وأسفل النفق ثم على مسافات محددة إلى يمين ويسار النفق حتى نهايته وذلك بفريق بحث حقلى مشترك بين جيولوجيى الهيئة وجيولوجيين إيطاليين.

وعلى أثر هذه العمليات الحقلية تم جمع عينة تكنولوجية مركبة أرسلت إلى معامل شركة جيومنوريريا الإيطالية بجنوب إيطاليا لإجراء عمليات تركيز وفصل لمعادن النيوبيوم والتنتاليوم والقصدير. وقد تم على النطاق المعملى فصل هذه المعادن بدرجة نقاوة عالية وقدم عن ذلك تقرير تفصيلى مودع فى وثائق هيئة المساحة الجيولوجية منذ ذلك التاريخ.

خلصت نتائج هذه الدراسة إلى ما يلى بافتراض إنتاج ٢٠٠ ألف فدان من الصخر الحاوى على هذه المعادن سنوياً:

١ ـ إنتاج ٦٠ طناً من معدن النيوبيوم ومثلها من معدن التنتاليوم.

٢ ـ إنتاج ١٨٠ طناً من القصدير النقى (مصر تستورد قصديراً بحوالى ٢٥٠ طنا سنوياً).

أما بالنسبة للصخر الحاوى على هذه الخامات النادرة فقد أثبتت الدراسة المعملية أنه من كمية الـ ٢٠٠ ألف طن المشار إليها عاليه يمكن الحصول على:

١ ـ ٩٠ ألف طن من الفلسبار عالى الجودة Ceramic grade لصناعة السيراميك والخزف الصينى.

٢ ـ ٣٠ ألف طن من الكوارتز ـ السيلكا النقية ـ التى تصلح لإنتاج الزجاج المتعادل.

بعد تقديم هذا التقرير المتفائل سعت هيئة المساحة الجيولوجية عن طريق التعاون الدولى الإيطالى للحصول على منحة قدرها ١٠ ملايين دولار لإقامة مشروع رائد Pilot للتحقق الاقتصادى من النتائج سالفة الذكر. إلا أن هيئة المساحة الجيولوجية لم تتمكن من الحصول على هذه المنحة، حيث لم تكن أسعار النيوبيوم والتنتاليوم قد ارتفعت فى السوق العالمية إلى ما هى عليه الآن وتوقف المشروع منذ عام ١٩٩٣م.

فى عام ٢٠٠٤م وبعد تكون ما يسمى (شركة الثروات المعدنية) تابعة لهيئة المساحة الجيولوجية تقدمت شركة جبسلاند للحصول على حق استغلال هذه المنطقة وأعلن عن قيام شركة مشتركة وفقاً لقانون الاستثمار بين شركة الثروات المعدنية وهيئة الثروة المعدنية وليس من القانون ٨٦ لسنة ١٩٥٦ الخاص بالمناجم والمحاجر

و «التنتاليوم»

مما يعد هروباً من التزامات واشتراطات هذا القانون. وعلى مدى ثلاث سنوات من التعاقد مع هذه الشركة لم تقم هذه الشركة بأعمال ذات قيمة بالموقع إلا أنه بدأت مؤخراً أعمال حفر آبار جديدة بالمنطقة وتجهيز عدد من الطرق التى تربط موقع الخام بشاطئ البحر الأحمر كما أفاد المسئول عن هذه الشركة ومن خلال تقارير دورية تقدم لشركة الثروة المعدنية وإلى هيئة الثروة المعدنية.



وقد أثيرت القضية مؤخراً فى الاعلام المصرى ونود أن نوضح مجموعة من النقاط بشأنه

١ ـ أن منطقة أبو دباب تقع بالصحراء الشرقية ـ شمال مرسى علم وليس منطقة أبو ضباب التى ذكر إنها فى سيناء وأن ما ورد بالتحقيق أن هذه المنطقة لم يسمع عنها أحد، فهذا مخالف للحقيقة كما أوردنا سابقاً، فالمنطقة وغيرها معروفة منذ ما قبل عام ١٩٧٠م كما أوضح أستاذنا الدكتور رشدى سعيد الذى كان له الفضل فى ذلك الوقت للتنبيه لأهمية هذا المعدن ورفيقه المسمى نيوبيوم.

٢ ـ الشركة الأسترالية جبسلاند هى شريك متعاقد وفقاً لقانون الاستثمار بين هيئة الثروة المعدنية والشركة المصرية للثروات المعدنية ومنحت هيئة الثروة المعدنية هذه الشركة المشتركة حق استغلال خامات أبو دباب منذ عام ٢٠٠٤ دون وجه حق على أن تتولى شركة جبسلاند الإنفاق على الأبحاث والدراسات وعمليات الاستخراج والتسويق واقتسام العائد.

(رأى شخصى ـ هذه الشركة الثلاثية والتى صدر قرار بتشكيلها طبقاً لقانون الاستثمار لم تمنح ـ فى إطار القنوات الشرعية ـ حق استغلال هذه الخامات والتى هى أصلاً طبقاً للقانون ٨٦ لسنة ١٩٥٦م الخاص بالمناجم والمحاجر وطبقاً للدستور تعتبر من أموال الدولة لا يجوز منح حق استغلالها إلا فى إطار القانون وطبقاً لنصوصه أو تطبيق المادة ٥٠ منه إذا ما أريد الحصول على تيسيرات غير واردة بالقانون وهذه المادة تستلزم أن يصدر عقد الاستغلال بقانون حماية لأموال الدولة).

٣ ـ يعيب الترخيص لهذه الشركة الثلاثية ما يلى:

(أ) أن الدولة أنفقت على هذا الموقع والخام من أموالها بالإضافة إلى المنحة التى حصلت عليها مما زاد فى قيمة المنطقة، الأمر الذى يحتم طبقاً للقانون الإعلان عن استثمارها بمزاد أو حسب نظام الاتفاقيات التى تصدر بقانون فهذه الخامات فى الأصل ملك الدولة ومن أموالها العامة.

(ب) أن تشكيل هذه الشركة الثلاثية لا يعفى الشركة من الحصول على عقد استغلال طبقاً للقانون وهو ما أعتقد أنه لم يحدث حتى الآن.

(ج) صرحت هيئة الثروة المعدنية لهذه الشركة المشتركة والمنشأة طبقاً للقانون رقم ٨ الخاص بالاستثمار بالعمل دون سند من القانون الواجب التطبيق، الأمر الذى يستلزم المراجعة.

٤ ـ مناطق الذهب والنحاس الممنوحة للشركة الثلاثية أجرت عليها هيئة المساحة الجيولوجية أيضاً أبحاثاً عديدة فى فترات سابقة وليست كما ذكر بالمقالة المنشورة أن هذه الشركة سوف تبدأ حيث انتهى الفراعنة، ففى ذلك انتقاص لجهد استمر أكثر من نصف قرن على الأقل.

٥ ـ ما تم إجراؤه فى منطقة أبو دباب حتى الآن وبعد توقف دام سنوات هو إجراء عمليات حفر استكشاف وفتح بعض الطرق الرابطة للخام بالبحر وما عدا ذلك فليس هناك أى مرافق أو معدات تتناسب مع ما تدعيه الشركة التى تم إنشاؤها بالمقال مما يعنى أن الإنتاج قد لا يبدأ قبل بضع سنوات.

٦ ـ المطلوب من شركة جبسلاند قبل التهويل باستكشاف خام لم تجر عنه دراسة جدوى اقتصادية واللجوء للبنوك للاقتراض كما ادعت أن تعد دراسة جدوى اقتصادية مقبولة عالمياً يتحدد على أثرها كمية الخام المتاح وطريقة وجوده وكيفية استخراجه وتكاليف عملية الاستخراج وتحقيق ومراجعة هذه النتائج بواسطة شركات عالمية محايدة قبل التورط فى قروض وحتى لا تتكرر مأساة أبو طرطور.

أحمد عاطف دردير
رئيس هيئة المساحة الجيولوجية الأسبق

كتاب الزاوية



قصة التفريغ الثقافى

محمود محمد شاكر

إن جيلنا، جيل المدارس المفرغ، كان فى خلال ذلك قد كبر، وانفلق عن فريقين: فريق قانع بما تجود به عليه أقلام الأساتذة الكبار من «تلخيص» و«تجديد»، فهو لايزال إليهم متطلعًا، وبهم متعلقًا، ثم لا يزيد، وفريق يسر الله له السبيل إلى معرفة المنبع، فرأى نفسه قادرًا على أن يغترف من حيث اغترف أساتذته. لقد اطلع على أصول ما كانوا يلخصونه، وما كانوا «يجددون» به مكتوبًا بلغته أو بلغاته على الأصح. وأحس أيضًا أن «الأصل» الذى يقرؤه بلغته، مضىء حيٌّ، مكثفٌ، عميق الدلالة، وأن تلخيص الأساتذة وتجديدهم كاب لونه خامدة حياته، متخلخل، قريب المتناول.

ومع هذا الذى أحس به، فإنه من حيث لا يدرى يشعر بتفوق هؤلاء الأساتذة الملخصين المجددين عليه، ولكنه لا يستطيع أن يجد تفسيرًا لهذا التفوق، مع أن تفسيره يسير هين. وذلك أن علائق الأساتذة بثقافة أمتهم كانت علائق لم تمزق كل التمزيق، وبفضل هذه العلائق استطاعوا أن يعطوا تلخيصهم نفحة من سر أنفسهم يمتازون بها، وأن يكونوا أقدر منهم على «التجديد»، لأن ما عندهم كان يمكنهم من الاختيار، ثم من نفى ما هو غث أو ساقط، ومن إخفاء «السطو» إخفاء فيه ذرو من المعرفة. أما هم، فقد فُرغوا تفريغًا يكاد يكون تامًا من أصول ثقافتهم التى ينتمون إليها «بالوراثة»، ولذلك فهم يحسون فى أنفسهم ما يشبه العجز، إذا ما قارنوا بين أنفسهم وبين هؤلاء الأساتذة.

وهذا هو الموقف العصيب الذى كان فيه جيلنا يومئذ، ثم استمرت عليه الأجيال بعدنا، وهى تشعر شعورًا واضحًا بتفوق هذا الجيل من الأساتذة الكبار «الملخصين» و«المجددين» مع أن الأمر، كما قلت، قائم فى الحقيقة على «السطو» البين أو الخفى، على أعمال ناس آخرين يكتبون فى لغاتهم بألسنتهم، ويعبرون عن أنفسهم وعن حضارتهم وعن ثقافتهم، لا عن أنفسنا أو عن حضارتنا أو عن ثقافتنا نحن!

أسئلة المس

منطقة شائكة تلك التى يقترب منها مؤلف هذه الرواية، وهو باحث متخصص فى التراث ويشغل منصب مدير مركز المخطوطات فى مكتبة الإسكندرية، فالموضوع الذى اختاره لروايته يمس بصورة مباشرة صلب عقيدة «التثليث»، ويستعيد الجدل الدامى فى تاريخ الكنيسة حول «ألوهية» المسيح، والذى راح ضحيته كثيرون من العوام والقساوسة، مستخدما عدة حيل فنية سنشير إلى بعضها حالا، كى يتم التعامل مع الرواية فنيا وأدبيا، لادينيا وتاريخيا، برغم الوثائقية الوفيرة التى لاينكرها، وبرغم صدقية الوقائع التى لاشك أنه اختبرها بالرجوع إلى المصادر الأصلية ذات الصلة بالموضوع.

يتخفى المؤلف خلف المترجم، ويتخفى المترجم خلف الراوى، والأخير راهب مصرى يدعى «هيبا» ترك مجموعة من اللفائف (الرقوق) تم اكتشافها قبل عشر سنوات فقط بالخرائب الأثرية الواقعة إلى الشمال الغربى من مدينة حلب فى صندوق خشبى محكم الإغلاق، وهى مكتوبة بالسريانية، يحكى فيها سيرته وما لاقاه فى حياته من أهوال وما كان شاهدا عليه من حوادث، بما يعنى أن دور المؤلف - المترجم - يقتصر فقط على الترجمة العربية الأمينة للرقوق، وأنه لم يتدخل - بحسب ما يؤكد فى مقدمته - إلا لترجمة أسماء بعض المدن القديمة إلى مسمياتها المعاصرة، أو تحويل تواريخ قبطية إلى ما يقابلها من أيام وشهور وسنوات على النحو الذى باتت معروفة به اليوم.

وزيادة فى الإيهام، فإن المؤلف - المترجم - يتدخل بتعليقات موجزة فى الحواشى لشرح ما يغمض على القارئ فى النص الأصلى، من ذلك مثلا كتابته فى الرق السابع... «أن هذا هو المكتوب فقط فى هذا الرق، وبين السطور شطب كثير ودوائر متداخلة، وعلى الحواف وبأيد مضطربة رسم الراهب هيبا فى الفراغ المحيط بالكلمات صلبانا كثيرة متفاوتة الحجم».

أو أن يكتب فى حاشية أخرى: هذا الموضع من المخطوطة فيه اضطراب ملحوظ فى رسم الكلمات، أو أن يشرح لنا بوصفه مترجما بعض الكلمات التى ترد فى الرقوق مثل كلمة «متنيح» التى تعنى «متوفى»، أو بعض الوصفات الطبية التى يوردها هيبا بوصفه معالجا واستخداماتها، أو يخبرنا أنه بحث عن اسم «هيبا» هذا فى المراجع القديمة والحديثة فلم يجده، وإن تأكد بصورة حاسمة من صدق الوقائع التى أوردها فى رقوقه ودقتها بما يعنى أن الوقائع الواردة صحيحة من الناحية التاريخية، أما ما يخص المؤلف منها وما يتعلق بحياته الشخصية وارتباكاته ومساعيه وآرائه فلا يمكن التحقق من صدقيتها لأنها روايته دون غيره.

وبهذا القدر من الإيهام، فإن على قارئ الرقوق أن يتعامل معها على مستويين، مستوى وثائقى لايمكن الشك فى محتواه بعدما استوثق المترجم - المؤلف - شخصيا منه، ومستوى سردى لابد من قبوله كما رواه لنا صاحب الرقوق بوصفه سيرة ذاتية.

والحقيقة أن القدرة الفنية العالية للمؤلف تتبدى فى هذا المزج البديع بين المستويين، بلغة جميلة وأسلوب لايخلو من تشويق وحرفية.

يبدى المؤلف «تعاطفا واضحا مع «النسطوريين»، وهم أتباع «نسطور»، القس الإنطاكى الشهير من بلدة «جرمانيقى» وهى بلدة فى الشام صارت تعرف اليوم باسم «مرعش»، وهم يرفضون الفكرة القائلة بألوهية المسيح، فهو برأيهم مولود من بشر، والبشر لا يلدون آلهة. يقول نسطور مخاطبا «هيبا»: كيف نقول أن السيدة العذراء ولدت ربا، ونسجد لطفل عمره شهور لأن المجوس سجدوا له، المسيح معجزة ربانية، إنسان ظهر لنا الله من خلاله وحلّ فيه ليجعله بشارة الخلاص وعلامة العهد الجديد للإنسانية.

وكانت آراء نسطور تلك هى التى أدت إلى عزله من الأسقفية ونفيه بقرار من المجمع المقدس الذى انعقد فى مدينة «أفسوس» بروما، وشهده الامبراطور الرومانى نفسه فى ٢٧ سبتمبر من عام ٤٣١ ميلادية.. «وهى السنة المشئومة التى حرم فيها وعزل الأسقف المبجل نسطور «واهتزت أركان الديانة» بحسب ما يقول «هيبا». ومثّل عزل «نسطور» ونفيه انتصارا لكنيسة الإسكندرية برئاسة الأسقف «كيرلس» فى مواجهة كنيسة انطاكية، متأسيا بما فعله قبله الامبراطور «قسطنطين» الذى عرف فى تاريخ الكنيسة بمحبوب الإله وحامى الإيمان ونصير يسوع، والذى سبق له أن حرم الأسقف «أريوس» لقوله إن المسيح إنسان لا إله، وأن الله واحد لاشريك له فى ألوهيته قبل «نسطور» بنحو مائة عام، وقد جرى ذلك فى المجمع المسكونى الذى عقد فى مدينة «نيقية» الواقعة اليوم على حدود تركيا، والتى صارت تعرف باسم «أزنيق» عام ٣٢٥ ميلادية.

وما جرى من الإمبراطور «قسطنطين» برأى «نسطور» كان تلبيسا، يقول نسطور مخاطبا هيبا: إبليس هو المحرك الرئيسى لكل ماجرى، وأعنى بإبليس شيطان السلطة الزمانية التى تغلب سكرتها الناس، فينازعون الرب فى سلطانه ويتمزعون فيما بينهم فيفشلون وتذهب ريحهم بددا، تغلبهم أهواؤهم فيتحامقون ويخالفون روح الديانة سعيا لامتلاك حطام الدنيا الفانية.

وبرأى «نسطور» فإن قسطنطين بعدما فرغ من تثبيت سلطته بالحرب ضد قدامى رفاقه العسكريين، أراد الظفر بالولاية الدينية على رعاياه، فدعا كل رؤوس الكنائس للمجمع المسكونى وأدار جلساته وتدخل فى الحوار اللاهوتى ثم أملى على القساوسة والأساقفة القرارات.



وبرغم أنه وصف الخلاف بين الأسقف «آريوس» وأسقف الإسكندرية فى زمانه «إسكندر» حول طبيعة المسيح بأنه تافه وسوقى وأحمق ووضيع، فإنه انتصر لأسقف الإسكندرية ليضمن قمح مصر ومحصول العنب السنوى.

وتحتشد الرواية بصور عديدة للمذابح التى جرت فى الإسكندرية، والأهوال التى لاقاها الوثنيون واليهود على أيدى المسيحيين، حين صارت المسيحية هى ديانة الامبراطورية الرومانية الرسمية وغالبية العائشين فى الإسكندرية.

ولعل مشهد سحل «هيباتيا» أستاذة الرياضيات المشهورة والجميلة أيضا فى شوارع المدينة، ثم حرقها بعد أن تمزّقت أعضاؤها وانسلخ جلدها عن لحمها، وكذلك قتل أسقف المدينة «جورج الكبادوكى» الذى مزّقته جماعة «محبى الآلام» بالسواطير فى الحى الشرقى عام ٣٦١ ميلادية، أبلغ الدلائل على الوحشية التى تعاملت بها كنيسة الإسكندرية مع مخالفيها.

أما قتل «هيباتيا» فقد جرى فى أعقاب خطبة حماسية للأسقف «كيرلس» ارتجت لها الجموع التى احتشدت لسماعها وأثارها ما قاله عن تطهير المدينة من الوثنيين واليهود كى لا يبقى فيها غير شعب الرب.

كتب «هيبا» فى رقوقه..

«سحبها بطرس من شعرها إلى وسط الشارع وحوله أتباعه من جند الرب يهللون. حاولت هيباتيا أن تقوم فرفسها أحدهم فى جنبها، فتكومت ولم تقو على الصراخ. أعادها بطرس إلى تمددها على الأرض بجذبة قوية من يده الممسكة بشعرها الطويل. الجذبة القوية انتزعت خصلات من شعرها فرماها، وأمسك شعرها بكلتا قبضتيه وسحبها خلفه، ومن خلفه أخذ جنود الرب يهتفون هتافهم ويهللون له وهو يجر ذبيحته».

وحين حاولت «أوكتافيا» إنقاذها بأن ألقت بنفسها فوقها لتحميها، اندسّت فيها الأذرع فرفعتها عن «هيباتيا» وألقتها بقوة على جانب الطريق، اصطدم رأسها بالرصيف وانسحج وجهها فتلطخ بالدم والتراب، حاولت المرأة أن تقوم فضربها أحدهم على رأسها بخشبة عتية بأطرافها مسامير فترنحت المرأة وسقطت من فورها على ظهرها والدم يتفجر من أنفها وفمها ويلطخ ثوبها.

أما «هيباتيا» فقد صرخت عجوز من بعيد «اسحلوا هذه العاهرة» فانطلقت الأيدى تنزع عنها رداءها حتى صارت عارية تماما ثم أتوا بحبل خشن ولفوه حول معصمها وأخذوا يجرونها فى شوارع الإسكندرية، ثم أمسكت الجموع بأصداف البحر وراحوا ينزعون به لحمها قطعة قطعة حتى إذا بلغ نحيبها من فرط الألم عنان السماء، وحين سكنت صرخاتها، ألقوها فوق كومة كبيرة من قطع الخشب ثم أشعلوا النار.

ما يسرده «هيبا» فى رقوقه من وقائع تتجاهلها بعض الكتب التى تؤرخ للكنيسة، وتذكرها بعضها بتأويل مختلف، فالأسقف «ثيو فيلوس» أسقف الإسكندرية (٣٨٥ م) نما فى جو من

عزازيل
يوسف زيدان
القاهرة: دار الشروق - ٢٠٠٨

«عزازيل» رواية تثير تساؤلات فلسفية ودينية وتكشف الصراع بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة أنطاكية فى القرن الخامس الميلادى



يحية الأولى

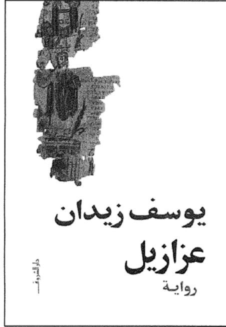
العلم والفضيلة، وانتشرت المسيحية فى عهده حيث بنى عددا من الكنائس لتفى بحاجة المؤمنين فى المدينة، وأنشأ عددا كبيرا من الأديرة، واستولى على المعابد المصرية ومنها معبد السيرابيوم العظيم بالإسكندرية وحولها إلى معابد مسيحية، وهى أعمال من وجهة نظر هؤلاء المؤرخين، عظيمة وتستحق الثناء.

وأما ابن أخيه «كيرلس الأول»، فهو دارس للعلوم الطبيعية والفلسفية واللاهوت، وقد ارتقى كرسى البابوية فى العام ٤١٢ ميلادية... وفى أيامه ظهرت بدعة نسطور أسقف القسطنطينية، والتى مؤداها أن للسيد المسيح أقنومين أحدهما إنسانى والآخر إلهى، وأن السيدة العذراء ليست والدة الإله بل والدة المسيح، ودحض البابا كيرلس هذه البدعة وأثبت الإيمان الأرثوذكسى الصحيح وهو أن للسيد المسيح أقنوما واحدا إلهيا اتحد بطبيعة الإنسانية اتحادا دون اختلاط أو امتزاج أو استحالة، وأن السيدة العذراء تدعى بحق والدة الإله.

وفى الوقت الذى يظهر فيه «هيبا» الأسقف كيرلس شخصا متصلبا متشددا قاسيا رافضا لأى وجهة نظر مخالفة، يراه مؤرخو الكنيسة واحدا من الآباء الكبار الذين شيدوا مجد الكنيسة وحموها من الفتن والهزات، وحين تتطرق إلى خلافه مع نسطور تؤكد على أنه تحاور معه مرات وأرسل له عشرات الرسائل كى يتوب عن ضلاله ويثوب إلى رشده إلا أنه أبى، فما كان من كيرلس الطيب إلا العودة إلى الإمبراطور لحسم الأمر، ومن ثم فلم يكن لكيرلس ذنب فى عزل نسطور ونفيه ووفاته فى منفاه، ولم يكن فى الأمر شبهة مؤامرة أو تحزّب أو استعداء!

فى الوقت الذى يتهم فيه «نسطور» صراحة «كيرلس» بالفساد والرشوة، وبحسب ما أخبر «هيبا»، فقد دفع «كيرلس» رشاوى كثيرة وقدم هدايا للجنة القضائية التى أرسلها الإمبراطور للتحقيق فيما جرى لهيباتيا.

ويعدد مؤرخو الكنيسة أشكال الاضطهاد والعذابات التى لاقاها المسيحيون على أيدى الرومان دون أن تشير بالقدر نفسه من الإفاضة إلى اضطهاد المسيحيين للوثنيين واليهود وأصحاب المعتقدات الأخرى.



وفى كثير من المواضع بالرواية يصف «هيبا» أساقفة كنيسة الإسكندرية بالقسوة والغلاظة وضيق الأفق.

أما «هيبا» نفسه فقد عانى اضطرابا نفسيا وروحيا شديدا، وشهد من الأهوال فى حياته ما زاد نفسه حيرة وهزّ إيمانه وزعزع عقيدته، وهى حيرة لازمته حتى نهاية حياته.

جاء «هيبا» وهو الاسم الكنسى الذى اختاره صاحب الرقوق لنفسه عقب خروجه من الإسكندرية - وهو كما نلاحظ نصف اسم الأستاذة الوثنية التى سحلها المسيحيون فى شوارع المدينة والتى هام بها هيبا - من بلدة فى جنوب مدينة أسوان فى صعيد مصر، وتلقى تعليمه الأولى والكنسى فى نجع حمادى وأخميم، قبل أن يرتحل إلى الإسكندرية المقر البابوى للأرثوذكسية والتى كانت مقصدا لكل طالب علم وباحث فى شئون الديانة، وكان هدفه أن يواصل دراسته للطب الذى نبغ فيه، فقرأ ماكتبه أبقراط وجالينوس وغيرهما فى فن العلاج والتداوى وحفظه عن ظهر قلب، وأنهى حياته فى صومعة بدير على أطراف مدينة حلب التى ارتحل إليها بعد سنوات قضاها فى «أورشليم» تنفيذا لنصيحة القس «نسطور» الذى التقاه لأول مرة فى هذه المدينة المقدسة حين جاءها حاجا بصحبة القس تيودور المفسر وهو من أجلاء آباء الكنيسة الأنطاكية.



ولعله من المفيد هنا أن نشير إلى «نتف» من حياة هيبا قبل ارتحاله إلى الإسكندرية، فنشأته الأولى تفسر حالات الشك والقلق والتيه التى عاناها وعاينها فى حياته...

كان «هيبا» فى التاسعة من عمره حين رأى بعينيه هذا الحدث المروّع: ذبح أبيه على أيدى جماعة من عوام المسيحيين.

كان الطفل بصحبة والده فى قارب الصيد الذى يملكه سعيا للرزق بالقرب من جزيرة «ألفنتين» بنيل أسوان، وقد اعتاد الأب أن يقتسم حصاد يومه من الأسماك مع الكهنة المحاصرين المتحصنين بمعبد الإله «خنوم» منذ سنين متحسرين على اندثار ديانتهم مع انتشار عقيدة المسيح، حين برز فجأة مجموعة من عوام المسيحيين الذين كانوا يختبئون بين الصخور وقد أخرجوا من بين طيات ملابسهم الرثة سكاكين صدئة انهالوا بها طعنا على الصياد الفقير، هرولوا نحوه كأشباح مخيفة وسحبوه من قاربه وجروه على الصخور ليقتلوه طعنا بالسكاكين، كان الأب يصرخ تحت طعناتهم وكانوا هم يصرخون متهللين وهم يرددون فى نشوة: المجد ليسوع المسيح والموت لأعداء الرب.

رأى الطفل ذلك كله من مكمنه فبقى فى ذاكرته إلى الأبد، وما زاد إيلامه هو خيانة الأم، التى عرف بعدها أنها أوشت بالأب لدى قاتليه وتزوجت من أحدهم، وهى مأساة تذكرنا بتلك التى عاناها بطل شكسبير الأسطورى هاملت.

عاش الصبى فى كنف عمه، وحين بلغ الثامنة عشرة، اختار له العم خدمة الكنيسة ومهنة التداوى، ربما ليخفف عن نفسه الشقية بعض مالاقاه فى سنى حياته المبكرة.

فى الإسكندرية سيلتقى «هيبا» مع «أوكتافيا» وهى امرأة من الوثنيين كانت تقيم بمنزل أحد التجار الصقليين الأثرياء، تولاها برعايته واتخذها ابنة له بعد ما عانته فى حياتها، وأما هى فقد هامت بـ «هيبا» عشقا، إذ كانت تنتظره وفقا لنبوءة عرافة عجوز عند البحر، وأما هو فقد استمتع معها «بالخطيئة»، واكتشف رجولته للمرة الأولى، وفى لحظة المكاشفة حين قالت له أن رهبان الإسكندرية يقتلون الناس ببركات الأسقف «ثيوفيلوس» الممسوس وخليفته «كيرلس» الأشد هوسا، اعترف لها أنه راهب مسيحى فصرخت فى وجهه بعد أن تبدلت قسماتها وانقلب عشقها إلى كراهية هادرة: اخرج من بيتى يا حقير، اخرج يا سافل.

يظهر «عزازيل» فى كثير من مواضع الرواية، و«عزازيل» هو إبليس أو الشيطان الذى يوعز إليه بارتكاب الخطايا ويجمّل فى عينيه المعاصى. يتبدى فى مجادلات «هيبا» القلقة مع نفسه، ومجسدا فى هيئة أشخاص يصادفهم فى مسيرة حياته المليئة بالعذابات و المآسى، وسنلاحظ أن رحلة «هيبا» إلى اليقين لم تصل أبدا إلى منتهاها، فبقى دائما فى دوائر الشك والقلق والريبة حتى حط الجسد رحاله.

كتاب الزاوية



ماذا فعل الأساتذة الكبار؟

محمود محمد شاكر

أتلفت اليوم إلى ما أشفقت منه قديمًا من فعل الأساتذة الكبار! لقد ذهبوا بعد أن تركوا، من حيث أرادوا أو لم يريدوا، حياة أدبية وثقافية قد فسدت فسادًا وبيلاً على مدى نصف قرن، وتجددت الأساليب وتنوعت، وصار «السطو» على أعمال الناس أمرًا مألوفًا غير مستنكر، يمشى فى الناس طليقًا عليه طيلسان «البحث العلمى» و«عالمية الثقافة» و«الثقافة الإنسانية»، وإن لم يكن محصوله إلا ترديدًا لقضايا غريبة، صاغها غرباء صياغة مطابقة لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم فى كل قضية، واختلط الحابل بالنابل، قل ذلك فى الأدب والفلسفة والتاريخ والفن أو ما شئت، فإنه صادق صدقًا لا يتخلف. فالأديب منا مصور بقلم غيره، والفيلسوف منا مفكر بعقل سواه، والمؤرخ منا ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه، والفنان منا نابض قلبه بنبض أجنبى عن تراث فنه.

وأما الثرثرة والاستخفاف، فحدث ولا حرج. فالصبى الكبير يهزأ مزهوًا بالخليل وسيبويه وفلان وفلان، ولو بُعث أحدهم من مرقده، ثم نظر إليه نظرة دون أن يتكلم، لألجمه العرق. ولصار لسانه مضغة لا تتلجلج بين فكيه، من الهيبة وحدها، لا من علمه الذى يستخف به ويهزأ.

والله المستعان على كل بلية، وهو المسئول أن يكشفها، وهو كاشفها بمشيئته، رحمة بأمة مسكينة، هؤلاء ذنوبها كانوا، وأشباه لهم سبقوا، وغفرانك اللهم.

يتساءل «هيبا» الذى اختار حياة الرهبنة: هل أخرج غدا صباحا - يقصد من الدير - ولا أعود قط؟ لست على كل حال معتقلا بين هذه الجدران، ما معنى بقائى هنا، لقد بدأ المسيح يسوع بشارته العظمى بين الناس، لا وسط الجدران والرهبان والقسوس، كانت حوله حياة حقيقية، فلماذا نموت نحن قبل أن نموت؟.

وأرجو أن نلاحظ أن الرهبنة اختراع أصيل للكنيسة المصرية، وحين يقرر الشخص أن يترهبن فإنه يودع الدنيا بكل ما فيها ويختار لنفسه اسما غير الذى عرف به فيها، دلالة على نهاية كل ما يربطه بالحياة الفانية، فهل من يتحدث هنا هو الراوى «هيبا» صاحب الرقوق، أم المترجم، أم المؤلف نفسه؟

من حيرة «هيبا» نقرأ قوله: نظرت إلى الثوب الممزق فى تمثال يسوع، ثم إلى الرداء الموشى للأسقف «كيرلس»، ملابس يسوع أسمال بالية ممزقة عن صدره ومعظم أعضائه، وملابس الأسقف محلاة بخيوط ذهبية تغطيه كله وبالكاد تظهر وجهه، يد يسوع فارغة من حطام دنيانا، وفى يد الأسقف صولجان أظنه من شدة بريقه مصنوعا من الذهب الخالص، فوق رأس يسوع أشواك تاج الالام وعلى رأس الأسقف تاج الأسقفية الذهبى البراق، بدا لى يسوع مستسلما وهو يتقبل ضحيته بنفسه على صليب الفداء، وبدا لى «كيرلس» مقبلا على الإمساك بأطراف السموات والأرض.

وبعدما شاهد «هيبا» بنفسه ماجرى لـ«هيباتيا» انتزع الصليب الذى كان معلقا فى عنقه وألقاه على الأرض... «أحسست براحة مفاجئة حين انتزعت الصليب عن عنقى وتركته يسقط على الأرض».

وحين يسأل «نسطور» عن التناقضات بين ديانتهم القائمة على الفداء والمحبة والأفعال التى تجرى باسم المسيح فى شوارع الإسكندرية يقول له «نسطور»: يا هيبا ما يجرى فى الإسكندرية لاشأن للديانة به، إن أو ل دم أريق فى هذه المدينة بعد انتهاء زمن الاضطهاد الوثنى لأهل ديانتنا كان دما مسيحيا أراقته أياد مسيحية، فقد قتل الإسكندرانيون قبل خمسين سنة أسقف مدينتهم «جورجيوس» لأنه كان يوافق على بعض آراء «أريوس» السكندرى، وقتل الناس باسم الدين لا يجعله دينا، إنها الدنيا التى ورثها «ثيوفيلوس» وأورثها من بعده ابن اخته «كيرلس»، فهم أهل سلطان لا أصحاب إيمان، أهل دنيوية لا محبة دينية.

ومن حيرته هذه النوعية من الأسئلة التى تبرهن على غياب اليقين أو تشويشه، يتساءل «هيبا»: من الذى كان موجودا قبل وجود الإنسان على الأرض، الله، الملائكة، الشيطان، ماذا كانوا جميعا يفعلون قبل وجودنا وانشغالنا بهم؟

ويسأل: ما الأرثوذكسية، أهى ما يقررونه فى الإسكندرية أم ما يعتقدونه فى أنطاكية، هل هى إيمان الآباء الأولين الأتقياء المقدسين، أم هى الاعتقادات الوثنية التى فتك أهلها بآباء أولين، صاروا مع الأيام أتقياء ومقدسين؟

ولا يفوت «عزازيل» أن يشاكسه فى حالات مثل تلك: أنت قلق يا «هيبا» مما فيك، وتعرف أنك ستفقد «مرتا» مثلما فقدت من قبل ما كان لك: حلم النبوغ فى الطب، الأمل فى إدراك سر الديانة، الغرام بأوكتافيا، الولع بهيباتيا، الاطمئنان بالغفلة، الإيمان بالخرافات.

وأما «مرتا» فهى فتاة فى العشرين من عمرها عشقها «هيبا» وقت أن كان راهبا فى أحد الأديرة بأطراف حلب، وكان وقتها جاوز الأربعين من عمره، واقترف معها الخطية وحين طالبته بأن يتزوجها رفض بحجة أن ذلك محظور فى ديانة المسيح... «ففى إنجيل متى الرسول مكتوب: من يتزوج مطلقة فهو يزنى». فترد عليه «مرتا»: وما الذى كان بيننا فى الكوخ بالأمس، ألم نكن نزنى؟

وقد أدرك «هيبا» فى أخريات أيامه ماتعانيه روحه ونفسه القلقة، يقول مخاطبا نفسه: لم أر شيئا أبدا من داخله، أنا أطوف دوما بظواهر الأشياء ولا أغوص فيها (...) كل ما فىَّ ملتبس، عمادى، رهبنتى، إيمانى، أشعارى، معارفى الطبية، محبتى لمرتا، أنا التباس فى التباس، والالتباس نقيض الإيمان، مثلما ابليس نقيض الله.

أما الذريعة التى يقدمها المؤلف لمناوئيه المحتملين من أبناء الكنيسة - وهى ذاتها درعه الواقى يدفع به أذى من سيخلطون حتما بين الراوى وبينه - أن الراهب «هيبا» نفسه ليس نموذجا لصفاء الإيمان ونقاء العقيدة، فسيرته التى تحكيها رقائقه المفترضة، تكشف عن إنسان موغل فى الإثم مرصع بالخطايا، ومن ثم فإن أقواله وأفعاله وترهاته وظنونه وآراءه ومعتقداته وضلالاته، هى من طبائع شخص اختار الدنيا بما فيها، وليس راهبا هجرها وودع زخارفها، وهى حجة - وحيلة - مقنعة كما نرى. ■

تحريم السياسة وتجريم الصحافة

صلاح الدين حافظ

بين الصحافة والسياسة علاقة مركبة فيها تنافر وتلاق، تداخل وتباعد، صداقة وعداوة، استغلال واستغلال مضاد...

هكذا يبدو الأمر من فوق السطح، لكنه يتضح بشكل مغاير إذا غصنا فى الأعماق، حيث التداخل بين الصحافة والسياسة أقوى وأعمق، وحيث التلاقى يتصاعد إلى درجة التحالف، وحيث يتقاسم الاثنان الغُنم والغُرم بدرجة من الدرجات.

الصحافة فى جوهرها تشتغل بالسياسة، والسياسة من ناحيتها تمارس الصحافة، والمعنى أن الصحفيين سياسيون بالضرورة، والسياسيين صحفيون بحكم العمل..

ربما تكون هذه هى الصورة البراقة للصحافة والسياسة فى بلاد بعيدة، أصبحنا نسميها بلاداً ديموقراطية، تتنفس بحرية فتتقدم، تحترم الإنسان وتقدره فيبدع، وتعرف أن السياسة عمل يومى، مثلما أن الصحافة تنفس طبيعى.. وضرورى..

أما فى بلادنا فالوضع مختلف، بل هو مناقض، لأن العمل بالسياسة مقصور على نخبة منتقاة، تدير الحكم وتصنع القرار، وتحتكر السلطة وتدعى الحكمة، ثم تستغل فتثرى وتفسد وتستبد، دون خوف من محاسبة أو مساءلة، ولأن الاشتغال بالصحافة مخاطرة غير مأمونة العواقب، تورد صاحبها موارد التهلكة، إن أخذ الأمور بجدية وصدق وأمانة..

ولذلك رأينا كيف استعبدت السلطة السياسية الصحافة، واحتكرتها سلاحاً من أسلحة الدفاع عن نفوذها وهيبتها وسلطانها، وكيف استنامت الصحافة إلى حد التلذذ بالتبعية للسلطة السياسية، والعمل فى البلاط الحاكم بكل التفانى..

بالطبع ليست هذه قاعدة عامة، فثمة استثناءات عديدة، وجهود شريفة لتقنين العلاقة بين الصحافة الحرة والسلطة السياسية، وهى جهود يشهد بها تاريخ الصحافة فى بلادنا بكل اعتزاز، حتى لو أدى صراع الإرادات إلى تعثر هذه الجهود فى فترات مختلفة لأسباب مختلفة...

وبالطبع أيضا فإن العلاقة المركبة للصحافة ليست مقصورة على السلطة السياسية، ولكن طبيعة المهنة ورسالتها السامية، تدق جذور علاقة الصحافة بالمجتمع بمختلف فئاته وتياراته وطبقاته، تجاوزًا حتى لاحتكار النخبة الحاكمة للسلطة السياسية..

وبقدر نزوع الصحافة للتحرر والاستقلال، بقدر حدة صدامها مع هذه السلطة السياسية، بقدر ارتباطها الوثيق بالمجتمع بتعدد تياراته وتوجهاته المتطلعة دائما للتحرر والتقدم عبر التطور الديموقراطى السليم، ومن خلال التنفس بحرية، وهو حق من حقوق الإنسان الطبيعية.

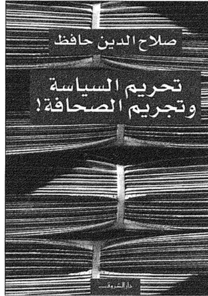
وقد أدى خضوع الصحافة لاحتكار السلطة السياسية الحاكمة، إلى ازدهار الاستبداد والفساد، وأدى بالمقابل ارتباط الصحافة الأخرى بالمجتمع إلى صعود المنحنى الديموقراطى، سواء فى الممارسة السياسية أو فى العمل الصحفى.

ومن حسن حظ مصر تحديداً، أنها دائمة الارتعاش الحيوى والنزوع الطبيعى للحرية، بفضل خصوبتها الحيوية العالية، إذ بقدر ما فيها من تركيز للسلطة عند القمة، واحتكار للرأى عبر الصحافة بشكل أساسى، فإن فيها عند القاعدة اتساعاً عريضاً من تنوع العمل السياسى وحرية الرأى والصحافة، بما يمثل وجهاً من وجوه التناقض إن شئت، وبما يمثل حيوية متمردة إن أردت..

وربما هذا ما يفسر ذلك الصراع التاريخى، بين سلطة حاكمة تعمل على إقصاء الشعب عن ممارسة السياسة بحرية، والاستمتاع بصحافة حرة، وفى سبيل ذلك تفرض القيود وتقيم السدود، فتُحرّم العمل بالسياسة وتُجرّم الاشتغال بالصحافة، باسم القانون والنظام، وبين حركات سياسية متمردة ترفض احتكار السلطة وتقاوم الاستبداد والفساد، ومعها صحافة تؤمن بأن رسالتها الحقيقية هى محاربة الاستبداد ومقاومة الفساد، وخدمة الشعب، قبل خدمة الحاكم، حتى لو فرض عليها التحريم والتجريم..

وقد أصبح التاريخ يجرى ضد الاستبداد والفساد فى هذا العالم، وليس فى بلادنا فقط، لأسباب عديدة، أهمها بالطبع ذلك الشوق الإنسانى الغلاب للحرية والتطور والتقدم بكل معانيه واتجاهاته السياسية والثقافية والإعلامية والاقتصادية والاجتماعية..

ولقد جاءت ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال الحديثة، لتصنع المعجزات فى هذا المجال، باعتبارها الثورة التى قلبت الأوضاع وغيرت المفاهيم، وقدمت للبشرية أسلوبا جديداً للتواصل والتعارف والاحتكاك وتبادل المعارف والخبرات والثقافات..



ورغم أن الشعب المصرى والشعوب العربية عامة، ما زالت فى مؤخرة دول العالم من حيث الاستفادة الحقيقية والاستغلال الأمثل لمخترعات ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال، إلا أن الموج الهادر من حولنا قد أجبر نظمنا الحاكمة وشعوبنا المحكومة على الإنصات والاستماع، ثم فتح النوافذ لرؤية ما يجرى خارج السدود المقامة والحدود التى كانت حتى الأمس القريب مغلقة، فإذا ما يجرى من ثورة علمية تكنولوجية معلوماتية يفوق الخيال..

ولم يعد الأمر مجرد أقمار صناعية سابحة فى الفضاء ترصد وتنقل وتصور وتحلل، ولم يعد مجرد فضائيات تليفزيونية تنقل الأحداث والحروب على الطبيعة من أرض المعارك مباشرة، ولم يعد مجرد الاستماع إلى أخبار العالم من أقصاه إلى أقصاه بسرعة فائقة، إنما الأمر تجاوز ذلك فى اتجاهين مؤثرين..

الاتجاه الأول: هو هذا التقدم التقنى الهائل فى تطوير وسائل الاتصال الأحدث، مثل الكمبيوتر والتليفون المحمول وشبكة المعلومات الدولية الإنترنت وسهولة استخدامها فى نشر الأخبار والأفكار... وطبقا للإحصاءات الدولية المنشورة، فإن منتصف عام ٢٠٠٦ على سبيل المثال، شهد استخدام أكثر من مليار من سكان العالم للإنترنت، وشهد استخدام ملياري خط تليفون محمول، وأصبح ثلثا سكان الأرض يمارسون التواصل بفضل هذا المحمول، كما شهد ٣٧ مليون صفحة خاصة على الإنترنت من المدونات، ويتم إنشاء صفحة واحدة على الإنترنت كل ثانية...

فإذا أضفنا هذه المستحدثات التكنولوجية، فوق التقليدية، إلى شبكات التليفزيون والإذاعة والصحف ووكالات الأنباء التقليدية، التى تستخدم الأقمار الصناعية، لتبين لنا مدى اتساع دوائر الاتصال والتواصل بين البشر عامة فى هذا الكون، بما يكسر كل قواعد الرقابة والقيود، ويتعدى الحدود والسدود، ويتجاوز حتى التحريم والتجريم، ويعيد رسم فلسفة القيود، فيعكس اتجاهها، من فرض النظم الحاكمة للقيود على الشعوب لحماية الاستبداد والفساد، إلى فرض منجزات هذه التكنولوجيا المعلوماتية الجديدة للقيود على استبداد النظم الحاكمة وفسادها..

أما الاتجاه الثانى: فيتمثل فى هذا التداخل

تحريم السياسة وتجريم الصحافة
صلاح الدين حافظ
القاهرة ـ دار الشروق ـ ٢٠٠٨

بقدر نزوع الصحافة للتحرر والاستقلال، بقدر حدة صدامها مع هذه السلطة السياسية، بقدر ارتباطها الوثيق بالمجتمع بتعدد تياراته وتوجهاته





والتشابك الهائل، الذى حدث بين الشعوب والحضارات والثقافات المختلفة، بفضل هذا الاتصال التكنولوجى التقليدى وفوق التقليدى، وهو تداخل ليس مقصوراً على تبادل المعلومات والاطلاع على تطور الأحداث والاستزادة بالمعارف الحديثة فقط، ولكنه واصل إلى التشابك السياسى الاجتماعى الثقافى بمعناه العميق..

فـفكرة الحرية لم تعد حلمًا، والديموقراطية لم تعد سراباً بعيداً، والتقدم لم يعد حكراً، فقد انتشرت عدوى الحرية وفيروس الديموقراطية بين الشعوب، وبالتالى أصبح الاستبداد مدانًا والفساد مطارداً والتحريم والتجريم مكروهين على مستوى الحضارة البشرية الحديثة، حتى لو ظلت عشرات الحكومات تمارس الجرم المشهود وترتكب هذا الإثم صباح مساء..

وهكذا لم تعد السياسة فى المجتمعات الحديثة، محرمة على العمل الصحفى، لكنها بفضل منجزات ثورة المعلومات والاتصال، أصبحت مرتبطة بالعمل الصحفى والإعلامى مباشرة، ذلك أن القرارات السياسية الصادرة عن السلطة الحاكمة، تشكل محور الاهتمام للصحف ووسائل الإعلام، كلاهما لا يستغنى عن الآخر، إذ بقدر هيمنة السلطة الحاكمة على القرار، بقدر اتساع نفوذ الصحافة والإعلام وهيمنتها على الرأى العام، الذى هو السند الحقيقى لثنائية السلطة الحاكمة والصحافة والإعلام..

وللأسف فإن بعض دوائر الحكم فى بلادنا، لم تستوعب بعد هذه العلاقة الثنائية، القائمة على الارتباط والتداخل والتواصل، ولا يزال يتصرف بمنطق الزمن القديم، معتبراً أن الصحافة ووسائل الإعلام مجرد سلاح من أسلحة الحشد والتأييد والمبايعة، وهو منطق يصطدم بالضرورة، أولا مع تيار الحرية والاستقلال والإصلاح الديموقراطى فى الداخل، وثانيا مع الموجة العالمية الغلابة والسائدة بل والمتصاعدة لحظة بعد لحظة..

والخطورة أن يستمر هذا البعض المتخلف على حاله من التخلف العقلى والمعرفى والسياسى فى أبسط صوره، محتمياً بوهم قدسية المنصب ومتحصنًا بفرض قوانين التحريم والتجريم، الأمر الذى يرفع وتيرة الصدام الحتمى، أكثر مما هو مرتفع!!

وتيرة الصدام ارتفعت فى مصر المحروسة على مدى عامى ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦، سياسيا وصحفيا، وعكست وجهًا سلبيًا من أوجه تعامل السلطة الحاكمة مع فئات معينة من الشعب، وأظهرت صورة سيئة من صور العلاقة بين الحكام والمحكومين، فشاعت سلبياتها فى العالم كله، بفضل الصحف والإعلام التقليدى وفوق التقليدى، وكانت النتيجة هى السوء بعينه..

فهاهى حكومة تمارس أشد أنواع العنف مع معارضيها من المتظاهرين فى الشارع المصرى، الذين أبدوا رأيا مخالفا فى شئون سياسية محددة، فى وقت اشتدت فيه الضغوط الاقتصادية والاجتماعية، وتعددت صور الفساد، واتسعت مساحات الفقر والبطالة، وتصاعد الاحتقان السياسى بسبب تعطل قنوات التواصل بين الحاكم والمحكوم، وانقطاع حبال الحوار سواء السياسى أو الصحفى، برغم كثرة الحديث المعلن عن التواصل والحوار..

لكن عنف الأمن الذى ووجهت به التحركات فى الشارع المصرى، الداعية للديموقراطية والمطالبة بإطلاق حرية الصحافة، خلق أوضاعاً جديدة، تنبئ. إن استمرت. بتصعيد الاحتقان وصولا للصدام الشامل.. حيث احتمت الحكومة بقوانين عديدة أهمها بالطبع قانون الطوارئ، لفرض التحريم والتجريم على المعارضين، واحتمى المعارضون بالشارع أملا فى تحرك شعبى أوسع، والنتيجة هى انسداد فى الشرايين وتوتر فى الأوضاع والعلاقات أكثر مما كان.....

وطبقا لتوصيف الشبكة العربية لحقوق الإنسان، فإن الأمر بالغ الخطورة، فأن تكون معارضًا سياسيًا أو ناشطًا حقوقيًا أو صحفيًا مناهضًا للفساد، فهذا أمر لا تكاد دولة فى العالم تخلو منه، ومهما كانت حدة الاختلاف أو الخلاف الذى ينشأ بين المؤسسات وأجهزة الدولة هنا أو هناك، فإن الاختلاف يعتبر شيئًا صحيًا وعلامة من العلامات الجوهرية على الإصلاح السياسى والاجتماعى والاقتصادى، حيث تسهم حرية الرأى والتعبير وحرية الصحافة وحركة المجتمع المدنى، فى كشف مواطن الفساد، وتقديم حلول بديلة أو طرح رؤى أفضل لعلاج الأزمات..

ومن المؤشرات المهمة التى تحدد مستوى تقدم وديموقراطية أى دولة، هو كيفية التعامل مع خصومها السياسيين، وطريقة إدارتها لهذه الخصومة والمساحة المتاحة لحرية الرأى والتعبير...

والقبول بالحدة فى نقد الخصوم السياسيين والتى قد تصل إلى الطعن فيهم، ليس منحة يقدمها هذا الحاكم أو هذه الحكومة، بل هو حق طبيعى للشعوب فى أى دولة، وهى تمنحه بدورها للصحفيين والنشطاء لاستخدامه لصالح الشعوب، ويستوى هنا وضع كل الدول وكل الشعوب، متقدمة أو نامية، ديموقراطية أو مستبدة، علمانية أو دينية..

وطبقا لحكم محكمة النقض الشهير فى ١٩٣٤/١١/٦، فإن امن المتفق عليه فى جميع البلاد الدستورية أن الطعن فى الخصوم السياسيين يجوز قبوله بشكل أعم وأوسع من الطعن فى موظف معين بالذات، وأن الشخص الذى يرشح نفسه للنيابة عن البلاد، يتعرض عن علم لأن يرى كل أعماله هدفًا للطعن والانتقاد، وأن المناقشات العمومية، مهما بلغت من الشدة فى نقد أعمال وآراء الأحزاب السياسية يكون فى مصلحة الأمة..

الله، الله على هذا الحكم التاريخى الصادر عن قضاء مصر العظيم، محصنًا للرأى المخالف، ومدافعاً عن حرية الرأى والنقد والتعبير، فالنقد مهما اشتدت حدته، لا يجب أن يخضع للعقاب، أو أن يواجه بالتحريم والتجريم..

فهل يا ترى أخذت حكوماتنا المتتالية، بهذا الحكم التاريخى، الصادر عن قمة القضاء المصرى محكمة النقض، أم مارست عكسه فى معاقبة خصومها السياسيين ومطاردة الكتاب والصحفيين، ليس فقط بأحكام الحبس السالبة للحرية، ولكن أيضا بالإهانة والإذلال والضرب والسحل وانتهاك الأعراض علانية، لمجرد أنهم عبروا عن آرائهم بصراحة؟!!



على مدى شهر واحد، ظلت عوراتنا معروضة على شاشات التليفزيونات وصفحات الصحف فى العالم، ليس فقط من باب عرض ما يجرى على الساحة المصرية من تطورات سياسية وحراك شعبى صاحبه احتقان، أو احتقان أفرز حراكا، فصداما بين فئات اجتماعية تمردت على الأوضاع السياسية والاجتماعية القائمة والمعقدة، ولكن أيضا من باب التشفى فى أوضاع متدهورة لأكبر وأهم دولة عربية، وربما شماتة فيها!

فـقد جاء قرار الرئيس محمد حسنى مبارك بتعديل المادة ٧٦ من الدستور بهدف تعديل طريقة انتخاب رئيس الجمهورية من نظام الاستفتاء الشعبى العام، إلى نظام الانتخاب المباشر من بين أكثر من مرشح، ليفتح باب الحراك السياسى فى اتجاهين متعارضين...

اتجاه أراد استغلال هذه الفرصة لإطلاق العنان لحراك سياسى يهدف إلى توسيع التعديل الدستورى متجاوزًا المادة ٧٦ إلى مواد أخرى، يحقق إصلاحا ديموقراطيا دستوريا حقيقيا، واتجاه آخر أراد تحويل تعديل المادة ٧٦ إلى مجرد تعديل إجرائى وشكلى، يرسخ التمسك باحتكار السلطة ويمنع تداولها ويفرض شروطا تعجيزية على المرشح للمنصب،

اللهم إلا مرشح الحزب الحاكم وهذا ما تأكد فيما بعد بتعديل ٣٤ مادة من الدستور..

وفي حين استغل أنصار الاتجاه الأول الفرصة، ونزلوا إلى الشارع متظاهرين مطالبين بإطلاق الحريات العامة والتحول نحو ديموقراطية حقيقية، وتصدر هؤلاء الصحفيون والقضاة والمحامون، وغيرهم من المهنيين والنشطاء السياسيين، مثل حركة كفاية، فضلا عن جماعة الإخوان المسلمين الذين استغلوا المناسبة لصالح أجندتهم الأيديولوجية الخاصة..

فإن الاتجاه الثاني، الممثل للحكومة وللحزب الوطني الحاكم، دفع بقوات الأمن الكثيفة الغليظة الأيدي، لمقاومة تظاهرات الاتجاه الأول، بكل العنف المعروف وغير المعروف في مصر، وكانت النتيجة هي صدام هائل في الشارع، مورست فيه كل أساليب العنف من الضرب إلى السحل وصولا لخدش الحياء وانتهاك أعراض الشباب، وخصوصا الصحفيات والمحاميات علانية أمام كاميرات الصحافة والتليفزيونات المصرية والعربية والأجنبية...

وقد سجلت الهيئات الحقوقية والمنظمات الصحفية، الفترة من ٢٤ أبريل ٢٠٠٥ إلى ٢٥ مايو ٢٠٠٦، كأسوأ فترة في تاريخ الصحافة والحياة السياسية المصرية عموما، حيث ارتفعت حالات الانتهاكات العلنية حتى وصلت إلى ٣٥ حالة مثبتة ضد حرية الرأي والتعبير، وضد حق التظاهر والمسيرات السلمية، وحيث استخدمت قوات الأمن كل أساليب الضرب والسحل والاعتقال والتعدي على أعراض المتظاهرات، وإتلاف أدوات عمل الصحفيين والمراسلين مثل كاميرات التصوير، وتمزيق ملابس النساء والتحرش الجنسي وملامسة الأعضاء الحساسة في الشوارع، فضلا عن الاعتقال الجماعي وممارسة أشكال التعذيب في أقسام الشرطة والمعتقلات، وتلفيق القضايا وتغليظ العقوبات والأحكام عاجلة الصدور، وخصوصا في قضايا حبس الصحفيين، باتهامات عامة مثل تعكير الأمن العام وإثارة الفوضى وتعطيل المرور، ارتفاعاً إلى تهمة الإساءة للرئيس، وهي تهمة خطيرة لأنها ببساطة تكسر هالة التقديس وحواجز التحريم، فتنتهي بأشد صور التجريم!

وبالطبع أثمر هذا المناخ المحتقن، ثمرة فاسدة ومعطوبة، فكما نجح ترزية القوانين ضعاف الكفاءة، في إفراغ التعديل الدستوري من هدفه الرئيسي، ووضعوا صياغة تعديل المادة ٧٦ ثم تعديل ٤٣ مادة أخرى من الدستور وفق مفاهيم وأسس تتناقض مع ما هو مبتغى، فجاءت بالضبط على قدر المقاس المطلوب..

فقد حدث الشيء نفسه مع تعديل قانون السلطة القضائية من ناحية والمواد السالبة للحرية والخاصة بعقوبات الحبس في قضايا النشر من ناحية أخرى... فعلى عكس مطالب القضاة والصحفيين وأنصار استقلال القضاء وحرية الرأي والتعبير جاءت التعديلات، لتضع إصبعها في عيون المطالبين بالإصلاح الديموقراطي الحقيقي..

هكذا أهدرت عمداً فرصة كانت سانحة لتغيير الأوضاع ولإزالة العبوس من على الوجوه!



ورغم بعض الايجابيات في تعديل عدد محدود من مواد قانون العقوبات وهي أربع مواد فقط، الخاصة بالحبس في قضايا النشر وتحديد القذف والسب، فإن السلبيات الكثيرة ظلت قائمة، وهناك ١٨ مادة في هذا القانون ما زالت جاهزة لتوقيع عقوبة الحبس في قضايا النشر، وهناك مواد أخرى في قانون الصحافة رقم ٩٦ لسنة ١٩٩٦، بل هناك قوانين عديدة تنص في موادها على هذه العقوبة السالبة للحرية، مثل قانون المطبوعات وقانون الوثائق الرسمية وقانون الأحزاب السياسية وقانون المخابرات، وفوق كل ذلك يأتي بالطبع قانون الطوارئ الذي يتجاوز كل القوانين الطبيعية، بحكم ما فيه من أحكام وسلطات استثنائية.

وانظر كيف يشكل قانون الطوارئ حاجزاً مانعا أمام حرية الصحافة وحرية الرأي والتعبير، فضلا عن حرية العمل السياسي، إذ تنص المادة الثانية من هذا القانون، على اتخاذ تدابير استثنائية ضد حرية الصحافة، منها سلطة الأمر بمراقبة الصحف والرسائل والمطبوعات وجميع وسائل التعبير والدعاية والإعلان، قبل نشرها، وضبطها ومصادرتها وتعطيلها، وإغلاق أماكن طبعها، على أن تكون الرقابة على الصحف والمطبوعات ووسائل الإعلام، في يد وزارة الداخلية!!

وليست هذه إلا عينات من نصوص قانونية قائمة ومعمول بها، يتضاءل أمامها من حيث العدد والتأثير، ما جرى من تعديل بضع مواد في قانون العقوبات وإلغاء عقوبة الحبس الواردة فيها بالنسبة لقضايا النشر، وفقا لما وافق عليه مجلس الشعب يوم العاشر من يوليو ٢٠٠٦.

وبقدر ما جاء هذا التعديل منقوصا وجزئيًا، تاركا وراءه ترسانة أخرى من النصوص تعاقب وتحبس وتعرقل حرية الصحافة والرأي والتعبير، بقدر ما جاء صادماً، ليس فقط للصحفيين والكتاب الذين جاهدوا طويلا وكثيرا لإلغاء كل العقوبات السالبة للحرية في قضايا النشر، بل لكل القوى الديموقراطية والنشطاء السياسيين وتجمعات المثقفين..

وليس سراً أنه بقدر ما كان طموح الصحفيين والقوى السياسية المختلفة، هو تحرير الصحافة وحرية الرأي والتعبير، من هذه القيود القانونية المتشددة ومن العقوبات المغلظة، تطلعاً لعهد ديموقراطي جديد واعد، بقدر ما أن القوى المتشددة والنافذة في دوائر الحكم، جاهدت دون تحقيق ذلك، انطلاقاً من وجهة نظر ضيقة تقول إن ما يسمى حرية صحافة قد تجاوز الحدود وتخطى القوانين، وها هو نظام الحكم ممثلا في رئيس الدولة ذاته، يتعرض لنقد جارح ولهجوم قاسٍ على صفحات بعض الصحف، بل وفي المظاهرات وما تحمله من لافتات مسيئة وما توزعه من منشورات ممتلئة بالسب والقذف، مما يعد كسراً للمحرمات وتجاوزاً للمقدسات، وخصوصا تلك التي تتعلق برئيس الدولة وسياساته وسلطاته وهيبة منصبه..

وفي الوقت الذي لا نقبل فيه التجاوز والتجريح الشخصي والإساءة غير المبررة لمكانة وهيبة رئيس الدولة، بل لأي مواطن، فإن فقهاء السلطان وحاشية السلطة، استغلوا جنوح بعض الأقلام في صحيفة أو صحيفتين خاصتين، للتمسك بكل عناصر تحكم الدولة وأجهزتها في الصحافة ووسائل الإعلام، ولعرقلة المحاولات الجادة لإطلاق حرية الصحافة والتعبير وفق المعايير الدولية السائدة، بل ولإجهاض وعد الرئيس حسني مبارك الذي أطلقه في فبراير ٢٠٠٤ بإلغاء عقوبات الحبس في قضايا النشر..

ولم يكن هذا الموقف المتعنت مفاجئا لنا أو لغيرنا، بل كان منتظراً ومتوقعاً من البيروقراطية المصرية المتحجرة، التي نخر فيها سوس الفساد، وتشبعت عبر العهود بعبادة الاستبداد، وأبدعت في إقامة طقوس التقديس من حول المسئول الأكبر، فحولته إلى إله أو نصف إله، تنافقه وهي تعبده، وتقهر من ينقده وتقتل من يخالفه، وتقيم من حوله سياجاً من التحريم، لا يسمح لأحد باجتيازه أو حتى الاقتراب منه، وإلا حق عليه التجريم والعقاب..

ولقد مدت هذه البيروقراطية شرايين سمومها، المعادية للحرية أساسا، إلى الأحزاب والقوى السياسية المختلفة، مثلما تغلغلت في الصحافة والإعلام، واغتالت بالتالي وفي ضربة واحدة، حرية العمل السياسي، وحرية الصحافة، ووجدت في الميدانين السياسي والصحفي، مجالا خصبًا لتجنيد الحلفاء والأصدقاء، وتجييش المفسرين والمبررين، واستقطاب المشتاقين والمتطلعين، فكافأتهم بالمناصب دون كفاءة، وبالثروات دون جهد، وبالوجاهة دون مبرر، وبالسلطة دون حدود، في ظل تحالف للفساد والاستبداد، طفح بميكروباته السامة على الصحافة والسياسة وعلى المجتمع بصفة عامة، فزاد من درجات الاحتقان ومراتب الإحباط العام...

ولم يكن غريبا إذن أن تتسع حلقات الدراويش، وأن يزداد عدد حملة المباخر، وأن تتكاثف الجهود عبر النشاطات السياسية، ومن خلال الصحف ووسائل الإعلام، لتكريس تأليه الحاكم الفرد، وتقديسه، حتى والدائرة الخانقة تضيق من حوله، لكي لا يسمع إلا صوت المبررين، ولا يسمح إلا بطرب المنافقين، ولا يرى إلا أشباح الحاشية وانتهازية المستغلين ونفوذ مراكز القوى..



في مثل هذا المناخ الخانق... كيف تتنفس، وكيف تكتب ولمن؟ فما جدوى الكتابة، ولماذا تحلم بالحرية وتتطلع إلى الديموقراطية، بينما صخب الدفوف من حولك يصم الآذان ويشل الأعصاب ويوجع القلب... قلب الوطن وقلب الإنسان؟

رغم كل ذلك، لا أظن أن الدائرة الجهنمية، ستظل دائرة إلى الأبد، فحتى الجبال تزول، والأرض تبيد والناس تموت، ويأتي خلق جديد، بفكر جديد وسلوك مغاير ونهوض مختلف، يشق صدر الزمان، بحثًا عن وطن الحرية، وعن حرية الوطن..

وعليك أن تختار وتحدد موقفك، إما عبداً في الدائرة الجهنمية، وإما سيدا في وطن الحرية..

والقابض على شرفه كالقابض على الجمر، خصوصا في زمن تصطك فيه المصالح وتصطرع الثروات، بأكثر مما تفعل الأفكار والرؤى والإرادات..

وأمامك أن تختار المكان والمكانة...

موافق أو منافق، ناقد أو ناقم، متورط أو متواطئ، متبرع أو ممتنع، بارع أو ضائع، سيد أو خادم، مشاكس أو موالٍ، مفسر أو مبرر، مشاغب أو مناسب، مكابر أو مغامر، مثابر أو مقامر !! ■

عودة إلى: رجاء وأدونيس

جميل حسن

.... رئيس التحرير المحترم

إنَّ لمجلتكم «وجهات نظر» قراءها المحترمين فى هذه المحافظة بالذات. وإنَّ من لا يستطيع شراءها يستعيرها من صديق أيسر حالاً. وقد دُهش كلُّ من أعرف منهم، وفوجئوا بما قرأوا للأستاذ حلمى محمد القاعود، إذ (ما هكذا تورد يا سعد الإبل).

لقد كتبت هذا التعقيب القصير، لا غيرة على العلويين فأنا لست وكيلهم القانونى، ومستواى الفكرى والأدبى والأخلاقى ليس هناك. لكن لأجلو بعض الحقائق، وأؤكد لو أن الحيف وقع على غيرهم، لفعلتُ ما فعلته الآن، إذ يكفى ما فعله ويفعله معنا نظامنا العربى المتهافت.

ومن باب حرصى على مجلتكم الوقورة، وسمعة الأديب الكبير المرحوم رجاء النقاش أتمنى أن يُنشر هذا التعقيب فى أقرب عدد ممكن من المجلة. وإنى لأزعم أن ذلك سيُسهم فى تثبيت مصداقيتها التى كانت لها هنا على الدوام.

وتقبلوا منى أفضل تحية وأكرم سلام.

قرأت فى عدد أبريل ٢٠٠٨م مقالة للأستاذ حلمى محمد القاعود بعنوان (رجاء وأدونيس جدلية العروبة والشعوبية)، مقبلاً عليها برغبة أكيدة لسببين اثنين. أولهما أنها منشورة فى مجلة «وجهات نظر»؛ هذه المجلة التى أحترمها لمستواها الفكرى وتوجهها السليم، وإنى أواظب على قراءتها منذ صدورها. والسبب الثانى أنى توسمت أن أقرأ للكاتب الراحل المرحوم رجاء النقاش شيئًا جديداً يعزز لى رأيى بأدونيس. ولكننى ـ للأسف ـ صدمت بالسببين.

وقبل أن أقول لماذا، أقول إنى أعارض أدونيس ـ وهو من جيلى، وابن منطقتى ـ منذ زمن طويل، لكن لغير الأسباب التى ذكرها الكاتب. فعندما كان أدونيس ينتمى إلى(الحزب السورى القومى) كنت أنتمى إلى جيل التأسيس فى حزب البعث العربى. وكنا نتهم ـ نحن البعثيين ـ الحزب القومى السورى بالإقليمية الضيقة، لأننا كنا نعى أننا لو اتهمناه بالشعوبية للأسباب التى أثارها الكاتب لكانت حججنا داحضة، فالفينيقيون الذين جعل الكاتب غاية الحزب العودة إلى أمجادهم، هم أحد شعوب المنطقة القدامى الذين كان من تراثهم آثار حضارية تناقلتها المنطقة مع حضارات شعوبها الأخرى. ولا نسمح للسوريين القوميين أن يستأثروا بهم، فحضارتهم أحد أهم روافد الحضارة العربية. وكنا نتهم الحزب اتهامات شتى ليس من بينها الشعوبية. وما أظن أحداً من حقه أن يزايد على فكر البعث العربى بالقضية القومية. والمرحوم الكاتب الثقة رجاء النقاش كان صديقًا حميمًا للكثير من شبابنا الأوائل (وأرجو ألا يعيدنا الأخ الكاتب إلى مماحكات السياسة المتأخرة فإن لها حديثًا يطول).

وبدل أن أقرأ لرجاء النقاش قرأت لحلمى محمد القاعود ما يشوه فكر النقاش ولا يسىء إلى أدونيس، وعندما يقرأ أدونيس هذه المقالة سوف يسر ـ فيما أظن ـ لأنه لم ينقد بما يجب أن ينقد به، فقد غيبه الكاتب ليظهر (أدونيسًا) آخر من اختراعه.

أدونيس يا صاحبى أخطر بكثير مما ذكرت. لكن ليس لأنه (فينيقى) ولا لأنه (علوى نصيرى) وإن هجومك عليه ذكرنى بهجوم عبدالصبور شاهين على نصر حامد أبوزيد.

(......)

نحن البعثيون القدامى (جيل التأسيس) نرى أن الفينيقيين والكنعانيين والآراميين، والبابليين والآشوريين وسواهم من الشعوب القديمة، فى الشرق الأدنى والأنباط والتدمريين فى الداخل السورى، والحميريين والسبئيين فى اليمن والفراعنة فى وادى النيل، هم جميعًا تراث المنطقة، ونرفض فى أدبنا أن يؤسس فى مصر حزب يسمى نفسه «الحزب الفرعونى» ومن أهدافه قطع الصلة مع تاريخه وحاضره العربى، كما رفضنا ونرفض أن ينشأ فى سوريا أو فى غير سوريا حزب إقليمى يسهم فى زعزعة كياننا القومى العربى ودوره الحضارى، وإلا كنا جزءاً من النظام العربى الحالى الهش الذى لا صلة له بالتاريخ ولا بالحضارة ولا حتى بالمصلحة العربية الراهنة فى أضيق حالاتها.

إننا نحمد للسيد حلمى القاعود أنه لم يلصق تهمة الحديث الطائفى بالمرحوم رجاء النقاش. لأنه يعلم لو أنه فعل لن يسلم من المؤاخذة من أقرانه أبناء جيله من المفكرين والمثقفين المصريين الكبار، فهؤلاء لا يقبلون أن يسجلوا على أنفسهم هذا السقوط. فقد قال الكاتب فى الصفحة ٢٣ من عدد المجلة المذكور ما يلى:

«بيد أن رجاء لم يشر إلى الهاجس الطائفى لدى أدونيس الذى يفسر شعره، وكل مواقفه تقريبًا. فأدونيس ينتسب إلى الطائفة العلوية واسمها الصحيح أو الأصلى هو «النصيرية» ويصنفها البعض من القدامى ضمن غلاة الشيعة. وقد ادعى مؤسس الطائفة النبوة والرسالة، ويدعى «محمد بن نصير البصرى النميرى»، وعاصر ثلاثة من أئمة الشيعة، وقد أقامت فرنسا دولة للعلويين عام ١٩٢٠م، واستمرت إلى عام ١٩٣٦م. وأفكار الطائفة فيها الكثير من الغلو، واستحلال المحرمات، وصلاتهم مختلفة عن صلاة المسلمين، ويستمدون عقائدهم من الوثنيات القديمة والفلاسفة المجوس والأفلاطونية الحديثة.. وهاجس أدونيس الطائفى له صلة أو علاقة بمواقف الطائفة فى فترة الحروب الصليبية الأولى، وفترة الاستعمار الحديث.. مما حدا بابن تيمية إلى محاربتهم فى عهد الصليبيين وكتابة رسالتين عنهم».

انتهى الاقتباس. ونمسك عن الباقى لنستسمح الكاتب ونحاوره حواراً هادئًا ونقول له:

لقد جافاه الحظ ولم يوفق فيما كتب وادعى، وإن التعرض لمثله فى هذه الظروف الدقيقة يعد إسهامًا مشبوهًا فى توهية المناعة القومية إزاء الهجمة الإمبريالية الشرسة على وطننا العربى.

١ ـ لم يؤسس محمد بن نصير هذه الطائفة وهى أقدم منه ومن أبيه وجده. بل فى فترة من الفترات نسبت إليه. وعلى كل حال هو إنسان عربى صميم من بنى نمير. إذن. فهو ليس شعوبيًا، وكان أحد تلامذة الإمام الحسن العسكرى. ولم يدع النبوة والرسالة.

٢ ـ أما أن أفكار الطائفة فيها الكثير من الغلو، واستحلال المحرمات، وأن صلاتهم مختلفة عن صلاة المسلمين فإننا نسأل الكاتب: من أين استقى هذه المعلومات؟

أما غلوهم فلأنهم يرون أن للإنسانية دينًا كليًا واحداً هو الإسلام فى العصر العربى. فى الوقت الذى يرى فيه غيرهم أن الإسلام منقطع الجذور عن تاريخ الدين والحضارة. ناسين أن القرآن يقول: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» (سورة ٢٩ آية ٤٦). ويقول تعالى: «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله»



نحن أدرى يا أخى الكاتب أين هو أدونيس من الثقافة والفكر والشعر والسياسة بما لا تلامسه أنت أبداً. فهو قد قفز بعيداً فوق قوميته السـورية وعلـويته وكل ما وصمتـه به




رجـــاء وأدونيـــس

جدلية "العروبة" و"الشعوبية"

(سورة ٢ آية ٢٨٥) ويقول تعالى: «لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون» (سورة ٣٦ آية ٦) على اعتبار (ما) اسم موصول.

ويؤمنون أن ليس من أمة إلا وجاءها نبيها بالدين نفسه والرسالة نفسها: «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» (سورة ٣٥ آية ٢٤).

«وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» (سورة ١٤ آية ٤).

أما استحلال المحرمات فنقول للأخ الكاتب إن كان هناك من فئة طهرية بين المسلمين، فهم تلك الفئة (ولا نشمل العصر الحاضر، فهم كغيرهم وقعوا ضحايا العصر الأمريكى بأخلاقياته، إلا من عصم ربى).

فهم ناجون كلية من آفة اللواط أو العلاقة المثلية ويعتبرونه من السلوك الموجب لدخول جهنم. ولم تسجل على مدى التاريخ عندهم حادثة لواط معروفة. وقد كانوا يمارسون عملية عزل اجتماعى كامل على المرأة المشبوهة بسلوكها، وإنى لأذكر، وأنا صغير قبل المدرسة الابتدائية، أن امرأة عجوزاً كانت تعيش فى قريتنا قادمة من مكان لم يكن عقلنا الصغير يستوعب ولا يسأل من أين هو. وكانت تلك المرأة تمنع من المشاركة بالخَبز على التنور (عجن، ورق، إشعال نار) وغيرها. ولم يكن يسمح لها بالمشاركة فى الأعمال الخيرية (أى نقل الحطب، أو نقل الماء من العين) لإقامة ولائم طعام للفقراء والجيرة فى النذور والأعياد الدينية وسواها. وأذكر أنى سألت أمى لم لا تسمحون لفلانة بمشاركتكم كانت تقول: (يا بنى.. لعنها الله. روحها خبيثة. محكى عليها). لكن لِمَ تطعمونها ما دامت هكذا؟ فكانت الأم تجيب: يا بنى الحسنة جائزة على البهيمة فكيف بهذه الفقيرة المقطوعة. ذنبها على جنبها. الله يحاسبها. المهم نحن لا نسمح لها بتدنيس أعمالنا). فما رأيك بهذه الطائفة التى (تستحل المحرمات).



واليك - يا أخى العزيز - شيئاً من تاريخ هذه الطائفة التى رميتها بالتعاون مع الأجنبى:

أولاً: هم الذين قاوموا الصليبيين فى ولايتى طرابلس وأنطاكية لأن سكان هاتين المنطقتين كانوا آنذاك من هذه الطائفة.

ثانيًا: هم الذين قاوموا الفاتح العثمانى فى معركة مرج دابق عام ١٥١٦م دفاعاً عن مدينتهم حلب وما جاورها.

ثالثًا: تقول إن الفرنسيين أقاموا لهم دولة، وتنسى ما عدا ذلك. تنسى - أو لعلك لا تعلم وفى ذلك عذرك - أن أول رصاصة أطلقت فى وجه الفرنسيين كانت من بارودة شيخ علوى مشهور ومكرمة ذكراه منذ فجر الاستقلال إلى اليوم هو المجاهد الكبير الشيخ صالح العلى الذى نظم ثورة مسلحة فى منطقة جبلية تعلو حوالى ألف متر عن سطح البحر، ضمت جغرافيًا من تلكلخ على حدود لبنان الشمالية إلى النهر الكبير الشمالى فى شمالى الساحل السورى. ومن منطقة الغاب فى جوار العاصى إلى البحر الأبيض المتوسط، وجهاديًا كان بين مقاتليه المجاهدين سُنَّة وعلويون وعرب وأكراد وسواهم. وأن الثورة امتدت من أواخر كانون الأول ١٩١٨م حتى أواخر عام ١٩٢١ ما بعد تخلى فيصل الأول وذهابه لتسلم عرش العراق. وإن الشيخ كان شاعرًا وقد أرخ كل معركة مع الفرنسيين بقصيدة مطولة ومفصلة. لم يذكر علويته فى واحدة منها. بل ذكر أنه عربى ومسلم، ويجاهد دفاعًا عن العروبة والإسلام.

وأذكر أيضًا أنه على أثر تمزيق سوريا إلى كيانات، تأصل فى منطقتنا مصطلحا (وحدوى وانفصالى) وحدوى لمن رفض الدولة المزعومة، وانفصالى لمن رضى بها وانضوى تحت لوائها. وإن أهلى وبنى قومى الأقربين كانوا معروفين من (الوطنيين الوحدويين) والشاعر الكبير نديم محمد كان من هؤلاء الذين شكلوا فريقًا مثقفًا لمقاومة تلك الدولة وشرح أهدافها للشعب. وكانت تقوم معارك بالرصاص بين الفريقين.

أدونيس يا صاحبى أخطر بكثير مما ذكرت. لكن ليس لأنه (فينيقى) ولا لأنه (علوى نصيرى) وإن هجومك عليه ذكرنى بهجوم عبد الصبور شاهين على نصر حامد أبوزيد

أما الموقف من إسرائيل والاستعمار الحديث فلا أظن أن الكاتب يعوزنا لنخوض فيه، فمصر العربية مبتلاة به كما هو غيرها مبتلى، ولا أحاشى أحداً. ومهما يكن فإن سوريا لم تقم علاقات لها مع إسرائيل حتى الآن.

وأما تهمة الشعوبية والمجوسية فتلك بضاعة باخت لتقادمها ولم يعد أحد يتعامل بها.

لقد تحاشيت - على ما يبدو - أن تذكر لأدونيس مؤتمر «غرناطة» الشهير، لأنك ستدين به مع أدونيس المرحوم لطفى الخولى رئيس تحرير مجلة «الطليعة» والمرحوم إدوارد سعيد المفكر الفلسطينى المعروف. فمنهم من حضر مؤتمر غرناطة ومن حضر اجتماع كوبنهاجن السرى مع من زُعم أنهم مثقفون يهود.

نحن أدرى يا أخى الكاتب أين هو أدونيس من الثقافة والفكر والشعر والسياسة (...). فهو قد قفز بعيداً فوق قوميته السورية وعلويته وكل ما وصمته به. والحقيقة أقول لك آسفاً أنك أسأت إلى طهرية رجاء النقاش دون أن تدرى، وكذلك إلى مجلة «وجهات نظر» التى هى فى مستوى رفيع فى نظر الكثيرين من قرائها المقبلين عليها بكل احترام من سوريا.

أما صلاتهم، (...)، فإنى أقول لك: إذا كنت غيوراً على الإسلام وعباداته فكلف نفسك وتفضل زر قراهم التى ملئت جوامع بعد أن زال عنهم الخوف وانظر واستمع إلى صلاتهم، واحضر صلواتهم على الجنائز، حيث يقام معظمها على قبر المتوفى قبل دفنه ويحضرها ويسمعها كل أصدقاء ذوى الميت من سنة ومسيحيين وغيرهما. وأنا ضامن بأنك ستراجع نفسك. ■

الوهابيـة.. رؤيـة غربيـة

بشير موسى نافع

منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، تضاعف عدد الأعمال المنشورة حول الحركة الوهابية والعربية السعودية. ولكن هذا الكتاب بنى على جهد بحثى مميز، كتب بلغة واضحة، وهو عمل أكاديمى من الطراز الأول، بعيد تماماً عن أعمال الإثارة التى أغرقت حقل دراسات الإسلام والشرق الأوسط مؤخراً. وهذا عمل بالغ الطموح، يحاول تغطية التاريخ السياسى والفكرى للحركة السعودية - الوهابية منذ منتصف القرن الثامن عشر إلى الوقت الحاضر. بعض من التاريخ الذى يستعرضه كومنز استعرض مراراً من قبل، بينما يعتبر البعض الآخر جديداً ويمثل إضافة هامة؛ بعض جوانب التحليل الذى يقدمه يقف على قواعد صلبة، والبعض الآخر ليس بالضرورة كذلك.

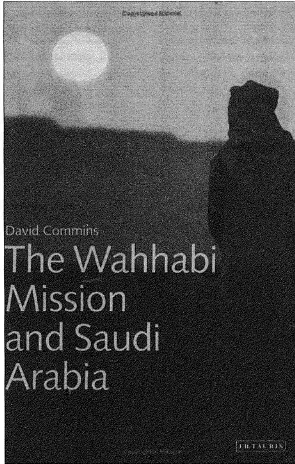
يبدأ تاريخ الحركة التى تعرف الآن على نطاق واسع باسم «الحركة الوهابية» مع العالم الإصلاحى، الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٢ - ١٧٩٣). ولد الشيخ لأسرة من العلماء فى مدينة العيينة النجدية، شمالى الجزيرة العربية؛ وقد تلقى تعليمه فى حلقات علماء مدينته، كما فى المدينة المنورة والبصرة. ويبدو أن نزعته الإصلاحية المبكرة قد وجدت معارضة من والده، الذى كان آنذاك قاضياً حنبلياً فى مدينة حريملاء؛ ولكن ما إن توفى الوالد، حتى صدع الشيخ بدعوته. إن الأفكار الأساسية التى استندت إليها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وضعت فى «كتاب التوحيد»، الذى كتبه بعد العودة من رحلته إلى المدينة والبصرة. يؤكد محمد بن عبد الوهاب فى كتابه على أن عقيدة التوحيد، مركز الإيمان الإسلامى، لا تقتصر على الاعتقاد بأن الله هو الخالق، بل أيضاً أن الله هو الحاكم والمسيطر. فكفار مكة، مثلاً، لم ينكروا ربوبية الله وخلقه للكون، ولكنهم رفضوا الانصياع لحاكمية الله وتشريعه. ويقول الشيخ، أنه عندما تكون عبادة المسلمين موجهة إلى الله وحده، عندما لا يشركون معه أية جهة أخرى، عندما تنتظم حياتهم على أساس أوامر الله ونواهيه، يكونون مسلمين بحق. التوسل بالشيوخ والأولياء، وحتى بالأنبياء، هو شرك؛ تعظيم القبور والأحجار والأشجار، أو أى شىء آخر ذى صلة بالرسول، صلى الله عليه وسلم، أو الصحابة أو الأولياء، هو شرك؛ والاعتقاد بالسحر أو التعويذات أو أية قوة أخرى مع الله، هو شرك.



فى حقبة هيمنة الطرق والثقافة والتقاليد الشعبوية الصوفية على المجتمعات الإسلامية، أثارت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب معارضة قوية، حتى فى أوساط العلماء. وبالرغم من الدعم الذى تلقاه فى مطلع دعوته من أمير حريملاء، إلا أن الدعوة لم تبدأ فى ترسيخ أقدامها إلا بعد الهجرة إلى الدرعية وعقد ميثاق، ليس مكتوباً على الأرجح، للدعم والتحالف المتبادلين بين الشيخ وأمير الدرعية محمد بن سعود فى ١٧٤٤. هذا الميثاق هو أساس الحركة السعودية - الوهابية والارتباط الوثيق والطويل بين الدولة السعودية من جهة وميراث محمد بن عبد الوهاب والعلماء الذى تبنوا دعوته من جهة أخرى. ومنذ منتصف القرن الثامن عشر، التحمت قوة السيف السعودى بقوة التعاليم التى حملها أتباع الشيخ وتلاميذه، محققة توسع الحكم السعودى وانتشار الدعوة عبر جهات الجزيرة العربية المختلفة. بين ١٨٠٣-١٨٠٤، سيطرت القوات السعودية على مكة والمدينة، لتشكل تحدياً دينياً وسياسياً لسلطة الدولة العثمانية. وبعد عدد من المحاولات العثمانية العسكرية الفاشلة، نجحت الحملة التى أرسلها، محمد على، والى مصر العثمانى، فى استعادة السيطرة على الحجاز، والتقدم نحو نجد، ومن ثم تدمير الدرعية وتقويض مصادر الحياة فيها فى ١٨١٨. ولكن الحملة كانت مكلفة ودموية، وأخذت أكثر من سبع سنوات لتحقق أهدافها، مشيرة إلى صعوبة استمرار السيطرة المصرية - العثمانية فى الجزيرة العربية، ونجد على وجه الخصوص.

الوصف الذى يقدمه كومنز لنجد باعتبارها «بقعة بعيدة ومنسية من الجزيرة العربية»، ولمجتمعها العلمائى باعتباره «بسيطاً، يضم حفنة من العلماء الجاديين»، هو ربما وصف مضلل. فبالإضافة إلى باحثين آخرين، أوضحت الأعمال التى نشرتها مضاوى الرشيد أن محمد بن عبد الوهاب نشأ فى بيئة زراعية، مستقرة من نجد، وليس فى البادية، وأن بيئته كانت وثيقة الصلة، تجارياً وثقافياً، بالمراكز العربية - الإسلامية المجاورة، سواء فى الحجاز أو العراق وسورية. وتظهر كتابات العلماء النجديين المعارضين لأفكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنها لا تقل فى مستواها العلمى عن تلك التى وضعها علماء البلاد العثمانية وشمال إفريقيا. المدن النجدية فى القرن الثامن عشر، بالطبع، لا يمكن مقارنتها بدمشق أو القاهرة؛ ولكن بساطة الحياة الحضرية فى نجد آنذاك لم تكن السبب وراء انطلاق دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. المشكلة، أنه بدلاً من القيام باستقصاء بحثى كاف لقراءة وتحليل الجذور الفكرية لرؤية الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فإن كومنز يستعير المقولة، التى سبق أن قدمها أحمد دلال، حول أن «المبادئ التى قال بها ابن عبد الوهاب لا تحمل سوى القليل من المشترك مع الحركات الإصلاحية الإسلامية فى القرن الثامن عشر، بل إن التصور القائل بأن هناك دفعة إصلاحية إسلامية مشتركة فى تلك الحقبة لا يستند إلى أسس راسخة». الحقيقة أن هذه المقولة لا تساعد على فهم التاريخ بالغ التعقيد لتطور التيار الإسلامى السلفى، الذى تعود الحركة الوهابية إليه، كما تقف حاجزاً أمام محاولة تفسير بقاء واستمرار الدعوة الوهابية، من ناحية، والاستقبال الذى لم يكن سلبياً دائماً لها خلال القرنين الماضيين.

بيد أن كومنز محق فى توكيده على



The Wahhabi Mission and Saudi Arabia
(الدعوة الوهابية والعربية السعودية)
David Commins
London: I. B. Tauris, 2006, 276 pp.

لم تستطع حركة التحديث تقويض نفوذ الإسلام (لا فى السعودية، ولا فى غيرها)، فإنها أسست لعملية إعادة بناء وتشكيل لخطاب الدعوة الوهابية، لتعبيراتها، ولأنماط نشاطها وفعلها.



أن المعارضة العلمائية، داخل وخارج نجد، لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت معارضة ملموسة، وأن بروز الدرعية فى العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر كمركز رئيس للعلوم الإسلامية، على حساب مراكز علمية تقليدية مثل عنيزة وشقيراء، كان انعكاساً لمتغيرات توازنات القوى فى نجد. وهو محق كذلك فى الاستنتاج بأن ما حققته الدعوة والدولة السعودية الأولى من توحيد للجزء الأكبر من الجزيرة العربية، للمرة الأولى منذ قرون، وإطلاق طاقة فعل وتوجه جديدين للقبائل العربية المنقسمة والمتصارعة، ترك أثراً أصبح من الصعب محوه على مجتمع الجزيرة العربية. لهذا، لم تمثل الحملة المصرية - العثمانية، بكل ما نشرته من دمار، سوى مرحلة توقف قصيرة فى تاريخ الحركة. وما إن تراخت القبضة العسكرية المصرية، حتى ولدت الدولة السعودية من جديد، كما عاد علماء الدعوة الذين شتتوا داخل الجزيرة العربية وخارجها إلى التجمع.

الفصل الثانى، الذى يحمل عنوان «الصمود ضد الشرك»، يعتبر أهم أجزاء الكتاب على الإطلاق، ومساهمة كومنز الأبرز فى تأريخ الحركة السعودية - الوهابية. بدراسة تطور أفكار علماء الدعوة الوهابية خلال المرحلة الصعبة وبالغة القلق والتوتر للسيطرة المصرية - العثمانية والدولة السعودية الثانية، يقدم كومنز صورة واضحة لكيف أصبحت فكرة راديكالية أكثر راديكالية. لقد دمرت السلطة السياسية السعودية تماماً فى ١٨١٨، ولم يعد بناؤها من جديد إلا فى ١٨٢٤، وفى منطقة محدودة من نجد فقط. ولكن قوات محمد على قامت مرة أخرى بغزو نجد فى ١٨٣٧، واستمرت فى التدخل فى الشئون النجدية، فى شكل مباشر وغير مباشر، حتى انسحاب القوات المصرية نهائياً من الجزيرة العربية فى ١٨٤١ . وبموت الأمير فيصل بن سعود فى ١٨٦٥، اندلع صراع سعودى داخلى حول السلطة والإمارة، استمر على هذا النحو أو ذاك حتى سقوط الدولة السعودية الثانية فى ١٨٩١ على يد حكام حائل من آل الرشيد.

لقد أطلقت فترة النفوذ والتدخل المصريين، وفقدان اليقين السياسى، جدلاً حاداً فى دوائر علماء الدعوة الوهابية حول شرعية الحكم المصرى، كما حول شرعية الأمراء السعوديين الذين أيدوا من قبل القادة العسكريين المصريين. وبموازاة هذا الجدل، انفجر جدل آخر بين علماء الدعوة والعلماء الخصوم، النجديون منهم وأبناء المناطق المجاورة، بعد أن أفسح الوجود المصرى مجالاً لتصاعد الأصوات المناهضة لوجهة النظر الإسلامية التى يحملها خلفاء وأتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. فى ظل هذه الظروف، نحت مواقف علماء الدعوة الفكرية منحى راديكالياً، وهو ما يبدو فى أعمال وآراء علماء مثل سليمان بن عبد الله، وعبد اللطيف بن عبد الرحمن، وعلى وجه الخصوص، حمد بن عتيق. يقدم كومنز قراءة أولية لآراء وبعض أعمال هؤلاء العلماء، ولكن الحاجة لم تزل قائمة لدراسات وافية ومعمقة لتعليم وحياة وكتابات كل واحد منهم.



فى الفصل الثالث، يناقش كومنز بروز عبد العزيز بن سعود والدولة السعودية الثانية فى ١٩٠٢، مركزاً اهتمامه على ما يصفه بـ «كبح الحماس الوهابى». والمقصود، بالطبع، هو تمرد الإخوان، القوة الضاربة لقوات عبد العزيز خلال العقود الأولى من القرن العشرين، الذى استمر بين ١٩٢٧ و١٩٣٠، وانتهاء هذا التمرد بالهزيمة. عبد العزيز، مؤسس ما نعرفه اليوم بالمملكة العربية السعودية، كان داهية كبيراً، زعيماً براجماتياً من الطراز الأول، وصاحب قدرة استثنائية على تحقيق التوافق ولم الصفوف. وبالتفاف عدد من المستشارين العرب المخلصين حوله، كان عبد العزيز على اطلاع دقيق على متغيرات موازين القوى فى الجوار وفى المشرق العربى ككل. وربما بدون هذا الاطلاع لم يكن عبد العزيز ليستطيع توحيد ما وحده من الجزيرة العربية، وبناء المملكة مترامية الأطراف التى نعرفها اليوم. كانت اعتراضات الإخوان الرئيسية على عبد العزيز تتمحور حول اتصالاته المتكررة بالبريطانيين، قراره إيقاف الحملات على المناطق المجاورة فى العراق وسوريا (التى اعتبرت من وجهة نظر الإخوان استمرارا للدعوة والجهاد)، وإدخاله أدوات التقنية الحديثة، الغريبة على ثقافة أهل نجد، لاسيما فى حقلى المواصلات والاتصالات.

السؤال هو: إلى أى درجة يمكن اعتبار تمرد الإخوان، وهزيمته، إضعافاً للأسس الوهابية للمملكة؟ الحقيقة أن عبد العزيز لم يكن لديه من خيار سوى مواجهة التحدى الإخوانى؛ إذ ما كان باستطاعته تفجير حرب مع بريطانيا وفرنسا اللتين وقعت كل من العراق وسوريا تحت سيطرتهما آنذاك، ولا كان بإمكانه تأمين حكم المملكة الفسيحة بدون تطوير جهاز ما لدولة مركزية. وفى ضوء التربية المكثفة التى تلقاها الإخوان فى المهجر، فقد اكتسبت رؤيتهم للأمور قدراً ملموساً من الحدة؛ على أن من الضرورى كذلك رؤية الأبعاد القبلية لتمرد الإخوان، الأبعاد التى هددت بقاء واستمرار وأمن النظام الذى أقامه عبد العزيز. ولكن القطاع الأكبر من علماء الدعوة وقف إلى جانب الملك على أية حال. ولمواجهة اتهامات الإخوان، أفسح عبد العزيز المجال للمزيد من تعزيز وضع العلماء فى الدولة. هذا التعزيز، أو ما يمكن أن يعتبر بداية «المأسسة» الرسمية للعلماء، كان العامل الأول خلف «كبح» التوجهات الحماسية للدعوة، وليس التمرد بحد ذاته. أما العامل الثانى، فكان ربما الشعور المنتشر فى أوساط العلماء، الذين كانت عقود القرن التاسع عشر المرهقة لم تزل حية فى ذاكرتهم، أن مصير الدعوة بات يرتبط إلى حد كبير بمصير الدولة.

الفصل الرابع لكتاب كومنز، «الوهابية فى الدولة الحديثة»، يتطرق إلى أثر حقبة التحديث السعودية على دور الدعوة والعلماء فى الدولة والمجتمع. هذه، بالطبع، فترة التوسع الهائل لجهاز الحكم، انتشار التعليم الحديث وبناء مؤسسته الرسمية تحت سلطة الدولة، المدن الحديثة الكبيرة وتعزيز وسائل الاتصال، الثروة والنزعة الاستهلاكية الجديدة، وبناء جهاز عدلى - قضائى مركزى. طبقاً لنظرية التحديث، الشائعة فى أوساط دراسات البلدان النامية فى الجامعات الغربية خلال الخمسينيات والستينيات، فإن المتغيرات التى تعرضت لها العربية السعودية فى سياق عملية التحديث كان لابد أن تؤدى إلى إضعاف الدين. لأسباب واضحة، يبدو كومنز وكأنه يرفض مقولات نظرية التحديث. فى هذا الرفض، كومنز هو بلا شك على صواب، ولكن لدرجة معينة فقط. فالمملكة العربية السعودية تغيرت، وهى لا تزال تتغير، وقد نجم عن حركة التحديث مناخ اجتماعى وثقافى جديد، وولدت حركة التحديث معضلات جمة للدولة ولمؤسسة العلماء على السواء، كما أن رؤية الإنسان السعودى لنفسه ولما يعنيه التزامه الإسلامى قد تغيرت.

وبينما لم تستطع حركة التحديث تقويض نفوذ الإسلام (لا فى السعودية، ولا فى غيرها)، فإنها أسست لعملية إعادة بناء وتشكيل لخطاب الدعوة الوهابية، لتعبيراتها، ولأنماط نشاطها وفعلها.

الفصلان الأخيران، «الدعوة الوهابية والإحياء الإسلامى»، و«التحديات للهيمنة الوهابية»، يبدوان مضطربين وغير واضحين بعض الشىء. لا يقدم كومنز تحليلاً مقنعاً للصلات الفكرية بين حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والحركات الإسلامية الإصلاحية الأخرى فى القرنين التاسع عشر والعشرين، لاسيما تلك التى يتعرض لها فى كتابه. ويبدو كومنز كأنه لم يلحظ أهمية إدخال فكرة التنظيم السياسى إلى المسرح الإسلامى السعودى، بتأثير من عناصر الإخوان المسلمين العرب، الذين توافدوا على المملكة للعمل أو فراراً من اضطهاد حكوماتهم. إن القراءة التى يقدمها كومنز لأشكال وقوى المعارضة السياسية السعودية منذ مطلع التسعينيات، هى قراءة واضحة وهامة. ولكن الافتراض بأن هذه المعارضة تمثل «تحدياً للهيمنة الوهابية» هو ربما افتراض غير صحيح. إذ بينما يعتبر قطاع صغير فقط من المعارضة السعودية ليبرالياً بالمعنى الأيديولوجى لليبرالية، فإن القطاع الأوسع من المعارضة هو إسلامى التوجه، ويظهر تأثراً متفاوتاً بميراث الشيخ محمد بن عبد الوهاب. إن المعارضة، حتى وهى تطالب بالتمثيل السياسى والشفافية الحكومية، تصوغ مطالبها فى خطاب إسلامى.

عوضاً عن الاستنتاج بأن المعارضة السعودية تمثل «تحدياً للهيمنة الوهابية»، فإن الأصح ربما قراءة المعارضة فى سياق أزمة الشرعية التى يعانى منها الاعتماد المتبادل بين الدولة ومؤسسة العلماء الرسمية، والطبيعة السائلة للتفاعل المستمر بين الحداثة والفكرة الإسلامية السياسية. وكما يشير أحد النشطاء الإسلاميين السعوديين، فإن العلاقة بين كيان العربية السعودية والدعوة الوهابية هى أقرب للعلاقة بين توأمين سياميين، اقتل أحدهما تقتل الآخر.

هذا، على أية حال، لا يجب أن يقلل من قيمة هذا الكتاب الهام وما يضيفه لدراسات الإسلام ومجتمعاته. وهو كتاب ضرورى لكافة الطلاب والباحثين فى حقل دراسات العالم الإسلامى الحديث. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

التوراة جاءت من جزيرة العرب

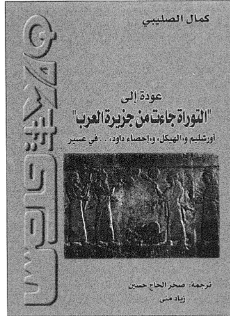
عودة إلى «التوراة جاءت من جزيرة العرب/ أورشليم و«الهيكل» و«إحصاء داود»... فى عسير
كمال الصليبى
ترجمة: صخر الحاج حسين، زياد منى
بيروت: شركة قدمس للنشر والتوزيع
٢٠٠٨

إن اقتراح كمال الصليبى فى منتصف ثمانينيات القرن المنصرم ضرورة عد «العهد القديم» تسجيلاً لتجربة بنى إسرائيل التاريخية والدينية فى جنوب غربى جزيرة العرب وليس فى بلاد الشام أو فلسطين، لم يكن عملاً علمياً سهلاً. فطرحه هذا كان يحمل تحدياً غير مسبوق لآراء علمية ومفاهيم دينية ترسخت فى التراث السائد قروناً طويلة. وكون العالم اللبنانى صاحب الموضوعة متخصصا فى التاريخ المعاصر وليس فى «العلوم الكتابية» أضاف، على ما شبه للبعض، معضلة أخرى، وسلاحاً «مجانياً» لناقديه، وعلى نحو خاص لـ «علماء التوراة» أو لـ «علماء الكتاب المقدس». فمن النادر أن «يجرؤ» عالم على المخاطرة بسمعته العلمية والمعرفية على الخوض فى موضوع شائك كهذا، معروف حتى لأهل الاختصاص باسم «عش الأفاعى» أو «عش العقارب» ذلك أن أى حركة غلط فيه تكون «قاتلة» علمياً حقاً.

كمال الصليبى، العالم الكبير المعترف به عالمياً فى مجال تخصصه فى مجال تاريخ العرب ولبنان الحديث، على نحو خاص، من العرب القليلين جداً الذين اخترقوا لائحة أسماء المراجع العالمية الأساس فى مجاله، وسجلت (دائرة المعارف البريطانية/ إنسيكلوبيديا بريتانيكا) كتبه مرجعاً أولياً عن تاريخ العرب. مع ذلك، لم يتردد فى طرق باب «العلوم التوراتية» عندما طرح موضوعته الشهيرة: التوراة جاءت من جزيرة العرب.

لكن لم قرر هذا الأستاذ المتمتع بمكانة مرموقة فى «حلقة المؤرخين» العالميين المخاطرة فى موضوع قال منتقدوه إنه ليس من اختصاصه؟

فى الواقع، كمال الصليبى ليس العالم الوحيد الذى يقرر خوض غمار مجال علمى لا يقع ضمن مجال تخصصه المباشر. ونحن نعلم، حتى من أساتذة كبار، أنهم يرحبون بأى تدخل علمى من خارج المجال التخصصى لعله يعينهم على فك رموز استعصت عليهم وعلى زملائهم. فتوماس طمبسن المتخصص فى تاريخ فلسطين القديم



وصاحب أهم ثلاثة كتب عن الموضوع آخرها «داود ويسوع: بين التاريخ والتراث المشرقى» رحب فى كتاباته بآراء من خارج الاختصاص حيث رأى فيها مساعداً مهماً لبحثه.

كما أننا على علم بأن أحد أهم الكتب عن جذور الحضارة الإغريقية، إن لم يكن أهمها فعلاً، وهو مؤلف «أثينا السوداء» كتبه البريطانى التروتسكى مارتن برنال، المتخصص باللغة الصينية وليس بالحضارة الإغريقية أو المصرية القديمة وغيرها من حضارات المشرق العربى. مع ذلك، ورغم أن المتخصصين بالمادة «جن جنونهم» من ذلك المؤلف الضخم، إلا أنه ثبت مرجعاً أساسياً عن المادة.

والأمر ذاته ينطبق على كتاب جديد سيصدر عن الإلياذة يقول مؤلفه الألمانى إنها تتحدث عن غزوات آشور ولا علاقة لها بالإغريق. ومع أن الكتاب لم يصدر بعد، إلا أن الحملة عليه ذهبت بعيداً وتحولت إلى تهجم شخصى. وبالمناسبة، المؤلف الألمانى ليس مؤرخاً وإنما شاعر مرموق فى بلاده وفى أوروبا.

الأمر ذاته حدث مع كمال الصليبى عندما طرح موضوعته للمرة الأولى. وبصرف النظر عن «الإطراء والذم» اللذين نالهما فى العالم العربى، فإن كل ما كتب، مع الاحترام لأهل القلم، لم يرتق إلى مستوى علمى مسئول، ما أجبره، فى ظنى، على تجاهل ردود الفعل تلك. لكن بعض أهل الاختصاص الغربيين وجدوا أنفسهم مضطرين للدفاع عن موضوعاتهم التقليدية ومحاولة التشهير بآراء كمال الصليبى. وعندما لم يتمكنوا من دحضها علمياً قرروا تجاهلها، وهو الأسلوب المعهود الذى يتبعه ضعاف الحجة.

لكن كمال الصليبى لم يكن العالم الوحيد الذى طرح تلك الموضوعة حيث سبقه إلى ذلك بعض الرحالة الأوربيين الذين عبروا غربى جزيرة العرب فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولاحظوا كثرة الأسماء غير عربية البنية، أى: الكنعانية والآرامية. وإذ أبدى بعضهم ملاحظاته على المسألة، ربما غير متجرئ على المضى قدماً فيها، ثمة من طرح الموضوعة بصريح العبارة متسائلاً عن إمكانية أن «العهد القديم» هو تسجيل لتجربة بنى إسرائيل، وليس اليهود، فى فلسطين وجزيرة العرب أيضاً. ويمكن للراغب فى التأكد من المسألة العودة إلى تلك الكتابات القديمة التى أشرنا إليها فى كتاباتنا عن الموضوع.

سوف لن نعود إلى ردود الفعل «العربية» على الموضوعة لأنها، وعلى نحو عام، لم تقع ضمن النقد العلمى حيث غلب الطابع الإثارى أو السياسى على الموضوعى. ولكن كمال الصليبى عاد إلى موضوعته، مرة ثانية فى كتابه الفذ حقاً «حروب داود» وثالثة فى كتاب «خفايا التوراة»، ثم أثبت انسجاماً كاملاً مع الموضوعة فى مؤلف «البحث عن يسوع».

ثم عاد مرة رابعة إلى الموضوعة مجدداً فى كتاب صدر بالإنجليزية عنوانه «تاريخية بنى إسرائيل» ستصدر ترجمته العربية قريباً عن (دار قدمس).

ولكن صاحب الموضوعة لم يتوقف عن إثارة قناعاته تلك علانية كلما سنحت له المناسبة ضمن إطار علمى. فقلة قليلة تعرف أنه كتب مجموعة من المقالات باللغة الإنجليزية فى بعض الدوريات اللاهوتية المتخصصة، إضافة إلى مقالات فى دوريات ليست متخصصة بالدراسات الكتابية، وهى التى تحويها دفتا هذا الكتاب الجديد الصادر أخيراً، باللغتين العربية والإنجليزية.

«عودة إلى «التوراة جاءت من جزيرة العرب»/ The Arabia Bible revisited» يحوى مجموعة من المقالات كتبها كمال الصليبى فى الدورية التى تصدرها «كلية اللاهوت للشرق الأدنى» ببيروت، إضافة إلى محاضرة ألقاها فى سمث كولدج بالولايات المتحدة الأمريكية ومقال نشرته حولية «أبحاث» التى تصدرها الجامعة الأمريكية ببيروت، وآخر نشر فى كتاب صدر بالإنجليزية أشار المؤلف إليه.

المبحث الأول، المحاضرة، «ملاحظات لغوية وجغرافية حول التوراة العبرية» تعد، من وجهة نظر فيلولوجية، إسهاماً طليعياً فى إدراك العلاقة المنطقية بين العربية ولغة العهد القديم، المسماة خطأً: العبرية. نقول دراسة طليعية لأنه لم يسبق لنا الاطلاع على أى عمل شبيه. وفى هذا المقال/المحاضرة يوضح كمال الصليبى العلاقة «الفطرية» بين اللغتين وأن علم الباحث العلمى-الفطرى باللغة العربية وصرفها وإعرابها يساعده فى فك كثير من «طلاسم» لغة التوراة، والتى استعصت على فهم أجيال عديدة من علماء الكتاب (Biblical scholars). وقد ألقى كمال الصليبى محاضرته هذه أمام جمهور كبير من العلماء والطلاب، ولم يظهر بعدها أى اعتراض على ما طرحه أو نقد لآرائه التى ساءلت الفهم التقليدى

لمجموعة من النصوص والمفردات والمصطلحات التوراتية.

المبحث الثانى يتناول بالتحليل الحدث الوارد ذكره فى سفر التكوين (١٤) الذى يشير إلى حروب أبرام/ أبراهام/ إبراهيم، الذى تعده التوراة من الآباء الأولين فحسب. وقد اهتم «علماء الكتاب» بهذا المقطع تحديداً لأنه ينقل، فى ظنهم، نشاطاً عالمياً خارج حدود «أرض الميعاد». كمال الصليبى، قرأ النص بلغته الأصلية من دون مفاهيم مسبقة، فاكتشف أنه يشير إلى تحالفات قبلية محلية لا علاقة لها ببلاد مابين النهرين ولا بشمالى سورية، وإنما رواية إلى صراع محلى، بالطبع فى عسير، وفى منطقة جيزان تحديداً. وكما فعل فى كتاباته السابقة، وعلى عكس ما يدعى ناقدوه، فإنه لم يعتمد فى بحثه على اللغة فحسب، وإنما استعان أيضاً بالجغرافية والطبوغرافية، مرتكزاً على خيال علمى خصب لا تقيده قيود لاعلمية.



المبحثان الثالث والرابع يتعاملان مع موضوعين مختلفين ولكن الشخصية المشتركة فيهما هو داود بن يسى، مؤسس مملكة بنى إسرائيل، على ما تدعيه بعض أسفار العهد القديم. فى المبحث الثالث: مسألة جوليات وداود: يناقش كمال الصليبى النصين المختلفين المرتبطين بقصة داود/ جوليات، ويكتشف تناقضات بينهما تجعل من الأمور غير المقبولة علمياً تجاهلها، حيث ثبت تلاعب (المحرر) بالنصوص، وهو حدث يتفق عليه كل «علماء الكتاب». المهم فى الأمر أن تحليل كمال الصليبى لبعض النصوص ذات العلاقة وإعادة قراءتها خارج تلاعب (المحرر) ثبت، من وجهة نظره أنه لم يوجد شخص اسمه جوليات وأن الرواية عن صراع داود بن يسى جوليات الفلسطينى وصرعه قصة مختلقة تماماً!.

أما المبحث الرابع فيتعامل مع جانب آخر من قصص داود التوراة، ألا وهو موضوع جغرافية الإحصاء الذى أمر بإجرائه، على ما يرد فى سفر صموئيل الثانى (٢٤: ٥-٨) على نحو خاص. ومن خلال تتبع جغرافية تحرك الرجال المكلفين بإنجازه يرى المؤلف أن الجغرافية لا يمكن أن تطابق فلسطين، ولكن عسير، وعسير فقط.

وخصص المؤلف المبحثين الأخيرين، الخامس («الفرار» من أورشليم) والسادس (مسألة أورشليم) لمسألة لم أعثر على أى إشارة إليها من قبل فى كافة المراجع ذات العلاقة التى اطلعت عليها. فكمال الصليبى يلفت الانتباه فى هذين المبحثين إلى مسائل على جانب كبير من الأهمية أهمها:

- النصوص التوراتية ذات العلاقة تتحدث عن وجود ما لا يقل عن (٢٦) بوابة (شعر/ ثغر) لأورشليم. وهنا يلفت الكاتب النظر إلى حقيقة أنه ما من مدينة مهما بلغت مساحتها تمتلك، حتى فى عصرنا الحالى، كل هذه «البوابات». أما بلاد عسير، وفى المنطقة ذات العلاقة بـأورشليم» فتحوى ما يزيد على (٣٥) معبراً.
- فى بلاد عسير، ثمة معابر أو ثغور أو شعاب جبلية يعبرها المسافر بين مناطق السراة. ومع وجود اسم عربى أصيل لهذه الشعاب، أى: ثغر/ ثغور، يلاحظ أن اسمها بصيغة المفرد فى بلاد عسير هو (الشعر/ الشعار)، وهو الاسم الكنعانى/ التوراتى ذاته. وهذا من غير الممكن أن يكون محض صدفة.
- هذا كله يقود إلى النقطة الأساس الثالثة ألا وهى موضوع «أورشليم» نفسها. فالتوراة أشارت فى العديد من النصوص إلى «أورشليم» على أنها منطقة حيث ورد الحديث عن المدينة فى أورشليم. ملاحظاً هذا الأمر المهم، قام كمال الصليبى بتحليل النصوص مقترحاً شروحاً وتأويلات لغوية وطبوغرافية وجغرافية، ليصل إلى استنتاج أن الاسم «أورشليم» لم يكن يطلق فقط على مدينة وإنما على إقليم أيضاً. أما المدينة فهى، ودوماً برأى المؤلف، إما (الشريم) بمنطقة النماص أو القرى التوأم (أروى) و(السلام) قرب تنومة. أما «أورشليم» الإقليم فقد حددها المؤلف بأنها المنطقة المعروفة باسم (سراة رجال الحجر)، وجميعها فى بلاد عسير. ولأن «أورشليم» كانت إقليماً بطول نحو (١٣٠) كيلومترا، فقد كان من الطبيعى أن تكون محاطة أو مجانبة لكل هذه الثغور أو الشعاب.

جديد كمال الصليبى رحلة علمية ممتعة فى التاريخ واللغة والجغرافية والتفكير المنطقى السلس. المسألة المهمة لنا وللقارئ، فى ظننا، ليست صحة الموضوعة أو خطأها، وإنما المقدرة على تجاوز الذات والتحرر من القيود المفروضة على البحث والتفكير واختراق أسوار المحرمات المختبئة خلف «القدس» كائناً اسمه ما كان. ومن هذا المنطلق فإن كتاب كمال الصليبى هذا، وما سبقه عن الموضوع، وجب عدها علامة بارزة فى عوالم البحث التاريخى والفيلولوجى العلمى الرصين، تلهم القارئ المهتم وتحضه على البحث والتفكير.. والتأمل فى ما صور لنا أنه مسلمات غير قابلة للنقاش.

زياد منى

أجمل قصص الحب

رجاء النقاش

القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٨، ٢٢٣ صفحة



٤٠ قصة حب جمعها الناقد الراحل من الشرق والغرب، لشعراء وكتاب وقادة عسكريين وسياسيين وفنانين، قدماء ومحدثين، توفيق الحكيم مثلاً الذى اشتهر عنه عزوفه عن النساء، فقد كان فناناً حريصاً على حريته واستقلاله ورغبته فى العزلة والتأمل، وهو ما كان يجعله نافراً من الزوجة العصرية، الراغبة فى الظهور الدائم فى الحفلات والسهرات والحياة الاجتماعية، إلا أنه سقط فى قفص الزواج سنة ١٩٤٦، وكان عمره آنذاك ٤٨ سنة، يقول هو أنه لم يتزوج عن حب، إلا أنه بعد التجربة أيقن الحكمة الإلهية التى جعلت من الزواج سكناً ومودة ورحمة بين الزوجين.

وها هو عروة بن حزام الشاعر الذى عاش فى صدر الإسلام وتوفى سنة ٦٥٠ م أحب عروة ابنة عمه عفراء، وعندما طلبها للزواج طلب منه عمه ثمانين ناقة مهراً لها ليعجزه عن الزواج بها، فهو يعلم بما هو عليه من الفقر والفاقة.. وقام الأب بتزويجها من آخر أكثر غنى وقدرة على تلبية مطالب الأب، وعند ذلك ضاع أمل «عروة» فى حبه، فمرض مرضاً حار الأطباء فى وصفه وعلاجه، وانتهى به المرض بعد فترة قصيرة بالموت، وحين علمت عفراء بموت حبيبها توجهت فوراً إلى قبره وظلت تنتحب حتى ماتت هى الأخرى إلى جواره وبقى من عروة شعره الذى يصفه رجاء النقاش بأنه من أجمل الشعر العربى وأعذبه، ومنها ما يقوله مصوراً أحلامه مع حبيبته وحرصه الشديد عليها:

فياليت محيانا جميعا وليتنا
إذ نحن متنا ضمنا كفنان
ويا ليت أنا الدهر فى غير ريبة
خليان نرعى البهم مؤتلفان
فوالله ما حدثت سرك صاحباً
أخالى ولا فاهت به الشفتان

وتروى الشاعرة جليلة رضا بعضاً مما عانته حين وصفت فى قصيدة لها لقاء ساخنا مع حبيبها، وحين نشرت القصيدة مجلة «المجلة» الأدبية التى كانت تصدر فى النصف الأول من القرن الماضى، انقلبت الدنيا على الشاعرة وتعرضت لضغوط اجتماعية شديدة، وكان مما قالته فى وصف قبلة الحبيب:

اسقنى فيها رحيق المنى
وخلتها لن تنطوى أو تفوت
فلم وكيف لم أمت ها
أنا من تذكرها أموت

أما العقاد الذى عرف بأنه عدو المرأة، فقد كانت له ثلاث تجارب كبرى على الأقل فى الحب، فقد أحب الأديبة المعروفة «مى زيادة»، وكان حباً روحياً عبر عنه فى بعض الرسائل والقصائد، ثم جاء حبه الثانى عنيفاً وانتهى نهاية حزينة، وهى قصة الحب التى عبر عنها فى روايته الوحيدة «سارة»، وحين بلغ الخمسين من عمره، بدأت قصة حبه مع الفنانة مديحة يسرى (هنومة خليل)، وقد قضت أحلام السينما على هذا الحب، فشعر العقاد بتعاسة شديدة وقرر ألا يسمح للحب بأن يتسلل إلى قلبه إلى الأبد.

ولعل قصة حب الشاعر أحمد رامى لأم كلثوم من أشهر قصص الحب المعاصرة. وقد استمر حبه لها منذ اللقاء الأول بينهما فى ١٩٢٤ حتى وفاتها فى ١٩٧٥، وكانت محصلته ١٣٧ قصيدة صدحت بها كوكب الشرق وهى تعرف أنها المعنية بكل حرف فيها.

■

المستشرقون الألمان

رضوان السيد

بيروت: دار المدار، ٢٠٠٨، ٩٦ صفحة



كانت ألف ليلة وليلة التى ترجمها الفرنسى أنطوان جالان (١٦٤٦-١٧١٥)، هى بداية معرفة الأوروبيين غير اللاهوتيين بالعالم الثقافى الإسلامى، فقد سحرت حكاياتها مجموعات كبيرة من المثقفين، خصوصاً فى القرن الثامن عشر، عصر الرومانسية الأوروبية، وقد عرف هذا القرن تيارين ثقافيين كبيرين هما تيار الرومانسية وتيار التاريخيانية الأكاديمية، وكان الشاعر الألمانى الكبير جوتة، وهو أحد كبار الرومانسيين، قد تأثر بسحر الشرق، وانشغل بتجلياته وإبداعاته، وكتب «الديوان الغربى الشرقى» بهذا التأثر.

يؤكد المؤلف بعد استعراض للبدايات الألمانية فى مجال الاستشراق والتى استفادت من كتابات فرنسية وهولندية سابقة، أن الاستشراق الألمانى مثل مشكلة للباحثين العرب والمسلمين، ليس فقط بسبب إشكاليات الاستشراق بعامة، وإنما أيضاً بسبب لغته، وكان هذا الاستشراق يحاول مراجعة مشكلاته والتوصل إلى الانضواء فى أحد أربعة تخصصات، هى: التاريخ، والأنثروبولوجيا، والسوسولوجيا، وعلم الدين، ودراسات الشرق الأوسط. ولاتزال بالجامعات الألمانية عشرون كرسيا تقريبا تعنى بالدراسات الإسلامية والعربية.

ويشير المؤلف إلى حدوث تطورين مهمين: الأول: هو ازدهار دراسات الإسلام المعاصر لفهم واستيعاب ظاهرة الأصولية الإسلامية، وازدهار الدراسات الأدبية المعنية بالتراث الأدبي العربي والفارسي والتركي، المعنية بالأدب الروائي الحديث والمعاصر لدى العرب والإيرانيين والأتراك والشعوب الإسلامية الأخرى.

والثاني: هو قيام معاهد وكراسي لدراسة الدين الإسلامي في كليات اللاهوت أو في مراكز الدراسات الإسلامية المسيحية.

أما بدايات العلاقة عن طريق الترجمة بين العرب والألمان، فقد تمثلت في قيام أحد شباب المستشرقين بترجمة الجزء الثاني من كتاب جورجي زيدان تاريخ التمدن الإسلامي إلى الألمانية عام ١٩١٣. وعرف المصريون أشياء كثيرة من أعمال المستشرقين الألمان عبر العلاقات الشخصية والرحلات والزيارات المتبادلة.

بهذا المنهج يتابع المؤلف التأثيرات المتبادلة بين الباحثين الألمان والعرب، وصولاً إلى الجهود المعاصرة على الجانبين.

■

الاغتيالات في الإسلام

حسن عبدالله

بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠٠٧، ١٤٧ صفحة



منذ البدء، عرف تاريخ المسلمين الاغتيالات والقتل لأسباب سياسية ولأسباب قبلية أيضًا، ولم ينج أي من الخلفاء الراشدين من محاولات الاغتيال، فماتوا جميعًا بيد أعدائهم، حتى أبوبكر الصديق، يلمح المؤلف إلى قتله على يد المنافقين من أهل المدينة، بأن وضعوا له سمًا في الطعام، فأتى عليه بعد سنة.

إلى ذلك يعدد المؤلف حوادث الاغتيال التي أودت بحياة الخلفاء الراشدين وعدد من الصحابة والتابعين، أما الفاروق عمر ابن الخطاب فقد راح ضحية مؤامرة بين الفرس واليهود، وقد أوغرت قلوبهم فتوحات ابن الخطاب واتساع دولته، وقد قتله أبو لؤلؤة المجوسي بعد أن طعنه ست طعنات، ويشير المؤلف إلى أن عملية اغتيال عمر تمت بمؤامرة من حركة سرية يقودها الهرمزان ملك الخوزستان الذي جيء به إلى المدينة أسيرًا، وقد عهدوا إلى أبو لؤلؤة بتنفيذ أمر الاغتيال، وبتخطيط من كعب الأحبار. أما عثمان بن عفان فقد قتل في مؤامرة متكاملة الأبعاد بعد أن جنح به الأمويون إلى ما حذره منه عمر قبل وفاته حين قال له: إن وليت هذا الأمر فلا ترفعن بني أمية على رقاب الناس، لكن عثمان لم يفعل، وبين من شاركوا في مقتل عثمان أناس كانت بينهم وبينه خصومة شخصية، أي أنهم لم يكونوا ينتصرون لفكرة أو قضية، ومن هؤلاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وغيرهما، وقد عاب الثائرون على عثمان أنه استعمل أقرباءه، فكان في الشام معاوية بن أبي سفيان، وفي البصرة سعيد ابن العاص وفي مصر عبدالله بن أبي السرح، وكان بعض من ولاته مصدر شكوى المسلمين في هذه الولايات.

وأما علي بن أبي طالب، فكان صريع الفتنة الكبرى بين الهاشميين والأمويين، ومن هذه الفتنة الكبرى ولد الخوارج الذين دبروا أمر اغتيال علي، حتى قتله عبدالرحمن بن ملجم وهو في طريقه إلى المسجد ليصلي بالناس.

وقد عرف تأريخ المسلمين صورًا شتى للاغتيالات والقتل يوردها المؤلف، منها اغتيال الحسين بن علي والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ومحمد بن أبي بكر ومروان بن الحكم وعبدالرحمن بن خالد ابن الوليد وعمر بن عبدالعزيز خامس الخلفاء الراشدين وكثيرون غيرهم.

■

جذور الأصولية الإسلامية في مصر المعاصرة

أحمد صلاح الملا

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٨، ٤١٢ صفحة



محور هذه الدراسة هو إسهامات الشيخ محمد رشيد رضا ومجلته «المنار» في تكريس تيار الفكر السلفي، بعيدًا عن التوفيقية التي دعا إليها الإمام محمد عبده، من خلال دوره في حركة الإصلاح الإسلامي وضرورة توافقها مع المدنية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

صدرت مجلة المنار في الفترة من ١٨٩٨ وحتى ١٩٣٥، واختفت بوفاة الشيخ رشيد رضا. والمدهش أن هذا التيار السلفي الجديد خرج من أعطاف حركة التجديد الإسلامي التي حمل لواءها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من بعده، وكان لهذا التيار فكره السياسي والاجتماعي الخاص، تبدى في مناقشته للعديد من القضايا المهمة، وخصوصًا تلك التي تتناول علاقة الدين بالدولة والديمقراطية والخلافة وتعليم المرأة وحجابها، والتعليم الديني وصلته بالتعليم الحديث، وكذلك رؤية هذا التيار لتجليات الحداثة، وما أنتجته من فكر في مجالات مختلفة.

ولكن رأي الكاتب أن فكر رشيد رضا ومدرسة المنار كان رد فعل دفاعيا لمواجهة التهديد الغربي، ومن ثم، فقد حملت هذه المدرسة عبء الدفاع عن أسس المجتمع التقليدي في مواجهة المخاطر التي تمثلها - من وجهة نظرها - هذه التيارات الوافدة.

ويشير المؤلف بين استنتاجاته إلى هشاشة المحتوى التوفيقي لفكر المنار، فقد قبلت المنار الجوانب العملية والتقنية للحداثة باعتبارها وسائل قوة تفيد المسلمين في صراعهم مع الغرب، لكنها من ناحية ثانية رفضت الأفكار والقيم التي طرحها العالم الغربي الذي أنتج هذه التقنيات.

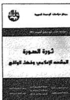
من هذا المنطلق، رفضت المنار فكرة لسيادة الأمة التي يقوم عليها جوهر الديمقراطية، فيما قبلت فكرة الديمقراطية ذاتها، ورفضت الدولة المدنية الحديثة كما جسدها مصطفى كامل في تركيا، ودافعت عن الخلافة كفكرة ونظام، وبقيت نظرتها للمرأة تدور في الإطار الفقهي الكلاسيكي الذي يرى المرأة موضوعًا للجنس فحسب، ويضعها في مرتبة أدنى من الرجل، وفي التعليم، قاومت أشكال التعليم الحديث في مقابل دفاعها عن التعليم الديني التقليدي.

وفي تفسيره للإشكالات التي واجهها الإصلاح الإسلامي الحديث، يرى المؤلف أن أهم هذه الإشكالات هي ضعف القاعدة الاجتماعية للقائمين عليه، فهي بالأساس قاعدة «قبل برجوازية»، ولذا حكم على هذا الإصلاح أن يظل في محصلته العامة إصلاحًا مترددًا وماضويًا، وعاجزًا عن بناء تصورات جديدة للدين تنسجم مع مطالب المجتمع البرجوازي الحديث.

■

ثورة الصورة

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ١٧٤ صفحة



تعنى البحوث التي يضمها هذا الكتاب بدور وسائل الاتصال واتساع دائرة التأثير المباشر للإعلام ووظائفه في صياغة أسلوب حياتنا اليومية، وبيان الصيغ المختلفة للرسائل الإعلامية، ومدى القدرة الفاعلة في ممارسة الرقابة والملاحظة.

والميزة البارزة في هذه البحوث تكمن في أنها تكشف، عبر مقاربات منهجية، المستور عن واقع الصحافة العراقية في زمن الاحتلال الأمريكي، ودور وسائل الإعلام في الانتخابات، وحروب المعلومات الإعلامية، ودور الفضائيات، في تحقيق الوعي لقيم المجتمع المدني، مع رصد انتقادي لتليفزيون الواقع في المنطقة العربية، إضافة إلى العناية بإشكاليات علوم الإعلام والاتصال وانعكاساتها على واقع البحوث العربية.

ولعل الأهمية المنهجية التي تستوجب الإشارة إليها هنا هي أن هذه البحوث تتنوع من حيث طرائق البحث، لكنها تندرج في وحدة الهدف، أي قدرة الإعلام في التأثير والتواصل، ومسئوليته المهنية والأخلاقية، في مجتمع عربي يعيش أزمات داخلية وخارجية، تدفعه إلى التساؤل والبحث عن الحقيقة، فقد بات نقل المعلومة والمشهد ووقائع الحوار، والنصوص التسجيلية، وتسويق الخبر والترويج الإعلاني، وسوى ذلك من وسائل التواصل والتأثير، علمًا وفنًا، وتقنيات متطورة، إضافة إلى ما للمال والسلطة من أثر فاعل في صناعة هذا القطاع الحيوي.

■

الشرق في الغرب

جاك غودي

ترجمة: محمد الخولي

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨، ٥٧٩ صفحة



على مدى فترات من التاريخ الأوروبي، كان يُنظر إلى الشرق على أنه كيان «ساكن» أو «متخلف»، بمعنى أن مؤسساته تتسم بخصائص تحول دون التحديث. كانت هذه هي الافتراضات التي انطلق منها ماركس وفيبر في ذروة أيام الرأسمالية. واتبعهما كثير من الذين أدهشتهم «المعجزة الأوروبية»، و«الطابع الفريد للغرب».

بيد أن جاك غودي يفند هذه الافتراضات، ابتداء من المفهوم الذي يقضي بأن عقلانية الغرب الخاصة هي التي أتاحت «لنا» وليس «لهم» أن نأخذ بأسباب التحديث. أما العوامل التي يقال إنها تحد من تطور الشرق، ومن ذلك مثلاً دور الأسرة

وأشكال العمالة، فقد لقيت مبالغة واسعة النطاق. وهذه المركزية الأوروبية فشلت فى تفسير المنجزات الحالية التى أحرزها الشرق، كما أنها تسىء تفسير تاريخ الغرب. من هنا يبدأ كتاب «الشرق فى الغرب» فى تحقيق التوازن، ومن ثم فهو يشكل تحولاً أساسيًا فى نظرتنا إلى التاريخ والمجتمع فى الغرب والشرق، على السواء.

وجاك غودى: أحد أشهر أساتذة الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى جامعة كامبريدج ونال جوائز وتقديرات عالمية كثيرة، ونشر عشرات المؤلفات.

■

الصراع فى الشرق الأوسط من هيرتزل إلى شارون

السفير: طاهر شاش

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨، ٢٣٠ صفحة



قتلت إسرائيل الأسرى المصريين العزل بدم بارد وبوحشية بالغة.. أمرتهم بحفر قبورهم بأيديهم وأطلقت الرصاص على رءوسهم، طردت سبعمائة ألف وخمسمائة فلسطينى فى عامى ١٩٤٧ و١٩٤٨م يمثلون الغالبية العظمى من أصحاب البلاد، واستولت على منازلهم وأسكنت فيها المهاجرين اليهود القادمين من شتى أنحاء العالم، والذين أعطتهم حق الهجرة والإقامة والاستيطان فى الوقت الذى حرمت فيه اللاجئين الفلسطينيين من العودة إلى منازلهم وممتلكاتهم.

وقد أعلن دافيد بن جوريون أن يهودا قامت بالدم والنار وأن يهودا ستقوم بالدم والنار، وطبق بكل همة هذا الشعار، فأنشأ - وزملاؤه من الصهاينة - المنظمات الإرهابية التى نكلت بالفلسطينيين، وأقام جدارًا حديديًا لترويعهم وإخضاعهم للمشروع الصهيونى. ورفضت إسرائيل تقديم أية تنازلات للعرب حتى يتحقق السلام فى الشرق الأوسط..

وفرضت احتلالها الطويل - لأكثر من أربعين عامًا - على الأراضى العربية، وضربت بالقانون الدولى وقرارات الأمم المتحدة جميعها عرض الحائط.. ولاتزال ترفض يد السلام العربية رغم مبادرة قمة بيروت العربية التى تعرض عليها إقامة العلاقات معها فى حالة انسحابها من هذه الأراضى وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة فى أراضى الضفة والقطاع بعاصمتها القدس وحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين حلاً عادلاً.

قامت بمصادرة أراضى العرب وبناء المستوطنات اليهودية فيها.. واستولت على مصادر المياه وحرمت الفلسطينيين منها، وعاملتهم بوحشية بالغة وأعملت فيهم القتل والتعذيب والاعتقال وهدم المنازل واقتلاع المزروعات، الأمر الذى يدعو للتساؤل عن أسباب هذه الكراهية. وهى الدولة الوحيدة فى العالم التى تصدر قانونًا يبيح التعذيب لتمارسه ضد العرب.

وقد قامت بتسليح جيشها بأحدث الأسلحة التقليدية وأسلحة الدمار الشامل ليكون أقوى جيوش المنطقة، ولتكون دولة إسرائيل الوحيدة التى تملك السلاح النووى فيها.. ووجدت إسرائيل فى الدول الكبرى حلفاء يدعمونها سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا.

ومع ذلك، تطالب بحدود آمنة على حساب الدول والشعوب العربية.

والواقع، أن إسرائيل قد اتخذت منذ قيامها وعلى مدى تاريخها سياسة عدوانية لا هوادة فيها تجاه العرب، وأفشلت كل المساعى التى بذلت من أجل تحقيق السلام فى الشرق الأوسط.

وهذه ظاهرة تتطلب الدراسة الموضوعية وخاصة لمحاولة التعرف على أسباب هذه السياسة العدوانية. ولما كانت إسرائيل قد أنشئت لتكون دولة لليهود، وأنها أقيمت تنفيذًا لمشروع صهيونى له أهدافه ووسائله، فإن دراسة هذه الأسباب تقتضى استعراض أسس الديانة اليهودية وعقائدها، والقاء نظرة سريعة على التراث الدينى والتاريخى لليهود، ثم بحث ظروف نشأة الحركة الصهيونية وأهداف المشروع الصهيونى ووسائل تنفيذه، وخاصة الإرهاب.

■

أن ترحل

الطاهر بنجلون

ترجمه من الفرنسية بسام حجار

المركز الثقافى العربى - الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ٣١٧ صفحة



مع وجود الكساد الاقتصادى وزيادة عدد السكان والمتعلمين منهم، يحاول كثير من الشباب الهجرة إلى الغرب والتى يسميها بنجلون «هوس الهجرة»، والتى هى غير متاحة قانونيًا. لذلك يلجأ العديد من الشباب إلى ركوب أخطار كثيرة قد تودى بحياتهم للذهاب لبلاد الغرب، حيث يعتقد بعضهم أن فرص العمل وجمع المال متاحة وسهلة. لكن الواقع غير ذلك. هذا ما يعرضه بنجلون فى قصته «أن ترحل».

هذه القصة عمل مهم فى أدب المهجر الحديث، حيث يتوغل الكاتب فى تحليل واقعى وشيق وإن كان مؤلما لما يحدث فى بلادنا، حيث يزداد السخط على الحكومات التى يبدو أنها عاجزة عن القيام بمهامها ولكنها متمسكة بشدة بالحكم.

يتخطى الكاتب ما يحدث فى المغرب، حيث تدور أحداث الرواية إلى ما يتعرض له المهاجر فى بلاد الغرب من مطاردة قوات الأمن وصعوبة وجود أعمال، الأمر الذى يلجأ معه البعض للدعارة والاتجار بالمخدرات أو قبول أعمال تتنافى والطموح المرجو من الهجرة. هذا بينما يتجه البعض إلى مجالات التطرف الإسلامى.

القصة مكتوبة بأسلوب سهل ومباشر. على لسان بطل الرواية «عازل» يقول: «لقد درست الحقوق فى بلد يجهل الحقوق، متظاهرا بفرض احترام القانون»، بينما يقول ممثل التيار الإسلامى «أنا أعلم أنك كالكثيرين من اترابك المهجوسين بفكرة الرحيل ومغادرة البلاد. هذا حل سهل ولكنه محفوف بالمخاطر. أوروبا لا تريدنا، الإسلام يخيفنا، التمييز العنصرى هو السائد فيها، مشكلاتنا تتطلب حلولاً من هنا الآن».

بينما يصف الكاتب حالة المغرب فيقول: «هو ذا المغرب فيه من يكدحون كالممسوسين يعملون لأنهم اختاروا الاستقامة، وهؤلاء يعملون فى الظل، لا أحد يراهم ولا أحد يأتى على ذكرهم، بينما هم يستحقون النياشين، لأن استقامتهم هى التى تبقى البلد حيًا. كما فيها الآخرون وهم كثرة فى كل موضع وناحية، فى جميع الوزارات، لأن الفساد فى بلادنا العزيزة هو الهواء الذى نستنشقه، بلى الفساد ينضح من مسامنا، هو على وجوهنا، وفى رؤوسنا، وهو كامن فى قلوبنا».

■

مستقبل التعليم العربى

محسن خضر

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ٢٤٨ صفحة



أما الكارثة التى يراها المؤلف محدقة بالتعليم العربى فهى العولمة، بآلياتها المباشرة الكاسحة وأساليبها الناعمة معًا، ومخاطرها فى تفكيك المجتمعات العربية وتفريغ الثقافة الوطنية من مضمونها، ومن ثم، فإنه يؤكد على أهمية التزام التعليم فى سياساته وهياكله ومناهجه بقضية الهوية كأولوية مطلقة، ليكون - بحسب ما يشير الدكتور حامد عمار فى تقديمه - تعليماً بالهوية وتعليمًا للهوية، أو بحسب تعبير المؤلف نفسه.. «تعنى التربية على الهوية تأسيس الوعى كبداية، وتمكين الهوية كنهاية، وتحويل الإمكانات إلى قدرات ومكنات، والوعى بالعقبات وسبل التغلب عليها».

ولذا، فإن المؤلف فى القسم الأول من الكتاب، يعالج مختلف مفاهيم الهوية ومكوناتها، واستجابات التربية لتحولاتها إزاء ضغوط العولمة، ويلاحظ المؤلف أن العولمة أيقظت هويات قديمة وفئوية وعشائرية واثنية ومذهبية كانت توارت وراء حكم الدولة القومية، وهو ما أدى إلى تفجير حروب الهويات فى البلقان والجمهوريات السوفيتية القديمة، وفى أفريقيا بين الهوتو والتوتسى، وكذلك فى السودان والعراق والجزائر.

وفيما يتعلق بالوضع العربى، فإن ثمة اتفاق على تأزم واقع الهوية العربية وخاصة فى ظل «أبلسة الفكرة القومية» أو الهوية الجماعية بحيث اعتبرت رديفًا للبربرية فى ظل الإحباطات المستمرة منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧ (...) هذا الإحباط عززته جهود الدولة القطرية فى تضخيم نفسها، وإضفاء الشرعية المبالغة على حقيقتها.

ويضيف: الهوية سؤال مستقبلى كما هو سؤال ماضوى، وفى حالة الهوية العربية القومية، فإن تجددها وانفتاحها على المستقبل يكون بتحقيق المشروع السياسى الوجودى الذى يسعى إلى إيجاد الدول المتطابقة مع الرقعة الجغرافية للأمة.

وحين يناقش المؤلف فى القسم الثانى أزمة الجامعات العربية، فإنه يبدأ برؤية الفيلسوف التفكيكى جاك دريدا الداعية إلى ضرورة أن تتمتع الجامعة بحرية غير مشروطة، تتجاوز من خلالها سلطان الدولة وضغوط العولمة والشركات العملاقة متعددة الجنسيات ومؤسسات التمويل الدولى. فالجامعة - بحسب رؤية المؤلف - رسالة قبل أى شىء آخر، وفى هذا الإطار يعود المؤلف إلى عديد من التقارير الدولية التى ترصد حال الجامعات وكيفية النهوض بها وتحقيق استقلالها، مشيرًا إلى ضرورة الانفتاح على كل التيارات ومراكز العلم، فالحرص على الهوية ليس مرادفًا للتقوقع والحصار.

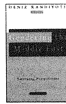
ويفرد المؤلف فصلاً خاصًا عنوانه «الاختراق النفسى للمعلم»، وهى ظاهرة عالمية متنامية، إذ تتعدد مسئوليات المعلم، وتتداخل فيها السياسة والفن والطلاب والإدارة والفصول وإمكانات التعليم وضعف الرواتب وضبط السلوك الأخلاقى وغيرها، وهو ما يؤدى إلى تعدد الضغوط المسببة للاختراق النفسى للمعلم وضياع هيبته وتراجع دوره.

■

Gendering the Middle East

(ثقافة النوع فى الشرق الأوسط)

Deniz Kandiyoti ed.
AUC Press
177pp, 2008



فتحت الدراسات المهتمة بالنوع مجالات جديدة لإعادة فحص العلوم الاجتماعية والإنسانيات وشجعت على نقد وإعادة تقييم التصنيفات التى وضعت لمختلف المجالات. ولكن الأمر ليس بنفس القدر من الشيوع عند الحديث عن الدراسات المتعلقة بمنطقة الشرق الأوسط. يرى الكتاب أن الكتاب والباحثين العاملين فى المنطقة قد سيطر على أبحاثهم ومناهجهم لفترة طويلة، الاهتمام بمراقبة دور الإسلام أو تحدى الصور النمطية التى تسبب فيها تراث الاستشراق ويتساءل بالتالى إن كانوا قد استجابوا للتحديات واعترفوا بتأثير النوع كمكون فى الثقافة والمجتمع. ويمثل كتاب تنويع الشرق الأوسط عملاً رائداً فى فحصه لمدى نجاح دراسات النوع فى إثراء وتحدى وجهات النظر الراسخة حول الثقافة والمجتمع والإنتاج الأدبى فى الشرق الأوسط. وقد قام بالأبحاث المختلفة فى الكتاب كاتبات متخصصات فى مجالات التاريخ والعلم تطور الإنسان وعلم الاجتماع السياسى والعلاقات الدولية والنقد الأدبى لبيان كيف يمكن للتركيز على النوع أن يعدل من وجهة نظرنا إلى العلوم المختلفة وفهمنا للمنطقة.

■

Women in Iraq

(النساء فى العراق)

Yasmin Husein Al -Jawaheri
AUC Press
228pp, 2008



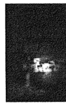
منذ الغزو الأمريكى للعراق وسقوط نظام صدام حسين، بدت العراق كأنها مجال متفجر بالعنف والتخويف ضد النساء. ولكن حقيقة الأمر كما توضح الكاتبة ياسمين حسين الجواهرى هى أن ما حدث ليس مفاجئا وإنما هو نتاج طبيعى للتدهور فى العلاقات بين الجنسين الذى كان إحدى النتائج التى تم تجاهلها لعقد كامل من العقوبات الدولية. وقد قامت الكاتبة بإجراء مقابلات مع نساء من مختلف الأعمار والخلفيات لبيان مدى تأثير العقوبات الاقتصادية على العلاقات داخل العائلة، العنف النوعى، المسئوليات المنزلية والعادات العمل والتوظيف. وتبين الكاتبة أن العقوبات الاقتصادية قد تسببت عبر تقليص قدرات المرأة على المشاركة فى التعليم والقوة العاملة فى تعزيز النظرة المحافظة للأدوار المنوطة بكلا النوعين. كما ترى الكاتبة أن الغزو قد صعد من الانشقاقات الطائفية مضاعفا المشكلة الأصلية. وتستخدم الكاتبة الأساليب البحثية العلمية وقدراتها المميزة على الصعيد النظرى فى تقييم ورسم الإمكانيات المستقبلية للنساء فى العراق

■

Cell Block Five

(عنبر خمسة)

Fadhil Al -Azzawi
AUC Press: 108pp, 2008



فاضل عزاوى شاعر وروائى عراقى وقد أصدر عام ١٩٧٢ رواية بعنوان «عنبر خمسة» كان قد كتبها فى العام السابق ولكنه لم يقدر على نشرها داخل العراق. والرواية تعتبر من النماذج الأولى للكتابات التى انتشرت فيما بعد عن تجربة السجن فى العراق وقد استوحى الكاتب روايته من تجربته الذاتية. بطل الرواية عزيز محمود سعيد شاب لامبال يتم إلقاء القبض عليه بالخطأ من على أحد المقاهى. تبدأ الرواية مع تحويله للسجن بعد ثلاثة أيام من القبض عليه وهناك يعرف أنه أخذ بالخطأ مكان شخص آخر يحمل اسم والده محمود سعيد. يتشبث عزيز بزملائه فى عربة الترحيلات التى نقلتهم إلى السجن فيحبس معهم فى العنبر الذى طلبوا التوجه إليه وهو العنبر رقم خمسة، حيث ينتظرهم آخرون من نفس توجههم السياسى. ومع أن عزيز لم يتهم رسمياً بأى تهمة إلا أنه يجبر على التأقلم على السجن لفترات طويلة. وخلال فترة سجنه يقوم المساجين السياسيون بمصادقته ويدفعونه للحلم بمدينة تحمل اسمه. أما مشرف السجن فيشجعه على التفكير فى أى جريمة بسيطة يمكنه الاعتراف باقترافها كى يتم اتهامه رسمياً وبالتالى الحكم عليه، ثم إطلاق سراحه.

■

Nixonland

(أرض نيكسون)

Rick Perlstien
Scribner: 896pp, 2008



لقد كانت الأعوام بين ولاية الرئيس الأمريكى ليندون جونسون عام ١٩٦٤ وبين ولاية نيكسون من أكثر الفترات فى تاريخ الولايات المتحدة فوضى. كانت الحرب الفيتنامية مشتعلة وتبدو بلا نهاية رغم عدم شعبيتها. وانتشرت فى تلك الفترة الاضطرابات الداخلية العنيفة والاغتيالات والقلاقل الاجتماعية والمقاومة فى الجنوب، بالإضافة إلى أغلبية صامتة اختارت لمرتين متتاليتين سياسيين يستمتعان بالمعارك القائمة وإن كانا قد أنهيا تلك المعارك بشكل مخجل. ويقدم الكاتب فى كتابه «أرض نيكسون» عرضاً لأحداث يبدو مؤلفا للكثيرين على عكس كتابه السابق قبل العاصفة Before the storm الذى كان أكثر تأثيراً لأنه أتى بمعلومات جديدة وغير متوقعة منها تحليله أن النجاح الساحق للمحافظين داخل أمريكا فى الوقت الحالى يعود إلى الهزيمة المروعة للمرشح الجمهورى بارى جولد واتر أمام جونسون عام ١٩٦٤ . ومع ذلك فالكتاب مشوق وملىء بالبحث الجاد. ومع أن برلستين كاتب يسارى إلا أنه محايد جداً كمؤرخ فهو ينجح فى توصيل الغضب الصادر من الجهتين بشكل مقنع. فهو لا يتسامح مع سخرية نيكسون ولا مع سذاجة الليبراليين مثل عمدة نيو يورك جون ليندساى. سيشعر من يقرأ هذا الكتاب فى عام الانتخابات أن الفترة الحالية أكثر هدوءا ودعة من تلك الأوقات ولكن يبقى لنا صدى من تلك الأيام التى سببت الانقسامات لايزال حاضرا حتى الآن.

■

Arab Television Today

(التليفزيون العربى اليوم)

Naomi Sakr
AUC Press
262pp, 2008



تزداد فى العالم العربى عبر السنوات الماضية القنوات التليفزيونية سواء الفضائية أو الأرضية، كما أن قوانين بعض الدول أتاحت إنشاء قنوات تليفزيونية خاصة.

وفى منطقة مشتعلة دائما بالصراعات كمنطقتنا فإن القنوات التليفزيونية المختلفة تصبح قنوات أساسية لعرض الخلافات، بل طرفاً أصلياً فى بعضها بناء على سياسة القناة أو توجه القائمين عليها. ويقدم كتاب التليفزيون العربى اليوم تحليلاً للبناء المتحول والاختيارات المختلفة داخل محطات التليفزيون فيما يخص البرامج الترفيهية والأخبار معاً.

ويحاول الكتاب فحص التأثيرات المختلفة التى يمارسها ملاك القنوات والمستثمرون والصحفيون وشركات الإنتاج والمعلنون والناشطون فى مجالات الرقابة ومقاومتها على بعضهم البعض وعلى ما يقدم على كل قناة سواء للاستهلاك المحلى أو للتصدير للخارج.

ويرى الكتاب أن قناة الجزيرة مع أنها صاحبة الاسم الأشهر، إلا أنها ليست إلا لاعباً واحداً فى مجال شديد الازدحام، حيث تبقى النوايا التى تتحكم فى القرارات غير واضحة.

وتقوم الكاتبة نعومى صقر بالبحث فى كيفية تأثير المنافسة على علاقات القوة بين المجموعات المختلفة الفاعلة فى قطاع التليفزيون وبينهم وبين المشاهدين.

كما تفحص تأثير القوالب المتشابهة لبرامج مثل مسابقات الغناء، ستار أكاديمى أو سوبر ستار ودرجة التشجيع أو التعطيل التى تتسبب فيها لبناء وتطوير قوالب محلية للبرامج.

والسؤال الأهم فى الكتاب، هل يعنى التنامى فى منح تراخيص خاصة للقنوات التليفزيونية أن هناك تحولا جذريا نحو تواصل أكثر مصداقية وصراحة بين الحكومات والشعوب؟

■

Case of Exploding Mangoes A

(قضية المانجو المنفجر)

Mohammed Hanif
Knopf, 2008, 336PP, $24.00



فى السابع عشر من أغسطس عام ١٩٨٨، الطائرة «باك ١» التى تحمل الديكتاتور الباكستانى «محمد ضياء الحق» على متنها وعدد كبير من قادة الجيش، تسقط محطمة ليموت كل ركابها،

محمد حنيف يغوص فى القصة

ويحقق فى أسباب وقوع الطائرة، هل كان السبب عطلا ميكانيكيا أم كان حادث مدبر، وهل للحادث علاقة بإطاحة محمد ضياء الحق بذو الفقار على بوتو.

فى هذه القصة الطيار الصغير «على الشجرى» الذى توفى والده فى ظروف ظهرت كحالة انتحار، ولكنه كان متأكدا أنه قتل من قبل الجنرال «ضياء الحق» ليقرر أن ينتقم ويبدأ رحلته.

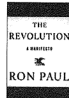
■

The Revolution

(الثورة)

Ron Paul

Grand Central Publishing, 2008, 192PP, $21.00



فى هذا الكتاب، رون بول عضو الكونجرس الأمريكى، والمرشح للرئاسة، يفضح الحقائق وراء كل شىء يهدد الولايات المتحدة، بدءا من الأسباب الحقيقية وراء انخفاض الدولار الأمريكى، إلى كارثة التضخم، ومن الإرهاب إلى فقدان الأمريكيين لحريتهم المدنية.

يرى بول أن الشعب الأمريكى قد كذب عليه بشأن مواضيع عدة، فالضرائب تزيد، والتضخم يرتفع، وحروب أخرى ليس لها سبب يعد لها، وهو ما يراه بول ليس ما كان يتمناه الآباء المؤسسون للولايات المتحدة، فهم وضعوا الدستور الذى يكاد فى رأى بول أن يتحول إلى وثيقة تاريخية.

على الرغم من التجاهل الإعلامى له فى حملته للرئاسة إلا أن بول قد جذب حوله الشباب وأصبح له مؤيدون عده، وهى الظاهرة التى أدهشت العديد من المحللين السياسيين.

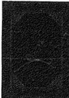
■

The Last Lecture

(المحاضرة الأخيرة)

Randy Pausch

Hyperion, 2008, 224PP, $21.95



العديد من الأساتذة يقدمون محاضرة بعنوان «المحاضرة الأخيرة»، حيث يطلب منهم أن يتخيلوا أنها محاضرتهم الأخيرة، ليلقوا فيها خبرتهم إلى تلاميذهم والجمهور الذى لا يمل عادة من السؤال المكرر دائما، عن الحكمة التى يريد الأستاذ تقديمها إلى العالم فى محاضرته.

«راندى باوش» أستاذ علوم الكمبيوتر بكارنيج ميلون طلب منه تقديم مثل تلك المحاضرة، لم يكن عليه أن يتخيل أن هذه هى محاضرته الأخيرة، فهو بالفعل يعلم أنها كذلك، حيث كان قد أكتشف تفشى السرطان فى جسده، وكان يعلم بقرب أجله، ولكن محاضرته التى ألقاها لم تكن عن الموت، وإنما كانت عن الحياة، المحاضرة بعنوان «تحقيق أحلام طفولتك» وكانت عن كيفية تخطى عقبات الحياة، كيفية تحقيق أحلام الآخرين، الاستمتاع بكل لحظة فى الحياة، لأن الوقت هو الشىء الوحيد الذى تملكه.

فى هذا الكتاب، يجمع راندى باوش» ما قاله فى محاضرته الأخيرة من إلهام، ودعابة، وخبرة، وتحفيز.

■

The Post-American World

(ما بعد العالم الأمريكى)

Fareed Zakaria

W. W. Norton, 2008, 288PP, $25.95



هذا ليس كتابا عن بداية زوال القوة الأمريكية، ولكنه عن زيادة قوة والآخرين.

فريد زكريا، كاتب النيوزويك المعروف، بعد كتابه الأكثر مبيعا «مستقبل الحرية» يأتى بهذا الكتاب ليناقش عالما جديدا ما عادت لولايات المتحدة تسيطر على اقتصاده، وتتحكم فى جغرافيته السياسية، أو حتى تؤثر على الثقافات المختلفة. عالم صعد فيه العديد من الدول مثل الصين والهند والبرازيل وروسيا، ليبدءوا إعادة تشكيل العالم من جديد.

الآن، أطول العمارات، وأكبر السدود، وأكثر الأفلام مبيعا، وأكثر الهواتف المحمولة تقدما، والعديد غيرها، قد صنع وطور خارج الولايات المتحدة.

هذا التقدم الاقتصادى يراه زكريا ناتجا عن الثقة السياسية والكرامة الوطنية والتوسط فى المشاكل الدولية، لذا يقدم زكريا فى هذا الكتاب إجابات لأسئلة مثل، كيف يجب أن تفهم الولايات المتحدة هذا المناخ العالمى الذى أصبح سريع التغير؟ وما المعنى الحقيقى لأن تعيش وتعايش عصر العولمة؟

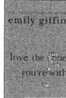
■

Love the One You're With

(حب من أنت معه)

Emily Giffin

St. Martin's Press, 2008, 352PP, $24.95



كيف تعرف انك وجدت حب حياتك؟ وهل تستطيع فعلا أن تحب من أنت معه، فى حين انك لا تستطيع نسيان حبك القديم.

فى هذه الرواية تطرح «إيميلى جيفين» صاحبة الرواية الأكثر مبيعا «شىء مقترض، وشىء أزرق، ودليل على الطفل» أسئلة عديدة عن الحب الحالى ونسيان الماضى.

كان عام أيلين وأندى الأول فى زواجهما ممتازا، لم يكن هناك شك فى مدى تفانيهما فى تلك العلاقة، وكان كل منهما يرى أجمل ما فى الآخر، ولكن يوما ما، أيلين رأت حبيبها السابق ليو التى لم تكن قد سمعت عنه لثمانى سنوات، حبيبها السابق الذى كان تركها معذبة بدون إنذار ولا تفسير، حبيبها السابق الذى لم تستطع أبدا نسيانه.

يفجر ظهور ليو فى حياة ألين مشاعرها، لتبدأ فى سؤال نفسها، هل هى تعيش فعلا مع الشخص المقدر لها العيش معه؟

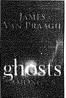
■

Ghosts Among Us

(الأشباح بيننا)

James Van Praagh

HarperOne, 2008, 224PP, $24.95



الجميع يحبون قصص الأشباح الجيدة، ربما بسبب افتتان الإنسان بالظواهر فوق الطبيعية، وربما لأن كلا منا فى وقت ما من حياته، قد مر بتجربة لا يمكنه تفسيرها.

منذ سنوات طفولته «جيمس براغ» كان على دراية بأبعاد لا نعرفها، وهو أمضى عمره ليشرحها للآخرين الذين لا يستطيعون رؤيتها. هذا الكتاب يأخذنا فى رحلة فى عالم روحانى مسلطا الضوء على واحدة من أكبر الغاز الكون، ماذا يحدث بعد أن نموت؟

يشارك «جيمس براغ» خبرته الحياتية عن الأشباح مع القراء، وهو موضوع قد يكون مرعبا للبعض وخياليا للبعض الآخر، ولكن «براغ» يرى أن هناك تفسيرا لكل ما ليس له تفسير فى الحياة.

براغ يتحدى الجميع حول كيف ستكون حياتهم أفضل إذا فهموا عالم الأرواح، بتفاصيل دقيقة ومعلومات مفصلة يقدم «براغ» وصفا لعالم ما وراء الحياة، عالم الأشباح.

■

The Whole Truth

(الحقيقة كاملة)

David Baldacci

. Grand Central Publishing, 2008, 416PP, $26.99



«ديك بيندر» اله الحرب، وتاجر السلاح، والمدير الناجح لشركة سلاح من أكبر الشركات فى العالم، بارع فى صنع الحروب، يستطيع التلاعب فى أى صراع، وجلب الحرب. يدير جهازا يناطح أجهزة المخابرات العالمية.

«شاو» رجل بماض فريد، يحمل أجندة مختلفة، يعمل لصالح وكالة استخبارات دولية، ويجوب العالم من أجل السلام.

«كايتى جونس» الصحفية النشطة التى تفعل أى شىء من أجل مهنتها، والتى تحصل على فرصة عمرها بمقابلة الناجى الوحيد من مذبحة عظيمة.

فى عالم كبير، هل من فرصة لتقابلهم، هل سيتلاقى مصيرهم يوما ما؟ ما الذى يمكن أن يتغير فى العالم إن تقابل هؤلاء الأشخاص؟ وما الإطار الذى سيسمح لهم باللقاء؟

هذا ما نعرفه فى الحقيقة الكاملة.

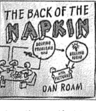
■

The Back of the Napkin

(ظهر المنديل)

Dan Roam

Portfolio, 2008, 288PP, $24.95



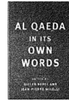
«دان روم» المستشار الإدارى، طلب منه

ذات مرة أن يلقي محاضرة على مجموعة من المسئولين الحكوميين، وكان هذا الطلب فقط قبل دقائق من بدء المحاضرة، فما كان منه إلا أن خط أفكاره في صورة رسوم على ظهر منديل.

في هذا الكتاب،دان روم، يوضح كيفية التفكير البصري، كيفية تحويل الأفكار إلى صور ورسومات، وكيف يمكن أن يؤثر ذلك على قوة التفكير. الكاتب يشرح ٤ طرق مختلفة لتحويل التفكير إلى صور و٦ طرق لقراءة تلك الصور.

■

Al Qaeda in Its Own Words
(القاعدة تتحدث عن نفسها)
Gilles Kepel , Jean-Pierre Milelli
Belknap Press, 2008, 384PP,
$27.95



في هذا الكتاب، الباحثان الفرنسيان مليلي وكابل، يقدمان وصفا لتنظيم القاعدة بكلمات أعضاء القاعدة أنفسهم. الباحثان قاما بترجمة العديد من النصوص التي تعبر عن تنظيم القاعدة، بيانات على شبكة الإنترنت، خطب، وأحاديث. ليقدموا بها سيرة لتنظيم القاعدة قالها، وكتبها أعضاؤها.

يرى الباحثان أن أسامة بن لادن وأيمن الظواهري ومصعب الزرقاوي، قد تأثروا بشدة بأفكار المفكر عبد الله عزام الملقب برائد الجهاد، حيث يكررون العديد من كلماته، ويستخدمون جملا من مؤلفاته.

■

The Future of the Internet
(مستقبل الإنترنت)
Gilles Kepel , Jean-Pierre Milelli
Belknap Press, 2008, 384PP,
$27.95



عالم الإنترنت الرقمي، يأخذ بالاتساع كل يوم، وتنمو بمساعدة زوارها. حتى أصبحت هناك منتجات تباع في الأسواق تعتمد كليا على الإنترنت، كالآي بود والاكس بوكس.كما ان تطور الإنترنت أصبح له تطبيقات في كل المجالات، فهناك مثلا أجهزة الجي بي اس التي تحدد الأماكن والطرق.

أيضا مواقع الإنترنت تطورت لتصبح مصدرا ضخما للمعلومات، ولتتيح لزوار الإنترنت المساهمة بها.

الكاتب يقدم وصفة لكيفية تطوير الإنترنت وكذلك تطوير الهيكل الاجتماعي ليتلاءم مع التكنولوجيا الحديثة مما يسمح لمستخدمي الإنترنت العمل بشكل خلاق وتعاوني لصالح البشرية.

■

1948
(١٩٤٨)
Benny Morris
Yale University Press, 2008,
544PP, $32.50



ستون عاما مضت على بداية الصراع العربي الإسرائيلي، وبهذه المناسبة يأتي كتاب بيني موريس عن أولى حروب ذلك الصراع.

هذا الكتاب يقدم نظرة جديدة متعمقة في حرب ١٩٤٨، موضحا أبعادها السياسية، والدوافع التي أحاطت بها.

يبحث موريس في الأسباب وراء الحرب، يسلط الضوء على التطورات السياسية والعسكرية التي سببت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، يحفر وراء دور الدول الكبرى بريطانيا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في الصراع، ودورهم في إنهائه عام ١٩٤٩، يتأمل في عمليات صنع القرار في الجانبين العربي والإسرائيلي ولدى الدول الكبرى.

■

The Lazarus Project
مشروع لازاروس
Alekandar Hemon
Riverhead: 304pp, $24.95, 2008

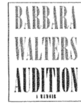


كان الكاتب اليوغوسلافي اليكساندر همون في الولايات المتحدة الأمريكية حين اندلعت الحرب في مدينته، سراييفو فعاش منذ ذلك الوقت في شيكاجو التي أصبح أحد مواطنيها. وقد اغنى وجوده المشهد الأدبي الأمريكي. في كتابه الجديد مشروع لازاروس يعيد همون احياء احداث ملحمية وقعت عام ١٩٠٨ عندما قتل لازاروس أفربوش، المهاجر اليهودي البالغ من العمر ١٩ عاما على يد جورج شيبي رئيس شرطة شيكاجو. وقد كان لازاروس قد دخل بيت رئيس الشرطة بشكل شرعي لتسليم خطاب. ومع ان شيبي قد ادعى ان لازاروس فوضوي وانه كان قد دخل المنزل لأغراض اجرامية الا ان حقيقة تلك الأحداث غير معلومة حتى اليوم.

ينتقل الكاتب من تلك الواقعة الى ما بعدها بقرن من الزمان حيث يحكي قصة فلاديمير بيرك الكاتب البوسني الأمريكي الذي يعيش في شيكاجو ويتلقى دعما ماديا للسفر الى أوروبا الشرقية والكشف عن ما حدث هناك بالفعل. ينجح الكاتب في تضفير القصتين جيدا متنقلا بين ما حدث بعد مقتل لازاروس وبين رحلة بيرك وحكايات رفيقته في الرحلة رورا المصورة التي تخصصت في تصوير حرب البوسنة. ومع ان الرواية قد تذكر القارئ بكتب اخرى كثيرة ظهرت في الفترة الماضية حول نفس الحرب الا ان هذا الكتاب بالذات شديد الإمتاع وحميمي جدا حتى مع موضوعه العام والملحمي.

■

Audition: A memoir
أختبار: مذكرات
Barbara Walters
Knopf: 624pp, $29.95, 2008

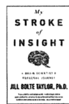


ربما تكون باربرا والترز هي اشهر مذيعة في العالم ولذا فان اصدارها لسيرتها الذاتية حدث شديد الجاذبية سواء للقارئ الجاد الذي يريد معرفة تفاصيل لقاءاتها الشهيرة بأهم زعماء العالم أو للقارئ من هواة الفضائح والذي سيجد وجبة مشبعة في حكايات علاقتها الغرامية. ويجيب الكتاب عن السؤال الذي قد يراود العديد من المراقبين لباربرا والترز والذين يلاحظون بلا شك الإلحاح والإصرار اللذين شكلا الدافع الأكبر وراء نجاحها المبهر. تكشف والترز في هذا الكتاب الكثير عن طفولتها التي قضتها في الترحال وراء والدها فنان برودواي بين ميامي وبوسطون ونيو يورك. عندما توفي الوالد ترك زوجته وابنتها المعاقة ذهنيا في رعاية باربرا التي كانت تعول ابنها ايضا بمفردها. وقد ساهم قربها من والدها على أشعار باربرا انها ستفشل تماما اذا كتب عن اعمالها نقد واحد سيئ.

أما اكثر الموضوعات الشخصية المثيرة للجدل والمتضمنة في كتاب والترز فكانت أعترافها بإقامة علاقة مع السيناتور الأمريكي من اصل افريقي، أدوارد بروك وهي العلاقة التي تخلت عنها والترز كي لا تؤثر على مستقبلها المهني خاصة ان السيناتور كان متزوجا وكان ذلك في زمن لا تغفر فيه الجماهير الأمريكية الخيانات الزوجية بين المشاهير. على الصعيد المهني ترسم والترز صورة شديدة التشويق لعالم التليفزيون في عصره الذهبي بما في ذلك المفاوضات حول العقود والصراعات بين الشركات المختلفة والنميمة حول المشاهير التي استضافتهم وحول زملائها من العاملين في محطات التلفزيون. رأي الكثيرون ان الكاتب يترك القارئ في حالة حسد أقل لباربرا والترز وتعاطف أكبر معها ولكنها لم تسلم كما هي العادة في كل ما يخصها من الانتقادات الكثيرة وتحديدا لكشفها علاقتها مع بروك.

■

My Stroke of Insight: A brain Scientist's Personal Journey
نوبة تأمل: الرحلة الشخصية لعالمة دماغ
Jill Bolte Taylor
Viking: 192pp, $24.95, 2008



من المتعارف عليه في عالم الطب ان المخ لازال من المناطق المجهولة وأن جميع الدراسات حوله تصل الى عدد من الاستنتاجات المنطقية أكبر من عدد المعلومات المؤكدة. لذا فإنه عندما يتاح لعالمة متخصصة في امراض المخ ان تصاب بأحد تلك الأمراض ثم تشفى بما يكفي لتكتب عن التجربة فالكتاب الناتج يستحق القراءة بلا شك. هذا ما حدث مع جيل بولت تايلر التي اصيبت في ١٩٩٦ بأنفجار في أحد شرايين المخ نتج عنه تدهور كبير في قدراتها على المشي والكلام والقراءة والتذكر في مدة قصيرة جدا بلغت اربع ساعات. وبينما تأرجحت القدرات الذهنية للجانب الأيسر من دماغها استمر الجانب الأيمن من الدماغ والمسئول عن الحدس والإحساس العضلي في العمل مما مكنها من طلب المساعدة سريعا.

تسجل الكاتبة تلك الأحداث والملاحظات حول قدرة المخ على شفاء نفسه في كتابها نوبة تأمل.

■

وجهات نظر

الكتب

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 114 - July 2008

مجلة شهرية . العدد المائة وأربعة عشر . السنة العاشرة . يوليه ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

جوئل بنين : عمال مصر .. المغانم والمظالم

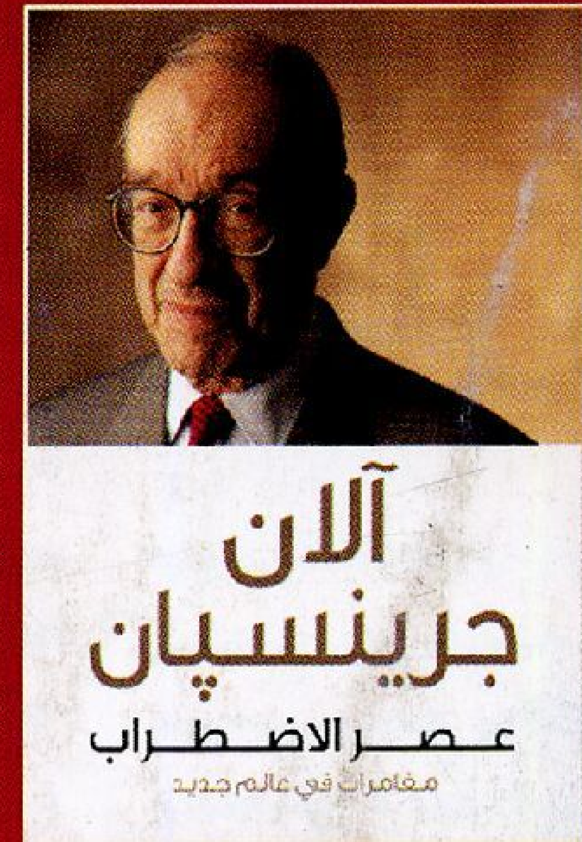
ستيفن والت : إسرائيليون فى واشنطن

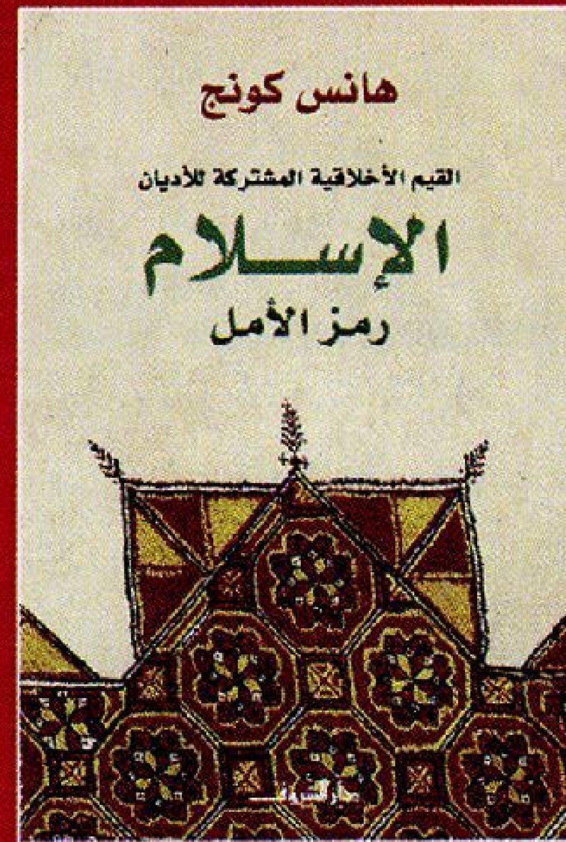
ناصر الرباط : نساء فى حياة المقريزى

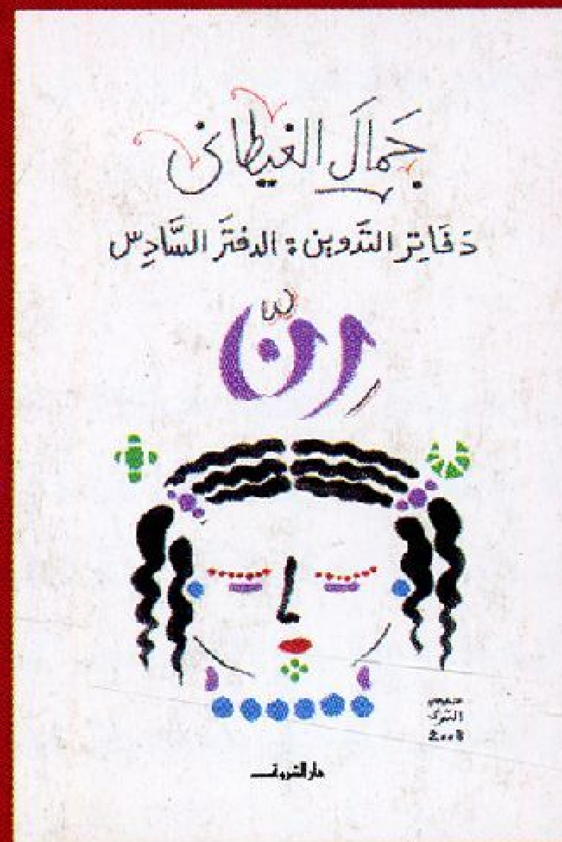


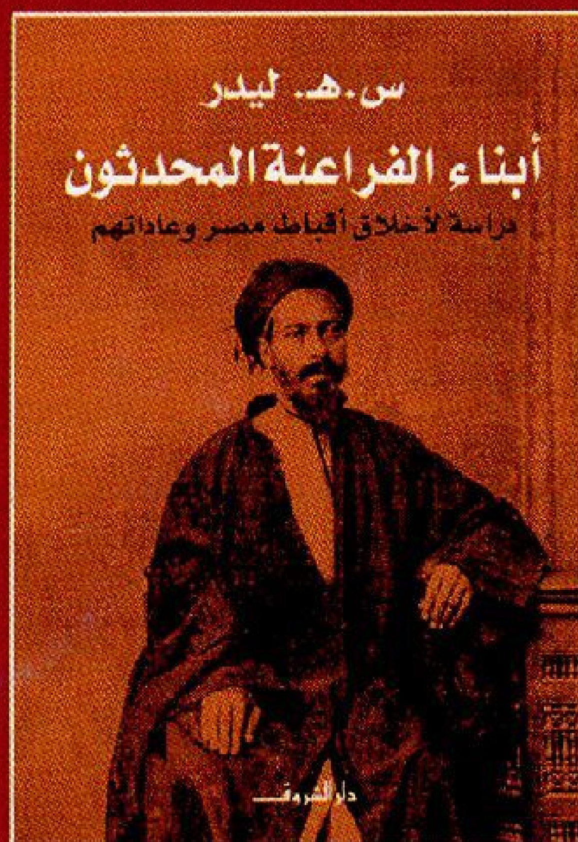
أحدث إصدارات

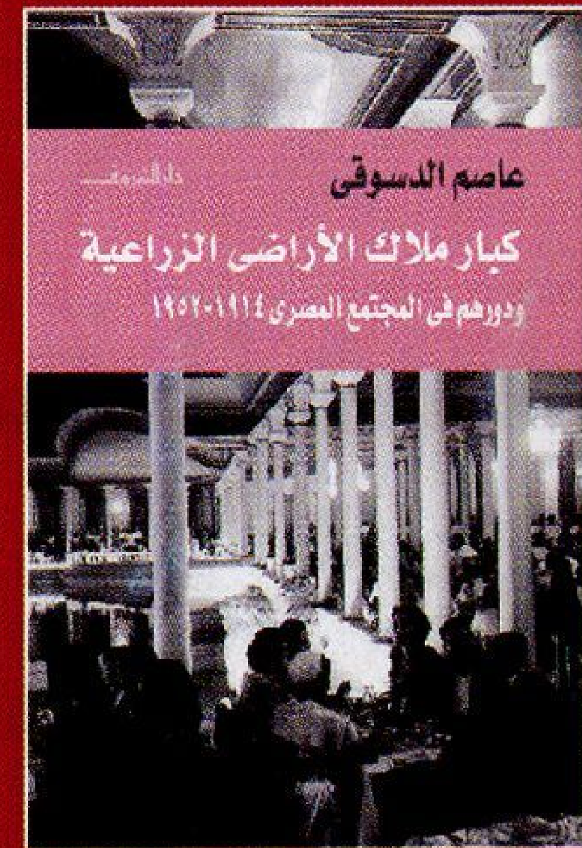
دار الشروق

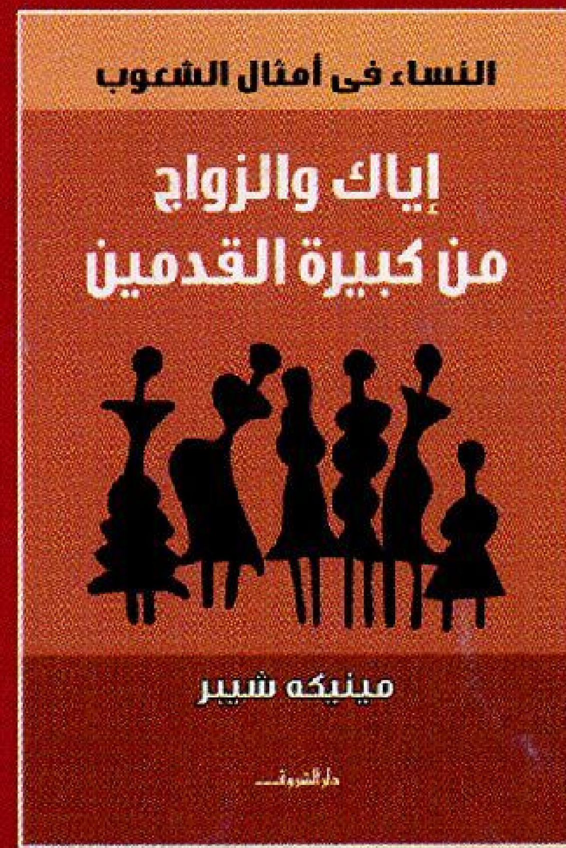


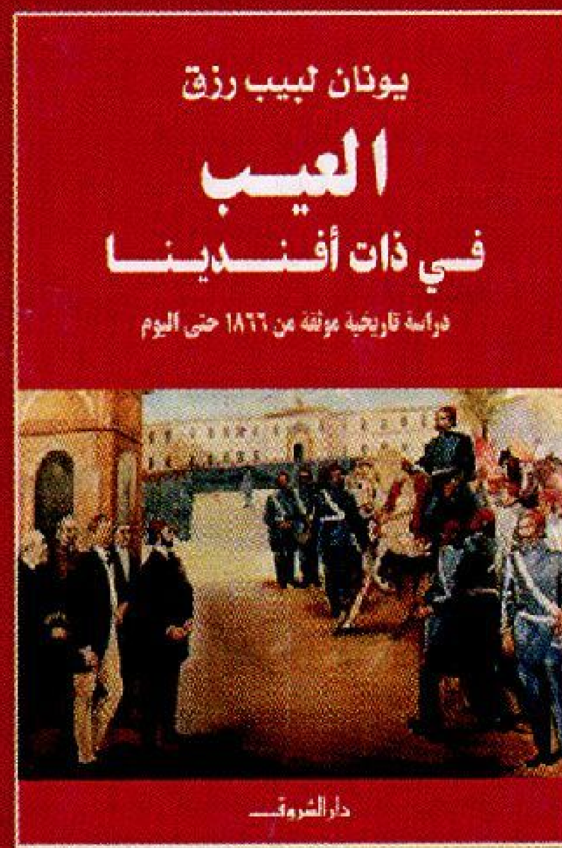


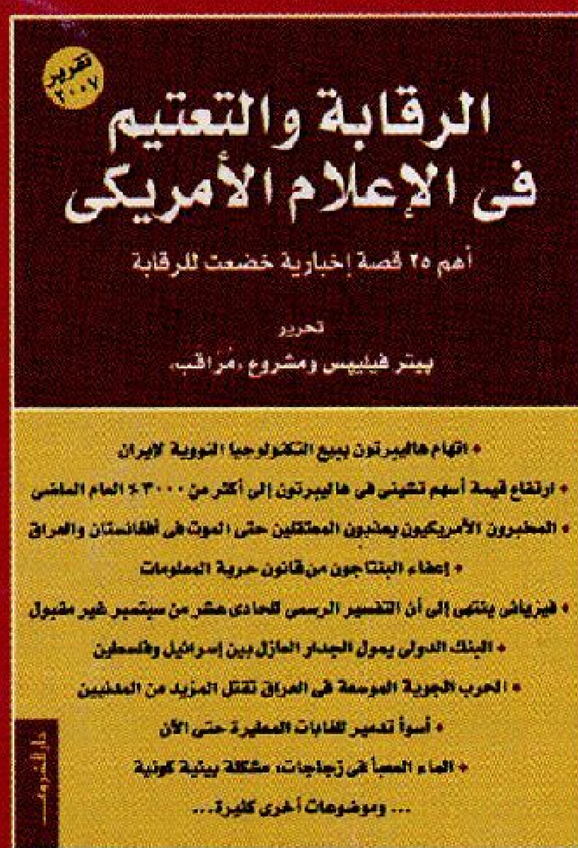


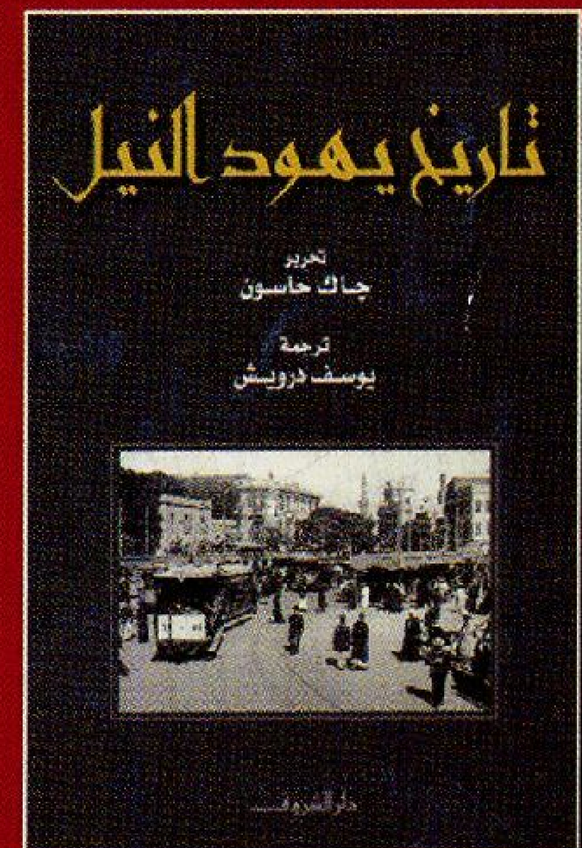


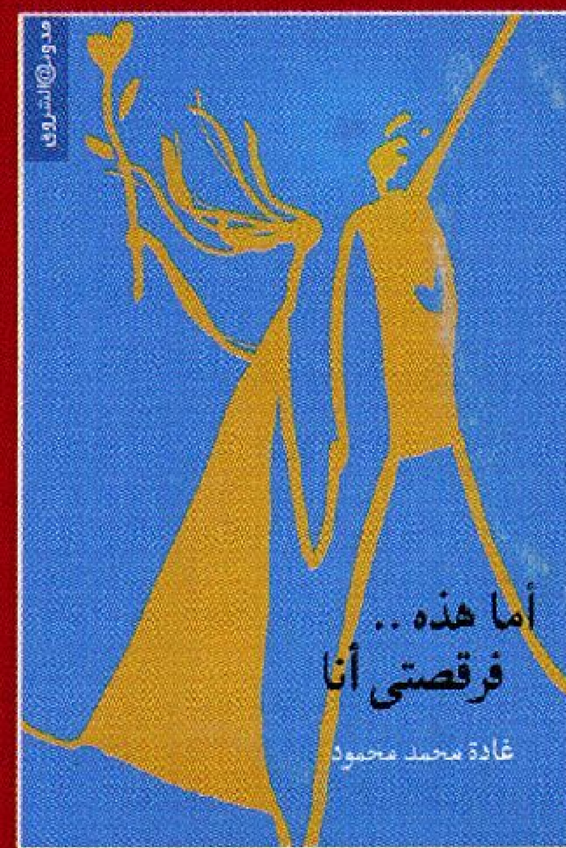


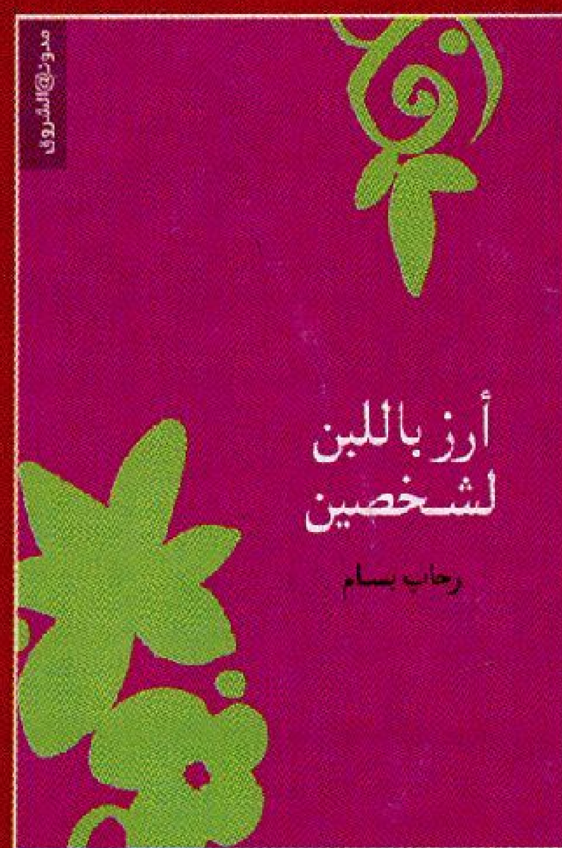


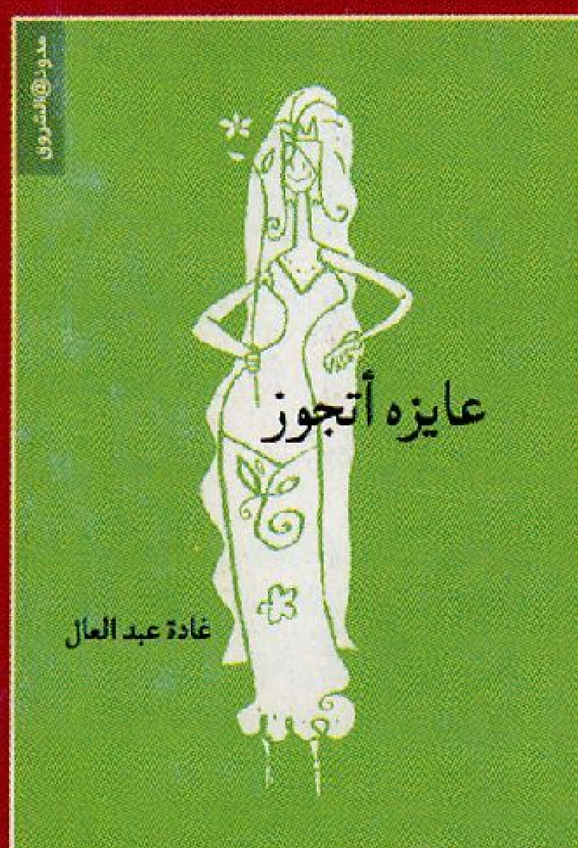


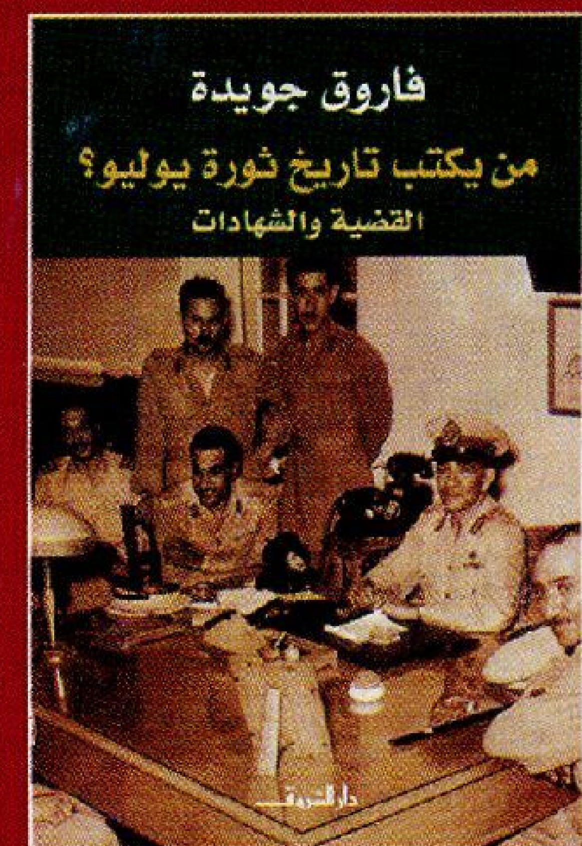


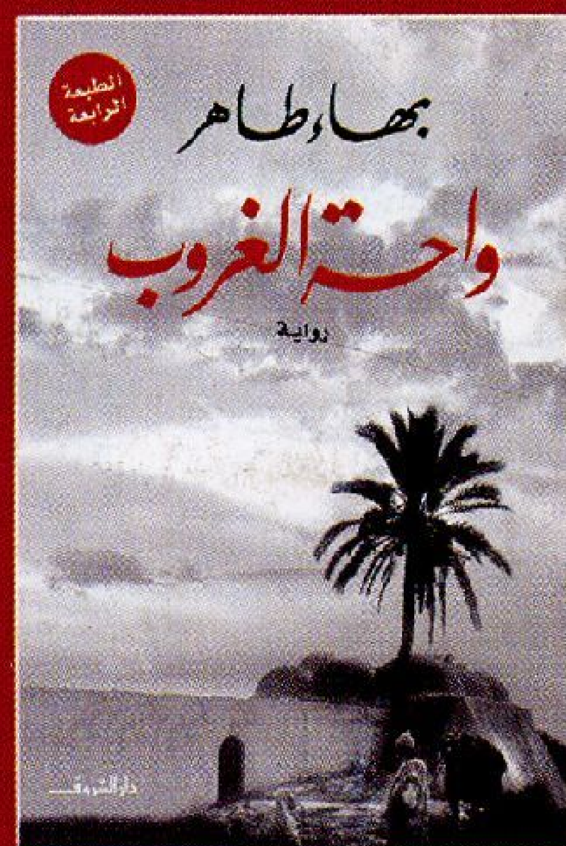


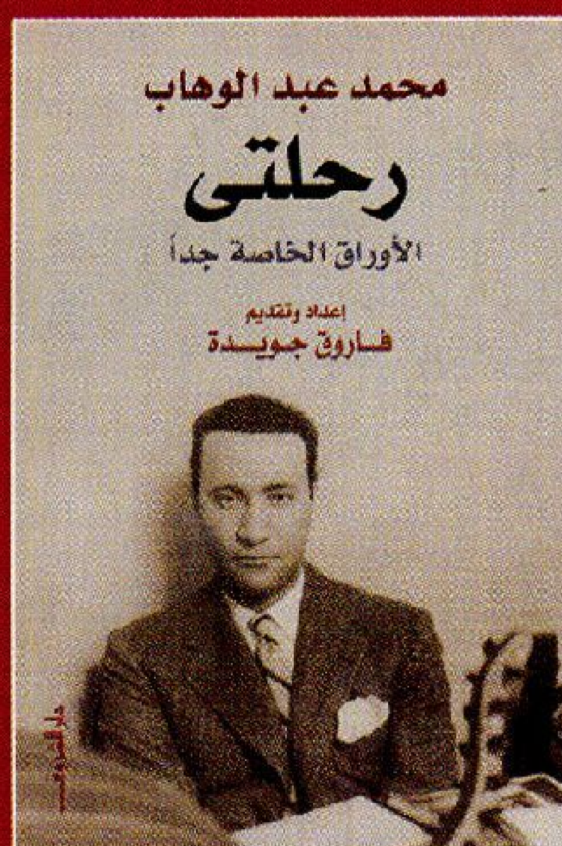


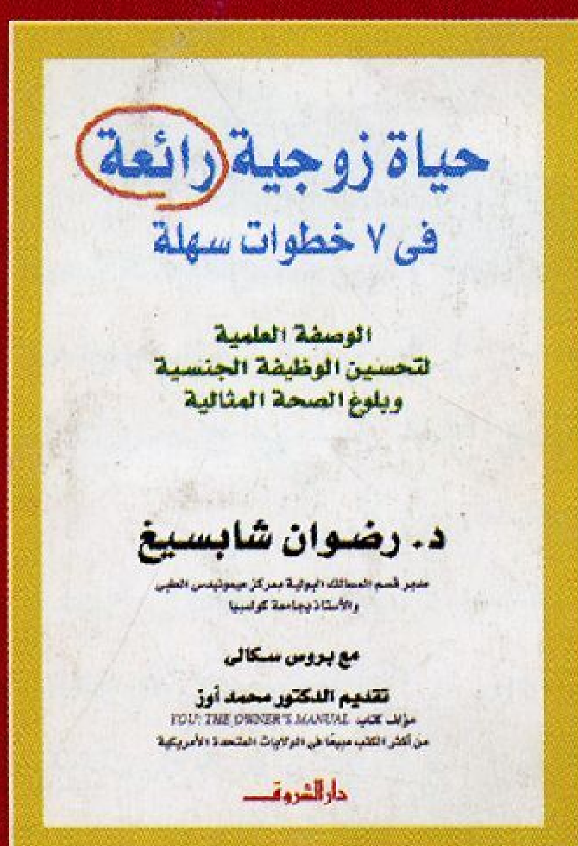












وسط البلد: ١ ميدان طلعت حرب ت: ٢٣٩٣٠٦٤٣ - ٢٣٩١٢٤٨٠
مصر الجديدة: ١٥ شارع بغداد - الكوربة ت: ٢٤١٧١٩٤٥ - ٢٤١٧١٩٤٤
الإسكندرية: سان ستيفانو مول ت: ٠٣/٤٦٩٠٣٧٠ ٠١٠١٦٣٣٦٨٥

مدينة نصر: سيتي ستارز مول ت: ٢٤٨٠٢٥٤٤ - ٠١٦٥٥٤٨٧٢٩
الجيزة: فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة ت: ٣٥٧٣٥٠٣٥ - ٣٥٦٨٦١٨٧
الإدارة: ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر ت: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com email: dar@shorouk.com

السنة العاشرة
العدد ١١٤
يولية ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- جمال محمد غيطاس.. محرر تكنولوجيا المعلومات بالاهرام ورئيس تحرير مجلة لغة العصر.
- جوئل بنين.. أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة ستانفورد ـ الولايات المتحدة.
- حسين عبد الله.. خبير اقتصاديات البترول والطاقة.
- خالد الحروب.. باحث في دراسات الشرق الأوسط بجامعة كامبردج ـ بريطانيا.
- ستيفن والت.. أستاذ العلاقات الدولية بجامعة هارفارد ـ الولايات المتحدة.
- سعيد توفيق.. أستاذ الفلسفة وعلم الجمال بآداب القاهرة.
- سيد هويدى.. كاتب وناقد تشكيلي.
- ماجد عثمان.. رئيس مركز المعلومات برئاسة مجلس الوزراء ـ مصر.
- ناصر الرباط.. أستاذ الأغاخان لتاريخ العمارة الإسلامية بمعهد ماساتشوستس (M.I.T)
- نيكلسون بيكر.. روائي وكاتب أمريكي.
- وليد محمود عبدالناصر.. كاتب مصري.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجي ـ سعد الدين شحاتة





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

تروس المغانم والمظالم

فى زمن الاقتصاد الجديد

جوئل بنين

■■ منذ عام ٢٠٠٤، شارك حوالى نصف مليون عامل مصرى فى إضرابات واعتصامات مصانع ومظاهرات وأشكال أخرى من الاحتجاجات الجماعية[١]. وكما كان الأمر فى الماضى، فإن الاتحاد الرسمى للعمال «الاتحاد العام لنقابات عمال مصر» والنقابات العامة المشكلة له وعددها ٢٣ نقابة، كان عموماً عقبة فى طريق تحقيق مطالب العمال. وقد ألهمت الحركة العمالية شعارات التضامن من مفكرى المعارضة المصريين وكذلك من الاتحادات العمالية والمنظمات السياسية الدولية. وأدى ذلك إلى إضرابات وتهديدات بالإضراب واحتجاجات جماعية من قبل الموظفين وأساتذة الجامعات والأطباء البشريين وأطباء الأسنان ومهنيين آخرين. وذلك الحراك هو أكبر وأقوى حركة اجتماعية فى مصر منذ الحملة لإنهاء الاحتلال العسكرى البريطانى بعد الحرب العالمية الثانية. وتستمد تلك الحركة قوتها من المطالب المتزايدة للديمقراطية واستمرار الاتجاه الجديد نحو الاقتصاد الحر، والذى يخلق مجتمعا مصريا جديدا يضم أقل من ١٠٪ من السكان.

منذ اندلاع انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠ والغزو الأمريكى للعراق عام ٢٠٠٣ وتشكيل الحركة المصرية للتغيير (كفاية) عام ٢٠٠٤، شهدت مصر عددا كبيرا من المظاهرات والاحتجاجات العامة. كان معظمها فى البداية يتعلق بقضايا السياسة الخارجية. وخلال عامى ٢٠٠٤ و٢٠٠٥ كانت القضايا الأبرز هى المتعلقة بالتعديلات الدستورية وسعى الرئيس حسنى مبارك لفترة رئاسة خامسة فى انتخابات عام ٢٠٠٥. وقد ركزت المظاهرات مؤخرا على القضايا الاقتصادية الداخلية مثل الارتفاع الحاد فى الأسعار وخاصة فيما يخص السلع الغذائية والوقود ونقص الخبز المدعم.

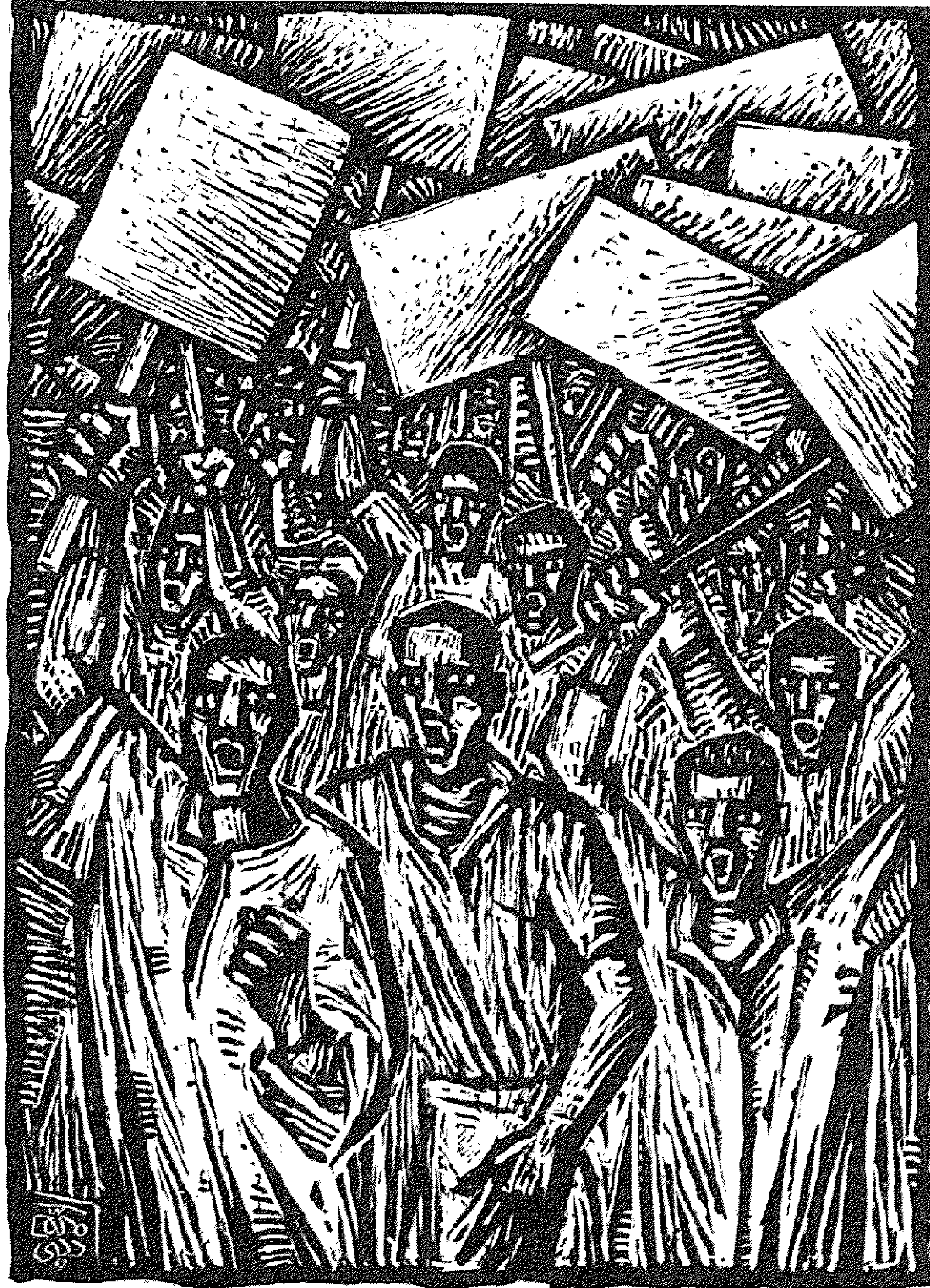
ومع ذلك، كان لدى الحركة العمالية وحدها القدرة على المثابرة والنمو والقيام بإضرابات واحتجاجات متكررة تستمر لعدة أيام أو حتى لعدة أشهر. وقد حدثت انتكاسة عندما قامت قوات الأمن بالتصدى لإضراب كان مرتبا له بشركة مصر للغزل والنسيج (المعروفة باسم غزل المحلة) والقمع العنيف للمظاهرات هناك فى ٦-٧ أبريل عام ٢٠٠٨. ومع ذلك، استأنفت الحركة الاحتجاجية العمالية نشاطها أواخر مايو بإضرابات واسعة فى مصنع ملابس المنصورة- إسبانيا فى طلخا بالدقهلية (قطاع خاص) وشركة العامرية للغزل والنسيج بالإسكندرية (قطاع عام).

فى عام ١٩٩١، أبرمت مصر مع صندوق النقد الدولى والبنك الدولى اتفاقيات لبرنامج الإصلاح الاقتصادى وإعادة الهيكلة. وبناء على ذلك، صدر القانون رقم ٢٠٣ لسنة ١٩٩١ لينص على خضوع ٣١٤ شركة قطاع عام للخصخصة. وبحلول منتصف عام ١٩٩٢ كان قد تم خصخصة عدد ١٩٠ من تلك المؤسسات[٢]. وقد تباطأ معدل الخصخصة خلال العامين التاليين بسبب الركود الاقتصادى. وقد عهدت حكومة رئيس الوزراء الدكتور أحمد نظيف التى تولت مهامها فى يوليو ٢٠٠٤ بالحقائب الوزارية الاقتصادية إلى حاملى درجات دكتوراة تعلموا فى الغرب أو رجال أعمال مقربين من جمال مبارك[٣]. وقد دشنوا موجة ثانية من بيع مؤسسات القطاع العام. فبيعت ١٩ مؤسسة خلال العام المالى الأول لحكومة نظيف[٤]. ومنذ ذلك الوقت، جرى بيع بعض الثوابت التاريخية للاقتصاد المصرى أو إعدادها للخصخصة، مثل الشركة الشرقية للدخان وشركة الأسمدة المصرية وسلسلة متاجر عمر أفندى وبنك القاهرة وبنك الإسكندرية. وقد بلغت عائدات الحكومة من بيع المؤسسات العامة خلال العام المالى ٢٠٠٦/٢٠٠٧ - ٥,٣٤ مليار دولار. وهو رقم أكبر من الـ ٣,١٢ مليار دولار حصيلة الحكومة من بيع المؤسسات العامة خلال عقد كامل قبل تولى حكومة أحمد نظيف رئيس الوزراء[٥].

كانت إضرابات ديسمبر ٢٠٠٦ وسبتمبر ٢٠٠٧ فى شركة غزل المحلة هى الأكثر أهمية من الناحية السياسية، رغم أنها لم تكن أولى الاحتجاجات العمالية الجماعية خلال موجة الإضرابات الحالية، حيث شارك فيها أكثر من ٢٥ ألف عامل يشكلون حوالى ربع قوة العمل فى صناعة الغزل والنسيج التابعة للقطاع العام. ولشركة غزل المحلة التى أنشأها طلعت حرب عام ١٩٢٧، أهمية سياسية كبيرة باعتبارها أول مصنع آلى لصناعة النسيج يملكه مصرى مسلم. وكانت الأحداث التى تقع بها هى عادة ما تحدد الأجور وظروف العمل الأخرى فى قطاع النسيج وغيره.

وقد أضرب عمال غزل المحلة فى ديسمبر ٢٠٠٦ لأن أحمد نظيف رئيس الوزراء أخفق فى تحقيق وعده المعلن فى شهر مايو الأسبق بأن عمال القطاع العام سوف يحصلون على علاوة سنوية متزايدة تتراوح بين مائة جنيه مصرى إلى أجر شهرين كاملين. وقد زعم أنه كان يقصد بذلك العاملين فى القطاع الحكومى فقط. وقد حقق العمال فوزا حاسما، حيث حصلوا على أجر ٤٥ يوماً مع وعد بتوزيع ١٠٪ من الأرباح عليهم إذا ما حققت الشركة أرباحا تزيد على ستين مليون جنيه مصرى فى العام المالى ٢٠٠٦/٢٠٠٧.

وقد شكل نجاح العمال إحراجًا embarassment للاتحاد العام لنقابات عمال مصر. وشن قادة العمال بعد الإضراب مباشرة حملة للتنديد بأعضاء اللجنة النقابية الذين عارضوا الإضراب والذين تم انتخابهم بالتحايل قبل شهر من الإضراب. وفى النهاية، وقع حوالى



ترجمة: عادل فتحى

١٤ ألف عامل طلبا موجها إلى النقابة العامة لعمال الغزل والنسيج يطالبون فيه بسحب الثقة من اللجنة النقابية وإجراء انتخابات جديدة. وقد عارض زعماء الاتحاد العام طلب سحب الثقة لأنه يلمح إلى أنه على الاتحادات العمالية فى الواقع أن تمثل العمال بدلا من أن تكون ذراعا للدولة. وبناء على ذلك بدأ الآلاف من العمال فى تقديم استقالاتهم بالبريد المسجل من النقابة العامة لعمال الغزل والنسيج.

وقد ترددت أصداء انتصار عمال غزل المحلة فى قطاع النسيج. فخلال الأشهر الثلاثة التالية شارك آلاف العمال فى عشرة على الأقل من مصانع النسيج فى الدلتا والإسكندرية فى إضرابات وأشكال أخرى من التباطؤ فى العمل كنوع من الاحتجاج وتهديدات باحتجاجات جماعية أخرى إذا لم يحصلوا على ما حصل عليه عمال غزل المحلة. وقد رضخت الحكومة بالفعل فى كل تلك الحالات. ومثلما حدث فى المحلة الكبرى، انتشرت قوات الأمن حول المصانع وطوقت المنشآت. ولكن فى جميع الحالات لم تنفذ قوات الأمن تهديداتها بفض الإضرابات بالقوة. وفى معظم تلك الحالات عارض أعضاء من اللجان النقابية تلك الإضرابات وحاولوا التنصل منها. وفى المقابل، قام المضربون فى مصانع كفر الدوار باحتجاز مسئولى الاتحاد داخل المنشآت لإجبارهم على الانضمام للإضراب.

وخلال عام ٢٠٠٤ كان هناك ٢٦٥ إضرابا واعتصاما واحتجاجا ومظاهرة، كان ١٩٣ منها فى أعقاب تولى حكومة الدكتور أحمد نظيف فى يوليو. وقد وقع حوالى ٢٥٪ من احتجاجات المصانع فى القطاع الخاص، وهى نسبة عالية لم تسجل من قبل[٦]. كما رصد مركز الأرض لحقوق الإنسان ٢٠٢ احتجاج جماعى عام ٢٠٠٥، و٢٢٢ عام ٢٠٠٦، ورقم صاعق بلغ ٦١٤ عام ٢٠٠٧ [٧]. واستمر الحراك خلال عام ٢٠٠٨. حيث أعلن المرصد العمالى والنقابى المصرى أنه خلال شهر فبراير فقط من عام ٢٠٠٨ شارك ٤٢ ألف عامل فى ٦٨ احتجاجا من بينها ١٠ إضرابات و٢٢ اعتصاما و١٣ مظاهرة[٨].

فى أبريل من عام ١٩٨٧ أصدرت إحدى المحاكم حكما يقضى بأن حق الإضراب يكفله الدستور، كما أن قانون العمل الموحد رقم ١٢ لعام ٢٠٠٣ أضفى الشرعية على الإضرابات بوضوح. ومع ذلك، فلا يمكن ممارسة هذا الحق على أرض الواقع لأن تشريع عام ٢٠٠٣ يسمح بالإضرابات فقط فى حالة وجود موافقة مسبقة على الإضراب من قبل ثلثى أعضاء اللجنة التنفيذية للنقابة العامة المختصة. ونظرا لأن كل أعضاء النقابات العامة تقريبا هم أيضا أعضاء فى الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم فإنهم لا يوافقون على الإضرابات. ولذلك فإن كل الإضرابات منذ عام ٢٠٠٤ هى غير قانونية.

وقد انتشرت الإضرابات خلال عام ٢٠٠٧ من مركز ثقلها فى صناعة الغزل والنسيج لتشمل عمال مواد البناء والنقل ومترو الأنفاق بالقاهرة والصناعات الغذائية والمخابز والصحة والاتصالات وعمال البترول بالسويس ومصانع الحديد والصلب بحلوان والشركة القومية للأسمنت بحلوان وكثير غيرها. وقد شكل عمال الصناعة فى القطاع الخاص نسبة بارزة غير مسبوقة فى ذلك الحراك. واتسعت الحركة فى الصيف لتشمل أصحاب الياقات البيضاء (كناية عن الموظفين) وعمال الخدمات المدنية وأصحاب المهن. وقد وقع فى ديسمبر عام ٢٠٠٧ أكبر احتجاج جماعى على مستوى حركة الإضرابات، حيث أضرب حوالى ٥٥ ألفا من موظفى الضرائب العقارية العاملين فى المحليات. فبعد أشهر من المظاهرات العامة قاموا بالإضراب لمدة عشرة أيام وحققوا مطالبهم بمساواة أجورهم مع نظرائهم العاملين فى وزارة المالية.

الفقر والأجور وظروف العمل

لم يستفد معظم العمال وموظفى الياقات البيضاء، وخاصة أولئك العاملين فى القطاع العام والفلاحين وفقراء القرى والعمال الموسميين والعاطلين من مزايا النمو الاقتصادى الذى حققته مصر منذ عام ٢٠٠٥/٢٠٠٦ . وبالنسبة للنساء على وجه الخصوص لم يحقق النمو الجديد للاقتصاد الحر فى مصر أية مزايا[٩]. ويشير النموذج التركى - وهو أنجح مثال (لنمو الاقتصاد الحر الجديد) neo-liberal economic development فى الشرق الأوسط - إلى أنه فى أفضل الظروف قد تمر خمسة وعشرون عاما قبل أن يجنى معظم المصريين مكاسب معقولة من ذلك البرنامج.

فى الوقت نفسه، كشف تقرير البنك الدولى عام ٢٠٠٧ أن معدلات الفقر زادت فى الفترة بين عامى ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٥[١٠]. وهناك اعتقاد شائع بأن ٤٠٪ من المصريين يعيشون قرب أو تحت خط الفقر المقدر بدولارين يوميا. ولكن مؤتمرا عقد فى مايو عام ٢٠٠٧ تحت عنوان «قضايا الفقر والفقراء فى مصر» قدر نسبة المصريين الفقراء بـ ٥٥٪[١١]. وقد وجد تقرير التنمية البشرية لمصر عام ٢٠٠٨ أن ١٩.٦٪ من المصريين يعيشون على أقل من دولار يوميا، بما يعنى أنه ليس لديهم دخل يكفى لاحتياجاتهم اليومية. وقد انخفضت النسبة حوالى ١٪ سنويا منذ عام ٢٠٠٥. وفى الفترة نفسها زاد إجمالى الناتج القومى بمعدل ٧٪ سنويا تقريبا. ويعنى ذلك أن الفقراء يتلقون نصيبا ضئيلا فقط من عوائد هذا النمو.





كانت إضرابات ديسمبر ٢٠٠٦ وسبتمبر ٢٠٠٧ فى شركة غزل المحلة هى الأكثر أهمية من الناحية السياسية، رغم أنها لم تكن أولى الاحتجاجات العمالية الجماعية خلال موجة الإضرابات الحالية



وطبقا لدراسة حديثة للدكتورة منى سعيد، فإن الأجور الحقيقية عام ٢٠٠٦ هى أقل مما كانت عليه عام ١٩٨٨[١٢]. وفى مايو عام ٢٠٠٨ أعلن الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء أن معدل التضخم فى المدن وصل إلى ١٦.٤٪ فى ذلك العام بينما زادت أسعار الأغذية بنسبة ٢٢٪. ومن المتوقع زيادة التضخم إلى ٢٠٪ بحلول منتصف العام[١٣]. وقد استمر النقص فى الخبز المدعم حتى بعد أن تعهد أحمد نظيف رئيس الوزراء فى ٢٣ مارس عام ٢٠٠٨ بأن المشكلة سوف تنتهى خلال ستة أسابيع[١٤].

وتعد أجور العمال ضئيلة جدا ولا تواكب تلك الظروف المعيشية. وقد حدد القانون رقم ٥٣ لسنة ١٩٨٤ الحد الأدنى للأجور فى القطاع العام بمقدار ٣٥ جنيها شهريا. وبقى الحد الأدنى للأجر الأساسى كما هو. ولكن نتيجة لزيادات عيد العمال منذ عام ٢٠٠١ وصل الحد الأدنى الفعلى للأجر الشهرى إلى ١٠٨.٥ جنيه اعتبارا من يوليو ٢٠٠٨[١٥]. وطبقا للغرفة التجارية الأمريكية بالقاهرة فقد وصل متوسط الأجر الشهرى الأساسى لعمال الغزل والنسيج فى السنوات الأخيرة إلى ٢٥٠ جنيها[١٦]. وفى القطاع العام رفعت الحوافز والعلاوات والمكافآت المختلفة إجمالى الأجر الشهرى إلى ٤٠٠-٤٥٠ جنيها. ويعمل عمال مؤسسات القطاع العام فى ورديات يومية تمتد إلى سبع ساعات (ولكنهم يعملون وقتا إضافيا فى العادة) لمدة ستة أيام فى الأسبوع، ويتقاضون نسبة ١٢٥٪ للوقت الإضافى[١٧].

وهناك صعوبة فى الحصول على المعلومات الخاصة بالأجور وظروف العمل فى شركات القطاع الخاص. ووفقا لأحد الشركاء فى شركة ناجحة للنسيج تابعة للقطاع الخاص، كان عامل النسيج يتقاضى عام ٢٠٠٥ حوالى ألف جنيه شهريا (شاملة أجرا أساسيا يبلغ ٥٠٠-٦٠٠ جنيه بالإضافة إلى الحوافز)، بينما كان عامل الغزل يتقاضى حوالى ٨٠٠ جنيه شهريا (شاملة أجرا أساسيا يبلغ ٤٠٠ جنيه بالإضافة إلى الحوافز). ويعمل عمال النسيج فى القطاع الخاص فى ورديات تمتد إلى اثنتى عشرة ساعة[١٨].

منذ منتصف عام ٢٠٠٤ كان انخفاض الأجور والتأخير الطويل فى دفع المكافآت والحوافز هو أهم الأسباب المباشرة للاحتجاجات الجماعية. وفى يناير وفبراير من عام ٢٠٠٨، تظاهر الآلاف من عمال شركة غزل المحلة وعائلاتهم ضد ارتفاع الأسعار، وخاصة أسعار الخبز. وقد أعلنت لجنة المندوبين المنتخبة - والتى قادت إضرابات ديسمبر ٢٠٠٦ وسبتمبر ٢٠٠٧ - عن المطالبة بحد أدنى قومى للأجور يبلغ ١٢٠٠ جنيه شهريا. ويبلغ ذلك أقل قليلا من دولارين يوميا للفرد فى أسرة مصرية يبلغ متوسط عدد أفرادها ٣.٧ شخص. وكان الاتحاد العام لنقابات عمال مصر قد أوصى برفع الحد الأدنى للأجور إلى ٤٠٠ جنيه شهريا، ولكنه رفع اقتراحه إلى ٦٠٠ جنيه كرد فعل لما طالب به

عمال غزل المحلة. ومن الواضح أن الاتحاد العام يستشعر الضغط من الحركة العمالية التي لا يسيطر عليها.

الحركة العمالية والقطاع الخاص

وكان (البرنامج الجديد للاقتصاد الحر) neo-liberal economic program قد أثار مخاوف العمال من احتمال فقدانهم لوظائفهم. وبالإضافة لذلك، ربما كان مستثمرو القطاع الخاص عازفين عن دفع مزايا اجتماعية طويلة المدى، مثل حصص أسهم يملكها العمال فى المؤسسات أو مساهمات فى صناديق التقاعد التى أهملها بعض مديرى القطاع العام لفترة تمتد إلى عقد من الزمان. وعلى الرغم من أن قانون الخصخصة عام ١٩٩١ قد حظر التسريح الجماعى بعد خصخصة أى مؤسسة، إلا أن مديرى مؤسسات القطاع العام المزمع خصخصتها عادة ما يحاولون زيادة جاذبيتها عن طريق الإقلال من حجم العمالة قبل بيعها. ويشير مسح لست عشرة مؤسسة تمت خصخصتها منذ عام ١٩٩٥ إلى أن اثنتين منها فقط - هما شركة الأهرام للمشروبات التى خصخصت عام ١٩٩٧، وفندق سان ستيفانو الذى خصخص عام ١٩٩٨ - زادتا من عدد العاملين لديهما على الرغم من تلقيهما استثمارات كبيرة جديدة فى رأس المال. وقد زادت شركة المشروبات قوة العمل بها من ٣١٠٠ إلى ٥٥٠٠ عامل، بينما زادت الأجور بنسبة ٢٠٠-٣٠٠٪، وهى نتيجة فريدة للخصخصة لم تتكرر تقريبا. وبالنسبة لفندق سان ستيفانو فكان قد أغلق أبوابه عام ١٩٩٣، ولذلك فلم يكن من الصعب زيادة قوة العمل هناك بنسبة كبيرة استعدادا لإعادة افتتاحه فى يونيو عام ٢٠٠٧. أما شركة أسمنت أسيوط التى انخفضت قوة العمل بها من ٣٧٧٤ إلى ٨٦٥ عاملا بعد خصخصتها عام ١٩٩٩، فتعد مثالا صارخا للاتجاه الأكثر شيوعا[١٩].

هناك عدد قليل من اللجان النقابية فى القطاع الخاص. فهناك حوالى ١٣٠٠ منشأة خاصة فى مدينة العاشر من رمضان، بينما ٢٥ منها فقط تقريبا بها لجان نقابية. وتضم مدينة السادس من أكتوبر ألف منشأة خاصة، بينما عدد من يضم منها لجانا نقابية لا يزيد على ١٢ تقريبا[٢٠]. ويشاع أن العمال يجبرون على توقيع خطابات استقالة غير مؤرخة قبل توظيفهم فى منشآت القطاع الخاص، وذلك حتى يمكن فصلهم دون تعويضهم إذا ما تسببوا فى أى مشاكل. وعادة ما توظف منشآت العمال بعقود مؤقتة وتفصلهم قبل أن يصبحوا دائمين.

ومع ذلك، فأثناء الموجة الحالية من احتجاجات الطبقة العاملة شكل عمال القطاع الخاص أحد العناصر البارزة للحركة أكثر من أى وقت مضى. وكان أكبر إضرابات القطاع الخاص قد وقع فى





ترددت أصداء انتصار عمال غزل المحلة فى قطاع النسيج. فخلال الأشهر الثلاثة التالية شارك آلاف العمال فى عشرة على الأقل من مصانع النسيج فى الدلتا والإسكندرية فى إضرابات وأشكال أخرى من التباطؤ فى العمل كنوع من الاحتجاج



الشركة العربية بولفارا للغزل والنسيج بالإسكندرية، وهى شركة ناجحة نسبياً كانت قد خصخصت فى الموجة الأولى لبيع القطاع العام فى منتصف التسعينيات. وفى ٢٤ مارس و٢ أبريل عام ٢٠٠٧، أضرب ما يقارب نصف عمال الشركة البالغ عددهم ١٢ ألف عامل احتجاجا على التمييز بين العمال والمديرين فى تخصيص أسهم الشركة عند بيعها وعدم دفع ريع الأسهم للعمال وإلغاء العطلة الأسبوعية مدفوعة الأجر والإجازات المرضية مدفوعة الأجر. ومنذ عام ١٩٩٧ الذى حصل فيه العمال على ٦٠ جنيها، لم يحصلوا بعد ذلك على أية عوائد على أسهمهم. وقد رفضوا عائدا قدره ٢٢ قرشا للسهم[٢١]. وتشير مطالب عمال الشركة العربية بولفارا إلى أن عمال القطاع العام محقون فى مخاوفهم من أنه حتى لو وافقت المؤسسات المخصخصة فى البداية على دفع رواتب وامتيازات مجزية، فإن متطلبات المنافسة فى السوق العالمية سوف تؤدى فى النهاية إلى تآكل رواتبهم وظروف عملهم.

قضايا الجندر

تعد نسبة النساء فى قوة العمل بالصناعات الرسمية فى مصر منخفضة بالمقارنة بالمستوى الإقليمى والعالمى. ولكن تلك النسبة تضاعفت فى العصر الجديد للاقتصاد الحر من ٩.١٠٪ عام ١٩٨١ (٩١٧ ألف عاملة) إلى ٢١.٨٪ عام ٢٠٠٢ (٤.٣ مليون عاملة). وتتأرجح النسبة منذ ذلك الوقت بين ٢٢-٢٣٪. ويرجع ذلك أساسا إلى الحاجة الاقتصادية. فثلث الأسر المصرية لا يمكنها أن تعيش على دخل واحد فقط، بينما وصلت نسبة الأسر التى تعولها المرأة إلى ٢٥٪ عام ١٩٩٥. وفى الوقت نفسه ارتفعت نسبة البطالة بين النساء من ١٩٪ عام ١٩٨١ إلى ٢٤٪ عام ٢٠٠٢[٢٢].

ومثلما هو الحال فى كل مكان آخر، تركزت عمالة النساء فى صناعة الغزل والنسيج وبأقل الأجور، وتصل نسبة النساء فى صناعات الغزل والنسيج إلى ٣٥٪ من إجمالى العمال، وهى تفوق كثيرا نسبة ٨.٥٪ فى صناعات المنتجات الطبية ونسبة ٦.٥٪ فى صناعات الأغذية[٢٣]. إن قطاعى الغزل وصناعة الملابس الجاهزة اللذين يدفعان أجورا أقل يستقطبان العاملات من النساء. فتبلغ نسبة النساء ٥١٪ فى صناعة النسيج بالقطاع العام. أما فى صناعة القمصان فنسبتهن ٤٠٪ وكلهن فى القطاع الخاص، وتبلغ نسبتهن ٥٢٪ فى كافة مصانع الملابس الأخرى التابعة للقطاع الخاص[٢٤].

وقد لعبت النساء دورا بارزا فى المظاهرات والإضرابات العامة فى كل من منشآت القطاعين العام والخاص. ففى إضراب شهر ديسمبر ٢٠٠٦ بشركة غزل المحلة كانت النساء القوة المحركة التى أوقفت العمل وساندت الإضراب. وفى مصنع المنصورة- إسبانيا للملابس الجاهزة كن القوة الرئيسية وراء الإضراب الذى استمر لمدة شهرين.

لقد أنشأت شركة المنصورة- إسبانيا منشأة خاصة عام ١٩٨٥، ولكن أحوالها لم تسر على ما يرام. وأصبحت الشركة مدينة للمصرف المتحد الذى استولى على الشركة بالتبعية. ولم تدفع الشركة مكافآت أو عوائد أرباح لعمالها فى الفترة بين عامى ١٩٩٩ و٢٠٠٦ وفى خلال عام ٢٠٠٧ تم تخفيض العمالة من ١٢٠٠ إلى ٢٨٤ عاملا[٢٥].

وكرد فعل لشائعات بتصفية الشركة وبيع أرضها لأكاديمية الدلتا، وهى مدرسة خاصة ملاصقة للمصنع، شرع العمال الباقون - وثلاثة أرباعهم من النساء - فى إضراب اعتصامى فى الفترة من ٢١ أبريل إلى ٢١ يونيو ٢٠٠٧، وكانت النساء اللاتى يتقاضين راتبا أساسيا يتراوح بين ١٣٥-١٥٠ جنيها شهريا قد أصابهن الإحباط من إمكانية استمرار الشركة والحفاظ على وظائفهن. وقد بدأ الكثير منهن إضرابا عن الطعام وهددت خمس منهن بالانتحار. وانتهى الإضراب بانتصار ساحق. فقد تلقى العمال رواتبهم عن شهرى مايو ويونيو ومنحة عيد العمال البالغة ١١٠ جنيهات، بالإضافة لمبلغ لا يقل عن ٣٠ جنيها فى صورة علاوات اجتماعية لعام ٢٠٠٦ لكافة العاملين بمن فيهم العاملون بعقود مؤقتة (العقود المؤقتة هى آلية كثيرا ما تلجأ إليها مؤسسات القطاع الخاص لحرمان العمال من حقوقهم). ولم يعاقب أى من العاملين المشاركين فى الإضراب، وتم إلغاء قرارات فصل ستة منهم. والأكثر أهمية أن البنك المصرى المتحد تعهد بعدم تصفية الشركة. وسوف يضخ رأسمال جديدا أو يبيع الشركة إلى مشتر يوافق على استمرار الإنتاج دون فصل أى من العاملين أو تخفيض رواتبهم[٢٦]. ولم تمنع الوداعة المتوقعة أو الخلفية التقليدية تلك العاملات من المشاركة الفعالة فى الإضراب. وفى صورة على الصفحة الأولى لجريدة «المصرى اليوم» ظهرت العاملات من النساء يرتدين الحجاب والنقاب ويقفن كتفا بكتف متضامنات مع زملائهن من الرجال[٢٧].

ومع ذلك، فحتى يونيو ٢٠٠٨، لم يستطع عمال المنصورة- إسبانيا إجبار الحكومة على تنفيذ وعودها. وبعد تردد شائعات بأن المصرف المتحد سوف يبيع المصنع إلى رجل الأعمال وعضو البرلمان الذى يمتلك أكاديمية الدلتا، قام عمال المنصورة- إسبانيا يوم ٣١ مايو ٢٠٠٨ بالإضراب مرة ثانية احتجاجا على بيع الشركة دون تسلمهم تعويضاتهم المستحقة[٢٨].

وقد بدأت بعض الناشطات من النساء فى المشاركة فى أنشطة خارج نطاق عملهن. ففى يوم ٢٨ مارس ٢٠٠٨ نظمت مؤسسة المرأة الجديدة مهرجانا بالقاهرة لتكريم النساء اللاتى شاركن

بقوة فى حركة الإضراب عام ٢٠٠٧[29]. وتم تكريم النساء الرائدات فى إضرابات شركة مصر للغزل والنسيج وموظفى الضرائب وشركة الحناوى للدخان بدمنهور. وبالإضافة لذلك، كرم الاحتفال امرأة من «وادى عمار» بالقرب من الإسكندرية والتى قامت بحشد جيرانها للاحتجاج على التلوث الناتج عن غبار الأسمنت المتولد من شركة أسمنت بورتلاند والذى كان يتسبب فى مرض الربو وأمراض أخرى. وبعد الاحتفال جلست النساء للقاء عدد من زملائهن الرجال لتنسيق الأنشطة المستقبلية. ويقال أن امرأة مجهولة الشخصية هى التى بدأت المظاهرات فى المحلة الكبرى يوم ٦ أبريل ٢٠٠٨[30]. وقام عدد كبير من عاملات شركة غزل المحلة بحضور المؤتمر السنوى للجنة التنسيقية للحقوق والحريات النقابية والعمالية فى مايو ٢٠٠٨ . إن المشاركة فى الحركة العمالية مكنت بعض النساء من اكتشاف قدراتهن السياسية، وهذا فى حد ذاته تطور بالغ الأهمية. فلو كان مقدرا لمصر أى مستقبل ديمقراطى فعلى نصف السكان من النساء أن يشاركوا فيه بغير قيد.

الحركة العمالية ومستقبل الديمقراطية

إن نظام مبارك ليس معتادا على التعامل مع معارضة منظمة، وقد شعر بالتهديد بعد أن فاز ٨٨ من الإخوان المسلمين بمقاعد فى الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٥، وفى بداية عام ٢٠٠٧، شن النظام حملة قمع ضد الإخوان المسلمين. وقد ألقى القبض على ٨٠٠ من أعضاء الجماعة على الأقل منذ ذلك الوقت.

أما القمع الموجه للحركة العمالية - والتى لم يشكل الإخوان المسلمون فيها عنصرا هاما - فلم تسلط عليه الأضواء العامة أو العالمية إلى أن اندلعت مظاهرات المحلة الكبرى يومى ٦-٧ أبريل ٢٠٠٨، فقد دعا عمال شركة غزل المحلة إلى إضراب يوم ٦ أبريل لإجبار الشركة على تنفيذ وعودها السابقة وللتأكيد على مطالبهم بحد أدنى للأجور يبلغ ١٢٠٠ جنيه. وقد احتلت قوات الأمن المصنع يوم ٢ أبريل ومارست ضغوطا مكثفة على أعضاء لجنة المندوبين لإلغاء الإضراب. وفى الوقت نفسه استجابت الشركة لبعض مطالب العمال البارزة، بما فى ذلك زيادة البدل النقدى للوجبة الغذائية من ٤٣ إلى ٩٠ جنيها شهريا والالتزام بتنفيذ وعد سابق بتوفير مواصلات مجانية من وإلى العمل. لقد أجهض التلويح بالجزرة والعصا إضراب ٦ أبريل، رغم أن بعض العاملين كانوا مستائين جدا لإلغاء الإضراب.

وبعد تغيير وردية الساعة ٣.٣٠ عصرا مباشرة، اندلعت مظاهرة فى «ميدان الشونة» معظمها من النساء والأطفال. وقد بدأ الجمع بالغناء «يا باشا، يا بيه، رغيف العيش بربع جنيه». وللرد على هذا الاحتجاج التلقائى، قام بلطجية النظام بإطلاق دفعات من الحجارة لتفريق الحشود بينما أطلقت قوات الأمن المركزى على المتظاهرين قنابل الغاز المسيل للدموع واستعدت لضربهم بالهراوات. وقد أوضحت الحشود وجهة نظرها السياسية عندما أحرقت شعارات مرشحى الحزب الوطنى الديمقراطى للانتخابات المحلية المقررة يوم ٨ أبريل ٢٠٠٨، وقد استمر العنف يوم ٧ أبريل عندما مزق حشد يتكون من عدة آلاف - أكبر كثيرا من اليوم السابق - ملصقا كبيرا لحسنى مبارك. وفى خلال هذين اليومين، اعتقلت قوات الأمن أكثر من ٣٣٠ شخصا وضربت المئات وأصابت تسعة بجراح خطيرة وقتلت صبيا عمره خمسة عشر عاما يدعى أحمد على مبارك برصاصة فى رأسه بينما كان يقف فى شرفة منزله.

بعد قمع المظاهرات، سارع وفد حكومى رفيع المستوى يقوده أحمد نظيف رئيس الوزراء بزيارة المحلة الكبرى لاستعادة الهدوء. وأعلن رئيس الوزراء عن مكافأة شهر لعمال الشركة ونصف شهر لكل عمال النسيج الآخرين. ووعد وزير الاستثمار محمود محيى الدين بتسهيلات نقل أفضل للعاملين ومخابز خاصة لتوزيع الخبز المدعم وإحياء الجمعية التعاونية لتوفير الأرز والزيت والسكر والدقيق بأسعار مدعمة. وبالإضافة لذلك فسوف يتلقى المستشفى العام بالمدينة معدات طبية جديدة بالإضافة إلى طاقم طبى إضافى متخصص. ويعتقد بأن معدات طبية معيبة ربما تسببت فى وفاة ثمانية مرضى بالقلب فى مركز القلب بالمحلة فى شهر مارس[31].

ومن بين الأهداف الأخرى التى استهدفها النظام بالقمع «دار الخدمات النقابية والعمالية» التى نشأت عام ١٩٩٠ فى أعقاب إضرابين بمصانع شركة الحديد والصلب بحلوان فى يوليو وأغسطس ١٩٨٩، وكان من بين زعماء العمال المضربين كمال عباس، الذى أصبح أحد الأعضاء المؤسسين لدار الخدمات النقابية والعمالية بعد فصله من العمل لمشاركته فى إضراب غير قانونى. وقد حاولت دار الخدمات لعدة سنوات أن تسجل نفسها كمنظمة غير حكومية طبقا للقانون رقم ٨٤ لسنة ٢٠٠٢، ولكن وزارة التضامن الاجتماعى رفضت طلبها للتسجيل حسب توصية جهاز الأمن. وبالتالى كانت دار الخدمات تعمل كشركة مدنية تقدم التدريب والدعم للعمال وتقوم بنشر أخبار كفاح العمال وتدافع عن حق الإضراب وتوفر الخدمات التى كان يتوجب على الاتحاد العام لنقابات عمال مصر أن يقدمها ولكنه لا يفعل.





نجحت الحركة العمالية وتظاهرات النخبة الفكرية فى المجتمع والتى نظمتها حركة كفاية واللجان الشعبية الأخرى المماثلة فى غرس ثقافة الاحتجاج فى مصر



منذ إنشاء الاتحاد العام سنة ١٩٥٧، كان يعمل كذراع للدولة بغض النظر عن التغيرات التى طرأت على النظام منذ ذلك الوقت. وقد حرمت كافة عناصر المعارضة بداية من الشيوعيين وانتهاء بالإخوان المسلمين من الترشح لانتخابات اللجان النقابية. وكان هناك دائما تلاعب بدرجة أو بأخرى فى انتخابات اتحاد العمال. وقد أعلنت دار الخدمات النقابية والعمالية عن الكثير من الانحرافات فى انتخابات خريف عام ٢٠٠٦ والتى أطلقت عليها «الأسوأ فى التاريخ المصرى»[32].

وقد أغلق النظام مقار دار الخدمات النقابية والعمالية فى ضاحية حلوان الصناعية بالقاهرة فى ٢٥ أبريل عام ٢٠٠٧، وكان قد تم قبيل ذلك إغلاق مكتبيها الإقليميين فى نجع حمادى والمحلة الكبرى فى ٢٩ مارس و١١ أبريل ٢٠٠٧ على التوالى. وقد أبلغ عادل زكريا رئيس تحرير مجلة دار الخدمات «كلام صنايعية»، أبلغ فايزة راضى (الكاتبة بجريدة الأهرام ويكلى Al-Ahram Weekly) بأن «السلطات تضيق الخناق الآن على القلب المحرك للأحداث لأنها لا تعرف كيف تتعامل مع موجات الإضرابات التى هزت البلاد خلال الأشهر الستة الماضية. إنهم يحتاجون إلى كبش فداء، ولذلك فإنهم يتهموننا بتحريض العمال على الإضراب. ولكن كيف يتهموننا بالتحريض على كل الإضرابات التى وقعت عام ٢٠٠٦ والتى يقدر عددها بـ ٢٢٠ إضرابا»[33].

من ناحية، ربما كان إغلاق مقار دار الخدمات النقابية والعمالية رد فعل غاضبا على خطاب تلقاه الرئيس حسنى مبارك فى ٢٠ أبريل ٢٠٠٧ من «جاى رايدر Guy Ryder»، الأمين العام للاتحاد الدولى لاتحادات العمال[34]. وقد طلب «جاى رايدر» من الرئيس مبارك إصدار تعليماته للسلطات المصرية المختصة برفع الحظر عن أنشطة دار الخدمات. وقد تقدم الاتحاد العام لعضوية الاتحاد الدولى لاتحادات العمال. ولكن طلبه رفض مرتين لأنه لا يعتبر مستقلا عن النظام، وهى وجهة نظر أكدتها مرارا دار الخدمات ومنظمات عمالية تقدمية أخرى.

كان ينظر إلى الهجوم على دار الخدمات باعتباره تهديدا لكافة المنظمات غير الحكومية التى تنادى بالتحول الاجتماعى. ولذلك فقد تلقت دار الخدمات دعما قويا من ثلاثين منظمة غير حكومية أصدرت بيانا فى مؤتمر صحفى يوم ٢٤ أبريل عام ٢٠٠٧، وقام ممثلون عن العديد من المنظمات غير الحكومية باحتلال مكتب دار الخدمات فى حلوان فى اليوم التالى. ولكنهم لم يستطيعوا منع مئات من قوات الأمن المتجمعة بالخارج من تنفيذ أمر الغلق فى النهاية.

وقد حكم مجلس الدولة فى ٣٠ مارس ٢٠٠٨ بأنه ليس لدى الحكومة الحق فى رفض

طلب دار الخدمات النقابية والعمالية بالتسجيل كمنظمة غير حكومية أو فى إغلاقها. ومن الجدير بالذكر أن المحكمة قررت بأن اعتراض قوات الأمن ليس سببا وجيها لرفض طلب تسجيل منظمة غير حكومية. ومع ذلك فقد رفضت الحكومة الانصياع لحكم المحكمة على الرغم من انتهاء مهلة الاستئناف. كما أصدر قسم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بمنظمة «مراقبة حقوق الإنسان Human Rights Watch» الأمريكية تصريحا بشأن القضية. فقد ذكر «جو ستورك Joe Stork» نائب مدير القسم: «لقد تحدت الحكومة المصرية السلطة القضائية بوقاحة لمدة تزيد على شهرين، وتواصل قمع الأنشطة السلمية للجمعية العمالية. إن ادعاء الحكومة بأن مصر تلتزم بحكم القانون قد فقد أية مصداقية كانت له فى يوم من الأيام»[٣٥].

حتى الآن، لم تتعرض اللجنة التنسيقية للحقوق والحريات النقابية والعمالية - وهى منظمة ذات أهداف وأنشطة مشابهة لدار الخدمات النقابية والعمالية لمثل تلك الإجراءات القمعية. وقد أنشأت اللجنة التنسيقية عام ٢٠٠١ لمراقبة انتخابات اتحاد العمال المنعقدة فى ذلك العام. وبناء على المخالفات التى سجلتها، قام صابر بركات وخالد على عمر بكتابة تقرير بعنوان «عمال بلا نقابات ونقابات بلا عمال». ومنذ ذلك الوقت، عقدت المنظمة اجتماعات شهرية فى مكتب مركز هشام مبارك للقانون بالقاهرة، وكل ذلك بهدف تعريف العمال والنقابيين العماليين بحقوقهم القانونية وتبادل المعلومات والخبرات.

وقد نجحت الحركة العمالية وتظاهرات النخبة الفكرية فى المجتمع والتى نظمتها حركة كفاية واللجان الشعبية الأخرى المماثلة فى غرس ثقافة الاحتجاج فى مصر. وقد ساهم ذلك فى تشكيل الوعى بالمواطنة والحقوق بصورة أعمق كثيرا من كل ما جرى على ساحات السياسات الحزبية أو أنشطة المنظمات غير الحكومية. ومع ذلك، كانت الحركة العمالية وحدها قادرة على تحريك أعداد كبيرة من المواطنين لفترة طويلة والفوز بكل ذلك الحجم من التأييد.

ويرجع ذلك - جزئيا - إلى أن العديد من العمال يواجهون ظروفا اقتصادية تعترف الغالبية العظمى من المصريين بأنها ظالمة، وليس أمامهم من خيار سوى الكفاح فى سبيل حقهم الأساسى فى إطعام عائلاتهم. ومن جهة أخرى، يعود ذلك إلى أن العديد من العمال قد تمركزوا بأعداد كبيرة فى مقار عملهم. ولذلك فقد تعلموا من عملهم الحاجة للتعاون والمحافظة على وحدتهم، وهو ما عجزت عنه الأحزاب السياسية والمنظمات الأخرى التى يقودها مفكرون. ومن جهة ثالثة: يرجع ذلك إلى قدرة العمال على استعادة ثقافة الكفاح التى تعود إلى بداية القرن العشرين والتى تتضمن المشاركة البارزة فى كل أهم الحركات السياسية والاجتماعية فى تاريخ مصر الحديث.





العديد من العمال يواجهون ظروفا اقتصادية تعترف الغالبية العظمى من المصريين بأنها ظالمة، وليس أمامهم من خيار سوى الكفاح فى سبيل حقهم الأساسى فى إطعام عائلاتهم



ولكن على الرغم من وجود الإمكانية، فلا يمكنلغاية الآن تكوين بديل متماسك يحل محل الاتحاد العام لنقابات عمال مصر أو الحزب الوطنى الديمقراطى أو النظام الحالى. وقد أثبت العمال بالفعل قدرتهم على لعب دور قيادى فى حركة الاحتجاج الحالية. ولو قدر أن تكون هناك حركة فاعلة للديمقراطية فى مصر، فيجب أن يكون العمال جزءا أساسيا فيها. ■

الهوامش

١- نقلا عن مصطفى البسيونى وعمر سعيد، رايات الإضراب فى سماء مصر: ٢٠٠٧، حركة عمالية جديدة (القاهرة: مركز الدراسات الاجتماعية ٢٠٠٧)، صفحة ١٣ . شارك ما يقارب ٢٠٠ الف عامل فى إضرابات فى الفترة من ٧ ديسمبر ٢٠٠٦ إلى ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٧، وهما تاريخا بداية الإضرابين الرئيسيين بشركة مصر للغزل والنسيج.

٢- مؤسسة «كارانا CARANA»، «الخصخصة فى مصر»، مراجعة ربع سنوية، أبريل-يونيو ٢٠٠٢ (القاهرة)، صفحة ٨ .

٣- رشيد محمد رشيد وزير التجارة الخارجية والصناعة، والدكتور بطرس غالى وزير المالية، والدكتور محمود محيى الدين وزير الاستثمار، والدكتور طارق كامل وزير الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات.

٤- صندوق النقد الدولى، نشرة المعلومات العامة رقم ٧٢/٠٥. ٧ يونيو ٢٠٠٥، على الموقع http://www.imf.org/external/np/sec/pn/2005/pn0572.htm

٥- مجموعة أوكسفورد للتجارة، التقرير: صعود مصر (لندن، ٢٠٠٨)، صفحة ٥٢ .

٦- مركز الأرض لحقوق الإنسان، إصدارات الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، رقم ٣٥، احتجاجات العمال بين إهمال الحكومة وحديث الإصلاح (يوليو ٢٠٠٤)، ورقم ٣٦، احتجاجات العمال فى النصف الثانى من عام ٢٠٠٤ (فبراير ٢٠٠٥).

٧- المصدر نفسه، رقم ٣٩ (أغسطس ٢٠٠٥)، ورقم ٤٢ (يناير ٢٠٠٦)، ورقم ٥٣ (فبراير ٢٠٠٧)، ورقم ٥٥ (يوليو ٢٠٠٧)، ورقم ٥٨ (فبراير ٢٠٠٨). أعلن «المرصد العمالى والنقابى» المنشأ حديثا عن أكثر من ٥٨٠ احتجاجاً جماعياً عام ٢٠٠٧ .

٨ - الموقع http://arabist.net/arabawy/wp-content/uploads/2008/04/feb-2008-report1.pdf

٩ - راجى أسعد، «تشغيل الذكور والإناث فى الدول المتأقلمة: مصر من منظور مقارن»، من كتاب «إليانور دوماتو Eleanor Doumato» و«مارشا بريبستاين بوساسنى Marsha Pripstein Posusney»، (النساء والعولمة فى الشرق الأوسط العربى: التحول الديناميكى بين الجنسين، دار بولدر للنشر: لين راينر Lynne Reiner، ٢٠٠٣)، صفحة ١١٩-١٤١ .

١٠- جمهورية مصر العربية: تحديث لتقييم الفقر، تقرير رقم ٣٩٨٨٥ (البنك الدولى: واشنطون العاصمة، ٢٠٠٧).

١١- نشر فى جريدة المصرى اليوم بتاريخ ٢٣ مايو ٢٠٠٧ .

١٢- منى سعيد، «انهيار وارتفاع المكاسب والظلم فى مصر»، من كتاب راجى أسعد «زيارة جديدة لسوق العمل المصرى» (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، تحت الطبع).

١٣- وائل جمال، «التضخم فى مصر يرفع أسعار الأغذية لأعلى مستوى منذ ثلاث سنوات»، وكالة رويترز للأنباء، ٨ مايو ٢٠٠٨ .

١٤- المصرى اليوم، ١٣-١٧-٢٣ مايو ٢٠٠٨ .

١٥- صابر بركات، الحق فى الأمل وحقوق العمال (القاهرة: مركز هشام مبارك للقانون، ٢٠٠٧) صفحة ١٧٨-١٨٠ .

١٦- غرفة التجارة الأمريكية فى مصر، صناعة الغزل والنسيج فى مصر (القاهرة، أغسطس ٢٠٠٤) صفحة ٣٣ .

١٧- طبقا لإيصال استلام مرتب أحد العمال بشركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى لشهر فبراير ٢٠٠٧، مقابلة، ٩ مارس ٢٠٠٧ .

١٨- مقابلة، ١٩ مارس ٢٠٠٥ .

١٩- ليونيل نايت (Lionel Knight)، تقييم آثار ما بعد الخصخصة: التقرير النهائى - مراجعة لسبعة عشر شركة (القاهرة: الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية USAID، ٢٢ مارس ٢٠٠٧).

٢٠- مصطفى البسيونى (المراسل العمالى لجريدة الدستور)، محاضرة فى مركز دراسات الشرق الأوسط، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٣ أكتوبر ٢٠٠٧ .

٢١- المصرى اليوم، ٤ مايو ٢٠٠٧ .

٢٢- الهيئة العامة للتعبئة والإحصاء، مسح لعينة من قوة العمل فى هيئة الاستعلامات المصرية، «المرأة المصرية والاقتصاد»، الموقع http://www.sis.gov.eg/En/Women/Society/Economy/10030400000000001.htm هالة شكر الله «من البيت إلى موقع العمل: دراسة عن ظروف العمالة النسائية فى مصر»، مجلة طيبة، العدد ٨ (ديسمبر ٢٠٠٦): صفحة ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٥ .

٢٣- هالة شكر الله، «من البيت إلى موقع العمل»، صفحة ٣٦ .

٢٤- الهيئة العامة للتعبئة والإحصاء، إحصاء على الإنترنت للإنتاج الصناعى، ٢٠٠٠/٢٠٠١، «أعداد المنشآت وأعداد المشتغلين حسب فئات السن والنوع».

٢٥- ليام ستاك (Liam Stack)، «عمال المنصورة يهاجمون بيع المصنع: الاعتصام يصل إلى اليوم العشرين»، جريدة «ديلى ستار The Daily Star»، ١١ مايو ٢٠٠٧ .

٢٦- الموقع http://arabist.net/arabawy/2007/06/21/victory-for-the-mansoura-espana-%d8%a5%d9%86%d8%aa%d8%b5%d9%80%d9%80%d9%80%d8%a7%d8%b1-%d8%b9%d9%85%d8%a7%d9%84-%d8%a7%d9%84%d9%85%d9%86%d8%b5%d9%88%d8%b1%d8%a9-%d8%a3%d8%b3%d8%a8%d8%a7%d9%86%d9%8a

٢٧- المصرى اليوم، ٥ مايو ٢٠٠٧ .

٢٨- مقابلة مع مجموعة من عمال مصنع المنصورة-أسبانيا فى طلخا، ٩ فبراير ٢٠٠٨ . المصرى اليوم، ٢٢ أبريل ٢٠٠٨ . الدستور، ٢٢ أبريل ٢٠٠٨ . المصرى اليوم، ٣١ مايو ٢٠٠٨، البديل، ١-٢ يونيو ٢٠٠٨ .

٢٩- «مؤسسة المرأة الجديدة» هى منظمة غير حكومية مناصرة لحقوق المرأة أنشأت عام ١٩٨٤، ترأس المؤسسة الآن نولة درويش ابنة الراحل يوسف درويش الذى كان محاميا عماليا وناشطا شيوعيا.

٣٠- الموقع http://arabist.net/arabawy/2008/06/13/mahalla_women_intifada

٣١- جريدة «ديلى نيوز إيجيبت Daily News Egypt»، ٧ أبريل ٢٠٠٨ .

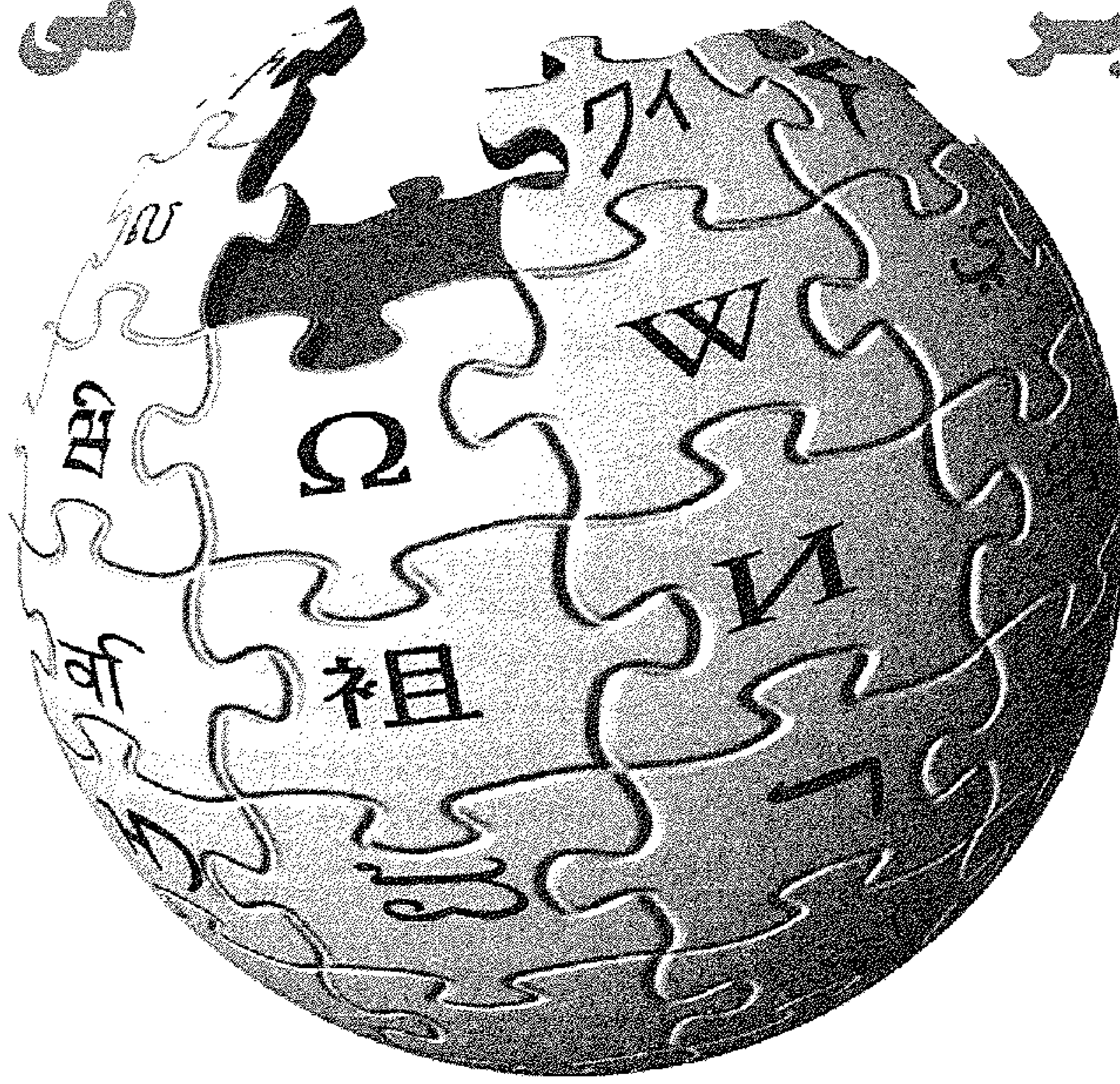
٣٢- فايزة راضى، «بديل يعتمد عليه»، جريدة الأهرام ويكلى، ٢٩ مايو - ٤ يونيو ٢٠٠٨ .

٣٣- فايزة راضى، «العمال مازالوا صامدين»، جريدة الأهرام ويكلى، ٣-٩ مايو ٢٠٠٧ .

٣٤- النص على الموقع http://www.ituc-csi.org/IMG/pdf/EGYPT_-_ITUC_protest_re_CTUWS_20_April_2007_FORMATTED__2_.pdf

٣٥- منظمة مراقبة حقوق الإنسان Human Rights Watch، «مصر: امتثلوا للمحكمة، واعترفوا بجمعية العمال»، ٦ يونيو ٢٠٠٨ .

الموسوعة الأكبر في التاريخ



سحر الويكيبديا Wikipedia



نيكلسون بيكر



يعقد المؤتمر الدولى الرابع لمشاركى ومحررى الويكيبيديا Wikimania 2008 فى مكتبة الإسكندرية هذا الشهر (من ١٧ إلى ١٩ يوليو)



■■ إن الويكيبيديا ببساطة شيء لا يصدقه عقل. إنها موسوعة ضخمة تنقل الباحث عن الحقائق فى دوائر لا متناهية، ذات خصوصية فى البينة، دقيقة، فوضوية، مضحكة، صادمة، حافلة بالمناظرات الجياشة - وهى مجانية وسريعة. بإمكانك الكشف فى خلال ثوان معدودة عن معنى كلمات مثل، «Diogenes of Sinope» أو «turnip» أو «Crazy Eddie» أو «Bagoas» أو «quadratic formula» أو «Bristol» أو «Beaufighter» أو «squeegee» أو «Sanford B. Dole»، وسوف تتوفر لديك معرفة لم تتح لك من قبل. إنها أشبه بمدينة جوية فسيحة تعج بأناس يذهبون ويجيئون بخطوات رشيقة فوق ممرات ضيقة، يحملون سلالاً للنزهات مليئة بالوجبات الخفيفة المغذية.

يستخدم الويكيبيديا عدد من الناس يفوق مستخدمى الأمازون Amazon والإى باى eBay - الحق أنها تحتل مكانًا بين العشرة الأوائل فى قائمة شركة اليكسا Alexa بصحبة تلك المواقع الترفيهية القائمة على الربح من أمثال ماى سبيس MySpace وفيسبوك Facebook ويوتوب YouTube. لماذا؟ لأنها تضم ٢,٢ مليون مقالة، ولأن موقعها غالبًا ما يحتل مقدمة قائمة محرك البحث جوجل، ولأنها ببساطة تبعث فى الباحث الرضا لعثوره على مراده فيها - حتى وإن كانت المقالة الموجودة تعوزها الحرفية قليلاً. إن أى فشل أو غلطة مطبعية أو أثر لتخريب متعمد للموقع سوف يذكرك بأن هذه الموسوعة الهائلة ليست منتجاً تجارياً. فالمتصفح لا يجد بها علامات تعلن عن موقع إى تريد TRADE×E أو classmates.com؛ ولا تتفرق بصفحات الموقع إعلانات جانبية عن آد سينس AdSense. لقد أسس الموسوعة غرباء مختلفون تمام الأختلاف وذلك خلال أقل من ثمانية أعوام إلا أن شيئًا ما جذبهم إلى غرض مشترك لا يبغى الربح. وقد اجتذبهم لأن الويكيبيديا بدت، رغم كونها مرجعًا، فى منتهى التواضع. إذ طلبت المعونة، وحين طلبتها، استخدمت كلمة مؤثرة كل التأثير: «بذرة»، ففى أسفل أية مقالة قصيرة عن أى موضوع، تعلن، «هذه المقالة عن X مجرد بذرة. بوسعك مساعدة الويكيبيديا من خلال توسيعها». فتفكر فى قرارة نفسك: تلك البذرة التعسة الهزيلة: سوف أعاون. ليس فى التو: فأنا أؤلف كتابًا، لكنى سوف أحاول بحق المساعدة فى يوم من الأيام.

وحينما عاون الناس بالفعل، حملوا اسماً يشبع غرورهم. فالويكيبيديا لم تطلق عليهم اسم «معاونى الويكيبيديا الصغار»، بل «المحررين». لقد كانت أشبه بمشروع اجتماعى ضخم لتجميع أوراق الشجر حيث يفوز الجميع باسم حماة الحديقة. جلب بعضهم أدوات معدنية حرفية باهظة الثمن - بل إن بعضهم أحضر أجهزة يحملونها على ظهورهم لنفخ الأوراق - فيما كان البعض مجرد أولاد يدفعون الأوراق بأقدامهم أو يدسون حفن الأوراق فى جيوب ستراتهم بيد أن ثمة تقديراً لكل ما جاءوا به إلى الكومة من أوراق. وهكذا تزايدت الكومة ووثب الكل إليها وقضوا أسعد الأوقات. ثم تزايدت أكثر فأكثر لتصبح أكبر كومة رأتها عين على الإطلاق فى أى مكان، أعجوبة من أعاجيب العالم. وبعدها ظهر حراس لكومة الأوراق، يروجون لأنفسهم مشككين فى الكومة ومنتقصين من قيمتها. ينظرون شزرًا إلى ما قدمته من حفن ثم يهزون رؤوسهم قائلين إن أوراقك متغضنة زيادة عن اللازم أو مهلهلة زيادة عن اللازم أو عادية زيادة عن اللازم؛ ثم يرمونها جانبًا. يا للأسف. ويطلق على حراس كومة الأوراق اسم «الحاذفين».

إلا أن هؤلاء الحاذفين أقبلوا فى مرحلة متأخرة. إذ كانت الموسوعة فى البداية مجرد تسلية ليس إلا. كتب أحد المساهمين المجهولين فى تلك الفترة المبكرة:

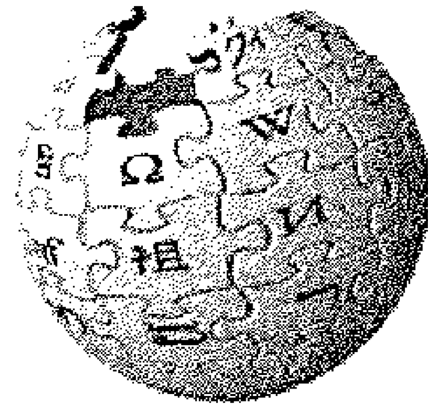
لقد أحببت الويكيبيديا حبًا جمًا مع انطلاقتها الأولى وساهمت بعدد من المقالات المستفيضة، باسم مستعار دائمًا. قام على الويكيبيديا وقتها تشكيلة متنوعة من المساهمين، يضيف كل واحد منهم عبارات بسيطة إلى المقالات المألوفة لديهم؛ دون أن تلوح فى الأفق أبداً أية إدارة أو محرر.

لقد نجحت الويكيبيديا ◄

Wikipedia: The Missing Manual
(الويكيبيديا: الكتيب المفقود)
by John Broughton
Pogue Press/O'Reilly 477 pp.,
$29.99 (paper)

بترتيب مع مجلة:
The New York Review of Books

ترجمة: هالة صلاح الدين



الويكيبيديا

وتضخمت لأنها قامت على همم لم تنتظم بعد لأشخاص يفتقرون إلى المؤهلات المطلوبة. إن أصحاب الأطروحات والمهتمين بالتاريخ والمعجبين المتحمسين للعوالم البديلة لـ جارث نيكس Garth Nix أو روبوتيك Robotech أو العمر النصفي Half-Life أو بي. جي. ودهاوس G.P Wodehouse أو باتلستار جالاكتيكا Battlestar Galactica أو بافي قاتلة مصاصي الدماء Buffy the Vampire Slayer أو تشارلز ديكينز Charles Dickens أو الترامان Ultraman - كل هؤلاء الأشخاص الذين رجوا ألا تصبح سنوات تجميع الرسوم الهزلية أو قراءة الروايات أو التحديق فى شاشات التليفزيون مضيعة للوقت - سوف يصبون ثمرات عقولهم فى الويكيبيديا لأنها أنتجت شيئاً ذا بال. وتختلف الويكيبيديا عن كتابة المراجعات على موقع أمازون Amazon حيث يصير الزائر مجرد واحد من بين ملايين يبسطون بإلحاح وجهات نظرهم البسيطة بالإضافة إلى قوائم ما يفضلونه من كتب أمام العالم. لقد مثلت جهداً لتشييد شىء ذى مغزى بعيداً عن آراء الفرد، شىء ساعد على تقدم القضية الإنسانية بأكملها.

جسدت الويكيبيديا نقطة التقاء من علموا أنفسهم بأنفسهم ومن التحقوا بالمؤسسات العلمية باهظة المصاريف. وقد كان من الضرورى أن ينسجم أصحاب الآراء الغريبة مع أصحاب الاتجاهات السائدة ليعرضوا بدقة كل الموضوعات - بينما غاب عن الجميع عما يتحدث عنه الآخرون لأن هوية الكل قد توارت وراء اسم مستخدم مضحك. كل ما ألم به الجميع هو أن الناتج النهائى ينبغى أن يخرج منطقياً مقروءاً ويبدو موضوعياً للآذان. يجب أن يتبدى صريحاً قليلاً - شاملاً قليلاً - محايداً - مضغوطاً - نزيهاً - لا يهدف إلى الترويج. لقد خففت الحاجة إلى إنتاج جمل مقروءة متجردة - إلى حد ما - من العداوة الطبيعية بين المحررين.

وهكذا تكون هذا الشعور المبهج بأن على المرء إنجاز مهمة ما - ألا وهى إثبات عظمة الإنترنت من خلال تعاون غير مسبوق. تخلى بضعة أشخاص غاية فى الذكاء عن مساع أخرى وأنفقوا أياماً وأسابيع وأحياناً سنوات من حيواتهم بغية



إنشاء «ذخيرة من البذر»، وكتابة برنامج إضافى وتصنيف المواضيع وإنشاء الروابط وكتابة المقالات ثم إعادة كتابتها وتهذيبها - بدون نيل أى تقدير عدا نجمة تهنئة على صفحاتهم من حين لآخر وكذا إشباع رغبتهم فى الشهرة السرية. إن جانباً من ازدهار الويكيبيديا يكمن فى كونها مزاراً لصفة الإيثار - مكاناً للخجولين من المتعلمين لإيداع نتائج أبحاثهم.

كذلك أصبحت عظيمة لأنها بدأت بداية مبكرة: فقد استوعب المشروع منذ البداية مقالات من نسخة ١٩١١ الشهيرة من الموسوعة البريطانية، وهى نسخة متاحة للعامة. ولم تكتف بالموسوعة البريطانية ١٩١١ فقط، إنما احتوت أيضاً قاموس السيرتين اليونانية والرومانية لسميث، وموسوعة ١٩٠٦ لناتال، وموسوعة تشامبر، سيرة إيكن العامة، وقاموس روز السيرى، وقاموس إيستين الإنجيلى، والكثير غير هذه المصادر. إذ لاحظ أحد مستخدمى الويكيبيديا الأوائل فى أغسطس عام ٢٠٠١ مجموعة مقالات من كتاب سرد موجز لتاريخ الرياضيات لدابليو. دابليو. راوز بول - نشرها على الإنترنت أحد أساتذة كلية ترينيتى بدبلن. كتب مستخدم الويكيبيديا لزملائه من المتطوعين: «هل تلك المقالات صيدة سهلة لأخذها كمادة للويكيبيديا؟ أعلم أننا نلتهم المقالات من موسوعة ١٩١١، هذه من ١٩٠٨، لذا من المفروض ألا يكون عليها هى الأخرى حظر...» ولم يكن عليها حظر بالفعل. كتب راوز بول أن بيير فارينون كان صديقاً حميماً لنيوتن وليبنيتس وآل بيرنولى، وقد اُعتبر - بعد لوبيتال - أول المناصرين وأقواهم فى فرنسا لاستخدام حساب التفاضل.

وفى يناير عام ٢٠٠٦، أخذت الويكيبيديا هذا المقال من عام ١٩٠٨، ومعه إضافة وإعادة صياغة حديثة للعبارات ليطالعه القارئ الآن على النحو التالى:

كان فارينون صديقاً لنيوتن وليبنيتس وأسرة بيرنولى. انحصرت إسهاماته الأساسية فى علم السكون البيانى والميكانيكا. وفيما عدا لوبيتال، كان فارينون أول المناصرين الفرنسيين وأقواهم لاستخدام حساب التفاضل.

إلا أن المقالة أطول الآن بثلاث مرات. إذ تلحق بها إضافات مثيرة للاهتمام، وتتضمن رابطاً لمقالة أخرى تناقش نظرية فارينون الميكانيكية حول الجاذبية.



لقد أنعش التدفق المطرد للمصادر الغزيرة المنمقة لهجة الويكيبيديا. إذ لم تكن مجرد موسوعة مدرسية أو أخرى محلية. فالباحث يفتش عن الفيلسوف دايوجينيس وفى غمضة عين يعثر على ناتج مهذب تهذيباً من الموسوعة البريطانية، نسخة عام ١٩١١. هكذا كانت نقطة الانطلاق لدايوجينيس. وفى غضون عدة شهور خضع الفيلسوف اليونانى لكل صنوف التغييرات ومئات من التعديلات - نظريات غريبة ونثر يناقش عادات الفلاسفة الكلبيين وإعادة صياغة للجمل وتصحيح للتصحيحات. سوف يجد القارئ الآن فى الويكيبيديا الملخص التالى لما بدر من دايوجينيس من استفزازات:

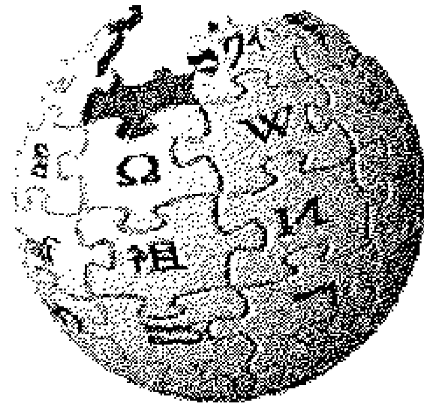
يقال إن دايوجينيس أكل (بل واستمنى) فى ساحة السوق وبال على مَن أهانوه وتبرز فى المسرح وأشار إلى الناس بإصبعه الأوسط.

ومع ذلك وسط الناتج الإجمالى الحديث، نجا شىء من النثر الطنان من الموسوعة البريطانية ١٩١١ بدون تغيير حرف:

لقد أعجب النحاتون والرسامون أيما إعجاب بشخصيته فى كل من العصور القديمة والحديثة.

لقد مكثت أجزاء من المصادر الأصلية كما تمكث تلك الأحجار الصغيرة فى المبانى الكلاسيكية المدمجة فى حائط يرجع إلى القرون الوسطى.

إلا أن المصادر وصفة الغيرية لا تفسر بالكامل سر ازدهار الويكيبيديا كل هذا الازدهار. لاحظ أحد المؤسسين - جيمى



الويكيبيديا

«جيمبو» ويلز - السبب الحقيقى لنموها المتسارع خلال سنتها الأولى. «إن أكثر ما يميز الويكيبيديا هى أنها مسلية ومحرضة على إدمان البحث»، كتب ويلز. محرضة على الإدمان، أجل. إن كل كيانات الإنترنت الناجحة - البريد الإلكترونى وأميركا أونلاين تشات وفيسبوك وجوكر وساكند لايف ويوتوب وديلى كوس وورلد أوف وركرافت - تتمتع بخاصية تدفع المتصفح إلى إدمانها - فهى تحوز اهتمامك لأنها توفر طريقة منزوية للاختلاط بالناس: فأنت لا تمسك عن تصفحها ناظراً إليها خلسة كما يرنو المرء إلى حفلة صاخبة فى الطابق السفلى من منزله بينما يحاول النوم.

كان بريون فيبر خلال فترة من الفترات الموظف الوحيد المشتغل ساعات عمل كاملة فى الويكيبيديا. فسر فيبر جاذبية الموسوعة فى حوار أجراه مع موظفى جوجل عام ٢٠٠٦ . تُعتبر الويكيبيديا بالنسبة للباحثين مكاناً للتنقيب عن المعلومات، على حد قوله، لكنها تعد بالنسبة للمحررين «تقريباً لعبة من ألعاب الإنترنت، فهى مجتمع تقضى فيه وقتاً وتقوم فيه بشىء ممتع: تهزم بعض سخفاء الإنترنت وتضيف بعض المواد، إلى آخره». إن الغاية من عودة بعض محررى الويكيبيديا إلى الموقع هى هزيمة هؤلاء السخفاء.

هب مثلاً أنك تعمل على كتابة مقالة حول الشيخوخة. تنجح فى إخراج لغة علمية جيدة وتبدأ المقالة بالفعل فى اتخاذ شكلها النهائى.

عقب فترة تجدد يدنو من المثالية (ما بين ٢٠ سنة و٥٠ سنة فى الإنسان): تتميز شيخوخة الأعضاء بضعف القدرة على الاستجابة للتوتر واختلال متزايد للاتزان البدنى وتصاعد خطر الإصابة بالأمراض. وتنتهى تلك السلسلة من التغييرات المحتومة إلى الموت.

كلام معقول!

ثم يأتى أحدهم - مستخدم عنوانه ١٩٠ و١٧، ٨٢، ٢٠٦ وهو أحد المخربين - ليستبدل المقالة بالكامل بجملة واحدة وحيدة: «الشيخوخة هى ما يصيبك لما تعجز جداً جداً جداً». وقع هذا فى ٢٠ ديسمبر من عام ٢٠٠٧ . وبعد مرور دقيقة، تعكس بعدة خطوات ما حرره المحرر المجهول؛ إذ تعيد التاريخ لتصبح المقالة كما كانت من قبل. لقد حافظتَ للتو على مقالة الشيخوخة آمنة، حتى الوقت الحاضر. لكنك لا بد أن تظل يقظاً لأن شخصاً قد ينقض ثانية فى أية لحظة، وسوف تضطر إلى تعطيل أذاهم باستخدام أشعتك القوية العاكسة. أنت الآن مدمن. لقد غدوت قوة للدفاع عن الخير بمجرد حراستك ومراقبتك لأفعال الجانحين اليافعين.

لا تنال بعض المقالات أى اهتمام وبالتالى لا ينزل بها سوى القليل من التخريب. (ومع ذلك عدلتُ فى مرة من المرات صفحة قصيرة حول فطر نباتى يصيب اللبلاب الإنجليزى؛ فقد ادعى شخص قبلى أن ٤٠٪ ممن أصيبوا به فارقوا الحياة. بعض المقالات تطولها يد التخريب كثيراً. فى ١١ يناير ٢٠٠٨، تبدل المدخل الرائع الخاص بخنزير الأرض بعبارة «حيوان قبيح»؛ وفى فبراير تم وصف خنزير الأرض فى إيجاز بأنه «موزة منتفخة متوسطة الحجم». وفى ٧ ديسمبر ٢٠٠٧، بدل أحدهم المقالة الطويلة بخصوص بق الفراش لتبدو وكأنها فيلم من أفلام الرعب.

غالباً ما ينشط بق الفراش فى الفجر فقط، وتنحصر ذروة هجومه قبل الفجر بساعة، وإن يحاول أكل دماغك فى أوقات أخرى لو أتيحت له الفرصة.

وبعد انصرام عدة أسابيع، استبدل أحدهم كل شىء بالتالى:

بق السرير ابن الكلب يا أولاد الكلب سفلة مزعجون أغبياء.

عكس أحد البرامج المضادة للتخريب، VoABot II، هذا التحرير بعد أقل من دقيقة من كتابته.

تزايدت عمليات التخريب فى أغسطس ٢٠٠٦ بعد أن دعا الكوميدى ستيفن كولبير - فى أعقاب مقالة ستيسى شيف الرائعة إنما المتحفظة قليلاً عن الويكيبيديا بمجلة ذا نيو يوركر - مشاهدى برنامجه إلى إدراج حقائق من تأليفهم عن زيادة أعداد الفيلة الأفريقية كدليل على وجود شىء اسمه «الواقيبيديا» wikiality وليس «الواقع» - محاولة مبتذلة لكنها لم تخل من فكاهة. لم ينفك الناس يدخلون صفحة الفيل، لذا أُغلقت لفترة من الوقت، لكن لفترة محدودة، ثم تواصلت الحفلة.

وغالباً ما تتأرجح صفحة الكعك المحمص «بوبتارتس». إذ تقول صفحة الكعك المحمص اليوم (٨ فبراير ٢٠٠٨) إن استراليا توقفت عن توزيع الكعك المحمص بوبتارتس عام ٢٠٠٥؛ علّه كلام صحيح. كما ذكرتْ قبلها أن كوريا توقفت عن توزيع ذلك الكعك، وقبلها أستراليا. ومنذ عدة أيام مضت أشارت إلى أن: البوبتارتس ثنائية، يا له من كعك صغير مثلج، آه يا ألمانيا»، وقد علمتُ من نسخ سابقة أن ثمة ما يزيد على تريليونين من البوبتارتس يباع كل عام. ابتدعه جورج واشنطون، وقد تطور شكل الكعك المحمص بالصين فى بداية العقد السابع من القرن العشرين. أكثر الطعوم شعبية هى «الفراولة المثلجة والقرفة البنية المسكرة. إن البوبتارتس «كعك مسطح». لا: «البوبتارتس فطيرة مسطحة، كيفين ماكورميك خاسر كبير، هذا غير شذوذه». لا: «البوبتارتس واق ذكرى مسطح». وفى الخريف الفائت تبدلت الصفحة بأكملها لتعلن: «حَلم وبروكلى!!!!!».

يبدو الوضع هكذا فوضوياً لكن حتى صفحة البوبتارتس تخضع إلى السيطرة أكثرية الوقت. إن التغييرات «غير المفيدة» أو «غير الملائمة» - وأحياناً المخدرة والعنصرية والعنيفة - تتغير سريعاً على أيدى الماكينات البشرية والبرامج الحسابية المعاونة. تلك لعبة. إن مستخدمى الويكيبيديا يعدون المخربين مشكلة، وهى بحق مشكلة، غير أن ثمة مراقباً يقترب تفكيره من تفكير الفيلسوف دايوجينيس يؤكد أن الويكيبيديا لم تكن لتحقق أبداً كل هذا النجاح المذهل بدون شياطينها.

إنه كتاب مرجعى قد يخذلك من حيث لا تدرى. فمن العالم ماذا سيظهر لك حين تفتش عن رئيس جامعة هارفارد المحارب، جيمز برايانت كونانت. هل ستجد مقالة عادية تتصف بالتجرد عن شخصه، أم ستجد الصفحة كلها تصرح بأنه «رجل غبى تماماً» (كما حدث خلال ١٧ دقيقة فى ٦ أبريل ٢٠٠٦). كان جيمز كونانت برغم كل شىء رجلاً غبياً تماماً من عدة نواح. إذ وقف موقف المعادى المتعمد للسامية والمؤمن بكل قوة باستخدام الأسلحة غير الدقيقة - كان رجلاً سعيداً لأنه توصل إلى وسائل جديدة لقتل البشر فيما يدير جامعة عظيمة. ومن غير المجانين والشاتمين والصفحات المبتذلة، قد تمسى الويكيبيديا أكثر الموسوعات إفادة على الإطلاق. لكنها أصبحت بدلاً من ذلك لعبة يقذف الناس فيها الآخرين بكرات الدهان.





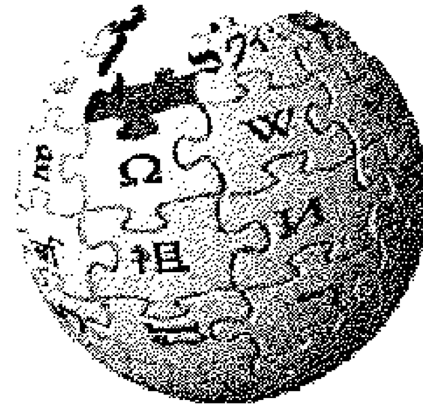
إن جانباً من ازدهار الويكيبيديا يكمن فى كونها مزاراً لصفة الإيثار، مكاناً للخجولين من المتعلمين لإبداع نتائج أبحاثهم



وبقدر حاجة الويكيبيديا إلى المخربين - حتى هذه اللحظة - يحتاج المخربون أيضاً إلى ويكيبيديا منظمة. فبدون نظام، سوف يفتقر «اعتراضهم الثقافى» إلى السياق. ولو تم الحكم على الويكيبيديا بأنها مفعمة كلية بالفوضى والفحش، لن يشعر المستخدم مثلاً بالبهجة عند استبدال جزء من مقالة أرشميدس بهذا:

أرشميدس مات.
لقد مات.
سوف يموت أناس آخرون أيضاً.
فلتحيا الفراخ.
الجوالون الأقوياء يقولون «أهلاً».
النهاية.

بل إن ثمة مقالة ممتعة



الويكيبيديا

عن «الاعتراض الثقافي» -culture jamming أصيبت عدة مرات. إذ قيل في مايو ٢٠٠٧ إن «الاعتراض الثقافي» هو «حشر أطنان من الثقافات في غرفة واحدة ساخنة جداً».

حينما درس بعض علماء الكمبيوتر بجامعة مينيسوتا ملايين من صفحات الويكيبيديا المحررة في العام الماضي، وجدوا أن معظم الصفحات الجيدة - تلك التي ظلت كلماتها بلا مساس عبر العديد من المشاهدات التالية - كتبتها نسبة صغيرة من المساهمين. لقد أضافت أعداد هائلة من المستخدمين عبارات قليلة لتغني الويكيبيديا من حين لآخر - وبدون معرفة المتفرجين تلك، لم تكن الويكيبيديا لتتقدم وتنمو. بيد أن القليل نسبياً من المستخدمين على علم بكيفية أطر مساهماتهم في صيغة تستمر وتدوم.

كيف تستطيع إذن أن تصبح واحداً من زبدة مستخدمي الويكيبيديا - واحداً من عدة آلاف سوف تستمر كلماتهم لبرهة قصيرة، قبل أن تنحت المنافذ البركانية اللفظية ما كتبته؟ تلك ليست بالمهمة اليسيرة. لا بد أن تكون رابط الجأش فلا تنخرط في نزاعات قد تحطم روحك، كما أنك في حاجة إلى قدرات عملية على الكتابة وعين تلتقط الأشياء سريعاً وموهبة في التأليف. تحتاج كذلك إلى الكثير من الوقت - وقت كي تبرع في الأعراف الغريبة والمفردات غير المألوفة (كلمات مثل «الدمج البسيط» و«المقاتل عن وجهة نظره» و«تسوق المحكمة» و«الملحوظات القصيرة» و«الدمية المستأجرة» و«للهواة فقط» و«التضمين»، ووقت لقراءة الدليل وصفحات السياسة العامة والمقالات وتسجيلات لا نهاية لها لمشادات كلامية قديمة - ووقت كي يذكرك المحررون الآخرون برقة أو بحزم أو ربما بحدة بكيفية التصرف. أمامك تمرين طويل على التجربة والخطأ.

على الأقل هكذا كان الحال في الماضي. هناك الآن طريق أسرع يفضي إلى البراعة: كتاب جون بروتون الويكيبيديا: الكتيب المفقود، جزء من سلسلة «الكتيب المفقود» التي يشرف عليها خبير الإلكترونيات المرح بمجلة ذا نيو يوركر، ديفيد بوج. «يساعدك هذا الكتيب المفقود على تجنب أخطاء المبتدئين الفادحة ويجعلك تبدو كالمحترف من أول صفحة تحررها»، يعلن الكتاب على غلافه الخلفي. إن بروتون - الذي حرر بنفسه ما يربو على ١٥٠٠٠ صفحة بالويكيبيديا مما جعله واحداً من زبدة محررين يبلغ عددهم ١٢٠٠ - يعد في مقدمته بتقديم «معلومات تحتاج إليها بشدة كي تتحاشى خرق القواعد». وهو أمر صحيح: إن هذا الكتيب ينير أعين المستخدمين، فهو بالغ الترتيب وحافل بالأفكار السديدة. وقد يُعين نشره مرحلة جديدة من تاريخ الويكيبيديا؛ ربما يشتاق بعض من قرءوه إلى أيام «افعل ما تشاء» المجنونة عندما كان المشروع برمته في مستهله. ففي أكتوبر ٢٠٠١، ظهرت أول قاعدة في الويكيبيديا.

وقد كانت:

تجاهل كل القواعد: لو جعلتك عصبياً محبطاً وأخمدت رغبتك في المشاركة في الويكي، إذن تجاهلها تماماً وافعل ما تشاء.

كتب قاعدة «تجاهل كل القواعد» أحد مؤسسي الويكيبيديا ويدعى لاري سانجر ووقعها مؤسس آخر ألا وهو جيمبو ويلز بالإضافة إلى واجبوب وآيسباي وأوبرجاج وإنفيكتيس وكويانيس كاتسي وبينكيونيكورن وسجلك ومايك ديل وتو وجوو وإنشانتر. تضمنت الصفحة اثنين من المعترضين، تيبس وأكسيلبولت.

أما الآن فهناك قواعد وعلامات لشرح السياسة العامة عند كل منعطف - ثمة تحذيرات قوية اللهجة ومهام مطلوبة وإجراءات قياسية وتعليمات مهمة ومعايير معقدة لشتى القرارات - وهو عرض من أعراض ما يسمى بالتعليمات المزعجة: عرفت الويكيبيديا التعليمات المزعجة بأنها «تعليمات تزايدت مع الوقت في العدد والحجم لدرجة حالت دون استيعابها». يختصر كتاب جون بروتون - المؤلف من ٤٧٧ صفحة فقط لا غير - تلك التعليمات المزعجة. إذ يشتمل الكتاب على فصل كامل عن كيفية كتابة مقالات أفضل («لا تقمع الجدل ولا تعزله») وآخر عن «التعامل مع الفظاظة والهجوم الشخصي».

ينصحك بروتون بعدم كتابة مقالة في الويكيبيديا عن فكرة أو اختراع توصلت إليه بنفسك؛ إذ ينبغي أن تبتعد مقالاتك عن أشياء أو أشخاص تحبهم أو تكرههم؛ فالويكيبيديا لا يجب أن تقوم بدور أداة من أدوات الدعاية - لفرقة روك جديدة مثلاً أو ممثلة صاعدة. أحياناً ما تبدو كلمات بروتون ككلمات مدرس لغة إنجليزية مبتدئ، فهو متيقن زيادة عن اللازم من وجود طريقة صائبة واحدة وطريقة خاطئة واحدة لإنجاز الأمور؛ أي أشبه بكتاب ويليام سترانك بدون تعديلات إي. بي. وايت. لكن الحقيقة هي أن الويكيبيديا قد تبث الحيرة في المستخدم، وأنت في حاجة إلى مثل تلك الثقة من دليل المستخدم.

أول شيء قمت به في الويكيبيديا (تحت اسم ويدجليس) هو تحرير صفحة هرمون النمو البقري تحريراً لم يكن بالرائع. ضغطت على رابط «عدل هذه الصفحة» فنزل بي في الحال إحساس غريب بالدوار وكأني عبرت مرآة وتم السماح لي بالعبث بأحد المحركات الضخمة أو قطعة دقيقة من معدات طبية حيوية. تراءى لي أن إحداث الضرر في منتهى السهولة؛ وتساءلني: ولماذا لم أفعله؟ لا تلبث مع ذلك أن تعتاد الموقع. سوف تستحضر تعليم ويكيبيديا الأساسي: «كن جريئاً»، وستبدأ في الإعجاب بالحياة من الداخل.

وبعد الانتهاء من مقالة الهرمونات البقرية، غيرت قليلاً في تلخيص حبكة فيلم مسهد في سياتل أثناء مشاهدتي له. مرت هنيهة ثم أدخلت بعض التعديلات في مقدمة مقالة السائل الهيدروليكي - وبعدئذ حسن أحدهم مشكوراً تعديلاتي. وفي إحدى الليالي بحثت أنا وزوجتي عقب تناول الحلوى عن وصفات لعمل فطيرة الفاكهة ثم عملت لوهلة في مقالة فطيرة الفاكهة وإن لم تصبح سليمة بعد. قمت بكتابة بعض الجمل في مقالة تقسيم العصور. وبحلول ذلك الوقت بدأت أقف بكمبيوتر مفتوح على طاولة المطبخ محملقاً في قائمة مراقباتي المتزايدة، أتفقد حال الصفحات وألقي عليها نظرات خاطفة. انقضى نحو أسبوع ثم كنت في سبيلي إلى أول مرحلة من مراحل الاعتماد على الويكيبيديا.

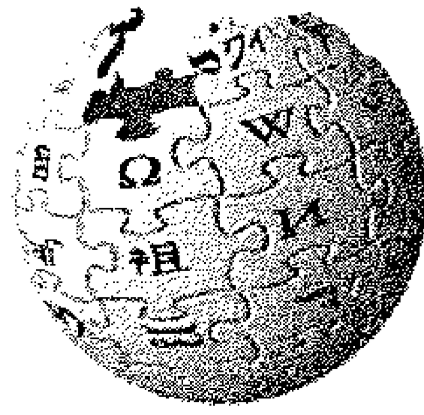
إلا أن ما جذبني حقاً هو محاولة إنقاذ المقالات من الحذف. فاخترت أن تكون تلك هي مهمتي. هكذا بدأت الحكاية. طالعت مقالة قصيرة عن شاعر من شعراء ما بعد جيل «البيت» -post Beat ورئيس تحرير دار نشر صغيرة يدعى ريتشارد دينر. كان دينر طالباً ببيركلي في الستينيات وقد نشر بعد عدة سنوات من الضياع العديد من الكتيبات باستخدام آلة طباعة يدوية وذلك في الشمال الغربي من البلاد. اعتزم أحد المستخدمين واسمه بايراتمينك حذف المقالة، إذ ادعى أن دينر لم يكن شخصية جديرة بالذكر، أياً كان قصده! (هناك كم مهول من الجدل حول ما يمكن تعيينه «جديراً بالذكر» في الويكيبيديا؛ ولن يقدم أحد على الإطلاق على حسم المسألة). وافق مستخدم آخر - يدعى ستورمباي - بايراتمينك في الرأي: ما لجأ أحدهما إلى مصادر أخرى ثالثة، وهكذا إذن أصبح الشاعر غير جدير بالذكر.

وقع دينر في مشكلة عويصة. حاولت



جسدت الويكيبيديا نقطة التقاء من علموا أنفسهم بأنفسهم ومن التحقوا بالمؤسسات العلمية باهظة المصاريف





الويكيبيديا

أن أجعل المقالة أقل عرضة للحذف بأن أدمجت استشهاداً من مقابلة صحافية بجريدة ذا بيركلي ديلي بلانيت - أفضى فيها دينر إلى المراسل بأنه حاول في الستينيات أن يكون شاعراً من شعراء الشوارع، «مستخدماً الأقلام السحرية للكتابة على مناديل المائدة في «كافيه ميد» وأذرع الفتيات وأقدامهن». (لو زخرت مقالة من المقالات ببعض الاستشهادات من مصادر خارجية، قد يصعب حذفها). كما صوتت للإبقاء عليها في صفحة «مناقشة الحذف» مبيناً أن العديد من الشعراء لم ينشروا سوى كتيبات: ما هو الضرر الناجم عن الاحتفاظ بذلك المدخل؟».

استغرق أحد المسئولين عن الويكيبيديا ويدعى باكون - واحد من ألف متطوع ترشحوا ليكونوا مسئولين عنها - دقيقة كي يفحص صوتي «الحذف» وتصويت «الإبقاء» ثم قضى على المقالة. لقد راح دينر. نزل بي الفزع فرحت آخذ عينات من المقالات الموجودة بصفحات الحذف وصفحات «الحذف السريع» - وهي الأكثر إلحاحاً - وصفحات من المحتمل حذفها لبنود تبدو في خطر لا مبرر له؛ حاولت إنقاذ تلك المواضيع. كانت تيكوانج للصناعات - شركة منسوجات في كوريا الجنوبية - واحدة من تلك المواضيع. «نخسها» مستخدم اسمه كوسونوز - أي أنه وضع علامة حمراء الطرف في أعلى المقالة مقترحاً إلغاءها في غضون خمسة أيام. حذفت العلامة إشارة إلى اعتراضي ثم ما لبثت أن نمقت النص مبيناً أن الشركة تصنع الأقمشة الصناعية ومعاطف المطر والمظلات وسيانيد الصوديوم وأقمشة العباءات السوداء. لم تختف المقالة: يا لسعادتي.



وهكذا واصلت العمل. وجدت تعليقات صحافية فشددت على الإبقاء على هاتف «جيترباج»، هاتف محمول مزود بمفاتيح كبيرة الحجم وبسماعة أذن ناعمة لكبار السن من المتصلين؛ وفلاديمير ناريت، شاعر روسي ينتمي إلى الحركة الشعرية المسماة بالأكمية. كانت الشرطة قد صادرت كتابه الثاني المعنون بـ الحمد للرب؛ وسارة ميدنيك، عالمة أعصاب من مدينة سان دييجو ومؤلفة كتاب خذ قيلولة! غير حياتك؛ وبيرو بوي، شخص محدود الشهرة حول نفسه إلى مفرقعة نارية على خشبة المسرح. كما نهضت بصفحة منظمة «أريفز»، أسرة تركية-قبرصية ضليعة في الإجرام مركزها لندن (أنبأني موقع ليكسيسنيكسيس أن جريدة أيريش ديلي ميرور أطلقت عليها لقب «الأسرة الإجرامية الأولى في بريطانيا»)؛ وكرة قدم الكوتشينة، وهي لعبة ورق تشبه البوكر وتحاكي كرة القدم؛ وبول كاراسون، رجل بحمالة بنطلون تحول لون وجهه إلى الأزرق من جراء شرب محلول الفضة؛ وجيم كارا، مرمم آلات جيتار أصاب رأسه إصابة خطيرة في إحدى مسابقات الجليد؛ والكاتب أوين كينج، ابن الكاتب المعروف ستيفن كينج؛ وشراب «ويتلي نيل جين» المحلي بنكهة نباتين من نباتات جنوب أفريقيا؛ وورلد نيوز تونايت، فرقة تقدم عروضاً ارتجالية في شيكاغو؛ وميشيل ليونارد، كاتب أغان أوروبي شارك في كتابة أغنية ناجحة حديثة اسمها «أغاني الحب (إنها تقتلني)».

لقد اعتبر محررون آخرون كل هؤلاء الأشخاص والأشياء غير جديرين بالذكر، وذلك بتسرع يخلو أحياناً من التفكير - إذ زعم أحدهم أن مقالة ميشيل ليونارد تحوي «أكاذيب فجة» (معلومة غير صحيحة كما أوضح محرر آخر اسمه بونديجيزو، وهو أكثر اطلاعاً على قوائم البوب الأوروبية). عندما كنت أتمكن من المعاونة على إنقاذ صفحة ما، تتوالى إثارة هادئة - أسير مرفوع الرأس كهنري فوندا في فيلم «اثنا عشر رجلاً غاضباً».

وبينما انهمكت في هذه المشادات الصغيرة الساحرة (بالنسبة لي) للحفاظ على الصفحات، واصل المئات عملهم في طول ويكيبيديا وعرضها. سجلت اسمي في «سرية إنقاذ المقالات» بعد أن قرأت عنها في كتيب بروتون؛ و«سرية إنقاذ المقالات» هي جماعة صغيرة تعارض «الحذف المتطرف». كما عثرت على مشروع اسمه «مشروع مراقبة الحذف المقترح في الويكي» حيث يراجع الناس المقالات المقترح حذفها بغرض إيجاد مقالات لا ينبغي لها الاختفاء. وبما أن حوالي ١٥٠٠ مقالة يتم حذفها يومياً، قد يستهلك هذا العمل حياة المستخدمين بسهولة ما بعدها سهولة، غير أن بعض المحررين (على سبيل المثال مكتبي صبور يدعى دي جي جي) قادرون فيما يبدو على القيام بهذا العمل بانتظام، الأسبوع بعد الآخر، في الوقت الذي يظلون فيه عقلاء. أما أنا فقد استهلكت العملية حياتي بالكامل. إذ توقفت عن الإنصات إلى ما ينبس به أفراد عائلتي - وتقريباً تواريت داخل شاشة الكمبيوتر زهاء أسبوعين محاولاً إنقاذ سير موجزة دعائية أحياناً، إنما ذات قيمة، وذلك بإعادة صياغتها في لغة محايدة والتنقيب في قواعد بيانات الصحف وكتب جوجل عن مراجع ربما تزيد من حصتها في الأهمية. لقد أصبحت «مناصراً للإدماج».

ولا يعني هذا أني اعتقدت أن كل المقالات تستحق الكفاح من أجلها. أنشأ أحدهم مقالة تحت عنوان بلامين أوجنيانوف كامينوف. وتنص المقالة بالكامل على الجمل التالية: «أهلاً. اسمي بلامين أوجنيانوف كامينوف. أنا بلغاري. أنا ذكي». ذهب المقال بلا رجعة، مفهوم. ألف مستخدم آخر - طفل على ما يظهر - قصة جميلة حول امرأة خيالية تدعى الإمبراطورة الاموندا. كانت الاموندا تكن كراهية لخادمات زوجها. «تملكتها الغيرة تملكاً حتى إنها كانت تغيب عن الوعي». أعلنت المقالة. «ماتت الاموندا في ٦,٠٠ مساء بغرفتها في ٤ أغسطس من عام ١٨٩٦». وقد ذهبت الاموندا هي الأخرى بالطبع.

ومع ذلك فإن الكثير من الكتابات الجيدة - الموضوعية، المثقفة، الغريبة، المحفزة للعقل - يلقيها ذوو أفق ضيق لا يتجاوز أفق الأطفال خارج موسوعة إلكترونية قابلة للتوسع اللانهائي.

بإمكان أي شخص أن «يطلق الرصاص» على أية مقالة (كما يعبر بروتون عن الموقف). لكن الصعب هو إدخال التحسينات على مقالة مكتوبة بالفعل أو الكتابة عن موضع جديد تماماً. ثمة الآن بعض المستخدمين في الويكيبيديا ممن لا يزيدون على متنمرين، مستخدمين يستمتعون بتحطيم أعمال الناس والسخرية منهم - لدرجة الاستهزاء من «الانجليزية» غير الفصحى. إنهم يقحمون التحذيرات في المقالات ويضيفون ملحوظات عن الحاجة إلى الاستشهادات إلى أن تختفي المقالة.

إن نصيحتي لكل من يفكر في أن يصير مساهماً في الموسوعة هو شراء كتاب بروتون الكتيب المفقود والبدء في الإضافة والتأسيس والإنقاذ. أظن ما صنعته يكفيني في الوقت الحاضر لكني أضمر أملاً سرياً. فقد اقترح أحدهم إنشاء ويكيمورج Wikimorgue - صندوق من الأحلام المكسورة حيث يتمكن المتصفح من قراءة الصفحات المرفوضة طالما لا تشهر بالأفراد أو تخرق القانون بأي حال من الأحوال. ومثلها مثل جميع المزابل الأخرى، سوف تبوح إلينا بمرور الوقت بالكثير والكثير. يمكننا أن نسميها ديليتوبيا Deletopedia. ■



تجاهل كل القواعد: لو جعلتك عصبياً محبطاً وأخمدت رغبتك في المشاركة في الويكي، إذن تجاهلها تماماً وافعل ما تشاء



حجب.. وقصف.. وانتخابات

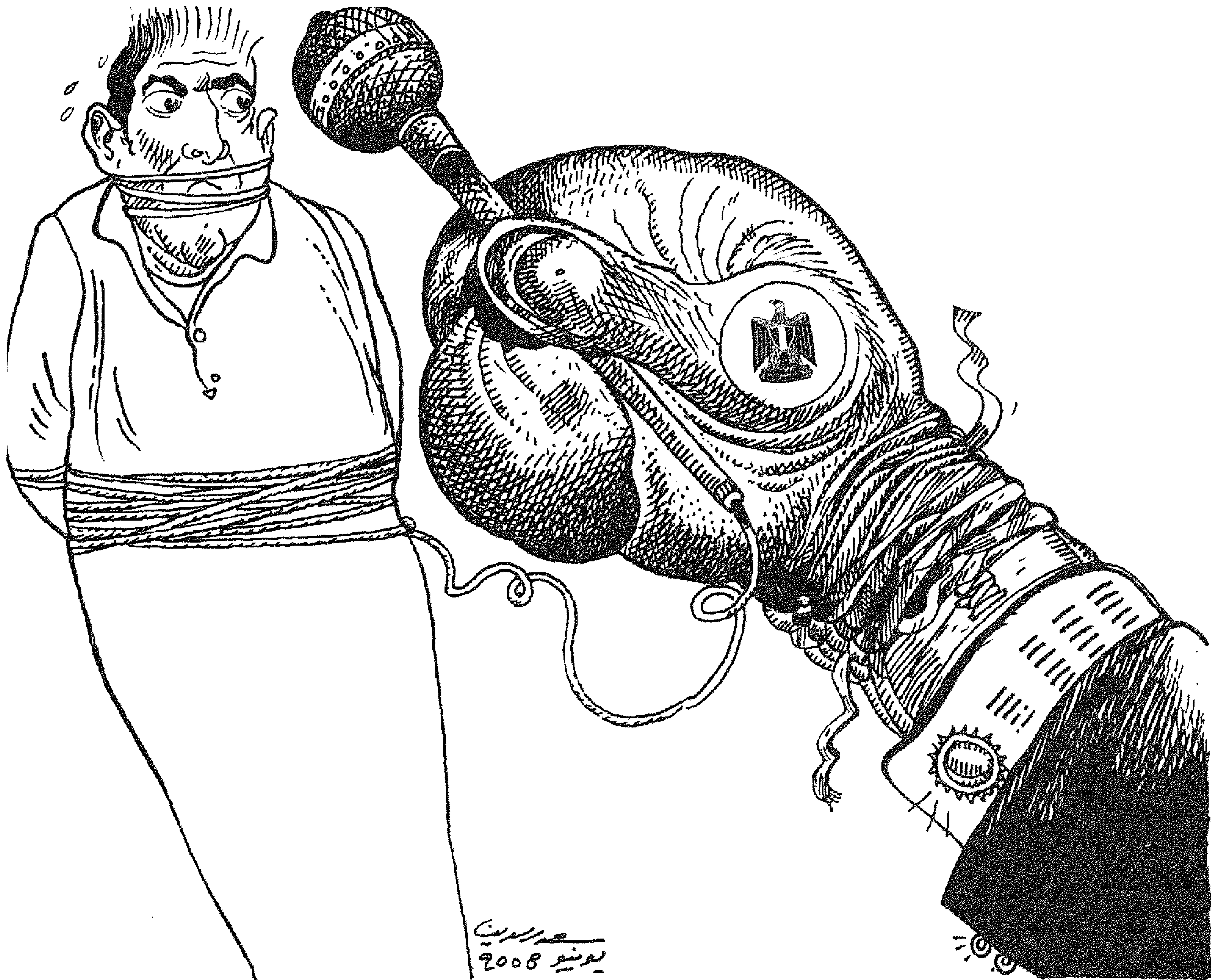
جمال محمد غيطاس

■■ هل ثمة علاقة بين العنف والمعلومات؟ وهل يمكن أن يكون هناك «عنف معلومات» أو استخدام عنيف للمعلومات؟ وهل يمكن للدولة أن تمارس «عنف المعلومات» ضد مواطنيها؟

إن العنف ظاهرة خاصة بالإنسان ككائن اجتماعى يتفاعل مع غيره ضمن صراعات اجتماعية واقتصادية وسياسية، وأبسط التعريفات التى ذكرت بشأن العنف تعريفا يقول إنه «كل استخدام للقوة بطريقة غير شرعية وغير مبررة من قبل طرف ضد آخر ينجم عنه أذى أو ضرر بشكل دائم ومستمر أو لمرة واحدة»، وهذا التعريف هو ما سنستخدمه كنقطة انطلاق وحلقة ربط ما بين العنف والمعلومات، وكأساس نستند إليه فى رصد ظاهرة «عنف المعلومات» لدى الدولة.

أما المعلومات فأبسط تعريف لها يقول أنها «نتاج يتشكل من الظواهر والحقائق المحسوسة . أى البيانات . ومن التعليمات المطلوبة لفهم وتفسير هذه البيانات وإعطائها معنى، ثم يكتسب أهميته من وظيفته، وهذا كله يجعل المعلومات متميزة ومختلفة تماما عن التكنولوجيا وأدواتها؛ وإن كان كل ما نفعله مع المعلومات يعتمد على التكنولوجيا المستخدمة فى الملاحظة وتجميع البيانات وتركيزها وتخزينها والسرعة فى معالجتها.

وفى ضوء هذا التعريف لمعنى المعلومات يمكننا القول أنه منذ بدء الخليقة وحتى اليوم اعتمدت حياة الإنسان على توليد وتداول وتوظيف المعلومات بشكل أو بآخر، فكل قراراته بدءا بقرار تحديد موعد استيقاظه فى الصباح إلى تحديد موعد نومه ليلا هى قرارات تتغذى على المعلومات، سواء كان الإنسان يعى ذلك أم لا، فهو حينما يقرر الاستيقاظ فى السادسة مثلا، لابد أن تكون لديه معلومة تبرر له اتخاذ هذا التوقيت موعدا للاستيقاظ كارتباطه بوسيلة مواصلات تنقله للعمل، وحينما يقرر الذهاب للنوم لابد أن تكون لديه معلومة تؤكد له أنه لم يعد لديه ما يجعله مستيقظا، وهكذا الحال فى بقية تفاصيل حياته وعلاقاته وتفاعلاته مع محيطه المجتمعى سواء على مدار اليوم أو الشهر أو السنة أو العمر كله، ومن هنا



... عنف المعلومات فى مصر!!



المعلومات أشبه «بالروح» التى تجعل من الإنسان الفرد والمؤسسة والمجتمع كيانات نابضة بالحياة



فإن الإنسان الفرد يعيش دوما وسط تيار من المعلومات تحدد له كل تصرفاته ويتخذ على أساسها كل قراراته.

وإذا انتقلنا إلى المجتمع الواسع لا نجد جوهر الصورة مختلفا، فالمجتمع الكبير هو فى النهاية مجموعات من الأفراد، وبالتالى فجميع قرارات المجتمع وكل تفاصيل الحياة فيه تتغذى طوال الوقت على تيارات متنوعة من المعلومات التى تتدفق فى أوصاله بلا انقطاع بوسائل وقنوات مختلفة، فتتوازى أحيانا وتتقاطع أحيانا، لكنها فى النهاية تتجمع لتنشىء ما يمكن أن نطلق عليه «المحتوى المعلوماتى المجتمعى المشترك» الذى يضم التفاصيل الكاملة لحياة الأفراد والجماعات والمؤسسات.

وعمليا لا يتجمع المحتوى المعلوماتى المجتمعى المشترك فى نقطة واحدة، بل يتفرع فى اتجاهات مختلفة ليكون محتويات معلوماتية مجتمعية فرعية متنوعة،كل منها يتعلق بقطاع من المجتمع أو فئة من فئاته أو نشاط من أنشطته، ووفقا لهذا المنظور يمكن تحديد «التنوعيات» الفرعية للمحتوى المعلوماتى المجتمعى العام فى:

١. المحتوى المعلوماتى العسكرى الأمنى.

٢. المحتوى المعلوماتى الاجتماعى.

٣. المحتوى المعلوماتى الفكرى والسياسى.

٤. المحتوى المعلوماتى الاقتصادى والخدمى.

٥. المحتوى المعلوماتى العلمى والبحثى.

انطلاقا مما سبق يمكن القول أن كل القرارات التى تتخذ على مستوى الفرد أو المؤسسة أو المجتمع طوال اليوم ترتبط ارتباطا وثيقا بجودة وسلامة ما يستخدم فيها من معلومات، وتوقيتات الحصول على هذه المعلومات والوعى بكيفية توظيفها والحفاظ على سلامتها.

والمعلومات أشبه «بالروح» التى تجعل من الإنسان الفرد والمؤسسة والمجتمع ككل كيانات نابضة بالحياة، بل لا نبالغ إذا قلنا أن المحتوى المعلوماتى أصبح أصلاً من الأصول الثابتة، سواء للفرد أو المنشأة الخاصة أو الدولة والمجتمع ككل، وفى كل الأحوال يتعين عدم المساس به أو تعريضه للأذى والضرر، وأى فعل يحدث ضررا بجودته أو أمنه أو سلامته أو يحجبه ويعوق وصوله لمستحقيه هو شكل من أشكال العنف، باعتبار أنه فعل سيتولد عنه بالضرورة أذى لفرد أو مجموعة من الأفراد أو قطاع من المجتمع أو المجتمع بأسره.

وإذا ما عدنا إلى تعريف العنف ومؤداه أن العنف «كل استخدام للقوة بطريقة غير شرعية وغير مبررة من قبل طرف ضد آخر ينجم عنه أذى أو ضرر بشكل دائم ومستمر أو لمرة واحدة»، ثم وضعنا هذا التعريف أمام الوضعية التى اكتسبتها المعلومات فى ظل عصر ثورة المعلومات، سنخلص إلى أن المعلومات والمعرفة أصبحت أكبر أشكال القوة تأثيرا وأسهلها استخداما وأوسعها انتشارا، وبالتبعية أصبحت المعلومات جاهزة دوما لأن تكون من أكبر أدوات ممارسة العنف وأسهلها استخداما وأوسعها انتشارا، لأنه بالإمكان استخدامها للإضرار وإلحاق الأذى بالفرد أو المؤسسة أو المجتمع ككل، وفى هذا السياق يمكننا تعريف عنف المعلومات على أنه:



«كل استخدام للقوة بطريقة غير شرعية وغير مبررة أو بها إساءة استخدام من قبل طرف ما . فرداً كان أو مؤسسة أو حكومة أو دولة . من شأنه أن يحجب أو يتلاعب أو يضر بسلامة أو جودة أو صحة أو إتاحة المعلومات أو توقيتات الوصول إليها ويقع بسببه أذى أو ضرر بشكل دائم ومستمر أو لمرة واحدة على من يحتاج هذه المعلومات أو يستهلكها أو يستخدمها فى اتخاذ قرار أو يستفيد منها فى قضاء حاجة».

وتتخذ القوة هنا ثلاثة أشكال: الأول القوة الناجمة عن امتلاك المعلومات والقدرة على حجبها كما هو الحال فى الجهات المالكة للمعلومات وقواعد بياناتها، والثانى القوة الناجمة عن امتلاك أدوات توليد المعلومات ونشرها كما هو الحال مع أجهزة الإعلام وغيرها، والثالث القوة الناجمة عن امتلاك أدوات التلاعب فى المعلومات وتخريبها وسرقتها وإفسادها كما هو الحال مع جرائم المعلومات ومحترفيها.

وتتسع أنماط وصور عنف المعلومات لتشمل طيفا واسعا من الممارسات السائدة، ويمكن تقسيم عنف المعلومات إلى ثلاثة أنماط رئيسية هى العنف الذى يمارسه الأفراد والجماعات سواء فيما بين بعضهم البعض أو بينهم وبين المؤسسات والهيئات الخاصة والعامة، والعنف الذى تمارسه البيروقراطية وأجهزة الدولة المختلفة فى تعاملها مع مواطنيها، والعنف الذى تمارسه مجتمعات ضد أخرى أو دول ضد أخرى، والنوع الثانى هو ما نتناوله فى هذه المقال.

البيروقراطية والدولة وعنف المعلومات

بحكم طبيعة الأمور ومجرياتها فى الواقع العملى فإن الحكومات وأجهزتها الإدارية والتنفيذية المختلفة فى أى بلد فى العالم هى المسئولة أكثر من غيرها عن إنتاج المعلومات ومن ثم المسئولة عن حيازة المعلومات وامتلاكها، وبالتالى تمتلك القدرة على التحكم فى إتاحتها أو حجبها، وهذا الوضع يؤسس لأهم أسباب ظاهرة عنف المعلومات لدى الدولة وأجهزتها البيروقراطية، لأن امتلاك المعلومات يؤدى تلقائيا لإحكام قبضة الأجهزة البيروقراطية والأمنية على المعلومات ويفسح المجال أمام استخدامها استخداما عنيفا يضر بالمجتمع أفرادا ومؤسسات، سواء بالحجب أو التأخير أو الإنقاص، بمعنى آخر يعطى صلاحيات واسعة للدولة وأجهزتها فى استخدام قوة امتلاك المعلومات وبالتالى إساءة استخدام هذه القوة، مما يعزز تلقائيا من وتيرة العنف فى استخدامها.

فى هذا السياق فإن الدولة وأجهزتها البيروقراطية فى مصر تحتكر ما يزيد على ٨٠٪ من المحتوى المعلوماتى المجتمعى بأوجهه العسكرية والأمنية والسياسية والفكرية والاقتصادية والبحثية والاجتماعية، وحتى الآن لا تزال الغالبية الساحقة من مؤسسات الدولة وهيئاتها البيروقراطية والإدارية تعتبر أن الأصل فى الأمور هو حجب المعلومات لا الإفصاح عنها وتداولها بحرية، وأن المعلومات ملك للدولة وليس للمواطن أو المنشآت والمؤسسات المختلفة حقوق فيها، بل إن على الآخرين أن يتلقوا فقط المعلومات التى ترى هى أنهم بحاجة إليها أو أنهم يستحقونها أو يمكن أن تحقق لهم منفعة أو تدفع عنهم ضرراً، بعبارة أخرى لا تزال الدولة تعتبر نفسها «الولى والوصى» على الناس فيما يتعلق بملكية وإدارة المحتوى المعلوماتى المجتمعى وتوظيفه واستخدامه وطرق تداوله.

وعمليا عزز هذا الوضع من ظاهرة «عنف المعلومات» بتجلياتها المختلفة، وجعلها تتفشى وتصبح هى الحالة السائدة فى علاقة الدولة وجهازها الإدارى والبيروقراطى مع جماهير المواطنين والعديد من المؤسسات والهيئات والكيانات الأخرى، ولذلك أصبح من السهل على المراقب أن يتتبع ويرصد عشرات من حالات «عنف المعلومات» فى علاقة الدولة وأجهزتها البيروقراطية مع المجتمع بمواطنيه وهيئاته.





عمليا أحجمت قطاعات واسعة من المواطنين . ولا تزال تحجم . عن المبادرة وتسجيل أنفسهم بسبب سوء سمعة الانتخابات وسوء المعاملة بأقسام الشرطة



وعلى الرغم من أن حالة «عنف المعلومات» بين الدولة ومواطنيها يكتوى بنارها الجميع، إلا أنها على قسوتها غير محسوسة وغير مفهومة والوعى بها وبأبعادها قد يكون شبه معدوم بالنسبة للكثيرين، وهذا الوضع يجعل أفضل طريقة لشرحها وتوضيحها هى تقديم نماذج أو لمحات حية لحالة عنف المعلومات التى تسود علاقة الدولة وجهازها البيروقراطى مع مجتمعها ومواطنيها، باعتبار أن الأمثلة الحية النابعة من الحياة اليومية وتفاعلاتها المختلفة هى أوضح وأقصر الطرق لرصد الظاهرة ورسم ملامحها، وفيما يلى نقدم بعض نماذج عنف المعلومات من الدولة ضد مواطنيها.

عنف معلومات الانتخابات

تقدم الجداول الانتخابية فى مصر نموذجا حيا لحالة «عنف المعلومات» الناشئة عن عدم الاعتداد بحق الجماهير فى الحصول على المعلومات والتراخى فى إعداد المعلومات وتركها عرضة للنقص والتشويه وتدنى الجودة، ويمكننا القول أن المحتوى المعلوماتى المتعلق بالعملية الانتخابية فى مصر يتعرض لعمليات تشويه وإفساد عميقة ومستمرة منذ سنوات طويلة، ينجم عنها أضرار وأذى لملايين الناخبين وللمجتمع ككل، وهى أضرار تبدأ بالممارسات والسلوكيات العنيفة أثناء الانتخابات سواء من جانب السلطة أو بعض الناخبين أو جماعات البلطجة وتجار وسماسرة الانتخابات وتنتهى بتزييف إرادة الناخبين وإفراز نتائج تزيد من الاحتقان السياسى وتعمق حالة فقدان الثقة بين الشعب والحكومة والنظام، الأمر الذى يسهم بصورة أو بأخرى فى رفع مستوى العنف المادى بالمجتمع بشكل مباشر أو غير مباشر، وانطلاقا من التعريف الذى قدمناه سابقا لظاهرة «عنف المعلومات» يمكن تناول عنف معلومات الانتخابات على النحو التالى:

فى الانتخابات نحن أمام محتوى معلوماتى فائق الأهمية، وطبقة الأساس أو البنية الأساسية لهذا المحتوى هى الجداول الانتخابية التى تضم أسماء الناخبين وتحدد هوياتهم ويتم على أساسها إجراء عملية التصويت وفرز النتائج، وأى إخلال متعمد أو نتيجة تجاهل بهذا المحتوى يسبب تلقائيا ضرر وأذى يصيب جموع الناخبين ويؤثر عليهم سلبا سواء فى مراحل التصويت أو إظهار النتائج.

ومعلوماتيا تتعامل الدولة وأجهزتها البيروقراطية والأمنية والسياسية مع جداول الانتخابات وكشوف الناخبين طبقا لإطار قانونى تتحدد أهم ملامحه فى نصوص القانون رقم ٧٣ لسنة ١٩٥٦ الخاص بتنظيم مباشرة الحقوق السياسية ، والمواد التى وردت ضمن تعديلات القانون رقم ١٧٣ لسنة ٢٠٠٥ من اختصاصات اللجنة العليا للانتخاب.

ودون خوض فى المواد والنصوص الواردة بهذه القوانين يمكن القول أنه من منظور التطبيق العملى أفرز هذا الإطار القانونى نظاما لتداول وإدارة البيانات والمعلومات المستخدمة فى كشوف الناخبين يستند إلى دورة معلومات «رأسية» مغلقة إما تتصاعد فيها المعلومات من القاعدة إلى إدارة الانتخابات أو تهبط منها المعلومات من إدارة الانتخابات إلى اقسام الشرطة ومقار الانتخاب، وهذه الدورة مكونة من الخطوات التالية:

١. يتوجه المواطن الراغب فى قيد نفسه أو تعديل موطنه الانتخابى لقسم الشرطة فى الوقت المنصوص عليه فى القانون ويتقدم بطلب القيد أو التعديل مصحوبا ببياناته من واقع البطاقة الشخصية والمستندات الرسمية الأخرى

٢. تتلقى الأجهزة المعنية بالداخلية بيانات الراغبين فى القيد وتقوم معالجتها وتدوينها كما تتلقى بيانات الراغبين فى النقل من دائرة لأخرى عبر إجراءات روتينية طويلة تشبه إجراءات تغيير محل الإقامة

٣. تتلقى الداخلية بيانات بالوفيات من وزارة الصحة وتدونها

٤. يفترض أن تتلقى من العدل والدفاع والهجرة والخارجية بيانات حول العسكريين ومن صدرت بشأنهم أحكام مؤثرة على حقهم الانتخابى ومن هاجروا

٥. يجرى تجميع وفهرسة وتنظيم كل البيانات السابقة فى وقت محدد وتستخدم فى تحديث وتنقية الجداول بناء عليها.

٦. تتكرر هذه الدورة كل فترة وفى الأغلب كان يتم فيها تداول ومعالجة وإدارة المعلومات الانتخابية يدويا.

السؤال الآن: أين مظاهر العنف فى كل ذلك؟

قياسا على التعريف السابق لعنف المعلومات فإن هذا الإطار وضع البلاد فى أتون حالة «عنف معلومات مستعرة» لها ستة منابع كالتالى:

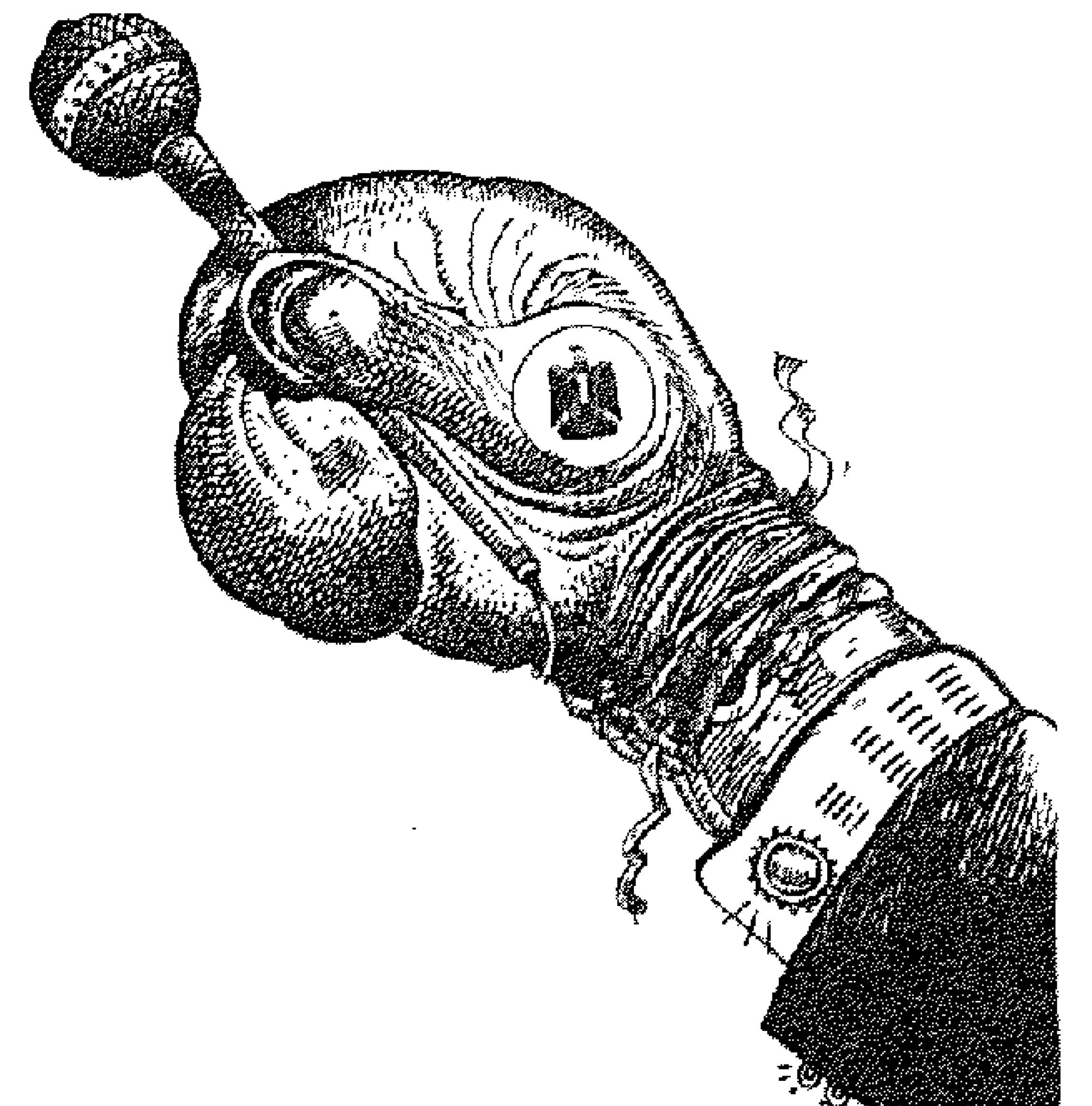
أولا: جعل الدولة ، ممثلة فى وزارة الداخلية ، هى المالك والمحتكر الوحيد لمعلومات الناخبين، وكما قلنا من قبل فإن احتكار المعلومات يضع فى يد المحتكر أول صور القوة التى يمكن استخدامها فى ممارسة عنف المعلومات، وهى قوة امتلاك المعلومة والقدرة على حجبها والتلاعب فى توزيعها وعرضها وفى توقيت إتاحتها لمحتاجيها، ولست فى حاجة إلى القول بأن جميع صور العنف السابقة من . كالحجب والتلاعب فى التوزيع والعرض وتوقيتات الإتاحة . تمارس على نطاق واسع من قبل الدولة وأجهزتها فيما يتعلق بالجداول الإنتخابية، ولا توجد تقريبا انتخابات جرت فى مصر دون شكاوى تضرر فيها المرشحون والناخبون على السواء من صور العنف هذه.

ثانيا: أن النصوص القانونية جعلت المواطن هو مصدر التغذية الرئيسى بالبيانات، وعمليا أحجمت قطاعات واسعة من المواطنين.ولا تزال تحجم.عن المبادرة وتسجيل أنفسهم بسبب سوء سمعة الانتخابات وسوء المعاملة بأقسام الشرطة والسجل المدنى وصعوبة الإجراءات، والنتيجة أن عدد المسجلين بالجداول أقل كثيرا من عدد الذين لهم حق التصويت، وهذه أول فجوة معلوماتية بالجداول الانتخابية نتج عنها مصدر للتشوه وعدم الدقة، وقد اتاحت هذه الفجوة فرصا واسعة لشيوع حالة عنف معلومات واضحة للعيان، وهى القيد العشوائى لمواطنين بغير علمهم أو باختلاق اسماء وهمية وإضافتها للجدول على اعتبار أنها بيانات مواطنين سجلوا انفسهم حديثا «حدثت وقائع عديدة للقيد الجماعى مؤخرا استغلالا لهذه الثغرة».

ثالثا: لا يوجد بهذا النظام كود تعريفى غير متكرر للناخبين بالجداول على مستوى الجمهورية ويكون مرتبطا باسم الناخب سواء كان ثنائيا أو ثلاثيا أو رباعيا وجزءا من هويته الانتخابية، والاسماء التى ترد حاليا من قاعدة بيانات الرقم القومى ينزع عنها الرقم ككود تعريفى، وهذا من أفدح نقاط الضعف المعلوماتية بالجداول لأنه يجعل من اسم الشخص أداة للتعريف بهويته الانتخابية، ومن ثم يفتح بابا ملكيا لحالة أخرى شائعة من حالات عنف المعلومات فى قضايا الانتخابات تتمثل قدرة مئات الموظفين والأمنيين التابعين لجهاز الدولة الإدارى والأمنى على إضافة الموتى والمغتربين والأطفال وتكرار أسماء الأحياء ... إلخ.

رابعا: أدى التدوير الرأسى المغلق للبيانات الانتخابية إلى عدم وجود صلات مناسبة بين نظام بناء الجداول وجهات ومؤسسات المجتمع ذات العلاقة بالبيانات الانتخابية المسئولة عما يمكن تسميته بالحق التصويتى المتغير «الذى يمنح أو يمنع عن المواطن لفترة مؤقتة، كتأدية الخدمة العسكرية الالزامية أو الانتماء لمؤسسة عسكرية وأمنية أو الوقوع تحت طائلة احكام قضائية تمنعه من التصويت أو الهجرة والعمل بالخارج، وهذه الجهات هى: الدفاع.الأمن القومى.العدل.الهجرة . الخارجية وليس الصحة فقط».

وقد أفرز هذا الوضع حالة عنف معلومات ثالثة داخل الجداول تتعلق بأوضاع هذه الفئة من الناخبين الذين تتغير أوضاعهم الانتخابية من وقت لآخر دون أن يؤخذ ذلك فى الاعتبار بالنسبة لأوضاعهم داخل الجدول، وهو ما يفتح بابا للتزييف، إذ لا يعرف على وجه الدقة كيف يتم التصرف فى أسماء واصوات هؤلاء وهم بالملايين.



خامسا: أدى تلقى بيانات الناخبين مباشرة من أصحابها يدويا إلى تدنى الجودة المعلوماتية للبيانات الخام المستخدمة فى إنشاء الجداول، وهذه حالة من حالات العنف الناجمة عن الإهمال فى توليد وإدارة المعلومات، ويتجسد العنف هنا فى أن نسبة كبيرة من أسماء الناخبين مسجلة بالاسم الثلاثى أو الثنائى أحيانا ومن ثم لا تدل بشكل قاطع على هوية الناخب مما يفتح المجال للتزوير أثناء التصويت، كما يظهر العنف المرتبط بهذا الأمر مع شيوع ظاهرة تكرارية الأسماء التى تصل فى بعض الأحيان لأكثر من ١٠٪ من المسجلين بالجداول.

سادسا: لا تتوافر لنظام بناء الجداول الحالى مرجعية معلوماتية قومية مركزية موحدة موثوق فيها من قبل الجميع يتم على أساسها مراجعة وتدقيق بيانات الجداول عند التنقية، وهذه المرجعية تتكون من:

. القوائم الكاملة الدقيقة للوفيات وتحديثاتها المستمرة.

. القوائم الكاملة للعسكريين والأمنيين والمغتربين وتحديثاتها المستمرة.

. القوائم الكاملة لمن تنقلوا من مكان لآخر داخل الجمهورية وتحديثاتها المستمرة.

. القوائم الكاملة لمن صدرت ضدهم أحكام تمنعهم من التصويت ومن انتهت مدة محكوميتهم وأعيد لهم حق التصويت.

. القوائم الكاملة لمن بلغوا السن القانونية وتحديثاتها.

ومن شبه المؤكد أن القوائم الأربع الأولى غير متاحة بشكلها الكامل وبتحديثاتها الدورية لدى للعاملين فى النظام الحالى، أما القائمة الخامسة فتتم الآن من قاعدة بيانات الرقم القومى لمواليد ما بعد عام ١٩٨٢ فيما يعرف بالقيد التلقائى بالجداول، وهذا يثير التساؤل التالى: على أى أساس يتم تحديث الجداول أو تنقيتها وأربعة أخماس مرجعيات التحديث غير متوافرة؟ بالطبع لا يوجد أساس وهنا مكمن ومنبع للعنف، لأن معلومات بلا مرجعية للقياس والمعايرة والضبط هى بطبيعتها مادة خام عرضة للتشويه والحذف والإضافة والتعديل حسب هوى من يقوم على استخدامها وتوظيفها، أى تكون فى التحليل الأخير أداة لممارسة العنف تجاه من يحتاجونها ويستهلكونها أو يقعون تحت طائلة تأثيرها.

حجب المعلومات .. وتبادل «القصف الإعلامى»

يتربع عنف المعلومات السائد فى وسائل الإعلام المصرية، خاصة المطبوعة منها، على قمة ظاهرة عنف المعلومات التى تمارسها الدولة ضد مواطنيها وهيئاتها، فالدولة بأجهزتها التنفيذية والإدارية والبيروقراطية تملك وتحتكر كما سبق القول أكثر من ٨٠٪ من البيانات والمعلومات المتعلقة بالمحتوى المعلوماتى المجتمعى الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والأمنى والعسكرى والبحثى، وهى وحدها التى تملك قوة إتاحتها وحجبها، ولأن الدولة اختارت الحجب قاعدة والإتاحة استثناء فقد وقعت وسائل الإعلام، التى هى فى الأصل قنوات لتوصيل المعلومات، فى ضائقة معلوماتية جعلت ما تقدمه من معلومات ساخنة وطازجة وكاملة فى توقيتها المناسب ضئيل جدا أمام ما تضخه من معالجات قشرية سطحية وانطباعية واستنتاجات وتخمينات شخصية لعشرات من القضايا والهموم الوطنية فائقة الأهمية، وهو وضع قادنا جميعا إلى حالة عنف معلومات احتدت حتى أصبحت قصفا متبادلا بين أطراف عديدة، حكومة ومعارضة وصحف خاصة وقومية، والمحزن أنه قصف عشوائى أحيانا غير برىء أحيانا أخرى عبثيا فى أحوال ثالثة، لكنه فى كل الأحوال يشعل حرائق ضحيتها الأولى جمهور المتلقين والمجتمع الذى ترتفع فيه درجة الاحتقان وتحتد به حالة الاستقطاب، ولعل الأمثلة التالية تلقى مزيداً من الضوء على هذه النقطة:

قضية جريدة الوفد ووزير العدل

تتعلق هذه القضية بآراء وكلمات قالها وزير العدل بمجلس الشورى بحق جهات قضائية، أى أن الوزير والمجلس هما الجهة التى وفرت المادة الخام الأولية للوجبة التى رأت الصحيفة أن تعدها وتقدمها للناس، وبعد النشر أبدى البعض إصابته «بمغص» من هذه الوجبة وذهب للمحكمة مطالبا بحقه وانتهى الأمر بعقوبة الحبس كجزاء على ما رئى أنه «سوء طهو» من جانب الصحيفة، وفى هذه السلسلة المتوالية من الأحداث لم يتمكن أحد من الوصول إلى «المعلومة الأولية للوجبة» والتى بإمكانها حسم



الدولة المصرية تحتكر ما يزيد على ٨٠٪ من المعلومات العسكرية والأمنية والسياسية والفكرية



تحول عنف المعلومات إلى قصف عشوائى بين الحكومة والمعارضة والصحف الخاصة والقومية



النزاع برمته ألا وهى التفريغ الصوتى لكلمات الوزير بالمجلس الذى يحدد هل الصحيفة نقلت ما قاله فعلا أم أساءت الطهو فقدمت وجبة غير سليمة لقرائها.

ولو كان لدى المجلس نظام معلوماتى محكم للتسجيل والتفريغ والتوثيق ويضمن تقديم معلومات «عالية الجودة» فى مثل هذه الحالات لتوافر لجميع الأطراف «مرجعية» محايدة تستخدم فى معرفة مدى الصواب والخطأ فيما نشر، ولو كانت هناك آلية مستقرة متعارف عليها للحصول على مثل هذه «المواد المعلوماتية الأولية» وتداولها على الملأ سواء عن طريق موقع المجلس على الإنترنت أو بوسيلة أخرى حسب الطلب ولو بمقابل مادى لتم حسم الأمر عند أول دقيقة ثار فيها خلاف حول ما نشر.

قضية المبيدات الزراعية المسرطنة

فى هذه القضية لم تكن هناك آلية تضمن للصحافة الوصول إلى الوثائق الحقيقية المتعلقة بالقضية من داخل وزارة الزراعة وأجهزة الدولة الأخرى، فلم ينشر مثلا نص قرار إلغاء لجنة المبيدات ولا حيثيات صدوره لأنها ببساطة كانت معلومة محجوبة عن النشر ولا تزال، ولم تتح للصحافة معرفة الأعداد الدقيقة والحقيقية للمبيدات التى دخلت البلاد بصورة مخالفة ومتى، وأسماء من وقعوا على أمر استيرادها، والأخطر من ذلك أنه لا توجد معلومات أو وثائق ترسم خريطة واضحة لمسار هذه المبيدات بعد دخولها منذ لحظة خروجها من الموانىء وحتى رشها فى الأرض، من الذين تداولوها وما المحاصيل التى استخدمت فيها ومتى، والمواقع الجغرافية التى وصلتها هذه المبيدات ونسب الاستخدام فى كل منطقة وكم شخص تعامل معها، ونسب بقاياها فى التربة والمحاصيل والخضروات والفاكهة. فى ضوء الوقائع السابقة. وغيرها الكثير مما يتداول فى سوائل الإعلام. يمكننا تلخيص مشهد عنف المعلومات الإعلامى ككل فى العناصر التالية:

. جهات يفترض أنها منتجة للمعلومات فى شتى القطاعات والإدارات والهيئات سواء بالجهاز الإدارى للدولة أو خارجة، لكنها إما لا تنتج أصلا معلومات وبيانات من النوع الذى تحتاجه الصحافة فى تقديم وجباتها للناس أو الذى يحتاجه المجتمع ككل كمرجعية للحكم عند

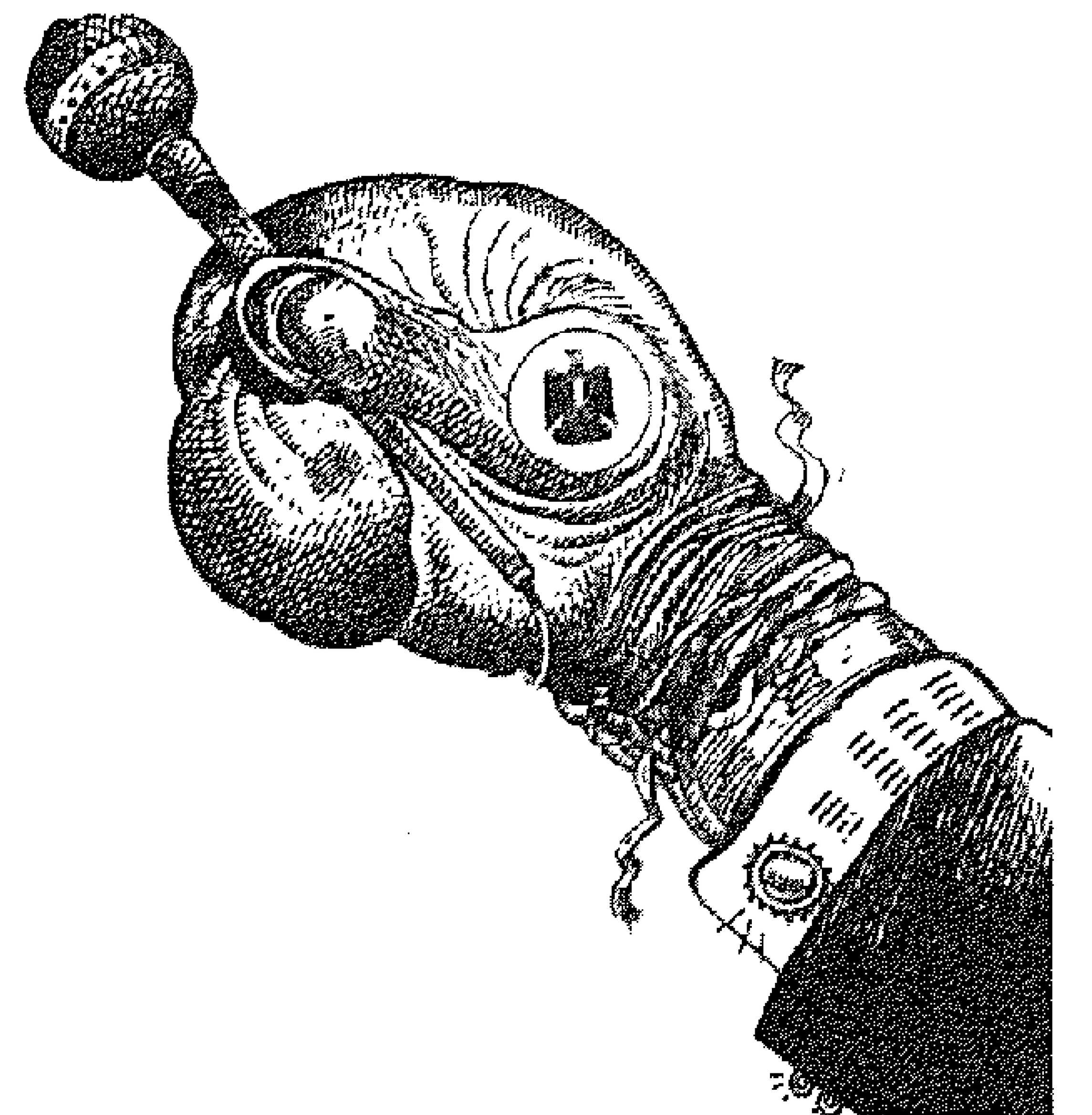


الاختلاف، أو تنتج معلومات متدنية الجودة تارة بسبب النقص وتدنى المهارات وتارة بسبب شهوة الاعتقال وعدم الاقتناع بحرية التداول.

. صحف قائمة على «طهو» وإعداد الوجبات الصحفية ولابد من الاعتراف بأن العديد منها لا يبذل الجهد الكافى فى تقديم صحافة مستندة إلى معلومات، بل يستسهل السلق اعتمادا على الاستنتاجات والانطباعات والنميمة والمحتوى السماعى غير الموثق بما فيه من تجاوزات وتهور .

. مجتمع عريض يتلقى الوجبات الصحفية كل صباح وبات كمن وقعت رقبته بين طرفى مقص، الأول غياب وتدنى المعلومات عالية الجودة أو اعتقالها لدى الجهات المنتجة، والثانى سوء الطبخ والطهو لدى بعض الصحف، وأى تحرك لهذا الطرف أو ذاك يعنى «حز» الرقبة وإسالة دمائها وإشعال حرائق من الألم فى بقية الجسد.

هذه الحالة الواضحة من عنف معلومات نبعها الأساسى هو موقف الدولة من مبدأ حرية تداول المعلومات والحق فى الحصول عليها، ويشهد على ذلك ترسانة القوانين والتشريعات التى تحض جميعها على اعتقال المعلومات وحجبها عن العلانية ووسائل الإعلام، وهى متعددة ولا مجال لذكرها الآن، ويضاف إليها الإجراءات العملية والقناعات الشخصية والممنهجة الراسخة لدى القطاع الأكبر من موظفى الدولة، خاصة نوعية الموظفين والمسئولين المنتشرين فى شتى المؤسسات والهيئات العامة والخاصة والذين يتعاملون مع المعلومات بمنطق التكويش والاعتقال، لأنهم نشأوا ومارسوا حياتهم الوظيفية وفق قاعدة الحجب التلقائى للمعلومات فى أكوام الورق والمستندات وأرتال الملفات، ولم يسمعوا بعد بالتغييرات الدرامية فى مجال الحريات السياسية وحقوق الإنسان عالميا ومحليا، وان سمعوا لا يتقبلون وان تقبلوا فعلى مضض وبروح متربصة بالجديد وتواقة للقديم، ولم يعد هناك مفر سوى التعامل معهم بقوة القانون.



حريق أسعار الحديد والاسمنت

صباح الأحد ٤ مارس ٢٠٠٧ نشرت وزارة التجارة والصناعة إعلانا بالصفحة الأولى للأهرام كان نصه كالآتى: «فى اطار جهود الوزارة لمتابعة حركة تداول حديد التسليح فى السوق وتنفيذا لقرار وزر التجارة والصناعة رقم ١٤٣ فى شأن تنظيم وتداول حديدد التسليح والذى يلزم كافة المصانع وكذلك تجار حديد التسليح بإخطار قطاع التجارة الداخلية بوزارة التجارة والصناعة يوم الأحد من كل أسبوع ببيانات هذه السلعة بدءا من يوم الأحد الموافق ٤ مارس ٢٠٠٧ وذلك على النحو التالى:

الالتزام بالإعلان عن الأسعار: يلزم القرار كافة مصانع إنتاج حديد التسليح ووكلاء وتجار حيد التسليح بالإعلان فى مكان ظاهر عن أسعار البيع «بالنسبة للمصانع أسعار البيع فى أرض المصنع أو اسعار تسليم المحافظات وبالنسبة للوكلاء والتجار أسعار البيع للمستهلك»، كما يلزم المصانع والوكيل والتاجر بالإخطار عن البيانات التالية:

. بالنسبة للمصانع: كميات الإنتاج والكميات المصدرة وأسعار التصدير وأسماء المتعاملين مع كل مصنع وعناوينهم والمحافظات التابعة لها والكميات الموجهة للسوق المحلى والمسلمة لكل وكيل أو تاجر أو مستخدم على حدة وأسعار التسليم والمخزون.

. وبالنسبة للوكلاء وتجار حديد التسليم: الكميات المستلمة من كل مصنع على حدة. أسماء المتعاملين مع كل منهم . والكميات المباعة لكل عميل وسعر البيع والمخزون.

وفى رأيى أن الإعلان بصيغته السابقة يحمل فى طياته العديد من النقاط الدالة على أن الدولة. ممثلة وزارة التجارة كجهاز بيروقراطى . تمارس نوعا من عنف المعلومات على مواطنيها فى هذه القضية، وذلك على النحو التالى:

أولا: أن الإعلان يطلب «تجميع بيانات» من المصانع والوكلاء والتجار عن حركة إنتاج وتوزيع وبيع الحديد والأسمنت، وهذا معناه أن الوزارة حتى لحظة نشر الإعلان لا تملك هذه البيانات والمعلومات عن حالة الحديد والاسمنت بالاسواق، وبالطبع فإن هذا «نقص» كبير فى محتوى معلوماتى اقتصادى حيوى كان يفترض أن يكون لدى الدولة آلية لإنتاجه وإنشائه باستمرار، وغيابه يشكل ضرر لمستهلكى هاتين السلعتين أى يمثل نوعا من «عنف المعلومات».

ثانيا: أن أدوات التعامل مع البيانات التى اعتمدها هى الورق والدورات المستندية التقليدية، بل وبعض الأدوات البدائية، فهو يطلب مثلا الإعلان عن السعر بأماكن التصنيع والبيع طلب «فى مكان ظاهر» أى يمكن أن يتم كتابة معلومة السعر على «ورقة لحمة» وتعليقها على حائط، وبالنسبة لإرسال البيانات للوزارة طلب وضعها «فى مظروف ورقى مغلق» وتسليمها عبر مندوب إلى مقر الوزارة، وهذا معناه ان البيانات المرسلة عن حركة البيع والإنتاج والتوزيع من واقع الدفاتر تفتقر إلى مرجعية لحظية سريعة للتحقق من صحتها عبر مقارنتها بالبيانات الموثقة فى دفاتر ووثائق التجار والمصنعين والوكلاء، الأمر الذى يمهد لنشأة فجوة معلوماتية بين ما يصل للوزارة وما يتم فعليا على أرض الواقع، ولا يمكن عمليا تجاوز هذه الفجوة إلا بنزول مسئولى الوزارة للاطلاع على الدفاتر الأصلية، وبالتالى فإ ن الدولة تطلب معلومات من تجار ومصنعى الحديد والأسمنت وغيرهم بأسلوب يحمل فى طياته ثغرات يمكن استغلالها فى التلاعب بالمعلومات، أى الإضرار بجودة وسلامة المحتوى المعلومات المطلوب بناؤه ثم استخدامه فى اتخاذ قرارات لها تأثير صاعق على ملايين المواطنين، والإضرار بجودة المحتوى هى إحدى صور عنف المعلومات كما أوردنا سابقا .

ثالثا: يطلب الإعلان أن يتم تسليم المظاريف عبر مندوبى الجهات، وبالتالى فإنه عند التنفيذ العملى سيتعين على مئات من المندوبين السفر من محافظاتهم إلى القاهرة أسبوعيا لتسليم «حضرة المظروف» المحتوى على البيانات، وعمليا ستنشأ ثغرة أخرى يمكن من خلالها ممارسة «عنف المعلومات» إن لم تكن بسبب سوء النية ومحاولة التهرب من جانب التجار فستكون بسبب ضغوط ومتطلبات السفر أسبوعيا للعاصمة للإبلاغ عن المبيعات.

رابعا: يعكس الإعلان رؤية احتكارية محدودة الأفق للغاية فيما يتعلق بحرية تداول المعلومات الخاصة بهذه القضية، لأنه يضع المعلومات الخاصة بأسعار الإنتاج والتوزيع والبيع فى حوزة الوزارة والمنتجين والمصنعين والوكلاء فقط، أما الجمهور العام صاحب المصلحة الأولى فى القضية برمتها فهو خارج نطاق تداول المعلومات الذى يحدده الإعلان، وفى هذا تغول وجور فاضح على حق بحق المجتمع فى الحصول على المعلومات المتعلقة بهذه السلعة وحقه فى الاختيار واتخاذ القرار بناء على هذه المعلومات، ولذلك فالإعلان ينحاز إلى فكرة احتكار الدولة للمحتوى المزمع إنشاؤه، واحتكار المعلومة فى حد ذاته حالة من حالات عنف المعلومات كما أوضحنا، لأنه يفتح الباب للحجب والإتاحة دونما مراعاة لحقوق مستهلكى المعلومات فى الحصول عليها.

خامسا: أن دورية جمع البيانات هى «مرة أسبوعيا» وليس على مدار اليوم، أى أن الدولة . ممثلة فى وزارة الصناعة كجهاز بيروقراطى . تساهلت فى المعيار الخاص بتوقيت المعلومة وأخذت بقاعدة الأسبوع بدلا من اليوم، فى حين أن أسواق الحديد والأسمنت فى مصر تتغير وتنقلب رأسا على عقب كل يوم وليس كل أسبوع، وهذه النظرة تعكس تدنيا فى التعامل مع المعلومات وتفريطا فى جودتها الزمنية، هو أمر يفتح بابا للتلاعب وعدم القدرة على التوظيف السليم فى التوقيت السليم، أى يفتح بابا للعنف المعلوماتى يتغذى على التفريط فى الجودة، وهنا لا يسعنا سوى القول بأن الدولة تمارس العنف ضد فئة واسعة من مواطنيها هم مستهلكو الحديد والاسمنت لصالح فئة أضيق تضم المنتجين والتجار.

هكذا عكس الإعلان فكرا تقليديا متخلفا وجامدا وخاطئا فى إدارة المعلومات المتعلقة بهذه الأزمة، وهذا نوع من العبث لأنه يكشف عن أن وزارة

التجارة تمارس عنف المعلومات بسبب قلة وعيها، فالإعلان يدل على أنها لم تسمع بعد عن نظم المعلومات ولا شبكات نقل البيانات ولا نظم المحاسبة الإلكترونية ولا شبكة الإنترنت ولم يخطر على بالها أن كل هذه الأمور أصبحت أمرا واقعا معاشا من حولها.

والحقيقة أن وزارة التجارة لم تكن هى الجهة الوحيدة بالدولة التى تورطت فى ممارسة هذه الحالة من عنف المعلومات على المواطنين، بل كانت هناك وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات ووزارة التنمية الإدارية المعنيتان بنشر المعلوماتية وتطوير الأداء الحكومى، فقد سكتتا ولم تحاولا التدخل لمساعدة وزارة التجارة وتركتاها وحدها مع أساطين صناعة الحديد والأسمنت بأدوات وأسلحة متحجرة خارج الزمن، ولم تحاولا تطويق أزمة أسعار الحديد والاسمنت بعلاج معلوماتى يستثمر ما تم إنفاقه على شبكات الاتصالات مترامية الأطراف والحاسبات التى دخلت البلاد بمئات الآلاف وغيرها، وهنا تكون مشاركة الوزارتين فى هذه الحالة من عنف المعلومات ناجمة عن التجاهل وافتقاد المبادرة والقدرة على الإبداع فى تطبيق حلول وتكتيكات من شأنها تخفيض مستوى عنف المعلومات ودوره فى إشعال أزمة أسعار الحديد والأسمنت.

حوادث القطارات والعبارات

لو دققنا النظر «معلوماتيا» فيما جرى من حوادث النقل الشهيرة التى تشهدتها مصر من آن لآخر. كغرق العبارة واحتراق قطار الصعيد وحوادث التصادم بين القطارات وحوادث الطرق البرية. سنكتشف أننا أمام كيانات مؤسسية تعيش حالة «ضبابية معلوماتية» تفرز حالة «عنف معلومات» تغرقنا جميعا فى كوارث مؤلمة .. كيف؟

فى حالة غرق العبارة السلام ٩٨ كان ثمن الساعات القليلة الفاصلة بين غرق العبارة فعليا ووصول معلومة الغرق لجهات الإغاثة هو الزج بأكثر من ١٠٠٠ شخص إلى قاع البحر الأحمر ليلاقوا حتفهم، وكان البطء وتأخر وصول هذه المعلومة فى توقيتها المناسب للجهات المفترض أن تصل إليها هو «قمة العنف» الناشىء عن اهتراء منظومة المعلومات داخل أجهزة الموانى وهيئة السلامة البحرية والشركة المسئولة وجهات الإنقاذ والإغاثة وبقية أجهزة وزارة النقل ككل،وهو ما تأكد فى الساعات والأيام اللاحقة بشكل كان أقرب إلى اللطمة القوية على وجه جهود التحول لمجتمع المعلومات التى لا يمل البعض من تكرارها ليل نهار.

بشىء من التفصيل أقول: أين كانت المعلومات الدقيقة فى حادث العبارة بدءا من المعلومات الأساسية عن الحالة الفنية للعبارة منذ لحظة شرائها ثم وصولها للمياه الإقليمية المصرية ثم التفتيش عليها ومراجعتها والتصريح لها بالعمل، من حصل على هذه المعلومات وهل احتفظ بها لنفسه أم قام بتمريرها للجهة المعنية، هل كانت هذه المعلومات دقيقة أم مضللة، وحينما وصلت للجهات المسئولة ماذا فعلت بها هل قامت باعتقالها وتخزينها أم تجاهلتها أم تعاملت معها كما ينبغى؟.. ألا يعنى كل ذلك أننا أمام حالة عنف معلومات بامتياز ولدت ونشأت وترعرعت على أكتاف اللامبالاة الإدارية واهتراء الأداء بهذه الجهات البيروقراطية؟

وحينما رقصت العبارة رقصة الموت وتأخرت عن موعد وصولها لسفاجا .. لماذا لم ترسل رسائل استغاثة تحمل معلومة الغرق فى التوقيت المناسب؟ ولماذا لم تصل إلى الجهات المعنية فى موعدها؟ ثم كيف تصل معلومة الغرق لأحد مراكز الطوارئ البريطانية بأقصى شمال الكرة الأرضية ولا تصل للموانىء المصرية التى تقع على بعد عشرات الأميال من موقع الغرق؟ أليست فضيحة أن يقوم الميناء بالنداء على السفينة حينما تأخرت عن موعد وصولها بعدة ساعات فلا ترد ثم لا يعتبر ذلك معلومة لها دلالة تستدعى التحرك؟.

وحينما توافرت بعض المعلومات حول العبارة لم نقم بترجمتها وتفعيلها فى صورة قرارات على الأرض ترحم الفقراء وتنقذ رؤوس الأبرياء من الموت والأطفال من اليتم: بل قمنا باعتقالها وحجبها عن العيون والتغاضى عنها من أجل عيون البعض، فالواضح مما نشر عقب الحادث أنه كان لدى الهيئات المعنية معلومات غزيرة مؤكدة عن تهالك العبارة وتقادمها وسوء إمكاناتها وانتهاء عمرها الافتراضى وعدم كفاءة أجهزة السلامة عليها، لكن ما حدث أن هذه المعلومات اعتقلت وحجبت وأهملت تحت وطأة زواج المال بالسلطة، فقد نشرت إحدى الصحف معلومة تقول أن وزير النقل السابق أحدث تغييرا فى بعض اللوائح والقوانين بما يسمح لهذه العبارة وغيرها بالعمل، وهذه المعلومة بالذات تؤكد أن المعلومات التى توفرت لدى الجهات المعنية جرى توظيفها عمليا بشكل عكسى، أى استخدمت المعلومة فى لى ذراع اللوائح لتتلاءم مع حالة العبارة، بدلا من استخدامها فى إخراج العبارة من الخدمة.



قسوة عنف المعلومات غير محسوسة وغير مفهومة والوعى بها وبأبعادها قد يكون شبه معدوم بالنسبة للكثيرين



حينما رقصت العبارة رقصة الموت وتأخرت عن موعد وصولها لماذا لم ترسل رسائل استغاثة تحمل معلومة الغرق فى التوقيت المناسب؟



وفى مرحلة الغرق لم تكن لدينا معلومات، فالثابت أن الجميع لم تتوافر له معلومة فى توقيت مناسب حول لحظة الغرق، وأن معلومة الغرق لم تتوفر ويتنبه لها الجميع إليها إلا بعد مرور أكثر من ست ساعات، وبعد الغرق وأثناء جهود الإنقاذ عشنا مرحلة المعلومات المضللة والمنقوصة والخاطئة بل والمدمرة، فقد ظل آلاف البسطاء من أهالى ركاب العبارة ينتظرون بلهفة لساعات طويلة فى ظل أجواء قاسية أى معلومة عن ذويهم تريح نفوسهم المكدودة المكتوية بنار الخوف على الأب والابن والأخ والزوجة القادمين من الغربة، ورأينا كيف كان الفشل فى توفير المعلومات لهؤلاء ذريعة ذات أنياب لا تعرف الرحمة، فبدلا من أن يتلقى الأهالى الملهوفون معلومات عن ذويهم، تلقوا ضربات من هراوات الأمن على رؤوسهم لأنهم تجرأوا وصرخوا من الألم وتدافعوا عفويا مدفوعين بألمهم وجراحهم نحو بوابة الميناء.

إذا وضعنا ذلك كله أمام التعريف الذى سقناه سابقا لعنف المعلومات نخلص إلى أن منظومة معلومات وزارة النقل قد مارست العنف ضد الضحايا وذويهم، وذلك بأنها سمحت بإنتاج البيانات الخاصة بحالة العبارة ثم اعتقالها فى نطاق أضيق كثيرا من نطاق استخدامها، ثم أعادت توليدها فى صورة معلومات جرى تضليلها ثم الدفع بها بعد تضليلها لكى يتم توظيفها وفقا لما فيها من تضليل، وكانت النتيجة اتخاذ قرار بإبحار العبارة رغم ما فيها من عيوب فنية، وفى ساعات الغرق عجزت هذه المنظومة عن توفير ممر آمن وسريع وفعال ينقل معلومة الغرق للجهات المعنية، وحينما يكون لدينا منظومة معلوماتية بكل هذا العجز والقصور، فالأمر لابد أن يتعدى طبيعة ونوع أدوات ومعدات ونظم وبرمجيات إدارة المعلومات فى هذه المنظومة إلى البيئة المؤسسية وبيئة العمل الشاملة التى تعمل فيها هذه الأدوات، وهنا تتولد الحاجة إلى التفتيش عن أشياء اخرى إضافية إلى جانب كفاءة النظام الإدارى ونظام التدريب وقواعد نزاهة وشفافية المعلومات وضوابط تدقيقها وأمانة نقلها وتصحيح مسارات توظيفها وعقوبات عدم تفعيلها وتوظيفها على النحو الأمثل. ■

قياسات الرأى العام:

ماجد عثمان

■ ربما يكون أول من استخدم كلمة الرأى العام هو الفرنسى مونتانى (Montaigne) عام ١٥٨٨، كما أشار الاقتصادى آدم سميث إلى «الرأى العام» فى كتابه Theory of moral sentiments ثم توالت كتابات الفلاسفة وعلماء الاجتماع بفروعه المختلفة لتأصل المفهوم.

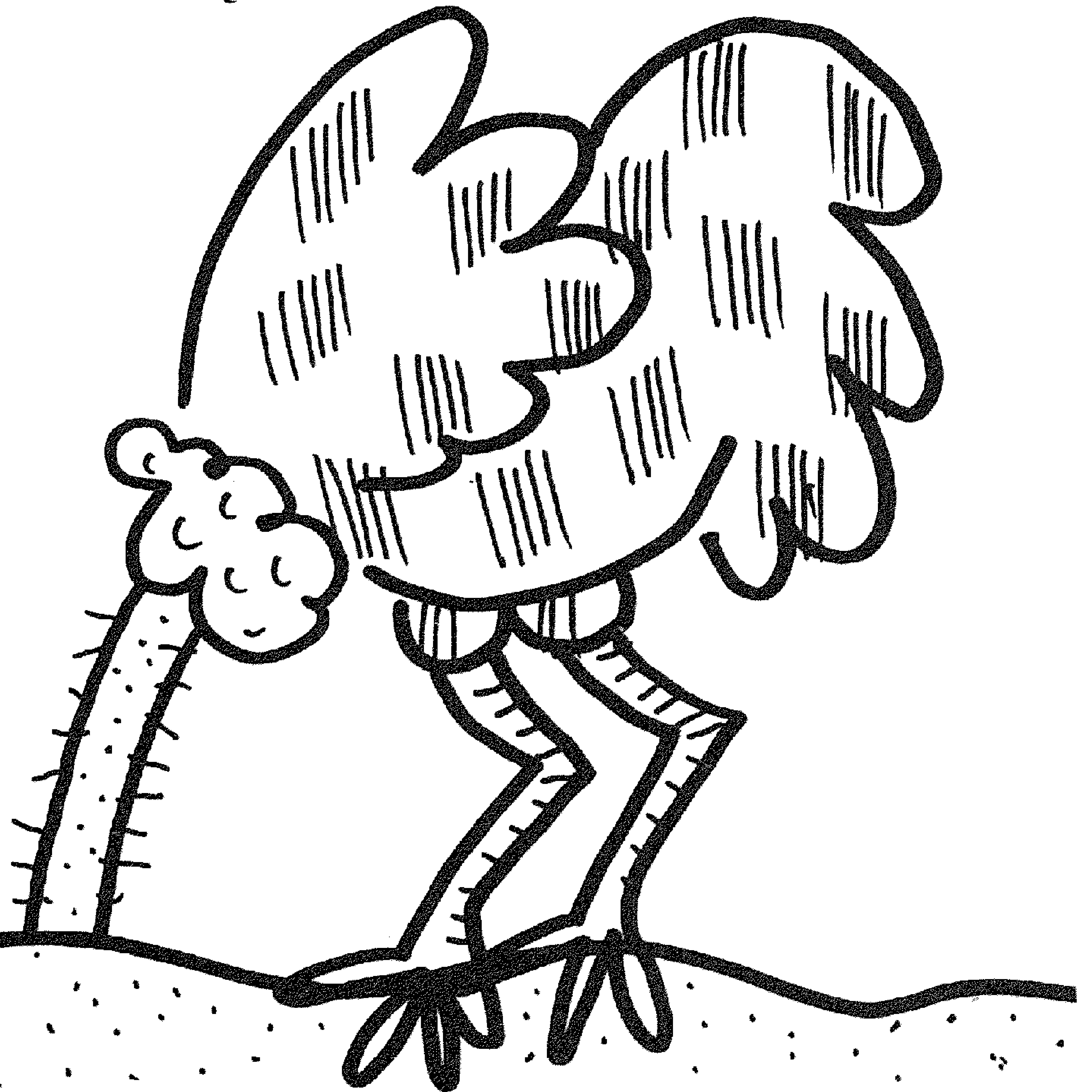
وصاحب هذا الاهتمام بالرأى العام اهتماماً موازياً بقياسه ومحاولة فهم أبعاده وجوانبه المختلفة وكيف يتشكل ويتطور ربما من أجل التنبؤ المستقبلى به وربما أيضاً للتأثير عليه وتوظيفه لتحقيق مكاسب سياسية أو اقتصادية.

ولعل أول استطلاع رأى موثق هو استطلاع محلى أجرته صحيفة The Harrisburg Pennsylvanian فى عام ١٨٢٤ وأظهرت تفوق أندرو جاكسون على جون كوينسى أدامز قبيل الانتخابات الأمريكية. وقد توافقت نتائج الانتخابات الأمريكية مع التوقعات المبنية على الاستطلاع إلا أن جاكسون والذى حصل على أعلى الأصوات لم يصل إلى ٥٠٪ من الأصوات، وبناء على الملحق الثانى عشر للدستور الأمريكى فى ذلك الوقت تم اختيار الرئيس بواسطة مجلس النواب والذى اختار آدامز ليصبح فى عام ١٨٢٥ الرئيس السادس للولايات المتحدة الأمريكية. واستمر إجراء استطلاعات الرأى العام على مستوى محلى (مدن - ولاية) حتى عام ١٩١٦ حين تم إجراء أول استطلاع للولايات المتحدة بأسرها بواسطة صحيفة The Literary Digest (والتى اندمجت عام ١٩٣٨ فى الـ Time) والذى نجح فى توقع فوز وودرو ويلسون برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية.

إلا أن استطلاع الرأى الذى قامت به الصحيفة بعد عشرين سنة كان بمثابة الضربة القاضية التى أودت بمصداقية الـ Digest حيث توقعت وقبل انتخابات الرئاسة الأمريكية لعام ١٩٣٦ بأسبوع واحد بفوز «ألف لاندون» حاكم كنساس والمرشح الجمهورى على «فرنكلين روزفلت» وهو ما لم يحدث بل إن النتيجة التى حصل عليها «لاندون» فى الانتخابات كانت من ضمن الأسوأ فى تاريخ الانتخابات الأمريكية حيث لم يفز إلا فى ولايتين فقط (فيرمونت ومين) وجاء نجاح روزفلت كاسحاً. وقد أثار هذا الاستطلاع كثير من التداعيات التى أدت إلى تعديل أساليب استطلاعات الرأى العام ونبهت إلى أهمية استخدام الأساليب الإحصائية الرصينة فى اختيار العينات وتدارس التحيز المحتمل من جراء ارتفاع نسب عدم الاستجابة. ويُذكر أن هذا الاستطلاع والذى توصل إلى نتيجة عكسية إعتمد على تحليل نتائج عينة ضخمة جداً بلغت نحو ٢.٣ مليون مواطن أمريكى وهو ما لفت الأنظار إلى أن كبر حجم العينة (كسر المعاينة) لا يشكل الضمان الكافى لتمثيل العينة للمجتمع المستهدف.

وقد تبين عند تحليل أسباب الإخفاق أن العينة المستهدفة كانت تبلغ نحو ١٠ مليون مواطن استجاب منهم ٢.٣ مليون مواطن إلا أن خصائص المستجيبين - والذين تم الاعتماد عليهم فى تحليل النتائج - كانت مختلفة عن خصائص غير المستجيبين.

ويرجع الخطأ الذى وقعت فيه الصحيفة إلى أن العينة المختارة اعتمدت على ثلاث شرائح وهى المشتركين فى الصحيفة بالإضافة إلى قائمة أصحاب الهواتف وقائمة أصحاب السيارات الخاصة، وهو ما شكل عينة من أصحاب الدخول الأعلى فى الولايات المتحدة فى النصف الأول من الثلاثينات وهى فترة شهدت كساداً اقتصادياً. ومن المعروف أن أصحاب الدخول الأعلى يكونون أكثر تعاطفاً مع الحزب الجمهورى وبالتالى جاءت نتائج الاستطلاع المبنى على عينة (حتى ولو كانت كبيرة) متحيزة للحزب الجمهورى ومختلفة عن نتيجة الانتخابات الأمريكية التى أسفرت عن



"من يخـــاف الحقيقــة؟!"

قياس الرأى العام فى مجتمعات لم يعتد مواطنوها على قدر كاف من حرية التعبير عن الرأى يجب أخذها بحذر.



فوز كاسح للمرشح الديمقراطى فرانكلين روزفلت والذى يعتبره الكثيرين أعظم الرؤساء الأمريكيين.

وقبل هذه الواقعة بعام واحد أى فى عام ١٩٣٥ تم تأسيس المعهد الأمريكى للرأى العام بواسطة جورج جالوب الأستاذ الجامعى والخبير المعروف بإسهاماته فى توظيف الأساليب الإحصائية فى دراسات السوق. وقد قام جالوب بإجراء استطلاع رأى أعتمد عليه فى توقع فوز فرانكلين روزفلت ولم تتجاوز العينة المختارة ٥ آلاف بخلاف النتيجة التى توصلت إليها The Digest الصحيفة ذات الصيت الذائع والتى اعتمدت على عينة كبيرة الحجم ولكن سيئة التصميم.

وشكلت هذه الواقعة منعطفاً هاماً فى مسار صناعة استطلاعات الرأى العام وأكدت أهمية الاعتناء بالتفاصيل المنهجية المرتبطة بالمنهج الإحصائى لاسيما أساليب العينات الاحتمالية وأرست فكرة رئيسية مفادها أن تصميم العينة أكثر أهمية من حجمها وأن جمع عينة ضخمة لا يُصلح تصميم منهجى فاسد، وأن الاستثمار فى تصميم العينة أجدى من الإنفاق على زيادة حجمها.

وجاءت انتخابات ١٩٤٨، إلا أن الانتخابات الرئاسية الأمريكية هذه المرة خذلت جالوب الذى صنع مجده من انتخابات عام ١٩٣٦ وانقلب السحر على الساحر. فقد توقع جالوب فوز «توماس ديوى» على «هارى ترومان» والذى كان نائباً للرئيس فرنكلين روزفلت وهو ما لم يحدث وأصبح ترومان رئيساً للولايات المتحدة وأستمر فى البيت الأبيض لفترتين (١٩٤٥ - ١٩٣٥). وعلى الرغم من هذه السقطة، إلا أن سجل مؤسسة جالوب يحتوى على العديد من النجاحات، وأحد النجاحات البارزة حققتها فى المملكة المتحدة عندما توقعت فوز حزب العمال فى انتخابات عام ١٩٤٥ وبعكس كل التقديرات التى أصدرها المحللين السياسيين والذين توقعوا فوز تشرشل صاحب الانجازات العسكرية فى انتخابات تجرى بعد إعلان فوز الحلفاء بأشهر قليلة فى الحرب العالمية الثانية. وجاءت النتائج صادمة لتعلن فوز حزب العمال برئاسة «كليمنت اتلى» بالأغلبية وهو ما فسره المحللون السياسيون بأن الشعب البريطانى لم يختر حزب المحافظين على الرغم من أنه حقق النصر العسكرى فى أعتى الحروب لاعتقاده بأن حزب العمال أكثر قدرة على إعادة بناء بريطانيا فى مرحلة ما بعد الحرب.

وقد شهد النصف الثانى من القرن العشرين نمو مطرداً فى صناعة استطلاعات الرأى العام تمثلت فى زيادة أعداد المؤسسات والشركات العاملة فى هذه الصناعة مع نمو ثقافة استطلاعات الرأى العام وتأثيرها فى صنع السياسات العامة وفى قياس درجه الرضا تجاه هذه السياسات وتجاه المؤسسات والسياسيين أنفسهم. وأصبحت استطلاعات الرأى جزء من نسيج العالم الحر. وبدأت فى التغلغل وبقوة فى المجتمعات التى شهدت إصلاحات سياسية وانتخابات حقيقية، كما بدأت فى التسلل على استحياء فى المجتمعات التى تخطو خطوات متباطئة فى طريق الإصلاح السياسى لعلها تجد موطئاً لقدم فى بيئة لا ترحب إلا بالحد الأدنى من التغيير.

الاستطلاعات والحكم الرشيد

يُعرف الحكم الرشيد بشروط من بينها أن يسود المجتمع مبادئ المساءلة والمشاركة والشفافية والتوافق. وتحقق هذه الشروط يرتبط إلى حد كبير باتجاهات الرأى العام ومن ثم فإن قياسات الرأى العام والتفاعل الإيجابى معها من قبل السلطة السياسية يسهم فى انتقال المجتمع فى اتجاه الحكم الرشيد.

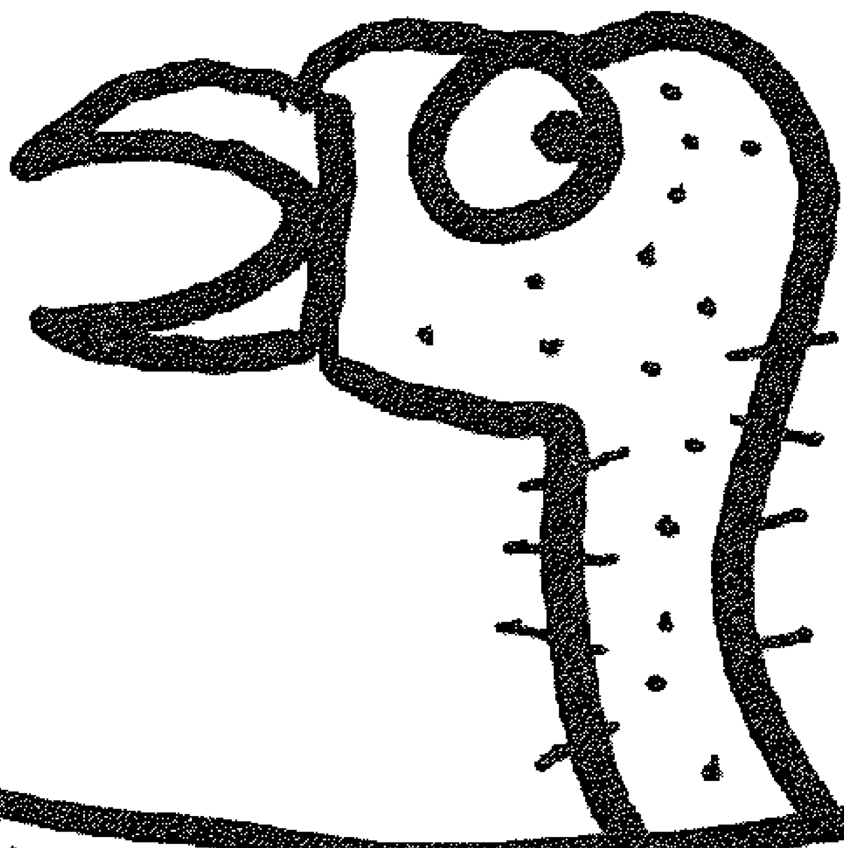
وتسهم استطلاعات الرأى العام فى تحقيق مبدأ المساءلة من خلال الاهتمام برأى المواطن فى أداء أجهزة الدولة وكفاءة تقديم الخدمات وفى كشف جوانب الفساد. وتسهم استطلاعات الرأى العام فى تحقيق مبدأ المشاركة من خلال التعرف على رأى المواطن فى تحديد الأولويات وفى اقتراح الحلول بحيث يصبح جزء من الحل وليس جزء المشكلة. ومن ناحية أخرى تسهم استطلاعات الرأى العام فى تدعيم مبدأ الشفافية من خلال الإفصاح عن تقييم أداء المؤسسات الحكومية والإفصاح عن شكاوى المواطنين وهمومهم. وأخيراً تسهم استطلاعات الرأى العام فى تحقيق التوافق المجتمعى حول القضايا الهامة من خلال خلق الحوار حول هذه القضايا استناداً إلى معلومات موثقة عن تفضيلات المواطنين ومن خلال التغذية الراجعة حول السياسات والإجراءات المطبقة فعلاً وتلك التى تنوى الحكومات تطبيقها.

إن معرفة توجهات الرأى العام واتجاهاته نحو القضايا التى تهم المواطن وكيفية التعامل معها هو أحد المصادر التى يجب أن يعتمد عليها السياسيون لصياغة سياسات عامة يكتب لها النجاح، كما أن القياس الدورى والسريع للرأى العام نحو القضايا المطروحة على المجتمع والتفاعل الإيجابى دون إبطاء مع مؤشرات الرأى العام يرسى مبادئ المشاركة والمساءلة ويساعد فى خلق إحساس بأن الدولة تضع المواطن فى بؤرة اهتمامها (Citizen Centered Approach). وتنامى هذا الإحساس يمكن توظيفه فى بناء جسور الثقة بين المواطن والدولة. وهذه الثقة المتبادلة هى شرط ضرورى لإنجاح السياسات العامة التى تتبناها وتُسوق لها أى حكومة. وهذه البيئة التى تسودها الثقة المتبادلة تضفى على المعادلة التى تحكم العلاقة بين الدولة والمواطن قدراً أكبر من العدالة التى لا تخلو من الواقعية وقدراً أكبر من الشفافية التى لا تخلو من الإنصاف.

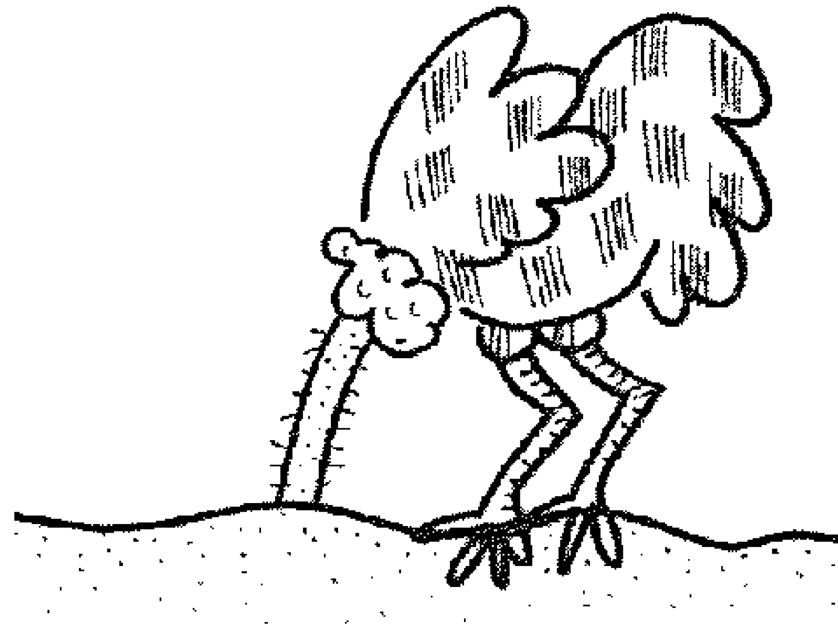
اتخاذ القرار:

تجرى العديد من المؤسسات الحكومية والخاصة والمستقلة والأكاديمية استطلاعات لقياس الرأى العام وعادة ما تتاح نتائج هذه الاستطلاعات لمتخذى القرار على المستوى القومى والمحلى وفى مجالات متنوعة سياسية واقتصادية واجتماعية ويحدث ذلك بدرجات متفاوته فى دول العالم المتقدم والنامى على حد سواء.

والسؤال الذى يطرح نفسه وبإلحاح: كيف يتعامل متخذ القرار مع هذه النتائج؟



حلمي التوني ٢٠٠٥



ويمكن القول أن مدى تفاعل السياسيين ومتخذى القرار مع نتائج استطلاعات الرأى يعتمد على العوامل الآتية:

١- مدى احترام السياسيين للرأى العام وفى بعض الأحيان ينظر السياسى نظرة متعالية للرأى العام تنطلق من إحساس ربما يصل إلى اليقين باحتكار الحكمة والقدرة على اختيار الصواب.

٢- مدى مرونة السياسيين واستعدادهم لتقبل الرأى المخالف لقناعاته.

٣- مدى قدرة السياسيين على تفهم وتذوق الأساليب العلمية فى قياس الرأى العام.

٤- مدى القوة النسبية التى يتمتع بها السياسى مقارنة بمنافسيه، وكلما زادت قوته كان أكثر استعداداً لتقبل نتائج لا تتوافق مع قناعاته الشخصية أو الأيديولوجية.

٥- مدى الاتساق بين نتائج الاستطلاعات ومصادر المعلومات الأخرى.

أساليب قياس الرأى

من الأهمية بمكان أن يتم تطبيق الأساليب العلمية فى قياس الرأى العام وعدم الانزلاق فى سلسلة من التنازلات بحجة ضيق الوقت أو قلة الموارد تنتهى بنتائج لا تعكس الواقع الفعلى المراد قياسه. وفيما يلى المراحل الأساسية التى يجب أن تمر بها أى محاولة لقياس الرأى العام من خلال الاستطلاعات.

١) تحديد واضح للغرض من استطلاع الرأى العام والجوانب التى يسعى لقياسها.

٢) توافر إطار نظرى لموضوع الاستطلاع يتم من خلاله تفكيك جزيئاته وفهم العلاقات التشابكية بينها والتعرف على المؤثرات التى تشكل الرأى العام فيما يتعلق بالموضوع محل الدراسة.

٣) تصميم أداة (أو أدوات) القياس واختبارها ودراسة درجة الصدق والثبات المقترنة بهذه الأداة.

٤) تحديد واضح للمجتمع المستهدف وللإطار المستخدم لسحب العينة.

٥) تحديد واضح للتعريفات والمفاهيم المستخدمة.

٦) تصميم جيد للعينة يتسق مع أهداف الاستطلاع ونطاقه.

٧) حساب خطأ المعاينة وهو الهامش الذى يُسلم الباحث بأنه الحد الأقصى للفارق بين مؤشرات العينة ومؤشرات المجتمع محل القياس.

٨) استخدام الآليات والإجراءات التى تحد من أخطاء التحيز ويشمل ذلك: عدم شمول إطار العينة لشرائح اجتماعية معينة - الأخطاء الناتجة عن صياغة الأسئلة - سوء أداء الباحثين - أخطاء تكويد وإدخال النتائج - عدم الحيدة المقصودة أو غير المقصودة فى تصميم العينة.

٩) التأكد من أن الخصائص الديموجرافية للعينة التى تم جمعها تتطابق مع خصائص المجتمع وفى حالة عدم تقارب واحد أو أكثر من هذه الخصائص يتم حساب أوزان نسبية لبناء العينة الموزونة Weighted Sample التى يعتمد عليها فى حساب المؤشرات من واقع عينة افتراضية تتطابق خصائصها مع المجتمع المدنى محل الدراسة.

١٠) دراسة ورصد نسب عد الاستجابة والتفاوتات فى هذه النسب بين الشرائح الاجتماعية المختلفة والتعرف على اتجاهات التحيز التى يمكن أن تقترن بها وأخذها فى الاعتبار عند تحليل النتائج.

١١) عرض النتائج بشفافية وحيادية وتجنب الانتقائية فى إبراز بعض النتائج وإخفاء البعض الآخر.

١٢) رصد محدودية الدراسة والإفصاح عنها بشفافية.

من النظرية إلى التطبيق

تبدو المنهجيات التى يجب أن تحكم استطلاعات الرأى العام وكأنها صيغت فى أبراج عاجية بعيدة عن الواقع الفعلى لقياس الرأى العام بكل تعقيداته. وعادة ما تعتمد المنهجيات الإحصائية على افتراضات يرى الممارسين لقياس الرأى العام أن تحققها نادر الحدوث ومن ثم تتكون لديهم قناعات بأن الالتزام بالمنهجيات الإحصائية من قبيل لزوم مالا يلزم وأن التحلل منها هو تبسيط غير مخل.

ومع تسليمنا بالواقع المعقد لقياس رأى البشر. إلا أن الإخلال بالمنهجيات الإحصائية - وليس الالتزام بها - هو الذى يزيد هذا الواقع تعقيداً بل يرسم علامات استفهام حول المقاييس الكمية المستخرجة سواء فى مدلولها المطلق أو حتى فى مدلولها النسبى عند عقد المقارنات الزمنية أو المكانية أو المقارنات بين الفئات الاجتماعية المختلفة (النوع - العمر - الحالة الاجتماعية - ...)، ناهيك عن التحليلات التى تحاول تلمس العلاقات السببية والتشابكات والتأثيرات المتبادلة بين الظواهر.

ومع التسليم بأن الواقع العملى لا يسمح فى بعض الأحيان بتطبيق المنهجيات الإحصائية بحذافيرها، إلا أن هناك خطوط حمراء يجب عدم تجاوزها عند إجراء استطلاعات الرأى العام وهى:

١) الحرفية فى تصميم أدوات الاستطلاع ومحاولة الوصول إلى درجة عالية من الصدق والثبات وتجريب الأداة من خلال الاختبارات القبلية التى تسبق إجراء الاستطلاع.

٢) توافر إطار يسمح بالوصول إلى المجتمع المستهدف.

٣) عدم وجود اختلاف كبير بين المجتمع المستهدف والمجتمع المعاين.

٤) الالتزام باستخدام عينات احتمالية والبعد عن العينات العمدية.

٥) تقدير خطأ المعاينة لمعرفة المدى الخاص بكل مقياس يتم تقديره من البيانات مع ملاحظة أنه لا يمكن حساب خطأ المعاينة إذا كانت العينة المستخدمة غير احتمالية.

٦) الحد من التحيز الناشئ عن الاختيار Selection bias.

٧) التحفظ فى إجراء المقارنات الزمنية أو المقارنات بين المجتمعات المختلفة إذا لم تكن أدوات القياس متطابقة ومراعاة الاختلاف فى الخصائص بين المجتمعات محل المقارنة عند الإشارة إلى التفاوتات بينها.

خبرات عملية من الواقع المصرى

ونشير فيما يلى إلى بعض الخبرات العملية التى أبرزتها الممارسة فى إجراء استطلاعات الرأى فى المجتمع المصرى والتى قد لا تنطبق بالضرورة على مجتمعات أخرى.

النوع الاجتماعى: تلعب العلاقة بين نوع الباحث ونوع المبحوث دوراً هاماً فى الدراسات الميدانية ولم يلق هذا البعد اهتماماً كافياً فى أدبيات العلوم الاجتماعية وربما أيضاً لا يتم رصده وتحليله حتى تتاح الفرصة لإجراء هذا التحليل.

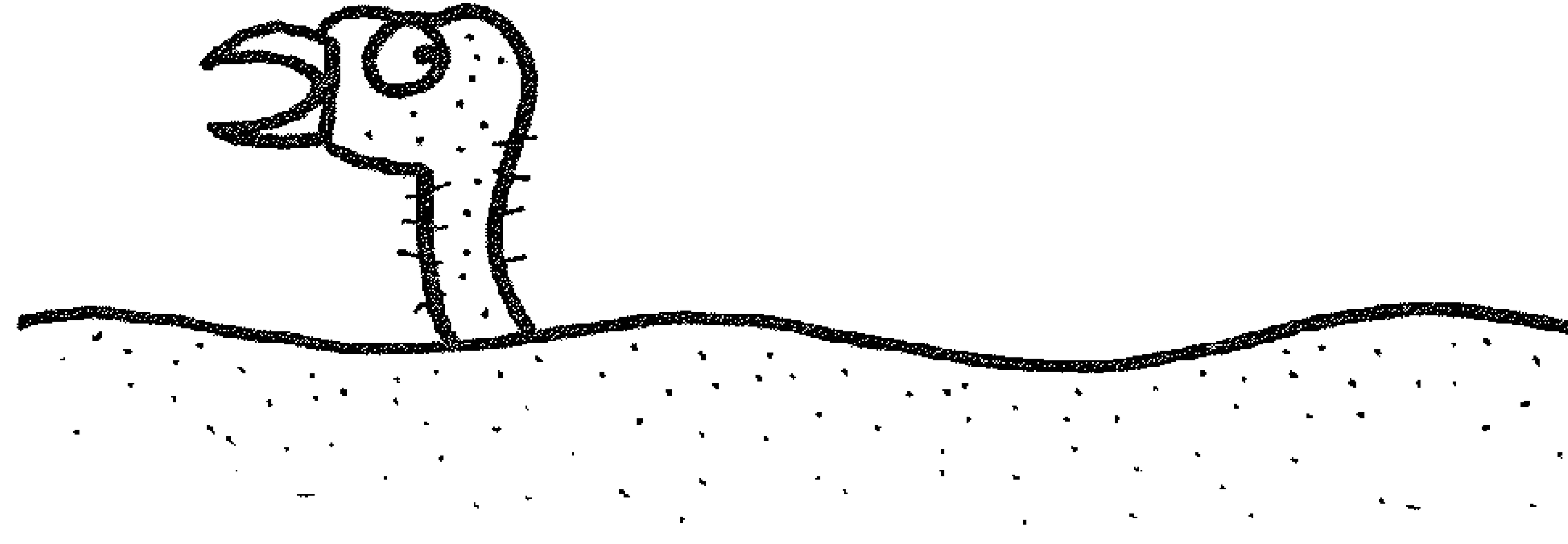
وعادة ما يهدف تصميم العينة إلى تجنب «تحيز الاختيار» من خلال إعطاء احتمالات معروفة للشرائح الاجتماعية المختلفة، كأن يتطلب تصميم العينة تحديد نوع المبحوث بشكل عشوائى من خلال مثلاً إعطاء ترقيم مسلسل للمقابلات وتستهدف المقابلة ذات الرقم الفردى مقابلة مع أنثى وتستهدف المقابلة ذات الرقم الزوجى مقابلة مع ذكر.

ويشير واقع تجربة مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار فى مصر فى إجراء استطلاعات الرأى العام بواسطة الهاتف إلى أن وجود تفاعل بين نوع الباحث ونوع المبحوث يؤثر على مدى الالتزام بشروط تصميم العينات المتعارف عليها فى الأدبيات العالمية. وقد أظهرت الممارسة الفعلية أن نسبة غير قليلة من المقابلات التى تتم من خلال الهاتف تتعرض لاحتمال رفض الإجابة إذا ما طلب الباحث إجراء المقابلة مع مبحوث من الجنس الآخر. فمثلا إذا كان الباحث ذكراً واتصل هاتفياً لإجراء استطلاع ورد عليه أحد الذكور المقيمين بالمنزل وطلب الباحث توصيله بإحدى الإناث فى المنزل



أظهرت الممارسة الفعلية أن نسبة غير قليلة من المقابلات التى تتم من خلال الهاتف تتعرض لاحتمال رفض الإجابة إذا ما طلب الباحث إجراء المقابلة مع مبحوث من الجنس الآخر





قد يؤدى ذلك إلى رفض إجراء الاتصال ويزداد هذا الاحتمال بين الشرائح الاجتماعية الأكثر محافظة.

توقيت الاتصال: يلعب توقيت الاتصال دوراً فى تحديد خصائص العينة المستجيبة، وزيادة الفجوة بين خصائص العينة وخصائص المجتمع المستهدف. فبالنسبة للمسوح الميدانية المعتمدة على الزيارات المنزلية أو بالنسبة لاستطلاعات الرأى المعتمدة على المحادثة الهاتفية فإن إجراء المقابلات أو الاتصالات فى الفترة الصباحية يؤدى إلى أن تتضمن العينة نسبة من الإناث غير العاملات ومن أرباب المعاشات تفوق نسبة تمثيلهم فى المجتمع المستهدف وهو ما يشكل تحيزاً فى النتائج يتزايد كلما تفاوتت استجاباتهم عن باقى شرائح المجتمع.

الموضوعات ذات الصبغة السياسية: عند استطلاع رأى الجمهور عن موضوعات ذات طبيعة سياسية تميل الشرائح الاجتماعية الأقل تمكيناً إلى الإجابات المتحفظة التى لا تعكس معارضة أو عدم رضا عن النظام وكأنهم يؤثرون السلامة. وهو ما يدعو إلى تحليل نتائج الاستطلاعات ذات الطبيعة السياسية بقدر أكبر من الحرص فى تفسير استجابات الشرائح المهمشة. وعادة تضم هذه الشرائح الفئات الأقل تعليماً والأقل دخلاً.

قياس الرضا عن الخدمات: تظهر نتائج استطلاعات الرأى العام بشكل منتظم أن الشرائح التى تتمتع بخدمات أفضل تكون أقل رضاً عن مستوى هذه الخدمات وهو ما يبدو تناقضاً يدعو للدهشة. فقد أظهرت استطلاعات الرأى العام التى تحاول قياس درجة الرضا عن خدمات التعليم والصحة والمواصلات والمرافق أن درجة الرضا تزيد فى الريف عن الحضر وتزيد بين الأسر التى ينتظم أبنائها فى المدارس الحكومية عن الخاصة وتزيد بصفة عامة فى المناطق التى تتمتع بخدمات أسوأ. وعلى الأرجح أن الشرائح الاجتماعية التى تحصل فعلاً على خدمات أفضل يرتفع سقف تطلعاتها لأنها أكثر انفتاحاً على العالم الخارجى وأكثر معرفة - من خلال وسائل الإعلام أو من خلال تجارب شخصية - بمستوى الخدمات المقدمة للمواطن فى الدول المتقدمة وبالتالى تكون أقل رضا عن مستوى الخدمات التى تقدم لها. ويظل المواطن الذى يحصل على مستوى متدنى من الخدمات - راض بقليله - ويسجل درجة أعلى من الرضا حتى وإن قدمت له خدمة متردية.

هل تؤثر الاستطلاعات فى الرأى العام؟

يفترض فى استطلاعات الرأى العام أنها أداه لقياس الرأى العام ويمكن استخدامها بالإضافة لأدوات أخرى ومصادر بيانات أخرى لتحليل اتجاهات الرأى العام وتفسير هذه الاتجاهات، وذلك فى إطار من الحيادية وباستخدام أساليب منهجية منضبطة تسمح باستخراج نتائج لا يشوبها العوار العلمى أو الأخلاقى. ومع ما اكتسبته استطلاعات الرأى العام من قوة وتأثير فى الحياة السياسية فى المجتمعات الديمقراطية يثير كثير من الباحثين إشكالية ما إذا كانت قوة وتأثير استطلاعات الرأى العام قد تحولت لتلعب دوراً مختلفاً وتجاوزت دورها المفترض فى القياس المحايد لتؤثر وربما لتتلاعب بالرأى العام. ويرى البعض أن هناك علاقة تفاعلية قد نشأت بين استطلاعات الرأى العام والرأى العام نفسه. وبعبارة أخرى لم يقتصر دور استطلاعات الرأى العام على دور الراصد لقياس الرأى العام بل أصبح له دوراً خفياً يفترض ألا يلعبه وهو التأثير فى الرأى العام ذاته.

وهنا يجب أن نفرق بين نوعين من التأثيرات: الأول تأثيرات مقصودة تتم بأسلوب تآمرى لتحقيق فائدة معينة لأحد الأطراف أو أحد جماعات المصالح أو الضغط وهذه التأثيرات هى تأثيرات مرفوضة أخلاقياً كأن يتم عمل استطلاعات رأى حول مرشح انتخابى بناء على عينة متحيزة بهدف المبالغة فى شعبيته أو التقليل منها لتحقيق أهداف انتخابية.

والنوع الثانى هو تأثيرات غير مقصودة ناتجة عن رد فعل بعض شرائح من الرأى العام لنتائج الاستطلاعات. وعلى سبيل المثال فإن تأثير اللحاق بالفائز والذى يطلق عليه الـ Bandwagon Effect يحدث بين الناخبين الذين لم يحددوا موقفهم وعندما ترجح استطلاعات الرأى أحد المرشحين تنضم إليه هذه الشريحة من منطلق الانضمام للفريق الفائز (خليك مع الرايجه).

وفى المقابل قد يكون سلوك الناخبين معاكس لنتيجة استطلاع الرأى العام من قبيل تحدى الاتجاه العام وهو ما يطلق عليه Under dog Effect وربما يكون علامة تحدى من قبل شريحة من الناخبين التى استفزتها نتيجة استطلاعات الرأى وشجعتها على مساندة الخاسر (خالف تعرف).

وهذان النوعان من التأثيرات لا يمكن التنبؤ بهما بشكل قطعى فى غياب دراسات اجتماعية نفسية للمجتمع محل الدراسة ولاستجابته لموضوع الاستطلاع من خلال الأساليب الكيفية المكملة مثل المجموعات البؤرية. ويظل التحدى الأكبر هو كيفية تقدير تأثير كل منهما وهل يتكافآن؟ ومن ثم يزيل أحدهما تأثير الآخر. أم يطغى أحدهما على الآخر على نحو يؤثر فى النتائج.

قياسات الرأى وضعف التنشئة السياسية

كثيراً ما يشكك المحللون السياسيون فى صدق نتائج استطلاعات الرأى العام فى المجتمعات التى مازالت فى بدايات الإصلاح السياسى. ويرى هؤلاء المحللون أن قياس الرأى العام فى مجتمعات لم يعتد مواطنوها على قدر كافى من حرية التعبير عن الرأى يجب أخذها بحذر. وتشير نتائج استطلاعات الرأى العام التى أجريت فى مصر فى السنوات الثلاثة الأخيرة والتى تناولت موضوعات ذات صبغة سياسية أن درجة الإفصاح عن عدم الرضا تقل بين الأقل تعليماً والأقل دخلاً. ويتسق ذلك مع ما سبق الإشارة إليه من أن الشرائح الاجتماعية الأكثر هشاشة تكون فى بدايات مسيرة الإصلاح السياسى أكثر حذراً فى التعبير عن رأيها بحرية وصراحة لاسيما إذا ما تعلق الأمر بأمور سياسية كانت فى الماضى القريب من المحرمات. يضاف إلى ذلك أن انتشار ثقافة استطلاع الرأى العام هى فى ذاتها عملية تحول لا يستجيب لها الجميع بنفس السرعة. وتجدر الإشارة إلى أن وجود شرائح متخوفة من إبداء رأيها ينتج عنه تأثير يطلق عليه «التأثير التراكمى للصمت» Spiral of Silence Effect وهو التأثير الناتج عن صمت فئة «مستضعفة» أو «مهمشة» تعارض الموضوع المطروح فى استطلاعات الرأى العام ولكنها متخوفة من الإفصاح عن رفضها له وتؤثر الصمت لإحساسها بأن هناك قوة تسانده ومن ثم لا تظهر نتائج استطلاع الرأى العام هذه الشريحة بوزنها النسبى الحقيقى.

هل تتسم أدوات القياس بالثبات ؟

قضية مدى الثبات الذى يجب أن يتوافر فى أدوات قياس الرأى العام هو أحد التحديات التى تواجه الباحثين العاملين فى مجال قياس الرأى العام. ونؤكد هنا على أن الثبات مقصود به ثبات الأداة المستخدمة فى قياس الرأى العام وليس المقصود به ثبات (أو عدم تغير) اتجاهات الرأى العام. ويقاس ثبات الأداة من خلال تكرار تطبيقها على نفس الجمهور لمعرفة مدى التغير الذى يطرأ على الاستجابات من مرة إلى أخرى، ويعتبر عدم تغير الاستجابات عند التكرار مؤشراً عن ثبات الأداة. وتتطلب الحبكة العلمية أن يقيس الباحث درجة ثبات الأداة وهو أمر شائع فى الاختبارات المستخدمة فى فروع علم النفس بدرجة أكبر من باقى فروع العلوم الاجتماعية الأخرى.





تسهم استطلاعات الرأى العام فى تحقيق التوافق المجتمعى حول القضايا الهامة من خلال خلق الحوار حول هذه القضايا استناداً إلى معلومات موثقة عن تفضيلات المواطنين



كتاب الزاوية



رفاعة الطهطاوى

المرشد الأمين للبنات والبنين

فى السنة التى غادرت فيها الحملة الفرنسية مصر (١٨٠١) وُلد رفاعة الطهطاوى فى بلدة طهطا بصعيد مصر ليساهم بعد ذلك بجهود غير مسبوقة فى تحويل مصر ثقافيًا وعلميًا من حالة التخلف وحياة العصور الوسطى إلى بدايات النهضة والتقدم.

وفد رفاعة عام ١٨١٧ إلى الأزهر طلبًا للعلم واقترب من شيخ الأزهر آنذاك حسن العطار الذى احتضنه واختصه بمزيد من الرعاية لما أحس فيه من الذكاء وحب العلم.

وفى عام ١٨٢٤ أصبح رفاعة واعظًا وإمامًا لإحدى فرق الجيش المصرى، ثم رشحه الشيخ العطار للوالى محمد على لكى يكون إمامًا للمبعوثين المصريين إلى باريس عام ١٨٢٦، وهناك بدأ فى تعلم الفرنسية ودرس العلوم المقررة على طلاب البعثة ووجهه المشرفون إلى إتقان الفرنسية. وانتهز الشيخ فرصة وجوده فى باريس فأمعن النظر فى كل ما رآه، وتغلغل فى الحياة الفرنسية فعرف عن الدستور والانتخابات ومجامع العلماء وعاد إلى مصر عام ١٨٣١ وترقى فى الوظائف وعمل فى الصحافة واتجه إلى التأليف. ومن أشهر مؤلفاته: «خلاصة الإبريز والديوان النفيس»، و«تخليص الإبريز فى تلخيص باريز»، و«مباهج الألباب المصرية فى مناهج الألباب المصرية»، و«تعريب القانون المدنى الفرنساوى»، وتاريخ قدماء المصريين»، ورسالة المعادن»، وكذلك «المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين» الذى طبع لأول مرة فى مطبعة بولاق عام ١٨٧٢، وهو كتاب عن التربية.

وقد أعادت مكتبة الآداب بالقاهرة عام ٢٠٠٨ طبع كتاب «المرشد الأمين» وقدم له محمد على حسن وأحمد على حسن. واختارت «وجهات نظر» مقتطفات منه.

شهدت الدول النامية انفراجة تدريجية سمحت بهامش من الحرية صاحبه ازدهار نسبى فى صناعة استطلاعات الرأى العام



وفى كثير من الأحيان يواجه قياس ثبات الأسئلة المستخدمة فى استطلاعات الرأى صعوبات عملية مرتبطة بالعثور على نفس المفردة مرة أخرى. وفى بعض الأحيان يكون السؤال الموجه إلى الجمهور لا يتسم بقدر عالٍ من الثبات إلا أن ذلك لا يشكل تغيراً يذكر فى مجمل النتائج. وعلى سبيل المثال، فإن توجيه سؤال عن مدى الرضا عن العمل الذى يقوم به المبحوث، إذا ما تم توجيهه فى الصباح قبل الذهاب لعمله قد يعطى إجابات أكثر إيجابية مما لو تم توجيه السؤال فى المساء بعد العودة من العمل. إلا أن توزيع المقابلات على ساعات النهار يزيل فى المتوسط التحيز الناتج عن عدم ثبات هذا السؤال. بمعنى آخر، فإن توجيه السؤال لنفس الشخص مرتين، مرة فى الصباح، وأخرى فى المساء قد يعطى استجابات مختلفة لصالح الاستجابات الصباحية. إلا أن توزيع المقابلات على مدار اليوم يؤدى إلى الوصول إلى درجة رضا للمجتمع المستهدف لا تختلف فى المتوسط إذا ما تم تكرار السؤال. وبمعنى آخر فإن الثبات قد لا يتحقق على المستوى الفردى ولكنه يتحقق على المستوى الجمعى. والثبات الجمعى أكثر أهمية فى حالة قياس الرأى العام أما الثبات الفردى فقد يكون أكثر أهمية فى بعض فروع العلوم الاجتماعية الأخرى.

الإتاحة والسرية.

يهدف الإحصائى إلى جمع البيانات من أجل إتاحتها لتوظيفها على النحو الذى يسمح بأداء الدور التنموى بقدر أكبر من الفاعلية والكفاءة، ومن ثم فإن التكوين الفكرى للإحصائى يتنافى بصفة عامة مع تقييد إتاحة البيانات للكافة. ومن الشروط التى لا يتحقق الحكم الرشيد بدونها مبدأ الشفافية والذى يعنى التوسع فى إتاحة المعلومات للمواطن كحق من حقوقه. ومدى تحقق الحكم الرشيد يرتبط بمدى تحرك مؤسسات المجتمع من مبدأ «المعلومات على قدر الحاجة» إلى مبدأ «المعلومات حق لكل مواطن».

ومع إيماننا الكامل بأنه فى غيبة المعلومات فإن النجاح لا يأتى إلا مصادفة وأن إتاحة المعلومات يجب أن تكون هى الأصل وماعداها الاستثناء، إلا أن هناك شرطين مقيدين لإتاحة البيانات يجب عدم إغفالهما: الشرط الأول مرتبط بعدم تعارضها مع الحفاظ على سرية البيانات الشخصية وهذا القيد يشكل العمود الفقرى لأخلاقيات مهنة الإحصاء والتى لم تُترك فقط للضمير الإنسانى وإنما نظمتها القوانين. ومنها القانون المصرى الذى يُجرم إفشاء بيانات شخصية تتعلق بشخص معين (أو أسرة أو منشأة) إذا كان قد تم جمع هذه البيانات لأغراض التعداد السكانى أو فى إطار مسوح ميدانية حتى لو كانت هذه البيانات يمكن استخدامها فى تأسيس مخالفة قانونية (مثل التهرب من الضرائب). والإحصائى فى ذلك - مع الفارق - مثل القس الذى يستمع لاعترافات «المذنب» ولكنه لا يستخدم هذه المادة الذى تم الاعتراف بها لمعاقبة من اعترف بها.

والشرط الثانى يرتبط بعدم تعارض الإتاحة مع مقتضيات الأمن القومى وهذا الشرط يستخدم فى بعض المجتمعات بقدر من الإفراط فى المنع الذى قد يكون فى بعض الأحيان غير مبرراً. كما أن تطبيقه يتجه فى بعض الأحيان إلى حماية أفراد أكثر من حماية الأمن القومى، وفى بعض الأحيان لا تكون هذه التفرقة سهلة. ويتطلب الأمر أن يتوافق المجتمع على تحديد جهة محايدة وذات مصداقية لتحديد الخطوط الحمراء التى يؤدى تجاوزها إلى تهديد الأمن القومى دون إفراط أو تفريط.

وبالنسبة لاستطلاعات الرأى العام، توجد إشكالية إضافية تتعلق بتعريف مالك البيانات التى تم جمعها: فمثلاً إذا طلبت جهة معينة (مؤسسة حكومية- شركة خاصة-مؤسسه من مؤسسات المجتمع المدنى-حزب سياسى-...) من إحدى مؤسسات قياس الرأى العام عمل استطلاع رأى لقياس الرأى العام حول موضوع معين. هل تعتبر نتائج هذا الاستطلاع من ضمن المعلومات التى يحق لأى مواطن الإطلاع عليها أم أن للجهة صاحبة الاستطلاع حجب هذه البيانات إذا ارتأت ذلك. وهو أيضاً موضوع يتطلب توجه مجتمعى متفق عليه يتم تبنيه.



فوبيا المحظورات

مارست حكومات العالم الثانى والثالث قدراً كبيراً من السيطرة على قياس الرأى العام وانتهجت هذه السيطرة مسارين متوازيين. تمثل المسار الأول فى التضييق على آليات وإجراءات قياس الرأى العام بواسطة مراكز البحوث ومؤسسات المجتمع المدنى ووضع الضوابط المبالغ فيها حول موضوعات الاستطلاعات وصياغة أسئلتها وضرورة الحصول على تصاريح لجمع البيانات. وتمثل المسار الثانى فى احتكار إنتاج هذه القياسات داخل جهات ذات طبيعة أمنية لا يتوافر لها الكوادر الفنية والبيئة المعرفية التى تسمح بإنتاج استطلاعات على مستوى عالى من الحرفية والمهنية.

وقد انعكست هذه البيئة المغلقة بصورة سلبية على صناعة استطلاعات الرأى. وبسقوط حائط برلين بدأت هذه السيطرة فى الانفراج فى دول المعسكر الاشتراكى وانتشرت ثقافة استطلاعات الرأى العام. كما شهدت الدول النامية انفراجة تدريجية سمحت بهامش من الحرية صاحبه ازدهار نسبى فى صناعة استطلاعات الرأى العام. وساعد على حدوث هذه الانفراجة عاملين هما العولمة وثورة الاتصالات حيث دعمت التوجهات الطاغية نحو العولمة مزيد من الأنشطة والبرامج المهتمة بقياس الرأى العام العالمى وليس فقط الوطنى. وازداد الاهتمام بدراسة التفاوتات فى الرأى العام بين الدول المختلفة واتجاه هذه التفاوتات عبر الزمن. وأصبحت مؤسسات استطلاعات الرأى العام عابرة للقارات وعابرة للثقافات. وقد واكب هذا التوجه العالمى طفرة فى الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات تمثلت فى زيادة انتشار الهاتف الثابت أو المحمول وإتاحة الاتصالات الهاتفية بين دول العالم. ولعل خدمة الاتصالات الهاتفية هى الخدمة الوحيدة التى شهدت تراجعاً مستمراً فى أسعار إتاحتها مع تحسن جودة الخدمة المقدمة وهو ما جعل التواصل عبر الدول وداخل الدول فى متناول الجميع. وبالتالى تضاءلت المسافات التى تفصل بين الدول والشعوب وأصبح التواصل عبر الأثير - الذى كان فى السابق بعيد المنال - أيسر وأرخص.

وأدى ذلك إلى ظهور بيئة عالمية جديدة يتزايد فيها الطلب على قياس الرأى العام فى المجتمعات المختلفة وتتوافر أدوات لقياسه زهيدة التكلفة وغير خاضعة لسيطرة السلطات المحلية التى لا تستطيع التحكم فى الفضاء المعلوماتى. وهو ما أدى بدوره إلى إرساء قناعة بين النخب الحاكمة فى الدول النامية بعدم جدوى السيطرة على قياس الرأى العام وأصبح الحرس القديم فى معظم الدول النامية أكثر تفهماً - حتى ولو كان بدون قناعة - لعدم إمكانية حظر قياس الرأى العام أو استئثار المؤسسات الأمنية بهذا القياس دون غيرها.

وأصبح من غير المعقول منع المراكز البحثية ومؤسسات المجتمع المدنى الوطنية من جمع بيانات يمكن جمعها من خارج الحدود سواء من خلال الهاتف الثابت أو المحمول أو البريد الإلكترونى. كما أصبحت محظورات الأمس والتى تتناول الموضوعات السياسية والدينية والأخلاقية «الحساسة» مباحات وأصبحت الخطوط الحمراء أقل احمراراً مع مرور الوقت. ■

References:

Best , Smuel J. and Benjamin Radcliff. 2005. " Polling America, An Encyclopedia of Public Opinion" vol. 1&2 Westport, CT: Greenwood Press.

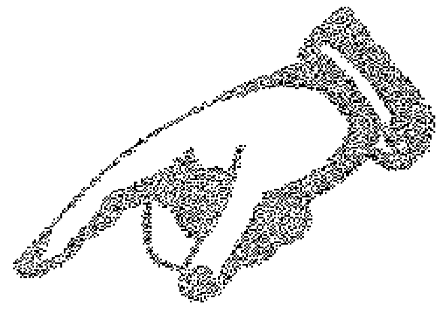
Bishop, George. 2005. The Illusion of Public Opinion: Fact & Artifact in American Public Opinion Polls. Rowman & Littlefield Publishers, Inc.

Brooker, Russell and Schaefer, Todd. 2006. Public Opinion in the 21st Century: Let the People Speak: Houghton Mifflin Company.

Saris, Willem E. and Paul M. Sniderman. 2004. Studies in Public Opinion, Attitudes, Nonattitudes, Measurement Error and Change . Princeton, NJ: Princeton University Press.

Spangenberg, Frits. 2003. The Freedom to Publish Opinion Poll Results: Report on a Worldwide Update. Lincoln NE: The World Association for Public Opinion Research.

كتاب الزاوية



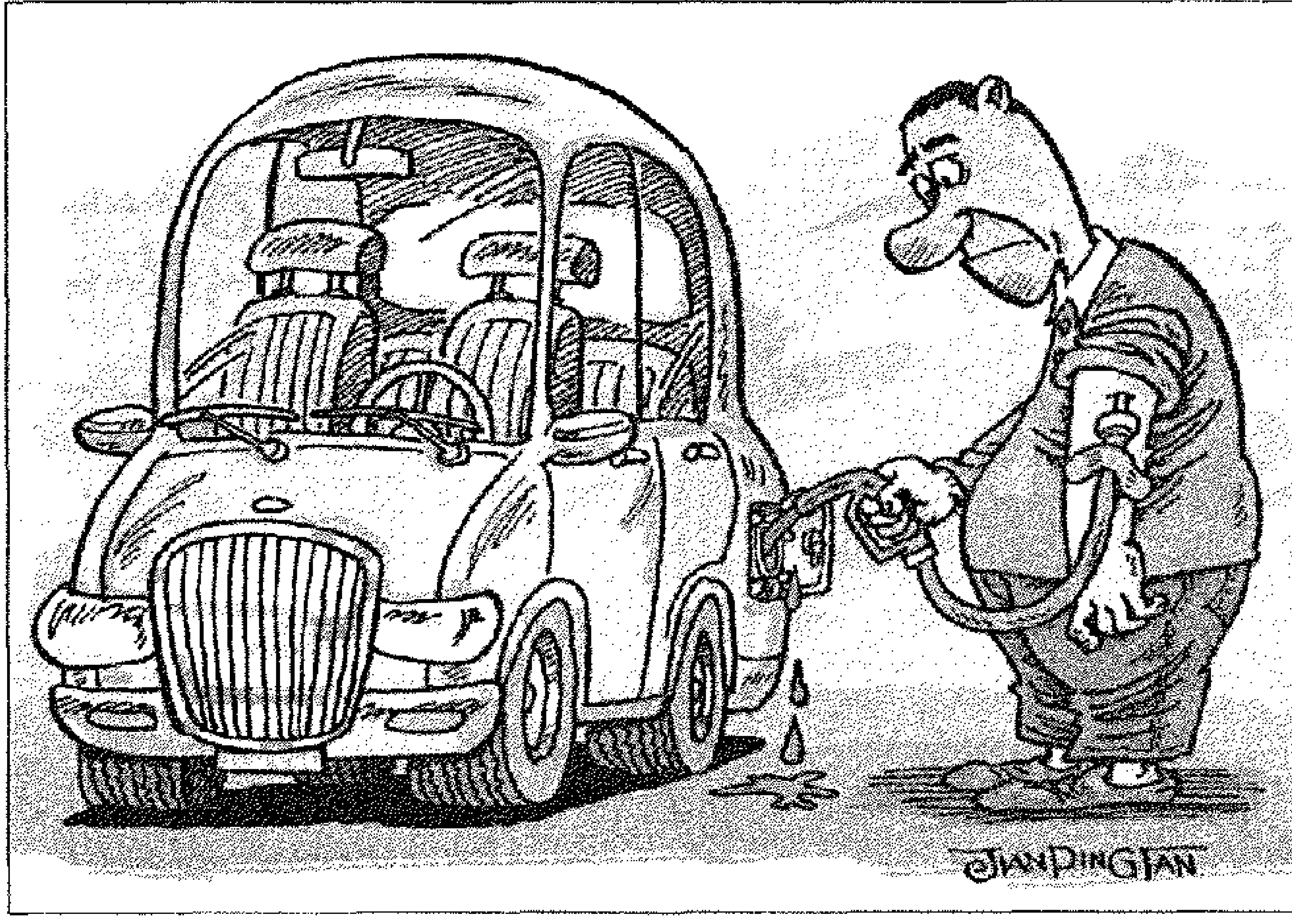
فى سعة المعارف

رفاعة الطهطاوى

سعة دائرة المعارف عبارة عن كسب جميع حقائق حوادث المعارف البشرية لاتساع عقول ذوى الألباب الزكية وهى ثمرة الإكثار من بذل الجهود فى قراءة كتب العلوم والفنون مما تقادم عهده أو تجدد وهى عبارة عن الجولان فى معرفة التاريخ ومعرفة الألسن ومعرفة الكتب المؤلفة فى أى فن من الفنون بأنواعها.

فمن المعلوم أن الغرض الأصلى من العلوم والمعارف إنما هو الانقياد لأمر الله تعالى بما اقتضته الحكمة الربانية فى بعثه للرسل عليهم الصلاة والسلام حيث إن الحكمة فى بعثهم إنما هى لانتظام أحوال العباد فى المعاش والمعاد مما لا يحصل إلا بعبادة أو معاملة أو مناكحة أو جناية فكل بالغ عاقل مكلف يعلم الحلال والحرام والعمل به لينال سعادة الدارين لكونه عمل وعمل بما فيه السعادة لمعاشه ومعاده.

ولا يتيسر معرفة امتثال أمر الشارع إلا بعلم ما جاء به ولا يتحصل العلم إلا بالاشتغال به والجد فى طلبه واستجماع أصوله وفروعه ومكملاته ومتمماته فالاشتغال به أولى ما أنفقت فيه نفائس الأوقات وهو ينحصر فى جنسين دنيوى وأخروى يعنى علوم المعاش وعلوم المعاد وقد أكرم الله سبحانه وتعالى الإنسان وخلق له ما فى الكون من سائر المنافع وزينه بالعقل الذى يميز به بين الحسن والقبيح والضار والنافع والخطأ والصواب وجعل سبحانه وتعالى الإنسان المتصف بالقريحة الذكية والملكة القوية موفقاً لتحصيل العلم واستفادته واستنباطه وإفادته.



مصر والطاقة

أزمة على الأبواب!



حسين عبدالله



النقطة الحرجة يمكن أن تحل قبل ٢٠٢٠ بسنوات تبعا لحجم التصدير. وبذلك تدخل مصر فى الصراع العالمى المتوقع لتأمين احتياجات كل دولة من الاحتياطيات العالمية الآخذة فى النضوب السريع



احمرت الصفحات الأولى من الصحف المصرية يوم ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٧ بحديث لرئيس الجمهورية فجر به مشكلة الطاقة، داعيا إلى اعادة تنشيط برنامج الطاقة النووية الذى كان على وشك التنفيذ فى مستهل الثمانينيات ثم وضع فى الأدراج. وكالعادة انطلقت الأقلام بعد حديث الرئيس باحثة عن المشكلة وكأنها قد ولدت فى تلك اللحظة ولم يكن قد مضى على إثارتها ربع قرن شرحنا خلاله أبعادها المتعددة فى عشرات المقالات والأبحاث.

ويعتبر قطاع الكهرباء من أهم مؤشرات الطلب المحلى على البترول والغاز، اذ ارتفع استهلاكه منهما من نحو مليون طن بترول مكافئ Ton of oil equivalent) toe) عام ١٩٧٥ إلى ٢١.٢مليون toe عام ٢٠٠٦، وهو ما يعادل ٤١٪ من إجمالى الاستهلاك المحلى من هذين المصدرين فى العام الأخير.

أما الطاقة الكهرومائية المولدة من السد العالى وباقى المساقط المائية على النيل فقد بلغت حدها الأقصى تقريبا عند ١٣ مليار كيلووات ساعة، وهو ما يعادل حراريا نحو ٣ ملايين toe، ولا يتجاوز ١٢٪ من إجمالى الكهرباء المولدة عام ٢٠٠٦ وبلغت جملتها (حراريا ومائيا) ١٠٩ مليارات كيلووات ساعة.

كذلك الحال بالنسبة لمصادر الطاقة المتجددة كالرياح، والتى ما زالت تحبو خطواتها الأولى، إذ لم تساهم بأكثر من نصف مليار كيلووات ساعة عام ٢٠٠٦ وهو ما يعادل حراريا نحو ١٠٠ ألف toe.

وكما يستخلص من المؤشرات المتاحة فإن معدل نمو الطلب على الكهرباء خلال الفترة ٢٠٠٦-٢٠٢٠ سوف لا يقل عن ٧٪ سنويا فى المتوسط.

أما بالنسبة للبرنامج النووى، الذى نرى أنه صار ضرورة حتمية، فإنه لا يتوقع أن تبدأ مساهمته الجدية فى سد جانب من احتياجات الكهرباء قبل ٢٠٢٠، وهذا بافتراض القدرة على تذليل العقبات التى تعترضه، وهى ليست هينة (ينظر فى ذلك دراستنا التفصيلية فى التقرير السنوى «الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية»، دار «الأهرام»، يناير ٢٠٠٨).

بذلك لا يبقى فى الأفق القريب لمواجهة احتياجات مصر من الطاقة غير الاعتماد على البترول والغاز والذى بلغ استهلاكهما المحلى عام ٢٠٠٦ نحو ٥٢ مليون toe بمعدل نمو ٦.٥٪ سنويا فى المتوسط منذ ١٩٧٥ (موزعا بنسبة ٤٠٪ لقطاع الكهرباء و٦٠٪ لغيره من الاستخدامات).

فى ضوء تلك التقديرات، فان معدل نمو استهلاك الطاقة فى مصر خلال الفترة ٢٠٠٦-٢٠٢٠ يمكن ان يتجاوز ٧٪ سنويا فى المتوسط، وذلك لعجز جهود ترشيد الطاقة عن خفضه، بل وإلغاء جهاز تخطيط وترشيد الطاقة عام ٢٠٠٦ بدلا من دعمه وتنشيط دوره.

مع ذلك فقد رأينا افتراض معدل متحفظ لنمو الاستهلاك عبر المستقبل المنظور وهو ٥٪ سنويا فى المتوسط، وذلك على أمل ان ينجح المجلس الأعلى للطاقة، الذى أعيد انشاؤه عام ٢٠٠٧ بعد غفوة طالت دون مبرر لربع قرن، فى وضع وتنفيذ برامج صارمة لترشيد الطاقة بعد ان دق ناقوس الخطر عاليا ومدويا.

وبذلك تقدر احتياجات مصر من البترول والغاز بحلول ٢٠٢٠ بنحو ١٠٣ مليون toe أو ٧٥٠ مليون برميل بترول مكافئ Barrel of oil equivalent) boe) سنويا.

على هذا الأساس يمكن ان يبلغ مجموع الاحتياجات المحلية (أى الاستهلاك المجمع) خلال الفترة ٢٠٠٦-٢٠٢٠ نحو ١١٠٠ مليون toe. واذ تقدر احتياطيات البترول والغاز المعلنة رسميا بنحو ١٦ مليار برميل) (منها ١٢ غاز)، وهو ما يعادل نحو ٢٢٠٠ مليون toe، فان نصيب مصر من احتياطيات البترول والغاز (والذى يتراوح حجمه المختلف على تقديره بين النصف والثلثين) يمكن أن ينفد بحلول ٢٠٢٠ أو بعدها بسنوات قليلة.

هذا بافتراض ان مصر لن تقوم بتصدير شئ من نصيبها من الزيت أو الغاز. أما اذا ارتفع الانتاج بحيث يغطى نصيب مصر احتياجاتها ويحقق فائضا للتصدير، فإن النقطة الحرجة يمكن أن تحل قبل ٢٠٢٠ بسنوات تبعا لحجم التصدير. وبذلك تدخل مصر فى الصراع العالمى المتوقع لتأمين احتياجات كل دولة من الاحتياطيات العالمية الآخذة فى النضوب السريع.

والواقع ان الحديث حول اقتراب عجز الامدادات النفطية العالمية عن مواجهة الطلب المتزايد عليها لم يعد حديثا عبثيا، ومن ذلك ما تتوقعه وكالة الطاقة الدولية من بلوغ إنتاج النفط التقليدى ذروته فى منتصف العقد الثانى من القرن الواحد والعشرين (أى حوالى ٢٠١٥) ليبدأ بعد ذلك رحلة النضوب الطبيعى. ومع التسليم بأن النفط غير التقليدى، ومن أمثلته النفط المستخلص من رمال القار ومن الغاز الطبيعى ومن الفحم والوقود الحيوى كالايثانول، يمكن أن يسد جانبا من العجز فى السوائل النفطية، إلا أن الوكالة تتوقع أن يقصر إجمالى العرض العالمى من النفط بنوعيه بحلول ٢٠٢٠ عن مواجهة الطلب العالمى المتزايد، وأن العالم يمكن أن يواجه بحلول العام المذكور عجزا يقدر بنحو ١٩ مليون ب/ى وهو ما ينبغى توفيره من مصادر نفطية غير تقليدية وغير معلومة فى الوقت الحاضر. (ينظر مقالنا بعنوان «وداعا عصر النفط» فى مجلة «وجهات نظر»، ديسمبر ٢٠٠٧).

والخلاصة، أنه بافتراض عدم وجود ظروف استثنائية ترفع السعر إلى

كيف يترك لشركة يرأسها موظف التصرف فى تلك الثروة وبسعر يتفق مع المشترى على أنه سرى؟ وما دواعى تلك السرية؟



مستويات لا يمكن توقعها، فإن المتوقع أن لا يقل سعر البترول عن ١٢٠ مائة وعشرين دولارا للبرميل بحلول ٢٠٢٠. ومعنى ذلك، إذا تحولت مصر إلى مستورد كامل لاحتياجاتها من البترول والغاز والتى تقدر بصورة متحفظة: بنحو ٧٥٠ مليون برميل سنويا بحلول ٢٠٢٠، فإنه سيكون عليها أن تواجه فاتورة استيراد لا تقل قيمتها عن ٩٠ مليار دولار سنويا، قابلة للزيادة مع نمو الاستهلاك المحلى من الطاقة.

فكيف يمكن تدبير هذه المبالغ، أخذا فى الاعتبار ضآلة حصيلة الصادرات المصرية غير البترولية وازدياد الاعتماد على الاستيراد لتوفير احتياجات أساسية عديدة غير بترولية؟ وماذا يحدث إذا عجزنا عن توفير احتياجاتنا من الطاقة والتى يطلق عليها بحق «شريان الحياة» Life blood؟

وهنا يفرض السؤال التالى نفسه: هل يصح، وهذه حالة الطاقة فى مصر، أن نهدر ما توفر لدينا من الغاز بتصديره ورفع إنتاجه بمعدلات فلكية، إذ قفز خلال الفترة ٢٠٠٤-٢٠٠٧ من نحو ٢٤ مليون toe إلى نحو ٥٥ مليون toe بمعدل نمو ٣٢٪ سنويا فى المتوسط. ولا يزال فى التزامات التصدير كميات كبيرة سواء من معملى الإسالة بدمياط وإدكو أم عبر الأنابيب فى خط الأردن سوريا لبنان وفى الخط البحرى لإسرائيل. وكما يؤكد رئيس الشركة القابضة للغازات فإن الإنتاج سوف يرتفع إلى أكثر من ٩٠ مليون toe بحلول ٢٠١١.

ومع أن المعلن رسميا من احتياطيات الغاز - رغم ما يحيطها من شكوك سيأتى شرحها - لا يتجاوز ١٪ من الاحتياطيات العالمية مقارنا باحتياطيات قطر التى تبلغ ١٤٪، فإن صادرات مصر من الغاز عام ٢٠٠٦ (١٧ مليار متر مكعب) تجاوزت نصف صادرات قطر (٣١ مليار متر مكعب)، كما تجاوزت مثلى صادرات إيران (٧ مليارات متر مكعب) التى تتمتع بنحو ١٦٪ من الاحتياطيات العالمية وتوجه إنتاج الغاز الإيرانى بكامله للاستهلاك المحلى، وهو أفضل استغلال، اقتصاديا وبيئيا.

على تلك الخلفية من النمو الفلكى فى الإنتاج والتصدير تأتى شكوك قوية حول تقدير المؤكد من احتياطيات الغاز المصرى. فقد قامت الشركات العاملة فى مصر بالاستعانة ببيت الخبرة وود ماكنزى لمراجعة تقديراتها، فقام فى تقريره المؤرخ يناير ٢٠٠٧ بتصنيف تلك الاحتياطيات إلى نوعين: يقدر أولها بنحو ٣١ تريليون قدم مكعبة ويطلق عليها «الاحتياطيات المتعاقد عليها» ويسبغ عليها صفة «التجارية». أما الباقى الذى يقدره بنحو ٣٢ تريليون قدم مكعبة فيطلق عليها «احتياطيات فنية غير متعاقد عليها» ويصفها بأنها «اكتشافات» لم تبدأ فيها التنمية. وإذ يستقر رأى مهندسى البترول على أن الاحتياطيات لا توصف بأنها «مؤكدة» قبل أن تتم تنمية الحقل ويستخرج منه ثلث ما يحتويه من النفط أو الغاز، فإن وصف التقرير للقسم الثانى من الاحتياطيات بأنها اكتشافات غير منماة ينفى عنها صفة المؤكدة التى تقتصر فقط على ٣١ تريليون قدم مكعبة.

والخلاصة، أنه إذا تحققت خطط التوسع فى إنتاج الغاز وتصديره على هذا النحو، فإن احتياطيات الغاز المعلنة رسميا (٧٠ تريليون قدم مكعبة)، مع إنتاج يبلغ ٩٠ مليون toe سنويا بحلول ٢٠١١ (٦,٣ تريليون قدم مكعبة) يمكن أن تنضب قبل مضى ١٩ عاما وليس ٣٤ عاما كما يتردد رسميا.

البرلمان وتصدير الغاز

كان بعض أعضاء مجلس الشعب قد طالبوا مؤخرا بالاطلاع على أسعار تصدير الغاز لإسرائيل فقيل لهم إنها سرية ولا يمكن كشفها إلا باتفاق طرفى العقد. أى أنه يلزم لاطلاع أعضاء المجلس عليها - وهم الأمناء على ثروة مصر الطبيعية نيابة عن الشعب - الحصول على إذن من الشركة الإسرائيلية المستوردة للغاز. فكيف يترك لشركة مصرية يرأسها موظف عام التصرف فى تلك الثروة الناضبة وبسعر يتفق مع المشترى على أنه سرى؟ وما دواعى تلك السرية؟ وما الذى يضمن عدم تورط طرفى الصفقة - وهى بطبيعتها طويلة الأجل (٢٠ عاما) وليست شحنة عارضة - فى إبرام عقود والتزامات قد تضر بالمصلحة الوطنية؟

وبصرف النظر عن موضوع السرية، فإن ثمة أسئلة تحيط بتصدير الغاز عموما مما تتطلب إجابة واضحة ومحددة من قطاع البترول، وهو ما نوجزه فيما يلى:

(١) يستفاد من أقوال ممثل الحكومة أن تكلفة إنتاج الغاز لا تتجاوز ٠,٧ دولار (٧٠ سنتا) لكل مليون وحدة حرارية بريطانية British thermal units (Btu)، وأن سعر البيع لإسرائيل حتى لو كان ١,٥ دولار لكل مليون وحدة فإنه يحقق ربحا للدولة، ولكن السعر يزيد على السعر المحلى للصناعات الثقيلة الذى سيبلغ ٢,٦٥ دولار فى نهاية ٢٠٠٩. أى أن السعر الحالى ما زال أقل من ٢,٦٥ دولار.

(٢) وأول ما يلاحظ هنا أن مبادئ الاقتصاد تؤكد أن التكلفة لا علاقة لها بالسعر فى حالة منتجات الثروة الطبيعية وإنما يتحدد السعر بعوامل العرض والطلب فى أسواق السلعة. فاستخراج الذهب وإن تكلف جنيهات قليلة لا يبرر بيعه بسعر يقل عن السعر السائد فى أسواقه بحجة أنه يحقق هامشا من الربح فوق التكلفة. وإذ يحتوى برميل من البترول على ٥,٦ مليون Btu، فإن تصدير الغاز حتى لو بلغ السعر ٢,٦٥ دولار، معناه أن تصدير ما يعادل من الغاز برميلا من البترول لا يتجاوز ١٥ دولارا، وهو ما يقل عن سدس سعر البترول الذى حقق ٩٣ دولارا للبرميل خلال الربع الأول من العام الحالى، أخذا فى الاعتبار أن الغاز أعلى جودة وأقل تلويثا من البترول. فهل يوجد إهدار لتلك الثروة النظيفة أكثر من تصديرها بهذا السعر المتدنى بينما ينبغى أن لا يقل السعر عن ١٦ دولارا للمليون Btu وهو السعر السائد فعلا فى أغلب الأسواق الرئيسية للغاز؟

(٣) جرى العرف على إدخال نص يتيح تصعيد السعر مع المتغيرات التى تطرأ على أسواق السلعة التى تغطيها عقود طويلة الأجل، ومنها عقود تصدير الغاز التى يمتد أجلها إلى ٢٠ عاما أو أكثر. فهل تضمنت عقود تصدير الغاز المصرى مثل هذا النص وما محتواه؟ أم أن هذا النص يعتبر أيضا من الأسرار التى لا تكشف إلا باتفاق البائع والمشترى؟



(٤) ويقول ممثل الحكومة إن عقود تصدير الغاز تراجع الآن بهدف رفع السعر وهو ما يحقق ١٨ مليار دولار كعائد إضافى خلال الأعوام العشرين القادمة. وهذا كلام مرسل لا يستند إلى أساس علمى أو عملى إذ لا يمكن التنبؤ بما سيكون عليه الحال عبر المستقبل والأغلب أن مصر ستتحول إلى مستورد للغاز وللبترول وبأسعار لا تحتمل كما أوضحنا فيما سبق.

هنا ينبغى الاعتراف بأن إقامة مشروعات لتصدير الغاز لإسرائيل أو لغيرها كان خطأ استراتيجيا جسيما، وخاصة إذا أخذ فى الاعتبار تدنى الأسعار التى تم التعاقد على أساسها والتى يقال إن بعض الدول المستوردة تتاجر فيه ببيعه لدول أخرى بأسعار تتجاوز أضعاف السعر الذى تدفعه لمصر. وهذا ما سوف يلجئنا لاستيراد الغاز مستقبلا بعشرات أمثال سعر تصديره الحالى. بل يحتمل أن يتعذر الحصول عليه بأى ثمن فى ظل الصراع المتوقع بين الدول لتأمين احتياجاتها من الطاقة الآخذة فى النضوب عالميا.

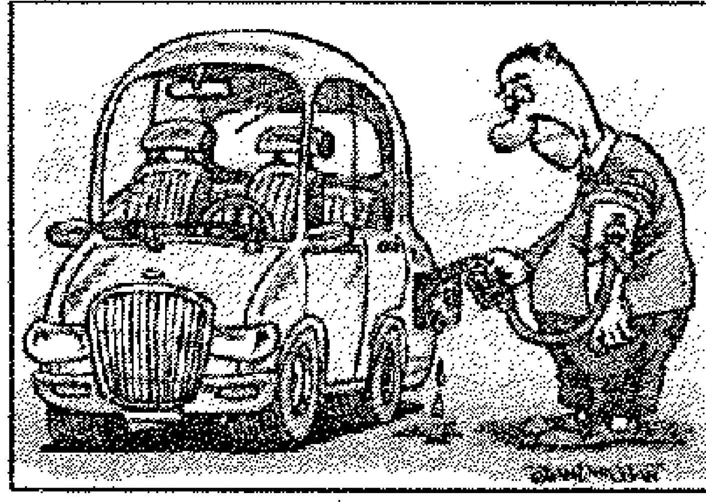
تحديد الإنتاج بالاحتياجات المحلية

فى ضوء ما تقدم، وإذ يعول على البترول والغاز لمواجهة الاستهلاك المحلى المتزايد من الطاقة عبر المستقبل المنظور، فإن الأمر يقتضى إلقاء بعض الضوء على أسلوب البحث عن البترول والغاز وتنميته وإنتاجه بالشراكة مع الشركات الأجنبية. فالتنقيب عن تلك الحقول فى مصر يجرى عن طريق التعاقد مع شركات أجنبية بموجب ما يعرف باتفاقيات اقتسام الإنتاج التى يقوم الشريك الأجنبى بمقتضاها بالإنفاق وحده على جميع العمليات. فإذا لم يتحقق اكتشاف تجارى خلال فترة أولية (٦-٨ سنوات) يغادر دون أن يسترد شيئا مما أنفقه. أما إذا تحقق اكتشاف تجارى فإن العقد يمتد أجله إلى نحو ٣٥ عاما ويبدأ الشريك الأجنبى فى استرداد نفقاته من نسبة معينة من الإنتاج الكلى يحصل عليها سنويا فى صورة عينية، ثم تقوّم بالدولار بضربها فى سعر تصدير البترول أو الغاز. ويستمر حصوله على تلك النسبة عاما بعد آخر إلى أن يكتمل سداد النفقات.

أما ما يتبقى بعد حصة سداد النفقات Cost recovery فإنه يقتسم بحيث يحصل الشريك الأجنبى على نسبة إضافية كربح صاف Equity share، ثم تحصل الدولة المضيفة (مصر) على ما يتبقى بعد ذلك.

وتتحدد حصة الشريك الأجنبى المخصصة لاسترداد





النفقات عادة بنحو ٤٠٪ من الإنتاج الكلى، كما تتحدد حصته المخصصة للربح بنحو ٢٥٪ مما يتبقى، أى ١٥٪ من الإنتاج الكلى، وبذلك يبلغ إجمالى ما يحصل عليه الشريك الأجنبى أثناء فترة استرداد النفقات نحو ٥٥٪ من الإنتاج الكلى. أما نصيب مصر فيتقلص خلال تلك الفترة إلى ٤٥٪ من الإنتاج الكلى.

وفى ضوء التجارب الفعلية التى شملت جميع الشركات الأجنبية العاملة فى مصر على امتداد فترات غطت استرداد النفقات، يختلف الرأى حول متوسط نصيب مصر من الإنتاج الكلى، إذ يرى البعض أن هذا النصيب لا يتجاوز النصف، بينما يرى قطاع البترول أنه يقترب من ثلثى الإنتاج اعتمادا على بيانات سنوات معينة وليس على المتوسط الطويل الأمد.

وسواء كان النصف أو الثلثين، فإن الأرقام الفعلية للإنتاج والاستهلاك المحلى، كما وردت فى تقرير الجهاز المركزى للمحاسبات، تؤكد أن مصر صارت مستوردا صافيا للبترول والغاز، إذ يتجاوز استهلاكها المحلى منهما نصيبها من الإنتاج الكلى، مما يلجئها إلى تغطية العجز بالشراء من نصيب الشريك الأجنبى وبالعملة الأجنبية.

وتوضيحا لذلك، فقد بلغ الإنتاج الفعلى للبترول والغاز خلال العام المالى ٢٠٠٤/٢٠٠٥ نحو ٥٨ مليون طن بترول مكافئ toe، كما بلغ نصيب مصر منهما نحو ٣٩ مليون toe. هذا، بينما بلغ الاستهلاك المحلى من البترول والغاز فى العام المذكور ٤٩ مليون toe. ومعنى ذلك أن مصر قامت بشراء العجز الذى يبلغ نحو ١٠ عشرة ملايين toe من نصيب الشريك الأجنبى وحققت عجزا وليس فائضا فى العام المذكور.

وقد تكرر هذا النمط عام ٢٠٠٦ إذ بلغ الإنتاج الكلى للزيت والغاز نحو ٧١ مليون toe وبلغ نصيب مصر منه نحو ٤٤ مليون toe. أما الاستهلاك المحلى فقد بلغ نحو ٥٢ مليون toe، وبذلك يتراوح العجز الذى قامت مصر بشرائه من نصيب الشريك الأجنبى حول ٨ ملايين toe.

وقد سبق أن شرحنا رؤية مستقبلية - تكاد تكون فى حكم المؤكد - حول تحول مصر إلى مستورد لكامل احتياجاتها من البترول والغاز عبر المستقبل المنظور، وأن ذلك التحول يمكن أن يرفع فاتورة استيراد الطاقة إلى ما لا يقل عن ٩٠ تسعين مليار دولار سنويا بحلول عام ٢٠٢٠. ولا يختلف الأمر سواء كانت الواردات بترولا أو غازا أو طاقة نووية، فكلها مصادر سيتحتم دفع تكلفتها بالأسعار والعملة الأجنبية متى نضبت حقولنا من البترول والغاز.

ومن مقتضى تلك الرؤية أن نبادر بوضع استراتيجية شاملة متكاملة للطاقة، آخذة فى الاعتبار - ضمن أمور عديدة أخرى - أن نصيب مصر من الإنتاج لم يعد يغطى الاستهلاك المحلى للغاز، ومن ثم تلجأ إلى تغطية العجز بالشراء من نصيب الشريك الأجنبى، بالسعر العالمى فى حالة البترول، وبسعر لا يتجاوز ٢,٦٥ دولار للمليون Btu فى حالة الغاز وفقا للاتفاقيات الصادرة بقوانين والتى يمتد أجلها إلى ٣٥ عاما.

وإذ تشير اقتصاديات الطاقة النووية إلى أنها لا تصبح منافسة للغاز إلا إذا إذ تمتد اتفاقيات البترول والغاز إلى نحو ٣٥ عاما وهو ما يغطى العمر الإنتاجى لأكبر الحقول. وعلى الشريك الأجنبى أن يتعاون فى تأمين احتياجات الدولة المضيفة التى أتاحت له استرداد استثماراته وأرباحه أضعافا مضاعفة، وخاصة بعد الارتفاع الشاهق فى أسعار البترول. أما إصراره على التوسع فى الإنتاج والتصدير بهدف الحصول على نصيبه من تلك الاحتياطيات فى أسرع وقت ممكن فإنه يساهم فى تعريض الدولة المضيفة لمخاطر مدمرة على نحو ما شرحنا.

الاستجابة غير المبررة لمطالب الشركات

من ناحية أخرى، فإن قطاع البترول يميل إلى الاستجابة دون تردد لمطالب الشركات الأجنبية العاملة فى مصر الاتصالات والمواصلات والطرق، وموقع جغرافى متميز، ومناخ جوى ملائم.. إلخ.

(٥) كما يتوفر فى مصر مناخ استثمارى مستقر نسبيا، فلا توجد قبائل تدمر معدات الإنتاج وتقطع خطوط ضخ البترول والغاز أو تهدد حياة العاملين فى الحقول كما يحدث فى نيجيريا واليمن وغيرهما.

وكان من مقتضى توفر تلك العوامل الإيجابية إمكانية الحصول على شروط جيدة فى الاتفاقيات التى تبرم مع الشركات، ولكننا بالعكس نجد أن الشركات تحاول تعظيم مكاسبها على حساب الجانب الوطنى ومن ذلك على سبيل المثال:

(١) تعديل الاتفاقيات لصالح الشريك الأجنبى حيث زيدت حصة الشريك الأجنبى التى يحصل عليها كربح من ٢٥٪ إلى ٣٥٪ أو أكثر. ففى العقود القديمة كان النصيب الذى يحصل عليه الشريك الأجنبى كربح لا يتجاوز ٢٥٪ مما يتبقى بعد سداد النفقات. ومعنى ذلك انه بافتراض أن مجمل النفقات التى يستردها الشريك الأجنبى على أقساط تقدر بنحو ٢٠٪ من جملة الإنتاج، فإن ما يتبقى وهو ٨٠٪ يوزع بين الجانب الوطنى والشريك الأجنبى كربح صاف وفقا للعقود القديمة بحيث يحصل الجانب الوطنى على ٦٠٪ منه ويحصل الشريك الأجنبى على ٢٠٪. أما بعد تعديل العقود لصالح الشريك الأجنبى فإن التوزيع يصبح ٥٢٪ للجانب الوطنى و٢٨٪ للشريك الأجنبى.



تصدير الغاز لإسرائيل أو لغيرها كان خطأ استراتيجيا جسيما، وخاصة إذا أخذ فى الاعتبار تدنى الأسعار التى تم التعاقد على أساسها



تجاوز سعر الغاز ٦ ستة دولارات للمليون Btu (ينظر فى ذلك دراستنا التفصيلية فى التقرير السنوى «الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية»، دار «الأهرام»، يناير ٢٠٠٨)، فإننا نوصى بأن يقتصر إنتاج الغاز على ما يكفى فقط لتغطية الاستهلاك المحلى مع شراء نصيب الشريك الأجنبى بالكامل بالسعر الوارد فى الاتفاقية الصادرة بقانون والذى لا يتجاوز نصف تكلفة الطاقة النووية، مع الاحتفاظ بكامل احتياطيات الغاز (واحتياطيات البترول رغم ضآلتها) لمواجهة احتياجات الأجيال المقبلة.

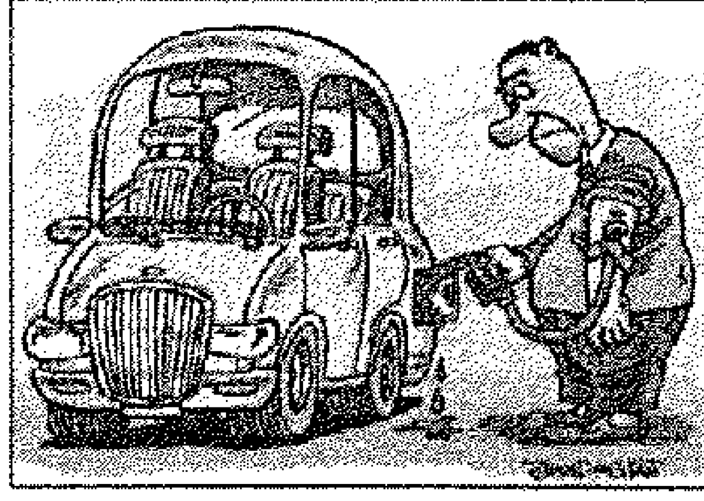
وبطبيعة الحال فإن حصة الشريك الأجنبى من إنتاج الغاز فى حالة تحديد حجمه على ما يكفى الاحتياجات المحلية لن تكون بالحجم الذى كانت عليه عندما كان الإنتاج يغطى الاستهلاك المحلى ويحقق فائضا للتصدير. ولكن الشريك الأجنبى لا يصح ان يقلق من حيث حصوله على كامل نصيبه من الاحتياطيات وإن طالت الفترة الزمنية، وذلك على الرغم مما تتمتع به تلك الشركات فى مصر من ميزات لا تجدها فى دول أخرى. ومن تلك الميزات نذكر على سبيل المثال:

(١) أن الشريك الأجنبى لا يتحمل الإتاوة التى هى حق للدولة مقابل نضوب الحقول، بصرف النظر عن الأرباح أو الخسائر التى تتحقق، إذ تتحمل هيئة البترول الإتاوة نيابة عنه.

(٢) كذلك لا يتحمل الشريك الأجنبى ضرائب الدخل التى تتحملها الهيئة نيابة عنه.

(٣) وإذا صح ما يشيعه قطاع البترول أن معدلات النجاح فى التنقيب عن البترول فى مصر تعتبر من أعلى معدلات العالم إذ تبلغ ٣٠٪ من الآبار التى تحفر، فإن المخاطر والنفقات التى يتحملها الشريك الأجنبى لا بد أن تكون أقل ما يمكن ومن ثم ينبغى أن تنعكس عند التفاوض فى صالح نصيب مصر.

(٤) كذلك تتوفر فى مصر عمالة مدربة، وبنية تحتية متقدمة كخطوط (٢) وكنا قد حذرنا من محاولات الشركات العاملة فى مصر للالتفاف حول التزامها بتزويد السوق المحلية بالغاز عبر قطاع البترول بسعر ٢.٦٥ دولار للمليون Btu وطلب تلك الشركات تزويد الصناعات المصرية مباشرة - باستبعاد قطاع البترول - وبأسعار تتجاوز هذا السعر المحدد بالاتفاقات الصادرة بقوانين. ويبدو أن قطاع البترول لم يستجب فقط لهذا الطلب بل اتجه أيضا إلى الموافقة على رفع السعر المحدد فى بعض الاتفاقيات إلى ٤.٧٠ دولار. ووجه التساؤل هنا: إذا كانت التكلفة كما يقال لا تتجاوز ٧٠ سنتا للمليون Btu فبأى حق تتقاضى الشركة ٤ أربعة دولارات كربح فوق تلك التكلفة مع أن العقد شريعة المتعاقدين وصدر بقانون؟ بل إن هذا السعر يتجاوز أيضا سعر التصدير



والذى يقول ممثل الحكومة أنه سيبلغ ٢,٦٥ دولار فى نهاية ٢٠٠٩ .

(٣) كذلك تركت الشركات لكى تجنى وحدها ثمار الارتفاع المفاجئ فى أسعار البترول خلال السنوات الأخيرة دون جهد منها، وذلك على خلاف ما يحدث فى دول أخرى نجحت فى اقتناص جانب من تلك الأرباح الاستثنائية. وقد سبق أن طالبنا فى مقال سابق واستجابت لطلبنا لجنة الصناعة والطاقة بمجلس الشعب إذ أوصت بفرض ضريبة استثنائية على الأرباح التى تجنيها الشركات نتيجة للارتفاع غير المتوقع فى أسعار البترول. (يراجع فى ذلك تقرير اللجنة المشكلة للرد على بيان رئيس مجلس الوزراء فى يناير ٢٠٠٨ ص ٢٠٨).

ولا تتعارض تلك التوصية مع المبدأ القانونى الذى يلزم أطراف العقد بتنفيذ بنوده pacta sunt servanda إذ تبنتها دول عديدة ومنها الجزائر التى قامت فى أكتوبر ٢٠٠٦ بتعديل قانون النفط والغاز بما يسمح بفرض ضريبة على الأرباح الاستثنائية التى تحققها الشركات نتيجة للارتفاع غير المتوقع فى أسعار النفط. وتسرى تلك الضريبة متى تجاوز سعر نفط برنت ٣٠ دولارا للبرميل. ومن ذلك أيضا إصلاحات الرئيس الفنزويلى شافيز الذى حرر قطاع النفط من قبضة الشركات الأمريكية التى ارتمت فى أحضانها فئة فاسدة من قيادات البترول. فوفقا لتلك الإصلاحات صار نصيب الدولة من إنتاج النفط والغاز مرتبطا بربحية الشركة العاملة فى فنزويلا، وهو ما يربط هذا النصيب تلقائيا بالأسعار العالمية. ولم تتردد فنزويلا فى تأميم نشاط أكبر شركة عالمية وهى إكسون Exxon تحقيقا للمصلحة الوطنية. كذلك قامت روسيا برفع أسعار النفط والغاز الذى تزود به أوروبا وذلك لارتباط تلك الأسعار بالأسعار العالمية السائدة. وفى الولايات المتحدة أقر مجلس النواب فى مايو ٢٠٠٦ خطة لاعادة التفاوض على تراخيص التنقيب التى أبرمت فى خليج المكسيك خلال الفترة ١٩٩٨-١٩٩٩ والتى تضمنت نصا يعفى الشركات من رسوم الاستغلال بصرف النظر عن ارتفاع أسعار النفط، كما عدلت المملكة المتحدة من طرف واحد الاتفاقيات المبرمة مع الشركات فى بحر الشمال (١٩٧٥-١٩٧٦).

(٤) أما ما يشاع عن عزوف الشركات عن الاستثمار فى الدول التى تحاول الحصول على نصيبها من تلك الأرباح الاستثنائية، فيرد عليه بأن العالم صار يواجه ندرة متزايدة فى الإمدادات النفطية مما دفع الأسعار إلى مستواها المرتفع والذى لا يتوقع أن يعود إلى ما كان عليه. والمشاهد أن الشركات صارت تتنافس فيما بينها للحصول على عقود للتنقيب فى الدول النفطية وتبدى استعدادها للتعاون مع شركات النفط الوطنية كما تقبل شروطا لم تكن تقبلها فى الماضى. ولعل مما يدعم هذا الاتجاه أن الساحة النفطية تشهد الآن ظهور دول تعانى من عجز فى احتياجاتها النفطية وتتجه للتعاقد على التنقيب فى دول نفطية مع استعدادها لتقديم تنازلات وامتيازات فوق ما تقدمه شركات النفط التقليدية، ومن تلك الدول كأمثلة الصين والبرازيل والهند. ولن تكون مصر بما لديها من امتيازات ممن يخشى انصراف الشركات عنها إذا طالبت بنصيبها المشروع فى الأرباح الاستثنائية وأعرضت عن الاستجابة لمطالب الشركات رفع أسعار الغاز الذى يستهلك محليا من أنصبتها أو أنصبتها من جملة الإنتاج.

التعتيم الضار بقضية ترشيد الطاقة

تبقى كلمة أخيرة حول قضية ترشيد الاستهلاك المحلى من الطاقة، وهو ما يقتضى إثارة وعى الشعب بخطورة الموقف حتى يقبل على المشاركة فى تنفيذ برامج صارمة لترشيد الطاقة. فهل يختلف الأمر بالنسبة لفاعلية تلك الدعوة إذا كانت مصر مصدرا للبترول والغاز عنها فى حالة قيامها بالاستيراد؟ نعم تختلف، لأن الأساس فى وجود دعم للطاقة أن تكون مصر مستوردا لها فتتحمل الموازنة بالفرق بين سعر الاستيراد والسعر المحدد فى السوق المحلية. أما إذا كانت مصر لا تزال تتمتع بفائض للتصدير، فإن الدعوة لترشيد الدعم، برفع الأسعار المحلية، تفقد منطقها وفاعليتها.

فى ظل تلك الخلفية، يفاجئنا قطاع البترول بتصريح لوزيره فى «الأهرام» ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٧ معلنا أن حصيلة صادرات البترول والغاز قد حققت ١٤ مليار دولار هذا العام، دون أن يوضح أن تلك الحصيلة لا تدخل خزانة مصر بل تدخل جيوب الشركات الأجنبية مقابل أنصبتها من إنتاج البترول والغاز، وأن مصر صارت مستوردا صافيا للبترول والغاز على نحو ما أوضحنا ويؤكده الجهاز المركزى للمحاسبات.

ومما تقدم يتبين أنه لا توجد صادرات لحساب مصر وأن كل الصادرات هى لحساب الشريك الأجنبى. ولا ينفى ذلك أن مصر تصدر بعض المنتجات المكررة الزائدة عن احتياجاتها المحلية، ولكن جملة ما تستورده من منتجات مكررة تعانى عجزا فيها وكذلك مشترياتها من نصيب الشريك الأجنبى من الزيت والغاز يتجاوز تلك الصادرات التى تتم لحسابها.

أما التناقض بين هذا العجز الذى يجعل مصر مستوردا صافيا للبترول والغاز، وبين ما يعلنه قطاع البترول عن حصيلة للصادرات بلغت ١٤ مليار دولار، فمرجعه استحداث قطاع البترول لنظام محاسبى من شأنه إخفاء التفاصيل الكاشفة عن الحقيقة. فقد جرى العرف فى الماضى على إعلان ما يسمى «ميزان مدفوعات قطاع البترول» الذى يقتصر على معاملات الجانب الوطنى ولا يدخل فيه معاملات الشركات الأجنبية التى تستقل بنصيبها وتتصرف فيه دون إدخاله فى الميزان المصرى. وكان ميزان مدفوعات قطاع البترول يكتفى بتوضيح قيمة صادرات الجانب الوطنى وقيمة وارداته بالعملة الأجنبية، متضمنا مشترياته من الشريك الأجنبى، ثم يرصد صافى الميزان الذى قد يكون موجبا يضاف لخزانة الدولة أو سالبا فيسحب منها.

> **لا توجد صادرات لحساب مصر بل لحساب الشريك الأجنبى. ولا ينفى ذلك أن مصر تصدر بعض المنتجات الزائدة عن احتياجاتها**

أما النظام المحاسبى الذى استحدثه قطاع البترول فقد تبنى صادرات الشريك الأجنبى على أنها صادرات مصرية، وأخذ يفاخر بها دون أن يذكر بجانبها أن القطاع مكبل بمديونية كبيرة مقابل مشترياته من أنصبة الشركات الأجنبية لسد العجز فى الاستهلاك المحلى، وهو ما تؤكده تقارير الجهاز المركزى للمحاسبات، بالإضافة إلى أن القطاع قام ببيع (رهن) جانب من نصيبه فى الإنتاج المستقبلى للحصول على قيمته مقدما.

وقد دفعت تلك المديونية، وبتشجيع من الشركات الأجنبية، قطاع البترول إلى الإفراط فى إنتاج الغاز الطبيعى بقصد تصديره، على نحو ما أوضحنا. وهنا نؤكد مرة أخرى أنه إذا استمرت تلك القفزات نتيجة للتوسع فى التصدير فإن احتياطيات الغاز - والتى يخضع تقديرها لقدر كبير من اللايقين - لن تعمر طويلا.

ومن ناحية أخرى، فقد طبق النظام المحاسبى المستحدث على الحسابات القومية، إذ صارت الاستثمارات البترولية تضاف إلى الاستثمار الأجنبى المباشر، ولم تكن تضاف فى الماضى لاختلاف طبيعتها إذ إنها لا تعدو أن تكون استنزافا لثروة طبيعية ناضبة وليست إضافة لرأس مال منتج تتجدد عوائده كما هو الحال فى الصناعات التحويلية. كذلك جرت العادة فى الماضى على إدخال نصيب مصر فقط من إنتاج البترول والغاز فى تقدير الناتج المحلى الإجمالى مع استبعاد نصيب الشريك الأجنبى من ذلك الناتج وأيضا من تقديرات معدل النمو الاقتصادى. أما الأرقام الحالية فتشير إلى إدخال نصيب الشريك الأجنبى فى تلك المتغيرات وهو ما يعطى دلائل مضللة ويجعل المقارنة غير صحيحة.

ولعل أخطر نتائج التعتيم، بإعلان حصيلة الصادرات البترولية دون إعلان قيمة الواردات وما يسدد للشركات الأجنبية، أن الايحاء بالوفرة البترولية، على غير الحقيقة، يجهض محاولات الحكومة لترشيد الاستهلاك برفع الأسعار، والأجدى إقناع المستهلكين بخطورة موقف الطاقة لتشجيعهم على التعاون فى ترشيد وصيانة هذا المرفق الحيوى والذى يطلق عليه شريان الحياة Lifeblood. ■

الواقع السياسى والاقتصادى والاجتماعى بيننا وبين أمريكا اللاتينية يكاد يتشابه فى مشتركات كثيرة، منها الخضوع تحت نير الاستعمار فترات طويلة.



"الرقة والقوة"

الجداريات المكسيكية.. ظاهرة استثنائية

سيد هويدى

■■ خلقت الجداريات المكسيكية واقعًا جديدًا غير مسبوق لم يكن موجودا من قبل، سواء من الناحية التقنية أو الفنية والجمالية، والثقافية باعتبارها كتبًا مفتوحة للفن والمعرفة، لكن بلغة بصرية، للدرجة التى تجعل دافيد الفارو سيكويروس واحداً من أربعة فنانين مكسيكيين كبار قادوا نهضتها الفنية فى القرن العشرين ظل يردد أن اللوحات المصورة على حامل لوحات ثانوية بالنسبة للصور الحائطية، فلوحة الحامل مجرد تجارب من أجل عمل أكبر... ففى الوقت الذى كانت تكرس فيه أوروبا لفن تشييد اللوحة وطرق بيعها وتسويقها، ظهرت فى أمريكا اللاتينية مدرسة لفن الجداريات، تجاوزت طموح الفن الحديث وهدفه فى أن تظل اللوحة حبيسة جدران بيوت الأثرياء، والمتاحف المغلقة، يراها عدد محدود، بينما كافح فنانو المكسيك إلى أن تكون الجداريات كتبا مفتوحة للناس فى الشوارع.. إذن ما هى حكاية الجداريات المكسيكية التى استبدلت الرقة بالقوة، والنظرة الحالمة بالجدية والدور المحدود للوحة بفضاء واسع جديد، وارتفعت بسقف الفن إلى سماء التواصل مع الجمهور، متجاوزة النموذج النهضوى (نسبة إلى عصر النهضة الأوروبى)، وألهبت حماس العالم من الشرق إلى الغرب على مدار قرن من الزمان للدرجة التى جعلت الولايات المتحدة الأمريكية كعادتها، فى جذب المبدعين، تستقطب فنانى المكسيك لاستنساخ التجربة رغم علمها أن التجربة وأصحابها ومنبتها تنتمى إلى توجهات أيديولوجية مغايرة وعلى النقيض من الأفكار السياسية الرأسمالية الأمريكية!!.

وعلى الرغم من أن فن الجداريات يرجع تاريخه إلى مواجهات الإنسان الأول لواقعه بالرسم على جدران الكهوف بالحجر الصوان، بغرض أن يتغلب على هواجسه بالخارج، سواء بحصوله على صيد فرائسه أو تمكنه من السيطرة على الأخطار، إلا أن مستوى جداريات هذه الأيام فى حالة قطيعة مع تلك المسيرة الطويلة، ولم يشفع تاريخ الجداريات لها، بل استخف بها فنانو العصر، بعد أن كانت الجداريات منذ بدء الخليقة تعبيراً حياً عن تطلعات ورغبات الإنسان وجزءاً أصيلاً من حياته اليومية، وتؤدى وظيفة حياتية، وتقاوم التحديات المناخية المتعاقبة، وعوامل الزمن وتقلبات الطبيعة القاسية.

تكشف كهوف تاسيلى فى الصحراء الكبرى الليبية الجزائرية، التى يرجع تاريخها على أقل تقدير إلى عشرين ألف سنة، عن خيال نادر لأشخاص بملابس فضاء، وأدوات وملابس غطس، فقد عمل الفنان الرسام الأول تحت وطأة ظروف مضنية، بسبب وجود معظم الكهوف تحت الأرض وتعذر الوصول إليها، ومنها ما يقع على بعد نصف ميل من المدخل عن المنحدر الصخرى، كما أن بعض الكهوف جد منخفضة ومعتمة، مما يدل على أن الرسام لابد أنه كان يستلقى على ظهره ليرسم أو ليلون، وفى أغلب الظن كانت المشاعل هى وسيلة الإضاءة، سواء كانت مشاعل مدخنة أو زيتية مترجرجة كإحدى الوسائل البدائية جداً، ناهيك عن أن أغلب السطوح كانت غير مستوية.

قرن الشعب

تعد الجداريات المكسيكية ظاهرة فريدة واستثنائية فى القرن العشرين تجاوزت فيها الحدود والآفاق ولم تبلغ مكانتها ظاهرة جماعية أخرى حتى الآن.

لفهم الشخصية الأمريكية اللاتينية لابد من مفتاح يعبر ممرا فى الماضى، وهو ما يعبر عنه الكاتب الكولومبى خرمان أرثينيجاس حين قال: يمكن تلخيص تاريخنا عبر القرون على الوجه الآتى: «كان القرن السادس عشر قرن الغزاة، استطاع فيه الشعب الأسبانى بزعامة قواده إن يخضع قارة بأسرها تحت حكمه. وكان القرن السابع عشر هو قرن أجدادنا، ولد فيه شعب جديد لينعم بهذه القارة. وكان القرن الثامن عشر هو قرن رواد الحرية والمبشرين بها. وكان القرن التاسع عشر هو قرن المحررين الذين فصلوا أمريكا عن أسبانيا وأبرزوا قوة الجماهير الذين انضووا تحت لوائهم».

لقد دفعنى إلى جلاء هذه التجربة الغنية التى ألهمت الكثيرين، عدة أسباب منها ما يتعلق بالتجربة المكسيكية نفسها وريادتها، وهو ما سوف نأتى على ذكره لاحقا، أما ما يتعلق بنا فقد كنا أصحاب باع طويل فى مجال الجداريات وتاريخ ثرى، لكننا ونحن نعيش فورة تتجه إلى إقامة جداريات فى أماكن كثيرة، نحتاج إلى التعرف على تجارب الآخرين، سواء على المستوى النظرى أو التقنى، خاصة أن التجربة المكسيكية قدمت إسهاماً منهجيًا يستحق التوقف والتأمل، علاوة على أن مدينة كالإسكندرية اكتسبت رواجا إعلاميا زائفا فى الفترة الأخيرة لمجرد أنها أقدمت على إقامة جداريات، وللأسف الشديد تجافى التاريخ الطويل الذى برع فيه الأجداد، ولا يفهم من ذلك استنساخ جداريات مقابر بنى حسن فى المنيا مثلا، أو تلك الجداريات الدامغة على جدران المعابد، لكن المؤكد أن تعبر الجداريات عن العصر وتفاعلاته، سواء من حيث التناول أو اختيار الخامة أو مراعاة الموقع والوظيفة الجمالية والمعنوية وعلاقة كل ذلك بالمحيط والبيئة البصرية التى يتفاعل معها المشاهد.

ثمة سبب يجعل من الجداريات المكسيكية موضوعا يفرض نفسه على بساط البحث، وهو أن الواقع السياسى والاقتصادى والاجتماعى بيننا وبين بلدان أمريكا اللاتينية يكاد يتشابه فى مشتركات كثيرة، منها الخضوع تحت نير الاستعمار فترات طويلة، والنهب المنظم للثروات، وتأثير الاستعمار السلبى على نمو المجتمعات بشكل طبيعى، بل والرجوع بالبلدان المستعمرة إلى طابع القرون الوسطى، صحيح أن أغلب بلدان أمريكا اللاتينية استقلت سياسيا عن أسبانيا والبرتغال، مع مطلع القرن

جانب من جدارية الفنان سيكوريس





جدارية «حكاية كاليفورنيا» للفنان دييجو ريفيرا - ٤٣,٨٢ متر مربع - ١٩٣١

يقف وراء ريادة وتميز وشهرة الجداريات المكسيكية عزيمة وعناد فنانين كبار يرجع تكوين أغلبهم الفنى إلى الثقافة الأوروبية.



التاسع عشر. ودول المنطقة نالت استقلالها مع نصف القرن العشرين إلا أن القارة اللاتينية وقعت تحت السيطرة الاقتصادية لجارتها الكبرى أمريكا الشمالية.

أبطال النهضة

وإذا كنا قد توجهنا بالنقد للجداريات الحالية فى وقت تعد فيه هذه الجداريات سببا للفخر لدى البعض، فلأن جداريات هذه الأيام لم تقدم جديدا يتفق مع التاريخ الطويل أو احترام الخامة المستخدمة، فأغلب الجداريات الجديدة لن تصمد أمام تحديات الزمن والعوامل الطبيعة بينما (جداريات مقابر بنى حسن) تلك الجداريات التى قاومت الزمن على الشاطئ الغربى لنيل مدينة المنيا، ودللت على براعة الفنان المصرى القديم، من حيث القدرة التصويرية أو التقنيات المستخدمة التى لجأ فيها إلى الألوان الطبيعية المتوفرة فى البيئة كزلال بيض البط وصفاره، قبل أن تعرف مصر الدجاج، ومع ذلك ما زالت صامدة حتى اليوم لم تتأثر ألوانها، وأن كانت قد تأثرت على مدار فترات القهر السياسى أيام الاحتلال الرومانى، عندما هرب إليها بعض المسيحيين من بطش المستعمر الرومانى، وإذا كان فن الجداريات قد تراجع فى بدايات ظهور الإسلام، إلا أن تزيين القصور بصور جدارية من الأشكال التى أخذ بها العالم الإسلامى منذ العهد الأول للأمويين، وهو ما رأيناه فى قصر الحير الغربى ببادية الشام وقصر عمره ببادية الأردن كما شهد القرن الرابع عشر خلال الثورة الكبرى فكرة تعليم الدين عن طريق التصوير لأول مرة، رغم شبهة تحريمه فى البدايات، إلا أن السنيين والشيعة، اجتمعوا على ضرورة تعليم الدين عن طريق الفن.

يقف وراء ريادة وتميز وشهرة الجداريات المكسيكية عزيمة وعناد فنانين كبار يرجع تكوين أغلبهم الفنى إلى الثقافة الأوروبية، فعلى الرغم من أن موضوع مناقشات الفنانين الشباب المكسيكيين المتحمسين أمثال سيكويروس وكارلوس، أوروزكو، رومير، أبطال النهضة الفنية المكسيكية فى النصف الأول فى القرن العشرين حول مشاكل الفن المكسيكى جرت على أرض فرنسية بعاصمة النور والجمال باريس، إلا أن الإعلان الثورى الذى أسفرت عنه مناقشات الفنانين الثوار طالب بضرورة استلهام فن الهنود البدائى أكثر من تبعيته للفن الأوروبى الذى وصفه الإعلان بأنه فن حضارة ميتة.

وإن كان الإعلان الثورى هو الشرارة التى أشعلت النيران التى لونت جدران المكسيك كلها أو بالمعانى الثورية وكأنها كتب فتحت على مصراعيها للثقافة البصرية والمعرفة، إلا أن الحماس والرغبة فى التغير التقت مع عزيمة السلطة التنفيذية ممثلة فى جوزيه فاسكو نسيلوس وزير التربية والتعليم الذى اختط برنامجاً ثقافياً كان على الفن أن يلعب دوراً قيادياً فيه.

كما أن الإعلان كان إيذاناً بعودة الفنانين إلى العاصمة المكسيكية مكسيكو، حيث عاد سيكويروس وأروزكو رومير وريفيرا من أوروبا، وجوزيه كليمنت أوروزكو من سان فرانسيسكو منفاه الاختيارى كما أتجه بعض الفنانين إلى المكسيك لأول مرة مثل كارلوس ميرويدا من جواتيمالا وجان شارلوا من باريس وانضم إليهم كزافير جويريرو.

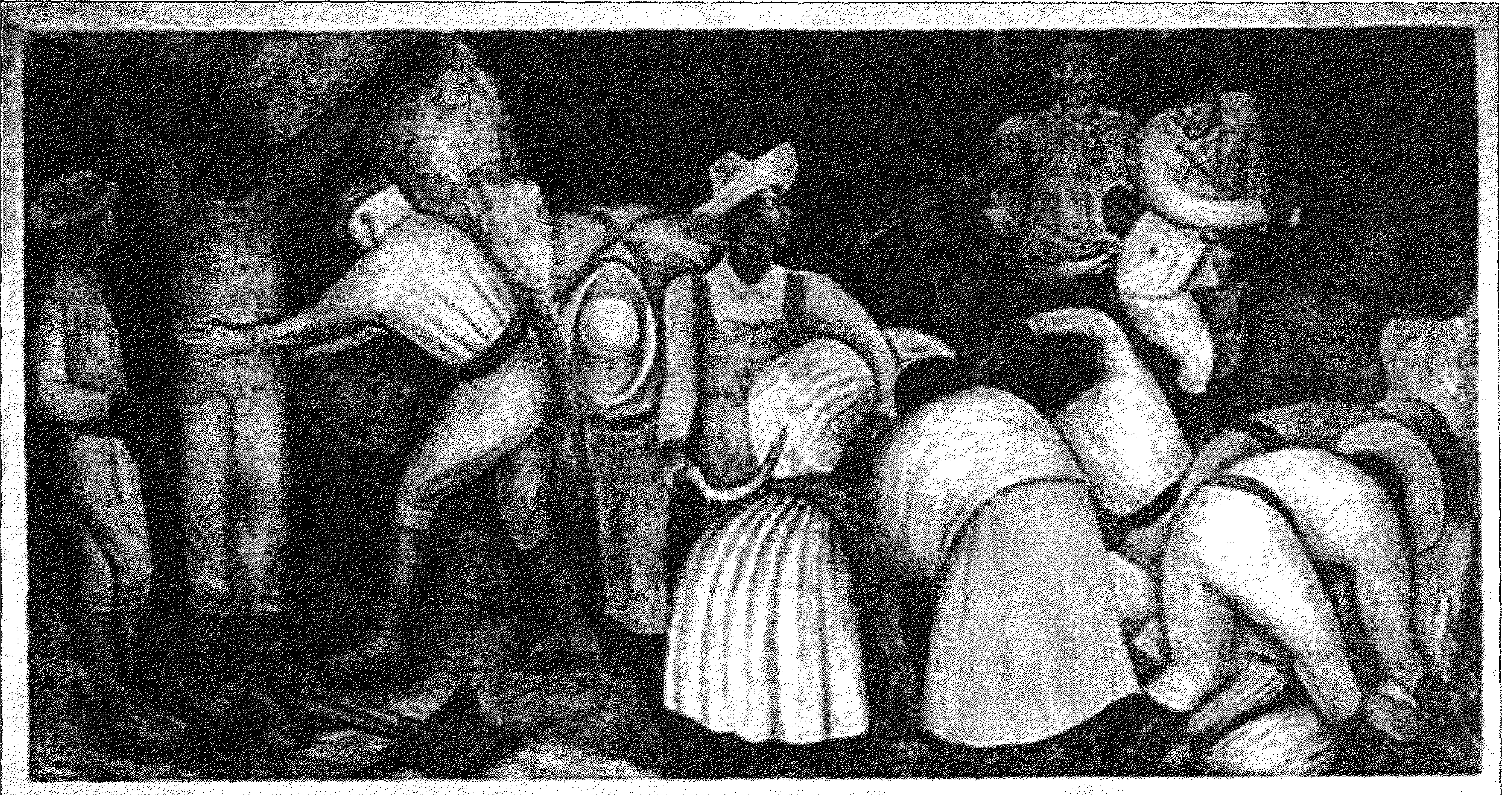
أخذت الثورة ضد الإقطاع عام ١٩١٠ منذ البداية زخماً ثقافياً دافعاً بفضل المثقفين، سواء بتبنى أفكار ومواقف ثورية، أو بالمشاركة فى القتال ضد الطغاة، وإن كان أبرز ما قدمه المثقفون للثورة هو إقناع قطاعات عريضة من الشعب فى المشاركة، لإحداث التغيير، وشهد حشد الجماهير صوراً عديدة ومؤثرة منها عندما صمم موجار باليها مكسيكية لانا بافلوفا وأقيم فى متنزه شابولبيتيكو الجميلة العاصمة مكسيكو، إلى جانب مهرجان ضخم للموسيقى والرقصات المكسيكية الشعبية.

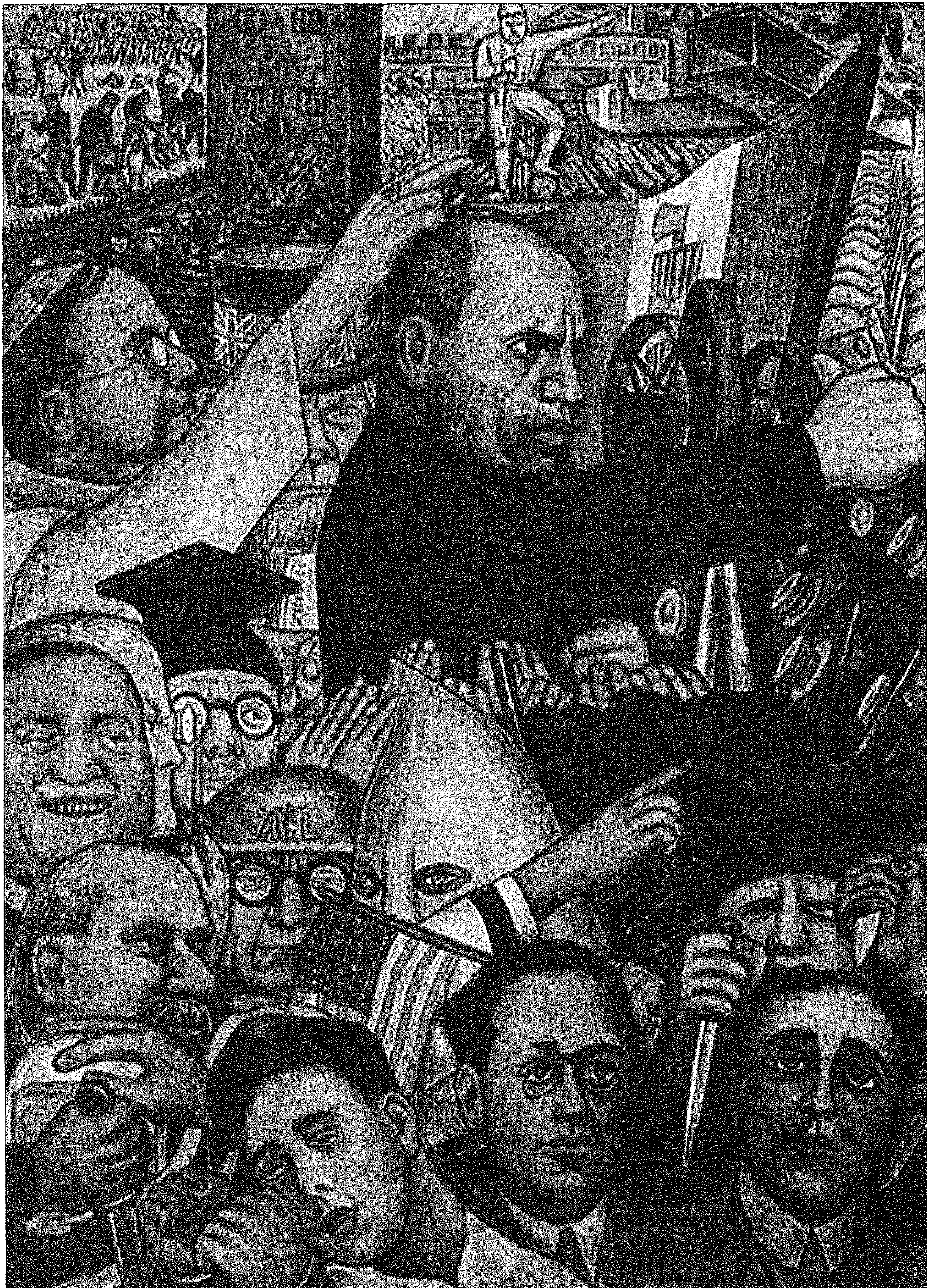
أسباب النجاح

أسباب عديدة كانت سبباً لأن تصبح مكانه جداريات الفنانين المكسيكيين الكبار واحدة من أهم أحداث وظواهر الفن فى القرن العشرين ومنها:

- النزعة القوية إلى وجود فن قومى.
- الرغبة الصادقة فى الخروج من تبعية أوروبا.
- الوعى الثورى الذى دعا إلى أن يكون للفن دور قيادى فى المجتمع.
- ربط الفن بجذوره الشعبية الأصلية.
- التفاف المثقفين حول الأفكار الراغبة فى التغير
- النهضة الفنية جاءت انعكاسا للكفاح الوطنى الشعبى الذى ولد مع ثورة ١٩١٠، وثمرة الشعور بالحرية الفكرية والروحية، التى غمرت القطاعات الشعبية بدون استثناء فى مواجهة كبار الملاك الزراعيين الذين يتحكمون فى الفلاحين.
- الاعتماد على عناصر أصيلة فى الثقافة المحلية.

جدارية «المستغلين» للفنان دييجو ريفيرا - ١٩٢٦





جدارية «موسولينى» للفنان دييجو ريفيرا ـ مدرسة العمال الجدد بنيويورك (٨٣. ١×٥٢. ١متر) ١٩٣٣

البعض يأخذ على الجداريات المكسيكية أنها خارج التصنيف الحداثى لمدارس الفن فى القرن العشرين، ربما لرفضها التبعية الأوروبية



• مناهضة الطرق النمطية القديمة والجامدة فى تعليم الفنون والخروج خارج أسوار المراسم.

• اشتراك الفنانين مع القوى الشعبية الثائرة ضد الدكتاتوريات، خاصة بعد مقتل ماديرنو القائد الذى كان قد طرد الدكتاتور بروبذر دياز، وتقلد السلطة عامى ١٩١٠. ١٩١١ .

• وعى أصحاب القرار من المسئولين بأهمية الفن للدرجة التى تجعل وزير التربية والتعليم جوزيه فاسكونسيلوس يدشن برنامجا ثقافيا يقود فيه الفن التنمية.

• عودة الفنانين من المهجر إلى الوطن الأم بهدف المشاركة فى تفاعلات الحياة السياسية والنهضة الفنية.

• وعى الفنان المكسيكى بدوره الاجتماعى والسياسى والطليعى.

وإن كان البعض يأخذ على الجداريات المكسيكية أنها خارج التصنيف الحداثى لمدارس الفن فى القرن العشرين، ربما لرفضها التبعية الأوروبية. خاصة فى ظل أن بلدان أمريكا اللاتينية الأخرى وقعت تحت تأثير المدرسة الباريسية، فيما انطلقت المدرسة المكسيكية بقوة بعد الإعلان الثورى للفنانين الكبار وبعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها فى العام ١٩٢٠ معتمدة على فن جماهيرى يتخلى عن ملكيته الخاصة للعامة فى الشوارع فى شكل جداريات، هذا التوجه القومى أضفى بعدا وطابعا تقدميا متميزا، بينما الفن الأوروبى يكرس للملكية الفردية، إلا أن ديجو ريفيرا أشهر مصورى المدرسة المكسيكية يدين بتعاليمه الفنية إلى باريس، بل واستخدم نهج الانطباعيين فى جدارياته، أما جوزيه كليمنت أوروزكو فظهر متأثرا بتعبيرية جماعة الجسر الألمانية، فى الوقت الذى التقى فيه روفيو تامايو أحد الأربعة الكبار مع أسلوب براك وغيره من أساتذة المدرسة الباريسية الحديثة، فيما تأثر سيكيروس بالمدرسة المستقبلية، فى حين يمكن القول إن فنانى المكسيك برغم أنهم نتاج ثقافة أوروبية إلا أنهم انتهجوا طابعا لاتينيا.

مع مطلع عام ١٩٢٣ بدأت تظهر الطلائع الأولى لإنتاج مصورى المدرسة المكسيكية على حوائط المبانى العامة فى العاصمة مكسيكو.

الرجوع إلى الجذور

تنتمى أصول روفيو تامايو إلى السكان الأصليين، حيث ولد عام ١٨٩٩ فى أوكساكا بالمكسيك من أبوين من الهنود الحمر، والتحق فى شبابه بأكاديمية سان كارلوس للفنون الجميلة، ارتبط تامايو بفن القبائل المكسيكية القديمة، بحكم جذوره، ومنها المايا والأزتيك والتروسكان والمكسيك، أيضا القبيلة التى ينحدر منها وهى الزابوتيك، وإن كان تامايو من أكثر أقرانه تمسكا بالجذور، إلا أنه لم يكن فى قطيعة مع الفن والمدارس الحديثة.

المدهش فى حكاية تامايو أن شهرته تحققت فى الولايات المتحدة الأمريكية، فلم يكن مصورا حائطيا، فضلا عن عدم مجاراته للحائطيين الكبار فى آرائهم السياسية، ومن ثم وجد الأمر شاقا عليه فى وطنه، وفى أوائل الثلاثينيات شد الرحال إلى الولايات المتحدة الأمريكية، سعيا وراء واقع جديد.

ولما كان تامايو مصور لوحات متوسطة الحجم بصفة أساسية فقد أمكن للعالم خارج المكسيك أن يستمتع بإنتاجه الرائع.



صورة شخصية للفنان سيكوريس

جدارية للفنان دييجو ريفيرا ـ جامعة مدينى سان فرانسيسكو. اللوحة الأولى (٧٤. ٦×٥. ٢٢متر) ١٩٤٠



وفى نيويورك حصل على فرصته الحقيقية الأولى للتصوير الحائطى، وقد أنجز فعلا فى كلية سميث عام١٩٤٣ لوحة حائطية رمزية غاية فى الإحكام، بعدها دعى للمشاركة إلى جوار أقرانه أورزوكو وريفيرا وسيكويروس.

استطاع تامايو أن يحقق معادلة تجمع بين مضمون الفن المكسيكى البدائى ورؤية تكعيبية بألوان دافئة، وذلك فى جدارية مولد الوطنية بسراى الفنون الجميلة.

أما دافيد الفارو سيكويروس

ثلاثة محاور أساسية تشكل شخصية سيكويروس الذى ينتمى إلى مدينة شيهواهوا، مسقط رأسه حيث ولد عام ١٨٩٨ المحور الأول معايشته لويلات الحروب، منذ أن التحق عازفا للطبل فى جيش التحرير المكسيكى وهو ما يفسر عظمته فى أقوى لوحاته (أصداء صرخة) والتى تجسد ما تفعله الحروب من تدمير للحضارات وقتل للأبرياء، بل تعد صرخة احتجاج ضد الحرب، أما المحور الثانى فى شخصية سيكويروس هو نزعته وحسه الاجتماعى، وأسلوبه الجديد فى التعبير عن المعانى الاجتماعية فى الفن، فيما يعد أهم ما يميزه نزعته الابتكارية سواء بامتلاكه أسلوب الواقعية الديناميكية التى استطاع من خلالها الإيهام بالحركة من خلال تكرار أجزاء معينة من الأشكال التى يرسمها، فتبدو أنها تتحرك، أو بحثه المستمر عن خامات وأدوات ملائمة لاستخدامها، فقد أنتج لوحات بمادة البيروكسلين فى عام ١٩٣٢؛ كما أنشأ معمل سيكويرس لتنمية الخامات الجديدة للتصوير.

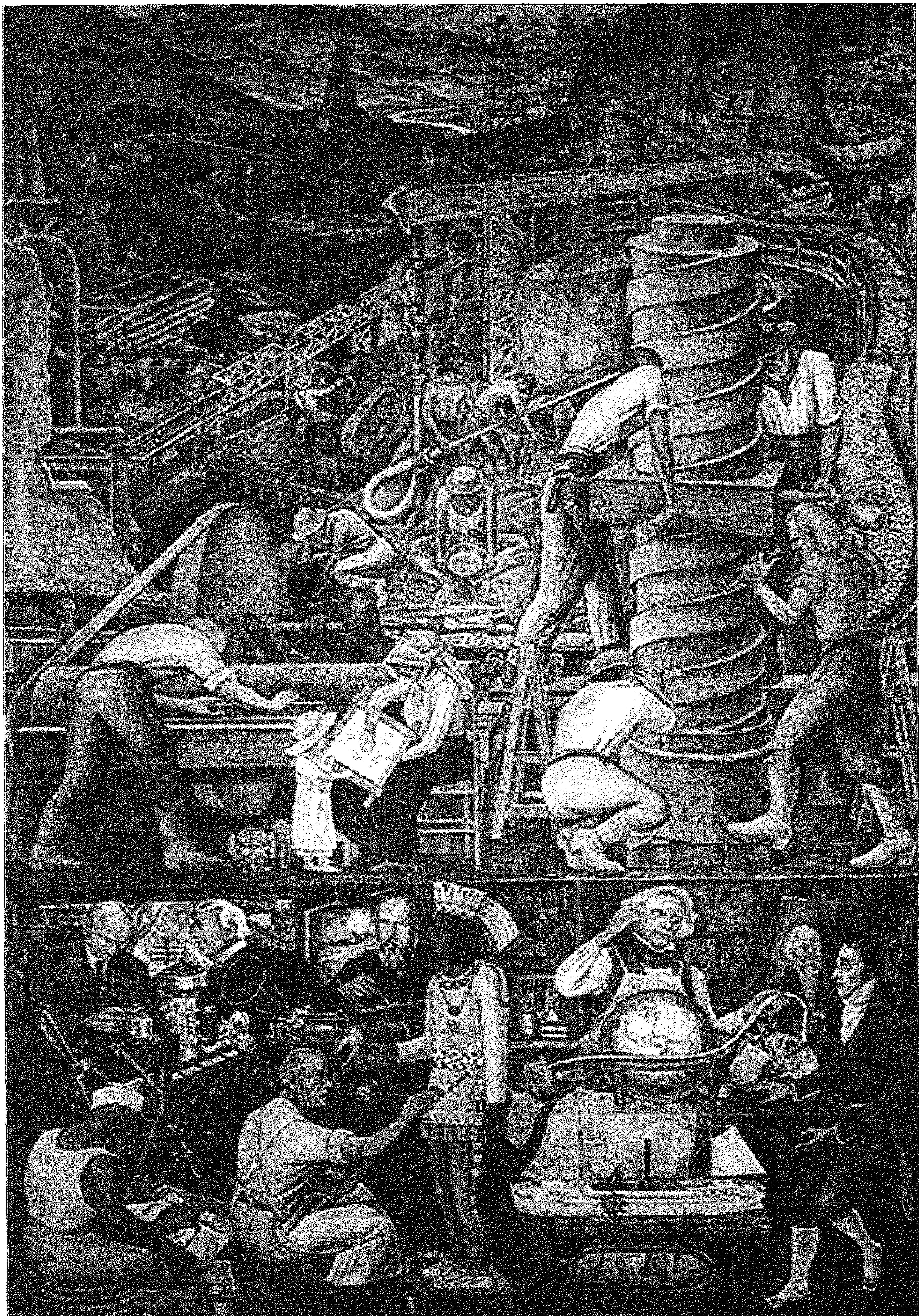
الديمقراطية الجديدة واحدة من أشهر لوحات سيكويروس، نفذها عام ١٩٤٥ وتنافس جدارية تامايو فى سراى كلية الفنون الجميلة بالعاصمة، ويشترك مع مايكل أنجلو فى جدارياته التى أنجزها بمكتبة اسكويلا مكسيكو بشيلى عام ١٩٤٢ عندما رسم على الحائط والسقف معا، وبطريقته وأسلوبه الواقعى الديناميكى، لكن هذه المرة جمع بين وجوه متعددة من رموز التاريخ المكسيكى وشيلى.

ريفيرا

ولد عام ١٨٨٦ فى جوانا جواتو بالمكسيك ودرس فى أكاديمية سان كارلوس بالعاصمة، فى العشرينيات من عمره طاف ببلدان أوروبا كلها إلا أنه استقر فى باريس، بل وانضم إلى فنانى مونبرناس تحت لواء المدرسة الباريسية، وصادق موديليانى وبيكاسو وبراك، وجرى.

على الرغم من أن ريفيرا





جدارية للفنان دييجو ريفيرا - جامعة مدينى سان فرانسيسكو، اللوحة الخامسة (٦،٧٤×٥،٢٢متر) ١٩٤٠

عزم منذ وصوله المكسيك عائدا من أوروبا على اكتشاف فن القبائل المكسيكية القديمة، إلا أنه كان قد ظل عاما كاملا فى إيطاليا دارسا للوحات جيوتو الحائطية والفن البيزنطى، فى الوقت الذى اتخذ من المدرسة الباريسية موقف التحفظ.

طغت شخصية ريفيرا المحبة للحياة على فنه، فعندما انفعل بالروح الثورية التى اجتاحت بلاده، تخلى عن طريقته المحافظة المقتصرة على الملاحظة ومتابعة الأحداث دون المشاركة فيها وأصبح أكثر إيجابية ليساهم فى وجود مدرسة مكسيكية خالصة للتصوير، وإذا كان ريفيرا قد جاء عطاؤه فى مجال الجداريات، فقد كانت لوحات زوجته فريدا كاهلو علامة من علامات الفن فى أمريكا اللاتينية.

استطاع ريفيرا أن يصنع تماسا نادرا بين جدارياته والتاريخ المكسيكى وأحداث الثورة، كما امتلك قدرة على مخاطبة العامة وتلبية احتياجات الجماهير العاطفية فى أعماله، بأسلوب ينفرد به، فما زالت أعماله على جدران المبانى فى المدن الكبرى سواء فى أمريكا الشمالية أو اللاتينية شاهدة على ثورة فنية لا تقل عن ما قدمته أوروبا.

أوروزكـــــــو

حول الخيال الشعبى المكسيكى سيرة حياة أوروزكو إلى أسطورة، ليشترك مع الثوار فى مصير واحد، خاصة أنه عاش مراحل الثورة العنيفة والمضطربة، كما أن الخيال الشعبى اتخذ من فقد أوروزكو لذراعه سببا لخلق حكايات وأساطير، فقد ذهبت واحدة من هذه الحكايات إلى أنه فقدها فى إحدى المعارك الثورية، فى حين تقول رواية أخرى إنه فقد ذراعه بينما كان يتبارى أنصار زياتا وأنصار فيلا فى إلقاء القنابل اليدوية، لكنه كان يقول: «إنها حادثة عادية.. مثل أية حادثة أخرى»، والواقع أنه فقد ذراعه فى سن مبكرة أثناء تجربة كيميائية على قدر من الخطورة، بدافع حب استطلاع طفولى وصبيانى.

ولد جوزيه كليمنت أوروزكو فى الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٨٨٣ فى مدينة جوزمان بمقاطعة جاليسكو بالمكسيك، لكن طفولته قضاها فى جوادا لاجار بعد أن رحلت إليها الأسرة مضطرة، ومع ذلك ظلت تلك المدينة مصدر إلهامه، حتى بعد أن انتقلت أسرته إلى العاصمة مكسيكو، وفى طريقه اليومى إلى مدرسته الابتدائية كان الفنان الصغير يقترب من نوافذ مرسم المصور الكاريكاتيرى بوسادا ويمضى الساعات الطوال يراقبه من النافذة وهو يعمل. تلك النافذة كانت بداية دخوله إلى عالم الفن، لدرجة أن صغر سنه حال دون قبوله فى أكاديمية سان كارولوس، لكن أمه تمكنت من التحاقه بالدراسات المسائية.

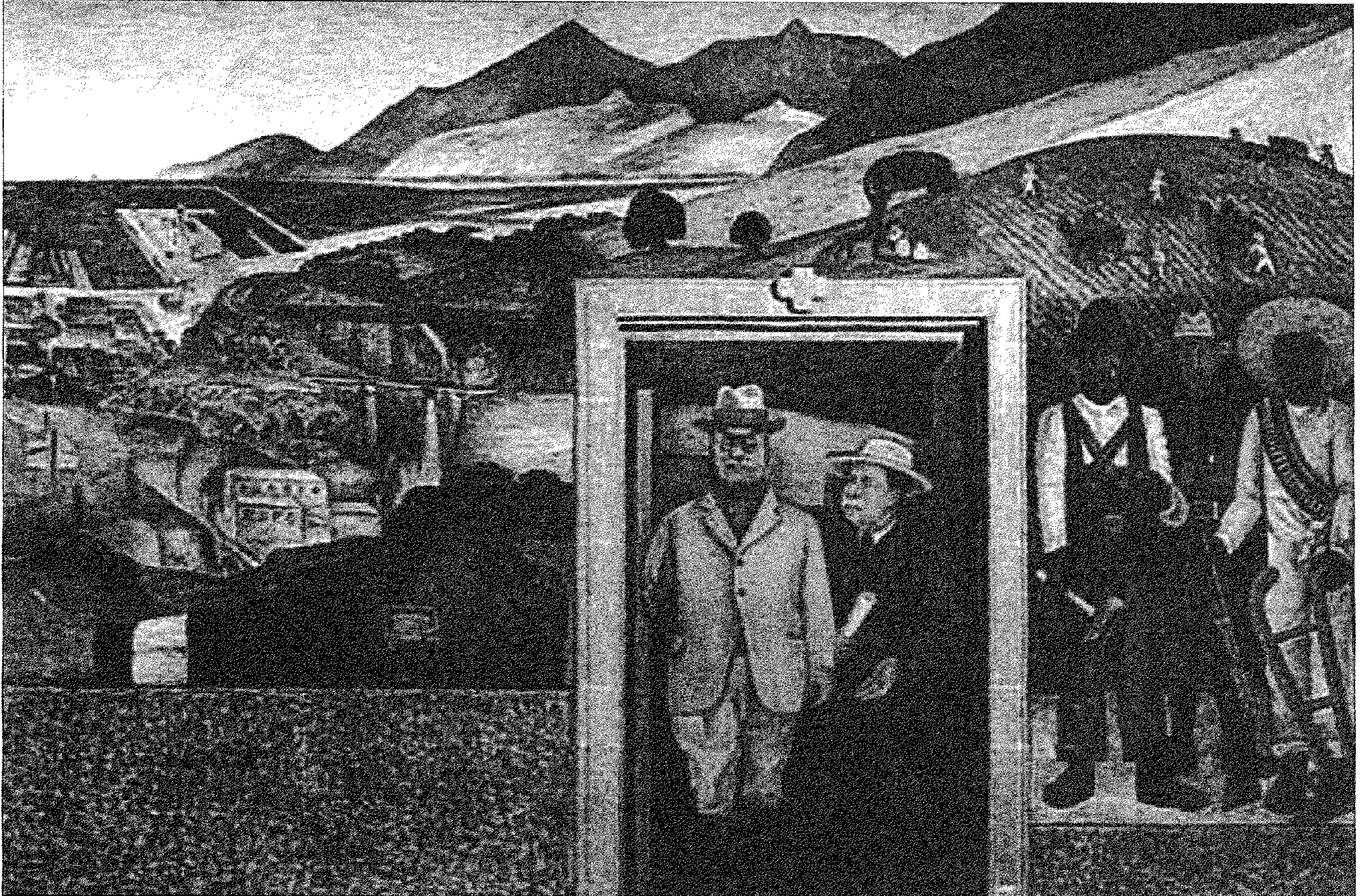
المكسيك فى ثورة.. هى مجموعة اللوحات التى جسدت رؤية ومعايشة أوروزكو لأحداث الثورة العنيفة، التى استطاعت إسقاط حكم دياز الفاسد فى عام ١٩١٠ بعد حكم دام ثلاثين عاما، كما عكس فى تلك المجموعة انكسار الثورة بعد مقتل أحد قادتها ماديرنو عام ١٩١٣ على أيدى هويرتا، فتردت المكسيك فى حمام كبير من الدماء. هذه التجربة المريرة ظهرت بجلاء فى لوحات أوروزكو، وتجلت فى أعماله وجدارياته بعد ذلك، وخاصة فى جدارية الضحايا، والإنسان الخلاق على جدران جامعة جواد الاجارا تلك الجداريات التى أنجزها فى الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩.

امتد تأثير حركة الجداريات المكسيكية الأسطورية إلى بلدان عديدة، أو اتجاهات مماثلة، وأسهمت إلى لفت أنظار شعوب كثيرة إلى جماليات وتأثير الجداريات، فالفنان البرازيلى كانديدو بورتنارى تشابهت جدارياته مع سيكويروس فى رسمه لشخصيات قومية للعمال فى المصانع وأيضا مناحى الحياة المختلفة، المدهش أن الفنان الاكوادورى ازوالدو جياسامين نهج التقاليد الفنية لحركة التصوير الحائطى المكسيكية، بينما بلاده لم تمر بوضع ثورى، فيما اتخذت الثورة الكوبية فى عام ١٩٥٩ الجداريات سبيلا إلى فن التأثير فى الجماهير وبالفعل نجحت فى ذلك، وفى مصر التقى حامد عويس مع أسلوب الفنانين المكسيكيين فى اختياراتهم لكن بالرسم على القماش وليس على الجدران. ▪

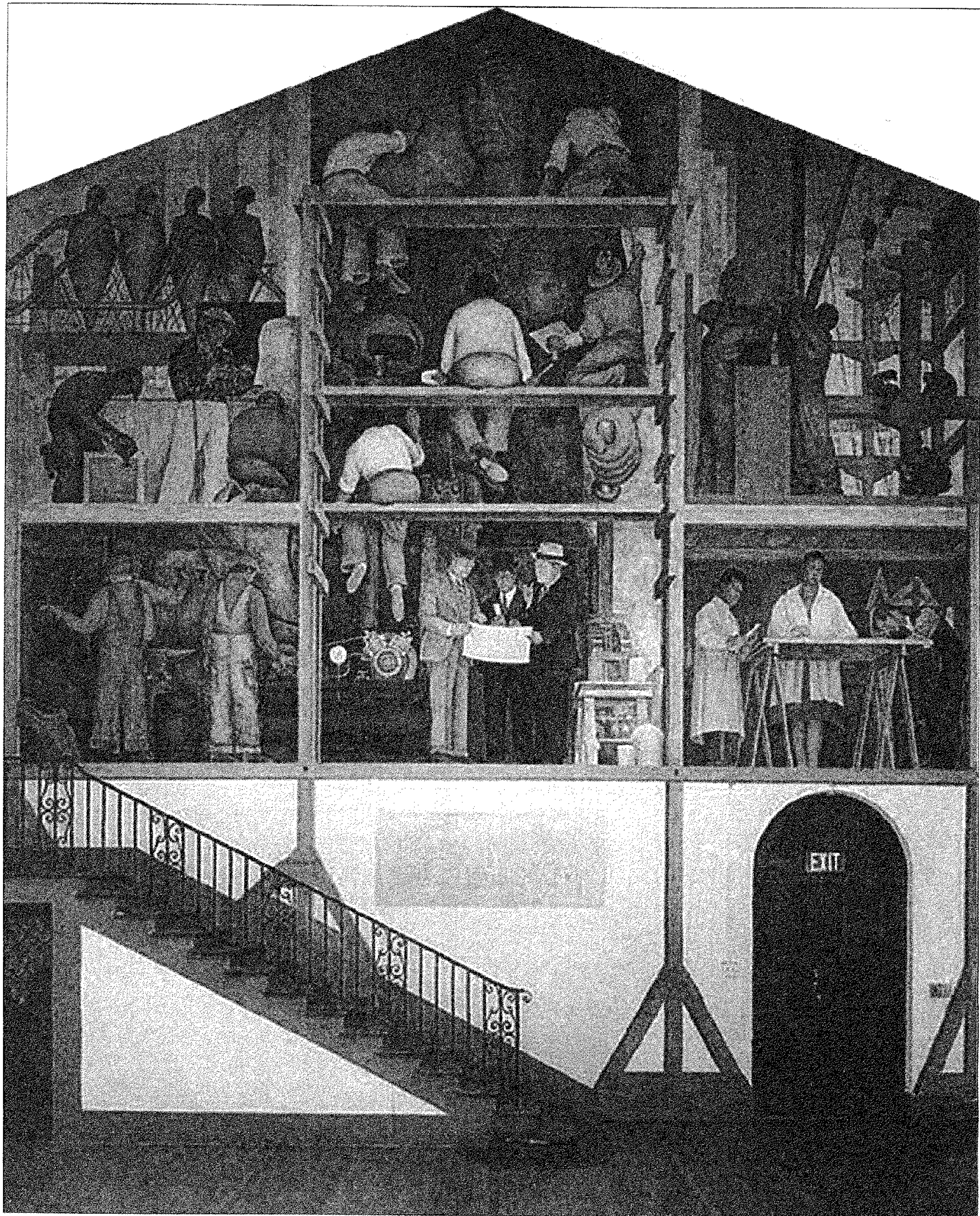
المصادر والمراجع:

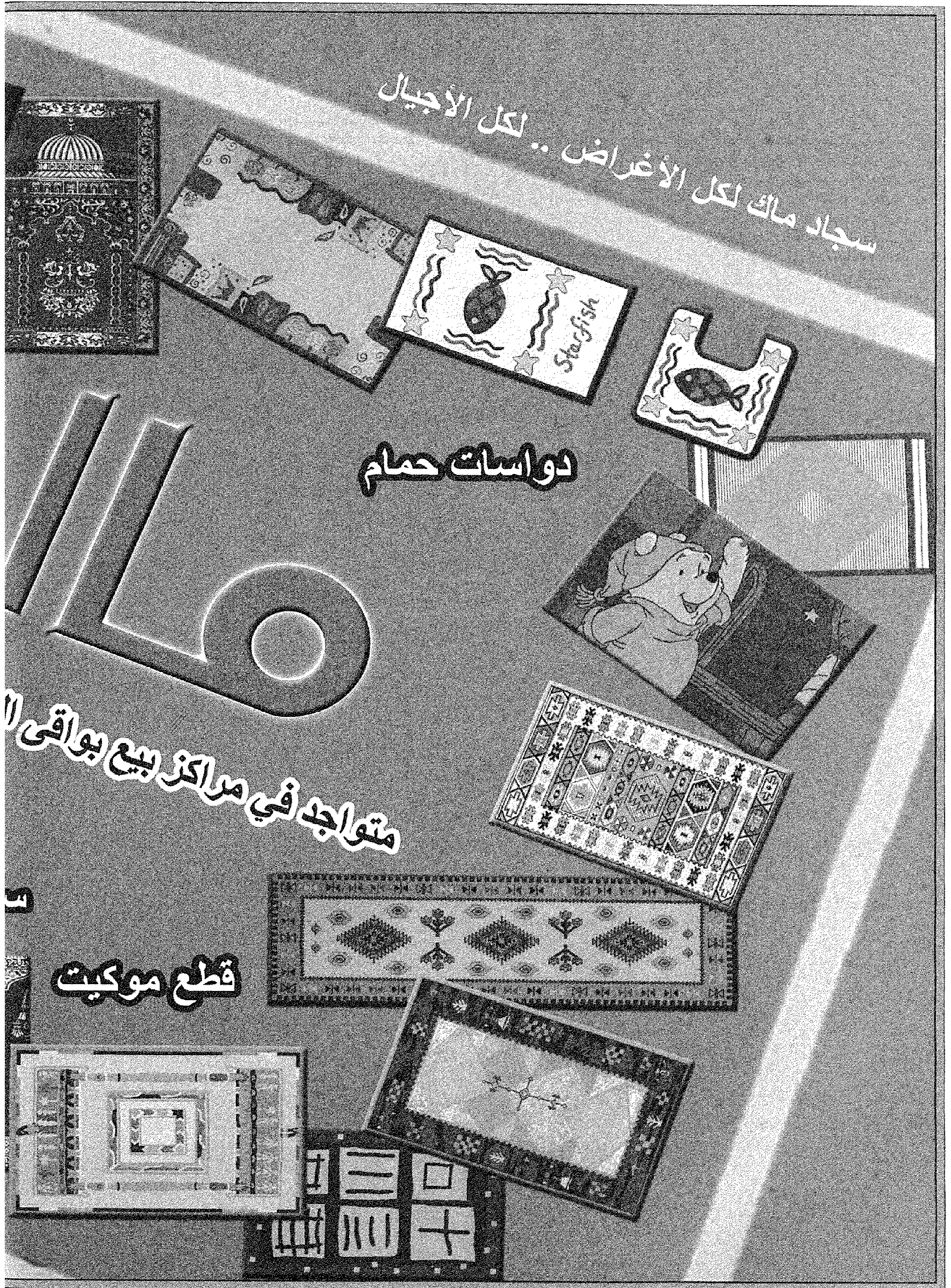
كتاب حصاد الألوان: د.نعيم عطية
شبكة المعلومات العالمية الانترنت
مجلة رسالة اليونسكو العدد ١٣٠
كتاب العربى العدد ٣٩٠. مقال صرخة غيرت وجه الفن لكاتب هذه السطور

جدارية «الحكومة الجيدة» للفنان دييجو ريفيرا - ١٩٢٤



جدارية للفنان دييجو ريفيرا - سان فرانسيسكو - ١٩٣١




سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي ال
قطع موكيت

■ صدرت الطبعة الإنجليزية من مذكرات الزعيم الكوبي «فيدل كاسترو» عام ٢٠٠٧، وتزامن صدورها تقريباً مع إعلان الزعيم الكوبي عدم اعتزامه الترشح لرئاسة الدولة وزعامة الحزب في كوبا لمرة جديدة، وهو الأمر الذي أفضى إلى انتخاب شقيقه «راءول» لشغل هذين المنصبين، وهو الذي شغلهما بشكل مؤقت وبالنيابة عن شقيقه منذ منتصف عام ٢٠٠٦. كما صدرت الطبعة الشعبية من هذه المذكرات عام ٢٠٠٨. وجاءت مذكرات كاسترو عبر أكثر من مائة ساعة من الحوارات مع «ايجناسيو رامونيت»، أستاذ الإعلام بإحدى جامعات باريس، وهي حوارات استمرت ما بين يناير ٢٠٠٣ ونوفمبر ٢٠٠٦، وتعد أطول الحوارات التي أجراها كاسترو، وواحد من خمسة حوارات طويلة فقط أجراها كاسترو خلال ما يقرب من نصف قرن قضاها كاسترو في سدة الحكم في كوبا. وإذا كان توقيت صدور المذكرات جاء مرتبطاً باعتزال كاسترو رسمياً للعمل السياسي كما ذكرنا، فإن عنوان المذكرات أيضاً جاء دراماتيكياً في هذا الصدد، وهو بعنوان «حياتي» ويقع في حوالي ٦٢٧ صفحة و٨٤ صفحة من الهوامش و١٢ صفحة في شكل فهرس أعلام.

وقبل التعرض للكتاب بالعرض والتحليل والتقييم نعرض بإيجاز لخلفية عن دور كاسترو في كوبا منذ انتصار الثورة الكوبية في يناير ١٩٥٩. فعندما انتصرت الثورة الكوبية كانت الشركات الأمريكية تسيطر على ٩٥٪ من الأراضي الزراعية، ولكن كاسترو سرعان ما قرر حظر امتلاك الأجانب للأراضي، وقام بتوزيع الأراضي المؤممة على أكثر من ٢٠٠ ألف فلاح من المعدمين. وكما كان متوقعاً فقد أدت هذه الإجراءات إلى ترسيخ القطيعة بين كوبا بزعامة كاسترو وبين كل من الولايات المتحدة الأمريكية والشركات الرأسمالية العالمية الكبرى، وعلى المستوى الشخصي والإنساني تأثرت علاقة كاسترو بوالدته وشقيقته نتيجة هذه الإجراءات نظراً لأنهما كانتا تملكان مزرعة استولت عليها الحكومة الثورية في إطار مصادرة الملكيات الزراعية الكبيرة. وعلى الصعيد الاجتماعي، قرر كاسترو فرض التعليم المجاني وكذلك تبني استراتيجية وطنية لمحو الأمية أتت أكلها بعد سنوات حيث أعلنت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) نجاح كوبا في القضاء التام على الأمية.

وفي العام التالي مباشرة، وتحديداً في فبراير ١٩٦٠، وصل إلى هافانا نائب رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وتم التوصل بينه وبين كاسترو إلى اتفاق بمبادلة النفط السوفيتي مقابل قصب السكر الكوبي. وكان لهذا الموقف انعكاساته، فالاستقبال الحافل للمسئول السوفيتي في هافانا ثم قرار كاسترو بتأميم شركة الهاتف الكوبية (والتي كانت ملكيتها أمريكية) أقنعا الولايات المتحدة بأن حالة كاسترو حالة ميئوس منها وغير قابلة لتغيير مسارها بالنسبة لواشنطون. ثم تطورت الأمور بشكل أكثر دراماتيكية عندما رفضت شركة «إسو» وشركات نفط أمريكية أخرى القيام بتكرير النفط المستورد من الاتحاد السوفيتي. وجاء رد فعل كاسترو حاداً وعنيفاً حيث قام بتأميم شركات النفط الأمريكية في كوبا. وردت واشنطون بقرار لا يقل حدة تمثل في وقف استيراد السكر الخام من كوبا، وكان رد فعل كاسترو سريعاً وشاملاً حيث أعلن تأميم كافة الممتلكات الأمريكية في كوبا، مجسداً اكتمال القطيعة مع واشنطون.

وفي سبتمبر من نفس العام جاءت زيارة كاسترو الأولى والتاريخية إلى نيويورك لحضور أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة ومخاطبة المجتمع الدولي بأسره من خلالها. وهناك التقى كاسترو



مع الزعيم السوفيتى خروتشوف وأعلن رسمياً ارتباطه بالاتحاد السوفيتى. وتواصلت لعبة الصد والرد بين كاسترو والولايات المتحدة، فردت واشنطون عبر إصدار محكمة أمريكية حكماً بمصادرة الطائرة الرئاسية لكاسترو؛ وجاء الرد بواسطة خروتشوف هذه المرة حيث أعطى طائرته الخاصة لكاسترو لإعادته إلى هافانا.

وفى عام ١٩٦١ أعلنت الولايات المتحدة قطع علاقاتها مع كوبا، ومن ثم خرج آلاف الكوبيين من بلادهم قاصدين الولايات المتحدة؛ وكان من بينهم شقيقة لكاسترو، والذى تحدث بقسوة وحدة عن أولئك الذين اختاروا المنفى وأسماهم بـ «الطفيليين» و«الديدان».

وفى أكتوبر ١٩٦٠ أعلنت واشنطون حظراً شاملاً على كوبا، ما زال بالمناسبة قائماً حتى يومنا هذا - بضغط أساساً من الأمريكيين ذوى الأصول الكوبية - بالرغم من قرارات دولية سنوية من الجمعية العامة للأمم المتحدة ولجنة ثم مجلس الأمم المتحدة لحقوق الإنسان بعدم قانونية هذا الحظر وبمطالبة الولايات المتحدة برفعه، وكذلك تم إيقاف حركة النقل بين الولايات المتحدة وكوبا. وفى العام نفسه، سمح الرئيس الأمريكى فى ذلك الوقت «دوايت أيزنهاور» للمخابرات المركزية الأمريكية بالعمل لقلب نظام الحكم فى كوبا، وهو تفويض جدده الرئيس الأمريكى التالى «جون كينيدى» عام ١٩٦١، حيث بدأت المخابرات الأمريكية تدريب الآلاف من المنفيين الكوبيين فى ولاية فلوريدا فى إطار الإعداد لعملية غزو كوبا.

وفى خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، كذب الرئيس كنيدى عندما نفى نية بلاده التدخل فى الشئون الداخلية لكوبا. وبعد ذلك قام طيارون أمريكيون بالعدوان على كوبا فى ١٧ أبريل ١٩٦١، حيث تم إنزال أكثر من ١٢٠٠ منفى كوبى بخليج الخنازير؛ ودارت مواجهة غير متكافئة مع ٦٠ ألفاً من القوات الحكومية الكوبية. وكانت النتيجة كارثية للولايات المتحدة وللمنفيين الكوبيين: فقد أدت إلى مقتل ١١٤ من المنفيين الغازين وتعرض ١١٠٠ منهم للأسر. وكانت المخابرات المركزية قد أكدت لكنيدى قبل انطلاق الغزو أن العملية ستطلق انتفاضة شعبية ضد كاسترو، وهو ما لم يتحقق على أرض الواقع، مما دفع كنيدى لاحقاً لوصف العملية بأنها «مهزلة». وقد تحولت الهزيمة الفادحة للغزو إلى انتصار عسكرى وارتفاع غير مسبوق فى شعبية كاسترو داخل وخارج كوبا، وتعززت قوته بشكل غير مسبوق. فقد واجه الرجل أكبر قوة فى العالم وألحق بها الهزيمة والعار.

وفى أعقاب عملية خليج الخنازير، توصل كاسترو لخطة سرية لحماية كوبا ونظامها. وبحلول عام ١٩٦٢، تحولت كوبا إلى نقطة محورية فى المواجهة العسكرية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى السابق. وقام «سيرجى خروتشوف»، نجل الزعيم السوفيتى «نيكيتا خروتشوف» فى ذلك الوقت، بتصميم ووضع الصواريخ السوفيتية فى كوبا. وفى ١٤ أكتوبر ١٩٦٢، قامت طائرة تجسس أمريكية برصد وتصوير الصواريخ السوفيتية على الأراضى الكوبية. وبعد مرور أسبوع على اكتشاف الصواريخ أعلن ذلك الرئيس كنيدى وهدد بحرب



Fidel Castro: My Life - A Spoken Autobiography
(حياتي: سيرة ذاتية مروية)
Ignacio Ramonet & Fidel Castro
Scribner

كيف تكون الحياة ماركسية؟

كاسترو الصفحة الأخيرة

وليد محمود عبد الناصر



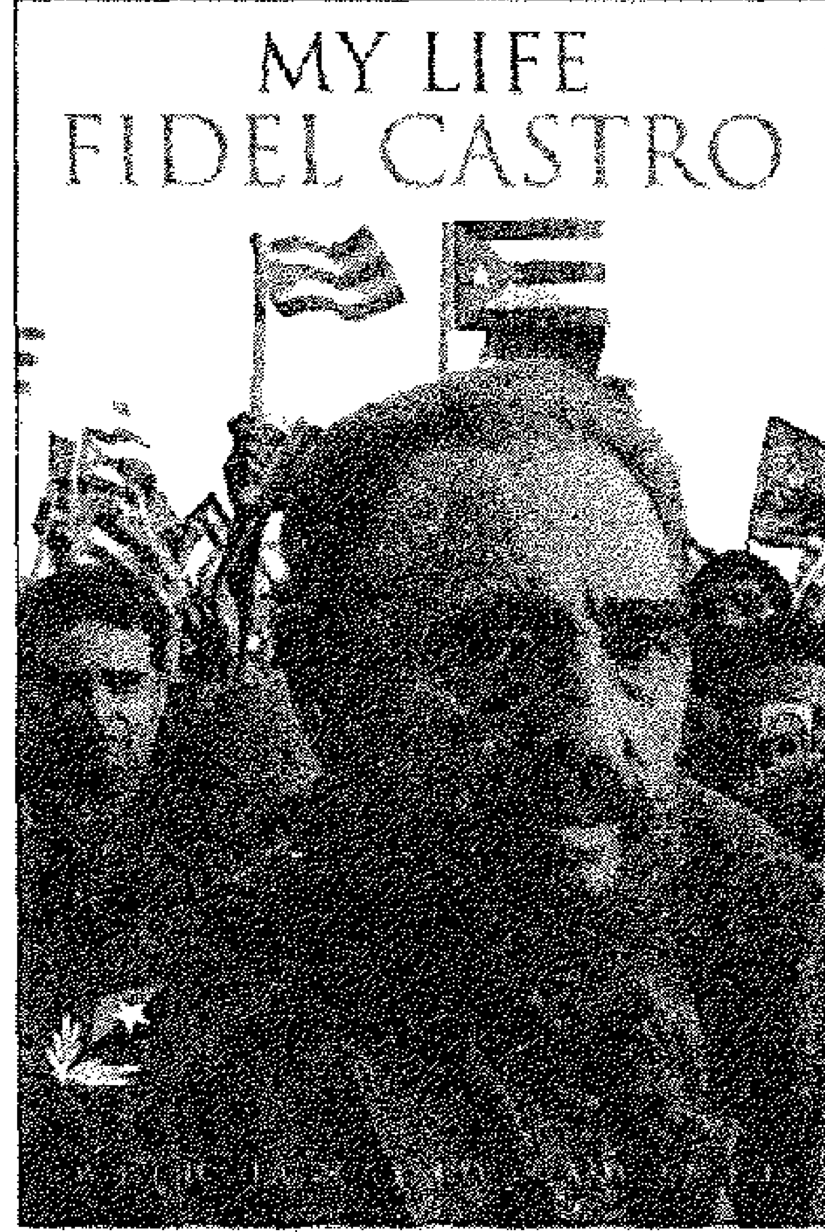
نووية إذا لم يسحب الاتحاد السوفيتى صواريخه من كوبا. فقد أصاب الذعر الأمريكيين! ورد كاسترو بأن المحرقة النووية قد تقع، وقد يكون ذلك لصالح كوبا! بل دعا كاسترو خروتشوف لضرب الولايات المتحدة بالسلاح النووى إذا وجهت ضربة لكوبا.

ومضت الولايات المتحدة فى تنفيذ تهديداتها، ففرضت حصاراً عسكرياً على كوبا وبدأ العالم يستعد لمشهد الحرب. إلا أن خروتشوف أبدى ليناً ومرونة، وأمر بتفكيك الصواريخ فى كوبا تمهيداً لإعادتها للاتحاد السوفيتى مرة أخرى. وقد لام كاسترو خروتشوف على عدم مشاورته الكوبيين قبل سحب الصواريخ، وخرجت مظاهرات الكوبيين فى بلادهم تهتف ضد الزعيم السوفيتى. وقد اعترف كاسترو بعد ذلك بسنوات، بما فى ذلك فى مذكراته التى نعرض لها هنا، بأن ما فعله الكوبيون حينذاك كان يفتقد للنضج، وأن ما فعله خروتشوف كان النهج الصحيح لتجنب مواجهة نووية كارثية كانت ستجلب الدمار للعالم بأسره.

وأعقب ذلك حدوث تبادلات سرية بين كاسترو وكنيدى وتفاوض حول استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، ولكن هذا الجهد توقف تماماً بعد اغتيال كنيدى عام ١٩٦٣. وعاود كاسترو الاتصالات السرية مع الرئيس جونسون الذى خلف كنيدى فى البيت الأبيض، وعرض كاسترو أموراً عديدة، ولكن لم يكن بالطبع من بينها اعتزاله الحياة السياسية فى كوبا حسب مطلب الإدارة الأمريكية حينذاك، ولكن ذلك لم يثر اهتمام جونسون. وبالتالى، عاد كاسترو لزيارة الاتحاد السوفيتى واستأنف وتعزز التعاون مع خروتشوف، وتردد على موسكو عدة مرات.

وعهد كاسترو إلى «تشى جيفارا» بالمسئولية عن الاقتصاد الكوبى، فقام «تشى» بتمجيد العمل التطوعى، وكان يعتقد أن خلاص العالم يكمن فى الكتلة الشيوعية. إلا أن عوائد محصول قصب السكر تدنت إلى النصف، وارتفعت نسبة الغياب عن أماكن العمل، فاستقال «تشى» وعاد ثائراً عالمياً ليؤدى دوراً جديداً فى خدمة كوبا. فقد رأى كاسترو - وهو ما يتأكد لنا من خلال مذكراته التى نعرض لها هنا - أن العدو الذى يهدد كوبا هو العدو الذى يهدد الثوريين فى كل مكان، لذا تعهد كاسترو بدعم الثورة عبر أرجاء المعمورة، وتبلور ذلك على أرض الواقع فى قارتى أفريقيا وأمريكا اللاتينية.

وفى السبعينيات صعد كاسترو من





فى أكتوبر ١٩٦٠ أعلنت واشنطون حظراً شاملاً على كوبا - ما زال بالمناسبة قائماً حتى يومنا هذا - بضغط أساساً من الأمريكيين ذوى الأصول الكوبية



مساعداته الثورية الخارجية: فى أنجولا وإثيوبيا وجرينادا ونيكاراجوا، وهو الأمر الذى زاد من شهرة كاسترو الثورية فى العالم بأسره. وأرسلت كوبا أيضاً آلاف الأطباء إلى مختلف الدول الفقيرة فى العالم لتوفير الرعاية الصحية المجانية. وأعلن كاسترو أنه تلقى معلومات بشأن محاولة المخابرات المركزية الأمريكية قتله عبر دس السم له فى السيجار الخاص به. وفى الأمم المتحدة تم الترحيب بكاسترو كمتحدث باسم دول العالم الثالث، وتولى رئاسة حركة عدم الانحياز عام ١٩٧٩، حيث واجه الاتهام بمحاولة سحب الحركة إلى موقع التحالف مع الكتلة الاشتراكية بزعامة الاتحاد السوفيتى السابق حينذاك، فى إطار المفهوم الذى أطلق عليه كاسترو حينذاك تعبير «التحالف الطبيعى والاستراتيجى».

وعندما انتخب «جيمى كارتر» رئيساً للولايات المتحدة عام ١٩٧٦ حدث تغير ما فى التوجه الأمريكى إزاء كوبا، حيث لم يكن الرئيس الجديد يشعر بالأحقاد المتوارثة لدى الإدارات السابقة تجاه كوبا. فرفع كارتر الحظر المفروض على سفر المواطنين الأمريكيين إلى كوبا، وأعرب عن عدم تأييده لاستمرار العقوبات المفروضة ضد كوبا، خاصة فيما يتعلق بالمواد الغذائية والدواء. كذلك أعاد فتح السفارة الأمريكية فى هافانا وعين بها دبلوماسياً أمريكياً، دون أن يعيد العلاقات الدبلوماسية مع كوبا. وقد التقى هذا الدبلوماسى الأمريكى مع كاسترو بناء على استدعاء من الأخير، واتصف الحديث بينهما بالطابع العملى وبالدعوة لتجنب الصدام بين البلدين وقيادتهما.

إلا أنه فى عام ١٩٨٠ حدث أمر كانت له انعكاسات سلبية على ما تحقق على صعيد العلاقات الامريكية الكوبية. فقد تسلل كوبيون يطلبون الخروج من كوبا واللجوء خارجها إلى داخل السفارة البيروانية فى هافانا، وعندما أبدى كارتر تعاطفه مع طالبى اللجوء المحتمين بالسفارة، ثارت ثائرة كاسترو. إلا أن كاسترو قرر فجأة فتح الباب لمن يريد من الكوبيين مغادرة بلادهم، ونعت هؤلاء، مرة أخرى، بـ «الديدان». وبالفعل غادر ١٢٥ ألفاً من الكوبيين على متن سفن إلى الولايات المتحدة. ولكن هذا العدد كان أكبر من قدرات الولايات المتحدة وطاقاتها الاستيعابية، فاضطرت لإسكان اللاجئين الكوبيين فى مخيمات لفترات طويلة. كذلك قررت واشنطون إرسال سفنها الحربية لوقف مسيرة السفن القادمة من كوبا والحاملة للمزيد من اللاجئين الكوبيين، بل وذهبت الإدارة الأمريكية أبعد من ذلك واتهمت حكومة كاسترو بوضع المساجين على ذمة جرائم جنائية والمرضى العقليين على متن هذه السفن.

وفى عقد التسعينيات، جاء التحدى لكاسترو مع سقوط الحليف السوفيتى، ومر الاقتصاد الكوبى بسنوات صعبة للغاية، ولكنه نجح فى تجاوز عدد من الصعوبات، وذلك بفضل تطوير قطاع السياحة ثم التعاون مع فنزويلا الثرية من عوائد النفط والطامحة للعب دور ثورى إقليمى وعالمى فى عهد الرئيس «هوجو تشافيز»، وذلك ضمن عوامل أخرى. وفى منتصف عقد التسعينيات من القرن العشرين غادر ٤٠ ألفاً من الكوبيين بلادهم محاولين الوصول إلى الولايات المتحدة وغرق منهم الآلاف فى الطريق.

وعلى الصعيد الداخلى، سيظل يذكر لكاسترو ونظامه إنجازين: القضاء التام على الأمية وإقامة نظام للرعاية الصحية يعتبره كثيرون هو الأفضل فى العالم. وبالمقابل، فالبعض يشير لتراجع الحريات السياسية فى عهد كاسترو وانتقادهم لكاسترو باعتباره «مستبداً رافضاً للمشورة والديمقراطية».

وعلى الصعيد الخارجى، ينتشر الإعجاب، ولا جدل، بفيدل كاسترو داخل كوبا وخارجها لنجاحه فى مواجهة الولايات المتحدة والتصدى لها بنجاح عبر حوالى خمسة عقود، مما جسد معركة كرامة للشعب الكوبى ولكافة شعوب أمريكا اللاتينية بل ولكل شعوب العالم الثالث، وتحول إلى أسطورة. لقد غير فيدل كاسترو من أحوال بلد وفكر قارة وعالم بأسره مما سيجعله يستمر محلاً للتقدير والإعجاب من أنصاره وخصومه على حد سواء.

هذا عن سنوات صعود كاسترو ومجده، ولكن ماذا عن الظروف الصحية التى دفعته فى نهاية الأمر إلى ترك الرئاسة لمرشح آخر انتهى الأمر بكونه شقيقه «راؤول»؟

فى عام ٢٠٠٠ فقد فيدل كاسترو الوعى خلال خطاب كان يلقيه، وعقب ذلك بأربع سنوات فقد توازنه ووقع بينما كان يخطو لإلقاء خطاب له. وفى يوليو ٢٠٠٦ أصيب كاسترو بمرض معوى، وكان هذا المرض على ما يبدو هو الذى أدت تطوراته إلى اعتزال تدريجى لذلك الزعيم الأسطورى للعمل السياسى المباشر، واستكمال مذكراته التى نعرض اليوم لترجمتها الانجليزية.



والآن ننتقل إلى المذكرات ذاتها بعد أن عرضنا لبانوراما موجزة لأهم المحطات فى تاريخ كوبا تحت حكم فيدل كاسترو.

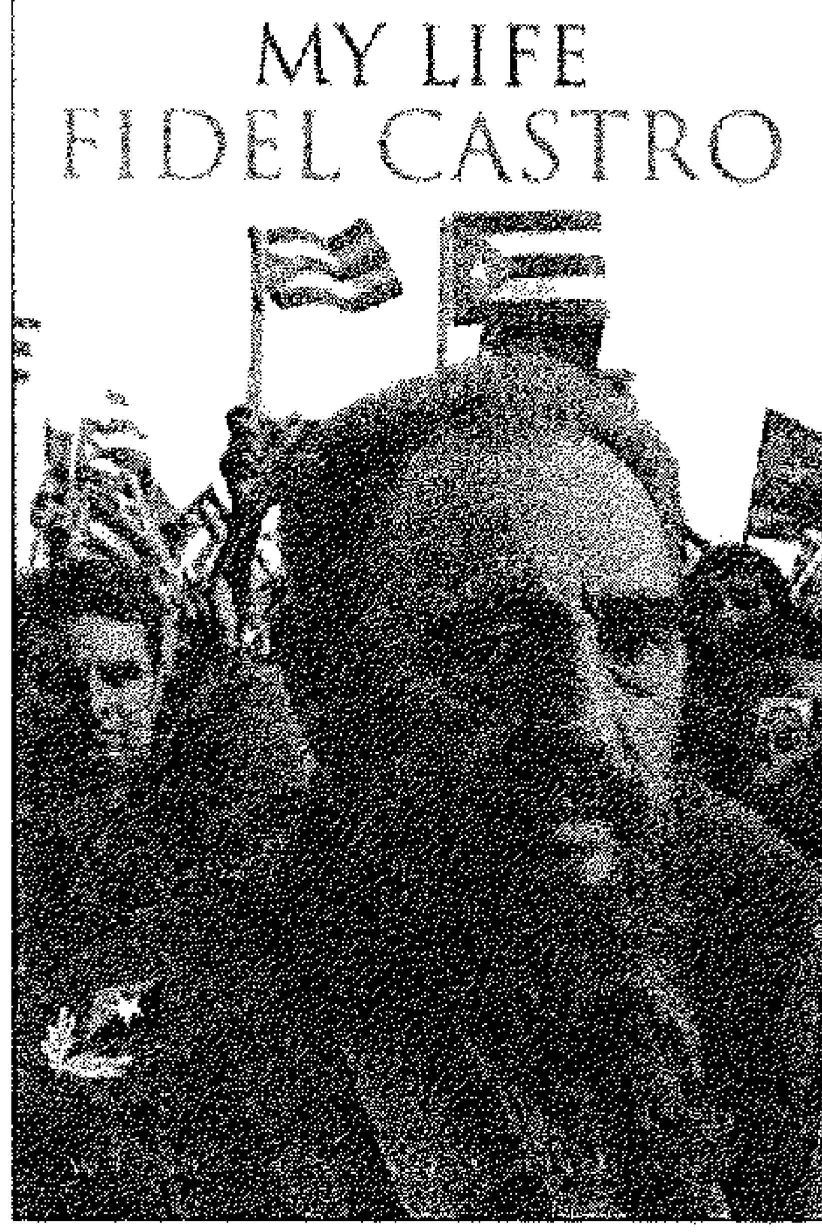
تمثل قراءة مذكرات كاسترو متعة متناهية لا حدود لها، وذلك بالرغم من الاستطراد فى بعض الأجزاء، وهو أمر معتاد من كاسترو، حيث كان هذا هو أسلوبه دائماً فى خطبه الجماهيرية أو السياسية المسهبة، كما أن كاسترو كان يعود فى النهاية إلى النقطة التى تفرع منها وبالتالى يحافظ فى نهاية الأمر، وبالرغم من الإطالة، على وحدة الموضوع. كما يعود كاسترو فى مذكراته إلى موضوعات سبق أن طرحها فى مواضع سابقة من المذكرات ويحاول ربطها بموضوعات مستجدة يطرحها لأول مرة. كذلك يشير لكتابه الأول «سيبرنى

التاريخ» الذى احتوى على نص مرافعته عن نفسه ورفاقه أمام المحكمة التى تشكلت لمحاكمتهم عقب محاولة الثورة الفاشلة عام ١٩٥٤ عبر الاستيلاء على ثكنات «مونكادا» والتى يتناولها بالتفصيل فى كتابه.

ولا يبدأ كاسترو فى سرد مذكراته بدءاً بميلاده أو بسنواته الأولى فى الحياة، وإنما يبدأ من قبل ذلك، وتحديداً تاريخ أسرتى والديه ونشأة والديه وظروفهما الطبقية وتطوراتها. وبالرغم من أن كاسترو يحرص طوال مذكراته على إيصال رسالة للقارئ بأنه متمرد منذ نعومة أظافره: فى البيت والمدرسة والجامعة والمجتمع والدولة وأمريكا اللاتينية بل والعالم بأسره: فإننا نلمس ما بين السطور حباً واحتراماً لوالديه وتقديراً لكفاحهما فى الحياة بشكل عام وما بذلاه من جهد - خاصة أمه - فى تربية أبنائهما، مع الإقرار باختلافه - بل تناقضه - مع المعتقدات السياسية لوالده مقابل اعتباره لأمه ك «أم للثورة والثوار» على حد قوله.

كذلك يقدم لنا كاسترو فى مذكراته رؤية شاملة لتاريخ أمريكا اللاتينية وتطوره، خاصة ما يسميه بالحرب من أجل الاستقلال والتى يعيد جذورها إلى القرن الثامن عشر. ولا يفصل كاسترو بين تاريخ كوبا والإطار العام للتطور التاريخى لأمريكا اللاتينية، سواء فيما يتعلق بالنضال من أجل الاستقلال أو تطور التكوين الطبقى للمجتمع، خاصة فيما يتعلق بالحرب ضد العبودية وصولاً لإلغائها. وبلغ تأثير هذا البعد التاريخى فى التكوين الفكرى لكاسترو حد إطلاقه اسم «عملية كارلوتا» على الدعم العسكرى الكوبى لأنجولا بدءاً من عام ١٩٧٥، وذلك فى سياق تمجيد ثورات العبيد الأولى فى مزارع قصب السكر فى كوبا، حيث كانت «كارلوتا» هى إحدى الإماء اللاتى قدن ثورة ضد العبودية عام ١٨٤٣، ودفعت حياتها ثمناً لمشاركتها فى النضال الثورى. ولا تنفى مذكرات كاسترو الارتباط بين هذه التطورات فى أمريكا اللاتينية وبين ما كان يجرى لدى الجار الأكبر، الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنه يضع هذا الارتباط فى واحد من سياقين: إما باعتبار الولايات المتحدة قوة لها توجهات استعمارية تسعى لضم كوبا وإلحاقها بأراضيها، أو فى سياق ما يسميه كاسترو بـ «البعد الأممى» لتطورات أمريكا اللاتينية والتى لم تقتصر تاريخياً على الولايات المتحدة بل اتصلت بأطراف أخرى مثل إسبانيا بالطبع، وفرنسا وبريطانيا وغيرهما. كما نلمس ضمنياً فى هذا الجزء التاريخى المكون الإسبانى فى فكر كاسترو، عندما يشير إلى ما أسماه «نضال الإسبان لثمانية قرون ضد المحتلين العرب»!

ونلحظ فى مذكرات كاسترو انتماء لا تخطئه العين للقارة الأمريكية اللاتينية، يذكره كاسترو فى كل موضع بكل فخر ويمتد تاريخياً إلى عقد الأربعينيات من القرن العشرين. وتضمن هذا الدور فى الأربعينيات المشاركة فى حملة بجمهورية الدومينيكان لإسقاط حكم الديكتاتور «تروخيللو»، والتنسيق مع الطلاب البنميين لإنهاء الوجود الأمريكى فى قناة بنما، والعمل مع الأرجنتينيين لاستعادة جزر «المالفين» (الفوكلاند) الواقعة تحت السيطرة البريطانية، وأخيراً وجود كاسترو فى بوجوتا عاصمة كولومبيا للمشاركة فى قيادة الانتفاضة الشعبية هناك يوم ٩ أبريل ١٩٤٨ بعد اغتيال الزعيم الشعبى الكولومبى «خورجى اليسير جايتان». ويستمر دور كاسترو الفاعل فى القارة اللاتينية وصولاً إلى الألفية الثالثة حيث وقع مع الدول الأعضاء فى تجمع «الميركوسور» - الذى يضم دولاً بحجم البرازيل والأرجنتين - اتفاقاً تجارياً هاماً فى قمة دول التجمع التى انعقدت فى مدينة «قرطبة» بالأرجنتين، ثم الاتصالات المكثفة التى قام بها مع قادة الجيش الموالين للرئيس الفنزويلى «هوجو تشافيز» خلال محاولة الانقلاب العسكرى التى دارت ضده فى ١١ أبريل من عام ٢٠٠٢، وهى اتصالات لعبت دوراً حاسماً فى إفشال الانقلاب، ثم صعود قوى اليسار إلى الحكم عبر صناديق الاقتراع فى العديد من دول أمريكا اللاتينية منذ مطلع الألفية الثالثة نتيجة فشل سياسات الليبرالية الجديدة التى اتبعت فى عقد التسعينيات من القرن العشرين ممثلة فى تبنى الخصخصة المتسارعة وانتشار الفساد والإفقار للطبقات الوسطى والنهب للموارد الوطنية. ويكرس كاسترو فصلاً كاملاً فى كتابه عن أمريكا اللاتينية. وتتراوح دوافع كاسترو فى الاهتمام بأمريكا اللاتينية بين ما يسميه دوافع أمنية متصلة بعالمية المعركة ضد الإمبريالية من جهة وإحساسه بالانتماء إلى هوية أمريكية لاتينية تتمثل فى تقديره للزعامات الوطنية التاريخية للقارة على اختلاف هوياتها الأيديولوجية، وفى مقدمتها بالطبع سيمون بوليفار، من جهة أخرى. ويتناول فى هذا الفصل آراءه بشأن العلاقة بين





مضت أمريكا فى تنفيذ تهديداتها، ففرضت حصارا عسكرياً على كوبا وبدأ العالم يستعد لمشهد الحرب. إلا أن خروتشوف أبدى ليناً ومرونة



المؤسسة العسكرية وتبنى توجهات تقدمية، خاصة فى الحالة الفنزويلية الراهنة، وكذلك يعرض لمواقفه من «البيرونية» فكراً وتجربة فى الأرجنتين، وتجاه مسألة السكان الأصليين، خاصة عندما تتداخل حركة هؤلاء مع حركة اليسار، كما فى الحالة البوليفية، وكذا رؤيته لطبيعة العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا اللاتينية ودولها، وأخيراً نظرته لدور الكفاح المسلح فى القارة الآن بعد أن وصلت أحزاب اليسار إلى الحكم فى عدد هام من دول القارة عبر صناديق الاقتراع فى إطار نظم سياسية تعددية. ولكن بقى غائباً عن هذا الفصل الخاص بأمريكا اللاتينية أى إشارة تفصيلية للعلاقة بين كوبا وثورة «الساندينيستا» اليسارية فى نيكاراجوا عام ١٩٧٩ حتى سقوط نظامها عقب انتهاء الحرب الباردة بفترة وجيزة، ثم عودة الجبهة بزعامة «دانيال أورتيجا» إلى السلطة بعد عقد ونصف من إقصائها عبر انتخابات ديمقراطية. وربما يرجع هذا التجاهل إلى عدم رغبة كاسترو فى ذكر هذه العلاقة نظراً لانتهاء تجربة «الساندينيستا» الأولى بالفشل.

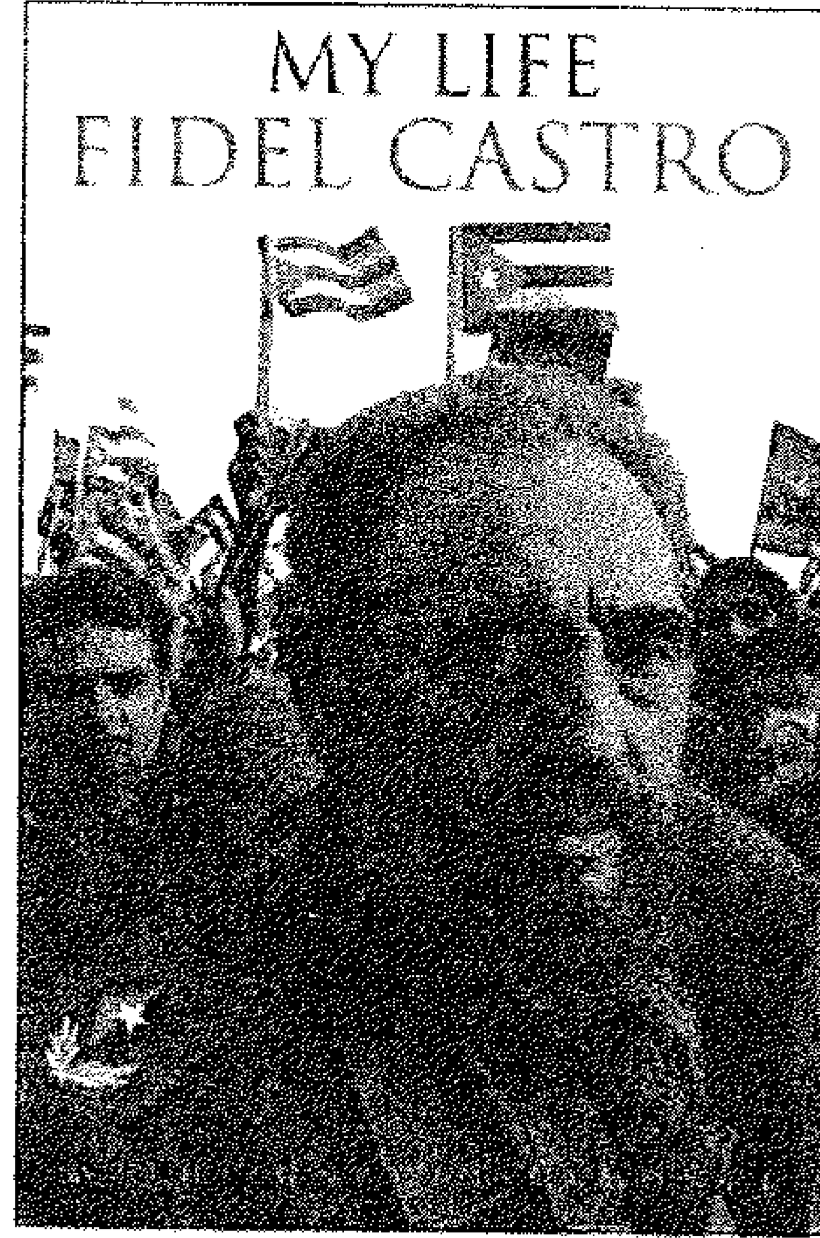
ونلمس فى كل صفحة من صفحات مذكرات الزعيم الكوبى والأممى فيدل كاسترو إيماناً راسخاً بالماركسية اللينينية واقتناعاً ثابتاً لم يؤثر فيه لا عامل الزمن ولا الأحداث التى مر بها العالم، خاصة منذ انهيار الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى السابق ودول شرق ووسط أوروبا، بأن سبب كوارث البشر يكمن فى الرأسمالية كنظام وما تفرزه من منظومة قيمية وعلاقات اجتماعية تنتج عن نمط إنتاج يرتكز على استغلال فائض قيمة البشر واستمرار تدهور الأوضاع المعيشية للفئات الكادحة. ولكن إيمان كاسترو كما يتبدى عبر الكتاب لا يقتصر على الماركسية وحدها بل يمتد ليشمل ما يسميه بقيم وطنية تعلمها من قيادات تاريخية لحركة التحرر الوطنى الكوبى، وفى مقدمتهم «خوزيه مارتى» ومن أتوا من بعده، ويعتبر نفسه الوريث الطبيعى لهذا التسلسل الطويل من النضال الوطنى الكوبى مع تنوع فى الأيديولوجيا وفى إستراتيجية العمل الوطنى. كما نرى فى مذكرات كاسترو ارتباطه منذ الصغر بما يسميه قيماً أخلاقية، بعضها ينسبها كاسترو أيضاً إلى «خوزيه مارتى»، وبعضها الآخر يقر باكتسابها عبر علاقات مبكرة مع حزب الشعب الكوبى الذى أسسه «إدواردو شيباس»، وتشمل هذه القيم الأخلاقية العدالة والنزاهة والمساواة والأمانة ورفض الفساد وغيرها، وكلها قيم يرى كاسترو أنها تكاملت لديه مع القيم التى اكتسبها بعد اعتناقه الماركسية اللينينية.

ونعود إلى ما ذكرناه فى الفقرة السابقة عن تمسك كاسترو بالماركسية بالرغم من انهيارها فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا، فكاسترو لا يتردد فى مذكراته فى توجيه الانتقادات الحادة إلى التجربة السوفيتية، مع إبرازه بوضوح أن هذه الانتقادات لا تقلل من شأن أهمية الدور الذى لعبه الاتحاد السوفيتى السابق سواء على صعيد «الإنجازات» لشعبه أو على الصعيد الدولى لصالح الدول الصغيرة والضعيفة التى وصفها كاسترو بـ «اليتم» بدون الاتحاد السوفيتى، كما أنها لم تمس إيمان كاسترو المطلق بصحة النظرية الماركسية اللينينية وجدواها. أما بخصوص الدول التى كانت

تتبنى النظام الشيوعى فى شرق ووسط أوروبا، فإن كاسترو لا يتردد فى الإشارة بصراحة إلى أن الشيوعية فى هذه الدول كانت مفروضة عليها من الخارج، فى إشارة للاتحاد السوفيتى السابق، مما سهل من تحولها ١٨٠ درجة بين عشية وضحاها مع رفع الغطاء السوفيتى عنها، ويرفض كاسترو أى مقارنة بين هذه الدول وبين حالة كوبا التى يرى أن الشعب الكوبى هو الذى اختار طريق الاشتراكية بدون ضغوط من أحد، بل وبالرغم من ضغوط عاتية فى الاتجاه المعاكس.



وتحتوى مذكرات كاسترو على العديد من الإشارات الصريحة إلى مواقف حدث فيها خلاف حاد بين كوبا الثورة والاتحاد السوفيتى السابق، ومنها على سبيل المثال رغبة كوبا، عقب تحقيق الانتصار على القوات الجنوب أفريقية والزائيرية الغازية فى أنجولا عام ١٩٧٦، فى مواصلة القتال داخل ناميبيا التى كانت تحتلها حينذاك قوات نظام الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا وإجبار ذلك النظام على الجلاء عن ناميبيا ومنحها الاستقلال، مقابل «ضغوط ثقيلة» - بحسب وصف كاسترو - مارستها القيادة السوفيتية على كوبا لوقف العمليات العسكرية بعد تحرير أنجولا، وذلك تخوفاً من ردود فعل غاضبة وعنيفة من الولايات المتحدة الأمريكية. ويقر كاسترو أنه خضع فى نهاية المطاف لهذه الضغوط لأن الاتحاد السوفيتى هو الذى كان يقدم الدعم السياسى والعسكرى (الأسلحة) واللوجستى للقوات الكوبية فى أنجولا، بالرغم من أن كوبا لم تستشر الاتحاد السوفيتى فى المقام الأول بشأن قرار إرسال القوات الكوبية إلى أنجولا قبل اتخاذه. كما يشير كاسترو إلى خلاف مفاهيمى بشأن فكرة «الحرب» فى حد ذاتها بين الكوبيين والسوفيت، نظراً لتباين الخبرة التاريخية بين الطرفين. فالسوفيت يتحدثون عن الحروب النظامية الضخمة، بينما بالنسبة للكوبيين فالحرب هى بالطبيعة والضرورة غير متكافئة، ولذا يجب أن تكون حرباً غير نظامية، أو بتعبير آخر حرب عصابات. وقد افرز ذلك تبايناً فى الاستراتيجية والتكتيك بين الطرفين، خاصة فى الحرب فى أنجولا عامى ١٩٧٥ و١٩٧٦، بل إن الضغوط السوفيتية وصلت إلى حد دفع الكوبيين لإجراء تخفيضات





عهد كاسترو إلى «تشى جيفارا» بالمسئولية عن الاقتصاد الكوبى، فقام «تشى» بتمجيد العمل التطوعى، وكان يعتقد أن خلاص العالم يكمن فى الكتلة الشيوعية



تدريجية على قواتهم فى أنجولا، بالرغم مما يؤكده كاسترو من عدم اقتناعه بإجراء هذه التخفيضات.

وفى نفس السياق، أى اتصالاً بموقف كاسترو بالماركسية، وبالرغم منه، يلفت النظر حرص كاسترو فى مواضع عديدة بالكتاب، بشكل مباشر أحياناً وبشكل غير مباشر فى أغلب الأحوال، على إيضاح أنه لا يحمل ضغينة تجاه الأديان فى حد ذاتها أو اتباعها، ولكن المعيار لديه هو موقف رجال الدين، والمتدينين بشكل عام، تجاه كل من المسألة الوطنية والمسألة الاجتماعية. فبدءاً من دعم بعض الرهبان المسيحيين للجمهوريين خلال الحرب الأهلية الإسبانية فى ثلاثينيات القرن العشرين، ومروراً بتضامن رجال دين مسيحيين محليين مع الثورة فى كوبا وإطلاق رجال دين فى أمريكا اللاتينية للاهوت التحرير فى سبعينيات القرن المنصرم لتوفير الغطاء الدينى للنضال ضد الظلم الاجتماعى فى القارة، وانتهاءً بالإشادة بمواقف بابا الفاتيكان الراحل يوحنا بولس الثانى، الذى يصفه كاسترو بأنه كانت له مواقف شجاعة. ولا يفوت المرء هنا أن يذكر أن البابا الراحل سبق أن زار كوبا خلال حياته والتقى بكاسترو، كما يذكر أن البابا الراحل تبنى موقفاً واضحاً إزاء إعلان رفضه للعقوبات الأمريكية أحادية الجانب المفروضة على كوبا منذ مطلع الستينيات والتى تعززت فى مطلع التسعينيات من القرن العشرين. وبالتالى، يمكن فهم إشادة كاسترو بالبابا الراحل، بالرغم من أنه من منظور أيديولوجى بحت كان من المفترض إدانة كاسترو للبابا للدور الذى لعبه فى المساعدة على إسقاط الشيوعية فى بولندا فى ثمانينيات القرن العشرين، وهو الأمر الذى مثل الخطوة الأولى على طريق سقوط الشيوعية فى شرق ووسط أوروبا وصولاً للاتحاد السوفيتى السابق ذاته. والعديد من مواقف كاسترو بشأن الدين تم التعرض لها بشكل أكثر تفصيلاً فى حواره المطول مع رجل الدين الكاثوليكى «فراى بيتو» والذى عمل لفترة مستشاراً لرئيس البرازيل اليسارى «لولا»، وقد نشر هذا الحوار ككتاب وترجم إلى عدة لغات تحت عنوان «فيدل والدين» منذ سنوات.

وكما هو متوقع توجد إشارات مكثفة وتفصيلية فى مذكرات كاسترو إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ليس فقط من منطلق العلاقات الأمريكية الكوبية وتطوراتها وتفاصيلها، ولكن من منطلق الاهتمام بالولايات المتحدة فى حد ذاتها، سواء داخلياً أو على صعيد سياساتها فى أمريكا الجنوبية والوسطى أو على مستوى السياسة الكونية للولايات المتحدة باعتبارها قوة عظمى. وقد عاصر كاسترو خلال رئاسته لكوبا عشرة رؤساء أمريكيين بدءاً بايزنهاور وانتهاء بجورج بوش الابن. ولكن اللافت أن كاسترو ليس معنياً بالسياسة فقط، وفيها تغلب بالطبع النظرة السلبية للسياسات الأمريكية فى العالم بأسره وفى أمريكا اللاتينية وكوبا على وجه التحديد، بل يبدو اهتمامه بالمجتمع الأمريكى، وهنا يبدو أكثر تفاؤلاً بشأن الحاضر والمستقبل مقارنة بما كان عليه الحال فى الماضى. فبينما يكرر كاسترو، طوال الكتاب وفى غير مناسبة، إدانته لما يعتبره «ثقافة المكارثية» التى سادت المجتمع الأمريكى عقب الحرب العالمية الثانية وأفزعت كل من كانت له توجهات تقدمية فى الولايات المتحدة، بل وامتدت آثارها - من وجهة نظر كاسترو - إلى كافة أرجاء أمريكا اللاتينية حيث تم إخافة وعزل كل الأفراد والقوى التقدمية فى القارة، فإنه، وبالمقابل، يعرب عن غبطته لكون غالبية قيادات الحركات الاجتماعية المناهضة للعولمة فى طورها الحالى هم من الأمريكيين، وتحديداً من الشباب، الذين يعتبرهم كاسترو تقدميين، بل ويرى فيهم الامتداد المستقبلى والوريث الطبيعى لكل الحركات الثورية والتقدمية فى العالم الجديد. ويبدى كاسترو إعجابه بتوظيف هؤلاء الشباب لمعطيات ثورة العلوم والتكنولوجيا لتطوير اساليب احتجاجية مبتكرة ولتعبئة الدعم الشعبى على النطاق العالمى لحركتهم. كما لا يفوت كاسترو أن يحيى هؤلاء على ابتعادهم عن العنف ويحضهم على الاستمرار على هذا النهج، مديناً اللجوء إلى العنف فى موقف حاسم يحسب له بكل تأكيد.

كما حرص كاسترو فى مذكراته، وفى إطار التفرقة بين معارضته لسياسات السلطة الحاكمة فى واشنطون ومواقفه الودية إزاء الشعب الأمريكى، إلى تأكيد إدانته لاعتداءات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى نيويورك وواشنطون، موضحاً أن سياسات الإدارة والكونجرس الأمريكيين العدائية تجاه كوبا لا تقلل بأى حال من الأحوال من مشاعر الألم الشديد التى شعر بها الشعب الكوبى، وكاسترو شخصياً، تجاه ضحايا تلك الاعتداءات. ويبرز كاسترو أنه من السذاجة تحميل الشعب الأمريكى مسئولية ما يسميه بـ «مؤامرات» واشنطون ضد كاسترو والتى تراوحت ما بين محاولات اغتيال، ومحاولات انقلاب، وفرض حصار ومقاطعة، ومحاولات غزو، وتدريب لجماعات معارضة خارج كوبا وغير ذلك من مخططات تلخص هدفها فى ثلاث كلمات: «التخلص من كاسترو». وفى الاطار الأشمل، يبرز الكتاب سجل واشنطون الطويل فى دعم نظم الحكم الديكتاتورية فى القارة اللاتينية، بل والتدخل المباشر عبر انقلابات عسكرية وتدخلات أمريكية لإسقاط نظم حكم يسارية منتخبة ديمقراطياً. وبالمقابل، لا يفوت فيدل كاسترو أن يذكر واقعة إعصار كاترينا الذى ضرب «نيو أورليانز» بالولايات المتحدة فى أغسطس وسبتمبر من عام ٢٠٠٥، وعرض كوبا حينذاك إرسال ١٦١٠ أطباء والذى رفضته الإدارة الأمريكية بسبب «كبريائها» على حسب تفسير كاسترو، مما أدى إلى ترك آلاف الأمريكيين يموتون قبل أن تصل إليهم الإسعافات، ودائماً بحسب كاسترو. ولا

يترك كاسترو هذه الفرصة تفوت دون أن يعيد إلى الذاكرة ما فعلته الولايات المتحدة تجاه كوبا بعد ثورة ١٩٥٩ من حرمانها من نصف أطبائها. ثم يقارن بين الولايات المتحدة اليوم حيث الملايين من المهاجرين إليها ومن الأفريقيين الأمريكيين لا يقوون على سداد نفقاتهم للعلاج بينما في كوبا اليوم يحظى كل مواطن، بل وكل زائر، بتأمين صحي شامل ورعاية طبية على مستوى إنساني لائق، كما انخفضت معدلات الوفيات وارتفع متوسط العمر في كوبا حتى بات يقترب من ثمانين عاماً في المتوسط، وتحقق أقل معدل إصابة بالإيدز في العالم بأسره.

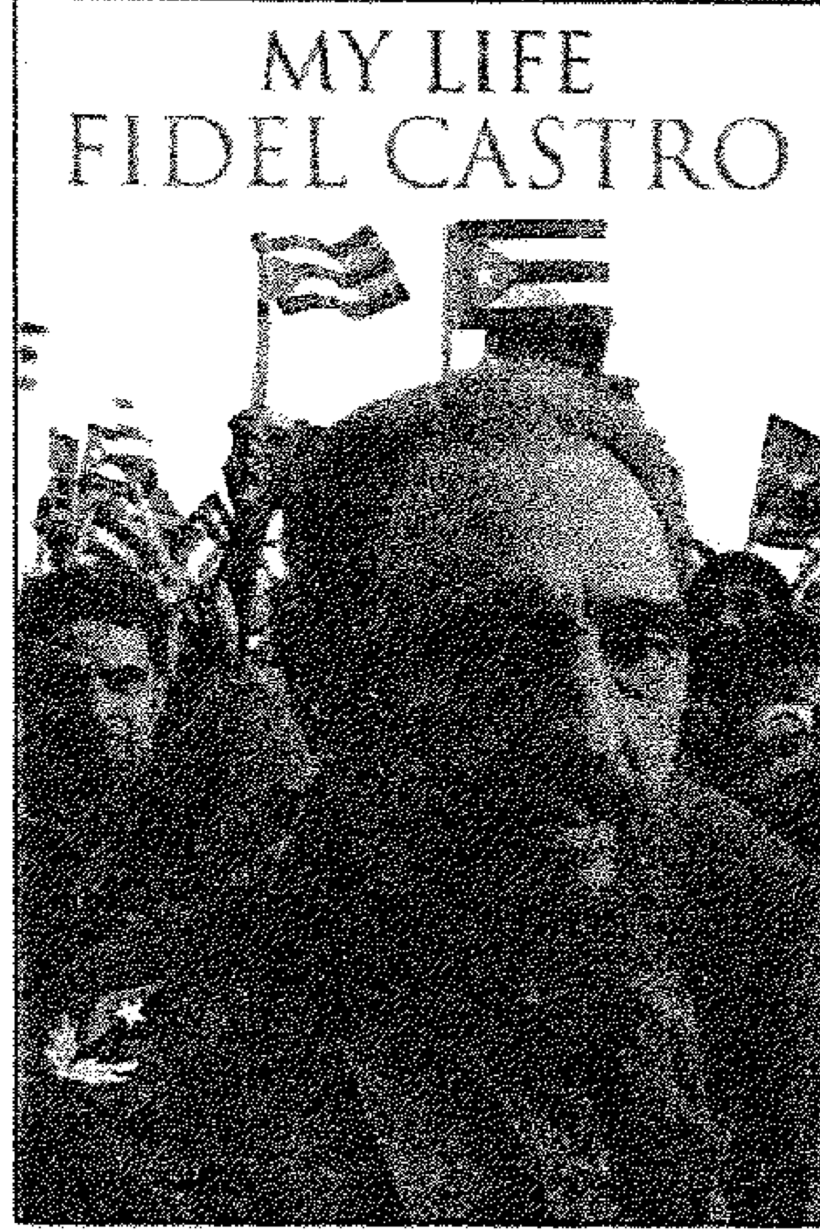


وإذا كان من غير المستغرب أن يكرس كاسترو في كتابه فصلاً عن إسبانيا، في ضوء الوشائج الحميمة والعرى غير القابلة للانفصام بين دول أمريكا اللاتينية - ومن بينها كوبا - وبين إسبانيا، سواء التاريخية أو الثقافية أو العرقية أو القومية أو اللغوية، وأخذاً في الاعتبار أن مئات الكوبيين تطوعوا خلال الحرب الأهلية الأسبانية ما بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٨ للقتال دفاعاً عن الجمهورية الإسبانية في مواجهة الفاشية، فإن تكريسه فصلاً لفرنسا يثير العديد من الأسئلة حول السبب في اختيار فرنسا بالذات لهذا التخصيص. ولكن التعجب ينتفي عندما نقلب صفحات هذا الفصل، بل نجده من أكثر الفصول إمتاعاً. وفي بداية الفصل مباشرة ندرك سبب تخصيص فصل في مذكرات فيدل كاسترو لفرنسا، حيث يعيد جذور التأثير الثقافي والفكري الفرنسي عليه إلى الفترة التي أرسله فيها والداه عندما كان صبياً للإقامة بغرض تلقي العلم في منزل مدرس في مدينة سنتياجو الكوبية بغرض الحصول على ما وصفه والداه بـ «تربية وتعليم فرنسيين». ويتحدث كاسترو عن تأثره بمفكرين فرنسيين، خاصة مفكري الثورة الفرنسية، ومؤرخين فرنسيين، خاصة المؤرخين اليساريين، كما يمتد حديثه ليشمل تأثره بالموسيقى والموسيقيين الفرنسيين بل وإعجابه بالنبيذ الفرنسي. ويبرز إعجاب كاسترو بعدد من الكتاب والروائيين الفرنسيين مثل «أونوريه دي بالزاك» و«رومان رولان» وغيرهما. كذلك يتذكر كاسترو بالعرفان دور اقتصاديين وزراعيين فرنسيين ساهموا في صياغة قانون الإصلاح الزراعي في كوبا. كما نوه بالدور الذي لعبه الفيلسوف الثوري الفرنسي «ريجي ديبريه» في حملة محو الأمية في كوبا في مطلع عقد الستينيات من القرن العشرين. ويشير كاسترو إلى صديقه الممثل الفرنسي «جيرار ديبارديو». ثم يكرس كاسترو إشارة خاصة إلى الفيلسوف الفرنسي الراحل «جان بول سارتر» مشيداً بموقفه الداعم للثورة الكوبية منذ زيارته لكوبا بصحبة الأديبة الفرنسية الراحلة «سيمون دي بوفوار» في بدايات الثورة الكوبية، وتحديداً عام ١٩٦٠.

ولم يكن غريباً أن يكرس الزعيم الكوبي فصلين في مذكراته لرفيق دربه وكفاحه وسلاحه الأسطورة الثورية في أمريكا اللاتينية، بل وفي العالم بأسره، «تشي جيفارا»، ليس فقط نظراً للصلة الشخصية الحميمة التي جمعت بينهما، أو للتماثل الأيديولوجي الذي ميز علاقتهما، وإنما لتأثير «تشي» ودوره في صياغة توجهات الثورة الكوبية، خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية. فبخلاف ما كان شائعاً لفترة طويلة على أنه حقيقة مسلم بها من أن فيدل كاسترو لم يكن أصلاً ماركسياً، بل تبنى الشيوعية تحت تأثير «جيفارا» وفي مرحلة تالية لنجاح الثورة الكوبية، فإن المذكرات التي بين أيدينا تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك وعلى لسان كاسترو نفسه أنه تبنى الماركسية في مرحلة مبكرة عندما كان طالباً في الجامعة وحتى قبل أن يتعرف على «جيفارا»، وإن كان كاسترو قد فرق بين مرحلتين مر بهما في مسيرته الشيوعية، وهما ما أسماهما بمرحلة الطوباوية الشيوعية ثم مرحلة الواقعية الماركسية بعد قراءاته التفصيلية والمتعمقة للكتابات الأساسية لكل من كارل ماركس وفلاديمير إليتش أوليانوف (لينين).



ومن جانب آخر، أقر كاسترو بأنه لم ينضم للحزب الشيوعي الكوبي قبل انتصار ثورته، وذلك بالرغم من تكرار تأكيده في مواضع عديدة على كل تقديره واحترامه لذلك الحزب ولدوره التاريخي في النضال الوطني والطبقي للشعب الكوبي وللشخصيات التي قادت هذا الحزب في مراحله المختلفة ونزاهتها. ولكن كاسترو برر ابتعاده عن صفوف الحزب الشيوعي الكوبي بعدة اعتبارات منها ما أسماه بعزلة الحزب عقب الحرب





نلحظ في مذكرات كاسترو انتماء لا تخطئه العين للقارة الأمريكية اللاتينية، يذكره كاسترو في كل موضع بكل فخر ويمتد تاريخياً إلى عقد الأربعينيات من القرن العشرين



العالمية الثانية نظراً لامتدادات «المكارثية» وتأثيراتها من الولايات المتحدة إلى فنائها الخلفي في بلدان أمريكا اللاتينية، بالإضافة إلى الاعتبار الأمني الخاص بخضوع الحزب وقياداته لرقابة أمنية لصيقة من جانب أجهزة نظام حكم الديكتاتور «باتيستا» - الذي أطاح كاسترو بحكمه في يناير ١٩٥٩ - خاصة لأن «باتيستا» كان يعرف الكثير عن الحزب الشيوعي الكوبي وقياداته وكوادره في ضوء وجود تحالف سياسي سابق بينهما في مرحلة تاريخية ماضية.

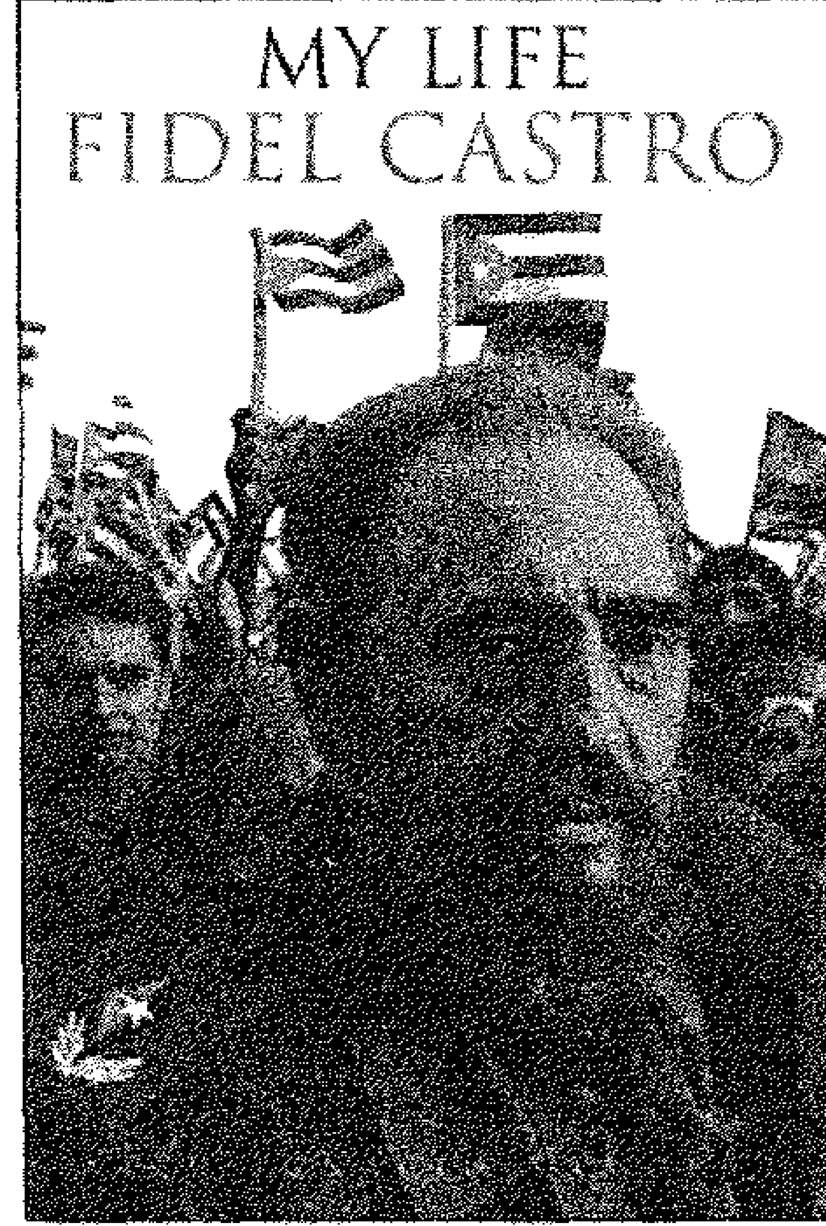
ولكن على الجانب الآخر يظهر بوضوح تأثير «تشي» على كاسترو في البعد الأممي لفكره وسياساته، خاصة تلك الخارجية، ومرة أخرى فبخلاف ما ساد من قناعة لدى البعض لفترة طويلة من أن «تشي» كان الأممي في الثورة الكوبية الداعي إلى عالمية الثورة التي لا تعرف حدوداً، باعتباره هو نفسه كان أرجنتينياً وليس كوبياً، في مقابل كاسترو الذي كان يعطي الأولوية للبعد الوطني أي مصلحة النظام الثوري الوليد في كوبا، أي ما يشبه المفارقة بين ستالين وتروتسكي في حالة الثورة البلشفية في روسيا ما بعد رحيل لينين. ولكن الكتاب الذي بين أيدينا يفند هذا الانطباع أيضاً، فنكتشف عبر صفحاته الدور الأممي لكاسترو، وتحديداً في عقد الأربعينيات من القرن الماضي، في دول أخرى في أمريكا اللاتينية كما ذكرنا في فقرة سابقة، كما نتبين الجذور الأيديولوجية الراسخة لتوجهات كاسترو الأممية تلك في المراحل اللاحقة، والتي جعلت من هذا التوجه قاسماً مشتركاً وعنصراً إضافياً للتقارب وليس للتنافر بين كاسترو وجيفارا. كما استمر هذا التوجه لاحقاً في فكر وممارسات كاسترو، حتى بعد سنوات على رحيل جيفارا، وهو ما يتبدى واضحاً في قرار كاسترو في السبعينيات من القرن الماضي بإرسال قوات كوبية إلى أثيوبيا وأنجولا للقيام بدور أممي هناك، أي لدعم نظام حكم جاء إلى الحكم عبر انقلاب عسكري ثم تبنى الماركسية اللينينية في الحالة الأثيوبية، ودعم حركة تحرر وطني ماركسية جاءت إلى الحكم بعد جلاء المستعمر البرتغالي ثم واجهت تمرداً مسلحاً من حركة مناوئة مدعومة من الغرب في ذلك الوقت في الحالة الأنجولية. ويعتبر كاسترو في مذكراته أن الدور الأممي العسكري لكوبا خارج حدودها، وخاصة في أفريقيا في منتصف عقد السبعينيات من القرن العشرين، كان مفاجأة غير متوقعة للولايات المتحدة، وتحديداً لإدارة فورد الجمهورية، مما أصابها بالشلل والعجز عن التحرك لمواجهة الدور الكوبي في وقت مبكر قبل انتصاره في أنجولا بحلول نهاية مارس ١٩٧٦.

ولكن القناعة السائدة عن «التهور الثوري» لجيفارا مقابل «حكمة» كاسترو نرى أيضاً ما يثبت جزءاً من صحتها في عدة مواضع من المذكرات التي بين أيدينا. ومن أمثلة ذلك ما يذكره كاسترو عن الكلمة التي ألقاها جيفارا باسم كوبا في الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك في ١١ ديسمبر من عام ١٩٦٤ وهاجم فيها بشدة ما أسماه بـ «العدوان الأمريكي والبلجيكي ضد الكونغو كنشاسا»، ودعوته لكل الأحرار في العالم بأن يكونوا مستعدين للثأر من الجرائم التي ترتكب في الكونغو، وذلك بالطبع في إشارة لاغتيال الزعيم الكونغولي «باتريس لومومبا» وما سبق



ذلك وأعقبه من أحداث. ويكشف فيدل النقاب عن أنه مارس ضغوطاً عقب هذا الخطاب على «تشى» لتهدئته وحثه على الصبر» حتى تكون الأوضاع فى الكونغو مهيأة لـ «حرب تحرير». إلا أنه يبدو أن «تشى» لم يستمع لنصيحة رفيق دربه طويلاً، بل توجه فى نهاية ديسمبر ١٩٦٤ فى جولة أفريقية شملت تسع دول منها مصر (حيث التقى «تشى» بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر) والجزائر ومالى والكونغو كنشاسا وغينيا وغانا وداهومى (التى سميت فيما بعد فى سبعينيات القرن العشرين «بنين») وتنزانيا والكونغو برازفيل. والتقى «تشى» خلال هذه الجولة بالزعماء التاريخيين للقارة، وعاد بعدها إلى كوبا ولكن بعد أن بات أكثر اهتماماً بالأوضاع فى أفريقيا، ولكنه كان راغبا، بل ومتعجلاً، فى الذهاب للقتال فى بوليفيا. ومرة أخرى يحدثنا كاسترو فى مذكراته عن تدخله من جديد ليهدىء من حمية «تشى»، ولكن هذه المرة عبر حثه على التوجه لأفريقيا بدلاً من بوليفيا، بل واقترح عليه هذه المرة أن يصحب معه «مجموعة من الرفاق» الكوبيين للقتال بجانب الثوار فى الجزء الشرقى من الكونغو كنشاسا، وذلك هو ما تحقق بالفعل فى ٢٤ أبريل ١٩٦٥، وذلك فى مواجهة هجمات وحدات مرتزقة من ألمانيا وجنوب أفريقيا وروديسيا (التى سميت «زيمبابوى» بعد سقوط نظام الفصل العنصرى بها عام ١٩٨٠) كان يقودهم ضباط أمريكيون وبلجيك. وعقب ذلك بثلاثة أشهر طلب «تشى» إمدادات من فيدل حيث وافاه الأخير بـ ٢٥٠ مقاتلاً.

وكان للقارة الأفريقية نصيب فى مذكرات فيدل كاسترو، حيث سرد لها فصلاً كاملاً، تحدث فيه عن مئات الآلاف ممن أسماهم بالمناضلين الأمميين الكوبيين الذين ساعدوا الأفارقة فى النضال ضد الإمبريالية والنهب الغربيين، بالإضافة إلى الآلاف من الأطباء الكوبيين الذين كانوا ومازالوا يساعدون الشعوب الأفريقية - وغيرها من شعوب العالم الثالث - فى مواجهة الأمراض الفتاكة وفى مقدمتها الإيدز. ويلفت فيدل كاسترو الأنظار هنا إلى المقارنة بين هذا الإسهام الكوبى وبين ما يعتبره غياب أى جهد جاد من جانب الولايات المتحدة وأوروبا لمساعدة الأفارقة على مواجهة هذا التحدى الخطير للحياة والتنمية فى القارة السمراء. ويعود كاسترو بنا لنغوص فى التاريخ حيث يتتبع الدور الكوبى فى أفريقيا بدءاً



كاسترو لا يتردد فى مذكراته فى توجيه الانتقادات الحادة إلى التجربة السوفيتية، مع إبرازه بوضوح أن هذه الانتقادات لا تقلل من شأن أهمية الدور الذى لعبه الاتحاد السوفيتى السابق

من عام ١٩٦١ حين أرسلت كوبا سفناً ممتلئة بالسلاح إلى ثوار الجزائر خلال حرب التحرير الوطنية ثم عام ١٩٦٣ حيث قاتلت القوات الكوبية بجانب الجزائر فى حربها الحدودية مع المغرب، ووصولاً إلى القتال بجانب الحكومة الأنجولية فى مواجهة قوات متمردى «اليونيتا» المدعومة من قوات جنوب أفريقية لنظام الفصل العنصرى القائم حينذاك فى بريتوريا. وبين التاريخين هناك «مياه كثيرة جرت فى النهر»، كما كان يقول فلاسفة الاغريق، فستمائة مقاتل كوبى بالإضافة إلى سبعين طبيباً ساعدوا فى نضال شعب غينيا بيساو من أجل الاستقلال عن البرتغال بقيادة «الحزب الأفريقى لاستقلال غينيا بيساو والرأس الأخضر» والذى كان يتزعمه المناضل والمفكر الثورى «أميلكار كابرال»، وذلك منذ عام ١٩٦٤ وحتى تحقق الاستقلال لغينيا بيساو فى سبتمبر عام ١٩٧٤ وللرأس الأخضر فى عام ١٩٧٥؛ وفى عام ١٩٦٥ بدأ الدعم الكوبى لثوار أنجولا المناضلين ضد الاستعمار البرتغالى وتدريبهم بواسطة مقاتلين كوبيين كانوا متواجدين فى الكونغو برازفيل فى ذلك الوقت. ويتناول فيدل كاسترو فى مذكراته ما يعتبره «مؤامرة» أمريكية حاولت تنفيذها كل من جنوب أفريقيا (فى ظل نظام الفصل العنصرى) ونظام «موبوتو سيسى سيكو» القائم حينذاك فى زائير (الكونغو كنشاسا فيما سبق والكونغو الديمقراطية الآن) بالتعاون مع «الاتحاد الوطنى للاستقلال الكامل لأنجولا (اليونيتا)» بزعامة «جوناس سافيمبى» والذى كان يعمل على تعزيز التعصب القبلى والعرقى فى أنجولا، بحسب كاسترو، للسيطرة على أنجولا بعد استقلالها عن البرتغال عام ١٩٧٥ والقضاء على النظام الثورى القائم بها بزعامة جبهة «حركة التحرير الشعبية الأنجولية (مبلا)» بقيادة الزعيم الأنجولى الراحل «أوجستينو نيتو» المؤيدة من قبل الاتحاد السوفيتى السابق وكوبا، ويشير إلى مشاركة ٣٦ ألفاً من القوات الكوبية (القوات النظامية والميليشيا الثورية) فى إلحاق الهزيمة بهذه المؤامرة. ويتحدث كاسترو عن زيارته لأنجولا فى مارس ١٩٧٧.

وفى عام ١٩٨٧ حدث هجوم كبير من جنوب أفريقيا مدعوماً من الولايات المتحدة لحماية «سافيمبى» فى أنجولا واستنجدت حكومة لواندا بكوبا. وبالرغم من تحفظ الاتحاد السوفيتى على التدخل، فقد لبت القيادة الكوبية فى النهاية النداء الأنجولى، وأرسلت على عجل ٥٥ ألف ضابط وجندى بالإضافة إلى العتاد وطلبت من الزعيم الأنجولى «دوس سانتوس»، الذى خلف «أوجستينو نيتو» بعد وفاته، توحيد القيادة فى يد الكوبيين، سواء للقوات الكوبية أو الأنجولية الحكومية أو مقاتلى «منظمة شعب جنوب غرب أفريقيا (سوابو)» التى كانت تناضل ضد الاحتلال الجنوب أفريقى لناميبيا. وانتهى الأمر بمفاوضات تحت راية الأمم المتحدة فى نيويورك بمشاركة حكومات كوبا وأنجولا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة، والتى أفضت إلى اتفاق ديسمبر ١٩٨٨ الذى وضع جدولاً زمنياً لانسحاب القوات الكوبية من أنجولا على فترة ثلاث سنوات وضمان استقلال أنجولا وسلامة ووحدة أراضيها وتحقيق مصالحة وطنية بها بين الحكومة وحركة اليونيتا المتمردة.

ولا يفوت كاسترو فى هذا السياق اتهام الولايات المتحدة صراحة بنقل ثمانى قنابل نووية لجنوب أفريقيا، وتأكيد الدور الذى مثله الوجود العسكرى الكوبى فى أنجولا من دعم لنضال شعبى جنوب أفريقيا وزيمبابوى ضد نظامى الفصل العنصرى بهما وكذا نضال الشعب الناميبى ضد الاحتلال الجنوب الأفريقى. ومرة أخرى لا يفوت كاسترو إدانة محاولات الولايات المتحدة للقيام بما يسميه «تزييف التاريخ» من خلال السعى الحثيث لإغفال أى دور لكوبا فى تحرير أنجولا وغيرها من البلدان الأفريقية وكذلك تجاهل دعم الولايات المتحدة لحركة اليونيتا ومسئوليتها بالتالى عن مصرع مئات الآلاف من الأنجوليين خلال سنوات الحرب الأهلية الطويلة فى أنجولا، بل يذهب إلى حد اتهام الشركات الأمريكية اليوم بنهب ثروات أنجولا من الموارد الطبيعية، خاصة النفط، مقابل كوبا التى يرى أنها دعمت شعوب أفريقيا وضحت بأبنائها فى كوبا وغيرها ولم تأخذ من القارة سوى رفات ألفين وسبعة وسبعين من مناضليها الذين قضوا وهم يناضلون من أجل استقلال دول أفريقيا. ونلحظ تجاهل كاسترو الإشارة فى المذكرات إلى الدعم العسكرى الكوبى لإثيوبيا فى عهد «منجستو هايلا ميريام» بعد انقلابه عام ١٩٧٧، ربما لسوء سمعة نظام منجستو وما تكشف لاحقاً بعد سقوط نظام منجستو عام ١٩٩١ من جرائم ارتكبها هذا النظام.



ويوجه فيدل كاسترو أصابع الاتهام إلى إسرائيل فى عدة مواضع بمذكراته باعتبارها لعبت دور الوسيط فى العديد من العمليات الأمريكية الموجهة ضد كوبا، وينعت كاسترو إسرائيل بأنها «الداعم الأبدى» للحصار الأمريكى الأحادى المفروض على كوبا، ويدين الصمت الدولى تجاه الترسانة النووية الإسرائيلية، متهماً واشنطون وتل أبيب بالسعى لاحتكار دورة الوقود النووى حتى تتمكن الدولتان من احتكار الطاقة النووية عندما تنضب مصادر الطاقة من النفط الخام والغاز الطبيعى لدى الدول المنتجة لهما.

ونلحظ اطلاع كاسترو المستمر على الأوضاع الدولية وتطوراتها وربطه بين احداث الماضى والحاضر وفق رؤية

واضحة وأفق واسع ومنهج متسق مع نفسه، سواء اتفقنا معه أو اختلفنا. ومن أمثلة ذلك حديثه فى مذكراته عن أزمة الملف النووى الإيرانى. وبالطبع يأتى حديثه عن هذا الموضوع فى البداية فى سياق إدانته للولايات المتحدة وسياستها لإعاقة إيران من إنتاج الوقود النووى، ويذهب إلى حد اتهام الولايات المتحدة بالسعى لوضع إيران فى موقف يضطرها لاستنزاف مخزونها من النفط والغاز الطبيعى. ويرى فيدل أن لإيران كل الحق والمبررات والمنطق الوجيه لإنتاج الطاقة الكهربائية من الوقود النووى. ويقارن كاسترو بين الجهود الأمريكية والغربية للحيلولة دون حصول إيران على حق السيطرة على دورة الوقود النووى، مقابل السماح لدول غربية وأخرى حليفة للتحالف الغربى، مثل فرنسا واليابان وكندا وكوريا الجنوبية، بممارسة هذا الحق منذ سنوات وتنتج معظم طاقتها الكهربائية من الوقود النووى. ويجد كاسترو المبرر لإيران فى طلبها فى أن تلقى معاملة مماثلة، أو على الأقل غير مختلفة، عن تلك الدول الأخرى، أى أن تمارس ببساطة حقها فى إنتاج جزء كبير من طاقتها الكهربائية من الوقود النووى بدلاً من الاندفاع نحو نضوب تدريجى لمواردها من النفط والغاز الطبيعى.

ويجب أن نذكر قبل الختام أنه عندما تحدث كاسترو عن نضاله ورفاقه فى جبال «سييرا مايسترا» عام ١٩٥٦، فإننا لا ننسى أن نشير إلى استقوائهم بانتصار مصر على العدوان الثلاثى فى نفس العام ونجاحها بعد الحرب فى الاحتفاظ بالسيادة على قناة السويس التى أممتها القيادة الثورية المصرية فى العام نفسه، وإجلاء قوات المعتدين عن أراضيها. وقد حرص كاسترو على أن يذكر ذلك بنفسه للرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر عندما التقاه على هامش أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك فى سبتمبر ١٩٦٠ .

وفى الختام نقول إن الولايات المتحدة الأمريكية والمهاجرين الكوبيين بها بشروا لعقود بأن اللحظة التى يختفى فيها كاسترو عن الحياة السياسية فى كوبا ستكون اللحظة التى سيكون لهم فيها سلطة إعادة صياغة الحياة فى كوبا. فقد تصور هؤلاء أنه بدون كاسترو سيهب شعب الدولة الجزيرة للمطالبة بالتغيير السريع وسيطيحون بنظام فيدل الثورى ورموزه ومؤسساته ويدعون الجار القوى فى الشمال - أى الولايات المتحدة الأمريكية - إلى مد يد العون لتحويل كوبا إلى «جنة الديمقراطية الليبرالية والسوق الحر». إلا أن تلك اللحظة أتت وذهبت ولم يحدث أى شىء مما بشر به هؤلاء. بل بدأت ترتيبات النظام السياسى الكوبى لفترة ما بعد كاسترو، وانتقلت القيادة بسلاسة ونجاح إلى قادة جدد ينتمون إلى مدرسة كاسترو، يسعون للحفاظ على نظامه وثورته مع مواصلة إصلاحات تدريجية بدأها هو ذاته منذ سنوات. ولم يثر الكوبيون، بل استمرت هويتهم الوطنية مرتبطة بالدفاع عن وطنهم وسيادته أمام التدخلات والاعتداءات الأمريكية.

وعن هذا يقول فيدل كاسترو فى مذكراته أن كافة الكوبيين ملتزمون بمواصلة المقاومة والقتال للدفاع عن ثورتهم والعدالة والتضامن الأممى، ولتحقيق التقدم لشعبهم عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، وهذا الأخير هو المجال الذى يقر كاسترو فى مذكراته بأنه ما زال الأقل نجاحاً فى مسيرة الثورة الكوبية حتى الآن، كما يراهن على الشعب الكوبى لإلحاق الهزيمة بما يسميه «العدوان الامبريالى»، والحصار الأمريكى المفروض عليهم من خلال تعلية شأن كرامتهم وتضامن شعوب وحكومات دول العالم معهم، بما فى ذلك قطاعات متزايدة من الشعب الأمريكى، ولتعرية الحملات الأمريكية الدعائية «المضللة» و«مناوراته» السياسية والدبلوماسية «الشريرة». ولكن كاسترو يقر أيضاً بضرورة مواجهة كوبا لأخطائها وأوجه النقص فى مسيرتها لتصحيحها.

وأياً كان موقف المرء من الزعيم الكوبى فيدل كاسترو، معه أو عليه، ومن دوره المحلى والإقليمى والدولى، السياسى والفكرى والتنظيمى، وتأثيرات هذا الدور ومقدار استمرارها، فستبقى حقيقة أنه نجح فى تسجيل نفسه ضمن عمالقة القرن العشرين فى العالم بأسره، سواء لما قام به فى كوبا أو لإسهاماته فى العلاقات الدولية لفترة قاربت على نصف قرن. ولا جدال فى أنه كلما ستذكر مفاهيم مثل «الماركسية»، «الاشتراكية»، «حرب العصابات»، «الثورة»، «حركة التحرر الوطنى»، «الزعامة الكاريزمية»، «الأممية»، وغيرها من المفاهيم الأساسية فى السياسة علماً وممارسة، فسيذكر اسم «فيدل كاسترو» بالضرورة مقترناً بما صاغه وقدمه على الصعيدين النظرى والعملى فى سياق هذه المفاهيم وغيرها. ■

كتاب الزاوية



فى المدارسة والمطالعة

رفاعة الطهطاوى

الدراسة هى تمرين العقل على مطالعة عدة علوم أو علم واحد منها ولما كانت فضيلة التعلم والتعليم والقابلية لذلك مشتركة بين جميع الناس لا يستغنى عنها إنسان وكان الاحتياج إليها ناشئًا من كراهة النفس للجهل الذى لا يمحوه إلا المواظبة على الاطلاع وكثرة الدراسة المستمرة التى يحصل بها التمكن من المعارف وكانت مدة الحياة قصيرة لا تكفى فى الحصول على شطر له وقع من المعارف البشرية وجب على الإنسان أن يتشبث بالعلوم الضرورية له كما قال الشاعر:

ما حوى العلم جميعًا أحد   لا ولو مارسه ألف سنه
إنما العلم عميق بحره   فخذوا من كل شىء أحسنه

والأولى لطالب العلم أن يتشبث بما يلايم الفن الذى يتخذه له فنا يختص به، فدراسة العلم فى حد ذاتها أفضل ما يشتغل به الإنسان وأحلى ما يصرف فيه أوقات حياته وأفضل لذات الدنيا، فلا سرور يوازى سرور العلم. والاشتغال به يحسن فى جميع الأوقات وشتى الأعمار وفى جميع الأمكنة والبلدان لأن مطالعة الكتب لا يضيق منها صدر الإنسان فى مدة عمره وفى مبادئ وأواخر أمره، لأنها تصلح حال الشبان وتنفع فى حال الكهولة وتخفف الآلام وتفيد الصبر على نوائب الأيام حتى إن الإنسان المنهمك على القراءة لا يذوق طعم الفاقة وإن كان فقيرًا وإن كان غنيًا أغلت قيمة غناه وسعادته فما كأنها إلا غذاء الأشباح والأرواح فى الإمساء والإصباح وهى لأهل المدن فكاهة ورفاهة ولأهل الريف مشغلة ونباهة.

نســـــاء فـي حيـــــاة



الفضاء المدني لايمكن وصفه
إلا بأنه فضاء ذكوري مطلق لادور فيه يذكر للمرأة إلا في بعض النواحي الخيرية، التي ساهمت فيها بعض نساء الطبقة الحاكمة



مازال التاريخ القروسطي العربي بقعة معتمة بعض الشيء على الرغم من الاهتمام الكبير بتحقيق مصادره المخطوطة خلال نصف القرن الماضي بحيث أنها أصبحت بغالبيتها متاحة في طبعات متعددة أحياناً، وعلى الرغم من ازدياد عدد الباحثين المتخصصين ازدياداً مضطرداً خلال الفترة ذاتها ومقاربتهم لشتى المواضيع التاريخية بحثاً وتمحيصاً ومناقشةً. ولهذا الغموض التاريخي أسباب، بعضها موضوعي، كسكوت المصادر عن بعض مناحي الحياة العامة والخاصة وغياب الدلائل المادية من مبنى وأداة وحلية أو لباس، وبعضها مقصود، أي أن العتمة تعتيم في الحقيقة، كإغفال المصادر لبعض مالم يعجب كاتبيها أو تحويرهم إياه ليتلاءم مع نظرتهم للأمور، أو كرفض الدارسين المحدثين التطرق لبعض المواضيع الخلافية والشائكة خوفاً أو تعففاً أو تزلفاً، وبعضها الآخر ثقافي - اجتماعي وسيكولوجي. أي أنه نتاج تضافر عوامل عدة منها المبتغى لغايات شتى، ومنها المادي، ومنها الخاضع لسياقات المجتمع المعرفية والأخلاقية. هذا النوع من العتمة هو الأصعب على التفسير والأجدر به في آن واحد لأن تحليله وإضاءة جوانبه لاتلقي ضوءاً جديداً على معرفتنا التاريخية وحسب، ولكنها أيضاً تسلط نورها على نوازعنا، كأفراد وكمجتمع، وعلى مقاربتنا للتاريخ وتفاعلنا معه في حياتنا المعاصرة سلباً وإيجاباً. حياة المرأة، نصف المجتمع وعموده ومبرر بقائه ووجوده، واحد من أهم وأخطر تلك المواضيع التاريخية المغيبة بشكل عام من الخطاب التاريخي العربي في العصور الوسطى، التي اصطلح - زوراً وبهتاناً برأيي - على تسميتها بعصور الانحطاط، والتي تمتد عموماً بين القرنين الحادي عشر والثامن عشر. ففي هذه الفترة الطويلة حقاً لانجد أي صوت نسائي مستقل على الإطلاق، ماعدا ذلك الصوت المحاجج والرائع في عالم القصص: صوت شهرزاد التي لم تعادلها أية امرأة في البلاد، ولكن ببلاد الخيال بالطبع، مما يزيد من رجاحة الرأي بأن غياب الصوت النسائي أو تغييبه في الواقع والأدب قد اضطره للهجرة إلى عالم الخيال. وهو قد وجد بعضاً من فضاء الحركة هناك في سير ألف ليلة وليلة وغيرها من قصص الخيال، خاصة الجنسية منها مثل سير «الألفية» تلك الجارية الماهرة في فنون الجنس والتي جربته مع ألف رجل بحيث استحقت ذلك اللقب الغريب والجارح بسخريته وشديد الدلالة بنظرته للمرأة.

والأمر نفسه يتكرر في مجال الحياة الاجتماعية: فالفضاء المدني لايمكن وصفه إلا بأنه فضاء ذكوري مطلق لادور فيه يذكر للمرأة إلا في بعض النواحي الخيرية، التي ساهمت فيها بعض نساء الطبقة الحاكمة ببعض ثرواتهن في دعم المؤسسة الدينية عن طريق إقامتهن لأوقاف خيرية للصرف على مدرسة أو زاوية أو خانقاه، غالباً من خلال وكيل ومن دون أن يظهرن على الملأ، أو في الزوايا التآمرية المعتمة، حيث نسمع همسات، حانقة وغاضبة ومنذرة، عن تدخل بعض نساء أو جواري الحكام في الحكم وتلاعبهن برجاله عن طريق دلعهن وسيطرتهن الجنسية عليهم. القليلات من نساء الحكام هن من أبدين اهتماماً بوضع المرأة في المجتمع بشكل عام فوجهن بعضاً من ثرواتهن باتجاه أخواتهن كإنشاء خانقاه للنساء من الصوفيات كما في حالة الست حدق، قهرمانة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والأميرة طغاي، زوجته وأم ولده الأثير أنوك.

هذا عن نساء الطبقات العليا، أما عن وجود المرأة العادية في المجتمع فنحن كثيراً مانطالع في المراجع التاريخية إدانةً للنساء عموماً بسبب من استعدادهن للاستهتار والتبرج في كل مناسبة، مثل الأعياد والاحتفالات السلطانية بصعود عرش أو القضاء على منافس أو تدمير عدو. تطالعنا أحياناً أيضاً تحذيرات وتوعدات عن العلاقة بين الكوارث التي أصابت المجتمع: مثل الطواعين المتكررة أو الجدب أو الفيضانات أو الغزوات المغولية المدمرة، وبين فساد الأخلاق العامة الناتج من السماح بخروج النساء إلى المحلات العامة واختلاطهن بالرجال في المناسبات الاحتفالية اختلاطاً فاحشاً على رأي بعض مؤرخينا كابن إياس وابن الحاج المغربي المشهور بتزمته. وتبقى الشهادات الإيجابية بحق النساء عامة أو أية امرأة بذاتها قليلة، وهي في غالبيتها تنصب على التنويه بورعها وعبادتها أو صونها وعفافها وطاعتها لزوجها ومساعدتها للفقراء والمحتاجين. ومن النادر جداً أن نجد أي معلومات أخرى عن امرأة ما، مشهورة أم لا، ماعدا بعض الحالات الاستثنائية الخاصة بالزاهدات المتعبدات أو المحدثات اللواتي اشتهر بعضهن في القرون الوسطى، لعل أهمهن الدمشقية عائشة الباعونية (ت. ١٥١٦) المؤلفة العربية الوحيدة، على حد علمي، لكتاب ذي صبغة تاريخية دينية، وهو كتابها في مدح النبي «المورد الأهنى في المولد الأسنى»، الذي حققه ونشره فارس أحمد العلاوي ولؤي غنام، والتي مازلنا مع ذلك لانعرف الشيء الكثير عنها إلا مايمكننا أن نستقيه من معلومات عن دروسها والآخذين عنها.



ولايختلف الأمر كثيراً عندما ننظر إلى مجال الحياة الخاصة. فهنا أيضاً يندر أن نجد تمثيلاً وافياً لوجود المرأة في المضمار الوحيد الذي تمكنت فيه من الحركة بحرية نسبية، أي البيت. فعلى الرغم من رواج الكتابة التاريخية في القرون الوسطى، وبشكل خاص في الفترة المملوكية التي شهدت نهضة تأريخية لاسابق لها وظهر فيها المئات من المدونين والمؤرخين الذين غطوا في كتاباتهم شتى المواضيع السياسية والعسكرية والاجتماعية بل وحتى الثقافية، وحرروا آلاف الصفحات عن كل شاردة وواردة في حوادث مصر والشام خلال تلك الفترة، ودبجوا مئات الآلاف من السير الذاتية في كتب التراجم التي أرخت لكافة طبقات الفاعلين في المجتمع من أمراء وقضاة وعلماء وفقهاء ومحدثين وأدباء وشعراء وأطباء وحتى بخلاء وعميان ومغفلين، فنحن لانعثر إلا على القليل القليل من سير النساء كما في المجلد الوحيد والهزيل المخصص للنساء من كتاب شمس الدين السخاوي «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع». ولانجد أيضاً إلا القليل النادر من الإشارات لحياة الرجال المؤرخين العائلية، أو لأمهاتهم وأخواتهم وزوجاتهم وبناتهم وسراريهم في كتب التاريخ والسير. ولايطالعنا عموماً إلا بعض الملاحظات العابرة عن نمط سلوكهم في محيطهم العائلي، وأقل من ذلك عن علاقاتهم بالنساء في حياتهم وعواطفهم تجاههن. كيف نظروا إليهن؟ كيف فكروا فيهن؟ كيف عاملوهن؟ هل اعتبروهن رفيقات حياة؟ أو رأوهن ككيان أسروي منفصل لاعلاقة له بحياتهم إلا في شؤون الجنس ورعاية البيت والذرية والحفاظ على السمعة والشرف؟ أو بين هذا وذاك؟ هل أحبوهن أو كرهوهن؟ كيف عبروا عن ذلك الحب أو تلك الكراهية؟ تلك أسئلة تبقى معلقة من دون أجوبة في عموم الأحوال حتى عندما يطالع القارئ ذلك النوع الأدبي الحديث الذي ينتمي لأكثر مظاهر الذات خصوصية: السيرة الذاتية، التي ينتظر منها أن تتعاطى في بعض هذه الشؤون الخاصة والعائلية. وهي لاتفعل فيما عدا القليل منها الذي مازال يثير في أوساط القراء المعاصرين الكثير من الاستهجان كما حدث في حالة سيرة أدوارد سعيد الذاتية «خارج المكان»، التي هاجمها البعض بسبب ماوصفوه «بقلة الاحترام» التي عامل فيها سعيد ذكرى بعض أفراد أسرته، خصوصاً والده، أو كما حصل مؤخراً وإن بنطاق أضيق مع سيرة جلال أمين الذاتية «ماذا علمتني الحياة؟» التي أثارت غضبة بعض القراء مما يبدو أنه «فضح» لقلة تدين والده ووالدته على الرغم من اشتهار الوالد، أحمد أمين، بكتاباته التاريخية الإسلامية.

من هذا المنطلق فإن أي سيرة لشخصية قروسطية تتعرض لبعض مظاهر علاقته بالنساء في حياته جديرة بالاهتمام والاحتفال لندرتها واختلافها عن المئات غيرها من السير التي تقتصر على النواحي المدنية والمهنية العامة والتي تقدم لنا صوراً باردة، محايدة، ووحيدة البعد لأصحابها. أما هذه السير غير العادية والنادرة، كسيرة الفارس الشيزري أسامة ابن منقذ، «كتاب الاعتبار»، وسيرة المؤرخ الدمشقي أبي شامة المعروفة «بالذيل على الروضتين»، واللتين تتطرقان للحياة الخاصة لكاتبيهما - فهي تضفي على كتابها أبعاداً إنسانية تجعلنا نشعر

المقريزي

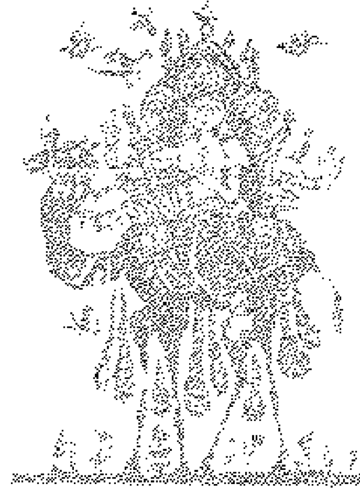
ناصر الرباط



معهم، نتعاطف مع آلامهم، نسر لنجاحاتهم، ونحزن لمصائبهم على الرغم من بعد الزمن الذي يفصلنا عنهم. هذه السير تفتح لنا نوافذ على عقليات ومشاعر كانت ستبقى مجهولة تماماً بالنسبة لنا؛ بل وتسمح لنا ـ وربما كان هذا أهم مافيها- بالتعرف بعض الشيء على علاقات أصحابها العائلية وبشكل خاص على صلاتهم بالنساء في حياتهم، وبالتالي بالولوج قليلاً إلى حياة النساء في العصور الوسطى؛ تلك البقعة المعتمة تماماً في معارفنا عن ذلك العصر.

سأعرض هنا لسيرة معبرة أخرى لعالم ومؤرخ من أكثر علماء العرب شهرة في العصر المملوكي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (١٣٦٤-١٤٤٢)؛ تلعب فيها النساء دورا قل وجود مثيله في سير أخرى مشابهة من العصر نفسه. لا أظن أن أحداً ممن تعاطى في التاريخ القروسطي لبلاد الشام ومصر يجهل المقريزي أو يجهل قيمته، فهو صاحب المؤلفات التاريخية العديدة التي لعل أشهرها هو تاريخه لمدينته القاهرة «كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، الذي أنا بصدد إنهاء كتاب عنه وعن أسبقيته في مجال التاريخ العمراني. وهو كذلك صوت متفرد ومتميز في تاريخ مصر وبلاد الشام، بل وفي التاريخ الإسلامي برمته، أثبت في كتاباته التاريخية أنه يمتلك حساً تاريخياً حقيقياً، مغايراً كل المغايرة للاجترار التدويني الذي طبع معظم انتاج معاصريه وسابقيه والكثير من تابعيه. لم يكتب المقريزي سيرة ذاتية بالمعنى الصريح للعبارة وإنما قدم نتفاً من حياته ضمن عرضه لسير حياة معاصريه في كتابه الصغير «درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة»، على الأغلب تحرجاً وتعففاً ـ بعضه بحكم المهنة والعادة ـ عن التركيز على النفس. ولكنه مع ذلك خالف العادة في عصره وقدم لنا صوراً معبرة وحساسة عن بعض النساء المهمات في حياته اللواتي سطر سيرهن باختصار وبأسلوب حاول أن يجعله رصيناً ولكنه أتى يذوب رقة وحناناً. هذه الأمثلة، وإن كانت لاتكفي لتكوين صورة متكاملة عن النساء في عقلية علماء

نساء في حياة المقريزي



العرب القروسطيين إلا أنها تضيء بعض الجوانب الإنسانية المؤثرة عن علاقة عالم ملتزم وحساس وشديد الإيمان بنساء أسرته.

فالمقريزي كان بحق نسيج وحده. فهو وإن ابتدأ حياته المهنية على نفس المنحى المعتاد عند معظم العلماء القروسطيين من التتلمذ لكبار علماء عصره والاستفادة من اتصالات عائلته والسعي لنيل الحظوة عند الأمراء وأصحاب الشأن، و"قضى شطراً طويلاً من فتوته وهو يجالد في كواليسهم للوصول إلى منصب يرضاه»، نجده فجأة ومن دون سبب واضح يقرر الكف عن التزلم للأكابر وينعزل في بيته العائلي في حارة برجوان في قلب قاهرة المعز وهو في عز الشباب وفورة النشاط وينصرف للمطالعة والكتابة والعبادات التي قاربت التصوف. ولاندري سبباً مباشراً لهذا القرار وإن كان يبدو حصيلة سنين من المعاناة من الصراعات المذهبية (أي بين أتباع المذاهب السنية الأربعة) والسياسية والمنفعية والتكالب على المناصب والفساد والرشاوى التي عايشها المقريزي عن قرب من خلال اتصاله بالسلطان برقوق وابنه فرج وبكبار رجال دولتيهما ومن بعدهما بالسلطان المؤيد شيخ الذي أدناه في بداية حكمه ثم أبعده من غير ما سبب واضح، ومن خلال المناصب التي شغلها خلال تلك الفترة وعلى رأسها وظيفة حسبة القاهرة التي احتلها ثلاث مرات (آذار - آب ١٣٩٩ ؛ كانون الثاني - نيسان ١٤٠٠ ؛ نيسان - أيار ١٤٠٥) والتي أتاحت له الفرصة لكي يشاهد بعينيه السوس الذي كان ينخر في بنية السلطة المملوكية والفساد الذي استشرى في مختلف طبقات المجتمع من عامة وحكام. وقد شحذت تجربة الحسبة قريحة المقريزي وأمدته بالخبرة اللازمة والمعلومات الوفيرة التي استعملها في تأليف كتيبيه المهمين: الأول، إغاثة الأمة بكشف الغمة، عن الضائقة الاقتصادية التي واجهت المجتمع المملوكي في بداية القرن الخامس عشر، والثاني، شذور العقود بذكر النقود، عن السياسة النقدية للدولة المملوكية، ليأتي من بعدهما كتابه الفريد عن الخطط وافياً وشاملاً في معلوماته العمرانية والاقتصادية والتاريخية.

وقد ظهرت أول أعراض القرف على هذا العالم الشديد الإيمان ونقيه عندما كان بصحبة السلطان فرج بن برقوق وحاشيته في دمشق بين ١٤٠٧ و ١٤١٢. فقد عرض السلطان عليه قضاءها مراراً وهو يرفض ولو أنه باشر بعضاً من الوظائف الصغيرة من تدريس وإدارة وقف. وبعد مقتل فرج وانتقال السلطة إلى السلطان المؤيد شيخ عام ١٤١٢، عاد المقريزي إلى القاهرة من دمشق وأعرض عن الوظائف وانقطع في داره عاكفاً على الخلوة والعبادة والتأليف، وتوقف عن التردد لأحد إلا فيما ندر. ولم يغادر القاهرة إلا مرتين على الغالب في أواخر حياته للحج والمجاورة في مكة إتماماً لفروض دينه وانعكاساً لمتطلبات زهده المتنامي. ولما كان السلاطين بعد فرج قد أبعدوه من غير إحسان، على حد رأي ابن تغري بردي، تلميذه ومنافسه أحياناً، فقد أخذ هو، أي المقريزي، في ضبط مساوئهم وانتقاد سياساتهم نقداً عنيفاً»، على أنه كان «ثقة في نفسه، ديناً، خيراً». وقد قيل لبعض الشعراء إلى متى تمدح وتهجو، فقال، مادام المحسن يحسن والمسيء يسيء». هذا هو في الحقيقة لسان حال المقريزي الذي تمكن، بحكم إبعاده عن الدولة، من الجهر في كتاباته بما لم يقله غيره علانية حفاظاً على المنصب والصلة، ومن تتبع أخطاء ومثالب وفساد الحكام في زمانه. وحاول من ضمن معطيات علمه وعقيدته تحليل مظاهر الفساد وتبيان نتائجها في تدهور الاقتصاد المملوكي وزيف العملة وتفسخ المجتمع وفي الخراب الذي حاق بعمران مصر والقاهرة بشكل خاص.



وقد قضى المقريزي النصف الثاني من حياته (من ١٤١٢ إلى ١٤٤٢) في عزلة نسبية بعيداً عن مواقع السلطة ومسيريها من سلاطين وأمراء وكتاب ووزراء. وكتب وصنف مجموعة من كتب الأخبار عن السلالات التي حكمت مصر الإسلامية وعن أهم رجالاتها، مجموعها سبعة، ابتدأها بكتاب صغير عن دخول العرب إلى مصر وترتيب قبائلهم سماه البيان والإعراب عمن دخل مصر من الأعراب. أتبعه بكتاب عن عاصمة مصر الإسلامية الأولى تحت عنوان، عقد جواهر الأسفاط في تاريخ مدينة الفسطاط، وهو للأسف مفقود اليوم، ثم كتابه المهم عن الفاطميين، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، المتعاطف مع هذه السلالة الحاكمة التي أدانتها العقلية السنية السائدة والذي يفصح عنوانه ومضمونه عن ميول المقريزي للفاطميين الذين كان يعتقد أنه من سلالتهم؛ وفي النهاية كتابه الكبير والمهم السلوك لمعرفة دول الملوك، الذي يعرض فيه حوادث العهدين الأيوبي والمملوكي بما فيها مشاهداته الشخصية حتى قبيل وفاته. ويبدو أن المقريزي قد اتبع الترتيب الزمني في تأليف هذه الكتب مع أنه شغل نفسه خلال نفس الفترة بتجميع كتيبات صغيرة عن مواضيع مختلفة، أغلبها تاريخي أو ترجمي (مجموعها ١٩ كتيباً، منها ١٢ منشورة وفقاً لمعلوماتي). وخلال هذه الفترة الطويلة كلها كان المقريزي مشغولاً على الدوام بكتابه المركزي، «كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، الذي أخذ من جهده أكثر من أي من مؤلفاته الأخرى ومات دون أن يكمله كما أراد واشتهى. فهو على مايبدو من خلال التواريخ التي تظهر ضمن الكتاب مافتئ يزيد وينقح فيه منذ بداية تأليفه حوالي العام ١٤١٥ وحتى سنتين قبل وفاته (١٤٤٠)، بل حتى يظهر أنه عدل في مخططه الأساسي ومنهجه مع مرور الزمن وتراكم المواد الأولية لديه من جهة، وتغير رأيه بالنظام المملوكي القائم من جهة أخرى، كما يظهر ذلك واضحاً من مقارنة المسودة التي نشرها أيمن فؤاد سيد والتي تمت كتابتها بين ١٤١٥ و١٤٢٠ على رأي ناشرها، مع المبيضة المنشورة والتي تعود افتراضاً إلى آخر تنقيح وإضافة أجراهما المقريزي على الكتاب قبيل وفاته وإن كان مازال غير كامل وفقاً لما وعد المقريزي به نفسه في ديباجة الكتاب. والأمر نفسه فيما يتعلق بكتاب التراجم الكبير، «المقفى الكبير»، الذي أراده على مايبدو جامعاً وحاوياً لتراجم كل من سكن مصر أو زارها أو مر بها من الشخصيات المهمة، ولكنه أيضاً توفي قبل أن يتمكن من إتمامه.

أما كتاب تراجم الشخصيات المعاصرة له «درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة»، وهو مايهمنا هنا. فهو على مايبدو مما يقوله في ديباجته قد ابتدأ بكتابته عندما بلغ الخمسين من العمر، أي حوالي عام ١٤١٥، بعدما لاحظ بأسى وحزن أنه يشيخ وأن العديد من أهله ومعارفه وأصحابه قد توفوا، فرغب بحفظ ذكراهم. لنفسه كما يقول - مما لعله يفسر اللهجة الصريحة والعاطفية في تراجم أولئك الذين أحبهم وأحبوه من معاصريه. واستمر المقريزي يزيد وينقح في الكتاب منذ بداية تأليفه وحتى قبيل وفاته كما يبدو من خلال التواريخ التي تظهر ضمن دفتيه. وقد نشر هذا الكتاب مؤخراً ثلاث مرات: في المرتين الأوليين في طبعتين من المخطوطة غير الكاملة (تحتوي على ٣٣٠ ترجمة من الأصل المقدر بـ٥٥٦ ترجمة: المحفوظة في مكتبة غوطا - مخطوطة ٢٧٠ عربية) نشرتا بفارق ثلاث سنوات بينهما من دون أي تبرير. الأولى بجزءين بتحقيق محمد كمال الدين عز الدين (بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٢) والثانية بجزءين أيضاً بتحقيق درويش ومصري (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٥). ثم أتى محمود الجليلي، الذي عرف عنه امتلاكه للنسخة الوحيدة الكاملة والتي كان ضنيناً بها على الباحثين، ونشر الكتاب كاملاً في أربعة أجزاء (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢).

في هذا الكتاب الصغير والذي يبدو أقرب مايكون إلى المدونة الشخصية غير المكتملة، يفرد المقريزي لأمه ترجمة شيقة وغير عادية. يبدأ الترجمة بمكان وتاريخ ميلادها ووفاتها (القاهرة: ١٣٤٦-١٣٩٧) على الطريقة المتبعة في التراجم. ويخبرنا المقريزي أيضاً باسم أمه ونسبها، وهو تصرف نادر بين الطبقات المتزمتة أساساً، فهي أسماء بنت محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الصائغ الحنفي، أحد أشهر علماء الحنفية في عصره ومدرس المقريزي الأول. ويعطينا الابن لمحة عن حياة أمه، فهي قد تزوجت ثلاث مرات، الأولى عندما كانت طفلة في الثانية عشرة وزفت إلى رجل يدعى نجم الدين المهلبي فارقها فتزوجت بأبي



يبدأ الترجمة بمكان وتاريخ ميلادها ووفاتها على الطريقة المتبعة في التراجم. ويخبرنا المقريزي أيضاً باسم أمه ونسبها، وهو تصرف نادر بين الطبقات المتزمتة أساساً



نســـــاء فـي حيـــاة المقـــريـــزي



المقريزي، علي بن عبد القادر، عام ١٣٦٣ (أي عاماً واحداً قبل ولادة المقريزي). ثم مات على سنة ١٣٧٧ ليخلفه عليها آخر بعد وفاته يهمل المقريزي ذكر اسمه ولكنه يخبرنا بأنها أنجبت من زوجها الثالث ذاك ولداً بالإضافة إلى ولدين اثنين غير المقريزي، محمد وحسن، كانت أنجبتهما لعلي بن عبد القادر. وربما كان لإهمال ذكر المقريزي لاسم الزوج الثالث دلالة ما، ولكن المقريزي لايظهر أي استهجان لزواج أمه من آخر بعد أبيه ولايعلق أبداً على اختيارها لهذا الزوج الثالث أو حياتها معه. بل هو يقول عنها أنها كانت «من أفضل نساء زمانها: ديناً وعفةً وصيانةً وعقلاً ومعرفةً وصبراً وخبرةً»، وهي كلها صفات مستحبة في النساء، وبخاصة منهن نساء وأمهات العلماء الوقورين الجادين كالمقريزي.

لعل المقريزي يذهب بعيداً - حتى بالنسبة لعصره - في التأكيد على سمو أخلاق أمه، إذ أنه يخبرنا بأنها كانت لاترفع النقاب عن وجهها حتى إذا ذهبت لزيارة قبر أبيها لأن «الأرواح» برأيها «بإزاء القبور». ويؤكد المقريزي على هذا التشدد بأن يزيد بأنها قالت له مرة «مارأيت قط وجه أجنبي». ثم يكر لنا سبحة التزامها الديني الورع والشديد، فهي كانت «تديم قيام الليل وصيام الإثنين والخميس، وتواظب على الأوراد من الذكر والقراءة، وتديم الإحسان للأيتام والأرامل والفقراء. وحجت مع الرجبية (أي الذين يذهبون للحج مبكرين في رجب) فأنفقت مالاً كثيراً في وجوه البر». ثم، بعد برهة يستجمع فيها أنفاسه، يظهر المقريزي حقيقة عاطفته تجاه أمه: « وبالجملة فقل ماكان في عصرها مثلها». لاندري بمن يقارنها المقريزي هنا ولكن الاعتزاز البنوي بأم وافقت في سيرتها وأخلاقها التزام ابنها واضح وجلي في هذه العبارة. بل لو أردنا أن نرى فيها مبالغة، وهي بالضرورة كذلك، فهي مبالغة تحببية من ابن لأمه، لعلها لاتختلف كثيراً في مضمونها وهدفها عما يقوله عامتنا اليوم عن تفوق طبخ أمهم مثلاً، أو جمالها الفائق، وكذلك أيضاً عن استقامة أخلاقها وحميد صفاتها، فالأم هي المثل الأعلى لابنها ومؤئل تشكل وعيه بفكرة المثل الأعلى أصلاً.

هذا هو بيت القصيد في سيرة أسماء، ولكن المقريزي لايسمح لعاطفته البنوية الواضحة بزعزعة وقاره، فهو لايتعرض لتلك الأشياء الصغيرة والخصوصية والعادية التي جعلته قطعاً يحب أمه ويحترمها، بل ويقدسها، كما لابد أننا كلنا نشعر إزاء أمهاتنا، ولكنه ينزع لسرد القصص التي تثبت ندرة مثال أمه على الصعيد الأخلاقي الديني والانساني في آن لتبرير عاطفته التي لاتحتاج لتبرير من وجهة نظرنا المعاصرة. فهي صابرة مصابرة، «أقامت بالحمى إحدى وعشرين سنة وبها ماتت غير جازعة ولامتسخطة». وهي، فوق ذلك، كانت ذات جلد خارق للعادة، فهي عندما «ابتليت بداء في عينها اقتضى قطع جفنيها بالحديد» - بدون مخدر بالطبع - لم تحتج إلى مسك يديها بل ثبتت لقص جفنيها ولم تتأوه أو تئن، بل مازادت على أن كانت تنفخ». ويعلق المقريزي باندهاش «فكان أمراً مهولاً لم نكد - هو وخاله محمد ابن الصائغ - نثبت لرؤيته، وصبرت هي لعظيم ماابليت به».

وهي كذلك ثابتة الجأش في مواجهة المصائب، ذات نزعة تأملية وحتى فلسفية بعض الشيء، فهي عندما فقدت ولداً - لاندري أياً من الثلاثة المذكورين هو - وعزيت فيه قالت: «ماأحسن الصبر لولا يفنى العمر». وكان لها الكثير من الحكم المروية التي اشتهرت النساء منذ القديم بتناقلها من جيل لجيل كمستودع شفهي للحكمة الشعبية التي حفظت للمجتمع طابعه ولحمته. فهي مثلاً تعطي وصفات طبية شعبية مجربة لاتخيب. وهي كذلك أخبرت ابنها عن عقوبة الشماتة القدرية: «أنه مانزلت بأحد مصيبة فعمل جيرانه فرحاً إلا وأصيبوا عن قريب»، أو عن الاعتقادات السائدة عن علاقات خفية بين دلالات الفعل وتأثيراته كما في قولها مثلاً «أنه ماعمل عرس وختان معاً إلا وانتفض العرس وافترق الزوجان سريعاً لانه فيه قطع ووصل». وكانت أيضاً تخبر ابنها ببعض القصص ذات الأبعاد الخارقة للعادة، كقصة أم تاهت وابن صغير لها في جزيرة مهجورة بعد غرق السفينة التي كانت تقلهما، ثم أنقذها بعض البحارة فاستعادت ثروة زوجها الذي غرق ونمتها بطرق غرائبية لكي يستلمها ابنها ويتجر بها في البحر. وهذه قصة فيها الكثير من نكهة سير ألف ليلة وليلة، ولعلها واحدة من تلك المرويات الشعبية التي لم يسعفها الحظ بأن تدون كما هي في مجموعة ألف ليلة وليلة وإن تركت بعضاً من خيوط غرائبيتها في بعض تلك القصص العجيبة التي وصلتنا بعد قرون.

ولكن أرق مايثبته المقريزي عن أمه هو إخبارنا بأنها كانت تحب الإنشاد وأنها كانت تنشده مقاطع صوفية عشقية مرهفة، حفظتها عن أبيها، لعل أجملها:

قل للذي نقض العهود وخانا
وأمال نحو العاذل الآذانا
إن الذي خلق المحبة قادر
من بعدها أن يخلق السلوانا

أو أيضاً، وهذا آخر ماينقله المقريزي عن أمه، وهما بيتان للمتصوف المشهور الشبلي الصالح الخراساني صاحب أبي القاسم الجنيد:

عودوني الوصال والوصل عذب
ورموني بالصد والصد صعب
زعموا حين أزمعوا أن ذنبي
فرط حبي لهم وما ذاك ذنب
لا وحق الخضوع عند التلاقي
ماجزا من يُحب إلا يُحبّ

فكيف وأين كانت أسماء تنشد ابنها هذا الشعر؟ ولماذا هذا الشعر بالذات خاصة أن المقريزي نفسه، الذي قرض الشعر هو أيضاً، لايرقى في شعره إلى هذه الدرجة من الشفافية الغزلية أو التعبير العاطفي. هذا ما لايخبرنا إياه المقريزي. ولكنه يضيف تعليقاً على الأبيات التي ينقلها أنها أبيات اشراقية تصوفية. فهل يقصد المقريزي من تلك الملاحظة أن يخبرنا أن أمه كانت متصوفة؟ لاأظن ذلك، ولكن إنشاد مشاعر الحب صراحة أمر غير مستحب في أوساط العلماء، خاصة إذا كانت المشاعر آتية من شخصية لاتمس، بل ويفترض فيها أنها الحاوية لكل الأخلاق الحميدة، كالأم. أما التواري خلف مشاعر العشق الإلهي فممكن بل ومحبب، لأن التصوف بعاداته وأشعاره كان قد دخل ضمن المجال العلمي المحترم منذ القرن الثاني عشر ميلادي (السادس الهجري) ولاقى قبولاً في أوساط العلماء والفقهاء. فهل كانت أسماء تعني أحداً معيناً في إنشادها؟ أبو المقريزي مثلاً أم ذلك الزوج الثالث المجهول، أم أنها فعلاً كانت تتغنى بالذات الإلهية أو المعشوق الأزلي المترفع؟ هذا هو مايتركنا المقريزي معه في نهاية ترجمته لأمه، ربما لأنه لايريد الإفصاح أكثر، احتراماً لذكرى أبيه أو تعففاً من أي سوء ظن قد يلحق أمه لو أنه وجه عواطفها باتجاه أحد من أزواجها، أو ربما لأنه لايعرف كيف يفصح أكثر. فلا اللغة ولا الكوابح الاجتماعية ولا المواضعات المتبعة ولا الرزانة المفترضة تسمح له بالانطلاق في تيار التعبير الذاتي بحرية وعفوية. ولكننا لانملك في نهاية قراءتنا لترجمة أسماء من أن نرى فيها إنسانة ذات أبعاد فردية متميزة كامرأة بنت عصرها وليست فقط أم عالم متألق. أي أن المقريزي أيضاً تجاوز حدود السيرة العادية ليصوغ لوحة واقعية بعض الشيء - على أقل تقدير من ضمن المتخيل المتاح له - لأمه قربها منا وأفادنا عن درجة محبته واحترامه لها.

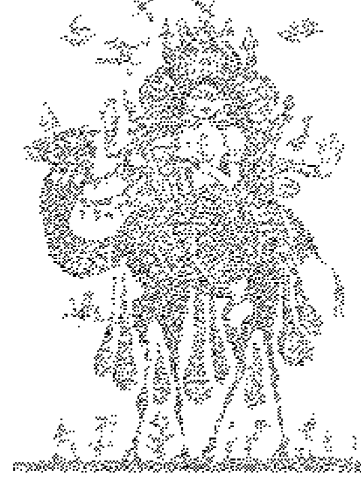
ليست أسماء المرأة الوحيدة من عائلة المقريزي التي يفرد لها ترجمة في كتابه الصغير هذا وإن كانت ترجمتها من أطول ترجمات النساء في هذا الكتاب وأي من كتب الترجمات عموماً، وهي قطعاً أكثرهن صدق عاطفة وإخلاص. ولكن المقريزي يقدم أيضاً ترجمة لزوجته سفرى ابنة عمر بن عبد العزيز بن عبد الصمد البغدادي، التي تزوجها مرتين وأقامت عنده مامجموعه ثماني سنوات وأنجبت له ولدين: محمد وعلي، ثم توفيت عام ١٣٨٨، وترجمة أخرى، غير مألوفة على الإطلاق في ذلك العصر، لسول المولدة، وهي جارية بكر ذات خمسة عشر ربيعاً اشتراها من بيت السلطان بعد تسع سنوات من وفاة زوجته سفرى ويبدو أنه تسرى بها لفترة، وتعلم منها، ثم فقدها لسيد آخر أخذها إلى مكة وأنجب منها أولاداً. والمقريزي في كلتا الترجمتين عطوف ورحيم بل ومحب، كما ظهر لنا من ترجمته لأمه، وإن كان أيضاً مقلاً في توضيح بعض مظاهر علاقته مع زوجته وسريته، خصوصاً منها الصعبة والتي آلت إلى فراق. فهو مثلاً لايخبرنا قط لماذا طلق سفرى واستعادها في نفس السنة، على الرغم من أنه كان قطعاً يكن لها حباً ومودة. وهو أيضاً لاينبئنا لماذا فقد سول وكيف ومن هو سيدها الجديد وكيف حافظ



المقريزي لايسمح لعاطفته البنوية الواضحة بزعزعة وقاره، فهو لايتعرض لتلك الأشياء الصغيرة والخصوصية والعادية التي جعلته قطعاً يحب أمه ويحترمها، بل ويقدسها



نســـــاء فـي حـيـــــاة المـقـــــريـــزي



على صلته بها بعد أن انتقلت ملكيتها منه إلى سيد آخر يقيم بعيداً بما أنه يثبت لنا تاريخ وفاتها في مكة عام ١٤٢١، بعد سنوات من خروجها عن ملكيته، مما يدل على أنه كان إما على اتصال معها ومع أسرتها الجديدة أو أنه كان يتابع أخبارها على البعد.

إلى ذلك، فعاطفة المقريزي تجاه هاتين السيدتين واضحة وجياشة، خاصة تجاه سفرى. ولكنه لايعبر عن هذه المشاعر صراحة أو مباشرة، ربما لأن ذلك لايليق بعالم مرموق، بل يستخدم طرائق سردية مختلفة لإيصال الإحساس بطريقة مواربة. فهو مثلاً يستعمل الأحلام وتأويلها كأداة تعبيرية عن الوجد واللهفة والخوف من المجهول ومن ثم القبول به بما أنه قدر لاراد له، ويستخدم أيضاً الشعر للتخفيف من وقع القضاء والحفاظ على التواصل مع الأحبة. فهو يخبرنا أنه عندما راجع سفرى وبنى عليها ثانية رأى فيما يراه النائم شخصاً ينشده هذين البيتين الحزينين الذين يوردهما ابن كثير في «البداية والنهاية» ضمن قصة حب ملوعة تنتهي بقتل المحب نفسه في مجلس هارون الرشيد:

أحسن ماكنا تفرقنا
وخاننا الدهر وماخنا
فليت ذا الدهر لنا مرة
عاد لنا يوماً كما كنا

وفهم منهما أن سفرى لن تقيم عنده سوى عامين (لاأدري كيف!). وفعلاً مرضت سفرى بعد عامين، وخلال مرضها رأى المقريزي هاتفاً آخر أنشده بيتاً لأبي ذؤيب الهذلي الشاعر المخضرم:

فالعين بعدهم كأن حداقها
سملت بشوك فهي عور تدمع

وغلب على ظنه بعد استيقاظه أن سفرى ستموت وفعلاً ماتت. ثم يثبت المقريزي هنا قصة رقيقة عن رؤيته لها في المنام وقد جاءته كهيئتها عندما ماتت، فسألها وهو عارف أنها رؤيا: «الذي أرسله (يقصد الدعاء والاستغفار الذي دأب عليه بعد وفاتها) إليك يصل؟» لتجيبه، «نعم ياسيدي، في كل يوم تصل هديتك إلي». ثم بكت (في المنام) وقالت: «قد علمت ياسيدي أني عاجزة عن مكافأتك». فقال لها: «لاعليك، عما قليل نلتقي». (وهو مالم يحصل طبعاً بما أن المقريزي عاش فوق الأربعين سنة بعد وفاة سفرى، وعرف على الأقل سول بعدها). وبعد ذلك يصرح المقريزي أن سفرى كانت من خير نساء زمنها، وفي هذه الحاشية شيء من الصنعة، ثم يقول ماعوضت بعدها مثلها، مما يوحي أنه عرف نساء أخريات بعدها وإن كنا لانعرف منهن سوى سول ونعرف أيضاً أنه عندما مات كان وحيداً من دون زوجة أو ولد. وفي ختام الترجمة القصيرة يستشهد المقريزي بالبيتين التاليين للنابغة الجعدي، قبل أن يكرر رغبته بلقائه سفرى في الجنة على طريقة المتقين المتأملين بثواب ربهم:

أبكي فراقهم عيني فأرقها
إن التفرق للأحباب بكاء
مازال يعدو عليهم صرف دهرهم
حتى تفانوا وصرف الدهر عداء

هنا يبلغ المقريزي قمة التصريح بحبه لسفرى ولوعته على فقدها ولكنه يختار شعراً يحمل في طياته أيضاً حكمة وموعظة، ربما للمحافظة على وقاره. ولكنه قطعاً مكلوم لفقد سفرى وراغب بالتعبير عن لوعته من ضمن الأدوات المتاحة له التي تنقل مشاعره وتحافظ على صورته في آن واحد. والشعر في الذائقة العربية قديما - وحديثا - حمال للمعاني ووسيط مثالي في التعبير والتصريح من خلف ستار الصنعة والقافية. والمقريزي، الشاعر المتذوق، ضليع باختيار أبلغ الأبيات من التراث الشعري المتوافر له لنقل مشاعره، الصادقة حقاً، وإن لم يكن بإمكانه التعبير عنها ببساطة المحدثين ومباشرتهم.



والحال نفسه فيما يخص مشاعره تجاه سول، الفتاة الصغيرة التي أدفأت قلب الرجل المكتمل صاحب الحظوة لدى السلطان برقوق الذي أصبحه المقريزي لفترة وجيزة في نهاية ثلاثينياته قبل أن يخسرها لسبب مجهول وتغادره إلى غيره. فهو في الأسطر القليلة التي يخصصها لذكراها يركز على ماعرفه فيها من أدب وعلم وفن، خاصة ضرب الرمل أو التنجيم، وهذا علم اشتهر به المقريزي نفسه وإن كان بعض معاصريه الهجائين كالسخاوي قد انتقده انتقاداً لاذعاً عليه. وهو ينهي ترجمته لسول بالشعر، كما فعل في ترجمة أمه وزوجته، ليبثنا بعضاً من عواطفه بما يتلاءم وماقاله في علمها وإن كان ينسب قول الشعر لسول لا له. فهي قد «أنشدته»:

تعلمت ضرب الرمل لما هجرتهم
لعلي أرى شكلاً يدل على الوصل
فصادفني فيه بياض وحمرة
فعاينتها في وجنة سلبت عقلي
وقالوا طريقاً، قلت يرب للقا
وقالوا اجتماعاً قلت يرب للشمل
وقالوا نقي الخد ذاك معذبي
يجور على ضعفي ويسعى على قتلي

ماالذي يمكننا أن نقرأه في هذه الأبيات الغريبة التي لم أتمكن من معرفة قائلها (بل وربما كان المقريزي هو نفسه قائلها)؟ بل وهل يحق لنا أن نقرأ فيها ماتعودنا على قراءته في الشعر الذي نعرف مصدره ومراده وقائله، خاصة بعد الفترة الرومانتيكية حيث أصبح التعبير عن المشاعر الشخصية في الشعر فيها معتاداً ومنتظراً؟ أكاد أجزم بذلك فالربط بين ضرب الرمل الذي مارسه كلاهما وتبادل الوجد والهوى مؤثر ودال. والأكثر دلالة في رأيي هو استخدام المقريزي لهذه الأبيات ليبثنا (أو ليبث سول أو نفسه كما زعم) رغبته في اللقاء وتلهفه على المحبوب الذي فرقته عنه الأيام وأمله بأن يكون الأمر كذلك من خلال مطالعة الطالع الذي يؤمن به كلاهما بما أنهما كلاهما ممارسان للضرب بالرمل (حتى أن السخاوي الساخط والناقم على المقريزي يقول ساخراً أن صحبة ابن خلدون العظيم للمقريزي ابتدأت بعد أن أخذ المقريزي لأستاذه طالعه وصدق تنبؤه). ولعل في معرفة المقريزي بما حل بسول بعد مفارقته لها كما يبدو من الترجمة دليل آخر على اهتمامه بها بل وربما رغبته في استعادتها. وقد تكون هذه الرغبة مشتركة، خاصة أن المقريزي لاينبئنا متى أنشدت سول له هذه الأبيات، ولو أن عبارة «لما هجرتهم» في الشطر الأول قد تكون التعبير الصحيح عن تاريخ الإنشاد. وهو أيضاً لايخبرنا إن كان التقى بسول في مكة التي نعرف أنه جاور فيها مرات عدة، وإن كنا لانعلم ماإذا كانت مجاوراته قد بدأت قبل وفاة سول سنة ١٤٢١أم لا. (نعرف فقط أنه كان في مكة سنتي ١٤٢٦ و١٤٣١، ولكنه على الأغلب زار مكة أكثر من هاتين المرتين).

ها نحن الآن من موقعنا المعاصر ننظر لهذا الفرد الفذ الذي بذ نظراءه في مجتمعه العلمي من خلال التقيد بأشد قيوده والالتزام بضوابطه والانتهاء عن نواهيه حتى أنه اشتط في ذلك في نهاية حياته بعد اعتزاله. وحاز على اعتراف معاصريه ولاحقيه بالسبق في العلم وفي التاريخ، حتى قال عنه تلميذه النجيب المؤرخ ابن تغري بردي أنه كان «عمدة المؤرخين» و«هو أعظم من رأيناه وأدركناه في علم التاريخ وضروبه مع معرفتي لمن عاصره من علماء المؤرخين» (وهم فعلاً من أهم المؤرخين المملوكيين إن لم يكن الإسلاميين قاطبة). ومع ذلك، فهو في إثباته لمشاعره في كتاب الدرر وغيره متعال عن محيطه الوقور والرزين والمتزمت في نهاية الأمر ومخالف له بعض الشيء، لأنه يفصح عن نفسه في سيرته الإنسانية بالمعنى الأوسع للكلمة. وهو كذلك يحاول من خلال سرد سير أهله وأحبابه طرق تعبيرات لم تكن ضمن المنهج كما يقال وإشراع مجالات جديدة لأنسنة عواطفه بطريقة شخصية، حميمية ربما، ولكنها تبقى في نهاية الأمر مترددة، وجلة، ومعتمدة على طرائق غير مباشرة كالماورائيات والأحلام والاستشهاد بالشعر. ومع ذلك فهذه العواطف صادقة مع أنها فريدة وغير معهودة في وقتها وغير داخلة ضمن السياق الأدبي السائد الذي تعامل المقريزي مع الكتابة من ضمن إطاره. ومن هنا جمالها وحساسيتها ودفئها بالنسبة لنا اليوم لأنها تخاطبنا بلغة نفهمها وإن كانت على الأغلب غريبة على أسماع ومفاهيم معاصري المقريزي. وهي كذلك تزيح لنا الغطاء بعض الشيء عن المرأة، ذلك الكائن الإنساني الصامت عموماً وربما المكمم أحياناً في التاريخ الوسيط، كما ظهرت في ثلاثة أدوار رئيسة في حياة المقريزي: كأم وزوجة وسرية. ولاأعرف أي كاتب مملوكي آخر سوى أبي شامة الدمشقي، الذي صاغ مشاعره تجاه زوجته شعراً يدل على عاطفة جياشة وحب زوجي صريح، بلغ في تعبيره مابلغه المقريزي في درره. فلله دره. ■



ترجمة أخرى، غير مألوفة على الإطلاق في ذلك العصر، لسول المولدة، وهي جارية بكر ذات خمسة عشر ربيعاً اشتراها من بيت السلطان بعد تسع سنوات من وفاة زوجته سفرى



إشــــــارات الغيطــــــانى

■■ ينتمى هذا الكتاب فى إطاره العام إلى دفاتر تدوين الغيطانى التى تجمع على نحو فريد بين فن السيرة الذاتية وفن السرد الروائى.. ولكن هذا التدوين يتميز عن غيره من عدة وجوه: ولعل أول ما نلاحظه هو أن البعد الصوفى واضح تماماً فى ذلك التدوين، مهيمن على سائر فصول الكتاب، وكأن الغيطانى يستعيد هذا المصدر الخصب السائد فى الكثير من أعماله السابقة على دفاتر التدوين، وإن اكتسب هنا درجة أعلى من التجريد الذى ينأى به عن أسلوب البناء التقليدى للسرد الروائى الذى يتميز بتراتب الأحداث، فالروح الصوفية تجد هنا الأسلوب الفنى الذى يساعدها على التحقق بقوة، وتجد اللغة التى من خلالها تستطيع تلك الروح أن تفصح عن ذاتها.

أما الأسلوب الفنى هنا فيلجأ إلى التصوير الذى تتماوه فيه الحدود بين الواقعى والمتخيل، وهذا يتجلى لنا منذ أول فصول الكتاب بعنوان «خرجة»؛ فالخروج هنا هو خروج الصوفى الذى يغادر المدينة وكل شواغلها ليلبى نداء آتٍ من بعيد يدعوه للتخلى والبعد بهدف التأمل فى الأصل والمنتهى. ونحن لا نعرف إذا كانت تلك الخرجة قد حدثت بالفعل أم بالخيال والتمنى، ولكننا نعرف إن إرهاصاتها قد حدثت على الأقل لصاحبنا غير ذات مرة، ثم تكفل الخيال بملء التفاصيل التى تبدت فى عالم الحلم، وعالم ما بين الحلم واليقظة. ولذلك نجد أن هذا العمل يتميز بتداخل الواقع مع الخيال ويتداخل الأزمنة والأمكنة ذاتها؛ إذ كثيراً ما نجد أن اسماً ما يستدعى عند الغيطانى أماكن ومواقف وأحداثاً وذكريات وحكايات.. حكايات كثيرة عن الغجر والمغاربة والسواحين، وغيرهم من المتصوفة والسائرين العابرين للأماكن المقدسة فى حضارة مصر القديمة فى الجنوب. ولهذا جاء هذا النص غير ملتزم بالترتيب فى العرض كما يقر بذلك صاحبه، بل جاء فى مجمله أشبه بكتابات المتصوفة أنفسهم، سواء من حيث المضمون أو من حيث اللغة الحافلة بالكثير من المفردات الصوفية. وهناك حكايات طويلة عن تجارب المتصوفة، ارتحالهم وخلوتهم وعزلتهم، بل إن تجربة الغيطانى ذاتها فى هذا التدوين هى رحلة صوفية (أو «خرجة» كما يحب صاحبنا أن يسميها) بالمعنى الحرفى والمجازى. وهناك مواضع كثيرة يتحدث فيها عن حاجته للخلوة ولثراء حالة التوحد والعزلة عنده.



«... سعيى وتمامى فى الانفراد التام، لا أقيم الوصل إلا إذا دعتنى ضرورة لاستكمال فهمى لما بدأته منذ حقب ومدد، آه لو وصلت إلى حال أسعى عنده فلا يبصرنى أحد، لا أظهر إلا لمن أرغب، من عرفتهم وأنزلتهم عندى مقاماً جميلاً أصونهم بذكر أسمائهم، انطقها فيمثلون، أرددها فيكتمل حضورهم، كافة عناصرى من تلك الحروف اللوازم، يكفى اللفظ ليتجسد قريب، عزيز، عرفته يوماً، أو استدعى مدينة، أو زقاقاً منها، أو جذع شجرة فى حديقة غناء، ناصية ـ وآه من النواصى. فى بلد نزلته يوماً وربما لن أقصده مرة أخرى، أو مدينة تقوم عندى كما أشاء ولهذا تفصيل سأذكره فى حينه..».

وأما اللغة هنا فإنها تفصح عن تلك الروح الصوفية؛ لأنها لغة غامضة تلمح أكثر مما تصرح: الإفصاح فى اللغة الصوفية يكون دائماً من خلال الغموض والإخفاء.. أن يبقى هناك دائماً شىء غير مصرح به وكأنه يجب أن يبقى دائماً طى الكتمان، ولهذا قال هيراقليطس (أحد أعظم فلاسفة اليونان السابقين على سقراط، والذى صاغ فلسفته فى شذرات): «إن كهنة معبد دلفى تُلمح ولا تصرح أبداً». والواقع أن الروح الصوفية تنظر إلى اللغة نظرة خاصة مغايرة، نظرة تؤمن بأن الكلمة أو الاسم ذاته له قدرة خاصة. ليس المتصوفة فحسب هم الذين يؤمنون بذلك، بل الشعراء والفلاسفة ممن يكون إنتاجهم مشبعاً بتلك الروح الصوفية: لقد كان هناك حال هيدجر (كما سنشير إلى ذلك بعد قليل)، وهو أيضاً حال الغيطانى فى ذلك التدوين الذى نحن بصدده الآن؛ ولذلك يقول:

«لذلك لن ألزم الترتيب فى هذا التدوين الذى آثرت أن أنجزه بعد أن جرى ما جرى، لعلى المحت بعد أن لم يتبق منى إلا الاسم، ليس منى فقط، إنما من سائر الموجودات كافة، الطرق والمسالك، الجهات، ما ينبت وما يولد، ما ينتهى وما يرحل، ما يطل وما ينزع، ليس هذا كله إلا أسماء، وبقدر قوة الاسم يكون التحقق وحل المشكل وكذا تصور الممكن».



وربما يليق الآن أن نتحدث عن الفكرة الرئيسية المهيمنة على هذا الكتاب أو العمل: لأن كل أديب عظيم، كما نبهنا ميرلوبونتى، وكما نؤكد على ذلك مراراً، فكرة أو فكرتان من الأفكار الميتافيزيقية. وبوسعى أن أزعم أن الفكرة الميتافيزيقية المهيمنة على تدوينات الغيطانى أو كتاباته الأخيرة هى سؤال الميتافيزيقا الأول والأخير: سؤال الوجود، وهو السؤال الذى يتردد على أنحاء شتى فى تلك الأعمال: فهو على سبيل المثال يتردد أحياناً فى تجربة الوجود الأنثوى الذى يجسد روح بقعة ما من العالم، أو فى تجربة الرحلة أو السفر باعتبارها تجربة وجودية معيشة، أو فى تجربة العدم والمحو فى علاقته الحميمة بالوجود ذاته أو فى تجربة اللامرئى الذى نطل عليه من خلال المرئى عبر النوافذ، وهو هنا يتجلى من خلال تجربة اللغة، وتحديداً من خلال تجربة الكلمة والاسم.. الاسم الذى يخلق وجوداً. لهذا الأمر ميراث فلسفى عميق عند هيدجر قبل أن يتعين ويصبح مرئياً عند الغيطانى.

وفى ذلك يبين لنا هيدجر أن الاسم ليس مجرد إشارة تعين شيئاً ما: فمثل هذه الإشارات إنما هى الأسماء بمعنى الرموز التى نستخدمها فى لغة الحياة اليومية والمصطلحات التى نستخدمها فى اللغة العلمية. أما حينما تكون اللغة لغة بحق (كما فى اللغة الشعرية أو الصوفية على سبيل المثال)، فإن الأسماء أو الكلمات فيها تستدعى وجوداً أو حضوراً لموجودات بعينها، كما لو كان لها قدرة سحرية أو تعزيمية على استحضار الموجود، فالكلمة هنا لا تشير إلى الخارج، وإنما تجلب الخارج إلى الداخل..



الــرن
جمال الغيطانى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨

كلمة «الرَّن» الواردة فى العنوان تعنى «الاسم» فى اللغة المصرية القديمة التى تعرف عند أهل الاختصاص والعارفين بلغة الطير، وهى اللغة التى أتقنها ذو النون المصرى أحد كبار الأئمة العارفين من شيوخ التصوف

تجعل الوجود مباطنًا فى الكلمات ذاتها أو بحسب تعبير هيدجر البليغ: «اللغة مسكن الوجود»، ولذلك فإنه يتوقف وقفة طويلة عند قصيدة شتيفان جيورجه بعنوان «الكلمة» والمؤلفة من سبعة أبيات.. يتوقف بوجه خاص عند البيت السابع والأخير الذى يقول فيه الشاعر:

حينما تفتقد الكلمة

لا يمكن لشىء أن يكون

ولقد بينت من قبل أن هذه الرؤية الهيدجرية التى تعينت وترددت أصداؤها عند الغيطانى، هى رؤية لها مصادرها فى الأسطورة والدين: ومن هذه الأساطير ما له صلة وثيقة بالعقيدة المصرية القديمة، فمن المعروف أن أجدادنا من القدماء كانوا يؤمنون بخلود الروح، وأن الروح عندما تفارق الجسد تمر بمراحل من الحساب الذى تترافع فيه أمام الآلهة، فإذا مرت بهذه المراحل تحقق لها الخلاص وعادت إلى الجسد، إلى وجودها وتحققها العينى. ولذلك، فإذا أراد الفرعون أن ينزل العقاب الأبدى بأى شخص كان، فإنه يكفى لذلك أن يمحو اسمه المدون على التابوت الذى يحوى رفاته، حتى إذا ما عادت الروح بعد خلاصها لم تتعرف على جسدها، فتظل هائمة دون أن تبلغ أبداً كمال وجودها أو تحققها العينى. بل إن هذه العقيدة بقيت حية حتى فى استخدامنا نحن المصريين للغة الدارجة أو العامية حينما يريد شخص ما أن يدعو بالنقمة على شخص آخر، فيقول: «اللى ما يتسمى» أو يقول: «إن شا الله (أى إن شاء الله) يتمحى اسمه»، فالدعاء هنا بأن يفتقد الشخص اسمه؛ ومن ثم يصبح شيئاً غير مذكور، بحيث لا يمكن التعرف عليه، أى يصبح هو والعدم سواء! بل إن كلام الله نفسه يؤكد لنا هذه العلاقة الحميمة بين الاسم والوجود إذ يقول: «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم» (سورة البقرة). تأويلى لمعنى هذه الآية الكريمة أنه ليس من المعقول أن يسأل الله الملائكة عن أسماء الأسماء التى علمها لآدم، لأن الاسم لا اسم له.. الاسم هو الشىء أو الموجود؛ ولذلك فإن معنى «وعلم آدم الأسماء كلها...» هو «وعلم آدم الأشياء كلها...».

والحقيقة إن تجربة هذا التدوين فى مجملها هى تجربة «الاسم» الذى يعين الأشياء والموجودات جميعاً، ويجلبها إلى حالة حضور. وهذا الأمر يتضح لنا باعتباره متأصلاً فى عنوان التدوين نفسه، حينما نعرف أن كلمة «الرَّن» الواردة فى العنوان تعنى «الاسم» فى اللغة المصرية القديمة التى تعرف عند أهل الاختصاص والعارفين بلغة الطير، وهى اللغة التى أتقنها ذو النون المصرى أحد كبار الأئمة العارفين من شيوخ التصوف الذى تُنسب إليه «المدونات الأخميمية»، مثلما تُنسب إليه حكايات كثيرة من خوارق العادات وطبائع الأشياء.

وفى السطور الأولى من الفصل الثانى الذى يحمل عنوان «أخميم» يشير إلى قوة هذا الاسم الذى يستدعى حضوراً عنده، فى نبرة تذكرنا بأسلوب القرآن الذى تبدأ فيه بعض الآيات بحروف كما لو كانت لها قوة سحرية غامضة لها القدرة على التعزيم واستدعاء المكنون، يقول:

«ألف، خاء، ميم، ياء، ميم..

ثمة شىء رسخ عندى بمجرد سماع الاسم قبل أن أدخلها أول مرة، ثم أثناء ترددى عليها، حتى استقرارى بها مدة قبل استئنافى فى الخرجة إلى البر القبلى، فى المنطوق شىء، فى التدوين شىء، موقن، واثق بمثوله. قيامه، تحققه فى حيز ما، يشق علىّ تعيينه أو تحديده، يغمض علىّ فكيف أصفه أو أتحدث عن سمته، غير أن يقيناً ما يؤكد وقوفى يوماً على قبس منه بحلول توقيت معلوم.

أخـــمـــيـــم

قبل وفادتى تلك نزلته أول مرة منتصف العقد السادس من القرن العشرين الذى قُدِّر لظهورى أن يكون فيه، بالتأكيد ثمة شىء بدأ عندى مع بلوغى لها، ربما عند سماعى الاسم، أرى وضعى إذ أصغى إلى «أخميم»، تتغير وجهتى، تتبدل طلتى، أوجه نفسى صوب ما لا أدريه، ثمة طبقات مبهمة...».

ولقد ظل اسم أخميم مقترناً فى ذهن صاحبنا باسم ذى النون المصرى الذى يُسمى أيضاً بذى النون الأخميمى.. انشغل به منذ شبابه، وظل دوماً منشغلاً به قابعاً فى وجدانه؛ حتى إن رحيله أو خروجه يبدو كما لو كان رحيلاً إليه، أو استدعاء لشىء من تجربته الثرية:

«يهيمن علىّ سيدى ذو النون، بل إن نزوعى إلى أخميم لم يبدأ إلا عبر اسمه، فلو لم يلحق الأخميمى به لما توقفت ولما صارت عندى تلك الشنشنة.

سنوات أتمهل عند مطالعته، أفرق حروفه لأنفرد بكل منها على مهل، أنطقها حرفًا، حرفًا، أسمعه للخواء المحدق بى، مع كل نطق لحرف أزداد معرفة وتنجلى لى غوامض، يتجسد أمامى كائن يصعب تصنيفه، يحدق إلىّ، نتبادل النظر بُريهة. يولى، مرات يلزمنى، أقرأه، أطالعه، يغيب ويعاودنى، يمشى قربى أياماً محتفظاً بالمسافة عينها، لا أقدر على استيعاب ملمح منه، مرة يطالعنى من إطار لا يحوى شيئًا، لكننى أتمكن من ملامحه كافة، أعاينها لكننى لا أحتفظ بها، يستحيل وصفها...».

ذو النون.. ذلك المتصوف الفريد الذى كان يعرف اللغة المصرية القديمة التى كانت تسمى قلم الطير، مثلما يعرف كيف يسمع ويقرأ أصوات الحيتان الصادرة من بعيد، من أعماق المحيطات. ولا شك أن دلالات الأصوات مسألة أساسية فى الكثير من نصوص الغيطانى، ولكنها هنا تكتسب تأثيراً مغايراً، وأبعد عمقاً: نتذكر جيداً نداء سعاد فى..... الذى يشبه صهيل الفرسة: ولكن الصوت هنا يتجاوز كل هذه الدلالات الفردية والجزئية، ويتجه مباشرة إلى صوت اللامرئى، ذلك الصوت الصادر من الأعماق النائية لعله يجد من يفهمه حينما يتردد صداه فيه:

«نواح أقرب إلى العويل، لكنه مفرد، وحيد، صادر إلى نقطة غير محددة، لا يراها، لا يعاينها ذلك الكائن الضخم، هائل الحجم، السارح فى اللامدى، استغاثة ميئوس من وصولها إلى متلق بعينه، إنما.. لعل وعسى، يطول إصغائى، يقوى علىّ حضور ذى النون، خاصة عند انفرادى بمطرية المغيب ليلاً وبدء مفاوضاتنا، أستدعيه بذكر اسمه، أنطقه فيمثل، لم يتقن لغة الحيتان فقط، إنما لغات الحيوان بأنواعها والجماد، ما يُخيل إلينا أنه مصمت، لا يوجد فى الكون صامت أصلاً، ليس هذا شطحة من عندى، إنما نطق وإفصاح تسلمته من الشيخ الأكبر ذو النون».

هناك تلاق حميم تتماوه فيه الحدود بين التجربة الصوفية عند صاحبنا والخبرة باللغة المصرية المقدسة وبحضارتها الملغزة المليئة بالأسرار، وهذا ما يتبدى لنا بوضوح فى وقفته الطويلة عند لغز الباب الأخميمى وأسراره كما وردت فى الكتابات التى بقيت عن أخميم وفى المرويات التى يرويها الكبار: فقيل عن هذا الباب الأخميمى الذى يشرف على النيل ولا يؤدى إلى بناء أو قصر، قيل عنه أن من خرج منه لن يعود، وإن عاد فلن يرجع مثلما كان، مصداقًا للحكمة التى وردت فى المدونات الأخميمية: «لا شىء يعود إلى ما كان عليه». قيل إن هذا الباب مدفون تحت طبقات من الأرض الأخميمية التى توارت عبر الزمن، من مر فوقه أو لامسه تبدل حاله، وفك طلاسم لغة لم يعرفها، وقطع مسافات شاسعة فى الزمن القليل. يظل الباب هنا لغزًا: باب قائم فى الفراغ وحده.. الباب يكون دائماً باباً لشىء غيره، مدخلاً له، ولكن هذا الباب يبدو كما لو كان لا يؤدى إلى شىء يواجه الشرق والغرب معاً، ولعل الصلة الوثيقة بين هاتين التجربتين تجتمعان فى روح ذى النون نفسه، ولعل هذا أيضاً هو سر تعلق صاحبنا به.

تلاحم هاتين التجربتين فى هذا التدوين يبدو كما لو كان استدعاء لهما لتجتمعا معاً بعد أن كانتا متشرذمتين متفرقتان تتقاربين حيناً وتتباعدان حيناً آخر: كانت إحدى التجربتين تهيمن على تدوين ما، تاركة للأخرى حيزًا محدوداً تتسلل من خلاله، على نحو ما نجد فى «متون الأهرام» الذى تهيمن فيه تجربة الحضارة المصرية القديمة على ما عداها؛ ولكننا فى هذا التدوين نجد التجربتين منصهرتين تماماً بحيث لا نستطيع أن نميز بينهما. والأمر المدهش فى هذا التدوين هو أن نتأمل تلاحم هاتين التجربتين من خلال معايشة، بل معاناة تجربة «الاسم».



كل ما فى الخبرة عند صاحبنا أسماء: «أتلقى من الأسماء إشارات تتحول أحيانًا إلى صور، بعضها جلى ومعظمها مبهم، تلوح غمامات، ندف عالقة أو سابحة، وديان هاجعة، بوادر ظواهر طبيعية، منها ما أعرفه ومعظمها لم يدرك بعد، مبان، طرق، نوافذ متطلعة، سلالم خلفية، أبراج منها المسكون والمهجور، هذا شأن حضرموت معى منها المسكون والمهجور، هذا شأن حضرموت معى، منذ سنين تراودنى، لا أعرف متى أصغيت إلى إيقاع الاسم لأول مرة..............

حضرموت.. حضور وموت، من خلاله أقف على بعد سحيق، مسافات طويلة تتخلل بحاراً وعرة وجبالاً تتخللها المضايق...».

يتأمل الغيطانى أيضاً أسماء عديدة، ما تستدعيه عنده، ما تستحضره من وجود مقترن بها: ومن هذه الأسماء «بلاد بنت»؛ ذلك الاسم المقترن بعالم الأساطير والأحلام: بخور، لبان، أشجار نادرة، وطيور تحلق على ارتفاعات شاهقة ولا وجود لها إلا هناك. ومنها اسم «سوقطرة» كجزيرة تكاد أن تكون أسطورية هى الأخرى، و«درب الأربعين» الذى يتأمله الغيطانى باعتباره جسراً يصل بين عالمين، ولكنه فى الوقت ذاته عالم خاص أو درب لا يعرفه إلا أهله من مرتاديه بما لهم من طقوس وخبرات خاصة فى تعاملهم مع هذا الدرب. ومنها أيضاً اسم «بخارى» الذى ظل مقترنًا فى وعى الغيطانى بدرجة اللون الياقوتى للسجاد البخارى التى لا نظير لها والتى ظل يحاول الوقوف على سرها دون جدوى!

ومن الوضح أن هناك حضوراً قوياً فى هذا العمل للجغرافيا، أعنى للمكان الجغرافى كما خبره وعاينه الموجود البشرى، كما تمثل فى خبرته وتجربته الحية. عرفت شيئًا من تلك الخبرة وأفصحت عنها فى سيرتى التى كتبتها عن تجربتى فى الخليج. ولقد عرف بعض من الجغرافيين أنفسهم تلك الخبرة وفطنوا إليها، وراحوا يعبرون عنها بطرائقهم العلمية باعتبارها منهجاً فى فهم المكان الجغرافى من خلال صلته الحميمة بالإنسان الذى يقطنه أو يرتاده.

على أن الغيطانى لم يهتم هنا بأسماء الأمكنة فحسب، وإنما اهتم أيضاً بأسماء



الأشخاص، فالاسم هنا فى حد ذاته هو ضالته وبغيته. نعم اسم ذى النون هو المهيمن هنا، ولكن هناك أسماء عديدة بجانبه لا حصر لها. ومن بين هذه الأسماء أيضاً اسم «قطر الندى» الذى يستدعى نطق حروفه عند الغيطانى حالة خاصة من الوجود الأنثوى: إذ إن طلتها رقراقة، وبشرتها تشف عما بداخلها لرقتها ورهافتها، شرابها من لباب الزهور.. حضورها إيماءات، سعيها إشارات، نظراتها حنين دائم وتطلع ومعاودة. كما يقول الغيطانى. كما أن الغيطانى يتوقف وقفة دالة عند اسم «ليلى مراد». يقترن اسمها عنده بحالة صوتية تأسره وتأخذ بمجامعه، إذ يقول:

«لا يخلعنى منى، ولا يقصينى عنى، لا يأسرنى عندى إلا توالى مويجات صوتها الذى يستنطق كواكب المجموعة فى مدارات وحدتها، أصغى إلى صوتها، فيندلع أمامى اسمها، لا أدرى عندئذ إلى من أتجه، أو كيف أنطق، أفقد قدرتى على التعبير، فلا أقدر على النطق، ولا الإشارة، لا أنظر، ولا أتطلع، ولا ألتفت، ولا أقعد ولا أقف ولا أستقيم ولا أنثنى ولا أنحنى، ولا أكون ولا أتكون ولا أصير ولا أتحول عنها، فى كل مسافة من عمرى أحرص على اقترانها بليلى وبعض مما شدت..».

ولا أدرى ما سر توارد الخواطر بينى وبين الغيطانى فى كثير من المواضع، منها هذا الموضع تحديداً: كان ولا يزال صوتها يشجينى بما له من سحر وتأثير خاص منبعث من قدرته على الانطلاق بقوة فى سلاسة دون أدنى مجهود، فهو يجوب السلم الموسيقى من أدناه إلى أعلاه دون عناء. كنت أحاول البرهنة على هذه الحقيقة لطلابى فى فلسفة الفن بأن يلاحظوا ببساطة وضع شفتيها حينما تغنى: لا تكاد تلحظ انفراج شفتيها حينما تغنى؛ إذ لا تكاد تستبين أسنانها من وراء شفتيها، تغنى كأنها تتكلم، ولكنها فى حقيقة الأمر تشدو بما لا يقوى غيرها على أن ينطقه حتى فى سلاسة.

غير أن اسم «ليلى مراد» لم يقترن عند الغيطانى بمجرد حالة صوتية فريدة، وإنما اقترن عنده أيضاً بحالة من الحضور المقيم: إنه حضور «المثال» بالمعنى الأفلاطونى، إنه الحضور الذى يبقى كصورة وإن تغيرت تجلياتها فى الواقع، تبقى صورة ليلى مراد وإن تغيرت وتبدلت ليلى مراد نفسها على نحو يجافى صورتها التى رسمتها لنفسها أو رسمتها لها الأقدار. ولذلك فإنه يروى لنا أنه أتيحت له فرصة لقائها بعد أن جاءه صوتها عبر الهاتف على إثر اطلاعها على ما كتبه عن تعلقه بابتسامتها التى طالما عُرفت بها، ولكنه لم يشأ أن يدبر لهذا اللقاء، لم يُرد لقاءها؛ أو كما يقول: «لأننى لو اطلعت على نقيضها لولى كل ما حرصت على التعلق به، ذاك أمرى..». والحقيقة أن هذا أمر متكرر عند الغيطانى، أو هى لحظة مستقرة منذ زمن مندثر على حد تعبيره؛ ولذلك فإننا نذكر تواتر تلك اللحظة من قبل تدوينه «رشحات الحمراء».. تلك الحمراء التى جسدت معنى الأنثى لديه فى طفولته وصباه، فأراد أن يبقيها فى الذاكرة والخيال، فلا يراها فى الواقع بعد أن تبدل حالها بفعل الزمن.

غير أن هناك فكرة مركزية فى هذا التدوين، وهى علاقة الاسم بالذاكرة؛ ومن ثم بالوجود ذاته: فإذا كان من لا اسم له لا وجود له، وإذا كان أول ما تفقده الذاكرة هو الأسماء كما تعلم صاحبنا وحفظ عن معلميه؛ فإن فقدان الذاكرة سوف يعنى فقدان الوجود برمته، وهذا ما كان منه يخشى ولا يزال:

«.. تواترت أعراض النسيان عندى حتى خشيت أن يكون ذلك أول أعراض الزهايمر، رعبى أن يدركنى، أن أضل عن نفسى، ليس الوجود إلا ذاكرة، وليست الذاكرة إلا أسماء، لذلك نسيانها يعد علامة تآكل حواف الحضور، فإذا تزايد تقدمه يختفى المرء وهو لايزال يتنفس ويتلفت ويستدعى عبثاً ما كان منه فيأتيه فى غير الاتجاه المرجو».

إن العالم الذى يأخذنا هذا التدوين إلى رحابه عالم غرائبى قد يبدو أسطورياً عند من يقبعون خارجه، ولكنهم ما أن يسلمون أنفسهم لنداءاته الخفية، متخلين عن شواغل وتفاهات الحياة، حتى يدركوا ما فيه من حقيقة تتجاوز كل عابر وزائل؛ إذ لا يبقى إلا اسمه الذى يعين رسمه، فإن الاسم هو الوجود، فإن اختفى الاسم أو زال اختفى المسمى أو الموجود. ▪

(*) ينشر هذا المقال ضمن مجموعة من المقالات للكاتب فى كتاب يصدر قريبا عن دار العين (القاهرة) بعنوان «عالم الغيطانى.. قراءات فى دفاتر التدوين»

الشرعية الفلسطينية مرتبطة عضويًا بمقاومة الاحتلال الإسرائيلي وتحقيق الحقوق العليا للشعب الفلسطيني



شرعية فلسطينية جديدة؟

خالد الحروب

يقصد بتعبير الشرعية الفلسطينية الفهم التالي: منظومة الأعراف المقاومية والسياسية التي أقرها الإجماع الفلسطيني التنظيمي والشعبي وما نتج عنها من آليات مؤسساتية صانعة للقرار الفلسطيني وللعلاقات الإقليمية والدولية. وهي أيضًا منظومة الأعراف المتضمنة لحمولة رمزية تراكمية انتزعت الإقرار الشعبي بحق تمثيل الفلسطينيين، وصناعة القرار الفلسطيني، وصوغ وجهات المسير الفلسطيني في المراحل المختلفة. الشرعية الفلسطينية، من ناحية تكوينية، منتزعة من رحم النضال ضد الاحتلال الفلسطيني ووليدته، إذ لا يمكن تصورها منقطعة عنه. ولذلك فهي نشأت وترعرعت في ظل المقاومة، وعبر تاريخ النضال الفلسطيني الطويل كانت «الشرعية الثورية» هي البنية التحتية لأية قيادة فلسطينية. ثم هي التي أعادت إنتاج نفسها عبر اكتساب شرعيات انتخابية وإقليمية ودولية في مراحل لاحقة من النضال والتاريخ الفلسطيني.

ربما كان التعريف المذكور موسعا، أو معقدا، بشكل لافت، لكنه يعكس الصيرورة التاريخية التي تولدت عبرها هذه الشرعية، فهي لم تكن شرعية قد تولدت منذ لحظة قيامها عبر انتخابات عامة مثلاً، أو عبر تشريعات قانونية، أو سوى ذلك. لقد كانت عملية طويلة النفس ومعقدة تحدث تحت ظل احتلال عسكري لا يرحم، ومعمدة بالتضحيات والدماء والصراعات ضد إسرائيل أولاً وضد أطراف وجهات إقليمية ودولية ثانيًا. لذلك كانت هذه الشرعية التي تجسدت في منظمة التحرير الفلسطينية، وما زالت، جوهر الكيانية الفلسطينية، وصانعة بوصلتها، ومستودع تاريخها النضالي.

بناء على التعريف المذكور أعلاه، تكون الشرعية الفلسطينية مرتبطة عضويًا بمقاومة الاحتلال الإسرائيلي وتحقيق الحقوق العليا للشعب الفلسطيني. فمنذ عهد الانتداب البريطاني إلى عهد الانتفاضة الثانية والصراع على التحقق بشروط الشرعية الفلسطينية والتمثيل الفلسطيني من قبل الأحزاب والتيارات الفلسطينية (والرسميات العربية المنافسة أيضاً)، يتقدمه مقدار تضمين مقاومة الاحتلال في قلب تلك الشرعية المدعاة والتمثيل المتنافس عليه. وكان الشعب الفلسطيني يمنح مقادير الشرعية والتمثيل لهذا التيار أو ذاك بحسب درجة الاقتراب من جوهر المقاومة فكراً وممارسة.

لذلك قوبل انطلاق حركة فتح في الفاتح من يناير ١٩٦٥ باحتضان شعبي عريض لأن برنامج فتح كان مبنيا على المقاومة بكليته. ومنذ تاريخ انطلاقة فتح ثم تأسس فصائل المقاومة الأخرى وعلى قاعدة المقاومة أيضًا ظل الوجدان الشعبي الفلسطيني والرأي العام يمنح الشرعية لهذه القوى التي تحالفت في إطار منظمة التحرير الفلسطينية، لأنها قائمة على المقاومة. ثم أصبحت منظمة التحرير هي مآل الشرعية الفلسطينية لفلسطينيي الداخل والخارج. وقد تصلبت هذه الشرعية الفلسطينية المتمثلة في منظمة التحرير بعد أن انتزعت وحدانية تمثيل الشعب الفلسطيني، في مؤتمر القمة عام ١٩٧٤، خاصة إزاء أطراف عربية أهمها الأردن الذي كان ينازع المنظمة على هذه الأحقية.

ومع مرور السنوات تكرست الشرعية الفلسطينية مع تواصل انتزاع الاعترافات الدولية بمنظمة التحرير ومساندة حقوق الشعب الفلسطيني التي تتبناها وتدافع عنها المنظمة. ولم تهتز هذه الشرعية وصلابة تمثيلها في الوجدان الشعبي إلا مع مؤتمر مدريد عام ١٩٩١ ومن بعده اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، وذلك لأن جوهر تلك الشرعية وهو برنامج المقاومة بدأ يهتز، وعلى الأقل في نظر كثير من الفلسطينيين. إذ مع وقوع «الحدث الأوسلوي» المفصلي بدأ يتطور لدى شرائح عديدة من الفلسطينيين، وبالتوازي، مع تواصل صعود قوة حماس، أقدار متفاوتة من الامتعاض والتردد في مواصلة منح منظمة التحرير بقيادة حركة فتح ما تعودوا أن يمنحوه من شرعية بلا حساب. لذلك كان على هذه الشرعية وفي ظل المناخ السياسي والعسكري والمقاومي الجديد إبان أوسلو أن تعيد إنتاج وتكريس نفسها، على الأقل في الداخل الفلسطيني، وهذه المرة عبر انتخابات سياسية عامة، نظمت لأول مرة عام ١٩٩٦ وأخذت شكل انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني.

الإسلاميون الفلسطينيون والشرعية الفلسطينية

بناء على التعريف أعلاه للشرعية الفلسطينية لم يكن للإسلاميين الفلسطينيين أي حضور في فضاء التنافس على تلك الشرعية في مرحلة ما قبل الانتفاضة الأولى، أي قبل عام ١٩٨٧. إذ قبل ذلك التاريخ الفاصل كانت النظرية السائدة عن التيار العريض للإسلاميين، وتحديداً الإخوان المسلمون، نظرية إعداد الأجيال طويلة النفس من أجل الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة مع إسرائيل. ومع استثناء حركة الجهاد الإسلامي التي بدأت إرهاصاتها الأولى في أواخر السبعينيات بالتأثر بالتجربة الثورية الإيرانية ثم استقلت عن الإخوان المسلمين في أوائل الثمانينيات امتعاضًا من تواصل السياسة «الإخوانية» في عدم مواجهة الاحتلال، فإن نظرية إعداد الأجيال هي التي سيطرت على شرائح


© AFP / Mahmud Hams

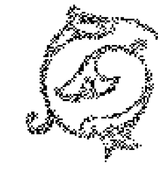
النص الكامل يصدر قريبا في كتاب بعنوان: مآزق بلا حدود: شرق أوسط للصراع والسياسة والاجتماع



الإسلاميين العريضة فى الضفة الغربية وقطاع غزة لعدة عقود. كانت النتائج العملية لتلك النظرية مختلطة. فمن ناحية أولى تمكن الإسلاميون من بناء قاعدة عريضة وقوية ومتماسكة ومنتشرة فى المجتمع الفلسطينى. وقد تبدت صلابة هذه القاعدة ومدى انتشارها الأفقى عندما قرر الإسلاميون تغيير استراتيجيتهم والانخراط فى الانتفاضة الأولى، وصاروا إحدى أهم قواها خلال فترة وجيزة من الزمن. أى أن حماس تأسست كتنظيم قوى منذ لحظة الميلاد لأنها اعتمدت على بنية تحتية قوية وممتدة تم بناؤها على مدى سنين طويلة. لكن ومن ناحية ثانية قادت نظرية إعداد الأجيال إلى تكرس نظرة سلبية واتهامية للتيار الإسلامى من قبل التيار الوطنى العريض ومن قبل خصوم الإسلاميين وذلك بسبب عدم تبنى هذا التيار لمنهج المقاومة العسكرية للاحتلال. ولأن المقاومة هى جوهر الشرعية الفلسطينية فقد قاد ذلك إلى ترسخ قناعة واسعة وهى عدم أحقية الإسلاميين فى الانخراط فى، أو التنافس حول، الشرعية الفلسطينية التمثيلية.

وكان أن احتاجت حماس إلى عشرين سنة تقريباً كى تراكم تاريخاً نضالياً يؤهلها للتنافس على الشرعية الفلسطينية والانخراط فيها من أوسع أبوابها المقاومية والانتخابية. وهى الآن تقف وورائها ذلك الرصيد الذى أتاح لها أن تصل إلى قمة الهرم الفلسطينى وأن تناكف حركة فتح على قيادة منظمة التحرير الفلسطينية نفسها. لم يكن بإمكان الإسلاميين الفلسطينيين أن يجدوا لأنفسهم هذا الموقع القيادى فى المشهد الفلسطينى، ويطمحوا لأن يغيروا شكل النظام السياسى الفلسطينى عبر الدخول فى عملية التمثيل الشرعى للفلسطينيين لولا تبنيهم للمقاومة وتخليهم عن نظرية إعداد الأجيال التى قصفت من عمر تيارهم فى فلسطين عقدين من الزمان على أقل تقدير.

إن تجربة حركة حماس فى الحكم، وكما تبدت فى السنة الماضية، ورغم قصرها الشديد والحصار الذى تعرضت له، قدمت فصولاً ثرية حول تداخل الدينى مع السياسى عند حماس. كما كشفت عن آليات تقديم السياسى وسيادة النهج الواقعى والبراجماتى عند الحركة، وذلك فى سياق حرص حماس على تكريس مكتسباتها السياسية والشعبية وفى سياق صراعها مع فتح وبقية فصائل التيار الوطنى على اكتساب شرعية فلسطينية وتمثيلية. وكانت تلك السنة المزدحمة بالمآزق المتلاحقة التى واجهت حماس لأول مرة، والفلسطينيين بعامة، قد أظهرت تجليات البراجماتية السياسية عند حماس وكيفية تبلورها موضوعياً وذاتياً عند كل منعطف حاسم يستلزم من الحركة قراراً استراتيجياً يحدد الوجهة وفق ما يمليه أو يشترطه ظرف الواقع الموضوعى.



ولا تحدث هذه العملية، أى تقديم السياسى وتأخير الدينى، فى الغالب الأعم بوعى كامل يفرز مكونات ما هو سياسى عما هو أيديولوجى ويقارن بينها بكل وضوح ويقدم بالتالى هذا المكون ويؤخر ذلك المكون بعملية شبه رياضية. إنها عملية معقدة وتدريجية وغير مباشرة، تحدث من دون ترتيبات رياضية مسبقة لكن أهم ما يسمها هو تسلل السياسى فيها إلى أرضية الأيديولوجى عن طريق تأسس قناعات ضميرية وفكرية تسوغ حدوث هذا التسلل بكونه يحدث أو يُستحدث فى نهاية المطاف لخدمة الأهداف الأيديولوجية الكبرى. وهذه القناعات تتبلور على شكل صيرورات عفوية استجابة لمسارات الواقع الصلب. وهى مسارات تفرض على حماس (أو أية حركة أيديولوجية أخرى) الانخراط فى الاتجاهات العامة للطرق المرسومة مسبقاً، مع السماح لها بمحاولة توسيع هذه الطرق أو إنشاء هوامش لها أو إجراء بعض التعديلات عليها، لكن ليس رفضها كلياً والعزوف عن استخدامها بالمطلق. وهكذا، وفى حالة حماس فى الحكم، بدا التقديم الأفضل للسياسة الواقعية على التشبث بالأحلام الأيديولوجية مظهراً بارزاً فى أداء الحركة خلال عامها اليتيم على رأس الحكومة الفلسطينية.

لكن هذا المظهر البراجماتى لا يفاجئ المطلعين على التكوين الفكرى والسياسى لحماس، وعلى تفاعلها مع المحيط الذى تعيش فيه بدءا من تاريخ انطلاقتها فى أواخر عام ١٩٨٧. فبذور الواقعية السياسية موجودة بكثافة فى تنظيرات، والأهم من ذلك فى ممارسات، حماس السياسية والفكرية. فحماس فى نهاية المطاف متأسسة وفق ركنين: واحد دينى إسلامى كواحدة من حركات جماعة الإخوان المسلمين تحمل برنامجها وشعاراتها، وثان وطنى مقاومى كواحدة من تنظيمات الحركة الوطنية الفلسطينية هدفها تحرير فلسطين ودحر الاحتلال الإسرائيلى. ومن كلا الركنين، ومن ثنايا التجربة التاريخية للحركات الأم، الإخوان المسلمون من جهة، والحركة الوطنية الفلسطينية من جهة ثانية، طورت حماس فكرا وممارسة تناغيان الأحلام الكبرى، لكن فى الجوهر ينتميان إلى مدرسة الواقعية السياسية.

تقدم السياسى وترسخه

أى رصد لسيرة وأداء حكومة حماس وخطابها وممارساتها فى عام حكمها سيقود، فى سياق ما تركز عليه هذه المقاربة، إلى نتيجة أساسية (ربما ضمن نتائج أخرى أقل أهمية)، وهى أن حماس تعاملت بتسييس كبير فى معظم الملفات، ووضعت كثيراً من الحمولة الأيديولوجية التى اصطبغت بها دينياً وشعاراتياً على مقاعد الاحتياط. لقد كان السياسى هو الذى يقود الدينى، وليس العكس كما يظن كثيرون. ويمكن القول وبقدر كبير من الاطمئنان إن حماس انخرطت، وربما رغماً عنها وبحكم فوزها فى الانتخابات، فى دورة مكثفة للغاية من تسييس محلى وإقليمى ودولى ما كان لها أن تتعلم ما تعلمته خلالها لو بقيت عشر سنوات أو حتى أكثر فى مقاعد المعارضة.

لكن قبل الفوز بالانتخابات، يناير ٢٠٠٦، تجب الإشارة إلى أن قرار المشاركة بالانتخابات فى حد ذاته كان استراتيجياً، وهو كان قد اتخذ فى العام الذى سبق الانتخابات وترافق مع قرارين لا يقلان أهمية عنه هما قرار التهدئة وقرار الدخول فى منظمة التحرير. هذه الحزمة من القرارات شكلت منعطفا أساسيا واستراتيجيا فى سياسة الحركة، ومهدت بمجموعها العام للتطورات اللاحقة، وأوضحت من ناحية نظرية تفوق البراجماتى على الأيديولوجى فى فكر وممارسة الحركة. فبقرار المشاركة فى الانتخابات وبقوة ونشاط أسقطت حماس عملياً معارضتها للنظام السياسى الفلسطينى الذى أعيد بناؤه وفق عملية أوسلو واتفاقاتها. وبقرارها العمل على دخول منظمة التحرير فإنها عزمت على وضع الشرعية الفلسطينية نصب عينيها، متكئة على ما راكمته من سجل مقاومى فى السنوات التى مضت. أما قرار التهدئة الذى تجدد خلال فترة وجود حماس على رأس الحكومة وتم تأكيد تجديده وتوسيعه فى اتفاق حكومة الوحدة الوطنية، فقد عزز من ناحية ثانية واقعية حماس وإخضاعها لكل استراتيجياتها، بما فيها «الجهاد»، لمنطق التقدير السياسى. وهو ما كرره أكثر من قائد فى حماس من أن العمل العسكرى ليس هدفاً فى حد ذاته، بل وسيلة لتحقيق الأهداف.

وقد انعكست «حزمة» القرارات تلك على واقعية برنامج كتلة حماس الانتخابية: التغيير والإصلاح، وهو برنامج يمثل من ناحية نظرية أهم وثيقة أصدرتها الحركة تقطع مع «ميثاق حماس» الذى صدر فى آب ١٩٨٨ وكان طافحاً بتصورات خيالية وخطاب مغرق فى ذاتيته إلى جانب سطحية وسذاجة أضرت بحماس فى لاحق سنواتها (يكفى مثلاً استناد بعض مواد الميثاق إلى الكتاب الملفق «بروتوكولات حكماء صهيون» وتكرار خزعبلاته). قدم البرنامج



من ثنايا التجربة التاريخية، طورت حماس فكراً وممارسة تناغيان الأحلام الكبرى، لكن فى الجوهر ينتميان إلى مدرسة الواقعية السياسية







وجدت حماس نفسها تغرق فى تفاصيل الحياة اليومية لملايين الفلسطينيين الذين كانوا الضحية الأولى للحصار الاقتصادى



الانتخابى الطموح والمتفائل الذى خاضت حماس الانتخابات بناء عليه صورة جديدة عن حماس، حماس التى تضع نصب عينها قيادة النظام السياسى الفلسطينى وليس معارضته. فإضافة إلى التأكيد على صيانة الحقوق الفلسطينية، وتأكيد حق المقاومة، تضمن البرنامج تعهدات كثيرة منها محاربة الفساد، وإصلاح القضاء، والرعاية الصحية، والاهتمام بالشباب، والمرأة، والمواصلات، والبيئة، والتعليم، وأورد تفصيلات والتزامات لا تفترق فى مضامينها عما يورده أى حزب فلسطينى آخر. وبطرح ما لا تزيد نسبته بين ١٠ إلى ٢٠ فى المائة من بعض التعبيرات الدينية والإشارات البلاغية هنا وهناك، فإن ما تبقى من برنامج حماس الانتخابى يتوافق تماما مع أى برنامج واقعى لأى تنظيم فلسطينى آخر. وقد تواصلت واقعية حماس فى فعل ما تفعله فى محيط حماس خلال وبعد الانتخابات، وتكرست مع حكومتها.

هذه الواقعية «الحماسية» التى ترسخت خلال سنة أول حكم لحماس، تكونت من ناحية تاريخية على ثلاث أرضيات. أولها الجذر الإخوانى لحماس وما يحاول أن يوفره من مناهج تعامل عملية وبراجماتية مع الواقع تنطلق على أساس إصلاحه وتغييره تدريجيًا وليس على أساس التخلص منه ثوريًا وجذريًا ودفعة واحدة. فالفكر الإخوانى المؤسس لفكر حماس لا يتصف بالثورية الاجتماعية أو السياسية، ولا يقطع مع الواقع ويتعالى عليه بل ينطلق منه. ورغم عدد من الانزلاقات الفكرية هنا وهناك عن هذا المسار العام فى عموميات وشعارات الفكر الإخوانى، إلا أن تفاعله مع الواقع وانصياعه المباشر وغير المباشر لاشتراطاته يفوق بكثير الحمولة الأيديولوجية التى لو حدث أن زاد ثقلها فى فكر وممارسة الإخوان (وحماس) لقاد ذلك إلى انحسار تلقائى وتدريجى لنفوذهم وشعبيتهم. باختصار، تبلور الفكر والقناعة والخبرة الإخوانية (والحماسية) منتج سياسة تعمل على تغيير الواقع من داخله وتبعًا لما يوفره من وسائل عملية وليس من فوقه وتبعًا لما تنادى به الأيديولوجيا من وسائل نظرية.

الأرضية الثانية التى تكونت عليها سياسة حماس الواقعية، كما تبدت خلال العام الماضى، هى اتساع حجم الحركة وامتداد شعبيتها وتشعباتها والجمعيات الخدمية التابعة لها وما يتفرع عنها من التزامات مع شرائح شعبية عريضة، خاصة فى أوساط الفقراء. إضافة إلى ذلك تكثف علاقاتها مع أطراف عديدة، سواء فى الساحة الفلسطينية، أو العربية، أو الدولية، وما فرضه ذلك من ضرورة صوغ خطاب وسياسة مقنعة ومفهومة تكرس مكتسبات الحركة وتزيد منها. ويؤدى اتساع نطاق الحجم والشعبية لتبلور اعتبارات وحسابات دقيقة ضاغطة على أى حركة تدفع باتجاه البقاء فى مربعات الواقعية بهدف الحفاظ على الامتداد الأفقى للحركة وعلى بقاء تواصلها مع قواعدها الشعبية، وللحفاظ على شبكة علاقاتها الخارجية. بمعنى آخر، يمكن القول بأنه كلما اتسع النطاق الأفقى لأى حركة وأصبحت علاقاتها مع محيطها الاجتماعى والسياسى والدولى مركبية كلما أعادت إنتاج نفسها مصلحيا وواقعيا وأعادت تأهيل شعاراتها الأيديولوجية الكبرى وفق معايير جديدة. ومن هنا فلنا أن نلحظ أن التنظيمات الأقل حجمًا وتأثيراً والمحدودة الانتشار شعبياً تكون أكثر راديكالية فى تعاملها مع الواقع، وأكثر تحرراً من اشتراطاته، وأشد تشبثًا بما تراه من أحلام وتطلعات أيديولوجية وطوباوية. لكن ينطبق عليها نفس «القانون» إذ لو ازدادت شعبيتها وتعقدت طبيعة علاقاتها ومصالحها وحساباتها مع الواقع فإن التآكل التدريجى فى يوتوبيا أيديولوجياتها يبدأ فعله شبه الحتمى دافعا الحركة نحو علاقة أكثر جدلية مع الواقع، وقائمة على فكرة تغييره من داخله وبما يوفره من وسائل عملية.

الأرضية الثالثة التى كرست واقعية حماس السياسية هى الظرف الموضوعى المحيط بقضية فلسطين. فهنا احترقت أصابع حماس فى نار السياسة المعقدة التى قلصت خيارات الفلسطينيين (منظمة التحرير وحركة فتح وبقية التيارات الفلسطينية قبل حماس) وحشرتهم فى زوايا بالغة الصعوبة. فاللحظة التى فازت فيها حماس فى الانتخابات وسيطرت على أثرها على السلطة الفلسطينية، هى ذات اللحظة التى تمثل خلاصة تدهور الوضع العربى والإسلامى وتشرذمه، وتراجع قضية فلسطين على الأجندة الإقليمية والدولية لصالح قضايا أخرى (العراق، أفغانستان، الحرب الأمريكية على الإرهاب... إلخ). وهى ذات اللحظة التى ما زال فيها ميزان القوى يميل بلا رحمة ضد الفلسطينيين ولصالح إسرائيل ويجعل هذه الأخيرة لا تشعر بأى ضغط حقيقى للاستجابة حتى لمشاريع الحلول السلمية التى لا تحقق إلا جزءاً يسيراً من الحقوق الفلسطينية.



فى قلب هذه اللحظة الصلدة وصلت حماس إلى الحكم، ولمست عن قرب وعلى أرض الواقع التعقيدات التى تواجه الشعارات الكبرى التى حفلت بها أدبياتها هنا وهناك. وعوض أن تشرع حماس فى تطبيق تلك الشعارات وترسم على الأرض ما يختلف عما رسمه النظام الرسمى الفلسطينى الذى سبقها وكانت تعارضه، وجدت نفسها تغرق فى تفاصيل الحياة اليومية لملايين الفلسطينيين الذين كانوا الضحية الأولى للحصار الاقتصادى الذى فُرض عليهم وعلى الحكومة التى انتخبوها. والمهم هنا هو التأمل فى مقادير الواقعية التى أحاطت بحماس من كل جانب ووضحت بجلاء تعقيدات الوضع الفلسطينى واعتماده على المساعدات الغربية بالدرجة الأولى (وليس العربية والإسلامية)، وكذا تعقيدات الوضع الإقليمى والدولى إزاء المسألة الفلسطينية والإمكانات الفعلية للتحرك ضمن الهوامش الضيقة، وكرست بالتالى واقعية حماس وممارستها.

رهانات الوحدة التنظيمية

مما لا شك فيه أن عددا لا يُستهان به من الاكتشافات الصادمة لم يتح لحماس أن تطبق برنامجها الانتخابى الذى شاركت على أساسه فى الانتخابات التشريعية. لكن تمكنت حماس من أن تجد لنفسها مكانًا رئيسيًا فى قلب النظام السياسى الفلسطينى وشرعيته التمثيلية. بفضل الانتخابات والسيطرة على الحكومة وعدم السقوط رغم الحصار، تحولت حماس من حركة معارضة للنظام السياسى إلى جزء منه. بيد أن هذا التحول لا زال فى مراحله الأولى وقد يحمل رهانات خطيرة تتحدى أهم ما تميزت به حماس فى السنوات الماضية وهو وحدتها التنظيمية وعدم بروز انشقاقات فيها. وربما أمكن القول أنه لولا الأرضيات الثلاث التى ذكرت أعلاه والمؤسسة لقدرة كبيرة عند حماس على التأقلم الواقعى ومحاولة اجتراح معادلات حساسة بين ما هو أيديولوجى وما هو براجماتى، لكان مصير الحركة قد آل إلى التمزق والانشقاقات بسبب حدة التحولات التى طرأت على حماس ذاتيًا وموضوعيًا. من أجل هذا قد لا نجانب الصواب إن اعتبرنا أن النجاح الأكبر لحركة حماس خلال العام الماضى هو مرورها بهذه التجربة الصعبة والمفاجئة من دون أن تتصدع، وبالبقاء موحدة.

ولتوضيح هذا التقدير علينا أن نتأمل فيما يلى: يُعد قرار المشاركة فى الانتخابات بحد ذاته افتراقًا استراتيجيًا عن الموقف التقليدى لحماس المعارض لاتفاق أوسلو والمؤسسات التى أفرزها بما فيه المجلس التشريعى. وتأكيدا لهذا الموقف كانت حماس قد رفضت المشاركة فى انتخابات عام ١٩٩٦ على اعتبار أنها ناتج من نواتج أوسلو، يهدف إلى تكريس أحد مؤسساته (المجلس التشريعى). فى عام ٢٠٠٦ وضعت حماس كل جهدها للمشاركة فى نفس الانتخابات، رغم أنها حاولت تسويغ ذلك بالقول بأن عملية





مع فوز حماس فى الانتخابات، ثم تشكيلها حكومة بمفردها، ثم انخراطها فى حكومة، نحن أمام تغير كبير فى طبيعة وشكل الشرعية الفلسطينية



أوسلو واتفاقاتها قد انتهت وماتت وأن الانتخابات تجرى بعيداً عنها. وفى سياق الدفاع السياسى والدينى عن الموقفين، كل فى وقته، كان بعض علماء الدين القريبين من حماس قد أفتوا بحرمة المشاركة فى الانتخابات الأولى، فيما شددوا على وجوب المشاركة فى الانتخابات الثانية، بما يشير، مرة أخرى، للحاق الدينى بالسياسى عند حماس وليس العكس. المهم هنا أن مثل هذا القرار كان من الممكن أن يخلق توترات كبيرة داخل حماس، خاصة أنه ترافق مع تكرس التهدئة من طرف واحد تقريباً بما يعنى تكبيل الجناح العسكرى عند حماس عن العمل.

بعد فوز حماس وتشكيل الحكومة نشأت تحديات هائلة، أولها فلسطينية داخلية إثر رفض كل الفصائل الفلسطينية مشاركة حماس فى حكومتها، ثم ما تلا ذلك من توترات واضرابات ضد حكومة حماس وصلت فى أسوأ لحظاتها إلى الاحتراب العسكرى وسقوط العشرات من فتح وحماس فى قطاع غزة. خلال فترات هذا التوتر كان قرار حماس موزعاً بين الداخل والخارج، بين قادة حماس فى السجون وقادتها خارج السجون، بين قادة حماس السياسيين وقادة حماس العسكريين، بين من يُعتبرون معتدلين ومن يُعتبرون متشددين، وكان من المحتمل أن يوفر هذا التشتت فى صناعة القرار أجواء «مثالية» للانشقاقات خاصة فى ظل مرحلة انعطافية حادة. لكن حماس تجاوزته بنجاح أيضاً.

ثانى تلك التحديات هو الحصار الدولى المضروب على الحكومة، فى ظل ظرف إقليمى بالغ الحساسية حيث التوتر الأمريكى بلغ ذروته فى مناخ الفشل العسكرى والسياسى فى العراق، وعلى خلفية تصاعد النفوذ الإيرانى فى المنطقة. كانت حماس تعمل وسط ظروف كلها شد وجذب بين محورين: المحور الإيرانى ـ السورى، والمحور المصرى ـ السعودى. وكان ميلها إلى هذا المحور أو ذاك معناه توترات إضافية داخل حماس، وضد حماس أيضاً، خاصة مع اختطاف الجندى الإسرائيلى شاليط والأهمية التى صار يتمتع بها ملف تبادل الأسرى وفيما إن كانت حماس الداخل أو الخارج هى المسيطرة عليه.

ثالث تلك التحديات تمثل فى الخطاب السياسى الذى شعرت حماس بأنها يجب أن تتبناه لكسر الحصار الدولى أو تخفيفه على أقل تقدير. هنا أيضا كان على حماس أن تقوم بنقلة كبيرة تلتف من خلالها حول الشروط الثلاثة القاسية التى وضعتها عليها اللجنة الرباعية (الاعتراف بإسرائيل، الالتزام بالاتفاقات السابقة، ونبذ العنف). وكانت عملية الالتفاف هذه محفوفة بمخاطر سياسية وتنظيمية كبيرة وتمت بشكل تدريجى وغير مباشر وعبر وثيقة الوفاق الوطنى (المتأسسة على وثيقة الأسرى) ثم ترسخت عبر برنامج حكومة الوحدة الوطنية الذى تم التوافق عليه فى اتفاق مكة. وربما أمكن القول هنا أن هذا هو التحدى الأكبر الذى يواجه حماس الآن: الخطاب والبرنامج السياسى الذى اقترب من برنامج منظمة التحرير ووسع التهدئة لتشمل الضفة الغربية إلى جانب قطاع غزة. فبعض قادة وأفراد الحركة يرون الآن أنها قد قدمت تنازلات كبيرة على صعيد الموقف السياسى، وأنها بإعلانها «احترام» الاتفاقات السابقة فإنها عملياً تندرج فى سياق العملية السلمية واتفاقات أوسلو. وهذا يضيف أيضاً توترات داخلية قد تهدد وحدة الحركة.

وهكذا فإن معالم «المقايضة الكبرى» التى يبدو أن حماس قد انخرطت فيها تتمثل فى تخفيض السقف السياسى والمقاومى والاقتراب من برنامج منظمة التحرير الفلسطينية، مقابل تكريس الوجود السياسى فى قلب الشرعية الفلسطينية التمثيلية. ولأن قبول وجود حماس فى قلب هذه الشرعية ليس شأناً فلسطينيا بحتاً إذ له استتباعات إقليمية ودولية مركبة، فما كان بإمكان حماس أن تحصل على ذلك من دون عملية الالتفاف على الخطاب السياسى، وإقناع أطراف عربية ودولية بأن هذه الخطوة لا تمثل قطعاً جذرياً مع الإرث السياسى والاستراتيجية الفلسطينية العامة التى صارت محكومة بالاتفاقات مع إسرائيل وتحوم فى حدها الأقصى حول مفهوم حل الدولتين، الذى صارت حماس تقبله بلا شروط.

وعلى العموم ومن دون التورط بتوقعات ورسم سيناريوهات مستقبلية يمكن القول إن الاختبار الكبير الثانى الذى تمر به حماس الآن، بعد اختبار السيطرة على الحكومة الذى مرت به فى السنة الماضية، هو اختبار صيانة مشروع حكومة الوحدة الوطنية وإنجاحه. ونجاح حماس سيتمثل فى استمرار الحكومة وصمودها لمدة الثلاث سنوات القادمة. والنجاح الأكبر سيتمثل فى عقلنة الخطاب الفلسطينى وتوحيده على برنامج سياسى وطنى موحد، وجسر الهوة بين الخطاب الوطنى الفلسطينى والخطاب الإسلامى الفلسطينى.

وبكل الأحوال قدمت تجربة حماس فى الحكم ولا زالت تقدم فصولاً ثرية فى مسألة تعامل الإسلاميين الوسطيين مع السياسة. فهنا تنزع الشعارات الكبيرة نحو أن تتواضع وتتخفف من ثقل الأيديولوجيا وبذلك يصبح تنافس الإسلاميين مع خصومهم فى أى ساحة وطنية قائماً على أساس البرامج السياسية وليس الوعود الكبرى، أو استخدام الشعارات الدينية والعاطفية. وهذا كله يعمل على إنضاج التجربة الديموقراطية فى أى حالة من الحالات حيث يتم تجريد الحركة الإسلامية (هنا أو هناك) من سلاح استخدام الشعار الدينى وتوظيفه للحشد الانتخابى، وبالتالى خوض غمار المنافسة على قاعدة التساوى السياسى بين الإسلاميين ومنافسيهم. وهكذا، وفلسطينياً، يصبح اندراج حماس فى مربع السياسة الواقعية مكسباً وطنياً لأنه يحشد الإمكانيات فى إطار ما هو ممكن، عوض أن تظل محلقة فى آفاق بعيدة المنال تقدم مسوغات للعدو أكثر مما تقدم إنجازات للذات.

ومن ناحية أشمل، ولأن حماس هى الحركة الإسلامية الوحيدة فى المنطقة التى وصلت للحكم فى العقود الأخيرة عن طريق الانتخابات الديموقراطية الحرة والنزيهة فإن فصول التجربة وخلاصاتها سترسم علامات استرشادية مهمة يمكن عبرها فهم وتوقع بعض مسارات الإسلام السياسى الوسطى فى المنطقة، خاصة على صعد نوعية البرامج السياسية والاجتماعية المتبناة وسياسات التحالف وبناء العلاقات الإقليمية والدولية، ومصالحة الأيديولوجى مع السياسى البراجماتى، والاعتراف بالآخر والتعامل معه ديموقراطياً. وكذلك إدارة الشأن التنظيمى الداخلى بصورة ديموقراطية وتخطى عقبات الانشقاق أو الوقوع فيها، وسوى ذلك من جوانب تكون آمنة وغير مستثارة عندما تتمتع هذه الحركات بترف العيش فى المعارضة وانتقاد الوضع القائم والدعوة إلى تغييره، من دون أن تتورط فى ذلك عملياً ويومياً.



مع الانعطافة الكبيرة فى النظام السياسى الفلسطينى التى حدثت مع فوز حماس فى الانتخابات، ثم تشكيلها حكومة بمفردها، ثم انخراطها فى حكومة وحدة وطنية، نحن أمام تغير كبير وتحول آخذ بالترسخ فى طبيعة وشكل الشرعية الفلسطينية. فالتغير الذى حدث ليس تغيراً عارضاً، حتى لو لم تفز حماس بالأغلبية فى أى انتخابات تشريعية قادمة. أصبح وجود حماس فى معادلة القيادة الفلسطينية، من ناحية الشرعية ومن ناحية التمثيلية، واقعاً محلياً وإقليمياً ودولياً. وأهم من ذلك يعمل على ردم الهوة بين برنامجين (برنامج المقاومة الحمساوى، وبرنامج الحل السلمى الفتحاوى) اشتغلا على إحداث الضرر المتبادل فترة طويلة من الزمن. وتطرح حكومة الوحدة الوطنية فرصة لتجربة تاريخية قد تُنشئ إن نجحت تقاليد جديدة وترسخ شرعية جديدة وبرنامجاً فلسطينياً موحداً يمكن بناء عليه مواجهة إسرائيل بجبهة موحدة (سلماً أو مقاومة)، لكن هذه المرة من دون أن تكون الجهود المبذولة من فتح وحماس كل على انفراد يزرى بعضها بعضاً. ■

حدود اللوبى الإسرائيلى..

«السؤال الحائر»



محمد حسنين هيكل

فى ختام دورة مكثفة عن «سياسة الولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط» نظمتها «مؤسسة هيكل للصحافة العربية» وحاضر فيها البروفيسور ستيفن والت Stephen Walt أستاذ العلاقات الدولية بجامعة هارفارد، ألقى الأكاديمى الأمريكى المرموق محاضرة عن «جماعات الضغط الاسرائيلية فى الولايات المتحدة» وهى المسألة التى كانت موضوعا لمقال اشترك فى كتابته مع منظر العلاقات الدولية الشهير وزميله السابق فى جامعة شيكاغو جون ميرشايمر John J. Mearsheimer وأثار جدلا واسعا عند نشره فى الدورية الرصينة London Review of Book (مارس ٢٠٠٦) قبل أن يصدر فى كتاب احتل مكانا بارزا على قائمة New York Times للكتب الأكثر توزيعا.

ترحيبا بضيفه ألقى الأستاذ هيكل كلمة «قصيرة» سبقت محاضرة «والت» فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة (٢٩ مايو الماضى) تحدث فيها عن السؤال الحائر الذى من شأنه أن يستدعى بالضرورة .. «السؤال الأهم».

«وجهات نظر» تنشر هنا الكلمة.. والمحاضرة.

مرة أخرى نتوجه إلى الجامعة الأمريكية فى القاهرة - وإلى رئيسها الدكتور «دافيد أرنولد» بالشكر والتقدير، إذ نجد أبواب هذه الجامعة مفتوحة - مرحبة وحفية دون عائق أو شرط - لمناسبات تخص مؤسسة «هيكل للصحافة العربية».

وهذه الليلة، فى هذه القاعة، واحدة من تلك المناسبات، فقد سعدت المؤسسة بدعوة الدكتور «ستيفن والت» لدورة دراسية مكثفة عن «سياسة الولايات المتحدة الأمريكية خصوصا فى الشرق الأوسط»، شارك فيها أكثر من ستين شابا وشابة من طلائع العمل الصحفى العربى، ثم إن ختام هذه المناسبة يجىء بهذا الاحتفال الذى نسعد فيه بكم مستمعين معا إلى أستاذ مرموق فى علوم السياسة الدولية - كتب مع زميل وصديق له دراسة هامة عن جماعات الضغط الإسرائيلية فى الولايات المتحدة - وهذه دراسة انطلقت من جامعة «هارفارد» ومازال صداها يجوب آفاق العالم، مستثيرا عقولا وضمائر تبحث عن حق وحقيقة!

حضرات السيدات والسادة

هناك سؤال معلق يملأ آفاق هذه المنطقة منذ ستين عاما وأكثر، وهناك محاولات لم تنقطع لحل لغزه وكشف سره - لكن معظم المحاولات طاشت سهاما فى الفضاء لم تصب هدفا، ولم تحقق طلبا.

صميم المشكلة - حضرات السيدات والسادة - أننا دائما أمام سؤال لا جواب عليه - ملخصه:

كيف يمكن أن تكون مصالح الولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط جميعها فى حوزة العرب من المواقع إلى الموارد؟! ثم تكون سياسة الولايات المتحدة فى معظمها انحيازا ضد العرب، إلى درجة الجفاء والخصام.

إن هناك قاعدة بدهية - وعلمية فى نفس الوقت - تؤكد أن سياسات الدول ترتبط وتسير وراء مصالحها، لكن سياسات الولايات المتحدة الأمريكية، تمضى بإصرار على طريق صدام مع هذه القاعدة البدهية والعلمية - بمعنى أن مصالح الولايات المتحدة الكبرى والحيوية فى هذه المنطقة عند العرب يقينا - لكن هوى السياسة الأمريكية منجذب إلى ناحية إسرائيل دواما، وبغير تنبه أو توازن يعطى للتصرفات مصداقية المنطق والعقل، وذلك هو السؤال اللغز المعلق!

إن الانحياز الأمريكى الجارف نحو إسرائيل تسبب فى إساءات بالغة إلى العلاقات العربية - الأمريكية، ومع ذلك فإن العرب فى ارتباكهم - وبالتحديد بعض الكبار من ساستهم - لم يقصروا فى لوم أنفسهم، حتى ظهر بينهم من رأوا أن مسئولية هذه الأحوال تقع بكاملها على هذه الناحية، وليس على الناحية الأخرى مسئولية شىء منها، وعليه فإنه - بدلا من الحيرة والارتباك - يكون الأجدى للعرب ترويض الذات وتهيئة المستقبل لعصر يظهر أمامهم زمانا أمريكيا له سلطانه، وله أحكامه!

وكذلك توقف العرب عرايا أمام المرايا للبحث عن العيوب والذنوب، وغاية أملهم صنع مثال لما يتصور بعضهم أن الولايات المتحدة تريد أن تراه فيهم - وهم يتقدمون إلى طلب قبولها ورضاها.

وقد بادر أصحاب ذلك الأمل بإصرار، فأزالوا ما ظنوه تشوها هنا أو ترهلا هناك، وأصلحوا بالحقن ما رأوه غائرا من حفر الزمان، وعالجوا بالجراحة أنوفا وشفاها حتى تصبح أكثر اتساقا، أو أكثر امتلاء، ورفعوا جفونا وشفطوا بطونا، وجربوا بالأدوية والمساحيق والعطور مما عرفوه - أو لم يعرفوه - لكى يؤثروا ويأسروا، وبالغ الشطار منهم حتى وصلوا إلى حد تغيير الأنساب وإنكار الأصول ليعرضوا أصولا مختلفة بعد أن هيأوا الأسباب لحاضر مغاير! - ووصل بهم الأمر إلى حد إطلاق النار على مراحل من التاريخ العربى، لكى تبين صورتهم المرسومة المستجدة دون خلفيات تشوش على حسنها، وقد ظنوا أن ما صنعوه - سوف يعجب العين الأمريكية ويخطف قلبها.

حضرات السيدات والسادة

إن العرب أضافوا المال إلى الجمال حين رأوا وضع معظم استثماراتهم المادية والإنسانية، الإقليمية والعالمية، تحت تصرف الولايات المتحدة ورهن أمرها، وظلوا صابرين على رأسمالهم المادى وأرصدتهم الإنسانية أكثر من ثلاثين سنة، لم يدققوا خلالها ولم يحاسبوا، وعندما جاءت لحظة حقيقية أمام الكنيست الإسرائيلى، وفى ذكرى نكبة فلسطين يوم الرابع عشر من هذا الشهر (مايو ٢٠٠٨)، اكتشف العرب أن استثماراتهم السياسية والدولية - المعنوية والمادية - نفدت، وأن حسابهم لدى الولايات المتحدة مدين - مكشوف، وعليهم تسوية عجزه والسداد من الجسد الحى للأوطان إذا لَزِم، وإلا عرضوا أنفسهم للملاحقة وبعدها العقاب!

حضرات السيدات والسادة

قد ألاحظ بداعى الإنصاف وفى شبه هامش على الكلام - أننا بدأنا بعد طول الانتظار والصبر نسمع من داخل دوائر العلم والثقافة - أصواتا هامسة فى الولايات المتحدة - تطرح تساؤلات عن موجبات هذا الانحياز الأمريكى المطلق لإسرائيل، وتحذر من أضراره على مستقبل المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط وعلى سلام هذه المنطقة، وحتى على مستقبل إسرائيل ذاتها - إلا أن هذه الأصوات لازالت عند درجة التمتمة الخافتة، إذا قورنت بدوى ذلك الهدير الصاخب المؤيد لإسرائيل، حتى وإن بان لنا أن بعض الضوضاء ضجة جوفاء بالتصنع، فارغة من الصدق!

حضرات السيدات والسادة

إن ذلك كله مما أطلت فيه - أو اختصرت يضاعف من أهمية السؤال وخطره، وإذا كنا حتى هذه اللحظة لم نعثر على رد مقنع على سؤال مُلح، فلعلنا فى هذه القاعة الليلة نصادف مفتاحا يستطيع أن يدور فى قفل تراكم عليه الصدأ، فضيفنا هذه الليلة واحد من أبرز أساتذة العلوم السياسية فى جامعة «هارفارد» الدكتور «ستيفن والت»، وهو رجل صاحب علم وخبرة، وأهم من ذلك صاحب رؤية، وكذلك أترك له هذه المنصة، آملا أن نسمع صوت «تكة» - ولو خافتة - نعرف معها أن المفتاح يمكن أن يدور، وأن القفل الحديدى قابل لأن يلين، وأن تلك علامة على أن السؤال له جواب. بقى أن أسجل للأمانة أن هذا السؤال الحائر لدينا يستدعى قبله - وليس بعده - سؤالا أهم من الانحياز أو الاستقامة الأمريكية، وذلك هو سؤال المستقبل العربى، وهو مما لا يحق لنا الطلب من صديق - مهما كان علمه - مفتاحا لقفله، لأن جوابه فى عهدة ومسئولية أصحاب المستقبل العربى - إرادتهم وقدرتهم - هم وليس غيرهم.

وشكرا لكم.

إن النفوذ الإسرائيلى لم يكن أمراً جيداً أبداً بالنسبة للولايات المتحدة ولا بالنسبة للشرق الأوسط ولا حتى بالنسبة لإسرائيل



هل تقول واشنطن لا؟

ستيفن والت



ترجمة: غادة طنطاوى

أتحدث إليكم عن السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط، وبشكل خاص عن دور ما يسمى باللوبى الإسرائيلى. وأريد أن أبدأ بأن أشرح قليلاً ما هو اللوبى الإسرائيلى، والأهم من ذلك ما ليس هو اللوبى الإسرائيلى، ولماذا يعد ذلك موضوعاً مثيراً للجدل. إن هذه المناقشة برمتها كانت تحدث فى الظل خلال عديد من القرون من العداء للسامية، وبشكل أساسى فى أوروبا. وكان جزء من ذلك نظريات المؤامرة الغريبة، مثل «بروتوكولات حكماء صهيون»، ومثل هذه الأشياء التى تصور وجود مؤامرة يهودية كبيرة للسيطرة على العالم أو السيطرة على البلاد الأخرى. هناك كتب وصحف تكرر هذه الأشياء. ويمكنك حتى أن تجد إشارات لهذا النوع من نظريات المؤامرة فى مواثيق منظمات عدة. وأريد أن أوضح منذ البداية أن ذلك ليس هو الموضوع الذى سوف أتحدث عنه. فأنا لا أومن بحقيقة نظريات المؤامرة تلك. المسألة أن اللوبى الإسرائيلى ليس نوعاً من المكيدة أو المؤامرة للسيطرة على السياسة الخارجية الأمريكية. أقول باختصار أنه مجرد جماعة مصالح، مثله مثل عديد من جماعات المصالح الأخرى فى الولايات المتحدة. لذلك إذا كنتم قد جئتم إلى هنا كى تستمعوا إلى شخص ما يندد بنوع من نظريات المؤامرة الكبرى السرية، فسوف تصابون بخيبة أمل. غير أننى مع ذلك سوف أطرح أن اللوبى الإسرائيلى نافذ فى الولايات المتحدة، وله تأثير عميق على سياستنا الخارجية فى الشرق الأوسط بشكل خاص، وأن هذا النفوذ لم يكن أمراً جيداً بالنسبة للولايات المتحدة، ولا لبلاد أخرى فى الشرق الأوسط، ولا لإسرائيل أيضاً. مرة أخرى، لا توجد مؤامرة هنا، بل مجرد جماعة مصالح مؤثرة، لها سياسات أعتقد أنها خاطئة. ولعل السبب الأساسى أننى وشريكى كتبنا مقالنا الأصلى وكتابنا، هو أننا شعرنا أن هذا الموضوع لم تتم مناقشته بشكل مفتوح، خاصة فى الولايات المتحدة، وأنه حان الوقت كى نفتح النافذة، ونسمح بإلقاء بعض الضوء على الموضوع، وأن نقوم بمناقشة حقيقية فى الولايات المتحدة حول ما يحدث فى المنطقة. ومن ثم، فسوف أتحدث قليلاً حول علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل ثم أصف ما هو اللوبى الإسرائيلى، ثم كيف كان مؤثراً فى السياسة الأمريكية خلال الأعوام الأخيرة. دعونى أتحدث قليلاً فى البداية حول علاقة أمريكا بإسرائيل. قال رئيس الوزراء الإسرائيلى الراحل إسحق رابين ذات مرة أن الدعم الأمريكى لإسرائيل ليس له مثيل فى التاريخ الحديث. وماقاله كان صحيحاً. فإسرائيل هى المتلقى الأكبر للمساعدات الاقتصادية والعسكرية. وهى تبلغ نحو ٥٠٠ دولار فى السنة لكل مواطن إسرائيلى، وذلك بالرغم من أن إسرائيل لم تعد بلداً فقيراً. فإسرائيل ترتيبها الـ ٢٩ بين دول العالم من حيث متوسط دخل الفرد. والأهم من ذلك أن إسرائيل تتلقى هذه المساعدات حتى عندما تفعل أشياء تعارضها الولايات المتحدة، مثل بناء المستوطنات فى الضفة الغربية. تتلقى إسرائيل دعماً دبلوماسياً متواصلاً من الولايات المتحدة، والأخيرة من جانبها تأخذ جانب إسرائيل فى النزاعات الإقليمية طوال الوقت تقريباً. ولا يتم انتقاد إسرائيل أبداً تقريباً من جانب المسئولين الأمريكيين وبالتأكيد لا تُنتقد من جانب أى شخص يأمل فى تولى منصب رفيع فى الولايات المتحدة. عليك فقط أن تنظر إلى حملة الرئاسة الأمريكية الراهنة، حيث إن المرشحين الثلاثة الباقين، (أصبحوا الآن اثنين فقط هما جون ماكين وباراك أوباما) وكل المرشحين الآخرين أيضاً، ساروا خطوات طويلة كى يبينوا إلى أى حد هم مخلصون بشكل شخصى لإسرائيل. والسؤال هو لماذا؟ الآن الإجابة المعتادة التى يمكنك أن تسمعها فى الولايات المتحدة، هى أن إسرائيل تمثل أصلاً استراتيجياً حيوياً بالنسبة للولايات المتحدة، أو أن إسرائيل هى دولة ديمقراطية تتبنى نفس القيم الأمريكية. لكنك لو نظرت عن قرب إلى هاتين المقولتين، فإنهما لا تستطيعان أن تفسرا لماذا نقدم كل هذه المساعدات، ولماذا نقدمها بطريقة غير مشروطة إلى هذا الحد.



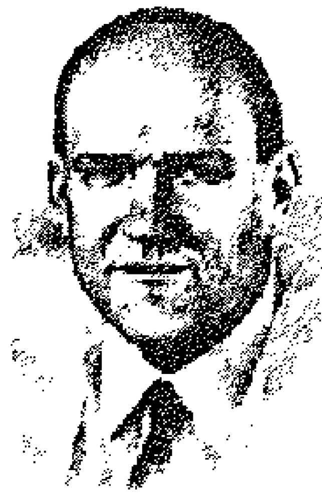
ربما كانت إسرائيل أصلاً استراتيجياً بالنسبة للولايات المتحدة خلال الحرب الباردة. لكن الحرب الباردة قد انتهت. وتستفيد الولايات المتحدة بالفعل من بعض أشكال التعاون مع إسرائيل، لكن فى مقابل ذلك، فإن إعطاء إسرائيل دعماً غير مشروط، لا يجعل الولايات المتحدة أكثر شعبية فى العالم، ولا يجعل المواطنين الأمريكيين أكثر أمناً خارج الولايات المتحدة. ففى المقابل، فإن التمتع بعلاقات خاصة مع إسرائيل هو فى الواقع خصم استراتيجى بالنسبة للولايات المتحدة. وفيما يتعلق بالزعم بأن إسرائيل دولة ديمقراطية تتبنى نفس القيم الأمريكية، فنعم، إسرائيل هى دولة ديمقراطية، لكن هناك كثيراً من الدول الديمقراطية فى العالم، ولا تحظى أيضاً بمثل هذا الدعم، أو بمثل هذه الصلات الوثيقة. إضافة إلى ذلك، فإن طريقة تعامل إسرائيل مع أقليتها العربية، المواطنين العرب، وبشكل خاص الرعايا الفلسطينيين، هى بالتأكيد تتناقض مع القيم الأمريكية، ومبادئ حقوق الإنسان الدولية. أعتقد أنه من الواضح من التاريخ الحديث، بما فيه التاريخ الذى كتبه مؤرخون إسرائيليون، أن كلا الجانبين الإسرائيلى والفلسطينى ارتكب أعمالاً قاسية فى حق الآخر، وإنه من الصعب أن نجادل بأن الولايات المتحدة يجب أن تعطى إسرائيل قدراً كبيراً من المساعدة، لأن سلوكها أفضل كثيراً من أى طرف آخر. ورغم أنى لا أقول أن سلوك إسرائيل هو أسوأ من سلوك كافة الأطراف الأخرى، إلا أنه ليس أفضل بدرجة كبيرة يمكن أن تفسر مثل هذا الدعم الأمريكى. إذاً كيف يمكن تفسير ذلك؟ طرحنا فى كتابنا أن السبب الأساسى هو النفوذ السياسى للوبى الإسرائيلى. اللوبى الإسرائيلى هو تحالف فضفاض من الجماعات والأفراد الذين يعملون بشكل صريح فى النظام السياسى الأمريكى من أجل دعم العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل. فى الولايات المتحدة، تقع جماعات المصالح فى مركز عمل السياسة الأمريكية. وكان ذلك صحيحاً منذ نشأة الولايات المتحدة. ذلك أن الدستور الأمريكى يكفل حرية التجمع، ويمكن للناس أن يشكلوا جماعات ومنظمات بهدف إقناع السياسيين بعمل ما يريدون. ويمكن لهذه الجماعات عمل أشياء كثيرة للتأثير على السياسيين. يمكنها إعطاء المال للمرشحين للمناصب؛ ويمكنها جعل أفراد يكتبون مقالات وكتباً مؤيدة لوجهات نظرها؛ يمكنها محاولة الضغط على وسائل الإعلام، مما يجعل الصحف والراديو والتليفزيون تقدم معلومات تدعم قضيتها. والعديد من جماعات المصالح تقوم بذلك فى الولايات المتحدة. وهو سلوك طبيعى تماما فى

أمريكا. تقوم بعض جماعات المصالح فى الولايات المتحدة على مصالح اقتصادية، مثل جماعات العمال أو المزارعين أو الشركات أو الأطباء أو المحامين. وأولئك يشكلون منظمات تدافع عن مصالحهم. تعبر جماعات أخرى عن الأصول العرقية. ومن ثم فلدينا أمريكيون أيرلنديون يريدون من الولايات المتحدة أن تساند أيرلندا، أو أمريكيون هنود، يريدون أن تقيم الولايات المتحدة علاقة وثيقة مع الهند. ويرجع ذلك إلى أن الولايات المتحدة لديها مواطنون من كل أنحاء العالم، وكثير من هؤلاء مازالت لديهم مشاعر قوية تجاه بلد بعينه، ويعملون بشكل مفتوح داخل النظام السياسى الأمريكى لتشجيع ذلك. وهذا بشكل أساسى هو ما يسعى إليه اللوبى الإسرائيلى. عندما أشير إلى اللوبى وأقول أنه تحالف منظمات، فهو يتضمن جماعات مثل أيباك (لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية) American Israeli Public Affairs Committee، رابطة ضد التشهير Anti-defamation League، والجماعات المسيحية مثل «المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل»، وهى منظمة مسيحية إنجيلية. ومراكز الأبحاث مثل معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، وهو يضع مقالات وكتباً تدعم جوانب مختلفة للعلاقات الأمريكية الإسرائيلية، إضافة إلى مجلات ومطبوعات مثل Weekly Standard أو New Republic واللتين تتخذان مواقف مؤيدة لإسرائيل بشكل متواصل. إذاً اللوبى الإسرائيلى لديه العديد من المكونات المختلفة، والأمر المحورى هو أن كلاً من هذه المكونات يعمل بنشاط فى النظام السياسى أوالمجتمع الأمريكى لأجل دعم هذه العلاقة الخاصة. إنه ليس منظمة مركزية، والمجموعات المتعددة التى تكون اللوبى الإسرائيلى لا تتفق فيما بينها فى كل الأمور. إنها بالتأكيد لا تعبر عن نوع من المؤامرة. مرة أخرى، هى مجرد جماعة مصالح مؤثرة، تعمل بنفس الطريقة التى تعمل بها الجماعات الأخرى.

وأخيراً، وهذه مسألة مهمة جداً، إن اللوبى الإسرائيلى ليس مرادفاً للسكان الأمريكيين اليهود. هناك نحو ٢٥٪ من اليهود الأمريكيين لا يبدون اهتماماً كبيراً بإسرائيل بأى شكل من الأشكال. العديد من اليهود الأمريكيين الآخرين لا يدعمون المواقف التى تدعمها المنظمات الأساسية فى اللوبى الإسرائيلى. كما أن بعض الجماعات التى تعمل لصالح إسرائيل فى الولايات المتحدة مثل «المسيحيون الصهاينة» ليست جماعات يهودية. لكن اللوبى يتم تعريفه بواسطة أجندته السياسية، لا بواسطة الانتماء الدينى أو العرقى.



إذاً كيف يعمل اللوبى الإسرائيلى؟ كما قلت فى السابق، جماعات المصالح هى مسألة مركزية فى الحياة السياسية الأمريكية. وفى الولايات المتحدة، فإن المجموعات الصغيرة نسبياً، ولها أجندة مركزية، لها موضوع واحد تهتم به، عادة ما يكون لديها تأثير أعلى من حجمهم، لأنها تهتم بدرجة كبيرة بهذا الأمر، ويستطيع السياسيون أن يحصلوا على دعمهم إذا ساروا معهم. هناك مثل جيد على ذلك، هو لوبى المزارعين فى الولايات المتحدة. المزارعون يمثلون ٢٪ من السكان الأمريكيين الآن، ولكنه فى كل عام، يصوت الكونجرس بالموافقة على تخصيص مليارات الدولارات كمساعدات للمزارعين، لأن المزارعين منظمون للغاية ولهم نفوذ كبير فى واشنطن. اللوبى الإسرائيلى يسير فى طريقين أساسيين، هما نفس الطريقين اللذين تسير فيهما جماعات الضغط الأخرى. أولاً، يحاول أن يجعل السياسيين المتعاطفين مع وجهة نظره يُنتخبون أو يعينون فى مناصب مهمة فى الحكومة، ثم يحاول إعطاءهم حافزاً واضحاً للقيام بما يريده اللوبى. وإذا أخذنا مثال أيباك، والتى ربما تعد المنظمة الأهم فى اللوبى الإسرائيلى، إنها منظمة تبلغ ميزانيتها السنوية نحو ٥٠ مليون دولار، وهى نشيطة جداً فى واشنطن، وبشكل خاص فى الكونجرس، تساعد فى صياغة مشروعات القوانين، وتقديم معلومات لأعضاء الكونجرس. وبالرغم من أن أيباك لا تمنح الأموال للأفراد الذين يخوضون الانتخابات، فإنها تسأل أى فرد يريد أن يرشح نفسه فى الكونجرس عن موقفه فى قضية الشرق الأوسط. ويعمل ذلك على توجيه المنظمات الأخرى المساهمة فى الحملات، بشأن من تعطيه المال فى الانتخابات. فى الولايات المتحدة تسمى هذه المنظمات، لجان العمل السياسى، وهى منظمات جمع أموال، تقوم بجمع الأموال للسياسيين. ومنذ ١٩٩٢، أعطت لجان العمل السياسى الموالية لإسرائيل أكثر من ٥٥ مليون دولار لأشخاص مختلفين خاضوا الانتخابات فى الولايات المتحدة. وبالمقارنة مع ذلك، فإن لجان العمل السياسى للعرب الأمريكيين، والتى تعد قليلة، قدمت نحو ٨٠٠ ألف دولار، فى نفس الفترة. إذاً فهناك ٥٥ مليون دولار على جانب و٨٠٠ ألف دولار على الجانب الآخر. ويمكنكم أن تدركوا لماذا يميل السياسيون لأن يكونوا أكثر حساسية تجاه الجماعة التى تعطى المبلغ المالى الأكبر. أريد أيضاً أن أوضح أن اللوبى لا يسيطر على كل الانتخابات، فلا يفوز طوال الوقت الأشخاص الذين يفضلهم اللوبى. لكن كل عضو كونجرس، وكل سيناتور، وقطعاً كل مرشح لمنصب الرئيس، يعلم أنه إذا اتخذ موقفاً نقدياً تجاه إسرائيل، فإن فرصه فى الفوز تكون قليلة بشكل كبير. وذلك يفسر لماذا قال بيل كلينتون، حينما كان رئيساً أن أيباك كانت أفضل من أى طرف آخر يمارس الضغط فى واشنطن. نيوت جينجريتش، وهو عضو كونجرس ذو نفوذ، ولم يتفق كثيراً مع كلينتون، قال إن أيباك كانت أكثر جماعات المصالح العامة تأثيراً فى الكون. قال عضو الكونجرس السابق لى هاملتون، الذى ظل يخدم فى الكونجرس لأربعة وثلاثين عاماً، إنه لا توجد جماعة تناظر أيباك، فهى تشكل مرتبة فى حد ذاتها. وقال السيناتور السابق فريتس هارلنجز عندما كان يتقاعد، أنك لا يمكنك أن تتبنى سياسة تجاه إسرائيل سوى ما تعطيه لك أيباك هنا. وهذا ما يفسر قول رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود أولمرت فى ٢٠٠٦ شكراً لله أن لدينا أيباك، السند والصديق الأعظم لنا فى العالم بأكمله. وربما أضيف أنه أمر مفاجئ أن مقالنا وكتابنا كانا يعتبران مثيرين للجدل، بالنظر إلى أننا فقط كنا نبحث فى موضوع أقره بالفعل صراحة سياسيون كثيرون فى الحزبين السياسيين الكبيرين. وأريد أن أذكركم مرة أخرى أن الأمر لا يقتصر على أيباك حيث يوجد عدد من المنظمات والجماعات بما فيها عدد من المنظمات المسيحية الإنجيلية. كان ما سبق هو الاستراتيجية الأولى. الاستراتيجية الثانية تقوم على محاولة تشكيل الجدل العام فى الولايات المتحدة، حتى يصبح معظم الأمريكيين يرون إسرائيل بشكل إيجابى. ويميل الاتجاه العام فى الإعلام الأمريكى لأن يكون مؤيداً للغاية لإسرائيل، خاصة فيما يتعلق بالتعليقات الافتتاحية، وكتاب الأعمدة. وإذا ما قارنتم التغطية فى الولايات المتحدة، بالتغطية فى بلدان أوروبية، أو حتى بالتغطية فى إسرائيل نفسها، سوف تجدون أن هناك مجالاً أضيق لتعدد وجهات النظر فى الولايات المتحدة. وإذا نظرتم على سبيل المثال إلى كتاب الأعمدة فى الولايات المتحدة، فى النيويورك تايمز New York Times، أو الواشنطن بوست Washington Post، أو شيكاغو تريبيون Chicago Tribune ، لا يوجد أحد يتشابه ولو بدرجة ضعيفة مع أكيفا ألدر، أو جيديان ليفى أو راميرا





إن اللوبى الإســـرائيلى ليس مـــرادفاً للســـكان الأمريكـــيين اليهـــود. هـــناك نـــحو ٢٥٪ مـــن الـــيهـــود الأمـــريكـــيـــين لا يبـــدون اهتمـــاماً كبيـــراً بإســـرائيل بـــأى شـــكل مـــن الأشـــكال



هاس، الذين يكتبون جميعاً لصحيفة هاآرتس فى إسرائيل.

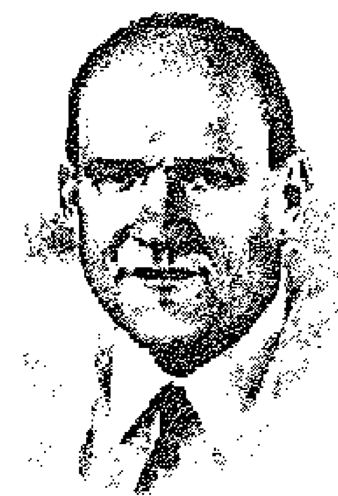
مرة أخرى، وجهة نظرى ليست المسألة أن الأشخاص الذين ينتقدون السياسة الإسرائيلية مثل أكيفا ألدر أو جيديان ليفى يتخذون موقفاً صحيحاً طوال الوقت، وأن المعلقين الموالين لإسرائيل دائما مخطئون. ولكن المسألة أن أصواتاً مثل ألدر وليفى تكون غائبة إلى حد كبير فى الولايات المتحدة، فلا يوجد حقاً نظير لهم هناك. والأبعد من ذلك، أنه رغم أن التغطية فى الولايات المتحدة تميل إلى تأييد إسرائيل، فإن جماعات اللوبى تراقب ما يتم نشره، وماذا تبثه محطات الإذاعة والتليفزيون، وتمارس ضغوطاً على هذه المؤسسات إذا ما قاموا بعمل أى شىء ينتقد إسرائيل. ومن ثم فعندما نشر جيمى كارتر كتابه «فلسطين.. سلام لا أبارتيد» قامت رابطة ضد التشهير بنشر إعلان على نطاق الولايات المتحدة كلها يتضمن أرقام تليفونات الناشرين، ودعت الناس الذى رأوا الإعلان أن يتحدثوا إلى الناشر ويعربوا عن شكواهم. وبشكل مماثل، عندما بثت السى إن إن مسلسلا من ثلاثة أجزاء للمقارنة بين الأصولية المسيحية والإسلامية واليهودية، قام مؤتمر رؤساء المنظمات الأمريكية اليهودية الكبرى بحث أعضائه على تناول هذا الموضوع مع أى شركة اشترت وقتًا إعلانيًا فى السى إن إن. وكان الهدف من ذلك منع السى إن إن من القيام بعمل من هذا القبيل فى المستقبل. وأخيراً، كما يعلم أغلبكم، عادة ما تتضمن الجهود لخنق الانتقاد للسياسة الإسرائيلية اتهام الناقدين بمعاداة السامية. لذلك فإن مارتن بيريتس، محرر نيو ريبابليك New Republic كتب أن جيمى كارتر سوف يذهب إلى قاع التاريخ باعتباره كارهاً لليهود، وكتبت صحيفة أخرى موالية لإسرائيل أن كارتر بالفعل متعاطف مع مجرمى الحرب. وبشكل مماثل، فإنه خلال حرب ٢٠٠٦ فى لبنان عندما سجلت منظمة هيومان رايتس ووتش لحقوق الإنسان التى تحظى باحترام كبير ولا تتبع لأى حزب، جرائم الحرب الإسرائيلية، فإن مدير هيومان رايتس ووتش، ويدعى كينيث روث، تم تلويث سمعته بشكل متكرر باعتباره معادياً للسامية، بالرغم من كون روث يهودياً بالفعل، وكون والده لاجئاً هارباً من النازيين الألمان. وكما قد تتوقعون، فإن الاتهامات بمعاداة السامية هى تهمة مشتركة وجهت لى ولشريكى فى تأليف الكتاب، رغم أنه لا يوجد أدنى دليل يدعم هذا الاتهام. وبالطبع فإن السبب الأساسى وراء استخدام بعض الجماعات والأفراد فى اللوبى الإسرائيلى لهذا الاتهام، هو أن القضية التى يدافعون عنها هى ضعيفة للغاية، ولا أعنى قضية وجود إسرائيل، والتى أدعمها، ويدعمها شريكى، ولكن قضية منح أمريكا إسرائيل مساعدات غير مشروطة. ونظراً لأن هذه القضية ضعيفة جداً، فيجب عليهم أن يحاولوا تشويه، أو إسكات، أو نفى المصداقية عن أى شخص يجرؤ على وضع الأمر رهن المساءلة، حتى أفراد يتمتعون بدرجة عالية من اللياقة مثل جيمى كارتر أو الأسقف ديزموند توتو الحاصل على جائزة نوبل للسلام، الذى واجه اتهامات مثيلة. نتيجة ذلك هى أن الجدل الجاد داخل الولايات المتحدة حول العلاقة بين أمريكا وإسرائيل كان محدوداً للغاية، خاصة فى الكونجرس، حتى فى اللحظة التى بات فيها واضحاً لكل شخص تقريباً أن السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط قد سارت بشكل سيئ بالتأكيد.



والآن السؤال هو هل نفوذ اللوبى أمر إيجابى أم سلبى؟ وسوف أفحص ذلك بشكل مختصر للغاية عبر الحديث عن موضوعين. الأول هو القرار الأمريكى بغزو العراق عام ٢٠٠٣، ثم ثانياً، سوف أتحدث قليلاً حول الصراع الإسرائيلى الفلسطينى. وسوف أطرح فى الحالتين أن اللوبى الإسرائيلى كان له أثر سيئ بالنسبة للولايات المتحدة، وكذلك بالنسبة لدول أخرى فى الشرق الأوسط بما فى ذلك إسرائيل نفسها.

دعونى أبدأ بالعراق. لو كان اللوبى الإسرائيلى أقل نفوذاً، كان احتمال غزو الولايات المتحدة للعراق فى ٢٠٠٣ سيضحى أقل بكثير. أرجو أن تلاحظوا أنى لا أقول أن اللوبى يتحمل المسئولية وحده عن الحرب. لكنى أجادل بأن اللوبى لعب دوراً رئيسياً فى حدوث الحرب، رغم أنه لم يكن السبب الوحيد. فى الولايات المتحدة، فإن الجماعة الوحيدة التى كانت تدفع بقوة فى اتجاه الحرب على العراق كانت جماعة المحافظين الجدد الموالية لإسرائيل، والذين يحظون بالفعل بدعم جماعات عديدة فى اللوبى. المحافظون الجدد هم جزء من اللوبى الإسرائيلى رغم أنهم ليسوا كل اللوبى. فى واقع الأمر، فإن فكرة غزو العراق برمتها بدأت مع المحافظين الجدد فى منتصف التسعينيات، وكانوا حقاً وحيدين فى الدفاع عن هذه السياسة. ومن المهم أن ندرك أنهم فشلوا فى إقناع الرئيس كلينتون فى استخدام القوة العسكرية للإطاحة بصدام حسين. كما أنهم أيضاً لم يتمكنوا من إقناع الرئيس بوش ولا نائب الرئيس تشينى خلال الأشهر الثمانية الأولى لهما فى المنصب. ثم جاءت هجمات الحادى عشر من سبتمبر، والتى ساعدت المحافظين الجدد على إقناع بوش وتشينى بأن تحقيق التغيير الإقليمى عبر البدء بمهاجمة العراق، هو فكرة جيدة. وبالمناسبة فإنه تجدر الإشارة أيضاً إلى أن القادة الإسرائيليين كانوا فى الحقيقة متشككين فى البداية بشأن جدوى فكرة مهاجمة العراق، حيث إنهم أرادوا من الولايات المتحدة أن تركز اهتمامها على إيران وليس العراق. وبمجرد أن أقنعتهم الإدارة الأمريكية بأنها ستبدأ بالعراق أولاً ثم تولى انتباهها إلى إيران، ساندت الحكومة الإسرائيلية الحرب على العراق. وساعد عدد من المسئولين الإسرائيليين الأساسيين فى تسويق الحرب هنا فى الولايات المتحدة. كما أن عدداً من المنظمات الأساسية فى اللوبى الإسرائيلى ساعدت فى إقناع الشعب الأمريكى بأنها فكرة جيدة أيضاً. فى خريف ٢٠٠٢، صوت مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية والمجلس اليهودى للشئون العامة لدعم الحرب على العراق كملجأ أخير. كتب زاكرمان رئيس مجلس الرؤساء العديد من الافتتاحيات والمقالات التى تدعو إلى الحرب. نشرت الصحيفة التابعة لأيباك والتى تسمى Near East Report، العديد من المقالات فى العام السابق على الحرب والتى تؤكد على الخطر الذى يمثله العراق، والحاجة إلى القيام بشىء إزاء صدام حسين. وفى يناير ٢٠٠٣، صرح رئيس أيباك هوارد كور للنيويورك صن New York Sun بأن أحد النجاحات التى حققتها أيباك خلال العام السابق هو الضغط القوى على الكونجرس من أجل الموافقة على استخدام القوة تجاه العراق. لكنى أريد أن أؤكد على ثلاثة أمور مهمة هنا. الأول أن الحرب على العراق لم تكن لتعبر عن النفوذ اليهودى فى الولايات المتحدة. إذا نظرت إلى استطلاعات الرأى فى الولايات المتحدة، كان اليهود الأمريكيون أقل دعماً للحرب على العراق بمقدار ١٠٪ عن الشعب الأمريكى ككل. فلم تكن المسألة نفوذ اليهود، ولكن نفوذ اللوبى. واللوبى بمن فيه المحافظون الجدد يتضمن يهوداً ومسيحيين. وكما أكدنا فى كتابنا، فإن منظمات اللوبى عادة ما تكون منفصلة عن السكان الأمريكيين الأوسع بمن فيهم اليهود الأمريكيون. المسألة الثانية







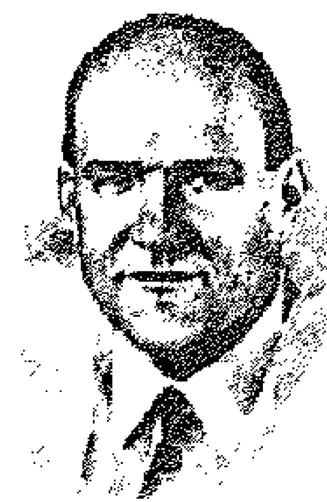
جماعات اللوبى تراقب ما يتم نشره، وماذا تبثه محطات الإذاعة والتليفزيون، وتمارس ضغوطاً على هذه المؤسسات إذا ما قاموا بعمل أى شىء ينتقد إسرائيل



التى أود التأكيد عليها هى أن اللوبى ليس نافذاً بشكل تام، ولم يسبب الحرب فى حد ذاته. كما قلت فى السابق، هم لم يتمكنوا من جعل كلينتون ولا بوش يذهبان للحرب قبل الحادى عشر من سبتمبر. ومن ثم، لو كانت هجمات الحادى عشر من سبتمبر لم تحدث، ما كنت أعتقد أن الولايات المتحدة ستكون فى العراق اليوم. ثالثاً، المحافظون الجدد، والجماعات الأخرى فى اللوبى لم تدفع فى اتجاه الحرب لأنها كانت تعتقد أنها ستكون أمراً جيداً بالنسبة لإسرائيل، لكن سيئة بالنسبة للولايات المتحدة. فقد اعتقدوا بالفعل أنها ستكون أمراً جيداً بالنسبة للولايات المتحدة، وإسرائيل والبلدان الأخرى فى الشرق الأوسط. وقد كانوا مخطئين. ففى واقع الأمر، كانت الحرب بمثابة كارثة بالنسبة للولايات المتحدة، لكنها لم تكن أمراً جيداً بالنسبة لإسرائيل أيضاً. لأنه من هو الفائز الأكبر حتى الآن من الحرب على العراق؟ إنه إيران التى لم تعد تواجه عدواً فى العراق، كما أنها ترى نفوذها ينمو بشكل فائق. مرة أخرى، كانوا مخطئين إلى درجة مأساوية، ولكن ذلك كان يرجع فقط إلى أن الذهاب إلى الحرب فى العراق كان فكرة سيئة من البداية.



والآن دعونى أقول كلمتين بشأن السياسة الأمريكية تجاه الصراع الإسرائيلى الفلسطينى، ثم أختتم بما أرى أننا يجب أن نفعله كبديل عن النهج الحالى. لو كان اللوبى أقل نفوذاً أو كان يدعم حزمة مختلفة من السياسات، لكانت الولايات المتحدة ستستخدم نفوذها لإعاقة بناء المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة الغربية ومناطق أخرى ومنح الفلسطينيين دولة قابلة للحياة. بدلاً من ذلك بالطبع، نحن ندعم سياسة الاستيطان ونعطى إسرائيل تأييداً غير مشروط. ولكانت السياسة الرسمية لكل رئيس أمريكى منذ ليندون جونسون هى معارضة بناء المستوطنات. وكل رئيس قدم طلبات متكررة لإسرائيل لوقف المستوطنات. لكن لم يمارس أى رئيس أمريكى ضغطاً كبيراً على إسرائيل للتوقف عن بناء المستوطنات، أو هدد بتعليق المساعدات الأمريكية إذا لم تتوقف إسرائيل عن عملية الاستيطان. إن هذه السياسة ليست جيدة بالنسبة للولايات المتحدة. إن هذا الدمج بين استعمار إسرائيل للأراضى الفلسطينية والدعم الأمريكى لذلك قد أغضب ملايين البشر فى العالمين العربى والإسلامى، ومثلا واحداً من المصادر الأساسية لمشكلة الإرهاب التى نواجهها اليوم. إن ذلك ليس المصدر الوحيد للإرهاب، لكنه أحد مصادره المهمة. ومن دواعى السخرية أن هذا الوضع كان ضاراً لإسرائيل بدرجة عميقة، حيث يدرك العديد من الإسرائيليين الآن أن سياسة استيطان الضفة الغربية كانت بمثابة كارثة بالنسبة لإسرائيل. فقد أدت هذه السياسة إلى تشدد السكان الفلسطينيين، وكلفت إسرائيل مليارات الدولارات وآلاف الأرواح، بل إنها خلقت إمكانية لأن يصبح السكان اليهود فى إسرائيل أقلية يوماً ما فى الأرض التى تسيطر عليها إسرائيل. كانت الولايات المتحدة ستصبح صديقاً أفضل بالنسبة لإسرائيل لو كنا قد استخدمنا نفوذنا لوقف ذلك. لكن أياً من الرؤساء الأمريكيين لم يكن راغباً فى القيام بذلك، لأن أياً من الرؤساء الأمريكيين لم يكن راغباً فى دفع الثمن السياسى الذى يتضمنه مثل هذا التغيير. إن فكرتى هنا هى أن الولايات المتحدة لم تتصرف باعتبارها حليفاً طيباً عندما سمحت للاحتلال لأن يستمر. والسبب الرئيسى فى أننا لم نغير سياستنا هو تأثير اللوبى. لا يصب هذا الموضع فى مصلحة أى طرف، كما أنه يتناقض بشكل جوهرى مع أحد المفاهيم المقبولة بدرجة واسعة حول العدالة واللياقة. تخيلوا للحظة أنه تم عكس الأدوار، وكانت هناك دولة فلسطينية قوية تأخذ الأرض من السكان اليهود فى فلسطين، وتقوم بانتظام بإنكار حقوقهم السياسية. بلاشك كانت ستكون هناك عاصفة من الاحتجاج فى الولايات المتحدة وأوروبا، وكانت ستكون هناك دعوات للقوى الكبرى للتدخل. وكانت ستتم ممارسة ضغوط ضخمة على هذه الدولة الفلسطينية، حتى توقف سياساتها وتعطى اليهود بداخلها دولة خاصة بهم. لكن عندما تحتل إسرائيل الضفة الغربية، وتحول غزة إلى سجن كبير مفتوح، فإن الولايات المتحدة لم تمتنع فقط عن الاحتجاج، بل إنها تستمر فى مد إسرائيل بالمال والسلاح والدعم الدبلوماسى. ومرة ثانية، إن معظم الأمريكيين لا يقدمون الكثير بالطريقة التى ينتقدون خلالها إسرائيل، بالرغم من أن الأمريكيين يحبون أن يروا أنفسهم مجتمعاً أخلاقياً للغاية وأنهم منارة الضوء فى عالم مظلم وأكثر قسوة. غير أن فى هذه الحالة كانت السياسة الأمريكية خاطئة، وأنا أشعر بالقلق من أن التاريخ سيصدر حكماً قاسياً على بلدى يوماً ما بسبب الدور الذى نقوم به فى هذه القضية المأساوية. كيف يمكن أن نتصرف بطريقة مختلفة؟ فقط سأتناول سريعاً قليلاً من النقاط حول ما يمكن أن نسير به من هنا. يجب على الولايات المتحدة أن تعامل إسرائيل باعتبارها دولة عادية لا باعتبارها الولاية الواحدة والخمسين. إسرائيل هى دولة عمرها ٦٠ عاماً، ولديها علاقات دبلوماسية مع كافة دول العالم تقريباً، وهى دولة تتجه نحو الرفاهة بشكل متصاعد. فيجب أن نعامل إسرائيل بنفس الطريقة التى نعامل بها الديمقراطيات الأخرى؛ مثل انجلترا أو فرنسا أو الهند أو اليابان. فيجب أن ندعم هذه الدول عندما تقوم بأشياء فى مصلحتنا، ونعتقد أنها صحيحة، ويجب أن نبتعد عنها عندما تقوم بأفعال نعتقد أنها ضارة للمصالح الأمريكية، أو ليست فى مصلحة إسرائيل. بالتأكيد لا يوجد سبب قوى لاستمرار الولايات المتحدة فى تقديم دعم سخى وغير مشروط لدولة ثرية إلى حد كبير. يجب أن نكون ملتزمين بحق إسرائيل فى الوجود، لا بمساعيها لاستعمار الأراضى الفلسطينية. فيما يتعلق بالصراع الإسرائيلى الفلسطينى نفسه، يجب أن تتصرف الولايات المتحدة باعتبارها وسيطاً أميناً وتبنى سياسة عادلة. يجب أن نقول لإسرائيل بوضوح إن عليها الانسحاب من الأراضى المحتلة والسماح بإقامة دولة فلسطينية قابلة للحياة فوق هذه الأراضى. وضع هذه التسوية موضع التطبيق لن يكون أمراً سهلاً، ويتطلب من الولايات المتحدة والدول الأخرى ممارسة الضغوط على الجانبين. لكننى أعتقد أنه لا يوجد بديل أفضل من ذلك. ولا يتضمن ذلك أن تقوم الولايات المتحدة بالتخلى عن إسرائيل. وعلى العكس من ذلك، أعتقد أن على الولايات المتحدة الدفاع عن وجود إسرائيل فى داخل حدود ١٩٦٧، وربما مع بعض التعديلات الطفيفة، وبالمناسبة يجب أن يتم التفاوض على هذه التعديلات. وكما قلت فى مرات عديدة، إذا تم تهديد وجود إسرائيل يوماً ما، فإن الولايات المتحدة يجب أن تمد يد المساعدة، بنفس الطريقة التى تساعد الولايات المتحدة بها أية دولة صديقة يضحى وجودها محل تهديد. بمعنى آخر، يجب أن نحظى بعلاقة طبيعية مع إسرائيل، وليس علاقات خاصة. ولكن ذلك لن يتحقق حتى يتقلص نفوذ اللوبى الإسرائيلى أو حتى تدرك المنظمات الأساسية فى اللوبى أن السياسة التى ظلت تضغط من أجلها لسنوات عديدة لم تكن تدعم المصالح الوطنية الأمريكية، ولا فى صالح الدول الأخرى فى الشرق الأوسط، ولا فى صالح إسرائيل أيضاً. ■





الدمج بين استعمار إسرائيل للأراضى الفلسطينية والدعم الأمريكى لذلك، قد أغضب ملايين البشر فى العالمين العربى والإسلامى، ومثلا واحداً من المصادر الأساسية لمشكلة الإرهاب التى نواجهها اليوم

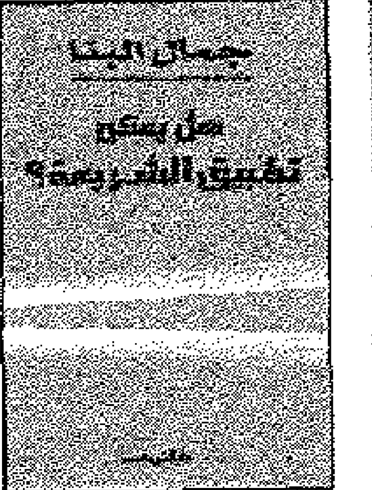


تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

هل يمكن تطبيق الشريعة؟

جمال البنا

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٨٢ صفحة



يختلف كثيرون حول وجوب تطبيق الشريعة؛ لكن أضعاف هؤلاء الكثيرين يختلفون حول إمكانية تطبيقها. والسؤال الذي يبحث في إمكانية تطبيق الشريعة هو الأعلى والأكثر إثارة للجدل، وحتى بين الإسلاميين أنفسهم، فإن ثمة انقساماً واضحاً: هل نطبق الشريعة الآن وفوراً بصرف النظر عن معطيات الواقع وظروف الأمة، أم نهيئ الواقع ونحسن الظروف أولاً؟

المؤلف ينطلق من رؤية ثالثة تتعلق بمفهوم الشريعة نفسه، تتجاوز الإطار السلفي الذي يحكم الفكر الإسلامي المعاصر وتنادي به المؤسسة الدينية وتدعو إليه الهيئات الإسلامية، حسب قوله، وهي رؤية تستند إلى القرآن الكريم بوصفه نصاً مقدساً باجتهاد جديد، دون الوقوف عند تفسيرات السابقين الذين اجتهدوا وفق ظروف عصرهم وعلوم زمانهم، ولا تلزم هذه الرؤية نفسها بالسنة التي يرى المؤلف أنها لا تستقل بالتحليل والتحريم، وفيها ما لا يعد تشريعاً وليس لها التأبيد الذي للقرآن.

ويشير المؤلف إلى أنه توصل إلى أمرين في هذا الإطار، أولهما أن الشريعة في جوهرها ليست شيئاً آخر غير العدل، الذي يتم تجاوزه أحياناً لدواعي المصلحة، وأن الحرية شرط ضروري لتحقيق الشريعة لأهدافها، ودون هذه الحرية فإن الشريعة تعجز عن تحقيق مراميها.

ويواصل المؤلف شرح تصوراته، فعملية تقنين الشريعة ستحولها إلى قانون قامع ينفر منه الناس، وليس فكراً يمشي بين الناس فيؤثر فيهم ويتأثرون به، وأما من حيث العقبات والمحاذير فأهمها أن المجتمع غير متهيئ لتطبيق الشريعة الآن، ليس فقط بحكم التطورات ذات الطبيعة المدنية والحداثية التي لحقت به، وإنما أيضاً لأن الاتجاهات السلفية التي تنادي بتطبيق الشريعة اليوم معظمها من السلفيين، الذين لا تصلح أفكارهم عن الشريعة للتطبيق، فهم يقاومون كل اتجاه للإصلاح والتجديد، وأما بقية شرائح المجتمع فتتوزع ما بين الطبقة الجديدة من الأثرياء المحدثين، وفلول الناصرية واليسارية والقومية، من ثم فإن تهيئة التربة لتطبيق الشريعة ليست أمراً هيناً ويحتاج إلى زمن طويل.

ويبدو المؤلف المخاوف من فكرة قيام دولة إسلامية في حالة تطبيق الشريعة، فالإسلام ليس فيه كنيسة ولا رجال دين، وحكومته مدنية هدفها هو إقامة العدل وتحقيق إرادة الشعب، ويلاحظ المؤلف أن ثمة تداخلات بين العقيدة التي تعنى أساساً بجوهر الإيمان، والشريعة التي تنظم التعاملات الدنيوية بين الأفراد، وأن الشريعة في تطبيقاتها المختلفة وضعت دائماً مصلحة المجتمع فوق مصلحة الفرد، ويدلل على ذلك باجتهادات عديدة في موضوع حد السرقة يناقش بعضها باستفاضة، ويطالب في الفصل الخامس بتعميق العقيدة قبل تطبيق الشريعة، ولكن أي عقيدة، إنها تلك التي لا تجعل من اجتهادات السابقين - وهم بشر معرضون للصواب والخطأ - نصوصاً مقدسة.

ما يؤكد عليه المؤلف أنه لا حياة للشريعة ولا فرصة لتطبيقها على نحو صحيح من دون حرية، وبالأخص حرية التعبير والفكر بما تنطوي عليه من تأسيس أحزاب ونقابات وجمعيات أهلية وإصدار صحف، وأنه لا حياة لهذه الشريعة من دون توخيها العدل ومصلحة الجماعة، بعيداً عن التفسيرات الحرفية للنصوص.

الرواية ذاكرة مفتوحة

محمد برادة

القاهرة: آفاق للنشر، ٢٠٠٨، ١٤٤ صفحة



النص التخييلي كما يعنيه المؤلف هنا، هو ذلك النص الذي يمنح إمكانيات واسعة لإعادة محاورته في سياقات اجتماعية مختلفة وفي أزمنة متعددة، وهناك نصوص خالدة حملت هذه الإمكانية واشتبك المبدعون مع أفكارها ودلالاتها الاجتماعية والجمالية مثل رائعة الكسندر ديماس «الفرسان الثلاثة»، وكذا محكيات «ألف ليلة وليلة» و«البؤساء» لفيكتور هوجو، و«ثلاثية نجيب محفوظ»، و«مائة عام من العزلة» لماركيز، وغيرها من الأعمال الكبرى.

هذه الإمكانية هي التي تجعل من هذه النصوص «التخييلية» ذاكرة مفتوحة على ذاكرات القراء والمبدعين، ويرسخ إسهامها في نسج الملامح الأساسية للمتخيل الاجتماعي الجمعي الذي يسهم بدوره في تشكيل الهوية.

بهذا المعنى يناقش المؤلف رواية «دون كيخوته» لسيرفانتيس؛ وهي رواية أجمعت كافة التنظيرات والتحليلات النقدية على أنها من النصوص الرائدة التي فتحت الطريق أمام الرواية الحديثة بإشاعة روح الدعابة في النص، عبر هدمها نمط الكتابة الروائية الذي كان سائداً في ذلك الزمن، والقائم على القصص الغرامية وقصص الفروسية والقصص التي تعنى بالروح المثالية والعواطف النبيلة، ومع ذلك فإن سرفانتيس - بحسب المؤلف - لم يكن واعياً للثورة التي يدخلها في عالم الرواية، ولا مدركاً لعناصر الحداثة التي تتضمنها روايته، إنما جرى ذلك اتساقاً مع ما جرى في التاريخ الأدبي كله، أي استنفاد السائد أغراضه وعدم قدرته على استيعاب ما طرأ على الجمهور من تغييرات وما شاب ذائقته الفنية من تحولات.

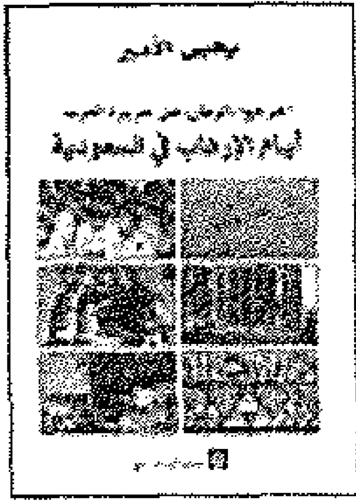
وعبر تحليله لعناصر «دون كيخوته» يكشف المؤلف عن الأسباب التي جعلت منها رواية «تخييلية» ملهمة لعشرات المبدعين منذ ظهورها قبل أربعمائة عام وحتى اليوم. وبهذا التصور أيضاً يحلل المؤلف رواية «فلوبير» مدام بوفاري التي كتبها عام ١٨٥٦، والتي صارت منعطفاً بارزاً في مسار الجنس الروائي، ويقارن بين أسلوب السرد عند بلزاك، والسرد عند فلوبير، ففيما يقوم السرد عند الأول اعتماداً على سارد عليم وكاتب يدس رأيه مباشرة داخل النص الروائي، فإنه يقوم عند فلوبير على تعددية الشخوص، فكل سرد يمر عبر إحدى الشخصيات، وهو غير حريص على توصيل رسالة بذاتها، وإنما يترك للقارئ البحث عن الدلالات داخل النص.

وفي حالة «ثلاثية» نجيب محفوظ، يصر المؤلف على أن تكسير الوصاية الرقابية على قراءتها، وممارسة قراءة حرة متحررة من الاختزالية وما يقلص رحابة النص ويخفف عمقه الفني، هو ما يمنحها عمراً أطول، ويبقيها فاعلة داخل الحقل الروائي اليوم، وغداً.

أيام الإرهاب في السعودية

يحيى الأمير

الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٨، ٢١٥ صفحة



لم يكن الإرهاب في السعودية نتيجة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، فقبل ذلك بما يزيد على العشرين عاماً، وقعت حادثة الحرم المكي الشهيرة (١٩٧٩)، والتي سبقها انقسام بين موالين وموظفين في دوائر رسمية دينية وبين معارضين ومحتجين وتكفيريين، ليظهر المحاربون الذين قاموا بعملية اقتحام الحرم، والذين تم قمعهم أمنياً، لكن خلايا التطرف النائمة وجدت لها مرتعاً، في الخطاب الديني الموالي غير المجابه، والذي أبقى كثيراً من أفكار التطرف، منطلقاً من أن الحل يكمن في تلبية الكثير من المظاهر الدينية وفرضها على حياة الناس والبلاد، حتى لا يجد المتمردون ذريعة للخروج على الحاكم، وباختلاف الظروف الإقليمية والدولية ظهر التمرد في شكل تفجيرات جديدة في ١٩٩٦ ثم من جديد في حادث الخبر ٢٠٠٤.

المؤلف يتابع دورات التطرف في السعودية بدءاً من دورة الإخوان المسلمين الذين سعوا إلى تقويض حكم الملك المؤسس عبدالعزيز في محاولته تكوين دولة وفق قيم حداثية مدنية.

وجاءت الدورة الثانية للتطرف مع عملية اقتحام الحرم في ١٩٧٩، وفيها أعلن قائد المجموعة جهيمان العتيبي أن الحكم السعودي فاسد وموال للكفار ويقوم بنشر البدع كالراديو والتليفزيون وعمل النساء، وأعلن عن ظهور المهدي المنتظر وهو زوج أخت عبدالله القحطاني وهو أحد تلاميذ مفتي السعودية الأسبق عبدالعزيز بن باز. وكان الخطأ في التعاطي مع عملية اقتحام الحرم المكي: هو أنه تم التعامل معها أمنياً لا فكرياً، وبالتالي تم القضاء على «الحركة»، لكن بقيت «الفتنة» نائمة حتى جاء من أيقظها مستفيداً من الظروف التي طرأت فيما بعد.

يشير المؤلف في فصول تالية إلى خطيئة غياب الوطنية والدولة والحضور الطاغي لخطاب التشدد المفضي إلى

التطرف في الثقافة السعودية التقليدية، تلك الثقافة التي تلغي الوطن بوصفه إقليمًا وشعبًا وأرضًا لحساب الدين، والذي يرى في ديار الإسلام كلها أرض المسلمين أينما وجدوا، والتي تقف خلف كثير من مظاهر التطرف ضد الوطن ومؤسساته.

ويلاحظ المؤلف في تحليله لأحداث الحادي عشر من سبتمبر عدم قدرة الفقه التقليدي على صياغة موقف سياسي رشيد من هذه الأحداث ومن العلاقة مع العالم في تحولاته.

ويشير المؤلف إلى مشهد بالغ الدلالة من حادث الخبر (شرق السعودية) الذي وقع في مايو ٢٠٠٤ وراح ضحيته ستة عشر شخصًا بينهم ستة أجانب وطفل مصري، إذ دخل أحد الإرهابيين على بعض الرهائن وسألهم: هل أنتم مسلمون؟ فأجابوا بنعم واستشهدوا بالمصاحف بين أيديهم، فإذا به يسألهم: إذا كنتم كذلك فأين لحاكم؟

ثمة حوادث إرهابية متعددة يوردها المؤلف في كتابه، دون أن يغفل أن حالة التدين التقليدي السائدة في السعودية تفضي إلى التشدد الذي قد يقود بدوره - مع غياب خطاب ديني وسطي ورشيد - إلى حالات قصوى من التطرف.

▪

روافد سياسية ودبلوماسية

صلاح الدين إبراهيم

القاهرة: دار الآداب، ٢٠٠٨، ٢٨٧ صفحة



قسم المؤلف روافده السياسية إلى روافد داخلية وأخرى إقليمية ودولية، وبحكم عمله الدبلوماسي سفيرًا لمصر في عواصم عدة، فإنه يقدم لنا خلاصة خبرته التي يستفيد فيها من تجارب دول سبقتنا في مضمار التنمية السياسية والبشرية والاقتصادية، بعضها بدأ مشواره التنموي معنا، وبعضها كان سابقًا علينا وبيننا وبينه الآن فراسخ وأميال حضارية.

يتساءل المؤلف في الشأن الداخلي: هل الديمقراطية لاتزال بعيدة عنا؟ ويجيب بعد بسط تعريفات موجزة للديمقراطية ومتابعة لما أنجزته في المجتمعات الغربية بأن المبادئ الأساسية للديمقراطية واحدة، لكن الاختلافات تنحصر في التقاليد والأوضاع الاجتماعية التي تحيط بأي دولة من الدول، والتي يمكن أن تمثل دافعًا أو عائقًا للديمقراطية، ويرى أنه برغم الخطوات الإيجابية التي حققناها في السنوات الأخيرة، فإن تطبيق الديمقراطية مازال بعيدًا عنا، مازلنا بعيدين عن الديمقراطية لأنها في الأساس ممارسة، في البيت والمدرسة والشارع ووسائل الإعلام، وهي جميعًا مرافق وبيئات تعاني فقرًا مدقعًا في الممارسة الديمقراطية، وهو ما يجعل نصيب الديمقراطية في حياتنا ضئيلاً للغاية.

وعلى صعيد علاقتنا بالعالم وكيفية التكيف مع الأوضاع الدولية المستجدة، يطالب المؤلف بوقفة مع النفس ومع الضمير العام، مؤكدًا على أن الموضوع لا يخص الدولة وحدها وإنما يخصنا جميعًا.

وفي مجال سياستنا الخارجية وتحت عنوان «تصويب سياستنا الخارجية»، يرى المؤلف أن الاهتمام بالعلاقات المصرية السودانية من جهة، والعلاقات المصرية الليبية من جهة أخرى هو الأساس الذي ينبغي أن تبنى عليه أحد أهم روافد سياستنا الخارجية، لأن تجاهل هذين البعدين يعرض الأمن القومي المصري لخطر محدق.

وفي الإطار نفسه، يدعو إلى أن تتجه مصر شرقًا، وألا تكتفي بما فعلته منذ بدايات النهضة الحديثة وحتى اليوم، ويعني به الاتجاه غربًا، وهو يقصد بالاتجاه شرقًا، الاتجاه نحو الصين وكوريا واليابان ودول النمور الآسيوية التي استطاعت أن تصنع من قيم العمل ومن احترام القانون والالتزام بأمانة العمل قواعد أساسية لتقدمها وتطوير صناعتها.. «فالتطوير ليس شطارة أو فهلوة، بل تضحيات ضرورية، فهل نحن مستعدون لقبول هذا التحدي، أم لا يزال الطريق أمامنا بعيدًا وطويلاً؟».

▪

الدولة اليهودية

تيودور هيرتزل

ترجمة: محمد فاضل

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧، ١٢٦ صفحة



يضع الصحفي النمساوي تيودور هرتزل في هذا الكتاب خطته لإقامة دولة يهودية، فقد انتهى إلى أنه لا حل لمعاداة السامية وكراهية اليهود إلا أن يكون لهم وطن قومي، وهذا الوطن لن يقوم إلا بمساندة كاملة من القوى الإمبريالية الغربية التي اضطهدت اليهود، وسيرد اليهود الجميل لمضطهديهم السابقين بأن يعملوا لحسابهم.

ومنذ البداية، يقر هرتزل بأن قضية اليهود - حسبما يراها - لم تعد قضية اجتماعية أو دينية، حتى وإن اتخذت في بعض الأحيان هذه الأشكال، إنها قضية قومية لا يمكن حلها إلا إذا أصبحت قضية سياسية عالمية تتم تسويتها في ظل مجلس تتشاور فيه الأمم المتحضرة.

لم يكن هرتزل متأكدًا من أن اليهود جميعًا سيوافقون على اقتراحه بإقامة دولة لهم في فلسطين، خصوصًا أن كثيرين من بين هؤلاء سينظرون إلى الأمر على أنه مجرد انتقال من منطقة متحضرة إلى صحراء جرداء، لكنه كان يداعب حلمًا هو حلم اليهود الأول منذ فجر التاريخ.. «ولكم ترددت على ألسنتهم عبارة العام المقبل في القدس، والقضية اليوم هي إظهار أنه في الإمكان تحويل هذا الحلم إلى واقع ملموس».

ومن ثم بدأ هرتزل في شرح فكرته وإغراء اليهود الرافضين لها، موضحًا أنه سيبني لهم بيوتًا أكثر رحابة وجمالاً من تلك التي أقاموا فيها في أوروبا، ولكي تتحقق الفكرة، دعا هرتزل إلى تأسيس هيئة اعتبارية أو شركة يطلق عليها اسم تجمع اليهود، وبالإضافة إليها سيكون هناك شركة يهودية تعمل كجهاز اقتصادي منتج.

وفي الأقسام التالية يبدأ هرتزل في تفصيل فكرته من خلال الشركة اليهودية والمجموعات المحلية وجمعية اليهود.

وهو يوضح في القسم الخاص بالشركة اليهودية الخطوط العريضة لإنشاء الشركة: أنشطتها ومبانيها وعمليات شراء الأراضي ونظام العمل وتوطين العمال، وفي القسم الخاص بالجماعات اليهودية يوضح كيفية إتمام عملية التهجير وتشجيع الناس عليها والفوائد التي يمكن أن تعود عليهم بفعل هذه الهجرة، ويجيب هرتزل عن تساؤل: لماذا صار ذلك الآن ممكنًا بعد أن كان مستحيلاً من قبل، بأن الإنجازات التقنية والمال سيجعلان ذلك ممكنًا، فضلاً عن الإيمان بالفكرة، يقول هرتزل: هاهي ذي أيها اليهود. ليست خدعة أو خرافة، يمكن لكل شخص أن يختبر حقيقتها بنفسه، لأن كل واحد سيحمل معه جزءًا من الأرض الموعودة، جزءًا من رأسه، وآخر في يده، وثالثًا من ممتلكاته المكتسبة.

وهكذا - على ما يبدو - تحول حلم هرتزل إلى حقيقة.

▪

شبكة كارلايل

فرانسوا ميسان

ترجمة: محمد التبر

بيروت: دار بيسان، ٢٠٠٧، ٢٨٨ صفحة



سمحت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية - بعكس ما أنذر أيزنهاور قبل ذلك بعقود - للبنتاجون أن يضع نفسه بين أيدي شركات السلاح، وهو سيناريو خطير يهدد الديمقراطية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي العالم كله، وقد باتت هذه الشركات هي المهيمن اليوم على مقدرات العالم، هي التي تشعل الحروب في أماكن عديدة فيه وتسوق إلى الموت مئات الألوف دون أن يعرفوا حتى لماذا عليهم أن يموتوا.

أما «كارلايل» فلم تكن سوى - بالنسبة للمؤلف حتى العقد الخامس من عمره - اسم لفندق تقصده النخبة في وسط نيويورك، حتى قرأ مقالاً في النيويورك تايمز يقرن الاسم بشركة تتاجر في أشياء كثيرة، منها الدبابات والطائرات الحربية، وتقوم في الوقت نفسه بمشروعات كبرى على طريقة تسليم المفتاح، وتعطي المساهمين فيها أرباحًا تزيد نسبتها على ٣٥٪، وهو ما أثار اهتمام المؤلف، الذي قرر أن يغوص في أعماق الجغرافيا السياسية لهذه الشركة، ولعامين كاملين اعتاد أن يمر من شارع بنسلفانيا حول مقرها، وأن يتابع أخبارها ونشاطاتها بدأب ودقة، وكانت مفاجأة كاملة بالنسبة له: أن يجد عشرات الأسماء من علية المجتمع الأمريكي شركاء فيها: مديرين عاملين لشركات تصنيع السلاح، مسئولين عن شركات المرتزقة التي توفر ما تحتاجه الحروب منهم في أي مكان في العالم، شخصيات كبرى في وزارة الدفاع الأمريكية، أما العدد الأكبر من المساهمين فهم محامون ومستشارون للرئيس بوش في كافة المجالات، وهو ما يعني أن «كارلايل» أكبر بكثير من مجرد شركة استثمار مالي، إنه ناد يضم العديد من المسئولين السياسيين والعسكريين الذين يجمعهم الحرص على تحقيق أكبر قدر من المكاسب في أقصر فترة ممكنة، ولتحقيق هذه

الغاية، اختاروا أسرع الطرق: النفط وتجارة السلاح.

المؤلف، هو الصحفي الوحيد الحائز على جائزة «بوليتيزر» وجائزة «البرت لوندر»، وقد تخصص طوال نصف قرن من عمره المهني في إجراء التحقيقات الصحفية، وهو الآن، وقد جاوز الثامنة والستين، وجال في مختلف أرجاء العالم مميطًا اللثام عن أكثر الصراعات عنفًا وضراوة حول العالم، يكشف لنا عن طبيعة الدور الذي تلعبه مجموعة «كارلايل»، التي جعلت على رأس أولوياتها الاستثمارية أن يحتل قطاع الصناعات العسكرية مركز الصدارة بين تفضيلات السلطة الحاكمة في واشنطن منذ تولى بوش الابن الرئاسة، وهكذا بدأت المؤسسة المالية تمارس تأثيرات سياسية بالغة الخطورة والأهمية، وقد جرت تنميتها على يد «فرانك كارلوتشي» وزير الدفاع الأمريكي الأسبق وأحد أقطاب تيار المحافظين الجدد.

■

حصاد الذاكرة

أحمد إبراهيم الفقيه

القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٨، ١٨١ صفحة



نشرت هذه الباقة من حصاد الذاكرة في شكل يوميات بجريدة «الشرق الأوسط»، وتتنوع اهتماماتها بين الثقافي والسياسي والاجتماعي والفني، وهي في مجملها حصاد انشغال بالشأن العام العربي والإنساني العام. وفي مرات كثيرة يعمد المؤلف إلى عقد المقارنات بين مجتمعاتنا العربية ذات القيم والتقاليد المحافظة، ومجتمعات الغرب التي تعيش عصر ما بعد الحداثة، أو يعقد مقارنات بين ما نحن عليه اليوم، بعد أن صرنا «معولمين» رغم إرادتنا، وما كنا عليه حين كانت تحكمنا قيم العائلة الكبرى والقبيلة الأكبر، وغالبًا ما يفعل ذلك بأسلوبه الأدبي البسيط الذي يجنح إلى الإيجاز والتكثيف، مثلاً نقرأ تلك المقالة التي يحكي فيها عن لقطة بسيطة في إحدى مدن الغرب، حين كان يقف في طابور في أحد المتاجر الكبرى، ولاحظ أن من يقف خلفه لا يحمل سوى زجاجة حليب فقط، فأشفق عليه من انتظار قد يطول حتى ينتهي هو من حساب مشترواته الكثيرة، لكن الرجل رفض هذا الإيثار وأصر على أن يبقى في دوره. وهو موقف - كما يشير المؤلف - له دلالة على قيم الفردانية المتأصلة في المجتمع الغربي، والتي تجعل كل فرد متمسكًا بحقوقه واثقًا في كفاءة النظام الاجتماعي وعدله، فيما تبقى قيم القبيلة وما تحمله من قيم فرعية من نوع الواسطة والتوصية والعشم والنفوذ هي المسيطرة على مجتمعاتنا العربية، وقد تحولت إلى قانون يسود حياتنا يتضاءل إلى جواره أي قانون أو تنظيم.

وينتقل من هذه القضية الكبرى إلى قضية كبرى أخرى، وإن كانت أكثر علاقة بالفرد ذاته وهي قضية السعادة، وهو يدعونا إلى تأمل لحظات السعادة تلك، وتثبيتها في كادر الصورة وتذكرها واستعادتها.. «لا تدعها تمر دون أن تصافحها وتأخذ صورة تذكارية معها، فهي ستبقى زادًا يعينك على عبور الأيام القاسية المضنية».

وفي مقال ثالث يتحدث عن معنى الصداقة، وكيف أن كثيرين ممن نتصور أنهم أصدقاء حميمون لنا، يتبدلون فجأة وتتكشف لنا نواقصهم ونتساءل كيف أننا لم نر منهم هذه العيوب من قبل، وكيف أننا أوليناهم ثقتنا ومحبتنا سنوات طوالا قبل أن نكتشف أنهم ليسوا جديرين بهذه الثقة وهذه المحبة. ويفسر المؤلف ذلك بأن هذه تشبه مرحلة يسميها علماء النفس حالة الكمون التي تنتظر فرصة أن تعبر عن نفسها إلى مرحلة الظهور والتعبير عن الوجود، وأن هذا الصديق الذي أظهر لنا وجهًا آخر لا نريده ولا نعرفه، ليس دليلاً على أن خطأ أصحاب الكون أو أن العالم فقد نواميسه وقوانينه، إنه حالة يكثر أمثالها في كل مكان وزمان.

بهذا المزج والانتقال بين الشخصي والعام يبسط المؤلف أمامنا حصاد تجاربه وذكرياته بأسلوب أدبي بسيط.

■

عندما أسمع كلمة مدونة

جمع وتعليق: محمد كمال حسن - مصطفى الحسيني

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٨، ١٢٣ صفحة



في المدونات لا أحد يتكلم نيابة عن أحد، هي الحرية المطلقة والفوضى العارمة أيضًا. أصوات جديدة طازجة، وآراء تحركها مشاعر تلقائية ولغة بلا محسنات ولا بديع. إبداع يحمل شروطه الخاصة ورؤاه الخارجة عن أي قانون، حوار حميم ودافئ وشرس أحيانًا، بين أشخاص قد لا يعرف أكثرهم بعضهم البعض، لكنهم يصرون على التواصل والبوح والتنفيس، وإشراك الآخرين في خصوصيات كانت تختبئ قبل ذلك خلف جدران عالية من الصمت والخجل.

يجمع هذا الكتاب شذرات من ثلاثين مدونة وقع عليها الاختيار بين أكثر من ٢٥ ألف مدونة مصرية، تغطي تفاصيل هذا المشهد الجديد اللاذع، الذي قُدر له أن يلعب دورًا كبيرًا في حياتنا المعاصرة، انتخبها من أعدا الكتاب على مدى خمس سنوات، وهي تكشف عن مواهب في كتابة القصة وطرق مبتكرة في السرد غير معتادة، بعيدة تمامًا عن النمطية، وقريبة جدًا من العصر الذي نعيشه ويعيشه أصحابها، مثلاً في مدونة «البراء أشرف» عتاب من حبيب لحبيبته التي تفعل تقريبًا كل شيء لا يعجبه، حتى إنها أخيرًا قررت أن تعمل لدى محسن الذي نسج حولها شباكه وأوقعها في غرامه وهو يخاطبها في النهاية: عارفة أنا بحبك قوي ونفسي نتجوز بقى، ونقعد نبني في بيتنا وندسد أقساط أوضة النوم اللي هنشتريها بالتقسيط من المحل أبو اسم طويل ورخم بعد ما محسن بيه اتوسط عشان ناخدها بالتقسيط.

وفي مدونة أشرف توفيق «فيلم هندي» يهزأ فيه أشرف من أحوالنا التي تشبه فيلمًا هنديًا بطله أميتاب باتشان، وكما هي عادة الأفلام الهندية في ذاكرة المصريين جرعة كبيرة جدًا من الرومانسية واللا منطق وتطويل ومط بلا داع ونهايات لا منطقية لأنها أساسًا بنيت على مقدمات غير منطقية، وهي مكتوبة بروح فيها سخرية عالية ودربة وقدرة على الإيجاز تدل على موهبة حقيقية، وفي مدونة «عايزة أتجوز» غادة عبدالعال، استعراض خطابها الذين لم تستقر على واحد منهم، وتكشف في مدونتها واحدة من الحكايات التي تجد البنت نفسها سطرًا يلوكه الأقارب والجيران ضمنها دون أن تعرف كيف ولماذا.

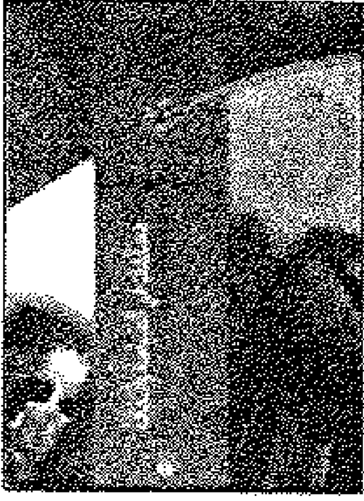
لكننا سنجد أيضًا مدونات ذات طبيعة جادة ومحرضة من نوع مدونات خالد الصاوي ومدونة أفندينا ومدونة ملكة حسين ومدونة أحمد فؤاد نجم «الفاجومي»، لكن القاسم المشترك في هذه المدونات جميعًا كما قلنا سابقًا، أنها مكتوبة بلغة حميمة وذكية وبها قدر كبير من الوعي والرغبة في البوح، وأنها ضد المحو والرقابة.

■

مطالعات في السياسة والثقافة

السيد أمين شلبي

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٨، ٢٦٤ صفحة



قراءات لكتب أعجبت المؤلف، وهو دبلوماسي وعضو بالمجلس المصري للشئون الخارجية، عمل لفترة طويلة في سفارات مصر بالعديد من الدول العربية والأجنبية، إلا أن اهتماماته تتجاوز السياسي إلى الشئون الثقافية والفكرية العامة، فضلاً عن مطالعاته في الأدب العربي والأجنبي.

بين ما يعرض له المؤلف قراءة لكتاب عفاف لطفي السيد «مصر في عهد محمد علي»، هو كتاب «عمدة» في موضوعه، برغم الكتابات الكثيرة التي ظهرت عن هذه الفترة المهمة في التاريخ المصري المعاصر، وتأتي أهمية الكتاب بسبب موضوعيته العلمية الحاسمة، واعتماده على وثائق مصرية لم يسبق لبحث أن نقب فيها واستفاد منها، وكانت النتيجة الأبرز التي توصلت إليها الباحثة، هي أن محمد علي برغم إنجازه غير المنكور، فإنه لم يخترع نظامًا اقتصاديًا كاملاً أقام عليه نهضته الكبرى، وإنما نقح ووسع النظام الذي أقامه المماليك قبله، ومن ثم جاء نظامه استمرارًا للنظم القديمة، أما أصالة محمد علي - كما تقول - فتكمن في أنه تعلم من أخطاء أسلافه وجمع أفكارهم في برنامج متماسك.

يقدم المؤلف أيضًا قراءة لكتاب ديستوفيسكي «مذكرات تحت الأرض»، وفيها ينظر ديستوفيسكي إلى الجانب الأضعف من العالم، ومثل الرجل تحت الأرض أدرك ديستوفيسكي ازدواجية السلوك البشري، واكتشف في البشرية غريزة عميقة تمثل للفوضى والنفي والعدمية، هذا يعني أن الرجل من تحت الأرض، هو رجل منقسم على نفسه يعاني انفصامًا، فلا هو خير ولا هو شرير، موزع بين الفضيلة والرذيلة، وقد صدر هذا الكتاب عام ١٨٦٤ وقت أن كان ديستوفيسكي في الأربعينيات، في منتصف عمره ويعاني أزمات فكرية ومادية طاحنة، وفيما بعد كان على العالم أن يعيد اكتشاف صاحب الجريمة والعقاب والمقامر والأبله والممسوسون والإخوة كرامزوف.

كما يعيد المؤلف قراءة تشيكوف من خلال كتاب الناقد السوفيتي «إيليا اهربزج» الذي احتوى على دراسة حملت

هذا العنوان «قراءة جديدة لتشيكوف»، وقد كانت فرادة تشيكوف وقدراته المميزة مرجعها إلى ارتباطه بعصره، فلم يتورط في خيالات هائمة، وهذا ما يفسر الحضور الدائم لشخصياته في كل زمان ومكان.

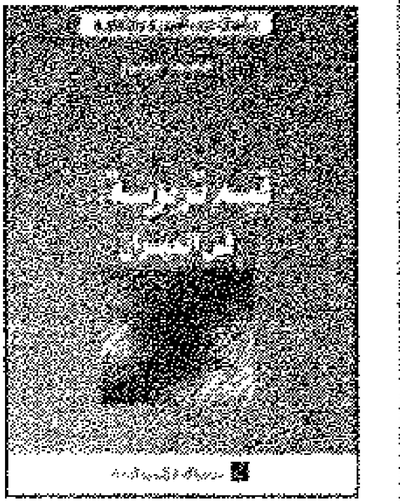
يكتب المؤلف أيضًا عن الكاتب الألماني الشهير هيرمان هسة من خلال ترجمة الدكتور مصطفى ماهر لروايته «لعبة الكرات الزجاجية»، التي أودع فيها هسة خلاصة فكره وفلسفته ورؤيته للعالم.

مطالعات أخرى عديدة في السياسة والثقافة، تحمل رؤى وأفكار مؤلفيها، وتحمل بالضرورة وجهة نظر من يطالعها، ويعيد صياغتها، أعني المؤلف.

قيم تربوية في الميزان

حامد عمار

القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٨، ٢٨٠ صفحة



يضم الكتاب عددًا من الدراسات التي كتبها المؤلف الذي يكنّى دومًا في أوساط المتخصصين بشئون التربية والتعليم بـ «شيخ التربويين»، هي مقسمة إلى أربعة أقسام: مفاهيم وقضايا مهنة، في محاولات إصلاح التعليم، قيم تربوية وثقافية هابطة، قيم تربوية وثقافية رفيعة.

وفي موضوع التعليم والتربية تبدو العلاقة بين الفرد والمؤسسة في شتى تجلياتها التي تتأرجح دومًا بين القبول والرفض، رفض الفرد لوصاية المؤسسة، وإذعانه في أحيان كثيرة لما تفرضه بوصفها صاحبة الحل والعقد بحكم الواقع والظروف.

لكن شيخ التربويين يرفض بشكل قاطع وصاية المؤسسة، ويطالب بالانتقال من منهج التربية القمعية إلى منهج التربية التحريرية، والأولى لا تمنحنا سوى أفراد وجماعات تطبيقية وأمثلة من الخانعين المتبلدين فاقدي القدرة على التفكير الإيجابي والمبادرة، ويقدم نماذج تطبيقية وأمثلة لما صادفه في حياته العملية التربوية الطويلة، باحثًا وأستاذًا ومشرفًا على مئات من رسائل الماجستير والدكتوراة.

بين القيم الهابطة في مجال التعليم ما يشير إليه المؤلف بـ «النقل والتزييف في البحث والتأليف» ويقصد به سطو الباحثين على جهود باحثين آخرين دون إشارة إلى المصادر الأصلية التي نقلوا منها، ونسبة جهودهم إليهم دون وازع، ويحكي عن تجربة واقعية شهد بنفسه وقائعها، ومن «بدع الفساد التعليمي» يشير إلى استخدام العنف من قبل المدرسين تجاه تلاميذهم، وهو عنف يصل إلى حد تكسير العظام، أو العنف الذي يمارسه الطلاب ضد مدرسيهم، وهي حالات حرص المؤلف على تحليل أسبابها ودوافعها، وبرأيه فإن الدروس الخصوصية سبب رئيسي في شيوع مثل تلك الحالات لأنها شوهت العلاقة بين طرفي المعادلة في العملية التعليمية، وأضعفت المعلم في مواجهة الطالب، إذ يشعر الطالب بأن أستاذه إما أن يبتزه لإجباره على الدروس الخصوصية، أو أنه يسترضيه ليستقطبه إلى مجموع من يأخذون عنده دروسًا خصوصية.

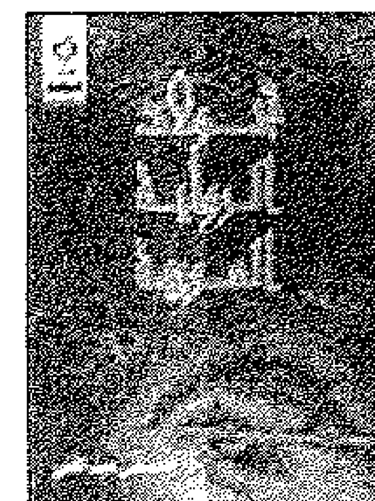
في دراسات أخرى يحلل أسباب انتشار المدارس الخاصة وكذلك الجامعات الخاصة، والانهيار الحاد في التعليم الحكومي الإلزامي والعالي، ويتساءل ونحن معه: من ينحاز للفقراء، بعدما صار التعليم مشروعًا استثماريًا وابتعد عن كل هدف نبيل.

ثمة دراسات أخرى عديدة يتناول فيها المؤلف مخاطر غياب الأنشطة والفنون عن المدارس، والحضور الطاغي لأفكار التطرف والإرهاب بين المدرسين والتلاميذ، وشيوع ثقافة التلقين والتلخيص بديلاً عن إشاعة روح الابتكار والتفكير والتدبر، فضلاً عن مقالات أخرى يحيي فيها عددًا من النماذج الإنسانية والتربوية، بعضها رحل، وبعضها مازال على قيد الحياة يواصل عطاءه المثمر بلا كلل.

تحولات الرواية العربية

مصطفى عبدالغني

القاهرة: كتاب الجمهورية، ٢٠٠٨، ١٨٠ صفحة



يدرس المؤلف روايات عدة عبر فصول الكتاب تطبيقًا لرؤاه حول تحولات الرواية العربية، بادئًا بالعلاقة بين العولمة والفكر الأدبي الحديث. فأي تأثير تركته العولمة بما أتاحته من معارف وروابط وعلاقات وتطور تكنولوجي في الرواية، وخصوصًا عبر ظواهر التشظي وصرعة التفكيكية وعمليات تسليع الأدب، ويستشهد بشهادات للروائي اللبناني إلياس خوري والعالم الدكتور نبيل علي والعالم اللغوي الدكتور حافظ دياب.

ويدرس في الفصل الخاص بتطور الوعي القومي في الرواية عددًا من روايات مبدعي المغرب العربي: «الغربة» لعبدالله العروي، «الطفولة» لعبدالمجيد بن جلون، «المرأة الوردة» لمحمد زفزاف، «اليتيم» لعبدالله العروي، «مجنون الحكم» لسالم بن حميش، «مثل صيف لن يتكرر» لمحمد برادة، «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمي، حيث سعى إلى دراسة خصوصية المجتمع المغربي وخصوصية أدبائه، وتنبههم إلى خطورة المركزية الغربية، وما يحول دون وصولهم بالوعي القومي إلى غايته.

ويلاحظ في دراسته عن الأفكار الأساسية للرواية العربية والتي تدرس فيها روايات للسوري حيدر حيدر واللبناني إلياس خوري والسوري نبيل سليمان والمصري محمد عبدالسلام العمري والسعودي تركي الحمد أن قضايا مثل الديمقراطية والتقدم والوعي بالتاريخ المعاصر هي أهم القضايا التي دارت حولها أعمالهم.

وفي فصل آخر بعنوان الرواية وحقوق الإنسان يدرس رواية الأديب السوداني مروان حامد الرشيد «منكدورو»، خصوصًا أن النص يلقي ظلالاً مهمة على الأحداث التي تجري في السودان ومعاناة أهله من الحروب الأهلية المتشابكة بين أبطاله.

تتعدد فصول الكتاب، وتتعدد النماذج التطبيقية التي يقدمها المؤلف من روايات المبدعين العرب من الشرق والغرب.

هل تريدون حقًا إصلاح التعليم؟

حامد طاهر

القاهرة: دار الهاني للنشر، ٢٠٠٨، ٣٤٩ صفحة



يحمل سؤال العنوان استنكارًا أو تشكيكًا في النوايا، فهو يعني أن من يتحدثون ليل نهار عن إصلاح التعليم لا يريدون إصلاحه فعلاً، أو هم في أحسن الأحوال لا يبصرون طريقهم نحو تحقيق هذا الهدف.

قسم المؤلف كتابه إلى أربعة أقسام تضم عشرات المقالات، يتناول الأول منها التعليم من الحضانة لمكتب التنسيق، والثاني عن إصلاح الجامعات والتعليم العالي والثالث عن أحوال البحث العلمي والدراسات العليا، ويطرح الفصل الأخير أفكارًا جديدة لتطوير التعليم.

بين هذه الأفكار مثلاً فكرة التعليم الموازي، ويعني به «التعليم بسعر التكلفة» للقادرين، دون أن يؤدي ذلك إلى إلغاء التعليم المجاني، بل هو في الحقيقة يصب في مصلحته، إذ سيمكن من موارد هذا النوع من التعليم تطوير التعليم المجاني، لكنه يضع ضوابط لهذا النوع من التعليم، فلا يكون الالتحاق به لكل طالب مهما كان مستواه أو مجموعه، بل في حدود ٥٪ أو ١٠٪ أقل من المجموع المحدد للكلية حسب مكتب التنسيق، وفي هذه الحالة نحقق للطالب المتفوق أمله في الالتحاق بالكلية التي يريدها والتي ربما حالت نصف درجة بينه وبينها، كما أننا نحمي الطلاب من جشع بعض الجامعات الخاصة التي تغالي في مصاريفها ولا تهتم إلا بجمع الأموال بصرف النظر عن أهلية الطالب وقدراته.

ويطرح المؤلف فكرة أخرى حول ما يسميه التعليم الابتكاري، وهو يقوم على فلسفة مغايرة تمامًا لفلسفة التعليم التقليدي. وهذا النوع من التعليم يتجه نحو مخاطبة عقل الإنسان وتدريب حواسه واستثارة خياله ووجدانه، فهذا النوع يجعل الأنشطة الفنية والإبداعية جزءًا أساسيًا في نظام التعليم وليست زوائد اختيارية، وهذا النوع من التعليم برأي المؤلف يشجع التلاميذ على طرح الأسئلة والتساؤلات، ويستثير طاقاتهم وخيالهم، ويجعل فكرة التدريب اليدوي والابتكار جزءًا من اهتمام الطالب الراغب في التفوق، ويبدأ هذا التعليم من الحضانة حتى الجامعة، وفيما يمكن اعتباره محاولة لربط التعليم باحتياجات المجتمع وحاجات التنمية، يقترح المؤلف إنشاء مدارس تخصصية. وتقوم الفكرة على إنشاء كل مؤسسة كبيرة مدرسة متخصصة في تدريب الطلبة على مجال نشاط المؤسسة، وأن توضع مناهج عملية تخدم هذا النوع من التعليم، وهذه الفكرة تحقق هدفين، أولهما ارتباط التعليم ببيئة التنمية، وثانيهما محاربة البطالة، لأن الطالب الذي سيتلقى تعليمه في هذه المدارس التخصصية سيلحق

مباشرة فور تمام تدريبه بالمؤسسة صاحبة المدرسة، وبين الأفكار الطريفة التى يقترحها تدريس الأمثال الشعبية والتى هى فى رأيه خلاصة حكمة الشعب المصري ومعارفه.

هذه بعض الأفكار التى يضمها الكتاب، والتى تمس مباشرة مستقبل التعليم فى مستوياته المختلفة.

■

نافورة اللهيب

ماهر شفيق فريد

القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٨، ٢٩١ صفحة



يضم الكتاب مقالات ودراسات نقدية تتناول العقاد وأمين الخولى وعبدالرحمن بدوى ومحمد جبريل وشفيق مقار وتوفيق عبدالرحمن وصلاح الدين البستاني، ومشكلات الترجمة. ثم دراسات فى آداب أجنبية، وأخيرا ترجمة لمختارات من نقد الشاعر الإنجليزى المولد الأمريكى الجنسية و. هـ أودن (١٩٠٧ - ١٩٧٣)، والذى كان أبرز شعراء عقد الثلاثينيات من القرن الماضى.

ويعرض المؤلف كذلك لعدد من المعارك الأدبية التى تميز بها القرن العشرون. وهى معارك تعكس انشغالاً بالشأن الأدبى والثقافى، كما تشير إلى رجال أفذاذ تحاوروا حول قضايا كبرى، برغم بعض الشطط وغلبة الهوى أحيانا، وهو أمر لا تخلو منه معركة أدبية أو فكرية أو سياسية، من ذلك مثلا تلك المعركة التى اشتدت رحاها بين العقاد وأمين الخولى على صفحات جريدة الأخبار، ثم دراسته عن أمين الخولى وعبدالرحمن بدوى وقد كان كلاهما داعية لتجديد التراث وتنقيته والتمييز بين الجوهرى والعارض فيه، وقد كان عبدالرحمن بدوى هو الذى لفت الانتباه إلى صاحب «المقابسات» أبو حيان التوحيدى ووصفه بأنه أديب وجودى فى القرن الرابع الهجرى، وقارنه بالأديب التشيكى كافكا الذى اعتبر الكتابة ضربا من الصلاة، وقد ضرب الخولى وبدوى «مثلا» لنفخ أنفاس الحياة فى التراث وبعث جمراته الخامدة ورؤيته من منظور معاصر.

ويكتب المؤلف عن شفيق مقار الذى يعتبره واحداً من كبار الأدباء والمترجمين والمبدعين الذين ضربوا بسهام إبداعهم فى مجالات عدة، وهو أديب جاوز الثمانين يعيش الآن فى غربى استراليا.

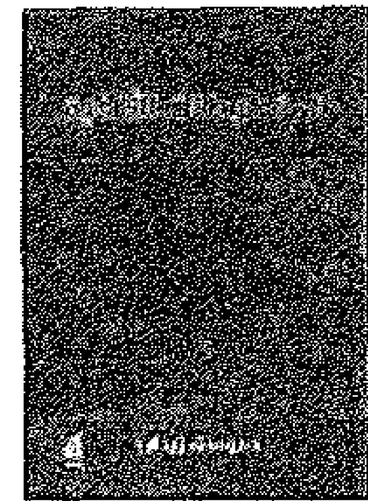
ومن المعاصرين يكتب المؤلف عن رواية محمد جبريل القصيرة «كوب الشاى بالحليب»، ويرى أنها تنم عن دلائل قدرة فنية فائقة تميز بها جبريل منذ «تلك اللحظة» (١٩٧٠) حتى «مواسم الحنين» (٢٠٠٦)، وهو يجمع بين كثافة النسيج الواقعى ورهافة الجمالى الذى يستخدم الرمز والصورة والمجاز بقصد وحساب، وهو من القلائل الذين تبرأ أعمالهم من الحشو والتزويد، ويتابع من كتابات جبريل «أيضا» كتابه «سقوط دولة الرجل» ورواية «البحر أمامها» ورواية توفيق عبدالحميد «أيام حياتنا» وفى الأدب العالمى يكتب المؤلف ويترجم عن قضايا وأشخاص ومناسبات بعضها نعرفه، وبعضها يكشف هو النقاب عنه للمرة الأولى.

■

المخطوطات الألفية

يوسف زيدان

القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠٨، ١٩٥ صفحة



المخطوطة اصطلاحا هى ما خُطَّ باليد، أي أنها عكس المطبوع. لكن ليس كل ما خُطَّ باليد على ورق أو ما شابه يمكن اعتباره مخطوطا، فالمخطوطة تكون فى علم من العلوم أو فرع من المعارف، وقد تكون جامعة لأكثر من علم، كما أن بعض المؤلفين وضع أكثر من علم فى المخطوطة الواحدة بحيث إذا قرأت طوليا كانت فى علم ما، وإذا قرأت عرضيا كانت فى علم آخر، ومنه كما يقول المؤلف ما كتبه القاضى شرف الدين إسماعيل بن المقرئ اللمنى، إذ كتب خمسة كتب من تأليفه على نحو شبيه بالكلمات المتقاطعة وجعلها بعنوان: الشرف الوافى فى الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافى.

أما المخطوطة الألفية فهي تلك التى مضى عليها ألف سنة، ونظرا للتفاوتات بين التاريخين الهجرى والميلادى، فقد اعتبر المؤلف أن المخطوطات الألفية هى تلك التى كتبت حتى سنة ٤٥٠ هجرية وما قبلها ولا تزال باقية إلى اليوم. ويحصرها المؤلف فى المخطوطات العربية، ويستدل على ألفية المخطوطة من تاريخ نسخها. وإن كان بعض النُساخ قد اعتاد نقل تاريخ النسخ الموجود فى النسخة الأقدم على الكتاب (أى يقوم بنسخه، إما عن جهل بأهمية التوثيق أو عمداً لإضفاء قيمة أكبر على المخطوطة. ولذلك فإن مؤشرات أخرى توضع فى الحسبان لمعرفة تاريخ المخطوطة منها نوعية الورق الذى كتبت عليه وطبيعته وعلامته المائية، وطبيعة الحرف العربى الذى كتبت به المخطوطة وضبطه وشكله وغيرها من الشواهد التى توجد فى آخر المخطوطة.

وللمخطوطات الألفية قيمة أثرية كبيرة. فضلا عن قيم أخر، مضافة اكتسبتها بانتقالها عبر رحلتها الألفية من خزانة إلى أخرى ومن عالم إلى آخر، وأن تدوينات كثيرة تضمها حوافها على شكل هوامش أو حواش، وهى بهذه الإضافات تسمح بقراءات متعددة وروايات مختلفة للكتاب الواحد.

ثمة قيمة مضافة أخرى للمخطوطة تتعلق برصدها لتحولات الكتابة العربية التى انتقلت من الخط الكوفى الجامد إلى أنواع أخرى أكثر ليونة. فضلا عن التطورات فى ضبط الحروف ونقط الكلمات وتنسيق الفقرات، بالإضافة إلى نوعية الورق المستخدم.

ويحصر المؤلف فى الكتاب المخطوطات الألفية فى الخزانات الخطية فى دول العالم جميعها شرقا وغربا. ويقدم فى الفصل الثالث إطلالة على مخطوطات الإسكندرية الألفية المحفوظة ضمن مجموعة بلدية الإسكندرية، ويخصص الفصل الرابع للمخطوطات التى هى فى طريقها لأن تصبح ألفية، وفى الفصل الخامس عرض لبعض المخطوطات الألفية الموزعة فى مكتبات العالم ويقدم فى الختام نماذج مصورة منها.

■

نشيد الأنشاد

عزمي بشارة

بيروت - الدار البيضاء

المركز الثقافي العربي



تعبير عن النص، وعن الروح بملكات التعبير الفني وبالصورة الأدبية، الشاعرية، وبجمالية اللغة والصورة معاً.

هذا ما يراه عزمي بشارة في «نشيد الأنشاد الذي لنا».

نص أدبي نسج بهذه الخصوبة، اي بالتعبير الجمالي الحسي الراقي لغةً وصورة.

إنه إيقاع يصور ويعبر عن مشاعر وهواجس إنسان على لسان عاشقة في علاقتها مع محيطها الإنساني والطبيعي، بما فيه من مشروع شخصي وعام وفجيعة شخصية وعامة، وبما فيه من تفاصيل الحياة.

يرتبط المؤلف بها متأثرا متابعاً للتفاصيل عارفاً بكل ما تحمله.

هذا ما فعله بشارة أيضاً في عمليه الأدبيين السابقين، الصادرين عن المركز الثقافي العربي: «الحاجز» و «حب في منطقة الظل».

يستخدم الكتاب إيقاع اللغة وجماليتها للتعبير عن حالات حنين، وحب، وعشق، وحلم وخيبة، ووقفات مواقف وجودية أخلاقية... وكلها على لسان الحبيبية في العلاقة مع الذات والمحب من تفاصيلها الصغيرة اليومية الى التسامي الذي يلامس المقدس الى اقتحام الطارئ الغريب وولوج الاغتراب الى عالم المحبين وتكيف النفوس والمجتمعات الميتة مع الظلم والكذب.

والأداة لهذا كله هي معارضة أدبية جمالية لنص كنعاني قديم يكاد يكون أغنية أفراح حسية شديدة الارتباط بطبيعة المكان بين أغاني الرعاة وردود المزارعين تستحضر روح الإله تموز الذي ورثته التوراة في سفر تحت عنوان «نشيد الأنشاد الذي لسليمان».

ولا يخفى هنا ما يحمله هذا العنوان «نشيد الأنشاد الذي لنا» من احالة على نشيد سليمان وترجمة الحالة الحسية في العلاقة مع طبيعة نفس البلاد إلى صراع أجيال مع ذلك النص الذي يعتبره المؤلف من تراث البلاد وليس من الكارئين عليها.

فهو يتصارع معه ويترجمه الى حالة روحية وحسية بلغة حواس عصرنا فاتخذت الحياة الحسيةَ أبعاداً أخرى في الروح.

هذا نص أدبي إيقاعي (إيقاعية!! كما يقترح المؤلف في البداية)، إنه حوار الذات مع ذاتها، ومع الموجودات، والايقاع نص يقاوم التشظي والغربة والاغتراب في علاقة حب ترتب الحلم والأسطورة على مكان يتجدد في بقائه.

■

■ العلاقة بين الزعامة وإدارة السلطة مثار بحث عميق من منظرى علمى الإدارة والسياسة لكن المفكر الأمريكى الشهير جوزيف ناى راح يمزج ما بين تلك المقاربات عن الزعامة ومواصفات القيادة وبين القوة الناعمة والقوة الخشنة وهو صاحب إسهامات مهمة فى تطوير مفهومى القوتين فى العقود الأخيرة بما يضعه فى مصاف الكبار فى علم السياسة والعلاقات الدولية. ولم يكن مستغرباً أن يأتى الباحث الكبير فى عام الانتخابات الأمريكية ليطل على المشهد السياسى بمؤلف غير عادى، على حد وصف برينت سكوكروفت المستشار السابق للأمن القومى الأمريكى» يجتاز حدودا عدة ليقدم مقاربة هى بمثابة مقدمة فى دراسات الزعامة لم تحدث من قبل. وهو يسعى إلى الإجابة عن أسئلة حيوية: كيف يظهر الزعماء؟ وكيف نميز بين الجيد والسيئ من الزعماء؟ وكيف يمكن أن كل المرشحين الثلاثة المتبقين وهم هيلارى كلينتون وباراك أوباما فى الصف الديمقراطى، وجون ماكين مرشح الحزب الجمهورى، أعضاء فى مجلس الشيوخ. ورغم أن المشرعين من نواب الكونجرس يتمتعون بالعديد من المهارات القيادية، إلا أن قدراتهم الإدارية غير مؤكدة فى الأغلب. ويلفت النظر إلى أنه يعمل تحت إدارة عضو مجلس الشيوخ حوالى مائة موظف، وقد يصل عدد العاملين ضمن حملته الانتخابية إلى عدة مئات آخرين. ولكن هل يستطيع عضو مجلس الشيوخ أن يدير فرعاً تنفيذياً يضم الملايين؟ هذا هو سؤال «ناى» المبدئى عن أى رئيس سوف يصل إلى البيت الأبيض فى يناير ٢٠٠٩. ويقول فى المقدمة إن ثلثى الشعب الأمريكى اليوم يشعرون بأن بلادهم تعانى من أزمة قيادة وهم لا يثقون فى زعمائهم سواء كانوا سياسيين أو رؤساء عمل أو رؤساء جامعات أو قادة رأى عام المديرين بأنهم هؤلاء الذين تتلخص مهمتهم فى تبنى مسارات عمل محددة والسعى إلى تحقيق الاستقرار، بينما يتحمل الزعماء المجازفة ويحدثون التغيير. والمؤسسات تحتاج إلى «الزعماء» و«المديرين»، غير أن الزعماء أكثر أهمية. وطبقاً لتعبير أحد الخبراء فإن الائتلاف بين المديرين الأكفاء والزعماء الفاشلين لن يقود إلى النجاح. يعمل الزعماء الناجحون على تكوين الفرق التى تجمع بين هذه الوظائف، ويحرصون على الاستعانة بمرؤوسين يمكنهم التعويض عن النقائص الإدارية لدى الزعماء. منذ عهد قريب تجدد الاهتمام بالزعماء كمديرين. حيث البصيرة بلا تنفيذ لا تشكل أية قيمة. والزعيم يحتاج إلى القدر الكافى من المهارات الإدارية لضمان وضع الأنظمة فى المكان الصحيح، وعلى النحو الذى يسمح لها بتوفير المعلومات اللازمة لاتخاذ القرارات السليمة وضمان الجديدة. على سبيل المثال، ومن التحليل المتعمق والذى يحمل مفارقة واضحة، يكشف ناى أن جورج دبليو بوش، وهو أول رئيس للولايات المتحدة يحمل درجة الماجستير فى إدارة الأعمال، كان فى هذا السياق أضعف من والده، الذى كان يعرف كيف يدير مجموعة متميزة من المستشارين. فى هذا السياق أيضا، سبق أن وصف ستيفن هادلى، مستشار الأمن القومى الثانى للرئيس بوش، فترة ولاية بوش الابن - الأولى - بالقول «إن إدارتنا تستحق درجة جيد جداً فى ابتكار وتنمية السياسات، إلا أنها تستحق درجة ضعيف فى تنفيذ هذه السياسات».

يزعم الخبراء أن الأنظمة جيدة التصميم تشبه الإخراج المسرحى لقصة ما. فهى تشجع الممثلين على الدخول والخروج بشكل سليم ودون توجيه مباشر. إلا أن الإخراج المسرحى لا يكفى. إذ إن الناس يحاولون دوما تطويع الأنظمة

الزعامة.. وفقدان الزعيم

للزعماء فى عالم اليوم إعلاء قيمة الابتكار والتجديد بما يجعل المرؤوسين أكثر رغبة فى اتباعهم؟

ويتبع البروفسور ناى - الذى يقوم بتدريس منهج السياسة فى القيادة فى كلية جون كنيدى للحكومة بجامعة هارفارد - مسلكاً جديداً فى تقديم كتابه إلى القراء. فهو يقدم مقاربة نظرية بالغة الرشاقة فى كتابه ثم يجرى تمارين عملية فى مقالاته الأخيرة المنشورة فى عدد من كبريات الصحف الأمريكية حول ما يحيق بالولايات المتحدة من أزمة زعامة أو قيادة سياسية واعية فى ظل الرئيس جورج دبليو بوش الذى سيغادر فى غضون ستة شهور البيت الأبيض بعد ثمانى سنوات من القيادة المفتقدة لبوصلة الإدارة الجيدة، فيما يحلل قدرات المرشحين الحاليين عن الحزبين الديمقراطى والجمهورى. وفى سبيل ذلك، يشرح جوزيف ناى أنه للمرة الأولى منذ عقود سوف يتولى رئاسة الولايات المتحدة أحد أعضاء مجلس الشيوخ، إذ فى وسائل الإعلام. لكن مأزق القيادة أو الزعامة لا يقتصر على الولايات المتحدة وحدها فالنتائج نفسها خرجت من بلدان أخرى ولكن الجديد هو وجود الأزمة الراهنة فيما يحدث تحول كبير فى سياق الزعامة والسلطة فى عالم اليوم. فالمعرفة قوة، والكثيرون من المواطنين اليوم لديهم معلومات ومعارف أكبر كثيراً من أى فترة زمنية سابقة فى تاريخ البشرية حيث الوقت قد حان لإعادة تعريف القيادة أو الزعامة فى القرن الواحد والعشرين. ولم تعد القيادة هى ذلك السياق العتيق الذى عبر عنه الرئيس جورج بوش قائلا «أنا من يقرر، وأنا أتخذ ما هو أفضل من القرارات».



يتكون كتاب THE POWERS TO LEAD أو «قدرات من أجل القيادة» وبتعبير آخر «سلطان الزعامة» من خمسة فصول هى القيادة، والقيادة والسلطة، وأشكال ومهارات، وذكاء السياق، والزعماء الجيدون والسيئون.

فى التأسيس النظرى يقول ناى: تميل النظرية المعاصرة فى الإدارة إلى التمييز بين الزعامة والإدارة، وتحمل دور الزعماء قدرا أكبر من الأهمية. يوصف التنفيذ الفعّال. ويضيف: إن الزعيم المؤثر يعمل على إدارة وصياغة بيئة اتخاذ القرار من خلال تأسيس وصيانة الأنظمة المصممة بإتقان. وتتلخص المهارات التنظيمية فى القدرة على إدارة الهياكل الوظيفية والمعلومات، ومكافأة الأنظمة التابعة لمؤسسة أو مجموعة ما. وينوه ناى إلى رصد ٢٢١ تعريفا للزعامة أو القيادة فى المدة ما بين العشرينيات من القرن العشرين وسنوات التسعينيات من القرن نفسه لكن تعريفه الشخصى للزعيم هو: القادر على مساعدة مجموعة من الأفراد على خلق وتنفيذ أهداف مشتركة.

ويتولى الزعماء إدارة مرؤوسيهم بصورة مباشرة، كما يلعبون هذا الدور الإدارى بصورة غير مباشرة من خلال تأسيس وصيانة الأنظمة اللازمة لمؤسساتهم. وهذا يتضمن تشجيع المستويات الزعامية الأدنى فى مؤسساتهم.

ويمكن القول إن الزعيم الناجح هو القادر على تولى إدارة حاشيته الداخلية من المستشارين من أجل ضمان تدفق المعلومات بدقة وفرض نفوذه على الفرع التنفيذى. ويتعين على الزعيم أن يتجنب الوقوع فيما يسميه جوزيف ناى بـ «فخ الإمبراطور»، وهو الفخ الذى يجعله لا يستمع إلا إلى الكلام الذى يطربه مثل الحديث عن وجاهة ملابسه لتحقيق أغراضهم الخاصة، والزعيم الناجح يلعب دوراً حاسماً فى صيانة استقامة الأنظمة العاملة تحت إدارته. وإذا لم يراقب كبار الزعماء أنظمتهم من أجل ضمان التدفق الكامل والدقيق للمعلومات، فلسوف ينحرف عمل الأنظمة، فى الأغلب، بفعل أكثر التابعين قوة. على سبيل المثال، كان برنت سكاوكروفت، مستشار الأمن القومى للرئيس جورج بوش الأب، حريصاً على تمكين الوزراء الأقوياء فى الحكومة من الاتصال بالرئيس على نحو كامل ومباشر.

وتحت إدارة بوش الابن، ظل عدد كبير من نفس الشخصيات القوية يمارس دوره، إلا أن التشوه أصاب النظام الذى يحكم عمل مجلس الأمن القومى، الأمر الذى أدى إلى انقطاع تدفق المعلومات. وكان رئيس هيئة الأركان تحت إدارة وزير الخارجية كولين باول، يصف الموقف بأنه مختلس وسرى ومموه بسبب العجز الذى أصاب عملية اتخاذ القرار الرسمى. أو طبقاً لكلمات الجنرال العسكرى واين داونتج، الذى عمل فى البيت الأبيض: «بمرور السنوات أصبح النظام بين الهيئات جامداً وعاجزاً عن أداء وظيفته إلى حد كبت قدرة حكومة الولايات المتحدة على تطبيق صلاحياتها وسلطاتها الواسعة فى وقت حدوث

THE POWERS TO LEAD
(قدرات من أجل القيادة)
Joseph S. Nye JR,
Oxford University Press, USA
2008, 240 pages

المشاكل والأزمات. ويستطيع المراقب منا أن يدرك هذا العجز فى التنسيق حين يتأمل عملياتنا فى العراق وأفغانستان، أو يستعرض سياستنا الخارجية أو استجابتنا لإعصار كاترينا المدمر.

ويجب ألا يحدث خلط بين المهارات التنظيمية المطلوبة فى شخصية الزعماء والمديرين، وبين كفاءة أو حسن تنظيم عمل المؤسسات. ولا ينبغى أن تقتصر هذه المهارات على المنظمات البيروقراطية ذات التسلسل الهرمى فى القيادة. إذ إن زعماء الحركات الاجتماعية والمجتمع المدنى أيضاً يحتاجون إلى إدارة تدفق المعلومات، سواء نحو الداخل أو نحو الخارج. وفى هذا السياق العريض يدلل حسن التنظيم والإدارة على قدرة الزعماء على ضمان التدفق الدقيق للمعلومات اللازمة لاتخاذ القرارات وتنفيذها. وهنا يكون التأثير والفعالية أشد أهمية من الكفاءة.

يعود جوزيف ناى إلى ضرب الأمثلة فيقول: كان فرانكلين روزفلت، على سبيل المثال، يدير منظومة غير فعّالة تتداخل فيها الصلاحيات والمسئوليات. وكان ذلك مكلفاً على أكثر من صعيد، إلا أن ذلك ضمن له تدفق المعلومات من جهات عدة وعلى نحو تنافسى بين العاملين تحت إمرته. ولم يتصور الرئيس روزفلت على الإطلاق أن هيئات العاملين تحتكر عملية إصدار التقويمات أو إدارة المعلومات، وكان من المعروف عنه أنه يسعى إلى الحصول على المشورة من أى شخص: الوزراء، ونواب الكونجرس، والكتاب الصحفيين، وجماعات المصالح، والمواطنين، وحتى الأصدقاء من حوله.

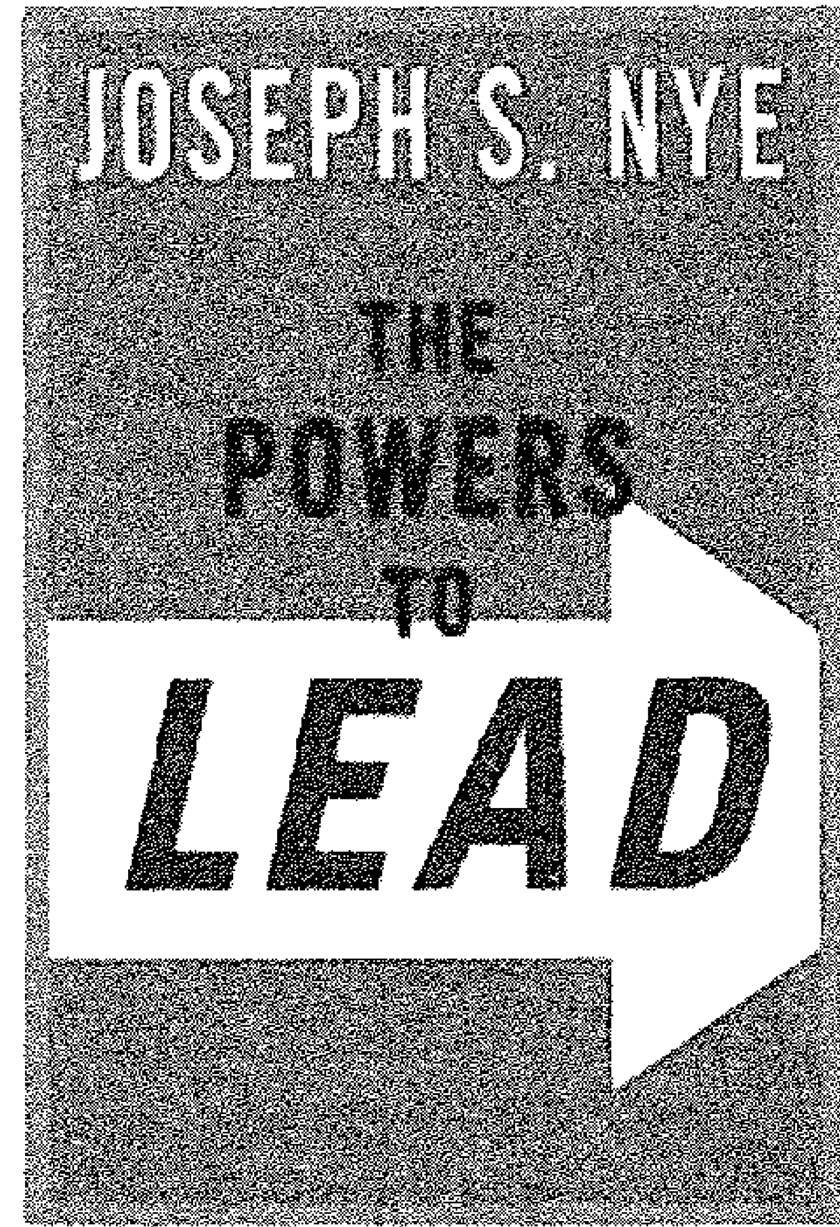
أما دوايت أيزنهاور فقد أدار رئاسة عالية التنظيم تصور البعض فى ذلك الوقت أنها تفتقر إلى الزعامة، إلا أن المؤرخين اكتشفوا فيما بعد أن أياديه الخفية كانت وراء أغلب القرارات المهمة. وكان رونالد ريجان يمارس أسلوب التفويض على نحو مفرط، ولقد نجح ذلك بسبب تمكنه من تشكيل فريق ذى قدرات عالية، إلا أن الأمر تحول إلى كارثة حين تولى الأمر مساعدوه الكبار دونالد ريجان، وجون بويندكستر، وأوليفر نورث. ورغم أن ريجان كان يتمتع ببصيرة ثاقبة، فضلاً عن براعته فى الاتصال وذكائه العاطفى، إلا أنه كان يفتقر إلى مهارات الزعامة كإدارة. فالزعيم الناجح يجمع بين هذه المهارات على النحو الذى يجعل الأنباء السيئة تصل إليه دون غربلة، الأمر الذى يمكنه من التعامل مع الأمر بسرعة.

وفى تعريف جوزيف ناى فإن القوة الناعمة هى القدرة على التوصل إلى الغاية المطلوبة من خلال جذب الآخرين، وليس باللجوء إلى التهديد أو الجزاء. وهذه القوة تعتمد على الثقافة، والمبادئ السياسية، والسياسات المتبعة. وإذا تمكنت من إقناع الآخرين بأن يريدوا ما تريد، فلن تضطر إلى إنفاق الكثير بتطبيق مبدأ العصا والجزرة لتحريك الآخرين فى الاتجاه الذى يحقق مصالحك. أما القوة الخشنة، التى تعتمد على الإكراه، فهى تُستمد من القوة العسكرية والاقتصادية. وتظل لهذه القوة أهميتها الحاسمة فى عالم يزخم بدول تهدد الآخرين، ويعج بالمنظمات الإرهابية. لكن القوة الناعمة ستكتسب المزيد من الأهمية فى منع الإرهابيين من تجنيد أنصار جدد، وفى تحقيق التعاون الدولى الضرورى لمواجهة الإرهاب. وبتعبير كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية فى بداية الفترة الثانية لجورج بوش: «حين استخدم تعبير «القوة» فإننى أقصد المعنى العريض للكلمة، وذلك لأن هناك قوى أخرى مثل قوة الأفكار والمثل العليا وقوة الأمل تأتى فى المقام الأول من الأهمية حتى قبل القوة العسكرية والقوة الاقتصادية».



وفى شأن العلاقات الدولية، سبق أن وجه جوزيف ناى اللوم للخبراء عما يسميه الخطأ، فى كثير من الأحوال، فى تحليل موقف أميركا فى العالم. على سبيل المثال، منذ عقدين من الزمان، ساد مفهوم تقليدى رأى أصحابه أن الولايات المتحدة كانت فى انحدار. وبعد عقد من الزمان، مع انتهاء الحرب الباردة، كان المفهوم التقليدى السائد يرى أن العالم كان عبارة عن هيمنة أمريكية أحادية القطبية. حتى أن بعض المحللين من المحافظين الجدد استنتجوا أن الولايات المتحدة كانت من القوة إلى الحد الذى يسمح لها بأن تقرر أن ما تراه هو الصحيح، وأن الآخرين لابد أن يتبعوا رؤيتها وهو ما سمى بـ «الأحادية الجديدة»، وأثرت هذه الرؤية بشدة على إدارة بوش حتى قبل هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، ويؤكد أن الأحادية الجديدة كانت مبنية على سوء فهم عميق لطبيعة القوة فى السياسة العالمية. فالقوة هى القدرة على التوصل إلى النتائج التى يرغب فيها المرء. وسواء كان امتلاك الموارد اللازمة من شأنه أن يؤدى إلى مثل هذه النتائج فإن الأمر يعتمد على السياق المحيط بالقوة. على سبيل المثال، قد تكون الدبابة الحديثة الضخمة مصدراً للقوة إذا كانت الحرب تدور فى بيئة صحراوية، وليس فى مستنقعات. كما اكتشفت أمريكا فى فيتنام. فى السابق، كانت القوة العسكرية قادرة على الفصل فى أغلب القضايا، إلا أنه فى عالم اليوم، أصبح السياق الذى يحيط بالقوة مختلفا إلى حد عظيم. وهذا السياق هو إحدى الركائز المهمة فى بناء تصور وقدرات جديدة للقيادة أو الزعامة فى الكتاب.

وقد كتب ناى منذ فترة مقالا شهيرا قال فيه: إن توزيع القوى فى عالم السياسة اليوم أشبه برقعة شطرنج ثلاثية. على الرقعة العليا - التى تمثل العلاقات العسكرية بين الدول - سنجد أن العالم أحادى القطبية حقاً، ومن المرجح أن يظل على هذه الحال لعقود من الزمان. ولكن على الرقعة الوسطى - حيث العلاقات الاقتصادية - فسنجد أن العالم قد أصبح متعدد الأقطاب بالفعل، ولا تستطيع الولايات المتحدة فى هذا السياق أن تحرز

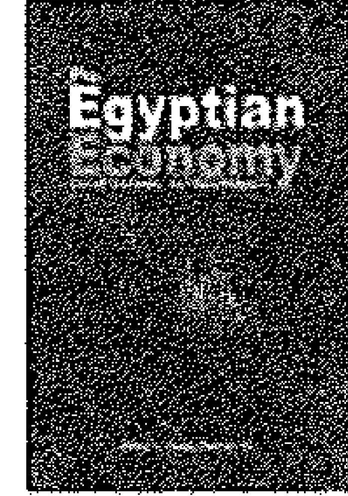


النتائج التى ترغب فيها دون أن تتعاون مع أوروبا، واليابان، والصين، وغيرها من القوى الاقتصادية. وعلى الرقعة السفلية، حيث القضايا المتخطية للحدود القومية والتى تقع خارج نطاق سيطرة الحكومات - بما فى ذلك كل شىء من تغير المناخ، إلى الأوبئة، إلى الإرهاب الدولى - تتوزع القوى على نحو فوضوى، وليس من المنطقى أو المفهوم على الإطلاق أن تزعم أمريكا لنفسها الهيمنة فى هذا السياق. مع ذلك فإن أعظم التحديات التى نواجهها اليوم ناشئة على هذه الرقعة السفلية. والسبيل الوحيد إلى استيعاب هذه المشاكل يتلخص فى التعاون مع الآخرين. ففى هذا السياق لا وجود لحل عسكرى بسيط قادر على تحقيق النتائج التى ترغب فيها.

وينشغل جوزيف ناى كثيرا هذه الأيام بالبحث فى شخصيات المرشحين للرئاسة فى الولايات المتحدة وقدراتهم على تطوير مهارات الزعامة والقيادة فى ضوء السياقات السابقة الداخلية والخارجية. فيقول: لو نظرنا إلى أعضاء مجلس الشيوخ الثلاثة المرشحين للرئاسة الأمريكية، فلسوف نجد أن جون ماكين يتمتع بخلفية عسكرية، إلا أنه كان طياراً ولم يكن قائداً. وسوف نصل إلى خلاصة مفادها أن هيلارى كلينتون (خرجت من السباق) كانت «تعايش» عملية اتخاذ القرار فى البيت الأبيض ولكن ليس باعتبارها صانعة قرار. أما باراك أوباما فهو يتمتع بخبرة الحياة فى خارج البلاد والعمل كمنظم مجتمعى فى شيكاغو، إلا أنه لم يعمل فى الفرع التنفيذى للحكومة الأمريكية من قبل. وباعتبارهم من المشرعين المنتخبين، أظهر المرشحون الثلاثة ذلك النوع من مهارات «القوة الناعمة» التى اجتذبت الآخرين إليهم ودفعتهم إلى التصويت لصالحهم. أما فيما يتصل بقدراتهم كزعماء «إداريين» فإن الأمر لم يحسم بعد.

ويضع ناى مجموعة من المحددات التى تفرق بين القوى الناعمة والقوة الخشنة فى مسألة القيادة فيقول إن القوة الناعمة التى توفر حالة من الاستلهام للتابعين تتضمن ثلاث خصائص رئيسية وهى: الذكاء الشديد الحساسية أو الانفعالى ويشمل القدرة على تنظيم العلاقات والكاريزما والإدراك والسيطرة الذاتية والأمر الثانى هو العلاقات الاتصالية وتشمل استخدام التعبيرات والكلمات والرموز والنماذج لإقناع الآخرين سواء القريب منهم أو البعيد. والأمر الثالث يشمل الرؤية من حيث الجاذبية للتابعين ومدى التأثير (تحقيق التوازن ما بين المثل العليا والقدرات). وبالنسبة للقوى الخشنة، هناك طريقان أساسيان هما: القدرة التنظيمية وتشمل تنظيم أنظمة الإثابة والمعلومات وتنظيم الدوائر الداخلية والخارجية (نوع من القيادة المباشرة وغير المباشرة) والطريق الثانى هو المهارات الميكيافيلية والتى تشمل القدرة على التنمر أو المراوغة والشراء والمساومة. وكذلك القدرة على البناء والمحافظة على تحالف الفائزين فى الصدارة. فى الوقت نفسه، هناك الطريق الثالث ما بين الناعم والخشن وهو القوة الذكية التى تجمع ما بين الاثنين السابقين من خلال ما يسميه ناى بـ «ذكاء السياق» الذى يشتمل على فهم المتغيرات المحيطة ببيئة القيادة والاستثمار فى الاتجاهات، وضبط إيقاع احتياجات السياق الحالى واحتياجات التابعين للقيادة. ■

The Egyptian Economy
(الاقتصاد المصرى)
Hanaa Kheir-el-din
American University in Cairo Press, 2008, 320PP, 27.50$



يشهد الاقتصاد المصرى العديد من محاولات الإصلاح منذ أوائل التسعينيات، ولكن تلك المحاولات بدأت فى التزايد فى الفترة الأخيرة، وكان أهم تلك المحاولات التحول إلى سعر صرف مرن للعملة المحلية، وتحرير التجارة، وتعديل هيكل التعريفات الجمركية، وتطوير قانون ضريبة الدخل، وإعادة هيكلة القطاع المالى وخصخصة العديد من الشركات المملوكة للدولة.

فى هذا الكتاب محاولة لتقييم أثر تلك السياسات الاقتصادية الأخيرة على الاقتصاد المحلى وتسليط الضوء على المجالات ذات الأولوية على المستوى الاقتصادى الكلى والمؤسسى، هذه المجالات منها معدلات النمو وتوزيع الدخل والحد من الفقر، والسياسة النقدية وأثر تحرير سعر الصرف، والبطالة وخلق فرص عمل جديدة، ونظام المعاشات والتأمينات.

الكتاب الذى يشارك فيه العديد من الخبراء، يحاول تقديم اقتراحات يكون من شأنها خلق فرص عمل، وتنشيط النمو، ومعالجة قضايا الفقر وتوزيع الدخل.

أيضا يركز الكتاب على قطاع الطاقة والصحة مقدما تقييما شاملا لها على ثلاثة محاور هى: التمويل والتنظيم وإدارة السياسات.

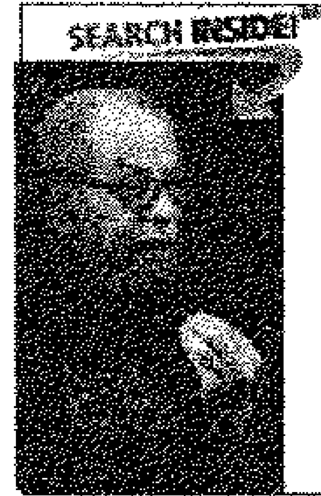
Napoleon's Egypt
(مصر نابليون)
Juan Cole
Palgrave Macmillan, 2008, 304PP, 16.95$



فى هذا الكتاب التاريخى، جون كول يحكى قصة غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨، موضحا الأسباب التى حدت بالجنرال الشاب إلى قيادة البعثة الموجهة لمصر، وموضحا سحر نابليون وولعه بالشرق، كما يغوص فى أعماق جيشه الجبار وحاشيته، راسما صورة للحياة اليومية لجنود الحملة وكيف كانوا يتخيلون مصر قبل مجيئهم وكيف اختلفت تخيلاتهم عن الواقع الذى وجدوه.

يصف جون كول أيضا المعارك العسكرية التى خاضها الجيش الفرنسى فى مصر، ومقاومة المصريين لهم، فى أولى المحاولات الحديثة لغزو العالم العربى.

Naguib Mahfouz
(نجيب محفوظ)
Rasheed El- ElEnany
American University in Cairo Press, 2008, 194PP, 17.95$



نجيب محفوظ هو الكاتب العربى الوحيد الحائز على جائزة نوبل للأدب، مؤلف ثلاث وخمسين رواية وأكثر وخمس عشرة مجموعة من القصص القصيرة، وخمسة وعشرين سيناريو لأفلام والعديد من الاعمال النقدية، بالإضافة إلى أكثر من خمسمائة قصة قصيرة مستوحاة من احلامه.

أدب نجيب محفوظ كان مؤثرا بشكل كبير على عدة أجيال من الأدباء العرب، كما ترجمت كتبه إلى أكثر من أربعين لغة.

فى هذا الكتاب رشيد العنانى يلقى نظرة على حياة الكاتب الكبير وعلى أعماله، مقيما لمجموعة أعماله واصفا لها بأنها الميراث الضخم المصرى والعربى للأدب العالمى وواصفا نجيب محفوظ بأنه كاتب أزال الحدود اللغوية والثقافية وانتشر فى جميع أنحاء العالم.

The Last Campaign
(الحملة الأخيرة)
Thurston Clarke
Henry Holt and Co., 2008, 336PP, 25.00$



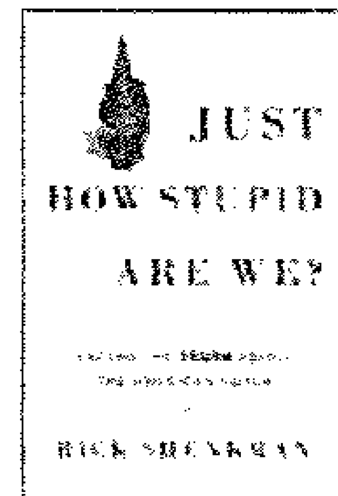
عندما قرر السيناتور روبرت كيندى الأخ الأصغر للرئيس الأمريكى الراحل جون كيندى دخول الانتخابات الرئاسية خلال عام ١٩٦٨، كانت الفوضى تلوح بالأفق، فالسياسة الأمريكية الخارجية كانت غير مقبولة لدى الشعب بسبب حرب فيتنام، كما أن السياسة الداخلية كانت قد أعيت المواطنين الأمريكيين.

الكتاب يتحدث عن جراءة روبرت كيندى فى حملته، ومحاولاته لإيقاظ ضمير المجتمع والوعى الأخلاقى له. كما يتحدث عن خطط كانت لدى كيندى لمساعدة الفقراء والمضطهدين.

على الرغم من جراءته عاش كيندى فى قلق دائم بأن تنتهى حياته بسبب العنف، حتى أنه قد صرح يوما فى ربيع ١٩٦٨ قائلا: « أخشى أن هناك مسدسا بينى وبين البيت الأبيض».

اثنان وثمانون يوما فقط هم عمر حملته الانتخابية، أقنع خلالها ملايين الأمريكيين بأنه رجل عظيم. إلى أن تم اغتياله فى يونيو ١٩٦٨ .

Just How Stupid Are We?
(كم نحن أغبياء؟)
Rick Shenkman
Henry Holt and Co., 2008, 304PP, 25.00$



انهيار السدود فى نيو أورلينز، الجيش الأمريكى على حافة الفوضى فى العراق، سوق العقارات يترنح وعلى حافة الانهيار، الأمريكيون من كافة التيارات السياسية ينظرون إلى الانتخابات الرئاسية هذا العام، وفى الصورة اعتقادهم أن هناك شيئا ما خطأ بالسياسة الأمريكية.

الديمقراطيون يلومون الجمهوريين والجمهوريون يلومون الديمقراطيين، والشعب يلوم المديرين الجشعين للشركات، والصحفيين الفاسدين، وآلات التصويت ذات العيوب، ومقاولى الدفاع.

الشىء الوحيد الذى اتفق عليه الجميع أن الشعب الأمريكى غير ملام، ولكن «ريك شينكمان» يرى فى هذا الكتاب أن الشعب الأمريكى يتحمل المسئولية الأكبر، فالحقيقة أن الديمقراطية الأمريكية هى فى أزهى عصورها، ولكن الشعب صاحب القوة السياسية هو من يسىء استخدامها، ويتنازل عن حقوقه السياسية. فالأمريكيون يعطون اهتماما أقل للسياسة فى وقت يجب أن يكون اهتمامهم الأعظم بالسياسة.

Sail
(الإبحار)
James Patterson , Howard Roughan
Little, Brown and Company, 2008, 400PP, 27.99$

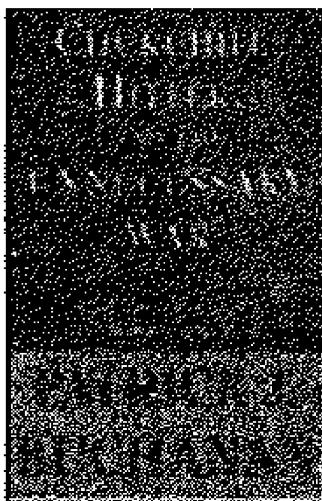


منذ موت زوجها «آن دون» وأبناؤها الثلاثة يعانون كل بطريقته، وفى آخر محاولاتها لإنقاذ أسرتها، تخطط آن لرحلة إبحار لتجمع أفراد أسرتها سويا ثانية، ولكن على بعد ساعة فقط من الميناء، بدأ كل شىء فى السير فى الطريق الخاطئ: فابنتها «كارى» المراهقة تخطط لإلقاء نفسها فى المياه، وابنها «مارك» يتعاطى المخدرات، وابنتها ذات العشرة أعوام، مصابة بالإغماء التخشبى.

الأم تحاول أن تحافظ على رباط العائلة، ولكن ما إن يقترب الجميع من الإحساس بالعائلة من جديد، إلا وتحدث كارثة.

الرواية مكتوبة بعناية شديدة ومليئة بالمشاعر القوية بين الأم وأبنائها.

Churchill, Hitler, and "The Unnecessary War"
تشرشل، هتلر والحرب غير الضرورية
Patrick J. Buchanan
Crown, 2008, 544PP, 29.95$



هل كانت الحربان العالميتان الأولى والثانية ضروريتين وحتميتين؟ وهل كانت الصراعات الأكثر دموية وتدميرا خارج نطاق تحكم البشرية؟ أم كانت نتيجة للإخفاق الفاجع فى الحكم الصحيح؟

فى هذا الكتاب الضخم «باتريك بوكونان» يناقش سبب تلك المأساة، ويناقش كيف أن أخطاء رجال الدولة البريطانيين وأولهم تشرشل كانت هى السبب الرئيسى فى تلك الكوارث، وهى السبب فى انهيار الإمبراطورية البريطانية. وهى السبب فى نصف قرن من الخراب والدمار والقتل والقهر وهى ما جعلت العالم يئن تحت حذاء الاستبداد الشيوعى.

يرى الكاتب أن أكبر أخطاء الإدارة البريطانية كانت معاهدة فرساى عقب

الحرب العالمية الأولى التى تركت ألمانيا هزيلة، متجرعة للمرارة وأوضاعها قابلة لظهور شخص مثل هتلر، وكما يرى أيضا أن استسلام بريطانيا للضغوط الأمريكية إلى قطع التحالف الأنجلو يابانى كان أحد أكبر الأخطاء البريطانية، وهو ما دفع اليابان إلى النزعة العسكرية. أيضا يشير الكاتب إلى مرسوم ١٩٣٥ الذى جعل ايطاليا تنضم مباشرة إلى المحور مع هتلر.

Say You're One of Them

(قل إنك منهم)

Uwem Akpan

Little, Brown and Company, 2008, 368PP, 23.99$



فى هذه المجموعة القصصية يشخص الكاتب أخطار الفقر والعنف الذى يحيط بدول أفريقيا، تروى أحداث القصص جميعا على لسان أبطالها، وهم من الأطفال، فإحدى هذه القصص تروى على لسان فتى فى الثامنة من عمره، يعيش هو وعائلته فى أحد شوارع العاصمة الكينية نيروبى، كل ما يريد هو نقود لشراء كتب الدراسة ولدفع مصاريف مدرسته. قصة أخرى تروى على لسان فتاة صغيرة تصور الصراع القبلى فى رواندا، وتحكى عن المشاكل المحيطة بالفتاة وأخيها، وصراع أبويها فى الدفاع عنهما.

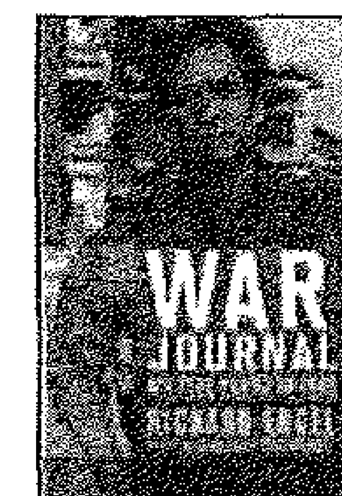
فى هذه المجموعة يأخذ الكاتب القارئ فى رحلة عبر أفريقيا، ويتعرض للمآسى التى تجتاح الأراضى الأفريقية، مارا بنيجيريا وبنين وإثيوبيا، ليكشف كيف يعيش أطفال أفريقيا.

War Journal

يوميات الحرب

Richard Engel

Simon & Schuster, 2008, 400PP, 28.00$



ريتشارد انجيل رئيس مكتب الشرق الأوسط لـ: إن بى سى يقدم فى هذا الكتاب تأريخا لخمس سنوات أمضاها فى العراق، لتكون فترة خدمته هى الأطول بين الصحفيين الأجانب على الإطلاق فى العراق. انجيل استطاع الوصول إلى كل القادة العسكريين الأمريكيين، والمتمردين السنة والميليشيات الشيعية وعائلات عراقية، بل واستطاع الوصول إلى الرئيس الأمريكى جورج بوش.

فى هذا الكتاب يحكى انجيل عن العراق قبل الحرب وأثناء الحرب وبعد الحرب، يحكى عن العمليات الخاصة الأمريكية فى العراق، عن عملية اختطاف لأحد الجنود من قبل المقاومة فى مدينة الرمادى ومحاولات إنقاذه من قبل القوات الأمريكية، عن النفوذ الإيرانى فى المدن الشيعية، ودور الحكومة العراقية فى الشارع.

يصف الكاتب أيضا الشارع العراقى إبان الانتخابات، ويتعرض لآثار تأخر القيادات الأمريكية فى فهم طبيعة العراق وشخصيتها.

The End of Food

(نهاية الغذاء)

Paul Roberts

Houghton Mifflin, 2008, 416PP, 26.00$

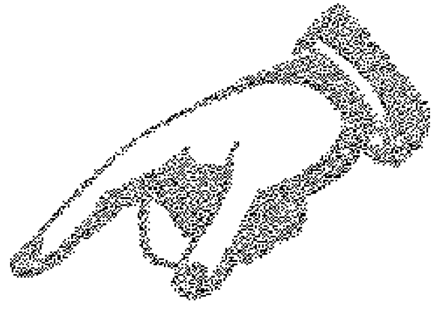


الاقتصاد العالمى يقارب على عدم الوفاء بالاحتياجات الأساسية من الغذاء فى الفترة المقبلة، فهناك نقص كبير يجتاح العالم فى المواد الغذائية وتزايد ضخم فى عدد المستهلكين، وانخفاض عام فى جودة المحاصيل، وتزايد الأمراض التى تحيط بالغذاء التى كان آخرها أنفلونزا الطيور.

أيضا توزيع الغذاء فى العالم يراه الكاتب بأنه ليس عادلا بالمرة، فعلى الرغم من أن هناك بليون شخص يعانون من البدانة، فإن هناك على المقابل بليونا آخرين لا يجدون قوت يومهم، وهو ما أدى إلى أن هناك بعض المناطق تعانى من نقص لفيتامينات معينة، فهناك مناطق بأفريقيا يندر أن تجد فيها غذاء يحتوى على فيتامين ايه مما أدى إلى وجود أكثر من خمسة ملايين طفل مصابين بالعمى نتيجة نقص فيتامين ايه لديهم.

أيضا أساليب الزراعة الميكانيكية والكيميائية مرهقة جدا للتربة، مما قلل من جودة وإنتاجية المحاصيل الغذائية بصورة عامة، وأيضا دخول شريحة جديدة من المستهلكين الأثرياء إلى سوق الأغذية أدى كذلك إلى ارتفاع أسعار الغذاء فى العالم. هذا الكتاب بمثابة إنذار عام للعالم ورؤية لمستقبل قريب، قد تندلع فيه الفوضى بحثا عن الغذاء.

كتاب الزاوية



فى العلاقة بين الفنون والعلوم

رفاعة الطهطاوى

الفنون الأدبية المسماة بعلوم العربية وهى النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والخط والعروض والقوافى وقرض الشعر والإنشاء والمحاضرات ولاسيما اللغة وكل ما يعين على تحسين العبارات العلمية كلها آلة للعلوم الحقيقية عقلية أو نقلية، فبالتمكن من الفنون الأدبية يقتدر الإنسان على التعبير عما فى الضمير بأحسن عبارة وأوضح إشارة ويحصل على ملكة تأدية العبارات العلمية بما يقتضيه الحال من اختصار أو بسط، فمن هذا يفهم أن المعارف الأدبية والعلوم الحقيقية متعلق بعضهما ببعض لكمال ما بينهما من الروابط والمناسبات وأن كلا منهما متوقف على الآخر وإذا نظرنا إلى ما سبق من التقدمات العلمية فى البلاد المتمدنة كبلاد اليونان وبلاد الرومانيين وبلاد الإسلام وجدنا أن دراسة الآداب فى مدن آسيا وروما وبغداد ومصر وغيرها حسنت دراسة العلوم الحقيقية وإن دراسة العلوم الحقيقية كست المعارف الأدبية حلل البهجة والرونقة وزادتها تحسينًا وتكميلاً.

فكل من النوعين العلميين اقتبس من الآخر ما زاده بهجة وكمالاً ولما كانت بهجة اليونان لم تكمل إلا بالجمع بين النوعين سعدت بذلك وتمتعت بفضل الحكمة والآداب واشتهرت بذلك أكثر من غيرها وصارت العلوم الأدبية والعلوم الحكمية متقارنة فى التمكن والتقدم خصوصًا فى مدينة أثينا وهى مدينة حكماء اليونان، وكذلك الرومانيون فكانت فى زمن القيصر أغسطوس أدبياتهم وحكمياتهم على حد سواء فى التقدم والتكامل لاسيما فى مدينة روما.

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

حسن.. والقاعود

قرأت باستغراب ودهشة تعقيب الكاتب السورى جميل حسن على مقالة أستاذى الدكتور حلمى محمد القاعود، فوجدت فيها مغالطات وإساءة غير مستحبة لكاتب كبير وعالم جليل، لم أر منه فى أثناء دراستى إلا النموذج والقدوة فى علمه وسلوكه وأخلاقه واعتداده بنفسه وإخلاصه فى عمله وحبه لوطنه، ولم يكن لائقًا من المعقب الذى وصف نفسه بأنه من مؤسسى حزب البعث أن يتحدث عن المجلة المحترمة بصورة توحى بمفهوم المخالفة برأيه فى الكاتب لمجرد أنها نشرت له رأياً خالف رأيه أو لا يحب أن يقرأ الناس هذا الرأى، والدكتور القاعود علمنا دائماً أن الحكم لا بد له من دليل ومن مرجع، وقد ذكر فى مراجعه ما يشير إلى ما اعتمد عليه بالنسبة للطائفة النصيرية أو العلوية، وما لم يقله الدكتور القاعود. ربما للمواءمة. أن هذه الطائفة خانت الإسلام والمسلمين فى أثناء الحروب الصليبية، وانضمت إلى المهاجمين الغزاة مما دفع الإمام ابن تيمية إلى محاربتها والانتصار عليها ثم تكفيرها، ويمكن للسيد جميل أن يرجع إلى الكتب الآتية ليرى فيها ما هو أقسى مما قاله الدكتور وما أكدته وقائع التاريخ التى أجمع عليها معظم المؤرخين: الجذور التاريخية للنصيرية العلوية للحسينى عبدالله . دار الاعتصام القاهرة ١٤٠٠. ١٩٨٠م، الملل والنحل للشهرستانى (طبعات متعددة) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، دار الكتب العربية، القاهرة د. ت، رسائل ابن تيمية (رسالة فى الرد على النصيرية)، الباكورة السليمانية فى كشف أسرار الديانة النصيرية لسليمان أفندى الأذنى. بيروت. ١٨٦٤م، تاريخ العلويين لمحمد أمين غالب الطويل، اللاذقية (عاصمة دولة العلويين التى أقامها الفرنسيون) ١٩٢٤م، خطط الشام لمحمد كرد على. دمشق ١٩٢٥م. ٣/٢٦٥. ٢٦٨. ٦/١٠٧. ١٠٩، دائرة المعارف الإسلامية: مادة نصيرى، إسلام بلا مذاهب لمصطفى الشكعة. دار القلم. القاهرة ١٩٦١م، الأعلام للزركلى. بيروت ١٩٥٦م. ٢٥٤/ ٢ دراسات فى الفرق لصابر طعيمة. مكتبة المعارف الرياض ١٤٠١. ١٩٨١م.. واكتفى بهذا القدر من المراجع التى تؤكد ما ذهب إليه مقال القاعود.

ثم إنى لا أريد أن أتحدث عما تفعله الطائفة الآن وهى تحكم الشعب السورى بالحديد والنار، ولا تقبل ـ مجرد قبول ـ أن يجتمع بعض المفكرين فى صالون أحد المنازل ليفكروا فى شئون وطنهم، فتعتقل كبار السن والمرضى دون شفقة أو رحمة.

إن الكاتب يدافع بالدرجة الأولى عن النظام، لأنه يعلم أن الطائفة العلوية، وهى أقلية لا يزيد عددها على ١٠٪، حققت حلم حياتها بحكم عاصمة الأمويين عن طريق الانقلاب العسكرى، أما حكاية السلام مع العدو الصهيونى، فالمصريون فى أغلبيتهم الساحقة مازالوا يؤمنون بفلسطين السليبة وضرورة تحريرها، ويرفضون التطبيع مع المحتلين، وقد لقيت جماعة غرناطة وجماعة كوبنهاجن ما تستحق فى حين قد لا يذكرنى الدكتور القاعود الآن. فقد واصلت دراستى فى مكان آخر.

ولكنى أردت أن أحيى الرجل المترفع عن الشهرة الذى لم يرحل إلى العاصمة كدأب غيره من المثقفين بل استمر يقيم فى أعماق الريف مع أهله الفلاحين البسطاء.

د. كمال على
الإسكندرية



الشيعة والسنة

فى عدد يونية ٢٠٠٨ وعلى صفحات الوقورة (وجهات نظر) كتب الدكتور رضوان السيد مقالا خاصا بالشيعة والسنة... وصادف هذا المقال أننى كنت فى حالة قراءة لكتاب يتناول أيضاً موضوع الشيعة والسنة. ثم جاء المقال المذكور مكملاً لسياق الحالة.

كثيراً ما يطرح التساؤل التالى إلى متى سوف يظل هذا الصراع المذهبى بين مذهبين من أكثر مذاهب الإسلام انتشاراً خاصة أن جميع النتائج المحلية والدولية لهذا الصراع لا تصب إطلاقاً فى مصب المصلحة الوطنية لأى من الطرفين بل إن حصيلة الجميع من هذا التناحر هى الخسران البين.

الخلفيات التاريخية والسياسية لهذا الانقسام معروفة ولا مجال للحديث عنها فى هذا المقام وليس هذا محل حديثنا الآن ولكن ما أود أن أشير إليه هو أن هذا الصراع (السنى - الشيعى) له علاقة بطبيعة تكوين البنية الثقافية والذهنية لدى عموم المسلمين أكثر مما له علاقه بطبيعة الخلاف ذاته... بمعنى أن مرجعيات هذا الصراع حتى الآن ليس لها علاقة بالأزمة المشهورة بين (على ومعاوية) ولكن ترجع للأزمة المشهورة بين (العقل والعاطفة) بل إن التفكر والتدبر بروية فى استمرار هذا الصراع حتى الآن قد يؤدى بصاحبه فى نهاية الأمر أن تصيبه حالة من الضحك المتواصل .... لكى يتواصل هو بدوره مع (النسق العام) الذى يؤجج استمرار هذا الصراع التاريخى.

.. من نكد الزمان علينا أننا قد ابتلينا بأئمة يجيدون حديث القلب أكثر مما يجيدون حديث العقل ويعشقون حكى خصومات التاريخ وصراعاته أكثر من عشقهم لسرد مصالحاته وهؤلاء المتصدرون للمشهد السياسى العام لا يزالون يمارسون هذا الدور بكفاءة واقتدار... المأساة هنا أن نتائج هذا الصراع لها أبعاد سياسية وليس لها فقط أبعاد مذهبية أى أن هذا النوع ليس من نتائجه أن ينفصل أصحاب كل مذهب بما يتذهبون وينعزلوا عن أصحاب المذهب المخالف بل إن من أشد نتائجه وطأة هو هذه الحالة من التناحر وكل هذا الكم من الكراهية المتبادلة بين أصحاب مذهبين هم فى حقيقة الأمر ينتمون لنفس الدين!؟!

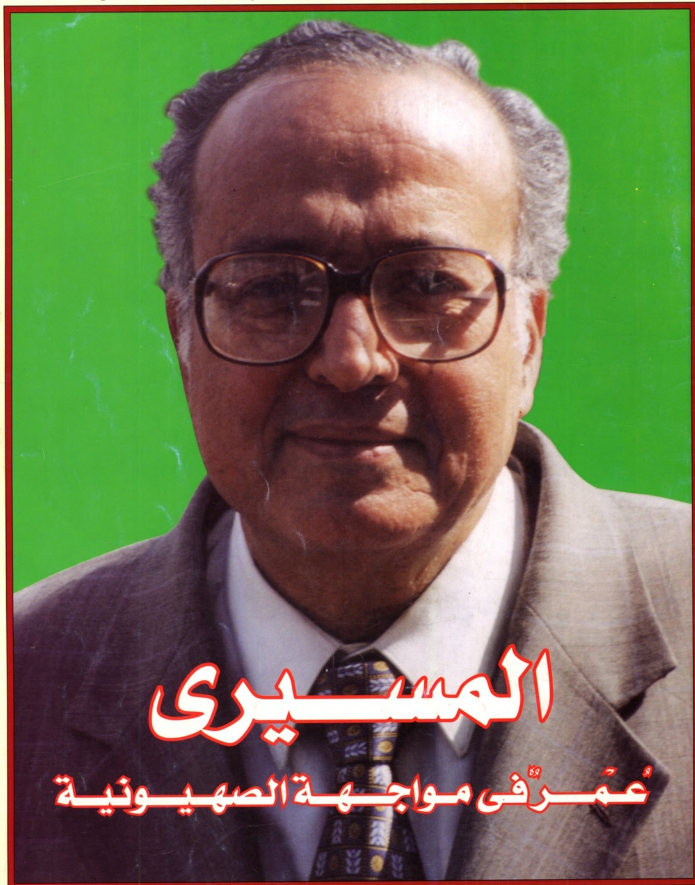
ذكرت فى أسطر سابقة أن مرجعيات هذا الصراع تعود إلى أزمة الصراع بين العقل والعاطفة وهى الأزمة (النسق) التى نعيش جميعاً فى ظلها أيا كان الموضوع الذى نحن بصدده... وهذه بديهية اجتماعية نلاحظها جميعاً، فلو أعملنا العقل قليلا فى أسباب استمرار هذا الصراع لوجدنا أن غالبية إن لم يكن جميع هذه الأسباب إما وقد طواها النسيان أو تجاوزها الواقع وتقدم عليها فكر الإنسان المتحضر... ولكن وقود هذه الحالة لا يزال فى باطن أراضينا وما زلنا نمتلك منه أكبر رصيد من الاحتياطى العالمى.... والوقود الذى أعنيه هنا هو هذه الحالة العجيبة من التلذذ باجترار أسباب الكراهية والنفور أكثر من الرغبة فى تجاهل أسبابها. ويبدو أن هذا الأمر له علاقة باستمرار الزعامة السياسية... ولنا أن نتصور أن الضمير الإسلامى العام رفض استمرار هذا الصراع الطائفى فما هى الحالة التى سوف يصبح عليها أئمة الجانبين؟ وما سيعانونه من فراغ (خطابى) وجوده يملأ نفوسهم إشباعاً وكيف يعطيهم هذا الصراع فرصة لديمومة الظهور والتواجد على جميع الساحات الجماهيرية.

لقد انتهت بالفعل أسباب الصراع (السنى - الشيعى) ولم يعد لشيعية (على). وجود ولا لأتباع (معاوية) حضور لقد تغير الزمان وتبدلت الأقوام ولكن مالم يتغير ومالم يتبدل (تشيعنا) جميعاً للانسياب العاطفى المدمر أكثر من لجام العقل البناء.... ولله فى خلقه شئون.

محمد عبد الفتاح السرورى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية. العدد المائة وخمسة عشر. السنة العاشرة. أغسطس ٢٠٠٨. الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 115 - August 2008





عبد الوهاب المسيرى

رحلتى الفكرية

فى البذور والجذور والثمر

سيرة غير ذاتية غير موضوعية

دار الشروق

وسط البلد: ١ ميدان طلعت حرب ت: ٢٣٩٣٠٦٤٣ - ٢٣٩١٢٤٨٠
مصر الجديدة: ١٥ شارع بغداد - الكوربة ت: ٢٤١٧١٩٤٥ - ٢٤١٧١٩٤٤
الإسكندرية: سان ستيفانو مول ت: ٠٣/٤٦٩٠٣٧٠ ٠١٠١٦٣٣٦٨٥
مدينة نصر: سيتي ستارز مول ت: ٢٤٨٠٢٥٤٤ - ٠١٦٥٥٤٨٧٢٩
الجيزة: فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة ت: ٣٥٧٣٥٠٣٥ - ٣٥٦٨٦١٨٧
الإدارة: ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر ت: ٢٤٠٢٣٣٩٩
email: dar@shorouk.com www.shorouk.com

السنة العاشرة
العدد ١١٥
أغسطس ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد حجاج.. أمين عام الجمعية الأفريقية ـ القاهرة.
- أحمد على الجارم.. الأستاذ المتفرغ بكلية الطب جامعة القاهرة وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- افراهام بورج.. الرئيس الأسبق للوكالة اليهودية وللكنيست الإسرائيلى.
- أنطونيو بادينى.. سفير إيطاليا السابق فى القاهرة.
- دينا حشمت.. صحفية ومترجمة.
- حسان الزين.. صحفى لبنانى.
- سامية أبوزيد.. صحفية مصرية.
- عبد الرءوف الريدى.. رئيس المجلس المصرى للشئون الخارجية.
- عبد الوهاب المسيرى.. أستاذ الأدب الإنجليزى غير المتفرغ بجامعة عين شمس (راحل).
- فضل مصطفى النقيب.. أستاذ فى جامعة واترلو كندا.
- مصطفى اللباد.. كاتب مصرى.
- ناجى عويجان.. أستاذ اللغة الإنجليزية وآدابها بجامعة سيدة اللويز ـ لبنان.
- نايف حواتمة.. الأمين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.
- نذير جزماتى.. كاتب سورى.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى

المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر»، إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة



«صهيونية» المسيرى

دراسة فى المنهج



فضل مصطفى النقيب

■ هذا المقال هو جزء من دراسة بعنوان «رحلة عبد الوهاب المسيرى»(*)، تناول فيها الكاتب تطور فكر المسيرى منذ أن كان تلميذاً فى المدرسة الثانوية يشترك فى المظاهرات الطلابية ضد الاستعمار البريطانى إلى أن أصبح مفكراً قادراً على تكريس خمس وعشرين سنة من حياته فى تأليف موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية». وترى الدراسة أن القيمة الحقيقية للموسوعة لا تتأتى من كمية المعلومات التى تضمها مجلداتها الثمانية، ولا من الحقب الزمنية التى تتعرض لها (وتمتد من الأزمنة القديمة إلى أيامنا الراهنة)، وإنما من كونها مبنية على أساس متين من النماذج المعرفية التى تستخدم منهجية تفكير جديدة مبتكرة. وتنطلق الدراسة من الاعتقاد بأن فهم تلك المنهجية لا يتم بشكل سليم بدون تحديد مكانها فى تطور الثقافة المصرية العربية فى تفاعلها مع الثقافة الإنسانية. وفى هذا المجال فإن الدراسة تبحث فى تطور منهجية التفكير المصرى فى سياق المحاولات التاريخية الثلاث لصياغة مستقبل مصر الحديثة.

المحاولة الاولى التى تمت فى مناخ مشروع محمد على، وقادها رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠٢ - ١٨٧٣) واستمرت من بعده على يدى الإمام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٤) وجمال الدين الافغانى (١٨٣٩ - ١٨٧٩) وكانت تدعو لنشر التعليم واكتساب المعارف والعلوم الأوروبية وتنظيم المجتمع وفق تعاليم الدين المتحرر من خرافات الجهل والتأخر، وبهدى الصفحات المضيئة من التاريخ العربى الإسلامى. وكانت ترى أن ذلك سيمكن مصر من استعادة قوتها التى كانت تتمتع بها فى الماضى.

والمحاولة الثانية التى تمت فى مناخ ثورة ١٩١٩، وانطلقت من الاعتقاد بأن نقل أساليب العلم والمعرفة من أوروبا لا يقود للنهضة المرجوة بدون بناء مجتمع جديد يوفر البيئة المناسبة لازدهار العلوم والإبداع والتجديد، وقد عبر عن هذه المحاولة ثلاثة تيارات فكرية. التيار الاول هو تيار الحداثة الأوروبية الذى يدعو إلى محاكاة الحياة الأوروبية بشكل كامل، وفيه من يدعو إلى اقتباس النموذج الديمقراطى الليبرالى الأوروبى مثل طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣)، ومن يدعو إلى اقتباس النموذج الاشتراكى المادى الأوروبى مثل سلامة موسى، (١٨٨٧ - ١٩٥٨). أما التيار الثانى الذى مثله محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) فقد عارض التيار الأول إذ رأى فى دعوته إلى اقتباس النماذج الأوروبية دعوة إلى تحطيم الأسس الأخلاقية للمجتمع وتكريس ضعفه وبقائه تحت سيطرة الاستعمار الأوروبى. ودعا ذلك التيار إلى بناء المجتمع وفق الأسس الحقيقية للدين الإسلامى التى اتبعها السلف الصالح والتى لا تختلف فى جوهرها عن المبادئ الأساسية التى قامت عليها الحضارة الأوروبية. وبين هذين التيارين، تيار الحداثة وتيار السلفية، كان هناك تيار ثالث فى الوسط يدعو إلى الانفتاح الكامل على الحضارة الأوروبية مع الالتزام التام بالانتماء العربى الإسلامى. (أحمد أمين، ١٨٨٦ - ١٩٥٤ وأحمد حسن الزيات، ١٨٨٥ - ١٩٦٨).

وأخيراً المحاولة الثالثة التى تمت فى مناخ التغيرات الهائلة التى أحدثتها ثورة يوليو لسنة ١٩٥٢ فى البنية الاقتصادية والسياسية للمجتمع المصرى. ويعتقد الكاتب أن عبد الوهاب المسيرى هو واحد من أهم المعبرين عن توجهات تلك المحاولة الفكرية. فإذا كانت المحاولة الاولى قد ركزت فى البحث عن القوة عن طريق اقتباس الأساليب العلمية الأوروبية ثم جاءت المحاولة الثانية لتؤكد أنه لا يمكن اقتباس الأساليب العلمية من أوروبا وكأنها موجودة فى فراغ، وأنه يجب تبنى المنهج العقلانى القادر على خلق البيئة الثقافية التى تنمو بها العلوم وتتطور وتزدهر، جاءت المحاولة الثالثة لتوضح وتشرح وتبين أنه لا يوجد منهج عقلانى محايد، فالمنهج هو نتاج البيئة التى ينمو فيها بخلفيتها التاريخية والثقافية. وأن ما يطرحه أى منهج من مفاهيم وأطروحات ما هى فى واقع الأمر إلا «إجابات» على «أسئلة» تطرح نفسها فى مجتمع معين وفى حقبة زمنية معينة. وأن استعارة «الأجوبة» و«الأسئلة» من الخارج تقود دوماً إلى التبعية وإلى التأخر.

كانت سنوات ثورة يوليو فى الخمسينيات والستينيات هى سنوات «الحماسة» التى تم فيها طرح أسئلة حقيقية فى السياسة والاقتصاد بشجاعة. وبعد انحسار العهد الثورى وانتصار الثورة المضادة، وانتشار ممارسات استيراد «الأجوبة» من الخارج ثم صياغة «الأسئلة» التى تتناسب مع تلك «الأجوبة» تابع بعض المنحازين للثورة طرح الأسئلة الحقيقية والبحث عن الإجابات الحقيقية وقد تميزت إسهامات عبد الوهاب المسيرى فى أن طرحه للأسئلة وبحثه عن الأجوبة كان دوماً يتم فى العمق بشكل يتجاوز مجال السياسة المباشر ويحلق فى فضاء الفكر والفلسفة. والمقال التالى يخص توجه المسيرى الفكرى فى موضوع دراسة الصهيونية.

....

يقول محمد حسنين هيكل بأن الحركة التى قام بها الضباط الأحرار فى الجيش المصرى صباح ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ لم تتحول إلى ثورة حقيقية إلا فى عام ١٩٥٥ عندما أقدمت قيادة الحركة على تحدى احتكار السلاح والإقدام على شراء السلاح من الاتحاد السوفيتى بتوقيع صفقة الأسلحة الشهيرة باسم صفقة الأسلحة التشيكية. ولاشك أن فى هذا القول مقداراً كبيراً من الصحة على أساس أنه بشكل عام تحدث «الثورة» عندما يتمكن الثوار من إحداث تغيير جوهرى فى علاقات القوة التى تتحكم فى الوضع القائم. ومن هذا المنظور نرى أن كل التغييرات التى قامت بها الحركة قبل إبرام صفقة الأسلحة من خلع الأسرة العلوية وإعلان الجمهورية إلى تطبيق قانون الإصلاح الزراعى إلى محاربة الفساد فى الحكم قد تمت جميعها دون أن يصاحبها تغيير جوهرى فى وضع القوى المتحكمة فى الوضع القائم. لقد تمت فى نطاق شرعية ذلك الوضع.

فى عام ١٩٥٥ عندما بدأت الحركة تحاول القيام بإصلاحات تنموية جذرية كبناء السد العالى وتشييد قاعدة الصناعة الوطنية أخذت إسرائيل تقوم باعتداءات متكررة على الجيش المصرى فى قطاع غزة. كان على الحركة حينئذ البحث عن السلاح لصد الاعتداءات الإسرائيلية والبحث عن مصدر دولى لتمويل مشروع بناء السد العالى. وبسرعة اتضح أن الموضوعين مرتبطان



كان أحمد أمين والزيات يمثلان تيارا ثالثا يدعو إلى الانفتاح على الحضارة الأوروبية مع الالتزام بالانتماء العربى الإسلامى



موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيرى جديد (ثمانية مجلدات، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٩)

الصهيونية والحضارة الغربية الحديثة (دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة ٢٠٠٣)

ببعضهما بشكل عضوى. كان الموقف الأمريكى - البريطانى - الفرنسى يتطلب من مصر الاعتراف بإسرائيل وتوقيع معاهدة صلح معها والانضمام إلى شبكة الأحلاف العسكرية التى تقيمها الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتى، وبعد ذلك يتم تزويد الجيش المصرى بأسلحة خفيفة تؤمن له القدرة على حماية النظام الحاكم من المظاهرات وأعمال الشغب، كما اتضح أن البنك الدولى (ذراع البيت الأبيض الاقتصادية) لن يقوم بتقديم أى قرض مالى لمصر يساعد فى تمويل بناء السد العالى إلا وفق الشروط الأمريكية التى تعنى توقيع الصلح مع إسرائيل وتكريس النمو الاقتصادى فى مصر على أساس الزراعة والصناعات الخفيفة بشكل يبقى فيه الاقتصاد المصرى مرتبطا بشبكة العلاقات الاقتصادية الاستعمارية.

لقد اختارت قيادة الحركة المضى فى نهج الإصلاح والتنمية المستقلة والاصطدام بإسرائيل وقوى الاستعمار وعندئذ خرجت من إطار شرعية الأمر الواقع وراحت تناضل لتأسيس الشرعية الثورية.

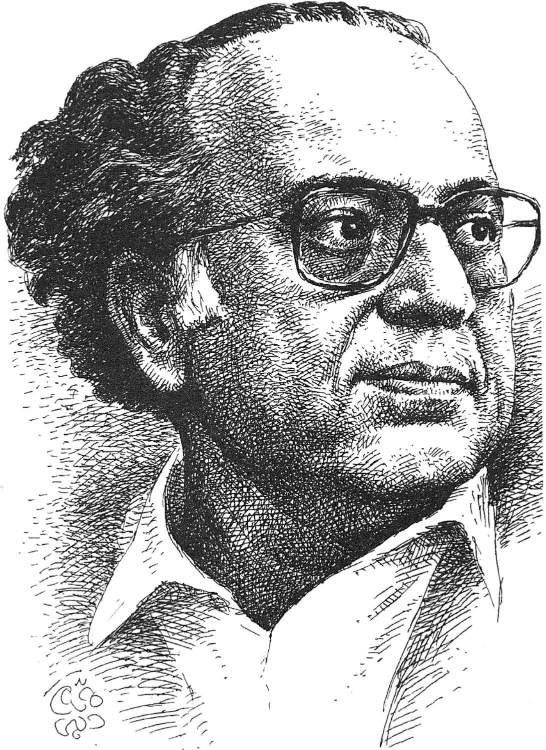
عندما تحولت حركة الجيش إلى مشروع تغيير ثورى حقيقى انقسم المجتمع المصرى، بحكم طبائع الأمور، إلى ثلاثة تيارات سياسية هى «التيار الثورى» و«تيار الثورة المضادة» و«تيار خصوم الثورة». وبشكل طبيعى تكونت هذه التيارات من الإرهاصات التى أحدثتها حركة يوليو فى التيارات السياسية التى كانت موجودة قبل الثورة (السلفية والحداثة الأوروبية والوسط العربى الإسلامى).

لم يعبر التيار الثورى عن إرهاصات تيار السلفية أو تيار الحداثة الأوروبية (بشقيه الليبرالى أو الاشتراكى) مع أنهما كانا يملكان أحزابا سياسية منظمة (شباب الوفد - الإخوان والشيوعيين) وكان لهما أصوات سياسية وفكرية عالية. لقد جاء تعبيرا عن التيار الوسط الذى لم يمثله حزب سياسى وليس له صوت مرتفع. وهكذا كان المناخ الفكرى للتيار الثورى هو الأطروحات الإصلاحية لتيار الوسط الذى مثله أحمد أمين وأحمد حسن الزيات وأخذ يتحول تدريجيا لتيار ثورى من جراء اصطدامه بالمشروع الصهيونى.

قادت قيادة حركة الجيش بسرعة ذلك التيار فى معركة صراع شامل يهدف إلى تحطيم نظام الاقتصاد السياسى الذى أقامه الاستعمار فى مصر وبناء نظام جديد يمثل مصالح الأغلبية الفقيرة من العمال والفلاحين مدركا فى نفس الوقت أن نجاحه فى ذلك الصراع مرتبط بشكل عضوى بقدرته على تكريس انتماء مصر للأمة العربية عن طريق التحالف مع كل حركات التحرر الوطنى العربية وخوض كل معاركها. أما تيار الثورة المضادة فكان يعمل على إعادة عقارب الساعة إلى الوراء والعودة إلى ماكان عليه الوضع قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وكان يضم أحزاب الأقلية وكبار الإقطاعيين فى حزب الوفد. ويمثل أيديولوجية أقصى اليمين فى تيار الحداثة الأوروبية. وعلى العكس من ذلك كان التيار الثالث الممثل لخصوم الثورة لا يعمل على العودة بعقارب الساعة إلى الوراء على أساس أنه كان معاديا للوضع الذى كانت عليه مصر قبل ٢٣ يوليو وإنما كان يختلف مع تيار الثورة فى فكر وأسلوب بناء المستقبل. وضم ذلك التيار شباب الوفد والجناح الاشتراكى فى تيار الحداثة الأوروبية (الشيوعيون) وغالبية التيار السلفى (الإخوان المسلمون).

كان عبد الوهاب المسيرى فى تلك الفترة، ينتمى لتيار خصوم الثورة بحكم انتمائه للحزب الشيوعى حتى عام ١٩٥٩ وتمسكه بالأطروحات الماركسية الفكرية والسياسية بعد ذلك. كان يؤيد الاتجاه السياسى للثورة فى انتهاج طريق التنمية المستقلة ومحاربة الاستعمار والصهيونية ويعارض توجهها الداخلى «غير الديمقراطى».

ابتدأت «الثورة» عند اصطدام حركة الجيش بالمشروع الصهيونى وانتهت عندما اختار أنور السادات مهادنة المشروع الصهيونى فلقد قادت تلك المهادنة إلى تحقيق كل أهداف «الثورة المضادة» فى تقويض كل مكتسبات العمال والفلاحين التى حققتها لهم الثورة ثم تقويض كل مرتكزات المشروع التنموى المستقل فى بناء الصناعة الوطنية والالتزام بأولوية التعليم. وتقويض كل إنجازات الثورة فى بناء العمل القومى العربى وفى هذه الأثناء انزلق الكثيرون فى معسكر خصوم الثورة إلى مواقع الثورة المضادة، بعضهم عن وعى وبعضهم عن غير وعى. أما عبدالوهاب فعلى العكس من ذلك تابع السير وفق النهج الثورى إذ اختار المضى فى





أدرك المسيرى أن فهم الصهيونية يحتاج إلى منهج جديد يبتعد عن الاستقطاب الأيديولوجى





الصراع ضد الصهيونية لأنه عندما هادنت مصر «الرسمية» المشروع الصهيونى، كان ذلك المشروع يطرح فى حياة عبد الوهاب أسئلة ملحة لم يكن بمقدوره تجاهلها.

عندما بدأ عبد الوهاب فى دراسة الحركة الصهيونية اصطدم على الفور بحقيقة أن معظم الأبحاث الفكرية حول موضوع اليهود واليهودية والصهيونية فى أوروبا والولايات المتحدة هى دراسات تخدم أهدافًا سياسية وأيديولوجية، إذ وجد أن مؤيدى الصهيونية من الكتاب اليمينيين والليبراليين واليساريين يتبعون منهجا مفرطا فى الخصوصية. إنهم ينطلقون من مقولة وجود الشعب اليهودى الذى له صفات مميزة حافظ عليها فى كل البلاد وعبر كل الأزمان وأن فى ذلك التاريخ مرجعيته الذاتية. أما المعادون للصهيونية من بعض اليساريين فإنهم على العكس يستخدمون منهجا مفرطا فى التعميم لا يرى فى الجماعات اليهودية أية خصوصية حضارية أو اثنية أو اقتصادية وبناء على ذلك فوضع اليهودى فى أى بلد هو كوضع أى مواطن آخر محكوم بأوضاع ذلك البلد وهو إما عامل أو رأسمالى، بورجوازى أو ثورى... إلخ.



أدرك عبد الوهاب أن فهم الصهيونية يحتاج إلى منهج جديد يبتعد عن الاستقطاب الأيديولوجى والتأرجح المعرفى بين الخصوصية المفرطة والتعميم الكامل، وأن بناء ذلك المنهج يحتاج إلى الإلمام بكل الحقائق المهمة المتعلقة بحياة الجماعات اليهودية فى البلدان المختلفة وكيف تطورت منذ التاريخ القديم وصولا إلى الأزمنة الحديثة. ومن المهم أن يتمكن ذلك الإلمام من إلقاء الضوء على كثير من الحقائق التى تم تجاهلها والأحداث التى تم تهميشها خدمة لأهداف أيديولوجية.صبغت معظم الدراسات الأوروبية والأمريكية. وفى نفس الوقت كان عبد الوهاب يدرك أن ذلك الجهد بحد ذاته، على أهميته، غير كاف لتقديم فهم مقنع لماهية الحركة الصهيونية وتاريخها والاحتمالات المتوقعة لها فى المستقبل. فذلك الجهد يحتاج إلى جهد آخر مكمل له يقوم بدراسة تلك الحقائق ومقارنتها بعضها ببعض فى إطار البلدان المختلفة والأزمنة المتباينة ثم تنظيمها وتنسيقها ثم التركيز على بعض الحقائق التى تحمل دلالات مهمة وترتيبها ترتيبا خاصا وفق علاقات واضحة حتى تصبح نموذجا معرفيا يفسر الأوضاع والعلاقات الموجودة فى الواقع بشكل مقنع ومفيد.

بعد جهد كبير فى دراسة أوضاع الجماعات اليهودية فى البلدان الأوروبية المختلفة والتطور التاريخى لأوضاعها المعيشية وهياكلها الأساسية وعلاقة أفرادها بالمجتمعات التى تعيش فيها خلص عبد الوهاب المسيرى إلى أن أفضل نموذج معرفى يساعد على فهم ماهية تلك الجماعات وحقائق تاريخها هو نموذج «الجماعات الوظيفية» أى الأقليات الموجودة داخل المجتمعات أو تلك التى يتم إحضارها من الخارج للقيام بوظائف معينة لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع القيام بها لأسباب شتى.

أخذ عبد الوهاب نموذج الجماعات الوظيفية كما هو مستخدم فى العلوم الاجتماعية وفق إسهامات كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) وماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) وقام بتطويره ليصبح ملائما لدراسة الجماعات اليهودية. كان المفهوم كما هو مستعمل فى العلوم الاجتماعية فى الجامعات الغربية مقتصرا على التركيز على الموضوع الاقتصادى للجماعات الاثنية وجماعات المهاجرين فقام عبد الوهاب بتطويره حتى أصبح على درجة عالية من الشمول والمرونة والقدرة على الإلمام بكل نواحى الجماعات اليهودية الفكرية والدينية والسياسية. (انظر كتابه: الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيرى جديد، ٢٠٠٢)، وفى نطاق هذا النموذج المعرفى التحليلى تحدد دور الحركة الصهيونية على أنها حركة سياسية تعمل على تحويل الجماعات الوظيفية اليهودية إلى «الدولة الوظيفية» التى تحققت بقيام إسرائيل.

أثبت هذا النموذج المعرفى قدرته على تفسير تاريخ الحركة الصهيونية بشكل مقنع بينما تقف النماذج الأخرى التى تتأرجح بين الخصوصية المطلقة والتعميم الكامل عاجزة عن تقديم أى تفسير لا يتناقض بشكل صارخ مع الحقائق التاريخية. وفى هذا المجال يكفى أن نقارن بين القدرة التفسيرية للنموذج المعرفى «الليبرالى» الذى يتبناه أكثر المفكرين الليبراليين فى الولايات المتحدة وأوروبا والقدرة التفسيرية لنموذج عبد الوهاب.

سنأخذ من المفكر المشهور فى جامعة أكسفورد إزيا برلين (١٩٠٩-١٩٩٧) مثالا على القائلين بالنموذج الليبرالى على أساس أنه من أشهر مفكرى الليبرالية الغربية فى القرن العشرين.ومن الذين أيدوا الحركة الصهيونية طوال حياتهم.

نلاحظ فى النموذج المعرفى الذى يتبناه برلين تركيزا على مفهوم «القومية» كما ظهر فى القرن التاسع عشر على أساس أنه مفهوم يعبر عن الحاجة الإنسانية إلى الانتماء إلى هوية جماعية لها خصوصية ثقافية وهو بذلك يختلف مع كثير من مفكرى الليبرالية فى القرن العشرين كفريدريك حايك (١٨٩٩-١٩٩٢) وكارل بوبر (١٩٠٢-١٩٩٤) الذين لا يرون فى القومية إلا تعبيرا حديثا عن القبلية. إنه، على العكس، يرى أن الانتماء القومى يخلق مناخا من الانسجام والتضامن الضرورى لقيام واستمرار النظام الليبرالى السياسى. وهو يرى أن الحركة الصهيونية قد نشأت فى القرن التاسع عشر، كما نشأت الحركات القومية الأخرى، كتعبير سياسى عن حاجة اليهود إلى الانتماء فى وطن قومى يحقق لهم حاجتهم الإنسانية إلى الهوية الجماعية وخصوصا أنه يعتقد أن عمليات انصهارهم فى المجتمعات الأوروبية فى العصر الحديث قد فشلت وقادت إلى الكوارث. وهو يرى أن الحركة الصهيونية قد عبرت بشكل كامل عن المناخ الفكرى للقرن التاسع عشر لأن قادتها الأوائل كانوا يؤمنون بالاشتراكية التى مثلت مع القومية قطبى الفكر السياسى لذلك القرن وفى هذا المجال يبدو شديد الإعجاب بموسيس هيس (١٨١٢-١٨٧٥)..مؤلف كتاب روما والقدس الذى كان شيوعيا وصهيونيا وهو صاحب المقولة المشهورة بأن «المهمة التاريخية لليهود هى توحيد القومية والشيوعية». ومن ناحية أخرى كان برلين يرى أن الصهيونية تمثل حالة خاصة بين الحركات السياسية التى تشكلت بتأثير الفكر «القومى» والفكر «الاشتراكى» فى القرن التاسع عشر. إذ إنه يرى أنها الحركة الوحيدة التى عبرت إلى القرن العشرين محتفظة بالاعتقاد بأن للمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية حلولا يمكن التوصل إليها عن طريق استعمال الأساليب العقلانية، وأن التوصل إلى هذه الحلول يتم عبر إحداث تغيير فى ممارسات القوى المتصارعة، بينما تحولت الحركات القومية والاشتراكية الأخرى فى القرن العشرين إلى الفاشية والنازية والستالينية التى أخذت تتصرف على أساس أنه ليست هناك حلول عقلانية للمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأن الطريقة الوحيدة للتخلص من تلك المشاكل تكون فى إلغائها واستئصال وجودها بشكل كامل عن طريق إلغاء وجود بعض أطرافها.

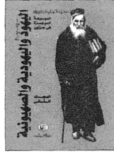
دعنا الآن نقارن بين القدرة التفسيرية لهذا النموذج المعرفى، نموذج الحركة الصهيونية كحالة خاصة بين الحركات القومية والاشتراكية فى القرن التاسع عشر، والقدرة التفسيرية للنموذج المعرفى الذى صاغه عبد الوهاب المسيرى، نموذج الحركة الصهيونية كحركة انتقال بالجماعات اليهودية الوظيفية إلى الدولة الوظيفية، وبشكل محدد دعنا نرى كيف يفسر النموذجان المقولات الأربع التالية، التى تشكل كل واحدة منها محطة مهمة فى تاريخ الحركة الصهيونية.

❖ فى عام ١٩٣٧ أدلى السيد ونستون تشرشل بشهادته أمام لجنة بيل المنوط بها التحقيق فى الصراع الدائر على أرض فلسطين وقال: «أنا لا أرى أن للكلب الحق فى الزريبة التى يعيش فيها حتى ولو



اصطدم المسيرى بحقيقة أن معظم الأبحاث الفكرية حول اليهود واليهودية والصهيونية تخدم أهدافا سياسية وأيديولوجية





عاش فيها مدة طويلة جدا. أنا لا أسلم له بهذا الحق. وعلى سبيل المثال فأنا لا أسلم بأن ظلما قد حصل للهنود الحمر فى أمريكا، أو السود فى أستراليا. أنا لا أومن بأن ظلما قد لحق بهؤلاء الناس من جراء حقيقة أن جنسا من صنف أرقى قد جاء وحل محلهم».

* فى عام ١٩٤١ قال موشى شاريت مدير الدائرة السياسية فى الوكالة اليهودية بأنه «لا يحتاج إلى الذهاب إلى العرب للحصول على اتفاقية بشأن فلسطين وذلك لأن الكلمة النهائية حول الموضوع ليست لهم ولكن للبريطانيين والأمريكان».

* فى عام ١٩٦٨ قالت جولدا مايرسون رئيسة وزراء إسرائيل: «ليس هناك شعب فلسطينى».

* فى مطلع الثمانينيات من القرن الماضى بدأ قادة إسرائيل يصفون القدس بأنها عاصمة إسرائيل منذ ثلاثة آلاف سنة.

من الواضح أن نموذج «الصهيونية كحركة خاصة من الحركات القومية والاشتراكية فى القرن التاسع عشر» يعجز عن تقديم أى تفسير لأى من هذه المقولات الأربع. فليس هناك فى كل مدارس الفكر القومى والاشتراكى فى القرن التاسع عشر ما يبرر مساواة حقوق أى جنس من البشر بحقوق الحيوانات كما تؤكد المقولة الأولى: كما أن المقولة الثانية تتنافى كليا مع أوليات المفهوم القومى فى حرية تقرير المصير وعدم شرعية تحكم شعب بمصائر شعب آخر. أما حل مشكلة الشعب الفلسطينى باتباع أسلوب «إلغاء» وجوده كشعب فهى مقولة تخص فكر النازية والستالينية كما وصفها برلين وليس الفكر القومى والاشتراكى للقرن التاسع عشر. أما المقولة الأخيرة فهى متممة للتى سبقتها فبعد إلغاء وجود الشعب الفلسطينى لا بد أيضا من إلغاء تاريخه.

فى المقابل، نرى أن نموذج عبد الوهاب المسيرى المبنى على أساس الحركة الصهيونية «كحركة انتقال بالجماعات اليهودية الوظيفية إلى الدولة الوظيفية» يقدم تفسيرا مقنعا لهذه المقولات الأربع وبشكل يغنى ويعمق فهمنا لماهية وتاريخ الحركة الصهيونية.

فى نموذج الجماعات الوظيفية يوجد طرفان: الطرف الذى يوظف والطرف، الذى يقوم بأداء الوظيفة. وفى مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين كان الطرف الأول هو بريطانيا العظمى التى التزمت عام ١٩١٧ بوعد بلفور فى العمل على مساعدة الطرف الثانى على الانتقال إلى مرحلة الدولة الوظيفية. ولهذا كان على تشرتشل تبرير هذا الانتقال وفق المنطق الاستعمارى القائم على أساس حق الجنس الأقوى والأرقى فى السيطرة على والتصرف بمقدرات الجنس الأضعف.

أما المقولة الثانية فهى تؤكد أن الطرف الآخر سيلتزم بقواعد اللعبة بشكل كامل ولن يتعاون إلا مع الطرف الأول ودون أى اعتبار لرغبات أهل البلاد الأصليين. كما أن «إلغاء» وجود الشعب الفلسطينى فى المقولة الثالثة يفسره نموذج عبد الوهاب بشكل مقنع إذ إن دراسته التاريخية للجماعات الوظيفية أظهرت أن أعضاء الجماعة الوظيفية يصلون إلى مرحلة يختزلون فيه العالم بأسره والواقع بكل تعقيداته إلى مبدأ واحد هو الوظيفة نفسها التى يقومون بها. وعندها تصبح الجماعة هى مرجعية ذاتها فيمكنها «أن تلغى الآخر وتراه غائبا أو ترى حضوره بدون معنى». وأخيرا فمضمون المقولة الأخيرة هو نتيجة انفصال أعضاء الجماعة الوظيفية عن التاريخ الحقيقى وتعلقهم بالتاريخ المقدس الذى يخصهم وحدهم. وليس فيه مكان للآخر.



إذًا ليس صحيحا أن الحركة الصهيونية مثلت حالة خاصة تختلف عن الحركات الفاشية والنازية والستالينية فى أنها لم تتبع أسلوب حل المشاكل عن طريق «إلغاء» أحد أطراف تلك المشاكل. فالحقائق التاريخية تؤكد أن الحركة الصهيونية قد بدأت باتباع ذلك الأسلوب قبل سنوات عديدة من ولادة الحركات الفاشية والنازية والستالينية. علينا فقط أن نتذكر أن خمس محاولات للاستيطان اليهودى فى فلسطين فى الفترة الممتدة من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩١٤ قد فشلت لأنها تمت من قبل جماعات تتبنى أفكار ومفاهيم القرن التاسع عشر بينما نجحت المحاولة السادسة التى تمت بعد أن تم تحالف الأحزاب العمالية اليهودية مع الحركة الصهيونية بشكل تنكرت فيه تلك الأحزاب لمبادئ الاشتراكية الأممية التى تدعو للتضامن العمالى فى كل القوميات وتبنت مفاهيم «احتلال العمل» أو «العمل العبرى» الذى يقوم على أساس تحالف العمال اليهود مع البرجوازية اليهودية من أجل «أخذ العمل فى الاقتصاد من العمال العرب وإعطائه للعمال اليهود» أى إلغاء وجود العمال العرب.

إن النموذج المعرفى الذى صاغه المسيرى لا يترك مجالا للشك فى أن الحركة الصهيونية لم تكن حركة خاصة بين الحركات السياسية فى القرن العشرين. لقد كانت، فى واقع الأمر، حركة رائدة. فى تكريس ممارسات الإلغاء والإقصاء والتهميش التى مارستها بعد ذلك الفاشية والنازية والستالينية.

والمسيرى لا يتوقف عند ذلك فنموذجه المعرفى يوضح أيضا أن الفاشية والنازية والستالينية لم تكن حالات خاصة فى مسيرة الحضارة الغربية. لقد كانت هذه الحركات تعبيرا عن تطور تلك الحضارة فى اتجاه ما يسميه بالعلمانية الشاملة أو العلمانية العدمية. فالمسيرى يفرق بين مفهومين للعلمانية الأول هو العلمانية الجزئية التى تعنى فصل الدين عن الدولة وهو لا يرى أى مشكلة فى ذلك. أما المفهوم الثانى فهو رؤية شاملة للكون تكرس فصل كل القيم الأخلاقية عن الحياة العامة وقد تم هذا الفصل من جراء التقدم الهائل الذى حققه النظام الرأسمالى الذى لا يعترف إلا بقيم الربح والخسارة والتقدم الهائل الذى حققه النظام الإمبريالى الذى لا يعترف إلا بقيم القوة العارية. هذا التقدم كرس الظاهرة التى يسميها المسيرى بظاهرة «الحوسلة» أى تحويل كل شىء، بما فى ذلك، الإنسان إلى وسيلة. وقد نتج عن ذلك أن الدول الغربية أصبحت تعيش فى تناقض فاضح فهى من ناحية تعيش فى مستوى معيشة عال جدا وترعى مؤسسات علمية متقدمة جدا وتنتظم فيها شئون الحياة وفق معايير الكفاءة العلمية. وهى من ناحية أخرى تعيش فى وضع أخلاقى متأخر تمارس فيه العدوان والتمييز وازدواجية المعايير. إنها مجتمعات تملك «وسائل متقدمة وأهدافا متأخرة». وهذا التناقض يقود بشكل طبيعى إلى الحروب العدوانية وإلى المجازر وما يدور الآن فى فلسطين والعراق وأفغانستان ليس منقطع الصلة بالذى كان يدور فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى على يد الفاشية والنازية والستالينية.

إنى أعتقد أن من أهم إنجازات المسيرى الفكرية هو اكتشافه وبشكل مبكر أن الأساس الفلسفى الموجود فى نسيج الحضارة الغربية المعاصرة والذى يقود إلى حروب الإبادة والاضطهاد والتمييز والتعسف هو مقولة «نهاية التاريخ».

بدأ القارئ العادى يسمع فى وسائل الإعلام عن مقولة «نهاية التاريخ» عندما صدر للكاتب الأمريكى فرانسيس فوكوياما كتاب «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» فى عام ١٩٨٩.

تتلخص أطروحة الكتاب بأن الإنسانية قد وصلت فى نظام «الديمقراطية الليبرالية» أو «الليبرالية الجديدة» المعمول به فى الولايات المتحدة عند نهايات القرن العشرين إلى نظام ليس بالإمكان استبداله بنظام أفضل منه، ولذلك فإنه سيكون نظام الإنسانية الأخير. وهو يقول بأنه من الطبيعى أن تظهر فى ذلك النظام، بين الفترة والأخرى، بعض النواقص والعيوب الناشئة بشكل طبيعى عن صعوبة إيجاد التوازن المناسب بين متطلبات «الكفاءة» ومتطلبات «العدالة» ولكنها ستكون مشاكل من الممكن حلها فى إطار النظام نفسه وليس عن طريق استبداله بنظام آخر.

كان فوكوياما عندما أصدر الكتاب من القادة الفكريين لتيار «المحافظين الجدد» فى الولايات المتحدة الذى كان يطالب بإحداث تغيير جوهرى فى توجه السياسة



القدرة على الدراسة المتأنية الصبورة مكنته من إنجاز موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية»





الخارجية الأمريكية، إذ أنه كان يعتقد أن سياسة أمريكا الخارجية يجب أن تتغير من كونها ملتزمة بالدفاع عن «المصالح الأمريكية» وتصبح ملتزمة بالدفاع عن «القيم الأمريكية» على أساس أن «المصالح» مفهوم ضيق لا يليق بالقوة الوحيدة فى العالم القادرة على نشر قيم الديمقراطية والعدالة والسلام.

قبل صدور كتاب فوكوياما بسبعة عشر عاماً، صدر كتاب للمسيرى بعنوان «نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيونى». وفيه تعرض إلى التصور اليهودى للوقت الذى سينتهى فيه الصراع الإنسانى عندما يؤسس الإنسان «الفردوس الأرضى» الذى سيتحقق عندما يتم «حلول الله فى الأرض والشعب». وعندما يحدث ذلك ينتهى الوجود «التاريخى» للإنسان اليهودى ككائن فرد له صفاته البشرية ويحل محله الوجود المقدس الجماعى للشعب اليهودى. ووجد أن هذه الفكرة الدينية لها فى الفكر الصهيونى وجود محورى حتى عند الصهاينة غير المتدينين وحتى الملحدين منهم لأن لها مرادفا فلسفيا يحتل مركزا محوريا فى المناخ الفكرى لكل الحركات الشمولية فى القرن العشرين.

وجد عبد الوهاب أن مقولة «نهاية التاريخ» التى تعنى بالنسبة لليهودى قيام مملكة صهيون موجودة فى أى فلسفة ترى أن «التاريخ» يتحرك بفعل قوة واحدة من أجل تحقيق غاية واحدة،على أساس أنه من الطبيعى أن يؤدى تحقيق تلك الغاية إلى توقف عمل تلك القوة وبالتالى توقف التاريخ كما هو معروف وبداية مرحلة إنسانية جديدة يصح تسميتها «غير تاريخية». لأنها تختلف جذريا عن كل ما سبقها فى التاريخ البشرى.

وجد عبد الوهاب أن أوضح وجود للمقولة هو فى فلسفة «هيغل». فالتاريخ وفقا لتلك الفلسفة هو صراع بين ما يشد بالإنسان إلى أوضاع العبودية والأسر وما يدفع به إلى رحاب الانعتاق والتحرر. وهيغل يعتقد أن الدينامية التى تحرك ذلك الصراع نحو مزيد من الحرية هى قوة العقل الإنسانى المسكون بروح الله، وعندما تتم سيطرة العقل على العالم، أى عندما تحل روح الله فى العالم، يفوز الإنسان بالحرية الكاملة وينتهى الصراع وبالتالى ينتهى «التاريخ» كما هو معروف منذ الأزل. وتبدأ الإنسانية فى العصر «غير التاريخى» بمعنى الحياة بدون صراع.

من الواضح أن مقولة «نهاية التاريخ» أى وصول الإنسانية إلى نظام سياسى ـ اقتصادى ـ اجتماعى نهائى هى مقولة تتناقض بشكل كامل مع منطق العلم الحديث إذ أن هذا المنطق يؤكد أن العلم لن يصل إلى حقيقة نهائية وبالتالى فإن التقدم العلمى سيستمر ما دام الإنسان موجودا. وهذا يعنى بالضرورة أن التقدم التكنولوجى سيستمر أيضا. ومن الطبيعى أن تنشأ عن ذلك التقدم أوضاع اقتصادية واجتماعية جديدة تتطلب بالضرورة أنظمة سياسية ـ اقتصادية ـ اجتماعية جديدة. وهذا يعنى أنه لن يكون هناك نظام نهائى. ومع ذلك نجد أن أقصى اليسار وأقصى اليمين يتفقان على تبنى تلك المقولة. فأقصى اليسار يرى أن التاريخ يتحرك بفعل صراع الطبقات وعندما تنتصر الطبقة العاملة وتنجح فى إقامة مجتمع «لا طبقى» ينتهى «التاريخ» الذى كان متحركاً بفعل صراع الطبقات. بينما يرى أقصى اليمين أن التاريخ يتحرك بفعل صراع الأجناس البشرية وعندما تتم سيطرة الجنس الأبيض المتفوق ويفرض سيطرته المطلقة على بقية الأجناس ينتهى الصراع وبالتالى ينتهى التاريخ.

وجد عبد الوهاب المسيرى أن أخطر ما فى مفهوم «نهاية التاريخ» هو أن المؤمنين به يرون تلك «النهاية» على أنها الجنة الموعودة أو «الفردوس الأرضى» وهم يرون أن رسالتهم المقدسة فى الحياة هى تحطيم أى عقبة وإلغاء أى مشكلة تعترض مسيرتهم من أجل تأسيس ذلك الفردوس وإنهاء عالم الصراعات والكوارث والآلام..

● ما هو الضرر فى إلغاء وجود الهنود الحمر إذا كان وجودهم عقبة فى طريق بناء أعظم حضارة عرفها التاريخ.

● وما هو الضرر فى إلغاء وجود اليهود؟ إذا كان وجودهم عقبة فى طريق إقامة نظام الرايخ الثالث لأرقى جنس بشرى.

● وما هو الضرر من إلغاء الفلاحين؟ إذا كان وجودهم عقبة فى طريق إقامة أول مجتمع للسوفييت غير طبقى.

● وما هو الضرر من إلغاء وجود الفلسطينيين؟ إذا كان وجودهم عقبة فى طريق حلول الله فى أرض إسرائيل وتشييد مملكة «الفردوس الأرضى».



درس المسيرى بشكل منهجى كل التصورات المختلفة لمقولة «نهاية التاريخ» كما جاءت فى الفكر الدينى والفكر الفلسفى منذ عصر النهضة الأوروبية إلى ما أصبح يعرف بفكر ما بعد الحداثة. وخلص من تلك الدراسة إلى أن المقولة تشكل أساسا محوريا لكل الحركات الشمولية غير الديمقراطية. فالمقولة فى جوهرها مبنية على أساس تكريس فهم واحد لحقيقة الكون والإنسان والتاريخ بينما تعتمد الديمقراطية على أنه ليس هناك مثل ذلك الفهم الواحد. وبعبارة أخرى، الديمقراطية مبنية على أساس أن «حقيقة الكون» همّ شخصى أما الفكر الشمولى فإنه مبنى على أساس أن «حقيقة الكون» قضية جماعية. كما أظهر المسيرى أن خطورة المقولة تكمن فى أنها توهم المؤمنين بها أنهم الوحيدون الذين عندهم المعرفة الكاملة بالقوانين التى تحرك التاريخ وأنهم الوحيدون القادرون على التحكم فى تلك القوانين وإعادة صياغة حياة الإنسان وفق رؤى جديدة.

إن هذا الوهم هو المسئول عن الكوارث التى حلت فى القرن العشرين من عمليات الإبادة والتطهير العرقى والمجازر الجماعية.

إذا توقفنا الآن وقارنا بين القدرة التفسيرية للنموذج المعرفى فى كتاب فوكوياما الصادر عام ١٩٨٩ والنموذج المعرفى لكتاب المسيرى الصادر عام ١٩٧٢ يكفى أن نلاحظ أن فوكوياما اضطر قبل أشهر (آذار عام ٢٠٠٧) إلى أن يصدر كتابا جديدا باسم «أمريكا عند مفترق الطرق: الديمقراطية، القوة وتركة المحافظين الجدد» تراجع فيه عن الأطروحة التى تضمنها كتابه الأول وتخلى فيه عن تأييد مواقف تيار المحافظين الجدد وذلك بعد فشل سياستهم فى العراق. كما تخلى عن تأييده لمقولة «نهاية التاريخ» بعد اقتناعه أن المفهوم مبنى على أساس خاطئ وهو أن الطبيعة البشرية ثابتة لا تتغير بينما أثبتت الاختراعات التكنولوجية الجديدة وخصوصا فى مجال الهندسة الوراثية إمكانية تغيير تلك الطبيعة. وفى المقابل قام عبد الوهاب المسيرى عام ١٩٩٧ بإصدار كتاب بعنوان «الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ» وقد استعمل فيه كل ما توصل إليه فى كتابه الأول فى موضوع «نهاية التاريخ» الذى صدر عام ١٩٧٢ دون أن يكون مضطرا للتراجع عن أى رأى أو أطروحة فيه.

إنى أعتقد أن سبب إخفاق فوكوياما هو أنه أخذ مقولة «نهاية التاريخ» كما هى موجودة فى فلسفة هيغل ووظفها بشكل يخدم هدفه فى إظهار تفوق نظام «الليبرالية الجديدة». وفى المقابل فإن سبب نجاح المسيرى فى فهم حقيقة المقولة وتقييم دورها الحقيقى فى الحركات الشمولية هو أنه لم يأخذ بمفهوم واحد لها وإنما قام بدراسة تطورها فى الفكر الدينى وفى الفكر الفلسفى المثالى والفكر الفلسفى المادى حتى تمكن من فهم حقيقة الدور الذى قامت به عبر التاريخ. لقد استعمل فوكوياما مقولة «نهاية التاريخ» من أجل خدمة أيديولوجية معينة أما المسيرى فقد درس مقولة «نهاية التاريخ» من أجل فهم الأيديولوجيات المختلفة.

القدرة على الدراسة المتأنية الصبورة مكنت المسيرى من إنجاز موسوعة من ثمانية مجلدات عن «اليهود واليهودية والصهيونية». ففى خلال أكثر من ربع قرن كان يدرس ويؤلف ويناقش. ولو كان يعمل من أجل خدمة أيديولوجية سياسية معينة لفقدت مقالاته وكتبه قيمتها بعد سنوات، إن لم نقل بعد شهور من صدورها. ولكنه كان يكتب بدافع

البحث عن حقائق الأشياء مدركاً أن للظواهر الإنسانية وجوداً مركباً معقداً وأن تفسيرها بشكل كامل هو عملية مستحيلة. وكما يقول كان يعمل «من أجل حصر بعض العناصر التاريخية والثقافية والاقتصادية التى قد تساهم فى تفسير جوانب كثيرة مما حدث وفى إلقاء الضوء عليه دون أن نزعم أننا أتينا بالتفسير الكلى والنهائى للظاهرة». وبفضل هذا الفهم «العلمى» لمهمة البحث العلمى وحدوده وبفضل سعيه الدائم لتجنب الاغتراب و«التحيز»، تمكن المسيرى من أن يراكم فى نشاطه الفكرى من النماذج المعرفية التحليلية ما مكنه من التقدم يوما بعد الآخر على طريق بناء موسوعة كاملة.

لقد كتب عبد الوهاب «الموسوعة» كتعبير عن تجربة وليس فقط كنتيجة للبحث. ولهذا جاءت الموسوعة تتمتع بصفتين قل أن يجتمعا فى عمل ثقافى واحد. فهى من ناحية موسوعة معلومات عن كل نواحى الموضوع، وأكثرها غير معروف للقارئ العربى، ستقود الكثيرين إلى إعادة النظر فى كثير من المعتقدات والمسلمات السابقة؛ وهى من الناحية الأخرى موسوعة أفكار على اساس أن عبد الوهاب تعلم من التجربة أن «المعلومات» وحدها لا تكوِن «معرفة» كما أن «الحقائق» وحدها لا تكوِن «الحقيقة». فالحقائق هى معطيات مادية متناثرة لا يربطها رابط، أما الحقيقة فهى نتاج جهد إنسانى عقلى، تتكون حين يقوم العقل الإنسانى بالربط بين الحقائق ثم تجريد نموذج تفسيرى منها. والموسوعة مليئة بهذه النماذج التى توظف المعلومات من أجل الوصول إلى أكبر قدر من المعرفة. فموسوعة المسيرى إذن، ليست دائرة معارف فقط، إنها أيضا منهج للتفكير.

ولقد ثبتت كفاءة هذا المنهج الفكرى فى قدرته الفائقة على تفسير المحطات الرئيسية فى تاريخ الصراع العربى - الإسرائيلى.

لنأخذ على سبيل المثال اثنتين من أهم تلك المحطات، وهما زيارة الرئيس أنور السادات إلى إسرائيل (نوفمبر ١٩٧٧) وتوقيع اتفاقية أوسلو للاعتراف المتبادل بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل (سبتمبر ١٩٩٣).

قادت زيارة السادات إلى إسرائيل الى إنهاء حالة الصراع بين البلدين وتوقيع معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية وقد تم ذلك بعد حدوث انقلاب كامل فى توجه السياسة المصرية قبلت بموجبه مصر بالهيمنة الأمريكية على المنطقة، وبالتالى قبلت بالدور الوظيفى الذى تقوم به إسرائيل فى المنطقة: هى تخدم المصالح الأمريكية، وأمريكا تدعم عملية التوسع الصهيونى. ولذلك فإننا نجد أن من أهم نتائج معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية هو تسارع التوسع الصهيونى والدليل على ذلك أنه فى فترة العشر سنوات التى امتدت من احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة إلى زيارة السادات لإسرائيل لم يتجاوز عدد المستوطنين فى الأراضى الفلسطينية ٤٠ ألف مستوطن أما فى فترة العشر سنوات التى تبعت الزيارة فقد زاد عدد المستوطنين على ربع مليون.

قادت اتفاقية أوسلو منظمة التحرير الفلسطينية إلى تغيير ميثاقها، فانقلبت من حركة تحرر وطنى إلى حركة تعمل على بناء حكم ذاتى محدود وفق الإملاءات الأمريكية وهذا يعنى، مرة أخرى، القبول بالدور الوظيفى لإسرائيل فى خدمة المصالح الأمريكية مقابل تأييد التوسع الصهيونى. وهذا ما حصل بالفعل، فلقد بلغ معدل النمو السنوى لسكان المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية بعد أوسلو ضعف ما كان عليه قبلها. فعند توقيع اتفاقية أوسلو كان عدد المستوطنين اليهود فى الضفة الغربية وقطاع غزة ٢٦٨.٧٥٦ مستوطن أما فى عام ٢٠٠٦ فقد بلغ عدد المستوطنين فى الضفة الغربية وحدها ٤٧٥.٧٦٠.

وتظهر القوة التفسيرية لنموذج «الجماعات الوظيفية» الذى صاغه المسيرى لدراسة الحركة الصهيونية عندما نتوقف عند الذى حدث قبل أسبوعين مع انعقاد مؤتمر انابوليس (٢٧ نوفمبر ٢٠٠٧). لقد تم انعقاد المؤتمر برعاية أمريكية وبحضور عربى مميز، وتوصل المؤتمر الى الاتفاق على العودة إلى العملية السلمية وعلى استئناف المفاوضات المتعطلة منذ ست سنوات بين منظمة التحرير وإسرائيل. وبعد مرور أقل من أسبوع واحد على انفضاض المؤتمر أعلنت إسرائيل عن عزمها على بناء مئات الوحدات السكنية الجديدة فى مستعمرة جبل أبو غنيم فى القدس. وقد أحدث ذلك الإعلان دهشة كبيرة عند كثير من السياسيين والمعلقين لأنهم رأوا فى توسيع الاستيطان اليهودى فى الأراضى الفلسطينية ما يتناقض بشكل كامل مع المناخ الذى خلقه المؤتمر. أما الذين نظروا للموضوع من منظار نموذج المسيرى عن الدور الوظيفى لإسرائيل فإنهم لم يصابوا بالدهشة على الإطلاق، وعلى العكس، كانوا يدركون بأن أولى نتائج المؤتمر ستكون التوسع الاستيطانى. اليهودى فى الضفة الغربية. ■

● للاستزادة: النص الكامل ينشر فى دورية «أوراق فلسفية».

عبدالوهاب المسيرى



موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤيةٌ نقدية

(مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام. القاهرة ١٩٧٥).

هذا العمل هو بداية الجهد الموسوعي للمسيري: إذ اكتشف ما سماه «جيتوية المصطلح الصهيوني»، وهي أن كل المصطلحات - بل المفردات - التي ترد في الكتابات الصهيونية لها معنى محدد يختلف عن معناه في النصوص الأخرى. فـ «الحزب السياسي» في الكيان الصهيوني يختلف عن «الحزب السياسي» في الدول غير الاستيطانية في بنيته ومفهومه، وكلمة «الشعب» كما ترد في المعاجم السياسية يختلف معناها عن معنى كلمة «الشعب» كما ترد في المعجم الصهيوني. وهذه الموسوعة محاولة أولية لحصر المصطلحات والمفردات والمفاهيم الصهيونية وتحديد معناها ومضمونها واسترجاع البُعد العربي/النقدي لها.

وتقوم الموسوعة بتقديم تعريف مستفيض لمعظم المصطلحات الصهيونية الشائعة حتى تاريخ صدورها، ابتداءً بـ «الصهيونية العمالية»، على سبيل المثال، وانتهاءً بـ «الكيبوتس».

وقد بدأ الدكتور المسيري في كتابة موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية عام ١٩٧٦، كمحاولة لتحديث موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية.

■



الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤيةٌ حضارية جديدة

(دار الشروق، القاهرة ١٩٩٧ - طبعة ثانية ١٩٩٨ - طبعة ثالثة ٢٠٠١ - طبعة رابعة ٢٠٠٥).

يتناول الكتاب الظاهرة النازية انطلاقاً من مستوى تحليلي حضاري معرفي يتجاوز السردَ التاريخي والمستوى السياسي، كما يتجاوز منطقَ مراكمة المعلومات والحقائق، ويستخدم منهج دراسة الظواهر التاريخية الحضارية من خلال النماذج التفسيرية. يبدأ الكتاب بتعريف الإبادة وبعض المصطلحات الأساسية المرتبطة بها، ثم يتناول ظاهرة الإبادة في سياقها الحضاري والألماني، وبعضَ الإشكاليات السياسية والفلسفية التي تثيرها إبادة يهود أوربا على يد النازي، مثل إشكالية انفصال العلم عن القيمة، وتوظيف الإبادة واحتكارها وإنكارها، وإشكالية الحل النهائي، وقضية عدد ضحايا الجريمة النازية، وملاحقة مجرمي الحرب النازيين. ويثير الكتاب واحدةً من أهم القضايا الخلافية وهي قضية التعاون بين أعضاء الجماعات اليهودية (وخصوصاً الصهاينة) مع النازيين. ويتناول الكتاب كذلك المكانة التي تشغلها الإبادة النازية في الوجدان الفلسفي والأدبي الغربيين.

■



اليدُ الخفية: دراسةٌ في الحركات اليهودية الهدّامة والسرية

(دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨ - مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠ - دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١).

يتناول المسيري في هذا الكتاب ما يُسمَّى «العقلية التآمرية» التي تنظر إلى العالم من خلال النموذج الاختزالي ذي البُعد الواحد، ومن ثَمّ تسقط في العنصرية، التي تبسط الواقع، وتجعل التعامل معه والتنبؤ به مسألة صعبة.. إن لم تكن مستحيلة. ويطرح المسيري مقابل هذا ما يسميه «النموذجَ المركب». وقد استخدم عدة حالات للدراسة، منها: البروتوكولات. التلمود. السحر. الماسونية. البهائية. الفرانكية. السبئية. الجاسوسية اليهودية. الجريمة اليهودية. اللوبي اليهودي والصهيوني. كما تناول الكتاب إشكالية العبقرية اليهودية واللوبي اليهودي الصهيوني. وقد ضم هذا الكتاب بعض المواد التي وردت في كتاب الجمعيات السرية في العالم (من إصدار دار الهلال. القاهرة ١٩٩٣) بعد إعادة صياغتها وتطويرها والإضافة إليها. وأضاف المسيري إلى الكتاب ملحقاً

المسيري والصهيونية

به دراسة تفصيلية عن النموذج الاختزالي والنموذج المركب، وعن المؤشر الاختزالي والمركب.

■

اليهود في عقل هؤلاء

(دار المعارف، سلسلة اقرأ، القاهرة ١٩٩٨، دار العين، القاهرة ٢٠٠٨).

يضم هذا الكتاب عدة دراسات: واحدة عن اليهود في عقل الأدباء أعضاء الجماعات اليهودية الذين يرفضون الصهيونية أو لا يكترثون بها (أيزاك بابل - فرانز كافكا... إلخ)، وعقل الأدباء الذين يهتمون بالصهيونية ويرون فيها حلاً للمسألة اليهودية (جوردون وبرنر). كما يضم دراسةً في فكر جمال حمدان الاستراتيجي، الذي وضع مصر (ومن ثَمَّ فلسطين) في المركز، وفي منهجه الذي لا يرفض العام ولكنه لا يكتفي به، إذ يصل إلى الخاص من داخله ويعبِّر عنه. وأخيراً يضم الكتاب الدراسة التي كتبها المسيري بمناسبة زيارة المفكر الفرنسي روجيه جارودي القاهرة وتقديمه للمحاكمة، ويبيِّن فيها الفرق بين الأسطورة بالمعنى الإيجابي والأسطورة بالمعنى السلبي، ويحاول أن يبيِّن «منطقية» تحول جارودي للإسلام، فهو يبحث عن نظام يؤكد مقدرة الإنسان على تجاوز عالم المادة وسوق السِّلَع، وقد وجد ضالَّته في التوحيد الإسلامي (مقابل «واحدية السوق»).

■

الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد

(دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١ - طبعة ثانية ٢٠٠٣).

يحدِّد المسيري مفهوم الجماعة الوظيفية بأنها جماعة يستوردها المجتمع من خارجه أو يجنِّدها من داخله، تُعرَّف في ضوء وظيفتها، لا في ضوء إنسانيتها الكاملة، ويَكِل المجتمع إليها وظائفَ لا يضطلع بها عادةً أعضاءُ المجتمع، إما لأنها مشينة (البغاء، الربا)، أو متميِّزة وتتطلب خبرة خاصة (الطب والترجمة)، أو أمنية وعسكرية (الخصيان، المماليك)، أو لأنها تتطلب الحياد الكامل (التجارة وجمع الضرائب). ويتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بالحياد، وبأن علاقتهم بالمجتمع علاقة نفعية تعاقدية، وهم عادةً عناصرُ حركية لا ارتباطَ لها ولا انتماء، تعيش على هامش المجتمع في حالة اغتراب، ويقوم المجتمع بعزلها عنه ليحتفظ بمتانة نسيجه المجتمعي. وأعضاء الجماعة الوظيفية عادةً من حمَلَة الفكر الحلولي والعلماني الشامل.

وقد استخدم الدكتور المسيري هذا النموذج في تحليل تاريخ الجماعات اليهودية ووضعها وانتماءاتها الثقافية. كما درس الدولة الصهيونية باعتبارها دولةً وظيفيةً، استيطانيةً إحلالية. ورغم أن هذا الكتاب يتناول الجماعات الوظيفية اليهودية بوجه خاصٍ من التركيز، إلا أنه، مع ذلك، يقدم مفهوم «الجماعة الوظيفية» باعتباره أداةً تحليلية أكثرَ تفسيريةً وتركيبيةً من مفهوم «الطبقة» التقليدي.

■

مقدمةٌ لدراسة الصراع العربي - الإسرائيلي: جذورُه ومسارُه ومستقبلُه

(دار الفكر، دمشق ٢٠٠٢).

يضم هذا الكتاب ستة فصول تحاول تقديم رؤية شاملة لجذور الصراع العربي الإسرائيلي ومساره ومستقبله. فيقدم الفصل الأول («يهود، أم جماعاتٌ يهودية؟») رؤيةً «بانورامية» للجماعات اليهودية في العالم: أعدادهم، وهجراتهم، وتنوعهم، وعدم تجانسهم. ويتناول الفصل الثاني («يهودٌ، أم جماعاتٌ وظيفية يهودية؟») مفهومَ الجماعة الوظيفية، ويحاول تطبيقه على الجماعات اليهودية. أما الفصل الثالث («الصهيونية والمسألة اليهودية») فيبيِّن كيف تبلور الفكر الصهيوني داخل التشكيل الحضاري الغربي والإمبريالي.

أما الفصل الرابع («موجز تاريخ الصهيونية») فيحاول أن يقدم خريطة متكاملة لتطور الفكر الصهيوني. ويتناول الفصل الخامس («الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني») الظاهرة الصهيونية، ويحاول أن يحدد سماتها العامةَ والخاصة، ويطرح تعريفاً لها، بدلاً من التعريفات الغربية المتحيزة ذات المقدرة التفسيرية الضعيفة. ويتناول الفصل السادس والأخير («أزمة الصهيونية») مصادر أزمة الأيديولوجية والتجمع الصهيوني، ومدى تأثيرها في مستقبل إسرائيل.

■

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد

(ثمانية أجزاء، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٩).

وهي عمل المسيري الأبرز، الذي استغرق من عمره ما يقرب من ثلاثين عاماً لإنجازه. وهذه الموسوعة لا تكتفي بالتفكيك، أي نقد المصطلحات الصهيونية، وإنما تنتقل إلى التأسيس، أي محاولة طرح رؤية عربية بديلة للظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية، ووضع مصطلحات جديدة لوصف هذه الظاهرة. وتتناول الموسوعة كل جوانب تاريخ العبرانيين في العالم القديم، وتواريخ الجماعات اليهودية بامتداد بلدان العالم، وتَعْداداتها وتوزعاتها، وسماتها الأساسية، وهياكلها التنظيمية، وعلاقات أفراد الجماعات اليهودية بالمجتمعات التي يوجدون فيها وبالدولة الصهيونية. وتغطي كذلك أشهر الأعلام من اليهود وغير اليهود ممن ارتبطت أسماؤهم بتواريخ الجماعات اليهودية، في شتى المراحل التاريخية والمواقع الجغرافية والانتماءات الحضارية. كما تتناول هذه الموسوعة كل الجوانب المتعلقة بتاريخ اليهودية، وفِرَقها وكتبها الدينية، وطقوسها وشعائرها، وأزمتها في العصر الحديث، وعلاقتها بالصهيونية وبمعاداة السامية («معاداة اليهود»). كما تغطي الحركة الصهيونية ونشاطاتها ومدارسها وأعلامها، وبعض الجوانب الأساسية للدولة الصهيونية.

وتهدف الموسوعة إلى توفير وتمحيص الحقائق التاريخية والمعاصرة عن الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية، وإلى تقديم رؤية جديدة للموضوعات التي تغطيها. وهي تحاول إنجاز ذلك من خلال عدة طرق:

- تقديم تاريخ عام للعقيدة والجماعات اليهودية وللحركة الصهيونية.
- التعريف الدقيق للمفاهيم والمصطلحات السائدة، والتأريخ لها من منظور جديد، وإبراز جوانبها الإشكالية.
- إسقاط المفاهيم والمصطلحات المتحيزة، وإحلال مفاهيم ومصطلحات أكثر حياداً وتفسيريةً محلَّها.

وقد حصلت الموسوعة على جائزة أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٩٩.

■

البروتوكولات واليهودية والصهيونية

(دار الشروق، القاهرة يناير ٢٠٠٣ - طبعة ثانية أبريل ٢٠٠٣ - طبعة ثالثة مايو ٢٠٠٣ - طبعة رابعة يناير ٢٠٠٥).

يرى المسيري أن البروتوكولات وثيقة مزيَّفة، وذلك استناداً إلى بعض الحقائق التي نُشرت عن أصولها ومن خلال تحليل النص من الداخل. وهو يبيِّن في هذه الدراسة أن «الفكر البروتوكولي» التآمري فكر اختزالي، ليست له مقدرة تفسيرية ولا حتى تعبوية؛ لأن كُره اليهود، الذي ينطلق منه هذا الخطاب، يصب في واقع الأمر في الخندق الصهيوني. فمَن يكره اليهود يقوم باضطهادهم والتحريض ضدهم، مما يضطرهم إلى «الخروج» من بلدهم ليتحولوا إلى مستوطنين في بلادنا! كما أننا، بتصورنا أن اليهود هم «السبب» فيما يلحق بنا من مصائب، نتجاهل الدعم الأمريكي الشامل والمستمر للجيب الصهيوني، وهو الدعم الذي يضمن له الاستمرار والبقاء. والصهيونية، كما يقول المسيري، هي دعوة لتخليص أوربا من اليهود وتصديرهم إلى مكان خارجها ليوظَّفوا لصالحها. وتبيِّن الدراسة أن الجذور الحقيقية للصهيونية هي الاستعمار الغربي ومعاداة السامية. وتخلُص الدراسة إلى أن ترويج البروتوكولات يبث روح الهزيمة ويقوِّض روح الجهاد، وأن الإصرار على أن اليهودية عبارة عن مجموعة من الصفات الثابتة التي يتوارثها اليهود جيلاً بعد جيل يتنافى وتعاليمَ الإسلام التي تذهب إلى أن الرذيلة، مثل الاستقامة، مسألةُ اختيار وليست مسألةَ ميراث. وتختتم

الدراسة بفصل عن إبداعات انتفاضة ١٩٨٧ وانتفاضة الأقصى، وكيف أن مثل هذا الإبداع لم يكن ممكناً إلا بعد أن نَفَض المنتفضون عن أنفسهم غُبار الخوف والهزيمة.

■

الصهيونية والحضارة الغربية الحديثة

(دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة ٢٠٠٢)

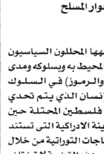


شاع في الخطاب التحليلي العربي أن الصهيونية تضرب بجذورها في التوراة والتلمود والتقاليد الدينية والإثنية اليهودية. ويذهب المسيري إلى أن ثمة خللاً تصنيفياً أساسياً هنا، فالصهيونية، كما تحاول أن تبين هذه الدراسة، ذات جذور غربية ثم أضيفت لها ديباجات يهودية. فالبعد اليهودي في معظم الأحيان بُعد زخرفي تبريري، أضيف من أجل مقدرته التعبوية. وقد أدى هذا الخلل التصنيفي إلى خطأ الافتراضات التي تبدأ بها كثير من البحوث في العالم العربي، وهذا يحدد بطبيعة الحال المجال الذي ترصده هذه البحوث وطريقة تصنيف المعلومات والنتائج التي يصل إليها الباحث، فهي في معظم الأحيان ليس لها قيمة تفسيرية أو تنبؤية عالية. وتتناول هذه الدراسة هذه الإشكالية، فهي تحاول أن توضح العناصر الغربية الأساسية (المادية والمعنوية) التي دخلت في تكوين الرؤية الصهيونية للواقع، وأن تبين أن الصهيونية ليست مجرد انحراف عن الحضارة الغربية الحديثة، كما يحلو للبعض القول، وإنما هي إفراز عضوي لهذه الحضارة ولما نسميه بالحداثة الداروينية، أي الحداثة التي ترمي إلى تحويل العالم إلى مادة استعمالية توظف لصالح الأقوى (في مقابل الحداثة الإنسانية التي ترمي إلى تحقيق التوازن بين الذات والطبيعة والتي تطالب بتكاتف كل أبناء الجنس البشري لإعمار الأرض لصالح البشرية جمعاء بما في ذلك الأجيال القادمة).

■

الإدراك الصهيوني للعرب والحوار المسلح

(دار الحمراء، بيروت ٢٠٠٣)



من أعقد القضايا التي يواجهها المحللون السياسيون قضية علاقة إدراك الإنسان للواقع المحيط به وبسلوكه ومدى تأثير الإدراك (والوعي والأفكار والرموز) في السلوك الإنساني، وكيف تكون استجابة الإنسان الذي يتم تحدي خريطته الإدراكية، كما يحدث في فلسطين المحتلة حين يتحدى المنتفضون خريطة الصهاينة الادراكية التي تستند إلى مجموعة من الاساطير والديباجات التوراتية من خلال المقاومة أو ما نسميه الحوار المسلح. وهذه القضية لا تختلف كثيراً عن مشكلة الذاتية والموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية بل والطبيعية. وهذا الكتاب يحاول أن يلقي بعض الضوء على هذه القضية: هذا هو هدفه، وهذا ما يرمي إلى تحقيقه. وعلى الرغم من أن كل فصول الكتاب تدور حول الصراع العربي الإسرائيلي (وموضوعات أخرى على علاقة به)، فإن هذه مجرد دراسات لحالات، إذ يظل الموضوع الأساسي هو قضية الخريطة الإدراكية وكيف تحدد الرؤية وكيف يمكن تحديها حتى يتم تعديلها أو تقويضها تماماً، وما الحالات التي أتينا بها سوى محاولات مختلفة لتوضيح بعض أبعاد هذه القضية الكلية والمجردة من خلال أمثلة معينة.

■

التجانس اليهودي والشخصية اليهودية

(دار الهلال، كتاب الهلال، ٢٠٠٤).



يضم هذا الكتاب عدة مقالات نُشرت في عدة جرائد عربية على مدى الأعوام الماضية. والمقال الأسبوعي عادةً ما يدور حول حدث ما، حدث «ساخن» كما يقولون في عالم الإعلام، وهم عادةً ما يعنون بذلك حدثاً وقع لتوه. هذا المطلب يمثل جزءاً من توقعات القارئ من جريدته اليومية. ولكن مؤلف هذا الكتاب لا يؤمن بجدوى ما يسميه «الموضوعية المادية المتلقية» التي تتلقى تفاصيل الواقع ثم تسجلها دون تصنيف أو ترتيب بهدف مراكمة المعلومات، ولذا فقد حاول قدر استطاعته أن يضع الحدث داخل نمط متكرر متجاوز للحدث نفسه وأكثر عمومية منه، كما كان يضعه في سياقه التاريخي والاجتماعي والثقافي حتى يمكن فهمه في أبعاده المركبة. وبهذا تم تطبيق بعض المفاهيم التحليلية الأساسية التي وردت في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية على الأحداث الآنية. وقد قام المؤلف بجمع هذه المقالات في كتاب، بعد أن قام بإعادة تصنيفها حسب الموضوع الأساسي الكامن وداخل النمط المتكرر. وبذلك يمكن للقارئ أن يرى الحدث «الساخن» في إطار النمط «الدافئ» والسياق الحي الذي يعطي الحدث معناه وأبعاده الحقيقية. فهناك مجموعة من المقالات عما يسمى «القومية اليهودية» وآخر عما يسمى «الشخصية اليهودية» وثالث عن الهيكل ومحاولات إعادة بنائه.

■

الصهيونية وخيوط العنكبوت

(دار الفكر، دمشق ٢٠٠٦)



يضم هذا الكتاب عدة مقالات تتناول طائفة متنوعة من الأحداث والظواهر المتعلقة باليهودية والصهيونية، وبمسار الصراع العربي الصهيوني. ويمكن القول إن هذه الدراسة هى محاولة لاستخدام النماذج التى طورها المؤلف فى موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيرى جديد لتفسير الأحداث والوقائع التى يتعرض لها الكتاب بالتحليل والمعلومات التي ترد فيه. ويحاول الكاتب قدر استطاعته أن يضع الحدث والمعلومات داخل نمط متكرر متجاوز للحدث نفسه والمعلومة نفسها وأكثر عمومية منهما، بالإضافة إلى وضعهما في سياقهما التاريخي والثقافي حتى يمكن فهمهما في أبعادهما المركبة.

ويتناول الجزء الأول من الكتاب الموضوعات التي تدور حول بعض جوانب الاستعمار الصهيونى، مثل الديموجرافيا اليهودية، وجذور الاستعمار الاستيطانى الصهيونى، وقضية المصطلح الصهيوني وكيف أنه يعبر عن مفاهيم صهيونية وضرورة الحذر منه. ويتناول الجزء الثانى من الكتاب مفهوم الوحدة اليهودية كما يتبدى فيما يسميه المؤلف خرافة القومية اليهودية، وخرافة الهوية اليهودية، وخرافة الشخصية اليهودية. ويحاول هذا الجزء أن يبين، من خلال الأمثلة المحددة والشواهد المتعددة، أنه لا يوجد أي تجانس بين أعضاء الجماعات اليهودية، وأن الحديث عن الوحدة اليهودية هو خرافة ابتدعها الصهاينة والمعادون لليهود واليهودية على حد سواء لإسباغ الشرعية على المشروع الصهيونى.

ثم ينتقل الكتاب بعد ذلك إلى عالم الإدراك، فيحاول أن يبين كيف يدرك الإسرائيليون واقعهم وواقع الفلسطينيين، فهذا الإدراك، وليس الواقع المادى المباشر، هو الذى يحدد كثيراً من جوانب استجابتهم لما يقع لهم من أحداث. أما بقية الكتاب فيتناول موضوعات شتى مثل: بروتوكولات حكماء صهيون والفكر التآمري بشكل عام. ويتناول الفصل الأخير من الكتاب موضوع نهاية إسرائيل وهو موضوع يحجم الإعلام العربي الرسمي عن تناوله، بينما لا يتردد الإعلام الصهيوني في ذلك، فهاجس نهاية إسرائيل يطارد الإسرائيليين دائما.

وعنوان الكتاب له دلالة، فقد كان موشيه يعلون، الذي كان يشغل منصب رئيس هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي، دائماً يمتدح قدرة الشعب الإسرائيلي على الصمود في الصراع الدائر مع الفلسطينيين، واعتاد الظهور في أوساط إسرائيلية مختلفة ليدحض نظرية «خيوط العنكبوت» المنسوبة للسيد حسن نصر الله، أمين عام «حزب الله»، ومؤداها أن إسرائيل تبدو من الخارج دولة عظمى من الناحية العسكرية، ولكن من يلمسها يدرك أنها تتفكك مثل خيوط العنكبوت.

ولكن مع تصاعد معدلات القلق داخل التجمع الصهيوني، اضطر يعلون، في تصريحات نقلتها صحيفة «يديعوت أحرونوت» في موقعها على الإنترنت (١١ فبراير/ شباط ٢٠٠٣)، إلى الاعتراف بأن قدرة المجتمع الإسرائيلي على الصمود محدودة للغاية، بل وأقر بصواب نظرية «خيوط العنكبوت». وقد عبر يعلون عن رأيه هذا في اجتماع مغلق أمام شخصيات من العاملين في مجال التربية والتعليم في القدس، ووصفت الصحيفة هذه التصريحات بأنها «شاذة»، وبأنها وقعت على مسامع الحاضرين «وقع الصاعقة»، وهو الأمر الذي دفع يعلون فيما بعد إلى نفي تصريحاته مدعياً أنها أسيء فهمها، ومن ثم حُذفت تماماً من موقع الصحيفة.

ومما يستلفت النظر أن معظم الصحف العربية تجاهلت الخبر تماماً، بينما نشرته بعض الصحف الأخرى على استحياء في زاوية مهملة، وكأنه خبر عابر لا أهمية له، وكأنه ليس تقييماً حقيقياً لمعنويات الكتلة البشرية الاستيطانية التي احتلت أرض فلسطين، صادرا عن أحد أعمدة المؤسسة العسكرية الصهيونية، وكأنه ليس مؤشراً قوياً على عمق الأثر الذي تحدثه الانتفاضة الفلسطينية على التجمع الصهيوني.

عبد الوهاب المسيرى



على قائمة كتابها الدائمين، اعتزت «وجهات نظر» دائماً باسم «عبد الوهاب المسيرى» الذى اختارها منبراً لدراساته ومقالاته الفكرية فى الحداثة وما بعدها وفى مفاهيم الحضارة الغربية، كما فى المسألة اليهودية والصهيونية. وهنا آخر ما كتبه المسيرى لـ «وجهات نظر»

«بيزنس الهولوكوست»

■■ محاولة النظر لإشكالية الإبادة من الداخل والخارج، والمزج بين الخاص والعام، تغير الرؤية وتضع قضية الإبادة على مستوى تحليلى جديد تماما. يولد أسئلة مختلفة عن تلك التى يطرحها الصهاينة، والتى تحدد الأجندة البحثية والأجوبة التى ستتوصل إليها. فقضية ستة الملايين، وهل هو رقم صحيح أو لا، تصبح قضية ثانوية، إذ إن ثمة نمطا إباديا غربيا عاما موجها ضد الآخر. نحن نتحدث عن عشرات الملايين الذين أبيدوا مما يبين وحشية التشكيل الحضارى الألمانى النازى الذى هو جزء من التشكيل الحضارى الغربى الحديث.

مركزية الهولوكوست

تحاول الحضارة الغربية أيقنة الهولوكوست لإحاطتها بالأسرار حتى لا يخضعها أحد للتساؤل أو للنقد. ورغم أن إبادة الآخر آلية أساسية استخدمها التشكيل الحضارى الإمبريالى الغربى فى تحقيق رؤيته ومثالياته الداروينية، إلا أن الإبادة النازية ليهود أوروبا لها مركزية خاصة. وأعتقد أن هذه المركزية، تعود إلى الأسباب التالية:

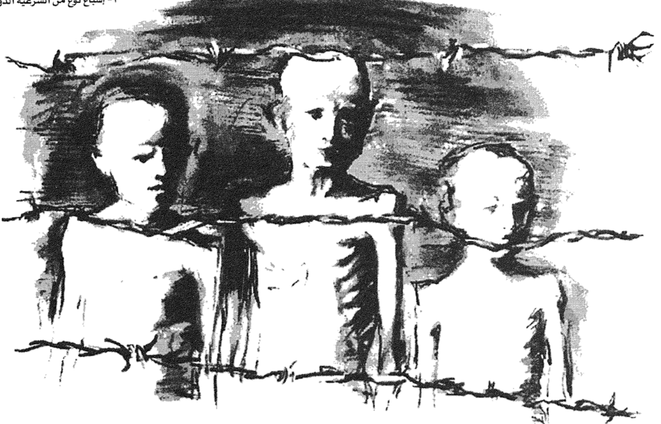
١-حداثة الإبادة النازية modernity ومنهجيتها، الأمر الذى جعلها تقض مضجع الإنسان الغربى، فمشروعه الحضارى يستند إلى العلم المتجرد من القيمة وعبقرية حضارته تكمن فى الترشيد المتزايد.

٢- كانت الإبادة الاستعمارية للآخر تتم دائماً «هناك» بعيداً عن أوروبا حيث كانت أوروبا تُلقى بفائضها البشرى، فى آسيا وأفريقيا، أما الإبادة النازية فتمت «هنا» على أرض الحضارة الغربية، وعلى بُعد أمتار من منازل المواطنين العاديين. كما أن العناصر التى أُبيدت لم تكن داكنة اللون أو صفراء، وإنما «مثلنا تماماً».

٣- يشغل اليهود مكانة خاصة فى الوجدان الغربى الدينى والحضارى، فاليهودى يقف دائماً على الهامش، موضع تقديس وكره عميقين، وحينما صرعته الإبادة النازية تنبه الإنسان الغربى إلى الإمكانية الكامنة، التى تقف فاغرة فاها، فى قلب حضارته الحديثة.

ويتحدث الغرب عن الألمان النازيين فقط، وعن مذابحهم ضد اليهود وحدهم وإهمال كل ما قامت به الحضارة الغربية من مذابح وفظائع بداية الغرب يفعل ذلك ليتسنى له أن يوظف الهولوكوست على عدة مستويات:

١- إسباغ نوع من الشرعية الدولية على





وقعت الهولوكوست فى أوروبا على يد الإنسان الأبيض ضد أقلية بيضاء. فظهرت الفضيحة واضحة جلية متبلورة وكان لابد من تخبئتها. إن الغرب باتهامه الألمان، والألمان وحدهم، ينجح فى الهروب من مواجهة نفسه وحضارته الحديثة الإبادية



الدولة الصهيونية، فرغم أن المشروع الصهيونى -كما أسلفنا- لا علاقة له بالهولوكوست، إلا أن الكيان الصهيونى كيان عنصرى محتل للأرض، يرفض كل الأعراف الدولية والإنسانية والأخلاقية، ولا يلتزم بها على الإطلاق، كيان مدجج بالسلاح، عنده أكثر من مائتى رأس نووى (وذلك حسب إحصائيات الثمانينيات)، لكن من خلال الحديث عن اليهود كضحية وعن إسرائيل باعتبارها دولة يهودية يحاولون تبرير كل هذه الأمور والتغطية عليها. لقد ظهر مصطلح جديد فى السياسة الدولية يسمونه victomology أى أن دور الضحية يكسب صاحبه كثيرا من التعاطف، بل والشرعية أيضا، ولذلك ينكرون هذا الدور على الفلسطينيين رغم أن الفلسطينيين يوميا يعذبون على مرأى من العالم.

٢- تبرير المعونات السخية التى تصب فى خزانة الدولة الصهيونية، وخاصة أن الشعوب الغربية، سواء فى الولايات المتحدة أو فى أوروبا، حينما يرون آلاف الملايين من الدولارات التى دفعتها ألمانيا وسويسرا والولايات المتحدة تصب فى خزانة إسرائيل، فى الوقت الذى تقوم فيه بعض هذه الحكومات بتخفيض الاعتمادات الخاصة بالخدمات الاجتماعية، والرعاية الصحية، هذه الشعوب الغربية قد تبدأ فى التململ والاحتجاج، ولذا تستخدم الهولوكوست لإطلاق سحابة من الدخان الأخلاقى والإنسانى لتبرر الاحتلال الصهيونى.

٣- وقعت الهولوكوست فى أوروبا على يد الإنسان الأبيض ضد أقلية بيضاء، فظهرت الفضيحة واضحة جلية متبلورة وكان لابد من تخبئتها. إن الغرب باتهامه الألمان، والألمان وحدهم، ينجح فى الهروب من مواجهة نفسه وحضارته الحديثة الإبادية. لقد تم التلاعب بالمستوى التعميمى والتخصيصى، فبدلا من إدراك الجرم باعتباره جرما عاما تماماً ضد الآخر، تم تخصيصه بحيث أصبح جرما ألمانيا نازيا وحسب، العالم الغربى برىء منه، وبدلا من رؤية الضحية باعتباره الآخر بشكل عام، أصبحت الضحية هى اليهود، واليهود وحدهم، وأصبحت الهولوكوست حدثاً فريداً لا نظير له، ولا يمكن فهمه إلا من الداخل ومن ثم تتحول الإبادة من قضية اجتماعية تاريخية إنسانية إلى إشكالية غير إنسانية تستعصى على الفهم الإنسانى، وإلى سر من الأسرار يتحدى العقل. كل هذا ليس ناتجا عن ضغط يهودى أو صهيونى، وإنما هو جزء من منظومة حضارية كاملة.

٤- نزعت الحداثة الداروينية القداسة عن العالم وتركت الإنسان الغربى عاريا تماما أمام عالم المادة بلا مقدسات أو ميتافيزيقا، وهذا أمر مستحيل بالنسبة لمعظم البشر. فالإنسان كائن ميتافيزيقى دائم البحث عن شىء مقدس، فبدأ البحث عنه ولكن داخل إطار مادى مقدس يمكنه أن يدركه بحواسه الخمس (المصدر الوحيد للمعرفة بالنسبة له)، ولذا فهو يحاول أن يصل إلى قداسة مادية وميتافيزيقا مادية إن صح التعبير، وهى مادية لأنها لا تحقق أى تجاوز لسطح المادة، مثل الإيمان بوجود الأطباق الطائرة أو بالأبراج الفلكية التى تحدد مصير الإنسان. وتتميز هذه الميتافيزيقا اللذيذة بأنها لا تحمل أى أعباء أخلاقية، فالإيمان بها لا يضطر المرء إلى تبنى معايير أخلاقية معينة يضبط بها سلوكه. وقد وجد الإنسان الغربى ضالته فى الهولوكوست، فحولها إلى أيقونة، يتعبد فيها ويقدسها، ويعتذر عن المذبحة دون أن يكلفه هذا شيئا.

ولا يمكن بطبيعة حال إنكار أهمية البُعد الصهيونى للاستجابة الغربية الهستيرية. فمما لا شك فيه أنه يوجد قدر كبير من الضغط الذى تمارسه المؤسسات اليهودية والصهيونية للإبقاء على الوضع المعرفى والمعلوماتى القائم، الذى يُحقق لها فوائد جمّة. كما أن هناك الآلاف من أعضاء الجماعات اليهودية ممن تقاضوا التعويضات الألمانية عما لحق بهم من أذى وممن لا يزالون يطالبون بها، وهؤلاء أيضاً أصبحوا جزءاً من «جماعة مصالح»، تحولت إلى جماعة ضغط. وليس من صالح هؤلاء كشف حقيقة ما حدث. وبالتدريج أصبح الخطاب الصهيونى يستند بشكل شبه كامل إلى الإبادة النازية، وأصبحت الشرعية الصهيونية ذاتها تستند إلى حادث الإبادة. والشرعية عادةً لا تستند إلا إلى مطلقات، لا يمكن إخضاعها للتساؤل.

ستة ملايين

صدر فى أواخر عام ٢٠٠٥ قرار من الأمم المتحدة بتحويل ذكرى الهولوكوست، بأن يكون يوم ٢٧ يناير ذكرى للهولوكوست تحتفل به كل الدول والشعوب، وبذلك أصبحت قانونا واجب التنفيذ الآن على مستوى العالم. وهذا فى تصورى مسألة كوميدية. فحينما سألنى صحفى أمريكى عن رأيى فى هذا القرار، وهل سيحيى العرب ذكرى هذا اليوم، أجبته بأنه من الواجب أن نفعل ذلك. فالضحايا اليهود بشر وهذا الهجوم على الإنسان وتدميره لأسباب عنصرية ومادية أمر لا يقبله الإسلام. ولهذا السبب يجب أن نحيى ذكرى كل الضحايا بأن نضع الهولوكوست فى إطارها الإنسانى العام، بمعنى يجب أن نحيى أيضا وفى نفس اليوم ذكرى إبادة الهنود الحمر والسود وشعب الكونغو واستشهاد المليون شهيد فى الجزائر، وفى فيتنام ثم فى الشيشان وفى كوسوفو وفلسطين.

ويلاحظ أن الحضارة الغربية حولت رقم الستة ملايين هو الآخر إلى أيقونة لا يجب التشكيك فيها. سألنى صحفى فرنسى مرة عن مسألة الستة ملايين هذه، وهل أوافق على صحة الرقم؟ فأجبته بالنفى. فسألنى بحزم بالغ: «لم»؟ فأجبته: «لأننى أعتقد أنهم ثمانية ملايين»! فصدم، فقلت له لابد من الإحصاء الدقيق. فهل حسبنا عدد اليهود الذين قضوا بسبب الأوبئة والمجاعات وضحايا الغارات إبان الحرب العالمية الثانية، لعلنا لو أحصينا هؤلاء لبلغ العدد ثمانية ملايين أو ربما لتراجع الرقم. ولكن الغرب يحجم عن مثل هذا لأن رقم ستة ملايين قد أصبح رقما أسطوريا. أعتقد أنه يجب أن نميز بين عدد الذين قضوا فى أفران الغاز وعدد الذين اختفوا لأسباب لا علاقة لها بأفران الغاز. فيمكن أن نشير إلى من اختفوا بسبب الزواج المختلط والتنصر اللذين وصلت نسبتهما فى برلين قبل الحرب العالمية الثانية نحو ٦٠٪. كما أن الإحجام عن الزواج والإنجاب (الذى تتزايد نسبته أثناء الحروب) ساهم هو الآخر فى تناقص عدد اليهود. والمعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا أساسا سكان مدن، وسكان المدن يتناقص عددهم عبر التاريخ. وقد تركز يهود ألمانيا فى برلين بالدرجة الأولى، وفى بعض المدن الأخرى. وقد حدث أن كثيرا من اليهود حصلوا على شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية ليتمكنوا من الفرار إلى أمريكا اللاتينية وغيرها من الدول. وقد شاء كثيرون منهم ألا يعلنوا عن هويتهم اليهودية بعد الحرب. عدد اليهود إذن كان يتناقص بسبب الإبادة وبسبب العوامل الأخرى التى أوردناها. وبالتالى فإن عدد الذين اختفوا قد يكون ٦ ملايين وربما أكثر، المهم أن نقوم بعملية إحصائية دقيقة. وما كنت أفعله هنا أننى أطلب أن نفتح باب الاجتهاد مرة أخرى، ولا نقبل الأرقام الشائعة وكأنها حقائق مطلقة ونهائية. علينا أن ننظر فى طريقة الإحصاء نفسها، حتى نقرر بطريقة علمية ما إذا كان رقم ستة ملايين يضم هؤلاء الذين قضوا أو اختفوا لأسباب طبيعية أو غير طبيعية أخرى غير أفران الغاز.

ومن المعروف أن بعض المؤرخين والعلماء اليهود والإسرائيليين لا يؤيدون مسألة الستة ملايين، ولكن الإعلام لا ينشر أخبار مثل هؤلاء. فى مقال كتبه بيتر ستاينفلس بعنوان «مراجعة أوشفتس: حالة عالم إسرائيلى» نشر فى ١٢ نوفمبر ١٩٨٩ فى جريدة النيويورك تايمز، يشير الكاتب إلى نقش حجرى فى أوشفتس جاء فيه أن «أربعة ملايين شخص ماتوا فى معسكرات النازى»، وهى عبارة تكرر ذكرها حتى تحولت إلى مايشبه «حقيقة إحصائية» صلبة فى وجدان الكثيرين. ولكن يهودا باور، أحد أشهر مؤرخى الهولوكوست ومدير قسم دراسات الهولوكوست بمعهد اليهودية المعاصرة بالجامعة العبرية فى القدس، يقول إن عدد الضحايا أقل من نصف هذا الرقم. فرقم الأربعة ملايين، مضافا إليه عدد الضحايا فى أماكن أخرى، ينتج فى مجموعه النهائى عددا أكبر بكثير من الملايين الستة. فمن المعروف أن أكبر الأرقام التى تم نشرها تقدر العدد بـ ٢.٥ مليون يهودى، و ١.٥ مليون ضحية أخرى، يفترض أن معظمهم من البولنديين. وقد نشر يهودا باور مقالا بجريدة جيروساليم بوست فى نهاية شهر سبتمبر ١٩٨٩ وصف فيه هذه الأرقام بأنها زائفة بشكل واضح. ويتفق يزرائيل جوتمان، العالم الإسرائيلى، مع يهودا باور فى هجومه على الإحصائيات المتداولة. وللعلم جوتمان، زميل باور فى الجامعة العبرية، قاد حركة المقاومة السرية فى معسكر أوشفتس، وصاحب موسوعة من أربعة أجزاء عن الهولوكوست. وقد بين باور أن المؤرخ اليهودى الفرنسى جورج ويلرز قدّر عدد الذين لقوا حتفهم خنقا بالغاز أو بطرق أخرى أو تم تعذيبهم حتى الموت أو كانوا ضحايا للمجاعات أو أمراض بمعسكر أوشفيتز بـ ١.٦ مليون. وحسب هذه التقديرات، فإن ١.٣٥ مليون منهم كانوا من اليهود، ٨٣٠٠٠ بولندى، و٢٠٠٠٠ من الغجر، و١٢٠٠٠ سجين حرب سوفيتى. بالإضافة إلى ١٥٠٠٠٠ بولندى تم حبسهم فى معسكر أوشفيتس، ثم تم نقلهم إلى أماكن أخرى، حيث لقى كثير منهم - وليس معظمهم - حتفهم.



يوجد قدر كبير من الضغط الذى تمارسه المؤسسات اليهودية والصهيونية للإبقاء على الوضع المعرفى والمعلوماتى القائم، الذى يُحقق لها فوائد جمّة



أصبح الخطاب الصهيونى يستند إلى الإبادة النازية، وأصبحت الشرعية الصهيونية تستند إلى حادث الإبادة



ويرى ايلان ستاينبرج، المدير التنفيذى للمؤتمر اليهودى العالمى، أن الإحصائيات المبالغ فيها تم تكرارها، مما أدى إلى تقبل كثير من اليهود لها على الرغم من أن كبار العلماء لا يوافقون عليها. كما يؤكد يهودا باور أن مؤرخى الهولوكوست قد نبذوا الأرقام المتضخمة منذ سنوات طويلة، إلا أن ذلك لم يعلن للجماهير، وأنه آن الأوان للإعلان عن ذلك.

مصطلحات الهولوكوست

وقد ظهر مؤخراً مصطلح «صناعة الهولوكوست»، وهو ليس جديداً تماماً. فهناك أسرة من المصطلحات تشبهه فى كثير من النواحى فهناك مصطلح هولوكيتش Holokitch، والكيتش هو العمل الفنى الردىء الرخيص السوقى، ومصطلح هولوكوست بيزنيس holocaust business، أى «تجارة الهولوكوست»، وهناك أيضا هولوكاش holocash، أى الهولوكوست باعتبارها مصدرا للربح. أما مصطلح «صناعة الهولوكوست» فقد ظهر حين كتب نورمان فنكلشتاين كتابا بعنوان صناعة الهولوكوست: تأملات فى استغلال المعاناة اليهودية بمثابة احتجاج موثق بالأدلة والبراهين على توظيف موضوع الهولوكوست وتحويله إلى صناعة ترمى إلى خدمة المصالح السياسية للنخبة من اليهود الأمريكيين، والتى تتوافق مع مصالح السياسة الخارجية للحكومة الأمريكية.

ويلاحظ فنكلشتاين أنه مع نمو صناعة الهولوكوست، أخذ المنتفعون من هذه الصناعة يتلاعبون فى أرقام الناجين، وذلك بغرض المطالبة بمزيد من التعويضات، وبدأ الكثيرون يتقمصون دور الضحية. ويعلق على ذلك ساخراً «لا أبالغ إذا قلت أن واحداً من كل ثلاثة يهود ممن تراهم فى شوارع نيويورك سيدعى بأنه من الناجين من المحرقة. فمنذ عام ١٩٩٣، ادعى القائمون على هذه «الصناعة» أن ١٠ آلاف ممن نجوا من الهولوكوست يموتون كل شهر، وهو أمر مستحيل كما يبدو، لأنه يعنى أن هناك ثمانية ملايين شخص نجوا من الهولوكوست فى عام ١٩٤٥ وظلوا على قيد الحياة، بينما تؤكد الوثائق أن كل اليهود الذين كانوا يعيشون على الأراضى الأوروبية التى احتلها النازيون عند نشوب الحرب لا يزيد على سبعة ملايين فقط». ولكن وفقاً للحسابات الرياضية البسيطة، كما يقول فنكلشتاين، يتبين أن هذا التلاعب يؤدى فى واقع الأمر إلى تقليل عدد الضحايا الذين يقال إنهم أبيدوا؛ وهكذا ينتهى الأمر برقم الستة ملايين إلى أن يصبح من الصعب التمسك به أو الدفاع عنه. ويعلق فنكلشتاين على هذا الأمر ساخراً فيقول: «إن القائمين على صناعة الهولوكوست يتحولون تدريجياً إلى منكرين للإبادة».

ولا يقف الأمر عند حدود التلاعب بالأرقام بل يتجاوز ذلك إلى التلاعب بالحقائق نفسها. فيلاحظ فنكلشتاين أن «متحف إحياء ذكرى الإبادة النازية» فى واشنطن، على سبيل المثال، «يتغاضى عن أثر السياسة التمييزية التى اتبعتها الولايات المتحدة بتحديد أعداد المهاجرين اليهود إليها قبل الحرب، بينما يبالغ فى دور الولايات المتحدة فى تحرير معسكرات الاعتقال النازية، ولا ينبس ببنت شفة عن إقدام الولايات المتحدة على تجنيد أعداد كبيرة من مجرمى الحرب النازيين فى نهاية الحرب». كما يشير فنكلشتاين إلى أن المتحف يمر مرور الكرام على موضوع المذابح الجماعية التى ارتكبها النظام النازى فى حق الغجر والسلافيين والمعاقين فضلاً عن المعارضين السياسيين. ويخصص الكاتب جزءاً كبيراً من كتابه لمسألة الأموال المجمدة من الحقبة النازية فى المصارف السويسرية، ويتساءل عن الأموال المماثلة فى المصارف الأمريكية، والتى لا يشير إليها أحد من قريب أو بعيد. وقد يتساءل المرء، على ضوء الشواهد المتوفرة، عما إذا كانت الولايات المتحدة تستخدم المنظمات اليهودية، من خلال مسألة الأموال المجمدة فى المصارف الأوروبية، من أجل زيادة الضغوط على البلدان الأوروبية لإجبارها على الوقوف إلى جانب الدولة الصهيونية.

إنكار الهولوكوست

ولننتقل الآن إلى قضية إنكار الهولوكوست، فليس لدينا الأدوات البحثية لإثباتها أو إنكارها، ولذا أرى أهمية الدعوة لإقامة مؤتمر علمى عالمى لبحث القضية، مع التحفظ التالى أننا ندرس واقعة تاريخية، جزء من التاريخ الأوروبى، ولا علاقة لها بالصراع العربى الإسرائيلى. مع الأسف بعض العرب يتصور أن ذبح اليهود على يد النازيين فى مصلحة العرب، وهذا غباء ما بعده غباء. يجب أن يعرف العرب أن المواطن اليهودى الذى يضطهد فى بلاده ويضطر للفرار منها، يتحول إلى مستوطن فى بلادنا يحمل السلاح ضدنا. كما لا يدرك البعض أن من يدعو لإبادة اليهود لأنهم يهود يتبنى رؤية مادية نفعية ويتخلى عن المرجعية النهائية الإسلامية، وهى فى نهاية الأمر دعوة للفتنة الطائفية فمن يقتل يهوديا لأنه يهودى سيقتل غدا مسيحيا لأنه مسيحى، ومسلماً لأنه شيعى أو سنى والآخر لأنه آخر لا يشبهه ومختلف عنه. إن من

بيزنس الهولوكوست

واجب العرب أن يدافعوا عن حقوق أعضاء الجماعات اليهودية الدينية والسياسية والمدنية فى بلادهم، وهذا بطبيعة الحال ما لا ترغب فيه الصهيونية، أو الدول الغربية التى تريد أن تزود إسرائيل بالمادة الاستيطانية القتالية!

أما بالنسبة للإعلام الغربى فأنا عادة ما أؤكد أنه كى يصدق العالم قضية الهولوكوست فلابد من إثباتها علميا، بدلا من استصدار قوانين غامضة تجرم كل من ينكر الهولوكوست كليا أو جزئيا. ماذا تعنى هذه العبارة؟ «كليا» قد تعنى رقم ستة ملايين، ولكن «جزئيا» كلمة فى غاية الغموض. كان من المفروض أن يجرم القرار كل من ينكر الهولوكوست إن لم يأت بسند علمى تاريخى، وبالتالى تتحول القضية من صراع إعلامى يوظف بطريقة سياسية رخيصة إلى حوار علمى رصين. كما يجب الإشارة إلى أنه بدلا من إنكار الهولوكوست أو التمسك بالرقم ستة ملايين لابد من دراسة وثائق وزارة الخارجية الألمانية إبان حكم النازى ومحاكمات نورمبرج وكلها تؤكد أن الهولوكوست قد حدثت بالفعل، كما أنها كشفت عن حقائق يحرص الإعلام الغربى على إخفائها، فهذه الوثائق تبين مدى تعاون الصهاينة مع النازيين ومدى عدم اكتراث يهود الولايات المتحدة بما كان يحدث فى ألمانيا النازية. لقد فتح تحقيق فى هذه القضية تحت إشراف سفير الولايات المتحدة فى هيئة الأمم فى السبعينيات آرثر جولد برج، وهو أمريكى يهودى، ثم أغلق فجأة لأن نتائجه كما قالوا كانت ستسبب كثيرا من الألم. لمن؟ ولم؟ هل كانت ستبين حقيقة موقف الجماعة اليهودية مما كان يحدث فى ألمانيا النازية، وأن قوات الحلفاء رفضت مد يد العون لضحايا الإبادة، فأيزنهاور، قائد القوات الأمريكية، رفض أن تقوم الطائرات الأمريكية بضرب قضبان السكك الحديدية التى كانت تجرى عليها القطارات التى تنقل ضحايا اليهود إلى أوشفتز لأنه وجد أن فى ذلك تبديدا للمجهود الحربى، وأن الولايات المتحدة رفضت فتح أبوابها أمام المهاجرين اليهود من ألمانيا، وأن الصهاينة قد وقفوا ضد التهجير إلى أى مكان خارج فلسطين، كما حدث فى مؤتمر ايفيان. وما أفعله هنا أننى أقبل الأطروحة الغربية ولكنى أوسع من نطاقها وأضيف عناصر يحرصون على استبعادها، وهم يفعلون ذلك حتى تصبح الصورة إما أبيض أو أسود، ومن ثم يسهل توظيفها.

التعاون بين النازيين والصهاينة

الغرب الذى أفرز النازية هو ذاته الذى أفرز الصهيونية. كلتاهما حركة عنصرية إبادية، تضرب بجذورها فى الفكر العنصرى الإمبريالى، الذى وُلد فى القرن التاسع عشر ونما وترعرع فى أوائل القرن العشرين. ويجب أن نتذكر أن الآباء الأُوَل للصهيونية، مثل هرتزل، كانوا ألماناً ذوى توجه ألمانى قوى يكنون كثيرا من الإعجاب للعسكرية الألمانية. بل إن فى المراحل الأولى كان التصور أن الجيب الصهيونى سيكون محمية ألمانية، «فألمانيا العظيمة ستأخذ اليهود تحت أجنحتها» على حد قول هرتزل. أما زميله ماكس نوردو على سبيل المثال فقد غير اسمه من سيمون ماكسيميليان سودفيلد إلى نوردو إعجاباً منه بالجنس النوردى! لا غرو إذاً أننا نجد أمثلة كثيرة على التلاقى شبه الكامل بين النازية والصهيونية.

فعلى سبيل المثال لا الحصر أسس أحد أتباع جابوتنسكى ما يسمَّى «عصبة الأشداء» (أى الأقوياء) (بالعبرية: بريت هابريونيم)، وهى جماعة ذات طابع نازى واضح. وكان من بين هتافات أعضاء العصبة «ألمانيا لهتلر، وإيطاليا لموسولينى، وفلسطين لجابوتنسكى». وقد يقال إن هذا شكل من أشكال التطرف الذى لا يعبر عن التيار الأساسى داخل الحركة الصهيونية، فماذا عن التيار الأساسى فى الحركة الصهيونية؟ لدينا من الوثائق ما يدل على أن التيار الأساسى فى الحركة الصهيونية آنذاك كان هو الآخر نازى الهوى. ففى ٢١ يونيو/حزيران ١٩٣٣، أى بعد وصول النازيين إلى السلطة، أصدرت المنظمة الصهيونية فى ألمانيا «إعلان الاتحاد الصهيونى بشأن وضع اليهود فى دولة ألمانيا الجديدة» Ausserung der Zionistischen Vereinigung fur Deutschland zur Stellung der Juden im Neuen Deutschen Staat. والذى حدد طبيعة علاقة الصهاينة بالنظام النازى بشكل واضح لا إبهام فيه. وقد اتخذ الإعلان شكل مذكرة أُرسلت مباشرةً إلى الحزب النازى وهتلر وتم من خلالها تحديد المقولات المشتركة بين النازيين والصهاينة. فقد بدأت المذكرة/الإعلان بتأكيد إمكانية التوصل إلى حل يتفق مع المبادئ الأساسية للدولة الألمانية الجديدة، دولة البعث القومى، ثم طرحت أمام اليهود طريقة جديدة لتنظيم وجودهم. وانتقلت المذكرة بعد ذلك لعرض إطارها السوسيولوجى، فقامت بانتقاد الشخصية اليهودية التى تتسم بالكسل، وبيَّنت أن صعوبة وضع اليهود تنبع من شذوذ النمط الوظيفى الذى يتبعونه، ومن الخلل الكامن فى كونهم جماعة تتخذ مواقف فكرية أخلاقية غير متجذرة فى تقاليدهم الحضارية الخاصة (أى أنهم قومية عضوية توجد خارج أرضها). ويعد أن تبنت المذكرة هذا النقد النازى



قال أحد المعلقين إنه إذا كان هرتزل هو ماركس الدولة اليهودية، فإن هتلر هو لينين بالنسبة لها



بيزنس الهولوكوست

لليهود انتقلت لإيضاح نقط الالتقاء الفلسفية والنظرية بين الصهيونية والنازية، فأكدت أن الصهيونية مثل النازية تمزج الدين بالقومية، فالأصل والدين ووحدة المصير والوعى الجمعى يجب أن تكون كلها ذات دلالة حاسمة فى صياغة حياة اليهود. وتؤكد المذكرة أن المنظمة تقبل مبدأ العرق، أحد ثوابت الرؤية النازية، كأساس لتصنيف الأفراد والجماعات المختلفة ولإنشاء علاقة واضحة مع الشعب الألمانى وحقائقه القومية والعرقية. كما تقوم المذكرة بتعريف اليهود تعريفاً عرقياً، مبينة أن هدف الصهيونية هو التصدى للزيجات المختلطة والحفاظ على نقاء الجماعة اليهودية.

هذا هو الإطار الفلسفى الذى اقترحته المنظمة الصهيونية لتحديد العلاقة بين الصهاينة والنظام النازى، مؤكدةً على إمكان تحويله إلى ممارسة وإجراءات. وقد طرحت المنظمة الصهيونية نفسها باعتبارها الحركة الوحيدة القادرة على أن تأتى بحل للمسألة اليهودية يحوز رضا الدولة النازية الجديدة ويتفق مع خططها، حل يهدف إلى بعث اليهود من الناحية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية فى إطار فكرة الشعب العضوى ويتبع النموذج النازى. ثم يمضى البيان موضحاً الهدف الصهيونى بجلاء فيقول: «على تربة الدولة الجديدة، ألمانيا النازية، نريد أن نعيد صياغة بنية جماعتنا بأكملها بطريقة تفيد ألمانيا واليهود فى المجال المخصص لهم، فهدف الصهيونية هو تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين».

وكانت استجابة النظام النازى إيجابية، فقام بتشجيع النشاط الصهيونى ودعم المؤسسات الصهيونية والسماح للمنظمات الصهيونية بممارسة جميع أنشطتها من تعليم وتدريب على الاستيطان فضلاً عن نشر مجلاتها، بينما مُنع الداعون إلى اندماج اليهود فى مجتمعاتهم وكذلك اليهود الأرثوذكس من إلقاء الخطب أو الإدلاء بتصريحات أو جمع التبرعات أو مزاولة أى نشاط آخر.

ولم يقف الأمر عند حدود التسامح مع نشاط المنظمات الصهيونية، بل تجاوز ذلك إلى التنسيق والتعاون فى عمليات إفراغ ألمانيا من اليهود. ولعل اتفاقية الهعفراه بين المنظمة الصهيونية والنظام النازى، والتى تم بموجبها نقل آلاف اليهود إلى فلسطين، هى خير دليلٍ عملى على مدى التعاون بين الصهاينة والنازيين ومدى التطابق بين أهداف الطرفين.

هعفراه ونوسيج وكاستنر

و«هعفراه» كلمة عبرية تعنى «النقل» أو «الترانسفير»، وهو اسم معاهدة وقعها المستوطنون الصهاينة مع النازيين. وقد كان الصهاينة الاستيطانيون فى الثلاثينيات يبحثون عن وسائل لدعم المستوطن الصهيونى وحماية مصالحهم بأية طريقة، ومن ذلك التعاون مع النظام النازى، بينما كان صهاينة الخارج التوطينيون وقادة الجماعات اليهودية مشغولين بعمليات إنقاذ يهود ألمانيا، وضمنها تنظيم مقاطعة اقتصادية ضد هذا النظام. وفى إطار التعاون بين النازيين والصهاينة تم توقيع اتفاقية الهعفراة عام ١٩٣٣ التى كانت تقضى بأن تسمح السلطات الألمانية لليهود الذين يقررون الهجرة من ألمانيا إلى فلسطين بـ «نقل» جزء من أموالهم إلى هناك رغم القيود التى فرضتها ألمانيا على تداول العملة الصعبة. وكان ذلك يتم بتمكين أولئك اليهود من إيداع المبلغ المسموح بتحويله (ألف جنيه إسترلينى) فى حساب مغلق يفتح فى بنك واسرمان فى برلين وبنك ووربورج فى هامبورج ثم يُسمح باستعمال هذا المبلغ لشراء تجهيزات وآلات زراعية مختلفة من ألمانيا، يتم تصديرها إلى فلسطين. وهناك تقوم الشركة ببيع هذه البضائع وتسدد بأثمانها المبالغ المستحقة لمودعيها بعد وصولهم كمهاجرين إلى فلسطين، وتحتفظ بالفرق كعمولة أو ربح لها. وقد تم تعديل الاتفاقية بحيث أصبح فى مقدور اليهود الألمان الذين لا ينوون الهجرة مباشرةً، ويريدون مع هذا تأسيس بيت فى فلسطين والمساهمة فى تطويرها، أن يستعملوا الحساب المغلق وأن يودعوا أموالهم فيه شرط ألا يزيد المبلغ الإجمالى على ثلاثة ملايين مارك تستعمل لشراء بضائع ألمانية أياً كان نوعها.

وقد حققت اتفاقية الهعفراه نجاحاً باهراً من وجهة نظر النازيين والصهاينة. فقد نجح النازيون فى تصديع أسس المقاطعة اليهودية لألمانيا دون أن يضطروا إلى إجراء أى تعديل فى سياستهم تجاه اليهود. وأما بالنسبة إلى المستوطنين، فإن فترة الهعفراه تُعَد أهم فترة فى تاريخ المُستوطَن إذ تم تزويده بعدد كبير من أعضاء المادة البشرية المطلوبة وبرأس المال اللازم للبنية التحتية. وقد ذكر ناحوم جولدمان فى مذكراته أنه حينما قابل رئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٥، اتهم الرئيس الصهاينة برفضهم الاشتراك فى المحاولات الرامية إلى مقاطعة هتلر، بل تخريبها بإبرامهم اتفاقية الهعفراه. وكان تعليق جولدمان الوحيد على ذلك أنه شعر حينذاك بالبؤس والخجل إلى درجة لم يشعر بها من قبل، وأن رئيس الوزراء كان على حق فيما يقول. وكما قال أحد المعلقين إنه إذا كان هرتزل هو ماركس الدولة اليهودية، فإن هتلر هو لنين بالنسبة لها. أى أنه هو الذى حوّل النظرية الصهيونية إلى واقع مادى. ومما يجدر ذكره أن اتفاقية الهعفراه ظلت سارية المفعول حتى عام ١٩٣٩ مع نشوب الحرب العالمية الثانية، ثم توقف العمل بموجبها ولكن دون أن تُلغى رسمياً.

وهناك بعض الحالات الفريدة، ولكنها ممثلة، مثل حالة الفريد نوسيج الفنان الصهيونى وعالم الديموجرافيا، وهو من الآباء الصهاينة الأوائل. حضر نوسيج المؤتمر الصهيونى الأول وساهم فى تنظيمه. وقد حاول نوسيج شأنه شأن كثير من الصهاينة حل المشكلة اليهودية بنقل اليهود خارج أوروبا. فأسس عام ١٩٠٨ منظمة استيطانية تُسمَّى إيكو AIKO للتعجيل بنقل اليهود، ولكنه أخفق على ما يبدو فى محاولة نقل اليهود على الطريقة البلفورية، فقرر نقلهم على الطريقة النازية (أى الإبادة)، فاتجه إلى التعاون مع النازيين، فعمل كمخبر للسلطات النازية إبان الحرب العالمية الثانية، وعيَّنه تشيرنياكوف، رئيس مجلس اليهود فى وارسو إبان حكم النازى، عضواً فى المجلس ورئيساً لقسم الفنون. ونظراً لمعرفته الوثيقة بأعداد اليهود وتوزعهم ومراحلهم العمرية المختلفة (بسبب دراساته التى سبقت الإشارة إليها)، ونظراً لرغبته العميقة فى إفراغ أوروبا من يهودها، وضع نوسيج خطة متكاملة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء (غير النافعين) وتهجير الباقين أو إبادتهم. وقد اكتشف أعضاء المقاومة اليهودية فى جيتو وارسو تعاونه مع النازى وأنه عضو فى الجستابو، فحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ونُفِّذ الحُكم فى ٢٢ فبراير/ شباط ١٩٤٣. وقد اختفى نوسيج تماماً من الأدبيات الصهيونية والغربية، لأنه يُعد نموذجاً جلياً يفضح المشروع الصهيونى باعتباره مشروعاً ينبع من كُره عميق لليهود ورغبة فى التخلص منهم.

ثم هناك رودولف كاستنر، أحد زعماء الحركة الصهيونية فى المجر، والذى ترأس عدداً من المنظمات الشبابية الصهيونية، ورأس تحرير مجلة «أوج كيليت» Uj Kelet (أى «الشرق الجديد»)، وكان نائب رئيس المنظمة الصهيونية فى المجر، ثم أصبح مسئولاً عن «إنقاذ» المهاجرين اليهود من بولندا وتشيكوسلوفاكيا، إذ كان يشغل منصب رئيس لجنة الإغاثة فى بودابست التابعة للوكالة اليهودية. ولكنه بدلا من «إنقاذ» اليهود تعاون مع المخابرات المجرية والنازية (التى كان لها عملاء يعملون داخل المجر، حتى قبل احتلال القوات الألمانية لها). ثم استمر فى التعاون مع النازيين بعد احتلالهم للمجر. وتشير بعض الدراسات إلى أن أيخمان حضر إلى المجر ومعه ١٥٠ موظفاً وحسب، وكان يتبعه عدة آلاف من الجنود المجريين، هذا بينما كان عدد يهود المجر يزيد على ٨٠٠ ألف، وهو ما يعنى استحالة ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) إن قرروا المقاومة. ومع هذا نجح أيخمان فى مهمته بفضل تعاون كاستنر معه، إذ يبدو أن كاستنر أقنع أعضاء الجماعة اليهودية فى المجر بأن النازيين سيقومون بنقلهم إلى أماكن جديدة يستقرون فيها أو إلى معسكرات تدريب مهنى لإعادة تأهيلهم وليس إلى معسكرات الاعتقال. فلم يظهروا أية مقاومة لعملية النقل هذه وتعاونت الضحية مع القاتل. وقد وافق كاستنر على أن يتولى تهدئة اليهود فى مقابل أن تسمح السلطات النازية بإرسال بعض الشباب اليهود إلى فلسطين بدلا من إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال والإبادة («يهود من أفضل المواد البيولوجية»، على حد قول أيخمان).

واستقر كاستنر فى فلسطين بعد الحرب عام ١٩٤٦، وانضم إلى قيادة الماباى ورُشِّح للكنيست الأول، وانتقلت معه مجلة أوج كيليت، وأصبح رئيساً لتحريرها، بل كان يعد مسئولاً عن شئون يهود المجر (أو من تبقى منهم) فى الحزب الحاكم.

ولكن فى عام ١٩٥٢ أرسل المواطن الإسرائيلى مايكل جرينوولد كتيباً لبعض القيادات الصهيونية اتهم فيه كاستنر بالتعاون مع النازيين، وبالدفاع عن أحد ضباط القوات النازية الخاصة (الإس. إس.) أثناء محاكمات نورمبرج مما أدى إلى تبرئته وإطلاق سراحه. وقد بذل الحزب الحاكم فى إسرائيل جهوداً مضنية لإنقاذ كاستنر ونفى التهم عنه.

إلا أن المحكمة الإسرائيلية قضت بأن معظم ما جاء فى كتيب جرينوولد يتطابق مع الواقع. وبعد إشكالات قضائية كثيرة، حسمت المسألة (لحسن حظ الحزب الحاكم) حينما أطلق «أحدهم» الرصاص على كاستنر وهو يسير فى الشارع، وذلك رغم ورود تحذيرات لسلطات الأمن الإسرائيلية عن وجود مؤامرة لاغتيال كاستنر، بل كانت السلطات تعرف موعد تنفيذ المؤامرة. وقد سجل موشيه شاريت، رئيس الوزراء الإسرائيلى آنذاك، هذه الكلمات فى مذكراته: «كاستنر. كابوس مرعب. حزب الماباى يختنق. بوجروم». ويشير أحد الصهاينة المتورطين فى التعاون مع النازيين إلى أن «رجال السياسة الذين يتسمون بالحذر، كانوا لا يعرفون ماذا سيفعلون مع هذا الرجل بعد محاكمته»، وكانوا يفكرون فى «إسكاته».

والله أعلم. ■

من نحن؟؟

Israeli extremists take revenge on Palestinians



By Nasser Shiyoukhi, AP

Hatred in the market: Samar Abdul-Shafti, 36, a Palestinian mother of two, was kicked by an Israeli boy as an Israeli girl tried to rip off her Islamic headscarf last month in the divided West Bank city of Hebron.

Vigilantes take up arms, vow to expel 'Muslim filth'

... والحب والكراهية

أفراهام بورج

كان كل شيء في حياته يؤهله لأن يكون أنموذجا للسياسي الإسرائيلي الأمثل، كان نجمه ساطعا ، ومستقبله السياسي واعدا ، والطريق ناعما معبدا ، لولا ما ألم به من علة مفاجئة، لعل من أهم أعراضها صحوة العقل واستيقاظ الضمير. فترك الساحة وقفل عائدا ضد التيار. فعلى الرغم من الـ«كيبا» التي يعتمرها، واقتباساته المتكررة من التوراة والتلمود، يبدو أفراهام بورج وكأنه «يغرد» خارج السرب الإسرائيلي. وفي كتابه الجديد«هزيمة هتلر»الذي سبب صدمة في إسرائيل لدى صدوره في أغسطس ٢٠٠٧، يشن الرئيس الأسبق للكنيست الإسرائيلي هجوما على الصهيونية، ويشبِّه الهياكل الحالية للدولة العبرية بتلك التي سادت في ألمانيا قبل النازية، ويأسف لاستمراء الذهنية الإسرائيلية لوضعية الضحية، التي تسوِّغ لنفسها التوغل الاستيطاني، والتغوُّل العسكري، والتوجه العنصري.. الكتاب الجديد يوصِّف حالة من البارانويا المجتمعية الصارخة، التي أدت الى استشراء العنف، والتي يلخصها أفراهام بورج بقوله : «إن أكوام جثث القتلى الفلسطينيين صارت أعلى من الجدار العازل الذي ابتنيناه ليحجبهم عنا..»[1] و بمناسبة صدور الترجمة الفرنسية للكتاب في ٥ مارس٢٠٠٨ عن دار نشر فايار، سافر رئيس تحرير مجلة «لير » الفرنسية إلى تل أبيب[2]، ليقابل الكاتب الذي راح يصف وطنا يقف على أعتاب الصهيو نازية.. بالتصريح تارة وبتلميح استدعته حساسية المقاربة تارات.

«وجهات نظر» لم تكتف «بالنص المنشور في المجلة الفرنسية، بل عادت «إلى ناشر الكتاب «الطبعة الفرنسية» لتستأذنه في نشر «نص» فقرات كاملة من كلام «الرئيس الأسبق للكنيست الإسرائيلي.

المترجمة

«للتمكن من وضع إسرائيل رهن المقارنة مع الدول الأخرى، يجدر أولا إبراز بعض من خصائصها. فما من بلد آخر في العالم كله يسعه الافتخار بأنه يتمتع بهذا القدر من حرية التعبير المطلقة التي نتمتع نحن بها. ولنُذَكِّر، على سبيل المثال، بأن بريطانيا كانت قد فرضت، في عقد الثمانينيات، رقابة مشددة إبان حربها الحمقاء في جزر فوكلاند، وبأن اليوم، في أمريكا بوش، تمتنع الصحافة عن نشر أية إعلانات وفيات أو صور لأي من آلاف الجنود الذين قضوا نحبهم في حرب العراق. أما في اسرائيلنا نحن، فما من حدود تقف عندها فيوض التعبير. ما من حدود جغرافية، وما من حدود على مستوى الانضباط الداخلي أو النظام العام. هنا، نكفل لأنفسنا الحق في قول كل شيء وأي شيء، كأن نحرض على قتل رئيس الوزراء، من دون أن يستتبع ذلك أي رد فعل رسمي؛ أو أن نغطي حوائط كاملة بكتابات عنصرية من قبيل «الموت للعرب» و«نهاية العرب نهاية للإرهاب»، من دون أن تُقدِم سلطة بلدية، أو الشرطة، أو أية جهة منوطة بحماية المرافق العامة، على محو ذلك العار الذي ينتشر أمام أعيننا... في الأحياء اليهودية الأرثوذكسية بالقدس - كما أسلفت- هناك من الصلبان المعقوفة ما يفوق عدداً كل ما قد تجده منها في جميع مقابر اليهود المنتهكة في العالم.. هنا، تخطت حرية التعبير كل الحدود والسدود، وتحولت إلى فوضى لفظية، تقترب بشكل خطير من التحول الى اجتراح عنيف الفعال. البلد بأسره قد صار رهينة تحتجزها مجموعة من المستوطنين الملوِّحين بشبح الحرب الأهلية، وبخطر المقاومة السلبية، مما يؤدي إلى إعادة النظر في شرعية الدولة وفي إرادة الأغلبية. كل ذلك تحت مسمى حرية التعبير والمشاركة.

فإن كان ذلك هو الحال، فما هو الرابط الذي يشد أواصر مختلف مكونات المجتمع الإسرائيلي؟ والإجابة هي ببساطة: الحرب. فكم من المرات التي أسعدنا فيها الحظ بوجود العرب في مواجهتنا، فمن دون العرب لكنا قد تقاتلنا فيما بيننا منذ زمن طويل. ولو كان في أعدائنا شيء من الذكاء لكانوا ألقوا أسلحتهم، و«صنعوا من سيوفهم محاريث ومن رماحهم مناجل للحصاد» (كما جاء في سفر أشعيا)، وراحوا يتجملون بالصبر ويركنون الى الانتظار... حتى ننتهي نحن من إنجاز المهام القذرة بأيدينا. ها نحن ندين الحرب باستخدام عبارات مستوحاة من يعقوب بينما نشهر بأيدينا سيف أخيه «عيسو»[3] ذا الحدين الحديدين، لنتوحد معا داخل شرنقة العداء والضغينة المحيطة بنا.



حين كنتُ في السنة النهائية بالمدرسة الثانوية، كان أستاذي في اللغة العبرية رجلا من نوع خاص بعض الشيء، وكان أن تغيب مرتين. فعلمنا فيما بعد أنه كان قد قبض عليه في المرة الأولى لمحاولته إضرام النار في كنيسة واقعة على جبل الزيتون، أما في المرة الثانية، فكان احتجازه بسبب ما قام به من تهديد رجل - غير يهودي بالطبع- باستخدام بلطة في المدينة القديمة بالقدس. ولقد تمت ملاحقته لانتمائه الى تنظيمات مهووسة وعابرة، أصبحت فيما بعد فخر اليمين الوطني.

في مراهقتي، أحببته كثيرا. إذ لم أكن قد أدركت بعد كنه معتقداته الفعلية ولا كنت قد أحسنت فهم أبعاد أفكاره. لكن مناقشاتنا معا قد أتاحت لي شحذ قيمي المغايرة. فمن محاوراتنا انبثقت الحقائق الإنسانية واليهودية الأهم التي ما زلت أؤمن بها الى اليوم. وقتها، كنت أجهل إلى أي مدى يعد هذا الرجل خطيرا، لكنني كنت أعلم أنه معارض ممتاز لآرائي. كان رجلا من نوع خاص، يتميز بذكاء فوق العادة.. مازلت أذكر ابتسامته يوم راح يملي علينا سؤال اختبار التجربة: «اكتب في الموضوع التالي: «إنما هي الحروب والمآسي التي تعمل على بلورة الشعوب». وفيما هو يمر بين صفوف فصلنا المكتظة، إذا به يهمس في أذني قائلا: «هذا موضوع مصمم خصيصا من أجلك أنت».

مع مرور الوقت، تكاثر هو وأمثاله. وراح الهامش يحتل المركز، بينما راحت صفوفنا نحن تتشتت لتتم تنحيتنا جانبا قصيا. وها هو خطابهم المجنون يتهدد إسرائيل بالانفجار. ففي الاجتماعات الحكومية، نراهم اليوم يتفوهون بكلمات مثل «سنطرد»، و«سنقتل»، و«سنجوع»، و«سنضطهد»، ولا راد ولا رادع لكلماتهم. تتعالى صرخاتهم وتتجاوب حتى على منابر الكنيست. وأصداؤها ماثلة في غزة، وفي يهودا والسامرة[4]، وفي جنوب لبنان. لتسود دوما العقلية ذاتها، والمصطلحات ذاتها، والمنطق الحتمي الشرس ذاته، وكل ما يغذي صورة إسرائيل ويهودية منفلتتي الزمام، معتديتين بقوة الذراع. لقد أصابنا الصمم من فرط ما دهمنا اللغط المعنوي الذي يروج لفكرة «دولة الضحايا» التي تعتقد بأن كل شيء مسوغ لها، بما في ذلك التضحية بالآخر. ذلك أن وضعية الضحية تعني التحلل والتحرر من كل شيء. وبما أننا مازلنا نشعر بالألم وبالأسى اللذين تجرعناهما حين كنا ضحية الأمس، أرى أنه علي أن أقر وأن أعترف لنفسي بأمر مخيف: ففي أثناء تحرير هذا الكتاب، أصابني الفزع إذ اكتشفت أن الهياكل الحكومية والاجتماعية والقومية الأقرب شبها لهياكلنا هي تلك التي سادت في ألمانيا الموحدة بدءا من صعود الرايخ الثاني وحتى حلول

ترجمة: د. داليا توفيق سعودي

Vaincre Hitler
Pour un judaïsme plus humaniste et universaliste
Avraham Burg
Paris, Fayard, mars 2008, 365 pp, 3 euros.
Librairie Arthème Fayard 2008 pour la traduction française

(هزيمة هتلر. من أجل يهودية أكثر إنسانية وكونية)
أفراهام بورج
باريس، فايار، مارس ٢٠٠٨ ، ٣٦٥ صفحة، ٣ يورو.
ترجمه من العبرية الى الفرنسية أوريت روزن و ريتا سابا.



زمن الفوضى والاضطراب الذي أفرز النازية. ولكي أكون أكثر دقة: حتى زمن وصول النازية الى الحكم وليس بعد ذلك.و هذا ما يقلقني الى أبعد درجة، ويشعرني بالحرج ويصيبني بالأرق.

كان أوتو إدوارد فون بيسمارك مؤسس الرايخ الثاني . ومع مطلع عام١٨٧٠، تمكن من تحقيق الحلم الذي طالما عمل من أجله منذ ما يربو على عقدين. ففي غضون بضعة أشهر، تمكن من سحق قوات نابليون الثالث، وأسس في فرساي الامبراطورية الجرمانية الثانية، ليضع ألمانيا وشعبها على قدم المساواة مع القوى الأوروبية الأخرى: بريطانيا العظمى، وفرنسا، وروسيا، والامبراطورية النمساوية الهنجارية.و لقد رأى الكثيرون في ألمانيا، لاسيما الكثير من اليهود هناك، أن ما حققته ألمانيا من نصر واتحاد إنما يمثل خلاصا تاريخيا، أو على الأقل خلاصا دينيا ومسيحانيا.و في المقابل، ذهب الفيلسوف والمستريب الأكبر نيتشه إلى أن مثيل ذلك النصر المدوي من شأنه أن يفضي إلى دمار وإفناء أشد وطأة مما قد تجره الهزيمة العسكرية، لاسيما حين ينظر الألمان الى ذلك النصر على أنه الدليل الدامغ على تفوقهم الإنساني والثقافي على الفرنسيين المنهزمين.

ولقد تأتى للأشخاص القلائل الذين شاطروا آراء نيتشه أن يفهموا مبكراً مغزى أن يتوحد بلدهم بسلطان السيف، إذ أدركوا أن نشوة تمجيد القوة ستغطي حتما على أية محاولة جادة لإعادة إحياء قومي حقيقي أو لإصلاح مجتمع ونظام قد أصابهما الفساد والتعفن. في كتابه الرايخ اللاهث وراء سرد قصة المائتي عام السابقة لوصول هتلر إلى الحكم، ذكر أموس أيلون بما ساور جوهان يعقوبي من مخاوف بشأن طبيعة الرايخ الجديد الناتج عن التحالف غير المقدس بين «العرش والكنيسة والمال».كما ذكر أيلون بنبوءة الناشر الألماني اليهودي، ليوبولد سونمان، التي تحققت فيما بعد والتي قال فيها بأن «إعادة اتحاد الأمة الألمانية سيتم على حساب الحرية».. كان جوهان يعقوبي وليوبولد سونمان وغيرهما على وعي بأن دعائم الاتحاد الجديد ترتكز على تنامي سلطة الجيش الألماني . ففي معرض المقارنة بين الدولة العسكرية والدولة المدنية، يلاحظ أن الأولى تجنح الى إضفاء القدسية على قيم مشبوهة مثل الشوفينية، واللجوء الغريزي إلى القوة، وهاجس «الأمن القومي» المقدس.لا تملك الدولة ذات الطابع العسكري سبيلا آخر غير سبيل الصرامة والجمود السياسي والاجتماعي، مرتكزة في ذلك على استعداد الشعب لتقبل الأحكام المسبقة وممارسات التمييز العنصري الموجهة ضد «الآخر» أو ضد خصوم الأمة التي أعيد توحيدها.(..)

ولقد أعقب انتصار بيسمارك وعودة منطقة الـ«ألزاس لورين» إلى كنف الرايخ الثاني ألوان من الخطاب والممارسات الجائرة التي ألفناها نحن اليوم مع الأسف. ففي القرن السادس عشر، كانت تلك المنطقة خاضعة للحماية الألمانية، ولكن، مع نهاية القرن التاسع عشر، كانت الغالبية الساحقة للسكان هناك من الفرنسيين الأنقياء. وأمام البرلمان الألماني، صاح ليوبولد سونمان مستنكرا: «إنكم لن تجبروهم على أن يكونوا ألمانا بالقوة». فأجابته أقلام الصحافة الوطنية بقولها : «إن إعادة تهذيب الألزاسيين ستبدأ بواسطة السوط.إذ ينبغي أن يستشعر هؤلاء الأطفال المارقين قوة قبضتنا. وقد تأتي المحبة في أعقاب الترويض والاستئناس..»و هي عبارات تعيد في الذاكرة نغمات لحن شهير يتردد في إسرائيل، مفاده أن «العرب لا يفهمون إلا لغة القوة»...



في إسرائيل، بقيت الخدمة العسكرية- مثلما كانت دوما- المرحلة الأهم على الطريق الموصل إلى الحياة المدنية وإلى سن الرشد. وبرغم حالة من التآكل الخفي، يبقى الجيش الركيزة الأساسية لحياة المواطن الإسرائيلي ولهويته.مايزال ضباط سلاح الطيران يحظون بنفس الإعجاب، كما تعد بعض وحدات الاستخبارات والتقنية العسكرية بمثابة طريق مُعبد للحصول على أعلى المراكز في مجال صناعة التكنولوجيا المتطورة سواء على المستويين الوطني والعالمي.كما أن الكثير من الوظائف الكبرى في مجال الإدارة العامة وفي رئاسة البلديات يشغلها كبار قدامى الضباط بالجيش.كما أن أكثر من ربع عدد نواب حزب العمال كانوا في الأصل ما بين جنرال وكولونيل بالجيش. أما الشباب فيفضلون الخدمة في وحدات «مفيدة» لمستقبلهم المهني. وفي جميع دوائر النقاش، سواء العامة منها أو الخاصة، حين يتم طرح مبدأ الإعراض عن الخدمة العسكرية استجابة لإملاءات الضمير واحتراما لحياة الإنسان، ثمة صوت يرتفع دوما ليحذر من مغبة هذا التوجه، أو من عواقبه الوخيمة على مستقبل أصحابه المهني.فما تزال الخدمة العسكرية تفتح الكثير من الأبواب.و من شأن بعض وحدات الصفوة أن توصل مباشرة إلى رتبة رئيس أركان حرب، ومنها إلى وظيفة الوزير، فإلى منصب رئيس الوزراء. فكثير من الجنرالات ورؤساء أركان الحرب يصلون بصورة شبه آلية لأعلى المناصب في الدولة. فكل من موشى ديان واسحق رابين وايهود باراك وشاؤول موفاز- وجميعهم من قدامى القادة العسكريين- قد ارتقوا سلم المناصب السياسية بصورة طبيعية وتقلدوا وزارة الداخلية أو الدفاع أو رئاسة الوزارة.هكذا يتبدى الجيش الإسرائيلي كأرض خصبة لاستنبات رجال الدولة. ولكننا لم نكن أول من ابتدع المجتمع ذا الطابع العسكري.فلقد سبقنا إلى ذلك آخرون، في مقدمتهم الدولة الألمانية تحت قبضة المستشار الحديدي بسمارك.

ولقد قام أموس أيلون، في كتابه «قداس ألماني لراحة الموتى»، باستقصاء تطلعات الشباب الألمان في تلك الحقبة، والمكانة التي كان الجيش يتبوأها في حياتهم، فكتب:

«كان توجه هؤلاء الشباب الأذكياء في كفاحهم للانضمام إلى سلك الضباط (..)، في ذلك السياق التاريخي، بمثابة ظاهرة حقيقية. فلقد كانت ألمانيا مجتمعا ذا طابع شبه عسكري. فكانت أخيلة الحياة العسكرية تسيطر على المخيلة الوطنية.(..)كان ضباط الاحتياط يحظَون بوضع خاص.و كان المدرسون والأطباء والمحامون وأساتذة الجامعات ورجال الأعمال يحرصون على ذكر رتباتهم العسكرية السابقة على كروتهم الشخصية.. كان وضع ضابط الاحتياط شرطا لا عوض عنه لمن طلب تقلد الوظائف الحكومية الكبرى..»

بالطبع، لم تكن هذه الظاهرة لتشمل جميع الألمان. فكثير من اليهود ممن كانوا مستوفين لشروط اللياقة، وللأهلية الاقتصادية والثقافية، وممن خدموا في الجيش الألماني منذ العام ١٨٨٠، لم يتمكنوا أبدا من بلوغ رتبة ضابط.و كذلك في إسرائيل، فإن العرب- أو على وجه التحديد المواطنين غير اليهود (ومنهم الدروز والجراكسة)- لن يتمكنوا أبدا من بلوغ منصب رئيس أركان حرب أو رئيس وزراء.كما أنه لن يُسمح لأي عربي (أو مواطن غير يهودي) بالمشاركة في أي من اللجان البرلمانية المكلفة ببحث الملفات الخاصة بالموساد أو بالـ«شين بيت» أو بالسلاح النووي أو بغير ذلك من المجالات الشائكة الأخرى، لما لها من «حساسية بالغة على الصعيد الأمني». وبهذا الصدد، يمكن القول بأن عرب إسرائيل اليوم هم يهود ألمانيا بالأمس. ونظرا لما يثيره هذا الموضوع من حساسية قصوى، عليّ أن أؤكد عدم سعيي لعقد أية مقارنة بين وضع عرب إسرائيل ووضع اليهود أثناء المحرقة، ولا حتى أثناء الحكم النازي، وإنما فقط أثناء فترات الكمون الطويلة التي سبقت وصول هتلر إلى سدة الحكم.

بقي أن نطرح سؤالا أساسيا: كيف يمكن حمل شعب بأكمله، ومجتمع بأسره- أي ملايين من البشر- على أن يغلقوا أعينهم ويصموا آذانهم؟ كثيرٌ من الألمان يقسمون اليوم بأنهم لم تساورهم أية شكوك، لكننا نشك في مصداقيتهم.

ما أكثر ما كُتب عن «مغسلة الكلام» الألمانية، وعن الوسائل المباشرة وغير المباشرة لغسل دماغ الشعب





فقد كان من المستحيل أن يختفي من حولهم أناس،يوما بعد يوم، من دون أن يدركوا حقيقة الأمر. (..) والأرجح هو أنه عند مواجهة المواقف العصيبة، تتولد بدواخلنا آليات دفاع وكبت طبيعية، تحملنا على التعامي عن الحقيقة المفزعة. وهكذا رحنا نستحسن وضع أصابعنا في آذاننا كلما تعالت في الجوار نداءات امرأة تطلب الغوث وهي تتعرض للضرب، أو ترددت من وراء أبوابنا صرخات طفل مستجير ينادي غير مسمع. فإذا كنا نفضل غض الطرف عن المآسي التي تدور في محيطنا القريب، فكيف لنا أن نصغي لأحزان الأغيار الغرباء؟

وفي مجال بعيد كل البعد، هو مجال الوقاية على الطريق، أثبتت الدراسات أن المبالغة في بيان الفظائع قد يؤتي نتيجة عكسية في معرض التوعية بمخاطر الطريق. إذ تعمل صور الجثث الممزقة، والسيارات المهشمة، واليتامى الصغار والأهالي المنكوبين على إنزال ستار حديدي على العقول، وتدفع الناس إلى الاحتماء خلف آليات دفاعية. يسري ذلك على الأفراد بمثل ما يسري على المجتمعات.فمن اليسير جداً التلاعب بالجماعات وبالرأي العام.فقط امنحني غابة ظلماء، واجعلها آهلة بالأشباح وبالأرواح الشريرة، ولا تنسَ إضافة نفرٍ من الجن ومن سائر الأعداء، سواء الحقيقي منهم أو ممن اصطنعهم لك الخيال، وسأتكفل أنا بالبقية.

فعندما يدَّعي عدد هائل من الناس أنهم ما رأوا وما سمعوا، فذلك يعني أنهم حقاً ما رأوا وما سمعوا، لأن الحقيقة كانت تفوق حدود الاحتمال وتتخطى عتبات الإدراك.

في كتابها الشهير «آيخمان في القدس»، تصف الفيلسوفة حنا أرنت آليات الكذب حين يتفشى على مستوى شعب بأكمله، فتقول:

«أصبح الكذب جزءً لا يتجزأ من الشخصية القومية الألمانية. أثناء الحرب، كانت الأكذوبة الأكثر تأثيراً على عامة الألمان هي شعار «حانت معركة القدر بالنسبة للشعب الألماني»؛ ذلك الشعار الذي أطلقه هتلر أو جوبلز، والذي يوحي، أول ما يوحي، بأن تلك الحرب لم تكن حربا، وثانيا، أن القدر- وليس ألمانيا- هو الذي أشعلها، وثالثا، أنها كانت مسألة حياة أو موت بالنسبة للألمان الذين كانوا مطالبين بإبادة أعدائهم وإلا تعرضوا هم أنفسهم للإبادة».

لقد سقط اسرائيلنا الحبيب هو الآخر في فخ القدر: فها نحن قد أصبحنا «الطيبين»، أما «هم» فهم الأعداء الألداء، المتربصين بنا كأشباح الغابات الظلماء المحدقة بنا من جميع الجهات. عندنا، الأمر غاية في البساطة، فكل الأعداء أعداء مطلقون وكل الحروب حروب شاملة. وكلما تراءى الخصم ممعنا في الشر كلما بدونا نحن طيبين، على الأقل في أعيننا . بالنسبة لنا، ليس ثمة مستويات في العداء. ولا يسعنا تصور العدو على أنه مجرد«خصم» يناضل من أجل حقوقه المشروعة. فهم مثلما ورد في نصوصنا، «قد قاموا علينا بغية إبادتنا»، ونحن إنما نجتهد في الدفاع عن أنفسنا .حتى جيشنا، وهو واحد من أكثر جيوش العالم هجومية واعتداء، مازال يحمل رسميا اسم جيش «الدفاع» عن إسرائيل.



ونحن بعدُ مازلنا «مهددين بالإبادة»، وهو ما يوحي به ذلك البيان الصحفي الذي تضمن أجزاءً من الخطاب الذي ألقاه بنيامين نتانياهو أمام مجلس الشيوخ الأمريكي، بعد أيام من وقوع الاعتداء على البرجين التوأمين وعلى البنتاجون، وجاء في البيان:

استُقبل رئيس الوزراء الأسبق بنيامين نتانياهو صباح اليوم في مجلس الشيوخ الأمريكي. وأمام أربعين سيناتور من كلا الحزبين السياسيين، ألقى خطابا عن الإرهاب وعن وسائل استئصاله، كان مما جاء فيه: «إن يوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ليمثل منعطفا تاريخيا. فالآن تبدأ أمامنا حرب حياة أو موت، تشنونها أنتم، يا حراس الهيكل، تحت زعامة الرئيس جورج دبليو بوش...»

كان بنيامين نتانياهو ولا ريب أفضل محام تولى الدفاع عن إسرائيل (وهو بالنسبة للبعض أفضل من مروج دعائي لسياسة بلاده) طوال العقود الأخيرة .و هو لم يتخلَ عن هدفه الحقيقي قط: ألا وهو كسب السلطة في إسرائيل، لا في واشنطن، وإرضاء ناشطي حزبه، لا إرضاء الولايات المتحدة.هذا ويتابع البيان الصحفي، الذي أرسله الخطيب إلى بلاده، نقل أقواله إلى جانب تمجيد مآثره البطولية، مع الحرص على تقديم الخليط كله دفعة واحدة في الحقيبة نفسها .و بعد أن قام نتانياهو بعرض صور فوتوغرافية لجثث ممزقة وسط قطع البيتزا المتناثرة في مطعم سبارو بالقدس إثر تعرضه لاعتداء، صرح قائلاً: «قبل خمسين عاما، هزمنا النازيين لأننا كنا متفقين على ضرورة إدانة النازية...»

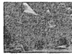
وإثر انتخاب حماس على رأس الحكومة الفلسطينية، سارع بنيامين نتانياهو إلى التنديد بـ«مضطهِدي إسرائيل الجدد». فبالنسبة له ولزمرة معجبيه، يظل كلٌ أعدائنا-أعداء إسرائيل الأبديين- أعداءً متجاوزين مطلقين، ويبقى هو وجورج دبليو بوش بطلي معركة العالم الحر، المنخرط في صراعه ضد مخلوقات الغابة المخيفة .

إن تلك العبارات والرسائل المصطبغة بالمشاعر التاريخية الثقيلة قد جرى ترسيخها في أنفسنا يوما بعد يوم، حتى تحولت على أثرها حججُنا الشفهية إلى هستيريا مستمرة.صار كل شيء عندنا مسألة حياة أو موت.. نكون أو لا نكون. إما الضياع والفناء أو الخلاص والأمل. من نفس المنطلق، كانت حرب الاستقلال مسألة حياة أو موت، وكذلك حرب سيناء. وما القول في العلاقة التي ربطت بين شعورنا بالانغلاق على أنفسنا قبيل حرب الأيام الستة وبين الانحباس داخل الجيتوات والمعسكرات؟ وللتذكرة، أثناء حرب «كيبور» (أكتوبر ٧٣)، كان مصير الوطن بأسره على المحك.و عندما حاز المصريون بعض المواقع على قناة السويس، ألم يصف الاستراتيجي القدير موشي ديان الوضع بأنه «تدمير للهيكل الثالث» ؟

إن عالم بنيامين نتانياهو حافل بالأشباح المطلقة وبالعداوات الكاملة، أما عقله فقد تم غسله بفعل الدعاية المستمرة لما سمي بالـ«قَدَر» اليهودي: الحرب من أجل البقاء.. دائما وأبدا.. في مواجهة الجميع.

كان أسلاف بنيامين نتانياهو قد مهدوا له الطريق بنفس القدر من البراعة والتمكن من خطاب استدرار العاطفة.ففي عام ١٩٨٢، أثناء تلك الحرب العقيمة التي غُرر بنا فيها ضد لبنان، دفع بنا رئيس الوزراء آنذاك، الراحل مناحم بيجن، للقضاء على «الحيوان ذي القدمين» (وهي الكناية التي كان يشير بها الى عرفات والى هتلر من قبله بثلاثين سنة). فهل يعقل أن يكون عرفات وريث هتلر وابنه الرمزي؟! ولنذكِّر أيضا بأن مناحم بيجن كان يسعد بتشبيه ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية بكتاب «كفاحي» لهتلر، وكان الكل من حولنا يقول بأنه «عبر التاريخ الإنساني كله، لم توجد منظمة مسلحة أكثر انحطاطا وترديا من منظمة التحرير الفلسطينية، باستثناء المنظمات النازية». ومما يذكره لنا المؤرخ توم سيجيف، أنه في أعقاب تدمير مراكز القيادة التابعة لعرفات ببيروت، أسرَّ مناحم بيجن لرونالد ريجان بأنه كان يشعر أثناء العمليات وكأنه يهاجم هتلر في مخبئه في برلين.ففي عشية غزو لبنان، راح بيجن يلوح بذكرى المحرقة لكي يستحث وزراءه على شن الحرب، وهو ما أشار إليه أرييح ناور، سكرتير الحكومة آنذاك، وهو يستعيد، في مقال نشره بصحيفة يديعوت احرونوت، كلمات رئيس الوزراء حين قال: « إنكم تعلمون ما قمت به وما قمنا كلنا به لدرء الحرب وتحاشي الخسائر البشرية، لكن هذا هو قدرنا في إسرائيل، كُتب علينا القتال في صمت وتفانٍ. صدقوني فالبديل الوحيد للقتال هو تربلينكا، ونحن قد سبق وعقدنا العزم على أن تربلينكا لن تعود أبدا».

إن مغسلة الكلمات الاسرائيلية لواحدة من أكثر مغاسل الكلام تطورا في العالم. فواقعنا يُلزمنا في كل مرة بإعادة اختراع مصطلحات جديدة



ورشة النازيين؟

(أرييح ناور، «حكومة في حرب»، يديعوت احرونوت، ١٩٨٦).

وبعد خمسة عشر يوما من اندلاع الحرب الأقل نفعا في تاريخ إسرائيل، توجه الكاتب أموس أوز بخطاب مباشر إلى رئيس الوزراء، بأن نشر مقالا عنيفا في صحيفة يدعوت احرونوت، كان عنوانه «هتلر مات يا سيادة رئيس الوزراء»، كتب فيه:

«السيد بيجن..مرة أخرى ومثلما كان دوما دأبك، ها أنت تكشف لعامة الناس عن نزعة عجيبة فيك، نزعة تجنح الى إعادة إحياء هتلر لتتمكن من قتله كل يوم من خلال الإرهابيين(..). إن تلك النزعة التي تهدف الى بعث هتلر وتصفيته مرارا وتكرارا، هي نتاج قلق نفسي قد يعبر عنه الشعراء، ولكن تلك النزعة إذا ما راودت رجال الدولة فهي خطر مدمر يسوق البلاد على طريق الهلاك..». (أموس أوز، يدعوت احرونوت، ٢١ يونيو ١٩٨٢).

لم يكن السجال بين أموس أوز، نبي اليسار آنذاك، ومناحم بيجن، أيقونة اليمين، محض سجال حول نوعية البلاغة الخطابية التي استخدمها الأخير فحسب، وإنما كان أيضا سجالاً حول طريقته في إيقاظ مخاوف الرأي العام. تعلق الجدال وقتها بأحد أهم موصلات الإنكار: ألا وهي الكلمات، أو بتعبير أدق الكلمات «المغسولة». فمن أجل مواجهة واقع صعب ومن ثم تخطيه، يلزم استخدام كلمات صعبة .لكن غسل الكلمات يهيئ لنا الاعتقاد بأن الواقع «القذر» يمكن أن يصير «نظيفاً». هكذا يصبح الشر أبيضا ناصعا، ويصبح الأسود الحالك الخير بعينه.لم نكن نحن من استحدث تلك الوسيلة، لكننا قد طورناها وأتقناها خير إتقان، وكأننا لم نتعلم شيئا من أولئك الذين كانوا أسوأ مَن عمد إلى غسل الكلمات، وكانوا أصل عذاباتنا وسببها.

كان نهج النازيين نهجا بارعا. فلقد تمكن جوبلز-أبو الدعاية الحديثة- وكل فرقته من تحويل كل ما هو منحرف وفاسد إلى التجسيد الأمثل للسلامة العقلية والنفسية.و ابتلع الألمان كل ما قيل لهم. (..)

ما أكثر ما كُتب عن «مغسلة الكلام» الألمانية، وعن الوسائل المباشرة وغير المباشرة لغسل دماغ الشعب.ففي ملفات الأرشيف الألمانية، لا تكاد تقابلنا أبدا كلمات مثل «إبادة»، أو «تصفية»، أو «اغتيال»، أو «مجزرة»، ولكننا سنجد كلمات مثل «إخلاء»، و«معاملة خاصة»، و«إعادة إقرار»، «العمل في الشرق»، و«تغيير محل الإقامة»، و«الحل النهائي». كانت مفردات التعمية تلك تهدف إلى تشجيع اليهود على الالتحاق بمحض إرادتهم بمعسكرات الموت اعتقادا منهم بأنهم ذاهبون للعمل شرقاً. (..)

إن الإنسان ليرغب في تصديق مفردات التعمية تلك حتى النهاية، وانه ليولي الكلام أهمية قصوى. وهو ما قال به فرانز فانون في كتابه «بشرة سوداء وأقنعة بيضاء» الذي صدر عام ١٩٥٢وكتب فيه: «إن فعل التكلم بلغة ما يقتضي التمكن من علم قواعدها، وكذا من علم الصرف والاشتقاق، ولكنه يقتضي بالأساس استيعاب ثقافة، وتحمل تبعات حضارة». (دار سوي، ص١٣).



إننا نعيش في حضارة صنعتها كلماتٌ «مغسولة»، ومفرداتٌ كاذبة، كان نتاجها ثقافةٌ كاذبة، ومجتمعٌ باردٌ ومغلق، وأسوأ من ذلك كله، مصطلحات مبهمة صكتها الدولة بهدف السماح لمواطنيها ولشركائها بالتنصل من مسئولية الأفعال التي اقترفتها باسمهم. «لم أكن أعلم»، «لم أفهم»، «لم يخبرني أحد»، «الصحف لم تنشر شيئا عن ذلك». خطأ! الصحف كتبت ونشرت، ولكنها استخدمت عبارات تسمح بتجاهل المعنى الحقيقي للكلمات. نعم، الصحف كتبت، ولكن بالقدر الذي جعل الناس يجهلون ما يفضلون الجهل به. (..)

كان (فانون)أول من ألمح إلى أن اللغة هي أداة القهر الكبرى التي يمتلكها الرجل الأبيض بين يديه. فلقد كانت فكرة «الرجل الأسود الوضيع الشرير في مقابل الرجل الأبيض الطيب الذكي» فكرة راسخة في عمق اللغة التي استعملها الرجل الأبيض. وما كتبه فانون بشأن الرجل الأسود قد ينطبق على اليهودي في حقب تاريخية معينة.(..) لهذا السبب كان من الصعب علينا أن نشير إلى حقيقة الواقع الإسرائيلي، لكننا لا نملك الحق في التعامي عن دور اللغة العبرية الحديثة في «غسل الكلمات»، بصورة تضمر موقفا متعجرفا وعنيفا بل وعنصريا إزاء العدو العربي.

في عام ١٩٨٧، عشية العيد الأربعين لقيام إسرائيل، وبمناسبة الذكرى العشرين لما أسميه بـ«التحرير الغاصب» أصدرت مجلة «كوترت راشيت» السياسية الأسبوعية عددا خاصا عن الكاتب ديفيد جروسمان.و كان هذا الأديب الرائع، المعروف برهافة الحس ورجحان العقل، والذي يتقن الحديث باللغة العربية، قد ذهب إلى الأراضي المحتلة وزار مخيمات اللاجئين، والمحاكم العسكرية، والمستوطنات الإسرائيلية، والمدن والقرى الفلسطينية. وبعد سبعة أسابيع من التقصي، كتب تحقيقا مطولا نشرته المجلة، ثم ما لبث أن أضاف إليه فصولا جديدة كونت في مجملها روايته الشهيرة «الريح الصفراء»، ذلك الكتاب الحزين والموجع والكاشف لحجم الفساد الذي كنا قد وصلنا إليه في نهاية عقد الثمانينيات. ولقد قرأنا الكتاب وقتها وشعرنا بالأسى، ظناً منا -على غير حق- أننا قد بلغنا القاع، وأنه قد آن الأوان للعودة الى السطح. ولكن، مقارنة بالوضع الحالي، تكاد تلك الفترة تبدو اليوم وكأنها مثاليةً في نزعتها الإنسانية. ولقد خصص جروسمان أحد فصول كتابه للحديث عن «غسل الكلمات» فقال:

«عندما يقع بلد من البلدان في مأزق محرج، فإنه يعمد إلى اختراع مفردات جديدة. ولم تكن إسرائيل أول من ابتدع ذلك النهج (..) ولكن (..) من المثير للحنق أن نشهد انحطاطها البطيء أمام أعيننا. فبغير وعي، تنامت لدينا تشكيلة جديدة من الألفاظ المصطنعة الخائنة، والكلمات التي فقدت مدلولاتها الأصلية، والتعبيرات التي، بدلا من أن تصف الحقيقة، تجتهد في إخفائها كل الاجتهاد».



إن مغسلة الكلمات الإسرائيلية لواحدة من أكثر مغاسل الكلام تطورا في العالم.فواقعنا آخذ في الجموح بسرعة قصوى، بالغا في احتدامه من القمم ما يُلزمنا في كل مرة بإعادة اختراع مصطلحات جديدة. بدأ ذلك مع «الرفقاء الطيبين» من رجالات البلماح[٥]. فهم أبدا ما سرقوا ولا اقترفوا أية انتهاكات للممتلكات، إنما كانوا «يلقطون أرزاقهم في قن الدجاج» فحسب. وفي الجيش، لم نعرف قط السرقات ولا المصادرات التعسفية، كنا فقط «نسد احتياجاتنا من المعدات الناقصة». كما لم يحدث قط أن تحرشنا بجندية لأننا كنا

أفراهام بورج

ولد أفراهام بورج في القدس في ١٩ يناير عام ١٩٥٥، و هو ابن وزير الدولة السابق يوسف بورج المنتمي إلى الحزب الوطني الديني.درس أفراهام في إسرائيل وتطوع في وحدة المظلات بالجيش الإسرائيلي، ثم اتجه للعمل السياسي، وسرعان ما أصبح واحدا من الأسماء الواعدة في حزب العمل، حيث عمل مستشارا لرئيس الوزراء شيمون بيريز لشئون يهود الشتات، ثم ترأس الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية (١٩٩٥)، حيث أولى اهتماما بالغا لجمع التعويضات من الدول الأوروبية لصالح ضحايا المحرقة النازية. ومن ثم، عمل بورج نائبا لرئيس المجلس اليهودي العالمي فرئيسا للكنيست الإسرائيلي ما بين عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٣. و في عام ٢٠٠٤، انسحب بورج من الحياة العامة على أثر الانتقادات التي وجهها للسياسة الإسرائيلية، منها ما جاء في مقال نشره في صحيفة الـ«جارديان» تحت عنوان «نهاية الصهيونية»، دعا فيه إلى الجلاء عن الأراضي الفلسطينية المحتلة ، وإلى تفكيك السلاح النووي الإسرائيلي.الكتاب الأول لبورج هو «عودة الرب»، قد تمت ترجمته إلى العديد من اللغات، ويتناول فيه تسيد المسألة الدينية على الساحة السياسية العالمية.أما كتابه الثاني «هزيمة هتلر» فلقد أثار ضجة في إسرائيل حتى أن رئيس الوزراء إيهود أولمرت قد صرح لكاتبه في اتصال هاتفي بأنه كتاب «من الصعب جدا جدا تقبله، لكون كثير مما جاء فيه صحيحا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لكون الرأي العام الإسرائيلي غير مستعد لتقبل مثيله تلك الآراء في الوقت الحالي»، بحسب ما أدلى به الكاتب لمجلة لير الفرنسية.

نسألها دائما أولا: «عندما تقولين» لا «فما معنى ذلك؟»[6] فأنت بالطبع لا تعنين «لا» حين تقولين «لا»، أليس كذلك؟ هذا وقد تربينا جميعا على فكرة «نقاء الأسلحة»[7]، وهو طباق طريف ومريح، يعمل على تنظيف الضمير بالتزامن مع تنظيف فوهة البندقية. فالقتل بواسطة سلاح «نقي» يكون حتما أكثر ملائمة مما لو كان السلاح غير نقي.

و مع الوقت، أحرزنا تقدما ملحوظا ووصلنا عن جدارة إلى ذروة العمى والضلال. فنحن لم نصح أبدا على رؤوس الأشهاد بأننا «سنقتلهم بلا حساب». كما نعتز كثيرا بأمثالنا التلمودية المأثورة، من قبيل: «من جاء ليقتلك، فقم إليه واقتله»، وقد ترسخ لدينا اعتقاد بأن الأخلاق اليهودية تهب إلى جانبنا في كل يوم لتدعمنا ما إن يحين نداء الصباح. وعندما يقوم جيشنا، الذي يخدم فيه أبناؤنا، باقتراف سلسلة من التصفيات، برغم غياب أي تهديد وشيك، نسارع نحن الى إطباق أعيننا والى سد آذاننا، لأن الأمر برمته مجرد «ضربة موجهة». ولكن أنى للضربة أن تكون «موجهة» بينما يمكن إحصاء عشرات بل مئات الحالات المماثلة؟ وبينما تقع من حول الهدف الذي «وجهت» إليه الضربة أعداد كبيرة ما بين قتيل وجريح من المدنيين الأبرياء، الذين يسقطون بسبب خطأ بشري، أو إفراط في معايرة المادة المتفجرة، أو ببساطة بسبب اللامبالاة؟ ذلك أن عبارة «ضربة موجهة» أخف وطأة على الأذن من «قتل» أو «اغتيال»، وهي إلى ذلك مهدئة لضمائرنا ومسكنة لخواطرنا.

هل بدأنا نشبههم؟ هل أدى العداء بين الإسرائيليين والفلسطينيين إلى طمس الحدود بين الخير والشر. وإن كنت أنا أشبههم وكان الفلسطينيون ورثة النازيين، فما أكون أنا؟ ماذا نكون نحن؟ لا نملك الإجابة، لأننا نفتقر إلى الكلمات اللازمة لصياغتها. (ملحوظة النص الأصلي به هذا الفراغ قبل وبعد هذه الفقرة)

هل فكرنا يوما ملياً في عبارة « إخلاء أرض» («خيسوف»)التي يستخدمها جنود الجيش الإسرائيلي؟ في الواقع، لا يتعلق الأمر بإخلاء أو تعرية أي شيء، بل يتعلق على العكس بالإخفاء والتكتم. فعندما ينطق مذيع النشرة الإخبارية بلفظة «إخلاء»، نفهم أن ثمة شخص ما، في مكان ما، يبكي الآن أشجاره المقتلعة ومزارعه العتيقة التي ورثها أبا عن جد. هذا الرجل الباكي الحزين لن يجني زيتونه بعد اليوم، وأشجاره لن تثمر مرة أخرى بعد اليوم. فلقد قامت جرافات جيش «الدفاع» الإسرائيلي بـ«إخلاء» أرضه وحف كل أشجاره، لفتح الطريق أمام العمليات العسكرية وأبراج الرصد والمراقبة. فالأراضي المحيطة مثلاً بممتلكات وزير الدفاع السابق شاوول موفاز في بلدة «كوخاف يائير» قد تم تنظيفها و«إخلاؤها». ذلك أن المزارع التي كانت هناك قبل بناء تلك البلدة المتغطرسة، صارت عقيمة جدباء. والأهم هو أن السيد الوزير ما عاد يخشى كمائن الأشرار والإرهابيين. فلقد رحل الأشرار بعيداً، لينام السيد الوزير وعائلته في دعة ملء الجفون، ولتنبت، على جنبات الطريق، بذور جديدة للكراهية.

أما كلمة «تاج» (كِتِر)في اللغة العبرية، فهي لا تعني فقط زينة رأس الأمير، أو علاجا تجميليا لسن عطِب، أو اسم دار نشر إسرائيلية، أو زخارف الفضة الثقيلة على حافظة التوراة. فكلمة «التاج» أو «الطوق» هي أيضا، في لغتنا العبرية، حصار عسكري خانق، وهي الجوع، والعطش، واليأس الحاضرين في ركابه. «التاج» أو «الطوق» هي ما يتم نيابة عني، حينما «يطوق» أولادي المدن المعادية بمن فيها من أولاد يماثلونهم في العمر. ■

هوامش أضافتها المترجمة

١- حوار أجراه معه آري شافيت في صحيفة «هآرتز»، بتاريخ ٨أغسطس ٢٠٠٧.

٢- أجرى الحوار، في تل أبيب، فيليب دولاروش، رئيس التحرير التنفيذي لمجلة «لير»، عدد مارس ٢٠٠٨.

٣- «عيسو» شخصية توراتية، هو الابن الأكبر لإسحق بن إبراهيم. والشقيق الأكبر ليعقوب. (Dictionnaire Hachette encyclopédique illustré)

٤- يطلق الصهاينة الآن مصطلح «يهودا والسامرة» على الضفة الغربية لتبرير احتلالها. (د. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الموجزة، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥، الجزء الأول، ص٣٩٧.

٥- «البلماح أو البلماخ هو اختصار للعبارة العبرية «بلوغوت ماحتس» (أي القوة الضاربة). وهي القوة المتحركة الضاربة التابعة للهاجاناه. وقد بدأ البلماح نشاطاته العسكرية المخربة في ١٩ مايو ١٩٤١. و من أشهر رجاله موشي دايان واسحق سادي واسحق رابين. (الموسوعة الحرة)

٦- هذه الجملة عنوان لأغنية إسرائيلية شهيرة.

٧- «نقاء السلاح» أسطورة صهيونية تدعي مبدأ استخدام الجندي الإسرائيلي لسلاحه في حدود مهمته فقط، مع الحرص على عدم استخدامه ضد المدنيين أو الأسرى.

كتاب الزاوية



كتاب النصيحة

قابوس نامه

كتاب النصيحة هو ترجمة الكتاب الفارسى نصيحتنامه المعروف باسم قابوس نامه. والكتاب فى إيران وخارجها يتمتع بشهرة واسعة فى الأوساط العلمية عامة، وبين المستشرقين خاصة.

وهناك تناقض بين مؤرخى الأدب والمؤرخين حول تاريخ تأليف الكتاب، إذ هناك من يقول إنه مؤلف حوالى ١٠٨٢م، وهناك من يقول إنه مؤلف قبل ذلك بكثير.

ومؤلف الكتاب هو الأمير عنصر المعالى كيكاوس بن إسكندر بن قابوس بن وشمكير، وهو أمير شيخ دبر الإمارة وساس الرعية واحداً وعشرين عاماً. وقد ألفه فى آخر عمر طويل قضاه فى الاستزادة من الحكمة وطلب المعرفة. وحكم من ١٠٤٩ حتى ١٠٦٩ ميلادية. والكتاب يتوجه بالنصيحة إلى ابن الأمير وهو أول كتاب من نوعه فى الأدب الفارسى الإسلامى. وقد قام بتعريبه محمد صادق نشأت وأمين عبدالمجيد ونشرته «دار الشروق» ٢٠٠٧ (الطبعة الأولى). واختارت «وجهات نظر» مقتطفات منه.



ميدان محمد على

عـــودة إلــى

الإســكندرية «الكــوزموبوليتانيــة»

دينــا حشــمت

قبل ثلاث سنوات نشرت «وجهات نظر» نقلا عن الدورية الرصينة New York Review of Books وباتفاق خاص معها مقالا أثار جدلا كتبه Amos Elon عن رباعية لورانس داريل الشهيرة The Alexandria Quartet

واليوم نعود إلى العمل الأدبي الأشهر عن عروس المتوسط بمقال كتبته لوجهات نظر دينا حشمت بعد أن ناقشت في السوربون أطروحتها للدكتوراة عن «المدينة في الرواية العربية».

■■ لا زالت «رباعية الإسكندرية»، التى كتبها لورانس داريل منذ أكثر من خمسين عاما، تمارس سطوة وانبهارا خاصا لدى قرائها. بالرغم مما قيل عن عدم دقة العديد من المعلومات الواردة فى هذه الرواية - سواء تلك التى تصف المدينة نفسها، أو تلك التى تسرد وقائع تاريخية مزعومة. فإنها ما زالت تقدم على أنها تمثل روحا كوزموبوليتانية كانت تعبق بها الإسكندرية فى الماضى. وهكذا قُدمت أثناء الاحتفالية التى نظمها المركز الثقافى البريطانى بالاشتراك مع «مركز أبحاث الإسكندرية والبحر المتوسط» فى مكتبة الإسكندرية بمناسبة مرور خمسين عاما على إصدار أول جزء من الرباعية، «جوستين»، فى شهر نوفمبر الماضى.

وهكذا قُدمت لى أيضا قبل أن أقرأها. فكان يُطرح علىَّ نفس السؤال المكرّر: لماذا لم أقرأ هذه الرواية الجميلة، ذات الأسلوب النادر التى لا بدّ على أى مصرى، خصوصا إذا ما كان مهتما بالأدب، أن يقرأها؟ ومن يطرح هذا السؤال يتطرّق أيضا إلى روح «المدينة الكوزموبوليتانية»، التى تم تصويرها فى ☚



شاطئ الإسكندرية
ثلاثينات القرن العشرين



«الرباعية». عندما قرأتها أخيرا، وجدت التجربة صعبة بل محبطة إلى حد ما.

إنها رواية طويلة جدا، من حوالى ألف صفحة، أسلوبها القوى يجبرك على الانغماس عميقا فى عالمها المنظَّم حول فضاءات اجتماعية ضيقة، وهو بالضبط ما يجعله عالما خانقا ومُحبطا. تتناول «الرباعية» دوائر اجتماعية تتحرك فيها شخصيات معزولة، نادرا ما تتجاوز علاقاتها (سواء كانت علاقات صداقة، أو جنس، أو زواج). هذه الحلقات الضيقة. يصطدم القارئ من حين إلى آخر بجمل عنصرية قصيرة، يستخدمها الراوى لوصف مشاعره (أو مشاعر شخصياته) تجاه المدينة وتجاه سكانها. تتدرج هذه الجمل من ملاحظات تقدم على أنها حقيقة بديهية عن العرب والمسلمين، على سبيل المثال «أنت تعرف كيف يكون العرب فى مثل تلك المسائل»(١)، أو «بدأت تئن فجأة، تهتز مثل عربية تتوسل إليه»(٢). كما يصف الراوى مشاهد يفترض أنها «ترمز إلى عادات مصر»:

«إلا أنه كانت هناك مشاهد أخرى ربما أقل قبولا واستساغة، لكنها، مع ذلك، تمثل «العادات» المصرية. شهد فى الصباح الباكر لأحد الأيام حادثة قصيرة وقعت فى باحة المنزل تحت نافذته. فقد وقف هنا، مضطربا شاب أسمر أمام ناروز آخر مختلف عن ذاك الذى يعرفه، عابس الوجه شرسا وإن كانت شجاعته قد زايلته وهو ينظر فى هاتين العينين الزرقاوين. وسمع ماونت أوليف وهو راقد يقرأ، «سيدى، لم تكن تلك كذبة»، قيلت مرتين فى صوت خفيض واضح. فنهض وسار إلى النافذة حيث رأى ناروز يكرر، فى ذات الوقت، فى صوت خفيض عنيد كلمات كان يضغطها بين أسنانه فى صوت كالفحيح «لقد كذبت ثانية». كان يأتى فعلا اقشعر منه بدنه لقسوته. رأى مضيفه يتناول سكينا من حزامه، ويقطع بها قطعة من شحمة أذن الصبى، فى بطء وعلى مهل، كما يقطع المرء عنقود عنب من شجرة بسكين الفواكه»(٣).

عندما يسرد الراوى حوارا بين مملك، وزير الداخلية وحلاقه رافائيل، يستخدم الكلمات التالية ليصف تصرف رافائيل تجاه مملك: (وهذه الجملة من اقتباس محمود منزلاوى): «كان يتقدم فى بطء، إذ إن تسجيل فكرة فى عقل مسلم أشبه بمحاولة دهان حائط: على المرء أن ينتظر حتى يجف الوجه الأول من الطلاء (الفكرة الأولى) قبل تقديم الثانية»(٤).

أما عن تمثيل مدينة الإسكندرية فى «الرباعية»، فهى منقسمة بشكل واضح بين ما يطلق عليه الراوى «المدينة الأوروبية»(٥) the European city، وما يطلق عليه «الحى العربى» the Arab town، إلى درجة أن لا تلاقى ممكنا بين هذين العالمين المنفصلين. لا جسور بينهما، وإن وجدت، فمن الصعب تصنيفها تحت بند التواصل الإنسانى: إنها فقط «المدينة الأوروبية» فى مواجهة «البندر العربى».

هناك أولا «المدينة الأوروبية»، التى يعيش فيها الراوى وأغلب شخصيات «الرباعية». إنها مدينة الكورنيش التى تطل فتارينها المشعة بالأنوار على البحر، بمقاهيها وشواطئها. وبشوارعها التى لديها أسماء مثل «شارع فؤاد»، «شارع النبى دانيال»، «شارع دى سور». والأحياء أيضا لها تسميات واضحة فى «المدينة الأوروبية»، على غرار حى «الأزاريطا»، أو أماكن لقاء المثقفين، مثل أتيلى فنون جميلة.

يتناقض وصف هذا الجزء من المدينة بحدة مع ما يسميه الراوى «الحى العربى»، الذى يستخدم عدة مصطلحات لوصفه: «الحى المصرى»(٦)، «الحى العربى»(٧)، «الحى المحلى»(٨) أول شيء يمكن ملاحظته هو أن هذا الجزء من المدينة لا يستحق صفة «المدينية»، عكس «المدينة الأوروبية». فالجزء العربى من الإسكندرية -حسب تقسيمات الراوى- لن يتجاوز أبدا كونه «حيا»، أى مكانا له طابع «محلى»، لا يسكن فيه سوى السكان «المحليين»، ولا يسمو إلى المميزات المرتبطة «بالمدينية». ومن خلال توصيفه هذا، يُخرج الراوى هذا «الحى العربى» من الهوية الإسكندرانية.

يتميز هذا «الحى العربى» عن باقى المدينة بطبيعة الأماكن التى يصفها الراوى فيه، وبطبيعة زياراته إليها؛ كما يظهر لنا هذا التمييز جليا عبر تحليل حسى لهذا الفضاء.

هناك فضاءان داخل «الحى العربى» يصفهما الراوى عدة مرات: بيت الدعارة للأطفال (ثلاثة مشاهد طويلة)، والمولد. يوصف هذان الفضاءان من خلال عين خارجية، عين زائر سائح، ومن ثم فالفضاء يوصف مع التركيز على التفاصيل الأكثر غرائبية. كما أن الزيارات فى هذا الجزء من المدينة تفجر انطباعات سلبية فى مجملها، فهى تجعل مشاعر المرء تفيض «فى طوفان من التقزز والهلع»(٩).



إن تحليلا حسيا أعمق لأجزاء المدينة هذه قد يكون ضروريا للتعبير عن هذه المشاعر السلبية. فمعظم المشاعر التى يتركها لدينا وصف هذه الأحياء، سواء على مستوى الشم، أو النظر، أو السمع، أو الطعم، أو اللمس، هى غاية فى السلبية.

إن الشم، كما يقول خالد فهمى فى مقالته «روح الإسكندرية وروائحها»، إحدى الحواس المثلى «لنقد الخطاب الكوزموبوليتانى». يبرز فهمى فى مقالته كيف أن «الفضاءات العربية» فى الإسكندرية كانت مرتبطة بشكل مستمر، فى أعمال أغلب الكتّاب الأوروبيين، برائحة نتنة، رائحة القمامة فى الشوارع، وبالنسبة إلى عدد من الكتاب «برائحة العرب المقززة»(١٠). بالرغم من أن خالد فهمى لا يدمج «رباعية الإسكندرية» فى الأعمال التى يحلل فيها وصف الشم، وبالرغم من أنه يعلن أن «هذا الثلاثى الشهير» (كافافيس، فوستر، داريل) قد سما بأفكاره عن العنصرية»(١١)، فإن «البندر العربى» فى الرباعية له رائحته الخاصة المرتبطة فى أغلب الأحيان بمشاعر سلبية. لم أقم بتحليل حسى كامل لرباعية «داريل»، ولا حتى فى حالة الاعتماد على حاسة الشم فقط، ولكن فيما يلى بعض الأمثلة التى تعطى فكرة عامة عن طريقة الوصف الحسية «للحى العربى». الروائح فى هذا الجزء من المدينة مختلفة؛ إنها روائح «أخرى»: «وتتغير رائحة اللحم البشرى عندما يجوس المرء خلال الحى المصرى - إذ تفوح رائحة الراتنج، خشب الصندل، ملح البارود، التوابل والأسماك»(١٢). يصف الراوى أغلب الروائح التى يشمها على أنها روائح غير ظريفة: «كان الجو يفوح برائحة الرماد المبتل ورائحة اللحم الأسود وهو يعرق. إنها تختلف كثيرا عن الأجساد البيضاء. إنها رائحة كثيفة كريهة نتنة، مثل قفص الأسود فى حديقة الحيوان. كان الظلام نفسه يتصبب عرقا»(١٣).

كما توصف الأصوات فى «الحى العربى» على أنها غير لطيفة: إنها أقرب إلى الضوضاء («الضوضاء البشعة»، كليا، ص١٨٣). يصف الراوى الموسيقى على أنها «تقاسيم محشرجة» -يقصد التون العالى للموندولين. فى أحد أجزائه، يصف الكتاب الصوت فى هذا «الحى العربى»، كما يلى: «بينما يعلو فوق أنين وصرخات الماشية، شذرات خنفاء من أغنية حب دمشقية قادمة من زقاق مختبئ إلى جوار السلخانة، تقاسيم محشرجة كصوت العظام وهى تطحن إلى دقيق»(١٤). والعرب لا يتحدثون ويصرخون، بل يصدرون أصواتا أشبه بالعواء: «بين العرب الذين كانوا يتبادلون الحديث، يصفون الحادث، كل للآخر، فى نبرات كالعواء»(١٥).

أما بالنسبة للنظر، فيظهر «الحى العربى» أمامنا كعالم الظلام، عالم السواد والحوارى الضيقة: «أخذت الشوارع تظلم تدريجيا، تشحب ألوانها إلى الظلمة البنفسجية، غدت أكثر ضيقا، ملتوية منحنية»(١٦).

طرحت على نفسى العديد من الأسئلة عند قراءة هذه الرواية. كان رد فعلى الأول والتلقائى التساؤل حول ما إذا كانت الصور الموجودة فى الرواية مرتبطة بحقيقة واقع المدينة الذى من المفترض أن تصفه. وهو هذا الواقع الخاص الذى ميز الإسكندرية عن غيرها من المدن المصرية، ألا وهو كثافة الجاليات غير المصرية، الذى وصل إلى أوجه سنة ١٨٨٢، عندما كانت نسبة غير المصريين من سكان المدينة تمثل ٢١,٥٪ من إجمالى السكان(١٧)، من ضمنهم إنجليز، وفرنسيون وإيطاليون ومالطيون ويونانيون. حظى هؤلاء السكان، فى وقت أو آخر، بامتيازات عدة ضمنها لهم محمد على، «وهى الامتيازات التى قد تبدو لنا، عن حق، مبالغا فيها» كما تقول مرسيدس فوليت فى دراستها عن الجالية الإيطالية»(١٨)، لكن هل كان يعنى ذلك تقسيم المدينة بين فضاء أوروبى وآخر عربى لا يختلط فيهما الجنسيات والهويات، على النحو الذى يصفه داريل؟ يكفى قراءة بعض الأعمال السوسيولوجية عن إسكندرية بداية القرن، ليعلم المرء أن هذا ليس صحيحا؛ فتداخل الحياة اليومية ما بين المصريين وغير المصريين فى كل أجزاء المدينة كان يتجاوز كل ما كان داريل نفسه قد اختبر أبدا.

ولكن رد الفعل الأول هذا، رد فعل «هذه ليست إسكندرية الحقيقية» قد لا يكون ذا فائدة لتناول هذه الرواية؛ إذ إن الأعمال الأدبية ليس من المفترض أن تعطى صورة

هناك أولا «المدينة الأوروبية»، التى يعيش فيها الراوى وأغلب شخصيات «الرباعية». إنها مدينة الكورنيش التى تطل فتارينها المشعة بالأنوار على البحر، بمقاهيها وشواطئها



دقيقة للواقع. (وإن أخذ العديد من النقّاد على داريل كلمته الافتتاحية الشهيرة لرواية «جوستين»: شخصيات هذه القصة، وهى الأولى من مجموعة أكبر - شخصيات مخترعة، كما هو حال شخصية الراوى، ولا يوجد أى تشابه بينهم وبين أناس حقيقيين. (وحدها المدينة هى الحقيقية). فطرحت على نفسى سؤالا آخر: إذا كانت الرباعية تقدّم على أنها تمثيل جيد للمدينة الكوزموبوليتانية، فما هو المقصود إذاً بالكوزموبوليتانية فى هذا الإطار؟ تأتى كلمة كوزموبوليتانية من بوليتس (مواطن) وكوزموس (العالم)، أى مواطن العالم. إنها تدلّ إذاً على شخص أو مجموعة من الأشخاص يرون فى العالم وطنهم، وليس لديهم تفضيل للارتباط ببلد عن آخر. كما يدلّ هذا المصطلح على مدن ارتبطت هويتها بوجود «أجانب»، أو مهاجرين فيها، وقد تكون فقدت هكذا جزءاً من هويتها الأولى، القومية. هناك عدد من المدن حول العالم تعتبر «كوزموبوليتانية»، ولكن هذا المفهوم مرتبط ارتباطا وثيقا بالبحر المتوسط، حيث تبقى الإسكندرية، كما سبق وأشرنا، المدينة الكوزموبوليتانية par excellence

فى هذه الرؤية قد تظهر الإسكندرية كمدينة خارج الزمن، أو كمدينة لا يمكن أن تطالها التغييرات. فى مقدمته لإعادة نشر كتاب فورستر «إسكندرية تاريخ ودليل»، كتب داريل أنه، عندما وصل المدينة سنة ١٩٤١، «٢٣ سنة بعد كتابة هذا العمل، و٨ سنوات بعد موت صديق فورستر الكبير، كوستانتان كفافيس، لم يتغيّر شىء مهم، وكأنه سحر»[١٩]. المدينة إذاً لا تتطور بل تبقى مرتبطة بنوع من «الكوزموبوليتانية الخارجة عن الإطار الزمنى»، دون أى جذور. إنها منفصلة عن واقع المدينة الاجتماعى؛ ترمز إلى الكوزموبوليتانية فى المدينة الكورنيش، وواجهتها البحرية، «المفتوحة على العالم»، بمقاهيها، وفنادقها، بمطاعمها، بفندق السيسيل ومقهى باستروديس، بكل هذه العلامات الثقافية التى تتميّز جميعا بأنها غير مصرية وغير عربية. يقول عنها راوى «الرباعية» إنها مدينة بنيت «كالسد ليمنع طوفان الظلمة الأفريقية»[٢٠]. إسكندرية هى «عاصمة الذاكرة»[٢١] -هكذا يكتب داريل بعد عدة صفحات، ولكن إذا كانت هناك ذاكرة تكون الإسكندرية عاصمتها، فهى الذاكرة الرومانية واليونانية والأوروبية. «الإسكندرية لا تزال أوروبية -عاصمة أوروبا الآسيوية» يقول داريل[٢٢] الإسكندرية لا تكون إلا ضمن هذا العالم وهذه المعالم. وهذا ما يفسر ما يقوله داريل فى المقدمة نفسها، من أن «الإسكندرية قد نُسيت»، لأن العديد من رموز فترة المدينة «الكوزموبوليتانية» كانت قد اختفت فى بداية الثمانينيات.

جنديان من البحرية البريطانية أمام عامود السوارى «الإسكندرية ١٩٣٦»



بعد اختفائها أصبحت هذه الأماكن ترمز جيدا إلى نوع من الكوزموبوليتانية كان فى مركز ما يطلق عليه سنجرمان وأمر فى مقدمتهما لكتاب «القاهرة كوزموبوليتانية»، «الرؤية الحنينية للكوزموبوليتانية(...)، حيث يحتفل مضاربون وأصحاب



مشاريع تنموية مدينية فاخرة وليبراليون ذوو نوايا حسنة، بفترات من تراث المدن متعدد الثقافات، تمتد إلى القرنين التاسع عشر والعشرين»[٢٣].

لكن ألا يمكن أن «يستخدم مصطلح الكوزموبوليتانية استخداما تقدميا؟»[٢٤] ألا يمكن أن يكون لهذه الكلمة استخدام «لا يتجاهل أو يتجنب سياقها الكولونيالى»؟[٢٥] هناك العديد من الكتّاب، وخاصة فى حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية، يتساءلون حول مفهوم الكوزموبوليتانية ويربطونه بالتاريخ الكولونيالى. ينظر الكاتب الأرجنتينى مينولو إلى الكوزموبوليتانية كأحد المفاهيم، مثل «حقوق الإنسان»، أو «الديمقراطية»، المرتبطة بالنموذج الكولونيالى فيحتاج من ثم إلى إعادة تدوير راديكالية radical، reconceptualization. يرى أن «الكوزموبوليتانية والديمقراطية لا يمكن طرحهما من وجهة نظر واحدة، فيقترح «كوزموبوليتانية نقدية وديالوجية، نابعة من فضاءات مكانية وتاريخية متعددة من حقل الاختلاف الكولونيالى»[٢٦].

ومن خلال التساؤل حول المعانى البديلة لمصطلح الكوزموبوليتانية، والأسباب التى جعلت من «الرباعية» كأنها الرواية الملخصة لروح الكوزموبوليتانية الأبدى، طرحت على نفسى سؤالا ثالثا، وهو كيف كتب الكتّاب المصريون، الإسكندريون «المحليون» عن مدينتهم، وبمعنى أخص، كيف كتبوا عن هويتها «الكوزموبوليتانية»؟ ورأيت أنه قد يكون من المهم إعادة قراءة أعمال عدد من الكتّاب الإسكندريين، ومنهم الكاتبان إدوار الخراط وإبراهيم عبد المجيد. فكرت خاصة فى نصى الخراط «ترابها زعفران» و«بنات الإسكندرية»، وروايتى عبد المجيد «لا أحد ينام فى الإسكندرية» و«طيور العنبر».

لم أتقدم بعد فى تحليل هذه الأعمال الأدبية بما يكفى لتقديم تحليل حسى مفيد لها. ولكننى أود أن أقدم بعض الملاحظات الأولية حول رواية «طيور العنبر» التى، عكس «رباعية الإسكندرية»، لا «تتجاهل أو تتجنب السياق الكولونيالى». تدور أحداث الرواية على خلفية مغادرة مواطنين غير مصريين الإسكندرية فى فترة ما قبل وبعد تأميم قناة السويس سنة ١٩٥٦. تقع «طيور العنبر» فى أغلبها فيما كان داريل قد سماه «الحى العربى»، ولكن إبراهيم عبد المجيد لا يطلق على هذا الجزء من المدينة مثل هذا الاسم الشمولى. تحمل هذه الأحياء أسماءها، وأهمها حى كرموز. تعيش أغلب الشخصيات فى هذا الحى، وعدد كبير منهم عمال فى سكة الحديد. توصف الفضاءات الأخرى فى المدينة عبر عيون ثلاث شخصيات على علاقة بشخصيات تعيش خارج كرموز: العربى الذى يحب كاتينا المرأة اليونانية الأكبر منه بعشرين سنة، مع أنها لا تبادله نفس المشاعر لأنها لا زالت تحب زوجها الميت، الشيوعى اليونانى؛ سليمان المرتبط ببنت إنجليزية، چين التى تترك البلاد بعد ١٩٥٦؛ وأخيرا ممرضة شابة تقابل مجموعة من المناضلين الشيوعيين.

دائما ما نرى الفضاءات الواقعة خارج أماكن حياة هذه الشخصيات اليومية من خلال نظرتهم لها. بالرغم من أن النص ليس مبنيا حول تناقض فضائى قوى ما بين كرموز وفضاءات أخرى فى الإسكندرية، مثل وسط المدينة، ولكنه موجود، وإن على نطاق أضيق. يظهر مثلا فى وصف الراوى لرد فعل سليمان عند زيارته الأولى لوسط المدينة مع چين. فى المحلات الكبيرة التى يدخلانها، حيث اللغات الأجنبية «فى كل ركن» (ص١٠٨) - «لاميزون دى كادو، لاميزون فرانسيه، جراند مجازين»، يشعر سليمان بأنه «مسحور» (ص١٠٨)، «مأخوذ ومطيع» (ص١٠٩)، «كأنما ندهته النداهة»، فى إشارة واضحة لقصة يوسف إدريس المبنية حول انجذاب فتحية الفلاحة الوسواسى وغير المنطقى نحو المدينة الحديثة، وهو الانجذاب الذى أدى بها إلى التخلى عن أسرتها. لا نجد مثل هذه الحبكة الدرامية فى «طيور العنبر». النقطة الحزينة فى هذه الرواية هى أنه من المستحيل بناء جسور حقيقية ومستديمة بين الشخصيات المصرية وغير المصرية. يحاولون، ولكنهم لا ينجحون فى تجاوز الحدود الطبقية والوطنية.

أدت بى هذه العناصر للتساؤل حول ما إذا كانت هنالك أى جسور بين صور داريل والخراط وعبد المجيد عن الإسكندرية. كتب إدوار الخراط يقول إن لورانس داريل لم يعرف «من الإسكندرية إلا قشرتها السطحية»، فحولها فى عمله إلى «وهم غرائبى»[٢٧]، هل قام فى عمله، وهل قام إبراهيم عبد المجيد بـ«الرد بالكتابة» writing-back، فى رواياتهما عن هذه المدينة «الكوزموبوليتانية»؟ أم أنهما بنيا رؤيتهما الروائية بعيدا تماما عن «الوهم الغرائبى»؟ ■

يظهر الحى العربى
أمامنا كعالم الظلام،
عالم السواد والحوارى الضيقة والشوارع
التى تشحب ألوانها إلى
الظلمة البنفسجية

هوامش:

١ - لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «بلتازار»، ترجمة فخرى لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ١٨٠

٢ - لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «ماونت أوليف»، ترجمة فخرى لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٣٥٥

٣ - نفس المرجع، ص ٣٥

٤ - «He proceeded slowly, for to register an idea in a Moslem mind is like trying to paint on a wall: one must wait for the first coat to dry (the first idea) before applying a second».

Quoted by Mahmoud Manzaloui, in "Curate's Egg: An Alexandrian Opinion of Durrell's Quartet", in "Critical Essays on Lawrence Durrell, Alan Warren Friedman, G.K.Hall&Co, 1987

عند رجوعى لترجمة فخرى لبيب لهذه الجملة، اكتشفت أنه استبدل «مسلم» بـ «مملك»:

«كان يتقدم فى بطء، إذ إن تسجيل فكرة فى عقل مملك أشبه بمحاولة دهان حائط: على المرء أن ينتظر حتى يجف الوجه الأول من الطلاء (الفكرة الأولى) قبل تقديم الثانية».

فتأكدت من صحة اقتباس المنزلاوى فى الأصل الإنجليزى:

Lawrence Durrell, The Alexandria Quartet, Faber and Faber, p.614

هل وقع هذا الخطأ سهوا، أم أن المترجم أراد التخفيف من وقع الجملة العنصرية؟

٥ - «الحى الأوروبى من المدينة» فى ترجمة فخرى لبيب

لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «بلتازار»، ترجمة فخرى لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٢٢٧

٦ - لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «جوستين»، ترجمة فخرى لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٧١

٧ - نفس المرجع، ص ١٠٥

٨ - فخرى لبيب ترجم «الحى المحلى» the native quarter بـ «الحى الوطنى» فيما قد تكون سهوة مترجم تعبر أفصح تعبير عن اختلاف وجهات النظر لنفس المدينة.

لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «جوستين»، ترجمة فخرى لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٢٠٦

٩ - نفس المرجع، ص ٢٤

١٠ - خالد فهمى، «روح الإسكندرية ورائحتها»، مجلة أمكنة، العدد السابع، ص٦٧

١١ - نفس المرجع، ص٦٤

١٢ - لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «جوستين»، ترجمة فخرى لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٧١

١٣ - لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «كليا»، ترجمة فخرى لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ١٨٤

١٤ - لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «جوستين»، ترجمة فخرى لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ١٨

١٥ - لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «كليا»، ترجمة فخرى لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٢٦٧

١٦ - نفس المرجع، ص ١٨٣

١٧ - M.Volait, La communauté italienne et ses édiles, in "Alexandrie, entre deux mondes" Revue de l'occident musulman et de la Méditerranée, 4ème trimestre 198, n*46, p.١٣٨.

١٨ - نفس المرجع، ص١٣٨.

١٩ — Préface, inédite en français, par Lawrence Durrell à une réédition de Alexandria: a History and a Guide, de E.M Forster, éd. Michael Haag, Londres, 1982, 86, p.١٤.

٢٠ - لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «جوستين»، ترجمة فخرى لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٧٠

٢١ - «الإسكندرية، عاصمة الذكرى»، فى ترجمة فخرى لبيب

لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «جوستين»، ترجمة فخرى لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٢٠٩

٢٢ - لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «ماونت أوليف»، ترجمة فخرى لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ١٨١

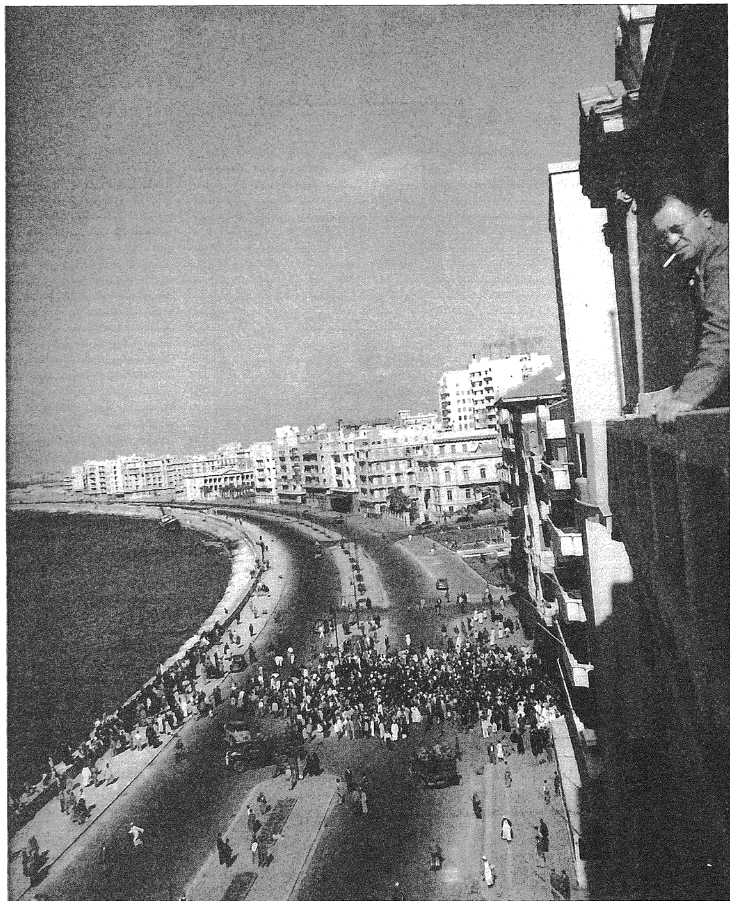
٢٣ — Diane Singerman and Paul Amar, "Constesting Myths, Critiquing Cosmopolitanism, and Creating the New Cairo School of Urban Studies", Introduction for "Cairo Cosmopolitan, Politics, Culture, and Urban Space in the New Globalized Middle East", Edited by Diane Singerman and Paul Ammar, AUC Press, 2006, p.٢٩

٢٤ - نفس المرجع، ص٢٩

٢٥ - نفس المرجع، ص٢٩

٢٦ - Walter D.Mignolo, "The many faces of cosmo-polis: Border thinking and Critical Cosmopolitanism.", in Cosmopolitanism, ed. by Carol A. Breckenridge, Sheldon Pollock, Homi K. Bhabha and Dipesh Chakrabarty, Duke University Press, ٢٠٠٢.

٢٧ - إدوار الخراط، إسكندريتى، دار ومطابع المستقبل، ١٩٩٤



كورنيش الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية حيث عاش لورانس داريل

■ الصور المنشورة من كتاب Vintage Egypt Cruising The Nile, Flammarion, 2003

«أنغام إيرانية»

مصطفى اللباد

■■ تخاطب السياسة المصالح الضيقة لشريحة أو فئة اجتماعية محددة، وفى أحسن الأحوال المصالح الوطنية لبلد ما، أما الموسيقى فهى تخاطب الوجدان والمشاعر العليا للبشر بغض النظر عن خلفياتهم الاجتماعية وانحيازاتهم الأيديولوجية. وبتطبيق هذه المقولة على الحالة العربية-الإيرانية نجد أن الموسيقى ربطت بين الحضارتين العربية والفارسية برباط لم تفلح السنون فى فصم عراه، إذ مازالت مقامات «راست» و«نهاوند» و«سيكا» شاهدة على عمق علاقات العرب مع إيران تاريخياً وموسيقياً يمكنك اليوم أن تلاحظ أهمية الموسيقى فى الحياة الثقافية والوجدانية للإيرانيين الذين يعشقون الموسيقى الكلاسيكية، والمترادفات التالية: موسيقى سنتى إيرانى، أو موسيقى أصيل إيرانى، أو خنياى باستانى إيرانى، تشير كلها إلى معنى واحد: الموسيقى الكلاسيكية الإيرانية. عشق الإيرانيين لتراثهم الموسيقى الكلاسيكى ظاهر وواضح بحيث يمكنك أن تكتشفه بسهولة ومن زيارتك الأولى لإيران، وحتى المثل الفارسى البليغ يقول: «شيئان لا يمكنك إخفاؤهما: العشق والسعال».



ترجع معرفة إيران بالموسيقى إلى زمان مملكة عيلام التى قامت فى إيران قبل أكثر من ٣٠٠٠ سنة، ومن وقتها يعتبر علم الموسيقى أحد فروع علم الرياضيات، وهو ما جعل للموسيقى مكانة مرموقة فى المجتمع الإيرانى من وقتها وحتى الآن. وهكذا استمر هذا التقليد متبعاً فى مملكة الإخمينيين؛ حيث كتب المؤرخ الإغريقى الشهير هيرودوت أن الموسيقى كانت منتشرة فى ذلك الزمان، كما تفيد بعض المراجع التاريخية الإيرانية أن المطربين المتجولين كانوا محبوبين فى فترة مملكة البارثيين.

وشهد عصر مملكة الساسانيين ذروة التطور الموسيقى الإيرانى، حيث بلغت الموسيقى الإيرانية وقتذاك حداً فاصلاً من التطور، بحيث إن أسماء أهم موسيقييها مازالت خالدة فى وجدان الإيرانيين حتى اليوم مثل: باربد وسركاش وبامشاد ورامتين.

كان باربد الموسيقى الإيرانى الأشهر فى مملكة الساسانيين، والذى ابتكر أول نظام موسيقى فى العالم وأسماه «سرود خسروانى» أى «خسرو الملكى» نسبة إلى الملك الفارسى خسرو الثانى، أو ما يعنى بالعربية الطرق الملوكية. وبموجب هذا النظام ابتكر باربد ٣٦٠ نغمة على أساس نغمة واحدة لكل يوم من أيام السنة، مع ملاحظة أن التقويم الفارسى يعرف السنة على أنها مجموع اثنى عشر شهراً، بحيث يكون لكل شهر ثلاثون يوما فيكون المجموع ٣٦٠ يوماً. ولم تحتسب الأيام الخمس الأخيرة من السنة حسب التقاليد الفارسية القديمة؛ بل يتم الاحتفال فيها، وهكذا كان اختراع باربد كافياً للسنة كلها بشكل أو بآخر. وطبقا للأسطورة الفارسية المتوارثة فقد خاطر باربد بحياته عندما اضطر إلى إخبار الملك خسرو برويز بموت حصانه الأثير «شبديز»، ولكن ليس بطريقة اعتيادية هى مجرد إخباره بالحقيقة، بل عن طريق أغنية ألفها خصيصاً لهذه المناسبة الحزينة على قلب الملك.

الموسيقى الآخر الشهير من هذه الحقبة التاريخية كان بامشاد؛ الذى دأب على عزف الموسيقى عند غروب الشمس لإدخال البهجة فى قلوب الإيرانيين. وبسبب هذا الدأب فقد أطلق الإيرانيون عليه هذا الاسم الجميل والمركب من اسمين هما (بام) أى الغروب، والسعادة (شاد). أما سركش فكان أول الموسيقيين الأربعة فى عصر الملك خسرو برويز وسبق باربد فى منزلته عند الملك، حيث ساعدته أصوله الأرمينية مثله فى ذلك مثل شيرين، زوجة وحبيبة الملك خسرو، على احتلال هذه المكانة. وبالرغم من الروابط العائلية التى تميز بها سركش وقرابته لشيرين فضلاً عن عذوبة موسيقاه، فإن باربد تميز عن كل أقرانه وخلد اسمه فى تاريخ الموسيقى الإيرانية والشرقية بسبب اكتشافه للمقام الموسيقى واختراعه لإيقاع الدستكاه. وتتكون كلمة دستكاه من كلمتين هما (كاه) أى موقع و(دست) أى اليد فيكون المعنى النهائى للكلمة موقع اليد. والدستكاه يشبه كثيراً المقام الموسيقى العربى، ولكنه يتكون من اثنى عشر نوعاً أساسياً هم: بيات ترك، بيات أصفهان، بيات كرد، سكاه، جهار كاه، راست بنج كاه، شور، ماهور، همايون، داشتى، نوه، أفشارى.

برع الموسيقيون الإيرانيون وزاد تأثيرهم فى موسيقى المنطقة، بعد تحول دولة الخلافة الإسلامية من دمشق عاصمة الأمويين إلى بغداد عاصمة العباسيين. ويعتبر أبو الحسن على بن نافع الشهير بلقب زرياب، أهم موسيقى فى هذه المرحلة التاريخية. كان زرياب عبقرياً وموسيقياً وشاعراً ومصمماً للأزياء فى آن معاً، وتعنى كلمة زرياب بالعربية «الطائر الأسود»، أما بالفارسية فتعنى ذات الكلمة «مكتشف الذهب». اعتبر زرياب تلميذا نجيباً للموسيقى الشهير إسحاق الموصلى، ولكن بعد ذيوع شهرته التى فاقت شهرة أستاذه، فقد سافر من البلاط العباسى بعد وفاة الخليفة العباسى الأمين إلى بلاد الشام، ومنها إلى تونس ليعمل فترة قصيرة فى بلاط زيادة الله (٨١٦-٨٣٧)، ومن هناك سافر زرياب أخيراً إلى بلاط عبد الرحمن الثانى فى الأندلس حيث طور آلة العود فأدخل وتراً خامساً عليها، كما أدخل آلة اللوت الفارسية التى أصبحت الجيتار الإسبانى لاحقاً. ولم يكن زرياب موسيقياً صاحب ذائقة استثنائية فى الموسيقى والطرب فقط، بل أيضاً فى تذوق الطعام وفى تقاليد وآداب المائدة.

أدخل هذا الفنان النابغة تعديلا على المائدة الأندلسية فأصبحت تتكون من ثلاثة أطباق متتالية هى: أولاً الحساء، وثانياً الطبق الرئيسى، ثم أخيراً طبق الحلويات، وهو تقليد مازال مستمراً فى إسبانيا الحالية وحتى اليوم. وبعد زرياب استمر صعود نجم الموسيقيين الإيرانيين فى الحضارة الإسلامية بشكل عام، ويعرف التاريخ أسماء علماء موسيقيين كبار أمثال أبو نصر الفارابى، وابن سينا، وقطب الدين الشيرازى، وعبد القادر المراغى. واستمر التواصل الموسيقى بين أجيال إيران وحقبها الزمنية قائماً، حيث كان الأستاذ ينقل لتلاميذه الأنغام التى توارثها عن الأجيال التى سبقته، فعاشت الأنغام الإيرانية لقرون طويلة. ويعتبر محمد رضا شجريان المطرب الإيرانى الأشهر حالياً، وهو تتلمذ على يد الموسيقار قمر الملوك وزيرى والمطرب الشهير إقبال سلطان آذار، وكلاهما تتلمذ على يد موسيقيين إيرانيين أقدم وهكذا.

المهم وعودة إلى الموضوع، فقد لعبت الصدفة دوراً تاريخياً هاماً واستثنائياً حيث اكتشف الموسيقى والعالم الإسلامى الإيرانى الفارابى، بعد خمسة قرون من موت باربد، التراث الموسيقى الكبير الذى خلفه ذاك العبقرى والمكون من ٢٠٠٠ نغمة، مازالت تعيش كلها حتى يومنا هذا حية فى الموسيقى الإيرانية. استمرت المكانة السامقة للموسيقى فى المجتمع الإيرانى، وفى عصر القاجاريين الذى برع كل من: أحمد قزوينى، ومظفر قمى، ومحمد مؤمن وهاشم قزوينى فى النغم والطرب، وما زالت أعمالهم حاضرة أيضاً فى الموسيقى الإيرانية التقليدية الراهنة. ولا يزال المقام الموسيقى الإيرانى حياً إلى اليوم بنفس الشكل الذى طوره وكتبه الموسيقى الإيرانى ميرزا عبد الله فرهانى (١٨٤٣-١٩١٨) فى عهد القاجاريين أيضاً.

حجرة الطرب

تقع أصفهان المدينة فى وسط إيران حيث تبعد عن العاصمة طهران بحوالى ٤٣٠ كيلومترا، ويطلق الإيرانيون على المدينة «نصف جهان» أى نصف العالم. تستكين أصفهان على سهل نهر نايانزارود (النهر الخالد) وفى أحضان جبال زاجروس الشاهقة. إلى الغرب والجنوب من المدينة تنتصب جبال بختيارى، أما الشرق والشمال فيفضيان إلى الصحراء التى تحيط بأصفهان وتحتل وسط الجغرافيا الإيرانية وتشكل غالبية المساحة الجغرافية لإيران. بعد الفتح الإسلامى اكتسبت أصفهان أهميتها السامقة فى تاريخ وثقافة إيران، إذ فى الفترة الواقعة ما بين القرن السابع والقرن العاشر الميلادى اشتهرت أصفهان بالحرير والقطن، بسبب وجودها على طريق الحرير الشهير. ثم سقطت المدينة الجميلة ضحية للغازى تيمور لانك فى العام ١٣٨٨، ففقدت أهميتها إلى حين. وعادت لأصفهان أهميتها وأكثر مع استيلاء الصفويين الذين حكموا إيران طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فاكتسبت أصفهان من وقتها معانى تتعدى الحدود السياسية لإيران. وقتذاك قام الشاه عباس الأول، أو عباس الكبير كما تطلق عليه المراجع التاريخية، باستقدام الصناع المهرة وبعشرات الألوف إلى المدينة. التى أعلنها عاصمة لمملكته. جعل الصفويون إيران عاصمة لهم فى نهاية القرن السادس عشر، وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر تم بناء أغلب المساجد الأصفهانية، تلك التى تميز المدينة بطرازها الإيرانى الفريد وقبابها الفارسية ذات اللون الأزرق المميز. وفى عام ١٧٢٢ سقطت أصفهان بيد الأفغان،

الموسيقى ربطت بين الحضارتين العربية والفارسية برباط لم تفلح السنون فى فصم عراه، إذ مازالت مقامات «راست» و«نهاوند» و«سيكا» شاهدة على عمق علاقات العرب مع إيران تاريخياً وموسيقيا



الذين قضوا على الدولة الصفوية، تلك التى صاغت وجدان إيران كما لم تفعل أى دولة من قبلها أو بعدها. وعلى أنقاض الدولة الصفوية ظهرت الدولة الزندية والدولة الأفشارية، ففقدت أصفهان مكانتها كعاصمة لإيران لمصلحة مشهد وشيراز ومن بعدهما طهران.

وبالرغم من انتهاء عصر الصفويين ودولتهم، فقد تركوا أثرهم العميق على أصفهان ووجدانها، ولذلك تعد مدينة أصفهان المقر الروحى لوجدان الموسيقى الإيرانية. فى أصفهان تستقر حجرة الطرب الرائعة فى قصر «عالى قابو» (المدخل العالى)، وهى المشغولة بحرفية تأخذ الألباب وبحيث يتعرج الهواء فى سقف الغرفة، فيرتد إلى المستمع بشكل فريد. وبالإضافة إلى ذلك توجد جدارية الموسيقى، التى تمثل فرقة موسيقية إيرانية كاملة، فى قصر «جهل ستون» (الأربعون عموداً). وكلا المعلمين يوضح بشدة المكانة المركزية للموسيقى فى الوجدان الإيرانى عموماً، وفى الحقبة الصفوية خصوصاً. والطريف أن عدد أعمدة القصر هى عشرون فقط، ولكن الأعمدة تنتصب فى مقابل بركة مياه تعكس صورتهم مرتين، فيخال الناظر إلى الأعمدة على صفحة المياه فى البركة أن عددها أربعون. تصل أخيراً إلى ميدان نقش جهان الذى يوجد فيه قصر «عالى قابو»، فينعقد لسانك من فرط الدهشة. يبلغ طول الميدان ٥٠٠ متر وعرضه ١٥٠ متراً، وهو تحفة فنية فريدة على مساحة ضخمة، إذ تصطف المبانى التاريخية على الجوانب الأربعة للميدان. يحتل مسجد الشيخ لطف الله موقع الشرق من الميدان، وعندما تقف فى مدخل المسجد تستطيع ملاحظة أن القبة ترجع صدى الصوت سبع مرات عند وصوله إليها. ويقع قصر «عالى قابو» إلى الغرب من الميدان، ويحتوى القصر على غرفة الموسيقى الفريدة من نوعها فى العالم. أما جامع عباسى بعمارته الفريدة وقبته التى استغرق بناؤها ستة عشر عاماً فيحتل جنوب الميدان، وبالتالى فالميدان فريد من نوعه فى العالم حيث يحتوى على معالم فنية رائعة وذات قيمة تاريخية فائقة متجاورة إلى جانب بعضها البعض، ولذلك فقد أعلنت اليونسكو الميدان كله جزءا من التراث العالمى. تترك أصفهان متوجهاً إلى طهران وقد استقرت فى ذاكرتك صورة العازفات الإيرانيات، بملابسهن ذات



كتاب الزاوية



فضائل الصمت

كتاب النصيحة

اعلم يا بنى أن المرء بغير نفع ما دام بغير فضل، كشجرة المغيلان (لعلها العوسج) التى لها جذع وليس لها ظل، لا تنفع نفسها ولا غيرها. وذوو النسب والأصل ولو كانوا عديمى الفضل لا يجزمون احترام الناس. وأسوأ ما يكون المرء ألا يكون له أصل ولا فصل، ولكن ينبغى الاجتهاد فى أن تكون جوهرًا بشخصك حتى ولو كنت أصيلاً عريقًا؛ لأن جوهر الشخص خير من جوهر الأصل، كما قالوا (الشرف بالعقل والأدب لا بالأصل والنسب)، فإن العظمة للعقل والعلم لا للعنصر والأصل. ولا تكن تبعًا للاسم الذى وضعه أبواك، فذاك الاسم علامة، والاسم حقًا هو ما تخلعه على نفسك من الفضل، حتى تلقى باسم أحمد ومحمد وموسى وجعفر على أستاذ فاضل أو حكيم كامل، فإذا لم يكن لذى الأصل جوهر الفضل، فإنه لا يليق بصحبة أحد، وتشبث بكل من فيه هذان الجوهران، ولا تدعه من يدك، فإنه ينفع كل إنسان.

اعلم أن الفضيلة الأفضل من جميع الفضائل هى الكلام؛ لأن الخالق جل جلاله خلق الآدمى أفضل من كل مخلوقاته، والإنسان الذى نال الفضل على سائر الحيوان ناله بعشرة أشياء فى بدنه: خمسة من الباطن وخمسة من الظاهر؛ فالخمسة الخفية مثل الفكر والتعليم والحفظ والتخيل والنطق. وتلك الخمسة الظاهرة مثل السمع والبصر والشم واللمس والذوق. وما يكون لسائر الحيوان من هذه كلها لا يكون على هذه الجملة، فصار الإنسان لهذا السبب ملكًا قاهرًا على سائر الحيوان، فإذا عرفت ذلك فتعلم الفضل وتعود فضائل اللسان، لأن لسانك يقول دائمًا ما تجرى عليه، فقد قيل أحسن الناس لسانًا أكثرهم فضلاً، واجتهد مع كل فضائلك فى أن تقول الكلام فى موضعه، فإن الكلام إذا كان جيدًا ولم يكن فى موضعه فإنه يبدو قبيحًا. وآثر الصمت على الفضول، إذ إن الكلام غير النافع ضرر كله، والكلام الذى لا تأتى منه رائحة الفضل من الخير أن لا يقال.

الألوان الزرقاء والصفراء والحمراء وهن يعزفن على الآلات الموسيقية الإيرانية الكلاسيكية كما هو مرسوم على جدران قصر «هشت بهشت» أو الجنات الثمانى باللغة العربية.

السنتور والأستاذ!

ينتهى بك المسير من وسط العاصمة الإيرانية طهران إلى ميدان «بهارستان»، لأتوقف كى أنظر إلى مبنى البرلمان الإيرانى القديم ومسجد «سباه سالار» الذى كان مسرحاً للثورة الدستورية فى إيران قبل مائة عام. تترك السياسة على يمينك، وتدلف من الميدان يساراً بعد أن طال بك المسير فى طهران. تتسلح بالمثل الفارسى عميق الدلالة والذى يقول «الصبر شجرة جذورها مرة ولكن ثمارها رائعة المذاق»، فقد بحثت كثيراً فى المراجع التاريخية وفى دليل مدينة طهران بعد أن سألت فى المعهد العالى للموسيقى. أخيراً تمر بجوار محلات بيع الأدوات الموسيقية الإيرانية التقليدية الواقعة بالقرب من الميدان، وتتجاوز ثلاثة منها قبل أن تجد محل «الأستاد فروغى». ويستعمل الإيرانيون كلمة «أستاد» كدلالة على الموسيقار، وهى فى حالتنا هذه تناسب المقام تماماً وتنطبق على الأستاد فروغى أقدم صانعى الآلات الموسيقية فى إيران. تدخل إلى المحل حابساً أنفاسك وعازماً على شراء آلة السنتور، وهى آلة موسيقية وترية تشبه آلة القانون العربية، ولكنها تختلف عنها فى طريقة العزف. وإذ يعزف على القانون عبر تثبيت ريشتين فى سبابة كلتا اليدين للنقر بهما على الأوتار، فإن السنتور يتطلب العزف عليه النقر على الأوتار بمضرابين صغيرين من الخشب باستعمال السبابة والإبهام. ولكل منهما موقعه فى الموسيقى، فالأول هو سلطان الطرب العربى، والثانى هو سلطان النغم الإيرانى. تصطف الآلات الموسيقية بالمحل فى نظام دقيق، إلى اليسار آلات العزف الوترية مثل البربط والستار والتار والدوتار والطنبور، وإلى اليمين آلات العزف مثل الكمنجة والغيجك ومعها آلات النفخ الإيرانية مثل: سورناى، الناى، البالابان، الدونالى، دوساله. تلحظ أيضاً آلات الضرب مثل الدف، التمباك، وأخيراً وفى الوسط تجد السنتور محتلاً مكانه البهى فى محل الاستاد فروغى وفى الموسيقى الإيرانية.

تطور شكل آلة السنتور بمرور الأزمان، فقد نشأت على شكل علبة مستطيلة ذات أوتار معدنية، حتى وصلت إلى شكلها الحالى أى صندوق غير متساوى الأضلاع مصنوع من خشب الجوز وأوتاره من البرونز، وهى متساوية فى السماكة وعددها اثنان وسبعون وتراً (مع أن كلمة السنتور تعنى مائة وتر باللغة الفارسية).

تنتشر فرق الموسيقى الإيرانية الكلاسيكية سواء حول العالم أو فى إيران، وكلها تعتمد على الآلات الكلاسيكية مثل السنتور، وتعد الفرق التالية هى الأشهر: فرقة عارف، فرقة همايون، فرقة ذو الفنون، فرقة دستان، فرقة شمس، وفرقة مهر للموسيقى الكلاسيكية التى تتكون من النساء فقط. والمستمع إلى هذه الفرق المختلفة فى طهران أو أصفهان أو حتى برلين وباريس ونيويورك يجد أن الموسيقى الإيرانية مازالت حاضرة فعلاً فى الوجدان الإيرانى، ومازالت امتداداً طبيعياً للموسيقى الإيرانية الكلاسيكية منذ عصر الإخمينيين والساسانيين وحتى الآن. تداعب يدا الصانع مضرابى السنتور ليجربه لك قبل البيع، فتهبط وتصعد بخفة وتنتقل على أوتاره برشاقة مطلقة أروع وأعمق النغمات، فى تلاحق وإحكام وانتقال من طبقة إلى أخرى ومن نغمة إلى غيرها. يخيل إليك وكأن أشهر العازفين الإيرانيين صاروا يحيونك بطريقتهم المفضلة، هنا تلحظ أسلوب فرامرز بايور وبرويز مشكاتيان، وفى هذه القطعة يخيل إليك وكأن مجيد كيانى وحسين مالك قد قاما من رقادهما الأبدى لتحيتك، وفى هذه الجملة المليئة بالعواطف تشعر وكأن كاظم داوديان ومنوجهر صادقى قد ألفاها لأجلك أنت. يختتم الصانع جملته الموسيقية الطويلة بالنهاية على طريقة الأستاذ ميرزا على أكبر شاهى: بقوة ورقة فى آنٍ معاً. تخرج من محل الأستاد فروغى بأحسن مما دخلته حاملاً معك آلة سنتور من صنع يديه، وممنياً النفس بتعلم العزف على السنتور على خلفية أغانى الموسيقار الإيرانى محمد رضا شجريان والمطرب المعروف شهرام ناظرى وعاشق السنتور المغنى جمشيد عندليبى.

تجلس فى القاهرة وهذه النغمات لا تنى ترن فى رأسك، كأنها حلم سرمدى عابر للمكان متنقل بين طهران والقاهرة... ومخترق للزمان بين باربد وشجريان. ■

سامية أبو زيد

الكتابة على الهواء!

■■ بعد حوالى خمس سنوات متصلة من الكتابة فى صفحة الرأى بجريدة الأخبار، قمت بمغامرة الكتابة على الهواء على سبيل التجربة، وذلك بسبب ما جبلت عليه من حب الاستطلاع وزادته قوة، دراستى العلمية التى تعتمد بالأساس على التجربة والمشاهدة والاستنتاج، فكان أن ارتميت فى محيط شاسع اسمه المنتديات الثقافية والتى تنتشر بصورة كبيرة وفى تنام مستمر.

وقد خرجت منها مؤخرا بعد أن أحصيت النتائج المترتبة على مشاهداتى فى تلك التجربة التى استمرت طيلة عامين فى أكثر من منتدى، وهاك خلاصة تلك التجربة كى لا نغض الطرف عن عنصر بات شديد التأثير فى المشهد الثقافى.

أعضاء وأرقام

تتفاوت المواقع الأدبية والمنتديات وتكتسب ثقلها وفقا لعدة عوامل على رأسها عدد الأعضاء الكلى وعدد الأعضاء النشطين به، فقد تجد منتدى يضم خمسة آلاف عضو لكنه فى حقيقة الأمر يقوم على أكتاف ما لايزيد على الثلاثين عضوا، مما يجعل انقطاع عضو منهم عن المشاركة حدثا يسبب خللا فى حركة الموقع ويصيبه بالركود وقد يصاب بالانهيار.

ويكتسب العضو مكانته تبعا لعدد المشاهدات أى الزيارات وكذا عدد مشاركات الأعضاء الآخرين أى ردودهم على موضوعه سواء كان قصة أو شعرا أو نثرا أدبيا يسمونه الخاطرة إلخ.. وهذا يقودنا إلى ظاهرة أخرى سوف نتطرق إليها فى حينها. ويبقى الكلام عن محركات البحث مثل جوجل Google وخلافه، باعتبارها من مؤشرات نجاح الموقع، فكلما ظهر الموقع فى الصفحات الأولى لمحرك البحث كلما كان ذلك دليلا على نجاح الموقع وانتشاره.

ومن الظواهر المثيرة للعجب فى بعض المواقع تعدد المستخدمين للعضو الواحد، فقد يسجل العضو تارة بشخصية رجل وتارة أخرى بشخصية فتاة أو امرأة، وأحيانا يكون ذلك بفعل الإدارة نفسها التى تريد تضخيم عدد الأعضاء للوصول لمحركات البحث المذكورة بأيسر السبل وأسرعها، ولكن مع الوقت يتم انكشاف المخبوء ويفقد الموقع احترامه ومصداقيته، بيد أن المقلق فى الأمر ليس فى المواقع وإنما فى المستخدمين. فالمواقع التى تبتغى اكتساب سمعة طيبة، تحترز لهذا الأمر وتراقب ما يعرف بالـIP للمستخدمين وتوقف العضو الذى يثبت عليه التسجيل بأكثر من اسم (مستخدم) ولكن هيهات، فقد يحدث أن يختلف عضو ما مع الإدارة ويتم إيقافه فيظل يسجل بعدة أسماء وهمية ويعيث فى الموقع فسادا، وتظل الإدارة فى حالة استنفار دائمة لمحو تجاوزات العضو، وينتهى الأمر بغلبة البلطجة وينهار الموقع أو ترضخ الإدارة وترفع الحظر عن العضو المهووس.

والقول بأنه مهووس ليس من قبيل المبالغة، فالبعض قد أصبح شغله الشاغل المنتديات ولا غنى له عنها.

تلك الشخصيات المتهوسة لا يقتصر هوسها على التسجيل فى أكبر عدد ممكن من المنتديات والبقاء أمام الشاشة ليل نهار، بل يصبح الأمر حالة من الخبل وخداع النفس، فتجد العضو المذكور يسجل كما أسلفنا بأكثر من اسم ومن ثم يبدأ فى مدح أعماله باعتباره شخصا آخر، ويكيل المديح لنفسه ويثنى على عبقريته وشاعريته الفذة، ويبقى موضوعه فى الصفحات الأولى دائما، بل وقد يصل به الأمر إلى ما يشبه الفصام فيدخل فى صراع مع نفسه حول كلمة ما لينتصر فى النهاية لعمله المعروض. ولا يهمه فى ذلك الوقت سوى أن يرفع من عدد مشاهداته وعدد الزيارات ولفت أنظار الأعضاء الآخرين الذين يلتقطون الطعم ويبدأون فى التعليق والمشاركة ويصل بالتالى لمأربه وهو لفت الأنظار بأى ثمن.

ومن أوجه الهوس المختلفة وخداع النفس قبل خداع الآخرين، انتشار لصوص الكلمات، الذين يسطون على أعمال أعضاء آخرين فى منتديات أخرى وينسبونها لأنفسهم ويقومون بالرد على معجبيهم بصفاقة مدهشة. ومن أعجب ما مر بى فى هذا الباب، تلك الواقعة التى قام فيها عضو بالسطو على شعر عضو آخر فى موقع مختلف وحاول التذاكى بتغيير بعض الكلمات، إلى هنا والسرقة على قدر من الذكاء، لكن يبدو أنه كان ذكاء مؤقتا، إذ لم يكتف بالسطو على العمل الأصلى، بل قام كذلك بالسطو على ردود صاحب العمل رغم ابتعادها كل البعد عن الكلام الدائر فى متصفحه!!

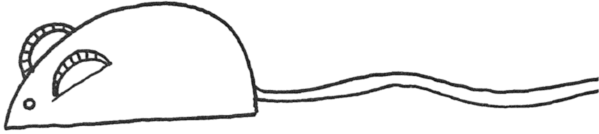
ولولا قيام صاحب العمل الأصلى بالتسجيل فى المنتدى دفاعا عن كلماته وفضحاً لذلك العضو، لما انكشف أمره رغم الريبة التى وقعت فى نفوس البعض للتفاوت البين بين القصيدة المسروقة ولغة العضو المعروفة لدى سائر الأعضاء.

كذلك حالة أحد هؤلاء اللصوص الذى مارس لصوصيته بغباء قل أن ترى مثله، إذ كان يقوم بالسطو على كل ما يروق له وينقله كما هو بأخطائه، وما كشف أمره التفاوت المذكور، فتارة تجد له قصيدة بالفصحى موزونة مقفاة وتتمتع بلغة فصيحة بليغة، وتارة أخرى ترى له «قصيدة» لا تنتمى لعالم الشعر ولا إلى اللغة العربية إن شئت الصدق، والأدهى من هذا وذاك «إبداعاته» فى الشعر العامى، فحينا يقوم بالسطو على قصيدة بالعامية المصرية وحينا آخر يقوم بالسطو على قصيدة من الشعر النبطى، والكل يهلل ويصفق ولا يدرى ما الأمر ولكن إلى حين، إذ سرعان ما افتضح أمره وتم إيقافه. ومن المؤكد أن مثل هذا المسلك إنما ينتج عن صعوبة المتابعة فى المقام الأول وكذلك نتيجة لعدم معرفة الكثيرين بالشعر ومدارسه المتعددة، بل وعدم معرفتهم فى بعض الأحيان باللغة العربية السليمة نفسها.

وبين المكرر والمنقول والمسروق تطول رحلة البحث عن موضوع يستحق القراءة، أى كما يقال فى المثل العامى «زى الخروب قنطار خشب ودرهم حلاوة». والخشب هاهنا يتم حرقه، وأعنى به الوقت المستهلك فى رحلة البحث، وكما يتلوث الجو ويقل الأكسجين لدى احتراق الخشب، كثيرا ما يحترق الوقت فى مطالعة أفكار سطحية والأخطر منها الأفكار المسمومة التى تسعى لبث الفرقة وتدعو للتعصب، مثال ذلك المواقع التى تروج لأفكار دينية ومذهبية وكذلك المواقع التى تعتنق حرية الرأى وشعارات الرأى والرأى المضاد، دون أن تكون هناك حرية رأى حقيقية وفى غياب الحوار الهادئ العقلانى. بل على العكس من ذلك قد تتربص ببوادر الخصومة وتغض الطرف عن المهاترات التى تدور كى تضمن ارتفاع نسبة المشاهدات والمشاركات. بل قد يصل الأمر أحيانا لافتعال أزمة حتى تنشط موضوعا ما أو تحيى أحد الأقسام المهملة، فلا تتدخل الإدارة إلا بعد خراب مالطة كما يقال، وبعد أن تتجافى النفوس ويحل التربص محل المودة.

حروب المنتديات

ليس شرطا أن تندلع الفتنة فى الموقع بين الأعضاء الذين يحرصون فى كثير من الأحيان على الإبقاء على المودات والمجاملات بين بعضهم البعض، ولكن قد تأتى الفتنة من الخارج من قبل أطراف تندس فى الموقع وتلقى بسهامها المشتعلة بين صفحات الموقع. وكما يقال فتش عن الدافع، فبعض هذه الأطراف قد يكون عضوا موقوفا وموتورا من المتهوسين المذكورين آنفا، أو من مواقع منافسة والبعض الآخر يكون عميلا لجهة ما سواء مخابراتية أو حزبية أو طائفية، ويظهرون فجأة وتراهم عارفين بالأعضاء



وأسمائهم بل ومللهم وتوجهاتهم الفكرية، لذا يبدأون بالضرب بقوة وبعنف، مثال ذلك ما حدث فى أحد المنتديات إبان الحرب اللبنانية الإسرائيلية (صيف ٢٠٠٦) والتفاف بعض القلوب حول حسن نصر الله والشروع فى ترسيمه بطلا قوميا، فى تلك الفترة بالتحديد ظهر من يجترئ على واحدة من الأعضاء والتى كانت تتمتع باحترام ومحبة الجميع، وأخذ فى الهجوم عليها بقسوة لمجرد أنها شيعية المذهب فى محاولة لبث الفتنة بين السنة والشيعة، فالفتنة بين المسلمين والمسيحيين قد أصبحت موضة قديمة وحيلة مكشوفة والأمضى منها والأفتك هو الصراع المذهبى.

وتصيب شظايا الكلمات السابحة فى فضاء المنتديات النفوس والقلوب، وكثيرا ما تدميها إما غضبا وحقدا كما أسلفنا، وإما عشقا وهو أمر غير نادر الحدوث. وذلك بفرض أن الشخصيات العاشقة هى شخصيات حقيقية بدون أقنعة زائفة، وأهمها أن يكون الذكر ذكرا فعلا والأنثى أنثى، فترى الكثير من الشخصيات المشاركة تخلق لنفسها اسما مثيرا للخيال وأحيانا تختار سنا تتقمصه وتتبرأ من حالتها الاجتماعية، وأحيانا تتغاضى عن تلك الحالة الاجتماعية وتفتح لكلمات الغزل أبوابها، والأهم من ذلك صندوق الرسائل الخاصة. وتشتد هذه الظاهرة بين صفوف الشعراء والمتشاعرين على وجه الخصوص، فترى أسماء بعينها تتابع موضوعات فلان وتتأوه عقب كل حرف يخطه هذا الفلان أو ذاك، وتبدأ سلسلة من الردود والمجاملات الخارجة عن أطر النقد الموضوعى لتصبح المسألة مجرد تفنن فى الاستحسان وتفنننا أشد فى الرد على تلك المجاملات.

بيد أن الشظايا المتناثرة هنا وهناك لا تكتفى بإصابة القلوب وفتح صناديق الرسائل التى قد تتعرض فى بعض الأحيان للتلصص من قبل بعض الإدارات سرا أو جهرا. فهناك بعض المنتديات الجادة التى تشترط فى لائحتها أن تكون صناديق الرسائل خاضعة للرقابة من قبل الإدارة، ومنتديات أخرى تشترط عددا معينا من المشاركات قبل تفعيل خاصية إرسال وتلقى الرسائل، وغيرها التى ترى فى صندوق الرسائل أمرا شخصيا لا يهم سوى العضو نفسه، ولكن الأمر لا يقتصر على صناديق الرسائل بل يمتد لمناطق أخرى مكشوفة وظاهرة للعيان، سواء فى الردود أو فيما يعرف بالبوح أوالهمسات... إلخ.. من المسميات لصفحة تفتح وتتحول لساحة للدردشة، وهى ظاهرة متفشية فى منتديات كثيرة.

ومع ميلاد تلك الصفحة الحرة، وتحت شعار الفضفضة يبدأ الموقع فى الانهيار، وذلك رغم جاذبية تلك الصفحة، بل لعل السبب فى ذلك هو جاذبيتها. فهى تبدأ بهمسات بوح محببة وجميلة وتتيح للأعضاء التقارب وتكوين صداقات فيما بينهم، فيدخل الصفحة من يريد إزاحة كلمات جاثمة على قلبه، ولكن مع الوقت يبدأ الآخرون فى متابعة بعضهم البعض، ومحاولة استشفاف ما وراء البوح من باب الفضول وحب الاستطلاع، فهذا فى حالة حب وذاك يرمى بسهامه نحو العضو الفلانى، ويتحسس رأسه كل ذى «بطحة»، ومن ثم يبدأ فى الرد المستتر، ثم يبدأ الغمز واللمز وهى تربة خصبة للشائعات والمشاحنات التى تتحول فى بعض الأحيان إلى معارك حامية الوطيس، وينسون فى غمار تلك المشاحنات والمحاسبات على تلك الكلمات التى يقولون إنهم إنما يكتبونها لأنفسهم، أنهم أسقطوا خصوصياتهم وأعطوا الآخرين حقا لم يكن لديهم. إذ لم يجبرهم أحد على هذا البوح، ولا يفترض بالآخرين العمى، فالكلمات مكتوبة ومتاحة للجميع وحق التأويل مكفول إما بالسلب أو الإيجاب، وحين يضيق بهم المكان ينطلقون إلى فضائهم الخاص المعروف بالماسينجر، حيث الكلام بحرية أكبر ومن هنا تبدأ الشللية فى التفاقم وتبدأ بقية الأقسام فى الركود حتى يصاب الجميع بالملل من القيل والقال فيتم البحث عن بديل.

تسالى.. تسالى

بعد إصابة الموقع المذكور بالركود يتفتق ذهن واحد من الأعضاء عن حل عاجل لتنشيط الموقع، فيقوم بنشر لعبة ما ويدعو الأعضاء للمشاركة فيها، فترى نشاطا وإقبالا على الموقع بعد الرتابة التى كان يعانى منها. ولكنه نشاط هستيرى أشبه بفورة النشاط لدى متعاطى المخدرات ومن ثم العودة إلى الخمول والركود. ومثلما يفتش المتعاطى عن صنف جديد أو يرفع من جرعة المخدر كى يستعيد الحالة المنتعشة التى كان يمنحها له المخدر، تجد المنافسة بين الأعضاء وقد احتدمت لا فى اللعبة الواحدة فحسب، بل فى ابتكار ونقل الألعاب من المواقع الأخرى بتعديل أو بدون تعديل. وهو أمر ليس شرا كله، فبعضها يعتمد على الذكاء وينشط الذهن ويضيف إلى العضو المتعة مع الفائدة، منها الألعاب التى تعتمد على اللغة أو تتمة بيت من الشعر، أو صاحب قول مأثور... إلخ. أما الشر كله فيكمن فى تلك الألعاب التى تعتمد على المشاركة وحسب، دون أية فائدة للعضو أو الموقع سوى استهلاك الوقت ورفع المشاهدات. من عينة لعبة المسدس، فمن يصل لرقم معين يصبح معه المسدس الوهمى ويقتل به من يشاء من الأعضاء، وفى تلك الحالة يبدأ السقوط الذى لا قيام بعده للموقع، حيث يبدأ فى فقدان الأعضاء الجادين ولا يبقى سوى غثاء السيل.

ومما سبق نجد أن الهدف من تلك المنتديات «الثقافية» قد سقط فى الطريق وأنها اتخذت منحى آخر حسب هوى الأعضاء وهو التسلية وقتل الوقت.



مثل الدول تماما تبدأ رحلة المنتديات وتأخذ نفس دورتها فى الصعود والتمدد ثم الانهيار. ومثلها أيضا فى الثورات وفى الأحلام



صعود وهبوط وهجرات

مثل الدول تماما تبدأ رحلة المنتديات وتأخذ نفس دورتها فى الصعود والتمدد ثم الانهيار. ومثلها أيضا فى الثورات وفى الأحلام، إذ تجد بعض الذين اجتمعت قلوبهم حول فكرة ما يحلمون بيوتوبيا فضائية فيسعون لتحقيق الحلم، وإن هى إلا بضعة ترتيبات ومساحة على الشبكة العنكبوتية وبضع دعوات لمن يتوسمون فيه الخير حتى يبزغ نجم جديد فى عالم المنتديات، فيتسامع به الناس ويبدأون فى التوافد عليه، فيبدأ صغيرا مثل دولة فتية حين تعلن استقلالها عن امبراطورية منهارة أصابها الوهن، فتجد من يؤازرها ويدعمها من أنصار الكلمة «الحرة» والمبادئ النبيلة، وكذلك من يحاربها ويرسل جواسيسه فى أثرها يندسون بين الأعضاء حتى يحين الوقت لتوجيه ضرباتهم.

ويحدث أن يتغير ولاء البعض وينخرط بصدق فى هذا المجتمع الفتى النضر بكل رونقه، فترى هجرة من المنتديات التى شاخت وأصابها الوهن إلى تلك المنتديات الفتية، التى تبدأ فى التوسع والتألق وجذب الأنظار بعد أن يتسامع الناس بالنجاح الذى حققته تلك المنتديات، ولكن....

مثل الدول تماما والامبراطوريات الكبيرة، يأتى الانهيار دائما من الداخل، فإلى جانب ما ذكرناه آنفا من عوامل انهيار المنتديات، نجد عاملا آخر شديد الأهمية بخلاف الشللية والأحزاب... إلخ.. هذا العامل يتمثل فى الاستبداد الذى يكون وليد النفاق وبالتالى ظهور ذوى المصالح وذوى الأهواء، والطامعين والمتسلقين لنجاح الموقع.

ومن ثم تبدأ الإدارة فى الافتتان بنجاحها فتقع فى



فخ الانفراد بالرأى، أو على العكس من ذلك انعدام الرأى ويصبح جل همها عدم فقدان عضو من الأعضاء ظنا منها أنها تبقى على الأعضاء الذين تعبت فى جمعهم، ليصبح المنطق السائد «الزبون دائما على حق»، فتعجز بالتالى عن إرضاء الجميع لتبدأ رحلة الانهيار.

فترى على الحالين استبدادا إما من الإدارة أو من الأعضاء دونما تناغم حقيقى وممارسة حقيقية لحلم الديمقراطية والكلمة الحرة.

ومما لا شك فيه أن الكثير من المواقع والمدونات وما شئت من المسميات المنتشرة عبر تلك الشبكة الهائلة، قد أذكت روح القول بلا خوف فصارت متنفسا لا يحده سقف رغم أنف الأنظمة. وهى قضية بذاتها، أعنى حرية التعبير وخاصة فيما يتعلق بالشئون السياسية والداخلية فى أى مكان، ولكن هل هناك حرية تعبير بالفعل؟ وهل تمارس بالشكل الصحيح؟ أم أنها شكل عشوائى من البوح لا أكثر؟؟

ويثور تساؤل آلا وهو: هل نحن على مستوى هذه الحرية؟ وفى المقابل تنهمر الأجوبة بين النفى والتأكيد، لكن كل ذلك لا يعنينا فى المشهد الثقافى الذى نحن بصدده إلا بقدر، كبر أو صغر، اشتد أو ضعف، فما يهمنا حقا هو شكل هذا التأثير.

فقد تجد فى أحد المواقع موضوعا يتسم بالجرأة سواء كان سياسيا أو دينيا أو أدبيا، من عينة الجدل حول الشعر ومدارسه... إلخ. أو قصة تحوى مشاهد ساخنة لا تزيد كثيرا أو قليلا عما هو مطروح فى الأسواق بل ويحصد الجوائز فى بعض الأحيان. وبعد، تجد أن الحرية التى تأملت أن تجدها تصطدم بمقص لا يختلف كثيرا عن مقصات الرقباء المعروفة، فمقص الرقيب قد يحذف جزءا من العمل أو يصادر العمل كله ولكن الجمهور يتحداه ويتداول العمل الأصلى سرا سواء فى حالات النشر أو فى الأعمال الدرامية، أما فى المنتديات فيتم حذف العمل بأكمله، وقد يكون الحذف متعسفا وخاضعا لهوى شخصى لا علاقة له باحترام الكلمة ولا القارئ.

وفى أحوال أخرى قد لا يكون الحذف بفعل الإدارة التى أسكرتها عبارات النفاق التى يتطوع بها البعض والسلطة الوهمية التى تمارسها فى تلك المملكة الصغيرة، بل يكون بفعل صاحب العمل نفسه لسبب أو لآخر، منها على الأرجح الخلاف مع بعض الأعضاء، وهاهنا يبرز تساؤل عن «حق الكلمة» وهل هى من حق المبدع أم المتلقى أم الوسيط أى وسيلة النشر؟

وفى ظنى أن الكلمة إذا خرجت للنور تصبح كالوليد قتله حرام حتى وإن كان مشوها أو نغلا، فله حق البقاء، فهى قبل أن تخرج للنور تظل من حق المبدع وحده كالجنين تماما، ولكن إذا اكتمل وخرج للنور فلا يحق لأحد قتله تحت أية مسميات. ولكن هل تقف حدود الحرية عند القول فحسب؟

لغة جديدة.. قديمة

لا ينقطع الجدال عن الحرية ومفهومها وممارستها، وتمتد هذه الحرية لتصيب اللغة وقواعدها المعروفة، فترى انتشارا هائلا للكتابة بالعامية، ولا يقتصر الأمر على الشعر العامى بل يمتد لعالم القصة والنثر والمقالات، كما يندر أن تكون مداخلات الأعضاء وردودهم بغير العامية أو بغير أخطاء لغوية، ويكون العذر الدائم فى تلك الحالة هى العجلة، لكن أن يمتلئ الموضوع نفسه بالأخطاء اللغوية فتلك هى المشكلة. وإذا ما ضيقت الخناق على كاتب من هؤلاء، كان رده أنه إنما يكتب ليعبر عما يجيش بأعماقه فنقله بصدق وكما شعر به، سواء كان عمله فى قسم الشعر ومليئا بالكسور والأخطاء اللغوية، أو فى القصة حيث يتراوح بين العامية والفصحى دونما ضابط أو رابط وفى سياق السرد نفسه لا فى الحوار الذى قد يحتمل العامية. وهكذا فإن النشر المتاح يجعل كل من يضع حرفا بجوار حرف قادرا على النشر فى ذلك الفضاء المفتوح بل وقد يلاقى التشجيع والاستحسان باعتباره مجددا ومتمردا على القوالب الجامدة ومن أبرز هذه المظاهر انتشار النثر الأدبى المسمى بالخواطر والذى لا يختلف كثيرا عن قصيدة النثر مع ملاحظة أن العديد من المواقع كثيرا ما ترفض هذا اللون الأدبى، أى قصيدة النثر، ثم تعود وتقبل بالخاطرة عن طيب خاطر، هذا بالإضافة إلى أن معظم عبارات الاستحسان تصدر ممن يجهلون قواعد وأصول النقد الأدبى.

أما الظاهرة الأشد وضوحا فى تلك المنتديات فهى استخدام الزخرفة لإضفاء رونق على النص وهو أمر محمود، لكنه قد يتجاوز الزخرفة ويتم الاستعانة بالصور المتحركة أو الثابتة والتى تعرف بالإيموشنات، وهى صور صغيرة ومعبرة إلى حد كبير ولكن على حساب النص المجرد، مما يجعل الكلمة فى حالة «ردة لغوية» حيث تعود لصورتها البدائية وهى الرسم للتعبير، وإن كان ذلك بتقنية متطورة تجعلها تتحرك. ويكثر استخدام هذه الإيموشنات فى الأعمال المنسوبة للقسم الساخر بوجه خاص.



هناك بعض المنتديات الجادة التى تشترط فى لائحتها أن تكون صناديق الرسائل خاضعة للرقابة من قبل الإدارة، ومنتديات أخرى تشترط عددا معينا من المشاركات قبل تفعيل خاصية إرسال وتلقى الرسائل



مما سلف نجد أن حسن توظيف الإيموشنات يتفاوت من عضو لآخر، فنرى عملية إخراج مصاحبة للكتابة تجعلها أشبه بالسيناريو والإخراج السينمائى لأفلام الكارتون، ولكن قد يكون ذلك على حساب الكلمة، وشيئا فشيئا تضعف القدرة التعبيرية لدى المبدع نظرا لاستسهاله استخدام تلك الرسوم المعبرة. ولو جردت النص من تلك الرسوم فقد لا تضحك بنفس القدر أو قد لا تضحك على الإطلاق، وهكذا قد يقبل البعض على موضوعات عضو ما لبراعته فى استخدام «الإيموشنات»، وأحيانا قد يتأخر عضو فى تكملة حلقاته الساخرة لكسله عن إضافتها، فيظل الموضوع مؤجلا حتى تنفتح شهيته لوضع «الإيموشن» المناسب فى المكان المناسب!!

وعلى صعيد آخر يبرز فن جديد لا تجده سوى فى النشر الإلكترونى، وهو ما يعرف بالتصميمات، فكما كنا نرى رسوما مصاحبة لقصائد كامل الشناوى وفاروق جويدة فى دواوينهم، تنتشر فى بعض المنتديات ظاهرة تصميم لوحات معبرة عن الشعر أو الخواطر. وما يميز هذه التصميمات ويكسبها تفردا، أنها متحركة وفى بعض الأحيان تكون مصحوبة بالموسيقى أو إلقاء الشاعر للقصيدة بصوته، وتعتمد هذه التصميمات على عدة برامج على رأسها الفوتوشوب والكليك وغيرها، وهى - أى تلك التصميمات - فن بازغ وله فنانوه الذين صارت لهم شعبيتهم فى عالم الإنترنت والتى تكاد تصل إلى درجة النجومية، فنجد بعض الأسماء المتداولة عبر ذلك الفضاء وقد تهافت عليها أصحاب المواقع لمعرفتهم بقدرة أصحابها على اجتذاب الأعضاء.

ويميل أصحاب المواقع إلى اجتذاب الكتاب والشعراء ممن لديهم صلة بعالم النشر الورقى ويعتبرونهم مكسبا كبيرا لمواقعهم. هذا إلى جانب البريق الذى يحيط باسم العضو الذى يشير إلى انتمائه لعالم الصحافة، فتجد الترحاب يحيط به وتشمله عين الرعاية من قبل القائمين على الموقع بغض النظر عن مستواه الأدبى وذلك لمجرد أنه متصل بهذه الصحيفة أو تلك أيا ما كانت هذه الصلة، مما يشى بسطوة الورق وسحره لدى كل من يهتم بالثقافة.

ومما يدل على هذه السطوة، تلك الفرحة وذلك الزهو الذى يصيب العضو الذى ينجح فى اختراق عالم الورق وينشر له عمل أدبى فى صحيفة أو مجلة، مما يعنى ميلاد أديب أو شاعر إذ يكون النشر الورقى بمثابة شهادة ميلاد له واعتراف موثق بكيانه الأدبى والذى ينعكس بدوره على الموقع الذى ينتمى إليه.

وهكذا نرى العلاقة التبادلية بين عالم النشر الإلكترونى وعالم النشر الورقى، فأهلا بالكتاب وفى الوقت ذاته مرحى لمن يولد على الورق. ومؤخرا حرصت عدة مواقع على إقامة ملتقيات ثقافية كما تحرص بعضها على أن تكون لها إصداراتها الخاصة، فتقوم بعمل المسابقات فى الشعر أو فى القصة وتكون

الجائزة هى النشر أو على أقل تقدير المساهمة فى النشر.

كما يقاس نجاح الكاتب وتألقه فى بعض الأحيان بالحرص على ضمه إلى بعض المواقع الأدبية، وكذلك الحرص على نشر أعماله فى مواقع الكتب الإلكترونية، وكثيرا ما يكون له موقعه الخاص وأحيانا يكتفى بمدونة تقربه من جمهوره وتحجز له مكانا فى ذلك الفضاء.

مكتبات فضائية

مما يثرى المواقع ويحسب لها حرصها على تكوين مكتبتها الشاملة وأحيانا المتخصصة التى تمكنك من تحميل ما شئت من الكتب أو الاطلاع عليها، وحبذا لو كان واحدا من الكتب المحظورة أو تلك التى أثير حولها الجدل مثل «أولاد حارتنا» التى كادت تتسبب يوما ما فى قتل صاحبها الأديب الكبير نجيب محفوظ، ومثل شفرة دافنشى لدان براون وأعمال نجيب سرور وأحمد مطر وغيرها الكثير.

ولكن الخوف الأكبر إزاء هذه المواقع ومكتباتها يتمثل فى عنصر الدقة والمصداقية، إذ يظل الورق أعلى مصداقية من ذلك الفضاء المفتوح والذى لا تدرى أية يد عابثة قد تمتد بالتزوير أو التحريف نحو المعلومة التى تنشدها. فكما تتميز بسهولة الوصول للمعلومة يعيبها سهولة العبث بها لغرض خبيث أو توضع ابتداء مشوهة لافتقارها للدقة والجدية، ومع الأسف رأيت خلطا بينا بين الشيخ محمد شاكر الأب وولديه محمود وأحمد شاكر فى أحد أهم المواقع المتخصصة والتى تصف نفسها بالإسلامية، مما يؤكد المعنى الذى أقصده، وهو عنصر التوثيق والمصداقية.

ويبقى التعبير عن الذات هو العنصر المشترك فى عالم الكتابة، فمنذ أن بدأ الإنسان فى نقش الحجر وانتهى بالكتابة عبر الأثير، يظل الدافع للكتابة واحدا وهو القول بالوجود والسعى نحو الخلود. فأن تكتب فهذا معناه أنك باق ولو إلى حين ولكنك باق.

غير أن الجمهور يختلف، لا من حيث الذائقة فحسب، ولكن من حيث التلقى والتفاعل مع ما تكتبه. وسبق أن أشرنا لردود الأفعال والمجاملات ولانتشار المهاويس والسفهاء. فالفرق بين الكتابة على الهواء والكتابة فى إصدار ورقى، أشبه ما يكون بالفرق بين العرض المسرحى والعرض السينمائى، فقد ينجح الفيلم أو يسقط وقد يتناوله النقاد بالثناء أو الهجوم دونما أذى مباشر يصيب القائمين على الفيلم.

أما فى العرض المسرحى فقد ينجح ليلة ويسقط فى ليلة أخرى، لا لخطأ من الممثلين ولكن من الجائز أن يسقط إما لغياب الجمهور، أو لوجود مشاهد مشاغب أو محرض ضد الممثل فتكون النتيجة قذفه بالبيض والطماطم، وذلك لا يدل على مستوى العرض، بل على نوع التفاعل بين الممثل والجمهور، وكذا هو الحال بالنسبة للكتابة على الهواء. فكم من المبدعين انسحبوا من بعض المواقع إثر تطاولات من سفهاء عليهم، فى حين أن الكاتب فى عالم الورق قد تصله خطابات مهينة وقد تصل إلى حد التهديد أحيانا، ولكن تبقى كرامته محفوظة إلى حد ما لأن الإهانة لم تكن على الملأ.

فلا عجب إذن أن بعض الكتاب ينظرون إلى المشاركة فى المنتديات الثقافية نظرة فوقية، ويعتبرون المشاركة فيها انتقاصا من مكانة الكاتب وأنه بذلك يسلك مسالك الهواة المبتدئين والباحثين عن منبر يحمل كلماتهم إلى الناس باستثناء أصحاب المواقع الشخصية والتى يعتبرونها تتمة لنجاحهم ككتاب مرموقين.

الفارق الأخير

وأخيرا عزيزى القارئ يبقى فارق واحد بين الكتابتين، ألا وهو حجم المكتوب، حيث يفضل ألا تزيد الموضوعات فى عالم المنتديات على ثلاثمائة كلمة كى لا يمل المتصفح، فى حين قد تزيد بعض المقالات فى الصحف والمجلات على الثلاثة آلاف كلمة، وهو أمر شديد العسر على متصفح الإنترنت فى كثير من الأحيان اللهم إلا فى بعض الحالات الاستثنائية وفى المواقع المتخصصة وشبه المتخصصة.

تلك كانت خلاصة تجربتى فى عالم الكتابة على الهواء، أطرحها بين يديك على صفحات من الورق ومعها رسالة تحذير للمثقفين والكتاب:

أن انتبهوا فالمشهد الثقافى لم يعد خالصا لكم وحدكم، فهناك كيانات فضائية تقوم بغزو عقول أبنائنا وتؤثر فيها فى كل لحظة، فانتبهوا ولا تنأوا بأنفسكم عن ذلك الميدان. ■

كتاب الزاوية



فى نصائح أنوشيروان لابنه

كتاب النصيحة

قال أولاً: مادام الليل والنهار يتعاقبان فلا تعجب من تقلب الأمور.

وقال أيضًا: لماذا يندم الناس على عمل قد ندم عليه الغير؟

وقال أيضًا: كيف ينام آمنًا من له معرفة بالملوك؟

وقال أيضًا: كيف يعد نفسه حيًا من لم تكن حياته على مراده؟

وقال أيضًا: لم لا تدعوه عدوًا من يرى شهامته فى أذى الناس؟

وقال أيضًا: لا ينبغى أن تدعو عدو محبك صديقًا.

وقال أيضًا: لا تصادق الجهلاء فإن الجهلاء لا يستأهلون الحب ولا البغض.

وقال أيضًا: اجتنب من يرى نفسه عالمًا وهو جاهل.

وقال أيضًا: أنصف من نفسك لتستغنى عن الحكم.

وقال أيضًا: قل الحق وإن يكن مُرًا، وإذا أردت ألا يعرف العدو سرك فلا تفشه لصديقك.

وقال أيضًا: كل عظيم يتخيل نفسه صغيرًا يكون عظيم الزمان.

وقال أيضًا: لا تعد الخاملين أحياء.

وقال أيضًا: إذا أردت أن تكون غنيًا بلا تعب فكن مرضى العمل.

وقال أيضًا: لا تشتر جزافًا كيلا تضطر إلى البيع جزافًا.

وقال أيضًا: الموت جوعًا خير من الشبع بخبز اللئام.

وقال أيضًا: لا تثق بأى حال بغير أهل الثقة ولا تنزع الثقة من أهل الثقة.

عبد الرءوف الريدى



حرب شارل ولسون!

.. ولكن من هو «شارل ولسون» الذى اخترق عالم الكتب فصدر كتاب يسجل قصة حياته بعنوان «حرب شارل ولسون» ثم اخترق عالم السينما بفيلم نال جوائز أوسكار.. هو ذلك العود الممشوق القادم من غرب تكساس والذى كان يمكن أن يكون لأحد رعاة البقر الذين نراهم فى السينما الأمريكية لولا أنه ضل طريقه فأصبح عضواً بالكونجرس أو بالأحرى نائباً ديمقراطياً عن إحدى دوائر غرب تكساس. لم أره إلا مرتدياً هذا الحذاء التكسانى الطويل الذى يطوق الساق ويصل إلى أسفل الركبة أى «البوت»... هو ذلك النائب الذى يعيش حياة تجمع بين الجد واللهو فى كل ما يفعل... هو عضو تلك اللجنة الفرعية المهمة والمختصة باعتمادات القوات المسلحة بمجلس النواب الأمريكى وبالتالى تختص بتقرير المعونة العسكرية المقررة لمصر والتى تبلغ مليارًا وثلاثمائة مليون دولار سنويًا، وهو الذى ما خطر على بالى فى أى يوم أن حياته يمكن أن تكون موضوعاً لكتاب ناهيك عن أن تكون موضوعاً لفيلم سينمائى... هو صاحب ذلك الصوت الأجش والذى لا يخلو حديثه من استعمال الكلمات الفاضحة التى يستخدمها الساسة الأمريكان طوال الوقت أثناء أحاديثهم الخاصة والتى لا يصح ترجمتها، هو ذلك الحيوان السياسى الذى يعرف توازنات القوى المؤثرة فى داخل مصنع السياسة الأمريكية.. أى فى الكونجرس الأمريكى بمجلسيه ويعرف كيف يعقد الصفقات لتمرير ما يريد تمريره من اعتمادات للقوات المسلحة فى أمريكا والعالم.

هو شارل ولسون الذى أصبحت سيرته الآن على كل لسان بعد صدور فيلم «حرب شارل ولسون» المبنى على كتاب حمل نفس العنوان للكاتب الأمريكى جورج كريل.. وسجل فيه قصة تشارلى وكيف استطاع أن يمرر فى الكونجرس الاعتمادات السخية لتمويل الحرب الجهادية ضد السوفييت فى أفغانستان طوال عقد ثمانينيات القرن الماضى.

كان من أول من عرفنى به فى بداية عملى فى واشنطن هو المشير أبوغزالة وزير الدفاع المصرى الأسبق الذى كان يعمل دائماً على توثيق صلاته بأعضاء الكونجرس الذين لهم دور فى تقرير اعتمادات المعونة العسكرية، وكان تشارلى من أهمهم، ثم توثقت صلتى به طوال الأعوام الثمانية التى قضيتها فى هذه المدينة التى لا تهدأ، والتى كان أهم مكان أقصده فيها هو مبانى الكونجرس العديدة التى يربط بينها قطار خاص والقائمة على تل يطل على العاصمة الأمريكية.

لم تكن السكرتيرات الجميلات أول ما لفت نظرى عندما زرت «تشارلى» أول مرة فى مكتبه.. كان أهم ما لفت نظرى هو تلك البندقية المعلقة على مدخل الغرفة التى يشغلها فى مكتبه الشاسع والتى كانت السلاح الشائع للمجاهدين الأفغان فى حربهم ضد القوة الأعظم الثانية أى الاتحاد السوفيتى، وعلى الحائط ترى صورة كبيرة لتشارلى وسط مجموعة من المجاهدين الأفغان مرتدياً الزى الأفغانى التقليدى والطاقية الأفغانية الشهيرة التى تشبه رغيف الخبز المصرى المستدير، و هو زى تعرفت عليه قبل مجيئى



لواشنطن عندما عملت لمدة عام (١٩٧٩ - ١٩٨٠) سفيراً لمصر فى هذه البلاد التى أحببتها كما أحببت أهلها أى فى باكستان وعاصمتها إسلام أباد. كانت إسلام أباد فى هذه الأيام مدينة حالمة بموقعها الفريد أسفل جبال هندوكوش المكتسية بالجليد فى الشتاء، والمطلة فى الجانب الآخر على وديان كشمير التى يعتبرونها جنة الله فى الأرض.. والقريبة من هذا الشريط الممتد لأكثر من ألفى كيلو متر بين باكستان وأفغانستان وتسكنه قبائل الباشتون التى يختبئ فيها الآن.. أو هكذا يقولون.. أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى وغيرهما من «رهط» الأفغان العرب الممتزج بمقاتلى طالبان وغيرهم من رجال المقاومة الأفغان الأشداء، الذين يثبتون مرة أخرى كيف أن أفغانستان عصية على كل الغزاة؛ هزموا إنجلترا، عندما كانت إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس فى القرن التاسع عشر كما هزموا الجيش الأحمر، جيش الاتحاد السوفيتى القوة الأعظم الثانية فى النصف الثانى من القرن العشرين.. وها هم يتصدون الآن للقوة الأعظم فى العالم ومعها حلف شمال الأطلنطى.

فى هذا العام الذى قضيته فى باكستان بدأ عقد الثمانينيات الذى شهد حربين متوازيتين حرب السوفييت فى أفغانستان والحرب العراقية الإيرانية.. فانتهت الأولى بهزيمة السوفييت، بل وباختفاء الاتحاد السوفيتى من الوجود.. وانتهت الثانية بلا غالب أو مغلوب.. ثم عادت الحرب إلى المنطقة مرة أخرى بعد قرار صدام غزو الكويت عام ١٩٩٠ وما أعقب ذلك من حرب الخليج الثانية، ثم مرة ثالثة بحرب جورج بوش الابن ضد العراق وفى كلا الموقعين، سواء فى أفغانستان أو فى العراق توجد الآن قوات أمريكية موروطة، أو متورطة.

لم يكن قد مرت سوى أيام على وصولى إلى إسلام أباد فى يونيو ٧٩ أى قبيل بدء موسم الأمطار الموسمية التى تنهمر على هذه المدينة الغنية بحدائقها.. حتى جاءنى حارس السفارة ليقول لى إن هناك رجلاً يقف على باب السفارة ويلبس لباساً أفغانياً ويقول إنه درس فى الأزهر الشريف ويريد أن يقابلنى.

ولأننى كنت أرغب فى أن أتعرف. وأنا سفير جديد لا يعرف المنطقة. على أحوال أفغانستان بسبب ما جرى فيها من انقلابات جاءت بالحكم الشيوعى هناك قبل عامين أو ثلاثة، فقد وافقت على استقبال الرجل البسيط ذى الجسم النحيل والوجه الهادئ والذى قال لى إن اسمه هو «برهان الدين ربانى» وأخذ يتحدث معى بلغة عربية رصينة عن أحوال أفغانستان، وما يفعله بها حكم الشيوعيين بمساعدة الخبراء السوفييت المنتشرين فى أجهزة الدولة.. وأخذ يحدثنى عن أهمية أن تقوم مصر بمساعدة «جمعية إسلامى» التى أسسها لمقاومة الشيوعيين «الملحدين». كان هذا اللقاء هو بداية الخيط الذى أخذ يشدنى إلى أفغانستان ومازال يشدنى إليها حتى الآن، فأتابع أحوالها أو قل أتابع مأساتها التى بدأت مع الانقلاب الشيوعى ثم الغزو السوفيتى.. ثم الحرب الأمريكية التى جاءت فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

لم تمر سوى شهور على هذا اللقاء

بدخول قوات الجيش الأحمر بدأ دخول الاتحاد السوفيتي إلى المستنقع الأفغاني والذي انتهى بهزيمة السوفييت، بل وبتفكيك الاتحاد السوفيتي ذاته واختفائه من الوجود



حتى كنت وأسرتي نقضي إجازة آخر العام في ديسمبر ٧٩ في العاصمة الهندية بنيودلهي وسط أجواء الانتخابات هناك، والتي أتت بأنديرا غاندي وحزب المؤتمر الذي ترأسه إلى الحكم، حتى جاءت الأنباء بأن الاتحاد السوفيتي قد دخل بقضه وقضيضه إلى أفغانستان؛ وبدخول قوات الجيش الأحمر بدأ دخول الاتحاد السوفيتي إلى المستنقع الأفغاني والذي انتهى بهزيمة السوفييت، بل وبتفكيك الاتحاد السوفيتي ذاته واختفائه من الوجود.

دارت عجلة الأحداث تباعاً وبسرعة رهيبة.. قرر الرئيس الأمريكي كارتر الوقوف بحزم ضد الاحتلال السوفيتي لأفغانستان.. وجاء مستشاره للأمن القومي زبيجوبرجنسكي إلى باكستان وقابل الرئيس ضياء الحق الذي رأى فرصته في إقامة علاقة استراتيجية جديدة مع الولايات المتحدة وفي القيام بدور «إسلامي» كبير يسجله له التاريخ.. وقف برجنسكي على الجانب الباكستاني من ممر خيبر حاملاً بندقيته الكلاشنكوف، مشيراً بها في اتجاه الجانب الأفغاني من الممر ومطلقاً عبارته الشهيرة إلى الشعب الأفغاني «هذا هو طريقكم لتحرير بلادكم»، وهو ما كان بالفعل، فانطلقت الصيحات «حي على الجهاد» من أعلى مئات آلاف المآذن في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه وجاء المجاهدون من كل مكان بما فيهم المجاهدون العرب الذين عرفوا بعد ذلك باسم «الأفغان العرب».

جاء «أسامة» هذا الشاب المنتمي لعائلة بن لادن. العائلة السعودية الثرية المعروفة - وجاء هذا الطبيب المصري المتحمس «أيمن الظواهري».. وذلك الداعية الكبير من الأردن «عزام» وغيرهم وتساقط على مدينة بشاور في محافظة الحدود الشمالية الغربية آلاف المتطوعين من كافة بلدان العالم الإسلامي، وهناك تم تدريبهم وتسليحهم وتنظيمهم.. بالتنسيق بين أجهزة المخابرات الأمريكية والمخابرات الحربية الباكستانية والسعودية وتم تنظيم وتدريب وتسليح وتمويل أكبر مقاومة في التاريخ تداخل فيها حماس الشباب المسلم واستعداده للموت استشهاداً في مقاومة الغزاة الملحدين المعتدين على حرمة الأرض الإسلامية.. مع دور أجهزة المخابرات العالمية والإقليمية والتعاطف الدولي ضد الغزو السوفيتي الغاشم.. وتم تسليح المقاومين الأفغان وأنصارهم من كافة أنحاء العالم الإسلامي بأحدث وأفتك الأسلحة التي تم استخدامها في عملية الجهاد الأكبر.

وفي هذه العملية الكبرى كان هناك دور مهم لشارل ولسون، فهو الذي يتولى تمرير الاعتمادات المطلوبة من الكونجرس ويثور السؤال ابتداء ما الذي جعل تشارلي ينغمس بدوره في هذه الحرب.. هل كان ذلك حقاً بسبب ما زعمه الفيلم عن تلك المرأة الجميلة التي كانت تعتبر مقاومة «إمبراطورية الشر» أي الاتحاد السوفيتي كما كان يلقبه الرئيس ريجان وصحبه آنذاك؟ تعتبره عملاً مقدساً الأغلب أن دور هذه المرأة كان دوراً هامشياً ولكنه أعطى الفيلم - كالعادة - المسحة الرومانسية المطلوبة. أما دور تشارلي فقد كان في الواقع تعبيراً عن النظرة الاستراتيجية التي نظرت بها الولايات المتحدة آنذاك إلى الدخول السوفيتي إلى أفغانستان.. كانت وثبة الدب الروسي إلى أفغانستان ينظر إليها على أنها يمكن أن تتلوها وثبة أخرى إلى بالوشستان في باكستان مما يضع الاتحاد السوفيتي في بحر العرب بالقرب من منطقة الخليج الاستراتيجية بما تحتويه من آبار النفط، فضلاً عن موقعها الاستراتيجي في الصراع بين القوتين الأعظم آنذاك.



كانت هناك أيضاً الرغبة في الانتقام من الاتحاد السوفيتي لدوره في فيتنام التي كانت المستنقع الذي غرقت فيه الولايات المتحدة في حقبة الستينيات، فالآن قد لاحت الفرصة لخلق مستنقع مقابل في أفغانستان يغرق فيه الاتحاد السوفيتي.

جئت إلى واشنطن في نوفمبر ٨٤ بينما كانت معارك الجهاد في أفغانستان على أشدها.. وفي هذه الأيام.. كان المجاهدون الأفغان يستقبلون في الكونجرس كأبطال وكان شارلي هو الذي ينظم لهم هذه اللقاءات فهو رجلهم في هذه المؤسسة وكان قادة المجاهدين يستقبلون في البيت الأبيض بواسطة الرئيس ريجان ويوصفون بأنهم «المحاربون من أجل الحرية «Freedom fighters» وفي عام ٨٧ أو ٨٨ لا أذكر جاء رئيس وزراء أفغانستان المحررة «برهان الدين رباني» وذكر لمستضيفيه أنه يريد أن يزور السفير المصري في واشنطن والذي كان قد تعرف عليه عندما كان يعمل سفيراً لمصر في إسلام أباد.. واستقبلت الرئيس «رباني» في مكتبي بميدان شيريدان وسط شارع ماساتشوتس.. وكان سلامنا بالأحضان. وتذاكرنا كم يختلف هذا اللقاء عن لقائنا الأول في سفارة مصر في إسلام أباد قبل عشرة أعوام.

دارت عجلة الأحداث وما لبث حائط برلين أن سقط وخرج الجيش الأحمر من أفغانستان بعد أن فقد حوالي ثلاثين ألفاً من جنوده، وكان مستنقع أفغانستان عاملاً رئيسياً في انهيار الاتحاد السوفيتي، وبانهياره بدأت الولايات المتحدة تفقد الاهتمام بأفغانستان، وأذكر أنني كنت أتحدث مع بعض المسئولين في الخارجية الأمريكية في هذه الأيام وحذرتهم من خطورة ترك الأمور في أفغانستان تتدهور بحيث تصبح أفغانستان دولة فاشلة يتحكم فيها أمراء الحرب وزراع الأفيون، إلا أن محدثتي الأمريكية المسئولة عن الشأن الأفغاني في الخارجية الأمريكية آنذاك هزت كتفيها قائلة: «ماذا يمكن لنا أن نفعل؟ إنهم يقتلون بعضهم بعضاً، وهكذا تركت أفغانستان لشأنها للصراع بين المجموعات المختلفة.

أما في لانجلي حيث يوجد مبنى وكالة المخابرات المركزية، فقد جرى حفل تكريم هو الأول من نوعه، حيث تم تكريم شارل ولسون لدوره الحاسم في تحقيق النصر وهزيمة السوفيتي.. وكان مشهد التكريم هو المشهد الأول في كتاب «حرب شارل ولسون» لجورج كريل.

أما الأفغان العرب والمجاهدون فقد غادروا أفغانستان وهم يتحرقون شوقاً إلى جهاد آخر، ثم ما لبث أن شكل بعضهم تنظيم القاعدة.. كان ذلك في السنوات الأخيرة من القرن السابق. بينما تحولت الحرب في أفغانستان إلى حرب بين الفصائل الأفغانية ذاتها.

كان هناك التحالف الشمالي بقيادة برهان الدين رباني ومعه القائد الأسطوري أحمد شاه مسعود المسيطر على وادي بنشير والذي دوخ السوفييت في حقبة الجهاد.. فلقب بأسد بنشير. وقد استطاع التحالف الشمالي أن يحتل العاصمة كابل، ولكنه لم يكن على علاقات وئام مع الجارة الكبرى باكستان، التي احتضنت تنظيماً آخر هو تنظيم طالبان، أي مجموعة الطلبة الذين خرجوا من قندهار جنوب أفغانستان، ثم سرعان ما سيطروا على أغلب أفغانستان بمساعدة المخابرات الباكستانية وأقاموا حكم طالبان الأصولي بقيادة الملا عمر في كابل، بينما تراجع التحالف الشمالي بقيادة رباني مسعود إلى المنطقة الطاجكية في شمال أفغانستان.

وأصبح حكم طالبان حكماً أصولياً متشدداً فمنعوا سفور النساء ومنعوا الموسيقى وهدموا تماثيل بوذا المشهورة في باميان، ثم استضافوا تنظيم القاعدة بقيادة بن لادن، ودبروا حادث اغتيال القائد الأفغاني أحمد شاه مسعود. تمهيداً - حسبما هو متصور. للحدث الأكبر الذي استهل به القرن الحادي والعشرون في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، واستمرت عجلة الأحداث في الدوران.. جورج بوش الابن يعلن الحرب العالمية ضد الإرهاب وغزو أفغانستان، هذه المرة بقوات أمريكية متحالفة مع قوات حلف الناتو ثم حرب العراق وكيف لفقت الأسباب والذرائع والتقارير الرسمية وخطاب كولن باول الشهير أمام مجلس الأمن عام ٢٠٠٣ والذي كان قمة التلفيق وها نحن نعيش المأساة.. ولكن لابد أن يكون لهوليوود نصيب فيأتي فيلم «حرب شارل ولسون» ليخطف جوائز الأوسكار ويصبح قصة على كل لسان، قصة هذا النائب الأمريكي الماجن الذي وضعته الأقدار في أعوام الثمانينيات من القرن الماضي ليكون ترساً في آلة كبيرة لتمويل الحرب ضد السوفييت في أفغانستان.

لم أر شارل ولسون منذ تركت واشنطن عام ١٩٩٢ ولكن السفير الصديق حاتم سيف النصر والمعين سفيراً لمصر في لندن والذي طالما زاملني في سفارة واشنطن هذه الأيام وهو في بدايات رحلته في الخارجية ونحن نقطع الدهاليز الطويلة في مباني الكونجرس العتيدة، لزيارة أعضاء مجلس النواب ومن بينهم بطبيعة الحال شارل ولسون أخبرني أنه رآه على شاشة التليفزيون في لقطة تم تصويرها قبل إنتاج الفيلم قائلاً: «اذكروا كل شيء ولا تخفوا شيئاً عما فعلته من لهو ومجون.. فأنتم مهما قلتم فإنه سيكون أقل من الواقع، لكن اذكروا أيضاً قصة أفغانستان»، وهو ما كان.. فجاء فيلم «حرب شارل ولسون» ليحكي الحكاية من جانبيها، جانب الجد في حرب أفغانستان، وجانب اللهو في حياة تشارلي.

الشيء المؤكد هو أنني ما كنت أبداً أتصور أن شارل ولسون يمكن أن يكون نجماً تكتب عنه الكتب وتنتج عنه الأفلام وتصير قصته على كل لسان أو أنني يمكن أن أكتب عنه مقالاً بعد الأحداث بعشرين عاماً.. ولكنها قوة هذه الآلة الرهيبة التي تشكل العقول والقلوب معاً.. قوة الميديا.. المتحالفة مع قوة هوليوود.. قوة الأضواء وصناعة النجوم.

أما أفغانستان فهي الآن مسرح لحرب جديدة وممتدة.. ويبقى السؤال: من يكتب قصة هذا الشعب الباسل؟.. الذي حارب قوة عظمى فهزمها.. وها هو اليوم يحارب القوة العظمى الأخرى.

ابحثوا معي عمن يكتب قصة هذا الشعب البطل.. الشعب الذي طالما كان الضحية على مائدة اللئام وساحات الحرب بين القوى الكبرى.

فهل سيكون هناك من يكتبها؟ فهي القصة التي تستحق أن تروى وأن تصير على كل لسان. ■

أكيللى لاورو ريجان أبو العباس

عندما قالت إيطاليا



■■ بالنسبة إلينا نحن من كنا الأكثر تورطا فى الأمر بصورة مباشرة، حتى وإن اختلف مستوى المسئولية فى أحداث واقعة أكيللى لاورو (وكنا قلائل)، كانت عطلة نهاية الأسبوع تلك جلية البيان. كان يوم السبت ١٢ أكتوبر ليس فقط الأشد وطأة منذ بداية اختطاف السفينة، بل أيضا أخطر ما واجهته السياسة الخارجية الإيطالية. فأمور كثيرة كانت ستترتب على القرار الذى ستتخذه الحكومة الإيطالية عما إذا كانت ستطلق سراح أبو العباس من عدمه.

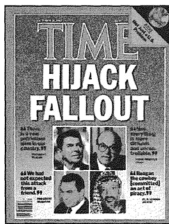
أيا ما كان ستسير نحوه الأمور، كان واضحا أننا بنهاية اليوم كنا سنكون خسرنا شيئا ما، بما فى ذلك من عواقب يصعب تقديرها فى ذلك الحين، والثقة فى إحدى الدولتين - الولايات المتحدة ومصر - واللتين اشتركتا مع إيطاليا بطريقة لا غبار عليها فى إدارة أزمة فى غاية السوء.

هاتفت كراكسى فى الساعة التاسعة والنصف صباحا لإبلاغه أنه خلال وقت يسير كان سيأتى لدى السفير راب ليقدم لى مذكرة لتسليم الأربعة الخاطفين الذين قبضت عليهم السلطات الإيطالية فى اليوم السابق بسيجونيللا وللقبض على أبو العباس. كما أخطرته بأن راب كان قد وضع بالفعل المستند بين يدى بودا مدير مكتب وزير العدل فى الخامسة صباحا. فقال لى أن أطلب من نائب الوزير أماتو أن يستدعى بصورة عاجلة لمقر رئاسة الوزراء رجال القضاء المكلفين بدراسة المذكرة، كما سألنى إبلاغ الأمين العام لوزارة الخارجية الإيطالية رودجيرو كى يستعد لمقابلة السفير راب خلال النهار.

وصل راب إلى مقر رئاسة الوزراء (قصر كيدجى) فى تمام الساعة التاسعة صباحا يرافقه جون هولم الوزير المستشار بالسفارة. وبوجه قلق وبلا مقدمات قال لى إن واشنطن تعتبر أن المستندات هى أكثر من دليل كاف، إلا أنها كانت على أية حال مستعدة عند الضرورة لتقديم معلومات جديدة حول مسئولية أبو العباس. وعندما رأيت كراكسى لأسرد عليه الحديث الذى تم، كان لدى تصور واضح أنه لن يحبذ إطالة وقت اتخاذ القرار. لذا فالالتزام الإيطالى بدراسة الأمر كان يتعين أن يقتصر على المستندات التى تم تقديمها صباحا.

وبدأنا من منطلق الالتزام الذى أخذه على عاتقه كراكسى عندما تحدث هاتفيا مع ريجان ليلة الخميس ١٠ أكتوبر، وهو الالتزام الذى حدده لنا يوم الجمعة وكان قد أبلغنى به فى تلك الليلة ذاتها. لقد وعد كراكسى رئيس البيت الأبيض أنه سيؤمن تسليم الأربعة الخاطفين للعدالة وسيقدم معلومات لتوضيح موقف أبو العباس.

وبالنسبة للأربعة خاطفين، يمكن الإشارة للخطاب الذى قام كراكسى - بمجرد أن أخطره القبطان دى روزا بمقتل كلينجهوفر أى فى الساعة السادسة إلا ربعاً مساء الخميس ١٠ أكتوبر. بإعطائى توجيهات بإرساله على الفور للرئيس المصرى حسنى مبارك لطلب تسليم المسئولين عن الاختطاف ومدبريه. وفى الخطاب الذى وقعه على الفور تم التذكير بأن استعداد إيطاليا لتسليم الخاطفين وديا مشروط بعدم إسالة الدماء على ظهر السفينة. فقد كان كراكسى منتبها إلى ألا يتناقض مع نفسه وعلى أن يحافظ تحت أى ظرف على أى التزام أخذه على عاتقه. وإلى يومنا هذا وعقب ما يربو على ٢٠ عاما مرت على



«التايم» ٢٨ اكتوبر ١٩٨٥

فى ٧ أكتوبر ١٩٨٥، قام ٤ فلسطينيين ينتمون إلى جبهة التحرير الفلسطينية التى يتزعمها محمد عباس «أبو العباس» باختطاف سفينة سياحية إيطالية تدعى أكيللى لاورو فى المياه الإقليمية المصرية. وكان على متن السفينة حوالى ١٠٠ شخص معظمهم من كبار السن. وطالب الخاطفون بالإفراج عن ٥٠ معتقلاً فلسطينيًا فى السجون الإسرائيلية مقابل إطلاق سراح الركاب. ولإثبات تصميمهم على تنفيذ مطالبهم أطلقوا النار على راكب أمريكى الجنسية يدعى ليون كلينجهوفر - ٦٩ عامًا - وكان قعيدًا فأردوه قتيلاً.

وبذلت الحكومة المصرية جهودها لإنهاء الأزمة وإقناع الخاطفين بإطلاق سراح الركاب الذين طلبوا طائرة مصرية لنقلهم إلى تونس، إلا أن طائرات عسكرية أمريكية حولت مسار الطائرة المصرية وعلى متنها الخاطفون من تونس إلى إيطاليا.

وقد وقعت أزمة دبلوماسية بين إيطاليا والولايات المتحدة، حيث أصرت إدارة الرئيس الأمريكى رونالد ريجان على تسلم الخاطفين ومحاكمتهم على أساس أنهم قتلوا أمريكيًا، إلا أن السلطات الإيطالية فى عهد رئيس الوزراء الأسبق برونو كراكسى رفضت ذلك وأجرت محاكمة للخاطفين. وقد أدين ١١ من بين ١٥ كانت لهم علاقة بالحادث وحوكم أبوالعباس غيابيًا بعد أن كان قد خرج من إيطاليا إلى يوجوسلافيا، ورغم أنه قد صدر ضده حكم بالسجن مدى الحياة ٥ مرات فى إيطاليا، إلا أن أبوالعباس ظل طليقًا وعاد إلى غزة عام ١٩٩٦ بعد توقيع اتفاق أوسلو ثم انتقل إلى العراق، حيث ترددت أنباء عنه أنه كان قناة اتصال بين الرئيس العراقى الراحل صدام حسين وفصائل فلسطينية، وقد اعتقلته القوات الأمريكية فى ١٥ أبريل ٢٠٠٣ بعد الغزو وأودعته السجن، حيث مات فى ٩ مارس ٢٠٠٤ عن ٥٦ عامًا.

وقد كتب السفير أنطونيو بادينى سفير إيطاليا السابق لدى مصر والذى كان يعمل مستشارًا سياسيًا لكراكسى أثناء الحادثة لـ «وجهات نظر» يستعيد تفاصيل ما جرى والملابسات التى أحاطت بالقضية وتفاعلاتها على الصعيد المحلى الإيطالى والعربى والأمريكى.

أنطونيو باديني

الواقعة، تبدو لى تصرفات كراكسى صريحة وتتصف بالمساواة والاحترام والنية الحسنة.

ولم يكن كراكسى التزم بأى شىء مع ريجان بشأن تسليم الأربعة فلسطينيين المتهمين باختطاف السفينة وبارتكاب أعمال عنف على ظهرها. فقد كان يعتبر الأمر شأنا يحكمه القانون المحلى حيث إن الجرائم تم ارتكابها على متن سفينة إيطالية. لذا كان يتعين إخضاعهم للقضاء الوطنى. وهو الرأى الذى أكد على صحته أولا رجال القضاء المجتمعون بقصر كيدجى ذلك الصباح، والذين لم يجدوا المعلومات المبررة لطلب التسليم كافية، ثم أكدته فيما بعد محكمة استئناف جنوه.

إلا أن موقف أبو العباس والفلسطينى الآخر المسافر إلى جواره - والذى اتضح فيما بعد أنه عز الدين بدرخان قائد التشكيلات العسكرية لجبهة التحرير الفلسطينية الذى كان أبو العباس أمينها العام - كان مختلفا. وبعث بى كراكسى لسيجونيلا حتى أحصل على المعلومات اللازمة كى تتخذ الحكومة قرارها كما وعد ريجان.

وقبل أن أرويه عليه، كنت قد سردت موجزا للحديث الذى دار بينى وبين أبو العباس بعد ظهر الجمعة ١١ أكتوبر على متن البوينج ٧٣٧ على مساعد النائب العام بسيراكوزا دولتشينو فافى. والذى قال لى أنه تم الكشف عن هوية الشباب الخاطفين، وأنه لم تتوفر معلومات للتحفظ على أبو العباس وبدرخان بسيجونيللا. وهكذا استطعت أن أطلب من الأدميرال مارتينى الذى اصطحبنى لسيجونيللا تنفيذ تعليمات رئيس الوزراء، والذى طلب عبر رودجيرو نقل الطائرة المصرية وطاقمها لمطار تشامبينو.

ولم يكن هذا النقل يسيرا على الإطلاق. فقد قامت أولا طائرة سى ١٣٠ بإغلاق ممر الطيران قبل أن تعترض طائرة إف ١٦ مسار البوينج ٧٣٧ . وفى تشامبينو شعرنا بأننا مراقبون ومحاصرون. وعندئذ قررنا أن نتلاعب بهم.

تظاهرنا بتجهيز موكب لنقل «الضيفين» إلى المدينة. وجعلنا أبو العباس المزيف يهبط من الطائرة محاطا بحراسة من الكارابينييرى (أفراد الشرطة العسكرية) الذين يحمونه. وغادرنا بأقصى سرعة مع موكب السيارات الطويل، وتوقفنا بالأكاديمية المصرية بروما حيث أنزلنا أربعة أشخاص رءوسهم مغطاة، ثم توقفنا عند مقر إقامة السفير المصرى بفيللا سافويا حيث نزل أشخاص آخرون لا تظهر وجوههم.



التحقيق الذى أجرته محكمة جنوه أظهر خطأ من كان يدعى أن اختطاف السفينة أكيللى لاورو تم التخطيط له بموافقة عرفات



وطوال يوم السبت ١٢ أكتوبر تم البحث فى هذين المكانين عن أبو العباس الذى ظل طوال فترة توقفنا بروما على متن الطائرة البوينج ٧٣٧ .

وعقب استماعه لى، سمح لى بالانصراف قائلا لى أنه يتعين التعجيل بالوصول إلى قرار قبل نهاية يوم السبت. كان يقلقه الموقف فى مصر عبر الرسائل المتكررة التى كان يسلمها لنا السفير يحيى رفعت، وكذلك التوترات الدائرة داخل منظمة التحرير الفلسطينية وما يشهد على هذا كان نمر حماد. وفى الواقع قام كراكسى بنفسه فى صباح اليوم التالى باختصار الوقت، عندما أبلغته بخطوة راب.

تم تحديد لقاء راب فى الثانية عشرة ظهرا. وقام الأمين العام لوزارة الخارجية الإيطالية بإبلاغ السفير الأمريكى بنتيجة ما توصل إليه رجال القضاء والذين قدموا لكراكسى بعد الحادية عشرة صباحا بقليل تقريرهم المكتوب. وهم لم يجدوا أية معلومات تبرر التسليم، ولا أى شىء له قيمة كى يتم تقرير وضع أبو العباس تحت الإقامة الجبرية. فمجرد احتجاز «الشخصية الخطيرة» كضيف كان أمرا فى يد الحكومة نظرا لاعتبارات سياسية وأخرى متعلقة بالنظام العام.

وحتى فى فيومتشينو تسبب نقل الفلسطينيين الاثنين الذى تم مباشرة من ممر الهبوط فى حدوث تأخير، بينما الركاب كان بعضهم مضطربا والبعض الآخر مشدوها من الخوف.

وقام رئيس مباحث روما موناركا بأفعال غير عادية فى تلك الظروف. فقد جعل العديد من أفراد الأمن يصعدون على متن الطائرة ويتحركون سريعا بطريقة متزامنة. ومن جانبه جعلنى نائب مدير المطار أتحدث مع قائد طائرة الخطوط الجوية اليوغوسلافية الذى كان قد فقد أعصابه. ألقيت عليه التحية بصوت هادئ باللغة الصربية الكرواتية (فقد عملت بالسفارة الإيطالية ببلجراد لمدة عامين) ثم قلت له بالإنجليزية أن هناك عملية سرية سيحدثه عنها فى اليوم التالى سفير يوغوسلافيا، والذى كان يجهل أى شىء عن الموضوع. وذهبت إليه بنفسى فى اليوم التالى لأحمل له اعتذار حكومتى. كان الاتصال مع الخطوط الجوية اليوغوسلافية ببلجراد يتم عن طريق شبكة الفلسطينيين الذين كانوا يطلعوننى باستمرار على التطورات عن طريق الأفلاك مساعد نمر حماد. وعندما وصل مساعد النائب العام إيونتو إلى ممر الإقلاع بفيومتشينو كانت طائرة الخطوط الجوية اليوغوسلافية تشق طريقها نحو السماء.

علم كراكسى بالنهاية التى آل إليها الأمر، ما حدث من نشرة أخبار الساعة الثامنة مساء التى بدأت بمشهد السفير راب وهو يخرج مضطربا من مكتبى بعد أن أخبرته أن العباس كان على الطائرة المتجهة لبلجراد. وعندما قلت باحترام لراب أن موقف الحكومة قام بإبلاغه إياه فى الظهيرة الأمين العام لوزارة الخارجية الإيطالية، جز على أسنانه وضم قبضته بحركة غاضبة وتعبر عن الازدراء وهو ما لن أنساه أبدا.

وفى اليوم التالى فقط عندما جاء لزيارتى من جديد وهو أقل اضطرابا ولكن كان محتفظا بنفس النظرة الحانقة، استطعت أن أكرر عليه الأسباب التى دفعت حكومتى لاعتبار تقصى الحقائق الذى كان كراكسى قد تعهد بالقيام به خلال مكالمته الهاتفية مع ريجان قد استنفد غرضه.

وإحقاقا للحق يتعين إيجاز الدوافع التى تشهد اليوم أكثر من ذى قبل على فضل وصحة موقف كراكسى الذى تبين مع الوقت أن هدفه هو حماية المصلحة الأمريكية ذاتها. كما أن التحقيق الذى أجرته محكمة جنوه أظهر خطأ من كان يدعى أن اختطاف السفينة أكيللى لاورو تم التخطيط له بموافقة عرفات، وأن الحكومة الإيطالية وقعت من جديد ضحية للعبة المزدوجة التى قام بها الزعيم الفلسطينى.

إن الإسفين الذى أرادت جبهة التحرير الفلسطينية وضعه بين الغرب ومنظمة التحرير الفلسطينية بجرها مصر مبارك وأردن الملك حسين إلى النزاع كان بالضبط عكس الجسر الذى كان كراكسى يريد إنشاءه بين القضية الفلسطينية ومصالح أمن أوروبا والولايات المتحدة وإسرائيل نفسها.

ولكن فى قصر كيدجى كان هناك تساؤل إذا ما كان هذا فعلا هدف الولايات المتحدة؟ هل كانت واشنطن مدركة فعلا للعبة الدائرة وبالتداعيات متوسطة المدى لقبول إيطالى محتمل لإرادة واشنطن على الرغم من أنها عانت من انتهاك صارخ ومهين لسيادتها الوطنية. وإلى جانب التداعيات الخطيرة على عملية السلام التى كانت تساندها السياسة بعيدة النظر الخاصة بمصر والأردن والسعودية، أية مصداقية كانت ستحظى بها كى تنضم إلى اللعبة الديبلوماسية الرامية لإحداث انفراجة فى القضية الفلسطينية التى كانت تستفيد من إعلان البندقية لعام ١٩٨١؟

وكذلك داخل أوروبا ذاتها، أية مصداقية كانت ستتمتع بها إيطاليا، وهى التى كانت تسعى فى تلك الفترة للحفاظ على دور لها لصالح الانتقال من صراع ضروس بين الشرق والغرب إلى تعاون أكبر بين النظامين؟ لم يكن مشروعا الاستهانة بموقف كراكسى الذى عقب إدارته بنجاح من موقعه فى اليسار الإيطالى لاستعادة توازن القوى النووية المتوسطة فى أوروبا، تم استعجاله ليقوم بتصرف يتعارض مع مبادئه الخاصة بالمساواة الدولية والتى كان الحزب الشيوعى الإيطالى يرفع رايتها.

كان كراكسى مدركا خلال تلك الساعات العصيبة وجود أمور غير معتادة فى عملية صنع القرار الأمريكى. كما أن المعلومات التى حصلنا عليها فيما بعد بشأن ديناميكية عملية اقتفاء أثر الطائرة المصرية أكدت عدم احترام الكرامة الوطنية الإيطالية بشكل لا يمكن التهاون معه فى سلسلة الأوامر التى نسقها البيت الأبيض والبنتاجون. فضلا عن أنه كان جليا فى التصرف الفظ للفريق الأمريكى أنهم كانوا قد راهنوا سلفا على سلبية إيطاليا.

والدلائل؟ يوجد منها الكثير بدءا من قرار عدم

كتاب الزاوية



فى الزواج

كتاب النصيحة

أى بنى، إذا تزوجت المرأة فأحسن رعاية حرمتها، وإن يكن شىء عزيز فليس هناك أعز من المرأة والولد، ولا تضن بشىء على امرأتك وولدك، ولكن عن المرأة الصالحة والولد المطيع، وهذا أمر بيدك، كما قد ذكرت:

لم تربى الولد ولم تقتنى المرأة
إذا لم يكن لك من كليهما نفع

أما إذا تزوجت فلا تطلب مال المرأة. وانظر فى أمرها ولا تكن فى رق جمال وجهها؛ فإنما تتخذ المعشوقة بسبب جمال الوجه، أما المرأة فيجب أن تكون طاهرة متدينة وربة بيت، ومحبة لزوجها، وحيية وتقية، وقصيرة اللسان واليد، ومحافظة على المال، لتكون صالحة. فقد قيل: إن المرأة الصالحة هى التى تكون متدبرة العواقب ومهما تكن المرأة عطوفة وحسناء الوجه ومقبولة، فلا تضع نفسك فى يدها كلية، ولا تكن تحت سلطانها، فقد قيل للإسكندر: لم لا تتزوج ابنة دارا، وهى حسناء جداً؟ فقال: إنه لقبيح أن تتغلب علينا امرأة وقد تغلبنا على أهل الدنيا. ولكن لا تتزوج امرأة أعلى منك مقاماً، ويجب أن تتزوج العذراء، حتى لا يكون فى قلبها حب شخص آخر غير حبك وتتخيل أن كل الرجال على نمط واحد، فلا يقع طمعها على رجل آخر. وفر من يد المرأة الطويلة اللسان، فقد قيل: يفر العريس سريعاً إذا لم تكن المرأة أمينة. ولا ينبغى أن تستولى على مالك ولا تترك لك أن تكون مالكًا له، فتصير أنت المرأة وهى الرجل. وتزوج المرأة من العائلة الصالحة، فالمرأة يتزوجونها من أجل تدبير البيت لا من أجل التمتع، إذ يمكن شراء الجوارى بالسوق من أجل الشهوة، حيث لا إنفاق ولا كثير عناء، ويجب أن تكون الزوجة كاملة وبالغة وعاقلة.

محاولة هبوط البوينج ٧٣٧ فى القاعدة الإنجليزية أكروكيرى بجزيرة قبرص. وهى التى كانت أنسب من الناحية اللوجيستية عقب رفض اليونان. ولكن الأمر الأخطر كان تصرف ضابط البحرية الأمريكى الذى يعمل بقيادة حلف الناتو بسيجونيللا، والذى انتزع الميكروفون من يد الضابط الإيطالى المناوب معطيا الموافقة على الهبوط.

وفى الواقع، فقد تم هذا عندما كان كراكسى قد وافق بالفعل على الهبوط وهو الرأى الذى لم ينجح الأدميرال مارتينى فى إبلاغه بسرعة لرئيس أركان الدفاع. إلا أن هذا يكشف الثقة بالنفس الأمريكية التى تمت بها إدارة العملية برمتها. إذا كان ريجان حقا قد أعطى فى مناسبتين موافقته من حيث المبدأ، يظل الواقع أنه لا هو ولا حتى مستشار الأمن باد ماكفارلانى قد وجدا وقتا حتى يضطلعا بالواقعة بصورة مباشرة. وتم تكليف رجال الصف الثانى الذين كانوا يعملون تحت إدارة الأدميرال جون بويندكستر، نائب ماك فارلانى بتنفيذ العملية بأكملها، متجاهلين تماما «اللهجة الحسنة» نحو بلد كانت ترسم له واشنطن بالكلمات صورة أحد أخلص حلفاء الولايات المتحدة. وأظهرت الحادثة للأسف كيف تعتبرنا الولايات المتحدة فى قرارة نفسها الأكثر خضوعا وأيضا الأقل استعدادا لإدارة مجادلة مع القيادة الأمريكية.

والبرهان الأكثر وضوحا قدمه الجنرال ستينر الذى أنزل من طائرتى C١٣٠ بمجرد هبوطهما الثمانين جنديا من قوات الهجوم Delta Force، فى حالة تأهب كامل للحرب، آمرا إياهم بمحاصرة البوينج ٧٣٧. وقد كان ستينر يتصرف مقتنعا بأنه لديه سلطة معاملة الضباط الإيطاليين كما لو كانوا مرؤوسيه.

لكن الأمور لم تسر كما كان يخطط لها. فعلى الرغم من الفوضى التى نشأت عن الأوامر الأمريكية العديدة، كانت ردة فعل القائد الإيطالى للقاعدة العقيد آنيكياريكو تلقائية على ما قام به الأمريكيون من تجاوز السلطة، فأمر الشرطة العسكرية بالتدخل واستدعى على الفور قوات الكارابينييرى العاملة لتأتى ومعها العربات المصفحة. وأعطى أمرا للجنرال ستينر المذهول كى يسحب قواته قبل استخدام القوة. وروى لى آنيكياريكو أن ستينر لم يستغرق أكثر من ٣ دقائق كى يقتنع بأنه سيتم إطلاق النار فعلا، كما أرجعه البيت الأبيض عن المضى قدما فى عرضه المخجل.

لو كان كراكسى استسلم للضغوط الأمريكية ولضغوط حلفائه بالحكومة الإيطالية، كانت سياسة إيطاليا وأوروبا إزاء المتوسط والعالم العربى ستفقد مصداقيتها لصالح القوى الأصولية وبصفة خاصة جبهة الرفض الفلسطينية التى كانت تهدف لإضعاف عرفات والدول العربية المعتدلة. كان كراكسى مدركا للمخاطر التى كان يمكن أن تحدث. فلأول مرة سقطت الحكومة الإيطالية بسبب مسألة متعلقة بالسياسة الخارجية. وبمجرد مرور عدة أشهر بعد الواقعة تعرض مطار روما كما أشرنا لحادثة إرهابية. لكن البرلمان جدد الثقة فى الحكومة بقيادة كراكسى، وحتى الرئيس ريجان أرسل خطابا للزعيم الإيطالى ليؤكد له صداقته ورغبة الولايات المتحدة فى ترسيخ علاقاتها مع إيطاليا.

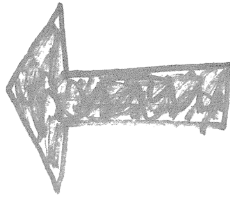
فعبر تصرفه الشجاع، أظهر كراكسى أن التزامات إيطاليا تجاه حلف الناتو وعلاقات الصداقة الوفية المتينة مع الولايات المتحدة يمكنها أن تبقى جنبا إلى جنب مع استمرارية العلاقات المتميزة مع العالم العربى ومع اعتبارات العدالة الدولية.

كان كراكسى يعطى أهمية كبيرة لاستقرار الشرق الأوسط ومنطقة المتوسط وكان يرى أن ذلك يستلزم أولا وجود اتفاق قوى مع الدول العربية.

وبالنسبة إليه كان أمرا أساسيا السعى بجدية نحو تنمية مشتركة فى المنطقة تشجع تدريجيا التكامل الاقتصادى والتقارب بين مؤسسات المجتمع المدنى.

حتى أنه لم يكن هناك حديث آنذاك عن حوار الثقافات، كان كراكسى فى الواقع يطبق مع العالم العربى المبادئ الأساسية لذلك الحوار: أى الكرامة المتساوية والاحترام المتبادل وعدم التفرقة. فبالنسبة إليه كان يتعين على كل الثقافات المشاركة فى تكوين المعرفة العالمية والحصول على أنصبة متساوية منها. وكان يرى أن نهضة كبيرة فى الثقافة الإنسانية والعلمية فى أوروبا والعالم العربى كفيلة بجعل الظروف مواتية لتوازن أكثر استقرارا فى منطقة الشرق الأوسط ولتقدم معنوى ومادى مشترك. ومن الصعب التشكيك فى المثاليات التى كانت مصدرا لإلهامه حيث إن تلك المثاليات لازالت سارية حتى اليوم.

فمن وجهة نظره كان بالتأكيد الولاء لحلف الأطلسى وروابط الصداقة مع الولايات المتحدة أمرا أساسيا، لكنه استطاع أن يضع الحد الفاصل بينها وبين المصالح الوطنية لإيطاليا، وهذه المصلحة لا تتعلق فقط بحماية كرامة الدولة بل أيضا سياستها فى منطقة البحر المتوسط عبر تضامنها مع الدول العربية من أجل احترام الشرعية الدولية. ■



عــــــــرَب

نــايـــف حــــواتمـــة

■ بات من غير الممكن الحديث بدقة عن «اليسار العربى»، دون تناول تاريخه وتاريخ المجتمعات العربية تناولاً نقدياً. كما أن مصطلح اليسار هو تعميم فضفاض يحتاج إلى تحديد، وبهذه الصورة من التناول يقع فى أخطاء من يسمون بمؤرخينا الموضوعيين. أى دون تبيان الحركة ذاتها، والصراع الطبقى، والمصالح الخاصة، التى خلقت الظروف والعلاقات التى أتاحت المجال، لبعض من صنفوا فى «خانة اليسار»، إلى التهاون والتعاون مع السياسة الأمريكية وعلى حساب أوطانهم وشعوبهم.

أولى المحددات العامة لمفهوم اليسار الديمقراطى هو ارتباطه بجوهر مفهوم «العدالة الاجتماعية»، وتوزيع عائدات الدولة على أكبر قدر من الناس، فضلاً عن ارتباطه بمفهوم التقدم، حيث تتمثل رؤيته بالأهداف العامة التالية:

❖ تحقيق السيادة القومية والتحرر من التبعية.

❖ التنمية الإنسانية بكل أبعادها.

❖ الحلول الديمقراطية للمشكلات الإثنية المزمنة فى أغلبية الأقطار العربية.

❖ التطور الصناعى والتكنولوجى العلمى.

❖ المساواة فى المواطنة دون تمييز فى الجنس والعرق والدين والمذهب.

❖ فتح نوافذ الحريات، وجميعها مهمات النهضة ربطاً بالجوهر «العدالة الاجتماعية».

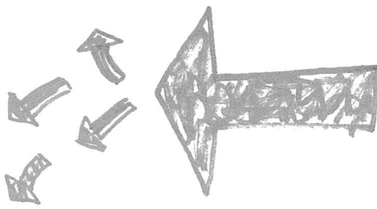
فى الحالة العربية يحيل البعض تبدد هذه الأهداف، إلى البنى المتخلفة بنيوياً وتاريخياً، التى ولدتها الإمبراطورية العثمانية، من تخلف اجتماعى سياسى واقتصادى وأخلاقى ومعرفى. ويحيل آخرون الفشل إلى اغتصاب فلسطين، أو تجزئة الأمة بتقطيرها. ولسنا فى صدد البحث فى مصداقية هذه الخلاصات، لأن تصورنا هو مخالف تماماً لهذه الاستخلاصات وإن فعلت فعلها، وتفاعلت بمجملها مع أخرى بقدر ما، فالمسئولية الأولى هى على النخب الحاكمة المتعاقبة منذ انهيار «دار الحكمة وطغيان النقل على العقل» زمن الخليفة المأمون عام ٨١٣ م حتى يومنا، باعتبارها قاطرة للحالة القائمة. والأهم راهناً هو تجاوز العوامل البنيوية الضعيفة، انطلاقاً من الواقع الفعلى للعالم الراهن، انطلاقاً من اتسامه بالترابط المتنامى وإعادة النظر فى سياسة ومنهج بناء الدولة الحديثة على آليات التقدم.

إن مشروع التنوير، تحول على يد الثقافة القدرية إلى محنة للتنوير، والمطلوب تدارك الحالة العربية قبل أن تصل إلى الأفق التاريخى المسدود؛ كأبرز النتائج المترتبة على هذه الأزمة، التى تمس بها الحداثة «تمادياً» على الموروث القدرى وأقانيمه المستوحاة من القروسطية المتناقض والمتصادم مع عصر الأنوار وقيمه التحررية، ومواصلة التغيير الاجتماعى لصالح الشرائح الفقيرة فى إطار الديمقراطية السياسية الليبرالية، وعلى الطرفين يبرز تحالف نقيضين: النيوليبرالية المتوحشة بإفرازاتها والثقافة القدرية «إن الله يرزق من يشاء» و«قل لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم». تعززها السفسطة الاستشراقية، والحالة العربية المزرية، والتى سبق واستخدمتها حروباً ضد قوى الحداثة والتيارات القومية فى المنطقة العربية، خاضتها تحت راية السلفية الإسلامية الإقصائية، ومعها مختلف نُظم الديكتاتوريات التيوتارليتارية العربية.

إن الدواء الناجع لقوى اليسار، لن يتمثل فقط فى المشاركة السياسية على أهميتها، نظراً لاستفحال الداء، بل فى إعادة بناء حركة شعبية تحررية تقدمية متنورة، بما يتطلب من جهود شاقة وضخمة، لأن السلفية الإسلامية السياسية ستصل فى النهاية إلى الجدار المسدود، وإن كانت تستطيع الآن تحقيق أرقام هامة فى أية انتخابات مجتمعية وشعبية، رغم فقدانها للبرامج حد الإفلاس. بما يفتح بتطور الحركة التقدمية الشعبية التى ينبغى على اليسار إعادة بنائها، كى لا يكون موقفه انتظارياً، وبما يسمح بتجديد مصداقية الفكر اليسارى، مقروناً أيضاً بالإفادة من تطور الحركة التقدمية الجديدة على المستوى العالمى. إن العمل التقدمى على الثقافة وإفرازاتها كحركة ميدانية تطمح إلى تحقيق سيادة الأوطان، والقيم الجمهورية بتلازم لا ينفصم ضرورة قصوى، وإذا كان لا بد للحركة النقابية والعمالية فى طليعتها من أن تنهض، فلن يكون ذلك إلا بوقوف طليعتها فى وجه الليبرالية المتوحشة، وتحقيق مستلزمات التنوير العربية، إشاعة الحريات، وفصل الدين عن الدولة وتحرير النساء، مع المهمة الأولى المتمثلة بالدفاع عن مصالح الكادحين العرب، وتحسين شروط معيشتهم، مقدمة لوعى قومى عربى شامل، إنسانى المضمون يحترم حقوق مجموع مكونات المجتمع، ويرعى مصالحهم من الناحية المدنية وبأفق شامل، وحده يخرج رقبة المجتمعات من أنشوطة الأصوليات السياسية الخانقة «الطهورية الإقصائية»، من هنا أهمية تغيير الثقافة والأفكار.



لقد خرجت تركيا من عباءة «الرجل المريض»، ولكننا ما زلنا عشية لحظة سقوط عباءته عنا، الحالة المعززة بالمعنى التاريخى والإستراتيجى، باستعادة الأجندة حول «المسألة الشرقية» وأسمال تلك العباءة، دول ضعيفة لم تدخل إيقاع العصر، بل تشد على أوتارها قدرية العصبيات على أنواعها القبلية الإثنية المذهبية والطائفية، تغيب عنها أولوياتها بعد أن أضاعت القرن العشرين، وقبله



اليسـار



الدواء الناجع لقوى اليسار، لن يتمثل فقط فى المشاركة السياسية على أهميتها، نظراً لاستفحال الداء، بل فى إعادة بناء حركة شعبية تحررية تقدمية متنورة، بما يتطلب من جهود شاقة وضخمة



قرون عبره ضاعت حياة أجيال عربية متتالية، وضاعت مصالح كبرى وأساسية وأولويات تنموية من حياتها، دون أن تتعلم ماذا تريد؟ وكيف تريد؟ مجتمعات تغيب عنها الشفافية، وتغيب عنها حرية العقل، والحريات السياسية. التساؤل فى هذا الجانب فى المفاهيم والمبررات المترسبة التى تفترض بأن هزيمة المنظومة الاشتراكية، وسقوط الثنائية، وانتصار القطب الواحد قد هزمت معها «اليسار العربى». وهذا طبيعى فى العلاقة التحالفية معه فى معسكر حركة التحرر، والمفارقة فى قتامة الصورة أن انتصار القطب الواحد الإمبريالى لم تنعكس على الأنظمة العربية التى تحالفت معه وصرفت المليارات فى حروب أفغانستان، البوسنة، والهرسك، كوسوفو، حروب الخليج الثلاث، وغير مكان، لأن العلاقة «خاوة وتبعية»، ولا يمكن لهذه الأنظمة المتخلفة أن تحسب على انتصار المعسكر الإمبريالى.

على امتداد ستين عاماً من استخدام الإمبريالية للإسلام السياسى وأدلجة الدين عقدياً، واستخدام جماعاته فى العنف السياسى كرصيد احتياطى عندما يتطلب الأمر ذلك، والاصطدام بحركة التحرر العربية وقيمها، ساهمت فى تعميم بؤس الثقافة واستحضار الموروث من قعره التاريخى المضاف على الصورة القائمة، ثقافة قدرية مؤدلجة بترك شئون الدنيا التى لم يحز على فتاتها المواطن وربح ثواب الأخرة للحصول على السعادة الكاملة، حينها يربح «الدنيا والأخرة»، وأما الدنيا فهى مهاجمة التقدم المعرفى العلمى، التطور والحداثة السياسية والمجتمعية والواقعية، العصرية والثقافة الإنسانية العالمية، وتسميم عقول أجيال متلاحقة من الشباب والأميين البسطاء، فى مجتمعات الهشيم لتكون كالنار فى الهشيم، والبيئة الخصبة هو الفقر، ولأن مدن الصفيح والتهميش ونمط الحياة السياسية فى مجتمعاتها تعم بلواها على الحركات النسائية، والديمقراطية والتعددية السياسية والثقافية والدينية، وإذا ما حاولت الشعوب استيعاب المستجدات.



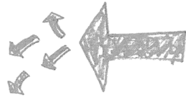
إن التأمل العميق فى الأحوال العربية المعاصرة، يعنى مباشرة إدراك أزمة النخب والمجتمعات. قل الجماهير. معاً. كلاهما يفتقر إلى مؤشرات قياس التقدم وتجلياته فى تحرير العقل لا تحريمه بالنقل، وفتح المجال الديمقراطى، أما النتيجة فهى أنه لا يمكن إنتاج وإنجاز الإصلاح السياسى، دون أن يترافق معه إصلاح ثقافى فكرى شامل، والمتناقض مع السائد الذى عجز عن إنجاز مراجعة نقدية وتشخيص للأزمة العربية فى مواقعها عبر إستراتيجيات محددة للخروج منها.

يطال هذا التشخيص بعض التيارات اليسارية، التى ما زالت تردد خطابها القديم، كما يطال التيارات القومية التى ما زالت تعيش فى خطاب ستينيات القرن الماضى (شعارات بلا برامج للتقدم)، وليس فى القرن الحادى والعشرين، والعولمة التى تتطلب إعادة صياغة المشروع، فى ظل الظروف والتجليات الجديدة. ولعل هذه السمات هى التى أنهضت جماهير ونقابات وقواعد أحزاب، وشعوباً وكتلاً بشرية ومجتمعاً مدنياً فى أمريكا اللاتينية، وأن تلزم التيار الثورى بتبنى برنامجها وأن يلتحق بها ويتوحد معها، فى إعادة صياغة مشاريع سياسية وإيديولوجية لليسار: تبرز هنا تجربة هوجو تشافيز فى فنزويلا، ورافائيل كوريا فى الأكوادور، حين تلمست هاتان القيادتان وبإحساس عميق ومدرك لبرامج جماهيرها واستجابت لها، الشعوب ذاتها تخلت أيضاً عن الأحزاب التى لم تلتحق بها وببرنامجها، وتنضوى مع من استجاب لها، كضرورة لا بد من تحقيقها، ذات هذه المجتمعات اللاتينية، هى التى اكتوت بالليبرالية المتوحشة منذ عقود السبعينيات، فصاغت نخبها الجماهيرية بدائل للسياسات القديمة، مع حفاظها فى الوقت نفسه على القيم الأساسية للمشروع، وأهمها التركيز على الحاجات الأساسية للمجتمعات، على الجماهير العريضة فى مجالى الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية، معاً وسوياً، أليس هذا نقداً ذاتياً جريئاً وعملياً وترشيداً لبعض التيارات الماركسية، وبما يجيب على تحولات العصر والنظام العالمى الجديد وبالقطب الواحد.

تحمل غالبية تيارات الإسلام السياسى رؤية مغلقة للعالم، تقوم على التكفير وتحريم ممارسات اجتماعية وثقافية مشروعة، وتدخل بفتاواها «الدينية» فى ميدان الاقتصاد والعلوم والثقافة، والحجر على العقل بجدران غيبيات النقل وفى وسط شعوب عربية. تشير التقارير الدولية أن نسبة الأمية فيها بلغت ٤٠ بالمائة، مما يجعلها أداة للتغيير الاجتماعى غير الواعى، ومنه وبوسائل العنف. أما حركات المثقفين العرب لن يتاح لها رفع خطاب تنويرى لأن السلطة ذاتها تضطهد فى وسطهم من لم يوالها، والأهم أنها تخاف هى ذاتها أيضاً من هذا التنوير، لأنه لن يضع مصلحة النظام السياسى فوق أى اعتبار، وهى ذاتها أحد الأسباب الرئيسية لهذا البؤس العام.

وانطلاقاً من الطابع الاقتصادى والأهمية الإستراتيجية للمنطقة العربية، بتوافر أهم مصادر الطاقة فى العالم، عصب الاقتصاد العالمى، وربطاً بالعولمة وتراكم القوى الجبرية لرأس المال، المركز والأطراف. فإن هذه المنطقة ستبقى تحت الموجات العاتية لها، وبأشكال متعددة، نظراً لحيازتها على الطاقة الإستراتيجية.

يقوم بعض البحاثة العرب، باقتفاء أثر اليابان



وإجراء مقارنات، كيف حققت النهضة أهدافها باليابان المتقدمة الحديثة وسيادة النظام الرأسمالي الياباني، وربما تكون المقارنة هامة، بيد أن الإقطاع «الميجي» الياباني تولى بنفسه بناء الرأسمالية، لأن البوارج الرأسمالية الأمريكية أرادت فتح أسواقه بقوة السلاح للتجارة، فاضطر إلى الانتقال حماية للذات، دولة إقطاعية تتولى ذاتها الانتقال إلى الرأسمالية، قام الحاكم الإقطاعي العسكري «الشوجون» بهذه المهمة، وهو الذي يحكم باسم الإمبراطور منذ أواخر القرن الثاني عشر وحتى ١٨٦٨ تاريخ الإصلاح الميجي، وتخلل هذه القرون فترات قصيرة منقطعة من الحكم الإمبراطوري الخالص.

ولا يعني هذا اختفاء الياكوزا (المافيا اليابانية) من متاع الإمبراطور، كما حدث عام ١٩٩٩ حين قام أحد أعضائها بطعن ناظر مدرسة ثانوية في أوزاكا رفض أن يرفع على سارية المدرسة علم «الشمس المشرقة»، كما لم يسمح بترديد نشيد «يعيش الحكم الإمبراطوري إلى الأبد»، وعلم الشمس المشرقة بما يرمز إلى تغطية النفوذ الياباني الكرة الأرضية بأكملها.

في السويد حصل الانتقال تدريجياً إلى الرأسمالية وبتسويات وبدون ثورات، العديد من البلدان خرجت من التنميط الستاليني المبسط، ولسلة ستالين الخماسية الصوفية المتسلسلة: المشاعية؛ العبودية؛ الإقطاع؛ الرأسمالية؛ وأيضاً (شرقية نمط الإنتاج الآسيوي)؛ فالاشتراكية. الماركسية والتاريخ قدمت تطوراً ارتقائياً وهو عمل عالمي واحد، وأن الرأسمالية ظاهرة جديدة، وليست قديمة، فهل يمكن تعميم النمط العبودي الذي نشأ في اليونان أو روما على بلدان أخرى! بينما الإنتاج الرأسمالي نشأ في بريطانيا وليس في اليونان، والعديد من شعوب العالم الجديد الأصلية كانت مشاعية، إن الذي طرحه ماركس هو نظرة فلسفية عامة، مجرد نظام للنظرات وليس تحليلاً مفصلاً لكل وقائع التطور التاريخي، وما نحتاج له هو مدخل نظرية ماركسية عن الحال العربية.

في العصر الموصوف الراهن، نرى أن العالم يعيش عصر التكتلات الإقليمية الاقتصادية، بما يملي من تكامل وتقليص الفجوة الفاصلة. والتجربة الأوروبية قد تبدو مفيدة للدول العربية، حيث تبرز الأرقام من عام ١٩٨٦ . ١٩٩٩ . ارتفع معدل الناتج المحلي الإجمالي لأفقر أربع دول في الاتحاد من ٦٥ بالمائة إلى ٧٨ بالمائة، ويعود ذلك بفضل المساعدات السخيّة والتجارة الحرة الداخلية (السوق الأوروبية المشتركة)، والاستثمارات من داخل الاتحاد، وكذلك السياسة الحكيمة من قبل متلقي المساعدات، وتصحيح التفاوت.

وتبدو ماليزيا نموذجاً أكثر مناسبةً للحالة العربية، في عملية الصياغة لسياساتها التنموية وبناء الدولة، وقد حققت تقدماً في نسيجها الاقتصادي. الاجتماعي القائم على التوازن الملموس في الرخاء، ودعم الروابط العرقية على مدار الثلاثين عاماً الماضية، ثم دخولها على مسار سياسات تتناسب مع التغيرات العالمية، مثل العولمة وتحرير التجارة والتقدم التكنولوجي في مجال العلوم والاتصالات، لأن الدول لا تستطيع مواجهة التحديات إن لم تستطع إحراز المزيد من تحرير العقل نحو المعرفة وعلم التقدم والرخاء.

إن إستراتيجيتها تتركز في تحقيق النمو المدعوم، لا سيما القدرة على المنافسة، والتي ستتحدد من خلال زيادة المعرفة ودعم القدرات التكنولوجية وإيجاد منتجات جديدة. والتأكيد على أهمية الاستثمارات المحلية والخارجية المدروسة. كما تضع في تحدياتها النمو الطويل الأجل على المستويين المحلي والعالمي، في سياق أوجه تطوير الرؤية الوطنية وأساسها اقتلاع جذور الفقر، بغض النظر عن الانتماء العرقي، وإعادة هيكلة المجتمع والتنمية المتوازنة، وتطوير المعرفة، وبناء دعم وصمود الدولة من خلال توثيق الوحدة، وغرس الروح الوطنية، والتسامح، ودعم النضج السياسي ورفع مستوى المعيشة، وتطوير الاقتصاد القائم على المعرفة. وبكلمة فإن ماليزيا بتحرير العقل دخلت الثورة الصناعية والعلمية، وهي الوحيدة بين ٥٧ دولة مسلمة التي دخلت عصر الثورات الثلاث الصناعية، العلمية، الإصلاح الديني.

بعد هذه المحددات الرؤيوية العامة لمفهوم اليسار الديمقراطي المنشود، وفي سياق بناء برنامجه ونظام نظراته، فكيف يمكن لما يسمى بـ «اليسار» أن يذهب إلى التهاون مع السياسة الأمريكية على حساب الوطن، وواشنطن هي من أحضرت معها أنظمة المذاهب والطوائف وسكتها في دساتيرها، الأمر البارز في تحالفات «الإسلام» السياسي وواشنطن على اختلاف مذاهبه على مساحة ستين عاماً من الحرب الباردة وحتى ٢٠٠١ بكارثة البرجين، كيف يمكن تجاهل دور الأنظمة الطبقية العربية التي تحالفت منذ مطلع سبعينيات القرن العشرين مع أحزاب ومنظري الإسلام السياسي ضد دعاة تحرير العقل، التحرر والتقدم إلى أمام، يساريين، قوميين، ناصريين، ليبراليين... هذه الأنظمة التي تحصد الآن ما زرعت من «عنف وإرهاب» على يد حلفاء النصف الثاني من القرن العشرين، حيث لا يمكن لليسار الفعلي الانضمام إلى جوقة مضطهدي شعوبهم مع الاحتلال، وهم يوصلون هذا الاضطهاد إلى النقطة التي تبرر سحقه واحتلاله، حيث تكون اللامساواة بلغت حدها الأقصى، حين يعطون لأنفسهم حق المشاركة في الولائم وحفلات فتات نهب الوطن التي ينظمها الاحتلال، عبر دورهم في خدمات «القابلة» وعلى خرائب الوطن، الذي يتصاعد منه الدخان، يرفعون نخب صحة الاحتلال. هل يمكن تسمية هذا العبيط بـ «اليسار» النسخة المشوهة والمنحرفة عن مفاهيم اليسار، بالمزج غير المألوف والاعتباطي بين ما هو سام وساقط، ومرعب ومضحك، وبطولي وتهريجي، إحدى سمات التراجيديا العربية، ولكن في أي مفصل يترتب على المهرج النطق بمقطع من الدراما «البطولية»، فالأمر والقرار يترتب على المخرج الأمريكي وحده، وهكذا لا يمكن حصر هذه الأفكار والمفاهيم في كل واحد.



المحدد الآخر وهو يشكل محوراً بذاته، حيث من غير الممكن الحديث بدقة عن اليسار، دون استعراض مجالات العلاقات الدولية الراهن، والإفادة من تطوراته بغض النظر عن الأسباب، مع ملاحظة إرهاصاته التي تؤشر مستقبلاً إلى التعدد القطبي. وعلى سبيل الأمثلة التاريخية؛ نسأل: هل استفادت مصر من موقف واشنطن من العدوان الثلاثي عليها عام ١٩٥٦، وبغض النظر عن أسباب واشنطن؟ أو هل رفضت «الجمهورية الأمريكية»، الولايات المتحدة راهناً ذاتها، الدعم الفرنسي لكفاحها من أجل التحرر من الطغيان الإنجليزي. أيضاً بغض النظر عن الأسباب؟ أو لماذا إنجلترا ذاتها قبل موقف فرنسا بمائتي عام حررت الجمهورية الهولندية من الظلم الإسباني...؟! وكيف نأت الصين بنفسها عن الحرب الباردة بعد اتفاقات ماو. نيكسون مطلع السبعينيات؟ وقانون جاكسون. فانيك ضد الاتحاد السوفيتي الذي أعقب الاتفاق الصيني الأمريكي!... الأمثلة كثيرة والمقصود الإفادة مما تتيحه مجالات وتطورات العلاقات الدولية.

في المحور الثاني الراهن؛ بات من غير الممكن الحديث بدقة عن اليسار الديمقراطي ودوره ونهوضه، دون استعراض مجال العلاقات الدولية الراهن، ومن خلال دراسة منهجية لما يحدث في عالم اليوم، والذي يتسم بالترابط المتنامي بين الدول، وفي ظل نظام دولي محكوم عالمياً، يمكن لملمة تفاصيله تحت عنوان بارز عريض اسمه «العولمة». ويترافق معها الانفجار في الحركات والجماعات والشبكات والمنظمات التي تتداخل في حوار عالمي عام غير محلي، مؤداه النظر في سياسة ومنهج بناء الدولة التي تستطيع مواجهة طغيان موجات المركز العولمي، ثقافات وممارسات إمبريالية الولايات المتحدة، القراءة البديلة التي تبين أن الأمور شديدة التعقيد، نظراً لأن الولايات المتحدة نفسها غدت مركزاً إمبريالياً على نطاق لم يشهده العالم من قبل. أحد أبرز أهداف هذه المنهجية هو عملية الكشف عن الجانب الثوري الذي يقف في مواجهة مفهومها للعلاقات الدولية الراهن، وإضعافها للدول واجتياحها للحدود. ونرى الآن بروز هذه السمة الثورية في بلدان أمريكا اللاتينية في شكلها المتجدد، وسببها الأساسي تأثير مركز العولمة وعلاقاته الدولية على الشعوب والدول. الأمر

مشروع التنوير، تحول على يد الثقافة القدرية إلى محنة للتنوير، والمطلوب تدارك الحالة العربية قبل أن تصل إلى الأفق التاريخى المسدود



تحمل غالبية تيارات الإسلام السياسى رؤية مغلقة للعالم



الذى دفع مصطلح «المجتمع المدنى العالمى» إلى أعلى حركات الاحتجاج، بدءاً من رفضه الحروب باعتبارها مناقضة للعلاقات الدولية، وتبرز هنا الدولة التى تحرص على تمثيل شعبها، ومعها «المجتمع المدنى العالمى» على خشبة مسرح التاريخ الراهن.

وعلى ذات النسق يبدو أيضاً أن التاريخ الراهن بات ملائماً لتوجيه قدر كبير من الاهتمام للدراسات التاريخية السياسية. الاقتصادية لدراسة الصلات العالمية، وإجراء مقارنات مماثلة حول مصير الدول، بما تفترضه عودة «الإمبراطورية الأمريكية. البريطانية» إلى العراق وأفغانستان وليبيريا ومنطقة البلقان، وبالتحالف مع ما تسميه واشنطن الإسلام السياسى «المعتدل» دولاً وأحزاباً، أى الإدراك التام للطريقة التى تقع فيها الأحداث الكبرى فى سياق هذا العالم، وجانب من ممارسات الإمبريالية الغربية المعاصرة يظهر جلياً فى بعض الأحداث الدولية التى وقعت فى الثمانينيات والتسعينيات ومطلع قرننا الجديد، حرب الخليج الثانية، وتدخل الولايات المتحدة فى جرينادا وبنما والصومال وهاييتى ونيكاراجوا السانديستية، وحرب الفوكلاند التاتشرية. وأياً كانت جوانب التعقيد المتعددة لهذه العمليات، فإن هذه التدخلات الغربية الجديدة يُنظر إليها من زاوية واحدة، هى من عدم التماثل فى المستوى التكنولوجى الحربى التى تقف إحداها فى وجه الأخرى. أما التدخلات ذاتها فهى تشبه تلك الحروب الاستعمارية الكلاسيكية فى القرن التاسع عشر. ولدى البحث والتمحيص بالفكر، فإن الحالة تدخل فى مرحلة تجديد الأيديولوجيا الاستعمارية، ومن ثم ظهور خطاب إمبريالى غربى صريح على يد غلاة اليمين من المحافظين الجدد. قدم هذا الخطاب ثلاثة أسباب كل منها يعزز الآخر، يدعى الأول «فشل ما أطلق عليه تسمية العالم الثالث، بسبب الأزمات التى تتعرض لها هذه الدول»، خاصة تلك الدول التى ترتبط أوثق ارتباط بالتركة الاستعمارية بعد أن «تخلصت من الاستعمار». والثانى تدفقات أسواق الأسلحة نتاج حقبة الحرب الباردة. هذه الحروب التى انتهت «بانتصار مركز استقطاب الغرب»، والأخير «ظهور مناخ فكرى عام محافظ اكتسح التجارب الاجتماعية الأخرى، والمطلوب تعزيزه كمنهج عالمى». أما الفرصة المواتية فقد كانت انتهاء الحرب الباردة فرصة غلاة اليمين المحافظ الذى يرى بضرورة وتجدد انبعاث ثقافة إمبريالية، أما بشأن السياسة الخارجية فقد رأوا ضرورة الممارسات الحربية المتطرفة والفوضى «البناءة».

كما تفترض مراجعة المحاولات السابقة لصياغة القوميات والدول، خاصة فى فترة الخمسينيات والثمانينيات من القرن الماضى، فقد جاءت فى إطار حقبة تصفية الاستعمار، وفى سياق حقبة ثورية عالمية ازدهرت فيها التوجهات الماركسية نحو بناء تاريخ جديد للعالم، ومع ملاحظة استخدامنا الحذر والمؤقت لمصطلح مرحلة «ما بعد الاستعمار»، فقد ظهرت تنويعات ناقدة تبين مدى العلاقات الإمبريالية الكولونيالية وإن كانت لاتزال قاصرة، لكنها حتى الآن نابضة بالتحليل الحىّ عن التنظيم الرأسمالى، وتبين أن النظام الدولى المعاصر للقوة متعدية القومية هو ما ينتج دولة «وهمية» تابعة لحكم عالمى شامل، يتشكل من الروابط بين قوى الشركات المتعددة الجنسيات والتمويل الدولى. وجوهر الهياكل التنظيمية الرسمية هو البنك الدولى، وعلى رأسها صندوق النقد الدولى، وفى قمة النظام الهيكلى ذا الطابع المحدد لإمبرياليات اليوم، المرتبطة بمؤسسات متعدية القومية، والقوى فوق القومية. ويتعذر تلخيص ذلك فى قصة واحدة فى مناحى جيوبوليتيك العالم. فهذه الإمبريالية ذات طبيعة ديناميكية متفجرة ومتعددة الأشكال. ورغم أنها نظام واحد فهى متعددة المراكز وتوسعية، وعليه فلا يمكن أن تكون مستقرة.

ويقع هنا أيضاً اهتمام الدراسات التاريخية الراهنة والموجه إلى دراسة الصلات العالمية فى الوقت الحاضر، وهى تتيح دراسة منهجية ليس لبحث الصلات فحسب، بل لإجراء مقارنات بين المجتمعات والدول وتطورها فى أنحاء العالم.

وبالإدراك أن هذا المجال يواجه صعوبات جمّة، بسبب من تعدد المنهجيات الفكرية. فعصر ما بعد الحداثة لم يمنع الحاجة إلى السرد التفصيلى فحسب، بل جعل من كتابته مسألة معقدة، بعد إضعافه الصلة التى تربط البحث بين الإنسان و«الاقتصاد السياسى» ربطاً بالمفهوم التقليدى لـ «الدولة الحديثة» ذلك الكيان المسيطر والمتصلب والمحرك الحقيقى، الذى يعكس التفاعل بين السياسة والاقتصاد والأيديولوجيا.

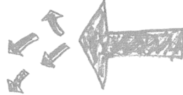
المحور الثالث هو ميراث الاستعمار وآثاره المدمرة، دون إغفال فشل العديد من النخب التى قادت مجتمعاتها للاستقلال، حيث تنتشر فى العديد منها المجاعات، والأمراض والحروب الداخلية، والحروب على حدودها، وتشتت مجتمعها المحلى، وتصاعد التوتر الإثنى، الدينى المذهبى، أو العنصرى. ولا يمكن أن يعزى كل ذلك إلى الميراث الاستعمارى، فهذه أزمات تاريخية مزمنة، رغم أنه قد تم وضع بذور لحالات الفرقة فى بعض البلدان، ويظهر ذلك بقوة فى كتابات النقاد المعاصرين. ففى أفريقيا على سبيل المثال قد انتزعت الأراضى من السكان المحليين فى القرن التاسع عشر، حين كان الاستعمار الأوروبى فى أقصى درجات عنفوانه، وبعض الأنظمة المحلية التى خلفته هى فاشلة.



إن مجموع هذه العوامل هى التى تخلق هوية اليسار الديمقراطى لهذا البلد أو ذاك، وهى وحدها ودون تسليح جيش حديث، بما يعنى من موازنات باهظة، تستطيع أن تحمى ذاتها بشعبها من الهيمنة العسكرية والاقتصادية الساحقة، بل تستطيع أن تفعل فى إصلاح النظام العالمى فى القرن الحادى والعشرين، لأنها تتعامل بذات الكفاءة المطلوبة مع قضايا العولمة الأخرى، التى تتراوح بين الصحة والبيئة والعمالة، طالما أن العالم لا يستطيع الحصول على نظام تجارى عالمى دون وجود سياسة اقتصادية عالمية، وسياسة عالمية للرعاية الصحية، وسياسة تعليم عالمية وسياسة أمنية عالمية.

كما أنها الدولة التى تستطيع أن تقدم تغيراً هائلاً فى دور المرأة، فى المساواة بين الجنسين، وتكافؤ الفرص، وحق التصويت والتمثيل. وباختصار هى الدولة التى تعتمد على الواقعية الطبيعية التى تقوم على مصالح الدولة ذاتها، وتوفير البدائل لتجديدها وتطوير وضع شعبها، وإيجاد الحلول لفقرائها، وسيطرتها على موضوعة البطالة والأمية، ولا يوجد بها مهمشون ومستبعدون، واستخدام النظام القانونى لتحقيق الرفاهية، فالأمر الخصب هو إشراك الناس فى حل قضاياهم العنوان الأبرز لليسار الديمقراطى.

ويمكن أيضاً: مراقبة الدور الخارجى والذى يفرضه الفاعلون (الاحتلال) فى موضوعة الدولة الفاشلة، وفى هذا السياق يمكن فحص الدولة العراقية التى بناها الحاكم المدنى الأمريكى بريمر وبارونات الطوائف، وتزايد المخاطر التى تفجر النزاعات الداخلية، والتى تجد تعبيرها فى قوانين بريمر: المشهور بالحيَل السحرية، والتى قدمها لإعادة بناء الدولة. وقد فاقمت فقدان الأمن والأمان، والفقر الشديد والإضرار المتعمد الذى يمكن اقتفاء أثره فى القوانين المذكورة، والتى يمكن تسميتها بحسب فلاسفتها «التدمير والفوضى الخلاقة»، أى سياسات التدمير الذاتى للعراق، وإدخاله فى محنة داخلية، فضلاً عن محنة الاحتلال الذى يروم تنفيذ أهدافه بممارسة الضغوط على الجماعات التابعة، التى تقر بفضله لوصولها إلى السلطة. القوانين ذاتها وصفة جاهزة لفشل الدولة، حيث يسعى الاحتلال والبناء الفوقى التابع إلى حل الأزمة باستخدام القوة وحدها، متجاهلاً الإجراءات الاجتماعية الضرورية والإصلاح القضائى، وتحفيز الاقتصاد نحو الإنفاق الاجتماعى، واستعادة أمان المواطنين، لبلد غنى بموارده. وقلة نادرة مَن تعرف كيف تصرف هذه الموارد وأين تذهب؟ أى غياب معايير ذات مصداقية لحقوق الإنسان والشعب، وأهداف واضحة وأساليب محددة لرسالة الدولة الجديدة، وهذا المجرى يقود إلى حلقات متتابعة من إراقة الدماء، يُستقطب فيها العراقيون إلى معسكرات



متمايزة، الأمر الذى من شأنه أن يقود إلى حرب أهلية فى حال تعمقه وعدم تداركه.

رؤى يسارية عربية

تمر البشرية بمرحلة انتقال جديدة وربما طويلة الأمد بفعل التناقض الجديد بين «المليار الذهبى» ومليارات الأطراف حيث يتململ فى الفقر والتهميش فى قارات العالم الثالث والجنوب خمسة مليارات من البشر.

قوة اليسار وفعاليته المستقبلية، هى فى قدرة الأمم على صياغة مستقبلها، أى توفير سياسات بديلة، مثلما يحدث فى أمريكا اللاتينية فى مواجهة التفتيت والهيمنة الإمبريالية. فى مواجهة محاولات خلقها لمشاكل خطيرة فى نظريتها «حول الفوضى البناءة» تتعلق بالهوية والإثنية والتعصب الدينى، حين تستخدمها لتحقيق أهدافها، فما يواجهها هو الديمقراطية ودولة القانون والإنسان الواحد أى الشعب الموحد، وكل هذا رهن بصد العدوان وأولويات شروطه. وهى دروس من الماضى نحو تطلعات الغد، فالشعوب الموحدة تستطيع الصمود والانتصار والعودة إلى منهج الينابيع الإنسانية، وهى يسارية بالتأكيد تدفع نحو التجديد الإنسانى منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا.

وطالما أن الفقر من الصعب تجنبه فى إطار النظام الرأسمالى، فإن الشبكة الاجتماعية الوحيدة التى تتجنب التباين الاجتماعى، لا تخفيف وقع آثاره فقط؛ هى مفاهيم العدالة الاجتماعية. فالاقتصاد العالمى هو بين أفراد النخبة، وبينهم نخبة ضئيلة تابعة من العالم الثالث والجنوب، والذى عممت صورته كمهاجر باحث عن لجوء فى خضم البحار، أو «إرهابى» أو أصولى، بينما هو ضحية سوء التنمية والنهب الوحشى، ضحية غياب المساواة فى المواطنة داخل الشعب الواحد، غياب العدالة والديمقراطية بين الشعوب والدول، حين تدعى العولمة الرأسمالية والسوق الحرة إزالة الحواجز، لكنها إزالة الحواجز أمام رأس المال لا الآفاق المدعى موضوعاً.

كما أن المكاسب التى حققتها دول الرفاهية بعد الحرب العالمية الثانية تتراجع خطوةً خطوة، وهذا هو طموح الليبراليين الجدد، بأن يعودوا بالعالم إلى علاقات القرن التاسع عشر بين المركز والأطراف، بين الشمال والجنوب، وهو ما رُفض فى سياتل فى أمريكا وبورتو اليغرو فى البرازيل ودربان فى جنوب أفريقيا وجنوه فى إيطاليا، وكل هذا فى مواجهة قمم العولمة على يد الدول الرأسمالية الصناعية السبعة الكبرى، وطالما أن الغالبية فى العالم هم مجرد مشاهدين مقهورين، يحدث ما نعيشه الآن، ثورات، مظاهرات مليونية، وحكومات لا تشعر بالأمان، نتيجة اجتراح حروب وإرهاب، أى عدم استقرار اجتماعى. أى كما كان يمكن لماركس أن يقوله: إنه لتناقض (تناحرى) لا إنسانى داخل النظام الرأسمالى.

وهذه هى الإمكانات الكامنة فى التاريخ، فى العودة إلى النزعة الديمقراطية التقدمية، فهى وثيقة الصلة بالنزعة الاشتراكية، وفى إطارها الحفاظ على استقلال وتطور الشعوب، وحقوق الإنسان والسلم والبيئة، وهى أقانيم مترابطة، معها مجموع الجماعات الديمقراطية التقدمية الجديدة. فنمط حركتهم الاجتماعية، هو ثقل تطلعات اليسار التاريخية، بمثله العليا «ديمقراطية الاشتراكية واشتراكية الديمقراطية».

أيضاً، هى الصورة الجمعية. القوة الفاعلة. التى يستعاد تنظيمها عالمياً، والتى من شأنها أن تقدم أسساً جديدة، لتوليد مظاهر التضامن على صعيد اليسار الديمقراطى كما على صعيد شعوب العالم، فضلاً عن التضامن الاجتماعى داخل الدول فى مواجهة تفكيكها.



ثمة نقاط كثيرة للتشابك السياسى، تهيئ أسباباً عديدة للتفاؤل منها: أن البشرية واقعاً وفكراً على أعتاب تحول جذرى جديد فى ارتباطات واقعية، تستكمل به إطارها الفكرى الذى تعمل على هديه. فالأزمة العالمية وضعت اليسار على طريق تحول جذرى، أى نحو مخاض جديد أشبه بمراكز التنبؤ بوقوع الزلازل، وهو وجه لواقع نسبى فى الزمان والمكان، وتبقى الخلاصة التاريخية الكامنة فى أن الاشتراكية قد غرست جذوراً؛ قيماً وأفكاراً؛ وأنها تجسد أمانى ومعانى فى وجدان الناس، ولهذا عليهم ابتكارها من جديد كضرورة للعمران الديمقراطى داخل الشعب الواحد، وبين الأمم والدول فى الإطار الكونى الكبير.

فى البداية، على المرء من أهل الرأى أن يعلن موقفه بلا تردد، من أجل إحياء إحساس بالممكن، فى سياق التحولات. هناك أحزاب فقدت إيمانها بالاشتراكية بعد سقوط الاشتراكية البيروقراطية السوفيتية، بيد أن الحركات العمالية فى العالم قد ظهرت قبل الاشتراكية السوفيتية بزمن طويل، وانفصال المرء عن تراثه شكلٌ من أشكال الاستسلام، يقود إلى التكيف، وهو الطبيعة التى تزعم الليبرالية الجديدة تمليكها للبشر.

على صعيد هذه النخب والأحزاب التى تغيّرت، تقول لنا التجربة والخبرة (قيادات أحزاب استبدلت مواقعها ولم تبق عقولها على أكتافها)، إن من الخطأ ربط كونك مثقفاً بكونك يسارياً، فكونك مثقفاً ليس ضماناً للديمقراطية الإنسانية، وعلى سبيل المثال فإن العمال والشرائح الكادحة التى انضوت تحت لواء تنظيم نقابى اجتماعى، هم عضوياً يمتلكون تجربة أكبر بكثير من المثقفين، فضلاً عن أن قوتهم مستخدمة. وتؤكد نظرتنا هذه حركة الشعوب فى أمريكا اللاتينية، والتى تعتبرها واشنطن حديقتها الخلفية، فنهوض حركات اليسار أخذ يدق لتاريخ جديد، فى البرازيل دى لولا، وفنزويلا هوجو تشافيز؛ وبوليفيا ايفو موراليس، الأكوادور، نيكاراجوا من جديد، والأرجنتين واحتمال تشيلى وأورجواى، وجوارهم صمود كوبا المحاصرة تاريخياً.

وهذا كله، يشير إلى أن محاربة طغيان وهيمنة الخطاب الليبرالى الجديد قد أزفت، ليس من موقع نظرى، بل من موقع عملى نقدى معمم بالتجربة على نطاق الشعوب، وأنه فى نطاق الممكن إذا ما توافرت الفعالية والإرادة.

الهدف بالنسبة لكل القوى الديمقراطية والتقدمية على امتداد القارات الخمس هو الوصول إلى الجمهور، وجدار الصمت هو جدار مادى استناداً لرأس المال. وبذات الوقت التلفاز هو الأداة المهيمنة التى تجتاح وتحاصر بأطروحاتها حياة البشر شعوباً وطبقات اجتماعية وعلاقات بين الأمم والدول باستمرار؛ الخروج على هذا الحصار «الإجماع» بالغ الصعوبة، ولكنه ممكن فى مواجهة الخطاب المهيمن، وهذا يتم حين لا يشارك أصحاب الرأى والتنوير فى هذه الغفلة، حين يقيمون نوعاً بديلاً فى مواجهة معتقدات خرافية تنشئها مؤسسات ضخمة بروؤس أموالها. أى فى مواجهة التصنيفات التى يجب أن تُطاع إملاءاتها. أما لماذا؟ فالسبب لأننا نتوجه إلى الناس الذين هم موضع أحداث التاريخ من الضحايا والمستبعَدين.

ليس السياسى وحده فى هذا الميدان، بل هناك أيضاً مجموعات من منتجى الخطاب من مفكرين وكتّاب وفنانين وباحثين، عليهم أن يكونوا أيضاً قادرين مجدداً على الاستيلاء على وسائل إنتاجهم.

لقد استخدمت هذا المصطلح الماركسى. الكلاسيكى الطراز بشكل متعمد، لأن المفارقة اليوم هى أن الكتّاب والمفكرين المجددين، مُبعدون كلياً عن وسائل الإنتاج والإرسال، فلم تعد لهم سيطرة عليها، فما يجرى هو خصخصة تستبعد الثقافة المستندة على المعرفة الانتقادية، أى المقدرة على التحليل والحوار النقدى، ورفض كل تلك التوافه من حولنا والتى غدت نمطية بلا عمق أو تميّز. لماذا؟ لأن المعرفة الانتقادية هى مرادفة لتلقى الفكر اليسارى، وهى فى الواقع مدخل أساسى للثقافة الإبداعية، وكل ما ينبثق عنها من ثقافة إنسانية حيّة، ثقافة متفاعلة مع نفسها.

أما خصخصة الثقافة، فهى تستلزم إحالتها عملياً إلى الفاعل الخارجى فهو المهيمن والأقوى، وإلى القوى السياسية المتخلفة داخلياً باسم الأصالة (إحكام قبضة الموروث الثقافى السيكولوجى القدرى على المجتمع وخاصة الطبقات الشعبية)، فيجرى تخفيض قيمة الذاكرة التاريخية الحيّة للتعمية والتحول بعيداً عن التاريخ. مثلاً لو حاولنا أن نقول ما نقوله على قناة ذات

جمهور واسع لقوطعنا فوراً، أي عودة للخضوع للرقابة، لأن الذي يمسك بالمرساة المالية من الجريدة إلى الشريط التليفزيوني والسينمائي إلى الفضائية؛ يغيِّر الموضوع في اللحظة التي يصبح فيها أي شيء مهماً، وعندما تُبرز القضايا الرئيسية، والتاريخ والواقع يردد القانون الطغياني «من يملك يحكم».

وينبغي أن تبرز هنا تجربة الكاتب الجماهيري، خاصةً أولئك الذين يملكون وقتاً للتفكير والإجابة، ومن ثم وضع المهارات في متناول الآخرين، وهو أمر خصب في التعبير، في مواجهة الجنون المندلع باستبعاد رواية المظلومين المحرومين، الطبقات الشعبية الضعيفة، بسبب من تدوير رأس المال الطليق حول كوكب الأرض، ومن ثم توابعه في منطقتنا، والتعبير هنا شكلٌ من أشكال المقاومة المهمة، ومهما تنوعت ألوان الإبداع.

الفارق في السياسة، عليك أن تكرر وتكرر أفكاراً تعرف أنها صحيحة ومجربة، إلى أن تسمع صدى صوتك، أي نتائجه على الناس، وهنا من الهام أن تبحث عن كل وسائل التعبير الممكنة، لإيصال رسالة إلى جمهور واسع، للكفاح ضد أشكال الظلامية الجديدة.



أخيراً: لقد رأينا المأساوي في البدايات المضطربة والدموية للقرن الحادي والعشرين، ثم مظاهر السخط والاعتراضات الشعبية الجماعية في جنوة، ضد اجتماع زعامات أمم العالم الأكثر قوة، لمناقشة مصير العالم. ثم العنف الاستثنائي لليبرالية الجديدة المستسلمة للاقتصاد اللا إنساني. بدأ بتقصيب يوغسلافيا بالقصف الجوي المتواصل، وتلا ذلك سلسلة من الأحداث الدموية، بدأت بكارثة هجمات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) في نيويورك وواشنطن، والحرب على أفغانستان، وإطلاق دموية شارون ضد شعب تحت الاحتلال في فلسطين، وصولاً إلى احتلال العراق. ناهيك عن نزاعات وصراعات عرقية ودينية تتفجر في العديد من جنبات هذا العالم تحت مرجل «اللامساواة في المواطنة» وطوفان الفقر والبطالة والجوع في صفوف أكثر من خمسة مليارات من البشر، بينما يغوص في الثراء الفاحش «المليار الذهبي الوحيد» في بلدان المركز الرأسمالي العالي التطور بالمعرفة العلمية وتكنولوجيا المعلوماتية.

في سياق عالمي وعربي بالذات ينبغي العودة للمضطهدين، فالعولمة الراهنة هي تلك التي تجلب الثروات لقلة، وتتسبب في صدامات جديدة مع رأس المال العالمي الاحتكاري، فضلاً عن ضغوطها على البيئة وتخريبها المتوحش للطبيعة. فالتجارة الحرة بالأسلوب الذي صممته ودعمته منظمة التجارة العالمية، قد استبعد العديد من الأمم والشعوب، ليس فقط طبقات معينة. بل، حولها إلى مجرد منهوب ومتفرج على نهب ثرواته، ونمو «الثروة العالمية» فكيف يمكن لهذا التناحر أن يستقرا.

لقد قام تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية (٢٠٠١) بتلخيص الوضع في فقرة دقيقة: «إن أعظم مزايا العولمة أنها تدخر لقلة محظوظة، ويفترض أن الموجة المرتفعة من الثروة ستدفع كافة القوارب، لكن البعض قادر على الإبحار في هذا الخضم أكثر من الآخرين، وترتفع اليخوت والبواخر العابرة للمحيطات، استجابةً للفرص الجديدة، بينما تجرف المياه الأطواف وقوارب التجديف، وتغرق القوارب الأخرى». وعلى ضوء ذلك حذّر رئيس برنامج التنمية للأمم المتحدة في تقريره من «الانتقال من عدم المساواة إلى اللاإنسانية».

ثمة اختلالات عميقة داخل الأمم الكبرى ذاتها، نمو متزايد لوحشية وعدم المساواة اللاإنساني، فعائلات القمة في الولايات المتحدة الأمريكية تبلغ ١٪ من السكان، وتملك ما يقارب ٤٠٪ من الثروة القومية، يترافق مع تزايد ونمو في نسب البطالة، ونمو هائل بمعدلات نزلاء السجون، بعد أن تمّ استبدال قوى الإنتاج في عصر ما بعد التصنيع من بلدان ما وراء البحار. كما أنه قدر تعذيب شعوب بأكملها في أنحاء العالم الثالث والجنوب، ففضلاً عن معاقبتهم بالفقر، فهم أيضاً معاقبون بتأمل مباهج إعلام العولمة المتلألئ أمام أعينهم. ■

كتاب الزاوية



في الحذر من العدو

كتاب النصيحة

اجتهد يا بني ألا تعادي، فإن يكن هنالك عدو فلا تخف، ولا تكن حرج القلب فكل من ليس له عدو يكون أمنية العدو، ولكن لا تكن غافلاً عن عمله في الخفاء والعلن، ولا تتقاعس عن إساءته، واشتغل دائمًا بتدبير المكر به والإساءة إليه، ولا تأمن بأي حال من حيلته ومكره، واستطلع حال العدو ورأيه، ونبه إليه سمعك وعقلك، لتكون قد سددت عليك باب الآفة والبلاء، ولا تظهر العداوة للعدو ما لم يتبين وجه الأمر تمامًا، وأظهر نفسك للعدو كبيرًا، والتزم الغيرة والحمية مهما تكن عاجزًا، ولا تظهر نفسك من العاجزين، ولا تعتمد على كلام العدو الطيب وصنيعه الجميل، ولا تثق بالعدو ولا تنزل البئر برسنه، وإذا لقيت السكر من العدو فعده سُمًّا، واخش العدو القوي دائمًا، فقد قيل: يجب الحذر من شخصين: أحدهما العدو القوي والآخر الصديق الغدار، ولا تحتقر في الظاهر العدو الحقير، ولا تقل من يكون هو، وعاد العدو الضعيف كما تعادي العدو القوي.

حكاية

سمعت أنه كان بخراسان عيار اسمه مهذب، وكان محتشمًا ورجلاً طيبًا ومعروفًا، وذات يوم كان يسير في الطريق، فوطئت رجله قشرة شمام فزلقت قدمه ووقع، فسل المدية وطعن بها قشرة الشمام، فقال له خدامه: أيها الرئيس أنت رجل محتشم وعيار ألا يخجلك أن تطعن قشرة الشمام بالسكين، فأجاب مهذب: إن قشرة الشمامة أوقعتني فهي عدو ولا يجوز احتقار العدو، وإن يكن حقيرًا، فكل من يحتقر العدو سرعان ما يصير حقيرًا.

فكن دائمًا في تدبير هلاك العدو، من قبل أن يجتهد في هلاكك، أما الشخص الذي تعاديه فلا تحقره إذا قهرته، وحذار من أن تظهر عدوك عاجزًا، فلا يكون لك فخر كثير.

احتضار فكر أم أمة؟

نذير جزماتي

لم أستطع إلا أن أتجاوب مع المقال المهم للأستاذ جهاد فاضل بعنوان «احتضار الفكر العربي!» المنشور في العدد ١٠١ من مجلتكم الغراء «وجهات نظر» الصادر في نيسان/ أبريل هذا العام، وإن كنت قد اختلفت معه قليلاً في الأسباب التي أدت إلى النتائج التي استخلصها.

ومن أحدث الأدلة، وهو أقدمها في الوقت نفسه، على صحة ما ورد في مقال الأستاذ جهاد فاضل مقال للأستاذ فؤاد خليل في لبنان بعنوان «العروبة.. الرأسمال الباقي» في ثلاثة أقسام: نشر الأول في جريدة «السفير» في ٢٦/٦/٢٠٠٨، ونشر القسمان التاليان في الجريدة نفسها في اليومين التاليين. والبحث بمجموعه صورة عما يسمى الفكر القومي العربي الذي لا يتضمن أينما ورد غير أمجادنا السابقة التي لم يسبقنا إليها أحد، وخصوصاً في مجال البطولات «العنترية» ومستقبلنا الذي لا يمكن أن يتحقق بغير الوحدة العربية الشاملة، ويضيف القوميون العرب إلى ما ورد على لسان الأستاذ فؤاد خليل شتم وتحقير كل ما عدا ذلك، أي الماضي الأسطوري، فنحن «خير أمة أخرجت للناس» والمستقبل الخيالي، لأمة عربية خالدة، لا تلتقي مع العلم إلا من حيث الترجمة غير الدقيقة لمفهوم (الأمة/ الدولة)، وما عدا ذلك لا علاقة له لا بالعلم ولا بالتاريخ، بل بشكل من أشكال شعر المديح في أيام الجاهلية.

ولا يمكن أن ينفذ حتى في الخيال مثل هذا البرنامج، برنامج الماضي الأسطوري، والمستقبل الذي لا يستند إلى غير التمنيات في عالم الخيال، غير العسكر الذين بدأوا مسيرة لا تقل طوباوية من أواخر الأربعينيات في القرن الفائت، لم تنته، ولا يعلم غير الله حجم الخسارات على كل الجبهات وكل المستويات التي حصدتها الأمة العربية الخالدة. ومع ذلك، فإن التهديد بانقلاب عسكري جديد لازال قائماً.

وإذا عدنا إلى ما يمكن تسميته التقصير العربي العام إزاء النظرية الماركسية ـ اللينينية استيعاباً، ومن ثم إضافة، إن كان في تبني مقولة أو مقولات معينة، أو تلافي نقص في جانب من الجوانب، أو نقد ما هي بحاجة إليه انطلاقاً من رأي ماركس وانجلز المذكور في مقدمة «بيان الحزب الشيوعي» من أنهما لاحظا بعد خمس وعشرين سنة أو نحوها أن بعض الموضوعات قد شاخت، وسيقومان بالتجديد الضروري إذا ما أتيح لهما الوقت في المستقبل. انطلاقاً من هذه النقطة فإن عوائق كثيرة وكبيرة وقفت وتقف في وجه المثقفين العرب وغير العرب في المنطقة. وأكبر هذه العوائق هو الرغبة في قطع المراحل بقوة الإرادة وحسب.. مع أن ما يتصل بالفكر بحاجة، بعد عملية نضوج فوق نار هادئة إلى الانتقال الهادئ والمتواضع إلى عملية اختمار، تلحقها، في أغلب الأحوال، عملية الإبداع والاختراع إذا توفرت الظروف اللازمة لذلك. وأنا إن لم أكبر الشيوعيين السوريين من حيث العمر، فعلى الأقل واحد من القلائل ممن تجاوزوا السبعين وأكثر قليلاً. وأذكر أن عدد الذين كانوا يقرؤون ويكتبون في حينا، في دمشق، لم يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. ولم يكن أكثر من واحد أو اثنين قد حملوا أكثر من شهادة التعليم الابتدائية أي الصفوف الخمسة الأولى من التعليم. ولم تكن الأحوال التعليمية في باقي أحياء دمشق أفضل بكثير. وبالتالي، فإن الأمية في بلداننا العربية ومن ضمنها سورية، بعد أن تراجعت نسبتها في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، عادت فارتفعت نسبتها من ٣٠ ـ ٣٥٪ إلى ٤٠ و٤٥٪ وأكثر في صفوف النساء. أما الأمية المقنعة بألف قناع وقناع فقد انتقلت من صفوف الحائزين على التعليم الابتدائي والإعدادي، أولئك الذين فكوا ارتباطهم بالورق والقلم منذ سن مبكرة، لكي تشمل الخريجين من الجامعات الذين لم يكن الدافع عندهم للتعليم العالي غير الحاجة للحصول على وظيفة، وما أن تحقق لهم ذلك، حتى فكوا ارتباطهم هم أيضاً بالكتاب. و«زاد الطين بلة» تراجع المؤسسات التعليمية من المدرسة الابتدائية إلى الجامعة، وبؤس الأوضاع المعيشية لجماهير المعلمين والمعلمات، وعلى سبيل المثال فإن أجر شاب ترك التعليم واشتغل في حرفة من الحرف يتجاوز راتب أستاذ في الجامعة يموت جوعاً، إن لم يلجأ للغش والارتزاق وفق أساليب لا تعد ولا تحصى.



ومن جهة أخرى، فإن الأشخاص الواردة أسماؤهم في المقال المذكور لم يكن بإمكانهم أن يقفزوا في قفزة واحدة من قعر البئر الذي أشرت إليه إلى سطحها.. ولنسأل كم من قافز أجنبي قفز وانكسرت رقبته قبل أن ينجح هو أو ينجح غيره في فرض احترام أفكاره أو آرائه؟ وصحيح أنه «لم تكن هناك وجودية عربية، وإنما كان هناك انبهار بضجة ثقافية أو بهيصة ثقافية في باريس وصلتنا بعض أصدائها فشاركنا فيها متطفلين لا نملك سوى إعجاب ساذج يسيء إلينا أكثر مما يحسن، ولا يحسن أبداً». ولكن مثل ذلك حدث مع الأوروبيين في بدء نهضتهم التي تمثلت في ألف وسيلة ووسيلة للقضاء على النظام الإقطاعي الذي لعب الدور المنوط به في مرحلة

إن عـــوائق كثيـــرة
وكبيـــــرة وقفـــــت وتقـــف
فـــى وجـــه المثقفـــين العــــرب
وغيـــــــر العــــــرب
فـــى المنطقـــــة

تاريخية محددة، ثم تحول إلى عائق للشعوب الأوروبية، يمنعها من التقدم إلى الأمام.. وما أن سقطت قلاع الإقطاع التى لم تزل قائمة فى بلادنا، فى هذا البلد الأوروبى أو ذاك بقوة الثورات الديمقراطية البرجوازية، حتى قامت الثورة الصناعية، التى أطلقت العنان للتقدم الأوروبى فى كل مجال من المجالات. وأدى ذلك إلى إحداث فجوة هائلة ما بين الأوروبيين المخترعين والمكتشفين.. إلخ، وبين باقى بلدان العالم التى تغطى شعوبها الفجوة بالتقليد الخادع إن كان فى لباسهم أو فى بناء مساكنهم، وتناول طعامهم وشرابهم... إلخ. ويصبح بالتالى ما كتبه هشام جعيط من أنه لا وجود لمثقف عربى باستثناء قلة قليلة جداً، ولا يمكن أن يوجد فكر فى بلدان متخلفة اقتصادياً وفى ظل أوهام سياسية كالقومية والعروبة.. ومن ناحية أخرى، لا ننسى غياب الحريات فكيف يمكن أن يشع فكر معين فى مجتمعات تسيطر الحكومات فيها على وسائل الإعلام بغباوة شديدة؟ فالمناخ هو «التصفيق الحاد» أو «العداء المسبق أو المطلق».

والواقع أن شيئًا أكبر «من عدم الجدية والرصانة والمتانة يحوم فى أفق جامعاتنا كما فى منابرنا الثقافية» وقد تجلى هذا الشىء ما تجلى فى اغتيال رجال العلم من أساتذة الجامعات وغيرهم فى العراق. وبالتالى فإن أعداء ثلاثة انتصبوا أمام متطلبات الأستاذ جهاد فاضل فى بحثه القيم جداً. يتمثل العدو الأول، بحكام الغرب فى أوروبا وأمريكا الشمالية الذين يوظفون كل آلتهم العلمية المتقدمة جداً من أجل قطع طريق التقدم على الشعوب فى العالم الثالث بألف وسيلة ووسيلة، وكان من أخطر هذه الوسائل، إقامة دولة إسرائيل الصهيونية التى نجحت نجاحاً كبيراً فى تنفيذ مهامها القذرة التى حددتها لها الإمبريالية العالمية وعلى رأسها الإمبريالية الأمريكية. وهذا العدو هو الذى «يجعل التواصل بيننا وبين العالم الخارجى صعبًا، بل متعذراً مع الوقت» لا بسبب الناس البسطاء الذين يتلهفون على معرفة الغرب، وأكثر من ذلك يضحون بالغالى والنفيس من أجل الوصول إلى شواطئ تلك البلدان التى «قشت وتقش» القشدة من فوق الحليب الذى تحلبه بلدانهم.

ويتمثل العدو الثانى بمعظم الحكام العرب الذين لا يقل خطرهم كثيراً عن العدو بعد أن انتقلوا إلى صفه كأجراء يتبعون أساليب فى منتهى المكر والخبث فى خدمته، منها إطلاق الشعارات التى يزايدون فيها على الوطنيين الحقيقيين. ويقدم البعض من اليائسين خدمات مماثلة من دون أجر، ويطلقون على أنفسهم تسميات مثل: الليبراليين الجدد.

أما العدو الثالث فيتمثل بالجهل والأمية اللذين يرسخهما العدوان الأول والثانى بأساليب تتراوح ما بين الإغراء والإرهاب.

وقد سمح هؤلاء الأعداء الثلاثة لكى يتولى المسئولية فى القطاع الحكومى العام أباطرة حقيقيون لا يزحزحهم عن عروشهم شىء غير انقلاب عسكرى، يُحل محلهم أباطرة جدداً. أما أصحاب القطاع الخاص فى مجال الطباعة والنشر والتوزيع خصوصاً، فحدث ولا حرج وبسبب ذلك لم تصل ليد الأستاذ جهاد فاضل محاولات متواضعة مثل:

١ ـ هل سقطت النظرية الماركسية اللينينية فى الامتحان العملى؟

٢ ـ هل كانت ثورة أكتوبر ثورة اشتراكية؟

٣ ـ مساهمة فى دراسة العوامل التى أدت إلى إلحاق الهزيمة بـ «المعسكر الاشتراكى» واختفاء دولة الاتحاد السوفيتى.

ملاحظة: ما دفعنى أيضاً للكتابة إليكم هو عدم وصول عدد شهر كانون الثانى/ يناير من هذا العام إلى بائع الصحف فى حينا، وانتظرت كل هذه المدة على أمل أن يؤمن لى البائع العدد المذكور، إلا أنه لم ينجح. ■

كتاب الزاوية



فى التجارة

كتاب النصيحة

أى بنى، ولو أن التجارة ليست بحرفة يمكن أن يقال لها صناعة مطلقًا إلا أنه إذا نظرت إلى الحقيقة فإن رسومها مثل رسوم المحترفين. ويقول الأذكياء إن أصل التجارة مبنى على الجهل، وفروعها على العقل، كما قالوا (لولا الجهال لهلك الرجال)، يعنى لو لم يكن الجهال لفسدت الدنيا. والمقصود من هذا الكلام أن التجار، طمعًا فى زيادة المال، يحملون الأشياء من الشرق إلى الغرب، ويخاطرون بأرواحهم فى الجبال والبحار ولا يخشون اللص والصعلوك. ولا يخافون الحيوان المفترس للناس، ولا الطريق غير المأمون، ويوصلون لأهل المغرب نعمة المشرق، ولأهل المشرق نعمة المغرب، ليكون بهم تدبير عمران الدنيا، وهذا لا يكون بغير التجارة. ويقوم بمثل هذه الأعمال الخطيرة من تكون عين عقله مغمضة.

والتجارة نوعان، وكلاهما مخاطرة: أحدهما المعاملة والآخر المسافرة، وتكون المعاملة للمقيمين. إذ يشترون المتاع الكاسد طمعًا فى الزيادة، وهذا مخاطرة بالمال، ويلزم لذلك رجل جرىء وبعيد النظر يخوله قلبه أن يشترى شيئًا كاسدًا طمعًا فى الزيادة، وقد ذكرت ما هى المسافرة، وعلى كلا الوجهين يجب أن يكون التاجر جريئًا غير وجل على المال والنفس، وينبغى أن يكون أمينًا، ولا يرغب فى إضرار الناس من أجل نفعه، ولا يطلب نكاية الخلق طمعًا فى ربحه، ويعامل من هم دونه، فإذا تعامل مع أكبر منه فليتعامل مع شخص ذى أمانة وديانة ومروءة، ويحترز من المخادعين.

خرافة

حسان الزين

■ في سنة ١٩٢٠ كانت الأطالس الجغرافية لاتزال «تحتفظ ببقع سوداء للإشارة إلى المناطق غير المغزوة بشكل كاف أو غير المغزوة بتاتًا..» لقد اعتقد الغرب الصناعي أن القرن العشرين لابد أن يسير باتجاه واضح نحو الطاقة.. وبسبب من الأوضاع المزرية للأمن القومي، فإن «البقع السوداء» تلك لن تستطيع الدفاع عن نفسها.

وهكذا، شيئًا فشيئًا بدأ انكشاف «أراضي الداخل» أمام الأطماع.

وهكذا ستبدأ الدول الصناعية بتقطيع الأرض، بالطريقة التي يتم فيها تقطيع مفاصل أعضاء الثور:

لقد جرى تصنيف هذا «الجسم الكبير الحي»، هذه المساحات من الأراضي إلى نوعين من المواقع:

❖ المواقع الغنية بالمواد الأولية.

❖ المواقع المأهولة بالسكان.

على هذه القاعدة قسمت الأراضي تقسيمًا سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا إلى مربعات حددت وظيفة لكل منها ولكيفية استثمارها ووضعها في خدمة المصالح الاستعمارية.

لم تعد المردودية إذن مجهولة على الأرض.

وانتهت الحرب العالمية الثانية لتعطى الفائزين، أو المنتصرين، دورهم في «اللعبة الملحمية» للتقدم على حساب الآخرين.. وكان من الطبيعي ألا تجرى الموافقة على ذلك في «قصر الأمم المتحدة الزجاجي»، ولكن عبر تعقب صراع المعسكرات في قلب القارات، حيث سيكون بالإمكان أن نرى عودة السيطرة على «مناطق مستعصية».

في هذا الإطار، لن تكون عمان بمنأى عن لعبة الأراضي المستهدفة من القوى الاستعمارية، إضافة إلى الدور الذي لعبته «دول الجوار» في موضوع البريمي على سبيل المثال.

وهكذا لثلاثين عامًا تقريبًا، وجنوب عمان سيشهد ثورة و«حرب أغوار» كانت طويلة ودامية تغذيها حالة الانقسام والتجاذب الدولي الذي حصل بعد الحرب العالمية الثانية تناوب فيها السلاح، والسلاح المضاد، في ظلام مخيف.. ويمكن القول إنه لم يسبق في سنوات الستينيات، أن أمضى هذا السلاح وقتًا للتجول بين جبال ظفار، كما لو أنه يلعب «دور دليل لسياحة الكوارث».

لقد كانت الصحافة تستقبل من عدن إلى حواف سهول صلالة استقبالاً حماسيًا(!)

وكان أي صحفي يريد تغطية «حرب العصابات»(!) يعرف أي باب يدق: عدن. وكان بهذا يعرف عن نوعيته كضيف مناصر.

و.. ومن أجل فهم ضعف هذه الغيرة الإعلامية وهشاشتها يجب مغادرة مواقع الميدان، إلى عمق النسيج الاجتماعي لقبائل ظفار المتناحرة وإلى مقدمات حيثيات الصراع بين أبنائها بما في ذلك تأثيرات العوامل الإقليمية والدولية فيها.



بدأ البرتغاليون غزوتهم للسواحل العمانية في بداية القرن السادس عشر. وفي منتصف القرن السابع عشر «تمكن الإمام سلطان بن سيف اليعربي من طردهم لتعيش عمان في عهده دولة اليعاربة، التي وفرت قدرًا من القوة والاستقرار لا يستهان بهما، ولكن في فترة أخرى، وبسبب خلافات وصراعات محلية، قام الفرس «باستغلال الموقف للسيطرة على السواحل الممتدة إليهم من عمان».. غير أن فكرة الغزو الفارسي، هي نفسها ستعيد اللحمة بين العمانيين، وسيقود الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي حرب المواجهة مع الغزاة، لا على مساحة عمان فقط، وإنما على مساحة الخليج العربي أيضًا، وصولاً إلى «فك الحصار الذي فرضوه على البصرة عام ١٧٥٦».

ومن يومها ستتوارث الأسرة البوسعيدية الحكم في عمان.

وفي عهدها سيقيم السيد سعيد بن سلطان بن أحمد بن سعيد إمبراطورية وصل اتساعها إلى شرق أفريقيا وحدود الباكستان، هذا بالرغم من محاولات بريطانية وفرنسية لزعزعة بلاده، تمهيدًا للسيطرة على جزء منها، وبالرغم من ظهور أخصام جدد تمثلوا حينها في آل سعود والقواسم، جنبًا إلى جنب مع «ثورات داخلية ضد حكمه».

الآن، وبعد وفاة السلطان سعيد ستمتد يد الاستعمار لتقطع جسم الإمبراطورية العمانية إلى قسمين:

❖ سلطنة مسقط وعمان في الطرف الآسيوي.

❖ سلطنة زنجبار في شرق أفريقيا.

وكان على رأس كل سلطنة سلطان من البوسعيديين.

في بداية العقد الثاني من القرن العشرين (١٩١٢) ستعود الإمامة مجددًا إلى الظهور: لقد تم انتخاب الإمام سالم بن راشد الخروصي إمامًا لعمان، إلا أن التركيبة القبائلية للسلطنة جعلتها في تلك الفترة عرضة للصراعات التي شرعت الأبواب في أكثر من مرة للتدخل الأجنبي.

وسوف تدخل بريطانيا في شقوق التصدعات الناشئة عن هذا الصراع، خدمة لمصالحها من جهة، وتركيز الاعتماد على قوتها من جهة ثانية. هذا ما كان في العام ١٩١٩ عندما وجه القنصل البريطاني في مسقط تهديده للإمام بوجود خمسة آلاف جندي مدربين ويعسكرون في العراق، وأن بضعة آلاف منهم تكفي لاحتلال عمان كلها «وبأنه سيمنع عنه المواد الغذائية، وبيع المنتجات».. وهذا أيضًا ما حصل في العام ١٩٢٠ من خلال توقيع «اتفاقية السيب» التي تحدد بموجبها نفوذ السلطان (في الساحل) ونفوذ الإمام (في الداخل).

وبعد وفاة الإمام محمد بن عبدالله الخليلي عام ١٩٤٥ عادت الصراعات القبلية من جديد مما اضطر السلطان سعيد بن تيمور للتدخل عسكريًا لترسيخ الوحدة الوطنية وتوحيد البلاد، وعرفت تلك الفترة (١٩٥٧-١٩٥٩) بأحداث الجبل الأخضر.

كانت تلك هي الخمائر الأولى، التي تكونت على قاعدتين: الصراع على عمان.. والصراع في عمان.

فمن جهة برزت إلى السيطرة قوى استعمارية لم يسبق لأي قرن في التاريخ الحديث أن شهد مثلها، ومن جهة ثانية برزت أعراض تشير إلى صراعات داخلية قبلية كانت مكتومة، إضافة إلى أعراض الأزمات الناشئة عن المديونية الكبيرة وتداعياتها الاجتماعية.

تعاظمت أيام الفقر والبؤس، وفي بيئتها راحت تتجلى متجاورة ومتداخلة صراعات متعددة الوجوه، وكانت أشبه ما تكون بذلك «الإيقاع الاستوائي» في عملية التعارض، والمشاعر المتفجرة، والقبائل المتصارعة فيما بينها من أجل الحكم، والأنانيات المتصادمة تصادمًا عنيفًا.

في أوقات كهذه: كان الزمن في عمان قد كف أن يكون سهرًا أو ملاذًا لأحلام وردية: في «قلعة الجلالي»، ما إن تنهال المطرقة على صاج كبير، حتى يلعلع صدى قذائف ولثلاث مرات متتالية، من مدفع يتربص بالوقت، وهو قابع متعال في «قلعة الميراني».

إنه «الدوم» أو القصة الحزينة التي كانت تروى مرة بعد أخرى وبسائر اللهجات العمانية كلها: لقد أثبت الخوف أنه ليل يستحيل أن يقاوم إلا بضوء فانوس، وهذا الأخير كاد أن يكون على الدوام «هوية» مملوءة أمام الشرطة بالشك، ولهذا لم تبرز الحياة على السطح، إلا حين «يفقد» الشرطي رقابته على الناس.

وهي رقابة اكتسبت آلية وسلطة، مدججة بكل أنواع الأسلحة المعنوية والمادية التي تمتلكها قوة عظمى استعمارية.

وبالعودة إلى الليل، وبعد أن تكون الأبواب قد أغلقت، وفرض منع التجول بسبب الأوضاع المتوترة، فإن نصيب من لا يحمل تصريحًا وقنديلاً، هو العيش في فلوات الظلام.

ومع قسوة الظروف المعيشية لم يكن



لقد اعتقد الغرب الصناعي أن القرن العشرين لابد أن يسير باتجاه واضح نحو الطاقة.. وبسبب من الأوضاع المزرية للأمن القومي، فإن «البقع السوداء» تلك لن تستطيع الدفاع عن نفسها!



ميلاد المثابة العمانية
حسان محمد الزين
بيروت: دار الناشر العربي

السفر إلى الخارج متاحاً إلا إلى الهند أو باكستان، ومن يسافر فقد يستقر في الخارج ولا يفكر بالعودة مرة أخرى.

وبالطبع لم يكن هذا الإجراء متاحاً إلا للرجال فقط! ولذا نشأ عن ذلك خلل بنيوي في هيكل السكان:

إن ما كان يتناهى صداه عند تخوم تلك الأمكنة هو العمل الذي كان يهب مردوده للبيت الذي هجره صاحبه.. ولكن أين هو هذا العمل؟

بالطبع لم يكن العماني ليجده بسهولة، خصوصاً أن الهند أو الباكستان، تماثل فيها البؤس أيضاً منذ قرون فإذا بـ «عملية الإنقاذ الأسرى» هي عبارة عن جهد مبذول، من أجل الإمساك بأطفال تسلقوا إحدى التلال، وسيعمل الأب على إنزالهم إلى تلة أخرى لا تقل وحشة وعداءً وبرداً.. وهكذا كان على البعض من العمانيين أن يعيش بين مقتلعين مثله: في أرخبيلات الفقر واللاجئين ومدن الصفيح.

لم يكن خارج هذا المشهد إلا النخبة وأصحاب الكفاءات وربما أصحاب رؤوس أموال. وسيشكل هذا بدوره تصدعاً ونزيفاً في الهيكل الاقتصادي والعلمي، والثقافي، فضلاً عن مفاعيله القاتلة في الهيكل الديموغرافي.

والمشهد هنا لن ينتهي عند هذا الحد.

في خانة المقتلعين، ونتيجة للأوضاع المضطربة بالبلاد وقلة الموارد، ومن أجل البحث عن موارد للرزق، تندرج حركة النزوح الكثيف نحو مدن لا عودة منها، حيث النازح الذي اجتاز ريفه إلى مدنه، يبدأ الشعور بأنه انتقل من مكانه المكثف، ليصبح «أجنبياً» في وطنه المسربل.

إن المواطن النازح من ريفه ليلتقي المدينة في هربه، أصبح تماماً مثل «اللاجئ» الذي يلتقي الحدود.

وجميعهم باتوا يفكرون، بأن البؤس بات خالداً مدى الدهر!!



ولكن من جهة أخرى، وفي الثلاثين سنة الأخيرة من حكم السلطان سعيد تراكم تراث طويل من «الحراك..» من الهروب.. كان هذا في الداخل الذي سيؤجج الصراع المتمادي الذي يزيده حدة عجز السلطة عن إيجاد الحلول للأزمات المتعاقبة، القبلية والاقتصادية والاجتماعية.

هذا الصراع الذي لن يكف عن التصاعد، والذي سوف تنبثق عنه بيئة مواتية لأن يكون «القتال خيراً من البطالة»، وكان قد انطبق على مجموعات من الرجال والشباب، لا على أفراد.

وكان هذا «الوضع المداري» الخاص بالهاربين من أثقال الأزمة لا يقدم مكان استقبال نهائياً لهم، بل من الآن فصاعداً، سيقدم له مكاناً لتجمع ثالث وهو مكان «اقتلاع أقصى» للجذور. إنه «الدرجة الصفر» من التفاؤل حيث لن يجري الاعتراف به داخل هذه المجمعة. إلا بصفته يأساً من كل شيء، وسيجري الإبقاء عليه هنا في وضع غير قانوني، أو في نوع من «الفخ السياسي»، إذ لم يعد ابن في قريته أو مدينته، أو قبيلته، ولكنه أيضاً لن ينتمي إلى مكان ثان، لأنه بات «حالة على حدة»، حالة تقتصر حمايتها على ممارسة تؤبد كرهه للواقع المعاش.

و.. إن آلة الحرب، المغذاة بهؤلاء ستعيش في جانب منها على هذا «المخزون» الذي أنتجه تراكم الأزمات وقصر يد السلطة عن حلها واستفحال الضغوط الإقليمية والدولية على البلاد في تلك الحقبة.

إن «الأرخبيل» الآخر الذي أنتجته تلك السنوات، هو أرخبيل (تجمعات الهنود) «يشار عادة إلى هذه الظاهرة بكثرة العمالة الوافدة» وحشد التجار الهنود الذين وفدوا إلى هذه المنطقة في فترات سابقة وأنشأوا كياناً تجارياً وسوقاً تجارية في مسقط. إن «تضخم» مدينة مسقط إنما جاء من هذا الجزء بالذات، وسواء أطلقت تسمية مدينة مطرح أو حي الهنود أو التخوم، فإن وجه المدينة الفعلي هو الذي سيتورم بانتظام. ولهذه الظاهرة أسباب متنوعة.

بنى عمالية غير مكتملة.. سياسة زراعية وتجارية مأساوية.. انحطاط المدى الجغرافي.. والتأثير الجاذب الخاص بالهجرة والتخلص بالهروب..

ومن هنا تنامت تلك الظاهرة في الأصل كرد فعل موافق.

وهذا ما زاد من «وزنها» النسبي ومن جاذبيتها بالنسبة للسلطان سعيد: إنها نوع من توازن العمل..

ولكن هذا التوازن أهمل «عاملاً جوهرياً يعطيها فرادتها»، حيث إنها كانت تجمعاً للمشهد الخادع، فكل أشكال «الازدهار التجاري» إنما يراها المواطن كما لو أنها «ثروة» يتغذى بتأملها.. نوع من العيش في شقوق غنى لا يستفيد منه.

باختصار كان مشهداً يجمع تشكيلة لا تتحدد بالعمالة فقط، وإنما بحالة الفراغات الوطنية التي سقطت فيها المدينة.. حالة عمل متخثر في مجمع خاص «بدهماء حنطية»، وهنا الأمر لا يتعلق بإنتاج وإنما باستهلاك: بكسب الأرباح وليس بإنفاقها إلا ما كان ضرورة للحياة وهذا لم يكن شأناً عمانياً فقط، إنما كانت سمة لكل الأسواق الناشئة في تلك الحقبة، خاصة في منطقة الخليج وعلى امتداد العالم العربي بأسره.

وعند هذه النقطة من «الموازنة» لا تظهر مسقط عُمان إلا كبلد تحدده ميزات نافية: هي غير وطنية حتى ولا تقدم نفسها كنمو يقدم نفسه لمن يريد أن ينمو.

وخلف تنوع هذا المشهد ينضم الجنوب ليضيف فصلاً آخر من فصول المأسى الكبرى التي عاشتها خلال عهد السلطان سعيد الذي كان يدير شئون الدولة من قصر الحصن.

كان «قصر الحصن» في صلالة عاصمة محافظة



ظفار التى أبت رغم كل شىء أن تغادر التاريخ.

السلطان سعيد بدوره لم يغادرها لمدة ١٤ عاماً حتى تاريخ خروجه من السلطة. لقد عاش «السلطان فى هذا القصر وقتاً طويلاً، يحكم ويدير البلاد، ويوقع المعاهدات.

عندما كانت عمان «تهمهم» وتئن، إنما كانت تفعل ذلك أمام المحيط الأكثر همهمة منها: فى لحظات حوارهما وفى مقاربتهما للتاريخ الذى خبا وهجه، كان المشهد يزداد عمقاً.

كانت «موضوعات» كثيرة فى هذا الحوار جديرة بالإصغاء، ولكن غالباً ما كان الصمم هو «الغذاء» الوحيد الذى يقتات عليه الإهمال! ولذلك بقيت المدينة أعمق انتماء للمحيط وهى ترقب لحظة الغسق: إن الغسق الخريفى، رغم تورده المنساب، حيث «تتدحرج الشمس مثل عربة ملتهبة أمام الجبال المتجهمة أوحى للأهالى «بحريق هائل..». وفى تلك الأيام من ستينيات القرن العشرين، كانت الثورة هى طليعة هذا التنبؤ لغسق سيطول أمد غوصه وراء الأفق.

بعيداً جداً عن الأفق، فإن ضوء القناديل المتناثرة خلف النوافذ، لا تلبث أن تظهر مثل «نواس مختل» يحاول أن يتلمس بساعاته القصوى، مأزقه العميق: يظل نائياً، ولن يغدو موجوداً إلا فى سياق ذلك «الاستعراض المشهدى» للظلام الدامس.

لقد مضت تلك الأيام التى كان فيها السلطان سعيد بن تيمور يقوم فيها برحلات طويلة فى عمق عمان وبرفقته عدد من الوجهاء، وذلك فى إطار حرصه ومسعاه من أجل توحيد مناطق البلاد المختلفة ومنها (نزوى) التى كانت تشهد توترات قبلية، كما أدت الرحلة إلى تأمين سلامة العاملين فى حقول النفط فى فهود.

وفى مقاربة بين زمنين: زمن الإقامة فى خيمة، وزمن الإقامة فى قصر محاط بطبيعة تم احتيازها أمنياً نظراً للتوترات التى عاشتها البلاد، تظهر كآبة «الظرف الأمنى» الذى جعل السلطان بعيداً بعض الشىء عن شعبه.. بعيداً عن مصباح يقوم بإطفائه وعن نار «تحرسه» ولا تنطفئ إلا فى الساعات الأولى من الصباح.

إنها لمفارقة أن يكون السلطان هو ذاته!

سلطان يعبر الوديان والجبال ويمر على قبائل طافرة مثل قبيلة القارا، ويعبر «جدات الحراسيس» الواقعة ما بين الجبال الساحلية والربع الخالى وإلى غيرها من الأماكن النائية، من غير توقف إلا فى أوقات الصلاة، ودون حساب للأميال، والإرهاق والعرق، والأيام المتواصلة، على قدر ما كان يريد الاتصال مع الناس.. وسلطان لا يعبر حتى المسافة الواقعة بين القصرين: الحصن فى صلالة والجلالى فى مسقط، الأمر الذى فرضته عليه الظروف الأمنية والسياسية لتلك المرحلة.

غير أن هذا هو ما حدث: الآذان وحدها بدأت تتمتع بالعلاقة الصامتة مع الناس!!

ولهذا فإن فترة حكم السلطان سعيد بن تيمور (١٩٣٢ - ١٩٧٠) التى بدأت تلقائية وانتهت بالعزلة القاتلة تشكل أحد الأزمنة الأكثر بؤساً والأشد كآبة فى تاريخ الدولة البوسعيدية: وذلك لما شهدته عمان فى تلك الحقبة من أزمات وقلاقل كانت بمعظمها خارجة عن إرادة السلطان ومرتبطة بشكل أساسى بالخلافات القبلية والتدخلات الإقليمية والخارجية وبتفاقم الأزمة الاقتصادية كما أشير إلى ذلك سابقاً.

ولم يكن واقع الارتباك فى إدارة شئون الدولة ولا مداه هو الشىء الوحيد هنا، وإنما أيضاً عنصر الجمود وعدم القدرة على مواكبة المتغيرات والتحولات العالمية التى ظهرت فى الحرب العالمية الثانية، وبدأت مرتسماتها تتجسد على خارطة الطريق، حيث لا يمكن لأحد أن يتجنب نتوءاته وتضاريسه، ما لم يكن مجهزاً تجهيزاً بنيوياً وفى دروب التجهيز السياسى والاقتصادى والاجتماعى والعلمى والثقافى كافة:

أولاً: كانت الحرب العالمية ذاتها قد كشفت عن إرهاصات لثورات ثلاث:

- الثورة الإلكترونية: والتى تمثلت بأجهزة «الترا» لحل الشفرات.

- الثورة الإدارية التى وجدت تعبيرها بتنظيم الإنتاج الحربى وتحركات الجيوش.

- الثورة الفضائية التى ظهرت تباشيرها فى الرادار والصواريخ.

ثانياً: كانت الحرب إياها، قد أحدثت انقلاباً نوعياً فى موازين القوى الدولية. لم يعد الدور لقوى أوروبا القديمة، بل انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى.. هذا فضلاً عمن يملك السلاح النووى.

ثالثاً: الأطالس الجديدة للجغرافيا السياسية، والتى رسمت خطوطها ومناطقها ومواقع الثروات فيها، الجوائز التى منحت للمنتصرين فى تلك الحرب، وكان من بينها محتويات ما سيعرف بالعالم الثالث.

أما ما بعد هذه الحرب، فإن الطريق نفسها كانت مفتوحة على مجالات حيوية اقتضت أن يُحسب مداها، وحجمها وتأثيرها:

إن ما بدأ يظهر جلياً، أن تلك الزلزلة التكنولوجية - والتى كان بالإمكان حتى وهى فى بداياتها أن يرى المرء - آثارها رويداً رويداً لثورة دائمة فى شروط الحياة ستبدأ السيطرة حثيثاً على اللانهايات الثلاث وإخضاعها:

❖ لقد فتحت السيطرة على الطاقة الذرية عصراً فى «تفتيت المادة الخاضعة للرقابة» وفى التعامل مع «مستوى الصفر اللامتناهى» بحيث لا يبقى هناك أى حد للغنى وللتحكم اللذين يوفرهما هذا المستوى، فهو على الأقل إذا ما اتخذ وجهة عسكرية، سيكون قادراً على تفتيت نوع الطبيعة ذاتها!

❖ أما على «مستوى الكبر اللامتناهى» فتحت الثورة الفضائية مجالاً لارتياد الكون وتجاوز حدود النوع فى نطاق الكوكب الأرضى.

❖ وأما ما خص «مستوى المركب اللامتناهى» فإن «الثورة السبرانية» وهى (ثورة الآلات الحاسبة، وأوتوماتيكية الإنتاج، والحساب العلمى) بدأت تحضر لمن «ينوب عن دماغ الإنسان» وتحريره من «أعبائه» لأجل وظيفته فى الحلف والذى سيتضح لاحقاً كم أنه قد فاق خيال الإنسان وكم سيفتح أمامه آفاقاً لم يكن ليتصورها أبداً.

كل هذا كان يحتاج «وإن بالتعامل والملاءمة» إلى وعى بـ «التحول الأساسى الجارى».

وكان أول شرط من شروط توفر هذا الوعى، هو أن تدار الدولة بعقلية المتصل مع العصر، وأن تسير متطلبات هذا العصر، ومتطلبات الديمقراطية والنمو التعليمى فى الاتجاه نفسه.

ولكن حتى أواخر ستينيات القرن العشرين كان كل جيل يجد نفسه أمام الشروط الخاصة للتحولات، وكأنه فعلاً أمام «معطى» زمنى لا يمكن تعديل ثوابته التى فرضتها الثوابت الناجمة عن تلك الثورات العلمية والتكنولوجية وانعكاسها على البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأى بناء مجتمعى ولا حتى تحريكها قريباً أو بعيداً عن هذه الثوابت.

وهكذا فإن شباب ١٩٤٥ - ١٩٧٠ هم الذين تلقوا المأزق الناشئ عن القصور فى مواكبة تلك التحولات.. فمن إذن سيتولاه العجب إذا ما تمردوا أو ثاروا أو.. من يلومهم على ذلك؟.. كان التمرد هو النتيجة الحتمية للتعثر الذى رافق تطور بناء الدولة فى ذلك الوقت.

والواقع أنه فى كل نظام يعانى من الأزمات ويتجاهل أو يستبعد المشاركة الواسعة للمواطنين فى تحمل المسئولية بمواجهتها من إبداء الرأى إلى المساهمة بإنتاج القرار، ولا يتيح لهم المشاركة الحقيقية فى بناء البلاد التى يرتبط مصيرهم بنموها وسلامتها، سيضعف حكماً سبل التوصل إلى اجتراح الحلول الناجعة للأزمة ويفقد تفهم المواطن لأسبابها، ما يدفع فى أحيان كثيرة إلى تفجر حالة الرفض فى المجتمع.

لكن فى الواقع أيضاً أن «التجربة التاريخية قد بينت - يا للمفارقة - أن الثورات المعارضة نفسها ليست فى حمى من أمراض تصلب الشرايين». ■



«الميج» المصرية و«القنبلة» الإسرائيلية



أحمد حجاج



اغتيال كينيدى المفاجئ عطل مسيرة واشنطن فى الخارج خاصة فى الشرق الأوسط



■ أفرجت الخارجية الأمريكية منذ فترة عن عدد من الوثائق السرية الخاصة بها وبالبيت الأبيض فيما يتعلق بالشرق الأوسط. ولفت نظرى عدد من الوثائق المتعلقة بالأسابيع الأولى من حكم الرئيس كينيدى عام ١٩٦١، وهى الفترة التى شهدت رغبة كينيدى فى تحسين العلاقات مع القاهرة وعبدالناصر، ومحاولة استغلال إسرائيل موضوع الأسلحة السوفيتية لمصر لتخويف واشنطون من التغلغل الشيوعى فى المنطقة أو فى أفريقيا خاصة مع اندلاع أزمة الكونجو وإرسال مصر لقوات ضمن قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام.

الوثيقة الأولى بتاريخ ١٦ فبراير ١٩٦١ لمحضر اجتماع ماكجورج باندى المساعد الخاص للرئيس كينيدى للأمن القومى مع افراهام هارمان سفير إسرائيل فى واشنطون الذى كان برفقته موردخاى جازيت الوزير المفوض بالسفارة وهو رجل عسكرى قام بدور فى العمليات الإسرائيلية ضد الدول العربية فيما بعد، ويبدو أنه كان حلقة الوصل بين وزارة الدفاع الإسرائيلية والإدارة الأمريكية فيما يتعلق بسعى إسرائيل للحصول على أسلحة أمريكية حديثة، وهو موضوع كانت واشنطون مترددة بشأنه وخاصة بعد الأنباء التى تواترت عن إنشاء إسرائيل مفاعل ديمونا الذرى واحتمال إنتاج أسلحة نووية عن طريقه وهو ما نفته إسرائيل قطعيا فى ذلك الوقت من أجل التسويف وطمأنة الإدارة الأمريكية فقط ظاهريا.

بدأ السفير الإسرائيلى الاجتماع بقوله إن الأوضاع الهادئة فى الشرق الأوسط استمرت الآن لأربع سنوات، فمنذ عام ١٩٥٨ فإن السياسات الهدامة للجمهورية العربية المتحدة قد تم إيقافها تقريبا فى الأردن ولبنان والعراق. وأظهر الاجتماع الأخير للجامعة العربية فى بغداد تراجع الاتجاهات الوطنية بين العرب التى عملت القاهرة على إثارتها ودفعها. عبدالناصر لم يستطع السيطرة على العرب مثلما كان يفعل فى الماضى. وعندما علق باندى أنه ربما يكون تراجع عبدالناصر قد دفعه إلى الكونجو، قال السفير أن ذلك ليس بعيدا عن الواقع، فعبدالناصر شخصية قلقة وعندما يتم وقفه فى منطقة ما، فإنه يسعى إلى جهة أخرى والآن فإن أفريقيا هى هدفه الرئيسى.

ذكر هارمان أنه بالرغم من الهدوء السائد، إلا أن هناك عاملين يدعوان للقلق فى الشرق الأوسط وخاصة بالنسبة لإسرائيل وبالذات موضوع

كيندى وخروتشوف.. وزمن الحرب الباردة



التسليح الذى يعد أكثر حساسية. فمصر منذ عام ١٩٥٥ هى التى أخذت زمام المبادرة فى هذا الشأن عندما بدأت فى الحصول على الأسلحة السوفيتية. ومنذ نهاية ١٩٥٧ بدأت فى الحصول على المقاتلات السوفيتية من طراز ميج ١٩ وهى أفضل بكثير من أى مقاتلة لدى إسرائيل وفى قدرتها إطلاق صواريخ جو/ جو. وعندما سأل المستر باندى عن أى نوع من الصواريخ يشير إليها السفير الإسرائيلى، أجاب أنه ليس لديه معلومات حول هذه المسألة ولكن بالتأكيد فإن الميج ١٩ تستطيع حمل صاروخ فضلا عن سرعتها الهائلة وقدرتها على الطيران على ارتفاع عال وهى تستطيع التفوق على أفضل طائرة لدى إسرائيل مثل السوبر ميستير الفرنسية. ولذلك فإن إسرائيل تتفاوض مع فرنسا من أجل الحصول على طائرات ميراج والتى لا يمكن فى الوقت الحاضر توريدها قبل ١٨ شهرا.

وقال السفير أن إسرائيل متأكدة ولديها الدليل بأن الجمهورية العربية المتحدة (لم يكن انفصال مصر وسوريا قد حدث بعد) تملك طائرات ميج ١٩ وبعض هذه الطائرات تم تزويد العراق بها، إضافة إلى أن المدربين السوفييت قد وصلوا إلى مصر.

وعندما سأل باندى عما إذا كان الطيارون المصريون أصبحوا أكثر كفاءة عن قبل، قال السفير أن ج.ع.م قامت بجهود كبيرة وناجحة من أجل زيادة نوع التدريب لطياريها وتحسين التنسيق بين أجهزة الجيش المختلفة. وقد تعلم المصريون أكبر درس عن طريق تجاربهم فى سيناء وعملوا بجد من أجل تحسين كفاءة ضباطهم. على أن زيادة القدرات العسكرية المصرية أمر يدعو إلى التساؤل وهو ما كان محل بحث من جانب إسرائيل منذ عام مع الخارجية الأمريكية حول مدى قدرة إسرائيل على مجابهة أى هجوم جوى مفاجئ. ووصف السفير إسرائيل بأنها دولة صغيرة ليس لديها دفاع فى العمق ومجرد شريط ضيق عرضه عشرة أميال ومساحتها لا تتعدى خمسين ميلا فى ٣٥٠ ميلاً. والجمهورية العربية المتحدة لها ٢٦ قاعدة جوية فى محافظتين فقط، ونظرا للميزة الجغرافية التى تتمتع بها فإن طائراتها تستطيع أن تطير فوق إسرائيل وتعود مرة أخرى. إسرائيل لديها ثلاث قواعد جوية عاملة فقط إضافة إلى مطار مدنى رابع يمكن استخدامه فى حالة وقوع أى أزمة.

كل ذلك يعنى - طبقا لرواية السفير الإسرائيلى - أنه



أكد السفير الإسرائيلى للخارجية الأمريكية أن مصر تمتلك طائرات ميج ١٩ وأن بعض هذه الطائرات تم تزويد العراق بها. كما أن هناك مدربين سوفييت وصلوا إلى مصر



يمكن القضاء على قدرات الطائرات المقاتلة الإسرائيلية فى الحال وتدمير وسائل الاتصال فى البلاد مما يخلق مشاكل هائلة من أجل التعبئة البشرية التى تحتاج إلى نظام اتصالات كفء من أجل تعبئة الاحتياطى العسكرى الكبير لزيادة الجيش الصغير المحترف. ونظرا لأن إسرائيل توقعت هذا الوضع من عام، فإنها طلبت من الولايات المتحدة تزويدها بنظام صواريخ مضادة للطائرات.

طلب باندى تزويده بتفاصيل المذكرة التى قدمتها إسرائيل إلى الحكومة الأمريكية فى هذا الصدد. أجاب السفير الإسرائيلى أن بلاده ترغب فى الحصول على صواريخ هوك (وحصلت بالفعل عليها فيما بعد) التى وصفها بأنها مجرد صواريخ دفاعية أرض/ جو لا يمكن استخدامها لأغراض الهجوم ولكنها مثالية للدفاع عن القواعد الجوية الإسرائيلية. وقال أن الولايات المتحدة أبدت ترددا بالنسبة لإدخال نظم صواريخ من أى نوع فى المنطقة ولكنها أكدت للإسرائيليين أنه إذا ظهرت عوامل جديدة فإن هذا الموقف يمكن مراجعته مرة أخرى.

وطبقا لما جاء فى المحضر فإن السفير الإسرائيلى قال إن الوضع يتجه الآن إلى ما كانت تتخوف منه إسرائيل، فالجمهورية العربية المتحدة لديها طائرات ميج ١٩، وبالرغم من أن إسرائيل لا تتخوف من هجوم (مصرى) فى الحال ولكن عليها أن تستعد لذلك فى عام ١٩٦٢ (أى العام التالى بعد المقابلة) عندما تتمكن الجمهورية العربية المتحدة أن تكون فى وضع يتيح لها استخدام قدراتها ضد إسرائيل، إذ لم تكن إسرائيل تمتلك فى هذا التاريخ سلاحا رادعا. وترغب إسرائيل فى البدء منذ الآن فى الاستعداد لهذه الفترة الحرجة عن طريق إرسال خبرائها إلى الولايات المتحدة من أجل التدريب على تشغيل وصيانة صواريخ هوك. وفى الوقت الذى قدمت فيه إسرائيل هذا الطلب، تم إبلاغها أن التسهيلات التدريبية (فى الولايات المتحدة) مشغولة لبعض الوقت، ولكن إذا كان فى استطاعة الإسرائيليين البدء فى التدريب الآن فإن إسرائيل ستكون فى وضع يهيئها أن تكون مستعدة من الناحية البشرية فى حالة حدوث خطر داهم ووافقت الولايات المتحدة على تزويدها بصواريخ هوك.

ومن الغريب أن باندى سأل السفير الإسرائيلى: كيف يفسر ويشرح موقف الولايات المتحدة تجاه هذا الوضع بدلا من أن يقوم هو بشرح هذا الموقف. طبعا أجاب السفير على هواه فى تفسيره للموقف الأمريكى!!. بماذا أجاب؟ قال: إن الولايات المتحدة توافق على أن إسرائيل لها مطالب مشروعة للحصول على قدرة ردع، وتقدير إسرائيل هو أن الوضع يتحرك نحو موقف بمقتضاه فإن ميزان التسلح هو لصالح الجمهورية العربية المتحدة وهو تفسير لم تعارضه واشنطون. ولكن الولايات المتحدة لا ترغب فى أن تدخل إلى الشرق الأوسط معدات هجومية وتنصح إسرائيل بأن تحصل على احتياجاتها (العسكرية) الرئيسية من «المصادر التقليدية» وخاصة فرنسا وبريطانيا. وقد وافقت الولايات المتحدة أن تبيع لإسرائيل معدات للإنذار المبكر بشروط ائتمانية لمدة ثلاث سنوات وقد أنهى فريق من الخبراء الإلكترونيين الإسرائيليين مؤخرا جولة فى عدد من القواعد الأمريكية ومؤسساتها ومصانعها حتى يكونوا ملمين بهذه المعدات الجديدة. وقد عاد الفريق إلى إسرائيل والأخيرة الآن تبحث عما إذا كانت ستتقدم بطلب المعدات أم لا ؟



وأضاف السفير الإسرائيلى هارمان: إن الولايات المتحدة قد وافقت أن تأخذ فى الاعتبار العبء الاضافى على عاتق الاقتصاد الإسرائيلى فيما يتعلق بالاحتياطيات الدفاعية (أى تغطى أمريكا تكاليف المعدات التى تطلبها إسرائيل). وفى الوقت الذى قد لا ترغب فيه واشنطون فى تمويل هذه العملية مباشرة، فإن الإسرائيليين تم إخبارهم أن الولايات المتحدة ستقوم بدراسة تأثير النفقات العسكرية عند بحث الطلبات الإسرائيلية ضمن قطاعات المساعدات (الأمريكية) المختلفة.

وسأل باندى السفير عما إذا كان يكرر من جانبه طلب الحصول على الصواريخ الأمريكية أو يقصد أن يقول أن هذا الطلب سيتم فى المستقبل، أجاب السفير أنه ليست لديه تعليمات فى هذا الصدد حتى مجرد تلميح بمثل هذا الطلب من جانب بلاده، ولكن إسرائيل تعيد النظر فى طلباتها فى ضوء حصول الجمهورية العربية المتحدة على طائرات ميج ١٩.

وأشار السفير باختصار إلى إمكانية قيام نظام نزع السلاح الإقليمى (وهو ما ترفضه الآن إسرائيل منذ سنوات بالرغم من أنها هى التى اقترحته) الأمر الذى يمكن تحقيقه بسهولة فى الشرق الأوسط باتفاق بين الدول الكبرى وبمقتضاه فإن كل دول المنطقة تجبر على أن تتصل بالقوى الكبرى للحصول على المعدات (العسكرية) المميتة على حد قوله، لأنه نظرا للوضع المتقلب فى المنطقة فإن إدخال أى نوع جديد من هذه الأسلحة الهجومية يحمل فى طياته تغيرات هائلة. وهنا بالطبع تريد إسرائيل أن تحتكر لنفسها فقط فى هذه الفترة الاستحواذ على أسلحة هجومية، لأن مبدأها هو عدم القتال مطلقا على أراضيها بل يجب أن تكون أى معركة مع العرب فى الأراضى العربية نفسها حتى لا يتعرض العمق الإسرائيلى لأى أخطار.

سأل باندى السفير الإسرائيلى عما إذا كان إنشاء المفاعل الذرى الإسرائيلى لا يشكل إدخالا للعنصر الحساس الذى أشار إليه السفير. أجاب الأخير: إن إسرائيل ليس لديها النية لصناعة قنبلة نووية فضلا عن أن المفاعل أمامه ثلاث أو أربع سنوات لإتمامه. أكد باندى على تأثير مثل هذه التطورات على الرأى العام العربى، فانبرى السفير قائلا إن هذا الموضوع قد تم تسريبه بطريقة غير ضرورية، وبمنتهى الصدق فإن تأثيره فى المنطقة كان سلبيا (كانت إسرائيل تفضل أن يكون الموضوع سريا إلى الأبد وتضع الجميع بما فيهم الولايات المتحدة أمام الأمر الواقع وهو ما حدث بالفعل).
وأضاف: إن عبدالناصر يهدد بتعبئة أربعة ملايين رجل وهو أمر لم تستخفه إسرائيل على الإطلاق.

وذكر السفير كذلك أن التكهنات المثارة ليس لها أى أساس وكما أوضح هو بنفسه لوزير الخارجية الأمريكى، فإن إسرائيل ليس لديها نية لاستغلال المفاعل إلا فى الأغراض السلمية. كما أن تحقيق زيارة للمفاعل (من جانب عالم أمريكى أو غيره) وهى فكرة أبدت حكومته اهتماما بها، قد يتحقق بواسطة بن جوريون إذا ما عاد لتولى رئاسة الوزارة على ضوء الأزمة الوزارية الحالية (بسبب فضيحة لافون المتعلقة باكتشاف مصر لشبكة التجسس التخريبية الإسرائيلية). وهنا قال باندى: أنه لا يشك أن بن جوريون الذى ينظر إليه باعتباره شومان عالم السياسة الدولية (شومان هذا سياسى فرنسى شهير قام باقتراح نواة الاتحاد الاوروبى الحالى فى نهاية الخمسينيات من القرن الماضى)، سيعود إلى رئاسة الحكومة الإسرائيلية مرة أخرى.وكرر باندى مرة أخرى للسفير مسألة مشروعية القلق العربى فيما يتعلق بالبرنامج النووى الإسرائيلى.

قلل السفير الإسرائيلى من أهمية هذا البرنامج، وقال: إنه مجرد مفاعل صغير وإذا كانت الجمهورية العربية المتحدة تريد مفاعلا أو حتى برنامجا مماثلا أو مفاعلا اكبر يخصص لنفس الغرض الذى قامت به إسرائيل، فإن حكومته لن تهتم بذلك. هذا العرض الإسرائيلى الغريب بالطبع جاء فى نية التسويف مع واشنطون. ولذلك أقترح من جانبى أن تقوم القاهرة بتقديم هذا العرض إلى الولايات المتحدة الآن للحصول على مفاعل أمريكى مماثل للمفاعل الذى حصلت عليه إسرائيل من فرنسا. ويجب أن نتذكر هنا أن الرئيس نيكسون عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ تعهد بتزويد مصر بمفاعل نووى للأغراض السلمية ولكن الولايات المتحدة نكصت عن وعدها.

علق باندى على حجم النفقات لمثل هذا البرنامج ولكن السفير هارمان قال: إنها متواضعة حيث إن المفاعل مخصص كليا للتجارب العملية وتدريب العلماء الذين بعد خمسة عشر عاما من الآن (أى فى ١٩٧٦) سيكون له قيمة كبيرة إذا ما تمكنت القوى الكبرى من تحقيق اختراق بالنسبة لموضوع الاستخدامات السلمية للأغراض الاقتصادية. وكرر السفير اقتراحه أن تنظر الولايات المتحدة فى اقتراح نزع السلاح فى المنطقة (بالطبع نزع سلاح الدول العربية وليس إسرائيل) ومن فوائد هذا الاقتراح فى رأيه سيكون منع تدفق الأسلحة الشيوعية إلى أفريقيا. وقال إن المخابرات الإسرائيلية لديها معلومات أن الفئات الشيوعية (يقصد حركات التحرير) فى الدول الأفريقية تتلقى أسلحة، ليس مباشرة من السوفييت، ولكن عن طريق الجمهورية العربية المتحدة.

جرى الحديث بين باندى والسفير الإسرائيلى بعد ذلك حول موضوعات أخرى مثل موضوع تحويل مياه نهر الأردن واللاجئين العرب، وانتهى الاجتماع بتأكيد باندى أنه على استعداد لمقابلة السفير الإسرائيلى وزملائه فى أى وقت، ولكنه أوضح أن المشاكل التى بحثت يجب مناقشتها أولا مع الخارجية الأمريكية. ومن المعروف أن الرئيس كينيدى كان يؤمن باللامركزية وضرورة عدم استحواذ البيت الأبيض على كل القرارات، ولذلك بعد مقابلة السفير الإسرائيلى مع باندى بعدة أيام أصدر قرارا رئاسيا بأن تعهد إلى الخارجية الأمريكية بعض الشئون المتعلقة بالأمن القومى فيما يتعلق بطريقة التعامل مع المناطق الجغرافية فى العالم والدول المختلفة على حدة، مع التنسيق بين

وزارات الدفاع والخارجية والمخابرات الأمريكية فى هذا الشأن.

ونتيجة لهذه المقابلة لم تسكت الخارجية الأمريكية التى لم يحضر مسئول منها اجتماع باندى مع السفير الإسرائيلى فى البيت الأبيض، ولذلك بادر السفير ستوسل وهو أكبر مسئول فى الخارجية بعد الوزير إلى إرسال تعليق مثير للاهتمام إلى باندى مساعد الرئيس كينيدى الخاص بالأمن القومى. هذا التعليق الذى أرسل بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٦١ كان على النقاط التى وردت على لسان السفير الإسرائيلى، وحاول فيه ستوسل أن يفند بعض الأسانيد العسكرية التى استند إليها السفير فى تفسيره لطلب أسلحة أمريكية جديدة أو التهويل من قدرة الأسلحة التى حصلت عليها مصر. كان باندى نفسه قد طلب تعليق الخارجية وبعدها اجتمع خبراء من ثلاث إدارات أعدوا الرد التالى:

«(١) يقول السفير هارمان إن الطائرات السوفيتية من طراز ميج ١٩ التى يعتقد أن الجمهورية العربية المتحدة قد حصلت عليها، تفوق بكثير أفضل ما فى حوزة إسرائيل من طائرات مقاتلة وهى طائرة «سوبر ميستير» الفرنسية. فى رأى الخارجية الأمريكية فإن سوبر ميستير لا تقل عن الميج ١٩، ولو أن الأخيرة تتمتع بعدة نقاط تميز إذا ما عملت تحت ظروف معينة. وطبقا لمعلومات الخارجية فإن طائرات الميراج الفرنسية التى وافقت فرنسا على تزويد إسرائيل بها هى أفضل بكثير من الميج ١٩، وأرفقت الخارجية تقريرا مقارنا عن كفاءة كل من الميج ١٩ وسوبر ميستير والميراج. ولم يتم نشر هذا التقرير ضمن الوثائق الأمريكية.

(٢) السفير هارمان يقول إن الحكومة الأمريكية اعتذرت عن تزويد إسرائيل بصواريخ هوك أرض / جو ولكنها أكدت للإسرائيليين أنها ستعيد النظر فى الموضوع فى حالة ظهور تطورات جديدة. تقول الخارجية تعليقا على ذلك إن اعتذار الحكومة الأمريكية يرجع إلى عدم رغبتها فى إدخال مثل هذا السلاح المتطور إلى الشرق الأوسط مما يمثل عنصرا جديدا وخطيرا ويدخل المنطقة فى حلقة مفرغة من السعى إلى الحصول على أسلحة أكثر تطورا (وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك). إن القول عن «استعداد» الولايات المتحدة لإعادة النظر قد تم التعبير عنه من قبل مسئولين أمريكيين تم الضغط عليهم كثيرا (هذا التعبير الذى استخدمته الخارجية الأمريكية وهو ما يعنى أن اللوبى الإسرائيلى قام بالضغط على هؤلاء المسئولين فى الكونجرس وغيره من الدوائر الأمريكية) الذين أكدوا أن مثل هذا التدخل لن يؤدى إلى اعادة النظر لتعديل هذا الموقف الأمريكى (هذا موقف شجاع من الخارجية الأمريكية ولكنه بالطبع لم ينقل إلى الإسرائيليين). وأرفقت الخارجية صورة من المذكرة التى سبق اعتمادها فى هذا الشأن وبموجبها تم الاعتذار عن تزويد إسرائيل بصواريخ هوك. وتقول الخارجية إن المبررات الواردة فى المذكرة لاتزال قائمة (بالطبع غيرت الإدارة من موقفها فيما بعد ورضخت للضغوط الإسرائيلية وزودت إسرائيل بصواريخ هوك وغيرها). هذه المذكرة كانت تحت عنوان «الاعتبارات المتعلقة بطلب إسرائيل تزويدها بصواريخ هوك» وهى مماثلة لمذكرة سابقة ارسلها مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط إلى نائب وزير الخارجية للشئون السياسية بتاريخ ٧ يوليو ١٩٦٠ أى قبل تولى كينيدى الرئاسة.

(٣) قال السفير الإسرائيلى: إنه بالرغم من أن الولايات المتحدة غير قادرة على تمويل مشتريات الأسلحة إلا أنها ستأخذ فى الاعتبار ذلك عند بحث الطلبات الإسرائيلية ضمن قطاعات المساعدات الأمريكية المختلفة. وتقول الخارجية الأمريكية إن موقفها كان دائما يقوم على أساس أن طلبات إسرائيل للحصول على مساعدات أمريكية يجب أن يؤسس على اعتبارات اقتصادية (أى مدى قدرة الاقتصاد الإسرائيلى على السداد)، وقد حرصنا على الامتناع عن تأييد الاقتراح الإسرائيلى (أى الحصول على الأسلحة الأمريكية ببلاش أى كهبة كما يحدث الآن منذ ثلاثة عقود تقريبا) على أساس أن زيادة العبء العسكرى الإسرائيلى سيؤدى إلى زيادة برنامج المساعدات والقروض الأمريكية لإسرائيل. وقد تم التأكيد على أن النفقات العسكرية والأمنية لأى دولة هو فقط مجرد أحد أوجه المسألة التى يجب فحصها قبل تقرير مدى قابليتها للحصول على مساعدات.

(٤) عبر السفير هارمان عن عدم سعادته بتسريب موضوع البرنامج النووى الإسرائيلى إلى الرأى العام (وهى إشارة غير مباشرة من جانب إسرائيل بأن بعض الجهات الأمريكية هى المسئولة عن ذلك). تقول الخارجية فى ملاحظتها: إن مشروعا بمثل هذه الأهمية كان سيصل إلى معرفة الرأى العام له قريبا أو بعيدا. وغالبا ما يكون هذا الموضوع قد تسرب على مدار عامين من الزمن. لقد حاولت حكومتنا (أى الأمريكية) أن يظل الموضوع سريا فى انتظار رد إسرائيل الرسمى ولكنها كانت مضطرة للتعليق عليه بعد أن تسرب الموضوع بأسلوب دراماتيكى فى الصحافة البريطانية. وهناك مبررات قوية لما تذكره إسرائيل بأنهم مجبرون لإحاطة الموضوع بنطاق كبير من السرية مخافة الضغوط العربية ضد المشروع. إضافة إلى ذلك فإن عددا من زعماء الكونجرس غير سعداء بأن إسرائيل أبقت مثل هذه التطورات المهمة سرية حتى عن الولايات المتحدة فى فترة كان من المفترض فيها أنهم يعملون على أساس من الثقة المتبادلة للضغط من أجل طلبات حساسة تتعلق بالحصول على مساعدات عسكرية واقتصادية.

(٥) الوزير المفوض بالسفارة الإسرائيلية موردخاى جازيت اقترح أنه من الضرورى أن تتضمن خطة جونستون المتعلقة بمياه وادى الأردن (والمتعلقة بخطة أمريكية لتوزيع مياه نهر الأردن بين العرب والإسرائيليين) يجب أن تتضمن ترك مياه الأردن لإسرائيل وترك مياه اليرموك وهو أحد فروعه للمملكة الأردنية (أى أن إسرائيل تتحكم فى كميات المياه التى تتدفق من نهر الأردن إلى اليرموك). تقول الخارجية الأمريكية فى تعليقها أنه بالرغم من أنه طبقا لخطة جونستون، يتوجب على إسرائيل أن تعطى الأردن مائة مليون متر مكعب من مياه نهر الأردن فإن الأردن سيحصل على كل توقعاته من اليرموك فقط إذا ما تم احتجاز وتخزين مياه الفيضان لهذا الغرض فى بحيرة طبرية، وهى بالكامل تحت سيطرة إسرائيل. وبسبب هذه الالتزامات بين الأطراف فإن خطة جونستون تنص على وجود إشراف دولى للمياه، بينما يمكن للأردن أن يحصل على ٨٥٪ من احتياجاته من نهر اليرموك، بشرط إقامة خزان فى منطقة المقارن، فإن نصيب الأردن العادل طبقا لحسابات خطة جونستون يمكن تحقيقه بالكامل فقط عن طريق تنازلات فعلية من جانب إسرائيل».



هذه المذكرة المرسلة إلى باندى موقعة من السفير ستوسل.... ولا تعليق لدينا حول هذا الموضوع سوى أن الخارجية الأمريكية فى بداية عهد الرئيس كينيدى كانت لديها الشجاعة لتقول رأيها فى الطلبات والضغوط الإسرائيلية بقدر نسبى من الصراحة، ولكن بالطبع لم يتم إبلاغ إسرائيل بهذه الملاحظات المنطقية مخافة تأليب اللوبى الإسرائيلى وأنصاره على الإدارة الجديدة. وللإنصاف فإن باندى عندما تولى منصب مساعد الرئيس كينيدى للأمن القومى لم يكن عندما قابل السفير الإسرائيلى قد مضى على إدارة كينيدى سوى أقل من شهر واحد ولم يكن على علم بعد بالتزامات إدارة أيزنهاور السابقة تجاه إسرائيل. وهذا يفسر حذره فى تناول موضوع الأسلحة الجديدة التى طلبتها إسرائيل. كما أن باندى كان معروفا عنه خبراته العميقة وأفقه الواسع ونظرته الاستراتيجية الواسعة وكان ناصحا أمينا لكينيدى الذى بدأ عهده بنوع من المثالية، ولكن التنافس مع الاتحاد السوفيتى وأزمة الصواريخ السوفيتية فى كوبا أعادته إلى أرض الواقع. اغتيال كينيدى المفاجئ - فى رأيى - عطل مسيرة الولايات المتحدة فى الخارج وخاصة فى مجال السياسة الأمريكية نحو الشرق الأوسط. ■



قلل السفير الإسرائيلى
من أهمية برنامج بلاده النووى
وقال: إذا كانت مصر تريد برنامجًا مماثلا
فإن حكومته لن
تهتم بذلك

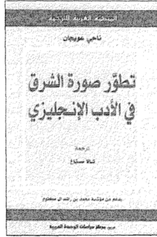


تطور صورة الشرق فى الأدب الإنجليزى

■ يخال قارئ اليوم أن الاهتمام الغربي المعاصر بحضارات الشرق الأوسط وشئونه نشأ وتطور خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، وفى الفترة التى تلتهما، علماً بأن هاتين الحربين تفجرتا فى النصف الأول من القرن العشرين. إن مشاعر العداء الراقدة أحياناً، والناشطة أحياناً أخرى، مشاعر نشهدها اليوم بين الغرب والسواد الأعظم من شعوب منطقة الشرق الأوسط، تتجلى فى النزاعات السياسية والاقتصادية والعرقية القائمة بين هذين القسمين من العالم وتبرز باعتبارها نتيجة طبيعية لهذه الخلافات؛ وهذه المشاعر إنما هى فى الواقع قديمة العهد، أبصرت النور منذ قرون عديدة. وفى هذا الوقت بالذات حيث تنشد القوى العظمى، أكثر من أى وقت مضى، رأب الصدع وتطويق المواقف عبر إقامة علاقات وطيدة بين شعوب العالم، وإذ تساهم وسائل الإعلام، من خلال تكنولوجيا عالية ومتطورة، فى تعزيز حملات التوعية التى تطال حضارات العالم المتباينة، يأتى عملى هذا ليزود القارئ، سواء أكان غربياً أم شرقياً، باستقصاء موضوعى حول نشوء صورة الشرق فى العالم وتطورها.

صورة الشرق هذه، فى انعكاسها السلبى والإيجابى، ظهرت، إن جلياً أو ضمنياً، فى أعمال الكتاب الغربيين الدينية والتاريخية والأدبية، لاسيما فى كتابات البريطانيين منهم. وعندما كتب اللورد بايرون (Lord Byron) الروايات الشرقية (The Oriental Tales) فى أوائل القرن التاسع عشر، كان قد بلغ الاهتمام الإنجليزى بعالم الشرق الغريب أوجه وكانت قد ظهرت أعمال جمة حول دين هذه المنطقة وتاريخها والأدب فيها. وينتمى هذا القدر الكبير من الكتابات إلى القرن الثامن عشر إلا أن الاهتمام الإنجليزى بالشرق يرقى إلى الحقبة الأنجلوسكسونية، ولاسيما بعد اعتناق المسيحية فى الغرب، ولاسيما فى إنجلترا فى أواخر القرن السادس، حيث ترسخ هذا الاهتمام بسبب توق الغربيين إلى التجارة والحج والثقافة والمغامرة.

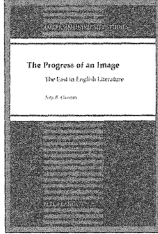
إن أكثرية الرحالة الغربيين الذين بحثوا عن المغامرة فى الخارج، على غرار الحجاج والباحثين الأيرلنديين، فى أوائل القرن الخامس، والصليبيين فى القرون الوسطى، عادوا إلى الوطن الأم ليخبروا أو يكتبوا روايات، تفتقر إلى الواقع وإنما تفيض بالخيال عن الشعوب الشرقية ومناطقها. وبهذا، لا يمكن للقارئ التعمق فى قراءة هذه الأعمال من دون أن يشعر بأن هؤلاء الرحالة



تطور صورة الشرق فى الأدب الإنجليزى
ناجى عويجان
ترجمة: تالا صبّاغ
مراجعة: د. سعود المولى
المنظمة العربية للترجمة: بيروت، ٢٠٠٨
بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
توزيع مركز دراسات الوحدة العربية

تأثروا بالدعاية السياسية والدينية وببعض الصور المركبة، فمن كتاباتهم ينبثق هذا العزم على تصوير الشرق وشعبه وحضارته تصويراً مشوهاً. ويعتبر إدوارد سعيد (Edward Said) أن هذا العزم أتى نتيجة لانتشار الإسلام فى رقعة واسعة من العالم، فى أوائل القرن الرابع عشر، فشكل تهديداً تأتى عنه «ذعر دائم» لدى الشعوب الأوروبية. ومن هنا، سأظهر فى هذا الكتاب، أن روايات الأوروبيين أسفرت عن تيار أدبى جديد، نقل صورة خاطئة وسلبية عن هذه الرقعة من العالم. هذه الصورة الخاطئة دامت حتى منتصف القرن الثامن عشر، فقد اعتبر الشرق الأوسط الذى هو منبع اليهودية، والمسيحية، والإسلام، فضلاً عن حضارات أخرى بارزة وقديمة، معقل الجهل والحروب، وأرض الوحوش والمخلوقات الغريبة، فى الوقت الذى كان، فى الواقع، ينعم بالازدهار السياسى، والاقتصادى، والدينى، والثقافى.

تجدر الإشارة هنا إلى أن معظم الأدباء البريطانيين الذين لم يعبروا «القناة الإنجليزية» استندوا إلى روايات الرحالة الأوائل التى اعتمدت على الخيال أكثر منه على الواقع، فاستوحوا منها لكتابة الأعمال التى ساهمت بدورها، عمداً أو من دون قصد، فى تعزيز الصورة الخاطئة عن الشرق. لم يفتقر هؤلاء الكتاب إلى التجارب المباشرة



The Progress of an Image. The East in English Literature
Naji B. Oueijan
Lang, Peter Publishing.
Incorporated 1996

فحسب، بل اهتموا كذلك، أكثر ما اهتموا، بإدهاش القراء، بصورة غريبة، للاستحواذ على اهتمامهم بدل تقديم صور تعكس الواقع.



ومن جهة أخرى، تجلت صورة الشرق الحقيقية فى أدب الرحالة والباحثين المستقلين الذين حرروا أنفسهم من المعتقدات التقليدية ومن التحيز السياسى والدينى ضد الشرق، فتبنوا فهماً حقيقياً لحضارة هذه الرقعة القديمة من العالم. وما كتبوه من أدب الرحلات والأعمال التثقيفية، الدقيقة والموضوعية، كثيراً ما غير فى موقف الجمهور البريطانى حيال الشرق، وزود الأدباء البريطانيين بمعلومات حقيقية. وقد تبلور هذا الموقف العلمى الجديد إزاء الشرق عقب الغزو البريطانى للهند، فى منتصف القرن الثامن عشر، حين باتت الاتصالات بين الشرق والغرب متواصلة ومباشرة، والعلاقات أكثر ترسخاً من أى وقت مضى. وبذلك، صحح بعض الكتاب البريطانيين البارزين صورة الشرق المشوهة التى كانت قد طبعت فى أذهان قرائهم عندما قدموا لهم أعمالاً أدبية، ومعلومات حقيقية وموضوعية عن الشرق.

إن خصائص الشرق التى اعتمد عليها الكتاب الإنجليز وغيرهم من أدباء الغرب لإنتاج عمل ما، حقيقية كانت أو مشوهة، شملت أحداث هذه المنطقة وجغرافيتها وسكانها وأعرافها وأزيائها وأسلوبها، ولا سيما الأفكار الشرقية السائدة؛ كلها خصائص، إن غابت غاب معها اللون الشرقى والروح الشرقية، وكلمة «الشرقى» ترد هنا بالمعنى الذى فسره سيدنى نتلتون فيشر (Sydney Nettleton Fisher) والتى تمثل «الشرق أو المشرق أو الشرق الأدنى». وفى أيامنا هذه، تمت الاستعاضة عن جميع تلك التعابير بتعبير أكثر دقة، وهو «الشرق الأوسط»، وهى منطقة تشمل ألبانيا الحديثة واليونان وتركيا والعالم العربى، وتمتد على طول الشاطئ الشرقى الجنوبى للمتوسط، ثم تغوص فى آسيا.

يناقش لويس وان (Louis Wann)، فى تحليله للشرق، فى دراما العصر الإليصاباتى: «مسارح الأحداث» و«الجنسيات» و«الأعراف» المطروحة فى الدراما الشرقية. ويشدد كذلك على دلالة الأفكار الشرقية فى المسرحيات. وفى الإشارة إلى الرواية الشرقية، تسلط مارثا بيك كونانت الأضواء على أهمية اللون الشرقى البحت لهذه الكتابات الذى تجسده «الخلفية الزاهية للأعراف الشرقية» و«اللغة الملونة بأسلوب شرقى». هذه الخصائص الشرقية التى تبرز فى الدراما والأدب القصصى هى نفسها تقريباً فى الشعر والأنواع الأدبية الأخرى. وعليه، فثمة عاملان أساسيان يميزان بين الصورة الأدبية الشرقية الصحيحة والصورة الخاطئة: أولهما الخصائص الشرقية التى، إذا ما تواجدت فى الأدب الحقيقى، أدت إلى إضفاء اللون الشرقى الخاص به، وإلى تعزيز الأفكار الشرقية، وإن استخدمت فى الأدب المشوه، فلهدف الزخرفة ليس إلا، وثانيهما كاتب العمل الذى، إن انتمى إلى النوع الأول من الأدب، قدم صوراً حقيقية عن الشرق، وأما إذا كان من كُتاب النوع الثانى، فقد عرض، عمداً أو بدون قصد، صوراً طغى عليها الخيال والتشويه.

إلا أن الجمهور الإنجليزى لم يكن يعى، فى بادئ الأمر، هذين العاملين؛ بل كان يعتبر كل الأعمال المنشورة، الشرقية والغربية، مقتبسة من الواقع، بغض النظر عما إذا كانت تقدم معلومات صادقة أو كاذبة. هذا الجمهور الذى كان قد نهض لتوه من عصور الجهل والخرافات اعتبر الشرق موطن الألغاز والسحر والعجب، موطن أناسه من الوثنيين بطبيعة وحشية وغادرة. كذلك

ناجـــــى عويجـــان



«الحريم» للفنان الإنجليزى جون فريدريك لويس (١٨٥٠) - ألوان مائية - متحف فيكتوريا وألبرت

صدق ذاك الجمهور روايات شوهت صورة الإسلام لأهداف الدعاية السياسية والدينية، لأن الإسلام كان يشكل تهديداً للنصرانية، يرقى إلى عدة قرون. إنما مع مرور الزمن، أخذ موقف الإنجليز يتغير إزاء الشرق وشعبه، وذلك بعد أن أصبحت الأعمال الأدبية أكثر مصداقية فى نقلها لعالم الشرق، وبات هؤلاء يميزون تدريجياً بين ما هو صحيح وما هو كاذب. ولكن حتى القرن العشرين، لم يشهد اندثاراً كلياً للآراء والأخبار المشوهة التى تتناقلها وسائل الإعلام الشرقية والغربية. إن العوامل السياسية والاقتصادية والعرقية، أكثر منها الدينية، تعزز مشاعر العداء بين العالمين الغربى والشرقى.

إن عملاً كهذا إنما يصب فى خدمة الأكاديميين والطلاب الذين يبحثون عن المعارف، ويدرسون أدب الفترات المعينة. وآمل شخصياً أن يشكل هذا الكتاب حافزاً للباحثين كى يواصلوا الاستقصاءات والأبحاث فى هذا المضمار، ولاسيما أن هذه المسألة لم تعد متعلقة اليوم بالاهتمامات والدراسات الأدبية فحسب، بل بميادين دراسية أخرى. وعلى هذا الكتاب أن يفيد أيضاً المؤرخين والسياسيين المعاصرين إذ إنه يناقش أسباب الخلافات الثقافية التى غالباً ما تسفر عن نزاعات سياسية بين مختلف شعوب العالم.

إن ثقافة اليوم، على العكس من ثقافة الأمس، هى نتاج بحث العالم عن الحقيقة، وذلك عبر الدراسات والاستقصاءات والبحوث العلمية المعممة. ومن هذا المنظار أردت عمداً أن أكشف النقاب عن الحقيقة الكامنة وراء الخلاف الثقافى هذا، لا أن أصدر أحكاماً على ثقافة أو على أخرى. ولهذا السبب، جعلت من الخلفيتين التاريخية والأدبية، اللتين أدتا إلى نشوء صورة الشرق وحضاراته، وتطورها فى التيارات الأدبية الإنجليزية، موضوع كتابى الذى يتألف من ثلاثة أجزاء: يضم الجزء الأول نشوء الثقافة الشرقية فى الأدب الإنجليزى وتطورها، وذلك منذ الحقبة الأنجلوسكسونية وحتى أواخر القرن السابع عشر. أما الجزءان الثانى والثالث، فيتناولان التحول عن المفهوم التقليدى الخاطئ للإسلام والشرق فى أدب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

بحثت أولاً، فى الأجزاء الثلاثة، الروابط التاريخية القائمة بين إنجلترا والشرق، ثم ناقشت تأثير هذه العلاقات على تطور صورة الشرق فى أدب الفترات موضوع البحث. لقد أحجمت عمداً عن إبراز تطور هذه الصورة فى القرن العشرين بسبب تنوع التعبير الأدبى الحديث الذى لم يعد يقتصر على المواد المطبوعة، بل أخذ يستخدم أساليب شتى لنقل الآراء وتبادلها. ومما لا شك فيه أن هذا الموضوع واسع وغنى جداً ليناقش فى عمل وجيز كهذا. وبما أن الهدف الأساسى لهذا العمل يقضى بإرضاء القراء والباحثين الغربيين والشرقيين على حد سواء، أولئك الذين ينشدون فهماً أفضل لحضارات العالمين، بذلتُ قصارى جهدى بغية أن أنتقى أبرز الكتاب الذين كان لهم الوقع الأشد على تطور صورة الشرق فى الأدب الإنجليزى. ومن بين هؤلاء الكتاب، ناقشت بالتفصيل أعمال سامويل جونسون، وليم بيكفورد، لورد بايرون، وتوماس كارلايل بسبب التأثير الهائل الذى كان لهم على تعزيز صورة الشرق فى إنجلترا، وبحكم مساهمتهم فى تصحيح هذه الصورة الخاطئة للشرق فى الأدب. ■

الـثـقـافـة مـن الحـداثـة إلـى الـعـولـمـة

محـمـود الـذوادى

■■ سعى المؤلف إلى تغطية كاملة لميدان مفهوم الثقافة كما تطرحه على الخصوص العلوم الاجتماعية والإنسانية الحديثة. ولعله يكون بذلك أفضل الكتب العربية شمولية لمجال الثقافة، من ناحية، وأحسنها منهجية وترتيبا فى كتابة الفصول، من ناحية أخرى، الأمر الذى يؤهل ربما محتوى هذا الكتاب ليكون نصا مرجعيا لطلبة الجامعات الذين يدرسون مقررا حول الثقافة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية. ونظرا لطول الكتاب بسبب التفاصيل التى تحتوى عليها فصوله، من جهة، ومحدودية عدد الصفحات لكتابة مراجعة هذا الكتاب، من جهة ثانية، فإننا سوف نقتصر على ذكر بعض الأفكار الرئيسية التى يبرزها كل فصل من فصول الكتاب، مع إمكانية تحليلها ومناقشتها باختصار.

فى الفصل الأول «الثقافة وإشكالية التعريف والنشأة» يتعرض المؤلف إلى ولادة كلمة ثقافة Culture وإلى تعدد التعاريف لهذه الكلمة التى تجاوزت ١٦٠ تعريفا (ص ٣١) هيمن فيها علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع. ومن ثم أصبح مفهوم الثقافة أحد المفاهيم الرئيسية الثلاثة التى يكثر استعمالها فى العلوم الاجتماعية المعاصرة، ألا وهى مفاهيم المجتمع Society والثقافة Culture والشخصية Personality (ص ٢٧).

يقوم المؤلف بجرد لأدبيات علمى الأنثروبولوجيا والاجتماع الغربيين بخصوص كل من مصدر وتعريف الثقافة. فبالنسبة لهذا الأخير يكتب بحروف غليظة التعريف المشهور للثقافة لعالم الأنثروبولوجيا البريطانى إدوارد تيلور Edward B.Tylor (١٨٣٢-١٩١٧) دون إبداء أى نقد أو حتى أى تحفظ لمثل ذلك التعريف القابل للقدح بسبب ما يتضمنه من قصور، كما يتجلى ذلك فى مسألة مصدر/جذور ظاهرة الثقافة فى المجتمعات البشرية.

فهناك بالتأكيد بعض الاضطرابات عند المؤلف بالنسبة لمصدر ظاهرة الثقافة فى المجتمعات البشرية، فمن ناحية يقول: «فالثقافة لا توجد إلا بوجود المجتمع، وعناصر المجتمع الأولى هى الأفراد، والفرد كائن اجتماعى، والمجتمع لا يقوم ولا يبقى إلا بالثقافة (ص ٢٨). ومن ناحية أخرى، يؤكد «والثقافة بدون لغة هى ضرب من المحال» (ص ٣٩). ومن ثم فالتأشيرة الأولى/الأم لدخول باب الثقافة فى دنيا المجتمعات البشرية هى اللغة. أى أن اللغة البشرية فى شكليها المنطوق والمكتوب هى الأساس الوحيد لتجسيد ظاهرة الثقافة فى المجتمعات البشرية. فاللغة، فى كتاباتنا حول هذا الموضوع [1] هى أم كل الرموز/معالم المنظومة الثقافية فى المجتمع البشرى. ومن هنا جاء نقدنا لتعريف تيلور للثقافة الذى تخلو عناصره من كلمة اللغة، بينما هذه الأخيرة هى المنشئة أصلا لبقية عناصر المنظومة الثقافية فى المجتمعات البشرية. وبعبارة أخرى، فالعلاقة بين اللغة والثقافة فى المجتمعات البشرية هى علاقة حميمية جدا.

يحفل الفصل الثانى «المقارنة الأنثروبولوجية للثقافة» بأسماء مشاهير علماء الأنثروبولوجيا والتعاريف والمفاهيم والاتجاهات والنظريات التى أنشأها هؤلاء العلماء نتيجة لدراساتهم لثقافات المجتمعات البشرية.

يقوم المؤلف بملاحظة هامة حول التعاريف الأنثروبولوجية للثقافة «إن مختلف التعاريف الأنثروبولوجية حافظت على المقابلة بين الطبيعى والثقافى» (ص ٤٩) فعند مالينوفسكى تعتبر الثقافة نتيجة لتلبية الحاجات البيولوجية عند الإنسان. بينما يرى لفى ستراوس أن ليس هناك ثقافة إلا بعد تجاوز البيولوجيا. ويتم هذا بطرق متنوعة أهمها اللغة. فيصبح العامل البيولوجى ثانويا بالنسبة إلى علم الثقافة. تؤكد هذه الرؤية من جديد مدى الأهمية المركزية للغة فى نشأة وتطور الثقافة.

إن الثنائية الطبيعية-الثقافية فى المقاربات الأنثروبولوجية المتعددة لا تكاد تثير تساؤلا إيبستيمولوجيا أساسيا عن طبيعة الجانب الثقافى فى ازدواجية هوية الكائن البشرى، وهذا ما جعل كليف براون يقول بأن الثقافة تستعمل «كتجريد غامض» كما رأينا من قبل.

لقد قادنا تساؤلنا بهذا الصدد إلى الاستنتاج أن عناصر الثقافة (اللغة، الفكر، الدين، المعرفة/العلم، القوانين، الأساطير، القيم والمعايير الثقافية...) ليس لها وزن وحجم بالمعنى المادى الذى نجده فى الجانب الطبيعى/البيولوجى للإنسان [2]. ومن ثم يمكن القول بأن منظومة الثقافة البشرية هى ذلك الجانب غير المادى من الإنسان والذى له القدرة على تجاوز الجانب الطبيعى/البيولوجى فى الإنسان، كما شدد على ذلك لفى ستراوس. إن بحوثنا فى العلاقة بين الطبيعة والثقافة فى هوية الإنسان تفيد أن الثقافة هى العنصر المركزى فى هوية الإنسان لا فى إعطائه السيادة فى هذا العالم/الكون فحسب بل أيضا حتى فى هندسته البيولوجية التى تجعل، من جهة، النمو والنضج البيولوجى البشرى بطيئا جدا مقارنة بنظرائه عند بقية الكائنات، وتعطى، من جهة أخرى، أفراد الجنس البشرى مدى حياة أطول من معظم أعمار أفراد الأجناس الحية الأخرى.

ينتهى هذا الفصل بملاحظة سلبية حول جهود المقاربة الأنثروبولوجية بوجهيها القديم والجديد: «نخلص إلى أن إثنولوجيا النصف الثانى من القرن العشرين شابها الكثير من التضارب، وهى افتقدت إلى الاستقرار الأكاديمى الذى عرقل توصلها إلى نظريات علمية» (ص ٦٣).



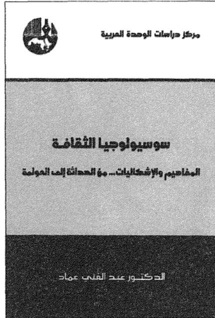
يطرح الفصل الثالث من الكتاب المقاربة الإيديولوجية للثقافة. ولمصطلح الايديولوجيا دلالات متعددة من بينها استعماله كمرادف لعلم الأفكار. لقد اتخذ هذا المصطلح معنى سلبيا لدى كارل ماركس. إذ هى عنده عبارة عن وعى مغلوط أو زائف يتكون للفاعلين الاجتماعيين تحت تأثير السيطرة الطبقية والنفوذ السياسى للذين يملكون الثروة والسلطة. فهناك تطابق بنيوى بين السيطرة المادية والسيطرة الفكرية. ومن ثم، لا يمكن أن تكون الأيديولوجيا غير وعى خاطئ لحقيقة الأشياء الواقعية، المحرفة والباطلة، المستلبة والخادعة. فهى إذن مفهوم مغلوط للتاريخ الإنسانى وأفيون الشعب. وكما هو واضح فنقطة الانطلاق مادية فى الطرح الماركسى.

يتعرض المؤلف بعد ذلك إلى أفكار زمرة من المفكرين حول الايديولوجيا أمثال لويس ألتوسير Louis Althusser وأنطونيو غرامشى وميشال فوكو وعالم الاجتماع الألمانى كارل مانهايم الذى يعتبر أن نقطة انطلاق الفكرة عند بنى البشر ليست جامدة بل متحركة.

أما عبدالله العروى، فيؤكد فى كتابه (مفهوم الايديولوجيا) نسبية هذا المفهوم. أى أنه متعدد الدلالات تبعا للمجالات الاجتماعية العامة التى يعمل فى إطارها. لذلك يتميز هذا المفهوم بالسيولة والنسبية فى نظر العروى.

يبدأ المؤلف الفصل الرابع «المقاربة السوسيولوجية للثقافة» بتعريف لسوسيولوجيا الثقافة نفسها، عنوان هذا الكتاب. فيعتبرها «تحليلا لطبيعة العلاقات والترابطات الموجودة بين أنماط الإنتاج الفكرى وسماته العامة، من جهة، ومعطيات البنية الاجتماعية بكل أبعادها الاقتصادية والسياسية والبيئية، التاريخية منها والمعاصر، من جهة أخرى وبالتالى فهذه المقاربة هى دراسة وظائف هذا الإنتاج الفكرى وآلياته وتفاعلاته فى المجتمعات على مستوياتها كافة» (ص ٨٧).

ففى إطار هذا التحليل السوسيولوجى يؤكد المؤلف «أن فى كل ثقافة شقا موروثا وسلفيا، وشقا آخر



سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة

الدكتور عبدالغنى عماد

مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦.

يكتسبه الخلف بالقوة من الأنماط الثقافية السائدة والمؤسسات التى تقوم بإنتاج وإعادة إنتاج شروط الإنتاج الثقافى» (ص ٨٧). وهذا الطرح متأثر كثيرا بأفكار عالم الاجتماع الفرنسى بيار بورديو.

ويؤكد المؤلف فى السطر الأول من الفصل الخامس على أن الإنسان ينفرد عن المخلوقات الأخرى بقدرته على صنع الثقافة دون أن يرجعها إلى اللغة المنطوقة والمكتوبة التى يتميز بها الجنس البشرى عن سواه من الأجناس الأولى. ومن ثم جاء غموض تحليله لمصدر نشأة الثقافة فى المجتمع (لا وجود للثقافة من دون مجتمع إنسانى، ولا وجود لمجتمع إنسانى من دون ثقافة، ص ١١٥)، إنه من نوع تفسير الماء بالماء، كما يقال. فلو استعمل الدكتور عماد عامل اللغة كسبب حتمى لبروز ظاهرة الثقافة فى المجتمعات البشرية لكان قادرا على طرح تفسير أكثر مصداقية للثقافة يمكن صياغته على النحو التالى:(١) لا يمكن وجود مجتمع بشرى بدون لغة/لغات. (٢) الثقافة هى نتيجة لوجود اللغة/اللغات فى المجتمع.(٣) اللغة/اللغات هى إذن الواسطة الرئيسية فى تواجد المجتمع وثقافته.

وبسبب تغييب عامل اللغة فى التحليل والحديث عن الثقافة يأتى قصور الكثير من مقولات هذا الفصل. والثقافة أمر يكتسب من خلال التنشئة الاجتماعية دون ذكر بارز لدور اللغة فى ذلك. وعندما تحدث المؤلف عن موت الثقافة/الثقافات فهو لا يكاد يذكر دور اللغة/اللغات فى هذا الشأن. «قد تموت الثقافة إذا تفكك المجتمع الذى يحملها عن طريق الفناء أو عن طريق الغزو... أو عن طريق الاندماج بثقافة أكبر وظهور ثقافة جديدة نتيجة لانصهار الثقافات القديمة. حصل هذا مع الثقافة المصرية القديمة والفينيقية والأشورية والبابلية.. وهذا «المجال» الثقافى يعيش الآن عصر الثقافة العربية والإسلامية». فهل كان ممكنا لهيمنة الثقافة العربية الإسلامية أن تتم - بدون انتشار لغة القرآن وعقيدته - فى مجتمعات الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وتمحو الثقافات السابقة الانتشار للإسلام واللغة العربية فى هذه المنطقة؟(٥).



يركز الفصل السادس «مصادر الثقافة وإشكالية القيم والتراث الشعبى» على التعرف على عناصر المنظومة الثقافية. يتناول المؤلف بالشرح المحاور التالية: الثقافة العالمة، الثقافة الشعبية، الثقافة العائلية، الدين، القيم الثقافية، العادات والأعراف، التقاليد والشعائر والطقوس، التراث الشعبى. يقدم هذا الفصل وصفا لهاته المحاور كما تتحدث عنها العلوم الاجتماعية الحديثة على الخصوص. فيحلل الكاتب، مثلا، مفهوم القيم الثقافية متطرقا إلى عدة مسائل نجدها فى تحليلات أدبيات العلوم الاجتماعية. فيعطى المؤلف اهتماما خاصا لبحث العالم ميلتون روكيش Milton Rokeach فى موضوع القيم الثقافية (ص ١٤١-١٥٢). ينتهى هذا الفصل بعرض وصفى لمحور التراث الشعبى كجزء مكوّن لظاهرة الثقافة فى المجتمعات البشرية دون أن يثرى هذا الموضوع بأمثلة ميدانية من واقع المجتمعات العربية الإسلامية. وبعبارة أخرى، اقتصر صاحب الكتاب فى محاور هذا الفصل على مجرد سرد وصفى عام لما يقوله مختصو العلوم الاجتماعية حول كل محور دون تحفظ أو نقد منه لبعض المسائل التى وردت فى هذه العلوم، مما كان يمكن أن يؤدى بالدكتور عماد إلى إضافات فى التحليل والمنهجية لدراسة مثل تلك المحاور انطلاقا من خلفية الثقافة العربية الإسلامية لصاحب الكتاب.

«البعد الرمزى فى الثقافة»، هو عنوان الفصل السابع للكتاب. فيه يبدأ المؤلف بالحديث عن معنى «الرمز» الذى يعتبر سوسيولوجيا «شىء ما يحتل مكان شىء آخر». أو أنه «شىء ما يحل محل شىء آخر ويستدعيه» (ص ١٧٠). فالبعد الرمزى هو ميزة الإنسان عن بقية الكائنات، ويتمثل ذلك فى كون أن الإنسان كائن عاقل ومفكر يمتلك استعدادات تسمح له بتمثل الأشياء بطريقة رمزية وبالتحديد بواسطة الكلمات (اللغة) والمفاهيم العقلية والخيال. وقد أدت تلك الاستعدادات إلى تنمية لامتناهية لقدرات الإنسان على الإبداع والاختراع، الذى يحافظ عليه المجتمع البشرى بواسطة منظومته الثقافية.

يبين صاحب الكتاب أن لرموز المجتمع عدة وظائف: الاتصال والمشاركة والتضامن، التنظيم التراتبى للجماعات، ربط الحاضر بالماضى، ربط المجتمع بدينه وقيمه. يرى المؤلف بأن التفاعل الرمزى فى المجتمع يشكل لب الشخصية والهوية الجماعيتين واللتين بدونهما لا يمكن إقامة التواصل مع الآخرين.

يركز الفصل الثامن من الكتاب على ظاهرة التغير فى الثقافة وعلاقة ذلك بالتغير الاجتماعى. فيعرض مجموعة من الأسباب والنظريات مثل العوامل البيئية والجغرافية والسكانية والإيديولوجية والتكنولوجية والاقتصادية، ونكتفى هنا بذكر فكر ثلاثة علماء اجتماع ساهموا كثيرا فى فهم الثقافة وطبيعة التغير فيها. فماكس فيبر يرى أن العوامل الفكرية والروحية تلعب دورا مركزيا فى عملية التغير (ص ١٩٨). وكما هو معروف فقد فصل القول فى قوة الأفكار فى إحداث التغير كما يشهد بذلك كتابه الشهير الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية الذى يتبنى منهجية سوسيولوجية مضادة للحتمية الاقتصادية.

يناقش صاحب الكتاب نظرية سوروكين حول عملية التغير التى تستعمل «قانون الدمج» الذى يعتبره سوروكين الأساس فى عملية التغير. يتحدث سوروكين عن مبدأ الحد فى الثقافة والذى يعنى أن الثقافة تتغير بحركتها الداخلية وحركتها المستمرة إلى أن تصل إلى حدود معينة تعيدها فى حركة دائرية مستمرة بعد كل ثلاث مراحل إلى مسيرتها الأولى. والمراحل الثلاث عند سوروكين هى: المرحلة الروحانية والمرحلة المثالية والمرحلة الحسية.

أما مساهمة وليام أوجبرن Ogburn. W فى مسألة التغير فى الثقافة فتتمثل فى نظريته حول الهوّة الثقافية Cultural Lag. تقول هذه النظرية إن التغير فى الجانب المادى للثقافة يسبق دائما التغير فى الجانب اللامادى. ومن هنا جاء مصطلح الهوّة الثقافية.

ويطرح المؤلف فى الفصل التاسع موضوع «الحداثة وما بعد الحداثة». فيعرف هذين المفهومين ويتطرق ويناقش بعد ذلك أبعادهما فى المجتمعات وعند بعض الباحثين والمفكرين الذين اهتموا أكثر من غيرهم بفهم وتحليل طبيعة هذين المفهومين. فيذكر بعض الأسماء البارزة فى هذا الميدان أمثال عبدالوهاب المسيرى وبيتر برغر Peter Berger والان توران Alain Touraine ويورغين هبرماس Hberamas وجان فرانسوا ليوتار Lyotard وارنست غلنر Ernest Gellner.

هناك عدة مؤشرات للحداثة كما يتجلى فى المجتمعات الغربية وغيرها، مثل المشاركة السياسية والتمثيل الديمقراطى ووجود الطبقات الاجتماعية. استعمال متزايد للتكنولوجيا وظهور نموذج جديد للشخصية القاعدية فى المجتمعات الحديثة. توصف هذه الشخصية بأنها رشيدة وعقلانية قادرة على اتخاذ قرارات مبنية على المعرفة والحسابات الدقيقة للربح والخسارة. أى أنها شخصية ذات تركيز على الذات (فردية) مبدعة متوجهة نحو الإنجاز وتحقيق الطموحات الشخصية.

يطرح المؤلف فى الفصل العاشر «أدلجة الثقافة وتسييسها: نهاية التاريخ وصدام الحضارات نموذجا» أفكار ونظريات ثلاثة من المفكرين الأمريكيين البارزين فى الوقت الراهن، وهم ساموويل هانتنغتون وفرنسيس فوكاياما وألفن توفلر Toffler. لعل القارئ العربى المثقف يعرف أقل أفكار توفلر من أفكار زميليه. يقدم توفلر رؤية جديدة للعصور الحضارية عبر التاريخ مستعملا مفهوم «الموجات» Waves. فيطرح ثلاثة عصور، بدأ الأول بالموجة الفلاحية وتمثل الثانى فى عصر الصناعة ذات المداخن. أما الموجة الثالثة فهى موجة عصر المعلومات الذى يحمل معه تغيرات ذات نوعية جديدة يكرس المؤلف جهوده للتنبؤ باتجاهات التغيير الذى تحمله.

إن الفصل الحادى عشر «أدلجة الثقافة وتزييفها: العولمة وإشكالية الهيمنة»، هو آخر فصول هذا الكتاب. يعرض المؤلف إلى الفيض الكبير من الكتابات حول ظاهرة العولمة بأشكالها المختلفة بما فيها العولمة الثقافية التى تهدد الخصوصية الثقافية والهوية القومية وتنشر هيمنة الثقافة الاستهلاكية وتمثل خطرا على القيم المحلية فى المجتمعات التى تتعرض إلى عولمة الثقافات المسيطرة. فيرى صاحب الكتاب أنه «إذا كان الباب الاقتصادى والسياسى قد شرّع أمام العولمة، فإنه من الطبيعى أن يصبح المجال الثقافى بكل أبعاده مجالا خصبا لتداعياتها. ولعل هذا المجال بالتحديد من أخطر النتائج المترتبة على العولمة لاتصالها بالشخصية الثقافية والهوية والانتماء للشعوب والأمم التى أصبحت مكشوفة أمام مؤثرات وتحديات لم تعد تنفع معها الدفاعات الثقافية التقليدية السابقة للحفاظ على الخصوصيات والهويات الثقافية المحلية» (ص ٢٨٨).

لا يكاد يضيف مؤلف الكتاب أى شىء جديد ومفيد فى الخاتمة (ص ٣٠٥-٣١٢). فيظل، مثلا، مصدر نشأة الثقافة غائبا أو غامضا، كما رأينا ذلك فى بعض فصول الكتاب. ومع ذلك يصيب الكاتب فى أحد معالم الهيمنة الثقافية الغربية المعاصرة. فيصفها بأنها ذات نزعة إمبريالية تتمثل فى أنها لا تكتفى بإلحاق ثقافات متعددة بها، بل هى تسعى بقوة إلى تفكيك تلك الثقافات واستبدالها شكلا ومحتوى. وهذا ما يساعد فى رأى صاحب الكتاب على إشعال فتيل النزاعات الأصولية والقومية والدينية. وكما أوضحنا فى الصفحات السابقة، فإن الكتاب خليط من الإيجابيات والسلبيات فى محاولة طرحه لعلم الاجتماع الثقافى للقارئ العربى. وفى نظرنا سوف يتحسن المستوى الفكرى والتحليلى لمضمون الكتاب لو يأخذ المؤلف على الأقل ببعض الأفكار والا قتراحات الواردة فى هذه المراجعة فيضيفها إلى فصول الكتاب فى طبعة قادمة. ■

المراجع

(١) الذوادى، محمود (٢٠٠٦) الثقافة: بينة تأصيل الرؤية الإسلامية واغتراب منظور العلوم الاجتماعية، بيروت، دار الكتاب الجديد، ٢٧٦ ص.

(٢) الذوادى، محمود: «فى أبجدية الرموز الثقافية»، الآداب ٦/ ٧، ٢٠٠٦، ص ٥-١٢.

(٣) الميلاد، زكى (٢٠٠٥) المسألة الثقافية: من أجل بناء نظرية فى الثقافة، بيروت، المركز الثقافى العربى، ص٢١-٢٩.

(٤) الذوادى، محمود: «فى الدلالات الميتافيزيقية للرموز الثقافية»، عالم الفكر، مارس-يونيو ١٩٩٧، ص ٩-٤٣. وأيضا كتابى: التخلف الآخر: أزمة الهويات الثقافية فى الوطن العربى والعالم الثالث، تونس، الأطلسية للنشر، ٢٠٠٢، ٢١٨ ص.

(٥) الباقورى، أحمد حسن (١٩٨٧) أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية، القاهرة، دار المعارف.

أحـمـد عـلـى الجـارم

■■ ربما لم يكن الفرزدق أول الهجائين فى تاريخ الأدب العربى، وان كان أشهرهم، إلا أن تاريخ هذا «الأدب» حافلٌ قديمُه وجديدُه بسجالات ومناوشات.. تختلفُ أسبابها و«كوامنها» الموضوعية أو الذاتية. ولكنها تظل ـ مهما يكن من أمر ـ سطوراً فى هذا الكتاب



■■ ظهر للدكتور زكى مبارك عام ١٩٤٧ ديوان شعر سماه «ألحان الخلود»[1] وفى الصفحة السابعة من تقديمه لهذا الديوان نقرأ له ما يلى: «أذكر أننى قلت فى إحدى كلماتى أن الاستقامة المطلقة ضرب من الجمود. الترتيب يجيده شاعر مبتدئ مثل الأستاذ على الجارم وهو أجهل من أنجبتهم مصر فى حياتها الشعرية وهو فى حياته النفسية غاية فى الانحطاط. وحياة الأستاذ على الجارم شبيهة بحياة الأستاذ أحمد أمين؛ فالأستاذ على الجارم يأبى عليه الوقار المصنوع أن يسير فى شارع فؤاد والأستاذ أحمد أمين يأبى عليه الوقار المدخول أن يسير فى شارع عماد الدين. أخزاكم الله يا أدعياء الأدب والفكر فى هذا الزمان. إن الطبيعة تنكر هذا الرياء: نهر النيل يتحول من مكان إلى مكان ونهر السين يتحول من مكان إلى مكان ونهر دجلة يتحول من مكان إلى مكان (هكذا). كيف كان يعيش على الجارم لو لم يعتصم بدعوى الغيرة على النحو والصرف وهو أجهل الناس بعلم النحو وعلم الصرف. وكيف كان يعيش أحمد أمين لو لم يعتصم بدعوى الغيرة على الأخلاق؟! أحمد أمين على خُلق؟! لم ترضه المكافأة التى يأخذها من مجلة الرسالة فكايدها بإنشاء مجلة الثقافة والمكايدة ليست من أخلاق الرجال، وانتزع أحمد أمين كتاب الرسالة لتموت الرسالة فوقفت فى وجهه وقفة أنذرته بالموت من الخوف».

وفى صفحة ١٢٠ من نفس الديوان نجده يقول: «الجارم يزعم أنه من رشيد وهو كذّاب كذّاب. فإن أهل رشيد عرفوا بقوة الشكيمة ولم يعرف هو بغير الانحلال».

وفى صفحة ١٢٤ من نفس الديوان نجده يقول: «وتبينت وأنا راغم أن الأرزاق بيد الله وأن اللؤم الذى تنطوى عليه نفسى لن يضير أحدا غيرى».

ولكى نتفهم شخصية الدكتور زكى مبارك نستعرض بعض ما كتبه فى هذا الديوان فنجده يقول فى الصفحة السادسة: «ليس فى أشعارى مديح فما أعرف رجلا أعظم منى لأنظم فيه قصائد المديح». وفى صفحة ٨ يقول: «إنما الحقيقة الثانية فهى الصياغة الفنية فى ديوان (ألحان الخلود)، إن كل

"مناوشات أدبيـــة"

الضخم لسيرة الأدب والأدباء المحكومة بتراث عربى وأدبى راسخ من الفخر.. والثأر. هنا يكتب عن والده دكتور أحمد على الجارم «الطبيب المجمعى» ويحكى لنا بعض ما كان بين الشاعر الكبير و«الدكاترة» زكى مبارك.

د. زكى مبارك

بيت فى هذا الديوان قد وُزن بميزان كأنه صفحات من كتاب (النثر الفنى) أو صفحات من كتاب (التصوف الإسلامى) أو صفحات من كتاب (الموازنة بين الشعراء).[٢] : ولن يستطيع ناقد متحذلق أن يكتب حرفا فى نقد هذا الديوان، فما عرفت اللغة العربية فى تاريخها القديم وتاريخها الحديث قلما أمضى من قلمى أو بيانا أبلغ من بيانى. قال الدكتور محمد صبرى إن ديباجتى الشعرية ديباجة بُحترية وهى كلمة يريد بها الثناء ولكنى عن نفسى أشعر من البحترى وأشعر من جميع الشعراء لأننى ملك الشعراء».

كما نقرأ له فى صفحة ٥٤ قوله: «وما هى إلا أشهر قلائل (كان ذلك عام ١٩١٦) حتى صحت عزيمته (الفتى زكى مبارك) على أن يكون من أئمة الرأى والبيان فى اللغة العربية. ولا تدهش من هذا الأمل الجارف فصاحبنا مفتون بنفسه أشد الفتون وهو يرى نفسه أذكى الناس وأقوى الناس ولم يخطر بباله أن الله أنشأ إنسانا أصح منه عقلا أو أقوى جسما ولولا نشأته على الوقار لكان من كبار المصارعين».

كما نقرأ له فى صفحة ٨٠ قوله: «قال رشدى (أحد أصفيائه): وتشرب الخمر مع هؤلاء المومسات؟ فقلت: أكفر عن ذنوبى يوم شربت الخمر مع بعض الوزراء والحسنات يذهبن السيئات:

لقد زعموا أنى سكرت وربما
يظن الفتى سكران وهو حليم
لعمرك ما بالسكر عار على الفتى
ولكن عارا أن يقال لئيم»

أما فى صفحة ٢٤ من هذا الديوان فنقرأ له قوله: «تمردت فقلت إننى لا أخاف الله إلا تأدبا مع ذاته العلية فكيف أخاف الناس؟! ثم بالغت فى التمرد فتحديت الله لأننى أعرف أن الله لا يستطيع مقابلة التحدى بالتحدى وأنا أتحداه إن تحدانى وأنا حاضر للتحدى». (ما كل هذا التخريف والهذيان يا دكتور زكى؟!).

وهكذا فقد تدنى الدكتور زكى مبارك فى تهجمه على «الجارم» إلى المستوى من القول الذى لم يلتفت إليهما الجارم الذى لابد أنه كان يردد قول الله تعالى: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم



بغداد وبيروت والخرطوم عرفت الجارم حين هتف فى ربوعها فأوقد جذوات الحماسة وأشعل حمية العُروبة



حين انتقل شوقى إلى دار الخلود تألق الجارم شاعرا كما تألق عالما فصار ممثل مصر فى محافل العروبة



الجاهلون قالوا سلاما، صدق الله العظيم، والذى جعلنى أتذكر بيت الشعر الشهير .

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت، أتاح لها لسان حسود

وأتذكر أيضا قول الشاعر العربى الحكيم:

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعل

وأتذكر قول الجارم نفسه:

دع الحسود ألايكفيك أن له
نفسا تفور وحظا غير مجدود

وسوف نضع - أيها القارئ الكريم - فى هذا المقال كلا من على الجارم وزكى مبارك وجها لوجه كما وضعتهم الأحداث الأدبية ليتخذ كل منهم المقعد الذى يستحقه فى تاريخ الأدب العربى الحديث فى مصر.

بغداد فى ١٩٣٨:

كانت الجمعية الطبية المصرية برئاسة الدكتور على إبراهيم باشا- جراح مصر الكبير - تُقيم مؤتمرا سنويا وتحرص على أن يكون هذا المؤتمر فى إحدى العواصم العربية المختلفة حرصا منها على تبادل الخبرات بين الأطباء العرب وعلى الترابط القوى بين بلدان الأمة العربية مما أثمر فى ترسيخ مفهوم العروبة وأدى إلى قيام جامعة الدول العربية عام ١٩٤٤. وكان المجمع اللغوى يختار الشاعر الكبير على الجارم ليمثله فى هذه المؤتمرات ليحيى هذا الاتجاه العروبى القومى ويشيد بدور مصر القيادى فى محاولة النهوض الحضارى للأمة العربية.

وفى هذا المجال نقرأ للدكتور محمد رجب البيومى قوله[٣]: «تقدم على الجارم إلى الأمة العربية بعلمه قبل أن يتقدم بشعره فقد عرفته ربوع الضاد بمؤلفاته الرائعة ذات الأجزاء المتعددة فى البلاغة والنحو لأن ماكتبه الجارم فى هذين العلمين كان فتحا جديدا جعل الصعب سهلا والبعيد قريبا. لذلك تعددت طبعات (النحو الواضح) حتى بلغت الخمسين وقُررت أجزاؤه فى مدارس الشام والعراق والأردن والسعودية حينا طويلا من الدهر. وحين انتقل شوقى إلى دار الخلود تألق الجارم شاعرا كما تألق عالما فصار ممثل مصر فى محافل العروبة، والجارم قوى البيان مكتمل الأداة بارع الإلقاء. كان الجارم أحد الفرسان الصائلة فى ميادين الفصاحة الباهرة حين كانت البلاغة مهوى النفوس وحين كان الجمهور ذواقا يلم بشذور من روائع الأدب فى القديم والحديث؛ فلما مثل مصر بشاعريته الحافزة وديباجته العربية الناصعة جذب الأسماع لما يقول، لقد كان الحفل الجهير يضم أفذاذ الشعر من كل وطن عربى ولكل شاعر منزلته الرفيعة دون ريب؛ ولكن الجارم يقف فى الطليعة بين شعراء كبار فتكون قصيدته مجال التقدير والملاحظة ويعود إلى مصر وكأنه عاد من فتح حربى بعد أن سجل بطولة الانتصار. وإذا كان المصريون قد تعودوا حينئذ سماع روائعه بالإذاعة المصرية إلقاء وترجيعا فإن بغداد وبيروت والخرطوم عرفت الجارم الشادى المغرد حين هتف فى ربوعها كرّة بعد كرّة فأوقد جذوات الحماسة وأشعل حمية العُروبة وأعاد مجد السابقين من فرسان البيان. وللقصيدة العربية موسيقى آسرة تهز من يصغى إليها ويشعر بها كل سامع على قدر استعداده مهما كان غريبا عن تعمق المعانى واستشفاف الخواطر. فإذا كان من ينشد القصيدة عالما بفن الإلقاء وتجويد الكلام وكان ذا صوت لؤلؤى الإيقاع فإنه يبلغ بتأثيره النفاذ ما لا بعد وراءه من التأثير. وكذلك كان الجارم وقد لقب (بالصناجة) لموهبته الإلقائية، فاذا جمع إلى هذا التغريد الساحر عذوبة البيان ووضوح الديباجة وملك التعبير عن الخواطر المكظومة والهواجس الدفينة حتى كأنه ينطق عن أغوار الناس فى موقفه الإلقائى فإنه يهز الحفل هزا؛ والذين ينكرون ارتياح السامعين لما يبهرهم من الشعر ويعدونه من قبيل الخطابيات ينكرون الشعر العربى منذ وجد إلى عصرنا هذا وعليهم أن يقطعوا الصلة بين الطريف والتليد حين يأتون بضباب حائر تبدده الريح.

لقد زار الجارم عاصمة الرشيد ثلاث مرات فكانت كل زيارة له موسما شعريا لا ينقطع صداها عدة شهور؛ زارها ممثلا للمجمع اللغوى فى المؤتمر الطبى ببغداد سنة ١٩٣٨ فأنشد قصيدته الذائعة:[٤]

بغداد يا بلد الرشيد
ومنارة المجد التليد

وفيها تحدث عن سجل المجد الخالد، إذ كانت بغداد مضرب المثل الشرود، وأنصع سطر للعروبة خط فى لوح الخلود، ولاينبيك عن بغداد مثل الجارم حين أخذ يناديها متسائلا:

بغداد يا دار النهى
والفن يابيت القصيد
نبت القريض على ضفافـ
ـك بين أفنان الورود
سرق التدلل من (عنان)
والتفنن من (وحيد)
بغداد أين البحترى
وأين أين ابن الوليد؟
ومجالس الشعراء فى
بيت ابن يحيى والرشيد؟
أين القيان الضاحكات
يمسن فى وشى البرود؟
الساهرات مع النجوم
الآنفات من الهجود
يخطرن حتى تعجب الأغصـ
ـان من لين القدود
وإذا سفرن فأين ضو
ء الشمس من شفق الخدود؟
يعبثن بالأيام والأيا
م أعبث من وليد
خبأ الجمال لهن كنزا
بين سالفة وجيد

ويترك الشاعر مظاهر الترف والنعيم إلى مواقف القوة والسلطان فيتحدث عن الجيش الزاخر بالآساد، والبهو الفسيح الحافل بوفود الدول، فالرسل تتلو الرسل من بيض صقالبة وسود، والجو يسطع بالسيوف، والأرض تزخر بالجنود:

حتى إذا رجعوا بدا
بجباههم أثر السجود

أما عواطف الشاعر الذاتية فهى عواطف كل عربى مثقف شاعر، يقرأ التاريخ ويجمح بالخيال إلى أبعد مراميه، فيجوز القرون النائيات، ويفك أسرار العقود، ويهتاجه الطيف البعيد فيصبو إلى ظل الجاه والعزة فى زمان المجد الغابر، وينادى أمة اليوم أن تعيد مجد الأمس. فاليوم يوم السباق والعدو، لا التقهقر والنكوص، والمجد يدعو ذويه للصعود فلا نكول، كل هذه المعانى وجدت متنفسها العاطر فى قول الجارم».



ثم نقرأ للأستاذ عبد المنعم خلاف ماكتبه فى مجلة (الرسالة)[٥] واصفا هذا الحفل ويقول: «ثم وقف الجارم يرسل قلبه فى صوته المعهود الذى يخيل إلى أنه كله هاء عميقة من فرط الشجو وإثارة النفس واستحضار المعانى الكامنة التى لا تظهر وتستعلن إلا إذا تلا لها ساحر رقية أو عزف لها عازف برنة أو شدا لها شاد بحنة أو خيَّل لها مخيِّل بريشة - وقف يقلب وجهه فى السماء والأرض والجهات الأربع فى قلق وغيبوبة شاعر ويمسح على أبصار الجمع بحركاته ويرسل نشيده فيخيل إلينا من سحره أن كلماته أجسام تسعى أو أمواج تطغى على قلوبنا فتملؤها بالذكرى الحادة ثم بالفخر النافخ ثم بالضحك المرسل ثم بالعزم المرسى الدافع ثم بالأمل القريب؛ فيخرج الدكتور زكى مبارك - طبيب ليلى المريضة بالعراق - عن طوره وعن حدود وقار الحفل فيستعيد ويطلب المزيد وبخاصة إذا جاء بيت فيه ذكر (الحسان) و(وعود الحسان). ثم ينتهى الحلم السعيد بجوه الروحى وقلوبنا راقصة وأكفنا دامية ويُقَبل الأدباء والأطباء على (الجارم) يطلبون منه ثمن دواء للأكف المتسلخة والقلوب الجريحة. ويقبل

(طبيب ليلى) فيطبع على خدى الجارم بك قبلتين ذواتى رنين أدار الأبصار إلى مصدر ضجتهما ثم ينقلب يفخر على بأنه نال بهما ما لم أنل، ثم يرتد إلى الجارم بك يبشره بأنه من أول الداخلين إلى الجنة جزاء خدماته بشعره للغة القرآن .... ولله فى الدكتور زكى شئون».

ترى ماذا كتب الدكتور زكى مبارك عن هذا الحفل؟! دعنا نقرأ فى صفحة ١٣٢ من كتابه (ليلى المريضة فى العراق)[٦] قوله: « وكنت - مع الأسف - ذهبت إلى الحفلة وأنا أضمر الشر للأستاذ على الجارم فقد كتب فى منهاج الاحتفال أنه (شاعر مصر) وأنا أكره الألقاب الأدبية.

فلما وقف ليلقى قصيدته لم أصفق - وأعديت من حولى بروح السخرية فلم يصفقوا؛ ولكن الجارم قهرنى وقهر الحاضرين جميعا على أن يدموا أكفهم بالتصفيق وغاظنى أن تصفق (ليلى) لشاعر يرى بحكم منصبه أنه رئيسى لأنه كبير المفتشين بوزارة المعارف المصرية ولولا حكم الأقدمية لكنت الرئيس وكان المرؤوس ولكن ماذا أصنع وقد سبقنى إلى الأستاذية بأعوام طوال؟ وأنا والله أظلم نفسى بهذا الكلام؛ فما أذكر أبدا أنى حقدت على إنسان، وما أذكر أبدا أنى عرفت معانى الحسد والضغن إلا على الدهر المخبول الذى يتسفل فيرفع الأدعياء. وقد هجمت على شاعرنا الجارم عدة مرات وحاربته فى وزارة المعارف يوم رأى الأستاذ أبو بكر ابراهيم (وكان مفتشا بالوزارة) أن يكتب فى نشرة رسمية أنه أمير الشعراء. وقد عرف الجارم خطر ما أصنع فكان هو أيضا يحاربنى فى مكتب تفتيش اللغة العربية ولولا سماحة الأستاذ جاد المولى بك لكانت النتيجة أن أعيش بين المفتشين بلا صديق. فيا أيها العدو المحبوب الذى اسمه على الجارم - تذكر أنك كنت حقا وصدقا شاعر مصر فى المؤتمر الطبى العربى وستمر أجيال وأجيال ولا ينساك أهل العراق. وهل تعرف مصر أنك رفعت رأسها فى العراق وأنك كنت خليفة شوقى فى المعانى

وخليفة حافظ فى الإلقاء. إنى أطلب المستحيل حين أطلب من مصر إنصافك وهل أنصفتنى مصر حتى تنصفك؟ وهل أنصفتنى مصر وكنت مجنونها وكانت ليلاى؟! يرحمنى الله ويرحمك فعنده وحده جزاء المجاهدين».

وهنا أتساءل ماذا كان يفعل الدكتور زكى مبارك فى نفس بغداد وفى نفس التاريخ؟! نتعرف على إجابة هذا السؤال عندما نقرأ ما كتبه فى ديوان (ألحان الخلود) صفحة ٢٦٧ مُقدما لإحدى قصائده بعنوان (أدب الربيع) قائلا: «فى شهر فبراير من سنة ١٩٣٨ عقد المؤتمر الطبى ببغداد وكنت أحد أعضاء المؤتمر ولأيام ذلك المؤتمر تفاصيل كثيرة فى كتاب (ليلى المريضة فى العراق). كنت شعرت بوحشة شديدة من اغترابى فى بغداد فجاءت (روح مصرية) مع أبيها فى المؤتمر فأسرتنى عيناها من أول نظرة والتقيت بنفسى فى سعير الغرام ثم كانت الرحلة إلى (سدة الهندية) وهى قنطرة على نهر الفرات يسمع للأمواج فيها هدير عنيف. وقفنا فوق القنطرة عينا إلى عين وقلبا إلى قلب لنصنع ميثاق الغرام الجديد. زفرت زفرة محرقة وقلت: يعز على أن أتصور أننى لن أقف معك هذه الوقفة مرة ثانية فما أنتظر أن تعودى إلى العراق. فقالت ستكون لى معك وقفات على القناطر الخيرية أيام طغيان النيل فهناك هدير أعنف من هذا الهدير ونسيم أرق من هذا النسيم؛ ثم كانت بينى وبين تلك الروح أشياء بعد رجوعى من بغداد. وفى يوم الجمعة من أغسطس ١٩٣٩ كان موعد تلاقينا بالقناطر الخيرية. مضيت إلى الكازينو وهو مكان التلاقى ففوجئت برؤية السنهورى باشا وأمامه كأس والراديو ينقل سورة الكهف. قال السنهورى باشا: لا تؤاخذنى يا دكتور زكى فأنا لا أفهم القرآن إلا بحضرة الكأس فابتسمت وقلت: وأنا أيضا لا أفهم القرآن إلا بحضرة الكأس، وشربنا حتى ارتوينا. وفى المساء يهتف التليفون بصوت تلك الروح فأعرف أنها لم تخلف الميعاد ولكنها استحيت من لقائى ومعى السنهورى. قلت: نعود فالسنهورى لن يوجد هناك فى كل يوم، وقد اتفقت معه على أن تكون مجالسنا الخمرية فى بار سيسل وفى الليل. عدنا إلى كازينو القناطر الخيرية مرة ومرتين ومرات وأمتعنا أرواحنا وأسماعنا بهدير الأمواج وتناجينا بين أشجار تلك الحدائق الغناء. طاب لى أن آخذ لها صورة وهى تبتسم للأزهار بأرق من بسمات الأزهار فطربت لذلك وشع منها نور الجمال وسحر الدلال. وكانت لنا بعد ذلك سهرات حمراء بمصر الجديدة فى أمسية أيام الثلاثاء». ثم تأتى هذه القصيدة (العصماء) التى أوحاها ذلك المجون وذلك العبث للدكتور الشاعر زكى مبارك:

إنى وكل شاعر من البشر
شيطانه أنثى وشيطانى ذكر
أنى أحب الحسن
وللملاحة أصبو
ماذا تراه الليالى
ماذا ترى الأيام
الحسن وحى خيالى
والشعر للأحلام
حفظت فى الحب عهدك
يا زهرة فى الربيع
فاحفظ عهودى عندك
عهد الهوى لا يضيع
إنى خلقت جمالك
وأنت أبدعت شعرى
ما كان سحرك يوما
إلا خيالة سحرى
من أنت فى الزهرات
لو شئت سميتك
أنى بوحى الهوى
من مهجتى صغتك

الإسكندرية عام ١٩٤٣:

كان المؤتمر الطبى هذه المرة بالإسكندرية التى كانت تئن تحت وطأة الحرب العالمية الثانية إذ اقترب الجيش الالمانى بقيادة الجنرال روميل من العلمين بينما كانت طائراته تمطرها بقنابلها. وكان الجارم ممثلا للمجمع اللغوى أيضا فى هذا المؤتمر وألقى فى حفل افتتاحه قصيدته «الإسكندرية»[٧] قائلا:

بدت أعلامها فهفا وهاما
سلاما درة الوادى سلاما
بعثنا بالتحية خفق قلب
يطير إليك شوقا واضطراما
عروس الشرق دونك كل مهر
وأين لمثل مهرك أن يساما
بهرت بنى الزمان حلى وحسنا
ودلهت الأواخر والقدامى

ثم يشير إلى تاريخها المجيد والمضىء فى العلم والحضارة مفتخرا قائلا:

بعثت النور من زمن تولى
وكنت لنهضة العلم الدعاما
وفى فجر الزمان طلعت فجرا
على الدنيا فأيقظت النياما

ثم يشير إلى ما جرته الحرب عليها من ويلات قائلا:

دهتك نوازل لو زرن رضوى
لما أبقين رضوى أو شماما
فكم بعثوا على ظمإ غماما
لئيم البرق قد حجب الغماما
أبابيلا نشأن ملعنات
تسوق أمامها الموت الزؤاما
فما أطلقت صيحة مستجير
ولا شردت عن عين مناما
تحديت الخطوب تزيد هولا
فتزدادين صبرا واعتزاما
ومن يكن الاله له نصيرا
فحاشا أن يضيع أو يضاما

ثم يتذكر الماضى الجميل وشبابه الفائت قائلا:

أبنت البحر والذكرى شجون
إذا لمست فؤاداً مستهاما
ذكرت صباى فيك - وأين منى
صباى؟! إلا أنشده إلاما؟
فعذرا إن وصلتك بعد هجر
وما هجر الذى حفظ الذماما

ثم يصل إلى المؤتمر ورسالته قائلا:

سعى لك من حماة الطب حشد
فكنت كريمة لاقت كراما
إذا اختلفوا لوجه الحق يوما
مشوا للحق فالتأموا التئاما

فيا أيها العدو المحبوب الذى اسمه على الجارم - تذكر أنك كنت حقا وصدقا شاعر مصر وستمر أجيال وأجيال ولا ينساك العراق

د. زكى مبارك

إنى أطلب المستحيل حين أطلب من مصر إنصافك وهل أنصفتنى مصر حتى تنصفك؟

ملائكة اذا لمسوا عليلا
أزاحوا الداء واستلوا السقاما

وأخيرا - ولا ينسى ذلك أبدا - يذكرهم بعروبتهم وبنهضتهم قائلا:

وفود العرب غناكم قريضى
وحن إلى معاهدكم وهاما
رمى الشرق الغمامة بعد لأى
وألقى تحت رجليه الخطاما
عقدنا للعروبة فيه عهدا
فلا وهنا نخاف ولا انفصاما
نلم شتاتنا أنى نزلنا
حجازا أو عراقا أو شآما
ونمشى إن دعت صفا فصفا
نصافح تحت رايتها الوئاما

وهنا يثار السؤال مرة أخرى، وماذا كان يفعل الدكتور زكى مبارك فى الإسكندرية وفى نفس الوقت تقريبا؟! وسوف تجد الإجابة - أيها القارئ الفاضل فى صفحة ٣٥١ من ديوانه (ألحان الخلود) حيث يقول تحت عنوان «قلب تثيره العواصف»: «كان هواى كتب إلى خطابا يذكر فيه أنه مضى إلى الإسكندرية ليصطاف وهو يحب أن يرانى هناك وكان ذلك فى أحد أعوام الحرب والغارات الجوية تزعج المصطافين أشد الإزعاج. أسرعت فسافرت وبحثت عنه فى الشواطئ إلى أن اهتديت إليه وهو يلاعب الأمواج بقوامه الرشيق. تغدينا معا فى مطعم كان يميل إليه، وقضينا العصرية فى نزهات مختلفات وبعد المغرب أشرت إليه أن نقضى السهرة فى منزلى ليستريح من ضجيج الجنود فى أوقات الشراب. ولكن غارة جوية تثور قبل نصف الليل فتوجب أن يبيت عندى.. وكانت ليلة من أجمل الليالى.. ثم ينصرف مع الشروق ليدرك مكانه فى الفندق خوفا من أن يظن أصحاب الفندق أنه أصيب بشظايا القنابل فى تلك الليلة الليلاء. كان وجهه عند الصبح أجمل من الصبح. قال وهو ينصرف: لقد شعرت بسعادة عظيمة لقضاء الليل بالقرب منك وأرجو أن أظفر مرة ثانية بمثل هذا الحظ السعيد. رجعت إلى الإسكندرية بعد أشهر والشتاء فى العنفوان. رجعت وحدى فانقبض صدرى، وشعرت بوحشة تزلزل القلب أعنف الزلزال .. المكان نفسه موحش لأنه ليس فيه. فكيف لا يوحش مع تلك الأهوال؛ فكانت أخباره انقطعت عنى ثلاثين يوما مع أننا كنا نلتقى فى جميع أيام الثلاثاء (بالطبع فى الشقة الخاصة بمصر الجديدة كما ذكر آنفا):

رجعت إلى مهد الصبابة والهوى
أسائل قلبى عنك فى غيبة العتب
رجعت فألقيت المهاد كعهده
وأنت معى يا روح جنبا إلى جنب
ثلاثين يوما ما التقينا فما الذى
يروعك من أمرى لتنفر من قربى
لقد شاب رأسى شاب من هول جوركم
ونار الجوى المكتوم تزخر بالشيب
أواجه فى المرآة شعرى فأنثنى
فخورا بأنى شبت بالمجد والحب
لئن شاب رأسى فى الهوى فشبيبتى
على خير ما ترجوه من قوة اللهب
وما تصنع الخمسون غامت خطوبها
بفحل شديد البأس يفتك بالخطب»

وقد ذكرنى هذا الشعر بما قاله الجارم بالمقابل مفتخرا بنسبه الى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قائلا:

يا جيرة الحرم المزهو ساكنه
سقى العهود الخوالى كل مُنسكب
لى بينكم صلة عزت أواصرها
لأنها صلة القرآن والنسب

وقوله:

ولى نسب يُنْمى لبيتك صاننى
وصانته منى عزة وإباء
عليك سلام الله ماذر شارق
وما عطَّر الدنيا عليك ثناء

وقوله فى قصيدة دار العلوم:

إن دعانا الهوى لغير سديد
سَدَّدتنا كرائم الأحساب

وقوله أخيرا:

شغف الناس بالفضول وبالحقد
فإن تلق نعمة تلق حقدا

هـوامـش:

(١) ألحان الخلود للدكتور زكى مبارك الطبعة الأولى ١٩٤٧ . طبعة دار الكتاب العربى بمصر. رقمه فى دار الكتب ز ١٦٧٩٦ إلى ١٦٧٩٨ .
(٢) هذه الكتب الثلاثة من تأليف الدكتور زكى مبارك.
(٣) مجلة الهلال: على الجارم: سفير مصر فى محافل العروبة السنة الرابعة والتسعون اكتوبر ١٩٨٦ وفى كتاب الجارم فى ضمير التاريخ اعداد الدكتور احمد على الجارم ١٩٩٤ ص ١٩٥ .
(٤) ديوان الجارم الطبعة الثالثة ١٩٩٧ الدار المصرية اللبنانية ص ١٨٧ .
(٥) مجلة الرسالة السنة السادسة عدد ٢٤٢ ص ٢٩٩ فبراير ١٩٣٨ .
(٦) كتاب ليلى المريضة فى العراق للدكتور زكى مبارك الجزء الأول ١٩٣٩ مطبعة الرسالة.
(٧) ديوان الجارم الطبعة الثالثة الدار المصرية البنانية ١٩٩٧ ص ٢٩٨ .

صناعة الوهم

فجأة وفى شهر سبتمبر ٢٠٠١ وجدت نفسى مسئولاً عن إدارة السياسات الإعلامية فى مكتبة الإسكندرية، قرأت كثيراً فى هذا الاتجاه باللغة الإنجليزية، أما باللغة العربية فلا يوجد مؤلف محدد فى هذا الاتجاه، فقط مؤلفات فى الإعلان وأسسه، فى الاتصال الجماهيرى، الإعلام ومعالجة الأزمات إلى غير ذلك، إننى هنا أمام هم كبير، وعبء حملته على كتفى؟!!

إذ كانت هناك خبرات متراكمة ورصد متتابع منى لجهود العديد من المؤسسات فى هذا المجال، لكن لابد من أن أكون أكثر تحديدا لمسألة إدارة السياسات الإعلامية، إن هذه الإدارة هى فن من فنون الدبلوماسية شديدة التعقيد والتركيب، إذ هى تجمع بين توازنات داخل المؤسسة قد تتطلب فى وقت ما كبح جماح التوجه نحو الإعلام بسرعة غير مطلوبة من بعض إدارات المؤسسة، وفى وقت آخر حث وإقناع بعض الإدارات على التوجه نحو الإعلام وتلبية متطلباته، كما أن هذه الدبلوماسية قد تمارس داخل الدولة وخارجها، إذ من المطلوب تكثيف المادة الإعلامية التى قد يجرى بثها للوسائط الإعلامية المختلفة، أو التقليل من حجم هذه المادة، لكن متى يتم هذا ومتى يتم ذاك، لا شك أن ذلك يتطلب قراءة جيدة يومية من شخص ما للحياة السياسية والثقافية والأحداث الجارية، حتى يتسنى لهذا الشخص اتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب .

ثم يلى هذا نوع المادة التى ستقدم للجمهور من خلال العديد من الوسائط الإعلامية التى أصبحت من الكثرة بحيث قد تربك الشخص المسئول، لكن هنا يبقى الفيصل هل حدد هدفه؟ هل حدد نوعية المادة؟ هل حدد وسيلة الاتصال المناسبة؟ هل يستخدم كل الوسائط أم بعضها؟ المهارة التامة تكمن فى استخدام كل الوسائط لكن الاكتفاء بوسيط دون الآخر قد يضعف أداء الإدارة، فالاتصال المباشر وهو أقدم الوسائط التى عرفها الإنسان مازال أكثر الوسائط فاعلية وأكثرها صعوبة، لأن فيه إما أن يفقد المتصل به إلى الأبد، أو يكسبه إلى الأبد؟!

هنا يبرز الإقناع ولغة الحديث ولغة الخطاب كوسيلة من وسائل الإعلام، فى عصر السماوات المفتوحة والإنترنت، قد يبدو مستغربا أن العديد من المؤسسات بل حتى الحكومات تلجأ إلى الاتصال المباشر بالجماهير، لأن العلاقة المباشرة تحمل حميمية التواصل الإنسانى، حتى الولايات المتحدة الأمريكية واليابان تلجآن إلى مثل هذا النوع من الدعاية، فالولايات المتحدة لديها برنامج الزائر، حيث تستضيف من خلاله أحد الأشخاص المرشحين فى بلد ما للصعود السياسى أو الثقافى أو الاجتماعى لزيارة الولايات المتحدة لمدة شهر، ليبهر ببلد العام سام، تم من خلال هذا البرنامج استضافة شخصيات تبوأت مناصب عليا فيما بعد فى بلادها سواء من أوروبا أو أفريقيا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية، اللافت للنظر عند حديثى مع العديد من الأشخاص سواء من مصر أو من دول أخرى ممن استفادوا من هذا البرنامج، أن كل فرد منهم أعد ملف مسبقا عنه، حدد من خلاله ميول وأهواء هذا الشخص وما يحب وما يكره، بحيث تخطط الزيارة وفق هذه الدراسة التى هى فى جانب منها لها بعد نفسى وآخر انثروبولوجى، ولكى أوضح الجانب الأخير، فلابد أن أنبه له، فلا يستحسن أن تدعو شخصا من بلد مسلم لديسكو، فى حين من المحبب أن تجعل زائر أوروبا ينبهر بالحداثة فى مجال التكنولوجيا، على حين يجب أن ترى صينياً ذا تراث عريق متحف المتروبوليتان، فى جانب آخر تقدم الولايات المتحدة نفسها على أنها أرض للتعايش الحضارى بين ثقافات متعددة، ولا مانع هنا من زيارة ناسا أو مفاعل نووى أو مشاهدة مترو لوس أنجلوس أو وادى التكنولوجيا فى كاليفورنيا أو مصانع بوينج للطائرات مع العروج على البيت الأبيض ومكتبة الكونجرس، المهم فى نهاية الأمر أن يتم غرس نوع من الحب والانبهار، وتركك وقد اقتنعت بعظمة أمريكا أم الدنيا المعاصرة.



اللافت للنظر فى مثل ترتيب هذه الزيارات أن المرافق للزائر، يحمل بتعليمات تتوافق مع طبيعة الزائر، بل قد تكون تركيبته الشخصية أو كيمياؤه النفسية تتكامل معه، لكى يتحول الاثنان إلى أصدقاء، هكذا تنشئ الدول العظمى لها أصدقاء فى مختلف أنحاء العالم .

فى عصر الرئيس جمال عبد الناصر، كان طلبة المدارس والعامة من الشعب لديهم حالة إبهار بكاريزما الزعيم، لذا كانوا يرسلون له طالبين صورة شخصية منه، سرعان ما يقوم مكتبه بإرسالها ممهورة بتوقيعه، تخيل طفلاً فى نجع فى صعيد مصر فى منطقة منسية مهملة، تصله فجأة أمام أهل قريته رسالة من رئيس الجمهورية، فيها صورة عليها توقيعه، كيف سيكون رد فعلها لدى أهل القرية، لاشك أنه سيكون كبيرا، بل ها هو تأثيرها لدى الطفل سيدافع عن عبد الناصر مدى الحياة، لذا لم أكن مستغربا أن أرى صورة جمال عبد الناصر معلقة فى بعض المحال أو المنازل، لأن من أعدوا له صورته لدى الشعب أحسنوا وأدركوا أهمية الاقتراب من رجل الشارع .



هنا يجب أن الفت الانتباه إلى الحضور الإعلامى، فهناك أشخاص ليس لديهم حضور إعلامى وآخرون تجذبهم الكاميرا، بل وآخرون يخطفون الكاميرا، الفرق بينهم شاسع، لذا فى هذا الكتاب سيجد القارئ قسما مخصصا لسيكولوجية الأداء الإعلامى، وتجنب السلبيات الخاصة بضعف شخصية أمام وسائل الإعلام، فعلى الرغم من جاذبية جورج الابن احتاج لمعالجات عديدة وتدريبات حتى تصبح لديه قابلية جماهيرية .

إن تفهم طبيعة الجمهور المخاطب وسيلة أساسية من وسائل النجاح الإعلامى، بل نجد كثيراً من الساسة لجأوا إلى حيل عديدة لكسب الجمهور، فها هو نابليون عند غزوه لمصر يشهر إسلامه ويتبنى منشورات تدعو المسلمين فى مصر لمساندته ضد الظلمة المماليك، ويحضر الموالد الإسلامية، بل نرى الرئيس السادات يبرع فى هذا حين يرتدى أحدث الأزياء فى القاهرة وعند سفره خارج مصر، ويلبس الجلباب والعباءة فى ميت أبو الكوم، فالأولى لديه طبقة وجمهور معين يتناسب معه البذلة ورابطة العنق المتناسقة معها وطريقة الإيليت فى التعامل، والثانية كان لدى السادات فيها جمهور آخر يخاطبه هو جمهور الفلاحين والعمال وأهل المدن الصغيرة، الذى كان يهدف إلى إقناعهم بأنه واحد منهم يأكل البط والأوز فى المولد النبوى على الطبلية، بل نشأ مثلهم، وأن لديه قيم الريف الأصيلة.

من هنا جاء هذا الكتاب، لا أعرف هل ما أهدف إليه منه سيكون مؤثراً بصورة أو بأخرى، لكنها محاولة لعلها تكون مفيدة، ثم هل هناك أصلاً علم لإدارة السياسات الإعلامية، لعل هذا العلم موجود فى الغرب وحوله دراسات وأبحاث، ولعلنى هنا أحاول، وقد يكون هناك من حاول قبلى. لكنها كلها إسهامات أرجو أن تكون مفيدة.

لكن مثل هذا العلم لا يبنى على العشوائية بل يخضع لقواعد وخبرات متراكمة، لا تخرج فى نهاية الأمر عن كونها تخضع للتخطيط Planning وتعنى به توظيف الإمكانيات البشرية والمادية المتاحة والتى يمكن أن تتاح خلال سنوات السعى من أجل تحقيق أهداف معينة مع الاستخدام الأمثل لهذه الإمكانيات، ويقوم على مجموعة عناصر: المدى الزمنى، معرفة الواقع، تحديد الأهداف والوسائل، ويرتبط هذا المفهوم دائما بمفهوم السياسة، وإن كانت السياسة Policy أوسع من الخطط فهى تحدد الأسس العريضة التى يتم فى إطارها أوجه النشاط المتصلة بالتخطيط فتنفيذ السياسات من مهام التخطيط .

لسنوات طويلة ظل المجتمع العربى تسيطر عليه فكرة الهيمنة الأمريكية على وسائل الإعلام وصناعته، وغاب عنه التحولات والتقلبات فى الإعلام الأمريكى لكن هناك هيمنة الدولة الأمريكية على العالم من خلال الاقتصاد والقوة المسلحة والأدوات الإعلامية التى تسيطر على عقول البشر بحيث يصبح البشر أسرى هذه الأدوات ومنها الأفلام السينمائية التى تبث السطوة الأمريكية بطريقة ناعمة لدى المشاهد ومثلها المسلسلات الأمريكية، وهى قضية مثارة حتى فى أوروبا، وبصورة خاصة فى فرنسا التى لديها تخوفات حادة من الهيمنة الأمريكية، حتى فى مجال محركات البحث على شبكة الإنترنت إذ إن سيطرة Google على محركات البحث تجعل دائماً المواقع الإلكترونية الأمريكية فى المقدمة أمام الباحث عن أية معلومة على الشبكة الدولية للمعلومات إن هذا النوع من الهيمنة يفرض علينا ضرورة البحث عن تفعيل محركات بحث عربية .

....

إذا المشهد الإعلامى المسيطر على الرأى العام له أداة ينفذ من خلالها ، هى «المجتمع الاتصالى» الذى يشمل كل الوسائط الإعلامية بدءاً من الخطابة أولى هذه الوسائط وصور للإنترنت أحدثها، أما من يقومون بصناعة إستراتيجية هذا المشهد فهم من يديرون السياسات الإعلامية ويضعون خططها المحكمة بصورة مستمرة، هنا أستطيع أن أقف أمام صناعة السياسات الإعلامية التى تشكل المشهد الإعلامى الذى يسيطر على الجمهور غير الناقد واللاوعى للسيل الذى يتعرض له؟!!

خالد عزب

من مقدمة كتاب للمؤلف بعنوان «صناعة الوهم.. إدارة السياسات الإعلامية» يصدر قريباً

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

شهادة حق

جاء فى عرض د. رشدى سعيد عن قصة التنتالوم فى مصر(العدد ١١٣ يونيو لسنة ٢٠٠٨) كمثال لدور المساحة الجيولوجية المصرية فى البحث والتنقيب المنظم. ولقد وجدت من واجبى أن أسجل شهادة حق لدور الدكتور رشدى سعيد فى النهوض بأعمال هيئة التعدين فى هذه الفترة. وما سأسرده هنا هو ملاحظات بسيطة على بعض إنجازاته داخل هيئة التعدين خلال الفترة من (١٩٦٨- ١٩٧٧). إن قصة التنتالوم وغيرها من إنجازات تعدينية ضخمة لم تأت من فراغ .. وإنما استندت إلى قيادة حكيمة ..ذات نظرة مستقبلية بعيدة المدى... دعمتها إنجازات عديدة داخل هيكل هيئة التعدين وقت أن أوكل للدكتور رشدى سعيد إدارتها سنة ١٩٦٨ . وتلك الإنجازات هى التى أفرزت هذه النجاحات التى ينسبها البعض إلى أنفسهم فى يومنا هذا... رغم أن كل تلك النجاحات مسجلة وموثقة وليس لكائن كان أن ينسب لنفسه فضل اكتشافها... كما يحدث فى أيامنا هذه.

إن المساحة الجيولوجية المصرية تدين لأستاذنا العظيم د. رشدى سعيد والذى اقترب عمره اليوم من عامه التسعين... متعه الله بالصحة والعافية وطول العمر.... تدين له بأفضال عديدة... حيث عاشت الأجواء الجيولوجية عشر سنوات ذهبية... بإنجازات إدارية رائعة ... حققت قفزات إدارية وفنية غير مسبوقة فى مجال المساحة الجيولوجية.

وبعيداً عن المجاملات الشخصية.. فإن هذه القفزات تستند إلى عدة خصائص وصفات متميزة لأستاذنا الجليل ومنها:

١- شخصية أكاديمية فذة.... قدمت للعلم عشرات الكتب والبحوث والمقالات العلمية.... ترجم أغلبها إلى لغات عالمية متعددة.

٢- حب وغيرة خالصة من أجل مصر والوطن ومن أجل كل الأمناء القائمين على إصلاح وتطوير بلدنا العزيز.... دون محاباة أو تمييز.

٣- أستاذ ومعلم بارع... يمتلك قدرة هائلة على نقل المعلومة ببساطة وجاذبية ... يغدق بمعلوماته على جميع من حوله وحتى يومنا هذا.....

٤- بعد نظر محدد الملامح وبصيرة ثاقبة... تستشعرها فى جميع قراراته الإدارية وآرائه العلمية.

٥- رؤية محددة واضحة لدور المساحة الجيولوجية وما يجب أن تكون عليه لكى تحقق الهدف المرجو منها علما وعملاً.

٦- ذاكرة حاضرة لكل ما هو كبير وصغير... وحتى يومنا هذا أدامها الله عليه ومتعه بدوام الصحة والعافية.

وليس أدل على صحة كلامى هذا.... أكثر من تهافت زملائه ومرؤوسيه إلى لقائه طالما سنحت لهم الفرصة. مع أن سيادته خارج السلطة منذ ثلاثين عاماً.... وذلك فى فترات تواجده القليلة فى مصر.... لتحيته وتكريمه والاستزادة من آرائه السديدة .. ولا يتخلف عن تلك اللقاءات حتى من قد يختلفون معه حتى ممن تجهدهم أمراض الشيخوخة.....!

دون إنكار دور أى من رؤساء المساحة الجيولوجية فى حسن تيسير أمور ذلك الجهاز المهم... سواء من تولوا هذه المهمة بعده... أو حتى ممن سبقوه... إلا أن فترة تولى رشدى سعيد القصيرة للجهاز(١٩٦٨- ١٩٧٧) كانت زاخرة بنوع جديد من أصول الإدارة المتطورة تجرى فى أوصالها... لم نعهدها من قبل. فقد استطاع سيادته خلال تلك الفترة أن يدير بحنكة وذكاء شديدين... تبدو فيها آثار صفاته الشخصية واضحة لجهاز يربو عمره على الثمانين عاماً بنفس ميزانيته...وكوادره ... ولوائحه ... وتقاليده الهرمة المتهالكة .. وفى فترة من أحلك الفترات التى عاشها الجهاز وعاشتها مصر كلها... ألا وهى فترة ما بعد هزيمة حرب ١٩٦٧ القاسية على النفس والمدمرة لأصول المساحة التعدينية فى سيناء الحبيبة وتعطل آلاف العاملين فى قطاع التعدين. إن الإنجازات الإدارية والفنية التى تمت فى عهده... وفى الظروف التى أشرنا إليها.. كانت كالمعجزة حيث استندت هذه الإنجازات إلى شخصية إدارية متميزة... نجحت بمهارة فى التقاط العناصر الأمينة عالية الإنتاجية دون تمييز ودعمها بقوة لتزيد من إنتاجيتها سواء كان هذا العنصر فنيًا كبيرًا مخضرمًا أو حتى صانعًا صغيرًا مبتدئًا.. كما أرسى رشدى سعيد مجموعة من الإضافات والتى لازلنا ننعم بأفضالها إلى يومنا هذا ومستمرة لأجيال قادمة لو قدر للقائمين عليها أن يدعموها ويطوروها. إن أفضال تلك الإنجازات والإضافات لا تخص فقط العاملين فى المساحة الجيولوجية المصرية.... إنما تخص كل باحث جيولوجى مجتهد فى مصر.

قد لا تبدو هذه الإنجازات لغير المتخصصين ذات أهمية تذكر لكنها فى الواقع بالنسبة للعاملين فى حقل البحث والمساحة الجيولوجية ذات فوائد جمة وعائد عظيم. بجانب إنجازات أخرى تصب فى صلب دعم مسار الجهاز والدولة اقتصادياً وعلمياً.. وهذه لها مجال آخر للحديث عنها.

فيما يلى بعض من تلك الإنجازات:

أولاً: قطاع التوثيق المعلوماتى:-

تم استحداث هذا القطاع ضمن برنامج تطوير جذرى لمكتبة المساحة الجيولوجية فبعد أن كانت عبارة عن حجرتين بسيطتين، واحدة لكل من للمراجع العلمية وأخرى للدوريات أصبحت مكتبة المساحة تتكون من عشرات الحجرات تضم كثيراً من الأفرع المعلوماتية وعلى رأسها التوثيق حيث تم جمع وتصنيف وتبويب وتسجيل جميع الأعمال والأبحاث الجيولوجية فى مصر.. سواء من داخل الجهاز أو خارجه. وعلى جانب آخر تمت فهرسة كل هذه البيانات بحيث يستطيع أى طالب علم. الرجوع لهذا الجهد عن طريق الحاسب الآلى لو أن لديه أبسط المعلومات عن هذا العمل مختصراً بذلك مجهودا ووقتاً هائلين.. ورغم أن هذا القطاع لا يزال موجودا حتى يومنا هذا فإنه ولأسباب مبهمة كبل وحجم دوره الرائع فى خدمة طلاب العلم والمعرفة وذلك تماماً على عكس الهدف الذى من أجله أنشئ..!.

ثانياً: تطوير إمكانيات وقدرات المكتبة:

تم من خلال هذا الجهد انفتاح معلومات مكتبة المساحة الجيولوجية المصرية على العالمية عن طريق الاشتراك فى برنامج للتبادل المعلوماتى للعلوم الجيولوجية مع مكتبات المساحة الجيولوجية. لأول مرة تم فتح باب الاتصال والتبادل المعلوماتى بينها وبين عديد من مراكز البحث العالمية.. من خلال الدخول المباشر إلى مواقع المعلومات المكتبية والتوثيق آليا. وهذا أول تطبيق عهدناه لنظم شبكة الاتصالات العالمية (الإنترنت).

ثالثاً: المؤتمر الجيولوجى الأول:

فى بداية الثمانينيات شهدت قاعات وأروقة المساحة الجيولوجية لأول مرة مؤتمراً جيولوجيا عالمياً على أرض مصر وأنا أذكر أن د. رشدى سعيد أشرف بنفسه على كل كبيرة وصغيرة فى هذا المؤتمر من تدريب وتوجيه طاقم الخدمة المكلف بالاتصال بالجهات الأجنبية والإعلام وتنظيم مراحل المؤتمر ومتابعة ما بعده وذلك نظراً لعدم وجود كفاءات فنية متدربة مخصصة أصلاً لهذا العمل داخل الهيئة وتمت مشاركة علماء من أكثر من سبعين دولة فى تظاهرة علمية يفخر بها كل مصرى.. وتأكد للجميع خلال هذا المؤتمر مدى سعة شهرة أستاذنا الجليل العلمية فى مجال علوم الأرض.... ومدى قوة علاقاته الشخصية بأغلب المشاركين فى أنشطة المؤتمر العلمية من داخل وخارج مصر.

رابعاً: رفع الكفاءات والتدريب:

بجانب بعثات التدريب فى الخارج والداخل دأبت الإدارة الحكيمة على تدريب ودفع الكفاءات المتميزة من المختصين ليتولوا مواقع المسئولية... دون تمييز أو محاباة وتم ذلك من خلال تدبير لقاء سنوى بين جميع رؤساء قطاعات المساحة الجيولوجية فى التخصصات المختلفة وعلى رأسهم أستاذنا الجليل مع صغار الجيولوجيين العاملين بالحقل... يقوم فيها المبتدئون بعرض موجز ومنظم لأعمالهم السنوية.. يتولى الرؤساء مناقشتهم فى كل كبيرة وصغيرة والاستفسار عن أهم النتائج العلمية وتوجيههم إلى الصالح وذلك لاختيار العناصر المتميزة كى يتولوا المسئولية فى مرحلة لاحقة وإن هذه اللقاءات السنوية كانت بمثابة الاختبار الحقيقى والمباشر لكفاءة العاملين فى الحقل.. سواء من ناحية الإنجازات الحقلية أو ناحية جودة وترتيب وعرض المعلومات كما تكسب هذه اللقاءات دعم وقوة وثقة صغار العاملين فى أنفسهم أولاً.

فيتحولون إلى بحاث منتجين وإداريين من الدرجة الأولى. كما أنها فرصة لتقييم الرؤساء المباشر لهم أمام جميع القيادات دون تمييز أو محاباة.

خامساً: إعادة ترتيب مهام ومسئوليات المساحة الجيولوجية المصرية بما يحقق الفائدة المرجوة منها. المسئولية الأولى هى التخريط الجيولوجى بمقاييس متعددة وتفاصيل مختلفة والمشاركة فى الأبحاث الجيولوجية الأكاديمية مع جهات خارجية أجنبية ومصرية، استكشاف وتقييم الخامات المعدنية ذات صفة اقتصادية مهمة. تلك الجهود أفرزت كثيراً من الخامات القيمة مثل التنتالوم - الفوسفات- النيفيلين..... إلخ.

ما سردناه هو نماذج داخل بيت المساحة الجيولوجية لما تم من إنجازات خلال فترة قصيرة.. وكان المأمول أن تستمر تلك الإنجازات وتتقدم وتتطور لكنها للأسف وبعد اختيار أستاذنا الجليل لنفسه لطريق آخر فى مجال خدمة علوم الأرض بدأت تلك الإنجازات وغيرها فى التباطؤ شيئاً فشيئا... حتى توقف أغلبها تماماً... وتجمد نشاط البقية وذلك فى غياب رؤية واعية لأهمية تلك الإنجازات للعاملين فى حقل البحث الجيولوجى.

جيولوجى

مصطفى إبراهيم توكل

استشارى تعدين . مصر

قضية الألغام

بالإشارة إلى الحديث المتكرر بخصوص تطهير الألغام بالصحراء الغربية، يهمنى أن تكون «وجهات نظر» هى المكان الملائم لإيضاح بعض النقاط المهمة وهى:

مصر دفعت تكاليف تطهير الألغام بالصحراء الغربية.

والمطلوب استرداد ما تم دفعه من الدول الثلاث التى تسببت فى غرسها منذ أكثر من ٦٠ سنة وهذه الدول (إيطاليا . ألمانيا . إنجلترا). والحقيقة التى لم يتم ذكرها أبداً أو معرفتها حتى الآن هى أن شركات البترول التى عملت منذ الخمسينيات بالصحراء الغربية قد قامت بتطهير الألغام فى جميع المناطق التى أجرى فيها بحث عن البترول، ثم استردت هذه الشركات ما تم دفعه من تكاليف البحث عن البترول بما فيها تطهير الألغام من هيئة البترول المصرية، وهذا يعنى أن هيئة البترول هى التى دفعت تكلفة تطهير الألغام.

وعليه:

١ . ينبغى تجميع فواتير تكاليف تطهير الألغام التى دفعتها هيئة البترول للشركات الأجنبية البترولية، ثم طلب استرداد هذه التكلفة فى الدول الثلاث.

٢ . خريطة البحث عن البترول بالصحراء الغربية (الخطوط الغربية) هى نفسها خريطة تطهير الألغام. وطلب تزويد محافظة مطروح بها حتى تتأكد، أن هذه المناطق قد تم تطهيرها، ولا داعى لبيعها بمائة جنيه للفدان على أساس من يشترى الأرض يقوم بتطهيرها أو طرح هذه المناطق للشركات التى تقوم بتطهير الألغام وزراعتها بنظام (T.O.B).

عبدالوهاب يوسف

مدير عام سابق بهيئة البترول

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

ثقوب فى الضمير

أحمد عكاشة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٢٥٠ صفحة



تكاد الشكوى من سوء الأحوال وانتشار الفوضى وغياب الإحساس العام أن تكون عامة. الجميع يشكو ويلقى باللوم على الآخرين باعتبارهم سببًا فى معاناته، دون أن نتوقف لحظة لنتساءل عن نصيبنا فيما آلت إليه أحوالنا.

يدور الكتاب حول هذه الفكرة، وإن كان يضم دراسات ومقالات تبدو بعيدة نظريًا عن فكرته الجوهرية، منها ذلك القسم الذى يتناول فيه المؤلف المرض العقلى من العصر الفرعونى وحتى الإسلام، والعلاقة بين الجنسين، والقسم الخاص لهذه الدراسات تشير إلى خيوط ممتدة تربطها بفكرته الأساسية، فهى إما شارحة لها، أو مفسرة لبعض خباياها أو مصحة لكثير من المفاهيم حولها.

يسلّم المؤلف وهو عالم نفس وظيفته مراقبة السلوك الإنسانى فى تجلياته الفردية والجماعية، بغياب الضمير العام، بسبب تعقد الحياة، إذ لم تعد هى حياتنا البسيطة التى كانت تحكمها أعراف تنطوى على قيم التواد والتراحم واحترام إنسانية الآخرين، وحل بدلاً منها منطق الأنانية وشعار أنا ومن بعدى الطوفان.

يؤكد المؤلف على غياب القدوة، فالناس تسمع كثيرًا عن انحرافات ورشاوى وسرقات ونهب للمال العام فى أوساط كان يفترض فيها الاتسام بالنزاهة، كما يلاحظ الناس أن العقاب لا يطال سوى بسطاء الناس، ولا تنفذ سهام العدالة إلا فى أجسامهم، أما هؤلاء أصحاب السرقات الكبيرة والاختلاسات العظمى، فإنهم دومًا بعيدون عن مرمى القانون ويد العدالة، وحتى فيما يتعلق بالخدمات العامة التى تقدم للمواطن، والتى يدفع مقابلها فى صورة اشتراكات أو ضرائب، فإنها شديدة السوء وينظمها عقد إذعان يجعل المواطن فى الموقع الأضعف، يقبل الخدمة مهما كان مستواها وأيًا كانت عيوبها.

وهكذا - يقول المؤلف - تتنوع الخبرات المرة للمواطن المصرى، إلى الحد الذى يجعله غير عابئ بشىء فى هذا الوطن، بدءًا بحقه الانتخابى وانتهاء بحرصه على عدم الإسراف فى الاستهلاك من المياه، إذ توافرت فى صنابير منزله أصلاً، فإذا حدث أحد هذا المواطن عن أمر من الأمور العامة بادر محدثه على الفور: يا عم يعملوا اللى يعملوه البلد بلدهم، أما من هم الذين البلد بلدهم، فعليك أن تخمن.

يشير المؤلف كذلك إلى غياب الهدف العام الذى يسعى الناس من أجله، ولهاث كل منا نحو تحقيق أهدافه الخاصة، وتحقيق مصالحه الذاتية جدًا حتى لو تضاربت، وهى تتضارب كثيرًا، مع المصلحة العامة، وتغيب معانى العيب، ويتسع الضمير الاجتماعى لتقديم مبررات لكثير من السلوكيات الشاذة.

يقظة الضمير الاجتماعى لن تتحقق إلا بالتصدى لكل هذه الخروقات، كى يستعيد المجتمع صحته النفسية.

■

الاقتصاد عاريًا

تشارلز ويلان

ترجمة: زينب حسن البشارى

القاهرة: دار كلمات عربية، ٢٠٠٨، ٣١٠ صفحات



على الرغم من أن هذا كتاب فى الاقتصاد، إلا أنه لا يحتوى على معادلات أو مصطلحات متخصصة يتعذر فهمها، وهذا ما هدف إليه المؤلف بالفعل، أن يكون كتابه فى الاقتصاد مفهومًا وبسيطًا، ويعلم الكثيرون أن علم الاقتصاد أكثر صعوبة من العلوم الطبيعية، ففى الوقت الذى يمكن فيه إخضاع الظواهر الطبيعية للتجارب المعملية المحكمة، فإن هذا الأمر غير ممكن فى حالة الظواهر الاقتصادية، وأما فهم الاقتصاد فمسألة مهمة، إذ بات الاقتصاد أكبر تأثيرًا فى حياتنا من أى وقت مضى، وهو يتقاطع حتى مع سلوكيات الأفراد وتفضيلاتهم، الأمر الذى شجع على مزيد من دراسات الاقتصاد السلوكى، أى الذى يعنى سلوك الأفراد، ولعلنا نتذكر شعار حملة بيل كلينتون الانتخابية عام ١٩٩٢ «الاقتصاد هو المهم أيها الغبى».

ويعرض هذا الكتاب المفاهيم الاقتصادية بطريقة مبسطة ليسهل على القارئ فهمها، فهو يتطرق إلى فوائد السوق الحرة التى تجعل حياة الناس أفضل، ولماذا تخفق الأنظمة الاقتصادية المركزية فى رفع مستوى معيشة المواطنين، كما يعرض للبنية القانونية التى تعطى الفرصة لوجود الأسواق وتوفير السلع العامة ودور الحكومة فى توفير هذه البنية، ودورها كذلك فى تصحيح الأوضاع عندما تتسبب السوق الحرة فى تأثيرات غير مرغوب فيها تؤثر سلبًا على أوضاع الناس.

من الواضح طبعًا أن المؤلف من المتحيزين بقوة لفكرة السوق الحرة، على الرغم من الانتقادات التى يوجهها لهذا النظام الاقتصادى فى عدة مجالات، خصوصًا فى جانبه التطبيقى والعملى، وهو فى النهاية يطرح تساؤلات سبعة، يرى فى الإجابة عليها شكل الحياة على كوكب الأرض عام ٢٠٥٠: (١) كم دقيقة يستلزم العمل لتوفير رغيف الخبز؟، وهو هنا يسأل عن الإنتاجية وجدية العمل. (٢) كم سيبلغ عدد النائمين تحت كوبرى واكر دريف فى شيكاغو؟، وهذا سؤال عن تقسيم الكعكة، أى تقسيم عوائد التنمية. (٣) هل سنستخدم السوق بطرق خيالية لحل المشاكل الاجتماعية؟ هذا سؤال عن ارتباط الحلول بالدوافع والحوافز الممنوحة للأفراد. (٤) هل ستوجد مراكز التسوق التجارية عام ٢٠٥٠؟، هذا سؤال عن أولويات الأسواق، وعن التفضيلات، وما إذا كان الجميل هو الأفضل لحياتنا، أم الأكثر منفعة؟ (٥) هل ستظل الحكومة الفيدرالية تحدد كمية اللحم على البيتزا المجمدة؟، وهذا كناية عن تأثيرات عولمة السوق فى أمريكا وخارجها. (٦) هل توصلنا حقًا للسياسة النقدية المناسبة التى تشجع على العمل ودفع الضرائب وتقضى على الركود؟ (٧) هل ستصبح النمور الأفريقية بعد خمسين عامًا شاهدًا على حياة البرارى أم قصص نجاح التنمية؟، وهو سؤال عن فرص استفادة الاقتصادات النامية من العولمة وآلياتها.

■

كلمـــات

يوسف زيدان

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٨، ١٥٠ صفحة

تجرى على ألسنة الناس كلمات، معظمها عامى وبعضها فصيح، يستعملونها دون أن يدروا ما تخفيه الكلمات من معنى عميق، بفعل الامتداد الطويل لتاريخنا الثقافى.

ويضم هذا الكتاب عشرات الكلمات، سعى المؤلف إلى بيان معناها ودلالاتها فى حياتنا المعاشة وفى تاريخنا الثقافى، لنكتشف أن كثيرًا من الكلمات التى نطلقها تحمل فى حقيقتها معنى مضادًا لما نقصده بالضبط.

كلمة «قهوة» مثلاً تعنى فى كلامنا المعاصر أمرين، إما مشروب القهوة المحبب لدى قطاعات واسعة من الناس، أو المكان الذى يتم فيه احتساء هذا المشروب، فلما تطورت الأمور وصارت «القهوة» تقدم مشروبات أخرى، تحولت إلى كافيتريا ثم إلى كافيه، أما القهوة فقد عشقها المتصوفة لأنها تساعدهم على السهر والعبادة، وقد استخدمت القهوة فى نصوص عربية قديمة شعرية ونثرية بمعنى الخمر، وقد لاحظ المؤلف أثناء بحثه عن معنى القهوة فى الجذر «قها»، أن قها تعنى انسدت نفسه عن الأكل، ومن عجب، أن هذا الاسم أطلق على واحدة من شركات الأغذية والمشروبات الشهيرة فى مصر.

نحن نستخدم أيضًا كلمة «زوفا» للدلالة على الكثرة، فنقول جاءوا بالزوفة، أما كتب الصيدلة القديمة ومنها موسوعة ابن النفيس «الشامل فى الصناعة الطبية» فقد أورده باعتبارها أسمًا من أسماء الدواء، وهى نوع من الحشائش تنفرش أعضاؤها على الأرض، ولصعوبة تقدير كمية حشائش الزوفا، فقد صار التعامل معها بالجملة، أى بالزوفا.

وفى الصعيد يستخدم الناس كلمة «سخمط» تدليلاً على فعل جنسى بشع، اغتصاب بالقوة، أما المؤلف فيعود بالتسمية إلى الأصل الفرعونى القديم للكلمة «سخمت»، وهو اسم «لبؤة» اتخذت هيئتها الإلهة حتحور لتنفيذ مشيئة آمون بتأديب أناس أساءوا العمل، فأوسعتهم قتلاً وترويعًا، وارتاع آمون مما فعلت وأمرها بالتوقف فلم تستجب وإن ندمت فيما بعد على ما فعلته من سخمطة.

ويستخدم العامة كلمة «بس» للدلالة على التوقف، والكلمة فصيحة ذات أصل فارسى، ومعناها: حسب، أى كفى، وهى تعنى عند ابن منظور أيضًا الطرد والتنحية، أما كلمة «كفاية» التى اتخذت منها حركة احتجاج اجتماعية وسياسية مصرية حديثة مسمى لها، فإنها لا تعنى معنى سلبيًا، بل هى تعنى توقف الأمر الإيجابى، فيقال: وفى هذا القدر كفاية، أو هؤلاء كفاية لعمل ما، أو أن هذا الأمر الشرعى فرض كفاية، بمعنى أن قيام البعض به يغنى بقية الناس عن فعله.

وتردد كثيرًا هذا التعبير: على رأسه ريشة، للدلالة على أن شخصًا ما تم تمييزه لسبب ما، أما الأصل فيعود إلى إلهة العدل عند المصريين القدماء «ماعت» وهى ذات مكانة خاصة فى العقيدة المصرية القديمة، وكانت ترسم على شكل امرأة مجنحة على رأسها ريشة، وهى الريشة التى توزن بها أعمال الناس يوم البعث، فتوضع الأعمال فى كفة، والريشة فى

الكفة الأخرى، فإن رجحت أعمال الشخص دخل إلى عالم النعيم وصار على رأسه ريشة.

بهذا المنهج يعرض المؤلف لعشرات الكلمات.

■

حب على الهوا

انتصار العقيل

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٨، ١٩١ صفحة



يشجيك صوت فيروز مع بداية كل فصل من هذه اللوحات المتصلة، تسميها صاحبتها رواية، ربما لأن الرواية جنس فضفاض أكثر من غيرها من الأجناس الأدبية، يستوعب طاقات التجريب فى الشكل وفى المحتوى، وربما كانت هذه أبرز ميزاتها وأظهر عيوبها فى آن معاً. مع بداية كل فصل مقطع من أغنية للمطربة الكبيرة، ويداخل الفصل - أحياناً - مقاطع أخرى، فكأنها تهيمن على النص وتفرض سطوتها عليه، إلا أن أكثر ما يلفت النظر هى هذه الجرأة غير المعتادة لكاتبة سعودية، فهى تتكلم فى الحب والعاطفة بقاموس شديد الوضوح والجرأة.

تقدم اللوحات ذكريات امرأة عاشقة، عاشت حياة لو خُيرت ما اختارتها.. «فى عالمنا النسائى، فى هذا الحرملك الذى نحيا فيه ونحن فى القرن الحادى والعشرين، نحن المالكات المملوكات، نعم المالكات لكل شيء، اللواتى - فى الحقيقة - لا يملكن شيئاً لأنهن لا يملكن أنفسهن اللاتى تملك الأشياء».

كان انفصال أبيها عن أمها هو أول غدر للرجل لها، وأول ضربة تلقتها من الحياة قبل أن ترى نور الحياة.. «لقد خرجت إلى هذا العالم من رحم حزين، والأحزان فى مخاضها لا تلد سوى الأحزان».

وبالفعل توالت عليها الأحزان؛ زواج ابن عمها الذى أحبته من فتاة أخرى، إجبارها على الزواج من زوج شقيقتها المتوفاة لأنها ستكون الأحرص على أبناء أختها.

وتساءلت: هل تريد أمها أن تكمل دورها فى الشقاء والعبودية، كى لا تتحسر يوماً عن حياتها التى ضاعت هدراً وهى تقارنها بحياة ابنتها الثائرة المتمردة الناجحة؟ ويوم زُفت إليه شعرت أنها تساق إلى قبرها، زواج استمر سنوات، أدركت خلالها أن عذرية المرأة ليست فى جسدها الذى قد يُحكم عليه ويغتصب بشهادة شاهدين ومأذون وحبر وورق.. «إنما عذرية المرأة فى قلبها وروحها وفكرها، إن لم يلمسها الرجل فالمرأة مازالت بكراً».

وسيقدر لهذه المرأة أن تحب، لكن من تحب، سيكون مسجوناً بالآخرين محاصراً بأفكارهم، لا يستطيع اقتحامهم برغم أنها فتحت أشرعتها لاستقباله وكان حلمها الدائم فى المنام واليقظة.. «أن تنام على عشب صدره».

ويتتابع الوصف الجرىء - الموشى بترانيم أخلاقية - فى اللوحات التى تصف لقاء الحبيبين، لكن الحكاية تنتهى بالفراق بعد أن أدركت العاشقة عدم قدرة الحبيب على الفكاك من تقاليد وأعراف كبلته بأساور من حديد.

وفى ثنايا الكلام عن الحب والأحبة، تطرح المؤلفة على لسان بطلتها بعضاً من الآراء شديدة الجرأة، نقرأ مثلاً: أمم العالم الثالث تعودت أن يلغى أفرادها ذواتهم كى لا يوصموا بالغرور والتكبر، وهى بهذا الإنكار حولتهم إلى دراويش يعلفون أيامهم فى خمول وتبلد، لا كفاح ولا نجاح، أمم شعوبها علفيون، يجلسون على ثرواتهم ولكنهم لا يملكونها، من يمتلكها هو من نقب عن هذه الثروات واستخدمها ومن ثم اتباعها مقابل السلاح لتتقاتل به هذه الأمم بعضها البعض ونقرأ:

الحجاب فرض واجب، لكن لابد أن يبدأ من الداخل إلى الخارج وليس العكس، ونقرأ أيضاً: شعرت أن تعصبها الأعمى للعروبة الذى يصل إلى حد الغباء يكاد يخنقها، شعرت بأنها عربية منفية من منفى العروبة.

■

تعليم الإناث فى الدول العربية

رفيقة سليم حمود

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ٤٦٤ صفحة



ليس صحيحاً أن النظرة الدونية للمرأة واعتبارها كائناً أقل درجة ذات مرجعية دينية، إسلامية على وجه الخصوص، فقد كرّم الإسلام المرأة، ومنحها حقوقاً لم تحظ بها فى ديانات سماوية وعقائد غير سماوية سابقة عليه، لكن المؤكد أن هذه النظرة ابتدعتها المجتمعات العربية ذات الطبيعة الذكورية التى عمدت دائماً إلى تهميش دور المرأة وتكريس النظرة إليها على هذا النحو، وهو أمر تعكسه حتى الأمثال الشعبية المتداولة فى كل قطر عربى، وفى الاحتفالات التى تقيمها الأسر إعلاناً عن سعادتها بإنجاب الولد، والشعور بالحزن الذى ينتابها إذا كانت المولودة أنثى.

وبرغم تطورات عديدة ومهمة لحقت بالمجتمعات العربية فى مجال تعليم الإناث وتشجيعهم على العمل فإن بقايا جاهلية مازالت تحكم خروج الفتاة إلى العمل أو انغماسها فى التعليم، وتلاحظ الباحثة مثلاً أن الطفلة لا تتلقى رعاية صحية وغذائية مشابهة لتلك التى يتلقاها الصبى، الذى تؤثره الأم باللحم والطعام الفاخر، فيما تحصل الفتاة على ما يتبقى منه، يحدث هذا فى مناطق عديدة من السودان واليمن وتونس والأردن والجزائر ومصر. وفى الريف العربى فإن رغبة النساء فى تعليم الفتاة، حيث يعتقد الناس فى الريف أن تعليم الفتاة سيجلب لهم العار، وسيفتحهن على أمور ما كان ينبغى لهن أن يعرفنها.

وحتى لو تعلمت الفتاة، فإن نوعية التعليم الذى يتم توجيهها إليه مختلفة، فالطب والهندسة وعلوم الحاسب الآلى مخصصة للكائنات الأذكى - الذكور طبعاً - أما الفتاة فلها العلوم الإنسانية ودراسة اللغات وغيرها.

وتلاحظ المؤلفة أن الكتب المخصصة للذكور فى مراحل تعليمية معينة مختلفة عن تلك المخصصة للإناث فى بلد مثل السعودية، فى الجغرافيا والتاريخ والاجتماع، إذ تتسم كتب الإناث ببساطة ومباشرة حكائية، فيما تركز كتب الأولاد على طرق التفكير ومنهجية البحث، وفى لبنان مثلاً، فإن الصور التى يتم تقديمها للأب فى كتب المطالعة للمرحلة الابتدائية هى لرجل يقرأ أو يكتب أو يمارس عملاً ما، وهو إما طبيب أو مهندس أو قاض أو صانع ماهر، أما الأم فهى دائماً مشغولة بالتطريز والطبخ.

وتشير المؤلفة إلى دراسة أجريت فى مصر على ٦٠ سيدة حول تصوراتهن عن أدوار المرأة، رأين فيها أنهن أقل من الرجال، برغم أن العينة احتوت على سيدات عاملات وربات بيوت.

المؤلفة تورد جداول ودراسات عديدة تؤكد على أن الأمور، فيما يتعلق بنسب من التحقن بالتعليم الجامعى وما قبله ازدادت جداً فى العقود الأخيرة، وأن نسب الأمية بين النساء تراجعت بشكل عام، لكن جهوداً كثيرة ينبغى أن تبذل فى مجال تعليم الإناث، يقع أغلبها على عاتق الحكومات العربية، وأيضاً مؤسسات المجتمع المدنى.

■

مع الإخوان

حسين أشرف

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٨، ٢٥٥ صفحة



الافتراض الأساسى الذى يطرحه المؤلف، وهو من قيادات الحركة الطلابية المصرية، فى السبعينيات ومن مؤسسى نادى الفكر الاشتراكى بالجامعة، هو أن الإخوان المسلمين جزء من مشاكل مصر اليوم، وهم أيضاً جزء من الحل فيما لو تغيرت قناعاتهم، بهذه الفرضية يدخل المؤلف حواراً مع قناعات الجماعة، ليس بهدف تغيير هذه القناعات ذات الطبيعة الإطلاقية بحسب قوله، وإنما بهدف تحسين قطاعات كبيرة من الشباب قبل أن يجرفها تيار الإخوان «الذى يهدر الطاقات الوطنية ويبدد مخزون الوحدة الوطنية ويريد العودة بنا إلى القرون الوسطى خدمة لطبقة قيادية تتمتع بأبهى منتجات ورفاهية العولمة».

ويحدد المؤلف محاور عديدة يرى أنها وحدها يمكن أن تؤدى إلى نجاح الحوار مع الإخوان، أولها أن يكون الحوار ديمقراطياً، أى أن تتوفر مساحة مقبولة ومتساوية للمشاركين فى الحوار أن يعبروا عن رؤاهم بحرية ودون مصادرة مسبقة، ثانياً: أن يقوم الحوار على أرضية مدنية خالصة، أى إخراج المقدس من حلبة النقاش، لا يجوز ثالثاً للقوى المتحاورة أن تضع نفسها فى موقف الدفاع عن إيمانها أو تدينها، رابعاً: أن يكشف الحوار عن مدى التناقض بين الاتجاه العام للتطور التاريخى فى العالم والمجتمع والفكر الإنسانى، ومن يحاولون إعادة عقارب الساعة إلى الوراء بدعوى القفز إلى ماض صالح، خامساً: أن يكون الحوار جماهيرياً، أى أن تعقد مناقشات ومناظرات مفتوحة حول قضايا تمس سياسات محددة ويشترك فيها مفكرو كافة التيارات، أن يبرز الحوار المصالح السياسية والطبقية الضيقة للقيادات التى تتزعم تلك الجماعات، أن يكشف الحوار التحالفات الداخلية والخارجية التى تقيمها تيارات الإسلام السياسى، وإبراز التناقضات داخل هذه التيارات نفسها.

وكما نرى فإن ما يقترحه المؤلف ليس مرتكزات لحوار يمكن أن تحتكم إليه الأطراف المتصارعة، وإنما هو استراتيجية يقترحها لفصيل يمثله ليكسب بها جولة أو جولات فى الحوار.

يطرح المؤلف محاور عدة يمكن اعتبارها نقاط خلاف مع «هذا التيار الزئبقى الخطير»، كما يسميه وهى أن يكون الاحتكام إلى الآليات الديمقراطية صادقاً فى داخل الجماعة كما فى تعاملها مع التيارات الأخرى، ويناقش المؤلف أيضاً: الخلافة، الشرعية، القطبية، الأسلمة، البرلمان، أمريكا.

بعد ذلك يقدم المؤلف نقداً تطبيقياً لبرنامج الإخوان المقترح، خصوصاً ما يتعلق فيه بالثلاثى المضطهد بحسب قوله: الأقباط والمرأة والثقافة، المهم أن ما قدمه المؤلف من اجتهاد فى كتابه يكشف عن «استحالة» إقامة حوار مع الإخوان إلا إذا تخلوا عن مبادئ أساسية شكلتها فى صيغتها الحالية، بما يعنى أن قبول «الجماعة» تخليها عن تلك المبادئ.

سيحيلها إلى كيان مغاير تماماً. فهل تقبل الجماعة أن يجرى الحوار. حتى لو كان له ضفاف ـ على هذا النحو؟

■

أعاصير الشرق الأوسط

حامد عمار

القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٨ ، ٢٠٧ صفحات



يربط الكتاب بين الأحداث السياسية والمعارك الحربية من ناحية، وقضايا الإصلاح والتربية من ناحية ثانية، وهو يقع فى قسمين، يضم القسم الأول ستة عشر مقالاً جميعها تحت عنوان: «بين الهيمنة الإمبراطورية والعدوان الصهيونى»، ويتناول فيه المؤلف المواجهة مع الغرب، وحرب التجويع والإبادة فى غزة، وحرب لبنان وحروب العراق، فى محاولة لتفسير الأسباب الجوهرية الكامنة خلف هذه الحروب ودوافعها.

أما القسم الثانى فوثيق الصلة بتخصيص المؤلف الدقيق كخبير تربوى وتعليمى، وجاء تحت عنوان: تجارة التعليم وتفكك المجتمع.

وهو يوجه خطاباً إلى الرئيس بوش فى الفصل الأخير من القسم الأول مخاطباً إياه بفخامة الإمبراطور، قائلاً له: لن يرحمك التاريخ ولا دعاوى محاربة الإرهاب الذى تتخذه ذريعة، تنادى بها من أجل الأمن القومى الأمريكى، ويسائله عن الهدف الصهيونى من كل هذا القتل والتدمير فى لبنان وفلسطين، مؤكداً له أن جرائم لبنان محسوبة فى رصيده الأسود للولاية الثانية، ويفند مزاعمه حول محاربة الإرهاب بقوله: لا ينبغى لإمبراطور أعظم قوة فى عالم اليوم أن يأخذ الإسلام بجريرة حفنة من البائسين وممن تدربوا فى معارككم ضد السوفييت، ليس هناك إسلام فاشى وإسلام غير فاشى، هناك إسلام واحد حنيف، ويسائله: هل الإسلام هو الفاشى أم أن الصهيونية بمساعدتكم وتأييدكم هى عين الفاشية وصورتها المتجسدة.

وتحت عنوان دور التعليم فى تفكيك الوطن، يرصد شيخ التربويين توجهات التعليم فى مصر المعاصرة والذى تغيب عنه هذه المؤشرات: من يتعلم وإلى أى مدى وماذا يتعلم؟

ويشير إلى أن التعليم ليس موضوعاً علمياً وفنياً محايداً، لكنه نسق لعمليات سياسية، كما أن السياسة نسق لعمليات تربوية، ويتوقع أن تؤدى مجرياته الحالية فى الأفق الزمنى المتوسط، أما بين ٥ و ٧ سنوات إلى بدايات تفكك وطنى مدمر، وإضعاف العروة الوثقى فى التلاحم بين مختلف الشرائح الاجتماعية، خصوصاً مع زحف رأس المال إلى قطاع التعليم وتخفيف أعبائه عن الدولة، ويتزامن هذا مع مشروعات أمريكية لتطوير التعليم هدفها الوحيد هو إحكام قبضة أمريكا من خلال التربية والتعليم على منطقة الشرق الأوسط، وتشير إلى خطورة المعونات والقروض الأجنبية وتأثيرها بالغ الضرر على جهود تطوير التعليم، وينتقد المؤلف بشدة التوسع فى إنشاء المدارس الخاصة والجامعات الخاصة، ويرى فى شيوع هذا القدر من الاختلاف والتباين بين هذه النوعية من المدارس والجامعات من ناحية، ومدارس وجامعات الحكومة من ناحية ثانية، تأثيرات ضارة على مفاهيم الهوية والانتماء والمواطنة.

■

المسألة المصرية فى أوراق الصدر الأعظم

ترجمة: محمد عبداللطيف هريدى

القاهرة: دار العين، ٢٠٠٨ ، ١٤٥ صفحة



كتب هذه المذكرات الصدر الأعظم محمد كامل باشا (١٨٣٢ ـ ١٩١٢)، وهو أحد الصدور العظام فى عهد السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى، وقد عاصر تطورات المسألة المصرية واحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢، والمفاوضات التى جرت بين الدولة العثمانية وبريطانيا لإجلاء الجنود البريطانيين عن مصر.

والكتاب فى قسمين: يتناول كامل باشا فى القسم الأول الأحداث التى عاصرها بما فيها المسألة المصرية وتطورها مع الأزمة المالية حتى نهاية المفاوضات مع الإنجليز، وهو لا يكتفى بالسرد، بل يقدم وجهة نظره ويحذر من عواقب الأزمة المالية التى كانت الدولة العثمانية تعانى منه، وفى القسم الثانى: يقدم الوثائق والمستندات التى تدعم وجهة نظره.

يشير الصدر الأعظم إلى أن ظواهر الضعف بدت واضحة على الدولة العثمانية فى السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر لأسباب مختلفة: ثورات داخلية، تخلف الأساليب الإدارية والعسكرية، تصاعد الحركة الاستعمارية الأوروبية، تصاعد المد القومى الذى تأثر بمبادئ الثورة الفرنسية، وهكذا تحولت الإمبراطورية العثمانية إلى رجل أوروبا المريض واشتد التنافس بين دول أوروبا وإمبراطورياتها لاقتسام تركة هذا الرجل المريض، وكانت مصر فى موقع الصدارة بين هذه التركة، إذ اعتمدت عليها الدولة العثمانية فى توفير كافة احتياجات إقليم الحجاز بدءاً من كسوة الكعبة وانتهاء بمرتبات العاملين بالحرمين الشريفين، إلا أن مصر أصابها ما أصاب الولايات العثمانية جميعاً من ضعف وترهل، فقد كانت تدار بالطريقة ذاتها من خلال نخب عسكرية وقوى محلية متصارعة، وتحولت مصر إلى ميدان للصراع بين السلطة المركزية فى استانبول والزعامات المملوكية فى مصر، ووصل الأمر إلى تمرد عامة الشعب طمعاً فى شىء من السلطة، مثل تمرد الهوارة فى الصعيد.

التحليل الذى يقدمه المؤلف يتفق فى كثير من جوانبه مع ما ذهبت إليه مذكرات مهمة أخرى يوردها المترجم، ويقارن بينها وبين ما انتهى إليه الصدر الأعظم، وهذه ميزة إضافية للمذكرات.

■

أثر المنهج الأصولى فى ترشيد العمل الإسلامى

مسفر بن على القحطانى

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨ ، ١٣٤ صفحة



أنزل القرآن الكريم تبياناً لكل شىء، وأوحى إلى الرسول (ص) أن يبين للناس ما نزل إليهم لعلهم يتفكرون، فكانت مجموعة من النصوص تتمثل فيها شريعة كاملة تجتمع فيها أحكام شئون الناس.

ولكن هذه النصوص على كثرتها لم تبين أحكام ما يحدث فى مستقبل الأيام تفصيلاً، فكان لابد من شىء آخر غير النصوص يفصل ما أجملته، ويستنبط الحكم.. فكان الاجتهاد.

ولأن العقول متفاوتة، والمدارك متباينة، والأفهام مختلفة، فلو ترك الباب مفتوحاً لكل راغب فى أخذ الأحكام من النصوص، لحصل الاختلاط، ولوقع التضارب فى الأحكام، ولاضطرب أمر الشريعة، فكان من الضرورى وضع قواعد يسير عليها من أراد أن يستنبط الأحكام الشرعية من أدلتها، ولذلك وضع القائمون على الشريعة قواعد تضبط هذا العمل، هى «أصول الفقه».

يتألف الكتاب من مقدمة وستة فصول. ويحاول الباحث أن يقدم مساهمة فى تكييف بعض القضايا الدعوية من خلال التأصيل الشرعى لها، وتدعيماً لذلك بالنماذج والأمثلة الدعوية.

■

كتاب الحكمة العربية

دليل التراث العربى إلى العالمية

محمد الشيخ

الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨



لئن بقيت بعض أمم العالم المتحضر اليوم تحترم العرب، فما كان ذلك ـ مع الأسف ـ بسبب من حاضرهم، وإنما لماضيهم ـ وحسبها من مفارقة! ولو وفيت الحكمة العربية حقها من الاهتمام والعناية لكانت فى مصاف حكم بقية الأمم، وذلك لأن الواقف بنظره عليها ـ بأحق وقوف وأعقله وأيقنه ـ يلفى أنها ما كانت دون حكم الشعوب الماضية فى المرتبة جودة وصحة معنى ومتانة لفظ وقوة بيان. أضف إلى هذا، إن بعض تجارب العرب الماضية شهدت على أريحية حضارتهم وعلى تسامحهم. إلا أن مشكلة العرب الثقافية اليوم أنهم ما استطاعوا أن يثمروا هذا التراث العظيم الذى امتلكوه وما تملكوه ـ فبالأحرى أن يجعلوا منه تراث العالمين. وإن لمن مقتضيات العولمة اليوم ما بمكنة العرب أن يقدموا عليه «فيعولموا» تراثهم بحيث يصير ملكاً للناس أجمعين، وذلك مثلما كان هو ملكاً لكل الأمم فيما مضى من العصور، ومثلما صار تراث الغرب اليوم ملكاً لنا. انظر كيف صار «يتعولم» تراث ابن رشد والتراث الأندلسى بوجه عام! ولن يخالف جوابى لصديقى العربى هنا ما قاله الجاحظ قديماً ونسيناه حديثاً: «والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد».

■

مفاهيم الليبرتارية وروادها

مجموعة من المؤلفين

واشنطن، بيروت: دار رياض الريس للنشر ـ مؤسسة مصباح الحرية، ٢٠٠٨



تتضمن سلسلة «مفاهيم الليبرتارية وروادها»، والتى تمت ترجمتها من قبل صلاح عبدالحق ومراجعة وتدقيق فادى حدادين رئيس تحرير «مصباح الحرية» والمحلل الاقتصادى فى معهد كيتو بواشنطن من سبعة أجزاء وتتناول نصوصاً لكبار واضعى أسس الفلسفة الليبرتارية ومشتقاتها السياسية

والاقتصادية والاجتماعية. وترتكز هذه الأسس على الحرية، ومقاومة مركزية السلطة، والفردية، والحقوق الأساسية، والتبادل الحر، والأسواق المفتوحة، والسعى نحو السلام.

الجزء الأول بعنوان «التشكيك فى السلطة»، ومن موضوعاته: «أصل الحكومة وهدفها» - توماس باين. «أى نوع من الاستبداد ينبغى أن تخشى منه الشعوب؟» - جيمس ماديسون. «الديمقراطية» - أليكس دو توكوفيل. «اعتراضات على التدخل الحكومى» - جون ستيوارت ميل. «الدولة» - موراى روثبارد. «المصلحة الذاتية والدستور» - ريتشارد ابيستين.

الجزء الثانى بعنوان «الفردية والمجتمع المدنى»، وفيه: «لا يمكن فرض الفهم» - جون لوك. «العدل والإحسان» - آدم سميث. «إخضاع الفساد» - مارى ولستونكرافت. «المرأة كائن أخلاقى مدرك» - سارة غرامكيه. «وأبحاث عن الفردية لجون ستيوارت ميل. و«المساواة وعدم المساواة» - لودفيغ فون ميرس.

الجزء الثالث بعنوان «الحقوق الفردية»، وفيه أبحاث عن «الملكية والحكومة» - جون لوك. «العدل والملكية» - ديفيد هيوم. «نظرية العدالة فى الحقوق» - روبرت نوزيك.

الجزء الرابع بعنوان «النظام التلقائى» ويحتوى أبحاثًا عن «التوافق» - لاو تسو. «رجل النظام» - آدم سميث. «المجتمع والحضارة» - توماس باين. «الأنظمة المصنوعة والأنظمة التلقائية» - فريدريك إيه. هايك.

الجزء الخامس بعنوان «الأسواق الحرة»، وفيه مقالات عن «تقسيم العمل» و«المجتمع والمصلحة الذاتية» و«التجارة الحرة» لآدم سميث. و«الاشتراكية والتدخل» - لودفيغ فون ميزس. و«العلاقة بين الحرية الاقتصادية والحرية السياسية» - ميلتون فريدمان. و«نظام السوق» - فريدريك إيه. هايك.

الجزء السادس بعنوان «السلام والتوافق الدولى» ومن موضوعاته «التجارة هى العلاج الناجع» - ريتشارد كوبدين. «السلام» - لودفيغ فون ميزس. «نحو استقلال استراتيجى» - إيرل سى. رافينال.

الجزء السابع بعنوان «مستقبل الليبرتارية» وفيه عن: «الرأسمالية والمجتمع المتساهل» - صموئيل بريتان. «نقاط القوة ونقاط الضعف فى الفكر الليبرتارى» - ريتشارد كورنيى. «ثقافة الحرية» - ماريو فارغاس يوسا. «الدمار الخلاق وعصر الابتكار» - بيتر كيه. بيتش. «أدب الحرية» - توم جى. بالمر.

هذه المجموعة تضع أمام القارئ العربى العادى والمتخصص المعنى بالاقتصاد أو السياسة، مبادئ الفكر الإنسانى الهادف إلى الحرية، حرية الفرد وحرية المواطن وحرية المجتمع، وتعرفه بواضعيها من فلاسفة الغرب المعروفين بـ «رواد الليبرتارية».

يقول الناشر فى مقدمته: «لابد للقارئ العربى أن يلم بكل هذا التراث الليبرتارى، فينتقى منه ما يريد ويعيد تقييم نظرياته فى السياسة والاقتصاد والمجتمع. وإذا كنا اليوم نطرح فى هذه الكتب السبعة مجمل الأفكار الليبرتارية لكبار فلاسفتها ومنظريها، نأمل أن آفاقا جديدة فى النقاش فى الندوات والمجتمعات والمنابر، ستفتح الباب أمام إعادة النظر فى مواقعنا الفكرية ومواقفنا السياسية. ووسط هذا كله لابد من وقفة أمام التخبط الذى نعيشه على مختلف الأصعدة والمستويات».

■

جوزف حرب وأمطار الوردة السوداء - دراسة نقدية

محيى الدين صبحى

رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨، ٣٤٤ صفحة من القطع الوسط



كان هذا الكتاب من أواخر الكتب التى وضعها محيى الدين صبحى فى النقد الأدبى قبل رحيله، وفيه دراسة نقدية لأربعة دواوين أصدرها الشاعر جوزف حرب ما قبل ١٩٩٦ وهى: «شجرة الأكاسيا»، «الخصر والمزمار»، «مقص الحبر» (فى المحكية)، و«مملكة الخبز والورد».

يتألف الكتاب من مقدمة وخمسة فصول. الفصل الأول بعنوان: «تحولات مملكة الخبز والورد» ومن عناوينه (الشعر والتاريخ، شجرة الأكاسيا، مملكة الخبز والورد، الشكل الملحمى، المزايا الأسلوبية والبنائية) وفيما المؤلف يخط سطور الكتاب صدر للشاعر جوزف ديوان «السيدة البيضاء فى شهوتها الكحلية»، فألحق بالفصل الأول دراسة نقدية موجزة لكن ضافية.

الفصل الثانى بعنوان: «الراهبة وطقوس الحبر» وفيه: (أقانيم الشعر، جدلية الداخل والخارج، الشعر والشاعر).

الفصل الثالث: «ترحل زرقاء وتأتى عارية» ومن موضوعاته (فى الغزل، الأنثى - الجسد، فى اللغة والبناء، تجارب اجتماعية).

الفصل الرابع: «العتمة والمرآة» من عناوينه (شعر القداسة، الشعر والزمن، موتى الحرب).

الفصل الخامس: «الطبيعة والرؤيا» وفيه (مدينة فى شجرة، أنسنة الطبيعة، قصائد القداسة، تشكيل الرؤيا).

يذكر أن محيى الدين صبحى من أبرز المفكرين والنقاد العرب فى النصف الثانى من القرن العشرين. ترك آثارًا أدبية وفكرية عديدة من أبرزها دراسات جمالية نقدية تعد من أهم المراجع فى دراسة آثار كبار الشعراء العرب قدماء ومحدثين.

■

يوسف والبئر

فاضل الربيعى

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨، ٢٥٦ صفحة



فى هذا الكتاب يتناول المؤلف قصة يوسف والبئر. الأسطورة الشهيرة ويتناول شخصياتها مدققًا فى هويات كل منهم: هل العزيز هو حقًا فرعون مصر أم شخص آخر. وامرأته هل هى زليخا أم راحيل أم.. وأحداث القصة هل حدثت فى مصر أم باليمن؟

يفتح فاضل الربيعى هذه الأبواب ويثير التساؤلات فى المدخل وأقسام الكتاب الثلاثة: يتمحور القسم الأول «يوسف والبئر» حول أسطورة الوقوع فى غرام الضيف - مسرح الأسطورة - العزيز الحقيقى والعزيز المزيف - الإله الحزين فى البئر - من أساف إلى يوسف. القسم الثانى «النار والصولجان» يتناول قصة «العنقاء والنبى الضائع»، فيما يبحث فى القسم الثالث فى «أسطورة الخلود عند العرب» و«بين جلجامش ونسور لقمان السبعة».

هكذا يفكك الباحث فاضل الربيعى ما نسج من أساطير حول قصة يوسف ثم يعيد دراسة مسرحها ورموزها وشخصياتها ومدلولاتها على أسس منهجية تاريخيًا وجغرافيًا وميثولوجيًا، منقبًا فى آثار الرواة الإسلاميين والتوراة والأساطير الآشورية والبابلية واليونانية، بما يغير الكثير من المفاهيم السائدة ويضيف جديدًا إلى كل ما كتب من هذه الموضوعات.

■

على ضفاف بابل

خالد القشطينى

بيروت: دار الكوكب، ٢٠٠٨، ٢٣٢ صفحة

جورج مالك وعبدالسلام ساسون رفيقا مقاعد الدراسة يتخصصان فى الطب. جورج طبيب الجهاز الهضمى وعبدالسلام طبيب الأمراض النسائية.

حسون عبدالعلى شاب حرص والده على تعليمه فى كلية بغداد الراقية. يلتقى بابنة الجيران ويتحابان. تحبل الفتاة وتشاء الصدف أن يأخذها أخواها إلى عيادة الدكتور ساسون، وعندما يتأكدان من حمل الفتاة يجبران الدكتور على إجهاضها وتتوارى هى خوفًا من عقوبة الزنى وغسل العار!

يتوه حسون ويتوه الطبيب وتتوه الفتاة!

حسون يضيع بين المقابر والشواذ و... والطبيب يصبح ضيفًا على مستشفى المجانين والفتاة تصبح عاهرة!

تتميز الرواية بلغتها السهلة وحواراتها المباشرة وسرديتها الممتعة. وتدور أحداثها فى مدن العراق وشوارعها، حيث يستمتع القارئ بوصف تلك المدن والشوارع وطبائع سكانها حيث تتعدد الأديان والمذاهب والأعراق ويعيش وسط التناقضات الحضارية والفكرية والثقافية..

على غلاف الرواية الأخير نقرأ: «... لكن جورج مالك وعبدالسلام ساسون لم يختلفا فقط فى نزعتهما الموسيقية، بل وكذلك فى موقفهما من مهنة الطب. اعتقد جورج أن الجهاز الهضمى أقصر طريق لجيوب الناس فى الشرق الأوسط. فلا يعنيهم شىء كما يعنيهم الأكل ولا يجعلهم فى حاجة للأطباء كإفراطهم فى تناول أسوأ الأطعمة. اختلف عبدالسلام عن صاحبه فى هذا الموضوع ورأى أن الناس هنا يعطون اليد العليا، إذا جاز القول، للجنس. يدور اهتمامهم دائمًا حول العضو الذكرى أكثر من الجهاز الهضمى. إنه الطريق الأقصر لجيوب الناس. تراهم مستعدين لدفع أى مبلغ من أجل فرج سليم وقضيب أكبر. كانت النتيجة أن تخصص جورج بأمراض المعدة بينما تخصص عبدالسلام فى الأمراض النسائية».

■

الملكات العربيات قبل الإسلام

هند محمد التركى

الناشر: مؤسسة عبدالرحمن السديرى الخيرية، ٢٠٠٨

يلقى هذا الكتاب الضوء على جوانب مهمة للمرأة العربية فى التاريخ السياسى للحضارة العربية، ففيه تتبع للملكات العربيات قبل الإسلام، فى كل من مصر والشام وبلاد الرافدين والأناضول وإيران. كما يستعرض

الأنظمة السياسية فى الجزيرة العربية، كنظام المشيخة القبلية، ونظام المكربين، والنظام الملكى؛ ويناقش دور المرأة العربية ومكانتها فى ظل الأنظمة السياسية آنذاك، بدءاً بملكة سبأ، وانتهاء بملكات شمالى الجزيرة العربية: (زبيبة، وشمسى، ويطيعة، ويافا، وباسلو، وتعلخونو، وتبواه، وعادية، وأخيراً ملكة تدمر زنوبيا). والكتاب غنى بحصر الشواهد فى النقوش الآشورية، والعربية الجنوبية القديمة، والنبطية والتدمرية، التى أشارت إلى ملكات العرب، والعلاقات السياسية لكل ملكة مع الممالك المعاصرة لحكمها.

جاء الكتاب فى تمهيد وأربعة فصول، واشتمل على لوحات لعملات معدنية عربية قديمة - عثر عليها فى عدد من المناطق العربية - ظهرت عليها صور لبعض تلك الملكات.

استعرضت المؤلفة فى التمهيد الإطار الجغرافى والحضارى لمنطقة الشرق الأدنى القديم ومكانة المرأة فيه، فى كل من الجزيرة العربية ومصر وبلاد الشام والرافدين وبلاد الأناضول وإيران. وفى الفصل الأول تحدثت عن النظام السياسى فى الجزيرة العربية قبل الإسلام من خلال استعراض نظام المشيخة القبلية ونظام المكربين والنظام الملكى، وبينت الألقاب السياسية التى استخدمت آنذاك فى ممالك جنوبى الجزيرة وشماليها. وكذلك المرأة فى ظل الأنظمة السياسية السائدة فى الجزيرة العربية فى مملكة سبأ وممالك شمال غربى الجزيرة العربية.

وفى الفصل الثانى تحدثت عن الملكات العربيات من خلال النقوش والآثار العربية القديمة، وقد ضمنت الكتاب صوراً للعديد من العملات البرونزية والفضية التى ظهرت عليها صور تلك الملكات. إضافة إلى دراسة النقوش السبئية، والنقوش النبطية لملكات الأنباط: خلدو، وشقيلة، وجميلة.

وتحدثت فى الفصل الثالث عن الملكات العربيات فى المصادر الدينية والموروث العربى، أما الفصل الرابع فخصصته للحديث عن الأدوار السياسية لهن. كما تطرقت لعلاقة ملكة سبأ بالنبى سليمان عليه السلام، وعلاقات ملكة تدمر مع الأنظمة السياسية المعاصرة لحكمها، عن زوجات الملوك ودورهن السياسى.

واشتمل الكتاب على ملاحق للخرائط واللوحات والأشكال وفهرس للأعلام والأماكن وآخر للآيات القرآنية ذات العلاقة بموضوع الكتاب.

وخلاصة القول إن الكتاب يقدم دراسة علمية مهمة، تتصف بالشمولية والتفصيل لتاريخ الملكات العربيات قبل الإسلام، والأدوار السياسية التى لعبتها المرأة فى النظام العربى القديم، ما يقدم خدمة كبيرة للباحثين والمتخصصين فى دراسة تاريخ المرأة العربية وأدوارها السياسية فى الممالك والأنظمة العربية القديمة.

■

آفاق تربوية متجددة
أزمة الجامعات العربية

تأليف: د. يوسف سيد محمود
تقديم: د. حامد عمار
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ٢٣٨ صفحة



أزمة التعليم الجامعى فى العالم العربى، كانت ولاتزال مثار الحديث والنقاش، خصوصاً وقد خرجت كل جامعاتنا من التصنيف العالمى لأفضل الجامعات فى العالم، ويشتد الحديث عن تلك الأزمة، كلما جرى طرح موضوع تطوير التعليم، فتعقد المؤتمرات والندوات، وينفعل المتحدثون ويشيرون إلى مواضع الخلل، وينفض المولد ونخرج بلا شىء.. أين الخلل إذن؟

إذا كنا نعرف مواطن الضعف، ومناطق القصور فى تعليمنا، فماذا نحتاج لكى نطوره؟ هل إخلاص المعنيين بالأمر؟

أم أنه القرار السياسى الذى يتوقف عليه كل شىء فى حياتنا؟

هذه الخلفية، كانت الدافع وراء كتاب د. يوسف سيد محمود الذى أصدرته الدار المصرية اللبنانية فى سلسلة آفاق تربوية متجددة بعنوان: «أزمة الجامعات العربية» وهو عبارة عن ثلاث دراسات كبرى، تحيط بأبعاد أزمة التعليم الجامعى فى العالم العربى نظرياً من خلال البحث عن الأسباب المؤدية إلى تلك الأزمة، وعملياً - فى القسم الثالث - عن عمليات الشراكة القائمة بين الجامعة فى المجتمع العربى، وبين المؤسسات الإنتاجية، فهل تراعى الجامعات حاجة هذه المؤسسات فى خريجيها، وبالتالى تؤهلهم لتلك الحاجة؟ أم أن العلاقة مفقودة بين المؤسستين؟

اتبعت الدراسة فى قسميها النظريين المنهج التاريخى - كما يقول د. حامد عمار فى تقديمه للكتاب - نظراً لأن كثيراً من كتاباتنا وبحوثنا التربوية ذات المنهج الإمبيريقى تنظر إلى الصور المشاهدة للوقائع والمعطيات المعاشة، كما لو أنها ليست لها صلة بآبائها وأجدادها، ومنبتة الصلة بأزماتها السالفة.

الأول: سيطرة الدولة على الجامعة وسريان روح الالتزام لدى أساتذتها، مما أدى إلى عدم السماح للجامعة بالانطلاق لمناقشة قضايا اجتماعية دقيقة ومحددة من خلال الميدان أو الواقع، مما جعل البحث الجامعى يأخذ الصفة الأكاديمية المطلقة ويميل فى معظمه للتنظير بعيداً عن مجريات الأحداث الواقعية، ويفقده هذا جانباً كبيراً من أهميته وجدواه. وكذلك افتقاد الباحث الجامعى هوية مهنية قوية كعضوية الروابط أو الجمعيات العلمية، تمكنه من الوصول المنظم إلى الميدان أو الحصول على تعاون السلطات، وحتى إذا وجدت مثل هذه الهيئات فإنها تعامل من قبل الدور معاملة الجمعيات الخيرية وليس معاملة النقابات المهنية والتى تعطى نوعاً من الحماية لأعضائها.

الثانى: اعتماد الدولة على ما أنشأته من أجهزة بحثية خارج نطاق الجامعات كالمراكز القومية للبحوث ومعهد التخطيط، والمجالس القومية المتخصصة، الأمر الذى يعنى تخلى الدولة بالكلية عن التعليم الجامعى، وخلق كوادر تخدم الوزارات المختلفة والسياسات المتباينة حسب الوزارة التى يعملون فيها.

فى الكتاب العديد من القضايا المهمة المتعلقة بالجامعات والتعليم الجامعى، حيث ركز الفصل الثانى على كيفية تعامل جامعاتنا مع ظاهرة العولمة؟ وهل جامعاتنا قادرة على ذلك فى ظل التوجهات الفكرية خارجها وغلبة الصراع على التيارات الفكرية فى الحياة الثقافية العامة، وهو ما لخصه زكى نجيب محمود حين قال:

«إن العقل العربى يتعامل مع الألفاظ أكثر مما يتعامل مع المفاهيم، ولا يفكر إلا انطلاقاً من أصل أو انتهاء إليه أو بتوجيه منه الأصل الذى يحمل من سلطة السلف إما فى لفظه أو معناه وأن آلية هذا العقل فى تحصيل المعرفة ولا نقول فى إنتاجها هى المقاربة أو التيار البيانى والمماثلة أو القياس العرفانى، وأنه من كل ذلك يعتمد التجويز كمبدأ - كقانون عام يؤسس منهجا فى التفكير ورؤيته للعالم «هذه الآلية التى لمسها زكى نجيب محمود أسهمت فى فشل النخب الثقافية بشكل عام كسبب ونتيجة فى الوقت نفسه لانهيار التعليم الجامعى.

أخيراً يقف الكتاب أمام الفجوة القائمة بين الجامعة والمؤسسات الإنتاجية والخدمية ليكون الفصل الثالث تطبيقاً عملياً للأفكار النظرية السابقة، ومحاولة اختبار مدى صحتها فى الواقع من عدمه، فرؤية أساتذة الجامعة تتناقض كلياً مع رؤية أصحاب المؤسسات الخدمية والإنتاجية، والخلاصة أنه لاتزال علاقة مؤسسات التعليم العالى بمجتمعها المحلى تقف عند حدود الأمنيات والتى قد تحمل الوعى بأهميتها وضرورتها والحماس لإقامتها، فيما تشير نتائج الدراسة الميدانية إلى شكلية هذه العلاقة، حيث تقف عند حدود المشاركة فى تنظيم وتنفيذ بعض برامج التدريب وتقديم بعض الاستشارات أو تقديم تفسير وبحث لأسباب بعض المشكلات أو الكوارث الطارئة كانهيار العمارات، أو حوادث القطارات، أما تلك القضايا المرتبطة بجوهرعملية التنمية وخصوصاً تلك التى تحتاج إلى مشاركات فى قضايا البحث والتطوير فتكاد تكون المشاركة حولها معدومة.

■

السعودية: السياسى والقبيلة

محمد بن صنيتان
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨، ١٥١ صفحة



وفرت القبائل ممثلة بإخوة ابن مسعود، قوة عسكرية وسياسية تمكنت من توحيد شبه الجزيرة العربية بكيان واحد خلال فترة متباينة قصيرة، أعاد المركز إلى الجزيرة العربية التى فقدته منذ وفاة الخليفة الثالث عثمان بن عفان. فأفلحت شخصية الملك عبدالعزيز التى تميزت بالعبقرية والحظ على تحويل القبائل المتناحرة التى يغزو بعضها بعضاً ويأخذون الإتاوة من بعضهم إلى إخوة فى الإسلام والوطن حتى أصبحوا مادة الدولة، ومجتمعاً واحداً عوضاً عن قبائل متفرقة ومتقاتلة، فمثل المجتمع نسيجاً كاملاً ووحدة جغرافية.

واستطاعت الدولة السعودية الثالثة فى نشأتها أن تجعل ابن القبيلة يتعالى على الثأر والغزو، فأشاعت ثقافة جماهيرية موحدة بين الحضر وسكان الواحات والقبائل الراحلة. فقامت البيروقراطية الإقليمية بعد ثبات الدولة، كما قام البترودولار وتبعية القوة الخارجية بالدور البديل لقوة القبيلة.

يتألف الكتاب من مقدمة وعشرة فصول، فى قسمين، يعالج القسم الأول موضوع مواريث المجتمع السعودى والقسم الثانى يعالج المحدد السياسى والعسكرى.

■

وجهات نظر

الكتب

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 116 - September 2008

مجلة شهرية . العدد المائة وستة عشر . السنة العاشرة . سبتمبر ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

« الأبواب »



ادخلوها بسلام آمنين !

حلمى التونى
٢٠٠٨

السنة العاشرة
العدد ١١٦
سبتمبر ٢٠٠٨

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة





محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد عبدالجواد.. أستاذ العمارة بجامعة القاهرة.
- أحمد عبدالرحيم.. كاتب وباحث مصرى.
- بديع العابد.. معمارى ونائب رئيس الجمعية الأردنية لتاريخ العلوم.
- بيتر هسلر.. كاتب بمجلة نيويوركر الأمريكية.
- جهاد فاضل.. كاتب وناقد لبنانى.
- خالد منصور.. كاتب مصرى.
- ماكس رودنبك.. كاتب متخصص فى شئون الشرق الأوسط بمجلة الإيكونوميست.
- محمد السعيد مشتهرى.. مدير مركز بحوث ودراسات القرآن الكريم.
- محمد المهدى.. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- ناجح إبراهيم.. عضو مجلس شورى «الجماعة الإسلامية».
- هبة رءوف.. مدرس بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى - سعد الدين شحاتة





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠ / ٢٣٩٣٠٤٩٢ / ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص. ب: ٣٣ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ . فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ١٥ ريالاً. الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير. اليمن ٣٠٠ ريال. فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

إذا كان فى مشهد الصحافة العالمية شىء كالقمة المرتفعة فمن المؤكد أن روبين رايت تقف فوق تلك القمة. فقد واجهت كبيرة المراسلين الدبلوماسيين فى صحيفة «واشنطن پوست» بشجاعة خمسة وثلاثين عاماً من الحروب والأزمات والمجاعات، ناهيك عن النقد البيروقراطى اللاذع فى واشنطن، كى تضىء فراغات العالم المظلمة. وقد حققت العديد من الخبطات الصحفية، وحازت عدداً كبيراً من الجوائز، وألفت ستة كتب، ولديها مفكرة أسماء وعناوين وأرقام تليفونات خاصة بالمشاهير لابد أنه يحسدها عليها أى سياسى فى المؤسسة السياسية بواشنطن العاصمة لضخامتها

....مابعد



"ربيــــع العــــــرب"!

■■ عندما تهبط صحفية على هذه الدرجة الرفيعة فى عاصمة مترية ما، فمن المؤكد أن طريقها سوف ييسره أقدر التراجمة المحليين، والرغبة الشديدة فى الاتصال بالقوة العظمى التى لدى الأشخاص الذين هم على دراية بالإعلام. وعندما تجعل هدفها موضوعًا بثقل مستقبل الشرق الأوسط، ذلك الركن المزعج على نحو ممل من المعمورة، فلابد أن يتوارى المحللون الذين يعملون من مكاتبهم ويصغى إليها واضعو السياسات.

أحدث كتب روبين رايت هو Dreams and Shadows: The Future of the Middle East الذى يقوم على سلسلة استمرت عامًا من مقالات كتبتها لصحيفة «واشنطن بوست» تبحث فيها التوقعات المستقبلية للإصلاح السياسى فى المنطقة، وتقدم الكثير مما يتوقعه المرء من مراقب متمرس. وبينما تتجول فى المغرب ومصر ولبنان وإيران والعراق وفلسطين تروى انطباعاتها بحكمة ووضوح، وبعين نقدية حادة. واقترابها المفضل من كبار المسئولين، وكذلك ممن يعارضونهم، أمر يُستفاد منه استفادة جيدة. وتدع رايت من تحاورهم يتحدثون بلغتهم، ولكنها تركب مناظر المشهد على نحو يعين على فهم الأمر.



تكتشف على سبيل المثال أن حسن نصر الله الزعيم الكاريزمى. رغم انعزاله لحزب الله، ذلك الحزب الميليشيا الشيعى اللبنانى، يثبت أنه مضيف يتسم بعمق التفكير وطلاقة اللسان. فهو يفاجئها بنوبات من المنطق، كاستنكاره المفرط لهجمات الحادى عشر من سبتمبر على نيويورك، غير أنه يلمح إلى أنه ربما كان البنتاجون هدفًا مشروعًا. وما ذلك إلا النوع المنفر. وإن كان مثيرًا للانتباه. من الرؤية الذى نادرًا ما يتعرض له الأمريكيون.

يمكن أن تكون رايت دليلاً جذابًا. فمن المسلى أن تذكرك بأن الزعيم الفلسطينى الراحل ياسر عرفات كان يقود سيارة ثندربيرد وردية كابورليه عندما كان يعمل مهندسًا ناجحًا فى الكويت، قبل تغيير حياته العملية إلى سياسة حرب العصابات المحفوفة بالمخاطر. وهى تحكى لنا عن تبادل للهدايا يفتقر بشدة إلى التمييز والحساسية أثناء زيارة عرفات لحاكم ليبيا معمر القذافى. فقد تلقى الرجل القوى البدوى غريب الأطوار من الفلسطينى سرج جمل قديمًا، وأعطى هو فى المقابل طاقم حقائب سفر ماركة سمسونايت لعرفات، اللاجئ الرحال. وهؤلاء الذين يفكرون فى إيران على أنها مكان كئيب سوف يبتهجون لسماع أن الناس هناك ينكتون على رئيسهم المتعصب ولكنه غير مهندم على نحو محبب، حيث يفرق شعره مرتبًا إناث القمل على اليسار وذكور القمل على اليمين. وكان يُشار إلى سلفه، المهندم الجذاب، ولكنه غير فعال، محمد خاتمى، على أنه «الملا أرمانى» (فى إشارة إلى مصمم الأزياء الشهير جورجيو أرمانى). ويُقال لنا إن المغاربة، يستمتعون بتسمية ملكهم الشاب محمد السادس Sa Majetski (بدلاً من Sa Majesté أى صاحب الجلالة) فى إشارة إلى غرامه الشديد بالدراجات المائية.

يمكن أن تكون حكايات رايت مؤلمة بقدر ما هى مضحكة. إذ يروى رياض الترك الذى أمضى عقودًا فى السجون السياسية السورية كيف أنه حافظ على عقله فى السجن الانفرادى بانتقاء البذور من حسائه واستخدامها فى رسم صور مفصلة على أرضية زنزانته الصغيرة. وتلاحظ رايت أن على المرشد الأعلى الإيرانى آية الله خامنه أن يدع حرسه يقطع له طعامه. فقد أصيبت ذراعه اليمنى فى انفجار قنبلة على شكل شريط تسجيل، مما جعله شهيدًا حيًا حسب وصف مساعديه.

ومع ذلك فهذا الكتاب ليس صياغة معادة كثيرة الاستطراد لملاحظات كتبتها صحفية جريئة. فرايت تنسج بمهارة خلفية تاريخية مفيدة، فتضيف بذلك تلك الرؤية المفتقدة بشدة فى التغطية الصحفية اليومية. وكما تشير هى، فإن حقيقة زيادة عدد سكان المنطقة سبعة أضعاف خلال ثلاثة أجيال، على سبيل المثال، أمر مهم جدًا لفهم الضغوط الأساسية التى تواجهها مجتمعاتها. وبتركيز أكبر، نجد أن رواية رايت الموجزة لوضع دستور إيران الغريب قبل ثلاثة عقود، حيث جمع بطريقة مريحة بين المؤسسات الثيوقراطية والديمقراطية، توضح علة الجمهورية الإسلامية الحالية على نحو أكثر كفاءة من أية رواية مفصلة لسياستها. ويتسم ملخصها عن تكوين حزب الله وكيفية نشوء الانشقاق بين حزبى فتح العلمانى وحماس الإسلاموى بإيجازه وغناه بالمعلومات.

تهرب رايت كذلك من شكل مقال الرحلات بجعلها الكتاب يدور حول لازمة مركزية، مرددًا الثنائية المعلنة فى عنوانها الخاصة بالصراع الأساسى بين أحلام الحرية والتنوير الخاصة بالشباب، والظلال التى تلقيها السلطة والتراث. وافتراض رايت هو أن أنظمة المنطقة الأوتوقراطية الراسخة منذ زمن طويل تواجه موجة عاتية من الضغط من أجل التغيير هى غير مهيأة إلى حد كبير لصدها. وهى تقول:

لم يعد التطرف الإسلامى القوة الأكثر أهمية أو لفتًا للانتباه أو ديناميكية فى الشرق الأوسط....

ففى أوائل القرن الحادى والعشرين. تتحدى ثقافة التغيير الناشئة الوضع القائم. بل وتتحدى كذلك المتطرفين. على نحو خيالى. فالأصوات العامة الجديدة، والمطبوعات الجريئة، والاحتجاجات التى تزداد صخبًا عبر أربعة وعشرين بلدًا تشكل اتجاهًا نشطًا. وإن كان غير مترابط، يشمل القضاة الذين يتحدون السلطة فى القاهرة، ورجال الدين المتمردين فى طهران، ومالكى القنوات التليفزيونية الفضائية فى دبى، وعضوات الحركة النسائية المبدعات فى الرباط، وأولى المرشحات فى الكويت، والفنيين الشباب فى جدة، والصحفيين الجسورين فى بيروت والدار البيضاء، والكُتاب ورجال الأعمال الشجعان فى دمشق.

وهم جميعًا يرون أن التمكين السلمى بات الوسيلة المفضلة لاتخاذ القرارات السياسية وإحداث التغيير.

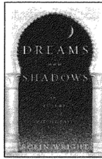
يبدو أن رايت توحى بأنها مسألة وقت قبل أن تُجبر القوى الأوتوقراطية والمتطرفة على التكيف، وإلا فسيُقضى عليها. وهى تنقل عن المعارض المصرى سعد الدين إبراهيم قوله مؤيدة إياه فيما يقول: «المستبدون فى العالم العربى فى النزع الأخير. التاريخ يمضى. وهذا هو زماننا».

فى العام الذى أجرت فيه رايت معظم أبحاثها من أجل هذا الكتاب، وهو عام ٢٠٠٦، كان من السهل تصور أن قوة الدفع تتجمع من أجل هذا التحول الضخم. فقد بدا حينذاك أن المد الديمقراطى نفسه الذى اكتسح الأنظمة الدكتاتورية فى أمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية وجزءًا كبيرًا من آسيا وأفريقيا قد وصل الشرق الأوسط أخيرًا. فقد أحرزت أشكال جديدة من الاتصال مثل قنوات التليفزيون الفضائية والإنترنت تقدمًا على سيطرة الدولة على المعلومات. وظهرت قوى سياسية جديدة، مثل جماعات حقوق المواطنين والأحزاب التى تعتنق نزعة إسلاموية أكثر اعتدالاً وشمولاً، فيما يعد

Dreams and Shadows: The Future of the Middle East
(أحلام وظلال: مستقبل الشرق الأوسط)
Robbin Wright
Penguin group, 2008

بترتيب مع مجلة:
The New York Review of Books

ترجمة: أحمد محمود



إلى حد ما ردًا على تجاوزات القاعدة العنيفة. وقد تزايد كذلك الضغط الخارجي من أجل التحول الديمقراطي بالإشارة التي بعثت بها إدارة بوش إلى حلفائها الأوتوقراطيين بأن الوقت قد حان للتغيير، لأن القمع يولّد الإرهاب.

وفي عام ٢٠٠٥ بدا أن الانتفاضة الشعبية في لبنان قضت على ثلاثين عامًا من السيطرة السورية. وضغط الناشطون في المغرب من أجل حقوق أكبر للنساء، وحصلوا عليها. وكشفت لجنة تقصي الحقائق، التي ساندتها الحكومة، ما وقع في الماضي من إساءة لمعارضي الحكم الملكي. وتحدت حركة احتجاج ناشئة في مصر، أكثر الدول العربية سكانًا، ربع قرن من حكم الرئيس حسني مبارك بشعار بسيط هو «كفاية».

وتغلب كل من الفلسطينيين والعراق على الاضطراب السياسي الحاد الذي يحول دون إجراء انتخابات تشريعية حرة ومثيرة، حيث احتشد الناخبون في قوة حماسية. وكان استيلاء الحزب الإسلاموي الفلسطيني حماس المفاجئ على الأغلبية البرلمانية أشبه بنذير تغيير شمل المنطقة كلها، لأنه مهما كانت غرائب معضلة الفلسطينيين فقد عكس استقطابهم السياسي إلى حد كبير جدًا حالة المجتمعات العربية الأخرى. وبالرغم من أساليب الحزب العنيفة في معارضة إسرائيل، فازت حماس في السباق على الحزب الحاكم الراسخ والفاسد، فتح، بناءً على برنامج يقوم على الأمانة والنزاهة والعدالة الاجتماعية. وأثار الناخبون العراقيون الاستياء بمساندتهم الجماعات الطائفية الضيقة، إلا أن ذلك الاختيار عكس تمكين الذين طال حرمانهم من حقوقهم، وإن كان مزعجًا للعراق كدولة.



في عام ٢٠٠٦ بدا أن الاتجاه الإصلاحي في سوريا وإيران قلت حدته. فسرعان ما أحال الرئيس السوري الشاب بشار الأسد الربيع القصير الذي أعقب توليه السلطة في عام ٢٠٠٠ إلى شتاء طالما ألفه معارضوه. وكانت المؤسسات الإيرانية غير المنتخبة. المرشد الأعلى، ومجلس الأوصياء الذي يضم كبار رجال الدين، والميليشيات المختلفة. قد أعاقت في البداية تقدم الإصلاحيين الذين فازوا بالسيطرة على برلمان البلاد والرئاسة في عام ١٩٩٧، ثم أطاحت بهم بعد ذلك. ومع ذلك فقد حقق الإصلاحيون في كل من سوريا وإيران بعض المكاسب، وأخافوا الأوتوقراطيين في البلدين. ولم تخب آمالهم وشجاعتهم بعد.

بالإضافة إلى ذلك فإنه بالنسبة للزيارة الصحفية للمنطقة، كان هؤلاء الناشطون الشجعان الذين يتحدثون الإنجليزية في كثير من الأحيان صحبة لطيفة. وليس مستغربًا أن تجد رايت نفسها تهلل لامرأة مصرية في منتصف العمر من الطبقة المتوسطة العليا تحولت إلى مهيجة مثل غادة شهبندر التي أنشأت موقعًا على شبكة الإنترنت يدعو إلى حكومة نظيفة، أو أسما ماريا أندراوس سيدة الأعمال في بيروت الشرقية التي قادت بنجاح المطالبة بإجبار حكومة لبنان الموالية لسوريا على الاستقالة، وتصفها رايت بأنها «الأم الكبرى» لحركة الاحتجاج في البلاد، أو فاطمة منيسي عضو الحركة النسائية المغربية المتألقة.

اجتذب رايت ذلك الرونق الشاب الخاص بما تسميهم «بيجاماهدين»، أي محاربي الإنترنت الجالسين على مكاتبهم الذين تقول إنه من المرجح أن يكون فضحهم دون خوف لجرائم النظام قوة للتغيير على القدر نفسه من شدة عنف المجاهدين في الجماعات الإسلامية المتشددة. وقد وجدت أن القيادات أبناء العمومة للإخوان المسلمين في مصر وحزب العدل والتنمية في المغرب أشخاص ذوو عقول متفتحة وديمقراطيون ملتزمون. فسعد الدين العثماني رئيس حزب العدالة والتنمية يصف حزبه بأنه نسخة إسلامية من الديمقراطيين المسيحيين في أوروبا، إلى حد التلميح إلى أنه ينبغي من الناحية المثالية الفصل بين الدين والدولة.

في يوم من الأيام يمكن بالفعل أن ترجح كفة ناشطي حقوق المواطنين، الذين يتسمون بالحيوية، أو الإسلامويين التقدميين على كفة الدول القمعية في الشرق الأوسط، مثلما حدث بالنسبة لنظرائهم في أماكن أخرى. ولكن الشَّرَك الذي تقع فيه مثل هذه الكتب، التي تعتمد في الغالب على الأحداث الجارية، هو أن للاتجاهات مسارًا متغيرًا، أو معكوسًا في واقع الأمر. وحتى في نهاية إلمامة رايت نجد أن الضوء يتلاشى. فإذا كان عاما ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ عامي الأمل، فقد كانت الفترة التالية حتى الآن فترة من الظلام بالنسبة لإصلاحات المنطقة المفترضة.

يشير المعلق السوري سامي مويد، باعتباره أحد مصادر رايت، إلى أن جزءًا من المشكلة يكمن في دلالات الألفاظ. فكلمة إصلاح في اللغة العربية يمكن أن تعني كذلك التغيير، «كما في التحسين أو التجديد»، وتعني كذلك تصليح الشيء المكسور. وهو يقول إن «المشكلة هنا هي أن الناس يريدون الإصلاح بينما تفكر الحكومة في التصليح». وهذا الفهم الأخير هو السائد بصورة عامة. فمعظم حكومات المنطقة تسعى لتصليح أنظمة السيطرة والقمع، على حساب أي توسيع مهم للحقوق السياسية الممنوحة. وفشلت حكومات أخرى، كحكومات لبنان والعراق وفلسطين، في توطيد حكمها، ليس لعدم رغبتها في تحقيق ذلك، بل لأنها أضعف من أن تحققه.

تفادى النظامان اللذان يحكمان المغرب ومصر، وبدوا منذ بضع سنوات كرائدين محتملين للتحول العربي نحو الديمقراطية، التحديات بسهولة ويسر. فهما لم يبقيا على الكثير من ترسانتهما القديمة من القمع فحسب، بل اخترعا طرقًا ماكرة للتخلص من المعارضين. إذ أجبر سعد الدين إبراهيم على العيش في المنفى، ليس بوسيلة التهديد القديمة التي يمكن أن يكون قد واجهها بشجاعة، وإنما بمجموعة من القضايا الكيدية التافهة التي رفعها ضده مؤيدو الحكومة وهدفت إلى تحويل حياته إلى محنة مزعجة. وبالمثل وجد محررو الأخبار المنتقدون بحماس في المغرب أنه رُفعت ضدهم قضايا قذف وتشهير أحكامها غرامات ضخمة. وأجرى البلدان في السنوات القليلة الماضية انتخابات تشريعية وُصفت بأنها الأكثر حرية ونزاهة حتى الآن: غير أن الاقتراع في كلتيهما كان محاطًا إما بتدخل الشرطة، في حالة مصر، أو بمزيج أكثر رقة، ولكنه على نفس القدر من الفاعلية تقريبًا، من إعادة تقسيم الدوائر الانتخابية لمصلحة أحزاب بعينها أو رشوة في المغرب.

بدلاً من الرد على التطرف الإسلاموي بـ«تجفيف مستنقعات» القمع السياسي الذي يغذيه، استخدمت حكومات المنطقة العنف مبررًا لمزيد من العنف. فبعد التفجيرات التي قامت بها القاعدة في الدار البيضاء في عام ٢٠٠٣، ردت الشرطة المغربية بعمليات الاعتقال والتعذيب الضخمة، في عودة إلى الممارسات القديمة. وأثارت الهجمات الإرهابية على فنادق المنتجعات المصرية في عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٥ أعمالاً قمعية بوليسية مشابهة. وكان البعبع الإسلاموي مفيدًا كذلك في إسكات المنتقدين الغربيين. فعندما تنشأ شكاوى من أسلوب تعامل الرئيس مبارك مع الإخوان المسلمين، الذين سُجن المئات منهم في الشهور الأخيرة، فإنه يشير فحسب إلى حماس، التي هي أحد فروع الإخوان المسلمين الأيديولوجية، ويسأل إذا كان المؤيدون لنظامه «المعتدل» يريدون أن تسير مصر على طريق غزة.

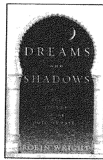


في الوقت الراهن تعرض مدونات الإنترنت ومواقع الشات، بالإضافة إلى قنوات التليفزيون الفضائية، أبناء الشرق الأوسط لآراء أكثر انتقادًا من ذي قبل. ولكن صوت المعارضين في الغالب



الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات كان يقود سيارة ثندربيرد وردية كابورليه عندما كان يعمل مهندسًا ناجحًا في الكويت، قبل تغيير حياته العملية إلى سياسة حرب العصابات المحفوفة بالمخاطر





مجرد ضوضاء خلفية. فاليوم تبدو مواقع الشبكة الطموحة التى خلقها ناشطون مثل شهبندر فى مصر وأندراوس فى لبنان مشتتة ولا تحظى بالرعاية الواجبة. ففى بلدان غير الشرق الأوسط أحدث مثل هذا النشاط تغييراً منظماً بالفعل. والواقع أن حكومتى إيران وسوريا الأكثر قمعاً تسحقان معارضيهما بحماس متجدد؛ فكثير من الأشخاص الذين أجرت رايت مقابلات معهم فى طهران أو دمشق هم منذ ذلك الحين إما فى السجن أو المنفى أو أُسكتوا بأية طريقة أخرى. بمن فى ذلك رياض سيف رجل الأعمال السورى الذى تحول إلى معارض وهو حالياً فى السجن، وعبد الكريم سوروش الفيلسوف الإيرانى الذى لم يعد يستطيع التدريس فى إيران ويمضى جزءاً كبيراً من وقته فى الولايات المتحدة. واستغل محمود أحمدى نجاد منصبه كرئيس لإيران، مع السيطرة على المجلس التشريعى والمحاكم والميليشيات وتأييد المرشد الأعلى، كى يحاول إعادة شعبه المتردد إلى العقلية الدفاعية الخاصة بسنوات الثورة الإسلامية الأولى.

انطلقت حركة كفاية الملهمة فى مصر بالسرعة نفسها التى توهجت بها. والواقع أن مظاهراتها الصالحة للعرض على شاشات التليفزيون لم تجتذب أكثر من الناشطين الأساسيين الذين بدأت بهم. فقد سحب القصور الذاتى ونزعة الانتقام لدى جهاز الدولة الشاسع فى مصر أكسجين الأمل. ولا يمكن أن يمنع المرء نفسه من التساؤل عما إذا كانت رايت ستصبح متحمسة لتلك الحركات إذا شهدت أثرها بالفعل فى الشارع أم لا. فقد كان الحال فى كثير من الأحيان فى مظاهرات كفاية، حيث كانت العادة أن يكون عدد أفراد الشرطة أكبر بكثير من عدد المتظاهرين، أن يعلق المارة باستياء على تعطيل المرور فى شوارع القاهرة المزدحمة أصلاً.

بل بدا أن بعض المصريين يظنون أن المتظاهرين عملاء مأجورون للحكومة يمثلون التظاهر كجزء من خطة معقدة ما للإيقاع بالمشاغبين المحتملين ثم القبض عليهم. ويفسر هذا الخوف المختلط بعدم الثقة، كما تقول رايت، لماذا لم يحضر سوى خمسين شخصاً فقط عندما نظمت زوجة أيمن نور، السياسى المصرى الذى جاء فى الترتيب الثانى بعد مبارك فى انتخابات الرئاسة فى عام ٢٠٠٥، حشداً للاحتجاج على سجنه بناء على اتهام ملفق.

أثر التراجع نفسه حتى على بلدان بدا أنها تخطو أشجع الخطوات نحو التغيير. ففى لبنان، وبالرغم من المجتمع المدنى النشط والصحافة الحرة نسبياً، حدت الحرب والتدخل الأجنبى والسياسة السورية العنيدة من توقعات الإصلاح. وقيد الشلل السياسى البلد لما يزيد على العام، مما أدى إلى استقطاب أهله إما إلى الموالاة المؤيدة للحكومة، التى تدعمها المساعدات الخارجية، والمعارضة، التى تدعمها سوريا وإيران.

وبالمثل، يشعر العراقيون والفلسطينيون أنهم خُدعوا بأمل الديمقراطية، الذى يبدو أنه لم يحقق شيئاً إلا الانقسام وعدم الأمان والضعف. وفى البلدين لم يمنح صوت الشعب قوة للعلمانيين الليبراليين الذين يتعهدون بأفكار التقدم الغربية، بل للمحافظين الدينيين الذين يرون أنفسهم سداً من المعارضة فى وجه الأساليب الغربية الخطيرة. ونتيجة لذلك، فإنه فى البلدين تحث الآن القوى الخارجية نفسها التى دعت إلى قدر أكبر من الديمقراطية. وحكومة بوش أكثرها جراءة. القيادات المعاصرة التى ترعاها على اتخاذ إجراءات صارمة ضد خصومها الأكثر شعبية. ويمتد هذا الاتجاه النكوصى إلى دول لم تغطها جولات رايت. فقد تحدثت المملكة العربية السعودية كثيراً عن إصلاح النظام الملكى المطلق، ولكنها أنجزت القليل جداً. ومازالت دكتاتورية تونس على سوئها فى صمت، بينما تواجه دكتاتورية الجزائر الأكثر تحرراً التى كانت قد خرجت للتو من عقد من الصراع المدنى، خطر العنف الإسلاموى المتجدد بتقييد الحريات. وحتى تركيا، التى بدا استيلاء حكومتها الإسلاموية المعتدلة على السلطة من خلال صندوق الاقتراع نموذجاً لتطورات مشابهة فى بلدان أخرى ذات أغلبية مسلمة، تبدى علامات التراجع. وتشهر الآن المحكمة العليا العلمانية فى البلاد التى يدعمها الجيش سيف داموكليس فى وجه حزب العدالة والتنمية. فقد صوتت لمصلحة نظر القضية التى يمكن أن تنتهى بفرض حظر على إسلامويى العدالة والتنمية الليبراليين، وهو العمل الذى قد يثير الشك فى أسس الديمقراطية التركية.



يُحسب لرايت أنها لم تخجل من الاعتراف بأن فرضيتها الخاصة بالإصلاح الحتمى صارت غير قابلة للاستمرار إلى حد كبير. وهى تقول بصراحة إن الربيع العربى لم يَدُم. وربما كان من المناسب بحث سبب ذلك على نحو أكبر. ولكن من المؤكد أن رايت محقة فى إلقاء بعض من اللوم على السياسة الأمريكية الخرقاء ذات الأثر العكسى فى العراق. وكما أخبرها العديد ممن حاورتهم فى المنطقة، فإن المحنة لم تعزز التطرف وتزيد من عزلة الليبراليين المؤيدين للغرب فحسب، بل إنها أفزعت الناس من المخاطر المرعبة للإطاحة بالطغاة. وترى رايت أن مغامرة العراق يمكن أن تكون أكبر فشل للسياسة الأمريكية حتى الآن. ويمكن أن تثبت أنها تحدد نهاية النفوذ الإمبريالى الأمريكى فى المنطقة، على النحو الذى قضى به غزو مصر المفجع فى عام ١٩٥٦ على وضع القوى الاستعمارية ورفع على نحو خطير أسهم زعيم مصر جمال عبد الناصر. ومن المؤكد أن هذا حكم سليم.

ومع ذلك فمن المحزن أن حث رايت على إصدار تصريحات دقيقة ومحددة يمكن أن يؤدى إلى نوع من النقد الأجوف. فهى تعلن أن «الشرق الأوسط سوف يغرق فى المستقبل المنظور فى نزاع بين ما هو مألوف وما يُخشى منه»، وكأن هذا ليس وصفاً للظرف الإنسانى بصفة عامة. كما يقال لنا إن «علماء الدين المسلمين سوف يمارسون نفوذاً سياسياً ضخماً خلال تحولات الشرق الأوسط المضطربة»، وكأن الإسلام السياسى كان ساكناً خلال العقود الثلاثة الماضية. وتصريحها غير المستغرب بشأن اللغز الآتى الذى سوف يواجه الشرق الأوسط هو أن «الانتخابات الحرة والنزيهة يمكن أن تحدث فى البداية قدراً كبيراً من الديمقراطية».

يمكن وصف تغطية رايت بأنها غير متكافئة بعض الشىء. فهى ممتازة بالنسبة فيما يتعلق بموضوع إيران، ذلك البلد الذى غطته بتوسع كأى صحفى أمريكى. وهى ليست حساسة بالنسبة لتلك الفروق الدقيقة كالخلافات المذهبية المريرة، بل والخبيثة، بين كبار رجال الدين الشيعة فحسب، بل إنها تحرص على إبراز الدوافع التى وراء ما يصفه المعلقون الأكثر سطحية فى العادة بأنه سلوك عدوانى. وهى تضع حرص غير إيران الواضح على المعدات النووية، على سبيل المثال، فى سياق حربها المخيفة ضد العراق فى عهد صدام حسين، التى سقط خلالها حوالى ٥٠ ألف إيرانى ضحايا للغازات السامة العراقية.

ومع ذلك فهى تعى جيداً مدى إزعاج المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية آية الله خامنه اى الذى يخفى سلوكه الملائكى والمتحفظ البارانويا وبعض الشراسة. والتصريح الصادر عنه من قبيل «إذا واجه أحد رجالَ الدين فإنه يسعد بذلك الصهاينة والأمريكان» لا يكون مجرد كلام. بل إنه يشير فى الغالب إلى أنه يخاطب شخصاً بعينه معرضاً لأن ينتهى به الحال فى السجن. وتتذكر رايت رؤيته فى الأمم المتحدة بنيويورك حيث صَعقت لسماعه يرهب الجمعية العامة بوعيده



بدلاً من الرد على التطرف الإسلاموى بـ«تجفيف مستنقعات» القمع السياسى الذى يغذيه، استخدمت حكومات المنطقة العنف مبرراً لمزيد من العنف



كتاب الزاوية



محمود درويش

مرثيات الشاعر الرمز

ارتبط اسم الشاعر الفلسطيني محمود درويش الذي رحل عن عالمنا ٩ أغسطس الماضي بالثورة الفلسطينية والوطن والمنفى والحرية، لكنه قدم أيضًا إسهامًا استثنائيًا في تطوير الشعر العربي الحديث وتطوير القالب والمضمون الشعري واستخدام الرمز.

لم يكن درويش شاعر القضية فقط، بل ضميرها وربما عقلها أيضًا، بحيث صار رمزًا للهوية الفلسطينية ومعاناتها على نحو لم يبلغه إلا ياسر عرفات، كما قال أحد الكتاب.

ولد درويش عام ١٩٤١ في قرية البروة الفلسطينية قرب ساحل عكا، بدأ كتابة الشعر مبكرًا وعمل في صحافة الحزب الشيوعي الإسرائيلي واعتقلته السلطات الإسرائيلية مراراً ابتداء من عام ١٩٦١ حتى ١٩٧٢ عندما توجه إلى الاتحاد السوفيتي للدراسة ثم انتقل بعدها لاجئًا إلى القاهرة والتحق بمنظمة التحرير، ثم استقال من اللجنة التنفيذية للمنظمة احتجاجًا على اتفاقية أوسلو. وقد أسس مجلة الكرمل ورأس رابطة الكتاب والصحفيين الفلسطينيين وفي سنواته الأخيرة عاد إلى فلسطين بتصريح لزيارة أمه وسمحت له سلطات الاحتلال بالبقاء.

من أعماله الشعرية «عصافير بلا أجنحة» ١٩٦٠، «أوراق الزيتون» ١٩٦٤، «يوميات الحزن العادي».. «هي أغنية».. «العصافير تموت في الجليل» ١٩٧٠، «في حضرة الغياب» ٢٠٠٦، «لماذا تركت الحصان وحيدًا» ١٩٩٥، «أنت منذ الآن غيرك» يونيو ٢٠٠٨ .

وقد اختارت «وجهات نظر» بعضًا من مرثياته لشخصيات فلسطينية وعربية وردت في مؤلفه «حيرة العائد» مقالات مختارة الصادر عن دار رياض الريس للكتب والنشر ٢٠٠٧ .





تعرض مدونات الإنترنت ومواقع الشات، بالإضافة إلى قنوات التليفزيون الفضائية، أبناء الشرق الأوسط لآراء أكثر انتقاداً من ذي قبل. ولكن صوت المعارضين في الغالب مجرد ضوضاء خلفية



لـ«الشيطان الأكبر» أمريكا، ثم يرفض الهيئة نفسها التي يخاطبها باعتبارها «مصنع ورق».

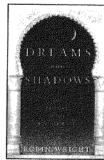
رايت أقل وثوقًا فيما يتعلق بالصراع الإسرائيلي الفلسطيني. ومن حسن الحظ أنها لم تخض في تفاصيله، موضحة أنها لم تشأ أن تثقل الكتاب بمواد موثقة بكثافة في أماكن أخرى. وبالإضافة إلى ذلك، وكما تشير هي، فإنه من الواضح أن قوة ديمقراطية إسرائيل لا تتناسب مع طابع سائر بلدان المنطقة. ومع ذلك فلا يمكن إخراج مشكلة إسرائيل والفلسطينيين، التي تضر المنطقة ككل، من السياق العام.

وطبقًا لرواية رايت فإنه يبدو أنه ليس لإسرائيل نفسها قدرة كبيرة على إثارة مشاكل أوسع مدى. ويبدو أن العيب يكمن بالكامل تقريبًا في العرب. إذ تقول لنا إن رئيس سوريا، حافظ الأسد، هو الذي قطع مفاوضات السلام في عام ٢٠٠٠ بمطالبته بمرتفعات الجولان المحتلة بالكامل. ولم يكن ياسر عرفات سوى «عقبة في سبيل السلام النهائي». وقد تعطل تنفيذ خريطة الطريق، التي رعاها الأمريكيون وكان مقصودًا بها أن تؤدي إلى التسوية النهائية، «عندما لم يوقف عرفات العنف ضد إسرائيل».

ربما يكون عرفات والأسد شخصين غير مرغوب فيهما، ولكن تلك عبارات مثيرة للخلاف. هل يمكن أن يكون إصرار إسرائيل على الاحتفاظ بالضفة الشرقية لبحر الجليل، الذي كان في يوم من الأيام تابعًا لسوريا، هو ما حفز تردد الدكتاتور السوري؟ وهل يمكن أن يكون للتوسع في المستوطنات الإسرائيلية الذي لا يتوقف في الأراضي الفلسطينية، والوحشية التي ردت بها إسرائيل على الانتفاضة الثانية، بما في ذلك التدمير المادي لمراكز الشرطة الفلسطينية، علاقة بشعور عرفات بالفزع، ناهيك عن قدرته على السيطرة على العنف؟ كما تقول لنا إن الانتفاضة هبت بعد رفض عرفات الانصياع لشروط السلام التي تقدمت بها إسرائيل، وليس لأن آرييل شارون، الذي أصبح فيما بعد رئيس وزراء إسرائيل، ساعد على إطلاق شرارة الحريق بذهابه إلى فناء المسجد الأقصى في القدس بصحبة ألفين من أفراد الشرطة المسلحين، أو أنه بعد يوم من ذلك أطلق قناصة الشرطة الإسرائيلية النار على ثلاثة عشر من مواطنيهم العرب وأردوهم قتلى.

هناك كذلك بعض التعبيرات الكسولة في هذه النقطة. فالعرب يبدون «هاربين» باستمرار. فقد «هرب» والدا الأخوين الشقيقين من قريتهما في فلسطين قبل عام ١٩٤٨. (يعكس اختلاف سبل الحياة العملية الخاصة بالرجلين حال السياسة الفلسطينية: فأحدهما، وهو (فتحي الشقاقي) قائد جماعة الجهاد الإسلامي، قتلته إحدى فرق الاغتيال الإسرائيلية، أما الآخر (خليل الشقاقي) فليبرالي ينظم استطلاعات الرأي ويتميز بنبرته الهادئة.) وخالد مشعل، زعيم حماس الذي نجا من محاولة تسميم قامت بها إسرائيل، هو نفسه «هرب» من فلسطين عام ١٩٦٧، ثم «هرب» مرة أخرى من الكويت في عام ١٩٩١، عندما غزاها صدام حسين. وحسن نصر الله رئيس حزب الله «هرب» كذلك من لبنان إبان الحرب الأهلية. والأمر المؤكد هو أن اللاجئين يهربون أحيانًا، أو يُلقى بهم إلى الخارج، أو يدفعهم إلى الانتقال شيء آخر غير الميل إلى الهروب المدمر.

ويمكن كذلك اكتشاف بعض التسرع في الصياغة التي تتسم أحيانًا بالرعونة. فنحن نتساءل عن كيفية اختلاف «الفقر شديد الفقر» عن أنواع الفقر الأخرى. وهي تحذر في موضع آخر من أن «انفتاح السياسة يعرض للخطر تعميق المشاكل المقصود بها أن تحلها»، وهي عبارة يمكن تفسيرها على أنها رامسفيلدية بشكل خطير. ويمكن أن نأسف فقط على أن رايت لم تكن أكثر حزمًا مع محرريها الذين أصروا بشكل محزن على تعديل مصادر الاقتباسات التي تفتتح بها الفصول بمحددات صغيرة قبيحة. فهل من الضروري في عصر جوجل أن نقول «الفيلسوف



الـفـرنـسـى بـلـيـز بـسـكـال» أو «الـفـنـان الأمريكى أندى وارهول»؟

Dreams and Shadows مـن نـواح عديدة كتاب مثير للإعجاب. إلا أنه بالرغم من تصميم رايت على أن تكون موضوعية وما تتسم به صنعتها من مهارة، فهناك شىء غير مُرضٍ بشأن المقاربة الصحفية التى تمثلها هنا. ربما يكون ذلك أحد أعراض الاستماع إلى العالم من واشنطن، حيث يتجمع ذوى مراكز الأبحاث، وصليل البرامج الحوارية، وتأوه الساسة فى أجندة غالبًا ما تتصادم مع أصوات الـغـابـة الـشـرق أوسـطـيـة. وتحاول رايت تحدى تلك الأجندة، إلا أنه لا يمكنها الإفلات من كونها المصدر الذى تستقى منه معلوماتها.

إنها تـفـخـر عـلـى سـبـيـل المـثـال بالاعتماد على المصادر المحلية وليس «الخبراء» البعيدين. إلا أن الكثير من مصادرها متحدثون مشهورون فى البرامج التليفزيونية، ويعملون فى مؤسسات تعد مأوى للمراسلين الأجانب. وفى أغلب الأحيان كذلك يعكس نوع الأسئلة التى توجه إليهم الأولويات التى تحدَّد فى أماكن أخرى. وفى أحد المواضع، على سبيل المثال، تصف رايت ثلاث قضايا مهمة لابد للحكومات الشرق أوسطية من معالجتها كى تتوافق مع ضغط التغيير: السجناء السياسيون، وحقوق النساء، والإسلام السياسى. قد يكون الأمر كذلك، ولكن يبدو هذا أقرب إلى الاهتمامات التى فى واشنطن منه إلى الأشياء الأكثر يومية كفرص العمل وفساد المسئولين المحليين، وتكلفة الزواج المرتفعة جداً التى تستحوذ فى الواقع على اهتمام الشرق أوسطيين.

يتسم الدكتاتوريون بالقبح، والديمقراطية هى على الأرجح أقل الطرق سوءاً لحكم الناس. ولكن يمكن أن يكون الديماجوجيون أفضل من الديمقراطيين فى تجميع الدول الهشة مع بعضها. ويقول العرب بحذر شديد إن يومًا واحدًا من الفتنة أسوأ من ثلاثين عامًا من الطغيان. وربما تكون تلك فكرة غريبة وتتسم بالمفارقة التاريخية، ولكنها كذلك نتاج تجربة تاريخية أطول كثيرًا من معظم تجارب الشعوب. ولا يسع المرء إلا أن يتساءل عما إذا كان بعض التفكير المأمول الذى ثبت أنه ضار جداً عند ترجمته إلى سياسة خارجية أمريكية قد تأثر بالموشور المضبوط ضبطًا دقيقًا، وإن كان مشوهًا، الخاص بالصحفيين الأمناء والموهوبين مثل رايت ويعكس إيمانهم المطلق بأنه فى يوم من الأيام سوف يصل الأمر بالعالم، بما فى ذلك الشرق الأوسط الذى يفتقر إلى التنوير والمعرفة، إلى اعتناق الأسلوب الأمريكى. ■

هـــامـــش

• لرونالد رامسفيلد سجل مضحك من التصريحات والأقوال الغريبة أو التى ثبت خطؤها الفاحش. فعلى سبيل المثال، رد رامسفيلد على سؤال للصحفيين فى فبراير من عام ٢٠٠٣ بخصوص المدة التى يتوقعها لاستمرار الصراع فى العراق بقوله: «ستة أيام وربما ستة أسابيع. أما ستة أشهر فأستبعد ذلك». وعند سؤاله عن مكان وجود أسلحة الدمار الشامل كان رده: «نحن نعرف أين توجد. إنها فى المنطقة حول تكريت وبغداد وإلى حد ما فى الشرق وفى الغرب وفى الشمال وفى الجنوب!». أما فى تعليقه على عمليات النهب التى تلت سقوط صدام فقد قال: «الحرية تحرر الناس من القيود. والناس الأحرارُ أحرار فى أن يقوموا بأخطاء وأن يقترفوا الجرائم ويفعلوا أشياء سيئة». ثم جاءت العبارة التى صارت علامته المميزة عند سؤاله عن إخفاء المعلومات عما يجرى فى العراق حيث قال: «التقارير التى تَذكر أننا لا نعرف شيئاً ما غريبة. لأنه كما نعرف هناك معارف معروفة، وهناك أشياء نعرف أننا نعرفها. لكننا نعرف أيضاً أن هناك معارف غير معروفة. وهذا مايدعونا للقول بأننا نعرف بأن هناك أشياء لا نعرفها. ولكن هناك أيضاً أشياء غير معروفة تظل غير معروفة. وبالتالى فما لا نعرفه هو مالانعرفه». وعندما قيل للوزير إن عدد الضحايا الأمريكان كبير وأن هذا يؤثر فى الرأى العام الأمريكى أجاب قائلاً: «إن من طبيعة الموت أن يُشجع ويُشيع رؤيةً كئيبةً عن الحرب». أما عند سؤاله عن مصير بن لادن فقد كانت إجابته: «يمكننا القول بدرجة عالية من التأكيد أن أسامة بن لادن فى أفغانستان، أو فى بلد آخر، أو أنه ميتا!» وعندما سُئل فى يوم من الأيام عن تصريح أدلى به فى اليوم السابق قال: «أنا أومن بما قلته البارحة. لا أعرف ماذا قلتُ ولكننى أعرف بماذا أفكر. وأعتقد أن هذا ما قلتُهُ» وأخيرا عندما سُئل عن تصريح للرئيس بوش لم يسمع عنه أجاب: «من نافلة القول أن الرئيس مصيبٌ فى مقولته. بغضَ النظر عما قاله!» (المترجم)

كتاب الزاوية



مرثيات محمود درويش

رسالة الغائب إلى الغائب*

غائبًا آت إلى غائب. فلا أدرى إن كنت هناك أم هنا، ولا أدرى هل جسدى هو كلامى أم كلامى هو جسدى، ولكننى فى الحالتين غائب!

لا صورة للمعنى بلا مبنى. ولا أرض للقصيدة غير تلك الطعنة التى تحفرها السماء بقرن غزال، على حافة الأرض.

هل دخلت من هناك؟ أم خرجت إلى ما أنت فيه. بحثًا عن أمثالى العائدين فى عربات المهاجرين إلى صورتهم وهى تكبر وحدها، فى الليالى القديمة، دون أن تنتبه إلى تدخل الشبح أو الشاعر.

ولكن، لماذا تفتح أبواب التأويل على مصاريعها لهذا التاريخ المهلك من مصارع العشاق؟ أليس فى تلك الطريق الموغلة فى القدم وفى الخرافة، بين أريحا والقدس.. ما يكفى لنتخلص من وطأة الأساطير، ولنخلُ قليلاً إلى ضجر الرصيف وموهبة التدرب على عطلة الصيف، وعلى رائحة اليود القادمة من بحر بلا قراصنة؟

فلتغفر لى ثانية، أنى أوسّع ـ لأكون قريبًا من الأرض ـ ثنايا ظلك على الظل، وأجلس قليلاً فيما يبدو لى أنه شكل لى، لك، أو للشكل!

فكيف تحط الغيمة على حجر دون أن تجرحه، ودون أن تتلاشى فرحًا صوفيًا فى أرض صغيرة كحبة السمسم، وكبيرة كالله يؤمها الأنبياء، والغزاة أيضًا، من كل لغة ومن كل خطيئة، ليصغوا إلى ماء الله فى حصاها من جهة، وإلى ما يحول هذا الماء إلى نبيذ أو دم، من جهة أخرى.

❖ فى ذكرى توفيق زياد

الوقف من أهم المؤسسات الخيرية الإسلامية منذ عصور مبكرة حيث يتم إيقاف مال أو مشروع ذى دخل مالى للإنفاق منه على

خالد منصور

من تجميد الأموال إلى ملاحقة الأفراد

العمل الإنساني الإسلامي

■■ تواجه منظمات العمل الإنسانى الإسلامية[1] درجات مختلفة من التضييق والرقابة منذ أوائل التسعينيات وهو أمر زادت وتيرته وحدته بعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على نيويورك حيث أصبحت المنظمات الأهلية عموماً هدفاً للتدقيق فى «الحرب ضد الإرهاب». وتطايرت الاتهامات حول أن عدداً من هذه المنظمات سربت أموالاً لدعم أنشطة «إرهابية» أو دعم منظمات إسلامية لها أهداف سياسية أو أجنحة مسلحة. وانبرى مدافعون وصفوا الحملة ضد هذه المنظمات بأنها تأتى فى إطار ما يدعى بالتحامل على الإسلام وتخلط الصالح بالطالح لغرض فى نفس يعقوب. ولكن ما بين الموقفين وخارجهما بات من الواضح أن عديداً من المنظمات الإنسانية الإسلامية بدأت فى وضع فاصل واضح بين العمل السياسى والدينى من ناحية وأنشطة الإغاثة الإنسانية من ناحية أخرى وذلك ليس فقط لإبعاد شبح تهمة الإرهاب عنها بل أيضاً - على الأقل لعدد منها - لأنها باتت تنضوى تحت لواء خطاب إنسانى عالمى يعتمد فيما يعتمد على فصل التبشير والدعوة والعمل السياسى عن أنشطة المساعدات الإنسانية لأسباب أخلاقية[2].

ويعتقد الكاتب أن معظم جذور دوافع العمل الإنسانى - سواء اتخذت صورة دينية أو صورة علمانية - ترتكن فى نهاية الأمر على الباعث الأخلاقى للتعاضد والتكافل بين البشر وأن يساعد القادر العاجز، والغنى الفقير. ويرتكز الجذر العلمانى على الإعلاء من قيمة مطلقة للإنسان وحقه فى الحصول على المساعدة ويرتكن على الإعلانات والمواثيق والأعراف الدولية لحقوق الانسان، بينما يتعامل الجذر «الدينى» مع العمل الإنسانى على أنه تقرب إلى الله وتطبيق لتعاليم الدين ونشر للدين نفسه عن طريق التقرب للفقراء والمحتاجين. وهناك كثير من المنظمات الحديثة غير الدينية أو العلمانية تعود أصولها إلى أسس دينية.

لم يعد العمل الإنسانى فى العصر الحديث مجرد تعبير عن وازع أخلاقى فقط، وينطبق هذا على كل المنظمات الإنسانية دينية كانت ام علمانية النشأة. كما أن التنظيم الحديث للعمل الإنسانى وتداخله مع الحكومات - ولاحقاً الشركات الضخمة المتعددة الجنسيات - يؤثر على دوافع القيام بالعمل الإنسانى الذى صار واقعا على تقاطع طرق المصالح السياسية والاقتصادية والثقافية والبيروقراطية المتشابكة. وأخيراً فإن الدوافع العلنية تختلط كثيراً بعد إنشاء أى منظمة بمصلحة هذه المنظمة فى الاستمرار على قيد الحياة حتى لو تضاءل الغرض من إنشائها.

أولا: تاريخ العمل الإنسانى وعلاقته بالدين:

منذ نشأة الديانات، والتبشير بها (أو الدعوة لها) نشاط لا ينفصم كثيراً عن عمل الخير وغوث المحتاج تطبيقاً لوصايا الأديان بعمل الخير ولاجتذاب معتنقين جدد. ويتعاظم هذا الدور ويتواصل مع الفضاءين السياسى والاقتصادى عندما يعمل المبشر أو الداعية يداً بيد مع السياسى أو المحارب وذلك على سبيل المثال ما ظهر جلياً فى العلاقة المفصلية بين الإرساليات المسيحية وجيوش وحكومات الاستعمار الغربى منذ القرن الخامس عشر. وحتى الآن ما زالت إرساليات مسيحية تعمل فى مجالات تحسين الزراعة والتعليم والصحة فى بلدان أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. ورغم فتور شاب علاقة المنظمات التبشيرية مع الحكومات الغربية عقب نهاية عصر الاستعمار إلا أن النشاط دب بقوة فى شرايين هذه العلاقة مع تصاعد نفوذ التيار المسيحى التبشيرى بقوة فى الولايات المتحدة فى العقدين الأخيرين[3]. وفى العقود الأخيرة تمفصلت علاقة أخرى بنسق مختلف بين الداعية والمقاتل والسياسى فى الجهاد الأفغانى فى الثمانينيات ضد الاحتلال السوفيتى.

إن عدم إدراج الأيديولوجيات الكبرى (مثل الرأسمالية والماركسية) تحت مظلة علاقة العمل الإنسانى بالدين أى التركيز فقط على الأديان السماوية أو الوضعية الكبرى: إسلام، مسيحية، يهودية، بوذية، إلى آخره، لا يعنى أن هذه الأيديولوجيات لم تؤثر بطريقة مماثلة على المساعدات الإنسانية. ففى روسيا على سبيل المثال سعت الولايات المتحدة الأمريكية لمساعدة المواطنين عقب الحرب العالمية الاولى بطريقة معينة صممت بها برامج المساعدات بحيث تضعف سلطة الحكومة البلشفية وجرت مواجهات مع حكومة لينين حتى تم إعادة تصميم شبكات التوزيع بحيث تخضع لسيطرة البلاشفة بصورة أو بأخرى.

وعموماً فإن تقسيم المنظمات الإنسانية إلى دينى وعلمانى به بعض التبسيط المخل، فليس هناك فرق مطلق بين أن يكون الدافع لإغاثة الملهوف ابتغاء مرضاة الله أو التعبير عن الالتزام بمبادئ إنسانية محضة فكلاهما أيديولوجية فى نهاية المطاف تنتميان إلى تشكيلات ثقافية وسوسيواقتصادية مختلفة.

ومن المهم أيضاً إدراك أن الفصل بين الدولة والدين (الكنيسة) أمر خاص بالحضارة الأوروبية وجاء نتيجة صراعات سياسية واقتصادية واجتماعية امتدت قروناً. ولا يعتقد عدد من العاملين فى المنظمات الإسلامية أو دارسيها أن هذا على أى حال هو الطريق الذى ستسير فيه منظماتهم:

«من الجناية على العمل الخيرى الإسلامى تجريده من هويته الدينية أو أن يربط بمقاييس ومواصفات ومعايير الأمم والأديان والثقافات الأخرى كحصر دوافعه بالدوافع الإنسانية فقط أو أن يفرض عليه فى أعماله وأنشطته الإغاثية تجريده من القيم والمبادئ وجوانب الإصلاح النفسى والروحى والاجتماعى والأخلاقى فكل هذه الجوانب تشكل حقيقة المفهوم الشامل

أوجه الخير الدينية والاجتماعية وتشمل بناء المساجد والملاجئ ودور الإيواء للأيتام والأرامل والمستشفيات.



للإغاثة الإسلامية... إضافة إلى هذا كله فإن المؤسسات الخيرية الإسلامية والعاملين فيها يؤمنون أن إنقاذ الوثنيين وما شابههم من جحيم الكفر رسالة سماوية واجبة».(٤)

يجب النظر، إذن، إلى الفارق بين المنظمات الإغاثية المسيحية النشأة وتلك الإسلامية ليس على أساس أن الإسلامية منها ستتطور مع الوقت لتصير علمانية محتفظة فقط بالاسم أو بالرمز ولكن على أساس أن هناك اختلافاً جذرياً فى تطور المرجعية وأن المرجعيات العلمانية لمعظم أنشطة الإغاثة الغربية لم تصر كونية بعد بما فى ذلك حقوق الإنسان المنصوص عليها فى المواثيق الدولية.

ولا يقصد الكاتب هنا تبنى مقولة النسبية الثقافية المطلقة بل توضيح أن المرجعيات لا تفرض بقدر ما يتعين النضال والقتال من أجلها فى حركة مجتمعية. وحتى ينتهى الصراع على تحديد مرجعية كونية العمل الإنسانى (إذا انتهى) يمكن الاتفاق على معايير دنيا للعمل الإنسانى وفصل مقبول بين العمل الإغاثى والدعوة أو التبشير، مع القيام دائماً بكشف هذه العلاقات والارتباطات بشفافية ووضوح قدر الإمكان أمام المانحين والمستفيدين والإعلام.

ويجب كذلك النظر فى الممارسات الفعلية. وليس الأطر والدوافع النظرية فقط. وخاصة التداخل بين المنظمات والحكومات (الغربية منها والعربية). وقد زاد التداخل - بل والتدخل المباشر- بين منظمات الاغاثة والحكومات منذ التعاون الوثيق بين هذه المنظمات وحلف شمال الأطلسى فى كوسوفو فى التسعينيات.

ولم تبرز المنظمات الدولية العلمانية فى مجال الإغاثة بوضوح سوى بعد الحرب العالمية الثانية عندما ظهرت عشرات المنظمات الدولية (الحكومية منها وخاصة تحت مظلة الأمم المتحدة) أو غير الحكومية (الأهلية) والتى تعمل فى نطاق دولى. وركزت هذه المنظمات فى بادئ الأمر على معالجة آثار الحرب العالمية الثانية

من التجميد .. إلى الملاحقة



فى البلدان المهزومة ولكنها سرعان ما التفتت إلى القارة الأفريقية ثم صارت تنظر إلى نفسها وينظر إليها على أنها منظمات دائمة وليست برامج مؤقتة ينتهى عملها مع نهاية الجوع أو الفقر أو التشرد. ومع أواخر الثمانينيات والنصف الأول من التسعينيات انتهى عصر الأحلام الكبرى وتحولت المنظمات الإنسانية الدولية إلى صناعة بحق (أو أممية) فى اتساق مع مفاهيم اقتصاد السوق حيث باتت المؤسسات الإنسانية تتنافس فيما بينها للحصول على أموال الحكومات والأفراد المانحين وبدأت الحكومات توزع جزءا من مساعداتها عن طريق المنظمات الأهلية(٥).

الإسلام والعمل الإنسانى.. التاريخ:

مثله مثل معظم الديانات يحض الإسلام على عمل الخير الذى يعد فى بعض صوره (مثل الزكاة) فريضة أساسية وركنا من أركان الإسلام. ولا يقتصر الإسلام فى دعوته هذه على المسلمين فقط وحتى عندما يخصص القرآن فئات المستهدفين بالعمل الخيرى والإحسان مثل الوالدين وذوى القربى واليتامى والمساكين والجيران وأبناء السبيل فإنه لا يقصر هذا العمل الخيرى على المسلمين فقط(٦). ولا شك أن السبب والدافع الرئيسى للعمل الخيرى الإسلامى من منظور دينى هو طاعة الله والرسول و«ابتغاء مرضاة الله».

ويشدد الإسلام على تجنب التباهى والتفاخر بأعمال الخير. والقرآن واضح للغاية فى عديد من الآيات فى الحض على عمل الخير كجزء لا يتجزأ من العقيدة. وجاء فى القرآن: «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون». (الحج ٧٧).

وبينما يمكن النظر إلى الزكاة على أنه أمر ينظمه فى الأغلب ولاة الأمر والحكومات (وما حروب الردة فى صدر الإسلام فى جانب منها سوى حرب على مانعى الزكاة) فقد ترك الشرع والسنة للقادرين على عمل الخير حرية القيام به مطلقة ولم يفرض سوى الزكاة كحد أدنى «من أجل الإنفاق على ذوى الحاجات». وما زالت الحكومات الإسلامية أهم الجهات المانحة للعمل الإنسانى المنظم فى العالم الإسلامى بلا منازع وذلك مع استبعاد قنوات تسيطر على معظمها الحكومة على أية حال ويتم من خلالها توجيه الزكاة والصدقات والتى تصل فى بعض التقديرات إلى ألف مليار دولار سنويا فى البلدان الإسلامية.

ويعد الوقف من أهم المؤسسات الخيرية الإسلامية منذ عصور مبكرة حيث يتم إيقاف مال أو مشروع ذى دخل مالى للإنفاق منه على أوجه الخير الدينية والاجتماعية وتشمل بناء المساجد والملاجئ ودور الإيواء للأيتام والأرامل والمستشفيات. ودخلت معظم الأوقاف فى بدايات القرن التاسع عشر تحت سيطرة الحكومات.

ودخلت المنظمات الإنسانية الإسلامية فى طور الحداثة فى بداية القرن ١٩ مع تطوير جمعيات الهلال الأحمر وصيرورتها جزءا من حركة الهلال والصليب الأحمر الدوليين ثم تلا ذلك قيام المنظمات السياسية وأهمها الإخوان المسلمون بلعب دور اجتماعى وخيرى متنام على الصعيد الوطنى قبل أن تصل إلى الصعيد الدولى فى السبعينيات مع بروز دور فائض النفط فى الدعوة والإغاثة فى أفريقيا وآسيا ثم التطور المتسارع لمنظمات الإغاثة الدولية الإسلامية فى خضم الجهاد فى أفغانستان.

وبرز دور المنظمات الإسلامية الإنسانية على الأصعدة الوطنية فى العقود الثلاثة الأخيرة مع تصاعد تخلى الدولة عن الدور المركزى فى مجال الخدمات الصحية والتعليمية والتشغيل والإعانات الاجتماعية(٧) وبسبب تزايد الفائض النقدى والريعى فى دول العالم الإسلامى وخاصة المنتجة للنفط منها وتوازى هذه الظاهرة مع ظهور المؤسسات المالية الإسلامية (مثل دار المال الإسلامى والبركة) التى وفرت فائضا ضخما للصدقات والعمل الإنسانى بسبب وضع الفائدة فى صناديق خاصة للصرف منها على عمل الخير (لتلافى التعامل بأموال الربا) وأيضا تحصيل الزكاة من ودائع المصارف الإسلامية. كما تبلور دور هذه المنظمات على الصعيد الدولى فى الثمانينيات أثناء العمل الإنسانى المتزايد الوتيرة فى أفريقيا ودعم الجهاد فى أفغانستان(٨) ثم مساعدة المسلمين فى الحرب الأهلية فى البوسنة(٩).

الإسلام والعمل الإنسانى:

من الدافع إلى الأداء

يعتقد إسلاميون أن الدعوة إلى الإسلام هى الأصل فى العمل الخيرى حيث ينظر إليه على أنه «عمل تعبدى يسعى المتبرع فيه إلى التقرب إلى الله... ولذا نجد أن التداخل بين العمل الخيرى والعمل الدعوى (أو التبشيرى) كبير بحيث يصعب الفصل بينهما. وبعض المؤسسات المسيحية لا تكتم هذا الأمر، فهى تتحرك بمبدأ التبشير، وفى المقابل نجد أن المؤسسات الإسلامية كذلك تتحرك بمبدأ الدعوة.. إن جميع الجهات الإسلامية هى جهات دعوية وخيرية فى آن معا»(١٠).

وعلى الرغم من إعلان معظم المؤسسات الخيرية الإسلامية أنها لا تفرق «بين المستفيدين من المسلمين وغيرهم» إلا أنها عادة ما تبدأ بمواقع كوارث المسلمين لكونها «الأقرب جغرافيا والأكثر احتياجا». وتركز عديد من هذه المنظمات على بناء المساجد وتحفيظ وتوزيع القرآن الكريم.

ومن ناحية أخرى فإن جمعيات إسلامية قديمة مثل جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية اللبنانية أو حديثة ودولية مثل الإغاثة الإسلامية العالمية ومقرها لندن تتبنى وجهة نظر مغايرة. فجمعية المقاصد «جمعية إسلامية ولكنها ليست سياسية ولا طائفية بالمعنى الضيق.. (بل) بمعنى أنها تستوحى من الإسلام قيمها وأخلاقياتها ومقاصدها الخيرية». وبالتالى تجتذب الجمعية «الأساتذة الأكفاء من المسيحيين.. وحرصت أن تبقى علاقات الود والتعاون مع جميع المدارس فى لبنان» وحاولت المقاصد أن تجتذب التلامذة من غير المسلمين «وفى مجال الرعاية الصحية والاجتماعية كانت مؤسسات المقاصد دائما منفتحة تستقبل جميع الناس دون تمييز»(١١) بينما يشير هانى البنا مؤسس الإغاثة الإسلامية إلى أن «العمل على أساس الاحتياجات وليس لأى سبب آخر» هو أفضل الطرق وأن المنظمة تقدم المساعدات «بغض النظر عن العرق أو الدين أو الثقافة أو أى خلفية عقائدية من أى نوع»(١٢).

بيد أن أغلبية منظمات الإغاثة الإسلامية فى واقع الأمر تخلط وتمزج بين الدعوة والإغاثة بل وعملت فى فترات عدة عن قرب مع منظمات جهادية مسلحة مثلما حدث فى أفغانستان فى ثمانينيات الجهاد ضد الاحتلال السوفيتى ولم يتوقف هذا العمل الوثيق حتى بدأ تناحر المجاهدين الأفغان بعد دخول كابول فى ١٩٩٢ والذى أوهن عرى هذه العلاقات الوثيقة أو كما قال أحد عمال الاغاثة السابقين فى هذه المنظمات إن العلاقة بين «الطبيب والداعية والمجاهد» تأثرت بشدة. وجاءت أزمة البوسنة لتشهد تحول بعض منظمات الإغاثة الإسلامية إلى موقف احترافى يقترب من موقف المنظمات الإنسانية من ناحية تركيزه على العمل الإنسانى ومساعدة المحتاج كهدف فى حد ذاته(١٣).

وبصورة غير مباشرة دفعت الخبرات المحصلة فى أفغانستان والبوسنة وتضييقات الحكومات الوطنية بعض منظمات الإغاثة وخاصة التى كانت فى طور النشأة إلى التبنى التدريجى للخطابات العلمانية الطابع عازلين عملهم بذلك إلى حد ما عن علاقاته السياسية كما فعلت منظمات أخرى من قبل عندما فصمت وشائجها مع الجهاد المسلح والدعوة، فصارت مطبوعات

من التجميد.. إلى الملاحقة

المنظمات ونشراتها تركز على التنمية والإغاثة مستعملة مفردات «الأممية الإنسانية» ومتجاهلة أى إشارات إلى الدعوة ناهيك عن الجهاد.

التواصل والتعاون

سعت منظمات إغاثة عدة إلى تبنى مواثيق شرف لعل أهمها حاليا مدونة السلوك لحركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر والمنظمات الأهلية العاملة فى مجال الإغاثة والميثاق الإنسانى للمعايير الدنيا للتدخل الإغاثى فى الكوارث (مشروع سفير SPHERE).

ووقعت ٤٢٧ منظمة على مدونة السلوك ومنها على الأقل ١١ منظمة إسلامية مسجلة فى بريطانيا والولايات المتحدة وأستراليا وهولندا وكندا وألمانيا. وتنص مدونة السلوك فى أحد بنودها على منح المساعدات دون أى اعتبار للعرق أو العقيدة أو الجنسية للمتلقى أو أى تمييز منحاز من أى نوع وعلى أساس الاحتياج فقط.

أما مشروع الميثاق الإنسانى الذى بدأ فى عام ١٩٩٧ فهو ثمرة جهود الاتحاد الدولى لجمعيات الصليب والهلال الأحمر ومنظمات أهلية متعددة من أجل الالتزام بحد أدنى من المعايير الواجب توفرها قبل وأثناء وبعد التدخل الإنسانى فى مجال المياه والصرف الصحى والتغذية والمساعدات الغذائية والمأوى والخدمات الصحية. ولعل أهم هذه المعايير الطوعية وأولها هو ضرورة مشاركة المجتمعات المتضررة فى تقويم الأضرار وتصميم وتنفيذ ومراقبة وتقويم عمليات الإغاثة. وشاركت أكثر من أربعمائة منظمة من ثمانين دولة حتى الآن فى وضع هذه المعايير العديدة وتنقيحها. وبينما تعمل مدونة السلوك كإطار عام ومرجعى فإن الميثاق يقدم التفاصيل المتعلقة للقيام بالتدخل الإنسانى على أرض الواقع من أجل ضمان حد أدنى من الاحترافية فى التعامل مع المستفيدين.

وحتى التسعينيات لم تعن منظمات الإغاثة الإسلامية بالعمل كثيرا مع المنظمات الأخرى بل وكان هناك عداء بينها وبين المنظمات الغربية فى أفغانستان واتهامات بالتنصير وتبنى أجندات غربية هذا باستثناء تعاون محدود بين لجنة إغاثة مسلمى أفريقيا وهيئة تنسيق الإغاثة الأفغانية التى عملت بمثابة مكتب تنسيقى لأنشطة المنظمات الأهلية. ولكن بعد سنوات أقرت منظمات إسلامية عدة بالحرفية العالية والمهنية التى تحلت بها منظمات أهلية غربية مثل أطباء بلا حدود[١٤].

وبنهاية التسعينيات باتت معظم منظمات الإغاثة الإسلامية خاصة التى تعمل منها خارج حدود نشأتها الجغرافية أو الوطنية تؤمن بأهمية التعاون النشط فى منتديات مواثيق الشرف ومعايير التدخل الإنسانى حتى من يؤمن منها بخصوصية العمل الإغاثى الإسلامى أصبحت تشارك فى هذا الجهد مع المنظمات العالمية «سواء أكانت مسيحية أم غيرها» تحت لافتة القواسم المشتركة للعمل الإنسانى «تمهيداً للعمل بشراكة متكافئة بين الجميع.. مع تبادل للخبرات سواء العملية الميدانية أو أخلاقيات العمل وتأكيد مبدأ الكرامة الإنسانية جمعاء»[١٥]. وبمعنى آخر تخلت منظمات عدة عن خلط العمل الإغاثى بالنشاط الجهادى المسلح أو العمل السياسى المباشر.

ولعل العمل المشترك فى وضع مثل هذه المدونات الكونية أو المشاركة فى وضع معايير الأداء سبيل مهم لمشاركة أكثر فعالية لمنظمات الإغاثة الإسلامية فى الجدل الكونى فى هذه المجالات تطور الأداء المهنى لها كما أنها تدعم «كونية» هذا العمل المفترضة. وعلى سبيل المثال فإن منظمة الإغاثة الإسلامية التى تبنت مدونة السلوك تطبق أيضاً معاييرها فى التقييم والمرجعية للعاملين عند اتخاذ القرارات ولتأكيد جودة الخدمات «حيث تقيم المنظمة برامجها وأداء المسئولين الميدانيين بها بناء عليها»[١٦].

وتبنت الجمعيات الإسلامية نفسها مشروعها الخاص لإثارة الإشكاليات وتأطير القضايا الخاصة بالعمل الإنسانى فيما يعرف باسم المنتدى الإنسانى فى ٢٠٠٤ من أجل دعم التعاون الوثيق بين المنظمات الإسلامية من ناحية والمنظمات الغربية والدولية من جهة أخرى ويضم المنتدى حتى الآن عشرين منظمة رئيسية منها الإغاثة الإسلامية وأوكسفام وقطر الخيرية وفيالق الرحمة (أمريكية) ومنظمة الإمام الخومينى للإغاثة والصليب الأحمر البريطانى ووزارة التنمية الدولية البريطانية واللجنة الدولية للصليب الأحمر ومؤسسة الندوة العالمية للشباب الإسلامى (سعودية) ومنظمة حقوق الإنسان والحريات والإغاثة الإنسانية (تركية) ومكتب تنسيق الشئون الإنسانية التابع للأمم المتحدة والمنظمة السويسرية للتعاون والتنمية (سويسرية حكومية). ويستهدف المنتدى «بناء قطاع منظمات غير حكومية إسلامية تعمل فى إطار معايير الكفاءة والمحاسبة والشفافية التى تتطلبها أغلب المجتمعات والحكومات والمؤسسات الدولية المضيفة والمانحون ولبناء جسور وشراكات بين الحركات الإنسانية فى العالم الإسلامى والغربى... وإدراج المنظمات غير الحكومية العاملة فى البلدان الإسلامية فى المجتمع الدولى من خلال بناء القدرات وعقد الشراكات وتعزيز بيئة جيدة التنظيم للمنظمات غير الحكومية الدينية منها أو غير الدينية»[١٧].

ومع تزايد وتيرة وعمق العمل المشترك على الصعيد الدولى تواجه منظمات الإغاثة الإسلامية تحدياً يتعلق بهويتها، فمع تصاعد أهمية الاحتراف المهنى واستعمال الخطاب الإنسانى الكونى وقطع العلاقة مع الجهاد المسلح تبهت الصبغة الإسلامية لهذه المنظمات. صحيح أن عديداً من هذه المنظمات واصل أحيانا الأنشطة الدعوية مثل بناء المساجد وتحفيظ القرآن ولكن الأجنحة الأكثر تسييساً فى العالم الإسلامى أو الأكثر «تديناً» باتت تتشكك فى مدى التزام بعض هذه المنظمات بالقضايا الدينية ونصرة «إخوانهم فى أفغانستان والبوسنة» ليس فقط عن طريق تقديم الإغاثة بل أيضا عن طريق الدعوة باللسان وحمل السلاح فى اليد. وباتت المنظمات أحياناً فى مواجهة خيار صعب حيث إن دعم صورتها الإنسانية والاحترافية على الصعيد الدولى يجعلهم عرضة لانتقادات لاذعة من المتشددين.



منظمات الإغاثة الإسلامية والارهاب:

توزعت الاتهامات ضد المنظمات الإسلامية بدعم الإرهاب وخاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر وتعرض كثير منها إلى قيود مشددة فى العالم الإسلامى وملاحقة أمنية فى شتى أنحاء العالم. وشملت التضييقات التى شاركت فيها عديد من الحكومات إيقاف منظمات أو تجميد حساباتها أو اتهامها فى دعاوى عامة أو من خلال سن نظم وقوانين مالية وإدارية حرمتها من العمل بحرية مع المنظومة الدولية للإغاثة[١٨].

وصل الأمر إلى اعتقال وملاحقة عديد من أعضاء هذه المنظمات سواء فى أفغانستان بعد الغزو الذى تزعمته أمريكا فى عام ٢٠٠١ وفى العراق فى ٢٠٠٣ بعد الغزو الأمريكى. ويقول الناشط الحقوقى العربى هيثم مناع إن «ثمانية من موظفى منظمات إغاثة إسلامية وعربية هم فى جوانتانامو أو سجن قاعدة بجرام فى أفغانستان».

وأدت القيود والملاحقات الأمنية والمالية إلى تعطيل مشاريع المنظمات الإسلامية بسبب عجزها عن دفع مستحقات المقاولين مما ضاعف من وقت إنجاز المشاريع وتعقد النظم والقوانين المنظمة للعمل الخيرى. وتوقف تحويل الأموال أو صار يأخذ وقتاً طويلاً مما أخذ يعوق وصول رواتب الموظفين

أدت القيود والملاحقات الأمنية والمالية إلى تعطيل مشاريع المنظمات الإسلامية بسبب عجزها عن

من التجميد .. إلى الملاحقة



والكفالات للأيتام والأسر الفقيرة والطلاب[19]. وصارت «الكثير من الإرشادات والطلبات التى تلزمنا بها وزارة الخزانة الأمريكية تتجاوز قدرات أى منظمة خيرية وهى مطالب مثيرة للسخرية والغضب» وفقا لاحد مؤسسى منظمة إغاثة إسلامية أمريكية[20]. وتعرضت عدة جمعيات ومنظمات إسلامية فى الولايات المتحدة وبريطانيا للتدقيق أو الإغلاق وخاصة ما ادعى بشأنها أنها حولت أموالاً إلى منظمة حماس الفلسطينية لأنشطة إنسانية. وفى السعودية قررت الحكومة فى عام ٢٠٠٢ إجبار المؤسسات الخيرية أن تقدم إلى وزارة الخارجية تفاصيل المشاريع الخيرية التى يجرى تمويلها فى الخارج وشكلت الهيئة السعودية الأهلية للإغاثة والأعمال الخيرية فى الخارج بوصفها هيئة حصرية لتولى جميع جوانب عمليات المساعدات الإنسانية فى الخارج ولتحمل مسئولية توزيع الزكاة والصدقات الصادرة عن المملكة العربية السعودية. وفى الكويت فرض حظر على جمع التبرعات النقدية وجمع الأموال فى المساجد - حتى فى رمضان - وكلف البنك المركزى بأخذ الموافقة على كل التحويلات المالية من الجمعيات الخيرية إلى الخارج[21].

ومن المنظمات التى عانت كثيرا من كل هذه الإجراءات سواء فى بلدان منشئها أو فى الخارج مؤسسة الحرمين الخيرية ومنظمة النجدة العالمية ومنظمة الأرض المقدسة والمنظمة الخيرية الدولية (والثلاث الأخيرة جمدت أصولها فترة) فى الولايات المتحدة، وجمعية قطر الخيرية ومؤسسة الندوة العالمية للشباب الإسلامى وهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية (الأخيرتان سعوديتان وتساءل عنهما الكونجرس الأمريكى) وجمعية إحياء التراث الإسلامى (مجموعة سلفية كويتية) وفى باكستان جمعية الرشيد وحركة المجاهدين (حركة ميليشيات إسلامية لتحرير كشمير). وعدد من هذه المنظمات فى واقع الأمر ليست أهلية وخاصة الخليجية منها والمرتبطة بعلاقات وثيقة مع الحكومة. وعلى سبيل المثال كان وزير الشئون الإسلامية السعودى صالح آل الشيخ هو رئيس مجلس إدارة مؤسسة الحرمين ورئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامى. بينما تلقت هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية (المنظمة الإنسانية لرابطة العالم الإسلامى ومقرها جدة والتى أنشئت فى عام ١٩٦٢ لمواجهة المد القومى) أكثر من ١٣٣٠ مليون دولار من الحكومة السعودية منذ نشأتها[22].

ولكن نفس هذه الحكومات وغيرها انتهزت الفرصة لتصفية الحسابات مع منظمات أهلية تتبع حركات سياسية إسلامية وضيقت الخناق عليها.

وأسست الأمم المتحدة بمقتضى قرار مجلس الأمن ١٢٦٧ لجنة لمكافحة الإرهاب تدرج المنظمات والأفراد المتهمين بالإرهاب على قائمة تجرى مراجعتها دورياً. وتوجد عشر منظمات إسلامية على هذه القائمة منها جمعية إحياء التراث الإسلامى (كويتية) ومؤسسة الحرمين (سعودية).

وتتراوح ردود فعل المنظمات الإسلامية على هذه التضييقات ومنها من يرى أثرا إيجابياً غير مباشر مثل البنا حيث يرى أن أحداث ١١ سبتمبر أثرت على «العديد من المنظمات الإسلامية بالفعل... و(لكننا) تغلبنا على موجة الشكوك وأثبتنا روحنا الإنسانية الحقيقية التى أعطت لمنظمة الاغاثة الإسلامية مصداقية فى عملها بين المنظمات الدولية الأخرى».

ولكن عدداً من النشطين ينظرون إلى هذه الاجراءات على أنها كانت استهدافا مقصوداً. ويقول الوهيبى الذى يدير الندوة العالمية للشباب الإسلامى أن ما حدث كان «تحاملاً مقصوداً ضد المنظمات الخيرية الإسلامية العاملة فى مجال الإغاثة» رغم أنه يقر أن «تلك المؤسسات لا تسلم من النقص والقصور فى بعض الجوانب التى تحتمل أخطاء البشر وتجاوزاتهم». ويشتد الغضب عند السلومى الذى يقول إن عديداً من المنظمات الإسلامية تشعر أنها مستهدفة «فى إطار حملة ضد الإسلام وضد عملها وأن هذه التضييقات واستهدافها فى المراقبة الدائمة بشكل يخيف الناس منها ويبعد المتطوعين عنها ويصرف التبرعات إلى غيرها... (وهذه الحملة) تدخل ضمن هذا الإطار الاستراتيجى العالمى الجديد.. (الذى) يعتبر الإسلام ومؤسساته من فصيلة المنافسين الجدد وخارج نطاق السيطرة كما تصفها أمريكا.. (فهذه المؤسسات) بأجندتها الأخلاقية الإسلامية واستقلاليتها المالية والفكرية تشكل عنصرا قوياً فى ميدان المنافسة والندية للمتعصبين من الغرب أفراداً ومؤسسات ودولاً»[23].

ومن تجميد الأموال والمنظمات إلى ملاحقة الأفراد لم تبرز فى النهاية كثير من الاتهامات الموثقة وبرأت ساحة معظم المنظمات وإن كان من ما تعرضت له أدى إلى توقف بعضها وخاصة الصغير منها عن العمل تقريباً مما يدفع معلقاً مثل السلومى إلى القول أن هذه القرارات والإجراءات المالية: «لا يمكن أن تحقق الهدف المعلن وهو قطع تمويل الإرهاب لكنها تحقق الإفلاس المالى للمؤسسات الخيرية الإسلامية والانصراف عن مواقع العمل الإنسانى والانشغال بالدفاع عن النفس».



يتعين على أى باحث يريد التحليل وليس التبرير أو تقديم التوصيات أن يقر أن الإشكالية ليست فى وجود طابع - غرض دينى أو مذهبى أو سياسى - للمساعدات الإنسانية ولكن فى محاولة التغاضى والتعامى عن وجود هذه التأثيرات وأحيانا تبريرها أو الاعتراض عليها بصورة انتقائية كما يعتقد بعض المعلقين أنه يحدث الآن للجماعات ذات الصبغة الإسلامية فى ميدان العمل الإنسانى. فمن الخطأ استبعاد النوايا الأخلاقية - بما فيها الدافع الدينى - من منظومة تفسير العمل الإنسانى الحديث، كما أنه من الخطأ أيضاً استبعاد المصالح السياسية والاقتصادية والثقافية المحيطة بنشأة هذه المنظمات وممارساتها الراهنة وعلاقاتها مع الدول المانحة. ويضاف إلى هاتين المجموعتين من العوامل المصالح البيروقراطية لمؤسسات الإغاثة الضخمة المعنية إلى درجة ما بالحفاظ على وجودها وتوسيع نطاق عملها.

تتقاطع كل هذه المجموعات الثلاث من العوامل وتدفع لتسييس العمل الإنسانى بمعنى إدخال اعتبارات كثيرة مضمرة وربما أحيانا غير واعية فى تخطيط وتنفيذ وتمويل المساعدات الإنسانية. ولذا فإن السعى الدائم من جانب عديد من الباحثين والنشطاء والمنظمات الإنسانية نفسها من أجل تبنى سياسات تدعم الحيدة والاستقلالية والنزاهة وتعلى المبادئ الإنسانية هو سعى مهم من أجل الوقاية إلى أقصى حد ممكن واقعيا من أخطار ومغبات التسييس. بيد أنه على الجميع إدراك أن الهدف النهائى ليس إخراج السياسة من ميدان المساعدات الإنسانية تماما لأنه أمر مستحيل بل تحقيق مزيد من الشفافية والوعى بآليات العمل الإنسانى ومحدداته وأوجه قصوره.

ويبقى التكهن بمستقبل وتطور منظمات العمل الإنسانى الإسلامية صعباً ولكن هناك ثلاثة احتمالات عريضة: تبنى المرجعيات الكونية العلمانية فى الأداء وليس فى الدوافع مثلما قام بعضها بالفعل (الإغاثة الإسلامية مثلاً) أو الإصرار على الخصوصية الثقافية والدينية وبالتالى المرجعية الدينية فى الدوافع والأداء مما يترتب عليه استمرار العلاقة الوثيقة بالنشاط الدعوى وربما السياسى أيضا، وثالثاً وأخيراً أن تحتل المنظمات الإغاثية الإسلامية موقعاً ما فى المنتصف يغيب فيه البعد السياسى (والجهادى) بينما يشحب البعد الدعوى إلى حد ما. وفى كل هذه السيناريوهات سيظل الإسلام مرجعية أخلاقية إنسانية أدت إلى خلق وانتشار عمل إنسانى وخيرى منظم على نطاق ضخم منذ سنواته الأولى. فالصراع فى الحقيقة ليس على دور الإسلام فى نشأة هذه المنظمات بل على استغلاله فى مجال الإغاثة الإنسانية من أجل تحقيق أهداف سياسية أو دعوية مباشرة.

من التجميد.. إلى الملاحقة

هوامش:

١ . العمل الإنساني في هذا المقال يعني المساعدات الموجهة لتلبية الاحتياجات المادية الأساسية لضحايا النزاعات المسلحة والكوارث الطبيعية والفقر المدقع وتخفيف المعاناة وإنقاذ الأرواح. وبالمنظمات الإسلامية في هذا المقال أعني كل المنظمات الإغاثية التي تنطلق من دافع إسلامي معلن في القيام بعملها.

٢ . وأعتقد أن هذا نفسه الفاصل الذي يتعين على المنظمات الدينية (مسيحية أو يهودية أو منتمية إلى أي من الديانات الأخرى) بل والعلمانية أيضًا اتباعه من أجل الفصل الحديدي بين الدوافع الأيديولوجية أو السياسية والاقتصادية من جهة وتقديم المساعدات الإنسانية لضحايا الكوارث الطبيعية والنزاعات والفقر من ناحية أخرى.

٣ . عاد البعد الديني المسيحي للبروز بقوة على الساحة الأمريكية والدولية مع تنامي التحالف بين الإدارات الجمهورية الأمريكية واليمين المسيحي.

٤ . السلومي، مرجع سابق، ص ٢٠٩ .

٥ . De Waal, Alex, 1997, "Famine Crimes: Politics & the disaster Relief Industry in Africa," Indianapolis: Indiana University Press, pp ٧٩.

٦ . عامر الزمالي، «العمل الخيري في الإسلام»، الإنساني، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، القاهرة، عدد صيف ٢٠٠٦ (ص ٢٤ -٢٦).

٧ . للاطلاع على تحليلات ثاقبة لدور المنظمات الإنسانية الإسلامية على الصعيد الوطني انظر كتاب جوناثان بنتال وجيروم بويون جوردان «هلال الخير» Charitable Crescent وكتاب مها عبد الرحمن «كشف المجتمع المدني» Civil Society exposed في ثبت المراجع.

٨ ـ من المنظمات المهمة في دعم الأفغان والمجاهدين لجنة دعم أفغانستان برعاية حاكم الرياض الأمير سلمان وهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية التابعة لرابطة العالم الإسلامي ولجنة الإغاثة الإسلامية التابعة لنقابة الأطباء المصرية ولجنة الدعوة الإسلامية التابعة لجماعة الإصلاح الاجتماعي الكويتية. والأخيرتان ارتبطتا إلى حد كبير بجماعة الإخوان المسلمين.

٩ . المنظمات الإسلامية الإنسانية الدولية التي برزت في هذا المجال كانت هيئة الإغاثة الإسلامية الأفريقية ونشأت في السودان عام ١٩٨١، وهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية ونشأت في جدة من قلب رابطة العالم الإسلامي في ١٩٧٩، ثم عديد من المنظمات الصغيرة التي عملت في أفغانستان ومع اللاجئين الأفغان في شمال غرب باكستان.

١٠ ـ حسن يوسف، «ماهية العمل الخيري»، الإنساني، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، صيف ٢٠٠٦، (ص. ٣٠-٣٢) ويعمل يوسف مديرا إداريا للجمعية الإسلامية بالبحرين

١١ . هشام نشابه، «المقاصد الخيرية الإسلامية: كل إنسان ولكل الإنسان»، الإنساني، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، القاهرة، عدد صيف ٢٠٠٦ . (ص ٣٦ - ٣٧).

١٢ . هاني البنا، « الإغاثة الإسلامية: تقديم المساعدة بغض النظر عن الدين أو العرق أو الثقافة»، الإنساني، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، القاهرة، عدد صيف ٢٠٠٦، (ص ٣٨-٣٩) وموقع منظمة الإغاثة الإسلامية لمزيد من التفاصيل http://www.islamic-relief.com/

١٣ . Benthal and Bellion-Jourdan, op. cit., pp ٧٠.

١٤ . Benthal and Bellion-Jourdan, op. cit., pp ٧٥

١٥ . يوسف، مرجع سابق، ص ٣٢ .

١٦ . هاني البنا، مرجع سابق، ص ٣٩ .

١٧ . http://www.humanitarianforum.org

١٨ . محمد بن عبدالله السلومي. ٢٠٠٥ . «ضحايا بريئة للحرب العالمية على الإرهاب». كتاب البيان: مجلة البيان، ص. ٧ .

١٩ . صالح بن سليمان الوهيبي، «المنظمات الخيرية الإسلامية بعد أحداث ١١ سبتمبر»، الإنساني، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، صيف٢٠٠٦ (ص ٢٧-٢٩). والوهيبي هو الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي بالمملكة العربية السعودية http://www.wamy.org

٢٠ . السلومي، مرجع سابق، ص ٨٨ .

٢١ . نفس المرجع، ص ٧٦- ٨٤ .

٢٢ . السلومي، مرجع سابق، ص ١٩٩ .

٢٣ . السلومي، مرجع سابق. ص. ٢٣ .

من اهم الكتب الصادرة عن منظمات العمل الإنساني الأهلية الإسلامية

Alterman, John (with Shireen Hunter and Ann L. Philips), 2005, "The Idea and Practice of Philanthropy in the Muslim World," Washington: USAID, Issue Paper No ٥.

Benthall, Jonathan and Bellion-Jourdan, Jerome. 2003. "The Charitable Crescent: Politics of Aid in the Muslim World", New York and London: I.B. Tauris

De Waal, Alex, ed. 2004. "Islamism and its Enemies in the Horn of Africa". Shama Books: Addis Ababa

Ghandour, Abdel-Rahaman, 2002, "Jihad humanitaire : Enquête sur les ONG islamiques", Paris: Flammarion

Abdel Rahman, Maha, 2005, "Civil Society Exposed: The Politics of NGOs in Egypt", New York: Tauris Academic Studies

محمد بن عبدالله السلومي. ٢٠٠٥ . «ضحايا بريئة للحرب العالمية على الإرهاب». كتاب البيان: مجلة البيان

ومن الدراسات النظرية الجيدة حول العلاقة بين السياسة والتنمية والاغاثة:

Escobar, Arturo, 1995, "Encountering Development: The making and Unmaking of the Third World", Princeton: Princeton University Press

Middleton, Neil and O'Keefe, Phil, 1998, "Disaster and Development: The Politics of Humanitarian Aid," London: Pluto Press

Rist, Gilbert, 1997 , "The History of Development: From Western Origins to Global Faith," London: Zed Books.



مرثيات محمود درويش

الساخر من كل شيء*

الآن وأنت مسجى على صوتك، ونحن من حولك، رجوع الصدى من أقاصيك إليك. الآن لا نأخذك إلى أي منفى، ولا تأخذنا إلى أي وطن. ففي هذه الأرض من المعاني والجروح ما يجعل الإنسان قديسًا منذ لحظة الولادة، وشهيدًا حيًا مضرجًا بشقائق النعمان من الوريد إلى الوريد.

كان لي موعد معك. هنا في ناصرة البشارة والإشارة، فانتعلتُ قلبي وحملت هواجسي في يدي: هل أصل هذه المرة إلى جنة الجحيم هذه؟! أم سيعلمني السراب ثانية أن للأرض أرضًا أخرى قريبة منها وبعيدة؟ ولم تكن أنت ذريعة للنداء. كنت العناق البعيد. أما كان في وسعي أن أجد الاثنين، دليلي وسبيلي؟! أم أن المصائر اعتادت على لعبة الحضور والغياب! على إيقاظ القلب من سكرته: لا تحلم بما لا تستحق. فليس هذا اللقاء سوى وداع. مَن يودع مَن، أيها الساحر الساخر من كل شيء؟ ومن وقفتي هذه بالذات؟ فها أنذا أراك تغمز المشهد بنظرتك الشقية، لا لشيء إلا لأنك تعرف نفسك وتعرفنا واحدًا واحدًا منذ أقدم الفاتحين حتى آخر العائدين. وتعرف أن الذات، لا الموضوع، هي ما يجعل المرء يركض من المهد إلى اللحد بحثًا عن ذاته التي لا تجد ذاتها، إلا إذا امتلأت بخارجها. وكم كابدت في هذه الرحلة. كم كابدت كي تجد الأدب هناك في تلك المنطقة المتوترة من السؤال. فكنت كما تريد أن تكون وكما لا تريد. وحيدًا في زحامك ومزدحمًا في وحدتك. ولكن حدود الكون كانت واضحة فيك من غير سوء. هنا على الأرض القديمة الصغيرة يجرى الحوار بين الواقعي والخرافي، بين الزمني والروحي، بين النسبي والمطلق، بين الزائل والدائم، بين الحق والباطل، بين الحرب والسلام. وهنا.. هنا البداية وهنا النهاية.

---

* ألقيت هذه الكلمة في حفل تأبين إميل حبيبي في الناصرة في ١٩٩٦/٥/٣

■ لم أكن أنا المتسبب فى أول حادث. فقد استأجرت سيارة فولكس فاجن جيتا وذهبت إلى بيتى الريفى فى سانشا، وهى قرية تقع إلى الشمال من بكين. أوقفت السيارة عند نهاية الطريق، حيث يتسع الرصف ليصبح قطعة أرض فضاء. ومن المستحيل قيادة السيارة داخل سانشا؛ فهى قد بُنيت، شأنها شأن القرى الصينية كافةً، قبل أن يكون لدى أى شخص سيارة، وتربط المنازل ببعضها ممرات ضيقة للمشاة.

بعد ساعة تقريبًا من وصولى طلب منى جارى نقل السيارة من مكانها، ذلك أن أهل القرية سيقومون بخلط الأسمنت على تلك الأرض. وفى ذلك اليوم كنت أنا وزوجتى ليزلى جالسين على جهازى الكمبيوتر نحاول الكتابة.

قال جارى: «يمكننى نقلها إذا أردت».

شاحنات التحرير فحسب. لقد كانت مستوية فى المقدمة».

كنت قد أوقفت الجيتا موازية لأحد الجدران، وأعادها هو للخلف وأدار عجلة القيادة دورة حادة، دون أن يدرك أن المقدمة تميل فى الاتجاه المعاكس. نزلت على ركبتى لأتفقد الصدام. لقد انثنى بشدة.

أتيت بقطعة من السلك وربطت الصدام فى المقدمة. عرض مراراً دفع ثمنه، ولكنى قلت له ألا يشغل باله؛ فأنا أتعامل مع شركة لتأجير السيارات. فى اليوم التالى انطلقت لأعيد السيارة.



قيادة السيارة أمر أتعامل معه بجدية شديدة. عندما أكملت السادسة

الصفراء، أو بسبب تعديلات بسيطة عند الوقوف بمحاذاة الرصيف. وكانت هنا شائعات بأن أى صبى يبدى ثقة ملحوظة سوف يرسب. فإذا كنت تعتقد أنه مقدر لك أن تأخذ الرخصة فسوف يثبت الناس الذين فى الكنيسة الميثودية بجادة ويلكز العكس. أديت الاختبار فى سيارة الأسرة الدودج كارافان، وبعد ذلك ألقى علىَّ الممتحن خطبة جادة بدأت بعبارة «إنك محظوظ لأننا لم نقوِّمك تقويماً محترفًا»، وانتهت بـ«أتمنى ألا أراك فى المستشفى فى يوم من الأيام». فيما بين هذين التعليقين، اعترف الرجل بأننى اجتزت الاختبار «على الحركرك»، وهذا هو ما حدث. لم يكن هناك مَطْهَر فى قسم المركبات. فأنت إما أن ترسب أو تنجح، ويعنى النجاح أنك ما دمت تتحاشى المشاكل واحتفظت

تحريريًا، ولكن فى عام ٢٠٠١، عندما تقدمت للحصول على رخصة قيادة، كان علىَّ اجتياز اختبار طريق خاص بالأجانب. كان الممتحن فى منتصف العقد الخامس وكان يرتدى قفازات قيادة قطنية بيضاء وعلى أصابعه بقع تبغ. أشعل سيجارة ماركة جبل الباجودا الأحمر بمجرد دخوله السيارة. كانت سيارة فولكس فاجن سانتانا، وهى أكثر سيارات الركوب شعبية فى البلاد حينذاك.

قال الرجل: «شغل المحرك». أدرت المفتاح. فقال: «تحرك للأمام».

كنا فى شمال المدينة، فى منطقة خالية من كل أشكال المرور. فلا سيارات، ولا دراجات، ولا مشاة. كان أكثر الشوارع التى رأيتها هدوءًا فى العاصمة، وليتنى استمتعت به. ولكن بعد خمسين ياردة

عجلات الحظ... الجمهورية

بيتر هسلر

هذا الجار اسمه وى زيقى، وكان قد أكمل دورة تعليم قيادة السيارة وحصل على رخصته. وكان ذلك هو أشجع إنجازاته. ذلك أنه أحد أول أبناء القرية الذين تعلموا قيادة السيارات. ناولته المفاتيح وعدت إلى الكمبيوتر. وبعد نصف ساعة عاد ووقف ساكنًا عند الباب. سألته إن كان كل شىء على ما يُرام.

قال ببطء: «هناك مشكلة بالنسبة للسيارة». كان مبتسمًا، ولكنها كانت ابتسامة صينية ضيقة من ذلك النوع من التعبير الذى يجعل نبضك يتسارع.

قلت: «ما نوع المشكلة؟»

«أظن أن عليك أن تأتى لتراها».

فى الأرض الفضاء كان هناك قرويان يحملقان فى السيارة: كانا يبتسمان كذلك. كان صدام السيارة الأمامى قد سقط تمامًا. كان ملقى على الطريق وكانت الشبكة كأنها طفل فغر فاه وقد فقد ثلاثًا من أسنانه ولا يمكنه الكف عن الابتسام. لِمَ يَبْدُ الكل تلك السعادة اللعينة؟

قال وى زيقى: «لقد نسيت أمر المقدمة».

سألته: «ماذا تعنى بذلك؟»

قال: «لم أتعود على قيادة شىء له طرف أمامى. أثناء الدورة كنا نقود

بترتيب مع مجلة:
The New Yorker الأمريكية

ترجمة: أحمد محمود



الصين لا يوجد فيها بعد الكثير من السائقين. هناك فقط ثمان وعشرون سيارة لكل ألف شخص، وهو تقريبًا نفس معدل الولايات المتحدة فى عام ١٩١٥



عشرة قيل لى إن التعامل مع السيارة ميزة ومسئولية، ومازلت أضطرب عند التفكير فى اليوم الذى أوصلتنى فيه أمى بالسيارة إلى الكنيسة الميثودية الموحدة فى جادة ويلكز فى كولومبيا بولاية ميزورى لأداء أول اختبار للقيادة. كان قسم المركبات بالولاية قد استأجر مساحة فى المبنى، وبدأ الاختبار وانتهى فى ساحة الانتظار التابعة للكنيسة. وفى وسط ميزورى كان معروفًا إلى حد كبير أنه عندما يتعلق الأمر بالحكم على الذكور الذين فى السادسة عشرة كان قسم المركبات أشد من الميثوديين. فقد كانوا يرسِّبون الأولاد لعدم مراجعة النقطة العمياء، أو لتجاوز الإشارة

بأوراقك، فلن تُضطر لأداء اختبار قيادة آخر فى ولاية ميزورى.

بعد انتقالى إلى بكين أدهشنى أن رخصة ميزورى لها بعض الصلاحية فى الجمهورية الشعبية. فقد كانت البلاد فى المراحل الأولى من انتعاش السيارات؛ وتسجل بكين وحدها يوميًا حوالى ألف سائق جديد. ومطلوب من كل المتقدمين الصينيين للحصول على رخصة قيادة إجراء كشف طبى، واجتياز اختبار تحريرى، واستكمال دورة فنية، ثم النجاح فى اختبارين للقيادة. ولكن العملية تكون مختصرة بالنسبة لأى أجنبى مُجاز بالفعل فى بلده. وهذه الأيام يؤدى السائق من الخارج اختبارًا

تحدث الممتحن ثانيةً. قال: «توقف. أوقف المحرك».

سكتت السانتانا: ملأ الرجل استمارات، وكان قلمه يتحرك بكفاءة. وكانت سيجارته ماركة جبل باجودا الأحمر قد احترقت حتى طرف الفلتر. قلت: «هل هذا هو كل شىء؟».

قال الرجل: «هذا هو». سألنى إن كنت قد تعلمت اللغة الصينية، ودردشنا لبعض الوقت. وكان أحد آخر الأشياء التى قالها لى: «إنك سائق جيد جداً».

فى ذلك الصيف بدأت أستأجر سيارات من شركة فى جنوب شرق بكين. كانت صناعة تأجير السيارة جديدة: فقبل ذلك بخمس سنوات لم يكن أحد تقريبًا فى العاصمة يفكر فى تأجير سيارة للقيام برحلة فى عطلة نهاية الأسبوع. ولكن الآن يوجد لدى شركتى المحلية أسطول يضم حوالى خمسين مركبة، معظمها سيارة صينية الصنع من ماركة سانتانا. وعادةً ما كنت أستأجر سيارة جيتا تكلفنى خمسة وعشرين دولارًا فى اليوم وتنطوى على كميات كبيرة من الأوراق. وكان أكثر أجزاء العملية تعقيداً إجراء مسح للأجزاء الخارجية من السيارة بقيادة أحد الموظفين الذى يسجل النقرات والخدوش على رسم معه. وهذا الفحص يستغرق بعض الوقت فى الغالب. والجيتا سيارة صغيرة، ولكن مرور بكين هو الذى كان يشكِّل معظم الصورة المحدودة. وبعد توثيق الأضرار يدير الموظف مفتاح تشغيل المحرك ويرينى مؤشر البنزين. فى بعض الأحيان يكون خزان الوقود

ممتلئاً لنصفه، وأحياناً يكون ممتلئاً لربعه. وكان فى بعض الأحيان يدرسه ويعلن: «ثلاثة أثمان». وكانت مسئوليتى أن أعيد السيارة بكمية الوقود نفسها بالضبط. وفى أحد الأيام قررت تقديم إسهام للصناعة الوليدة.

قلت: «ينبغى لكم تأجير السيارات وخزان الوقود ممتلئ بالكامل، ثم تطلبون من الزبون إرجاع السيارة والخزان ممتلئ بالكامل. هذا ما تفعله شركات تأجير السيارات فى أمريكا».

رد علىَّ الموظف الذى يتولى باستمرار تأجير السيارات لى وسأدعوه من الآن مستر ليو بقوله: «هذا لن يصلح هنا». كان رجلاً ضخم الجسم تدلى شعره الذى خف متفرقًا على جبهة عريضة. وكان يبدو باستمرار فى حالة مزاجية جيدة. كان يجلس مع رجلين آخرين فى مكتب الاستقبال، وكانوا يدخنون السجائر وكأنهم فى مسابقة للتدخين. وكانت الغرفة مليئة بالدخان على نحو يجعل من الصعب علىَّ قراءة لوحة تقويم الشركة المعلقة على الجدار:

تقدير رضا الزبائن: ٩٠٪

تقدير الكفاءة: ٩٧٪

تقدير لغة الخدمة المناسبة ٩٨٪

تقدير وضع الخدمة ٩٩٪

واصل مستر ليو كلامه قائلاً: «هذا يصلح فى أمريكا ولن يصلح هنا. سيعيد الناس فى الصين السيارة فارغة».

قلت له: «حينئذ تطلبون منهم مبلغاً إضافياً لإعادة ملئها».

قال مستر ليو وهو يضحك، بينما أومأ الرجلان الآخران: «إنك لا تفهم الشعب الصينى!» كثيراً ما سمعت كأجنبى هذه العبارة، وكانت طريقة لإنهاء النقاش. فقد اخترع الشعب الصينى البوصلة والحرير والورق والبارود والسيزموسكوب (كشاف الزلازل)، وأبحروا إلى أفريقيا فى القرن الخامس عشر، وبنوا سور الصين العظيم، وفى العقد الماضى وسعوا اقتصادهم بمعدل لم يحدث من قبل العالم النامى. وبإمكانهم إعادة السيارة المستأجرة بثلاثة أثمان سعة خزان الوقود. ولكن من الواضح أن ملء الخزان يتجاوز إمكانياتهم. وأخيراً توقفت عن الكلام فى هذا الموضوع. فلم يكن هناك من سبيل للجدل مع شخص على هذا النحو من الود مثل مستر ليو.

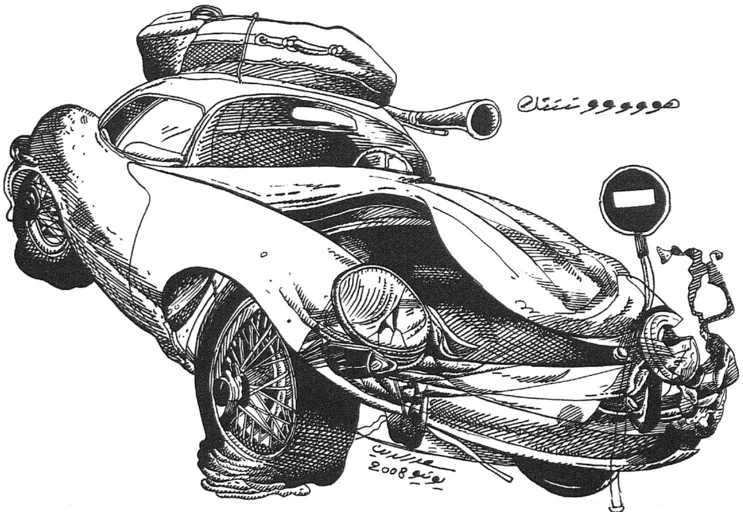
بدا مبتهجاً إلى حد كبير عندما أعدت الچيتا بالصدام المحطم. فى الماضى كنت أعيد السيارات بنقرات جديدة: فهذا أمر حتمى فى مدينة بها أكثر من مليونى سيارة يقود معظمها أشخاص حديثو عهد بقيادة السيارات. غير أنه لم يحدث قط أن أحدثت أى ضرر خطير، واتسعت عينا مستر ليو عندما رأى الچيتا. قال: «واه. كيف فعلت ذلك؟»

«لم أفعله». وصفت عدم خبرة وى زيقى مع السيارات ذات المقدمة وبدا مستر ليو مضطرباً؛ وكلما أفضت فى شرح هذا الموضوع كان تعبيره يزداد فراغاً. وفى النهاية تركت المقدمة. عرضت دفع ثم الصدام.

قال مستر ليو مبتسماً: «مى وينتى! ليست هناك مشكلة! لدينا تأمين! ليس مطلوباً منك إلا أن تكتب تقريراً عن الحادث. هل معك خاتمك؟»

أخبرت مستر ليو أن خاتمى. وهو خاتم رسمى مسجل فى وحدة عملى، وهى فى حالتى «ذا نيويوركر». فى البيت.

الشعبية تتعلم قيادة السيارات!



عجلات الحظ

«ليست هناك مشكلة! أحضره في المرة المقبلة». فتح درجًا وأخرج رزمة ورق؛ كانت جميعها خالية إلا من خاتم أحمر. قلب مستر ليو الرزمة واختار ورقة ووضعها أمامي. كان مكتوبًا على الخاتم «شركة الجرارات الأمريكية الصينية».

قلت: «ما هذا؟»

قال: «لا يهم. فقد وقع لهم حادث ولكن لم يكن معهم خاتمهم، ولذلك استعملوا خاتم آخرين. ثم أحضروا هذه الصفحة لتحل محلها. والآن يمكنك أن تكتب تقريرك على هذه الورقة وفي المرة المقبلة تحضر ورقة عليها خاتمك، وبذلك يمكن لشخص آخر أن يستعملها. هل فهمت؟».

لا؛ لم أفهم. اضطر لشرح هذا الترتيب ثلاث مرات. فهمت أن الصدام المحطم، الذي لا ذنب لي فيه، ولم يكن لوي زيقي إلى حد ما ذنب فيه بسبب المقدمة غير المتوقعة، سوف يلقى اللوم فيه على شركة الجرارات الأمريكية الصينية. وقال مستر ليو: «ولكن لا تقل إن ذلك حدث في الريف. فهذا أمر شديد التعقيد. بل قل فحسب إنه وقع لك حادث في ساحة الانتظار».

كتب نموذجًا للتقرير ونسخته ليزلي لأن خطها في اللغة الصينية أفضل من خطي. وقعت اسمي على خاتم الجرارات. وفي المرة التالية التي استأجرت فيها سيارة أخبرني مستر ليو أن التأمين غطى كل شيء. ولم يزعج نفسه بالسؤال عن خاتمي، وقررت أن ينتهي الموضوع عند هذا الحد. فأنا زبون قديم، كما يحب مستر ليو أن يقول.

عندما تعيش في الصين كأجنبي، هناك لحظتا اكتشاف مهمتان. تأتي الأولى فور وصولك، عندما تواجه بجهلك. اللغة والعادات والتاريخ. لابد من تعلم هذا كله؛ إلا أن المهمة تبدو شديدة الصعوبة. ثم عندما تبدأ التعلم، حيث تدرك أن كل شخص آخر يشعر إلى حد كبير بالشيء نفسه. ويتغير المكان بسرعة؛ فليس في الصين من يتمتع بترف ثقته بمعرفته. من الذي يبين للفلاح كيف يجد وظيفة في أحد المصانع؟ كيف يتعلم ماوي سابق إنشاء عمل تجاري ما؟ من لديه أدنى قدر من المعرفة عن كيفية إدارة وكالة تأجير سيارات؟ كل شيء يجري تحديده واكتشافه أثناء العمل؛ فالناس أساتذة في الارتجال. ولحظة التعرف الثانية مخيفة أكثر من الأولى. فإدراك جهلك إحساس فردي، إلا أن هناك بعض العزاء في مشاركتك لـ ١.٣ مليار جار في هذا الإحساس.

الأمر على الطريق مرعب إلى أقصى حد. فالصين لا يوجد فيها بعد الكثير من السائقين. هناك فقط ثمان وعشرون سيارة لكل ألف شخص، وهو تقريبًا نفس معدل الولايات المتحدة في عام ١٩١٥. ولكن تقرير منظمة الصحة الدولية لعام ٢٠٠٤ وجد أنه رغم وجود ٣ بالمائة فقط من مركبات العالم في الصين، فهي مسئولة عن واحد وعشرين بالمائة من الوفيات الناجمة عن حوادث المرور في العالم. وفي العام الماضي توفي تسعة وثمانون ألف شخص في حوادث مرور. إنها دولة من السائقين الجدد، والتحول من السرعة بحيث نجد أن الكثير من أنماط الطرق تأتي مباشرة من حياة المشاة. فالناس تقود السيارات بالطريقة نفسها التي تسير بها. فهم يحبون التنقل زرافات، ويقتربون بشدة من السيارات التي أمامهم إن أمكن. ونادرًا ما يستعملون الإشارات عند الدوران. وإذا فاتهم أحد المخارج على الطرق السريعة فإن يديرون رأسهم فحسب ويعودون بالسيارة للخلف ويصححون الأمر في المرة التالية. وبعد سنوات من الطوابير الطويلة، تعلم الصينيون اقتحام الطوابير؛ وهو الغريزة المفجعة في زحام المرور. وتتسم بوابات الرسوم بالخطورة للسبب نفسه. فنادرًا ما ينظر السائقون في مرايا الرؤية الخلفية التي تكشف لهم ما وراءهم، ربما لأنهم لا يستخدمون أبدًا هذه الأداة عند تنقلهم سيرًا على الأقدام أو على الدراجة. وتعتبر المسَّاحات تشويشًا، وكذلك الأنوار الأمامية.

الواقع أن استخدام الأنوار الأمامية كان محظورًا في بكين حتى منتصف الثمانينيات، عندما بدأ المسئولون الصينيون الذهاب إلى خارج البلاد بأعداد متزايدة. وقد شجعت الحكومات في أوروبا والولايات المتحدة تلك الرحلات أملاً في أن تشجع لمحات الديمقراطية تلك الزعماء الصينيين على إعادة النظر في سياساتهم. وفي عام ١٩٩٣ قام تشين شيتونج عمدة بكين بإحدى تلك الزيارات إلى نيويورك. وأثناء لقاءاته مع عمدة نيويورك إد كوخ، أبدى تشين ملاحظة مهمة: سائقو مانهاتن يضيئون أنوار سيارتهم الأمامية ليلاً. وعندما عاد تشين إلى الصين أعلن أن على سائقي المركبات في بكين القيام بعمل الشيء نفسه. وليس واضحًا ماهية الاستنتاجات السياسية التي توصل إليها تشين من مواجهاته مع الديمقراطية الأمريكية. فقد انتهى الحال بالرجل في السجن بتهمة الفساد. ولكنه على أقل تقدير أدى دوره بالنسبة لسلامة المرور. وبالرغم من ذلك هناك ما يكفي من الجدل بشأن استخدام الأنوار الأمامية بحيث تستحق سؤالاً في اختبار القيادة التحريري:

٢٦٨ - في المساء، ينبغي على السائق
(أ) إضاءة الأنوار المبهرة.
(ب) إضاءة الأنوار العادية.
(ج) إطفاء الأنوار.

ومؤخرًا، أحضرت كتيبًا تعليميًا من أجل الاختبار. وكان يتكون من أربعمائة وتسعة وعشرين سؤالاً اختياريًا ومائتين وستة وخمسين سؤالاً صح وخطأ يمكن أن يتضمن الاختبار أيًا منها. وغالبًا ما تصور هذه الأسئلة روح الطريق («صح أم خطأ: في التاكسي، هل يجوز حمل كمية صغيرة من المواد المتفجرة»)، ولكني لم أقتنع بأنها تساعد الناس على تعلم القيادة بشكل صحيح. إلا أنه بعد دراسة الكتيب بعناية أدركت أنه وصفي وليس توجيهيًا. فهو لا يعلم الناس كيف يقودون السيارات، بل يعلمك كيف يقود الناس السيارات:

٧٧ - عندما يتجاوز السائق سيارة أخرى، ينبغي أن يمر
(أ) على اليسار.
(ب) على اليمين.
(ج) من أي ناحية بناءً على الوضع.

٣٥٤ - إذا كنت تقود سيارتك في اتجاه بركة ماء كبيرة وكان هناك مشاة بجوار الماء، فإنه ينبغي عليك
(أ) زيادة سرعة السيارة.
(ب) تبطئة السيارة والتأكد من عدم طرطشة الماء عليهم.
(ج) مواصلة السير بالسرعة نفسها وسط بركة الماء.

٨٠ - إذا كنت تستعد لتجاوز سيارة، ولاحظت أنها تستدير ناحية اليسار، أو تستدير للخلف، أو تتجاوز مركبة أخرى، ينبغي عليك
(أ) تجاوزها من على اليمين.
(ب) عدم تجاوزها.
(ج) إطلاق بوق السيارة، وزيادة السرعة، وتجاوزها من على اليسار.

شمل العديد من الإجابات إطلاق بوق السيارة. وفي السيارات الصينية البوق عصبي في المقام الأول. فهو ينقل انعكاسات السائق. والناس يطلقون البوق باستمرار. وفي البداية كانت الأبواق جميعها متشابهة، ولكن بمرور الوقت تتعلم تمييز الفروق وتفسرها التفسير الصحيح. وبهذا المعنى يكون إطلاق البوق معقدًا كاللغة. فاللغة الصينية المنطوقة نغمية، وهو ما يعني أن كل مقطع يمكن أن تكون له معان مختلفة بناءً على كونه مسطحًا أو صاعدًا، أو ينخفض ويرتفع، أو يهبط بحدة. وبالمثل فإن البوق الصيني قادر على توصيل عشرة معان مميزة على الأقل. ذلك أن هووووونننننك القوية تعني لفت الانتباه. أما الصوت المزدوج. هووووننننك، هووووننننك. فيشير إلى الضيق. وهناك صوت طويل جداً هووووووو وننننننك

الناس تقود السيارات بالطريقة نفسها التي تسير بها. فهم يحبون التنقل زرافات، ويقتربون بشدة من السيارات التي أمامهم إن أمكن. ونادرًا ما يستعملون الإشارات عند الدوران



يعنى أن السائق «مزنوق» فى المرور، واستنفد خيارات الانسلال بين السيارات ويود أن يختفى كل من سواه على الطريق. ويثبت الرد عليه بـ هووووووووووون نننننننننننك أنهم لن يتحركوا من مكانهم. وهناك البوق هونك هونك هنك هنك هنك هنك هنك هنك هنك المتقطع الذى يمثل الذعر الخالص. وهناك الصوت الخاص بالفكرة الطارئة المتأخرة. وهو الذى يطلقه السائق الأرعن البطىء على نحو يمنعه من ضغط الزر قبل أن يحل الوضع نفسه. وهناك الصوت القصير البسيط الذى يقول «لا تزال يداى على عجلة القيادة، ومازال هذا البوق بمثابة امتداد لجهازى العصبى». ويمكن العثور على أصوات أخرى فى الاختبار:

٣٥٣ - عند المرور بجوار شخص مسن أو طفل، ينبغى أن

(أ) تهدئ السرعة وتتأكد من مرورك بأمان.

(ب) تستمر بالسرعة نفسها.

(ج) تطلق البوق كى تجعله ينتبه.

٢٦٩ - عند دخولك أحد الأنفاق، ينبغى أن

(أ) تطلق البوق وتزيد السرعة.

(ب) تهدئ السرعة وتضيء أنوارك.

(ج) تطلق البوق وتمضى بالسرعة نفسها.

٣٥٥ - عند قيادتك السيارة فى منطقة سكنية، ينبغى أن

(أ) تطلق البوق كالمعتاد.

(ب) تطلق البوق أكثر من المعتاد، كى تنبه السكان.

(ج) تتجنب إطلاق البوق كى تتحاشى إزعاج السكان.

لم يكن الحادث الثانى بسبب خطأ منى كذلك. كنت أقود السيارة فى الريف، وانطلق كلب من وراء أحد المنازل فى اتجاه سيارتى الجيتا. وهذه مشكلة عادية؛ فالكلاب، مثل كل شخص فى الصين، ليست معتادة على وجود السيارات حولها. غيرت اتجاهى بشكل حاد، ولكن الوقت كان قد فات، وارتطم الكلب بمقدمة السيارة. وعندما أعدت أنا وليزلى الجيتا كان الرجال الثلاثة يدخنون السجائر بجوار لوحة تقييم الشركة. لم يتغير أى من الأرقام خلال العام والنصف منذ حادثى الأول. فقد كان «تقدير لغة الخدمة المناسبة» ثابتًا عند ٩٨ بالمائة. تفقد مستر ليو الجيتا وأشار فرحًا إلى أن العطاء البلاستيك للإشارة اليمنى تحطم. وسأل عما ضربه.

قلت: «إنه كلب».

قال: «جوو مى وينتى؟ لم تحدث مشكلة للكلب، أليس كذلك؟».

قلت: «بلى. حدثت مشكلة للكلب. لقد مات».

ازداد حجم ابتسامة مستر ليو. «هل أكلته؟».

لم أتمكن من معرفة ما إذا كان مستر ليو يمزح أم لا. فهو نفسه يملك كلبًا، ورأيته يلعب مع حيوانه المدلل فى المكتب. أجبته قائلاً: «لم يكن ذلك النوع من الكلاب الذى يؤكل. كان واحدًا من تلك الكلاب الضئيلة الحجم».

قال: «أحيانًا إذا صدم سائق كلبًا كبيرًا يضعه على الفور فى شنطة السيارة، ويأخذه إلى البيت، ويطهوه». طلب منا اثنى عشر دولارًا ثمنًا لغطاء الإشارة اليمنى الجديد. فقد كان أصغر من أن يُطلب من شركة التأمين تغييره، ولم يكن هناك ما يدعو إلى استدعاء شركة الجرارات الأمريكية الصينية.

يجب على كل متقدم صينى للحصول على رخصة قيادة التسجيل فى إحدى الدورات المرخصة على حسابه الخاص، ولابد أن يقضى ثمانى وخمسين ساعة على الأقل فى التدريب. ويشير هذا إلى درجة عالية من المعايرة أو توحيد المقاييس، ولكن الكثير يتوقف على المدرب، الذى يسمى «چاوليان»، أو «الكوتش». وغالبًا ما يكون الكوتش قد وضع لنفسه نظرياته وخطط تدريبه، مثل أساتذة الفنون القتالية فى الماضى. كان كوتش وى زيقى يزدرى المركبات ذات المقدمة والشنطة، كما كان يجبر طلابه على المناورة فى الغيار الثانى. وكان يقول إن فى ذلك قدرًا أكبر من التحدى؛ فالغيار الأول يجعلهم كسالى. وكان لامرأة أخرى أعرفها كوتش يحظر استخدام إشارات الاستدارة، لأنها تربك السائقين الآخرين. وعندما أرادت ليزلى تعلم استخدام ناقل يدوى للحركة (فيتيس مانيوال) استأجرت كوتشًا خاصًا فى بكين. فى أول درس قدَّم الرجل نفسه وجلس على المقعد المجاور للسائق وعدَّل مرآة الرؤية الخلفية بحيث تواجهه.

سألته ليزلى: «كيف لى أن أرى ما يجرى خلفى؟».

قال الكوتش: «سأقول لك ماذا يجرى خلفك». كان مثل معلم الفنون القتالية الذى يغطى عينى تلميذه؛ فالثقة هى الخطوة الأولى نحو الإتقان.

ذهبت مؤخرًا لمشاهدة بعض الدورات فى مدرسة القيادة الأمنة العامة فى مدينة ليشوى الجنوبية الشرقية. وكانت ملكية السيارات الخاصة لا تزال منخفضة. كانت عشرون أسرة معيشية من بين كل ألف أسرة قد اشترت سيارة خلال الشهور الستة السابقة. ولكن ذلك كان ضعف معدل العام السابق، وكان اقتصاد المصانع الخاص بالمدينة يعيش انتعاشًا اقتصاديًا. وكانت مدرسة تعليم قيادة السيارات مزدحمة، وكانت الدورة تمر بثلاث مراحل: ساحة إيقاف السيارات، وساحة قيادة السيارة، والطريق.

بعد ظهر أحد الأيام كنت أشاهد ستة طلاب يبدأون يومهم الأول. بدأ مدرب اسمه الكوتش تانج برفع غطاء محرك سيارة سانتانا حمراء. أشار إلى المحرك والرادياتير والبطارية. وأراهم كيفية فك غطاء البنزين. وكان الباب هو التالى. فقد تدرب الطلاب على فتحه وإغلاقه. ثم عرفهم على العدادات والدواسات. التف الطلاب حول السانتانا بحذر وترقب متحسسين أجزاءها تحسس العميان للفيل. وأخيرًا، وبعد ساعة، سُمح لهم بدخول المركبة. جلس كل منهم فى مقعد السائق، حيث قاموا بعمل الغيارات من الأول إلى الخامس، بينما المحرك لا يعمل. جعلتنى مشاهدة ذلك أجفل، وبعد برهة قلت للكوتش تانج: «أليس ذلك ضارًا بالسيارة؟».

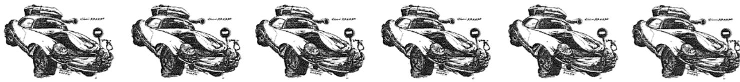
أجاب: «كلا، فلا بأس به».

فقلت: «أظن أنه قد يكون ضارًا إذا كان المحرك لا يعمل».

رد الكوتش تانج: «إنه لا بأس به تمامًا. نحن نفعل ذلك باستمرار». وفى الصين يحظى المعلمون من أى نوع بالاحترام فى العادة، فقررت ألا أنطق بكلمة. ولكن هذا لم يكن سهلاً باستمرار. ذلك أن الطلاب تعلموا فى الخطوة التالية كيفية استخدام الدبرياج عن طريق شد فرامل اليد وإدارة المحرك والغيار الأول، ثم رفع القدم عن الدبرياج مع الضغط على دواسة البنزين. وكان المحرك يئن تحت قوة الفرامل؛ وكان العزم يرفع مقدمة السيارة ويخفضها. وفى نهاية اليوم يمكنك قلى بيضة على غطاء محرك السانتانا، وبدا كفاى يعرقان فى كل مرة يدير فيها سائق آخر المحرك.

لم يكن مسموحًا لأحد بتشغيل المركبة حتى اليوم الثانى من الدورة. وكان هناك أربعة رجال وامرأتان وكانت أعمارهم جميعًا تقل عن الأربعين. وكان كل منهم قد دفع أكثر من ثلاثمائة دولار للدورة. وهو مبلغ كبير فى مدينة الحد الأدنى للأجور فيها حوالى خمسة وستون دولارًا. وكان شخص واحد ينتمى إلى أسرة تمتلك سيارة فى ذلك الوقت. وقال لى الآخرون إنهم يمكن أن يمتلكوا سيارة يومًا ما، وكان طلاب الجامعة. وهم أربعة .يعتقدون أن رخصة القيادة ستبدو جيدة على قائمة

كانت عشرون أسرة من بين كل ألف أسرة قد اشترت سيارة خلال الشهور الستة السابقة. ولكن ذلك كان ضعف معدل العام السابق



عجـــلات الحظ

مؤهلاتهم. فقد قال لى طالب اسمه وانج يانهنج: «إنه شىء يجب أن تعرف القيام به، كالسباحة. وفى المستقبل سيكون لدى أفراد كثيرين فى الصين سيارات». وكان هذا الطالب فى السنة قبل النهائية وتخصص فى تكنولوجيا المعلومات. أما الشخص الذى من بيت به سيارات (ثلاث) فكان فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها وتدرس علم الاجتماع ويمتلك والدها مصنعاً للبلاستيك. وعندما سألتها عما ينتجه المصنع مرت بإصبعها على المطاط المبطن لنافذة السانتانا. قالت: «هذا أحد الأشياء التى نصنعها».

أمضى الطلاب عشرة أيام فى ساحة إيقاف السيارات، وخلال ذلك الوقت أدوا على وجه الدقة ثلاث حركات: دورة بمقدار ٩٠ درجة فى مكان وقوف السيارة، والمناورة نفسها فى إرجاع السيارة للخلف، وإيقاف السيارة بموازاة الرصيف. وفى كل يوم، ولمدة ست ساعات، كانوا يتدربون على تلك الاستدارات مراراً وتكراراً. وكأى أستاذ فنون قتالية جيد، كان الكوتش تانج صارماً. إذ كان يصرخ حين يحك طالب فى أحد الأعمدة: «من المؤكد أنك نسيت مخك اليوم!»، وكان يصرخ فى وجه طالب آخر قائلاً: «لا تمسك عصا الفتيس بهذه الرخاوة. إنك إذا فعلت ذلك سوف يسبك أبوك!» وفى بعض الأحيان كان يضرب يد أحد الطلاب.

كانت الخطوة التالية ساحة التدريب على قيادة السيارة، حيث تزداد صعوبة اكتساب مجموعة المهارات. فقد كان مطلوباً من السائقين الوقوف على بعد خمسة وعشرين سنتيمتراً من خط مرسوم على الأرض، وكانوا يقودون السيارة عبر مسار من العوائق ذى انحناءات ضيقة. وكانت المهارة الأخيرة هى «الكوبرى ذو الكتلة الواحدة». وهو عبارة عن كتلة خرسانية ارتفاعها قدم ولا يزيد عرضها كثيراً على عرض إطار السيارة. وكان على الطلاب أن يتقنوا توجيه السيارة بحيث يكون الإطاران فوق كتلة الخرسانة. الإطاران اللذان على اليسار ثم اللذان على اليمين. وإذا انزلق أحد الإطارين رسب الطالب فى الاختبار. وكان الطلاب يمضون معظم أيامهم العشرة يتدربون على الكوبرى ذى الكتلة الواحدة، وسألت الكوتش عن سبب كونه بهذه الأهمية، فقال: «لأنه صعب جداً».

قلت: «بالفعل، وأنا أفهم ذلك. ولكن ما فائدته على الطريق؟».

قال: «إذا كنت تعبر جسراً به ثقب، وهناك مكان واحد فقط يمكن أن تسير عليه الإطارات، حينئذ يكون من المهم أن تكون قادراً على القيام بذلك».

لدى الصينيين خيالات قيادة رائعة. وكان الاختبار التحريرى زاخراً بمواقف كهذه. وكانت تبدو غير مرجحة بشكل يبعث على الضحك، ولكن مستوى التفاصيل كان مرتفعاً على نحو جعلنى أشك فى أنها حدثت لشخص ما فى مكان ما:

٢٧٩ - إذا تعطلت سيارتك فوق مزلقان السكك الحديدية، ينبغى عليك

(أ) تركها فى مكانها.

(ب) البحث عن طريقة لتحريكها على الفور.

(ج) تركها فى مكانها مؤقتاً إلى أن تستطيع الحصول على شخص يصلحها.

كانت الدورة تنتهى بقضاء أسبوع ونصف على الطريق. وقد صاحبت فصلاً آخر فى يومه الأخير. بينما كان الكوتش يجلس فى المقعد المجاور للسائق، كان الطلاب يدورون بالسيارة فى طريق ريفى ذى حارتين. وكانت هناك حركات معينة لابد لهم من القيام بها، وهى الوصول إلى الغيار الخامس، والنزول إلى الغيار الأول، والدوران للخلف، والتوقف عند إشارة مرور تحاكى الإشارات الحقيقية. وكان مطلوباً منهم إطلاق البوق حينما يتخطون سيارة أخرى، أو يستديرون، أو يواجهون أى شىء على الطريق. فقد كانوا يطلقون البوق على السيارات، والجرارات، والعربات الكارو. وكانوا يطلقون البوق على كل فرد من المشاة. وفى بعض الأحيان كانوا يمرون على سيارة أخرى من مدرسة تعليم القيادة، وحينذاك تطلق السيارات البوق بسعادة، كأنما يحيون صديقاً قديماً. وكان الفصل يتناول طعام الغداء وقت الظهيرة فى مطعم محلى، حيث كان الكل، بمن فيهم الكوتش، يشربون البيرة، ثم يواصلون القيادة. وقال لى أحد الطلاب أنه فى اليوم السابق سكروا واضطروا لإلغاء درس بعد الظهر.

على امتداد الدورة لم تكن هناك متغيرات، ولم يكن هناك تركيز على الاستجابة للمواقف. بل كان الطلاب يتعلمون ويتدربون على عدد صغير من الأجزاء المنفصلة التى يتم تجميعها وتطبيقها فيما بعد على القيادة الفعلية فى المدينة. وقد ذكرنى ذلك بالطريقة التى يتعلم بها تلاميذ المدارس الصينيون الكتابة: فهم يبدأون بجرات فرشاة معينة، وينسخونها مراراً وتكراراً، وبعد ذلك يجمعونها فى صورة حروف، وهى التى تُكتب مراراً كذلك. وفى الصين يعد التكرار حجر الزاوية فى التعليم، وبالفعل فإن كل مهارة جديدة تتم مقاربتها بهذا الأسلوب. وهذا هو أحد أسباب تحقيق الصينيين نجاحاً أكبر فى مصانع خطوط التجميع يزيد على ما حققوه فى الابتكار.

كما أنه يفسر الكثير من المشاكل المتعلقة بالقيادة فى الصين. وفى اليوم الأخير من الدورة رجانى أحد الطلاب أن أسمح له بالعودة بسيارتى المستأجرة إلى مكان التدريب على القيادة فى الطريق، من أجل المزيد من الممارسة. وفى لحظة من سوء الحكم الشديد وافقت وكانت تلك أكثر سبعة أميال رعباً عشتها فى الصين. فقد اضطررت للصراخ مرتين لمنعه من التجاوز دون أن يرى السيارات التى خلفه، ومرة أخرى سحبت عجلة القيادة لمنعه من الانحراف والاصطدام بإحدى السيارات. فهو لم ينظر قط فى مرآة الرؤية الخلفية، وكان يطلق البوق على كل شىء يتحرك. وكان عدم استخدام إشارات الدوران أقل مشاكلنا. وكان على بعد بوصات من الاصطدام بجرار واقف على جانب الطريق، وكاد أن يصطدم بجدار أسمنتى. وعندما وصلنا أخيراً إلى ساحة التدريب على قيادة السيارات كدت أجثو على ركبتى وأقبل الكوبرى ذا الكتلة الواحدة.

كثيراً ما كان الأجانب فى بكين يقولون لى: «لا أصدق أنك تقود سيارة فى هذا البلد». وهو ما كنت أرد عليه بقولى: «لا أصدق أنكم تركبون سيارات تاكسى وأتوبيسات يقودها خريجو دورات تعليم القيادة الصينية». وعلى الطريق كان الكل ضائعاً. ولكن الإحساس الأفضل هو أن تكون أنت الشخص الجالس وراء عجلة القيادة.



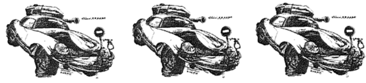
لم تكن لى علاقة بالحادث الثالث. بل إننى لم أكن أستطيع القيادة. فقد كُسرت صابونة ركبتى اليسرى، وكانت الجيتا التى استأجرناها ذات ناقل عادى للحركة. ومع أن ليزلى عملت تابعاً مغمض العينين لأستاذ قيادة السيارات المحلى، فهى لم تستطع الشعور بالراحة خلف عجلة القيادة، وطلبت منى ذات مساء مصاحبتها فى بعض المشاوير. جلست فى المقعد الخلفى، رافعاً ركبتى المكسورة مقدماً لها النصائح فى كل مرة تتعطل فيها. («دوسى بنزين!») كانت الدنيا تمطر ثلجاً؛ وكان المرور فى حالة سيئة؛ فقد قضينا ساعتين فى الدخول والخروج من المحال التجارية. وبعد آخر محل أدارت ليزلى المفتاح واندفعت الجيتا مباشرةً نحو جدار من الطوب.

قلت: «استخدمى الدبرياج».

كان هناك صوت سحق واضح، ولكننا لم نفحص السيارة؛ وفى ذلك الوقت كنا يائسين من العودة للبيت. بالقرب من معبد لاما حيث كنا ننتظر للقيام بعمل آخر دوران لليسار فى ذلك اليوم، صدمتنا سيارة أخرى. فقد عاد السائق بسيارته للخلف وصدم سيارتنا ثم تقدم للأمام.

نادراً ما ينظر السائقون فى مرايا الرؤية الخلفية التى تكشف لهم ما وراءهم، ربما لأنهم لا يستخدمون أبداً هذه الأداة عند تنقلهم سيراً على الأقدام أو على الدراجة. وتعتبر المساحات تشويشاً





عجلات الحظ

ولم يكن هناك وقت لأسير على عكازى، وأخذت أحجل على ساقى السليمة. ولحسن الحظ أن المرور توقف وأمسكت به بعد حوالى سبع وثبات. ضربت زجاج النافذة بيدى. «لقد صدمت سيارتى!».

نظر السائق مندهشاً: أجنبى يسير على ساق واحدة يحجل غاضباً ويضرب الزجاج. خرج من السيارة واعتذر قائلاً إنه لم يشعر بالصدمة. تفحصنا معاً الجيتا. كانت هناك نقرة حديثة أعلى الإطار اليسار الخلفى. قال الرجل: «سأعطيك مائة». وكان ذلك يساوى حوالى ثلاثين دولاراً.

فى الصين، عند حدوث حوادث صغيرة عادةً ما يسوى الناس المسألة فى الشارع نقداً. وأصبح هذا الروتين جزءاً قياسياً من الحياة. ذات مرة رأيت طفلين صغيرين يلعبان لعبة يصدمان فيها دراجتيهما مراراً ويصيحان «پاى قيان! پاى قيان!». «التعويض! التعويض!».

استخدمت ليزلى تليفونها المحمول للاتصال بشركة تأجير السيارات. لم يبد مستر ليو أدنى قدر من الاندهاش لسماعه أنه وقع لنا حادث آخر. كل ما قاله هو «اطلبوا مائتين».

قال السائق الآخر: «هذا كثير جداً. هذه نقرة بسيطة فى الواقع».

«هذا ليس قرارنا».

قال: «وهو كذلك. فلنتصل بالشرطة». ولكن من الواضح أنه لم يكن يريد أن يفعل ذلك. تجمع حوالى اثنى عشر من المارة حول السيارتين الواقفتين فى منتصف الشارع الذى تغطيه الثلوج. وفى الحوادث الصينية عادةً ما يكون الجمهور مُحَكِّماً أكثر منه متفرجاً، وانحنت امرأة فى منتصف العمر لفحص النقرة. واعتدلت ثم قالت: «مائة كافية».

قالت ليزلى: «ما علاقتك بالأمر. إنك حتى لا تقودين سيارة!».

لابد أن هذا كان صحيحاً، لأن المرأة سكتت ولم تنطق بكلمة. ولكن السائق رفض دفع مائتين. سألتنى ليزلى بالإنجليزية: «هل ينبغى لنا قبول مائة وخمسين؟» قال لاو تسو: الرجل الذى يقف على عكازين فى الثلج لن يساوم طويلاً على نقرة فى سيارة جيتا مستأجرة. أعادت ليزلى السيارة والمائة والخمسين نقداً. ولاحظ مستر ليو أن غطاء ضوء آخر قد كُسِر عندما صدمت ذلك الجدار من الطوب. قال بسعادة: «ماذا قتلتم هذه المرة؟» عندما صدمت الكلب كانت قيمة الغطاء نفسه اثنى عشر دولاراً، وهذه المرة لم يطلب سوى ثلاثة دولارات. لابد أنه كان سعراً خاصاً لأننا أحسنا صنعاً عند معبد لاما.



كان الحادث الرابع غلطتى بالكامل. وكان ذلك آخر يوم لى فى الصين، وآخر سيارة جيتا أقودها. فى صباح اليوم التالى كانت فى يدى تذكرة ذهاب فقط إلى هونولولو. فى طريقى لإعادة السيارة حُشِرتُ فى زحمة المرور الرهيبة، وكانت الأبواق المولولة تملأ الجو. كانت هناك أصوات أبواق تعنى «دعنى أخرج من هنا!». فى المقدمة شاهد سائق تاكسى فتحة تقدم منها وتبعته أنا. توقف هو ولم أتوقف.

خرجنا من السيارتين. ألقيت نظرة ثم تراجعت: نقرتان على الجانبين. قلت: «مائة».

فصرخ الرجل: «هل تمزح؟ هذه تتكلف مائتين على الأقل».

فجأة شعرت بتعب شديد. عشر سنوات فى الصين، وست سنوات قيادة، وأبواق أكثر من برج بابل. «دعنى أخرج من هنا!» تكلم الرجل غاضباً متحدثاً عن طول الوقت الذى يستغرقه إصلاح الصدام المنقور، ولكنى لم أفكر فى أى رد. قلت مرة أخرى «مائة».

تجمع الجمهور وبدأ سائق التاكسى يستميل المحكمين. كانت نقرة صعبة، وكان يعمل أياماً طويلة، وسوف يستغرق الإصلاح وقتاً. تقدمت امرأة عجوز ضئيلة الجسم ولمست ذراعه قائلةً بصوت منخفض: «خذ النقود». نظر السائق لأسفل إليها. من المؤكد أن طولها لم يزد على ١٥٠ سنتيمتراً. وصمت. لم ينطق بكلمة عندما أعطيته الورقة النقدية.

فى شركة تأجير السيارات مر مستر ليو بيده على النقرة وقال: «لا بأس».

قلت: «يسعدنى أن أدفع تكلفتها».

قال: «إنك زبون قديم. انس هذا الأمر». تصافحنا وتركته أمام مكتبه يدخن سيجارة تحت لافتة التأجير:

تقدير رضا الزبائن: ٩٠٪

تقدير الكفاءة: ٩٧٪

تقدير لغة الخدمة المناسبة ٩٨٪

تقدير وضع الخدمة ٩٩٪ ■

كتاب الزاوية



مرثيات محمود درويش

طريق العودة هى طريق المعرفة*

كُلُّ موت هو موت أوَّل. مفاجئ. صاعق. غير معروف وغير مألوف. لن نألف الحديث عن إبراهيم أبو لغد باستخدام فعل الماضى الناقص. فمازلنا معه، حوله، وهو يواصل البحث الحماسى عن حياة مختلفة فى ساحة هذه الزنزانة، عن حياة تتسع لحلم عادى، يحقق فيها الفرد والجماعة حرية الاختيار لطريقتهم الخاصة فى الإقامة على هذه الأرض.

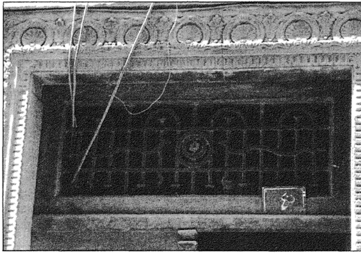
لقد أشاح بوجهه عن شبح الموت، وتابع التحديق إلى تفاصيل صورة غدنا. كان يعرف أننا لا نعرف أنه يعرف ما نعرف عن سَفَرِه القريب إلى المطلق المجهول. لكن كان، حتى اللحظة الأخيرة عاكفًا على العمل لوطنه الزمنى كأنه يعيش أبدًا، معنا، فينا، وفى الأجيال القادمة. لأن سؤال الحياة هو سؤاله الأبدى. ولأن فلسطينه ـ الواقعية والمتخيلة، هى صورة الجحيم والفردوس معًا. ولأن سدرة المنتهى تنمو فى مدينة يافا. رآها فى أول العمر. وفيما يُشبه تداعيات الخطيئة الأولى، وجد نفسه فى قافلة الترحيل الجماعى مُعَاقبًا بالطرد من الجنة، لا لأنه اقترب من شجرة المعرفة المحرمة، بل لأنه لم يقترب منها. فأدرك آدم الفتى أن طريق العودة، الفردية والجماعية، هى طريق المعرفة. من هنا تفتح وعى إبراهيم أبو لغد بحيوية البُعد التعليمى والثقافى فى الصراع المرير على استعادة الحق، الذى لم يُسلب بقوة السلاح وحده، بل بسلطة المعرفة التى وُظفت لبلورة الوعى الزائف المزيف لإفراغ الأرض الفلسطينية من أهلها ومن حقيقتها التاريخية، ولإبقاء السيف أقوى من الدم وأبلغ..

---

* ألقيت هذه الكلمة فى حفل تأبين المربى إبراهيم أبو لغد فى رام الله

شراعة تتميز بزخرفة الثعبان والهلال - حى القلعة.

أحد مداخل البيوت التى تجمع بين زخارف الثعبان على الباب وزخارف جصية على هيئة زخرفية تخرج منها عقود من الزهور - درب الجماميز - السيدة زينب ١٩٢٠م.



أحمـــــــــد عبدالجــــواد



أبواب بيوت القاهرة

ادخلوها بسلام آمنين



■■ فى نهاية حكم محمد على باشا (١٨٠٥ - ١٨٤٩م) قسمت القاهرة إلى ٨ أحياء أو ثمانية أثمان إدارية (مفردها الثُمن والذى نطقه أهل القاهرة بالتاء بدلاً من الثاء) وهى: الدرب الأحمر والجمالية وباب الشعرية وقوصون والخليفة ودرب الجماميز ثم عابدين والأزبكية. وشملت الضواحى أربعة أحياء وهى: مصر القديمة وبولاق وشبرا والوايلى. ويلاحظ أن ثمن الجمالية يقع بالجهة الشمالية ملاصقاً للسور ولبابى النصر والفتوح والتى بناها بدر الجمالى عام ٤٨٠- ١٠٨٧م أيام الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، ويقع ثُمن باب الشعرية بالجهة الغربية لأسوار بدر الجمالى. أما ثُمن الدرب الأحمر فيقع ملاصقاً لباب زويلة الذى بناه بدر الجمالى عام ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م والذى يقع فى الجهة الجنوبية للقاهرة الفاطمية. ويلاحظ أيضاً أن حى الخليفة وقوصون وهى المنطقة المعروفة الآن بشارع الصليبة القريبة من جامع أحمد بن طولون تعود إلى فترة أقدم وهى فترة إنشاء القطائع كعاصمة للدولة الطولونية عام ٢٥٤هـ / ٨٦٨م. أما منطقة مصر القديمة فتعود إلى فترة إنشاء مدينة الفسطاط أيام عمرو بن العاص عام ٢٠هـ / ٦٤٠م.

يمتد من حى الجمالية فى الشمال إلى بداية حى الدرب الأحمر فى الجنوب أى من بابى النصر والفتوح إلى باب زويلة طريق طويل يعرف بالقصبة ويعرف الآن بشارع المعز. وقد ظل هذا الطريق محور النشاط الاقتصادى والاجتماعى والسياسى لمصر حتى فترة محمد على والذى حرص كل الحكام حتى محمد على نفسه على أن يكون لهم أثر باق فيه وذكرى تخلد صاحبه. ويطل على جانبى القصبة التى تتفرع منها حارات وطرق عرضية تصل ما بين شرق وغرب السور واجهات العمائر الدينية كالجوامع والمنشآت الدنيوية كالمدارس والحمامات والأسبلة والقصور التى أقامها الخلفاء والسلاطين والملوك الذين تعاقبوا على حكم مصر. وتعد الأبواب جزءاً من مداخل هذه العمائر والمنشآت. وحيث كانت المداخل جزءاً لا يتجزأ من واجهات هذه العمائر فقد عكست هذه المداخل تطور الطراز المعمارى والزخرفى لهذه العمائر، ودور الأفكار والعقائد والمذاهب التى حكمت هذا التطور، ولا يقل عن ذلك أهمية دور كل من الصناع والحرفيين والفنانين الذين أسهموا فى إنجاز هذه المداخل، فقد مثل هؤلاء الحرفيون حلقة الوصل بين تلك الأفكار والمذاهب وبين الحركات الاجتماعية والسياسية التى سادت فى المجتمع القاهرة والمصرى فى الفترات المختلفة والتى عبروا عنها من خلال تلك الأساليب الفنية والمعمارية.

إن الناظر على مداخل العمائر الدينية والدنيوية على جانبى القصبة سوف يلاحظ أنه بجانب وظيفتها النفعية كمكان للمرور إلى الداخل فقد استخدمت من جانب الحكام كرموز سياسية ومذهبية.

فعلى يمين السالك شمالاً بالقصبة بمنطقة مرجوش يقع جامع الأقمر الذى بنى فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى عام ٥١٩ /١١٢٥ ويعكس مدخله الذى بنى من الأحجار وبابه ذو الضرفتين ذلك الطراز الفريد للزخارف الحجرية لجانبى الباب وأعلاه. فأعلى الباب على هيئة عقد مشع تقع داخله جامة (صرة) بها أدعية لآل البيت كتبت بالخط الكوفى. ويزين منطقة الطبان (وهى المنطقة التى تقع أعلى العقد) شريط كتابى بالخط الكوفى لآيات من القرآن الكريم، وهو الخط المميز للخلافة الفاطمية لمصر. وفى منتصف القصبة وعلى يمين المتجه شمالاً تقع مدرسة الملك الصالح نجم الدين أيوب التى أنشئت عام ٦٤١ / ١٢٤٣ ويزين مدخل المدرسة عقد منكسر يحتوى على مقرنصات وعلى أشرطة كتابية كتبت بالخط النسخ. إن هذا الانتقال من استخدام الخط الكوفى إلى خط النسخ يعكس دلالة هامة وهى الانتقال من المذهب الشيعى للخلافة الفاطمية إلى المذهب السنى للدولة الأيوبية.

على طول القصبة وعلى جانبيها الشرقى والغربى تنتشر المداخل والأبواب المميزة للعمائر الأخرى والتى تنتمى إلى فترة المماليك البحرية، مثل قبة وضريح السلطان المنصور قلاوون ٦٧٩ - ١٢٧٩ / ٦٨٩-١٢٩٠م وإلى فترة المماليك البرجية أو الجراكسة مثل مدرسة ومسجد السلطان برقوق التى أنشئت عام ٧٨٦- ١٣٨٤ / ٧٨٨-١٣٨٦م، والتى تنتمى إلى العصر العثمانى مثل سبيل وكتاب عبدالرحمن كتخدا ١١٥٧ - ١٧٤٤م.

تأثرت مداخل بيوت القاهرة السكنية بمداخل العمائر الدينية والدنيوية المختلفة التى انتشرت على جانبى القصبة على مر العصور، وقد نشأ عن ذلك طراز محلى سادت نماذجه فى بيوت الطبقة الوسطى وكذلك الطبقة العليا مثل بيت جمال الدين الذهبى بحوش قدم ١٠٤٧ - ١٦٣٧ وبيت السحيمى بالدرب الأصفر ١٠٥١ - ١٧٤٨، ويغلق المدخل المنكسر لهذه البيوت والذى يؤدى إلى الحوش، بباب من ضرفة واحدة من الخشب.

تبنى محمد على خلال فترة حكمه طرازاً آخر من العمارة يعرف بالعمارة الرومية وهو الطراز



Enter in Peace: The Doorways of Cairo Homes 1872 - 1950

ادخلوها بسلام - أبواب بيوت القاهرة ١٨٧٢-١٩٥٠

Ahmed Abdel-Gawad

The American University of Cairo Press



مدخل على الطراز المحلى لأحد البيوت بحى الخليفة (فترة القرن التاسع عشر)، حيث تظهر زخارف الجفت والميمة والتكوينات الدائرية بمنطقة التوشيحة، والمقرنصات بمنطقة الطبان.



مدخل على طراز العمارة الرومية، حيث تظهر زخارف «الجارلاند» يعود تاريخه إلى عام ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م، كما هو مبين على سرة الشراعة بحى بولاق.



أحد المداخل على طراز العمارة الإسلامية الجديدة بشارع ٢٦ يوليو (١٩٢١م).

الذى كان منتشراً باستنبول عاصمة الخلافة العثمانية ومناطق الأناضول مثل مدينة كوتاهيه، والولايات الأوروبية للدولة العثمانية مثل ألبانيا والبوسنة والهرسك. وقد بنى محمد على قصر شبرا وقصر الجوهرة، والمبانى الإدارية بالقلعة على هذا الطراز.

تميزت مداخل هذا الطراز المعمارى بثلاثة أشياء واضحة، وهى ظهور الشراعة المصنوعة من الحديد أعلى الباب كمصدر للإضاءة والتهوية. وظهور الزخارف الحجرية أو الجصية المعروفة باسم «الجارلاند» garland فى منطقة التوشيحة، ثم ظهور الأبواب ذات الضرفتين وذلك كما يبدو فى أقدم هذه البيوت والكائن فى ٥٠ شارع الخليفة الذى يرجع تاريخ بنائه إلى عام ١٢٦٣-١٨٤٦ .

أخذت الشراعة المصنوعة من الحديد شكل نصف الدائرة، وتتكون من أسياخ طويلة من الحديد المبروم تنتهى إما على هيئة رؤوس سهام أو رؤوس سهام تتبادل مع أهلة داخلها نجوم. وتوجد بالشراعة أفاريز أو شرائط نصف دائرية تحتوى على زخارف من أشكال مختلفة توصل ببعضها البعض عن طريق حلقات معدنية (أفيزات). وقد أبدع الحدادون خاصة فى منطقة بولاق أشكالاً عديدة وجميلة من هذه الشراعات، والتى يبدو بعضها كقطع الدانتيلا من وفرة ما بها من زخارف.

تخرج الأسياخ الحديدية عادة من مركز الشراعة والذى يعرف بالسرّة وهى عبارة عن نصف دائرة من الحديد أو النحاس يسجل عليه عادة تاريخ إنشاء المنزل، وهو تقليد ساد جميع البيوت التى أنشئت خلال تلك الفترة والذى اتبع التقليد القديم فى وضع اللوحات التأسيسية التى تحتوى على اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء على مداخل العمائر الدينية والدنيوية، وذلك كما يبدو فى اللوحة التأسيسية القائمة على مدخل مسجد سليمان أغا السلحدار بالقصبة ١٢٥٥ / ١٨٣٩. كان الشيء الثانى الذى ميز هذه المداخل هو ظهور أشكال زخرفية جديدة خاصة فى منطقة التوشيحة (وهى المنطقة المحصورة بين قوس عقد الباب ومنطقة الطبان والحافة الخارجية للمدخل) تعرف باسم الجارلاند وهى عبارة عن مجموعة من الزهور وأوراق النباتات والثمار على هيئة صحبة الورد. كما زخرفت التوشيحة بعدة أشكال عبارة عن فرع نباتى يحتوى على أوراق من الجانبين. هذا بجانب زخرفة الأرابيسك وقد استعملت الأحجار فى تنفيذ هذه الأشكال الزخرفية الوافدة، كما استخدم الجص كذلك. وفى هذه الحالة كان يتم عمل «فورمات» جاهزة لهذه الزخارف يتم تثبيتها بعد ذلك فى أماكنها.

تصارع مع طراز المداخل الرومية الطراز المحلى فى المداخل، والذى اعتمد على الدوائر أو أنصاف الدوائر بدلاً من أسياخ الحديد التى تخرج من مركز الشراعة. وفى هذا الطراز أيضا تسود وحدة زخرفية استمرت منذ العصر المملوكى وهى وحدة «الجفت والميمة وذلك فى زخرفة كامل المدخل مع استخدام



٩٩

«أبواب بيوت القاهرة»

التكوينات المستديرة البارزة فى منطقة التوشيحة، واستخدام المقرنصات خاصة فى منطقة الطبان. وقد استخدمت المقرنصات وهى أشكال على هيئة عش النحل، منذ العصر الفاطمى، أما كوحدة زخرفية أو وحدة معمارية.

ازداد عدد سكان مدينة القاهرة خلال فترة محمد على نتيجة لزيادة عدد السكان بصفة عامة، ونتيجة لازدياد أهمية المدينة نظراً إلى زيادة عدد الطبقة الإدارية الجديدة والتى كان من الضرورى أن تسكن العاصمة. وتشير الإحصاءات إلى زيادة عدد سكان مصر من ٤.٥ مليون عام ١٨٠٠ إلى ٥.٤ مليون عام ١٨٤٦، كما ارتفع عدد سكان القاهرة من ٢١٠.٩٦٠ عام ١٨٠٠ إلى ٥٦٥.٩٥٨ عام ١٨٤٩ فى أواخر فترة محمد على، ثم إلى ٣٠٥.٢٩٧ عام ١٨٦٣ فى بداية فترة حكم الخديو إسماعيل. وتشير الإحصاءات أيضاً إلى أن مساحة مدينة القاهرة لم تتغير إلا قليلاً خلال الفترة من ١٧٩٨ إلى ١٨٦٣، وبذلك فقد تم استيعاب زيادة عدد سكان مدينة القاهرة خلال فترة محمد على داخل نسيج الحيازات القديم لمدينة القاهرة، ومن خلال التوسع العمرانى شمالاً فى حى شبرا والوايلى.

خلال فترة الخديو إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) حدث تطور كبير لمدينة القاهرة سواء من ناحية امتدادها المعمارى أو طرازها المعمارى. بحيث يمكن القول بحق لمن يقوم بالتأريخ المعمارى والزخرفى لمدينة القاهرة الحديثة أن هناك القاهرة التى قبل والقاهرة التى بعد الخديو إسماعيل. وقد حدث ذلك نتيجة لعاملين هامين وهما الضغط الديموجرافى نتيجة لازدياد عدد السكان المحليين وازدياد عدد الأوروبيين، ونتيجة للتوسع فى استيراد طرز العمارة الأوروبية وإهمال طرز العمارة المحلية.

حدث التوسع الأهم فى تاريخ مدينة القاهرة فى عهد الخديو إسماعيل من خلال التوسع غرباً. حيث تم تجفيف بركة الأزبكية وإنشاء حى جديد هو حى الإسماعيلية (منطقة وسط المدينة الآن) وبالتالى إنشاء مدينة جديدة تمتد غرباً حتى نهر النيل وتمتد من قصر العينى وجاردن سيتى وحى المنيرة جنوبا إلى الفجالة والظاهر وكلوت بك شمالاً وهو ما أدى إلى زيادة مساحة مدينة القاهرة إلى الضعف تقريباً حتى عام ١٨٨٢ إذ بلغت مساحتها وقتذاك ٣٣١٢ فداناً مربعاً.

أراد الخديو إسماعيل بعد زيارته لمعرض باريس عام ١٨٦٧ أن يكون تخطيط المدينة الجديدة على غرار تخطيط المهندس «هاوسمان» لمدينة باريس، وفى عام ١٨٧٠ عين الخديو إسماعيل المهندس الفرنسى بير جوان مديراً لمصلحة الطرق للإسراع بتنفيذ هذه المهمة. ونتيجة لذلك نشأت مدينة جديدة شقت بها شوارع واسعة حفت بالأشجار ومدت إليها خطوط المياه وخطوط الغاز لإنارة شوارعها.

هنا أنشئت مدينة جديدة على حافة المدينة القديمة يسكنها الأجانب والطبقة العليا من المصريين والمتمصرين. ومن هنا فصاعداً أصبحت قصة القاهرة قصة مدينتين، وطرازين معماريين وزخرفيين مختلفين، ونمطين للتقاليد والعادات، ومن ثم استجابتين مختلفتين للأحداث الاجتماعية والسياسية التى واجهها المجتمع المصرى والتى عكستها مداخل البيوت فى القاهرة القديمة.

كانت قاهرة الخديو إسماعيل هى النواة التى استقرت فيها العمارة الأوروبية الوافدة بمداخلها ذات الطراز الرومانى وطراز عصر النهضة والباروك والكلاسيكية الجديدة. فظهرت الأبواب الخشبية ذات الضرفتين والتى تميزت بشىء هام وهو وجود أشغال الحديد (الفورفورجيه) فى الجزء الأعلى من ضرفة الباب بالإضافة إلى الشراعة العليا أعلى الضرفتين والتى تغير شكلها لتأخذ شكل المستطيل بدلاً من نصف الدائرة كما فى مداخل القرن التاسع عشر. كما صنعت مداخل بعض البيوت من الحديد الخالص- كما فى عمارات الخديو بشارع عماد الدين التى أنشئت عام ١٩١١.

انتقلت هذه الطرز الجديدة للمداخل بالتدريج إلى الجانب الآخر من القاهرة ومعها نظام العمارة الأوروبية، وهو ما شكل تحديا كبيراً للتقاليد المعمارية والزخرفية للقاهرة القديمة، وقد ازدادت أبعاد هذا الصراع حدة بعد الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ وازدياد عدد الأجانب زيادة كبيرة بمدينة القاهرة. فقد ارتفع عدد الأجانب فى مصر من ٦٨.٦٥٣ عام ١٨٧٨ إلى ١٥١.٤١٤ عام ١٩٠٧، كان يوجد منهم بمدينة القاهرة وحدها ٧٦.١٧٣ عام ١٩٢٧، وقد شهد العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقدان الأولان من القرن العشرين تصاعد المقاومة بأشكالها المختلفة ضد الاحتلال البريطانى.

شهدت صناعة البناء توسعاً كبيراً خلال الفترة ١٨٩٧ - ١٩٠٧ نتيجة لارتفاع أسعار القطن والتوسع فى الاستثمار فى الشركات التجارية والصناعية المصرية. وقد بلغت حركة التشييد ذروتها فى عام ١٩٠٧ - ١٩٠٨ حيث زادت تصاريح البناء بمدينة القاهرة من ١.٠٧١ عام ١٨٧٩ إلى ١.٨٣٤ عام ١٨٨٢ ثم إلى ٣.١٦٤ عام ١٩٠٧ قفزت إلى ٤.٤٤٤ عام ١٩٠٨، وفى عام ١٩٠٨ بلغ عدد عمال البناء بمدينة القاهرة ١٢١.٠٠٠ عامل (من بين ١٩٤.٨٩٨ فى مصر كلها). وقد وفر ذلك الخبرات البشرية والوسائل اللازمة لظهور طرز معمارية جديدة بالقاهرة القديمة.

ظهر رد الفعل تجاه هذا التغريب المعمارى الذى انتقل من قاهرة إسماعيل ليغزو أحياء القاهرة القديمة خلال تلك العقود الثلاثة من خلال ظهور الطراز الإسلامى الجديد فى العمارة السكنية ومداخلها، وظهور الطراز الذى يمكن تسميته بالقومية المصرية على مداخل البيوت وأبوابها.

إن ظهور الطراز الإسلامى الجديد neo-Islamic فى العمارة لا يمكن فصله عن حركة الإحيائية الإسلامية على يد الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) وأستاذه جمال الدين الأفغانى (١٨٣١ - ١٨٩٨). والتى ظهرت نتيجة للتدهور السياسى للدولة العثمانية والغزو الاستعمارى للبلاد العربية. وقد تميز هذا الطراز المعمارى بالقاهرة القديمة بميزة فريدة وهى تغطية كامل أو معظم واجهات العمائر بالخشب مع استعمال «خرجات» استوحت وظيفة المشربية القديمة. كانت هذه الواجهات مساحة اخترعها المعمارى والفنان واستغلها فى ملئها بالزخارف الإسلامية مثل الطبق النجمى والزخارف الهندسية مثل الأشكال الرباعية والسداسية والتكوينات النجمية الكبيرة والصغيرة. وذلك كما يبدو فى منزل المناديلى ومدخله الذى أنشئ عام ١٩٠٦ بحى القربية بالقرب من باب زويلة.

تحالف أربعة من الحرفيين بطريقة تلقائية فى تصميم مداخل هذا الطراز المعمارى وأبوابه وهم الحداد الذى قام بأعمال الحدادة وزخرفة الشراعات والنجار ومعه الخراط فى تصميم الجزء الخشبى من الباب، ونحات الحجر الذى زخرف المدخل. هؤلاء الجنود المجهولون كان لديهم الوعى بما يدور من صراع خفى بين النمط المحلى من المداخل وتقاليده القديمة والنمط المستورد، وبذلك فقد قاموا بتعديلات جوهرية على الأبواب الأوروبية ومداخلها فى ظل هذا الطراز حيث أصبحت الزخارف المعدنية لشراعة الباب والشراعة العليا على هيئة الأشكال الإسلامية التقليدية. أما الجزء السفلى من ضرفة الباب الذى أخذ الشكل المستطيل أو المربع فجاءت زخارفه على هيئة الطبق النجمى أو الشكل المعقلى أو على هيئة المفروكة. وزخرفت المداخل أيضا بأشكال إسلامية على أحجار المدخل.

ظهر الطراز الإسلامى الجديد أيضا فى قاهرة الخديو مع اختلافين أساسيين. فقد ظهر متأخراً عن مثيله فى القاهرة القديمة، كما أنه اختلف من حيث من قاموا به وتبنوا مبادئه. إن من قاموا بتنفيذ هذا الطراز كانوا من خريجى مدرسة الفنون الجميلة التى أنشئت عام ١٩٠٨، كما كانوا من الأكاديميين أعضاء البعثات الرسمية التى أرسلتها الدولة للدراسة فى أوروبا بين عام ١٩٠٨ وعام ١٩٣١، وقد تبنى بعضهم بعد عودته حركة الإسلامية الجديدة والذين كان من بينهم مصطفى فهمى بك الذى قام بتصميم العديد من المبانى العامة فى قاهرة الخديو مثل المقر الرئيسى لبنك مصر بشارع عماد الدين عام ١٩٢٧، وجمعية المهندسين المصرية عام ١٩٣٠ بشارع رمسيس، ونقابة الأطباء بشارع قصر العينى عام ١٩٤١ وقد صممت مداخل هذه المبانى وأبوابها حسب الطراز الإسلامى.

تزامن مع ظهور الطراز الإسلامى الجديد فى العمائر والمداخل وأبوابها ظهور طراز اختصت به مداخل البيوت فقط فى القاهرة القديمة وانتشر انتشاراً كبيراً فى أحيائها وهو طراز القومية المصرية الذى تزامن ظهوره مع تصاعد المقاومة ضد الاحتلال البريطانى والذى بلغ ذروته فى ثورة ١٩١٩م. وقد ظهر التعبير الرسمى عن هذا الاتجاه على يد المثال محمود مختار (١٨٩١-١٩٤١) وتمثاله نهضة مصر عام ١٩٢٨ الذى صور أبو الهول وهو رمز فرعونى ينهض على قدميه الأماميتين بدلاً من امتدادهما فى الوضع القديم، وقد ظهرت بجانبه فلاحة مصرية بجلبابها المميز تضع يدها على رأسه. أن المعنى هنا واضح وهو أن مشروع الاستقلال والنهضة يكمن بالأساس فى التواصل مع القديم وعدم التنكر له. إن نفس ما حدث بصورة

أحد المداخل بحى الناصرية التى انتشرت بالقاهرة القديمة، والتى تتميز بزخرفة الثعبان والهلال بداية القرن العشرين، وهى نفس الفترة التى ظهر بها تمثال نهضة مصر للمثال محمود مختار



رسمية من وجهة نظر الأكاديميين الذين تعلموا فى الخارج حدث بصورة تلقائية على مداخل بيوت القاهرة القديمة. فقد سادت على أبواب البيوت فى العقدين الأول والثانى من القرن العشرين وحدتان زخرفيتان من معدن الحديد وهى الثعبان والهلال سواء على شراعة الضرفة أو الشراعة العليا للباب. وقد استخدمت وحدة الثعبان سواء على هيئة رأسه أو ذيله أو كليهما فى تشكيلات مستديرة وشبه مستديرة تعكس الحيوية وقوة الحركة. أما وحدة الهلال والتى صممت على شكل دائرتين إحداهما أصغر من الأخرى وضعتا داخل بعضهما البعض وملتصقتين عند طرفيهما فهى توحى بالثبات والاستقرار فى مقابل وحدة الثعبان التى توحى بالحركة والديناميكية. وقد انتشر هذا الطراز من الأبواب ليس فقط فى مداخل البيوت ولكن أيضا فى أبواب الشقق.

إن الجمع بين الوحدتين الزخرفيتين، الثعبان (الفرعونى) والهلال (الإسلامى) يماثل الجمع الذى عبر عنه المثال مختار بين أبو الهول (رمز فرعونى) والفلاحة (رمز إسلامى)- فقد استخدم الثعبان فى العصر الفرعونى كرمز ملكى الغاية منه حماية الفرعون من القوى الشريرة، كما استخدم أيضا كرمز للخلود. إن بعث واستدعاء هذا الرمز فى تلك الفترة بالذات كان له توظيف سياسى يدخل فى نطاق الجمع بين عنصرى الأمة الأقباط والمسلمين وهو الشعار الذى نادت به ثورة ١٩١٩ فى نطاق الاستقلال.

فى فترة القرن التاسع عشر كانت المساحة التى بنيت من الحجر والتى تحيط بجوانب الباب وأعلاه هى مجال التعبير، وفى فترة العقدين الأولين من القرن العشرين تقلصت هذه المساحة ليصبح الباب نفسه بجزءيه المعدنى والخشبى هو مركز التعبير، وفى العقد الثالث والرابع أصبحت الصنجة الوسطى بعقد الباب والتى تعرف باسم المفتاح أو مفتاح العقد Key stone هى مجال آخر للتعبير. ففيها أصبح يذكر تاريخ إنشاء المنزل، أو اسم صاحبه كما حفرت عليها كلمة «الله» أو شعار الأسرة المالكة، أو ثعبانان رمزاً للحماية. وجاء المفتاح أيضاً على هيئة نصف محارة بحرية رمزاً للخير. وفى هذه الفترة أيضاً كان من المعتاد كتابة أو نقش آيات من سورة الحجر «ادخلوها بسلام آمنين» على عتب الباب تبركاً وأمناً للداخلين والمقيمين بالمنزل. ■



وكأنني قد مت قبل الآن
أعرف هذه الرؤيا وأعرف أنني أمضي
إلى ما لست أعرف



محمود درويش

المنزلة بين المنزلتين

هبة رؤوف عزت

لم أكن من أصدقاء محمود درويش، لم أقابله قط، ولا تجمعني بشعره ذكريات، أية ذكريات.

لم أحمل أشعاره في حقيبة المدرسة في السبعينيات، ولم أكتبها في كراس طالبة جامعية في الثمانينيات، ولا سهرت أقرأ أبيات شعره في أمسيات صيف التسعينيات، ولا تدثرت بها في شتاء عبر السنوات.

لي أصدقاء لهم مع كل ديوان ذكرى، وكل بيت شعر قصة، عاصروه وامتزجت أيامهم وأحلامهم بكلماته فشعروا عند موته أن مساحات على خريطة الذات انطفأت برحيله، منهم من بكى ومنهم من أغلق عليه بابه مكتئباً.

أنا لست منهم.

لم أتعرف على شعر محمود درويش إلا منذ عام ونصف فقط.

وباغتني.

رأيته مكتملاً عبر الدواوين، فلم أشهد تشكله عبر السنين.. بل شاهدت صورته في إطارها النهائي: «في حضرة الغياب» وزهر اللوز.. وما بعدهما ..للنهاية. وعدت أفتش في كل ما قبلهما عن تفاصيل الصورة في الأجزاء.. أشعاره الأولى ومسيرته الطويلة مع.. الأبجدية.. ووقفت أتأمل صورا لكل منحوتاته الشعرية على صفحة.. الجدارية.

وأدهشتني وحدته.

خلف قناع المناضل المنفي والرمز الأدبي والثقافي والرجل العاشق أبصرت الطفل..الوحيد.

كان هذا الطفل يطل علي من بين السطور ثم يعود ليختبئ خلف الكلمات.. وكنت أسمع صوت أنينه المكتوم طول الوقت.

في حواره الأول مع الصحافة العربية الذي أجراه في موسكو الناقد اللبناني محمد دكروب لينشر في مجلة الطريق ١٩٦٨ دلني محمود درويش على بداية الخيط، وأوقفني أمام هذا الطفل وأعطاني مفتاح الفهم لنصوصه الشعرية والنثرية:

«...أضع أمامكم طفولتي..

لا لأني من أولئك المولعين بالحنين إلى البراءة الأولى

ولا لأني أنتمي إلى الذين يعاملون مرحلة الطفولة على أنها العنصر الحاسم الذي يحدد اتجاه الشعر

ولكن الطفولة، في مثل حالتنا اكتسبت ميزة خاصة وستساعدنا ولو قليلاً على فهم هذه الصلة التلقائية المبكرة بين الخاص والعام .

إن طفولتي هي بداية مأساتي الخاصة التي ولدت مع مأساة شعب كامل.

لقد وضعت هذه الطفولة في النار، في الخيمة، في المنفى، مرة واحدة، وبلا مبرر تتمكن من استيعابه، ووجدت نفسها فجأة تعامل معاملة الرجال ذوي القدرة على التحمل ولا تستثنى من مصيرهم، فالرصاص الذي انطلق في تلك الليلة من صيف ١٩٤٨ في سماء قرية هادئة (البروة) لم يميز بين أحد، ورأيت نفسي، وكان عمري يومها ست سنوات أعدو في اتجاه أحراش الزيتون السوداء فالجبال الوعرة مشياً على الأقدام حيناً وزحفاً على البطون حيناً، وبعد ليلة دامية مليئة بالذعر والعطش وجدنا أنفسنا في بلد اسمه لبنان، وحين صحا ذلك الطفل الممزق الثياب من التعب والرهبة كان رأسه يزدحم بالأسئلة التي هاجمته دفعة واحدة وبلا تسلسل، ومنذ تلك الليلة انقلبت الصفة الخاصة لعالم الطفولة وأصبح ذلك الطفل محروماً من الأشياء واللغة التي تميزه عن الكبار، والغريب هو أن تلك الليلة أكسبته شعورا بأنه ، منذ الآن ، لن يختلف عن الكبار، والتصقت بذهنه وعاطفته كلمات جديدة صار يعرف أنها مصيرية: الحدود، اللاجئون، الاحتلال، وكالة الغوث، الصليب الأحمر، الجريدة، الراديو، العودة وفلسطين ...إذ لم تكن به حاجة ، على ما يبدو، لأن يعرف بأنه من فلسطين قبل الآن، من هنا ألاحظ أن ارتباطي الأول بالقضية بدأ بتعرفي المفاجئ على الكلمات. وعندما كنت أسأل أهلي عن ترجمة هذه الكلمات، كنت أدخل عالم قضايا جديدة والتصق بها رغما عني . مبتعدا بوتيرة سريعة عن عالم الطفولة إذا كان يعني ما يحظى به الطفل من تفوق وتمييز. وصرت أقترب، بوتيرة سريعة أيضاً. من عالم الطفولة الذي صار يعني المكان الذي ستخلصني العودة إليه من هذه الكلمة الجارحة:لاجئ. وهكذا تحولت عواطفي إلى أسيرة لكلمة «العودة» التي تعني المصالحة والانتهاء من العار. وصرت أنتظر حيث أصبح الاحساس المرهف بالحرمان والظلم والتشرد مسيطرا على ذهني الصغير -وكل ما ورثته من حب للدنيا استبدله الواقع الجديد بضيق شديد بها . ولهذا-أذكر- فقدت موهبة اللعب وتسلق الشجر وقطف الأزهار ومطاردة الفراش.وورثت عن أهلي عادة التأفف والركون إلى الصمت والتأمل. وأستطيع الآن أن أحدد، من بعيد، أن الموهبة الأولى التي قادتني إلى الشعر كانت موهبة التأمل. بمعنى أنها أوصلتني إلى الارتباط المرهق بهموم الكلمات الجديدة، وسط جو كثيف من الغربة، فعمقت إحساسي بالسبب والشكوى، ومن هنا أيضاً أستطيع أن أحدد منبع حساسيتي الشديدة تجاه العدوان، فإن طفولتي كانت ضحية عدوان -وأجد الآن، خلال هذه المراجعة أن الطفولة لم تكن تعني مرحلة من مراحل حياتي، وإنما كانت وطني، وفي وطن الطفولة كنت أشعر بالمراحل: الحرمان-الخوف-طرح الأسئلة ، العزلة ،التأمل ، ثم الغضب على شيئين، على الواقع الجديد، وعلى الذين احتلوا طفولتي -وطني. وقادوني إلى هذا الواقع، هذه هي تجربة «الطفولة المنفية». وتليها تجربة أخرى. قيل لي في مساء ذات يوم: الليلة تعود إلى فلسطين. وفي الليل، وعلى امتداد عشرات الكيلومترات في الجبال والوديان الوعرة. كنا نسير..أنا وأحد أعمامي ورجل آخر هو الدليل. والدليل رجل خبير بمسارب الجبال. استغل هذه الخبرة لتصبح مصدر رزق .

في الصباح وجدت نفسي أصطدم بجدار فولاذي من خيبة الأمل.أنا الآن في فلسطين الموعودة: ولكن أين هي؟ لا . هذه ليست فلسطين . تلك الأرض السحرية.. الخلاص من الظلم والحرمان، لا تحتضنني كما تصورت. وهذا الصبي العائد، بعد سنتين من الانتظار، يجد نفسه أسيرا لمصير المنفى ذاته. بأسلوب آخر وعلى أرض ليست له...ليست له! هذه هي الحقيقة الثانية التي ما زالت، حتى الآن، أعنف يد تحرك إحساسي بالمأساة، كما كانت أول محاولة شعرية لي. لم أعد إلى بيتي وإلى قريتي، فقد أدركت بصعوبة بالغة أن القرية هدمت وحرثت. كيف تهدم القرى؟ ولماذا؟ وكيف يعاد بناؤها؟

.. وإذا كان من المتاح الآن تقويم هذه التجربة ، تجربة اللاجئ في وطنه، فإني أشعر بأنها تبعث على خطر القتل النفسي بصفاقة أقسى من تجربة المنفى. في المنفى يتوفر لديك الاحساس بالانتظار، وبأن المأساة مؤقتة فتتنسم رائحة أمل. وتحمل عذاب المنفى مبرر، والتصور للمنزل والحقل والجمال المنشود والسعادة القصية وغيرها أمر مشروع. أما التجربة الأخرى، اللجوء في الوطن، فإنه أمر غير مبرر وصعب الاستيعاب في حدود وعي الطفل والصبي.إنك تشعر بالقهر حتى في أجمل أحلامك، وتكتسب ملامحك انعكاسات واقع هي أقرب ما تكون إلى الرموز. كنت أشعر بأني مستعار من كتاب قديم يخلق فيَّ انطباعا غامضا لأني لا أحسن قراءته».

...

حمل محمود درويش عبر السنين تلك الطفولة/الوطن في قلبه الذي أصابه شرخ عميق



حين انفكت عرى العلاقة بين الذات والمكان والزمن أمامه وهو لا يزال طفلا صغيرا، ترك المكان ولما عاد بعدها بعامين وجد الطفل الذي فرضت عليه لغة وسلوكيات الرجولة كل معالم المساحات قد تغيرت، والأرض محتلة بمن جاء يستعيد أساطير زمانه التاريخي على أرض اغتصبت ملامحها التي كان محمود قد أسكنها عين براءته..

هذا هو الألم الذي بقي في قلبه حتى مات.

والموت كان لمحمود أحد احتمالات العودة، فلم يكن الموت لحظة نهاية بل فرصة إضافية للبحث عن الطفل الذي فقده..وعاش عمره يبحث عنه..ويحن إليه.

من الجدارية (١٩٩٨) انتقيت المقاطع التي تحمل هذا الوجع، وتحمل معه عذوبة صوفية فريدة في التعامل مع الحياة، ومع الموت.. وما وراءهما.

هناك كان محمود درويش الذي.. أبصرت.



....

أرى السماء هناك في متناول الأيدي
ويحملني جناح حمامة بيضاء صوب طفولة أخرى
ولم أحلم بأني كنت أحلم
كل شيء واقعي
كنت أعلم أنني ألقي بنفسي جانباً وأطير
سوف أكون ما سأصير
في الفلك الأخير
.....
كنت ولم أكن
فأنا وحيد في نواحي هذه الأبدية البيضاء
أنا وحيد في البياض
أنا وحيد
وكأنني قد مت قبل الآن
أعرف هذه الرؤيا وأعرف أنني أمضي
إلى ما لست أعرف
ربما ما زلت حيا في مكان ما
وأعرف ما أريد...
سأصير يوماً ما أريد
.....
سأصير يوماً طائراً
وأسل من عدمي وجودي
كلما احترق الجناحان
اقتربت من الحقيقة
وانبعثت من الرماد
أنا حوار الحالمين
عزفت عن جسدي وعن نفسي
لأكمل رحلتي الأولى إلى المعنى
فأحرقني وغاب
أنا الغياب
أنا السماوي الطريد
سأصير يوما ما أريد
.....
أرض قصيدتي خضراء عالية
كلام الله عند الفجر أرض قصيدتي
وأنا البعيد
أنا البعيد
.....
قال الصدى:
وتعبت من أملي العضال
تعبت من شرك الجماليات
ماذا بعد بابل
كلما اتضح الطريق إلى السماء
وأسفر المجهول عن هدف نهائي
تفشى النثر في الصلوات
وانكسر النشيد
......
غنيت كي أزن المدى المهدور
في وجع الحمامة
لا لأشرح ما يقول الله للإنسان
لست أنا النبي لأدعي وحياً
وأعلن أن هاويتي صعود
وأنا الغريب
تعبت من درب الحليب
إلى الحبيب
تعبت من صفتي
يضيق الشكل
يتسع الكلام
أفيض عن حاجات مفردتي
وأنظر نحو نفسي في المرايا
هل أنا هو؟
....
أنا لست مني إن أتيت ولم أصل
أنا لست مني إن نطقت ولم أقل
أنا من تقول له الحروف الغامضات
اكتب تكن!
واقرأ تجد!
وإذا أردت القول فافعل . يتحد ضداك في المعنى ...
وباطنك الشفيف هو القصيد
.....
أفرغني الهباء من الإشارة والعبارة،
لم أجد وقتاً لأعرف أين منزلتي،
الهنيهة، بين منزلتين .
لم أسأل سؤالي بعد
عن غبش التشابه بين بابين:
الخروج أم الدخول
ولم أجد موتاً لأقتنص الحياة
ولم أجد صوتاً لأصرخ
أيها الزمن السريع
خطفتني
مما تقول لي الحروف الغامضات:
الواقعي هو الخيالي الأكيد.
......
وتنحل العناصر والمشاعر
لا أرى جسدي هناك
ولا أحس بعنفوان الموت
أو بحياتي الأولى
كأني لست مني
من أنا
أأنا الفقيد أم الوليد
حين طار الموت بي نحو السديم
فلم أكن حيا ولا ميتا
ولا عدم هناك ولا وجود
......
لم أولد لأعرف أني سأموت
بل لأحب محتويات ظل الله
يأخذني الجمال إلى الجميل
وأحب حبك هكذا
متحررا من ذاته وصفاته
....
يا موتنا
خذنا إليك على طريقتنا
فقد نتعلم الإشراق
....
سأقول صبوني بحرف النون
حيث تعُب روحي سورة الرحمن في القرآن
وامشوا صامتين معي على خطوات أجدادي
ووقع الناي في أزلي
ولا تضعوا على قبري البنفسج
فهو زهر المحبطين
يذكر الموتى بموت الحب قبل أوانه
وضعوا على التابوت سبع سنابل خضراء
إن وجدت
وبعض شقائق النعمان
إن وجدت
....
لم يمت أحد تماماً
تلك أرواح تغير شكلها ومقامها
....
عندما أتذكر النسيان
تنقذ حاضري لغتي
كأني حاضر أبداً
كأني طائر أبداً
كأني مذ عرفتك
أدمنت لغتي هشاشتها
على عرباتك البيضاء
أعلى من غيوم النوم
أعلى عندما يتحرر الاحساس
من عبء العناصر كلها
فأنا وأنت على طريق الله
صوفيان محكومان بالرؤيا ولا يريان
عد يا موت وحدك سالماً
فأنا طليق ههنا في لا هنا

أو لا هناك
وعد إلى منفاك
وحدك
....

تساءلت ..هل كان محمود درويش ينعي أصدقاءه أم ينعي في مرآة أحزانه نفسه، في رثاء تلو رثاء..ووداع تلو وداع.

وجدته هو محمود يخاطب نفسه حين ينعي إميل حبيبي قائلاً :«وكم كابدت في هذه الرحلة..كم كابدت كي تجد الأدب هناك في تلك المنطقة المتوترة من السؤال فكنت كما تريد أن تكون ، وكما لا تريد.»

وهو محمود يصف نفسه وهو يتكلم عن ممدوح عدوان وعن جوزيف سماحة حين يقول أنهما عاشا الحياة وعايشاها بفجورها ..وتقواها ...ويخاطب ممدوح قائلاً:«بحثت عن الفريد في العديد وأنت أمامك بين يديك..ألا ترى إليك أم وجدت نفسك أصفى في تعددها، يا صديقي المفرط في التشظي ككوكب يتكون».

وهو-ربما- كان ينظر في مرآة ياسر عرفات فيرى وجهه هو حين وصفه قائلاً:«كان الناظر للغد والعميق الإيمان بالله وأنبيائه، عميق الإيمان أيضاً بالتعددية الثقافية والدينية التي تمنح هذه البلاد خصوصيتها، التعددية المضادة للمفهوم الحصري الاسرائيلي، وكان في بحثه الديناميكي عن الغد في الحاضر يبحث عن نقاط الالتقاء، ويشكل سداً أمام الأصوليات. لم يكن تدينه حائلاً دون علمانيته، ولم تكن علمانيته عبئاً على تدينه، فالدين لله والوطن للجميع».

عاش محمود الحياة حقاً.. بفجورها وتقواها .وأراد أن يبحث عن الطبيعي في اللاطبيعي..أن يكون إنساناً في ظل مأساة ، وأن يدافع عن حق الفلسطيني في أن يعيش «فطرته الانسانية»، فهذا هو فعل المقاومة عنده متجسداً في الأيام..والحياة البدهية..والحق في موت بسيط.. «فلم يكن الوطن في حاجة لبراهين شعرية ولا الشعر في حاجة لبراهين وطنية».

امتزجا.

عاش موتاً ..وقام -قامة شعرية -على باب القيامة.. يبحث عن طفله.. «أناه» «.... الذي... وقف مذهولاً أمام فوضى القيامة، فقد انكسر المكان بكل ما فيه من سيرة وكائن وأحدث ما يشبه القطيعة بين الذات وأبعادها، وما بيت الحاضر والأمس...».. الطفل الذي انصرف..وظل محمود يراوغه عساه يعود ..لتكتمل به. رجولته.. وذاته.

يقول «...لعل مصدر الشعر الواحد هو هويتنا الإنسانية ، من ماضي غربتنا على هذه الأرض إلى حاضره المغترب. لقد وُلد الشعر من أولى أسئلة الدهشة عن وجودنا، من ذلك البعيد الذي تساءل فيه طفلنا الإنساني عن أسرار وجوده الأولى».

كان محمود يبحث عن وطن، وكان الطفل يبحث عن بيت..لكن صورة البيت تشظت منذ عاد ولم يجد بيته فدفنه في الذاكرة للأبد.

لذا فشعره كان لا يسكن في بيت..كما لم يكن محمود الإنسان يرى في أي بيت.. سكن.

......

في البيت أجلس،
لا سعيداً ..لا حزيناً
بين بين
ولا أبالي إن علمت بأنني
حقاً أنا ..أو لا أحد.
..

يخاطب نفسه طول الوقت..يسافر من الذات للعالم وتحمله مواجهاته مع الموت للأعلى..فيستعير جرس القرآن.. ولا يخفي ذلك..

....

(افتتان الشعر.. بنثر القرآن..)

......

«فبأي آلاء ربكما تكذبان»
وغائبان أنا وأنت، وحاضران أنا وأنت
وغائبان
«فبأي آلاء ربكما تكذبان»
.....

وأستعير كلماتك يا محمود..

«.. فماذا أقول لك، يا صاحبي، في حضرة هذا الغياب الناصع، وقد أمليت عليَّ خطبة وداع متقطعة الزمن،خالية من الشجن، محكمة الفوضى، ولا دمعة فيها خوفاً على الكلام من البلل..»؟

......

في الجدارية كتبت:
...أتعرفني؟
بكى الولد الذي ضيعته
«لم نفترق، لكن لن نلتقي أبداً»
وأغلق موجتين صغيرتين على ذراعيه
وحلق عالياً
....

اللهم ارحم محمود درويش فقد كان يحب ..سورة الرحمن. ■

من قـــارئ

محمود درويش.. وداعـــــا



■ سجل
أنا عربى
ورقم بطاقتى خمسون ألف
وأطفالى ثمانية
وتاسعهم.... سيأتى بعد صيف

هكذا كان محمود درويش (عربى) لم يكن متبرئا من عروبته مثل بعض الحكام العرب... هكذا كان محمود درويش (عربى) ولم يكن متبرما من عروبته مثل كثير من المواطنين العرب.. كان يفخر بأنه عربى ويطلب من الآخر أن يسجل انه عربى.

إننا لم نكد نفيق من فقد الأستاذ عبد الوهاب المسيرى إلا وقد فاجأنا القدر برحيل الشاعر الرقيق والغاضب الأول محمود درويش هذا العصفور المغرد فى سماء العروبة الكالحة.. ورغم أن لى موقفا مما يسمى بالشعر الحر إلا أننى كنت اكن تقديرا كبيرا للشاعر الراحل محمود درويش وكثيرا ما كنت أرى فى أشعاره تعبيرا عما يختلج فى صدورنا من هموم وأحزان .ولقد تعلقت بأشعار محمود درويش منذ فترة ليست بالقصيرة وكنت كلما قرأت له شيئا يزداد تقديرى له ولأشعاره.. كان محمود درويش مثالا حقيقيا للإنسان العربى الذى رغم غربته المكانية لا يستطيع الانفصام عن قضيته الحقيقية فى الحياة.. هل يستطيع أحد منا أن يتخيل حياة محمود درويش دون وجود ذكر لفلسطين السليبة.. أكاد أجزم أنه نفسه كان لا يستطيع ذلك..

لم أحب قصيدة لمحمود درويش مثل قصيدة (أبى) ولنقرأ ماذا يقول فى بدايتها..
غض طرفا عن القمر
وانحنى يحضن التراب
وصلى...
لسماء بلا مطر..
ونهانى عن السفر

ورغم أن محمود درويش كان دائما على سفر إلا أنه كان ينهى نفسه عن السفر فهو حتى إن سافر فهو مقيم داخل المكان المسلوب والذى يرجو دائما أن يعود إليه وللأسف عاد إليه ولكن المكان نفسه لم يعد..

جرحته الولايات المتحدة الأمريكية حينما أخرت تأشيرة دخوله إلى أراضيها أربعة أشهر كاملة رغم علم المسئولين بحقيقة مرضه وأنه يريد الذهاب هناك للعلاج وليس للقيام بعمليات إرهابية أو حتى إقامة ندوات للشعر.. لقد كان يبحث عن العلاج من أمراض جسده التى تتحمل الولايات المتحدة جزءا من إصابته وإصابتنا جميعا بها... رحل محمود درويش قبل أن يأكل من خبز والدته كما كان يحلم دائما.. رحل محمود درويش وهو لايزال على حنينه لقهوة والدته (أمد الله عمرها) من منا لا يذكر صراخه
أحن إلى خبز أمى
وقهوة أمى

وحنين محمود درويش إلى خبز الأم وقهوتها لم يمنعه أن يتذكر أمهات (الآخر) بل ويحدثه ويذكره بما حدث لهم ويقول متسائلا ومستنكرا
(إلى قاتل) لو تأملت وجه الضحية
وفكرت.. كنت تذكرت أمك
فى غرفة الغاز
كنت تحررت من حكمة البندقية
وغيرت رأيك
ما هكذا تستعاد الهوية..

برحيل محمود درويش تفقد الأمة العربية (عربيا) حقيقيا كان فخرا لها بأشعاره التى تمس شغاف القلوب.. ولا أستطيع أن أرحل أنا أيضا عن هذا المقام إلا بذكر أبياته التى يقول فيها..
وأبى قال مرة
الذى ما له وطن
ما له فى الثرى ضريح
... ونهانى عن السفر

صدقت ياشاعرنا من ليس له وطن لا قبر له، ترى كم عربيا سيدفن فى العراء ■

محمد عبد الفتاح السرورى

«وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا»



عمارة المسلمين

حقيقة التواصل التاريخى

بديع العابد

■■ العمارة ظاهرة حضارية أصابها داء التجديد (التغيير)، كما أصاب باقى الظواهر الحضارية كالفنون والآداب. ولقد صاحب هذا التجديد، تغيير شامل فى البنى النظرية، والمفاهيم، ومناهج التفكير، وطرائق النظر، وأدوات البحث، وأساليب التفسير. ولقد كان داء التجديد، وما زال فى العمارة أشد وطأة منه فى باقى الظواهر الحضارية. فاستأصلت العمارة العربية الإسلامية من محيطها الحضارى، وبوعد بينها وبين جذورها التاريخية، وأفرغت من قيمها الاجتماعية، وشكك فى أصالتها، ووصمت بالتقليد تارة، وبالتبعية تارة أخرى، وغيب فكرها، واستبدلت أطرها النظرية، واختصرت منهجيات ممارستها من أرقى منهجيات التصميم، وهى منهجية الأحكام، إلى أدنى منهجيات التصميم وأكثرها بدائية، وهى منهجية التجربة والخطأ، ثم منهجية التكرار.

ولقد أسفر هذا التغيير عن خلق أجيال من أساتذة الجامعات، والمعماريين الممارسين العرب والمسلمين، تنكروا لأنفسهم ولحضارتهم، أخذوا بظواهر الحضارة الغربية فجهلوا فكرهم المعمارى، «وعطلوه واتخذوا من جهله وكراهته مذهباً يقرون به ويدعون إليه». ولقد كان أخطر ما أقدمت عليه الحضارة الغربية، منذ القرن الثامن عشر، هو تفسيرها لظواهر الحضارة الإسلامية، ومنها العمارة الإسلامية مستغلة وعينا المستلب، وافتقارنا إلى المؤسسات العلمية، وضعف ما كان قائماً منها، كالأزهر الشريف، وانبهارنا بتقدمها العلمى والتقانى. فطرحت تفسيرها، القاصر علمياً وأخلاقياً لهذه الظواهر.

وتهدف من هذه الدراسة إلى التعريف بفلسفة التاريخ الإسلامى القائمة على: الدروس والعبر، والتواصل التاريخى، والتفكر والتأمل، والتنوع داخل الوحدة.. وبيان هذه المفاهيم، والتعريف بآليات تفسيرها العقلية والفكرية للظواهر الحضارية، وتحديداً للظاهرة المعمارية، وبيان مدى ارتباطها وتحكمها نظرياً وفكرياً بمنهجيات ممارستها وإنتاجها العلمى. والدراسة تهدف إلى إثبات أن العمارة الإسلامية مورست فى حيز الوعى، وضمن إطار نظرى عماده التفكر والتأمل. وذلك فى محاولة للتخلص من حضور وتفسير فلسفة التاريخ الغربى للعمارة الإسلامية، القائمة على التحقيب التاريخى، الذى استنه المستشرقون وتبناه أتباعهم من العرب والمسلمين، الذى جردوا فيه العمارة الإسلامية من جسمها النظرى، وأخضعوها للممارسات العملية التى تتم بمنهجية التجربة والخطأ. ولتحقيق ذلك سأعرض لمفهوم التاريخ فى الجاهلية والإسلام.

إن مفهوم التاريخ عند العرب قبل الإسلام، أو ما اصطلح على تسميته بالجاهلية، كان قائماً على الأخبار عن أحوال العرب وأيامها وحروبها وأسواقها وتجاراتها، وكان يعتمد على الرواية وعلم الأنساب. وثق بعض هذه الأخبار فى الشعر الجاهلى وفى القرآن الكريم، وتم جمع هذه الأخبار فى كتب التاريخ الإسلامى، فشكلت تاريخاً مشتركاً للجنس العربى قبل الإسلام، صنف فى ثلاثة طبقات وهى: العرب البائدة والعاربة والمستعربة.

وهذا التاريخ المشترك حوى الكثير من المعلومات المعمارية، كوصف المدن، وتاريخها، ووصف المبانى، وعناصرها المعمارية، وتقانة بنائها، وتاريخها، وملاكها. ونذكر منها كتاب الأصنام[1] لهشام بن السائب الكلبى، وكتاب الإكليل[2]. للهمذانى، وغيرها من الكتب التى أرخت لعمارة العرب قبل الإسلام، معتمدة فى جمع مادتها التاريخية على ما ورد فى الشعر الجاهلى.

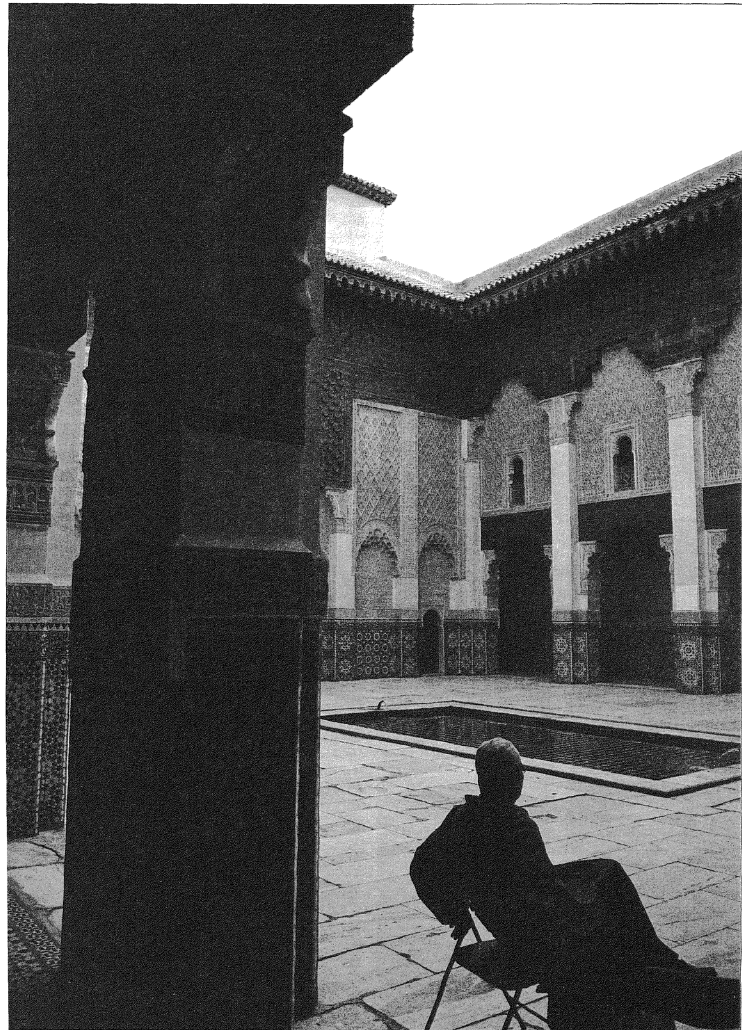
على أن أرقى وأهم ما تضمن مفهوم التاريخ عند العرب قبل الإسلام هو مفاهيم فلسفة التاريخ التى عبر عنها حكيم العرب قس بن ساعدة الإيادى فى خطبته وقصيدته المشهورتين[3] وهى: الدروس والعبر، والتواصل التاريخى، والتفكر والتأمل. وهذه المفاهيم هى نفسها ركائز فلسفة التاريخ الإسلامى التى أرساها القرآن الكريم، والمفكرون والمؤرخون المسلمون، وأضافوا إليها مفهوم التنوع داخل الوحدة. أما مفهوم التاريخ فى الإسلام فقد عرفه ابن خلدون[4]:

«فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم، والأنبياء فى سيرهم، والملوك ودولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا، فهو يحتاج إلى مآخذ كثيرة متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران، والأحوال فى الاجتماع الإنسانى...».

الدروس والعبر

إن فلسفة التاريخ فى رأيى هى رؤية أو تصور الحضارة لكيانها وبنيتها ولمحيطها الكونى والعالمى. وبتعبير آخر هى خلاصة تفسيرها لظواهرها وتفسيرها للكون وللعالم. وفلسفة التاريخ هى التى تحدد علاقة الحضارة المفرزة لها أو المنتجة لها، والمعبرة عنها بالحضارات الأخرى. فهى إذن: مجمل الأطر النظرية، والثقافية، والفكرية، التى تحكم تشكيل ظواهر الحضارة، وهى التى تعبر بها الحضارات الراقية عن بنيتها وظواهرها.

وفلسفة التاريخ هى التى توضح منهجيات تفسير الظواهر الحضارية وتحدد منطلقاتها، فتحدد بذلك أطرها الفكرية، وتكسبها خصوصية فى الطرح والشكل والمضمون، تميزها عن مثيلاتها من الظواهر والحضارات الأخرى. وفلسفة التاريخ هى التى تحدد وعى منتسبيها، وتبين مدى التزامهم الحضارى من





خلال تلقائية ردود فعلهم على ما يمكن أن يقلق وعيهم من أحداث وظواهر معرفية.

تأسيساً على ما سبق فإن ردود أفعالنا على تفسير ظواهر حضارتنا العربية الإسلامية يجب أن تكون نابعة من حضارتنا وفلسفة تاريخها، لكن الواقع غير ذلك، فردود أفعالنا على تفسير الظاهرة المعمارية كان استجابة مطلقة لفلسفة التحقيب التاريخي للحضارة الغربية، التي قسمت عمارتنا إلى حقب تاريخية، وجعلت لكل حقبة طرازاً خاصاً بها، له خصائصه الشكلية والجمالية، فأنكرت أصالتها ووصمتها بالتبعية للحضارتين البيزنطية والساسانية.

وأخطر من هذا هو أن تحقيب وتفسير الحضارة الغربية للعمارة الإسلامية، جردها من أطرها النظرية، ونفى عقلانية ممارستها، المتمثلة في أرقى منهجيات التصميم المعماري، وهي منهجية الأحكام، واختصرها في منهجيتي التكرار والاقتباس. وذلك كله يعود إلى وعينا المستلب، وتهميشنا لذاتنا، وتغييبنا لإنجازاتنا العلمية.

وسأعرض فيما يلي من دراسة وتحليل إلى مفاهيم فلسفة التاريخ الإسلامي ومضامينها المنهجية، التي يجب أن توظف في تفسير ظواهر الحضارة العربية الإسلامية، وعلى وجه التحديد بالظاهرة المعمارية. وتتضمن هذه الفلسفة أربعة مفاهيم وهي: الدروس والعبر، والتواصل التاريخي، والتفكر والتأمل، والتنوع داخل الوحدة. وكل مفهوم من هذه المفاهيم يتضمن منهجيته الخاصة في تفسير الظواهر الحضارية، وسأقصر عرضي هنا على تفسير الظاهرة المعمارية وممارستها، مبتدئاً بمفهوم الدروس والعبر.

وهذا المفهوم وكما يتضح من ألفاظه ومعانيها، ومن تجربتنا التاريخية، ومعايشتنا الإنسانية الحسية، مفهوم فطري تربوي تدريبي وتعليمي له دور معرفي تراكمي، أثرى التجربة الإنسانية وأسهم في ترشيدها. وهو كوسيلة أو كمنهج تربوي ما زال له حضوره الفاعل.

أما تاريخيا فقد وظفه القرآن الكريم في تفسير ما آلت إليه الأقوام التي سبقت الإسلام، وما حل بحضاراتها، كما في العقاب الجزئي لآل فرعون، والإبادة الكلية لقوم نوح وقوم هود (عاد)، وقوم صالح(ثمود) وقوم لوط وقوم شعيب.

ويؤخذ مفهوم الدروس والعبر صورة أكثر وضوحاً وشمولاً في قوله تعالى: «ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد». وأيضاً في قوله تعالى: «أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم».

وما يعنيني من هذا المفهوم ليس الحدث التاريخي بل حضور مفهوم الدروس والعبر في تفسيره، وما يتضمن الحدث التاريخي من إنجازات حضارية، وبالذات عمرانية، فإرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، إنجاز حضاري ضخم يعجز الوصف عنه، ولا يحيط الخيال بأبعاده. ولقد تم هذا الإنجاز بأيد عربية، وعلى أرض عربية، فكانت دروساً وجب الاستفادة منها، وعبراً وجب الاتعاظ بها. فمفهوم الدروس والعبر استعمل تاريخياً في تفسير تاريخ الأمم السابقة للإسلام، كما استعمل كمنهج استدلالي تربوي للاتعاظ والاعتبار.

أما معمارياً فإننا إذا قارنا بين عظمة المنجزات المعمارية للحضارة الفرعونية، الماثلة إلى عصرنا الحاضر، بعمارة إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، لتبين لنا أن الأولى على عظمتها، لا ترقى إلى عمارة الثانية، لأن وصف الله عز وجل للثانية بعبارة «لم يخلق مثلها في البلاد» يتضمن تفردها فخامة، وتميزها جمالاً. فالخيال الذي أطلقه المؤرخون والجغرافيون[٥] العرب في وصف مدينة إرم ذات العماد وعمارتها على سبيل المثال، كانت وما زالت تؤسس دروساً في نظريات التخطيط العمراني، والتصميم المعماري، والعمران الشجري، والجمال، والفخامة، وتقانة البناء. واللافت للنظر أن كل ما نسمع عنه من فخامة في بعض قصور أغنياء هذا العصر لا يرقى إلى وصف قصور إرم ذات العماد، كما أن أرقى مدن العالم في عصرنا الحاضر، لا ترقى إلى وصف مدينة إرم ذات العماد، ولا إلى جمال حدائقها، وروعة أنهارها، وتنسيق أشجارها ... الخ.

وبالجملة فإن مفهوم الدروس والعبر التاريخي إضافة إلى دعوته للتفكر والتأمل، وإطلاقه للخيال، فهو منهجياً يتضمن منهجية التجربة والخطأ في التصميم المعماري. فالدروس نتعلمها من أخطائنا، والعبر هو عدم تكرارها، فنصل إلى نموذج يتم تكراره، وهو ما يعرف بمنهجية التكرار.

إذن، منهجياً يوجد جانبان لمفهوم الدروس والعبر: إيجابي ويتمثل في التفكر والتأمل وإطلاق الخيال، وسلبي يتمثل في التكرار، والعمارة العربية الإسلامية تتبنى الإيجابي منهما.

التواصل التاريخي

إن مفهوم التواصل التاريخي يرتبط بمفهوم الدروس والعبر، كما يتضح في القرآن الكريم، وفي أعمال الجاحظ، وأبي العلاء، وابن خلدون. ففي سورة الأعراف يقول الله تبارك وتعالى مخاطباً قوم هود (عاد): «... واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون». وفي نفس السورة يقول الله تعالى مخاطباً قوم صالح (ثمود): «واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ...». ويستمر مفهوم التواصل التاريخي في نفس السورة بذكر الأقوام التي تعاقبت بعد ثمود إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ...».

ويتضح لنا التكامل بين مفهوم الدروس والعبر ومفهوم التواصل التاريخي في قوله تعالى: «وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم، وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال».

وبهذا يتضح لنا أن التواصل الحضاري، والمعماري منه بصفة خاصة، كان نتيجة حتمية للتواصل التاريخي، استوعبته وحفظته الأجيال المتلاحقة، كما بينه الجاحظ:

«ثم اعلم - رحمك الله - أن حاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة في طبائعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تزايلهم، ومحيطة بجماعتهم ... فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد ... معان متضمنة، وأسباب متصلة، وحبال منعقدة، وجعل حاجتنا إلى معرفة أخبار من كان قبلنا، كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم وحاجة من يكون بعدنا إلى أخبارنا ... ثم تعبد الإنسان بالتفكير فيها (الحاجة) النظر في أمورها، والاعتبار بما يرى، ووصل ما بين عقولهم وبين معرفة تلك الحكم الشريفة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، وبالتنقيب والتنقير والتثبت والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع حاجتهم إليها وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها (و) البيان منها».

إن هذا التزاوج بين التواصل التاريخي والحضاري أكده ووضحه أبو العلاء المعري في رسالة الغفران[٦]: «والزمن كله على سجية واحدة، فالذي شاهده معد بن عدنان كالذي شاهده نضاضة ولد آدم». كما وضحه ابن خلدون في المقدمة وذلك بملاحظة أوجه التشابه والتباين في الأمة الواحدة أو بين الأمم المختلفة فقال: «إن الناس جميعهم متشابهون مهما تختلف أزمنتهم وأمكنتهم، وأن الناس جميعاً مختلفون مهما تشتد بينهم وجوه الشبه[٧]».

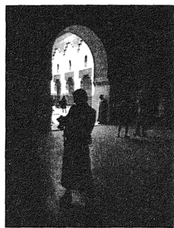
وبهذا يتضح لنا أن أوجه التشابه بين الحضارات المختلفة ناتج عن تجانس بعض الرغبات الإنسانية عند البشر مهما اختلفت البيئة، وأن التباين بين الحضارات هو السمات المميزة لحضارة دون أخرى، وهذه السمات هي التي توضح مكانة الحضارات في التاريخ من عظمة أو ضعة، أصالة أو تكلف.

فمفهوم التواصل التاريخي في الحضارة الإسلامية، كما فسره القرآن الكريم، يشمل جانبين: أولهما، أن كل حضارة متواصلة في ذاتها وتشكل حقبة في حضورها الزمني وفاعليتها التاريخية. وثانيهما، أن ثمة تواصلا بين الحضارات مع ما تشكله من حقب تاريخية مستقلة على الرغم من تباعدها الزمني وتباينها الفكري واختلاف منتجها الحضاري.

واستناداً إلى ما سبق فإن الحضارة الإسلامية هي آخر الحقبات التاريخية في التاريخ العربي، وحضارياً هي وحدة متماسكة ومتواصلة، في ذاتها وكينونتها، مهما امتد بها الزمان، لثبوت مكونها الرئيسي، وهو الدين الإسلامي، وما أفرزه من قواعد وأحكام ومعايير، تحكم منظوماتها الفكرية، ومنجزاتها الحضارية. وفي ذات الوقت هي امتداد لما سبقها من حضارات، متواصلة معها كما رأينا في استخلافها للحضارات السابقة لها، وحلولها بمساكن من سبقها من الحضارات. فمنتوجها المعماري متواصل بحكم وحدة الفكر، ومتنوع بحكم تنوع البيئة الحاضنة، وتنوع مواد البناء وتقاناته. وليس أدل على ذلك من عمارة المساجد فهي متواصلة في جميع أنحاء العالم الإسلامي وتؤدي وظيفة رئيسية واحدة، وهي الصلاة (ووظائف اجتماعية متعددة)، ويخضع لمنظومة أحكام واحدة، وهي أحكام البنيان وأحكام الصلاة الثابتة والتي لا تتغير، لكنها، أي المساجد، متباينة في الشكل وفي تقانة البناء.

فمفهوم التواصل التاريخي في الحضارة الإسلامية يتمثل معماريا بوحدة الفكر وثبات الوظيفة، وأعني بالأولى منظومة أحكام[٨] البنيان الإسلامية، التي تحكم العمل المعماري، أياً كان نوعه وفي أي بيئة أنتج. وأعني بثبات الوظيفة وحدة النظام الاجتماعي وإفرازاته المختلفة من سلوكية وتربوية وتعليمية. وأما التباين الشكلي فهو ناتج عن مفهومي التفكر والتأمل، والتنوع داخل الوحدة، فالتواصل التاريخي إذن في الحضارة الإسلامية مرتبط بالتنوع والإبداع، وليس بالتكرار والجمود.

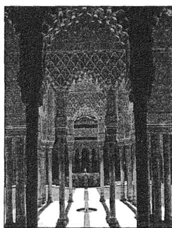
أما في الحضارات الأخرى فيرتبط مفهوم التواصل التاريخي بمنهجية التكرار في التصميم المعماري، التي تلي منهجية التجربة والخطأ، الناتجة عن مفهوم الدروس والعبر، إذ بعد أن يتعلم الإنسان من أخطائه ويتداركها يصل إلى نموذج معماري يتم تكراره، وإعادة إنتاجه. فليس ثمة من تفكر وتأمل في هذه الحضارات كما هي



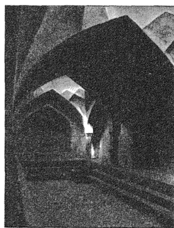
مدرسة بن يوسف . مراكش . ١٥٦٥



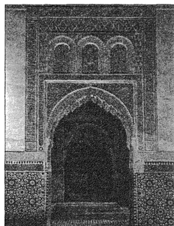
الحمراء . غرناطة



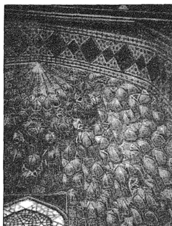
قصر الحمراء . غرناطة



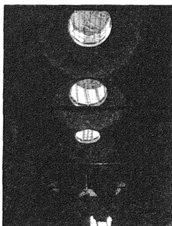
حمام . أصفهان



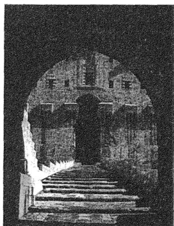
أضرحة السادة . مراكش . المغرب



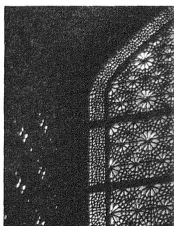
سمرقند . أوزبكستان



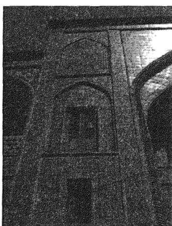
بازار بوزورج . أصفهان



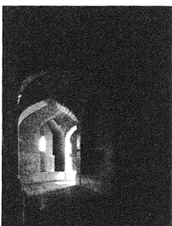
قلعة حلب



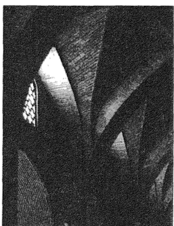
نافذة . أصفهان



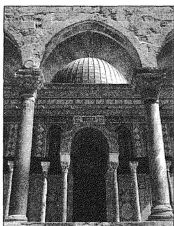
مدرسة أمام غولى خان . ايران . ١٦٢٧



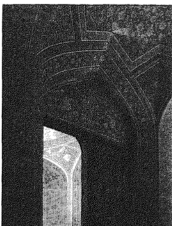
مسجد الإمام الخمينى . أصفهان



المسجد الجامع . أصفهان



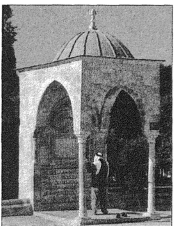
قبة الصخرة . القدس



جامع الشيخ لطف الله . أصفهان



سوق حلب . سوريا



دعاء



الحال فى الحضارة العربية الإسلامية، كما سأبين فيما يلى من دراسة وتحليل.

التفكر والتأمل

هذا المفهوم يشكل فى رأيى محور فلسفة التاريخ الإسلامى، فهو يجمع بين الإدراك الحسى والإدراك العقلى. فالأول يتم بالتفكر والنظر بالمحسوسات، الذى يؤدى بدوره إلى النظر التأملى، الذى يصل إلى كماله بالمعرفة العقلية، كما سأبين لاحقاً. وبهذا المفهوم العقلانى أسست الحضارة الإسلامية بنيتها وفسرت ظواهرها، ودعمت كيانها، وفرضت حضورها، ورسمت شخصيتها، وحددت علاقاتها بغيرها من الحضارات.

وبهذا المفهوم خاطب الله عز وجل المسلمين وغيرهم، وبه فسر تاريخ الأمم السابقة وجعله أداة للتعرف والتبين، والاتعاظ والازدجار، فوصله بمفهوم الدروس والعبر من حيث قراءة الظواهر الحضارية السابقة للإسلام، والتفكر بما كانت عليه والاتعاظ بما آلت إليه. وتتجلى قيمة هذا المفهوم فى أن الله سبحانه وتعالى جعله وسيلة النظر التأملى العقلى لتفسير الظواهر العلمية والكونية كما فى قوله تعالى: «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة. وذكرى لكل عبد منيب ....». وفى قوله تعالى: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت، فذكر إنما أنت مذكر ... ».

والآيات الكريمة الداعية إلى التفكر والتأمل، كثيرة وعظيمة الدلالة على عقلانية الحضارة الإسلامية، وفلسفة تاريخها. فهى تبدأ بالإدراك الحسى عبر المعايشة الحسية مع الظواهر الكونية لتنتهى إلى التأمل العقلى ثم إلى التفسير العلمى المبنى على الاستدلال العقلى.

ولقد تبنى هذا المفهوم المفكرون المسلمون ووظفوه فى تشكيل بنية الحضارة الإسلامية وتفسير ظواهرها وتحديد علاقاتها بغيرها من الحضارات. فالجاحظ كما بينت فى الاقتباس السابق وظفه فى تفسير ظاهرة الاجتماع الإنسانى، ثم وضحه فى تفسير ظاهرة البيان العربى فقال: «... فالأجسام الخرس الصامتة، ناطقة من جهة الدلالة ومعربة من صحة الشهادة، على الذى فيها من التدبير والحكمة، مخبر لمن استخبره وناطق لمن استنطقه ... ». ثم وظفه مرة أخرى فى توضيح منهجية الفطرة عند الحيوانات وفسر به اجتماعها وكيفية تحصيل معاشها فقال: «والقسمة الأخرى ما أودع صدور صنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف وفطرها عليه من غريب الهدايات ... فلا الإنسان جعل نفسه كذلك، ولا شىء من الحيوان اختار ذلك، فأحسنت هذه الأجناس بلا تعلم، ما يمتنع عن الإنسان وإن تعلم ... ثم جعل تعالى عز وجل هاتين الحكمتين إزاء أعين الناظرين، واتجاه أسماع المعتبرين، ثم حث على التفكير والاعتبار وعلى الاتعاظ الازدجار، وعلى التعرف والتبين، وعلى التوقف والتذكر، فجعلها مذكرة منبهة، وجعل الفكر منشئ الخواطر ... ».

فمفهوم التفكر والتأمل إذن هو منهج لتفسير الظواهر الحضارية ومنها العمارة كما وضح ابن قتيبة، فذكر أن قوماً من أصحاب الكلام سألوا محمد بن الجهم أن يذكر لهم مسألة من حد المنطق، فقال لهم ما معنى:

«أول الفكرة آخر العمل، وأول العمل آخر الفكرة. فسألوه التأويل، فقال لهم: مثل هذا كمثل رجل قال إنى صانع لنفسى كنا فوقعت فكرته على السقف ثم انحدر فعلم أن السقف لا يقوم إلا على حائط وأن الحائط لا يقوم إلا على أس وأن الأس لا يقوم إلا على أصل ثم ابتدأ فى العمل بالأصل ثم بالأس ثم بالحائط ثم بالسقف فكان ابتدأ تفكره آخر عمله وآخر عمله بدأ تفكره».

فمفهوم التفكر والتأمل هنا ظاهر الحضور وواضح الدلالة فى تفسير الظاهرة المعمارية، فالتفكر هنا كان نتاج تأمل عقلى أسفر عن تقدير عملى لطريقة البناء قبل العمل، أى أن التقدير ناتج عن تفكير مسبق. فالتفكير إذن أساسه التفكر والتأمل العقلى. ولهذا كانت دعوة الله عز وجل للمسلمين إلى التفكر والتأمل فى مخلوقاته للتعرف على عمليات التقدير التى وظفها فى إنتاجها وخلقها، كما فى قوله تعالى: «... وخلق كل شىء فقدره تقديراً»، وكذلك فى قوله تعالى: «من أى شىء خلقه. من نطفة خلقه فقدره». وفى قوله تعالى: «أن اعمل سابغات وقدر فى السرد».

فالتقدير هنا بمعنى التصميم وهو نتاج عمل تأملى عقلى عند البشر كما عبر عنه إخوان الصفا[9]، حيث بينوا أن إنتاج الأجسام يتم بالتقدير قبل العمل، أى بالتفكير المسبق، وتتم عبر مراحل: أولها: تحديد المكان، أى فى أى موضع يعملها، وثانياً: تحديد الزمان أى فى أى وقت يبتدئ فيها، وثالثاً: إمكانية عملها، أى هل يقدر على إنتاجها أم لا، ورابعاً: بأى أدوات وآلات يعملها، وخامساً: كيف يؤلف أجزاءها.



ولقد شارك إخوان الصفا فى وضع منهجية التقدير أو التفكير المسبق على إنتاج العمل، الكثير من العلماء المسلمين، نخص منهم: البوزجانى[10] (٣٢٨-٣٨٨هـ)، والحسن بن الهيثم[11] (٣٥٤-٤٣٢هـ). ونخلص من كل ما سبق إلى أن مفهوم التفكر والتأمل فى فلسفة التاريخ أسفر، إضافة إلى تفسيره للظواهر الحضارية، عن وضع منهجية التقدير أو التفكير المسبق، التى وظفت فى الممارسات المعمارية، والحرفية، والصناعية، فأضفت طابعاً عقلياً على التفسيرين النظرى والعملى للظاهرة المعمارية، وأسفرت بدورها عن منظومة قواعد وأحكام وبيانات تصميم، عرفت بأحكام البنيان الإسلامية، حكمت بدورها ممارسة العمل المعمارى ووحدته على الرغم من تنوع إنتاجه، وهذا يقودنا إلى المفهوم الأخير فى فلسفة التاريخ الإسلامى وهو التنوع داخل الوحدة.

عرضت فيما سبق لثلاثة مفاهيم لفلسفة التاريخ الإسلامى، وبينت دور كل مفهوم منها فى تفسير الظاهرة المعمارية ووضحت مدى ارتباطه بمنهجيات ممارستها. ونفيت من خلال هذه المفاهيم، وتحديداً من خلال مفهوم التواصل التاريخى، دور فلسفة التحقيب التاريخى الغربية التى تنفى وجود جسم نظرى فكرى يفسر العمارة العربية الإسلامية، واستبدلته بجسم نظرى فكرى بديل، قائم على التحليل الشكلى للأعمال المعمارية العربية الإسلامية، بعد أن صنفتها لحقب وأضفت طرازاً لكل حقبة. فاختصرتها إلى عمارة مورست خارج حيز الوعى، وبمنهجية التجربة والخطأ، وليس بمنهجية الأحكام التى هى أرقى منهجيات التصميم المعمارى قاطبة، والتى انفردت بها العمارة الإسلامية منذ نشأتها. كما سأبين فيما يلى من عرض وتحليل، والذى سيخصص للمفهوم الرابع والأخير لفلسفة التاريخ الإسلامى وهو التنوع داخل الوحدة.

٤- التنوع داخل الوحدة

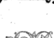
إن الحضارة العربية الإسلامية حضارة ذات جذور عميقة، موغلة فى التاريخ ومتسعة فى الجغرافيا، تعددت أعراقها وتنوعت منجزاتها الحضارية، والمعمارية منها بصفة خاصة، صاحبه تنوع فى أساليب وطرق وتقانات معالجة البيئة وتطويعها لتلبية حاجات القاطنين فيها.

لكن هذا التنوع العرقى (وما تضمنه من إسهام حضارى، أخص منه المعمارى) تم دمجه فى وحدة فكرية واحدة هى العقيدة الإسلامية، التى أفرزت نظاماً اجتماعياً موحداً لجميع هذه الأعراق، أفرز بدوره منظومة قيم، تم ترجمتها إلى أحكام، وحدت بدورها المنجز الحضارى الإسلامى، فأحكام البنيان الإسلامية هى التى وحدت المنجز الحضارى المعمارى على الرغم من تنوع أشكاله وتباين تفاصيلها المعمارية على امتداد العالم الإسلامى.

فأحكام البنيان التى دونت فى كتب المذاهب الفقهية الأربعة: الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى، كانت ملزمة لجميع المسلمين ومطبقة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى. ولقد تم جمعها فى كتب مستقلة أهمها وأشملها هو كتاب[12] المعلم ابن الرامى، المتوفى حوالى (٧٥٠هـ-١٣٤٩م)، الإعلان بأحكام البنيان. ولقد عالج فيه مواضيع تخص التصميم وأخرى تخص التنفيذ، ومن هذه الأحكام: الخصوصية، وحقوق الارتفاق، ونفى الضرر على جميع أنواعه، وأخص منها المتطلبات الاجتماعية والنفسية للمستعملين: كنفى ضرر الرائحة، والدخان والضوضاء، وأحكام الجدار والحيطان والمجارى والخرجات (البروزات) وأحكام الطريق والأسواق وغير ذلك.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار قواعد التصميم البيئى[13] التى وضعها البلخى (٢٣٥-٣٢٢هـ/٨٤٩-٩٤٣م) فى كتابه،

الحضارة الإسلامية هى آخر الحقبات التاريخية فى التاريخ العربى، وحضارياً هى وحدة متماسكة ومتواصلة، فى ذاتها وكينونتها، مهما امتد بها الزمان





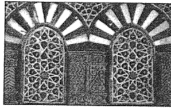
مصالح الأبدان والأنفس، على الرغم من كونها أحكاماً ملزمة فى أحكام البنيان الإسلامية، إلا أنها شكلت نظريات مستقلة للتصميم البيئى، ما زالت فاعلة حتى يومنا الحاضر، لكنها منسوبة للحضارة الغربية، التى لم تعرفها إلا فى نهاية النصف الأول من القرن العشرين بصورة النقاط الخمس للكوريوزية. وإذا أضفنا إلى كل ما سبق، البيانات الفنية للتصميم(١٤)، التى وضعها أحمد بن شادان (٧٠٨هـ/١٣٠٨ م) فى كتابه، أدب الوزراء، المتمثلة فى الأبعاد والمقاسات والمساحات، الخاصة ببعض المبانى، كالأواوين والدور والبيوت، والبهو، والمعاصر، والإسطبلات، والمساجد، والحمامات، وارتفاع جلسات الكوى والشبابيك، ومقاسات الأبواب وغير ذلك، لوجدنا أن العمارة الإسلامية مورست بأرقى منهجيات التصميم المعمارى وهى منهجية الأحكام، التى عملت كأداة لوحدة الظاهرة المعمارية فى الحضارة الإسلامية، ومن ثم جاء مفهوم التنوع داخل الوحدة فى فلسفة التاريخ الإسلامى، كآلية لتفسير ظواهر الحضارة الإسلامية المتعددة والمتنوعة والمتباينة شكلاً ومظهراً والموحدة فكراً ومضموناً.

وبقيت أحكام البنيان سائدة كأداة لوحدة العمارة فى الحضارة الإسلامية إلى أن تم تغييرها وتغييبها بنشأة البلديات فى المدن الإسلامية وما ترتب عليه من تغيير سلطة أدارة المدينة، من المحتسب والقاضى إلى سلطة رئيس البلدية ومجلسها والقضاء المدنى. وتم استبدال أحكام البنيان الإسلامية بقانون البناء العثمانى ثم بأنظمة البناء الأوروبية. حيث كان أول ظهور للبلديات فى العالم العربى هو بلدية القدس سنة (١٨٦٣م) وذلك أثر الضغوط التى مارستها القوى الصاعدة فى أوروبا فى حينه (وهى بريطانيا وفرنسا والنمسا) على الدولة العثمانية. التى أسفرت عما يعرف فى تاريخ الدولة العثمانية بالتنظيمات، حيث غيرت معظم قوانين الدولة العثمانية واستبدلت بعض أنظمتها بالأنظمة الأوروبية. ومما يعنينى هنا هو التغييرات التى طالت الظاهرة المعمارية التى أشرت إليها سابقاً. حيث سادت أنظمة البناء الأوروبية كبديل لأحكام البنيان الإسلامية فى عهد الاستعمار وحتى وقتنا الحاضر.

واللافت للنظر إن أحكام البنيان الإسلامية كانت موحدة وتطبق على جميع التجمعات السكانية (الحضرية والريفية) فى العالم الإسلامى، ومن هنا جاء مفهوم الوحدة. أما أنظمة البناء الأوروبية فهى لا تختلف من مدينة إلى أخرى فقط، بل تختلف داخل المدينة الواحدة. فقضت بذلك على العنصر الرئيسى لمفهوم وحدة الظاهرة المعمارية وعملت على اجتثاثه بالكامل. وكرس هذا الأمر، أى القضاء على عنصر الوحدة، بإسقاط المستشرقين لفلسفة التاريخ العربى فى تفسير ظاهرة العمارة الإسلامية، وذلك بتصنيفها إلى حقب تاريخية فقضت على مفهوم التواصل التاريخى. ثم جعلت لكل حقبة من هذه الحقب طرازاً خاصاً بها كالطراز الأموى والعباسى والطولونى والفاطمى ...إلخ؟! فأختصروا بذلك العمارة الإسلامية، من عمارة مورست فى حيز الوعى، وبالتفكر والتأمل، وبأرقى منهجيات التصميم المعمارى، وهى منهجية الأحكام، إلى عمارة مورست خارج حيز الوعى، وبمنهجية التجربة والخطأ، ثم التكرار، على شكل طرز. ثم قاموا بعملية تغييب كامل للجسم النظرى الذى حكم إنتاج الظاهرة المعمارية، واستبدلوه بجسم نظرى مستحدث قائم على التحليل الشكلى، ونسبوا معظمه إلى تأثير العمارة البيزنطية والعمارة الساسانية. علماً أن العمارة الساسانية هى التى تأثرت بالعمارة العربية للحضارات المسماة بالسامية فى العراق. أما العمارة البيزنطية فهى التى تأثرت بالعمارة الإسلامية وهذا يتضح فى الزخارف الإسلامية التى استعملت فى العمارة البيزنطية كما وضحها أوين جونز Owen Jones (١٨٥٦م) فى كتابه قواعد الزخرفة The Grammar of Ornament. التفسير التاريخى للعمارة الإسلامية يجب أن يكون نابعاً من فهمنا لتاريخ الحضارة الإسلامية ولبناها الفكرية، وتوظيفنا لمناهج التفكير وطرائق النظر التى استثنتها فى تفسيرها لظواهرها. وأخص من طرائق النظر هنا فلسفة التاريخ الإسلامى كما بينتها على مدار هذه الدراسة.

أما تفسير الحضارة الغربية المتمثل فى الاستشراق والقائم على التحقيب التاريخى، الذى مر فى مرحلة استلاب وعينا وتزييفه، وتغييب فكرنا ومن ثم استبداله، فيجب نبذه والتنصل منه وإعادة توظيف فكرنا المغيب ومناهج التفكير وطرائق النظر التى أبدعتها حضارتنا الإسلامية.

تناولت هذه الدراسة موضوع التفسير التاريخى لظاهرة الثقافة المعمارية العربية الإسلامية، فبينت الواقع الحالى لتفسير العمارة العربية الإسلامية، ضمن فلسفة التاريخ الغربى، القائمة على التحقيب التاريخى، والتحليل الشكلى، الذى تم من خلاله تغييب الجسم النظرى والفكرى الذى حكم ممارسة العمارة العربية الإسلامية،



الناصر قلاوون . القاهرة



الجامع الكبير . دمشق

واختصارها من عمارة مورست فى حيز الوعى وبأرقى منهجيات التصميم المعمارى، وهى منهجية الأحكام، إلى عمارة مورست خارج حيز الوعى، وبمنهجية التجربة والخطأ.

ثم عرضت الدراسة لفلسفة التاريخ العربى فى الجاهلية، وبينت تواصلها مع فلسفة التاريخ الإسلامى. فوضحت ماهيتها وعرضت لدورها فى رؤية الحضارة لكيانها، وتصورها لذاتها ومحيطها الكونى ولعلاقاتها بالحضارات الأخرى، وركزت على دورها فى تفسير الظاهرة المعمارية، ووضحت ارتباط مفاهيم فلسفة التاريخ بمنهجيات التصميم المعمارى، وبينت أن العمارة الإسلامية مورست فى حيز الوعى وبأرقى منهجيات التصميم المعمارى وهى منهجية الأحكام.

وخلصت الدراسة إلى أن التفسير التاريخى للعمارة الإسلامية يجب أن يكون نابعاً من فهمنا لفلسفة تاريخ الحضارة الإسلامية، ولبنيتها الفكرية، وتوظيفنا لمناهج التفكير وطرائق النظر التى استثنتها كما بينتها على مدار هذه الدراسة. كما خلصت إلى وجوب نبذ الاستشراق ومناهجه وطرائق تفكيره، وإلى وجوب إعادة توظيف فكرنا المغيب واستعادة وعينا المستلب. ■

الهــــوامــــش

١- انظر: الكلبى، هشام بن محمد السائب، (م. ٢٠٤هـ/٨١٩م)، الأصنام، تحقيق الدكتور، أحمد زكى، المكتبة العربية، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة، (١٣٨٤هـ-١٩٦٥م).

٢- انظر: الهمدانى، الحسن بن أحمد، (٢٨٠-٣٥٦هـ/٨٩٣-٩٦٦م)، وصف جزيرة العرب، دار اليمامة، الرياض، ١٩٧٤م.

٣-انظر: الجاحظ، أبى عثمان عمر بن بحر، (١٥٠-٢٥٥هـ/٧٦٧-٨٦٨م)، البيان والتبيين، تحقيق فوزى عطوى، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٦٨م، (ص: ١٦٣).

٤- انظر: ابن خلدون (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، المقدمة، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت، لبنان، بدون تاريخ نشر،(ص:٩).

٥- انظر: الحموى-ياقوت، (م. ٦٢٦هـ-١٢٢٨م)، معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار الصادر، بيروت، ١٣٧٩هـ-١٩٧٧م، (ج١/١٥٥-١٥٧).

: الأبشيهى، شهاب الدين، (٧٩٠-٨٢٧هـ / ١٣٨٨-١٤٢٣م)، المستطرف فى كل فن مستظرف، تحقيق عبد الله الطباع، دار القلم، بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، (ص: ٣٧٧).

٦ - انظر: المعرى، أبو العلاء، (٣٦٣-٤٤٩هـ/٩٧٣-١٠٥٧م)، رسالة الغفران، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، (ص: ٢٠٠).

٧- انظر: حسين، طه، حديث الأربعاء، مرجع سابق، (ج٢/٦٩)، حيث أشار فى الكتاب إلى هذين القانونين طه حسين

٨ - انظر: ابن الرامى، (م. ٧٣٤هـ هـ/١٣٣٤م)، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق صالح بن عبد الرحمن الأطرم، رسالة ماجستير قدمت لجامعة محمد بن سعود، الرياض، (١٤٠٣هـ / ١٩٨٠م).

: ابن الرامى، قام بجمع أحكام البنيان من أمهات كتب فقه المذاهب الأربعة: الحنفى، والمالكى، والشافعى، والحنبلى، وركز على مدونة الفقيه المالكى، القاضى سحنون، وهناك كتب كثيرة فى أحكام البنيان منها:

: صنع الله الحنفى، مراصد الحيطان.

: الدامغانى، كتاب الحيطان.

٩ - انظر: العابد، بديع، دكتور، الفكر المعمارى عند أخوان الصفا، مجلة اتحاد الجامعات العربية، مجلد ٩، عدد ٢. ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، (ص: ٣٠. ٣٣. ٤٠).

: أعيد نشر هذا البحث فى مجلة المدينة العربية فى العددين، ١٢٢. ١٢٦ .

١٠ - انظر: البوزجانى، أبى الوفاء، (٣٢٨-٣٨٨هـ/ ٩٣٩-٩٩٨م)، ما يحتاج إليه الصانع من علم الهندسة، تحقيق الدكتور صالح العلى، ١٩٧٩م.

١١ - انظر: ابن الهيثم، الحسن، (٣٥٤-٤٣٢هـ/٩٦٥-١٠٤١م) كتاب المناظر، تحقيق الدكتور عبد الحميد صبرا، المجلس الوطنى للثقافة، الكويت، ١٩٨٣م.

١٢ - انظر: الهامش، رقم (٢٢).

١٣ - انظر: العابد، بديع، دكتور، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، أحكام البنيان الإسلامية نشأتها ومجالاتها، المهندس الأردنى، العدد ٥١، (ص: ٩-١٦).

انظر: البلخى، أبا زيد، (٢٣٥-٣٢٢هـ/٨٤٩-٩٤٣م)، مصالح الأبدان والانفس، تحقيق الدكتور محمود المصرى، الناشر منظمة الصحة العالمية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ٢٠٠٥، (ص:١٣١-١٤١).

١٤ - انظر: ابن شادان، أحمد، (٧٠٨هـ/١٣٠٨م)، أدب الوزراء، مخطوط محفوظ، فى مكتبة ليدن، هولندا، باب البنيان وتقدير مواضعه.

الشــفــاعــة فى

«لم يخل تاريخ الفكر الاسلامي يوما من نقاش واختلاف في قضايا فكرية شتى. وكانت رحابة الاسلام في عصور الازدهار والحضارة لا تجد غضاضة في اختلاف بين «الفقهاء» بمدارسهم المختلفة تحسمه دائما قولة لا خلاف عليها «والله تعالى أعلم» ينتهي بها كل رأي، ويحسم بها كل نقاش. في العدد القادم يناقش الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية القضية المطروحة هنا من زاوية أخرى. قد لا يكتمل النقاش إلا بها. في مقال خاص يكتبه لـ «وجهات نظر».

وجهات نظر

الشفاعة سنة اجتماعية جرت عليها أعراف الناس على مر العصور، سواء كانت شفاعة حسنة (جلب منفعة أو دفع ضر) فيكون للشافع ثوابها، أو شفاعة سيئة (جلب ضر أو دفع منفعة) فيحمل الشافع وزرها. وقد بين الله ذلك بقوله فى سورة النساء:

«مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (٨٥)».

إن سياق هذه الآية لا يتحدث عن فعل الإنسان للحسنات (التى تضاعف)، أو للسيئات (التى يجزى بمثلها) وإنما عن الشفاعة الحسنة المؤدية إلى إحقاق الحق، أو الشفاعة السيئة المؤدية إلى إسقاط الحق. فالقائم بالشفاعة الحسنة له نصيب فى الجزاء والثواب العظيم الذى ستسفر عنه هذه الشفاعة الحسنة، دون مشقة أو عنت. أما القائم بالشفاعة السيئة فحمله ثقيل وشاق لأن شفاعته تسقط الحقوق، وتقوى الباطل، لذلك كان عند الله تعالى كفيلا وضامنا لثمرة هذه الشفاعة، وعليه كان عقابه عظيما.

ولقد توسعت المجتمعات على مر العصور فى معنى هذه الشفاعة، ونقلوها من دائرة الشفاعة فى الدنيا إلى دائرة الحساب فى الآخرة. ففريق زعم أن آلهتهم ستشفع لهم يوم الحساب، فرد الله تعالى عليهم بقوله فى سورة الأنعام:

«وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)».

وبقوله تعالى فى سورة يونس:

«وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)».

وفريق زعم أن سلالتهم المفضلة على سائر البشر (شعب الله المختار) ستكون شافعة لهم فى الآخرة، وهؤلاء رد الله تعالى عليهم بقوله فى سورة المائدة:

«وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)».

وهؤلاء ورثوا تصورات ومفاهيم خاطئة عن طبيعة ميزان الحساب فى الآخرة، فرد الله تعالى عليهم بقوله فى سورة البقرة:

«وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)».

وفريق زعم أن الملائكة والنبيين سيشفعون لهم فى الآخرة، فنفى الله تعالى هذا الزعم وبين أن مهمة الملائكة والنبيين هى تنفيذ ما كلفهم الله تعالى به، الأمر الذى لا نعلمه إلا إذا أخبرنا الله تعالى به. وقد أخبرنا الله تعالى فى سورة سبأ فقال:

«وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)».

وخاطب الله رسوله محمدا، صلى الله عليه وسلم، فى سورة الزمر فقال:

«أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النَّارِ (١٩)».

وخاطبه أيضا فى سورة الإسراء فقال تعالى:

«رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (٥٥) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً (٥٦)».

ولقد رد الله تعالى على كل هؤلاء وبين لهم طبيعة ميزان الحساب فى الآخرة فقال تعالى:

«بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

ولقد جاءت هذه الآيات وسط تحذير الله تعالى لبنى إسرائيل من هذا الاعتقاد الباطل، وتكرر هذا التحذير مرتين، الأولى عند قوله تعالى:

«يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)».

والثانية عند قوله تعالى:

«يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)».

ولم يغفل القرآن عن تحذير المؤمنين من أن يحذوا حذوهم، فقال تعالى أيضا فى سورة البقرة:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)».

فلماذا شمل هذا التحذير المؤمنين؟؟ هل كانوا يعتقدون بوجود شفعاء فى الآخرة فنزل القرآن يحذرهم من هذا الاعتقاد؟

والجواب: قطعا لا، بل ومستحيل، وإنما لأن السياق جاء يبين أن عدم الالتزام بأحكام الشريعة يؤدى إلى ظلم النفس والكفر، كان من الضرورى أن يتضمن هذا السياق إبطال زعم الكافرين وجود شفعاء لهم فى الآخرة. بدليل أنه عندما تكرر هذا المعنى فى سياق آخر، دون الإشارة لمسألة الكفر، خلا السياق من ذكر مسألة الشفاعة، فقال تعالى فى سورة إبراهيم:

«قُلْ لِعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١)».

ولقد بين الله تعالى لهؤلاء الذين زعموا وجود شفعاء لهم فى الآخرة أن فى هذا اليوم لن ينفع ولى ولا شفيع أحدا، فقال تعالى فى سورة الأنعام:

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١).

وقال أيضا فى نفس السورة:

«وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)».

وقال تعالى فى سورة الكهف:

«قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَداً (٢٦)».

وفى سورة السجدة:

«اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤)».

وفى سورة غافر:

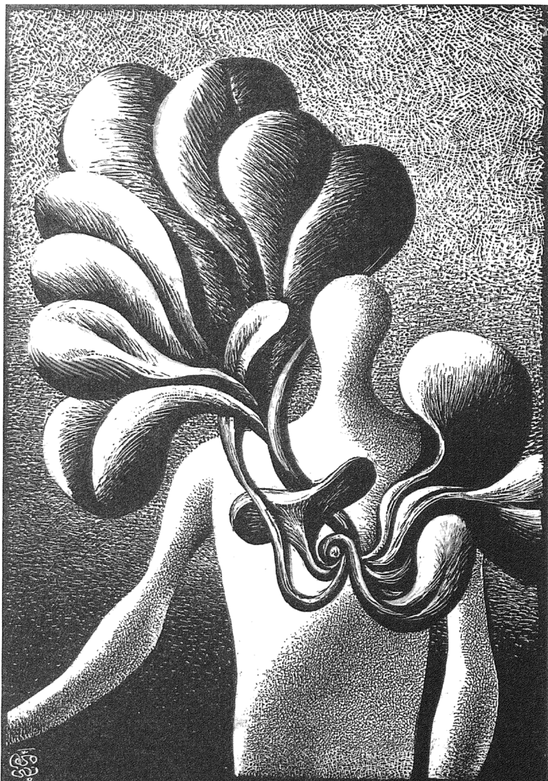
«وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨)».

ثم يأتى القرآن ويحسم هذه القضية ويبين أن أمر الشفاعة كله لله، فيقول تعالى فى سورة الزمر:

«أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ

الدنيــــــا والآخــــــرة

محمـد السـعيد مشـتهرى



(٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)».

ويقول تعالى فى سورة الانفطار:

«وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ(١٩)».

وللوقوف على مزيد من الآيات التى تنفى نفيا قاطعا وجود مثل هذه الشفاعة فى الآخرة تدبر أيضا هذه المجموعة من الآيات: الأعراف (٥٣) - الشعراء (٩٦-١٠٢) - الروم (١٢-١٣) - يس (٢٢-٢٤-٩٤) - الزمر (٤٣) - المدثر (٤٣-٤٩).

فمسألة وجود شفعاء فى الآخرة يدخلون الجنة من شاءوا، ويخرجون من النار من شاءوا، هى من المفاهيم الخاطئة التى كانت منتشرة فى عصر الرسالة الخاتمة، والموروثة عن أتباع الديانات السابقة، والمنحرفة عن صراط الله المستقيم. لذلك نزل القرآن يكشف زيفها وبطلانها. فكان من الضرورى أن يبين الله تعالى الأساس الذى يقوم عليه ميزان الحساب فى الآخرة فقال تعالى فى سورة الأنبياء:

«وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)».

وقال تعالى فى سورة آل عمران:

«يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)».

تدبر قوله تعالى (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ). فميزان الحساب فى الآخرة غير ميزان الدنيا، وهذا الذى ستجده النفس حاضرا هو عملها فى الدنيا الذى ستجازى عليه فى الآخرة. لذلك ستشعر النفس صاحبة العمل السيئ بهذا الشعور (تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً) فى هذا اليوم.

إن صاحب السيئة لن



يجد من دون الله من يمحو سيئته يوم القيامة. وقد بين الله للناس فى الدنيا كيف يعمل قانون الحساب فى الآخرة، فقال تعالى فى سورة النساء:

«ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا (١٢٣) ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا (١٢٤)».

إذن فالجزاء فى الآخرة مرتبط بعمل الدنيا. ثم تأتى آيات أخرى تبين أن هذا العمل يجب أن يكون فى حدود الشريعة التى أمر الله تعالى باتباعها، كى يدخل صاحبه الجنة. فقال تعالى فى سورة النساء:

«تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم (١٣) ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين (١٤)».

وقال تعالى فى سورة الجن:

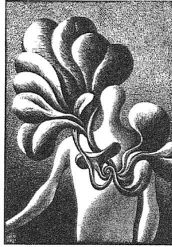
«قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا (٢٢) إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا (٢٣)».

إن التحذير من معصية الله ورسوله فى الآيتين، ومن دخول العاصى النار خالدا فيها، خاطب به الله تعالى المسلمين فى سياق الحديث عن ملة التوحيد والالتزام بأحكام الشريعة، فماذا يعنى ذلك؟؟ يعنى أن ميزان الحساب فى الآخرة لا يعرف إلا عمل الإنسان، ومدى موافقة هذا العمل لأحكام الشريعة الإلهية. فلا يعرف رأفة ولا محسوبية ولا مجاملة لأحد. يقول الله تعالى فى سورة الزلزلة:

«يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم (٦) فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٧) ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٨)».

فالإنسان هو المسئول وحده عن عمله، وسيوفيه الله تعالى الجزاء الأوفى. وفى هذا السياق جاء البيان القرآنى واضحا لا شبهة فيه. يقول الله تعالى فى سورة النجم:

«ألا تزر وازرة وزر أخرى (٣٨) وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩) وأن سعيه سوف يرى (٤٠) ثم يجزاه الجزاء الأوفى (٤١)».



وتدبر قوله تعالى فى سورة الإسراء:

«وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا (١٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (١٤) من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (١٥)».

ويقول الله تعالى فى سورة النحل:

«يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون (١١١)».

وتدبر قول الله تعالى فى سورة الزمر:

«وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون (٦٩) ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون (٧٠)».

وقوله تعالى فى سورة غافر:

«يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)».

إن التوبة، وسلامة القلب، والعمل الصالح، مفاتيح للجنة، ولقد أكد القرآن على هذه الحقيقة فى كثير من المواضع، فقال تعالى فى سورة النحل:

«الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون (٣٢)».

إن باب التوبة مفتوح دوما للمذنبين، مهما بلغت ذنوبهم، تدبر قوله تعالى فى سورة مريم:

«فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا (٥٩) إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا (٦٠)».

وتدبر قول الله تعالى سورة الشعراء:

«يوم لا ينفع مال ولا بنون (٨٨) إلا من أتى الله بقلب سليم (٨٩)».

وقوله تعالى فى سورة الزخرف:

«وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون (٧٢)».

بل إن التوبة والعمل الصالح يشفعان للإنسان يوم القيامة، فيبدل الله سيئاته حسنات. يقول تعالى فى سورة الفرقان:

«والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما (٦٨) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا (٦٩) إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما (٧٠) ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا (٧١)».

إن مسألة محو السيئات، وتكفير ذنوب أهل الكبائر، مجالها الحياة الدنيا، وتأتى فى إطار فاعلية أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وعلى رأسها صفة الرحمة، فيقول تعالى فى سورة الأنعام:

«وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم (٥٤)».

ولكن لهذه التوبة شروطا، فقال تعالى فى سورة النساء:

«إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما (١٧) وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما (١٨)».

انظر كيف تساوى الذين لم يتوبوا من المعاصى إلا عند سكرات الموت بالذين ماتوا على الكفر!! وهذا دليل على أن التوبة لن تقبل فى حالة علم التائب أنه قد دخل (أو سيدخل) غيبوبة الموت. لذلك بين الله تعالى للمؤمنين، فى سياق التحذير من أكل أموال الناس بالباطل، أن اجتناب الكبائر هو مفتاح تكفير السيئات وقبول التوبة فى الآخرة. فقال تعالى فى نفس السورة:

«يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما (٢٩) ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا (٣٠) إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما (٣١)».

والحقيقة أننا إذا أردنا استكمال بيان أن الحساب فى الآخرة لا يعرف إلا ما قدمه الإنسان من عمل فى هذه الدنيا، خيرا كان أم شرا، لكتبنا مئات الصفحات، فيكفى هذا القدر.

إلا أنه تبقى مسألة يراها البعض إشكالية.

فعلى الرغم من بيان القرآن لطبيعة ميزان الحساب فى الآخرة، وأن الجزاء على قدر العمل، إلا أن هناك بعض الآيات جاء سياقها يفيد وجود شفعاء فى الآخرة يمكن بشفاعتهم أن يتغير هذا الجزاء بعد أن ظهرت نتيجته وعلمه الناس جميعا.

ولبيان وجه الحقيقة فى هذه الإشكالية علينا أن نتدبر سياقات هذه الآيات للوقوف على معنى هذا الاستثناء، وهل هو استثناء حقيقى أم استنكارى، وكيف يفهم فى إطار ما سبق بيانه من أن الجزاء فى الآخرة على قدر العمل؟؟

إن أول هذه الآيات قول الله تعالى فى سورة البقرة:

«الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما

مسألة وجود شفعاء فى الآخرة يدخلون الجنة من شاءوا، ويخرجون من النار من شاءوا، هى من المفاهيم الخاطئة، والموروثة عن أتباع الديانات السابقة



خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)».

نعم، إنها حقيقة، فمن ذا الذى يملك شيئا فى الآخرة (شفاعة أو غيرها) إلا بإذن من الله تعالى؟؟ فالقضية ليست فى وجود شفاعة من عدمه، وإنما فى من ذا الذى يملك إذن الله تعالى بالشفاعة؟؟

ونلاحظ أن معظم الآيات التى أشارت إلى هذا الإذن جاء سياقها يتحدث عن التوحيد، وفاعلية أسماء الله الحسنى، وذلك ردا على المشركين الذين يزعمون وجود مثل هذه الشفاعة.

إن الله تعالى يقول (مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ)، ولم يبين لنا هل سيأذن فعلا لأحد بهذه الشفاعة يوم القيامة أم لا.

هذا هو مفتاح القضية الذى به نفهم باقى الآيات المماثلة، كقوله تعالى فى سورة يونس:

«إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣)».

فقوله تعالى (مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) هو مجرد خبر جاء فى سياق بيان فاعلية أسماء الله الحسنى، وليس دليلا على أن الله تعالى سيأذن بهذه الشفاعة، فهذا يحتاج إلى نص آخر قطعى الدلالة يثبت حدوثها يوم القيامة.

إن إذن الله تعالى ليس كإذن البشر. إن إذن الله تعالى هو أمره، هو شريعته، هو كل ما سبق بيانه من قواعد وأسس وموازين تحكم وتضبط مسألة الجزاء فى الآخرة. فكل الآيات التى ورد فى سياقاتها مسألة الإذن هذه يجب أن تفهم فى إطار الآيات المحكمات السابق بيانها. فعندما يقول الله تعالى فى سورة مريم:

«يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً (٨٧)».

إن الاستثناء هنا (إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً) لا علاقة له بأحوال المتقين أو المجرمين فى الآخرة، لأن الآخرة ليست محل اتخاذ عهود. إن اتخاذ العهود لا يكون إلا فى الدنيا. لذلك رد القرآن على هؤلاء الذين يزعمون تغير الجزاء فى الآخرة، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، فقال تعالى فى سورة البقرة:

«أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ».

تدبر ورود كلمة (العهد) هنا وعلاقتها بالعهد الذى ورد فى الآية (٨٧) من سورة مريم السابقة:

«لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً».

إذن فمسألة الإذن أو العهد، وغيرهما من الاستثناءات التى وردت فى سياق الآيات التى تحدثت عن الشفاعة، قد جاءت على سبيل الاستنكار ردا على اعتقاد المشركين الذى كان سائدا بين الناس وقت نزول القرآن بإمكانية مغفرة الذنوب والنجاة فى الآخرة بشفاعة الشافعين (آلهة أو ملائكة أو أنبياء).

إن استخدام كلمة (يملكون) فى هذا السياق هو استخدام محكم يدل على معنى الشفاعة الحقيقى المراد بيانه، وهو ما يملكه الإنسان فى الدنيا من أعمال تشفع له فى الآخرة. وهؤلاء المجرمون لا يملكون هذه الأعمال الصالحة أصلا، ولم يتخذوا عند الرحمن عهدا، بل واشتروا به ثمنا قليلا. وفى هذا السياق يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء:

«وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (٢٩)».

«فهل يعقل أن يكون مفهوم الاستثناء هنا (وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى) هو الإذن للملائكة (والأنبياء) بالشفاعة يوم القيامة لمن (قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً)؟؟

ولا يصح القول بمفهوم المخالفة هنا، أى القول بأن هذا الاستثناء دليل على وجود شفاعة للملائكة (والأنبياء) يوم القيامة ولكن لمن رضى الله عنهم، لأن هذا يحتاج إلى دليل آخر قطعى الدلالة، كما يعرف ذلك أهل العلم، وذلك لشبهة أن يكون المقصود بهذا الاستثناء هو استنكار أن يحدث ذلك أصلا، فتكون الدلالة هنا ظنية. ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة سبأ:

«قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ (٢٣)».

فها هو السياق القرآنى ينفى أن يكون للشفعاء دور فى محو ذنوب العباد وتكفير سيئاتهم يوم القيامة، ويبين معنى (الإذن الإلهى) الذى جاءت به سياقات الآيات الأخرى. ففى يوم القيامة يستولى القلق على من يؤمنون بهذه الشفاعة المزعومة التى اعتادوا عليها فى الدنيا، وينتظرون من ذا الذى سيأذن الله تعالى له بها. وتستمر حالة الفزع هذه والاضطراب إلى أن تتبين الحقيقة ويسأل السائلون (مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ)؟ فتأتى الإجابة (قَالُوا الْحَقَّ).

فما هو هذا الحق؟؟

لقد بين الله تعالى هذا الحق، النافى لاحتمال وجود هذه الشفاعة فى الآخرة، فقال تعالى فى سورة الزخرف:

«وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)».

إن هذا الحق المشهود هو سنة الله فى الحساب والثواب والعقاب، فى الدنيا والآخرة، والتى لا يمكن أن تتبدل بأى حال من الأحوال، مجاملة لملك أو لرسول أو لأحد من الصالحين. إنه موازين الحق والعدل المطلق.

إن الله تعالى عندما ينفى الشفاعة نفيا مطلقا، ثم يثبتها بشرط الإذن والرضا، هذا لا يعنى أنه سبحانه بدل قوله، حاشاه وتنزه عن ذلك، وإنما يعنى أنه عز وجل يقيم الحجة يوم القيامة أمام الأشهاد بأنه إن كان هناك شفاعة فلا تنفع إلا فى الدنيا، حيث العمل والتوبة والاستغفار. أى أن الشفاعة لا تنفع أحدا يوم القيامة إلا إذا جاءت من المؤمنين الأحياء فى الدنيا، فوجدوها فى ميزان حسناتهم فى الآخرة، بعد أن يأذن الله تعالى ويرضى، فلم يخافوا ظلما ولا هضما. أما من حمل ظلما فى الدنيا، وجاء يوم القيامة يحمله، فلن يجد فى ميزانه ما يشفع له. وفى هذا السياق يقول الله تعالى فى سورة طه:

«يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً (١١٢)».

تدبر قوله تعالى (إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً) فى إطار قوله فى سورة فاطر:

«مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠)».

وتدبر قوله تعالى (فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً) فى إطار قوله تعالى فى سورة الزمر:

«قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)».

إن الأعمال الصالحة



هى الشافعة لأصحابها، وسيجدونها فى ميزان حسناتهم يوم القيامة. كذلك دعاء المؤمنين واستغفارهم لإخوانهم. وذلك كله بعد أن يأذن الله تعالى ويرضى، فلله الشفاعة جميعا.

ولقد عبد المشركون الملائكة، واتخذوهم شفعاء عند الله، بدعوى أنهم هكذا وجدوا آباءهم يفعلون، فنزلت الآيات تصحح هذه العقائد الباطلة، فقال تعالى فى سورة الزخرف:

«وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون (١٩) وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون (٢٠) أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون (٢١) بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون (٢٢)».

حتى الملائكة، الذين اعتاد المشركون اتخاذهم فى الدنيا شركاء وشفعاء (حسب زعمهم) يتبرءون يوم القيامة من هذه الشفاعة ويردون الأمر كله لمشيئة الله تعالى. تدبر قوله تعالى فى سورة النجم:

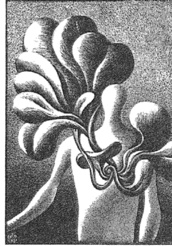
«وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى (٢٦) إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى (٢٧)».

إن شفاعة الملائكة (المأذون لهم بها) لا مجال لها إلا فى الحياة الدنيا، حيث يكون استغفارهم للذين آمنوا له فاعلية، الأمر الذى حرم منه الكافرون والمشركون. يقول الله تعالى فى سورة غافر:

«الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم (٨) وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (٩)».

أليس هذا الدعاء، وهذا الاستغفار، صورة من صور الشفاعة المأذون للملائكة بها فى الدنيا. ومما يؤكد ذلك قوله تعالى فى سورة الشورى:

«تكاد السموات يتفطرن من فوقهن



والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم (٥) والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل (٦)».

كما يؤكد ذلك أيضا قوله تعالى فى سورة فصلت:

«إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون (٣٠) نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون (٣١) نزلا من غفور رحيم (٣٢)».

نخلص من ذلك إلى أن الآيات القرآنية التى تحدث سياقها عن الشفاعة هى فى الأصل خطاب للكافرين والمشركين الذين يزعمون وجودها فى الآخرة، وعلى هذا الأساس جاء الخطاب للمؤمنين يحذرهم من أن يحذوا حذوهم.

أما باب الشفاعة الوحيد الذى أذن الله تعالى به، هو الذى بدأنا به هذا البحث، حيث يقول الله تعالى فى سورة النساء:

«من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شىء مقيتا (٨٥)».

لقد بينت الآية التى سبقت هذه الآية أن كل إنسان مسئول عن عمله وعما هو مكلف بأدائه، ولا يسأل عن أعمال الآخرين، فقال تعالى:

«فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا (٨٤)».

وحتى لا يفهم (لا تكلف إلا نفسك) على أنه دعوة للعزلة الاجتماعية، عقب بعدها بقوله (وحرض المؤمنين) لبيان أن هذه المسئولية تفرض على الإنسان أن يكون دائما آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر، فيحرض الناس على فعل الخير، وينهاهم عن فعل الشر، فينال نصيبا من ذلك الخير أو من ذلك الشر.

إذن فالشفاعة دعوة لها فاعليتها الاجتماعية فى عالمنا المعاصر.

إنها دعوة إلى فعل الخير والتزام جانب الحق.

إنها دعوة إلى نشر مبدأ التكافؤ والتعاون الاجتماعى بين الناس ونبذ الأنانية وحب الذات وتجاهل الآخرين.

إنها دعوة لإنقاذ العصاة قبل الوقوع فى المعاصى، والأخذ بيد من وقع إلى باب التوبة حيث الأمان والثقة بالنفس.

إنها دعوة إلى القيام بأعمال الشفاعة والتوجيه وتشجيع الآخرين على فعل الخير، على أساس أن المحرض على عمل الخير سيناله نصيب من نتائجه دون أن ينقص شىء من نصيب الفاعل الأصلى، وأن المحرض على عمل الشر سيناله نصيب من نتائجه، هو وكل من شاركوا فيه بأية وسيلة من وسائل التحريض المختلفة.

إنها شفاعة الدعاء والاستغفار والتوبة والعمل الصالح. هذا الباب الذى أذن به الله تعالى فدخل منه جميع الأنبياء والرسل، وورثه عنهم الصالحون. فها هو رسول الله محمد، صلى الله عليه وسلم، يشفع لأصحابه بالاستغفار. فيقول الله تعالى فى سورة النساء:

«وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما (٦٤)».



ولذلك عندما أراد رسول الله محمد، صلى الله عليه وسلم، أن يشفع للكافرين فاستغفر لهم دون إذن من الله تعالى، نزل القرآن يصحح له ذلك، ويبين عدم قبول الله لهذا الاستغفار، حتى وإن كان المستغفر هو رسول الله شخصيا، فقال تعالى فى سورة التوبة:

«استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين (٨٠)».

وتدبر شفاعة نبى الله نوح، عليه السلام، ودعائه للمؤمنين، يقول الله تعالى فى سورة نوح:

«رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا (٢٨)».

والمؤمنون يشفعون للمؤمنين، يقول تعالى فى سورة الحشر:

«والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم (١٠)».

إن الله تعالى لم يضعنا أمام نصوص غامضة مبهمة لا توصلنا إلى فهم مراده. إن هناك بابا واحدا للشفاعة يغلق بمجرد موت الإنسان وهو باب التوبة والاستغفار والعمل الصالح، وباب دعاء المؤمن لأخيه المؤمن أن يغفر الله له ذنوبه ويكفر عنه سيئاته، وباب استغفار الملائكة ونصرتهم لعباد الله الصالحين.

أما فى الآخرة، فلا دليل مطلقا على أن أحدا يمكن أن يكون وسيطا بين الله تعالى ومشيئته. ولم نجد فى كتاب الله الحكيم أية إشارة تبين وجود وسطاء مع الله عز وجل لتفعيل مشيئته. ومع ذلك فموازين الفضل والرحمة الإلهية نافذة فى الآخرة ولكن بيد الله وحده، ونحن فى الدنيا لا علم لنا بكيفيتها. فيقول الله تعالى فى سورة الأعراف:

«واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون (١٥٦)».

نعم، إن مشيئة الله نافذة، ولا يسأل عما يفعل، ولكن هذا كله نؤمن به فى حدود ما أخبرنا الله تعالى به فى كتابه الحكيم. فنحن نؤمن أنه لو أراد سبحانه ألا يخلد أهل الجنة فى الجنة، وألا

الشفاعة دعوة لها فاعليتها الاجتماعية فى عالمنا المعاصر. إنها دعوة إلى فعل الخير والتزام جانب الحق. إنها دعوة إلى نشر مبدأ التكافؤ والتعاون الاجتماعى بين الناس ونبذ الأنانية وحب الذات وتجاهل الآخرين



يخلد أهل النار فى النار، لفعل. تدبر قوله تعالى فى سورة هود:

«يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد (١٠٥) فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق (١٠٦) خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد (١٠٧) وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ (١٠٨) فلا تكن فى مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص (١٠٩)».

فمع إيماننا بهذه المشيئة الإلهية المطلقة، الذى قام على أساس علمى مصدره الله تعالى، إلا أننا لا نتصور أن قرار دخول الجنة أو النار يمكن أن يتغير يوم القيامة بـ (شفاعة) رسول أو ملك أو أحد من الصالحين، لأننا لا نملك الدليل العلمى القطعى الثبوت والدلالة عن الله تعالى الذى يفيد ذلك.

وخلاصة القول:

أن الشفاعة الحقيقية تكون فى الدنيا والآخرة معا، فشفاعة الآخرة ثمرة شفاعة الدنيا. إنها جزاء أخروى على عمل دنيوى. فإذا مات المؤمن مذنبا (غير مصر على ذنبه) ولم يتب، فإن أمر هذه الذنوب مفوض إلى الله تعالى يوم الحساب، وقبل الإعلان عن مصير الناس: فريق فى الجنة وفريق فى السعير، فقد يقبل الله شفاعة المستغفرين لهؤلاء المؤمنين المذنبين ويمحو ذنوبهم.

وأخيرا.... لقد جاءت سورة الشورى ببيان مفصل يؤكد ما توصلنا إليه فى هذا البحث من نتائج، فلنتدبر هذه المجموعة من الآيات أكثر من مرة حتى نقف على ما تحمله من عطاءات:

«فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٣٦)».

«والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون (٣٧)».

«والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون (٣٨)».

«والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون (٣٩)».

«وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين (٤٠)».

«ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل (٤١)».

«إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (٤٢)».

«ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور (٤٣)».

«ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل (٤٤)».

«وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم (٤٥)».

«وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل (٤٦)».

«استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير (٤٧)».

صدق الله العظيم ■

البوطى.. الفقيهُ المُربِّى

أحمد عبد الرحيم

■ أستأذن فى أن ألج إلى هذه الإطلالة على عالم الفقيه المربى العلامة الجليل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى من مدخل قد يبدو، أول مرة، أنه شخصى.

كنتُ فى أيامى الأولى بكلية أصول الدين (جامعة الأزهر) حين أهدانى أستاذى الشاب الدكتور محمد سالم أبوعاصى، الذى كنتُ حديث التعرف إليه، كتابَ الدكتور البوطى «هذا والدى: القصة الكاملة لحياة الشيخ مُلا رمضان البوطى»، فكان أول احتكاك حميم بكتابات الشيخ الذى كنتُ أقرأ له وأتابعه فى إطار اهتمامات متشعبة. كنتُ حينها فى برزخ من الحَيْرة الفكرية والمذهبية.. أوشك أن أودِّع مرحلة من حياتى الفكرية والعلمية وأستقبلَ أخرى. كتاب شيخنا هذا كان حاسماً فى إنهاء حال القلق والتردد، وقطع بعض ما كان يشدنى إلى بعض «ضلالى القديم»!

فى هذا الكتاب.. قصَّ شيخنا الجليل، ببساطة متناهية وحميمية آسرة، قصة والده الغنية العميقة. فوجدتُنى أمام نموذج من عصرنا للتصوف حين يكون حقيقياً، نابعاً من شوق يكابده المرء وصَبابة يعانيها.. لا من مصطلحات وأقوال يرددها، وأحوال ومقامات يدَّعيها. حيث كان مُلاَّ (وهو لقب كردى يقابل «الشيخ») رمضان، وكما يقص ابنه البار، شديد الاشمئزاز من أولئك الذين يجعلون من التصوف رُكاماً من الفلسفة الكلامية.. يتحدثون عن الوجد والقبض والبسط والفناء والأحوال وهم عن حقائق ذلك كله بعيدون تائهون، وكثيراً ما كان يشبههم بواصف نشوة الخمرة للناس رغم أنه لم يذقها قط! وكان يرى أن صدق الانفعال بثمرات الإيمان، التى هى حقيقة التصوف ولُبه، لا يأتى إلا من سعة العلم بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبالشرائع والأحكام التى خاطب الله بها عباده. أحببتُ أن أقدِّم بهذا المدخل، الذى ليس شخصياً فى جوهره، أداءً لبعض ما طوق به شيخُنا البوطى أعناق الكثيرين جداً من أمثالى ممن انتشلتهم، بفضل الله، كتاباتُه العميقةُ، والشفيفةُ أيضاً، من بحار الحيرة والقلق إلى شاطئ البصيرة.. والحكمة أحياناً! جزاه الله عنى وعن أمثالى خير ما جزى عالماً مرشداً مربياً، وجزى أيضاً أستاذى ذاك خيراً ومسَّاه فى غربته بكل خير.



ولد الدكتور البوطى عام ١٩٢٩فى قرية «جيلكا» قرب جزيرة ابن عمر (الجزيرة الفراتية) شمال شرقى سورية (وهى الآن داخلة فى حدود تركيا)، وحين بلغ الرابعة من عمره هاجر والده إلى دمشق. وبعد أن أنهى دراسته الثانوية بدمشق قدم إلى مصر عام ١٩٥٣ ليلتحق بكلية الشريعة بجامعة الأزهر التى حصل منها على درجة الدكتوراه فى أصول الفقه عام ١٩٦٥، وطبعت رسالته للدكتوراه مرات عديدة بعنوان «ضوابط المصلحة فى الشريعة الإسلامية». وتدرج فى مناصب كلية الشريعة بجامعة دمشق: معيداً، فمدرساً، فأستاذاً، فوكيلاً، فعميداً.. إلى أن تقاعد قبل سنوات، ليتفرغ لمواصلة جهوده العلمية والدعوية والثقافية العامة فى مختلف وسائط الإعلام: مسموعاً ومقروءاً ومرئياً.

وقد أنجز الشيخ نحو ستين كتاباً فى علوم الشريعة الإسلامية وآدابها، والفلسفة والاجتماع ومشكلات الحضارة، والتصوف والأخلاق. وترجم كثير منها إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية. ولعل من أشهر كتبه قاطبة سِفْرَه الماتع النافع «فقه السيرة» الذى تتوالى نَشَراته منذ عام ١٩٦٨، ومن آخرها الأجزاء الأربعة التى تضمنت شرحاً ضافياً، مقرِّباً من ثقافة العصر وروحه، لحكم ابن عطاء الله السَّكَندرى. وبين هذين العملين الجليلين عشرات من الدراسات والكتب والأبحاث والمقالات حول القرآن الكريم وعلومه، والسنة النبوية المشرفة، والفقه الإسلامى والقانونى، والعقيدة الإسلامية، والفلسفة والمذاهب الفكرية، وقضايا الاجتماع ومشكلات الحضارة، وتراجم الأعلام.. وأيضاً: الأدب الرفيع، حيث صدر له عملان روائيان، أحدهما مترجم عن الكردية وهو «ممُوزين»، والثانى مترجم عن بعض ما كانت تحكيه له أمه. رحمة الله عليها. وهو «سيامَنْد، ابن الأدغال».

البوطى فى كل ما يكتب نموذج رائع للفقيه الأديب، والمفكر البصير، الذى يعالج ما يعالج من قضايا الدين والفكر والاجتماع بعقل راجح مجتهد، ورؤية واعية مستشرفة، وعاطفة إنسانية دافقة تبعد قارئها عن جفاف المعلومات والنموذج المتلقى الكسول، إلى فضاء الحكمة المستخلصة من التجربة العميقة؛ ليتأمل بعقله ويتفاعل بوجدانه. كما لا يخطئ قارئه أسلوباً أدبياً رفيعاً غير مقلد أحداً من السابقين أو المعاصرين، وأحسب أننى غير مبالغ عندما أقول إنه لو تفرغ للأدب وحده لأصبح واحداً من أعمدته المميزين كما كان بلديه الشيخ الأديب الفقيه على الطنطاوى رحمه الله (ومثله فى هذا الجانب الشيخ الجليل الداعية الأوَّاه محمد الغزالى رحمة الله عليه).



وأود، قبل التعرض بشىء من التفصيل لموضوع كتابه الأخير «شرح الحكم العطائية»، أن أتوقف أمام بعض المحطات المهمة من بين اهتمامات الشيخ ومجالات نشاطه، والتى بثها فى أعماله جميعاً، ولا سيما فى كتابه الأخير هذا حيث يمكن أن نعُدَّها من أبرز المحاور التى دار عليها..

......

وأبدأ برؤيته المتكاملة لما يجب أن يكون عليه ما يسمى «المجتمع الإسلامى». ويتصل بهذا نقدُه العميق الباكر لبعض ممارسات وأفكار ما عرف بـ«الصحوة الإسلامية»، ومحاولاته ترشيدها منذ سبعينيات القرن الماضى.

فالشيخ البوطى يقرر دائماً أن الإسلام. كما هو بَدَهى. لا ينهض دون مسلمين، وأن الناس لا يكونون مسلمين بمجرد التمنى أو التحلى أو النسبة العامة إلى الإسلام. وإنما يكونون مسلمين باصطباغهم بهذا الدين.. بدءاً من أعماق أفئدتهم إلى سائر مظاهرهم وأحوالهم. والسبيل إلى ذلك هو التربية الفردية الدقيقة.. يؤخذ بها المسلمون منذ نعومة أظفارهم؛ لتصطبغ سرائرهم بالإسلام: تزكيةً وعبادةً وتبتلاً إلى الله عز وجل. فإذا قام هذا الأساس على النحو الذى وصفه لنا الربانيون وسار عليه سلفنا الصالح؛ أقام من فوقه جهازَ حكم صالح، وساد من بعده حكمٌ إسلامى سليم. فما يسمى «المجتمع الإسلامى» يتحقق من مجموع ذلك كله.. لا من الضجيج بالشعارات واللافتات التى تحمل عناوين براقة لا يكاد يتحصل تحتها مضمون!

ومن أجل هذا.. فالشيخ دائم التنبيه. منذ قديم. إلى ما يعتور هذه «الصحوة الإسلامية» من سلبيات وما تقع فيه من مآزق، حيث انحرفت فى كثير من تطبيقاتها إلى ثقافة تفرق ولا تجمع، تتربص بالمخطئ ولا ترحمه، تتهارش على الشكل ولا تقصد إلى اللُب.. فنمت أفكارٌ معوجةٌ: تطول حيث يجب أن تقصر، وتقصر حيث يجب أن تطول، وتتحمس حيث لا مكان للحماس، وتبرد حيث تجب الثورة (كما كان الشيخ الغزالى يقول كثيراً)!

وقد اهتم الشيخ البوطى بمثل هذه النواقص: جبراً لها، وترشيداً من سلوك أصحابها. وتناولها فى ثنايا كتاباته، وخصص لبعضها بعضَ أهم كتبه: «اللامذهبية: أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية»، و«السلفية: مرحلة زمنية مباركة.. لا مذهبٌ إسلامى»، و«الجهاد فى الإسلام»، و«هذه مشكلاتُنا».

وفى المقابل.. ناقش كثيراً من أفكار وشبهات أصحاب المذهبيات الفكرية والفلسفية التى تعرضت بالنقد للعقيدة والشريعة، بدافع من رغبة حقيقية فى المعرفة والإصلاح، أو انطلاقاً من كيد ظاهر أو خفى للإسلام وأهله. فكتب بعض أعمق كتبه: «كبرى اليقينيات الكونية: وجود الخالق، ووظيفة المخلوق»، و«نقض أوهام المادية الجدلية»، و«هذه مشكلاتهم». بل إنه تعدى هذا السجال المكتوب من طرف واحد إلى الحوار المباشر مع بعض رموز الفكر اليسارى المحترمين، كما صنع فى محاورات بثها التلفزيون السورى، فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضى، مع

البوطي في كل ما يكتب نموذج رائع للفقيه الأديب، والمفكر البصير، الذي يعالج ما يعالج من قضايا الدين والفكر والاجتماع بعقل راجح مجتهد، ورؤية واعية مستشرفة



الدكتور طيب تيزيني. ثم في محاورتهما العلمية الضافية التي ضمها الكتاب الأول من سلسلة «حوارات لقرن جديد» التي أطلقتها دار الفكر بدمشق عام ١٩٩٨م، وكان بعنوان «الإسلام والعصر: تحديات وآفاق».

ولا يمل الشيخ من انتقاد الغلو والتطرف أياً ما كان تجليه: دينياً، أو لادينياً.. فالغلو كله . كما يقرر . شر، والتوسط السلوكي والتوازن المعرفي هما صمام الأمان لأية فكرة أو دعوة أو حركة.. وهذا هو ميزان الحكمة التي أوتي شيخنا منها حظاً عظيماً.



ومن هذه الحكمة التي أزعم أن شيخنا الجليل قد أوتي منها حظاً عظيماً.. أنتقل إلى محطة مهمة مما يجدر التوقف عنده في مسيرة الشيخ.. تلك المتعلقة بمنهجه الذي يراه في علاقة العالم بالحاكم في بلادنا العربية والإسلامية..

فقد تعلم الشيخ من والده الجليل أن نصيحة الحاكم ضرورة ما أمكن ؛ إذ كان يعتقد أنها من أجل القربات إلى الله تعالى.. شريطة ان تكون صافية عن شوائب الطمع في مغنم أو الفرار من مغرم، وأن تكون أيضاً في غاية الحكمة واللين. كما أنه أرشده إلى أن كل فئات الأمة يجب أن تتقاسم هذه المسئولية وتتعاون في النهوض بمهامها، وأن التعاون على هذا الطريق لا يكون إلا بالاعتماد على شبكة من حسن الظن المتبادل. كما نبهه إلى أن التكفير الكيفي للناس سلاح الحاقدين والمنتقمين، وأن النصيحة القائمة على التعاون وحسن الظن هي سلاح المجاهدين حقاً.

والشيخ يقص، في سياق عرضه اختياره هذا، ما وجد نفسه «مقاماً» فيه (بتعبير السادة الصوفية)، من القيام بواجب النصح للرئيس السوري السابق حافظ الأسد منذ بدايات الثمانينيات من القرن الماضي، حين كانت حوادث «الفتنة». بتعبيره. على أشدها بين النظام السوري وجماعة «الإخوان المسلمون»، وكان قد تردد في بدء هذه الصلة لولا أن حثه عليها والده الجليل ناصحاً إياه بما سبق.. وعن هذا يقول أيضاً: «ذاك هو منهج والدي . رحمه الله . في الصلة بالحاكم وطريقة النصح له، وتلك هي وصيته لي . رحمه الله .. ولن أحيد عن هذا المنهج بتوفيق الله وعونه حتى ألقى الله عز



وجل: أوصى بالخير، وأحسن الظن، وأشكر على ما قد يتم إنجازه من الحق.. مبتعداً عن المغانم والمنافع الدنيوية التى قد تلوح من خلال ذلك. ولن أفتأ أدعو له (أى الحاكم)، كما أوصانا، بمزيد من الاستقامة على الرشد.. ما حييت. فقارن .رحمك الله. بين هذا النهج الذى ربانا عليه من لا يشك أحد ممن عرفه فى إخلاص سريرته وصفاء قصده ونزاهته عن الدنيا ومغرياتها، وبين أولئك الذين بلغ بهم الأمر أن ضاقوا ذرعاً بوصفى لقطرنا العربى السورى بـ «المؤمن» لأنه ربما يمتد بالسراية إلى رئيسه!».

وانطلاقاً من هذه الرؤية، التى يحكمها إخلاص النية وتجويد الأداء، نهض الشيخ إلى ما رآه واجباً عليه بمقتضى إقامة الله تعالى إياه فى مقام «العالمية»، فخاطب الرئيس حافظ الأسد وعدداً من الملوك والرؤساء والمسئولين الآخرين: ناصحاً إياهم، شاداً على أيديهم فيما صنعوا من خير، منبهاً على ما يراه تقصيراً أو مزلقاً. وكان له دور كبير فى تحسين الأجواء، ولو قليلاً، ببلاده بقدر ما قدر الله له، حتى إنه توسط لكثير من الأعلام الذين أبعدوا عن سورية السنين ذوات العدد ليرجعوا من ثم.. يتفيئون ظلال شامهم الذى طال شوقهم إليه.

ومع هذا.. لم يسلم من انتقادات واتهامات كثيرة بسبب هذا النهج.. بعضها مخلص، وأغلبها ذو هوى. حتى اضطر إلى نشر نصوص ما ألقاه من كلمات بين أيدى الملوك والرؤساء والمسئولين فى كتاب، طالباً أن يتأملها منتقدوه ليخرجوا منا بما يرونه تقصيراً فى نصيحة، أو تجاوزاً فى مديح، أو كلاماً ذا لحن إلى هوى أو منفعة شخصية. ومن المؤثر والدال فى هذا الكتاب أنه ذكر .متألماً. فى مقدمته أغرب سؤال تلقاه فى حياته، وهو التساؤل عن سر بكائه وهو يصلى على جنازة الرئيس حافظ الأسد (نزولاً على حد وصيته). فإذا اضطر المرء إلى تعليل فيضان عينه وجداً وجيشان مشاعره تأثراً بجلال الموت وهيبته، فضلاً عن الاعتذار عنهما: فهل يسلم بعد هذه منطق فى الانتقاد؟! ورحم الله أباذؤيب الهذلى حين اعتذر لحبيبته فى قوله: وعيرها الواشون أنى أحبها /وتلك شكاة ظاهر عنك عارها!

وهو يسائل (فى «هذا والدى») من ينتقده بغير وجه حق قائلاً: «.. فيم تحولت محاريب الدعوة والإرشاد إلى ساحات بطش وانتقام؟! لماذا اختفت القلوب التى يجب أن تفيض شفقة على عباد الله ؛ لتبرز فى مكانها قلوب تفيض بالشحناء والبغضاء؟! ترى.. إلام كان يؤول حال الناس لو أن الذين يتقلبون فى هم إقامة «المجتمع الإسلامى» سلكوا طريق هؤلاء الربانيين فى محاورتهم ودعوتهم إلى الله؟! إذن.. لفتحوا . والله . مغاليق الأفئدة بكلماتهم النورانية، ولدانت لهم الرتب، ولتعشقتهم النفوس! ألا.. إن الطريق إلى ذلك مفتوح، ولن يتكلف السائر فيه إلا إخلاصاً لله، وصفاء فى القصد، وعبودية واجفة لله، وترفعاً فوق محبة الشهوات والأهواء والعصبيات».

والشيخ البوطى ينتهز أية مناسبة فى أثناء حديثه وكتابته ليؤكد على هذه المعانى النبيلة التى خسرت مجتمعات المسلمين كثيراً بغيابها عنها..

ففى سياق تعليقه. مثلاً. على حكمة ابن عطاءالله السكندرى الجميلة «ادفن وجودك فى أرض الخمول.. فما نبت مما لم يدفن : لا يتم نتاجه»، يقص واقعة دالة على أهمية الوعى بمثل هذه المعانى المعرفية والسلوكية، وخطورة الغفلة عنها لا سيما فى مجالات الدعوة الإسلامية والعمل العام. يقول: «زارنى مجموعة من الشباب الذين قفزت بهم أنشطتهم الحزبية والاجتماعية إلى ذرا منابر الدعوة والتوجيه والأمر والنهى، دون مرور بهذه المرحلة التكوينية التى يتحدث عنها ابن عطاءالله فى هذه الحكمة. ولما اطمأنت بهم مجالسهم.. نظر إلى أحدهم ناصحاً. وكان أصغرهم سناً. وقال: قال الله تعالى «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار».. قرأ الكلمة بهذا الشكل: « فتمسكم» بضم الميم!

استعدته تلاوة الآية. ظاناً أن الخطأ فى تلاوتها إنما كان سبق لسان.. فأعادها كما بدأها، دون أن يتنبه إلى أنه أخطأ فى شىء ما. قلت له: ولكن الآية، كما هى فى القرآن وفى اللغة : «فتمسكم»، بفتح الميم لا بضمها.. عليك إذن أن تعود فتصحح تلاوة الآية. حاول الشاب كثيراً دون جدوى، ولم يستطع أن يقيم لسانه على نطق سليم بكلمة «فتمسكم»!

قلت له: «يا هذا.. لقد حملتك غيرتك الفجة على الإسلام على أن تجلس منى مجلس الناصح والواعظ، فهلا حملتك غيرتك هذه على أن تتعلم القرآن أولاً؟!».

ثم علق الشيخ: «والحق.. إنى أسفت جداً لهذه المفارقة، ولكنى لم أستغربها ولم أعجب منها! إذ إن حال هذا الشاب لم يكن بدعاً أو فريداً فى أمثاله، بل هو نموذج لحال كثير من الشباب الذين يتربعون اليوم على أريكة الإرشاد والتوجيه، قفزاً فوق مرحلة التكوين التى يتحدث عنها ابن عطاءالله.. رشحتهم لها المراكز الحزبية أو الأنشطة الاجتماعية أو المصالح المتبادلة، فى غياب تام لمشاعر الغيرة على الحق والإخلاص لدين الله عز وجل!».

......

ومهما يكن من شىء.. فلأى أن يختلف أو يتفق مع الشيخ فى نهجه هذا، ولكن الذى لا يجوز بحال هو تجاوز مرحلة الاختلاف فى الرأى والاجتهاد إلى تسور القلوب والحكم على ما لا مطلع عليه إلا الله تعالى! فحسب العامل أن يعمل بما أداه إليه اجتهاده، وهدته إليه التجربة وملابسات الواقع..

وإذا كان لمنتقدى الشيخ البوطى فى هذا كل الحق فى الانتقاد. كما أسلفت. : فإنه يجدر بهم أيضاً ألا يكونوا من القاعدين.. الذين لا يعملون، ولا يعجبهم أيضاً أن يعمل العاملون (على حد تعبير الدكتور طه حسين مهدياً كتاباً له إلى بعض شاتميه!).. فالأمر هو على ما قال الأول: لا تقل عن عمل: ذا ناقص/ جئ بأوفى.. ثم قل: ذا كامل! أو على ما قال الحطيئة ناعياً على مثل الذين وصف طه حسين: أقلوا عليهم، لا أبا لأبيكم، / من اللوم.. أو سدوا المكان الذى سدوا!

والله أعلم.



ومن أجل هذا أرى أنه يتوجب علينا التلبث قليلاً عند واحدة من أهم المحطات فى مسيرة شيخنا الجليل السلوكية والعلمية، وهى متصلة، ولا ريب، بما سبق... محطة التربية والتصوف (وإن كان الشيخ يتعمد تجنب مصطلح «التصوف»، رغم أنه يعلم دائماً أنه «لا مشاحة فى الاصطلاح» إذا تم التوافق على المضمون، حذراً من أولئك الذين ينتقمون . كما يقول. من البناء كله من أجل خطأ فى تصميم إحدى نوافذه أو يحرمون الطعام الطيب الطاهر من أجل استنكارهم اسمه!)

وأنا أستعير من الدكتور محمد سالم أبوعاصى. الذى أشرت إليه صدر المقال. وصفه الموجز المعبر بعاميته الذى وصف به الشيخ البوطى، وهو أنه «إنسان متربى كويس»! وهذا ما لا يخفى على من تيسرت له أدنى صلة بالشيخ وأعماله. فقد تربى على يدى والده الشيخ الجليل الخفى النقى التقى ملا رمضان البوطى رحمة الله عليه.

وقد نذره والده للعلم بوصفه «الطريق إلى الله»، وقال له مطلع حياته . كما قص هو نفسه.: «اعلم يا بنى أننى لو عرفت أن الطريق الموصل إلى الله يكمن فى كسح القمامة من الطريق ؛ لجعلت منك زبالاً. ولكنى نظرت.. فوجدت أن الطريق الموصل إلى الله هو العلم به وبدينه. فمن أجل ذلك.. قررت أن أسلك بك هذا الطريق».

ومن هنا.. سلك شيخنا طريق العلم الحقيقى: النافع المؤثر.. الباذر معرفة عميقة، وسلوكاً راقياً، ونفعاً عاماً للإنسانية كلها. وهذا هو جوهر التصوف . أو ما شئت أن تسميه!.. فصاحب القلب الرقيق هو المؤهل لبلوغ منازل الصديقين.. إن هو تعهد قلبه بشىء من غذاء المراقبة والذكر والديمومة على قراءة كتاب الله تعالى. بينما صاحب القلب المفعم بأهواء الدنيا ومصالحها ومغانمها لابد أن تغلفه القسوة وأن يهيمن عليه الران.. فلا يصلح ظاهره البراق من هذا الباطن العفن شيئاً. ومن هنا.. فالشيخ دائم التنبيه إلى ضرورة توافر شحنة الإخلاص لله. عز وجل. فى جميع أنشطتنا الدينية والاجتماعية، فهو (الإخلاص وتجريد القصد لوجه الله الكريم وحده) دواء رائع فعال لآفاتنا الشخصية والجمعية.. لو أمكن العثور عليه! ومن غيره تبدو أعمال المرء صوراً قائمة بلا روح، كما عبر ابن عطاء الله السكندرى فى حكمته: «الأعمال صور قائمة، وأرواحها: وجود سر الإخلاص فيها» (الحكمة العاشرة).

ومع هذا كله.. فحوافز الدين ليست محصورة فى عاطفة جامحة، بل هى . قبل ذلك. قائمة على ضوابط الوعى والسلوك، وكوابح المعرفة بقواعد الدين وأصوله.. على حد تعبيره.

ويركز الشيخ، فى كل ما يكتب، على جمع هذه المعانى معاً فى سبيكة واحدة.. لا سيما إذا كان ينتقد مذاهب وأفكاراً لها أنصار ومعارضون. فهو، إذ ينتقد، يجلى ما يراه صواباً. بحسب ما أداه إليه اجتهاده.، بغض النظر عن تأييد فريق على فريق. ولهذا.. عندما أصدر كتابه الماتع النافع «السلفية...» لم يعجب طائفتين متناقضتين من الناس: فبعض أهل الطرق من متعصبة الصوفية أنكروا عليه ما أسموه «مجاملة ابن تيمية وشيعته، والإساءة إلى معنى التصوف، وإساءة فهم حقيقته»، وبعض متعصبى السلفية أنكروا عليه. بدورهم. ما أسموه «هجوماً ظالماً على ابن تيمية ونهجه، ودفاعاً عن محيى الدين بن العربى وفلسفته». وبعد إشارته إلى هاتين القراءتين القاصرتين.. قال: «..وقد كنت متوقعاً. ولا أزال. ألا يتفق معى فى كثير مما كتبت المتعصبون للتصوف والمتعصبون ضده، والمتعصبون للأشخاص والمتعصبون ضدهم. (...) إنما أخرجت هذا الكتاب لناشئة هذه الأمة.. هؤلاء الذين يتحرقون على معرفة الحق بين منعرجات الأهواء

النفسية والانتماءات العصبية».. وهذا المنهج. كما قال أيضاً. هو«الحكم العدل بين فئات طال فيما بينها الخصام.. خصام لم ينطلق إلا من إصرار على الدفاع عن الذات، ولم يثمر إلا حناظل الكراهية والشحناء».

«فإذا آل العمل الإسلامي. في مظاهره المتنوعة. إلى أن يصبح حرفة لاستثمار الدنيا ومتمولاتها : فماذا تتوقع من الحرف الدنيوية؟! وكيف السبيل إلى أن يسمو بها أصحابها إلى مستوى الأعمال الصالحة التي يبتغى بها وجه الله؟!»..

ما الحل إذن؟

إنه يقول: «.. ولو صفت القلوب، وخلصت النيات من الشوائب، وهيمن الإخلاص لوجه الله على أفئدة العاملين على اختلاف أنواعهم وفئاتهم: لرأيت أن كلمة المسلمين اليوم واحدة، ولرأيت أن هيبتهم وقوتهم ملء أفئدة أعدائهم».

......

أحسب الآن، وبمناسبة هذه النقطة، أنه قد آن أن أدلف إلى المتن الذي دار عليه كتاب شيخنا البوطي الأخير «الحكم العطائية: شرح وتحليل»!



لا يختلف دارسو التصوف الإسلامي على اعتبار الشيخ أحمد بن محمد بن عبدالكريم، المشهور بابن عطاءالله السكندري (٦٥٦.٧٠٩هـ)، أحد أهم أركان الطريقة الشاذلية الصوفية التي أسسها الشيخ أبوالحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ هـ. وقد أخذ ابن عطاءالله الطريق على الشيخ أبي العباس المرسي، تلميذ أبي الحسن، المتوفى سنة ٦٨٦هـ (وتجدر الإشارة هنا إلى أن شيخنا العلامة البوطي سبق قلمه، في مقدمة شرحه هذا، بأن ابن عطاءالله تتلمذ على الشيخين جميعاً. والظاهر من التواريخ أن الشاذلي توفي، كما ذكر بدرالدين العيني في «عقود الجمان في تاريخ أهل الزمان» وغيره من أهل التاريخ، عام ٦٥٦ الذي ولد فيه. أو قريباً منه. ابن عطاءالله. والله أعلم)؛ وذلك بعد أن حصل قدراً صالحاً من علوم الشرع وبعد معاناة وبحث عن حقيقة التصوف الذي نشأ على النظر إلى أهله نظرة ناقدة. وقد أفادته هذه الدراسة وهذا التأمل العميق والبحث الجاد عن حقيقة التصوف نمطاً من «التصوف السني المتشرع». إذا صح الوصف، يعتمد الكتاب والسنة مصدرين أساسيين للمعرفة والسلوك معاً، وعلى الخلق العملي والعلم والعمل. لا خوارق العادات أو الشطح. علامات فارقة بين نوعين من السلوك الصوفي للوصول إلى لب الدين: متحقق بالكتاب والسنة والعلم والعمل.. ومدع ممخرق بالدعوى والتلبيس والدجل. وقد عرف له هذه المنزلة المتوازنة بعض ألد خصوم «التصوف المدعي»، وهو الشيخ الفقيه الحنبلي ابن تيمية (٦٦١.٧٢٨هـ)، الذي جرت بينه وبين ابن عطاءالله مناظرة بالأزهر الشريف، واعترف له . مع ذلك . بالصدق والعلم.

ومن أهم آثاره. وأصغرها حجماً أيضاً. متنه الذي عرف بـ «الحكم».

وينظر إلى حكم ابن عطاء الله السكندري بوصفها من عيون النثر الصوفي العربي. من جهة الأسلوب الأدبي الرفيع، ومن جهة البناء الأخلاقي والسلوكي الذي يتدرج فيه ابن عطاءالله قصد رفع المسلم من حال العبودية التقليدية الباردة إلى حال من الاستبصار واليقين التي يزينها قدر من اللوعة والشوق والحس الراقي.

وهي عبارة عن ٢٦٤ فقرة (بحسب ترقيمي إياها في نشرتي المطبوعة في دار البصائر بالقاهرة سنة ٢٠٠٤م)؛ لا يتجاوز معظمها السطرين أو الثلاثة، في جمل قصيرة ذات ألفاظ قليلة. وفي لغة رامزة موحية محيلة إلى معان عميقة ومتنوعة بحسب المتلقي. وهي. في أغلبها. خطاب موجه إلى المريد السالك طريق الوصول إلى الله عز وجل: تنبيهاً له إلى قواعد هذا السلوك، وتحذيراً من آفات الطريق وعوائقه ومكايده. قاصداً من هذا كله أن يمضي المسلم في طريقه إلى الله تعالى على بصيرة وعلم وتحقق.

وقد شاعت هذه الحكم منذ عصر ابن عطاءالله في مصر وبلاد المغرب وفي الأندلس، حيث عكف عليها الصوفية: درساً وشرحاً. ولم يكن الاهتمام بها مقصوراً على خلوات الصوفية الخاصة، بل صارت متناً منهجياً معتمداً للتدريس في أعرق معاهد العلم في العالم الإسلامي.. الأزهر الشريف، حيث شرحها شفاهاً في دروس عامة في المساجد عدد من الفقهاء الأزهريين، كان من آخرهم العلامة الفقيه الحنفي محمد بخيت المطيعي (المتوفى سنة ١٩٣٥م)، والعلامة الفقيه المالكي حسنين محمد مخلوف (المتوفى سنة ١٩٩٠م)، وشيخنا العلامة الفقيه الشافعي الدكتور علي جمعة. حفظه الله ... وكلهم تولى الإفتاء بمصر.

أما الشروح المكتوبة عليها : فقد جاوزت العشرين شرحاً، لكل شرح منها منزع ومذاق. وآخرها طباعة. فيما أعلم . شرح شيخنا العلامة البوطي هذا. كما كان الشيخ الداعية الأواه محمد الغزالي . رحمه الله. قد سبق إلى الاهتمام بها في فصل ماتع جداً من كتابه الجميل «الجانب العاطفي من الإسلام: بحث في الخلق والسلوك والتصوف» شرح فيه بضعة عشر حكمة منها. منبها إلى مذخور الحكمة العميقة والجوانب التربوية العالية التي ينبغي ألا يغفل عنها الدعاة والمربون بزعم أن هذا تراث صوفي لا حاجة بنا إليه لأن في الكتاب والسنة ما يغنينا عنه. وكأن الحكم العطائية مناقضة للكتاب والسنة أو صارفة عنهما!

الشيخ دائم التنبيه. منذ قديم. إلى ما يعتور هذه «الصحوة الإسلامية» من سلبيات وما تقع فيه من مآزق، حيث



انحرفت في كثير من تطبيقاتها إلى ثقافة تفرق ولا تجمع، تتربص بالمخطئ ولا ترحمه





وإذا جاز لنا أن نختزل أفق هذه الحكم الوسيع في عدد من المبادئ الجامعة : فإنه يمكننا أن نذكر منها أربعة. هي جماعها، وعليها مدارها..

أولها: محاسبة النفس.

وثانيها: الزهد.

وثالثها: الحرية.

ورابعها: إسقاط التدبير.

وهي أربع مراحل تشكل أفقاً إنسانياً رحيباً - أبعد من أن يكون إطاراً صوفياً خاصاً -.. يستعيد فيه «الإنسان» - بوصف الإنسانية فيه - جوهره الشفاف، ويمتلك به زمام إرادة الحياة الحقة: سعياً وعمارة. وينعتق فيه من أسر المادة وعبودية الشهوات..

فمحاسبة النفس خطوة أولى في طريق التغيير الاجتماعي الشامل نحو الأفضل والأليق بمجتمع إنساني سعيد.

انظر مثلاً إلى قوله (ابن عطاء الله): «أصل كل معصية وشهوة وغفلة: الرضا عن النفس. وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا منك عنها. ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه: خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه.. فأي علم لعالم يرضى عن نفسه؟! وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!» (الحكمة ٣٥): تجد الإشارة واضحة إلى أن النفس الإنسانية لا يطلب لها العافية إلا من أدرك ما بها من أدواء، وأن ذلك الشعور بالنقص هو أول مراحل الكمال. أما من أصيب بعلة فلم يشعر بها. وبالتالي.. لم يطلب دواءها: فإن جراثيمها تستشري في أوصاله حتى تأتي عليه. ومن المعلوم أن مداواة نفس هي بداية صلاح مجموع، وأن البناء السليم هو المتألف من لبنات صحيحة.

والزهد (الظاهر والباطن) يدفع إلى عدم التعلق بتوافه الحياة، وعدم الحزن على ما فات منها، وعدم الفرح / البطر بما نيل منها.. ذلك أن وراء هذه الظواهر الزائلة متعاً روحية أبقى، وأشواقاً إنسانية أسمى..

كتاب الزاوية



مرثيات محمود درويش

كما لو نودى بشاعر أن انهض*

على أربعة أحرف يقوم اسمُكَ واسمى، لا على خمسة. لأن حرف الميم الثانى قطعةُ غيار قد نحتاج إليها أثناء السير على الطرق الوعرة.

فى عام واحد وُلدنا، مع فارق طفيف فى الساعات وفى الجهات. وُلدنا لنتدرب على اللعب البرىء بالكلمات. ولم نكترث للموت الذى تَدُقه النساء الجميلات، كحبة جوز، بكعوب أحذيتهن العالية.

عاليًا، عاليًا كان كُلّ شىء.. عاليًا كالأزرق على جبال الساحل السورى. وكما يتسلقُ العشب الانتهازى أسوار السلطان، تسلقنا أقواس قُزَح، لنكتب بألوانها أسماء ما نحب من الأشياء الصغيرة والكبيرة: يدًا تحلب ثدى الغزالة، مجدًا لزارعى الخس فى الأحواض، شغف الإسكافى بلمس قَدَم الأميرة، ومصائر أخرى لجمهور مطرود من المسرح.

لم ننكسر بدَوِىٍّ هائل كما يحدث فى التراجيديات الكبرى، بل كأشعة شمس على صخور مُدَببة لم يُسفَكْ عليها دم من قبل، لكنها أخذت لون النبيذ الفاسد، هناك، لأنه لا أحد، هناك ليسمع: أو يشهد.

دَلَّتنى عليك تلك الضوضاء التى أحدثتها نَمْلَةٌ بين الخليج والمحيط، حين نجت من المذلة، واعتلت مئذنة لتؤذن فى الناس بالأمل، ودلَّتكَ علىَّ سخرية مماثلة!

ولما التقينا عرفتك من سعالك، إذ سبق لى أن حفظته من إيقاع شعرك الأول، يُفزعُ القطط النائمة فى أزقة دمشق العتيقة، ويبعثر رائحة الياسمين.

❖ فى ذكرى ممدوح عدوان

ولا يقتضى هذا بالضرورة أن يكون الزهدُ عن فقرٍ مادىٍ وإملاق، بل إنه يتفق أن يكون الزاهدُ الحقّ من أغنى الأغنياء ؛ إذْ يملكُ الدنيا ولا تملكه. وهذه حقيقةُ الحرية..

فالحرية تعنى الانعتاقَ من أَسْرِ الأشياء ومن الخضوعِ لحُظوظ النفس وشهوات الجسد..

إن الذُّلَّ والعبوديةَ مرتبطان بالطمع: «ما بَسقَتْ أغصانُ ذُلٍ إلاّ على بذرِ طمَعٍ!» (الحكمة ٦٠)، «أنتَ حرٌ ممَّا أنْتَ عنه آيسٌ، وعَبْدٌ لمَا أنْتَ لَهُ طَامِعٌ» (الحكمة ٦٢)، «ما أحْبَبْتَ شيْئاً إلا كنْتَ لَهُ عبْداً.. وهو لا يُحبُّ أنْ تكونَ لغيرِهِ عَبْداً» (الحكمة ٢١٠)..

وإن الحزنَ والهمَّ مرتبطان بالتعلُّق بالفانى والفرحِ به: «ليَقِلَّ ما تَفْرَحُ بِهِ ؛ يَقِلَّ مَا تَحزَنُ عليه» (الحكمة ٢٢٦)، «إنْ أردْتَ ألاَّ تُعْزَلَ ؛ فَلا تَتَولَّ ولايَةً لا تَدُومُ لَكَ!» (الحكمة ٢٢٧).

ومَقام الحرية هذا مَقامٌ شريف، لا يتحقق إلا بكمال العبوديةِ الصحيحة لله تعالى، الحقِّ الغنىِ ربِّ العالمين، وحدَه.. وهذا ما ينتهى بنا إلى مَتْنِ التوحيد، وعُمقِ المعرفة.. وهو إسقاط التدبير..

وهذا المبدأ الرابع هو لُبُّ لُباب هذه الحكم.

والتدبير الذى يريد ابن عطاءالله أن يصل بالسالك إلى إسقاطه، فى قوله: «أَرِحْ نفسَكَ من التدبير.. فما قام به غيرُكَ عنك ؛ لا تقم به لنفسك» (الحكمة الرابعة)، هو (كما يقول ابن عبَّادِ النَّفْزِىَ فى شرحه الجميل على الحكَم) «أن يقدِّر الشخصُ فى نفسه أحوالاً يكون عليها، وَفْقَ ما تقتضيه شهوتُه، ويدبِّرَ لها ما يليق بها. من وِجهة نظره. من أحوالٍ وأعمال.. وفى هذا تعبٌ عظيمٌ استعجله لنفسه، ولعل أكثر ما يقدِّره لا يقع، فيَخيبَ ظَنُّه، ويَبْطُلَ سَعيُه. هذا من زاوية. ومن أخرى.. فإن فيه من ترك العبودية، ومُضادَّةَ أحكام الربوبية، ومنازَعة القدر، وإضاعة العمر.. ما يحملِ العاقلَ على تركه واجتنابه، وقطع موادِه وأسبابه».

أما عبارة الشيخِ البوطى ؛ فيقول فيها: «هنالك فرقٌ كبيرٌ بين تعامل الإنسان مع الأسباب، وتدبير الإنسان أمورَ نفسه من خلالِ الأسباب. التعامل مع الأسباب جُهدٌ عضَلى مادى يبذله المتعامل معها.. يذهب إلى السوق ليتاجر، يذهب إلى الجامعة ليتعلم، يتجه إلى الطبيب ليتداوَى، يبتعد عن أسباب الضُرِّ التى حذَّر الله منها. أما التدبيرِ ؛ فعملٌ فكرى، وقرار عقلى، معناه أن يُحدثَ الإنسان نفسَه بأنه بتعامله مع الأسباب قد رتَّب لنفسه خطة الربح والنجاة، وضمن لنفسه النتائج.. فالأسباب فى نظره خَدَمٌ تحت سلطانه وأدواتٌ لتدبيره، وعقله هو مفتاحُ نجاحه ومصدر تدبيره».

ثم يؤكد الشيخ على أن إراحة المرء نفسَه من التدبير لا تعنى بحالِ الكسلَ والامتناعَ عن السعى والعمل: «ألا تراه (ابنَ عطاءالله) يقول: «أَرِحْ نفسَك»، بدلاً من أن يقول: «أَرِحْ جسمَك»؟! فالتعامل.. مصدره الجسم والأعضاء، وهو مطلوب مرغوب. والتدبير.. مصدره النفس والفكر، وهو مرفوض ومكروه».

فابن عطاءالله يَقصِدُ من الإلحاح على هذه الدعوة إلى إسقاط التدبيرِ بهذا المعنى (وقد أفرد له كتاباً ماتعاً سمَّاه «التنوير فى إسقاط التدبير») إلى غايةٍ نفسيةٍ يضعها نُصْبَ أعين السالكين.. فهو يَحثُّ السالكَ على ألاَّ يكونَ قلِقًا متطلِّعًا إلى استكناه المجهول من أمرِ المستقبل ؛ لأنّ الانشغال بهذا التطلُّع يترتب عليه توزُّعُ النفس، وتعذيبُ الفكر، ووحْشةُ الرُّوح.. فضلاً عما يتضمنه. استلازماً غيرَ مقصودٍ فى أغلب الأحيان. من منازعة الربوبية ومشاركتها فيما هو من أمرها.. وهذا كله قاطعٌ عن الوصول إلى الله، شاغلٌ عن القيام بواجبات الوقت، وابن عطاءالله يقول: «اجتهادُك فيما ضَمِنَ لك، وتقصيرُك فيما طَلَب منك.. دليلٌ على انطماس البصيرة منك!» (الحكمة الخامسة) عياذاً بالله تعالى.

ولعل من أجمع ما وقعتُ عليه فى تلخيص هذه الفكرة، كلمةَ أبى إسحاق إبراهيم الخوَّاص رضى الله عنه (توفى فى حدود ٣٠٠ هـ): «العلمُ كلُّه فى كلمتين: لا تَتكلَّفْ ما كُفيتَ، ولا تُضيِّعْ ما استُكفيتَ».

وهذه الكلمة الجليلة تشير إلى أنه ليسٍ فى إسقاط التدبير. كما سبق. شىءٌ من الدعوةِ إلى السلبية والتواكُل، ونفىِ جانبِ الاختيار عن الفعل الإنسانى جُملةً (وهذا، مع الأسف، ما يفهمه كثيرٌ ممن يقرأ مثل هذا الكلام بعقل مهيىءٍ للطعن والرفض!).. فإن منِ المقرر لدى أهل البصيرة والعلم أن نَفىَ الأسباب بالجملة جهلٌ، كما أن التعلُّق بها شِركٌ.. وقد جمع ابنِ عطاءالله نفسُه هذا فى قوله: «علِمَ أن العِبادَ يَتَشوَّفُونَ إلى ظُهُورِ سرِّ العنايةِ ؛ فقال: «يَخْتَصُ برحْمَتِه مَنْ يَشَاءُ». وَعَلِمَ أنَّهُ لَوْ خَلاهُم وذلكَ، لَتَركُوا العَمَلَ اعْتماداً على الأَزَلِ ؛ فقال: «إنَّ رحمةَ الله قَرِيبٌ مِنَ المُحسنينَ»» (الحكمة١٧٠).. فقد كُفِىَ العبدُ همَّ الرزق (العاجلِ والآجلِ. المادىِّ والمعنوىُ)، وطُلب منه العملُ والسعىُ (للدنيا والآخرة جميعًا).. فأكملُ أحواله حالُ التوازن:

أن يسعى فى الأرض: موقنًا أن الرزق بيد الله، وأن يسلك إلى الله الطريق: معتمدًا على توفيق الله وحده، مسوقًا به. عند ذاك.. لن يقلق على رزق، ولن يُعجب بعمل..

وهذا هو عين «لا حول ولا قوة إلا بالله».

وأما الاجتزاء ببعض الكلام عن بعض، وابتسار الرؤية واختزالها فى جانب دون آخر: فهو من قلة الإنصاف التى لا تزال قاطعة بين الناس ولو كانوا ذوى رحم.. أو كما قال المتنبى!



وبالجملة.. فحِكَم الشيخ المُربِّى ابن عطاءالله السكندرى. رضى الله عنه. تحوى خلاصة الحكمة، وعمق التجربة.. شارعة للإنسانية الحقة، كما سبق، أفقًا إنسانيًا رحيبًا.. يستعيد فيه الإنسان. بوصف الإنسانية فيه. جوهره الأصيل الشفاف، ليمتلك زمام إرادة حياته كما تنبغى: سعيًا وعمارة وعبادة، وينعتق من أسر المادة وعبودية الشهوات.

إنها من النصوص النادرة التى تصحبنا فى رحلة العمر.. نرجع إليها كل حين، لنستمد الإيمان والعزاء، والحكمة والبصيرة.. لعلنا نسترد شيئًا من الانسجام الذى نفقده فى زحمة القبح والفوضى، والأنانية والصغار.

وستظل هذه الحكم طاقة نور تهدى الحيارى، وغيمة حنان تظل المحزونين، وحنانًا يأوى إليه السالكون إلى الله؛ إذ فيها ما يصلح لأن يتعلق به كل إنسان طاهر النفس، سليم الطوية، ينشد حياة أفضل، وواقعًا أجمل.. من غير أن يكون. بالضرورة. صوفيًا، بل من غير أن يكون مسلمًا أصلاً. فإن فى ثناياها مما يبنى الشخصية السوية الجادة، المترفعة عن سفاسف الدنيا، الطامحة إلى معالى الأمور، الهاربة من قلق النفس وضوضاء الحس وزحمة الأكوان.. إلى الطمأنينة والسكون وانجماع الهم، الراغبة فى عمارة الدنيا بالجمال والطهر..

أقول: إن فى الحكم مما يبنى مثل هذه الشخصية «الإنسانية» الشئ الكثير الكثير، الشئ الذى يضعها فى مصاف عيون الإبداع الإنسانى الراقى، الحاوى خلاصة الحكمة والتجربة، والذى يطهر النفس، ويجمل الحياة، ويشرع أفقًا للأمل والحلم..

من أجل هذا كله.. تبقى الحاجة إلى إعادة تأمل هذا المتن البانى، لا سيما وقد تيسر له شرح كامل بلغة وروح العصر، كتبه عالم فقيه مرب خبير بأدواء النفوس والمجتمعات وأدويتها! ■



حوافز الدين ليست محصورة فى عاطفة جامحة، بل هى. قبل ذلك.



قائمة على ضوابط الوعى والسلوك، وكوابح المعرفة بقواعد الدين وأصوله



كتاب الزاوية



مرثيات محمود درويش

ياسر عرفات* فاجأنا بأنه لم يفاجئنا

فاجأنا ياسر عرفات بأنه لم يفاجئنا. كأن تطابقًا بين الشخص المريض والنص المريض قد حدَّد مسبقًا صورة النهاية، وحرم البطل التراجيدى من إضفاء خصوصيته على القَدَر. فلا معجزة هذه المرة، ولا مفاجأة، منذ أصبحت التراجيديا، المصورة فى مسلسل تليفزيونى طويل، يومية ومألوفة وعادية!

لقد أعدَّنا ياسر عرفات، تدريجيًا، لوداعه المتواصل أكثر من مرة، وعودنا على موت غير عادى وغير معلن، بغارة من طائرة حربية، أو بسقوط طائرة مدنية فى صحراء. لكنه ـ والأقدار تُضفى عليه سحر الأعجوبة ـ كان يسبق الموت إلى الحياة. فنحيا معه فى رحلة أدمنا خلالها الرحيل إلى هدف يتلألأ بجماليات المستحيل، وبشاعرية رعوية تُعيننا على طول الطريق.

من منفى إلى آخر، كان الموضوع ينأى عن أرض الموضوع.. ويدنو، فى بلاغة ترسم اللافتات بدم قلنا إنه يخصب الفكرة، وينعش الذاكرة، ويرفع الحدود عن العلاقة بين الواقعى والأسطورى. كنا فى حاجة إلى أسطورة أنجزنا بعض فصولها. لكن الأسطورة فى حاجة إلى واقع، فهل سينجح الأسطورى فى امتحان العمل على أرض الواقع؟ إنه سؤال مُؤجَّل!

هو، ياسر عرفات، من استطاع أن يروض التناقض فى المنافى، بمزيج من البراجماتية والدين والغيبيات، وتحوَّل، بديناميكيته الخارقة وتماهيه الكامل بين الشخصى والعام وعبادة العمل، من قائد إلى رمز شديد اللمعان.

❖ كتبت هذه الكلمة يوم رحيل ياسر عرفات

جهـــــاد فـاضـــــل

تبرئة أبى نواس من النواسية وتبرئة أبى العتاهية من الزهد

■ - أبو نواس ليس ذلك الخليع الماجن الشعوبى كما تصوره كتب الأدب والتراث وإنما هو عند الباحثة، وبحسب بعض المصادر القديمة «قطب ربانى»، نور الله ضريحه، وأعلى شأنه!

- أبو العتاهية لم يكن زاهدًا كما أشيع عنه، وإنما كان مولعًا بالحياة ساعيًا وراء مغانمها ومكاسبها على الرغم مما فى شعره من دعوة إلى الزهد والانصراف عن متع الحياة!

تخطو الدكتورة أحلام الزعيم أستاذة الأدب العباسى بجامعة الكويت خطوة نوعية جديدة فى دراستيها المتميزتين عن أبى نواس وأبى العتاهية. فهى لم تنوع على ما كتبه طه حسين وعباس محمود العقاد ومحمد النويهى فيما يتعلق بأبى نواس، أى بالبحث عن تفسير نفسى أو غير نفسى لشخصيته وشعره. وإنما انصرفت مباشرة إلى الدخول فى «الأساس»، أى إلى الفصل فيما إذا كان المنحنى الشخصى، على حد تعبير المستشرق الفرنسى ماسينيون، لشخصية أبى نواس هو نفسه المنحنى السائد لدى الباحثين أم هو غير ذلك. فهل أبو نواس ماجن وخليع وشاذ وشعبوى وزنديق، أم على النقيض من ذلك، ولدرجة وضعه فى باب «الأولياء»، وهى المرتبة التى يستحقها بنظر بعض فئات الشيعة الباطنية التى تعتبره واحدًا من كبار أعلامها الذين يتمتعون بمكانة قدسية إلى درجة أنه ينعت بـ «القطب الربانى»، وبوضع عبارة «قدس الله سره» بعد ذكر اسمه.

تميل الباحثة الكبيرة إلى هذا الرأى الأخير فى دراستها غير المسبوقة عن أبى نواس، ولكنها لا تقبل بأقل من وضع أبى نواس، انطلاقًا من تمرده وقلقه وحريته وتأكيده على الذات وإصراره على الاختيار، جنبًا إلى جنب مع المتصوفة والوجوديين الذين ينطلقون فى معرفة الوجود من مبدأ الإنسان الكامل.

ولا يقل «حكمها» على أبى العتاهية المشهور بالدعوة إلى الزهد جرأة عن «حكمها» على أبى نواس، فهى تتشكك بزهد أبى العتاهية وتعتبره تزهدًا غير صادق، لأن ما يقوله فى شعره، وما يدعو إليه فى هذا الشعر، يتناقض تناقضًا حادًا مع سلوكه، ويتعارض مع ممارسته اليومية.

يسير بحث الدكتورة أحلام الزعيم فى اتجاه مغاير لما سار عليه النقاد والباحثون فى تناول شخصية أبى نواس وشعره، إذ يحاول تقديم وجهة نظر جديدة فى هذا الشاعر، وذلك من خلال قراءة أشعاره وأخباره قراءة جديدة يقف القارئ فيها على أبعاد رؤيته للحياة وتمرده عليها من خلال مجونه وزهده، وذلك بغية تقديم رأى منصف فى هذا الشاعر الكبير.

لقد أجمع غالبية الذين كتبوا عن أبى نواس أنه كان ماجنًا خليعًا فاسقًا، وطاب للكثيرين أن يتهموه بالزندقة والكفر والابتذال. أسرف بعضهم فى سرد القصص عن فجوره وإباحيته وشذوذه، حتى غدت شخصيته أقرب ما يكون إلى الأسطورة فى أدبنا العربى.

يهدف بحث أحلام الزعيم إلى عكس ذلك، أى إلى إثبات أن أبا نواس لم يكن كما كُرس فى أذهان الناس: إباحيًا، زنديقًا، مبتذلاً، لا يهتم إلا باللذة واقتناص المتعة، والذهاب إلى أبعد مدى وراء الشهوات والرغبات والنزوات الجامحة.

لابد بنظر الباحثة من الحذر فى إطلاق الأحكام على شخصية أبى نواس وقصائده التى تبدو فى الظاهر وكأنها تدعو فقط إلى المجون والعبث والاستهتار، وعدم الاكتفاء بما يوحيه ظاهر النص فى فهم شخصية هذا الشاعر وشعره. أما الأسباب الموجبة لذلك، فلأن سيرة أبى نواس وثقافته، وما عُرف عنه من علم وفقه وسعة اطلاع، واجتهاد فى معرفة الشريعة والدين وأصول اللغة والشعر، وما ظهر فى قصائده من اطلاع على ثقافات شتى، ومن نظرات تأملية تنم عن فهم عميق لأسرار الحياة ولغز الموت، وسبر لروح عصره ومجتمعه، وجرأة فى الخروج على السائد والمألوف فى العادات والتقاليد والمفاهيم القديمة، سواء ما تعلق منها بالدين أو بالواقع السياسى والاجتماعى، تدعو إلى أن يتخذ الباحث موقفًا مغايرًا للذين لم يروا فى أبى نواس إلا جانب اللذة، دون تمحيص أو تقص للخلفية الفكرية والسياسية لهذا الشاعر.



لا تنكر الباحثة أن أبا نواس جاهر بمجونه وكان إعلانه عن هذا المجون بهذا الشكل السافر من الأسباب الكثيرة التى دعت إلى إدانته والتشهير به، كما أسهمت إلى حد بعيد فى تجسيد أخطائه وإشاعة العديد من الروايات عنه لم يكن الهدف منها سوى الحط من شأنه والنيل منه.

ولكن لماذا جاهر أبو نواس بمجونه بهذا الشكل المفضوح؟ وهل يعكس شعره شخصيته الحقيقية أم أن لهذا الشعر خلفية ما؟ ولماذا لا يكون فى تجسيده للمجون إنما يعبر عن حالات موجودة فى مجتمعه وأراد أن يعكسها بصدق الفنان؟ ولماذا لا نفترض أن أبا نواس من خلال هذا المنحى المجونى إنما أراد أن يعرى مجتمعه ويميط اللثام عن أجوائه العامة التى توارت خلف ألف ستار وحجاب؟ ولماذا لا يكون مجونه ستارًا يوارى خلفه شخصيته الحقيقية، وعندما يصح ما قيل عنه (أبو نواس أحد جماعة كانوا يصفون أنفسهم بضد ما هم عليه حتى اشتهروا بذلك - طبقات الشعراء، ابن المعتز ص ٣٠٨).

ومن الأسئلة التى تطرحها الباحثة: لماذا لا يكون أبو نواس واحدًا من هؤلاء الذين كان التظاهر بالمجون ستارًا يخفون وراءه معتقدًا ومبدأ أساسيًا مختلفًا؟ أليس من المعقول أن يكون أبو نواس واحدًا من هذه العصبة الظريفة التى قرنت المجون بالظرف، وكان المجون بالنسبة لها سلوكًا من سلوك الظرفاء؟ ولم لا يكون فى اتجاهه إلى المجون إنما يعبر عن اليأس والمرارة وخيبة الأمل التى منى بها من جراء استلام بنى العباس الخلافة بعد غدرهم بالأطراف المتحالفة معهم؟ لا تستبعد الباحثة هذا الاحتمال، خاصة أن كثيرًا من قصائده الماجنة كانت مغلفة بروح السخرية المريرة التى تعكس تذمرًا ويأسًا مبطنين. «وإننا نرجح أن أبا نواس إنما كان يتخذ من المجون ستارًا يوارى به شخصيته الحقيقية التى آثر، لأسباب كثيرة، ألا يظهر بها».

إن المجون من هذا المنطلق لم تعد الغاية منه مجرد العبث أو التفحش والاستهتار، أو دعوة إلى التهالك على اللذائذ المادية الرخيصة كما يبدو فى ظاهره، بل راح يعبر عن حاجات روحية دفينة تعكس تارة ردات الفعل المريرة لخيبة الآمال والإحساس بالمرارة واليأس، وأحيانًا أخرى تعكس مظهرًا لا يمت بصلة إلى شخصية قائله الحقيقية.

لقد خرج شعر المجون عند بعض الشعراء، ومنهم أبو نواس، عن معناه الحقيقى ليغدو تارة أسلوبًا من أساليب الظرف أو السخرية، وتارة ليغدو غطاء لأفكار ومواقف لا يجرؤ معتنقها على أن يبوح بها.

وإذا ما عدنا إلى أغلب قصائد أبى نواس الماجنة، وعلى الأخص تلك التى تغنى من خلالها بالخمر، نجد فيها إلى جانب السخرية الموشاة بالظرف بعدًا روحيًا وفكريًا وفنيًا عميق الصلة بحالات روحية نادرة المثال. وإلا فما معنى أن يقول:

وما شربناها ودب دبيبها
إلى موطن الأسرار قلت لها قفى
مخافة أن يسطو علىّ شعاعها
فيطلع ندمانى على سرى الخفى!

لماذا لا يكون أبو نواس واحداً من هؤلاء الذين كان لهم موقفان: موقف ظاهر وآخر باطن، ولجأوا إلى الحجب والإستار ليخفوا عقيدتهم



by: Rupert Bunny, 1919 (Detail) - Art Galllery of New South Wales, Sydney

فما موطن الأسرار تلك التى ينأى بخمره عنها كى لا يطلع ندمانه عليها؟ وما هذه المواجد التى تثيرها الخمر فى نفسه ولا يعرف الآخرون كنهها:

ردا على الكأس إنكما
لا تدريان الكأس ما تجدى
لا تعذلا فى الراح إنكما
فى غفلة عن كنه ما تُسدى
لو نلتما ما نلت ما مزجت
إلا بدمعكما من الوجد
هاتا بمثل الراح معرفة
بلطافة التأليف والود

إن هذه الأبيات وغيرها من شعر أبى نواس مما تعكس معاناته الوجدانية واتخاذه من الخمر وسيلة لتبديد بعض همومه وأحزانه وتخفيف حدة أزمته الروحية، لتدفع إلى الاعتقاد بوجود تباين واضح بين ما كانت عليه شخصيته بالفعل، وبين ما كان يجاهر به من مجون فى سبيل التمويه عن شخصيته الحقيقة.

أما لماذا تركزت حملة التشهير على أبى نواس بالذات، ولماذا كان هو المعنى بالتجنى والهجاء اللذين أطلقتهما ضده مجموعة من الشعراء، فالسبب بنظر الباحثة سياسى إلى جانب كونه يتعلق بشخصية أبى نواس نظراً لما تمتعت به من تميز، وما حظى به من مكانة لدى الخليفة وأوساطه.

ومع ذلك فقد كان أبو نواس يسخر من الخليفة سخرية مبطنة فى شعره يسوقها فى إطار المديح عامداً إلى إخراجها من خلال الرمز إخراجاً لا يخلو من الإدانة. وفى مواراة أفكاره ومشاعره خلف ستار من الرمز، يشير إلى أنه كان يسير فى ذلك على نهج المتشيعة الذين اتخذوا من التقية آنذاك ستاراً يوارون خلفها ما لا يجرؤون على البوح به من عقائد وأفكار.

فلماذا لا يكون أبو نواس واحداً من هؤلاء الذين كان لهم موقفان: موقف ظاهر وآخر باطن، ولجأوا إلى الحجب والإستار ليخفوا عقيدتهم التى لا يجرؤون على المجاهرة بها خوف التعذيب والقتل؟

تميل الباحثة إلى اعتبار أبى نواس حلقة فى سلسلة من شعراء الشيعة ممن سرى فى أشعارهم نسغ الغربة، ونبض الرفض، وكانوا من أبرز رموز الثورة والتمرد فى أدبنا العربى. لقد كان واحداً من هؤلاء الذين حددوا ملامح الخط الذى رسمته الحساسية العربية بين امرئ القيس وأبى العلاء المعرى، منتقلاً بآفاق الفكر

النواســيـة والـــزهــد



العربى من القبول بالأصل والاستكانة إليه، إلى التساؤل الذى يستبدل اليقين بالتمرد، والحقيقة بالشك، والرضا بالثورة. «إن أبا نواس إذ يعيش حالة الحصار فى أولى مراحلها حين يشهد تخلى طلائع بنى العباس وغدرهم بحلفائهم من الشيعة، وإذ لا يكون بإمكانه فى ظروف صعبة المجاهرة العلنية بالتمرد، تصبح ردود فعله حينذاك مقسمة بين السخرية وبين الرفض الذى كان مضطراً إلى التعبير عنه أحياناً بلغة أقرب ما تكون إلى لغة الرمز:

هذا زمان القرود فاخضع
وكن لها سامعاً مطيعاً

إن أبا نواس حين يعبر بمثل هذا المنظور من السخرية والرفض لهذا الواقع الذى أصبح مكرساً، أو حين يجسد قمة التصدع والاغتراب من خلال لمحات تعكس رموزها صدق معاناته:

مُتْ بداء الصمت
خير لك من داء الكلام

لا يصبح واحداً من هذه السلسلة الرافضة وحسب، بل يصبح أحد أبرز روادها. وإذا ما عرفنا أن المفضلية التى يرجح أن يكون أبو نواس واحداً من أقطابها، هى باطنية وموسوية تنتسب إلى الإمام الباقر، قد اندمجت أو ذابت فيما بعد بعهد الإمام الحادى عشر حين ظهور محمد بن نصير فى القرن الثالث، إذا عرفنا أن جميع هؤلاء كانوا من أعلام الشيعة الباطنية ومتصوفتهم، وأن تأثرهم بأسلوب أبى نواس وطرق أدائه ورموزه فى الخمر والغزل واضح فى آثارهم، نستطيع أن نقف على الأساليب التى جعلت لأبى نواس مكانة كبيرة عند الشيعة الباطنية.

تعود الدكتورة أحلام الزعيم إلى الورقة الأولى من النسخة المصورة لمخطوط ديوان أبى نواس المحفوظ لدى أتباع الشيعة الباطنية، فتجد أنه كُتب عليها: «ديوان القطب الربانى حسن بن هانى عليه صلاة الفرد الصمدانى شرف الله العلى مقامه وأعلى قدره وشأنه. وهو يشتمل على مائة واثنتين وسبعين قصيدة من منظوماته نفعنا الله بها، وهو هذا الديوان المبارك». وعبارة «نفعنا الله بها» تدل بشكل واضح وصريح على أن فى قصائد أبى نواس منافع دينية، وأن أبا نواس يُعد واحداً من كبار المتصوفة العارفين فى الفقه الشيعى الباطنى، وأحد أقطابه الذين يُنعتون بـ «القطب الربانى».

وقد يتساءل البعض: كيف يمكن لأبى نواس الذى عُرف بالاستهتار والمجون أن يحظى بهذه المكانة الدينية الكبيرة لدى بعض الفرق الإسلامية، أو أن يكون ذا نزعة صوفية؟

تفسر الباحثة ذلك بالقول: إن أبا نواس كان يأخذ بمبدأ التقية، فالمجون على هذا الأساس، كان فى كثير من الأحيان ستاراً يخفى وراءه تشيعه وانتماءه السياسى والعقائدى. «وهناك نقطة مهمة أخرى نستطيع من خلالها أن نقف على تفسير آخر لتظاهره بالمجون والاستهتار هى تأثره بـ «الإباحية الدينية» التى هى فرع من اجتهادات بعض الفرق الباطنية والتى تقضى بالاستهتار تمويهاً وتظاهراً».

أما فى كل مرة كانت الباحثة تعود إلى خمريات أبى نواس، فقد كانت تسمع نبضاً يتوق ليس فقط إلى هدم أسوار الغربة واحتضان العالم، وإنما يتوق إلى معانقة المطلق والإمساك بسر الوجود. فهذه الخمر. الضوء والمعاد والفرح تجعل من أبى نواس واحداً من هؤلاء السالكين دروب العارفين، المهمومين بأسرار الحياة والكون. «فلماذا إذن لا يلتقى أبو نواس مع هؤلاء المتصوفة الإشراقيين الذين لاذوا بالهجرة والصمت، وغادروا الأوطان عقلياً، منسحبين بأفكارهم، ومهاجرين بأرواحهم إلى نعيم ما بعد الطبيعة؟».

وبعد أن تعرض لنماذج من خمريات أبى نواس، تتساءل: أليست خمر أبى نواس أشبه ما تكون بخمر المتصوفة حين نقلوها من معناها اللغوى إلى معناها المجازى لتحمل رموزهم وتجسد طاقاتهم الروحية؟ أليست هذه الخمر أشبه ما تكون بالخمر التى عنت لدى المتصوفة الحب أو المعرفة؟

إن المتتبع لأشعار أبى نواس فى الخمر يرى أنها كانت وسيلته إلى إبداع عوالم شعرية، وأداة لتفجير طاقاته الإبداعية، وخلق اتجاهه الفنى المتميز والجديد، وزورقاً للإفلات من قبضة الهموم.

لنستمع إليه وهو يرد على من عاب عليه معاقرته للخمر، زاعماً أنه خالى القلب من الهموم والشوائب، وأن الخمر مجرد وسيلة إلى التبذل والعربدة:

إذا شاقك ناقوس
وشجو الناى والعود
وغوديت بريق الخمر
مجتـه العناقيد
تطربت إلى الألف
فقالوا: أنت عربيد
وهل عربيد مكروب
قريح القلب معمود!

ولم تكن الخمر عنده وسيلة لتبديد الهموم وحسب، بل كانت كذلك وسيلة لكشف منابع الحزن والجمال فى كل الأشياء.

ولا تقف الدكتورة أحلام الزعيم وقفة مطولة أمام اتهام أبى نواس بالغلمان، ذلك أن الغزل بالغلمان كان تياراً عاماً فى عصره لا يقتصر القول فيه على شعراء المجون وحدهم، وإنما راح كثير من الأدباء الذين لم يعرفوا بالمجون يدلون بدلوهم فيه ومن هؤلاء إبراهيم النظام الذى كان له ما له فى العلم والفلسفة.



ثم إننا لو عدنا إلى غزل أبى نواس بالمذكر لرأينا إلى أى حد كان متشابهاً ومفتعلاً وخالياً من الحرارة والصدق. وإذا ما عدنا إلى غزله بصورة عامة لرأينا أن الجانب الصادق الوحيد فيه هو الجانب الذى خص به محبوبته جنات التى فاضت قصائده فيها بأصدق العواطف، كما جاء غزله فيها مليئاً بالصور المبتكرة ومشاعر الحب الحقيقية التى تجعلنا نرجح أن يكون شذوذه مفتعلاً. فالمعروف أن المصاب بالشذوذ قلما يميل إلى النساء، فما بالك بحبهن وصدق عواطفه تجاههن!

ثم إن هذا الشعر لا يتفق فى سماته الفنية مع شعره الآخر، كما لا يلتقى فى خصائصه مع خصائص شعره من حيث الجودة والتألق، إذ كان بمجمله مكرراً معاداً يركز على ذات الحدث وعلى ذات الغلام لينتهى النهاية ذاتها. والباحثة ترجح أن يكون الكثير من هذا الشعر الذى أظهر فيه ميله إلى التفحش بالغلمان إما من الشعر المنحول عليه، وإما من الشعر الذى أراد أن يعكس من خلاله صورة أمينة عن واقع المجتمع العباسى، وعلى الأخص مجتمع الخاصة وعلية القوم، وإما أن يكون من قبيل التقية التى أراد من خلالها أن يبعد عنه وعن شخصيته الحقيقية الأنظار كى يبقى اسمه مقروناً بالمجون والظرف والتهالك على اللذة!

وتؤيد الباحثة ما تذهب إليه بآراء جملة من الباحثين ذهبوا مذهبها منهم الدكتور طه حسين الذى رأى أن مجون أبى نواس وغزله بالغلمان لم يكن سوى وسيلة من وسائل إرضاء نزعته الفنية، والدكتور أحمد كمال زكى الذى ذكر أن غزله الشاذ إنما صدر فيه عن شذوذ جنسى مصطنع، وعبدالرحمن صدقى الذى قال إن الأحجى بقراء الشعر أن يحملوا أكثر ما ورد من قول الشعراء فى هذا الشأن على أنه أمنية المتمنى واختراع الخيال المريض!

على هذا النحو تسير «محاكمة» الدكتورة أحلام الزعيم «للمتهم» الشهير فى تراثنا الحسن بن هانئ المعروف بأبى نواس. تعيد الباحثة الكبيرة محاكمته من جديد ولديها كما رأينا براهين وأدلة كثيرة تجنح إلى إنصافه إن لم يكن إلى تبرئته من تهم شتى تعرضنا لها فيما سبق.

تبقى تهمة واحدة أساسية ملتصقة بذهن المثقف العربى المعاصر حول أبى نواس هى تهمة الشعوبية، فهل كان أبو نواس شعوبياً كما يدعون، يحقد على العرب ويميل إلى الفرس وبقية العجم، أم كان بريئاً من هذه التهمة؟

فى بقية «الحكم» الذى برأت فيه الباحثة الكبيرة الدكتورة أحلام الزعيم أبا نواس من تهم مختلفة منها المجون والاستهتار والزندقة، تتعرض لتهمة الشعوبية التى ألصقها به الباحثون القدامى والمحدثون، فتبسط بداية الظروف الاجتماعية فى عصره والأسباب التى أدت إلى توجيه تهمة الشعوبية إليه، تمهيداً لإصدار حكمها الجرىء بهذا الصدد.



كيف يمكن لأبى نواس الذى عُرف بالاستهتار والمجون أن يحظى بهذه المكانة الدينية الكبيرة لدى بعض الفرق الإسلامية، أو أن يكون ذا نزعة صوفية؟





فعندها أن موقف العداء الذى اتخذه التقليديون من مذهبه الشعرى قد عرضه لحملة من التشهير والذم. من هنا تتضح لنا آفاق الخصومات التى استعرت بينه وبين المتعصبين للقديم. ولا يخفى علينا ما لقيته مسألة القديم والحديث آنذاك من اهتمام فى الأوساط الأدبية، وما كان يلحق كلا الطرفين فى سبيلها من اتهامات كانت تصل إلى حد التجريح الشخصى. وهذا ما نهجه أبو نواس بالذات حين هاجم المتعصبين للقديم فى إطار دعوته للجديد:

عاج الشقى على رسم يسائله
وعجتُ أسأل عن خمارة البلد
لا يرقئ الله عينى من بكى حجرا
ولا شفا وجد من يصبو إلى وتد
قالوا ذكرت ديار الحى من أسد
لا در درك قل لى من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس وإخوتهم
ليس الأعاريب عند الله من أحد
دع ذا عدمتك واشربها معتق
صفراء تنق بين الماء والزبد
كم بين من يشترى خمراً يلذ بها
وبين باك على نؤى ومنتضد

وقال ساخراً من المتعصبين للقديم:

قل لمن يبكى على رسم درس
واقفاً، ما ضر لو كان جلس!

ولكن هجوم أبى نواس لم يكن منصباً على العرب، بل على الأعراب، وفرق كبير بين هجوم يطال العرب وهجوم يطال الأعراب، ولا ننسى أن أبا نواس مدح اليمانية فى أكثر من مناسبة.

وتستدعى الباحثة باحثاً آخر ليسعفها هو الدكتور محمد نجيب البهبيتى الذى يرى أن أبا نواس شاعر متحضر يرى فى حياة البادية مثله، كما هو شاعر واقعى يريد أن يذهب فى الشعر مذهباً يصل بينه وبين الحياة التى يحياها فى بيئته المتحضرة الناعمة المسرفة فى اللين والخصب. وهو لذلك يجفو حياة البادية، وبخاصة ما مثلته منها حياة الأعراب الذين كانوا ينزلون الحاضرة ببضاعة من الشعر المكذوب والزى المكذوب يحاولون بذلك إغراباً ووقوعاً من نفس أهل المدينة الذين كانوا يجدون فى زيهم وفى غرابة لهجتهم تسلية ولهواً.

ويرى البهبيتى أن أبا نواس وقد غلا فى الدعوة إلى ترك الافتتاحية الغزلية التقليدية للقصيدة التى تدور حول بقايا الديار والبكاء عندها والوقوف عليها، وأسرف فى القول بوجوب نبذها، وذهب فى تحقيرها مذهباً أوقفه من هذا التقليد موقف العدو الأول، حتى لقد ذهبت عصبيته عليه مذهب المثل وغلب اسمه على هذا الاتجاه غلبة تركته وكأنه صاحبه الأول وابن بجدته وفاتق طريقته. وخلط أبو نواس بين عداوة الوقوف على الديار وعداوة أصحابها حتى قارب أن يكون فى ذلك متعصباً على العرب، فربط ذلك بينه وبين الشعوبيين وجعلهم يحتضنونه.

ولا ريب فى أن دعوة أبى نواس إلى التجديد فى الشعر كما نادى بها قد أكثرت من أعدائه، وأكثرت من توجيه الاتهام إليه، وعلى الأخص اتهامه بالشعوبية.

ويعلق البهبيتى على ما قاله ابن رشيق عن أبى نواس بأنه كان شعوبى اللسان، بقوله: كأنه كان يشعر بأن حملة أبى نواس على هذا التقليد، تلك الحملة التى اشتط فيها، كانت لا ترجع فى حقيقتها إلى الشعوبية بمعناها السياسى، بقدر ما ترجع إلى إفراطه فى التعلق بحياة عصره، وولوعه بأن ينزل بالشعر إلى واقعها، ليحقق له شعبية كان يطلبها هو وفريق غيره من الشعراء، وكل له وجهته.

وكان المستشرق الإنجليزى نيكلسون فى تاريخ الأدب العباسى قد دافع عن أبى نواس ووقف ضد المتهمين له بالشعوبية بقوله إن أبا نواس لم يكن شعوبياً بالمعنى الذى توجيه شعوبية بشار بن برد، فقد كان والد أبى نواس عربياً يمانياً حارب فى صفوف الجيش الأموى بقيادة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ولم يأته الدم الفارسى إلا من أمه جلبان الأهوازية. على حين أن بشار بن برد كان فارسياً صليبة لا أثر فيه للدم العربى إطلاقاً.

وهناك نقطة تسترعى الانتباه فى أبى نواس وتخفف عنه تهمة الشعوبية وتنفيها هى أنه التزم فى الحرب الأهلية التى قامت بين الأمين والمأمون ابنى الرشيد سنة ١٩٨هـ، جانب الأمين الذين تزعم العرب ضد المأمون الذى وقف بدوره إلى جانب أخواله الفرس. لم يعش أبو نواس طويلاً بعد مقتل الأمين. فقد قيل إنه مات قبل دخول المأمون بغداد. كما أنه التزم بعد ذلك جانب الفضل بن الربيع فى مناهضة البرامكة الفرس. إلا أن الذى لا ينفى عن أبى نواس تهمة الشعوبية، مقاطع من شعره قد تكون مجرد نزوات شاعر. وهى مع ذلك ليست صريحة فى كرهها للعرب. بل يمكن تأويلها وتخريجها بوجه آخر وتفسيرها لمجرد عداء الحياة المتحضرة المترفة التى كان يمثلها العهد الجديد للبداوة الجافة التى كان يمثلها العهد المندثر، أو مناوأة للعدنانيين البدو من عرب الشمال ومناصرة القحطانيين المتمدينين من عرب الجنوب الذين ينتمى إليهم أبو نواس.

وهناك أمر آخر ينفى عن أبى نواس تهمة الشعوبية السياسية. ففى مختار الأغانى أن المأمون لما خلع الأمين فى خراسان أمر بعمل كتاب فى عيوب الأمين يقرأ على منابر خراسان عاب عليه فيه منادمته أبا نواس. فقد ورد فيه أن الأمين استحلى شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هانئ واستخلصه ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم والمحارم.

يضعنا هذا الخبر وجهاً لوجه أمام سبب مهم من أسباب حملة التشهير والتشكيك بأبى نواس والتى كان الغرض منها سياسياً، إذ إن عداوة المأمون لأخيه الأمين وتأليب الرأى العام ضده لكسبه إلى جانبه هو الذى حدا بالمأمون وأعوانه من خصوم أبى نواس إلى التشهير به وطعنه فى عقيدته ودينه لكونه من أقرب المقربين من الأمين. ولا شك أنه كان لإعلام السلطة الحاكمة أثر فى عامة الناس. فإذا ما جاء المأمون وهو الخليفة وأمر بسبه على المنابر، سار على ذلك بين الناس وشاع.

وترى الدكتورة أحلام الزعيم أن موقف المأمون من أبى نواس كان له كبير الأثر فى تشويه سمعته والتزيد عليه فيما لم يقله، «وهذا باعتقادنا ما آلم أبا نواس وكان له كبير الأثر فى نفسه، ولعل وفاته عقب استلام المأمون للخلافة، ولما يتجاوز الستين إثر مرضه العضال. خير دليل على ما كان يعانيه من آلام من جراء حملات التشكيك والتضليل ضده. هذا فى حال افتراضنا بأنه لم يمت مسموماً كما ورد فى بعض الروايات».

وفى دائرة المعارف للبستانى، ورد أن أبا نواس لما قصد دار الخلافة وكانت سنه قد أربت على الثلاثين ومقاليد الخلافة يومئذ بيد هارون الرشيد، فاتصل به وحظى عنده.. اتصل بعد ذلك بابنه الأمين فكان له شاعراً ونديماً وشهد الفتنة بينه وبين أخيه المأمون. فلما قُتل الأمين وظفر المأمون بالخلافة أصاب أبا نواس شىء من الجزع والقنوط، وتنكر له الدهر، فتبرم بالحياة وسئم ملاذها وغرورها، واستطالت عليه العلة، وتراءى له شبح الموت، ففزع إلى ربه يستغفره وهو على أشد ما يكون من الخوف والندم.

لذلك ترى الباحثة أن يأس أبى نواس وإصابته بالجزع والقنوط بعد وفاة الأمين لا يعود، كما يتصور البعض، إلى سبب مادى، لأنه لم يكن يأبه بالثروة والجاه، وإنما يعود إلى أبعد من ذلك، إلى حملة التشهير التى قامت ضده والتى كان المأمون يريد من خلالها الإساءة إلى الأمين، لذلك فقد كُبِّرَتْ أخطاؤه، وحُمِّل من السِّيَر والأخبار والأشعار ما لم يفعل ويقل، مما آلمه وحز فى نفسه. وأنى له الدفاع عن نفسه وخصمه هو الخليفة بالذات؟ وما كان يستطيع أن يفعل أكثر من أن يعلن موقفه بصراحة من الدين ليُظهر خبايا الإيمان فى قلبه، فكان إكثاره من الزهد فى أواخر حياته، والواقع أن هذا الشاعر ما هو سوى رد مباشر على حملات التشهير التى قامت ضده.

وأبو نواس لو شاء لمدح المأمون ونافقه، لكنه لم يكن من فئة المنافقين، فهو الذى يقول:

ومستعبد إخوانه بثرائه
لبستُ له كبراً أبر على الكبرِ
إذا ضمنى يوماً وإياه محفل
رأى جانبى وعرا يزيد على الوعرِ
أخالفه فى شكله وأجره
على المنطق المنزور والنظر الشزرِ
لقد زادنى تيهاً على الناس أننى
أرانى أغناهم وإن كنت ذا فقرِ
فوالله لا يبدى لسانى لحاجة
إلى أحد حتى أغيب فى القبرِ
فلا تطمعن فى ذاك منى سوقة
ولا ملك الدنيا المحجب فى القصر



دعوة أبى نواس إلى التجديد فى الشعر كما نادى بها قد أكثرت من أعدائه، وأكثرت من توجيه الاتهام إليه، وعلى الأخص اتهامه بالشعوبية



فلو لم أرث فخراً لكانت صيانتي
فمي عن سؤال الناس حسبي من الفخر

ولابد من التأكيد على جانب مهم فى شخصية أبى نواس ورؤيته الخاصة إلى الحياة المنسجمة مع نظرته إلى الدين الذى كان مقتنعاً بأنه ليس دين تضييق وإحراج، بل دين رحمة وتسامح:

لا تحظر العفو إن كنت امرءاً حرجاً
فإن حظركه فى الدين ازراء

ونظرته هذه إلى الدين التى لا تتعارض مع نظرته إلى الحياة والتى جعلته دائب الدعوة إلى قهر الزمن والصولة عليه باغتنام اللحظة، وتحويل كمية الحياة والوجود إلى نوع، دون أن يرى فى ذلك تعارضاً مع جوهر الدين، تلك الدعوة هى التى جعلته يتجاوز الطقوس، ولا يتحرج الوقوع فى الأخطاء، بل ويضرب بعرض الحائط باتهام الناس له.

«فعيبهم ثناء»، و«لومهم مديح».. وكلما امعنوا فى إنكارهم له، واستهجانهم لما يقتنع به، ازداد إمعاناً فى تحديهم وتجاوزهم حين يخرج على السائد من أعرافهم وتقاليدهم وموروثهم. ولا شك أن موقفه هذا من السائد والمألوف فى مجتمعه وعصره، كان من الأسباب المهمة فى تأليب الرأى العام ضده، وعلى الأخص الحكام وبعض الفقهاء.

وتستفيض الباحثة فى الحديث عن «إنسانية» أبى نواس، إنه ليس شعوبياً سياسياً قطعاً، بل هو إنسانى النزعة على طريقة المتصوفة يتغنى بالحب ويمجده باعتباره قيمة إنسانية، فالحب هو الذى يكسب زمنه رواء ونضارة، لذلك يكثر من التغنى بالحب:

فالحب فوقى سحاب
والحب تحتى سيول
وللصبابة حولى
مدينة وقبيل
وللحنين بقلبى
محلة ومقيل
وليس حولى إلا
رياح حب تجول

ولعل الصفة الأكثر لياقة به هى أنه ذو نزعة إنسانية. إنه عربى ومسلم، لذلك فإنه لم يكن ينطلق فى موقفه من الفرس أو من الشعوب الأخرى غير العربية، من نزعة تعصبية، بل كان ينطلق من نزعة إنسانية يبعد فيها عن حدود التعصب. فالفرس عنده نموذج للحرية التى يتغنى بها، لذلك يمجد فكرهم وحضارتهم ونزوعهم إلى التحرر. ومن هذا المنطلق، كان أبو نواس فى نزعته الإنسانية مجسداً لما ندعوه اليوم بالديمقراطية وما تحمله من معانى الحرية والمساواة.

ولكن أبا نواس حين تتأصل فيه النزعة الإنسانية ويحارب من خلالها التعصب والجهل والتخلف، إنما يجسد إيمانه بالإسلام القائم أصلاً على التسامح والرحمة، والقرآن الكريم، وهو كتاب الله ورسالة الإسلام، هو الذى هتفت آياته بأن الله يحب عباده ويرحمهم ويعفو عنهم ويزكيهم ويطهرهم ويصلى عليهم وملائكته ليخرجهم من الظلمات إلى النور. وفى هدى هذه التعاليم الإنسانية، ترى الباحثة أن أبا نواس قد سار وجاهر فى دعوته إلى الحرية والمحبة والحياة.

لكل هذه الأسباب، تعلن الباحثة الكبيرة الدكتورة أحلام الزعيم براءة أبى نواس من كل ما يُنسب إليه من ذنوب، وتعيد إليه اعتباره شاعراً ذا نزعة عربية وإنسانية تتبدى فى شعره كما تتبدى فى سيرته.

وترفق الباحثة «الحكم» بأوراق مستلة من مخطوط قديم ينعته بـ «القطب الربانى» وترى بعد اسمه عبارات من نوع: «نوّر الله ضريحه»، و«أعلى الله مقامه»!

كما تبرئ شاعراً عباسياً آخر، مشهوراً بالزهد، هو أبو العتاهية من هذه «التهمة» أيضاً. «فسلوكه وسيرته وأخباره وحبه المفرط للمال، وطمعه وبخله، ورغبته الشديدة فى التكسب بشعره، تجعل المرء غير مقتنع بصحة تزهده». وهى لا تكتفى بالطبع بإصدار أحكام مزاجية غير مدروسة، وإنما تمهد لهذه الأحكام بدراسة أكاديمية مستفيضة كافية لإقناع قارئها بأن ما انتهت إليه فى «الدعوى» المرفوعة أمامها لا يجافى العدالة، بل هو العدالة نفسها، أو أنها - على الأقل - قد قدمت اجتهادها، وبالله المستعان!

تبدأ الباحثة بالقول إن شعر أبى العتاهية وسيرته واضطراب حياته بين الرغبة والتزهد، أثار جدلاً مازال قائماً إلى يومنا هذا، فقد اتهمه بعضهم بصدق تزهده ونعته بالمجون والخلاعة والجشع وحب المال. واتهمه آخرون بالتخنث والزندقة وفساد العقيدة، بينما وصفه أحد معاصريه من الشعراء بأنه مخلوق سماوى، ولقبه أحد الباحثين المعاصرين بالشاعر المتعبد الورع.

وإذا كان هناك شبه إجماع بين مؤرخى الأدب العربى على أن أبا العتاهية كان فى بداية حياته، بل فى معظمها، بعيداً عما يتصف به الزهاد أو المتقون من قناعة وتعفف، وتجنب لمثالب الطمع والجشع والبخل وحب المال والإقبال على متع الحياة وملذاتها، وأنه كان على النقيض من ذلك معروفاً بالطمع والبخل وحب المال والرغبة الشديدة فى الاستزادة منه وفى اكتنازه، فإن بعضهم يذهب إلى أن أبا العتاهية لم يكن طوال حياته صادق التزهد والعقيدة، بل بقى مولعاً بالحياة، ممسكاً بأسبابها وأعراضها، ساعياً وراء مغانمها ومكاسبها، على رغم ما فى شعره من حض ومن دعوة إلى الزهد، والانصراف عن متع الحياة ومتاعبها ومغانمها والتفكير المتواصل بالموت، مما حدا بأحد شعراء عصره إلى التعريض به والتشكيك فى صدق تزهده حيث قال فيه:

ما أقبح التزهيد فى واعظ
يزهّد الناس ولا يزهدُ
لو كان فى تزهيده صادقاً
أضحى وأمسى بيته المسجدُ

وتشير العودة إلى سيرته أنه كان يعانى عدم التوازن والاستقرار سواء فى عقيدته أو فى فكره، وإلى أنه كان سريع التأثر بما يسمع أو يتلقى، سريع التحول عما يتأثر به، وأنه ما كان يستقر على موقف فكرى أو اعتقادى حتى يتحول عنه إلى ما عداه، إذا ما اطلع على ما يناقضه أو يخالفه. «ولعل هذا الاضطراب فى سلوكه وتفكيره، وهذا التحول من النقيض إلى النقيض فى مواقفه، قد دفعا بعض دارسيه إلى التشكيك فى صحة تزهده ونقاء عقيدته، بل فى صدق ما يدعو إليه فى شعره من حض على الزهد وبعد عن الحرص والطمع وحب الدنيا والتسابق على متاعها».

يصفه أبو الفرج الأصفهانى بأنه كان مضطرب المذهب، يعتقد شيئاً، فإذا سمع طاعناً فيه، ترك اعتقاده وأخذ غيره.

وقد اتهم كذلك بالجبرية، وبأنه كان يذهب مذهب الثنوية ويفكر بالبعث ويؤمن بخلق القرآن.

وقد وصفه ابن المعتز بأنه كان خبيث الدين يذهب مذهب الثنوية إلا أنه كان ناسك الظاهر.

وقيل عنه إنه كان يتخنث فيلبس لباس النساء ويخضب يديه ويتزين، وأنه كان فى مقتبل حياته شديد النزوع إلى اللهو والمجون يختلط بالمجان من الشعراء، أمثال مطيع بن اياس ووالبة ابن الحباب، ويكثر من التردد على نوادى القيان والمغنين.

ويروى عن أبى الشمقمق أنه رأى أبا العتاهية يحمل زاملة المخنثين، فقال له مستنكراً: أمثلك يضع نفسه هذا الموضع مع سنك وشعرك وقدرك؟ فقال له: أريد أن أتعلم كيادهم وأتحفظ كلامهم..

وواضح من هذا القول إن أبا العتاهية لم يكن يافعاً، أو فى مقتبل العمر، عندما سأله أبو الشمقمق عن تخنثه، بل كان قد بلغ النضج فى سنه ومكانته.

وقد أورد ابن قتيبة أبياتاً لأبى العتاهية قيل إنها تشير إلى ما ينسب إليه من زندقة، منها:

إذا ما استجزت الشك فى بعض ما ترى
فما لا تراه العين أمضى وأجوز

وكان منصور بن عمار يتهم أبا العتاهية بالزندقة، فجلس مرة فى بعض مجالسه فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إنى أشهدكم بأن أبا العتاهية زنديق، فبلغ ذلك أبا العتاهية فكتب إليه:

إن يوم الحساب يوم عسير
ليس للظالمين فيه نصير
فاتخذ عدة لمطلع القبر
وهول الصراط يا منصور!

فندم المنصور على قوله، وقال: أشهدكم أن أبا العتاهية قد اعترف بالموت والبعث..

ولم تقف اتهامات أبى العتاهية عند هذا، بل تعدت ذلك إلى اتهامه بصدق عواطفه تجاه من عشقهن وتغزل بهن، ووصف بأنه كان كاذب العواطف والحب، كما كان كاذب الزهد والتعفف، وبأنه استخدم قصص عشقه وسيلة للشهرة وشبكة للتكسب والوصول إلى المتعة، وربما لتحريك المخيلة الشعرية أو للعبث والتسلية.



أبو العتاهية لم يكن طوال حياته صادق التزهد والعقيدة، بل بقى مولعاً بالحياة، ممسكاً بأسبابها وأعراضها، ساعياً وراء مغانمها ومكاسبها





وإذا كان فريق قد شكك فى صدق تزهده، بل عد بعضهم تزهد أبى العتاهية وسيلة للشهرة واسترضاء للعامة وسبيلاً إلى نيل إعجابهم، فقد كانت عامة بغداد تتعلق بوعظياته وزهدياته. وكان لزهدياته صدى عميق فى نفوسهم، لأن هذه العامة لم تكن تعرف ترفًا ولا نعيمًا، وإنما كانت تعرف الكدح وشظف العيش. وكانت تضيق بمظاهر الغنى والترف والعبث واللهو والبذخ والتفاوت الاجتماعى. وكانت الدعوة إلى التزهد والتقشف تلامس نفوس هذه الأكثرية، وتحظى برضاها وإعجابها. أما بروكلمان فإنه يذهب إلى القول بأن نزعة ا لزهد التى انتقل إليها أبو العتاهية كانت سببًا فى رميه بالزندقة، وأن اتهامه بأنه يقتصر فى شعره على ذكر الموت من دون تعرض لذكر البعث، لا يعتمد على أساس صحيح. وفى هذا الصدد أشار بروكلمان إلى تأثر أبى العتاهية بوعاظ النصارى، وإلى ما فى زهدياته من المعانى والأفكار النصرانية.

ترى الدكتورة أحلام الزعيم أن أبا العتاهية قد تجاذبته الاتجاهات الفكرية والاعتقادية المختلفة، وساورته الشكوك، وألحت عليه التساؤلات وانتقل من موقع فكرى إلى آخر كغيره من أهل الثقافة والفكر فى زمانه. فهذه حالة تصيب الكثيرين من الذين يعملون تفكيرهم وعقولهم، لاسيما الذين عاشوا كما عاش أبو العتاهية فى عصر كان مفتوحًا على الثقافات والمعتقدات والحضارات، وعلى مختلف الأفكار والآراء والعقائد. «لكننا لا نتفق مع الذين رموه بالزندقة وفساد العقيدة وإنكار المعاد. فهذه تهمة طالما طالت المبدعين والمجددين عبر العصور، فضلاً عن أننا لم نقف على رواية مقنعة ونزيهة تدل على ذلك، فروايات زندقته منقولة إما عن خصومه، وإما عن روايات تراجع عنها أصحابها، فضلاً عن أن شعره لا يرشح بما يؤكد هذا الاتهام، بل يدل فى الكثير منه على الإيمان والتوحيد».

إلا أن الباحثة الكبيرة تشككت كثيرًا فى صدق تزهده وفى صحة هذا التزهد. «فسلوكه وسيرته وأخباره، وحبه المفرط للمال، وطمعه وبخله، ورغبته الشديدة فى التكسب بشعره، كلها تجعلنا لا نقتنع بصحة تزهده، وأن ما روى عن غضب الرشيد عليه بسبب تزهده وانصرافه عن شعر الغزل إلى شعر الزهد، لا يجعلنا نعتقد بأن الرشيد كان يغضب على شاعر يتزهد، فالحكام فى الغالب لا يغضبهم تزهد الشعراء وانصرافهم عن الدنيا إلى الآخرة، بل تغضبهم تساؤلاتهم وتمردهم واحتجاجاتهم، والتأثير فى عقول الرعية بما لا يتفق مع مصلحة حكمهم. وإننا نتساءل: هل يكون الرشيد قد غضب على شاعرنا بسبب تقصيره فى مديحه، أو يكون بسبب انصرافه عن شعر الغزل والوصف الذى كان الحكام يطربون لسماعه؟ أم أنه كان مستاء لكثرة ذكر أبى العتاهية للموت والقبر وأهوالهما، وما كان لذلك من أثر سلبى على المجتمع العباسى الناهض؟ ولماذا لا نقول إن الرشيد اكتشف نفاق أبى العتاهية، ولم يشأ أن يتردد موضوع الزهد على ألسنة المنافقين؟».

ثم إن سيرة أبى العتاهية وأخباره تشير إلى أن تناقضًا حادًا بين أقواله وأفعاله، بين ما يدعو إليه وما يعيشه ويمارسه، بل تشيران إلى ازدواجية مفرطة منفرة وإلى اضطراب شديد بين أقواله وأفعاله، بل تشير سيرته إلى شاعر راغب لا إلى شاعر زاهد، وإلى إنسان مقبل على الحياة، لا إلى إنسان منقبض ومدبر عنها، أو معرض عن ملذاتها ومغانمها وأعراضها.

فإذا كان الزاهد عف النفس، بعيدًا عن الطمع والجشع والبخل والحرص على متاع الدنيا، لا يريق ماء وجهه ولا يتزلف طمعًا أو يحتال طلبًا للغنى أو الشهرة، فإن أبا العتاهية كان محبًا للمال ملحاحًا فى تكسبه، شديد الطمع والبخل، كارهًا للناس، برمًا بهم، ليس فى مقتبل حياته، بل طوال عمره المديد.

وبعد أن تروى الباحثة من أخبار أبى العتاهية ما يؤكد ما ذهبت إليه، تعود إلى التساؤل: كيف نفسر تزهد أبى العتاهية فى شعره، وكيف نفسر طمعه وحرصه وإقباله على الدنيا ونزوعه إلى التكسب وحب المال فى سيرته؟ بل كيف نفسر احتشاد شعره بالدعوة إلى الزهد والتعفف ومجافاة الدنيا والتفكير المتواصل بالموت وعذاب القبر؟ وكيف نفسر ندبه ونواحه وجزعه ومخاوفه ودعوته الناس إلى الانشغال بالبكاء على أنفسهم، وحضهم المتواصل على طلاق الملذات وتجنب البخل والحرص والطمع وحب المال؟ بينما لا ينفك يتزلف للحكام والولاة طمعًا فى هباتهم وعطاياهم؟

بل كيف نفسر تناقضه وازدواجيته وترنحه واضطرابه بين الرغبة والزهد، بين التعفف والتكسب، بين ما يدعو إليه شعرًا وما يمارسه سلوكًا؟ فسيرة أبى العتاهية وأخباره وحتى بعض أشعاره تقدم لنا صورة مغايرة لصورة الزهد المتعفف المدبر فى الدنيا، المقبل على الآخرة، بل ترسم لنا صورة الراغب فى متاع الدنيا، الذى يستخدم الشعر ويرى فيه أحد مصايد الدنيا، ويوظف مديحه للربح والتكسب وليس للانتصار لقيم الحق والعدل.

ولكن مادامت الباحثة تشكك فى صدق زهده، فما هو تفسيرها لتزهده، ولماذا كان يدعو ويحض على أمور يحرر نفسه من تبعاتها؟ فهل كان أبو العتاهية ضحية ازدواجية قاهرة، لكنه كان يجهل هذه الازدواجية أو يتجاهلها، مثله مثل كثير من مثقفينا وشعرائنا يدعو إلى شىء ويفعل نقيضه؟ أم أن تزهده تعبير عن نزوعه إلى الصفاء والتوازن والتعفف، وعن نبذه الطمع ونفوره اللاشعورى من بخله واتضاعه. فرفض فى شعره ما عجز عن رفضه فى سلوكه؟ أو هو سعيه وراء التباين والاختلاف والتجديد والتمايز عن شعراء عصره الذين عُرف الكثير منهم بالمجون والتهتك والعبث والمجاهرة بالمعاصى، فكان توجهه الجديد وانقلابه من العبث واللهو إلى التزهد، وسيلة من وسائل الشهرة وتحقيق الشعبية الشعرية والتجديد والاختلاف مع السائد؟ أو أن تزهده كان استجابة لرغبة العامة وترحيبها التى كانت شديدة البرم بمظاهر الترف والبذخ والغنى والتفاوت الاجتماعى السائد فى عصره، ومحاولة اقتراب من رغبات هذه العامة التى ترزح تحت ثقل الحاجة والفقر، مثلما كان شعره البسيط السهل قريبًا من ذائقة العامة وفهمها؟ أو هو وسيلة مربحة من وسائل التكسب ونيل المزيد من المال الذى كان أبو العتاهية مولعًا بجمعه وعدم إنفاقه؟ أم أنه غطاء يحتمى ويتستر به خوفًا من بطش الحاكم؟ لاسيما أن أبا العتاهية كان متشيعًا متهمًا بالزندقة والجبرية وخلق القرآن والثنوية. وكان يرى كل يوم كيف تتساقط رؤوس الزنادقة. أو المتهمين بالزندقة، أو المعارضين، فاحتمى بغطاء حام شديد الكثافة من التزهد. حتى إن حمدويه، صاحب الزنادقة، كاد مرة يأخذه بتهمة الزندقة، لولا أنه استتر بالحجامة وقعد يعمل حجاما خوفًا من أن يتساقط رأسه مع الرؤوس المتساقطة. فأنقذه تستره بالحجامة والتزهد من الموت؟ وإننا - والكلام للباحثة. وإن كنا نرى فى الغطاء الذى تستر به أبو العتاهية غطاء شفافًا لا يحجب عن العين البصيرة والمتفحصة عدم صدقه فى التزهد، فإننا لا نستبعد أن يكون تزهد أبى العتاهية مزيجًا من كل هذه العوامل والأسباب، وليس وليد سبب واحد.

تروى الباحثة أن أبا العتاهية جلس فى أواخر أيام حياته فى مسجد المدينة ببغداد فى خلافة الأمين، وشرع ينشد هذه الأبيات ودموعه تسيل على خده:

لهفى على وَرَق الشباب
وغصونه الخضر الرطاب
ذهب الشباب وبان عنى
غير منتظر الإياب
فلأبكين على الشباب
وطيب أيام التصابى!

وتعلق الباحثة على هذا الخبر عن أبى العتاهية بالقول: ولسنا نفهم بكاء متزهد على ما فات، أو على غروب الشباب، وتلهفه على أيام التصابى، إلا فى السياق الذى نظرنا فيه إلى تزهد أبى العتاهية..

وتختم بحثها بهذه الأبيات التى قالها أثناء مرضه الذى مات به. وهى آخر ما قاله لما تحمله من بوح وندم صادقين، ومن اعتراف يكشف ما كان يخفيه من تزهده، يقول:

إلهى لا تعذبنى فإنى
مُقِرٌ بالذى قد كان منى
أجنّ بزهرة الدنيا جنونًا
وأقطع طول عمرى بالتمنى
ولو أنى صدقت الزهد عنها
قلبت لأهلها ظهر المجن
يظن الناس بى خيرًا وإنى
لشر الخلق، إن لم تعفُ عنى

فهل أسعفنا شعر أبى العتاهية كما أسعفتنا سيرته فى الوقوف على حقيقة تزهده؟



سيرة أبى العتاهية وأخباره تشير إلى أن تناقضًا حادًا بين أقواله وأفعاله، بين ما يدعو إليه وما يعيشه ويمارسه



مينيكـــــه شـــــيبر

إيـــــاك والـــــزواج

■■ «فى رأى، سانشو، ليس هناك مثل غير صحيح، فكلها ملاحظات مبنية على الخبرة نفسها، أم كل العلوم»

(سيرفانتس، دون كيشوت)

الإنسانية تتكون من أقرباء لم يهتموا أبداً بأن يلتقوا. كأناس ينتمون لثقافات مختلفة وكنساء ورجال فى العالم بأكمله، يجب أن نتعلم كيف نتعامل، كيف نتعلم أن نفكر ونتحدث ونكتب ونلتقى حول ما يجمعنا وليس ما يعزلنا عن الآخرين. نحن نحتاج إلى أن نحصل على معلومات ومعرفة ليس فقط عما كنا نفكر ونقول ونكتب عن أنفسنا وعن أناس آخرين، ولكن أن نتعرف أخيراً عما يفكر فيه الآخرون ويقولون ويكتبون عن أنفسهم وعنا.

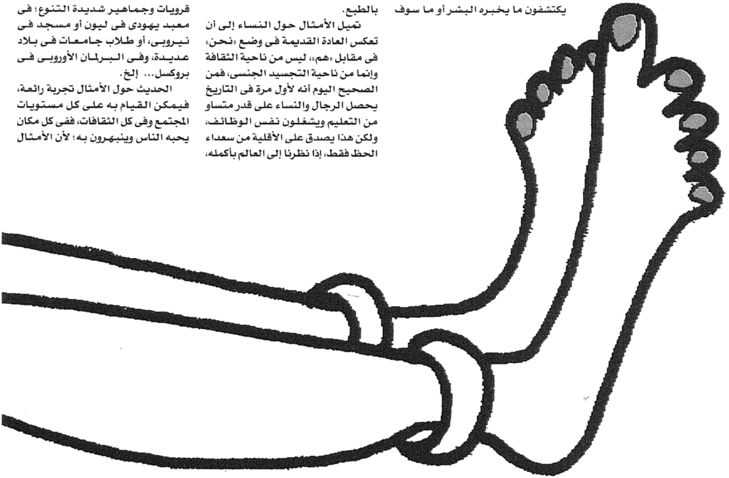
المعرفة المشتركة هى مفتاح مهم للتعايش السلمى على كل المستويات، فالنظر إلى ما نشترك فيه كآدميين مثمر تماماً وهو أكثر إلحاحاً اليوم عن أى وقت مضى. هذه نقطة انطلاق تتفوق كثيراً على الإصرار الدائم على «نحن» فى مقابل «هم»، على من ينتمى فى مقابل من لا ينتمى، وفى أسوأ الأحوال، إسقاط محاور خطيرة للخير والشر «بيننا» و«بينهم».

نحن بحاجة لأن نؤكد على أن هؤلاء الذين يبحثون عن الاختلافات سوف يجدون فقط الاختلافات، ولكن هؤلاء الذين يبحثون عن التشابهات سوف يكتشفون ما يخبره البشر أو ما سوف يخبرونه معاً، ما يجعلنا كبشر ليس فقط نتاجا للعولمة كما يعتقد البعض، ولكنه أيضاً نتاج مفاهيم إنسانية قديمة، حيث إننا نشترك ليس فقط فى شكل أجسادنا ولكن أيضاً فى بعض الاحتياجات والخبرات الأساسية كآدميين. فبعض الملاحظات المدونة على ألواح الطين باللغة السومرية منذ أربعة آلاف سنة مضت تشترك فى بعض أفكارها مع تأملات مكتوبة باليونانية أو اللاتينية أو السنسكريتية أو الصينية فى فترات لاحقة، أو مع أفكار يتم نقلها شفوياً من لغات أفريقية أو آسيوية أو من أمريكا الجنوبية حتى يومنا هذا. بالرغم من الاختلافات الثقافية المحلية والتغيرات التاريخية الموجودة أيضاً بالطبع.

تميل الأمثال حول النساء إلى أن تعكس العادة القديمة فى وضع «نحن» فى مقابل «هم»، ليس من ناحية الثقافة وإنما من ناحية التجسيد الجنسى، فمن الصحيح اليوم أنه لأول مرة فى التاريخ يحصل الرجال والنساء على قدر متساو من التعليم ويشغلون نفس الوظائف، ولكن هذا يصدق على الأقلية من سعداء الحظ فقط، إذا نظرنا إلى العالم بأكمله، ويجب أن نعى المعوقات العديدة التى تم اختراعها والاحتفاظ بها على مر القرون، وفى جميع أنحاء العالم، لمنع هذا من الحدوث، ومن المهم أن أمثالاً عديدة تتجه لأن تمثل الحصول على قدر متساو من التعليم أو من الأدوار كسيناريو كريه للغاية وكابوسى.

لقد كنت أقارن على مر الأعوام ما بين نصوص شفوية ومكتوبة من أصول ثقافية مختلفة، فبحثى فى الأمثال كان طويلاً ومضنياً فى معظم الأحيان، ولكنه كان أيضاً بحثاً مثمراً فى تاريخ البشرية. وقد قدمت محاضرات على مدى الأعوام القليلة الماضية حول النتائج فى أماكن عدة، لأكاديميين (من نيويورك، إلى باريس، إلى بكين)، بالإضافة إلى نساء قرويات وجماهير شديدة التنوع؛ فى معبد يهودى فى ليون أو مسجد فى نيروبى، أو طلاب جامعات فى بلاد عديدة، وفى البرلمان الأوروبى فى بروكسل... إلخ.

الحديث حول الأمثال تجربة رائعة، فيمكن القيام به على كل مستويات المجتمع وفى كل الثقافات، ففى كل مكان يحبه الناس وينبهرون به؛ لأن الأمثال





من كبيرة القدمين!

تتعلق بالوجود الإنسانى. الأمثال حول النساء تشير أيضاً إلى الرجال ولهذا فإن هذه الدراسة تتعلق بنا جميعاً.

ولقد كان أهم الاكتشافات أنه يبدو أن الناس يفهمون بلا صعوبة كبيرة أمثالاً من ثقافات لم يسمعوا حتى عنها، كما تشكل الملاحظات التى ترد فى الأمثال عن عناصر الحياة التى تشغلنا ونشترك فيها نقطة انطلاق ممتازة لفهم مشترك أفضل، بلا شكوك أو كراهية أو الوقوف على طرف نقيض، فالنظر معاً، بطريقة أخوية وأختية، إلى تراثاتنا الثقافية من منطلق ملموس يقود إلى بداية ممتازة نحو بناء الجسور بين الثقافات.

الخلق والتناسل

أفضل الوسائل ضد الموت هى الولادة
(فولفولد، الكاميرون / غينيا / النيجر)

قال مثل سومرى منذ زمن بعيد إن الرجال والنساء قد تشكلوا من نفس الطين، كما أضاف مثل روسى بعدها بآلاف السنين: إننا نأتى إلى العالم بنفس الطريقة. ويمكن أن نتفق مع كليهما ولكن لماذا تكون لتلك الاختلافات الجسدية الطفيفة التى يولد بها الرجال مثل تلك النتائج الضخمة؟

إذا نظرنا إلى الوراء، إلى الكيفية التى بدأ بها كل شىء نجد أن مسائل الجنس والنوع الاجتماعى قد تم التعبير عنها فى العالم أجمع فى تراث شفوى مثل الأساطير وقصص الخلق والقصص الخيالية وأقاصيص الحيوانات الخيالية وأقاصيص الحيوانات وقصائد الحب وأغانى المهد والأمثال، وتمثل تلك «الحكمة» الشفوية التى تتناقلها الأجيال، تاريخاً ثقافياً رائعاً. والأمثال، أقصر نوع أدبى فى العالم، هى أكثر أجزاء هذا القص المسلسل دلالة على طبائع البشر، والأمثال هى موضوعنا الرئيسى هنا، ولكن نظرة سريعة أولاً على الطريقة التى خلق بها الرجال والنساء فى أساطير الخلق هى مدخل يضىء لنا الطريق.

إن الحكمة السومرية القائلة بأن الرجال والنساء قد تشكلوا جميعاً من نفس الطين يجب أن تكون قد أوحت بقصة زوجة آدم الأولى التى خلقها الإله من نفس التراب الذى خلق منه آدم، ولم يكن اسمها «حواء» بل «ليليث»، وقد كان خلقهما على قدم المساواة ذا عواقب وخيمة حيث أرادت «ليليث» أن تعلو زوجها أثناء الجماع وأصرت على رأيها. ووفقاً لبعض التنويعات رفض آدم هذا وطلقها وطردها، ولكن فى نسخ أخرى كانت هى التى تخلت عنه، فقد نطقت باسم الإله وطارت من الجنة ثم هبطت على البحر الأحمر، وقد أرسل الإله الملائكة للإمساك بها وإعادتها لآدم، مهدداً بأنها إذا لم تعد سوف تفقد مائة من أطفالها الشياطين كل يوم، ولكنها فضلت حتى هذا على الرجوع لآدم، ومنذ ذلك الحين، انتقمت من حواء (منافستها) بخنق أطفالها وبلع منىِّ الرجال الذين ينامون وحدهم ليلاً.

من الواضح أن الوضع الأعلى أثناء الجماع هو موضوع ينم عن تملك السلطة، فقد حضرت مناقشة أخيراً فى تنزانيا عمن من حقه أن يحتفظ بالأطفال بعد الطلاق، الزوج أم الزوجة، وقد أصر معظم الرجال على أنه الزوج، وكان أحد الدلائل التى قيلت بطريقة نصف ضاحكة: «إن الرجل هو الذى يكون الأعلى جسدياً أثناء عمل الأطفال»، والمحصلة النهائية من قصة «ليليث» هى أن المساواة بين الرجال والنساء هى فكرة قد لا تكون جيدة.

إن النساء هن اللاتى كانت تظهر علامات التناسل على أجسادهن، بينما لم يكن الرجال متأكدين، فى الماضى السحيق، مما إذا كانوا يسهمون فى معجزة الحمل والولادة على الإطلاق. ومن الغريب أنه فى قصص الخلق يتم تجاهل دور النساء فى التناسل أحياناً بطريقة غامضة، وخلق آدم وحواء فى الإنجيل هى حالة دالة على ذلك: فحواء تخلق من جسد آدم وليس العكس.

فى كثير من الأساطير يتم نكران دور النساء فى الولادة، حيث يقوم إله ذكر أو جد أول بدور النحات أو الفنان الذى يشكل المخلوقات البشرية، فهو يشكل الجنس البشرى بيديه من الطين أو التراب أو يولده

حلمى التونى 2008

بطريقة أو بأخرى. الإله المصرى أتوم، على سبيل المثال، يقىء توائم، أو فى تنويعة أخرى، ينتجها عن طريق الاستمناء. وتحكى سردية شفوية لأهل كوبا بالكونغو عن الكيفية التى كان بها الإله، فى البداية، يعانى من مرض فى معدته، فكان يشعر بمرض شديد جعل جسده كله يتألم ويبدأ فى القىء فيخلق كل شىء مما بداخله عن طريق القىء. كل النباتات والأشجار والحيوانات والبشر، واحداً تلو الآخر، على الأرض. أما فى أسطورة للفانج من الجابون، فيتم شرح غموض أصل الإنسان عن طريق خروج المرأة الأولى من أحد أصابع أقدام الرجل الأول، أو عن طريق نحت الرجل الأول لها من قطعة من الخشب. نحن لا نعلم لماذا تم التفكير فى هؤلاء الخالقين: هل هى «غريزة طبيعية للتعويض الفكرى عما أنتجته النساء جسدياً»؟.

أما الأمثال، التى هى أكثر واقعية من الأساطير، فهى تعترف تماماً بالإنجاب كصفة أنثوية لا غنى عنها والأمومة كمجال أساسى من مجالات الحياة: «إن المرأة هى التى تحمل الرجل»، يقول مثل توى من غانا، فالقدرة على الولادة تعتبر بوضوح حدثاً شديد التفرد، حتى أن أمثالاً عديدة لا تعبر فقط عن الاحترام، بل أيضاً عن الخوف فى مقابل هذه القدرة المهيبة على الخلق.

الأساطير نوع أدبى قوى، والمقولات التى ولدتها لا يجب أن يتشكك فيها أصحاب العقيدة، إن الأساطير تؤكد وتشرح كيف خلق «الإنسان» النظام من الفوضى، وكيف أنه، عن طريق الثقافة، نجح فى فرض إرادته على الطبيعة. كثيراً ما يربط التراث الشفهى بين النساء وجنوح الطبيعة، وهناك أساطير كثيرة حول الكيفية التى كانت بها للنساء اليد العليا، فى البداية، وكيف شعر الرجال بالحاجة إلى سرقة أسرارهن منهن، مبررين الحق فى فعل هذا بأن النساء كن «يمتلكن كل شىء». وقد فسر تملك «كل شىء» بالقدرة على الولادة وامتلاك بظر (وكان يفسر على أنه امتلاك قضيب صغير)، بالإضافة إلى المهبل.

لقد تم تفسير سفر التكوين ومقاطع كثيرة أخرى فى الإنجيل من قبل اللاهوتية المسيحية على أنها تأكيدات على تفوق الرجال على النساء. وبعد المسيح شكك بولس الرسول فى مساواة النساء مع الرجال، بأن ألح على أن «الرجل» رأس «المرأة»، وهى وجهة نظر تبناها آباء الكنيسة بلهفة كبيرة، وقد أصبح هذا الاعتقاد المأمول بالتدريج أكثر تأثيراً من كلمات المسيح ورددته كثير من الأمثال. وينطبق نفس الشىء على تفسير العلماء والمفسرين المحدثين للقرآن، ولا يبدو أن هذا أقل صحة فى الرؤى المحافظة حول النساء الهندوس، والتى تم استقاؤها من نصوص دينية قديمة مكتوبة باللغة السنسكريتية. أما بالنسبة للبوذية، فقد تم رفع شأن النساء فى عهد بوذا بينما حدث تراجع بعد وفاته نتيجة لوجود قوى معادية للنساء، فسياسة قصص الخلق والأمثال عن النساء هى محاولة إيجاد «توازن» بين مجال الولادة وغيرها من مجالات الحياة. وربما كان هناك صراع حول نفس «التوازن» فى احتكار الرجال لديانات العالم.

تشير الأمثال للقصص، والقصص للأمثال، وهكذا تتم الإشارة إلى جنس النساء: «حواء»، بطريقة تأنيبية نوعاً ما فى الأمثال العبرية والأوروبية، ومنها الروسية على سبيل المثال: «لا ينبغى أن نتوقع أى خير من أضلاعنا»، أو الرومانية: «حتى أفضل النساء مازال فيها ضلع شيطان». فبالرغم من أن حواء، على عكس ليليث، قد خلقت من نفس الطين، إلا أنها قد قامت بمبادرة مذمومة بدلاً من أن تكون مطيعة ومتواضعة، فقد قالت حواء: «سأذهب بنفسى ودفعت بكوعها من حاول إرشادها للخروج من الجنة». فى بعض الأمثال المنتجة فى أوروبا تقارن الزوجة المثالية بمريم العذراء فى الإنجيل التى قدمت فى صورة المتواضعة والمستسلمة، وتركز الأمثال على أن مثل زوجة الأحلام المثالية هذه شديد الندرة: «ليس كل واحد يملك زوجة مثل مريم، إلا من أعطاه الرب». وبالطبع يتم تقديم حواء على أنها نقيض مريم.

الجمع والتساؤل

المثل القديم لا ينكسر أبداً (روسيا)

مثل معظم الناس فى العالم الغربى المعاصر لم أهتم أبداً بالأمثال كنوع أدبى إلى أن ذهبت إلى أفريقيا. ففى الثقافات الشفوية، تستمر الأمثال فى أن تكون «زيت النخيل الذى تؤكل به الكلمات»، كما يصفها الكاتب النيجيرى تشينوا آتشيبى. عندما وصلت إلى الكونغو، كنت أحياناً أدون الأمثال التى سمعت الناس يقولونها لأن قوتها الشعرية كانت مذهلة، وبعدها بأعوام قليلة بعد عودتى إلى أوروبا، دعانى أحد الناشرين لأن أكون محررة كتاب سوف ينشر تحت عنوان: كلمات غير ملتحية: النساء والأدب فى أفريقيا والعالم العربى وآسيا وجزر الكاريبى وأمريكا اللاتينية (١٩٨٥). وكنت أريد فى ذلك الكتاب أن أقدم لكل من أجزائه الخمسة عن الكاتبات بمختارات صغيرة من أمثال المنطقة التى تنتمى لها الكاتبات، وهكذا بدأ اهتمامى بالأمثال التى تدور حول النساء.

ورغم أن مادتى فى ذلك الوقت كانت محدودة، حدث شىء غير متوقع. فعلى عكس الافتراض بأن ما يميز الثقافات هى الاختلافات بينها، قد وجدت تشابهات مذهلة فى الأمثلة المنتجة حول العالم وعلى مدى التاريخ، هل يمكن أن يكون السبب أنه برغم الاختلافات الضخمة بين الثقافات إلا أن التشابهات فى تلك المتعلقة بالنساء لم تكن صدفة بحتة؟ وإذا لم يكن الحال كذلك فما هى الأرضية المشتركة؟ للإجابة عن هذه الأسئلة بدأت فى تسجيل الأمثال كلما سمعتها، على مدى الخمسة عشر عاماً الماضية.

وقد تمكنت من جمع مادتى بفضل الإسهامات المتحمسة لعدد كبير من الناس من جميع أرجاء العالم، فعلى مر الأعوام كنت أبحث بشغف عن مادة، وأتى هذا الشغف بثماره الوفيرة. لقد أسهم الناس فى كل مكان بأمثالهم فى منتهى الكرم وناقشوها معى، من نساء السوق إلى سائقى التاكسى، ومن البائعين إلى أصحاب المطاعم، ومن الموظفين إلى عاملى النظافة والجالسين بجانبى فى الأتوبيسات والقطارات والطائرات. كما أسعدتنى أيضاً مساعدة كثير من الأصدقاء والزملاء والطلاب فى كثير من البلدان. وعندما بلغت حصيلة جمعى أكثر من خمسة عشر ألف مثل من مصادر شفهية ومكتوبة من ٢٤٠ لغة، ومن كل البلدان، وتتناول جميع نواحى حياة النساء التى يمكن أن يشتركن فيها على أساس السمات الجسدية والصفات السلوكية الحقيقية والمتخيلة، قررت أن الوقت قد حان لدراسة تلك المادة المشوقة من حيث التيمات كمجموعة من النصوص التى يمكن مقارنتها.

كثيراً ما توجد الأمثال وتنويعاتها التى تتناول تيمات وجدتها فى ثقافة أو بلد أو لغة أو منطقة فى مناطق أخرى أيضاً، كيف يتأتى ذلك؟ يصير الباحثون واضحين للغاية بشأن الاتفاق على وجود أنماط قياسية فى إضفاء القيمة وفى تقسيم العمل، بالرغم من أن الأمور تتغير فى وقتنا الحالى.

فى كل المجتمعات تقريباً يحظى الرجال بنصيب أكبر من النساء، فللرجال سلطة أكبر ووضع أفضل وقدر أكبر من الحرية. عادة ما يقود الرجال العائلة ويتمتعون بسلطة أكبر فى الأمور القانونية والسياسية والدينية، ويتخذون أنماطاً جنسية بديلة، وغالباً ما يمكنهم أن يتزوجوا بأكثر من زوجة ويحصلوا على حرية أعظم فى اختيار شريكات حياتهم، وعادة ما يقيمون بقرب أقربائهم ويستطيعون الحصول على المشروبات الكحولية والمخدرات بسهولة. أما النساء، من جهة أخرى، فيتم عزلهن أو تجنبهن أثناء الحيض، وغالباً ما يجبرن على الاشتراك فى أزواجهن مع زوجة أخرى أو أكثر، ويلمن على عدم الإنجاب، وغالباً ما يجبرن على أن يلجأن للرجال فى الأماكن العامة، وتربية الأطفال هى المجال الوحيد الذى عادة ما تتمتع النساء فيه بتأثير أكبر.

يلعب الأدب الشعبى دوراً مهماً فى التأكيد على الأفكار «التقليدية»، فبصفة خاصة تقدم لنا الأمثال مجموعة ثرية من التأملات لجسد الأنثى، ومنظومة مساوية فى الثراء للنتائج الاجتماعية التى خلفتها الاختلافات الجنسية بين البشر. وينطلق هذا الكتاب من نقطة أن الأمثال حول النساء تلقى بضوء مذهل على تقسيم الأدوار. والأسئلة التى يحاول الإجابة عنها هى:

- ماذا تقول الأمثال عن النساء؟
- لماذا تعتقد الثقافات أنه يجب معاملة الرجال بطرق مختلفة عن النساء؟
- هل تتشابه الحجج المقدمة لصالح اختلاف الأدوار بين الرجال والنساء عبر الثقافات؟ وما هو نوع الاختلافات التى يتم الكشف عنها؟

وسوف يتم البحث عن إجابات لتلك الأسئلة فى الفصول القادمة، ولكن يأتى أولاً سؤال آخر يجب تناوله: كيف يمكننا أن نفهم الأمثال التى تتولد فى كل أنواع الثقافات «الأجنبية»؟

نحن كبشر نشترك فى عدد من الأشياء، فنحن ننتمى لنفس الجنس البشرى وحتى الآن نعيش على نفس الكوكب، نحن نشترك مع كل من أجدادنا ومعاصرينا من البشر فى أن الغرائز والحاجات الأساسية مثل الأكل والمأوى والأمان والإنجاب تحدد سير حياتنا، على



الأقل جزئيًا. لقد أدت أشكال أجسادنا إلى تحديد الأدوار الذكورية والأنثوية، وهو ما يسمى بـ «التقاليد الثقافية» فى المجتمعات التى تنطبق عليها. وترجع أعداد كبيرة من الأمثال، مباشرة واستعاريًا، إلى الجسد الأنثوى أو أجزاء من الجسد الأنثوى، وإلى أدوار الرجال والنساء والعلاقات ما بين الجنسين، وبفضل الصفات والخبرات المشتركة يمكن فهم الأمثال دون صعوبة كبيرة خارج الثقافة التى أنتجتها، حتى من خلال الترجمة.

فهناك دلالة قوية لأن الناس يفهمون بدون صعوبة أمثالاً من ثقافات لا يكادون يسمعون بها، فكثيرًا ما خبرت ذلك التعرف الفورى بين جماهير من أعمار وخلفيات وثقافات وقارات مختلفة، فيجب أن يكون لهذا الفهم المذهل عبر الثقافات علاقة بالأمثال المتعلقة بخبرات الجسد والجندر المشتركة. ومن جهة أخرى توجد أيضًا أمثال تتعلق بسياقات ثقافية شديدة المحلية، وهى لهذا شديدة الصعوبة فى الفهم دون معلومات إضافية.

تحتاج المقارنة إلى معلومات يمكن مقارنتها، ولكى يمكن مقارنة المعلومات، تكون القاعدة العملية هى: «كلما زادت المساحة الجغرافية التى يريد الشخص أن يدرسها كلما يجب أن يتم تصغير وحدة التحليل». فمجموعة الأمثال، التى تم اختيارها على أساس تيمة توجد بين النساء كى تؤهلها للمقارنة بين الثقافات. أولاً، تتكون الأمثال من مقولات مختصرة، وثانيًا يوجد هذا النوع الأدبى فى العالم أجمع. وباختيار المقارنة ما بين الثقافات نحن نفقد شيئًا هو المعانى الخارجية التى قد يضيفها السياق الثقافى المحلى فى سياق الاقتباس «الحى». ولكننا نكسب شيئًا أيضًا، وما نكسبه فى حالتنا هو نظرة جديدة فى أفكار الجنس البشرى حول أنماط الجندر.

تفصح الأمثال، فى صورتها المحكمة التى يسهل تذكرها، عن طريق لرؤية الحياة، فالأمثال فى موسيقيتها ومباشرتها وصراحتها تعكس ليس فقط تفردًا ثقافيًا، بل أيضًا سمات عامة مشتركة حول العالم. وعلى مر التاريخ بفضل كوننا جميعًا نمتلك جسدًا إما ذكوريًا أو أنثويًا، فقد تمت برمجة البشر على أن يكونوا رجالاً أو نساء، عادة بدون وعى منهم بذلك. والرسائل المتضمنة فى الأمثال هى خطوة ممتازة على طريق الكشف عن المدى الفردى أو الاجتماعى، الذى نستمر خلاله فى ابتلاع تلك الأفكار العنيدة أو الكيفية التى بدأنا ننظر بها إلى العالم بطرق مختلفة عما فعل أجدادنا، فقد تأثرنا جميعًا بتلك الرسائل، إما بعقلنا الواعى أو الباطن، بالرغم من الاختلافات المحلية وبالرغم من التطورات والتغييرات التاريخية.

توجد قلة من الأفكار المقدمة فى الأمثال لم تعد بالوضوح الذى كانت عليه فى الماضى مما يعنى أن «التقاليد» تتغير وخاصة فى المجتمعات الصناعية، وتفيد هذه التغييرات الفئات المحظوظة فى الأساس ويقل تأثيرها على الأغلبية العظمى التى لا تحصل على فرص تعليمية كبيرة؛ حيث تكون أفكارهم المأخوذة من الأمثال عما هو ذكورى أو ما هو أنثوى عادة أكثر صمودًا فى وجه التغيير. ولا يعنى هذا، مع ذلك، أن مثل هذه الأفكار لم تعد حاضرة فى ميراث العقل الباطن الذى تم تمثله بين الفئات المحظوظة. كما يبدو فى حياة النساء من ذوات المستقبل المعاصرات واللاتى غالبًا ما يسبب نجاحهن فى حياتهن العملية صعوبة شديدة لهن فى إيجاد أزواج مناسبين، إذا تأتى لهن الزواج على الإطلاق.



تساعد الأمثال عن النساء بشدة على شرح كيف ولماذا نتج عن الاختلافات الجنسية، فى العالم أجمع، فجوة تتسع، فجوة غربت الرجال والنساء عن المشاركة فى كل من الأدوار العامة فى الحياة والمسئوليات فى البيت، عن طريق تدريس وتعليم الحفاظ على مثل هذه الفجوة الجندرية بين الجنسين، القائمة على اختلافات جسدية تافهة نسبيًا. فقد أكدت الأمثال التراتبيات السائدة وشكلت صورًا جامدة لما يعنيه أن تكون رجلاً أو امرأة، وهكذا شرعت أدوارًا ثانوية فى الحياة بالنسبة لكلا الجنسين. أما الوجه الآخر للعملة الذى لا مفر منه فهو أن النساء والرجال الذين لا يتفقون مع السلوك المفترض يتعرضون للوصم. من نساء أخريات، بقدر لا يقل عن الرجال.



« أن تكون لك زوجة واحدة..
هو أن تكون ذا عين واحدة »



لا يتم التنازل عن الامتيازات بسهولة، فهؤلاء الذين اعتادوا أن يجعلوا الآخرين يقومون بالأعمال الحقيرة من أجلهم يحبون الاحتفاظ بالأوضاع كما هى، فكما قالت الكاتبة الفرنسية مدام دى سيفينى فى القرن السابع عشر: «إن تحقير من هم أقل شأنًا ضرورى للحفاظ على النظام الاجتماعى»، أو المثل الألمانى: «واحدة ترتب الفراش والآخر يستلقى عليه».

إن العرض الكريم بالمشاركة على قدم المساواة فى المهام المزعجة لا يخطر على بال من هم فى وضع سيادى مريح. «البيت السيئ يرسلك فى طلب الماء والحطب» هى شكوى من رواندا، وهى تعنى أن الرجل يصبح عبد زوجته إذا قبل بأن يقوم «بأعمال المرأة» المهينة بدلاً عنها. وإذا لم تلتزم الزوجة بدورها الاجتماعى سوف تصبح موضوعًا للتقريع، ففى أوروبا كانت مثل تلك المرأة تلام لـ «ارتداء البنطلون»، وهى شكوى تتردد كثيرًا فى الأمثال.

إن كل هذه التحذيرات للرجال ومعها التعليمات والقواعد الملزمة للنساء تفصح عن كثير من الحيرة بالإضافة إلى الخوف من فقدان الحالة الراهنة. إذا كانت النساء مطيعات كما ينبغى عليهن أن يكن وفقًا للسلاسل اللا نهائية من التعليمات، كانت الأمثال قد أصبحت زائدة عن الحاجة، أليس كذلك؟

ويجب أن نؤكد منذ البداية أن هذا الكتاب ليس عن الواقع، فالأمثال لا تعكس الواقع. حيث النصوص القصيرة المتعددة تمثل المثل العليا. بالإضافة إلى انحرافات عن مثل هذه المثل، كما يتصورها هؤلاء الذين تحمى الأمثال مصالحهم. مثل من التى تتحدث عنها؟ يعتقد أن الأمثال، كنوع أدبى عام، يخدم ويتبع التقاليد، دون أن يحدد أبدًا صاحب التقاليد الذى يرجع إليها بالضبط، وبدلاً من أن يمثل الكتاب الواقع الذى عليه النساء، أو كن عليه، فإنه يقدم مرآة مثيرة للمصالح والتخوفات والأفكار الموروثة حول الأنوثة «المثالية» والمنحرفة، التى يوحى بها الذكور. ومن هنا توضح فى نفس الوقت وجهات نظر موروثة عن معايير الذكورة «المثالية» و«المنحرفة». وبفضل الصور الذكية والمقارنات المبتكرة فإن المادة مدهشة وغالبًا مسلية. ومع ذلك، فإن هذا بطريقة ما أيضًا كتاب مزعج حيث يعرض للانتشار الواسع للمشاعر المعادية للنساء، خاصة فى الأمثال عن الزوجات التى تتناقلها الأجيال فى مئات اللغات عبر أنحاء العالم.

فى مرآة الأمثال سوف نقابل كل أدوار الجندر، الموصوفة والمقبولة، المرفوضة والمتبناة، البائدة والباقية، كما تظهر المرآة أن الأوقات والصور تتغير. فى نفس الوقت تذكرنا، بسبب تلك الموروثات الحية حتى اليوم، أن عددًا لا يحصى من النساء مازلن يتمتعن بقدر من الحرية يقل كثيرًا عما للرجال.

الأمثال وتأثيرها

تمسك بشدة بكلمات أجدادك

من منا يمكنه قول الأمثال بسلاسة؟

إنها أقل شيوعًا فى العالم الغربى اليوم من شعارات الإعلانات، ومع ذلك فمن وقت لآخر يمكن سماع مثل فى محادثة أو فى الراديو أو التليفزيون أو فى خطب السياسيين، فقد يعتقد صناع القرار فى الغرب أن الأمثال لم تعد حية فى المجتمع ولكن قاموس بنجوين للأمثال يؤكد على أثرها الممتد: فرغم أنه قد تم اعتزال المثل، إلا أنه لم يتم تزييفها. وبالرغم من أن أهمية الأمثال تتناقص فى ثقافات الكتابة فى القرن الواحد والعشرين، فربما تكون فى الواقع أكثر انتشارًا مما نتوقع، فعندما ذكرت أمثال صينية فى الصين أكد الناس أنهم يعرفون الكثير منها، وفى أفريقيا يعلم الناس الأمثال جيدًا، فلديهم «أذن» لها، وهى تبدو حية أيضًا فى أوروبا، ففى مقابلة إذاعية أخيرة حول هذا المشروع، دعى المستمعون لكى يستجيبوا لما إذا كانوا لا يزالون يتذكرون الأمثال التى تتعلق بالنساء، كانت الهواتف الخمسة فى الاستوديو مشغولة بلا انقطاع أثناء هذا البرنامج الذى استمر لمدة ساعة، ووصلنى عدد من الرسائل تحتوى على أمثال عن النساء فيما بعد. فهذا النوع الأدبى لم يمت بالتأكيد؛ بل على العكس ربما يكون الاهتمام بالأمثال المكتوبة فى ازدياد إذا كان المقياس هو عدد المجموعات المهمة من القرن التاسع عشر التى أعيد طبعها فى العقود القليلة الأخيرة، وفى نفس الوقت، يستمر استخدام الأمثال فى الحياة اليومية



فى الثقافات الشفهية فى كل أنحاء العالم.

وســـائـــل الإعـــلام

الأمثال مثل الفراشات، بعضها يصاد وبعضها يطير بعيداً (الألمانية)

لا تنتقل الأمثال شفهياً فقط ولكنها توجد أيضاً مطبوعة فى الكتب والقواميس وفى المجلات والجرائد، بالإضافة إلى أعمال الكتاب، وعندنا حالة أوروبية لسيرفانتس فى دون كيشوت وروايات تشينوا أتشيبى الأولى هى أمثلة أفريقية معروفة، بينما ليو جوانزهونج هو روائى صينى مشهور من القرن السادس عشر يستغل هذا النوع الأدبى ذا الشعبية؛ وفى جميع أنحاء العالم كانت الأمثال والمقولات، ومازالت، تكتب وتنشر فى سلسلة تنمو دائماً من مجموعات الكتب والقواميس القومية والعالمية.

ويمكن أيضاً اكتشاف الأمثال فى أشياء أخرى غير الصفحات، فهى تخط بطريقة لطيفة على أطباق الحائط واللوحات والأباريق والأكواب والقوارير وغيرها من الأشياء التى تباع فى المحلات السياحية، لقد ألصقت مصففة شعر فى دكا المثل التالى باللغة البنغالية أعلى مرآة لكى يراه زبائنها: «الحياة الأسرية السعيدة هى نتيجة لوجود امرأة فاضلة»، وأضافت من جانبها: «ولكن فقط عندما يكون بجانبها رجل فاضل». ويمكن أن توجد المقولات بجميع أنواعها فى الأماكن العامة بأفريقيا مثل المقاهى أو حافلات الركاب. وهذه الكتابات على الأتوبيسات ليست دائماً أمثالاً ومقولات من التراث الشفهى، ولكن عندما تكون فناً تتعلق فى معظمها بعلاقات الجندر؛ على سبيل المثال: «يعانى الرجال والنساء لا يعلمن»؛ «لا عمل، لا زوجة»؛ «المرأة الجميلة لا تبقى أبداً مع رجل واحد»؛ «اخش المرأة والعب مع الحية».

وبالرغم من أنه يتم نقل الأمثال فى الغالب عن طريق الكلمات. إما تتناقلها الأفواه أو تظهر فى أشكال مكتوبة أو مطبوعة. فهى تتداول أيضاً عن طريق وسائل أخرى، مثل نحتها على أغطية الأباريق أو حفرها على الأشجار أو نسجها على الأقمشة المطبوعة أو رسمها فى اللوحات، وفى أفريقيا خاصة تنتقل الأمثال عن طريق عدد أكبر كثيراً من القنوات عنها فى أجزاء أخرى من العالم: ومنها دقات الطبول وغيرها من العلامات والرموز.

فى أفريقيا تنتقل الرسائل أحياناً عن طريق نوع من التنورات التى ترتديها النساء (وتسمى أيضاً باجنى ولاپا وليزا وغطاء). وتتضح الوظيفة الاجتماعية للباجنى عن طريق مثال يوضح كيف تتم المشاجرات المنزلية بين ضرائر من خلال الأنسجة؛ فعلى سبيل المثال، إذا ربطت عقدة القماش من الخلف بدلاً من مكانها المعتاد فى الأمام، يرجع هذا لمقولة: من تلينى حمقاء، وتنطبق على الضرة التى قرر الزوج أن يتزوجها أو تزوجها بالفعل، ضد إرادة زوجته الأولى.

ويتلقى الأزواج أيضاً رسائل من زوجاتهم عن طريق قماش معين يرتدينه، فيمكن أن تذكره، على سبيل المثال، بالمقولة القديمة: الزوج الجيد غال، وهذا أيضاً اسم القماش المصنوع من خامة غالية الثمن الذى تتهافت عليه النساء، وتتضمن بعض القنوات المرئية الأخرى التى تنتقل عن طريقها الأمثال بين الأكان فى غانا تصميمات على أقمشة الجنازات (أدينكرا) وأقمشة الكينتى ذات الألوان المتعددة التى تشير إلى أشياء دالة فى الثقافة، وغيرها.

وأحد أكثر الأشكال ابتكاراً فى التواصل غير الكلامى بالأمثال هو رسائل غطاء الجرار الذى تستخدمه حصرياً (حسب معلوماتى) نساء فيوتى. يعيش الفيوتى فى كابيندا، وهى مقاطعة أنجولية وتستخدم أغطية الجرار للتدليل على حقائق لا يسمح للنساء بالتعبير عنها كلامياً مع أزواجهن؛ فالأغطية هى مسطحات مستديرة يبلغ قطرها حوالى ١٨سم، فى أعلاها تحفر الصور التى تعبر عن مثل أو مقولة. حسب التقاليد لا يأكل الزوج والزوجة معاً، بل يأكل رجال العشيرة معاً تحت سقف دار ضيافة العشيرة، وتضع الزوجات الأكل للأزواج فى إناء فخارى ويغطينه بقطعة من أوراق الموز وينادين أحد الأطفال لحمله إلى مكان الرجال، هذا ما يحدث عادة.

ومع ذلك فعندما لا تكون المرأة راضية عن سلوك زوجها، أو عندما تقوم بينهما مشاجرة تختار غطاء جرة يحمل مثلاً ذا معنى من مجموعتها، أو تأمر فناناً بصنع غطاء جديد حسب تعليماتها، فيحل الغطاء محل ورقة الموز المعتادة، وعندما يصل الطعام بالغطاء المنحوت يبدأ الهرج والمرج: ماذا، غطاء خاص؟ من صاحبه وماذا يعنى؟ عندها يجب أن يعترف الزوج المقصود بالمشكلة وتبدأ الدردشة، ويمكن أن تكون كسله أو عجزه الجنسى أو عدوانيته أو الإحباط الجنسى الذى تعانى منه الزوجة أو اعتراضها على اتخاذه زوجة ثانية. أما إذا قال الزوج إنه لا يفهم فيفحص خبير غطاء الجرة، وبناء على حكمه سوف يتلقى الزوج النصيحة من رفاقه، فقد يظهر النحات حلة طبيخ على ثلاث حجرات، على سبيل المثال، ويكون المثل فى هذه الحالة: ثلاث حجرات تسند حلة الطبيخ؛ ثلاثة حقوق للمرأة فى الزواج (وهى الملبس والمأكل والجنس)، ورسالة الزوجة أن لديها شكوى عن واحد أو أكثر من تلك الحقوق.

ولهذه الوسائل الخاصة جداً للتواصل بعض الميزات الفريدة، فهى مثلاً، تتجنب ثورة غضب الزوج المبدئية حيث إنها لا تكون موجودة عندما تصل الرسالة، ويتوقع من الزوج من جهة أخرى، أن يتحكم فى رد فعله فى حضور أفراد العشيرة الآخرين. ويوضح تواصل غطاء الإناء أن النساء. لأسباب تتعلق بالذوق. يفضلن تجنب المواجهات المباشرة ويستبدلنها بإثارة الموضوعات الحساسة التى تتعلق بأزواجهن بطريقة غير مباشرة، إذ أثارتهن على الإطلاق. وتؤكد كثير من الأمثال أنه لا يجب على النساء أن يتكلمن، ولكن طريقة تواصل الفيوتى الفنية عن طريق غطاء الإناء، فهى تشترك مع غيرها من الأشكال غير الشفهية فى أنها تستخدم قنوات أمثال أخرى غير صوت الإنسان مما يعطى رسائلها جانباً إضافياً من عدم المباشرة.

سياقات متغيرة، أساسات ثابتة

يجب أن يحدث شىء لكى يستدعى مثل (إيغبو)

هناك نقاط قليلة قبل أن ننتقل إلى «الجسد الأنثوى». أولاً، يقول بعض المتخصصين فى الأمثال إن المثل يحصل على معناه السياقى المجسد فى اللحظة التى يستخدم فيها فقط. أنا أتفق على أن هناك ظلالاً جديدة للمعنى تضاف فى كل مرة يقتبس فيها المثل وأنه يمكن لدراسة تلك الظلال أن تكون مثمرة، ولكن فى نفس الوقت يوجد فى كل مثل أساس ثابت يحتفظ بمعناه رغم تغير السياقات. وإذا أخذنا طبيعة مادتنا. أى الكم الهائل من الأمثال من خلفيات شديدة الاختلاف . فى الاعتبار، كان هذا المنهج المقارن الذى اخترناه عن طريق التركيز على المعانى والرسائل المتضمنة الثابتة للأمثال والتى تتولد فى جميع أنحاء العالم.

سؤال آخر: هل تتعارض الأمثال وبالتالى تحيّد بعضها؟ يبدو هذا السؤال غير وثيق الصلة باستخدام الأمثال فى الحياة اليومية وفى اللغة، فلنأخذ، على سبيل المثال، مسألة الزوجة الواحدة فى مقابل تعدد الزوجات فى الأمثال التالية للوبا من الكونغو: «أن يكون لك زوجة واحدة هو أن تكون ذا عين واحدة»، و«إذا تزوجت اثنتين، ستموت أصغر»، فهما يقدمان ميزات وعيوب كل اختيار لكى يمكن للشخص أن يختار بناء على اهتماماته الشخصية. فهذا بالتأكيد أمر استراتيجى.

وأخيراً، هناك نقطة المعانى الحرفية والاستعارية للأمثال والمقولات، فيقال إن هناك نوعين من الأمثال: (١) المقولات المباشرة فى أصلها و(٢) الأمثال التى تعتبر استعارية منذ البداية، وينطبق هذا أيضاً على أمثال الجندر، فهناك أولاً الأمثال التى تتعلق صراحة بالرجال والنساء والبنات والأبناء والأمهات والآباء، أو التى تنطلق من أجزاء الجسم: الثديين واللحى والمهبل والقضيب. فالأمثال تأخذ الجسد بجدية لمصلحة من يقتبسونها، كما فى هذا المثل الأوروبى، على سبيل المثال: «يمسك الرجل ويبول بما عنده»، بمعنى أنه ينبغى على الرجل أن يستخدم صفاته التشريحية لمصلحته مع التأكيد، بطريقة عابرة، على الاختلافات الجنسية بين الرجال والنساء. مثل هذه الأمثال عن الجسد أو عن الفئات المتنوعة من الرجال والنساء يمكن لها أن تقدم تصريحاً عن الجندر أو لا تقدم. وثانياً، هناك أمثال لا ترجع مباشرة على الإطلاق للملامح الجسدية الذكورية والأنثوية، ولكنها تعتبر «تقليدياً» رسائل مناسبة جداً للتعليق على علاقات وأدوار الجندر المثالية والمنحرفة مثل: «احصل على قفص قبل أن تحصل على الطائر»، وهو يعنى أن ينبغى على الرجل أن يجد منزلاً قبل أن يتزوج. (كريول، ترينداد/توباجو).

من الصعب فصل الفئتين، فالحرفية كانت دائماً مفهوماً إشكالياً: أين ينتهى وأين يبدأ المعنى الاستعارى؟ تعتبر المقولات إما مظلة مبهمة تحتمى تحتها الأمثال والحكم والمدركات وغيرها، أو تعرف بأنها التصريحات البسيطة،



«المباشرة» وغير الاستعارية فى مقابل الأمثال الواقعية (أى الاستعارية)، وهكذا فإن مثل الأشانتى (غانا): «الدجاجة تعرف عندما يطلع الصباح ولكن تنظر إلى منقار الديك» ليس درساً فى التاريخ الطبيعى ولكنه يهدف إلى تذكير الزوجة بطريقة استعارية أن تترك لزوجها مهمة الكلام، بينما ينبغى عليها «الصمت»، ولأنه استعارى فهو مثل «واقعى».

فى هذا الكتاب، لا يتم رفض ما يسمى «بالمقولات المباشرة» كعينات غير صالحة لهذا النوع الأدبى (كما يميل المتخصصون فى الأمثال أن يفعلوا أحياناً)، ولكن تؤخذ فى الاعتبار تماماً، من حيث الطريقة التى يشيرون بها لجنس النساء. فيمكن للإنسان أن يقتبس «ليلة كاملة من الطلق وأخيراً مجرد بنت» كمقولة حرفية أو كمثل استعارى محبَط (أسبانى) عن أى نوع من الفشل بعد جهد كبير. ومع ذلك ففى الحالة الأخيرة لا يزال يبقى عدم التقدير لميلاد البنت تحت السطح. أو فلنأخذ مثالاً من ثقافة سبوليز التالى من ساحل العاج، وفيه يشكو رجل فقير من بؤسه بأن يقتبس المقولة التالية: «ليس هناك فرق ما إذا كانت الأرملة حائضاً أم لا». حرفياً يعنى هذا فى مجتمعه أنه ليس للأرملة حق فى المعاشرة الجنسية ولا للمرأة الحائض، وفى موقف هذا الرجل بالذات فهو يشير إلى فقره: فبالنسبة للفقير لا يوجد فرق بين يوم عادى ويوم عيد، حيث إن حاله بائس وممل فى كل الأحوال. وهكذا، فإن التعليق «المنطقى» حول الجندر، والذى يقبل كقضية مسلم بها يصبح استعارياً عند استخدامه لإثبات شىء آخر عند اقتباسه. ومع ذلك فإن التمييز بين المقولات الحرفية والاستعارية لا يبدو مناسباً هنا، فالمثال يوضح أنه لا يمكن فصل المقولات المباشرة عما يسمى أمثالاً «واقعية» (أى استعارية)، لأنها تتخذ معانى استعارية غير متوقعة. ومع ذلك فإنه لا يتم فقد المعنى الأصلى المباشر أيضاً، فبالرغم من أن مثل البولى الذى تم اقتباسه عن الأرملة يأتى فى سياقات جديدة تماماً وغير متوقعة، يظل «الأساس الثابت» كما هو، حيث تستمر المقولة فى تذكير المستمع أنه فى ثقافة بولى تظل حرية الأرملة منقوصة.

وهكذا فإنه لأغراض هذا الكتاب، تم جمع وتحليل الأمثال التى تشير حرفياً للنساء بالإضافة إلى الأمثال التى تشير استعارياً للجنس الأنثوى منذ البداية، حيث تقدم كلتا الفئتين معلومات عن النساء بطرق مختلفة: بطريقة مباشرة، فى الملاحظات والنصائح والتحديات وغيرها، أو بطريقة غير مباشرة عن طريق الرسائل التى تستخدم لغة استعارية وصوراً خيالية من كل الأنواع. ومن الواضح أن الفئة الثانية قد تحتاج إلى حصيلة معرفية لتعريفها على أنها من المحتمل أن تكون عن الجندر، وقد أضيفت التوضيحات كلما كانت هناك حاجة لذلك.

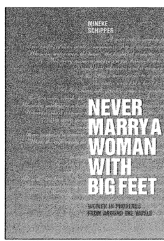
تبالغ الأمثال وتقدس وتبسط وتنمط وتفكه وتهرج، وفى الاستخدام السياقى تكون حقيقتها أقل أهمية من قدرتها على إيصال المعنى القابل للنقاش، وهكذا، فإنه فى السياقات المحلية، يمكن لوزن المشاعر المعادية للنساء والموجودة بكثرة فى الأمثال أن يخفف عن طريق المناظرة والمفارقات الضاحكة، وتعتمد قيمتها فى السياق على ما يناسب المتحدث لأغراض الجدال. ومع ذلك، فإن الأمثال المتعلقة بالجندر عادة ما تمثل وجهة النظر السائدة.

وقد تم أخذ كل الـ ١٥.٧٣٥ مثلاً التى وجدتها فى المصادر أو سمعتها خلال المحادثات الشفوية فى الاعتبار، كما تم فحص الأمثال بمعناها الأوسع كجزء من نوع أدبى بدائى وموجود عبر الثقافات. ومع ذلك، فإن غلبة الأمثال التى تمثل وجهات نظر ذكورية أو التى تدعو إلى تفوق الذكور أو تدافع عن مصالحهم وميزاتهم هى بالفعل مذهلة. إذا كانت الأمثال تمثل «حقيقة» فهى دائماً بالطبع حقيقة تخفى مصالح متضمنة، أما «الحقائق» كما تظهر من وجهة نظر النساء فهى صعبة الوجود، وليس فى الأمثال فقط.

كما أن النساء أقل تمثيلاً أو أنهن مقصيات عن المجال العام ومن الوظائف العامة فى أغلب المجتمعات، فإن وجهات نظر النساء أقل تمثيلاً فى الأمثال التى جمعتها من المصادر الشفهية، بالإضافة إلى المصادر المكتوبة مثل المجموعات. بالرغم من أننى بحثت وسألت عنها بصفة خاصة، فمن الصعب دائماً دراسة الأفكار الداخلية والشخصية للنساء بطريقة منظمة حيث إن المواد المكتوبة المتوفرة قليلة نسبياً. وهكذا فإن الأمثال ليست استثناءً لقاعدة تاريخ البشرية الذى تكون فيه أصوات ووجهات نظر النساء، وخاصة الخلافية منها، جزءاً جديداً نسبياً من الفضاء العام، بل إنه من المحتمل أن الأغلبية الصامتة من جداتنا قد تواطأن مع النظام الاجتماعى السائد الذى تشير إليه غالبية الأمثال على أنه النظام «الطبيعى». ومع ذلك، وكما سنرى، فإن التأثير العظيم للنساء وسلطاتهن حاضرة بقوة فى الأمثال، ضد كل المعوقات وبطرق ملحة تدعو إلى الإعجاب. ■



أياك والزواج من كبيرة القدمين
النساء في أمثال الشعوب
مينيكه شيبر
ترجمة منى ابراهيم وهالة كمال
دار الشروق ٢٠٠٨



Never Marry a Woman with Big Feet
Women in Proverbs Around the World
Mineke Schipper, 2004

■ عندما صدرت النسخة الأصلية من هذا الكتاب باللغة الإنجليزية فى عام ٢٠٠٤، طلبت منى صحيفة «لندن تايمز» أن أكتب مقالة عن أسباب هذا البحث ومساره. وقد وصلتنى مجموعة من ردود الأفعال، ولكن أكثرها كرما ودهشة كان رد فعل قارئ عربى فى الرياض حيث أرسل لى علبة ضخمة مليئة بمجموعات جميلة من الأمثال العربية، وذلك تعبيرا عن تقديره لمثل هذا النوع من الأبحاث التى تقرب بين البشر. وتتضمن ثقافات من مختلف أرجاء العالم، بدلا من تقسيم العالم إلى المنتمين والأغراب، أى أهل الداخل والخارج.

وقد قمت منذ عدة سنوات بإلقاء كلمة فى مسجد فى نيروبى عن النساء فى الأمثال. فطرحت على إحدى النساء من الجمهور كيف أصبحت ما أنا عليه الآن، فشرحت لها مدى كونى محظوظة فى الحياة. فقد كان والدى وشقيقه قد التحقا بالجامعة بينما اضطرت شقيقتهما (التى لم تكن تقل عنهما ذكاء) إلى البقاء فى البيت والانشغال بأعمال رعاية شئون المنزل. وهناك العديد من الأمثال عن النساء التى تتفق بالتأكيد مع هذا الوضع، ولكن الأمور آخذة اليوم فى التغير. فمن الشعارات البنغالية المعاصرة التى سمعتها مقولة: «أعطنى أمّا متعلمة أعطك أمة مزدهرة». وقد ولدت أنا فى أسرة كنت فيها البنت الوحيدة بين ستة أطفال، أما والدى الذى كان قد رأى مدى تعاسة شقيقته بسبب عدم استكمال تعليمها فقرر أن كل أطفاله يجب أن ينالوا تعليما جيدا. وكما يقول مثل عربى: «العلم خير من المال»، ويرد فى مثل إنجليزي: «العلم لا عدو له سوى الجهل». ولكننا نجد مع ذلك فى الأمثال التقليدية أن هذه الحكمة تكاد لا تنطبق على الفتيات! وبالفعل لقد تمتعت بحظ أوفر من غالبية نساء جيلى والأجيال التى سبقتنى على مستوى العالم.

وتكشف مرآة الأمثال أن الناس فى مختلف أنحاء العالم قد يشتركون فى نفس الأفكار. دعونى أقدم مثالا على ذلك:

المرأة تخرج من منزلها ثلاث مرات: عند تعميدها وزواجها ودفنها. (إنجليزى، المملكة المتحدة)

الطفلة عندها زوج خرجات، الأولى نهار العرس والتانية نهار اللى تموت. (عربى، المغرب/الصحراء الغربية)

ومن المؤكد أن بعض الأفكار التقليدية التى تصر على وجود أدوار صارمة فاصلة بين النساء والرجال هى أفكار لا تقتصر على الفكر العربى أو الإسلامى، حيث إنه بالرغم من الملاحظات الواردة فى الأمثال عن حياة النساء والتى قد ترجع إلى أزمنة مبكرة من تاريخ البشرية، إلا أنها مع ذلك تظل مؤثرة على عقولنا وسلوكياتنا. رجالا ونساء. وفى نفس الوقت، فإن الحكمة التقليدية عبر الثقافات المختلفة، والتى تدور حول النساء والرجال والمعروضة فى هذا الكتاب، تثير وعينا بقوة بشأن المصالح والمعايير المزدوجة التى تدافع عنها الأمثال فى كل مكان، كما تثير وعينا أيضا بما تلقيه تلك المصالح والمعايير من ظلال على آليات التفاعل بين الجنسين فى الحياة اليومية. ■

م. شيبير

مصر وفنون الغرب

■■ موضوع هذا الكتاب (الفن المصرى وتأثيره على مدارس الفن الحديث خلال القرن التاسع عشر)، وهذا يعنى أن هناك ثلاثة محاور يرتكز عليها الكتاب.

المحور الأول: الفن المصرى بمراحله الثلاث المعروفة: أولاً: فرعونية، ثانياً: هيلينستية بطلمية قبطية، ثالثاً: مصرية عربية. وهذا ما قدمه الكتاب فى الباب الأول الذى يقع فى ثلاثة فصول تتناول هذه المراحل التاريخية.

المحور الثانى: مدارس الفن الحديث خلال القرن التاسع عشر. ولما كان هذا المحور سواء من ناحية أهمية هذا القرن فى التطور الحضارى بشكل عام، والتطور الفنى بشكل خاص، هو المشكل للناحية الثانية وهى بحث الحضارة الغربية ثقافياً عن ثقافات وفنون الشعوب الأخرى غير الأوروبية، وبالتالى اكتشاف مصر خلال القرن التاسع عشر، واكتشاف القيم الجديدة فى الفن المصرى والتأثر بها.

لما كان هذا المحور يحتاج لدراسة الجزء الثانى غير المدروس والمشكل لجانب من لب الكتاب وهو بحث الحضارة الغربية عن الفنون المصرية بمراحلها الثلاث، لذلك تمت مناقشته فى الباب الثانى.

المحور الثالث: هو العلاقة بين مراحل الفن المصرى الثلاث ومدارس الفن الحديث خلال القرن التاسع عشر.

وهنا نتبين أهمية وضع قاعدة عامة للبحث تناقش موضوع ترابط حلقات تاريخ الفن فى مصر فى مراحل الضعف ومراحل القوة. وما بقى من قيم جمالية انتقلت من مرحلة لأخرى.

لذلك جاء الباب الأول تحت عنوان (حلقات التاريخ المصرى واتصالها من الفرعونى إلى المملوكى). وبإحصاء الجانب الكمى أى عدد سنوات فترات القوة السياسية

مقدمة كتاب:
مؤثرات مصرية على الفنون الغربية
القرن التاسع عشر
محمد المهدى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨، ١٩٦ صفحة



والاقتصادية وبالتالى الإنتاج الفنى المتميز فى تاريخ مصر القديمة (الفرعونى) بمراحلها الثلاث الكبيرة وهى الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة. بإحصاء هذا الجانب سنجد فترة القوة فى الدولة القديمة تصل إلى ٩١٩ عاماً، وتصل فى الدولة الوسطى إلى ٣٤٨ عاماً، وتصل فى الدولة الحديثة إلى ٤٩٣ عاماً أى ما مجموعه ١٧٥٠ عاماً.

بينما فترات الضعف قد وصلت فى الدولة القديمة إلى ٤٧ عاماً، وفى الدولة الوسطى إلى ٢٠٦ أعوام، وفى الدولة الحديثة إلى ٤١٦ عاماً، أى ما مجموعه ٦٦٩ عاماً.

لقد فاقت فترات القوة فترات الضعف بأكثر من الضعف مع تنامى فترات القوة بما رسخ المعنى الرمزى الذى بدأنا نتبينه فى مراحل الفن المصرى القديم من الدولة القديمة إلى الحديثة والذى تصاعد ليؤكد أهمية النظرية التجريدية فى فلسفة الفنان المصرى القديم، بل ربما الأهم فى وجدان الجماعة المعايشة والمشاركة فى هذا الإنتاج التشكيلى من رسوم أو عمارة أو زخرفة.

ووجدنا المعالجة فى النحت والتصوير الفرعونى تتوحد حيث لا ضرورة ولا أهمية للظل سواء فى الرسوم أو التماثيل وكأنها أنجزت فى الساعة الثانية عشرة ظهراً، حيث يختفى الظل. وبالتالى لا دور أو أهمية للبعد الثالث الذى يسعى إلى تكتيل العمل الفنى. وبالتالى يصبح العمل الفنى أو وجهة نظر الفنان هما الأساس بعيداً عن قواعد الفيزياء. واستمرت هذه النظرة لدور العمل الفنى إلى عصر الدولة الحديثة رغم ما تميز به هذا العصر من معابد ضخمة والتى اقتضت لتبين أبعادها الجمالية ضرورة الابتعاد عنها لمسافات كبيرة لتبين خطوطها العامة. وهى خطوط بطبيعتها وطبيعة النظرة إليها من بعد، تجريدية بشكل عام.

وجاءت اللغة القبطية مزيجاً من المصرية الفرعونية واليونانية بمعنى أنها سبقت العقيدة المسيحية، وبذلك حملت ملامح الثقافة المصرية والثقافة اليونانية واستمرت بهما مع انتشار المسيحية. وتغلبت طبيعة الفن المصرى الفرعونى من اهتمام بالرمزية أكثر من الواقعية مع ميل إلى التكوينات الزخرفية الهندسية أو النباتية.

ومع دخول اللغة العربية إلى مصر بدأ فن الخط العربى التجريدى بطبيعته يتبلور، ولم يكن ذلك هروباً من التصوير لتحريمه دينياً كما هو شائع، فالكثير من الفنون الأخرى الأدبية كانت صريحة فى إلحادها ومع ذلك استمرت.

وفى العصر المملوكى ضعفت اللغة العربية وبالتالى كان الابتعاد عن النصوص الدينية التى تحرم التصوير، ومع ذلك لم ينتشر الفن الواقعى، بل قوى الفن التجريدى مع قوة فنون العمارة المملوكية المصرية العظيمة.

لقد استمرت فى العصر المملوكى النظرة الفنية التجريدية، بل قويت وتبلورت وكانت قد بدأت رمزية فى العصر الفرعونى. والملاحظ أنه برغم كثرة المراجع حول تاريخ مصر، خاصة الفرعونى إلا أن المراجع التى ناقشت تتابع حلقات التاريخ المصرى الفنية قليلة.

المحور الثانى لموضوع الكتاب وهو اللقاء بين مدارس الفن الغربية والفن المصرى - بعد قطيعة بين الشرق والغرب فرضتها المرحلة العثمانية على المنطقة العربية بكاملها وضعف فيها الفن المصرى - شكل هذا المحور البابان الثانى والثالث. وسبب ذلك فرضه أولاً تطور مدارس الفن الغربية والذى يعد النصف الثانى من القرن التاسع عشر انقلاباً على النصف الأول، وإن كان بطبيعة التطور قد تولد منه. وفرضه ثانياً تطور مفهوم الفن المصرى من الفرعونى إلى العربى، أى من الرمزية الفرعونية إلى التجريدية العربية. ومن هنا كان اللقاء وكان تأثر مدارس الفن الغربى بالفنون المصرية القديمة سواء الفرعونية أو العربية.

وشاءت الظروف التاريخية أن تكتشف أوروبا مصر الفرعونية قبل مصر العربية. فقد كشفت الحملة الفرنسية حجر رشيد، وبدأ شامبليون يهتم بالتاريخ والفن الفرعونى، لذلك شغل الباب الثانى بهذا اللقاء الأول الذى أنتج بحكم هذه الظروف ما يمكن أن يسمى بنتاج دهشة اللقاء الأول والإعجاب الأول، وهو فن الاكزتيك Exotique الذى قدمت له المدرسة الرومانسية. وقدم بدوره الفن الاستشراقى وظاهرة التمصر Egyptomanie وجاء هذا الباب تحت عنوان (اكتشاف الشرق من بوابته مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر).

محمد المهدى

وشغل الفصل الأول من هذا الباب بالحملة الفرنسية والاتصال الأول بين الشرق والغرب بعد القطيعة. وكان من مظاهر اكتشاف الشرق بشكل عام، مصر بشكل خاص ترجمة المستشرق الفرنسى (جالان) Galland لألف ليلة وليلة بما بشر بمقدمات الرومانسية الغربية، ثم كان المؤلف الثانى كتاب (وصف مصر) Description, De L'Egypte الذى أثار اهتمام الغرب بمصر بشكل كبير. وتعدى دور (شامبليون) مجرد مكتشف لأبجدية مصر الفرعونية، إلى ما هو أهم وهو تذوق الفنون المصرية والقيام بالنقد المقارن بين عصور مصر الفرعونية من ناحية، وبينها وبين الفنون اللاحقة كاليونانية، ومع إجادته اللغات المصرية القديمة إلى جوار القبطية والعربية أتيحت له فرصة أن يكون رائداً فى تبين التواصل الحضارى فى الفن المصرى من الفرعونى إلى القبطى إلى العربى.

وبحث هذا الباب أيضاً التناقض والتخلف الذى تعرض له الوجدان المصرى آنذاك، من إعجاب الغرب بفنون مصر الفرعونية، بينما يندهش أهل مصر أنفسهم من هذه الفنون عندما وجدوها موضع بحث علماء الحملة الفرنسية، دهشتهم أيضًا عند اطلاعهم على فنون الغرب وكيف تابع كتاب (وصف مصر) هذه الظاهرة إلى جوار استمرار العديد من التشكيليين الغربيين فى رسم مظاهر الحياة المصرية منهم (فيفان دينون) Vivant Denon مع بداية تبلور الرومانسية الاستشراقية على يد (جرو) Gros.

وشغل الفصل الثانى من هذا الباب (أى الثانى) بالرومانسية والاستشراق الفنى والتمصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. وكان على رأس الفنانين المستشرقين الفنان الفرنسى (ديلاكروا) Delacroix ورحلته إلى المغرب العربى. وكانت خطوته فى الانتباه إلى دور الضوء والطبيعة وصولاً إلى فكرة الخلق الخاص بالفنان مستقلاً عن المرئيات المباشرة. كانت هذه الخطوة فيها التقاء غير مقصود مع مفهوم الفنان المصرى الفرعونى.

وتابع هذا الفصل المستشرقين الفنانين الذين زاروا مصر ومنهم (هنرى صولت) Henry, Salt، و(بسكال كوست) Pascale, Cost، ومساهمات (إدوارد وليم لين) Edward. W. Land فى البحث عن العادات والتقاليد المصرية، والفنان بريس دافين Prisse, D'Avennes لرسم العديد من الآثار المصرية. ورسوم الأب أنفانتان Le, Pere, Enfntin، ودافيد روبرتس David, Roberts، وفردريك لويس Fredrick Lewis، كما تابع هذا الفصل بدايات ظاهرة التمصر فى الغرب مع مطلع القرن التاسع عشر.

وناقش هذا الفصل أيضاً كيف أن إعجاب الغرب وتأثره بالفنون المصرية آنذاك لم يتعد الجانب النقلى الشكلى الخارجى، فالبحث لم يكن قد وصل إلى معرفة الأسباب الحضارية لاهتمام الفنان المصرى الفرعونى بالجانب الرمزى، أو الفنان المصرى العربى بالجانب التجريدى فى فنونه.



وجاء الباب الثالث من هذا الكتاب تحت عنوان (الفن المصرى وبدايات أساليب الفن المعاصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر)، لقد تعمقت خلال هذه المرحلة دراسات البحث الفنى الغربى من ناحية فى موضوع استقلالية الفنان بأسلوب لا يلتزم بالمرئيات المباشرة التى قيدت الطريقة الكلاسيكية أو الواقعية، إلى أسلوب يؤكد استقلال الفنان بخلق خاص يعتمد على اللون أساسًا باعتباره الأداة المميزة للتشكيل عن غيره من الإبداعات الإنسانية كالشعر والمسرح والرواية. ومن ناحية أخرى باستقلال العمل الفنى اكتفاءً بذاته بعيداً عن النقل من الأساطير أو القصص الدينية أو تقديمًا للشخصيات التاريخية، أو محاكاة للأعمال الأدبية، وأنتج هذا التعمق المدرسة التأثيرية Impressionnisme والتى تفرعت منها المدرسة النابية Nabisme التى اتجهت للاستلهام من الشرق. ومن هنا كان اللقاء الثانى بين مدارس الفن الغربية ومصر. وشغل بهذا الموضوع الفصل الأول من هذا الباب فجاء تحت عنوان (التأثيرية والنابية المصرية).

ورغم قلة المراجع التى ناقشت النابية المصرية لأنها لم تعمر طويلاً، إلا أن نتاجها كان يعنى بداية الانتباه لمضمون الفن المصرى أكثر من مجرد الشكل الخارجى.

واستكمالاً لسيرة مدارس الفن الحديثة من ناحية تطورها، ومن ناحية تأثرها بالفن المصرى فى مراحله الأخيرة أى التجريد العربى. تناول الفصل الثانى من الباب الثالث (التعبيرية واللقاء حول التجريد الكامل). وكان مشكلة البحث لهذه المرحلة هى التناقض بين اقتراب الفن الأوروبى الحديث من مفاهيم الفنون الفرعونية والعربية المصرية مع قلة زيارة الفنانين الغربيين لمصر بالمقارنة مع مرحلة الاستشراق الفنى. ولعل سبب ذلك هو من ناحية انحسار موجة الإكزوتيك والاستشراق الفنى التقليدى، أى مجرد الانبهار بالشكل الغريب. ومن ناحية ثانية الاتجاه لمحاولة فهم فلسفة الحضارات الشرقية ومنها المصرية بالدراسة النظرية التأملية المقارنة. فأقطاب الاتجاه لإلغاء الشكل المباشر أو هجر البعد الثالث على اللوحة وهم (سيزان) Cezanne و(جوجان) Gauguin، و(فان جوخ) Van, Gogh لم تكن لهم زيارة احتكاك مباشر مع مصر، و(ماتيس) Matisse من المدرسة الوحشية Fauvisme لم تتح له أيضاً فرصة زيارة مصر، وإن كان بعض أقطاب هذه المدرسة قد زارها مثل (دونجن) Dongen والبيرماركيه.

وكان للتطور العلمى المتلاحق فى نهاية القرن التاسع عشر دوره المهم فى اقتراب الفن الغربى من مفهوم الفن المجرد فى التراكيب الهندسية كما صاغها (براك) Braque و(بيكاسو) Picasso فى التكعيبية Cubisme. مع احتكاك بيكاسو بشكل مباشر فى تفكيره وفى إنتاجه بالفن الفرعونى والعربى. وجاءت زيارة الفنان (بولى كلى) Paul, Klee لتونس ومصر مع تأثره بالخط العربى والفرعونى ورموزهما، إضافة جديدة للتأثر بالفن الفرعونى والعربى المصرى، ثم نشهد المؤثر الفرعونى مستمرًا فى المدرسة التعبيرية الألمانية.

وتأتى قمة اقتراب مدارس الفن الأوروبية الحديثة من الفن المصرى العربى فى تكوينات هندسية تجريدية عند (كاندينسكى) Kandinisky و(موندريان) Mondrian بما بلور فى نهاية الكتاب كيف تصاعد الحوار مع الفن المصرى فى المؤثر الشكلى الخارجى، إلى المؤثر الداخلى الفلسفى حول فكرة التجريد.

وتجدر الإشارة فى نهاية هذا التقديم إلى ذلك التناقض الذى حدث داخل مصر نفسها من قبول الذوق الجمالى العام للمفهوم الكلاسيكى الأوروبى أو الفن الواقعى المباشر الذى تجاوزته أوروبا نفسها مع ابتعاد هذا الذوق المصرى العام عن تذوق الموروث المصرى الذى شارك فى تشكيل وجهة النظر التشكيلية الجديدة فى مدارس الفن الأوروبى الحديث. ولعل ما حدث فى مصر أسبابه تتعلق بانبهار أهلها بحكم السطوة الاستعمارية بكل ما هو أوروبى أى كل ما يتعلق بموروث الغرب المتفوق اقتصادياً وسياسيًا وعسكريًا، والجمود عند هذه المرحلة إلى حد أبعد هذا الذوق المصرى أو العربى بشكل عام عن إدراك قيمة موروثهم ودوره الحضارى والفنى التشكيلى المهم. ■



شاءت الظروف التاريخية أن تكتشف أوروبا مصر الفرعونية قبل مصر العربية. فقد كشفت الحملة الفرنسية حجر رشيد، وبدأ شامبليون يهتم بالتاريخ والفن الفرعونى



آه يا غجر!

■■ «آه يا غجر».. كلمة تنتشر فى المجتمع المصرى بصورة معتادة، لوصف أى سلوك غير سوى يقدم عليه عدد من الأشخاص، ولكن هذا اللفظ لم يأت اعتباطاً، فما لا يعرفه كثيرون أن للغجر تواجداً غير محدود فى مصر، وهو ما سنحاول فى السطور القادمة التركيز عليه.

نبدأ جغرافياً، حيث تتواجد جماعات منهم فى أجزاء متعددة من الوادى والدلتا وصعيد مصر، وتسود بين هذه الجماعات علاقات معينة كما يسود بينها وبين المجتمع الأم نوعيات أخرى من العلاقات تثير ظواهر تهم المشتغلين بعلم الأنثروبولوجى والدراسات الاجتماعية والإنسانية.

وبالعموم فإننى سأركز فى السطور القادمة على:-

- التعريف العام بالغجر.
- جماعات الغجر بمصر وأصولهم وعاداتهم وثقافتهم.

تعريف عام بالغجر

وجد فى القواميس الأساسية أن الجميع يقرر أن كلمة «غجرى» هى المقابل لكلمة Gypsy فى الإنجليزية وإن كانت بعض هذه الجماعات قد اكتسبت أسماء محلية أخرى مثل الغجر الذين يعيشون فى جزء من أوروبا يسمون «رومانى Rommany» أو بوهيمى Bohemian لمن يعيشون فى فرنسا وفى أماكن أخرى من شمال أوروبا يسمون ثارثار TarTar وفى الأصول والتاريخ العربى، كما يقول د.مصطفى جواد إن أقدم تسمية عربية للغجر هى «الزُط» بضم الزاى وتشديد الطاء ومنهم فى بلاد العرب ما بقى بهذا الاسم أو تبدل حيث تذكر دائرة المعارف الإسلامية ذلك ولعل أقدم الأسماء لهم هو الزُطُّ.

أما جهة الصفات الشكلية للشخص الغجرى، فقد قرر جورج مين Main.G وهو من المتخصصين فى هذه الدراسات أن للغجرى بشرة سوداء داكنة وشعراً أسود بينما وصفه دارسون آخرون بأنه قصير ممتلئ ذو أكتاف عريضة ولكن الواقع أن جماعات الغجر ليس لها صفات شكلية معينة إذ إن من نسائهم شقراوات وفى وجوه بعض رجالهم حمرة الوجه والذى هو مؤكد أن جماعات الغجر رحلوا عبر تاريخهم إلى بيئات مختلفة ومن حقب بعيدة واختلطوا بشعوب لها خصائص، فبالتالى كانت لهذه الأسباب عدم وجود صفات شكلية معينة.

ويذكر أن هناك صعوبات كثيرة فى القيام بعمل إحصاءات سكانية دقيقة وربما ساعد ترحالهم الدائم بجانب أنهم لاقوا بعضاً من العزل والمطاردة والإبادة من بعض النظم القمعية مثل النازى جعلهم غير مستقرين.

ويجمع العلماء على أن لغة الغجر هى لغة البلاد التى يعيشون فيها بالإضافة إلى أنهم يتكلمون لغة سرية تختص بهم وهى لغة رمزية سموها فى أوروبا «باتيران» Paterian وفى مصر تعرف بلغة «سيم».

أما الموطن الأصلى للغجر فقد أصبح الرأى القائل بأن آسيا وخاصة شمال الهند هى الموطن الأصلى لهم، وهو الرأى الذى يلقى قبولاً بين المهتمين بتاريخ الغجر، أما التاريخ الدقيق الذى يوضح متى خرج الغجر من الهند وتفرعوا إلى العالم فيعوزه الدقة ومن المحتمل أن هذه الجماعات قد خرجت تحت ضغوط حروب ومواجهات واضطهاد انتقلوا على أثر ذلك فيما بين القرون الخامس الميلادى إلى الثامن الميلادى وارتحلوا جنوبا إلى مصر والبلاد العربية وأفريقيا وشمالا إلى أوروبا.

وقد مارس الغجرى أعمال السحر والعرافة وجمع القمامة وأنواعاً خاصة بالرقص الشعبى وبقى له موروث موسيقى يدل على ثقافته وفى مناطق أخرى بآسيا امتهن الغجرى تربية الثعابين وترقيص الأفاعى واشتهرت المرأة الغجرية برؤية الطالع والرقص الشرقى وظل هناك تصور سائد عن سلوك الغجر وتاريخ الغجر عامر بالقصص الفولكلورى الشعبى ومن أهم معالم تاريخ الغجر عصر ارتباطهم بشخصية تسمى «الزير سالم» والقصة تحكى بأن صراعا دار بين شخصين غجريين هما (الزير سالم) و(جساس)، وفى الصراع انتصر فى المرة الأولى (جساس) وأمر جماعة (الزير سالم) بالعمل فى فلاحة الأرض وهو ما لم يتعودوا عليه فجرى على لسانهم مثل يقول: «ملعون أبو جساس اللى حكم علينا بمسك الفاس».

وحينما انتصر الزير سالم على جساس حكم الزير على جماعة جساس بألا يركبوا الحصان أبدا وعقابا يركبون الحمار فجرى على لسانهم المثل «ملعون أبو الزير اللى حكم علينا بركوب الحمير»، ويلاحظ أن غجر مصر يخجلون من ذكر اسم الزير سالم وأصبحت كلمة الزير سالم مدخلاً للغضب والنكد إذا قيلت خاصة للغجر (النوَر) والعجيب أن هذه الرواية يرويها غجر فلسطين بنفس تفاصيلها وهذا يؤكد صلة غجر مصر بغجر فلسطين والشام.

غجر مصر

انتهت الدراسات إلى أن أصول غجر مصر لا تعود أصلا لسلالة المصريين ولا توجد أدلة علمية أو براهين تدل على ذلك وأن ربط بعض الدارسين بغجر مصر غير مؤكد علميا لأن الربط اللفظى فى تشابه كلمة Gypsy، وكلمة Egyptian أو الاشتقاق Copt لا يعنى النشأة وعلى سبيل التأكيد استخدم هوتن Hoten نفس الدليل اللغوى فأثبت عكس ذلك وذكر جونز أن الاستشهاد ليس صحيحاً وقرر نيوبولد من خلال دراسته عن غجر مصر ولسمات الشكل فيهم أنهم ينتمون إلى أصول أجنبية وترجع لأصل مشترك وكلمة «غجرى» فى مصر تجمع فى إطارها كل جماعات الغجر بمصر، بالرغم من تفرع الجماعة فى مصر إلى فروع أساسية «غجر»، «نوَر»، «حلَب».

أما المظهر الفيزيقى للغجر بمصر، فقد ذكر الرحالة Polzie عن مصر فى ١٥٩٨ ميلادية أنه يوجد غجر بمصر ويمكن مشاهدتهم فى تجوالهم من مكان إلى آخر ويقدم Setzen فى عام ١٨٠٦ محاولة لوصف غجر مصر فأشار إلى أن ملامحهم تتشابه مع ملامح المصريين وإن كانوا ليسوا منهم وقال «ين» أنه يمكن رؤية المرأة الغجرية فى شوارع القاهرة وهى تلبس ملابس الطبقة الدنيا من المصريين غير أنهن يخرجن عادة سافرات الوجه ووصف «ليلاند» نفس الوصف وقال إنهن قد وشمن ذقونهن أسفل الشفاه وأيديهن وصدورهن برسوم متنوعة من الوشم.

ويقول «سنكلير» أن ظاهرة الوشم تسود بين غجر الشرق بسبب انتشار هذه الظاهرة بين بعض نساء الشرق ويبدو ذلك فى بعض نساء العربان من القبائل العربية وإن كانوا ليسوا من الغجر لذا فيجب ألا تكون هذه الظاهرة مميزة للتعرف على الغجريات وينطبق ذلك أيضا على ارتداء القرط وقدم boyed ما يفيد بأن جماعات الغجر يمكن أن تتشابه مع المجتمعات التى تعيش فيها.

البناء الاجتماعى والثقافة فى مجتمع الغجر

نبيل صبحى حنا

القاهرة: دار المعارف ـ ١٩٨٣

وأهم ما ذكر عن غجر مصر تناولته المراجع العربية تناولا عاماً فدائرة المعارف الحديثة (أحمد عطية) تحت فقرة كلمة «غجر» جاء: «ويعرف نساء الغجر بالغوازي» وتناول مصطفى شلش وصفهم بأنهم جماعات واحدة ولكن نجد الباحثين الأجانب من أمثال «وليم لين» فى كتاب Modern Egypt قد تطرق إلى وصفهم ووصف جماعاتهم ونشاطهم الاجتماعى وقال منهم «راقصون وحواة» أيضا كتاب «نيوبولد» تطرق إلى أنهم قارئو كف وعرافون وأشار «كريمر» عن جماعة الرفاعية وأنهم يقومون بتطهير المنازل من الثعابين.

لغة «السيم»!

ومن الطريف أنك فى مصر قد تسمع شخصاً يقول للآخر كلمة «سيم» ويقصد بها أنهما لديهما لغة مشتركة يفهمانها لوحدهما، فى حين أن كلمة «سيم» نفسها هى اسم لغة الغجر فى مصر، وهذا يدل على انتشار مصطلحات لغتهم فى العامية المصرية.

على ذلك فالجزء التالى هو عبارة عن تقديم وصف بسيط للغة الغجر:-

ومن أمثلة هذه الكلمات:-

كلمة ثانى فى اللغة العربية «تانى» فى العامية تكون فى الغجرية «تونى»

كلمة نور أو نار «نور» أو نار فى العامية تكون فى الغجرية «مانورة»

كلمة قوى «أوى» فى العامية تكون فى الغجرية «أو»

كلمة قليل «أليل» فى العامية تكون فى الغجرية «ألا»

كلمة صباح «صبح» فى العامية تكون فى الغجرية «مأجح»

كلمة مسلم «مسلم» فى العامية تكون فى الغجرية «مسليمى»

كلمة صغير «صغير» فى العامية تكون فى الغجرية «مأصغير»

كلمة كبير «كبير» فى العامية تكون فى الغجرية «مأكبير»

وتحتوى لغاتهم على كلمات لا تشبه العربية

الإنسان كيرة فى الغجرية
الرجل برغة فى الغجرية أو أروب
المرأة كودليانه فى الغجرية
الولد سما
البنت سماونة

ويمكن أن نستنتج من هذه المفردات أنها لغة ناقصة وهى مجرد أسماء وأفعال وصفات مختلطة بمثيل من اللغة العربية وأحيانا ليس لها أصل وأن الوظيفة الاجتماعية لها هى ليست وسيلة التخاطب اليومى ولكنهم وكما سبق يستخدمونها فى مواقف خاصة ويميل بعض الكتاب بتسميتها «سيم» أو «رطان».

تقسيم الغجر:

يمكن تقسيم جماعات الغجر الأساسية بمصر إلى جماعتين رئيسيتين:

النور، الحلب، وهو تقسيم ذكره الرحالة «walker» «ووكر» وقد أوضحت نتائج العمل الميدانى لدراسة د «نبيل صبحى حنا» هذا التقسيم وهو ما يؤكد صحته.

- جماعة النور: المفرد منها «نورى - نورية» وقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية النطق نورى على المفرد من نور ورأى «كاترمير» أنهم كانوا يحملون الفوانيس ليلاً أو أنهم يعملون فى الحدادة على «الكور» وقد عملوا باللصوصية، فمن شدة نزعتهم للسرقة قيل المثل الشعبى «مائة نورى ولا دمنهورى».

- جماعة الحلب: المفرد حلبى - حلبية ذكر (نيوبولد) يفترض وجود علاقة بين الجماعة ومنطقة حلب فى سوريا وأنهم يطلقون على أنفسهم محلبيش Mahlebish.

وبجانب الجماعتين، توجد أسماء أخرى محلية قد تكون الجماعات الأساسية قد أطلقتها على نفسها أو أن الناس أطلقتها عليهم، ومنهم «هجالة» «طوايفة» «تهانية» «تتر» «قرداتية» وأشهرهم الطهواجية أو «الهنجرانية».

وعائلات النور بالقاهرة والجيزة يطلق عليهم «هنجرانية» وتوجد جماعات بأسماء الغوازي والاسم يطلق على الراقصات الشعبيات «والمشاعلية» وهم من كانوا يحملون المشاعل ليلا للمناداة على الناس حسب أوامر الحكام، «والبرامكية» وهم يدعون أنهم من نسل البرامكة وجاءوا هرباً بعد النكبة التاريخية للبرامكة، لكن لا يوجد ما يثبت ذلك علمياً.

وهناك أسماء أخرى لجماعات مثل: «الرمادية» من يعملون مهرجين بالسيرك والأحاديث الفاضحة، و«السمناعة» بجهة فاقوس بالشرقية وهؤلاء يتخذون من التسول حرفة.

صورة الغجرى

يشاع عن الغجر بالموروث الشعبى فى مصر أن الغجر يأتون أفعالا غريبة، فعلى سبيل المثال يقال أن بعض طوائف الغجر عندما يموت الغجرى منهم يذبحون ذبيحة ولابد أن يمر بجثمان الميت على الذبيحة وتوزع ولا تؤكل وقد قيل إن بعضهم يحرق موتاهم (غير مؤكدة). ولكن قد يكون ذلك نتيجة أصولهم الهندية والذين يقومون بحرق الموتى. ومن أهم الظواهر المشهورة جدا عنهم عادة حرق النقود فيشاع حينما يفضون منازعة فإن التنافس بين المتنازعين يقومون بحرق العملات الورقية، خاصة ورقة الخمسين جنيهاً أو المائة جنيه إلى أن يفرغ أحدهما مال الآخر فيصبح بأنه انتصر ويفسر المجتمع حول الغجر هذه العادة بأن الغجر لا يبالون بالنقود لأنها فى الأصل مسروقة. ومن الغجر الآن من يسافرون إلى المملكة العربية السعودية أثناء موسم الحج ويقومون بأعمال السرقة.



ومن المعروف أن المثل الشعبى يعبر عن حقيقة مألوفة، فيقال «الغجرية ست جيرانها» وهذا يعنى أنها سليطة اللسان حتى أن الكل يتجنبها اتقاء شرها ومثل آخر «كل حارة ولها غجر» وأنه أثناء الحديث إذا تكلم أحد بطريقة غير مهذبة يقال له «أنت غجرى» أو «متغجرش» وفى العبارة الشعبية المشهورة «آه يا غجر».

ويتصور عن المرأة الغجرية أنها مثيرة، لذا فهى تعمل بالرقص. وحقيقة الأمر أن الغجر مسئولون عن هذا التصور لأنهم بأدائهم وحراكهم الاجتماعى وتعهدهم إخفاء مراسمهم واستعمال لغة سرية عند التعامل كل ذلك يؤدى إلى التأويل وعدم الثقة حتى فى حالة الجماعات المستقرة منهم والذين كونوا علاقات مع المجتمع وقد حققوا نجاحاً فإن الشخص الغجرى يكون أكثر حساسية من أن تعرفه أنه غجرى ولا يدع نفسه كنموذج يحتذى به ولكن عندئذ يدعى أنه من العربان ومن القبائل العربية بالرغم من أن هذه القبائل لها صفاتها المعروفة وأنهم يحظون بأنساب عربية ولهم تاريخ مدون وللقبائل بطون وأفخاذ وفروع.

ومن المعروف أن تاريخ وجودهم يرجع إلى فتح مصر ودخول العرب سنة ٢٠ من الهجرة سنة ٦٤١ من الميلاد عقب استيلائهم على حصن بابليون وتعد قبائل سليم (بنوسليم) من قيس أول من نزلوا أرض مصر سنة ١٠٩ هجرية ومنهم فروع كثيرة: بنو هلال وبنو عوف وبنو هيب وبنو شماخ وأبو الليل والخونة والشيالة والمحيامين وغيرهم وليس بهذه القبائل أسماء جماعات الغجر أو أى أنساب أو زواج وأن هذه قبائل والأخرى جماعات وعندما يدعى أحد الغجر بدعوى أنه من العربان فإنك تسمع من البدوى بأن يقول «هذا مقطع» وينطقها «مجطع» أى «ليس له قبيلة».

تفاعل الغجر

بالنسبة لغجر مصر، فتشير الأبحاث الاجتماعية أنهم ليس لديهم إحساس بهذه القومية الغجرية، مما يؤكد انتماءهم إلى الجماعة المصرية ولا تناسب فكرة إنشاء معسكرات لهم لأنها لا تؤدى إلى التكامل والتفاعل وأن فكرة إصدار قوانين وتشريعات خاصة للغجر لا تخدم التكامل مع الجماعات المصرية لأن خضوعهم للقانون المصرى يجعلهم يشعرون بمصريتهم وهذه المساواة القانونية إيجابية وتساعد على الاندماج.

فى الواقع أن جماعات كثيرة جدا من الغجر حققت تكاملاً مع المجتمع الذى تعيش فيه بطريقة تلقائية ودون تدخل من الدولة لأن الدولة تتيح الفرصة لجميع أبنائها، فمن المتوقع استمرار التكامل والاندماج فى المجتمع وتعتبر تجربة التعليم والتثقيف فى كل مكان بمصر والاهتمام بإجراء البحوث العلمية والاجتماعية والإنسانية وأن مركز البحوث الاجتماعية والجنائية والجامعات تؤدى إلى تطبيق التعاون والاندماج وهناك تجربة تعليمية رائدة فى قرية «شهبندر» يمكن أن يحتذى بها وأن شمس مصر كما أسلفنا لكل المصريين فجاءت أن مصر مقبرة للغزاة كما يقال فإن تراب مصر يذوب فيه كل من أتى مصر عبر الأزمان والأجيال وأحب هذا الوطن وعاش فيه لينعم بالمواطنة فيه. ■

عبدالمنعم منصور



مارس الغجرى أعمال السحر والعرافة وجمع القمامة وأنواعًا خاصة بالرقص الشعبى وبقى له موروث موسيقى يدل على ثقافته



تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

أم كلثوم

إيزيس فتح الله - محمود كامل
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨ ، ٤٨٢ صفحة



يقدم هذا الكتاب إحصائيات لأعمال أم كلثوم، وقاعدة بيانات كاملة بهذه الأعمال، مؤلفيها وملحنيها، والنصوص الأصلية لهذه الأعمال، إضافة إلى النص الكامل لأوبرا عايدة التى شاركت فيها كوكب الشرق، وهو عمل يأتى فى إطار توثيق الموسيقى العربية، وتم تقسيم مراحله على هذا النحو: المرحلة الأولى خاصة بالرواد الذين أثروا هذا الفن فى الفترة من منتصف القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين مثل الشيخ أبو العلا محمد وسلامة حجازى وسيد درويش، والمرحلة الثانية هى مرحلة الأعلام، وهى تلك التى أخذت وتعلمت فيها على أيدى هؤلاء الرواد، ثم انطلقت إلى عالم الابتكار والإبداع، واستمرت هذه المرحلة حتى السبعينيات من القرن العشرين مثل محمد عبدالوهاب ورياض السنباطى وفريد الأطرش، والمرحلة الثالثة خاصة بشباب الموسيقى العربية الذين تعلموا وتأسسوا على أيادى أعلام الموسيقى العربية وحتى نهايات القرن العشرين.

ويبدأ كتاب أم كلثوم بمقدمة موجزة عن حياتها منذ الميلاد فى قرية طماى الزهايرة بمحافظة الشرقية، ونشأتها الدينية وحفظها للقرآن الكريم وتجويده وإنشاد المدائح النبوية والقصائد والتواشيح الصوفية وهى فى سن مبكرة مع والدها الشيخ إبراهيم البلتاجى وشقيقها خالد، وقد ساعداها على فهم اللغة العربية والاستمتاع بكنوزها وحسن نطقها، ثم بعد ذلك لقاؤها بأستاذها الشيخ أبو العلا محمد الذى تولى فترة شبابها الفنى بالتدريس والتثقيف والتدريب الدائم وكان أول ما تغنت به من ألحانه كلمات الشاعر أحمد رامى.

الصب تفضحه عيونه
وتنم من وجد شئونه
إنا تكتمنـا الهـوى
والداء أقتله دفينه

وقد غنّت أم كلثوم هذه الأغنية قبل أن تتعرف على أحمد رامى الذى صار فيما بعد شاعرها المفضّل، وقد كتب من وحيها فيما بعد ثلاث قصائد فى عامى ١٩٢٤ و١٩٣٢ .

وتتناول المقدمة مسيرة أم كلثوم الفنية ودورها الوطنى والقومى، وتعريفها بعدد كبير من الشعراء العرب وغير العرب المرموقين، ومنهم شاعر باكستان الأشهر محمد إقبال، ويكشف الكتاب عن ثلاث محاولات لأم كلثوم فى مجال التلحين، كانت الأولى ١٩٢٨ حين لحنت طقطوقة: على عينى الهجر ده منى، والثانية عام ١٩٣٦ حين لحنت مونولوج: يا نسيم الفجر ريان الندى وكلاهما من كلمات الشاعر أحمد رامى، أما الثالثة فكانت قصيدة عنوانها: تبارك من تعالى فى علاه. وقد توفيت أم كلثوم يوم ٣ فبراير ١٩٧٥ .

■

الدين والدولة فى مصر

عبدالمنعم سعيد
القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨ ، ٣٠٦ صفحات



استطاع الآباء المؤسسون للدولة المصرية الحديثة، ودعاة الإصلاح السياسى والاجتماعى فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، أن يقيموا توافقاً لإنشاء دولة مدنية تقوم على المواطنة من ناحية، وتلبى الاحتياجات الروحية والدينية لمواطنيها من ناحية ثانية، لكن هذه الصيغة برغم الاجتهادات الفقهية والقانونية التى سعت إلى تأطيرها، تعرضت لحالات مستمرة من الشد والجذب منذ سبعينيات القرن الماضى وحتى اليوم، وبدلاً من صيغة التوافق والمواءمة التى اقترحها المصلحون فى بدايات القرن العشرين، تنامت صيغ أخرى قائمة على الإزاحة والإبعاد والإقصاء، وباتت الدعوة لدولة دينية أكثر وضوحاً وصفاقة، وخرج الإخوان المسلمون فى عام ٢٠٠٧ بمشروع برنامج حزبى يقوم على إنشاء دولة دينية تحل محل الدولة المصرية المعاصرة.

المؤلف وهو مفكر ليبرالى ومدير لمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الأهرام يقدم فى هذا الكتاب اجتهاداته على مدى ٤ سنوات (من ٢٠٠٤ - ٢٠٠٨) فى هذا الموضوع المهم، والتى نشرها فى صحف مصرية وعربية، وهو يتساءل فى إحداها مثلاً: ماذا لو حكم الإخوان المسلمون؟ وفيه ينتقد بوضوح برنامج الإخوان الانتخابى، فهم بحسب قول المؤلف، يتصرفون وكأنهم يعيشون وحدهم فى هذا العالم، إذ عليهم فقط أن يقرروا وليس على الآخرين إلا أن يستجيبوا ويرضخوا لما يقررونه، فهم سيقومون بتغيير أو تعديل ميثاق جامعة الدول العربية ويفعلونه، لكنهم لم يقولوا لنا عن تعديلاتهم المقترحة فى هذا الإطار، وهل سيتقبل أعضاء الجامعة العربية الآخرون هذه التعديلات أم لا، هم يقولون أيضاً إنهم سيعطون أهمية قصوى للعلاقات مع أفريقيا، دون أن يقدموا لنا برنامجاً واضحاً عما ينوون عمله، وما هو الذى سيميز برنامجهم وتحركهم فى هذا الإطار عما تقوم به الحكومة المصرية الآن، كما أن البرنامج يتحدث عن الدائرة العقائدية، وجوهر العمل فيها هو تحقيق الوحدة الإسلامية من خلال العمل على توثيق روابط مصر الإسلامية مع عدد من الدول المهمة مثل إيران وتركيا وماليزيا واندونيسيا.

ويدهش القارئ لوضع هذه الدول جميعاً فى السلة ذاتها، فإيران بها ثورة إسلامية شيعية، وتركيا عضو فى حلف الأطلسى وتسعى بقوة للانضمام إلى الاتحاد الأوروبى، وماليزيا تخوض تجربة تنموية تعتمد على الشركات متعددة الجنسيات، واندونيسيا لديها تركيبة خاصة من الأجناس والأعراق.

والطامة الكبرى كما يقول المؤلف هو حديث الإخوان عن الدائرة العالمية، وأحد أهدافهم الكبرى فى هذا الإطار هو خروج المنظمات الدولية من وصاية القوى الكبرى، ولا أحد يعرف كيف سيتمكن الإخوان من تحقيق هذا الهدف الغالى، وهل تحسبوا فعلاً لردود أفعال الدول الكبرى التى تسعى الجماعة إلى تقليص نفوذها.

بهذه العقلانية السياسية، يناقش المؤلف أفكار الجماعة، وكذلك أفكاراً كثيرة تبحث فى العلاقة بين الدين والدولة فى مصر.

■

قراءة فى ذاكرة الأمة

الأغنية المصرية ومؤلفوها فى مائتى عام
إيمان مهران
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨ ، ٣٣٤ صفحة



تلعب الأغانى دوراً بارزاً فى تاريخ الشعوب، فهى المشارك الأول فى كل المناسبات، منذ أقدم العصور حيث عرف الفراعنة الغناء والإنشاد الدينى، الذى قدَّم فى معابدهم وقرابينهم وكلون من ألوان الاعتراف للآلهة، وقدمت الحضارة الرومانية وبعدها الإسلامية العديد من ألوان الغناء والإنشاد، فكان الغناء مصاحباً لفرق الغزوات وهو نوعٌ حماسى ذو طابع جدى، مختلف عن نظيره فى المناسبات الاجتماعية المختلفة كالزواج والغزل والمدح وغيره، كذلك تناولت المؤلفة التاريخ لهذا الفن وأهم روافده والعوامل الحضارية التى غيرته عبر الزمان وكيف ساهمت التكنولوجيا الحديثة بإثراء المساحة بأشكال من الضوضاء، مروراً بالدور البارز الذى لعبه المسرح الغنائى ومن بعده أفلام السينما الغنائية فى هذا الفن، كما تعرضت للمدلول الحقيقى للفن الشعبى الذى يحكى آلام الناس، ويقدم مشكلاتهم فى كلمات شعرية عكس ما نراه اليوم، لقد ارتبطت الأغنية المصرية بالأرض والعرض والقيم والأخلاق والفؤاد، كما كانت المؤرخ الحقيقى للشعب منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، ويحتوى الكتاب أهم الشعراء فى أجيال مختلفة وعدد من القصائد المشهورة.

■

سنون مبعثرة

غالية ف. ت. آل سعيد
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٤٩٠ صفحة



ناجى، فاقد الأبوين اليتيم طفلاً، تتبناه أسرة بريطانية، يتمتع بذكاء حاد، يشجعه أبواه على الدراسة ثم ينهى دراسته الجامعية ليعمل فى الصحافة ويشتهر بتحليلاته الصحافية.

جمعت ناجى علاقة بمساعدته دافنى ولنفتون، ذات العلاقات المتعددة مع آخرين. ورغم عدم رغبته بالارتباط بها، أصرت هى على ذلك. وإثر فصله من العمل، بسبب إدمانه الكحول، يختفى ناجى من حياة دافنى ويتركها بائسة لتتزوج بفتاة فاتنة يتركها لإدمانه أيضاً. وأخيراً تتعرف دافنى إلى موسيقى أفريقى مهاجر اسمه سيوم علوان أحمد وتتزوجه، فيما تعرف ناجى بشابة حسناء كان على وشك الزواج منها لولا أحداث كثيرة منعته من ذلك وفرضت عليه الوحدة القاتلة!

رواية تتعدد فيها الشخصيات وتتعدد

العلاقات الغرامية وتتشابك الأحداث وتدور بشخصياتها حول العالم في آسيا وأوروبا وأفريقيا.

حيث تتناقض الحضارات وتلتقي وتفترق، وحيث الغنى المترف تكثر علاقاته وتكبر طموحاته فيدمن الكحول والحب والشهرة.. ليقع من عل.

في إهدائها كتبت غالية تقول: «إلى المبتلين بداء الإدمان، أياً كانوا وأياً كان نوع إدمانهم، ليلهم ونهارهم طويل».

■

الغضب الناعم

العنود محمد الشارخ

ترجمة: سامي خشبة

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨، ٣٧٨ صفحة



يتضمن مفهوم النسوية النزعات الإسلامية الاجتماعية ودعوات المطالبة بمنح المرأة حق الاقتراع والدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات السياسية والمدنية، وعادة ما ينظر إلى مفهوم النسوية باعتبارها منتجاً غربياً ودليلاً على التبعية وتأكيد السيطرة الغربية - والأمريكية خصوصاً - على العالم، ولهذا فإن كثيراً ما يدهش المرء حين يقرأ بعضاً من كتابات دعاة النسوية، في الأدب وغيره، ويفاجأ بدفاع عن أفكار ومجتمعات يحمل لها هؤلاء رفضاً لأسباب متنوعة.

المؤلفة تعود إلى بدايات الاهتمام بالمسألة النسوية من خلال كتابات لعدد من الأديبات الأجنبيات والعربيات، ووفقاً لتقسيم خاص تقترحه المؤلفة، فإنها تدرس أعمال المؤلفة الإنجليزية شارلوت برونتي، والأديبة الكويتية ليلى العثمان كنموذج لاثنتين من الكاتبات ينتمين إلى مرحلة الأنوثة في الكتابة النسوية، وهي المرحلة التي تطور فيها وعي الأنثى بمجتمع الرجل الذي يمارس القمع، وقد اتضح لها ذلك في اتخاذ بعض الكاتبات أسماء ذكورية مستعارة لهن، واتسام كتاباتهن بالغموض والسخرية غير الهادفة.

وفي مرحلة الوعي النسوي التي تميزت بها كتابات المرأة بصور عديدة للاحتجاج الاجتماعي والجنسي والسياسي، اختارت المؤلفة نموذجي سارة جراند، ونوال السعداوي من مصر، كمثالين لتطور الوعي النسوي في هذه المرحلة.

وفي مرحلة الأنثى الممتدة حتى اليوم اختارت المؤلفة أعمال فرجينيا وولف، وحنان الشيخ من لبنان، فهما برأيها أعادتا تعريف تجارب المرأة الداخلية والخارجية.

وبحسب المؤلفة، فإن الأدب المقارن هو أفضل أداة فكرية وتحليلية للربط بين الظروف القومية التي تنفرد بها المنطقة التي تنتمي إليها الكاتبة، وبين العلاقات المتشعبة داخل النص، والعلاقات التي تخص التجربة النسوية والتي تتعدى حدود الزمان والمكان، إذ إن الكاتبات في مجموعهن يعكسن الحلقة المتصلة بين الخيال وتكرار أنماط من الموضوعات ومشاكل وصور بعينها من جيل لآخر، وبتقريب هذه الصور من بعضها تتضح شيئاً فشيئاً صورة الوعي النسوي الجديد كما تتضح في الكتابة الروائية.

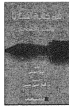
■

البتـــرول

ذروة الإنتاج وتداعيات الانحدار

حاتم الرفاعي

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٨، ٢٠١ صفحة



يقدم المؤلف رؤية سريعة لعالم ما بعد البترول، حيث يصل المخزون العالمي من البترول إلى مرحلة الذروة أي أغزر مراحل إنتاجه ثم يبدأ بالتناقص التدريجي، وذلك لأن البترول كما هو معروف طاقة غير متجددة وقابلة للنفاد، وكيف على العالم حكومات وأفراداً أن ينتبه لهذا الخطر القادم، فلابد من دراسة الوضع أكاديمياً وأن تكون هناك شفافية مطلقة بين الحكومات وشعوبها لمواجهة الخطر، وهذا من خلال دراسة الكاتب لتاريخ استخدام الإنسان لمختلف وسائل الطاقة التي تبدأ باعتماده على يديه في العمل والغذاء ونهاية باستخدام البترول، وكذلك قصة اكتشاف البترول عالمياً وإنتاجه واستهلاكه نافذاً منها على الرؤية الأساسية لهذا البحث وهي ذروة البترول وعلاقتها بمقدار الاحتياطي العالمي المتبقي في الأرض وما استهلك منه منذ البداية وحتى الاعتماد عليه في كافة مجالات الحياة سواء الاقتصادي والسياسي والاجتماعي وغيرها، ويبحث إمكانية استخدام بدائل للطاقة كالطاقة الشمسية والرياح وغيرها، ومحاولة تنفيذ هذه المشروعات بدقة وفي الأوقات المناسبة حتى لا تحدث هذه الصدمات، وأخيراً يحاول عرض تحليل اجتماعي عالمي في ضوء هذا المؤشر الخطير، ومحاولة إيجاد حلول للمشكلات الغذائية وتقديم بدائل لوسائل النقل وغيرها من هذه المعضلات وموقف الدول القوية والضعيفة إزاء هذه المحنة.

■

فن كتابة الفنتازيا والخيال العلمي

ليزا توتلي

ترجمة: د. كمال الدين حسين

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ٢٧٨ صفحة



امتاز الإنسان بالقدرة على التخيل، ووصلت هذه القدرة إلى مدى غير مسبوق في بدايات القرن الواحد والعشرين، تجلى ذلك في نوعية الأدب الذي ساد واشتهر وهو أدب الفانتازيا والخيال العلمي، من هنا تأتي أهمية كتابة «فن الفانتازيا والخيال العلمي» للمؤلفة «ليزا توتلي» وترجمة د. كمال الدين حسين، والصادر حديثاً عن الدار المصرية اللبنانية، وليزا توتلي هي واحدة من كتاب هذا النوع من الأدب، فقد تتبعت كل التفاصيل الخاصة بهذين النوعين من الكتابة، والمدهش أنها اكتشفت أثناء بحثها أنهما ولدا ككتابة للأطفال في البداية، ثم تطورا بتطور الحضارات إلى أدب يستهلكه الجميع، وتنتجه السينما بل وتتكالب عليّ، فلماذا هذه الرغبة الإنسانية في قراءة ورؤية الأشياء المخيفة، هل هي الرغبة في التطهير بالمفهوم الأرسطي؟ أم الرغبة في تعميق الإدراك بالنفس البشرية، وتصور حيوات أخرى أكثر عنفاً وبدائية للرضا بالواقع الحضاري الذي نحياه.

ويأتي الكتاب إلى السؤال الأهم، وهو: ماذا لو كانت لديك الرغبة في كتابة هذا النوع من الأدب سواء على شكل كتاب، خصوصاً بعد الشهرة التي تحققت لهاري بوتر قراءة وسينما، أم كنوع السيناريو للسينما؟ أو صياغته في قصص الأطفال؟ كيف تصل إلى الصياغة المثلى لأفكارك ولا تقلد الآخرين الذين سبقوك أو المعاصرين لك؟ إنه جوهر الكتاب في خلال دراسة كل الروايات التي كتبت في هذا النوع.

قسمت المؤلفة فكرة الكتاب إلى أحد عشر فصلاً لتحيط بفكرتها وتضعها في صورة مثلى.

الأول: تحديد الخصوصية: يتناول المهارات التي يحتاجها الكاتب لكتابة الفانتازيا والخيال العلمي وهل تختلف هذه المهارات عنها في أية كتابة أخرى؟ وهذه المهارات هي كيفية إنشاء قصة جيدة، وشخصيات مقنعة، والتدفق في الحدث والأسلوب القابل للقراءة، وجميعها مهارات أساسية لكل أنواع القصص الشائعة والرائجة سواء أكانت من قصص الرعب أم الفانتازيا أم الخيال العلمي.

أما الفانتازيا فمن أنواعها: فانتازيا البطل - فانتازيا الحكام - فانتازيا المرح - الفانتازيا القاتمة - الفانتازيا الواقعية السحرية - فانتازيا الانتقال في الزمن - الفانتازيا الرومانسية.

والفصل الثاني يجيب عن سؤال: من أين تأتي الأفكار، وفيه تحدد المؤلفة الأفكار والأنماط الأولية التي تنطلق منها كتابة الفانتازيا والخيال العلمي. والإجابة تكمن في قراءة تاريخ هذا النوع، والتحاور مع الآخرين، والأساطير، وعادات الشعوب، وإحياء الماضي. بالإضافة إلى أهمية المعرفة العلمية من خلال الاطلاع على النظريات العلمية الحاكمة ولو بشكل مبسط.

والآن وقد عرفت هذه الأسس.. حاول البدء في الكتابة، فكيف تبني عالمك، ذلك ما تناوله الفصل الثالث «بناء العالم» ووضعه على الورق من خلال الانطلاق من الواقع، فإياك أن تتجاهل واقعك أثناء الكتابة وأنت تبني عالمك، فهل ستبدأ الكتابة من حكي التفاصيل أم من خلال أعين الشخصيات المتخيلة أم ستقوم بالتفسير والشرح؟

ثم يأتي دور إعادة الكتابة والتنقيح.. الفصل السادس يتناول نوعين من إعادة الكتابة ودور الحاسب الآلي في المسألة، فهل ستتم مراجعة البناء كله وما الأسئلة التي يجب أن تسألها لنفسك، فهل الطول مناسب، وهل بدأت في المكان الصحيح، هل القصة ذات بناء جيد، وهل تنقل رسالة من خلال قصتك وما أدوات هذه الرسالة وفي أي الأزمنة؟

■

حقيقة الفيس بوك

جمال مختار

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٨

يعرِّف الكتاب بالشبكات الاجتماعية والتي أصبحت من أهم الأنشطة التي تمارس على الإنترنت وعن طريقها يتواصل الناس. ثم تعريف للفيس بوك وأسباب انتشاره وأهم مشتملاته وأسباب نجاحه. ويستعرض الأعضاء المؤسسون والذين أغلبهم صغار السن تحت سن الثلاثين وعملهم السابق ودراستهم الجامعية، مع عرض تفاصيل خاصة عن حياة مارك زوكربرج مؤسس الفيس بوك وطريقة معيشته البسيطة رغم ثرائه الفاحش. قيم موقع الفيس بوك حتى الآن بثلاثة مليارات دولار. ويستعرض تاريخ وتطور الفيس بوك منذ عام ٢٠٠٤ وحتى الآن.

في فصل التفاعل والتواصل يشرح الكتاب أشهر تطبيقات الفيس بوك التي

يستعملها الأعضاء يومياً مع بعض الإحصائيات التى وردت بموقع الفيس بوك، ومن أهم التطبيقات المجموعات Groups وأنواعها وأشهرها فى مصر والعالم العربى، ووسائل الدخل لشركة الفيس بوك من إعلانات وخلافه، وكيفية تفاعل المواقع العالمية مع الفيس بوك.

وفى فصل الاستقصاءات: يستعرض الكتاب أهم الاستطلاعات والتصريحات العالمية التى صدرت عن الفيس بوك مثل أن موقع الفيس بوك تستخدمه الإناث أكثر من الذكور بنسبة ٩٦٪!!! وإحصائيات عن معدل النمو الشهرى للموقع ومعدل نمو البرامج والتطبيقات المستفيدة من الفيس بوك.

فى النهاية يشرح الكاتب رأيه الشخصى إذا كان الفيس بوك عدواً أم صديقاً.. أولاً يوجه اهتمام الآباء أن الدنيا تغيرت بسرعة وبشدة فى آخر ٥ أعوام واقتحمت تكنولوجيا جديدة حياتنا مثل البلوتوث وكاميرات الموبايل والفيس بوك. وأصبح عدم إدراك الأهالى لهذه المتغيرات هو أكبر الأخطار. وأصبح عدم القدرة على توجيه الدعم والتوعية للشباب والأطفال (نتيجة جهل الأهالى بهذه المتغيرات وصعوبة التأقلم عليها) هو المصيبة الكبرى والتهديد الأكبر.

■

الكهانة العربية قبل الإسلام

توفيق فهد

ترجمة: حسن عودة - رندة بعث

بيروت: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧، ٥٢٥ صفحة



تبدو الكهانة العربية، بحسب تعريفها الوصفى، وعبر تجلياتها، مرتبطة غاية الارتباط بالنبوة التى هى جذرها الأصلى، أو على الأقل درجتها الأولى، ليس ثمة انقطاع يفصل بين هذين المفهومين المتكاملين اللذين يبدو ثانيهما، بوصفه تفتحاً للأول. غير أن خطًا فاصلاً سيرتسم بينهما فى اليوم الذى تغيرت فيه الشروط الاجتماعية عبر الانتقال من البداوة إلى التحضر أو من النظام القبلى إلى النظام الملكى، وفى اليوم الذى تبدلت فيه طبيعة الرسالة الإلهية ومحتواها تبدلاً كاملاً عبر الانتقال من الإيمان بآلهة متعددة، إلى عبادة إله واحد، وإلى التوحيد، فالكهانة والنبوءة هما التعبير الحى والفعال عن مجتمع محدد فى حقبة معينة من تاريخه.

والواقع أن الكاهن العربى، الذى كان فى البداية انخطافياً، ولا سيما فى ظل تسميته بالأفكل، أو الرب، أو ذو إله، كان يستمد إلهامه من المصدر ذاته الذى كان يستمد منه النبى، أى: من الإله الذى كان الكاهن خادمه والناطق باسمه فى آن معاً. وكان يمارس عمله الاجتماعى وينقل الرسالة الإلهية تحت تسميات السادن والحازى والعراف والكاهن والسيد، بالروح ذاتها إن لم يكن بالطريقة ذاتها التى كان يزاولها النبى. وقد بدأ وحيهما وفعلهما فى الافتراق حينما لجأ الكاهن إلى وسائط أخرى بينه وبين الإله الموحى، فى حين أن النبى عزز إلى أعلى درجة الروابط الشخصية بينه وبين الإله الذى يوحى إليه.

والكتاب صعب صعب لدقة الموضوعات وغرابتها، وقد رد المترجمان مئات النصوص إلى الأصول التى اقتبست منها، فلم يقعا فى مرض ترجمة الاقتباسات العربية عن الفرنسية، بل وابتدعا أسماء وتعابير لكل تظل الترجمة أمينة للعالم المصطلحى للنص.

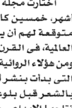
■

المدينة ذات العباءة القرمزية (رواية)

أصلى أردوغان

ترجمة: بكر صدقى

دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ١٥٧ صفحة



اختارت مجلة «لير» الفرنسية قبل أشهر، خمسين كاتباً من أنحاء العالم، متوقعة لهم أن يتبوؤا صدارة الرواية العالمية، فى القرن الحادى والعشرين.. ومن هؤلاء الروائية التركية أصلى إردوغان التى بدأت بنشر أعمالها الأدبية بدءاً بالشعر قبل بلوغها الثلاثين، وشهد نتاجها الإبداعى صعوداً لافتاً، روايتها الثالثة هذه كرستها روائية تمتلك أدواتها ورؤيتها الخاصة. واستقطبت كبير الاهتمام وترجمت إلى عدد من اللغات الأوروبية.

إذا كان من الجائز الحديث عن العالم الروائى لكاتبة يمكن عدها فى بداية مسيرتها الإبداعية، فإنه يتمحور أساساً حول قيمة الحياة، فى عالم شديد القسوة يحيلها إلى قيمة فرعية هى البقاء على قيد الحياة. فى روايتها هذه، التى هى الأبرز، يحضر الموت بكثافة وقوة مخيفتين، ومعه الخوف من الموت، الرعب الذى يشل الإرادة من رصاصة قد تأتى فى أى لحظة وتنهى حياة الكائن بسخافة وبساطة. فى بيئة من هذا النوع، يصبح البقاء على قيد الحياة قيمة مطلقة ومهمة صعبة، تضفيان على الحياة معنى وجمالاً.

منذ صدور هذه الرواية، التى تتميز بلغة راقية وقدرة وصف غاية فى الدقة والإبداع والجمالية، أقر كبار الأدباء البرازيليين بأن اسم مدينتهم ريو دى جانيرو قد ارتبط باسم أصلى إردوغان على نحو غير قابل للفصل.

ولدت أصلى إردوغان فى عام ١٩٦٧ فى اسطنبول، وتخرجت فى الجامعة الأمريكية فيها، فى هندسة الكمبيوتر، ثم درست الفيزياء والفيزياء الذرية فى جامعات سويسرا والبرازيل وعملت فى الوكالة الأوروبية للذرة.

■

ســـلام

هانى نقشبندى

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٨، ٢٣٩ صفحة



بالنسبة لكثيرين ممن يرون فى التاريخ الإسلامى - العربى فى الأندلس مجداً ضائعاً، فإن هذه الرواية صادمة، الرواية لا تقول ذلك ومبررها أن العرب حين رحلوا من إسبانيا، لم يتركوا فيها مسلمين، وهو ما يعنى أن تأثيرهم لم يتجاوز ما يخلفه حكام غزاة، برغم بقائهم هناك لأكثر من خمسة قرون. الحوار الذى يدور بين القبطان والأمير على متن اليخت الذى يملكه الأخير والذى توقف قرابة سواحل «ماربيا» الإسبانية حيث تطل الذكريات من رأس الأمير ويتأسى على زمن ولى ومجد خبا، لكن القبطان يعيده إلى قساوة الواقع بقوله: استميحك عذراً يا سيدى لو قلت شيئاً، كل أمة تفخر بتاريخها لكنها لا تقف عنده، لدى العرب موهبة فذة فى استحضار التاريخ والركوع أمامه كصنم وثنى، إنه ا رتباط لا أرى فضيلة فى الوقوف أمامه طويلاً. كان الأمير يخشى زيارة الأندلس ويكتفى بماربيا، لكن القبطان نجح فى إقناعه بأن يزور غرناطة، وأن يشاهد قصر الحمراء الذى كثيراً ما سمع عنه، وعلى الفور بدأ الأمير يستعد لرحلته مصطحباً حاشيته. وبعد أن تجول الأمير فى قصر الحمراء، واشترى كل الكتب التى تحكى عنه، تاريخه وحجراته وعمارته وحدائقه، قرر فى لحظة واحدة أن يبنى قصراً يحاكيه فوق أحد التلال بمدينة الرياض، وهنا يبزغ له «ابن برجان»، وهو شيخ مغربى وقور، ليقترح عليه ألا يفعل، حتى لا تصيبه لعنة قصر الحمراء، وحين يسأله الأمير عن سبب تخوفه من بناء قصر يشبه قصر الحمراء فى غرناطة يقول الشيخ: الحمراء ليس هو القصر الذى تراه، ليس هو الحجر والبناء، ليس هو الزخارف والأعمدة، إنه غير ذلك تماماً، إنه غير ما تراه، حتى لو بنيته بكل تفاصيله التى تراها، فلن يكون كما تريد، لن يكون.

وحين يطلب منه الأمير تفسيراً يقول إن من يبنى قصراً شبيهاً بالحمراء فى غرناطة، لابد أن يكون هو الشخص نفسه الذى بنى الأصل، وأن هذا الشخص على قيد الحياة واسمه «سلاًم»، وهو الشخص الذى تحمل الرواية اسمه، وفى رحلة البحث عن سلاًم يصطدم الأمير بهذه العبارة التى يمكن القول إنها تلخص مضمون الرواية كله، قالها له طيف سلاًم أو خياله: المال لا يشترى التاريخ يا سيدى، المال يصنعه.

■

تطور صورة الشرق فى الأدب الإنجليزى

ناجى عويجان

ترجمة: تالا صباغ

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٢٨ صفحة



صورة الشرق فى الكتابات الغربية لها امتداد تاريخى بعيد، نسبياً، ولها محطات مختلفة، سلباً وإيجاباً، بعداً عن الموضوعية واقتراباً منها. ويرقى الاهتمام الإنجليزى بالشرق إلى الحقبة الأنجلوسكسونية، ولاسيما بعد اعتناق المسيحية فى الغرب، وبخاصة فى إنجلترا، فى أواخر القرن السادس، حيث ترسخ هذا الاهتمام بسبب توق الغربيين إلى التجارة والحج والثقافة والمغامرة.

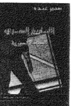
ولقد أسفر هذا الاهتمام، فى جملة ما أسفر عنه، عن تيار أدبى جديد نقل صورة مشوهة عن الشرق تواصلت حتى منتصف القرن الثامن عشر، قبل أن يعدل منها رحالة وباحثون مستقلون، ولاسيما لدى الجمهور البريطانى، بعد استعمار الهند.

■

التاريخ السرى للسياسة السورية

سمير عبده

دمشق: دار حسن ملص، ٢٠٠٨، ٧٩ صفحة



يقدم المؤلف بانوراما سياسية لأحداث سورية تم التعتيم عليها لأسباب عديدة وقتها أو بعد ذلك، وهذا بعد مرور

سريع على حقب تاريخية سورية مختلفة، كان لها أكبر الأثر فى تشييد صرح السياسة السورية وتقديم الأحزاب التابعة للحكومة أو المعارضة لها، وأزاح المؤلف الستار عن عدد من القضايا والتى أدى تعتيمها لعدم تقييم التاريخ بشكل صحيح، بادئًا بمراحل النضال ضد المستعمر الفرنسى لسوريا وأبطال هذا النضال وما لاقوه على يد الشعب السورى من سخرية واستهزاء وكيف انقلب النضال إلى أطماع وطنية أدت إلى نزاعات داخلية، أثرت حتى فى تكوين البنية المعارضة داخل هذا القطر العربى، والذى أدى موقعه إلى اختلاف الروافد الحضارية والسياسية التى ساهمت فى تشكيل وعى سياسى غير مستقر عند الشعب لفترة زمنية طويلة.

■

سيكولوجية القضاء

عبدالرحمن محمد العيسوى

الإسكندرية: دار منشأة المعارف، ٢٠٠٨، ٣٢٠ صفحة



للقضاء آداب رفيعة فى الإسلام على من يتولى مهمة القضاء أن يتحلى بها وينميها فى عقله ووجدانه، وعلى القاضى الذى يحكم بين الناس أن يتصف بسمات نفسية تبعده تماماً عن أى شكل من أشكال الاضطرابات النفسية أو السلوكية، كما أن على القاضى نفسه أن يكون دارساً لعلم النفس، وخصوصاً ذلك الفرع الحديث منه الذى يهتم بعلم النفس القضائى، والذى يهتم بدراسة القواعد والتنظيمات والإجراءات الخاصة بالنشاط العقلى فى العلاقات القانونية، والتى تقوم بين الخصوم وأطراف الدعوى القضائية، وبين المحكمة وهيئة الدفاع أو النيابة والمدعى العام.

يتألف الكتاب من فصل تمهيدى وثمانية فصول تالية: يعرِّف الأول منها بالمفاهيم والمصطلحات، والثانى بالعوامل النفسية والعقلية كأسباب للجريمة، والثالث رؤية نقدية لنظرية لمبروزو فى تفسير السلوك، والرابع عن شهادة الشهود فى القضايا الجنائية والمدنية، والخامس عن الدفع بالجنون فى القضايا الجنائية، والسادس عن السمات النفسية للقضاء فى الإسلام، والسابع عن دور علم النفس القضائى فى الحياة المعاصرة، ويقدم الأخير دراسة ميدانية حول الطرق العلمية فى مكافحة الجريمة.

■

مقالات فى التنسيق الحضارى

أحمد بهاء الدين

إعداد: عبدالرحمن أبوعوف

القاهرة: الجهاز القومى للتنسيق الحضارى، ٢٠٠٨، ٢٠٩ صفحات



يجمع هذا الكتاب مقالات كتبها الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين فى العمارة والتنسيق الحضارى، وهى تبدأ بمقالة عن الذوق العام، يدعو فيها أن تشن أجهزة الدولة تنفيذية وشعبية وثقافية وإعلامية حملة من أجل الذوق العام، باعتباره ما يحدد نوع الحياة التى نحبها، فالذوق العام كما يقول هو النظافة والنظام والإتقان، وهو الاقتصاد والتوفير، وهو الإنفاق حيث يجب الإنفاق وعدم الإنفاق حين يعد هذا تبذيراً، ويضرب أمثلة على ذلك بالقذارة التى تحيط بالأماكن الأثرية الإسلامية والمسيحية، وهو لا يلوم الدولة وحدها فى هذا وإنما يلقى باللوم أيضاً على الناس، ويشير إلى اقتراحه بهدم السور الخلفى لقصر عابدين وتحويل حديقته البديعة إلى حديقة عامة فى منطقة محرومة من الحدائق هى حى باب الخلق وعابدين، وهو الاقتراح الذى نادى به بعد الثورة مباشرة، لكن الاقتراح الذى تم تنفيذه، تحول بفعل الناس بعد ذلك إلى مقلب للقمامة ومأوى للمجرمين والمشردين، ويقول بهاء: الحل ليس هو عدم إقامة حدائق وإنما تعليم الناس وتربية شعورهم بالذوق العام.

وفى منتصف ١٩٨٣ نشر بهاء فى يومياته مقالاً حول فلسفة المدن الجديدة، وتساءل فى البداية عما إذا كان من اتجهوا إلى سكنى المدن الجديدة قد تركوا شققهم فى القاهرة وأجاب بالنفى، ويوجه نداءه إلى من خططوا لإقامة هذه المدن: اختاروا أولاً فى خطة شاملة مواقع الرزق الجديدة، ثم أقيموا منشآت لهذا الإنتاج زراعياً أو صناعياً أو خدمياً، وعندما يوجد مصدر الرزق الأحسن سيبدأ ذهاب الناس إلى هناك للاستيطان والإقامة الدائمة.

كما دعاهم إلى أن يختاروا هذه المدن الجديدة بعيدة قدر الإمكان عن القاهرة، كى تمتص من سكان العاصمة وتستوعب الزيادة الجديدة، ونظن أن ما دعا إليه بهاء قبل ربع قرن تقريباً، لو انتبه إليه المسئولون عن تخطيط المدن عندنا لتحولت المدن الجديدة إلى مناطق جذب هائلة، ولخففت كثيراً من زحام العاصمة الذى ألقى بظلاله القاتمة فى كل مناحى حياتنا.

الكتاب يحتشد بأفكار ورؤى بالغة الأهمية فى العمران والتنسيق الحضارى وكيفية تنمية الذوق العام، يبقى أكثرها صالحاً ومرشداً اليوم وغداً.

■

العنكبوت.. الزواج غير الرسمى فى الوطن العربى

مجدى رجب

القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٨، ١٩١ صفحة



يناقش هذا الكتاب واحدة من القضايا الشائكة والحساسة فى المجتمع العربى عموماً ومصر على وجه الخصوص، وهى الأشكال المتعددة من الزواج التى أفرزتها الأحوال الاقتصادية المزرية وتداعياتها على المستوى الاجتماعى وهى الزواج العرفى وزواج المتعة والمسيار وزواج الفرند والمصيف والبصمة وغيرها.

والكتاب فى حقيقته تحقيق صحفى مطول، يتناول هذه الأشكال من الزواج من خلال حالات محددة نشر بعضها على صفحات الجرائد وبقى بعضها فى ملفات تحقيقات الشرطة والنيابة، ويستعرض آراء علماء الدين والقانون وعلماء النفس والاجتماع. ويكتشف القارئ أن ثمة اختلافات واضحة بين علماء الدين حول تحليل أو تحريم أشكال معينة من الزواج، مثل زواج المسيار والزواج العرفى، فيما نجد اتفاقاً واضحاً حول تحريم أشكال محددة من هذا الزواج مثل زواج المتعة مثلاً. وإن كان البعض يحتج فى إباحته بإباحة إيران - وهى دولة إسلامية - له، باعتباره حلاً لمشكلة اجتماعية طارئة، أما الأشكال الأخرى المستحدثة مثل زواج المصايف وزواج الفرند والبيزنس والبصمة وغيرها، فلا يعتد بها وهى محرمة بإجماع الفقهاء والعلماء، لأنها جميعاً تفتقد إلى الأركان اللازمة لصحة الزواج.

على الجانب الآخر، يتفق علماء الاجتماع جميعاً على أن الضغوط الاقتصادية وعدم قدرة الشباب على الزواج بسبب غلاء المعيشة والبطالة وارتفاع أسعار الشقق، فضلاً عن انعدام الأمل أو عدم وضوح المستقبل، كلها أسباب أدت إلى شيوع هذه الأنواع من الزواج الحرام، وانتشاره بين طلبة الجامعة وحتى بين طلاب المراحل الثانوية. أما الحالات التى ينشرها المؤلف فإنها ناقوس خطر ينبه الآباء والأمهات من ناحية، ويحذر الفتيات من ناحية ثانية لخطورة النتائج المترتبة على الإقدام على هذه الأنواع من الزيجات استجابة لنزوة طارئة.

■

صديق الآثار

فرنسيس ديولافيه

ترجمة: هيثم خشبة

الإسكندرية: هاربوقراتس للنشر، ٢٠٠٨، ٢٥٨ صفحة



يقدم هذا الكتاب زاداً مهماً للباحثين فى علم الآثار، إذ يسعى للإجابة عن تلك الأسئلة: أين ولماذا نقوم بعمليات التنقيب الأثرية، ومن هو الشخص المؤهل للقيام بهذا العمل، وكيف نقوم بهذه العمليات، وما الذى نعثر عليه من خلالها، وما الذى تكشفه هذه الأشياء عن ماضينا.

يكشف الكتاب مثلاً عن أن بعض علماء الآثار يبحثون فى المقابر المنسية، حيث يعثر هناك على مومياوات، وينقب بعضهم بين حطام السفن الغارقة، وبعضهم يبحث فى الكهوف.

يبدأ الكتاب المخصص للصبية من سن١٢ إلى ١٨ سنة بتساؤل حول كيفية البحث عن موقع التنقيب، ويبدأ بعمليات المسح الجوى المستخدمة فى هذا الإطار، ويقدم نصائح للراغبين فى استخدام هذه الوسيلة، كما يشرح الكيفية التى تتم بها سواء بالنهار أو فى الليل، ثم يقدم كذلك شرحاً لكيفية القيام بعمليات المسح الأرضى، والتنقيب مشياً على الأقدام وكيفية تشكيل فريق عمل.

وفى فصل آخر يقدم شرحاً للنصوص الأثرية التى يتم اكتشافها، فرعونية وسومرية وصينية وغيرها، ويعرض فى هذا الإطار لتاريخ الكتابة والنقش واختراع الحروف، ثم يعرض للنقوش والعلامات بوصفها واحدة أيضاً من التنقيبات الأثرية المهمة، ثم يقدم تعريفات مهمة لفريق التنقيب عن الآثار ودور كل منهم فى عملية التنقيب: مسئول عملية التنقيب، مسئول القطاع، مسئول النطاق، القائم بالتنقيب، الطبوغرافى، المعمارى، الرسام، المصور الفوتوغرافى، الأنثربولوجى.

كما يعرض فى فصل تال للمعدات المستخدمة فى عمليات التنقيب والآلات الدقيقة التى يستخدمها المنقبون، ثم فصلاً عن طبقات الأرض وكيفية التعامل مع كل نوعية منها، كما يشرح عمليات التنظيف والترقيم والتخزين التى تتبع الحصول على الأثر، ثم يعرض فى فصول تالية لكثير من الأشياء التى يمكن العثور عليها خلال عمليات التنقيب وتصنيفاتها: زجاج، بذور، خشب، معادن، عظم، عاج، رسوم، خزف.

معلومات غزيرة مبسطة وموضحة برسوم لطيفة ودقيقة.

■

نـــاجــح إبـــراهـــيــم*

عبد الناصر فى فكر داعية..

■■ إن مسألة الحكم على (جمال عبد الناصر) أو غيره من الشخصيات العامة يرتبط ارتباطا وثيقا بالثقافة غير الموضوعية السائدة فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية.. تلك الثقافة التى تجعل من العاطفة هى المتحكم الأوحد فى تقييم الرجال والحكم عليهم.. فتميل بهم إلى أقصى اليمين تارة، وإلى أقصى اليسار تارة أخرى.. ومحال أن تكون العواطف حكما عدلا فى موازين الرجال.

● إن الإنصاف والموضوعية يقتضيان أن ننحى العواطف جانبا عند الحكم على الأشخاص.. وأن نزن الناس بميزان الحسنات والسيئات.. وألا تحملنا العداوات الشخصية، أو الوقوع تحت وطأة الظلم على الحيف فى أحكامنا مصداقا لقول الله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى).

● لقد تعرضت الحركة الإسلامية فى مصر- ممثلة فى جماعة الإخوان المسلمين- إلى نوع من الظلم الفادح على يد عبد الناصر وأركان حكمه.. وذاقت على يده شتى صنوف التعذيب.. ولكن ذلك لا يصح أبدا أن يكون مبررا لغمط حسنات عبد الناصر أو إغفال الإنجازات التى أنجزها لوطنه أو تصويره وكأنه حاكم بلا حسنات أو كأنه شيطان رجيم، كما لا يصح أن يرفعه البعض إلى مرتبة الأنبياء المعصومين.. فهو حاكم من البشر يخطئ ويصيب، وله إيجابيات كما أن له سلبيات.

● ومن خلال هذه النظرة الموضوعية ينبغى أن يقيم جمال عبد الناصر وغيره من الشخصيات العامة والتاريخية.

● إن النظر إلى الأشخاص والأحداث بموضوعية وتجرد هو علامة على النضج واكتمال العقل والفكر ودلالة على التجرد لله سبحانه وتعالى فى الحكم على الناس.

● وإن مما يحسب للجماعة الإسلامية بعد مراجعتها الفكرية أنها تخلصت من أسر نظرية المؤامرة فى تفسير وتحليل الأحداث التاريخية.

● تلك النظرية التى سيطرت على فكر ووجدان الشباب المسلم والعربى ردحا طويلا من الزمن، فتسببت فى ضمور عقله، وشل تفكيره، وإبقائه مستسلما أمام مجريات الواقع المتغير.

● وقد سألنى كثير من الناس وبعض الصحفيين عن رأيى فى شخصية جمال عبد الناصر فآثرت أن أرسم لهم صورة متكاملة عن جمال عبد الناصر فى فكرى ووجدانى، وخلال مختلف مراحل حياتى.. فكانت هذه السطور ...



● يمكن أن أقسم فترات حياتى بالنسبة لعلاقتى ومشاعرى تجاه الرئيس جمال عبد الناصر إلى ثلاث فترات:-

● المرحلة الأولى: الإعجاب الشديد بالرئيس عبد الناصر والحب الشديد له.. وشعورى أن له قدرات خارقة تختلف عن أى رئيس فى العالم كله.. حتى أننا كنا نقول لبعضنا ونحن أطفال (إذا كان أبوك جمال عبد الناصر افعل كذا) إذا كنا ندعو الطفل الآخر لفعل شىء مستحيل أو صعب جدا.

● وقد اشتركت فى جنازته وأنا طالب فى السنة الأولى الثانوية.. حيث أقيمت جنازة له فى كل بلدة من بلاد مصر فى نفس توقيت جنازته بالقاهرة.. واستمرت هذه المرحلة معى منذ طفولتى وحتى انتمائى للحركة الإسلامية فى الجامعة.

● ورغم هذا الحب الشديد للرئيس عبد الناصر إلا أننى لم أشارك فى أى هيئة من منظمات الشباب أو الاتحاد الاشتراكى التى كانت منتشرة وقتها.

● ولكن هذا الحب الشديد للرئيس عبد الناصر نشأ وترعرع فى نفسى لأننى نشأت فى أسرة وطنية كمعظم الأسر المصرية وقتها.. ولذلك قام أبى بتسمية أخى الصغير أحمد سعيد لأنه كان يحب الأستاذ أحمد سعيد المذيع الشهير بصوت العرب.. وسمى الأصغر منه باسم مجاهد لأنه ولد بعد حرب سنة ١٩٦٧م مباشرة.



الصورة الأخيرة ٢٨ سبتمبر ١٩٧١ (تصوير حسن دياب)

❖ د. ناجح إبراهيم هو منظر الجماعة الإسلامية (مصر)

للاطلاع على النص الكامل:
http://www.egyig.com/Public/articles/recent_issues/6/16717957.shtml



ومن حسناته تعففه عن غنائم السلطة بحيث عاش حياة عادية.. وكذلك اختلاطه بالناس فهو من الزعماء القلائل الذين كانت تحوط سيارتهم الجماهير من كل ناحية وتكاد تسلم عليه باليد



● المرحلة الثانية:- زوال الإعجاب والحب للرئيس عبد الناصر وذلك بعد انتمائى للحركة الإسلامية.. وذلك بعدما سمعت من دعاة وعلماء الإخوان ما صنعه عبد الناصر بالإخوان خاصة والإسلاميين عامة.. من تعذيب وسجن وإعدام ومحاكم عسكرية سنة ١٩٥٤م، وسنة ١٩٦٥م.. وخاصة أن هؤلاء الدعاة أفهمونا أن حادث المنشية هو تمثيلية.. وأن تنظيم سنة ١٩٦٥م كان تلفيقاً للشيخ سيد قطب ومن معه من المباحث الجنائية العسكرية.. وقد كانت عندنا -ونحن شباب- حمية دينية قوية وإنفاذ قوى لعقيدة الولاء والبراء.. ولم يكن عندنا تمحيص أو تدقيق تاريخى لفحص هذه الأحداث.. ولم يكن لدينا كذلك فلسفة الحكم على الإنسان بمجمل حسناته وسيئاته.

● فكان عندنا لونان فقط أبيض وأسود.. فمن كان ضد الحركة الإسلامية فهو محارب للإسلام فتنسى كل حسناته وتذكر كل سيئاته.. فهو كالثوب الأسود الذى لا يعرف البياض أبداً.

● ومن كان من دعاة الإسلام والحركة الإسلامية فتذكر كل حسناته وتنسى كل سلبياته وأخطائه.. فهو كالثوب الأبيض الذى لا يقربه الغبار.

● المرحلة الثالثة:- وهى مرحلة الدراسة الشاملة والبصر العميق لكل ما حولنا: -

● وهذه المرحلة بدأت فى السجن حيث الوقت المتسع ووجود الكتب بأنواعها المختلفة مع التفكير العميق فى كل شىء.. وقبل ذلك كله التجرد لله سبحانه وتعالى فى الحكم على كل شىء.. وترك نظرية الأبيض والأسود.. فهناك مزيج كبير من الألوان فى منتصف المسافة بينهما.. مع دراسة الإيجابيات والسلبيات لكل شخص.

● وكذلك معرفة أن الحركات الإسلامية وكذلك الدول الإسلامية تختلف عن الإسلام نفسه.. فالإسلام معصوم ولكنها غير معصومة.

● فالحركات والدول الإسلامية تصيب وتخطئ.. ولها حسنات وسيئات.. ولكن أكبر حسنة عندها هى أنها جعلت الإسلام مرجعية لها.. ولكنها قد تخطئ فى العمل بهذه المرجعية لهوى شخصى أو طلب دنيا أو السعى وراء الجاه والسلطة.. ولكن ليس هذا هو الأصل والأساس فى عملها وسعيها.

● ومما يميز الجماعة الإسلامية عن غيرها شجاعتها ومصداقيتها.. فإذا حاربت حاربت بشجاعة.. وإذا سالمت سالمت بمصداقية وشفافية وأمام الجميع.

● ولذا كان لزاماً علينا النظر والتفكير من جديد فى أمر الرئيس عبد الناصر.. ودراسة تاريخه مع الإخوان دراسة عميقة بعيداً عن نظرية المؤامرة التى شاعت فى الحركة الإسلامية طويلاً.

● وقد ساعدنا على ذلك كله أننا قابلنا فى السجون والمعتقلات عددا كبيرا من صناع الأحداث فى مصر من الإسلاميين وغيرهم الذين عاشوا فترة الأربعينيات والخمسينيات والستينيات واستمعنا منهم مباشرة ودون وسطاء عن حقيقة الأحداث والشخصيات وتفاعلها مع بعضها.. وكان ذلك أفيد لنا من مئات الكتب التى قرأناها بعد ذلك.

وكان من نتيجة هذه الدراسة الآتى:-

● أن الرئيس عبد الناصر لم تكن له خصومة مع الإخوان من قبل.. بل إنه حل كل الأحزاب والتنظيمات السياسية.. وأعاد جماعة الإخوان لشرعيتها القانونية وبهذا أعطاها قبلة الحياة من جديد بعد سنوات عصيبة..

● إن حادث المنشية هو محاولة حقيقية لقتل عبد الناصر.. وإن النظام الخاص وهو الجناح العسكرى للإخوان قام بذلك فعلاً ولكنه لم يستأذن فى ذلك المرشد المستشار الهضيبى الأب «رحمه الله» الذى كان يكره العنف وكان على خلاف مستحكم مع أجنحة كثيرة فى النظام الخاص.. وكل ما يقال عن أنها تمثيلية يعد انطلاقا من نظرية المؤامرة التى نسبت إلى الحكومات والمخابرات المصرية أيضا قتل الذهبى وقتل السادات وأحداث الفنية العسكرية وغيرها.

● إن عبد الناصر أخطأ خطأ قاتلاً بتجاوزه لكل القوانين والأعراف فى سجن وتعذيب واعتقال وقتل الإخوان والمتعاطفين معهم فى السجن الحربى.. وكذلك استخدامه للمحاكم العسكرية التى لم يستخدمها الملك نفسه فى قضية السيارة الجيب أو قتل النقراشى.

● إن تنظيم الشيخ سيد قطب للإطاحة بنظام عبد الناصر هو تنظيم مسلح حقيقى.. وقد أقر بذلك الشهيد سيد قطب وتلاميذه فى أكثر من مناسبة.. ولكن التنظيم ضبط فى أولى مراحل تكوينه وتسليحه.. ولكن المشير عامر والمباحث الجنائية العسكرية ضخموا من خطره ليوهموا عبد الناصر أنهم حماته الحقيقيون.. وليكتسبوا مزيدا من ثقته.

● ونفس الانتهاكات التى حدثت سنة ١٩٥٤ تكررت بشكل أوسع منها سنة ١٩٦٥م فى السجن الحربى.. حيث إن الفاجعتين يعدان من أفظع انتهاكات حقوق الإنسان فى العصر الحديث.. وهم اللذان رسخا سياسة التعذيب واسعة النطاق للإسلاميين فى مصر الحديثة.

● أصل الخلاف بين الإخوان وعبد الناصر هو اعتقاد كل منهما أنه الأجدر والأحق بالسلطة والحكم فى مصر.. فعبد الناصر ومن معه كانوا يرون أنهم الأجدر بالسلطة والحكم باعتبار أن الثورة ثورتهم وأنهم الذين تعبوا وغامروا بحياتهم فيها وأن الإنجليز لن يسمحوا للإخوان بحكم مصر.

● أما الإخوان فكانوا يرون أنهم أصحاب فكرة الثورة من الأصل وأن عبد الناصر وعامر وغيرهما كانوا من الإخوان المسلمين الذين بايعوا على المصحف والسيف.. وأن هؤلاء الضباط صغار لا يصلحون للحكم.. وأن الإخوان هم القوة الرئيسية التى وقفت مع الثورة وهم الأجدر بالحكم والسلطة.

● ولذلك نشأ الخلاف بينهما وازداد وتوسع.. ولم يكن الخلاف أساسا على الدين أو الإسلام أو حرية الدعوة.. ولكنه انحصر أساسا فى ظن كل فريق منهما أنه الأجدر بالحكم.. وظل يتطور هذا الخلاف حتى وصل إلى مرحلة التصفية الجسدية متمثلة فى حادثة المنشية سنة١٩٥٤ والتى قابلها عبد الناصر بكل قوة وقسوة وإعدم ستة من قادة الإخوان والنظام الخاص.

● إن عبد الناصر أو من حوله استغلوا هذا الخلاف بعد ذلك للتضييق على الدعوة الإسلامية بكاملها.. وإشاعة الأفكار المناهضة للإسلام.. وتعيين كل المعادين للفكرة الإسلامية فى أماكن التوجيه والإعلام والتثقيف.. وهؤلاء هم الذين رسخوا العداوة الحقيقية بين الدولة والإسلام نفسه.

● إن الحركة الإسلامية ممثلة فى جماعة الإخوان أخطأت فى هذا العصر برفضها التعامل والتعاون مع عبد الناصر فى البداية لتتركه لأصحاب الفكر اليسارى الذين أحسنوا استقطابه.. وأخطأوا كذلك بمحاولة قتله فى سنة ١٩٥٤م أو الانقلاب المسلح عليه سنة ١٩٦٥م .. أو الاستخفاف بقدراته فى بداية الثورة.. وكذلك عدم الاهتمام به وخاصة من المرحوم المستشار الهضيبى الأب الذى أكد كل من عاش هذه الفترة تكبره الشديد على عبد الناصر وتعاليه عليه.. إذ إنه كان يكره عبد الناصر كراهية شديدة منذ البداية ويرى أن الملك أفضل منه.. ويرى فى مجرد الانقلاب على الملك شيئا سيئا.. ولعل ذلك كان سببا فى الحكم عليه بالسجن المؤبد رغم أنه لم يأمر بتنفيذ محاولة الاغتيال.



● أما أخطاء عبد الناصر فى حق الإخوان والحركة الإسلامية فهى لا تعد ولا تحصى.. فلم يتعامل معهم بتعامل الدولة المتحضرة مع أبنائها.. ولكن تعامل العصابات مع الآخرين قتلاً وتعذيباً وسحلاً ومنعاً من كل الحقوق خارج إطار القوانين.. كما سن نظام عبد الناصر من وقتها بعض السنن السيئة فى التعامل مع الإسلاميين مازالت موجودة فى مصر حتى اليوم.

● فإذا خرجنا عن إطار علاقته بالإخوان والحركة الإسلامية ونظرنا نظرة موضوعية إلى إيجابيات الرئيس عبد الناصر.رحمه الله.وسلبياته.. فقد خلصت إلى أن الرئيس عبد الناصر له إيجابيات كثيرة وله سلبيات كثيرة أيضا.

ويمكننى تلخيص أهم هذه الإيجابيات والسلبيات فيما يلى:-

فمن إيجابيات الرئيس عبد الناصر جهوده الحثيثة فى تحرير القرار الوطنى المصرى واستقلاله.. بحيث يكون تابعا من الإرادة المصرية الخالصة.. ويصب مطلقا فى مصلحة مصر كما تصورها عبد الناصر وقتئذ.

ومن إيجابياته أيضا محاولته إقامة العدل الاجتماعى بين الناس.. والانحياز للطبقات الفقيرة.. ومحاولته إنصافهم ورفع شأنهم وتعليم أولادهم بالمجان.. ولقد حاول إقامة العدل الاجتماعى حسب المفهوم الذى اقتنع بأنه الأفضل والأحسن.

ومنها محاولته أن تقوم

الدولة بواجبها تجاه مواطنيها فى معظم مجالات الحياة.

ومنها محاولته القوية لتحديث مصر من الناحية الصناعية.. حيث إنه بنى عدة آلاف من المصانع فى عام واحد.. وحاول جاهدا إدخال مصر عهد الصناعات الثقيلة مثل الحديد والصلب والألومونيوم وغيرهما.

ومن إيجابياته محاولته لتوحيد العرب فى جبهة واحدة.. وإحياء القومية العربية.. وإن كان يعيبه فى ذلك أنه حاول إقامتها على أنقاض الرابطة الإسلامية.. وحاول إقامتها دون تدرج.. واهتم فيها بالناحية السياسية والعسكرية قبل الاقتصادية والثقافية.

ومنها بناء مشروع السد العالى الذى حمى مصر من خطر الفيضان.. ومكنها من تعمير وتطوير كثير من القرى.

ومنها طرد الإنجليز نهائيا من مصر.. وإذا كان البعض يقول إن الإنجليز كانوا سيخرجون تلقائيا بعد الحرب العالمية الثانية.. وحلول أمريكا كقوة عظمى مكانها.. فهذا لا يقلل من حجم هذا الإنجاز.. ولا يقلل من فضل من جرى على يده هذا الأمر.

ومن إيجابياته تماسكه وثباته ورباطة جأشه فى تصديه للعدوان الثلاثى سنة١٩٥٦ .. وعدم قبوله لرأى بعض زملائه بالاستسلام لبريطانيا وفرنسا.

ومنها تعففه وأسرته عن غنائم السلطة بحيث عاش حياة عادية.. وكذلك اختلاطه بالناس فهو من الزعماء القلائل الذين كانت تحوط سياراتهم الجماهير من كل ناحية وتكاد تسلم عليه باليد.

ومن إيجابياته بناؤه لأول منظومة جيدة للرعاية الصحية فى الريف المصرى.. وبناؤه لأول منظومة تعليمية فى الريف المصرى.. حيث بنى آلاف الوحدات الصحية فى قرى مصر من شمالها إلى جنوبها وكذلك بناؤه لآلاف المدارس الإعدادية والابتدائية فى قرى مصر.

ومنها محاولته القوية لبناء جيش مصرى قوى ومحاولته بناء سلاح نووى خاص بمصر.. وإنشاؤه لقسم الطاقة النووية فى جامعة الإسكندرية وهو أول قسم من نوعه فى الشرق الأوسط.

ومنها أيضا حسمه مع المشير عامر وأعوانه بعد هزيمة ١٩٦٧وطردهم من الجيش.. وإن كان قد جاء متأخرا عشر سنوات.

ومنها جهده الخارق فى بناء جيش مصرى حديث على أسس سليمة تعتمد على الكفاءة والاحتراف العسكرى فضلا عن الشجاعة والعلم والأمانة.. ومحاولته الجادة لمعالجة كل الأخطاء التى وقع فيها المشير عامر وأعوانه.. وهذه القواعد التى أرساها عبد الناصر فى الجيش المصرى بعد نكسة ١٩٦٧ مازالت هى الأساس فى الحياة العسكرية المصرية الحالية.



أما سلبياته فكثيرة أيضا، فقد ألغى الديمقراطية إلغاءً تاما.. وألغى معها تقريبا معظم رجالات مصر المخلصين ذوى الكفاءات.. فلم يبق إلا عبد الناصر ومن يسبح بحمده ويسير فى ركابه.. أما من يخالفه أو ينتقده ولو انتقاداً بناء فمكانه السجون والمعتقلات والعزل من المناصب مهما كانت وطنيته ومكانته.. وبذلك حرم مصر من كفاءاتها الكبيرة ورجالاتها العظام فى كل الميادين ليحل محلهم بعض المتسلقين المنافقين.

ومن سلبياته تقديم مبدأ الثقة على الكفاءة وترسيخ هذا المفهوم بقوة حتى صار سائدا فى مصر الحديثة بشكل فظيع مما أدى فى النهاية لانهيار الدولة بالكامل وظهر ذلك جليا فى هزيمة يونيه١٩٦٧ .

ومنها تأميم الأموال ممن أسماهم بالإقطاع ولم يفرق بين الصالحين منهم والطالحين ولم يدرك أن بعضهم كانت لهم إسهامات جيدة فى تنمية المجتمع تعليميا وصحيا واجتماعيا وكانت لهم بصمات فى صنع الخير.. وهذا التأميم نفسه مخالف للشريعة الإسلامية.. وكذلك يخالف أبجديات قواعد اقتصاد الدول الحديثة.. حيث إن ذلك يؤدى إلى هروب الاستثمارات وعدم الثقة فى مصر.. كما أن عملية التأميم نفسها شابتها مفاسد كثيرة واستغلال كبير للنفوذ والسلطة.

ومنها استغلال الإعلام الكاذب فى خداع الناس وتحويل الهزائم إلى انتصارات.. والمدح الكاذب المتواصل فى مزايا الثورة والثوار.. وتحويل عبد الناصر إلى إله ومعبود للناس وتصويره على أنه قادر على هزيمة أمريكا وإسرائيل وحلفائهما بسهولة ويسر حتى ظن أكثر الشعب المصرى أن هزيمة إسرائيل شىء ميسور.

ومنها تكميم الأفواه ومنع حرية الصحافة وتكبيل كل المؤسسات الرسمية والشعبية وكذلك مؤسسات المجتمع المدنى.. وإلغاء الأحزاب.. بل إلغاء مصر كلها واختصارها فى شخص عبد الناصر.

فليست هناك مؤسسات على الإطلاق فى مصر.. فلا الوزراء ولا البرلمان ولا لأحد كلمة سوى ما يتبع من رأى وفكر عبد الناصر ومن حوله.

ومنها أنه سلم الجيش المصرى غنيمة باردة للمشير عامر وأعوانه ليعيثوا فيه فسادا وجهلا وتخريبا مما أدى إلى أكبر هزيمة فى تاريخ العسكرية المصرية عام ١٩٦٧ .

ومن سلبياته أيضا أنه منع كل صنوف الدعوة الحقيقية للإسلام.. واستغل بعض خصوم الإسلام ممن كانوا حوله صراعه مع الإخوان.. ليحول بين الشعب المصرى وبين الإسلام نفسه.

ومنها أنه سلم الإعلام والثقافة كغنيمة باردة لليساريين والشيوعيين الذين حولوا أدوات التوجيه كلها لصالحهم وما يصب فى خدمة أفكارهم.

ومنها أيضا أنه منع بابا من أبواب الخير وتنمية المجتمع ألا وهو الوقف الإسلامى.. وصادر كل الأراضى الشاسعة والأموال الطائلة التى كانت موقوفة على المساجد وطلبة العلم والأيتام والفقراء.. لتدخل خزينة الدولة ثم يسرق معظمها ولا يبقى منها اليوم إلا القليل.. وهو الأول فى تاريخ مصر منذ فتح عمرو بن العاص لها الذى يجرؤ على تعطيل هذا الباب العظيم للخير والبر فى الشريعة الإسلامية.

ومنها أنه كان يأخذ الناس بالشبهات مما أفسد رعيته تماما.. وجعل كل مصرى يخاف من أخيه وبعض أفراد أسرته ولا يفصح عن رأيه حتى إلى أقرب المقربين له.

وعموما فقد اجتهدت قدر طاقتى فى الإنصاف والعدل مع الرئيس جمال عبد الناصر ـ رحمه الله ـ وأرجو أن يكون ذلك خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى الذى لا أرجو سواه ولا أطمع إلا فى رحمته.

مع اعتقادى الجازم فى هذه السن أن العدل المطلق ليس فى الدنيا ولكن فى الآخرة عند الحكم العدل سبحانه.. وقد أفضى الرئيس عبد الناصر ـ رحمه الله ـ إلى ما قدم.. وهو عند الملك العدل الآن.

وما محاولتنا هذه إلا لتعليم أجيال المسلمين كيف يكون الحكم على الناس دون شطط أو مبالغة أو إفراط أو تفريط.. أسأل الله أن يرحم كل المسلمين وأن يغفر لهم جميعا.

وما أود أن أختم به مقالتى هذه قصة طريفة ولكنها ذات مغزى عميق.. فقد ذهبت إلى الحج فى العام الماضى وذهلت أن معظم الحجاج المصريين الذين قابلتهم يحبون عبد الناصر حباً شديداً وذلك بعد وفاته لقرابة ٣٧ عاماً.. وبعد غياب كل المؤثرات الإعلامية التى تؤثر عليهم.

فقلت فى نفسى: ما السر فى ذلك؟

وقلت لنفسى: لعل السر هو أنه كان يضمن لكل إنسان فى مصر وظيفة يتكسب منها ويبتعد بها عن الحرام.

أو لنظافة يده.. وتعففه وأسرته عن الحرام.

أو لتصديه لأطماع إسرائيل فى المنطقة ومواجهته لها حتى وإن أخفق فى ذلك.. والله أعلم بسر ذلك.

فهذه المحبة لا تدوم بعد هذه السنوات الطويلة من حكم عبد الناصر إلا إذا كان بين عبد الناصر وبين الله شىء لا يعلمه إلا الله. ■



أما سلبياته فكثيرة أيضا فقد ألغى الديمقراطية إلغاءً تاما.. وألغى معها تقريبا معظم رجالات مصر المخلصين ذوى الكفاءات.. فلم يبق إلا عبد الناصر ومن يسبح بحمده ويسير فى ركابه



الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 117 - October 2008

مجلة شهرية . العدد المائة وسبعة عشر . السنة العاشرة . اكتوبر ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات



هيكل
ملف
خاص

السنة العاشرة
العدد ١١٧
أكتوبر ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد درويش... أستاذ بكلية الهندسة جامعة القاهرة.
- إرينا ميا.. كبيرة الاقتصاديين بالمنتدى الاقتصادي العالمي.
- أنطونيو موجيكا.. مؤسس شركة Smartmatic أكبر الشركات التكنولوجية في أمريكا اللاتينية
- إيريك وتكينز.. أستاذ فلسفة في جامعة كاليفورنيا بسان دييجو
- أيمن الصياد.. صحفي.
- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية في القاهرة.
- حامد عمار.. أستاذ بكلية التربية - جامعة عين شمس - مصر.
- حلمي محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- خالد الحروب.. زميل زائر، مركز الدراسات الشرق أوسطية والإسلامية، جامعة كامبردج.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفي.
- سومترا دوتا.. عميد كلية التكنولوجيا والتعليم الإلكتروني بمعهد INSED.
- شاءول بخاش.. أستاذ تاريخ بجامعة جورج ميسون.
- شربل داغر.. شاعر وأكاديمي من لبنان.
- عبدالخالق فاروق.. باحث وكاتب.
- عصام تليمة.. باحث في شئون الحركات الإسلامية.
- فتح الله الشيخ.. أستاذ الكيمياء الفيزيائية بجامعة جنوب الوادي.
- هاوارد جيه دولي.. أستاذ تاريخ بجامعة ويسترن ميشيجان.

رسوم العدد للفنان
محمد حجي





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري. ص. ب: ٣٣ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩. فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦. subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة


الله



تجربة الإسلاميين الأتراك تطورت في بعض جوانبها ومتأثرة بالمدرسة الإخوانية





تركيا إسلامية علمانية



خالد الحروب

■■ تطرح تجربة الإسلاميين الأتراك تحديا كبيرا على عموم الحركات الإسلامية المعتدلة التي تتبنى نهج التغير السلمي، وخاصة المنتسبة منها لمدرسة حركة الإخوان المسلمين أو تلك المتأثرة بها. تجربة الإسلاميين الأتراك تطورت في بعض جوانبها قريبة ومتأثرة بالمدرسة الإخوانية، خاصة في حقبة سبعينيات القرن الماضي وتحت قيادة نجم الدين أربكان. بيد أن ما تطورت إليه الشرائح الأوسع من تلك الحركة، عبر ثلاثة عقود من المجابهة السياسية مع خصومها، وإعادة الإنتاج الداخلي لفكرها وتجربتها، وانتهائها إلى شكل حزب العدالة والتنمية الحاكم في تركيا الآن. اتخذ مساراً بعيد الصلة عن المسار الذي استمرت عليه الحركات الإخوانية في تعاطيها مع السياسة والتغيير الاجتماعي. وأهم افتراق صار يميز التجربة التركية في تحولاتها الأخيرة عن التجارب الإخوانية يتمثل في التأكيد الراهن على فصل الدين عن الحكم والقبول بعلمنة الممارسة السياسية. انتقل الإسلاميون الأتراك من مرحلة «المدرسة الإخوانية» المهجوسة بفكرة «الدولة الإسلامية» و«تطبيق الشريعة» إلى مرحلة يصفها حزب العدالة والتنمية بـ «الديموقراطية المحافظة» والتي تفصل، من ناحية، المسجد عن السياسة وتحاول، من ناحية ثانية، تأسيس تجربة «اليمين الإسلامي الديموقراطي المحافظ» على غرار تجارب الأحزاب المسيحية الديموقراطية اليمينية المحافظة. وفي كلتا الحالتين تشكل القيم الاجتماعية والعائلية السائدة إطاراً عاماً للبرامج السياسية والاجتماعية التي تتبناها تلك الأحزاب. بمعنى آخر يمكن القول إن هذه «الديموقراطية المحافظة»، أو «العلمانية المؤمنة»، التي ما زالت في وارد التطوير والتعميق على هامش التجربة التركية لا تتصف بتبني سياسة شرسة ضد القيم الدينية والتقليدية، كما هو الموقف التقليدي للعلمانية التركية المتشددة، وتتخطى موقف التسامح مع تلك القيم والتعايش السلبي معها، كما هو موقف العلمانية المعتدلة، بل تحاول توظيف تلك القيم في مشروعها الاجتماعي والتضامني العام. وهو توظيف ما زال قيد التبلور ذاك أنه يتصف بضبابية (كما سيُناقش أدناه) ويحتاج إلى فترة زمنية كي يزداد وضوحاً وبالتالي يمكن الحكم عليه وتحليله بشكل أدق.

نجح إسلاميو حزب العدالة والتنمية في الفوز بالانتخابات والوصول إلى الحكم سنة ٢٠٠٢ وأعادوا تأكيد فوزهم سنة ٢٠٠٧ مبرهنين على تواصل الدعم الشعبي لهم. كما خاضوا معارك قاسية ضد المؤسسة العسكرية العلمانية المتشددة وخرجوا من معظم تلك المعارك ظافرين، وفي يدهم رئاسة الحكومة ورئاسة الدولة معا (طيب رجب أردوغان وعبدالله غل على الترتيب). في المقابل فشلت حركات الإخوان المسلمين العربية في الوصول إلى الحكم والسيطرة عليه بشكل كامل سواء بالانتخابات أو بغيرها. وفيما عدا استثناءين: هما الإسلاميون السودانيون الذي سيطروا على الحكم عبر الانقلاب العسكري سنة ١٩٨٩، والإسلاميون الفلسطينيون الذي فازوا بالانتخابات الفلسطينية سنة ٢٠٠٦، فإن تجربة الإخوان المسلمين في صراعهم للوصول إلى الحكم لا تتميز بالنجاح رغم مرور ثمانين عامًا على تأسيس المنظمة الأم في الإسماعيلية في مصر سنة ١٩٢٨. يسوق الإسلاميون العرب أسبابا عديدة تفسر، وتبرر، ذلك الفشل، وتعزو كثيرا من تلك الأسباب إلى طبيعة خصومهم المحليين والخارجيين والضغط الغربي، وشراسة المعارك التي خيضت ضدهم. بيد أن كل ذلك يقع في دائرة الصراع السياسي الذي يفترض بالبداهة أن أولئك «الخصوم» لن يفرشوا طريق الإسلاميين إلى الحكم بالورود، وبالتالي فإن تلك الأعذار ليس مكانها السياسة والتسيس.

لكن المهم هنا، والذي يشكل جانبا أساسيا من النقاش في هذه المقاربة، هو السؤال عما إن كان جمود الفكر السياسي عند الإخوان المسلمين وعدم تطويرهم لتجربة فكرية وسياسية تتسم بمرونة تستوعب معطيات الأوضاع المتغيرة بوتائر سريعة وتحرج قدرة خصومهم على محاصرتهم هو السبب الجوهري في فشلهم للوصول إلى الحكم، أم أن اشتراطات السياق التاريخي والمحلي فرضت عليهم سيرورة خاصة جعلت علاقتهم مع العلمنة السياسية سطحية وليست بالعمق الذي تطورت فيه التجربة التركية. ويترتب على ذلك التساؤل إن كانت قراءة التجربة التركية ونجاحها النسبي والظرفي مقارنة بالتجربة الإخوانية يستلزم إعادة إنتاج «المدرسة الإخوانية» بحيث تتخفف من وطأة البرنامج التقليدي المتشبث بفكرة «الدولة الإسلامية وتطبيق الشريعة». وبشكل آخر يمكن صوغ الإشكالية على شكل السؤال التالي: لماذا لم يتعلمن التيار الإسلامي العربي بطرق مشابهة للسياق التركي. وهل كان بإمكانه أن يتطور أصلا وفق ذلك السياق، أم أن السؤال برمته مفتعل وفرضيته الأساسية خاطئة إذ تتم المقارنة بين سياقات مختلفة كلياً ونواتجها بالتالي ستكون متفارقة تعريفا؟

المقاربة التالية تحاول الإجابة عن بعض تلك الأسئلة من خلال التأمل المقارني لتجربة الإسلاميين الأتراك بنظرائهم العرب، وهي مقسمة إلى أربعة أقسام: الأول يلخص تطور ونجاح حزب العدالة والتنمية عبر استعراض سريع للمراحل التاريخية التي مر بها، والثاني مناقشة للنظرة الإسلامية التقليدية للمسألة العلمانية وهي النظرة التي تأسس عليها تفكير وتنظير الحركات الإسلامية الإخوانية والقريبة منها لموضوعة السياسة والدين، والثالث تحليل للتطور التاريخي لتجربة الإسلاميين الأتراك وصراعها وتفاعلها مع السياسة المعلمنة التي تطورت تحت سقفها وانتقالها من مرحلة لأخرى في ضوء ضغط العوامل المحلية والخارجية، والرابع مقارنة مباشرة بين التجربة الحركية الإسلامية التركية ونظيرتها العربية.

لكن قبل الانتقال إلى هذه الأقسام يجب التوكيد على عدة نقاط أولية منهجية. أولها أن هذه المقاربة غير مكتملة ولا تزعم تقديم قراءة شاملة لمشروع الحركة الإسلامية التركية، إنما تأمل أن تقدم بعض الرؤى في سياق مقارنة سيرورة تلك الحركة مع نظيراتها من الحركات الإسلامية العربية. ثانيها أن كلا من التجربتين لا تزال برسم التغير والتأثر والتأثير، بمعنى أن ليس ثمة فرضية هنا بأن أيا منهما، وخاصة التركية، قد وصلت إلى شكل تام من التعريف الذاتي أو صياغة طبيعة العلاقة مع الأطراف المحلية والخارجية بشكل واضح، أو أن رؤيتها الأيديولوجية ومشروعها السياسي صار قيد الاكتمال. ثالثها هو أن ←

للاستزادة: انظر النص الكامل ضمن كتاب يصدر قريبا عن معهد أبو لغد للدراسات الدولية - جامعة بير زيت - فلسطين

كل تجربة سياسية واجتماعية معينة محكومة بسياقها التاريخي والمؤثرات الخاصة بتكوينها وتوجيه مساراتها، وهذا ينطبق بالتأكيد على التجربتين العربية والتركية هنا، لذا فليس ثمة محاولة قسرية لخلق تشابه أو افتراق مصطنع بقدر ما هي محاولة لتأمل العوامل المؤثرة في تشكيل طبيعة كل تجربة. مع ذلك فإن هناك مشتركات كبرى بين التجربتين هي التي تخضع هنا لمجال المقارنة والتحليل وأهمها الموقف من العلمنة السياسية وفصل الدين عن الدولة. والرابع هو التأكيد على أن الهدف ربما الأهم من هذه القراءة هو الإسهام في إثارة النقاش المطلوب حول جدل العلمانية والحركة الإسلامية العربية في ضوء التجربة الطويلة والغنية للإسلاميين الأتراك، من دون الادعاء بتقديم نتائج حاسمة أو خلاصات يقينية.

أولاً: تطور مشروع حزب العدالة والتنمية

من المفيد في البداية رسم صورة موجزة عن الحالة «الإسلامية» الراهنة في تركيا وكيف تطورت عبر العقود الأخيرة، إلى أن وصلت إلى شكلها الأخير في «حزب العدالة والتنمية»، الحزب الحاكم في تركيا اليوم. وقد تكون هذا الحزب عملياً قبيل انتخابات عام ٢٠٠٢ على شكل تحالف بين شرائح التيار الإسلامي الحركي التركي وتشكيلاته المتنوعة والمتلاحقة والمحظورة ومجموعات وشرائح من أحزاب الوسط التركي التي كانت هي الأخرى تمر بمراحل من التغيرات والتحولات والانشقاقات بالاتجاهات المختلفة. الإرث الحركي الإسلامي الذي انتهت امتداداته الكثيرة إلى بنية حزب العدالة والتنمية يعود بعضها إلى حركة الرؤية القومية التي تأسست في الستينيات من القرن الماضي على يد نجم الدين أربكان من قبل مجموعات إسلامية رداً على الانقلاب العسكري عام ١٩٦٠. ثم تطورت تلك الحركة لتصبح حزب النظام الوطني عام ١٩٧٠ ثم حزب السلامة عام ١٩٧٢، متحولة إلى حزب الرفاه عام ١٩٨٣ الذي ظلت شعبيته وقوته تتعاظم إلى أن فاز بأكبر عدد من المقاعد النيابية في انتخابات سنة ١٩٩٥ وشكل بالتالي حكومة ائتلافية برئاسة أربكان نفسه.

لكن حكومة أربكان آنذاك ترجمت رؤيته الخاصة ورفعت شعار «التوجه شرقاً»، أي نحو العالم الإسلامي، وطرحت فكرة «السوق الإسلامية» على الضد من «السوق الأوروبية» وبرّدت علاقاتها مع الحلف الأطلسي الذي تنتمي إليه تركيا وداومت على نقد أوروبا والغرب عموماً، كما لم تتردد في الإعلان عن طموحات إسلامية داخلية وخارجية. قادت تلك السياسة إلى تهميش وإخافة شرائح علمانية واسعة ومؤثرة في الدولة التركية، ودفعت المؤسسة العسكرية والمحكمة الدستورية للاتفاق على إسقاط الحكومة بكونها تشكل تهديداً للأسس العلمانية للدولة، ثم قررت حل حزب الرفاه نفسه. بعد ذلك تشكل حزب الفضيلة الذي سرعان ما تم حظره أيضاً لنفس الأسباب عام ٢٠٠١. وهكذا فإن بقايا الحقب المتلاحقة للحركية الإسلامية أعادت تشكيل نفسها بعد التجارب المريرة السابقة وشكلت مع القوى الأخرى حزب العدالة والتنمية.



اتخذت التجربة التركية بعد ذلك مساراً بعيد الصلة عن الممارسات الإخوانية

لكن إضافة إلى تلك الكتلة الأساسية، الإسلاميون السابقون ومن ضمنهم طيب رجب أردوغان رئيس الوزراء الحالي وعبدالله غل الرئيس التركي الحالي، فإن هناك قوى أخرى انضوت في التحالف الفضفاض الذي صار يعرف باسم «حزب العدالة والتنمية». وأهم هذه القوى هي تشكيلات وأعضاء وبرلمانيو أحزاب يمين الوسط مثل حزب الوطن الأم وحزب الطريق القويم، وكذلك شرائح من التكنوقراط وخريجي الجامعات والبيروقراطيين والمهنيين الذين عملوا في البلديات التي سيطر عليها الإسلاميون في مراحل سابقة، إضافة إلى البرجوازية الوسطى والصغيرة سواء في استانبول والمدن الكبرى أو في الأناضول حيث القاعدة الأساسية للإسلاميين. وقد رأت شرائح البرجوازية الوسطى ورجال الأعمال الأناضوليين في التحالف الجديد فرصة لتغيير موازين القوى لصالحها بعد السيطرة طويلة الأمد للنخب المدينية المتغربة في استانبول والتي كانت هي المستفيدة الدائمة من فرص الاقتصاد والنفوذ في الدولة، وخاصة أن الدولة التركية الحديثة عمدت إلى تقوية اقتصادات المدن الكبرى والشرائح الاقتصادية الفاعلة فيها وحولها على حساب الريف والأناضول.[١]

من ناحية سياسية وأيديولوجية لا يُعرِّف حزب العدالة والتنمية عن نفسه بأنه حزب إسلامي. بل يبتعد عن كل ما قد يُفهم منه أن للحزب برنامجاً إسلامياً، ولا تُظهر أدبياته و«مانفستو» الحزب أية إشارة دينية، بل على العكس من ذلك هناك توكيد على نوع من «العلمانية المؤمنة» غير الصارخة، عن طريق رفع شعار «الديموقراطية المحافظة». والمقصود بتعبير «العلمانية المؤمنة»، والذي لا يستخدمه الحزب، هو محاولة الجمع بين الأسس العلمانية للدولة ومجموعة من القيم الاجتماعية والثقافية والسياسية التي يُجملها مانفستو الحزب تحت شعار «الديموقراطية المحافظة»، على غرار «الديموقراطية المسيحية» في بعض البلدان الأوروبية. لكن هذه «الديموقراطية المحافظة» هي حل وسطي فضفاض للهروب من الاتصاف بـ «الإسلامية»، ولإيجاد هوية خارجية للحزب يسهل تداولها وتسويقها عند الآخرين. وهي، أي «الديموقراطية المحافظة»، تتعرض لنقد وتحليل وتشكيك من قبل خصوم الحزب بكونها تخفي وراءها أجندة سياسية إسلامية. لكن الشيء الأهم في البرنامج السياسي لحزب العدالة والتنمية الآن هو تحويله للتيار الإسلامي العام من مسار «سياسات الهوية» إلى «سياسات الخدمات»، بمعنى أنه فكك تقييد البرامج الإسلامية السابقة وغرقها في مسائل الهوية والثقافة ونقلها إلى مسائل السياسة الاجتماعية والخدماتية والاقتصادية. ويمكن القول إن هذا هو المفصل التاريخي والأيديولوجي الأهم خلال الخمسين سنة الماضية في الفكر السياسي للإسلاميين الأتراك. وقد أتاح هذا الانتقال من الانشغال والانغماس بقضايا الهوية إلى الانخراط في قضايا الخدمات، جذب شرائح واسعة من الأنصار الجدد الذين صاروا يرون في الحزب جهة تستطيع تغيير الأمور نحو الأفضل.[٢]

وفي السياق الأعم من المهم الإشارة هنا إلى أن اعتراف الحزب بالتكوين والوجهة العلمانية للدولة التركية لا مواربة فيه، كما يفصل البرنامج السياسي المطول للحزب. فهنا تقول مقدمة البرنامج السياسي (والمنشور في الموقع الرسمي للحزب على شبكة الإنترنت): «إن حزبنا يشكل الأرضية لوحدة وتكامل الجمهورية التركية حيث العلمانية والديموقراطية ودولة القانون وصيرورات الحضارة والدمقرطة، وحرية الاعتقاد، والمساواة في الفرص تُعتبر جوهرية». ثم تفاخر المقدمة بإنجازات الدولة التركية وتقتبس عن مؤسسها مصطفى كمال أتاتورك (الذي تظهر صورته جلية مع العلم التركي على الصفحة الأولى للموقع الإلكتروني الرسمي للحزب) وتقول: «إن جمهوريتنا ليست عاجزة. والحل يكمن في الشعب نفسه. وكما قال العظيم أتاتورك إن القدرة في إنقاذ الأمة تكمن في عزمها وتصميمها».[٣]

وبرغم هذا الموقف الرسمي الواضح فإن قضية التشكيك في الوجهة الحقيقية للحزب وفيما إن كان يخفي أجندة غير معلنة تهدف إلى أسلمة المجتمع التركي تبقى واحدة من أهم القضايا التي تُثار من قبل خصومه، وتظل قضية مفتوحة برسم النقاش. لكن يُمكن أن يُقال هنا أن الطبيعة التكوينية التحالفية للحزب واتساعه وانفتاحه على الشرائح المختلفة يضعف من مقولة وجود أجندة «سرية» متوافق عليها. كما أنه وبفرض وجود تلك الأجندة فإن البرنامج التطبيقي للحزب يخلق مناخاً غير موات للإتيان بها في المستقبل وتطبيقها، لأن السيرورة التي أحدثها

«العدالة والتنمية» في السنوات الماضية علمنت شرائح واسعة من منسوبي ومؤيدي الحزب وجلبت شرائح علمانية أصلا لتأييده منجذبة إلى برنامجه «غير المؤدلج إسلامياً». لذا فإن أي عودة عن البرنامج المعلن الحالي، إلى برنامج سري مفترض، معناه انفضاض دوائر التأييد الإضافية القادمة من مربعات غير إسلامية، ومعناه أيضاً انقضاض المؤسسة العسكرية على الحزب وإنجازاته وحله آلياً. والنقطة الثانية المهمة في هذا الجدل هي القول بأنه لربما مرت الحركة الإسلامية التركية في مراحل طويلة اضطرت فيها لتبني تكتيك مجاملة المؤسسة العلمانية في الدولة وعدم مجابهتها حتى تتمكن من الاشتغال سياسياً وبصورة شرعية، ولربما أيضاً لحماية «الأجندة الإسلامية» وترحيلها للمستقبل. ومن الممكن أن تكون قد تخففت من الشعار الإسلامي في هذه المرحلة أو تلك متبنية سياسة الانحناء للعاصفة العلمانية طويلة الأمد في تركيا. لكن ما يبدو الآن هو أن ذلك التكتيك قد تحول في جزئه الأهم، إن بوعي وإدراك أو نتيجة لتكرس الممارسة العملية، إلى إستراتيجية تصدر عن قناعة أكثر مما تصدر عن مناورة وتفاد لضغط المؤسسة العلمانية والعسكرية. وهنا يمكن القول بقدر لا بأس به من الثقة إن أجيالا من الإسلاميين السابقين الذي مارسوا تكتيك «التعلمن الظاهري» قد تبنوا الآن «تعلمناً حقيقياً» مع طول التجربة والتأمل ورصد التجربة الإسلامية، خاصة في طبعتها «الأربكانية»، وهي تصطدم في الجدار وتواجه المأزق تلو المأزق.

ثانياً: الإسلاميون العرب والمسألة العلمانية - مركزية السياق

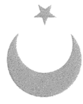
هناك أطروحات عديدة حاولت فهم علاقة المجتمعات العربية والإسلامية الحديثة بالعلمانية، في سياق محاولات فهم التطور التاريخي للمجتمعات البشرية المعاصرة مع مشروع الحداثة والتحديث ومع العلمانية. من هذه الأطروحات ما اعتبر أن مصير الدين في التاريخ والاجتماع البشري متجه نحو الأفول، وأن ما حدث في التجربة الغربية من إزاحة للدين عن الفضاء السياسي والاجتماعي وحلول العلمانية هو صيرورة إنسانية وعالمية وليست محصورة بالتجربة الغربية. وأن انتقال المجتمعات من «الطور التقليدي (والديني)» إلى «الطور العلماني الحداثوي» هو عملية مستمرة وتصاعدية وشبه حتمية.(٤)

غير أن صعود الإسلام السياسي في المنطقة العربية ثم في مناطق أخرى من العالم مثل تحدياً لأطروحة «العلمنة». ثم أضيف إلى ذلك التحدي بروز الأصولية الدينية ليس فقط الإسلامية بل وأيضا المسيحية واليهودية والهندوسية وغيرها، مشيراً إلى حالة من «الردة» عن التعلمن المتواصل إلى حقبة من «التدين» واستدعاء الدين إلى الفضاء الاجتماعي والسياسي العام. لكن هذا الصعود لـ«الديني» على حساب «العلماني» وانتشار الحركات الدينية نُظر له من بعض زوايا التحليل التاريخي على أنه مجرد الحشرجة ولفظ الأنفاس الأخيرة، وربما الطويلة، للدين في العالم، أو هي «صحوة الموت».(٥)

من زاوية الإسلاميين أنفسهم فإن النظرة العلمانية، وعلى مدار عقود طويلة ماضية، اتسمت بالسلبية التامة والعداء شبه المطلق. العلمانية في تعقل الإسلاميين معناها فصل الدين عن الدولة، وفتح الباب لكل ما هو غير إسلامي وغير ديني كي يتمدد في المجتمع على حساب الدين. والعلمانية بحسب التحليل الإسلامي الحركي هي حركة طارئة على المجتمعات العربية والإسلامية ولن تلبث أن تزول، لذلك فإن فكرة «العلمنة المتواصلة» مرفوضة من وجهة نظر دينية وتاريخية. بروز العلمانية واكتسابها لمساحات جديدة يعني، بالنسبة للإسلاميين، أفول الدين وخسارته لتلك المساحات. معظم ما تنادي به العلمانية، حسب ما يراه الإسلاميون، ينادي بعكسه الدين، ولذلك فالخصومة هي ناظم العلاقة، نظرياً وواقعياً. العلمانية لا تقبل خلط الدين بالدولة، بينما رؤية الإسلاميين للإسلام هي أنه «دين ودولة». والعلمانية (الحداثوية الليبرالية على الأقل) تعزز الفردانية وتقدس الحريات، فيما الإسلام، وكل الأديان، تعزز فكر الجماعة وتضبط الحريات وفق الحدود الدينية. العلمانية هي نزع للمقدس عن الطبيعة والكون وبالتالي عن الاجتماع البشري، الدين هو إضفاء للمقدس على ذلك كله وأزيد.

ثالثاً: الإسلاميون الأتراك والمسألة العلمانية - مركزية السياق

شكل المشروع الكمالي الإطار التأسيسي للمسألة العلمانية في تركيا الحديثة. فبحسب «الكمالية» ومنذ سنة ١٩٢٣ اعتبرت العلمانية هي المسار السياسي الناهض الذي يقطع مع الدين وينهي النمط التقليدي السياسي والاجتماعي الذي وسم الدولة العثمانية في حقبة ترهلها وسقوطها. ومنذ لحظة التبني لم تمثل العلمانية بالنسبة للنخبة التركية التي قادها وشكلها مصطفى كمال أتاتورك مشروعاً لتبعية الغرب سياسياً، بل لتقليده بهدف منافسته ومجاراته في قوته ونجاحه. ولئن كان رصيد «الكمالية» بعد أزيد من تسعة عقود على تأسيسها خليطاً من النجاح والفشل فإن أحد أوجه النجاح الذي رآه في نفسها يكمن في فصلها بين التغريب والعلمنة على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي والتبعية التحالفية مع القوى الغربية. فكما هو معروف كانت بوصلة قيام المشروع الكمالي إنقاذ تركيا من خطر التقسيم والتآكل تحت وطأة التوسع الإمبريالي الأوروبي عشية انهيار الدولة العثمانية. بمعنى آخر فإن المشروع الكمالي كان مضاداً للتوسع الغربي وكانت نظرة النخبة التركية المؤسسة للدولة الحديثة إزاء الغرب وأوروبا تحديداً، بما فيها نظرة أتاتورك نفسه، نظرة مركبة، غير أحادية، إن لم تكن متناقضة داخلياً. كان أتاتورك يقظاً ورافضاً للهيمنة الإمبريالية الغربية، لكنه في الآن ذاته كان مندفعاً بلا هوادة لتبني المشروع الغربي الحداثي العلماني. وحتى في مراحل لاحقة، أي في عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، عندما صارت تركيا ركناً في التحالف الغربي الإستراتيجي ضد الاتحاد السوفيتي خلال الحرب الباردة، فإن التوجه التركي كان يُنظر له على أنه صادر عن وعي واستقلالية تخدم المصلحة القومية التركية (مثلا ضد المد الشيوعي واليساري الذي وجد فيه أكراد تركيا حليفاً لهم ضد الدولة). وهكذا فقد كان أن عملت الأتاتوركية على تخليق قومية تركية حديثة، لا تخلو من التهجين إذ ركزت على التتريك واللغة، وبعث الفولكلور التركي، مع تفادي الدين كلية، رغم سطوته البالغة على الثقافة الشعبية التقليدية.(٦) ومن هنا يمكن القول إن العلمانية والحداثة السياسية كانت بالنسبة للنخبة المؤسسة والحاكمة قارب نجاة تركيا إلى ما بعد عصر الامبراطورية المنهارة.



صعود الإسلام السياسي في المنطقة العربية ثم في مناطق أخرى من العالم مثل تحدياً لأطروحة «العلمنة»

لا يعني ذلك أن خيار العلمنة وآلياتها المتبناة كانت مقبولة من قبل عموم الشرائح التركية، بل إن العكس هو الصحيح. فمشروع العلمنة والحداثة كان فوقيا مفروضاً من قبل النخبة الحاكمة وعلى تضاد مع الثقافة التقليدية السائدة. لكن «فوقية» المشروع لم تعن أيضاً عدم مغازلة الإسلام وتوظيفه في مراحل متعددة. ففي لحظة التأسيس وخلال حرب الاستقلال (١٩١٩-١٩٢٢) لم تتصادم الكمالية تماماً مع الحركة الصوفية النقشبندية الواسعة الانتشار، بل كان ثمة تصالح ملحوظ خاصة على خلفية «حرب الاستقلال» وإنقاذ تركيا من مصير مجهول. وقد كان الشيخ سعيد النورسي أكبر رموز تلك الحركة منضوياً في الحركة الكمالية آنذاك وصار عضواً في «الجمعية القومية الكبرى» بناء على طلب أتاتورك، رغم خلافه معه حول مسائل جوهرية أهمها تحييد الإسلام من الهوية التركية. لكن تلك الخلافات اشتدت واستقال النورسي من الجمعية القومية

وانتقل إلى الأناضول مسقط رأسه. بيد أنه، في نفس الوقت، ورغم كونه كرديًا لم يتعاطف مع مطالب الأكراد بالانفصال وثورتهم عام ١٩٢٥ وكان مؤمنًا بضرورة الوحدة التركية.

من المهم الإشارة أيضًا إلى أن البعد الاقتصادي كان له أثر كبير في تشكيل المشروع الإسلاموي الحركي التركي بطرق لا تتشابه مع نظيره العربي. فالدولة الكمالية المركزية شرعت في بناء اقتصاديات قائمة على المدن الكبرى، استانبول وأنقرة، معتمدة على النخب المعلمنة والمخلصة للمشروع الكمالي. وفي غمرة حرصها على مركزة الإدارة الاقتصادية أهملت الريف التركي وخاصة الأناضول حيث القاعدة النقشبندية الواسعة والفقيرة بشكل عام. وأنتج ذلك الحرمان التفافات اجتماعية حول مراكز التدين الصوفي وما تطور عنها من بنى محلية وولائية. وقد وفر ذلك الافتراق في الحصول على الفرص الاقتصادية قاعدة لبروز برنامج سياسي واجتماعي قائم على المطالبة بالمساواة وتوزيع الثروات، تنامى لاحقًا ليحتل قلب الطروحات التي يتبناها الإسلاميون، خاصة بعد عام ١٩٤٥ وتحول تركيا إلى نظام التعددية الحزبية وانتهاء فترة الحزب الكمالي الحاكم وقبضته الصارمة على الفضاء السياسي. لكن ظل الريف والفلاحون الأتراك في غربة حقيقية عن مشروع الدولة. وكان أن نزعت الحكومات التركية المتعاقبة خلال الخمسينيات والستينيات إلى تشجيع الفلاحين على الهجرة إلى أوروبا (ألمانيا وهولندا تحديدًا) التي كانت بحاجة ماسة إلى العمالة الرخيصة في مرحلة إعادة البناء بعد الحرب العالمية الثانية. وقد خدمت الهجرات الواسعة تلك هدفين في آن معًا: التخلص من احتمالات التمرد ضد الدولة عبر تحسين ظروف أولئك الفلاحين عن طريق الهجرة، وفي نفس الوقت حقن الاقتصاد التركي بالتحويلات المالية المتزايدة القادمة من تلك العمالة المهاجرة. لكن بحلول السبعينيات والانغلاق التدريجي لنافذة الهجرة لأوروبا تفاقمت الضغوط الاجتماعية والاقتصادية لدى تلك الشرائح، وهي الضغوط التي التقطها نجم الدين أربكان ووظفها في برامج حزبيه «السلامة» ثم «الرفاه» على التوالي. وأصبح المطلب الاجتماعي وتحسين ظروف الطبقات الفقيرة والوسطى عماد البرامج السياسية الإسلامية، وهي البرامج التي انتقلت إلى مراحل متقدمة مطالبة باللبرلة والانفتاح الاقتصادي. كما أدى إقفال باب هجرة العمالة الريفية إلى أوروبا إلى هجرة ريفية نحو المدن الكبرى. وهناك تم احتضانها من قبل الحركة الإسلامية، حيث شكلت تلك العمالة الريفية المهاجرة أهم القواعد المدينية للحركة الإسلامية في وقت لاحق، إضافة إلى أجيال من خريجي الجامعات والتعليم الحديث الذين تأثروا بالنشاط والفاعلية التي قدمها أربكان.



يمكننا الآن أن نعيد تأمل التجربتين التركية والعربية من منظور مقارن راصدين أوجه التشابه وأوجه الاختلاف

رابعًا: التجربتان العربية والتركية: التشابه والاختلاف

في ضوء ما سبق يمكننا الآن أن نعيد تأمل التجربتين التركية والعربية من منظور مقارن راصدين أوجه التشابه وأوجه الاختلاف. وللقيام بهذا التمرين علينا أن نحافظ على الخلفية التحليلية المهمة المتعلقة بمركزية السياق. فالسياق التاريخي والسياسي والاجتماعي والثقافي هو المُشكل المركزي والحاسم لخيارات ومآلات الحركات الاجتماعية. وعندما نحافظ على مركزية السياق فإن ذلك يحفظ مسافة صحية وآمنة من التورط في أية مقولات «جوهرانية» تنظر إلى التشكيلات الإسلامية نظرة ثابتة وجامدة وعلى أنها مجموعات متماثلة من التنظيمات الخاضعة لقواعد ومفاهيم صارمة عابرة للظروف المكانية والزمانية، ولا تخضع للتأثر بالسياقات المختلفة. ويمكن تأمل أوجه التشابه والاختلاف من خلال تحليل عدد من السياقات الهامة التي أثرت في تشكيل كل تجربة على حدة، وهذه السياقات هي «تركة الدولة العثمانية والنظرة إليها»، «طبيعة دولة الاستقلال»، «البعد الأوروبي»، «دور الجيش والنظرة إليه»، «دور قيام إسرائيل»، «تحدي العلمانية واستجابة الاجتهاد».

النظرة إلى التركة العثمانية: ولدت الحركة الإسلامية العربية في أعقاب انهيار الدولة العثمانية عام ١٩٢٤، حيث تأسس الإخوان المسلمون في مصر سنة ١٩٢٨. وترسخ في السيكولوجيا الإسلاموية الحركية منذ لحظة التأسيس تلك أن كل ما صار يعانيه العرب والمسلمون من تمزق وضعف وتخلف وانكشاف للاستعمار الغربي مرده إلى انهيار الخلافة العثمانية وزوال الدولة الإسلامية التي كان العثمانيون يمثلونها بشكل أو بآخر. ولم يكن التحسر على انهيار الدولة العثمانية محصورًا في أوساط الإسلاميين بل تعداه إلى بعض الفضاءات الأخرى، وإن كان قد تطور موقف عروبي ناقم على الاستبداد التركي وداع إلى التخلص منه. في المقابل كان ما قد ترسخ في سيكولوجيا النخبة التركية التي انقلبت على نظام السلطنة العثمانية أن تلك السلطنة وترامي أطرافها وتراخيها والانحلال والعفن اللذين حلا بها انعكسا على تركيا. وأنه من دون التخلص من عبء تلك السلطنة المعيق فإن تركيا والأمة التركية سوف تتعرض لخطر التمزق والتفتت. وهكذا فقد كانت النخبة التركية (العلمانية أساسًا، وجزء من النخبة الإسلامية النقشبندية أيضًا) تنظر إلى الخلافة العثمانية كسبب لتمزق الدولة التركية، فيما كانت النخبة العربية (وفي مقدمتها الإسلامية) تنظر إلى انهيار تلك الخلافة كسبب لتمزق «الأمة الإسلامية». صحيح أن النخبة التركية غلب عليها التيار الأتاتوركي الناهض العلماني النزعة، فيما النخبة العربية الإسلامية التي نقارن بها هنا غلب عليها التيار الإسلاموي، بما يضعف منطق المقارنة. لكن المناخ الفكري والثقافي العام الذي تولدت فيه رؤى تلك النخب كان مختلفًا بين من أسعده انهيار السلطنة ومن تحسر عليها.

طبيعة دولة الاستقلال: نشأت الحركات الإسلامية العربية والتركية في كنف دولة استقلال ما بعد انحسار الاستعمار الغربي، أو متولدة عنه. وقد انعكس شكل وطبيعة ومكونات وشرعيات دولة الاستقلال الناشئة على الحركات الوليدة. في الحالات العربية قامت دولة الاستقلال العربية منقوصة الشرعية منذ البداية مما أضعفها أمام شعوبها ونخبها السياسية والدينية، على عكس الدولة التركية التي نشأت على شرعية قوية. فمن ناحية أولى كانت الدول العربية خلاصات إرث سايكس بيكو التقسيمية، أي أنه نُظر إليها من قبل شرائح واسعة في المنطقة العربية، إن لم تكن الشرائح الغالبة، على أنها «دول تجزئة» قسمت «الأمة العربية» وقطعت أوصالها. بينما كانت الدولة التركية الأتاتوركية، في نظر شرائح تركية واسعة وربما الغالبة، مشروعًا وحدويًا حافظ على «تركيا» و«الأمة التركية» من مصير مجهول ربما كان التقسيم والتجزئة بعد انهيار الدولة العثمانية. في الحالة العربية ولتعويض نقص الشرعية اتكأت النخب الحاكمة بشتى تنويعاتها على مصادر شرعية مختلفة ثورية أو قبلية أو أجنبية. وقد عملت جميع تلك النخب تقريبًا على إضافة شرعية دينية حيث استخدم الإسلام كوسيلة إضافية تمنح الدولة الناشئة والنظام الحاكم فيها شرعية الوجود والحكم، إضافة إلى الشرعية المعنية المؤسسة. ومن منطقة الخليج العربي إلى مصر والسودان إلى العراق وبلاد الشام وصولا إلى المغرب العربي مثل الإسلام بالنسبة للدول حديثة التشكل مكونًا تأسيسيًا في الخطاب «الدولتي». وانعكس ذلك بشكل واضح في اعتماد الإسلام ليس كدين الدولة وحسب بل باعتباره المصدر الأساسي للتشريع (أو مصدرا أساسيا للتشريع) في الدساتير التي اعتمدت مع قيام تلك الدول. وسواء أكان استخدام الإسلام وتوظيفه في الدستور يعكس قناعات حقيقية أم سياسات براغماتية، فإن الخلاصة النهائية هي خلق حالة دستورية معينة سوف تفيد الحركات الإسلامية العربية لاحقا. فهذه الحركات نشأت وعينها على المطالبة بإقامة الدولة

الإسلامية وتطبيق الشريعة الإسلامية، ورغم ما قد يبدو من «قصووية» بالغة في هذه الشعارات إلا أنه يمكن لتلك الحركات، في التحليل النهائي، أن تبرر تلك المطالبات بأنها دستورية خالصة لأن الدستور في هذا البلد العربي أو ذاك ينص على أن الإسلام مصدر التشريع. على ذلك فإن أي حركة إسلامية يمكنها أن تزعم بأن برنامجها هو المطالبة بتطبيق الدستور والمادة أو المواد الخاصة بتكريس الإسلام أو الشريعة الإسلامية كمصدر للتشريع.

في الحالة التركية يختلف السياق بشكل كبير. فبسبب قيام الدولة التركية الحديثة في اتجاه معاكس تماماً للتركة العثمانية، وبسبب العلمانية الواضحة للنخبة المؤسسة، والأهم من ذلك بسبب عدم الشعور بنقص في شرعية التأسيس التي قامت على إنقاذ تركيا من التمزق، لم يكن هناك أي مكونات إسلامية دستورية وتأسيسية، تجميلية أو حقيقية في التكوين الأولي للدولة. وكان الدستور التركي ومنذ لحظة التأسيس علمانيا خالصاً. وهذا انعكس في مراحل لاحقة على الحركة الإسلامية التركية التي لم تستطع أن ترفع نفس شعارات نظيرتها العربية: «إقامة دولة إسلامية» و«تطبيق الشريعة»، أو على الأقل لم يكن في وسعها أن تتبنى هذه الشعارات بنفس الوضوح والحدة كما في الحالة العربية. والسبب في ذلك هو أن هذه المطالب تعني تغيير الدستور وشكل الدولة، ومن اليسير بالتالي أن تُتهم الحركة التي تطالب بها بأنها حركة غير دستورية وتهدف إلى قلب النظام وطبيعة الدولة. ولهذا السبب فقد كان على الحركة الإسلامية التركية أن تشتغل تحت سقف الدستور العلماني وهذا دفعها لتطوير خطابات وسياسات وبرامج، مع الزمن، بدت أكثر تعقيداً وتركيباً من الخطابات والسياسات والبرامج التي أنتجتها وتبنتها الحركات الإسلامية العربية التي لم تواجه نفس التحدي (الدستوري والعلماني).(٧)

وبتفصيل أكثر يمكن تتبع مراحل أساسية وفاصلة في مسيرة تكون تركيا الحديثة، وإحالة جذور هذا التكون إلى حقبة «الإصلاح والتنظيمات العثمانية» التي أطلقتها الدولة العثمانية في العقود الأخيرة من وجودها (بين عامي ١٨٣٩ و١٨٧٨) كمحاولة يائسة من المصير المحتوم الذي كان يطل عليها. «حقبة التنظيمات»، كما اشتهرت لاحقاً، كانت عملية اقتباس واعية عن أوروبا من قبل المؤسسة العثمانية الحاكمة تهدف إلى تحديث الإدارة الامبراطورية بدءا بالشكل السياسي والتقسيمات الإدارية والعلاقة بين استانبول وبقية أجزاء السلطنة، وانتهاء بالتعليم والثقافة. فشلت تلك العملية التحديثية في إنقاذ الامبراطورية من الانهيار لكنها خلفت عددا من النواتج المهمة منها نشوء «الجيل الدستوري» الذي انخرط في عملية استنساخ النموذج الأوروبي وفق صيغة «الدولة-الأمة» أي nation state وليس وفق فكرة «الأمة» أو «الامبراطورية». وخلال عقود حقبة التنظيمات احتلت قضية علاقة الخلافة بالسلطنة، واستتباعاً، علاقة الدين بالدولة، مكاناً مركزياً في قلب النقاش الفكري والسياسي التركي. وفي ضوء «الأوربة» الفكرية والسياسية المتصاعدة في وسط النخب التركية إبان انهيار الدولة العثمانية، كان أن أقر المجلس الوطني التركي عام ١٩٢٢ «وثيقة أنقرة» تحت عنوان «التفريق بين الخلافة والسلطنة»، وهي عملياً الوثيقة التي أسست لفصل الدين عن الدولة في تركيا الحديثة.(٨) ولم يكن ثمة مسار مشابه لهذا المسار في الحالة العربية على أعلى مستويات النخب السياسية المسيطرة على الدول العربية حديثة القيام.

لكن من المفيد الإشارة هنا، وكما يؤكد وجيه كوثراني في كتاب «الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية»(٩)، إلى أن هناك جيلا من المفكرين والمثقفين العرب تأثروا بشكل مباشر أو غير مباشر بفكر وتجربة التنظيمات الدستورية التركية. ويرى كوثراني أن الوثيقة العربية المناظرة لـ «وثيقة أنقرة» التي أسست لفصل الدين عن الدولة كانت كتاب علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» الذي صدر عام ١٩٢٥. لكن على عكس الاحتضان الواسع الذي لقيته «وثيقة أنقرة» في أوساط النخبة التركية المؤثرة آنذاك، وبعضاً من الإسلامية أيضاً، فإن كتاب علي عبد الرازق ووجه بهجوم كاسح من قبل النخب الإسلامية الصاعدة مما دفع بعبد الرازق نفسه أن يعلن تخليه عن ذلك الكتاب. ويمكن القول أن الوثيقتين المذكورتين، مع نجاح الأولى وفشل الثانية، قد ساهمتا في تأسيس الافتراق الكبير الذي سيحصل بين التجربتين التركية والعربية بشكل عام وتجربة الإسلاميين الأتراك والإسلاميين العرب بشكل خاص.



من ناحية أوروبا نفسها تمثل تركيا دولة غير عادية وتوليها أوروبا اهتماماً غير عادي

البعد الأوروبي:

كانت أوروبا ووطأتها وأثرها حاضرة في السياق التركي العام ومنعكسة على تجربة إسلامييها في مراحلهم المختلفة، بشكل يختلف عما كان عليه الأمر في حال تجربة الدولة العربية الاستقلالية وحركاتها الإسلامية. تركيا تصل الشرق بالغرب وجزء منها يقع في أوروبا، وكانت على تواصل عضوي ووثيق (حربا وصراعاً، أو سلما وتعاونا) مع أوروبا. والأهم من ذلك لم تتطور سيكولوجيا هزيمة معيقة في نظرة الأتراك إزاء أوروبا كما تطورت في الحالة العربية. تركيا هي وريثة الدولة العثمانية التي كانت جيوشها تهدد العواصم الأوروبية خلال قرون طويلة، ووصل نفوذها إلى القلب الأوروبي. وتركيا بالنسبة لكثير من الأوروبيين هي «الإرث الاستعماري»، وهي وريثة امبراطورية اليد الطولى. لذلك لم تكن هناك عوائق نفسية ووجدانية تحول دون الاندفاعة التركية إزاء مشروع الحداثة الأوربي للاستفادة منه. ويمكن القول هنا أن الشعور المتضخم بالطورانية وفر قدرا من الندية مع أوروبا عوض عن الاختلال في ميزان القوى الحضاري، ومكن الأتراك من التعامل مع أوروبا بطريقة مختلفة عن التعامل العربي معها. ففي الحالة العربية مثلت أوروبا موطن الاستعمار والاعتداء والاستغلال، بما خلّف علاقة مرضيّة معها، أعاقت في كثير من الأحيان الاقتباس الصحي عن المشروع الحداثي الأوروبي. وأكثر ما تجسدت العلاقة المرضية عند جانب الإسلاميين الذين أظهروا توترا عالياً ليس ضد الجانب الإمبريالي الاستعماري في أوروبا وحسب، بل أيضاً ضد الجانب الحداثي والعلماني التنويري.

وفي ضوء نمط النظرة والعلاقة مع أوروبا كانت تركيا (الأتاتوركية العلمانية، ثم الإسلامية المحافظة) تريد تقليد النموذج الأوروبي وتستخدم نفس أسلحته لتنافسه ولتصبح واحدة من الدول الأوروبية. وعندما جاء آخر جيل من أجيال إسلامييها، «حزب العدالة والتنمية»، كان أحد أهم رهاناته هو تحقيق انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي. وقد قطع مسافات في اتجاه هذا الانضمام لم يقطعها أي من الأحزاب العلمانية التركية التي سبقته في الحكم على مدار عقود. في المقابل كانت النظرة الإسلاموية العربية لأوروبا والنموذج الأوروبي لا تقوم على استنساخه وتقليده بل على بناء نموذج مغاير ومنافس. كما لا يمكن تخيل حركة إسلامية عربية، مثلا في فضاء المتوسط، تُطالب بانضمام بلدها إلى الاتحاد الأوروبي أو إلى تحالف وثيق مع أوروبا.

من ناحية أوروبا نفسها تمثل تركيا دولة غير عادية وتوليها أوروبا اهتماماً غير عادي. فتركيا كانت على الدوام مصدر هم لأوروبا، ثم صارت دولة حليفة خلال الحرب الباردة من أهم دول حلف الناتو المطلة على الشرق الأوسط والمشكلة لحزام حاجز ضد النفوذ السوفيتي. والآن وبعشرات ملايينها المسلمين تطرح تحدياً من نوع جديد على أوروبا إزاء مسألة الانضمام للاتحاد الأوروبي. لذلك فالاهتمام الأوروبي بتركيا سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً، وعلمانياً، وديموقراطياً، لا يتوازى مع الاهتمام الأوروبي بأي بلد عربي، وربما بالبلدان العربية مجتمعة. والسجال الأوروبي الكبير تجاه تركيا الآن يتمحور حول دعم وتشجيع حزب العدالة والتنمية المتمسك بالديموقراطية برغم بعض



الشكوك حول ماضي قادته ومستقبل توجهاتهم. وإما محاولة صدهم ورفض سياساتهم التقاربية مع أوروبا وتفضيل تحالف العلمانيين والجيش عليهم، بما قد يعني إحباط توجه تركيا نحو حكم مدني كامل يخضع فيه الجيش لسيطرة المدنيين ولا يكون له دور في السياسة. لكن وبكل الأحوال انعكست العلاقة الوثيقة مع أوروبا، واشتراطات الانضمام للاتحاد الأوروبي (سلة شروط كوبنهاغن) على تفكير الإسلاميين الأتراك وآخر تمثلاتهم في حزب العدالة والتنمية وفي تعزيز أنماط التمدين والعلمنة السياسية.(١٠) وفي حالة الإسلاميين العرب ليس ثمة دور مناظر، أو اندفاعة نحو أوروبا، تجبرهم على إنتاج أفكار وتصورات تفصيلية ومركبة حول علاقتهم مع الآخر، إلا في حالات قليلة لا تشكل نماذج تجتذب الاهتمام.

لعب الجيش في الحالتين التركية والعربية دورا مهما في تشكيل البنية السياسية وترسيخ الدولة ونظامها

دور قيام إسرائيل:

مثل المشروع الصهيوني في أرض فلسطين ومنذ مطلع القرن العشرين تحدياً أساسياً وتكوينياً وأحياناً وجودياً أمام الدول والحكومات بأطيافها المختلفة. كما انعكس ذلك التحدي على الطبيعة التكوينية والبرامج السياسية لأغلب التنظيمات الحركية السياسية في المشرق ومن ضمنها الإسلامية. وعلى مستوى التشكيلات السياسية الإسلامية يمكن بوضوح التقاط وطأة «عنصر المشروع الصهيوني ثم قيام إسرائيل» على أدبيات حركة الإخوان المسلمين منذ سنوات تأسيسها الأولى فصاعداً. في ثلاثينيات القرن الماضي اشتغل الإخوان المسلمون على دعم الثورات الفلسطينية عن طريق التبرعات وإرسال المساعدات العينية. ثم في نهاية ذلك العقد أرسلوا بعض قياداتهم إلى فلسطين وسوريا والأردن ولبنان لتأسيس الأنوية الأولى لفروع الإخوان المسلمين في هذه البلدان. وفي عقد الأربعينيات ووضوح معالم المشروع الاستيطاني الصهيوني بشكل جلي تعزز اهتمام الإخوان المسلمين بقضية فلسطين، وهو الاهتمام الذي ترجم عملياً وعسكرياً على شكل المشاركة في حرب ١٩٤٨ عن طريق المتطوعين عبر سيناء فقطاع غزة ثم وصولاً إلى مدن ومناطق في سائر فلسطين. وعندما تأسس حزب التحرير الإسلامي في الخمسينيات كانت قضية تحرير فلسطين والتخلص من الاستعمار الغربي في طليعة القضايا النظرية التي برر الحزب بسببها أولوية ومركزية فكرة «استعادة الخلافة» التي هي النظرية المعرّفة لجوهر وجوده. وهكذا ظلت قضية فلسطين وقيام إسرائيل تلقي بظلال فكرية وسياسية ووجدانية على تفرعات التيار الإسلامي في المنطقة، وفي مراحل لاحقة تكرس ذلك البعد بنشوء حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين في أوائل الثمانينيات ثم حركة حماس مع بدايات الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧.

استغل هذا البعد على مستوى تكوين البنية الفكرية والسياسية لحركات الإسلام السياسي خاصة في المشرق، وساهم في تمييز طبيعة تلك الحركات ومآلاتها عن تجربة الإسلاميين الأتراك. فالبرامج السياسية والطموحات والشعارات المتبناة من قبل هذه الحركات لم تكن محصورة بالتغيير الاجتماعي فحسب، أي أسلمة المجتمع وإقامة دولة إسلامية. بل أضيف إليها قضية التنظير لكيفية وآلية تحرير فلسطين وربط ذلك بـ «المشروع الحركي الإسلامي» بشكل عام. وهذا الربط اتخذ في كثير من الأحيان طبيعة آلية، وتبسيطية، تشير إلى أن الطريق لتحرير فلسطين تمر عبر إقامة «الدولة الإسلامية»، التي وحدها، وبخلاف الدول العلمانية العربية، تستطيع التصدي لمهمة «التحرير». وقد أنتج هذا الربط أشكالاً من الوعي (الضبابي) بالأولويات وميكانيكية الارتباط فيما بينها، منها تصويب النظر على الهدف البعيد وهو «تحرير فلسطين» واعتبار المرحلة «الوسطى» أي الأسلمة وإقامة الدولة الإسلامية مجرد آلية تقود إلى «التحرير» ومعالجة الجرح التاريخي والسيكولوجي الذي قوض الكرامة الجماعية للشعوب العربية.(١١) وقد قاد هذا آلياً وتلقائياً إلى التقليل من شأن «الدولة» واستسهال مكوناتها الداخلية، واستغلال آلياتها السياسية والاقتصادية ونوع علاقاتها الدولية، وطبيعة التوافقات بين الشرائح المختلفة، وأدى إلى العزوف عن مواجهة التحديات التي تطرحها. وقد ساهم الانشغال، الحقيقي أو المتوهم، بأولوية «فلسطين» ومواجهة النفوذ الغربي عموماً، في عدم إنتاج الحركات الإسلامية في المشرق برامج ورؤى تفصيلية في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والفن والعلاقات الدولية وسوى ذلك. في المقابل كانت التجربة التركية منغرسة في واقعها السياسي والاجتماعي من دون وجود عنصر خارجي بالغ الوطأة مثل «المشروع الصهيوني» ليحرفها عن مواجهة التحديات المطروحة عليها محلياً. كان هناك بالتأكيد وعلى الدوام عنصر العلاقة مع الغرب، ومع أوروبا على وجه التحديد، وانعكاساتها على تغريب المجتمع وفق المشروع الكمالي للتحديث والتغريب. لكن ذلك العنصر يمكن اعتباره ساحة من ساحات الصراع الداخلي، وهو في نهاية المطاف قاد إلى طرح تحديات وأسئلة كبيرة على الإسلاميين الأتراك كلها من النوع الذي يصب في شكل الاجتماع السياسي الداخلي، وليس في شكل المواجهة مع الخارج (كما في حالة الصهيونية وإسرائيل).

دور الجيش والنظرة إليه:

لعب الجيش في الحالتين التركية والعربية دوراً مهماً في تشكيل البنية السياسية وترسيخ الدولة ونظامها. لكن النظرة العامة لذلك الدور مختلفة وأثرت بالتالي على موقع الإسلاميين بالنسبة للجيش ونظرة الناس لهم والأهم من ذلك قدرة وشرعية الجيش في التحكم في مدى نفوذهم وقوتهم. في الحالة التركية حظي الجيش ومنذ تأسيس الدولة التركية الحديثة بالاحترام الشعبي والتبجيل بكونه القوة التي التقطت تركيا من وحل التقسيم وسهرت على ترسيخها وبنائها. واستمرت بقايا هذه النظرة التقديرية للجيش إلى الوقت الراهن، وإن خفت بدرجات مهمة. أتاح ذلك قدرة وشرعية للجيش بأن يقف بصرامة أمام بروز وتعاظم قوة الحركة الإسلامية معتبرا نفسه حارس الدستور العلماني للدولة. وتسنم الجيش موقع «المؤسسة العلمانية» التي ترسخت علمانيتها على مدار ثمانية عقود.

تطورت المؤسسة العسكرية التركية الحديثة في حضن المشروع الكمالي وأصبحت حارسة له. وكان الجامع المشترك بين الاثنين هو هدف المحافظة على تركيا «موحدة» و«قوية» و«متقدمة». ولإنجاز هذا الهدف كان النموذج الغربي الأوروبي هو القريب والمُثبت النجاح: أوروبا قوية لأنها علمانية وديموقراطية. ولهذا فإن أرادت تركيا أن تكون قوية فعليها أن تكون علمانية وديموقراطية. وإن طرأ ما قد يهدد هذا المسار الذي ستكون نهايته «الطبيعية» منعة تركيا وقوتها، فعلى المؤسسة العسكرية أن تتدخل لتعديله.(١٢) فمثلا إن جاءت الديموقراطية بحزب غير ديموقراطي أو حزب يريد أن يلغي العلمانية فإن الجيش يتدخل بلا تردد. وهذا الحضور القوي للجيش كان واحدا من الأسباب التي ظلت تدفع بالإسلاميين نحو تعديل برامجهم وعلمنتها لاكتساب شرعية المشاركة السياسية تحت سقف المشروع العلماني للدولة. وهكذا فعندما كان الإسلاميون يشاركون في الانتخابات ويراكمون نتائج جيدة كانت عين المؤسسة العسكرية تراقبهم عن كثب وتضع شروطها على برامجهم. ولم تتوان تلك المؤسسة عن الإطاحة بهم عندما رأت أن برنامجهم قد يقوض الأسس العلمانية للدولة، كما حدث عندما أطاح الجيش (عبر مجلس الأمن القومي) بحكومة نجم الدين أربكان عام ١٩٩٧ بعد عامين من تشكيلها وحل حزب الرفاه وحظر على أربكان نفسه المشاركة في العمل السياسي بعد ذلك لعدة سنوات. وعندما

تشكل حزب الفضيلة على أنقاض حزب الرفاه المحلول وتبنى سياسات «إسلامية» مشابهة لسياسات «الرفاه» وأربكان لم تتوان المحكمة الدستورية بإصدار قرار بحله أيضاً عام ٢٠٠١.

في الحالة العربية لم يكن للجيش دور مناظر في حماية «رؤية» علمانية معينة للدولة، بل كان أحد معاقل «التقليدية» في غالب الأحيان وبعيدا عن أية علمنة سياسية حقيقية. حتى في حالات الأنظمة الثورية واليسارية تحول الجيش سريعا إلى جهاز شبه أمني هدفه المحافظة على النخبة الحاكمة (وغالبا ما تكون قد وصلت إلى الحكم عبر الانقلاب)، وتابعاً للنظام القائم وليس متحكماً فيه كما في الحالة التركية. من ناحية أخرى لم يحظ الجيش في الحالة العربية بنفس التقدير والنظرة التي حظي بها الجيش في تركيا. فالجيش في الحالة العربية، وفي أغلب الأحايين، هو وريث هزائم متتالية مع العدو الخارجي (إسرائيل تحديداً) أو في أحسن الأحوال ليس لديه سجل تاريخي ناصع من الانتصارات أو الإنجازات الوطنية الكبيرة، كإنجاز الوحدة الترابية أو مواجهة التقسيم. بل كانت النظرة إلى الجيش في العديد من البلدان العربية على أنه مكرس لـ «التقسيم والتجزئة» التي خلفها المستعمر الغربي إضافة لكونه أهم أدوات القمع الداخلي.

تحدي العلمانية واستجابة الاجتهاد:

الجوانب التي أشير إليها سابقًا (النظرة للتركة العثمانية، البعد الأوروبي، قيام إسرائيل، المؤسسة العسكرية) وضعت الإسلاميين في كلتا الحالتين التركية والعربية أمام تحديات مختلفة من ضمنها تحدي العلمانية، كفكرة وممارسة. لكن هذا التحدي كان أكثر بروزاً في الحالة التركية كما شُرح أعلاه وهذا فرض ومكن الإسلاميين من تطوير قناعاتهم وبرامجهم استجابة لذلك التحدي، وهي استجابة قادت مع الزمن إلى بروز حزب العدالة والتنمية على أنقاض التجارب الحركية الإسلامية الممتدة لعدة عقود في الفضاء السياسي التركي. أما في التجارب العربية (وما عدا التجربة التونسية والمغربية إلى حد ما) فإن التحدي العلماني لم يشكل حافزا على التطوير الذاتي وإنتاج خطابات عصرية تتحداه من نفس منطلقاته. كانت المعركة مع العلمانية تُخاض بطريقة مختلفة: من الخارج وليس من الداخل. كانت معركة فكرية سهلة متمحورة حول الرفض الكلي للعلمانية بكونها نظرية كافرة ومضادة للإسلام، وبالتالي لم تكن هناك استجابات معقدة ومركبة للتحدي العلماني. في المقابل كانت المعركة التركية تُخاض من داخل الشرط العلماني ووفق قواعد اللعبة العلمانية التي فرضها وحرسها الجيش دافعة بالإسلاميين للتفكير والاستجابة وفقها وتقديم نماذج وقيم وبرامج سياسية متجددة وغير تقليدية.

انعكست طبيعة الاستجابة للتحدي العلماني على نوعية وعمق الاجتهاد الإسلامي الناتج في كلتا الحالتين. ففي الحالة التركية نشطت حركة اجتهاد واسعة النطاق للرد على التحدي العلماني وقد برزت مع بروز المشروع الكمالي واعتزال سعيد نورسي، أحد أهم رموز الطريقة النقشبندية، ثم مؤسس حركة النور الإيمانية والاجتهادية فيما بعد. فآنذاك تفرغ نورسي للكتابة العلمية لمحاولة دحض وتفكيك المشروع العلماني وطروحات الحداثة الأوروبية من ناحية عقلية. وهذا استلزم، واستمر على مدار العقود التالية، المساجلة على مستوى المنطق والنقاش العقلي، وأنتج عودة إلى النصوص الدينية، القرآن والحديث، وإعادة النظر فيها وتفسيرها في ضوء التحديات الجديدة. وفي حقبة تالية، في الستينيات من القرن الماضي، برز الداعية والمجتهد فتح الله غولن الذي تتلمذ على يد سعيد نورسي واستمر في معارضته (السلمية والفكرية والعلمية) للمشروع العلماني الأتاتوركي، وصار من أبرز الآباء المؤسسين (ولو حتى على الصعيد الفكري والعلمي) للتيار الإسلامي التركي. لكن المهم في الموضوع هو أن حركة النور النورسية ثم حركة غولن أوجدتا فاعلية ونشاطاً اجتهادياً على مستوى الفقه والتنظير ومواجهة تحديات وإشكاليات العلمانية والحداثة والديموقراطية بشكل أنتج الأسس الراسخة لـ «الإسلام التركي المعتدل» الذي تطورت بناء عليه الأجيال التي ستنضوي تحت راية «حزب العدالة والتنمية» وتقوده. وهي أجيال لم تكن بوصلتها الأساسية العنف في وجه الدولة، بل كيفية تحقيق العدالة والتعايش مع بقية شرائح المجتمع.[١٣]

على مستوى الحركيين الإسلاميين العرب لم تنهض حركة اجتهاد واسعة النطاق ولم تتسنم الحركات الإسلامية راية تجديد الدين، بل بقيت في المربع التقليدي وقريبة من الإرث المجتمعي في فهمه للدين. وأحياناً كثيرة كانت تتحالف مع تيارات قبلية وعشائرية موغلة في تقليديتها في قضايا تتحكم فيها التقاليد وليس الدين (مثلا حق المرأة في الانتخاب في الحالة الكويتية حيث وقفت الحركة الإسلامية الكويتية لسنوات طوال في صف التيارات العشائرية التي ترفض ذلك الحق، أو قانون قتل الشرف في الأردن حيث تحالفت ولا تزال الحركة الإسلامية الأردنية مع التيارات القبلية والعشائرية لترسيخ قانون رجعي وتقليدي يسهل قتل الإناث بتسويغ «غسل الشرف»). ■

انعكست طبيعة الاستجابة للتحدي العلماني على نوعية وعمق الاجتهاد الإسلامي الناتج في كلتا الحالتين

هوامش:

(١) انظر Senem Aydin and Rusen Cakir. Political Islam in Turkey, CPES Working Document No. 265/April 2007. Centre for European Policy Studies. Brussels.

(٢) الانتقال من «سياسات الهوية» إلى «سياسات الخدمات» في مشروع حزب العدالة والتنمية هي أحد الطروحات الأساسية التي يناقشها هاكان يافوز في كتابه المهم: M. Hakan Yavuz (ed.), The Emergence of A New Turkey: Democracy and the AK Parti. (Utah: The Utah University Press، ٢٠٠٦).

(٣) انظر الموقع الرسمي للحزب على شبكة الإنترنت http://eng.akparti.org.tr/english/partyprogramme.html

(٤) من المنظرين الذي عالجوا نظرية «العلمنة المتواصلة والتدريجية» للمجتمعات التقليدية أو ناقشوها هارفي كوكس في Harvey Cox، The Secular City: Secularization and Urbanization in Theological Perspective. (New York: Macmillan، ١٩٦٦)

وأرنست غيلنر، عالم الاجتماع البريطاني، في Ernest Gellner، Nations and Nationalism. (Oxford: Oxford University Press، ١٩٨٣)

أما في سياق نقاش المجتمعات العربية والإسلامية فإن الدراسة المؤسسة الأهم في هذا الجدل هي الكتاب الكلاسيكي لدانيال ليرنر Daniel Lerner, The Passing Society: Modernizing the Middle East. (New York: Free Press. ١٩٥٨)

(٥) هذا تقريبا تفسير فرانسيس فوكوياما لصعود التيارات الدينية في أواخر القرن العشرين المناقض إلى حد ما لأطروحة نهاية التاريخ وانتصار الرأسمالية الليبرالية، كما يشرح في كتابه المشتهر «نهاية التاريخ». وقريبا منه تفسير عالم الاجتماع والباحث الفرنسي أوليفيه روا في كتابه «فشل الإسلام السياسي»، الصادر بالفرنسية أولا عام ١٩٩٢ ثم بالإنجليزية عام ١٩٩٤ وبالعربية عام ١٩٩٥ عن دار الساقي، لندن.

(٦) انظر Yildiz Atasoy، Islamic Revivalism and the Nation-State Project: Competing Claims for Modernity، Social Compass، ١٩٩٧، Vol. 44, pp. 83-99.

(٧) انظر M. Hakan Yavuz، Islamic Political Identity in Turkey. (Oxford: Oxford University Press، ٢٠٠٣)، p. ٢٦٦.

(٨) وجيه كوثراني، هل يمكن قياس العمل السياسي الإسلامي على نظيره التركي؟، الحياة (لندن)، ٢٥ تموز (يوليو) ٢٠٠٧.

(٩) وجيه كوثراني، «الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية»، بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٦.

(١٠) من القراءات الحديثة وشبه الشاملة التي تتناول السجال الأوروبي حول انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي المؤلف الجماعي: Esra LGro and Knud Erik Jorgensen، Turkey and the European Union: Prospects for a Difficult Encounter، (London: Plagrave Macmillan، 2007).

(١١) انظر قسم «جدلية التغيير والتحرير» في الفصل الثاني من كتاب خالد الحروب «حماس: الفكر والممارسة السياسية»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦).

(١٢) انظر تحليل أرنست غلنر لـ «الكمالية» في كتابه Ernest Gellner، Encounters with Nationalism (Oxford: Blackwel), 1994 pp. 81-91.

(١٣) انظر فصل: Ihasan Yilmaz، Ijithad and Tajdid by Condcut in M. Hakan Yavuz and John L. Esposito Turkish Islam and the Secular State، (New York: Syracuse University Press, 2003), pp. 208-237.

أعوذ بالله من الشيطان والسياسة

حلمي محمد القاعود

اسطنبول ٥٥٥ عاما

هي بيزنطة، وهي القسطنطينية، وهي إسلامبول، وهي الآستانة، وهي استانبول، وقد مضى على فتحها (٢٩ مايو ١٤٥٣م) خمس وخمسون وخمسمائة سنة، واستطاع محمد الفاتح، أو السلطان محمد الثاني (١٤٢٩ . ١٤٨١م)، أن يضع حداً لأكبر مصدر من مصادر العدوان والشر والتعصب، وأن يحقق البشارة النبوية التي بشر به النبي . صلى الله عليه وسلم . في حديثه الشهير: لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش. وهي البشارة التي تحرك بها الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، وقد تجاوز عمره الثمانين، ليخرج مع جيوش يزيد بن معاوية، في المحاولات الأولى لفتح المدينة الاستثنائية، ودفن على أسوارها حين صدت الفاتحين، ونقل رفاته بعد قرون إلى داخلها ليكون ضريحه منطلقاً لتتويج الخلفاء والسلاطين، وبهجة العرائس والعرسان، وفرحاً للطفولة البريئة بالختان.

استانبول مدينة الزهور والجمال، والنظام والانضباط، ومركز التحولات الكبرى، المادية والمعنوية في حياة شعب شقيق، يشق طريقه من جديد نحو القوة والتحضر والتفوق.. والمفارقة أنها تبلغ حجم القاهرة في عدد السكان (٢٠ مليونا)، ولكنها لا تعاني البؤس والهوان والتراب، الذي تعانيه الأخيرة، فهي آية في النظافة والجمال والسلوك الراقي، ومع أنها ليست مبسوطة على واد خصيب مثل القاهرة، وتتربع فوق سبع تلال، تجعل جغرافيتها وطرقها من أعجب المدن في العالم، فأرضها مبذورة بالسيارات والحافلات، وشوارعها مرتفعات ومنخفضات، ولكن هذا لم يؤثر في حركة المرور، فهناك نظام عام، يجعل الأفراد يلتزمون بإسالة الحركة وتسييرها دون ضجيج أو عجيج، ونادراً ما تسمع صوت نفير السيارات، أو ترى حركة السائقين.. لقد تواضع الناس على احترام بعضهم، ومراعاة غيرهم، ورأيت السائق الشاب الذي يقود سيارتنا، يهبط بخفة سريعة ليوقف السيارات القادمة في حارة ضيقة، كي تمر سيارة ضخمة في منحنى خطر، وتسيل بعدها حركة السيارات دون أن يتفوه هو أو غيره بكلمة واحدة، أو تصدر «تشويحة» من هذا السائق أو ذاك.. وبالطبع لا يوجد في الشوارع غبار أو تراب يخنق الصدور ويحبس الأنفاس..

كانت المدينة الاستثنائية يوم التاسع والعشرين من مايو ٢٠٠٨، تتزين في الشوارع والميادين، وعبر السيارات والحافلات برفع العلم التركي الأحمر، وبداخله الهلال والنجمة البيضاوان، منذ الصباح الباكر للاحتفال بذكرى فتح المدينة التاريخية، وضمها إلى الدولة العثمانية، وكان هذا الاحتفال المناسبة التي اتفق عليها الإسلاميون والعلمانيون لأول مرة، وشهده الطرفان وأكدا عليه في موقع تاريخي عريق، هو قلعة «بلغراد»، حيث كان العرض العسكري التمثيلي، والكلمات التي ألقاها ممثل الجيش ومندوب البلدية ووالي المدينة وشاعر شاب وفرق تنشد النشيد القومي الذي ألفه شاعر تركيا العظيم «محمد عاكف» . رحمه الله . الذي قضى شطر حياته الأخير في مصر.

لم أكن أدري وقد دفعت بي الأقدار في أواخر مايو ٢٠٠٨ لزيارة استانبول للمرة الثانية كي أحضر مؤتمراً علمياً، أنني سأشهد عرضاً عسكرياً تمثيلياً يعيدني مرة أخرى إلى فترة سابقة قبل أربعين عاماً عشتها تحت الرداء العسكري، رأيت فيها وطناً مهزوماً ينهض من تحت التراب، ويحقق معجزة العبور، وكسر الذراع الشريرة التي أذلت الأمة جميعاً. كان العرض العثماني يكشف كيف استطاع جنود محمد الفاتح تسلق القلعة والتحصن بها وانتظار العدو.. المشهد فيه شبه من تسلق خط بارليف مع الفارق، ولكن سبقه تقديم الصورة التاريخية لتحرك الجيش العثماني وطلائعه بزيها القديم. الموسيقات العسكرية تثير الحماسة، ثم «المهتمارية» وهم حاملو الطبول والصنوج، وعازفو النايات، مع منشدي الأدعية وقارئي الآيات القرآنية الدالة على النصر «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» (محمد: ٧)، ثم تتقدم فرق الجيش المختلفة (الانكشارية، الشاويشية، الطوبجية، و....)، ويأتي طلاب المدارس وطالباتها، في تسلسل يحكي صورة الجنود وهم يسيرون نحو القتال، ويليهم حملة الأعلام الثلاثة، العلم العثماني التاريخي (الأحمر بأهلته الثلاثة) والعلم الإسلامي التاريخي (الأخضر بأهلته الثلاثة أيضاً)، وعلم الاستقلال الأبيض، ثم ممثلو لبعض السلاطين بزيهم التراثي وعمائمهم المميزة، وينتهي العرض بتقديم رقصات شعبية بأزياء تاريخية.. وفي أثناء العرض انطلقت المدفعية تهز أرجاء المكان، تعبيراً عن قوة الجيش وإصراره على النصر.

كل المشاهدين . وأنا واحد منهم . يتفاعلون، مع العرض العسكري، ومع التاريخ، ومع المستقبل، وكانت المنصة تضم ممثلي أسلحة الجيش التركي المعاصر، الذين وقفوا تحية عند مرور العرض، ورفعوا أيديهم تعظيماً لرمز قوتهم وسطوتهم.

لقد استعاد المتحدثون تراث الأدباء والأجداد في الجهاد والدفاع عن الوطن، وأكدوا على مواصلة الطريق الذي سلكه هؤلاء الأسلاف، وفي الوقت ذاته أعلنوا عن إصرارهم على صنع المستقبل وحمايته، والارتقاء بمدينة استانبول رمز المجد والعظمة والنصر.

لم يتح لي أن أشاهد الاحتفالات الشعبية التي أقيمت في ميدان تقسيم (قلب المدينة) وطوب كابي (قصر الخلافة العثمانية التي تحول إلى متحف قومي) وخليج القرن الذهبي الذي شهد عملية إنزال السفن المقاتلة للإبحار نحو أسوار المدينة.

بيد أن أهل استانبول في ذلك اليوم، كانوا سعداء وهم يرون الألعاب النارية والصواريخ الملونة تشق عباب الفضاء وتضيء الليل، خاصة بعد أن تحسنت أوضاعهم المادية والمعنوية، وشعروا أن الخبز في بلدهم ينخفض ثمنه ٢٠٪، بعد أن ارتفع في بلاد أخرى، وتناقلت الأنباء سقوط قتلى في طوابير الانتظار للحصول على بضعة أرغفة في هذه البلاد الأخرى. مررنا على أحد المخابز في استانبول، فلم نر زبوناً واحداً يشتري. كان المخبز المقفر من الزبائن يمتلئ بأصناف عديدة من المخبوزات. وعندما سألت مرافقي عن الظاهرة، أخبرني أن الناس يفضلون شراء الخبز من (السوبر ماركت) أو المحلات توفيراً للوقت، حيث يشترون ما يلزمهم من أغذية وغيرها، ويجدون الخبز في طريقهم وهم يتسوقون!

منذ أربعة عشر عاماً كانت استانبول . لدى زيارتي الأولى . تضج بالمشكلات، وكان «رجب الطيب أردوغان»، رئيس الحكومة الحالية، رئيساً لبلدية استانبول أيامها، ووضعته الأقدار في مواجهة مشكلات مزمنة لمدينة صعبة، بدءاً من تراكم الزبالة وإضراب عمال النظافة، حتى شح المياه وانقطاعها عن أحياء كاملة، مروراً بانتشار الانحرافات والفساد الإداري والمالي، وضجيج المدينة من السرقات وممارسات السكارى والشواذ والبلطجية.. وقد استطاع أردوغان أن يحل كثيراً من هذه المشكلات آنئذ، ولكنه كوفئ بإدخاله السجن وحرمانه من ممارسة العمل السياسي خمس سنوات، ويبدو أن التاريخ سيعيد نفسه، حيث يطلب النائب العام الآن حظر الحزب الحاكم الذي يقوده أردوغان، وحرمان سبعين من قياداته من العمل السياسي، منهم رئيس الجمهورية وأردوغان نفسه، وذلك بعد أن تعافت تركيا في ظل «العدالة والتنمية» من الانهيار الاقتصادي والفساد السياسي والتراجع الاجتماعي، وحققت قفزة كبيرة في مختلف المجالات، شعر بها المواطن العادي الذي يتعاطف مع الحكومة ورموزها.

قبل الاحتفال بفتح القسطنطينية بيوم واحد، كان أردوغان يخطب في ديار بكر، التي تضم أغلبية كردية، واصطحب معه اثني عشر وزيراً في حكومته، ووعد أهل المنطقة بأن مشكلاتهم ستحل تماماً مع عام ٢٠١٢، وسأل التليفزيون مواطناً كردياً عن رأيه فيما يقوله رئيس الوزراء، فقال: إنه يثق في الحكومة الحالية، ولكنه يخشى عليها من عدم الاستمرار!

ومهما يكن من أمر، فإن عقارب الساعة لن تعود إلى الوراء، وذلك لأن تركيا الراهنة، قد تغيرت وتجددت، بفضل الإصلاحات العميقة والمؤثرة التي ينفذها حزب «العدالة والتنمية» بعقل وهدوء وتدرج، في شتى المجالات، ثم إن البنية المعنوية أو التكوينية للشعب التركي . إن صح التعبير . تتغير أيضاً، وتأخذ اتجاهاً تصاعدياً نحو الأحسن والأفضل، بفضل إتاحة الفرصة للمجتمع المدني كي يعمل ويثبت وجوده، وقد صارت منظمات هذا المجتمع التي تقوم على الدعم الشعبي ذات حضور قوي وفعال لا تستطيع أية قوة من قوى السياسة والاقتصاد تجاهله أو إهماله، وهو ما يعني أن



المد الإصلاحى سيستمر، حتى لو سقطت حكومة «العدالة والتنمية».



ركزت حكومة «العدالة والتنمية» على الإصلاح الاقتصادى بالدرجة الأولى، فالتف حولها الشعب على المستوى العام، لأنها خاطبت مشكلاته ومصالحه، وسعت سعياً حثيثاً ملموساً فى وضع الحلول الممكنة والمتاحة، التى تحققت على أرض الواقع، ووفت بكل ما وعدت به، هو ما جعل قطاعات كبيرة من العلمانيين تتعاطف مع الحكومة، وتصوت لها فى الانتخابات التشريعية الماضية (٢٠٠٧م).

كانت أول خطوة فى الإصلاح الاقتصادى محاربة الفساد، وخاصة فساد الكبار، ولعل تحويل «تانسو تشيللر» و«مسعود يلماظ»، وهما من رؤساء الوزارات السابقين، إلى التحقيق، كان الدليل الأوضح على صدق العدالة والتنمية فى توجهه نحو الإصلاح الحقيقى. لقد اتهمت تشيللر ويلماظ بالحصول على أربعة مليارات دولار، رشوة نظير الموافقة على مرور الغاز إلى بعض دول الاتحاد الأوروبى من الجمهوريات الأسيوية، ومازالت التحقيقات جارية بكل جدية وصرامة حتى الآن.

وقبل ذلك تمت محاسبة رءوس الفساد، ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم ويخوتهم التى سرقوها من الدولة والشعب، واستطاعت الحكومة فى دورة توليها الحكم الأولى أن تسترد ٤٦ مليون دولار، وأن تضع منهجاً جديداً للعمل الاقتصادى، يقوم على الأمانة والصدق والشفافية، ولا يقوم على الرشوة والغش والخداع.

اهتمت حكومة العدالة بمعالجة مشكلة البطالة عن طريق تشجيع الاستثمار الإنتاجى، وفتح المجال أمام إقامة المصانع والشركات، التى تنتج للتصدير، وتتوسع فى المشاركة داخل دول العالم الإسلامى التى تعد مجالها الأساسى الأوسع بإقامة المصانع التى تؤسس لمنتجات مهمة مثل السيارات والنسيج والآلات وغيرها، بحيث صارت المصانع التركية المشتركة تقدم كل ما تنتجه مصانع الاتحاد الأوروبى من سلع ومصنوعات، وهو ما وفر فرص عمل كثيرة أسهمت فى تخفيض نسبة البطالة التركية إلى حد كبير.

رجال الأعمال الأتراك لهم اتحاد رسمى وآخر مستقل. والأخير لا يرتبط بالدولة ارتباطاً رسمياً، ولكنه يعمل فى إطار الخطة العامة التى تهدف إلى زيادة الإنتاج والتصدير، وأيضاً فإن مجاله الحيوى الأوسع، هو دول العالم الإسلامى، وقد دعينا إلى الغداء فى مقر اتحاد رجال الأعمال المستقلين، ويطلقون عليه اختصاراً اسم «مساعد»، وجلس معنا عضو مجلس إدارة الاتحاد، الذى شرح أوجه نشاط رجال الأعمال المستقلين، وتحدث طويلاً عن مشروعات رجال الأعمال القائمة والمنتظرة، ولفت نظرى، ما تحدث به عن اعتماد هذا الاتحاد على أربعة بنوك لا تتعامل بالربا أو الفائدة، ولكنها تقوم بتمويل المشروعات الإنتاجية - وأؤكد على الإنتاجية - بداية من شراء أرض المشروع، حتى شراء الإنتاج وتسويقه عالمياً، مقابل نسبة يتفق عليها الممول والمنتج، وأتاح الاتحاد بذلك فرصاً عديدة لإقامة مشروعات ضخمة ومهمة استوعبت عمالة كبيرة، وإلى جوار ذلك فإن الاتحاد الذى يملك مقراً فخماً فى استانبول، يضع فى حسبانه أهمية التدريب واكتساب الخبرات، ولذا يتحمل عشرات المنح لمبعوثين يرسلهم إلى الدول التى تملك الخبرات والمهارات المتقدمة، وبالطبع فإنهم لا يرسلون إلى الدول العربية أحداً، لأنه لا توجد بها خبرات ولا مهارات!!

لقد وجدت أخيراً معنى لكلمة «رجال الأعمال» التى أبغضها بغضاً شديداً، نظراً لما كنت أراه فى مصر، فرجال الأعمال الأتراك منتجون مصدرون، يخدمون بلدهم ومستقبلهم فى إطار من الجدية والصدق، أما نظراؤهم عندنا - سامحهم الله - فإنى أسميهم «رجال القروض»، لأن غايتهم الأساسية هى امتلاك المال، لسرقته والهروب به أو لشراء الأراضى وتسقيعها، وبيعها مرة أخرى للدولة بأسعار خرافية، أو إقامة المشروعات الترفيهية، والشاليهات والفيلات وإنشاء شركات الهاتف المحمول وقنوات التليفزيون الرديئة التى تروج لأفكارهم ومشروعاتهم غير الإنتاجية..

عقب وصولى من استانبول بعد احتفال فتح القسطنطينية بيوم أو يومين، قرأت إعلاناً على صفحتين فى جريدة يومية كبرى، يعرض فيه رجل قروض مشروعاته، أو ما سماه إنجازاته، فإذا بها المشروعات الترفيهية والهامشية التى لا تضيف إلى الوطن شيئاً ذا قيمة، ولا تستوعب عمالة ذات خبرة أو منتجة.. فى الوقت ذاته كان رجال الأعمال الأتراك يعلنون عن مشروع مشترك مع مصر، بإقامة مصنع نسيج فى كفر الدوار بمحافظة البحيرة قيمة استثماراته الأولية ٥٠٠ مليون دولار.. وقبل كفر الدوار حضر الرئيس التركى عبدالله جول ليفتتح مدينة صناعية فى مدينة ٦ أكتوبر.

حين سألت عضو مجلس إدارة اتحاد رجال الأعمال المستقلين عن علاقتهم بمصر ورجال أعمالها، بدا محرجاً، حين قال: إننا أرسلنا العديد من الرسائل إلى الغرفة التجارية الصناعية، ولكن أحداً لم يرد علينا!

خطر على ذهنى حينئذ، ولماذا ترد الغرفة التجارية الصناعية؟ ولماذا يهتم أحد من رجال الأعمال (القروض) عندنا بمثل هذه العلاقة؟ إنهم مشغولون بكيفية الاستمتاع بالقروض على المستوى الشخصى، وإقامة الأفراح والليالى الملاح والقصور الفاخرة والحمامات التى تليق باقتراض مئات الملايين.

للإنصاف هناك بعض رجال الأعمال المصريين شرفاء، ويسعون لخدمة الوطن والصناعة والإنتاج، ولكنهم للأسف قلة نادرة، يعرفها الناس ويحترمونها..

تتدخل الحكومة التركية من خلال البلديات بإقامة مشروعات تجارية مربحة.. وترى أن ذلك لا يتعارض مع النهج الرأسمالى الحر.. على سبيل المثال تقوم بلدية استانبول بإدارة مجموعة مطاعم ضخمة فى شتى أرجائها، تقدم وجبات جيدة بأسعار تقل كثيراً عن مثيلاتها فى القطاع الخاص، وتحقق أرباحاً طيبة تضاف إلى ميزانية البلدية.

بالطبع لا توجد عمليات فساد فى هذه المطاعم، لأنها تسجل عمليات الإنتاج والاستهلاك، إلكترونياً، والمتابعة مستمرة، والبقشيش ممنوع لأنه يمثل عاراً قومياً، وهو ما أكدته حكومة العدالة والتنمية.. ويلاحظ أن مستوى الخدمة فى هذه المطاعم وغيرها مرتفع وسريع وراق.

فى المجال السياحى تكتظ استانبول بالفنادق ووسائل المواصلات الجيدة التى تقهر الزحام، وسيارات الأجرة تتعامل بالعداد - العقبى لنا فى مصر! - ويحرص السائق على رد ما يتبقى من الليرة، ولو كان ربع ليرة، لأنه لا يقبل البقشيش، أو «خللى الباقى علشانك» كما يحدث عندنا، وهو سائق مؤدب مهذب طويل البال، ويتطوع بالسؤال عن المكان لو كان الضيف لا يعرفه جيداً.

وتعتمد السياحة فى استانبول على القادمين من أوروبا ومعظمهم شباب، والآتين من جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق، فهؤلاء يشعرون بصلة قومية بينهم وبين الأتراك، حيث ينتسبون جميعاً إلى القومية التترية التى توزعت فى جمهوريات مختلفة بحكم العوامل السياسية.

ومن الطريف أن مصر تسهم فى دعم السياحة فى استانبول، فقد رأيت كتلاً ضخمة من السائحين يتحلقون حول مسلة مصرية فى حديقة مسجد السلطان أحمد.. المسجد فخم به ست مآذن سابقة تنتهى مع عشرات القباب المميزة بأهلة ذهبية، ويعد من أكبر المساجد الإسلامية فى العالم.. وقد بنى السلطان مسلة عثمانية من الحجارة توازى المسلة المصرية، ولكن الأخيرة تلمع تحت ضوء الشمس، ولم تتأثر بعوامل التعرية، وتجذب السائحين بقوة، فهى من الجرانيت الصقيل الذى يبهر من يشاهده، بينما تآكلت المسلة العثمانية، وسقطت أحجار كثيرة منها، ولا يقف عندها أحد، لأنها تبدو مثل الجدار الذى تذيبه الرياح والأعاصير والأمطار.

فى استانبول مئات من الآثار التاريخية، عثمانية وغير عثمانية، وهى آية فى الروعة والجمال، وتعد المساجد مفخرة الآثار الإسلامية بعامة، والعثمانية بخاصة، ويذكر أن العثمانيين لهم السبق فى الاعتناء بالمساجد، وتعد عمارتها مفخرة لهم وتذكر فى إيجابياتهم، وقد ارتبطت بالخط العربى الذى برع فيه كثير منهم، وزينوا به المحاريب والقباب، خاصة خط الثلث الذى كتبوا به آيات القرآن الكريم، بل سوراً كاملة.. ويروون حكاية طريفة عن خطاط تركى كتب سورة النور على إحدى القباب، وأصيب بالعمى وهو يكتب السورة، واستمر حتى أكملها! فضلاً عن كون العثمانيين مشهورين بنسخ القرآن الكريم بخطوطهم المميزة.



هناك جماعات دينية عديدة سلفية أو طائفية أو سنية تقوم بدور ما فى تربية الأجيال الجديدة، ولكنها تتفق غالباً على الابتعاد عن السياسة أو الدخول فى دهاليزها المظلمة، وتكتفى بالحرص على تأدية العبادات



ديلاكروا: دخول الصليبيين إلى القسطنطينية (اسطنبول)

واستانبول ملتقى أوروبا وآسيا، ولذا لا تهدأ حركة السفر ذهابًا وإيابًا، مرورًا بمطار أتاتورك الذى تم توسيعه وتحسينه واعتماده على الإلكترونيات والإنترنت، فلا يعانى المسافر من الوقوف أمام الجوازات، ولا فى البحث عن الحقائب، ولا التفتيش أمام بوابات الدخول.. والسيطرة الأمنية تتم بهدوء بعيدًا عن العصبية أو التحرش العنصرى الذى نشاهده فى بعض المطارات العربية ضد العرب!

لقد انعكست الحركة الاقتصادية المزدهرة والانتعاش التجارى على الواقع الاجتماعى فى استانبول وغيرها، ويشعر الناس بتحسن ملموس فى شتى المجالات.. حاولت أن أعثر على حفرة فى أى طريق أو بلاعة مفتوحة، فلم أجد، وإصلاح الطرقات يتم ليلاً وفى سرعة البرق، والسيارات فى المدينة لا يمكن أن يتجاوز عمرها ثلاث سنوات، والبنوك تدعم شراء سيارات جديدة، أما القديمة فتباع لسكان المدن الصغيرة والقرى، أو لتجار الخردة الذين يعيدون تصديرها إلى دول «نامية»!، لذا لا تجد هواء ملوثًا أو دخانًا منتشرًا فى شوارع استانبول، بل تجد زهورًا ملونة فى كل مكان، حتى الرصيف يزرعونه ورودًا وأزهارًا، ولا يزرعونه «أكشاكًا» وسلاسل حديدية و«فاترينات» تجارية.. فضلاً عن العنصر الرئيسى الذى لا يمكن نسيانه أبدًا، وهو النظافة.. نظافة الطريق والسيارة والمنزل والفندق والمؤسسة والحمام والمطعم والطعام.. لم أشعر بمغص طوال أسبوع أقمته فى استانبول.. لماذا؟



الإصلاح المادى فى تركيا عامة، واستانبول خاصة بوصفها العاصمة التاريخية والتجارية والاقتصادية، يستوجب أن نبعث ببعض أصحاب الضمير فى بلادنا ليدرسوا كيف نهضت استانبول؟ وقد حاولت أن ألتقى برئيس البلدية لأسأله هذا السؤال فوجدته مشغولاً فى الوقت الذى كان متاحًا لى بالبقاء فى المدينة.. ولكنى أستطيع القول إن العنصر الأساسى فى النهوض هو محاربة الفساد - كما سبق الإشارة - وهذه المحاربة هى السبب الرئيسى الحقيقى فى الاتهام الذى وجهه النائب العام لحزب العدالة والتنمية من أجل حلّه وحظر العمل السياسى على قادته السبعين.. فقد طالت محاربة الفساد رءوسًا كبيرة تنتمى إلى المنظمة السرية الشهيرة «جلاديو» التى تتكون من ضباط سابقين ورجال أعمال فاسدين وسياسيين فاشلين، وتسعى لإحكام سيطرتها على الاقتصاد والسياسة ويدعمها حلف الأطلنطى، وليس السبب ما أعلنه



النائب العام عن تأليف إحدى المدرسات المنتميات إلى حزب العدالة والتنمية كتيباً عن فرائض الصلاة، وهو ما يخالف المنهج العلمانى. إن الضربات التى أنزلتها حكومة العدالة والتنمية بالفساد أطارت صواب الفاسدين، لذا اتخذوا من قضية العلمانية متكأ يستندون عليه فى مواجهة الحكومة الجادة التى تسعى إلى توسيع مساحة الحريات وكسب المزيد من الحقوق الإنسانية للأتراك.. وكان من الواضح أن قضية الحجاب، وموافقة مجلس النواب على ترك الحرية للنساء فى ارتداء الحجاب وعدم حرمانهم من التعليم مدخلاً للهجوم على حزب العدالة والتنمية وتهييج اليسار، للتظاهر ضد قانون الحجاب، وقد نظموا مظاهرة مليونية تحركت من ميدان تقسيم الشهير، شارك فيها العلمانيون واليسار والماسون، ونددوا بالحكومة والحزب والقانون جميعاً، ولكن الحكومة كانت أذكى، حين تجاهلت الأمر، ولم ترد على المظاهرة بمظاهرة مماثلة أو أكبر!

الحصول على مزيد من الحرية للشعب التركى هدف رئيسى من أهداف العدالة والتنمية، لأنه يرفع عنهم سطوة الاستبداد السياسى والفكرى، ويفتح الآفاق العقلية للتفكير الحر والإيمان الحقيقى والمشاركة الفعالة، ويهيئ لكرامة إنسانية حقيقية، لا تنتهكها قوة مستبدة، أو هيئة تكره العدل والمساواة.. ولعل إصرار حكومة العدالة على الالتحاق بالاتحاد الأوروبى مع أنها متأكدة أنه لن يقبل تركيا عضواً فيه، وسبق لبعض أعضائه أن أعلنها صراحة «أن الاتحاد الأوروبى نادٍ مسيحى!»، فإن الهدف الحقيقى، هو استخدام الاتحاد أداة فعالة لتمرير القوانين المؤكدة للحريات والمعززة لها، حتى يمكن التخلص من قبضة العسكر الأتراك، وحلفائهم فى القضاء والتعليم العالى والإعلام والأحزاب العلمانية.. إن تاريخ المؤسسة العسكرية مع الحريات لا يشرف، وسبق أن قامت بانقلابات عديدة، وأجرت إعدامات لرجال كثيرين بحجة مخالفة العلمانية أو النظام العلمانى.. ويروى أن أحد أعضاء مجلس النواب التركى تلفظ بعبارة «ما شاء الله» وهى عبارة دارجة على ألسنة الأتراك، فتم تحويله إلى التحقيق، وتهديده بفقدان عضويته فى المجلس الموقر!

التحرر من سطوة القبضة العسكرية بداية الطريق لبناء الإنسان التركى بناءً جديداً حقيقياً، لأنه يخلصه من سعار «العلمانية المتوحشة» التى لا مثيل لها فى العالم.. وتخيل بلداً كان عاصمة للإسلام والمسلمين يحرم على مواطنيه النطق بالبسملة فى المؤسسات الرسمية، وكتابتها فى الخطابات الحكومية..

ولا شك أن الحكومات التركية منذ حكومة عدنان مندريس وجلال بايار اللذين دفعا حياتهما مقابل السماح بالأذان فى المساجد (أعدم الأول وخفف الإعدام عن الثانى إلى السجن المؤبد) قد تراخت قبضتها قليلاً عن الشعائر الدينية والدعوة الإسلامية، وإن كانت الصرامة والحزم داخل المؤسسات الرسمية أقوى من ذى قبل، ضد أى مظاهر إسلامية.

طلبت من مضيفى أن أذهب إلى ميدان «تقسيم» الشهير، الذى يعد قلب استانبول، ولأول مرة ألمح على وجوههم بعض التجهم دون أن ينطقوا بكلمة! لم أدرك السبب الذى دفعهم إلى التجهم، مع أنهم كانوا يرحبون بالذهاب إلى كل مكان طلبته.. سألت الزميل الذى يشترك معى فى المؤتمر فأخبرنى أن هذا الميدان له سمعة غير حسنة لدى الأتراك. فهو مجمع «التغريب» ومنه ينحدر أشهر شوارع استانبول، وهو شارع الاستقلال الذى يغص بالسائرين على مدى اليوم والليلة، ويمتلئ بالخمارات وأوكار القمار والانحلال والشذوذ، ويترنح فيه السكارى، وينتشر اللصوص، ولكن زيارتى له ولميدان «تقسيم» هذه المرة، كانت مختلفة، فقد رأيت سيارات الشرطة يكتظ بها الميدان والشارع، وتبدو الأمور أكثر انضباطاً، حيث يتم تطهيرها أولاً بأول من كل مظاهر الخلل، وهناك أساليب غير مباشرة تتخذها السلطات للتضييق على المنحرفين والحد من نشاطاتهم.

وللمدارس الدينية (مدارس الأئمة والخطباء) دور كبير فى تغيير البنية المعنوية للشعب التركى، وبناء الإنسان المسلم هناك بناءً جديداً، بعيداً عن التغريب أو التفرنج الذى تم تعميمه عقب سقوط الخلافة عام ١٩٢٤م.

تستوعب هذه المدارس أعداداً كبيرة من البنين والبنات، وتهتم بتعليم القرآن الكريم والشريعة الإسلامية والعبادات، ويلتحق خريجوها بالتعليم العام والكليات المختلفة، ويستوعب التعليم الخاص أعداداً لا بأس بها من هؤلاء، وبعضهم - وخاصة البنات - يلتحقن بجامعات أجنبية فى العواصم الأوروبية وأمريكا، لأن الحجاب ممنوع فى الجامعات التركية، وبعض البنات يخلعن الحجاب على باب كليتهن فى تركيا إذا لم يستطعن الذهاب إلى الغرب.. ومازال كثير من الجامعات التركية يعترض على تنفيذ قانون السماح للمحجبات بالدراسة الجامعية، لأن مجلس التعليم العالى قرر الاعتراض رسمياً أمام المحكمة العليا التى لم تفصل فى الأمر بعد.

هناك جماعات دينية عديدة سلفية أو طائفية أو سنية تقوم بدور ما فى تربية الأجيال الجديدة، ولكنها تتفق غالباً على الابتعاد عن السياسة أو الدخول فى دهاليزها المظلمة، وتكتفى بالحرص على تأدية العبادات، والإعداد لموسم الحج، والابتعاد عن مجتمع التغريب بقدر الطاقة، وهذه الجماعات هى التى حفظت جمرة الإسلام مشتعلة حتى اليوم، بعد أن حاول «أتاتورك» إخمادها وإطفائها بالمشانق والسجون والمعتقلات والإعلام الموالى له.



«أعوذ بالله من الشيطان والسياسة!» تنسب هذه العبارة إلى بديع الزمان النورسى (١٨٧٣ - ١٩٦٠م) صاحب «رسائل النور» التى انعقد حولها المؤتمر العلمى الدولى الذى شاركت فيه بورقة. والعبارة تمثل الوجه الآخر لعبارة الإمام «محمد عبده»: لعن الله ساس ويسوس وسياسة، التى عبر عنها بمعنى آخر حين أشار إلى أنه رأى فى الغرب إسلاماً بلا مسلمين، وفى الشرق مسلمين بلا إسلام..

غاية الرجلين واحدة فيما يبدو.. وهى فقدان الأمل فى تحقيق غايات الأمة من خلال السياسة السائدة وألاعيبها الماكرة التى تصنعها الأنانية والبغضاء والفرقة، وهى بالتأكيد لا تشبه السياسة فى الغرب التى تقوم على التخطيط والعمل والتكامل لتحقيق الآمال الوطنية والقومية.

اتجه الرجلان إلى بناء الإنسان من داخله، أو تربيته تربية إسلامية تقوم على الإيمان والإخلاص والجد والقيم المضيئة.. وإذا تربى المجتمع هكذا فلا حاجة للثورات أو العنف أو التغيير بالقوة، لأن كل شخص سيفعل ما يمليه عليه ضميره اليقظ الواعى.

وكانت لبديع الزمان نصيحة لأتباعه بعدم الاعتماد على السياسيين فى الإصلاح، لأنهم لن يحققوا شيئاً يذكر، وقد تأكدت نصيحته، حينما خالفه بعضهم، وانغمسوا فى العمل السياسى فأخفقوا إخفاقاً ذريعاً، وكان هؤلاء قد أيدوا الرئيس السابق «سليمان ديميريل»، ولكنه حين وصل إلى الحكم فاجأهم بما لا يحبون، بل إنه قال لهم: إن القرآن قد انتهى أمره. اتركوا القرآن كله!

وبديع الزمان النورسى، من أبرز رجالات الدعوة الإسلامية، فسر القرآن الكريم تفسيراً يعتمد على العقل ويخاطب القلب، فى ظل ظروف من أصعب الظروف التى مر بها شخصياً، ومرت بها تركيا، فقد أنجز تفسيره فى أربعة عشر مجلداً ضخماً، وتركيا تحارب الروس وكان مجنداً ضمن الجيش التركى، وأكمله وهو منفى فى قرية بعيدة تسمى «بارلا» تبعد عن «إسبرطة» حوالى أربعين كيلو متراً، تحيطها الجبال والمياه، وتقع فوق مرتفع من الأرض لا زرع فيه، وظل ثمانى سنوات ونصف سنة فى منفاه، يتخذ لنفسه مجلساً فوق شجرة من أشجار الشتار الضخمة، يكتب فيه التفسير ويعبد ربه، لقد انتهى نفيه حوالى سنة ١٩٣٣، ولكنه لم يسلم بعده من الاعتقال والسجن حتى رحيله.

اتسم بديع الزمان بسمة الشجاعة، والخوف من الله وحده، وقد تعرض لمواقف صعبة كادت تودى بحياته، ولكنه لم يتزعزع، أو يستسلم. ففى أثناء الحرب مع روسيا، دخل الجيش الروسى مدينة «بتليس» وكان النورسى ضمن الأسرى، فجاء خال القيصر، وهو القائد العام للجبهة ليزور معسكر الأسرى فى «قوصتورمة» شرقى روسيا، وقام الأسرى تحية له إلا بديع الزمان، ولاحظ القائد العام للجبهة ذلك، فرجع مرة أخرى أمامه، ولكن النورسى لم يعره اهتماماً، فغضب القائد، وقال له:

- يبدو أنك لا تعرفنى!

فأجابه بديع الزمان:

- لا.. إننى أعرفك.. إنك خال القيصر والقائد العام.

- إذاً، فلم تحتقرنى؟

- لا.. إننى لم أحتقر أحداً، ولكننى فعلت ما تأمرنى به عقيدتى ومقدساتى.

- وبماذا تأمرك عقيدتك؟



«إسبرطة» لا تقل جمالاً عن «استانبول»، فالزهور والورود تحوطها من كل جانب، وقد أصر بعض المضيفين على إهدائى وردة بيضاء كى أتذكرها، وإن كنت لا أنساها بحكم أنها تملك أكبر مطبعة للقرآن الكريم فى العالم



- إننى عالم مسلم، وفى قلبى إيمان، والمؤمن أفضل من عديم الإيمان، إن قيامى لك ابتذال لعقيدتى ومقدساتى، ولذا لم أقم لك.

- إذا، فهذا يعنى أننى عديم الإيمان، وبذلك تكون احتقرتنى، واحتقرت جيشى، واحتقرت أمتى، واحتقرت القيصر، لذا يجب تشكيل محكمة عسكرية لاستجوابك.

وتشكلت المحكمة، ورغب كثير من الأسرى الأتراك والنمساويين والألمان حمل بديع الزمان على الاعتذار إلى القائد، ولكنه رد قائلاً:

- إننى أرغب فى الرحيل إلى الآخرة، والوصول إلى حضرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم. وأنا فى حاجة إلى سفر للذهاب إلى الآخرة، ولا أستطيع أن أفعل ما يتعارض مع إيمانى.

ساد الحزن معسكر الأسرى، وصدر الحكم بإعدام بديع الزمان!، وفى يوم التنفيذ حضر الجنود بقيادة ضابط لأخذه إلى ساحة الإعدام. فطلب بديع الزمان أن يمهلوه خمس عشر دقيقة ليتوضأ ويصلى. وحينذاك خاطبه القائد العام بقوله:

- كنت أعتقد أنك بفعلك هذا تقصد إهانتى والتحقير من شأنى، ولكننى الآن أفهم أنك بتصرفك هذا كنت تؤدى ما تأمرك به عقيدتك. لذا فقد ألغيت قرار المحكمة، وأقدرك لتقواك وورعك، وأرجو قبول اعتذارى عما بدر منا من مضايقات لك.

إن عزة المؤمن تتجلى فى هذا الموقف، وفى مواقف أخرى، منها موقفه مع «أتاتورك» حين دعاه للانضمام إلى قادة الاستقلال فى أنقرة، وقد لاحظ بديع الزمان أن معظمهم لا يؤدون الصلاة، كما أن سلوك «أتاتورك» وتصرفاته المعادية للإسلام أحزنته كثيراً، فكان أن أصدر بياناً فى ١٩/١/١٩٢٣ ضمنه نقاطاً عديدة، أسفرت عن عودة ستين نائباً إلى دينهم وإقامتهم الصلاة. وحدثت مواجهة بينه وبين «أتاتورك» انتهت إلى قوله له: («باشا.. باشا» إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإيمان هى الصلاة، وإن الذى لا يصلى خائن، وحكم الخائن مردود)!

فكر أتاتورك فى إبعاد بديع الزمان عن أنقرة بحجة تعيينه واعظاً عاماً للولايات الشرقية، وبمرتب مغر، ولكنه رفض الطلب!

وعاش النورسى مطارداً منفياً، ولكن أتباعه كانوا يتزايدون، ويتحركون فى صمت وخفية إلى أن جاء «تورجوت أوزال» الذى خفف قبضة الدولة بعض الشىء عن العمل الإسلامى الشعبى، فنمت حركتهم التى تقوم على نشر «رسائل النور» ومدارستها فى حلقات، مع حفظ ما تيسر من القرآن.

و«رسائل النور» تعتمد فى تفسيرها على الإقناع الحى الذى يقوم على الشواهد والأدلة والتمثيل، وتتمتع الرسائل بأسلوب مشرق ملىء بالصور المبتكرة التى تتسلل إلى القلب مباشرة، وقد دارت حولها دراسات كثيرة، أجمعت على أهميتها ودورها المؤثر.

فى عهد «أتاتورك» كان طبع الكتب الإسلامية محظوراً، والكتابة بالحرف العربى (العثمانى) محظوراً، فتغلب طلاب «رسائل النور» على ذلك بنسخها بخط اليد بالحرف العربى، ونشرها فى الأقاليم، وكان كتابها يسمون «النساخ»، ودارسوها يسمون «القراء». وظل الأمر كذلك حتى سمح بطبع الكتب الإسلامية، فأقيمت أكبر مطبعة للمصحف الشريف فى تركيا، بل فى العالم الإسلامى بمدينة «إسبرطة»، التى يقيم بها «سعد النورى» الذى يقوم على رعاية «رسائل النور» بعد موت الراعى السابق «أحمد خسرو باشا» خليفة النورسى.

وسعد النورى، تجاوز السبعين، ويتمتع بحيوية ونشاط، ولا يقبل الهدايا، ويعيش متواضعاً، يأكل من عرق يده، حيث يقوم على مزرعته التى تجاور مطبعة القرآن الكريم بنفسه، وهو يمثل الزهد فى أرقى صوره، منطلقاً من «رسائل النور» وتفسيرها للقرآن الكريم. إنه يتسق فى ذلك، مع منهج بديع الزمان وطلاب «رسائل النور» الذين يقمعون شهوة الأنانية وحب الذات وطلب الدنيا، انطلاقاً من قوله تعالى: «إن أجرى إلا على الله» (هود: ٢٩) وهو منهج الأنبياء الذين تتملكهم رغبة إصلاح العالم دون مقابل إلا رضا الله سبحانه وتعالى.

إن طلاب «رسائل النور» فى تركيا يتلقون تربية روحية وعملية لتصفية نفوسهم من الشوائب والرذائل، وإقامة الدين، ومساعدة الآخرين دون انتظار مقابل. ومن نماذجهم المشرفة: عمال «مطبعة القرآن الكريم» الذين استوعبوا الرسائل، وثبت حسن خلقهم وسلوكهم، وحصلوا معرفة علمية عالية، وأهلتهم للقيام بهذه المهمة الجليلة خير قيام.. إنهم لا يدخلون المطبعة إلا متوضئين ويستمرون فى عملهم بدأب وهمة ونشاط. ويقومون على طبع المصحف بدءاً من غلافه الكرتون المذهب حتى صفحاته المطبوعة بالخط العربى العثمانى، وخروجه فى علبته الأنيقة الجميلة.

لقد شاء الله أن تكون «إسبرطة» مركزاً لليقين الإسلامى، ممثلاً فى القرآن الكريم، بعد أن شهدت فى التاريخ القديم مهارشات الفلاسفة حول قضايا هامشية أو ترفية لا تفيد أحداً ولا تنفع مخلوقاً.

و«إسبرطة» لا تقل جمالاً عن «استانبول»، فالزهور والورود تحوطها من كل جانب، وقد أصر بعض المضيفين على إهدائى وردة بيضاء كى أتذكرها، وإن كنت لا أنساها بحكم أنها تملك أكبر مطبعة للقرآن الكريم فى العالم.

وإسبرطة كانت مجال العمل الرئيسى لأول خليفة لبديع الزمان النورسى، وهو «أحمد خسرو باشا»، وكان من أغنى أغنياء تركيا، وقد أنفق أمواله على نشر «رسائل النور»، بوصف ذلك نقلاً للحقائق القرآنية إلى أرض الواقع، كما أراد مؤلف الرسائل، محتسباً أجره عند ربه. إن بعض من يدخلون مجال الدعوة الإسلامية يتحولون من فقراء إلى أغنياء. أما أحمد خسرو وتلاميذه، فهم ينفقون، ويرضون بعيشة الكفاف، لأنهم واثقون أن الدعوة عطاء وليست أخذاً، وأنهم يعمرون الدنيا من أجل الآخرة، ودستورهم الدائم، هو الاستغناء وعدم طلب شىء من الآخر والأجر من الله (اتبعوا من لا يسألكم أجراً..) (يس: ٢١)، ومن هذا المنطلق فإنهم لا يتفاعلون مع «الميديا»، ولا يحبون الظهور فى وسائل الإعلام؛ لأن ذلك لا يتناسب مع دستور «رسائل النور» الذى يحبذ «إنكار الذات» من أجل إصلاح المجتمع عن طريق إصلاح الإنسان أولاً، واعتقادهم الراسخ يكمن فى أن من لا يستطيع إصلاح نفسه، لا يستطيع إصلاح أحد.



استانبول استعادت عصر «اللالا».. و«اللالا» هى زهرة «التوليب» التى استوردها السلطان أحمد من أوروبا فى سياق اهتمامه بالشعر والفنون. فصارت مدينة الزهور بامتياز، شوارعها وحدائقها، شواطئها وهضابها وأوديتها ومبانيها



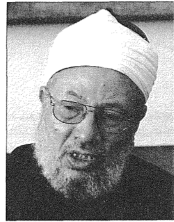
ثم إنهم فى كل الأحوال، يأخذون بالأسباب، ويتركون النتائج على الله. ولاشك أن تغيير بنية الإنسان التركى من التغريب إلى الإسلام، تأخذ بعداً مهماً، يتمثل فى ذلك الاهتمام الكبير لدى طلاب «رسائل النور» والجماعات الإسلامية الأخرى، بالشعائر الإسلامية والعبادات والسلوك الاجتماعى عبر التضامن والإيثار وخدمة الآخرين.. وقد صليت الجمعة فى مسجد السلطان أحمد، فرأيت جموعاً غفيرة تحرص على الذهاب إلى الصلاة قبل الخطبة بوقت طويل، وتستمع إلى الخطبة بلغة عربية فصحى جميلة فى جزئها الأول، ولغة تركية تتخللها العربية عند تلاوة الآيات وقراءة الأحاديث فى جزئها الثانى.. والمفارقة أن السائحين الأجانب وقفوا أمام المسجد يشاهدون شعائر صلاة الجمعة، وعلى وجوههم أسئلة صامتة لا تخطئها العين أو الملاحظة السريعة.

ثم إن الأذان يمثل ملمحاً مهماً من ملامح الاهتمام المتزايد بالإسلام، وصوت المؤذن التركى يجمع إلى الجمال الجلال، وفيه إخلاص يستشعره القلب.. وأخبرنى بعضهم أن أذان الصلوات الخمس تختلف طبقاته الصوتية، أو مقاماته الموسيقية، فأذان الفجر تختلف نغماته عن نغمات صلاة الظهر، وهكذا.. ويحتشد المؤذن للأذان، كأنه يقوم بمهمة استثنائية تاريخية.

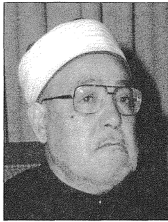
لقد صارت إسبرطة مركز نشر القرآن الكريم بالخط العربى العثمانى الجميل الذى نسيه الأتراك عشرات السنين، واستعادة الجمال فى الخط والزهور والورود، عنصر أساسى من عناصر البناء الإنسانى فى إسبرطة واستانبول وغيرهما من المدن والقرى التركية التى تنعم بغابات طبيعية خضراء، تظل خضرتها على مدى العام.

قال لى بعض المرافقين إن استانبول استعادت عصر «اللالا». و«اللالا» هى زهرة «التوليب» التى استوردها السلطان أحمد من أوروبا فى سياق اهتمامه بالشعر والفنون، فصارت مدينة الزهور بامتياز، شوارعها وحدائقها، شواطئها وهضابها وأوديتها ومبانيها الرسمية ومؤسساتها وبيوتها وقصورها. وقد دعت البلدية المواطنين والتجار إلى تحويل كل مساحة ممكنة إلى أماكن مزروعة بالزهور.. وتقيم مسابقة سنوية لأجمل مكان مزهر وأجمل زهرة متألقة فى استانبول.

إن البسفور يشهد عصراً جديداً لمدينة تتجدد، شكلاً ومضموناً، إنساناً وشجراً وحجراً، وتلك سمة الشعوب التى تستجيب للنهوض وتسعى إلى الحركة. ■


يوسف القرضاوى


خالد محمد خالد


محمد الغزالى


سـيد سـابق

الخارجون عن الإخوان

لماذا هذه الدراسة؟

ليست بغية هذه الدراسة أن تنبش فى الماضى لتخرج ما فيه من سقطات أو أخطاء بهدف النيل أو التجريح من جهة ما، أو لحساب جهة على أخرى، إنما هدفها أن تنظر إلى الماضى نظرة فاحصة، مستخرجة الدروس والعبر، مستلهمة منه ما يعين على فهم الحاضر، واستشراف المستقبل، وطى صفحة غدت فى بطن الغيب بين يدى الخالق جل وعلا، بما فيها من حسنات وسيئات، ولكى لا ننسف المستقبل لصالح الماضى، ولكى لا يتكرر الخطأ فى التعامل مع الناس، وتناسى أقدارهم وعطائهم، وحسن تصنيفهم تصنيفا يقوى الجماعة الوطنية ولا يضعفها، وينهض بالفكر الإسلامى، ويغذيه بروافد عديدة لا يشترط أن تخرج من معين دعوى وفكرى واحد.

وقد اخترت الذين خرجوا من الإخوان بناء على موقف أو خلاف فكرى، سواء فى فكر الإخوان، أو فى فكر إدارة الجماعة، وابتعدت عن الانشقاقات القائمة على أسباب سياسية أو شخصية، أو ما شابهها، لسببين مهمين:

أولهما: لأنه يصعب فيها أن يخرج الباحث بنتيجة بحثية تنتهى بحكم صائب، أو بتخطئة رأى وتصويب آخر، إذ هى غالبا ما تكون فى أمور إدارية تنظيمية سرية بحتة.

ثانيهما: أنه يصعب أن يسمع الباحث من الطرفين، ففيها أمور تنظيمية قد

لم تكن دوافع وأسباب الخروج من جماعة الإخوان واحدة، فقد كانت متعددة، وأغلبها بنى على مواقف فكرية، سواء كانت مرتبطة بموقف انفعالى، أو موقف مدروس نتيجة محنة دفعت بأصحاب المواقف لاتخاذ قرارهم

عصـــــام تليمـــة

يخفى طرف منها ما لديه فيها، بما يمثل ذلك من حساسية فى إخراجها للنشر لأصحاب الشهادات، أو اتهام للباحث بتلقيه المعلومة من جهات أمنية مما يشكك فى نزاهة الباحث والبحث.

دوافع الخروج من الإخوان:

لم تكن دوافع وأسباب الخروج من جماعة الإخوان واحدة، فقد كانت متعددة، وأغلبها بنى على مواقف فكرية، سواء كانت مرتبطة بموقف انفعالى، أو موقف مدروس نتيجة محنة دفعت بأصحاب المواقف لاتخاذ قرارهم، أو تأمل الخارج منهم إلى مآلات الأمور ففكر فى وسيلة أخرى يعمل بها دون صدام مع الجماعة أو النظام القائم، وقد حصرتها فيما يلى:

١ـ سبب فكرى:

فمن الأسباب ما كان فكريا، حيث اختلف مع الإخوان فى التوجه، أو اتفق معهم فى الغاية، وهى إقامة دولة إسلامية، والعودة بالمجتمع إلى الإسلام، ولكنه اختلف فى الوسيلة والأداة التى يتغير بها المجتمع، أو ينصلح حاله بها، فمن هؤلاء: جماعة شباب محمد، وقد انشقوا عن الإخوان فى عهد حسن البنا، وكان السبب أنهم اتهموا الإخوان بالتخلى عن واجب الجهاد، وتغيير المنكر باليد، ومنهم: سامى على النشار، صاحب (التفكير الفلسفى فى الإسلام) وغيره. وقد كان بعض هؤلاء انضم لحزب مصر الفتاة، وشاركوا معه فى حادث تحطيم الحانات، سنة ١٩٣٨م. والذى تراجع عنه أحمد حسين بعد ما يقرب من أربعين عاما فى مقال له فى مجلة الأزهر سنة ١٩٧٨م.

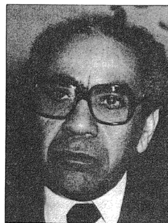
٢ـ الاقتناع بوسائل أخرى للعمل:

ومنهم من اقتنع بوسيلة أخرى يخدم بها الإسلام، وهى وسيلة التحالف مع السلطة، وعدم الصدام بها، واغتنام الفرصة التى تمنحه إياه من حيث إطلاق يده فى وزارة معينة، أو منصب يمارس فيه مهامه التى يخدم فيها الإسلام، ومن أبرز هؤلاء شخصيتان لهما ثقلهما فى جماعة الإخوان المسلمين بوجه خاص، وفى الفكر الإسلامى بوجه عام وهما: الشيخ أحمد حسن الباقورى، والدكتور عبد العزيز كامل، فكلاهما تولى وزارة الأوقاف فى عهد جمال عبد الناصر.

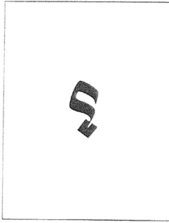
أما الشيخ أحمد حسن الباقورى، وقد اقتنع بأنه عن طريق توليه منصب وزير الأوقاف يستطيع أن يخدم الدعوة والإسلام أكثر من تواجده فى تنظيم الإخوان،وقد طلب جمال عبد الناصر ورجال ثورة يوليو من الإخوان أن يرشحوا لهم أربعة لتولى وزارات فى حكومة الثورة، فرشحوا أفرادا ليس منهم الباقورى، ورشحت الثورة الباقورى لوزارة الأوقاف، فقبل الباقورى، ورفض مكتب الإرشاد العرض، فخالف بذلك الباقورى رغبة الإخوان، فقدم استقالته من الجماعة.

وقد سأل أحد الصحفيين الشيخ


أحمد حسن الباقورى


عبد العزيز كامل


صلاح أبو إسماعيل



متى وكيف ولماذا؟

الباقورى وزير الأوقاف عن أسباب استقالته من الإخوان، فقال: (هى أسباب أحب أن أوثر بها نفسى. وليس من بينها سبب واحد يمس احترامى لإخوانى، واعتزازى بهم، فكل واحد منهم صغيرا كان أو كبيرا فى أعمق مكان من قلبى)[1].

وبالفعل كان للباقورى إنجازات قوية فى وزارة الأوقاف، وكان له دور مع شباب الإخوان الذين عارض الأمن تعيينهم، وكان من هؤلاء عشرة من خريجى الأزهر، المعينين على وظيفة إمام وخطيب، ورفض الأمن تعيينهم لانتمائهم لجماعة الإخوان، وإذ بالباقورى يفاجئ الجميع بتعيينهم على مسئوليته الشخصية، وكان من بين هؤلاء العشرة: يوسف القرضاوى، وأحمد العسال[2]، وقام الباقورى كذلك بخدمات لعدد من الإخوان المسلمين، ورفع الظلم عن بعضهم، كما يشهد بذلك مؤرخ الإخوان محمود عبد الحليم[3]، حيث قال عنه: هذه المفاجأة المؤلمة والتى انتهت بفقد الدعوة لأحد أبنائها الكبار لم تفقد المرشد العام. من ناحية. حبه الشخصى لهذا الأخ، كما أنها. من الناحية الأخرى. لم تفقد هذا الأخ الكبير حبه وتقديره للمرشد العام.. ثم قررت بدورى أنها لم تفقدنى حبه.. وأوردت أمثلة لتصرفات تومئ إلى أن هذا الأخ وإن فقد موقعه فى الدعوة، فإنه حاول جاهدا أن يعمل للمبادئ التى تعلمها فى الدعوة، والمثل التى أشربها فى موقعه الجديد[4].

أما د. عبد العزيز كامل والذى كان يسميه حسن البنا: ابن الدعوة (أى دعوة الإخوان) البكر، فقد كان مسئولا عن قسم الأسر، ولما حدث الصدام بين عبد الناصر والإخوان فى ١٩٥٤م وسجن فى السجن الحربى، كان يدون كشوف الأسماء، فقد كان خطه جميلا، ويتقن إدارة الأمور المعيشية فى السجن، فاستخدمه المسئولون عن السجن الحربى فى ترتيب أموره[5] وكتابة كشوف الأسماء وغيرها، مما جعل له مكانة عندهم تقدر فى بعض الأحيان[6] وخفف عن كثير من الإخوان التعذيب، لما له من مكانة عند مسئولى السجن.

ولكنه تأمل فى حال الدعوة وهو فى السجن الحربى، وطال تفكيره، فانتهى به إلى أن ينهج نهجا آخر فى العمل الدعوى، وصارح بذلك أحد تلامذته[7].

وقد سألت هذا التلميذ عن سبب قرار عبد العزيز كامل ترك العمل مع الإخوان، فذكر: أن عبد العزيز كامل لم يكن يحب . بعد حبه لله ورسوله. أحدا كأمه، فجاءوا بها له فى المعتقل، وهددوه بها، فكان هذا سبب انهيار الرجل[8]، وتفكيره فى البحث عن وسيلة أخرى يعمل للإسلام بها، غير التواجد فى تنظيم الإخوان المسلمين. وخرج عبد العزيز كامل من السجن، ثم بعد ذلك تولى وزارة الأوقاف فى عهد عبد الناصر.

٣. تجنيب الدعوة الصدام مع السلطة:

وممن ترك الإخوان وكان بناء على رأى عنده، فئة أخرى، رأوا ما رأوا من بوادر صدام حاد، يلوح فى الأفق، وينذر بصدام دموى شديد بين الثورة والإخوان، وتحديدا بين جمال عبد الناصر والإخوان، ففكر فى أن ينأى بنفسه بعيدا عن هذا الخلاف الشديد، ويبحث عن ميدان للعمل، يخدم فيه الإسلام، بعيدا عن العمل التنظيمى فى الإخوان، ومن هؤلاء: الأستاذ البهى الخولى، وهو من جيل حسن البنا، وأستاذ القرضاوى، فقد رأى العلاقة بين الإخوان وعبد الناصر تصل إلى مرحلة احتقان شديدة، وكان رأيه. كما حكى لى الشيخ القرضاوى. أن على الجماعة أن تكتفى بما قدمت من تاريخ مشرق، وتنسحب من العمل السياسى، حتى لا يشوه تاريخها، وما قدمته، وفعلا قرر البهى ترك التنظيم. وقد كان لعلاقة البهى الخولى السابقة بالإخوان فضل فى تخفيف شدة الاحتقان. بعض الشىء. بين عبد الناصر والإخوان، خاصة مع بعض أفرادهم ممن لم يكن بينهم وبين عبد الناصر شخصيا خلاف، كما كان للبهى الخولى ابن يعمل ضابطا فى السجن الحربى. اسمه مجيد . وكان يخفف عن مسجونى الإخوان[9].

٤. الضعف وعدم تحمل آلام السجن:

ومنهم من كان سبب تركه للإخوان تنظيما لا دعوة، بسبب ما لاقاه من التعذيب فى السجن، أو من رأى أن وجوده فى السجن ليس لصالح الدعوة، وماذا عليه لو أنه أرسل برسالة استعطاف لجمال عبد الناصر، أو رسالة تأييد له فى الحكم، وهو ما اشترطته الثورة آنذاك لمن أراد الخروج من السجن، ومن هؤلاء: عدد غير قليل من الأزهريين، وهو ما ترك صورة. لا زالت إلى الآن عند هذا الجيل من قدامى الإخوان. سيئة عن الأزهريين عند بعض الإخوان، وقد كانت الثورة أعلنت أن من يرسل رسالة تأييد لعبد الناصر يفرج عنه، فقررت جماعة الإخوان أن من يرسل رسالة تأييد يعتبر مفصولا من الإخوان، أو مستقيلا منها، وقد كان من هؤلاء الذين أرسلوا رسالة لعبد الناصر: الشيخ صلاح أبو إسماعيل، ولم ينضم أبو إسماعيل لجماعة الإخوان المسلمين فى عهد حسن البنا، رغم أنه سمعه كثيرا، وأعجب به، ولكنه انضم عندما سمع كلمة من عبد القادر عودة وهو يخطب فى جمع من الإخوان المسلمين، فسمعه يقول: مصر دولة نيابية، فلو استطعنا أن ندخل إلى المجلس النيابى بكثرة، لوصلنا إلى تغيير ما نريد حسب خطتنا الإسلامية، فاقتنع صلاح أبو إسماعيل فى هذا اليوم بأن ينضم إلى جماعة الإخوان المسلمين تنظيميا، وكان ذلك فى أوائل الخمسينيات[10]، ونشط الشاب صلاح أبو إسماعيل، الذى عمل فى قسم الطلاب بالجماعة، وتحديدا فى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، وكانت له جهود فى الجهاد فى القناة ضد الإنجليز، وقام ببعض الأعمال الفنية، وكان عضوا فى مسرح الإخوان المسلمين، بل كان فتى الفرقة الأول، نظرا لما يتسم به من فصاحة فى اللسان، ووسامة فى الوجه، مع قامة فارعة، وقوام طويل، وقد قام بدور (هرقل) فى إحدى مسرحيات الإخوان.

ثم اعتقل الشيخ صلاح أبو إسماعيل مع الإخوان فى الخمسينيات، وقد فتح باب الإفراج عن المعتقلين من الإخوان المسلمين لمن يرسل رسالة تأييد للرئيس جمال عبد

الخارجون عن الإخوان

> **سأل أحد الصحفيين الشيخ الباقوري وزير الأوقاف عن أسباب استقالته من الإخوان، فقال: (هي أسباب أحب أن أوثر بها نفسي. وليس من بينها سبب واحد يمس احترامي لإخواني، واعتزازي بهم)**

الناصر، فأرسل رسالة من داخل المعتقل، كتب في مقدمتها: من المعتقل صلاح أبو إسماعيل إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر[١١].

ومع خروج الداعية صلاح أبو إسماعيل من المعتقل فور إرساله الرسالة، تسلم عمله في الأزهر، ثم برز دوره الدعوي، وتمرس في العمل السياسي النيابي، فدخل مجلس الشعب، وكان من أوائل الإسلاميين الذين مارسوا العمل السياسي، ولما خرج الإخوان من السجون، وبدأوا يدخلون الانتخابات، بدأ شباب الإخوان يتساءلون: ما موقع صلاح أبو إسماعيل التنظيمي؟ وهل هو من الإخوان أم لا؟ فقطع الشيخ بلباقته المعروفة الطريق على كل من يساوم بهذا الأمر قائلا: لو أخرجني الإخوان من الباب لدخلت إليهم من الشباك، بل استفادت جماعة الإخوان بجهد صلاح أبو إسماعيل السياسي، مما جعل شابا من شبابها ينجح معه على نفس قائمته، وهو الدكتور عصام العريان، ليصبح بذلك أصغر عضو في مجلس الشعب وقتها.

٥. الخلاف في إدارة الجماعة:

وهناك سبب ينشأ عن الخلاف في كيفية إدارة الجماعة، وتحديدا: كيفية إدارة الصراع مع عبد الناصر والثورة، ومن هؤلاء المشايخ: عبد المعز عبد الستار، ومحمد الغزالي، وسيد سابق، أما الأول: فقد ترك التنظيم، بعد ما رأى أن طريقة إدارة الجماعة لا تروق له، ويخالف قرار مكتب الإرشاد، ويتجاوزه بعض الأفراد ويضرب قراراته عرض الحائط، وقد سألت الشيخ عبدالمعز عن استقالته من الإخوان، فقال: أنا لم أستقل من الإخوان ولم أفصل، أنا تركتهم، لفساد مكتب الإرشاد، لقد بايعن جميعا حسن الهضيبي مرشدا، ولم يجتمع بنا طوال توليه إلا مرات قليلة، كما كانوا يتقابل مع قلة من المسؤولين مع عبدالناصر، ويتفاوضون معه، دون الرجوع إلينا، أو إعلامنا بما دار، إي أننا. أعضاء مكتب الإرشاد. كنا مجموعة من (الجرادل)، أي أن أولى مبادئ الشورى لم تكن تطبق، فرأيت فسادا في الفكر عن الشورى، وفسادا في إدارة الجماعة فتركتهم، وكان لي رأي في الصدام مع الثورة، أنه على الجماعة تجنب هذا الصدام. وأما الآخران: الغزالي وسابق، فقد احتلا المركز العام للإخوان المسلمين، وقادا ثورة على مرشد الجماعة (حسن الهضيبي) لمعلومات مشوشة وصلتهم عنه، وفصلا على إثر ذلك من الجماعة.

وبعد فصل الغزالي من الإخوان، لم يتنكر الرجل للجماعة التي نشأ فيها. ونفس الكلام يقال عن السيد سابق. أو ينقلب عدوا مبغضا لها ولأفرادها، رغم ما كتبه الغزالي في نقد الهضيبي مرشد الإخوان في كتابه (من معالم الحق) وبخاصة في طبعاته الأولى، يقول الغزالي عن موقفه من الإخوان بعد فصله، وقد ألقوا في غياهب المعتقلات والسجون، وقد تبوأ مكانا ومكانة في وزارة الأوقاف: (وقد أحصى مكتب الاستعلامات في الوزارة من يطلبون الدخول إليها، فوجد ثلاثة أرباعهم يذكرون اسمي، ولما كُلّمتُ في ذلك قلت: معنى موظف عام أنه خادم للجماهير حقيقة لا دعوى... وبديهي أن يكون الإخوان المسلمون. فرادى. أول من يسعهم هذا النشاط، طالما هَشَشتُ للقائهم، وطمأنت قَلَقهم، وأريته من نفسي الاستعداد التام لعونه!).

ولما جاءت أحداث اعتقالات ١٩٦٥م، وكانت حملة الاعتقالات أشد من الحملات السابقة، يقول الغزالي: (طُلبت إلى الإذاعة، فلما ذهبت وجدت عدداً من الشيوخ والإخوان الأقدمين. وكانت التعليقات محددة: إن الرئيس أمر بنشر مساوئ الإرهابيين، وتحذير الأمة من الثقة بهم أو التعاون معهم، ويجب أن تقوم بهذا الواجب الوطني على عجل! تَمَلْمَلتُ فوق كرسي ضائقاً، ولاحظ ذلك المشرفون على البرنامج فتجاهلوني، ثم كلفوني. بوصفي مفصولاً من الإخوان. أن أبدأ التسجيل! كان جوابي حاسماً: أنا على استعداد للحديث عن الإسلام، وضرورة إحياء ما مات من أحكامه، ومستعد لإرشاد المخطئين، حكاماً كانوا أو محكومين، لإصلاح ما يكون قد بدر منهم من خطأ، أمّا شتم الإخوان وحدهم، فليس من خلقي أن أجهز على جريح!

قيل: إنهم فصلوك من جماعتهم. فلماذا تُبقي عليهم؟ قلتُ: إذا استضعفوني أيام قوتهم، فلن أستضعفهم أيام حريتي! وما هي إلا ساعات حتى كانت القيود في يدي!)[١٢].

ونفس المواقف للسيد سابق، فقد كان معه في الأوقاف، ولم يقل دور عبد المعز عبد الستار عن زميليه، وخاصة عندما خرج إلى السعودية، ثم إلى قطر، فقد كانت له مواقف كثيرة في الوقوف بجانب الإخوان المطاردين خارج مصر.

٦. الخدمة العامة للإسلام:

وهناك فئة ممن تركوا الإخوان تنظيما وليس فكرا، رأوا أنهم وصلوا إلى مرحلة يجب فيها أن يكونوا رموزا للأمة، وأن يكونوا ملكا لها وحدها، وألا يحصرهم إطار تنظيمي واحد، فهم للأمة أكثر منهم للتنظيم، ومن هؤلاء: الدكتور يوسف القرضاوي، فقد ظل عضوا منظما في جماعة الإخوان المسلمين، منذ بداية الأربعينيات من القرن العشرين، إلى ما يقرب من نهاية الثمانينيات، تحديدا في عام ١٩٨٨م، فقد طلب من التنظيم العالمي للإخوان المسلمين إعفاءه من العضوية التنظيمية في الجماعة، نظرا لأنه أصبح يمثل الأمة كرمز أكثر منه ممثلا لجماعة الإخوان المسلمين، وأن نفعه بهذه الصفة للإسلام سيكون أكثر وأثمر بلا شك، وقد تفهم الإخوان طلبه، وسرعان ما أجابوه إليه، كما يقول القرضاوي.

هذا عرض مجمل لأهم الأسباب التي أدت إلى خروج بعض الإخوان ممن اختلفوا في الفكر، أو طريقة العمل مع الجماعة. ويلاحظ في كل من خرجوا عن تنظيم الإخوان في الحالات التي ذكرتها: أنهم لم يتنكروا لماضيهم، ولم يتقاعسوا عن العمل للإسلام، بل عندما خرجت جماعة الإخوان المسلمين من سجون عبد الناصر في بداية السبعينيات، لم يجدوا عباءة يتدثرون بها سوى هؤلاء الرموز الذين تركوا التنظيم، بل منهم من عرض نفسه للخطر ومد يد العون المادي والمساعدة لأسر الإخوان وهم في السجون، كما ذكر الغزالي في مذكراته، ووهبة حسن وهبة الناشر المعروف، الذي سجن بسبب مساعداته المادية للإخوان، وغيرهم ممن لهم مواقف يضيق المقام بذكرها، كلها تصب في خانة الشهامة، وحسن الخلق، وعدم التنكر، وحفظ الجميل.

العلاقة بين المفكر والتنظيم:

بعد دراسة الدوافع التي دفعت عددا من أهل الفكر والعلم إلى الخروج عن تنظيم الإخوان، بقيت نقطة تدفعنا دفعا للبحث فيها، وهي العلاقة بين المفكر والتنظيم، ولماذا تتوتر العلاقة بينهما، وما الحلول المقترحة في فض هذا الاشتباك بين المفكر والتنظيم.

أسباب توتر العلاقة بين المفكر والتنظيم:

هناك أسباب لا شك تؤدي إلى صدام المفكر بالتنظيم، أو ضيق أحدهما بالآخر، منها:

١. الخلط بين التنظيم المدني والعسكري:

أول هذه الأسباب وأهمها هو: عدم فهم طبيعة العمل التنظيمي الدعوي، فالمفترض في العمل الدعوي المنظم: أنه تنظيم مدني، تحكمه طبيعة وقوانين وأخلاقيات العمل المدني، وليس تنظيما عسكريا، بما فيه من الغلظة والشدة وعدم إعمال العقل كثيرا، والخطورة هنا تتمثل في استدعاء أدبيات وطريقة إدارة التنظيم العسكري لتنظيم دعوي مدني،



يؤدى بالعمل الدعوى إلى طرق تؤدى إلى انسداد العلاقة بين المفكر والتنظيم، ويؤدى إلى مسخ أفراد العمل الدعوى إلى مجرد دمى تتحرك، وهذا خطأ كبير يقع فى إدارة العمل الحركى الدعوى أحيانا، فمن المعلوم أن التنظيم العسكرى ينبغى فيه إعلاء مبدأ السمع والطاعة بلا نقاش، بل كثرة النقاش تعوق نجاح أى تنظيم عسكرى، وليس مطلوبا فيه كثرة الرؤوس المفكرة، بقدر ما هو مطلوب منها أن تكون جنودا مخلصة، ملتزمة بسرعة التنفيذ، ومطلوب فى التنظيم العسكرى: قل الاعتراض، بل انعدامه من الأساس، على خلاف العمل الدعوى وهو تنظيم مدنى، لا بد فيه أن يناقش كل فرد ما يقوم به، وأن يكون ما يؤمن به من أفكار، وما يؤديه من أعمال عن قناعة تامة، ولا بد أن تكون الطاعة فيه طاعة مبصرة، وليست طاعة عمياء، وينبغى فيه أن يمنع كل مستبد بالرأى، ضيق به، مانع للنقاش أن يحال بينه وبين توسد أى مسئولية فى التنظيم الدعوى، لأنه يودى بالعمل الدعوى إلى سراديب العمل السرى العسكرى، وهو ليس مطلوبا، ولا هو الأساس فى الدعوة.

ونتج هذا الخطأ فى الخلط كذلك عن طريق: استدعاء أدبيات مرحلة تطلبت أن ترتفع أدبيات العمل العسكرى فيها بحكم مرحلتها، من حيث التضييق والمحنة، أو عن طريق استدعاء أدبيات كانت لفئة خاصة فتم تعميمها خطأ، ومن ذلك: ما نقرأه فى رسالة التعاليم، وفيها فقرات. مثلا. واضح أن الخطاب فيها موجه لجنود فى عمل عسكرى، وهى بلا شك كانت تدرس للتنظيم الخاص فى الإخوان المسلمين، ولكن ما يخص الدعوة العامة منها، هو ركن الفهم، وبقية الأركان، أما ركن الطاعة، والثقة، ففيهما كلام ينبغى أن يحرر، ويزال ما فيه مما هو خاص بالتربية العسكرية، وهذا ما لاحظه مسئول التربية فى جماعة الإخوان المسلمين على عهد الإمام البنا: الدكتور عبد العزيز كامل، فاعترض عليه اعتراضا شديدا[١٣].

٢. عدم الدراية بأهمية وعظم دور المفكر فى الحركة:

فقد يأتى من لا يقدر قيمة المفكر، ودوره، وما يقوم به من تأصيل للفكرة، وشرح لها، واستشراف لمستقبلها، وهو دور ربما استخف به البعض دون قصد، أو ربما يتسرب إلى البعض بسبب مقولة قالها حسن البنا رحمه الله، وهى رسالة (نحن قوم عمليون)، ولا تعارض بلا شك بين الفكر والعلم والعمل، والظن بأن المفكر مجرد رجل يجلس ليجادل جدلا بيزنطيا، وهذا الفهم الخاطئ يرد عليه بأنه لا قيمة لعمل ليس مبنيا على العلم الصحيح، وقد صنف أئمة الحديث فى كل كتبهم أبوابا فى أهمية العلم، وقيمته، وأنه يأتى قبل العمل.

٣. الضيق بالنقد، وسد منافذه:

ومن الأسباب التى تفسد العلاقة بين المفكر والتنظيم، بل بين التنظيم وبقية أفراده من أصحاب الفكر الحر، والرأى: الضيق بالنقد، والرأى الآخر، وسد كل منفذ يؤدى إليه، من باب: إغلاق باب للجدل، وشتان بين الجدل والنقاش والتحاور. فالمفكر لا يحيا بدون إعمال عقله، وتقليب النظر فيما مضى من مواقف للحركة، وفيما هو قائم من أعمال، وفيما هو مستشرف من مستقبل، وهذا يتطلب منه نقد ما فات، ونقد ما هو قائم، وتقييمه، حتى يبنى رؤية لمستقبل يتماشى مع ما تهدف إليه الحركة، وعندئذ تتفاوت وجهات النظر فى تقبل هذا النقد، فعند قبوله تستمر العلاقة بين المفكر والتنظيم، ولكن عند رفضه رفضا تاما. بل والضيق به. تسوء العلاقة، وبخاصة عندما يظن البعض بأن النقد باب للخروج على ثوابت الجماعة.

لقد قمت بما يشبه الحصر للنقد فى عهد الإمام البنا لشخصه وعلمه وجماعته، فوجدت ما يقرب من أربعين نقدا منشورا فى مجلات الإخوان المسلمين، بل خصص البنا صفحة كاملة فى مجلة (الإخوان المسلمين) نصف الشهرية، جعل عنوانها: باب النقد. وكان غالبا يكتب فيها الشيخ محمد الحامد الحموى نقدا على ما ينشر فى المجلة، ونقد فيها رمزين كبيرين من رموز الإخوان: حسن البنا، ومحمد الغزالى. بل وصل الأمر بأحد المنتقدين لحسن البنا أن أرسل له نقدا فى صورة سؤال، وكان السؤال كالتالى: يا شيخ حسن أنت رجل مدرس، ونحن نعلم مرتب المدرس جيدا، ونعلم أنك لا تتقاضى راتبا على عملك الدعوى، ومع ذلك نراك أنيقا فى ملبسك، أنيقا فى مظهرك، فمن أين لك هذا وأنت رجل مدرس بسيط؟!

ومع ذلك نشر حسن البنا سؤال السائل الناقد، ووعدت المجلة بالإجابة فى العدد القادم، وأجاب حسن البنا بما يلى: نعم صدقت يا أخى أنا لا أتقاضى راتبا على عملى الدعوى، أما ما لاحظته من أناقة المظهر وغيره وأن راتبى لا يكفى فهو صدق، وكان صلى الله عليه وسلم ينفق من مال خديجة، وأنا أنفق من مال أخى خديجة (يقصد صهره)، ولى أخوان يقرضاننى دائما، وأعرض عليك ثلاثة حلول: أن تزورنى فى المركز العام للإخوان المسلمين وأطلعك على اسم الأخوين الكريمين وإما أن تسدد لهما ديونى عندهما، وبذلك أصبح مدينا لشخص واحد، أو أن تكون الثالث الذى أقترض منه عند الحاجة، أو أن تدعو الله تعالى لى بأن يسدد عنى. وقد فكرت فى سبيل لتحسين حالتى المادية، وسوف أصدر بإذن الله مجلة (الشهاب) بترخيص شخصى لى، لعلها بذلك تكون سببا من أسباب الدنيا فى تحسين وضعى. وجزاك الله خيرا. أخوك: حسن البنا.

٤. تضخيم جانب الإدارى والمنظم على حساب المفكر: أو طغيان أحدهما على الآخر، وهناك سبب رابع مهم، ويأتى نتيجة تضخيم جانب الإدارى، وتقزيم جانب المفكر، أو محاولة الإدارى الجمع بين المهمتين: أن يكون إداريا ومفكرا فى الوقت ذاته، وهى مهمة صعبة ندر من يقوى على الجمع بينهما، وغالبا ما يكون الجامع بينهما . على ندرتها . المفكر فى الأساس.

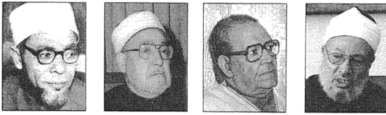
وأوضح هذه النقطة بمثال معاصر فى الحركة الإسلامية المعاصرة، فقد خرج أفراد الحركة الإسلامية من السجون والمعتقلات بعد وفاة جمال عبد الناصر، وقد كان للحركة رصيد ضخم من الفكر والثقافة، ولم تكن حاجتها فى ذلك الوقت إلى تصدر المفكر بقدر حاجتها إلى المنظم الذى يعيد حبات العقد المنفرط، فقد كان هذا الرصيد الثقافى يكفيها لبضع سنوات، فتولى أمر الحركة من يدير شئونها، ومن يهتم بالبناء التنظيمى، وقد كانت تحتاج لهذا بحق فى هذه الفترة، وشيئا فشيئا بدأ ينحسر دور المفكر أو الباحث فى الحركة، وفوجئنا بالطبيب. وكذلك المهندس وغيره من بقية التخصصات العلمية. الذى يلقى الخاطرة الخفيفة التى تصلح فى مجال التجميع الدعوى البسيط، ثم تعمقت الفكرة وتأصلت فى قدرة الطبيب والمهندس والمنظم والإدارى فى الدعوة إلى التكلم باسم الدعوة، والتنظير لها، وشتان بين الموعظة الدعوية، وبين التنظير الفكرى، والتأصيل العلمى، فأدوات كل منهما تختلف عن الآخر.

كان ينبغى أن تفهم الحركة أن هذا الدور لغير المفكر دور مؤقت، إذ إن سيلا من الأسئلة والمواقف الفكرية سوف يطرح نفسه تلقائيا بعد عودة نشاط الحركة، ولن يقوى على مواجهة هذه الأسئلة والتنظيرات الفكرية والعلمية سوى المفكر والباحث. وقد تسبب هذا الخطأ فى إقصاء المفكر بدرجة ما، وأدى إلى بروز أفكار ليست من صحيح الدعوة ولا صلبها ولا جوهرها، نتجت عن ذلك، مما يجعل هوة تحدث بين المفكر والتنظيم.

٥. تقييم المفكر عن طريق أدائه التنظيمى:

فهو ينظر له بنفس المقياس الذى يقاس به الحركى أو التنظيمى، من حيث الالتزام بما يلتزم به التنظيمى، من واجبات،

كان لعلاقة البهى الخولى السابقة بالإخوان فضل فى تخفيف شدة الاحتقان . بعض الشىء . بين عبد الناصر والإخوان، خاصة مع بعض أفرادهم ممن لم يكن بينهم وبين عبد الناصر شخصيا خلاف



وحقوق، وأداء دعوي إداري، مما يجعله في نظر الإداري أقل دورا، بل لا دور له أساسا، وينسى هؤلاء أن الصحابة رضوان الله عليهم أنفسهم لم يكن أداؤهم جميعا بمقياس واحد، فلم نر مثلا صحابيا جليلا كخالد بن الوليد من رواة الأحاديث، ولم أجد له اللهم إلا حديثا أو حديثين، فلا نستطيع أن نقيم خالدا في باب العلم ورواية الحديث، كذلك لا يمكن أن نقيم صحابيا كأبي هريرة في الميزان العسكري، فهو رجل حفظ على الأمة حديث رسولها صلى الله عليه وسلم، وهكذا.

٦. عندما يستخف المفكر بالقرارات التنظيمية الجادة، التي تبنى على شورى، وهو خطأ يقع من جانب المفكر، فهو يريد إمضاء رأيه، وإن كان الأمر جرى على شورى معتبرة، وهو خطأ يحدث أيضا من جانب بعض المفكرين. فالصواب في مثل هذه الأمور: أن الشورى إذا تمت ونوقشت الأمور، وانتهى النقاش فيها إلى رأي معين، كان بناء على أغلبية الآراء، فعندئذ يلتزم الجميع بالرأي المتفق عليه، ويظل كل صاحب قناعة فكرية على قناعته في نفسه، كرأي علمي قابل للنقاش وقت فتح باب النقاش.

مقترحات لفض الاشتباك بين المفكر والتنظيم:

ولحل هذا الصدام. أو عدم الوفاق. الذي سرعان ما يجعل المفكر أو الباحث يضيق بالتنظيم أو العمل الحركي، أو يضيق التنظيم بالمفكر، لا بد من اتخاذ عدة إجراءات ومبادئ تريح كلا الطرفين، وتحفظ لكل منهما مكانه ومكانته، وهي:

١. إفساح المجال لعقل المفكر وقلمه:

وأول ما يقترح في هذا المجال: هو إفساح المجال لعقل المفكر وقلمه في تشريح حال الأمة والحركة، أو حال العاملين في الدعوة للإسلام، فليس مقبولا أن يشعر المفكر أو الكاتب أن سيفا مسلطا على رقبته، هو سيف السمع والطاعة، وسيف عدم إثارة النقاش، خاصة عندما يكون المفكر ممثلا لشخصه وفكره الخاص، لا متحدثا رسميا باسم التنظيم أو الجماعة.

المفكر يحتاج إلى فضاء واسع ينطلق فيه، لا يوقفه شيء، ولا يحده حدود إلا حدود ثوابت الإسلام. أما أن نظل مهيمنين على مساحة المفكر، فالمفكر أشبه بالصاروخ الذي يحتاج كي ينطلق إلى التخلي عن قاعدته، والانطلاق بالرأس فقط، ثم بعد ذلك في مرحلة أخرى يتطور الصاروخ لينطلق بقاعدته ورأسه معا.

إنني أشبه المفكر والتنظيم، بحرية الحركة في الأول، وبمحدودية الحركة في الثاني، فحرية الحركة للمفكر تتيح له السبق دوما بأفكاره، ومن ثم يتبعه التنظيم فيما بعد، حيث يقبل من المفكر ما لا يقبل من التنظيم من حيث الأفكار السباقة، أو التجارب غير المحسوبة، فالأول يتحرك بالطائرة، والثاني يتحرك بالسيارة، ولا شك أن الثاني سيأتيه اليوم الذي يركب الطائرة مثله مثل من سبقه، ولكن لا بد من مغامر يبدأ التجربة، والمغامر هنا يتمثل في المفكر، وليس في التنظيم الذي ليس لصالحه المغامرة التي قد تودي بفشل التجربة معه، وتكون التكلفة باهظة، وهذا أمر مقبول في كل حركات التغيير والفكر على مدار التاريخ.

فلو أخذنا مثلا نموذجا كالشيخ يوسف القرضاوي في آرائه التي لو حكمنا فيها بمنطق التنظيم لحكم عليه بأنه خالف الجماعة التي ينتمي إليها، ولعوقب إداريا عليها، فالشيخ القرضاوي وقت أن كان ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين تنظيميا، وبعد طلب إعفائه من الأمور التنظيمية، تمثل كتبه المرجع الأبرز والأهم في الحركة، وكذلك الشيخ محمد الغزالي، والشيخ سيد سابق رحمهما الله.

٢. الفصل بين ما هو من مساحة المفكر وما هو من مساحة التنظيم:

فهناك مساحة هي مساحة المفكر والداعية، وليس مقبولا أن يقحم التنظيم نفسه فيها، وهي مجال الكتابة والتأليف، والتعبير عن المواقف الفكرية، والبحث العلمي، الذي لا ينبغي أن يوضع سقف للباحث فيه، بل المطلوب أن يطلق لقلمه العنان يحلق حيث شاء، وكيفما شاء، يسوقه البحث والدليل إلى ما يقتنع به، لا أن توضع له النتائج مسبقا.

لقد رفض الشيخ حسن البنا ضم الشيخ الغزالي للتنظيم الخاص، ولما سئل في ذلك قال: التنظيم الخاص نظام عسكري يتطلب طاعة مطلقة... والشيخ الغزالي يعترض على ما لا يروقه من أوامر، ويقول لك: ما السبب؟ وأين الدليل؟ ثم هو لا يحسن الكتمان، إذا سخط بدا سخطه على وجهه، والسرية المطلقة أساس هذا النظام...!

دعوه يكتب، ويخطب، وينشر الدعوة الإسلامية في الميدان الذي يصلح له، ولا يصلح لغيره[١٤].

٣. استقلالية المفكر العلمية:

هناك فئة ممن تركوا الإخوان تنظيما وليس فكرا، رأوا أنهم وصلوا إلى مرحلة يجب فيها أن يكونوا رموزا للأمة، وأن يكونوا ملكا لها وحدها، ومن هؤلاء: الدكتور يوسف القرضاوي

لصالح الدعوة والجماعة أن يكون أهل الفكر فيها مستقلين، وليسوا تابعين تبعية مطلقة، وألا يحسب المفكر الرمز عليها، لأن تصنيفه عليها لا يفيدها أبدا، والنموذج الواضح في ذلك، هو مبادرة الشيخ يوسف القرضاوي في تكليم الرئيس الليبي معمر القذافي بشأن مسجوني الإخوان المسلمين في ليبيا، وقد كانت هناك أحكام بالإعدام على بعضهم، فكلمه بشأن العفو عنهم، وقد انتهت المبادرة والوساطة بالعفو عن معتقلي الإخوان المسلمين في ليبيا(١٥)، فلا شك أن القرضاوي خاطبه بوصفه رمزا للأمة، ورئيسا لاتحاد علماء المسلمين، وليس بوصفه القرضاوي ذا العلاقة التنظيمية السابقة بالإخوان المسلمين.

٤. اتخاذ مبدأ البائع الشريك في العمل الدعوي:

وهناك مبدأ يسمى في لغة التجارة: مبدأ الشريك البائع، ومثاله: لو أنني أتاجر في النظارات الطبية. مثلا. وجاءني مشتر يسألني عن ثمن نظارة بعينها فقلت له: ثمنها ألف جنيه مصري، فقال لي: هي غالية الثمن، فلتنزل في سعرها، أشتريها بثمانمائة جنيه، ثم جاءنا رجل ثالث وهو تاجر في بيع النظارات مثلي، فسأل: بكم هذه النظارة؟ قلت له: أبيعها بألف جنيه، فقال: هل عندك كمية منها؟ قلت له: لا، هذه آخر نظارة عندي، فقال: إني أبيعها بألف ومائتي جنيه، عندئذ لن يتردد المشتري الذي يزايد في السعر لينزل، أن يشتري فورا بالمبلغ الذي حدده البائع، بينما كان كلام البائع الثاني هو مساندة للبائع الأول الذي يبيع نفس السلعة، وهو مبدأ يسمى في التجارة: الشريك البائع.

وهو ما يمكن تطبيقه في العمل التنظيمي الدعوي، بجعل المفكرين والباحثين الذين لهم مستقبل واضح في الأمة، ألا أصر على جعلهم ضمن الإطار التنظيمي، بل الصواب: إفساح المجال لهم، وتركهم للعمل خارج التنظيم، وفي الإطار الفكري للحركة، وأهدافها، وهو ما فعله الإمام البنا في حياته مع أكثر من عالم، وفي سن الشباب، وأراد بذلك أن يصنع صفوفا متراصة خلف الجماعة تحميها وقت المحنة، وتكون شهادتها شهادة غير مجروحة إذا وقفت في صفه وقت المحن والاتهامات، فعندما أراد الشيخ محمد الغزالي والشيخ سيد سابق دعوة الأستاذ خالد محمد خالد للجماعة، وهما صديقان عزيزان له، قال لهما الإمام البنا: دعا خالدا وشأنه، هو في مجاله أصلح. ونفس الأمر فعله البنا مع علماء الجمعية الشرعية الذين ربطتهم به علاقة قوية، مثل: الشيخ محمود عبد الوهاب فايد، والشيخ حسن عيسى عاشور، وكانوا نعم السند بعد الله لجماعته وقت المحنة التي تعرضت لها الجماعة في العهد الناصري.

بل وفعلها البنا أيضا مع أناس في صفوف الجماعة، ومن العاملين في التنظيم، يقول أحد تلامذة حسن البنا:






"الخارجون عن الإخوان"

فى النصف الثانى من الأربعينيات كنتُ أستعد للتخرج من الجامعة.. وكنت عصبيًا جداً، وكل يوم يذهب زملائى فى الجامعة من الإخوان ويشتكون للأستاذ البنا: محرم تشاجر اليوم مع الشيوعيين.. محرم تشاجر اليوم مع الوفديين.. كل يوم أورط إخوانى فى خناقة مع آخرين.

وفى إحدى هذه المرات انفرد بى الأستاذ البنا، وقال لى: يا محرم اختفى من الحركة.. قلت: تفصلنى يا أستاذ؟ قال: لا، ولكن أريد أن أضعك فى عمل آخر.. ثم قال لى: أنت ستتخرج هذا العام؛ ففى أى مجال تنوى العمل؟ قلت: فى ميدان التدريس. فقال لى: أريدك أن تختفى فى وزارة المعارف، حتى تصل إلى أعلى المناصب وتخدم دينك وأمتك فى صمت.. وتعاهدنا على ذلك، وبدأت رحلتى فى وزارة المعارف، ثم وزارة التربية والتعليم حتى وجدتنى مديرًا لمكتب الوزير كمال الدين حسين فى الستينيات.

ثم فوجئتُ برجلٍ آخر كنتُ أعرف صلته القديمة بالأستاذ البنا، وهو أيضًا يعمل مستشارًا للوزير.. إنه الأستاذ الأديب فريد أبو حديد، وتصارحنا؛ فإذا قصته مثل قصتى، ولم ينكشف أمرنا إلا عندما كتب الدكتور نظمى لوقا كتابه الشهير «محمد الرسالة والرسول»، والذى يقول فى آخر صفحة فيه: (لا خيرة فى الأمر ما نطق هذا الرسول عن الهوى، لا خيرة فى الأمر ما ضل هذا الرسول وما غوى، لا خيرة فى الأمر ما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين، فسلام عليه بما هدى، وسلام عليه فى الخالدين).

المهم أننا قررنا هذا الكتاب على طلبة الإعدادية فى مادة النصوص، وبدأت اعتراضات محلية وغير محلية، وانكشف أمر الجنديين اللذين أرسلهما حسن البنا لوزارة المعارف[11].

٥. زيادة مساحة الحرية النقدية فى الحركة:

فليس مقبولا أن يفسر كل رأى للمفكر فى ظل التنظيم أنه خروج عن ثوابتها، أو اتهام قائل الرأى بأنه فتن عن الدعوة، أو هناك غبش فى رؤيته، وادعاء الإخلاص فيمن يسكت ويسمع ويطيع دون نقاش، فمسألة الولاء الدعوى والإخلاص فيه مسألة قلبية ليس لأحد أن يحكم فيها، بل الحكم فيها لله وحده، وهى من الدجل الدعوى، ويجب أن ننأى بأنفسنا عن الحكم على النيات، بل إن ادعاء حب الدعوة من إنسان أكثر من آخر، وهو بعينه الهلاك، يقول تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى)؛ بل الحركة الناجحة هى التى تفتح باب النقاش، وتصنع أفرادا أصحاب رأى، رؤوسا لا أذنبة، تملك القرار وحسن التصرف، ولا تكون كريشة فى مهب الريح، أو كالعبد السوء الذى ذكره القرآن الكريم (أينما يوجهه لا يأت بخير).

٦. البعد عن شخصنة الدعوة:

فمن الأخطاء القاتلة التى تعجل بنهاية العلاقة بين المفكر والتنظيم: شخصنة الدعوة، فكل نقد يوجه لإدارة فرد ما فى التنظيم لملف من ملفات الدعوة، دون التجريح فى شخصه بلا شك، يفسره البعض تفسيرا غريبا، بأنه هجوم على الدعوة ذاتها، وهذا الداء القاتل أصابنا من كتاب السلطة للأسف. فكتاب السلطة لو أن كاتبا نقد النظام الحاكم، بصورة فجائية تراهم يطلقون التهم على الكاتب بأنه يهاجم مصر، بحضارتها، وتاريخها، وما لها من حب فى قلب كل مصرى يحب وطنه، لتصبح بقدرة قادر كل كلمة فى فساد النظام الحاكم هجوما على الوطن الغالى العزيز، وكأن الوطن يختزل فى فرد، أو فى ثلة، لتتدثر بفسادها فى عباءة الوطن، والوطن يبرأ من كل فساد، ولا يشرفه أن ينتسب مفسد إليه، هذا الداء للأسف انتقل. بحكم أن البيئة لها أثرها فى الناس، وأن الإنسان ابن بيئته. إلى العمل الدعوى، ولا بد من التخلص منه، ومن التفريق بين الأشخاص والدعوة، الدعوة شىء سام لا يزايد أحد على حبه لها، أما الأفراد فهم زائلون، وهو ما شدد عليه القرآن الكريم كثيرا، أن نرتبط بالمبادئ ولا نربط المبادئ بالأشخاص، يقول تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) آل عمران: ١٤٤، وهذه الآية ليست إلا تنبيها لكل داعية، أن الأفراد فى العمل الدعوى يظلون أفرادا، لهم ما للأفراد من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات، ولكن من الخطأ الشديد: ربط الدعوة بأشخاصهم، فالمبادئ أسمى وأرقى من الأشخاص، ويحكم على الأفراد بالمبادئ، ولا يحكم على المبادئ بالأفراد.

٧. الحركة مدرستان: مدرسة الدعوة، ومدرسة التنظيم. فمدرسة الدعوة وهى تسع كل داعية يتفق مع مجمل أفكار الحركة وأهدافها، وإن اختلف فى بعض أو كثير من تفاصيلها. ومدرسة التنظيم، وهى خاصة بمن ينتقل إلى مرحلة أخرى من الإدارة يلتزم فيها بتفاصيل وعموميات الجماعة، وأعتقد أن الإمام أبا الأعلى المودودى رحمه الله فى أدبياته صيغة مقترحة لمثل هذه العلاقة، وبخاصة فى كتابه (تذكرة دعاة الإسلام) فى تصنيفه للمنتمين للجماعة الإسلامية، ودرجات الانتماء.

وعلى الحركة أن توجد صيغة تواؤم بين الأمرين، بحيث يكون من يقتنع بمدرسة الدعوة فى إطار من أطرها، وله مكانته فيها، وأن تكون هذه المكانة مكانة اعتراف وتقدير، وليست مكانة تأليف القلوب، من باب (المؤلفة قلوبهم).

هذه بعض تأملاتى فى العلاقة بين المفكر والتنظيم فى الحركة الإسلامية، وكيف تقوى هذه العلاقة، ويستفاد من كلا الطرفين، وهى نظرة وتحليل شخصى، قابلة للصواب والخطأ، أعرضها للبحث والمناقشة، مستفيدا بكل صاحب تجربة، أو دراسة لهذه العلاقة. ■



كان ينبغى أن تفهم الحركة أن هذا الدور لغير المفكر دور مؤقت، إذ إن سيلا من الأسئلة والمواقف الفكرية سوف يطرح نفسه، ولن يقوى على مواجهة هذه الأسئلة سوى المفكر



هوامش

١. انظر: جريدة المصرى العدد الصادر فى يوم ١١/٩/١٩٥٢م.

٢ ـ انظر: ابن القرية والكتاب (مذكرات القرضاوى) الجزء الثانى ص ٢٤٨.

٣ ـ انظر: الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ لمحمود عبد الحليم (٣/١٥٠-١٥٥).

٤. انظر: المصدر السابق (٣/١٥٦).

٥. انظر: مذكرات عبد العزيز كامل تحت عنوان: (فى نهر الحياة).طبعة المكتب المصرى الحديث.

٦. من مقابلة مع الشيخ عبد التواب هيكل، أحد معتقلى الإخوان فى السجن الحربى فى سنة ١٩٥٤م، وقد كان عبد العزيز كامل سببا فى منع التعذيب عنه عند دخوله السجن فى أول مرة، عندما رجا ضباط السجن عدم تعذيبه، فقبلوا شفاعته.

٧. هو الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر. من مقابلة مع الشيخ يوسف القرضاوى.

٨. من مقابلة مع الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر، أحد معتقلى الإخوان فى السجن الحربى سنة ١٩٥٤م، مع د. عبد العزيز كامل فى زنزانة واحدة.

٩ ـ من مقابلة مع على نويتو، أحد أعضاء التنظيم الخاص فى شعبة إمبابة، وأحد المتهمين بتدبير عملية اغتيال جمال عبد الناصر، وقد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة سنة ١٩٥٤م.

١٠. انظر: مقدمة كتاب (الشهادة.. أقسمت أن أقول الحق) وهى شهادة الشيخ صلاح أبو إسماعيل فى قضية تنظيم الجهاد. طبعة دار الاعتصام.

١١. سمعت نص رسالة الشيخ صلاح أبو إسماعيل للرئيس جمال عبد الناصر فى إحدى جولاته الانتخابية، وقد قام أحد الأزهريين بتلاوتها على الحضور فى المسجد الكبير بمدينة أوسيم بالجيزة، من باب اتهام صلاح أبو إسماعيل بضعفه، وتشويه صورته، لعله بذلك يفت فى عضد شباب الإخوان فى تأييده، وهو ما انقلب إلى ضده، ورد صلاح أبو إسماعيل بقوله: إن كلمة من المعتقل التى فى أول الرسالة تجب ما بعدها، فهى تصور ما كنت فيه من واقع مرير، وتعذيب شديد بدنى ونفسى، فضج المسجد بالتكبير تأييدا لصلاح أبو إسماعيل.

١٢. انظر: قصة حياة للشيخ محمد الغزالى.

١٣. انظر: مذكرات د. عبد العزيز كامل (فى نهر الحياة) ص٥٣ . طبعة المكتب المصرى الحديث.

١٤. انظر: قصة حياة للشيخ محمد الغزالى.

١٥. انظر: ابن القرية والكتاب للقرضاوى الجزء الخامس. تحت الإعداد.

١٦. نظر: أمثلة على التربية الحضارية عند البنا للدكتور سيد دسوقى.

أهـــــواء الاقتصاديين!!!

يعود دكتور جلال أمين أستاذ الاقتصاد بهذا المقال الذي يضمه كتاب يصدر عن دار الشروق «في فلسفة علم الاقتصاد» إلى أكاديميته أو بالأحرى إلى الأكاديميين، ليستكمل مابدأه قبل سنوات بكتابه المهم «كشف الأقنعة» عن نظريات التنمية الاقتصادية. موضحا ابتداء أن فلسفة علم الاقتصاد شيء مختلف عما يمكن أن تعنيه عبارة «الفلسفة الاقتصادية». وداعيا القارئ المتخصص وغير المتخصص إلى أن يتوقف ليتحقق مما إذا كان علم الاقتصاد كما ندرسه اليوم وكما ظل يدرس لعشرات السنين «يقوم على أسس غير علمية».. معتبرا في هذا المقال / الكتاب - الذي من شأنه أن يثير جدلا أكاديميا - أن الكشف عن هذه التحيزات وهذه الأسس غير العلمية وإبرازها، قد تكون له فائدة لا تقل عن فائدة دراسة علم الاقتصاد نفسه..

المحـــــرر

■■ نعم للاقتصاديين تحيزات وأهواء، بل يندر ألا يكون لهم هوى يؤثر فيما يدعون إليه من سياسات اقتصادية، بل وحتى فيما يقدمونه من نظريات. نعم، من الممكن جداً أن تجتمع التحيزات والعلم، بل من النادر ألا يجتمعا. ومن الممكن أن يكون للعلم أسس غير علمية، ميتافيزيقية أو أيديولوجية أو فلسفية، توجه البحث العلمي في اتجاه دون آخر، وتؤثر في أسئلته وإجاباته.

إذا كان هذا صحيحا، فما أجدر هذا الموضوع بالبحث. إن الكشف عن تحيزات الاقتصاديين وأهوائهم، وعن الأسس غير العلمية لعلم الاقتصاد، لابد أن تكون له منافع جمة، وقد تكون بالغة الأهمية. فهذا الكشف، إذا نجحنا فيه، لا تقتصر فائدته على تنبيهنا إلى قصور النظرية الاقتصادية عن الإحاطة بالحقيقة، وإلى تصويرها لبعض الأمور المهمة على غير حقيقتها، بل قد تصل فائدته إلى حد «التحرر النفسي»، وخلق فرص للإبداع لم تكن متاحة من قبل.

فمن ناحية، يمكن أن يؤدي كشف التحيز في العلم إلى لفت النظر إلى زوايا أخرى يمكن منها دراسة الموضوعات التي يتناولها هذا العلم، ورؤية أشياء كانت غائبة، والتأكيد على جوانب لم يجر من قبل التأكيد عليها، مع استحقاقها لهذا التأكيد. ومن ناحية أخرى، يمكن أن يؤدي اكتشاف التحيزات والأسس غير العلمية لعلم من العلوم، إلى إفساح المجال لتحيزات أخرى كانت مهملة، ولأيديولوجيات كانت مستبعدة. وقد تكون هذه التحيزات المهملة والأيديولوجيات المستبعدة أنسب وأكثر ملاءمة للأمة التي ينتسب إليها الباحث من تلك التي استخدمها العلماء في الماضي، وأكثر مراعاة لذوقها وتقاليدها ونظرتها إلى الحياة، ومن ثم قد تكون أكثر فاعلية في حل مشكلاتها، بل وأدعى إلى نهضتها.

إن اكتشاف تحيزات الغير يمكن أن يكون شرطا أساسيا للتحرر من سطوته. فالعبد الأسود لا يمكن أن يتحرر من القهر الذي يمارسه عليه سيده الأبيض طالما شارك اعتقاد هذا السيد بأن الأسود عبد بطبيعته، وأن اختلاف اللون يعطي البعض حق السيطرة على الآخرين.

واكتشاف تحيزات الحضارة الغربية قد يكون شرطا أساسيا لتحرر الأمم الخاضعة للاحتلال والاستغلال من جانب أصحاب هذه الحضارة، إذ قد يقضي هذا الاكتشاف على أي مبرر لهذا الاحتلال وهذا الاستغلال. كذلك قد يكون اكتشاف التحيز في علم من العلوم، خاصة في العلوم الاجتماعية، شرطا ضروريا لأن يسمح المرء لنفسه بالنظر نظرة جديدة إلى الظواهر التي يتناولها هذا العلم، فإذا بنوع «الفهم» الجديد لهذه الظواهر يدفع الناس إلى تبني نظام سياسي أو اجتماعي غير النظام السائد.

هل كان من الممكن مثلا أن نتصور أن يقيم الاتحاد السوفيتي دولة «اشتراكية» دون كشف تحيز الفكر الاقتصادي الرأسمالي؟ وهل كان من الممكن للنظام الذي أقامه «تيتو» في يوجوسلافيا، خلال ربع القرن التالي للحرب العالمية الثانية، أن يوجد دون كشف تحيزات الفكر الاقتصادي الرأسمالي والاشتراكي على السواء؟ بل قد أذهب إلى حد التساؤل، عما إذا كان من الممكن لأي أمة أن تحقق أي نهضة دون أن تكتشف أولا تحيزات عصر سابق؟





توماس هوبز
١٥٨٨ - ١٦٧٩

اعتاد مؤرخو الفكر الاقتصادي أن يعتبروا أن آدم سميث Adam Smith ذلك الاسكتلندي الفذ، وأستاذ الفلسفة في جامعة جلاسجو، هو أبو علم الاقتصاد، وأن هذا العلم، وإن كانت ولادته قد ظهرت لها بشائر أو بوادر، قبل ظهور كتاب سميث الشهير «ثروة الأمم» (The Wealth of Nations) في كتابات مجموعة من الكتاب البريطانيين والفرنسيين الأقل شهرة بكثير من آدم سميث، فإن ظهور كتاب سميث في عام ١٧٧٦ قطع أي شك في ظهور علم جديد هو علم الاقتصاد.

لا ينفي المؤرخون بالطبع وجود «كتابات» اقتصادية قبل سميث، بل وقبل هذه المجموعة من الكتاب البريطانيين والفرنسيين الذين نشرت أعمالهم خلال القرن السابق على كتاب سميث، ولكنهم ينفون عنها صفة «العلم»، أو على الأقل يشيرون إلى قلة حظ هذه الكتابات من التجرد العلمي الواجب، فيبينون كيف نظر السابقون على سميث إلى الظواهر الاقتصادية، نظرة «أفسدها» إقحام الأخلاق على العلم، كما فعل فلاسفة اليونان مثلا، أو إقحام الدين على العلم، كما فعل مثلا كتاب العصور الوسطى، أو انصراف الاهتمام إلى السياسة الاقتصادية

للاستزادة:
فلسفة علم الاقتصاد: بحث في تحيزات الاقتصاديين وفي الأسس غير العلمية لعلم الاقتصاد
جلال أمين
دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٨



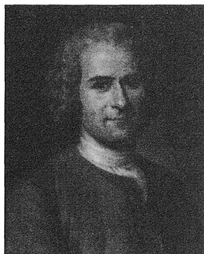
Edmund Burke



Adam Smith (1723-1790)



David Hume (1711-1776)



Jean Jacques Rousseau (1712-1778)



Erich-Fromm



A-R-J Turgot (1727-1781)



Montesquieu (J1689-1755)



Knut-Hamsun-Postcard (1910)



SIR W. PETTY.

Sir William Petty (1623-1687)

المرغوبة، دون اهتمام كاف، أو دون اهتمام على الإطلاق، ببيان الأسس العلمية لتفضيل سياسة اقتصادية على أخرى، كما فعل مثلا أصحاب «المذهب التجارى» خلال عصر النهضة الأوروبى.

وليس لدينا على هذا التصوير للأمر إلا تحفظ واحد، ولكنه تحفظ مهم، هو فى الحقيقة الهدف الأساسى من هذا الكتاب. وأقصد به: أن ما حدث بظهور كتاب ثروة الأمم، وما شهده القرن السابق عليه مباشرة من محاولات للسير فى نفس الطريق، لم يكن بالضبط هجرانًا لمواقف غير علمية فى شرح الظواهر الاقتصادية، وإحلالاً «للموقف العلمى» محلها، بل كان فى الحقيقة أقرب إلى إحلال نظرة غير علمية محل نظرات أخرى غير علمية بدورها، أو بعبارة أخرى إحلال تحيزات محل تحيزات. والسبب فى رأيى، فى غياب هذا الأمر عن معظم مؤرخى الفكر الاقتصادى أو تجاهلهم له، هو أنهم هم أنفسهم يحملون نفس التحيزات التى بدأت تتبلور فى تلك الفترة التى نشأ فيها علم الاقتصاد، أى خلال القرن الممتد بين حوالى ١٦٧٦ . ١٧٧٦ . وقد سبق أن أشرت فى الفصل السابق إلى أن صاحب التحيز هو أقل الناس قدرة على اكتشافه، فنحن قد نكتشف تحيزات الآخرين بسهولة ولكن من أصعب الأمور اكتشاف تحيزاتنا نحن. بعبارة أخرى: الاقتصاديون اليوم يحملون نفس تحيزات آدم سميث وأصحابه أثناء دراستهم أو تفكيرهم فى الظواهر الاقتصادية، أو يحملون تحيزات قريبة جدا منها، بل الأرجح أن هذه التحيزات قد تغلغلت فى أذهانهم بدرجة أعمق بكثير مما كانت لدى آدم سميث وأصحابه، فكيف ينتظر منهم أن يكتشفوا ويتبينوا مدى تأثير هذه التحيزات فيما يصلون إليه من نتائج أو بالأحرى، مدى تعكيرها لصفاء هذه النتائج ونقائها؟



لنبدأ أولاً بكلمة سريعة فى التعريف بهؤلاء الكتّاب (أو الاقتصاديين) الذين يمكن ضمهم فى زمرة واحدة مع آدم سميث باعتبارهم «مؤسسى علم الاقتصاد». ولنلاحظ فى البداية أن كلهم (باستثناء واحد هو الأيرلندى كانتيلون R. Cantillon) من البريطانيين أو الفرنسيين. وليس هذا شيئا غريبا، حيث كانت بريطانيا وفرنسا فى هذا الوقت قد قطعتا شوطا فى «التحديث» الاقتصادى والاجتماعى أكثر مما قطعته أى دولة أخرى.

من هؤلاء وليام بتى Sir William Petty، الذى كان فى الأصل عالما طبيعيا وعضوا، بهذه الصفة، فى الجمعية العلمية الملكية فى إنجلترا، وصديقا لإسحق نيوتن. ليس من الغريب إذن، إذ استهواه بحث بعض الظواهر الاقتصادية، أن يحاول أن يفعل بشأنها شيئا شبيها بما فعله نيوتن بشأن الظواهر الطبيعية، وأن يؤلف كتابا فى سنة ١٦٧٦ (أى قبل قرن بالضبط من كتاب آدم سميث) يسميه «الحساب السياسى» Political Arithmetick). (وكان وصف «السياسى» يستخدم فى ذلك الوقت بمعنى أقرب إلى المعنى الذى نستخدم به الآن وصف «الاجتماعى») معتقدًا أن الرياضة والحساب يمكن أن يستخدما فى تحليل الظواهر الاجتماعية بنفس الكفاءة التى يستخدمان بها فى تحليل الظواهر الطبيعية.

بعد وليام بتى بستين عاما كتب ريتشارد كانتيلون كتابا لم ينشر إلا فى ١٧٥٥، أى بعد نحو عشرين عاما من تأليفه، بعنوان: مقال فى طبيعة التجارة بصفة عامة (Essai sur la Nature du Commerce en General)، يرى بعض مؤرخى الفكر الاقتصادى أنه فى كثير من الموضوعات لا يقل أهمية عن كتاب آدم سميث.

ومن بين هؤلاء الرواد الأوائل لعلم الاقتصاد الفيلسوف البريطانى الشهير دافيد هيوم David Hume، الذى يعتبره بعض الفلاسفة المعاصرين فى بريطانيا وخارجها أهم فلاسفة الغرب على الإطلاق، إذ بدأ أو على الأقل دعم بشدة الاتجاه نحو «فض الاشتباك» بين الفكر الفلسفى والميتافيزيقا. ويبدو أنه فعل شيئا مشابها (أو على الأقل حاول أن يفعل) فى الفكر الاقتصادى، ومن ثم أسهم مساهمة مهمة فى تدشين استقلال الكتابة الاقتصادية «كعلم» من العلوم.

من هؤلاء الرواد أيضًا الكاتب الإنجليزى جيمس ستيوارت James Steuart، الذى نشر كتابا فى عام ١٧٦٧ يحمل نفس العنوان الذى استخدمه فيما بعد اقتصادى بريطانى شهير بعد آخر، من ريكاردو إلى مالثس إلى جون ستيوارت ميل، وهو عنوان «مبادئ الاقتصاد السياسى» (Principles of Political Economy)، وكأنه لم يعد هناك شك الآن فى أن علما جديدا له موضوعاته المعروفة ومبادئه التى يمكن اكتشافها، قد ظهر إلى الوجود.

أسهم أيضًا فى بلورة هذا الاتجاه الجديد، تيرجو J.R.A. Turgot فى فرنسا، بكتاب بعنوان (Reflections on the Formation and Distribution of Wealth) نشر فى عام ١٧٧٠. كما أسهمت فى ذلك أيضا مدرسة الطبيعيين (Physiocrats) الشهيرة، فى فرنسا أيضا، التى أثرت فى تفكير آدم سميث تأثيرا كبيرا، والتى قال عنها جوزيف شومبيتر J. Schumpeter: إنه فى ١٧٦٠ لم يكن أحد قد سمع عنها، وفى السبعينيات لم يكن الباريسيون يتكلمون إلا عنها، وفى ١٧٨٠ كانت قد نسيت تماما. وهى ظاهرة يمكن تفسيرها بأن كتابات الطبيعيين، كانت تحتوى على نوعين من الخطاب: نوع ينتمى فى الحقيقة إلى عصر انقضى أو على وشك الانقضاء إلى غير رجعة، وهو يدور فى الأساس حول تمجيدهم للزراعة والأرض باعتبارها المصدر الوحيد للثروة، ونوع آخر يعكس روح العصر الجديد الذى بدأ يتبلور فى أوروبا، ويدعو إلى الحرية الاقتصادية وسحب يد الدولة من التدخل فى الاقتصاد، وهو الجزء الذى أعجب به آدم سميث أيما إعجاب، وجعله يصف كتابات الطبيعيين بأنها أقرب الكتابات الاقتصادية إلى الحقيقة. إن الجزء الذى ينتمى إلى عصر آخذ فى الزوال (أو الرجعى)، لم يكن من المقدر له أن يستمر طويلا فى إثارة اهتمام الناس، وأما الجزء «التقدمى» أو الأقرب إلى روح العصر الحديث، فقد تبناه آدم سميث وأضاف إليه وجعله أكثر «علمية» فى كتاب «ثروة الأمم»، فلم تعد ثمة حاجة، بعد ظهور هذا الكتاب، إلى قراءة كتابات الطبيعيين، أو على الأقل إلى الاهتمام كثيرا بهم.



ثلاثة تطورات مهمة، شهدتها أوروبا (وعلى الأخص بريطانيا وفرنسا) فى هذه المائة عام السابقة على ظهور كتاب آدم سميث، ويمكن بها تفسير مجىء هذا المخلوق الجديد المسمى بعلم الاقتصاد: النمو السريع فى العلوم الطبيعية، والنمو السريع فى الإنتاج الصناعى، والنمو السريع فى الطبقة المتوسطة. وسأتناول الآن كلا من هذه التطورات لبيان الدور الذى لعبه كل منها فى نشوء علم الاقتصاد، واتسامه بتلك السمات التى سبق أن ذكرت أنها لا تنتمى فى الحقيقة إلى طبيعة «العلم»، والتى بقيت مع علم الاقتصاد حتى الآن.

أما النمو السريع فى العلوم الطبيعية فيكفى بشأنه أن نشير إلى أن هذه الفترة التى نتكلم عنها، يتحد جزء كبير منها مع فترة حياة إسحق نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧)، وهو الرجل الذى طبقت شهرته الآفاق فى عصره، وأصبح اسمه واسم اكتشافاته العلمية من الكلمات المتداولة حتى بين قليلى الصلة بالعلم أو التعليم. ثمة عالم شهير آخر كان قد توفى قبيل بداية الفترة التى نتكلم عنها بقليل وهو جاليليو الإيطالى الذى توفى عام ١٦٤٢، وكذلك رياضى وفيلسوف شهير آخر، وهو الفرنسى ديكارت الذى توفى ١٦٥٠، وأسهمت فلسفته مساهمة مهمة فى تطور التفكير العلمى، وكان قد توفى قبله بقليل البريطانى فرانسيس بيكون (١٦٢٦) الذى اشتهر بأنه الأب الحقيقى للمنهج العلمى الحديث.

لم يكن غريبا بالمرة، فى مناخ يسوده الانبهار بقدرة العلم على الكشف عن خبايا العالم الطبيعى، والتفاؤل بقدرة العلم فى المستقبل على كشف ما نجهله فى الوقت الحاضر، ومن ثم بقدرة الإنسان على زيادة سيطرته على الطبيعة وتسخيرها لخدمته، أن تتجه أذهان بعض المهتمين بخبايا الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتواقين إلى كشف أسرارها، إلى محاولة استخدام نفس المنهج الذى تبناه علماء الطبيعة لتطبيقه على المجتمع والاقتصاد والسياسة. كان من أوائل من



كان لا بد أن يؤدى النمو الصناعى ونمو الطبقة المتوسطة وظهور طوائف جديدة منها، إلى إثارة أسئلة جديدة



حاول ذلك فى علم السياسة، فى نفس الفترة، الفيلسوف البريطانى توماس هوبز Hobbes، وفى علم الاجتماع، فى نفس الفترة أيضاً، الكاتبان الفرنسيان روسو J. Rousseau ومونتسكيو L.C. Montesquieu، بالإضافة إلى الأسماء التى ذكرتها منذ قليل فى علم الاقتصاد.

ولكن إذا كان هذا النمو السريع فى العلوم الطبيعية قد أسال لعاب المهتمين بالأمور الاقتصادية، ومنحهم الثقة فى قدرتهم على تأسيس علم جديد يتناول هذه الأمور، فإن النمو السريع فى الإنتاج الصناعى، وظهور عصر «الرأسمالية الصناعية»، عندما أصبحت الصناعة، بدلا من التجارة، هى المصدر الأساسى لنمو الثروة، قد زود أصحاب هذا العلم الجديد بالأسئلة التى يمكن أن يحاول هذا العلم تقديم إجابات عنها. صحيح أن هذا القرن السابق على ظهور كتاب «ثروة الأمم»، لم يكن قد شهد بعد قيام ما سمى فيما بعد «بالثورة الصناعية»، بل إن كتاب سميث نفسه، ظهر قبل الفترة التى تنسب إليها عادة هذه الثورة، ولكن الثورة الصناعية التى أتت فى العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر والعقود الأولى من القرن التالى، لم تكن فى الحقيقة إلا تتويجا لنمو سريع فى الإنتاج الصناعى يعود إلى نحو قرن من الزمان، ولتراكم سريع فى الثروة ورؤوس الأموال بدأ قبل الثورة الصناعية بأكثر من قرنين.



اقترن هذا النمو السريع فى الإنتاج الصناعى، وتراكم رؤوس الأموال، إذا قورن بدرجة عالية من الركود الاقتصادى التى اتسمت بها العصور الوسطى فى أوروبا، بنمو سريع أيضاً فى الطبقة الوسطى. كان مجتمع العصور الوسطى فى أوروبا يتسم باستقطاب حاد بين طبقة صغيرة للغاية على قمة الهرم، هى فى الأساس طبقة ملاك الأراضى، وطبقة تكاد تشمل بقية المجتمع، وتتكون أساسا من المزارعين الفقراء الذين يقومون بزراعة أرض لا يملكونها. ثم أدى نمو التجارة فى عصر النهضة الأوروبى، إلى بزوغ طبقة وسطى بين هاتين الطبقتين، كما أدى نمو الصناعة والتجارة فى القرن الذى نتكلم عنه، إلى نمو أسرع بكثير فى هذه الطبقة الوسطى التى تتكون من أشخاص يتمثل مصدر ثروتهم ودخلهم فى رأس المال المستخدم فى التجارة أو الإنتاج الصناعى، أو فى الاشتغال بمختلف المهن التى شجع على نموها النمو التجارى والصناعى نفسه، كالاشتغال بالهندسة أو الطب أو المحاسبة أو المحاماة أو التدريس، أو بمختلف الحرف والفنون التى شجع على نموها نمو الثروة نفسها، وزيادة الترف وأوقات الفراغ التى تقترن بزيادة الثروة.

تداخلت هذه التطورات الثلاثة: نمو العلوم الطبيعية، ونمو الصناعة، ونمو الطبقة الوسطى، فغذى كل منها التطورين الآخرين، فى عملية تراكمية باهرة. فالتقدم العلمى أدى إلى تقدم تكنولوجى زاد من معدل نمو الصناعة، وأدى نمو الصناعة بدوره إلى إثارة مشاكل عملية جديدة حفزت على مزيد من التقدم فى التكنولوجيا والعلم. وقد أدى نمو الصناعة والتجارة إلى زيادة الدخول، مما زاد الطلب على مختلف الحرف والخدمات، ومن ثم من سرعة نمو الطبقة المتوسطة. ولكن النمو فى الطبقة المتوسطة والتقدم العلمى أديا معا إلى زيادة الطلب على التعليم مما أدى بدوره إلى مزيد من التقدم العلمى من ناحية، وإلى نمو أكبر فى الطبقة المتوسطة من ناحية أخرى.

كان لا بد أن يؤدى النمو الصناعى ونمو الطبقة المتوسطة وظهور طوائف جديدة منها، إلى إثارة أسئلة جديدة، لم تكن مثارة من قبل، وتسليط الضوء على قضايا لم تستلفت النظر من قبل بنفس الدرجة، وهى أسئلة وقضايا مما يمكن أن يندرج تحت علم جديد هو علم الاقتصاد. فما الثروة بالضبط؟ وما عناصرها وعوامل نموها أو نضوبها؟ وما عناصر الإنتاج التى يمكن أن ترد إليها كل السلع والخدمات؟ وما الذى يزيد أو يخفض من إنتاجية العمل، مما يمكن أن يسمى بمزايا «تقسيم العمل»؟ وما العوامل المحددة للثمن؟ حجم الطلب أم مستوى النفقات؟ وما النظام الأمثل الذى يؤدى إلى أعظم قدر من الإنتاج؟ المنافسة الكاملة أم الاحتكار؟ تدخل الدولة فى قرارات المنتجين أم تركهم أحرارا؟ وما العوامل التى تحدد توزيع الناتج القومى بين طبقات المجتمع: ملاك الأراضى وملاك المصانع (أو الرأسماليون) والعمال؟ وما طبيعة العلاقة بين هذه الطبقات الثلاث: تعاون أم تضاد؟ وهل تتعارض مصلحة بعض الطبقات مع مصالح غيرها من الطبقات أم أن مصالح الطبقات كلها منسجم بعضها مع البعض الآخر؟ وما مصير كل نوع من أنواع الدخول فى المدى الطويل: هل تميل الأجور إلى الزيادة أم الثبات؟ وهل يميل معدل الربح إلى الزيادة أم النقصان؟ وحجم الريع الذى يحصل عليه مالك الأرض، هل يميل إلى الزيادة مع زيادة السكان؟ وهل هو نوع متميز عن بقية أنواع الدخول بالنظر إلى أن ملكية الأرض لا تستند إلى بذل أى جهد أو تضحية، بعكس العمل الذى يمثل مشقة بلا شك، وربح الرأسمالى الذى يتطلب ادخارا مما ينطوى على التضحية بالاستهلاك الفورى؟ كل هذه أسئلة مهمة بلا شك، أو هكذا على الأقل بدت للبعض ابتداء من أواخر القرن السابع عشر، وزاد الاهتمام بها قوة وانتشارا مع حلول الثورة الصناعية، واستمر الاهتمام بها حتى اليوم. ولكن هذه الأسئلة ربما لم تعد تبدو لنا اليوم أسئلة «مصيرية» مثلما كانت تبدو للاقتصاديين الكلاسيك (أو التقليديين) فى بريطانيا ولقرائهم، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، عندما كان تعلم «علم الاقتصاد»، ولو فى البيت على يد مدرسين خصوصيين يستأجرون لهذا الغرض، يعتبر جزءاً أساسياً ولا غنى عنه من تعليم أى شاب يطمح إلى المشاركة فى الحياة العامة.

من المفهوم تماماً أن تثير هذه الأسئلة وأمثالها كل هذا الاهتمام فى ذلك الوقت، ولكن من المفهوم تماما أيضاً غياب هذه الأمثلة وأمثالها، غياباً يكاد أن يكون تاماً، فى القرون السابقة، أى القرون السابقة على نيوتن، والسابقة على نمو الرأسمالية الصناعية، والسابقة على هذا النمو السريع فى الطبقة الوسطى.

لم يقتصر أثر هذه التطورات الجديدة التى طرأت على الاقتصاد والمجتمع الأوروبى على إثارة أسئلة لم تكن مثارة أو لم تكن محل اهتمام كبير قبل ذلك القرن الذى نتكلم عنه، بل أدت هذه التطورات أيضاً إلى تكرار بعض الظواهر الاقتصادية بدرجة كافية تسمح وتغرى بالتعميم، أى تغرى بالبحث عن «قوانين عامة» تحكم هذه الظواهر، مثلما تحكم القوانين التى اكتشفها نيوتن كثيراً من الظواهر الطبيعية.

الذى أقصده بالقول «بتكرار بعض الظواهر الاقتصادية بدرجة كافية تسمح وتغرى بالتعميم» إنه فى هذه الفترة التى نتكلم عنها (١٦٧٦ - ١٧٧٦) اقترب النظام الاقتصادى

في بريطانيا وفرنسا من النظام الذي تعرفه النظرية الاقتصادية باسم «المنافسة الكاملة» (Perfect Competition)، ربما بدرجة أكبر مما عرفته أوروبا في أي عصر آخر. إن النظرية الاقتصادية تعتبر الشروط الأساسية لنظام المنافسة الكاملة هي كثرة عدد المنتجين والمشترين لسلعة ما لدرجة فقدان أي منتج بمفرده، أو أي مشتر بمفرده، لأي قدرة على التأثير في سعر هذه السلعة؛ والتجانس التام بين وحدات السلعة بحيث يتعذر التمييز بين وحدة وأخرى؛ وتوفر المعرفة الكاملة لدى المنتجين والمشترين بظروف السوق من حيث انعدام قدرة المنتج الواحد أو المشتري الواحد على التأثير في الثمن، ومن حيث توفر هذا التجانس التام بين وحدات السلعة؛ وأخيرا عدم وجود قيود على انضمام أي منتج جديد إلى المنتجين الحاليين. إن هذه الشروط يصعب تصور انطباقها انطباقا كاملا وبحذافيرها في أي وقت أو أي بلد، وإنما هي تمثل أحد طرفين نقيضين، وهو الطرف الذي يتحقق عنده أكبر قدر من المنافسة بين المنتجين والمشترين، بينما يمثل الطرف الآخر حالة الاحتكار الكامل (وهي أيضا حالة يصعب تحققها في الواقع تحققا كاملا) حيث يكون المنتج ذا قدرة كاملة على التحكم في المشترين كما يشاء.

لقد ذكرت أن الفترة التي نتكلم عنها، والتي نشأ فيها علم الاقتصاد، هي الفترة التي تحقق فيها نظام المنافسة الكاملة بدرجة أكبر مما عرفته أوروبا في أي عصر آخر، على أساس أن السلع الزراعية كانت لا تزال تمثل الجزء الأكبر من السلع المنتجة في أي بلد أوروبي، وهي سلع تتحقق فيها المنافسة عادة بدرجة أكبر مما تتحقق في السلع الصناعية، وأن السلع الصناعية الآخذة في النمو في تلك الفترة كانت لا تزال قريبة في طبيعتها من السلع الزراعية (كالمنسوجات مثلا)، ويقوم بإنتاجها عدد كبير من الورش الصغيرة أو العاملين في منازلهم، قبل أن تنتشر أي صورة من صور الاحتكار التي عرفتها أوروبا فيما بعد. في مثل هذه الظروف (أي عندما تقترب حالة السوق إلى هذه الدرجة من نظام المنافسة الكاملة، حيث يكثر عدد المنتجين والمشترين لنفس السلعة مع التجانس التام، أو شبه التام، بين وحدات السلعة) يمكن أن نتصور تكرر نفس النشاط الاقتصادي بنفس السمات، المرة تلو الأخرى، مما يسمح بالتعميم، أو بالبحث عن «قوانين» عامة تحكم هذا النشاط وتفسره (كمحاولة تفسير لماذا تباع هذه السلعة دائما بهذا السعر، أو لماذا يحصل العمال المنتجون لسلعة ما على هذا الأجر وليس على أجر أعلى منه أو أقل)، ويبدو النشاط الاقتصادي في هذه الحالة قريب الشبه بالظواهر الطبيعية التي تتمتع بالاستقلال عن إرادة الإنسان، ومن ثم تغري بمحاولة اكتشاف القوانين الحاكمة لها. وذلك بعكس حالة الاحتكار، حيث يستطيع المنتج الوحيد أن يتحكم في سعر السلعة بدرجة تجعل من الصعب التنبؤ بما سوف يفعله، وبالسعر الذي سيفرضه، ومن ثم تتضاءل فرصة الوصول إلى تعميم صحيح أي إلى اكتشاف قوانين اقتصادية عامة.



هكذا كانت الظروف مهيأة تماما في ذلك القرن الذي نتكلم عنه لميلاد علم جديد هو «علم الاقتصاد»: نجاح العلوم الطبيعية في الكشف عن المجهول في مسار الظواهر الطبيعية يغري بمحاولة تحقيق نجاح مماثل في الكشف عن المجهول في مسار الظواهر الاجتماعية، ومنها مختلف أوجه النشاط الاقتصادي. والنمو السريع في الصناعة وفي حجم الطبقة الوسطى يثير أسئلة جديدة تغري بمحاولة الإجابة عنها. وسيادة نمط «المنافسة الكاملة» في الأسواق يسمح بتكرر بعض الظواهر الاقتصادية عددا كافيا من المرات يغري بإمكانية التعميم، أي باكتشاف قوانين عامة تحكم هذه الظواهر.

في هذه الظروف نشأ علم الاقتصاد: مجتمع صناعي طبقي، تسوده قيم الطبقة الوسطى، أو على الأقل تزداد فيه قيم هذه الطبقة قوة ونفوذا يوما بعد يوم، وهي طبقة تسكن أساسا في المدن، ولها نظرة معينة للحياة، وتطلعات وآمال معينة فيما يتعلق بمستقبلها الاقتصادي. وقد نشأت وترعرعت في ظل تقدم سريع للعلوم الطبيعية والتكنولوجيا، فاكتسبت ثقة عالية بالعلم والعقل الإنساني وبمقدرة الإنسان على التحكم في مصيره، وفي ظل مناخ ثقافي وفكري يقدس «التنوير» ويتهكم على الميتافيزيقا، ويؤكد على تحكيم العقل في كل مناحي الحياة. وقد اقترن الصعود الاقتصادي لهذه الطبقة بوجود حافز قوي للنجاح وإثبات الذات وتحقيق مستوى أعلى للاستهلاك. ولكن هذا الصعود الاقتصادي أدى أيضا إلى صعود اجتماعي وسياسي وتحسن مركز أفراد هذه الطبقة النسبي في المجتمع، فهم مدينون إذن لتقدمهم الاقتصادي بتقدمهم في مختلف جوانب الحياة الأخرى، كما أنهم مدينون في تقدمهم الاقتصادي وغير الاقتصادي، لجهودهم الخاصة وليس لجهود غيرهم أو جهود الدولة.

من السهل أن نرى أن هذه الظروف التي نشأ وترعرع فيها علم الاقتصاد ظروف خاصة جدا، ذات سمات اقتصادية واجتماعية وثقافية وتكنولوجية معينة، لبلاد بعينها، في فترة تاريخية محددة، ومن الصعب تصور تكررها بحذافيرها في بلاد أخرى أو فترات تاريخية مختلفة. فإذا كان الأمر كذلك، فكيف لا نتوقع ألا تكون لعلم الاقتصاد الذي نشأ في هذه الظروف، سمات معينة تعكس هذه الظروف وتتلون بلونها؟ هذا هو بالفعل ما يجب أن نتوقعه. ولكن من المهم أيضا أن نلاحظ أن هذه السمات قد لا تكون لها أي علاقة بالعلم كما نفهمه، أو بالموضوعية أو بالحياد، بل من الممكن جدا أن تكون سمات تعكس تحيزات وأهواء مجتمع معين، أو تحيزات طبقة معينة داخل المجتمع، نمت وترعرعت في ظروف بعينها فاكتسبت تحيزاتها وأهواءها من هذه الظروف. هذا هو بالضبط ما نميل إليه ونرمي إلى توضيحه هنا. وهذه السمات الخاصة والتي اكتسبها علم الاقتصاد من ظروف نشأته ولايزال يتسم بها حتى الآن.



(١) هناك أولا ذلك الميل القوي لدى الاقتصادي إلى افتراض العقلانية، أي افتراض أن الإنسان في سلوكه الاقتصادي، مستثمرا أو منتجا أو مستهلكا، لا يحتكم إلا لمقتضيات العقل: بجمع المعلومات اللازمة لاتخاذ القرار الصحيح، ويقارن بين منافع كل قرار ممكن وبين نفقاته أو أعبائه، ويتخذ القرار الذي يحقق أقصى نفع صاف، بعد طرح النفقات والأعباء. هذه هي صورة «الإنسان الاقتصادي» (Economic Man) الذي ظهر على استحياء لأول مرة على يد الاقتصاديين الأوائل الذين مهدوا الطريق لآدم سميث، ثم اتضحت صورته على يد سميث، ثم بلغت أقصى درجة من الوضوح على يد الكلاسيكيين المحدثين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. هذا «الإنسان الاقتصادي»، كما صوره الاقتصاديون، هو نموذج مجرد للإنسان، مجرد من أي دوافع عدا دافع تعظيم الفارق بين العوائد والنفقات، فهو إنسان بلا عواطف ولا تاريخ ولا ذكريات ولا وطن ولا أسرة، إنه إنسان «اقتصادي» فحسب، فكيف لا يكون العقل، والعقل وحده، هو محركه؟

قد يكون افتراض العقلانية ملائما لدراسة النشاط الاقتصادي بالذات أكثر من ملاءمته لغيره من أنواع النشاط الإنساني، حيث إنه نشاط يلعب فيه هدف تعظيم النفع الصافي دورا أكبر من غيره، ويمكن قياسه بالنقود أكثر مما يمكن في غيره، ومن ثم يمكن القول: بأن افتراض العقلانية في دراسة النشاط الاقتصادي، ليس قرارا تحكميا نشأ في ظروف تاريخية معينة، بل هو قرار ضروري فرضته طبيعة النشاط الاقتصادي، ومن ثم لا مجال هنا للكلام عن «تحيز» بعض الاقتصاديين أو خضوعهم لأهواء وأفكار مسبقة فرضتها عليهم ظروف نشأة هذا العلم. ولكن من الممكن الرد على هذا القول بالإشارة إلى مختلف أنواع «اللاعقلانية» التي تحكم تصرفات المستهلكين وقراراتهم سواء تعلقت بنوع السلع والخدمات التي يقبلون على شرائها، أو الكميات التي يشترونها منها، والأسعار التي يقبلون أو يرفضون دفعها. بل حتى المستثمرين والمنتجين، الذين تبدو قراراتهم أكثر



هذا التحيز وهذه الأفكار المسبقة لابد أن تكون لها جذور في ظروف النشأة التاريخية لعلم الاقتصاد



«عقلانية» بالمعنى المتقدم، كثيرا ما يتخذون قراراتهم بناء على اعتبارات عاطفية أو تاريخية لا تتفق مع مقتضيات «تعظيم العائد الصافى»، على النحو الذى سنبينه بالتفصيل فى الفصلين المتعلقين بالإنتاج والاستهلاك.
فإذا كان هذا صحيحا، ألا يبدو تركيز الاقتصادى على بحث الجوانب «العقلانية» للنشاط الاقتصادى، نتيجة تحيز أو أفكار مسبقة؟
هذا التحيز وهذه الأفكار المسبقة لابد أن تكون لها جذور فى ظروف النشأة التاريخية لعلم الاقتصاد، والتى ذكرنا بعضها بإيجاز فيما تقدم: ظروف اجتماعية وثقافية تتسم بتقديس العقل، حتى أطلق بعض المؤرخين على ذلك العصر الذى نشأ فيه علم الاقتصاد «عصر العقل» (The Age of Reason)، وبثقة بالغة بقدرة العقل على كشف أسرار السلوك الإنسانى، وبوجود سبب «عقلى» للظواهر الاجتماعية. أضف إلى ذلك الافتتان بدرجة الدقة التى بلغها علماء الطبيعة، وطموح المشتغلين بالدراسات الاجتماعية إلى بلوغ نفس الدرجة من الدقة واليقين، ولكن هذه الدقة وهذا اليقين لا يمكن بلوغهما إلا بافتراض «العقلانية»، إذ إن اللاعقلانية لابد أن تطيح بكل النتائج وتجعل التعميم مستحيلا أو شبه مستحيل، ناهيك عن التعميم القابل للتعبير عنه بالأرقام.
(٢) هناك ثانيا، الميل القوى أيضا لدى الاقتصادى إلى افتراض أن الإنسان لا تحركه إلا مصلحته الخاصة. لا شك أن مثل هذا الزعم لو كانت قد بلغت بأحد الجرأة على القول به فى أحد قرون العصر الوسيط فى أوروبا، لاعتبر منه ذلك إمعانا فى اللا أخلاقية، فضلا عن اعتباره مخالفا تماما للحقيقة. فالشيطان وحده هو الذى يمكن أن يسعى إلى تحقيق مصلحته الخاصة ولو كانت متعارضة مع أوامر الله ومصالح سائر الناس. وهكذا عندما قال الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز بذلك فى منتصف القرن السابع عشر اعتبر ذلك أيضا جراءة شديدة، ومع ذلك فقد راج كتابه رواجا شديدا ورحب به الكثيرون وتأثروا به. كانت أوروبا قد بدأت تتغير وبدا من الممكن الكلام عن الإنسان بوجه عام وكأنه فى مختلف تصرفاته تحكمه نفس الدوافع التى تحكم رب العمل المشتغل بالتجارة أو الصناعة فى سعيه إلى تحقيق أقصى ربح. فلما قال آدم سميث شيئا مماثلا بعد هوبز بمائة عام، واعتبر السعى إلى تحقيق المصلحة الخاصة الأساس الذى يقوم عليه النظام











الاقتصادى بأكمله، اعتبر كتاب سميث الكلمة النهائية فى الأمر، ولايزال هذا المبدأ يعتبر حتى الآن أساس الفلسفة الاقتصادية التى يتبناها الاتجاه الغالب فى علم الاقتصاد.
لاشك فى أن الجاذبية التى يتمتع بها هذا المبدأ (أو هذا الافتراض)، والتى تدفع الكثيرين إلى قبوله دون تردد، ترجع إلى أمرين: أولهما كثرة الحالات التى يتحقق فيها، أى كثرة الحالات التى يبدو فيها أن الإنسان يسعى بالفعل إلى تحقيق مصلحته الخاصة ولو تعارضت مع مصالح غيره، وثانيهما أن هذا المبدأ يمكن أن يفهم (ويصاغ) على نحو يجعله صحيحا دائما، وذلك إذا فهم بمعنى أن الإنسان إذا ووجه بالاختيار بين عدة أمور فسوف يختار دائما ما يرضيه أو ما يرتاح إليه. ولكن فهم مبدأ السعى إلى تحقيق المصلحة الخاصة على هذا النحو، لا يجعل هذا المبدأ صحيحا دائما إلا بسبب كونه بديهيا، إذ إنه لا يختلف عن القول: بأن الإنسان يختار دائما ما يفضله، أو أنه يفضل ما يختاره، وهو قول صحيح لأنه بمثابة «تعريف الماء بعد الجهد بالماء». ولكننا متى صرفنا النظر عن هذا الفهم لمبدأ السعى لتحقيق المصلحة الخاصة نجد أنه ليس دائما صحيحا.
فما أكثر ما يختار المرء سلوكا معينا، ولو أنه يحدث بعض الضرر به شخصيا، لمجرد أنه فى صالح فرد آخر يهمه أمره، أو جماعة يريد خدمتها، أو بسبب اعتناقه لمبدأ يؤمن به. لقد ولد كل منا ولديه استعداد طبيعى للتصرف على النحو الذى يضمن له البقاء، وهذا قد يدفعنا فى معظم الأحوال إلى تفضيل المصلحة الخاصة على مصالح الغير، ولكن كلا منا يولد أيضا ولديه استعداد طبيعى لحماية الجماعة التى ينتمى إليها ويحقق لها البقاء والاستمرار، وهذا قد يدفع المرء فى حالات كثيرة إلى تفضيل مصلحة الغير على مصلحته الخاصة. بل حتى هدف حماية المرء لنفسه وضمان بقائه هو كفرد، قد يدفعه فى كثير من الأحيان إلى التضحية بمكاسب شخصية مباشرة من أجل أن يكسب رضا الآخرين عنه، أو محبتهم له، أو من أجل حثهم على الدفاع عنه. فى هذه الحالة قد تكون التضحية ببعض المصالح الخاصة شرطا لتحقيق مصالح خاصة أخرى أكثر أهمية ولكنها لا تتحقق إلا فى الأجل الطويل.
إذا كان كل هذا صحيحا فليس هناك فيما يبدو ما يجبر الاقتصادى على افتراض الأنانية كمحرك للسلوك الاقتصادى، اللهم إلا تحيز وأفكار مسبقة اكتسبها فى فترة معينة من تاريخ هذا العلم، هى فترة بزوغ الرأسمالية الصناعية حينما رحبت البورجوازية الصاعدة بأى نوع من الكتابة يعيد رسم العالم فيجعله يتخذ صورة البورجوازى الصاعد نفسه، بكل بواعثه وطموحاته.
(٣) لا يكتفى الاقتصادى بافتراض أن الأنانية هى الباعث الأساسى للسلوك الاقتصادى بل إنه وجد دائما من السهل أن يفترض أن سعى المرء لتحقيق مصلحته الخاصة يؤدى دائما إلى تحقيق المصلحة العامة للمجتمع ككل.
عندما نشر الكاتب الفرنسى ماندفيل B. Mandeville فى سنة ١٧١٤ كتابا بعنوان «خرافة النحل» (The Fable of the Bees)، أعطى له عنوانا فرعيا هو «الرذائل الخاصة منافع عامة» (Private Vices Public Benefits) وهذا العنوان الفرعى يلخص فكرته الأساسية: وهى أن الإنسان وهو يسعى إلى تحقيق مصالحه الخاصة، مدفوعا ببواعث أنانية بحتة (وهذه هى الرذائل الخاصة)، إنما يحقق فى نفس الوقت مصلحة للمجتمع ككل (منافع عامة).
فالرجل الثرى إذ ينفق ماله على ملذاته الخاصة، لا يستهدف بذلك إلا إشباع حاجاته الخاصة التى قد تكون محض رذائل، ولكنه يخلق بهذا الإنفاق فرص عمل جديدة للعمال المتعطلين، وهى نتيجة مفيدة لغيره لم تكن قط هدفا من أهدافه.
كان قول مثل هذا الكلام فى ذلك الوقت (أوائل القرن الثامن عشر) يعتبر فى حد ذاته «رذيلة»، إذ إنه ينطوى على تقديم تبرير ما لإطلاق العنان لإشباع رغبات الإنسان الخاصة، مهما كانت شريرة، بحجة أنها تؤدى إلى تحقيق بعض النفع لأشخاص آخرين، وهذا موقف يستنكره الدين وتأباه الفضيلة. لا عجب أن استقبل الكتاب فى وقته بالهجوم الشديد والتشهير بصاحبه الذى كان اسمه يعطى الفرصة لهذا التشهير، فبدلا من «ماند فيل» كان ينطق الاسم (مان ديفيل) (Man-Devil) الذى يعنى بالإنجليزية (الرجل الشيطان).

هذه المقولة التى سببت كل هذا الهجوم على ماندفيل، كانت هى نفسها إحدى المقولات الأساسية التى جلبت المجد لآدم سميث عندما قالها فى كتابه «ثروة الأمم»، بعد ماندفيل بستين عاما. لا بد أن من بين أسباب هذا الاختلاف فى معاملة الرجلين، أن سميث كان يكتب كلاما «أكاديميا»، لقراء من الخاصة، بينما كان ماندفيل يخاطب جمهورا أوسع. ولكن لابد أن كان من أسباب اختلاف المعاملة أيضا ما حدث فى بريطانيا خلال هذه الستين عاما، إذ لا شك أن التطورات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، التى ألمحت إلى بعضها، قد هيأت الأذهان، أكثر مما كانت مهيأة من قبل، لقبول هذه الفكرة الجديدة: «دع الناس يتصرفون بحرية، ولا تحاول كبح جماح الباعث الخاص، فإنك إذا فعلت هذا تضر بمصلحة المجتمع ككل».

هذه الفكرة البسيطة هى فى الحقيقة أحد الأعمدة الأساسية التى قام عليها الفكر الرأسمالى بأسره، ولا يزال يستند إليها حتى اليوم، ولكنها ليست أقرب إلى «العلم» من ضدها، أى من القول بأن مصلحة الفرد كثيرا ما تتعارض مع مصلحة المجتمع ككل. صحيح أن قيام الرأسمالى بالادخار والاستثمار قد يؤدى إلى تشغيل بعض العمال المتعطلين، ولكن ألا يمكن أن يؤدى إلى إحلال الآلات محل بعض العمال فيزيد بذلك حجم البطالة؟ صحيح أيضا أن المنافسة الكاملة قد تضطر الرأسمالى إلى أن يرفع مستوى الأجر الذى يدفعه للعامل إلى أعلى مما كان يرغب فى دفعه، ولكن ألا يحدث العكس فى ظل الاحتكار؟ الأمثلة إذن كثيرة على تعارض المصلحة الخاصة مع المصلحة العامة، كما أن الأمثلة كثيرة أيضا على اتفاق المصلحتين. فما الذى دفع آدم سميث ومن بعده بقية الاقتصاديين الكلاسيك (ومن قبله ماندفيل) إلى التأكيد على الاتفاق بدلا من التعارض إلا تحيز ما، وميل مسبق لم يكن مصدرهما العلم، بل مصادر أخرى لا صلة لها بالعلم؟

(٤) من حسن حظ الإنسان (أم الأصح أن نقول: من سوء حظه؟) أن ذهنه لا يتلقى من العالم الخارجى صورة هى طبق الأصل بالضبط، مثلما تنقل الآلة الفوتوغرافية صورة العالم، بل يتلقى الذهن ما تتلقاه الحواس بصورة معدلة أو محرفة أو ملونة. ويمكن أن يتخذ هذا التعديل أو التحريف أو التلوين أشكالا متعددة تشبه فى اختلافها، الفروق التى نجدها بين المدارس المختلفة فى الرسم. فهناك المدرسة التى ترى الأشياء وكأنها «مكعبات»، وهناك المدرسة التى ترى الأشياء وكأنها تتكون من ذرات صغيرة، وأخرى ترى الأشياء قاتمة وكأنها ترى من خلال سحابة أو غمامة، ولكن هناك أيضا المدرسة «الواقعية» التى ترى الأشياء كما تنقلها الآلة الفوتوغرافية. لابد أن نتوقع أن يوجد اختلاف فى التصور العقلى للإنسان وتصرفاته، يماثل هذا الاختلاف فى تصور العالم المادى. وقد كان الفيلسوف الفرنسى ديكارت Decartes من أوائل من رأى فى الإنسان شيئا شبيها جدا بالآلة، وسار فى هذا الاتجاه عدة فلاسفة بعد ديكارت، مثل هوبز، الذى قال: إن الحياة ليست إلا «حركة الأطراف»، والقلب ليس إلا لولبا (زنبرك)، والأعصاب خيوط أو حبال. كما أن من الممكن أن نلمس اتجاها مماثلا لدى الرواد الأوائل لعلم الاقتصاد، وعلى الأخص لدى آدم سميث، ولكن هذا الاتجاه ظل سمة ثابتة من سمات علم الاقتصاد حتى اليوم، بل وربما مع تزايد فى القوة.

لا يمكن لأحد أن ينكر وجود بعض أوجه الشبه بين الإنسان والآلة، ومن ثم وجود بعض أوجه الشبه أيضا بين السلوك الاقتصادى للإنسان، وسلوك الآلة. الآلة تكرر نفس العمل بحذافيره المرة بعد الأخرى، وكذلك قد يفعل الإنسان. الآلة تعمل بغير تفكير، وكذلك يفعل الإنسان أحيانا، أو هكذا يبدو لنا أحيانا. الآلة قد تستقبل المادة الأولية، وقد تخلطها أو تمزجها بمواد أخرى، ثم تخرج ما دخل فيها فى صورة مختلفة بعض الشىء عن الصورة التى كانت عليها عند دخولها، دون إضافة مهمة من الآلة نفسها غير هذه العملية من الخلط أو المزج، وكذلك قد يفعل الإنسان، عندما يقتصر دوره على إخراج ما استقبله دون إضافة مهمة من جانبه. سلوك الآلة منضبط ويمكن التنبؤ به، وكذلك سلوك الإنسان أحيانا. وهكذا يمكن ذكر أوجه شبه متعددة بين الآلة والإنسان. ولكن من المؤكد أن الإنسان كثيرا أيضا ما يتصرف تصرفا «غير آلى»، لسبب بسيط وهو أن الإنسان بعكس الآلة كائن حى. فالإنسان أقل قدرة من الآلة على تكرار نفس العمل بحذافيره، بل قد يجد فى هذا التكرار عملية ممضة ومؤلمة لمنافاتها لطبيعته. والإنسان أيضا أقل قدرة من الآلة على الحفظ، وإعادة إخراج ما حفظ كما هو دون أن يختلط بشىء من نفسه ولو كان مجرد «الخطأ»، وهذا الخطأ هو مظهر من مظاهر ضعف الإنسان ومن مظاهر قوته فى نفس الوقت. والإنسان بعكس الآلة كائن عاطفى يصعب أو يستحيل عليه ألا يخلط المعلومات التى يستقبلها بتجاربه وذكرياته ومن ثم ألا يتخذ «موقفا» من هذه المعلومات. «فالتحيز» إذن، كما رأينا، من طبيعة الإنسان ولكنه ليس من طبيعة الآلة.

لسبب ما، مع ذلك، أو لعدة أسباب، مال الاقتصاديون منذ أيام النشأة الأولى لعلم الاقتصاد إلى النظر إلى الإنسان وكأن أوجه الشبه بينه وبين الآلة، أهم من أوجه الاختلاف. ومن الطريف أن نلاحظ المفارقة الصارخة بين هذا الميل لدى الاقتصاديين فى هذه الفترة، إلى النظر إلى الإنسان الحى وكأنه آلة لا حياة فيها، وبين الميل العكسى بالضبط لدى فلاسفة الإغريق القدماء عندما كانوا كثيرا ما يتكلمون عن الجماد أو النبات وكأنه ذو إرادة كالإنسان، فيتكلمون مثلا عن «نزوع» الثمرة إلى السقوط على الأرض! هل كان السبب فى ظهور هذا الميل لدى رواد علم الاقتصاد هو انبهار الناس بالآلة فى بداية العصر الصناعى الحديث، وافتتانهم بقدراتها، فمالوا إلى تعظيم هذا الجانب فى الإنسان على حساب الجوانب الإنسانية البحتة؟ أم السبب أن التركيز على الصفات «الآلية» فى الإنسان يسمح بالوصول إلى تعميمات أكثر دقة ويسمح بالقول بوجود «قوانين» تحكم السلوك الإنسانى، أشبه بتلك التى تحكم سلوك الظواهر المادية، (بما فى ذلك سلوك الآلة نفسها)، بعكس الجوانب الإنسانية البحتة التى يؤدى الاعتراف بها أو تأكيدها إلى صعوبة صياغة قوانين منضبطة عن السلوك الإنسانى وإلى صعوبة أو استحالة التنبؤ به؟

أيا كان السبب فهذا هو ما حدث: مال الاقتصاديون أكثر فأكثر، منذ نشأة علم الاقتصاد وطوال القرون الثلاثة التالية، إلى صياغة تعميمات وقوانين عن السلوك الاقتصادى يبدو الإنسان فيها وكأنه شىء شبيه بالآلة، يفتقد المشاعر والتعاطف مع الغير كما يفتقد القدرة على التخيل، بل وحتى الإرادة.

هكذا يبدو المستثمر الذى يتخذ ميدان استثماره بناء على اعتبارات تعظيم الربح وحدها، والمنتج عندما يتخذ قراراته المتعلقة بالكمية التى يقوم بإنتاجها والسعر الذى يبيعها به، والمستهلك الذى يختار السلع والكميات التى يشتريها بناء على اعتبارات لا تختلف كثيرا عن اعتبارات تعظيم الربح لدى المنتج، وهى اعتبارات «تعظيم المنفعة». وهكذا تصور الاقتصاديون شيئا سموه «نظام السوق»، الذى هو حصيلة تفاعل إرادات المنتجين والمستهلكين، ولكنه يعمل وكأنه مدفوع بقوة عمياء ليصل إلى نتيجة مستقلة عن كل هذه الإرادات. «فالسوق»، الذى لا يعنى مكانا بعينه يلتقى فيه المنتجون والمشترون، يعمل بصورة تلقائية، ولا يتأثر بأى إرادة منفردة لهذا المنتج أو هذا المشترى بالذات، بل يعكس بشكل «محايد» تماما محصلة اجتماع إرادات المنتجين والمشترين جميعا، كما يعبر عنها «جهاز الثمن» (price mechanism)، وهو «جهاز» محايد بدوره، يعمل بطريقة أتوماتيكية، بمعنى أنه مجرد من أى صفة من الصفات الإنسانية، فلا يخرج منه أكثر مما دخل فيه. فإذا حدث وطرأ عليه تغير بسبب تغير أحد العوامل المؤثرة فيه (من عوامل العرض أو الطلب) استجابت على الفور عناصر أخرى فى هذا الجهاز، كما يحدث فى أى جهاز مادى، مما يدفع الثمن إلى التوازن (equilibrium) من جديد، ولو عند مستوى مختلف عن مستواه الأصلى. هذا المستوى الجديد للثمن، الذى قال آدم سميث إن الثمن لابد أن «ينجذب إليه» (gravitate)، يستقر عنده الثمن ما لم يطرأ تغير جديد على أحد العناصر المحددة له. الإرادة الإنسانية إذن غائبة تماما أو شبه غائبة، مما يجعل من الممكن صياغة قوانين عامة عن السلوك الاقتصادى



مال الاقتصاديون منذ أيام النشأة الأولى لعلم الاقتصاد إلى النظر إلى الإنسان وكأن أوجه الشبه بينه وبين الآلة، أهم من أوجه الاختلاف



ويسمح بالتنبؤ بسلوك الإنسان فى المستقبل.

هذا هو فى رأيى أحد الأسباب الرئيسية وراء الاستقبال الحافل الذى لقيه كتاب آدم سميث «ثروة الأمم»، والمكانة التى ظل يحتلها بعد ذلك بين الاقتصاديين. فقد دشّن هذا الكتاب بدرجة عالية من الشمول والكفاءة، هذه النظرة الجديدة للسلوك الاقتصادى، التى يمكن وصفها بالنظرة الميكانيكية، حيث يبدو فيها السلوك الاقتصادى أشبه بسلوك الآلة منه فى أى تصوير سابق. وفى مناخ بدأت تهب فيه رياح الثورة الصناعية، وتحتل فيه اكتشافات نيوتن تلك المكانة العالية، وتشيع فيه الرغبة فى اكتشاف قوانين تحكم سير المجتمع وتشبه تلك التى تحكم الظواهر الطبيعية، كان لابد أن يتمتع كتاب مثل كتاب ثروة الأمم بكل هذا الاهتمام.

ولكن لحسن الحظ أن هذه ليست هى النظرة الوحيدة الممكنة للسلوك الاقتصادى، وقد دفع دارسو علم الاقتصاد ثمنا باهظا فى رأيى لانسياقهم وراء هذه النظرة. فإذا كانت هذه النظرة الميكانيكية للسلوك الاقتصادى قد سمحت للاقتصادى بأن يصوغ قوانين أكثر دقة، فإنها كثيرا ما جعلته، فيما يبدو لى، أبعد عن الواقعية وأقل حكمة. لقد قيل مرة عن الاقتصادى: إنه بدلا من أن يقنع بأن يقترب بشكل عام من الحقيقة فيعطينا صورة تقريبية لها (broadly correct) حتى ولو لم يصبها كلها، انتهى إلى نتائج بالغة الدقة ولكنها خاطئة، (precisely wrong) وهو وصف صحيح فى رأيى لكثير من بحوث الاقتصاديين ونظرياتهم.

لقد سبق أن ذكرت دأب الاقتصاديين على افتراض العقلانية فى السلوك الاقتصادى، وأنه افتراض أسهم فى إبعاد التحليل الاقتصادى عن الواقع، ولكن هناك أيضا افتراض القابلية للتجزئة، سواء فى سلوك المستهلك أو المنتج، وهو افتراض قد يصف الحقيقة فى الظواهر المادية ولكنه بعيد عن حقيقة الكائنات الحية. والاقتصادى يفترض أيضاً أن قدرة الإنسان على جمع المعلومات عن السلع المعروضة عليه، وعلى المقارنة بين أسعارها وأنواعها، قدرة لا نهائية، والواقع يدل على غير ذلك، فالإنسان ليس لديه قدرة الكومبيوتر على تخزين المعلومات وترتيبها وتصنيفها. والاقتصادى يفترض أن قدرة الإنسان على تعظيم (maximization) بعض المنافع لا تضر بقدرته على التمتع بمنافع أخرى، وهذا شىء قد يتوفر فى الأشياء غير الحية ولكنه لا يتوفر فى الإنسان. والاقتصاديون كثيرا ما يتبنون مفهوماً معيناً لفكرة العدالة، يجعلها مرادفة «للمساواة». ولكن المساواة، وإن كانت كثيراً ما تصلح هدفا فى التعامل مع الأشياء المادية المتماثلة، قد لا تكون شيئا مرغوبا فيه فى التعامل مع الكائنات الحية المختلفة فيما بينها فى صفاتها واحتياجاتها. والاقتصادى يتبنى مقياسا معينا «للكفاءة» (efficiency) هو النسبة بين العائد والنفقات، باعتبار كل من العائد والنفقات ذا طبيعة واحدة، ومن ثم يمكن إخضاعهما لمقياس واحد، والمقارنة بينهما، وطرح أحدهما من الآخر. ولكن فى الكائنات الحية كثيرا ما يكون العائد والنفقات من طبيعتين مختلفتين، فلا يمكن إخضاعهما لمقياس واحد، بل قد يكون أحدهما أو كلاهما غير قابل للقياس أصلا. وقد تتعدد المنافع الناتجة من عمل واحد، ويستحيل جمع هذه المنافع بعضها إلى بعض أو حتى مقارنة بعضها ببعض، وقد يكون للعمل الواحد منافع وأضرار ولا توجد وسيلة لطرح الأضرار من المنافع.. إلخ.

إن الحكم على «كفاءة» سلوك اقتصادى معين أو عدم كفاءته، قد يحتاج إلى إدخال اعتبارات أخرى غير مجرد جمع وطرح الأعباء والمنافع المالية، أو مالا يمكن تقديره بالمال من الأعباء والمنافع. فإذا اقتصرنا على هذه الأعباء والمنافع التى يمكن تقديرها بالمال وحدها، فإن حكمنا «بالكفاءة» أو عدم الكفاءة قد يكون قاصراً بشدة، وقد يؤدى بنا إلى سياسة اقتصادية بعيدة عن الحكمة.

من بين نتائج هذه النظرية الميكانيكية للسلوك الاقتصادى: الميل إلى تفضيل اعتبار «الفرد» الوحدة الأساسية للدراسة، وهو الفرد الذى لا أسرة له ولا أمة، إذ يسهل فى هذه الحالة، أكثر من غيرها، قبول مفهوم الكفاءة بالمعنى الميكانيكى الضيق. لا عجب أن من الأمثلة المحببة لدى الاقتصاديين فى شرح مفهوم الكفاءة والسلوك الاقتصادى بوجه عام، مثال روبنسون كروزو، ذلك الفرد الذى وجد نفسه منعزلا فى جزيرة، وكانت مشكلته الوحيدة الوصول إلى أقصى حجم ممكن من الناتج من استخدام موارد محدودة، بما فى ذلك الوقت المحدود، أو تخفيض حجم الموارد المستخدمة إلى أقل حجم ممكن، بما فى ذلك الوقت المستخدم، لإنتاج كمية محددة من منتج ما. ومن نتائج هذه النظرة الميكانيكية للسلوك الاقتصادى أيضاً، الميل إلى عزل الظاهرة الاقتصادية عن بقية الظواهر الاجتماعية، ودراستها وكأنها منفصلة عن بقية الظواهر ولا تتأثر بها، وقد ترتب على ذلك «استقلال» مشكوك فى نفعه، لعلم الاقتصاد عن بقية العلوم الاجتماعية. ■

كتاب الزاوية



كيمياء السعادة

أبو حامد الغزالي

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الشافعي الطوسي. أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر المفكرين في التاريخ الإسلامي. ولد بقرية «غزالة» القريبة من طوس من إقليم خراسان عام (٤٥٠هـ ـ ١٠٥٨م)، وإليها نسب.

نشأ الغزالي في بيت فقير لأب صوفي لا يملك غير حرفته، وحينما حضرته الوفاة عهد إلى صديق له متصوف برعاية ولديه، وأعطاه ما لديه من مال يسير، وأوصاه بتعليمهما وتأديبهما.

درس الغزالي في صباه على عدد من العلماء والأعلام، أخذ الفقه على الإمام أحمد الرازكاني في طوس، ثم سافر إلى جرجان فأخذ عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي، وعاد بعد ذلك إلى طوس حيث بقي بها ثلاث سنين، ثم انتقل إلى نيسابور والتحق بالمدرسة النظامية، حيث تلقى فيها علم أصول الفقه وعلم الكلام على أبي المعالي الجويني إمام الحرمين ولازمه فترة ينهل من علمه ويأخذ عنه حتى برع في الفقه وأصوله، وأصول الدين والمنطق والفلسفة وصار على علم واسع بالخلاف والجدل. وكان الجويني لا يخفي إعجابه به، بل كان دائم الثناء عليه والمفاخرة به حتى إنه وصفه بأنه «بحر مغرق».

توفي أبو حامد عام ٥٠٥ هـ، ١١١١م، في مدينة طوس، عن عمر بلغ خمسة وخمسين عاما، وترك تراثا صوفيا وفقهيا وفلسفيا كبيرا، بلغ ٤٥٧ مصنفا ما بين كتاب ورسالة، كثير منها لا يزال مخطوطا، ومعظمها مفقود.

من أهم مؤلفاته: «إحياء علوم الدين» و«تهافت الفلاسفة» أما رسالته هذه «كيمياء السعادة» فكان قد كتبها بالفارسية قبل أن يصير إلى ترجمتها.

إنفاق مذهل وعائد هزيل!

كم ينفق المصريون على التعليم ؟

حامد عمار

■■ لسوف يذهل قارئ هذا الكتاب كما تولانى الذهول بأن مجموع ما تحملته الأسرة المصرية خلال عام ٢٠٠٤/٢٠٠٥ قد تراوح ما بين ٣٧ مليار جنيه كحد أدنى، و٥٤ مليار جنيه كحد أعلى حسب مشهد السيناريو المنخفض أو المرتفع أو ما بين هذين الرقمين. ومع إضافة ما تنفقه الدولة فى نفس السنة يتراوح الإنفاق المجتمعى العام (للدولة والأسرة) ما بين ٦٣ مليارا إلى ٨٠ مليارا من الجنيهات -إنفاق مذهل وعائد هزيل!!.



تتفرد هذه الدراسة بشموليتها -كما سيتضح فيما بعد- بالنسبة للدراسات التى اقتصرت فى معظمها على التركيز على تحليل الإنفاق الحكومى من الموازنة العامة للدولة، أو من الناتج المحلى الإجمالى، أو على تكلفة تعليم الطالب، أو على مصروفات التعليم الخاص، أو غيرها مما اقتصرت عليه مرحلة تعليمية محددة.

وأيًا ما كانت مستويات الإنفاق على التعليم ومنهجية قياسها، فإن تنمية الثروة البشرية التى تقع فى المقام الأول على كاهل مؤسسات الدولة التعليمية قضية لا تقتصر فى قياسها على حسابات التكلفة، وإنما تقدر كذلك بالناتج النهائى المتمثل فى إعداد المواطن الذى ينشده المجتمع من الخريجين فى مختلف مراحل التعليم. وهذا يعنى ضمن ما يعنيه كم ونوع التعليم الذى يتاح لكل مواطن. ومن المؤشرات فى هذه الدلالة تقدير مدى ما يتعرض له الإنسان المصرى من سنوات التعليم والذى لا يزيد فى المتوسط على خمس سنوات ونصف فى تعليم مؤسسى منظم وذلك مع أحسن التقديرات. وهذا عدد متدن من السنوات فى الوقت الذى يبلغ فيه متوسط سنوات التعليم فى الدول

مجموع ما أنفقته الأسر المصرية على التعليم خلال عام ٢٠٠٤/٢٠٠٥ تراوح ما بين ٣٧ و ٥٤ مليار جنيه

المتقدمة ما يتجاوز تسع سنوات، إذ الحد القياسى الأقصى المستخدم عشر سنوات تعليمية.

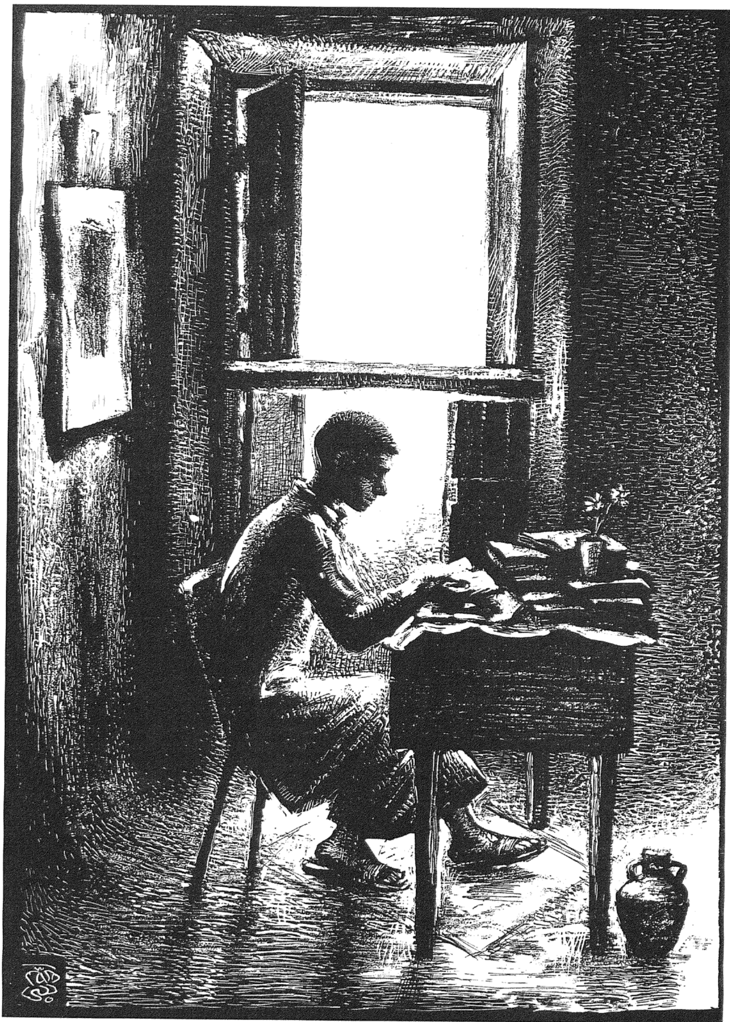
إن ذلك المؤشر انعكاس للقصور فى معدلات القيد والاستيعاب الكمى فى مختلف مراحل التعليم حسب بيانات عام ٢٠٠٥/٢٠٠٦، فمعدل القيد الإجمالى فى مرحلة رياض الأطفال (أى الفئة العمرية من ٤ - أقل من ٦ سنوات من مجمل هذه الفئة فى مجموع السكان) لا يتعدى ١٨٪. وفى التعليم الأساسى الإلزامى فى حلقته الابتدائية يبلغ معدل القيد الصافى للفئة العمرية من (٦-١١ سنة من السكان) حوالى ٩٦٪؛ أى بعدم التحاق ٤٪ من هذه الفئة من الأطفال فى المدرسة الابتدائية أو تسربوا منها، وهذه النسبة تقدر بحوالى ٤٨٠٠ طفل. وفى الحلقة الثانية فى التعليم الإعدادى (للفئة العمرية من ١٢ إلى ١٥ سنة يصل المعدل إلى حوالى ٩٦٪ وهذا يعنى أن (٥,١) مليون طفل لا يواصلون تعليمهم بعد المرحلة الابتدائية. وفى التعليم الثانوى بقسميه العام والفنى يتدنى معدل القيد للفئة العمرية من (١٥-١٨) إلى حوالى ٧٨٪، وهذا يعنى أن حوالى مليون من الشباب فى هذه السن يتوقف عند المرحلة الإعدادية. وتصل النسبة إلى حوالى ٣٠٪ من الفئة العمرية (١٨-٢٢ سنة) من الملتحقين بالجامعات والمعاهد العليا والمعاهد الفنية المتوسطة. وهذه نسبة متدنية أيضًا إذا ما قورنت بالدول المتقدمة أو ببعض دول جنوب وشرقى آسيا .



وهذه الإلمامة السريعة بمعدلات القيد تبرز مدى القصور الكمى فى حركة المنظومة التعليمية فى استيعابها الكمى للأطفال والشباب الذين ينبغى أن يتمتعوا بحق التعليم للجميع. ولعلنا نتذكر أيضًا أن نسبة الأمية تقدر بحوالى ٢٩٪ بين الكبار (١٠سنوات فما فوق). ويسوقنا هذا إلى ما تنفقه الدولة فى نفس العام (٢٠٠٥/٢٠٠٦) من



كم ينفق المصريون على التعليم؟
عبدالخالق فاروق
دار العين للنشر ـ القاهرة ٢٠٠٨



كم ينفق المصريون على التعليم ؟



الميزانية العامة السنوية والذى يقدر بحوالى ٢٨ مليارا، وهو فى حجمه المطلق أعلى رقم بلغته منذ بداية هذا القرن، مع أنه يعتبر من أدنى الأنصبة المخصصة للتعليم بالنسبة للإنفاق الحكومى السنوى العام خلال تلك الفترة، وهى نسبة (١٤٪) من ذلك الإنفاق العام، ويصل نصيب التعليم العالى إلى حوالى ٣٠٪ من الميزانية العامة المخصصة لقطاع التعليم، أو حوالى ٤,٣ ٪ من الإنفاق العام. وتلك النسبة من الإنفاق الحكومى من الميزانية العامة على التعليم بمختلف مراحله تعتبر أيضًا بمقارنتها مع الدول المتقدمة وكثير من الدول النامية وحتى مع بعض الدول العربية نسبة متدنية، حيث يبلغ متوسط نسبة تلك الدول ما بين ٢٠٪-٢٢٪ من ميزانيتها السنوية ويترتب على ذلك الإنفاق المتواضع فى مصر أن تكون تكلفة التعليم بالنسبة للطالب فى المرحلة الابتدائية ٢٨٢ جنيهـًا، والإعدادية ٤٠٥ جنيهات، والثانوية ١٤٨٩ جنيهًا، والعالى حوالى ٣٥٠٠ - ٥٠٠٠ جنيه بسعر السوق. ومن حجم تلك المخصصات يتبين تدنى نصيب الطالب من الإنفاق الحكومى (انظر جداول رقم ٥، ٦، ٧، ٨) فى هذا البحث.

وقد لجأنا إلى إيراد المؤشرات السابقة لبيان حجم التعليم كمًا وحجم الإنفاق عليه لسببين رئيسيين، أولهما: ظاهرة العلاقة بين حجم الإنفاق ومستوى التقدم فى إعداد الثروة البشرية ومؤهلات قوة العمل صانعة المستقبل. وثانيهما: الارتفاع فيما تتحمله الأسرة من إنفاق إضافى على الموارد الحكومية مرتبطًا بالقصور الكمى والكيفى من جانب الدولة فى الوفاء بمسئوليتها الكبرى فى تعليم أطفالها وشبابها، ولعل فى ذلك العرض ما يمهد لحالة الذهول مما تتحمله الأسرة فى قطاع التعليم مما توضحه هذه الدراسة القيمة والمثيرة فى هذا الكتاب، حيث تنفق فى أدنى التقديرات حوالى ٣٨ مليارا، وضعف ما تنفقه الدولة على مرفق التعليم فى أعلى التقديرات وهو ٥٦ مليار جنيه، ولا شك فى أن قسطًا كبيرًا من هذا الإنفاق إنما يمثل تعويضًا كميًا وكيفيًا عن تدنى

هـــذا الكتـــاب

تجسد حالة التعليم فى بلد من البلدان، طبيعة العلاقات المعقدة التى قد تنشأ بين كافة مكونات هذا المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ووسط بيئة سياسية معينة.

ويستطيع الدارس لتطور النظام التعليمى فى مصر، أن يكتشف بسهولة تلك العلاقات المتشابكة بين كافة مكونات المجتمع المصرى ودرجة تفاعلاتها - سلبا أو إيجابا - ومستوى الازدهار أو التدهور الذى تعرض له هذا النظام التعليمى.

وإذا جاز أن نؤرخ للتعليم المدنى الحديث فى مصر، فقد جاء بصحبة ذلك المشروع النهضوى الذى حاوله «محمد على باشا» فى مطلع القرن التاسع عشر، والذى تعثر بعد انهيار تجربته وهيمنة القوى الاستعمارية - بريطانيا وفرنسا - على القرار السياسى والاجتماعى فى البلاد فى عهدى سعيد وعباس وخلفائهما.

ولم يكتب للتعليم فى مصر النهوض مرة أخرى إلا بعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢، وتركيز الاهتمام على تعويض أبناء الفقراء عن حرمانهم الطويل من التعليم، فشهدت الفترة الممتدة من ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا نموا مطردا فى أعداد المتعلمين، وانتشار الإقبال على التعليم وزيادة البعثات التعليمية إلى الخارج.

صحيح أن هذا التطور الإيجابى قد تعرض لانتكاس بعد العدوان الإسرائيلى فى الخامس من يونية عام ١٩٦٧، وهزيمة المشروع الناصرى، مما أدى لإعادة ترتيب أولويات النظام والحكم لصالح «إزالة آثار العدوان»، بيد أن مسيرة الأعداد المتزاحمة إلى التعليم لم تتوقف يوما، وإن كانت أحداث الخامس من يونية قد أثرت سلبا على تدهور الأداء الكيفى والنوعى للعملية التعليمية ككل.

ولم يتوفر للقيادة السياسية التى تولت شئون الحكم فى الدولة بعد وفاة الرئيس «جمال عبد الناصر» عمق البصيرة وبعد النظر، حينما لاحت لها الفرصة لتعويض ما فات بعد السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣، عبر تعزيز فرص المقايضة التاريخية والمالية مع أثرياء النفط العرب، وتدعيم نظام التعليم العام، فاندفع الرجل دون حصافة إلى فتح أبواب الجحيم على المجتمع وفئاته الفقيرة تحت شعارات «الانفتاح الاقتصادى» و«تحفيز الاستثمار».

فتدهور دور ومكانة المدرسة العامة، لصالح المدارس الخاصة والاستثمارية،

ولم يكد يمر عقدان من الزمان على تجربة «الانفتاح»، إلا واستيقظ المجتمع المصرى كله على حجم الكارثة التى تعرض لها النظام التعليمى كما وصفها بحق وزير التعليم الأسبق «د. حسين كامل بهاء الدين».

فعلاوة على نمو قطاع تعليم غير رسمى وموازٍ أو ما نفضل أن نطلق عليه «السوق السوداء التعليمية» بصورة وحشية وقاسية، فقد تصاحب معه بقوة الأمر الواقع انهيار شامل فى قيم «القدوة» و «الأستاذية» ومنظومة التربية كلها.

وهكذا سادت فوضى شاملة - بالمعنى الحقيقى لا المجازى - للكلمة فتعددت الأنساق التعليمية والقيمية، وتلاشى - أو يكاد - مفهوم الهوية الثقافية واللغوية، وتاهت فى زحمة غياب الرؤية السياسية والأهداف الاستراتيجية للدولة والقائمين عليها القضايا القومية التى تكفل وحدها تمتين الوحدة الوطنية، وتشد الناس شدا إلى المشاركة بالرأى والعمل فى نهضة البلاد.

وأفاق الجميع على مشاهد حزينة وبائسة منذ منتصف التسعينيات حيث حالات الهروب شبه الجماعى للشباب عبر القوارب فى البحار والمحيطات إلى المجهول، وغالبا إلى الموت.

ووسط كل هذا تخبطت الدوائر المسئولة حول تقدير حجم الإنفاق الحقيقى على التعليم، وطبيعة أزمته، وسبل الخروج منه، وتحكمت فى الكثير من الأفكار المطروحة جماعات ضغط، وجماعات مصالح، أصبحت سوق التعليم المصرى مغنما هائلا يستحيل التخلى عنه حتى لو كان الثمن هو استمرار هذه الفوضى المدمرة.

والمدخل الصحيح للتعرف على حجم تأثير هذا «اللوبى» الخطر هو التعرف على حجم هذه السوق التعليمية الضخمة، والأطراف الفاعلة فيه، والأطراف المستفيدة من استمراره، وعلاقتها بدوائر صنع السياسات الفوضوية تلك، وجماعات اتخاذ القرارات فى الدولة.

إننا هنا لا نتعرض لمسألة اقتصادية «بحته»، ولا قضايا فنية تندرج فى تخصصات علم الاقتصاد وعلم المالية العامة، بقدر ما نحاول أن ندلف منه إلى طبيعة الخريطة الاجتماعية والقوى الطبقية المتحكمة فى مصر ومصيرها ومستقبل أجيالها القادمة، علنا بهذا التشخيص نستطيع أن نرسم خطى سياسات جديدة وبديلة لكل هذا الذى ساد طوال الأربعين عاما الماضية، وأوصلنا فى النهاية إلى حد الكارثة.

عبد الخالق فاروق



الإنفاق الحكومي في مقابل الطموحات الأسرية لتعليم أبنائها وبناتها.

وبعد هذه التمهيدات نعود إلى مزايا هذا البحث الذي لم نصفه بالمفرد وغير المسبوق مجاملةً أو إنشاءً لفظيًا، وإنما لما اتسم به من شمولية ومنهجية سلمية دقيقة في معالجة لظاهرة الإنفاق الذي تنوء معظم الأسر المصرية بتحمل أعبائه. كذلك تدعونا نتائجه إلى تبيان المفارقة بين الخطاب السياسي ومعطيات الواقع وتجسداته في تحقيق الأهداف الكبرى للتعليم كجبهة من جبهات الأمن القومي، وكقاطرة للتنمية الذاتية وتنمية قدرات المجتمع على مواجهة تحديات التحولات العالمية ولعل من أهمها: التحرك من عصر المجتمعات الصناعية إلى ما بعد عصر الصناعة، ومن التكنولوجيا البسيطة إلى التكنولوجيا المتقدمة، هذا بالإضافة إلى التحرك من عصر التفكير المحلي اليقيني إلى التفكير النسبي الكوكبي الاستراتيجي، وفيه يتجه الاقتصاد والتجارة من السوق الضيقة إلى الاندماج في السوق العالمية بما تتطلبه من معرفة وتجديد وتميز وإبداع، وقدرات على التنافس، وخلق مجتمع التعلم، ومتابعة وإنتاج المعرفة الجديدة والمتجددة. ولكن ما أبعد الشقة المتزايدة بين هذه الطموحات ومؤشرات الواقع التعليمي والخلل في سياساته وأولوياته وإداراته إلى جانب مهدراته!!



يشير مؤلف هذا البحث إلى أن معالجته في شمولها تتناول:

(١) حجم وهيكل الإنفاق الحكومي بمراحله وأنواعه المختلفة خلال الفترة من ١٩٩٥ حتى ٢٠٠٥

(٢) الأحجام التقديرية للإنفاق الأسري على التعليم بأنماطه المختلفة (تعليم حكومي، تعاوني، إلخ...) وفي مواقعه المتنوعة (محافظات/ ريف/ حضر/ خاص/ أجنبي) وبمراحله الأربع. ويتضمن ذلك أنواع المصروفات والرسوم التعليمية الرسمية وغير الرسمية، وتكاليف الدروس الخصوصية ومجموعات التقوية المعترف بها داخل المدارس والكليات، والكتب والمذكرات التعليمية الداخلية والخارجية، وتكلفة الملابس والغذاء والمواصلات، وذلك في كل نمط من أنماط التعليم ومراحله بدءًا من رياض الأطفال حتى نهاية الجامعة والمعاهد العليا والمعاهد الفنية المتوسطة.

ولم يبق من مجالات الإنفاق سوى ما تنفقه بعض الأسر الغنية على ما توفده من أبنائها وبناتها للبعثات التعليمية في الخارج. أضف إلى ذلك ما تنفقه بعض الأسر على إلحاق أبنائها وبناتها بدورات تدريبية متخصصة، أو بإلحاقها ببرامج تأهيلية لتعلم لغة أجنبية أو تدريبية على مهارات الحاسوب. وفي شأن التعليم الحكومي ثمة معونات أجنبية لا تدخل في الموازنات السنوية للتعليم، إلى جانب بعض تلك المعونات التي تقدم مباشرة من الجهات المانحة لعدد من الجمعيات الأهلية لتنظيم برامج تدريبية معينة أو لتحسينات محددة في العملية التعليمية. وهذه كلها يصعب متابعتها وتحليلها، ولا يعلم بها إلا علام الغيوب كيف تنفق وما عوائدها النهائية على كم ونوع التعليم في مختلف مراحله!! ومن ثم اقتصر البحث بالضرورة كما أشار المؤلف على حجم الإنفاق على الهياكل والأنماط المرتبطة بالمنظومات التعليمية من المصادر الحكومية ومن الإنفاق المباشر للأسر المصرية مما يمكن تقصيه وتحديد مجالاته وأحجامه.

ومن الناحية المنهجية في حصر أحجام إنفاق الأسرة المصرية، استعان المؤلف - كما سبقت الإشارة- بدراسة مركز معلومات مجلس الوزراء ودعم اتخاذ القرار الذي استخدم أسلوب استطلاع الرأي لعينة عشوائية في مجال الإنفاق على الدروس الخصوصية وحدها. وهو مسح مهما كانت دقته ومداه الشمولي وتغطيته لمختلف متغيرات العينة يظل مجرد مؤشرات واستنتاجات تظل هادية خيرًا من مجرد الانطباعات الشخصية الفردية أو الجماعية. لكنها لا تغطي مختلف التفاصيل والمواقع في الإنفاق مما تناولته هذه الدراسة.

لقد قام الباحث بمجموعة من التحليلات الإحصائية والمالية المرتبطة بأعداد الطلاب المقيدين في مختلف مراحل التعليم بأنواعه وتبعياته المختلفة (حكومي/ خاص/أزهري/ عربي/ لغات ...إلخ.) ثم لجأ إلى منهج أنماط المحاكاة وفقًا لثلاثة مشاهد من السيناريوهات لاستخلاص أحجام الإنفاق المالي الذي يتوقع من القطاع العائلي أن ينفقه على مستوى السقف المنخفض والمتوسط والمرتفع في كل نوع ومرحلة من التعليم. وهو منهج فيه من الشمولية والتصور للحالات المختلفة ما يجعله كاشفًا عن الاحتمالات الواقعية في حجم الإنفاق. وبهذا المنهج المترابط وباحتمالاته الثلاثة يعتبر هذا البحث متفردًا في نوعه وفي خصوبة معلوماته.



التفكير في إلغاء مجانية التعليم العالي في ظل الأوضاع الاقتصادية الحالية يهدد الاستقرار والأمن القومي



ولست أريد هنا أن أكشف عما تمخض عن هذا البحث من بيانات تفصيلية وتجميعية مذهلة حول محاور الإنفاق الحكومي واتجاهاته، وفي حجم الإنفاق العائلي في المؤسسات التعليمية الرسمية والخاصة والأجنبية، إلى جانب حجم الإنفاق العائلي في نظم التعليم الرسمية والموازية، أو ما يطلق عليه تسمية (السوق السوداء التعليمية).

وأود أن أشير هنا مرة أخرى، إلى أن من معالم تميز هذا البحث تركيزه على السياسات والأساليب المالية المتبعة في تقدير حجم التكلفة التي يتم إنفاقها على التعليم. وهو بعد أساسي في أي تفكير في قضايا دراسة الواقع التعليمي وفيما يمكن تخصيصه من تقديرات لإمكانات تنفيذه. وهذا ما تفتقده الغالبية العظمى من الدراسات والبحوث والرسائل الجامعية، بل وفيما تضعه وزارتا التربية والتعليم والتعليم العالي من خطط واستراتيجيات لتطوير المنظومة التعليمية. وتبقى كل تلك الجهود التخطيطية تائهة في فضاء الينبغيات التي تتطلب موارد واستثمارات معينة تجعلها قابلة للتنفيذ. هذا إلى جانب ما تستدعيه من تطوير وتعديل في السياسات والأولويات القائمة في الإنفاق الحكومي أو العائلي.



ولهذا أفرد الباحث الفصل السابع والأخير في التوجه (نحو سياسة جديدة لتمويل النظام التعليمي في مصر) موضحًا ما تتطلبه الأوضاع الحالية من تغيير ومن مصادر جديدة لتمويل التعليم، لعلها تخفف مما تتحمله الأسرة المصرية من نفقات باهظة، وبما يؤدي إلى تحريك حقيقي للتعليم في تطوره المستقبلي.

ويثير هذا البحث في خاطري تلك الآراء لبعض من يزعمون الحكمة في التخفيف من أعباء الدولة، وليس من أعباء الأسرة، في الإنفاق على التعليم باسترداد تكلفته من أسر الطلاب فيما بعد المرحلة الأساسية، أي إلغاء المجانية في المرحلتين الثانوية أو الجامعية على الأقل.

ومن بيانات هذا البحث ندرك أن الطالب الجامعي سوف يكلف أسرته مصروفات ◄



الدراسة التى تقدر ما بين ٣٠٠٠-٥٠٠٠ حسب نوع التخصص، إلى جانب الرسوم المدرسية ومجموعات التقوية التى تتراوح ما بين ١٠٠٠-١٥٠٠ جنيه سنوياً، أى مجموع تكلفة تتراوح ما بين ٤٠٠٠-٦٥٠٠ جنيه سنوياً، وهذا الحجم من الإنفاق يقترب من متوسط دخل الفرد السنوى كما أنه قد يتجاوزه ويلتهمه. هذا مع العلم بأن ذلك الرقم لا يأخذ فى تقديره أن فى مصر حوالى ١٣٪ ممن هم تحت خط الفقر حسب التقديرات الرسمية أو ما يقدر بحوالى ٤٠٪ من الفقراء وفق بيانات الأمم المتحدة. ومن ثم تصبح إتاحة التعليم الجامعى العالى شبه مستحيلة على معظم الشرائح الاجتماعية فى مصر المحروسة. ومن ثم فإن التفكير فى إلغاء مجانية التعليم الجامعى العالى مهما كانت المبررات، وبخاصة فى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الحالية، مسألة فى غاية الخطورة، قد تكون من مهددات الأمن القومى والاستقرار الداخلى.

ولا شك فى أن مقترحات المؤلف الهادفة إلى التوجه نحو سياسات جديدة فى إتاحة التعليم كماً وتجويده تتفق مع مايتجه إليه رأى كثير من الكتاب والمثقفين في هذا البلد (منهم فاروق جويدة فى الأهرام) . موضحاً بعض مصادر التمويل التى قد توفر مزيداً من الإنفاق على التعليم:

(١) امتداد يد الحكومة لتأخذ حقها من النشاط العقارى وموارده بمختلف مجالاته من تجارة المبانى والشقق وبيع الأراضى الصحراوية والزراعية .

(٢) المشروعات السياحية من الفنادق، والقرى السياحية وسلاسل المطاعم، ممن يتمتعون بامتيازات جمركية ودفع ضرائب قليلة أو تهرب منها.

(٣) أموال الخصخصة من المشروعات الاقتصادية والتجارية والبنوك وحق الدولة فيها وحق التعليم فى نصيب منها باعتباره من الخدمات العامة التى تقع مسئوليات توفيرها على الدولة فى المقام الأول.

(٤) مشروعات الخدمات مثل شركات الاتصال والخدمات الصحية والمستشفيات الخاصة وشركات الأدوية إلى غير ذلك مما تصرفت فيه الحكومات من بيع ممتلكات القطاع العام. هذا إلى جانب تحصيل ضرائب تصاعدية على دخل أصحاب المليارات والملايين ممن يتهربون منها أو يزيفون في بيانات دخولهم، ودفع ما عليهم من حق الشعب فى تحسين حياته وإتاحة العيش الكريم الذي يمثل قطاعا التعليم والصحة ركيزتين لا غنى عنهما لكل مواطن ينتمى إلى هذا الوطن.



يثير هذا الكتاب تأملات وخواطر وإنذارات فى مدى إنفاق الأسرة المصرية على تعليم أبنائها وبناتها ومن التكلفة المجتمعية الهائلة لهذا القطاع من الخدمات واستثماراتها فى التنمية البشرية مع قصور وهدر هائل فى عوائدها كماً وكيفاً.

تدق معطيات ونتائج هذا الكتاب جرساً إلى جانب أجراس أخرى لا تزال تدق، وعلى المسئولين فى الدولة وعلى قوى المجتمع بأسرها أن يفتحوا آذانهم وعقولهم وقلوبهم، على ما يجرى فى حرم التعليم من شئون وشجون، وإلى المكاشفة والشفافية فى تقييم أوضاعه. إن على الدولة، مسئوليةً وواجباً، توفير الموارد ووضع السياسات الكفيلة بتطوير مسيرته. ولن ينقذنا القطاع الخاص أو الأجنبى فى تصحيح المسيرة الحالية، بل قد يزيدها أوجاعاً وتعقيداً. إننا جميعاً بقيادة الدولة محاسبون على إعداد أجيال من المواطنين، ونحن نغالب ونصارع هيمنة قوى ومصالح خاصة لفئات الجشع والاستغلال والاحتكار فى الداخل، وموجات الضغوط والتهديدات من قوى الإمبريالية العولمية فى الخارج. ■

كتاب الزاوية



كيمياء السعادة
أبو حامد الغزالي
في معرفة النفس (١)

اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس، كما قال سبحانه وتعالى: «سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وَفي أَنفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من عرف نفسه فقد عرف ربه». وليس شيء أقرب إليك من نفسك، فإذا لم تعرف نفسك، فكيف تعرف ربك؟ فإن قلت: إني أعرف نفسي! فإنما تعرف الجسم الظاهر، الذي هو اليد والرجل والرأس والجثة، ولا تعرف ما في باطنك من الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة، وإذا اشتهيت طلبت النكاح، وإذا جعت طلبت الأكل، وإذا عطشت طلبت الشرب. والدواب تشاركك في هذه الأمور.

فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة: حتى تدرك أي شيء أنت، ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأي شيء خلقت، وبأي شيء سعادتك، وبأي شيء شقاؤك.

وقد جمعت في باطنك صفات: منها صفات البهائم، ومنها صفات السباع، ومنها صفات الشياطين، ومنها صفات الملائكة، فالروح حقيقة جوهرك وغيرها غريب منك، وعارية عندك.

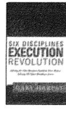
Six Disciplines Execution Revolution: Solving the One Business Problem That Makes Solving All Other Problems Easier

ثورة لتطبيق ست قواعد: حل مشكلة الأعمال الأساسية التي تجعل حل كل المشكلات الأخرى أسهل

Gary Harpst

جاري هاربست

Six Disciplines Publishing, 2008, 208pp., $10.15



يؤكد ميك فليمينج، المدير التنفيذي لغرفة التجارة الأمريكية، أن كتاب هاربست الجديد إنجاز رائد غير معادلة تتعامل بها المشاريع مع أكبر التحديات، ألا وهي تطبيق الإستراتيجية. فمع كل ما يواجهه رجال الأعمال الناجحون من ضغوط في الوقت الحالي، ليس هناك ما هو أكثر إلحاحاً أو تحدياً من تعلم كيفية تطبيق الاستراتيجيات.

وبينما تمتلك المشاريع الكبرى رفاهية تنظيم الميزانيات والموارد كي تجابه هذا التحدي، سوف تجد المشاريع الصغيرة أو المتوسطة الفرصة سانحة الآن حتى تعادل الفرص وتجتاز المناهج القديمة المكلفة وتشرع في دراسة تطبيق الإستراتيجية بأسلوب ثوري. وهنا يشدد الكتاب على أن التفوق يكمن في السعي المتواصل إلى إستراتيجية متوازنة: فمواصلة التخطيط والتطبيق وفي نفس الوقت التعامل مع المفاجآت المحتومة هو أكبر التحديات المهنية؛ والتغلب على هذا التحدي هو ما يعنيه الكتاب بحل المشكلة الكبرى لجعل كل المشاكل الأخرى أسهل؛ أما الإخفاق في حل تلك المشكلة فيقضي على مؤسستك بمستقبل غامض. واعتماداً على الأبحاث العملية والاختبارات الميدانية والممارسات المثبتة، فإن النسخة التي يصفها هاربست في هذا الكتاب تقدم للقارئ منهجاً جديداً للمشاريع المبتدئة لتتعامل في النهاية مع معضلات الإستراتيجية اللانهائية.

جاري هاربست المدير والرئيس التنفيذي لعدة مشاريع ناجحة. أمضى عشرين عاماً كرئيس لشركة سولومان سوفتوير التي زودت ما يزيد على ٦٠٠٠٠ مشروع بأنظمة للإدارة في شتى المجالات الصناعية قبل أن تشتريها شركة جريت بلينز ثم ميكروسوفت في النهاية. أقنعت تلك التجربة هاربست بأن أغلب المشاريع بمقدورها تطبيق خططها بصورة أفضل. وعليه شكل فريقاً واستثمر ٢٠ مليون دولار لتحديد موضع الخلل. هاربست هو مؤلف كتاب «ست قواعد للتفوق».

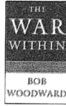
The War Within: A Secret White House History 2006-2008

الحرب الداخلية: تاريخ سري للبيت الأبيض ٢٠٠٦-٢٠٠٨

Bob Woodward

بوب وودورد

Simon & Schuster, 2008, 512pp., $17.60



يبدأ كتاب «الحرب الداخلية» بوصف الفوضى العراقية عام ٢٠٠٦ - العنف والضحايا الأمريكيين في ازدياد بينما يرسم بوش صورة وردية ويدرك موظفوه أن إستراتيجية أمريكا في حاجة إلى المراجعة. يوافقهم بوش إلا أن السيئ في الأمر هو عدم وجود موعد أخير لإتمام تلك المراجعة ووجوب تحققها «بعيداً عن الأنظار» لتجنب إثارة القلاقل خلال السنة الانتخابية. حاول الجنرال كيسي، قائد القوات الأمريكية في العراق، إقناع بوش بخفض القوات الأمريكية في العراق، ومع ذلك بدا بوش ثابتاً على موقفه الهجومي (مواصلة القتل حتى تنتهي الجثث.) أيد رامسفيلد كيسي - والواقع أن هذا كان متفقاً مع رؤيته لجيش «جديد خفيف». وهنا يتناول الكتاب طريقة اتخاذ القرار في البيت الأبيض: فالبادي أن أسلوب بوش في اتخاذ القرارات اعتمد على «حسه الداخلي»، وعليه افتقرت قراراته إلى فحص النتائج والبدائل والدوافع.

وفيما يتصاعد العنف في العراق إلى مستويات غير مسبوقة عام ٢٠٠٦، تثور جبهة ثانية على أعلى المستويات في إدارة بوش. يصحب وودورد القراء في كتابه الرابع حول الرئيس جورج بوش إلى أعماق المواقف المتوترة والنقاشات السرية والقنوات الخلفية غير الرسمية والريبة والتصميم في أركان البيت الأبيض والبنتاجون ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات والقيادة العسكرية في العراق. وفي تفاصيل دقيقة لا تضارع يصور هذا السرد الأخاذ لحالة رئيس خلال الحرب فترة من الكرب والارتياب في ثنايا الحكومة الأمريكية من عام ٢٠٠٦ وحتى عام ٢٠٠٨. إن كتاب وودورد يعري أسرار تورط أمريكا سياسياً وعسكرياً في العراق كاشفاً النقاب مجدداً - بعد ثلاثة كتب عن الحرب الأمريكية في أفغانستان والعراق - عن تفاصيل الحكومة أثناء العمليات العسكرية.

بوب وودورد مساعد مدير تحرير جريدة واشنطون بوست. عمل مراسلاً ومحرراً لما يفوق ثلاثين عاماً. ألف واشترك في تأليف ثمانية كتب حققت أعلى المبيعات على المستوى القومي الأمريكي.

▪

Sarah: How a Hockey Mom Turned Alaska's Political Establishment Upside Down

سارة: كيف قلبت أم تقليدية مؤسسة ألاسكا السياسية رأساً على عقب

Kaylene Johnson

كيلين جونسون

Epicenter Press, 2008, 159pp., $ 8.77



تدور ضجة أمريكية واسعة حول الحاكمة سارة بالين، حاكمة يرنو إليها العديد من الجمهوريين باعتبارها وجهاً نضراً جديداً يمثل مستقبل الحزب. بزغت كعمدة سابقة لإحدى البلدات الصغيرة في الثانية والأربعين، ذات وجه ملائكي لا تعوزه الصلابة، لتصبح في عام ٢٠٠٦ مرشحة لا يتوقع أحد فوزها لمنصب حاكم ألاسكا. طالبت بالين وقتها بالحفاظ على معايير أخلاقية أعلى للقيادة الحكومية. وقد أدى توقيت رسالتها الإصلاحية واندلاع فضيحة مدوية إلى إعصار ساهم في النهاية في تغيير شكل المشهد السياسي الأمريكي. ومع دهشة الجميع، نجحت بالين نجاحاً غير مسبوق، إذ هزمت حاكماً في الانتخابات الجمهورية الأولية وحاكماً سابقاً في الانتخابات العامة لتصبح أول امرأة تشغل منصب حاكم ألاسكا وأصغر حكامها على الإطلاق.

وفي غضون الحملة الانتخابية وخلال وقت مبكر من فترة حكمها الأولى، حققت الأم الطافحة بالحيوية والجاذبية - أم لخمسة أطفال - مكانة تقترب من مكانة البطلة في ولايتها. والآن هي تبدل صفحات التاريخ بعد أن باتت أول امرأة جمهورية على الإطلاق ترشح لمنصب نائب الرئيس ليطالب العالم بأسره بمعلومات عن سارة بالين. من هي؟ كيف ارتقت إلى مكانتها الحالية؟ كتاب واحد فقط يحوي كل الأجوبة: «سارة: كيف قلبت أم تقليدية مؤسسة ألاسكا السياسية رأساً على عقب» ففي الكتاب نقف على خلفياتها: نجمة كرة سلة سابقة بمدرسة واسيلا الثانوية، ملكة جمال سابقة، صحفية سابقة تبرز ابتسامة قاتلة وترتدي نظارات ذات ماركات شهيرة وكعوباً عالية. تشترك كل عام في سباق ثلجي لمسافة ٢٠٠٠ ميل اسمه «الكلب الحديدي». ملأت عدة ثلاجات بحيوانات موظ اصطادتها بنفسها، وهي تفضل شرائح لحم الرنة على اللحم البقري الطري؛ هذا فضلاً عن تفاصيل مهنية تغطي فترة حكمها الأولى لألاسكا: بلغت معدلات التأييد للحاكمة الجديدة في مرحلة من المراحل ٩٠٪ مما دفع شبكة فوكس نيوز إلى وصفها بـ «سياسية صاحبة أمانة مذهلة» وحمل بعض قادة الحزب الجمهوري إلى الإطراء عليها كنموذج أولي «للجمهوري الجديد».

كيلين جونسون كاتبة من سكان ألاسكا. لديها معرفة وثيقة بسارة بالين كجارة وكاتبة لسيرتها. تظهر مقالات جونسون في مجلة ألاسكا وجريدة لوس أنجلوس تايمز.

▪

Industrial Policy in the Middle East and North Africa: Rethinking the Role of the State

السياسة الصناعية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: إعادة التفكير في دور الدولة

Edited by Ahmed Galal

تحرير أحمد جلال

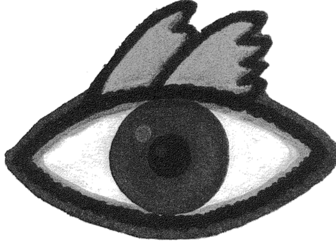
American University in Cairo Press, 2008, 160pp., $24.50



تطبق معظم الحكومات في الشرق الأوسط ومنطقة شمال أفريقيا سياسة تجارية بغرض حماية صناعات معينة وتوفير حوافز ضريبية لتعزيز نوع محدد من الاستثمار وجعل المعونات المالية متاحة لشركات ذات حجم معين. ومثل هذا التدخل الحكومي المعروف باسم السياسة الصناعية هو محور هذا الكتاب. يهدف كتاب «السياسة الصناعية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا» إلى تقييم إذا ما كان التدخل الحكومي يفضي إلى أرباح صافية يفوز بها المجتمع في النهاية. لماذا يتدخل صانعو السياسيات؟ كيف يمكن تحقيق توازن صحي بين الدولة والأسواق؟ يزود الكتاب القارئ بإجابات على هذين السؤالين وغيرهما في ستة فصول تتكل على أبحاث قدمت في مؤتمر انعقد بالقاهرة في نوفمبر من عام ٢٠٠٥. تشتمل الأبحاث على دراسة حالات من مصر والمغرب وتركيا والأردن. ومن بين المساهمين: أحمد جلال ونجيب حرابي ونهال المغربل ومصطفى نابلي وماركوس نولاند.

يعمل أحمد جلال مديراً لمنتدى الدراسات الاقتصادية، وهو عضو في البنك الدولي منذ عام ١٩٨٤.

▪



التنمية والديموقراطية والحكم الرشيد

ثقافة التكنولوجيا



سـومـتـرا دوتـا
إريـنـا مـيـا

يصبح العالم أكثر ارتباطاً ببعضه البعض يوماً بعد يوم. والأمر لا يقتصر على تنامى الصلات التى تربط بين الأفراد والشركات والحكومات، ولكن هناك درجة متزايدة من الاعتراف بالعملية الاتصالية connectivity باعتبارها مكوناً أساسياً من مكونات البنية التحتية العامة. وحسب التعريفات الجديدة أصبحت خدمات الاتصال المتقدمة bandwidth خدمة ضرورية، بل ويضعها البعض فى نفس الأهمية مع خدمة توفير مياه الشرب. على سبيل المثال، فقد نشر تحالف شيكاغو الرقمى Chicago Digital Access Alliance مفهوم إتاحة البورودباند broadband باعتباره حقاً عاماً. كما اعتبرت بيانات للمفوضية الأوروبية الباندويدث bandwidth خدمة ترتبط بالمصلحة الاقتصادية العامة..

استخدام تقنيات الجيل الثانى مثل WiFi و WiMAX يتقدم بسرعة أيضا موفرا خدمة انترنت دائمة «فى كل مكان». وطبقاً لتقديرات السلطات المحلية فى أمريكا الشمالية، تتسم مهام ٤٥٪ على الأقل من الموظفين المحليين بالحركة. فموظفو الشرطة والإطفاء وإدارات المباحث، يكونون خارج مكاتبهم بشكل يومى ويحتاجون إلى وسيلة للحصول على المعلومات. ومن ثم فإن مدن الولايات المتحدة وكندا تقوم الآن بإنشاء شبكات تسمح بالاتصالات اللاسلكية فى كل مكان.

العديد من البلدان النامية أيضا يهتمون بالـ WiMAX كبديل للسلك النحاسى الذى كان يستخدم فى الماضى. وبحلول بداية ٢٠٠٧، قامت شركة Motorola and Wateen Telecom وهى تابعة لـ Warid Telecom الإماراتية بتأسيس شبكة WiMAX فى ١٧ مدينة رئيسية فى باكستان. وفى الهند، تتم الدعاية لـ WiMAX باعتباره أسرع من الجيل الثالث من المحمول بمقدار ٣٠ مرة.، وباعتباره يقدم إجابة على مشكلات العملية الاتصالية والتى أعاقت انتشار الإنترنت فى الريف الهندى.

إن مزايا زيادة العملية الاتصالية فى مناطق تتوفر بها وسائل مختلفة للحصول على المعلومات، تم تسجيلها بشكل كبير فى الكتابات التى تناولت هذا الشأن. وبدرجة كبيرة، فقد ساهمت هذه المزايا فى تطوير التعليم كأساس لتنمية رأس المال البشرى الذى يتطلب استثماراً عاماً.

وهناك فوائد أخرى، محسوسة بدرجة أقل، لكنها أيضاً ذات أهمية حاسمة على صعيد تزايد العملية الاتصالية: ففى سياق اجتماعى أوسع، تم الإقرار بأن للعملية الاتصالية تأثيراً مهماً على الشفافية والحكم الرشيد والديمقراطية. كما أن هناك أيضاً آثارًا لتزايد العملية الاتصالية فى مجالات أخرى مثل النظم الحضرية وأساليب ومستوى الحياة. على سبيل المثال، وفقاً لدراسة أجريت على مدينة سانت بول فى الولايات المتحدة عام ٢٠٠٦ حول تقدير الاحتياجات التكنولوجية وأثر ذلك على التنمية الاقتصادية والاجتماعية، تبين أنه فى ظل التنافس الدولى الحاد على ذوى المواهب ، فإن العملية الاتصالية العالية المتعلقة بالباندويدث bandwidth لديها القدرة على زيادة جذب المدينة «للطبقة الخلاقة» من العمال المتمتعين بالمعرفة.

وعبر العالم، فإن العملية الاتصالية المتنامية أصبحت أيضاً عاملاً مهماً فى الخطاب المتعلق بتعزيز والحفاظ على الترابط الاجتماعى. كان تقليل الفجوة الرقمية بين المناطق الحضرية والريفية يمثل أولوية بالنسبة للقطاعات العامة على المستوى العالمى، بغض النظر عن مستوى نضج تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات فى البلد.

وقد ساعد هذا التوجه على تهدئة المخاوف من أن التطور التكنولوجى السريع سوف يفيد المناطق الحضرية على حساب المناطق الجغرافية التى تناضل بالفعل بسبب بعدها عن

The Global Information Technology Report 2007-2008
Soumitra Dutta, INSEAD
Irene Mia, World Economic Forum
World Economic Forum - 2008

ترجمة: غادة طنطاوى

لا يجب أن نكتفى بالاستثمار فى البنية التحتية لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، ولكن علينا أيضاً أن نكون على استعداد لتعديل البناء المؤسسى للدولة ذاتها



السوق. وفى حقيقة الأمر، كان هناك نوع من التفرقة من جانب الرؤية الحكومية بشأن فائدة نشر العملية الاتصالية على مستوى الحكومات المركزية والإقليمية والمحلية. وقد صدر التقرير العالمى لتكنولوجيا المعلومات ٢٠٠٧-٢٠٠٨ عقب إقرار أهمية القدرة الاتصالية العالية للباندويدث bandwidth بالنسبة للوضع التنافسى للدول، ونموها المستدام وتقليص الفقر بها. وأصبح تسهيل الحصول على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على قمة الأولويات القومية بشكل متزايد فى معظم الاقتصاديات النامية والمتقدمة، فى الوقت الذى تتزايد الموارد التى يجرى استثمارها فى تطوير وتنمية البنية التحتية لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات. ويعد التقرير المذكور هو السابع من نوعه فى سلسلة من التقارير، وهو يؤسس لشراكة طويلة المدى بين المنتدى الاقتصادى العالمى وكلية الأعمال الدولية INSEAD بغرض تعزيز التفاهم بشأن مدى جاهزية شبكة المعلومات والفاعلين الأساسيين بها.

يتناول التقرير أربعة أقسام مختلفة الموضوعات. يتضمن القسم الأول نتائج مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات Networked Readiness Index ٢٠٠٧-٢٠٠٨، جنباً إلى جنب مع عدد من المقالات حول موضوعات تغطى العلاقة بين التطوير والابداع وتكنولوجيا المعلومات، و الاتصالات الموحدة (Unified Communications) والمهارات الإلكترونية وتنظيم الاتصالات فى الأسواق الناشئة.

يركز القسم الثانى على دراسة حالات دول وأقاليم بعينها، وفى العام الحالى، تمت دراسة حالة سنغافورة وقطر والاتحاد الأوروبى.

يقدم القسم الثالث صورة مفصلة لكل من الاقتصاديات الـ ١٢٧ المغطاة فى التقرير، معطياً صورة مختصرة ولكنها شاملة لحالة الجاهزية للاتصالات المتوفرة لدى كل من هذه الاقتصاديات، ويسمح بإجراء مقارنات دولية وتاريخية.

وأخيراً، يقدم القسم الرابع جدولا تفصيليا لبيانات الـ ٦٨ متغيراً التى تكون مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات لهذا العام، مع وضع ترتيب للدول على أساس هذا المؤشر.

مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات

تسجل النتائج الأخيرة لمؤشر جاهزية شبكة الاتصالات النتيجة الرئيسية لمشروع بحث تم القيام به بشكل مشترك بين المنتدى الاقتصادى العالمى وكلية الأعمال الدولية INSEAD منذ ٢٠٠٢. ويهدف مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات إلى قياس قدرة الاقتصاديات على تقديم الدعم الكامل لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات من أجل رفع التنافسية والتنمية، والبناء على مزيج من البيانات التى تم جمعها من سجلات المنظمات الدولية المحترمة مثل الاتحاد الدولى للاتصالات، والبنك الدولى، والأمم المتحدة. ويغطى المؤشر ١٢٧ دولة متقدمة ونامية من كافة أنحاء العالم، تنتج أكثر من ٩٥٪ من الناتج المحلى الإجمالى العالمى.

إطار جاهزية شبكة الاتصالات، الذى يرتكز عليه مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات، والذى لم يطرأ عليه تغير منذ ٢٠٠٢ يحدد العوامل التالية:

- وجود بيئة صديقة ومشجعة لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، عبر فحص عدد من السمات المتعلقة ببيئة الأعمال الأوسع، وبعض الجوانب التنظيمية، والبنية التحتية الخاصة ببرامج وأجهزة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.
- مستوى جاهزية تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات لاستخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات من جانب الأطراف الثلاثة المعنية-الأفراد، وقطاع الأعمال، والحكومة.
- الاستخدام الفعلى لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات بواسطة الثلاثة أطراف المعنية المشار إليها أعلاه.

يؤكد مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات لعام ٢٠٠٧-٢٠٠٨ أن الدنمارك هى الاقتصاد الأكثر اتصالاً فى العالم للسنة الثانية على التوالى. واستمرت دول شمال أوروبا الأخرى فى إظهار قدرتها على تعزيز تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات بهدف زيادة القدرة التنافسية، حيث احتلت السويد وفنلندا وايسلندا والنرويج المرتبة الثانية والسادسة والثامنة والعاشرة على التوالى. وبين الـ ٢٠ دولة الأعلى، صعدت سويسرا درجتين لتحتل المركز الثالث، وهو ما يعد استمراراً للصعود الذى بدأته العام الماضى، بينما صعدت الولايات المتحدة ثلاث درجات لتحتل المرتبة الرابعة. وكوريا، التى جاءت فى المرتبة التاسعة، كانت واحدة من أهم حالات التقدم، حيث كانت فى المرتبة الـ ١٩ العام الماضى بين ١٢٧ دولة غطاها التقرير. الدول الآسيوية التى جاءت بين الـ ٢٠ دولة الأولى كانت سنغافورة (خمسة) وهونج كونج (١١) واستراليا (١٤) وتايوان (١٧) واليابان (١٩).





وفيما يتعلق بالاقتصاديات الآسيوية الكبرى الواعدة هبطت الهند أربع درجات لتحصل على المركز الـ ٥٠، بينما تقدمت الصين خمس درجات لتحصل على المركز الـ ٥٧. وتبدو الجاهزية للاتصال فى أمريكا اللاتينية والكاريبى أقل إيجابية عن العام ٢٠٠٦-٢٠٠٧. فقد حصلت البرازيل على المركز الـ ٥٩ والأرجنتين ٧٧، وهو ما يمثل تراجعاً عن العام السابق. وكانت هناك أربع دول فقط فى تلك المنطقة بين المراكز الـ ٥٠ الأولى هى تشيلى (٣٤) وباربادوس (٣٨) وبورتريكو (٣٩) وجاميكا (٤٦).

وبالرغم من التقدم المهم الذى حققته دول أفريقيا جنوب الصحراء خلال العقد الماضى فيما يتعلق بإدخال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، مازالت الغالبية الساحقة من دول المنطقة متأخرة فى مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات لهذا العام، حيث حصلت جنوب أفريقيا على المركز ٥١ وموريتانيا ٥٤.

وتعد الصورة أكثر إيجابية فى شمال أفريقيا، حيث تقدمت مصر بـ ١٧ درجة وهو التقدم الأكبر لهذا العام، والمغرب بخمس درجات، فأصبحت مصر فى المركز الـ ٦٣ والمغرب ٧٤. كذلك فقد أحرزت معظم بلدان الشرق الأوسط تقدماً مهماً فى المراكز، حيث حصلت قطر على المركز الـ ٣٢ والبحرين ٤٥ والأردن ٤٧ حيث تقدمت أربعة وستة و١١ مركزاً على التوالى.

طريق متوازن

يتضمن تأسيس ثقافة منتشرة وغنية حول ثقافة الإنترنت خلق بيئة الأعمال الصحيحة، وبنفس الدرجة تبنى التكنولوجيا الصحيحة. وإذا ما أرادت الحكومات - حكومات الدول أو الأقاليم، أو المحليات- الاستفادة من إمكانات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، فلا يجب أن تكتفى بالاستثمار فى البنية التحتية لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، والقدرات اللازمة لدعم هذه البنية، ولكن عليها أيضاً أن تكون على استعداد لتعديل البناء المؤسسى للدولة - أو النظام البيئى المحيط بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات-للسماح لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات بأن تجنى القدرات التطورية الكامنة بها. وفى ورقتهم التى يتضمنها التقرير، يقدم المؤلفون، إيوان موريسون، وروبرت بيبر، وأنريك ج رويداساباتر (وهم جميعاً ينتمون لـ Cisco Systems, Inc) إطاراً تشخيصياً يعكس هذين البعدين جنباً إلى جنب. ويكمن الهدف فى السماح للدول

التنمية والديموقراطية..

بأن يكون لديها وعى بشأن كيفية تحقيق توازن بين البنية التحتية لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، ومبادرات النظام البيئى المحيط، التى تخدم المزيج بين أهداف التنمية الاقتصادية وإدخال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات. يمثل البعدين محل الاهتمام هنا فى:

- النظام البيئى لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، والذى يشير إلى العوامل المؤسسية التى تعزز من قدرة المنظمين، والديناميكيات التنافسية لتقديم الخدمة، والعدالة فى توزيع العوائد الاقتصادية. وخاصة كفاءة اللوائح المنظمة لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.
- قدرة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات وبنيتها التحتية، وهى تشير إلى الأصول، مثل الشبكات والبنية التحتية الخاصة بالاتصالات السلكية والاتصالية، وكذلك توفر المهارات الفنية والنظم القادرة على إدارة البنية التحتية بكفاءة.

الحلقة المفقودة

فى ورقته، «الحلقة المفقودة: لماذا تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات مهمة للاختراع؟» يستكشف الأستاذ فى جامعة أدولفو إيبانيز، كارلوس أوسوريو أورزوا، أهمية تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات فيما يتعلق بالاختراع. وتوضح الورقة أن أهمية هذا الأمر ترتكز على حقيقة أن معظم الدول تتعامل مع الاختراع والسياسة المتعلقة بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات باعتبارهما مجالين منفصلين، وهو ما يؤدى إلى ضياع الفرص من أجل إحداث تغيرات أكبر وأعظم.

تستكشف الورقة العلاقة بين الاختراع وتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات. وتدعم النتائج الفكرة القائلة بأنه كلما كان استخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات راقياً ومكثفاً، كلما زاد تأثيره على الاختراع، حتى مع الأخذ فى الاعتبار العوامل السياقية المهمة مثل حماية حقوق الملكية الفكرية وتوفر رأس المال المحلى الجسور، ومساهمة شركات التصدير فى المراحل المختلفة لسلسلة القيمة المتعلقة بصناعات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، ومتوسط الدخل. لافتا الى أن الجهود التى تبذلها الدول ذات الدخل المنخفض من أجل زيادة قدرة الفقراء على الحصول على تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، على أساس أن ذلك شأن من شئون الديمقراطية، يمكنها أيضاً أن تكون مصدراً للمساواة والتنافسية على المستوى القومى. ويخلص الكاتب إلى أن السياسة الصحيحة لاستغلال هذه الفرصة تتمثل فى خلق الأدوات لتحفيز وتشجيع الاختراع من أسفل. ولا ترتكز التنافسية على المستوى القومى فقط على كيفية أداء الشركات الواقعة فى قمة الهرم، ولكن أيضاً على أداء تلك الشركات الواقعة فى القاع.

الابتكار بسرعة الحياة

فى ورقته، «الابتكار بسرعة الحياة» يجادل مات بروس (فى مجموعة BT) بأن التقدم السريع فى تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات أدى إلى إطلاق انفجار فى الابتكار والإبداع، أطلق عليهما «اختراع الضربة الكبرى» Innovation Big Bang.

ونتيجة ذلك أن المستهلكين أصبحوا مندهشين من صنوف المنتجات والخدمات التى يمكن أن ينتقوا منها. وإذا ظلوا غير قادرين على الحصول على ما يريدونه، لا يجب عليهم أن يقلقوا حيث إن الاختراعات يتم الإتيان بها إلى السوق بمعدلات غير مسبوقة. وبالنسبة لكل شركة، فإن التحدى الذى تواجهه على درجة عالية من الضخامة. وكى تظل داخل لعبة المنافسة، يجب أن تترك عملية الاختراع بها مفتوحة، وأن تساعد المبتكرين على قدر ما تستطيع، على الا يقتصر ذلك على الذين يعملون لديها.

ويعتقد الكاتب أن الانفتاح فى حد ذاته ليس كافياً. فيجب أن تقدم المخترعات بنفس سرعة حياة المستهلكين الشخصية والمهنية، من أجل تضييق الهوة بين ما يتطلعون إليه، وما يمكن أن يحصلوا عليه. ولأنه مازال هناك الكثير ينتظرنا، فإن الشركات تتمتع الآن بحرية اختيار درجة الانفتاح والحيوية التى تريد أن تتبناها فيما يتعلق بالاختراع. وفى هذا السياق، يلاحظ بروس أن العالم ممتلئ بالبشر الراغبين فى عرض أفكارهم، ويجب على الشركات أن تستخدم بشدة هذا البحر من المواهب إذا كانت ترغب فى البقاء.

الاتصالات الموحدة

يعد توفر الاتصالات الجيدة أحد المعايير التقليدية الدالة على قدرة الدولة على تعزيز النمو الاقتصادى وحماية ودعم رفاهية المواطنين. وقد أدت تكنولوجيا الاتصالات إلى زيادة حاجة الدول إلى إعادة النظر فيما تعنيه الاتصالات «الجيدة». ويطرح ساندور بويسون (كلية روبرت سميث للأعمال، جامعة ميرلاند Robert H. Smith School of Business, University of Maryland) وديفيد بوير (Avaya) فى ورقتهما «التطورات الرائدة فى اتخاذ القرار والتنمية الاقتصادية على الصعيد العالمى» رؤية مقنعة للتنمية وانتشار السياسات الرقمية التى توحد قنوات الاتصال المنفصلة الراهنة، وهذه السياسات هى «الاتصالات الموحدة».

وفى حقيقة الأمر، فإن التقارب أدى إلى خلق شبكة اتصالات موحدة، وهى خدمة ثورية قادرة على تنسيق العمليات والأفراد على مستوى لم يكن متاحاً من قبل. وتطرح الورقة أنه يجب أن نتجاوز الإطار الحالى للاتصالات، إلى الاتصالات الموحدة - وهو ما يساعد على التعاون الاجتماعى، وكذلك التعاون فى مجال الاعمال. ويمكن تعريف الاتصالات الموحدة باعتبارها اتصالات متكاملة من أجل تطوير العمليات المتعلقة بمجال الأعمال. ويعتقد الكاتبان أن الأمم تحتاج بإلحاح إلى مجموعة جريئة من الترتيبات فيما يتعلق بالاستراتيجية العامة والخاصة من أجل تسخير الاتصالات الموحدة كمحفز للتنمية الاقتصادية والاجتماعية الجديدة. ويتوقف نجاح الدولة على تعبئة عمليات الشراكة والتعاون عبر الحدود التى تتقاطع مع حدود الحكومة والصناعة من أجل ضمان النمو المفتوح وآليات الحكم التى سوف تكون هناك حاجة إليها لدفع الاتصالات الموحدة إلى الأمام. ويثق المؤلفان أنه فى ظل وجود هذه السياسات، سوف تكون الأمم على استعداد لأن تعزز إلى أقصى حد موجة النمو الاقتصادى المرتكزة على التكنولوجيا.

المهارات الالكترونية

بينما تصبح المنافسة العالمية معتمدة أكثر فأكثر على المعرفة، فإنه توجد عديد من الدلالات التى تحذر صناع القرار على المستويين العام والخاص بأن اقتصادياتنا قد لا تنتج المهارات الإلكترونية بالمستويات والأحجام المناسبة. ويتناول «بناء المهارات الإلكترونية لعصر المعلومات»، الذى كتبه برونو لانفيد (INSEAD, eLab) وباميلا س باسمان (شركة مايكروسوفت Microsoft Corporation) ثلاث قضايا فى ضوء خلفية من السعى للاختراع، والتنافسية، والقدرة على خلق الوظائف:

(١) لماذا (وبأى سرعة) تنمو الحاجة إلى المهارات الإلكترونية.

(٢) كيف يتم خلق وتوريد هذه المهارات، وإلى أى حد يلبى توريد هذه المهارات الحاجات الحالية والمتوقعة.

(٣) ما هى الأولويات الأساسية التى يجب أن تلبيها الحكومات والشركات

سوف تفشل الدول النامية التى تتجاهل سماتها المميزة وتقتبس الأطر المنظمة التى يجرى استخدامها فى البلدان المتقدمة

تدل كل الدراسات والشواهد على أن للعملية الاتصالية تأثيراً مهماً على الشفافية والحكم الرشيد والديمقراطية



لحل الأزمة القادمة بشأن المهارات الإلكترونية.

تشير الدلائل المتاحة إلى أن المهارات الإلكترونية لا تقتصر على المتخصصين فى تكنولوجيا المعلومات؛ فهى يتزايد الطلب عليها فى كافة القطاعات وعلى كل مستويات النشاط. والأكثر من ذلك أن الكاتبين يطرحان أن اقتصاد المعرفة الكونى الناشئ سوف يرفع بدرجة مهمة الحاجة إلى مزيد من المهارات الإلكترونية على كافة المستويات (من العمال غير المتخصصين إلى قادة الشركات) وفى كل الصناعات وليس فقط قطاع تكنولوجيا المعلومات. وفى مواجهة هذه الحاجات، تتسع الفجوة بين قدرة النظم التعليمية الحالية على تقديم عمال ومديرين يتمتعون بالمهارات الإلكترونية من ناحية، وبين الاحتياجات المتعلقة بوجود اقتصاديات كثيفة المعرفة من ناحية أخرى. وفى عدد من الصناعات والمناطق، تصبح هذه الفجوة حادة بدرجة خاصة، وتصبح هناك دعوة إلى إدخال تعديلات سريعة على نظم التعليم وتطوير حالة الوظائف المتعلقة بتكنولوجيا المعلومات. ونحتاج بالحاح إلى بذل جهود على صعيد نظم اللوائح والقوانين التى تعزز من أداء أسواق العمل.

اللوائح

يناقش كل من سكوت بيردسلى وأيلك بيجان ولويس أنريكيز ومحمد جيفندى وكان كيندى، وميجيل لوكاس وأوليج تيمشنكو سيرجيو ساندوفال وأشيك شارما (وهم جميعاً من فى McKinsey & Company, Inc) ورقتهم «إعادة النظر فى اللوائح المنظمة فى أسواق الاتصالات الناشئة»، الدور الأساسى للتنظيم فى تنمية صناعة الاتصالات فى الأسواق الناشئة.

إن وجود إطار تنظيمى كفء، يأخذ فى الاعتبار السمات الخاصة للسوق المحلية، سوف يكون حاسماً ليس فقط بالنسبة لمشغلى الأنظمة كى يتمكنوا من الحصول على مصادر جديدة للنمو والإيرادات، ولكن أيضاً بالنسبة للحكومات، لأجل بناء صناعة تساعد بشكل أساسى على التنمية الاقتصادية.

ويجادل المؤلفون بأن تصميم مثل هذا الإطار التنظيمى، يتطلب فهماً عميقاً للسمات والاحتياجات الخاصة لأسواق الاتصالات الناشئة. وسوف تفشل الدول النامية التى تتجاهل سماتها المميزة وتقتبس الأطر المنظمة التى يجرى استخدامها فى البلدان المتقدمة، فى إقامة قطاع اتصالات نابض بالحياة يعمل كقاطرة للتنمية الاقتصادية فى البلاد.



ويقترح الفصل تقسيماً بسيطاً للأسواق الناشئة، ذا ثلاثة أنماط، كل منها له نقطة بداية وسمات مميزة. ويمكن أن يكون هذا التقييم خطوة أولى مفيدة فى اتجاه تحديد الأولويات بين الأهداف التنظيمية، واقتراح سياسات ملائمة، وتحديد رؤية لمستقبل بنية الصناعة.

أما هينينج كاجرمان (فى SAP AG) وفيليب لاى وجيفرى مور (كلاهما فى TCG Advisors) فيفحصان فى ورقتهما «تحول شبكات الأعمال: إعادة النظر فى العلاقات فى الاقتصاد العالمى»، كيف تستطيع الشركات تحقيق ميزة تنافسية عبر نماذج شبكات الأعمال، وذلك عن طريق الاستفادة من عدم وجود اللوائح، والقدرة على الوصول إلى الأسواق العالمية، والاستخدام الاستراتيجى للتكنولوجيا. ويجادل المؤلفون بأن الشركات تركز على تقوية نفسها والمغالاة فى الحصول على مصادر الأفكار والمواهب المكملة عبر العالم، من أجل حماية نفسها ضد تسليع واضطراب الاختراع. وعن طريق العمل فى شبكات أعمال عالمية، تنفق الشركات أموالاً أقل على التكرار، وأموالاً أكثر على الاختراعات الحديثة، مما يؤدى إلى درجات أعلى من التنوع ورغبة أعلى من قبل المستهلك لأن يدفع أكثر، ومن ثم عوائد أعلى على رأس المال المستثمر.

وحيث إن الاختراع يحدث بشكل مستمر فى شبكات الأعمال، يعتقد المؤلفون أن القادة التنفيذيين فى الشركات يحتاجون إلى نقل شركاتهم من كونها نماذج «أقيمت من أجل البقاء» إلى مؤسسات «أقيمت من أجل التكيف»، مستعدة لتسلق سلسلة القيمة ولعب أدوار جديدة فى شبكات الأعمال. وتحت هذا الضغط من أجل التحول، يجبر قادة الشركات على إعادة النظر فى الفرضيات التى يتم تبنيها منذ وقت طويل حول الاستراتيجية، والبنية والنظم وأساليب تنسيق المهام، والتعاون الأفضل مع العملاء والشركات، وحتى المنافسين. وتتناول الورقة السياق الصحيح الذى يجب أن يتم فيه النظر إلى هذا التغير فى مناخ الأعمال، وتحلل نمطين تعمل بداخلهما شبكات الأعمال. كما أنها تناقش كيف تتطور ديناميكيات شبكات الأعمال مع نشأة، وتوسع ونضج، واضمحلال الأسواق، وكذلك ما هى المبادئ أو الممارسات الرئيسية التى يمكن استخدامها كنقاط إرشاد، فى غزو تلك المناطق الجديدة من شبكات الأعمال. وأخيراً، يتم اكتشاف تبعات نماذج هذه الأعمال القائمة على الشبكات، بالنسبة لإدارة الاستثمار فى نظم تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.

لنتشارك

تصف ورقة «الشبكة التشاركية: الاختراع والتعاون» لشاسا وانش فنسنت وجراهام فيكرى (كلاهما فى منظمة التنمية والتعاون الاقتصادى OECD) النمو السريع فى المحتوى المُنتَج بواسطة المستخدم user-created content ودوره المتزايد فى الاتصالات على المستوى العالمى، وترسم تطبيقات سياسية له.

وفى حقيقة الأمر، فقد غير الإنترنت من طبيعة واقتصاديات إنتاج المعلومات. وقد تراجعت حدود الدخول الخاصة بخلق وتوزيع المحتوى بشكل كبير وشجعت على المشاركة الأوسع فى الإنتاج الإعلامى ورفعت استقلالية المستخدم، وزادت التنوع وأدت إلى

ترتيب الدول وفقاً لمؤشر جاهزية شبكة الاتصالات ٢٠٠٧-٢٠٠٨
The Networked Readiness Index 2007-2008 rankings

الترتيب	الدولة / الاقليم	المعدل
١	الدنمارك	٥,٧٨
٢	السويد	٥,٧
٣	سويسرا	٥,٥
٤	الولايات المتحدة	٥,٤٩
٥	سنغافورة	٥,٤٩
٦	فنلندا	٥,٤٧
٧	هولندا	٥,٤٤
٨	ايسلندا	٥,٤٤
٩	جمهورية كوريا	٥,٤٣
١٠	النرويج	٥,٣٨
١١	هونج كونج	٥,٣١
١٢	المملكة المتحدة	٥,٣٠
١٣	كندا	٥,٣٠
١٤	استراليا	٥,٢٨
١٥	النمسا	٥,٢٢
١٦	ألمانيا	٥,١٩
١٧	تايوان	٥,١٨
١٨	إسرائيل	٥,١٨
١٩	اليابان	٥,١٤
٢٠	إستونيا	٥,١٢
٢١	فرنسا	٥,١١
٢٢	نيوزيلندا	٥,٠٢
٢٣	إيرلندا	٥,٠٢
٢٤	لوكسمبورج	٤,٩٤
٢٥	بلجيكا	٤,٩٤
٢٦	ماليزيا	٤,٨٢
٢٧	مالطا	٤,٦١
٢٨	البرتغال	٤,٦٠
٢٩	الإمارات العربية المتحدة	٤,٥٥
٣٠	سلوفينيا	٤,٤٧
٣١	إسبانيا	٤,٤٧
٣٢	قطر	٤,٤٢
٣٣	ليتوانيا	٤,٤١
٣٤	تشيلى	٤,٣٥
٣٥	تونس	٤,٣٣
٣٦	جمهورية التشيك	٤,٣٣
٣٧	المجر	٤,٢٨
٣٨	بربادوس	٤,٢٦
٣٩	بورتريكو	٤,٢٥
٤٠	تايلاند	٤,٢٥
٤١	قبرص	٤,٢٣
٤٢	إيطاليا	٤,٢١
٤٣	جمهورية سلوفاكيا	٤,١٧
٤٤	لاتفيا	٤,١٤
٤٥	البحرين	٤,١٣
٤٦	جاميكا	٤,٠٩
٤٧	الأردن	٤,٠٨
٤٨	المملكة العربية السعودية	٤,٠٧
٤٩	كرواتيا	٤,٠٦
٥٠	الهند	٤,٠٦
٥١	جمهورية جنوب أفريقيا	٤,٠٥
٥٢	الكويت	٤,٠١
٥٣	عمان	٣,٩٧
٥٤	موروريشيوس	٣,٩٦
٥٥	تركيا	٣,٩٦
٥٦	اليونان	٣,٤٩
٥٧	الصين	٣,٩٠
٥٨	المكسيك	٣,٩٠
٥٩	البرازيل	٣,٨٧
٦٠	كوستاريكا	٣,٨٧
٦١	رومانيا	٣,٨٦
٦٢	بولندا	٣,٨١
٦٣	مصر	٣,٧٤
٦٤	بنما	٣,٧٤
٦٥	أورجواى	٣,٧٢
٦٦	السلفادور	٣,٧٢
٦٧	أذربيجان	٣,٧٢
٦٨	بلغاريا	٣,٧١
٦٩	كولومبيا	٣,٧١
٧٠	أوكرانيا	٣,٦٩

The Global Information Technology Report 2007-2008

التنميـة والديـموقـراطيـة..

التخلى عن حالة الاستهلاك السلبى البسيط للبث والنماذج الأحادية الأخرى لتوزيع المحتوى على المستوى الجماهيرى.

تتحدث تعبيرات مثل الشبكة التشاركية عن إنترنت متأثر بشكل متزايد بشبكة الخدمات الذكية، المرتكزة على تقنيات جديدة تمكن المستخدم من أن ينمى مشاركته فى تطوير وتقييم وتوزيع وتحقيق التعاون بالنسبة لمحتوى الإنترنت، وكذلك تطوير وتعديل تطبيقات الإنترنت فيما يتعلق بالمحتوى المُنتَج بواسطة المستخدم.

والأكثر من ذلك، تمتلك الشبكة التشاركية إمكانيات كامنة فيما يتعلق بالأهداف التعليمية والسياسية والاجتماعية، وشئون السياسات التى سوف تجرى معالجتها مثل النزاعات المتصاعدة حول حق النشر، والمحتوى المُنتَج بواسطة المستخدم.



ويجب على برامج بالمحتوى المُنتَج بواسطة المستخدم أيضاً أن تواجه اعتبارات الخصوصية بالنسبة للمستخدمين والمنظمين حيث البرامج الشعبية قد تصبح أكثر فأكثر عرضة لهجمات الإنترنت الأخرى، وهو ما يجعل بيانات المستخدم هشة. إن جودة المحتوى، والأمان فى الإنترنت، وإمكانيات الاستخدام الشخصى الأفضل من جانب المستخدمين، هى أمور سوف يتم معالجتها. كما أن زيادة التركيز من جانب برامج بالمحتوى المُنتَج بواسطة المستخدم والدور المتنامى للحراس، سوف تستمر كقضايا للسياسات والأعمال.

دراسات حالة مختارة

يقدم التقرير الصادر هذا العام ثلاث دراسات حالة تتعلق بالاختراع ومدى الجاهزية للاتصال فى سنغافورة وقطر والاتحاد الأوروبى. ومن المأمول أن دراسات الحالة تلك يمكن أن تقدم تصورات مهمة حول السياسات والممارسات الأفضل فى ضوء الدعم الكامل لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات والاختراع، من أجل زيادة القدرة التنافسية.

سنغافورة، أمة ذكية

فى سنغافورة، باعتبارها جزيرة صغيرة لا توجد بها موارد بخلاف شعبها، تصبح تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات مهمة لأجل تحقيق النمو وتعد مكوناً أساسياً للبنية التحتية الاقتصادية. وفى ورقة بعنوان «سنغافورة: بناء دولة ذكية بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات»، يعرض المؤلفون، نج شير كينج، وأونج لينج لى، وتانيا تانج (كلهم فى Infocomm Development Authority) وسوميترا دوتا (INSEAD) لقصة رحلة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات فى سنغافورة خلال الـ ٢٦ عاماً الماضية، والتى تبدأ بمقدمة حول خطة إدخال الكمبيوتر على المستوى القومى عام ١٩٨١ لتزويد البلاد بوسائل جديدة لزيادة الإنتاجية والقدرة التنافسية الاقتصادية. وحيث أتت الجهود لاستخدام الكمبيوتر بثمارها، تزايدت ثقة الحكومة فى تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات كعامل مساعد فى النمو الاقتصادى، وذلك جنباً إلى جنب مع الطموح لتعزيز قدرات سنغافورة فى مجال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات. وإضافة إلى تزويد الحكومة بالكمبيوتر، بذلت السلطات المعنية جهوداً لنشر القدرات الخاصة بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات على المستوى القومى فى الشركات وبين السكان، وربط البلاد باتصالية برودباند broadband ذات السرعة العالية، وتطوير القطاعات الاقتصادية المختلفة عبر استخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.

ويرى المؤلفون أنه بينما بدأت سنغافورة بقاعدة محدودة جدا، فإنها تمتلك الآن صناعة نابضة بالحياة لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، وأصبح شعبها على دراية واسعة بالتكنولوجيا. وقد تم إنجاز ذلك جزئياً عبر إرساء وتطبيق الخطط الست الأساسية الخاصة بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، كل منها قائمة على أساس قضية تنموية مهمة بالنسبة للاقتصاد آنذاك.

إن «أمة ذكية، مدينة كونية، تعمل بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات» تمثل رؤية آخر خطة رئيسية تتبناها سنغافورة فيما يتعلق بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات: «أمة ذكية ٢٠١٥». إن دور تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، باعتبارها عاملاً استراتيجياً فى زيادة القدرة التنافسية للبلاد، يمثل الأساس الذى ترتكز عليه خطة «أمة ذكية ٢٠١٥».



وعبر تسخير قدرة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، تهدف سنغافورة إلى تنمية مجتمع رقمى شامل وضمان استمرار النمو، وحيوية الاقتصاد. إن تركيز سنغافورة على ربط تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات بالاهداف الاستراتيجية، ووجود قيادة قوية فى قمة الحكومة يقدمان رؤى مفيدة للدول الأخرى، عن طريق تبنى هدف دعم قدرات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، من أجل التنمية ورفع القدرة التنافسية. كما تؤكد الورقة أيضاً على مجالين بعينهما من مجالات نشر تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات تفوقت فيهما سنغافورة عالمياً: الحكومة الإلكترونية والتعليم الإلكترونى.

اقتصاد المعرفة فى قطر

تعد قطر واحدة من أغنى اقتصاديات العالم، حيث يبلغ متوسط دخل الفرد بها أكثر من ٦٢ ألف دولار سنوياً. وبالرغم من ثروتها الضخمة، فقد بدأت قطر مؤخراً فقط فى رحلة التحديث، مع اعتبار تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات عاملاً أساسياً لدفع هذه العملية. ويتمثل هدف استخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات فى خلق قاطرة مركزية لاقتصاد تنافسى، وتعميم الحصول على الخدمات الاجتماعية، وخلق مجتمع قائم على المعرفة.

وإضافة إلى ذلك، يُنظر لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات باعتبارها تمتلك أثراً مضاعفاً فى كل القطاعات، بما يوسع من مدى الإصلاحات السياسية ويساعد قطر على تحقيق هدف التحول إلى بلد تقدمى حديث. وأنجزت الخطوة الرئيسة الأولى فى هذه الرحلة عندما تمت إقامة مجلس قطر الأعلى "تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، وفقاً لمرسوم أميرى صدر فى عام ٢٠٠٤.

وقد أعطى للمجلس سلطات وتفويضاً واضحاً لتنظيم ودعم قطاع تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات. وقد اضطلع مجلس قطر الأعلى لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات بحماس بدور بطل تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات لكل البلاد، ودفع بثبات فى اتجاه التوصل إلى رؤية متكاملة وشاملة لتطبيق تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.

وقد نجح فى الحصول على دعم وتعاون الوكالات والإدارات الحكومية. وقد أصبح أثر تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات محسوساً. وقد حصلت قطر على المركز الـ ٣٢ فى مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات هذا العام. وتوجد خطة قومية متكاملة لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، ويتم أخذ المبادرات على عديد من الأصعدة: إصلاحات السياسات، وخطوات تتعلق باعتبارات الأمن، ومبادرات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات فى الرعاية الصحية والتعليم والحكومة الإلكترونية والبنية التحتية،



أصبح تسهيل الحصول على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على قمة الأولويات القومية فى معظم الاقتصادات النامية والمتقدمة



والتنظيم المتقدم فى صناعة الاتصالات. وفيما يتعلق بقطر، فقد بدأت رحلة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات لتوها. غير أنه بالرغم من البداية المتأخرة نسبياً، فقد نجحت البلاد فى أن يكون لها بصمة فى خريطة تكنولوجيا المعلومات العالمية.

أوروبـــا .. أوروبـــا

لقد أصبح واضحاً أكثر من أى وقت مضى أن نماذج تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات والأعمال الالكترونية هى أهم العوامل المحفزة على الاختراع والتنافسية اليوم. فقد أحدثت تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات ثورة فى طريقة عمل الشركات حالياً، وسوف تستمر فى القيام بذلك فى المستقبل. لكن تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات يمكن أن تنتج قدراً كبيراً من عوائد زيادة الإنتاجية فقط إذا ما صاحبها تغيرات تنظيمية مناسبة، ونماذج مبتكرة للأعمال الإلكترونية والاستثمار فى المهارات.

وبالرغم من ذلك، مازالت القدرات الكامنة العظيمة للمخترعات القائمة على أساس تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات ونماذج إعادة تنظيم الأعمال لم تستغل من جانب الشركات الأوروبية الصغيرة والمتوسطة الحجم إلى حد كبير.

ومن ثم، فقد ظل تطوير الاستخدام المتكامل والابتكارى لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات من جانب الشركات الاوروبية الصغيرة والمتوسطة الحجم، يمثل تحدياً لصناع السياسة خلال الأعوام الماضية.

وتقدم دانا اليفثيرياندو (من المفوضية الأوروبية European Commission) فى ورقتها «الشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم تحمل مفتاح التنافسية الاوروبية» رؤية شاملة للجهود التى تبذلها المفوضية لتطوير فعالية السياسات العامة المتعلقة بالشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم، والتى تؤدى إلى تطوير الاستخدام الابتكارى لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات وتبادل الخبرات الجيدة: شبكة دعم الأعمال الإلكترونية للشركات صغيرة ومتوسطة الحجم. إن هذه هى مبادرة «للسياسة الذكية» التى تراقب التطورات فى السياسات وتحدد التوجهات الجديدة. ومن خلال شبكة دعم الأعمال الإلكترونية للشركات صغيرة ومتوسطة الحجم، نحن نلاحظ وجود ثلاثة توجهات أساسية جنباً إلى جنب:

(١) تزايد الأهمية الاقتصادية للشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم باعتبارهم لاعبين أساسيين فى تطبيق استراتيجية لشبونة للنمو وخلق الوظائف، وكذلك تزايد قدرات هذه الشركات على التصرف كلاعبين دوليين فى الاقتصاد العالمى الناشئ.

(٢) الاعتراف الذى لاينازعه الشك بجدارة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات وعمليات الأعمال الإلكترونية الجديدة، باعتبارها عوامل أساسية تساعد على الاختراع والإنتاجية والنمو.

(٣) التدخل القوى للحكومات لتحفيز المضى قدماً فى استخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، ونماذج الأعمال الإلكترونية، وأساليب الإدارة الحديثة التى تستخدمها الشركات، وبشكل خاص الشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم. ■

هناك نمو سريع فى المحتوى المُنتَج بواسطة المستخدم user-created content ودوره متزايد فى الاتصالات على المستوى العالمى

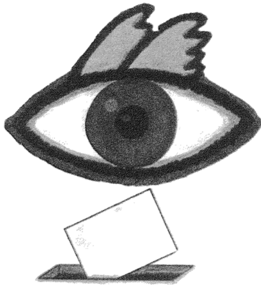




الطريق الإلكترونى للديموقراطية



أنطونيو موجيكا



■ قبل نحو ٢٠ عاماً، فى ١٩٨٩، بدا أن لا شىء كان يقف فى طريق انتشار الديمقراطية فى العالم. واليوم، فى ٢٠٠٨، أصبحنا نعلم أكثر؛ حيث توجد عديد من العوامل، تمتد من الموارد الطبيعية، إلى الثقافة، إلى البنية الأساسية، والتى باستطاعتها أن تجعل من الصعب على الديمقراطيات أن تنمو وتزدهر. وإزاء بحثنا عن طرق لمساعدة الديمقراطيات القديمة والحديثة على الازدهار، عادة ما نهمل الحل الأسهل، والذى نجده أمامنا بشكل مباشر، وهو عملية الاقتراع.

من كينيا إلى تايلاند إلى الولايات المتحدة، وهى الديمقراطيات الأقدم فى العالم، ظلت مشكلات الاقتراع تقوض من ثقة الشعوب فى الانتخابات، وأحدثت أضراراً بالغة بالمؤسسات. فمن البطاقات المفقودة، إلى الانتشار الواسع لنظريات المؤامرة، تؤدى الشكوك حول نزاهة عملية الاقتراع إلى وجود حالة مدمرة من التشاؤم إزاء تلك العملية. ونتيجة ذلك أن أعداداً متزايدة من المواطنين أصبحت تفتقر إلى الثقة فى أن نتائج الانتخابات سوف تعبر عن إرادتهم بصورة صحيحة، لا عن قوة المصالح الخفية.



إن هذا التقويض للشرعية الديمقراطية لهو بمثابة مأساة. وهو مأساة لا يجب

أن يُسمح لها بالاستمرار. يجب أن تكون كل عملية انتخابية تجرى اليوم خالية من الأخطاء فيما يتعلق بالدقة والشفافية التامة وأن يكون بالإمكان مراقبتها بنسبة ١٠٠٪.

لماذا؟ لأن التكنولوجيا الكفء الموجودة بالفعل يمكنها أن تجعل عدالة وصدقية الانتخابات مسألة شبه مؤكدة. وفى الواقع، تستخدم هذه التكنولوجيا فى الوقت الراهن فى معظم المناطق التى من غير المتوقع أن يحدث بها ذلك. خذ على سبيل المثال الانتخابات التى أجريت فى ١١ أغسطس فى منطقة ميندناو المسلمة المتمتعة بالحكم الذاتى فى الفلبين. ففى بلد مثل الفلبين، الذى شهد مثل بلدان كثيرة عديداً من الانتكاسات على صعيد العملية الديمقراطية - بما فى ذلك الاتهامات القوية بشأن التزوير - قامت منطقة ميندناو بإجراء أول انتخابات آلية. فماذا حدث؟

إن ما حدث هو انتخابات اتسمت بالسرعة والدقة والشفافية. فى العام الماضى، أخذت انتخابات ميندناو أسابيع من أجل فرز الأصوات، وواجهت اتهامات قوية بالتزوير. وفى المقابل، استغرق فرز الأصوات فى انتخابات العام الحالى ٢٤ ساعة، وقبلت كافة الأحزاب السياسية النتائج. إن الحل الذى يتيح مراقبة الانتخابات أدى إلى وجود مستوى من الثقة لا يستطيع أحد الطعن به. فكل آلة خزنت كل صوت فى سبعة مواقع مختلفة، وهو ماجعل التلاعب بالنتائج أمراً شبه مستحيل.

وفى مقابل ذلك، فإن الانتخابات القائمة على بطاقة الاقتراع التقليدية- التى تكون بها البطاقة المُعلّمة هى الوسيلة الوحيدة لتسجيل عملية الاقتراع- يمكن أن تخضع للتلاعب أو الإتلاف من قبل البشر. أنظر فقط إلى ما حدث فى انتخابات عام ٢٠٠٠ فى الولايات المتحدة، حيث أجبرت أزمة البطاقات المفقودة، مؤسسة ليست منتخبة هى المحكمة العليا، على اختيار الفائز.

وبالطبع فإن للتصويت الالكترونى نصيبه من النقد. فيشير البعض إلى أخطاء فى حالات معينة يمكن مواجهتها وتطويرها. ولكن لسوء الحظ، يدافع البعض الآخر عن نظرية صناديق الاقتراع السوداء بدعوى أنه ما أن يجرى تسجيل الصوت على الكمبيوتر، فلا أحد يمكنه معرفة ماذا سيحدث له.

وبغض النظر عن أن نظرية الصناديق السوداء تتناقض مع الاعتقاد الشائع - حيث أننا جميعا نثق فى الكمبيوتر عندما يتعلق الأمر بحياتنا حينما نكون مسافرين بالطائرة، أو بمعيشتنا حينما نضع أموالنا فى البنوك- فإن هذه النظرية تتجاهل حقيقتين. أولاً، كما تمت الإشارة، إن طرق الاقتراع القابلة للمراقبة تكون لديها وسائل للتأكد تحقق التوازن أكثر مما يقره الدستور الأمريكى. وبمعنى آخر، يتم تخزين الأصوات بطرق عديدة مما يجعل من الصعب أن يحدث تلاعب لا يتم كشفه. وثانياً فإن النظم الأفضل هى النظم التى تتيح المراقبة، مثل ذلك المستخدم فى الفلبين، الذى يتضمن وجود أوراق تثبت صدقية تسجيل صوت المقترع.

ما الذى يعنيه ذلك؟ إنه يعنى ببساطة أن كل مقترع يرى بطاقة ورقية ويوقع عليها بأن صوته تم تسجيله بشكل صحيح. ومن ثم لو أثير القلق بشأن نتائج الانتخابات، فإن هذه النسخ الورقية الموازية للنسخ الإلكترونية يمكن أن يتم الرجوع إليها بسرعة.



وبالإضافة إلى ذلك، فإن التصويت الذى يمكن مراقبته هو أيضاً جيد بالنسبة للبيئة المحيطة. وعلى سبيل المثال، فإن عدم وجود حاجة لطبع وتهيئة ونقل ملايين الأصوات الورقية فى كل دورة انتخابية يوفر الوقت والجهد.

إنه فى عالم تظل خلاله الديمقراطية الأمل الأفضل لمستقبل البشرية، يجب ألا نجعل المخاوف التى لا تقوم على أساس، تقف فى طريقنا. لاشىء يبنى الثقة اللازمة لمساندة المؤسسات الديمقراطية أسرع من الثقة فى نتائج الانتخابات. ولا أحد يحقق هذه الثقة أسرع من الانتخابات العادلة والدقيقة والشفافة. وباختصار، فإن أفضل طرق الانتخابات التى تتيح المراقبة هى الصندوق المفتوح - لنجعل الضوء يلمع بوضوح فى القلب الخافق للديمقراطية. ■

عــــودة العرضحالجى



أحمد درويش

■■ يعتمد المصريون منذ عهود بعيدة على من يقوم بالنيابة عنهم بتجهيز المستندات وكتابة الطلبات أو الشكاوى للتقدم للجهات الحكومية والباحث فى تاريخ العرضحالجى المصرى يجد أن الاسم أساسا مشتق من ثلاثة مقاطع كلمة عرض وكلمة الحال أى من يقوم بعرض المطلب للمسئول الذى كان قديما المحتسب والوالى والخليفة والأمير والخديو وهذه المهنة ظلت حتى وقت قريب من عهدنا الحالى والمقطع الأخير «جى» أى صاحب أو مستخدم الشىء (مثل المكوجى أى صاحب المكوى - البلطجى أى مستخدم البلطة)

ويختلف السبب داعى المواطن للجوء إلى العرضحالجى فقد كانت نسبة الأمية هى العامل المؤثر والسبب الرئيسى لبقاء واستدامة تلك المهنة قديما ولكن لا يمكن أن نهمل عامل صعوبة التعامل مع الحكومات لطالب الحاجة مع كثرة المستندات وخوفا من تعارض ما يقدمه المواطن مع الفرمانات والقرارات الصادرة التى قد توئد الطلب فى مهده بل تعود فى بعض الاحيان بالضرر على مقدم الطلب.

كما أن صعوبة وكثرة الإجراءات وتعدد وتباعد الأماكن الحكومية المطلوب التردد عليها لإنهاء خدمة حكومية واحدة أوجدت تربة خصبة للعرضحالجى لإظهاره كعالم ببواطن الامور ومنقذ ومخلص للمواطن من التعقيدات فى العهود الماضية.

ومع التطور المستمر وزيادة نسبة التعليم ومع الخطوات الجادة التى اتخذت لتبسيط الاجراءات وتسهيل حصول المواطن على الخدمات بأساليب وطرق جديدة وإعلامه بالخطوات والاجراءات المطلوبة فى أماكن ظاهرة بالمصالح الحكومية تقلص دور العرضحالجى ليخدم شريحة صغيرة جدا من المجتمع، حيث بدأت الأسر تعتمد على أحد أبنائها المتعلمين لأداء الخدمات والأوراق المطلوبة مع الحكومة وبدأت تلك المهنة التى استمرت لقرون من الزمان فى الاندثار وأصبح من يمتهنونها قلة تعد على اصابع اليد الواحدة بعد أن كان المواطن يحار ليتخير إلى من يذهب منهم لصياغة طلبه وترتيب مستنداته.

إلا أننا الآن أمام واقع جديد حيث أتاحت تكنولوجيا المعلومات قنوات جديدة للحصول على الخدمات الحكومية مثل الانترنت (تفضل بزيارة www.egypt.gov.eg) أو التليفون الأرضى (تفضل بالاتصال ١٩٤٦٨ أو ١٦٦٣٣) أو المحمول حيث يمكن للشخص طالب الخدمة لتصله إلى منزله أو مكان عمله.

ولا نختلف على أن هذه الوسيلة أكثر راحة توفر على طالب الخدمة مشقة ازدحام المرور والبحث عن مكان لانتظار السيارة أو عن وسيلة مواصلات مريحة بالأخص وأنها توفر نظم سداد جديدة تناسب كافة المواطنين من بينها مثلا السداد عند الاستلام (أى سداد رسوم الخدمة لساعى البريد عند تسليم الوثيقة المطلوبة)

يوجد حاليا بمصر حوالى ٨٠ خدمة تم تطويرها للحصول عليها من على الانترنت من بينها الحصول على الوثائق الشخصية (شهادة ميلاد - بدل فاقد الرقم القومى - ...) تجديد رخص السيارات وسداد المخالفات - حجز تذاكر القطارات والأتوبيسات - سداد الفواتير

هذا الواقع الجديد لتقديم الخدمات الحكومية إلكترونيا أوجد مساحة كبيرة لشكل جديد للعرضحالجى وإن جاز التعبير العرضحالجى الإلكترونى



- تنسيق دخول الجامعات وغيرها كثير؛ إلا أن هذا يتطلب من الشخص فى حالة الحصول على الخدمة من الانترنت أن يكون لديه حاسب متصل بالانترنت ويعرف كيف يتجول بين المواقع وهو أمر متوفر حاليا لـ ١٠٪ فقط من المجتمع المصرى ومعظمهم من الشباب صغيرى السن من غير مستخدمى الخدمات الحكومية.

هذا الواقع الجديد لتقديم الخدمات الحكومية الكترونيا اوجد مساحة كبيرة لشكل جديد للعرضحالجى وان جاز التعبير العرضحالجى الالكترونى كوسيط يستطيع تطويع وتسخير المعلوماتية والتقنيات الحديثة واستعمال ادواتها لخدمة من حوله مقابل أجر معقول يغنى المواطن عن التنقل والترحال وعن ارتياد المصالح الحكومية وضياع الوقت وبالتالى المال.

ورغما عن ارتباط شكل العرضحالجى التقليدى بأذهاننا بالصورة التى قدمتها السينما المصرية لفترة طويلة وحتى وقت قريب لشخص فهلوى من اشباه المتعلمين يجلس بجوار المصلحة الحكومية بملابسه القديمة والمنديل المحلاوى الذى يضعه تحت غطاء رأسه الا ان الشكل الجديد للعرضحالجى الحديث مكتب انيق مرتب يستخدم الحاسب الالى ويتعامل مع الجمهور بأسلوب راق كوسيط تكنولوجى لتأدية الخدمة مدرب على احدث التكنولوجيات وعلى علم ودراية بالقواعد الحاكمة والقوانين المنظمة للعمل ومزود بأحدث التعديلات الخاصة بالتعليمات والاجراءات الحكومية والتى تحدثها وزارة الدولة للتنمية الإدارية دوريا على بوابة الحكومة المصرية.

يوجد حاليا حوالى ٥٠٠ عرضحالجى من هذا النوع المتطور ولكن الأمل أن يزداد العدد الى ٥٠٠٠ ليغطى كل قرى مصر (حوالى ٤٦٠٠) وكافة الأحياء بالمدن والمراكز (حوالى ٣٠٠). وهو هدف ليس بعيد المنال فكل المتطلبات لا تعدو كونها مكانا صغيرا وجهاز حاسب وخط تليفون و٢ من الشباب يقومون بخدمة المواطن. أى أننا نبحث عن ١٠ آلاف خريج وخريجة يستخدمون الحاسب وعلى دراية بكيفية التجول على الانترنت وهو مطلب ليس صعبا بين شباب الخريجين الآن.

النظرة المتأنية لهذه المهنة القديمة بشكلها الجديد المتطور يتضح منها عدة جوانب إيجابية:

- فرص العمل التى يمكن أن تتولد ومساهمة ذلك فى تقليل البطالة.
- تخفيض معدل تردد المواطن على المصالح الحكومية حيث يمكن انجاز كافة معاملاته التى لا تستدعى ذهابه الشخصى للحصول على الخدمة وهو ما يؤدى الى تقليل الازدحام وقصر الطوابير بالمصالح الحكومية.
- رفع نسبة استعمال تكنولوجيا المعلومات مما يؤثر ايجابيا فى تقدم موقف المؤشر المصرى التكنولوجى.
- المباعدة بين مقدم الخدمة الأصلى (الموظف) وطالب الخدمة (المواطن) بما يسد أبوابا قد تكون مفتوحة حاليا ينفذ منها الفساد (الرشوة والمحسوبية وتخطى الدور ..) وهو حتما سيؤدى إلى مزيد من الشفافية والنزاهة احد أهم مقومات اجتذاب الاستثمارات التى بدورها تولد المزيد من فرص العمل.
- كسر حاجز احتكار الجهات الحكومية لتقديم الخدمات الحكومية وفتح الباب للمواطن ليختار مقدم الخدمة المناسب لتلبية احتياجاته ومطالبه بالصورة التى يرضاها. ■

فتــح اللــــه الشـــــــيخ



كلمــا خطــا العــلم
خطــــوة للأمـــام نبــتــت آلاف
الأســــئلة فى طريقـــه



وكان الأربعـاء صباحـًا رائعـًا .. ولم ينته العالم

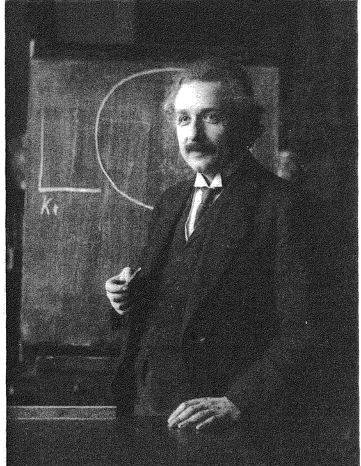
■ أعتذر بادئ ذى بدء عن الملاحظات العديدة المتكررة وذلك بقصد توضيح بعض المصطلحات العلمية، وزيادة لمن يرغب فى الاستزادة، وقد فرضتها ضرورة موضوعية لا مفر منها.

يطرح العلم عادة من الأسئلة ما هو أكثر كثيرا من الإجابات التى يتوصل إليها. وكلما خطا العلم خطوة للأمام نبتت آلاف الأسئلة فى طريقه، وما الأسئلة التى يطرحها إلا منهجه فى التقدم وصنع المستقبل. وفى أواخر القرن التاسع عشر - لأكثر من مائة عام مضت - تسبب أحد التساؤلات فى نشأة علم كامل رائع ومهيب. كان التساؤل حول أحد المنحنيات التى تمثل توزيع الإشعاعات الصادرة عن الأجسام السوداء، وأصبح العلم .. ميكانيكا الكم. وانفتحت بوابات المعرفة السبع على مصاريعها .. ليدخل منها ويصدر عنها علماء ومهندسون وفنيون. حصل العشرات منهم على جوائز نوبل، وما زالوا يحصلون عليها فى هذا المجال .. آينشتاين[١] وبلانك وشرودنجر وبوهر وبورن وهايزنبرج .. للتاريخ، وغيرهم وغيرهم. وتضم القائمة دون مبالغة ما يقرب من خمسين فيزيائيا. وحصلت البشرية على الترانزستور والدوائر المتكاملة والشيبات، وعلى الكمبيوتر والاتصالات وسفن الفضاء وأجهزة الفحص الطبى المتطورة والطاقة النووية (ومعها القنابل النووية!) والمعجلات الفائقة.

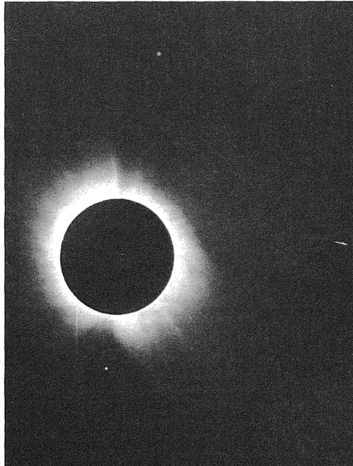
كانت الأسئلة المطروحة وقتها فى بداية القرن العشرين: كيف نبرهن على وجود الذرات بالفعل؟ ومم تتكون هذه الذرات؟ وهل الضوء جسيمات أم موجات؟ وكان البعض القليل من العلماء ما زال يشكك فى وجود الذرات، تماما كما يشكك بعض الناس حتى يومنا هذا فى كروية الأرض أو دورانها حول الشمس. وأصبحت أسئلة العلم اليوم: هل حقيقى أن للعالم أكثر من أربعة أبعاد زمكانية[٢] (ثلاثة منها مكانية وواحد زمانى)؟ هل المادة المرئية لا تشكل إلا جزءا صغيرا من الكون؟ وهل يتكون العالم أساسا من المادة الداكنة والطاقة الداكنة؟[٣] وماهى المادة المضادة؟[٤] وكيف تتكون؟ وأين توجد؟ وهل هناك جسيمة حقيقية مسئولة عن كتلة المادة - هيجز بوزون Higgs boson؟[٥]

تتصدت «سيرن CERN» لمحاولة الإجابة عن هذه الأسئلة. و«سيرن» هى المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية التى تأسست سنة ١٩٥٤، وقد اتخذت اختصارا لاسمها من اسم المؤسسة التى سبقتها بالفرنسية (Conseil Europeen pour la Recherche Nucleaire). ويقع مقرها ومعاملها خارج مدينة جنيف على الحدود بين فرنسا وسويسرا، ويساهم فى تمويلها عشرون دولة أوروبية. وتدعم «سيرن» الأبحاث فى مجال فيزياء الجسيمات والمجالات المتعلقة بها للأغراض السلمية. ويقوم الفيزيائيون فى هذه المنظمة بإجراء أبحاثهم فى عدد كبير من معجلات الجسيمات[٦] الموجودة تحت الأرض. وأكبر هذه المعجلات هو «مصادم الهادرونات الكبير (Large Hadron Collider[٧] LHC)» - الذى طارت أخباره وورد اسمه

البرت اينشتين ١٩٢١



الكسوف ـ ١٩١٩



في جميع نشرات الأخبار المسموعة والمرئية بكل لغات ولهجات العالم صباح الأربعاء العاشر من سبتمبر سنة ٢٠٠٨. فقد نجح هذا المصادم العملاق في أول اختبار كبير له، وأحبط كل أفكار وتنبؤات المتشائمين من العلماء والمفكرين وخاصة الناس وعامتهم، الذين قالوا إن إطلاق مثل هذا المعجل قد يدمر ويفني كوكب الأرض بما ومن عليه. لكن دعونا نبدأ من البداية.

اكتشف الفيزيائيون في «سيرن» عددا كبيرا من الاكتشافات الهامة على مدى تاريخها القصير. ففي سنة ١٩٨٣ اكتشف الفيزيائي الإيطالي كارلو روبيا Carlo Rubbia والفيزيائي الهولندي سيمون فان در مير Simon van der Meer الجسيمتين W وZ وهما الجسيمتان الناقلتان للقوى الضعيفة، وهي إحدى القوى الأربع الأساسية في الطبيعة - القوى الكهرومغناطيسية والقوى النووية القوية والقوى النووية الضعيفة وقوى الجاذبية. وقد ساعد هذا الاكتشاف في تأكيد النظرية القائلة بأن القوى الضعيفة والقوى الكهرومغناطيسية شيء واحد، وجلب للفيزيائيين جائزة نوبل لسنة ١٩٨٤.

وقد اختبر فيزيائيو «سيرن» وأكدوا تنبؤات نظرية النموذج القياسي، وهي النظرية التي تتناول خواص الجسيمات الأولية وكيفية تفاعلها وتداخلها مع بعضها البعض. وقد أصدروا تقريرا لسنة ٢٠٠٠، جاء فيه أن مصادم الإلكترونات - البوزيترونات الكبير Large Electron - Positron Collider (LEP) قد اكتشف دليلا على وجود الهيجز بوزون، Higgs boson وهي الجسيمة أو المجال الذي يعتقد الفيزيائيون أنها (أو أنه) المسئول عن كتلة الجسيمات الأساسية. لكن قبل التأكد من هذا الاكتشاف أُغلق LEP ليفسح المجال لمعجل مصادم أحدث وأقوى، هو «مصادم الهادرونات الكبير» LHC، أقوى وأكبر معجل في العالم على الإطلاق.

ومن الطريف أن الأبحاث التي دعمتها «سيرن» قد أفضت إلى إحداث تقدم هائل في مجالات متنوعة. فمثلا، استُحدثت الشبكة الشهيرة World Wide Web (www) بواسطة العالم البريطاني الشاب تيموثي بيرنرز - لي Timthy Berners - Lee كوسيط لاقتسام المعلومات بين الباحثين في «سيرن».

أما ما حدث يوم الأربعاء الكبير الموافق العاشر من سبتمبر فقد كان أعظم وأكبر تجربة فيزيائية في التاريخ، تكاد تقارب في عظمتها وأهميتها الأحداث الفلكية الكبرى. فهي تحاول محاكاة لحظة الخلق - لحظة الانفجار الكبير (Big Bang). فقد تم إطلاق شعاعين من البروتونات في اتجاهين مضادين حول ٢٧ كم من محيط دائرة المصادم الكبير LHC في خطوة كبرى يعدها العلماء إنجازا كبيرا على طريق فهمنا لنشأة العالم. وبعد سلسلة من التجارب الأولية ظهرت أخيرا نقطتان متفجرتان متوهجتان في تمام الساعة ٢٦,٠٨ صباحا بتوقيت جرينتش (٢٦,١١ صباحا بتوقيت القاهرة)، مما أوضح أن البروتونات قد سارت في اتجاه عقارب الساعة على مدى الطول الكامل للمصادم الكبير الذي تكلف إنشاؤه ٤ بلايين فرنك سويسري (٨,٣ بليون دولار). ويصف العلماء هذه التجربة بأنها أضخم تجربة فيزيائية في التاريخ. وعندما أكمل الشعاع دورته صاح قائد المشروع لين إيفانس (Lyn Evans) قائلا: «هذه هي There it is». وارتفعت الأنخاب في شيكاغو على بعد آلاف الكيلومترات من المشاركين والمنافسين على حد سواء، حيث كان الجميع يتابع التجربة بالأقمار الصناعية. وبعد مضي ٥ ساعات أطلق العلماء شعاعا في الاتجاه العكسي (ضد عقارب الساعة). وأصبح لدى الفيزيائيين في جميع أنحاء العالم الآن قوة مهولة لإحداث الصدمات بين مكونات الذرة في محاولة لفهم أصغر الأشياء (الذرة ومكوناتها) وأكبر الأشياء (الكون وكيف نشأ).

كانت المنظمة (سيرن) قد بدأت في إطلاق البروتونات داخل النفق على مراحل قبل بداية التجربة بأقل من ساعة، في تمام ٣٠,٠٧ ص بتوقيت جرينتش (٣٠,١٠ ص بتوقيت القاهرة)، على أن يتم في نهاية المطاف إطلاق شعاعين آنيا في اتجاهين مضادين بغرض إعادة صياغة الظروف التي سادت في الكون بعد جزء ضئيل جدا من لحظة الانفجار الكبير (Big Bang)، أي لحظة بداية الخلق كما يعتقد معظم العلماء.

كان روبرت أيمار Robert Aymar مدير عام «سيرن» - المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية - موجودا في مركز التحكم على الحدود بين فرنسا وسويسرا ومعه أربعة من مديري العموم السابقين، وقد هنأ الجميع قائلا: «لقد أحسنتم صنعا جميعكم». وبالفعل أحسن وأتقن الجميع دون استثناء، وكما قال إيفانس: «كان أول شيء فكرت فيه هو الشعور بالارتياح». فالمشروع آلة ضخمة في غاية التعقيد، وقد يحدث أي خطأ في أي لحظة. لكن البداية كانت رائعة هذا الصباح! ولم يشأ إيفانس - مدير المشروع الذي عمل به منذ بدايته سنة ١٩٨٤ - أن يحدد موعدا، لكنه صرح بأنه يتوقع أن يتمكن العلماء من إجراء «صداماتهم» وتجاربهم في غضون بضعة أشهر فقط.

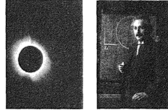
وقد صُمم المصادم لتعجيل (إكساب الطاقة والسرعة) البروتونات إلى سرعات قريبة من سرعة الضوء[٨]، بحيث تئز ١١٠٠٠ (أحد عشر ألف) مرة حول النفق في الثانية! ويأمل العلماء في النهاية أن يتمكنوا من إطلاق شعاعين من البروتونات من فتحات أنابيب يقارب اتساعها فتحة خرطوم الحريق، على أن يتم تعجيلها خلال فراغ أبرد وأعمق تفريغا من الفضاء الكوني. وستتقاطع مسارات هذين الشعاعين وتصطدم بعض البروتونات ببعضها، وسيقوم بتسجيل الصدام وما ينتج عنه أكبر كشافين على شكل آلات تصوير رقمية هائلة تزن الواحدة منها آلاف الأطنان، ولها القدرة على التقاط ملايين اللقطات في الثانية الواحدة. وأثناء اختبارات الصباح ارتفعت قليلا درجة حرارة المغناطيسات فائقة البرودة والتي تقود أشعة البروتونات عبر النفق، الأمر الذي

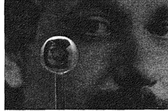




خشـى البعـض من أن التجـربـة قـد تـؤدى إلى ابتـلاع كـوكـب الأرض







استدعى فترة فاصلة من الزمن لإعادة تبريدها قبل إطلاق الشعاع الآخر فى الاتجاه المضاد.

وقد تتمكن «سيرن» من كشف المزيد من غموض ما يسمى «المادة الداكنة» والمادة المضادة، ومن المحتمل كذلك أن تتمكن من استيضاح الأبعاد الخفية للزمكان، وقد تتمكن من العثور على دليل على وجود الجسيمة «النظرية التخيلية» هيجز بوزون Higgs boson - «جسيمة الرب» كما يطلق عليها العلماء أحيانا، ويعتقدون أنها هى التى تمنح الجسيمات الأخرى كتلتها، وبالتالى فهى المسئولة عن المادة التى تشكل الكون.

وقد عارض البعض تجارب المصادم الكبير وأبدوا تخوفهم أن تبتلع صدامات البروتونات كوكب الأرض بواسطة تكوّن ثقب أسود ميكرووى[9]. لكن المتحدث الرئيسى باسم «سيرن»، جيمس جيليس James Gillies، قال بالحرف الواحد: «إنه هراء». وقد أيد علماء بارزون إجراء تجارب «سيرن»، مثل ستيفن هوكنج، أكبر عالم فى مجال الثقوب السوداء، وأعلنوا أن التجارب آمنة تماما. وكان بعض العلماء المتشائمين (وهم دائما موجودون) قد أعلنوا أنه قد تتكون بعض الثقوب السوداء الميكرووية التى قد تقتنصها جاذبية الأرض لتهدد بابتلاع الكوكب فيما بعد. وقد صرح عالم الفيزياء النظرية البريطانى جون إيليس قائلا: «لنفترض جدلا أن الصدامات ستولد ثقوبا سوداء ميكرووية بالمقام الأول وهو أمر بعيد الاحتمال، لكن حتى إذا حدث فإن هذه الثقوب ستتبخر كما يتنبأ بذلك ستيفن هوكنج. وقد صرح جيليس بأن أخطر ما يمكن حدوثه هو خروج الشعاع عن التحكم وهو بكامل طاقته، وقد يؤدى ذلك إلى تدمير المعجل نفسه، أما الشعاع فسيمتص ويدفن فى الأرض المحيطة بالنفق. ولم يحدث شىء من ذلك يوم الأربعاء، مما يدفع للاعتقاد بأن المعجل سيعمل بكامل طاقته فى غضون عام من الآن.

وقد اجتذب المشروع الذى قامت به الدول العشرون الأعضاء فى «سيرن» علماء وباحثين من أكثر من ٨٠ دولة، من بينهم ١٢٠٠ من الولايات المتحدة وحدها، وهى الدولة التى لها صفة المراقب والتى ساهمت بمبلغ ٥٣١ مليون دولار. وتعد اليابان من أكبر الدول المساهمة التى لها صفة المراقب. ومما هو جدير بالذكر أن بعض العلماء من هذه الدول ما زالوا فى انتظار إجراء تجاربهم على المصادم الكبير LHC منذ ٢٠ عاما.

وقد تطلبت درجة التعقيد العالية لإتمام مشروع المصادم الكبير LHC حدوث تقدم هائل فى استخدام تقنيات ومعدات من الموصلات الفائقة[10] فى درجة حرارة فائقة التبريد. وقد أدى ذلك إلى تأخير الافتتاح الذى كان مقدرا له سنة ٢٠٠١ واكتمال بيانات المعجل الذى كان مقدرا له سنة ٢٠٠٥ لمدة عامين لكل منهما على الأقل. أما التكاليف فقد زادت بمقدار ٢٥ ٪ عما كان مقدرا لها.

وقد استخدم العلماء معجلات أو مصادمات أصغر على مدى عقود من السنين فى دراسة تكوين وبنية الذرة. وكان الاعتقاد السائد منذ أقل من مائة عام أن البروتونات والنيوترونات هى أصغر مكونات نواة الذرة، إلا أنه بالتدريج منذ ذلك الحين بينت التجارب أنها، أى البروتونات والنيوترونات، تتكون من كواركات أصغر وجليونات (Quarks & Gluons)[11] وما زالت هناك قوى وجسيمات أخرى. وما حدث يوم الأربعاء كان مجرد شعاع واحد منخفض الطاقة، لكن خبرة المنظمة «سيرن» ستزداد وتتراكم من خلال مثل هذه العمليات منخفضة الطاقة، والتى ستزيد طاقتها بالتدريج مع زيادة الخبرة ومعرفة الآلة.

وستتدفق كميات مهولة من المعلومات والبيانات للدرجة التى لن تتمكن كمبيوترات المعامل من الصمود أمامها والتعامل معها. ولذلك فإن العلماء الذين سيراقبون التجربة من مركز التحكم الموجود فوق الأرض، قد صمموا طريقة لتوزيع حمل البيانات على عشرات من مراكز الكمبيوتر حول العالم. وستكون النتيجة شبكة من الحاسبات خاصة بالمصادم الكبير LHC مكونة من ستين ألف (٦٠٠٠٠) كمبيوتر، الأحداث التى ستقع عندما ستقذف البروتونات باندفاع هائل لتتصادم ببعضها البعض. وهذه المقدرة الحاسوبية الكبيرة ضرورية إذا كان على العلماء أن يكتشفوا ما يبحثون عنه فى جبال البيانات التى سيحصلون عليها.

ويقول يان بيرد Ian Bird المدير المسئول عن مشروع الشبكة «يمكن تخيل كل تجربة على أنها آلة تصوير رقمية عملاقة قدرتها ١٥٠ ميجا بيكسل تلتقط ٦٠٠ مليون لقطة فى الثانية». وسيستخدم النظام مرشحات معقدة ومتطورة لاستبعاد كل شىء ما عدا البيانات ذات الأهمية، تاركة بذلك ما يقرب من ١٥ بيتا بايت لتخضع للتحليل والدراسة، أى ما يكفى لملء مليونى (٢٠٠٠٠٠٠) DVD (!) وسترسل البيانات إلى أحد عشر معهدا للأبحاث من أشهر المعاهد الأوروبية والأمريكية والآسيوية، لترسل بدورها من هناك إلى ١٥٠ مجموعة بحثية حول العالم للفحص والتدقيق بواسطة آلاف الباحثين.

يقول روث بوردس Ruth Pordes المدير التنفيذى للشبكة العلمية المفتوحة فى فيرمى لاب بشيكاغو: «وقد برهنت عمليات التعاون فى مثل هذه المشروعات الكبرى أنها لا تقدر بثمن». وأضاف بوردس: «نحن نقوم بأشياء على حدود العلم، لكن التقنيات والوسائل والنتائج ستكون من نصيب الصناعة». ويعد هذا المشروع الممول من الحكومة الأمريكية أحد أكبر المساهمين فى الشبكة.

ويتوقع العلماء أن يتم استخدام شبكة الحاسبات على نطاق أوسع فى البحث العلمى بدءا من الأدوية الجديدة وحتى الطاقة النووية. وفى النهاية سيبدأ المستهلكون فى الإحساس بها فى حياتهم اليومية وذلك فى تنظيم المرور والأرصاد الجوية وفى الاقتصاد والسوق. وهكذا حتى لو لم تعطنا تجارب المصادم الكبير LHC الإجابات الشافية على المسائل الكونية، فإنها ستكون أداة أساسية فى تطوير شبكة الحاسبات. ولن يكون ذلك أول مرة، فقد سبق أن اقترح تيموثى بيرنرز - لى البريطانى منظومة لاقتسام المعلومات مع رفاقه حول العالم وأسماها World Wide Web (www).

وفى صباح الأربعاء العاشر من سبتمبر، وعندما بدأ أول شعاع من البروتونات يئز حول مساره فى الحلقة الكبرى للمصادم الكبير LHC كان المجتمع العلمى حول العالم يحبس أنفاسه فى انتظار وتوقع لأحد أمرين: إما أن يتمكن الفيزيائيون من الإمساك أخيرا بالـ«هيجس بوزون Higgs boson» المراوغة التى تنبأت بها نماذجهم، أو يتعلموا أنهم كانوا يطاردون سرابا طوال عقود من السنوات. لكن طلاب جامعة براون قد روجوا بشدة لاحتمال ثالث بغيض وقاس، وهو أن الثقوب السوداء الصغيرة التى قد تتكون فى المصادم الكبير قد تتمدد بسرعة لتبتلع كوكب الأرض من داخله. وقد أطلق الطلاب على الحدث فى موقع «فيس بوك facebook» حفل الاستعداد ليوم القيامة. وقدموا برنامجا يناسب الدمار والنهاية المتوقعة بما فى ذلك «فى حالة ما إذا حدث» و«أن تُمتصَّ فى ثقب أسود»، وكان الجميع مرتديا أفخر الثياب - تلك الثياب التى يرغبون أن يموتوا ويدفنوا فيها.

هذا ما كان وما صار يوم الأربعاء الكبير فى المصادم الكبير الذى حان الآن أن نقدم وصفا وتعريفا له. ومصادم الهادرونات الكبير LHC هو أكبر معجل للجسيمات فى العالم وأعلاها طاقة على الإطلاق. وهو مصمم لإحداث صدام بين شعاعين من البروتونات يسيران عكس بعضهما وطاقة كل منهما ٧ TeV (تيرا إلكترون فولت) - سبعة مليون مليون إلكترون فولت - وهى وحدة قياس الطاقة المستخدمة عادة فى العمليات الإشعاعية. ويهدف المصادم الكبير لاختبار صلاحية وحدود

> **فى صباح الأربعاء العاشر من سبتمبر كان المجتمع العلمى حول العالم يحبس أنفاسه**

النموذج القياسى، وهو الصورة النظرية الحالية لفيزياء الجسيمات. ويعتقد النظريون أن المصادم سينتج «هيجس بوزون Higgs boson»، وسيؤدى إلى تأكيد التنبؤات والحلقات المفقودة فى النموذج القياسى، وإلى معرفة الكيفية التى تكتسب بها الجسيمات الأولية الأخرى صفاتها - الكتلة مثلا. وقد شارك فى بناء المصادم الكبير أكثر من ٨٠ دولة ومئات الجامعات والمختبرات.

يبلغ محيط النفق الحلقى للمصادم ٢٧ كم ويقع على عمق يتراوح بين ٥٠ و١٧٥ مترا تحت الأرض. وقد تم تشييد النفق المسلح بقطر فتحته ٨,٣ متر بين عامى ١٩٨٣ و١٩٨٨ وكان يستخدم لاحتواء مصادم الإلكترونات - البوزيترونات الكبير (LEP). ويقطع هذا النفق الحدود بين فرنسا وسويسرا فى أربع نقاط لكن معظمه يقع فى فرنسا. أما المنشآت السطحية فتضم مركز التحكم والتجهيزات المعاونة مثل المضخات ومعدات التهوية والتحكم الإلكترونى ومحطات التبريد. ويضم نفق المصادم الكبير زوجا من الأنابيب التى تبث شعاعى البروتونات - وهى نوع من الهادرونات. ويكون مسار كل شعاع عكس الآخر حول الحلقة. ويقود الشعاعين ويتحكم فى دورانهما حوالى ١٢٣٢ مغناطيسا ثنائى الأقطاب بينما يقوم ٣٩٢ مغناطيسا رباعى الأقطاب بالاحتفاظ بأشعة البروتونات مركزة فى نقاط التقاطع الأربع لزيادة فرص تصادمها. ويعنى ذلك أن هناك أكثر من ١٦٠٠ مغناطيس من الموصلات الفائقة كتلتها أكثر من ٢٧ طنا وتستخدم حوالى ٩٦ طنا من الهليوم السائل للاحتفاظ بدرجة الحرارة المطلوبة لأدائها الفائق عند ١,٩ K، مما يجعل من LHC أكبر تجهيز مُبَرَّد فى العالم فى درجة حرارة الهليوم السائل. وتستخدم المغناطيسات الكهربية رباعية الأقطاب من الموصلات الفائقة لتوجيه وتركيز الشعاعين إلى نقاط التقاطع الأربع.

ويتم تعجيل البروتونات على مراحل تضيف كل منها طاقة - أى سرعة - إلى البروتونات، وأول منظومة هى معجل الجسيمات الخطى Linac ٢ الذى يصل بطاقة البروتونات إلى ٥٠ MeV. وتمد هذه المنظومة معزِّز سينكروترون البروتونات فى الخطوة التالية حيث يتم تعجيل البروتونات حتى ١,٤ GeV، ثم أخيرا يتم التعجيل إلى ٤٥٠ GeV فى سينكروترون البروتونات الفائق وذلك قبل حقن البروتونات فى الحلقة الرئيسية على مدى ٢٠ دقيقة. ويصل تعجيل البروتونات إلى ٧ TeV فى الحلقة الرئيسية على مدى ٢٠ دقيقة. تختزن البروتونات فى هذه الحالة لمدة تتراوح بين ١٠ و٢٤ ساعة بينما تجرى التصادمات فى نقاط التقاطع الأربع.

وبعد، هذا هو مصادم الهادرونات الكبير الذى ملأ الدنيا وشغل الناس، والذى قد يتمكن العلماء بواسطته من الإجابة عن بعض التساؤلات، لكن المؤكد أنه سيثير من التساؤلات أكثر كثيرا مما سيجيب عنه. ■

---

(١) لم يحصل أينشتاين على جائزة نوبل على النظرية النسبية، وهى سبب الشهرة العظيمة التى أصابها، لكنه حصل على الجائزة سنة ١٩٢١ لأبحاثه فى مجال ميكانيكا الكم.

(٢) تدل كلمة زمكان على دمج الزمان والمكان معا حسب النظرية النسبية، وهى ترجمة الكلمة space-time .

(٣) تؤكد الحسابات العلمية أن كتلة المجرات يتكون معظمها من مادة داكنة Dark Matter لا ترى بالعين ومن طاقة داكنة Dark Energy.

(٤) تتكون المادة العادية من ذرات بها أنوية موجبة الشحنة الكهربية تتواجد حولها إلكترونات سالبة الشحنة. وتتكون الأنوية من بروتونات موجبة ونيوترونات متعادلة. أما المادة المضادة Antimatter فتتكون ذراتها من أنوية سالبة لوجود البروتونات المضادة والنيوترونات المضادة بها، ويتواجد حولها البوزيترونات (الإلكترونات المضادة) الموجبة. ومعروف أن تقابل أى جسيمة مع جسيمتها المضادة يؤدى إلى تلاشيهما معا وتحولهما إلى فوتونين بطاقة هائلة (أشعة جاما) وكذلك إذا التقت ذرتان إحداهما من المادة والأخرى من المادة المضادة.

(٥) تؤكد نظرية النموذج القياسى على وجود مثل هذه الجسيمة، والتى يطلق عليها العلماء فى الغرب «جسيمة الرب God's particle».

(٦) إنشاءات متفاوتة الأحجام والقدرات تُكسب الجسيمات طاقة وسرعة بواسطة تدرج فى المجال المغناطيسى الذى يتحكم فى مسارها.

(٧) الهادرونات حالة من حالات تماسك الكواركات (الكوارك هو المكون الأساسى للجسيمات من بعض الأنواع)، وأشهر الهادرونات هى البروتونات والنيوترونات.

(٨) تبلغ سرعة الضوء فى الفراغ ٣٠٠ ألف كيلومتر فى الثانية.

(٩) الثقب الأسود منطقة تبلغ فيها كثافة المادة قيما مهولة تجعل جاذبيتها من الكبر بحيث لا يفلت منه حتى الضوء، وهى معروفة فى الكون وقادرة على ابتلاع نجوم ومجرات بأكملها. ويوجد فى مركز مجرتنا «درب اللبانة» ثقب أسود كتلته تصل إلى عدة ملايين مرة أكبر من الشمس.

(١٠) الموصلات التى تنعدم مقاومتها فى درجات الحرارة المنخفضة بشكل كبير مثل ٢٧٠ تحت الصفر السلزية وهى أحد المجالات الواعدة فى المستقبل.

(١١) المكونات الصغرى للجسيمات الأولية وهى على أنواع مختلفة.

كتاب الزاوية

Chemistry of happiness

كيمياء السعادة
أبو حامد الغزالي
في معرفة النفس (٢)

فالواجب عليك أن تعرف هذا. وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة.

فإن سعادة البهائم في الأكل، والشرب، والنوم، والنكاح. فإن كنت منهم فاجتهد في أعمال الجوف والفرج.

وسعادة السباع في الضرب، والفتك.

وسعادة الشياطين في المكر، والشر، والحيل. فإن كنت منهم فاشتغل باشتغالهم.

وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق. فإن كنت من جوهر الملائكة، فاجتهد في معرفة أصلك: حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال، وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب، وتعلم أن هذه الصفات لأي شيء ركبت فيك: فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها، ولكن خلقها حتى تكون أسيرك، وتسخرها للسفر الذي قدامك، وتجعل إحداها مركبك، والأخرى سلاحك؛ حتى تصيد بها سعادتك. فإذا بلغت غرضك فقاوم بها تحت قدميك، وارجع إلى مكان سعادتك. وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية، وقرار العوام درجات الجنة.

فتحتاج إلى معرفة هذه المعاني: حتى تعرف من نفسك شيئاً قليلاً؛ فكل من لم يعرف هذه المعاني فنصيبه من القشور؛ لأن الحق يكون عنه محجوباً.

الشرق في الغرب

جاك غودي

■■ في رواية صامويل جونسون بعنوان: الرأس إيلاس (Russelas) (١٧٥٩) يحاول الشاعر «إملاق» Imlac أن يشرح للرأس إيلاس حالة العالم خارج حدود الوادي السعيد.

في الشرق الأدنى «تحاورْتُ مع عدد كبير من أمم أوروبا الشرقية والغربية، وهي الأمم التي باتت الآن تمتلك كل مقاليد القوة وكل المعرفة، كما أن جيوشها أصبحت لا تقهر وأساطيلها تتحكم في أقصى بقاع المعمورة. وعندما قارنت بين هؤلاء الرجال وبين أبناء مملكتنا الذين يحيطون بنا بدوا وكأنهم ينتمون إلى نظام مختلف تماماً من الكائنات. في بلادهم من الصعب أن ترغب في شيء ثم يتعذر الحصول عليه: آلاف من الحرف والفنون لم نسمع عنها قط، ومازالت تعمل من أجل راحتهم وسعادتهم، ومهما حرمهم الطقس في بلادهم، فقد عوضتهم عنه التجارة التي يمارسونها».

قال الأمير: «كيف أصبح الأوروبيون على هذا القدر من المنعة والصولجان؟ أو إذا كان من السهل عليهم أن يزوروا آسيا وأفريقيا تجاراً أو فاتحين، ألا يستطيع الآسيويون والأفارقة أن يغزوا سواحلهم ويؤسسوا مستعمرات في موانيهم ويفرضوا القوانين على أمرائهم؟ إن الرياح التي حملتهم إلينا يمكنها أن تحملنا نحن إليهم؟».

أجاب إملاق قائلاً: «سيدي، إنهم أقوى منا بكثير، لأنهم أحكم منا. والعلم سوف يفوق الجهل دائماً بقدر ما أن الإنسان يتحكم في سائر الحيوانات، ولكن لماذا فاقونا في المعرفة. هذا ما أعجز عن إدراك سببه، اللهم إلا أنها إرادة الكائن الأعظم التي لا سبيل إلى إدراكها».

متى أصبح الأوروبيون على وعي بتفوقهم بالنسبة إلى سائر الأمم؟

إن التفوق العرقي سمة عامة للحالة البشرية. إنه النظير الذي يجسد المركزية الإثنية على مستوى مجموعة التركيز على الذات التي تحفظ الروح الفردية. ومثل هذا التفوق المعمم لا يتعارض مع وجود نواح من الإحساس بالدونية ومع الاعتراف بعوامل القصور والتشكك في الذات ونقد الذات. ولكن على مستوى آخر فهو ينشأ بقدر من الوضوح الخاص في المواقف الجماعية على نحو ما يعبر عنه جون أوف غونت في خطاب الاحتضار:

هذا العرش الملكي للملوك، موقع الجاه والصولجان
إنها أرض الجلالة وموقع أرباب القتال
هذه عدن الأخرى، نصف الفردوس.

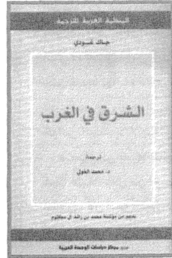
إن الذي لا نجده عند شكسبير هو التعبير عن شعور عام من تفوق الغرب على الشرق على نحو ما نجده بكل هذا الوضوح فيما يذكره جونسون في الرأس إيلاس في عام ١٧٥٩، قبل أن تحل الثورة الصناعية الحقيقية (والرأسمالية بهذا المعنى). إن جونسون يرى بحق أن القوة والمعرفة من خصائص الأوروبيين، ولا سيما القوة العسكرية وقوة النيران، ما يستعيد بالتالي موضع كتاب ك. م. كيبولا (Cipolla .M .C) بعنوان المدافع والقلاع في المرحلة الأولى من التوسع الأوروبي، Guns and (1965) 1700 - 1400. Sails) in the Early Phase of European Expansion, (١٤٠٠ - ١٧٠٠) هذه القوة أتاحت السبيل لوفرة في السلع التجارية، كما أنها تستند إلى تفوق في المعرفة، وكان هذا أمراً طبيعياً بحد ذاته. بيد أن هذا التفوق ما لبث أن أضفوا عليه طابعاً مصطنعاً باستمرار، حيث قارنوه بقدرة الإنسان في السيطرة في سائر الحيوانات، وبالتالي أرجعوه إلى «إرادة الكائن الأعظم التي لا سبيل إلى تقصيها»، ومع ذلك فالتفوق الحالي لم يستمر لأنه يأتي من «تقدم العقل البشري والتحسن التدريجي الذي يطرأ على المنطق وأشواط التقدم المتتابعة التي تقطعها مسيرة العلم». وفي الوقت نفسه، فإن إعمال العقل يرتبط بمقدم المسيحية وبانقشاع ظلمة الجهل وتباشير فجر الفلسفة.

على أن هذا المفهوم الذي يقول إن الأوروبيين «يمثلون نظاماً يكاد يكون مختلفاً للكائنات» لم يكن مجرد نزعة للتركيز العرقي على الذات، ولا مجرد محصلة لنرجسية دفاعية. لقد جاء مستنداً إلى منجزات عصر النهضة الأوروبية والثورة العلمية ومرحلة التنوير، ومن ثم جاء التشديد على المعرفة وعلى العقل (وهو مفهوم بدأ يذيع في تلك المرحلة)، وكذلك على القوة ثم التجارة.

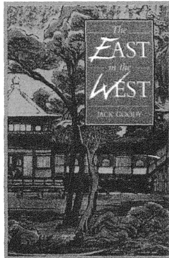
ولكن فيما كانت تلك المنجزات حديثة العهد، فقد كانوا يعودون بجذورها إلى عصور سبقت تكمن في عمق هيكل الثقافة، وفي التراث الذي تناهى من الإغريق (أو الجرمان)، وفي الأنعم التي جاد بها الله عز وجل (وأضفاها على شعب مختار، ثم إلى مقدم الديانة المسيحية). وبعبارة أخرى، كانت ثمة ميزة محددة تاريخياً معممة إلى حيث طال أمدها واستدام أجلها إلى درجة وصلت لحد التفوق البيولوجي. وفضلاً عن ذلك، فالأسس المحددة للتفوق لم تكن موضع تدبر وتفكير عميق، ومن ثم فإن المؤرخين الغربيين ومن نسج على منوالهم من علماء الإنسانيات والاجتماع كثيراً ما أساءوا فهم العلاقة بين الشرق والغرب، بل فعل الشيء نفسه بعض العلماء الشرقيين كذلك، وقد أعمتهم الآثار المدمرة للتوسع عبر البحار، فضلاً عما أحرزه العلم والتكنولوجيا والمعرفة من تقدم بصورة أشمل، وأخيراً بمجيء المرحلة الصناعية في أوروبا.

وعلى أعم المستويات، فإن التناقض بين أوروبا وآسيا وما أعقبه من الحط من مكانة الشرق ما لبث أن اتخذ جذوره في مرحلة مبكرة في تاريخ الغرب، لقد أفضى الصراع بين اليونان والفرس إلى حيث الإشارة للآسيويين على أنهم يتسمون بطابع السلطة الاستبدادية والترف البربري، إذ رآهم أرسطو في كتاب السياسة (Politics) على أنهم أكثر خنوعاً، ثم جاء اقتران المسيحية مع أوروبا في القرون الوسطى ليعزز هذه المشاعر، وها هو مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) يتبع خطى أرسطو فيعاود وضع «عبقرية الحرية» لأوروبا في كفة مناقضة مع «روح العبودية» في آسيا، قائلاً: «لن نرى قط ما يلوح هناك سوى بطولة الاستعباد التي حافظت على كيان إمبراطورية الاستبداد لأن العلاقات السياسية قامت على أساس عبودية الطاعة الأسرية».

لكن هذا التناقض بددته زيادة المعرفة بالشرق نتيجة توسع التجارة الأوروبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر: بالنسبة إلى الصين كان الجزويت هم الذين أصروا على اتباع منظور مختلف، وبالنسبة إلى الهند كان هناك أقوام أكثر إدراكاً للأمور ضمت جموعهم التجار والرحالة وكبار الإداريين. لكن التحدي



الشرق في الغرب
جاك غودي
ترجمة: محمد الخولي
بيروت: المنظمة العربية للترجمة
بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم



The East in the West
Jack Goody
Editions du Seuil. 1999



الطروحات التي تنطلق من القول
بميزة الغرب لا تضع في اعتبارها حقيقة أنه خلال القرون الوسطى كان الشرق هو السابق
في كثير من الميادين



قلما أثر في التقييم العام للاختلاف بين الشرق والغرب على نحو ما نراه من واقع الأوهام التي صورها صامويل جونسون.

ومع تقدم الثورة الصناعية (Industrial Revolution)، اتخذ التناقض السياسي منحى اقتصادياً أكثر تحديداً على يد الاقتصاديين الكلاسيكيين في إنجلترا. لقد عادوا بآرائهم إلى كتاب آدم سميث ثروة الأمم الذي رأى فيه فقر الجموع ناجماً عن حقيقة أن الاقتصاد لم يعد يساير في خطاه إيقاع نمو السكان. وهذا الملمح كان قد شغل بالفعل بال «مونتسكيو» عندما أرجع الزيادة المفرطة إلى المناخ الحار، وقال إن الصين يحكمها نظام ركودي يهمل الحرية الطبيعية لصالح نظم مصطنعة تحول دون تدفق التجارة.

ومن الذين تأثروا بالاقتصاديين الكلاسيكيين كان كارل ماركس (Karl Marx) الذي عاش في إنجلترا بين عامي ١٨٦٠ و١٨٨٣. لقد اتبع ماركس خطى من سبقه من الكتاب، كما اتخذ المواقف الأكثر ذيوعاً عندما رأى في الدولة الآسيوية كياناً ستاتيكياً راكداً يقوم على أساس الري ويمارس أساليب استبدادية تتحكم في طبقة خانعة من الفلاحين. كان هذا أسلوب الحياة الآسيوي. ولأسباب عميقة كانوا عاجزين عن متابعة سياق التطور الذي أفضى إلى الإقطاع تطوراً من المجتمع القديم، ثم إلى الرأسمالية، ومن ثم إلى الاشتراكية. كان مخطط ماركس لمراحل التطور صياغات لفروض واسعة النطاق تستند إلى التجربة الأوروبية وتستبعد آسيا التي رآها وقد اتخذت سبيلاً إلى شكل راكد «أورينتالي» من أشكال المجتمع وهو سبيل «الاستثنائية الآسيوية».

وعندما كان هؤلاء الاقتصاديون يكتبون أعمالهم تشكلت ثغرة واسعة في مستوى المعيشة، وفي تراكم المعارف، فضلاً عن النظام السياسي بين الشرق والغرب. وفي الجزء الأخير من القرن الثامن عشر كان غرب أوروبا قد دخل فترة من النمو المستدام، بحيث بدت آسيا بالمقارنة كياناً راكد الحركة، وبدت تلك الهوة وكأنها وُجدت لتبقى. ومرة أخرى، فإن هذه الميزة ما لبثت أن أصبحت كما رآها البعض تعكس حالة متواصلة للأوضاع التي تستند إلى فروقات اجتماعية دائمة أفضت



إلى أن الشرق لم يشهد نمواً أو تطوراً في الإقطاع، وفي مراكزه التجارية على نحو ما شهدته «الكومونات» (Communes) التي انتشرت من شمال إيطاليا. وكانت بشيراً بمجتمع مدني. هذه الميزات، سواء الفعلية أو المتصورة، شكلت الخلفية التي استند إليها العمل المرموق الذي أنجزه ماكس فيبر (Max Weber). لقد أرسى فيبر أساساً أفضل للحوار بالمقارنة مع من سبقه من الكتاب، ومنهم هيغل (Hegel) مثلاً وبالذات هيردر (Herder) الذي رأى الخلاف مع الشرق الأقصى راجعاً إلى «الطابع الخاص للغاية للصينيين». وكان بذلك يعني الطبيعة أكثر من الثقافة باعتبار أن هذه الأوضاع ناجمة عن خصائص جوهرية. وهذا النهج الخاص من التفكير يمكن صرف النظر عنه ولا يفيد إلا في أنه يصور أوجه التطرف التي يمكن أن تتمادى فيها نزعة التركيز على الذات إلى حيث تصل إلى الشعوبية العنصرية بالمعنى الحرفي. وتقتضي آراء فيبر مزيداً من النظر الجاد، وخاصة لأن هناك آراء مماثلة لها إلى حد كبير جداً ما زالت تهيمن على قطاعات فكرية واسعة في الميادين الاجتماعية والسياسية والتاريخية. ولهذه الآراء، بل لآراء كثيرة من الأفكار المماثلة، يتوجه هذا الكتاب بالذات. صحيح أن هناك جمهرة من الاختصاصيين الغربيين في موضوع آسيا على بينة تامة من هذه السلبيات، ولكن هناك آخرين تسيطر عليهم الإنجازات الدامغة التي حققها الغرب بما يعني إضفاء طابع عالمي عليها (ومن ذلك مثلاً قضية العقلانية)، بينما تقتضي الملاءمة عوامل أكثر تحديداً أو يتطلب الأمر التعامل مع هذه الميزة على أساس أرسخ مما يمكن أن تبرره القرائن المتاحة. وإذا ما كان لمثل هذه السلبيات أن توجد بين صفوف بعض الاختصاصيين، بمن فيهم الشرقيون، فإنها أكثر ذيوعاً كذلك بين صفوف المؤرخين وعلماء الإنسانيات والاجتماع في الغرب الذين يقولون بفكرة الفردانية (Uniqueness) «الخارقة» التي تشكل منطلقاً أساسياً لأعمالهم الفكرية. على أن المطروح في هذا السياق هو طابع هذه الفردانية (التي من الواضح أن المجتمعات كلها تمتلكها)، ولكن في مقابل الهوة التي نمت في هذه الفترة.

في القرن التاسع عشر نشأت المسألة المحددة التي تقول بالطابع الفريد للغرب بالنسبة إلى «معجزة» النمو المستدام، أو في نظر الآخرين بالنسبة إلى «لعنة» الرأسمالية. أما الطابع الراكد (Static) لاقتصاديات المجتمع الشرقي، فقد كان ينظر إليه على أنه نابع من حقيقة أن هذا المجتمع لم يكن يمتلك الأشكال الكافية من العقلانية، ولا الأواصر العائلية، ولا مهارات تنظيم المشاريع التي كانت تُعد ملامح يختص بها الغرب دون غيره، فضلاً عن النظرة الانتقادية إلى التطورات الكبرى التي حدثت هناك. ويرى فيبر أوروبا أنها تتسم بشكل خاص من أشكال السلطة الرسمية ومن العقلانية، ومن الأعراف الاقتصادية، ما أتاح تطور الرأسمالية، بينما كانت النتيجة في آسيا أنها خضعت للتحجيم بسبب نظام الطبقات الجامد أو النظام العشائري، فضلاً عن التعاليم الدينية. هاتان النظريتان تواصلان السير على خطى العُرف الإنساني الذي يفرد ميراث اليونان والرومان بوصفه مصدر الفضائل الخاصة التي تناهت في أوروبا، وهذا التراث القديم مقترناً مع بحث مرحلة ما بعد عصر النهضة (Post-renaissance) عن العقلانية في المعرفة وفي الاقتصاد أتاح للغرب أن ينجز قفزته الكبرى إلى الأمام، وهو ما تمت صياغته بطرق شتى ليحمل عنوان الثورة العلمية أو عصر العقل والتنوير. ما أفضى إلى «التحديث» والتصنيع والرأسمالية، ومن ثم إلى «المعجزة الاقتصادية» ذاتها. وهناك أعداد لا تحصى من مؤرخي الغرب ينطلقون من الافتراضات نفسها وإن بأشكال لا تكاد تعكس اختلافاً بينها، حتى إن السؤال الذي يطرحونه على أنفسهم وقد اختزلوه إلى عناصر الإثنومركزية هو: «ما الذي جعلنا أفضل ملاءمة من سوانا لكي نكون حاملي شعلة المجتمع الحديث؟».

ولقد تطرقت للحديث عن نظريتين كلاسيكيتين، وبالإضافة إلى ذلك لدينا صيغ مختلفة عن «نظرية النظم في العالم» (World systems Theory) وتكمن مزاياها في تركيزها على أثر التغيرات التي استجدت مؤخراً على المجتمعات في طول العالم وعرضه، لكن سلبياتها يمكن أن تؤخذ على محملين.. ذلك أن «النظم» أو «النظم الفرعية» الأخرى كلها تُصنف بالنسبة إلى الغرب على أنها طرفية أو شبه طرفية. وفيما قد يبدو هذا التقسيم وكأنه يشكل خطوة أكثر تقدماً عن مفهوم أحادي للعالم الثالث، إذ إنه ينظر إلى الوضع السائد في ضوء التقدم المستجد مؤخراً نحو التصنيع، كأن يقال على سبيل المثال إن تايوان رفعت نفسها من موقع الطرف إلى موقع شبه الطرف منذ الإصلاح الزراعي الذي تم بعد الحرب.

ولقد كان الإطار الذي طُرحت داخله مثل هذه الأفكار هو الخبز اليومي لعلماء الاجتماع

وللمؤرخين وعلماء السكانيات والاقتصاديين، ثم ومن زاوية مختلفة نوعًا ما لعلماء الأنثروبولوجيا. لقد حاولوا رسم خطوط لم تسفر تاريخيا فقط عن تعظيم أو تعميق الاختلافات المطروحة (وخاصة الاختلافات المهمة بصورة أساسية التي تطرقنا إليها) بين جناحي الكتلة البرية في أوراسيا (Eurasian Landmass)، بل إن هذه الخطوط كثيرًا ما تجاهلت في رأيي التراث المشترك للمجتمعات الكبرى في المنطقة التي شهدت حضارات الشرق الأدنى العظيمة، في نزوع إلى «إضفاء صفة البدائية» (Primitivise) على المؤسسات الشرقية المحلية والاقتصادية والدينية والسياسية وبطرق غير مقبولة، على الأقل بالمقارنة مع نظيرتها في أوروبا في بواكير حداثتها. ومن منظور واسع من حيث المكان والزمان يتعين علينا أن نبرر أسباب الاختلاف اللاحق بدلاً من التباينات الأولى.

مثل هذه الحقائق تتزايد وضوحًا من خلال كتابات مرموقة منها مثلاً كتاب نيدام «العلم والحضارة في الصين» (Science and Civilisation of China). إن الطروحات التي تنطلق من القول بميزة طويلة الأجل لا تضع في اعتبارها حقيقة أنه خلال القرون الوسطى كان الشرق هو السابق في كثير من الميادين، وفضلاً عن ذلك فمثل هذا الجدل تجاوزه الزمن بفعل الأحداث المستجدة مؤخرًا في آسيا، إلى جانب النمو السريع للاقتصاد والتكنولوجيا ونظم المعرفة، أولاً في اليابان، والآن في كثير من سائر دول المنطقة.

وقد اتضح منذ عقود من الزمن، حتى بالنسبة إلى علماء الاجتماع (المؤرخون لم يتعين عليهم بعد أن يواجهوا المشكلة اللهم إلا باستثناء ذوي النزعة العملية منهم)، أن اليابان كانت جديرة بتصنيفها بين الدول الصناعية (مجموعة السبع) (The G7). والسؤال هو: كيف يتلاءم هذا الترقيع في المرتبة مع النظريات الراهنة ومع التحيزات الرائجة حاليًا؟ كان الافتراض أولاً يتعلق بوضع استثنائي ياباني. ومع نهاية الخمسينيات كان الباحث يطرح السؤال على النحو التالي: لماذا نشأت الرأسمالية الصناعية الحديثة في مجتمع آسيوي واحد (اليابان) وليس في مجتمع آسيوي آخر (الصين)؟. وبعد ذلك بعشرين عامًا كان يتعين على عالم اجتماع آخر يتبع هذا النهج الكلاسيكي أن يسأل من جديد: لماذا كانت اليابان هي «البلد الوحيد غير الغربي الذي أصبح دولة صناعية كبرى؟». وظل السؤال الكامن وراء هذه الدراسة يتمثل باستمرار فيما يكمن وراء كثير من أعمال فيبر وماركس. وبعبارات بارسون: (Parson) لماذا لم تتطور الحضارات الشرقية قط إلى حيث الرأسمالية؟ أما الرؤية الجديدة، فتتمثل إلى حد كبير منذ أيامهما في أن اليابان، وقد أصبحت قوة عظمى، فكيف يمكن تفسير ذلك باعتبار أن «الاستثناء يؤكد القاعدة»؟.

وبالنسبة إلى الكثيرين في الغرب، يستوي في ذلك العلماء والجمهور العام، فإن الإجابة عن السؤال العام تكمن في الاختلافات الاجتماعية - الثقافية في طبيعة مجتمعاتهم التقليدية، سواء كان ذلك في «نظام القيم» (Value System) أم في هيكل العائلة أم في عامل آخر أم مجموعة من العوامل بمعنى الاختلافات الداخلية. وعندما طرحت للتحليل حالة اليابان كان البحث يتعلق بأوجه التماثل بين اليابان وأوروبا الغربية، ومن ثم الاختلافات بين اليابان والصين التي لم تكن في ذلك الوقت قد اتضح تطورها على المسار نفسه. ويقول مولدر (Moulder) إن الاختلافات بين الصين واليابان لم تكن واسعة بشكل جلي، فالذي خلق الاختلافات كان الموقع النسبي لكل من اليابان والصين في الاقتصاد السياسي للعالم. وفيما كانت اليابان مستقلة ذاتيًا بصورة نسبية ويمكنها من ثم التكيف مع الأحوال الجديدة، كانت الصين، شأنها في ذلك شأن معظم العالم، خاضعة كما يقال للرأسمالية الأجنبية ومحصورة ضمن «نظام عالمي يفيد الآخرين بصورة غير متناسبة».

والمشكلة إزاء هذا المنحى من التفكير تتمثل في أنه بينما يعترف بأوجه التماثل الداخلية فإنه يبالغ في إبراز أوجه التماثل الخارجية، لأن المشكلة نفسها تستبعد التفسيرات «الخارجية» لنظرية النظم العالمية (التي طورها فالرشتاين (Wallerstein) بما ينال من التفسيرات الداخلية التي تقول بها نظرية فيبر. وكلتا المحاولتين أصبحت موضع نقاش حاليًا لا بالنسبة إلى اليابان فحسب، ولكن أيضًا من واقع تطور المجتمعات الخارجية الصينية في هونج كونج وتايوان وسنغافورة، ثم كوريا (وإن لم تكن صينية بالمعنى نفسه). وكل هذه المجتمعات خضعت لـ «سيطرة إمبريالية»، وتمتلك كلها ثقافة مماثلة لثقافة البر الصيني التي طبقًا لمولدر لا يمكن أن تأخذ بأسباب التصنيع إلا بخضوعها لحركة شيوعية ثورية تفضي إلى تفكيك الروابط الخارجية. وقد أثبتت الأحداث بما فيه الكفاية خطأ هذا المنحى من التحليل.

ولقد طرح آخرون مزيدًا من الأسباب «الثقافية» (Cultural). ومنذ زمن قال عالم الاجتماع بيلاه (Bellah)، متبعًا في ذلك خطى بارسون وفيبر، بأن النوازع الدينية - الأخلاقية في اليابان قبل مرحلة الإصلاح في عصر ميجي (Meiji) هيأت دافعًا مماثلاً لما فعلته الحركة البروتستانتية في الغرب. وهذه الأطروحة تبناها كتاب يابانيون مثل موريشيما (Morishima) الذي يقول بأن الثقافة اليابانية، ولاسيما في دياناتها، تفسر هذه الإنجازات الاقتصادية المرموقة. لكن ما هي الغايات المستهدفة وقد تم تحريكها من جديد، فبعد عشر سنوات، ومن منظور سياسي مختلف، جاء برغر (Berger) ليضم كل شرق آسيا ويصفه بحالة ثانية تولد عنها «نوع أو نموذج جديد من الرأسمالية الصناعية». وهذا النوع يتفاعل في ظل نظم «غير ديمقراطية» وفي إطار ثقافات «غير فردانية». ويقرب من هذا المفهوم الذي يتحدث عن الشكل الجمعي البديل من الرأسمالية على نحو ما طرحه عدد من الكتاب مثل ريدينغ (Redding) وورودنر (Rudner) وغيلنر (Gellner). وبمعنى آخر، فهذه النظرية التي تقول بنوعين من الرأسمالية، أحدهما غربي، والآخر شرقي، تعني أنه فيما كانوا عاجزين عن اتباع «طريقنا» فقد أسسوا طريقًا خاصًا بهم. ومع ذلك، فالدلالة تبقى بأنهم ظلوا غير قادرين على التحديث بسبب خصائص هيكلية عميقة يتصفون بها، وذلك مفهوم يحتاج إلى تفنيد.

والواضح أن المنجزات المتفوقة للغرب لم يعد ممكنًا النظر إليها بوصفها دائمة، ولا على أنها حتى ملامح مستمرة لتلك الثقافات، بل إنها نتيجة أحوال متباينة تأثرت بها تلك المجتمعات على مدار الألف سنة. وأبسط مخطط لنظرية ما لا بد من أن يبدأ بقبول البديل، ويبقى من ثم بطبيعة الحال المشكلة التي تتمثل في تفسير تصدر الغرب للمسيرة خلال الفترة الفاصلة بين عصر النهضة والمرحلة الراهنة. لقد أنجزت أوجه تقدم باهرة كانت إرهاصًا بالفترة الحديثة، وكانت النتيجة تفيد بأن النظم الأوروبية للإنتاج الصناعي وللنشاط الثقافي (المدارس والجامعات) وللرعاية الصحية والتنظيم البيروقراطي الحكومي، فضلاً عن درجة ملحوظة من الإنجاز «الثقافي»، أكدت ذاتها، ولكن مع إضفاء تعديلات عليها، في طول العالم وعرضه.

لست أنكر بوضوح أهمية هذه الأحداث والإنجازات المرتبطة بعصر النهضة في تاريخ العالم، أو ما ارتبط منها أيضًا بالثورة الصناعية وما في أعقابها، على رغم أن المقارنات بين الشرق والغرب في المراحل الأولى، فضلاً عن بعض الشكوك المتعلقة بصياغة مثل هذه التصورات، قد أفضت بي إلى تساؤلات كان من حقي إثارتها؛ وتتعلق تحفظاتي الرئيسية بطبيعة تفسيرات هذه التغيرات وما ترتب عليها من آثار، لا بالنسبة إلى علم الاجتماع فقط، ولكن بالنسبة أيضًا إلى تصورنا لأنفسنا وللآخرين. هذه التحفظات ترتبط بطريقة فهم التغيرات وما أعقب ذلك من عمليات «تطور» شهدتها أنحاء أخرى من العالم. وكثيرًا ما يصعب التوفيق بين معتقدات الطرف المتطور (وتلك نتيجة طبيعية لمهمته) في ضوء مرونة النظم الاجتماعية الأخرى، وبين الاعتقاد التاريخي السوسيولوجي في الفروقات الهيكلية العميقة. ويبدو الجانب الأخير وكأنه تكتنفه حقيقة أنه فيما كان يتعين على «التطور» الاقتصادي أن يمنى بنكسات في أجزاء من العالم (أفريقيا على سبيل المثال)، فقد شهد شرق آسيا تغييرات كبرى في الميادين التجارية والصناعية، فضلاً عن مجالات أخرى من العمل.

وثمة اتجاه ظل يقضي بإضفاء قدرة التحديث على أوروبا، وما على الآخرين سوى أن ينسخوا هذه القدرة. ويمكن لهذه المقولات أن تطبق أيضًا على الغرب. كذلك فقد قيل عن الحياة الاقتصادية في أوروبا القرون الوسطى «إن ما جعلها وضعًا استثنائيًا لم يكن قدرتها على الابتكار بقدر استعدادها على أن تتعلم من الآخرين وتهيئها للتقليد والمحاكاة، وقدرتها على أن تتقبل استخدام الآلات أو التقنيات التي سبق اكتشافها في أنحاء أخرى من العالم مع تطويرها إلى درجة أعلى من الكفاءة، ثم استغلالها لتحقيق أغراض مختلفة وبدرجة أعلى بكثير من التركيز». وهذا الرأي الذائع يفترض حدوث انطلاقة جذرية لم يكن غير الغرب من هو قادر على تحقيقها، ولكن «التحديث» يشكل عملية متواصلة، وهي عملية شاركت فيها مناطق في العالم، وكل في دوره بالتناوب. وليس هناك طرف واحد يحظى بمفرده بملامح فريدة ذات طابع دائم بما يمكنه دون سواه من الابتكار أو من أن يضفي تغيرات ملموسة من قبيل الثورة الزراعية. والأمر المحوري هنا أن النوع نفسه من التفسير لابد من طرحه ليبرر التفوق الذي سبق إليه الشرق بقدر تبرير منجزات الغرب في المراحل اللاحقة سواء بسواء. وهذا الأمر لم يحدث، فمازالت الأوساط الأكاديمية تتعثر في نظرياتها السابقة وليست على استعداد بعد للتخلي عنها. ولست أحاول توصيف صعود الغرب ولا أن أعرض لما يمكن أن يوصف بأنه صعود الشرق، وليس هذا في قدرتي، ولكن عزمي يتمثل في إعادة تقييم النهج التي يجب أن نتبعها في التعامل مع هذه القضايا من خلال التساؤل عن كفاءة فهمنا لعقلانية الغرب وتجارة الغرب، وللأسرة في مجتمع الغرب، وللطريقة التي تتصل بها هذه القضايا بالعملية التي نطلق عليها أوصافًا



التناقض بين أوروبا وآسيا وما أعقبه من الحط من مكانة الشرق ما لبث أن اتخذ جذوره في مرحلة مبكرة في تاريخ الغرب



فضفاضة من قبيل «التحديث» (modernisation) أو «التصنيع» (Industrialisation) أو «الرأسمالية» (Capitalism).

وفي ضوء ما سبق من منجزات، وما لحق من أشواط من التقدم، فإن ما أراه قصوراً إنما يتمثل في أي نظرية تدعي أنها انتهت إلى عنصر ما «هيكلي» في آسيا حال بعمق بين هذه التطورات وبين الحدوث، أو أدى في أوروبا إلى تعزيز حدوثها. ولدى النظرة إلى أوروبا، وإنجلترا تحديداً، فإن شعورنا الطبيعي بالتركيز على التراث غالباً ما أفضى بنا إلى افتراض أولوية على المستويات الاجتماعية الثقافية العميقة، بينما تظل القرائن التي تدعم هذا المنحى إما ضعيفة أو معدومة تماماً. إن أسباب المنجزات سواء في الشرق أو الغرب ترتبط أكثر بظروف حدوثها، ما يترك المجال لطرح كثير من الأسئلة وكثير من الإجابات، ولكن بأسلوب أكثر تخصصاً وأقل تركيزاً على الذات مما يتم في أغلب الأحوال.

ومن حلول المشكلة ما يكمن في النظر إلى حقبة أوسع من تاريخ العالم تبدأ من عام ١٦٠٠ للميلاد إلى اليوم، ثم تعديل التركيز الذي توليه كثير من تلك النظريات للأحداث التي شهدتها أوروبا الغربية. وللقيام بمثل هذه المراجعة الواسعة النطاق لتدارس الأسباب المحددة للتفوق الغربي، فإن هذا يتجاوز نطاق الدراسة الراهنة. وقصارى ما أرجوه هو مناقشة كثير من الافتراضات الحالية بشأن الطابع الفريد للغرب، ومن ثم طرح الأساس الذي يمكن أن تقوم عليه النظريات التفسيرية الأعمق، فضلاً عن تهيئة السبيل إلى فهم أفضل. وعلى نحو ما يلاحظ برغر، فما كان يُنظر إليه في السابق على أنه عقبة أمام التنمية، وهو الكونفوشيوسية، أصبح ينظر إليه الآن على أنه عامل تيسيري للتنمية. وها هي البوذية الماهايانية (Mahayana Buddhism) تنضم إلى الصف باعتبار أن «عبقرية العقل الصيني» نجحت في تغيير ديانة تنكر العالم بصورة راديكالية لتصبح ديانة تؤكد العالم بصورة أساسية». وثمة عناصر مؤكدة من التراث الغربي (وفي مقدمتها الفاعلية الحركية والابتكارية العقلانية والانضباط الذاتي) بات ينظر إليها الآن على أنها عناصر تنتمي إلى حضارة شرق آسيا سواء على مستوى الأعراف الرفيعة أم في الثقافة الشعبية. أما النزعة الفردية على النموذج الغربي، وهو موضوع مفضل كثيراً لدى علماء الاجتماع والمؤرخين، فلا تدخل ضمن هذا السياق ولا يتصور برغر أن هذا العنصر جوهري على الرغم من أنه قد يتبدى وكأنه نتيجة متحققة. وفي أي حال فقد أصبحت الشبكة واسعة لكي تصطاد عدداً كبيراً من الأسماك. وفي ضوء حقيقة أن أجزاء من جنوب شرق آسيا تتبع نمط شرق آسيا، فقد أصبح من المتعين طرح أسئلة مماثلة بشأن القيم الإسلامية في ماليزيا. وعندما نتابع إلى جنوب آسيا سوف ينطبق الأمر بسرعة على الهندوكية واليانية والسيخية فتدخل كلها ضمن إطار الصورة، ولا يبقى ممكناً استبعاد كلها أو بعضها من بين «ديانات العالم».

بالنسبة إلى يبدو هذا صحيحاً، فالتفسيرات «الثقافية» لصعود الغرب تفسيرات تحفها المشاكل. وينطبق الأمر أيضاً على كثير من التفسيرات «المؤسسية» (Institutionalist). وفي كلتا الحالين، فإن طابع «الميزة النسبية» (Comparative Advantage) الذي ينسب إلى هذه المجموعات من العوامل يظل بحاجة إلى إعادة فحصه بكل دقة، وبعض هذه العوامل أوردتها في كتابي هذا ابتداءً من العقلانية، ومن ثم إلى مسك الدفاتر، ثم إلى مستويات التجارة وقت التوسع الأوروبي، وطبيعة الأسرة وغيرها من التجمعات التي كانت مشاركة في التجارة، ثم في الصناعة.

وأخلص من هذا كله إلى أننا بحاجة إلى إعادة النظر في تداخل الشرق مع الغرب. ولأطرح مثالاً على ذلك، ولدى متابعتي تراث الإنسانيات ولو بصورة وثيقة. فقد قلت بداية إن الغرب «ميزة نسبية» ترجع إلى تطوير تعلم الهجائية الأبجدية في اليونان. ومع ذلك، فأنا أنظر الآن إلى هذه الحجة ليس على أنها معيبة فقط، بل على أنها مبالغ فيها. إن كثيراً من الإنجازات التي ارتبطت بحروف الأبجدية كانت متاحة كذلك للذين كانوا يستخدمون الرسومات أو غير ذلك من نظم الكتابة. وفي مراحل ما قبل الصناعة، لم يكن تعلم القراءة والكتابة يتسم بالأهمية نفسها لمعظم الأغراض. وعلى أي حال، فإن مستوى القراءة والكتابة في المجتمعات التي لم تكن تمتلك أدوات الحروف الهجائية كان يحظى بأهمية ضئيلة، من دون أن يؤثر ذلك في الأهمية الاجتماعية الثقافية للكتابة بحال من الأحوال، ولكنه يؤثر بالقطع في طريقة رسم الخطوط الفاصلة بين الشرق والغرب في سياق الكتابات.



ومن المشاكل التي لا تلبث تواجه الدارس ما يتمثل في نوعية النظرة الثنائية التي تتعامل مع العالم وتقول بطريقة أو بأخرى أو تومئ إلى أن هناك نوعين من المجتمعات: مجتمع حديث ومجتمع تقليدي، أو مجتمع متقدم وآخر بدائي، ساخن وبارد، رأسمالي - صناعي في مواجهة ما قبل رأسمالي - ما قبل صناعي، عالم أول ثم عالم ثان سابقاً مقابل العالم الثالث. تلك هي الحالة حتى بالنسبة إلى كثير من علماء الأنثروبولوجيا. وهؤلاء المهتمون بما يمارسونه من أعمال ميدانية متعمقة لابد من أن يطرحوا سلسلة من المقارنات الثنائية ولو على نحو غير مباشر بين ما يعرفونه بشأن الأشانتي (Asante) في غانا مثلاً، وبين المجتمع الأوروبي الذي جاءوا منه أو العكس. وعلى مستوى عام تنحو النتائج إلى أن تصاغ على أساس فئات ثنائية (بين البسيط والمركب وهلم جرا). ويبدو لي أن ثمة قلة، بل قلة ضئيلة، من السياقات التي يمكن أن يفيد فيها مثل هذا التقسيم، وخاصة عندما يشهد المرء حالة يكون فيها الأفراد والجماعات، بل المجتمعات ذاتها أيضاً، قد تحولوا من فئة إلى أخرى. وحتى إذا كان مثل هذا التقسيم مقبولاً (ونحن مضطرون بوضوح لإجراء بعض التصنيفات العريضة)، فمن الخطأ الواضح إدراج مجتمعات كبرى في آسيا أو في أفريقيا ضمن الفئة نفسها، وهو خطأ سواء من وجهة «التطور المعاصر» أم من ناحية تاريخ الثقافات.

وعلى الصعيد الثقافي، نحن نعلم أن تصنيفاً من هذا القبيل يفتقر إلى الكثير من الدقة، كما أنه لا يفيد سوى في أغراض قليلة للغاية. وعلى مستوى الممارسة، هو جزء من مخزون من المفاهيم الفولكلورية، ولكن المشكلة الرئيسية التي نواجهها في الحوار المطروح لا ترتبط كثيراً بالتقسيمات الثنائية، ولكنها ترتبط بأساليب أكثر تعقيداً، وإن لم تبلغ من الصقل والدقة ما نبتغيه من حيث فصل الحضارات الشرقية الكبرى عن حضارتنا. وكم رفضت هذه الأنماط من الرؤى التي إما أنها تنبثق عن نهج الثنائيات أو عن نهج المراحل، لا بمعنى عام أو ثقافي، ولكن بحكم تجربتي الخاصة في آسيا وأفريقيا ومع هاتين القارتين. وعليه، أستطيع فقط وباختصار أن أوضح كيف أن بوسع منظور آخر أن يطرح بعض الأساليب التي تبين ضلالة النقاشات السابقة، لأن التقييم الخاطئ للأوضاع النسبية على نحو ما هو الحال بين الشرق والغرب يؤثر كذلك في فهم الغرب ذاته لنفسه. ■

بين أركون والجابري

شربل داغر

تتعين كل ثقافة، في عهودها المختلفة، في ألفاظ بعينها، ولاسيما في التي تكون خفيفة الحمولات عند تبنيها، ثم يُقبل القارئ عليها إقبال المطمئن إلى شرفة متينة وكاشفة. لفظ «التراث»، الذي يرد في عنوان كتاب الدكتورة نايلة أبي نادر (فضلاً عن المدونة التي تدرسها)، واحد من هذه، وله كيانه المخصوص في الثقافة العربية المعاصرة. لفظ - عماد: يستعاض به عما يتحدث عنه، فيما يخفي بقدر ما يظهر، العديد من الإشكاليات التي تشغل «رهانات المعنى»، فضلاً عن قلقه طبعاً. وهو لفظ - لو دقق القارئ - قد يقترب مما تسميه اللغة الإنجليزية أو الفرنسية في لفظي (Heritage) و(Patrimoine)، لولا أن هاتين اللغتين تطلبان من اللفظين تعيين الممتلكات المادية، فيما تطلب العربية من لفظها المستحدث تعيين الممتلكات «العقلية» (لو طلبتُ الاختصار). ولو تتبع القارئ مسار الألفاظ لتحقق كذلك من أن ما يشير إليه اللفظ العربي كان يمكن أن تسميه الإنجليزية أو الفرنسية بلفظي (Past) و(Passé)، فيما لا تعيره العربية المستعملة في الكتابة المعاصرة اهتماماً يذكر.

ذلك أن ما تسعى إليه هذه الكتابات يوضحه الدكتور محمد عابد الجابري، بل يميزه عن حمولات لفظ آخر (هو «الميراث»)، مشدداً على أن ما يطلبه لفظ «التراث» هو تعيين أقرب إلى أن يكون «حضور الأب في الابن، حضور السلف في الخلف، حضور الماضي في الحاضر». وهذا يدعو إلى السؤال: كيف يحدث ألا يكون الماضي (والماضي القريب واقعاً، ومن دون غيره)



التراث والمنهج
بين أركون والجابري
الدكتورة نايلة أبي نادر
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر

ماضياً، أي مصنفاً ومرتباً في التاريخ؟ كيف يحدث أن مثل هذا الماضي مطلوب، بل إن له فاعلية منشودة يمكن اختصارها بأنها الحاجات الجد في تمثلات الحفيد لما كان عليه، بل لما يطلبه منه؟

طلبتُ أبي نادر درسَ «التراث والمنهج» في كتابات المفكرين الجابري ومحمد أركون، في مواجهة نقدية اتخذت شكل المقارنة، وتعينت في علاقات العقل بالخطاب في المقام الأول. وما درسته كان يمكن أن يتركز في السؤال الفلسفي أو التاريخي، فيما تعين - على ما يتضح في الكتاب - في مساعي «التفسير» (على اختلافها وتنوعها، بين إسلامية قديمة، ومعاصرة في خطابات علوم الإنسان والمجتمع). فماذا عن العقل والخطاب؟

ما عنى الباحثة في كتابها تحدد في مسألة المنهج خصوصاً، على أنها ما يضيء العلاقات بين العقل والخطاب، كما تتبدى في كتابات أركون والجابري. وهي، لهذا الغرض، استقصت في البحث عن كتاباتهما، فضلاً عما كتب عنهما، ما يعد في حد ذاته مدونة ثمينة، تُظهر المجهودات الكبيرة التي بذلها هذان المفكران - وهما ناشطان في التأليف حتى أيامنا هذه - في نطاق اشتغالهما المشترك (الذي يفيض عن معنى الماضي ليتناول أيضاً النظر السياسي في الراهن). وهو لقاء بينهما طلبته وحققته بعد أن تنبهت إلى أنهما يجتمعان فيما يختلفان عليه، فبادرت إلى جمع مدونة اللقاء وأجرته، وبالعمل معهما أيضاً في لقاءات جانبية استكملت بها «معاشرتها» (كما تقول) لنصوصهما. فهما يجتمعان في النطاق عينه تقريباً، مع بعض تعديلات في الحدود: إذ تذهب مساعي أركون صوب متون وثقافات أخرى، مثل المسيحية تحديداً، الماضية أو المعاصرة.

هكذا تناولت في كتابها، في ثلاثة أقسام كبيرة، «خصوصية المنهج» عند أركون (في القسم الأول)، ثم عند الجابري (في القسم الثاني)، مخصصة القسم الثالث والأخير لإجراء مقارنة بين حاصل الجهدين في الميادين المختلفة (بين دينية وسياسية وغيرها)، من دون أن تهمل «تلقي» المشروعين في الفكر المعاصر.

يجمع بين أركون والجابري، ابتداء من عناوين كتب لهما ومن استهداف خطتيهما التأليفية، «نقد العقل»، ثم يختلفان، إذ يلصق به أركون الصفة - المحدد: «الإسلامي»، والجابري: «العربي». وقد يجد بعض الدارسين في مثل هذا الاختلاف مجالاً لتوسيع الشقة، واختلاف النظرة بينهما إلى موضوعهما المشترك - وفي هذا وجوه أكيدة من الصحة، إلا أن تباينهما قد لا يكون تبايناً واقعاً: إذ يشير عند أركون إلى جهة من التعريف بالعقل، وهي أنه عقل متشكل في سياق التجربة الإسلامية، ويشير عند الجابري إلى جهة أخرى من التعريف بالعقل، وهي أنه تعين بالعربية، لغة وقواعد وغيرها.

ومن المؤكد أن تباينهما في التعريف يتأتى كذلك من جهة أخرى، وهي جهة المتلقي نفسه والخطاب الموجه إليه: إذ يتوجه الجابري إلى المتلقي العربي تحديداً من دون غيره (ما يتمثل عنده بدعوته إلى القومية العربية)، ويتوجه أركون (وهو الكاتب بالفرنسية أساساً، وبالإنجليزية أحياناً، والمنقول إلى العربية) إلى المتلقي العربي والإسلامي وغيره (ما يقترب من مشروعات سياسية مثل الحداثة والعلمانية والديمقراطية). وما يستوقف في حالتيهما هو أن الجابري يقترب من الفلسفة (في تعبيراتها الكلاسيكية، وإن تحدث عن «الحفر» أحياناً)، فيما يقترب أركون من التاريخ (ولا سيما في



أركون



الجابري

أطروحته التي صدرت في كتاب عن أبي مسكويه).

قال نيتشه: «بأقوى ما في الحاضر من قوة علينا أن نفسر الماضي»، وهو ما سعى إليه المفكران، وإن تفاوت مسعاهما: حيث إن عمل الجابري اجتهد في تصنيف المعنى (بعد فحص ونقد)، فيما اجتهد أركون في زحزحة مرتكزات المعنى. وإذا كان الجابري توصل إلى خلاصات مبتكرة ومغرية في آن، فإن ما باشره أركون رسم أوضاعاً متجددة للسؤال نفسه، التي لها أن تكفل قيام المعنى قبل أن تبنيه. ولهذا يبدو مشروع الجابري «مكتملاً» (وهي صفة قد يجدها البعض إيجابية، والبعض الآخر سلبية)، ومشروع أركون «مفتوحاً» (وهو ما يقال في هذه الصفة أيضاً).

ويمكن القول بأن مسعاهما يشكل أوسع تجربة كتابية، بعد مساعي طيب تيزيني وحسين مروة وأدونيس وحسن حنفي وغيرهم، في هذا النطاق، فضلاً عن سعيهما إلى تمكين خطابيهما من أسس ومرتكزات تجعل الخطاب يفكر فيما يقوم به قبل أن يقدم عليه. وما يمكن أن يشار إليه في هذا النطاق هو أن هذين المسعيين ما كان لهما أن يقوما لولا حاصل الدراسات الاستشراقية والغربية عموماً، وهو ما يضمره الجابري وإن كان لا ينكره، وهو ما يعلن عنه أركون في نوع من التفاعل البنائي الصريح. هذا ما يجعل من هذين الإسهامين - على اختلاف بينهما، وبيننا وبينهما - جهداً مزيداً في إدخال التاريخ الإسلامي وقضاياه في «التاريخية».

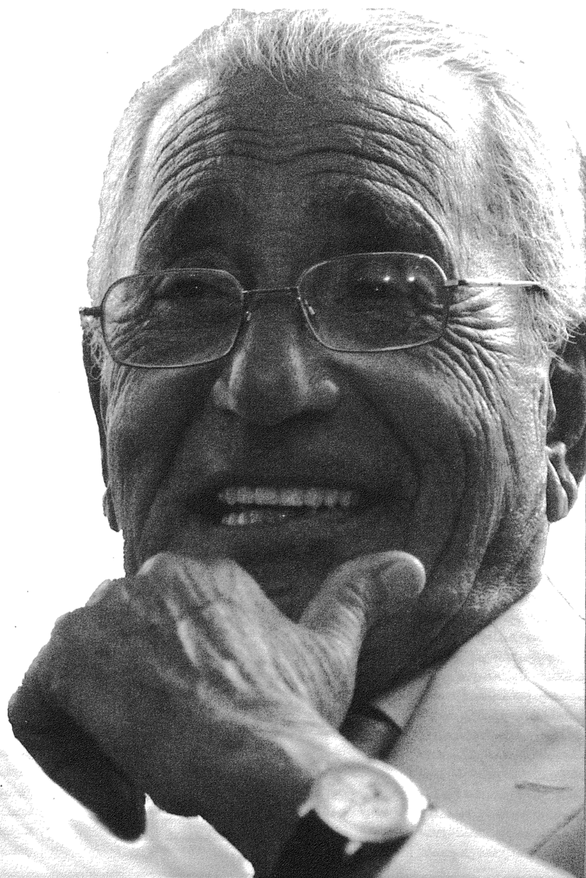
ولكن هذا لا يمنع من طرح السؤال، بل من القول: ما كان له أن يكون في «ذمة التاريخ»، أي مركوناً في ماضويته، تحول إلى شاغل راهن، ومقلق؛ ومن طلب المقارنة في هذا النطاق تنبه إلى أن انشغال هؤلاء المفكرين بسؤال الماضي وبمساعي تفسيره لا يخفف أبداً من «ظلامية» مسألة المعنى في السياق الإسلامي الراهن. وما كان له أن يكون محل تأريخ وتصنيف، في عداد العلوم والمقاربات القديمة، انتهى إلى أن يكون سؤال الراهن. وما كان له أن يشغل جهود الكاتبين، في نطاق «رهانات المعنى» (أي تمكين الكتابة من السؤال، من شروطه، من قيام علله وأسبابه) اختفى: بل يبدو خفيف الحضور والفاعلية في البحث العربي، بدليل إقدام جامعات عديدة على شطب «الفلسفة» من أقسامها الجامعية (وهو ما يشمل «الجمالية»، بدورها في معاهد الفنون وكلياته).

كتاب الدكتورة أبي نادر وفّر للقارئ العربي قراءة جامعة ودقيقة ومعمقة لمشروعي أركون والجابري، ولما يتعداهما (بما فيه المحجوب فيهما)، بما يجدد السؤال الذي تنهي به كتابها: «وتبقى الحداثة الهدف المنشود». ■

هيكل ٨٥ عاما

عُمر من الكتب

ملف خاص



"نون"

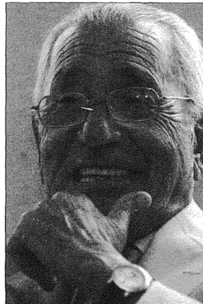
سلامة أحمد سلامة

هيكل
عصرٌ بأكمله

عرفته عن قرب بعد أن تجاوز في مسيرته الباذخة مرحلة «الأهرام». واضطر إلى التخلي في أواخر السبعينيات عن رياسة هذا الصرح العريق، عندما أراد السادات أن يجمع بين يديه كل الخيوط والولاءات، ويسلك طريقاً مختلفاً غير الذي سلكه عبد الناصر.. ترك هيكل الأهرام بعد أن كان قد أعاد تنظيمه وتأسيسه على أحدث الأساليب في عالم الصحافة في ذلك الوقت، وتشكلت تحت رياسته وبرؤية نافذة على مقتضيات العصر، مؤسسة قوية متكاملة الأركان، تضم أفضل العقول والكفاءات في دنيا الصحافة.

في ظل رياسته للأهرام كنت محرراً عادياً بين عشرات، لا تتجاوز معرفته بي - على الأرجح - ما يقرأه وما أكتبه على صفحات الأهرام في الشئون الخارجية، ولم أكن في كل الأحوال من دراويشه ولا حديث عهد بالعمل الصحفي، فقد جئت من نفس المدرسة الصحفية التي تخرج منها.. من أخبار اليوم. وكان هو فيها نجماً ساطعاً، يرأس تحرير «آخر ساعة» و«أخبار اليوم» ولم يبلغ الخامسة والعشرين. ويطوف العالم مراسلاً متجولاً يغطي معارك ما تبقى من ذيول الحرب العالمية الثانية، في اليونان، وفي كوريا، لتحل النكبة الفلسطينية فتتقدم على كل ما عداها من اهتمامات. من بداياتها المثيرة الغامضة إلى فصولها الملتهبة الدامية. ويصول ويجول كمحرر للشئون السياسية في دهاليز الحياة المصرية المضطربة.. بمؤامرات القصر، وألاعيب الأحزاب والزعامات.. ليكون من حسن حظه أن يلتقي بضباط ثورة يوليو في فجر اختمارها ونشوبها، ويدرك بغريزته الصحفية: أين ومن تكمن عنده مواطن القوة والزعامة، وأسباب الضعف والخلل في هذه الحركة التي غيرت وجه الحياة في مصر تغييراً شاملاً، من حيث لا يدري أحد ولا يتوقع! وقلبت معها موازين الأوضاع في العالم العربي والشرق الأوسط وعلاقاته مع العالم.

لم يتوقف هيكل عن نشاطه الصحفي والإعلامي بعد أن ترك الأهرام، ولكنه واصل مسيرته متجاوزاً بذلك مواقف معظم الصحفيين والسياسيين وأصحاب الرأي الذين تتعثر بهم مسالك السلطة وأنواء السياسة. فينكمشون في ظلال المجهول، يحاربون في الظلام طواحين اليأس والتجاهل والإقصاء، ولا يتجاسرون على مواجهة الأضواء والإفصاح عن أسرار الحقبة التي شاركوا فيها بالمساندة والتأييد. على عكس ما حاول هيكل أن يفعله جرياً على عادة كبار الصحفيين والمفكرين في الغرب، وكان عليه أن يدفع الثمن!



ربما في هذه الفترة اقتربت من هيكل بأكثر مما كان متاحاً من قبل.. ففي هذه المرحلة خرج هيكل من الدائرة العنكبوتية للسلطة والتزاماتها التي تفرض التزاماتها على كل من يقترب منها، في بيئة إقليمية ودولية لم تكن حرية الرأي والتعبير قد وجدت طريقها حتى في أعتى الديمقراطيات الغربية التي خرجت من الحرب تعيد تنظيم حياتها. وهو يجلس فوق مخزون هائل من التجارب والصلات، والصداقات والعداوات، والأسرار والوثائق والحكايات.. التي كان يجمعها بدأب وإصرار لا يشبهه غير دأب النحلة أو النملة تجمع زادها ورحيقها بكل الحرص والمثابرة. ليعيد غزل الخيوط والحقائق والأفكار في سلسلة من الكتب والأحاديث والحوارات، التي لم تلبث أن اقتحمت ميدان الميديا الإلكترونية والفضائية من أوسع أبوابها عن طريق التليفزيون، الذي وجد «مع هيكل» كنزاً لا ينفد، ومعيناً لا ينضب، لكي يعيد بناء الماضي على أطلال الحاضر، أو ينقب عن خسائر الحاضر في أطلال الماضي، ويلقى



إذ نحتفل مع الأستاذ ببلوغه الخامسة والثمانين،
تبحث المهنة وأجيالها عن القدوة والمثل، عن الكاتب الذى يؤمن بأن خلاص المهنة يكمن
فى الارتقاء بمستوى أبنائها إلى المستوى العالمى



الضوء على جذور المشاكل واحتمالات المستقبل.

لم يقطع هيكل صلاته بأصدقائه فى الخارج وتلاميذه فى الداخل، ولم ينطو على نفسه خوفًا وطمعًا كما فعل كثير من المفكرين والسياسيين فى عالمنا العربى. وأكبر الظن أن ما لديه من معلومات وأسرار ومن قدرة فائقة على الوصول إلى مظانها، قد وفرت له مظلة من الحماية، وذلك حين تصبح المعرفة وقاء من العسف والملاحقة!!

فى هذا العصر الحافل بالأحداث والمتناقضات والمفاجآت، عاش هيكل ومارس مهنته وفرض شخصيته. وتطور وتغير وتبدل شأن كل كائن حى مع المتغيرات والأحداث والحروب والصراعات، بكل ما تحمله من تجارب إنسانية مبهجة أو مؤلمة. وعاشت فى جواره أو بالموازاة له أجيال من الصحفيين.. كانت ومازالت تراه دائمًا فى المقدمة. نبراسًا ومعلمًا ومثلاً أعلى للصحفى الذى يحترم مهنته وقلمه، يتحرى العلم قبل أن ينطق، ويفكر قبل أن يكتب، ويبحث عن الصدق قبل أن يشهد، ويراعى مقتضى الحال كلما كان ذلك لمصلحة أسمى، ولا يتردد فى الإفصاح والتحذير كلما رأى أمواج الخطر تعلو فى الأفق، ليظل قامة تعلو على قامات كثيرة هادنت أو هربت أو دجنت!!

كثيرون ظنوا عن خطأ وسوء فهم، أن الثبات على فكرة أو رأى أو مذهب هو الخط الذى ينبغى ألا يحيد عنه الصحفى أو المفكر، وأن الولاء للشخص أو النظام يجب أن يعلو على حرية الفكر فى مسلمات لا تقبل المناقشة.. ومثل هذا الثبات والتمسك الأعمى هو الجمود بعينه، بل هو الذى يفضى إلى الهلاك والزوال. ومعظم الذين ينتقدون هيكل الآن، وهو يتحدث عن الحاجة إلى إطار جديد للشرعية القائمة للحكم لا تقوم على شرعية الرجل الواحد، لا يكفون عن تكرار حجة بليدة.. وهى لماذا يبحث هيكل عن التغيير فى عهد مبارك وقد كان من معارضيه فى عهد عبدالناصر؟ وهو سؤال لا يحتاج إلى إجابة، فما كان صحيحًا أيام عبدالناصر قبل نصف قرن لم يعد من الممكن تكراره اليوم. ومن ينكر ذلك فهو لا يدرك حقائق العصر والعالم الذى نعيش فيه.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن هيكل حين استأذن فى الانصراف، لم يكن ينصرف إلا عن الكتابة فى المدارات الضيقة والمعتمة التى حاصرته وحاصرت كتاباته وآراءه فى الإعلام المصرى، ومع ذلك فقد بقى هيكل فى بؤرة الصحافة والإعلام أكثر من نصف قرن.. فاعلاً ومؤثرًا ومتأثرًا، بل ربما أكثر حضورًا واستشرافًا لآفاق التجديد والابتكار فى معظم مجالات الميديا الحديثة، وفنون الكتابة الصحفية.. من المقال إلى التقرير الصحفى إلى التحقيق فى العمق.. يستخرج الأسرار، ويجتهد فى تحليل أصعب المواقف المحلية والدولية، ويقدم رؤيته الثاقبة لحقبة من تاريخنا، ما كان للكثيرين أن يعرفوا دقائقها وأسرارها فى غير كتبه ومقالاته ووثائقه التى أجهد نفسه فى البحث والحصول عليها. من منا كان سيعرف شيئًا عن أدق تفاصيل وخلفيات حرب السويس، وعن المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، وحرب الخليج، والأدوار الغامضة والمفضوحة للعروش والملوك والرؤساء، وحرب ٦٧ ثم حرب أكتوبر وما تلاها من صفقات ومساومات؟!

تلك حقبة تاريخية حافلة، صنعت حاضر مصر وتوشك أن تصنع مستقبلها، قدمها هيكل كما رآها وعاصرها.. ليس كمؤرخ ـ وهو يعترف بذلك ـ ولكن كشاهد عيان، يملك الحس التاريخى، والعمق الإنسانى، والأسلوب الأدبى الجزل. ولا أعرف حتى هذه اللحظة كيف كان يمكن للأجيال السابقة واللاحقة أن تعرف كثيرًا من الحقائق التى حجبت وأخفيت عمدًا، أو نتيجة الإهمال وعدم الاكتراث، لولا ما نشره هيكل؟!

هذا جزء من ذاكرة الوطن المصرى والعربى على اتساعه، فى أصعب وأدق فترة من تاريخه الحديث، يرجع الفضل لهيكل أن استنقذه من سراديب النسيان والإهمال، مهما يكن ما يقال وما لا يقال تهجمًا واستنكارًا. ونحن نضيع الآن كنزًا هائلاً من الوثائق التاريخية فى حرائق الشورى ودور المحفوظات المهملة، بينما ينعى البعض اختفاء وثائق الثورة ويتهم هيكل بالاستيلاء عليها.

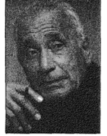


وإذ نحتفل مع الأستاذ ببلوغه الخامسة والثمانين، تبحث المهنة وأجيالها عن القدوة والمثل، عن المنارة التى تضىء الطريق، عن الكاتب الذى يؤمن بأن خلاص المهنة يكمن فى الارتقاء بمستوى أبنائها إلى المستوى العالمى. فينشئ «مؤسسة هيكل» لترعى أجيالاً طامحة لم تجد من يأخذ بيدها، متجردًا من المصلحة والمنفعة والأثرة، تبحث هذه الأجيال عن الإيمان بحرية الكلمة والرأى فى ظل شرعية دستورية يحميها القانون.

وكما شهدت مصر عصر قمم شامخة، من رموز الفن والأدب والفكر، من شوقى وأم كلثوم وعبدالوهاب وطه حسين وثلة من الأولين الذين قادوا مسيرة الفكر والتحرر مازلنا نعيش على آثارها وأمجادها، فإن هيكل بكل ما قدمه إلى الصحافة والإعلام بمفهومه الحديث، يندرج حلقة فى هذه السلسلة الذهبية.. يتميز عنهم أنه يعبر معنا وبنا آفاق القرن الواحد والعشرين، دون أن يفقد القدرة على الامتداد والتحول والرؤية النافذة فى أعماق الحاضر والمستقبل.

ولا يملك المرء فى هذه المناسبة إلا أن يدعو له بدوام الصحة وطول العمر. ويكفينا رفقة الطريق ولو على البعد.. نحن الذين عشنا فى زمانه، وانتفعنا بثمرات عصر بأكمله!

ملف خاص



هيكل عُمر من الكتب

أيمن الصياد

عمر من الكتب

■ ■ كنا جالسين إلى شاطئ الخليج العربي.. عددٌ من المثقفين والمهتمين بالشأن العربي العام. كان المساءُ خريفيا مثل هذه الأيام، قبل خمسة أعوام كاملة. وكان «الكاتب» العربي الأشهر قد نشر قبل أيام فقط رسالة يستأذن فيها «قارئه» في الانصراف. كنا على الطاولة مشارقةً ومغاربة.. وكان الموضوع الأوحد ـ في جلسة طالت من الغداء حتى قاربت موعد العشاء ـ هو الاستئذانُ وصاحبه. وكان ـ رغم تحفظ واجب أدركُ ضرورته وأحرصُ عليه ـ أن وجدت نفسي «بسبب اقتراب أتشرفُ به» في مرمى الأسئلة وعلامات الاستفهام: لماذا.. وكيف.. وماذا بعد.. ثم ماهو مستقبل «وجهات نظر»؟

يومها ولأن أحدا من الحاضرين لم يكن على استعداد لأن يتوقف ـ هكذا ـ عن «قراءة» هيكل، لم تكن أي من الإجابات شافية... وكان هذا طبيعيا.

و يومها حكى لي المخرج السوري المعروف محمد ملص: كيف كانوا في مقتبل العمر، وحين لايكون في جيوبهم ثمن الجريدة، يقرأون «أهرام الجمعة» معلقا عند باعة الصحف حتى لا يفوتهم ما كتبه «الأستاذ» في مقاله الأسبوعي «بصراحة».. تذكرت ساعتها وحكيت بدوري كيف كانت معلمتنا تطلب منا أن نلخص «بصراحة/ هيكل» أسبوعيا، لتختار منا من يقرأ الملخص أمام الفصل كله في درس صباح السبت. كانت الأيامُ غير الأيام.. وكان «الأهرام» غير «الأهرام».. كنا وقتها في الصف الخامس الابتدائي. وكان «هكذا مستوى» تعليم القراءة والكتابة والإلقاء.



كانت معلمتنا تطلب منا أن نلخص «بصراحة/هيكل» أسبوعيا، لتختار منا من يقرأ الملخص أمام الفصل كله في درس صباح السبت



في فصلٍ صغير في مدرسة «النصر» الابتدائية بالسنطة في قلب دلتا النيل كنا نقف لنقرأ «هيكل». وعلى قارعة الطريق في «القنيطرة» السورية، كان محمد ملص ورفاقه يقفون ليقرأوا «بصراحة».

ذكرتُ هذه القصة ـ قبلا ـ في هذا المكان.. وتذكرتُها قبل أيام حين جلستُ إلى «الأستاذ» أسأله ـ كعادتي ـ قبل أن يسأل «الصحفي» فيه عن الأخبار. وتذكرتها حين وقفت أمام مكتبتي التي تحتل كتبُه ركنا أثيرا منها، محاولا أن أختار ماأعيد قراءته.. هنا.

والحاصل انه كما لم يكن سهلاً على ابن الحادية عشرة تلخيص «بصراحة» في تلك الأيام البعيدة، لم يكن يسيرًا أبدا الاختيار بين مايزيد على «الخمسين كتابا» دون الوقوع في محظور «اختزال غير مقبول» لتجربة بهذا الاتساع والثراء.



ليأذن لي القارئ أن أضع ماقرأته لهيكل ـ وما سمعته منه ـ في دوائر ثلاث:

١. مصر؛ وهي في القلب من هذه الأمة، قدرا ومصيرا.. واستهدافا، بصيرورة التاريخ وثوابت الجغرافيا. رغم كل ما «طرأ».. وهو صحيح. وكل ما «كان».. ولابد من الإقرار به.

٢. الأمة؛ بلغتها الواحدة، ودينها الجامع.. أين صارت في عالم وإن بدا جديدا في ملامحه، إلا أنه ككل حفيد فيه من ملامح الأجداد سمات وتقاطيع.. وموروثات.. بل «جينات» لا فرار منها. كذلك يعلمنا كما يقرئنا التاريخ.

٣. عالم نعيشُ فيه؛ محيطا مهما اتسع تطالنا أمواجه إن تلاطمت. وتتوه فيه سفننا بل قد تغرق إن لم نبحث جادين عن ضوءِ نجم هاد، أو شعاع فنارة في الأفق.



[١]

«باب مصر.. إلى القرن الواحد والعشرون» كان العنوان الذي اختاره هيكل لمحاضرته الشهيرة والأخيرة في معرض الكتاب في الثامن عشر من يناير ١٩٩٥ وهي المحاضرة التي كانت «تأريخا» أولَ محاولة لمناقشة أعراض أزمة أخذتنا في نهاية المطاف إلى ما نحنُ فيه الآن. (المحاضرة صدرت عن «دار الشروق» في كتاب يحمل العنوان ذاته)

يومها لخصَ هيكل أو لعله شخص الأمرَ كله في عبارة شاعت وصفا وتلخيصا: «سلطة شاخت في مواقعها..» ويومها بدأ حديثه بمحاولة توصيف الأحوال في مصر توصيفا موثقا وبالأرقام. ورغم أن نص المحاضرة/ الكتاب بما فيها من الأرقام والإحصاءات والتقارير قد تبدو جافة أمام جمهور غير متخصص، الا أن الكاتب هنا مستندا إلى «مصداقية» الأرقام في تجردها المفترض، يعرض إلى «حقائق اجتماعية تتصل بهذه الحقائق الاقتصادية وتترتب بالضرورة عليها».. منها أن البطالة في مصر زادت زيادة مخيفة والأخطر أنها تنتشر بين خريجي الجامعات والمعاهد العليا والمتوسطة وهي «كتلة تعلمت وتهيأت للعمل في بلد يعتبر التعليم فيه وسيلة وحيدة للصعود الاجتماعي». ويعني ذلك في نهاية المطاف أنها بطالة مدركة واعية قابلة لأن تتحول إلى شحنة غضب عارم يشعر أن مجتمعه يسلبه حقا كان يحسبه في انتظاره.

أعرف أن هناك من سينشر ـ وهو ينشر كل يوم ـ أرقاما تبدو براقة ترد في تقارير دولية مختلفة (نشرنا بعضها غير مرة في «وجهات نظر»)، إلا أن الحقيقة التي تبدو راسخة حين يتعلق الأمر بوصف الواقع الاقتصادي هو ما يعرفه الاقتصاديون ـ ومنهم الوزير محمود محيي الدين الذي كتب في هذه المجلة في الاتجاه ذاته قبل أشهر ـ من أن ارتفاع معدلات التنمية أو متوسط دخل الفرد في أي بلد من البلدان ليس كافيا لتصوير الحقائق الاجتماعية. إذ يبقى الأهم هو كيف يجري توزيع هذا الدخل؟ ولعل من استمع قبل ثلاث عشرة سنة إلى محاضرة معرض الكتاب تلك، يذكرون كيف صدمهم هيكل «قلقًا على مستقبل 'الاستقرار الاجتماعي في مصر» بعرض تقرير وضعته مجموعة دولية عن المؤشرات الطبقية الجديدة في مصر (لاحظ أننا كنا في العام ١٩٩٥).

حسب التقرير ففي مصر يومها ٥٠ فردا تبلغ ثروة كل واحد منهم ما بين ١٠٠

ارتفاع معدلات التنمية أو متوسط دخل الفرد في أي بلد من البلدان ليس كافيا لتصوير الحقـائق الاجتماعيـة. إذ يبقـى الأهـم هو كيف يجري توزيع هذا الدخل؟

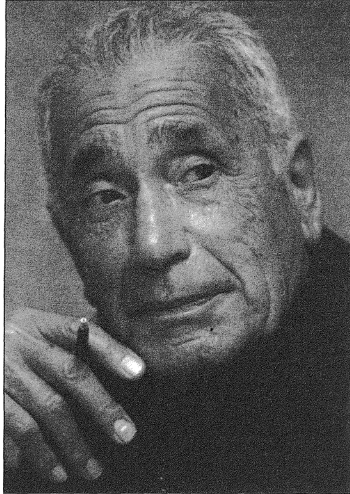


إلى ٢٠٠ مليون دولار وأكثر. و١٥٠ تتراوح ثروة كل منهم ما بين ٣٠ إلى ٥٠ مليون دولار... وهكذا لنصل إلى أننا في مصر أمام حوالي ١٠٠٠ فرد استطاعوا في العشرين سنة (٧٥ - ٩٥) أن يصبحوا أصحاب ثروات هائلة لا تتناسب مع الحقائق الاقتصادية أو الاجتماعية السائدة في البلد. ثم يظل من المفارقات أن مصر وهي واحدة من البلدان الموضوعة في قوائم الدول الفقيرة تستورد أكبر نسبة من سيارات المرسيدس في العالم بالقياس إلى عدد سكانها (طبقا لبيانات شركة السيارات الألمانية ذاتها).

كانت هذه أرقام هيكل الموثقة التي عرضها أمام سامعيه قبل كل تلك السنوات. فهل اختلف الوضع الآن؟ قطعًا.. فالمتابع للخريطة الاجتماعية في مصر من «مارينا» شمالا إلى «حلايب» جنوبا. والقارئ للصحف (حتى لو اكتفى بصفحات الحوادث فيها) لابد أن يدرك أن الأرقام الصادمة الملوثة بالفساد أصبحت بالضرورة أكبر، والظاهرة المقلقة أصبحت أكثر ضغطًا على استقرار اجتماعي بات هشًا، وأكثر تشتيتًا لتجانس مجتمعي ربما كان مطلوبًا اليوم أكثر من أي وقت مضى.

وبعد أن يرصد ما جرى للطبقة الوسطى في مصر، يعرب هيكل عن قلقه لجموح أسباب العنف وموجباته. فالسلام الاجتماعي في أي وطن ليس مسألة حض على فضيلة الصبر، وليس مسألة نص قانوني يغلظ العقوبات على مخالفة مواده.. «إنما السلام الاجتماعي مطلب مركب، وهو مشروط بشرعية السلطة، مشروط بمشروعية الثروة، مشروط بحقوق المواطنة، مشروط بإحساس المساواة بين الناس وإن تفاوتت الكفاءات أو حتى الحظوظ..».

والمقلق أن تخوفاتنا اليوم رغم تتابع الأيام والسنين لاتختلف كثيرًا عن تخوفات هيكل (١٩٩٥). حين يقارن بين قمة الهرم الاجتماعي الضيقة شديدة الثراء، وقاعدته الفقيرة شديدة الاتساع، متخوفا «أننا أمام وضع لا مفر من التسليم بأنه بالفعل مخيف لأن النار قريبة من الحطب بأكثر مما تحتمله سلامة الأحوال في مصر»، ويلاحظ هيكل «حالة من خلل التوازن راحت تعتري المجتمع المصري وتهزه بقسوة.. وأن هذا التناقض الحاد بين الفقر والغنى سبب شعورا بالاستفزاز يصعب تجاهله، خصوصا وقد بدا تركيز الغنى غير مبرر، وأيضا غير مشروع. ثم إن حصار الفقر بدا هو الآخر غير مبرر وغير شرعي».



يعود هيكل إلى «الهم الداخلي» بمقال نشره في هذه المجلة «وجهات نظر» (يونيو ٢٠٠٠) تحت عنوان «حديث مستطرد عن السياسة الداخلية» ضمنه مع غيره دفتا كتاب صدر قبل أعوام، ثم بمحاضرة الجامعة الأمريكية الشهيرة «المستقبل الآن» (أكتوبر ٢٠٠٢). محذرا.. ومنبها.. وداعيا.

محذرا من الـ Oligarchy أو مجموعات المصالح «المتشابكة» التي تستولي بسلطتها أو بنفوذها على الإدارة ثم على الحكومة ثم على الدولة كلها..! والواقع أننا نعرف جميعا كيف تنمو مجموعات المصالح تلك. وكيف تتشابك خيوطها العنكبوتية. ونعرف أيضا أن بيوت العنكبوت لاتتمدد إلا حيث يكون الركود والكمون. بعيدا عن الحركة، وماتستوجبه تعريفًا من تغيير.

ومنبها إلى حقيقة أن النظام الرئاسي في العالم الحديث، في الولايات المتحدة مثلاً يعني الإدارة. «لكننا في مصر وفي العالم العربي نتحدث عن الولاية ولا نتحدث عن الإدارة، وهنا المشكلة. إذ إن تلك مفاهيم تنتمي لزمن لم يعد يعيش فيه أحد. ولم تعد تصلح في أزمنة الدساتير والقوانين والمواثيق والعهود الإنسانية الكبرى، وفي أزمنة جرى فيها ترويض أعتى الأنظمة الملكية، ووقع إرغامها على أن تضيف «الدستورية البرلمانية» لاحقة بالملكية في الوصف وسابقة عليها في الحقيقة! ثم قضت على الملكية أن تكون محصورة في المراسم لا تتجاوزها إلى سلطة الحكم.

إذ إن العالم «المتقدم» ينبهنا هيكل يعرف ويتصرف على أساس أن السلطة تفويض مؤقت من شعب يملك الولاية بمعنى السيادة في حوزته، ثم هو يُفوض بالانتخاب الحر بعض تنظيماته وأفراده بإدارة شئونه السياسية، مُتَعرضين طول الوقت للحساب باعتبارهم «إدارة لا ولاية».. وهكذا فإن الكل:

يحاور «الإدارة» وبالشدة أحياناً كما حدث للرئيس «كنيدي» بعد محاولته الفاشلة لغزو كوبا سنة ١٩٦١.

ويعارض «الإدارة» كما حدث للرئيس «جونسون» بسبب حرب فيتنام.

ويحاكم «الإدارة» كما حدث للرئيس «بيل كلينتون» بسبب تصرفات شخصية تجاوز بها حدود اللياقة ولو لم يتجاوز حدود القانون في قضية «مونيكا لوينسكي».

ويعزل «الإدارة» كما حدث للرئيس «ريتشارد نيكسون» لأنه خدع الرأي العام الأمريكي وكذب عليه كما حدث في فضيحة «ووترجيت»!

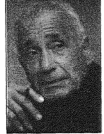
في الجامعة الأمريكية (٢٠٠٢) يعود هيكل ليفاجئنا بما بدا أننا جميعا غفلنا عنه: استحقاقات دقت نواقيسها.. وقضية خلافة تنتظر الحسم. بعد أن يلحظ بقلق أن الوقت يجري بنا. وأن «الانتظار الذي بدا في وقت من الأوقات أدعى للسلامة، حدث بعد ذلك أن تحول «من سد فجوة إلى طبيعة سياسة كل شيء فيها مؤجل وأي تغيير عليها لا داعي له. فإذا اشتدت المطالبات وزادت الضغوط فإن المسموح به يجيء حلا وسطا يكرس الانتظار أكثر مما يسمح بالانطلاق».

وبعد أن ينبه هيكل إلى «أن مصر الآن وليس غدا في حاجة إلى رؤية للهوية أمينة وإلى سند في المرجعية أصيل وإلى شرعية تؤسس لزمن، يستحيل قبوله امتدادا متكررا لشرعية الرجل الواحد، أو لدعاوى حزب يعتبر نفسه ديمقراطيا»، يقرر أنه «من المحقق أن الوقت حان وزيادة للانتقال إلى الدرجة الأعلى في مراحل الشرعية أي الشرعية الدستورية والقانونية».



نقرأ هيكل اليوم لنعرف أن ماقاله مشفقًا عام ١٩٩٥، عاد ليطالب به ملحًا عام ٢٠٠٠، ثم عاد ليؤكد عليه قلقًا منبهًا ومحذرًا في الجامعة الأمريكية ٢٠٠٢، ثم هانحن نقرأه اليوم لنجد أننا ما زلنا بحاجة لأن نكرر الطلب والتنبيه.. والرجاء

ملف خاص



هيكل عُمر من الكتب

إن «التهافت على السلام» لا يصنع وحده سلاماً. وأن استرضاء العدو «بأي ثمن» هو في نهاية المطاف أقرب الطرق إلى الحرب

[٢]

كان خبرا روتينيا لا جديد فيه، حين قرأنا قبل أيام أن الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش الذي تنتهي فترة ولايته بعد أسابيع يعتذر لرئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس «لأن الدولة الفلسطينية الموعودة لن تقوم» قبل أن يترك البيت الأبيض لرئيس قادم يبدأ من جديد لعبة «الوعد» و«الوهم».

في كتابه «العربي التائه» الذي جمع فصولاً كتبها في «وجهات نظر» قبل أعوام، يقرأ الأستاذ هيكل كعادته التاريخ، ويراه ماثلا هنا في وثائق الحرب العالمية الثانية «وهي اختبار عظيم للسياسات والإرادات» لينبهنا إلى حقيقة أن «التهافت على السلام» لا يصنع وحده سلاماً. وأن استرضاء العدو «بأي ثمن» هو في نهاية المطاف أقرب الطرق إلى الحرب، «لأن التهافت على الطلب مثير للطمع، ولأن الغاية النبيلة لا تحققها وسيلة ذليلة. فأول قوانين الصراع أنه حين يرضى طرف لنفسه أن يستخذي فإن الطرف الآخر مدعو لأن يستقوي، وتلك طبائع أشياء قبل أن تكون قوانين صراع».

ومثال ذلك الأشهر في التاريخ - يذكرنا هيكل - أن رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٣٨ «تشمبرلين» لم يكن يدرك وهو يحمل مظلته الشهيرة ويطير لمقابلة الزعيم الألماني «أدولف هتلر» في «ميونيخ» ويعود من هناك بعد يومين ليبشر الشعب البريطاني (وشعوب أوروبا) بـ«السلام في زماننا». أن «ميونيخ» كانت «نهاية طريق». وأنه بوهم صنع «السلام في زماننا». جعل الحرب العالمية الثانية حتمية لأن «هتلر» رأى «التهافت على السلام» دليلاً على الضعف والوهن، وشاهداً على تآكل الإرادة السياسية وقصورها عن تحمل مسئولية الصراع من أجل الحياة والصراع من أجل السلام.

نقرأ هيكل ونتذكر، ليس فقط «كامب دافيد»: النقطة الأولى التي رسمناها على دائرة السلم والحرب «المغلقة»، بل قراراً عربياً «على مستوى القمة». حسب الألقاب البروتوكولية. باعتبار السلام خياراً إستراتيجياً «وحيداً» لكل شعوب المنطقة. وكان الدافع لتمرير ذلك القرار يومها أنه «يحرج الإسرائيليين أمام العالم!!.. عندما يتشددون في مواجهة أمة أجمعت رأيها على خيار السلام» والحاصل ونعرفه جميعاً أن الأيام جرت. وأنه كما أن النهر جرت فيه مياه كثيرة - حسب التعبير الشائع. جرت على الأرض دماء أكثر. جلها «عربية». كما أن الإسرائيلي «المحرج» لم يجد ثمة من حرج في أن يرد على قمة بيروت «قمة سلام المبادرة» بمنع ياسر عرفات «أحد المدعوين لحضورها» من مغادرة المقاطعة. كما أنه لم يستشعر أي حرج في اعتقال رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني المنتخب والعديد من أعضائه. كما كان لافتا أن أحدا من هذا «العالم المحب للسلام» لم يتململ أو ينزعج.

والحاصل أنه في الوقت الذي حلق فيه «وهم السلام» فاردا أجنحته الشفافة البيضاء في سماء العرب، استبد «وهم السلاح» بأولئك الذين أسسوا دولتهم تحت نيرانه. واعين لهدفهم المتمثل في طرد أكبر عدد من الفلسطينيين من وطنهم، خصوصاً بعد أن اتضح أن فلسطين ليست. كما تصور «هيرتزل». «أرضاً بلا شعب تنتظر شعباً بلا أرض».

وكانت المفارقة مثيرة. كما كانت النتيجة واحدة. رأيناها ومازلنا في دروب غزة الضيقة، التي لم تعش سلاما «رغم كل الاتفاقات» كما ظلت عصية ومؤلمة «رغم كل الصواريخ والمدرعات والطائرات».

لابد - يشدد هيكل - ونعيد قراءة ماكتب حين نرى أمامنا «الدائرة المغلقة» للحرب والسلام في الشرق الأوسط. أن تكون للسياسة قوة فعل تحترم نفسها، وتنتزع احترام الآخرين حين يرون السلام يعرض نفسه واقفاً على قدميه وليس راكعا على ركبتيه. مؤكدا أن «السياسة» الواضحة تعززها «الإرادة» قد تغني عن الحرب المسلحة ونزيفها الدموي. في حين أن «السياسة» المترددة تجعل «نهاية الطريق» مهلكة في التيه أو مذبحة في العراء!



في مقدمة الكتاب ذي العنوان الدال «العربي التائه»، يشير الأستاذ هيكل إلى مقال مهم كتبه هنا أيضاً (مارس ٢٠٠٠) بعنوان «نهايات طرق». معتبراً أن الطرق - ولسوء الحظ. تبدو عند نهاياتها وكأنها وصلت إلى تيه لا يظهر عليه أفق.

ورغم تفاؤل أحسده دائما عليه، يضيف الأستاذ في مقدمته: أنه ومع بداية هذا القرن الجديد، القرن الحادي والعشرين فإنه يبدو أن «العربي» أصبح هو «التائه». وهو صدى بالمقلوب لتعبير شاع قبل ذلك قروناً عن «اليهودي التائه». موضحا أنه في قرن سبق. وهو القرن العشرون. فإن ذلك «اليهودي التائه» وجد لنفسه مكانا حط فيه رحله، وحصن موقعه. وفي نفس الوقت فإن «العربي» اختلطت عليه الأمور، وبدا وكأنه ضيع عالمه وفيه تراثه ومستقبله، ثم إنه ارتحل بحاضره تائها بين الحقيقة والوهم، وبين الرؤية والسراب، وبين الحلم والعجز.

وهكذا بدأ القرن الحادي والعشرون. يقول هيكل. واليهودي الذي كان «تائها» يتحصن في المشروع الصهيوني على أرض فلسطين، في حين أن العربي الذي كان راسخا في الطبيعة والتاريخ أصبح هو الشارد في التيه: قد يعرف من أين؟. لكنه لا يعرف إلى أين؟!



[٣]

من اقترب من الأستاذ هيكل مهنيا أو إنسانيا، يعرف أنه اعتاد أن يدون أفكاره وخواطره ووقائع يومه على ورق «يعود» إليه.. «فيستعيد» تفاصيل ما كان.. وأجواءه.. وحضوره.

وقبل حوالي العامين تصادفت زيارة خاصة قام بها الأستاذ للعاصمة القطرية «الدوحة» مع التجهيز لانعقاد مؤتمر دولي تحت لافتة «تحالف الحضارات» شاركت فيه نخبة من الشخصيات الدولية المرموقة من بينها الرئيس الإيراني السابق «محمد خاتمي» وهو صاحب مشروع فكري يتبنى «حوار الحضارات»، وكان أن جرى حوار. أو حوارات. حول فكرة المؤتمر وقضاياه. وكعادته، كانت تلك الورقة التي كتبها هيكل. محددا فيها فكرته. بقصد تبادل الرأي حول رؤية ربما بدت للبعض مختلفة في موضوع اختزل مبكرا في شعار صار هو الأكثر رواجا في المنتديات الفكرية المختلفة، شمالا وجنوبا.. ونحن ندلف إلى قرن جديد.

يومها.. وبإذن من صاحبها.. نشرت «وجهات نظر» هذه الورقة، والتي لعلها مع المحاضرة المهمة التي ألقاها الأستاذ في جامعة أوكسفورد، قبل حوالي العام بعنوان «جسور وعوائق»، تكونان أساسا لكتاب «مطلوب» يقدم فيه رؤيته لما يعتبره «حضارة إنسانية واحدة».

يلخص هيكل رأيه في أنه قريب من مدرسة ترجح أنه ليس هناك ما يمكن أن نسميه صــراع حضـارات ـ أو حوار حضـارات ـ والسـبب أن هناك «حضارة إنسانية واحدة»

يلخص هيكل رأيه في أنه قريب من مدرسة ترجح أنه ليس هناك ما يمكن أن نسميه صراع حضارات - أو حوار حضارات - والسبب أن هناك «حضارة إنسانية واحدة» صبت فيها شعوب وأمم وأقاليم الدنيا، على طول التاريخ أفضل ما توصلت له من رقي وتقدم.

ويقول إننا لسنا أمام صراع حضارات متعددة متعارضة يمكن أن تتصادم أو تتصالح، لأن شواهد التطور التاريخي تومئ إلينا بأنها حضارة إنسانية واحدة، صب فيها الجميع ما زاد عندهم أوقات الفيض، وسحب منها الجميع ما لزمهم أوقات الجفاف، وساعدوا - كل في زمانه - على ملء خزان هائل للحضارة الإنسانية أصبح شراكة طبيعية ورصيدا جماعيا متاحا بالحق لمن يريد ويستطيع.

ثم إنه مع اتساع الأرض واتصال التاريخ - يذكر هيكل - فإن كافة الشعوب والأمم قدمت ما راكمته من ثقافات البيئة والمعرفة والتجربة، إضافات سخية ومستمرة وتلقائية - إلى المشترك البشري الجامع.

يبسط هيكل رأيه موضحاً أن ذلك حدث في حالة التأمل والفلسفة بحثا عن الحق والحقيقة - حالة كشف العقل حين تعرف الناس في الفجر الإنساني الأول على ملكات التصور، وتوصلوا إلى سر الحرف في الأبجدية وسحر الرقم في العدد - حالة التنبه إلى معجزة الزراعة - حالة صناعة الأدوات والمعدات - حالة فنون المعمار - حالة فتح الطرق واستئناس وسائل المواصلات - حالة صنع السفن وركوب البحار - حالة النظر إلى الفلك ومسارات النجوم، إلى آخره.

في هذه الحالات وغيرها فإن الثقافات الطالعة في كل مكان شقت جداول وينابيع محلية، فاضت على جوارها عندما تبين هذا الجوار نفعها، ثم التقت هذه الجداول والينابيع لتكون ما يمكن أن نسميه مجمع ثقافات أو أحواض حضارة بعضها يكاد يكون مرسوما محددا كخط بالقلم ومثاله الأظهر حوض البحر الأبيض - ثم إن الأحواض الحضارية في كل إقليم من أقاليم الدنيا امتلأت وفاضت، وتمددت واتصلت بحيث بسطت محيطا واسعا لحضارة إنسانية قابلة للانتشار، قادرة على العطاء، عابرة للزمان والمكان.

والقصد - يشرح هيكل - أنه إذا اعتبرنا أن ثقافة أي مجتمع هي مجمل ما تحصل عليه - في ظروف موقعه، وعلى مسار تاريخه، من خبرات ومعارف وفنون - فإننا بنفس المقدار نستطيع القول بأن الحضارة هي في التعريف النهائي أرفع وأنفع ما وضعته ثقافات الشعوب والأمم والأقاليم «المختلفة» في المجمع العالمي للثقافات المتنوعة، والذي هو محيط الحضارة الإنسانية، والذي يعتبره هيكل محيطا حضارياً لا يحتاج إلى إلحاح أو إلى سلاح، لأن شراكة الجميع فيه، وحاجة الكل إليه، تجعله «ثروة بالمشاع» بينهم وادخارا لطموحاتهم عندما تحركها هممهم.

ويشبه هيكل هذه الحركة الإنسانية بواقع ما جرى ويجري في الطبيعة ذاتها، إذ ربما أمكن القول أن الثقافات كانت بمثابة ينابيع وجداول وأنهار جرت فيها المياه وتدفقت وفاضت على جوارها الإقليمي - ثم إن هذا الجوار أخذ من هذا الفيض ما كانت مجتمعاته مستعدة لاستعماله لزيادة منافعها وتحقيق أقصى الممكن من مطالبها - ثم إن هذا البحر الذي تلاقى فيه الفيض الإنساني للثقافات المحلية والإقليمية أكمل زحفه وانتشاره حتى وصل إلى المحيط المفتوح أمام كل شراع وأمام أي ملاح لديه الجسارة ومعه خريطة وبوصلة.

معنى ذلك أن ينابيع الثقافات الوطنية التي تدفقت في جداول وأفرع وأنهار، وتلاقت في أقاليمها، وصنعت ما يمكن تسميته ببحار أو أحواض حضارية اندفعت كما تفعل البحار حين ترتفع مناسيبها وحين تجد معابرها - إلى المحيط الأعظم الذي يحيط بالقارات كلها، وذلك فعل طبيعي - يقول للجميع بالجغرافيا أنه عالم واحد، كما يقول للجميع بالتاريخ أنها تجربة مشتركة لا يحق لطرف أن يحتكر فضاءها، كما لا يجوز لطرف أن يتنازل عن نصيبه فيها.

وينبه هيكل إلى أننا حين قبلنا فكرة صراع الحضارات أو حتى «حوار الحضارات» بالمنطق الذي قُدم لنا - فإننا سلمنا بالقسمة، أي أننا تنازلنا عن الشراكة من أول لحظة، ودخلنا في حوزة الآخرين وعلى جدول أعمالهم.

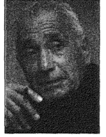
أمام مستمعيه الأكاديميين في «أكسفورد» يحرص هيكل أيضا على توضيح كيف تحول الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلى عملية تلاعب مقصود بالصور «إلى حد إعادة كتابة قصة الإرهاب في التاريخ، فإذا الشمال بريء منه، وإذا الشرق الأقصى بعيد عنه، وإذا الدين الإسلامي وحده مرادف للانتحار والقتل في المخيلة العامة الشائعة في الشمال».

ويستغرب أن رمزا دينيا له مقامه هو بابا الفاتيكان «بنديكتوس السادس عشر» وقف يتحدث عن الإسلام وعن الحضارة، فإذا هو يلحق «التمدن» بالشمال، والهمجية بالجنوب الإسلامي، ويقرر ولو بالتلميح أن الفارق بين العالمين «أن الغرب أخذ من المسيحية ثم من الفلسفة اليونانية ما يميزه عن غيره في إعلاء قيمة الإنسان».

وكان أمل كثيرين - يقول هيكل في ملاحظة قوية ولافتة - لو تذكر خليفة «بطرس الرسول» أن المسيحية كلها غيث نزل على الشرق وفاض على الغرب رسالة وحكمة - حواريين وقديسين - قصصا وتعاليم - صلوات وترانيم، كما أن السيد «المسيح» نفسه من مواليد «الناصرة»، والقديس «بطرس» - الذي يقوم الفاتيكان على رفاته من أبناء القدس - كلاهما من الشرق، وأن القديس «مرقس» الذي تقوم كنيسته بمعمارها المتميز على أجمل ميادين أوروبا «سان ماركو» مولود في أقاصي صعيد مصر، وذلك رغم أن كبار فناني النهضة جنحوا إلى تصوير هؤلاء الرسل والقديسين والحواريين معظم الوقت أصحاب بشرة بيضاء وعيون زرقاء وشعر ذهبي.

ماذا بعد؟

نستمتع بلا شك بأحاديث هيكل الدورية على «الجزيرة».. ولكننا معشر مدمني القراءة (وأنقل هنا من رسائل قراء لم يتوقف تدفقها على عنوان هذه المجلة) نفتقد قلمه ذا اللغة الرفيعة، والألفاظ الدقيقة المنتقاة، والعبارات التي «تطربك» - لا أبالغ - حبكتها.. وحنكتها.. منذ كان محمد ملص صبيًا يشبُ على أصابع قدميه ليقرأ «بصراحة» معلقةً على الحائط. وكانت «الأستاذة عطيات» تطلبُ من تلاميذها الصغار أن يلخصوا مقال الجمعة.



إيريك وتكينز

العروس جميلة ولكنها متزوجة برجل آخر

■ «إن العروس جميلة لكنها متزوجة برجل آخر». هكذا وصف حاخامان فلسطين ذات مرة.

أتت تعليقاتهما خلال رحلة إلى الأراضي المقدسة في عام ١٨٩٧ بعد المؤتمر الأول للمنظمة الصهيونية العالمية التي أنشئت بغرض تأسيس وطن للشعب اليهودي في فلسطين. إلا أن رسالة الحاخامين استقبلتها آذان صماء مثلما يعبر محمد حسنين هيكل عن الموقف، إذ لم يعترف العالم قط بالزوج «غير الملائم». هذا بالإضافة إلى ما يدعو إلى الرثاء: فلو أن العالم قد اعترف بحقوق الشعب الفلسطيني من البداية، ربما وفر على نفسه الصراع على أرض فلسطين، صراع كلف أرواحاً يتعذر على المرء تخيل أعدادها.

يقول هيكل أن الإخفاق في مراعاة الحقوق الفلسطينية شابه التعمد وأنه نبع من عزوف الصهاينة الأولين عن الاعتراف بالفلسطينيين باعتبارهم شعباً. يعزو هيكل هذا الجهل المقصود بالأساس إلى تيودور هرتسل، مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية. إذ ينهي هيكل إلى القارئ بأن هرتسل الصحفي المجري بات مقتنعاً، وهو يغطي حادثة دريفوس بفرنسا في العقد العاشر من القرن التاسع عشر، بأن الحل الوحيد لمعاداة السامية الأوروبية هو تأسيس دولة قومية يهودية. أقنع هرتسل نفسه، رغم الدلائل القوية المبرهنة على عكسه تصوراته، بأن فلسطين أرض بلا شعب مما يجعلها ملائمة بصورة مثالية لشعب بلا أرض. مات هرتسل عام ١٩٠٤ بيد أن إرثه واصل المسيرة. والواقع أن أعظم الإساءات التي وجهها هرتسل إلى العالم هي، كما يشدد هيكل، أكذوبة أن الفلسطينيين شعب لا وجود له أو شعب لا قيمة له.

> الواقع أن أعظم الإساءات التي وجهها هرتسل إلى العالم هي، كما يشدد هيكل، أكذوبة أن الفلسطينيين شعب لا وجود له أو شعب لا قيمة له

Secret Channels, the Inside Story of Arab - Israeli Peace Negotiations
قنوات سرية: القصة الداخلية لمفاوضات السلام العربية-الإسرائيلية
By Mohamed Hassanein Heikal
Harpercollins Pub Ltd 1996 572 pp. $19.99

Middle East, Aprill 1996



وكي يزود القارئ بفكرة عن الدمار الذي جلبه هذا الجهل، يورد هيكل بعض الإحصاءات المرعبة. إذ يذكر أن الشقاء الإنساني لا يمكن أن يبلغ القارئ على نحو دقيق في صورة أرقام، ومع ذلك فلا غنى عن الإحصاءات. وهنا يشير هيكل إلى أن حصيلة القتلى من الفلسطينيين بدءاً من عام ١٩٤٨ وحتى ١٩٩٣ بلغت ٢٦١٠٠٠، علاوة على ١٨٦٠٠٠ جريح و١٦١١٤٠ معاقاً. ووصل عدد اللاجئين المشردين في عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧ وذريتهم إلى ٤,٥ مليون نسمة بحلول مستهل العقد العاشر من القرن العشرين وفقاً لتقديرات الأمم المتحدة.

إلا أن المشكلة لم تنحصر ولا ريب في إطار الشعب الفلسطيني. يتوخى هيكل هنا الوضوح في حديثه عن الخسائر البشرية بالدول العربية. إذ يخبر القارئ بأن الحروب الأهلية في لبنان الناجمة عن تعقيدات الصراع العربي-الإسرائيلي أودت بأرواح ٩٠٠٠٠ نسمة إضافية و١١٥٠٠٠ جريح و٩٦٢٧ معاقاً و٨٧٥٠٠٠ لاجئ. وكذلك لم تكن الخسائر في مصر بالهينة. فقد انتهت خسائر مصر في غضون خمس حروب (١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧-١٩٧٠، ١٩٧٣) إلى ٣٩٠٠٠ قتيل و٧٣٠٠٠ جريح و٦١٠٠٠ معاق بينما تم ترحيل ١,٢ مليون فرد من منطقة قناة السويس مرتين (في ١٩٥٦ و١٩٦٧). أغلقت الحكومة المصرية قناة السويس فترتين طويلتين، وتصاعدت خسائر الدخل القومي علاوة على تكاليف الحرب وفقاً للرئيس المصري السادات إلى ٤٣ مليار دولار.

إن تلك الأرقام تشهد بدرجة الشعور الشعبي الذي أثارته القضية الفلسطينية بين العرب عموماً، كما تبين السبب الذي يحول كتاب هيكل قنوات سرية إلى ضرورة في حال سيتم إحراز السلام بالمنطقة في أي وقت من الأوقات. يؤكد هيكل أن تلك المشاعر الجياشة جعلت الاتصالات مع إسرائيل عصيبة وخطرة وسرية بالضرورة. وهنا يعدد هيكل الأسئلة الأولية التي تساور عقل أي زعيم عربي عندما تتاح فرصة للاتصال بالإسرائيليين: «ماذا لو تسربت أنباء الاتصال؟» و«كيف لي أن أحمي نفسي سياسياً؟»، ودفعت تلك المخاوف القادة العرب إلى طلب تأكيدات بتنازلات إسرائيلية قبل الدخول في المفاوضات.

وقد أثبتت مبررات مثل تلك المخاوف صحتها فيما يخص الطرفين، وخصوصاً باغتيال الرئيس المصري أنور السادات والملك عبد الله ملك الأردن ورئيس لبنان المنتخب بشير الجميل وإسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي.

وعليه فإن كتاب هيكل قنوات سرية: القصة الداخلية لمفاوضات السلام العربية-الإسرائيلية ليس مجرد محاولة لإعادة الشعب الفلسطيني إلى خريطة الضمير العالمي. فالكتاب يحاول أن يوضح لماذا تعد القضية الفلسطينية مهمة للعرب جميعاً، ولماذا خالجت الشكوك العرب في أي جهود رامية إلى تحقيق تسوية في المنطقة عن طريق المفاوضات. والحق أن الشكوك العربية واحدة من العقبات الجلية في طريق عملية السلام، وطبقاً لهيكل فإن لا سبيل إلى استيعاب تلك الشكوك بدون إدراك التأثير النفسي على العرب لوعود لم يف بها الغرب خلال الحرب العالمية الأولى فضلا عن كل الخيانات التالية.

ومن بين كل ما جاء به الغرب من وعود وخيانات، ربما لا يعتمل في صدور العرب غير تصريح بلفور. صدر تصريح بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٩ قبل أسابيع من استيلاء القوات البريطانية على القدس. وبينما وعد التصريح اليهود بوطن في فلسطين، زعم أيضاً بوضع إجراءات وقائية للسكان الأصليين.

ومع ذلك لم يمر وقت طويل على إصدار التصريح قبل أن يقر بلفور بنفسه بأن التصريح خدع الفلسطينيين خداعاً متعمداً. «فيما يتعلق بمسألة فلسطين، لم تعلن القوى أي بيانات بحقائق لم تكن مغلوطة باعتراف الجميع، ولا يوجد تصريح سياسي، على الأقل في الخطاب، لم يعتزموا دائماً انتهاكه». ومع الأخذ في الاعتبار مثل تلك الخلفية الغدارة، فلا عجب أن أضمر العرب كل تلك التحفظات العميقة حول التوصل إلى أي اتفاق يخص دولة يهودية في فلسطين. ■

شاؤول بخاش

الثورة.. ضد نفسها

يبلغ الكتاب أروعه حين ينقل إلينا الكاتب تفاصيل من تجاربه الشخصية - حواره مع الخميني أو لقاءه بطلبة الميليشيات في السفارة الأمريكية بطهران



Iran: The Untold Story
إيران: القصة المخفاة
By Mohamed Hassanein Heikal
Pantheon, 217 pp. $14.50

The New York Review of Books
Volume 29 · November , 1982

عندما هرب أبو الحسن بني صدر، أول رئيس لجمهورية إيران الإسلامية، ومسعود رجوي، زعيم منظمة ميليشيات «مجاهدي خلق» من إيران في يوليو ١٩٨١ ووصلا إلى باريس لكي يؤسسا المجلس الوطني للمقاومة وحكومة في المنفى، آمن الاثنان بأن سقوط آية الله الخميني وشيك. توقع رجوي عندها سقوط النظام في غضون أسابيع. واليوم، وبعد انقضاء ما يزيد على العام (نشر المقال في ١٩٨٢ - المحرر) لا يهيمن الخميني وحلفاؤه على البلاد فقط بل إنهم نجوا من سلسلة من الاضطرابات العنيفة.

قتل «مجاهدي خلق» وميليشيات تابعة لمنظمات أخرى المئات من أعضاء الحرس الثوري واللجان وضباط صغار ورجال دين منذ يونيه ١٩٨١. واغتالوا أيضاً زعماء دينيين وموظفين في الحكومة وأفراداً من الحزب الجمهوري الإسلامي الحاكم (آي. آر. بي.). وبالإضافة إلى آية الله محمد بهشتي، ذراع الخميني اليمني، تضمن القتلى رئيساً ورئيس وزراء والنائب العام الثوري وقائد البوليس الوطني وأربعة وزراء ونحو عشرين نائباً في البرلمان وستة وكلاء وزارة تنفيذيين. فقد أئمة صلوات الجمعة بأربع بلدات محلية أساسية - راشت وتبريز وشيراز ويزد - أرواحهم. وقد شكَل الأربعة جزءاً من سلسلة القيادة التي تطبق أوامر الخميني في أرجاء الأقاليم. تم القضاء على نصف فريق قيادة القوات المسلحة في سبتمبر من العام الماضي عندما خسر رئيس الأركان ووزير الدفاع واثنان من القادة أرواحهم في تحطم طائرة.

لم تتسبب أي من هذه الأحداث في انهيار النظام. فالنقص في الحاجات الأساسية وطوابير الطعام وزهاء مليونين من لاجئي الحرب والإحساس العام بسوء الحكم والفساد والتجنيد العسكري القسري واغتراب الطبقات التجارية والوسطى لم تؤد بعد إلى نوعية الإضرابات الجماهيرية والمظاهرات التي أسقطت الملكية في فبراير ١٩٧٩. بل إن النظام حقق نجاحاً من عدة جوانب.

طردت القوات الإيرانية القوات العراقية من المناطق الإيرانية هذا العام. وفي يوليو، في انقلاب درامي عبرت القوات الإيرانية الحدود وغزت العراق. وعلى الرغم من الوفرة في سوق النفط، تمكنت إيران من زيادة صادراتها النفطية. ورغم تناقص تلك الصادرات مرة ثانية مؤخراً نتيجة الغارات العراقية على ناقلات البترول بالموانئ الإيرانية، فقد نجت الحكومة حتى هذه اللحظة على الأقل من نقص حاد في العملة الأجنبية. ومن خلال استغلال الاختلافات القائمة بين الدول العربية واستخدام التجارة كباعث على الربح ومحاولة كسب تأييد الدول غير المنحازة، خرجت طهران إلى حد ما من عزلتها الدبلوماسية.

لا يضمر الصحفي المصري المعروف محمد حسنين هيكل شكوكاً حقيقية في المسار المقبل للثورة الإيرانية. ففي مقدمة النسخة الأمريكية لكتابه إيران: القصة المخفاة، يستدعي هيكل محادثة مع رجوي بعد أن استقر قائد الميليشيات في باريس. كان رجوي متأكداً أنه وبني صدر يمثلان خلافة النظام الإيراني. إلا أن وجهة نظر هيكل كانت كالتالي:

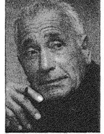
يظل الجيش القوة المنظَمة الوحيدة داخل إيران، ومن داخل القوات المسلحة من الممكن توقع بزوغ القادة الجدد.

ومثلما تنبأ هيكل، وبالأساس كنتيجة للحرب العراقية-الإيرانية، عاد الجيش بالفعل إلى البزوغ كمصدر محتمل للقوة السياسية. إذ أطاح بقادة جدد - كقائد القوات البرية الكولونيل صياد شيرازي - كانوا قد ترقوا في الرتب ودانوا بفضل تقدمهم إلى الثورة. يحاول الخميني الآن (المقال نشر ١٩٨٢) استخدام الجيش في توسيع ثورته الإسلامية إلى داخل العراق. ففي فترة ما بعد الخميني، لن يسيطر القادة العسكريون بالضرورة على إيران كما يتوقع هيكل، سيكون القادة العسكريون ولا ريب من ضمن المكافحين لنيل السلطة.

كتب هيكل مؤلفات موسعة حول الشأن العربي، كما ناقش من حين لآخر الأحوال الإيرانية. وعندما كان صحفيا شابا عمل مراسلاً لأزمة تأميم النفط ما بين ١٩٥١ و ١٩٥٣. زار إيران في عام ١٩٧٥ وأجرى حواراً مع الشاه ومسئولين آخرين رفيعي المستوى. كما أجرى حواراً مع الخميني في باريس قبيل عودة آية الله منتصراً إلى طهران. وبعد الثورة، رحبت طهران به بوصفه رفيقاً من رفقاء السلاح. منحه أفراد الميليشيات الذين اختطفوا الأمريكيين حواراً من حواراتهم النادرة. فيما وضع المسئولون ثقتهم في شخصه.

يعكس كتاب هيكل هذه العلاقة مع الشئون الإيرانية، وهي علاقة مثيرة ومتباينة.. لقد دمج هيكل معرفته المباشرة بإيران بروايات من التاريخ الإيراني الحديث والمذهب الشيعي والتدخل الأمريكي في إيران. ويبلغ الكتاب أروعه حين ينقل إلينا الكاتب تفاصيل من تجاربه الشخصية - حواره مع الخميني أو لقاءه بطلبة الميليشيات في السفارة الأمريكية بطهران.

وجرياً على عادته في إخراج وثائق «سرية» إلى النور، بمقدور هيكل التوصل إلى مواد غير معروفة على نطاق واسع - على سبيل المثال، الاتفاق المسمى باتفاق «نادي السفاري» الذي عقدته عام ١٩٧٢ إيران وفرنسا والمملكة العربية السعودية ومصر والمغرب بغرض التعاون في مجال المخابرات. ■



هيكل عُمر من الكتب

هـاوارد جيـه. دولـي

كيف بدا العالم .. من مصر!

■■ لم يكن الراحل جمال عبد الناصر، كمعاصره فى الموت، شارل ديجول، مجرد قائد سياسى؛ فقد كان ظاهرة سياسية كثيراً ماتبدو وكأنها تتحدى التحليل المنطقى. لم يزل «الريس» مثلما هو معروف عند المصريين يثير تخمينات الأصدقاء والأعداء والأكاديميين. بث فى النفوس مشاعر عميقة كما توضح ردود الأفعال على وفاته المبكرة، فقد عبده البعض وكرهه آخرون. بدا من منظور ما مكيافيللى الشرق الأوسط؛ وبدا من منظور آخر بطلاً خالصاً، أعظم أبطال العرب بأسرهم منذ الأسطورة صلاح الدين الأيوبى. مثالى، متآمر، محب للخير، منادٍ بالقومية، متزمت المواقف، مشوه للحقائق، مناصر للديمقراطية غير ديمقراطى، جندى محترف خسر معاركه - من كان هو؟ وماذا أراد؟

لقد أنتجت السنوات القليلة الأخيرة فيضاً من الكتب حاولت توضيح اللغز؛ وأفضل ثلاثة كتب هى كتاب مايلز كوبلاند لعبة الأمم وسيرتان سياسيتان صدرتا حديثاً بقلم أنتونى ناتينج وروبرت ستيفينز. إلا أن التعاطف مع عقلية مصرى، ومسلم، وشخص يصف نفسه بالعربى الثورى فضلاً عن فهمه مهمة صعبة كل الصعوبة بالنسبة لكاتب غربى. لذا لم ينتظر القراء كما انتظروا متلهفين سيرته بقلم صديقه والمؤتمن على أسراره محمد حسنين هيكل. أطلق على هيكل، رئيس تحرير جريدة الأهرام ومستشار الرئيس السادات - الذى يعد العدة الآن للمعركة - «أقوى صحفى فى العالم». عندما كان عبد الناصر على قيد الحياة، عُرف هيكل بأنه الناطق بلسانه، وبحق، صديقه الموثوق. وهكذا فقد كان كاتب السيرة الطبيعى لعبد الناصر، وبعد وفاة عبد الناصر، حين حاصره الناشرون، باع حقوق النشر العالمية للجريدة اللندنية المحافظة صانداى تيليجراف مقابل مبلغ لايستهان به أبدا وان كان يستحقه بلا شك.



إن كتاب هيكل وثائق القاهرة ليس سيرة بالمعنى التقليدى للكلمة وليس نسخة مصرية من «أوراق البنتاجون» على الرغم من عنوانه. فهو بالأحرى قصة علاقات عبد الناصر الشخصية بإحدى عشرة شخصية من الشخصيات المهيمنة على التاريخ الحديث. وباستخدام مراسلات عبد الناصر ورسائله الخطية ووثائق رسمية بالإضافة إلى ذكرياته وسجلاته، أخرج هيكل مزيجاً من مادة مبتكرة عن عبد الناصر وانطباعات صحفية تزود القارئ بثروة من النوادر عما يجرى هناك عند سدة الحكم إبان العقد السادس والسابع من القرن العشرين. إلا أن الكاتب المخلص لعبد الناصر أبقى نفسه فى الخلفية متجنباً الميل إلى النشر المنمق.

إن صورة عبد الناصر التى أبرزها قلم أكثر مستشاريه حميمية هى الصورة التقليدية: صورة رجل صاحب عادات خصوصية بسيطة لا تخلو من نموذجية، رجل أفرد حياته لإعادة شعب تعرض طويلاً للقهر إلى الحرية والقوة والكرامة. يمجد هيكل شخصية كتابه باعتباره بطلاً كالأسد، أسد قيدته وجرحته أحداث تعذر عليه السيطرة عليها. كما أنه يعرض - ربما بلا وعى منه - الجانب المظلم من شخصية عبد الناصر: الطبيعة المتمردة والكرامة الحساسة وعقلية ريفية تنظر إلى الانتقام نظرة التقديس مما جعل سياساته تتلون أحيانا بالتهور والطيش. يسجل هيكل أمراض عبد الناصر - السكر وتصلب الشرايين وحالة قلبية - ويعطينا مشهداً مؤثراً لساعة الاحتضار، لكنه لا يمنحنا إجابة على تقريع الزعيم الصينى شو إن لاى: «كان جمال عبد الناصر صغيراً، فالثانية والخمسين تعد سناً صغيرة. كان رئيس الدولة، وزعيم الدول العربية، لابد أن لديه أفضل وسائل العناية الطبية. كيف تتركونه يموت؟» (سدد شو إن لاى أصابع اللوم إلى الروس الخونة بطبعهم).

كان هيكل، من منظوره العليم المطلع إلى جانب «الريس»، قادراً على رؤية معارف عبد الناصر رؤية مباشرة. وبعين الصحفى المتمرس، يخط لهم بقلمه صوراً يرين عليها أحياناً الغموض: دالاس المعتقد أنه أقوم أخلاقاً من الجميع، إيدن المتعجرف المتكبر، خروشوف المغرور، همرشولد الغامض، كينيدى المحارب البارد، جونسون الفظ، تيتو «الملك الشيوعى»، نهرو خائب الأمل، شو إن لاى الداهية، إرهارت المضطرب، وذلك الرومانسى المقضى عليه بالهلاك تشى جيفارا. غير أن هيكل ترك شخصياته لتتحدث عن نفسها، بأن أظهر رسائل تقدم مفاتيح لا يستهان بها للنفاذ إلى سياسات مؤلفيها وشخصياتهم. إن رسالة خروشوف عام ١٩٥٩ التى وبخ فيها عبد الناصر لكونه جاحداً متهوراً مولعاً بالقتال أشبه بالحجر النفيس الحقيقى. وبنفس القدر من الكشف عن الحقائق، سيلفى القارئ مراسلات كينيدى الساذجة المُدعية حول كوبا ورسالة جونسون البليدة الحمقاء التى يبرر فيها مبيعات السلاح لإسرائيل.

سوف يجد جمهور القراء «الإفشاء» أعظم إغراء فى تلك المذكرات «الداخلية»، وهيكل هنا يقدم نصيباً



عام ١٩٥٨ تلقى عبد الناصر هدية عراقية عبارة عن علبة مبطنة تحوى إصبعاً محفوظاً لنورى السعيد (دفنه عبد الناصر دفناً محترماً فى أحد مدافن القاهرة)



The Cairo Documents, the Inside Story of Nasser and his Relationship with World Leaders, Rebels and Statesmen.
By Mohamed Heikal

وثائق القاهرة: عبد الناصر وزعماء وثوار وساسة العالم

Doubleday, 1973, 360pp.

The Review of Politics Vol. 35, April 1973

استبدت الصدمة والنفور بعبد الناصر من صور لندون جونسون الشهيرة وهو يُظهر ندبة على بطنه، ورأى عبد الناصر أنها دليل على «وقاحته وانعدام حساسيته»



واسعاً من الصدمات والمفاجآت. هناك على سبيل المثال الهدية الرهيبة التي تلقاها عبد الناصر من معجب عراقي بعد انقلاب ١٩٥٨: علبة مبطنة بالقطن والصوف تحوي إصبعاً محفوظاً لنوري السعيد (دفنه عبد الناصر دفناً محترماً في أحد مدافن القاهرة). أو تفكّر في رد فعل خروشوف على ترجمة خرقاء صدرت من مترجم غير كفء خلال أحد حواراته مع عبد الناصر: «لو كانت غلطة المترجم، فلا بد إذن أن يُعاقب... لا بد أن نحوله إلى قطعة صابون». وهناك المؤامرة المرعبة التي ائتمن شو إن لاي عبد الناصر عليها عام ١٩٦٥ عندما بدا أن عدد القوات الأمريكية يتعاظم في فيتنام. أسر شو إن لاي إلى عبد الناصر بأن بكين لا تريد أن ينسحب الأمريكيون بل تأمل على العكس أن تنشر الولايات المتحدة المزيد من القوات نظراً لأنها ستكون «سياسة تضمن عدم اندلاع هجوم (نووي) إذ سيصير لدينا الكثير من لحومهم بالقرب من أظافرنا». وبغرض إضعاف معنويات الجنود الأمريكيين يشير شو إن لاي إلى أن «بعضهم يجرب الأفيون. ونحن نمد إليهم يد المعونة. إذ نزرع أفضل أنواع الأفيون خصيصاً للجنود الأمريكيين في فيتنام». ختم شو كلامه بتوقع أن «يكون التأثير الذي سوف يحدثه إضعاف معنويات الأمريكيين أعظم بكثير مما يدركه أي شخص».

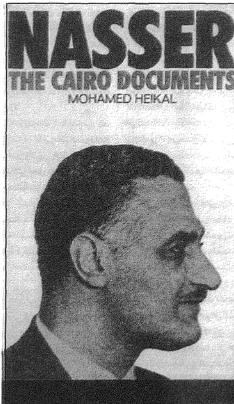
كذلك يكشف هيكل النقاب عن حوادث يداخلها شيء من الكوميدية. هناك مثلاً صورة تشي جيفارا خائب الأمل وهو يتفجع على صعود «طبقة جديدة» أنتجتها الثورة الكوبية: «لقد وجدنا رجلاً يمتلك سبعة عشر جهاز تليفزيون في مكتبه!» وهناك مشهد لا يصدق استضاف فيه الرئيس جونسون ستة سفراء عرب ثم شرح لكلبه سبب اضطرار إسرائيل إلى شن حرب يونيه ١٩٦٧. لكن لعل أشد الحكايات كوميدية في المجلد بأسره هي زيارة ابن إمام اليمن السابق، الأمير محمد البدر، للقاهرة. فقد حسب المصريون أنه قد يصبح زعيماً مؤيداً للناصرية حتى طلب في يوم من الأيام أن يزور حديقة الحيوان. وهناك التقطت عيناه شجرة قات لم يتعرف عليها أحد، فما كان منه إلا أن تسلق الشجرة ليتخذ مجلسه على أحد فروعها ويبدأ في مضغ القات بينما لم ينفك مضيفوه المصعوقون يرمقونه بنظراتهم.



تحتل علاقات عبد الناصر بالولايات المتحدة أحد المحاور الرئيسية في نص هيكل. يُقسم هيكل هذه العلاقات تقسيماً دراميًا إلى أربع مراحل تحت عنوان «الإغواء» (١٩٥٢-١٩٥٥) و«العقاب» (١٩٥٥-١٩٥٨) و«الاحتواء» (١٩٥٨-١٩٦٣)، وأخيراً «العنف» - إشارة إلى سنوات جونسون. اشتكى هيكل المرة بعد المرة من أن تعاملات واشنطون مع مصر اتسمت كثيراً بالخداع: إما تنافست وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية للحصول على قدر أكبر من النفوذ. أو تم إضعاف التعهدات الرئاسية من قبل وزارة الخارجية الأمريكية. غير أن كتاب هيكل وثائق القاهرة يعنى بالأساس بدور الشخصيات، ولا ريب أن تقييم عبد الناصر للرؤساء الأمريكيين عاون على تشكيل تاريخ عصرنا. ولا مجال للدهشة بالقطع حين نعلم أن جون فوستر دالاس - الذي وصف هنا بالمتعصب العنيد الحقود كرهه عبد الناصر - حتى أتى ليندون جونسون. وعلى الجانب الآخر، أكن عبد الناصر الاحترام للرئيس أيزنهاور كقائد عسكري ورجل سياسة، وقد خالجه الكثير من الامتنان له لمؤازرته أثناء أزمة السويس. ويكتب هيكل ليقول إن عبد الناصر كان في البداية معجباً بالرئيس كينيدي لكنه أضمر من البداية «مقتاً غريزياً» للرئيس جونسون. عندما كان عبد الناصر يهم بالتعامل مع أي رئيس، كان يدرس مجموعة من صوره في محاولة منه لتقييم شخصيته. استبدت الصدمة والنفور بعبد الناصر من صور جونسون بما فيها الصورة الشهيرة للندون جونسون وهو يُظهر ندبة على بطنه، صورة اعتقد عبد الناصر أنها دليل على «وقاحته وانعدام حساسيته».

استولى على عبد الناصر افتتان دائم بأزمة قناة السويس عام ١٩٥٦. كتب هيكل أن عبد الناصر «كان يقضي ساعات مع أشخاص بإمكانهم إطلاعه على أي شيء عنها، كما قرأ كل كتاب صدر حولها». يحكي هيكل أنه عندما كان إيدن يهم بنشر كتابه دائرة مكتملة، وجه عبد الناصر أوامر إلى المخابرات بضرورة الحصول على نسخة مقدماً بأي ثمن. وعليه دفع أحد عملاء المخابرات المصرية مبلغاً كبيراً لنيل نسخة أولية، إنجاز صعب وإن لم يكن له تلك الأهمية لأن الناشرين أرسلوا نسخة منه للرئيس بعد أسبوع. وهكذا تشغل أزمة السويس، من خلال فصول دالاس وإيدن، المحور الرئيسي لكتاب وثائق القاهرة. والحق أن ميزة مجلد هيكل الكبرى هي أنها أول وصف مصري موثوق لسلسلة أحداث أفضت إلى تأميم شركة القناة. وبينما روى هيكل أجزاء من القصة من قبل في سلسلة مقالات بجريدة الأهرام من عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٦٧، سوف يلفي القارئ هنا أخيراً نسخة كاملة لا يعوزها الترابط المنطقي والمعقولية من عبد الناصر نفسه لصفقة الأسلحة التشيكية ومفاوضات أسوان والاستيلاء على القناة. وعلى الرغم من أن دارسي الأزمة لن يجدوا الكثير من الجديد، الا أنه يبقى من الضروري أن يتعرفوا على رؤية هيكل الذي يشدد بقوة على أنها في جوهرها حالة صدام بين عبد الناصر وإيدن. كانت مواجهة بين اثنين يمثلان أسلوبين معادين في الحياة، مواجهة كانت شخصية وقومية في ذات الوقت، مواجهة انتهت إلى مأساة.

يشعرك كتاب هيكل وثائق القاهرة بالمتعة وسعة الاطلاع. بيد أن الكاتب يعترف بكل صراحة بأن تلك ليست القصة الكاملة لحكم عبد الناصر المثير للجدل مشيراً إلى أسباب تخص «الأمن القومي». لكنه يعد القراء بمعالجة الثغرات الخاصة بأصول حرب اليوم السادس في كتاب آخر. وفي التحليل الأخير لا بد إذن أن ننظر إلى كتاب هيكل، كما يقول إدوارد آر. إف. شيهان في مقدمته القيمة، على حقيقته: لوحة لعبد الناصر وعالمه بعيون مصرية، مروية بصوت عربي - لكن بتحفظ وليس بإفراط. ■



ملف خاص

هيكل عُمر من الكتب

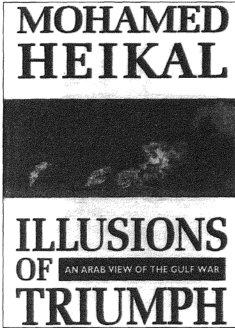
يرسل الأستاذ تنهيدة، حين يتذكر عمالقة الماضى: فباستطاعة جمال عبد الناصر رئيس مصر الراحل والملك السعودى الراحل فيصل السمو فوق الحدود

أوهام النصر*

يقدم هذا الكتاب وجهة نظر عربية لحرب الخليج. بأسلوبه المميز يشرح محمد حسنين هيكل الصحفى حسن الاطلاع، كيف أخفق القادة العرب إخفاقاً بائساً فى الحيلولة دون اندلاعها. فلو لدى أى شخص المعرفة الكافية والاستعداد للمجاهرة بما يقوله هؤلاء الملوك والشيوخ والرؤساء لبعضهم البعض فى جلسات مؤتمرات قمة عديمة الجدوى لا تعد ولا تحصى فهو هيكل، الصحفى المصرى الذى كان فى يوم من الأيام صديقاً لجمال عبد الناصر ولا يزال مصدراً مهما للكشف عن ثرثرة عربية تجرى على أعلى مستويات القيادة.

يؤكد الأستاذ هيكل أن عقد مؤتمرات القمة هو جزء من المشكلة. إذ استخدمها القادة العرب كبديل للسياسة الحقيقية وهى «مثلها مثل سيارة ترابانت، تنتج ضوضاء وهواء ساخناً لكن لا يند عنها إلا حركة بليدة أشد البلادة». كان من الممكن إنقاذ الموقف خلال الأشهر الثلاثة السابقة على غزو العراق للكويت فى أغسطس ١٩٩٠. فقد كانت العراق تبتز الكويت للحصول على الأموال؛ على حين كانت الكويت ترفض الحلول الوسطى. بينما وقف قادة الدول العربية يشاهدون مجريات الأحداث وكأنهم متفرجون ليس إلا.

يرسل الأستاذ تنهيدة، كما ينبغى له، حين يتذكر عمالقة الماضى: فباستطاعة جمال عبد الناصر رئيس مصر الراحل والملك السعودى الراحل فيصل السمو فوق الحدود. وهنا يوحى هيكل بأن خليفتيهما لا جدوى منهما، فهما يُحدثان جلبة لا داعى لها حول اهتماماتهما الخاصة. إن الملك حسين ملك الأردن - فيما أقدم عليه من مساع متفردة لم تنل الكثير من التقدير لإيجاد وسيلة لتفادى الحرب - هو أقرب مثال لصورة البطل فى نظر هيكل.



تتراوح مواقف الباقين ما بين الإفراط فى الحذر (وفقاً لدبلوماسيين غربيين فإن حل شفرة التعليقات السعودية أشبه بالإمساك بمرآة أمام سراب). والإغراق فى الخطابات الطنانة (قرر الرئيس الليبى معمر القذافى منذ مرحلة مبكرة أن واشنطون وبغداد متحالفان معاً فى السر). لقد أخطأت الحسابات العربية، قبل وبعد الغزو. إذ ظنت معظم الحكومات العربية أن العراق تحاول الحصول على مبتغاها بالتهديدات الفارغة. أما العراق فقد بخست من جانبها تقدير ما نجم عن الغزو من غضب.

فكر الرئيس المصرى محمد حسنى مبارك بالأساس فى إبقاء بلاده فى صف الرابحين - والتخلص، كما فعل، من ديون خارجية شلت اقتصاد دولته. غير أن المصريين كانوا يعلمون من خلال خبرتهم المباشرة أن قوة العراق مبالغ فيها. إذ كان الضباط المصريون يوجهون النصائح إلى الجيش العراقى حتى شهرين من بداية الغزو.

يخفف الأستاذ هيكل من وقع القصة الحزينة بدمج شرائح من التاريخ والتحليلات. وتكمن قوة سرده فيما يقص من نوادر. تناول أفراد الأسرة الملكية السعودية فى الليلة السابقة على الغزو ٥٠٠ كيلو من محار شحنته إليهم الطائرة من جزر أوركنى. مرق وزير الخارجية الكويتى خارجاً من أحد اجتماعاته مع وزير الخارجية العراقى فارتطم بباب زجاجى لتتلطخ عباءته بالدماء. تم إرسال طائرة معبأة بالجنود من جمهورية أفريقيا الوسطى إلى الحرب ظناً بأن أمريكا توزع المعونات لمن حاربوا «ونحن أيضاً نريد بعضاً منها».

ينهى الأستاذ إلى القراء كيف أوضح الاتحاد السوفيتى - وكان على وشك أن يصبح «الاتحاد السوفيتى السابق» - لأصدقائه السابقين فى العالم العربى أنه لا يمكنه فعل شىء من أجلهم: «لم نعد نلعب تلك اللعبة»، هكذا أبلغ ميخائيل جورباتشوف الرئيس السورى حافظ الأسد. لا عجب فى موقفهم، كما يوحى الأستاذ هيكل، مع الوضع فى الاعتبار جحود تلاميذ موسكو الذين اتجه ولاء أغلبهم إلى الولايات المتحدة بمجرد أن واتتهم الفرصة. وفى واحدة من قصص هيكل يروى كيف أخبر الاتحاد السوفيتى مصر ذات مرة بأن تقنع السعوديين بمنح الروس بعض الأموال على سبيل الشكر اللطيف. حسناً، هكذا أتى الرد - حين اتضح أن طريقة المملكة العربية السعودية فى توجيه الشكر ما هى إلا تشييد ٥٠٠ مسجد فى جمهوريات آسيا الوسطى. ■

Illusions of Triumph: An Arab View of the Gulf War.

أوهام النصر: وجهة نظر عربية لحرب الخليج

By Mohamed Hassanein Heikal

* The Economist (US)
May 9, 1992



لا أعرف أهو تحيز رجل لما ألف وعرف، أو أنه حكم في الموضوع، بصرف النظر عن متغيرات العصور.

لكنى على شبه اقتناع بأن الكتاب المطبوع على ورق له العمر الطويل، وأنه الحاضر على الدوام، مهما اشتد من حوله الزحام.

بمعنى أن الكلمة المكتوبة على الورق باقية، والكلمة المسموعة على الإذاعة والتليفزيون عابرة، والكلمة المكهربة على الكمبيوتر فوارة وهى مثل كل فوران متلاشية.

أى أن الكلمة المكتوبة على الورق بناء صلب: حجر أو معدن، وهكذا كل بناء، وأما غيرها فهو صيحة متغيرة - خاطفة، ولامعة، وبارقة.

وبالنسبة لكاتب - على الورق وبالحبر - فإن كتابته هى بناء عمره، وهكذا فإن هذه المجموعة فى نهاية المطاف: عمر من الكتب!

محمد حسنين هيكل



إيران فوق بركان

مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٥١

هذا هو أول كتاب أصدره هيكل فى حياته، وهو حصيلة رحلة قام بها إلى إيران حين كان يعمل مراسلاً متجولاً لمؤسسة أخبار اليوم، وفيه يكشف عن علاقات القوى فى إيران، متنبئًا بما صارت إليه الأحوال بعد ذلك بسنوات قلائل.

■ ■ ■

العقد النفسية التى تحكم الشرق الأوسط

الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٨، ١٦٦ صفحة

مجموعة من الصور القلمية كتبها هيكل عن الأحداث السياسية فى منطقة الشرق الأوسط كما رآها فى مطلع عام ١٩٥٨، وهو يحاول على طريقة المحلل النفسى أن يشخص أمراض المنطقة والهواجس التى تتحكم فى زعاماتها، يكتب عن لبنان أو عقدة الذنب، جون فوستر دالاس أو مجموعة عقد فى رجل الولايات المتحدة الأمريكية أو مجموعة عقد فى سياسة دولة، عزلة مصر أو جمعية ضحايا دالاس فى الشرق الأوسط، عقد الاضطهاد أو هرقل والعروش الهاشمية، عقدة أوديب أو بريطانيا التى كانت عظمى، عقدة الخوف أو دور روسيا فى هذا العقد.

■ ■ ■

أزمة المثقفين

الشركة العربية المتحدة، ١٩٦١، ١٦٢ صفحة

شغل الرأى العام فى مصر بمناقشة امتدت ثلاثة شهور ما بين مايو ويوليو سنة ١٩٦١، وتنوعت الآراء إلى حد التضاد والتناقض، وامتدت المناقشة على مساحات صفحات فى جريدة الأهرام، وبزغت على السطح سجالات عن أهل الثقة وأهل الخبرة، ودور المثقفين فى التغيير فى هذه المرحلة الانعطافية من تاريخ مصر، ولم يشأ هيكل أن يتناول فى مداخلاته أزمة المثقفين بمعزل عن قضايا مصر الداخلية، وهكذا جاء حديثه عن أزمة المثقفين متشابكاً مع أزمة الوطن ومشكلاته.

■ ■ ■

ما الذى جرى فى سوريا؟

الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٢، ١٩٨ صفحة

تمثل هذه المقالات تفاعلاً تلقائياً مع المشهد العنيف الذى شهدته دمشق فجر ٢٨ سبتمبر ١٩٦١.

يقدم هيكل هنا رؤيته كصحافى عاصر التطورات فى تجربة الوحدة المصرية السورية عن قرب، وأبدى فيها آراء تحتمل الصواب والخطأ، ولهذا تأتى روايته لما جرى رؤية مراقب ومتابع يقدم شهادته للتاريخ لتجربة الوحدة والانفصال.

■ ■ ■

خبايا السويس

دار العصر الحديث، ١٥٨ صفحة

تعليق على دراسة كتبها المؤرخ البريطانى الشهير هيوتوماس بتكليف من جريدة «الصنداى تيمز»، وقد نشرت الدراسة بالعربية فى مصر بعد ذلك باتفاق بين الأستاذ هيكل ورئيس تحرير الصنداى تيمز آنذاك دنيس هاملتون، وحينما صارت متاحة لقراء العربية كتب عليها هيكل تعليقاته.

ودراسة توماس تجلو كثيرًا من خبايا أزمة السويس التى أحاطت بها كثيراً من المشاعر المكبوتة والقابلة للانفجار - آنذاك - فى العاصمة البريطانية لندن.

■ ■ ■

الاستعمار لعبته.. الملك

دار العصر الحديث، ٢٦٣ صفحة

موضوع الكتاب هو المعركة الجديدة فى الحرب الممتدة بين القوى الثورية الوطنية والاجتماعية لحركة القومية العربية من ناحية، وبين حلف الاستعمار والرجعية من ناحية أخرى، ومحاولات القوى الرجعية التدثر بأردية عدة لتبرير أفعالها، وبينها الإسلام على سبيل المثال.

■ ■ ■

نحن وأمريكا

دار العصر الحديث، ١٩٦٧، ١٩٠ صفحة

هذا الكتاب بعض من قصة العلاقات المصرية الأمريكية خصوصاً فى مرحلة ما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، فعبر ثلاثة عشر فصلاً يحكى هيكل قصة العلاقات المصرية الأمريكية التى مرت بأربع مراحل أساسية:

١ - محاولة الولايات المتحدة ترويض الثورة المصرية.

٢ - محاولة الولايات المتحدة عقاب الثورة المصرية بعد أن تمردت على الترويض.

٣ - محاولة الولايات المتحدة احتواء الثورة المصرية وحصارها.

٤ - محاولة الولايات المتحدة استخدام العنف ضد الثورة المصرية.

■ ■ ■

عبد الناصر والعالم

بيروت: دار النهار، ١٩٧٢، ٤٧٥ صفحة

بين اختيارات متعددة، اختار هيكل أن يكتب عن عبدالناصر وعمالقة عصره، وقد نشر الكتاب أولاً بالإنجليزية ثم ترجمه بالعربية، ومن بين عمالقة عصر عبدالناصر الذين يربط هيكل بينهم وبينه - أى عبدالناصر - دالاس وايدن وخروشوف وكيندى وجونسون وتيتو ونهرو وشواين لاى وجيفارا.

■ ■ ■

أحاديث فى آسيا

بيروت: دار المعارف، ١٩٧٣، ٤٢٠ صفحة

مجموعة من الحوارات أجريت فى بداية عام ١٩٧٣ مع مجموعة من القادة والزعماء الآسيويين فى وقت كانت أحداث هذه القارة تشغل الصفحات الأولى من صحف العالم.

وحوارات مع الزعيم شواين لاى رئيس وزراء الصين، وتاناكا رئيس وزراء اليابان، والشيخ مجيب الرحمن رئيس وزراء الهند، وذو الفقار على بوتو رئيس جمهورية باكستان، والأمير سيهانوك الذى كان يقود كفاح شعبه من منفاه بالصين، والسيدة أنديرا غاندى رئيسة وزراء الصين، وعشرات غيرهم من وزراء الخارجية والدفاع والتخطيط وقادة الجيوش وأساتذة الجامعات والصحفيين، مما يقدم صورة كاملة عن الأوضاع فى آسيا فى تلك السنوات المهمة.

■ ■ ■

الطريق إلى رمضان

بيروت: دار النهار، ١٩٧٥

صدرت الطبعة الأمريكية لهذا الكتاب قبل العربية بسنوات، وفيه يروى

هيكل قصة حرب أكتوبر ١٩٧٣، بادئًا من سنوات مهدت لها وبشرت بـانـدلاع شرارتها، وعبر لقاءات مع قادة وزعماء عرب، يكشف عن أدوار لعبوها لإعداد مسرح العمليات، وكيف كان دور القوى العظمى فى هذا الصراع.

■ ■ ■

لمصر لا لعبد الناصر

مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٧، ١٦٦ صفحة

شهد منتصف السبعينيات ولشهور طويلة حملة هجوم ظالمة ضد شخص الرئيس عبدالناصر وما كان يمثله من سياسات ومثلت أحاديث هيكل تلك، والتى نشرت بالعربية أولاً خارج مصر، رداً على هذه الحملة الظالمة، يقول هيكل فى مقدمة الطبعة العربية: «لم يكن هدفى أن أرد أو أدافع أو أسجل للتاريخ، فذلك كله لم يجئ أوانه بعد، وإنما كان هدفى أن يعرف الشعب فى مصر، وتعرف شعوب الأمة العربية، أن الحقيقة ليست ما يدعى به اليوم فيما يقال أو ينشر فى القاهرة.

■ ■ ■

قصة السويس

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٧٧، ٣٠٤ صفحات

كتب هيكل هذا الكتاب فى مناسبة مرور عشرين سنة على حرب السويس التى جرت يومياتها من يوليو إلى ديسمبر ١٩٥٦، وبعد انتهاء هذه الحرب التى يعد هيكل الانتصار فيها هو أكمل انتصار فى تاريخ العرب الحديث، حيث كانت قناة السويس وصحراء سيناء وقطاع غزة فى يد مصر، وبرأيه أيضاً فقد كانت حرب السويس تجربة هائلة من تجارب العمل القومى والعربى وقدرته.

■ ■ ■

الحل والحرب

القاهرة: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٧٧، ٢٢٢ صفحة

مجموعة من المقالات كتبها هيكل فى الفترة من بدايات ٧٦، وبدايات ٧٧، وهى تنقسم إلى أربع مجموعات: الأولى مقالات تحت عنوان «إلى أين من هنا؟»، والثانية مقالتان عن الرئيس الأمريكى









الأسبق جيمى كارتر تحت عنوان «كارتر وأولياته»، ثم «كارتر وأزمة الشرق الأوسط»، والثالثة ٦ مقالات تحت عنوان «عالم بغير هنرى كيسنجر» وقت أن كان وزير الخارجية الأمريكى الأشهر يستعد لمغادرة موقعه، والرابعة مجموعة من ٦ مقالات عن الموقف التفاوضى العربى، وقد كتبت فى فبراير ٧٧، فى وقت اشتد فيه الجدل حول مؤتمر جنيف.

■ ■ ■

حديث المبادرة

شركة المطبوعات للتوزيع، ط ٨ ، ١٩٨٧، ٢٨٧ صفحة

يضم الكتاب مجموعة وجهات النظر التى أسهم بها الكاتب فى الحوار العام الذى احتدم حول زيارة الرئيس السادات لإسرائيل فى نوفمبر ١٩٧٧، وبينها هذه العناوين: العرب بين القبول والرفض والصمت، أمريكا بين غير المقبول وغير المحتمل، الاتحاد السوفيتى أفكاره ومشاعره، بن جوريون: ليس هناك حل.. الأرض واحدة وطالب الأرض اثنان، مناحم بيجن: إسرائيل وأرض إسرائيل شىء واحد.

■ ■ ■

حكاية العرب والسوفييت

شركة الخليج للنشر، ١٩٧٨

أسباب مختلفة، لعب السوفييت دوراً مهماً فى منطقة الشرق الأوسط، وارتبطوا بسياساتها لعقدين تقريباً، وبحكم عمله، وبعمق صلاته وصداقاته على الجانبين، يروى هيكل قصة هذه العلاقة بين العرب والسوفييت، وخصوصاً مصر والسوفييت، فى أفضل المراحل وأسوئها.

■ ■ ■

وقائع تحقيق سياسى أمام المدعى الاشتراكى

بيروت: شركة المطبوعات، ط ٧ ، ١٩٨٥، ٣٢٠ صفحة

فى صيف ١٩٧٨، استدعى المدعى الاشتراكى فى مصر هيكل لتحقيق طويل استغرق ثلاثة شهور كاملة هى يونيو ويوليو وأغسطس، وكانت التهمة هى أن هيكل كتب خارج مصر وأساء إلى سمعتها، وقد سحب جواز سفره ومنع من مغادرة البلاد لحين انتهاء التحقيق حتى أبلغ رسمياً بأن قرار المنع من السفر لم يعد له وجود.

هذا الكتاب يحكى وقائع وملابسات هذا التحقيق.

■ ■ ■

السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة

شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ط ٥، ١٩٨٦ ، ٣٣٥ صفحة

مقالات تأخذ شكل الرسائل إلى صديق ما هناك، هذه الـ «هناك» نقطة على خط طويل يمتد بين محيط وخليج، والرسائل تبحث فيما آل إليه حال الخليج الثائر وما جرى للمحيط الهادر، والرسائل تنظم فى جزءين: أولهما عن السلام المستحيل بين العرب وإسرائيل، ثانيهما عن الديمقراطية الضائعة، وتحت هذين العنوانين الكبيرين مقالات عديدة تبحث فى حال الأمة وأزمتها.

■ ■ ■

آفاق الثمانينيات

شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ١٩٨١، ١١٢ صفحة

كتبت هذه المقالات فى خريف ١٩٧٩، ونشرت فى نهاية السنة نفسها وفى الأسابيع الأولى من الثمانينيات، وهى حصاد رحلة إلى أوروبا شمالاً وجنوباً، ثم إلى أمريكا شرقًا وغربًا، والمفارقة أن هيكل ذهب إلى هناك كى يكتب، مستعيناً بالوثائق والمستندات، عن الشرق وقضاياه، مستشرفًا آفاق عقد قادم، متفائلاً بجيل عربى جديد قادر على الوثوب فوق أسباب عديدة تدعو للتشاؤم، لفت جيلاً انتصر، لكنه تصرف كأنه مهزوم.

■ ■ ■

مدافع آية الله

دار الشروق، ١٩٨٢ ، ٢٧٣ صفحة

نشر الكتاب فى الأصل باللغة الإنجليزية قبل أن يترجم إلى العربية بعدها بسنوات قلائل.

وقد نشر هيكل كتابه الأول «إيران فوق بركان» عام ١٩٥١، وظل يتابع الأحداث فى إيران باهتمام طيلة ثلاثين

عاماً تقريباً حتى أصدر كتابه هذا الذى يروى قصة الثورة الإسلامية فى إيران: مقدماتها ومجرياتها وانعطافاتها المهمة، عبر حوارات مطولة مع كافة الأطراف، من الإمام الخمينى نفسه إلى معارضيه إلى أركان نظامه، وحتى هؤلاء الطلبة الذين احتلوا السفارة الأمريكية، فى تحد دال لأقوى دولة فى العالم.

■ ■ ■

عند مفترق الطرق
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٣، ٤٠٨ صفحات

كانت هذه المقالات هى مفترق الطرق بين الرئيس الراحل أنور السادات وهيكل، بعد سنوات قلائل كان خلالها من أقرب المقربين له، وهى تمثل المقالات الأخيرة التى نشرت لهيكل فى الأهرام فى الفترة من ٥ أكتوبر - أى قبل الحرب بيوم واحد - وحتى أول فبراير ١٩٧٣، وبعدها صار مبعداً عن السلطة ومقصى عنها.
تروى هذه المقالات قصة الخلاف وترسم حدوده، وتشير إلى دوافعه، وهى قصة تستحق أن تروى وتستأهل الإنصات.

■ ■ ■

خريف الغضب
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط ١١، ١٩٨٥، ٥٧١ صفحة

يروى هذا الكتاب قصة بداية ونهاية عصر السادات، بدءاً من دوره داخل تنظيم الضباط الأحرار، وانتهاء بحادث المنصة الشهير الذى أودى بحياته فى عيد احتفاله بالنصر، وبالزى العسكرى الذى كان يروق له أن يرتديه فى هذه المناسبة.

■ ■ ■

بين الصحافة والسياسة
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٥

كتب هيكل هذه الصفحات عام ١٩٨٤، وفيها يروى قصته مع الصحافة، كيف دخل إلى هذا العالم، وكيف ارتقى فيه إلى الذروة منذ شبابه المبكر، كيف التقى بعبدالناصر واقترب منه كصحفى ثم كصديق حتى نهاية حياته، وأين كانت النقلات وكيف، فى حياته المهنية والسياسية معاً، سيرة ذاتية تتوقف عند تاريخ بعينه، لكنها ترسم حياة حافلة بالكفاح والجهد والعطاء.

■ ■ ■

زيارة جديدة للتاريخ
ط ٢، ١٩٨٥، ٤٤٩ صفحة

سبع شخصيات اختار هيكل أن يعاود معها زيارته للتاريخ، وقد جاء اختياره لهم لارتباط أدوارهم التاريخية بعدد من القضايا الكبيرة التى شغلته وقت كتابة صفحات الكتاب بينها قضايا الديمقراطية والحرب والسلام واحتمالات الحرب النووية، يتضمن الكتاب حوارات مع ملك إسبانيا خوان كارلوس، الزعيم السوفيتى أندروبوف، والقائد الإنجليزى الذى انتصر فى العلمين مونتجمرى، والعالم الفيزيائى الشهير أينشتين، والزعيم الهندى جواهر لآل نهرو، والإمبراطور الإيرانى محمد رضا والمليونير الأشهر دافيد روكفلر.

■ ■ ■

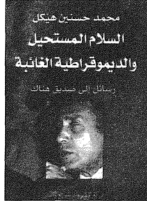
أحاديث فى العاصفة
دار الشروق، ١٩٨٧، ٦٩١ صفحة

مجموعة من الأحاديث الصحافية التى أجرتها صحف عربية وأجنبية مع هيكل ونشرت خارج مصر، فى وقت لم يكن مسموحاً له أن ينشر عنه داخلها، وتناولت الحوارات على اختلاف المنابر التى نشرت بها قضايا شائكة ومهمة بينها: أصل خلافى مع السادات، أين مصلحة مصر، عمق حادث المنصة، لماذا اختار عبدالناصر السادات نائباً له، قصة طرد الخبراء السوفييت من مصر، السياسة خذلت السلاح فى حرب أكتوبر، قصة عرفات مع عبدالناصر والسادات، لا أراهن على تسوية شاملة للقضية الفلسطينية.

■ ■ ■

سنوات الغليان
الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٨، ٩٥١ صفحة

هذا هو الجزء الثانى من مجموعة حرب الثلاثين سنة بعد ملفات السويس، وفيه يتعرض هيكل لمعركة سيناء ١٩٦٧، ولكن فى هذا الجزء الأول من الكتاب (قبل الانفجار) يعرض هيكل للمقدمات، أى يمد الجسور إلى ساحة المعركة قبل









حرب الأيام الستة فى يونيو ١٩٦٧، كيف صارت الأمور فى البيئة الإقليمية العربية، كيف صارت فى مصر، كيف تفاعل الطرفان مع محيطهما ليقودا فى نهاية المطاف إلى حرب الأيام الستة (الانفجار).

■ ■ ■

حرب الثلاثين سنة (١٩٦٧ الانفجار)
مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٠، ١٠٨٩ صفحة

الجزء الثالث من مجموعة حرب الثلاثين سنة، سبقه جزءان هما: ملفات السويس، و«سنوات الغليان»، وهذا الجزء ينصب على المرحلة الدقيقة والحساسة من معركة سنة ٦٧، وبحسب الأستاذ هيكل فإن هذا الجزء هو أصعب فصول القصة وأشدها تعقيداً، وهى أكثرها استحقاقاً واستدعاء لتنشيط الذاكرة، «فهذه بالضبط لحظة الخبطة على الرأس».

■ ■ ■

الزلزال السوفيتى
دار الشروق، ١٩٩٠، ١٢٧ صفحة

مجموعة من التقارير عن زيارة قام بها هيكل إلى الاتحاد السوفيتى فى لحظة فارقة من حياته، وأثناء عملية تاريخية هائلة، امتدت آثارها إلى أوروبا الشرقية فالغربية ثم العالم كله.
وما يؤكد عليه هيكل هنا هو أن هذه المشاهد التى بدت «خرافية» لم تهبط من السماء فجأة، فالتحولات الكبرى فى التاريخ لا تحدث بأسلوب الانقضاض من الهواء على غير انتظار، وإنما تحدث بقوانين التطور ذاتها.
إن ما يجرى الآن فى الاتحاد السوفيتى - بحسب ما كتب هيكل وقتها - هو قصة لازالت فى بداياتها، وفى الغالب فإن بداية أى قصة تختلف عن نهايتها.

■ ■ ■

أكتوبر ١٩٧٣ ... السلاح والسياسة
مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٣، ٨٨٣ صفحة

هذا هو الجزء الرابع من مجموعة حرب الثلاثين سنة، فهو يركز على معركة أكتوبر، ويعتبرها عملاً عسكرياً باهراً لكنه يميز بين الحرب والقتال، فالحرب

عُمـر من الكتب

صراع سياسى بكل وسائل القوة، فى حين أن القتال مرحلة معينة من الحرب يكون فيها الاحتكام إلى السلاح، وهيكل هنا شاهد يطرح أدلته وبراهينه، فقد كان قريباً من السادات فى معركة أكتوبر ٧٣ كما كان قريباً من قبل من عبدالناصر فى معركتى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .

■ ■ ■

اتفاق غزة أريحا أولاً: السلام المحاصر بين حقائق اللحظة وحقائق التاريخ

معهد الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٤ ، ٤٠ صفحة

قراءة فى اتفاقية غزة أريحا، وفى الظروف والأسباب الموضوعية التى قادت إليها، يعتقد هيكل أن الصراع العربى الإسرائيلى هنا يمر بما يسميه «المرحلة الإسرائيلية»، إلا أن حقائق الجغرافيا والتاريخ سوف تعود لتفرض نفسها من جديد.

■ ■ ■

مصر والقرن الواحد والعشرون

دار الشروق، ١٩٩٤ ، ٥٥ صفحة

ورقة بحثية ساهم بها هيكل فى المؤتمر الثلاثين لجماعة خريجى المعهد القومى للإدارة العليا الذى عقد بالإسكندرية فى أكتوبر ١٩٩٤ .

■ ■ ■

أزمة العرب ومستقبلهم

دار الشروق، ١٩٩٥ ، ٦٣ صفحة

محاضرة ألقاها هيكل فى باريس يوم ٧ ديسمبر سنة ٩٥ بقاعة المؤتمرات بمتحف جيميه. وبقدر ما تنطوى عليه المحاضرة من تحليل ورصد دقيق للواقع العربى وأزمته على محيطه العالمى، بقدر ما ترفض الاستسلام لأصحاب مقولات الواقعية السياسية الداعية إلى الرضوخ الكامل، بحجة عدم القدرة على المقاومة.

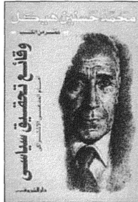
■ ■ ■

١٩٩٥ باب مصر إلى القرن الواحد والعشرين

دار الشروق، ١٩٩٥ ، ٤٠ صفحة

محاضرة ألقاها هيكل على رواد









معرض القاهرة الدولى للكتاب فى يناير ١٩٩٥، وطرح فيها تصوره عن أن سنة ١٩٩٥ ستكون سنة فارقة، بل هى مدخل مصر إلى القرن الواحد والعشرين.

■ ■ ■

المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل (الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية) الكتاب الأول

دار الشروق: ١٩٩٦ ، ٣١٠ صفحات

هذا الكتاب محاولة واسعة للرد على سؤال من بين الأسئلة التى أحاطت بالصراع العربى الإسرائيلى منذ بداياته، والسؤال هو: لماذا كانت الحرب قريبة وظل السلام بعيداً طوال قربه من الأمان؟ ولماذا جاء السلام فى هذه الظروف وبهذا الشكل وبهذه الوسائل؟ ولماذا كان يجب أن تكون المحاولات من أجل السلام فى الخفاء، وفى هذا الجزء بالذات، ومحاولة لقراءة تاريخ الاتصالات بين العرب وإسرائيل من قبل إنشاء الدولة اليهودية وأثناء الإعداد لنشأتها وبعده بقليل.

■ ■ ■

المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ـ عواصف الحرب وعواصف السلام (الكتاب الثانى)

دار الشروق: ١٩٩٦ ، ٤٦٢ صفحة

فى هذا الجزء يتابع هيكل الحوادث، بعدما توقف الجزء الأول عند تصوير الخلفية التى قام عليها الصراع العربى الإسرائيلى بما فى ذلك محاولات الاتصال والتفاوض.

هذا الجزء يسعى للإجابة عن سؤالين مهمين:

لماذا لم يفاوض جمال عبدالناصر؟

كيف فاوض أنور السادات؟

■ ■ ■

المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل

أوسلو ـ ما قبلها وما بعدها (الكتاب الثالث)

دار الشروق: ١٩٩٦ ، ٤٦٥ صفحة

هذا الجزء يركز بالدرجة الأولى على الدور الذى قام به الفلسطينيون فى التفاوض بأنفسهم ولأنفسهم، وهو يمسك بخيوط الدور الفلسطينى من أوله إلى آخره عبر محطات تتباعد المسافات بينها على خريطة العالم: القاهرة، عمان، بيروت، طهران، جنيف، ستكهولم، أوسلو، واشنطن وغزة.. وهى تسعى إلى الإجابة عن أسئلة أخرى من نوع آخر: كيف وقع التغيير؟ ومتى وقع؟ ولماذا وقع، ومن الذى تغير؟ ثم ما الذى تغير؟ والأهم: ما الذى بقى؟

■ ■ ■

المقالات اليابانية

دار الشروق: ١٩٩٧ ، ٢٢٥ صفحة

مجموعة من المقالات نشرها هيكل فى جريدة «يوميورى شيمبون» اليابانية ضمن باب ثابت يحمل عنوان «نظرات على العالم»، تناول فيه موضوعات وقضايا ساخنة شغلت العالم فى حينها.

■ ■ ■

العروش والجيوش.. كذلك انفجر الصراع فى فلسطين (الجزء الأول)

دار الشروق: ١٩٩٨ ، ٤٥٨ صفحة

يمثل هذا الكتاب بما يضمه من وثائق يوميات الحرب، شهادة تاريخية عن تلك الأيام التى شهدت قيام الدولة اليهودية على أرض فلسطين فى مايو ١٩٤٨، وقد عاش هيكل تجربتها شاباً مراسلاً متجولاً لجريدة أخبار اليوم فى مناطق ملتهبة من العالم بينها فلسطين التى عاش يوميات الحرب فيها وكتب عنها مجموعة تحقيقات بعنوان «النار فوق الأرض المقدسة».

يضم هذا الجزء رسائل ويوميات الحرب حتى أكتوبر ١٩٤٨ وثلاث شهادات وثائقية للحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين وعبدالرحمن عزام أول أمين عام لجامعة الدول العربية، واللواء أحمد محمد المواوى القائد العام للقوات المصرية فى فلسطين.

■ ■ ■

الخليج العربى مكشوف

دار الشروق ١٩٩٨ ، ٣٨ صفحة

نص محاضرة ألقاها هيكل فى بيروت حتى السابع والعشرين من شهر يونيو ١٩٩٨ بدعوة من نقابة المحامين فى لبنان.

■ ■ ■

حرب من نوع جديد

دار الشروق: ١٩٩٩ ، ٥١ صفحة

محاضرة ألقاها هيكل فى مناسبة تكريم لجنة «جائزة جمال عبدالناصر» له ومنحه جائزتها التقديرية فى دورتها الأولى ١٩٩٩ .

■ ■ ■

العروش والجيوش.. أزمة العروش.. صدمة الجيوش

دار الشروق: ٢٠٠٠ ، ٥٦٢ صفحة

ينتهى الجزء الأول من العروش والجيوش عند إشارة أخيرة وردت فى ١٨ أكتوبر ١٩٤٨، تسجل بلاغا عن غارات قامت بها الطائرات العسكرية الإسرائيلية على القصور الملكية فى القاهرة، وهنا - بحسب ما يشير الأستاذ هيكل - يختلف الجزء الثانى عن الأول، فقد أصبحت مصر، هى النقطة الحرجة فى هذا الصراع وليس فلسطين، وهو ما تثبته يوميات الحرب كما يوردها هيكل فى نهاية ديسمبر ١٩٤٨ .

■ ■ ■

قضايا ورجال: وجهات نظر مع بداية القرن الواحد والعشرين

المصرية للنشر العربى والدولى: ٢٠٠٠، ٤٥١ صفحة

فصول الكتاب مقالات كتبها هيكل طوال سنة ١٩٩٩ وأوائل سنة ٢٠٠٠ عن قضايا ورجال، بطريقة مبتكرة جديدة على الصحافة العربية وهى طريقة المقال المستطرد المسترسل، والذى يقع فى منطقة بين سرعة إيقاع المقال وسعة إحاطة الكتاب.

يكتب هيكل عنا عن كلينتون وبطرس غالى والملك الحسن والملك حسين والقذافى، كما يكتب عن بقايا يوغوسلافيا وعن مفاوضات سوريا وإسرائيل.

■ ■ ■

نهاية طرق: العربى التائه

المصرية للنشر العربى والدولى، ٢٠٠١، ٢٩٠ صفحة

فى قرن سبق، وجد اليهودى التائه لنفسه مكانًا حط فيه رحله وحصّن موقعه، فيما اختلطت على العربى الأمور وبدا كأنه ضيّع عالمه وفيه تراثه ومستقبله، وارتحل بحاضره تائهًا بين الحقيقة والوهم.

وبدأ القرن الحادى والعشرون، واليهودى الذى كان تائهًا صار متحصنًا فى المشروع الصهيونى على أرض فلسطين، فى حين أن العربى الذى كان راسخًا فى الطبيعة والتاريخ، أصبح هو الشارد فى التيه؛ وقد يعرف من أين، لكنه لا يعرف إلى أين؟

■ ■ ■

الزمن الأمريكى.. من نيويورك إلى كابول

المصرية للنشر العربى والدولى: ٢٠٠٢، ٣٠٢ صفحة

فصول هذا الكتاب عن الزمن الأمريكى، بمعنى نشأة الولايات المتحدة الأمريكية وصعودها الاقتصادى الباهر أواخر القرن التاسع عشر ثم عبورها إلى المحيط عائدة إلى العالم القديم، تفرض على الدنيا زمانها وفيه تقدمها وقوتها وهيمنتها.

وهكذا صار القرن العشرون قرناً أمريكياً، فهل ما تعيشه البشرية اليوم مع بدايات القرن الحادى والعشرين ينبئ بأن هذا القرن سيكون هو الآخر قرنًا أمريكيًا.

هذه قراءة للزمن الأمريكى.. بحسب تعبير هيكل: قراءة بأبجدية المجهول على سماء غائمة.

■ ■ ■

سقوط نظام

دار الشروق: ٢٠٠٣، ٦٠٥ صفحات

يجيب الكتاب عن سؤال: هل كانت ثورة يوليو ١٩٥٢ لازمة؟ عبر محاولة لقراءة التاريخ القريب تنبيهًا للوعى المصرى والعربى من شوائب وظلال تتقصد أن تغطى على المستقبل حتى يرتبك ويتعثر.

وهو يبدأ من حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ بوصفه المسرح الخلفى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وينتهى بـ «ساعة سقوط الملكية فى مصر».

■ ■ ■

The Cairo Documents" the Inside Story of Nasser and his Relationship with World Leaders" Rebels and Statesmen









وثائق القاهرة: القصة الداخلية لعبد الناصر وعلاقته بزعماء وثوار وساسة العالم

Doubleday, 1973, 360pp. $44.69

كان هيكل رئيسا لتحرير الأهرام عدة سنوات، وصديقاً وكاتما لأسرار الرئيس جمال عبد الناصر، وقد وضع كتابه «وثائق القاهرة» عبد الناصر على ساحة مسرح عالمى تصبح فيه قضايا عدم الانحياز فى مثل أهمية توترات الشرق الأوسط. فى الكتاب يعرض هيكل لقصة علاقة عبد الناصر بزعماء العالم فى الخمسينيات والستينيات والتى تتسع دائرة الأصدقاء فيها لتشمل تيتو ونهرو وتشى جيفارا. أنتونى إيدن هو شرير الكتاب؛ أما الرئيس الأمريكى كيندى فهو يأتى بشىء تارة ونقيضه تارة أخرى.

الشخصيات الثانوية التى يتناولها الكتاب (سفراء وسياسيون خارج السلطة مثل الرئيس الأمريكى السابق نيكسون) تكمل تفاصيل القصة.

يضم كتاب وثائق القاهرة مقتطفات مطولة من رسائل دبلوماسية (لا بد أن علاقة عبد الناصر بالغرب استفادت من إجادته للغة الإنجليزية؛ وعلى العكس من ذلك، عانت اتصالاته بالحلفاء الروس الحاجة إلى مترجمين). تعطى تلك الرسائل القارئ إحساساً بطريقة تعامل زعماء العالم مع بعضهم البعض - رقصة تحفل بالدفع والوخز يصوغها كاتبوها بأكثر الألحان تحكماً. (المصدر: Amazon.com)

■ ■ ■

Secret Channels" the Inside Story of Arab - Israeli Peace Negotiations

قنوات سرية: قصة مفاوضات السلام العربية - الإسرائيلية

HarperCollins Pub Ltd, 1997
572pp. $80.69

اعتماداً على سنوات خبرته الطويلة كصحفى ومستشار للرئيس جمال عبد الناصر، يقدم هيكل رؤية مطلعة على أعوام من مفاوضات السلام السرية بين العرب والإسرائيليين دون أن تُجمل الصورة التى يرسمها أياً من الجانبين. يصب هيكل أعظم سخطه على زعماء عرب تسببت تصرفاتهم الخرقاء وجبنهم وخياناتهم الصريحة فى سلام يرى هيكل أنه ضحى بالمصالح

الفلسطينية في مقابل تنازلات إسرائيلية لا معنى لها. يتلقى الرئيس السادات على نحو خاص الجانب الأكبر من غضب هيكل ليظهر كرجل «مسرحي» مختال نرجسي يسهل التلاعب به. على حين يقدم هيكل نقداً لعملية السلام في السنوات الأخيرة بدون أن يبرز إسرائيل أو الإسرائيليين في صورة شياطين.

يتفحص هيكل تاريخ مفاوضات الشرق الأوسط الخفية ويلقي الضوء على مواقف عربية كثيراً ما لاحت محيرة للعالم الخارجي. لماذا شجع الرئيس عبد الناصر، أعظم زعماء القومية العربية، الملك حسين ملك الأردن سراً على التوصل إلى اتفاق مع إسرائيل؟ ما هو السر في قرار ياسر عرفات دعم صدام حسين بعد غزو الكويت؟ لماذا رضي عرفات ببنود اتفاقية مع إسرائيل عام ١٩٩٣ لم تكن بأفضل مما عُرض عليه في سنوات عديدة سابقة؟ ولماذا صمم المقاتلون الإسلاميون على تحطيم الاتفاقية؟ إن إجابات هيكل لا تقل هنا عن إجابات خبير حقيقي، خبير على صلة شخصية بأغلب القادة العرب، خبير انخرط أحياناً انخراطا مباشراً في عملية صنع القرار.

يسبر هيكل بقلمه الهادئ وبتفصيل غالباً ما يصل إلى حد المثابرة الإخفاقات السياسية والأخلاقية للاعبين الأساسيين في ملعب الشرق الأوسط. وعليه فالكتاب «وصف مبهر يصف كيف سادت عقود من مفاوضات السلام السرية على الرغم من سياسة الإنكار العربي والإسرائيلي»، على حد قول جوديث ميلر من ذا نيو يورك تايمز بوك ريفيو. إن نص هيكل المفصل المبهر يسد فراغاً لا يستهان به في الكتابات القائمة حول الصراع العربي الإسرائيلي.

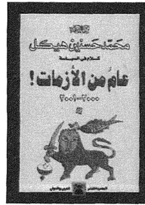
■ ■ ■

The Return of the Ayatollah the Iranian Revolution from Mossadeq to Khomeini

عودة آيات الله، الثورة الإيرانية من مصدق إلى الخميني

Andre Deutsch Ltd 1986
224pp. $84.44

ماذا جرى في إيران؟ ولماذا؟ يتمكن محمد حسنين هيكل في كتاب عودة آيات الله من إفهام القراء أحداث تفاقمت









لتؤدي إلى الثورة عام ١٩٧٩. إن هذا الكتاب ليس كتاباً دينياً وليس معادياً كلية للغرب. لا يتمحور حول العقيدة الإسلامية وتعاليمها بيد أنه يشرح جذور الإسلام لتصل الرسالة إلى القراء واضحة تمام الوضوح، رسالة تبين سبب تمكن آية الله من تحقيق ما حققه. مَن يرغب من متحدثي اللغة الإنجليزية في استيعاب ما وقع في إيران في العقد الثامن من القرن العشرين، عليه قراءة هذا الكتاب.

■ ■ ■

Cutting the Lion's Tail Suez through Egyptian Eyes

قطع ذيل الأسد، السويس بعيون مصرية

HarperCollins Publishers 1987
256pp. $67.50

لقد اعتبر الشرق الأوسط هيكل أكثر الصحفيين ثقة واطلاعاً مدة عقود طويلة. وهو في كتاب قطع ذيل الأسد يلحق بذكرياته الشخصية تذكرة دخول نادرة إلى أوراق عبد الناصر الخاصة والأرشيف الرسمي المصري. ومع كتاب يذخر بوقائع تنشر لأول مرة ونوادر ساخرة النبرة، يلقي هيكل ضوءاً جديداً لا تنقصه الإثارة على أزمة السويس ليكشف أنها لم تكن مجرد لهاث أخير لإمبراطورية بريطانية تتقوض أركانها، بل خطوة لا غنى عنها رسخت بها الولايات المتحدة هيمنة لا شك فيها على العالم. يكتب هيكل ليقول إن «أزمة السويس خلفت العديد من الخاسرين واثنين من المنتصرين، ناصر وأمريكا». وهنا يصف هيكل خسوف قمر بريطانيا في الشرق الأوسط وبزوغ شمس الولايات المتحدة كبديل لها، عملية تمت «بسرعة تكاد تكون غير لائقة» بعد أن مثلت أزمة السويس عام ١٩٥٦ نقطة التحول فيها.

إن تلك الدراسة محاولة ضخمة لكشف الجانب القاهري من قصة غالباً ما تسردها وجهات نظر قادمة من لندن وباريس وواشنطون. وبوصفه منهمكاً عن قرب في تطور خيوط الأزمة، كرئيس تحرير جريدة الأهرام وصديق للرئيس جمال عبد الناصر، يتتبع هيكل ما خالج زعيم سحر الجماهير من شكوك ومشاورات وأفعال بدءاً من قراره الجريء الخطر بتأميم قناة السويس إلى انسحاب القوات من سيناء ودوره في حركة عدم الانحياز، ليشرح للقارئ من وجهة نظر عربية وقائع أدت إلى التمويل السوفيتي لبناء السد العالي، ويفسر مناورات دبلوماسية وسياسية وعسكرية أفضت إلى المواجهة بين القوات المصرية من جهة والقوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية من جهة أخرى.

■ ■ ■

Illusions of triumph - an Arab view of the Gulf war

HarperCollins Publishers Ltd, 1992, 350pp. $69.56

وجهة نظر عربية لحرب الخليج. بأسلوبه حاد النبرة حسن الاطلاع، يشرح محمد حسنين هيكل، كيف أخفق القادة العرب إخفاقاً بائساً في الحيلولة دون اندلاعها. فلو لدى أي شخص المعرفة الكافية والاستعداد للمجاهرة بما يقوله هؤلاء الملوك والشيوخ والرؤساء لبعضهم البعض في غضون مؤتمرات قمة عديمة الجدوى لا تعد ولا تحصى فهو هيكل، الصحفي المصري الذي كان في يوم من الأيام صديقاً لجمال عبد الناصر ولا يزال مصدراً نادراً للكشف عن أسرار ثرثرة عربية تجري على أعلى مستويات القيادة.

■ ■ ■

The road to Ramadan" the inside story of how the Arabs prepared for and almost won the October war of 1973
Ballantine Books" 1976" $7.58

■ ■ ■

Sphinx & Commissar" the rise and fall of Soviet influence in the Middle East
Harper & Row" 1978" 304pp." $28.43

■ ■ ■

Autumn of fury" the assassination of Sadat
Random House" 1983" 290pp." $41.18

■ ■ ■

الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 118 - November 2008

مجلة شهرية . العدد المائة وثمانية عشر . السنة العاشرة . نوفمبر ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

أسمهان... إذا حكت!

- الانهيار الاقتصادى محاولة للفهم!



السنة العاشرة
العدد ١١٨
نوفمبر ٢٠٠٨

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي





محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- آلان جرينسبان.. رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي السابق.
- أمجد محمد سعيد.. شاعر عراقي.
- جون كاسيدي.. صحفي بريطاني متخصص في شئون الاقتصاد.
- جيل أبرامسون.. مديرة تحرير جريدة «ذا تايمز للأخبار».
- خالد عزب.. مدير إدارة الإعلام بمكتبة الإسكندرية.
- ديديه جاليني.. مصور وناقد فرنسي.
- السيد أمين شلبي.. الرئيس التنفيذي للمجلس المصري للشئون الخارجية.
- فضل مصطفى النقيب.. أستاذ في جامعة واترلو ـ كندا.
- محمد بيلي العليمي.. كاتب مصري.
- محمد التابعي.. صحفي مصري (راحل).
- محمد راتب النابلسي.. داعية سوري.
- منار الشوربجي.. أستاذة جامعية وخبيرة في الشئون الأمريكية.
- نذير جزماتي.. كاتب سوري.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجي ـ Dario Castillejos - Kerry Waghorn
RJ Matson (The St. Louis Post Disbatch)





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠ / ٢٣٩٣٠٤٩٢ / ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهماً ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالاً ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

سياسة.. واقتصاد.. وتاريخ.. ومليارات ضائعة

فضل مصطفى النقيب

فى فهم ما جرى؟؟



الأزمة الراهنة نشأت واستفحلت فى الولايات المتحدة نفسها، ثم انتقلت إلى الأسواق العالمية الأخرى. أى أنها كانت أزمة أمريكية المنشأ



هل ستنجح خطة إدارة الرئيس بوش فى معالجة الأزمة الراهنة فى أسواق المال الأمريكية؟ أم أنها ستعمل على التهدئة لفترة محدودة، يعود بعدها عدم الاستقرار لتلك الأسواق؟

لا أحد يستطيع الإجابة عن هذا السؤال بشكل قاطع. ولكن من الممكن تحديد أهم العوامل التى يساعد تواجدها على ارتفاع احتمالات النجاح، كما أن غياب بعضها يرفع من احتمالات الفشل. وفى هذا المجال، يبدو أن أهم العوامل التى تؤثر فى الأزمة تتوزع على ثلاثة أبعاد رئيسة.

يخص البعد الأول واقع الاختلاف الجوهرى بين الأزمة الحالية والأزمات التى عصفت بأسواق المال فى العقدين الأخيرين من القرن الماضى. فالأزمات السابقة كأزمة قروض أمريكا اللاتينية فى الثمانينيات، ثم الأزمة النقدية التى اجتاحت بريطانيا فى العامين ١٩٩٢ و١٩٩٣، ثم الأزمة النقدية لأمريكا اللاتينية خلال العامين ١٩٩٤ و١٩٩٥، وأخيراً الأزمة النقدية فى شرق آسيا خلال الفترة (١٩٩٧-١٩٩٩)، كانت كلها أزمات تنشأ بعيداً عن الاقتصاد الأمريكي، وكانت الإدارة الأمريكية تنجح فى القيام بالجهد الرئيس لاحتواء الأزمة ومنعها من أن تصبح أزمة عالمية تهدد استقرار الاقتصاد العالمي.

فى المقابل، فإن الأزمة الراهنة نشأت واستفحلت فى الولايات المتحدة نفسها، ثم انتقلت إلى الأسواق العالمية الأخرى. أى أنها كانت أزمة أمريكية المنشأ، وبالتالى فهى تطرح على الفور، وبشكل طبيعي، سؤالاً حول الأسباب الخاصة والمتعلقة بالاقتصاد الأمريكى التى قادت لحدوث وتفاقم هذه الأزمة. كما أنها تطرح سؤالاً حول علاقة هذه الأزمة بالأزمات السابقة التى مر بها الاقتصاد الأمريكى فى تاريخه الحديث. وهذا يعنى أن البعد الأول للأزمة يخص دورها فى سياق التطور الخاص بالاقتصاد الأمريكي.

وتظهر أهمية البعد الثانى للأزمة مباشرة عندما نلاحظ أن أهم صفات الاقتصاد الأمريكى هو أنه أقوى وأكبر وأغنى اقتصاد فى العالم، بحيث يشكل هذا الاقتصاد فى وقتنا الحاضر القاعدة التى ترتكز عليها السياسة الأمريكية والتى تهدف، فيما تهدف إليه، إلى بقاء الولايات المتحدة القوة الأعظم فى عالم القطب الواحد وعدم السماح بظهور قوى أخرى تسعى لاسترجاع وصياغة عالم متعدد الأقطاب. وبالتالي، فإن الأزمة الحالية تطرح مجموعة من الأسئلة حول علاقتها بالسياسة الخارجية الأمريكية. فهل كانت هذه السياسة أحد أسباب الأزمة؟ وهل تقتضى المعالجة الناجحة للأزمة تغييراً جذرياً فى هذه السياسة؟

وتبرز أهمية البعد الثالث للأزمة عندما نلاحظ أن الأزمة الراهنة، هى أولاً وأخيراً، أزمة فى النظام الرأسمالي، وبشكل محدد فإنها أزمة فى النظام الرأسمالى الملتزم بالأيديولوجية المعروفة باسم «الليبرالية الجديدة». وهنا تبرز أهمية فهم معنى الأزمة بالنسبة لواقع ومستقبل نظام الليبرالية الجديدة فى النظام الرأسمالى فى الولايات المتحدة بشكل خاص وفى العالم بشكل عام.

يهدف هذا المقال إلى مناقشة الأزمة الحالية التى تعصف بأسواق المال العالمية، فى سياق هذه الأبعاد الثلاثة.

[١]

كان كاتب أمريكا الأشهر فى القرن التاسع عشر رالف والدو إميرسون (١٨٠٣-١٨٨٢) يقول إن التوجه العام للسياسة فى أمريكا يتبع حركة نصف دائرية. إذ إنه ينتقل بشكل دورى بين سياسة «الذاكرة» وسياسة «الأمل» أى بين التركيز على العمل من أجل الاحتفاظ بتراث الماضى دون تغيير أو تبديل، وبين التركيز على العمل من أجل خلق مستقبل أفضل جديد. وقد أخذت تلك المقولة بعداً سياسياً عندما طورها هنرى آدمز (١٨٨٣-١٩١٨) الذى رأى أنه منذ حصول الولايات المتحدة على الاستقلال وهى تمر بمرحلة تكون الأولوية السياسية فيها للتماسك والمحافظة على الوضع الراهن، ثم تتبعها مرحلة أخرى تكون الأولوية فيها للإصلاح والتغيير. وفى مطلع القرن العشرين التقط هذه المقولة المؤرخ المشهور لجامعة هارفارد آرثر شلسنجر الأب (١٨٨٨-١٩٦٥). وكان من أوائل المؤرخين الأمريكيين الذين حاولوا فهم تطور التاريخ الأمريكى من خلال فهم تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وليس فقط من خلال التركيز على التطورات السياسية وحياة الزعماء السياسيين. وقد قادته تلك المحاولة إلى الاقتناع بمقولة أمرسون وآدمز إذ رأى أن توجه السياسة



أزمة ١٨٩٥ الكبرى By C.T. Dazey

في أمريكا يتغير بشكل جذري في فترات دورية، وبغض النظر عن الحزب الحاكم، حيث تمر الولايات المتحدة في فترة زمنية يسود فيها الاهتمام بالصالح العام ويبرز فيها الدور النشيط للدولة في الاقتصاد، وبعد سنوات تنتهي تلك الفترة وتحل محلها فترة مغايرة يسود فيها الاتجاه المعاكس المتمثل في التركيز على المصالح الفئوية والشخصية وتضاؤل دور الدولة في الاقتصاد. وبعد سنوات تعود الدورة مرة أخرى.

أصبحت تلك القراءة للتاريخ الأمريكي تعرف باسم مقولة «دورات التاريخ الأمريكي»، وقد قام آرثر شلسنجر الابن (١٩١٧-٢٠٠٧)، والذي أصبح أيضاً أستاذاً في جامعة هارفارد، بتطوير مقولة والده إذ رأى فيها تناوباً مستمراً بين مرحلة يسود فيها توجه السياسة «الليبرالية» ومرحلة يطغى عليها توجه السياسة «المحافظة». كما رأى أن متوسط عمر المرحلة الواحدة يتراوح ما بين ثلاثين وأربعين سنة. وقد حدد ثلاث مراحل مرت بها السياسة الأمريكية خلال القرن العشرين: مرحلة للسياسة المحافظة عرفت باسم «نظام ١٨٩٦»، وقد امتدت هذه المرحلة من العام ١٨٩٦ وحتى العام ١٩٣٢. وتبعتها مرحلة من السياسة الليبرالية والتي عرفت باسم «العهد الجديد»، وامتدت من العام ١٩٣٢ إلى العام ١٩٦٨. وأخيراً، مرحلة ابتدأت كمرحلة تتبع السياسات المحافظة التقليدية ثم تطورت وأخذت تتبع سياسات محافظة متطرفة حتى أصبحت تعرف باسم مرحلة «الليبرالية الجديدة»[1] وقد اعتقد شلسنجر الابن أن تلك المرحلة بدأت عام ١٩٦٨ وانتهت عام ١٩٩٢، ثم عاد وأقر أنها عادت للحياة في انتخابات عام ٢٠٠٠.

أخذت مرحلة «نظام ١٨٩٦» اسمها من الانتخابات الرئاسية التي جرت عام ١٨٩٦. إذ كانت انتخابات حاسمة انقسم فيها المجتمع الأمريكي على نفسه بشكل لم يحصل بعد ذلك أبداً.

في جانب، كان هناك تحالف عريض من المزارعين والعمال وفقراء الطبقة الوسطى يطالب بسن قوانين تحد من قوة البنوك والشركات الرأسمالية ويعادي توجه الولايات المتحدة الإمبريالي الذي رأى فيه مغامرات لا تعود على الشعب الأمريكي إلا بالضرر. وفي الجانب الآخر، كان هناك تحالف الرأسمالية الصناعية والرأسمالية المالية. ويضم أغنياء المزارعين والمهنيين وعمال الخبرة العالية. وكانت مصالح ذلك التحالف مرتبطة بمصالح شبكة الشركات الصناعية - المالية الكبرى التي كانت تعمل على صياغة مشروع إمبريالي يمكنها من بسط سيطرتها على الأسواق العالمية وخصوصاً في شرق آسيا وأمريكا الجنوبية.

ولقد تمحور الصراع بين هذين المعسكرين في انتخابات ١٨٩٦ حول وضع النقد الأمريكي وهل يرتبط الدولار بالذهب فقط أم بالذهب والفضة.

كان التحالف الأول يضم الحزب الديمقراطي والحزب الشعبوي (Populist) ويؤيد ربط الدولار بالفضة لأن ذلك سيعمل على زيادة حجم النقد وتخفيض قيمة الدولار وبالتالي تخفيض العبء على المدينين الذين يشكلون غالبية جماهيره، ويتواجد هؤلاء بكثرة في ولايات غنية بالفضة. في المقابل، كان التحالف الثاني الذي يمثل الحزب الجمهوري ومصالح الشبكة الصناعية-المالية ، وهم الدائنون الذين يريدون أن يستردوا قروضهم بنقد له قيمة عالية لا تتحقق إلا إذا ارتبط الدولار بالذهب فقط.

قاد التحالف الأول ويليم جينغز براين (١٨٦٠-١٩٢٥) الذي كان رجلاً يتمتع بكل صفات القائد التاريخي. فقد كان قادراً على التعبير عن آراء الملايين وصياغة رؤية تجسد رغباتهم وآمالهم وطموحاتهم. وكان سياسياً من النوع النادر في تلك الأيام (وفي هذه الأيام) إذ كان صادقاً مع نفسه ومع الآخرين.

وقد ألقى براين مرشح الحزب الديمقراطي والحزب الشعبوي في انتخابات ١٨٩٦ وفي مؤتمر الحزب الديمقراطي خطاباً اشتهر فيما بعد باسم «خطاب الذهب» الذي أنهاه مخاطباً الرأسمالية المالية:

«لن تضعوا على رأس الطبقة العاملة تاجا من الشوك، لن تصلبوا الإنسانية على صليب من ذهب».

ولكن ذلك هو ما حصل بالفعل. فلقد سقط براين في انتخابات عام ١٨٩٦، أمام مرشح الحزب الجمهوري وليم ماكنلي (١٨٤٣-١٩٠١) الذي شهدت إدارته دخول الولايات المتحدة القرن العشرين على أساس الأيديولوجية التي أصبحت تعرف باسم «نظام ١٨٩٦» والمبنية على أساس الحرية الكاملة للرأسمالية في الداخل وانتهاج سياسة إمبريالية في الخارج. ففي



خلال المرحلة خاضت الولايات المتحدة الحرب الإسبانية-الأمريكية كما احتلت هاواى والفيليبين وبورتيريكو وجزر جوام وساموا كما وضعت كوبا وبنامـا وجمهورية الدومينيك كمحميات وتدخلت عسكرياً فى الصين والمكسيك وهاييتى ونيكاراغوا وقد استمر العمل وفق نظام ١٨٩٦ طوال العقدين الأول والثانى من القرن العشرين. فبعد اغتيال ماكنلى عام ١٩٠١ سقط وليم جينغز براين مرة ثانية فى انتخابات الرئاسة أمام المرشح الجمهورى تيودور روزفلت (١٨٥٨-١٩١٧) الذى أعيد انتخابه فى عام ١٩٠٤، وفى انتخابات ١٩٠٨ سقط وليم جينغز براين مرة ثالثة أمام المرشح الجمهورى وليم تافت (١٨٥٧-١٩٣٠)، وحتى عندما استعاد الحزب الديمقراطى البيت الأبيض فى انتخابات عام ١٩١٢ وأصبح ودرو ولسون رئيساً للجمهورية ووليم جينغز براين وزيراً للخارجية، فإن الأخير قدم استقالته عام ١٩١٥ احتجاجا على سياسة الرئيس ولسون التى رأى أنها ستؤدى إلى دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية، على أساس أنه رأى فى تلك الحرب نزاعاً بين الإمبراطوريات الأوروبية وعلى الولايات المتحدة أن تبقى بعيدة عنه. وبعد إدارة ولسون الديمقراطية توالت على البيت الأبيض ثلاث إدارات جمهورية، هى إدارة وارن هاردنغ (١٩٢١-١٩٢٣) وإدارة كالفن كوليدج (١٩٢٣-١٩٢٩) وأخيراً إدارة هربرت هوفر (١٩٢٩- ١٩٣٣) وكلها كانت ملتزمة بأسس نظام ١٨٩٦.

عند النظر إلى مجمل المرحلة (١٨٩٦-١٩٣٣) فإننا نلاحظ أنها المرحلة التى أصبح فيها الاقتصاد الأمريكى قوياً وغنياً وينمو بمعدلات تفوق معدلات نمو أى اقتصاد آخر فى العالم، ولكنه بنفس الوقت كان نمواً غير مستقر بحكم أنه كان يقود إلى توسيع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، ففى عام ١٩٢٩ كان واحد بالمائة من الأمريكيين يحصلون على ٤٢٪ من الدخل القومى ويسيطرون على ٣٤٪ من مجمل الادخار القومى، بينما كان ٨٠٪ من المواطنين لا يملكون أى ادخار. وقاد تجمع الثروات الهائلة فى أياد قليلة إلى انتشار ظاهرة المضاربات فى أسواق المال، والتى كانت تتم عادة بدون قواعد ضابطة. ومع أن المرحلة بمجملها كانت مرحلة نمو كبير، إلا أنها كانت أيضاً مرحلة عدم استقرار، ففى مجمل المرحلة حدثت ١١ أزمة من أزمات الركود الاقتصادى بمتوسط أزمة واحدة كل ١٩ شهراً. وكان آخرها فترة الركود الكبير الذى بدأ بانهيار سوق الأوراق المالية فى نيويورك يوم الثلاثاء الأسود فى ٢٩ أكتوبر عام ١٩٢٩ وعند ذلك انتهت مرحلة «نظام ١٨٩٦» وابتدأت مرحلة «العهد الجديد».

[٢]

كان انهيار سوق المال فى نيويورك مذهلاً ففى خلال أسبوع واحد وجد الملايين من الناس أنهم فقدوا معظم مدخراتهم. ولمعرفة حجم الكارثة يكفى أن نلاحظ أن السوق لم يعد إلى المستوى الذى كان عليه قبل الانهيار إلا بعد ربع قرن (١٩٥٤).

بعد انهيار السوق فى أكتوبر ١٩٢٩ توالت عمليات إفلاس الشركات وإغلاق أبواب المصانع وتسريح العمال. وما أن جاء عام ١٩٣٣ إلا وكان ربع الطبقة العاملة الأمريكية قد أصبحوا بدون مصدر للدخل. ومن الطبيعى أن الكساد لم يتوقف عند حدود الولايات المتحدة بل انتقل إلى جميع بلدان العالم. وكانت حدة الكارثة فى أى بلد تتناسب طرداً مع درجة اندماج ذلك البلد فى الأسواق العالمية. وقد استمرت تلك الضائقة الاقتصادية الكبرى، التى لم يشهد لها العالم مثيلاً منذ بداية الثورة الصناعية، طوال عقد الثلاثينيات، ولم تنته إلا باندلاع الحرب العالمية الثانية.

شكلت الضائقة الاقتصادية الكبرى تحدياً هائلاً للنظام الرأسمالى فى كل العالم. وكان التحدى فى الولايات المتحدة على المستوى السياسى موجهاً بالدرجة الأولى لإدارة الرئيس فرانكلين روزفلت الديمقراطية التى تسلمت الحكم بعد انتخابات عام ١٩٣٢. وكان التحدى على المستوى الفكرى موجهاً بالدرجة الأولى للمراكز الأكاديمية التى لم تتنبأ بالكارثة قبل حدوثها وعجزت عن تقديم حل مناسب لها بعد بضع سنوات من استفحالها.

لم يكن لدى إدارة روزفلت خطة أو سياسة متكاملة للتعامل مع الأزمة. وكان هناك شعور عام بضرورة استعادة ثقة المواطن الأمريكى فى النظام الرأسمالى، (شعار روزفلت المشهور: ليس هناك ما نخاف منه إلا الخوف نفسه) وكان هناك تصور عام بأن حل الأزمة يأتى عن طريق التخلص من بعض الممارسات الاقتصادية التى كانت تتم فى الماضى ويعتقد أنها كانت مسئولة عن تدهور الأوضاع. وفى هذا المجال أصدرت إدارة روزفلت عدة تشريعات وقامت بتنفيذ عدة مشاريع بين الأعوام ١٩٣٣ و١٩٣٨ عرفت باسم تشريعات «العهد الجديد». وقد كان لتلك الحزمة من السياسات فى البداية ثلاثة أبعاد: الأول هو برنامج إغاثة للعاطلين عن العمل وبرنامج إغاثة طوارئ للمحتاجين، والثانى قوانين جديدة لتنظيم أسواق المال وقوانين لإصلاح البنوك، والثالث خطة اقتصادية لتنشيط عجلة الاقتصاد حتى يستعيد عافيته، خصوصاً فى المجالين الزراعى والصناعى. وبعد ذلك تم إصدار قوانين وتشريعات تمنح نقابات العمال الحق القانونى فى الإضراب عن العمل والحق القانونى فى التفاوض مع الشركات فيما يخص الأجور والتأمينات والتقاعد. كما قامت الإدارة بإصدار تشريع لتأسيس نظام قومى للضمان الاجتماعى يشمل كل مواطن. وفى نفس الوقت بدأت الإدارة باستعمال الإنفاق الحكومى كأداة لتحريك عجلة الاقتصاد.

لم تأخذ سياسات «العهد الجديد» تبريرها الفكرى أو الأيديولوجى إلا بعد سنوات من ظهور كتاب النظرية العامة للعمالة والفائدة والنقد (١٩٣٦) لأستاذ جامعة كيمبردج فى بريطانيا جون ميرند كينز (١٨٥٢-١٩٤٩)، حيث قدم كينز تفسيراً مقنعاً لأسباب الأزمة الاقتصادية وطرق معالجتها.

قبل النظرية الكينزية، كانت كليات الاقتصاد فى أهم الجامعات الأمريكية والبريطانية تلتزم بمنهج النظرية الكلاسيكية فى الاقتصاد. ولم يكن فى مقدور تلك النظرية تحديد أسباب الأزمة الاقتصادية الخانقة التى اجتاحت العالم. فلقد كانت تلك النظرية فى جوهرها نظرية لتحديد الأسعار وفق قوى العرض والطلب. ووفقاً لهذه النظرية فإن من الممكن حدوث مشكلة بطالة عن العمل فى فترة زمنية قصيرة، ولكن ليس من الممكن استمرار المشكلة لمدة سنوات كما حدث، وذلك لأن البطالة تقود إلى تخفيض الأجور الذى يقود بدوره إلى تخفيض كلفة الإنتاج وزيادة الأرباح وعندها تقوم الشركات بالتوسع فى الإنتاج وتوظيف العمال مما يقضى على البطالة.

رأى كينز أن الذى يحدد حجم الطلب العام على السلع والخدمات ليس الأسعار بقدر ما هو دخل المستهلكين، وإذا كان المستهلك عاطلاً عن العمل وبلا دخل فإن انخفاض الأسعار لا يعنى أى شىء بالنسبة له. وكذلك فإن الذى يدفع أصحاب المنشآت الاقتصادية لزيادة حجم التوظيف ليس مستوى الأجور بقدر ما هو التوقعات الخاصة بالطلب العام على منتجات هذه المنشآت، وعندما يكون مستوى ذلك الطلب منخفضا فإن انخفاض الأجور يعمل على تخفيض الدخل العام وبالتالى تخفيض الطلب العام مما يزيد فى تأزم مشكلة البطالة عن العمل وليس حلها.

رأى كينز أن الذى يحدد مستوى النشاط الاقتصادى بشكل عام ليس هو الأجور أو الأسعار بل هو حجم الطلب العام (حجم الطلب على السلع الاستهلاكية والطلب على السلع الاستثمارية). وفى أى وقت يكون فيه ذلك الحجم أقل من المستوى المطلوب لضمان التوظيف الكامل لليد العاملة فليس هناك من طريقة لزيادة حجم الطلب العام إلا بزيادة الإنفاق الحكومى. ومن جهة أخرى ففى أى وقت يكون فيه حجم الطلب العام أكبر من المستوى



خطة الرئيس بوش فى اقتراض ٧٠٠ مليار دولار من أجل شراء أصول المؤسسات المالية لمنعها من الانهيار هو علاج مؤقت قد ينجح، ولكنها ليست الخطة التى تعالج أسباب الأزمة الحقيقية



المطلوب لضمان التوظيف الكامل لليد العاملة فإن الاقتصاد سيعاني من مشكلة الارتفاع المستمر للأسعار والتضخم، وليس هناك من طريقة لتخفيض حجم الطلب العام إلا بتخفيض حجم الإنفاق الحكومي.(٢)

من الواضح أن مفهوم تدخل الدولة فى الاقتصاد لحل مشكلة البطالة عن العمل لم يكن من اختراع كينز. فلقد تم استعمال ذلك الأسلوب من قبل حكومات عديدة فى التاريخ القديم والحديث. وبشكل خاص فقد استعملته حكومة الحزب النازى فى ألمانيا بنجاح منذ استلامها الحكم عام ١٩٣٣، وهذا ما قاد أستاذة جامعة كيمبردج جون روبنسون إلى القول: «لقد تمكن أدولف هتلر من حل مشكلة البطالة عن العمل فى ألمانيا قبل أن يتمكن كينز من إقناع زملائه فى كيمبردج بطريقة الحل».

ومع ذلك فقد شكلت نظرية كينز ثورة حقيقية فى الفكر الاقتصادى الغربى وذلك لأنها لم تكن مبنية على أساس مفاهيم راديكالية أو اشتراكية، بل كانت مصاغة من نفس مفاهيم المدرسة الفكرية فى الاقتصاد التى تعتمدها معظم الجامعات الأمريكية والبريطانية (المدرسة النيوكلاسيكية). وأهم من ذلك كله ، فلقد كان هدف النظرية هو إنقاذ النظام الرأسمالى وليس تحطيمه.

انتشرت نظرية كينز فى مدة بسيطة نسبياً فى المراكز الأكاديمية الأمريكية ثم أصبح لها أنصار فى المؤسسات الإعلامية. وهكذا أصبحت الفلسفة الليبرالية فى السياسة تعنى تأييد تدخل الدولة فى الاقتصاد وفق منطق نظرية كينز.

حصلت سياسات «العهد الجديد» على تأييد شعبى كاسح فأعيد انتخاب روزفلت مرة ثانية فى انتخابات العام ١٩٣٦، ومرة ثالثة فى انتخابات العام ١٩٤٠، ومرة رابعة فى انتخابات عام ١٩٤٤(٣). ومما لا شك فيه أن كثيراً من إصلاحات «العهد الجديد» كانت قريبة إلى الأفكار والمبادئ التى حملها التحالف الذى قاده براين فى مطلع القرن وخصوصاً أن من تلك الإصلاحات كان فك ارتباط الدولار بالذهب. كما أنها اشتملت على وضع ضوابط وقيود تنظم نشاط الأسواق المالية حتى لا يتكرر الانهيار المالى الذى حدث فى عام ١٩٢٩ وفى هذا الصدد قال كينز: «إن وجود أسواق المال بدون ضوابط وقوانين تنظم عملها كفيل بتحويل النظام الرأسمالى إلى كازينو للقمار»(٤).

لم يتوقف تأثير فلسفة «العهد الجديد» ونظرية كينز على الولايات المتحدة فقط. ففى عام ١٩٤٤ تم عقد مؤتمر اقتصادى فى مدينة «برتون وود» فى مقاطعة نيوهامشير حضره ممثلو ٤٤ دولة من الحلفاء وفيه اتفقوا على تأسيس نظام نقدى جديد يتبناه العالم بعد انتهاء الحرب العالمية. وبشكل يتناغم مع أساسيات «العهد الجديد» ونظرية كينز. فمن أجل محاربة مشكلة الكساد وتسريع التنمية بعد الحرب تم تأسيس البنك الدولى لإعادة الأعمار والتنمية (وأصبح يعرف باسم البنك الدولى) وانيط به تقديم قروض طويلة الأجل لمساعدة الحكومات على تمويل مشاريع إعادة تأهيل البنى التحتية وخلق بيئة ملائمة للاستثمار. ومن أجل تشجيع التجارة الدولية وتقليص عوامل عدم الاستقرار تقرر أن تلتزم كل دولة بسعر ثابت لنقدها بالنسبة للدولار، وفى نفس الوقت التزمت الولايات المتحدة بسعر ثابت للدولار بالنسبة للذهب (٣٥ دولاراً للأوقية الواحدة من الذهب) وتم تأسيس صندوق النقد الدولى لمساعدة أى بلد تمر بأزمة لا تستطيع معها الاحتفاظ بالسعر الثابت لنقدها الوطنى.

استمرت الإدارات الأمريكية المتعاقبة باتباع سياسات «العهد الجديد» بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وقد تباطأ العمل بتلك السياسات بعد أن عاد الجمهوريون للحكم فى عهد الرئيس دوايت أيزنهاور (١٩٥٢-١٩٦٠). ثم عاد العمل بتلك السياسات بشكل قوى ومتطور فى ظل إدارة الرئيس جون كينيدى (١٩٦١-١٩٦٣)، ففى عهد تلك الإدارة استعان الرئيس بنخبة من طليعة الأساتذة الجامعيين الذين تبنوا نظرية كينز وعملوا على تطويرها. فقاموا باتباع سياسة مالية (ضرائب وإنفاق) من وحى تلك النظرية. وقد تضاعف العمل وفق أسس «العهد الجديد» ومفاهيم نظرية كينز بعد اغتيال الرئيس كيندى وتسلم إدارة الرئيس لندن جونسون للحكم (١٩٦٣-١٩٦٩). فقد تبنت تلك الإدارة برنامجاً للسياسات الاقتصادية والاجتماعية أطلقت عليه اسم «المجتمع العظيم». وتكون هذا البرنامج من ثلاثة محاور: الأول، «الحرب على الفقر» ويهدف إلى مساعدة العائلات الفقيرة للخروج من دائرة الفقر عن طريق المساعدات المالية والتعليمية وإيجاد فرص العمل. وعملت إدارة جونسون من خلال المحور الثانى على سن مجموعة من القوانين التى تؤيد حركة الحقوق المدنية وإنهاء التمييز العنصرى ضد المواطنين السود. أما المحور الثالث فاختص باتباع السياسات المالية والنقدية التى تكفل بقاء النشاط الاقتصادى فى مستوى التوظيف الكامل لليد العاملة وتمنع حدوث الكساد والبطالة عن العمل.

فى السنوات الأولى من عمر برنامج «المجتمع العظيم» بدت الأمور وكأن أدوات النظرية الكينزية قادرة بالفعل، إذا استعملت بشكل ذكى وخلاق، على تخليص النظام الرأسمالى من عوامل عدم الاستقرار التى كان يعانى منها قبل الحرب. فقد كان الاقتصاد الأمريكى آنذاك يعيش فترة ذهبية. إذ كان ينمو بمعدلات عالية، فى نفس الوقت الذى كان ذلك النمو يعمل على تضييق الفجوة بين الأغنياء والفقراء، ويتزامن مع تعزيز شعور الملايين من المواطنين السود بأنهم فى الطريق لأن يصبحوا مواطنين متساوين فى الحقوق والواجبات مع المواطنين البيض وليسوا مواطنين من الدرجة الثانية.

ولكن ذلك كان مجرد وهم وسراب، فما أن انتهت الستينيات حتى عادت عوامل عدم الاستقرار للاقتصاد الأمريكى.

يعود السبب الرئيسى لعودة أوضاع عدم الاستقرار فى الاقتصاد الأمريكى إلى البعدين الآخرين اللذين ذكرناهما فى بداية المقال وهما: الدور الإمبريالى للولايات المتحدة فى العالم، والتطور الداخلى للرأسمالية الأمريكية. وسنخصص الجزء اللاحق لمناقشة هذين البعدين على أساس أنهما كانا من الأسباب الرئيسية لانتهاء مرحلة «العهد الجديد» وبداية مرحلة «الليبرالية الجديدة» المسئولة عن الأزمة المالية الراهنة.

[٣]

فى مطلع الستينيات كان الاقتصاد الأمريكى داخل الولايات المتحدة ينمو مع توظيف كامل لليد العاملة ومع ثبات مستقر فى الأسعار. وكان هناك جهد حثيث من الحكومة الاتحادية لمعالجة المشاكل الخطيرة التى عانى منها المجتمع الأمريكى كمشكلة الفقر ومشكلة التمييز العنصرى ضد المواطنين من أصل أفريقى..

ولكن ذلك «العصر الذهبى» لم يستمر طويلاً. ففى عام ١٩٦٤ اتخذ الرئيس لندن جونسون قرارين خطيرين كان لهما أثر كبير فى عودة أوضاع عدم الاستقرار إلى الاقتصاد الأمريكى. تمثل القرار الأول فى خوض حرب فيتنام. وتمثل القرار الثانى فى تمويل الحرب بأسلوب الاقتراض (أى تمويل الحرب بأسلوب عجز ميزانية الحكومة الاتحادية).

كان القرار الأول منسجماً مع توجهات السياسة الأمريكية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية التى كانت تعمل على محاربة الشيوعية العالمية من جهة ووراثة النفوذ والهيمنة على مستعمرات الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية من جهة أخرى. أما القرار الثانى فكان خاصاً بطبيعة الإمبراطورية الأمريكية واختلافها عن الإمبراطوريات الأوروبية القديمة. فالإمبراطورية الأمريكية، كما شرح محمد حسنين هيكل(٥) تدار بعقلية الشركة التى





الإمبراطورية الأمريكية، كما شرح محمد حسنين هيكل تدار بعقلية الشركة التى لا تخطو أى خطوة دون اعتبار مقياس الربح والخسارة

لا تخطو أى خطوة دون اعتبار مقياس الربح والخسارة. وقد أدرك الرئيس جونسون أن الكونغرس سيعارض الحرب فى الفيتنام إن هو قام بتمويلها من الموارد الضريبية لأن ذلك كان يعنى إما تقليص حجم الإنفاق الحكومى فى مجالات أخرى، أو فرض ضرائب جديدة. وفى كلتا الحالتين فإن ذلك سيتعارض مع مصالح شرائح واسعة من الشعب الأمريكى لها ممثلون أقوياء فى الكونغرس.

عارض المستشارون الاقتصاديون للرئيس جونسون أسلوبه فى تمويل الحرب عن طريق الاقتراض. وبرر هؤلاء معارضتهم بتأثير الاقتراض ودوره فى تعاظم حجم العجز فى ميزانية الحكومة الاتحادية. فجميعهم كانوا من أنصار النظرية الكينزية، وبالتالى كانوا قادرين على التنبؤ بأن الإنفاق على الحرب، بأسلوب عجز الميزانية، فى وضع توظيف كامل لليد العاملة سيقود للارتفاع المستمر للأسعار ومشكلة التضخم، وهذا ما حصل بالفعل. ففى نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات تعاظم حجم العجز فى ميزان المدفوعات الأمريكى حتى تغير الوضع كلياً بالنسبة للدولار الأمريكى. فبينما كان هناك طلب متزايد على الدولار فى الخمسينيات وحتى منتصف الستينيات انقلبت الصورة فى أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات وأصبح هناك فائض منه فى الأسواق العالمية. فبدأ حاملو الدولار من الأجانب يعملون على استبداله بالذهب، فأخذ الاحتياطى الأمريكى من الذهب بالتناقص حتى اضطر الرئيس نكسون فى آب 1971 إلى الإعلان عن فك ارتباط الدولار بالذهب. وبذلك تحطمت أهم ركيزة من ركائز النظام النقدى الذى تكرس فى «بروتن وود». فانتهى عهد سعر الصرف الثابت للعملات وبدأ عهد سعر الصرف المتغير. وفى نفس الوقت انتهى أيضاً عهد ثبات الأسعار وبدأ عهد التضخم الذى تجلى فى ارتفاع مستمر للأسعار ينجم عنه ارتفاع مستمر فى الأجور. وفى منتصف السبعينيات أخذ الاقتصاد الأمريكى يعانى أيضاً من مشكلة الكساد وارتفاع معدلات البطالة، وذلك بفعل الارتفاع الهائل فى أسعار الطاقة الذى قاد إلى زيادة كلفة الإنتاج وتخفيض مستوى الأرباح وبالتالى تقليص حجم الإنتاج وتسريح العمال. وهكذا أصبح الاقتصاد الأمريكى يعانى من أزمة لم يعهدها فى السابق إذ إنها جمعت بين التضخم والكساد، وقد أطلق عليها يومها اسم «الركود التضخمى» (Stagflation).

مرة أخرى شكل وضع الاقتصاد الأمريكى تحدياً فى المجال السياسى وفى المجال الفكرى والأكاديمى. فعلى الصعيد السياسى، وجدت حكومة الولايات المتحدة نفسها، ولأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية، وكل المجتمع متضرر من الوضع الاقتصادى، فالتضخم كان يعمل على تخفيض أرباح الطبقة الرأسمالية والركود كان يعمل على تقليص حجم توظيف الطبقة العاملة.



أما على الصعيد الفكرى والأكاديمى، فقد كان التحدى كبيراً، إذ وجد المفكرون الاقتصاديون أنفسهم يعيشون فى وضع مماثل لما كان عليه الوضع فى مطلع الثلاثينيات: بدون نظرية قادرة على تفسير ما يحدث فى واقع الاقتصاد. فالنظرية الكينزية، كما رأينا فى السابق، قادرة على تفسير أسباب حدوث مشكلة البطالة أو أسباب حدوث مشكلة التضخم، ولكنها لا تملك تفسيراً لحدوث المشكلتين فى وقت واحد، كما هو عليه الوضع فى مشكلة الركود التضخمى.

كان أول من تقدم بنظرية تفسر ظاهرة الكساد التضخمى هو أستاذ جامعة شيكاغو ملتون فريدمان (١٩١٢-٢٠٠٦) وهو من المفكرين الاقتصاديين الأمريكيين القلائل الذين لم يقتنعوا بالنظرية الكينزية وقد تمكن فى مدة قصيرة نسبياً، ومع بعض الأساتذة الآخرين فى جامعة شيكاغو، وبعض الجامعات الأخرى، من الترويج لنظرية جديدة أصبحت تعرف باسم «مدرسة شيكاغو» أو «المدرسة النقدية» (Monetarism). وهى تتعارض بشكل كلى مع النظرية الكينزية، وإذا كانت الأخيرة قد شكلت ثورة حقيقية فى الفكر الاقتصادى فى أواخر الثلاثينيات ومطلع الأربعينيات فإن الثانية شكلت «الثورة المضادة» فى مطلع السبعينيات، وفق الوصف الذى أطلقه عليها أستاذ مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية هارى جونسون.

ترتكز نظرية الثورة المضادة على مقولتين. الأولى هى مقولة «البطالة الطبيعية» والتى تعنى أن الأسعار تكون ثابتة عندما تكون نسبة البطالة هى النسبة الطبيعية التى تحددها الأوضاع العامة للاقتصاد، والتى تشمل بشكل رئيسى مستوى تقنية الإنتاج والوضع المؤسسى للمنشآت الاقتصادية ونقابات العمال، وبدون أى تدخل من الدولة. أما المقولة الثانية فتؤكد أن أى تدخل من الدولة، عبر أدواتها المالية أو النقدية، لتخفيض نسبة البطالة الطبيعية فإنه ينجح فى الأمد القصير فى تخفيض مستوى البطالة ويكون ثمن ذلك بعض التضخم، ولكنه على الأمد البعيد يقود إلى التضخم المتسرع دون أى تخفيض فى نسبة البطالة. وهكذا وجدت مدرسة شيكاغو أن سبب الركود التضخمى هو تدخل الدولة فى الاقتصاد.

وبعد ذلك راجت فى الأوساط الأكاديمية الأمريكية نظريات أخرى تتفق مع مدرسة شيكاغو فى إظهار ضرر تدخل الدولة فى الاقتصاد وضرورة ترك النشاط الاقتصادى بصورة كلية لقوى العرض والطلب فى السوق الحر[6].

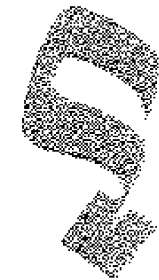
أشاعت تلك النظريات جواً فكرياً عاماً يضع مسئولية مشكلة الركود التضخمى على عاتق الدولة، ويرى أن التخلص من المشكلة لا يكون إلا إذا رفعت الدولة يدها وتوقفت نهائياً عن التدخل فى النشاط الاقتصادى. وأن السوق الحرة إذا أعطيت الفرصة فإنها قادرة على تحقيق النمو والتشغيل الكامل لليد العاملة مع ثبات دائم للأسعار. وفى هذا الجو نشأ تحالف يمينى كبير بقيادة الحزب الجمهورى أوصل رونالد ريغان إلى البيت الأبيض عام ١٩٨٠، وأبقى الجمهوريين بالحكم ١٢ سنة توطدت فيها أيديولوجية «الليبرالية الجديدة».

تتلخص فلسفة الليبرالية الجديدة فى أن نظام السوق الحرة هو أفضل نظام اقتصادى يحقق الكفاءة فى الإنتاج، والعدالة فى توزيع الدخل، وأنه عندما لا يكون الحل الذى تقدمه السوق لمعالجة بعض المشاكل هو الحل الأمثل، فإن من الأفضل الأخذ بذلك الحل لأن أى حل آخر خارج السوق سيكون أسوأ.

يجب التأكيد هنا أنه من الخطأ الاعتقاد بأن ظهور فلسفة «الليبرالية الجديدة» كان فقط تعبيراً أيديولوجياً عن مصالح التحالف اليمينى الجديد ولم يكن له أساس موضوعى فى تطور الاقتصاد الأمريكى. وهذا يقودنا مباشرة إلى البعد الثالث فى أزمة أسواق المال، وهو البعد المتعلق بعلاقة الأزمة بالتطور الحاصل فى بنية الرأسمالية الأمريكية.

فى واقع الأمر كان ظهور فلسفة «الليبرالية الجديدة» فى منتصف السبعينيات من القرن الماضى، تعبيراً موضوعياً عن تطور فى قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج فى الرأسمالية الأمريكية. قاد إلى وقف اتجاه «تقليص أهمية السوق» الذى كان سائداً منذ أواخر القرن التاسع عشر. وعلى تكريس اتجاه معاكس يعمل على تعزيز دور «السوق» فى النشاط الاقتصادى.

من المعروف أن تقنيات الإنتاج الرأسمالى منذ أواخر القرن التاسع عشر كانت تتطور على طريق تكريس اقتصاد «وفورات الحجم»، أى تقليص كلفة الإنتاج كلما ازداد حجم الإنتاج. وكان ذلك يقود، بشكل طبيعى، إلى نشوء الشركات الكبيرة التى تلتهم الشركات الصغيرة مما يقود إلى تقليص فعالية آلية السوق فى تحديد الأسعار والأرباح والأجور. ولكن الذى حصل منذ أواخر الستينيات فى القرن الماضى، أن التطور التكنولوجى بدأ يأخذ منحى جديداً مخالفاً لمنحى «وفورات الحجم»، فالتقنيات الجديدة



كان ظهور فلسفة «الليبرالية الجديدة» فى منتصف السبعينيات من القرن الماضى، تعبيراً موضوعياً عن تطور فى قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج فى الرأسمالية الأمريكية



التى أدت إلى تخفيض كبير فى تكلفة المواصلات والاتصالات عززت بشكل تدريجى من مكانة الشركات ذات الحجوم الصغيرة. وبالتالى عززت العملية التنافسية ودور السوق. كما أن الشركات الكبيرة أخذت فى تقليص حجمها عن طريق التخلص من بعض أقسامها والقيام بشراء المنتجات أو الخدمات التى تقدمها تلك الأقسام من شركات أخرى متخصصة. وأصبحت هذه العملية تعرف باسم «Outsourcing». كل ذلك أدى إلى تقليص حصة الشركات الكبرى من الإنتاج ومن العمالة. وفى هذا المجال يجب التأكيد على أنه ليس صحيحاً أن الشركات العملاقة هى فقط التى تقود حركة العولمة، إذ إن هناك شركات متوسطة الحجم وأخرى صغيرة الحجم ولها دور كبير فى تزايد حجم التجارة العالمية وخصوصاً بعد أن فتحت التكنولوجيا الحديثة (الإنترنت) الباب أمام تجارة الخدمات القانونية والصحية والمالية والمحاسبية عبر الحدود. ولهذا، فإننا نجد أن معدل نمو أكبر خمسين شركة من الشركات متعددة الجنسية فى عقدى الثمانينيات والتسعينيات كان أقل من معدل نمو الاقتصاد العالمي.

تمثل أيديولوجية «الليبرالية الجديدة» فى أحد جوانبها تعبيراً موضوعياً عن هذا التطور الذى حصل فى بنية الرأسمالية الأمريكية.

ولكن أيديولوجية «الليبرالية الجديدة» كان لها جوانب أخرى. فلقد تطور التحالف السياسى الذى حمل لواءها ليشمل ثلاثة تيارات. ففى مجال الاقتصاد كان هناك تيار اليمين المحافظ الذى كان يريد أن يحطم كل قوانين وتشريعات وأنظمة فترة «العهد الجديد» ويطمح بإعادة الرأسمالية الأمريكية إلى «وضعها النقي» الذى كانت عليه قبل أن تعكر صفاءها مشاريع الأجهزة البيروقراطية. وبكلمة مختصرة كان ذلك التيار يطمح أن يعود إلى «نظام ١٨٩٦». وفى السياسة الخارجية كان هناك تيار «المحافظين الجدد» الذين كانوا يعملون على إعادة صياغة العالم وفق نظام جديد يكرس الهيمنة الأمريكية على العالم بحيث تبقى الولايات المتحدة قادرة على الدفاع عن ذلك النظام إلى الأبد. وفى القضايا الاجتماعية كان هناك تيار اليمين المسيحى الذى كان يطمح إلى سن قوانين وتشريعات جديدة تضمن بقاء المجتمع الأمريكى كمجتمع مسيحى لا يسمح بالممارسات الفردية التى تهدد تماسك الأسرة وتضعف من سيطرة الكنيسة. وكان التياران الأخيران على حلف متين مع الحركة الصهيونية وإسرائيل. وقد تمكن هذا التحالف بمدة بسيطة من بسط سيطرته على المؤسسات الدولية، فأصبح البنك الدولى يتصرف كذراع اقتصادية للبيت الأبيض، كما أصبح صندوق النقد الدولى يعمل كذراع مالية لوزارة الخزانة الأمريكية. وفى نفس الوقت أشاعت أيديولوجية هذا التحالف جواً فكرياً ديماغوجياً على امتداد العالم كان له ممثلون وأبواق إعلامية فى العالم الثالث ذكر بالجو الفكرى الذى كرسه النهج الستالينى فى أيديولوجية الماركسية-اللينينية.



وقد تمكن تحالف هذه التيارات الثلاثة من إحداث تغيير شامل فى الوضع الداخلى للولايات المتحدة وفى مجمل الأوضاع العالمية ومن أهم هذه التغييرات :

• إلغاء الضوابط التى تنظم نشاط سوق المال

قامت إدارة الرئيس ريغان بسن قوانين ألغت فيها كثيراً من الضوابط التى كانت تنظم عمل الأسواق وكان بعض تلك القوانين مفيدا ويعمل على تشجيع التنافس والكفاءة. ولكن أخطر ما جاء فى تلك القوانين هو تلك التى رفعت كل القيود التى كانت تنظم نشاط المؤسسات المالية (Deregulation)، وعلى الفور أخذت تلك المؤسسات فى إصدار أدوات مالية جديدة تم وصفها بأنها مبتكرة وتعمل على رفع كفاءة الأسواق المالية. ومع الأيام اتضح أنها قادت تلك الأسواق إلى القيام بدور هو تماماً عكس الدور المفروض أن تقوم به.. فبدل أن تكون تلك الأسواق المكان الذى تنتقل فيها الأموال من الدائنين إلى المقترضين بشكل يخفض من حجم المخاطر ودرجة عدم اليقين، أصبحت فى ظل نظام الليبرالية الجديدة المكان الذى يعمل على رفع درجة مخاطر الادخار والاستثمار. وعلى سبيل المثال، كانت الأسواق المالية فى الماضى تقوم بمهمة تحويل الادخار إلى استثمار عن طريق بيع سندات وأسهم الشركات، وكانت هناك قيود تضعها الدولة حتى يشعر حامل السند بشيء من الطمأنينة بالنسبة لمستقبل السند. أما بعد «تحرير» أسواق المال فقد أخذ الكثير من الشركات تصدر ما أصبح يعرف باسم سندات الرمة (Junk bonds) وهى سندات تدفع لحاملها سعر فائدة يكون عادة ثلاث أو أربع نقاط مئوية أعلى من سعر الفائدة التى تدفعها السندات العادية. وتحمل فى ذلك درجة عالية من مخاطر الإفلاس. ومن ناحية أخرى، كانت أسواق المال فى الماضى تقوم بعملية تمويل شراء بيوت السكن عن طريق إصدار ما يعرف بالرهن العقارى (Mortgage) أى أن يقوم البنك بإقراض المشترى ثمن البيت ويتم تسديد ذلك القرض، مع الفائدة، على أقساط شهرية خلال مدة محددة. وكان هناك ضوابط تنظم تلك العملية بشكل يقلص من مخاطر تعثر سداد القرض. أما بعد «تحرير» الأسواق فقد بدأ عدد كبير من المؤسسات المالية بإصدار ما أصبح يعرف باسم «الرهن العقارى تحت المستوى» (Sub-prime mortgage) وهى عقود رهن عقارية تباع بدون أى تدقيق فى حالة المشترى المالية وقدرته على الالتزام بما يفرضه العقد الذى وقعه. وهذا يقود بالضرورة إلى تزايد الطلب على شراء البيوت ورفع أسعارها لحدود عالية لا تتناسب مع قيمتها الحقيقية وبعد ذلك تقوم الشركة التى أصدرت الرهن ببيعه لمؤسسة ثانية تقوم بدورها ببيعه لمؤسسة ثالثة وهكذا. وكل ذلك يعمل على رفع أسعار البيوت ودخول السوق العقارية فى الظاهرة التى تعرف باسم «الفقاعة» وذلك يعنى زيادة درجة المخاطر إلى حدود خطيرة.

• خصخصة المرافق العامة وتحويل السلع العامة إلى سلع خاصة منذ بداية الثمانينيات فى القرن الماضى والإدارات الأمريكية المتتابعة تقوم بتحويل كثير من المرافق التى يشرف عليها القطاع العام إلى القطاع الخاص. وقد طالت عملية الخصخصة تلك مرافق حيوية تخص الأمن فى المرافئ والمطارات وبعض الأمور الأخرى ذات الطابع العسكري. ومن ناحية أخرى فإن أقوى وأغنى دولة فى العالم ما زالت بدون نظام للتأمين الصحى على المستوى القومي، فهناك عشرات الملايين من الأمريكيين بدون أى تأمين صحي، والجزء الأعظم منهم يعيش تحت خط الفقر. كما عملت الحكومة الأمريكية آنذاك على خصخصة الاكتشافات العلمية الجديدة. فمنذ توالت اكتشافات تكنولوجيا المعرفة الحديثة والحكومة الأمريكية تبذل جهوداً هائلة داخل الولايات المتحدة وخارجها من أجل تكريس قوانين وإبرام معاهدات تكرس فيها الحق الفردى للملكية الفكرية. فى المقابل عارضت الإدارة الأمريكية فى حينه توقيع معاهدات دولية لمقاومة الأخطار التى تهدد البيئة كالاحتباس الحرارى والتصحر وتغير المناخ.

إن تصرف الولايات المتحدة الرسمى تجاه الاكتشافات الحديثة فى تكنولوجيا المعرفة، والمعارك المستمرة التى تخوضها سواء فى المحاكم الأمريكية أو فى المحافل الدولية من أجل خصخصة تلك الاكتشافات وعدم السماح لها أن تكون سلعاً عامة يذكر بقول كارل ماركس «بأن اختراع طواحين الهواء قاد إلى نشوب نزاع بين الإمبراطور والنبلاء والقساوسة حول من له منهم حق ملكية الرياح».

• تبنى العقيدة العسكرية لحروب الصدمة والرعب الاستباقية

عكست سياسة تقليص القطاع العام نفسها على الجيش الأمريكى فتم تخفيض عدد قوات الجيش على أساس أن التقدم





تمثل أيديولوجية «الليبرالية الجديدة» فى أحد جوانبها تعبيراً موضوعياً عن هذا التطور الذى حصل فى بنية الرأسمالية الأمريكية



التكنولوجى الهائل الذى تتمتع به القوات الأمريكية يجعلها قادرة على خوض الحروب والانتصار فيها بدون الحاجة إلى أعداد كبيرة من الجنود. وتماشياً مع هذه المنطلق تبنت جامعة الدفاع الوطنية عام ١٩٩٦ العقيدة العسكرية لحروب «الصدمة والرعب» التى تقضى ببدء الحرب بعنف هائل يؤدى إلى تحطيم إرادة القتال عند العدو بعد يومين أو ثلاثة من بدء الحرب(٧).

وقد تبنت إدارة الرئيس بوش الابن هذه العقيدة فى حرب أفغانستان والعراق ولكن بدون أن يكون عند تلك الإدارة أى فكرة عن الذى سيحدث بعد أن يتم تحطيم إرادة جيش العدو، وهل يعنى ذلك أيضاً تحطيم إرادة الشعب الذى فقد جيشه؟ أم أن ذلك سيحرك مقاومة شعبية لا يجدى معها أسلوب «الصدمة والرعب»؟. والأهم من ذلك أن إدارة الرئيس بوش تقوم بتمويل تلك الحروب عن طريق الاقتراض من أسواق المال العالمية، تماماً كما قامت إدارة الرئيس جونسون فى الستينيات بتمويل حرب الفيتنام.

تضافرت هذه العوامل الثلاثة (رفع القيود عن أسواق المال، خصخصة المرافق العامة، ومغامرات حروب الصدمة والرعب) فى إحداث تغيير شامل فى بنية الاقتصاد السياسى للمجتمع الأمريكي. وقد نتج عن هذا التغيير اتساع كبير فى الفجوة بين الفقراء والأغنياء بشكل هدد مكانة الطبقة الوسطى، فقد زادت الحصة من الدخل لأغنى ٥٪ من السكان ما بين سنة ١٩٨٠ و٢٠٠٠ من ١٥.٨٪ إلى ٢١.٥٪. كما نتج عنه انتشار واسع فى عمليات المغامرات المالية فى الداخل والمغامرات العسكرية فى الخارج. وإذا راجعنا بشكل سريع تطور الأوضاع الاقتصادية طوال مرحلة «الليبرالية الجديدة» فإننا نلاحظ أن المرحلة برمتها كانت فترة أزمات متتالية تماماً كما كانت عليه مرحلة «نظام ١٨٩٦».

فى نهاية الثمانينيات شهد الاقتصاد الأمريكى أزمة بيوت الادخار والإقراض (Savings and loans crisis) حيث أعلن ٧٤٧ بيتاً من تلك البيوت إفلاسها. ونتج عن ذلك خسارة المدخرين مائة وستين مليار دولار وتكلفت الحكومة الأمريكية مبلغ ١٢٤ ملياراً لتعويض تلك الخسارة. وكان سبب تلك الأزمة الرئيسى هو رفع القيود عن الأسواق المالية الذى أعطى صناديق الادخار والإقراض حرية العمل وكأنها بنوك تجارية دون أن تكون موضوعة تحت نظام الرقابة والإشراف التى تخضع لها البنوك. ونتج عن ذلك قيام تلك الصناديق باستثمارات خطرة جداً وذلك فى أجواء حمى الاستثمارات العقارية التى كانت منتشرة تلك الأيام.

بدأ عقد التسعينيات بركود اقتصادى انتهى مع حرب عاصفة الصحراء التى كانت من الحروب المفيدة للاقتصاد الأمريكي، حيث قامت دول الخليج العربية بدفع كامل تكاليفها وفق التقدير الأمريكي. ثم استعاد الديمقراطيون البيت الأبيض فى فترة إدارة الرئيس كلينتون التى حاولت أن تعيد نوعاً من الاستقرار للوضع المالى الأمريكى فقامت بتخفيض الميزانية العسكرية حتى تمكنت من القضاء على العجز فى ميزانية الحكومة الاتحادية، وبالتالى تقلص حجم الاقتراض الأمريكى من الخارج وبسبب ذلك تمكنت الإدارة الأمريكية من القيام بدور قيادى فى معالجة الأزمات النقدية التى اجتاحت أوروبا (١٩٩٢-١٩٩٣) وأمريكا اللاتينية فى (١٩٩٤-١٩٩٥)، وشرق آسيا فى (١٩٩٧-١٩٩٩). بل وعملت الإدارة الأمريكية على تجيير تلك الأزمات لمصلحة الرأسمالية الأمريكية. وانتهى القرن بأزمة صناعة التقنية العالية فيما عرف بأزمة «دوت كوم» (Dot com crisis). حيث انهارت أسهم شركات التقنية العالية التى كانت قد ارتفعت لحدود ليس لها علاقة بالواقع الاقتصادى للشركات التى أصدرتها. وبسبب ذلك بدأ القرن الجديد بعام من الركود الاقتصادي. تبعه تولى إدارة الرئيس جورج بوش الابن الحكم، ثم الهجوم الانتحارى على نيويورك وواشنطن فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وإعلان الولايات المتحدة حربها على «الإرهاب».

بكل بساطة، وبدون أى مبالغة، خاضت حكومة الولايات المتحدة الحرب على الإرهاب فى السنوات السبع الماضية بنفس الأسلوب الذى اتبعته صناديق المال الأمريكية بعد أن «تحررت» من القيود التى كانت تنظم نشاطها قبل مجيء إدارة ريجان إلى الحكم. فقد تصرف تلك الصناديق على أساس أنها هى المرجع المالى الوحيد فى العالم ويكفى أن تضع توقيعها على أى ورقة حتى تتحول تلك الورقة إلى ثروة، وكذلك تصرفت إدارة الرئيس بوش الابن على أساس أن الولايات المتحدة هى القوة الوحيدة فى العالم المسئولة عن قضايا الحرب والسلام وهى القوة الوحيدة التى لها الحق فى تصنيف القوى الأخرى فى العالم بين ديمقراطية ودكتاتورية، وبين قوى الخير وقوى الشر. وكما أن صناديق المال أخذت فى إصدار «سندات الرمة» و«رهون تحت المستوى» التى تعتمد على أموال الآخرين وليس أموالها كذلك أخذت إدارة الرئيس بوش خوض الحروب (أفغانستان والعراق) بتمويل يعتمد على الاقتراض من الخارج وليس من دافع الضرائب الأمريكي. فبينما انتهت إدارة الرئيس كلينتون عام ٢٠٠٠ وفى الخزينة الأمريكية فائض يقدر بمبلغ ٢٤٦ مليار دولار عانت الخزينة بعد سنة واحدة من غزو العراق من عجز بلغ ٦٥٦ مليار دولار.



فى السنوات السبع الماضية، تصرفت الرأسمالية المالية الأمريكية والإدارة السياسية الأمريكية على أساس أنهما يعيشان فى عالم ليس فيه يوم للحساب.

ولقد جاء يوم الحساب للرأسمالية الأمريكية عندما بلغ عدد بيوت السكن التى يزيد قيمة رهنها العقارى عن قيمتها الحقيقية فى السوق خمسين مليون بيت وهذا يعنى أن أصحاب تلك البيوت يملكون ثروة سالبة (Negative equity) ويترتب على هذا الوضع أمران. الأول هو أنه عندما يعجز صاحب البيت عن سداد الأقساط الشهرية فإنه يخسر البيت ويظل مديناً للبنك، والثانى أنه عندما يقوم البنك ببيع البيت من جديد فإنه يبيعه بخسارة، وتراكم هذه الخسائر قاد لعمليات الإفلاس. ومن الطبيعى أن إفلاس أى مؤسسة مالية يؤثر سلباً على المؤسسات المالية الأخرى بحكم ارتباطات المؤسسات ببعضها. ومن الطبيعى أيضاً ألا يتوقف الضرر عند المؤسسات المالية بل يتعداه لكل المؤسسات الاقتصادية، فعندما يتضرر أحد البنوك فإن أول ما يفعله هو استدعاء ديونه من المؤسسات المدينة له وهذا يقود على الفور لتقليص حجم الاستثمار والإنتاج والتوظيف فى تلك المؤسسات مما يقود إلى مشكلة الركود الاقتصادي. وفى هذا السياق نفهم معنى الخطة التى تبنتها إدارة الرئيس بوش فى اعتماد مبلغ ٧٠٠ مليار دولار لشراء الأسهم الفاسدة فى المؤسسات المالية. فالخطة تهدف إلى وقف إفلاس المؤسسات المالية حتى لا يقود ذلك إلى إفلاس المؤسسات الإنتاجية. ومن الممكن أن تنجح الخطة، وعلى الأغلب أنها ستنجح فى إيقاف مسلسل الإفلاس، ولكن إلى متى؟

لنتذكر أولاً أن الحكومة الاتحادية تعانى من العجز فى الميزانية وهى غير قادرة على الاقتراض من المال الأمريكى وذلك لأن المواطن الأمريكى هو أيضاً يعانى من عجز فى ميزانيته (ففى المتوسط ينفق المواطن الأمريكى أكثر من دخله) وهذا يعنى أنها ستقوم باستدانة ٧٠٠ مليار دولار من العالم الخارجي.

لنفترض أن الخطة نجحت فى وقف التدهور بضعة شهور ثم عادت الأزمة من جديد وظهرت الحاجة إلى ٧٠٠ مليار دولار أخرى، فهل سيقوم العالم بإقراض ذلك المبلغ أيضا؟

لنفترض كذلك أن الإدارة الأمريكية رأت أن اكتمال الديمقراطية فى الشرق الأوسط الجديد تتطلب شن حرب على إيران. فهل سيقوم العالم بإقراض الولايات المتحدة تكلفة الحرب الجديدة؟

لوضع هذه الأسئلة فى السياق الواقعى يجب ملاحظة النقاط الثلاث التالية:

- اقتراض الولايات المتحدة من العالم هو فى معظمه اقتراض من العالم الثالث. وفى معظمه من الصين وبلدان الخليج.
- تقوم دول العالم الثالث بإقراض



بدأ عقد التسعينيات بركود اقتصادى انتهى مع حرب عاصفة الصحراء التى كانت من الحروب المفيدة للاقتصاد الأمريكي

الولايات المتحدة عن طريق شراء سندات الخزانة الأمريكية لأنها تملك فائضاً مالياً حيث إن مجمل ما تدخره هذه الدول فى السنة يزيد على مجمل استثماراتها. وقد زاد معدل الادخار السنوى فى العالم الثالث من ٢٤٪ من الدخل القومى فى عام ١٩٩٩ إلى ٣٣٪ فى عام ٢٠٠٦. وبالتالى زادت نسبة الفائض المالى لأن معدلات الاستثمار لم تتزايد بنفس نسبة الزيادة فى معدلات الادخار.

● سيأتى الوقت الذى ينضب فيه الفائض المالى فى العالم الثالث وذلك من جراء تراكم الخسائر التى تصيب مدخراته فى الأسواق مع تكرار الأزمات المالية.

وهكذا يتضح لنا أن خطة الرئيس بوش فى اقتراض ٧٠٠ مليار دولار من أجل شراء أصول المؤسسات المالية لمنعها من الانهيار هو علاج مؤقت قد ينجح لفترة مؤقتة فى وقف الانهيار كما نجحت خطة إنقاذ بيوت الادخار والقروض فى التسعينيات، ولكنها ليست الخطة التى تعالج أسباب الأزمة الحقيقية التى هى المغامرات المالية فى الداخل والمغامرات الحربية فى الخارج.

[٤]

لقد رأينا أن التوجه السياسى للحكومة الاتحادية فى الولايات المتحدة الأمريكية قد مر بثلاث مراحل فى القرن العشرين. مرحلة «نظام ١٨٦٩» ومرحلة «العهد الجديد» ومرحلة «الليبرالية الجديدة»، وأن كل مرحلة من المراحل الثلاث قد انتهى بأزمة اقتصادية. كانت فى جوهرها أزمة فى النظام المالى.

× انتهت مرحلة «نظام ١٨٩٦» بالركود الاقتصادى الكبير الذى ابتدأ بانهيار السوق المالى عام ١٩٢٩ بسبب عدم وجود قواعد وضوابط تنظم عمل السوق.

● انتهت مرحلة «العهد الجديد» بمشكلة الركود التضخمى التى ابتدأت بإقدام الولايات المتحدة على شن الحروب الإمبريالية وتمويلها من أموال العالم الخارجي وليس من أموال دافع الضريبة الأمريكي.

● انتهت مرحلة «الليبرالية الجديدة» بمشكلة انهيار النظام المصرفى الأمريكى التى هى فى واقع الأمر مشكلة جمعت بين مشاكل المرحلتين السابقتين أى عدم وجود ضوابط تنظم عمل سوق المال وبنفس الوقت القيام بشن حروب إمبريالية يتم تمويلها من الخارج.

وهنا تبرز الأسئلة المحورية حول طبيعة المرحلة القادمة التى ستبدأ مع الانتخابات الرئاسية فى ٤ نوفمبر ٢٠٠٨.

● هل سيفوز الحزب الديمقراطى فى الانتخابات، وإذا فاز، فهل سيتمكن باراك أوباما من قيادة تغيير جذرى فى توجه الحكومة الاتحادية ينهى عهد المغامرات المالية والإمبريالية وتتخلى الولايات المتحدة عن التشبث بعالم وحيد القطب الذى لم يعد ممكناً؟

● هل سيكون أوباما قادراً على صياغة رؤية جديدة تجمع شجاعة وليم جينكز براين وبعد نظر فرانكلين روزفلت؟ أم أنه سيكون مجرد وليم كلينتون آخر يقوم بإصلاحات جزئية محدودة تؤجل يوم الحساب إلى يوم آخر؟

الأزمة كبيرة وصعبة وعلى اتساع العالم، ومن الممكن أن تجر العالم لكارثة كبرى قبل أن يعثر الشعب الأمريكى على قائد قادر على الارتفاع إلى مستوى المسئولية. ■

هـــــــوامـــــــش

(١) هناك إشكالية فى تعبير «الليبرالية الجديدة» إذ إنها تعنى تحديثاً فى الليبرالية القديمة وهذا غير صحيح فهى لا تمت بأى صلة لمفهوم الليبرالية القديمة أو الليبرالية الكلاسيكية الذى كان سائداً فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وسنرى ذلك بوضوح فيما بعد.

(٢) هنالك، طبعاً، طريقة أخرى وهى إقدام البنك المركزى على تخفيض حجم النقد على أساس أن ذلك يقود إلى ارتفاع سعر الفائدة الذى يقود إلى تخفيض الطلب الاستثماري. وبالتالى حجم الطلب العام ولكن كينز لم يضع ثقة كبيرة فى هذه الطريقة لأنها غير مباشرة.

(٣) بعد روزفلت تم تعديل الدستور الأمريكى وأصبح لا يسمح للرئيس بدخول الانتخابات أكثر من مرتين متتاليتين.

(٤) لم تكن هذه الملاحظة نظرية، فكينز كان له تجربة كبيرة مع أسواق المال، ومن المعروف عنه أنه كان يخصص وقتاً معيناً كل صباح لدراسة السوق وتقرير ما يشتريه ويبيعه من الأسهم والسندات ذلك اليوم ويقال أنه ربح خلال حياته من ذلك النشاط الاستثمارى فى السوق ما يقدر بمليونى جنيه إسترليني.

(٥) أنظر كتاب هيكل «الإمبراطورية الأمريكية: الإغارة على العراق»، دار الشروق (٢٠٠٣).

(٦) من أشهر تلك النظريات النظرية المعروفة باسم «التوقعات العقلانية» (Rational expectation) ونظرية «جانب العرض» (Supply side) ونظرية «دورة التجارة الحقيقية» (Real business cycle)

(٧) تعود مقولة الصدمة والرعب، التى تعرف من ناحية تقنية بأنها السيطرة أو الهيمنة السريعة على قوى العدو، إلى هارلان أوليمان وجيمس ويد وكانا يعملان فى جامعة الدفاع الوطنية فى منتصف التسعينيات.

كتاب الزاوية



قصائد من المغرب العربي

(١)

يقُولون: «صَوْتُ المُسْتَذلّين خَافِتٌ»

يَقُولونَ: أصَوْتُ المُسْتَذلّين خَافِتٌ
وسمعُ طغاةِ الأرض «أطرشُ» أضخم
وفي صيحةِ الشّعبِ المُسخّرِ زعزعٌ
تَخرُّ لَهَا شمُّ العُروشِ، وتُهدمُ
ولعلّةُ الحقِّ الغضوضِ لها صدًى
ودمدمةُ الحربِ الضّروسِ لَهَا فمُ
إذَا التفَّ حَوْلَ الحقِّ قَوْمٌ فإنّهُ
يُصَرِّمُ أحداثَ الزَّمانِ ويُبرِمُ
لكَ الويْلُ يا صرْحَ المظالمِ منْ غدٍ
إذا نهضَ المستضعفونَ، وصمّموا!
إذا حطّمَ المُستَعبدُونَ قيودَهُمْ
وصبّوا حميمَ السُّخطِ أيّانَ تعلمُ..!
أغرّكَ أنّ الشّعبَ مُغضٍ علَى قذًى
وأنّ الفضاءَ الرّحبَ وسنانُ، مُظلمُ؟
ألا إنّ أحلامَ البلادِ دفينةٌ
تُجَمْجِمُ في أعماقِهَا ما تُجمجمُ
ولكن سيأتي بعد لأيٍ نشورها
وينبثقُ اليومُ الذي يترنّمُ
هُوَ الحقُّ يُغفي .. ثُمّ يَنهضُ ساخطاً
فيهدمُ ما شادَ الظّلامُ، ويحطمُ
غدا الرّوعُ، إن هبَّ الضعيفُ
ببأسه، ستعلمُ من منّا سيجرفُه الدمُّ
إلى حيث تجني كفُّهُ بذرَ أمسه
ومُزْدرعُ الأوجاعِ لا بُدَّ يَندمُ
ستجرعُ أوصابَ الحياةِ، وتنثني
فتُصغي إلى الحقِّ الذي يَتَكلّمُ
إذا ما سقاكَ الدهرُ من كأسهِ التي
قَرارتُها صابٌ مَريرٌ، وَعلْقَمُ
إذا صعقَ الجبّارُ تحتَ قيودِه
يُصيخُ لأوجاعِ الحَياةِ ويَفهَمُ!!

أبو القاسم الشابي
تونس

جورج سوروس

جون كاسيدى

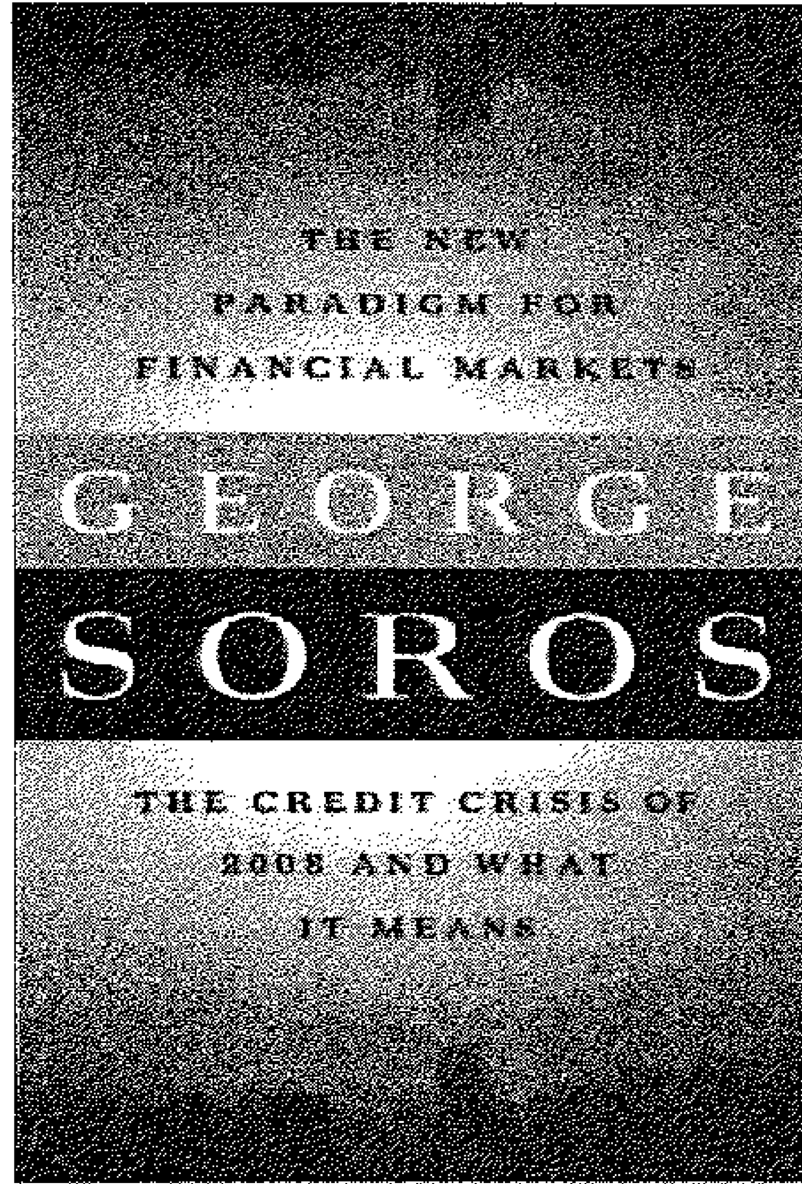
ظل جورج سوروس مستثمراً نشطاً لأكثر من نصف قرن. وفى منتصف الثمانينيات، عندما بدأت الكتابة حول وول ستريت، كان سوروس بالفعل من كبار مديرى المحافظ الوقائية. وفى تلك الأثناء، لم يكن هناك كثيرون يفهمون معنى المحافظ الوقائية. لكن بالنسبة للمستثمرين الحاليين فى صندوق سوروس الاستثماري، الذى أنشأه فى ١٩٧٣، كان هذا الصندوق هو النموذج الأمثل للمحافظ الوقائية: فخلال عام بعد عام، حقق عوائد زائدة عن تلك المحققة فى السوق الأوسع. وبعد النجاح فى مقاومة الانهيار فى سوق الأوراق المالية عام ١٩٨٧، أستطاع صندوق سوروس الاستثماري، الذى يديره ستانلى دروكنميللر بشكل يومى منذ عام ١٩٨٩، تحقيق مزيد من الأرباح الكبيرة، والتى بلغت ذروتها فى المضاربات الضخمة ضد الاسترلينى فى ١٩٩٢، والتى حققت أكثر من مليار دولار. (لم يعلن أبداً سوروس المكسب، لكن الصحف البريطانية ذكرت أنه ١,١ مليار دولار).

ومنذ ذلك الحين، قضى سوروس المزيد من وقته فى أنشطة إنسانية فى مناطق مختلفة من العالم، بما فى ذلك عديد من الجهود المخلصة لتعزيز انتشار الديمقراطية فى منطقة شرق أوروبا التى ينتمى إليها (فقد ولد فى بودابست عام ١٩٣٠). وبعد عام ٢٠٠١، انخرط سوروس فى السياسات الداخلية الأمريكية، وكان ناقداً صريحاً لإدارة بوش. وفى الإعداد لانتخابات ٢٠٠٤، منح مبالغ ضخمة لمنظمة MoveOn.org، وهى منظمة إنترنت ليبرالية. ومؤخراً، ساهم وعائلته فى تمويل الحملة الانتخابية لمرشح الرئاسة باراك أوباما.

غير أن سوروس يظل مضارباً فى المقام الأول. ففى عام ٢٠٠٧، بعد ظهور أزمة الرهون العقارية، عاد لإدارة صندوق سوروس الاستثمارى وهو فى السابعة والسبعين من عمره. وأشارت نتائج هذه الدراسة إلى أنه لم يفقد لمسته الخاصة فى إدارة الأموال. وتقدر مجلة ألفا Alpha التى تغطى المحافظ الوقائية، أنه حقق ٢,٩ مليار دولار فى ٢٠٠٧، وهو ما وضعه فى المرتبة الثانية فى قائمة كبار المضاربين. حيث لم يسبقه سوى جون بولسون صاحب جون بولسون Paulson & Co وشركاه، والذى حقق بدوره أرباحاً مدهشة بلغت ٣,٧ مليار دولار.

وفى بداية العام الحالي، كان سوروس يعتقد عن حق أن الأزمة المالية مازالت أبعد ما تكون عن النهاية. ومن ثم تبنى استراتيجية استثمارية فطة يمكن وصفها كالتالي: «أسهم أمريكية وأوروبية قصيرة المدى، سندات حكومية أمريكية مدتها عشر سنوات، بالدولار الأمريكي، وأسهم طويلة الأمد صينية وهندية وخليجية، وعملات غير الدولار». وفى البداية، لم تعط بعض من هذه الاستثمارات مردوداً. وبين يناير ومارس، انخفضت قيمة السندات الأمريكية وسقطت الأسهم الهندية، مما محا العوائد الأخرى التى حققتها الأجزاء الأخرى من المحافظة الاستثمارية لسوروس. ولا يعلم سوى المستثمرين فى صندوق سوروس الاستثمارى المبالغ التى تكبدها سوروس فى الأشهر الأولى من الاضطراب المالي، لكنه سيكون من البلاهة الرهان ضده.

قدرت مجلة فوربس مؤخراً صافى ما حققه سوروس بـ ٩ مليارات دولار. وبالرغم من النجاح العالمى الذى حققه سوروس، إلا أنه مازال لديه طموح غير مشبع: فهو يريد أن يأخذه الآخرون مأخذ الجد، ليس فقط كممارس مالى ولكن أيضاً كمنظر. فى عام ١٩٨٧، نشر سيمون وشوستر Simon and Schuster كتابه الأول، سيمياء التمويل Alchemy of Finance والذى عرض خلاله نظريته عن الانعكاسية والتى تزعم أن حركات السوق الأساسية، مثل الارتفاع الأخير فى أسعار السلع، يمكن أن تأخذ حياة مستقلة بذاتها، وتحاصر المستثمرين بالأوهام، وتحدث اضطراباً كبيراً فى النظام الاقتصادي.





وقد تمتع الكتاب بشعبية بين المستثمرين الاخرين. فيكتب بول تيودر جونز: «عندما أدخل حلبة الخسارة الحتمية التى تهوى بكل المستثمرين، التقط سيمياء التمويل وأعود إلى حملات سوروس». لكن عديداً من الاقتصاديين المحترفين، الذين يميلون إلى رسم صورة أكثر تفاؤلاً للأسواق المالية، يرفضون نظرية سوروس باعتبارها غير صالحة. وفى النيو ريبابليك New Republic، شكك روبرت سولو، أحد كبار المتخصصين فى الاقتصاد الكلى فى القرن العشرين، فى أن سوروس عرف المعادلات الآنية، أى نظم المعادلات التى تتضمن أكثر من متغير تابع. (وبالنسبة لأولئك غير العالمين بعلم الاقتصاد، فإن هذا الاتهام يشبه اتهام نجار بعدم معرفة كيفية استخدام الإزميل).

وكما هى عادته، يملك سولو منطقاً. إن طريقة عرض سوروس لأفكاره كانت مشوشة نوعاً ما. لكن الأمر المريب يبقى أن تهمته الأساسية هى تحدى الاقتصاديين المحترفين فى مجال تخصصهم. واليوم هو يعيد الكرة، فى كتابه الأبسط والأقصر بعنوان المنهج الجديد للأسواق المالية The New Paradigm for Financial Markets، غير أن نظريته الأثيرة ليس من السهل رفضها. ومنذ نشر كتابه سيمياء التمويل، شهد الاقتصاد العالمى سلاسل متفرقة من دورات الازدهار والإفلاس الطويلة والمتفرقة جغرافياً، كانت آخرها الأزمة التى تضرب الاقتصاد الأمريكى حالياً. غير أن مثل هذه الحلقات كان معترفاً بها من قبل اقتصاديى العصر الفيكتورى مثل جون ستيوارت ميل وألفريد مارشال، الذين يطلقون على هذه الدورات «دورات تداول»، فإن هذه الحلقات تتحدى المعتقدات الاقتصادية الحديثة، التى تصف الاقتصاد فى العموم، والأسواق المالية بشكل خاص، باعتبارها تتسم بالكفاءة والاستقرار ووجود الآليات التى تمكنها من تصحيح نفسها بنفسها.

فى منتصف سبتمبر، لم تظهر أزمة الائتمان أى علامة على التراجع، فقد كانت تصبح أكثر فأكثر قسوة. فقد أفلس أحد البنوك الكبرى فى وول ستريت هو ليمان براذرز Lehman Brothers. وتمكن بنك مشابه هو ميريل لينش Merrill Lynch من تجنب نفس المصير عبر الاندماج مع بنك تجارى كبير هو بنك أوف أمريكا Bank of America. ودخلت إيه آى جى AIG أكبر شركة تأمين فى أمريكا، فى مرحلة خطيرة إلى الحد الذى جعل دفع بنك الاحتياط الفيدرالى إلى إقراض الشركة ٨٥ مليار دولار، والاستحواذ على ٨٠٪ من ملكية الشركة، خوفاً من أن يؤدى انهيارها إلى انهيار عدد من المؤسسات المالية الأخرى. وأخيراً، ففى الوقت الذى كان يجرى فيه إنقاذ إيه آى جى AIG، وكان الاقتصاد الأمريكى على حافة الانهيار التام، كشف وزير الخزانة هانك بولسون Hank Paulson عن خطة للحكومة الفيدرالية لشراء ما قيمته ٧٠٠ مليار دولار من أوراق الرهون المتعثرة.

وغنى عن القول أن هذه الأحداث لم يسبق لها مثيل فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، رغم أن دارسى الكساد العظيم، مثل بن بيرنانك رئيس فيد

قدرت مجلة فوربس مؤخراً صافى ما حققه سوروس بـ ٩ مليارات دولار

The New Paradigm for Financial Markets: The Credit Crisis of 2008 and What It Means
المنهج الجديد للأسواق المالية. أزمة الائتمان فى ٢٠٠٨ وما تعنيه
George Soros
Public Affairs, 162 pp.,$22.95

بترتيب خاص مع:
New York Review of Books

ترجمة: غادة طنطاوى

.. نهاية عصر

Fedرأوا أموراً متشابهة بشكل مخيف بين أحداث اليوم والكساد العظيم. ولكن بالرغم من كل ذلك، ظل الاقتصاديون الذين أصروا على التمسك بالمعتقدات الاقتصادية الحديثة حول الأسواق المالية، وأجبروا أجيالاً من طلبة الاقتصاد على تجرعها، صامتين بشكل لافت للنظر. فيما يتعلق بما هو موطن الخطأ في نظرياتهم.

وعلى أية حال، لا يملك سوروس كافة الإجابات. ولكنه لديه شيء ليقوله، وذلك على عكس بعض أساتذة الاقتصاد الذين رفضوه باعتباره شخصاً مثيراً للضيق. (يجب ملاحظة أنه في الأعوام الأخيرة، خلق بعض المنظرين، المنضوين تحت راية «التمويل السلوكي» نماذج أكثر واقعية، يمكن أن تجعل الأسواق المالية تتخلى عن الأساسيات الاقتصادية، والمتعلقة بإمكانية أن تؤدي المضاربة إلى عدم الاستقرار وقدرة دورات الازدهار والإفلاس على الاستمرار. غير أنه حتى وقت قريب جداً، مازالت هذه النظريات الجديدة لها تأثير محدود. أو ليس لها تأثير على وجه الإطلاق. على صناع القرار في المجال الاقتصادي)(*).



تلعب الأسواق المالية دورين أساسيين في الاقتصاد: (1) تأخذ الأموال من أولئك الذين ليسوا في حاجة فورية إليها، مثل الأشخاص الذين يدخرون من أجل التقاعد أو الأغنياء بالوراثة، وتضع هذه الأموال في أيدي الشركات ومؤسسات الأعمال التي لديها أفكار استثمارية منتجة لكن ليست لديها سيولة نقدية كافية لتمويل هذه الأفكار (2) تسمح للأفراد والمؤسسات بإشراك الذين يرغبون في تحمل الأخطار. إذا لم تكن توجد وول ستريت، كان لابد من إيجاد طريقة أخرى لتوزيع المدخرات والأخطار. إن أحد البدائل هي القسر، لكن تاريخ الاتحاد السوفيتي والدول الشيوعية الأخرى تشير إلى الصعوبات التي تكتنف القرارات المتعلقة بتبني نمط الاقتصاد المركزي.

إن الميزة الأساسية في نظام السوق هي أنه يأخذ المعلومات عبر الاقتصاد ككل، ويترجمها إلى إشارات عامة، أسعار، يمكن أن يتفاعل معها المستثمرون. وفي بداية هذا العام، يستيقظ المستثمرون على واقع أن ديترويت Detroit قد تجاهلت التهديد الخاص بتراجع أسهم النفط، وراهنت في مستقبلها على

لا يملك سوروس جميع الإجابات. ولكنه لديه شيء ليقوله





© Kerry Waghorn
www.Kerrywaghorn.com

سيارات الدفع الرباعي التي تستهلك الغاز بكثافة، انخفضت أسعار أسهم شركات السيارات الأمريكية، وهو ما جعل قدرتها على بيع حصص في مؤسساتها أكثر تكلفة. غير أن تويوتا وهوندا، اللتين استثمرتا بكثافة في أصغر السيارات وأقلها استهلاكاً للوقود، رأت أسهمها قادرة على الصمود بشكل أفضل، وهو ما مكنها من الحصول على تمويل رخيص. لم يخطط أحد لذلك، لكن في هذا المثال، قام السوق بمكافأة بعيدي النظر وذوي القدرة على الابتكار.

وكي تستطيع الأسواق المالية أن توزع الموارد على أكثر الاستخدامات إنتاجية، وعلى أساس من قاعدة متينة، يجب أن تكون إشارات الأسعار التي ترسلها هي الإشارات الصحيحة يوماً بعد يوم. هل هذا هدف واقعي؟ إن مستثمراً طبيعياً قد يتبع نقاط داو Dow's gyrations عن طريق سي إن بي سي CNBC أو ياهو المالي Yahoo Financeأو يمكن إغواؤه بعدم الاستجابة لذلك. لكن هذا المستثمر لا يتمتع بالميزة التي يتمتع بها الحاصل على دكتوراة من جامعة شيكاغو.



تدين وجهة النظر الجديدة إزاء الأسواق بالكثير لثلاثة من اقتصاديي مدرسة شيكاغو، هم ميلتون فريدمان، وأوجيني فاما وروبرت لوكاس. وبالرغم من أنه معروف بكتابه حول النظرية النقدية، وبحماسة في الإيمان بالرأسمالية، إلا أن فريدمان قد لعب في بداية حياته العملية دوراً رئيسياً في تطوير ما يسمى بـ«فرضيات السوق الكفء» والتي قدمت إلى جانب رؤيته بشأن فرضيات التوقع العقلاني. انظر أدناه. أساساً فكرياً لأكثر من عقدين من انخفاض التنظيم المالي. وإذا قمنا بصياغة المسألة بطريقة مختصرة، فإن فرضيات السوق الكفء تعتبر أن أسعار الأسهم والسندات والأصول الأخرى القابلة للمضاربة، تعكس بالضرورة كل ما نعرفه عن أسس الاقتصاد مثل التضخم والصادرات وربحية الشركات. ويمكن إثبات ذلك عبر وضع فرضية ذات وجهين. فبافتراض أن أسعار الأسهم تزايدت أعلى من المستويات المتناسبة مع أسس الاقتصاد، فإن المضاربين الماهرين، أمثال سوروس، سوف يهرعون لبيع أسهمهم، ومن ثم يحافظون على أسعارها وفقاً للمستويات المناسبة. وإذا هبطت الأسهم إلى مستويات أدنى من تلك



المتناسبة مع أسس الاقتصاد، فسوف يهرع المضاربون لشراء تلك الأسهم.

وفى واقع الأمر، فقد صاغ فريدمان فرضية الأسواق الكفء فى سياق تحليل العملات. وكان فاما، وهو أحد تلاميذ فريدمان، هو الذى طبقها على سوق الأوراق المالية وأشار إلى تتابع طريف: فإذا ما كانت أسعار الأسهم تعكس بالفعل كل ما هو معروف لدينا، فإنه لا يمكن للمستثمرين أن يأملوا فى التفوق على السوق عبر استخدام استراتيجيات للمعاملات ترتكز على معلومات متاحة للعامة. فبدلا من أن يضيعوا وقتهم فى محاولة التقاط الأسهم الفردية، فيجب أن تتم نصيحتهم بأن يضعوا مدخراتهم فى صندوق مشترك ومتنوع إلى حد كبير ويقوم بتتبع الحركة اليومية للسوق. والشكر الجزيل لفاما وتابعيه، فقد أصبحت ما تسمى صناديق المؤشرات تلعب دورا مركزياً فى عديد من خطط التقاعد لدى الأمريكيين.

ويقال أن لوكاس، العضو الثالث فى ثالوث شيكاغو، كان أكثر تأثيراً حتى من فريدمان. ففى سلسلة من الأوراق الذكية التى نشرت فى الستينيات والسبعينيات، قام لوكاس وعديد من زملائه بتوسيع نطاق المنهج المفرط فى العقلانية الذى يمثل أساس فرضية الأسواق الكفء لتشمل أجزاء أخرى فى الاقتصاد، مثل سوق الوظائف، ونتاج قرارات الشركات، ورسم السياسة الاقتصادية. وحينما انتهى لوكاس وزملاؤه من ذلك، كانوا قد اخترعوا طريقة جديدة فى تحليل الاقتصاديات الكلية، عرفت بـ«مقترب التوقعات العقلانية»، والتى عبر استخدام رفيع المستوى للرياضيات، أكدت على خاصية النزوع إلى الاستقرار التى تتميز بها الأسواق غير المقيدة. ولا تحتاج إلى قضاء الكثير من الوقت كى تكتشف ان التوقعات هى القوة التى تحرك الأسواق. فإذا توقع المستثمرون أنباء جيدة، فإنهم يقومون بالشراء؛ وإذا توقعوا أنباء سيئة، فإنهم يقومون بالبيع.

ومن ثم، فمن أين تأتى هذه التوقعات الاقتصادية؟ وفقاً للوكاس، تعكس هذه التوقعات حقيقة محددة مسبقاً، وقائمة على أسس خارجية، ومتفقا عليها جماعياً. وفى النماذج الخاصة بلوكاس، فإن المعادلات الاقتصادية للحركة تكون محددة جيداً ومعروفة للجميع - بدءاً من الاقتصاديين الحاصلين على الدكتوراة فى الاقتصاد من جامعة شيكاغو إلى الممرضات وسائقى التاكسي. وباستخدام هذه المعرفة العامة، يُكون الأفراد توقعات عقلانية حول أمور مثل معدلات التضخم والفائدة. لكنهم لا يصلون إلى النتيجة الصحيحة دائماً. حيث أنه يسمح بقدر من العشوائية. لكنهم يكونون محصنين من ارتكاب أخطاء منهجية. فإذا حدث خروج عن المسار فى فترة ما، فإنه فى الفترة التالية يتم العودة إلى التوازن، وفقاً لما هو محدد فى النموذج.

وحيث إن لوكاس لم يرض بمجرد خلق نماذج جديدة، فإنه ايضاً انتقد النظريات الأقدم التى رأت فى الرأسمالية المالية مسألة تشوبها درجة أكبر من عدم التأكد. فقد أعلن فى وقت ما أن الكنزية لم تكن مجرد خطأ، بل إنها لم تعد تستحق الاحترام على المستوى الفكري.

ولم يكن لسوروس لا الميل ولا القدرة الفنية لانتقاد الأطروحات الرسمية لمدرسة شيكاغو. (ففى فقرة تتسم بالبلاغة، كشف سوروس انه لم يكن بارعاً فى الرياضيات، وأنه حصل على درجات منخفضة فى كلية لندن للاقتصاد London School of Economics (حينما كان يدرس فى نهاية الأربعينيات). غير أن ما يملكه سوروس بالفعل هو القدر الهائل من المعرفة المباشرة التى حصل عليها فى أسواق المال، وذلك جنباً إلى جنب مع الحرص على صياغة نظرية بناء على ملاحظاته. ولم يؤد الانتقاد الأكاديمى الذى لاقاه كتابه سيمياء التمويل إلى تراجعه عن بذل هذا الجهد. فقد كتب يقول «ظل الإطار المفهومى الخاص بى أمراً شخصياً مهماً جداً بالنسبة لي. فقد أرشدنى فى جلب المكاسب عند إدارتى للمحافظ الوقائية، وفى إنفاقها باعتبارى شخصاً غيرياً؛ وقد أصبح هذا الإطار جزءاً لا يتجزأ من هويتي».

لكن فى خارج العالم المثالى الذى تفترضه نظرية لوكاس، تكون المعرفة غير تامة، ويتبنى الناس أفكارا خاطئة، ولا توجد رؤية متفق عليها بشأن كيف يعمل الاقتصاد. وفى هذه الظروف، يبين سوروس عن حق أن توقعات اقتصادية ما، حتى لو كانت منحازة، يمكن أن تساعد فى تحديد الأسس الاقتصادية. وإحدى طرق الوقوف على الطرح الذى يقدمه سوروس هى النظر إلى الشكل الموجود فى هذه الصفحة، والذى تشير فيه الأسهم إلى اتجاهات السببية، والذى رسمته بنفسى لكنه يعبر بجلاء عن العلاقات التى يفسرها.

يمكن تأويل الانعكاسية باعتبارها حالة دورية، أو حلقة ذات جانبين لتبادل الآراء بين المشاركين والأحداث الفعلية على الأرض. لا يتخذ الأفراد قراراتهم بناء على الوضع الفعلى الذى يواجهونه، ولكن بناء على تصوراتهم، أو تأويلهم لهذا





لم يكن لسوروس لا الميل ولا القدرة الفنية لانتقاد الأطروحات الرسمية لمدرسة شيكاغو



الوضع. ويكون لقراراتهم أثر على الوضع الفعلى (وظيفة التلاعب). وتؤدى التغيرات فى الأوضاع إلى تغيرات فى تصوراتهم، (وظيفة التعلم).

يمكن أن يساعد مثال افتراضى بسيط - والذى أتحمل المسئولية عنه أيضاً - على شرح ما يحدث فى مثل هذا النظام الانعكاسي.

تخيل أن شركة أيه بى سى ABC تحقق أرباحاً قدرها «W» دولار للسهم، وتوزع أرباحاً قدرها «X» دولار سنوياً. إذا افترضت أن معدل النمو هذا سوف يستمر إلى ما لا نهاية، يصبح عليك أن تطبق قواعد الرياضيات التى تدرس فى الجامعة كى تعرف ما يستحقه السهم فى شركة أيه بى سى ABC، وهو ما سوف أسميه Z دولار. وفقاً لاقتصاديى مدرسة شيكاغو، يزايد المستثمرون العالمون ببواطن الأمور حتى مستوى Z ثم يتوقفون. إذا ما زادت الأسعار أعلى من ذلك، فإنهم يهرعون للبيع، وإذا انخفضت عن ذلك، يهرعون للشراء. إذاً كل الأمور عقلانية: كل الأمور كفء.

تخيل الآن أن مجموعة من المستثمرين المتهورين غير العقلانيين تصوروا أن معدل نمو شركة إيه بى سى ABC سوف يتصاعد بنسبة ٢Y دولار، ونتيجة ذلك، رفعوا المزايدة إلى ٢Z دولار، واستمروا عند ذلك المستوى لفترة. ماذا يحدث بعد ذلك؟ قد تقوم شركة إيه بى سى ABC بإصدار مزيد من الأسهم مرتفعة المعدل واستخدامها فى شراء شركة منافسة دي إى إف DEF، والتى كان سعر أسهمها منخفضاً - مما يمثل مساومة نسبية. شكراً لسحر محاسبة الاستحواذ، حيث إن الإجراء الوحيد المتبع من جانب شركة ABC أيه بى سى وهو شراء شركة دى أى إف DEF، سيجعل الأمر يبدو وكأن أرباح السهم لديها تنمو بسرعة. وهكذا فإن توقعات الأرباح المتضخمة التى رفعت سعر أسهم أيه بى سى ABC، سوف تبدو مبررة. وغالباً، فإن السهم سوف يرتفع إلى مستويات أعلى - لوقت ما على أية حال.



وإذا كانت المناقشة أعلاه تبدو مجردة إلى حد ما، فلا يجب أن تفقد اهتمامك بها. ففى النصف الثانى من كتابه، يطبق سوروس إطاره النظرى على الأحداث التى عايشها، بداية من الرواج الذى شهدته الشركات فى الستينيات، وحتى أزمة الائتمان الراهنة. ورداً على الاستقبال

كانت الولايات المتحدة قادرة على تجنب هذا المصير بفعل وضع الدولار باعتباره عملة الاحتياط الدولية



القاسي الذي حظي به كتابه الأول، يقول:

زعم الكثيرون من منتقدي الانعكاسية أنني كنت أطرح أمراً بالغ الوضوح، وهو أن التصورات المنحازة للمشاركين تؤثر على أسعار السوق. غير أن جوهر الانعكاسية ليس بالغ الوضوح: فهو يؤكد أن أسعار السوق يمكن أن تؤثر على أساسيات الاقتصاد. إن الافتراض الوهمي بأن الأسواق دائما تستطيع السير في الطريق الصحيح يرجع إلى قدرتها على التأثير على الأساسيات التي يفترض أن تعكسها. إن التغير في الأساسيات قد يجبر التوقعات المنحازة على القيام بعملية تهدف في البداية إلى تأكيد الذات، لكنها في الواقع تؤدي إلى هزيمة الذات.

بالتأكيد، لا تحدث هذه الموجات المتتابعة من الازدهار والإفلاس طوال الوقت. ففي الأغلب، يصحح الانحياز الغالب نفسه قبل أن يؤثر على أساسيات الاقتصاد. لكن الواقع المتعلق بقابلية هذه الموجات المتتابعة للحدوث تفند نظرية التوقعات العقلانية. فعندما تحدث موجات الازدهار والإفلاس المتتابعة تلك، يمكن أن تأخذ أهمية تاريخية. وهذا هو ما حدث بالفعل في الكساد العظيم، وهو نفسه ما ينكشف الآن، رغم أنه يأخذ شكلاً مختلفاً.

وكان أحد الانقلابات المهنية التي قام بها سوروس هي قيامه بالاستثمار في المجموعات الصناعية سريعة النمو، مثل تكسترون Textron وإل تي في LTV وتيليدين Teledyne. ففي الفترة الأولى لإدارة نيكسون، استخدمت هذه الشركات أسهمها المتضخمة في شراء سلسلة من الشركات. وكما هو الحال في مثال شركة أيه بي سي ABC فإن الجمع بين شركة مرتفعة العوائد وشركة منخفضة العوائد أدى إلى زيادة الإيرادات لسهم الشركة منخفضة العوائد. وبالرغم من أن مستثمرين مثل سوروس يعرفون جيداً أن معظم هذا النمو هو وهم محاسبي، فقد استمروا في المزايدة على أسهم الشركات ومن ثم أبقوا على استمرار اللعبة.

ولكن حتى تستمر اللعبة إلى ما لا نهاية، يجب أن تستهدف الاستحواذات شركات أكبر وأكبر. وفي واقع الأمر، فإن مجموعة الاعتماد Reliance Group التابعة لسول ستينبيرج Saul Steinberg، قد قامت بمزايدة للاستحواذ على بنك الكيميائية Chemical Bank ذي السمعة المحترمة أدت إلى رد فعل معاكس بالنسبة للحكومة. فقد فشلت مزايدة ستينبيرج، وبدأ المستثمرون يشككون في المكاسب المتزايدة التي سجلتها مجموعة الاعتماد Reliance Group والمجموعات الأخرى. وبإدراك أن التوجه آنذاك كان تقريباً لأعلى، قام سوروس بالبيع وتوجه نحو دورة الازدهار والإفلاس التالية، والتي في هذه الحالة كانت شركات الاستثمار العقاري.

ويقدم سوروس دليلاً مفيداً من ثماني مراحل، لدورة الازدهار والإفلاس، جنباً إلى جنب مع سلسلة من خرائط الأسهم حتى تساعد القراء على تحديد الأسهم في المستقبل. وبالعودة إلى الوضع الحالي، يقول سوروس إن فقاعة العقارات الأخيرة في الولايات المتحدة توافقت في جزء كبير منها مع النموذج التاريخي، باستثناء أنه في هذه الحالة، تمركزت الانعكاسية حول سوق العقارات بدلاً من سوق الأسهم. ومع الارتفاع الكبير لأسعار المنازل بين ٢٠٠١-٢٠٠٥، انخفضت مستويات الائتمان بشكل حاد. وبدلاً من أن يقوموا بتقييد الائتمان لديهم، فإن ممولي الرهون خدعوا انفسهم واعتقدوا أن قيمة ضمان القرض سوف تستمر في الارتفاع. وأدى تقديم المزيد والمزيد من الائتمان في ظل شروط أسهل فأسهل، إلى الحفاظ على الطلب المرتفع على العقارات، وهو ما أكد بدوره أنه لعدة سنوات كانت التوقعات المتفائلة للمقرضين في محلها. ولم تنفجر فقاعة العقارات إلا عندما عجزت أعداد كبيرة من المقترضين عن الوفاء بالدين.

ويقول سوروس إن ما يميز هذه العملية عن عمليات الانكماش الماضية، وما يجعلها شديدة الخطورة، هو السياق الاقتصادي والتاريخي الذي تحدث فيه. ويكتب سوروس: «وفوق فقاعة العقارات الأمريكية، يوجد تعاقب أوسع من الازدهار والإفلاس، والذي بلغ في النهاية نقطة الانعطاف أو التجاوز». ويقترح سوروس أن الركود في مجال الإسكان يتبع النموذج التاريخي الطبيعي.

لكن بالإضافة إلى ذلك، فقد أدى هذا الركود أيضاً إلى التحول من الدولار إلى عملات أخرى، والتراخي في المجالات الأخرى التي جلبتها الابتكارات الحديثة إلى النظام المالي. ومن ثم، فهكذا ترتبط فقاعة العقارات بما يسميه «الفقاعة الفائقة».

وكما يصف سوروس، فإن الفقاعة الفائقة قد «تطورت عبر ربع القرن الأخير وهي تعد نتاجاً لثلاثة توجهات: العولمة، والتوسع في الائتمان، وانعدام التنظيم». ويقصد بالعولمة ليس فقط التوسع في تجارة السلع والخدمات، وصعود الصين والهند، ولكن أيضاً انبثاق الولايات المتحدة كالدولة المدينة الأولى في العالم. ويذكرنا أنه خلال العامين الماضيين، كانت الولايات المتحدة تدير عجزاً قيمته أكثر من ٦٪ من الناتج المحلي الإجمالي-وهو مستوى عادة ما يخص الدول النامية التي عادة ما تعاني من أزمة سعر الصرف.





يشهد التاريخ أن المحاولات العشوائية للخروج من الأزمات البنكية نادرا ما تنجح



وكانت الولايات المتحدة قادرة على تجنب هذا المصير بفعل وضع الدولار باعتباره عملة الاحتياط الدولية، ولأن الحكومات الأخرى، خاصة تلك في بكين، أظهرت رغبة في شراء كميات كبيرة من سندات الخزانة. ويلاحظ سوروس أنه «كانت هناك علاقة رمزية بين الولايات المتحدة، التي كانت سعيدة باستهلاكها لأكثر مما تنتج، وبين الصين والمصدرين الآسيويين الآخرين، الذين كانوا سعداء بأنهم ينتجون أكثر مما يستهلكون. راكمت الولايات المتحدة ديناً خارجياً؛ وراكمت الصين والدول الأخرى احتياطيات من العملات».

وتجاوز الرواج في الاقتراض سوق العقارات. ففي ظل الجيل الماضي، كان التوسع الكلي للاقتصاد الأمريكي قد أصبح أكثر فأكثر ظاهرة مدفوعة بفعل الأصول. في عام ١٩٨٠، كان المقدار الكلي لسوق ائتمان الديون غير المسددة يساوي تقريبا الناتج المحلي الإجمالي. في عام ٢٠٠٧، ارتفع ليمثل ٣٥٠٪ من مقدار هذا الناتج. إن تجميع رهون السكن في أوراق للتبادل - التوريق- لعب دوراً مهماً في هذا التحول. وهو ما نتج أيضاً عن القروض المتزايدة التي تقدمها الحكومة الفيدرالية بفعل عجز موازنات حكومات الولايات، وكذلك عن توريق كروت الائتمان والديون المدينة وقروض السيارات، والتوسع في ديون الشركات. ولم يكن سوروس أول من يشير إلى تلك التوجهات، غير أن وصفه للتغيرات التي لاحظها منذ أن بدأ تعاملاته في وول ستريت مفيد للغاية. ويوضح سوروس:

إن القدر الكلي للائتمان غير المسدد في علاقته بحجم الاقتصاد كان أقل بكثير مما هو عليه اليوم. والقدر الذي يمكن أن يتم اقتراضه في مقابل الأنواع المختلفة من الضمانات كان أيضاً أقل مما هو عليه اليوم. فقد تطلبت الرهون على الأقل ٢٠٪ دفعاً مقدماً، وكان الاقتراض في مقابل الأسهم يخضع إلى هامش من الشروط القانونية التي قيدت قيمة القروض إلى ٥٠٪ أو أقل من قيمة الضمان. وتم استبدال قروض السيارات التي تطلبت دفعاً مقدماً بالتأجير الذي لم يتطلب دفعاً مقدماً. ولم يكن هناك قروض ائتمان ولم



يكن هناك سوى قليل جداً من الائتمان غير المضمون. ومثلت المؤسسات المالية نسبة صغيرة فقط من رسملة الأسهم الأمريكية. وكان هناك عدد قليل جداً من الأسهم المالية المدرجة على بورصة نيويورك للأسواق المالية. وكانت معظم البنوك تتعامل من الشباك، وكان العديد منهم يتعامل فقط بناء على موعد مسبق.



وحتى الصيف الماضي، كان الاقتصاد الأمريكي غارقاً في الائتمان السهل. وبطريقة ما أو أخرى، لعب نظام البنوك دوراً مهماً في إصدار عديد من هذه القروض، وهو ما لم يكن أمراً مفاجئاً بالنظر إلى أن هذه هي الطريقة التي تصنع بها البنوك الأموال. وبدلاً من أن ينتقد سوروس أقرانه من المستثمرين في وول ستريت، الذين اخترعوا عديداً من أدوات الإقراض الجديدة - مثل الأوراق المدعومة بالرهون والتزامات ضمانات القروض- والتي انفجرت مؤخراً، فإنه يلقي باللوم على المنظمين والبنوك المركزية التي ساعدت ودعمت الأنشطة المتهورة للممولين. ففي ظل نظام التنظيم الذاتي الذي تبناه المنظمون الماليون الأمريكيون والأوروبيون، سمح لعديد من المؤسسات المالية مثل سيتي جروب Citigroup وباركليز Barclays، وبنك الاتحاد في سويسرا Union Bank of Switzerland بالاعتماد على النظم الداخلية عند إدارة الأخطار. وكانت المراجعة الخارجية الوحيدة على أنشطتهم تأتي من وكالات التصنيف التجاري، مثل وكالات موديز Moody's وستاندرد وبورس Standard & Poor's والتي اعتمدت في عملها على رسوم البنوك.

كتب سوروس يقول: «أجد في ذلك تخلياً صادماً عن المسئولية من جانب المنظمين».

وإذا لم يكن باستطاعتهم حساب الخسارة، فكان عليهم ألا يسمحوا للمؤسسات الخاضعة لإشرافهم بالاضطلاع بهذه المهمة. كانت نماذج الأخطار في البنوك مرتكزة على فرضية استقرار النظام. لكن على عكس المعتقدات الأساسية التي تتبناها البنوك، فإن استقرار الأسواق المالية لا يعد مسألة مضمونة؛ فيجب أن تنشط السلطات للحفاظ على هذا الاستقرار. وحينما يعتمد المنظمون على حسابات المخاطر التي يضعها المشاركون في السوق، فإنهم بذلك يكونون قد سحبوا الدفة وأطلقوا العنان لفترة من التوسع الائتماني المنفلت.

وطالما ظل الائتمان يتدفق بحرية، فقد عزز كل عنصر من عناصر الفقاعة الفائقة، العنصر الآخر. والآن حيث انفجرت فقاعة العقارات وتباطأ النمو الاقتصادي بدرجة حادة، تعمل الانعكاسية في الاتجاه المضاد: أساسيات السوق تؤثر على تصورات المستثمرين. وثبت أن سوق رأس المال العالمي الذي مكن الولايات المتحدة من تمويل العجز التجاري الكبير، قادرة بنفس الدرجة على نقل صدمة الرهون العقارية إلى أجزاء أخرى من العالم: فبعد أن تسارعت البنوك الأوروبية الكبرى في جني العوائد المرتفعة التي أتاحتها أوراق الرهن العقاري الأمريكية، وجدت نفسها مجبرة على إلغاء ديون بنفس مقدار الديون التي ألغاها الإخوة الأمريكيون. (وإذا أخذنا الولايات المتحدة وأوروبا معاً، قامت البنوك والمؤسسات المالية الأخرى حتى الآن بإلغاء نحو ٤٥٠ مليار دولار في صورة التزامات مرتبطة بالرهون العقارية. والعديد من المؤسسات تواجه الآن خسائر لم يتم الإعلان عنها بعد. وسوف تبلغ التقديرات بشأن الخسائر الكلية مدى ١ إلى ٢ تريليون دولار.

ومع تصاعد النزاعات العصبية وهبوط قيمة الضمانات، تحاول عديد من المؤسسات المالية الكبرى المأزومة إزاحة أرقام الديون من على قوائم الميزانيات. وعلى مستوى المؤسسات الفردية، قد يكون لذلك معنى. لكن عندما تقوم كافة البنوك بهذا الإجراء، فإن ذلك يحرم المشروعات الرأسمالية الدولية من المال ويهدد بتعميق الانهيار الاقتصادي، الذي بدوره يمكن أن يؤدي إلى مزيد من العجز عن سداد الديون. وكما يلاحظ لورانس سامرز الاقتصادي بجامعة هارفارد، في الفاينانشيال تايمز، إن ذلك ليس إلا واحداً من الحلقات المفرغة التي تعمل بشكل متزامن. يجبر الانخفاض في أسعار الأصول المستثمرين ذوي الاقتراضات العالية على بيع أصول محجوزة، وهو ما يؤدي بدوره إلى مزيد من الضغط على الأسعار للانخفاض. وفي ظل انخفاض معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي، تتجه الشركات إلى تسريح العمال. ويؤدي ارتفاع معدلات البطالة إلى قيام الأسر بخفض نفقاتها، مما يؤدي إلى خفض معدل النمو. «دون القيام بجهود حثيثة للتدخل في هذه الآليات، لن تكون هناك





لم يكن سوروس مغرقاً في التشاؤم. فقد قال إن النمو السريع في العالم النامي، وخاصة الصين، سوف يستمر



قاعدة للثقة بأن الاقتصاد الأمريكي يمكنه أن يتعافى حتى على المدى المتوسط»، هكذا كتب سامرز في مقال نشر في ٦ أغسطس.

وبالتأكيد فإن سوروس سوف يقبل هذا الطرح. فعندما أنهى مخطوطاته في بداية العام الحالي، تنبأ بأن الركود الاقتصادي سوف يطول، جزئياً لأن مشكلات النظام المالي سوف تؤدي إلى أن السياسات المضادة التي يجري اتخاذها للخروج من الأزمة - مثل تسهيل تدفق الأموال لتعزيز الاستثمار-أقل فاعلية مما هي عليه في الأوقات العادية. وخلال ٢٠٠٨، قام فيد Fed بخفض معدل الفائدة قصيرة الأجل إلى ٢٪، وأتاح للشركات المالية سبل اقتراض غير محدودة. وصوت الكونجرس على مشروع لإعادة التمويل بالنسبة لعديد من ملاك المنازل الذين فشلوا في تسديد مبالغ الرهون.



في بداية سبتمبر، وفي محاولة لخفض معدلات الرهون ووضع نهاية للانكماش في مجال الإسكان، اتخذت إدارة بوش خطوة دراماتيكية وهي التأميم الفعلي لفاني ماي Fannie Mae وفريدي ماك Freddie Mac ، وهما من كبريات شركات الرهون التي تقدم قروضاً، واللتان كانتا قد أنشأتهما الحكومة منذ سنوات، لكنهما عملتا كشركتين خاصتين. وقد أدى استحواذ الحكومة الفيدرالية على الشركتين إلى إضافة ٥ تريليون دولار إلى العجز القومي. وقد مثل هذا الإجراء، خاصة أنه يأتي من الجمهوريين، تحولاً تاريخياً فيما يتعلق باتساع تدخل الحكومة الأمريكية في الاقتصاد. ومن ثم فإن وزارة الخزانة، دون أن تحصل على تأييد الكونجرس، منحت نفسها حق شراء ٨٠٪ من أسهم إيه أي جي AIG. (وقد أدان السيناتور الجمهوري لولاية كنتاكي جيم بانتج هذه الخطوة باعتبارها إجراء اشتراكياً ودعا وزير الخزانة هانك بولسون إلى الاستقالة). غير أنه بالرغم من كل هذه الخطوات، ظلت معدلات قروض رهون جامبو. وهو نوع قروض الرهن الذي على مشتري المنازل اختياره إذا أرادوا أن يسكنوا في مناطق مثل نيويورك أو بوسطون أو واشنطن. عند مستوى ٨٪. ولم يكن مفاجئاً إذاً أن أسعار المساكن في معظم الأسواق الرئيسية مازالت تنخفض.

إلى أين سوف تنتهي الأزمة؟ ومن

منظور سوروس. فقد أوضحت الاحداث الدرامية فى منتصف سبتمبر كيف تعمل الانعكاسية فى حالات التراجع وتسبب تأثيراً تدميرياً: فقد الحق الركود فى سوق العقارات الدمار بالبنوك والمؤسسات المالية الأخرى، والتى تفاعلت مع هذا الركود عبر تقييد مستويات الإقراض، وخفض مقدار الائتمان، خاصة فى مجال تمويل الرهون، والذى كانت ترغب فى توسيع نطاقه ليشمل المساكن الكبيرة وكذلك مبانى الشركات. وأدى تقييد الائتمان بدوره إلى الإضرار بالاقتصاد ووضع ضغوط لأسعار الملكيات، ومن ثم انخفاضها، وهو ما أطاح بالأمل فى أن تحقق أسواق الائتمان استقرار نفسها بنفسها، وأن تستطيع الشركات المتعثرة أن تعيد رسملة قوائم الميزانية.

وكان ريتشارد إس فولد، المدير التنفيذى السابق لليمان Lehman، وزملاؤه يأملون فى تحقيق بعض الانتعاش. ومنذ خريف ٢٠٠٧ فصاعدا، كانت الشركة التى تأسست عام ١٨٥٠، تناضل من أجل البقاء. وبدلاً من ان يتم بيعها بالكامل إلى مؤسسة أكبر وأكثر نجاحاً، راهن المديرون على أن أسواق الائتمان سوف تتعافى، واستمر الانخفاض فى قيمة عشرات المليارات من أصول العقارات ينخر فى قائمة ميزانية الشركة. ولم يصعد المنحنى أبداً. وفى الوقت الذى قررت قيمة ليمان Lehman التخلى عن استقلالها، فى منتصف سبتمبر، كانت تواجه أزمة تمويل، ولم يكن هناك من يهتم بالشراء. (ولم تعتبر وزارة الخزانة ولا بنك الاحتياط الفيدرالى ليمان مهمة استراتيجياً بما يكفى للتدخل لحمايتها. ومن ثم فقد أفلست. وعلى النقيض من ذلك، كانت أيه أى جى AIG أكبر من أن يسمح لها بالسقوط).

ويشهد التاريخ أن المحاولات العشوائية للخروج من الأزمات البنكية نادراً ما تنجح. إن الشىء الوحيد الذى يمكنه وضع حد للمنحنى الهابط هو التدخل الحكومى على نطاق واسع، وأن يتحمل المجتمع الخسائر التى تحققت، ويتم تحرير المؤسسات التى استطاعت الحفاظ على البقاء حتى تبدأ فى الإقراض ثانية. ومع خطة بولسون للإنقاذ، فقد وصلنا اليوم إلى تلك المرحلة، حيث يُستدعى دافعو الضرائب لتصحيح أخطاء المصرفيين. وبالرغم من أن الخطة تتضمن ضخ ٧٠٠ مليار دولار، إلا أن التكلفة الحقيقية يمكن أن تكون أكبر من ذلك. قارن بعض المراقبين بين ما يحدث الآن، وبين ازمة المدخرات والقروض فى نهاية الثمانينيات، حينما أسست الحكومة شركة تراست رزولوشن Resolution Trust Corporation من أجل التصرف فى أصول أصحاب القروض المتعثرة، غير أن ذلك لا يعد تدريباً تافها مقارنة بالوضع الحالي. إن أحد الأمثلة الجيدة المشابهة للوضع الحالى هو أزمة البنوك اليابانية فى التسعينيات، حينما رفضت الحكومة فى البداية الاعتراف بالحجم الحقيقى للأزمة، لكن انتهى الأمر بها، بعد مرور نحو عقد من الزمن من الركود الاقتصادي، إلى إنفاق مبالغ كبيرة من الأموال العامة فى إعادة رسملة القطاع المالى للبلاد. وحتى آنذاك، فشل الاقتصاد اليابانى فى استعادة معدلات النمو السابقة: بعد سنوات قليلة من النمو المتواضع، انزلق مرة أخرى فى حالة أشبه بالكساد.

يحدونا الأمل فى أن يكون لخطة بولسون أثر إيجابى على صعيد إنعاش الاقتصاد الأمريكي. غير أنه بالرغم من الاحتفالات الحالية فى وول ستريت، إلا أن من الصعب للغاية أن نضمن أن تؤدى الخطة إلى نهاية سعيدة. فقد شكك منتقدو الخطة فى مدى ملاءمة توقيت الخطة، ومدى أخلاقياتها وكفاءتها. ويرغب وزير الخزانة الأمريكى فى التمتع بالحرية الكاملة من أجل تنفيذ الخطة بالطريقة التى يراها مناسبة. وينص تشريع الخطة التى قدمها على أن «قرارات الوزير طبقاً للسلطة التى يخولها هذا القانون غير قابلة للمراجعة، ولا يمكن مراجعتها بواسطة أية محكمة أو أى قانون أو جهة إدارية». وقد رفض أعضاء لجنة البنوك التابعة لمجلس الشيوخ هذه الفقرة حينما كانت اللجنة تستجوب بولسون فى ٢٣ سبتمبر. (اقترح سوروس فى الفاينانشيال تايمز فى ٢٥ سبتمبر خطة انقاذ بديلة، وهى نفس الخطة التى اقترحها السيناتور تشارلز شومبر وآخرون بشأن ضخ أموال عامة مباشرة فى البنوك، عبر شراء الحكومة لأسهم ممتازة).



ومن المنظور الاقتصادي، فإن الأمر المهم هو ما إذا كانت خطة بولسون، أو أية خطة متقاربة معها، سوف تحقق نجاحاً: هل مشتريات الأصول المخططة كبيرة بما يكفى لإحداث تغيير؟ وماذا عن الأصول الفاسدة الأخرى التى تحتفظ بها المؤسسات المالية فى دفاترها، بما فى ذلك نحو ٩٥٠ مليار دولار فى صورة أوراق مالية مرتبطة برهن «بديل أيه» «alt-A» الخطير: ومليارات الدولارات فى صورة أوراق رهون السيارات وديون بطاقات الائتمان: والديون المشكوك فيها التى لا تحصى والتى تم التوسع فيها خلال الرواج لتشمل شركات العقارات التجارية؟ هل سيكون من الأوفر والأكثر فعالية بالنسبة للحكومة أن تقوم بإعادة رسملة البنوك الكبرى بالاستحواذ على حصص بها.

لكن حتى إذا استطاعت خطة بولسون، أو بعض التنويعات على هذه الخطة، استعادة درجة من الاستقرار فى أسواق المال، فإنه من غير المؤكد على الإطلاق أن يؤدى الهبوط المتواضع فى معدلات الرهن ووجود استعداد أكبر من جانب المؤسسات المالية للإقراض، إلى كسر القوة الدافعة للاتجاه نحو الكساد، والتى تغذى نفسها بنفسها. ويتوقف الأمر إلى حد كبير على ما يحدث فى سوق الإسكان والاقتصاد العالمي، الذى عندما يمد الصادرات الأمريكية بإحدى الأسواق. وعندما يقدم النقود عبر شراء سندات الحكومة الأمريكية. فإنه يساعد على منع حدوث هبوط حاد فى الناتج والعمالة.

إن أحد الأطروحات التى قدمها سوروس هو أن سلوك الأسواق الذى يعرفه بالانعكاسية يضيف قدراً كبيراً من عدم التأكد فيما يتعلق بالأحداث الاقتصادية، وهو ما يجعل التنبؤ مسألة خادعة للغاية. لكن مع ذلك، وفى ضوء إعجاب سوروس بالمقولات الفلسفية الكبرى، فإنه لا يستطيع مقاومة تقديم بعض الرؤى عن المستقبل. فقد كتب يقول قبل التطورات الدرامية الأخيرة:

فى النهاية، سوف يكون على الحكومة الأمريكية أن تستخدم أموال دافعى الضرائب كى توقف التراجع فى أسعار المنازل. وحتى تقوم بذلك، سوف يغذى هذا التراجع نفسه بنفسه، حيث يتجه الناس بعيداً عن المنازل التى لهم بها حصص سلبية ومن ثم فسوف تتعثر المؤسسات المالية أكثر فأكثر، مما يؤدى إلى كل من الكساد وهجر الدولار. لا تستطيع الإدارة الأمريكية واقتصاديو التوقعات أن يفهموا أن الأسواق يمكن أن تغذى نفسها بنفسها فيما يتعلق بالتراجع أو الصعود على حد سواء. فهم ينتظرون من سوق العقارات أن يصل إلى نقطة القاع اعتماداً على نفسه، غير أن ذلك أمر بعيد المنال.

لم يكن سوروس مغرقاً فى التشاؤم. فقد قال أن النمو السريع فى العالم النامي، وخاصة الصين، سوف يستمر، ونحى جانباً المخاوف حول إمكانية انهيار النظام البنكى العالمي، كما حدث فى الثلاثينيات. وبعدما راقب الأعراض التى خبرها النظام المالى منذ صيف ٢٠٠٧، دعا سوروس إلى مزيد من التنظيم، بما فى ذلك وضع قيود أكثر على القروض لأجل الاستثمار. غير أن النتيجة الأساسية التى استخلصها سوروس تجاوزت تقديم التكهنات المتعلقة بالتوصيات حول السياسة الاقتصادية. وقد كتب يقول: إن الحقبة التاريخية التى نتجت عن انتخاب مارجريت تاتشر ورونالد ريجان قد وصلت إلى نهايتها.

إذاً فماذا يعنى حقيقة نهاية عصر؟ أرى أنه يعنى نهاية الفترة الطويلة من الاستقرار النسبى المرتكز إلى الولايات المتحدة باعتبارها القوة المهيمنة، وإلى الدولار باعتباره عملة الاحتياط الدولية الأساسية. أتوقع فترة من الاضطراب السياسى والمالي، وآمل أن يتبعها انبثاق نظام عالمى جديد.

منذ ١٩٧١، عندما تخلت إدارة نيكسون عن الارتباط بين الدولار والذهب، توقع كثير من المعلقين أفول العملة الأمريكية ونهاية الهيمنة الاقتصادية الأمريكية، وهو ما ثبت خطؤه، أو على الأقل عدم نضوجه. ويمكن أن ينتهى الأمر بسوروس إلى الانضمام لتلك المجموعة. فهو يعترف بحرية بأنه كان مفرطاً فى التشاؤم فى مناسبات سابقة. (منذ عقد من الزمن، قلل من قدرة الاقتصاد العالمى على التعافى من الأزمة المالية الأسيوية.) إذا ما استطاعت خطة بولسون أن تخلص النظام المصرفى الأمريكى من أوراق الرهون المتعثرة التى سببت الكثير جداً من المشاكل: وإذا حدثت استعادة للثقة فى وول ستريت: وإذا استقر سوق الإسكان: وإذا استمر الانخفاض الحالى فى سعر النفط، فسوف يكشف الاقتصاد والعملة الأمريكيان عن قدراتهما السحرية مرة أخرى. وعلى النقيض من ذلك، إن قراءة سوروس للأحداث المالية قد جعلته أكثر ثراء فى مرات عديدة سابقة: إذاً فقد يكون منافياً لحسن الفطن أن نراهن ضده الآن. ▩

ملاحظة

انظر: Andrei Shleifer, Inefficient Markets: An Introduction to Behavioral Finance (Oxford University Press, 2000), and Advances in Behavioral Finance, Vol. 2, edited by Richard H. Thaler (Russell Sage Foundation/Princeton University Press, 2005

الاثنين



في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ مباشرة، وفي عامه الرابع عشر كرئيس لبنك الاحتياط الفيدرالي، شارك جرينسپان في جهد جماعي شديد الهدوء لضمان ألا تتعرض أمريكا لانهيار اقتصادي وتأخذ بقية العالم معها، وكان هناك سبب وجيه للخوف من أسوأ الأمور، فقد كان انهيار البورصة الذي حدث في عام ١٩٨٧ بعد أسابيع فقط من توليه منصبه أقرب بكثير عما هو معروف بصورة عامة الآن إلى تجميد النظام المالي وإثارة الفزع المالي الحقيقي. ومع ذلك فإن أبرز ما حدث للاقتصاد بعد الحادي عشر من سبتمبر هو لا شيء، فما كان يمكن أن يعني صدمة تصيب النظام بالشلل قد جرى استيعابه بسرعة تبعث على الدهشة.

الجميع تذكر جرينسبان الآن. البعض تحسر على أيامه، والآخرون (منهم فريد زكريا) اعتبروا أن سياساته «المستهدفة للتفاؤل» هي أحد أسباب ماوصلنا اليه.

أيًا ما كان الأمر، هنا يحكي جرينسبان سطورًا من يومياته.

المحرر



محصت الاقتصاد في كل يوم عمل على امتداد عقود من الزمن وزرت بنك الاحتياط الفدرالي عشرات المرات. وبالرغم من ذلك فحين عينت رئيسًا كنت أعلم أن عليّ معرفة الكثير. وقد تعزز ذلك في الدقيقة التي عبرت فيها الباب. وكان أول من رحب بي دينيس بكلي، عميل الأمن الذي سيبقى معي طوال فترة عملي في البنك. وقد خاطبني بقوله: «سيدي الرئيس».

فقلت له: «لا تكن سخيفًا. فالكل ينادونني بآلان».

أوضح لي برقة أن مناداة رئيس مجلس الإدارة باسمه الأول ليست بالأمر المتبع في بنك الاحتياط الفدرالي.

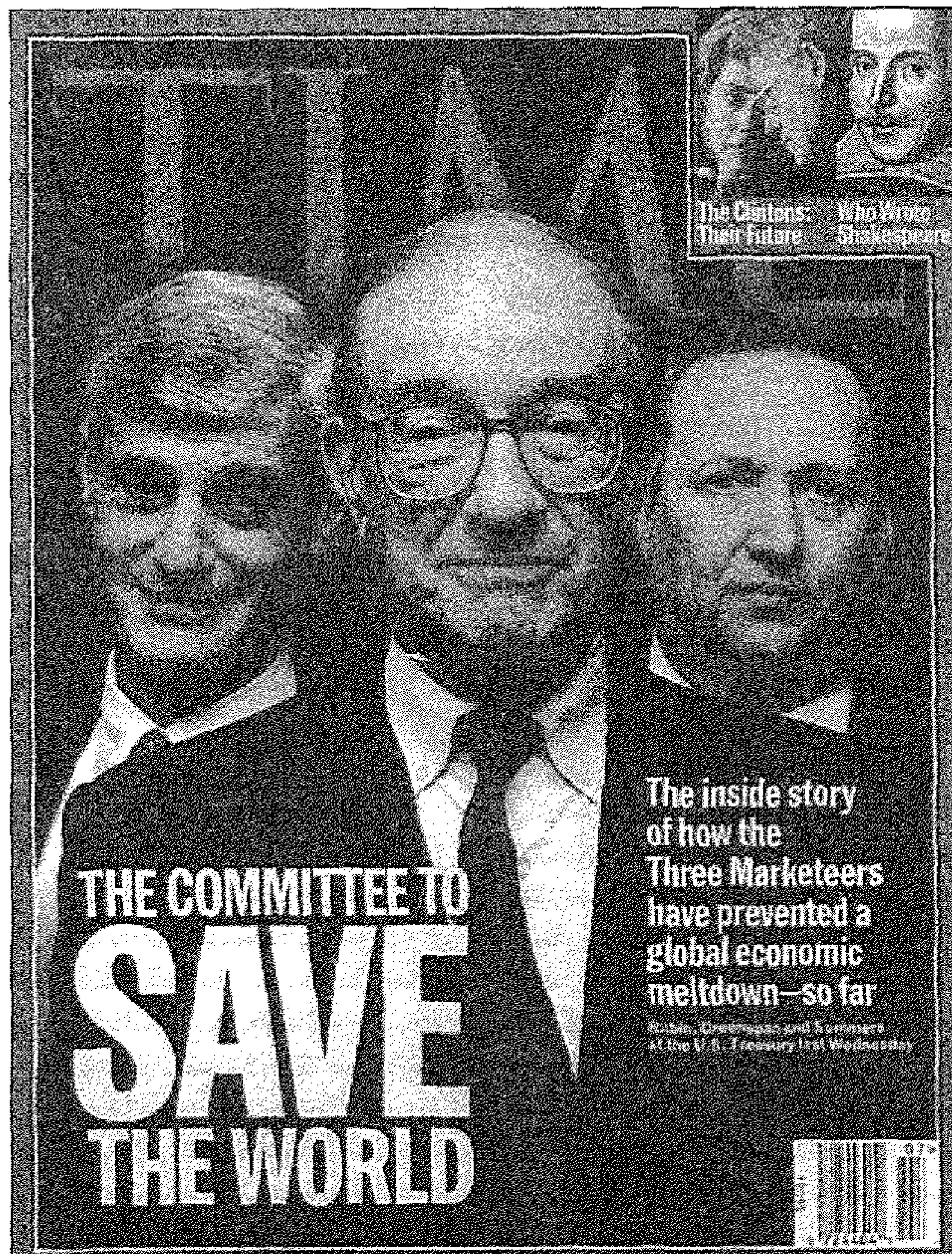
وهكذا أصبح آلان السيد الرئيس.

علمت بعد ذلك أن هيئة العاملين أعدت سلسلة من الدروس التعليمية المكثفة تسمى بشكل دبلوماسي «سيمنار الشخص الواحد»، كنت أنا فيها الطالب. وكان معنى ذلك أنه خلال العشرة أيام التالية سوف يجتمع كبار العاملين المتخصصين في قاعة الاجتماعات بالطابق الرابع من البنك ويعلموني وظيفتي. تعلمت عن أقسام قانون بنك الاحتياط الفدرالي الذي لم أكن أعرف أنه موجود. وهو ما أصبحت مسئولاً عنه الآن. وعلمني العاملون المعارف المتخصصة المتعلقة بتنظيم الأعمال المصرفية، التي دهشت لأنني لم أصادفها قط عندما كنت عضو مجلس إدارة جيه بي مورجان، وباوري سيفينجز. وبالطبع كان بنك الاحتياط الفدرالي به خبراء في كل بعد من أبعاد الاقتصاديات الداخلية والدولية وكذلك القدرة على استدعاء المعلومات من كل مكان. وهي القدرة المميزة على الوصول إلى الأشياء التي كنت شغوفًا باستكشافها.

مع أنني كنت عضوًا بمجالس إدارات الشركات، فإن مجلس محافظي منظومة الاحتياط الفدرالي، وهو الاسم المعروف به البنك رسميًا، كان نظامًا يفوق في حجمه أي شيء آخر أدرته من قبل. اليوم يبلغ عدد العاملين ببنك الاحتياط الفدرالي حوالي ألفي موظف وتبلغ ميزانيته السنوية حوالي ٣٠٠ مليون دولار. ومن حسن الحظ أن إدارته لم تكن وظيفتي. فالممارسة المتبعة منذ زمن بعيد هي تعيين شخص آخر من بين أعضاء المجلس محافظًا إداريًا لمراقبة العمليات اليومية. وهناك كذلك مدير للعاملين يتولى الإدارة ويعمل رئيسًا للموظفين. وبهذه الطريقة فإن القضايا غير العادية أو التي قد تثير اهتمام الجماهير أو الكونجرس هي فقط التي كان يؤتى بها إلى الرئيس، من قبيل التحدي الضخم لتعديل نظام المدفوعات الدولية الخاص بنهاية الألفية. وخلاف ذلك فهو حر كي يركز على الاقتصاد. وهو فحسب ما كنت شغوفًا للقيام به.

يتمتع رئيس بنك الاحتياط الفدرالي بسلطة أحادية أقل مما قد يوحي به اللقب. فأنا طبقًا للوائح كنت أتحكم فقط في جدول أعمال اجتماعات مجلس المحافظين. أما المجلس فهو الذي يقرر الأمور الأخرى بالأغلبية. وكان للرئيس صوت واحد فقط من بين سبعة أصوات. كما أنني لم أكن بشكل آلي رئيس لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة، وهي المجموعة القوية التي تتحكم في سعر الفائدة الأساسي الذي هو الأداة الأولية للسياسة النقدية الأمريكية. وتضم لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة سبعة من محافظي المجلس ورؤساء فروع بنك الاحتياط الفدرالي الإقليمية (يمكن لخمسة فقط أن يصوتوا في كل مرة)، وهي كذلك تتخذ القرارات بالأغلبية. وبينما جرى العرف على أن يكون رئيس لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة هو رئيس المجلس، فلابد مع ذلك من انتخابه كل عام بواسطة الأعضاء، وهم أحرار في اختيار شخص آخر. وقد توقعت أن تسود السابقة. ولكنني كنت أعي باستمرار أن تمرد المحافظين الستة الآخرين يمكنه إزالة كل سلطتي، ما عدا كتابة جدول أعمال المجلس.

أمسكت بسرعة بدون كون سكرتير لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة وجعلته يعرفني ببروتوكولات الاجتماع. (دون، الذي سوف يثبت أنه أكثر مستشاري السياسات فاعلية خلال سنواتي الثماني عشرة في بنك الاحتياط الفدرالي، هو الآن نائب رئيس مجلس الإدارة). وتعقد لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة اجتماعاتها سرًا، ولذلك لم تكن لدي فكرة عن جدول الأعمال القياسي؛ ومن الذي يتحدث أولاً، ومن يفوض من، وكيفية عمل التصويت، وهلم جرا. وكان للجنة كذلك لغتها التي كان لابد لي أن آلفها. فعلى سبيل المثال، عندما ترغب لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة تخويل الرئيس تحديد سعر فائدة الصناديق الفدرالية، إذا دعت الحاجة إلى ذلك قبل الاجتماع المنتظم، فهي لم تكن تقول «يمكنك رفع أسعار الفائدة إذا قررت أنه لابد من ذلك»، بل كانت تصوت على إعطائي «توجيه لا متماثل نحو التقييد». وكان من المقرر أن أدير أحد تلك الاجتماعات في الأسبوع التالي، في ١٨ أغسطس (آب)، ولذلك كنت تلميذًا لديه دافع كبير للتعلم. ولا تزال أندريه تمزح بشأن مجيئي إلى منزلها في عطلة نهاية الأسبوع تلك كي



للاستزادة:
عصر الاضطراب
مغامرات في عالم جديد
آلان جرينسبان
ترجمة: أحمد محمود
مراجعة: سامر أبو هواش
كلمة: أبو ظبي
دار الشروق - القاهرة - ٢٠٠٨

الأســـــــــود!

آلان جرنســـــــبان

انكب على كتاب Robert's Rules of Order.

كنت أشعر بحاجة حقيقية إلى أن أعمل على الفور بجد ونجاح، لعلمي أن بنك الاحتياط الفدرالي سوف يواجه قرارات كبيرة عما قريب. وكان توسع فترة رئاسة ريجان يسير سيراً حسناً في عامه الرابع. وبينما كان الاقتصاد يزدهر، كانت تبدو عليه كذلك علامات عدم الاستقرار. فمنذ بداية العام، عندما ارتفع مؤشر داو جونز للشركات الصناعية الكبرى إلى ٢٠٠٠ نقطة لأول مرة، ارتفع مؤشر سوق الأوراق المالية بما يزيد على ٤٠ بالمائة. وها هو يتوقف عند ما يزيد على ٢٧٠٠ نقطة وكانت وول ستريت تعيش فقاعة مضاربة. وكان ذلك أشبه بما يحدث في العقارات التجارية.

وفي الوقت نفسه كانت المؤشرات الاقتصادية غير مشجعة. فقد أدى العجز الحكومي الضخم في عهد ريجان إلى تضاعف الدين القومي للجمهور ثلاث مرات تقريباً، مما يزيد قليلاً على ٧٠٠ مليار دولار في بداية فترة رئاسته إلى أكثر من تريليوني دولار في العام المالي ١٩٨٨. وكان سعر الدولار ينخفض، وكان الناس قلقين بشأن فقدان أمريكا للميزة التنافسية. كان الإعلام زاخراً بالحديث المثير للقلق عن «الخطر الياباني» المتزايد. وكانت أسعار المستهلك، التي بلغت ١.٩ بالمائة فقط في عام ١٩٨٦، تتزايد بضعف المعدل تقريباً في الأيام الأولى من منصبي. ومع أن التضخم الذي بلغت نسبته ٣.٦ بالمائة أفضل بكثير من ذلك الكابوس ثنائي الخانات الذي كان الناس يتذكرونه من السبعينيات، فالعادة هي أنه ما إن يبدأ التضخم حتى يتزايد. وكنا معرضين لخطر فقدان ذلك النصر الذي تحقق مقابل ذلك البؤس وتلك التكلفة في عهد بول فولكر.

كانت تلك بطبيعة الحال قضايا اقتصادية عريضة تتجاوز قدرة بنك الاحتياط الفدرالي وحده على حلها. ومع ذلك فقد كان أسوأ مسار هو أن نجلس مكتوفي الأيدي. رأيت أنه سيكون من الحكمة رفع سعر الفائدة. ولكن بنك الاحتياط الفدرالي لم يكن قد رفع أسعار الفائدة منذ ثلاث سنوات. وسوف يكون رفعها الآن عملية كبيرة. ففي أية مرة يغير فيها بنك الاحتياط الفدرالي الاتجاه يحدث ذلك صخباً في الأسواق. والمخاطرة بفرض القيود أثناء صعود سوق الأسهم أمر شديد الحدة. ذلك أنه من الممكن أن يفجر فقاعة ثقة المستثمرين. وإذا ما أخاف هذا الناس بقدر كبير، فمن الممكن أن يتسبب في حدوث انكماش اقتصادي شديد.

مع أنني كنت على علاقة ودية مع الكثير من أعضاء اللجنة، فقد كانت معرفتي أفضل من أن أظن أن بإمكان رئيس المجلس الذي لم يمض على توليه منصبه سوى أسبوع أن يدخل الاجتماع ويشكل الاتفاق على مثل هذا القرار الذي يتسم بالمخاطرة. ولذلك لم أقترح زيادة سعر الفائدة: بل استمعت فحسب إلى ما كان لابد للآخرين من قوله. فقد كان أعضاء اللجنة الثمانية عشر جميعاً رجال بنوك مركزية واقتصاديين محنكين، وعندما جلسنا حول الطاولة نقارن تقييمات الاقتصاد، كان من الواضح أنهم كذلك مهمومون. قال جيري كوريجان، رئيس فرع بنك الاحتياط الفدرالي في نيويورك الذي يتسم بجدية شديدة إن علينا رفع الأسعار. وذكر بوب پاري رئيس فرع بنك الاحتياط الفدرالي في سان فرانسيسكو أن منطقته تشهد نمواً طيباً، وتفاؤلاً كبيراً، وتوظيفاً كاملاً. وكلها أسباب تجعلنا نشك في حدوث تضخم. واتفق سي كين من شيكاغو مع هذا الرأي، وأبلغنا أن مصانع الغرب الأوسط تعمل بما يقارب طاقتها الكاملة، بل إن دلائل المستقبل الزراعية تحسنت. وأوضح توم ميلزر رئيس فرع سانت لويس كيف أنه حتى مصانع الأحذية في تلك المنطقة تعمل بنسبة ١٠٠ بالمائة من طاقتها. ووصف بوب فوريستال من أطلانطا كيف أن العاملين معه دهشوا من قوة أرقام التوظيف حتى في القطاعات التي تعاني من كساد مزمن في الجنوب. وأظن أن الكل خرج من الاجتماع مقتنعاً بضرورة رفع أسعار الفائدة بسرعة.

كانت الفرصة الثانية لتحقيق ذلك بعد أسبوعين، في الرابع من سبتمبر (أيلول) في اجتماع مجلس المحافظين. وينظم المجلس وسيلة السياسة النقدية الرئيسية الأخرى، وهي «سعر الخصم» الذي يقرض به بنك الاحتياط الفدرالي مؤسسات الإيداع. ويتحرك هذا السعر بصورة عامة بتوافق مع سعر الفائدة الأساسي. وقبل اجتماع المجلس المقرر، أمضيت بضعة أيام أقطع الممر جيئة وذهاباً سعياً وراء المحافظين في مكاتبهم لتكوين الإجماع. وعندما عقد الاجتماع، انتقل بسرعة إلى التصويت. وقد وافق المحافظون بالإجماع على زيادة سعر الفائدة من ٥,٥ بالمائة إلى ٦ بالمائة.

لكي نكبح جماح الضغوط التضخمية. كنا نحاول تبطئة الاقتصاد بجعل اقتراض المال أكثر تكلفة. ولم يكن هناك من سبيل للتنبؤ بمدى الشدة التي سترد بها الأسواق على مثل هذا الإجراء، وخاصة عندما يجتذب حماس المضاربة المستثمرين. ولا يسعني إلا تذكر الروايات التي قرأتها عن علماء الفيزياء في ألاموجوردو في المرة الأولى التي فجروا فيها قنبلة ذرية: هل ستفشل القنبلة؟ هل ستعمل على النحو الذي يأملونه؟ أم أن رد الفعل التسلسلي سيخرج عن السيطرة بصورة ما ويشعل النار في الغلاف الجوي؟ وبعد انتهاء الاجتماع كان لابد لي من السفر إلى نيويورك: وكان مقرراً أن أسافر من هنالك في عطلة نهاية الأسبوع إلى سويسرا، حيث أحضر أول اجتماع لي لرؤساء البنوك المركزية بالدول الصناعية العشر الكبرى. وكان أمل بنك الاحتياط الفدرالي هو أن تتعامل الأسواق الرئيسية. الأسهم والتعاملات الآجلة والعملات والسندات. بهدوء مع التغيير، حيث كان من المحتمل أن تنخفض أسعار الأسهم على نحو طفيف ويقوى الدولار. وقد ظللت على اتصال بالمكتب لمراجعة كيفية رد فعل الأسواق.

لم تشتعل السماء في ذلك اليوم. فقد هبطت أسعار الأسهم، ورفعت البنوك سعر الفائدة الأساسي على القروض تماشياً مع الخطوة التي اتخذناها، ولاحظ العالم المالي، كما كنا نأمل، أن بنك الاحتياط الفدرالي قد بدأ العمل للقضاء على التضخم. وربما انعكس الأثر الأكثر دراماتيكية في العنوان الرئيسي لصحيفة «نيويورك تايمز» بعد بضعة أيام: «أحد زيادة في وول ستريت: القلق». وأخيراً سمحت لنفسي بأن أتنفس الصعداء عندما وصلتني رسالة من بول فولكر. كان يعرف على وجه الدقة ما الذي أفعله. وكان نص الرسالة «مبروك. أنت الآن رجل بنوك مركزية».

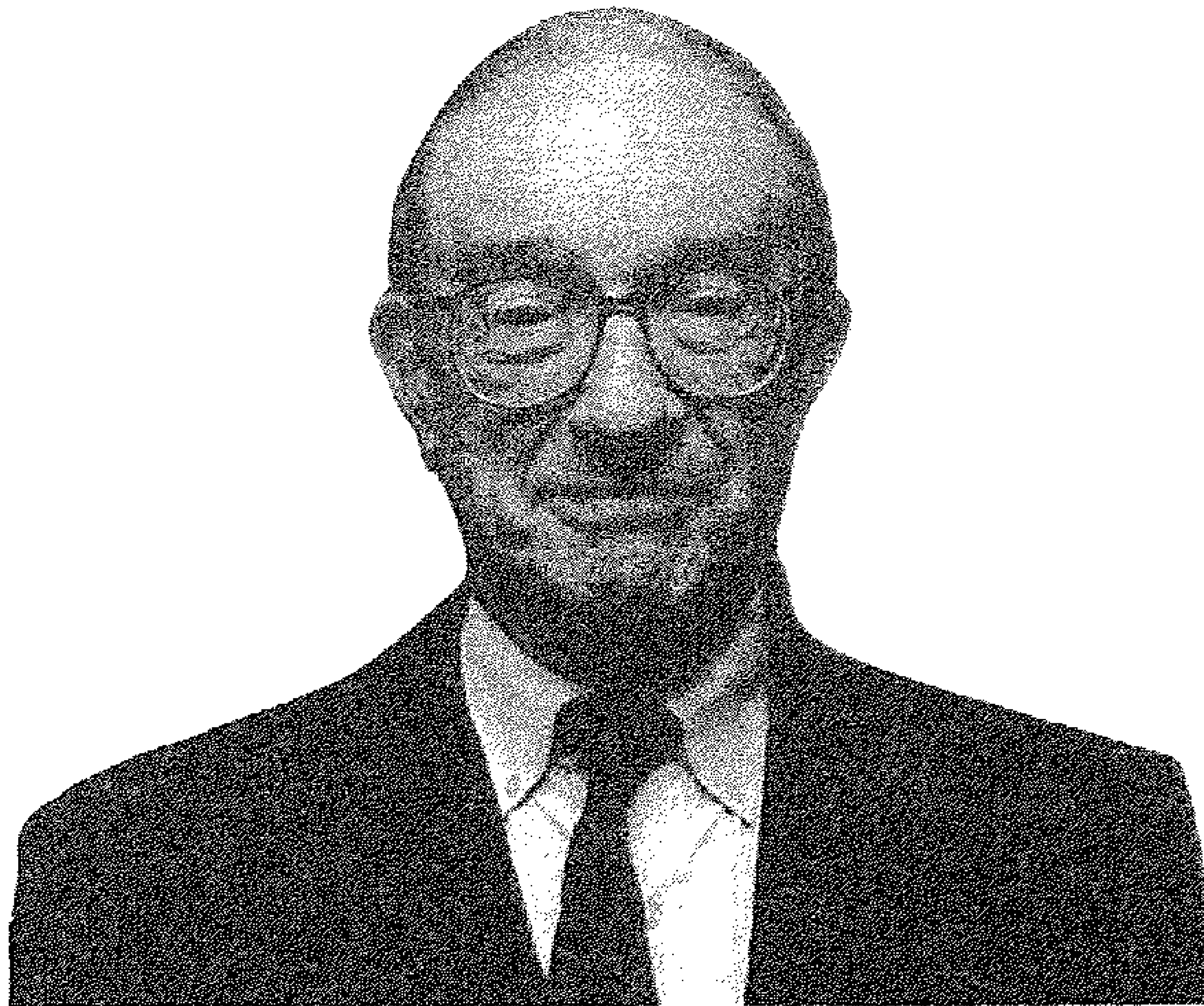
لم أظن للحظة أننا وصلنا بر الأمان. فعلامات الاضطراب في الاقتصاد كانت تواصل تصاعدها. وجعل النمو البطيء والمزيد من ضعف الدولار وول ستريت في حالة من القلق، حيث بدأ المستثمرون والمؤسسات يواجهون احتمال عدم تحقيق مليارات الدولارات في مراهنات المضاربة أية أرباح. وفي أوائل أكتوبر (تشرين الأول) تحول ذلك الخوف إلى ما يشبه الفزع. فقد هبطت سوق الأسهم هبوطاً سريعاً، بنسبة ٦ بالمائة في أول أسبوع، ثم ١٢ بالمائة أخرى في الأسبوع التالي. وكانت أكبر خسارة يوم الجمعة ١٦ أكتوبر، عندما هبط متوسط مؤشر داو جونز ١٠٨ نقطة. ومنذ نهاية سبتمبر (أيلول) تبخر حوالي نصف تريليون دولار من الثروة الورقية في سوق الأسهم وحدها. ناهيك عن الخسائر في العملات وغيرها من الأسواق. وكان الهبوط مذهلاً لدرجة جعلت مجلة «تايم» تخصص صفحتين كاملتين لسوق الأسهم في ذلك الأسبوع تحت عنوان «مذبحة أكتوبر (تشرين الأول) في وول ستريت».

علمت من وجهة النظر التاريخية أن هذا «التصحيح» لم يكن تقريباً الأشد قسوة. فقد كان تدهور السوق في عام ١٩٧٠ ضعف هذا الحجم تقريباً، وقضى الكساد العظيم على ٨٠ بالمائة من قيمة السوق. ولكن بناء على ما انتهى عليه الأسبوع من ضعف، كان الكل قلقاً بشأن ما يمكن أن يحدث عندما تفتح السوق أبوابها مرة أخرى يوم الاثنين.

كان من المفترض أن أطير يوم الاثنين إلى دالاس حيث كنت سأتحدث يوم الثلاثاء في مؤتمر جمعية رجال البنوك الأمريكية. وكانت تلك أول كلمة مهمة لي باعتباري رئيس بنك الاحتياط الفدرالي. تشاورت صباح يوم الاثنين مع مجلس المحافظين، واتفقنا على أنه ينبغي أن أقوم بالرحلة، كي لا يبدو أن بنك الاحتياط الفدرالي في حالة فزع. بدأت التعاملات في السوق ذلك الصباح ضعيفة، وفي الوقت الذي كان لابد أن أغادر فيه بدت مخيفة. إذ هبطت بأكثر من ٢٠٠ نقطة. لم يكن هنالك تليفون على الطائرة. ولذلك كان أول شيء فعلته عندما وصلت هو سؤال أحد الأشخاص الذين رحبوا بي من فرع بنك الاحتياط الفدرالي في دالاس «كيف كانت آخر تعاملات سوق الأسهم؟»

قال: «لقد هبطت بمقدار خمسة نقطة ثمانية».

عادة عندما يقول شخص «خمسة صفر ثمانية» فهو يقصد ٥.٠٨. ومعنى ذلك أن السوق هبطت بمقدار ٥ نقاط فحسب. فقلت: «عظيم. يا له



من انتعاش رهيب». ولكن عندما قلت ذلك رأيت أن التعبير الذي على وجهه لا يشاركني الشعور بالارتياح. فالواقع أن السوق انهارت بمقدار ٥٠٨ نقطة. هبوط بنسبة ٢٢٫٥ بالمائة، وتلك أكبر خسارة في يوم واحد في التاريخ، بل إنها أكبر من تلك التي كانت في ذلك اليوم الذي بدأ فيه الكساد العظيم، ذلك الجمعة الأسود من عام ١٩٢٩.

ذهبت مباشرة إلى الفندق حيث بقيت على التليفون حتى الليل. وأنشأ مانلي جونسون نائب رئيس بنك الاحتياط الفدرالي مكتباً لإدارة الأزمة داخل مكتبي في واشنطن وأجرينا مجموعة من المكالمات والمؤتمرات التليفونية لتحديد الخطط. وزودني جيري كوريجان بالمعلومات اللازمة في المحادثات التي أجريناها في نيويورك مع مديري وول ستريت والمسئولين في البورصة. وتحدث سي كين مع رؤساء بورصات التعاملات الآجلة في السلع وشركات الأوراق المالية بشيكاغو. وأبلغني بوب باري بما يسمعه من رؤساء صناعة الادخار والإقراض الذين كان يتخذون من الساحل الغربي مركزاً رئيسياً لهم.

إن وظيفة بنك الاحتياط الفدرالي أثناء ذعر سوق الأوراق المالية هو الحيلولة دون حدوث شلل مالي. وهو حالة من الفوضى تتوقف فيها الأعمال التجارية والبنوك عن دفع ما تدين به لبعضها ويتوقف الاقتصاد ببطء. وكان إلحاح الوضع وخطورته واضحين للأشخاص الكبار الذين كانوا معي على التليفون تلك الليلة. فحتى إذا لم تزدد الأسواق سوءاً، فإن النظام سوف يظل مترنحاً لأسابيع. وقد بدأنا في بحث الطرق التي يمكن أن نوفر بها السيولة للمؤسسات الكبيرة التي سينفد منها النقد. وبالرغم من ذلك، لم يفهم كل شبابنا خطورة الأزمة. فعندما ناقشنا البيان العام الذي سيصدره بنك الاحتياط الفدرالي قال أحدهم: «ربما نبالغ في رد فعلنا. لمَ لا ننتظر بضعة أيام ونرى ما يحدث؟».

بالرغم من كوني جديداً في تلك الوظيفة، فقد كنت دارساً للتاريخ المالي لفترة طويلة بالقدر الذي لا يجعلني أرى في هذا الكلام أي منطق. وكانت تلك هي اللحظة التي تحدثت فيها بحدة مع أي شخص في تلك الليلة. فقد قلت له: «لست بحاجة إلى الانتظار كي ترى ما يحدث. فنحن نعرف ما يجري». ثم عدت وقلت: «هل تعرف ما الذي يقوله الناس عن الإصابة بطلق ناري؟ إنك تشعر بأنك ثقبت، ولكن الرض يكون من الشدة بحيث لا تشعر بالألم في الحال. سوف نشعر بالألم بعد أربع وعشرين أو ثمان وأربعين ساعة».

عندما انتهت المناقشة كان واضحاً أن اليوم التالي سيكون زاخراً بقرارات مهمة. حرص جيري كوريجان أن يقول لي بحزن: «أنت على حق يا آلان. فالأمر كله فوق أكتافك». وجيري شخصية جامدة ولم أستطع معرفة ما إذا كان يقصد بذلك التشجيع أو كان يقوله من باب التحدي للرئيس الجديد. وما كان مني إلا أن قلت له: «شكراً يا دكتور كوريجان».

لم أكن أميل إلى الذعر، لأنني كنت أفهم طبيعة المشاكل التي سوف نواجهها. ومع ذلك فعندما وضعت سماعة التليفون في منتصف الليل تساءلت إن كان سيمكنني النوم. سوف يكون ذلك الاختبار الحقيقي. قلت لنفسي: «سنرى الآن من أي معدن أنت». دخلت الفراش وأفخر بأنني نمت خمس ساعات كاملة.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وبينما كنا نصوغ البيان العام لبنك الاحتياط الفدرالي، قاطعتنا عاملة التليفون بالفندق بمكالمة من البيت الأبيض. كان هوارد بيكر كبير موظفي الرئيس ريجان. ولأني أعرف هوارد منذ مدة طويلة، فقد تصرفت وكأنه ليس هناك شيء غير عادي يجري. قلت: «صباح الخير يا سناتور. ما الذي يمكنني عمله لك؟» فقال متصنعاً التشكي «أنجدنا! أين أنت؟».

أجبته: «في دالاس. هل هناك ما يزعجك؟». والمعروف أن معالجة رد فعل الإدارة تجاه أي أزمة من أزمات وول ستريت هي في العادة وظيفة وزير الخزانة. ولكن جيم بيكر كان في أوروبا يحاول العودة، ولم يكن هوارد يرغب في التعامل مع تلك الأزمة بمفرده. وافقت على إلغاء إلقاء كلمتي والعودة إلى واشنطن. وكان هذا هو ما أميل إليه على أي الأحوال؛ لأنه في ضوء هبوط السوق بمقدار ٥٠٨ نقطة كانت العودة تبدو أفضل طريقة لطمأنة رجال البنوك أن بنك الاحتياط الفدرالي يأخذ الأمور مأخذ الجد. وأرسل بيكر طائرة تنفيذية خاصة كي تعود بي.



تقلبت الأسواق في ذلك اليوم تقلباً شديداً. جلس مانلي جونسون في مركز عملياتنا البديل حيث أبلغني أولاً بأول بما يجري وأنا على الطائرة. وبعد أن ركبت السيارة في قاعدة أندروز الجوية قال لي إن بورصة نيويورك اتصلت لتبلغنا بأنها تعتزم الإغلاق بعد ساعة. وكان التعامل على الأسهم الرئيسية قد توقف لعدم وجود مشترين. قلت «سوف يفجر ذلك الأمر بالنسبة للكل. إذا أغلقوا ستقع الكارثة الفعلية». فإن إغلاق البورصة أثناء انهيار الأسعار يضاعف ألم المستثمرين فحسب. ومهما كانت خسائر المستثمرين مخيفة على الورق، فمادامت السوق مفتوحة فإنهم يعرفون باستمرار أن بإمكانهم الخروج. ولكن إذا أغلقت المخرج جعلت الخوف يتفاقم. كما أن إعادة التعامل بعد ذلك تكون على قدر كبير من الصعوبة. لأنه لا أحد يعلم ما ينبغي أن تكون عليه الأسعار، ولا يرغب أحد في أن يكون أول من يعرض الشراء. ويمكن أن تستغرق عملية الإحياء أياماً عديدة. والمخاطرة هي أنه أثناء ذلك سوف يتوقف النظام المالي كله، وسوف يعاني الاقتصاد من صدمة تصيبه بالشلل. ولم يكن هناك الكثير مما يمكننا عمله لمنع المسئولين في البورصة من إغلاقها، ولكن السوق أنقذتنا بنفسها. فخلال تلك الستين دقيقة تحقق من تعاملات الشراء ما يكفي لجعل بورصة نيويورك تعلق خطتها.

كانت الست والثلاثون ساعة التالية كثيفة. وقد مزحت قائلاً إنني أشعر كأنني عامل لصق ورق له سبع أذرع، أنتقل من تليفون إلى آخر، متحدثاً إلى البورصة، وإلى تعاملات شيكاغو الآجلة، والعديد من فروع بنك الاحتياط الفدرالي. وكان أكثر محادثاتي عذاباً مع المموّلين ورجال البنوك الذين أعرفهم منذ سنوات، واللاعبين الكبار من الشركات الكبيرة جداً في أنحاء البلاد، الذين كان الخوف يخنق أصواتهم. وكان هؤلاء هم الرجال الذين كونوا الثروة والمكانة الاجتماعية عبر حياتهم العملية الطويلة وها هم يجدون أنفسهم تحت رحمة المجهول. وعادة ما لا يكون حكمك صحيحاً وأنت خائف، ولذلك قلت لهم: «اهدأوا، فالأمر من الممكن احتواؤه». وكنت أذكرهم بأن يتطلعوا إلى ما وراء الظرف الطارئ إلى حيث يمكن أن تكمن مصلحة أعمالهم طويلة المدى.

هاجم بنك الاحتياط الفدرالي الأزمة على جبهتين. كان التحدي الأول الذي واجهنا هو وول ستريت؛ فقد كان لابد لنا من إقناع شركات الأوراق المالية الضخمة والبنوك الاستثمارية، التي كان الكثير منها يترنح نتيجة للخسائر، بألا تنسحب من القيام بالأعمال التجارية. وقد بُذل جهد كبير ذلك الصباح في صياغة بياننا العام على نحو يوحي بأن بنك الاحتياط الفدرالي سيوفر شبكة الأمان للبنوك، توقعاً لأن تساعد هي بدورها في دعم الشركات المالية الأخرى. وأظن أنه كان بياناً قصيراً وموجزاً مثل خطاب جتيسبرج، وإن لم يكن بالقدر الذي كان عليه من إثارة للمشاعر: «أكد بنك الاحتياط الفدرالي اليوم، تمشياً مع مسئولياته باعتباره بنك البلاد المركزي، استعداده لأن يكون مصدر سيولة لدعم النظام الاقتصادي والمالي». ولكن مادامت الأسواق مستمرة في العمل، فلم تكن لدينا الرغبة في دعم الشركات بالنقد.

كان جيري كوريجان البطل في ذلك الجهد. فقد كانت وظيفته كرئيس لفرع بنك الاحتياط الفدرالي في نيويورك هي إقناع اللاعبين في وول ستريت بالاستمرار في الإقراض والتعامل، أي بالبقاء في اللعبة. وباعتباره شخصاً تلقى تعليمه في المدارس اليسوعية ويحظى برعاية فولكر، فقد كان رجل بنوك مركزية طوال حياته العملية؛ لم يكن هناك من هو أكثر منه حنكة أو يصلح أكثر منه كبيراً لمنفذي سياسة البنك المركزي. فقد كانت لجيري شخصية مسيطرة لأزمة لإقناع المموّلين، ومع ذلك فقد كان يفهم أنه حتى في الأزمة لابد لبنك الاحتياط الفدرالي من ممارسة ضبط النفس. فعلى سبيل المثال فإن أمر بنك من البنوك بتقديم قرض يعد استغلالاً للسلطة الحكومية ويضر بطريقة عمل السوق. وبدلاً من ذلك كان لابد لفحوى رسالة جيري إلى رجال البنوك أن تكون «نحن لا نقول لك اقرض، بل إن كل ما نطلبه هو أن تفكر في مصالح عملك ككل. تذكر فحسب أن للناس ذاكرة ممتدة، وإذا حجبت القروض عن العميل لمجرد أنك قلق بشأنه، وليس لسبب ملموس، فلن ينسى لك هذا». وفي ذلك الأسبوع أجرى كوريجان عشرات المحادثات على هذا المنوال. ورغم عدم معرفتي بالتفاصيل، فلابد أن بعض المكالمات التليفونية كان شديدة القسوة. وأنا متأكد من أنه نهش البعض.

بينما كان هذا كله يجري، كنا حريصين على استمرار توفير السيولة للنظام. وقد أمرت لجنة الأسواق المفتوحة الفدرالية المضاربين في فرع بنك الاحتياط الفدرالي بنيويورك بشراء ما قيمته مليارات الدولارات من سندات الخزانة من السوق المفتوحة. وكان أثر ذلك دوران المزيد من المال وخفض أسعار الفائدة قصيرة الأجل. ومع أننا كنا نرفع أسعار الفائدة قبل الانهيار، فها نحن الآن نخفضها للمساعدة في استمرار حركة الاقتصاد.

مع أننا بذلنا أقصى ما في وسعنا، فقد كانت هناك بضعة أمور على حافة الكارثة، تشمل في الغالب نظام الدفع. فالكثير من التعاملات أثناء يوم العمل في وول ستريت لا يجري في وقت واحد: ذلك أن الشركات تقوم بأعمال تجارية مع عملاء بعضها البعض، على سبيل المثال، ثم تقوم بتسوية الحسابات في نهاية اليوم. وفي صباح يوم الأربعاء كان من المقرر أن تسدد شركة جولدمان ساكس مبلغ ٧٠٠ مليون دولار لبنك كونتيننتال إلينوي في شيكاغو، إلا أنها امتنعت في البداية عن الدفع انتظاراً لتسلم مبالغ متوقعة من مصادر أخرى. وبعد ذلك أعادت جولدمان النظر في الأمر وقامت بالدفع. ولو امتنعت جولدمان عن تسليم هذا المبلغ الكبير لأطلقت شلال الخسائر عبر السوق. وعقب ذلك أسر لي مسئول كبير في جولدمان بأنه لو توقعت الشركة مصاعب الأسابيع التالية لما دفعت. وكان يشك في أنه في مثل هذه الأزمات



إغلاق البورصة أثناء انهيار الأسعار يضاعف ألم المستثمرين. ومهما كانت خسائر المستثمرين مخيفة على الورق، فمادامت السوق مفتوحة فإنهم يعرفون باستمرار أن بإمكانهم الخروج



مستقبلاً سوف تفكر جولدمان مرتين بشأن القيام بمثل هذه المدفوعات غير المتبادلة.

ذهبنا كذلك للعمل على الجبهة السياسية. فقد أمضيت ساعة يوم الثلاثاء في وزارة الخزانة بمجرد عودة جيم بيكر (فقد تمكن من أن يستقل طائرة كونكورد). كان جالساً في مكتبه مع هوارد بيكر وغيره من المسئولين. وكان رد الفعل المبدئي للرئيس ريجان تجاه مصيبة وول ستريت يوم الاثنين هي الحديث بتفاؤل عن الاقتصاد. فقد قال: «بما أنه يسير باطراد، فلا أظن أنه ينبغي لأحد أن يصيبه الفزع، لأن كل المؤشرات الاقتصادية متينة». وكان المقصود بذلك أن يكون مطمئناً للناس، ولكنه بدا في ضوء الأحداث على نحو مثير للقلق مثل إعلان هربرت هوفر بعد الجمعة الأسود أن الاقتصاد «سليم ومزدهر». التقينا بعد ظهر يوم الثلاثاء بريجان في البيت الأبيض للإيحاء بأنه يجرب مساراً مختلفاً. قلت أنا وجيم بيكر إن أكثر الردود فائدةً هو عرض التعاون مع الكونجرس في تقليل العجز، حيث إن ذلك أحد المخاطر الاقتصادية طويلة المدى التي تزعج وول ستريت. ومع أن ريجان كان على خلاف مع الأغلبية الديمقراطية، فقد وافق على أن هذا أمر منطقي. وعصر ذلك اليوم أبلغ الصحفيين أنه سوف يأخذ في اعتباره أي اقتراح للميزانية يقدمه الكونجرس، باستثناء تخفيض الضمان الاجتماعي. ومع أن تلك المبادرة لم تؤدِ إلى شيء، فقد ساعدت على تهدئة الأسواق.

كنا نديِر مركز العمليات على مدار الساعة. وتتبعنا الأسواق في اليابان وأوروبا، وكنا في الصباح الباكر من كل يوم نجمع أسعار التعامل في أسهم الشركات الأمريكية في البورصات الأوروبية ونكون متوسط داو جونز للشركات الصناعية الكبرى للحصول على رؤية مسبقة لما يرجح أن تكون عليه أسواق نيويورك عند افتتاحها. واستغرق الأمر أسبوعاً كي تتلاشى الأزمات كلها، وإن توارى معظمها عن الرؤية العامة. فعلى سبيل المثال، كادت سوق الخيارات في شيكاغو أن تنهار بعد أيام من انهيار البورصة عندما نَفِد ما لدى أكبر شركات تداول الأوراق المالية بها من نقد. ساعد فرع بنك الاحتياط الفدرالي في شيكاغو في هندسة حل تلك الأزمة. وشيئاً فشيئاً استقرت الأسعار في الأسواق المختلفة، وبحلول بداية شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عاد أعضاء فريق إدارة الأزمة إلى عملهم المعتاد.

على عكس مخاوف الجميع، ظل الاقتصاد على ثباته، بل الواقع أنه كان ينمو بمعدل ٢ بالمائة سنوياً في الربع الأول من عام ١٩٨٨ ومعدل متسارع مقداره ٥ بالمائة في الربع الثاني. وفي بداية عام ١٩٨٨ كان مؤشر داو جونز قد استقر عند حوالي ٢٠٠٠ نقطة، ليعود بذلك إلى ما كان عليه في بداية ١٩٨٧، واستأنفت الأسهم الارتفاع الأكثر اعتدالاً بكثير، والأكثر استدامة. ودخل النمو الاقتصادي عامه الخامس على التوالي. ولم يكن في ذلك عزاء للمضاربين الذين أفلسوا، أو عشرات بيوت السمسرة الصغيرة التي فشلت، أما الأشخاص العاديون فلم يضرهم شيء.

ولو عدنا بالنظر إلى الوراء، لكان ذلك أحد التجليات المبكرة للمرونة الاقتصادية التي سوف تبرز في السنوات التالية.



ليس بنك الاحتياط الفدرالي والبيت الأبيض حليفين على نحو آلي. ذلك أنه مع التكليف الرسمي الحديث لبنك الاحتياط الفدرالي في عام ١٩٣٥، حرص الكونجرس حرصاً شديداً على حمايته من تأثير العملية السياسية. وبينما يعين رئيس الولايات المتحدة محافظي بنك الاحتياط المركزي، فإن مناصبهم شبه دائمة. ذلك أن أعضاء المجلس يخدمون فترات مدتها أربعة عشر عاماً، بما يزيد على أي معينين آخرين باستثناء قضاة المحكمة العليا. بل إن رئاسة المجلس نفسها تُعيَّن لمدة أربع عشرة سنة. ولكن الرئيس لا يمكنه عمل الكثير بدون تصويت أعضاء المجلس. وبينما يجب على بنك الاحتياط الفدرالي أن يرفع تقريراً مرتين في السنة للكونجرس، فهو يتحكم في موارده المالية بتمويل نفسه من دخل الفوائد التي تحققها سندات الخزانة وغيرها من الأصول التي بحوزته. ويعطي هذا كله بنك الاحتياط المركزي الحرية في التركيز على مهمته القانونية، وهي إيجاد الظروف المالية اللازمة لأقصى قدر ممكن من النمو المستدام طويل المدى والتوظيف. ويرى بنك الاحتياط الفدرالي ومعظم الاقتصاديين أن الظرف الضروري لأقصى قدر ممكن من النمو الاقتصادي المستدام هو الأسعار المستقرة. ويعني هذا من الناحية العملية سياسات بنك الاحتياط الفدرالي التي تحتوي الضغوط التضخمية التي تتجاوز دورة الانتخابات الحالية.

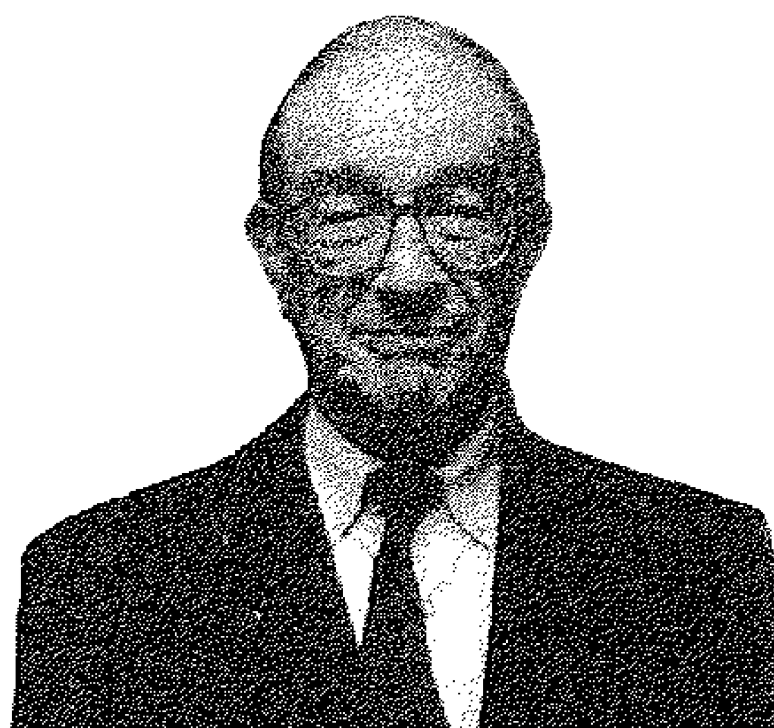
ليس مستغرباً أن الساسة غالباً ما ينظرون إلى بنك الاحتياط الفدرالي على أنه عقبة. فقد ترغب أنفسهم في التركيز على ازدهار أمريكا طويل المدى، غير أنهم أكثر خضوعاً للمطالب الحالية. ومن المحتم أن هذا كان ينعكس على أفضليات السياسة الاقتصادية. فإذا كان الاقتصاد يتوسع فإنهم يريدون أن يكون توسعه أسرع. وإذا كانوا يرون سعر فائدة، فإنهم يريدونه أن يكون أدنى. وهنا يتدخل الضبط النقدي لبنك الاحتياط الفدرالي. وكما يزعمون فإن ويليام ماكتشنزي مارت الابن، رئيس البنك الأسطوري في الخمسينيات والستينيات، قال إن دور بنك الاحتياط الفدرالي هو أن يأمر «برفع وعاء شراب البنش بمجرد سريان الدفء والحرارة في الحفل».

يمكنك سماع ذلك الإحباط في صوت نائب الرئيس جورج هربرت ووكر بوش في ربيع عام ١٩٨٨ بينما كان يقوم بحملة ترشيح الحزب الجمهوري لانتخابات الرئاسة. فقد قال للصحفيين إن لديه «كلمة تحذير» لبنك الاحتياط الفدرالي: «لا أريد أن أراهم يتعدون (الخط) الذي يهبط بالنمو الاقتصادي ويقيده».

الواقع أن التقييد هو ما كنا نقوم به. فما إن اتضح أن انهيار سوق الأسهم لم يصب الاقتصاد بأضرار خطيرة حتى بدأت لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة رفع سعر الفائدة الأساسي في مارس (آذار). وقد فعلنا ذلك لأن الأدلة أخذت تتراكم من جديد مشيرةً إلى أن ضغوط التضخم تتزايد وأن انتعاش عهد ريجان الطويل بلغ حده الأقصى: فالمصانع ممتلئة، وعدد العاطلين عن العمل في أدنى حد له خلال ثماني سنوات. واستمر ذلك التقييد حتى الصيف، وبحلول شهر أغسطس (آب) كان من الضروري رفع سعر الخصم كذلك.

وبما أن سعر الخصم يتم الإعلان عنه علانيةً، على عكس سعر الفائدة الأساسي، فإن رفعه يكون أكثر تفجيراً من الناحية السياسية. وأطلق مسئولو بنك الاحتياط الفدرالي على هذا الإجراء «دق الناقوس». وما كان لتوقيت حملة بوش أن يكون أسوأ مما كان عليه. فقد كان بوش يرغب في الصعود على نجاح ريجان، وكان متقدماً على مرشح الحزب الديمقراطي مايكل دوكاكيس بسبع عشرة نقطة في استطلاعات الرأي. وكان فريق حملة نائب الرئيس شديد الحساسية لأية أخبار قد تشير إلى تباطؤ الاقتصاد لئلا تطفئ لمعان الإدارة. ولذلك فعندما صوتنا على رفع سعر الفائدة قبل بضعة أيام فقط من مؤتمر الحزب الجمهوري، كنا ندرك أن الناس ستغضب.

أنا مؤمن بإبلاغ الأخبار السيئة بشكل شخصي وفي السر وعلى نحو مسبق، وخاصة في واشنطن، حيث لا يحب المسئولون أن يفاجأوا بما لا يسرهم ويحتاجون إلى وقت كي يقرروا ما يجب قوله علانيةً. ولكنني لا أجد متعة في القيام بذلك. غير أنه ليس هناك بديل إذا كنت تريد استمرار العلاقة بعد ذلك. ولذلك فبمجرد انتهائنا من التصويت غادرت المكتب واتجهت إلى وزارة الخزانة لرؤية جيم بيكر. وكان قد أعلن للتو أنه سيترك منصبه كوزير للخزانة ليرأس موظفي حملة بوش. وكان جيم صديقاً قديماً، وكان لابد من إبلاغه باعتباره وزيراً للخزانة.



عندما جلسنا في مكتبه نظرت في عينيه وقلت: «أنا متأكد من أنه لن يسعدك هذا الأمر، ولكن بعد مناقشات طويلة لكل العوامل»، وأوردت بعضها، «توصلنا إلى قرار برفع سعر الخصم. وسوف يعلن بعد ساعة». وأضفت أن الزيادة لن تكون ربع النقطة بالمائة كما هو معتاد، بل ضعف ذلك: أي من ٦ بالمائة إلى ٦.٥ بالمائة.

اعتدل بيكر في كرسيه وضرب بطنه بقبضته. وتمتم قائلاً: «لقد ضربتموني هنا».

قلت: «معذرة يا جيم».

بعد ذلك أطلق لنفسه العنان وهاجمني أنا وبنك الاحتياط الفدرالي لعدم استجابتنا لحاجات البلاد الحقيقية، وعبر عن أية أفكار غاضبة أخرى وردت على ذهنه. ولكوننا صديقين منذ فترة طويلة، كنت أعلم أن ذلك الانتقاد العنيف مجرد دور. ولذلك فإنه عندما توقف بعد دقيقة ليلتقط أنفاسه ابتسمت له. ثم ضحك هو وقال: «أعلم أنك كنت مضطراً لعمل ذلك». وبعد بضعة أيام أقر علانيةً بأن زيادة سعر الفائدة ضرورية من أجل استقرار النظام طويل المدى، وأضاف قائلاً: «على المدى المتوسط والطويل، سوف يكون ذلك شيئاً طيباً بالنسبة للاقتصاد».

عندما فاز جورج بوش في ذلك الخريف تمنيت أن يكون بنك الاحتياط الفدرالي وإدارته على وفاق. فقد كان الكل يعلم أن أي شخص يأتي بعد ريجان سوف يواجه تحديات اقتصادية: ليس هبوطاً محتملاً في دورة الأعمال التجارية، بل عجز غير عادي وزيادة سريعة في الدين القومي. وكنت أرى أن بوش بالغ بشكل كبير حين أعلن في خطاب قبوله للترشيح في مؤتمر الحزب الجمهوري بقوله: «اقرأوا شفتي: لا ضرائب جديدة». كان ذلك سطراً لا يُنسى، ولكنه سوف يضطر في وقت ما إلى معالجة العجز، وكان قد ربط إحدى يديه وراء ظهره.

دهش الناس من الشمول الذي استبدلت به الإدارة الجديدة من عينهم ريجان. وقال صديقي مارتن أندرسون الذي كان قد مضى وقت طويل على انتقاله من واشنطن عائداً إلى معهد هوفر في كاليفورنيا مازحاً إن بوش أقال من الجمهوريين أكثر ممن كان دوكاكيس سيقيلهم. إلا أنني قلت له إن ذلك لا يزعجني. فهو من حق الرئيس الجديد، وأن تلك الإجراءات لن تؤثر على بنك الاحتياط الفدرالي. بالإضافة إلى أن الفريق الاقتصادي الكبير القادم - وزير الخزانة نيكولاس برادي، ومدير الميزانية ريتشارد دارمان، ورئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين مايكل بوسكين، وغيرهم - معارف مهنيون



وأصدقاء لي منذ زمن بعيد. (انتقل جيمس بيكر بالطبع إلى منصب وزير الخارجية).

كان همي الأساسي، الذي شاركني فيه كثيرون من كبار المسئولين في بنك الاحتياط الفدرالي، هو أن تهاجم الإدارة الجديدة العجز على الفور، بينما لا يزال الاقتصاد قوياً بما يكفي لامتصاص صدمة خفض الإنفاق الفدرالي. وللعجز الكبير أثر خبيث. فعندما تفرط الحكومة في الإنفاق يتحتم عليها الاقتراض كي تسوي دفاترها. وهي تقترض من خلال بيع سندات الخزانة التي تبتلع رأس المال الذي كان بالإمكان استثماره في الاقتصاد الخاص لولا ذلك. وعجزنا آخذ في الازدياد. ما يزيد على ١٥٠ مليار دولار سنوياً لمدة خمس سنوات. على نحو يقوض الاقتصاد. وقد ألقيت الضوء على تلك المشكلة بُعيد الانتخابات، حيث شهدت أمام لجنة الاقتصاد القومي، وهي لجنة ثنائية الأحزاب أنشأها ريجان في أعقاب انهيار ١٩٨٧. وقلت لهم إن العجز لم يعد مشكلة مستقبلية، وقلت لهم إن «المدى الطويل يتحول بسرعة إلى مدى قصير. وإذا لم نتصرف على الفور سيكون الإحساس بالآثار أكبر وعلى نحو ما من المباشرة». والأمر غير المستغرب هو أنه بسبب تعهد بوش بعدم فرض ضرائب جديدة وقعت اللجنة في مأزق، حيث قال الجمهوريون إنه ينبغي خفض الإنفاق ورأى الديمقراطيون أنه ينبغي زيادة الضرائب، ولم يكن لها أي تأثير.

وجدت نفسي بسرعة داخل الصراع العلني نفسه الذي كان لنا مع الرئيس بوش أثناء الحملة. وفي يناير (كانون الثاني) شهدت أمام لجنة البنوك بمجلس النواب بأن احتمالات التضخم لا تزال مرتفعة وأن سياسة بنك الاحتياط الفدرالي ستكون «الميل إلى التشديد أكثر من التحفيز». وفي اليوم التالي عندما كان الرئيس يلتقي بالصحفيين تحدى هذا الاتجاه قائلاً: «لا أريد أن أرانا نتحرك بقوة ضد التضخم على النحو الذي يعوق النمو». ومن المعتاد أن تُبث تلك الخلافات ثم تحل وراء الكواليس. وكنت أتطلع إلى بناء علاقات التعاون نفسها مع البيت الأبيض كما كان عليه الحال أثناء إدارة فورد وعرفت أنها كانت موجودة أحياناً بين ريجان وبول فولكر. ولكن ما كان مقدراً لها أن تكون كذلك. فقد حدثت أمور كبيرة في فترة رئاسة بوش: سقوط سور برلين، وانتهاء الحرب الباردة، والانتصار الساحق في حرب الخليج، ومفاوضات اتفاقية النافتا لتحرير تجارة أمريكا الشمالية. ولكن الاقتصاد كان نقطة الضعف؛ ونتيجة لذلك انتهى بنا الحال إلى علاقة رهيبة.

واجه بوش عجزاً تجارياً يزداد سوءاً، بالإضافة إلى ظاهرة انتقال المصانع إلى الخارج التي كانت لها أضرارها من الناحية السياسية. وأجبرته الضغوط من أجل خفض العجز الفدرالي في يوليو (تموز) من عام ١٩٩٠ على قبول تسوية للميزانية أخل فيها بتعهده عدم فرض ضرائب جديدة. وبعد بضعة أيام كان غزو العراق للكويت. وأثبتت حرب الخليج التي أعقبت ذلك أن لها أثراً عظيماً على شعبيته. إلا أن الأزمة ألقت كذلك بالاقتصاد إلى الكساد الذي كنا نخشاه، حيث ارتفعت أسعار النفط ونال الشك من ثقة المستهلكين. والأمر الأسوأ من ذلك هو أن الانتعاش الذي بدأ في أوائل عام ١٩٩١ كان بطيئاً على نحو غير معتاد وهزيلاً. وكانت غالبية الأحداث تتعدى سيطرة أي شخص، ولكنها جعلت بالرغم من ذلك «الاقتصاد، ذلك الغبي» سبيلاً يهزم عَبْره بيل كلينتون بوش في انتخابات ١٩٩٢، بالرغم من نمو الاقتصاد في ذلك العام بنسبة ٤.١ بالمائة.

هناك عاملان عقدا الصورة الاقتصادية إلى حد بعيد. كان العامل الأول هو انهيار صناعة الادخار الأمريكية، مما أحدث استنزافاً كبيراً غير متوقع في الميزانية الفدرالية. فقد تعرضت شركات الادخار والإقراض، التي أُنشئت بشكلها الحديث لتمويل بناء الضواحي بعد الحرب العالمية الثانية، لموجات من الفشل على مدى عقد من الزمان. وقضى تضخم السبعينيات، مقترناً بإزالة القيود الذي أسيئت إدارتها، والتلاعب في نهاية الأمر، على المئات منها. وكما كان متصوراً في الأصل، فقد كانت شركات الادخار والإقراض آلة إقراض عقاري بسيطة، لا تختلف كثيراً عن شركة بيلي بيلدنج آند لون التي يديرها جيمي ستيوارت في It's a Wonderful Life. والمعتاد أن يودع العملاء المال في حسابات دفاتر التوفير التي كانت تدفع فائدة مقدارها ٣ بالمائة فقط ولكنها مضمونة على المستوى الفدرالي؛ وبعد ذلك يمكن لشركات الادخار والإقراض أن تقرض تلك الأموال في صورة قروض عقارية لمدة ثلاثين سنة بفائدة قدرها ٦ بالمائة. ونتيجة لذلك كانت شركات الادخار والإقراض لعقود مُجمعاً للأموال يعوَّل عليه. وتضخمت صناعة الادخار، حيث كان هنالك أكثر من ٣٦٠٠ مؤسسة بلغت أصولها في عام ١٩٨٧ ١.٥ تريليون دولار.

ولكن التضخم كان معناه القضاء على ذلك الوضع المرتب. إذ دفع بأسعار الفائدة قصيرة الأجل وطويلة الأجل إلى الارتفاع الحاد، مما جعل شركات الادخار والإقراض في حالة رهيبة من الضيق. وعلى الفور ارتفعت تكلفة الودائع بالنسبة لشركات الادخار والإقراض التقليدية ارتفاعاً كبيراً، لأن دوران محافظ القروض العقارية شديد البطء، والعائدات تتأخر. وبعد قليل تكبد العديد من شركات الادخار والإقراض الخسائر، وبحلول عام ١٩٨٩ كان قد جرى تصفية الغالبية العظمى منها بالفعل؛ ولو باعت كل قروضها لما توفر لديها المال الكافي لتسديد أموال مودعيها جميعاً.

حاول الكونجرس مراراً دعم الصناعة ولكنه نجح في المقام الأول في جعل المشكلة تزداد سوءاً. وفي فترة انتعاش البناء في عهد ريجان، رفع مستوى تأمين الودائع الذي يموله دافعو الضرائب (من ٤٠ ألف دولار إلى ١٠٠ ألف دولار) وخفف القيود على أنواع القروض التي يمكن أن تقدمها شركات الادخار والإقراض. ولم يمض وقت طويل حتى كان مديرو شركات الادخار والإقراض يمولون ناطحات السحاب والمنتجعات، وكثيراً ما كانوا يخسرون أموالهم.

وانتهز آخرون فرصة القواعد الفضفاضة كي يتلاعبوا. وأشهر هؤلاء تشارلز كيتنج، وهو مستثمر من الساحل الغربي انتهى به الحال في السجن بتهمة الاحتيال والتلاعب لتضليله المستثمرين من خلال تعاملات عقارية زائفة وبيع سندات عالية المخاطر لا قيمة لها. وقيل كذلك إن موظفي المبيعات في شركة لنكولن سيفينجز التابعة لكيتنج كانوا يقنعون الناس البسطاء بنقل مدخراتهم من حسابات صندوق التوفير إلى مشروعات غير مضمونة تتسم بالمخاطرة يسيطر هو عليها. وعندما انهار العمل بلغت التكلفة التي تحملها دافعو الضرائب لإزالة ما أحدثه من فوضى ٣.٤ مليار دولار، وخسر خمسة وعشرين ألفاً من مشتري السندات ما تقدر قيمته بمائتين وخمسين مليون دولار. وساعد ما كُشف في عام ١٩٩٠ عن كون كيتنج وغيره من مديري شركات الادخار والإقراض مساهمين كباراً في حملات انتخابات مجلس الشيوخ على حدوث دراما مكتملة الملامح.

تورطت على نحو معقد في تلك الفوضى ليس بسبب وظيفتي فحسب، بل كذلك بسبب دراسة كنت قد أجريتها حين كنت لا أزال مستشاراً خاصاً. فقبل ذلك بسنوات، وفي تاونسند- جرينسبان، استأجرتني شركة محاماة كبيرة تمثل كيتنج لتقييم ما إذا كان الوضع المالي لشركة لنكولن صحيحاً بالقدر الذي يكفي للسماح لها بالاستثمار بشكل مباشر في العقارات. وقد انتهيت إلى أنه طبقاً لموازنتها عالية السيولة يمكنها القيام بذلك. وكان ذلك قبل قيام كيتنج بإدخال زيادات خطيرة بتعزيز ميزانيته وقبل وقت طويل من كشف حقيقته كوغد. وحتى يومنا هذا لا أعرف ما إذا كان قد بدأ ارتكاب الجرائم في الوقت الذي بدأت فيه بحثي أم لا. وقد طفا تقرير على السطح عندما بدأت لجنة الأخلاق بمجلس الشيوخ جلسات الاستماع حول صلات كيتنج بخمسة من أعضاء مجلس الشيوخ باتوا يعرفون بـ «خمسة كيتنج». وشهد جون ماكين، وهو أحد من جرى التحقيق معهم، بأن تقييمي ساعد على طمأنته بشأن كيتنج. وقد أبلغت صحيفة «نيويورك تايمز» أنني شعرت بحرج نتيجة لفشلي في التنبؤ بما كانت الشركة ستؤول إليه. وأضفت قائلاً: إنني «كنت مخطئاً بشأن لنكولن».

كان ما شعرت به من ألم بسبب تلك الواقعة مضاعفاً لأنها تسببت في مشاكل لأندريه. ففي ذلك الوقت كانت قد أصبحت كبيرة مراسلي الكونجرس في شبكتها، وكانت تغطي فضيحة كيتنج. وكانت أندريه تولي أقصى اهتمام لما أسمته الجدار الناري بين عملي وعملها عندما تعمقت علاقتنا. فهي على سبيل المثال لم تحضر أياً من شهاداتي في الكونجرس، وقد كانت تجاهد لتحاشي مجرد ظهور تضارب المصالح. وقد وضعت جلسات استماع كيتنج هذا الأمر في موضع الاختبار. وقررت أندريه بعد تردد إخراج نفسها من القصة بينما كانت وسائل الإعلام تبحث صلتي بالقضية.

لم يعرف أحد مقدار تكلفة إزالة مخلفات فوضى صناعة الادخار التي سيتحملها دافعو الضرائب. كان التقدير بمئات المليارات من الدولارات. وعندما تقدم العمل كان استنزاف الخزانة متصوراً، مما زاد التحدي المالي سوءاً بالنسبة للرئيس بوش. ووقعت مهمة السعي لتعويض بعض الخسائر على عاتق هيئة تصفية الصناديق التي كان الكونجرس قد أنشأها في عام ١٩٨٩ لتصفية أصول الشركات المنهارة. وكنت ضمن مجلس مراقبتها الذي يرأسه وزير الخزانة برادي ويضم جاك كيمب، الذي كان حينذاك وزيراً للإسكان والتنمية الحضرية، وصاحب شركة التطوير العقاري روبرت لارسون، ومحافظ بنك الاحتياط الفدرالي السابق فليب جاكسون. وكانت تعمل في هيئة حل الصناديق هيئة من العاملين المحترفين، ولكن بالنسبة لي كان وجودي في أوائل عام ١٩٩١ ضمن مجلس المراقبة يشبه تقريباً القيام بوظيفة ثانية. فقد كنت أمضي قدراً كبيراً من الوقت في مطالعة الوثائق المفصلة بإمعان وأحضر الاجتماعات. وكانت أعداد ضخمة من الأملاك غير المسكونة التي نديرها تتدهور بسرعة نتيجة لعدم الصيانة، وما لم نتحرك بسرعة للتخلص منها فسوف ينتهي بنا الحال بعملية شطب ديون ضخمة. وبالإضافة إلى ذلك كان من المحتمل أن تُلقى على كاهلنا مسئولية تحديد قيمة فاتورة حل الكثير منها. وظللت أجمع التكاليف في ذهني، ولم تكن تلك فكرة لطيفة.

كانت القروض العقارية لشركات الادخار والإقراض التي لا تزال تدفع فوائد تعاني من هبوط الأسعار. ولكن هيئة تصفية الصناديق كانت قد ركزت على الأصول التي



عندما فاز جورج بوش في ذلك الخريف تمنيت أن يكون بنك الاحتياط الفدرالي وإدارته على وفاق. فقد كان الكل يعلم أن أي شخص يأتي بعد ريجان سوف يواجه تحديات اقتصادية



بدا أنه ليس هناك من يريدها: وهي المراكز التجارية التي لم يكتمل بناؤها في الصحراء، وملاعب الجولف، والمجمعات السكنية الرديئة في الأسواق السكنية المكتظة بالمباني، والمباني الإدارية شبه الفارغة التي أعيد تمليكها، ومناجم اليورانيوم. وقد فاق مجال المشكلة الخيال: إذ حسب بيل سيدمان، الذي كان يرأس كلاً من هيئة تصفية الصناديق وهيئة التأمين على الودائع الفدرالية أنه إذا صفت هيئة تصفية الصناديق ما قيمته مليون دولار من الأصول في اليوم الواحد، فسوف تحتاج إلى ثلاثمائة سنة لبيعها جميعاً. ومن الواضح أننا كنا بحاجة إلى مقاربة مختلفة.

لست متأكداً من هو صاحب فكرة المبيعات الخلاقة. فعندما قدمناها في النهاية كانت الخطة هي تجميع الأملاك في لوطات قيمة كل منها مليار دولار. وبالنسبة للحزمة الأولى التي عرضناها في المزاد، كنا نحاول بشكل خاص اجتذاب عطاءات بضعة مشترين مؤهلين، هم في الغالب شركات لها سجل منجزات يتضمن تحسين العقارات المريضة. ولا تعني صفة «مؤهلين» بالضرورة «مثاليين أخلاقياً» فقد شملت المجموعات التي قاربناها من يسمون بـ«الصناديق والمضاربين الرمامين» الذين ربما أجروا عملية شد وجه لسمعتهم.

لم يتم تنفيذ سوى بضعة عطاءات، وكان المبلغ الذي حققته الحزمة صغيراً نسبياً. ما يزيد قليلاً على ٥٠٠ مليون دولار. بل إن من فازت عطاءاتهم كان عليهم أن يدفعوا مقدماً عبارة عن جزء من السعر على أن يسددوا أقساطاً بناءً على مقدار النقد الذي تولده العقارات. وبدت الصفقة وكأنها منحة مجانية. وكما توقعنا، استشاط المراقبون العامون والكونجرس غضباً. ولكن ليس هناك ما هو مثل وجود صفقة لتحفيز الطلب. فقد اندفعت أعداد كبيرة من المستثمرين الجشعين للدخول في العملية، وارتفعت أسعار لوطات العقارات المتبقية ارتفاعاً كبيراً، وخلال بضعة أشهر كانت أرفف هيئة تصفية الصناديق قد خلت تماماً. وفي الوقت الذي حُلت فيه كانت قد أتمت تصفية ٧٤٤ شركة ادخار وإقراض، أكثر من ربع الصناعة. ولكن بفضل مبيعات الأصول إلى حد ما، كانت قيمة الفاتورة المقدمة لدافعي الضرائب ٨٧ مليار دولار، وهو ما يقل كثيراً عما كان يُخشى منه في الأصل.

كانت البنوك التجارية كذلك في مشكلة خطيرة. وكان ذلك صداعاً أكبر من صداع شركات الادخار والإقراض، لأن البنوك تمثل قطاعاً أكثر وأهم من قطاعات الاقتصاد. وكانت أواخر الثمانينيات أسوأ فترات البنوك من الكساد العظيم؛ فقد فشل المئات من البنوك صغيرة ومتوسطة الحجم، وكانت البنوك العملاقة مثل سيتي بانك وتشيس مانهاتن في وضع مؤلم. وكانت مشكلتها، كما هو الحال بالنسبة لشركات الادخار والإقراض، هي التوسع أكثر من اللازم في إقراض المضاربين؛ ففي أوائل الثمانينيات قامرت البنوك الكبرى على دين أمريكا اللاتينية. وكما هو حال المقامرين الهواة الذين يحاولون تعويض خسارتهم، راهنت أكثر بجر الصناعة كلها إلى الانغماس في إقراض العقارات التجارية.

هز انهيار الانتعاش العقاري الحتمي البنوك بالفعل. فقد جعل الشك في قيمة الضمانات العقارية التي تضمن قروضها رجال البنوك غير متأكدين من مقدار رأس المال الذي لديهم. مما جعلهم مشلولين ومفزوعين ومترددين في تقديم المزيد من القروض. واستطاعت الأعمال التجارية الكبيرة الحصول على مصادر أخرى للتمويل؛ كأسواق الدين المبتكرة التي ظهرت في وول ستريت، وهي الظاهرة التي ساعدت على عدم تعمق كساد ١٩٩٠. غير أن المصانع والتجار الصغار ومتوسطي الحجم في أنحاء أمريكا كانوا يجدون صعوبة في الحصول حتى على القروض التجارية الروتينية. وجعل هذا بدوره القضاء على الكساد صعباً على نحو غير عادي.

لم يبدُ أن شيئاً مما فعلناه في بنك الاحتياط الفدرالي قد أفلح. ذلك أننا كنا قد بدأنا تخفيض أسعار الفائدة قبل حدوث الركود بوقت طويل، غير أن الاقتصاد لم يعد يستجيب. ومع أننا خفضنا سعر الفائدة الأساسي ما لا يقل عن ثلاث وعشرين مرة خلال ثلاث سنوات فيما بين يوليو (تموز) ١٩٨٩ ويوليو (تموز) ١٩٩٢، فقد كان أحد أبطأ الانتعاشات المعروفة. «أحسن ما يوصف به الاقتصاد الأمريكي هو أنه يتحرك للأمام، ولكن في مواجهة ريح سرعتها خمسون ميلاً في الساعة». كانت تلك هي الطريقة التي شرحت بها الموقف للحاضرين من رجال أعمال نيو إنجلاند القلقين في أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٩١. لم يمكنني أن أكون مشجعاً إلى حد كبير، لأنني لم أكن أعلم متى ينتهي تقييد القروض.



كنت أرى الرئيس بوش كل ستة أو سبعة أسابيع، في سياق اجتماع مع آخرين، ولكننا كنا نلتقي نحن الاثنين فقط أحياناً. وكنا قد عرفنا بعضنا منذ أيام فورد. بل إنه دعاني لتناول طعام الغداء في لانجلي عندما كان مديراً للاستخبارات المركزية في عام ١٩٧٦. وفي الشهور الأولى من حملة ١٩٨٠ كثيراً ما كان يمر عليّ لمناقشة قضايا السياسة الاقتصادية. وعندما كان بوش نائباً للرئيس كنت أنضم إليه كل حين في البيت الأبيض. كان ذكياً وكنا متوافقين على المستوى الشخصي. وكنت مبهوراً على نحو خاص بزوجته باربرا، التي كان لها حضور يتسم بالرهبة والحيوية. إلا أنه كان أثناء فترة رئاسته أقل تركيزاً على الاقتصاد من السياسة.

ومع أن والده عمل في وول ستريت وتخصص في الاقتصاد بجامعة يل، فهو لم يتعامل بشكل مباشر مع الأسواق. كما أنه لم يفكر في أسعار الفائدة باعتبارها من وضع قوى السوق؛ إذ كان يبدو أنه يعتقد أنها أمور أفضلية. ولم يكن ذلك رأياً حكيماً. وكان يفضل تفويض أمر السياسة الاقتصادية لمساعديه، وهو ما يعني أنني كنت أتعامل بشكل أساسي مع نيك برادي وديك دارمان ومايك بوسكن.

كان دارمان مدير الميزانية يشبه ديفيد ستوكمان من نواحٍ كثيرة. فقد كان مفكراً سياسياً من الطراز الأول ومؤمناً بالإدارة المالية السليمة. إلا أنه على العكس من ستوكمان كان ديك في الغالب أقل مباشرة مع الناس وتُحركه الملاءمة السياسية بشكل أكبر. وبمرور الوقت تعلمت البقاء على مسافة منه.

كتب دارمان بعد سنوات أنه عارض بحماس في اجتماع مغلق بالبيت الأبيض الالتزام بتعهد عدم فرض ضرائب جديدة. وبدلاً من ذلك حاول إقناع الرئيس بمهاجمة العجز في وقت مبكر، حيث من المحتمل أنهما توصلا إلى تسوية للأمر بسرعة. ولكن الرئيس لم يكن مقتنعاً. فمع مرور أيام عام ١٩٨٩ وجد البيت الأبيض نفسه على خلاف مع الكونجرس. إذ كان عبء الدين لا يزال جاثماً على الميزانية على نحو لم يوفر للإدارة المرونة المالية التي تمكنها من معالجة الركود عندما حدث.



كانت الإدارة تلقي باللوم فيما يتعلق بالمشكلات التي تعاني منها على بنك الاحتياط الفدرالي. فمن المفترض أننا كنا نخنق الاقتصاد باستمرار تقييد عرض النقد. وقد أحسست بذلك لأول مرة في أغسطس (آب) من عام ١٩٨٩ عندما كنت أنا وأندريه نزور السناتور جون هاينز وزوجته تيريزا في منزلهما الريفي في نانتكيت. فقد كنا نشاهد برامج الحوار الصباحية وكان ديك دارمان يتحدث في برنامج Meet the Press. لم أكن ملتفتاً تماماً عندما سمعته يقول: «من المهم لرئيس البنك جرينسپان وكذلك لسائر أعضاء مجلسه ولجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة... أن يكونوا أكثر اهتماماً بضرورة تجنب إيقاع هذا الاقتصاد في الركود. ولست متأكداً إن كانوا يدركون ذلك أم لا». كاد فنجان القهوة يسقط من يدي. قلت: «ماذا!» وعندما سمعت مقولته قلت لنفسي إنها ليست منطقية من الناحية الاقتصادية. ثم أدركت أنها يجب ألا تكون كذلك؛ فهذا خطاب سياسي.

لم يكن وزير المالية برادي يحب بنك الاحتياط الفدرالي كذلك. وكان هو والرئيس صديقين ويشتركان في أمور كثيرة. فكلاهما شخص ثري وعريق النسب تخرج من جامعة يل، وعضو في الجمجمة والعظام. وكان نيك قد أمضى أكثر من ثلاثة عقود في وول ستريت حيث ترقى إلى منصب رئيس مجلس إدارة بيت استثماري كبير. وقد أحضر معه إلى واشنطن عمق التجربة التجارية الواقعية وعادة القيادة.

خلال فترة إدارة بوش تعاونت أنا ونيك في الكثير من القضايا المهمة. وقد سافرنا إلى موسكو في عام ١٩٩١ وعالجنا معاً وبشكل فعال أموراً معقدة تتعلق بتنظيم البنوك والصرف الأجنبي. ولم نعمل أنا وهو معاً فحسب، بل إنه دعاني إلى أوجستا ناشونال للعب الجولف، وكانت لي أنا وأندريه علاقات اجتماعية به وبزوجته كيتي.

ومع ذلك فقد عزز رؤية الرئيس بوش الذرائعية الخاصة بالسياسة النقدية. وكان نيك يرى أن تخفيض سعر الفائدة قصيرة الأجل يبدو اقتراحاً يخلو من المخاطر: ذلك أنه إذا أغرق بنك الاحتياط الفدرالي الاقتصاد بالمال، فسوف ينمو الاقتصاد على نحو أسرع. وبطبيعة الحال كان لابد لنا من الاعتماد على دلائل المستقبل الخاصة بانفجار التضخم، ولكن إذا حدث ذلك فيمكن لبنك الاحتياط الفدرالي من كبح جماحه. ولو فعلت ما أرادوه لطالبت بتخفيض أسرع وأكبر، ولاحتفظت بلا شك بسمعتي التي منحتني إياها السوق بجدارة.

غير أن وزير الخزانة لم يكن متقبلاً للنقاش. فقد حقق، شأنه شأن الكثير من المضاربين، نجاحاً كبيراً بشجاعته: وفي مسائل مثل سياسة سعر الصرف الأجنبي كنت أجد إحساسه بالأسواق مرهفاً إلى حد بعيد. إلا أنه لم يكن واضعاً للمفاهيم، ولم يكن يميل إلى اتباع رؤية طويلة المدى. وكنت أنا ونيك نلتقي في إفطار عمل مرة كل أسبوع، وعندما يبرز موضوع السياسة النقدية كنا نلف وندور فحسب حول الموضوع.

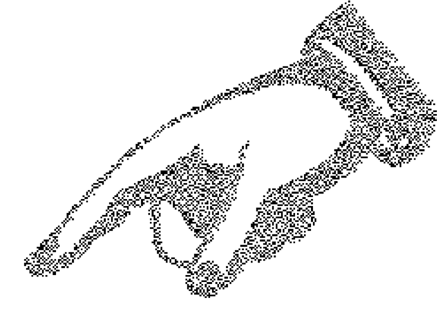
ضاعف هذا المأزق من صعوبة مواجهة العجز والركود، لأنه كان يعني أن الإدارة تبحث باستمرار عن مقابل من بنك الاحتياط الفدرالي. وعند مناقشة مشروع قانون ميزانية ١٩٩٠، واجه الرئيس بوش في النهاية ضرورة التخلي عن تعهده بعدم فرض ضرائب جديدة. طلب مني نيك تعهداً بأن يخفض بنك الاحتياط الفدرالي أسعار الفائدة في حال الموافقة على الميزانية.

كانت الميزانية في مجملها تروق لي في واقع الأمر. فقد كانت تشمل اثنين من ابتكارات دارمان كنت أرى أنهما يبشران بالخير، مثل قاعدة «الدفع بحسب الاستخدام»، وهي أن أي برنامج إنفاق جديد لابد أن يكون له مصدر تمويل تعويضي في صورة ضريبة جديدة أو تخفيض في الميزانية. ولم تخفض الميزانية المقترحة العجز بالعمق الذي كان ينبغي تخفيضه به، ولكن الإجماع داخل بنك الاحتياط الفدرالي الذي كنت أتفق معه هو أنها خطوة كبيرة في الاتجاه الصحيح. وفي جلسة استماع بالكونجرس في شهر أكتوبر (تشرين الأول) عندما كانت الميزانية جاهزة لإقرارها أخيراً، أعلنت أن الخطة «معقولة»، وهو ما قد يبدو مديحاً خافتاً، ولكنه كان كافياً لجعل سوق الأسهم تقفز عالياً، حيث راهن المتعاملون على أن بنك الاحتياط الفدرالي سوف يخفض أسعار الفائدة على الفور. وبالطبع لم نكن نعتزم القيام بذلك، إذ كان لابد أن نرى أولاً ما إذا كانت تخفيضات الميزانية قد أصبحت قانوناً أم لا، والأكثر أهمية هو ما إذا كان لها أثر اقتصادي حقيقي أم لا.

لهذا السبب كنت حريصاً جداً فيما قلته على انفراد لنيك. إذ قلت له: «سوف تخفض الميزانية



كتاب الزاوية



قصائد من المغرب العربي (٢)

شفتان على شفا قُبلة

شفتان تُبقيانك على شَفَا قُبلة
لا شفاعة
لا شفاء لمَن لثمتا
لا مهرب
لا وجهة عداهما أو قبلة
مجرد شفتين أطبقتا على عمرك

▪ ▪ ▪

ركوة قُبلتك الصباحيّة
قهوة لفمين
أغرق فيها كقطعة سكر
أرتشفها بهال الشكر
حمداً لك
يا مَن وضعت إعجازك في شفتين
وجعلتهما حكراً عليّ

▪ ▪ ▪

يا للهفتك
يا لجوعي إليك بعد فراق
ساعة رملية
تتسرّب منها في قبلة واحدة
كل كثبان الاشتياق

▪ ▪ ▪

كيف بقبلة تُوقفُ الزمن؟
كيف بشفتين
تُلقيان القبض على جسد؟

▪ ▪ ▪

يا رجلاً
مَن غيرك
سقط شهيداً
مُضرّجاً بالقُبَل؟

أحلام مستغانمي
الجزائر

السليمة أسعار الفائدة طويلة الأجل لأن توقعات التضخم سوف تقل. ومن المقدر أن ترد السياسة النقدية على ذلك بتخفيض أسعار الفائدة قصيرة الأجل». وكانت تلك سياسة بنك الاحتياط الفدرالي القياسية، ولكنها أحبطت نيك لأنها لم تكن الوعد الذي يبحث عنه.

عندما حدث الركود في ذلك الخريف، ازداد الاحتكاك سوءاً. وأعلن الرئيس بوش في خطاب حالة الاتحاد الذي ألقاه في عام ١٩٩١ أن «هناك قدراً أكبر من اللازم من التشاؤم. وينبغي للبنوك السليمة أن تقدم قروضاً سليمة الآن، وينبغي أن تنخفض أسعار الفائدة الآن». وكان بنك الاحتياط الفدرالي يخفض أسعار الفائدة على مدى أكثر من عام، ولكن البيت الأبيض كان يرغب في تخفيضات أكثر وأسرع.

لا زلت أحتفظ برسالة بعث بها نيك إليّ في تلك الفترة. فقد دعا في خطوة غير عادية ثمانية اقتصاديين بارزين من الصناعة والأكاديمية إلى البيت الأبيض لتناول طعام الغداء مع الرئيس. وأثناء تناول الطعام سُئل كل اقتصادي عما إذا كان ينبغي على بنك الاحتياط الفدرالي تخفيض أسعار الفائدة قصيرة الأجل أكثر أم لا. وقد كتب نيك أنه تحرجاً من وجودهم أمام الرئيس «أجاب كل منهم بأن ذلك لن يضر». والواقع أنهم شعروا جميعاً بأن ذلك سوف يفيد. ومضت الرسالة تقول: «إن أحداً لن يشاركك الرأي أثناء سفري» ثم اشتكى صراحة من «نقص القيادة الفعالة من جانب بنك الاحتياط الفدرالي».

في نهاية الأمر كان نباح الإدارة أشد من عضها. وعندما انتهت فترة عملي ببنك الاحتياط الفدرالي عام ١٩٩١ كان هناك اجتماع وراء الكواليس سعى فيه وزير الخزانة للحصول على تعهد بسياسة نقدية أكثر استرخاء مقابل تولي المنصب لفترة ثانية. وزعم نيك فيما بعد أنه عقد تلك الصفقة. وواقع الأمر أنه ما كان لي أن أتعهد بذلك، حتى وإن كان ذلك هو ما أريده (ومع هذا فقد كنت أرى في السر أن خفض سعر فائدتنا يمكن أن يستمر). وبالرغم من ذلك أعاد الرئيس بوش تعييني. وأظن أنه استنتج أنني كنت أقل اختياراته سوءاً: فبنك الاحتياط الفدرالي كان يعمل بشكل جيد بكل المقاييس، ولم يكن هناك مرشح آخر يبدو أن وول ستريت يفضله، وكان التغيير سيربك الأسواق.

جعل المأزق الخاص بالسياسة النقدية من الصعب عليّ وعلى نيك أن نظل صديقين؛ فبالرغم من استمرار تعاوننا مهنياً، فقد ألغى نيك إفطارنا الأسبوعي وانقطعت صلاتنا الاجتماعية. ومع اقتراب عام الانتخابات، قررت الإدارة تغيير مقاربتها لبنك الاحتياط الفدرالي ورئيسه العنيد. وانتقل «حساب جرينسبان»، كما كانوا يسمونه في البيت الأبيض، إلى رئيس لجنة مجلس المستشارين الاقتصاديين مايك بوسكين والرئيس نفسه.

وأخيراً كان الانتعاش يستجمع قواه عندما بدأ موسم الحملة الانتخابية. وبحلول شهر يوليو (تموز) شعرت بما يكفي من الثقة كي أعلن أن الريح التي تنطلق بسرعة خمسين ميلاً في الساعة قد هدأت بشكل جزئي. وأظهرت التحليلات اللاحقة أن بحلول الربيع سينمو إجمالي الناتج المحلي (الذي حل في عام ١٩٩٠ محل إجمالي الناتج القومي باعتباره المقياس المعياري لإنتاج الشركات) بمعدل سنوي صحي مقداره ٤ بالمائة. ولكن ذلك كان من الصعب إدراكه حينذاك، وكان الرئيس مهتماً على نحو مفهوم بأن يكون النمو قوياً وواضحاً بقدر الإمكان.

التقيت بالرئيس بضع مرات فحسب في ذلك العام. وكان باستمرار على قدر بالغ من الود. وكان يقول لي: «لا أريد مهاجمة بنك الاحتياط الفدرالي». وكان يستطلع الأمر ويثير أسئلة مهمة بناءً على ما كان يسمعه من معارفه في مجال الأعمال التجارية. فكان يطرح أسئلة من قبيل: «يقول الناس إن القيود المفروضة على احتياطي البنوك جزء من المشكلة؛ فكيف أهتم بهذا الأمر؟». وليست تلك هي الأسئلة التي كان يمكن أن يطرحها ريجان. فلم يكن لديه صبر لمناقشة السياسة الاقتصادية. وكنت مبتهجاً لرغبة بوش في أن يعرف. وشعرت بقدر من الارتياح في التعامل معه يزيد كثيراً عما كنت أشعر به في التعامل مع برادي لأن المناقشة لا تتسم بالخصومة. ولكن عندما كنا نتحدث عن أسعار الفائدة لم يكن بإمكاني قط إقناعه بأنه من المؤكد تقريباً ألا يسرع تخفيض أسعار الفائدة أكثر وأكثر وعلى نحو أسرع الانتعاش وسوف يزيد من احتمال التضخم.

الحقيقة هي أن الاقتصاد كان ينتعش. ليس في الوقت المناسب لإنقاذ الانتخابات فحسب. فمن المحتمل أن يضر العجز بوش أكثر من أي شيء آخر. ومع أن تخفيضات الميزانية المؤجلة وزيادة الضرائب في عام ١٩٩٠ وضعت البلاد على أساس مالي أفضل، فقد أثر الركود بشدة على العائدات الفدرالية مما أدى إلى زيادة العجز بصورة كبيرة، حيث بلغ ٢٩٠ مليار دولار في العام الأخير من فترة رئاسة بوش. واستطاع روس بيرو إبراز ذلك أثناء الحملة ونجح في تفتيت أصوات الجمهوريين بالقدر الذي أسقط بوش.

حزنت بعد سنوات عندما اكتشفت أن الرئيس بوش ألقى باللوم في خسارته عليّ. فقد قال في مقابلة تليفزيونية أجريت معه عام ١٩٩٨ I reappointed him and he disappointed me (لقد أعدت تعيينه وخذلني). وليس من طبعي أن أكون شكاكاً. ولكني أدركت فقط بالعودة بنظري إلى الوراء المدى الذي بلغه برادي ودارمان في إقناع الرئيس بأن بنك الاحتياط الفدرالي كان يدمره. وقد فاجأتني مرارته: فلم أشعر قط بالشيء ذاته تجاهه. وذكرتني خسارته في الانتخابات بكيفية إطاحة الناخبين في بريطانيا بونستون تشرشل بعد الحرب العالمية الثانية مباشرةً. ويمكنني الحكم بأن بوش أدى عمله على نحو مثالي فيما يتعلق بالقضايا المهمة التي تواجه الولايات المتحدة، مثل مواجهتنا مع الاتحاد السوفيتي والأزمة في الشرق الأوسط. فإذا كان هناك رئيس يستحق إعادة انتخابه فإنه هو، وكذلك ونستون تشرشل من بعده. ▪

جيـــــــــل أبـرامســــــون

الأيـــام الأخيــرة

■■ لا يخلو أى إصدار جديد من إصدارات بوب وودورد على الإطلاق من ترتيبات صارمة. فكتبه «مكتومة التفاصيل»، بمعنى أنه لا تتوافر نسخ مسبقة لاطلاع النقاد، كما تُنتزع من محررى الكتب تعهدات بالسرية مؤلمة كل الألم. تحوى «قنابله» تفاصيل خفية حصل عليها من داخل قبة السلطة ومذكرات رسمية سرية يستحيل الوصول إليها (يستحيل للجميع عدا وودورد). تنكشف تلك التفاصيل فى عدة مقالات تتصدر الصفحات الأولى من جريدة ذا واشنطون بوست حيث ظل المؤلف عقوداً مساعد مدير التحرير. (يعمل الآن نائباً لرئيس التحرير). وهناك صدمات قوية تظهر فى لقاءات حصرية من برنامج «٦٠ دقيقة» يعقبها المزيد من الإسهاب التليفزيوني، عرض متقن لا يخفق مرة فى احتلال المركز الأول من قائمة المبيعات.

وهذه المرة، مع مجيء كتاب «الحرب من الداخل»، آخر كتاب فى سلسلة أعمال كاملة تتكون من أربعة أجزاء حول الرئيس بوش، لا يختلف النص كثيراً، إلا أن عناوين الكتاب تخفى ما به من قيمة إخبارية حقيقية. فالقنابل المعلَنة - بأن إدارة بوش راقبت مؤخراً فى السر كل حركة وكل كلمة تقريباً صدرت من رئيس الوزراء العراقى نورى المالكى، وأن موظفى الجيش والاستخبارات الأمريكيين استعانوا بوسائل تجسس فى منتهى السرية لتصفية الإرهابيين الأجانب فى العراق - ليست صادمة بالمرة. يسبر السرد الأخير من الكتاب فى فتور عملية استمرت نحو ثلاث سنوات اكتشف الرئيس بوش ومستشاروه بغتة فى نهايتها أنهم فى حاجة إلى إستراتيجية جديدة لمعالجة العنف المتفاقم فى العراق، وهو سرد سيجده القارئ أقل إثارة بكثير من كتب وودورد السابقة عن بوش.

تكمن أهمية كتاب «الحرب من الداخل» فى أنه يعين نقلة تطور معها أسلوب المؤلف. إذ يشتهر وودورد بأسلوب بارد يلتزم كل الالتزام بالحقائق دون أن يحيد عنها، إذا جاز لى التعبير. إنها مبادئ لعرض الأفكار لا تند إلا عن صحفى من الطراز القديم، لا تخبر أحداً؛ فهو قلما يتوقف فى ثنايا أخباره ليؤلف بين الأحداث أو يحللها، هذا فضلاً عن عدم إصدار الأحكام على شخصياته القوية، لا سيما مصادره. فلديه زاوية واحدة وحيدة، الزاوية القريبة. إن افتقار كل كتبه عن الرؤساء للتحليل السياقى بدءاً من ريتشارد نيكسون أغضب بعض القراء والنقاد، ومن أشهرهم جوان ديديون التى كتبت فى تقييمها لكتب وودورد الستة (من العقد التاسع للقرن العشرين والعقد العاشر منه) قائلة إن «تلك كتب يغيب عنها كلية النشاط الدماغى القياسى».

لكن بالتناقض مع كتبه الأخرى عن بوش، يعرض كتاب «الحرب من الداخل» بالفعل تحاليل وأحكاماً تتخلل الأحداث. كما يُصدر حكماً نهائياً غاية فى القسوة عند تقييمه لأداء الرئيس بوش. إذ يُنهى وودورد خاتمته اللاذعة قائلاً: «لقد أظهر الرئيس بوش لسنوات عدة، المرة تلو الأخرى، نفاد صبر وشجاعة زائفة وثقة مزعزعة فى قراراته. وغالباً ما ينتهى الموقف من جانبه إلى تهور وطيش بل - وهو الأمر الأشد إزعاجاً - وردود أفعال متأخرة على حقائق ونصائح تعارض أحاسيسه الدفينة».

قد يعتبر البعض هذا الحكم واضحاً، سبق للكثيرين الوقوف عليه منذ زمن. كذلك سيتركون الكتاب تواقين إلى معلومات إضافية لو كانوا يتوقعون أن يتعاطى وودورد مع السؤال الرئيسى المحيط بحرب العراق: هل نشبت الحرب ووراءها قضية عادلة. ومع ذلك تطور وودورد كثيراً منذ كتابيه الأولين: فقد تطلع إلى المجريات فى هذين الكتابين بنظرة بطولية مبالغ فيها فى أعقاب ١١ سبتمبر. صحح المؤلف موقفه فى كتابه الثالث، «حالة الإنكار». فقد ألف الكتاب أثناء خروج التمرد بالعراق على إطار السيطرة، لذا أعاد صياغة القصة من البداية ليقدم إلى القارئ بياناً أقسى بسياسات بوش ومنفذيها.

لم يمسك كتاب «الحرب من الداخل» عن تسديد المزيد من الانتقادات لتنكمش مكانة الرئيس بوش فيما يتضخم حضور المؤلف الراوي. سوف يدعى المتهكمون بأن وودورد انتظر حتى كتابه الأخير ليسدد كل انتقاداته للرئيس ومستشاريه المقربين لأنه لم يعد فى حاجة إلى إجراء الحوارات معهم.



لا شك أن استنتاجات وودورد حول ثقة بوش وعدم احتماله للمعارضة وإدارته الفاشلة للسياسة بالعراق، بما فيها التجاوزات القانونية لحملة مكافحة الإرهاب، سبرتها

The War Within: A Secret White House History 2006 - 2008
By Bob Woodward

الحرب من الداخل: تاريخ سرى للبيت الأبيض ٢٠٠٦-٢٠٠٨

بقلم: بوب وودورد
Simon & Schuster. 2008. 487 pp. $32

بترتيب خاص مع:
The New York Times, Sunday Book Review

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

تعطينا الكتب الأربعة درساً تقشعر له الأبدان فيما لا يجب أن يفعله القادة



بالمزيد من العمق كتب جيدة سابقة لتوماس ريكس Thomas Ricks ومايكل جوردون Michael Gordon ورون ساسكيند Ron Suskind وروبرت درابر Robert Draper وجورج باكر George Packer وجين ماير Jane Mayer وغيرهم. لكن مع الوضع في الاعتبار كل المعطيات سنجده من المستحيل ألا ننبهر بسرد وودورد للمجريات. إذ زود وودورد تأريخاً جلياً للأسبوع بعد الأسبوع بدءاً من الهجوم على أفغانستان عقب ١١ سبتمبر إلى تنفيذ سياسة 'الاندفاع' في الشارع العراقي، تأريخاً لسياسة حرب تعثرت حين انتهجها بوش وعواقب تلك السياسة. لقد وفرت بياناته الواقعية المجردة للعديد من المؤلفين والمراسلين الآخرين سجلاً نفيساً لما جرى وما قيل في اللحظات الحاسمة خلال رئاسة بوش.

الواقع أن بعض التفاصيل الحاسمة لأخطاء إدارة بوش أتت رأساً من وودورد. هناك قاعدة وزير الخارجية السابق كولين باول المسماة بـ 'باتيري بارنص («إن كسرت البضاعة، ستدفع ثمنها»)؛ تلك العبارة الشائنة، «وقعة سوداء» الصادرة من مدير وكالة الاستخبارات المركزية السابق جورج تينيت لوصف الحجة المغلوطة الخاصة ببرامج أسلحة الدمار الشامل العراقية؛ مشاحنة بين نائب الرئيس ديك تشيني وباول في جدال شديد الوطأة حول السياسة في العراق؛ السيناتور تشاك هاجيل ينهي إلى بوش أنه غار عميقاً في المعضلة؛ وجه وزير الدفاع دونالد رامسفيلد وهو يمتقع حين أفحمه جنرال الجيش المتقاعد جاك كين بدلائل لا تقبل الجدل للبرهنة على أنهم في حاجة إلى قوات إضافية لو أرادوا تحقيق الأمن بالعراق في أي وقت من الأوقات. يصور الكتاب الجديد مشهداً مثيراً للانتباه يأسر مغزى الوضع بأسره: يطالب الرئيس بوش متبلد الذهن بإعادة كلمات «الانتصار» و«الفوز» و«النجاح» إلى خطاب كان سيلقيه وقت استفحال العنف في العراق. إن تلك الحوادث ليست مجرد نوادر، إنها تفاصيل جديرة بالذكر تصنع التاريخ.

ومع بيت أبيض يتحرى مثل تلك السرية، حيث ليس من المرجح أن تكتب قلة من أهم المشاركين بأقلام أمينة متبصرة في المستقبل القريب (عندك على الأقل سيرة تينيت الحديثة كبرهان على صدق قولي)، تكتسب رباعية وودورد قيمة هائلة بما تحويه من تفاصيل دقيقة تنير الطريق أمام القارئ على نحو رائع. وقد تكون هذه الكتب في مجملها أفضل سجل على الإطلاق سيقع بين أيدينا عن الأحداث التي تغطيها.

ليس من العدل انتقاد أي مؤلف لعدم تأليفه كتباً يفضل الآخرون أن يكتبها. وفي حالة وودورد، سنلفاه مجرداً من أي أيديولوجية معينة، وعليه تتسبب كتبه في إحباط مرير لهؤلاء الصارخين في البرامج التليفزيونية، اليسار منهم واليمين. نادراً على أي حال ما يسع المراسلات الإخبارية المعاصرة أن تقدم البنية الذكية لكتب مثل كتب روبرت كارو الثلاثة Robert Caro (وآخر في الطريق) حول ليندون جونسون، فهي بلا مثيل في جمعها الدقيق بين الوثائق والمقابلات الشخصية لتعكس بذلك حكمة الزمن الزائل. وبوصف جورج دابليو. بوش الشخصية الأساسية في نصوص وودورد الضخمة، لن نجده يتطور أو يعمق من الكتاب إلى الآخر، مثلما يحدث لشخصية فرانكلين دي. روزفلت بمجموعة آرثر شليزنجر جونيور Arthur Schlesinger Jr. حول 'الصفقة الجديدة.' بيد أن وودورد يقبض بحق على جوهر شخصيته الرئيسية. فمع أفكار بوش المبتذلة المتفائلة وثقته بنفسه، يبزغ باعتباره رئيساً هاماً وسطحياً في نفس الآونة، عجوز جسمانياً لكن سليم على المستوى الفكري والنفسي. وهنا يتبين وودورد أن «الرئيس بوش طاله أقل القليل من التغيير منذ حواري الأول معه في ٢٠ ديسمبر ٢٠٠١». سوف تتملك الدهشة القارئ حين يطالع الأربعة كتب بالتعاقب، كما فعلت هذا الربيع والصيف، ليكتشف أن رغم التزام وودورد بمنهج محايد، تتجلى تمام التجلي كل عيوب الرئيس ووزرائه، لا سيما في حالة الشخصية الرئيسية، جورج دابليو. بوش. إن تلك الكتب تتيح صورة محددة حاسمة لهذه الشخصية حتى لو تراءى وودورد في الحقيقة غير واع أحياناً لما لديه.

الحق أن تطور وعي وودورد يمد هذه الكتب بالدراما الحقيقية. هناك مواد تدين الرئيس في جميع الكتب الأربعة، إلا أن وودورد كان في الاثنين الأولين عاجزاً عن الاعتراف الكامل بها أو عازفاً عن هذا الاعتراف. لكن عندما تعاظمت معضلات الحرب وطغت عيوب بوش على نقاط قوته، طفق وودورد يعيد تقييم بوش وآرائه السابقة لينتهي به الأمر إلى عدم الاكتفاء بتقديم المواد كي يتوصل القراء بأنفسهم إلى نتائجهم الخاصة بل انتقاد الرئيس بوش نفسه انتقاداً عنيفاً. وهو بذلك يقترب من دور كاتب السيرة الذاتية، وليس فقط المختزل للأحداث والشخصيات.

THE WAR WITHIN
BOB WOODWARD

تلقى «بوش في الحرب»، الكتاب الأول الصادر عام ٢٠٠٢، انتقادات مبررة بسذاجة الحجة والمظهر الخادع. لا يزال الاتهام قائماً اليوم. إذ يصيب الإجفال القارئ عند قراءة بعض النقاط الحاسمة، مثلما يحدث عندما سأل بوش قبل شن الحرب على أفغانستان إذا ما يمكن توصيل المعونات الإنسانية إلى هناك بجسور التموين الجوية. «لقد وجد بوش ذلك الأمر حيوياً في إطار رؤيته لمهمة الولايات المتحدة الإنسانية»، هكذا يكتب وودورد بلهجة مخلصة. وفي مرحلة أخرى يدون وودورد رؤية بوش للعالم دون أن يحللها: «من الواضح أن مهمته تتضمن إعادة تنظيم طموح للعالم من خلال تحركات وقائية وأحادية الجانب - لو تطلب الأمر - من أجل تقليل المعاناة وإقرار السلام». ومع ذلك يمنح وودورد القراء في كتابه الأول نذيراً واضحاً بأشد نقائص البيت الأول فتكاً. «يدنو أسلوب بوش في القيادة من التسرع» يكتب قائلاً. «فهو يريد تحركات عاجلة وحلولاً فورية. ما إن يسلك سبيلاً حتى يوجه كل طاقته إلى الانطلاق بقوة وعجلة. نادراً ما يرنو إلى الخلف، كما أنه يسخر - بل ويهزأ - من الشكوك وأي شيء لا يرتقي إلى الالتزام ١٠٠ في ١٠٠».



بل إن الرئيس بوش يصبح في الكتاب الثاني «خطة الهجوم» - الدائر حول قرار الحرب على العراق - أكثر نبذاً لآراء ناصحيه ممن وجهوا مناشدات بتوخي الحذر لكن خشوا أن يتخلص منهم الرئيس تحت دعوى عدم الإخلاص. وفي كتاب «حالة الإنكار» يتبلور الوعي التام بالحقائق داخل البيت الأبيض ليسرد وودورد حالة الفوضى في العراق خلال ثلاثة أعوام أعقبت بداية الحرب. والآن، يعرض وودورد أخيراً في هذا الكتاب الخاتمة تلك «المسرحية الشعبية» التي يمثل فيها جنرالات يعلمون أنهم يخسرون حرباً وفي نفس الوقت يخبرون بوش بأن الشارع العراقي يحبه. يعي الرئيس وفريقه ببطء زائد عن اللازم حاجتهم إلى إستراتيجية جديدة بمستوى أعلى من القوات بغرض تهدئة العاصفة.

سوف يخالج القارئ شعور بأن كتب بوش الأربعة تتتبع منحنياً لا تنقصه الغرابة، بفصلين - الثالث والرابع - يلوحان وكأنهما ينتميان إلى مسرحية مختلفة. فقد جمع وودورد أهم ثلاثة مواد منها في صورة خاتمة تصرخ قائلة: «لقد أجبرني المحرر على كتابتها!» (ربما كان من الواجب أن يحذو حذو فرنسيس فورد كوبولا حين جمع ملاحم «العراب» في فيلم واحد.) ربما يتراءى أسلوب وودورد أخرق في تلك الكتب الثلاثة لدرجة أنه قد يتلون بفكاهة غير مقصودة: ذكر في مستهل فصل من الفصول يشرف فيه العنف العراقي على فوضى خليقة بأفكار توماس هوبز: «كانت مخاوف كوندي رايس تتصاعد».

تزود هذه الكتب درساً تقشعر له الأبدان فيما لا يجب أن يأتي به القادة. كذلك تصف نموذجاً تراجيدياً لرئيس يعمل باندفاع، بدافع من غرائزه ليس إلا، رئيس آزره مستشاروه وإن أخفقوا في مهمتهم الحاسمة، ألا وهي المجاهرة بالحقيقة في مواجهة السلطة. بل إن كتاب «بوش في الحرب» - الكتاب المفضل لدى البيت الأبيض - يظهر طريقة الرئيس بوش في القيادة كالجامعة بين تكلف العظمة («سوف ننقب عن الإرهاب حيثما يوجد») والتهديدات المتبجحة («سوف نجد من فعلوا تلك الفعلة وسنرفس مؤخراتهم») حسبما ينهي بوش إلى تشيني. والنقطة الجوهرية مثلما عبر عنها بوش لوودورد في مقابلتين هي: «لا بد أن يكون الرئيس بمثابة الكالسيوم بالعمود الفقري».

وهكذا يعارض بوش أي اقتراح بأن الأمريكيين في حاجة إلى المزيد من الوقت للانتقام من الإرهابيين بعد ١١ سبتمبر. عندما ذكر السيناتور السابق توماس داشيل الرئيس بأن الحرب كلمة قوية وحذره كوفر بلاك من وكالة الاستخبارات المركزية من أن الحرب في أفغانستان لن تخلو من الدماء ولن تكون باليسيرة، رد الرئيس على حجته قائلاً: «تلك هي الحرب. ونحن هنا للفوز بها». لم ينفك الرئيس يشير في حواراته مع وودورد إلى «غرائزه» وردود أفعاله النابعة من شعوره الدفين. ومن البداية يستشعر المؤلف خطراً في قائد «تكاد تكون غرائزه بمثابة دينه الثاني».

غير أن بوش لا ينصت فقط إلى صوته الباطني، لكنه تلقى أيضاً درساً قوياً منذ فترة مبكرة من كارل روف: ينحاز التاريخ مع المنتصر على الدوام مهما ارتكب من أخطاء على طول الطريق. وعليه سوف يجد القارئ بين صفحات الكتب الثلاثة التالية هوساً يستولي على بوش بتحقيق الفوز في العراق.

تتنامى ريبة المؤلف في كتاب «خطة الهجوم»، فحينما يصرح له بوش بأن «الحرية هي هبة الله لكل فرد من أفراد

العالم... أنا أعتقد بأن علينا واجباً بتحرير الناس » يسأله وودورد فى مداخلة نادرة إذا ما كان هذا الاعتقاد قد يبدو «أبوياً مهيمناً على نحو خطر» ليجيب عليه الرئيس سريعاً: «مَن ينالون الحرية يعجبون بالحماسة».

وكذلك يكتشف جورج تينيت إبان المشاورات الأولية للحرب على العراق أنك مع الرئيس بوش «قد دفعتَ الثمن الأكبر بإضمارك الشكوك»، مما يعنى فى المقابل أنه «لا توجد على ما يبدو عقوبة للمخاطرة أو الوقوع فى الخطأ». لا عجب أننا وصلنا متأخرين فى «الوقعة السوداء».

كان كولين باول ونائبه ريتشارد أرميتاج من بين المعفيين من مناصبهم بسهولة أى سهولة. لقد «استشعر باول حمى الحرب» تنبعث من البيت الأبيض فطلب الاجتماع بالرئيس. لكن بمجرد أن التقى باول به، لم يعبر عن أفكاره كما يجب وفشل فى إلقاء «ما يجول بخاطره على الطاولة». وفى عشية الحرب يُسلِّم وودورد بأن باول لم يفكر مطلقاً على الرغم من تحفظاته فى الابتعاد دون «ارتداء رداء الحرب». لكن ماذا لو اعترض باول علانية على نية الرئيس شن الحرب؟ هل كان ليشكل هذا فرقاً؟ إنه سؤال يخفق وودورد فى توجيهه.

وفى كتاب «الحرب من الداخل» يواجه وودورد أخيراً حقيقة أن أسباب الحرب مشكوك فى مصداقيتها: «لا أثر لأسلحة الدمار الشامل. اعتبر الكثيرون الحرب كارثة، وقد ارتبطت سمعة باول بها ارتباطاً لا فكاك منه، وعليه تدمرت إلى الأبد». وهنا يقتبس عبارة جيمز آيه. بيكر الثالث James A. Baker III - الصوت الرئيسى فى مجموعة العراق للدراسات - الذى أعلن أن باول قد يكون هو الشخص الوحيد الذى كان بوسعه منع اندلاع الحرب.

يعترف وودورد فى كتاب «خطة الهجوم» بأنه اقترف خطأ: إذ يقر بأنه كان من الواجب أن يضغط على جريدة ذا واشنطون بوست لتنشر فى صفحتها الأولى مقالاً يصف تحقيقات الاستخبارات حول أسلحة الدمار الشامل بالواهية. كنتُ وقتها أعمل مديرة مكتب واشنطون لجريدة ذا تايمز، وقد فشلتُ فى الضغط بما يكفى لنشر مقال مماثل مشكك بقلم جيمز ريزن James Risen. سرت فى تلك الفترة الكثير من الروايات الساذجة حول ادعاءات الإدارة بوجود أسلحة الدمار الشامل (بما فيها مقالات منشورة فى ذا تايمز وذا بوست). التقيت بوودورد مرات قليلة (فى مناقشات عامة وما شابهها) خلال عشرين عاماً قضيتها مراسلة ومحررة فى واشنطون. وهو هنا لا يُقَدِّم قصة كاملة عن حملة الإدارة لإثبات وجود أسلحة الدمار الشامل كما صنع كتابين ممتازين هما «أعظم قصة بيعت على الإطلاق» Greatest Story «Ever Sold» لفرانك ريتش Frank Rich و«الاستكبار» «Hubris» لمايكل أيسيكوف Michael Isikoff وديفيد كورن David Corn.



لم يعد وودورد مراقباً سلبياً للأحداث فى كتاب «حالة الإنكار». فهو يسجل تسجيلاً دقيقاً فترة التمرد العراقى عندما انقلب التفاؤل العنيد لبوش وتشينى ورامسفيلد رفضاً لمواجهة الواقع. يتحدى وودورد رامسفيلد بذكر الأرقام المتزايدة للهجمات العراقية لكنه انتهى «عاجزاً عن النطق» حين شبه رامسفيلد الموقف بسلطانية فاكهة. قد يتذكر القراء هذا الكتاب لما يضمه من نكات عن إطلاق الريح تبادلها بوش وروف ليسليا نفسيهما، أو لما كشف عنه من رغبة رئيس هيئة موظفى البيت الأبيض أندرو كارد ولورا بوش فى إقالة رامسفيلد. غير أن أقوى صفحاته تسرد اكتشاف رجال الرئيس بأن «بوش فى حالة إنكار فيما يتعلق بالعراق».

ربما ساهم عجز وودورد عن إجراء مقابلة مع بوش لكتابه الثالث فى تحريره بهدف بلوغ استنتاجات أكثر حدة، وإن تشوهت النتيجة رغم ذلك بعلاقات وودورد المقربة ببعض المصادر. فالعديد من الصفحات المصورة لبوش مصدرها الأمير السعودى بندر، مصدر من مصادر وودورد القديمة قد يكون حريصاً على خدمة مصالحه، وليس موثوقاً منه.

يظل بوش فى كتاب «الحرب من الداخل» غير عابئ بالحقيقة المريرة. يستنتج الجنرال جورج كيسى أن المشكلة الأساسية فى العراق هى «الرئيس نفسه»، ملاحظة تسبغ الموضوعية على نص وودورد وهو يدون سنوات من التردد والاضطراب أبى الرئيس خلالها بكل عند - حتى عندما تكاثرت أمامه الدلائل - قبول أى إستراتيجية حربية تتكل على مستويات قوات هزيلة كما وضعها رامسفيلد والافتقار إلى خطة قابلة للتطبيق لما بعد الغزو سيجعلان «الانتصار» الذى يطالب به مستعصى على التحقيق تماماً. بل إن إصرار البيت الأبيض على الولاء والتفاؤل كبح قلة من الأفراد الواقعيين بالفريق مثل مساعدة مستشار الأمن القومى ميجان إل. أوسوليفان ونائب وزيرة الخارجية فيليب زيليكو. حملت أوسوليفان نفسها أخيراً على إطلاع بوش بأن العراق «كالجحيم» إلا أن زيليكو الذى زار العراق أكثر من اثنتى عشرة مرة وفطن إلى عتمة الصورة سرعان ما تخلص من تشاؤمه فى حضرة بوش. «ربما لم يرغب زيليكو فى أن يخرج كلية عن إطار التفاؤل أو أن يبدو سلبياً» حسبما تكهن وودورد. «علّه لم يتمكن من التغلب على الفكرة المبتذلة القديمة بأن المستشارين يذعنون دائماً أمام مشيئة الرئيس». أما رئيسة زيليكو، كونداليزا رايس، فقد تواطأت هى الأخرى على الجريمة. كانت تعلم أن الرئيس بوش ينبغى أن يسمع الرواية المشككة، وليس فقط المثالية، من رجال الجيش لكنها لطفت هى الأخرى الحقيقة أمامه عندما كانت أولاً مستشارة الأمن القومى ثم حين أصبحت وزيرة للخارجية. كما أنها لم تجرؤ على تجاوز تشينى ورامسفيلد لتنقل الحقيقة إلى الرئيس.

يثنى بوش فى مقابلاته مع وودورد على خليفة كونداليزا رايس، مستشار الأمن القومى ستيفن جيه. هادلى. إذ يسميه بمهندس «الاندفاع» الذى خفض عدد الهجمات فى بغداد ومناطق أخرى من العراق (بمعاونة تحالف جديد مع بعض زعماء القبائل العراقية والسنة). غير أن رعباً انتاب وودورد لأن بوش أوكل إلى مستشار الأمن القومى مسئولية حرب فاشلة. وهنا يعيب وودورد على هادلى ما خالجه من خشية من رئيس وصفه هادلى بـ «نافذ البصيرة».

غير أنه رئيس صاحب بصيرة أحياناً ما تشوبها العتمة. عندما أجرى وودورد حواره الطويل مع بوش لكتابة كتابه الأخير، طلب من الرئيس تحديد مرحلة قرر فيها تبديل سياسته الحربية والموافقة على خطة «الاندفاع». ألحق السؤال الارتباك ببوش الذى نصح وودورد بالرجوع إلى هادلى - «ربما ستيف عارفها». كانت لحظة أنزلت الذهول بوودورد مثلها مثلما



يستنتج الجنرال
جورج كيسى
أن المشكلة الأساسية
فى العراق هى
«الرئيس نفسه»



طلب من رامسفيلد فى «حالة الإنكار» أن يصف حادثة أثبت فيها بوش نفسه كقائد حرب لكنه لم يتمكن من تذكر حادثة واحدة فقط لا غير.

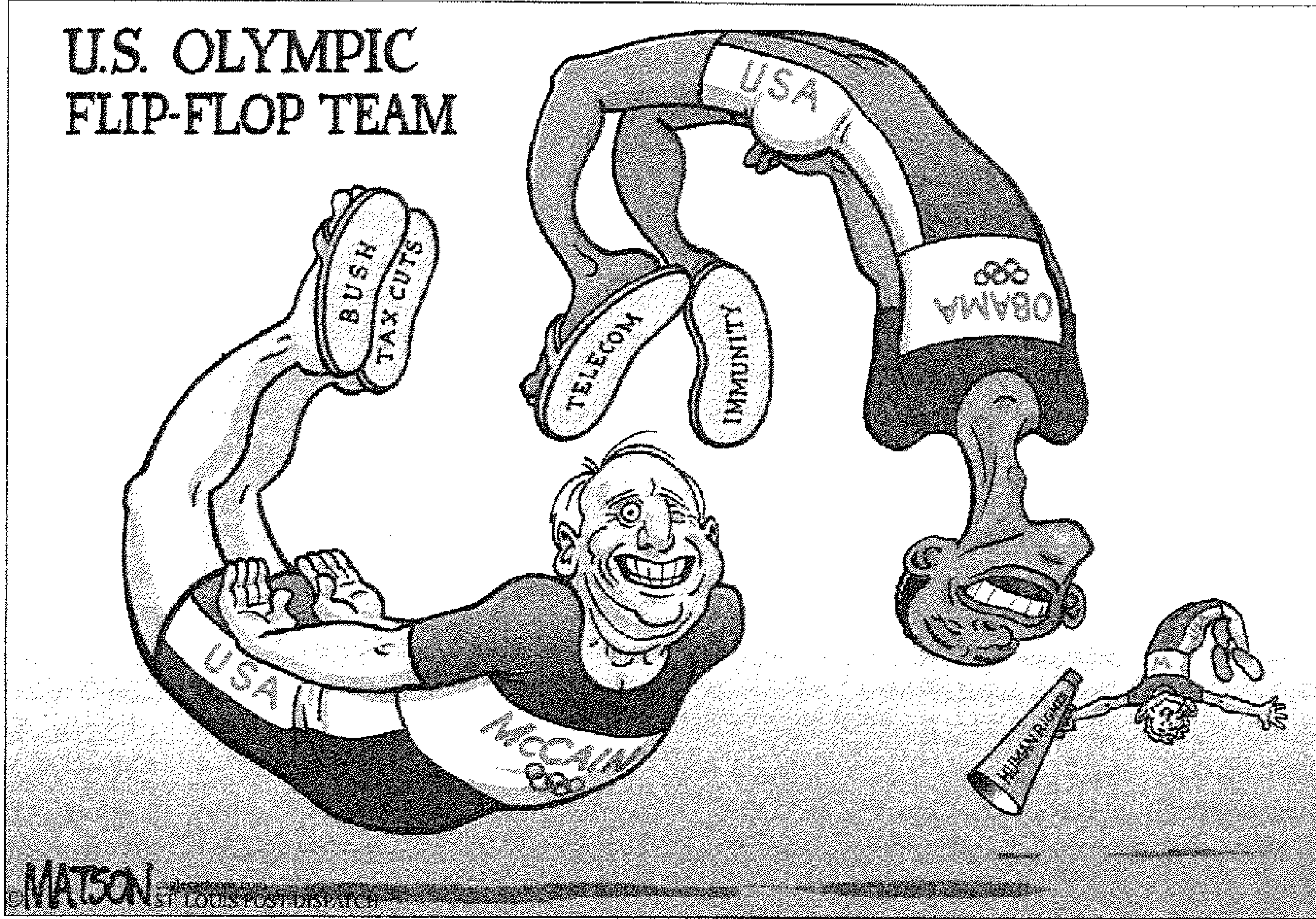
أصيب وودورد نفسه بالصدمة لاعتراف بوش بأنه اكتشف فى يونيه ٢٠٠٦ أن استراتيجية العراق غير فعالة لكنه لم يجئ بأية خطوة إيجابية لتعديلها. وحينما سأله إذا ما كان من الضرورى إرسال قوات إضافية منذ مرحلة مبكرة، رد عليه بوش، «لم أقض وقتاً طويلاً فى تحليل إذا ما كانت القوات الإضافية» ستغير الموقف. وفى ذروة هجمات المتمردين يطالب بوش بالمستحيل: «أريد أن أقدر على قول إن لدينا خطة لرد الضربات» حتى «نحارب الانطباع بأن هذه الحرب ليست قابلة للفوز».

لو ثمة بطل فى تلك الحكاية الحزينة. فهو الجنرال ديفيد بيتروس، منفذ سياسة الاندفاع. «البادى أن المؤلف الذى جعل منه بطلاً أكن له إعجاباً رجولياً: «ظل بيتروس فى سن الثالثة والخمسين رجلاً نحيفاً بملامح طفولية، مشهور بذكائه وبلاغته ونشاطه».

لكن حتى بيتروس برغم كفاءته لبث تابعاً للشخصية الوحيدة المهيمنة على نصوص هذه الكتب الأربعة. يختتم وودورد حديثه قائلاً: «يتبقى فى النهاية درس واحد. درس تكرر المرة تلو الأخرى عبر تاريخ الحكومات الأمريكية: من بين كل الشخصيات القوية التى تسير فى ممرات السلطة بخطى موزونة، من بين كل موظفى الحكومة المتسمين بالعند والنواب الماكرين والجنرالات ذوى العيون الفولاذية، من بين أصوات جوقة الكونجرس التى تطالب صاخبة بأن يسمعها الآخرون، لا أهمية إلا لشخص واحد فقط».

يشتمل كتاب «الحرب من الداخل» على خاتمة أخيرة - أو بالأحرى دفاع كتابى. إذ يشير وودورد فى محاولة منه لتبرير نفسه إلى أن البذور النابتة فى «حالة الإنكار» و«الحرب من الداخل» زرعها من قبل فى كتابيه الأوليين. تلك حجة مقبولة فى الظاهر وإن كان من الأفضل له ولنا لو تداخلت أحكامه فى النصوص الأصلية. بل إن وودورد لا يفشى حتى الآن آراءه الخاصة فى الحرب، عدا تصريحه الجلى الواضح: «تظل نتيجة حرب العراق فى سنتها السادسة غير أكيدة».

بيد أن حكم وودورد على الحرب وبوش ليس مهماً إلى هذه الدرجة. فقد أمد القراء فى كتبه الأربعة بمحادثات ووثائق سوف يحتاجون إليها للتوصل إلى أحكامهم الخاصة. وقد زودنا أيضاً بما يكفى من تحليلات رغم ما عابها من تقطع ونقص لكى نجعل هذا الحكم حكماً حقيقياً عن علم ومعرفة. لا ريب أن تلك الكتب مسيرة طويلة مرهقة للقارئ لكنها تجسد أكمل الروايات حول رئاسة بوش وحرب ستكون على الأرجح إرثه الأهم. ■



كيف ينتخبون «رئيس العالم»؟!!

منار الشوربجي

■■ لعل السؤال الذى يتبادر إلى ذهن القارئ هو: لماذا كتاب عن الانتخابات الأمريكية؟ هل يستحق الأمر أن ينفق قارئ عربي- ناهيك عن باحثة عربية- الوقت فى فهم الموضوع، الذى سوف يكتشف، إذا ما تصفح الكتاب، أنه مليء بالتعقيدات الفنية والإجرائية؟

ما الذى يعود علينا نحن العرب من فهم تلك العملية المعقدة، التى لا يفهمها فى الواقع حتى الكثير من الأمريكيين أنفسهم؟ أليس فى الأمر مبالغة لا تعدو أن تكون انصرافا عن الشأن العربى عبر الاستغراق فى متابعة الشأن الأمريكي؟ وإسرافا فى مواكبة «الأمركة» والاحتفاء بها؟

إن كل هذه الأسئلة- وغيرها الكثير- مشروعة تماما وتدور فى ذهن الكثيرين، خصوصا فى لحظة تاريخية صارت فيها

كيف ينتخب الرئيس الأمريكي؟
قيود وتعقيدات وأشياء أخرى
منار الشوربجي
مكتبة الشروق الدولية - القاهرة ٢٠٠٨

الولايات المتحدة الأمريكية تنفق بلا حدود على ما يسمى «الدبلوماسية العامة» بهدف واحد هو الترويج للنموذج الأمريكي.

وربما تكون نقطة البداية الصحيحة للإجابة عن تلك الأسئلة هى الواقع العربى الراهن نفسه. فرغم أن الولايات المتحدة لم تكف طوال تاريخها عن الحديث عن نشر الديمقراطية فى العالم، إلا أن هذا الطابع الرسالى قد ازداد فى سنوات حكم بوش الابن، حتى وصل إلى مستوى غير مسبوق كما وكيفا، وتركز فى الواقع على عالمنا العربى بشكل خاص.

فقد استخدمت إدارة بوش الابن موضوع الديمقراطية كأداة سياسية تستغل أهم نقاط ضعف النظم السياسية العربية لابتزازها والضغط عليها ودفعها دفعا نحو مواقف إقليمية لا علاقة لها فى الواقع بقضية الديمقراطية.

غير أن المهم فى ذلك كله هو الطريقة التى استقبل بها القصف الأمريكى باسم الديمقراطية فى عالمنا العربى.

فقد دار السجال فى عالمنا العربى حول أمور عدة، منها الأهداف الحقيقية لأمريكا من وراء كل ذلك، وإمكانية حدوث تحول ديمقراطى من فوق دبابة، أو بفعل ضغوط خارجية.

لكن الطريف فى الأمر هو أن ذلك السجال ناقش دعوة إدارة بوش وضغوطها باسم الديمقراطية على نحو مقطوع الصلة إلى حد كبير عن السياق التاريخى والسياسي. فالسجل الأمريكى بشأن الديمقراطية وحقوق الإنسان فى العالم معروف بدءا من الضلوع فى قلب نظم حكم ديمقراطية شتى من إيران إلى شيلي، ووصولا إلى دعم نظم حكم ذات تاريخ أسود فى انتهاكاتها لحقوق الإنسان من سوهارتو إلى بينوشيه. ورغم أن تلك الأمثلة وغيرها قد استخدمها البعض فى السجال الذى دار إلا أنها جاءت فى معرض التشهير بأمريكا لا فى معرض الاعتماد على التاريخ الأمريكى لتحليل الحاضر والمستقبل.

غير أن الأكثر خطورة فى الواقع فى ذلك السجال كان أن أحدا لم يبحث فيما تقصده أمريكا بالضبط حين تتحدث عن الديمقراطية. فمن الواضح أن أمريكا حين تتحدث عن الديمقراطية، فإن منطوق خطابها ينطوى على افتراضين، أولهما أن الولايات المتحدة هى قلعة الديمقراطية فى العالم، وثانيهما أن الديمقراطية الأمريكية نموذج يحتذى. والطريف فى الواقع، أننا تعاملنا مع هذين الافتراضين باعتبارهما مسلمات ليست قابلة للفحص والتدقيق!

وقد ثبت بالدليل العملى أن الخطاب الأمريكى يقوم فعلا على هذين الافتراضين. فبعد احتلال العراق، ابتدعت الإدارة الأمريكية نظاما فريدا لنقل السلطة، تم التخلى عنه بسرعة بعد أن اندلعت المظاهرات الرافضة له. ولكن يظل تصميم ذلك النظام، والإعلان عنه بشكل جدى ذا دلالة بالغة الأهمية. فقد كان نظاما منقولا نقلا حرفيا عن نظام الانتخابات التمهيدية المعمول بها فى الولايات المتحدة لاختيار الرئيس.

كان النظام الذى أعلن عنه يقوم على الانتخاب غير المباشر عبر مراحل عدة: المرحلة الأولى، تتمثل فى تشكيل لجنة يقوم باختيار أعضائها مجلس الحكم

ليس صحيحا أن الناخب الأمريكي هو الفاعل الرئيسي الذي يحدد من يتولى الرئاسة الأمريكية



العراقي، مهمتها اختيار من سوف يشاركون فيما أطلق عليه «المؤتمرات الوطنية» في الأقاليم المختلفة. ثم يختار المشاركون في المؤتمرات الوطنية أعضاء المجلس النيابي الانتقالي، الذي يقوم بدوره باختيار الحكومة.

والمؤتمرات الوطنية هي ترجمة للتعبير الإنجليزي كوكس Caucus المستخدم في النظام الأمريكي.

وحين يطلع القارئ على نظام الانتخابات التمهيدية في الفصل الأول من هذا الكتاب سوف يكتشف أن النموذج الذي صمم للعراق كان عبارة عن نقل حرفي لنظام الانتخابات التمهيدية، وإن كان نسخة مشوهة منه، تصور من نقلها أنه تشويه لازم ليتناسب مع الواقع العراقي. فكانت النتيجة هي نقل نظام بالغ التعقيد، يرتبط ارتباطا وثيقا بالخصوصية الأمريكية، إلى واقع مغاير، له تعقيداته وخصوصيته المختلفة.

ودلالة كل ذلك، رغم أنه قد تم التخلي فعلا عن هذا النموذج، هو أنه يكشف عن أن فكرة تصدير الديمقراطية الأمريكية على وجه التحديد، وليس الديمقراطية عموما هي فكرة حاضرة بقوة في العقل السياسي الأمريكي ومتضمنة في كل حديث أمريكي عن الديمقراطية في العالم.

لكل ذلك، صار من الجدير بالتأمل فعلا أن أحدا منا لم يتوقف أمام كل ذلك ليسأل عن طبيعة الديمقراطية الأمريكية المراد تصديرها.

وفي حقيقة الأمر، يخلط الكثيرون بين المتغيرات المختلفة اللازمة لتحليل الديمقراطية الأمريكية. فالمنبهرون العرب بأمريكا يرون نظامها السياسي نموذجا فذا بالمطلق ومن ثم لا يميزون بين نقاط ضعفه ونقاط قوته.

فصحيح أن الولايات المتحدة الأمريكية تأتي على القمة بين دول العالم في مجال الحريات المدنية مثلا، وصحيح أنها تأتي في مرتبة متقدمة من حيث تقييم الديمقراطية المؤسسية بها، إلا أنه ليس صحيحا على الإطلاق أن الشيء نفسه يصدق على العملية الانتخابية فيها.

فلعل آخر ما يمكن الإشارة إليه في معرض نقل الخبرات العالمية والاستفادة منها هو النظام الانتخابي الأمريكي ناهيك عن النظام الحزبي. ولعل آخر من يحق له إسداء النصح بشأن النظام الانتخابي هو السياسيون الأمريكيون.

ومن هنا جاءت فكرة هذا الكتاب الذي يعنى بشرح العملية الانتخابية لمنصب الرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية. وهي انتخابات ذات طابع نخبوي محافظ وتبتعد في كثير من الأحيان عن أفكار محورية عرفها العالم كله واستخدمها بهدف تحقيق إرادة الناخبين، مثل الاقتراع السري المباشر ومواطن واحد يساوي صوتا واحدا One Man One Vote.

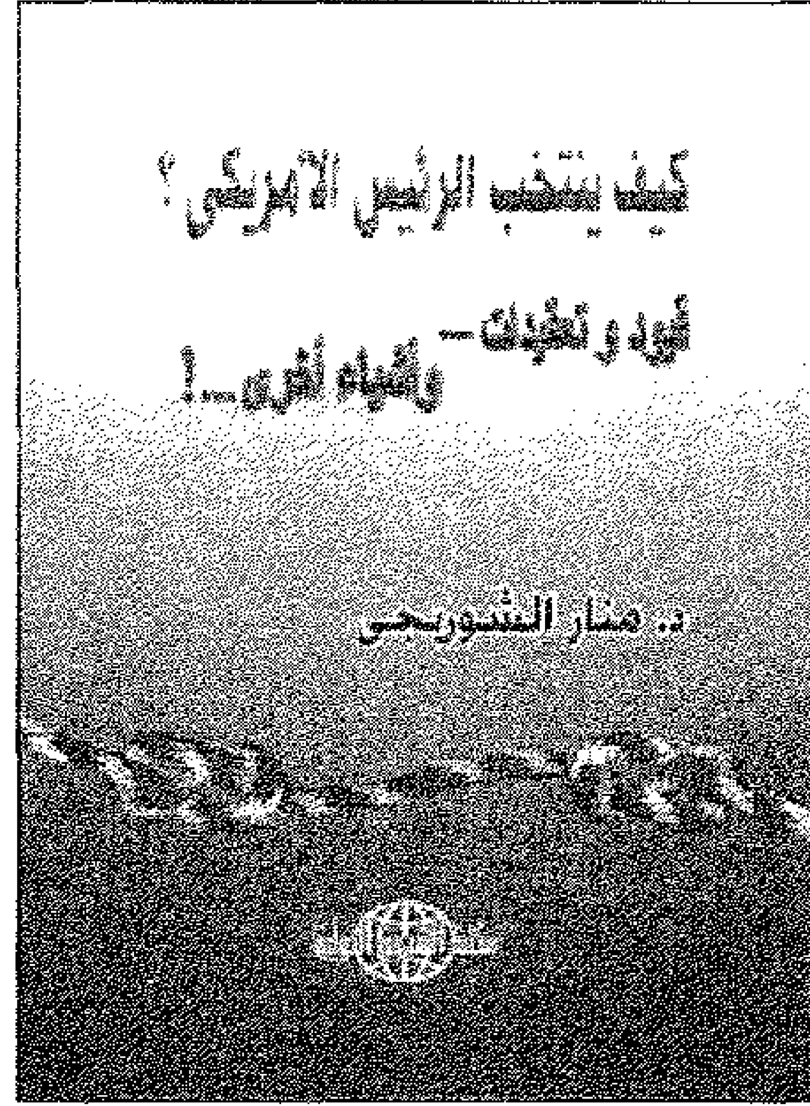
والكتاب يقدم أطروحة رئيسية مؤداها أنه ليس صحيحا أن الناخب الأمريكي هو الفاعل الرئيسي الذي يحدد من يتولى منصب الرئاسة الأمريكية. فدور الناخب في النظام السياسي الأمريكي محكوم بقيود عدة تحد من حجم الدور الذي يلعبه، بل وتفرغه من محتواه أصلا في بعض الأحيان.

ومحدودية دور الناخب في اختيار الرئيس ليست مناهضة للدستور الأمريكي، وإنما هي متسقة تماما معه. فوضع قيد على دور الناخب كان أحد الأهداف الرئيسية التي سعى لها الدستور الأمريكي عمدا. صحيح أن ذلك الدستور يبدأ بعبارة «نحن الشعب»، وأراد فعلا أن يمنح المواطنين دورا في العملية السياسية، إلا أنه تعمد وضع الصوت الشعبي دوما تحت السيطرة من جانب النخبة.

ورغم أن هذا هو حال النظام السياسي الأمريكي منذ نشأته، إلا أن التطورات التاريخية التي طرأت على ذلك النظام قد ظلت دوما تستلهم روح الدستور، فتضع المزيد من القيود على دور ذلك الناخب. وقد ازدادت هذه القيود حدة مع الوقت، خصوصا مع التطورات التي حدثت في العقود الثلاثة الأخيرة، وهي التي سوف يوليها هذا الكتاب اهتماما معتبرا.

ويأتي تقسيم الكتاب كله مبنيا على هذه الأطروحة. فهو ينقسم إلى بابين رئيسيين، يعنى الباب الأول بتقديم الإطار النظري العام الذي تدور فيه الحملات الانتخابية للرئاسة، بينما يتناول الباب الثاني حالات تطبيقية بعينها تمثل تجسيدا واضحا لما جاء في الباب الأول.

أما الباب الأول فينقسم إلى أربعة فصول، يعنى الفصل الأول بالإطار الدستوري والقانوني لانتخابات الرئاسة. وهو في ذلك يشرح النظام الذي ابتدعه الدستور الأمريكي لاختيار الرئيس ويبحث في الأسباب وراء تصميمه بالشكل الذي صمم عليه. ثم يتناول الفصل نفسه الإطار القانوني الحاكم لعملية تمويل الحملات الانتخابية. وهي مسألة بالغة الأهمية من أجل فهم



طبيعة الدور الذي تلعبه جماعات المصالح في الانتخابات.

وقد أفرد الكتاب الفصل الثاني للجوانب التي لم ينص عليها الدستور ولا القانون الفيدرالي، وهي الترتيبات التي تم تبنيها لاحقا، واستلهمت روح الدستور نفسه فمثلت قيدا إضافيا على دور الناخب. إذ يشرح هذا الفصل المرحلة التمهيدية في انتخابات الرئاسة أي التي تدور فيها المعركة بين مرشحي كل حزب وتنتهي بفوز واحد منهم ليخوض المعركة ضد مرشح الحزب الآخر في الخريف.

أما الفصل الثالث فهو يتعرض بالتفصيل للائتلافات الانتخابية التي تنشأ لحظة الانتخابات. والهدف من هذا الفصل هو إلقاء الضوء على طبيعة الأحزاب الأمريكية ودورها في الحملات، وعلاقتها بالمرشحين، وما يمثله كل ذلك من قيد آخر على دور الناخب. أو بالأحرى ما ينطوي عليه، من تجاهل لقطاعات من الناخبين.

ويتناول الفصل الرابع بالتحليل متغيرا مهما، وهو الدور الخطير الذي يلعبه الإعلام الأمريكي ليس فقط في تشكيل الحملات، وإنما في تشكيل خيارات الناخب نفسه.

ويأتي الباب الثاني ليكون بمثابة دراسة حالات بعينها، أي حملات انتخابية مختلفة، تمثل كل واحدة منها حالة تطبيقية لأحد الجوانب التي تطرق إليها الكتاب في بابه الأول.

فالفصل الخامس يتناول حملة بوش- جور ٢٠٠٠، والأزمة الدستورية التي حدثت عشية إعلان النتائج وهي حالة صارخة تجسد الدور الذي يلعبه الإطار الدستوري والقانوني في الانتخابات في مقابل دور الناخب.

أما الفصل السادس، فهو يعرض لحملة كلينتون- دول ١٩٩٦، وهي حالة تجسد المعنى الذي عرضه الفصل الثالث وهو أنه لا يمكن فهم أولويات أية حملة وقضاياها دون الوقوف على طبيعة الائتلافات الانتخابية التي أنشأها المرشحون. وانتخابات ١٩٩٦ حالة صارخة، هي الأخرى، مثل انتخابات ٢٠٠٠. فهي توضح بجلاء أن هذه الائتلافات قد تؤدي في الواقع إلى حملة خالية من القضايا المحورية في مجتمع يموج بالتحولات.

أما الفصل السابع، فهو يتناول من خلال حملة ٢٠٠٤ الرئاسية متغيرا مهما لابد أن يظل في الاعتبار عند متابعة أية حملة وهو السياق الذي حدثت فيه. فحملة ٢٠٠٤ حالة ممتازة توضح أن الاختيارات السياسية التي يتبناها حزب ما في السنوات السابقة على الحملة الانتخابية قد تلعب دورا حاسما في التأثير على مقدرات ذلك الحزب في الانتخابات وتحديد فرص مرشحه.

ويأتي الفصل الثامن ليركز على حملة هوارد دين ٢٠٠٤، والتي تمثل حالة بالغة الدلالة في شرح الدور الذي يلعبه الإعلام. غير أن مصير هذه الحملة يكشف أيضا عن جوانب أخرى تتعلق بمثالب الإطار الدستوري والقانوني نفسه. بدءا بنظام الانتخابات التمهيدية، ومرورا بمسألة تمويل الحملات الانتخابية، ووصولا إلى القوانين الحاكمة للدعاية الانتخابية.

غير أن لهذا الفصل أهمية أيضا في فهم مجريات حملة ٢٠٠٨ الانتخابية. فبدون الوقوف على ما حدث في حملة هوارد دين يصعب فهم الزخم المذهل الذي أحاط بحملة باراك أوباما ٢٠٠٨، والتي هي موضوع الفصل التاسع والأخير من هذا الكتاب.

وكما هو واضح من أطروحة الكتاب وتقسيمه، فإنه لا يسعى إلى تقديم تحليل لحملة انتخابات رئاسية بعينها. فهذا ليس هدفه، وإنما هدفه الرئيسي هو تقديم الإطار الذي يساعد القارئ على متابعة أية انتخابات رئاسية حالية أو مستقبلية.

ومن ثم، فقد سعيت إلى توجيه انتباه القارئ إلى النقاط المفصلية التي لا غنى عنها لمتابعة الحملات الانتخابية للرئاسة عموما، لا انتخابات بعينها.

وأعتذر مقدما للقارئ العزيز عن أي قصور يجده في هذا العمل. فهو اجتهاد بشري، سعيت من خلاله أن أقدم كل ما تراكم لدي من خبرة عبر سنوات طويلة من المتابعة الدقيقة لهذا الموضوع، ولكن الكمال يظل لله وحده. ■

الوطنية المصرية

محمد بيلي العليمي

شهدت الساحة المصرية تغيرات عدة على مدى السنوات الأخيرة، تضافرت مع مؤثرات إقليمية ودولية، لتنعكس على التنوع الطائفي وعلاقته بالوطنية المصرية[1]. وعلى الرغم من ذلك، يمكن القول إن مصر لا تشهد حالة طائفية بقدر ما تشهد تحولا اجتماعيا نتيجة لتسارع وتيرة التفاعلات الاقتصادية والسياسية، في منظومة تتأثر بالتطورات الدولية بفعل حركة العولمة وتلاشي الحدود بين الدول والمجتمعات والثقافات، الأمر الذي يصب في نهاية المطاف إلى تغير مجتمعي. وعلى ذلك، يمكن بوجه عام تصنيف أسباب الوضع الطائفي الراهن - إن جاز التعبير - في مصر إلى فئتين، الأولى تتعلق بعمليات التطور الاجتماعي إجمالا، والأخرى تتعلق بالملابسات الآنية لوقوع أي حدث طائفي.

وتمثل ظواهر التطور الاجتماعي، لا سيما إذا ما تم إسقاطها على المجتمع المصري مجالا خصبا للدراسة الإمبريقية، الأمر الذي يصعب معه الإلمام بكافة أسباب الوضع الطائفي الناشئة عن عمليات ذلك التطور. وعلى ذلك، فسيتم التركيز في هذا السياق على أهم تلك الأسباب، حيث أدى تآكل الطبقة الوسطى إلى حالة من الفرز الاجتماعي بشكل أفقي (طبقي)، وكان من نتاج ذلك، وبنمط يكاد يكون (حثيا) Inductive استخدمنا مصطلح الحث Induction المستخدم في علم الكهرباء، والذي يعد إحدى وسائل انتقال الطاقة الكهربية بلا توصيل (Conduction) امتداد الفرز إلى الخريطة الطائفية، ليحولها من خريطة سوسيولوجية إلى خريطة سيكولوجية للمجتمع بشكل رأسي (طائفي).

وعلى الرغم من وجود تعريفات عدة للطبقة الوسطى، إلا أنه درج استخدام هذا المصطلح للتعبير عن تلك الطبقة من الموظفين ذوي الدخول المتوسطة والمرتفعة، والذين يشغلون الجهاز الإداري للدولة ومرافق الخدمات والوحدات الاقتصادية المختلفة[2]. ومن الطبيعي وفقا لهذا التعريف أن تمثل تلك الطبقة أغلبية المجتمع في الحالات الطبيعية، حيث جمعت بين المسلمين والمسيحيين، وأدى تآكلها إلى اتخاذ التمايز الطبقي في بعض الأحيان لونا طائفيا، الأمر الذي كان نتاجا طبيعيا لطغيان المادة على بعض القيم التقليدية للمجتمع (الجوار، والتعايش، والتسامح).

ولم تستطع منظمات المجتمع المدني التغلب على تداعيات هذا الفرز الاجتماعي، حيث تبدو تلك المنظمات مفتقدة إلى بعض مقومات المدنية من تعميق الديمقراطية في ممارسة الأعضاء نشاطهم، ووجود لائحة داخلية واضحة، تنظم شئون العضوية والاشتراكات والانتخابات والميزانية والمساءلة والإجراءات التأديبية، فضلا عن ظهور نوع من المحسوبية داخل بعض الجمعيات، تطور إلى ظهور جمعيات عائلية مغلقة. علاوة على ذلك، فعدم وجود قنوات ثابتة للتمويل وضعف ثقافة التطوع بوجه عام يشكلان عامل ضعف لنشاط منظمات المجتمع المدني، كما أن تلك المنظمات تقل في المناطق العشوائية والمهمشة، رغم أنها قد تكون ساحة عملها الأولى.

من جهة أخرى، تنقسم منظمات المجتمع المدني إزاء ثقافة التنوع والتعددية إلى قسمين:

الأول: منظمات المجتمع المدني ذات الخلفية الدينية، والتي اعتبرت تطورا لظاهرة الأوقاف، وقد يطلق عليها البعض مؤسسات المجتمع الأهلي، وهي غالبا ذات أنشطة خيرية أو رعائية أو خدمية وربما تنموية.

الثاني: المنظمات الحقوقية، وهي متباينة الأطياف. وعلى الرغم من جهودها فيما يتعلق بتعزيز ثقافة حقوق الإنسان، والدفاع عنها، إلا أن بعضها يتبنى موقفا تجريديا فيما يتعلق بتلك الحقوق، بفصلها عن السياق الاجتماعي ككل، الأمر الذي يسهم في إثارة واختلاق قضايا حقوقية، قد تكون ذات طابع إداري بحت كمسألة البهائيين، وهو ما يصب في آخر المطاف في تعزيز الفكر الطائفي.

وربما يكون من أسباب الوضع الطائفي عودة الأفغان العرب خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين، محملين بالأفكار الجهادية الموجهة ضد الآخر المختلف عقائديا. فبداهة، يؤدي اختلاف البيئة إلى إدراك مغاير لمغزى النص الديني، ما ينطبق على تباين التفسيرات السوسيولوجية للنصوص في بلدان العالم الإسلامي المختلفة.

وعلى ذلك، فالتفسير المصري المتأثر بالتراكم الثقافي المتعدد الأطياف يختلف عن غيره من التفسيرات الأحادية الطيف، والتي تلجأ في بعض الأحيان إلى الحرفية، الأمر الذي شكل تاريخيا المسافة الذهنية بين مدرسة النقل ومدرسة العقل في الفقه الإسلامي، حيث تقوم الأولى على مبدأ: لا اجتهاد مع النص، بينما ترى الثانية أن الاجتهاد يكون لاستجلاء المرامي البعيدة للنص.

وبحكم عوامل عدة، كالطبيعة الجبلية والتركيبة الاجتماعية القائمة على النسق العشائري، فإن إدراك الإسلام في منطقة جنوب آسيا يظل ذا طابع خاص، يختلف عنه في مصر؛ نظرا لأن العقيدة تعتبر عامل التوحيد في تلك المنطقة لتجاوز الاختلافات العرقية التي تشكل رقما صعبا في التوازن الاجتماعي الجنوب آسيوي.



ونتيجة لظروف الاحتلال السوفيتي لأفغانستان فيما بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٩، فقد كان الدين عامل تعبئة ضد الاحتلال والنظام الشيوعي الموالي لموسكو، ومن ثم يمكن فهم كون الإدراك الأفغاني للإسلام آنذاك ذا طابع أحادي التفسير وفقا لمنظور حرفي تقليدي.

وفيما بعد الانسحاب السوفيتي، وعودة المصريين الذين اشتركوا في الحرب، فقد بدا أن صداما على وشك الوقوع بين منظورين مختلفين للمجتمع، أولهما يقوم على العودة إلى الأصول، والآخر يقوم على استلهام الليبرالية الغربية التي انتصرت في الحرب الباردة، مما أدى إلى تفشي ظاهرة الإرهاب كنوع من أنواع العنف السياسي في مصر خلال تسعينيات القرن العشرين، وما ترتب عليها من سعي الإرهابيين إلى تطبيق مشروعهم الفكري غير محدد الملامح بقوة السلاح، الأمر الذي انعكس على نظرة الجماعات الإسلامية إلى المسيحيين على اعتبارهم في أحسن الأحوال رعايا من الدرجة الثانية وليسوا مواطنين.

وبالرجوع إلى الدوافع السيكولوجية للعنف السياسي، وأهدافه السوسيولوجية، يبرز عامل الرمز كأداة للفرز الطائفي، ومن ثم تحديد هوية الأتباع والخصوم. فالعنف السياسي، كما يذهب الدكتور قدري حفني، ينتمي إلى تلك الأنواع من العنف التي لا تستهدف أشخاصا لذواتهم، بل تستهدفهم لصفاتهم الاجتماعية أو الفكرية أو الدينية أو العرقية... ومن يمارسونه إذ يوجهونه إلى أشخاص، فإنهم لا يوجهونه إليهم بصفاتهم الذاتية، بل باعتبارهم رموزا تعبر عن الآخر المرفوض[3].

من ناحية أخرى، لا يمكن قصر دوافع ظاهرة الإرهاب على استهداف الآخر المرفوض، إذ أن موجات الإرهاب التي نشأت متزامنة مع فترة الاحتقان خلال السبعينيات لم تكن موجهة في الأساس على أساس طائفي بنفس درجة كونها محاولة للوثوب على السلطة من قبل الجماعات المتطرفة، ومن ثم تطبيق نسق أيديولوجي لا يقوم على مبدأ المواطنة بأبعاده المدنية، على عكس ما تصوره بعض وسائل الإعلام الأجنبية من الربط بين العنف المضاد للدولة والمظاهر التي يمكن أن تؤدي إلى تفسير طائفي للأحداث. فيحدث أحيانا أن يسقط ضحايا في نزاعات، ويكون من بين المؤشرات العديدة التي تدل على هويتهم أنهم من الأقباط[4].

والملاحظ أن الإرهاب لم يكن عامل تفتيت fragmentation للمجال العام في مصر على أساس طائفي بقدر ما كان عامل توحيد. لقد شعر المصريون بأن خطرا داهما يوشك أن يفتك بالمجتمع، ما كان سببا في صناعة ملحمة، اشتركت فيها الأجهزة الأمنية والإعلامية والثقافية لاجتثاث الإرهاب، حيث مثلت التجربة المصرية نموذجا رائدا في هذا المجال.

واستكمالا لما أسلفناه من تآكل الطبقة المتوسطة، وطغيان المادة، فقد أدت عودة المصريين المقيمين بالدول النفطية إلى تعميق ذلك النمط الحياتي للاستهلاك، وتعظيم دور المادة في المجتمع.

ونسجا على منوال نظرية الحزمة الواحدة Single Package، فقد ارتبطت مظاهر الثراء




حلمي
التوني
2008

والنعمة والاستقرار الاجتماعي لدى المواطنين العائدين بالسلام الروحي في ظل منظومة قيمية محافظة، الأمر الذي مهد لمحاولات استيراد تلك المنظومة وطرحها في السوق الاجتماعي المصري Egyptian Social Market. فكتب فقهاء الدين السعوديين متوفرة بالمكتبات، وتسجيلات الخطباء في دول الخليج ومحاكيهم من المصريين مسموعة في وسائل المواصلات العامة، وتسجيلات تلاوة القرآن الكريم الخليجية رغم ما يعتري بعضها من أخطاء تجويدية أصبحت بندا في افتتاح المتاجر والمطاعم، واللهجة الخليجية غدت إحدى لهجات الشعر الغنائي في مصر.

الأمر لم يعد مقصوراً على الاستيراد وإعادة الطرح فحسب، وإنما امتد إلى التأصيل الاجتماعي للوارد الثقافي من خلال المزاوجة بين ثقافة الاستهلاك والتدين الوهابي. فاجتهادات الدعاة الجدد الذين ظهروا منذ أواخر القرن العشرين في النوادي وبيوت الأثرياء عمدت إلى تمجيد الثروة واستلهام النصوص الدينية التي تصب في هذا الاتجاه، مع مراعاة التكافل الاجتماعي من خلال التبرع الدائم لأوجه الخير، الأمر الذي أوجد حالة من الاسترخاء السيكولوجي لدى الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة من جهة، وأوجد من الناحية النظرية حالة مماثلة لدى الشرائح الأدنى المستفيدة من مخرجات التكافل الاجتماعي من أموال الأثرياء.

ومن المنطقي أن يقود تراكم تلك التفاعلات إلى عموم النمط الاستهلاكي، خاصة مع ثورة الخدمات التي يشهدها العالم، والتي أدت إلى تراجع نسبي لمكانة السلع في التجارة، ومن ثم تركيز الإنتاج على صناعة الخدمات أكثر من اهتمامه بصناعة السلع. وبالتالي اعتماد سوق العمل بوجه عام على مهارات غير تقليدية، لا يمتلكها ذلك القطاع العريض من البشر الذين كانت حياتهم قائمة على عجلة الصناعة.

ومن ثم فإن عدم تفتق اجتهادات الدعاة الجدد في أغلبها عن الدعوة إلى إيجاد مشروعات لتعظيم الإنتاج، وبالتالي رفع معدلات التشغيل بدلا من الإفراط في التبرعات، انتهى إلى تعزيز ثقافة الاستهلاك، ليس فقط لدى الشرائح العليا من المجتمع التي تستهلك السلع وتقدم الخدمات، ولكن لدى الشرائح الأدنى أيضا التي تستهلك التبرعات ولا تقدم شيئا.



اجتهادات الدعاة الجدد الذين ظهروا منذ أواخر القرن العشرين في النوادي وبيوت الأثرياء عمدت إلى تمجيد الثروة واستلهام النصوص الدينية التي تصب في هذا الاتجاه



وكأحد مخرجات تلك المنظومة القيمية الجديدة، فقد تآكلت الطبقة الوسطى، علاوة على ظهور بوادر حالة من الانغلاق الاجتماعي السلمي - لم يرتبط في أغلب الأحوال بممارسات عنف، ولا بتنظير فلسفي - سواء على المستوى الأفقي بين الشرائح الاجتماعية، أو على المستوى الرأسي بين طوائف المجتمع، تأثرا بالنمط الاجتماعي الخليجي القائم على أغلبية سنية ساحقة تشغل المجال العام.



من جهة أخرى، فقد لعب أقباط المهجر دورا موازيا في تشكيل الوضع الطائفي الراهن. وعلى الرغم من عمق الدور الذي لعبه المصريون العائدون من الدول النفطية على الصعيد الاجتماعي، إلا أن الدور السياسي الذي لعبه أقباط المهجر اتسم بتأثير مباشر على الساحة الداخلية المصرية، وأجندة التحرك المصري خارجيا؛ وذلك نظرا لحرية الحركة التي تمتعوا بها حاملين جنسيات الدول التي استقروا بها في الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وغرب أوروبا، واندماجهم في مجتمعاتهم الجديدة مع احتفاظهم بروابط وثيقة فيما بينهم، جعلت منهم جاليات قوية، الأمر الذي سهل نفاذهم إلى دوائر صنع القرار في بعض تلك الدول، فضلا عن تمتعهم بقدر من الثراء، يمكن عند الحاجة من فتح الأبواب المغلقة.

ويشير الدكتور يونان لبيب رزق في كتابه «شئون وشجون تاريخية» إلى أنه «ولسوء الحظ، فإن أقباط المهجر بدلا من أن يصبحوا رصيدا مضافا للدور المصري تحولوا إلى عبء عليه، بل ورصيد لأعدائه، مما شكلوا معه مصدرا من مصادر الوهن، على عكس الحال مع الأقليات الأخرى، خاصة اليهود في تلك البلاد الذين شكلوا أهم أرصدة الدولة الإسرائيلية رغم عنصريتها، أو حتى اللبنانيين، أصحاب التقاليد العريقة في الهجرة!».

وفضلا عما أسلفنا من أسباب متعلقة بعمليات التطور الاجتماعي أدت إلى إيجاد وضع طائفي، فقد كان ثمة متغيرات إقليمية أدت إلى التأثير على التفاعل الاجتماعي في دول المنطقة، لعل أبرزها إنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨، والثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، والحرب الأمريكية على العراق عام ٢٠٠٣؛ إذ ترتب على تأسيس إسرائيل ظهور نموذج للدولة قائم على أسس دينية - وإن كانت النخبة التي أسست إسرائيل يسارية بالأساس - واستطاعت هزيمة قوات خمس دول عربية ذات نظم مدنية، الأمر الذي أدى إلى ردة فعل داخلية في مصر؛ تمثلت في عنف متبادل بين الإخوان المسلمين والحكومة، كان أبرز نتائجه اغتيال محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء، ثم حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين. كذلك، فليس من قبيل المصادفة أن يتم تأسيس تنظيم مسيحي تحت مسمى جماعة الأمة القبطية في أواخر الأربعينيات. وفضلا عن أن ذلك التنظيم قد أحيا فكرة الأمة القبطية التي دعا إليها حبيب جرجس في أوائل القرن العشرين، فقد مارس العنف من خلال قيام مجموعة من أفراده بقيادة شاب يدعى إبراهيم هلال باختطاف البطريرك الأنبا يوساب، وإجباره على توقيع وثيقة تنازله عن العرش البطريركي، وخطاب توصيات بتعديل اللائحة المتبعة لانتخاب البطريرك بما يشرك الجمهور القبطي في عملية الانتخاب.

ولعل وصول الليكود إلى السلطة في إسرائيل نتيجة للانتخابات المبكرة التي تم تنظيمها في مايو ١٩٧٧ على خلفية الفضيحة المالية، التي اضطرت رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك إسحاق رابين الذي خلف جولدا مائير إلى الاستقالة، كان من ضمن عوامل نشاط الحركات المتطرفة في المحيط العربي، وبخاصة في مصر التي شهدت في تلك الفترة، وتحديدا في ذلك العام، احتقانا طائفيا.

وفي سياق متصل، أدت الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ إلى زيادة نشاط الطائفة الشيعية في دول الخليج، وقد داعبتها شعارات تصدير الثورة الإسلامية، وازدياد نشاط الطائفة الشيعية في لبنان، خاصة في ظل وجود تعاون سوري إيراني، ما أدى إلى ظهور حزب الله في أوائل الثمانينيات، بالإضافة إلى نشوب حرب الخليج الأولى (الحرب العراقية الإيرانية ٨٠-١٩٨٨) كضربة استباقية من نظام صدام حسين ضد محاولات الخميني تصدير الثورة إلى الأغلبية الشيعية في العراق، واعتبرت في ذلك الوقت صراعا عربيا فارسيا، سنيا شيعيا، علمانيا دينيا، الأمر الذي أوجد حالة من السخط الدفين لدى شيعة العراق، الذين اضطروا لحمل السلاح في مواجهة إخوتهم في المذهب على الضفة الشرقية لشط العرب.

وكان لابد أن ينعكس ذلك على الوضع في مصر، حيث شكلت الثورة الإيرانية حافزا لازدياد نشاط حركات الإسلام السياسي، وقد جمع بين الاثنين رفض معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية التي تم التوقيع عليها في ٢٦ مارس ١٩٧٩، وبالتالي ازدياد حدة الأحداث الطائفية والاحتقان الاجتماعي عموما في أواخر السبعينيات، الأمر الذي وصل إلى ذروته باغتيال الرئيس السادات في السادس من أكتوبر ١٩٨١ في محاولة انقلابية، استلهمت نموذج الثورة الإيرانية.

المحطة الثانية في مسلسل الصعود الطائفي في الشرق الأوسط كانت مع حرب الخليج الثالثة ٢٠٠٣، حيث وصلت الطائفة الشيعية إلى الحكم في العراق. وأدى سقوط النظام العراقي السابق إلى فوضى سياسية وأمنية، امتدت إلى لبنان والأراضي الفلسطينية. فضلا عن أن وجود نخبة شيعية على رأس الحكومة



العراقية شكل مساحة تمدد طبيعية لإيران في الإقليم، ومن ثم ازداد نشاط الطائفة الشيعية في دول الخليج ولبنان، كما ظهرت مزاعم بوجود طائفة شيعية كبيرة في مصر، مع وقوع بعض الحوادث التي وصفت بالطائفية بين المسلمين والمسيحيين، فضلا عن ظهور بوادر حركة تشيع في السودان.

من ناحية أخرى، أسهم بروز الزعامات الدينية في العراق على ساحة العمل السياسي، واستناد العملية السياسية فيه إلى المقايضات الطائفية في انتعاش فكرة الدولة الدينية، لا سيما مع مزايدة التيار الديني على مواجهة إسرائيل، الأمر الذي يمكن ملاحظته من قيام حزب الله بعملية اختطاف الجنديين الإسرائيليين، التي استتبعت اندلاع حرب يوليو ٢٠٠٦ بينه وبين إسرائيل، وتبعها بروز مطالب من حزب الله بتعديل الخريطة السياسية في لبنان؛ لتوائم المتغيرات الجديدة في ظل ما اعتبره انتصار المقاومة، في ظل نتيجة ضبابية تمخضت عنها تلك الحرب غير المتماثلة Asymmetry War. ثم أعقب ذلك إطلاق إسرائيل سراح سمير القنطار عميد الأسرى اللبنانيين في يوليو الماضي في أعقاب مفاوضات تمت بينها وبين حزب الله، الأمر الذي رفع أسهم الأخير لدى الشارع بعض الشيء، بعدما تراجعت شعبيته إبان المواجهات المسلحة التي اشتبك خلالها بالقوى اللبنانية الأخرى قبل اتفاق الدوحة.

كذلك، فقد كان من نتائج انتعاش فكرة الدولة الدينية فوز حماس في الانتخابات التشريعية الفلسطينية التي جرت في يناير ٢٠٠٦، وقيامها بتشكيل الحكومة الفلسطينية. من جهة أخرى، كان الإخوان المسلمون قد تمكنوا من الحصول على ٨٨ مقعدا بمجلس الشعب في الانتخابات التي أجريت عام ٢٠٠٥.

وفيما يتعلق بالأسباب الآنية لوقوع أي حدث طائفي، ومع التسليم بتنوعها، إلا أن ثمة قضايا ثلاثا رئيسية، وهي الاختلاف حول بناء الكنائس الجديدة، واستخدام بعض المواد الإعلامية بشكل غير مسئول، واعتناق فتيات مسيحيات للإسلام.

فلعقود طويلة، ظل بناء الكنائس الجديدة خاضعا لفرمان عثماني عرف باسم «الخط الهمايوني الصادر عن الباب العالي بتحديد إنشاء دور العبادة لأهل الذمة في مصر». وقد صدر ذلك الفرمان في فبراير ١٨٥٦ في عهد السلطان عبد المجيد بن محمود الثاني، وظل مطبقا إلى أن ألغى الدستور الدائم لجمهورية مصر العربية الذي تم وضعه عام ١٩٧١ القواعد المتوارثة بشأن الخط الهمايوني، وذلك بنصه على حرية أداء الشعائر الدينية. وعلى الرغم من ذلك، فقد شكل بناء الكنائس الجديدة أزمة متجددة سواء على المستوى الاجتماعي أو على المستوى التنفيذي، الأمر الذي كشفت عنه حادثة حرق كنيسة بالخانكة عام ١٩٧٢، وما تبعها من تحرك مجلس الشعب لوضع تقرير بهذا الشأن. وقد تكررت مثل تلك المشاكل خاصة في الصعيد، كما حدث في العديسات بمدينة الأقصر، ثم بمركز العياط أخيرا.

وقد أصدر الرئيس حسني مبارك قرارا عام ٢٠٠٥ بتفويض المحافظين في إصدار هذه القرارات، ثم تولى المجلس القومي لحقوق الإنسان لمدة عامين مهمة إعداد مشروع قانون موحد لبناء وترميم وتوسعة دور العبادة، الإسلامية منها والمسيحية، حتى تم إنجاز مشروع القانون خلال عام ٢٠٠٧.

من جهة أخرى، فاستخدام بعض المواد الإعلامية بشكل غير مسئول أدى إلى ازدياد حدة الطائفية. ويتم ذلك في الغالب من قبل أفراد ينتمون لطائفة ما لتوجيه انتقادات إلى طائفة أخرى، على نحو ما كان واضحا من قيام جريدة النبأ بنشر مشاهد من شريط فيديو، قيل إنها لراهب في أسيوط يقوم خلاله بممارسة الجنس داخل الكنيسة. كذلك، فأحداث الإسكندرية التي وقعت في ١٤ أبريل ٢٠٠٦ اندلعت بسبب مسرحية تناولت الإرهاب، كان قد تم تمثيلها بكنيسة في حي محرم بك، وتم توزيعها على أسطوانات مدمجة CDs.

ومن جهة ثالثة، ونتيجة لعلاقة عاطفية قد تنشأ بين فتاة مسيحية وشاب مسلم، تتطور إلى قبول الفتاة اعتناق الإسلام والتغيب عن ذويها تخوفا من رد فعلهم، مما يدفع أسرتها إلى إبلاغ سلطات الأمن بتغيب فتاتهم، الأمر الذي يتلقفه البعض باعتباره نوعا من الخطف والتغييب القسري، ويدفعون به كمبرر لأحداث طائفية.

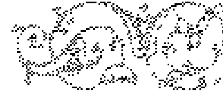
ما بين التمدن والهوية

قد يمثل التمدن أو عدمه أو ممارسته وفق مفاهيم مختلفة عاملا في تراجع الهوية الوطنية وصعود الطائفية. وبدون التطرق إلى استنباط ماهية التمدن، فإننا سنستند إلى المفهوم الشائع عنه من حيث كونه يمثل الارتقاء الحضاري للإنسان في تفكيره وهيكل إنتاجه ونمط معيشته وعلاقاته مع الوسط المحيط. وفي هذا الصدد، فقد ذهب أوجست كونت Auguste Comte عند تناوله الديناميكا الاجتماعية في كتابه «دروس في الفلسفة الوضعية Course de philosophie positive» إلى أن النظم الاجتماعية قد تحولت من العائلية domestique إلى الحالة الجمعية collective إلى الحالة العالمية universal.(٥)

وقد يكون من نتاج التمدن ظهور ضرورة لتوسيع الأطر الدينية والمذهبية، للمواءمة بين معطيات المدنية وتعاليم الأديان؛ حيث يشكل الدين حيزا كبيرا من نظام القيم System of Values الذي يضبط نمط التعاطي مع التقدم المادي.

إلا أن التمدن قد يحمل أيضا توجها نحو مزيد من الانغلاق؛ وبالتالي تسيد حالة الطائفية، إذا ما طغى فيه الجانب المادي على الجانب القيمي، بحيث يقوم الأول باستغلال الثاني للاستئثار بمنافع التمدن، أو إذا ما أفضى التمدن إلى حالة من الترف تدفع إلى البحث عن نظام قيمي أكثر صرامة كرد فعل، فيما يمكن أن نسميه فكر الخلاص. كما أن البقاء بعيدا عن المدنية قد يكون تربة خصبة لمبدأ عدم قبول الآخر، حيث يشكل هذا المسلك نمطا فكريا سائدا في الثقافات ذات الطبيعة اليمينية.

وفي حين أن التشكل التاريخي للمجتمع المصري وتراكمه الحضاري قد شكلا سدا ضد سيادة مثل ذلك النمط، فإن الأفكار العابرة للحدود والتي صاغت نظريات الجماعات المتطرفة في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات لعبت دورا في شيوع هذا النمط. كذلك فإن العوامل الاقتصادية لعبت دورها في ترسيخه، مما كان له بعض انعكاساته الطائفية، تزداد في الطبقات الفقيرة، وتقل كلما صعدنا إلى قمة المجتمع.



عدم قبول الآخر قد تشكله عوامل أخرى غير التشدد الديني والعامل الاقتصادي. فنزعات الحمية والثأر، وازدياد حدة طباع الإنسان نتيجة لإيقاع الحياة السريع قد تكون زادا لعدم قبول الآخر..



وفي الغالب، فإن عدم قبول الآخر قد تشكله عوامل أخرى غير التشدد الديني والعامل الاقتصادي. فنزعات الحمية والثأر، وازدياد حدة طباع الإنسان نتيجة لإيقاع الحياة السريع قد تكون زادا لعدم قبول الآخر..

ويبدو للوهلة الأولى أن طغيان المادة قد يكون هو الحل الأمثل للقضاء على الطائفية. إنه يتحلل من قيود المنظومة القيمية، ويكرس مفاهيم العمل والنجاح والثروة، كما أنه ينتهج المفهوم المدني في التعاملات اليومية بعيدا عن الاعتبارات العقائدية أو الأيديولوجية. فضلا عن ذلك، فإنه يخلق حالة من التنافس المحموم، تؤدي نظريا إلى زيادة الاستثمارات ومعدلات الإنتاج، وبالتالي تحقيق معدلات نمو اقتصادي متقدمة.

ومع التسليم بما سبق في إطاره النظري، فإن قابليته للتطبيق محل انتقاد؛ نظرا لما يصاحبها من تشوهات تلحق بالنسيج الاجتماعي للمجتمع. ففضلا عن تقلص الطبقة الوسطى، فإن امتلاك المادة لوسائل توجيه المجتمع تجعله أشبه ببورصة للتيارات المختلفة، ترتفع قيمة أسهمها في المجتمع أو تنخفض بناء على علاقاتها بمصادر التمويل، الأمر الذي تعبر عنه بجلاء الفضائيات الخاصة التي تسهم بصورة متزايدة في تغيير الواقع الاجتماعي، والتي تعد من الأسباب المباشرة في تغذية ظاهرة الطائفية في بعض المجتمعات.

وبالتالي يمكن تفسير وقوع بعض الأحداث



الطائفية فى ضوء ما تقدمه الأداة الإعلامية من توجهات تستفز هذا الطرف أو ذاك، وفى ضوء ما تقدمه المدنية من وسائل للتدمير وآفاق للعقلية الإجرامية، وفى ضوء ما خلفه طغيان المادة من طبقة من العاطلين لم يتمكنوا من استيعاب الإيقاع السريع لتطور المجتمع، واحتياجات سوق العمل، فاتجهوا إما إلى الاستسلام للأفكار السلفية التى تواسيهم بالنعيم الأبدى فى الآخرة (ولعلنا هنا لا نتناول السلفية كتوجه دينى، وإنما كاتجاه فكرى. ومن ثم يمكن إسقاطه على أية ديانة، وليس الإسلام على وجه التحديد)، أو إلى نفث غضبهم فى أوصال المجتمع تحت أى شعار وبلا أى هدف.

والملاحظ أن بعض الأحداث الطائفية قد تنشب فى الأساس بسبب مشادة أو عراك لا يمت للمساس بالمشاعر الدينية بصلة. وما إن يغلى المرجل، حتى يعلو صوت النعرة الطائفية فى السباب المتبادل، ويتحول الأمر من مشاجرة بسبب تافه إلى معركة طائفية ذات أسباب مختلقة.

من زاوية أخرى، وكأحد تداعيات الثراء لدى فئة بالمجتمع، انتشرت فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين ظاهرة الدروس الدينية الخاصة. وعلى الرغم من أن المجتمع المصرى بطبيعته مجتمع متدين، وأن ظاهرة الدروس الدينية فى المساجد وعلى رأسها الأزهر الشريف تعد أمرا مألوفا، إلا أن الدروس الخاصة فى النوادى والبيوت حملت دلالة أكثر عمقا، نستطيع أن نطلق عليها الدورة العكسية للمدنية المادية Reverse Cycle of Materialistic Civility، فهى أشبه ببندول ارتفع بقوة دفع إلى نقطة ما، اكتسب عندها قوة دفع عكسية بفعل الجاذبية الأرضية ليهبط، ثم يواصل مسيرته فى الاتجاه العكسى.

وهذه الدورة العكسية للمادية تولدت نتيجة النمط الاستهلاكى، والشعور بغياب المشاركة فى إنتاج الحضارة، حيث ترتبط المدنية فى أوساط قطاع كبير من المجتمع باستهلاك الحضارة لا بإنتاجها، الأمر الذى يولد خواء نفسيا، استطاع بعض الدعاة الدينيين ملأه من خلال فكرة الخلاص.

وفى الأغلب، فإن الخلاص الذى بشر به أولئك الدعاة خلاص فردى، لا يمتد إلى محاولات فرضه بالقوة، ولا إلى الدعوة إلى نعرة طائفية، إلا أن تعمق هذه النزعة الفردية كتجل آخر من تجليات المدنية المادية أدى إلى إيجاد حالة من الانغلاق والزهو الاجتماعى المستند إلى امتلاك المادة والخلاص، أو بعبارة أخرى حيازة السعادة الدنيوية والأخروية. وكان لابد أن تنعكس حالة الزهو فى إعادة إنتاج إنتليجنسيا جديدة، تنبع ثقافتها من التعاليم الدينية، على عكس الإنتلجنسيا الحالية التى يغلب عليها الطابع العلمانى.



بعض الأحداث الطائفية قد تنشب فى الأساس بسبب مشادة أو عراك لا يمت للمساس بالمشاعر الدينية بصلة. وما إن يغلى المرجل، حتى يعلو صوت النعرة الطائفية فى السباب المتبادل



الأمر ذاته يتكرر بدرجة متفاوتة بين المسيحيين من خلال الإقبال على الدروس الدينية والأنشطة الاجتماعية التى ترعاها الكنيسة، مما خلف حالة من التدين الأيقونى والشعور بالاغتراب عن المجال العام، تبالغ بعض وسائل الإعلام وأقباط المهجر فى تناولها، وتفصيل أسبابها وتداعياتها. ولا شك أن حالة الاغتراب هذه تؤدى إلى تحول الطائفية من مجرد بعد سوسيولوجى يعكس الاختلاف الطبيعى بين البشر إلى أحد مكونات العمق السيكولوجى، بما يغذى ثقافة التمايز والبحث عن نقاط التباين لا مساحات الالتقاء.

وبوجه عام، فتبلور هذه الإنتلجنسيا الجديدة يقودنا إلى إشكالية هامة من إشكالات التمدن، تلقى بظلالها على العلاقة بين الوطنية والتنوع الطائفى، ألا وهى ضبابية المعايير الاجتماعية الحاكمة للسلوك العام، ويتأتى ذلك من نتاج عمليات الاتصال والتفاعل المستمر بين الثقافة المجتمعية السائدة وثقافات أخرى وافدة. فعملية التراكم الثقافى لا تتم فى الغالب فى إطار انعزالى isolative، وإنما فى إطار تفاعلى interactive؛ إذ إن الحضارة ليست بالضرورة ثمرة الرشد البشرى، ولكنها نتاج التبعية المتبادلة بين البشر(٦). فى أغلب الأحوال، الأمر الذى يمكن ملاحظته بجلاء فى التراث الثقافى المصرى الذى لا يشكل ثقافة نقية، وإنما خليطا مصريا من ثقافات عدة.

وخلال اللحظة الافتراضية لعملية التزاوج الثقافى، فإن ثمة متناقضات تطرح نفسها بقوة على الساحة ما بين التمسك بالموروث واعتباره هوية لا فكاك منها، أو اعتناق الوافد والتسليم بحداثته وتقدمه، أو سلوك الطريق الثالث The Third Way والقيام بعمليات انتقائية(٧)، أو تطويعية؛ بغية الملاءمة بين الموروث والوافد، إلى غير ذلك من الحلول الكولتوسوسيولوجية الهادفة إلى توفير رضاء مجتمعى عن حالة الانتقال، ومن ثم الدخول فى نسق ثقافى واجتماعى جديد، يتجاوز مرحلة الازدواجية الثقافية Cultural Dualism.



وتعتبر عملية العولمة Globalization بأدواتها الاتصالية الواسعة النطاق، ومعطياتها المعرفية المتعددة التأثير ثورة فى نسق التزاوج الثقافى من حيث سرعة وكثافة عملية التبادل وتأثرها بالبعد الاقتصادى، ومن ثم تقدم تأثير الثقافة الليبرالية المنتصرة فى الحرب الباردة خلال المنظومة العولمية على تأثير غيرها من الأطروحات الكلية.

وكان من الطبيعى أن تنشأ فى مصر خلال هذه المرحلة الثقافية الانتقالية حالة من التعدد الثقافى، الأمر الذى يدفع بدوره، وفقا لما يذهب إليه الدكتور على ليلة، إلى نشأة الثقافات الفرعية. ونتيجة لذلك، تعجز المنظومة القيمية السائدة عن ضبط السلوك العام، وكمحصلة لتلك الضبابية الوليدة، يتمسك الأفراد بجذور الهوية، أو الثقافات الفرعية، ويتولد نوع من رد الفعل الراديكالى إزاء عملية التزاوج الثقافى، الأمر الذى عبر عنه بول كلوديل فيما قبل الحرب العالمية الثانية بأن البشر كلما ازداد تعارفهم قل تعاطفهم، وكلما ازداد تلامسهم ازداد نفورهم، وكلما ازداد وعيهم بأنفسهم ازدادوا ارتباطا بهويتهم وبجذورهم وبالفروق الأساسية بينهم(٨).

هذا الرأى يرجحه العالم الفرنسى مارسيل ميرل Marcel Merle، معضدا إياه بنظرية شاتوبريان Chateaubriand بأن النزاعات الأهلية تبدو أكثر معقولية من الحروب التى تندلع بين دول لا تعرف شعوبها بعضها البعض. وعلى الرغم من حصافة منطق كلوديل وشاتوبريان وميرل، خاصة أنه ينطلق من الواقع لا من النظرية، إلا أن التوسع فى تفسير - ومن ثم تبرير - التفاعلات الإنسانية سواء على صعيد العلاقات الدولية أو الحراك الاجتماعى انطلاقا من الدوافع التجريدية قد يؤدى بالتحليل السياسى إلى العودة إلى مبادئ القانون الدولى التقليدى، من شرعية الاستعمار وحق الدولة فى شن الحرب لتحقيق مصالحها، وإسقاط تلك المبادئ على التفاعلات الاجتماعية بدعوى المعقولية والاتساق مع الطموح البشرى المجرد، وهو ما قد يعنى وبشكل مباشر العودة إلى شرعة الغاب.

وبمطالعة الوجه الآخر للعلاقة بين الوطنية المصرية والتنوع الطائفى، فتحديد ملامح الهوية يثور بصدده نوعان من الإشكالات، أحدهما يتعلق بالهوية الجمعية Collective Identity للمجتمع المصرى، والآخر يتعلق بالهوية الفردية Individual Identity للمواطن المصرى، والتى تتباين بشأنها الآراء وتدور المناقشات، ويحاول البعض الارتقاء من شأن أولوياته فى تحديد هويته الفردية ليدعو إلى اعتبارها هوية جمعية للمجتمع ككل.

ويثور بالنسبة للهوية الجمعية سؤال حول الانتماء النهائى لمصر من منظور السيكولوجيا العامة: هل المصريون عرب أم أقباط؟ ولعل هذا السؤال فى الأساس سؤال نخبوى، لا يشغل بال المواطن البسيط الكادح فى سبيل لقمة العيش، ومن ثم فلن نضيع عناء البحث العلمى سدى فى سبيل البحث عن إجابة له، غير أن الاستدلالات التالية قد تشكل معينا لنا لتحديد الانتماء النهائى لمصر:

١ - صعوبة الادعاء بوجود هوية خالصة للمصريين، أو عرق واحد

ينحدرون منه، فالهوية المصرية هي نتاج اندماج العديد من القوميات واللغات والحضارات على أرض مصر.

٢ - إن الانتماء العربي لمصر يشكل أبسط وأشمل الصيغ الجامعة للهوية المصرية. فالعناصر غير العربية التي وفدت إلى مصر ارتضت بأن تهجر لغاتها الأصلية لتتحدث العربية، كما أن الأقباط قد ألفوا اللغة العربية، خاصة بعدما تحولت الصلاة في الكنائس إلى اللغة العربية[٩].

٣ - لا تشكل الجذور القبطية للهوية المصرية عائقا ضد الانتماء العربي لمصر: نظرا لتطور مفهوم الانتماء القومي لدى العرب من حيز الانتماء العرقي الضيق إلى نطاق المشاركة اللغوية الرحب، ليقدم مثلا رائدا في ثقافة الاستيعاب والتبادل، واعتبار الموروث الثقافي أساسا للهوية المشتركة، على عكس ما قدمته النازية من تقديس للعرق على حساب مساحات الالتقاء مع الآخر كاللون، والجوار الجغرافي، والتاريخ، والثقافة.

كذلك فالجذور القبطية للهوية المصرية تشكل إطارا جامعا لكافة الحضارات التي اتخذت من مصر منطلقا لها: فرعونية وفارسية ومقدونية وبطلمية ورومانية وبيزنطية وإسلامية، وبالتالي فوجود تلك الجذور كرافد لهذه الهوية هو استناد إلى تراث إنساني هائل، استطاع الإنسان المصري دائما أن يعيد صياغته بما يتلاءم مع بيئته الزراعية المستقرة، والتعددية الكامنة في أعماقه في إطار توحيدي جامع.

أما بالنسبة للهوية الفردية، فثمة سؤال تقليدي حول ترتيب أولويات الهوية الفردية بين الجنسية والعرق والديانة. ولعل مثل هذا السؤال قد لا يجد مكانا بين غالبية المسيحيين في مصر؛ إذ إن المفردات الثلاث للهوية لديهم تنبع من معين واحد، فالمسيحي المصري هو في الغالب قبطي، وبالتالي فهو مصري كابرا عن كابر. ولكن الأمر يأخذ أبعادا أكثر تشعبا بالنسبة للمسلمين؛ فالمسلم المصري يشعر بانتمائه العربي، بكل ما يزخر به هذا الانتماء من مفردات الثقافة الإسلامية، كما أنه مرتبط بجذوره الحضارية الضاربة في عمق التاريخ عبر سلسلة من الحضارات المتعاقبة التي توالت على أرض مصر.

ولاستجلاء مشروع إجابة عن هذا السؤال، فإن ثمة ثلاث ملاحظات تحاول تحديد مساحة الجدل:

١ - إن الفتح العربي الإسلامي قد وصل مصر وفارس في توقيت متزامن (أواخر ثلاثينيات القرن السابع). وعلى الرغم من أن المصريين قد قبلوا الحضارة الإسلامية دينا ولغة، فإن الفرس قبلوا الدين الإسلامي، ولكنهم رفضوا هجر لغتهم الأصلية - وإن كانت قد كتبت بالحروف العربية - رغم قربهم لقرون طويلة من مركز الخلافة العباسية في بغداد. ولم يقدح أحد في إسلامهم رغم أنهم لا ينفكون يؤكدون فارسيتهم.

٢ - إن بعض العرب من الشوام - مملكة الغساسنة - ظلوا على مسيحيتهم رغم عروبتهم الأصيلة، وتأثروا بالتطور التاريخي للحضارة العربية بمحتواها الثقافي الإسلامي، وظهر منهم أعلام في الأدب العربي كالشاعر الأموي الأخطل، والشاعر اللبناني خليل مطران. ولم يشكك أحد في عروبتهم رغم أنهم لا يزالون متمسكين بمسيحيتهم.

٣ - إن اللغة العربية أصبحت هي السائدة في المجتمع المصري، كما أسلفنا، وتبع ذلك إقبال عدد كبير من الأقباط على اعتناق الإسلام فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر. وبالتالي لا ينبغي أن يقلل أحد من مصريتهم رغم أنهم حملوا راية الدفاع عن الإسلام والعروبة لقرون طويلة.

إن الانطلاق من انتماء مصر كدولة لجذور قبطية وهوية عربية يجعل من السهل صياغة هوية فردية للمواطن المصري باعتبار مصر نقطة التقاطع بين الإسلام والعروبة، والمسيحية والقبطية. فمصر من جهة مهد الأقباط وقلعة المسيحية، ومن جهة أخرى، فهي مركز الإشعاع الحضاري للعالم الإسلامي، ورائدة القومية العربية.

وعلى ذلك فالهوية المصرية تحمل في طياتها الانتماء الديني والثقافي، مع تنحية الانتماء العرقي في ضوء ما سبق وخلصنا إليه من أن ثمة امتزاجًا للأعراق التي ينحدر منها المصريون على نحو يصعب معه زعم الانتماء إلى عرق بعينه.

ومع الإقرار بجدلية مسألة ترتيب أولويات الهوية، فإن ذلك الترتيب لا يخضع لقاعدة جامدة، وإنما يتغير وفقا للمعطيات الحياتية المختلفة، فقد يقف المصري المسلم في صلاته إلى جانب هندي مسلم، وقد ينهمك مصري مسيحي في حوار حميم مع عراقي مسلم، ومن الطبيعي أن يحارب مصري مسلم إلى جوار مصري مسيحي عدوا غاصبا.

الجذور القبطية للهوية المصرية تشكل إطارا جامعا لكافة الحضارات التي اتخذت من مصر منطلقا لها، فرعونية وفارسية ومقدونية وبطلمية ورومانية وبيزنطية وإسلامية



ومن استعراضنا لبعض إشكالات التمدن والهوية، نجد أن الوضع الطائفي في مصر قد تكون نتاجا مشتركا لتراكم تلك الإشكالات جميعا. ورغبة في التحديد، فإننا نميز بين مستويين من المجتمع، تتباين انعكاسات هذه الإشكالات على كل منهما:

المستوى الأول: الإنتليجنسيا المصرية، وهذه النخبة منذ وجدت في تساؤل دائم حول الهوية، ما خلف ذلك الميراث الضخم من النظريات بهذا الصدد.

المستوى الثاني: الجمهور الذي يتفاعل مع معطيات المدنية وفق أنماط مختلفة، فهو إما يفتقر إليها، أو يمارسها بشراهة، أو يسعى لمعادلتها بمنظومة قيمية جديدة.

ولا تقل أهمية أحد المستويين عن الآخر، حيث يمثل الأول في الغالب تشكيلا للثاني، بينما تنعكس تطورات الثاني على خطاب الأول. ولكننا نميل إلى الاعتقاد بخطورة أزمة التمدن على الهوية الوطنية لأكثر من سبب:

١ - أن الجدل الثقافي حول الهوية لم يؤد طوال تاريخه إلى استعار روح الطائفية، في حين أن التطورات الاجتماعية السريعة قد تؤدي إلى انشقاق المجتمع سواء أفقيا إلى طبقات أو رأسيا إلى طوائف، ولعل الفوران الاجتماعي في أعقاب حرب ١٩٤٨ كان من عوامل الصدام بين الإخوان المسلمين والسلطة وظهور عنف مسيحي (جماعة الأمة القبطية)، كذلك فقد انفجرت الأحداث الطائفية في سبعينيات القرن العشرين مزامنة للانفتاح الاقتصادي.

٢ - يلعب العامل الاقتصادي دورا في لجوء العاطلين إلى الأفكار الانطوائية، وبالتالي يصبح المناخ الاجتماعي مهيئا لأية بادرة للاحتقان الطائفي.

٣ - يلعب ذات العامل دورا في تنامي ما يطلق عليه البعض الحقد الاجتماعي بوجه عام، وأصبح هذا الحقد مستعدا للتوجه رأسيا أو أفقيا، بما يؤدي إلى أحداث طائفية على غير أساس طائفي، ولعلنا في التحليل الأخير نرجح غلبة هذا السبب كحاضن Nesting Reason للأسباب الأخرى التي تؤدي إلى توتر طائفي.

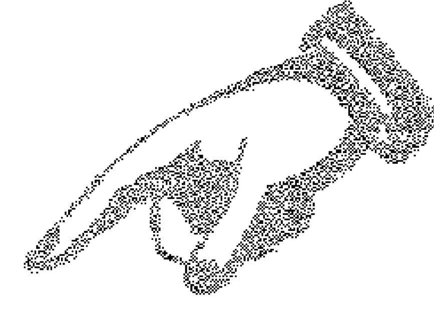
وبناء على ذلك، فإننا نخلص إلى النتائج التالية:

١ - ليس ثمة ما يمكن اعتباره ظاهرة طائفية حقيقية في مصر، بل إنه من الصعب التيقن من وجود حالة عامة من الاحتقان الطائفي، غير أنه يمكن ملاحظة محاولات لتسويق حالة من الانغلاق الاجتماعي على المستويين الأفقي والرأسي.

٢ - لعب العامل الاقتصادي دورا ملحوظا في بلورة هذا الانغلاق بتآكل الطبقة الوسطى، وتوالي الانعكاسات الاجتماعية للوضع الاقتصادي، الأمر الذي بلغ ذروته في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن العشرين، قبل أن يتم تطبيق برنامج الإصلاح الاقتصادي عام ١٩٩١، ثم يتزامن تطبيقه مع التحرك الأمني المنظم لاجتثاث ظاهرة الإرهاب، الأمر الذي تعد فيه التجربة المصرية رائدة في هذا المجال.

٣ - لعبت الأفكار العابرة للقوميات Transnational Ideas دورا في تعميق حالة الانغلاق الاجتماعي سواء كانت أفكارا تصب في تغذية النمط الاستهلاكي للحياة، وما ينطوي عليه من نزعة

كتاب الزاوية



قصائد من المغرب العربي
(٣)
الخروج من مقهى الزنوج

أأزعجتكم يا ندامى؟
أكسّرت كاساً ... ولم أتكسّر؟
أناح بقربي حمامٌ
وسالت دموعُ اليتامى
ولم أتأثّر؟
أقبّلت منكم صديقا ...
ولم أعتذر في الصّباح؟!
لماذا، إذن تسقطون
وما كلّ هذا الصّياح؟!
أأزعجتكن يا بنات؟!
ألاطفتُ منكن أنثى بدون رضاها؟
أقلت كلاماً جميلاً...
على شامة فوق خد جميل
ولم أطلب العُذر قبلَ المساء؟
لماذا
إذن
يا نباتُ
تهيج على صدرها في الربيع
وتأوي إلى معطف في الشتاء؟!
أأزعجتكم يا رفاق؟
أقلت كلاماً صحيحاً عن الحزب، من نوع: أن
على الحزب، ألاّ يكون، صغيراً
كحبّة سكّر
وألاّ يكون كبيراً
كقطعة سكّر
لكي لا يذوب بقهوتهم
كلّما سقطوا وأفاقوا؟!

أولاد أحمد
تونس

وجود مشروع اجتماعي، أو وجود تهديد ما يعد عاملا للتوحيد الاجتماعي في المجتمعات ذات الطبيعة العائلية كالمجتمع المصري، والمجتمعات العربية عموما



مادية، أو كانت أفكارا متطرفة تدعو إلى تكريس الولاء لنظريات دينية ذات تفسير ضيق.

٤ - نجم عن ذلك ظهور ما يمكن أن نطلق عليه تأيقن الهوية Iconization of Identity[١٠]، واختزال القيم الروحية لأية هوية في طقوس مظهرية، ولدت حالة من الفرز الاجتماعي أفقيا ورأسيا. فموديلات الملابس والسيارات تتسارع وتيرة تغيرها، على نحو يرسم دائما حدا فاصلا بين الطبقات، ويجعل ثمة بونًا شاسعًا بين السلعة الأصلية والتقليد. من جهة أخرى، فقد أدت المظهرية الدينية إلى بروز ملامح واضحة تمكن من تحديد الهوية الدينية للشخص بمجرد النظر.

ومع كامل الإيمان بالحرية الفردية كنمط حياة عصرية، إلا أننا كمهتمين بالفكر الاجتماعي والسياسي نرى أن حالة التأيقن هذه لابد أن تطلق بموازاتها عملية حضارية كبرى لتعميق فكر التسامح الاجتماعي والقبول بالتعددية، والانتقال السلمي التدريجي لموقع الفرد من حركة المجتمع.

٥ - تندرج أغلب الأحداث الطائفية التي تقع في مصر - وهي نادرة بالقياس إلى الزخم الإعلامي الذي يصاحبها - في إطار الطائفية على غير أساس طائفي؛ إذ إن الوقعة قد تتكرر بين أفراد الطائفة الواحدة، وبالتالي لا يشكل نشوبها بين مسلم ومسيحي على سبيل المثال حادثا طائفيا بالمعنى السيكولوجي.

٦ - أدت محاولات السبق الصحفي والانفراد الإعلامي إلى قيام بعض وسائل الإعلام، لا سيما الفضائيات، برسم صورة مضخمة لما يحدث على أرض الواقع؛ بغية صياغة مادة إعلامية مثيرة، الأمر الذي أثر سلبا على المجال العام في مصر، وأدى إلى المساهمة في تسويق حالة الانغلاق الاجتماعي - وليس الاحتقان الطائفي - التي أشرنا إليها. كذلك فالنظرة الأحادية من جانب بعض المنظمات الحقوقية - وليس كلها بالطبع - إلى بعض القضايا المتعلقة بالنظام العام والسلام الاجتماعي فقط من منظور الحرية الفردية وحقوق الإنسان أدت إلى افتعال قضايا تتصل بالهوية الطائفية، وبالتالي وجه ذلك المجال العام إلى الخوض في جدل، كان الأحرى استثماره في أطروحات فكرية تسهم في الارتقاء بالمجتمع المصري.

٧ - ليس ثمة تمييز في مصر ضد طائفة بعينها، سواء بحكم الدستور أو من الواقع المعاش. وعليه فإنه ليست ثمة مطالب سياسية ذات خلفية طائفية، خاصة أن نظام الحكم المصري Egyptian Regime تبنى بشكل واضح رؤية متسامحة في أوائل الثمانينيات على مختلف الأصعدة السياسية والفكرية والطائفية، بما مكنه من إعادة ترميم البيت الداخلي.

٨ - بالنظر إلى اختفاء حالة الانغلاق الاجتماعي في المراحل الأولى من التعليم، وتضاؤلها في مجالات العمل، حيث يتعاون الجميع لإنجاح العمل، يمكن أن يقود ذلك التنظير الاجتماعي إلى أحد بديلين للتعاطي مع التنوع الطائفي:

الأول: اقتباس نظرية الاعتماد المتبادل Interdependence من العلاقات الدولية وتطبيقها اجتماعيا للتقليل من المشاعر الطائفية، إلا أن هذه الفكرة بدورها تكرس مشهد الفصيلين المنفصلين اللذين تربطهما مصالح مشتركة، تحد من إرادة كل منهما في النيل من الآخر.

الثاني: نظرية المصير المشترك Common Destiny كسبيل لتوحيد الصف. وتعتمد تلك النظرية في الأساس على توظيف العوامل الثقافية والإعلامية؛ بغية استقراء الميراث الحضاري للمجتمع - مرورا بكافة أشكال النظم السياسية التي خضع لها - واستنباط القواسم المشتركة التي تشكل المنظومة القيمية للمجتمع ككل، ومن ثم رسم ملامح المشروع الاجتماعي، والتهديدات التي تواجهه.

ومن الضروري في ذلك السياق أن نذكر أن وجود مشروع اجتماعي، أو وجود تهديد ما يعد عاملا للتوحيد الاجتماعي في المجتمعات ذات الطبيعة العائلية Familial Societies كالمجتمع المصري، والمجتمعات العربية عموما، فتلك المجتمعات التي تتسم بقدر من الترابط الاجتماعي تمتلك عاطفة



جمعية Collective Emotion، يمكن من خلالها تفسير الانفعال بأشكال المؤثرات المختلفة، على عكس المجتمعات القائمة على النزعة الفردية Individualism، حيث تتقلص مساحة العاطفة الجمعية، حتى يمكن أن تنحصر فيما يمكن أن نطلق عليه العاطفة القومية National Emotion، التى تتأثر بوجود مشروع قومى للدولة - كنظام سياسى - أو بوجود خطر يهدد كيان هذه الدولة.

والملاحظ أن التجربة العملية تطلبت المزج بين النظريتين، وصياغتهما فى قالب اجتماعى. ولعل تجربة اتفاق الطائف الذى يحكم النظام السياسى اللبنانى تعبر عن ذلك بجلاء، حيث كانت تراجيديا الحرب الأهلية اللبنانية التى استمرت من منتصف السبعينيات إلى أواخر الثمانينيات خلال القرن العشرين مدعاة إلى الإيمان بوحدة الوطن اللبنانى، وعدم الوصول بالتصعيد الطائفى إلى مرحلة الحرب الأهلية، وهو ما يمثل تطبيقا لنظرية المصير المشترك على الصعيد الاجتماعى، الأمر الذى كشفت عنه الأزمة السياسية اللبنانية المتواصلة منذ انتهاء حرب يوليو ٢٠٠٦ . فعلى الرغم من تعدد مدخلات الأزمة، وما شهدته من تطورات ومؤثرات خارجية وداخلية، إلا أن أطراف الأزمة لم يستطيعوا توظيف أساليب الحسم غير محسوبة العواقب، الأمر الذى كشفت عنه بجلاء الاشتباكات المسلحة التى اندلعت فى مايو الماضى دون أن تؤدى سوى إلى خسائر مادية وبشرية للجميع، وهو ما يمثل تطبيقا لنظرية الاعتماد المتبادل على المستوى السياسى، والتى تستند إلى كون الصراع دائما صراع إرادات ناقصة. ■

هوامش:

١ - قصدنا استخدام مفهوم الوطنية Patriotism من حيث كونه يتعدى مفهوم المواطنة Citizenship فى احتوائه للجوانب القيمية (الانتماء والولاء)، وليس مجرد الجوانب الإجرائية (الحقوق والالتزامات).

٢ - ذهبت بعض التعريفات إلى تحديد الطبقة المتوسطة بأنها العائلات التى يتراوح دخلها بين ٢٠٠٠٠ و٥٥٩٩٩ دولارا فى السنة. انظر جون نيصباب، باتريشيا ابردين - الاتجاهات الكبرى عام ٢٠٠٠ - سلسلة الدراسات المستقبلية - رقم (١) - مركز دراسات العالم الإسلامى - مالطا ١٩٩١ - صـ ٤٦ .

٣ - د. قدرى حفنى - حول العنف السياسى: رؤية نفسية - ظاهرة العنف السياسى من منظور مقارن (أعمال الندوة المصرية - الفرنسية الخامسة - القاهرة ١٩ - ٢١ نوفمبر ١٩٩٣) - مركز البحوث والدراسات السياسية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة - ١٩٩٥ - نيفين عبد المنعم مسعد (محررا ومقدما) صـ ٤٤، ٤٥ بتصرف.

٤ - د. فرانسوا بورجا - حول صورة العنف السياسى فى مصر - ظاهرة العنف السياسى من منظور مقارن (أعمال الندوة المصرية الفرنسية الخامسة - القاهرة ١٩ - ٢١ نوفمبر ١٩٩٣) - مركز البحوث والدراسات السياسية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة - ١٩٩٥ - نيفين عبد المنعم مسعد (محررا ومقدما) - صـ ٣١٤ بتصرف.

٥ - دكتور قبارى محمد إسماعيل - علم الاجتماع السياسى وقضايا التخلف والتنمية والتحديث - منشأة المعارف بالإسكندرية - صـ ٨٩ .

٦ - جان فرانسوا بايار - أوهام الهوية - ترجمة: حليم طوسون - دار العالم الثالث - القاهرة - الطبعة الأولى ١٩٩٨م - صـ ٢٠٧ بتصرف.

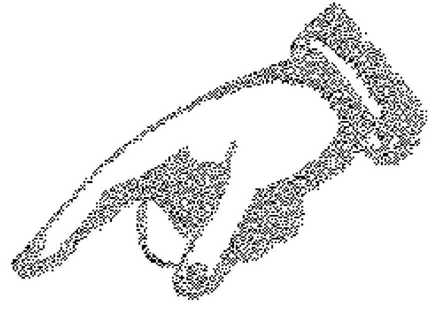
٧ - يميل إلى هذا الرأى روجيه باستيد. حيث يقرر إنه حينما تلتقى حضارتان، فإن هناك ظاهرة أخرى لابد أن تنشأ، وهى ظاهرة الاختيار Phenomenone de sélection، وذلك أن كل العناصر الحضارية ليست فى مرتبة سواء، فمنها ما هو مقبول، ومنها ما هو مردود. ويذهب رينيه مونييه إلى أن الطبقات الدنيا فى المجتمع أسرع قبولا للأشياء المادية كالسلع والمنتجات التكنولوجية، بينما تتجه الطبقات العليا إلى قبول الأنماط السلوكية وتقليد الأفكار الوافدة من الخارج. راجع: دكتور محيى الدين صابر - التغير الحضارى وتنمية المجتمع - مركز تنمية المجتمع فى العالم العربى - سرس الليان ١٩٦٢ - صـ ١٤٢ .

٨ - مارسيل ميرل - العلاقات الدولية المعاصرة: حساب ختامى - ترجمة: أ.د. حسن نافعة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة الفكر - مهرجان القراءة للجميع - مكتبة الأسرة ٢٠٠٥ - صـ ١٦٧ .

٩ - د. مصطفى الفقى - العرب الأصل والصورة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الأعمال الفكرية - مهرجان القراءة للجميع - مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ - مرجع سابق - صـ ٢٢٤ .

١٠ - طرحت هذا الاصطلاح د. هبة رءوف المدرس بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة فى مداخلة لها خلال الجلسة الختامية لمؤتمر «تحولات المجال العام فى مصر: تنامى الصراع ومستقبل التوافق الاجتماعى» الذى عقد بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية فى ١١ - ١٢ ديسمبر ٢٠٠٧ .

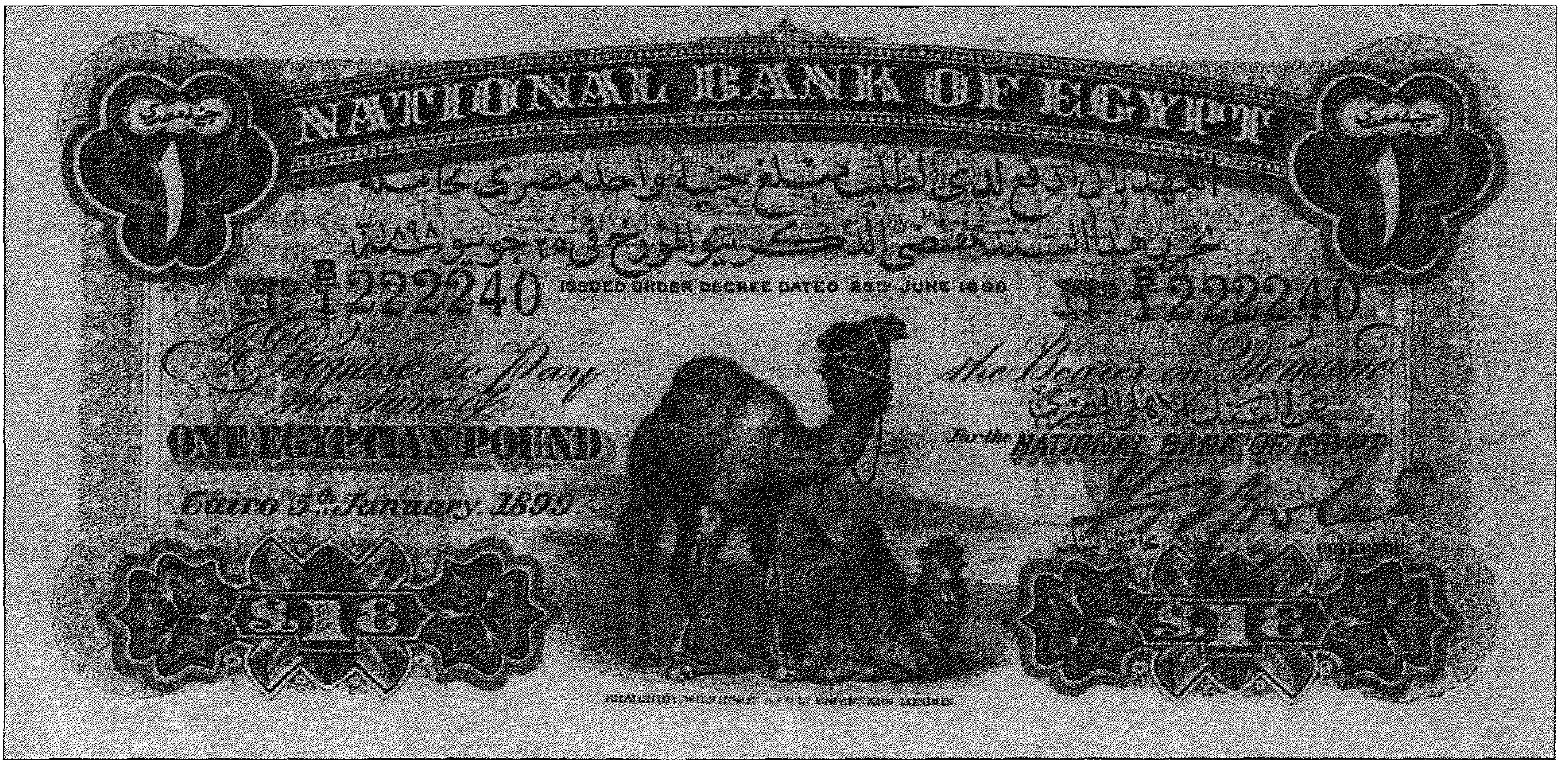
كتاب الزاوية



قصائد من المغرب العربي
(٤)
أنا لا أنا

أنا الأندلسيّ المقيم بين لذائذ الوصل
وحشرجات البين
أنا الظاهريّ
القرطبيّ
الهاجرُ لكلّ وزارةٍ وسلطان
أنا الذي ربّيت بينَ حجور النساء
بين أيديهنّ نشأت
وهنّ اللواتي علمنّني الشعر والخطّ والقرآن
ومن أسرارهنّ علمتُ ما لا يكاد يعلمه غيري
أنا الذي يقول: الموت أسهل من الفراق
هذه شريعتي
أن أبوح لأهل الصبابة
في بغداد وفاس
وقرطبة
والقيروان
في الزّهراء
وطنجة وأصفهان
والدّار البيضاء
أن أصاحب الدّمعة إلى وساوس حرقتها
أن أبارك وردة بين معشوق وعاشق
وأكتب لك
عن هذه البذرة التي تكفي
لكلٍّ من يكون
بين مسالك السّمع والبصر
في حضرة
الجنون

محمد بنيس
المغرب



أحذيتنـــــا للرجال

تمثـــل الصنـــــاعة المتقنـــــة

جلد
بني واسود
مقاس
٣٩ الى ٤٥
سعر
قروش
٦٩

بوكسكاف
بني ولميع اسود
مقاس
٣٩ الى ٤٥
سعر
قروش
٧٩

أحذية باتا

عنـــد تـــيرنج

اسكندرية	مصر	بورسعيد	المنصورة
٣٦ شارع شريف باشا	بالعتبة الخضرا	بشارع الامير فاروق	بالسكة الجديدة
٧ تكية الكلشاني	وشارع عماد الدين		

"ذاكرة مصر المعاصرة"





خطوة «أولى» لتوثيق الذاكرة المصرية بتجميع وأرشفة الوثائق والصور والمواد الفيلمية



■■ بهدف «رقمنة» كل المواد التي ترتبط بتاريخ مصر المعاصر، تطلق مكتبة الاسكندرية على الانترنت بوابة «ذاكرة مصر المعاصرة» والتي تضم بين صفحاتها تاريخ مصر في قرنين من الزمان، بدءاً من عهد والي مصر محمد علي باشا ١٨٠٥ وحتى نهاية عهد الرئيس الراحل محمد أنور السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١.

يؤرخ الموقع لتاريخ مصر من مختلف النواحي: سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً. وهناك أكثر من طريقة لتصفح الموقع، فمن خلال الحاكم تستطيع أن تستعرض كافة الأحداث التي حدثت في عهده وكذلك الملامح العامة للحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. كما يحتوي الموقع على أول تاريخ موثق للوزارات المصرية متاح عبر الشبكة الدولية (الإنترنت)، تستطيع من خلالها تتبع تاريخ الوزارات المصرية ورؤساء الوزراء والوزراء منذ عهد الخديو إسماعيل إلى نهاية عهد السادات. كما تضم الدساتير المصرية كاملة، وتوثق للحياة النيابية في مصر منذ الحملة الفرنسية حيث ظهرت باكورة المجالس وحكم الشورى في مصر، إلى عهد التعددية الحزبية. ويغطي الموقع نشأة الأحزاب المصرية وتطورها وأبرز رجالها.

توثق ذاكرة مصر لتاريخ الصحافة المصرية من «جورنال الخديو» في عهد محمد علي باشا الذي يعد الخطوة الأولى في تاريخ صحيفة الوقائع المصرية، إلى كبرى المؤسسات الصحفية مثل دار أخبار اليوم، ومؤسسة روزاليوسف، ودار الهلال، والأهرام، والأخبار. وهي بذلك تضم أكبر مكتبة خاصة بالصحافة المصرية وأشهر الصحفيين المصريين ورسامي الكاريكاتير والمصورين في مصر. كما يهتم الموقع بالجوانب الثقافية والاجتماعية، فلأول مرة توثق مكتبة الإسكندرية من خلال ذاكرتها الجديدة تاريخ أعرق الأندية المصرية كالنادي الأهلي ونادي الزمالك والنادي الأولمبي ونادي الترام، وغيرها.

تضم الذاكرة مجموعة من الوثائق يزيد عددها على ١٥ ألف وثيقة أكثرها ينشر لأول مرة. فهي تضم المجموعة الخاصة برئيس الوزراء الراحل ذي القبضة الحديدية محمد محمود باشا، ورئيس الوزراء بطرس باشا غالي، والمجموعة الكاملة لوثائق حفر قناة السويس والسد العالي. بالإضافة إلى توثيق تاريخ السكك الحديدية في مصر، وتاريخ الترام، وتطور طرق النقل والمواصلات في ضواحي العاصمة.

يوفر الموقع روابط مختلفة مرتبطة بكل حدث أو موضوع أو حاكم، منها الإصدارات التي صدرت عن الموضوع، والمقالات المختلفة التي تتناوله، بالإضافة إلى الأفلام الوثائقية والفيديو والأفلام الصوتية. كما أنها تدعم الموضوعات في كثير من الأحيان بالخرائط المتنوعة والشهادات والجوائز. ليس هذا فقط بل لعل أجمل ما تضمه ذاكرة مصر المعاصرة هو مجموعة الطوابع والعملات والأعلام المصرية الخاصة بكل فترة تاريخية.

يحتوي الموقع على أكثر من ٢٥ ألف صورة، ويلقي الضوء على بعض الأحداث الهامة في تاريخ مصر لاسيما حريق القاهرة ١٩٥٢، فلأول مرة تنشر قضايا الحريق التي تم تسجيلها في المحاكم من قبل أصحاب المحلات التي أصابها الضرر، بالإضافة إلى تناول التغطية الصحفية قبل وبعد الحدث لبعض الأحداث، منها حريق القاهرة ١٩٥٢ ونكسة ١٩٦٧.

يتميز الموقع بتنوع المداخل المتاحة للتصفح، مثل: الحكام ورؤساء الوزارات فضلا عن خمسة موضوعات رئيسية هي:

١. الحياة السياسية: ويندرج تحتها (الدستور- المجالس النيابية- الدواوين والنظارات والوزارات- الأحزاب السياسية- القضاء- القضية المصرية- ثورات وحروب- الأسطول- انتخابات واستفتاءات- معاهدات واتفاقيات- شارات الحكم- الحركات السياسية والوطنية- مراسيم وفرمانات وقوانين- مفاوضات ومراسلات- شئون داخلية- شئون خارجية).

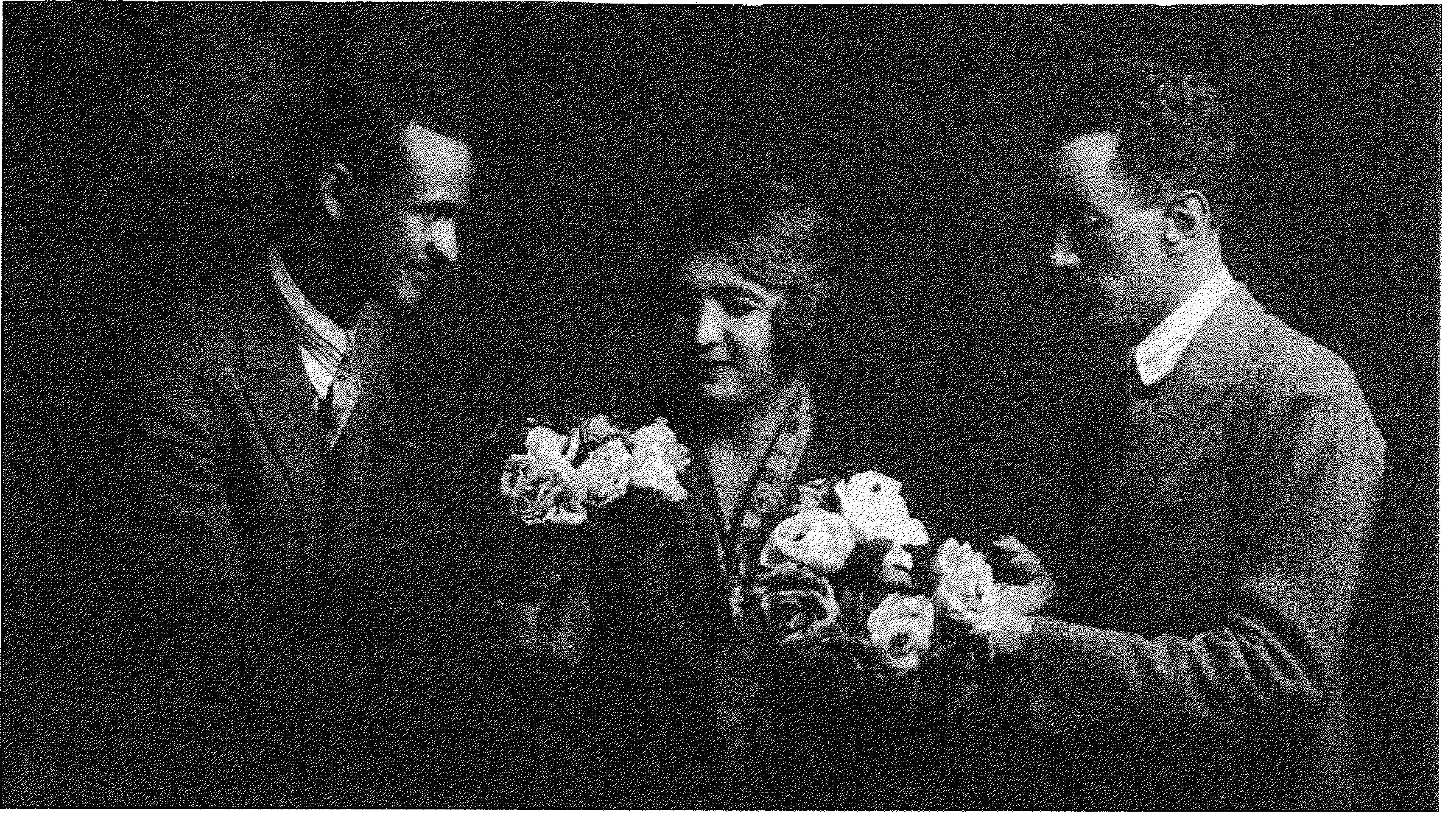
٢. الحياة الاقتصادية: ويندرج تحتها (الزراعة- الصناعة- التجارة- الري- وسائل النقل والمواصلات- الاتصالات السلكية واللاسلكية- السد العالي- قناة السويس- الطباعة والمطابع- النقابات المهنية).

٣. الحياة الاجتماعية: ويندرج تحتها (المجتمع المصري- الإعلام والصحافة- المدن والقرى والأقاليم- الجمعيات الأهلية- الطب والصحة العامة- الرياضة والأندية الرياضية).

٤. الحياة العلمية: ويندرج تحتها (التعليم- المجامع والمراكز البحثية والعلمية- الرحلات والكشوف الجغرافية).

٥. ثقافة وفنون: ويندرج تحتها (ثقافة وأدب وفنون-

مصر المعاصرة
http://modernegypt.bibalex.org



روزاليوسف تتوسط كلاً من محمد التابعى (إلى اليمين) وعبدالمجيد حلمى

خبر وفاة الخديوى محمد توفيق بتاريخ ١٥ يناير ١٨٩٢

٣٠٥

اللطائف

الجزء التاسع من السنة السادسة

١٥ يناير (ك ٢) سنة ١٨٩٢ = ١٥ جمادى الثاني سنة ١٣٠٩

الخطب العميم والمصاب الجسيم

بفقد المغفور له محمد توفيق باشا خديوي مصر

كذا فليجلّ الخطبُ وليفدحِ الامرُ ... وليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذرُ

استحكم الداء وعزّ الشفاء ونفذ القضاء فصبرًا جميلا . امير البلاد الذي اوردها موارد الخير والهناء ودفع عنها كل ضيم وبلاء قضي وغادر في القلوب غلولا . امير عبس الزمان في وجهه فقابلهُ بهمّةٍ امضى من السيف وانفذ من السهم لايحسب الخطب الجليل جليلا . واستعان عليهِ بالرأي السديد والعزم الوطيد حتى انثنى طرف الزمان كليلا . امير رفع راية العدل ونشر رواق الأمن فاضحت حزون الحادثات سهولا . امير ملك القلوب بحبهِ وفضائلهِ واسر النفوس بانعمهِ وفواضلهِ فكيف جنّتهُ تلقاهُ حبلاً بالندى موصولا . ولما صفت لهُ الايام وسالمتهُ الليالي جعل همهُ ترقية شأن رعيتهِ ورفع مقامها بين ممالك الارض فرفع عنها احمالاً كانت تنوءُ تحتها وسار بها في طريق العمران شوطاً طويلا .

المصرى أفندى بصحبة محمد التابعى وصاروخان



أول صورة فوتوغرافية التقطت فى مصر سنة ١٨٤٦ فى قصر رأس التين

المساء ٤ صفحات ١٠ مليمات

بيان تاريخي للرئيس جمال عبد الناصر

لن أعلن حل الجمهورية العربية

الرئيس يقول: "أنا مسئول عن هذه الجمهورية من القامشلي إلى أسوان"

قوات صغيرة من الجيش في قطنة تقوم بعمل طائش صباح اليوم

القوات الصغيرة تستولي على إذاعة دمشق وتحاصر مقر القيادة بها وتذيع ٤ بيانات

الجيش الاول يتحرك الآن إلى دمشق لوقف هذه القوات المتمردة

"لا يمكن أن أنضم إلى أعداء الوطن العربي لأنني مسئول عن حماية الجمهورية العربية"

"الجمهورية العربية ستبقى ولن تتحقق أهداف أعداء القومية العربية"

الرئيس جمال عبد الناصر

Washington: Pas de bombe "H" pour la France

LE JOURNAL D'EGYPTE

Sous-Presse: Le Président à la Fête de la Science

Mohamed V annonce: ELECTIONS AU MAROC EN MAI

Vœux du Président au Souverain du Maroc

Deuxième entretien Abdel Nasser - Norodom

Samedi, signature de l'accord culturel avec le Cambodge

Washington: Pas d'engins nucléaires pour la France

Scandale au Sénat

Mitterrand accuse Debré d'avoir pris part au complot "bazooka" dirigé contre Salan, à Alger en 1957

Une tournée africaine de McMillan en janvier

A la conférence de Monaco Pas de "zone stagnante" dans les fonds marins dit l'U.R.S.S.

Compromis à Chypre?

Je le dirai quand même! par Liza

Un professeur s'est fâché

Conférence de presse au ministère de l'Intérieur

Tous les mendiants et vagabonds du Caire pourraient être ramassés en quelques heures

...le problème est de prendre des mesures après cela et de les empêcher de récidiver, déclare le commandant de la police

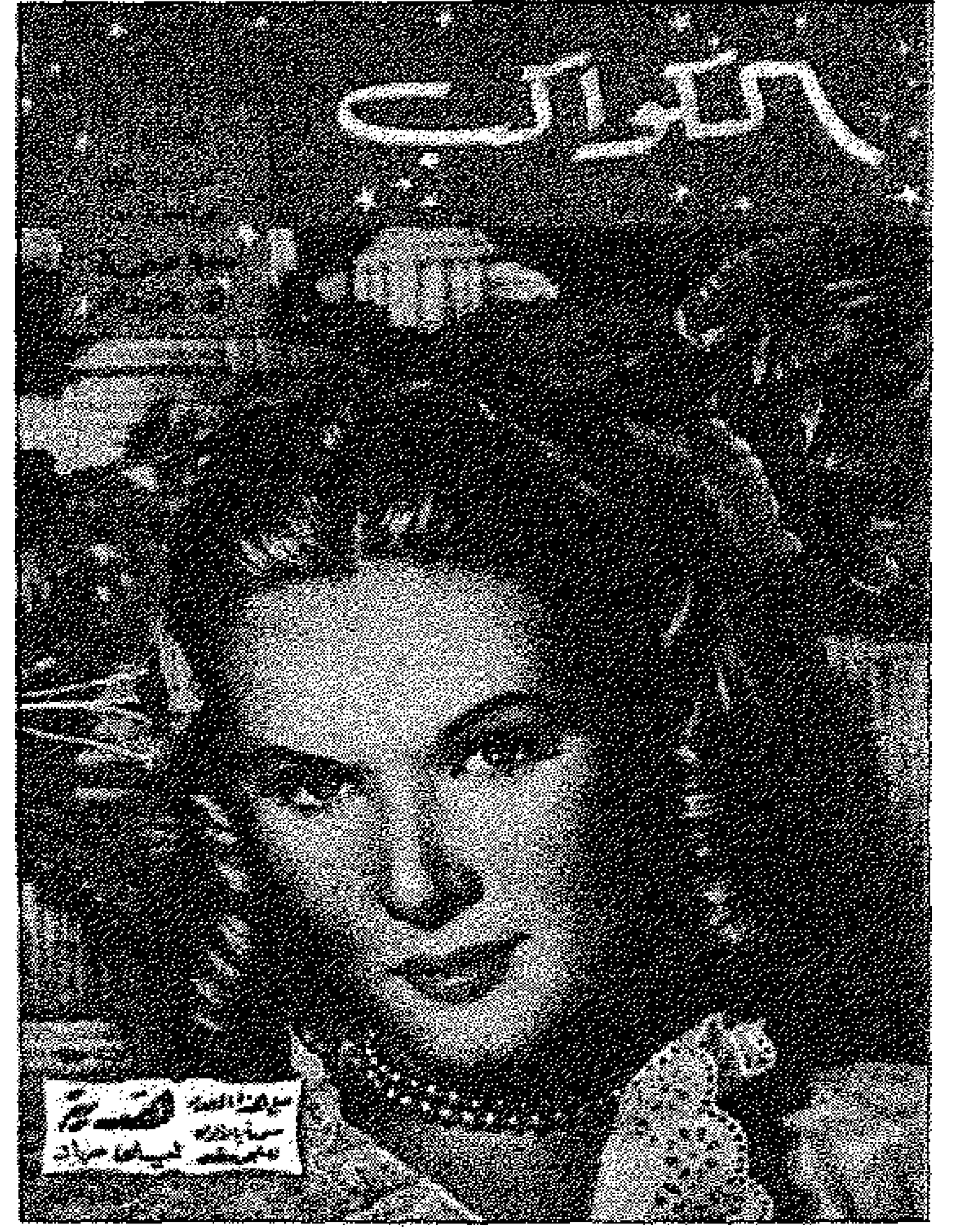
GRAND BAL DE LA St SYLVESTRE

Société de Bienfaisance Grecque Catholique

L'HOTEL SEMIRAMIS

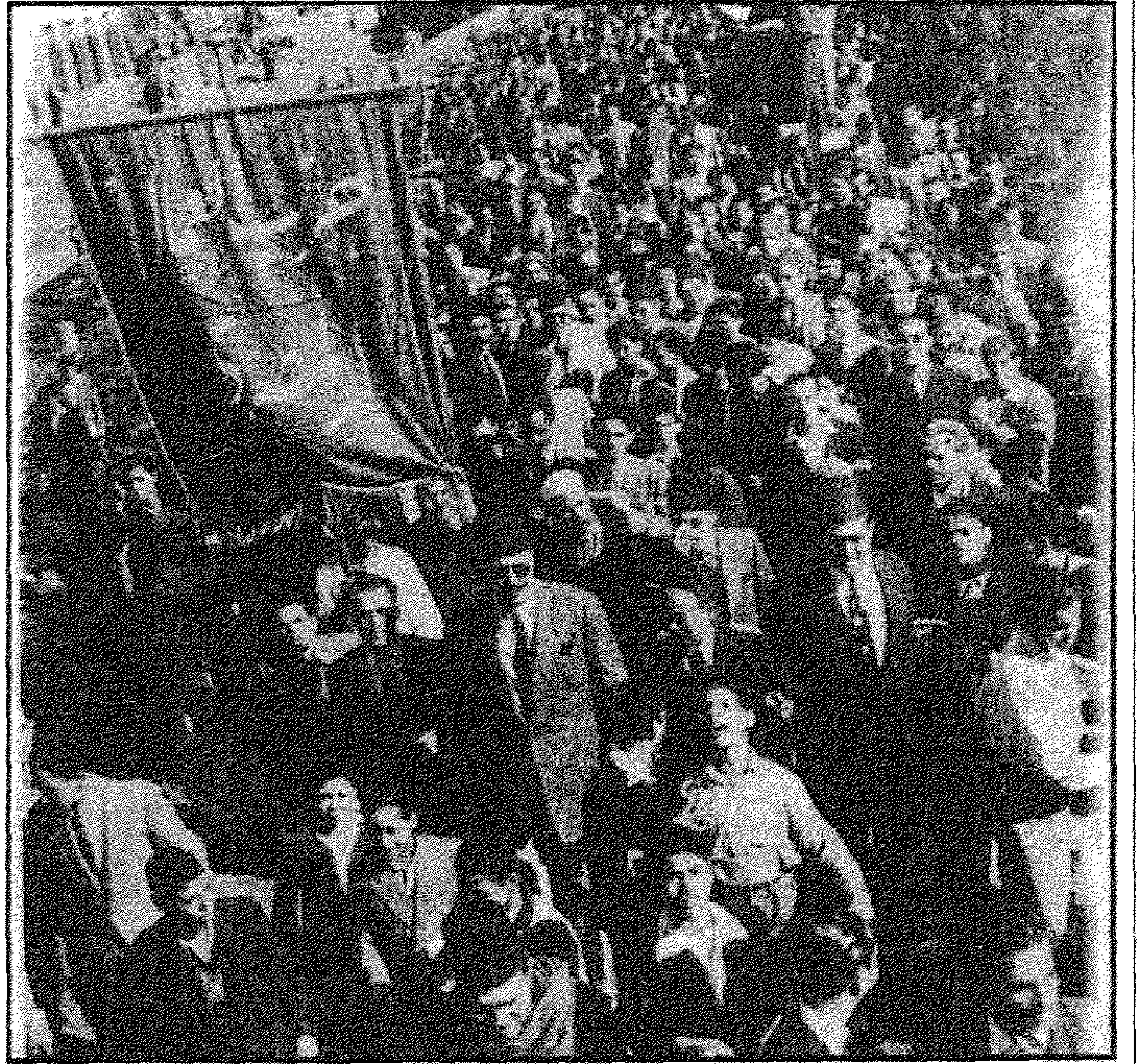
Dix nouvelles

La Serre





محمد سعيد باشا



اجتماع الهيئة السعدية برئاسة النقراشي

محمد عبد الله عنان أحد مؤسسي الحزب الاشتراكي وحسني العرابي سكرتير أول حزب شيوعي مصري والنبيل عباس حليم رئيس حزب العمال في اضراب عمالي واجتماع يعقده ابراهيم عبد الهادي وحامد جودة في الحزب السعدي

ذاكرة مصر المعاصرة

القصور الملكية - المتاحف - أبنية ومنشآت).

● الأحداث الهامة: من خلال مدخل الأحداث الهامة يستطيع الباحث أن يلقي نظرة سريعة على أبرز الأحداث التي مرت بها مصر خلال قرنين من الزمان، كالحملة الفرنسية على مصر وتولي محمد علي باشا حكم مصر وحملة فريزر ومذبحة القلعة وامتياز قناة السويس والثورة العرابية وإعلان الحماية البريطانية على مصر وثورة ١٩١٩ وتأسيس بنك مصر واكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ومعاهدة ١٩٣٦ وحرب أكتوبر ١٩٧٣ وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد... إلخ.

● الشخصيات العامة: عبارة عن مجموعة تزيد على الخمسمائة شخصية من أبرز الشخصيات التي أثرت تاريخ مصر السياسي والثقافي والاجتماعي.

وفي كل الأحوال يستعرض الموقع ذاكرة مصر المعاصرة من خلال كل المواد المتاحة وليست فقط المقالات النصية والدراسات التاريخية، وإنما أيضاً من خلال الوثائق والصور والفيديو والخطب المكتوبة والمسموعة والطوابع والكاريكاتير، وكذلك صحافة ذلك العصر بما تتضمنه من أغلفة مجلات ومقالات وصفحات جرائد، وكذلك الأغاني الوطنية والعملات التي تعبر عن فترة حكم كل حاكم أو ملك أو سلطان أو خديو أو وال.

ويحوي الموقع وثائق نادرة مثل تلك الخاصة بأسرة محمد علي؛ مثل: تصديق ممنوح لإقامة بنك وطني يحوز صلاحية إصدار بنكنوت للتداول في مصر ١٨٩٨، وخريطة توضح حدود عكا



موكب الزهور فى حفل الملك فاروق

وسوريا المتروكة لمحمد علي باشا بناءً على الاتفاق الموقّع في ١٥ يوليو ١٨٤٠، وخطاب العرش الذي افتتح به الملك فاروق البرلمان المصري عام ١٩٣٨، ومرسوم ملكي بتأليف وزارة النحاس باشا عام ١٩٤٢.

أما في قسم الصور الذي يضم صوراً نادرة لحكام مصر في التاريخ الحديث، فسنجد صوراً نادرة للحكام في عهد الأسرة العلوية؛ ومنها: أول صورة فوتوغرافية التقطت في مصر سنة ١٨٤٦ في قصر رأس التين بالإسكندرية، ويظهر فيها محمد علي باشا، وصورة لمحمد علي باشا وهو ممسك بسيفه، وصورة للعرض العسكري في حفل تتويج الملك فاروق، وصورة للجماهير المصرية في الاحتفال بزفاف الملك فاروق. ومن أندر الصور التي يعرضها الموقع ألبوم زيارة الرئيس أنور السادات للقدس، وألبوم الاغتيال وحادث المنصة.

ويضم قسم الفيديو مجموعة من أندر المواد التسجيلية عن حكام مصر في التاريخ الحديث. منها مشاهد لاجتماعات تأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥، ومشاهد عن حياة الملك فاروق وهو طفل خلال الفترة من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٣، بالإضافة إلى جنازة الملك فاروق في روما عام ١٩٦٥. ورحلة اللواء محمد نجيب للوجه القبلي في مارس ١٩٥٣، ومراسم نقل جثمان الزعيم مصطفى كامل إلى ضريحه الجديد.

وإذا انتقلنا إلى قسم آخر وليكن قسم الصوتيات، فسيجد الزائر مجموعة من أندر التسجيلات الإذاعية الخاصة بالرئيس محمد أنور السادات، أهداها السيد فوزي عبد الحافظ - سكرتير الرئيس الراحل- لمكتبة الإسكندرية، وهي تجميع لكافة التسجيلات التي سجلها السيد أنور السادات للإذاعة المصرية في أواخر الخمسينيات وأوائل فترة الستينيات والتي يتحدث فيها عن علاقة مصر بالدول العربية وعن الاشتراكية وعن المؤتمر القومي. كذلك نجد خطاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ والذي ألقاه الرئيس السادات، وخطابه في الكنيست الإسرائيلي. ■

خالد عزب



أسمهان

.. إذا حكت!!

أذكر أننى قرأت بين ما قرأت أثناء دراسة القانون أنه يحسن بنا ألا نقرأ مقدمة الكتاب إلا بعد الانتهاء من قراءته! وألا نكتب مقدمة لكتاب إلا بعد الانتهاء من كتابته... ولكننى مع ذلك أكتب مقدمة هذه القصة ولما أمش فى كتابتها سوى خطوات. والسبب فى ذلك هو أننى كنت أعارض حتى الساعة الأخيرة فى أن أكتب عن المرحومة آمال الأطرش التى عرفها الجمهور باسم المطربة أسمهان.

ولقد عارضت ورفضت يومئذ أن أكتب لأن أسمهان كانت لا تزال ذكرى قريبة وحية قائمة، ولأنه لا يزال بين الأحياء من أهل وأصدقاء من يطوون النفس على جراح دامية. وأخشى أن يكون فى بعض ما أكتب ما يدمى هذه الجراح! ثم إن الحديث عن أسمهان قد يسوقنى إلى الكشف عن أسرار لم يحن لها بعد أن تنشر.. أو قد يتناول شخصيات لها احترام ومكانة فى نفوس الكثيرين.. فكيف إذن أكتب عن أسمهان؟ وهل يكون - وفى دائرة هذه القيود - هل يكون لكتابى معنى وفائدة؟!

ولكن أصدقائى وزملائى من أصحاب هذه الدار ومحرريها - وقد استندوا إلى عشرات ومئات الخطابات التى جاءتهم من القراء فى هذا المعنى - ألحوا علىّ أن أكتب، وقالوا فيما قالوه إنه إذا كان هناك من يستطيع أن يصف أسمهان وشخصية أسمهان ويروى قصتها وينصفها كمطربة وكفنانة وإنسانة فهو أنت!.. وإن أسمهان عاشت ولم يفهمها أحد!.. وماتت ولم يفهمها أحد.. فانشر صورتها على الناس.. صورتها الحقيقية كما عرفتها فلعلك تنصف ذكراها بين الظالمين.

ثم راح أصدقائى وزملائى يضربون لى الأمثال، وكيف أن الكاتب الفرنسى فلانًا أخرج للناس كتابًا عن صديقته الممثلة فلانة.. والشاعر الإيطالى فلانًا نشر مذكراته عن المغنية فلانة.. وهلم!.. وأخيرًا رضيت أن أكتب.. ولكننى أحب أن أقولها صريحة من الآن:

إذا رأى أحدكم فى بعض ما أكتب أمرًا لا يتفق مع العُرف ولا مع الذوق السليم فلن أدافع عن نفسى! سأقول له.. صدقت وأنا آسف!

وإذا رأى أحدكم أن يتهمنى بأننى كشفت عما كان يحسن أن يظل مستورًا عن العيون.. فلن أدافع عن نفسى.. بل سأقول له صدقت.. وأنا آسف..

ولكن أحدًا منكم لن يستطيع أن يتهمنى بأننى لم أنصف أسمهان!

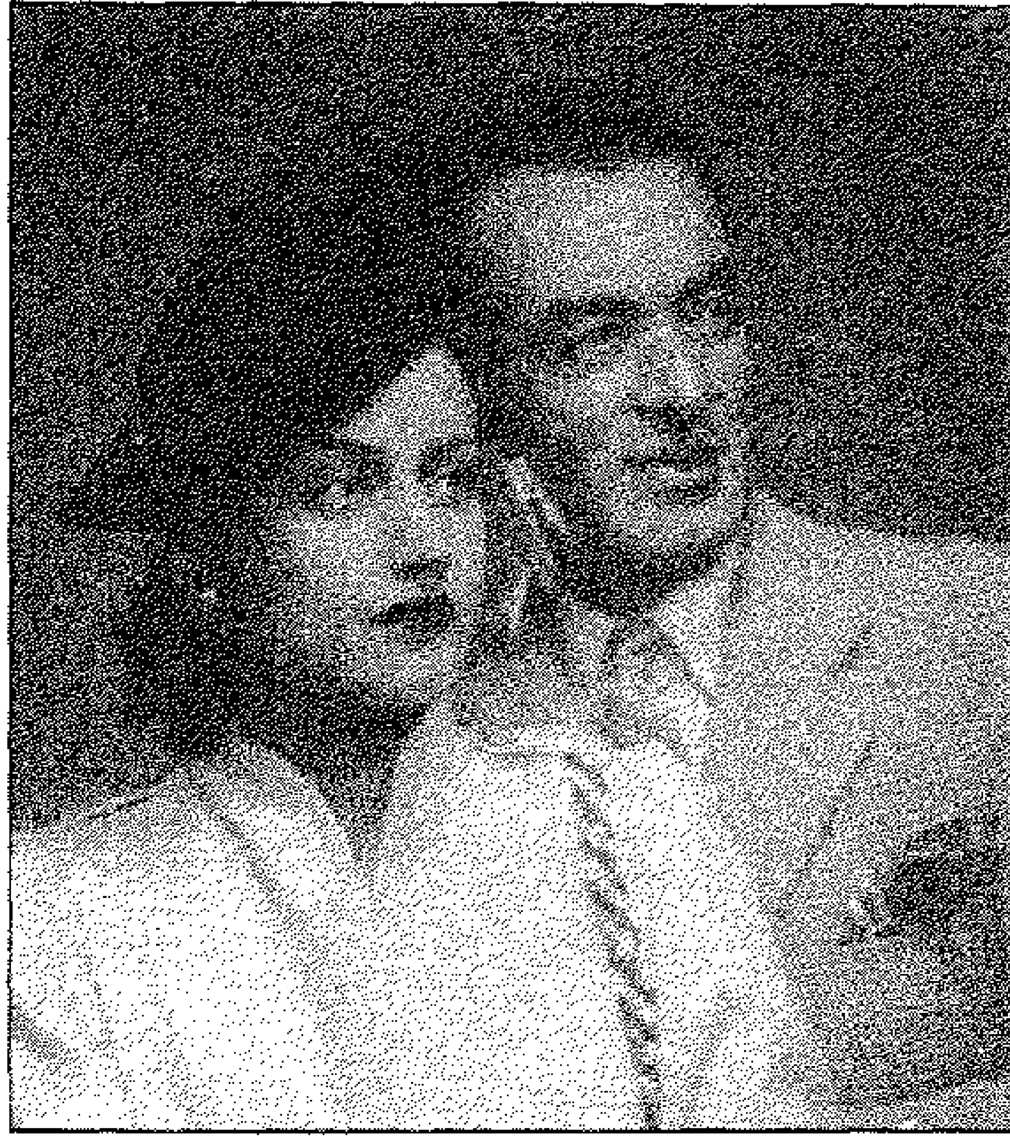
هذه هى المقدمة التى كنت أود ألا أكتبها إلا بعد أن أنتهى من كتابة هذه القصة.. ولكننى - كما قدمت - لم أوافق على الكتابة إلا فى الساعة الأخيرة.. ومن هنا أرسلت إلى المطبعة الفصل الأول وهذه المقدمة.. ولما أكتب بعد بقية الفصول! كم عددها؟ لا أعرف! ماذا سأقول فيها؟ لا أدرى!

لأننى لا أعرف عند أى حد سوف يقف بى الحذر ويقف بى الحرص على حكم العرف وحكم الذوق السليم! ولا إلى أى حد فى الصراحة سوف يدفعنى الحرص على ذكر الحقائق المجردة رغبة فى إنصاف الحقيقة وإنصاف أسمهان.

م. ت.

آخر ساعة - يناير ١٩٤٩





أســـمهان .. إذا حكت!!

محــمـــــد التـــابـعى

أسمهان تروى قصتها..

■■ صحفى أمريكى جاسوس لألمانيا!

بدأت أسمهان أو الأميرة آمال الأطرش تروى قصتها منذ غادرت مصر فى يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٤١ فقالت:

. لم يكن القطار قد ابتعد كثيرا عن القاهرة حتى خيل لى أن حوادث الأيام الثلاثة الماضية كانت حلما.. وقد أفقت منه الآن فقط!.. وسألت نفسى هل أنا جننت؟.. وإلا فكيف قبلت هذه المهمة؟! وكيف رضيت أن أورط نفسى فى عمل لا خبرة لى به؟.. ولأول مرة مذ قابلت مستر سمارت أدركت خطورة العمل الذى أنا قادمة عليه وجسامة الخطر الذى قد أقع فيه.. بل وتمنيت لو استطعت أن أعود إلى القاهرة وأعدل عن هذه الرحلة ولكن كيف! هذا مستحيل الآن!

وأردت أن أهرب من نفسى ومن أفكارى السوداء فانتقلت إلى عربة الأكل.. وجلست وحدى إلى مائدة.. ولكنى لم أبق وحيدة طويلا.

فقد أقبل رجل واستأذن هل أسمح له بالجلوس فى المقعد الخالى أمامى وسمحت له طبعا. وقدم نفسه إلى على أنه صحفى أمريكى.. وأن اسمه «ف» (ذكرت لى آمال اسمه ولكنى أكتفى بذكر أول حرف فقط لأسباب سوف يدركها القراء فيما بعد).

للاستزادة:
أسمهان تروى قصتها
محمد التابعى
القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٨ - ٢٦٤ صفحة

قالت آمال:

. وبدأ مستر «ف» يحدثنى عن الحرب ومجراها وتطوراتها، وعن الشرق الأوسط، وأنه يسافر إلى لبنان لأنه يتوقع قريبا وقوع أحداث هامة. ثم سألنى فجأة: «ألست من رأيى»؟

ووجدت نفسى أقول نعم! ولكنى فى نفس اللحظة تنبهت! وتذكرت نصائح مستر سمارت ونصائحك. وأحسست ولا أدرى كيف. ولعلها أعصابى المرهفة. أن جلوس الرجل معى إلى مائدة واحدة لم يكن مصادفة!.. بل كان أمرا مقصودا..! وأن حديثه كان يرمى لغرض.. وهو أن يستدرجنى فى الحديث.

دارت هذه الخواطر فى رأسى فى ثانية أو ثانيتين!

هذا والرجل يتحدث ويسألنى ولكنى وقد تنبهت اعتذرت بالجهل وعدم إحاطتى بتفاصيل سير الحرب من عدم الإجابة. (وبابتسامة) ولم أكن كاذبة فى اعتذارى فأنت تعرف خيرا من سواك أننى لا أقرأ الصحف وأننى عمرى ما اهتممت بتتبع سير الحرب!

ومضت تقول:

. وانتهينا من تناول طعام العشاء ووصلنا إلى القنطرة.

وكان فى رأسى سؤال أخافنى وهو هل الرجل يعرف المهمة التى أسافر من أجلها؟! وهل هو يتبعنى خصيصا؟ وهل هو جاسوس؟ ولحساب من يعمل؟ لحساب المحور.. أم ترى الإنجليز هم الذين أرسلوه ورائى ليراقبنى؟ فقد كنت قرأت فى بعض الروايات أن هناك جواسيس يتجسسون على جواسيس بينما الكل يعملون لهدف واحد ويخدمون مصلحة واحدة!

ولكنى اطمأننت قليلا عندما رأيت أن مستر «ف» لم يحاول أن يلازمنى فى محطة القنطرة أو يجلس معى فى قطار فلسطين.

ولكنى لما نزلت فى الصباح فى محطة اللد وجدته واقفا على الرصيف وكأنما كان ينتظرنى.. وتقدم منى وحيانى وتمنى لى سفرا سعيدا ثم قال إنه سيواصل سفره بالقطار إلى حيفا..

وفعلا عاد وركب القطار..

قالت آمال:

. هذا الصحفى الأمريكى مستر «ف» كان من وكلاء المحور كما عرفت فيما بعد!.. هل تذكر أننى أرسلت إليك مرة برقية عن سفرى إلى أنقرة؟

قلت: نعم وكنت أنتظر حتى تنتهى من حكايتك وأسألك عن السبب. ولكنك لم تسافرى؟ قالت: كلا: لم أسافر، أو لم أتمكن من السفر.. ولمستر «ف» علاقة بكل هذا.. هل أحكى لك القصة الآن أو أتركها إلى أن يجىء دورها؟

قلت: كما تشائين..

قالت: إذن أتركها إلى أن يجىء دورها.. واستأنفت الحديث فقالت:

كومودور باص يعطيها

تعليماتها وأول ألف جنيه!

. وركبت من اللد سيارة إلى القدس. ونزلت فى فندق الملك داود. ولم تمض على وصولى ساعة حتى زارنى رجل إنجليزى كان يلبس سترة سلاح الطيران البريطانى. واسم الرجل «باص» وهو برتبة «كومودور». ورحب بى ودعانى لتناول الشاى معه فى نفس اليوم.

وحول مائدة الشاى حدثنى طويلا عن «عملى» وأكد على ضرورة الحذر الشديد فى كل خطوة أخطوها ونصحنى أن أسىء الظن بكل أحد..



هل الرجل يعرف المهمة
التـــى أســافــر مــن أجلهـــا؟!
وهـــل هـــو يتبعـــنى خصـيصـــا؟
وهــل هـــو جـــاســوس؟
ولحســاب مــن يعمــل؟



وهنا سألتها: وهل قلت له شيئا عن الصحفي الأمريكي؟

قالت: كلا، خطر لي أولا أن أفعل ولكنني عدلت.

سألتها: لماذا؟

قالت: لم أكن أعرف ساعتئذ أنه يعمل لحساب المحور. وكان يحتمل أن يكون جاسوسا لهم هم.. للإنجليز! على كل حال لم أقل شيئا عنه لكومودور باص..

واستأنفت حديثها:

. وطلب مني باص أن أستريح اليوم وأستعد للسفر غدا إلى عمان. وهناك سوف يلقاني من يسهل لي دخولي سوريا خلسة من حدود شرق الأردن. وكان من المهم جدا كما فهمت من باص أن أصل إلى جبل الدروز وأجتمع بالأمير حسن وزعماء الجبل قبل أن يعرف الفرنسيون بدخولي سوريا..

وكان باص يعرف أن للمحور جواسيس وعيونا في مصر. وكان من المحتمل أو على الأقل من الممكن أن يكونوا عرفوا السبب في سفري وأرسلوا إلى سلطات المحور في لبنان وسوريا ينبهونها إلى الغرض من زيارتي لجبل الدروز..

وطلب مني باص أن أؤكد لزعماء الدروز أن الحلفاء سوف يرسلون جيشا لطرد حكومة فيشي وأعوان المحور. وأن جيشهم هذا إنما يدخل سوريا ولبنان لتحريرهما من كل سلطة أجنبية وأن أؤكد لهم كذلك أن النصر النهائي في هذه الحرب للحلفاء!

إلى آخره.. إلى آخره.

وأنا أختصر هنا كثيرا من كلام آمال الأطرش تفاديا من تكرار كلام سبق للقراء أن عرفوه وسمعوه أثناء الحرب عن قوة الحلفاء ولماذا سيكون النصر لهم في النهاية، وعن أغراضهم من هذه الحرب.. إلى آخره.

قالت آمال:

. وقبل أن يتركني باص في المساء دس في يدي مظروفا وقال إن فيه ألف جنيه لمصاريفي أنا الشخصية.. وأن الذي سوف يلقاني في عمان سوف يفضي إليّ ببقية التفاصيل..

تدخل سوريا خلسة!

وفي اليوم التالي سافرتُ إلى عمان فوصلت إليها بعد الظهر، وانقضى اليوم ولم يتقدم إليّ أحد..

ومضى صباح اليوم التالي ولم يتصل بي أحد..

وبعد الظهر دعيت للتليفون وكلمني «المجهول» بلغة فرنسية ركيكة وفهمت منه أنني يجب أن أكون مستعدة بحقائبي بعد نصف ساعة.

وفي الموعد المحدد كنت جالسة في ردهة الفندق وحقائبي القليلة حولي. وأقبل خادم يقول إن سيارة تنتظرني أمام الفندق.

ومشيت إلى السيارة..

ووضع الخادم حقائبي فيها..

وأخذت مقعدي إلى جانب السائق ولم يكن في السيارة أحد سواه.

وكان السائق ضابطا إنجليزيا شابا. ومن صوته عرفت أنه هو الذي حدثني بالتليفون، وانطلقت بنا السيارة إلى طريق الشام..

وأثناء الطريق راح الضابط الشاب

كان بإمكاني أن أحتفظ بعشرات الألوف من الجنيهات. فقد كنت الواسطة الوحيدة في إيصال المبالغ إلى أمراء وزعماء البادية





يذكر لي أسماء زعماء الدروز ويسألني بعد كل اسم هل أعرف صاحبه؟.. وطبعا كنت أعرفهم جميعا فهم أقاربي وأبناء عشيرتي..

ثم أخذ يسأل عن حالة كل منهم المالية والاجتماعية.. وهل هو رجل طموع أو قنوع؟ وهل هو ممن يمكن الركون إليهم وإلى كلمتهم!

وانتقل الضابط بعدها إلى أمراء وزعماء البادية ورؤساء القبائل الضاربة في صحراء سوريا ولكن معرفتي بهؤلاء كانت قليلة جدا فلم أكن أعرف منهم سوى أميرين أو ثلاثة. أما هو. الضابط. فكان يعرف أسماءهم جميعا وكان ملما بكل شيء عن كل واحد منهم..

ودام حديثنا في هذا الموضوع أكثر من ساعتين. واستطعنا أن «نغربل» هؤلاء الأمراء والزعماء وأن نختار منهم تسعة وهم الأكبر مقاما والأوسع نفوذا في الجبل والبادية وكان على رأسهم طبعا زوجي حسن الأطرش..

وأخيرا بدأ الضابط يذكر أسماءهم واحدا بعد واحد.. وهو يسألني:

. ما رأيك؟ هل تظنين أنه يقنع بخمسمائة جنيه في الشهر؟

وكنت أقول: كلا! مستحيل! على الأقل ألف جنيه..

هذا بينما كنت أعلم أن فلانا هذا يفرح جدا بخمسمائة جنيه. بل يرضى بمائتين! ولكن لم لا أجعل هؤلاء الزعماء العرب ينتفعون بالأموال البريطانية التي كانت تنفق بالملايين!

ويتناول الضابط زعيما آخر أو رئيس قبيلة ويقول:

. وهل تكفيه ألف جنيه؟

وأقول أنا: كلا! هذا رجل قوي وغني. وألف جنيه لا تملأ عينيه على الأقل ألفان.. وهكذا!..

أنا حمارة كبيرة

وتوقفت أسمهان في روايتها وضحكت وهي تقول:

. كم كنت حمارة كبيرة!

وضحكت أنا وقلت: الرجوع إلى الحق فضيلة! ولكن ما سر هذا الاعتراف؟

قالت: كان في إمكاني أن أحتفظ لنفسي بعشرات الألوف من الجنيهات. فقد كنت أنا الواسطة الوحيدة في إيصال هذه المبالغ إلى أمراء وزعماء البادية. وكان الضابط الإنجليزي المذكور يزورني كل شهر مرة في فندق «أوريان». أي الشرق . في دمشق. ويقول: «لقد أحضرت لك سجايرك اللاكي سترايك»..

ويناولني «خرطوشتين» سجائر ملفوفتين بالورق. ولكن لم تكن هناك سجائر بل رزم من أوراق البنكنوت!

وكان الأمراء والزعماء يترددون على الفندق وأقابل كل واحد منهم على انفراد وأناوله المبلغ المخصص له. وكما قلت لك فإن معظمهم كان يقنع بل ويفرح بنصف ما كنت أعطيه إياه. ولو أنني كنت فعلت ذلك واحتفظت لنفسي بالفرق..

وهزت كتفيها وقالت: ولكنني كنت حمارة كبيرة!





طلب مني باص أن أؤكد لزعماء الدروز أن الحلفاء سوف يرسلون جيشا لطرد حكومة فيشي وأعوان المحور

ثم كأنما تذكرت أمرا لأنها ضحكت وقالت:

. عملتها بس مع زوجي حسن الأطرش..

قلت: زوجك؟!

قالت: نعم.. في إحدى المرات كان عليّ أن أعطيه نصيبه وهو ألفان من الجنيهات ولكنني لم أفعل. وتركت دمشق وسافرت إلى بيروت. والأمير حسن لا يزال يعتبر هذا المبلغ دينا عليّ حتى الآن!

تقابل زوجها حسن الأطرش

وعادت أسمهان إلى روايتها واستأنفت الحديث.. وأنا أغفل بعض التفاصيل التي لا ضرورة أو لا أهمية لها.

قالت: وأخيرا وصلت إلى الجبل (تقصد جبل الدروز). وكنت متهيبة جدا من مقابلة العائلة وخصوصا الأمير حسن بسبب ما نشر في بعض المجلات المصرية عن زواجي ببدرخان. ونحن الطرشان نعده عارا أن تتزوج الفتاة من رجل غريب خصوصا إذا كان يقل مقاما عنها (كذا!) والمجلات المصرية مقروءة في سوريا وفي الجبل. وفعلا سألوني عن حكاية زواجي هذه فكذبتها وقلت إنها كذبة مختلقة من أكاذيب مجلات مصر.

وعلى العموم استقبلني كبار الأسرة استقبالا طيبا. وقد تأثرت حقيقة من حسن استقبال الأمير حسن وقد أحسست في الحال أنه لا يزال يحبني.. ولعل هذا الحب هو الذي سهل عليّ مهمتي لأنني لم أجد صعوبة في إقناعه بصواب الانضمام إلى الحلفاء والتخلي عن تأييد حكومة فيشي.

ولكنه طلب مني أن أعود زوجة له. وأبدى استعداده لأن يطلق في الحال زوجته التي كان تزوجها بعد طلاقي منه..

ولم يقلها صراحة ولكني فهمت أنه يجعل عودتي إليه شرطا لقبوله ما جئت من أجله: أي شرطا لنجاحي في مهمتي..

قالت آمال الأطرش ولعلها أرادت أن توجز وتمر سريعا بهذا الفصل من روايتها حتى لا أناقشها في تناقض برقياتها التي أرسلتها إليّ والتي كانت أرسلتها إلى أسرتها في القاهرة.

قالت: ولا أطيل عليك. وأرسل حسن ودعا زعماء الطرشان للاجتماع بي وتولى عني شرح مهمتي.. وإقناعهم. ثم بعث بالرسل ودعا بعض زعماء قبائل البادية..

وفي الوقت نفسه بادر إلى طلاق زوجته لكي يثبت لي أنه جاد في طلب عودتي زوجة له!

ومع أنني استعنت بالكتمان والحذر إلا أن خبر وجودي في الجبل وخبر «نشاطي» السياسي ومقابلاتي لبعض أمراء وزعماء البادية وصل إلى مسامع السلطات الفرنسية وعيون المحور في سوريا ولبنان.

قالت: ولعل الصحفي الأمريكي مستر «ف» هو الذي أبلغ عني، ولو أنه أقسم لي فيما بعد أنه بريء من هذا.. وعلى كل حال فقد جاءني الأمير فاعور. وهو أحد أمراء البادية وهو صديق لأسرة الطرشان. يحذرني ويقول إن



أســــــمهان .. إذا حكــــت!!

السلطات الفرنسية توشك أن تصدر الأمر بالقبض عليّ واعتقالي. وإنه يجب عليّ أن أهرب وأغادر سوريا على الفور.. وهنا قاطعتها وذكرت لها خلاصة البرقية التى كانت نشرتها جريدة المصرى وفيها أن السلطات الفرنسية هى التى طلبت منها مغادرة البلاد وأنها - أى آمال - اضطرت بعد هذا أن تهرب على ظهر جواد!

قالت: هذا غير صحيح! ولو كانت السلطات الفرنسية هى التى طلبت منى مغادرة البلاد فلماذا أهرب على ظهر جواد؟ كان يمكننى فى هذه الحالة أن أغادر البلاد علناً وبالطريق العادى ما دامت السلطات هى التى طلبت منى ذلك!.. كلا. الحقيقة هى أن الفرنسيين أرادوا أن يقبضوا عليّ ولهذا هربت..

تهرب متنكرة فى زى عبد!

وتطوع الأمير فاعور «بتهريبى» من سوريا ومرافقتى بنفسه إلى حدود فلسطين.

وتنكرت فى زى عبد من عبيد الأمير! وطليت وجهى ويدى بدهان أسود اللون.. ولبست ملابس العبيد الذين فى خدمة أمراء العرب. ولففت رأسى وشعرى بالكوفية والعقال وركبت جوادا وسرت وراء جواد الأمير فاعور!

وكانت رحلة شاقة طويلة ومتعبة فقد اضطر الأمير أن يسلك فى بعض أجزاء الطريق طرقا ودروبا غير مألوفة ولا معروفة عند حراس الحدود!.. ولقد مررنا. بين آونة وأخرى. ببعض الاستحكامات التى أقامها الفرنسيون.. ولم أنس مهمتى فاجتهدت أن أسجل فى ذاكرتى كل ما تقع عليه عيناى من تجمعات للجند.. وأوكار المدافع.. وجسور أو كبارى أنشئت هنا وهناك فى بعض الممرات بين الجبال.. والحصون الصغيرة ومخازن الذخيرة إلى آخره..

قالت: وأنا أحب ركوب الخيل.. ولكن للرياضة! ولكنى عمرى ما ظننت أننى سأكره الجياد وركوب الجياد إلى هذه الدرجة.

وعندما عبرت أخيرا الحدود، ودخلت فلسطين كنت أحس أن وسطى انقطم! بعد أن أمضيت على ظهر الجواد ليلة وبعض يوم!

وودعت الأمير فاعور وشكرته..

وفى مساء اليوم التالى كنت فى القدس.. ودخلت فندق الملك داود!

وكم كانت دهشة موظفى الفندق عندما طلبت منهم أن يقودونى إلى الجناح الذى كنت أقيم فيه!

ذلك لأنى دخلت الفندق وأنا كما أنا.. أى سوداء الوجه فى زى العبيد!

وبعد أن اغتسلت وأبدلت ثيابى أرسلت فى طلب كومودور باص.

ورويت له كل ما فعلته فى سوريا. ونتيجة أحاديثى ومقابلاتى مع الأمير حسن الأطرش وزعماء الجبل والبادية.. ثم قصصت عليه تفاصيل هربى وذكرت له ما لاحظته طول الطريق وسجلته ذاكرتى عن الحصون التى شيدها الفرنسيون على قمم بعض الجبال.. إلى آخر ما ذكرته لك..

وسر الرجل جدا وضمنى إلى صدره وهو يقول:

- مرحى! أحسنت صنعا يا بنيتى!

زواجها بالأمير حسن الأطرش

وبعد ذلك ببضعة أيام تحرك جيش الحلفاء وتخطى حدود فلسطين إلى سوريا ولبنان.. والباقى تعرفه مما نشرته الصحف ومن برقياتى. فقد عدت فى أعقاب جيش الحلفاء إلى دمشق.

وسكتت قليلا قبل أن تقول:

- وأرسلت لك برقيات عن رغبة الأمير حسن فى أن أعود زوجة له.. ونصحتنى أنت بالقبول..

قلت: نعم وحسنا ما فعلت!

قالت: على كل حال كان الاحتفال بزواجنا فخما جدا.. وأعطانى الأمير حسن يومها ألفى جنيه..

وضحكت أنا وقلت: ثم أخذت منه ألفى جنيه أخرى!

ابتسمت - رحمها الله - وقالت:

- نعم. وهل كثير أن يكون مهرى أربعة آلاف جنيه!

إسراف وسوء تدبير...

وهنا عادت السيدة أمينة البارودى من طوافها بالمحال التجارية ومعها سيدة نهضت آمال وقبلتها وقدمتنى إليها!

وقالت السيدة إنها تعرفنى. من قبل أن ترانى. لكثرة ما سمعته عنى من آمال.

والسيدة واسمها «شفيقة» هى أرملة المرحوم فخرى بك النشاشيبى وقد قتل بعد ذلك بنحو شهر واحد فى أحد شوارع بغداد أثناء زيارة له لعاصمة العراق. وقيل إن القاتل من أتباع سماحة مفتى فلسطين، لأن فخرى النشاشيبى كان من ألد خصوم المفتى كما أنه كان متهما بأنه من أصدقاء الإنجليز ومؤيدى السياسة البريطانية فى فلسطين.

وقالت السيدة شفيقة ونحن حول مائدة الغداء موجهة سؤالها إلىّ:

- هل نصحتها؟

قلت: فيم؟

قالت: سمعت منها أن «عبيك» الكبير فى نظرها هو إسرافك فى نصحها.. ولكن عمرها ما كانت فى حاجة للنصح كما هى الآن..

قلت: أنصحها فى ماذا؟

قالت: فى إسرافها الجنونى.. كأنما المال يحرق راحتيها فهى تريد الخلاص منه بأسرع ما يكون!

وهنا قالت أسمهان:

- لم يحدثنى فى شىء غير هذا منذ حضر!

قالت شفيقة: وهل حدثته أنت عن لعبك القمار فى بيروت؟

ثم التفتت إلىّ تقول قبل أن تتمكن أسمهان من إسكاتها:

- لقد التف حولها فى بيروت بعض السيدات (وذكرت أسماءهن وهن من سيدات وآنسات أكبر الأسر اللبنانية الشهيرة العريقة) يتملقنها ويدعونها لسهراتهن وحفلاتهن ويحطنها بمظاهر الإجلال والإكرام!.. والمجنونة تظن أن هذا كله حبا فى سواد عينيها وما هو إلا طمع فى مالها لأنهن علمنها لعب البوكر. وهى لا تفهم شيئا ولن تفهم شيئا فى لعب البوكر. والنتيجة هى أنهن يربحن منها فى كل سهرة مئات الجنيهات.. فهل يعجبك هذا الحال؟

قلت: طبعا لا. ولكن لعله يعجبها هى!

ومضت السيدة شفيقة. وأسمهان ساكتة لا تجيب. مضت تقص علىّ تفاصيل تصرفات لها تدل على الغفلة وسوء التدبير، ومنها مثلا أن «صحفيا» خدعها وأوهمها أن عنده مشروعا صحفيا ناجحا لإصدار جريدة يومية رأس مالها ألفان من الجنيهات فهل تشترك معه بنسبة النصف فى مشروعه الناجح المذكور.

ودفعت له أسمهان ألف جنيه..

وصدرت الجريدة.. ثم احتجبت بعد أسبوعين اثنين!

إلى آخره. إلى آخره..

لا عجب إذن وهذا حالها إذا كانت أنفقت خمسة عشر ألف جنيه فى خمسة شهور!!

وأخيرا تكلمت أسمهان فقالت إنها ليست «مغفلة» كما نظن بل هى تفهم وتدرك كل شىء ولكن!..

وهزت كتفيها وقالت: يعنى!

و«يعنى» لفظ أو تعبير لبنانى ممكن أن تعنى به كل شىء أى شىء ولا شىء، ولعلها أرادت منه هنا أن تقول: «أنا أعرف أنهم يضحكون علىّ ويبتزون مالى ولكن ماذا يهم ما دمت أجد فى هذا تسلية لى»!

ثم مضت أسمهان تقول إن كثيرين من وجهاء القوم وكبار التجار يقصدونها لكى تتوسط لهم فى مسائل معينة عند السلطات الإنجليزية أو الفرنسية وخصوصا عند الجنرال كاترو الذى يحبها كابنته ويعطف عليها كثيرا.. ويعدونها بأنهم سوف يدفعون لها مبلغ كذا أو يقدمون لها هدية كيت إذا نجحت وساطتها..

قالت: وكثيرا ما نجحت وساطتى فى المسائل التى كلفونى بها وجنوا هم منها أرباحا طائلة ولكن قليلين جدا منهم هم الذين وفوا بوعدهم لى..

.. وأن تاجرا وماليا كبيرا معروفا فى لبنان ومصر، وأنا أغفل هنا ذكر اسمه وكان صاحب ومدير شركة كبيرة للاستيراد والتصدير، وقد ورد اسمه فى الكتاب الأسود الذى نشره «مكرم عبيد باشا». تقرب إليها هو والسيدة زوجته. بل وجعلت زوجته من نفسها أشبه بوصيفة للأميرة آمال الأطرش تتولى عنها استقبال ضيوفها وتنظم لها حفلاتها وتلازمها فى غدوها ورواحها..

وأخيرا فاتحها التاجر المالى الكبير فى موضوع تكوين شركة بينها وبينه برأس مال قدره مائة ألف جنيه.. على أن لا تدفع هى شيئا ما لأنه سيتولى هو عنها دفع نصيبها فى رأس المال! وطلب منها فى مقابل هذا أن تتوسط له عند الجنرال كاترو فى مسائل معينة.. وهى مسائل تجارية بحتة ذات قيمة مالية كبيرة.

مع أننى استعنت بالكتمان والحذر إلا أن خبر وجودى فى الجبل وخبر «نشاطى» السياسى ومقابلاتى لبعض أمراء وزعماء البادية وصل إلى مسامع السلطات الفرنسية وعيون المحور



أســــمهان .. إذا حكـــت!!

قالت: ولم يخطر ببالى وقد رأيت من آيات صداقته وصداقة زوجته لى ما رأيت أنه يضحك علىّ. وتوسطت فعلا له عند كاترو وقضيت له حاجته.

ثم ابتسمت وهى تقول:

. ولكنه لم يكتب عقد الشركة حتى اليوم! بل انقطع هو والسيدة زوجته عن زيارتى!

الأميرة آمال الأطرش!

وفى المساء أقامت أسمهان أو الأميرة آمال الأطرش حفلة استقبال فى الصالون الكبير الملحق «بجناحها الملكى!» فى فندق الملك داود.

وكان بين المدعوين بعض كبار الضباط البريطانيين والأعيان وقناصل الدول الأجنبية فى القدس ومعهم السيدات قريناتهم.

ورأيت الإسراف الذى ما بعده إسراف فى الطعام والشراب.

وقدمتنى هى إلى مدعويها على أننى «صديق عزيز من مصر».

ولكننى آثرت أن أنزوى فى أحد أركان الصالون وأتفرج وأبتسم بينى وبين نفسى!

هذا هو الجو الذى تحبه أسمهان.. جو الفخفخة حتى ولو كان مزيفا لا صدق فيه!

الجميع ينادونها بلقب «برنسس» ويعاملونها على أنها أميرة.. وهى تتحرك بينهم وتتحدث إلى هذا وذاك.. ثم تنتقل وتشمل بعطفها هذا وذاك!

تماما كما تتصرف أية أميرة فى مثل هذه الحفلة!

وقبيل منتصف الليل نهضت الأميرة آمال الأطرش واقفة إيذانا بانتهاء السهرة!! وإيذانا لضيوفها بالانصراف.

ونهض المدعوون والمدعوات. وأقبلوا يستأذنونها فى الانصراف ويشكرونها.. إلى آخره!

تماما كما يحدث فى أى بلاط صغير!!

هذا هو الجو الذى كانت تتنفس فيه آمال الأطرش ملء رئتيها وتحب أن تعيش دائما فيه.. المسكينة!

ولا عجب إذا كانت جملة حسابها الأسبوعى أو «فاتورة» فندق الملك داود وحدها كانت لا تنقص عن أربعمائة جنيه.. أربعمائة جنيه فى الأسبوع الواحد وللفندق فقط؟!

وأقمت فى القدس خمسة أيام تحدثنا فيها كثيرا. وقلت لها فى صباح اليوم الخامس إننى سأعود غدا إلى مصر..

قالت: وأنا أيضا سأعود إلى بيروت. ولكن هل سبق لك أن زرت تل أبيب؟

قلت: كلا..

قالت: لا يليق إذن أن تغادر فلسطين قبل أن ترى تل أبيب. كما أننى أريد أن أشترى من هناك بعض الأشياء.

ولما كنت سأعود إلى مصر بالقطار من محطة اللد وهى قريبة جدا من تل أبيب قد اتفقنا على أن نمضى غدا إلى تل أبيب ونمضى بقية النهار والليلة فيها.. وأن أستقل القطار فى الصباح إلى مصر.. وأن تترك هى للسيدة أمينة البارودى مهمة إعداد الحقائب على أن تلحق بها فى تل أبيب بالسيارة ومن هناك. وبعد سفرى. تسافران إلى بيروت عن طريق حيفا والناقورة.

وذهبنا إلى تل أبيب.

والأثر الذى تركته هذه المدينة أنها أشبه بالمدن التى تشيدها ستوديوهات السينما فى هوليوود ليلتقطوا فيها حوادث فيلم سينمائى معين فإذا ما انتهوا من التقاط المناظر.. هدموا المدينة وما فيها!

أى أنها مدينة ولكنها لا توحى إلى النفس بشعور الثبات والاستقرار!

ونزلنا فى فندق «جان ريمون» الذى اختطفت منه ذات مرة عصابة «أرجون زفاى ليومى» بعض الضباط البريطانيين.

وقضينا السهرة فى مقهى يقع تحت الفندق المذكور على شاطئ البحر.

وأقبل رئيس خدم المقهى يحيى «الأميرة» باحترام كبير ويمشى بين يديها إلى المائدة المحجوزة خصيصا لها.

ولعل احترام الرجل لم يكن لها ولا للقب الإمارة بقدر ما كان لسخائها المفرط فى البقشيش! فقد طلبت آمال من رئيس أوركسترا المقهى أن يعزف قطعة معينة.. ولبى الرجل طلبها.

ونفحته «الأميرة» عشرة جنيهات!

وفى الصباح وضعت حقيبتى فى سيارة التاكسى التى كانت ستحملنى إلى محطة اللد..

ووقفت آمال تودعنى وقالت:

. هل تذكر تاريخ مولدى؟

قلت: فى شهر نوفمبر أليس كذلك؟

وكنا يومها ٣١ أكتوبر.

قالت: نعم. ٢٥ نوفمبر. وأنتظر منك أن تمضيه معى فى القدس. هل تعدنى أو أضطر لإجراء عملية جراحية أخرى لكى تحضر؟

قلت: أعدك.. ولا داعى للعمليات الجراحية!

ووصلت إلى القاهرة عند منتصف الليل ووجدت برقية رقيقة منها تذكرنى فيها بوعدى أن أحتفل معها بعيد مولدها القادم! ■

كتاب الزاوية



قصائد من المغرب العربي (٥)

سيدة

ذات مرة
في بداية ربيع إغريقي جميل
قابلت امرأة، جميلة-
لم تقل من أنت- ما اسمك- من أي بلد؟
شربنا شاياً في المقهى
وذهبنا- للمرقص
قلت لها- ذلك المساء!
أرغب أن أدعوك باسم السيدة (نعم)
قالت أرغب أن أسميك السيد (عابر)
بعد شعر ودّعتُها دون أسف على شيء
للآن وبعد ربع قرن لم أر السيدة (نعم)
وللآن وبعد ربع قرن لم تر هي السيد (عابر)
أما أنا-
فقد عبرت (نَعَمْ) مرة واحدة
وعبرتني- مرة- واحدة أيضاً
هذا يكفي صعلوكاً متمرداً مثلي!

علي الفزاني
بنغازي

Gilbert Garcin

الشاهد!

ديديه جالينى

بترتيب مع photosapiens

إعداد وترجمة: ايناس فؤاد

«شخص اختزل عشرة آلاف تذكار فى سبعين عاماً، بطريقة ما تشعر أنه يملك غرفة فى رأسه.. بها تبنى الأفكار وتجتمع كـ الركام فتنبثق فجأة».

تشرح العبارة السابقة المصور جلبر جارسى الذى يبدو أنه قد قرر الانتفاع كلياً من تقاعده وإعادة ترتيب غرف رأسه... بوجه الأب الهادئ، وبجمجمته البسيطة غير المزخرفة... بهيئة خالية كلياً من الاهتمام تلك الهيئة التى يبدو عليها صاحب مصنع سبعيني... بربطة عنق محكمة على قميص قطنى رمادى مخطط وبسروال داكن وخف أسود اللون...

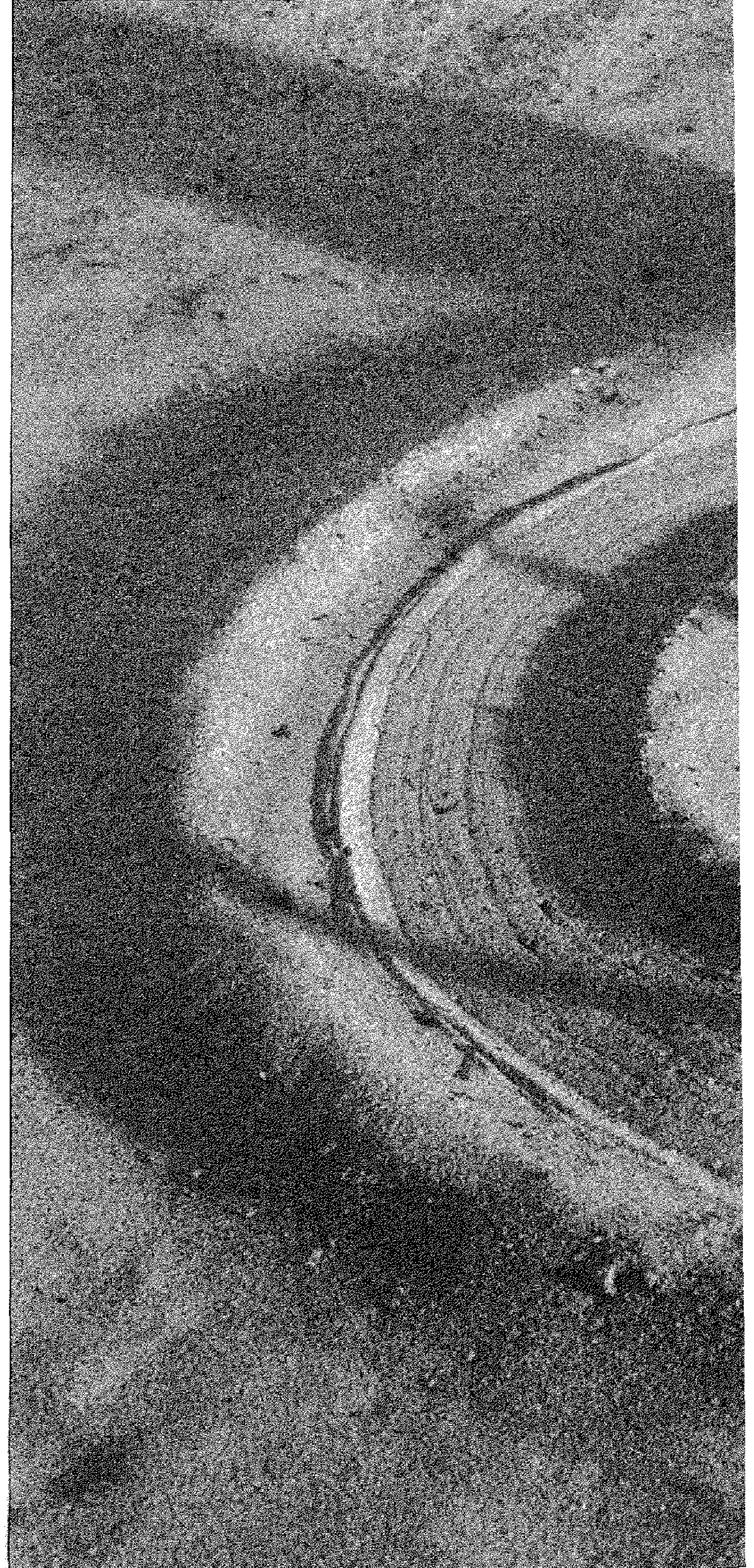
بحطام ما تبقى من القطع البلاستيكية الخاصة بلعبة طفله، وبقطع مبان صغيرة الحجم ودقيقة... محاطة بصمغ، بمقص صغير وبكاميرا



يمكنه أن يخلق منها أساسيات لنماذج صغيرة، وتحت إضاءة مصطنعة (صناعية) لتقترب أكثر من الحقيقة وتبدو طبيعية أكثر، تخلق الصور الفوتوغرافية، التى يوما بعد يوم تلعب الأدوار المختلفة لمسرحه الداخلى الصغير. وبتسخير البورتريه الشخصى له واستنساخه فى أعماله بدون أن يعظم من صورته أو نموذجه كرجل العالم!، فهو يقدم نفسه فى أعماله بأكثر الصور سريالية. على سبيل المثال تقديم سيسفوس (النموذج الإغريقي) يقوم بدفع صخرة ضخمة، أو بتقديم رجل مثير للشفقة يستند خلف بندول ضخم، يتمثل ذلك فى أعماله: «الركض خلف الوقت» و«الأنانية»، كما لو كان يمارس القفزات الإنجليزية مع نفسه (يقفز فوق نفسه) حتى يضمحل (يغيب عن الأنظار)، أو فى عمله المسمى بـ«الطاووس» الذى يستعرض فيها ذيلا طويلا من الريش الذى يمثل صورته الذاتية عن نفسه.

«يبدو أننا جميعاً فى عرض (تمثيلية)، أليس كذلك» علق جلبر جارسى بتلك الجملة بنبرة خبيثة ذلك الرجل المهذب الذى يعالج السخف والسخرية الذاتية بحماس سذج، وبنكهة سيريالية واضحة وبحدس مميز بأسلوبه المطعم بحاسة هتشكوك.

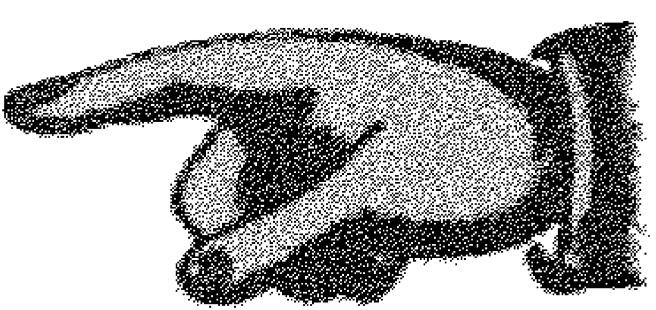
«أدون الملاحظات ومن ثم أكدسها، أتركها تنضج ومن ثم أقرر: أى من اللوحات سأنفذ» التعليق بهذه العبارة جاء متزامناً مع تفريغ محتويات جيبه، قصاصات ورقية صغيرة لخصت أفكار عقله المستقبلية! عادة ما يقضى قرابة ٣ أيام لتحضير الديكور لكل مشهد، «على إعدام أى فجوة أو فراغ بين ما أتخيله وبين الصورة النهائية المنتجة. لكن بعد أن أصبحت أكثر خبرة، فأنا أقترف القليل من الأخطاء فقط». فانفصال الأفكار عن التعبير عادة ما يرتبط بفن الفوتوغرافيا، ظهر ذلك بشكل جوهرى فى مارسيليا وأول فى الثمانينيات، فى ذلك الوقت عمل جلبر جارسى مع المصور Pascal Dolémieux الذى تخصص فى الخداع البصري، أسسه فى الأسرار الساحرة للمناظر الطبيعية المجهرية المبنية بأظافر



The mill ablivion الطاحونة



Work on progress العمل مستمر



الشّاهد!

ويضع عصى كبريت مع مكعبات سكر.

منذ ذلك الحين، وهو يؤلف أعمالاً تحوى حبكة أدبية بروح ساخرة وبها نكهة فكاهية، حتى أنه لا يتردد أن يسخر من نفسه أو منا جميعاً.

استفاد جلبر جارسى من الحكم والأقوال المأثورة مثل: «اعرف حدودك» و«كن سيد نفسك» أو «لا تدر فى الحلقات المفرغة» فى أن يستخدمها بشكل فائض لا فى وصفه لسيرته الذاتية بشكل عبثى فقط، بل فى وصفه لفلسفة الكوميديا البشرية أجمع.

لا يسعنا أن ننسى فكرته الأخيرة: أن تنفى كل الهياكل والصور الخاصة بالمصورين الآخرين فى أكثر أماكن العالم النائية، أماكن يتعذر الوصول إليها، تلك هى الطريقة التى تعتلى بها، أن تكون فى كل مكان فى اللحظة ذاتها حتى فى أعمال الآخرين.

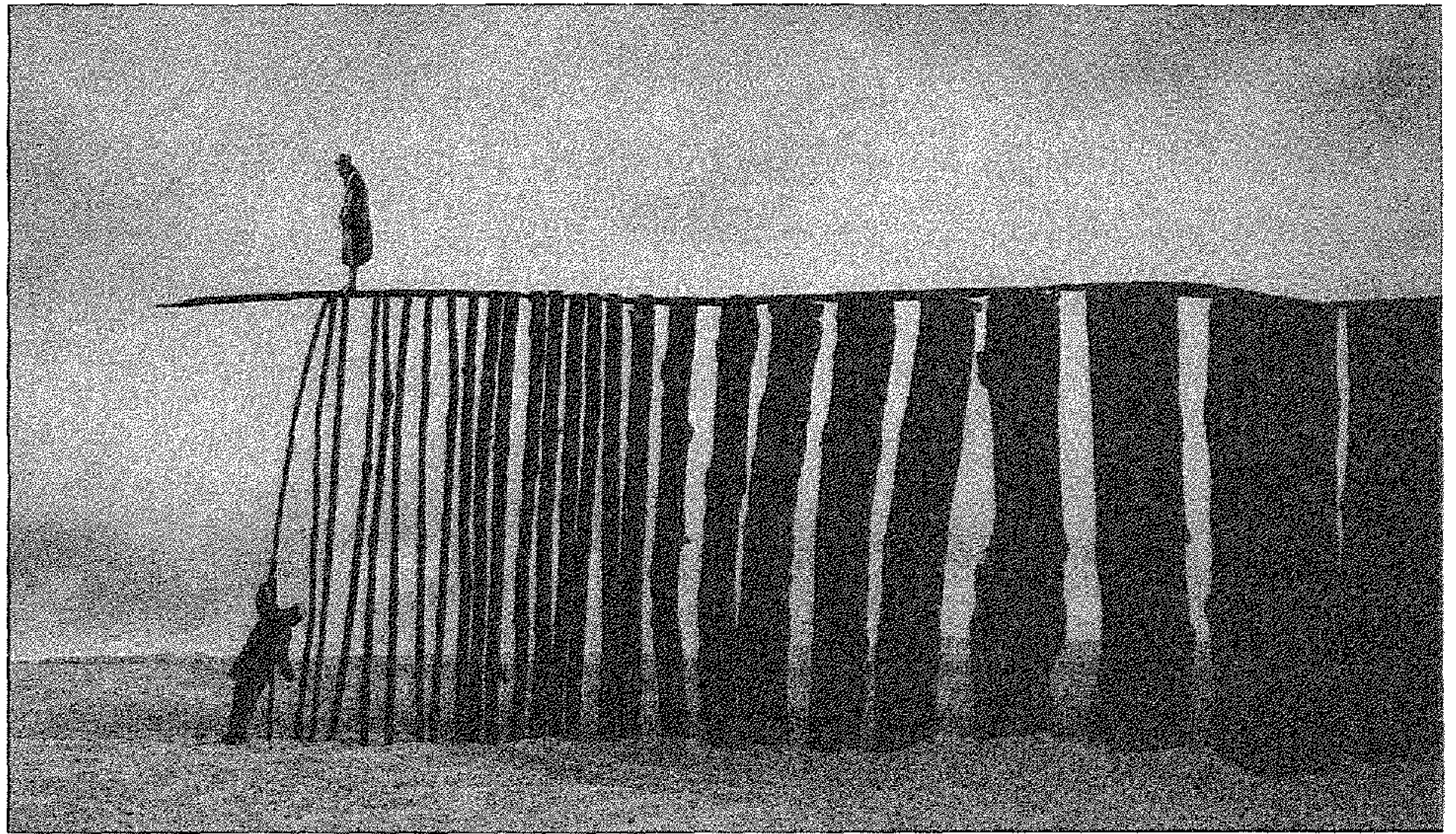
أصبح gilbert garcin محط أنظار بشكل ملحوظ مؤخراً، خاصة بعد معرضه فى أغسطس ٢٠٠٥ تحت عنوان «how to explain» ثم أصبح فنانا مشهورا بعد أن صدر له هذا الكتاب «الشاهد» فى العام ذاته ليعرف الجمهور بأسلوب جديد لفنان «أبيض الشعر».



فقد أتاحت له الصور أن يتميز ويحقق ازدهاراً وظيفياً فى وقت خيالي، ففى الوقت الذى حقق فيه Jacques Lartigue نجاحاً حين التقط أول صوره وهو طفل فى السادسة، بدأ جارسى طريق نجاحه كمصور حين كان فى سن الـ ٦٤.

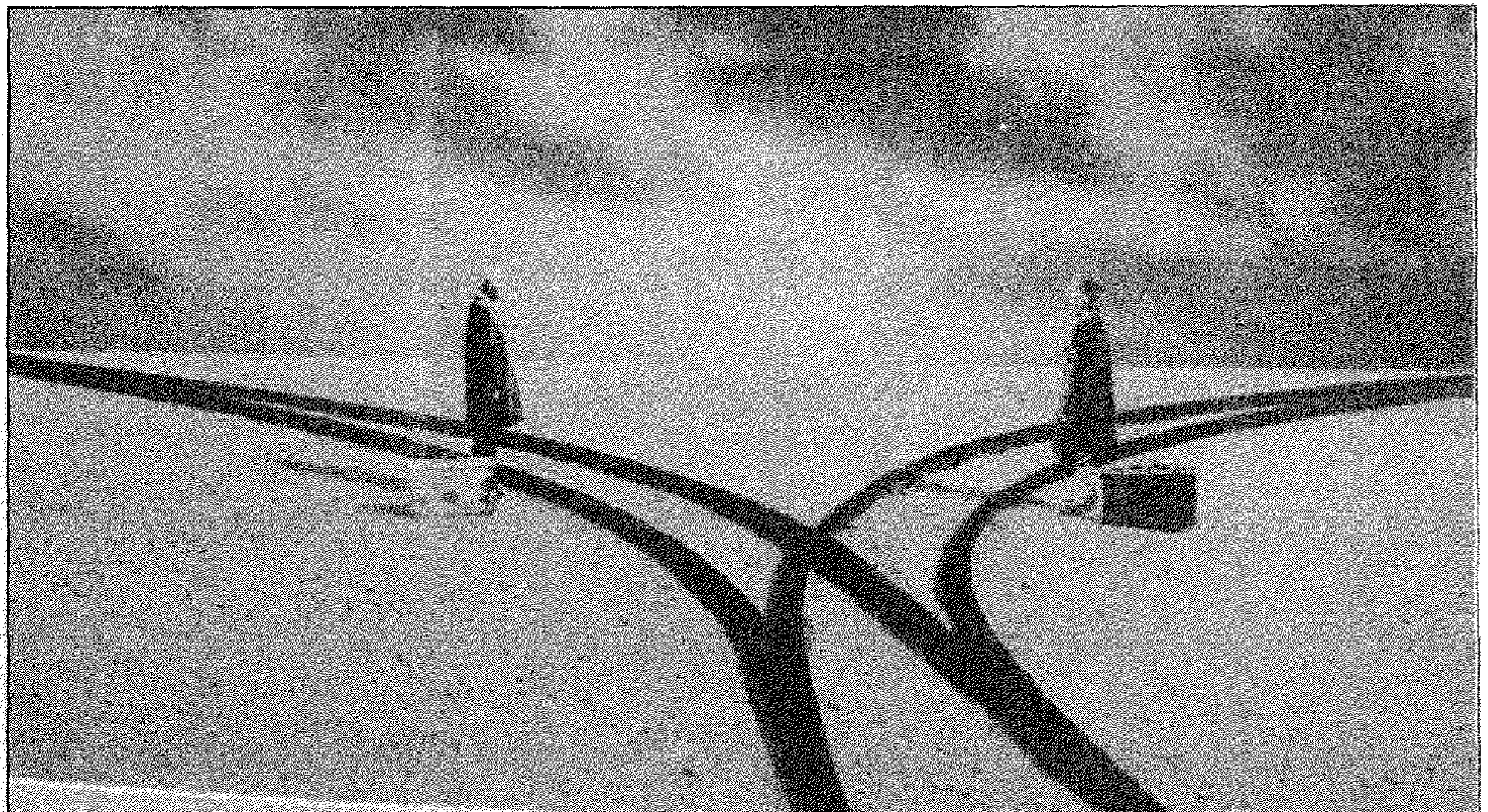
ولد جلبر جارسى فى عام ١٩٢٩ فى La Ciotat، وعاش فى Marseille. وبعد تقاعده من العمل فى عام ١٩٩٣ اقتحم مجال التصوير الفوتوغرافي، خلال تلك السنين تم نشر ٤ كتب والكثير من الأعمال الأخرى فى الكثير من المعارض الدولية ومهرجانات الصور على مستوى أوروبا. حوالى ٣٣٠ من الصور بالأبيض والأسود. صور تحوى رجلا يرتدي معطفا بسيطا يستند فى كل صورة، صور تتميز بالفخر بجو من السريالية التى تسود على معظم أعماله.

شهد جلبر جارسى أحلامه تحقق ذاتها، فقد شخص مواقف معينة يستحيل أن توصف أو تتجسد بوسيلة أخرى سوى الفوتوغرافيا، تخيل رجلا عجوزا بأجنحة تنين يعتلى قمة صخرة، على وشك أن يحلق بينما تقف خلفه سيدة تمسك فى يدها حبلا ضخما مثبتا



preseverence

divergences



في قدمه بإحكام، تبدو الصورة واضحة وبسيطة في أسطورة «رحلة ايكاروس»، أجنحة ضخمة غير تقليدية وبحبل متصل برجله. أو على الشاطئ حيث يقف الرجل العجوز الملتزم دائما بارتداء المعطف مع زوجته التي ترتدي معطفا أيضا، يلعبان الكرة بقنفذ البحر الضخم، معلق في الهواء... من منهم سيلتقطه من الهواء؟ صورة توضح أسطورة «التبادل».

في الوقت الذي ذكر فيه Mc Solard نفسه كشخصية ثانوية في أعماله من الأغاني، استخدم gibert garcin نفسه كشخصية أساسية في صوره، بل في كل صورة من صوره، قد تجد في بعض الصور زوجته، فهو يستخدمها فقط إذا أراد أن يصف في الصورة العلاقة بالآخر... وفي أحيان قليلة فقط ترى صورة كلب.

قد تشعر في معظم أعماله بنرجسية واضحة، فهو يجسد الممثل، والمخرج المسرحي والمصور أيضاً، ويفسر هذا أيضاً أحد أعماله حيث جسد صورته الشخصية في تمثال نصفي بقاعدة من الرخام. كما صور نفسه في نموذج ميدالية، معلق من أعلى رأسه بحبال على بكرات محاط بأعمدة.



يبدو في أعماله الـ ٢٥ الأولى كـ Mr. Hulot (أشهر شخصيات المخرج Jacques Tati) بقصة الشعر نفسها. وبنفس لون الرداء. ومن ثم ظهرت الشخصية المعروفة بالمعطف في أعماله من عام ١٩٩٥ حيث تزامن ذلك مع الأعمال الأكثر جدية، حينما صور بعض الأعمال الميثولوجية والأسطورية مثل: ايكاروس وسيسفوس، قد يبدو ذلك واضحاً في إحدى صوره تحت عنوان «طاحونة النسيان» حيث صور نفسه في شخص يدفع بطاحونة تسير وتمسح خطواته على الرمال. قد تجده أيضاً في الكثير من أعماله يستخدم لوحاً وأعمالا فنية مشهورة لأشهر الفنانين مثل: Hopper, Fontana, Courbet, Leonardo da Vinci، أو أنه يستخدم بعضا من العناصر من اللوحات المعروفة مثل: Angelus لـ Jean-François Millet ومثل: Robert Motherwell, Paul Klee.

منعت أعمال gilbert garcin من النشر، خاصة في المجلات التي تهتم بالشباب وبالعبادة لعدة أسباب: فهي أولاً تعتبر ضد التيار، ففي الوقت الذي ترى فيه الصور بسيطة وتحتوي على رجل عجوز وسيدة بشكل تقليدي تراه كل يوم، إلا أنها تحمل وراءها رسالة بشكل هزلي ساخر لكنه يصل للمشاهد بشكل واقعي ومبرهن، كما أن جميع أعماله تخرج بالأبيض والأسود فقط في الوقت الذي تنشر فيه الصور بالألوان وبتقنيات رقمية، كما لا يستخدم جلبر جارسي أي تقنيات رقمية في صوره مثل الفوتوشوب، بل على النقيض إذ نجده يستخدم قطعا خشبية صغيرة أو بقايا بلاستيكية رفيعة أو قطع صلصال ليصمم صوره.

لصوره وقع ساحر وخاص، يتمثل في مشاهد صغيرة تعبر عن الفن، الحياة، الموت، الحب ومرور الوقت، صوره تمثل حالة من الهدوء والاسترخاء والمازوخية. كل تلك الصور في كتاب من مئات الصفحات يغرقك في عالم ينبثق منه السحر النادر.

The driver ambilion



على مدى السنوات الخمس التى قضاها في أوروبا دعمت قناعته التى بدأ بها وهى «أن خلاص مصر ورقى مصر ومستقبل مصر رهن التمكن من مقومات هذه الحضارة»



بحثا عن السندباد

السيد أمين شلبى

■■ الباحث فى حياة وفكر حسين فوزى (١٩٠٠-٣٠ أغسطس ١٩٨٨) يستطيع أن يسجل بدايات ومكونات حياته الفكرية واقتناعاته الثقافية عن الحضارة والثقافة والفن والعلم والتى ستظل تلازمه طوال حياته ويدافع عنها بإيمان وحرارة، يستطيع أن يسجل هذه البدايات فى هذا اليوم من نوفمبر عام ١٩٢٥ حين ركب حسين فوزى الباخرة «الجنرال متزنجيه» من ميناء الإسكندرية متوجها إلى «مدرسة الحضارة العظمى فى الغرب» باحثا ومأخوذا «لا بمسكه وقذاه، ولا بريق أصدافه بل بدرره ولآلئه»[1] وهو يرد الفضل فى هذا التوجه وهذا الاكتشاف إلى والديه، وأساتذته، وأصدقائه بل إلى حكومة بلده؛ فقد تربى فى البيت والمدرسة على حب الوطن، ورأى أساتذته يدافعون عن العلم ويدفعون جيله إلى تفضيله وكانوا جميعا، والداه وأساتذته وأصدقاؤه، لايعرفون إلا مصدرا واحدا للعلم هو أوروبا وحضارة أوروبا، لذلك أحب أوروبا وحضارتها، أما حكومة بلاده فقد كانت تعنى كل العناية بأوروبا وتتخير من تتوسم فيهم اليقظة والإخلاص لتوفدهم إلى أوروبا لتلقى العلم، وقد كان حسين فوزى واحدا من هؤلاء.

وعلى مدى السنوات الخمس التى قضاها فى أوروبا دعمت قناعته التى بدأ بها وهى «أن خلاص مصر ورقى مصر ومستقبل مصر رهن التمكن من مقومات هذه الحضارة»، وإذا كانت سنوات بعثته وإقامته فى الغرب قد أكدت إيمانه الذى «لاتزعزعه الزعازع» بهذه الحضارة حيث أتاحت له أن يعرفها فى مقوماتها الحقة من فكر وعلم وأدب وفن وعرف كيف تعمل هذه المقومات عملها فى تقدم الأمم، فقد جاءت النكبة التى أصابت أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية لكى تزيد إيمانه بحيوية هذه الحضارة والأصول والمصادر الحية التى تعتمد عليها، وهى الحيوية التى مكنتها من أن تنهض من كبوتها، وتجدد دماءها وتستخدم فى هذا الدواء الشافى وهو مقومات حضارتها: الفكر والعلم والأدب والفن. ذلك أنه قد أتيح لحسين فوزى عقب إقامته الأولى فيها للتحصيل والدراسة أن يعود للغرب عقب الحرب الثانية مباشرة لكى يرى مراكزها الرئيسية فى لندن وباريس وبرلين وهى تنهض من الحرب، وفى لندن، أولندره التى حل فيها صيف عام ١٩٤٦ تملكه شعور الإعجاب المتناهى بعاصمة الدولة التى «أنقذت العالم من أعظم الشرور التى حاقت به فى تاريخه الطويل»، وهو فى هذا يتعدى الشعور الوطنى إلى الشعور الإنسانى إذ سواء عنده «أن يكون دفاع الإنجليزى عن بلاده وحضارته وإمبراطوريته مادام هذا الدفاع فى ذاته ذودا عن الحضارة الإنسانية» ومن المخابئ رأى الشعب الإنجليزى الحريص على تراثه المتذوق للموسيقى يملأ قاعة «رويال ألبرت هول» والمعارض والمسارح ودور الكتب والمحاضرات، وهى المشاهد التى أكدت له سر رقى الشعوب، «فهو ليس بالزبد والمدفع وإنما فكر الفيلسوف، ومعمل العالم، وريشة المصور، وقلم الكاتب والموسيقى» أما فرنسا أو «أمنا فرنسا» و«مربيتنا فرنسا» التى لن ينساها «قبل أن أنسى نفسى» فقد توقع فى زيارته لها بعد الحرب أن يراها غافلة عن نفسها الذليلة فى ظل الصليب المعقوف تنسج لنفسها لبوسا من البطولة الزائفة والجعجعة الفارغة؛ إلا أنه وجد الفرنسيين يواجهون الحقائق المرة بشجاعة ويعترفون فى أحاديثهم وحياتهم بسنوات الضعة والانكسار، الأمر الذى جعله يقول «لم أر أمة حية بتاريخها مثل فرنسا تصل حاضرها بماضيها دائما، وصفحاتها السود ماثلة لعيونها إلى جانب الصفحات البيضاء، ومادامت الأمة حية بتاريخها فلن تموت»، كذلك توقع أن يرى فرنسا بعد الحرب مرحة بتحريرها فحسب ولكنه وجدها «مطأطئة الرأس واجمة تبحث فى شعاب نفسها عن طريق الخلاص من أسباب نكبتها تسائل التاريخ والاقتصاد والعلم عن منهج جديد فى حياتها»، كما توقع أن يرى فرنسا مهدمة مقبرة قذرة تقتحمها العين إلا أنه رأى «شعبا جريحا يضمد جراحه، أنيقا يرتق ثيابه، نشيطا فى البناء متحفزا إلى النهوض من كبوته»، ومثلما فعل فى لندن، دخل المعارض والمسارح وارتاد المكتبات العامة وبيوت النشر والمعامل ودور الحكم وطالع الصحف الأدبية والسياسية وكان الدرس الذى استخلصه فى باريس كذلك «أن الشعوب تعيش بالخبز والزبد وحدهما ولاتموت بالحديد والنار فحسب»، كما استخلص المعنى نفسه فيما يتعلق بسر رقى الشعوب، فى فكر الفيلسوف ومعمل العالم، وريشة المصور وقلم الكاتب والموسيقى، ومثلما فعل إمام التنوير رفاعة الطهطاوى منذ أكثر من قرن عندما حل فى باريس وراح يتأمل تفاصيل حياتها بناء وبشرا وعلاقات ونظم حكم وطرائق حياة وكيف يسلك أهلها ويتصرفون، ويورهم فى جدهم ولهوهم، كذلك فعل حسين فوزى خلال سنواته فى باريس دارسا ثم زائرا حيث رأى فى هذه المدينة عالما بأكمله فهى مدينة الحدائق والمتاحف ومدينة الأزياء ومدينة اللهو البرىء والخبيث ومدينة الأكل الطيب والشراب المرىء، وهى كغيرها من المدن مدينة الخير والشر، ويسخر حسين فوزى ممن لايرون ولايعرفون من باريس إلا ملاهيها ووجهها العابث وأزياءها، فباريس الحقيقة عنده هى فى أهلها الذين يعرفون كيف يعملون وكيف يستريحون، وفى مكتباتها ومتاحفها وآثارها وهى قبل كل شىء فى دور العلم والسوربون والكوليدج دى فرانس، ومعهد باستير ومتحف التاريخ الطبيعى، وهذه هى «حصون العلم وصوامعه» التى لا يصل إلى من يعيش فيها أصوات الملاهى، وتذكره صوامع العلم وحصونه بأكاديمية أفلاطون فى أثينا بيركليس، ويربطها بالديمقراطية الفرنسية، فى تقديرها لرجل العلم ورجل التعليم. ويلخص حسين فوزى كلمة باريس عنده، وعند كل رجل علم وفن وأدب أو فلسفة، بأنها باريس العلماء والفنانين والفلاسفة والمفكرين.



غير أن رؤية حسين فوزى لباريس على النحو الذى لا تجعله يميزها عن سائر البلدان، فهو يدرك أن لكل بلد متحضر ميراثه ومتاحفه ومكتباته وما تنطق به أبنيته من تاريخ وآثار من جمال، وهذه الرؤية هى التى جعلته يدرك مكانة عاصمة بلاده - مصر المحروسة- التى «يحق لها أن تتيه بما احتوته مبانيها من آثار الحضارات القديمة والحديثة» ورغم تراثها التالد من آثارها المصرية والفرعونية والقبطية والإسلامية، إلا أنه لم يثن عزمها عن ملاحقة الحضارة العصرية بجامعتها وأكاديميتها وقاعات المحاضرات والمسارح والمدارس والمكتبات، وهو ما يجعلها مهيأة لأن تصبح يوما «عاصمة من العواصم الكبرى فى العالم».

ولاتكتمل رؤيتنا لارتباط حسين فوزى بالحضارة والثقافة الغربية ومقوماتها: إلا بالتعرف على جانب مهم من تكوينه واهتماماته الثقافية والفنية وهو الموسيقى، والواقع أن الاهتمام الموسيقى عند حسين فوزى قد نشأ مع الاهتمام المبكر بممارسة الموسيقى، الأمر الذى أثار سخرية معارفه وأصدقائه، وقد كان طبيعيا أن يزداد ويتعمق ارتباطه بالموسيقى أو ما يسميها بـ «موسيقى





د. حسين فوزي



آن للسامع المصرى المثقف أن ينصرف عن فكرة الاستماع للطرب وحده إذا طمع فى تذوق الأعمال الموسيقية الكبرى





الحضارة، أو «الموسيقى العظمى»، مع عمق ارتباطه بالحضارة والثقافة الغربية، فعلى الرغم من معرفته واهتمامه المبكر بالموسيقى والموسيقيين المصريين من أمثال سلامة حجازى وكامل الخلعى وداود حسنى وسيد درويش ومعرفته لهم معرفة شخصية ورؤيته لهم «كقوى دفينة لو أتيح لها الأرض الصالحة لكانوا فخرا للإنسانية جمعاء» إلا أن فهمه واستيعابه للموسيقى بعد رحلته للغرب ذهب أبعد من الحدود التى وقفت عندها الموسيقى الشرقية أو ما يسميها «موسيقى الطرب»، وجعلته ينجذب إلى الموسيقى الأوروبية كما تطورت منذ القرن الثانى عشر الميلادى وعند أعلامها من أمثال باخ وهندل وهايدن وموزارت وبيتهوفن إلى شوبرت وشومان وبرامز وفاجنر وبرليوز. ولا يتناول حسين فوزى الموسيقى منعزلة عن الفنون الأخرى من أدب وتصوير وعمارة ولا عن فهمه للفن كجزء لا ينفصل عن كيان الأمة والعقل والشعور.

وقد ظل حسين فوزى على اقتناع بأنه قد آن للسامع المصرى المثقف أن ينصرف عن فكرة الاستماع للطرب وحده إذا طمع فى تذوق الأعمال الموسيقية الكبرى التى لم تعد وقفا على شعب متحضر دون الآخر، ولكنه كان يدرك أنه لاستيعاب هذه الموسيقى لابد أن يتهيأ له الاستعداد النفسى والثقافى الكامل لسماع سيمفونية لموزارت أو قداس لباخ.

لذلك لم يكن غريبا أن يكرس حسين فوزى جانبا كبيرا من وقته لتقديم الأعمال الموسيقية الكبرى وأعلامها للمستمع المصرى من خلال البرنامج الثانى فى الفترة من ١٩٥٧ من بدايته حتى عام ١٩٦٦، ثلاثمائة حديث عن أعمال تسعين من أعلام الموسيقى وعن كافة سيمفونيات بيتهوفن وشومان وبرامز وأهم سيمفونيات هايدن وموزارت وشوبرت ومندلسون وكونشرتات موزار وبيتهوفن وشومان وبارمز وجميع رباعيات بيتهوفن ومعظم رباعيات هايدن وموزار، وكان يفعل هذا باعتباره واجبا قوميا وهو تقريب موسيقى الحضارة إلى بنى قومه، وقد تصور أنه إذا استطاع أن ينفذ إلى وجدان فئة قليلة من المثقفين فسيكبرون على مدى السنين حتى يجىء اليوم الذى يدرك فيه الجمهور الواعى الفارق بين موسيقى الطرب وموسيقى الحضارة، وحينما يتمكن الجيل الطالع من الموسيقيين المصريين أن يضع اسم مصر فى قائمة الأمم التى ترعى الموسيقى الراقية فى الشرق والغرب[٢]، وكان يقوى هذا الاعتقاد فيه ما عبر عنه لفؤاد دوارة من أنه لايشك فى أن لدينا تراثا موسيقيا قيما وأن دراسة هذا التراث هى أهم ما يحض عليه، ومثل هذه الدراسة لابد أن تنتهى إلى أن هذه الموسيقى القديمة لاتزال حية فى الشعب، ولذلك فإن من المهم تسجيلها والاحتفاظ بها لكى تصبح بعد ذلك مصدر وحى ومادة أولية للموسيقى المتطورة التى تؤلف فى عصرنا على القواعد والصيغ والأشكال المتطورة[٣].

ومع افتتان حسين فوزى بالغرب وحضارته المعاصرة ومقوماتها ومظاهرها كما شاهدها وعاشها فى عواصمه الرئيسية، فإن من الطبيعى أن يبحث عن مصادر هذه الحضارة، وأصولها التى تطورت عليها منذ القرن الرابع عشر وازدهارها فى القرنين ١٥، ١٦ وفيما عرف بعصر النهضة أو الرينيسانس، وفى تتبعه لهذا العصر يحرص حسين فوزى أن يضعه فى سياق اهتماماته التاريخية واهتماماته بالحضارات المختلفة حيث يتوقف فيها عند ما يسميه «حقبات اليقظة» التى تدفع الإنسان فى مراقى الحضارة دفعا بالفكر والإحساس، وقد يحققها بالحرب أو بالسلام، بالعنف أو بالخير ...ولهذا كان ما يعنيه هو «يقظة الشعب» أيا كان مصدرها وروافدها وأسبابها يستوى فى هذا ما نقلته بالحروب الصليبية من الحضارة الإسلامية إلى الغرب، وما استفاده الشرق الأوسط منها، واكتسبه الغرب من الروم ومن العرب ومن الهند، وما نقلته الفتوح الإسلامية إلى صقلية وشبه جزيرة أيبيريا، إلى أوروبا أو ما خرج من شرور الغزو الفرنسى بقيادة نابليون.

فى هذا السياق يتوقف حسين فوزى لكى يتحدث عن حضارة الرينيسانس أو ما يوصف بعصر النهضة أو عصر الإحياء وهى الحضارة التى نشأت فى الدويلات الإيطالية فكانت نتاجا عجيبا من مسيحية العصر الوسيط ومن العودة إلى حضارة الإغريق وإحياء حضارة الرومان ومما استألفته من الحضارة الإسلامية، وفى تحليله لحضارة الرينيسانس ومقوماتها وأفكارها يركز على الفرد ونموه لأن عنوان هذه الحضارة كان «هو الانسان متفتح العقل والشخصية»، الذى يطرق مجالات المعرفة وما أنجزه فى الفكر والفن والعلم والأدب، ولأنه يدرس هذه الحضارة فى اتصالها بالحضارات الأخرى، فإن حضارة الرينيسانس تذكره بالحضارة العربية وهى فى أوجها، ويتجه فكره إلى شخصياتها وأعلامها مثل ابن رشد وابن سينا وابن الهيثم وابن خلدون، وكانت شخصيات موسوعية رغم تخصص الشخصية فى باب من أبواب المعرفة، إلا أن اتساع ذهنها وامتداد بصرها وصلها بشتى فنون المعرفة وآدابها، لذلك وجد حسين فوزى فى عصر الإحياء فى أوروبا ظاهرة حضارية تشبه ما حدث فى عصر ازدهار الحضارة العربية سواء فى عهد المأمون أو بعده فى حضارة الأندلس، وعلى هذا، فإذا كان عصر الرينيسانس يعنى «الميلاد من جديد» وما يمثله من انفتاح الإنسان على نفسه لتحليل ظواهرها وباطنها، وتشوقه إلى استطلاع الكون واكتشافه، إذا كان هذا هو جوهر عصر الإحياء، فإنه لا يقتصر على حضارة واحدة أو عصر واحد وإنما يشمل كل حضارة ازدهرت وتيقظ فيها الروح والعقل[٤].

غير أنه رغم حديثه عن حضارة الرينيسانس وقيمها ومبادئها، فإنه ينبه فى تحليله لها إلى أنها لم تكن «جنة أرضية» فهى لم تكن كذلك، حيث تميز الرينيسانس بمصاحبة الشر والخير، وجمع بين صدق الإيمان والعقيدة فى صورة الراهب «سافونا رولا»، وجرائم أسرة بورجيا السفاحة، فالرينيسانس كان بحرا من المتناقضات: من البساطة والتعقيد، ومن الطهارة وحب الجمال إلى الشهية المنحرفة.

ولكن ما الذى حققه عصر الرينيسانس وما الذى يمثله فى تقدير حسين فوزى؟، يلخص هذا فى اكتشاف العالم شرقا وغربا، وتحرير الفكر وإصلاح العقيدة، وهو العصر الذى شجع على استخلاص بعض اللغات الأوروبية من ربقة اللاتينية، واستطاع الرينيسانس التقدير بما نسميه اليوم التكنولوجيا حيث وهب الإنسان الغربى القدرة على الانفتاح والاكتشاف، وأن يستخرج من الحديد الزهر والصلب، وأن يخترع الأسلحة النارية ويضبط الوقت بمحركات دقيقة ونسخ الكتب بالمطابع. وهو العصر الذى أخرج أهل العصور الوسطى من الظلام إلى النور وخلص الفرد من ضغوط الجماعة وتفضيله تفتح الدين على الدنيا وما بها من جمال. غير أن هذا التفتح لايعنى اتهام عصر النهضة باللا دينية فما حدث أن المسيحية قد أحست بالحاجة إلى التجديد والتفتح على الحقائق اليومية فى يسر لا عسر لكى يشعر الناس بحق أجسادهم والإعجاب بالجمال الحسى فى شكل وصورة. ولكن ما يميز عصر الإحياء بحق هو تضاؤل نفوذ رجال الكنيسة الذين لم يعودوا يرهبون رعاياهم بأن إرادة المرء وذكاءه يؤديان به حتما إلى الخطيئة وهو ما أتاح ظهور قدرات الإنسان وإمكاناته، وانطلقت مواهب الرجال والنساء حرة فى كل مجال وأصبح الفرد يشعر بقوة وبأنه صانع قدره حر فى عقله وروحه لاتحكمه إلا «فضيلة «ايفرتو» وهى العبارة التى كانت تعنى فى هذا العصر الرجولة الحقة، فمن يملك الفضيلة يعرف بما يصنعه من داخله فى الفن والأدب، والسياسة وحسن استخدام ما يتاح له من فرص.

ويتساءل حسين فوزى عن من نهضوا بحركة الإحياء الأوروبى، وبنوا دعائمها، فى شتى مجالات الحياة والفكر والفن والثقافة؟ إنهم النخبة، غير أنه يجب التنبه إلى أن مفهوم النخبة لم يكن يعنى الأرستقراطية التى تقوم على الأصل والميلاد والبيئة الخاصة، فرجال عصر الإحياء لم يكونوا وفقا لهذه المعايير، وعلى العكس، فإن هذا العصر كان عصر «الجنتلمان» الذى يقوم على تميزه ووجوده على أساس من المواجهة الواسعة لشتى الأمور، وفى هذا الجو أصبح العلمانيون ليسوا أقل منزلة من رجال الدين ولا من الفرسان كما كان الحال فى العصور الوسطى.

ومثلما فعلت رحلة سلامة موسى من لندن حين قضى عشرين يوما فى طنجة عاد بعدها أكثر اعتقادا وإيمانا بالغرب وحضارته وأكثر ابتعادا عن الشرق وطراز ثقافته، كذلك فعلت رحلة حسين فوزى إلى الهند عام ١٩٣٨ حيث سجل بوضوح فى صدر كتابه الذى وصف فيه هذه الرحلة

«درجت على حب الغرب والإعجاب بحضارة الغرب، وقضيت أهم أدوار التكوين من عمره في أوروبا فتمكنت أواصر حبي، وتقوت دعائم إعجابي، فما ذهبت إلى الشرق وعدت إلى بلادي وقد استحال الحب والإعجاب إلى الإيمان بكل ما هو غربي»[٥]، غير أن هذه الخبرة إزاء المشرق لم تحجب إعجابه بغاندي وأمثاله من القادة الروحيين وبكل فكرة تطهر البشرية من الحماقة، ومع هذا فهو يفضل «وبلا تردد» حضارة كالحضارة اليونانية أو ربيبتها حضارة أوروبا بعد تخلصها من نير القرون الوسطى، لماذا؟ لأنها عند حسين فوزي حضارة وسط بين الروحية والمادية ولأنها حضارة تنادي بإطلاق العقل البشري من عقاله لتفكير غير مقيد فتشجع بفلسفة ودراسة الطبيعة في كل أطوارها وأوضاعها ولأنها «حضارة تقوم على الجمال وعبادة الجمال ولأنها تسعى إلى المساواة الاجتماعية وتهيئ للفرد في الجماعة سبيل المعرفة لتمكنه من أن يصبح عنصرا حيا في بناء العالم، يساهم في تقدمه وينعم بثمار هذا التقدم» كذلك فإن إعجابه بالحضارة الأوروبية لا يعني أنها بلغت المثل العليا ومع ذلك فإن إعجابه يتركز على ظاهرة واحدة في هذه الحضارة: التفكير الحر فهو «الصمام الدائم» الذي تملك به الحضارة إصلاح ذاتها بذاتها.

وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية وعبر قرنين من تاريخها قد صنعت حضارتها وخصائصها المتميزة والتي يمكن أن تجعلها في ذاتها حضارة متميزة، فإنها وفي نهاية الأمر، وبحكم الروافد البشرية والانتماءات الثقافية والدينية التي تكونت منها، تعتبر امتدادا للخصائص والمقومات الحضارية الأوروبية وبشكل أصبح من المتعارف عليه أن الولايات المتحدة هي جزء من «الحضارة الغربية» المعاصرة، بهذا المعنى يمكن أن نفهم ترحيب حسين فوزي حين دعي عام ١٩٧٤ لزيارة الولايات المتحدة والتي لابد قد ارتبطت عنده بأكثر ما يجذبه ويحترمه في الحضارة الغربية الأم: دور الأوبرا، المكتبات والمتاحف وحرية الفكر والعقيدة ومراكز العلم والبحث.

ويسجل حسين فوزي الإطار العام لما تركته فيه رحلته الامريكية عن الولايات المتحدة وحضارتها باعتبارها «مشكلا إنسانيا واجتماعيا» وهو في تسجيله لرحلته يحاول معالجة وتفسير هذا المشكل، وبداءة يقرر حسين فوزي أننا من غير شك حيال شعب عظيم حقا، منفسح الرؤية، هائل في إنجازاته المادية والأدبية والفنية والفكرية، ويؤيد أحكامه تلك بما قابله في جولاته الثقافية والعلمية والفنية بما تصدره أمريكا من كتب وموسوعات علمية ومسجلات أوركستراتها السيمفونية وما



وجد حسين فوزي في عصر الإحياء في أوروبا ظاهرة حضارية تشبه ما حدث في عصر ازدهار الحضارة العربية





شاهده في أوبرا المتروبوليتان، وقاعة كارينجي، وكذلك على المستوى الإنساني وانطباعاته من خلال ما لاقاه وعرفه من زملاء العلم والاجتماع، وصفاتهم الاجتماعية التي تمتاز بالود والصراحة مع بعض الاجتراء والاعتزاز بالنفس وما طبقته المغامرات في اتجاه الغرب الأمريكي من عنف وسرعة المبادرة والأثرة وحب التفوق على الآخرين[٦].

ويؤصل حسين فوزي للخصائص التي اكتسبها الشعب الأمريكي من خلال تجربته التاريخية ونموه الحديث، وتأثير الفضاء المتوحش بغاباته وصحاريه وجباله وأنهاره، واللقاء القاهر بين خليط الشعوب والأجناس وأثر ذلك في تعديل الثقافات والمؤسسات الموروثة بحيث جعل تحقيق الاتحاد الأمريكي أعظم التجارب طموحا والتي جمعت بين الخير والشر والعنف والروح العملية والمثالية بين الشعوب المهاجرة، ومثل هذا الخليط هو الذي أنتج الحرية الدينية والسماحة بين عناصره المختلفة والمساواة الاجتماعية والفرص الاقتصادية المتاحة والديمقراطية السياسية.

أما ما يتوقف عنده بوضوح بعد أن زار الجامعات ومعاملها وما تحتويه مكتباتها من مجلدات فهو التعليم الذي يعتبره نقطة البداية في التجربة الأمريكية و «أعجوبة من أعاجيب هذا الشعب الحديث».

غير أنه إلى جانب هذه الإنجازات هنالك وخاصة نتيجة الاندفاع في طريق الآلية وتطبيقاتها التكنولوجية، وما نشأ عن ذلك من مشكلات اجتماعية خاصة مجتمع الرفاهية، القائم على تضخم الصناعة والاستهلاك.

وفي خلوته مع نفسه خاصة بعد أن زار جامعة شيكاغو ليشهد افتتاح معرض توت عنخ آمون، اختلط لديه الشعور بالسعادة بما وصفه «بالحزن الكظيم» والذي نشأ من مقارنته لما رآه في تلك البلاد من ثراء ونشاط محموم ونظام وقدرة على استخدام الثروة بعد استجلابها بالجهد والعرق والكفاح من قاع الفقر، بما حدث في مصر والتي كانت في طريقها السليم في الحضارة العالمية.



في حواراته مع فؤاد دوارة، وردوده على من انتقدوه بأنه، فضلا عن ارتباطه العميق بالغرب وحضارته، مازرا بأصوله البعيدة التي ينتمي بها إلى الشركس والترك، فقد أثرت فيه وأقامت مسافة بينه وبين الشخصية المصرية في أبعادها الكاملة، ينفي حسين فوزي هذا النظر ويؤكد ارتباطه العميق بالبيئة المصرية ووسطه الاجتماعي وأنه رغم حياته الطويلة في الخارج وتأثره بالوسط الأوروبي الحضاري ذي النماذج الحضارية الرفيعة، ورغم زواجه من فرنسية من الطبقة البرجوازية العليا، فإن هذا كله لم يبعده عن وسطه وأصوله وحرصه على أن يعيش يومين في الأسبوع مع والدته وإخوته، بيئة قريبة من البيئة التي نشأ بها حيث نشأ على مقربة خطوات من باب سيدنا الحسين الذي تسمى باسمه..وحيث لا يتصور أن من قضى طفولته وشبابه حتى الخامسة والعشرين يمكن أن يتحول عن أصوله.

والواقع أننا نستطيع أن نصدق دفاع حسين فوزي عن نفسه، وتأكيده لانتمائه ليس فقط للبيئة التي نشأ فيها، وإنما لانتمائه بالمعنى الواسع لمصر ولشعبها وحبه لها وهو الانتماء والحب الذي جعله يتمنى أن يرى بلاده على نموذج التقدم والعلم والنظام الذي رآه وعايشه في الغرب، ونستطيع أن نلمس هذا حتى في أشد لحظات إعجابه وتسجيله لظاهر التقدم الحضاري الشامل في الغرب حيث يقذف هذا الإعجاب بتمنيه أن يتحقق هذا التقدم لبلاده وشعبه الذي يحزنه ما يعانيه، فهو منذ أن غاب عن بلاده عام ١٩٢٥ ولمدة خمسة أعوام عاش أثناءها مع أهل الغرب «بعقلية أوروبية وقلب مصري»، وخلال هذا ظل على إيمانه بوطنه وشعب بلاده «أومن بوطني وشعب بلادي، المؤلف من ملايين المحرومين من الصحة والتعليم ومن الرفاهية الجسمانية والعقلية».

ونستطيع أيضا أن نصدق حسين فوزي وعمق انتمائه لمصر وشعبها من اعتزازه الحار بالحضارة المصرية وتراثها والتاريخ المصري وهو الاعتزاز الذي جعله يخصص عملا فريدا ونعني به «سندباد مصري» والذي يتجلى فيه ارتباطه بتاريخ مصر والحياة المصرية منذ نشأتها وإحساسه بالوحدة الكامنة خلف الحضارات التي تعاقبت عليه وهي الوحدة المتماسكة التي جعلته يشعر بأنه «ابن أعرق الشعوب طرا» وفخره بأنه «واحد من آحاده»، وهو يرى أن معجزة الشعب المصري ليست في الحضارة التي وهبها للعالم فحسب وإنما في أن يظل الشعب حيا متمكن الشخصية لا يفنى في غزاته ومستقليه، وهو شعب زارع صانع حضارة سواء حكمه محب للعلم ذواقة للفن أو مغامر، «شعب يفرض الحضارة على حكامه فرضا»، ويؤكد حسين فوزي أن الشعب المصري بهذه الخصائص وهذا التماسك قد انتصر دائما على ظالميه ولو بعد حين، إذا لم يستطع حكامه أن يدلسوا عليه طويلا، بل هو الذي خدعهم في نفسه، وعاني ذلهم وظلمهم، ظل يحتفظ بنفسه مدى ستة آلاف سنة من خلال أعز ما يملك «وهو إنسانيته المتحضرة، وشخصيته المتكاملة، وعنده أن مصر لم تفن في غزاتها بل إن غزاتها هم الذين فنوا فيها، والفناء الذي يقصده هو فناء الشعوب الغازية في الشعب المصري وهضم التربة المصرية لكل الأجناس الغريبة. وهو لا يعتبر الحضارة المصرية ادعاء على غرار «تلك حضارتنا تدل علينا» بل إنه يقول بصراحة إن حضارة مصر القديمة ليست باقية فينا حتى اليوم «فهي غير باقية وانتهى الأمر...» ولكن ما يجب أن يهتم به المصريون هو أن يعيدوا هذه الحضارة إلى الحياة في نفوسهم بمحاولة فهمها ودراسة حكمتها وعلمها وفنها . جنبا إلى جنب مع دراسة الحضارة الغربية والأوروبية في حكمتها وعلمها وفنها . وهو

يكرر أن دراسة هذه الحضارة ليست من قبيل التفاخر أو الغطرسة أو «نحن أول من ...»، وإنما من قبيل أن يظل تاريخ الخمسة آلاف عام حيا فى نفوس المصريين وأن يظلوا على اتصال وجدانى بهذا التاريخ لأن التاريخ قوة هائلة على التنبيه والإحياء.

ولا يتحرج حسين فوزى من أن مصر قد عانت وذاقت حكم الأجنبى من ملل ونحل، وهى الوحيدة من بلاد الله التى كانت لخلق الله جميعا،وما يحميه من هذا الحرج هو أن مصر خرجت من هذه المحن محتفظة بشخصيتها وطبائعها مقبلة دائما على صناعتها الواحدة، صناعة الحضارة رغم كل شىء وتحت حكم كل إنسان وضد كل إنسان. وكما سبق أن لاحظنا أن حسين فوزى فى معايشته للحضارة الغربية وخاصة مقوماتها الثقافية والفنية واحترامها لرموزها، كان دائم التفكير والارتباط بأصول حضارته المصرية وتراثها وتمجيده لها. يبدو هذا بوضوح فيما يسجله عند زيارته المنتظمة لمتحف اللوفر فى باريس، وللأقسام المصرية فى متاحف لندن وبرلين، أنه كان فى موقع يبحث عن الروح الأول مصدر الحضارة المصرية التى عاشت منذ خمسين قرنا ثم ماتت ولكن الروح ظلت باقية تحت الثرى، وكان سؤاله الدائم هو: كيف يصل الماضى والحاضر، بين بناة حضارة من أروع حضارات الأرض، وبين بنى قومه الذين يترددون بين الشرق والغرب باحثين «عن أنفسهم فى كل مكان» إلا حيث هم حقا فى أرضهم الكريمة بيوت آبائهم الأقدمين وخلال هذه الجولات كان السؤال الذى يلح عليه باستمرار هو ماذا تبقى فى نفسه من أثر حضارة أجداده؟ وكان هذا السؤال.. يجعله يعود بمخيلته إلى عهد طفولته وأول زيارة للمتحف المصرى حين كان أول شعور له هو شعور الرهبة التى لم يكن مصدرها الخوف من المومياوات وإنما كان مصدرها الأسلوب وطريقة التعبير فى المعمار والنحت والرهبة أمام «العيون المزججة على غطاء التوابيت، والعيون المرسومة إلى جانب الكتابات العجيبة» وفى المتحف المصرى كان يحس «أصواتا رهيبة تخرج من أعماق هذه التوابيت وصور تلك التماثيل يأمرون بالوقوف أو الركوع أو السجود حيث أتيت».. مثل هذه الصورة وتمثل الشعب المصرى والحضارة التى صنعته، هى التى جعلته وهو فى قلب الحضارة الغربية ومظاهرها التى توحى بالانبهار، يفعل ما فعله يحيى حقى وهو يحتمى بهذا الرصيد الحضارى من أن تقتلعه أو تكتسحه أو تزيف من ذاكرته ووعيه أصوله الحضارية والثقافية، وهى التى جعلت حسين فوزى يستخلص بشكل حاسم «حضارة أجدادى حضارة كاملة ومن أقدم الحضارات عاشت قرونا



كان «عظيم المجد وعظيم الأخطاء» ويدرج أمجاده تحت بند الأدب والفن والإبداع، أما الأخطاء فهى بحور السياسة





وتركت آثارها فى باطن الأرض منذ ألف سنة، وأنا حريص على أن أحتفظ بهذا التراث من زر القميص ورباط الحذاء وإصبع القفاز إلى قدرة الفول ومومياء القردة والهرة كمستندات تاريخية ومعاهدات أنثولوجية إلى جانب أعمالهم الخالدة فى فن المثال المعمارى والكاتب والرسام» وكأنه يريد أن يطرد أى شعور بالدونية إزاء مظاهر الحضارة الغربية، فإنه يؤكد مكانة الفنان المصرى الذى «بلغ فى الخلق مبلغا يضعه إلى جانب أعظم الفنانين فى القرن الخامس قبل الميلاد وفى القرن الخامس عشر فى إيطاليا، وقد تنوع وتنقل بين العمل الرسمى والفن المنزلى. كما مر بعصور الرقة والأناقة حيث تجد فى أعماله ما يقربها إلى القرن الثامن عشر فى فرنسا وما يذكر بالفن الإيحائى فى أواخر القرن التاسع عشر».

وفى استشرافه لمداخل مصر إلى الحضارة الأوروبية كان عليه أن يسجل بداية تطور الفكر المصرى فى هذا الاتجاه وأن يرى هذه البداية وظاهرتها الكبرى فى الشيخ رفاعة الطهطاوى وأن يعتبره حقا باعث النهضة المصرية، فقد عاد رفاعة الطهطاوى إلى وطنه عام ١٨٣١ بعد احتكاكه ومراقبته للحضارة الغربية ونظمها زاخر النفس بمعادن جديدة متحفزا لإصلاح المجتمع المصرى ولتعليم الشعب وتنبيه أذهانه، ولكى يدرس وينشئ المدارس ويصنع روادا للجيل الصاعد، وراح يستعرض كتب الثقافة الغربية ويترجم وتخرج على يديه جيل من المترجمين يفعلون معه ومن بعده هذه الكنوز، ومضى يكتب ويخطب وينشر المجلدات والصحف ويبسط العلوم ويعالج شئون التربية والسياسة والاقتصاد ويحاول هدم الآراء الفاسدة ويبذر بذور التقدم. فرحلة رفاعة عند حسين فوزى كانت تحديدا أول اتصال روحى بالغرب وهو الاتصال الذى أخصب عقول أهل مصر وذلك عندما تفتحت عينا رفاعة على بلاد الإفرنج، وشعر الفتى الصعيدى بمكانه من الدنيا والتاريخ وأدرك روعة الدور الذى ينتظره فى بلاده بعد أوبته.

ولا يفصل حسين فوزى دور رفاعة الطهطاوى الرائد فى بعث النهضة المصرية عن دور البعثات العسكرية والهندسية والعلمية والطبية التى صاحبته وأعقبته. ورغم أن هدف محمد على من هذه البعثات كى يتعلموا حرفا ومهنا تصل بشئون الحرب إلا أنها تركت فى أعضائها أثرا عميقا ووضعت أقدامهم على أول درجات السلم الحضارى، ومثلما وهبت هذه البعثات مصر رفاعة الطهطاوى وهبتها أيضا على مبارك، ومحمود الفلكى ونخبة من الحكماء، وإلى هؤلاء وإلى «كتيبة الفلاحين الذين أوفدوا إلى فرنسا» فى القرن التاسع عشر ونتيجة تأثرهم العميق بما شاهدوه من آثار الحضارة الغربية، يرد حسين فوزى الفضل لما تعلمته مصر وحولها عن غفلتها.

فى ضوء هذا الخط الفكرى الثابت، الذى التزم به حسين فوزى من إيمان مطلق بالغرب وحضارته وبالعوامل والقوى التى كانت وراء نهضته وبالتالى دعوته لبنى قومه إلى تبنى هذا النموذج فى مجموعة وليس فى جانب واحد منه إلا إذا أرادوا النهوض والتقدم، فى ضوء هذا كان من المتوقع أن يتعرض حسين فوزى للنقد فيما يتعلق بالمدى الذى ذهب إليه فى إيمانه بالغرب والذى وصل، فى تقرير بعض النقاد «إلى حد الهوس» وفى تأثير هذا على عدد من توجهاته الفكرية والسياسية. وبداءة لا ينكر هذا النقد أو يشكك فى حب حسين فوزى لمصر فهو كما عبر الأستاذ رجاء النقاش «عاشق لمصر بكل ما تحتمله كلمة العشق من معنى فهو يحب مصر وتاريخها وشعبها وفنها حبا قائما على الفهم والتذوق والدراسة الواسعة، فمصر كانت دائما فى ذاكرة حسين فوزى كلما كتب حرفا». أما ما يؤخذ عليه فهو أن تأثره بالثقافة الغربية قد انعكس على لغته وجعلها تتسم بالبطء والصعوبة واستخدامه التعبيرات الأجنبية، كما كانت صلته بالثقافة الغربية فى مصادرها الكبرى ضعيفة وذلك بتأثير إيمانه وارتباطه بالثقافة الغربية، وبفعل هذا التأثير كان شديد التجاهل لانتماء مصر العربى مفضلا عليه الانتماء إلى حضارة مصر القديمة، وتحت تأثير اقتناعه المطلق بالحضارة الغربية لم يفرق بينها وبين التاريخ الغربى وممارساته وسياساته تجاه مصر والعرب.

ويعتبر رأى آخر أن حسين فوزى كان «عظيم المجد وعظيم الأخطاء» ويدرج أمجاده تحت بند الأدب والفن والإبداع، أما الأخطاء فهى بحور السياسة والتى يقف رمزا عليها زيارته لإسرائيل. والواقع أن زيارة حسين فوزى لإسرائيل نستطيع أن نراها إذا ما وضعت فى السياق العام لفكر حسين فوزى واعتقاداته الفكرية التى ترتكز على الإيمان بالحضارة الغربية ونماذجها وكل ما تمثله. فقد تصور حسين فوزى أن إسرائيل هى امتداد وتطبيق لهذا النموذج، وأن العلاقة معها إنما تتصل بما يدعو إليه من الأخذ والتعلم من الغرب وحضارته وأدواته. وقد تغلبت هنا نزعته العقلية وقناعاته الغربية على النزعة القومية والعاطفية، ومثلما فرق حسين فوزى بين الغرب كحضارة وكنموذج للتقدم، وبين الغرب وتاريخه وممارساته السياسية، كذلك لم يلتفت حسين فوزى إلى إسرائيل وبكل ما تمثله للعرب كمشروع استعمارى استيطانى عنصرى، له أصوله أيضا فى الحضارة الغربية الحديثة، وإنما اتجه إليها فيما تصوره عنها كنموذج للمجتمع الغربى المتقدم. ▩

الهوامش

(١) حسين فوزى «سندباد إلى الغرب»، دار المعارف. ط ثالثة ص ٢٨٢

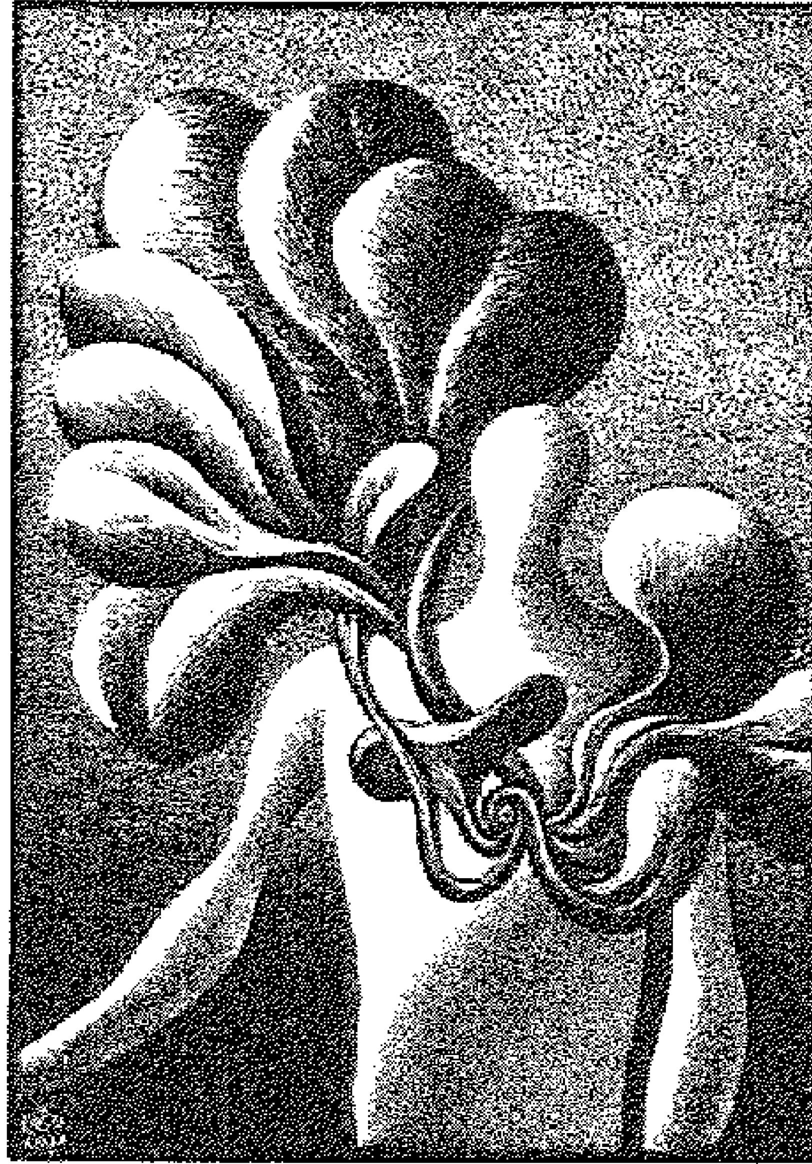
(٢) حسين فوزى «سندباد فى رحلة الحياة»، دار المعارف/ اقرا عدد ٣٠٦ يونيو ١٩٦٨.

(٣) فؤاد دوارة «عشرة أدباء يتحدثون»، ص ١٠٣، وراجع أيضا عبد الحميد توفيق زكى «د. حسين فوزى ومسيره» مجلة القاهرة عدد ٨٩. ١٩٨٨.

(٤) حسين فوزى «تأملات فى عصر الرينيسانس» دار المعارف ص ٦-١١.

(٥) حسين فوزى «سندباد مصرى، جولات فى المحيط الهندى»، مطبعة الاعتماد فى القاهرة ١٩٣٨.

(٦) حسين فوزى «سندباد إلى العالم الجديد» دار المعارف ص ٥-٦.



«الشفاعة» فهم آخر

محمد راتب النابلسي

.....

الأشياء وتر، وشفع.. الوتر منفرد.. الشفع مزدوج معنى الشفاعة لا يلتقى اثنان.. لا يلتقى اثنان.. لا يتنافسان.. اثنان لا يؤذى واحد الآخر.. أى حركة نحو الآخر إيجابية أو سلبية نوع من الشفاعة.

لذلك الآية الأصل فى هذا الموضوع قول الله -عزوجل- ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾..

آية الكرسي، وهي أعظم آيات القرآن.. ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ يعنى لا مسير فى الكون إلا هو.. لا معطي، ولا مانع، ولا خافض، ولا رافع، ولا معز، ولا مذل هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ عنده فى ملكه.. يعنى فى ملك الله فى السماوات والأرض.. فى الكون لا يمكن أن يتصل كائن بكائن.. أن ينفع كائن كائنا.. أن يؤذى كائنا ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ هذه الآية تعد أصلا فى قانون الشفاعة.. فكل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

...

كلنا يعلم أن لله أمرا تكليفيا، وأن لله أمرا تكوينيا.. فالأمر التكويني ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ هذه الآية دقيقة جدا.. التى يمكن أن تنفى الحقد، والألم، والألم الشديد كل وقع أراده الله؛ لأنه لا يليق أن يقع فى ملكه ما لا يريد، ولا معنى أنه أراد أنه أمر أو رضي.. لكن سمح فقط لحكمة بالغة دامغة عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كأمر تكويني ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾.

أما كأمر تكليفي متى يسمح لى أن أشفع لإنسان؟ متى يسمح لى أن ألتقى مع إنسان؟ متى يسمح لى أن أتعامل مع إنسان؟

هنا موضوع قانون الشفاعة كأمر تكليفي.

أما كأمر تكويني كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

...

الآية الأولى فى الأمر التكليفي ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ يعنى أنت وفقت بين زوجين ثمار هذا الزواج فى صحيفتك.. عمل صالح.. وفقت بين شريكين، أن تدل إنسانا على طريق الهدي، أى علاقة مع الآخر من دون استثناء للذى سبب هذه العلاقة الإيجابية أجر عند الله كبير.

ولذلك يقول النبى -عليه الصلاة والسلام- مخاطبا الإمام على (رضى الله عنه) «يا على لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس.. خير لك من حمر النعم.. خير لك من الدنيا وما فيها» يعنى وفقت بين اثنين.. دللت إنسانا على خير الدال على الخير كفاعله.. حذرت إنسانا من شر فابتعد عن هذا الشر.. وفقت بين زوجين.. دللت إنسانا على زوجة صالحة مؤمنة طاهرة.

فهذا الزواج المبارك الميمون كل نتائجه الإيجابية فى صحيفة هذا الذى كان سبب هذا الزواج.

لذلك أفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين فى نكاح.. أفضل شفاعة أن توفق بين أم وولدها.. بين أخ وأخيه.. بين شريك وشريكه.. بين مسلم ومسلم.. هذه أفضل شفاعة كأمر تكليفي، ولكن بالمقابل هناك إيجابيات، وهناك سلبيات، ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أى يتحمل إثما.. دللت إنسانا على معصية فانغمس بها، ومات عاصياً لله.. بعيدا عن ربه.. استحق عذاب النار.. فهذا الذى دله على هذه المعصية.. سبب شقاء كبير.

لذلك ماذا فعل نوبل الذى اخترع البارود؟ جعل كل ثروته من أجل عمل إنساني؛ لأنه أدرك أن هذا البارود سوف يسبب للبشرية متاعب لا تنتهي.

لذلك ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾

...

قضية الشفاعة قضية هامة جدا.. فالمؤمن لحرصه على طاعة الله، ولحبه للخير، ولحرصه الذى لا حدود له على خير البشرية لا يقبل أن يكون سببا لحصول مشكلة.. ولا يقبل أن يبنى مجده على أنقاض الآخرين.. ولا يقبل أن يبنى حياته على موتهم.. وعزه على ذلهم.. وأمنه على خوفهم.. وغناه على فقرهم.. كل شفاعاته حسنة.. لا يدل إلا على الخير لا على الشر.

لذلك مثلا إذا أفسد إنسان فتاة فكل أخطائها، وكل مستقبلها المظلم فى صحيفة الذى أفسدها.. أن الله -عز وجل- يحاسب كل إنسان عن آثار عمله، وهذا فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

إذاً الأمر التكليفي المهم فى موضوع الشفاعة أن هناك شفاعة حسنة لمن سببها، ولمن كان وسيطا بها.. هذا له نصيب منها.. له نصيب من الأجر.

هى إذن حقيقة بالدين رائعة.. هذه تجارة مع الله.. أى عمل صالح دللت الناس عليه أو روجته فى المجتمع. بمعنى أن أى عمل خيري: دار أيتام أو مأوى للعجزة. أو جمعية خيرية. أو أى عمل تقوم به ينطوى على شفاعة بين اثنين فى صحيفتك إلى أبد الآبدين، وهذا من فضل الله - عز وجل- ومن كرمه. هذه الشفاعة الحسنة لصاحبها نصيب منها.. لكن على الناحية الأخرى أن كل عمل سيئ، وإن كل إضرار بالناس، وأن كل ترويج لمعصية، وأن كل زواج بنى على الفساد، وأن كل كسب غير مشروع، وأن كل ضلالة راجت بين الناس، فكل الآثار السلبية التى نتجت عن هذا الترويج، وعن هذه الدلالة فى صحيفة من سببها، ومن دل عليها إلى يوم القيامة. وتلك هى الشفاعة السيئة.

يقول الله -عز وجل-: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الكلمة الطيبة تطير فى الهواء.. تطير فى الآفاق.. قد ينتفع بها أناس كثيرون، والكلمة الخبيثة بالمقابل أيضا تطير فى الهواء.. الضلالات تنتشر عبر وسائل الإعلام.. الضلالات تنتشر عبر المطبوعات.. عبر المقابلات.. عبر الندوات.. كل من روج هذه الضلالات، وأشاعها بين الناس فانعكست فسادا، وانحرافا، ومعصية، أصحابها هم مسئولون عن أعمالهم، وعن نتائج أعمالهم، وهذا تؤكده الآية الكريمة ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

خطوة إلى الأمام.. خطوتان نحو الوراء

نذير جزماتي

■■ لم تسر المجتمعات البشرية مجتمعة فى خط مستقيم واحد نحو الأمام، بل إن الذى حدث أن بعض المجتمعات تقدمت إلى الأمام فى الوقت الذى تراجعت بعض المجتمعات إلى الوراء، وبقى بعضها الآخر يراوح فى مكانه. ولعبت الحروب التى تهدف إلى استيلاء المهاجمين على إنجازات قوم أو أقوام آخرين، دوراً فى تعريف هذا أو ذاك على اكتشافات أو اختراعات الطرف الآخر. وبقيت أقوام فى حالة تخلف شديد بسبب العوائق الطبيعية كالجبال العالية أو الأنهار أو البحار أو الصحارى التى وقفت سداً منيعاً فى وجه الحضارة التى بلغها الآخرون هنا وهناك، مثل مجموعات هندية أمريكية فى أمريكا الوسطى كقبائل اللينكا والبايا وغيرها التى كانت فى مرحلة المشاعية البدائية عندما اكتشف الهوندوراس عام ١٦٠٢، وكانت تعيش بالقرب منها حضارة المايا التى بلغت فى مدينة كوبان الحالية أوج مجدها. ولازالت توجد مجتمعات مشاعية بدائية حتى اليوم فى حوض الأمازون فى البرازيل.

ومع أن البرجوازية جرّت وتجر «إلى تيار المدنية كل الأمم»، حتى أشدها همجية، تبعاً لسرعة تحسين جميع أدوات الإنتاج، وتسهيل وسائل المواصلات إلى ما لا حد له، حسب ما ورد فى «بيان الحزب الشيوعي» لكارل ماركس وفردريك إنجلز فى الفصل الأول بعنوان «البرجوازيون والبروليتاريون»، ومع أن «رخص منتجاتها هو فى يدها بمثابة مدفعية ضخمة تقتحم وتخرق كل ما هنالك من أسوار صينية». حسب ما ورد فى المصدر نفسه، فقد بقيت أقوام هنا وأقوام هناك متأخرة ومتخلفة عن غيرها، فى الوقت الذى أحرزت شعوب غيرها تقدماً كبيراً تم التعبير عنه أحياناً بتمتع هذه الأمة أو تلك بعهدها الذهبى وعلى سبيل المثال أقيمت أنظمة اشتراكية أو شبه اشتراكية فى الصين القديمة ومصر القديمة وروما القديمة أيام ديقلديانوس. وطرحت أفكار اشتراكية رفيعة الطراز فى بلاد اليونان من قبل فيثاغورس، ومن قبل سقراط على لسان أفلاطون، وفى الصين على لسان كونفوشيوس ومودى من بعده. وقدم لنا أرسطوفان فى مسرحية الأكلزيازوييسى Ecclesiazusae عام ٣٩٢ ق. م السيدة براكساغورا التى ألقت خطبة قالت فيها: «أريد أن يكون لكل الناس نصيب فى كل شيء، وأن يكون المُلك مشاعاً، فلن يكون بعد اليوم أغنياء أو فقراء، ولن نرى بعد الآن رجلاً واحداً يجنى محصول مساحات واسعة من الأرض وإلى جانبه رجل آخر لا يجد منها ما يتسع لدفنه.. وسأعمل على ألا يكون فى الحياة إلا ظروف واحدة يشترك فيها جميع الناس على السواء.. وسأبدأ بأن أجعل الأرض والماء وكل ما هو ملك خاص مشاعاً بين الناس أجمعين.. وستكون النساء ملكاً مشتركاً للرجال»[1].



وبعد أن انتقلت البشرية كلها تقريباً من المشاعية البدائية إلى عهد الرق إلى النظام الإقطاعي، عادت فى بعض بقاع الدنيا إلى عهد الرق بعد اكتشاف القارة الأمريكية وبروز الحاجة الشديدة إلى الأيدى العاملة التى استحضرت من أفريقيا. وقد ابتلعت ملايين الناس من العرق الأفريقى زراعة جزر الهند الغربية التى هى مهد لثروات أسطورية على مدار عدة قرون، حسب ما كتب كارل ماركس فى «رأس المال»[2]. وجزر الهند الغربية الواقعة فى البحر الكاريبى لا تشكل، كما هو معروف، واحدا من ألف من القارة الأمريكية..

وعندما خفت الحاجة إلى هذا الرقيق، صدرت القوانين بمنعه من قبل الدول الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا العظمى صاحبة الإمبراطورية التى لم تكن تغيب عنها الشمس. ومع ذلك بقيت بقعة هنا وبقعة هناك يمارس فيها استرقاق البشر مثل موريتانيا التى لم يمض عام على منع الاسترقاق فيها رسميا. وكتب الأستاذ محمد إبراهيم نقد عن فترة العودة إلى عهد الرق فى كتابه بعنوان «علاقات الرق فى المجتمع السوداني»[3].

ومثلما كانت مرحلة عودة مرحلة الرق مؤقتة وناشزة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وصدرت قوانين منعه بدءاً من القرن الثامن عشر، فقد كانت «ثورة أكتوبر الاشتراكية» فى عام ١٩١٧ فى غير زمانها وفى غير مكانها. وسبق لكل من كارل ماركس وفريدريك إنجلز أن كتبا فى هذا الصدد: «إن الشرط الأول لنجاح الثورة الشيوعية هو تطور المنظومة الرأسمالية التام الشامل، الذى سيتيح للبروليتاريين أن يتملكوا جملة قوى الإنتاج الواصلة إلى أعلى درجات تطورها وأن يصيروا بتطبيقها رجالاً كليين، وأن يعطوا الشيوعية طابعاً كليا - كونيا يستجيب للطابع الذى اتخذته الرأسمالية.

«فطالما لم يتطور الإنتاج الرأسمالى حتى النقطة التى يصير فيها التزاحم نافلاً، سيكون بالنسبة للبروليتاريا، اضطلاعاً بمهمة مستحيلة أن تريد استبدال المنظومة الرأسمالية بمنظومة اشتراكية. فإذا ما نشبت الثورة الشيوعية قبل تمام تطور النظام الرأسمالي، لن يكون لها سوى طابع محلى محدود، وتنتهى إلى فشل محتوم. وبما أن منظومة الإنتاج الرأسمالى ستواصل نموها وتطورها، وبما أن الرأسمالية ستزاحم البلد الشيوعى مزاحمة منتصرة، فإن هذا

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من «آراء»، وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أنها مثلها مثل المقالات ذاتها لاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة تحريرها

البلد سيغرق في البؤس، الأمر الذي ستكون عاقبته دمار الشيوعية والرجوع إلى وضع الأشياء القديم»[4].

وإذا كان ما يسمى مرحلة «بناء الاشتراكية» في الاتحاد السوفيتي وفي باقي بلدان «المعسكر الاشتراكي» في أوروبا الشرقية، وغير أوروبا الشرقية في آسيا وأمريكا، خروجاً عن الخط العام لحركة تقدم البشرية، وقفزة إلى المجهول، وتمت العودة بأقل الخسائر الممكنة إلى المكان الطبيعي الذي ينبغي أن تشغله روسيا وغير روسيا، فإن كثيراً من الأمور بحاجة إلى إعادة النظر فيها، بدءاً من الحزب وطبيعته، وانتهاء بالثورة وطبيعتها وقواها المحركة وضرورتها... إلخ.. وإذا كان الأمر كذلك فإن المهام المرتبطة بإقامة الحزب المذكور وإعداده... إلخ.. موكولة بالدرجة الأولى والأخيرة إلى بروليتاريا البلدان الثمانية المتقدمة صناعيا وتكنولوجيا وفي طليعتها الولايات المتحدة الأمريكية، وإلى بورجوازييها الذين يخونون طبقتهم ويلتحقون بالبروليتاريا مثلما فعل الثوريون بدءاً من ماركس وليس انتهاء بتروتسكي.

والمطلوب من الشيوعيين في بلدان العالم أن يدركوا بأن الاشتراكية أو الشيوعية لا يمكن أن تختصر الطريق إلى بلدانهم قبل أن تنتصر البروليتاريا في البلدان المتقدمة صناعيا وتكنولوجيا وعلى رأسها البلدان الثمانية المذكورة، وتقدم البروليتاريا المنتصرة في تلك البلدان المساعدة للبلدان المتخلفة للحاق بركب البشرية المتقدم، من دون فرض السعادة على أحد حسب قول فريدريك إنجلز. وإذا أردنا أن نساعد في تحقيق المهام ذات الطبيعة الاشتراكية أو الشيوعية، فإن ذلك يتحقق بتقديم ما يمكن تقديمه للبروليتاريا ولأحزابها في البلدان الرأسمالية المشار إليها، حسب ما طلب لينين من «صان يات صن» وحزبه أن يفعلا. وكان الرجل قد اقترح في بدء العقد الثاني من القرن العشرين شراء الآلات من أمريكا وبناء الاشتراكية في الصين.

أما متابعتنا السير وفق الطريق الذي كان متبعاً أيام وجود الاتحاد السوفيتي، فإن أقل ما يقال فيه أنه شكل من أشكال الجمود العقائدي إن لم نقل إنه كسل وخمول وبلادة ذهنية. فلقد كان هدفنا قبل حدوث ما حدث أن نعد أحزابنا وشعوبنا لاستلام السلطة وبناء الاشتراكية بقوة المساعدات من المعسكر الاشتراكي وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي. أما اليوم فقد تغير كل شيء، ومع ذلك لازلنا نسير على نفس الطريق دون أدنى تغيير.. ويشكل ذلك أحد الأسباب الرئيسية لابتعاد الرفاق والأصدقاء عنا.. وبالتالي، هل الشيوعية دين ونحن رجال دين لا نغير ولا نبدل شيئاً.. وإلا اتهمنا بالكفر والهرطقة؟

وإذا نحينا جانباً المفهوم الفلسفي للجديد الذي لا يلبث أن يتقادم ويصبح قديماً، فإن ماركس وإنجلز كتبا في مقدمة الطبعة الألمانية لـ «بيان الحزب الشيوعي» أي بعد خمس وعشرين سنة على صدوره عام ١٨٤٨ أن هذا البرنامج قد شاخ في بعض نقاطه، نظراً للرقي العظيم في الصناعة الكبرى خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة وما رافق هذا الرقي من تقدم الطبقة العاملة في تنظيمها الحزبي، ونظراً للتجارب الواقعية التي تركتها ثورة شباط/ فبراير أولاً، ثم على الخصوص كومونة باريس حين كانت السلطة السياسية لأول مرة بين أيدي البروليتاريا لمدة شهرين.

وكتب إنجلز في مقدمة الطبعة الإنجليزية للبيان المذكور في عام ١٨٨٨ «أن «البيان» نفسه يوضح أن تطبيق هذه المبادئ يتعلق دائماً وفي كل مكان بالظروف والأوضاع التاريخية في وقت معين، فلا تعلق أهمية قائمة بذاتها على التدابير الثورية المذكورة في نهاية الفصل الثاني». وإذا كان الأمر كذلك، فإن كل ما كتب من قبل ماركس وإنجلز ولينين وغيرهم بحاجة إلى مراجعة بعين ناقدة ومجددة وإلا عفا عليها الزمن بعد أن تحولت في فترة معينة إلى كتب مقدسة.. ويجب ألا يغيب عن البال أن الانتقال من تشكيلة اقتصادية اجتماعية إلى أخرى قد تم من دون أية توصيات أو تعليمات، بل بقوة تقدم القوى المنتجة ومن ضمنها العقول الجبارة هنا وهناك. والماركسية ـ اللينينية تلعب دوراً مماثلاً في زمن أحرزت قوى الإنتاج تقدماً كبيراً جداً.

ومن جهة أخرى، فإن قيام الأحزاب السياسية نفسه مرتبط بمرحلة معينة من حياة البشرية. أي مرحلة الرأسمالية.

أما الأحزاب التي قامت قبلئذ فلم تستطع أن تخرج من دائرة المذاهب أو الطوائف في مرحلة الإقطاع، أو على الأقل في مرحلة سيادة العلاقات السابقة على الرأسمالية مثل العلاقات القبلية والعشائرية والعائلية الكبيرة... إلخ. التي يسميها القوميون العرب المرحلة ما قبل الوطنية.. وسادت هذه العلاقات في المؤسسات السياسية الحزبية وغير الحزبية..

وإذا كانت مهمة بناء الاشتراكية ليست مطروحة على جدول أعمالنا إلى أمد طويل باعتبارنا لسنا من مواطني أحد البلدان الثمانية على أقل تقدير، فيجب البحث عن برنامج سياسي يتفق ومستوى التطور الذي بلغته بلادنا، والمهام المطروحة للارتقاء بمستوى التطور المذكور إلى درجة أعلى، ومحاربة العودة إلى الوراء التي جرت في أكثر من ظرف، وفي أكثر من مجال، ومحاربة المراوحة في المكان.

وفي المقابل، لم يكن كل ما كتبه فوكوياما نافلاً، إن كان في مقاله أو في كتابه عن «نهاية التاريخ» معتبراً أن هزيمة الاتحاد السوفيتي وأيديولوجيته الماركسية تفتح الباب واسعاً أمام الرأسمالية، لتصبح هي «دين الإنسانية» إلى أبد الآبدين. وبهذا يلتقي، ولو جزئيا، مع ماركس وإنجلز في الاستشهاد الذي ذكرته قبل قليل. ويتضمن هذا الرأي أفكاراً علمية دقيقة للينين وردت في كتاب «خطتا الاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطية» عام ١٩٠٦ مثل مطالبته بفتح أبواب ونوافذ روسيا على مصاريعها لدخول النظام الرأسمالي العالمي، لأنه لا سبيل إلى الاشتراكية إلا من خلال النظام الرأسمالي، وليس بتجاهله أو بتجاوزه حسب ما كان يطرح الشعبيون. وما كان صحيحاً ودقيقاً بالنسبة إلى روسيا في أوائل القرن العشرين، لازال صحيحاً بالنسبة للبلدان المتخلفة (النامية) ومن ضمنها بلادنا. ■



لم يكن كل ما كتبه فوكوياما نافلاً، إن كان في مقاله أو في كتابه عن «نهاية التاريخ»



هوامش:

(١) نذير جزماتي، الاشتراكية والشيوعية من ٥٠٠ ق. م إلى ما قبل ماركس، دار الكنوز الأدبية، بيروت ٢٠٠٠، ص ١٧ .

(٢) كارل ماركس، رأس المال، م١ ، ك ١ ، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٥، ص ٣٨٣ .

(٣) محمد إبراهيم نقد، علاقات الرق في المجتمع السوداني، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٩٥ .

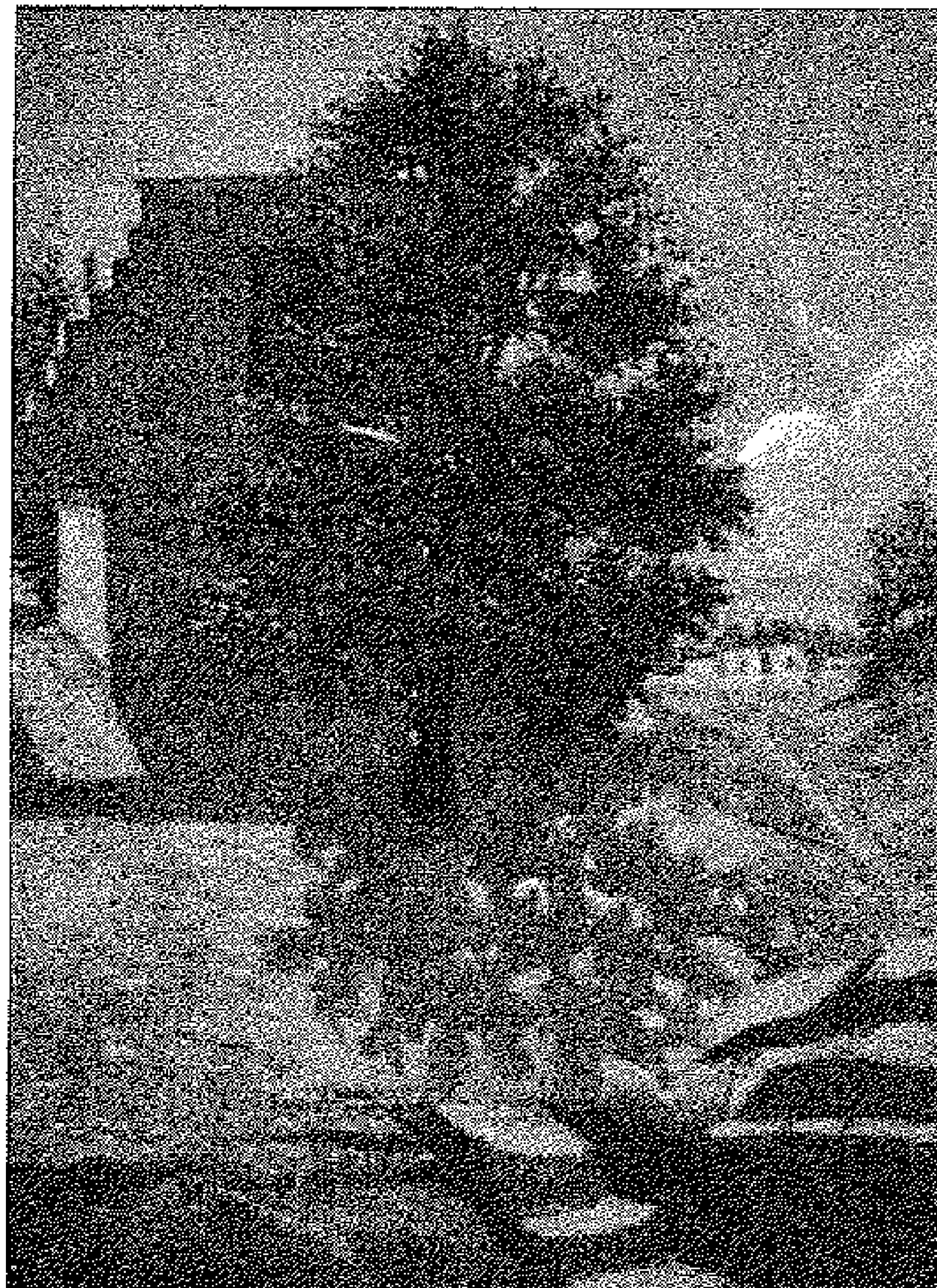
(٤) أوغست كورنو، ماركس وإنجلز، حياتهما وأعمالهما الفكرية، دار الحقيقة، بيروت ١٩٧٤، م ٣، ص ١٩٧ .

أمـجـد محـمـد سـعـيـد

هل شممت رائحة التبغ الطازج.. أو رائحة الزيتون؟ هل تعرف قرى الشام واللاذقية..؟ إذن لا بد أنك قرأت «حكايات من قرية سَرَبْيون» ثلاثية سهيل خليل: الأديب السوري الذي غيّبه الموت قبل أسابيع عن أربعة وستين عاما، حرص - رغم إغواء العاصمة - أن يقضى ربع القرن الأخير منها قريبا من قريته «سربيون» التى عشقها و«عاشها».. ثم أذاب هذا العشق وهذا «العيش» حبرا فى ثلاثيته.

المحرر

حكايات من «سربيون»



■ تنعقد أواصر القربى، بين الكائن والمكان، وتتفتح كل صباح، نافذة جديدة، من ذاكرة مليئة بالأحداث والصور والشخصيات، لتنسج الخيوط غير المرئية، بين حركة الإنسان وخطواته، وبين نمو خفى فى شكل المكان، وتأثيثه، بين تاريخية الوقت، وبين جغرافية القلب والذاكرة.

إنها علاقة جدلية تتأسس لا شعوريا، يوما بعد يوم، وساعة إثر ساعة، بينما ينحت فنان مجهول، مستتر فى أعماق النفس، ليجعل الفضاءات اللا نهائية، نيرانا تشتعل فى وعى الكائن، ويتحول إلى سيزيف: يحمل (مكانه) أينما حل وارتحل.

وحين يبدأ التطابق والتنافر، بين الكائن والمكان، مثل إشكالية العمق اللا محدود، لحب أسطورى بين عاشق وعاشقة، تتفجر بين لحظة وأخرى، عناصر التآلف والتباعد: عناصر الوثوق والشك، للواحد بالآخر، فى حركة لا نهائية، ولا فكاك منها، إلا بانتهاء أحدهما، والغياب القسرى للآخر.

المكان لدى مؤلف (حكايات من قرية سربيون) السورى سهيل خليل، هو ذلك القيد الذهبى الجميل، الذى تلقاه غير مختار، وهو الحتمية التاريخية لتكوين إنسان، يسمع نداءات البيت الأول، والدرب الأول، والشجرة الأولى، والنبع الأول، والصداقات الأولى، يشعر بدفء النار الأولى، والكأس الأولى.. فهل هو يحكى حكاياته، عن الكائن نفسه، أم أنه يسرد قصص المكان ؟ وهل هو حين يستعيد فلانا، يتذكر الحدث، أم صورة الحدث وإطاره، أم إشكالياته؟، إنها علاقات متشابكة، تشكل فى النهاية، إمكانية محتملة تستوعبها اللغة الأدبية، لتقدم الماضى على شكل دمعة حارة، أو بصورة نداء مأساوي، أو عبر سخرية مرة حزينة سوداء.

ضمن هذا التصور، فإن اللغة ستكون الحقل المغناطيسي، لكى تفجر العلاقة بين الكائن والمكان، وهل يمكن أن تعبر اللغة عن حالة خاصة بالمؤلف، إذا لم تكن اللغة هذه، تعرف أنها تعبر عنه بالذات، وليس عن أى شخص آخر.

وإذا كان هناك من يأخذ قصة (موت المؤلف) على محمل الجد، فكيف ستفرق اللغة بين المؤلف، أو الكاتب نفسه، وبين الشخص الآخر، الذى يعيش هو الآخر، فى بيت قريب، فى القرية نفسها، سربيون، على جبال اللاذقية.

ستكون الإضافة هى التجربة الإنسانية بالطبع، وإذن، هى هذا الخليط العجيب، بين الكائن الإنساني، وبين الطبيعة، وبين اللغة، ولكل (خلطة) نتاج، وطعم، ورائحة، ولون، وإلا لكنا أصبحنا جميعا، ماء نبع يجري، بلا ذاكرة إلى موج البحر الشاسع.

والآن، إذ أقترب أكثر من نصوص (حكايات من قرية سربيون)، فى جزئها الثاني، أستطيع أن أقول إنها تجربة سهيل خليل الفريدة مع المكان، ولكنها ليست الفرادة نفسها، لتجربة آخرين مع المكان نفسه، ممن يعيشون فى قريته، لو تصادف أن كتب أحدهم عن القرية ذاتها، إنها تجربته هو، وإنها لجميلة حقا، إذ استطاع أن يحقق إنجازه الإبداعى المختلف، بعيدا عن نمطية الأشكال الأدبية المعروفة، وقريبا من رائحة أصابعه ذاتها، تلك التى تحسست بدايات انبثاقه من رحم المكان، الذى إن لم يكن قد أنجبه كطفل، فى قرية سربيون، لكان أنجبه كغصن شجرة زيتون، أو عشبة على حافات الطريق الجبلى، المؤدى إلى بيته، أو ربما كطير اصطاده أحد أصدقائه، يوما ما، واستمتع بشيه، وأكله، على مائدة شراب.

وإذا كان التراب فى قرية سربيون هو الأصل فيها، كما فى أية بقعة من العالم، فإن كل تلك الأجيال التى جاءت، وذهبت، إنما هى نتاج هذه الأرض، وسنعرف مشروعية أن يوصى أحدهم، بدفنه جنب أمه أو أبيه، أو فى قريته، أو مدينته، أو وطنه، ذلك أن التراب الذى تكون منه الدماغ، هو



الموحى بالوصية. وهو إن لم يتحدث باللغة الصوتية، فإنه يتحدث بلغة أخرى، ذات استشعار، عن قرب شديد، إنها الكتابة على رقيم من دم وجينات.

لكل عمل أدبي، عالمه، ولكل كاتب، أسلوبه، والعمل الأدبي يستحضر وسائل التعبير عن نفسه، وكذلك وسائل التعامل معه نقديا، والتعرف على ملامحه وأبعاده، ومقترباته. فكتاب سهيل خليل، الذي يضم عشرات الحكايات، التي تذكرها عن حياة قريته، وسكانها، وطبيعتها، وعن علاقته بكل ذلك المحيط، أو التي استنبطها عبر كيميائية العلاقة، والمزاوجة بين الحقيقة والتوقع، بين الممكن والخيال، تمثل لنا شكلا خاصا، حرا، من الكتابة القصصية أو الذكريات الشخصية، أو ما يقترب من المقال الصحفي، ولكنه في كل الأحوال يخلق لنفسه، وسطا إبداعيا ينمو فيه، ويؤكد حضوره الفني، ويؤطر تجربته الإنسانية، التي سيخرج كل قارئ لها، بانطباع مختلف عن الآخر، فالنص هو نص القارئ، مثلما هو نص الكاتب، والقارئ الذي يطلع على طبيعة شخصية المؤلف، هو غير القارئ الذي يجهل حتى موقع القرية، لكن العمل الأدبي الناجح هو الذي يترك أثره لدى كل هؤلاء.

نعود إلى الحكايات نفسها، إذ إن لها مواصفات عامة، تجمعها، وهي، تكاد تكون مكشوفة وواضحة، فغالبيتها العظمى قصيرة مكثفة، مبتعدة عن الإسهاب، والتطويل، والاستطراد، وتدخل إلى موضوعها دخولا مباشرا وسريعا، وقد استفاد الكاتب من تكنيكه هذا، في تكثيف الحكايات، بإلباس الحكاية نمطا سرديا، يقفز على الوصف غير الضروري، وباستكمال توظيف المشهد، وتحقيق أكبر قدر من الانشداد، يصل إلى نهايته، بضربة تحمل المدلول المعين، الذي يعبر عن حكمة أو سخرية أو احتجاج أو اقتراح أو موقف وما أشبه، من الأمثولات التي يرغب الكاتب، في إيصالها إلى المتلقي.

أما لغة الكاتب فقد كانت مزيجا من اللغة اليومية المباشرة أو الصحفية، ومن اللغة الأدبية الزاخرة بالاستعارات والكنايات والمحسنات اللفظية، ولغته الفصحى لغة راقية حيث باعه الطويل في ممارستها صحفيا وإذاعيا، وقد استخدم الكاتب جملا ومفردات شعبية وأمثلة دارجة، وقد اعتمد وسائل أخرى لتجسيد فكرته، مثل الحوار والاسترجاع، والاستشهاد بأقوال الآخرين.

وتبدو شخصية الراوي واضحة في هذه الحكايات، فهو يخاطب القارئ، أو يتحدث عن نفسه، والحكايات توشك أن تكون لقطات تذكارية للمؤلف، تشكل بمجموعها لوحة بانورامية تجسد المشهد برمته.

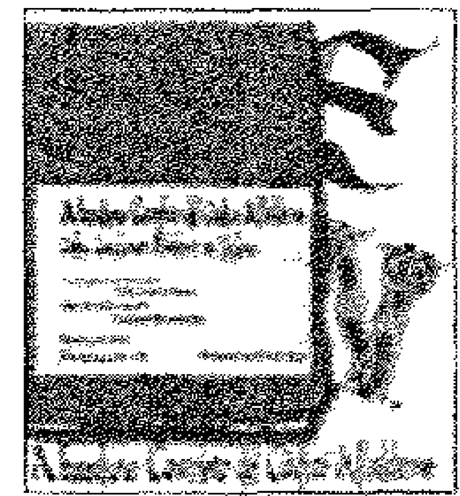
إن كتابة سهيل خليل عفوية، مقصودة في الوقت ذاته، مشاكسة وودودة، ساخرة سخرية سوداء، وحزينة حزنا لا يخلو من شعاع أمل، وأعتقد أن المؤلف لا يخطط كثيرا عند استخدام الحدث، قبل إدراجه كحكاية على بياض الورق، إنها تأتيه مباشرة فيسطرها بعد أن طرقت ذاكرته، وأجد أن فيه، بعض ملل، وكآبة، وسخرية من الواقع، تجعل عالمه الكتابي خاصا وجميلا. ■

سطور من الرواية

«..وأقول من القلب شكراً يا سربيون، شكراً لسربيون التي سأظل أكتب عنها وليس لي فضل في ذلك، لأن سربيون هي أمي، سربيون هي عيوني ونبض قلبي ولون دمي، فماذا أكتب عن الزواريب التي أحبت أقدامي صغيراً، ماذا أكتب عن خيم الريحان والمواقد، ماذا أكتب عن العجائز الطيبين الذين كانوا عطر الأرض ولون البحر، وأشعر الآن أنني ضعيف ضعيف، إنها سربيون التي أعشق، هي الدروب البيضاء والحواكير، وشجيرات التين ودوالي العنب، سربيون هي امرأة تضع يدها على خدها بانتظار أولادها الذين رحلوا، وهي ذكريات الزوج الذي مات وهو يبحث عن لقمة الزقوم، سربيون هي سراج الزيت الذي يبعث بضوئه الشحيح، سربيون هي موال عتابا حزين وأنة مريض، أذكرك الآن أيتها القرية التي أحب ولا يمكن لي أن أنساك، وهل يمكن للمرء أن ينسى سنوات الطفولة العذبة، كنت طفلاً في سربيون أجوب الزواريب والدروب البيضاء، كنت حالم العينين، كنت أمتص حليب العمر من ضرع بقرتنا عطيرة، كنت سعيداً بسواميك بيتنا الأربعة، كنت سعيداً بغناء أمي ومواويل أبي، كانت أمي تغني للذين هجروا الحاكورة والدوارة، وكان أبي يشدو بمواويل عتابا عن أصدقاء عمره الجميل الذين رحلوا، وكانوا كثيرين، وكان أبي يبكي أحياناً عندما يذكر الأيام القاسية التي عاشها في مغارة بيت الوادي، وكانت تلك المغارة مأوى لعدد كبير من أهل قريتنا حين يسوقون قطيع أبقارهم إلى سهل «حريصون»، ولم يكن في ذلك السهل شجرة واحدة، إلا بلوطة نهر السن، كانوا يجتمعون تحتها لتناول طعامهم، وكان الطعام.. لم يكن طعاماً بل كان خبز شعير وذرة، وعاشوا ونموا رغم أن الحياة ضنينة، قال أبي ذات صباح: كنت أطلب من أمي أن تلف لي «عضوضة» زيت.. فتقول لي: لفها.. ومن يراك يظن أنك تأكل عضوضة زيت، وتمر الأيام مات أبي وماتت أمي، ومات العديد من عجائز قريتنا الطيبين، وظهر الجيل الجديد من أطفال «السيريلاك» واختفت القنابيز البيضاء والسراويل، وصرت أرى سراويل «الجينز» والشباب بسوالفهم الطويلة، وبدأت السيارات الفارهة تتهادى على طريق قريتنا، كانت سيارات بلا قلوب، ولم يبق في قريتنا رجل يملك قلباً.. أجلس الآن وحيداً أضع يدي على خدي، وأستعيد صورة قلبي الذي تركته على التلال...!! »

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

Abecedario completo del cadice albeldense
أبجديات المخطوطات القديمة الكاملة لإلبيديتسي
Camacho Matute, Valle Navas, Sanchesz Emiliano
50 pp, euro 30
Ediciones Emilianenses
2008

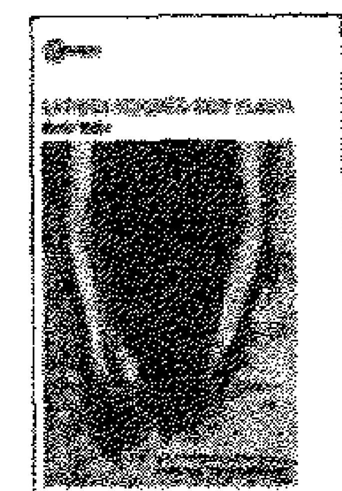


مخطوطات البيدينسي أو بيخيلانو مكتوبة بحروف قوطية لعام ٩٧٦، حيث إنها تضم مجموعة لمجالس إسبانية وأجنبية وقوانين قوطية، وتشريعات مدنية مستخدمة بإسبانيا حتى القرن الثالث عشر.

ثم طبعت بعد ذلك في دير سان ميلان دي كوجويا (لعام ٩٩٢) ولكن مع المزيد من التغيرات والتزيينات.

يتكون كتاب «الأبجديات» من ٢٣ حرفا أبجديا في فقرة المخطوطات القديمة لإلباديتسي وبخيلانو، وتسعة أرقام هندية عربية، سجلت لأول مرة في هذه المخطوطات القديمة حيث إنها مكتوبة من اليمين إلى الشمال وصورة ذاتية للناسخ بيخيلا Vigila.

Largas noches con Flavia
ليال طويلة مع فلافيا
Amir Valle 224 pp, euro 15
Almuzara, 2008



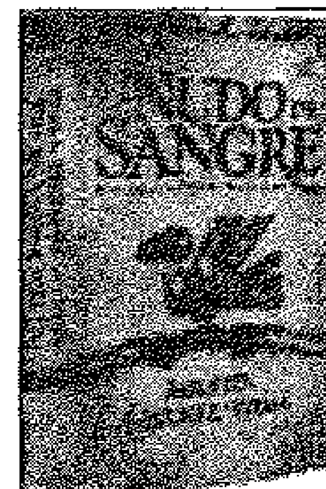
لقد تم ذبح ثلاثة أشخاص إسبانيين في هافانا كعقاب، حيث أن تجار المخدرات الأقوياء أعتبروا أن من الغباء أن يضعوا أعمالهم التجارية المربحة في خطر.

فجمع كل من الرجل المسن Alex Varge مع قائد البوليس Alain Bec كل قوتهم لحماية الناجية الوحيدة : فلافيا، فتاة جميلة من مدريد، معرضة أيضاً للموت في أي لحظة إن وقعت في أيدي هؤلاء الأشرار المجرمين ورئيسهم الكبير حيث إنه له علاقات وثيقة مع السلطات العامة والخفية بالجزيرة.

الأسلوب الفظ الذي يستخدمه أمير بايي، يجعلنا نشعر بقسوة غير عادية في هذه الرواية التي تكشف عن أسوأ جانب لمجتمع يحكمه كاسترو. فالكلاسيكية السوداء للرواية تصحبها الصورة القاسية لمجتمع كوبا في بداية الألفية والأشكال الجديدة للإجرام التي ابتليت بها.

أمير بايي شأنه كشأن غيره من الأساتذة المبجلين، يعرف أن يوظف تسلسل الأحداث التاريخية ليصوغ بشكل روائي، القصة الخيالية القائمة على وقائع حقيقية، حيث إنها جديرة لتكون أفضل أنواع الرواية الواقعية التقليدية.

NUDO DE SANGRE
عقدة الدماء
SANCHEZ VIDAL, AGUSTIN
500 pp, $ 34.88
ESPASA-CALPE, S.A. 2008



تتحدث هذه الأسطورة أنه بعد ثلاثة عقود حاول الإنكيون مقاومة وحشية الإسبانيين في مدينة بيلكابامبا «Vilcabamba»، المدينة المفقودة، التي خسرها الإنكيون دون أن يدري أحد عن المكان الذي يخفون فيه كنوزهم «ذهب بيرو»، ولكن الطمع الإسباني ظل يبحث عن طريقة للقضاء على حياتهم الغنية والمترفة.

طور المؤلف سانشو بيدال عقدة القصة التي مابين التاريخ والأسطورة إلى قصة حب بين الإسباني «سيباستيان دي فونيسكا Sebastian de Fonesca» والأميرة الهندية «أومينا» «Umina» التي من أصل إنكي حيث تقع أحداثها في القرن الثالث عشر. فالكثير من الغموض الذي يحوم حول عائلة سيباستيان العريقة والتعقيد الذي بقصة الحب، يرجحان أن هناك شيئا غامضا بين أسلاف عائلتي سيباستيان والأميرة الهندية. ولكن لا أحد يعرف لأي مدى ستتطور هذه الروايه «عقدة الدماء»، فهي رواية مسلية وسهلة القراة وممتعة.

فقد حازت هذه الرواية جائزة «بريمابيرا» «rimavera» ليس لجودتها ولكن أيضاً لأنها أستطاعت أن تجذب الكثير من القراء كما إنها الرواية الوحيدة في هذا البلد التي حازت جائزة «Herralde de Angramma» أو الإنكيون Los Incas هم أهل بيرو الأصليين.

LA PIEDRA REDONDA
الحجرة المستديرة
Manuel F. Ramos
EDICIONES ATLANTIS
262 pp, $ 55,23



تعتبر «المائدة المستديرة»، كوميديا سوداء، تحكي لنا عن المستقبل البعيد والحاضر في أن واحد .

فقصتها عادية تتحدث عن تحول رجل شجاع إلى رجل ذليل، فيصبح كبش فداء لصراع السلطة، مما يعطي مساحة لأحداث خيالية وطريفة.

فالرواية رغم أنها تتحدث عن القرن التاسع والأربعين، إلا أن بها الكثير من حاضرنا: كالفرقة الغنائية Operacion Triunfo، والوزارات غير المفهومة، الفساد، الصراع على السلطة وقيم ضائعة، وتحكم التكنولوجيا في المجتمع، ..... إلخ.

المؤلف يجعل القارئ يواجه عالما مختلفا بدون موسيقى ولا كتب ولا ثقافة ولا مجرمين إلى أن يدخل البطل في المشهد حيث يتحول من شجاع إلى ذليل في وقت قصير. وعند انفتاح صندوق الباندورا وإخراج الحجرة المستديرة التي به إلى النور، تدخل الكثير من المواقف الغريبة والاغتيالات وسلسلة من الحماقات في الأحداث لهدف واحد فقط ألا وهو تسليتنا، حيث تجعلنا ننسى همومنا التي بنا جميعاً .

ملحوظة:
- «الباندورا هي امرأة أسطورية بعصر اليونان، ساعدت الآلهة، فوهبوا لها الكثر من الميزات الشريرة التي تنفرد بها، فتميزت بالجمال والشر، فصندوق باندورا يطلق كل الشرور الإنسانية عند فتحه، تاركاً أملاً واحدا عند إغلاقه».

Diez poetas, diez músicos
عشرة موسيقيين وعشرة شعراء
Clara Janès Luis Alberto de Cuenca
Jli Galán 136 pp, euro 18
Calambur, 2008



ليس من الغريب أن يقوم مؤلفون موسيقيون بتأليف موسيقى لأشعار الشعراء من جيل ٢٧ في عصرهم.

حيث إن في العقود الأخيرة عاشت الموسيقى والشعر جنباً إلى جنب . فهذا الكتاب والأسطوانه من أجل إعادة الالتقاء بين الموسيقى والشعر، من خلال الشعراء المبجلين والوعود الجديدة التي بين الموسيقيين والشعراء، حيث إن كل مؤلف موسيقي يأخذ سبعة أشعار لنفس الكاتب ويختار من بينهم للتلحين.

لقد قدمت الحفلة الموسيقية لأول مرة في كلية الفنون الجميلة بمدريد . يرفق بهذا الكتاب، إسطوانه CD ويحتويان على كل من النصوص الشعرية والحنها الموسيقية.

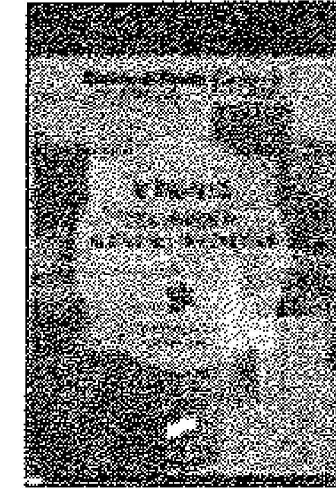
الشعراء حسب الظهور في هذا الكتاب : ماريا فيكتوريا أتينثيا، أنطونيو كولينانس، لويس البيرتو دي كوينكا، إيليا جالان، أنطونيو جومينيدا، فيليكس جراندي، كلارا خانيس، خوسية خيمينيث لوثانو، فلنيسي بيريث ساكيبو ودييجو بالبيردي دي بييانا.

ومن الموسيقيين : رامون بارثي، زليمة دي لا كروث، كارلوس كروث دي كاسترو، كونسويلو دييث وجاكوب ديوران لوريجا، كارلوس جالان، توماس ماركو، كلاوديا برييتو، خوان مانويل رويث، وميرسيدس زافالا.

AL-ANDALUS DE LA INVASION AL CALIFATO DE CORDOBA (HISTORIA DE ESPA'NA TERCER MILENIO)

إلى غزو الأندلس إلى خليفة قرطبة (تاريخ الألفية الثالثة لإسبانيا)

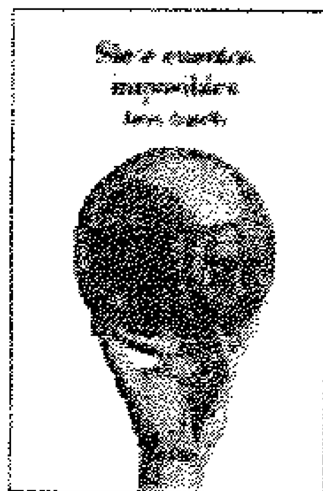
SALVATIERRA CUENCA, VICENTE y CANTO GARCIA, ALBERTO
268 pp, euro 18.50
EDITORIAL SINTESIS, S.A 2008



ما بين ٧١١ و٧١٩ م، غزى العرب والبربر مملكة القوط في إسبانيا وحطموها، لتكون بداية لبناء الأندلس. فهذا الكتاب يحلل بعض البيانات السياسية والاجتماعية والثقافية والمادية منذ بداية الأندلس مروراً إلى أصعب أزمة التي حلت ببداية القرن الحادي عشر والتي فيها وصلت سياسة المسلمين إلى أوجها بشبة الجزيرة الإسبانية. بالإضافة إلى آخر التطورات والأبحاث والنظريات حول أوضاع المسلمين بالأندلس.

Siete Cuentos imposibles
سبع قصص مستحيلة

Argüello Javier
176 pp, $ 77.22
Barcelana



السبع قصص خيالية ونوع جديد ونموذجي، فهذا نوع ابتدعه كل من Poe, Maupassant, Borges, Cortazar.
يمتاز أسلوب هذه القصة بالوضوح والدقة والفعالية، فيحكي المؤلف لنا عن قصص مزعجة وصاخبة مثل قصة الرجل الذي يعتقد أنه يكتب قصة في حين أن هذا الرجل في الحقيقة ليس إلا شخصا من قصة أخرى تقع في شبكة قصص أخرى خيالية، أو القصة قبل الأخيرة التي تعتبر من أروع القصص السبع حيث تحكي عن كاتب ينفي نفسه خارج زمنه ويسافر للمستقبل ليتحقق من دخوله بالفعل في القصص الأدبية، فهي قصة داخل قصة أخرى، حيث يبتعد فيها الكاتب عن القصص الكلاسيكية ليغزو حياة الشاب المسافر للمدن والذي يتقابل معه ليتحقق من خلوده.
حاز Argüello Javier على جائزة Paula عن إحدى قصصه في شيلي، كما كرمه كتاب مثل Enrique Vib Matus كدليل على Ignacio Martine de Pisón إنه من الشباب الموهوبين العباقرة والمؤثرين في الأدب الإسباني الحاضر حيث إنه يتمتع بموهبة خاصة وخيال واسع مما يجعل حياته المهنية بلا شك باهرة النجاح.

El navegante Dormido
البحار النائم

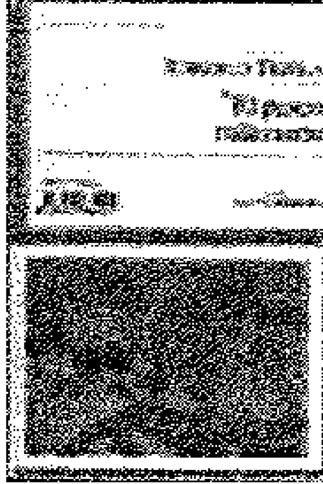
Abilio Estavez
384 pp, euro 19



في اكتوبر ١٩٧٧ ببيت قديم وكبير من خشب حيث يقع بالقرب من بلاج هافانا، فسيدات هذا البيت الذين من عائلة Godínez، يقومون بغلق الأبواب والشبابيك بإحكام مستعدين لمواجهة إعصار مدمر.
فهذا المنزل المصنوع من القش بالنسبة للساكنين فيه كأنه إرث غير متوقع من الدكتور Samuel Recfy، فالجميع الذين كانوا يتعايشون لخدمته، امتد عمرهم لعدة أجيال، كالخادمة العجوز Mamina التي هربت من العبودية و Andrea أندريا الصامتة بسبب فقدان بعض من أبنائها، ورئيسة الجنائنية باترشيا Patricia التي تعتني بالحيوانات الأليفة وolivero المهموم بحياته الماضية، مينوMino عازف الجاز والشباب الذي يلعن المدينة ويرون الشمال كأنه أرض الميعاد.
جميعهم واقفون في انتظار شيء ما سيحدث سواء كان مزعجا أو مفيدا، فهذه الحياة المليئة بالأسرار والأحداث المؤلمة والمأساوية وأحداث ماضية تخرج للنور عند مرور الإعصار بها.
يأتي شاب لديه ٣٠ عاماً يدعى Valera باليرا، ليروي أحداث أيام أكتوبر من ابتعاده إلى الجانب الغربي لنيويورك، متأمل الثلج المغطى في Hudson، فيتذكر كيف كان يرى ابن عمه Jafet خافيت المليء بالشباب والحيوية، يستمتع بالهدوء ويضعة بقارب «Myflower»، قبل هبوب العاصفة للهروب من الجزيرة للشمال.
هذه الرواية التراجيدية يدعمها إيقاع سردي كما إنها دعاية رائعة للأشخاص الذين جسدوا جزءاً من تاريخ كوبا.
تعتبر هذه الرواية تمثل أدب أمريكا اللاتينية، فهي أقوى ثلاثة روايات للروائيين مهمين بأدب أمريكا اللاتينية.

El paseo Millionario
فسحة المليونير

Roberto Tejeio
$ 26.30
Madrid, 2008



تتحدث الرواية عن فترة ٢٠٠٧ بكولومبيا، حيث فسحة المليونير هو لقب كولومبي معروف يعني الخطف السريع، ولكنه تحول لمعنى آخر وهو الخطف غير المعتاد أي الخطف على المدى الطويل، فيحكي عن رجل أعمال إسباني مشهور يدعى خايمي أريثو تم اختطافه في حي Bogota بكولومبيا حيث بهاغرفة مغلقة النوافذ التي تم فيها تكبيله بأسفل السرير، رئيسة العصابة لهذا الاختطاف تدعى Yerma، وهدفها هو الحصول على فدية والخام خايمي أريثو.
ولكي تحقق ما تتمناه استغلت بإغراء ذكاءها الخارق وبدون إحساس منها بالذنب لإغواء Jaime وصديقته Nuria، التي حاولت أن تفعل كل ما يلزم للتحرر منها.
وظف الكاتب الشخصيات بمهارة، في حس دقيق للإيقاع السردي.
أعطانا الكاتب روبيرتو تيخيو رواية بها مثيرة لتغزو الدراما الحالية، كالمختطفين الأجانب الذين أحياناً يسجنون لمدة سنوات أو أن يتم بيعهم في الأسواق كالبضائع.

La Lánea del horizonte Una Cronica Intima de Nuestro tiempo
خط الأفق «التأريخ الداخلي لعصرنا»

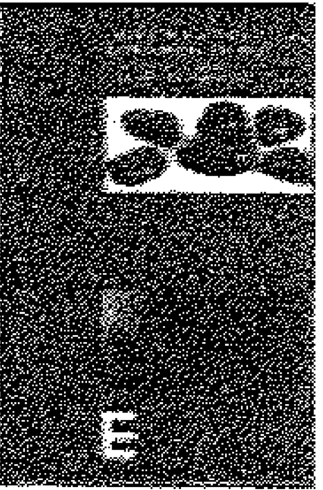
Baltasar Garzn
464 pp euro 25.9
Debate, 2008



ما هي العدالة الاجتماعية وكيف تنشأ؟ وكيف نستطيع الدفاع عن الحقوق الإنسانية وعن احترام حقوق الضحايا الذين عاشوا بمرحلة هشة منتقلين إلى مرحلة الديموقراطية، و ما هو المستقبل التي تنتظره أمريكا اللاتينية؟
ما بين ٢٠٠٥ ، ٢٠٠٦ قام بالتاسار برحلة استكشافية عندما كان يعمل مدرسا بجامعة نيويورك حيث إنها الفترة التي بها طرح هذه الأسئلة وأسئلة أكبر للعالم من خلال دورة مناقشات شارك فيها من جميع أنحاء العالم بدءا من Kissinger, Ernesto Zedillo حتى Felipe Gonzalez, John kerry, Antonio Mo?oz Molina, Rose Diez, Jose Saramargo, Zapatero.
فهذا عمل قائم على حوار به كثير من الذكريات ونوادر لأشخاص.
ينظر القاضي جارثون في أهم القضايا مثل الإرهاب والأمن ومستقبل الاتصالات والاقتصاد ومستقبل أمريكا اللاتينية.

TERRITORIOS EN RED: PRACTICAS CULTURALES Y ANALISIS DEL DISCURSO
الأقاليم في شبكة: الممارسات الثقافية والتحاليل الخطابية.

Susana y Diaz, Andrea Goin
256 pp, $ 28.36
EDITORIAL BIBLIOTECA NUEVA, S.L., 2008



رواية لأقاليم في شبكة تتكلم عن الممارسات الثقافية والتحاليل الخطابية التي تبحث عن فكرة الدور الذي يمكن أن تلعبه الإنسانية في القرن الحادي والعشرين عندما تكون الحالة خطيرة حيث تجتمع بها النظم الإنسانية في مجتمع يهيمن عليه التقدم التكنولوجي بشكل متزايد، في مواجهة الأشياء القديمة غير المؤهلة لما بعد الحداثة، والتي تفهم على أنها نسب متنوعة ليس لها اهمية، يؤيد الكتاب نظريات ما بعد التقدم التي تشير لشيء مختلف وليس بعد، بمعنى أنها تشير لحالة أخرى من منظور قراءة التنمية الثقافية. فيطرح الكتاب أنه عند صياغة مفردات نظرية الخطاب، يضع الفكرة في تحاليل العلاقات (اللاوعي) التي يدعم فيها الخطاب بالقوة ويفتح بها المساحة اللازمة لتطوير خيارات (الوعي) الاختراع والتغيير. يحتوى الكتاب على إسهامات كل من: Carlos Hernández Sacristán, Maria Grazia Profeti, Gustav Siebenmann, Julio Calvo, Emilio Manzotti, Beatriz y Elena Gallardo, Ver?nica Moreno Campos, Santos Zunzunegui, Elena Lápez Riera, Federica Rossi y Gabriel Sevilla Llisterri.

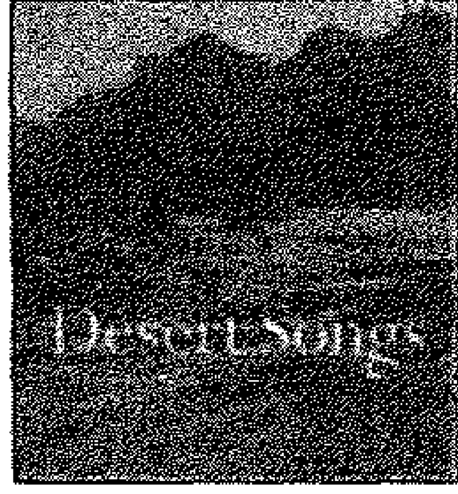
Desert Songs: A Woman Explorer in Egypt and Sudan

أغاني الصحراء: امرأة مستكشفة في مصر والسودان

Arita Baaijens

أريتا باجينز

American University in Cairo Press, 2008, 144pp., $39.95



تخلت باجينز عن مهنتها كمتخصصة بيئية منذ قرابة عشرين عاماً، وراحت منذ وقتها تسبر صحراوات مصر والسودان بصحبة قافلة صغيرة من الجمال. تروي باجينز في «أغاني الصحراء» قصة ولعها بالصحراء، مكان تضمر له كل الحب والخشية. قد يلقى القارئ الكتاب في أحد جوانبه قصيدة غنائية منظومة في حب الجمال والمشاهد الخلابة والآفاق والبدو والاستكشاف. بيد أنه من جانب آخر قصة عن رحلة داخلية، شعيرة من شعائر البلوغ. إذ يدور الكتاب حول مغادرة عالم تعهده كي تغامر بالولوج إلى المجهول حيث تكتشف قوتك الحقيقية. ما مدى قوتك عند غياب البدائل؟ أين تكمن حدودك؟ تنطلق باجينز في رحلة لاكتشاف الذات في ممرات جسدية قاسية بغية العثور على الأجوبة. إن التجربة تغيرها إلى الأبد.

أريتا باجينز مؤلفة ومصورة وزميلة في الجمعية الجغرافية الملكية. نشرت عدة كتب حول رحلاتها في الصحراء. وبين الرحلة والأخرى تعيش في أمستردام بهولندا.

The Golden Chariot

العربة الذهبية

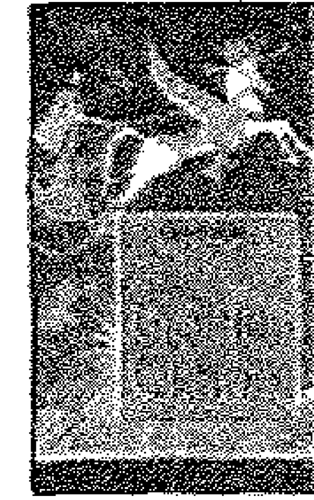
Salwa Bakr

translated by Dinah Manistry

سلوى بكر

ترجمة: داينا مانستري

American University in Cairo Press, 2008, 208pp., $17.95



تعقد عزيزة العزم على خلق عربة ذهبية لتحملها من زنزانتها في سجن النساء إلى الجنة حيث ستتحقق كل أمانيها وأحلامها. وبينما راحت تتأمل فيمن ستأخذهن معها، تسرد قصص حيوات زميلاتها السجينات وتحدد في قرارة نفسها من تستحق منهن الركوب معها مجاناً لبلوغ الفردوس. إن تعليقات عزيزة الصريحة القاسية حول صديقاتها وجرائمهن المتباينة - بما فيها القتل والسرقة وتجارة المخدرات - تنسج تلك الحكايات نسجاً لتستحيل الرواية إلى ما هو أشبه «بألف ليلة وليلة» معاصرة.

تتخذ رواية بكر نبرة تتلون بالسخرية والتشاؤم حين تجتمع عدة نساء من خلفيات مختلفة، بعضهن بريئات والبعض الآخر مذنبات، في جناح واحد بالسجن. وهنا يصور قلم بكر الحياة في عمق الثقافة المصرية معجباً بمرونتها في مواجهة الفقر وعدم المساواة. وبريبة لا ريب فيها في سقط المتاع المستورد، يتضارب الاستهلاك الغربي مع الثقافة الوطنية. إن بكر تفتح في هذه الرواية باباً سحرياً يسعنا من خلاله أن نبصر ظلم مجتمع يطاله التغيير. وإلى ما وراء قصص الجريمة، نلمح توقا واشتياقا إلى حياة أفضل ومشاكل تواجه أفراداً يعجزون عن تحقيق أحلامهم بوسائل شريفة.

أصدرت سلوى بكر سبعة مجلدات من القصص القصيرة (من بينها «كيد الرجال» دار نشر الجامعة الأمريكية في القاهرة، ١٩٩٧) وسبع روايات (من بينها «البشموري» دار نشر الجامعة الأمريكية في القاهرة، ٢٠٠٧) ومسرحية واحدة. ترجمت أعمالها إلى تسع لغات.

تخرجت داينا مانستري من قسم اللغة العربية بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية عام ١٩٨٩ وحازت شهادة الدكتوراه عام ١٩٩٣ بأطروحة عن رواية المرأة في مصر. درست الترجمة من العربية إلى الإنجليزية في جامعة تونس وتعمل حالياً أمينة مكتبة للمجموعات العامة بمعهد الدراسات الإسماعيلية بلندن.

The Final Bet

الرهان الأخير

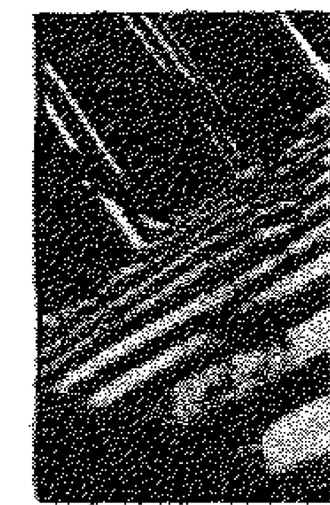
Abdelilah Hamdouchi

Translated by Jonathan Smolin

عبد الإله الحمدوشي

ترجمة: جوناثان سمولين

American University in Cairo Press, 2008, 156pp., $17.95



يعود عثمان - شاب مغربي وسيم - إلى بيته ليكتشف أن صوفيا - زوجته الفرنسية العجوز - مقتولة بوحشية في غرفة نومهما. تلقى عثمان تعليماً عالياً، ومع ذلك أصبح عاطلاً لا سبيل إلى توظيفه. كابد عسراً يائساً قبل أن يلتقي بصوفيا التي دللته بالسيارات الفارهة والملابس الغالية وحرية استعمال قصرها الكائن في أكثر الأحياء أناقة بالدار البيضاء. غير أنه لم يطق الحياة مع امرأة تكبره بأربعين عاماً؛ فقبل مقتل زوجته سعى إلى العزاء بإقامة علاقة ساخنة مع مدربة إيروبيكس جذابة، نعيمة. ما لبث رجال الشرطة المغاربة أن سلطوا شكوكهم على عثمان باعتباره المتهم الرئيسي في جريمة قتل زوجته. لكن هل هو مذنب؟ هل قتل زوجته طمعاً في الأموال والعشيقة؟ أم أنه رجل بريء ورطته الظروف وشرطة تترع بالحماسة المفرطة والوحشية. وعلى الرغم من بساطة الرواية، وكذلك سذاجتها مقارنة بحكايات الجريمة الأمريكية والأوروبية، سوف تجعلها ظروفها مثيرة لخيال القراء. إن رواية الحمدوشي هي أول رواية بوليسية تترجم إلى الإنجليزية ليصل الحمدوشي إلى مرتبة ياسمينة خضراء وهينينج مانكيل جالباً الرواية العربية المعاصرة إلى ساحة الأدب البوليسي العالمية.

عبد الإله الحمدوشي واحد من أوائل كُتاب الرواية البوليسية باللغة العربية. ألَف ثماني روايات وفاز بالعديد من الجوائز عن سيناريوهات كتبها للتلفزيون والسينما المغربية. أنتج التلفزيون المغربي كل رواياته البوليسية بما فيها «الرهان الأخير». يعيش الحمدوشي في الرباط بالمغرب.

جوناثان سمولين أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية دارتموث.

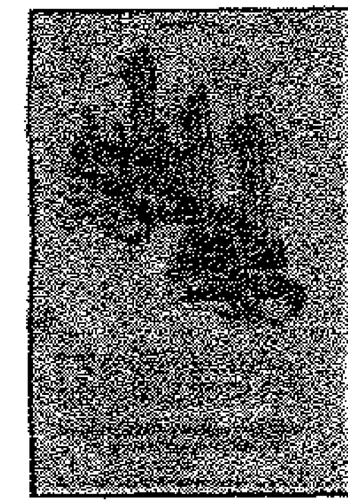
Transforming Loss into Beauty: Essays on Arabic Literature and Culture in Honor of Magda al-Nowaihi

تحويل الخسارة إلى جمال: مقالات في الأدب والثقافة العربية تكريماً لماجدة النويهي

Edited by Marlé Hammond and Dana Sajdi

تحرير: مارليه هاموند ودانا ساجدي

American University in Cairo Press, 2008, 432pp., $34.95



يتضمن المساهمون في هذا العمل الشامل التحليلي معلمين للراحلة ماجدة النويهي وزملاءها وأصدقاءها وطلابها. كانت النويهي عالمة باحثة في دراسات الشرق الأوسط؛ وقد ألهمت اهتماماتها المتنوعة وطاقاتها المتشعبة العديد من الزملاء. يكرس الكتاب جزءه الأول للمرثاة العربية، موضوع عمل لم تتمكن النويهي من إنهائه. كما يشمل محاضرة عن المرثاة ألقتها النويهي دون أن تُنشر في كتاب. يتدبر مساهمو الكتاب هذا الشكل الشعري في سياقاته الكلاسيكية والمعاصرة من عدة زوايا من بينها النسوية المنحازة للنوع الأدبي ليصير هذا المجلد واحداً من أشمل المصادر الإنجليزية حول المرثاة العربية. يصور الجزء الثاني من الكتاب مقالات تتعلق باهتمامات النويهي الأخرى ولا سيما الرواية العربية المعاصرة ووضعيتها المهمشة في الأدب. تتناول المقالات شتى المؤلفين من أمثال توفيق الحكيم ولطيفة الزيات وبن سالم حميش وصنع الله إبراهيم.

يتسم الكتاب «تحويل الخسارة إلى جمال» برحابة المدى ودقة البحث، وهو بذلك تقدمة ملائمة لباحثة أصيلة. يشمل الباحثون روجر آلان ودينا أمين ومايكل بيرد وجوناثان بي. ديكتر وألجزاندر إي. إلينسون ومارليه هاموند وميرفت حاتم وولفهارت هاينريكس وريتشارد جاكموند وليتال ليفي ومارا نامان ودانا ساجدي وكريستوفر ستون. ثمة جائزة باسم ماجدة النويهي لطلاب الدراسات الجندرية تُمنح منذ عام ٢٠٠٣ لمكافأة رسائل المتفوقين من خريجي الجامعة الأمريكية في القاهرة.

حصلت مارليه هاموند على شهادة الدكتوراه من جامعة كولومبيا، وقد عملت زميلة باحثة في الشعر العربي والنقد الشعري المقارن بكلية سانت جون بأكسفورد من عام ٢٠٠٢ وحتى عام ٢٠٠٦. أما دانا ساجدي فقد تلقت شهادة الدكتوراه من جامعة كولومبيا. وهي الآن زميلة في كلية العلوم الإنسانية ببرلين. حررت كتاب «التوليب العثماني، القهوة العثمانية: وقت الفراغ وأسلوب الحياة في القرن الثامن عشر».

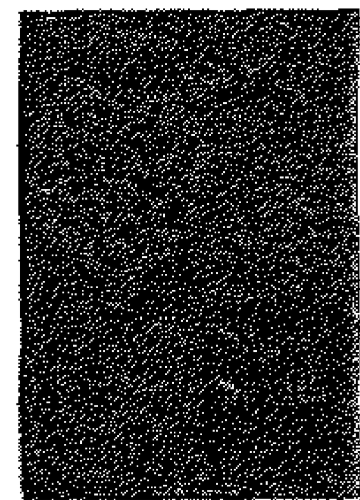
The Sage of Seville: Ibn Zuhr, His Time, and His Medical Legacy

حكيم أشبيلية: ابن زُهر، عصره وإرثه الطبي

Henry Azar

هنري عازار

American University in Cairo Press, 2008, 204pp., $27.50



يقدم عازار سرداً لحياة أشد الأطباء تأثيراً في أسبانيا المسلمة خلال العصور الوسطى، ابن زُهر، أهم أطباء أسبانيا

أثناء القرن الثاني عشر. اعتزت عائلته بتخريج ستة أجيال من الأطباء كما تضمنت قابلات وقضاة وشعراء ووزراء. يمثل كتابه «كتاب التيسير» خلاصة وافية لعلم المداواة. وقد تمت ترجمته إلى اللاتينية والعبرية: اعتبرت نسخته اللاتينية تتمة لكتاب «الكليات» وهو كتاب نظري للفيلسوف والطبيب ابن رشد. استعان الطبيب والحاخام موسى بن ميمون باستشهادات مطولة من مؤلفات ابن زهر وعده «فريداً بين أطباء عصره وواحداً من الحكماء العظماء». بيد أن ابن زهر لم يكن مجرد مراقب حاد الحواس لمرضاه ومركباً بارعاً للأدوية. ففي ثنايا حكاياته الجافة تقبع ذكريات لا تخلو من صراحة وآراء حول شتى المواضيع الاجتماعية. يمكن كذلك مقارنة وصفاته الطبية بأشكال الطب البديل الحالية.

إن مقاربات ابن زهر الكلية لعلم الطب بالإضافة إلى مقالاته التلقائية الموجزة تجعلانه واحداً من أكثر الأطباء تجديداً في كل العصور. وهنا يكشف هذا الوصف الفريد من نوعه لإرث ابن زهر النقاب عن طبيعة الرجل وأهميته في عالمه وصلته الوثيقة بعصرنا الحالي. ففي مقابل ثقافة عصرية لرعاية طبية غالباً ما تتسم بالتجرد والبيروقراطية والغلاء، يصبح مثال ابن زهر كحكيم لعصره ودوره كقسيس شافٍ مصدراً لإلهام القراء.

تخرج هنري عازار من كلية الطب بالجامعة الأمريكية في بيروت ونال شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة نورث كارولينا، وهو الآن أستاذ فخري في علم الأمراض بجامعة ساوث فلوريدا.

■

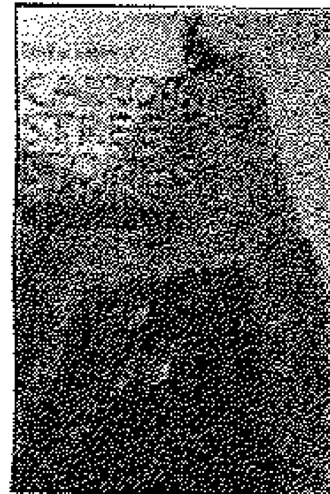
Cairo's Street Stories: Exploring the City's Statues, Squares, Bridges, Gardens, and Sidewalk Cafés

قصص شوارع القاهرة: سبر التماثيل والميادين والجسور والحدائق ومقاهي الأرصفة في المدينة.

Lesley Lababidi

ليزلي لبابيدي

American University in Cairo Press, 2008, 152pp., $24.95



كان إسماعيل باشا خديو مصر أول من تبنى العادة الأوروبية التي تقضي بنصب التماثيل الضخمة أمام أعين العامة كرسالة رمزية بالهيمنة المتواصلة لسلالة أسرة محمد علي الحاكمة، السلالة التي ينتمي إليها. لكن تواكب مستهل القرن العشرين مع بزوغ نجم النحات محمود مختار مما أكسب هذا الفن العلني قبولاً جماهيرياً. والآن تنهض التماثيل أو تركب الأحصنة أو تتخذ مجالسها في شوارع القاهرة وميادينها وحدائقها. ويضيف كل تمثال قطعة إلى خليط تاريخي معقد يمتد ليشمل شخصيات وأحداثاً شكلت المدينة ومصر بأكملها منذ عام ١٨٠٥ إلى عام ١٩٧٠. وهنا تقدم لبابيدي المقيمة في القاهرة منظوراً فريداً عن التاريخ المصري من خلال التطلع إلى ما يربو على ثلاثين تمثالاً ومنحوتة تذكارية والقصص الكامنة وراءها. وفي غضون حكايات التماثيل تسبر تطور القاهرة وهويتها متعددة الأبعاد مثلما تتراءى في تشكل المساحات الفراغية بالمدينة وتغيرها خلال العقود، كما تسلط الضوء على العلاقة بين سكان القاهرة المعاصرين والمناظر الطبيعية والأحياء والقصور والمواقع الأثرية والمقاهي والجسور والحدائق في هذه المدينة العظيمة المجنونة، أم الدنيا. يستعين الكتاب بصور ملونة وصور أرشيفية ليزود القراء برؤية استثنائية تزخر بالحيوية لتاريخ صاغ شوارع المدينة ومساحاتها المفتوحة والوسائل العديدة غير المتوقعة التي استخدمها بها سكانها الخلاقون.

ربت ليزلي لبابيدي ثلاثة أطفال في القاهرة كما ألفت كتاب «القاهرة: دليل الأسرة» وكتاب «لا صمت بعد اليوم: أصحاب الحاجات الخاصة في مصر» وحررت آخر نسخة من كتاب «القاهرة: الدليل العملي».

■

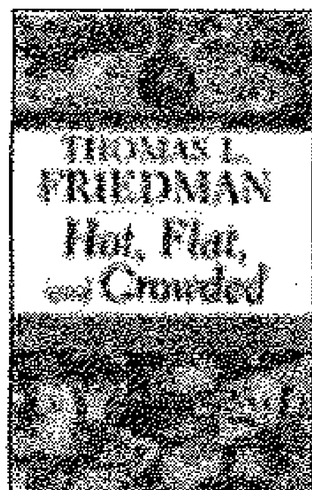
Hot, Flat, and Crowded: Why We Need a Green Revolution—and How It Can Renew America

ساخن ومسطح ومزدحم: لماذا نحتاج إلى ثورة خضراء - وكيف يمكنها تجديد أمريكا

Thomas L. Friedman

توماس إل. فريدمان

Farrar, Straus and Giroux, 2008, 448pp., $15.37



لقد ساعد كتاب فريدمان «ساخن ومسطح ومزدحم» ملايين القراء على رؤية العالم بطريقة مختلفة. ففي هذا الكتاب الألمعي الجديد يتطلع فريدمان بعين نقية وإن لا يعوزها التحريض إلى اثنين من أكبر التحديات التي تواجهها أمريكا اليوم: فقدان أمريكا المدهش للتركيز والهدف القومي منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ والكارثة البيئية العالمية المؤثرة على كل المجريات بدءاً من الطعام إلى الوقود إلى الغابات. وهنا يرينا المؤلف في هذا الكتاب الرائد كيف يتصل حلا هاتين المعضلتين وكيف يسع الأمريكيون استعادة ثقة العالم وإنعاش أمريكا في ذات الوقت.

يشرح فريدمان قائلاً إن ظاهرة الاحتباس الحراري وإعداد السكان المتعاظمة والاتساع المذهل للطبقة الوسطى في العالم من خلال العولمة أنتجت جميعها كوكباً «ساخناً ومسطحاً ومزدحماً». فالأرض تتعرض بالفعل لمؤثرات تهدد بجعلها خطرة لا استقرار فيها، وبعد مرور بضعة أعوام، سوف يفوت الأوان لإصلاح الأرض - ما لم تتقدم الولايات المتحدة الآن وتترأس جهداً عالمياً لإحلال ممارسات مدمرة غير فعالة للحصول على الطاقة بإستراتيجية لتوفير طاقة نظيفة إيجابية يطلق عليها فريدمان «الكود الأخضر». يؤكد فريدمان أن هذا تحد ضخم لكنه أيضاً فرصة عظيمة لا ينبغي أن تضيعها أمريكا. فالقيادة الأمريكية ليست فقط مفتاح شفاء الكرة الأرضية على حد قوله بل هي أفضل إستراتيجية لتجديد أمريكا.

كذلك يوضح فريدمان للقارئ في فصول مسلية مفعمة بالحيوية أن تلك الثورة الخضراء لا تشبه أياً من الثورات السابقة التي شهدها العالم. سوف تصبح أكبر المشاريع المجددة في تاريخ أمريكا؛ سوف تكون مهمة عصيبة، ليست باليسيرة. ستبدل كل شيء بدءاً مما تضعه في سيارتك وحتى ما تقرأه في فاتورة الكهرباء. إلا أن الفائدة العائدة على أمريكا لن تكون هواء نظيفاً فقط لا غير، فسوف يلهم المشروع الأمريكيين بالانخراط في شيء لم يعهدوه منذ زمن - تشييد الأمة - وذلك باستدعاء الذكاء والقدرة على الابتكار والجرأة من أجل صالح العالم.

إن «ساخن ومسطح ومزدحم» واحد من كتب فريدمان الكلاسيكية: لا يعرف الخوف، قاطع النبرة، مباشر الأسلوب، غني ببديهة تباغت القارئ حول إمكانية مواجهة التحدي والوعد بمستقبل أفضل.

توماس فريدمان مؤلف وصحفي شهير فاز بجائزة بوليتسر ثلاث مرات وسافر مئات الآلاف من الأميال ليغطي صراع الشرق الأوسط ونهاية الحرب الباردة والسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية والأحوال الاقتصادية العالمية والتأثير الدولي للتهديد الإرهابي. يكتب عموداً سياسياً مرتين في الأسبوع بجريدة تايمز ليصدر في سبعمائة جريدة أخرى حول العالم.

■

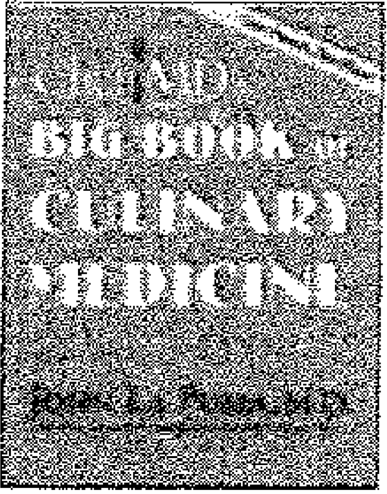
ChefMD's Big Book of Culinary Medicine: A Food Lover's Road Map to Losing Weight, Preventing Disease, and Getting Really Healthy

الكتاب الكبير للطاهي الطبيب حول طب المطبخ: خريطة طريق لمحب الطعام من أجل خسارة الوزن ومنع الأمراض وبلوغ الصحة الحقيقية

John La Puma and Rebecca Powell Marx

جون لا بوما وريبيكا باول ماركس

Crown, 2008, 320pp., $16.47



إن ما يمثله الدكتور أندرو ويل لطب الأعشاب والدكتور فيل لطب النفس التلفزيوني يقابله الدكتور جون لا بوما في مجال طب المطبخ. بعد سن الخامسة والثلاثين، وبعد تناول الكثير والكثير من الغذاء الأمريكي التقليدي، أصبح الدكتور لا بوما منتفخ الكرش! لذا قرر إجراء الأبحاث حول علم التغذية وقصد مدرسة للطهي لتعلم فنون الطبخ. فانتهى به الأمر إلى ابتكار مفهوم ثوري جديد «لطب المطبخ» - وصفات وأغذية ووجبات تمنع الأوضاع الصحية المتدهورة أو تتحكم فيها بدون التضحية بالمذاق اللذيذ.

الآن بإمكانك أنت الآخر تطبيق مبادئ طب المطبخ. ففي كتاب «الكتاب الكبير للطاهي الطبيب حول طب المطبخ» سوف تتعلم تجهيز كابينة مطبخك بكل ما هو مفيد واستخدام الطبيب الكامن داخلك وابتكار أطباق ستزودك بمنافع قد تنقذ حياتك في المستقبل ومذاق شهي بحق.

يقدم الدكتور لا بوما تفاصيل خطة مكونة من ثمانية أسابيع بهدف تحفيزك على تغيير حياتك. جرب المحار بالزعفران أو الجمبري، أو المعكرونة بالبنجر وجبن الماعز والريحان على طريقة أهل صقلية، أو السجق الحار الغني بلحم الفلفل الأحمر. كل من يحب الطعام ويرغب في الحصول على طاقة أكبر ويريد أن يعكس تاريخ عائلته الصحي أو يريد معرفة ما يمكن أكله ليظل معافى لا بد أن يطالع هذا الكتاب. فوصفاته ووجباته سهلة سريعة التحضير مخصصة لتختبر طعاماً شهياً وتنال طاقة وصحة تستعيد بها حياتك.

■

رسالة البصائر في المصائر

جمال الغيطاني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨ ، ٤٣٢ صفحة



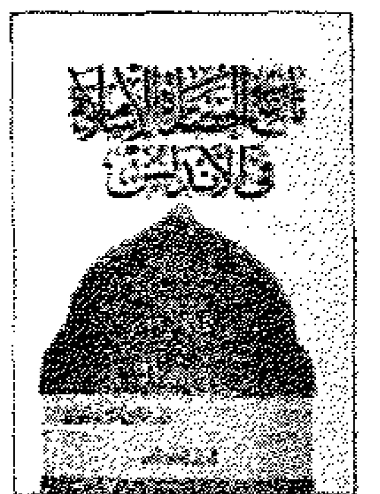
تمثل المغامرة الإبداعية لجمال الغيطاني واحدة من أخصب المحاولات الأدبية التي قام بها عضو بارز من جيل الستينيات، وقد قام بها أديب جسور لم يقنع بتبني الأشكال الأدبية التي ورثها عن أسلافه. ولكنه بعد بداية تقليدية - وإن كانت لفتت الأنظار منذ وقت مبكر إلى موهبته، ونعني مجموعته القصصية، أوراق شاب عاش منذ ألف عام - ألقى بنفسه في محيط التجريب، الزاخر بالأخطار والتيارات العاصفة.

ستظل رسالة البصائر في المصائر من أبرز الأعمال الأدبية في الثمانينيات، التي أبرزت التحولات الكبرى في المجتمع المصري نتيجة الانفتاح الاقتصادي المشوه، وفي قطاع من المجتمع العربي نتيجة الثروة النفطية. بدأ الغيطاني الرواية بهذه العبارة الدالة «ما شاء الله كان»، ولكن تبقى حاشية لو قلدنا أسلوب المؤلف تتضمن سؤالاً واحداً: ترى كيف الخروج مما نحن فيه؟ يؤكد الغيطاني بهذه الرواية أن الأدب العظيم، هو الذي يفجر من الأسئلة أكثر مما يقدم من الأجوبة.

تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس

خالد بن محمد مبارك القاسمي

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٨ ، ١٦٥ صفحة



أقام المسلمون في الأندلس قرابة ثمانية قرون، شيدوا خلالها حضارة بقيت بعض آثارها قائمة إلى اليوم، وقد كانت القيمة الحقيقية لدولة المسلمين هناك، أنها قدمت نموذجًا رفيعًا للتسامح والتفاعل الثقافي المثمر، فلم يعرف تاريخ العرب هناك مذابح مثل تلك التي قام بها الغزاة الأوروبيون في إنطاكية والقدس وغيرهما، وتعترف مصادرهم بمذبحة راح ضحيتها ٧٠ ألف مسلم بينهم آلاف من النساء والأطفال في مدينة القدس، وحين دخل العرب الأندلس، كانوا قد هضموا ثقافات وحضارات الأمم السابقة وأضافوا إليها المبادئ التي كرّسها الإسلام في نفوسهم، حتى إذا ما اندمجوا في هذه البلاد البعيدة الجديدة، راحوا يشيدون ويضربون بسهام علمهم وفنونهم في كل اتجاه، وأثبتت العالمة الألمانية زيجرد هونكة أن شمس العرب سطعت على أوروبا فأهدتها العلوم والمعارف وأسس الحضارة والتمدن، وكذلك أنصف هذه الحضارة أرنولد توينبي وجوستاف لوبون وآخرون، فماذا فعل الإسبان حين سقطت دولة العرب في الأندلس؟

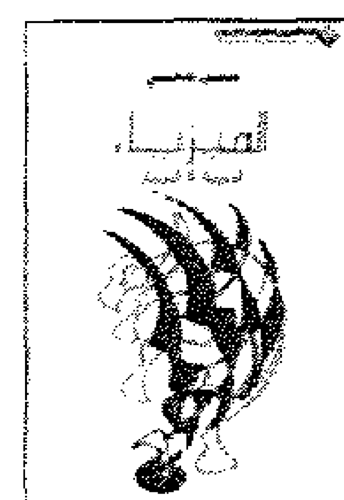
حملات من الاضطهاد والقتل والوحشية قادها البابا الكاثوليكي نفسه ضد المسلمين، وهي التي عرفت في التاريخ الأوروبي بحملات التفتيش، حيث طُرد وشرد عدد كبير من المسلمين وأُجبر من بقي على التنصر، وشن الإسبان حرب إبادة شاملة ضد من بقي مستمسكًا بدينه حتى اضطروهم إلى الرحيل سيرًا على الأقدام! عرف المسلمون هناك بالموريسكيين تمييزًا لهم عمن سواهم، حرقت كتبهم علنًا، وأجبر أطفالهم على تعلم أصول العقيدة المسيحية، وأقيمت الكنائس على أنقاض المساجد ودور العبادة الإسلامية، وحرموا من الدخول في النقابات والاتحادات العمالية، ومنعوا من ممارسة عشرات المهن التي اعتادوها.

هكذا رد الإسبان على تسامح العرب والمسلمين وعطاء الحضارة الإسلامية في الأندلس.

الميــــزياء

حسن عجمي

بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٨ ، ١٥١ صفحة



الميزياء هي المذهب الفلسفي الذي يعتبر أن كل شيء يملك ميزة تميزه عن الأشياء الأخرى، وبفضل ميزاته يوجد ويتشكل، ويستند مبدأ الميزياء إلى قاعدة أساسية هي أن الشيء الذي يملك ميزات أكثر سيملك نجاحًا أكثر في البقاء والاستمرار، والميزة تختلف عن الصفة، فميزة الإنسان مثلاً أنه عاقل، لكن ما يفرق بين كل من يملكون هذه «الصفة» هي التمايز في استخدامها، أي أن الصفات تحكمها علاقات السببية، أما الميزات فتحكمها الأفضلية. وليس بالضرورة أن يتكون الشيء من ميزة واحدة، بل قد يتكون من ميزات عدة ومختلفة، والميزة تتبدل وتتطور، فمثلاً ميزة العقل كانت الحفاظ على النوع البشري في ظروف الصراع بين الإنسان والحيوان والطبيعة، لكن مع انتقال الإنسان إلى البيئة الاجتماعية تطورت ميزة العقل وتبدلت لتلبي احتياجات هذا الانتقال.

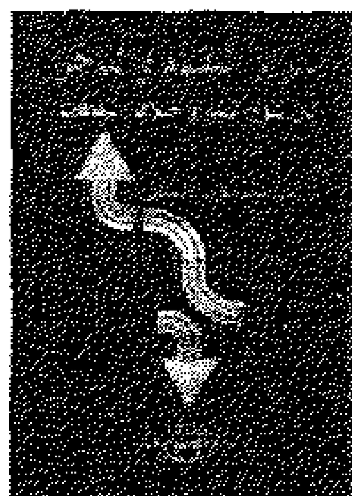
ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن لفظة فلسفية أخرى هي «الشيمياء»، وهي التي تدرس الصفات المشتركة بين الأشياء المختلفة، فصفة البياض مثلاً قد يشترك فيها باب ونافذة ورجل وامرأة، والشيمياء هي التي تضطلع بهذه المهمة، وأما «الجيزياء» فالمبدأ الحاكم لها أنه يجوز للميزة أن تولد وتموت، لكن لا يجوز لشيء أن يوجد من دون ميزة، و«الحيزياء» هي المذهب الفلسفي الذي يعتبر أن كل شيء يتكون من حيزه، فأي شيء له حيز، ومن خلال حيزه فقط يتشكل.

في إطار هذه التعريفات لتلك المذاهب الفلسفية يتحدث المؤلف عن ميزات العقل وميزة الرياضيات والفيزياء وميزة الحقيقة وميزة الكون وميزة الدين وميزة الأخلاق وميزة الوعي والشعور وميزة البحث المعرفي وميزة الصناعة وميزة الكتابة وميزة الحرية وميزة الفوضى وغيرها، وكذلك عن شيمياء العقل والمادة والعلوم واللغة والبلاغة وغيرها.

أسرار التقدم والتأخر

علي عبدالعزيز النقيلي

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨، ١٦٦ صفحة



يعيش المواطن العربي حالة مؤكدة من الإحباط واليأس، مردها هذا الشعور بأنه خارج العالم، وتأدبًا يطلق عليه أنه مواطن ينتمي إلى عالم نام، وهو يعرف أنها تسمية تخفي حقيقة تخلفه وتراجعه الحضاري والثقافي، فهل هذا التراجع والتخلف قدر لا فكاك منه، هل كتب عليه أن يعيش فيه إلى الأبد، هل هي مسألة مرتبطة بالجينات التي يتوارثها جيلا بعد جيل؟

المؤلف، وهو عالم أنثروبولوجيا قدير، ينفي تمامًا هذه الفكرة التي يسعى البعض للترويج لها من خلال أبواب خمسة: العرق والأعراق ويناقش من خلاله أصل الإنسان المعاصر ونشأة الأعراق وتصنيفها، منتقداً الآراء ذات الطبيعة الاستعلائية كما هو الحال في اعتبار نيتشه الإنسان الآري طويل القامة ذا الشعر الأصفر والجلد الأبيض والعيون الزرقاء هو السوبر مان الذي يجب أن تكون له السيادة على جميع البشر، فهي برأيه رؤية تعكس مشكلة ثقافية ولا ترتكز على أسس علمية بيولوجية.

ويناقش في الباب الثاني مفهوم اختلاف الثقافات من خلال عدة فصول: أسس البناء الثقافي في المجتمعات، اللغة والحياة، الفن والفنون، الدين، العلم والبحث العلمي، التكنولوجيا والتقنية، القيم والعادات والتقاليد.

ويتساءل في الباب الثالث: هل هناك خصوصية عرقية للثقافة؟ ويجيب بأن الكثير من المفكرين يتفقون على أن النتاج الثقافي لكل أمة يعكس تجاربها مع بيئتها الخاصة، وليس مرتبطاً بالصفات الفيزيقية للبدن المميزة للأعراق، وينتهي إلى أن التكامل بين الثقافات هو المقدمة لمستقبل الإنسان الفكري، وهو الحقيقة الواحدة القابلة للتصديق، وأما التصارع والتصادم كما يمارسه الإنسان اليوم، فهو نشاط يعكس الطبيعة البيولوجية للإنسان، وسيطرتها أحيانًا على تفكيره وتوظيف هذا الفكر في سبيل حفظ البقاء ولو على حساب الآخرين، وهو ما يعكس فقرًا في الفكر وعودة إلى البدائية.

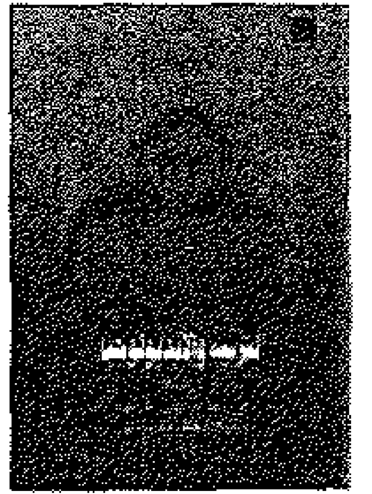
في الباب الرابع يطرح تصوراته لفكرة التقدم، منتقداً التصورات التي تربط ثقافة الشعوب بالمدخل المادي والمستوى الاقتصادي، وهي تصورات لا تعطي اهتمامًا كبيرًا للجانب الروحي الذي يحدد أهداف الإنسان وغاياته، ويلبي احتياجاته المعنوية والنفسية.

وفي الباب الأخير يتساءل من هو المصري، ومن هم العرب بيولوجيًا، ويجيب من خلال شرح للروابط الثلاثة: اللغة والدين والعلاقة مع الغرب.

التربية والأيديولوجيا

شبل بدران

القاهرة: مركز المحروسة للنشر، ٢٠٠٨



يعالج المؤلف وهو واحد من خبراء التعليم فى الوطن العربي، قضية بالغة الخطورة، وهى العلاقة بين النظام السياسى السائد، وبين التعليم كقيمة تربوية. فكيف يؤثر النظام بمكوناته المتناقضة والمتصارعة أحيانًا، فى العملية التعليمية، هل يوظفها لخدمة أغراضه، وتكريس الأوضاع السائدة، أم أنه حريص فعلاً على خلق نظام تعليمى قوى يرسخ قيم الحرية والديمقراطية، وثقافة حقوق الإنسان. ولماذا يلجأ إلى المنظمات الأجنبية لتمويل نظامه السياسي، وما الذى جرى فى التعليم المصرى منذ عام ١٩٨٥ وحتى عام ٢٠٠٧، وهى الفترة التى شهدت اضطرابًا واضحًا فى سير التعليم المصرى، وخروج الجامعات المصرية من تصنيف الجامعات الأهم فى العالم، هل الدور السياسى فى إضعاف التعليم سبب فى ذاته، أم أن انفصال التعليم عن الواقع، وعدم تحديد الهدف من العملية التعليمية، ماذا نريد بالضبط لخلق مواطن عصرى، وعلى خلفية التعليم الذى تلقاه.

ولتوضيح فكرته قسم المؤلف كتابه إلى ثمانية فصول ليحيط بكل الأسباب والعلاقات المتشابكة بين التعليم والنظام السياسي، وكيف يغرس هذا النظام نوعًا من التربية يسهم فى خلق مواطن مصرى صالح من عدمه، فالإطار الذى يتحرك فيه النظام التعليمى وما يتخذ من سياسات واستراتيجيات وتوظيف للتعليم قد يجعل منه وسيلة لتحقيق أغراض أحد طرفين: طرف يجعله أداة لإعادة إنتاج العلاقات القائمة من خلال مناهج تنتج نمط الشخصية المتكيف والمطيع والقانع والمنفصل، والمغيب الوعى، والمغترب، لكى ينسجم ويتسق مع أيديولوجية السلطة السياسية التى تسيطر على مقاليد الحكم، ويتخذ لذلك أساليب الترويض الفكرى والإذعان والاستسلام والقهر وأحيانًا ليضمن ما عرف بالوظيفة المحافظة للنظام التعليمى، ويصطنع فى سبيل ذلك ما يراه مناسبًا من أنواع المعارف ومتطلبات التفكير، وأنواع المقررات والامتحانات وغيرها من المناهج الرسمية، فضلاً عما يتخذه من مناهج وأساليب خفية مستترة ومتضمنة بين ثنايا العملية التعليمية والمناخ الدراسى.. والوقائع التى تدين نظام التعليم المصرى فى ذلك كثيرة وغير خافية واستدعى بعضها تدخل الرئيس شخصيًا كما جرى مع آلاء التى كتبت رأيها الشخصى فى موضوع إنشاء فى الامتحان، وكيف تزلزل المسئولون وحققوا معها، وما جرى مع التلميذ الذى كتب عبارة يشتم منها رائحة سياسية مثل جملة: شعب مظلوم وحاكم ظالم، وما جرى له ليس بعيداً عن الأذهان. وما خفى كان أعظم.

هل يعطينا تعليم كهذا مواطنًا يصلح لأى شىء؟

وهل يمكن أن يكون التعليم، والقيم التربوية المتضمنة فيه نقيض ذلك، أى يحقق ما يصبو إليه الطرف الآخر، سعيًا للتحرر والإتقان والإبداع فى سياق نظام سياسى اجتماعى ينشد دفع حركة التطوير المجتمعى، مؤكدًا تنمية طاقات الفرد إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه، ومستهدفًا تكوين الإنسان الواعى بذاته وبما حوله، وذلك بجعله كائنًا فاعلاً قادرًا على صناعة مجتمعه وتاريخه، وفى سبيل ذلك لا يتخذ من المعلومات المقررة إلا ما هو مادة لتنمية العقل الناقد والإرادة الفاعلة.

هذان الطرفان فى النظر إلى العملية التعليمية شكلا صورتها فيما يزيد على خمسة وعشرين عامًا، يضاف إليهما ما تطلبه المنظمات الدولية من نوع محدد للتعليم المصرى، تقدم بناء عليه معوناتها له. فكيف ستنتهى بنا الحال؟ د. شبل بدران يشخص المرض وكيفية علاجه فى هذا الكتاب المهم الذى يأتى فى سياق البحث عن نظام تعليم قوى للمجتمع المصرى.

الفسطاط

خالد عزب

القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٨، ١٥١ صفحة



يبدأ المؤلف رحلة الفسطاط منذ النشأة، حين كان الفتح الإسلامى لمصر على يد عمرو بن العاص، ويقول المقريزى إنه كان فضاء ومزارع بين النيل والجبل الشرقى المعروف بجبل المقطم، وقد كانت وقتها الإسكندرية هى عاصمة مصر، ولكن بنى عمرو بن العاص الفسطاط بأمر من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين كى تكون عاصمة جديدة لمصر، وقد تضاربت الأقوال فى سبب تسميتها بهذا الاسم، فمن بين الروايات التاريخية أن هذا الاسم مشتق من كلمة يونانية هى «فسطاطوم» أو كلمة عربية هى الفسطاط بمعنى «المدينة».

وكان أول ما فعله عمرو بن العاص هو بناء الجامع الذى أنشئت حوله المدينة وتحصينها، والمعروف حتى الآن بجامع عمرو بن العاص، وقد مرت مدينة الفسطاط بالعديد من مراحل التطور والنمو العمرانى من العصر الأموى والعسكر والعباسيين، ثم دولة القطائع.

ثم يكمل بنا فصول الكتاب متحدثًا عن الازدهار الكبير الذى شهدته مدينة الفسطاط، والتى جعلتها قبلة لكل الذين يريدون مصر، فبها جامع أحمد بن طولون، وهى ممر تجارى يستقبل البضائع، بالإضافة إلى وجود منشآت ذات طبيعة خاصة مثل دار الصناعة ومقياس النيل.

وإذ يتجول بنا الكتاب فى شوارع المدينة القديمة وأزقتها وأسواقها بأبوابها المميزة، يرجع ويعدد لنا الآثار الباقية من المدينة الآن وأشهرها جامع عمرو بن العاص وكنيسة أبى سرجة والكنيسة المعلقة، ويؤكد المؤلف فى نهاية الكتاب أن تاريخ الفسطاط وتراثها يشيران إلى ملامح مهمة من مسيرة حركة العمران للمدن الإسلامية، فالمدينة مثل حى على التطور العمرانى والقدرة على البقاء.

الخبرة الإيرانية

الانتقال من الثورة إلى الدولة

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر

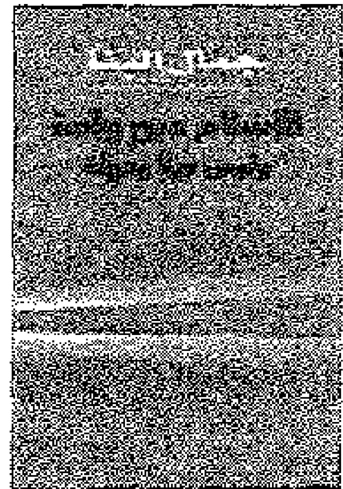


شغلت الثورة الإيرانية منذ اندلاعها فى أواخر سبعينيات القرن العشرين وحتى الآن اهتمام العديد من الدوائر الأكاديمية والسياسية والإعلامية. فقد شكلت الثورة كنموذج جديد فى السياسة والأيديولوجيا للبعض تحديًا على كل من المستوى السياسى والأيديولوجى، وشكلت للبعض الآخر نموذجًا وقدوة تحتذى. ومن ناحية أخرى، شكل النظام السياسى الإيرانى الذى تشكلت لبناته الأولى منذ اليوم الأول لنجاح الثورة مادة خصبة لدراسات العلوم السياسية سواء فى مجال نظام الحكم أو العلاقات الخارجية. فقد طرح النظام السياسى الإيرانى خبرة جديدة للعلاقة بين الدينى والسياسى، فى وقت استقر فيه على الفصل بينهما انطلاقًا من أن هذا الفصل يسمح بنمو وتطور أفضل لكليهما بعيدًا عن الآخر. وجاء النظام الإيرانى ليرسم شكلاً جديدًا لنظام سياسى يضع فيه الدينى فى قلب النظام، والفقيه على رأسه، ويرسم شكلاً متمايزًا للعلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذلك الخارجية للمجتمع الإيرانى. فقد اتخذت السياسات الخارجية للنظام الجديد منحى مختلفًا عن سياسات نظام الشاه: فبعد علاقات متمايزة واستراتيجية مع الولايات المتحدة الأمريكية والقوى التقليدية فى المنطقة العربية جاء النظام الجديد حاملاً معه خطابًا راديكاليًا هاجم فيه قوى الاستكبار وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وتعهد - لفظيًا - بالدفاع والتحالف مع قوى المستضعفين فى الأرض.

الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة

جمال البنا

القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٨، ٤٠٨ صفحة



هذا الكتاب دراسة إسلامية، وثقافة اجتماعية، وسياسية: تبين أن موضوع الدولة أو الحكم فى الإسلام لا يجوز أن يقتصر على الكتابات الإسلامية كما هو الدأب المألوف. فيعود الكاتب إلى ما كتبه الماوردى فى الأحكام السلطانية، وابن تيمية فى السياسة الشرعية، ويتصفح تاريخ الطبرى، والبداية والنهاية، ويعود إلى الأحاديث صحيحها وسقيمها، ويعتبر أن دوره ينتهى عند هذا. إن ما فات هؤلاء الكتاب أن الحكم - إسلاميا أو غير إسلامى - هو الحكم، وأن له طبيعته الخاصة التى لا يمكن لأى صفة تعلق به أن تجرده منها، وإنما قصارى ما يمكن أن تصل إليه هو أن تضيف إليها أو تنقص منها بعض الصفات دون أن يؤدى هذا إلى تغيير طبيعتها.

وأدت دراسة الحكم منذ أن ظهر من أقدم العصور حتى العهد الحديث إلى المبدأ المحورى الذى حكم سياق وروح الكتاب، فكانت هذه الدراسة.

الأستاذ جمال البنا أحد كبار المفكرين الإسلاميين العقلانيين والذى لا يخاف فى الحق لومة لائم حتى ولو تعارض ما وصل إليه فى أبحاثه مع التفكير السائد، معتمدًا دائما على القرآن الكريم أولا وأخيرًا، وضبط السُنّة بضوابط القرآن، وعدم التقيد بما قد يكون قد وضعه الأسلاف من فنون واجتهادات ومذهبيات تأثروا فيها بروح عصرهم، وسيادة الجهالة واستبداد الحكام وصعوبات البحث والدرس

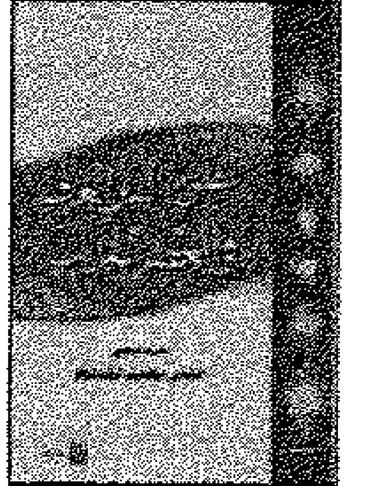
فانعكس ذلك على تفاسير القرآن وأحكام الفقه وفنون الحديث وأقحم فيها مفاهيم دخيلة ومناقضة لروح الإسلام.

■

تطور النثر العربي في العصر الحديث

حلمي محمد القاعود

دار النشر الدولية - ٢٠٠٨



اللغة - أية لغة - تظل صورة للأمة التي تعبر عنها، ومقياسًا تقاس به قوتها وحضارتها وثقافتها، والمثال الواضح على ذلك: لغتنا العربية، فقد نهضت منذ مطلع البعثة المحمدية، ووصلت إلى الذروة مع العصر العباسي، واحتضنت تراثًا ضخمًا في شتى الفنون والعلوم، حتى جاء الاجتياح التتري الذي أسقط بغداد (عام ٦٥٦ هـ)، والزحف الصليبي الذي استولى على الشام والقدس (بدءاً من عام ١٠٩٥)، فتم تدمير معظم هذا التراث بمعرفة التتار أو سرقته بمعرفة الصليبيين، ولكن الأمة تماسكت وهزمت هؤلاء وأولاء، وحررت أرض الإسلام من قبضة الهمجية الغازية، وظهر كُتّاب الموسوعات الذين راحوا يسجلون ما استطاعوا من هذا التراث الضائع في كتبهم، أو في مخطوطاتهم التي ضمت جزءاً غير يسير من إنتاج القرائح العربية الإسلامية.

بيد أن الظروف السياسية والاجتماعية، لعبت دوراً كبيراً في الهبوط بمستوى الفكر والثقافة والأدب، ثم جاء تراجع التعليم، ليضع «اللغة» أو الكتابة الأدبية في زاوية ضيقة، أذهبت توهجها وسطوعها، ويلقي عليها بظلال معتمة تركتها تسبح في أغلال البديعيات المتكلفة، أو العاميات المبتذلة أو القضايا السطحية الهامشية، أو الشروح التي لا تضيف جديداً في الغالب..

هكذا كان شأن اللغة العربية، وشأن العرب والمسلمين، حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي تقريباً، حيث أذّن مؤذن اليقظة والنهضة، وبدأ عصر جديد فيه كثير من الآلام والآمال، عذابات تحت نير الهمجية الاستعمارية الصليبية، التي لا تمت لشريعة المسيح عليه السلام بسبب، وطموحات الاستقلال والتحرر من قبضة الغزاة والتخلف والاستبداد جميعاً!

وفي ظل ذلك الوضع، نشطت حركة أدبية جديدة في الشعر والنثر، وأسهمت عوامل مختلفة في تحريك المجتمعات العربية والإسلامية، خاصة في مصر والشام، نحو العلم والمعرفة، والأخذ بأساليب حياتية جديدة، تتناغم مع ما يجري في الغرب القوي من تطور وتحديث.

وفي هذه الدراسة صورة مركزة لتطور النثر العربي، تعتمد على الإنتاج النثري الذي ظهر في العصر الحديث منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي حتى فترة السبعينيات في القرن العشرين تقريباً؛ وكان من الطبيعي الاهتمام بأبرز الكُتّاب والنصوص، حتى يمكن للقارئ أن يستوعب حركة الأدب العربي الحديث، في شطره النثري الإبداعي، بصورة شاملة في خمسة فصول يسبقها تمهيد، يتناول المرحلة التي سبقت العصر الحديث في أدبنا العربي، وفيها محاولة لتصحيح بعض الأفكار أو الأحكام التي سادت عن هذه المرحلة، وطبيعة الأدب الذي كان قائماً فيها.

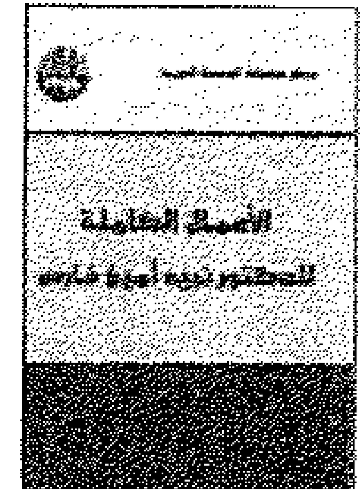
في الفصل الأول دراسة للعوامل التي أدت للنهضة الأدبية الحديثة، ويتحدث الثاني عن المقال وتطوره الفني، وخصص الثالث للقصة القصيرة ورموزها وروادها الأوائل، وجاءت الرواية في الفصل الرابع، وأما الخامس فللمسرحية مع التركيز على مسرح توفيق الحكيم.

■

الأعمال الكاملة

نبيه أمين فارس

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٨ ، ١١٢٠ صفحة



يضم هذا الكتاب بين دفتيه الأعمال الكاملة للدكتور نبيه أمين فارس؛ وهي: الكتب الخمسة: «العرب الأحياء»، و«غيوم عربية»، و«من الزاوية العربية»، و«هذا العالم العربي»، و«دراسات عربية»، كما يضم خمسة وأربعين بحثاً في مسائل وقضايا العرب، والإسلام، ولبنان، وأربعاً وعشرين مراجعة لكتب تراثية وحديثة، ومقدمات الكتب العشرة التي حررها، أو أسهم بترجمتها، أو قام بتحقيقها، إضافة إلى ما كتبه من مقالات صحفية عكست رؤاه الإنسانية والوطنية والقومية.

لقد صدر هذا النتاج الغني، والمتنوع، عن أكاديمي بامتياز، ومؤرخ محقق، وناقد سياسي ملتزم قضايا أمته، وقوميته حتى «الاحتراق»، فتبدت في أعماله، ولاسيما الجانب القومي منها، مفاهيم تأصيلية، واتجاهات في التنظير السياسي، مواقف تُنبئ عن إدراك الأمور على حقيقتها، ووعي مجمل الأحداث التي شهدتها المنطقة العربية، والتحولات التي استجدت بفعل الانعتاق عن الإمبراطورية العثمانية، وما أفرزته الحروب والمعاهدات، من بَعْدُ، من معطيات سياسية واجتماعية واقتصادية أنهكت الوطن العربي، وجزّأته، إضافة إلى ما استُنبت من فساد وتخلّف ومنازعات طائفية ومذهبية، وحتى عصبية قبلية - عشائرية، ما جعل الصمود العربي حائراً بين النضال من أجل دحر المستعمر والإصلاح الداخلي لبنيان المجتمع.

وبقدر ما كان واقع الأمة جلياً في فكر المؤلّف، كانت سُبُل التغيير واضحة، مشرقة في قلبه وعقله وعزمه، فـ«لا حاجة للعربي أن يستسلم إلى اليأس، فشمس العروبة، لا محالة، مشرقة»، وهي العروبة العلمانية، حيث يشترك فيه العرب من مختلف أديانهم ومذاهبهم، وهي العقيدة المتأصلة في قيمة الفرد وكرامته، التي تستوحي فكرة الحرية وتنهج التطور والنمو.

وهي عروبة تتمثل في وحدة عربية «اتحادية» ترتكز على اللغة العربية والتربية التاريخية.

سِفْر فكري، يعكس قلق العربي وآماله، في آن، ويعلو برؤاه العلمية، والسياسية، والاجتماعية ليكون، بحق، مرجعاً ثميناً في المكتبة العربية.

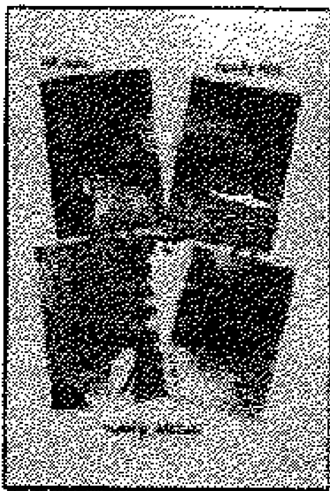
من هنا، تبرز أهمية نشر هذه الأعمال الكاملة التي قام بها مركز دراسات الوحدة العربية، انطلاقاً من سياسة المركز العلمية بنشر أعمال رموز الفكر العربي المعاصر الوحدوي والقومي.

■

١/٤ جرام

عصام يوسف

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ٦٠٠ صفحة



أصدرت الدار المصرية اللبنانية الطبعة الثالثة من رواية عصام يوسف «١/٤ جرام»، وهي الرواية التي لاقت صدى كبيراً في الأوساط الأدبية، حتى إنها وضعت في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في عام ٢٠٠٨، وهي رواية تعد خطوة مهمة في مجال الرواية التسجيلية، وقد قالت عنها الكاتبة سلوى اللوباني على موقع إيلاف: «لم أبك في حياتي أثناء قراءة رواية كما بكيت وأنا أقرأ رواية ١/٤ جرام.. رواية واقعية جداً.. رواية مؤلمة وحزينة، رواية تتحدث عن إدمان مجموعة من الشباب في العشرين من العمر. كل من عرف مدمناً عن قرب أعتقد أنه سيتفهم تماماً هذه الرواية بتفاصيلها الحقيقية إلى أبعد الحدود.. رواية تحمل من البعد الإنساني الكثير والكثير.. رواية تستطيع أن تصل إلى قلبك ومشاعرك.. أن تلمس الهم الإنساني الذي بداخلك. لغة الرواية بسيطة.. بعيدة عن أي تعقيدات.. اعتبرها رواية تسجيلية لقصة أو تجربة واقعية بحذافيرها ولا أبالغ إذا قلت بأدق حذافيرها.. حتى اللغة المستخدمة بين مجموعة الأصدقاء المدمنين نجح الكاتب أن ينقلها لنا كما هي دون أي تعديلات أو إضافات. وأقول إنها رواية يجب أن تؤخذ في الاعتبار من قبل الهيئات الحكومية والمنظمات ومن الأطباء أيضا.. فهي على قدر من الأهمية ببعدها الاجتماعي وبعدها التاريخي. فهي تتحدث عن مأساة ضياع جيل من الشباب من خلال المخدرات ومازالت هذه المأساة مستمرة.. تساؤلات كثيرة تطرح هنا.. هل بالفعل من المهم علاج المدمن؟ أم الأهم إقفال جميع منافذ بيع المخدرات؟ أم إعدام تجار المخدرات دون حتى أي محاكمة؟ ومتى ستتوقف هذه التجارة القاتلة رأفة بشبابنا؟ هل نلوم الشباب؟ أم نلوم الأهل؟ هل بإمكان هذه الرواية الواقعية أن تكون حافزاً للشباب المدمن للعلاج؟ واذكر هنا أن الطبعة الأولى قد نفدت خلال شهر من صدورها في مارس ٢٠٠٨ وتترجم حالياً إلى اللغة الإنجليزية وسيتم توزيعها خارج مصر وداخلها من خلال الدار المصرية اللبنانية».

أما المؤلف عصام يوسف فيقول عن روايته في حديث لـ «إيلاف» معه ولماذا قرر الآن كتابة مثل هذه الرواية أجاب: مرت فترة طويلة.. أكثر من ١٥ سنة على هذه التجربة.. هكذا تكون هناك مصداقية في الأحداث وفي الرسالة التي أريد أن أوصلها للمدمن أولا.. وللأهل ثانياً وللحكومة ثالثاً.

الرواية تقع في ٦٠٠ صفحة وأرى أنها طويلة وقد كان بالإمكان حذف بعض من التفاصيل التي وردت فيها إلا أن الكاتب يجيب عن ذلك: بأنه كتب كل هذه التفاصيل لأن الرواية ليست موجهة فقط للمدمنين.. هناك تفاصيل يحتاج أن يعرفها المدمن.. وتفاصيل أخرى للدكتور النفسي.. وأخرى للأهل.. وأخرى للجيل الجديد من الشباب. وهذه كانت مشكلتي في الكتابة أنني أخاطب أكثر من جهة أو شخص.. أريد أن أوصل الصورة لكل الفئات.. والناس عادة تتحدث عن المشكلة ولا تتناول الحل.. أما أنا فتناولت الحل وهو الجزء الذي أخذ مني ٦ أشهر كتابة.. لأنه احتاج إلى البحث والقراءة عن العلاج وحتى أستطيع أن أصوغه بطريقة سهلة للجميع».

■

اسمهان.. تروى قصتها

محمد التابعى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨ ، ٢٨٤ صفحة



أسمهان هي واحدة من أساطير الغناء العربي الحديث. استطاعت رغم حياتها القصيرة (من١٩١٢ إلى ١٩٤٤) أن تتربع على عرش الأغنية. لكنها من ناحية أخرى احتفظت بموقع المطربة الأكثر إثارة للجدل؛ منذ لحظة ميلادها على ظهر السفينة التي هربت بوالدها سرا من تركيا، وحتى وفاتها المريبة في حادث سيارة مروع، ومرورا بعلاقاتها الخاصة وزواجها من أشهر الرجال في عالم الفن والصحافة والسياسة، متنقلة بين البلدان والجنسيات.

أما القصة الأكثر إثارة في حياة أسمهان فستظل دائما ملف علاقاتها بالمخابرات الانجليزية والفرنسية وتوسطها السياسي بين كل منهما وبين أسرة الأطرش، فهل هذه إذن حقيقة تاريخية؟ وما الدوافع والملابسات التي تقف وراء الحكاية برمتها؟

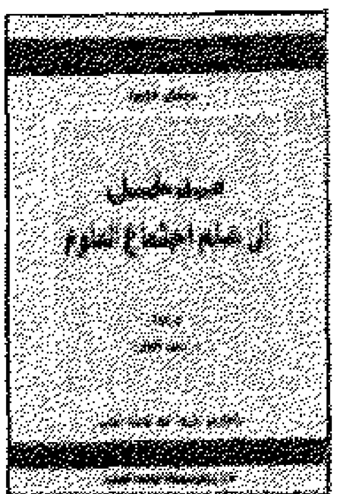
نقرأ في هذا الكتاب سيرة الفنانة الكبيرة بكل هذه التفاصيل، كما روتها بنفسها وكما عاشها معها «محمد التابعي» أمير الصحافة المصرية وأحد أهم روادها. والذي جمعته بأسمهان علاقة طويلة نتتبع خيوطها داخل الكتاب مكتشفين فصلا بعد آخر إجابات مقنعة وممتعة ومنصفة عن حياة الصوت الساحر الذي جمع بين طرب الشرق وحداثة الغرب.

مدخل إلى علم اجتماع العلوم والمعارف العلمية

ميشال دوبرا

ترجمة: د. سعود المولى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨ ، ٥٤٣ صفحة



يقدم هذا الكتاب إلى القارئ المتخصص وغير المتخصص، على السواء، عرضاً شاملاً للجوانب الأكثر دلالة في علم اجتماع العلوم الذي شهد تقدماً كبيراً خلال العقود الماضية.

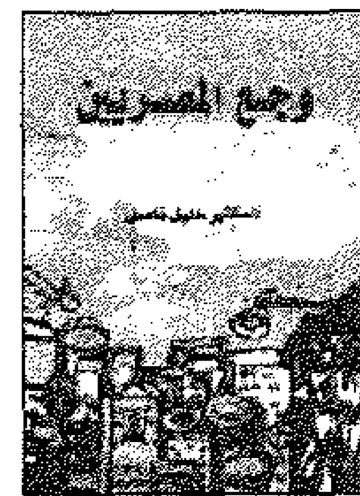
لقد ساهم علم اجتماع العلوم، إلى جانب تاريخ العلوم وفلسفتها، في إغناء معرفتنا بشروط اشتغال التجربة العلمية. فمن خلال تحليله أشكال الاتصال والتواصل بين العلماء الباحثين، ودور المعايير والقواعد المهنية، وكيفية إعداد المقالات العلمية للنشر، وحتى كيفية إجراء اختبار عملي داخل المختبرات، يقوم علماء الاجتماع بسبر أغوار الآليات الاجتماعية والمعرفية التي تفعل فعلها في بلورة الابتكارات العلمية وفي تعميمها. في هذا الكتاب صورة واضحة ودقيقة عن ذلك.

وجع المصريين

خليل فاضل

منشورات خليل فاضل

القاهرة ـ ٢٠٠٨



هذا ليس نصاً أدبياً، وليس نصاً نفسياً اجتماعياً خالصاً، إنه نص له خصوصيته الشديدة، وله عموميته الرحبة المتسعة الضامة الملمة.. في هذا الكتاب كتب المؤلف عن عوالم بشرية تبدأ من الواقع تضيف إليه وتسرق منه. في هذا الكتاب يدعونا خليل فاضل للبحث عن الشمبانزي الاجتماعي الموجود فينا ومعنا، ذلك الذي يملك شبكة علاقات اجتماعية مع الناس في العشوائيات، القرى، الشركات، قاع المدينة، والهضاب المحيطة بالعاصمة، يسكن كالحيات في خبايا القرى الساحلية الشمالية. شمبانزي كون كياناً مستقلاً يمكن الاصطلاح عليه بالكيان (المبهظط).. اصطلاح مناسب لثقافة (مشى حالك البهظظة، الشرعشة والطعطعة). هكذا نحن المصريون نتطبع مع الواقع المر المعاش تدريجياً حتى نعتاده مثل الذي اعتاد رائحة العفن فزكمت أنفه ولم يعد قادراً على الشم.. إن قلم المؤلف قد انغمس بالفعل في جروح المجتمع وأوجاعه، سبر أغوار الحياة اليومية للمصريين، حتى يخيل لك وكأنك تعيش في بيوتهم مع زفراتهم وتنهداتهم وفي عمق المسكوت عنه في علاقاتهم في (الشارع لنا)؛ يتعرض الكتاب لأطفال الشوارع، الفساد الأخلاقي، الخوف من الحميمية، التربص بالآخر، وفي (الأسرة وأحوالها) يناقش مشكلة الأب الحاضر الغائب.. اكتئاب المرأة المصرية.. المراهقة والمراهقون.. عواصف السنة الأولى زواج، قلة ممارسة الجنس وراء الخلافات الزوجية.. ولماذا تخلع بعض النسوة أزواجهن؟.. كيف نخبر أطفالنا بالطلاق، الزواج العرفي.. طلاق الأقباط والعنوسة.. وفي (التعليم والتربية) يناقش العنف المدرسي.. بعبع الثانوية العامة.. الآثار النفسية للمدارس الأمريكية.. وفي (الصحة والعلاج) يتعرض إلى أوجاع أجساد المصريين.. انتشار أمراض القلب.. مفهوم «الجسدنة»، و«النفسنة» احتياجنا إلى معلمين لفن الحياة أكثر من احتياجنا إلى أطباء.. أزمة التأمين الصحي.. بارونات الدواء.. الجنس ومشكلاته.. وفي (صحتنا النفسية) من الجنون إلى الانتحار.. نفسيتنا قضية أمن قومي.. معنى الجنون الاجتماعي.. لماذا ينتحر المصريون.. والمصريون والاكتئاب.. أما في (إدمان المخدرات)، فيناقش الكتاب الإدمان والناس في بر مصر، المخدرات، تجارتها.. العلاقة بين الخلل الأسري، والسلوك الإدماني، ولماذا ينتكس المدمنون.. وبسرعة؟

ادعاءات اليهود حول الهيكل

عبدالله علي سمك

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٨، ١٥٠ صفحة



هل كف اليهود في أي وقت من الأوقات، عن ادعاءاتهم حول المسلمين، والعرب واغتصاب تراثهم وآثارهم وكل ما يتعلق بتاريخهم؟ هل هدأت الحركات الصهيونية في محاولاتها المحمومة لتأسيس قواعد مزيفة للدولة اليهودية وللكيان المغتصب؟

التاريخ يقول لنا إن تلك المحاولات دائمة ودائبة تخفت حيناً وتستعر في أحيان أخرى، لكن علماء العرب والمسلمين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تلك المحاولات، ولم يستسلموا أو يخضعوا أمام ذلك التحدي الخطير الذي يتعلق بدينهم وأوطانهم، والتاريخ يقول لنا أيضاً إن العلماء المسلمين خاضوا ذلك التحدي مسلحين بالعلم وبحقائق التاريخ والجغرافيا، وبالاكتشافات الأثرية، ليدحضوا مزاعم أعدائهم الدائمين: اليهود.

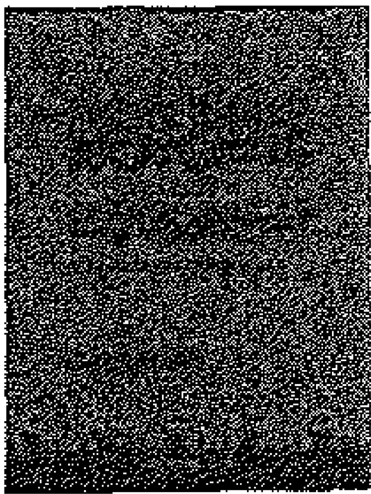
أحد أولئك العلماء هو الدكتور عبدالله علي سمك الذي تسلح بعلمه وغاص في قلب التاريخ مستعيناً بالخرائط والصور القديمة ليخرج لنا بكتابه الجديد: ادعاءات اليهود حول الهيكل دارساً فيه أهم القضايا التي تتعلق بالمسجد الأقصى والمنارة حالياً. وادعاءات اليهود حول هدمه وتشييد هيكل سليمان على أنقاضه. فما حقيقة الهيكل المزعوم وما ادعاءات اليهود حوله؟ وهل لليهود حق في تدمير المسجد الأقصى وإعادة بناء ذلك الهيكل مكانه؟ جاء الكتاب الوثيقة في ثلاثة مباحث: الأول، حقيقة الهيكل، والثاني الادعاءات اليهودية حوله، والثالث، مناقشة تلك الادعاءات ومزاعم اليهود.

وقد زوّد المؤلف كتابه بملاحق توثيقية مثل: اقتباس الهيكل من الطراز الفرعوني، وهيكل هيرودوس ورسم توضيحي للهيكل، وموقع القدس في خارطة فلسطين، وصور المسجد الأقصى على مر التاريخ. وكلها وثائق تكشف زيف هذه الادعاءات اليهودية ليضعها أمام القارئ المعاصر ليلم بأبعاد القضية الخطيرة التي يثيرها اليهود دائماً لإثبات حقهم في استعمار الأرض واغتصاب التاريخ. إنها وثيقة تاريخية تأتي في وقتها تماماً تعيد للعرب عامة وللمسلمين في كل مكان، وللفلسطينيين على وجه الخصوص الثقة في أنفسهم وفيما لديهم من كنوز. وتقول باختصار إن الحق عائد إلى أهله، فما ضاع حق وراءه مطالب.

مجالس الشورى في عصر سلاطين المماليك

عثمان علي عطا

القاهرة: الدار الثقافية للنشر



يتناول البحث «مجالس الشورى في عصر سلاطين المماليك»؛ يقول المؤلف إن ما حفزه على تناوله بالدراسة ما رآه من تعرض الدولة المملوكية لكثير من الاتهامات التي وجهها إليها بعض الباحثين، وكان من أهمها: أنها دولة عسكرية استبدادية، وكان المستشرق الإنجليزي وليم موير أول من ادعى هذا من المستشرقين في كتابه «دولة المماليك في مصر»، وتابعه في ذلك بعض الباحثين العرب، منهم: «أنور زقلمة» في كتابه «المماليك في مصر»، زعم فيه أن سلاطين المماليك كانوا يعاملون الشعب المصري معاملة استبدادية، مما جعل الشعب المصري يعيش في خضوع واستكانة، وسلم بعض الباحثين بهذا الادعاء، ونظروا إليه على أنه حقيقة مسلمة لا مجال للشك فيها، ولم يحاول أحد منهم دراسة نظام

الشورى بخصائصه وقواعده الأساسية في هذا العصر لاستجلاء حقيقة هذا الادعاء وتفنيده والرد عليه.

وفي المقابل كان هناك قليل من الباحثين أشاروا إلى وجود مجالس الشورى في هذا العصر، ورأوا أن وجود هذه المجالس لم يكن ملزماً لسلاطين المماليك، وكان الرجوع إليها متروكاً لرغبة هؤلاء السلاطين وكان وجودها للاستئناس بها فقط لا للإلزام؛ ولهذا رأيت أنه من الواجب عليّ أن أجلي هذه المسألة بنظرة منصفة توضح حقيقة هذا الأمر، ووجدت نفسي مضطراً لمراجعة كثير من المصادر والمراجع التي تناولت الجوانب المختلفة لهذا العصر، وكذلك لما يكتنف هذا الموضوع من غموض شديد، وافتقار المكتبة التاريخية المملوكية - على الرغم من كثرة الدراسات بها - إلى دراسة جادة توضح موضوع مجالس الشورى، وتبين معالمه، وتظهر الجوانب الإيجابية في نظام الحكم في العصر المملوكي، لمواجهة النظرة السلبية التي حاول بعض الكتّاب إلصاقها بالدولة المملوكية ونظمها.

وينقسم البحث إلى ستة فصول تعقبها خاتمة تتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

فيتناول في التمهيد تعريف الشورى لغة واصطلاحاً، ثم عرض لمبدأ الشورى في الإسلام وتطبيقاته في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم في عهد الخلفاء الراشدين، كما تعرض لبعض القضايا حول الشورى في الفقه الإسلامي، وهل هي ملزمة للحاكم أم لا؟، ومجال الموضوعات التي يمكن إجراء الشورى فيها، والصفات التي يجب أن يتصف بها أهل الحل والعقد (أعضاء مجالس الشورى)، ثم تطبيقات الشورى في مصر قبيل العصر المملوكي.

وخصص الفصل الأول للحديث عن الهيكل التنظيمي لمجالس الشورى في هذا العصر.

أما الفصل الثاني، فقد اقتصر على تحليل مجالس الشورى السياسية، مثل: مجالس تولية الخلفاء العباسيين في مصر، وكيفية اختيار الخليفة، والمجالس التي قامت باختيار السلاطين وتوليتهم، والمجالس التي قامت بعزل بعض السلاطين، وأسباب ذلك، وكيفية اختيار السلاطين.

واختص الفصل الثالث بالحديث عن «مجالس الشورى الإدارية والاقتصادية»، والمجالس الإدارية تنحصر في مجالس اختيار الولاة والموظفين، ومجالس اختيار قضاة المذاهب الأربعة وتعيينهم، ومجالس محاسبة الموظفين الذين ثارت حولهم الشكوك وتورطوا في اختلاس الأموال.

أما الفصل الرابع فيتناول «مجالس الشورى الدينية»، مثل: مجالس الدعاوى، والمجالس التي كانت تعقد لمناقشة المنازعات بين الأفراد حول العقارات أو الأوقاف، ومجالس الفتاوى الدينية التي عقدها سلاطين المماليك للاسترشاد بها في بعض الموضوعات المهمة. ومنها - أيضاً - مجالس استئناف أحكام القضاة، ومجالس شورى المظالم التي كان يعقدها السلاطين لمناقشة الشكاوى التي يرفعها إليهم أفراد الشعب ضد الأمراء والموظفين.

ويعرض الفصل الخامس لمجالس الشورى الخاصة، ومجالس المناظرات الدينية ومجالس تعيين مدرسي المدارس الدينية ومناقشة مدى صلاحيتهم لهذه الوظيفة.

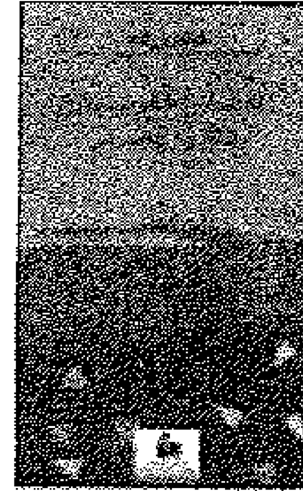
أما الفصل السادس: فهو «دراسة نقدية لمجالس الشورى في العصر المملوكي»، واحتوى على دراسة نقدية توضح الإيجابيات التي نتجت عن مجالس الشورى، وأهم السلبيات التي شابتها عند التطبيق وأسبابها، كما تعرض للمجالس الصورية (الشكلية) والحقيقية، وقرارات المجالس ومدى إلزامها للحكام، وطرق سيطرة الحكام على قرارات المجالس، وموقف الحكام من أعضاء المجالس بعد عقدها.

■

العلماء والفرنسيس في تاريخ الجبرتي

خالد زيادة

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٨، ١٤٤ صفحة



في هذا الكتاب يثبت المؤلف مقولته بأن التاريخ الوطني المصري لمصر الحديثة قد مر من البوابة الإجبارية التي هي «تاريخ عجائب الآثار» للمؤرخ الشهير الجبرتي. ذلك أن مجلدات المؤلف المذكور سمحت بكتابة تاريخ اجتماعي لمصر المملوكية من خلال التفاصيل الكثيرة التي أوردها الجبرتي بخصوص الفئات الاجتماعية وأمراء المماليك ومشايخ الأزهر والحرفيين وعامة الشعب. ورغم تراجع الاهتمام بالجبرتي نسبياً بسبب تراجع كتابة التاريخ «الوطني» والانتقال إلى التأريخ الاقتصادي والاجتماعي وبسبب اكتشاف مصادر جديدة تمثلت خصوصا بوثائق المحاكم الشرعية، فإن أهمية الكتاب في أنه يرصد المجابهة بين التأريخ التقليدي والأزمنة الحديثة، ومدى استجابة المناهج التقليدية للأوضاع المتغيرة وحدود ذلك من خلال إعادة قراءة في التراجم والأخبار على السواء.

تتألف الدراسة من مقدمة و«مدخل إلى الجبرتي» ثم ثلاثة فصول بعناوين «التصوف والتاريخ - العلم والعلماء في القرن الثامن عشر - القاهرة: بداية التغريب العمراني». وهو غني بالوقائع والمراجع.

■

حقائق وشبهات حول تعدد الزوجات

عبدالله سمك

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨



صدر حديثاً عن الدار المصرية اللبنانية كتاب «تعدد الزوجات حقائق وشبهات»، من تأليف الداعية الإسلامي د. عبدالله سمك. والكتاب يعد الجزء الأول من سلسلة يعتزم المؤلف والدار إصدارها لتوضيح حقائق الإسلام السمح، ودحض الأباطيل التي تثار حوله والشبهات التي يروجها أعداؤه والقيام بالرد عليها بمنطق وسند نقلي، بما لا يخالف روح العصر.

ومن هذه الأباطيل والشبهات موضوع تعدد الزوجات، وهو الموضوع الذي يثار دائماً من قبل منظمات حقوق الإنسان، والمنظمات النسائية العالمية باعتباره تمييزاً ضد المرأة ودليلاً على رجعية الإسلام، وعدم مراعاته نفسية المرأة التي يتزوج عليها زوجها.

وفي هذا السياق حصر د. عبدالله سمك خمس شبهات تثار في هذه المسألة: الأولى: أن تعدد الزوجات نظام بدائي شرعه الإسلام مراعاة لطبيعة العرب الشهوانية. الثانية: تعدد الزوجات أمر دنيوي لا ديني. الثالثة: نفي العدل بين الزوجات، دليل على امتناع التعدد بدليل قوله تعالى: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء». الرابعة: تعدد الزوجات ظلم للمرأة وإهدار لكرامتها وتمييز للرجل عنها، وسبب لفساد الأسرة، وتشرد الأطفال. الخامسة: لو كان التعدد مباحاً ما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من الزواج على فاطمة رضي الله عنها.

ثم يذهب بعض هؤلاء المغرضين إلى أن تعدد الزوجات للرسول دليل على شهوانيته وحبه للنساء.

وهنا يقف المؤلف، بما عرف عنه من دامغ الحجة وناصع السند ليفند هذه الشبهات بعد أن حصر ملامحها شبهة فشبهة، مستخلصاً من خلال ذلك الحقائق التي ترد في هذا الموضوع، ومختتماً الكتاب بسيرة أمهات المؤمنين، وذلك كله لا يتم استرسالاً أو انطباعاً، وإنما من خلال الرجوع إلى المصادر المعتبرة والمعتمدة في بابها.

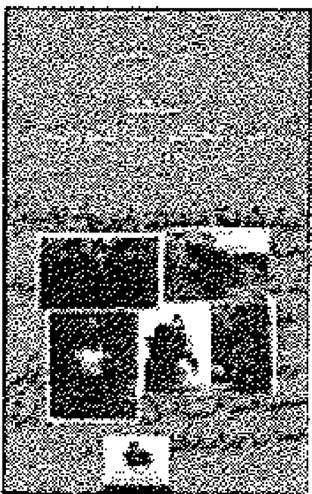
الكتاب يتلمس آفاق الدعوة المستنيرة إلى أن نحكم عقولنا وقلوبنا ولا نقف عند بوابة العقل المجرد وحده لتستبين الحقائق على وجهها الصحيح.

■

شاهد من المخابرات السورية ١٩٥٥ - ١٩٦٨

فوزي شعيبي

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٨، ٢٢٠ صفحة



في هذا الكتاب يحدد فوزي شعيبي ضابط المخابرات السوري الذي تولى مهمات دقيقة في بلاده ما بين عامي ١٩٥٥ و١٩٦٨ أربع محطات مفصلية في تاريخ سوريا وحياته المهنية يفرد لها أربعة فصول تحمل العناوين الآتية: اللقاء الأول مع عبدالحميد السراج - قيام الوحدة بين مصر وسوريا - الانفصال - ثم العمل لإعادة الوحدة بين مصر وسوريا.

وخلال تلك الفصول يروي المؤلف عشرات الأحداث المصيرية التي شارك هو في صنعها أو تولاها بنفسه أو كان شاهداً عليها.

هكذا يقع القارئ على الكثير من أسرار تلك المرحلة، حيث يصوب المؤلف بعض ما كُتب ويضيء على محطات مهمة أهمها «مؤامرة حلف بغداد» ونسف أنابيب محطات النفط في سوريا في عهد الرئيس شكري القوتلي مروراً بتفاصيل شبكة تجسس مرجعيون وإعدام أعضائها إلى الوحدة بين مصر وسوريا وتداعياتها إلى مقتل فرج الله الحلو إلى الانفصال ووصولاً إلى حرب ١٩٦٧ وتنحي الرئيس عبدالناصر عن الحكم ثم عودته عن الاستقالة وانتحار المشير عبدالحكيم عامر.

«شاهد من المخابرات السورية» ليس كتاب تاريخ فحسب، بل هو فعل إزاحة الستار عن الكثير من المعلومات والتفاصيل السياسية والأمنية والألغاز التي لاتزال تحيط بأحداث تلك الفترة من تاريخ سوريا والمنطقة على ما فيه من معلومات القول: «وشهد شاهد من أهلها».

■

الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 119 - December 2008

مجلة شهرية . العدد المائة وتسعة عشر . السنة العاشرة . ديسمبر ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

أزمات عالمية .. ودروس «غير مستفادة» !

اقتصاد المسلمين !

أوراق عبد الوهاب «الخاصة جداً» !!



السنة العاشرة
العدد ١١٩
ديسمبر ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد شهاب.. أستاذ قانون الأعمال الدولى جامعة ليدن.
- بورتون مالكيل.. أستاذ الاقتصاد فى جامعة برينستون.
- بول كروجمان.. أستاذ فى جامعة برينستون.
- جوئل بينين.. أستاذ تاريخ الشرق الأوسط فى جامعة ستانفورد ـ الولايات المتحدة.
- شريف عكاشة.. باحث فى علم المعجم الحاسوبى.
- علاء بيومى.. كاتب وباحث عربى مقيم فى الولايات المتحدة.
- لؤى الشواربى.. مستشار قانونى ومحاضر فى قوانين الاقتصاد الدولى العام.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- محمد البرادعى.. مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية.
- محمود محيى الدين.. اقتصادى وسياسى مصرى يشغل حاليا منصب وزير الاستثمار.
- الهاشم أسمهر.. باحث أكاديمى فى التراث العربى والإسلامى ـ من المغرب.
- وليد محمود عبدالناصر.. كاتب وباحث مصرى.
- يوسف الشريف.. صحفى.

رسوم العدد للفنانين
Kerry Waghorn, Monte Wolverton, محمد حجى
RJ Matson, Manny Francisco, Tak Bui, Jim Fitzpatrick





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٢٢٩٢٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٢٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

الحذر والتمهل ضروريان إذا ما أردنا فهم مواقف الرئيس الأميركي الرابع والأربعين



نحن... وأوباما

علاء بيومي

■■ يهدف هذا المقال إلى رصد مواقف الرئيس الأميركي الرابع والأربعين - باراك أوباما - تجاه عدد من أهم القضايا العربية من خلال ما يتوافر عنها من معلومات ووثائق أولية مثل خطابات أوباما عندما كان مرشحا رئاسيا والمواد المنشورة على موقعه بمجلس الشيوخ الأميركي.

وفى حين نركز على ثلاث قضايا رئيسية، وهى موقف أوباما من عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية، ومن حرب العراق، وتجاه إيران، نحرص على عدم التسرع فى إصدار الأحكام على الرئيس الجديد ومواقفه المقبلة تجاه العالم العربي، محاولين اثارة بعض من الضوء من خلال التركيز على رصد جذور مواقف أوباما وأبعادها وتطورها وما يعتريها من استمرارية أو انقطاع أو تناقض أو أى سمات أخرى تساعد على فهم مواقف الرئيس الأميركى المقبل.

ونؤكد منذ البداية على صعوبة رصد مواقف أوباما والتنبؤ بها بسبب حداثة عهده بواشنطن، وندرة ما يتوافر عن مواقفه السياسية من معلومات خاصة إذا قارناه بالمرشح الجمهورى للرئاسة الأميركية جون ماكين والذى صار عضوا بالكونجرس الأميركى منذ عام ١٩٨٣ أى قبل أكثر من عقدين من الزمن على فوز أوباما بعضوية مجلس الشيوخ الأميركى فى أواخر عام ٢٠٠٤.

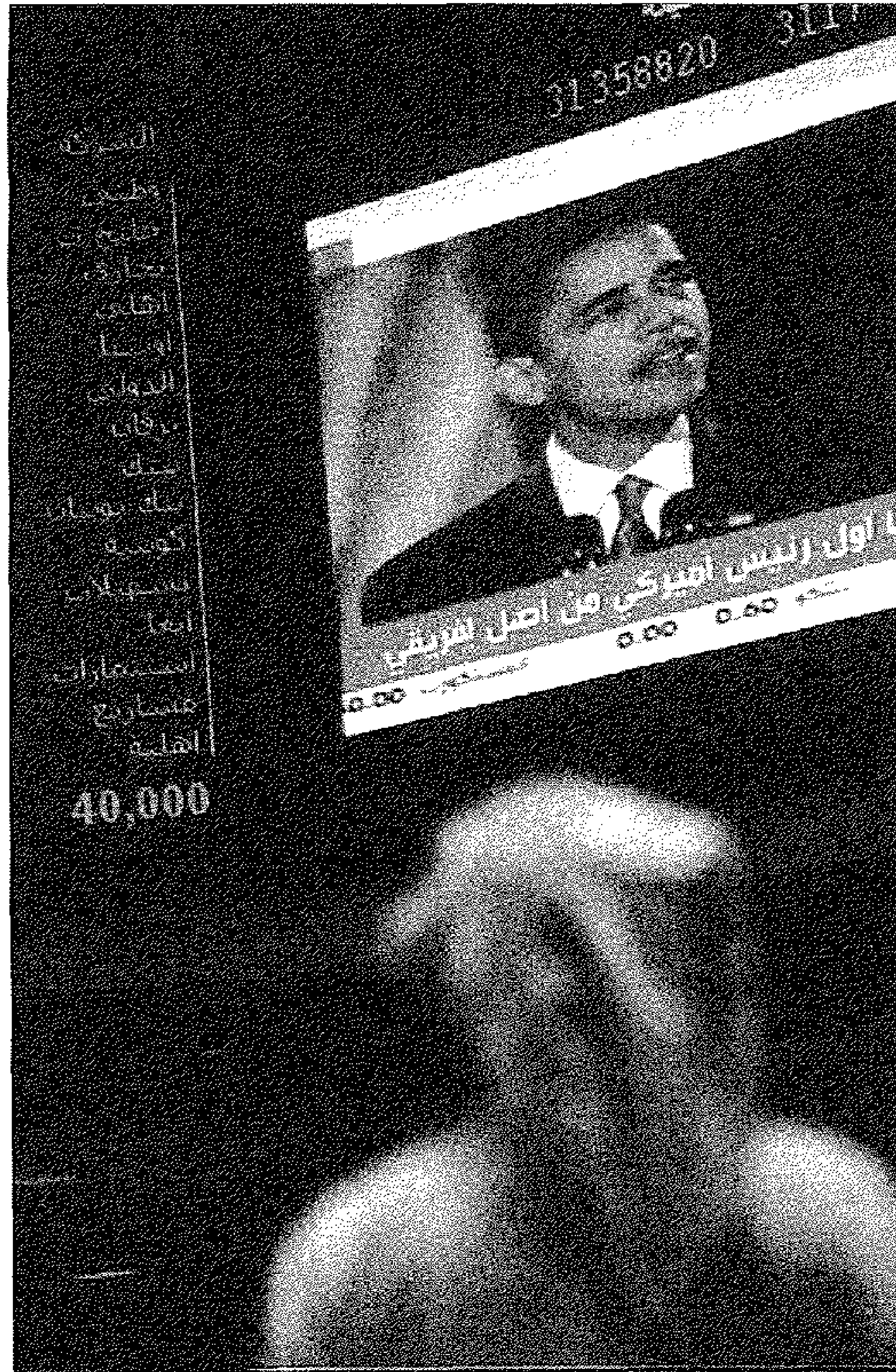
هذا يعنى من البداية أننا أمام شخصية سياسية غامضة بعض الشىء وأن الحذر والتمهل ضروريان إذا ما أردنا فهم مواقف الرئيس الأميركى الرابع والأربعين.

أولا: العراق

فى اعتقادنا أن البداية بدراسة موقف أوباما تجاه العراق - كمدخل لفهم مواقفه تجاه باقى قضايا العالم العربى - ضرورى لعدة أسباب، يأتى على رأسها الأهمية التى تمتعت بها قضية العراق فى الداخل الأميركى نفسه بين قضايا السياسة الأميركية المختلفة، هذا إضافة إلى أن العراق - كما سنرى فيما بعد - وإعادة نشر القوات الأميركية هناك همًا

للاستزادة
باراك أوباما والعالم العربي
علاء بيومي
مركز الجزيرة للدراسات
الدوحة، قطر نوفمبر ٢٠٠٨

©Yasser Al-Zayyat - AFP 2008



بمثابة نقطة انطلاق رؤية أوباما العامة للشرق الأوسط.

وذلك لأن أوباما عارض حرب العراق قبل بدايتها، حيث أعلن فى خطاب جماهيرى ألقاه فى أكتوبر ٢٠٠٢ عن رفضه لفكرة الحرب والتى اعتبرها حربا «خائبة» أو «غبية» Dumb War، لذا تميز أوباما على غيره من المرشحين الديمقراطيين للرئاسة الأميركية بموقفه المعارض للحرب قبل بدايتها، ولهذا السبب نظر إليه معارضو الحرب على أنه المرشح الأكثر «نقاء» بخصوص حرب العراق بين المرشحين الديمقراطيين الرئيسيين وهما جون إدواردز وهيلارى كلينتون واللذان ساندا قرار الحرب.

وقد حاول إدواردز الذى استقال من عضوية مجلس الشيوخ الأميركى فى عام ٢٠٠٤ - وصوت لحرب العراق فى ٢٠٠٢ - إلى أن يتبنى مواقف متشددة ضد الحرب خلال الانتخابات التمهيدية (٢٠٠٧) معترفا بأنه أخطأ فى دعمه للحرب عندما كان عضوا بمجلس الشيوخ، وعلى أنه بات أكثر المرشحين الديمقراطيين جراءة فى معارضة الحرب فى ٢٠٠٧، أما هيلارى كلينتون فقد حاولت التنصل من قضية العراق برمتها، وحاولت تصوير مواقف المرشحين تجاه الحرب على أنها متشابهة، والقول بأنها كبقية المرشحين تريد الانسحاب من العراق، مع رفضها الاعتذار عن قرارها المساند للحرب فى ٢٠٠٢.

ولكن محاولة إدواردز للالتفاف على موقفه السابق ومحاولة هيلارى تجاهل موقفها السابق لم تفلحا فى إرضاء الجماعات المعارضة للحرب والتى منحت أوباما ثقتها بفارق شاسع عن أقرب منافسيه وهى هيلارى كلينتون.

المثير هنا أن موقف أوباما من حرب العراق تميز بالوسطية منذ البداية وحتى النهاية، حيث ركز أوباما على تأكيد موقفه المعارض للحرب منذ بدايتها، وعلى أنه امتلك الرؤية والقدرة على التقدير والحكم التى مكنته من معارضة حرب أيدها عدد كبير من الساسة الأميركيين بالكونجرس وخارجه.

ورأى أوباما أن حل مشكلة حرب العراق يكمن فى إيجاد مخرج «مسئول» أو «متوازن» يحفظ للعراق قدرا من استقراره ويحفظ لأميركا قدرا من هيبتها الضائعة، لذا عارض أوباما من يطالبون بانسحاب فورى وسريع للقوات الأميركية من العراق، كما عارض من يحاولون وضع جداول زمنية صارمة لانسحاب القوات الأميركية من العراق.

موقف أوباما من حرب العراق تميز بالوسطية منذ البداية وحتى النهاية



في الوقت نفسه عارض أوباما موقف الجمهوريين المطالبين ببقاء القوات الأميركية في العراق بشكل مفتوح وغير محدد من حيث المدة وحجم القوات، كما عارض فكرة بقاء قوات أميركية دائمة في العراق على غرار ما حدث في بعض بلدان أوربا وآسيا بعد الحرب العالمية الثانية. وعارض أيضا فكرة إرسال المزيد من القوات الأميركية للعراق ضمن إستراتيجية زيادة القوات التي طبقت في أوائل عام ٢٠٠٧.

في المقابل رأى أوباما أن الحل يجب أن يكون تدريجيا وسطا يقوم على بداية انسحاب فوري لبعض القوات الأميركية ووضع سقف زمني عام لانسحاب القوات الأميركية المقاتلة والحفاظ على بعض القوات لأغراض تدريب الجيش العراقي ومكافحة القاعدة والمرتدين وضمان عدم وقوع العراق في أتون الحرب الأهلية وحماية المصالح الأميركية الرئيسية بالعراق كالدبلوماسيين الأميركيين.

ورأى أن بدء الانسحاب ووضع مثل هذا الجدول العام لسحب القوات ضرورة لكي يثبت للعراقيين وغيرهم بأن أميركا غير راغبة في البقاء في العراق بشكل دائم، كما رأى أن بقاء بعض القوات الأميركية المحدودة في العراق على المدى المتوسط ضرورة لكي تثبت أميركا لأعدائها بأنها موجودة في الشرق الأوسط وقادرة على البقاء في العراق وحماية مصالحها هناك.

كما رأى أن بدء في سحب القوات الأميركية ضرورة لأنه سوف يضغط على السياسيين العراقيين للبحث عن حلول لمشاكلهم الداخلية وسيرسل له رسالة قوية عملية مفادها أن صبر أميركا نفد.

الانسحاب

يساند أوباما تقرير «مجموعة عمل العراق» الصادر في أواخر عام ٢٠٠٦ والذي ينادي بإيجاد حل دبلوماسي إقليمي لمشكلة العراق تتعاون فيه الدول المجاورة للعراق مع أميركا في ضمان أمن واستقرار العراق، لذا يطالب أوباما بتفعيل الدبلوماسية الإقليمية والعمل مع جيران العراق كإيران وسوريا والسعودية وتركيا للبحث عن حلول لمشاكل العراق بمساعدتهم، حيث أكد على أهمية الحل الإقليمي، وذكر في أماكن أخرى أن دولا كإيران وسوريا تحاول إلحاق الهزيمة بأميركا في العراق ولكنها لا تريد أن تعم الفوضى بالعراق لأنه مثل هذه الفوضى سوف تعود سلبيا على أمن واستقرار سوريا وإيران، لذا رأى أن الحوار معهما وإشراكهما دبلوماسيا في إيجاد حل لمشكلة العراق هو أمر ضروري.

كما يركز أوباما كثيرا على ضرورة إيجاد حل سياسي داخل العراق نفسه مطالبا على وجه الخصوص بدمج الأقليات خاصة السنة في العملية السياسية بالعراق.



ومع دخول أوباما في سباق الانتخابات الرئاسية (٢٠٠٧) بدأ في وضع العراق ضمن تصور أكبر لإستراتيجية أميركا في مواجهة الإرهاب، حيث أكد على أن العراق شغلت أميركا عن الساحة الأهم للحرب على الإرهاب وهي ساحة أفغانستان، وأن العراق أضرت بمصداقية أميركا وبأمنها وبأمن أصدقائها في المنطقة وعلى رأسهم إسرائيل لأن الحرب قوت جماعات كالقاعدة وأعطت الفرصة لدول كإيران لتطوير برامجها النووية وزيادة دعمها لجماعات مثل حماس وحزب الله، كما طالب بصفة عامة بضرورة بناء سياسة خارجية لأميركا تتخطى العراق وتركز على القضايا الأخرى الهامة لأميركا وأمنها وشعبها.

كما رأى أن الحرب باتت بالغة التكاليف للجيش الأميركي الذي بات عاجزا عن مواجهة أي صراعات عسكرية طارئة بسبب انشغال الجنود الأميركيين بالعراق، وأن الجنود الأميركيين باتوا يتحملون تكلفة عجز القادة العراقيين عن إيجاد حل لمشاكلهم الداخلية.

لذا أكد أوباما أنه لو صار رئيسا فسوف يبدأ فورا في سحب القوات الأميركية من العراق في أوائل عام ٢٠٠٩ على أن يقوم بسحب غالبية القوات خلال ١٦ شهرا مع الإبقاء على عدد محدود للقوات بالتشاور مع القيادات العسكرية الميدانية وفقا للمعايير التي رصدناها سابقا، حيث أكد أوباما على أن السياسة الخارجية الأميركية باتت أسيرة لحرب العراق، وأن التخلص من الحرب وتبعاتها وإيجاد حل سريع لها بات ضرورة لكي تتفرغ أميركا لمواجهة قضايا داخلية وخارجية أهم كأوضاع الاقتصاد الأميركي المتردية وحرب أفغانستان.

ثانيا: إيران

وهكذا رأينا كيف يشعر أوباما بتبعات حرب العراق الثقيلة على أميركا وصورتها واقتصادها وجيشها وكيف يريد سحب القوات الأميركية في أسرع وقت لتوجيهها لمهام أكثر أهمية بالنسبة لأميركا وجيشها في الوقت الراهن. وعلى رأس تلك المهام تأتي إيران والتي تعرض أوباما بسببها لأكبر قدر من النقد من خصومه الديمقراطيين والجمهوريين على حد سواء خلال الانتخابات الرئاسية.

ويعود ذلك لتبني أوباما منهجا مختلفا تجاه إيران عن منهج الإدارة الأميركية الحالية، وهو منهج يقوم على الدبلوماسية كأداة رئيسية في التعامل مع إيران في مقابل المواجهة التي اعتمدتها إدارة بوش، وقد صرح أوباما منذ بداية حملته الرئاسية بأنه لن يتردد في فتح الحوار مع إيران واللقاء بالمسئولين الإيرانيين، وهو أمر بدا مؤسفا ومزعجا لعدد كبير من أنصار إسرائيل في أميركا، والذي رأوا أن موقف أوباما من إيران موقف «مهادن» يعبر عن سذاجة من قبل أوباما مما قد يعرض إسرائيل للخطر في حالة انتخاب أوباما رئيسا للولايات المتحدة.



وزاد النقد لأوباما عندما صرح في إحدى المناظرات أنه لن يتردد في الحوار مع قادة دول معارضة لأميركا ومن بينها إيران «بدون شرط»، وهو أمر تعرض بسببه أوباما لانتقادات واسعة حتى اضطر لتحويره قائلا أنه لن يلتقي بقادة تلك الدول دون إعداد كاف لتلك اللقاءات حتى يتأكد من أن تؤتي الدبلوماسية الأميركية مفعولها.

وفي ظل الصراع الانتخابي الشرس الذي شهدته الانتخابات التمهيدية بين أوباما وهيلاري كلينتون، استخدمت الأخيرة ورقة إيران في هجومها على أوباما ورأت أنها علامة على ضعفه وعدم إدراكه الخطر الإيراني. وبالطبع لم يتردد الجمهوريون في استخدام الورقة ذاتها، حتى أن جورج دبليو بوش انتهز فرصة إلقاء خطاب أمام الكنيست الإسرائيلي بمناسبة الذكرى الستين لقيام دولة إسرائيل لشن هجوم على أوباما بسبب موقفه من إيران داخل الكنيست الإسرائيلي نفسه، حيث شبه بوش موقف أوباما من إيران كموقف بعض الدول الأوربية التي «غضت الطرف» عن ألمانيا النازية في فترة ما بين الحربين العالميتين مما منح هتلر الوقت الكافي لبناء قوته العسكرية التي قادت لويلات الحرب العالمية الثانية وما ترتب عليها من ويلات في حق يهود أوربا.

أما ماكين فقد سار على درب هيلاري وبوش في نقده لأوباما بخصوص إيران وموقفه من الحوار معها، والذي نظر إليه ماكين كعلامة على عجز أوباما عن قيادة أميركا في عصر «الحرب على الإرهاب».

وعلى الرغم من أهمية الدبلوماسية في خطاب أوباما عن سياسته المستقبلية تجاه إيران. فيمكن القول أن حرب العراق نفسها تعد نقطة الانطلاق الأهم في فهم موقف أوباما من إيران. فالواضح أن نظرة أوباما لإيران حاليا وربما للشرق الأوسط تبدأ من العراق.

حيث ذكر أوباما في عام ٢٠٠٤ وقبل أن يصبح عضوا في مجلس الشيوخ الأميركي في مقابلة صحفية أن حرب العراق حدت من خيارات أميركا في التعامل مع إيران، وجعلت الخيار العسكري أو خيار الحرب صعبا في ظل انشغال القوات الأميركية الكبير بحرب العراق، وإن كان أوباما لم يستبعد الخيار العسكري أو ينفيه بشكل كامل، بل أكد مرارا على أن الخيار العسكري يجب أن يبقى على الطاولة في حالة فشل الدبلوماسية في التعامل مع إيران.

ويذكر أوباما في أماكن متفرقة أن حرب العراق كانت خاطئة من حيث هدفها، لأن العراق في ٢٠٠٢ لم يشكل تهديدا لأميركا أو لإسرائيل كالتهديد الذي شكلته إيران التي كانت تسعى لبناء سلاحها النووي في تلك الفترة، ولكن بدلا من التركيز على مواجهة إيران دخلت إدارة جورج دبليو بوش حربا لا داعي لها مع العراق، وإدارتها بأسلوب كارثي أدى إلى انشغال الجيش الأميركي بالحرب، وتقديمه تضحيات ضخمة لا داعي لها، كما أنه أضعف من صورة أميركا ونفوذها ودورها بالمنطقة، ومنح إيران الوقت والفراغ الإستراتيجي المطلوب لبناء برنامجها النووي وتقوية الجماعات الحليفة لها كشيعة العراق وحماس وحزب الله وبسط نفوذها بالمنطقة.

إستراتيجية جديدة

لذا يرى أوباما أن إستراتيجية بوش تجاه الشرق الأوسط وإيران والعراق كانت المشكلة بأعمدتها الرئيسية كحرب العراق وتغيير النظم ورفض الدبلوماسية المباشرة وتفضيل المواجهة على الدبلوماسية بشكل



عام، وأن التعامل الأفضل مع إيران يتطلب إستراتيجية جديدة مغايرة لإستراتيجية بوش لحد كبير، إستراتيجية تقوم على ما يلي:

أولا: سحب القوات الأميركية من العراق لكي تتخطى أميركا مشكلة العراق، وتبحث فيما بعدها وتركز على القضايا المهمة كعملية السلام، ومواجهة الخطر الإيراني، والذي وصفه أوباما في آخر خطبه أمام منظمة الإيباك بأنه «أكبر تهديد لسلام واستقرار المنطقة».

كما أن سحب القوات الأميركية من العراق سوف يكون بمثابة عامل ضغط قوي ضد إيران والتي تشعر بأن انغماس القوات الأميركية في العراق مفيد لها وعامل حماية يدفع شبح الحرب بعيدا عنها.

ثانيا: يريد أوباما تبني دبلوماسية نشطة في التعامل مع إيران، دبلوماسية تقوم على فتح باب الحوار المباشر مع إيران، وفي الغالب سوف يبدأ هذا الحوار على مستويات دبلوماسية منخفضة وحول قضايا كاستقرار العراق وبرنامج إيران النووي، على أن يتبع هذا الحوار بلقاءات دبلوماسية أعلى في حالة حدوث تقدم في الجانب الإيراني خاصة على صعيد وقف برنامجها النووي.

ثالثا: سوف يرسل أوباما رسالة واضحة للنظام الإيراني بخصوص جدية الدبلوماسية الأميركية وحرصها على وقف برامج إيران النووية في مقابل رفع العقوبات الدولية عن إيران وضمها في المجتمع الدولي.

رابعا: سوف تعد إدارة أوباما حزمة قاسية من العقوبات التي سوف تتعرض لها إيران في حالة عدم استجابتها مع الدعوة الأميركية للحوار، سوف تبدأ هذه العقوبات بمبادرات مثل حث الشركات الأميركية على عدم الاستثمار في إيران، وهي مبادرة يدعمها أوباما من خلال تقديمه قوانين تحث الولايات والحكومات المحلية الأميركية على عدم تشجيع تعاون الشركات المحلية للاستثمار في إيران، كما تتضمن حث المجتمع الدولي على عدم التجارة أو الاستثمار أو تصدير الطاقة إلى إيران.

ويقول أوباما أنه سوف يعمل كرئيس لأميركا على إشراك دول الشرق الأوسط كمصر والسعودية في فرض نظام إقليمي لعقاب إيران بالتعاون مع إسرائيل، كما أنه سوف يتوجه لدول كالصين وروسيا ومنظمات دولية كمجلس الأمن الدولي لمساعدته في فرض تلك العقوبات.

في المقابل سوف تقدم أميركا «جزرة» واضحة يمكنها التمتع بها في حالة المضي قدما في مباحثات وقف برنامجها النووي، وتتكون الجزرة الأميركية من مزايا كالتعاون الاقتصادي والضمانات الأمنية والعلاقات الدبلوماسية.

خامسا: يرى أوباما أن تبني أميركا لمنهج الحوار مع إيران واستنفادها لسبل الحوار في التعامل مع النظام الإيراني سوف يمنح أميركا المصداقية المطلوبة للمطالبة بتعاون دولي أكبر من المجتمع الدولي في فرض عقوبات على إيران في حالة عدم استجابتها للدبلوماسية الأميركية النشطة.

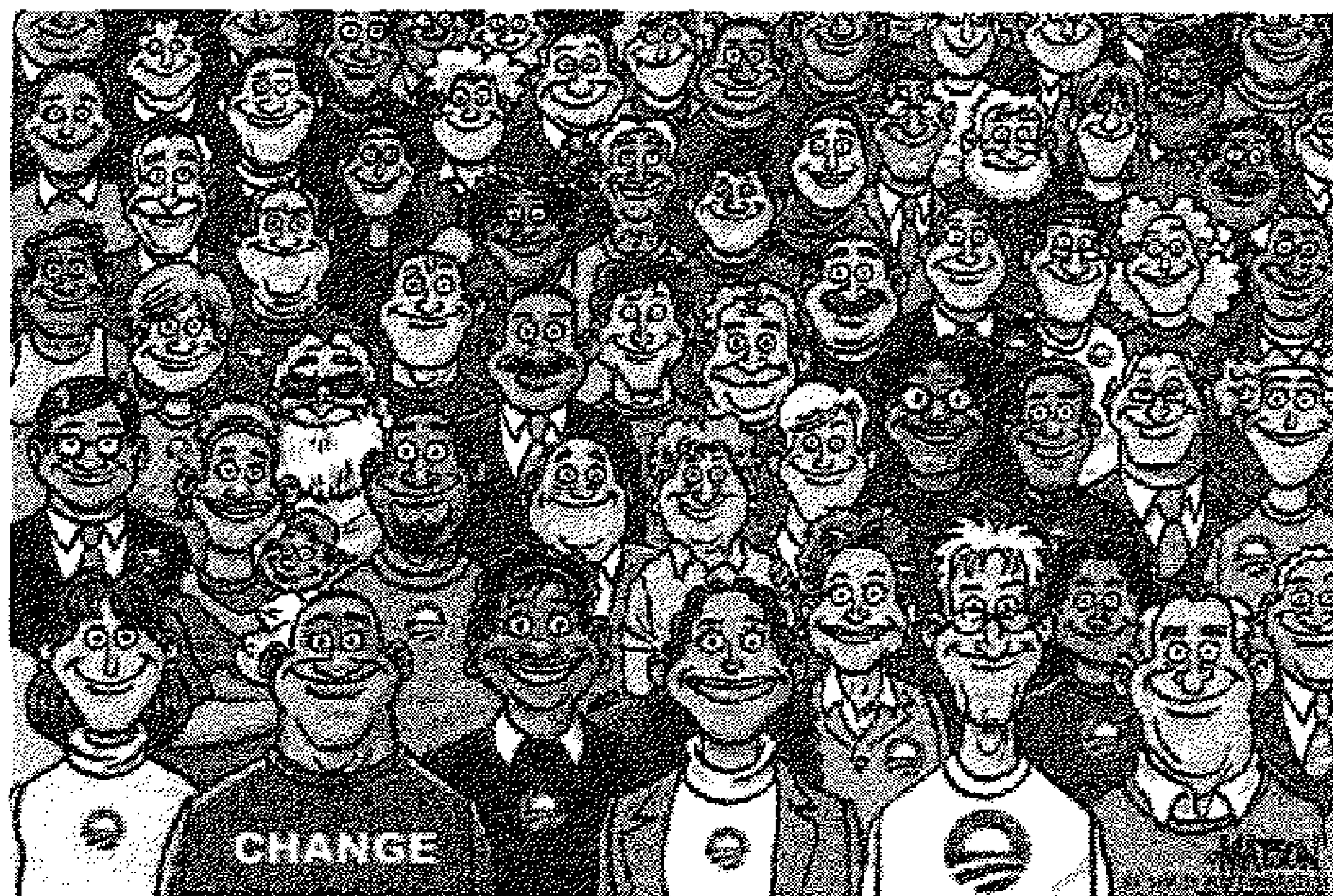
سادسا: يؤمن أوباما بضرورة عدم استبعاد الخيار العسكري كملاذ أخير في التعامل مع إيران وإيقاف برامجها النووية في حالة عدم استجابة إيران لمبادرات أميركا الدبلوماسية.

.. الصحافة الأمريكية ..



قبل..

The New Yorker (July 21)



بعد..

The St. Louis Post Dispatch (Nov 4 2008)

ثالثا: عملية السلام

رأينا فيما سبق حرص أوباما على إيجاد حل سريع وإقليمي لمشكلة العراق حتى يتفرغ لمشاكل أكبر في المنطقة وعلى رأسها إيران وعملية السلام، إذ يريد أوباما استخدام الجيش الأميركي المنسحب من العراق كعامل تهديد لإيران، كما يريد أن يستخدم الدبلوماسية الأميركية التي أنهكتها حرب العراق في العمل على تحريك عملية السلام العربية الإسرائيلية.

لذا تأتي عملية السلام في اعتقادي في مرتبة تالية بعد العراق وإيران لدى أوباما، ومع ذلك تعرض أوباما لنقد كبير من لوبي إسرائيل وممثليه في الولايات المتحدة خلال الانتخابات الرئاسية بسبب مواقفه التي مالت للحوار وإلى الرغبة في دفع عملية السلام إلى الأمام هذا إضافة إلى قلة سنوات خدمة أوباما بواشنطن، وكونه جديدا طارئا على الساحة السياسية الأميركية، وسجله السياسي ضعيف مما يجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل التأكد من مواقفه الحقيقية ناهيك عن نواياه ووجهة سياساته القادمة.

هذا إضافة إلى أن أوباما من خلفية فريدة، فهو أفريقي أميركي ولد لأب مسلم مهاجر إلى أميركا، كما أنه تعلم في صباه لمدة أربع سنوات بإندونيسيا - أكبر البلدان المسلمة من حيث عدد السكان، وارتبط بعلاقة صداقة ببعض رموز الفلسطينيين الأميركيين خلال الفترة السابقة على دخوله مجلس الشيوخ الأميركي، حيث تشير تقارير

ويقول أوباما أنه سوف يعمل كرئيس لأميركا على إشراك دول الشرق الأوسط كمصر والسعودية فى فرض نظام إقليمى لعقاب إيران بالتعاون مع إسرائيل



مختلفة على أن أوباما درس فى جامعة كولومبيا على أيدى البروفيسور الفلسطينى الأميركى الراحل إدوارد سعيد، والذى يعد أحد أهم الرموز الفكرية الداعمة للحق الفلسطينى بأميركا خلال العقود الأخيرة.

كما ارتبط أوباما بعلاقة شخصية وعائلية بالبروفيسور رشيد خالدى خلال فترة إقامة خالدى بشيكاغو قبل انتقاله للتدريس بجامعة كولومبيا بنيويورك، والمعروف أن خالدى بدور أحد أكبر الناشطين فى الدفاع عن الحق الفلسطينى. وتشير التقارير أن علاقة خالدى الوثيقة بأوباما دفعت خالدى لتنظيم حملات لجمع تبرعات لأوباما عندما كان عضوا بمجلس شيوخ ولاية الينوى.

كما تشير تقارير مختلفة إلى أن أوباما حضر مؤتمرات ولقاءات لناشطين فلسطينيين بأميركا نظم بعضها خالدى، وأن أوباما استمع خلال بعض تلك اللقاءات لأفكار وخطب معادية لإسرائيل، وأنه أبدى تفهمه لوجهة النظر الفلسطينية. وتحدث فى تلك المؤتمرات بكلمات طالب فيها بسياسة أميركية «متوازنة» نالت إعجاب الحاضرين من النشطاء الفلسطينيين ونالت سخط بعضهم، وانقسم آخرون حولها.

حيث رأى البعض أن أوباما رجل قادر على فهم معاناة الشعوب المختلفة بسبب خلفيته الثقافية والعرقية المختلطة، ورأى آخرون أن أوباما سياسى كلما توغل فى الحياة السياسية وترقى فى المناصب صار أكثر حذرا، وأكثر حرصا على عدم إغضاب أى طرف من الأطراف خاصة إذا امتلك هذا الطرف نفوذا سياسيا كبيرا قد يؤثر على حظوظ أوباما الانتخابية.

وزادت مشكلة أوباما مع لوبى إسرائيل بسبب بعض المواقف التى تبناها منذ بداية حملته للفوز بالرئاسة الأميركية فى فبراير ٢٠٠٧، وعلى رأس تلك المواقف موقفه من إيران، حيث أعرب عن استعداده للدخول فى حوار مباشر «غير مشروط» مع الإيرانيين لحل مشكلة برنامجهم النووى، ويضاف إلى ذلك تصريحات أدلى بها أوباما فى عام ٢٠٠٧ ذكر فيه «أن لا أحد يعانى أكثر من الشعب الفلسطينى»، وكان هذا جزءا من تصريح أطول عن فشل القادة الفلسطينيين فى التوصل لاتفاق سلام مع إسرائيل، ولكن بعض أنصار إسرائيل وأعداء أوباما ركزوا على المقطع الأول من تصريح أوباما الذى يتحدث عن «معاناة الفلسطينيين» وأهملوا المقطع

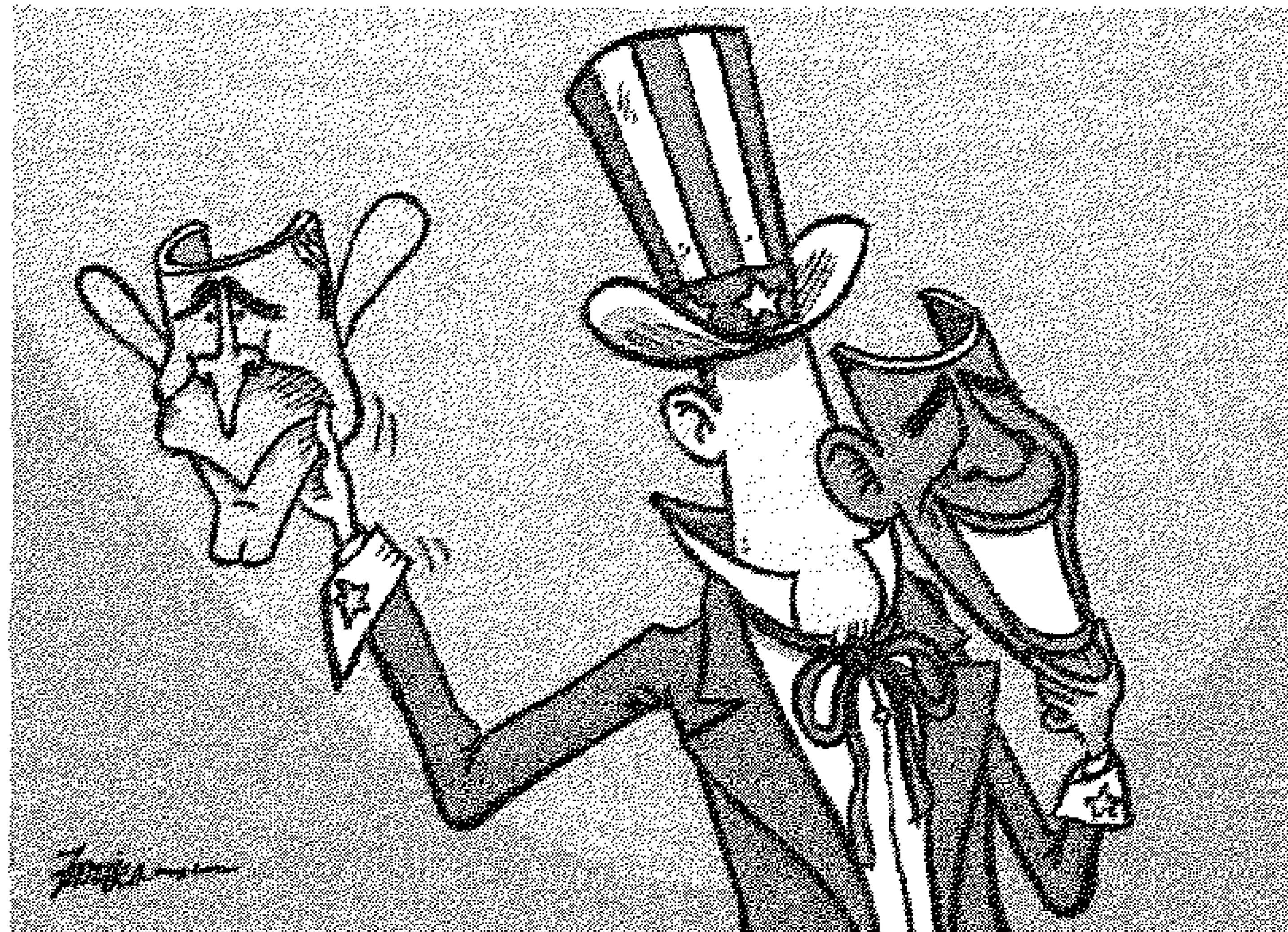
.. وفى صحافة العالم ..





إسرائيل

The Jerusalem Post Dispatch (Nov 11 2008)



Change of Image

الفلبين

The Philippines, Manila, (Nov 13 2008)

الثانى الذى يعود بتلك المعاناة على القادة الفلسطينيين أنفسهم و«فشلهم» فى «الاعتراف» بإسرائيل. وبالطبع لم يرض معارضو أوباما أن يتحدث عن أن يقول بأن لا أحد يعانى أكثر من الفلسطينيين بأى شكل من الأشكال أو فى أى سياق.

وزاد من مشكلة أوباما تصريح أدلى به د. أحمد يوسف المستشار السياسى لرئيس الوزراء الفلسطينى المقال إسماعيل هنية - زعيم حركة حماس فى غزة، حيث صرح يوسف لإحدى وسائل الإعلام الأميركية قائلا بأنه يفضل أوباما على غيره من المرشحين الأميركيين فى الانتخابات التمهيدية مشبها أوباما بجون كيندى.

لذا تجمعت عوامل مختلفة دعمت شكوك أنصار إسرائيل فى أوباما وهى شكوك ظهرت فى كتابات الصحف الإسرائيلية، وفى التقارير الدولية التى تحدثت عن عدم رضا الإسرائيليين عن أوباما وتفضيلهم هيلارى كلينتون خاصة أن الاستطلاعات أظهرت ذلك. كما ظهرت الشكوك ذاتها فى أوساط اليهود الأميركيين على المستوى المحلى بالولايات المتحدة، وخاصة فى ولايات مثل فلوريدا والتى تعرف تجمعات مهمة للناخبين اليهود الأميركيين.

حيث كشفت وسائل الإعلام عن حملة شرسة وواسعة الانتشار ومؤثرة تعرضت لها أوباما فى أوساط الناخبين اليهود الأميركيين، وقد أخذت الحملة أحيانا صورة دعاية ورسائل بريدية إلكترونية ومقالات تهاجم أوباما، وتحاول الربط بين جذوره المسلمة، وعلاقاته ببعض الناشطين الفلسطينيين الأميركيين، وبعض تصريحاته وموقفه تجاه إيران، وغير ذلك من القضايا التى شرحناها سابقا، وذلك للقول بأن أوباما معارض لإسرائيل لا يدعمها بشكل كاف ومناصر للعرب.

وقد وصل نفوذ الحملات السابقة درجة كبيرة دفعت أوباما نفسه لعقد أكثر من لقاء مع الناخبين اليهود الأميركيين على المستوى المحلى لمحاولة شرح مواقفه وكسب ودهم. كما أنه أرسل مبعوثين يهودا أميركيين نيابة عنه وعن حملته للحديث للمنظمات اليهودية الأميركية، وعلى رأسهم النائب اليهودى الأميركى روبرت وكسلر (ديمقراطى عن ولاية فلوريدا) وعضو رئيسى بحملة أوباما وفريق عمله تجاه الشرق الأوسط. حيث أكد وكسلر أنه ودينيس روس Dennis

Ross مبعوث بيل كلينتون للشرق الأوسط هما أهم مستشارين لأوباما بخصوص إسرائيل.

تفاصيل دبلوماسية

أوباما تجاه عملية السلام

وبعيدا عن الاتهامات السابقة التى سعى أوباما نفسه لنفيها يمكن الإشارة إلى أن أوباما زار إسرائيل لأول مرة فى أوائل عام ٢٠٠٦، أى بعد عام من دخوله مجلس الشيوخ الأميركى فى أوائل عام ٢٠٠٥، ومنذ ذلك الحين وأوباما يعبر عن مجموعة من الأفكار الرئيسية المتعلقة بعملية السلام الفلسطينية - الإسرائيلية التى نلخصها فيما يلى:

أولا: يدعم أوباما التقدم فى عملية السلام القائمة على أساس حل الدولتين، وقد عبر تكرارا عن انتقاده لنهج إدارة جورج دبليو بوش الذى لم يركز بشكل كاف على عملية السلام وانشغل عنها بحرب العراق.

ثانيا: فيما يتعلق بدعم أوباما لإسرائيل، لم يجد أوباما غضاضة فى التعبير عن هذا الدعم بصور مختلفة، حيث عبر أوباما تكرارا عن التزامه بالدفاع عن أمن إسرائيل ضد أعدائها كإيران، كما ساند إسرائيل فى حربها ضد لبنان فى صيف عام ٢٠٠٦، وساند أيضا حق إسرائيل فى الدفاع عن نفسها ضد هجمات حزب الله وحماس، كما ساند زيادة الدعم العسكرى لإسرائيل من حيث الكم والنوع، وضرورة منح إسرائيل أسلحة أميركية متقدمة تضمن لها التفوق على خصومها.

ثالثا: تحدث أوباما فى مناسبات مختلفة عن تفهمه للتنازلات «المؤلمة» التى تقدمها إسرائيل من أجل السلام، كما وصف مطالب منظمات كحماس وحزب الله بأنها «مشروعة» يضعفها «لجوؤهم للعنف»، كما ذكر فى مناسبات مختلفة أن غالبية الإسرائيليين مجمعون على السلام، وأن الإسرائيليين يريدون التقدم فى عملية السلام فى حالة وجود شريك فلسطينى «مسئول»، وتتماشى التصريحات السابقة مع انتقادات أدلى بها أوباما لحزب الليكود الإسرائيلى وعلى موقفه المعارض للسلام، وعلى موقف الأميركيين الذين يرون أن السياسة الأميركية المساندة لإسرائيل يجب أن تتماشى مع سياسة الليكود، وهى تصريحات أزعجت بعض أنصار إسرائيل فى أميركا، ودافع عنها بعض مستشارى أوباما من اليهود الأميركيين، وبذلك يبدو أوباما مرة أخرى داعما لتقدم عملية السلام رافضا للمطالبين بالتخلى عنها حريصا على الفوز بدعم وتأييد اليهود الأميركيين من خلال التأكيد على دعمه لإسرائيل المتزامن مع دعمه لعملية السلام.

رابعا: فيما يتعلق بموقف أوباما تجاه تفاصيل عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية يؤكد أوباما على يهودية دولة إسرائيل ويعارض حق العودة الفلسطينى، كما يرفض الضغط على إسرائيل، ويتجنب الحديث عن مبدأ «الأرض مقابل السلام»، ولكنه يتحدث عن تنازلات «مؤلمة» يجب أن تقدمها إسرائيل للمضى قدما فى عملية السلام، ولا يدعم أوباما الجدار العازل بشكل واضح، كما يرفض مزيدا من المستوطنات، كما يعارض سياسة حصار غزة والهجوم عليها ويرى أنها لا تعود على إسرائيل بنتائج إيجابية، وإن كان أوباما قد عارض إصدار قرار من مجلس الأمن ينتقد إسرائيل بسبب الحصار المفروض على غزة.

كما يرفض أوباما الحوار مع حركة حماس، وينادى بعزلها حتى تقبل بإسرائيل وبالاتفاقيات السابقة وتتخلى عن العنف، ويؤكد أن موقفه تجاه حماس لا يختلف عن موقف جون ماكين تجاهها، وأنه عارض إرجاء الانتخابات الفلسطينية التى أدت لصعود حماس وسيطرتها على الحكومة الفلسطينية.

كما يعارض أوباما جهود الإصلاح بين فتح وحماس، حيث عارض اتفاقية مكة، ويطالب أوباما فى المقابل الدول العربية بدعم السلطة الوطنية الفلسطينية بزعامة الرئيس الفلسطينى محمود عباس من خلال تقديم الدعم الدبلوماسى والمعنوى له.

كما يطالب أوباما إسرائيل بمساعدة عباس من خلال التقدم فى عملية السلام وتخفيف المعاناة التى يواجهها الفلسطينيون يوميا بسبب الاحتلال، والموافقة على تقديم مساعدات دولية مباشرة للسلطة الفلسطينية.

أما بخصوص القدس وهى أحد أهم قضايا عملية السلام على الإطلاق فقد عبر أوباما خلال خطاب ألقاه فى يونيو الماضى - أمام لجنة الشئون العامة الأميركية الإسرائيلية أو الإيباك AIPAC وهى أكبر منظمات لوبى إسرائيل - عن دعمه للقدس «غير المقسمة» كعاصمة لدولة إسرائيل، ويقول البعض أن الموقف السابق ليس جديدا وأن أوباما سبق وعبر عن دعمه للقدس «الموحدة» كعاصمة لإسرائيل فى خطاب أرسل به لمنظمات يهودية أميركية فى شيكاغو فى عام ٢٠٠٠.

ويقول آخرون أن وعد أوباما السابق ليس إلا وعدا خطابيا سبق أن التزم به العديد من المرشحين الرئاسيين الأميركيين فى الماضى ولكنهم لم يلتزموا به فور وصولهم للرئاسة الأميركية.

كما ذكرت تقارير إعلامية أن حملة أوباما تراجعت بعد خطاب الإيباك عن فكرة القدس «غير المقسمة»، وقالت أن أوباما كان يعنى قدسا غير مقسمة بجدار عازل، وأن أوباما يؤمن بترك وضع القدس وغيره من القضايا الهامة للمفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

وبهذا يبدو مرة أخرى منهج أوباما الحريص على دعم عملية السلام والدبلوماسية وعلى إظهار دعمه لإسرائيل، كما يظهر ميل أوباما لإرضاء الإيباك وصقور لوبى إسرائيل مع تقدم حملته الانتخابية ومع اقتراب موعد انتخابات الرئاسة الأميركية.

خامسا: على المستوى الإقليمى، دعم أوباما حرب لبنان وهجوم إسرائيل الأخير على بعض المنشآت داخل سوريا، ولكنه فى نفس الوقت يدعم التقدم فى مباحثات السلام السورية - الإسرائيلية، حيث يرى مستشاره روبرت لايك أن الدخول فى حوار مع سوريا مفيد لعزلها عن إيران، كما يدعم أيضا العمل على «إقناعها» بالتعاون مع إسرائيل والتعاون معها فى مواجهة خطر إيران والحد من الدعم الإيرانى لحماس.

خاتمة

يظهر مما سبق موقف أوباما الحريص بشكل عام على تغليب الدبلوماسية فى التعامل مع قضايا العالم العربى من خلال العمل لإيجاد حل إقليمى لمشكلة العراق ولمواجهة إيران ولدفع عملية السلام العربية الإسرائيلية للإمام.

ولكن ذلك لا يعنى انعدام التناقض من مواقف أوباما، فهو يريد سحب القوات الأميركية فورا من العراق على أن يبقى على عدد محدود ولكنه غير محدد من القوات الأميركية هناك لفترة غير محددة للقيام بمهام غير محددة كذلك، مما يفتح الباب لبقاء القوات الأميركية هناك، كما أن أوباما يريد تغليب الدبلوماسية فى التعامل مع إيران، ولكنه فى نفس الوقت يريد سحب القوات الأميركية من العراق لاستخدامها كعامل ضغط ضد إيران.

ويظهر التناقض السابق واضحا فى موقف أوباما تجاه عملية السلام وذلك لدرجة لجوء أوباما وحملته لتحوير تصريحاته بخصوص القضية أكثر من مرة، فتارة يؤكد أوباما على ضرورة الدفع بعملية السلام إلى الأمام وتارة أخرى يرى أنه لا يثق فى إمكانية حدوث تقدم ولكنه سوف يسعى للمحاولة، كما ينتقد أوباما الليكود ويؤكد فى نفس الوقت على حرصه على عدم الضغط على إسرائيل.

هذا يعنى أن سياسات أوباما تجاه الشرق الأوسط ليست واضحة بعد وأنها مازالت فى طور التكوين وتتطلب مزيدا من البحث والدراسة خاصة مع إعلان أوباما عن إدارته الجديدة والتى قد تمثل وسيلة إضافية هامة لفهم وجهة إدارة أوباما المستقبلية الحقيقية تجاه العالم العربى. ■



يرفض أوباما الحوار مع حركة حماس، وينادى بعزلها حتى تقبل بإسرائيل وبالاتفاقيات السابقة وتتخلى عن العنف



القاهرة واشنطن

■ سيطر على الكثير من أبناء هذا الجيل هاجس وهو أن العلاقة بين مصر عبد الناصر والولايات المتحدة الأمريكية، خاصة فى فترة الخمسينيات، قد شابها نوع من التوتر والفتور منذ بداية الثورة وحتى نهاية الحقبة الناصرية فى سبعينيات القرن الماضى. وكان مرجع هذا بالنسبة لأبناء هذا الجيل، الذى خُدعَ بهذه المظاهر، حرب ١٩٦٧، وما ترتب عليها من نتائج فى تصوير وتكريس صورة العداء. وكأن القتامة كانت طابع العلاقة بين الدولتين أو إن شئنا بين القوتين: قوة الولايات المتحدة: كقوة عالمية (global power). وقوة مصر: كقوة إقليمية (regional power)، متناسية أن العلاقات فى كثير من الأحيان تحكمها محددات رئيسية، وأن هنالك ما يعرف بالدبلوماسية العلنية (the overt diplomacy) والدبلوماسية التحتية (the covert diplomacy) وكل منهما لا تتعارض مع الأخرى فى بعض الأحيان، بل ربما تخدمها لأغراض وأهداف خاصة بهذه الدولة أو غيرها.

وفى عملنا هذا أردنا أن نسلط الضوء على: كيف أن العلاقة، خاصة فى فترة الخمسينيات، كانت عبارة عن تقارب وتباعد، لعب فيها بلا شك صانعو القرار فى كلتا الدولتين دوراً واضحاً، كما أن واقع الأحداث فى الغالب الأعم أثر على هذا التناقض فى العلاقة؟ ونتساءل: هل هنالك قوى خارجية ساهمت فى صناعة هذا؟ وهل الأوضاع الداخلية فى كلتا الدولتين تلعب دوراً، وربما يكون أساسياً، فى صنع هذا أيضاً؟ وهل كان التقارب إفرازاً طبيعياً لمصالح الدولتين؟ وهل كان التباعد مقصوداً فى حد ذاته، أم أنه كان عبارة عن ردود أفعال تتماشى وتتفق مع وضع القوتين؟ لقد وضحت المتناقضات والتى تؤدى فى النهاية إلى صراعات وإحباطات.

والدراسة تتناول العديد من الفصول التى تسلط الضوء على نماذج من هذا التقارب والتباعد فى العلاقة منذ بداية الثورة وسيطرة جماعة الضباط على الحكم فى مصر. وكيف عضدت الولايات المتحدة مواقف هذه الجماعة من أجل السيطرة على مقاليد الأمور أملاً فى أن تجد منها صدراً مرحباً بمشاريع الدفاع الغربية، التى كانت جل آمال الولايات المتحدة آنذاك، من أجل احتواء الخطر السوفيتى. وكأن الرياح لا تأتى بما تشتهى السفن؛ فعوامل كثيرة دفعت بالقوى الإقليمية أن تتباعد حفاظاً على مكانتها وموضعها. لقد كانت القوى الجديدة الحاكمة فى مصر أسيرة ميراث طويل فى دور مصر القيادى الرافض للارتباط بالغرب، مما دفع بالقوى العالمية (الولايات المتحدة) بالسعى إلى شكل جديد لاحتواء الموقف، وكانت مشاريع السلام بين مصر وإسرائيل هى الحل بالنسبة لصانع السياسة الأمريكية، الذى رأى فيها حلاً نموذجيًا قد يدفع بالقوى الإقليمية لإيقاف الاقتراب من الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية، وأن صفقة السلاح التى مكّنت الاتحاد السوفيتى من القفز فوق أسوار الأحلاف الغربية سوف تكون أول وآخر صفقة. هكذا لم يكن السلام هو المقصود فى حد ذاته، بل كان احتواء المد الشيوعى. وبالتالى ليزداد التباعد لعدم فهم الطرفين لحقيقة أوضاع كل منهما؛ فكل طرف بدأ يُقيِّم المواقف تبعاً لمصالحه، فقد كان من الاستحالة بمكان أن يقبل عبد الناصر فى ذلك الوقت فرص السلام تبعاً (للشروط الإسرائيلية).

لقد رفض السلام (المفروض) وأصبحت مصر فى نظر صانعى القرار فى واشنطن من الدول المارقة إذا جاز لنا التعبير. وزاد التباعد واندفعت الولايات المتحدة، حفاظاً على هيبة الغرب، فى عقاب مصر. وقد وضح هذا فى سحب تمويل مشروع السد العالى، وردت عليه مصر بإعلان تأميم شركة قناة السويس، وتوقع الجميع القطيعة إلا أنه حدث عكس ما كان متوقعاً، فقد بدأ التقارب منذ بدايات الأزمة. كلٌ يسعى لتحقيق هدفه: فمصر من أجل الخروج من الأزمة وتفويت الفرصة على المتربصين بها، والولايات المتحدة من أجل إنقاذ مكانة الغرب ومصالحه فى المنطقة، ضاربة الصفح عن علاقتها التقليدية مع حلفاء (الناتو)، متناسية إلى حد ما صداقة إسرائيل. المهم هو عدم إهدار المصالح الغربية، وعدم إعطاء الاتحاد السوفيتى الفرصة للصيد فى الماء العكر، وهذا ما نجحت فيه مصر والولايات المتحدة مرحلياً.

إلا أنه بانقضاء العدوان أصبح لا بد من إعادة رسم الخريطة من جديد. فلقد حدث فراغ فى المنطقة من المنظور الأمريكى وكان لا بد أن يملأ هذا الفراغ. فصدر مبدأ أيزنهاور مع بدايات ١٩٥٧. لقد انقضى شهر العسل. وهنا تبدأ مرحلة جديدة من التباعد بين القوى العظمى والقوى الإقليمية التى اتهمت صراحة بأنها تهدد مصالح الغرب ومن يلوذون بفلكه فى المنطقة. ولم يكن صانع القرار فى الأغلب قادراً على فهم الفرق بين التيار القومى والمد الشيوعى. وتقع العديد من الأزمات فى المنطقة التى كان من أشهرها آنذاك الأزمة الأردنية والأزمة السورية. وقد حاولت الولايات المتحدة أن تنحو منحى بعيداً عن الاقتراب من مصر، باحثة عن حلول قد تتعارض وتتناقض مع سابق سياستها فى أثناء أزمة السويس. وكأنها فى النهاية لم تجد إلا سبيلاً واحداً ألا وهو أن مصر هى القادرة على حل الأزمة بالنسبة للغرب ولنفسها. لقد أثبت مبدأ أيزنهاور وإستراتيجيات القوى العظمى عجزهما عن إدارة بعض الأزمات. ووضح أن عبد الناصر بما لديه من مقومات الزعامة وتاريخ مصر الطويل قادر على احتواء هذه الأزمات. وفى النهاية سلّمت الولايات المتحدة بضرورة التقارب ولو مرحلياً، مؤمنة بأن التباعد فى هذا الوقت الذى تتصاعد فيه حمى القومية العربية لا يخدم المصالح الأمريكية بقدر ما يهددها. وكان عبد الناصر من خلال ما أحرزه من انتصارات، ولو على المستوى السياسى، مدركاً لأبعاد اللعبة؛ فهو لم يتباعد كلية ولم يتقارب بصورة فجة، فلقد ترك الباب موارباً فى التعامل مع الغرب فى هذه المرحلة. لقد أدرك الجميع واعترف صانعو السياسة الأمريكية من أيزنهاور إلى دالاس، بأن مصر عبد الناصر هى القادرة على أن تضع الأمور فى نصابها طالما اعتُرف لها بالريادة والقيادة. وهذا ما سنحاول أن نسلط عليه الضوء من خلال هذا العمل. ■

محمد عبدالوهاب سيد أحمد

من مقدمة:
«العلاقات المصرية الأمريكية.. من التقارب إلى التباعد ١٩٥٢ - ١٩٥٨»
د. محمد عبدالوهاب سيد أحمد
القاهرة - دار الشروق ١٧٢ صفحة - ٢٠٠٧

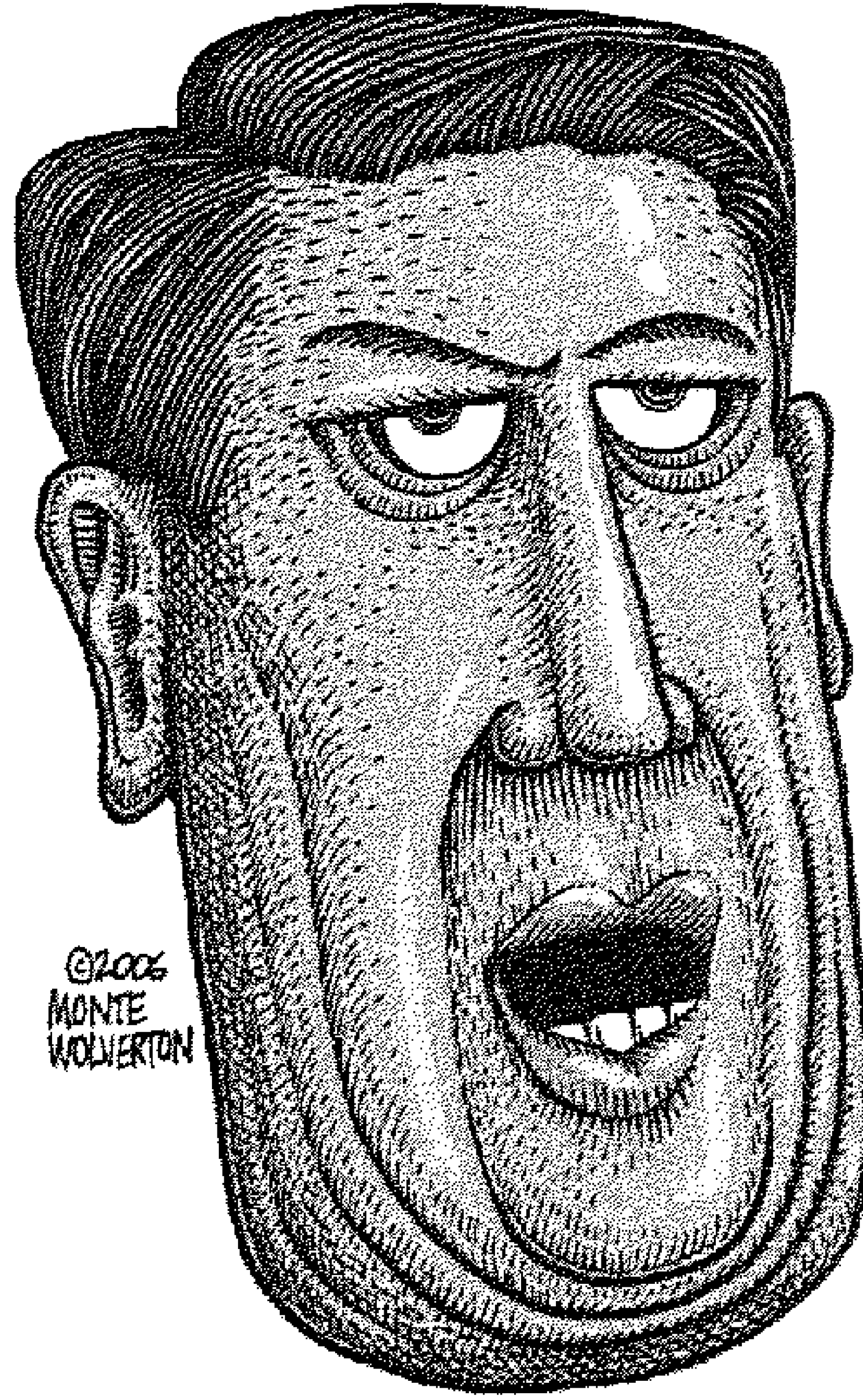
مسيرة الديموقراطية الأمريكية

الهجوم على العقل

شريف عكاشة

■■ صدر هذا العام كتاب جديد بعنوان «الهجوم على العقل» لنائب الرئيس الأمريكي الأسبق آل جور أثار جدلا واسعا في الأوساط السياسية والأكاديمية في الولايات المتحدة الأمريكية لما يتضمنه من تقييم جريء لفترة حكم الرئيس جورج دبليو بوش، ينفذ الكاتب من خلاله إلى إعادة تقييم شامل لمسيرة الديموقراطية الأمريكية على مدى قرنين من الزمان هما عمر هذه القوة العظمى في إطار فكري متكامل يجمع بين التحليل السياسي المستمد من الخبرة والاحتكاك الواقعي المباشر بثوابت ومتغيرات السياسة الأمريكية والرؤية الفلسفية الكلية المتجاوزة للسياق الآني للأحداث والنابعة من سعة اطلاع المؤلف وامتلاكه لناصية العديد من العلوم السياسية والاجتماعية والطبيعية التي استعان بها لدعم آرائه. ويقع الكتاب في مائتين وخمسين صفحة ويتكون من مقدمة وتسعة فصول وخاتمة. وفي مقدمة الكتاب يوضح آل جور أهم الدوافع التي دعته إلى تأليف الكتاب والتي أهمها انحراف السياسة الأمريكية منذ بداية حكم بوش عن ثوابت العقد الاجتماعي الأمريكي كما يجسده الدستور الأمريكي وميثاق الحقوق الذي ظل على مدى قرنين بمثابة ميثاق غليظ في عنق جميع الأمريكيين، نتيجة عوامل عديدة منها سيطرة رأس المال على الحملات الانتخابية وتجاوز رئيس الجمهورية لحدود الصلاحيات التي يخولها له الدستور وتقلص دور المشاركة الشعبية في العملية الديموقراطية مما أدى إلى تراجع دور العقل والحوار الهادئ بين أفراد المجتمع، والذي يعد اللبنة الأولى في أي نظام ديموقراطي. ويوضح آل جور في مقدمة كتابه أنه لا يرمي إلى تحميل الرئيس جورج دبليو بوش وحده تبعات هذا الوضع المتردي الذي آل إليه حال الديموقراطية في أكبر بلد ديموقراطي في العالم، نظرا لأنه في أي نظام ديموقراطي لا يمكن تحميل فرد واحد المسئولية عن جميع الأخطاء لأن

The Assault on Reason
الهجوم على العقل
Al Gore
320pp, $25.95
Penguin, 2008



النظام الديموقراطي ذاته يحمل من الكوابح والضوابط ما يمكن أن يمنع أي فرد من إساءة استغلال سلطته، إلا أن نواب الأمة الممثلين في هيئتها التشريعية تهاونوا في استخدام هذه الموازنات مما أدى إلى ارتكاب العديد من الأخطاء الفادحة كان أهمها الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ وفي الفصول التالية يوضح الكاتب وجهة نظره حول العوامل والمتغيرات الاجتماعية والنفسية والسياسية التي أوصلت الأمريكيين إلى ذلك النفق المظلم والمأزق التاريخي الحرج.

سياسة تكريس الخوف

في الفصل الأول الذي يحمل عنوان «سياسة تكريس الخوف» يحلل آل جور علاقة التناسب العكسي بين الخوف والعقل حيث يرى أن «الخوف هو أعدى أعداء العقل؛ وكلاهما ضروري لبقاء النوع البشري، إلا أن العلاقة بينهما غير متوازنة».. إن تفهم هذه العلاقة غير المتكافئة بين الخوف والعقل يمثل في نظر آل جور المدخل لفهم السياسة الأمريكية في الماضي والحاضر. ففي الماضي الأمريكي البعيد، نجح «المؤسسون» في تحقيق فهم متزن للمخاطر التي تنجم عن سيطرة الخوف على العقل؛ لذا فإنهم لم يختاروا للولايات المتحدة الأمريكية صيغة من الديموقراطية المباشرة بل فضلوا الديموقراطية التمثيلية حتى لا تتغلب المخاوف الدهماوية على التفكير المتروي في أوقات المحن. أما عن الماضي القريب، فيتساءل آل جور:«هل ما نحن بصدده الآن أشد خطرا مما كنا عليه إبان الحرب العالمية الثانية، وإبان فترة الحرب الباردة حيث كنا بإزاء عدو أيديولوجي يوجه رؤوسه النووية باتجاهنا-تلك الرؤوس التي كان يمكن أن تفني حضارتنا بين طرفة عين وانتباهتها؟ ومع ذلك، لم يظهر بيننا من حاول تكريس هذه المخاطر للسيطرة على العامة وتعبئتهم مستغلا ذلك الشعور بالخوف الذي قد ينجم عن الإحساس بفداحة الخطر ...» ويستشهد الكاتب في هذا المقام بمقولة فرانكلين روزفلت الشهيرة: إن ما يجب أن نخافه هو الخوف نفسه. وهنا يفرق آل جور بين المخاوف المشروعة التي يمكن التغلب عليها أو مهادنتها عن طريق إعمال العقل والمخاوف الوهمية التي لا تخضع لسلطان العقل بل تخضع العقل لسلطانها إلى حد أنها قد تصيبه بالشلل، وهو ما يمثل الوضع الراهن في المسرح السياسي الأمريكي إذ نجحت طغمة من الساسة الديماجوجيين في استغلال الهواجس المخيفة التي أعقبت صدمة ١١ سبتمبر لتعبئة الرأي العام من أجل الدخول في مغامرات عسكرية ضد أعداء لا وجود لهم. ثم يمضي الكاتب قدما إلى تحليل نفسي معمق لشعور الخوف في الوعي السياسي والاجتماعي الأمريكي المعاصر يجمع فيه بين علم النفس الاجتماعي وعلم نفس الأعصاب حيث إن علم النفس الاجتماعي يختص في شق منه بدراسة المجتمع كما لو كان كيانا فرديا يخضع لنفس المؤثرات ويمر بنفس التجارب والأزمات النفسية التي يمر بها الإنسان الفرد، أما علم نفس الأعصاب فإنه يدرس العلاقة بين المخ وتركيبه الفسيولوجي والجيني من ناحية وبين المستويات المعرفية والانفعالية المرتبطة بهذا التركيب من ناحية أخرى. والجديد في عالم آل جور أنه ينتقل من دراسة المخ الفردي إلى دراسة المخ الجمعي من خلال تشريحه لسياسة تكريس الخوف التي تتبناها الإدارة الأمريكية الحالية. وينطلق آل جور في هذا الصدد من أن الديموقراطية في جوهرها هي نوع من الحوار العاقل بين أفراد عاقلين من أجل اتخاذ قرارات عاقلة: بيد أن الدراسة النفسية تؤكد أن الواقع العملي يختلف تماما عن هذه الفرضية النظرية حيث إن حياتنا العقلية تتحكم فيها مجموعة من العواطف والدوافع والرغبات التي يربطها-ظاهريا-رابط سببي إلا أنها في الواقع تحدوها بواعث مغايرة تماما.

The ASSAULT ON REASON

AL GORE

أي خلل في العلاقة بين السلطة والثروة يهدد النظام الديموقراطي

والانفعالات لها من القدرة على التحكم في العقل أكثر من قدرة العقل على التحكم في الانفعالات. ومن بين هذه الانفعالات انفعال الخوف الذي يعد مركزه في المخ منطقة اللوزة المخية أو «الأميجدالا» amygdala وهي عبارة عن لفيفة من الأعصاب مسئولة عن إنتاج ردود أفعال نفسية مهمة لبقاء نوعنا البشري أهمها الشعور الشديد بالخوف عند الإحساس بالخطر، وهو ما يمثل مرحلة قديمة وبدائية في تطور الوظائف الانفعالية للمخ، أما التفكير العقلاني،وهو الطور الأحدث، فإنه يعتمد على عمليات مخية أكثر تعقيدا توازن بين التهديدات الحقيقية والتهديدات الزائفة ويقوم فيها العقل بفلترة مشاعر الخوف. وفي حالة سيطرة مثير الخوف، يلجأ المخ إلى طرق مختصرة يطلق عليها «حدسيات الانفعال» حيث تساعدنا هذه الحدسيات على تجنب مواطن الخطر. إلا أنه في حالة اشتداد تأثير المنبه الخارجي فإن اللجوء إليها يمكن أن يطغى تماما على عملية العقلنة. أما الذاكرة، فإنها ليست كما يعتقد البعض ذلك الصندوق الكبير الذي يحتكره العقل وحده وإنما هناك وحدات للذاكرة خاصة بكل انفعال على حدة. وبوجه عام، فإذا ما تم نقل حدث ما إلى الذاكرة فإنه يأخذ «بطاقة زمنية» يحدد عليها الزمن الذي وقع فيه؛ إلا أنه في حالة الأحداث المفجعة مثل الاغتصاب مثلا تتم إزالة هذه البطاقة الزمنية ليصبح الحدث ماثلا على الدوام في الوعي بحيث إن أية خبرة تالية تتشابه معه ولو بشكل سطحي فإنها تثير فينا نفس الشعور الذي انتابنا وقت وقوع الحدث ذاته رغم كل محاولات العقل للتغلب على هذا الشعور المزيف نتيجة تفوق انفعال الخوف على هذه المحاولات. وعلى المستوى المجتمعي، فإن الأحداث المؤلمة في تاريخ المجتمعات، حتى وإن مرت عليها مئات السنين، تظل ماثلة في الذاكرة الجمعية كما لو أنها وقعت بالأمس القريب. ويضرب آل جور أمثلة عديدة لذلك مستشهدا في واحد منها بالخطاب الذي ألقاه ميلوسوفيتش على جمع هائل من الصرب والكروات عام ١٩٨٩ ذكرهم فيه بالأحداث الدامية التي تعرضوا لها منذ ستة قرون، فأحدثت هذه الذكريات تنشيطا للأميجدالا من خلال ما يعرف بالتألم التعاطفي وهو الإحساس بالخبرات المؤلمة عند الآخرين كما لو كنا نحن الذين نمر بها حيث أثبتت الأبحاث أن ثمة خلايا مخية تعرف بالخلايا العصبية العاكسة تصدر عند المريض الذي يشاك بإبرة نفس الاستجابة التي يصدرها إذا ما شاهد زميله يتعرض لنفس هذا المثير. إن لا زمنية الذاكرة الجمعية للأحداث المأساوية-قياسا على الذاكرة الفردية - مع نقل مشاعر التألم التعاطفي إلى مستوى الوعي الجمعي هو ما جعل نفس شعور الفزع الذي تلبس الصرب في الماضي يتلبسهم في الحاضر فاندفعوا تحدوهم مشاعر من الانتقام المشوب بالخوف في حملة محمومة من التطهير العرقي والإبادة الجماعية ضد مواطنيهم. أما بالنسبة للواقع الأمريكي الحالي، فإن الأداة التي يستخدمها الإعلام السياسي الأمريكي في تثبيت شعور الخوف الناتج عن التألم التعاطفي ولا زمنية الذاكرة الخاصة بأحداث سبتمبر المفجعة هي التليفزيون حيث يشاهد المواطن الأمريكي التلفاز بمتوسط أربع ساعات ونصف يوميا وتكرار مشاهدة هذه الأحداث يؤدي إلى تدعيم مشاعر الخوف وتراجع دور العقل وهو ما جعل أكثر من نصف الأمريكيين لا يزالون يصدقون أن صدام حسين كان يمتلك أسلحة دمار شامل برغم معرفتهم العقلية بعد ذلك بأن كل الأدلة التي ساقها جورج دبليو بوش في هذا الصدد ثبت أنها ملفقة.

تضليل المؤمنين

وفي الفصل الثاني الذي يقع تحت عنوان «تعمية المؤمنين» يضيف آل جور بعدا جديدا للعلاقة بين الخوف والعقل ألا وهو الإيمان الغيبي؛ فالخوف يعمل على إزاحة العقل، كما أن العقل هو الثائر التقليدي على الإيمان. فإذا ما تراجع دور العقل فإن الإيمان يستغل في القضاء على الخوف وتهدئته وهو ما فعله الرئيس الأمريكي الحالي جورج دبليو بوش. فقد حرص بوش في خطابه الشهير الذي ألقاه عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر أن يصور نفسه للأمريكيين وكأن الله قد اختاره ليخلص العالم من الشر وقسم العالم ببساطة إلى قسمين: محور الخير الذي تمثله أمريكا وحلفاؤها ومحور الشر الذي يمثله العراق وإيران وكوريا الشمالية. وبهذه الاختزالية التي ينتقدها آل جور بشدة مضى بوش يسحب قواته من أفغانستان حيث معقل تنظيم القاعدة وبن لادن ليعيد نشرها في العراق الذي لا يمثل أي تهديد واقعي لأمريكا. ويشهر آل جور مسدس هجائه في وجه بوش حيث يقول إن كل ما حدث بعد ذلك يتناقض بشكل صارخ مع المبادئ التي أقرها المؤسسون العظام في إعلان الاستقلال وأقاموا عليها الدستور وميثاق الحقوق. حيث نص تصريح الرئيس الأمريكي جون آدامز عام ١٧٩٧ على أن المجتمع الأمريكي «ليس مجتمعا مسيحيا، وبنفس القدر أيضا، ليس مجتمعا يهوديا أو إسلاميا». وهذا المبدأ الراسخ يهدف إلى فصل الدين عن السياسة للحيلولة دون تركز السلطة في يد أية طائفة وليس بهدف إلغاء دور الدين من الحياة؛ أي أنه لا يوجد حق إلهي مقدس لفرد بعينه في الحكم، وإنما كل فرد من أفراد المجتمع له حق إلهي مقدس في المشاركة في الحكم. ثم يواصل آل جور تحليله النفسي لثالوث العقل-الخوف-الدين بقوله إن الجهاز المناعي الأساسي للديموقراطية الأمريكية متمثلا في الكلمة المطبوعة ولاسيما الصحافة قد أصابه الضعف والمرض فأصبح عرضة لجراثيم البث التليفزيوني الدعائي الذي يعمل على تكريس شعور الخوف واستغلال الدين لصالح السياسة. وهنا يشبه الكاتب الجهاز المناعي للمجتمع بالجهاز المناعي البيولوجي إذ قد ثبت علميا أن هذا الجهاز يعتمد في قوته ونموه على التعلم الذاتي، ولهذا السبب فإن حقن الطفل بكمية كبيرة من المضادات الحيوية يؤدي إلى فقده مناعته وجعله عرضة لكثير من الأمراض غير المعهودة في بيئته. وبالمثل، فإن حقن الجهاز المناعي للمجتمع بحقن البث الإعلامي الدعائي يؤدي به إلى أن يصبح دائما عرضة لأدواء مثل الخوف المرضي والارتكان اللاعقلاني إلى الغيبيات وينجم عن هذا الخلل إما استجابة مبالغ فيها لأمور عادية أو استجابة أقل من المستوى المطلوب لأمور خطيرة. ومن بين أمثلة هذه الأمور الخطيرة التي يسوقها الكاتب سكوت الأمريكيين على ما شاهدوه وسمعوه من قيام جنودهم بتعذيب المدنيين في السجون برغم ما يمثله هذا من انتهاك صارخ للدستور الأمريكي؛ وكذلك ما أقره الكونجرس من سماح للسلطة التنفيذية بالتجسس على المواطنين الأمريكيين برغم ما يمثله ذلك من اعتداء سافر على وثيقة الحقوق الأمريكية في الوقت الذي لاقت فيه أسلحة صدام المزعومة ردود فعل غاضبة مبالغا فيها حتى بعد أن ثبت كذب ادعاءات بوش.

سياسات الثراء

تحت عنوان «سياسات الثراء» يتناول آل جور في الفصل الثالث من الكتاب العلاقة بين السلطة والثروة حيث يرى أن أي خلل في هذه العلاقة لا بد أن يقابله خلل في النظام الديموقراطي. وقد أدرك المؤسسون أهمية المحافظة على توازن هذه العلاقة فحرصوا على أن يكون أساس صنع القرار هو التداول الحر للمعلومات، وهو نفس الأساس الذي بنى عليه رائد الاقتصاد السياسي آدم سميث نظريته في الاقتصاد الحر. لذلك فليس بمستغرب أن يتزامن إعلان الاستقلال مع ظهور كتاب «ثروة الأمم» لآدم سميث. إن الرأسمالية والديموقراطية في رأي آل جور يحكمهما منطق داخلي واحد هو التداول الحر: للسلع في حالة الأولى وللآراء في حالة الثانية بناء على قرارات رشيدة من قبل مواطنين أحرار ومستنيرين. ويشبه آل جور البنية الداخلية للحرية بالشكل الحلزوني المزدوج حيث يمثل أحد طرفيه الحرية السياسية ويمثل الطرف الآخر الحرية الاقتصادية وكلاهما يتجهان إلى أعلى في مسار واحد. وإذا ما حدث نوع من التداخل بين الطرفين الحلزونيين في شكل تزاوج غير مرغوب فيه بل وغير شرعي بين السلطة والثروة تفسد الأمور فسادا عظيما، وهو في رأي آل جور ما تشهده أمريكا حاليا، إذ يتجه الحلزون إلى أسفل نحو عقدة التشابك السلبي بين السلطة السياسية والاقتصادية. وسبب ذلك في نظر آل جور هو غياب ما يسميه ببنية المنتدى العام الذي يتمثل في المشاركة الحرة لجميع أفراد المجتمع في صنع القرار، وذلك نظرا لسيطرة فئة محددة من الرأسماليين على هذا

المنتدى. ويعد آل جور هذا الاتجاه جديدا وغريبا على المجتمع الأمريكي الذي يفخر بأنه المجتمع الوحيد في تاريخ الإنسانية الذي لم يشهد تركزا للسلطة في يد فئة محدودة من البشر، بل كانت القرارات الهامة دائما تتخذ بناء على إجماع المحكومين. أما الآن فقد تأثر هذا الإجماع سلبا بهيمنة أصحاب رؤوس الأموال الذين يمكن أن يشتروا أصوات الناخبين بإعلانات تليفزيونية باهظة الأثمان يزيفون بها وعي الناس؛ وأصحاب المصالح الذين يمولون الحملات الانتخابية للمرشحين ويحصلون على المقابل فيما بعد في شكل منافع وخدمات يقدمها لهم هؤلاء المرشحون بعد فوزهم في الانتخابات. وفي هذا الصدد يقول الكاتب: « إذا لم يكن المنتدى العام مفتوحا للجميع، فإن أولئك الذين يملكون حق الدخول يصبحون بمثابة حراس على بوابته. فإذا ما فرضوا رسوما على الدخول، فستصبح إمكانية المشاركة مقصورة على الذين يمتلكون المال لدفع هذه الرسوم، وبالتالي سيحرم الرأي العام من الآراء الرشيدة للرجال والنساء الذين ليس بمقدورهم دفع ثمن الدخول إلى المنتدى. وإذا ما حدث هذا، فإن الأفضلية القائمة على الجدارة سوف تنهار وينهار معها البناء الديموقراطي برمته»

ضلالات مريحة

أما الفصل الرابع فقد اختار له المؤلف عنوان «ضلالات مريحة» وفيه يستعين بعلم آخر يبسط من خلاله أفكاره هو علم تكنولوجيا المعلومات، ولكن هذه المرة على سبيل المجاز لا على سبيل التداخل الفعلي بين العلوم. وبداية يشرح لنا آل جور الجهود التي بذلها في محاولة فهم نظرية «التوازي الشامل» وهي نظرية المعلومات الأساسية التي مثلت حدا فاصلا بين عصر الكمبيوتر العملاق الذي يعتمد على وحدة معالجة واحدة وذاكرة ضخمة ملحقة بها والوضع الحالي للكمبيوتر الذي يتمثل في توزيع طاقة وحدة المعالجة الأساسية على وحدات فرعية لكل منها مجال الذاكرة الخاص بها. وعند تصدي العقل الإلكتروني لحل مشكلة ما تتم معالجة البيانات وتحليلها في كل وحدة على حدة حيث تقوم كل وحدة فرعية بمعالجة جزء من البيانات الخاصة بالمشكلة، ثم يتم تجميع كل أجزاء الحل في الوحدة المركزية، وهذا من شأنه أن يوفر الكثير من الطاقة والوقت على الحاسوب والمستخدم البشري معا.



ويشبه آل جور مركزية السلطة وصنع القرار في النظم الشمولية بالنظام القديم للكمبيوتر حيث يتم الاعتماد على وحدة معالجة مركزية تملي جميع الأوامر؛ ولذا فإن اقتصاد الاتحاد السوفيتي قد انهار نظرا لاعتماده على هذه الوحدة المركزية في صنع واتخاذ القرار مما يؤدي إلى غياب المبادرة الفردية وتفشي الفساد، بعكس النظام الرأسمالي -الديموقراطي الذي يعتمد بصفة أساسية على التدفق الحر للمعلومات من جهات متعددة مما يجعل هنالك مناطق متنوعة خارج المركز لاتخاذ القرار تعمل-في ظل الديموقراطية التمثيلية-على إحداث التوازن فيما بينها من خلال الانتخاب الطبيعي للأصلح في السوق المفتوحة للأفكار التي يناظرها على الصعيد الاقتصادي السوق المفتوحة للسلع. وما يلبث آل جور أن يرتدي نظارته السوداء في رؤيته للواقع الأمريكي الراهن؛ إذ برغم إيمانه أن نمط «التوازي الشامل» كان هو دائما ما يميز النظام السياسي والاقتصادي في أمريكا، إلا أن الإدارة الأمريكية الحالية قد اتخذت إجراءات تؤذن بالانزياح التدريجي عن هذا الخط التاريخي الذي رسمته الولايات المتحدة لنفسها منذ نشأتها. ففي ظل تركز السلطة في يد الطبقة الثرية التي تملك بدورها طرق الوصول إلى مصادر المعلومات ووسائل نشرها المتمثلة بصفة أساسية في الإعلام المرئي؛ ومع الانحسار الواضح في دور القراءة والكلمة المطبوعة، مارست إدارة بوش ما يرى آل جور أنه أكبر عملية خداع وتضليل في تاريخ أمريكا وهو اقتياد أكثر من سبعين في المائة من الأمريكيين إلى الاعتقاد بأن صدام حسين كان هو المسؤول الأول عن هجمات ١١ سبتمبر، وليس ذلك فحسب، بل على أن له صلات قوية بابن لادن وتنظيم القاعدة، رغم كل الاستخبارات التي تلقاها بوش قبل عملية غزو العراق والتي أكدت عدم وجود أية علاقة بين صدام وتنظيم القاعدة. ويستهدي آل جور هنا بشهادة ريتشارد كلارك، مسؤول مكافحة الإرهاب في الإدارة الأمريكية الذي صرح بأن الرئيس جورج دبليو بوش أمره في اليوم التالي لهجوم ١١ سبتمبر بإيجاد رابطة بين صدام وهذا الهجوم، ولما أكد كلارك عدم وجود أي دور لصدام في هجمات الحادي عشر من سبتمبر، ما كان من الرئيس الأمريكي إلا أن تجاهله تماما كما تجاهل كل تقارير الـ «سي. آي. إيه» والـ «إف. بي. آي» في هذا الصدد ومضى قدما في إقناع الرأي العام الأمريكي بضلوع صدام حسين في أحداث سبتمبر. وقد اعتمد بوش في دعايته على خرافة كبرى عمل على الترويج لها دائما وهي أن صدام حسين سعى للحصول على خام اليورانيوم من النيجر وتخصيبه في معامل تخصيب خاصة وقدم وثيقة مزيفة لإثبات ذلك، وهنا يشير المؤلف إلى الدور الذي لعبه محمد البرادعي، المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية، في كشف زيف هذه الوثيقة. ثم يطرح آل جور سؤالا جوهريا على قرائه قائلا: لو كنت رئيسا للولايات المتحدة ووقفت في الكونجرس يشاهدك بليون مواطن لتقدم وثيقة تثبت بها تورط صدام حسين في أحداث سبتمبر، وثبت بعد ذلك أنها كانت وثيقة ملفقة، فهل ستشعر حينئذ بالحرج؟ ويجيب آل جور بنفسه على هذا السؤال من واقع الموقف الحالي للإدارة الأمريكية بأن بوش ما زال يحاول إقناع شعبه بأن ثمة «دليلا كاسحا على تورط صدام» كما لو كان محصنا ضد أي نوع من الخجل أو الندم. ويخلص آل جور من هذا كله إلى أن كارثة غزو العراق لم تكن نتيجة سهو أو خطأ في الحساب من جانب إدارة بوش وإنما هي نتيجة تضليل متعمد تمثل في قرار تم اتخاذه مسبقا وتفصيل الرأي العام الأمريكي على مقاسه لاحقا.

الهجوم على الفرد

يناقش المؤلف في الفصل الخامس «الهجوم على الفرد» الوضع الذي آلت إليه الحريات الفردية في الولايات المتحدة على المستوى الاجتماعي والسياسي والتشريعي. فعلى المستوى الاجتماعي، أدى طغيان البث المرئي على المادة المقروءة إلى أن أصبح الفرد أسيرا للدعاية المضللة حيث إن نمط التواصل المعتمد على التلقي السلبي من خلال مشاهدة التليفزيون يأتي على حساب المشاركة في المنتدى الحواري العام من خلال الكلمة المكتوبة أو الحوار المباشر بين أفراد المجتمع. ورغم ذلك، فهنالك بارقة أمل يتطلع إليها الكاتب متمثلة في عالم الإنترنت حيث يؤمل في أن تبادل المادة المكتوبة عبر الإنترنت من خلال المدونات يمكن أن يؤدي إلى تصحيح المفاهيم الخاطئة والمضللة التي قد تتسرب إلى عقل الفرد من خلال شاشة التليفزيون الذي يعتبره آل جور الحلقة الوسطى بين الكلمة المطبوعة والإنترنت إلى أن تتبلور معالم هذه الأخيرة كوسيط أساسي للحوار. وعلى المستوى السياسي، يقول آل جور إن الممارسات الحالية للإدارة الأمريكية تمثل اختراقا غير مسبوق للحقوق الفردية التي رسخها الدستور الأمريكي على مدى قرنين من الزمان والتي تتمثل في حق المحاكمة العادلة وكرامة الفرد والمعاملة المتساوية في ظل القانون وعدم التعرض للتفتيش أو الاعتقال بدون سند قانوني وعدم الرقابة المخلة بالحرية.



وبعد ١١ سبتمبر بات من حق الإدارة الأمريكية أن تأمر بالقبض على كل من تخلع عليه وصف « مقاتل غير شرعي في صف العدو» وأن تعتقله لمدة غير محددة ودون علم ذويه بل ودون أن يكون له الحق في التشاور مع محاميه أو حتى معرفة التهم المنسوبة إليه. وعلى المستوى التشريعي، صدر مؤخرا في الولايات المتحدة ما يعرف باسم «القانون الوطني» الذي يعطي العملاء الفيدراليين سلطة «التلصص والتسلل» في حالات الجرائم العادية التي لا تنطوي على أية دوافع إرهابية، وهي سلطة يمكن لهؤلاء الموظفين الفيدراليين بموجبها اقتحام أي منزل دون الحاجة إلى إذن قضائي بل والمكث فيه دون علم صاحبه للتجسس عليه بحجة التحقيق في مسألة لها علاقة بالتخابر مع دولة أجنبية. ورغم تعهد البيت الأبيض بعدم استغلال هذه الحقوق التي يخولها إياه القانون إلا عند الضرورة القصوى، يقول آل جور إن الإدارة الأمريكية هي واقعيا الجهة الوحيدة التي تحدد طبيعة هذه الضرورة، ويرى أن مثل هذه الممارسات لن تنقضي بانقضاء فترة الرئاسة الحالية لبوش، بل إنها ستمثل سابقة وسندا لممارسات مماثلة من قبل الرؤساء

لعل أهم درس يمكن أن نخرج به من كتاب آل جور هو أن لأية حضارة شقين: شقا ماديا عمرانيا وشقا روحيا قيميا



القادمين للولايات المتحدة الذين يشك آل جور في ضوء كل التحليلات السابقة أنهم سينتمون إلى منظومة القيم التليدة التي قام على أساسها العقد الاجتماعي الأمريكي. ونلاحظ على الكاتب ميله إلى استخدام لواحق التضاد التي تعبر عن ضد اللفظ دون اختفاء اللفظ نفسه بدلا من استخدام المتضادات ليحافظ على المقارنة بين الوضع القديم والوضع الجديد في ذهن القارئ من خلال اللعب بالكلمات، لذا نجده مثلا يستخدم تعبير «اللاحقائق» بدلا من «الأكاذيب»..

اللا أمن القومي

وبنفس الكيفية، يختار المؤلف عنوانا مثيرا للفصل السادس هو «اللا أمن القومي». وتحت هذا العنوان المستفز، يحدد آل جور مقومات الأمن القومي الأمريكي التي طالما حافظت على أمن الولايات المتحدة واستقرارها الداخلي وساعدت على نشر القيم الأمريكية وتقبل العالم لها إلا أنها من ناحية أخرى بدأت تتزعزع في ظل الإدارة الحالية. وأهم هذه المقومات على الصعيد الدولي هو التعاون مع الدول الأخرى في إطار الشرعية الدولية من أجل إنهاء النزاعات التي تهدد الأمن الدولي والقضاء على الإرهاب. وقد انتهك بوش هذا المبدأ بارتكابه عدة مخالفات للقانون الدولي وتجاوزه سلطة الأمم المتحدة واعتبار أمريكا سلطة أحادية الجانب، مما أورث تجاهها نوعا من العداء والكراهية وعدم الرغبة في التعاون من جانب الدول والشعوب الأخرى. وهنا يستدعي آل جور قانون نيوتن الثالث الذي ينص على أن لكل فعل رد فعل مساويا له في المقدار ومضادا له في الاتجاه حيث إن أي عمل أحادي الجانب تقوم به الولايات المتحدة ضد أي طرف خارجي يقابله رد فعل مضاد من القوى المعادية لأمريكا يؤدي إلى تقوية شوكة الإرهاب وخلق أنوية لتنظيمات إرهابية جديدة. ولكي تتخلص أمريكا من هذا المأزق، لا بد أن تسعى في سياستها الخارجية إلى التميز النابع من احترام الآخرين لها وانصياعهم الطوعي لقيادتها بدلا من السعي إلى الهيمنة. ثم يقدم آل جور في هذا الفصل إعادة صياغة لمفهوم الأمن تخرجه عن الإطار الضيق للحرب والسلام وذلك لأن جوهر الأمن هو حماية الحياة أيا كان نوع الخطر الذي يتهددها؛ فهناك الأمن البيئي الذي يؤدي غيابه إلى تقويض أية جهود يتم إحرازها في مجال الأمن القائم على القوة العسكرية وينبه آل جور-وهو رجل البيئة المعروف-إلى تزايد معدل الفيضانات والأعاصير في الولايات المتحدة في الآونة الأخيرة وأزمة المياه المتفاقمة الناتجة عن الاحترار العالمي وما يسببه من تسريب لمخزون المياه الكامن في جبال الثلج وخزانات الثلوج الطبيعية. وهنالك الأمن الصحي للفرد الذي أصبح مهددا بسبب انتشار أوبئة جديدة مثل الإيدز وفيروس نقص المناعة حيث يتوقع بانتهاء العقد الأول من القرن الحادي والعشرين أن يفوق عدد الذين يموتون بسبب الإيدز من يموتون في الحروب؛ وكذلك استعصاء الأمراض القديمة على العلاج التقليدي الذي لم يعد ناجعا معها حاليا.

أزمة الكربون

وفي الفصل السابع وتحت عنوان «أزمة الكربون» يضع آل جور كارثة الهجوم على العقل في سياقها البيئي ويرى أن ثمة علاقة وثيقة بين مشكلة المناخ والبترول ذات أبعاد بيئية وسياسية معا. ويتمثل البعد البيئي في أن المزيد من حرق الوقود الحفري المتمثل في البترول والفحم له آثار مناخية سيئة من بينها تزايد نسبة ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي وما يتمخض عنه من مشاكل بيئية مثل زيادة أشعة الشمس تحت الحمراء في هذا الغلاف وظاهرة الاحتباس الحراري، مما يبرز أهمية إيجاد مصادر بديلة من الطاقة المتجددة. أما البعد السياسي فيتمثل في بناء الاستراتيجية الأمريكية منذ زمن بعيد على أساس البترول كمصدر أول للطاقة وبالتالي السعي إلى السيطرة على مناطق الاحتياطي البترولي العالمي وأهمها منطقة الخليج العربي وارتباط ذلك بنمط الهيمنة الأمريكية على مقدرات شعوب هذه المنطقة الذي سعى بوش لتدشينه طوال فترة حكمه وقد أدى ذلك إلى تقاعس إدارته عن تنفيذ البرامج البيئية التي من شأنها أن تحد من تلوث البيئة كنتيجة للحد من استهلاك الوقود الحفري والتسويف في إيجاد بدائل جديدة للطاقة يمكن أن



تؤدي إلى تجفيف منابع الإمبريالية الأمريكية الجديدة في الشرق الأوسط.

الديموقراطية في الميزان...

ويخصص المؤلف الفصلين الأخيرين من كتابه لتقييم شامل للأداء الديموقراطي في الولايات المتحدة على المستوى السياسي المتعلق بعلاقة الحكام بالمحكومين وعلى المستوى الاجتماعي المتصل بالديموقراطية كأحد عناصر المنظومة القيمية للمجتمع. ففي الفصل الثامن «الديموقراطية في الميزان»، يستعرض آل جور مسيرة الديموقراطية الأمريكية منذ أن وضع المؤسسون اللبنة الأولى للدستور الأمريكي وحتى الوقت الحالي. إن الدعامة الأساسية لهذه الديموقراطية من وجهة نظر المؤلف كانت وما تزال هي الحرية الفردية التي يقيدها في المجال السياسي عدد من الكوابح والموازنات التي يقرها الدستور. ومن بين الحريات الفردية التي يقيدها الدستور سلطة رئيس الدولة من خلال التشريعات التي يصدرها الكونجرس ويلتزم رئيس الجمهورية بالانصياع لها بموجب الدستور. وقد أدرك المؤسسون ما لشهوة السلطة من تأثير على الرجال، ولذا فقد وضعوا مسؤولية صيانة الديموقراطية على عاتق السلطة التشريعية وليس التنفيذية؛ فبموجب الدستور، فإن رئيس الجمهورية، وإن كان القائد الأعلى للقوات المسلحة، إلا أنه لا ينفرد وحده بقرار شن الحرب وتحديد موعده وطبيعة المهام العسكرية التي تكلف بها القوات المسلحة، إنما يتقاسم هذا كله مع الكونجرس الذي يتدخل في أدق تفاصيل الحرب مثل حجم القوات وعدد الجنود. ومع التطور الذي شهدته الحروب الحديثة التي لم تعد تمنح الأمة ترف انتظار مداولات الكونجرس حيث لا يكون الفاصل الزمني بين الإنذار بالحرب وشنها إلا دقائق معدودة في ظل الترسانات المتطورة من الأسلحة النووية وما يعرف بالأسلحة الذكية، فقد انفرد رئيس الجمهورية بسلطات عملية أكبر فيما يتعلق باتخاذ قرار الحرب. ومع ذلك، فقد حرص أعضاء الكونجرس دائما على ألا يتجاوز ذلك حدود الاستجابة للأزمات الطارئة وألا تتعدى صلاحيات رئيس الجمهورية على سلطة الكونجرس باعتباره الممثل الشرعي للأمة. وفي ظل الوضع الراهن، فقد تجاوزت الإدارة الأمريكية كل الخطوط الحمراء في الانفراد بسلطة اتخاذ قرار الحرب وتجاهل قرارات الكونجرس الخاصة بالتخويل باستخدام القوة العسكرية عندما ارتأى الرئيس الحالي جورج دبليو بوش أنها لا تعطيه الصلاحيات الكافية التي كان يتطلع إليها فتحايل عليها سرا وفي غفلة من الجميع ليحصل على الصلاحيات المطلوبة. وعلل ذلك فيما بعد بأن حماية الشعب يجب أن لا يعلو فوقها أي صوت آخر مستغلا حالة الفزع التي انتابت الأمة من جراء إمكانية وقوع هجوم إرهابي جديد. ويرى آل جور أن الأمريكيين باتوا في حاجة إلى صيغة جديدة من الديموقراطية «توائم فيها بين حماية أمننا وحماية حرياتنا التي أقرها الدستور». ويضرب مثالا تاريخيا بالإمبراطورية الرومانية القديمة التي انهارت فيها الديموقراطية حينما جمع قيصر بين سلطتين في وقت واحد كحاكم مدني للبلاد وكقائد للجيش فانثلم صرح الديموقراطية على مدى عشرات القرون إلى أن أعادته أمريكا للعالم، فهل ينهدم مرة ثانية على يد الأمريكان الجدد؟ هكذا يبدو آل جور متسائلا.

هيئة مترابطة من المواطنين

وفي الفصل التاسع والأخير بعنوان «هيئة مترابطة من المواطنين» يصول آل جور ويجول مرة أخرى في ميدان علم النفس الاجتماعي-هذه المرة في ذلك الفرع منه الذي يختص بعلاقة الفرد بالمجتمع في نشأته الأولى ألا وهو علم نفس النمو



ليستمد منه بعض الاستبصارات الخاصة بنمو الطفل في الجماعة ثم يعود إلى ميدانه الأصلي ليطبقها على نمو الوعي السياسي للفرد في المجتمع الديموقراطي. يستعين آل جور في هذا المضمار بنظرية الاتصال، إحدى النظريات الهامة في علم نفس النمو التي ظهرت في الستينيات من القرن الماضي وتتلخص في أن الطفل يكون موقفه من العالم في المراحل الأولى من حياته وفقا لنمط الاتصال القائم بينه وبين والديه أو من يقوم على رعايته :فإذا كان هذا النمط قوامه التواصل التبادلي بين الطفل ومن حوله، فإن هذا يؤدي إلى نشأة طفل سوي نفسيا واجتماعيا . وترى هذه النظرية أن الطفل في المراحل الأولى من عمره يحاول أن يؤثر في العالم الخارجي من خلال تعبيره عن نفسه بأشكال مختلفة كالبكاء والمرح والغضب، فإذا تمت الاستجابة السليمة لهذه الأنماط من التعبير، فإن ذلك يؤدي إلى تنشئة شخصية قوية وناضجة تستطيع أن تؤثر في العالم مستقبلا . أما إذا تم تجاهل هذه الإشارات التي يرسلها الطفل أو التعامل معها بشكل غير سليم بالتفريط أو الإفراط في الاستجابة، فإن ذلك يؤدي إلى نشأة طفل انهزامي واعتمادي ولديه نوازع عدوانية وانسحابية ويتخذ من الهروب أو السلوك المنحرف وسيلة لحل المشكلات التي يتعرض لها . وبنقل المنظور إلى صعيد العلاقة بين الفرد والمجتمع، يرى ال جور أن الفرد في ممارسته لحقوقه السياسية في مجتمع ديموقراطي يمر بمراحل شبيهة بتلك التي يمر بها الطفل ؛ فإذا ما تمت الاستجابة لتوجهات الفرد بشكل إيجابي من خلال الحوار التفاعلي المعتمد على حضور طرفي الاتصال، فإن ذلك يؤدي إلى بناء جسور متينة من الثقة بين الحكام والمحكومين وإلى مزيد من الارتياح إلى النظام الديموقراطي القائم ومزيد من المشاركة في العملية السياسية. وعلى النقيض من ذلك، إذا كان الحوار عبارة عن مونولوج من طرف واحد مرسل يبث رسائله إلى مستقبل واحد عبر شاشة التلفاز بحيث لا يستطيع المواطن أن يشارك كطرف ثانٍ في عملية اتصالية ثنائية الاتجاه، فإن هذا النمط يخلق مواطنا سلبيا لا يبالي بالإدلاء بصوته في الانتخابات بل قد لا يرى فيها جدوى أو نفعا ومن ثم يفقد ثقته في العملية الديموقراطية بأسرها، وهو ما يرى المؤلف أن المواطن الأمريكي في طريقه إليه نظرا لسيطرة نموذج الاتصال الأحادي عبر التلفاز على الاتصال التبادلي الذي تدعمه الكلمة المكتوبة التي ستظل هي دائما في رأيه الجهاز المناعي الأول الذي يحمي النظام الديموقراطي.

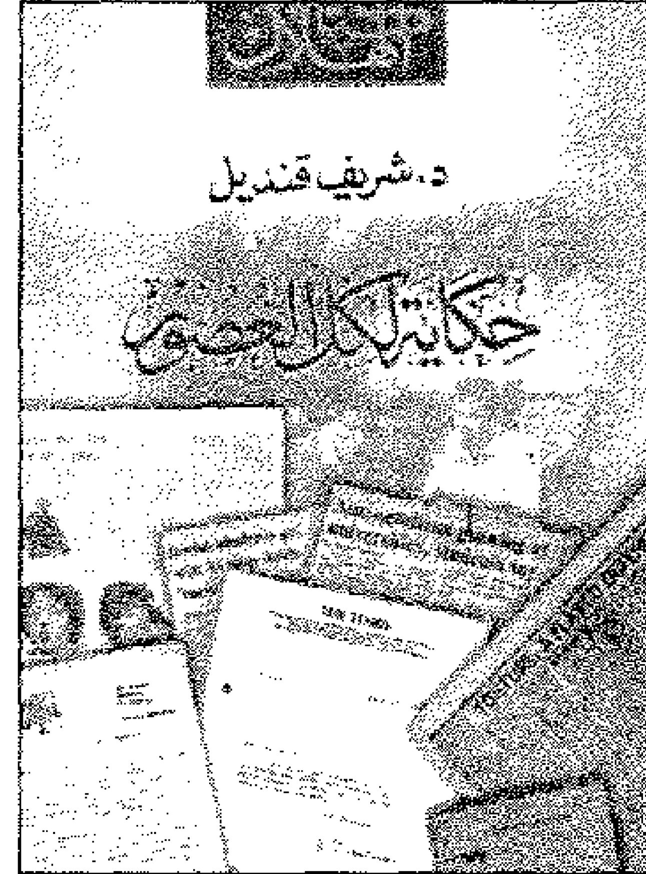
نتائج ودروس

وبعد هذه الجولة، فقد يحق لنا أن نتساءل: ما هي التعميمات النظرية والكليات الفلسفية التي يمكن أن نستخلصها من الكتاب وراء التحليل الجزئي للأحداث والمواقف؟ والواقع أن الكتاب يمدنا بذخيرة ثرية من الدروس الفلسفية والتجريدات النظرية والأطر المنهجية التي يمكن أن تفيد أي باحث أو مفكر أو قارئ مهتم بنوعية القضايا التي يثيرها الكتاب. ولعل أهم درس يمكن أن نخرج به من كتاب آل جور هو أن لأية حضارة شقين: شقا ماديا عمرانيا وشقا روحيا قيميا يتمثل في منظومة القيم الروحية و الأخلاقية للمجتمع سواء كانت مستمدة من دين معين أو من عقد اجتماعي محدد المعالم مثل العقد الاجتماعي الذي قامت عليه الولايات المتحدة الأمريكية وتميزت به عن باقي الغرب الذي لم يعرف نفسه حضاريا إلا بتفوقه على الشرق «اللاعقلاني» أو «المتخلف». ولهذا ظلت الحضارة الأمريكية هي الحضارة المتسيدة في العالم عن جدارة واستحقاق على مدى أكثر من نصف قرن بعد أن كشفت الحداثة الأوروبية عن فراغها القيمي. والثقافة هي الإطار المجرد للحضارة،إنها النسق العام الذي،بالإضافة إلى احتضانه للهياكل الاقتصادية والمنجزات العلمية للحضارة، يجمع بين القيم الجديدة التي تنتجها الحضارة المادية (الشق المادي)في مسيرة تطورها -سواء القيم الأخلاقية أو السلوكية أو الإبداعية الجمالية-والموروث القيمي الثابت (الشق القيمي) الذي يمثل البنية الأساسية والأرضية التي تحلق فوقها القيم الجديدة مستأنسة بطريقها المرسوم لها على هذه الأرضية .فإذا ما حدث شرخ في البنية القيمية الأساسية واهتزت تلك الأرضية فقدت الحضارة شقها القيمي ولم يبق داخل النسق الثقافي إلا الشق المادي والقيم العابرة التي أفرزها الإيجابية منها والسلبية. ومع غياب المنظومة القيمية الأصيلة وتصدعها يحدث انتخاب للقيم السلبية وتترسب القيم الإيجابية في قاع الثقافة فتأخذ الحضارة في الانهيار كما نجد إرهاصات ذلك الانهيار في تفاصيل تحليل آل جور لأحداثه الجزئية بالنسبة لأمريكا . أما بالنسبة للتجريدات النظرية التي يمكن أن نستخلصها من الكتاب فلعل أهمها علاقة الديموقراطية بطبيعة العقد الاجتماعي الذي يقوم عليه المجتمع. والمجتمع الأمريكي هو نموذج لعقد اجتماعي واع تلازمت نشأته مع نشأة العقد الاجتماعي القانوني أي الدستور الأمريكي المكتوب، فكان نمط الديموقراطية التمثيلية ملائما لما ارتضاه بناة أمريكا لمجتمعهم من نظام الحوار القائم على التوازنات بين الأطراف المختلفة التي يكبح بعضها البعض الآخر بما يصب في النهاية في صالح الجماعة.



وهذا يفجر قضية هامة الا وهي علاقة نوع الديموقراطية بثقافة المجتمع، إذ عادة ما يستخدم مصطلح الديموقراطية كمفهوم مطلق بينما في الواقع توجد أنواع عديدة من الديموقراطية يجب الاختيار من بينها حسب نوع الثقافة وطبيعة العقد الاجتماعي للجماعة من حيث كونه عقدا قائما على أسس دستورية اختيارية أو على أسس دينية (مثل العقد الاجتماعي للمجتمعات العربية الإسلامية مثلا) أم أن له جذورا ضارية في أعماق التاريخ لا يمكن اكتشافها إلا بتحليل التطور التاريخي للثقافة. وهذا يقودنا إلى نتيجة هامة وهي أنه حتى لو انهارت القيم التي قامت عليها الديموقراطية الأمريكية فليس معنى هذا أن الشعوب التي تتبع هذه القيم وتعتبرها مثلها الأعلى في الممارسة الديموقراطية ينبغي أن تفقد الرجاء في وجود مرجعية قيمية للمجتمع الديموقراطي الذي تتطلع إليه ؛ إذ إنها في هذه الحالة سيكون عليها أن تبحث في موروثها الثقافي عن إطار مرجعي تمزج بينه وبين أحد الأنواع النظرية المطروحة للديموقراطية، ولاشك أن هذا المركب المزجي الجديد سيكون أكثر عمقا وثراء وارتباطا بالحاجات الحقيقية للمجتمع من مجرد استيراد نموذج جاهز نبت في تربة ثقافية مغايرة. ولا ينبغي أن نغفل عما نبهنا إليه آل جور من أن اعتماد الديموقراطية كممارسة سياسية دون الأخذ بها كمبدأ وقيمة تربوية من شأنه أن يؤدي إلى ديموقراطية قصيرة الأجل لا تصمد أمام الأعاصير الثقافية والاجتماعية والسياسية الجارفة. ولنا أن نتخيل لو أن حكام جميع الشعوب المقهورة على مستوى العالم قد أصدروا قرارا مفاجئا بإقامة حياة نيابية وحزبية سليمة في بلادهم وتقديم الدعم الكامل لعقد انتخابات نزيهة نزاهة حقيقية ؛ بل أنهم قد نزلوا جميعا عن عروشهم وكراسيهم ليتيحوا الفرصة لشعوب هذه المجتمعات المقهورة كي تتحرر من أغلالها وتختار من يحكمها ويمثلها في الهيئات التشريعية المنتخبة، فهل معنى هذا أن هذه المجتمعات التي تربت على القهر والخوف ورضع أفرادها لبان السلبية والانهزامية -سوف تتحول إلى ديموقراطيات حقيقية بين عشية وضحاها ؟ لا أظن أن ذلك يمكن أن يحدث دون ظهور مصلحين يعيدون بناء الفرد والأسرة على أسس نفسية وتربوية سليمة. يبقى الحديث عن مسألة منهجية هامة يبرزها لنا الكتاب وهي اعتماد الكاتب في تحليله للواقع السياسي على علوم عديدة إما لوجود علاقة مباشرة بين هذه العلوم وبين هذا التحليل مثل علم النفس والاجتماع والبيئة أو على سبيل المجاز الذي يعمل على توضيح مفهوم في علم ما بالاستعانة بمفهوم في علم آخر يتشابه معه في السمات البنيوية عن طريق الربط الذهني بينهما على نحو ما رأينا من ربط آل جور بين بعض مفاهيم تكنولوجيا المعلومات والاقتصاد السياسي. إن التداخل بين العلوم أصبح حقيقة لا يمكن المزايدة عليها، إلا أننا لا نجد ذلك متحققا في كثير من التحليلات والأدبيات السياسية وخاصة في عالمنا العربي مما يعكس وجود فجوات معرفية خطيرة عند محللينا السياسيين وأخرى مفهومية تعجز عن التوصل للخيوط التي تربط العلوم ببعضها البعض والتي أبرزها هو أن موضوع كل العلوم الإنسانية والطبيعية واحد هو:الإنسان وعلاقته بالمجتمع والكون. وأخيرا، فإن كتاب آل جور «الهجوم على العقل» يمكن أن نصنفه ضمن أدبيات النقد الذاتي أو ما يعرف بالهجاء الاجتماعي ويتميز هذا النوع من الكتابة بالنبرة اللاذعة والمبالغة المشروعة التي قد تعلو قليلا عن الواقع من أجل إبراز عيوبه ؛ فهي تعمد إلى جلد الذات واتهامها تمهيدا لإعادة تطهيرها كخطوة نحو تبرئتها . ■

لينين الرملى: زعماء العالم فى مدرسة



حكاية لكل العصور
شريف قنديل
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٨، ٣٢٨ صفحة

■■ فى المرحلة الإعدادية نشرت مجلة «الجيل الجديد» موضوعاً طريفاً، فقد وجد فى مدرستنا خمسة من التلاميذ أسماؤهم غير تقليدية، تشرشل، إيدن، لينين، ستالين، ومولوتوف. كان عنوان الموضوع «قادة العالم فى مدرسة واحدة».

كانت الأسماء الروسية لأفراد أسرة واحدة: أخوان وابن عمهما، وكانوا ثلاثتهم ـ إلى جانب زمالة أكبرهم لى فى الفصل ـ يسكنون فى المنزل المقابل لمنزلنا من ناحية جاردن سيتى.

قد يكون لمثل هذه التسميات دلالات متباينة، فلعلها تمثل إعجاب بعض الأهل ببعض كتل العالم السياسية متمثلة فى قادتها، أو تمثل تبعية دفينة فى وجداننا للشرق أو الغرب، حيث كان الصراع وقتها على أشده بين أيديولوجيات اشتراكية أو رأسمالية، أو هى مهادنة وتواؤم مع الاستعمار الجاثم فوق الصدور، أو خنوع ونفاق لدرجة تسمية الأبناء برموز الاستعمار، أو لعلها إحدى صور الثورة ضد المستعمر من خلال تسمية الأبناء بأسماء مستعمر بديل!!

ارتفعت فى مصر موجة رافضة للتبعية، وشهدت وقتها لحظات مضيئة من التاريخ شعرت فيها بالفخر والعزة، ها هو القائد يقف فى وجه الإنجليز والأمريكان، ويؤمم شركة قناة السويس شركة مساهمة مصرية.

توالت الأحداث، مؤامرة شاركت فيها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، اشتباكات فى منطقة قناة السويس، إنذار عسكرى رفضه الرئيس من فوق منبر الجامع الأزهر.

أوراق زرقاء تغطى شبابيك المنازل، صفارات الإنذار تدوى، والأصوات تتعالى فى الشارع محذرة أو آمرة «طفى النور»، أزيز الطائرات يسمع والكشافات المضيئة تطاردها، وطلقات المدافع تتوالى، فلقد تعرضت مصر لعدوان ثلاثى.

صمدنا، وتحدينا، ولم نخضع فى معركة كسر الإرادة، وجاء إنذار روسى من الشرق وتقهقر ثلاثى من الغرب، وانسحب الغزاة مدحورين، واحتفلنا بنصر سياسى وعسكرى مبين (وإن علمنا فيما بعد أنه كان منقوصاً).

شدا عبدالحليم حافظ بألحان وطنية عذبة، واستمعنا منه إلى حكاية السد العالى، وأخذنا أمنا مصر ـ بالأحضان، وكانت لنا صورة ـ كلنا تحت الراية المنصورة، وعشنا نشوة وطنية لذيذة حالمة.

أقام المدرس الأول للغة العربية مسابقة صحفية، ورصد جائزة مالية من ماله الخاص للمنافسة بين مجلات الحائط التى تعكس نشوة النصر.

انحصرت المنافسة أو كادت بين مجلتين: إحداهما كان يصدرها لينين الرملى بمعاونة أبناء عمه، اسمها «الأحرار» والأخرى كنت أصدرها وأسميتها «صوت الطلبة».

مجلة «الأحرار» كانت تحوى من الموضوعات ما يعكس آراء أسرة الرملى وأيديولوجياتها، وخبرة الآباء، حيث كان أحدهما كاتباً صحفياً وأخوه مصوراً صحفياً، فكانت «الأحرار» أكثر نضجاً ودسامة، بينما كانت مجلة «صوت الطلبة» أكثر نظاماً وترتيباً، وأجمل إخراجاً وتبويباً، وبها صور رسمها أحد زملائنا، وكتبنا من خيالنا قصة عن «نبيل منصور»، التلميذ الذى أدى دوره فى مقاومة المحتلين والغزاة، وعرضناها بما يعبر عن براءة مشاعرنا وإبداعات عمرنا الساذجة.

وجاءت لجنة تحكيم من مدرسى اللغة العربية، ثم أعلن المدرس الأول أن المجلتين تستحقان الجائزة، ولكنه منح مجلة «صوت الطلبة» الجائزة الأولى.

بعد انتهاء المرحلة الإعدادية، انتقلت أسرة الرملى من أمام منزلنا من ناحية جاردن سيتى إلى مكان آخر، وانتقلت أسرتنا هى الأخرى إلى المعادى، فانقطعت الصلة والأخبار بيننا وبين آل الرملى، ولكنها لم تنقطع مع لينين الرملى بالذات، حيث صار فناناً مرموقاً، وتابعت أخباره الفنية على صفحات الجرائد أو شاشات التليفزيون، وشاهدت إبداعاته المسرحية بإعجاب وتقدير، وفى تصورى أن أسرته كلها اتجهت إلى أعمال الفن والإعلام.

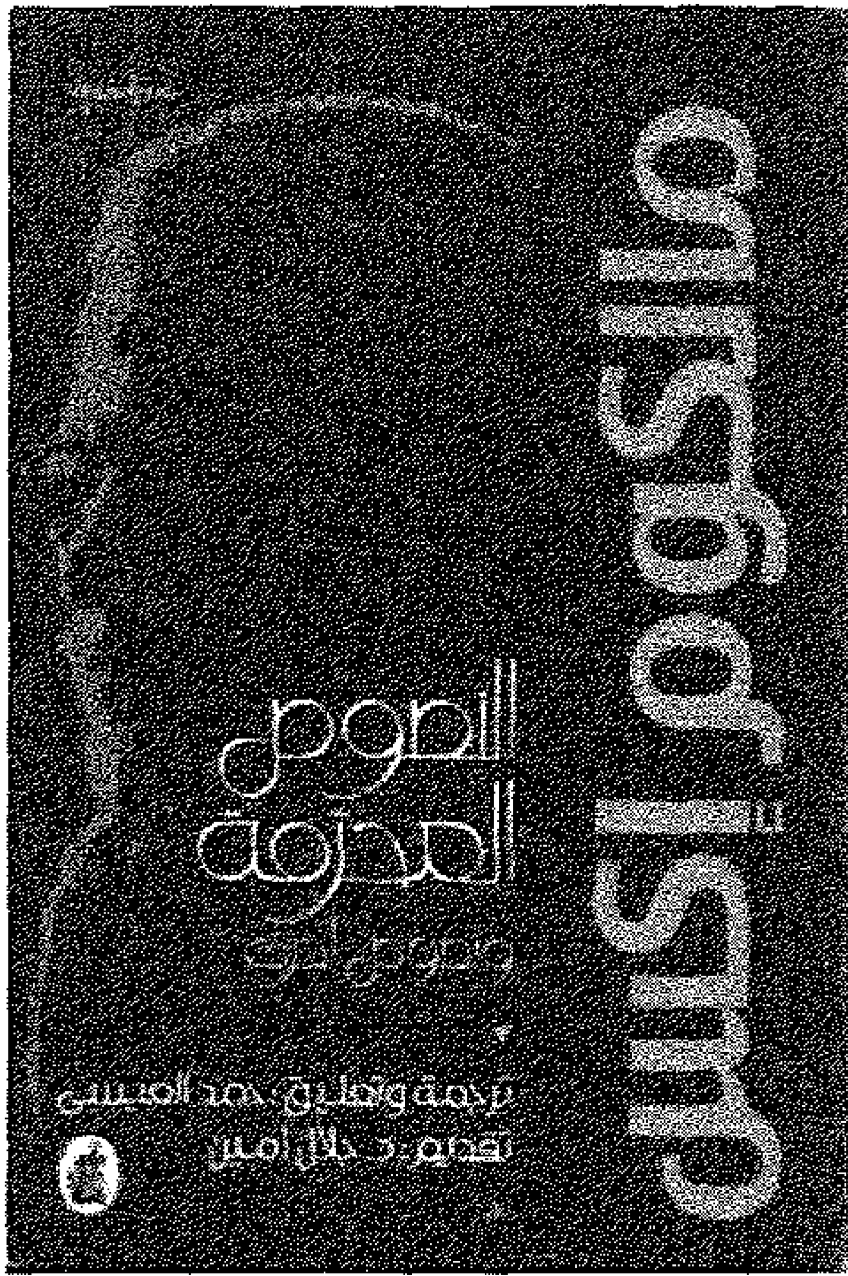
وكان آخر عهدى به أن قرأت أنه حصل فى عام ٢٠٠٧ على جائزة الدولة التقديرية فى أحد فروع الثقافة، ففرحت صادقاً بفوز ابن مدرستى وجارنا القديم بجائزة مستحقة. فكرت أن أرسل له برقية تهنئة، ولكنى قلت لنفسى أغلب الظن أنه لن يتذكرنى. ■

شريف قنديل

كتاب الزاوية



مالكوم إكس
النصوص المحرمة



هذا كتاب جميل(*) تترك قراءته في النفس أثراً طيباً للغاية. قد يستغرب القارئ في البداية أن يجد المؤلفين الذين ترجمت بعض أعمالهم في هذا الكتاب ينتمون إلى ميادين مختلفة جد الاختلاف. فمنهم المناضل السياسي، وعالم اللغويات الشهير، والمصلح الاجتماعي، والمؤرخ، ورئيس جمهورية سابق، وعلماء أفذاذ، وروائية، ومغنٍ شعبي، وشاعرة. فما الذي يمكن أن يجمع بين هؤلاء جميعاً؟! وهل هناك من القضايا ما يمكن أن يكون همًا مشتركًا لهم؟! ثم ما الذي يدفع كاتبًا عربيًا أن يترجم كتابات لهؤلاء جميعاً ويجمعها في كتاب واحد؟!

على أن استغراب القارئ لن يطول. إذ بمجرد أن يقرأ فصلين أو ثلاثة سيدرك أن شيئًا مهمًا يجمع بين أغلب فصول الكتاب، وأن هذا الشيء هو الذي يجعل الكتاب جميلاً، ويجعله يترك هذا الأثر الطيب في النفس.

جلال أمين

❖ الكتاب صادر عن «دار رياض الريس للنشر»
ترجمة: حمد العيسى

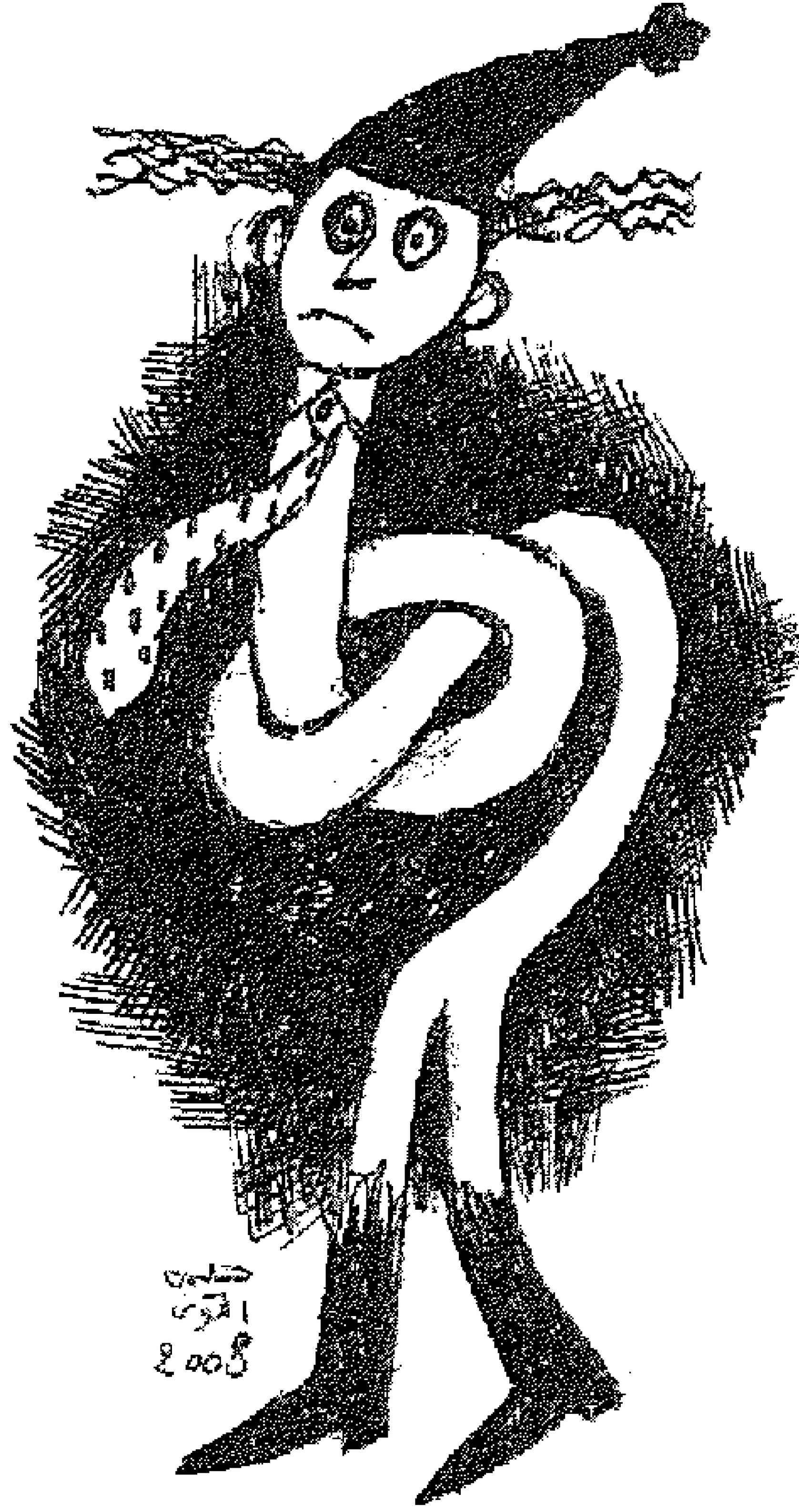
الأزمات العالمية

دروس غير مستفادة!

محمود محيى الدين

■■ فى الصباح الباكر من أحد أيام شهر مارس فى عام ١٩٩٩، اجتمع ممثلو ثلاث وثلاثين دولة فى قاعة فسيحة أعدت للاجتماع فى مدينة بون الألمانية. ورغم جمال المكان المعد فى أجواء قلعة قديمة مشيدة على قمة تل اخضرّ سفحه ببوادر الربيع، فإن نفراً من المجتمعين شملتهم مظاهر القلق والتوتر، ونفراً آخر ظهرت عليهم علامات الترقب لما سيسفر عنه الاجتماع ونفراً ثالثاً حلت عليهم أمارات أصحاب الحل والعقد وسمات الثقة الظاهرة.

لقد كان هذا الاجتماع لمناقشة آثار الأزمة المالية للأسواق الناشئة فيما عرف بعد ذلك بالأزمة المالية الآسيوية والتى كانت لها تداعيات سلبية اقتصادية عالمية. وكان الاجتماع تمهيداً لاجتماع آخر عقد بعد شهر واحد فى واشنطن لاتخاذ إجراءات المساندة للأسواق الناشئة والدول النامية.



وأسوق ذكر هذا الاجتماع لإظهار ما سيبين للقارئ من أن ثمار الأزمات الحالية تحمل بذوراً لأزمات قادمة وأن هناك أمرين مشتركين فى كافة الأزمات. أولهما: أنه رغم كثرة الحديث عن دروس مستفادة من أزمات ماضية وضرورة الاتعاظ بأخطاء هنا وتدارك تجاوزات هناك، فإن الأزمات تتكرر بقدر من الابتكار المحدود فى مسبباتها. وثانى الأمور المشتركة أن كل الأزمات مهما بلغت فى حدتها وخطورتها وطول أمدها تنتهى، وأن هذه النهايات غير عادلة فى نتائجها إذ يدفع الثمن الأكبر لهذه الأزمات غير المتسببين فيها.

أعلم أنه مع كل أزمة مالية أو اقتصادية كبرى يذهب البعض إلى التأكيد على أنها عارض غير مسبوق، ويحاول اقتصاديون وضع مجموعة من الافتراضات عن المسببات الفريدة للأزمة المعنية، ويجتهدون فى البحث عن منابعها، ويسعى البعض لصياغة تدابير وإجراءات جديدة للخروج من الأزمة ومحاولة منع حدوثها مرة أخرى. هكذا تنبئنا الأزمات المالية والاقتصادية السابقة على مدار القرون الأربعة الماضية...... من أزمة زهرة التيوليب (الزنبق) الهولندية فى القرن السابع عشر إلى فقاعة بحر الجنوب فى القرن الثامن عشر، ثم تدهور سوق القطن الآجلة فى القرن التاسع عشر. وإذا استعرضت عقود القرن العشرين فلا يكاد يمر عقد أو عقدان منه إلا وشهد أزمة مالية أو مصرفية أو ائتمانية أو فى أسواق النقد الأجنبى. ففى عام ١٩٠٧ حدثت فوضى مالية كبرى بعد انهيار الأسواق وتسابق المودعون على البنوك لسحب ايداعاتهم من البنوك الأمريكية. وقد جاء أحد المعلقين فى كتاب نشر له عام ١٩٠٨ بإيضاح لأسباب هذه الأزمة(١) فتجد مشكلة التلاعب فى سوق الأوراق المالية فى المقدمة، وتدفق رؤوس الأموال دون ضوابط إلى القطاع العقارى، والانفلات فى قواعد منح الائتمان، وشح السيولة وفقدان الثقة بين المؤسسات المالية.



ثم تمر السنوات قصارا أو طوالا فى تقدير من عاشها، لتأتى الأزمة المالية العالمية الكبرى المعروفة بالكساد الكبير ليشرح الاقتصادى جون كينيث جالبريث فى كتابه المعنون «الانهيار الكبير ١٩٢٩»(٢) وهو دراسة كلاسيكية عن الخراب الاقتصادى الذى تسببت فيه هذه الأزمة المالية والذى امتد لعشر سنوات بعدها. ورغم تأكيد جالبريث على أن علم الاقتصاد لا يكاد يعطى إجابات شافية عن مسببات الانهيار المالى فى عام ١٩٢٩ فإنه يظهر فى تحليله مشكلة التلاعب فى سوق الأوراق المالية، المدفوع والمتبوع بمقامرات مالية وليس مضاربات محسوبة، وتيسر ذلك بمنح سهل للائتمان دون ضوابط وإفراط فى الثقة من جانب المؤسسات المالية لحد الغرور فى اتخاذ القرار الائتمانى، وشعور بتدفق غير محدود للمدخرات وتدفق رؤوس الأموال دون حساب لتذهب إلى أوعية مالية غير مساندة لأنشطة إنتاجية، فمجالات الاستثمار محدودة وعوائدها متواضعة لا تتناسب وطموح المدخرين الطامعين فى عائدات عالية. وقد جاءت هذه التطورات على نحو مشابه لما حدث فى أزمات سابقة، ومنها فقاعة «بحر الجنوب» فى القرن الثامن عشر عندما كانت تنهمر المدخرات على أنشطة ذات عائد مالى ظاهر دون عمل اقتصادى منتج يبرر هذا العائد.

وعندما أتت لحظة المراجعة المحتومة وعدم القدرة على السداد تبدأ سلسلة الانهيارات كقطع «لعبة الدومينو» المتراصة فى تتابع لبعضها البعض، حيث وقوع واحدة منها يؤدى إلى وقوع باقى القطع، التالية لها والسابقة عليها .. وهذا ما يعرف بالمخاطر النظامية، فانهيار مؤسسة فى هذه الحالة خطره غير مقصور عليها وحدها ومع ظروف عدم الثقة وعدم توفر السيولة، بعد عهد من الإفراط فى الثقة وإتاحة السيولة النقدية والمالية الرخيصة، يتحول القلق إلى هلع وفى صناعة المال والائتمان، التى تعتبر الثقة عمادها، سرعان ما تحدث الفوضى المدمرة التى تقضى على مؤسسات مالية وتنسحب الأزمة من الدوائر المالية فى شارع «وول ستريت» إلى الدوائر التجارية والاقتصادية فى أسواق الصناعة والزراعة والاستثمارات فتزداد البطالة وينتشر الفقر وتشيع الجريمة.

قد لا يتكرر التاريخ فى شأن الأزمات المالية والاقتصادية حرفيا، ولكن أوجه التشابه بين الأزمات تجعلها وكأنها فى إطار قافية شعرية بائسة ممتدة ذات سجع تام. ألم تر هذا التكرار والاشتراك فى المسببات لهذه الأزمات؟ إفراط فى الائتمان غير المنضبط وزيادة فى السيولة ومبالغة فى الثقة بين المؤسسات المالية سرعان ما تتحول إلى انحسار فى الائتمان ونقصان حاد فى السيولة وانعدام فى الثقة بين المؤسسات.

ولننظر فى عدد من الأزمات الحديثة التى شهدتها الأجيال المعاصرة، الأزمة المالية فى تشيلى عام ١٩٨٢، وأزمة المديونية الخارجية لدول أمريكا اللاتينية فى الثمانينيات، وأزمة المكسيك المالية فى عام ١٩٩٤، والأزمة الآسيوية فى عام ١٩٩٧، ثم الأزمة الروسية وأزمة جنوب أفريقيا فى التسعينيات من القرن الماضى، وأزمة الأرجنتين فى مطلع هذا

الكتاب تحت عنوان «خمسون عاما فى وول ستريت» للمؤلف هنرى كلوز
Clews, Henry (1908), "Fifty Years in Wall Street, Irving Publishing Company
2 - Galbraith, John Kenneth (1954), "The Great Crash: 1929, Penguin Books
3 - Minsky, Hayman (1986), "Stabilizing an Unstable Economy, Yale University Press.

لقد تراخت مؤسسات الرقابة فى عدد من الدول المتقدمة فى عملها مدفوعة بتفاؤل فى معدلات النمو التى ستجبر الأخطاء، وتفاؤل بزيادة فى تدفق الأموال التى ستغمر الأسواق بما لا يكشف عن العورات



القرن .. بل والأزمة المالية العالمية الراهنة. ألم تجمعها مسببات الأزمات السابقة؟ فأين ذهبت قوائم الدروس المستفادة؟ وأين فقدت تقارير التوصيات بإصلاح المؤسسات المالية الدولية وتحديدا صندوق النقد الدولى والبنك الدولى؟ وأين ذهبت نتائج المؤتمرات الدولية ومجموعات العمل التى شكلت خاصة فى أعقاب أزمة جنوب شرق آسيا التى أشرت إليها فى مطلع هذا المقال؟

إن المُطالع اليوم لنتائج قمة دول العشرين التى عقدت فى نوفمبر ٢٠٠٨ فى واشنطن لا يجدها تختلف شيئا يذكر عن توصيات مجموعة الـ ٣٣ التى عقدت اجتماعاتها فى مارس وأبريل عام ٢٠٠٨. والمطلع على توصيات مجموعة الدول الثمانى الكبرى فى ٢٠٠٨ لا يجدها تختلف كثيرا فى توصياتها بشأن إعادة بناء النظام المالى العالمى عن تلك الصادرة عن مجموعة الدول السبع الكبرى الصادرة فى عام ١٩٩٩. ففى كل هذه التوصيات تكرار عن أهمية متابعة حركة رؤوس الأموال قصيرة الأجل، وإعادة إحياء دور مؤسسات بريتون وودز فى ظل عالم جديد يتزايد ارتباط أطرافه اعتماداً على بعضها استثمارا وتجارة، وشكوى من تراجع دور المؤسسات الاقتصادية المعنية بالتنسيق الدولى ووضع المعايير والقواعد ومتابعة تنفيذها .. فقد شهد العالم زيادة حادة فى السنين العشر الماضية فى تدفقات رؤوس الأموال والسلع والخدمات بين الدول فى الوقت الذى شهدت فيه المؤسسات المالية الدولية تدهورا مستمرا فى الأداء، وقلة حيلة فى التعامل مع الأزمات وعدم قدرة على التنبؤ بها أو التحوط ضدها أو التحذير المبكر منها.

ورجوعا إلى حديث اجتماع القلعة فى بون عام ١٩٩٩ وإشاراتى إلى انقسام المجتمعين إلى ثلاثة نفر، الأول نفر من القلقين من الدول الآسيوية صاحبة الأزمة والثانى نفر من المراقبين المتتبعين من الدول النامية ذات الأسواق الناشئة ومنها مصر ودول عربية وافريقية لما سيسفر عنه الجدل والنقاش لعلاج الأزمة، والثالث نفر من ممثلى الدول المتقدمة الذى تفرغ وقتها لإلقاء الدروس والعظات عن كفاءة الأسواق وأهميتها، وفاعلية الرقابة المالية وضرورتها. ومن عجب أن تجد الأزمة المالية العالمية الراهنة قد تشكلت وظهرت أسبابها وكأن محدثيها قد اطلعوا على هذه الدروس التى كانوا يلقونها فخالفوا كل نص فيها.

فأين كفاءة الأسواق مع غياب للمعلومات والشفافية وقواعد الإفصاح، والسماح بالتدليس بخلط الغث والمشبوه والفاسد من العقود المالية بالجيد والمقبول منها: وأين قواعد الرقابة الداخلية فى المؤسسات من هذا الانفلات فى منح الائتمان لمن لا يستحق من المقترضين المدفوعين دفعاً إلى الاقتراض بأسعار فائدة متدنية ورهون عقارية افترض فيها الارتفاع المستمر فى الأسعار؟ فلما ارتفعت أسعار الفائدة بسبب القلق من التضخم وانخفضت أسعار العقارات خيفة تراجع معدل النمو ظهرت العقود على حقيقتها رغم الاجتهاد فى إخفاء معالمها بحزم مالية صيغت بغطاء تأمينى ليمعن فى إخفاء ما فى داخل هذه الحزم من عقود فاسدة. ولم يكن الأمر فقط فشلاً فى الأسواق التى عطلت آلياتها وأدواتها عن العمل بسبب غياب المعلومات الدقيقة وعدم الشفافية، بل تزامن معه فشل فى قواعد الرقابة المالية الفعالة. فكان هناك تهاون فى الإشراف وإفراط فى الثقة فى أن الكبار من المؤسسات المالية الكبرى فى الدول المتقدمة لا يقعون فى أخطاء الصغار من المؤسسات المالية المحدثة فى الأسواق الناشئة والدول النامية على النحو الذى حدث فى آسيا عام ١٩٩٧.

لقد تراخت مؤسسات الرقابة فى عدد من الدول المتقدمة فى عملها مدفوعة بتفاؤل فى معدلات النمو التى ستجبر الأخطاء، وتفاؤل بزيادة فى تدفق الأموال التى ستغمر الأسواق بما لا يكشف عن العورات. فلما ظهرت نذر التراجع فى معدلات النمو فى الولايات المتحدة بداية من عام ٢٠٠٦ وتكرر الحديث وقتها عن احتمالات أن تهبط طائرة الاقتصاد الأمريكى هبوطاً اضطرارياً عنيفاً أو على الأقل ستهبط هبوطاً يسيراً، فى إجماع على الهبوط واختلاف على شكله، تصاعدت حمى القلق دون إفصاح من قبل المفرطين فى قواعد كفاءة الأسواق وفاعلية الرقابة.

وبدلاً من أن يلجأ مسئولو المؤسسات المالية المتورطة إلى اتخاذ إجراءات احتوائية مبكرة، استمروا فيما بدءوا فيه من عمل ائتمانى ومالى منفلت وأصبحوا كالمقامر التعيس الذى يظن فى كل مقامرة جديدة يقدم عليها علاجاً لخسائر لحقت به فى المقامرات السابقة، فانتشرت هذه الأوعية المالية الفاسدة بين المؤسسات المالية فى أرجاء الأرض إلا قليلاً، وفتشت المؤسسات المالية فيما تحمله منها ومدى جودته بداية من عام ٢٠٠٧، فظهر ما أمعنوا فى إخفائه وزادت عملية التخلص العشوائى من هذه الأوعية وإعلان لخسائر كانت محدودة فى بدايتها بما اضطر الحكومة الأمريكية والنظام الفيدرالى المالى للتدخل فى إنقاذ بعض المؤسسات بالدمج القسرى لها وانتقلت المشكلة لأوروبا، فتم الاستحواذ على أحد بنوك الرهن العقارى فى بداية عام ٢٠٠٨، وظن البعض أن الأمور الصعبة قد تم احتواؤها ولكن ظهرت التداعيات الأكبر للأزمة فى شهرى سبتمبر وأكتوبر من عام ٢٠٠٨ الماضيين عندما تركت السلطات الأمريكية واحداً من أقدم بنوك الاستثمار فيها وأكبرها يسقط، فكان ذلك نهاية لبداية المحاولات البائسة للإنقاذ وبداية لسلسلة من الإجراءات اليائسة لاستعادة ثقة فقدت ولن ترجع أبداً فى ذات الأشخاص أو المؤسسات.

وقد يكون من طالع الولايات المتحدة أن تتبدل الإدارة الأمريكية ويأتى نفر جديد للحكم لم يشاركوا فى أحداث الأزمة المالية الراهنة بما ييسر من الخروج منها. ولكن هذا الخروج سيكون مكلفاً كما كان حال كل خروج من كل أزمة سابقة. ولن يتحمل التكلفة من تسببوا فيها وحدهم ولكن سيشاركهم أناس لم يسمعوا مجرد السمع عن أسماء مثل «ليمان برازرز» أو «الإخوة ليمان»، وهو اسم لمؤسسة قديمة التاريخ وكبيرة الفشل التى سمح سقوطها فى الولايات المتحدة بالإعلان الرسمى عن بداية الأزمة المالية الكبرى الراهنة. لن يدفع ثمن هذه الأزمة أصحاب المرتبات الخيالية السنوية الذين فقدوا وظائفهم ولكن بعدما حصلوا على أموال تؤمن مستقبل أحفاد أحفادهم مالياً، ولن يدفعها دافع الضرائب الأمريكى أو الأوروبى وحده، ولكن سيدفع التكلفة الفادحة لها أناس يعيشون فى دول نامية لم يعرفوا «الإخوة ليمان» ولكنهم عرفوا إخوة متعطلين سيزدادون عدداً، وعرفوا إخوة لهم من الفقراء سيزدادون فقراً من جراء التداعيات السيئة الاقتصادية للأزمة المالية العالمية.



فالكساد الاقتصادى تجاوز مرحلة التنبؤ والتخرص به واستبعاده واستقرابه إلى واقع تشهده أسواق أمريكا وأوروبا الغربية بتوقعات نمو للعام ٢٠٠٩ تقل عن الصفر واحتمالات لاستمرار الكساد لما لا يقل عن عامين، وسيكون لذلك تأثيره السلبى على النمو العالمى رغم معدلات النمو المتوقعة لدول اسيوية بما فى ذلك الصين التى تعتمد حركة النشاط الاقتصادى فيها على صادرات إلى الأسواق الأمريكية والأوروبية واستثمارات منها.

وسيزيد من حدة المشكلة عدم قدرة المؤسسات المالية والائتمانية فى ظل الأزمة على القيام بعملها، وعندما سئل أحد رؤساء البنوك الأوروبية الكبرى عن السبيل إلى الخروج من الأزمة فذكر ثلاثة من المتطلبات .. الأولى استعادة الثقة، والثانية عودة السيولة المالية والثالثة الحظ



ظهرت التداعيات الأكبر للأزمة فى شهرى سبتمبر وأكتوبر من عام ٢٠٠٨ الماضيين عندما تركت السلطات الأمريكية واحداً من أقدم بنوك الاستثمار فيها وأكبرها يسقط



حين طالبت دول متقدمة بأن تقوم الأسواق الناشئة بخضوع قطاعاتها المالية للفحص والمتابعة من خلال البنك وصندوق النقد الدوليين. امتنعت هى عن الخضوع لهذا الفحص



الطيب. وهى متطلبات لو توفرت لأى مؤسسة فى أى مكان أو زمان لقامت بعملها على خير وجه.

من الواضح أن بعض البنوك الكبرى فقدت قدرتها على القيام بدورها الأساسى وهو الوساطة المالية بتعبئة المدخرات وتوجيهها للاستثمار والنشاط الإنتاجى والاقتصادى.. وهو ما لا يظهر بوادر للتحسن بشأنه فى الأجل القصير مما جعل أحد المعلقين الاقتصاديين هو جون كاى فى جريدة الفاينانشال تايمز يطالب البنوك البريطانية بالقيام بدورها فوراً بعدما تمتعت بهذا السخاء الحكومى فى إنقاذها فى حين تركت مؤسسات اقتصادية مثل أكبر المتاجر البريطانية وهو «وول وورث» ذو المائة عام من النشاط الحافل يواجه شبح الإفلاس.

والسبب فى التمييز لصالح البنوك مقابل أى مؤسسة أخرى هى قيامها بالوساطة المالية ومسئوليتها عن نظام الدفع وتسوية المستحقات فى المجتمع.

ويبدو أن بنوكاً قد اعتادت على هذا السخاء الحكومى بإنقاذها بأموال الناس فتكررت أخطاؤها بل زادت فداحة هذه الأخطاء مع الوقت، فيما يعرف بين الاقتصاديين «بأثر الخطر المعنوى» الذى يشجع المؤسسة التى تعلم أنها ستنتشل فى النهاية من عثرتها بعدم توخى الدقة ومراعاة الانضباط فى منح الائتمان، وسيكون ذلك فى تقديرى أحد بذور الأزمة المالية القادمة ولو بعد حين.

يعزز هذا الرأى ما أظهره «هايمان منسكى» فى إطار كتاباته[3] عن طبيعة الاقتصاد الأمريكى وإلى حد ما الاقتصاد الأوروبى، المدفوع بحكم مكوناته وآليات عمله إلى أزمات وانهيارات جارفة، لاعتماده على نظام مالى يتأرجح بين القوة والضعف والحركة والشلل، بما يؤدى إلى تقلبات حادة فى الدورات الاقتصادية بين رواج وكساد وازدهار وركود، ويزيد من حدة هذه التقلبات وتكرارها ترك الأسواق المالية تعمل دون ترسيخ قواعد الكفاءة وتطبيق فعال لمعايير الرقابة الحصيفة.

فحتى تعمل الأسواق يجب أن تتوافر لها ضرورتان متلازمتان هما الكفاءة وفاعلية الرقابة.. فيما يعبر عنه بأن الاقتصاد حتى يتطور دون حوادث يجب عليه أن يعمل فى إطار ترسم حدوده حرف E مرتين ... مرة حرف E الدال على الكفاءة بمعنى Efficiency، ومرة حرف E الدال على الفاعلية Effective والمقصود هنا كفاءة الأسواق وفاعلية الرقابة عليها.. ونجد أن التضحية بأى منهما ناهيك عن كليهما، ولو بقدر يسير يعجل بحدوث الأزمات. فقد أهدرت قبل الأزمة المالية الأخيرة معايير الكفاءة بغياب الشفافية والمعلومات وعدم القدرة على تصنيف المخاطر والعوائد المرتبطة بها. فصنفت أوعية مالية على أنها قليلة المخاطر ومرتفعة العائد خلافاً للواقع، تزامن ذلك مع تواضع تطبيق معايير وقواعد الرقابة والإشراف، وترك الساحة يعبث فيها المغامرون بأعمالهم دون حسيب أو رقيب. وتركت مؤسسات للتصنيف الائتمانى تصدر تقارير عن الشركات والمؤسسات أسهمت فى التضليل وهى إلى يومنا هذا لا تخضع لأى رقابة أو إشراف، ولا يمكن مراجعة قراراتها أو تقاريرها بآليات عادلة أو من جهات متخصصة محايدة يعتمد عليها.



وفى حين طالبت دول متقدمة بأن تقوم الأسواق الناشئة بوضع قطاعاتها المالية تحت إجراءات الفحص والمتابعة من خلال لجان مشتركة للبنك وصندوق النقد الدوليين فيما عرف ببرنامج تقييم القطاعات المالية. امتنعت دول متقدمة عن إخضاع قطاعاتها المالية لهذا الفحص الذى يسهم فى التعرف على المشكلات أولاً بأول وقبل تفاقمها. فالكيل بمكيالين ليس فقط فى أحوال السياسة ولكن نجده أيضاً فى أمور الاقتصاد وبشكل فج.

وتتداعى إلى الذاكرة كشاهد على اجتماعات بون وواشنطن وما جرى فيها من تلقين لممثلى الأسواق الناشئة الآسيوية فى كيفية إدارة الاقتصاد واعتبارات الالتزام بقواعد الرقابة المالية وسبل إخضاع الشركات لقواعد الحوكمة والشفافية. من ملقنين تجدهم وقد خرقوا كل قاعدة ومعيار عن الكفاءة والفاعلية والحصافة فى الرقابة ولوازمها ودواعيها.

ورغم ما تشهده اليوم من اجتماعات ومؤتمرات فإننى لا أتوقع إصلاحاً يذكر فى النظام المالى العالمى دون مشاركة فاعلة للدول النامية صاحبة الاقتصادات البازغة فى صياغة المنظومة المالية الدولية، وإعادة بناء دور المؤسسات المالية الدولية على قواعد جديدة للتصويت والإدارة وتوجيه الأمور فيها وقيامها بدور جديد يتناسب وتحديات ومتطلبات هذا العصر.

فالوضع اليوم مختلف تماماً عما كان عليه عندما تأسست هذه المؤسسات الدولية فى منتصف الأربعينيات ولنا أن نطالع ونقارن وضع الدول الخمسين الأكثر تقدماً من الناحية الاقتصادية، حتى بالمعيار البسيط للدخل القومى أو بمعيار معادلة القوة الشرائية. فستجد اليوم عدداً كبيراً من الدول كانت فى المقدمة لم تعد كذلك اليوم، وسترى دولاً لم تكن على الخريطة الاقتصادية أصبحت ذات شأن معتبر فى تجارة العالم واستثماراته.

وفى تقديرى أنه يجب أن تتم الإجراءات الإصلاحية وبمشاركة الدول النامية على وجه السرعة، فبعد نهاية الأزمة عادة ما تعاود الأسواق المالية، ذات الذاكرة الضعيفة، ارتكاب ذات الحماقات والانتهاكات ولكن بأساليب جديدة. وبعد الأزمة تحاول المؤسسات التى فقدت أموالا كبرى مراجعة حساباتها سريعا وتحاول أن تعوض ما فاتها من الزمن وما خسرته أثناء الأزمة.

وفى غمرة الأزمة المالية لا ينبغى أن نتجاهل أن التحدى الأساسى الذى يواجه السياسات الاقتصادية وخاصة فى الدول النامية والاقتصادات البازغة هو تحقيق استدامة للنمو الاقتصادى يدعم قدراتها على مواجهة مثل تلك الأزمات ويقيها من تبعاتها، ولعل هذا يأتى فى إطار عمل شاركت فيه مع مجموعة عمل ضمت مختصين وخبراء ومسئولين انتهت إلى إصدار تقرير هام عن النمو والتنمية فى العالم لمدة عامين متصلين، وتحديداً منذ أبريل ٢٠٠٦ وحتى أبريل ٢٠٠٨.

ونسق لمجموعة العمل أستاذ اقتصاد معتبر فى جامعة ستانفورد حصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد عام ٢٠٠١ وهو البروفيسور «مايك سبنس» شاركه أستاذ شهير فى علم الاقتصاد ودراسات النمو والتنمية وهو البروفسور «روبرت سولو» أبو نظرية النمو الاقتصادى؛ وفى هذا التقرير بعض الأمور التى أحسبها تراجع مراجعة جوهرية لما عرف «بتوافق واشنطن» وقد نشرت بعض المقتطفات من هذا التقرير فى عدد سابق من مجلة وجهات نظر.

سينظر إلى هذا التقرير، فى تقديرى، باعتباره تطوراً نوعياً فى فهم أسباب النمو الاقتصادى وتحرراً من أسر الأفكار الجامدة لإدارة الاقتصاد، إذ يؤكد التقرير على أهمية تبنى أسلوب مرن فى سياسات النمو والتنمية دون وصفات جاهزة واجبة الاتباع، ويضع التقرير فى الوقت ذاته النمو الاقتصادى فى مركز الصدارة من حيث الأولوية فى السياسات المتبعة. ليس لأهمية النمو فى حد ذاته لكن باعتباره معيناً على تحقيق أهداف التنمية من مكافحة للفقر، وإتاحة لفرص العمل، وزيادة الدخول، والإسهام فى توفير الخدمات العامة كالتعليم والصحة.

هذا التقرير يستخلص التجارب من عدة دول قد حققت بالفعل انجازا هاماً فى مجال النمو والتنمية. والأهم من هذا أنه يعطى بديلا لما يعرف «بتوافق واشنطن» ويعين فى التعامل مع الأزمة المالية العالمية الراهنة.



فى إطارنا العربى هناك مجال كبير لصياغة سياسات اقتصادية عربية فى إطار ترسيخ دور الدولة القوية التى تتبع سياسات مرنة. ويخطئ من يظن أن هناك عودة لمذاهب التدخل السافر فى النشاط الاقتصادى والتدليل على ذلك ما يحدث الآن فى حالات الولايات المتحدة والاتحاد الأوربى فهذا التدخل وفقاً لما أعلن هو تدخل مؤقت مجبرون عليه لإنقاذ المؤسسات، وينتظرون فرصة لطرح ما اشتروه فى هذه المؤسسات مرة أخرى للأسواق وللقطاع الخاص. والتاريخ الاقتصادى الحديث للاتحاد الأوربى والولايات المتحدة ملئ بالأمثلة بالتدخل لشراء أصول تتملكها الدولة

فى غمرة الأزمة المالية الحالية فإن التحدى الأساسى الذى يواجه السياسات الاقتصادية وخاصة فى الدول النامية هو تحقيق استدامة للنمو الاقتصادى يدعم قدراتها على مواجهة مثل تلك الأزمات

لفترة ثم تخرج منها أو إقالة بعض المؤسسات من عثراتها، وكما حدث في أعقاب الأزمة المالية الكبرى في الثلاثينيات وكما حدث في الثمانينيات والتسعينيات للمؤسسات المالية الصغيرة المعروفة ببنوك الادخار والإقراض في الولايات المتحدة، وكما حدث في انجلترا في شركات التأمين، فمسألة التدخل بالشراء لأصول مالية لا يجب أن يتلقفها البعض كأنها نوع جديد من تدخل الدولة تحيد به عن مسارها في مساندة اقتصاد بما يعتمد بالأساس على مؤسسات القطاع الخاص. هذا هو الواقع دون التمسك ببعض التوجهات المذهبية تعلقا بها.

وفي تقديري إن التعلق الجامد بالمذاهب الاقتصادية قد تراجع بشدة منذ عام ١٩٧٨، من خلال هذه الزيارة التي قام بها الزعيم الصيني دنج زياو بينج إلى سنغافورة وخرج منها مقتنعا بأن شكل الملكية لا يهم وأن قواعد الاستثمار الخاص جنبا إلى جنب مع الاستثمار العام ستحقق النمو والتنمية المطردة فيما اشتهر عنه بعد ذلك بالمثل الذي أطلقه Black cat & white cat، أي أنه لا يهم لون القطة سوداء أو بيضاء ما دامت تصطاد الفئران، فما يهم هو الإطار الحاكم للنشاط الاقتصادي، المنافسة العادلة التي يجب أن تكون في الاقتصاد، وتفعيل القواعد الرقابية الحاكمة للأسواق. هذه المرونة هي السبب وراء الانطلاقة الكبرى في حالة الصين الشيوعية وهذا أيضا ما يقي الآن الأسواق المالية الأوربية والأمريكية من تداعيات الأزمة المالية لأنها لو تمسكت بقواعد حرفية للملكية الخاصة لانهارت الأسواق بشكل أكبر. وأتصور أنه آن الأوان في الحالة المصرية على الأقل أن نتخلص من مسألة شكل الملكية كرهان على النجاح أو الفشل ولا يوجد صراحة ارتباط آلي لشكل الملكية بالكفاءة أو الأداء أو الإنتاجية، فكل منا يعلم في محيطه أنه في حالات كثيرة للملكية الخاصة حدث تدهور في الأداء بسبب عدم كفاءة الإدارة أو عدم كفاءة الأسواق وكذلك الأمر بالنسبة للملكية العامة.

العبرة إذن بكفاءة الإدارة والتنافس في الأسواق وفاعلية الرقابة عليها، وبألا تدخل الدولة في أنشطة يكون فيها أداء القطاع الخاص أكثر تميزاً وتطوراً ومحققا لقواعد الكفاءة.

إن التعلق المذهبي الشديد ببعض المدارس الاقتصادية التي ترجع إلى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر أو حتى القرن العشرين يعلن عن حالة من الإفلاس للمعاصرين، وكأن النظريات الاقتصادية والمفكرين الاقتصاديين وفلاسفة السياسة لم يستطيعوا إخراج شيء آخر يحيد بهم عن التعلق بما تبقى من المذاهب الرأسمالية أو الاشتراكية.

قد يكون من المستحسن في التعامل مع الأزمة الراهنة أن نستفيد من دروس النمو والتنمية في الدول ذات الاقتصادات البازغة ومنها ما يأتي:

أولاً .. انفتاح هذه الدول على الاقتصاد العالمي والانتفاع بتدفقات الاستثمار الأجنبي وزيادة الصادرات السلعية والخدمية والاستفادة من تطور العلوم والمعارف في الارتقاء بكفاءة العنصر البشري في هذه البلدان.

ثانياً .. تحقيق استقرار في الاقتصاد الكلي خاصة فيما يتعلق بمعدلات التضخم وحسن الأداء المالي.

ثالثاً .. التوجه المستقبلي في السياسات الاقتصادية بمزيد من الاعتماد على معدلات عالية من الادخار والاستثمار.

رابعاً .. الاعتماد على آليات السوق المنظمة والمراقبة في توظيف الموارد وحسن توجيهها للاستخدام الأكفأ لها.

خامساً .. وجود قيادة فاعلة تطبق قواعد الحكم الرشيد الملتزم بتنفيذ السياسات الدافعة للنمو، وحريصة على شمول التنمية لكافة أبناء المجتمع دون استبعاد أو انحياز، ومن خلال جهاز إداري كفء يقوم بأعبائه ومسئولياته على أفضل وجه.

وجدت من الضروري التأكيد على هذه المحاور العامة والأساسية للعمل في نشدان النمو والتنمية خاصة في إطار ما يثار عن أن التعامل مع الأزمة المالية العالمية يتطلب في نظر البعض العودة إلى الدولة المتدخلة في الإنتاج مباشرة والسيطرة عليه والتوجه نحو الداخل وفرض سياج من الحماية في سبيل حركة التجارة.

وفي الإطار المحدد للتعامل مع الأزمة المالية العالمية في مصر هناك خمسة محاور رئيسية للعمل في إطار السياسة الاقتصادية المتبعة، خاصة في ظل أن القطاع المصرفي المصري يتمتع بالأمان والاستقرار وفائض في السيولة يشهد عليها انخفاض نسبة القروض إلى الودائع.



المحور الأول: زيادة الإنفاق العام من خلال ضخ استثمارات جديدة في مشروعات للبنية الأساسية والمرافق العامة، وتشجيع نمط المشاركة بين القطاع الخاص والقطاع الحكومي في انجاز مشروعات الطرق والمدارس والصرف الصحي والمياه.

المحور الثاني: زيادة قدرة قطاع التمويل على القيام بوظيفته في الوساطة المالية وتوفير الائتمان المطلوب للأنشطة الإنتاجية والتصديرية وفقاً للقواعد المنظمة لمنح الائتمان بتكلفة مناسبة خاصة في ظل شواهد انخفاض التضخم، مع العمل على توسيع نطاق إتاحة التمويل للمشروعات المتوسطة والصغيرة لمساندتها على التوسع والإنتاج.

المحور الثالث: تشجيع ومساندة الاستثمارات الخاصة من خلال التعامل مع معوقات الاستثمار والعمل على تيسير الإجراءات المتعلقة بمنح التراخيص والموافقات اللازمة لبدء النشاط، وتبسيط واختصار الإجراءات اللازمة لذلك، وتيسير حصول المستثمرين على الأراضي اللازمة لإقامة مشروعاتهم وفقاً لقواعد معلنة، وتحقيق التوازن والاستقرار في أسعار الطاقة لأغراض الصناعة، ومساندة الشركات ذات التوجه التصديري من خلال حزمة من الإجراءات والحوافز التي تكفل خفض تكلفة المعاملات بالنسبة لخدمات النقل والتخزين وتأمين الصادرات وزيادة تنافسية الصادرات.

المحور الرابع: تنشيط أسواق المال والخدمات المالية غير المصرفية من خلال تنظيم تعامل الشركات على أسهم الخزينة الخاصة بها، بما يتيح لها القيام بدور صانع السوق لأسهمها وكمستثمر طويل الأجل فيها، لتحفيز الشركات الخاصة والمملوكة للدولة للدخول برغبتهم كمشترين في سوق الأوراق المالية، وتفعيل دور نشاط الشركات العاملة في مجال التأجير التمويلي لتمويل المشروعات المتوسطة والصغيرة، والمزيد من المساندة لنشاط التمويل العقاري لتمويل محدودي ومتوسطي الدخل مع مراعاة ضوابط الرقابة والإشراف وتشجيع تكوين صناديق استثمار مباشر من القطاع الخاص والمؤسسات المالية العامة والخاصة تستهدف الاستثمار وليس المتاجرة في الأسهم التي انخفضت قيمتها السوقية عن قيمتها المحسوبة وفقاً لأدائها.

المحور الخامس: تطوير التشريعات الاقتصادية بالعمل على مساندة تطبيق نظام المحاكم الاقتصادية وتوسيع النطاق الجغرافي لممارسة نشاطها، والانتهاء من إعداد مشروع قانون لتنظيم التخارج من السوق وتنظيم الإفلاس، والانتهاء من مشروع قانون جديد للشركات، والتقدم بمشروع قانون توحيد جهة الرقابة على الخدمات المالية غير المصرفية.

إن في هذه الأزمة فرصاً كامنة كما أن فيها تحديات ظاهرة.. ومن الفرص ما نجده في انخفاض أسعار السلع عالمياً بما يحقق نقصانا في معدلات التضخم المحلية والتي كانت التحدي الأكبر خلال العام الماضي في ظل الارتفاع الشديد في أسعار السلع الغذائية المستوردة وأسعار مواد البناء. سيخفف هذا من الأعباء على الفئات ذات الدخل المحدود والفئات متوسطة الدخول في مصر. ومن الفرص أيضاً ما أراه في ظل اهتمام المؤسسات المالية العربية والشركات من الاستثمار في مشروعات البنية الأساسية ومشروعات إنتاجية في إطار دولها أو في المحيط الاقتصادي العربي خاصة بعدما منيت الاستثمارات العربية بخسائر فادحة في الأسواق المالية العالمية. وليس صحيحاً أن الاستثمارات العربية ستنحسر في المستقبل فيكفي أن نعلم أنه حتى عند سعر ٥٠ دولاراً لبرميل النفط ستتحقق للدول العربية النفطية فوائض من اليوم حتى عام ٢٠٢٠ تقدر بمرتين ونصف المرة لإجمالي الفوائض التي تحصلت عليها خلال الخمسة عشر عاماً الماضية. وسوف تبحث هذه الفوائض عن مجالات للاستثمار ذات عائد مناسب ومخاطر وتكلفة محسوبة في مشروعات ملموسة في قطاعات الإنتاج والعمران.

وأرى فرصة للعرب والدول النامية في المطالبة بإعادة تشكيل النظام المالي والاقتصادي العالمي، خاصة أن الأساليب القديمة، الموروثة من عهد الحرب العالمية الثانية، في اتخاذ القرار على المستوى العالمي وفي المؤسسات الدولية ظهر فشلها تكراراً ومراراً بما يجعل الاستمرار فيها دون تغيير جذري وموضوعي من عوامل الفشل المحقق في الاستفادة من دروس الأزمات المتلاحقة بما في ذلك الأزمة المالية والاقتصادية الحالية ويجعل من ثمار الأزمة الراهنة بذور لأزمة قادمة إذا لم نستفد من دروس التاريخ.

فلا بد للعرب وللدول النامية من دور يتناسب ليس فقط مع الوضع الاقتصادي النسبي الجديد فحسب، ولكن بما يتوافق مع حجم ما تتحمله شعوبهم من آثار للأزمات الاقتصادية المتلاحقة التي يسهم في تكرارها وتفاقم تداعياتها السلبية تواضع حال المؤسسات المالية والاقتصادية الدولية بما لا يتوافق مع الهيكل الجديد للاقتصاد العالمي وتغير موازين القوة فيه خاصة بعد هذه الأزمة المالية الراهنة. ■

اقتصاد المسلمين

مصارف.. وشركات.. وتوازنات

جوئل بنين





تمكنت المملكة العربية السعودية وأثرياء النفط العرب الآخرون بفضل الازدهار النفطي من نشر نسختهم في الإسلام





تشكل الفترة منذ أواسط السبعينيات من القرن العشرين وحتى منتصف العقد الأول من القرن الواحد والعشرين منعطفا تاريخيا تضافرت فيه جهود الصفوة في الشمال مع الجنوب لإعادة بناء الاقتصاد العالمي كي يخدم - بصورة مباشرة أكثر سفورا - مصالح رأس المال التي يوجهها «إجماع واشنطون» (مجموعة من عشر وصفات لإصلاح اقتصاد الدول النامية) الليبرالي الجديد. كان صعود نظرية الاقتصاد الليبرالي الجديد من الهامشية إلى الهيمنة رد فعل تجاه أزمة مبدأ «فورد- كينيس» (نسبة إلى الصناعي الأمريكي هنري فورد والاقتصادي البريطاني جون مينارد كينيس) لتراكم رأس المال. لقد ارتكز ذلك النظام على الإنتاج الصناعي الكمي ورواتب العمال المرتفعة نسبيا (مبدأ فورد) وتدخل الدولة لضبط توازن القوى بين العمال ورأس المال والدولة (مبدأ كينيس). وقد حقق مبدأ «فورد- كينيس» ثلاثة عقود تقريبا من الاستقرار الاقتصادي والنمو الثابت في الغرب بعد تطبيقه في مؤتمر «بريتون وودز Bretton Woods» عام ١٩٤٤. وقد أدت الأنظمة الاقتصادية المشابهة المقتبسة محليا في مصر وتركيا وغيرهما في الجنوب، إلى تحقيق معدلات نمو أعلى وتوزيع للدخل أكثر إنصافا خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، أكثر مما حققت بعد تحولها نحو النظام الليبرالي الجديد في الثمانينيات والتسعينيات من نفس القرن.

على الساحة العالمية، كان مبدأ «فورد- كينيس» أحد أوجه إمبراطورية أمريكية غير رسمية ترتكز على قدرة إنتاجية هائلة لم تتضرر أثناء الحرب العالمية الثانية، واستثمار ضخم مباشر بالخارج من قبل مؤسسات تتخذ من الولايات المتحدة مقرا لها، ومكانة الدولار الأمريكي كالعملة الاحتياطية للعالم، وقوة عسكرية عظيمة. كانت قيمة أوقية الذهب أثناء مؤتمر «بريتون وودز» ٣٥ دولارا. وقد بقي هذا التقدير ثابتا حتى تم فك الارتباط بين الدولار والذهب في أغسطس عام ١٩٧١.

لم يستطع تعويم الدولار أن يوقف التدهور النسبي للاقتصاد الأمريكي مقارنة باليابان وأوروبا اللتين يمكنهما الآن تحدي السيطرة الاقتصادية للولايات المتحدة، ولكن ليس التفوق عليها. لقد دشن الكساد العالمي في الأعوام ١٩٧٣-١٩٧٥ عقدا من الركود والتضخم في الدول الرأسمالية الصناعية. وخلال هذا العقد من الركود والتضخم، جرى الاستبدال التدريجي لمبدأ «فورد - كينيس» لتراكم رأس المال بالنظام الليبرالي الجديد للتراكم المرن الذي عكسته سياسات «رونالد ريجان» و«مارجريت ثاتشر» في الولايات المتحدة وبريطانيا، والتي كانت مناوئة للعمال والقيود وموالية للتجارة الحرة وبرامج الاستقرار وتعديل الهيكلة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، والتي جرى تطبيقها بتوجيهات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي.

بداية من منتصف السبعينيات، ظهرت الحركات الإسلامية كالشكل الأكثر شعبية للمقاومة ضد الأنظمة الاستبدادية بالشرق الأوسط والاقتصاد العالمي الجديد. ومن التناقض أن الهوية الإسلامية شكلت في الفترة نفسها صورة لرأسمال اجتماعي يخفف من تقلبات مناخ السوق الجديد، من خلال تكوين شبكة من الثقة والتبادلية لطبقات الأعمال الصاعدة ذات الصبغة الإسلامية.

وقد صاحب التحول تجاه السياسات الاقتصادية الليبرالية الجديدة تحالف بين نخب الدولة والإسلاميين ضد اليسار العلماني. وتشير النزعات الاجتماعية المحافظة لكثير من عناصر طبقة الأعمال الإسلامية وصلاتها بالمملكة العربية السعودية، إلى سبب نزوع الحركات الإسلامية في تركيا ومصر والسودان والمغرب والأردن وغيرها في بداية العصر الليبرالي الجديد إلى التحالف مع الأنظمة الشمولية المشاركة في قهر التحديات التي تواجه تلك الأنظمة من قبل الخصوم اليساريين العلمانيين. ومع ذلك، سرعان ما انقلب بعض الإسلاميين ضد من قاموا بدعوتهم إلى الساحة السياسية.

النفط والإسلام

شكل النفط منذ زمن طويل رابطا هاما بين مراكز وأطراف السوق العالمي. ولكن العلاقة بين النفط والإسلام كانت دوما تعالج بكثير من الجدل.

إن العديد من الغربيين لم يدركوا الطبيعة الهيكلية لأزمة مبدأ «فورد- كينيس». وقد نسبوا الركود والتضخم خطأ إلى الحظر النفطي العربي القصير وغير الفعال إلى حد كبير والذي أعلن كرد فعل للدعم الأمريكي لإسرائيل أثناء الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٧٣. ومع الأخذ في الاعتبار أن النفط كان أحد عناصر الأزمة، فإن ضعف قدرة التكرير في الغرب كان أكثر أهمية من سعر النفط. وقد حلقت أرباح شركات النفط الغربية بينما تحمل المستهلكون العبء كله، تماما مثلما هو الحال أثناء طفرة أسعار النفط الحالية.

لقد زعم العالم الأفريقي المسلم «علي مزروعي» أن الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٧٣ ربطت بين «برميل النفط» و«هلال الإسلام»، مما أدى إلى إعادة إحياء الإسلام[١]. وكانت لدى كل من أنصار جناح اليمين المعادي للإسلام مثل «دانيال بايبس Daniel Pipes» والمفكرين العلمانيين العرب مثل «فؤاد زكريا» حجج مماثلة[٢]. ولكن تلك الآراء تعجز عن التأريخ للمنعطف الذي امتطت فيه صور محددة للحركات الإسلامية موجة البترو- دولار التي غمرت الشرق الأوسط، بينما عارضت نفس تلك الحركات أو غيرها - في الوقت نفسه - العواقب الاجتماعية والثقافية للازدهار النفطي والليبرالية العالمية الجديدة.

لقد تمكنت المملكة العربية السعودية وأثرياء النفط العرب الآخرون بفضل الازدهار النفطي من نشر نسختهم من الإسلام بمزيد من النشاط ومن تمويل الحركات الإسلامية في العديد من الدول بما في ذلك مصر وتركيا. وقد وجد العمال المهاجرون من مصر والسودان والأردن وفلسطين واليمن فرص عمل في المملكة العربية السعودية والخليج. وقد توفر التمويل للحركات الإسلامية من خلال إعادة تدوير عائدات أولئك العمال من خلال شبكات الصرافة غير الرسمية. وفي منتصف الثمانينيات قامت رابطة العالم الإسلامي التي تمولها السعودية والتي تدفقت عليها دولارات البترول والمساهمات الضخمة من «أرامكو Aramco»، قامت بدفع رواتب الأئمة الأتراك في مساجد ألمانيا الغربية وتمويل بناء المساجد في تركيا، بينما تولت الحكومة السعودية دفع رواتب مدرسي اللغة العربية في الجامعات التركية[٣].

لم يكن من الممكن أن تزدهر تلك الجهود لو لم تمر تلك الدول بأزمات سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية مرتبطة ببدايات تحولها نحو الليبرالية الجديدة. وقد حققت الكثير من الدول ذات الأغلبية المسلمة، سواء المصدرة للبترول مثل نيجيريا أو الجزائر، أو المصدرة للعمالة مثل مصر والسودان واليمن، القليل من المزايا طويلة الأمد من تضاعف أسعار النفط عشرين مرة بين عامي ١٩٧٣-١٩٨١. وبينما مكن البترول العديد من الدول المصدرة للنفط والعمالة من تدشين تحالف هيمن على الحياة السياسية يشابه المتكسبين من عائد الريع، فإنها لم تتمكن من إرساء بنية اجتماعية راسخة لتراكم رأس المال أو رؤية سياسية جديدة. وقد هيأ هذا الفشل والأزمات المتشابكة المرتبطة بإعادة الهيكلة الاقتصادية الليبرالية الجديدة بالإضافة إلى المشاكل الناتجة عن جماعات الجهاد ضد السوفييت بعد عودتها من أفغانستان، هيأ المناخ لصعود جماعات الجهاد في مصر والجزائر واليمن ودول عربية أخرى وإسلاميين يلجأون للعنف ويمينيين متطرفين في



تركيا خلال السبعينيات والثمانينيات. وقد يسرت الظروف المختلفة قليلا خلال نفس المنعطف التاريخي - في الثمانينيات والتسعينيات - صعود الإخوان المسلمين الذين لا يلجأون للعنف في مصر ودول عربية أخرى، وحزب النهضة في تونس، وحزب العدالة والتنمية المغربي، والعديد من الأحزاب الإسلامية التركية التي لا تلجأ للعنف.

الليبرالية الجديدة وظهور طبقات الأعمال ذات الصبغة الإسلامية

تم تنصيب «تورجوت أوزال» كرئيس وزراء لتركيا عقب الانقلاب العسكري في ١٢ سبتمبر ١٩٨٠. وقد اتهم بتنفيذ البرنامج التقشفي لصندوق النقد الدولي الذي جرى بالفعل تبني أول إجراءاته في ٢٤ يناير من ذلك العام. ينتمي «أوزال» إلى عائلة دينية محافظة من مدينة «مالاطيا» التي تقع وسط الأناضول. وللعائلة صلات بـ «النقشبندية» وهي أكبر الطرق الصوفية خلال الحقبة العثمانية والتي حظرها «كمال أتاتورك» بعد إقامة الجمهورية التركية. ومع ذلك، احتفظ النظام النقشبندي بأتباع سريين وبدأ في الظهور ثانية بصورة تدريجية بعد عام ١٩٥٠.

كان الزعيم النقشبندي «محمد زاهد كوتكو» أحد الشخصيات الرئيسية التي ساهمت في إقامة أول حزب إسلامي تركي - حزب النظام الوطني - عام ١٩٦٩ والذي قاده «نجم الدين أربكان». كان «أربكان» أيضا نقشبنديا. وقد حظر حزب النظام الوطني عقب الانقلاب العسكري عام ١٩٧١.

انتقل «تورجوت» وأخوه الأكبر «كوركوت» إلى إستانبول وانضما إلى الزاوية النقشبندية في ضاحية «إسكندر باشا» والتي اشتهرت كمنتدى لصفوة رجال السياسة والأعمال. وقد شجع الزعيم الراحل للزاوية «أسعد جوشان» (١٩٣٨-٢٠٠١) أتباعه على دراسة اللغات الأجنبية واستخدام الكمبيوتر وزيارة الدول الأجنبية. ووفقا لـ «جوشان» فإن «أكثر الناس عملية وعقلانية هم رجال الأعمال والتجار. وإذا كان رجل الأعمال مسلما أيضا، فهو الأكثر انسجاما مع مكانته الدينية في الحياة»(٤). وقد استخدمت العديد من مؤسسات الزوايا النقشبندية في تركمانستان - الوطن التاريخي للطريقة - والأقطار الإسلامية الأخرى المتحدثة باللغة التركية لتسويق وتصدير المنسوجات والسيراميك.

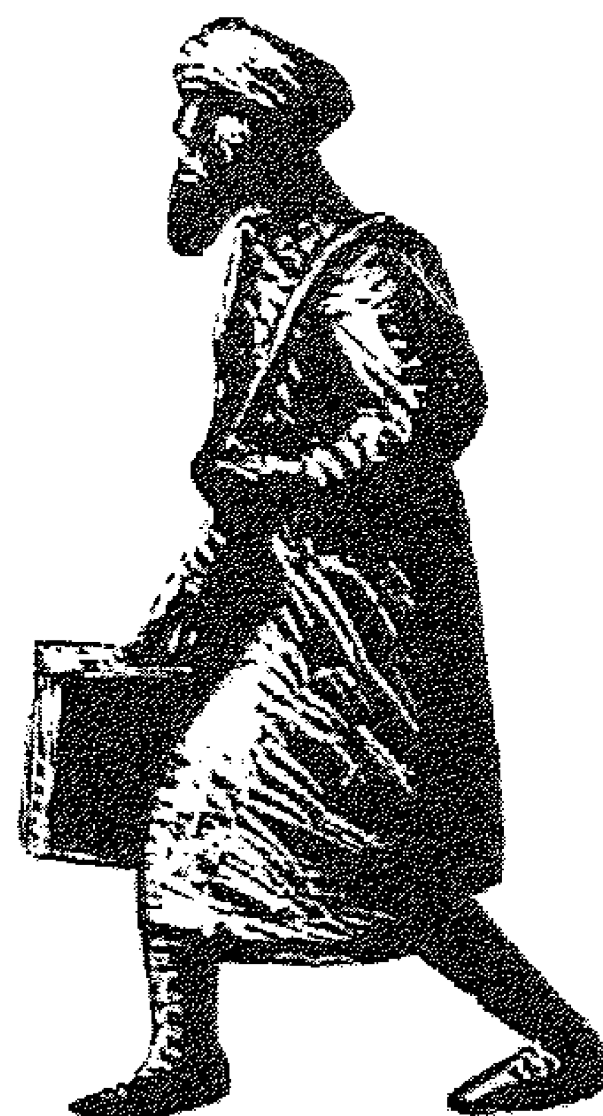
كانت الزاوية النقشبندية في «إسكندر باشا» أيضا مركزا للمحاولة الثانية لـ «نجم الدين أربكان» لإنشاء حزب إسلامي - حزب الخلاص الوطني - عام ١٩٧٣(٥). وقد انتمى كل من الأخوين «أوزال» إلى حزب الخلاص الوطني. وخدم «كوركوت» كنائب بالبرلمان وعضو بمجلس الوزراء. وقد تم حظر حزب الخلاص الوطني وجميع الأحزاب الأخرى واتحاد نقابات العمال الثوري بعد الانقلاب العسكري عام ١٩٨٠.

وتروج جمعية «نورجو» الصوفية بزعامة «فتح الله جولين» أيضا لثقافة عصرية موالية لرجال الأعمال. ويعتقد «جولين» أن الإسلام الأناضولي أكثر انفتاحا وتسامحا من الإسلام العربي وأن الدين يجب أن يبقى شأنا خاصا لا يجب فرضه على الآخرين. وبعد أن أصبح «تورجوت أوزال» رئيسا للوزراء قام بتشجيع حركة «جولين».

وقد تلقت الحركات الإسلامية ومؤسسات الأعمال ذات الصبغة الإسلامية في تركيا التمويل والدعم من العمال الأتراك المهاجرين في أوروبا. وقد تأسست جمعية النظرة الوطنية الإسلامية في ألمانيا عام ١٩٧١ وارتبطت منذ ذلك الوقت بكافة الأحزاب السياسية الإسلامية التركية من الناحيتين الفكرية والمالية. وقامت مؤسسة «كومباسان» القابضة الضخمة ومؤسسة «إيمباش» (مجمع التسوق الضخم الوحيد في تركمانستان) الأصغر حجما، وكلتاهما مؤسسة ذات صبغة إسلامية تتخذان من الأناضول مركزا لهما ولهما صلات بالأحزاب الإسلامية، قامتا بجمع ملايين الدولارات من الاستثمارات الصغيرة من العمال المهاجرين في أوروبا في شكل ودائع تتحاشى إثم الفائدة ولكن بلا ضمان تعاقدي بالحصول على عائد(٦).



مؤسسة البركة التركية للتمويل هي شراكة بين الشيخ «صالح كامل» وعائلتي «أوزال» و«توباش»



وقد راقت سياسات «أوزال» الاقتصادية لكل من طبقات الأعمال ذات الصبغة الإسلامية أو الكمالية (نسبة إلى كمال أتاتورك) العلمانية(٧). ولكن النخبة الكمالية اتجهت للارتباط بالمشروعات الاقتصادية الأقدم والأكبر والمملوكة للدولة والمتمركزة في إستانبول تحت لواء الجمعية التركية لرجال الصناعة والتجارة التي كانت تهيمن على الاقتصاد في السابق(٨). كان مبدأ «إجماع واشنطون» معاديا لتلك المؤسسات، ولذلك فقد ساهم في إضعاف تأثير النخبة العلمانية في الحياة التركية. وبالتالي، فقد وجد أصحاب المشروعات ذوو الصبغة الإسلامية فرصا سانحة في النظام الاقتصادي الجديد لم تكن متوافرة لهم في السابق.

قام «تورجوت أوزال» في ديسمبر عام ١٩٨٣ بتعديل قوانين المؤسسات المالية الخاصة للسماح بإنشاء بنكين إسلاميين هما «بنك فيصل» و«مؤسسات البركة التركية للتمويل الخاص» وإعفائهما من تطبيق قوانين الإفلاس التركية. وقد قامت تلك المؤسسات بتمويل واردات النفط التركية، وهو مجال يتردد أن «كوركوت أوزال» كانت له مصالح فيه والذي قدرت قيمته بحوالي مائتي مليون دولار سنويا. وفي الوقت نفسه، أصبح «كوركوت أوزال» أيضا مستشارا للفرع التركي لبنك التنمية الإسلامي.

ومؤسسة البركة التركية للتمويل الخاص هي شراكة بين الشيخ «صالح كامل» المؤسس السعودي لمجموعة «بركة» وعائلتي «أوزال» و«توباش». كما تمتلك عائلة «توباش» أيضا مؤسسة كبرى للمنسوجات. أما الشيخ «صالح كامل» فهو بالطبع أحد كبار المستثمرين في مصر كذلك.

يشير النمو السريع للاستثمارات السعودية في منتصف الثمانينيات، وكذلك الاندماج المشترك عام ١٩٨٨ بين بيت التمويل الكويتي أقدم البنوك الإسلامية ومن أكثرها ثراء، وبنك الأوقاف، يشير إلى أن رأس المال الخليجي قد وضع أولوية خاصة للاستثمار في تركيا. وقد مهدت المصالح المالية لعائلة «أوزال» وحاشيتها الطريق لتلك المشروعات. كما توافقت تلك الاستثمارات أيضا مع الإستراتيجية السياسية لـ «تورجوت أوزال». فنظرا لخلفيته السابقة مع حزب الخلاص الوطني الإسلامي، فقد علم أنه بعد قمع الجيش لليسار عام ١٩٨٠، لم يعد أمامه تحديات سياسية محتملة سوى من الإسلاميين. ومن خلال الترحيب بالبنوك الإسلامية في تركيا وتشجيع الأعضاء السابقين بحزب الخلاص الوطني الإسلامي أو حزب العمل الوطني اليميني المتشدد على تكوين شراكات مع السعوديين، فقد عزل تلك العناصر عن منافسيه ووطد من مكانة حزب الأمة الخاص به(٩).

وعندما سمح بإقامة الأحزاب مرة أخرى عام ١٩٨٣، أيد كثير من الإسلاميين من طبقة رجال الأعمال حزبي الأمة والطريق القويم ذوي الطابع الاجتماعي المحافظ والموالين لطبقة الأعمال. لم يكن أي من الحزبين إسلاميا في العلن، رغم أنهما اعتنقا الهوية الثقافية الوطنية الدينية الجديدة التي روج لها الجيش «التوليفة الإسلامية-التركية». وتضم تلك المجموعة ملاك ومديري العديد من المؤسسات التجارية المنشأة حديثا نسبيا في مجالات البنوك (البركة تركيا وآسيا للتمويل) والإعلام (تليفزيون AK، وإذاعة الأخلاق) والمنسوجات (هوزور جيم، وأيدينلي، وتوباش، وتكبير، وتسيتور)، والسيراميك، والذين يعيشون في ضاحية «إرزورومولار» الراقية في إستانبول ولهم ارتباطات إما بالطريقة النقشبندية أو جمعية «نورجو». ويرأس «كوركوت أوزال» جمعية مسجد «إرزورومولار».

يشكل رجال أعمال آخرون، هم في الأساس ملاك مؤسسات صغيرة ومتوسطة تتركز في المدن الواقعة بوسط الأناضول، يشكلون قاعدة اجتماعية هامة للإسلام السياسي. وقد شعرت تلك المؤسسات بالتهميش والإهمال من قبل الدولة الكمالية. واتبع كثير منهم «نجم الدين أربكان» وانضموا له عندما قاد الأعضاء السابقين في حزب الخلاص الوطني إلى حزب الرفاه الذي تكون عام ١٩٨٣. وفي عام ١٩٩٠ أقام «نمور الأناضول» - كما اشتهروا - الجمعية المستقلة لرجال الصناعة والتجارة والتي عرفت أولا باسم الجمعية الإسلامية لرجال الصناعة والتجارة. وتضم

الجمعية الآن أكثر من ثمانية آلاف عضو وتصدر نصف الصادرات التركية تقريبا. وهي تروج لقيم الأعمال الإسلامية «من خلال روح الرأسمالية» وتزعم أن السوق هو إحدى ساحات الجهاد[١١]. وتؤيد الجمعية انضمام تركيا لعضوية الاتحاد الأوروبي وكذلك توطيد العلاقات الاقتصادية مع العالم الإسلامي.

لقد أطاح الجيش بحزب الرفاه من السلطة عام ١٩٩٧ وتم حل الحزب بعد ذلك بعام. وفي عام ٢٠٠١ انضم العديد من أعضاء الجمعية المستقلة لرجال الصناعة والتجارة إلى الجناح الإصلاحي لحزب الرفاه السابق لتأسيس حزب العدالة والتنمية الذي يحكم البلاد الآن.

تتشابه مع ذلك النموذج طبقة البرجوازية ذات الصبغة الإسلامية التي ظهرت في مصر نتيجة للانفتاح الاقتصادي ولكن بصورة أكثر تنوعا وبجذور تاريخية أكثر عمقا من نظيرتها التركية. يتكون أحد عناصر تلك الطبقة من البرجوازية المرتبطين بالإخوان المسلمين. وطبقا لما ذكرته «سامية سعيد إمام»، فبحلول عام ١٩٨٠ كانت ثمان من العائلات الثماني عشرة المهيمنة على القطاع الخاص متصلين بالإخوان المسلمين. وقد شكلت المشروعات الاقتصادية المرتبطة بالإخوان المسلمين ما يقدر بحوالي ٤٠٪ من القطاع الخاص[١١]. واستنتج «روبرت سبرنجبورج Robert Springborg» أنه بحلول العام ١٩٨٩ كان المسيطرون على الإخوان المسلمين من الطبقة البرجوازية للانفتاح الإسلامي الذين «اشتروا المؤسسات بالثروات التي حصلوا عليها من خلال التعاون مع نظام السادات»[١٢].

ضمت «الطبقة الوسطى للانفتاح الإسلامي» المصرية مؤسسات مالية ضخمة مثل بنك فيصل الإسلامي الذي تم تأسيسه عام ١٩٧٧ بواسطة الأمير «محمد بن فيصل» من العائلة المالكة السعودية. ومن بين مؤسسي الفرع المصري كان «عمر مرعي»، وهو أحد أفراد إحدى العائلات العريقة من ملاك الأراضي. وكان لأخيه غير الشقيق «سيد مرعي» صلة نسب بأنور السادات. وقد تعرض عمر للسجن كعضو بالإخوان المسلمين على يد عبد الناصر. وقام بتجنيد آخرين من نفس الخلفية للعمل بالبنك[١٣]. وبحلول عام ١٩٨٥، كان بنك فيصل الإسلامي ومنافسه الأصغر البنك الدولي الإسلامي للاستثمار والتنمية قد استحوذا على ١٦,٨٪ من الودائع في النظام المصرفي التجاري المصري[١٤]. ولكن البنوك الإسلامية المصرية لم تقدم في التسعينيات عائدا منافسا، وانخفضت حصتها في السوق إلى ٥٪ تقريبا.

ومن العناصر الأخرى لطبقة البرجوازية المصرية ذات الصبغة الإسلامية شركات توظيف الأموال التي انتشرت في الثمانينيات. كان المصدر الرئيسي لرأسمال تلك الشركات هو ثروات النفط الخليجية. بدأت شركة الريان عملها بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٧٨ عن طريق جمع الودائع وتحويل الأموال من العمال المهاجرين. وفي عام ١٩٨٢ عاد «فتحي» أكبر الإخوة الثلاثة من عائلة الريان إلى مصر وقام بتأسيس شركة الريان التي سرعان ما أصبحت أكبر شركات توظيف الأموال الإسلامية المصرية. وقبل الهجمة الكبرى لسحب الودائع من شركات توظيف الأموال في نوفمبر عام ١٩٨٦، كان رأسمال شركة الريان يقدر بخمسة مليارات جنيه مصري[١٥].

وقد تعاونت شركات توظيف الأموال الإسلامية مع طبقة الأثرياء الجدد لعصر الانفتاح. لم يتخرج «فتحي الريان» من الجامعة. وقد هاجر «محمد أشرف السعد» - وهو أحد «الستة الكبار» الآخرين - إلى فرنسا، وعمل هناك كعامل يدوي. وعندما عاد إلى مصر عام ١٩٨٦ كان قد أصبح أكثر ورعا[١٦].

كان «عبد اللطيف الشريف»، مؤسس ثاني أكبر شركة توظيف اموال اسلامية، عضوا سابقا بالإخوان المسلمين. وكان «أحمد توفيق الريان» - الأخ الأصغر لـ «فتحي» ومدير الشركة أيضا - عضوا بجماعة إسلامية عندما كان طالبا بالجامعة. ولكن لم يكن ملاك ومديرو شركات توظيف الأموال عامة أعضاء في الإخوان المسلمين أو أي منظمات إسلامية أخرى رغم أن العلاقات الظاهرة توحي بغير ذلك.

أكدت تصريحات شركات توظيف الأموال على المساواة والالتزام المشترك والمسئولية المشتركة. ولكن لم يكن واضحا مدى ورع بعض مديري تلك المؤسسات في الواقع. وقد تفاخرت شركة الريان بأن لديها كثيرا من المودعين المسيحيين واثنين من اليهود[١٧]. وصرح «كليمنت هنري مور Clement Henry Moore» بأن «أصحاب المشروعات ارتدوا عباءة الإسلام بنفس الطريقة التي يتعامل بها مرشحو الرئاسة الأمريكية مع العلم الأمريكي»[١٨].

من العناصر الأخرى لطبقة البرجوازية ذات الصبغة الإسلامية رجال أعمال مستقلون مثل «رجب السويركي» مؤسس شركة التوحيد والنور. ومن المستقلين الإسلاميين الآخرين «حسين صبور» صاحب مكتب صبور للاستشارات الهندسية. وكان رئيسا لبنك المهندس وغرفة التجارة الأمريكية المصرية ونادي الصيد. وأثناء فترة رئاسته لنادي الصيد، أصبح النادي نقطة الانطلاق للدعاة الجدد أمثال عمر عبد الكافي وعمرو خالد.

في النهاية، فإن أصحاب المؤسسات الأصغر مثل بوتيكات Muhagabat HomeæFlash æL'Amour التي تبيع الأزياء العصرية للمحجبات هم أيضا جزء من طبقة البرجوازية ذات الصبغة الإسلامية.

الفلسفة السياسية الإسلامية

كان أهم نشطاء معظم الحركات الإسلامية الحديثة - بما في ذلك جماعة الإخوان المسلمين منذ نشأتها عام ١٩٢٨ وحتى الآن - هم أفراد الطبقة المتوسطة المتعلمة الحديثة. ولكن خلال الظروف التي تعرضنا لها آنفا، امتدت القاعدة الاجتماعية للحركات الإسلامية كثيرا خارج ذلك النطاق، حيث إنها راقت - بطرق متناقضة - للخاسرين والفائزين في الاقتصاد العالمي الجديد. وقد أدى تناقص ميزانيات الدولة وخفض الإنفاق الاجتماعي بإيعاز من النظام الليبرالي الجديد، إلى زيادة اقتصار أنشطة الدولة على الطبقة الوسطى العليا بالمدن وعلى مناطق النخبة. وقد تركز توزيع الدخل، وأصبحت الدولة عاجزة عن توفير نفس مستوى الخدمات السابق أو ضمان إمدادات مناسبة للسلع لكافة المناطق والسكان، مقوضة بذلك شروط الميثاق الاجتماعي الذي وضع في عصر الفلسفة السياسية الشمولية وحركة «التصنيع بدلا من الاستيراد» بقيادة الدولة تحت لواء القومية العربية والاشتراكية العربية أو العلمانية الكمالية في تركيا.

وبتقويض قدرات الدولة، وفرت برامج التوازن الاقتصادي وتصحيح الهيكلة التي قدمتها الحكومة الأمريكية وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي فرصة ذهبية للحركات الإسلامية، حيث مكنتها من التحدث باسم المقاومة ضد الهيمنة الأجنبية واستغلال الشعب. وقد أرست تلك الحركات قاعدة شعبية من خلال تقديم الخدمات الاجتماعية التي لم تعد الدولة قادرة على توفيرها. وقد ربطت العناصر المدافعة عن الشعب في الخطاب الإسلامي المتشدد بين فساد واستبداد نخب الدولة وبين عجزها عن توفير الخدمات الاجتماعية وفرص العمل.

في تركيا، كما تشير «جيني وايت Jenny White»، قدم حزب الرفاه لغة مناسبة ثقافيا وشبكات اجتماعية وحكم رشيد واهتمام بالمشاكل اليومية للشعب بهدف ضم عمال المدينة الفقراء في أحياء مثل «العمرانية» و«سلطان بيلي» إلى حركة اجتماعية إسلامية[١٩]. وقد أخبر سكان «سلطان بيلي» «هاكان يافوز Hakan Yavuz» أنهم يعتقدون أن «الدولة الإسلامية سوف توزع الثروة بينما الدولة الكمالية توزع الفقر». فبالنسبة لهم فإن الدولة الإسلامية تعني دولة عادلة تلبي احتياجاتهم الأساسية للرعاية الصحية والتعليم وتأمين البطالة وتتوفر لأطفالهم فيها فرص متكافئة للتقدم[٢٠].

ويعد «حاك إيش» الاتحاد النقابي العمالي الإسلامي المؤسس عام ١٩٧٦ تعبيرا آخر عن الفلسفة السياسية الإسلامية التركية. فقد أصبح «حاك إيش» عنصرا بارزا في الحركة العمالية التركية في الثمانينيات، من جهة لأن العديد من الأعضاء السابقين بتحالف اتحاد نقابات العمال الثوري انضموا إلى «حاك إيش»





كان «عبد اللطيف الشريف»، مؤسس ثاني أكبر مؤسسة استثمار إسلامية، عضوا سابقا بالإخوان المسلمين



عندما حظر تحالف الاتحاد العمالي المتشدد في الفترة ما بين ١٩٨٠ إلى ١٩٩٢. ويمثل «حاك إيش» اليوم ما يقارب ثلاثمائة ألف عامل في ثمانية اتحادات نقابية متحدة، مقارنة بـ ٤٥٠ ألف عضو في تحالف الاتحادات العمالية الثورية. وكل من الاتحادين أصغر من اتحاد «تركيا-إيش» الكمالي.

ومثل الجمعية المستقلة لرجال الصناعة والتجارة، ارتبط «حاك-إيش» بكل من حزب الرفاه وحزب العدالة والتنمية. كان «نجاتي شليك» مؤسس «حاك-إيش» عضوا بحزب الرفاه وبقي رئيسا للتحالف إلى أن أصبح نائبا برلمانيا لحزب الرفاه ثم وزيرا للعمل عام ١٩٩٦-١٩٩٧. وبينما يؤكد «حاك-إيش» على هويته الإسلامية، فإنه لا يعتقد أن ذلك يمثل بديلا عن التنظيم النقابي العمالي. وقد تبنى «حاك-إيش» بعضا من المواقف التاريخية لليسار. وهو يؤيد الاقتصاد القائم على إعادة توزيع الثروة والملكية والإدارة العمالية للمشروعات، ويعارض خصخصة القطاع العام بالجملة. وقد اتهم «سالم أوزلو» رئيس «حاك-إيش» منذ عام ١٩٩٥، بعض المؤسسات التابعة للجمعية المستقلة لرجال الصناعة والتجارة بالوقوف في وجه التنظيم النقابي وممارسة أساليب «لا تتفق إطلاقا مع الإسلام عندما يكون هناك نزاع صناعي يهدد مصالحهم الاقتصادية الخاصة»[٢١]. ويقول «سالم أوزلو» أن سجل الجمعية المستقلة لرجال الصناعة والتجارة فيما يتعلق باحترام حقوق العمال مقارنة بالمؤسسات الأوروبية أو الأمريكية ليس جيدا. وهذا أحد أسباب دعم «حاك-إيش» الكامل لانضمام تركيا للاتحاد الأوروبي.

جاءت العديد من الكوادر الإسلامية المصرية من نفس الطبقات الاجتماعية التي أفرزت الشيوعيين والمتشددين الآخرين قبل منتصف السبعينيات، وقد اتخذت الفلسفة السياسية الإسلامية مواقف مشابهة لليسار التاريخي. وقد تبنى خطاب حزب العمل في الثمانينيات والتسعينيات عناصر من المنتقدين الماركسيين التقليديين للرأسمالية. وكان الراحل «عادل حسين» الأمين العام للحزب ورئيس تحرير جريدة الشعب شيوعيا سابقا.

تعد القاعدة الانتخابية لمرشحي التيار الإسلامي في انتخابات النقابات العمالية نموذجا للفلسفة السياسية الإسلامية. فقد ساند التيار الإسلامي حق الإضراب وانتقد البرنامج الاقتصادي الليبرالي الجديد وعارض تدخل الحكومة في انتخابات النقابات العمالية وتصفية القطاع العام[٢٢]. وقد هاجم التيار الإسلامي زعماء الاتحاد العام لنقابات عمال مصر وطالب باستقلال النقابات العمالية عن الحكومة. كما عارض التيار الإسلامي إلغاء دعم السلع الاستهلاكية وطالب بربط الأجور بالأسعار وعارض المساس بالتعليم المجاني والرعاية الصحية المجانية و«كافة الإنجازات الأخرى التي حققتها ثورة ٢٣ يوليو للعمال»[٢٣]. وتتماشى تلك المطالب مع خط اليسار. ويبدو أن التيار الإسلامي قد وافق على أن انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أرسى إطار السياسات الوطنية، وهي وجهة نظر كان الإخوان المسلمون والقوى الإسلامية الأخرى قد رفضاها في السابق.

تجتذب الفلسفة السياسية الإسلامية أيضا من تسميهم «كاري روزفسكي ويكهام Carrie Rosefsky Wickham» «النخبة المفكرة الدنيا» (lumpenbourgeoisie: نخبة مفكرة لا تستطيع ممارسة دورها الطبيعي بسبب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية). لقد تضاعف عدد خريجي الجامعات المصرية ثلاث مرات تقريبا بين عامي ١٩٧٥ و١٩٨٥. ولكن نظرا للخفض في ميزانية الدولة ودعم السلع، لم تعد وظائف القطاع العام تقدم أجورا كافية للزواج وتكوين أسرة.



ضمت «الطبقة الوسطى للانفتاح الإسلامي» المصرية مؤسسات مالية ضخمة



كما قلل انخفاض أسعار النفط منذ عام ١٩٨٢ من فرص الشباب للهجرة إلى الدول الغنية بالنفط. كان معدل البطالة الحقيقي في منتصف الثمانينيات أعلى كثيرا من المعدل الرسمي المقدر بـ ١٢٪، وكان - كما هو الحال الآن - مركزا بين الباحثين عن العمل للمرة الأولى من الحاصلين على درجات متوسطة وجامعية. وقد شعر هؤلاء بأسى عميق لأنه رغم اجتهادهم وإنجازاتهم الأكاديمية لم تتوفر لهم فرص النجاح المادي. وقد أصبحوا قاعدة اجتماعية هامة للحركة الإسلامية بداية من منتصف الثمانينيات[٢٤].

مراجعة الحركات الإسلامية

كانت الحركات الإسلامية التي ظهرت في منتصف السبعينيات محصلة لأربعة تطورات متشابكة:

١- هزيمة القومية العربية العلمانية في الحرب العربية-الإسرائيلية عام ١٩٦٧، والتحديات التي واجهت هيمنة العلمانية الكمالية في تركيا في أعقاب الانقلاب العسكري عام ١٩٨٠.

٢- زوال مبدأ «فورد- كينيس» لتراكم رأس المال وظهور النظام الاقتصادي العالمي الليبرالي الجديد.

٣- التراجع عن القومية الاقتصادية، ممثلا في سياسة الانفتاح الاقتصادي في مصر عام ١٩٧٤ والإجراءات الاقتصادية في تركيا في ٢٤ يناير عام ١٩٨٠.

٤- الازدهار والانهيار النفطيان بين عامي ١٩٧٤ و١٩٨٦.

إن التحليل الوارد هنا للحركات الإسلامية ينظر إليها كعائلة من الحركات الاجتماعية المتنوعة، بل والمتناقضة داخليا. ولا يركز التحليل في الأساس على ما يؤمن به أو يقوله أو يدعيه الإسلاميون في القرآن والسنة كأساس لأنشطتهم. إن فهم الحركات الإسلامية من خلال الرجوع للنصوص الإسلامية أو التصريحات المبرمجة يؤدي إلى المبالغة في تقدير أهمية التواصل التاريخي للأفكار والممارسات الإسلامية وإلى تأويل الحركات الإسلامية المعاصرة كتعبير عن جوهر ديني منفصل عن الزمان والمكان والسياق الاجتماعي. ومن خلال التركيز على الأنشطة الاجتماعية للحركات الإسلامية يمكننا رؤية قدرتها على تأكيد أو تقويض النظام الاجتماعي والسياسي. وقد فعلت الحركات الإسلامية الشيء ونقيضه في نفس الوقت في عصر إعادة الهيكلة الاقتصادية الليبرالية الجديدة. ومع ذلك، فإن المنعطف التاريخي الذي مكن الحركات الإسلامية من لعب ذلك الدور المزدوج ربما يكون قد أوشك على الانتهاء.

بقي حزب العدالة والتنمية في السلطة في تركيا منذ عام ٢٠٠٢. وقد ساند عموما طبقة الأعمال وطموحاتها. وأعلن «رجب طيب إردوغان» زعيم الحزب ورئيس الوزراء دعمه للجمعية المستقلة لرجال الصناعة والتجارة من خلال ظهوره كضيف شرف في مؤتمرها السنوي عام ٢٠٠٦.

لم يتسبب تقارب الحزب مع طبقة الأعمال في حدوث تذمر بين صفوف قاعدته الشعبية نظرا لأن السجل الاقتصادي الشامل للحزب كان ممتازا. فخلال السنوات الخمس الأولى من حكم حزب العدالة والتنمية، كان معدل النمو الاقتصادي يدور حول ٧٪ سنويا. كما تضاعف متوسط دخل الفرد، ووصل الاستثمار الأجنبي المباشر إلى مستوى مرتفع، وارتفعت مؤشرات أسواق الأسهم وانخفض التضخم بصورة كبيرة. ولكن النسبة الرسمية للبطالة تقدر بـ ٧,٩٪، وهناك ٤٪ آخرون لا يعملون بانتظام. وقد انخفضت نسبة الفقر في الريف ولكنها ما زالت مرتفعة جدا عند ٣٥٪ مقارنة بـ ٢٢٪ بين عائلات المدن. وقد عانى القطاع الزراعي من تخفيضات الدعم التي فرضها صندوق النقد الدولي. وازداد تفاوت الدخل حتى أنه أصبح أكثر قسوة مما هو في مصر.

أصبح «ترك-إيش» الاتحاد النقابي العمالي الأكبر أكثر عداء لحزب العدالة والتنمية الذي يواصل برنامج الخصخصة. وقد نظم الاتحاد خمس تظاهرات ضد قانون العمل لعام ٢٠٠٣ الذي أيدته طبقة الأعمال. كما انتقد تحالف اتحاد نقابات العمال الثوري أيضا الحكومة بسبب سياساتها للخصخصة وقانون العمل. ولم يدافع حزب العدالة والتنمية عن حق العمال الأتراك في تشكيل النقابات، كما استخدم سلطته لتأجيل الإضرابات وتقييد حق الإضراب.

أما الموقف في مصر فيعد أكثر غموضا من تركيا، حيث لم يسمح للإخوان المسلمين بتشكيل حزب سياسي، ناهيك عن الوصول لسدة الحكم. ومع ذلك، فقد مارس الإخوان لعبة القط والفأر مع نظام مبارك. ومن المفيد للنظام أن يظهر الإخوان كبديل وحيد لـ «علمانيته»، رغم عدم السماح لهم بالوصول لدرجة من القوة تكفي لتحدي النظام. وفي المقابل، فإن الإخوان المسلمون لا يسعون لتهديد النظام، حيث

قد يؤدي ذلك إلى المخاطرة بشبكة الخدمات الاجتماعية والمؤسسات الأخرى التي تشكل القاعدة الاجتماعية لقوتهم السياسية.

وتفسر تلك اللعبة السبب وراء إحجام الإخوان المسلمين عن المشاركة بفعالية وقوة - كما يليق بهم - خلال السنوات الأربع الأخيرة في الحركات المطالبة بالديمقراطية مثل حركة «كفاية» وغيرها. وباستثناء القليل من تصريحات التأييد على لسان عبد العزيز الحسيني عضو الإخوان المسلمين بالبرلمان من كفر الدوار وزميله صابر أبو الفتوح من الإسكندرية، لم يلعب الإخوان دورا بارزا في الحركات الاحتجاجية الحالية للطبقة العاملة. وقد نبهت محاكمة خيرت الشاطر وزملائه وادانتهم مؤخرا إلى أهمية مؤيدي وزعماء الإخوان من طبقة الأعمال.

وتشير كل تلك الدلائل إلى أن الحركات الإسلامية في مصر وكذلك في تركيا والمغرب والأردن واليمن، والتي كانت تلقى التأييد من قبل الفائزين والخاسرين في العولمة الليبرالية الجديدة بداية من السبعينيات وحتى التسعينيات، قد اقتربت الآن أكثر من المعسكر الفائز. ولم يمر حتى الآن وقت كاف لمعرفة كيف يمكن حل التناقض الواضح بين خطاب الفلسفة السياسية الإسلامية ومصالح طبقة الأعمال ذات الصبغة الإسلامية. ولقد احتفظ حزب العدالة والتنمية التركي بدعم قطاع من الطبقات الشعبية من خلال ممارسة الحكم الرشيد والإدارة الجيدة للاقتصاد وتعبئة الاستياء ضد النخبة العالمية. وليس من الواضح على الإطلاق إن كانت ستسنح للإخوان المسلمين أية فرصة لتكرار ذلك في مصر أو تحقيق النجاح في تلك الحالة. في الوقت نفسه، فإن النقابات والحركات العمالية في كل من مصر وتركيا - والتي لا يثق فيها الإسلاميون دائما - كانت تؤكد هويتها كممثلة للخاسرين في العولمة الليبرالية الجديدة. ■

الهوامش:

١- علي مزروعي، برميل السلاح وبرميل النفط في معادلة الشمال والجنوب (نيويورك: نماذج النظام العالمي، ١٩٧٨).

Ali A. Mazrui, The Barrel of the Gun and the Barrel of Oil in North South Equation (New York: World Order Models, 1978).

٢- دانيال بايبس، في سبيل الله: الإسلام والنفوذ السياسي (نيويورك: الكتب الرئيسية، ١٩٨٣؛ فؤاد زكريا، الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة (القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٦).

Daniel Pipes, In the Path of God: Islam and Political Power (New York: Basic Books, 1983); Fu'ad Zakariyya. Al-Haqiqa wa'l-wahm fi al-haraka al-islamiyya al-mu'asira (Cairo: Dar al-Fikr, 1986).

٣ بيرول علي إيسيلادا، الأصولية الإسلامية في تركيا وصلاتها بالسعودية، تقارير مراسلين ميدانيين، أفريقيا/الشرق الأوسط، ١٩٨٨/١٩٨٩، رقم ١٨ (إنديانابوليس: الخدمات الميدانية الجامعية العالمية، ١٩٨٨/١٩٨٩، ٥، ٩.

Birol Ali Yesslada, Islamic Fundamentalism in Turkey and the Saudi Connection, Field Staff Reports, Africa/Middle East, 1988/89 No. 18 (Indianapolis: University Field Services International, 1988/89), 5, 9.

٤- م. هاكان يافوز، «قالب الحركات الإسلامية التركية الحديثة: الطريقة الصوفية النقشبندية»، «النقشبنديين في غرب ووسط آسيا: التحول والاستمرارية، الناشر: إليزابيث أوزدالجا (إستانبول: المعهد السويدي للأبحاث في إستانبول، ١٩٩٩)، ١٤٤.

Hakan Yavuz, "The Matrix of .M Modern Turkish Islamic Movements: in .The Naqshbandî Sufi Order. Naqshbandis in Western and Central Asia: Change and Continuity, ed. Elisabeth ?zdalga (Istanbul: Swedish ١٤٤ ,(١٩٩٩ Research Institute in Istanbul,

٥- م. هاكان يافوز، «الإسلام السياسي وحزب الرفاه في تركيا»، السياسات المقارنة ٣٠ (رقم ١، أكتوبر ١٩٩٧): ٦٦؛ يافوز، «قالب الحركات الإسلامية التركية الحديثة، ١٣٦.

Hakan Yavuz, "Political Islam and the .M .Welfare (Refah) Party in Turkey. Comparative Politics 30 (no. 1, October 1997):66; Yavuz, "The Matrix of Modern Turkish Islamic Movements, ١٣٦.

٦- عيسى بوجرا، «الطبقة والثقافة والدولة: تحليل لتمثيل المصالح بواسطة جمعيتي أعمال تركيتين»، الحراك الإسلامي في تركيا، الجريدة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ٣٠ (رقم ٤، نوفمبر ١٩٩٨): ١٢٤.

Ay?a Bu?ra, "Class, Culture, and State: An Analysis of Interest Representation by Two Turkish Business Associations, Islamist Mobilization in Turkey,. International Journal of Middle East Studies 30 (no. 4, November 1998):124.

٧- تعرف الكمالية عادة بأنها «علمانية». وينطوي ذلك على سوء فهم. فالمصطلح مشتق من المفهوم اليعقوبي الفرنسي لكلمة «laicite». كما يفهم من الكلمة التركية المقابلة «laiklik»، والتي تهدف لتأكيد سيطرة الدولة على الدين واستبعاد المصطلحات غير المقبولة من التداول الشعبي.

Kemalism is often characterized as This is a misunderstanding.."secular. It is derived from the Jacobin French concept of laïcité, as suggested by the la?kl?k.-Turkish word for this outlook La?kl?k aims to assert state control over religion and to exclude unapproved expressions from the public sphere.

٨- بوجرا، «الطبقة والثقافة والدولة»، ٥٢٤-٥٢٩.

524-.Bu?ra, "Class, Culture, and State. 29.

٩- كليمينت هنري مور، «البنوك الإسلامية والسياسات المقارنة في العالم العربي وتركيا»، جريدة الشرق الأوسط ٤٤ (رقم ٢، ربيع ١٩٩٠).

Clement Henry Moore, "Islamic Banks and Competitive Politics in the Arab Middle East Journal.World and Turkey, 44 (no. 2. Spring 1990).

١٠- م. هاكان يافوز، «مجالات الفرص والهوية ومعنى الإسلام في تركيا»، الحراك الإسلامي: تناول نظرية حركة اجتماعية، الناشر: كوينتان ويكتورويكز (بلومنجتون: مطبعة جامعة إنديانا، ٢٠٠٤)، ٢٧٩.

Hakan Yavuz, "Opportunity Spaces, .M Identity. and Islamic Meaning in in Islamic Activism: A Social .Turkey. Movement Theory Approach. ed. Quintan Wiktorowicz (Bloomington: ٢٧٩ ,٢٠٠٤ Indiana University Press,

١١- سامية سعيد إمام، من يملك مصر؟ دراسة تحليلية لأصول نخبة الانفتاح الاجتماعية. ١٩٧٤-١٩٨٠ (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧)، ٢٠٥، ٢١١، ٢٨٠-٣٠٩.

Samia Sa'id Imam, Man Yamluk Misr? Dirasa Tahliliyya Li-Usul Nukhbat al-InFitah al-Ijtima'Iyya. 1974-1980 (Cairo: Dar al-Mustaqbal al-'Arabi, 1987), 205, 211, 280-309.



أصحاب المشروعات ارتدوا عباءة الإسلام بنفس الطريقة التي يتعامل بها مرشحو الرئاسة الأمريكية مع العلم الأمريكي



١٢ روبرت سبرنجبورج، مصر مبارك: تفتيت النظام السياسي (بولدر: مطبعة ويستفيو، ١٩٨٩)، ٢٢٤، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦، مقتبس من صفحة ٢٣٦.

Robert Springborg. Mubarak's Egypt. Fragmentation of the Political Order (Boulder: Westview Press. 1989). 224, 232. 234. 236. Quote from 236.

١٣- المصدر نفسه، ٦٥.

Ibid., 65.

١٤- مور، «البنوك الإسلامية والسياسات المقارنة في العالم العربي وتركيا»، ٢٣٦.

Moore, "Islamic Banks and Competitive .Politics in the Arab World and Turkey. 236.

١٥ - عبد القادر شهيب، الاختراق: قصة شركات توظيف الأموال في مصر (القاهرة: سينا للنشر، ١٩٨٩)، ٢٩، ٦٠، ٨٠، ٨٤، ٩٨؛ سبرنجبورج، مصر مبارك، ٤٧، ٥٩.

Abd al-Qadir Shuhayb, al-Ikhtiraq: qissat sharikat tawzif al-amwal fi misr (Cairo: Sina li'l-Nashr, 1989), 29. 60, 80, 84. 98: Springborg. Mubarak's Egypt. ٤٧، ٥٩.

١٦- سبرنجبورج، مصر مبارك، ٤٧.

Springborg. Mubarak's Egypt. 47

١٧ - المصدر نفسه، ٤٨.

Ibid., 48.

١٨ - مور، «البنوك الإسلامية والسياسات المقارنة في العالم العربي وتركيا»، ٢٥٠.

Moore, "Islamic Banks and Competitive .Politics in the Arab World and Turkey. 250.

١٩ - جيني ب. وايت، الحراك الإسلامي في تركيا: دراسة في السياسات الدارجة (سياتل: مطبعة جامعة واشنطون، ٢٠٠٢).

Jenny B. White, Islamist Mobilization in Turkey: A Study in Vernacular Politics (Seattle: University of Washington Press, 2002).

٢٠ - يافوز، «مجالات الفرص والهوية ومعنى الإسلام في تركيا»، ٢٨٢-٢٨٥.

Yavuz, "Opportunity Spaces, Identity, 282-85..and Islamic Meaning in Turkey,

٢١- عيسى بوجرا، «العمال ورأس المال والدين: الانسجام والصراع في إتساق الإسلام السياسي في تركيا»، دراسات الشرق الأوسط ٣٨، رقم ٢ (أبريل ٢٠٠٢): ١٩٩.

Ay?e Bu?ra, "Labour, Capital, and Religion: Harmony and Conflict Among the Constituency of Political Islam in Turkey," Middle Eastern Studies 38. no. 2 (April 2002): 199.

٢٢- الشعب، ١٠ سبتمبر ١٩٩١.

al-Sha'b, Sept. 10, 1991.

٢٣- مصر الفتاة، ١٢ سبتمبر ١٩٩١.

Misr al-Fatat, Sept. 12, 1991.

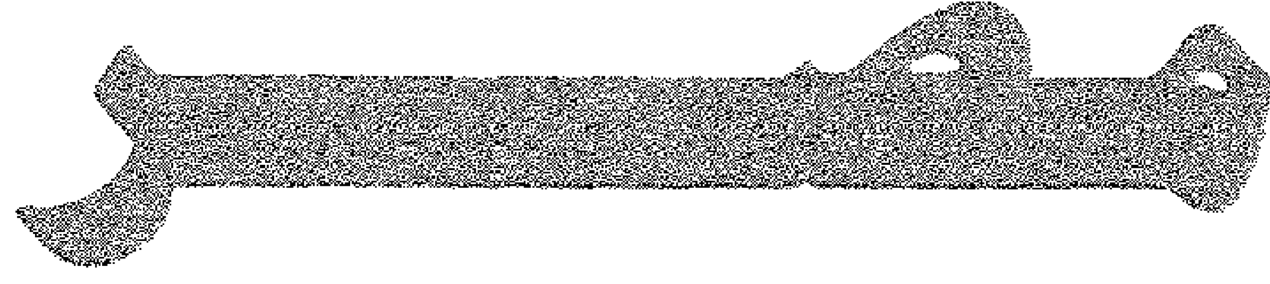
٢٤- كاري روزفسكي ويكهام، حراك الإسلام: الدين والحراك والتحول السياسي في مصر (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ٢٠٠٢)، ٣٦-٦٢.

Carrie Rosefsky Wickham, Mobilizing Islam: Religion, Activism, and Political Change in Egypt (New York: Columbia University Press, 2002), 36-62.



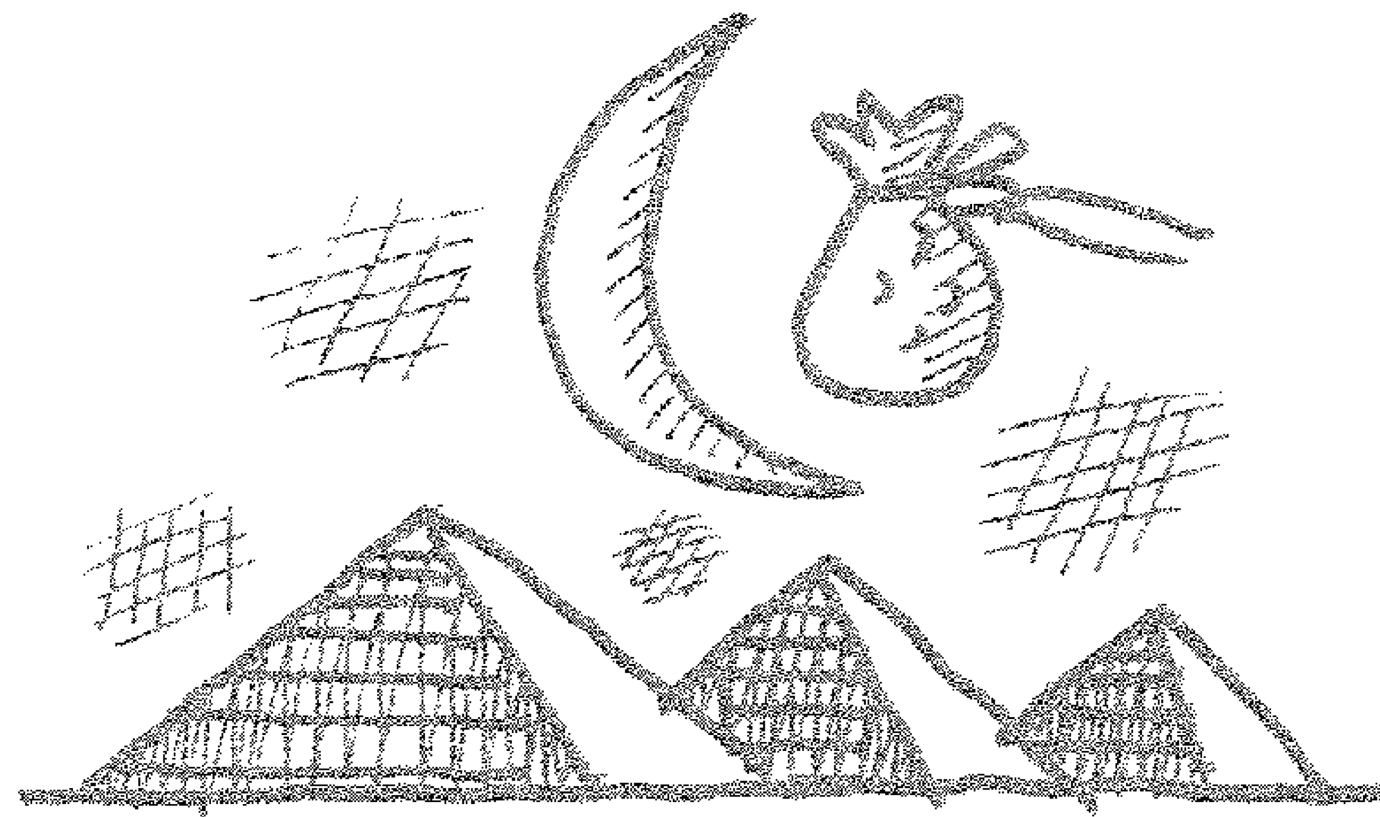
الخبرة المصرية السلبية فى التمويل الإسلامى فى الثمانينيات لا يجب أن تقف عائقا أمام الفرص الواسعة المتاحة حاليا





فرص التمويل الإسلامى المتاحة

لـؤى الشـواربى
أحمد شـهاب



قد تكون صناعة التمويل الإسلامى في طريقها للازدهار على المستوى العالمى. ويشهد الواقع على ذلك فى المراكز المالية الكبرى في العالم، في لندن ونيويورك وزيوريخ وهونج كونج وكوالالمبور ودبى. وتعمل العديد من المراكز الاستشارية المالية العالمية من خلال تلك المحاور وغيرها، وبمشاركة شركات القانون وبيوت المراجعة المالية الكبرى، على بناء الخبرات المالية الإسلامية وركوب موجة التمويل الإسلامى، والتى تعد بأن تقودهم إلى قطاع من صناعة التمويل يحقق نموا بمعدل ثنائى الأرقام مقارنة بالنمو بمعدل أحادى الذى تحققه الهياكل التمويلية التقليدية.

قد انجذب اهتمام أحد كاتبى هذا المقال مجدداً إلى قضية التمويل الإسلامى بفعل الدعوة الكريمة من جانب Red Money of London للمشاركة كمتحدث فى منتدى التمويل الإسلامى، بالمشاركة مع Oxford Business Group ضمن متحدثين من ألمانيا وماليزيا وقطر والمملكة المتحدة والإمارات، ودول أخرى. واهتم الكاتب الآخر لهذا المقال بالتمويل الإسلامى باعتباره جزءاً من التقنيات المالية التى جرى تبنيها بهدف تعزيز الأسواق الناشئة مثل السوق المصرية.

واليوم، يمكن اعتبار مصر دولة متأخرة فى الولوج إلى هذه الصناعة مقارنة بمواقع استثمارية أخرى، بما فى ذلك العديد من المجتمعات الغربية؛ حيث تجد المنتجات التمويلية الإسلامية أرضاً خصبة للنمو والازدهار. الموقع الذى تحتله مصر في هذا المجال التمويلي - كدولة مركزية في الشرق الأوسط - قد تكون له تكلفته على وضعها كمآل للاستثمارات.

يحاول هذا المقال الوقوف على الفرص المتاحة لمصر كى تستضيف وتعزز التمويل الإسلامى داخل إقليمها، كمحفز لجذب استثمارات خارجية مباشرة أكثر خاصة من منطقة الخليج؛ وكذا إدماج أولئك المستثمرين المحليين من ذوى الميل الإسلامى فى الأبنية المالية الرسمية المعترف بها من قبل الدولة، على غرار نجاحات الدولة مؤخراً فيما يتعلق بإصدار وإدارة قانون الضرائب الجديد رقم ٩١ لعام ٢٠٠٥.

وفى رأى كاتبى المقال، فإن الخبرة المصرية فيما يتعلق بالتمويل الإسلامى فى الثمانينيات، والتى أخذت مناحى سياسية سلبية، لا يجب أن تقف عائقاً أمام تعزيز التطورات العالمية الجديدة على هذا الصعيد. إن التوجهات الدولية الأخيرة بشأن الرقابة على الشركات، والمحاسبة - والتى تمت مراجعتها والإضافة إليها بعد مهزلة Enron- يمكن أن تفيد فى التوجه نحو تطوير نظام متماسك مالياً دون تداخل فى السياسة. (وبطبيعة الحال، يجب التأكيد على استخدام الأدوات المالية كأدوات مالية).

صعود التمويل الإسلامى على مستوى العالم

في الوقت الحالي، لا تقتصر الرغبة فى وجود نظام مالى إسلامى - خاصة على المستوى المؤسسى، متوافق مع الشريعة على المسلمين؛ بل تضافرت عدة عوامل على تطور منتجات التمويل الإسلامي وزيادة الطلب عليها عبر أنحاء العالم، منها الآتى:

أولاً: قد تؤدى طبيعة النشاط المتضمن فى هذا النوع من التمويل بجماعات بعينها إلى تفضيله عن غيره؛ ذلك أن التمويل الإسلامي لا يتعامل في منتجات مثل الكحول والتبغ. ثانياً: تواجد جزء من المجتمعات المسلمة المهاجرة فى الدول الغربية نشط فى العقود الأربعة الأخيرة، وأصبح أكثر اهتماماً بوجود منتجات تمويلية إسلامية كى يستثمروا بها مدخراتهم فى الدول التى يعيشون بها، بدلاً من إعادة هذه المدخرات إلى بلدانهم الأصلية فى صورة تحويلات. وقد تفسر هذه النقطة إدخال هذه المنتجات التمويلية في النظم القضائية لبلدان ذوات أغلبية سكانية غير مسلمة. ومثال على ذلك الجدل الدائر في أوروبا والولايات المتحدة بشأن تمويل الرهون العقارية للمسلمين.

وفيما يتعلق بالمؤسسات الاستثمارية، قد يكون تنويع المخاطر أحد العوامل الأساسية التى يتم أخذها فى الاعتبار عند اللجوء إلى هذا النوع من التمويل؛ حيث إن المنتجات المالية الإسلامية لها سمات مختلفة عن نظيراتها التقليدية. وبنفس الدرجة، فإن الزيادة الهائلة فى أسعار النفط وتراكم الثروات المصاحبة من جراء ذلك، خاصة في دول الخليج، جعلا مسألة تشكيل المنتجات المالية بما يتفق مع اهتمامات المستثمرين من تلك المنطقة أمراً مربحاً، حيث إن طلبهم على هذا النوع من الاستثمار فى تزايد مستمر. والآن أصبح من الشائع أن نجد مؤسسات عديدة كانت تمارس في السابق عمليات التمويل التقليدى، تتبنى مشروعات التمويل الإسلامى سواء فى الدول الإسلامية مثل دول الخليج وأندونيسيا وماليزيا، أو فى أوروبا والولايات المتحدة وهونج كونج. كما أنه تم استخدام أشكال هجين من مشروعات التمويل التقليدى والإسلامى بنجاح فى الصفقات المالية الخاصة بالمشروعات الدولية الكبرى، وذلك بفعل التكافؤ بين مجموعتى التمويل تلك فى اتحادات رءوس الأموال فى زيوريخ ولندن. ومازال هذا التوجه يتنامى.

ونتيجة ذلك، قد يعزز التمويل الإسلامي وضعية البلدان المتقدمة والنامية فيما يتعلق باستقبال الاستثمارات الأجنبية المباشرة. وبالطريقة ذاتها، يمكن جذب نسبة جيدة من المستثمرين المحليين إلى قنوات التمويل الرسمية فى البلدان ذات الغالبية الإسلامية، والتى ليس بها خيارات مالية إسلامية عديدة، خاصة السكان الذين يرتابون فى الهياكل التمويلية التقليدية.

التمويل الإسلامى في مصر: الأسس والخبرات

ترحب الثقافة القانونية المصرية الحالية بالتشريعات الإسلامية رغم أن مصر دولة يقوم نظامها القانونى على القانون المدني، والذي يرتكز منهجياً على تقنين نابليون التاريخي؛ ذلك أنه تم إدخال العديد من التعديلات على نظام القانون المدنى المصرى، كى تصبح متوافقة مع مبادئ الشريعة الإسلامية. وخلافاً للاعتقاد الشائع، فإن الفقيه السنهورى، المصمم الأساسى للقانون المدنى المصري، وهو نفسه خبير فى الشريعة، كافح من أجل «أسلمة» القانون المدني، كي يعكس حداثة التشريع الأوروبى دون أن يتعدى على المبادئ الأساسية للشريعة الإسلامية. وتعد قوانين المواريث مثالاً في هذا الصدد، بالإضافة إلى حبكات قانونية كثيرة فى دهاليز القانون المدني.

بالنسبة للفائدة مثلاً في القانون المصري، فإنها ليست إلزامية، ويمكن للأفراد أن يتفقوا على عدم أخذ فوائد من بعضهم البعض فى التعاملات التى يقومون بها، بما فى ذلك التخلى عن الفوائد على الودائع فى البنوك. وعلى العكس من ذلك، فإن القانون يقيد بشكل أساسى حدود معدلات أسعار الفائدة فى المعاملات المدنية والتجارية، كما أنه يحظر الإفراط فى الفوائد المركبة. وقد

فرص التمويل الإسلامي المتاحة

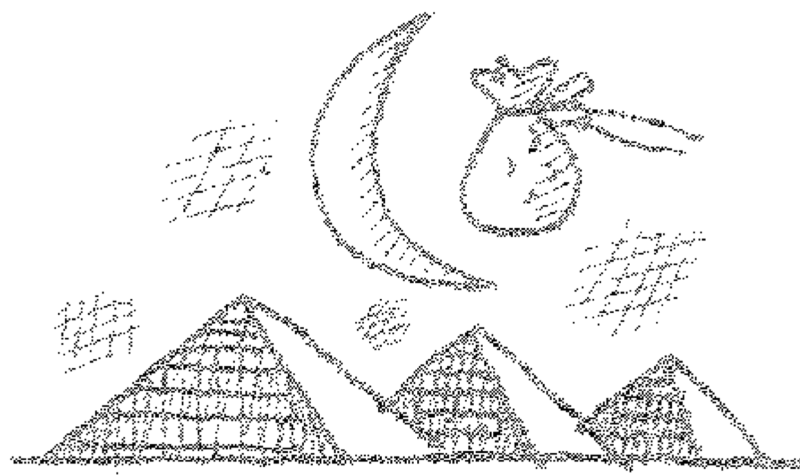
يجادل المرء بأن هذا السلوك التشريعي يلبي احتياجات المسلمين الملتزمين بدينهم بشكل صارم. غير أنه بالرغم من أن ذلك صحيح في أحد جوانبه، فإنه في الحقيقة يحد من اختياراتهم ويفقرهم من حيث يتركهم دون عوائد على مدخراتهم. ونتيجة ذلك، يقع الكثيرون منهم فريسة لمشروعات مريبة خارج الأبنية التمويلية التي تجيزها الدولة وتشرف عليها أو تضمنها. وحدث ذلك لأعداد كبيرة في الثمانينيات فيما سمي لاحقاً بأزمة شركات توظيف الأموال، التي تبنت لغة إسلامية. وعلى الصعيد العملي، فإن تطور أشكال التمويل التقليدية سيطر على المشهد الرسمي في مصر منذ ذلك الحين، ومازال يسيطر عليه حتى الآن.

وفي تلك الأثناء، فإن العديد من المسلمين الملتزمين ظلوا، بدافع من قناعتهم الدينية، يبحثون باهتمام عن هياكل تمويلية تتفق مع الشريعة الإسلامية كي يعتمدوا عليها بارتياح. فالجدل حول ما إذا كانت الفوائد التي تدفع على الودائع في البنوك التجارية تتفق مع الإسلام أم لا، مازال سارياً، بغض الطرف عن الفتوى التي صدرت في هذا الشأن والتي مفادها أن الفائدة (في حد ذاتها) ليست مرادفاً للربا المحرم إسلامياً. وساهم في ذلك الجدل الإجراءات القانونية التي اتخذتها البنوك التقليدية ضد المقترضين المتمنعين عن السداد دون بذل مجهود للتفرقة بين دوافع عدم السداد؛ أي ما إذا كانت تعود الى نية الاحتيال أو سوء التصرف، أو بفعل ظروف غير متوقعة بما فيها تلك المتعلقة ببيئة الأعمال الدولية أو الخطوات الحكومية أو القوانين غير المتوقعة التي تؤدي إلى نتائج عكسية على المدينين- (حالات التعثر التجاري). ومن الطريف أن البنوك التقليدية في النظم القضائية الغربية لاتخضع القطاع الثاني من المدينين المتعثرين لأحكام القوانين الجنائية؛ بل يتم اتخاذ إجراءات قضائية أخرى تتراوح بين إعادة الهيكلة وإعلان الإفلاس الكلي أو الجزئي.

ظلت الدولة المصرية دائما رافضة لدعم المبادرات بشأن التمويل الإسلامي بفعل اعتبارات مشروعة تتعلق بتبعات هذه المبادرات على السياسة. وكما ألمحنا في المقدمة، فإن التوجهات التي تم تطويرها مؤخراً بشأن الرقابة على الشركات - خاصة بعد إنرون وساربينز أوكسلي Enron and Sarbanes-Oxley - تحد من هذه الأخطار، من خلال ضمانات عملية لمراقبة عدم انخراطها في السياسة. وكذلك فإن مفاهيم التمويل الإسلامي، كما تم تبنيها في عديد من النظم القانونية، كانت ومازالت غير ناضجة في أحسن الأحوال- عندما تجري مقارنتها بنظيراتها الأخرى التقليدية الأكثر رسوخاً. وقد أدت هذه الحقيقة لارتياب الدولة في كفاءة منتجات التمويل الإسلامي من الأساس. وفي حد ذاتها، ينظر إلى منتجات التمويل الإسلامي - أيا كانت النوايا أو الأغراض- باعتبارها تقليدية في جوهرها. والحقيقة أن منتجات التمويل الإسلامي تحتاج إلى وقت وجهد صارم كي تتطور بشكل فعال. وإضافة إلى ذلك فإن منتجات التمويل الإسلامي تعد شاقة ومكلفة، وبمجرد أن يتم إنتاجها بواسطة المؤسسات الخاصة، تميل لأن تظل خاصة أكثر من كونها عامة، وهو ما يحد من فرص انتشارها لصالح جميع قطاعات المجتمع من المهتمين. لكن ذلك لا يجب أن يثني المهتمين بهذا الشأن - الدولة، والمراكز الأكاديمية، ومؤسسات البحث والشركات المالية-عن توحيد الجهود لتطوير التمويل الإسلامي؛ ذلك أن غيابه لفترات طويلة سوف يعني غياب نموذج حقيقي يفيد جمهوراً كبيراً من المنتفعين. وليس هناك حاجة للقول أنه كلما بدأت العملية في وقت مبكر كلما كان ذلك أفضل.

وقد يؤدي هذا التشريع المكتمل إلى فائدة إضافية تتعلق بصياغة العلاقة بين المكونات المختلفة للنظام التمويلي وبين بعضها البعض، والتفاعل مع اللوائح والقواعد الأخرى التي تتصارع وتتداخل معهم، خاصة فيما يتعلق بمجال النظام العام. ومن ثم فإنه من الناحية العملية، سوف يتولى التشريع الشامل حول التمويل الإسلامي مهمة رسم الحدود بين «استقلالية مبدأ التعاقد»، وبين القوانين والأحكام ذات الطبيعة المتصلة بالنظام العام، من ضمن أشياء أخرى: حيث إن العلاقات العقدية سوف تراقب تلك الأحكام أو تحد من الأخطار المرتبطة بها. وبنفس الطريقة يجب تسوية القضايا الأخرى الخاصة بالملكية، ومنها المعايير المحاسبية، والتعويضات وأحكام الإفلاس، والصكوك ومراجعة السندات، ولوائح سوق رأس المال وغيرهم.

وفي غياب قانون موحد للتمويل الإسلامي، فإن محبي التمويل الإسلامي، ومقدمي الخدمة والعملاء يتركون كي يضطلعوا بالأمر بأنفسهم. إن النظام في شكله الراهن غير المناهض للإسلام، حيث يسمح بخيار ترتيب الصفقات بشكل تعاقدي بين اطرافه، دون أن يكون ذلك تحت إشراف أو تنظيم القانون أو الدولة.



سياسة مصر الاستثمارية:

التمويل الإسلامي كمحفز

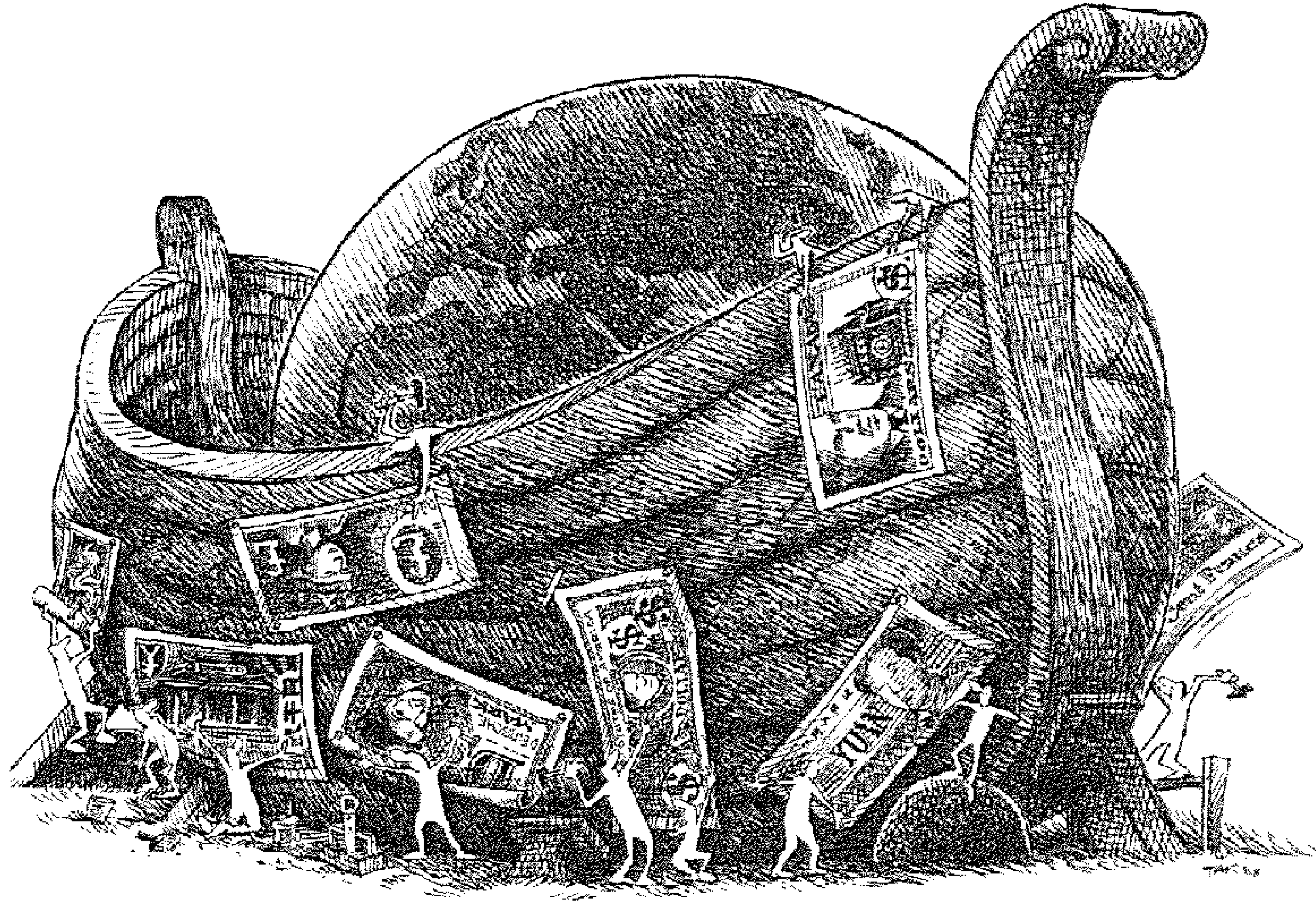
خلال السنوات الأربع الأخيرة، لوحظ أن الاستثمارات المباشرة القادمة من منطقة الخليج أصبحت تتوجه إلى مصر، باعتبارها موقعا استثماريا مفضلا. وقد أبدى عدد من القادمين الجدد من المستثمرين اهتماماً إزاء تعاملات التمويل الإسلامي. ويدعم ذلك الحاجة إلى تصميم نماذج تمويلية إسلامية، كما أنه يجعل من صياغة تشريع شامل حول التمويل الإسلامي ضرورة؛ ليعمل جنباً إلى جنب مع نظم التمويل التقليدية الموجودة بالفعل. ويجب أن يخدم المشروع المقترح كمظلة جامعة تنضوي تحتها العديد من منتجات التمويل الإسلامي، ويمكن أن تتطور أو تتم مراجعتها عند الحاجة.

إن هيكلة منتجات التمويل الإسلامي بهذه الطريقة يتوقف إلى حد كبير على المبادرة الفردية والقدرات التمويلية وإدارة تدفق العمل، وهو ما يحد من فرصة بلوغه لأعداد كبيرة من الفاعلين والمهتمين، والذين بغير ذلك لا يكونون قادرين للتعرض لهذه المهمة، بما في ذلك مواجهة التكاليف المرتفعة لتطوير بنى التمويل الإسلامي.

إنه لا يتناقض مع البدهيات أن ننظر إلى التمويل الإسلامي بنفس الطريقة التي ننظر بها إلى الليبرالية الاقتصادية، على الأقل من زاوية أن كليهما يساعد على جذب الاستثمارات الدولية. وفي الوقت الراهن تهتم الاستثمارات بمستوى الليبرالية الاقتصادية في مناطق الاستثمار. وبقدر مساو، يهتم المستثمرون - المسلمون بالأخص- بمدى رقي منتجات التمويل الإسلامي في مناطق جذب الاستثمارات، وتوافقها مع الشريعة، ومدى تكلفتها، ومدى تحديدها وتوفرها. ويسعى كاتبا هذا المقال، بدافع من اهتمام شخصي واعتبارات أكاديمية، لتطوير أطر قانونية للأنواع المختلفة من الصفقات، مثل الاستثمار في الأوراق المالية، وغيرها، المتوافقة مع الشريعة، كي تستخدم بواسطة المستثمرين الذين يطرقون باب مصر. ومع ذلك، فإنه لا يمكن التخلي عن تدخل منتظم من جانب الدولة للتشريع في هذا المجال بطريقة تقدم الأمان والثقة لدى المستثمرين؛ حيث إن القيادة في هذا المجال للنظم القانونية التي تنافس مصر على الاستثمارات. وإلى جانب المنافسين التقليديين فيما يخص تلقي الاستثمارات، تسمح السلطات الضريبية في انجلترا والولايات المتحدة بصفقات مبيعات مزدوجة، وهو الأمر الذي قد يكون مطلوبا لاستيفاء معايير الالتزام بالشريعة، كما هو الحال، على سبيل المثال، مع البيع لمرة واحدة لأغراض الضريبة.

مقترح للمستقبل

دخلت مصر عصراً جديداً في سياسة الاستثمار وإصلاح القطاع المالي والمصرفي، وهو ما يعكس التفكير الليبرالي الذي يتبناه صانعو السياسات. وفي هذا العصر الجديد، ومن أجل التوافق مع أهدافه، سوف توجد أدوات جديدة للتوافق مع طلبات المستثمرين؛ والتمويل الإسلامي جزء منها. وبالرغم من أن تبني نماذج المعاملات الإسلامية ليس بالأمر السهل، إلا أنه ليس مستحيلاً أيضاً. وفي المرحلة الراهنة، يمكن للمهتمين بهذا الشأن أن يستفيدوا من المرونة المتاحة في القوانين - كما يسمح بها القانون المدني والدستور نفسه، خاصة المادة ٢ المعدلة- لخلق منتجات تمويل إسلامي. غير أنه على المدى المتوسط يجب أن توجد خطط تشريعية لتنظيم هذا المجال لأجل نفع مجتمع المستثمرين. وبمعنى آخر، إن السوق المتنامية للتمويل الإسلامي في مصر سوف تحفز المشرعين على التجاوب مع موجة التمويل الإسلامي الحالية. ويجب أن تتم صياغة تشريع شامل للتمويل الإسلامي، يفيد في جذب الاستثمارات إلى مصر، حيث إن مصر تتنافس على الاستثمارات الخارجية المباشرة مع الدول الأخرى من المنطقة وخارجها، كما يفيد أيضاً المستثمرين المحليين لعقد الصفقات خارج الهياكل والمؤسسات المالية التي تجيزها الدولة. ■



"طريف أيضا وشيق.." الاقتصاد

بورتون ج. مالكيل

■■ يظن البعض أن علم الاقتصاد «علم كئيب» كما وصفه المؤرخ الأسكتلندي توماس كارليل Thomas Carlyle منذ أكثر من مائة عام، وهذا لأنه - على حد قوله - يبدو مملاً، ومبهماً، ويفتقر إلى التشويق، ويعرض الأمرين دون اختيار أحدهما، وتتكرر به عبارة «من جهة ما، ومن جهة أخرى». ولذلك، ذكر هاري ترومان في إحدى خطبه أنه لتجنب الغموض والالتباس يجب تعيين مستشارين اقتصاديين «ذوي جهة واحدة». وفي الواقع، كان يدور في ذهن كارليل فكر مختلف حين استخدم هذا التعبير، فما أراد أن يذهب إليه كارليل هو أن النُدرة متغلغلة في شتى جوانب الحياة - أي أننا علينا الاختيار بين إشباع رغبات متبارية، مثل الاختيار بين الإنفاق اليوم والإنفاق غداً، وكذلك الاختيار بين القيم والأهداف المتضاربة. على كلٍ، أكد المؤرخ الأسكتلندي أن لكل شيء تكلفة ولا يمكن تحقيق أي إنتاج دون عمل وتضحية.

وبالفعل يعتقد كثير من الناس أن علم الاقتصاد والمشتغلين به ثقيلو الظل من الناحية الاجتماعية، أي أنهم فاترو الإحساس تماماً. فالبعض يذهب إلى تعريف رجل الاقتصاد بأنه: «شخص يجيد التكلم بلغة الأرقام، ولكن ليس لديه المقومات الشخصية التي تؤهله ليصبح محاسباً». وسادت تلك الفكرة المعتمة عن رجال الاقتصاد؛ بسبب ميلهم للاستخدام المفرط للرياضيات والرسوم البيانية المحيرة دائماً في كتاباتهم المبهمة. إلى جانب أنهم يخفقون في كثير من الأحيان في الاعتراف بما يجهلونه.

لماذا يستهزئ البعض دائماً بعلم الاقتصاد، ولماذا يتجهم الطلاب عندما يتحتم عليهم دراسة علم الاقتصاد كفرع من فروع المعرفة؟ أعتقد أن الأسباب تكمن في أن معظم الكتابات الاقتصادية لا تُصاغ بصورة جيدة، بل وتستند دائماً على التلاعب بمسائل الجبر والرسوم البيانية المعقدة. بالإضافة إلى أن هناك القلائل من خبراء الاقتصاد ممن يستطيعون توصيل مدى التشويق الكبير الذي ينطوي عليه تحليل المفاهيم الاقتصادية أو إيضاح مدى ارتباطها بحياتنا اليومية. أما هذا الكتاب الذي نحن بصدده لتشارلز ويلان Charles Wheelan، فيغير كل تلك الأفكار عن الاقتصاد والاقتصاديين. في الواقع يمكن القول: إن ويلان لا يتمتع باللمسة التي تحول التراب إلى ذهب فحسب، بل تلك اللمسة التي تجعل الذهب ينبض بالحياة.

إنه بالفعل كتاب فريد من نوعه: فهو لا يحتوي على معادلات أو مصطلحات متخصصة يتعذر فهمها، أو رسوم بيانية معقدة. ومع أن الكثير من الأفكار الاقتصادية تعتمد من حيث الشرح على المعادلات والرسوم البيانية، نجد ويلان قد أثبت أنه من الممكن تيسير كل هذا في لغة واضحة. فهو يعطينا خلاصة علم الاقتصاد بإرجاعه إلى ارتكازاته الأساسية. كما أثبت أن لفظ «رجل الاقتصاد الواضح» ليس فيه تضاد.



وسنرى في صفحات هذا الكتاب أن الانتقادات الموجهة للاقتصاديين ليست في محلها. صحيح أن التحليل الاقتصادي يتضمن صعوبة وتعقيداً، أو هو في كثير من الأحيان أكثر تعقيداً من التحليل في العلوم الطبيعية؛ فقد تقدم العلوم الطبيعية شرحاً جذاباً للأنظمة المغلقة البسيطة مثل الكواكب التي تدور في مدارات حول الشمس، أو الإلكترونات التي تدور حول النواة، ولكن حتى العلوم الطبيعية تتضمن ظواهر في الطبيعة يصعب فهمها، ويدرك ذلك من يعمل في هيئة الأرصاد الجوية. فمع الدلالات التي تسجلها الأقمار الصناعية المتطورة ووسائل التنبؤ بالطقس، ليس بإمكان خبراء الأرصاد الجوية أن يجزموا في مقولة يسيرة أن «الطقس غداً سيكون تماماً مثل الطقس اليوم». بالتأكيد تخفق نماذج القصور الذاتي في الكشف عن التحولات التي يشهدها الطقس، ولكنها تعكس نظرة شاملة ممتازة عن أحوال الطقس بصورة عامة. لذلك، عندما يُطلب من خبراء الأرصاد الجوية إصدار التقارير حول التغيرات المناخية التي قد تنجم عن ظواهر مثل ارتفاع درجة حرارة الأرض، فإن عدم دقة التوقعات التي يحصلون عليها تجعل التوقعات الاقتصادية تبدو دقيقة بالمقارنة بها.

في الواقع، إن علم الاقتصاد أكثر صعوبة من العلوم الطبيعية؛ لأنه من غير الممكن إخضاع الظواهر الاقتصادية للتجارب المعملية المُحكمة، ولأن سلوك الأفراد لا يمكن التنبؤ به. لذلك، جذب الاقتصاد السلوكي behavioral economics - وهو فرع كامل من فروع الاقتصاد - انتباه الكثيرين، وذلك لأنه يربط بين أفكار علماء علم النفس ورجال الاقتصاد. ولكننا ما زلنا عاجزين عن التنبؤ بسلوكيات الأفراد بأية درجة من الدقة. ولكن لو كان لا يمكننا فهم كل شيء فليس معنى ذلك أننا لا نفهم أي شيء. فنحن نعرف أن السلوك الفردي تحركه الدوافع، كما نعرف أن الضوابط المنطقية تحكم الأنشطة الاقتصادية، وكذلك نعرف الكثير من الأمور من هذا القبيل، مثل معرفتنا أن

Naked Economics
Undressing The Dismal Science
الاقتصاد عاريا: عرض طريف ومشوق للمفاهيم الاقتصادية
تشارلز ويلان
ترجمة زينب حسن البشاري
مراجعة محمد عبد العزيز أبو المجد
كلمات عربية، القاهرة، ٢٠٠٧



إذا سألت عشرة رجال اقتصاد نفس السؤال ستحصل على عشر إجابات مختلفة



كل عملية بيع تتضمن عملية شراء. وأنه نادراً ما يجري التغاضي عن فرص المكسب الواضحة - وهي الفكرة الأساسية التي تقوم عليها نظرية أن أسواق الأوراق المالية فعالة بصورة كبيرة.

وقد تكون العلوم الاقتصادية لا تتمتع بقدر كبير من الدقة، إلا أنها تؤثر تأثيراً مباشراً على حياتنا. كما أنها تؤدي دوراً مهماً في وضع السياسات؛ حيث يؤثر الاقتصاديون على كل فروع الجهاز الحكومي. فلطالما كان دفع عجلة النمو الاقتصادي، وزيادة العمالة، وتجنب التضخم الشغلَ الشاغل للمعنيين بالشئون الاقتصادية في الحكومة. هل تذكر شعار حملة بيل كلينتون الانتخابية عام ١٩٩٢م؟ كان الشعار «الاقتصاد هو المهم، أيها الغبي» It's the economy, stupid فقد كان الحث على المنافسة وتقليل الاحتكار (من جانب وزارة العدل)، والحد من التلوث (من جانب وكالة حماية البيئة)، وتوفير الرعاية الصحية (من جانب وزارة الصحة) - تعد أمثلة على الأنشطة الرئيسية المعنية بها مجالس الوزارات، والتي تشكلها عناصر اقتصادية مهمة. وبالفعل من الصعب اتخاذ أية قرارات سياسية سواء أكانت تخص قضايا اجتماعية، أم ضريبية، أم دولية، أم زراعية، أم قضايا خاصة بالإنفاق أو الأمن القومي، دون النظر في عواقبها الاقتصادية. ومع أن السياسيين قد تراودهم الشكوك حول قدرة الاقتصاديين على حل تلك المشاكل، إلا أنهم لا يتجاهلون استشاراتهم الاقتصادية. وكما قال جون مايناردكينز John Maynard Keynes: «إن ممارسي الأنشطة الاقتصادية، الذين يظنون أنهم متحررون عقلياً من أي تأثير فكري، هم في الغالب أسرى لأفكار اقتصادية من عهود ماضية. كما أن مجانين السلطة يستوحون أفكارهم المجنونة من أنصاف الأكاديميين القدامى.

ويسود تأثير خبراء الاقتصاد تأثيراً متزايداً أيضاً في مجالات الأعمال التجارية والأوساط المالية. فقد ذكر بيتر لينش Peter Lynch ذات مرة - وهو مدير سابق لأحد صناديق الاستثمار بشركة فايديليتي Fidelity للاستثمارات - أنك إذا قضيت أربع عشرة دقيقة تتحدث فيها مع رجل اقتصاد تكون قد أضعت من وقتك اثنتي عشرة دقيقة. وربما يكون من المفارقة أن أداء مديري الصناديق المشتركة المحترفين يجري تقييمهم الآن قياساً وفقاً للأساليب التي يطورها خبراء اقتصاد المالية. كما يؤثر الاقتصاديون على أعداد لا حصر لها من القرارات التجارية؛ فهم يقدرون حجم الطلب للشركات المختلفة مثل جنرال موتورز وبروكتر آند جامبل. كما تستعين بهم أعداد كبيرة من شركات الاستشارات الاقتصادية المعنية بالمهام التجارية، بدءاً من التخطيط الاستراتيجي وحتى مراقبة المخزون. ويساعدون الشركات على تشكيل محافظ استثمارات الأوراق المالية عن طريق تحليل سياسات الاستبدال بين العائد المتوقع والمخاطرة. ويقدمون الاستشارة لكبار المسئولين الماليين بالمؤسسات بشأن تحديد النسب المختلفة لعوائد الأسهم، وكذلك ما للديون من تأثير على أسعار الأسهم العادية. في أسواقنا المالية، يحمل المتعاملون في عقود خيارات الأسهم stock options حواسب آلية يقارب حجمها قبضة اليد مزودة ببرمجيات اقتصادية تخبرهم بالأسعار التي يجدر بهم عندها تداول حقوق خيارات البيع والشراء. والحقيقة هي أن التحليل الاقتصادي مفيد للغاية بالنسبة للمستثمرين والمنتجين وكذلك واضعي السياسات الحكومية.



ويتضح للمستهلكين العاديين أن علم الاقتصاد يمكن أن يكشف لهم الكثير من القضايا اليومية المعقدة مثل: لماذا يصعب على بعض الناس الاشتراك في تأمين صحي؟ لماذا نتوقف عند مطعم ماكدونالدز ونحن على أحد الطرق السريعة مع وجود الكثير من المطاعم الأخرى التي قد تصنع شطائر هامبرجر أفضل؟ لماذا يُقْدِم كثير من الطلاب على الالتحاق بجامعات «مرموقة» في حين يوجد الكثير من المعاهد الأخرى التي توفر نفس التعليم الجيد وبمصروفات أقل بكثير؟ هل تساءلت يوماً عن علاقة مصطلحات مثل «الاختيار السلبي» و«السلع العامة» و«معضلة السجينين» بحياتنا اليومية؟ تلك إحدى المسائل التي يتناولها هذا الكتاب الرائع.



من المقولات الشائعة أنك إذا سألت عشرة رجال اقتصاد نفس السؤال ستحصل على عشر إجابات مختلفة. ولكن أراهنك أنك إذا سألت عشرة رجال اقتصاد لماذا يصعب العثور على سيارات الأجرة وشقق سكنية في مدينة نيويورك سيتي، سيخبرك العشرة أن الحدود المفروضة على عدد تراخيص سيارات الأجرة، والرقابة على الإيجارات، هي ما يقلل عدد المعروض من تلك السلع والخدمات. هناك بالتأكيد مواضع كثيرة يُجمِع عليها رجال الاقتصاد. فهم يتفقون كلياً على أن التجارة الدولية الحرة يمكن أن تؤدي إلى تحسين مستوى المعيشة بالدول التي تعمل بها، وأن التعريفات الجمركية وحصص الاستيراد تقلل من رخاء البلاد تقليلاً عاماً. كما يتفقون في مجملهم على أن الرقابة على الإيجارات تحد من حجم وجودة المساكن. ويجمعون كذلك في توقعاتهم أن مأساة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م المروعة ستؤدي إلى تقليص النشاط الاقتصادي. وقد علمت من تجربتي الشخصية في الجهاز الحكومي أن الاختلاف بين آراء الاقتصاديين وبعضهم (سواء كانوا محافظين جمهوريين أو ليبراليين ديمقراطيين) أقل بكثير من الاختلاف بين الاقتصاديين وبين العاملين في المجالات الأخرى. يتفق الاقتصاديون ذوو الرؤى السياسية المتضاربة فيما بينهم في معظم المسائل. كما يتحد أحياناً الاقتصاديون المنتمون لحزبين مختلفين إذا دخلوا وسط مجموعة من الساسة التابعين للحزبين.

وأعتقد أن السبب في ذلك هو أن رجال الاقتصاد يرون العالم من منظور فريد من نوعه، كما أن لديهم تفكيرهم الخاص عن كيفية حل المشاكل، إذ يستلزم التفكير كخبراء اقتصاديين استخدام سلسلة من أفكار المنطق الاستدلالي عند تفسير مفاهيم سهلة مثل العرض والطلب، كما يستلزم التعرف على سياسات الاستبدال، في سياق مقيد، عن طريق



موضوعات صعبة

قياس تكلفة الإقدام على خيار ما، بالمقارنة مع المنافع التي كان سيحصل عليها الفرد إذا كان اتبع الخيار الآخر. ويطمح تفكيرهم إلى الفعالية - وهي الحصول على أقصى منفعة ممكنة من الموارد المحدودة. كما يتطلب النظر للأمور من منطلق حدي أو تزايدي. ويسأل عن حجم المنافع الإضافية التي يمكن الحصول عليها إذا تحملنا تكلفة إضافية. بل ويدرك أن الموارد لها استخدامات متعددة، وأنه يمكن أن يجري الإحلال بين الموارد المختلفة لتحقيق النتائج المرجوة. وأخيراً، يذهب الاقتصاديون إلى أن الرخاء الاقتصادي يأخذ في التزايد إذا سُمح للأفراد باتخاذ اختياراتهم الخاصة، وكذلك يذعنون أن الأسواق المتنافسة تعد بمنزلة آلية في غاية الكفاءة للتعبير عن اختيارات الأفراد. وفي حين تتضمن كل المشاكل الاقتصادية قضايا معيارية - أي منظورات مختلفة عما يجب فعله - فإن التفكير كرجل اقتصاد يتطلب رؤية تحليلية تقوم عادة بتجريد - أو على الأقل تيسير - القضايا المتعلقة «بالقيمة».

يعرض هذا الكتاب الفريد المفاهيم الاقتصادية بطريقة مبسطة ليسهل على القارئ فهمها. فهو يتطرق إلى فوائد السوق الحرة التي تجعل حياتنا أفضل، كما يوضح لماذا تخفق الأنظمة الاقتصادية التي تخضع لأحكام مركزية في رفع مستوى معيشة المواطنين. بالإضافة إلى ذلك، يعرض الكتاب الدور المهم للحكومة في تأسيس البنية القانونية التي تعطي الفرصة لوجود الأسواق وتوفير السلع العامة. كما يشير إلى دور الحكومة في تصحيح الأوضاع عندما تتسبب السوق الحرة في تأثيرات خارجية غير مرغوب فيها، مثل تلوث البيئة، أو عندما تفشل أسواق القطاع الخاص في إنتاج بعض السلع التي يحتاجها المواطنون.



هل تساءلت يوماً لماذا كان يحصل مربو ماعز صوف الموهير على إعانات مالية من الحكومة الفيدرالية لعدة عقود؟ يتناول ويلان شرح كيف توصل رجال السياسة والاقتصاد إلى تلك النتيجة. هل تفهمت حقاً لماذا يعتبر دائماً آلان جرينسبان Alan Greenspan ثاني أكثر رجال الدولة نفوذاً في الولايات المتحدة؟ يزيل ويلان الغموض عن تأثير السياسة النقدية على النشاط الاقتصادي. هل فهمت جيداً المشهد الأخير من فيلم «تريدينج بليسيس» Trading Places عندما تعرض الأشرار للهزيمة في سوق العقود المستقبلية؟ يضع ويلان نظرية العرض والطلب بين يدي القارئ. هل تساءلت ذات مرة هل كان مناهضو العولمة على جانب من الصواب، وعما إذا كانت الأوضاع الاقتصادية للدول المتقدمة أو النامية ستتحسن إذا قل الاندماج الاقتصادي بين الدول؟ يجعل ويلان كل تلك الأمور واضحة كالشمس. وعندما تقرأ في الصحيفة عن الخلافات الخاصة بالقضايا الاقتصادية الجارية، هل دائماً ما تنزعج وتتغلب عليك الحيرة من تنافر وجهات النظر التي تقرؤها؟ يحلل ويلان التفاصيل ويخترق جدار السياسة ليكشف النقاب عن أهم النقاط. من هذا المنطلق ينجح في تحويل العلم الكئيب إلى نسيج حيوي مؤلف من الاقتصاد والسياسة يشكل الكيان السياسي والقومي.

لقد أسهم ويلان في إثراء القراء بمرشد اقتصادي ممتع في قراءته على نحو جذاب. فهو يجعل من القارئ مواطناً أكثر وعياً ويزيد من استيعابه بصورة أكبر للقضايا الاقتصادية المهمة اليومية عن طريق رد علم الاقتصاد إلى جذوره. ويبرهن على أن علم الاقتصاد يمكن شرحه دون رسوم بيانية، أو جداول، أو معادلات. كما يمكن أن يجعل منه علماً غاية في التشويق. إن هذا الكتاب يمكن استخدامه كملحق تكميلي للمقررات الدراسية في الاقتصاد في الجامعات والمدارس الثانوية. والأكثر من ذلك، يمكن اعتباره كياناً قائماً بذاته، كمقدمة لهذا المجال. سيغير حتماً آراء الكثيرين ممن يرفضون دراسة علم الاقتصاد باعتباره جافاً ويبعث على السأم. طالما فكرت أنا نفسي في كتابة ما يعد مقدمة أساسية في علم الاقتصاد، ولكن دائماً تعترض المشاريع المنافسة بعضها بعضاً. فلو كنت فعلت ذلك، لكان هذا هو الكتاب الذي أردت كتابته. ■

■■ يغلب التصور عن علماء الاقتصاد بأنهم مملون، وما يبرر ذلك أن معظم الناس يبدون مملين، على الأقل عند التحدث عن العمل، وعلى هذا النحو يكون معظم الناس بداية بالعلماء وحتى عارضي الأزياء المشاهير، ولكن السؤال هو لماذا يوصف علماء الاقتصاد بذلك وحدهم؟

الإجابة من وجهة نظري الشخصية هي التعطش لشيء ما ولكن من طرف واحد، فالعلوم الاقتصادية كما صاغها جون مايناردكينز «شيء خطير سواء للخير أو للشر»، وعلى ذلك فهي ليست كما صاغتها الدراسات الأدبية أو حتى التاريخية، فالناس يبحثون لدى علماء الاقتصاد عن شيء يعطيهم الإحساس بالرضا العاطفي أو السياسي ولذلك يصابون بخيبة الأمل، حيث إنهم يجدون نظاماً يبدو كما لو كان كله عبارة عن معادلات ورسوم توضيحية وبعض المصطلحات المبهمة والتي لا تكون معروفة إلا بالنسبة للاقتصاديين فقط.

لكن هناك بعض المبررات لهذا الغموض، فالاقتصاديات التي تحدث عنها كينز في مواضع أخرى عبارة عن (موضوعات تقنية صعبة)، ولكن ما من شخص سوف يؤمن بها. أما الأفكار الرئيسية للنظرية الاقتصادية فهي بسيطة للغاية حتى إنها تنتهي إلى ما هو أكثر قليلاً من فرضية أن الناس عادة ما يستغلون الفرص، بالإضافة إلى ملاحظة أن الفرص المتاحة غالباً ما تعتمد على أفعال شخص آخر والعكس. لكن تطبيق تلك الأفكار على حالات معينة مثل تأثير التقدم التكنولوجي على العمالة، وتأثير التجارة الدولية على الأجور وتأثير الزيادة النقدية على النمو الاقتصادي يتطلب بعض التركيز الزائد والتفكير الجاد، ذلك التفكير الذي يتضمن بعض الرياضيات إلى جانب بعض من الاصطلاحات المتخصصة التي تمكنك من المتابعة. لكن هذا لا ينفي أن الكثير مما يفعله علماء الاقتصاد الحديثون أو الأكاديميون من أي نوع ليس إلا بعض الاستعراض الفكري غير الهادف، مستخدمين الحسابات

تحليل النظريات الاقتصادية
بول كروجمان
ترجمة: رانيا محمد عبداللطيف
القاهرة: الدار الدولية للاستثمارات الثقافية

الخيالية لاستنتاج الأشياء التي يمكن التعبير عنها من خلال اللغة البسيطة أو للتعبير عن أشياء ستكون ذات معنى ساذج للغاية إلا إذا لم يتخف معناها وراء ستار الرياضيات، لكن ليست كل التقنيات الخاصة بالاقتصاد الحديث مجرد تضليل أو إخفاء وإنما تكون أحياناً سبيلاً لتوضيح وتبسيط الأشياء.

يجب أن يكون هناك الكثير من الكتابات سهلة الفهم والمشوقة بل والممتعة عن علوم الاقتصاد بخلاف المتاح. فعلم الفلك مثلاً هو موضوع صعب وتقني للغاية ولكن أين هو الموازي لما قاله الراحل كارل ساجان بالنسبة للاقتصاديات؟. (هل تعلم أن مستهلكي الولايات المتحدة ينفقون تريليونات وتريليونات لا تبال) في كثير من النقاط والتي تكون أحياناً عاطفية للغاية، يقدم علم الاقتصاد بصائر نافذة ومضيئة، تلك البصائر التي من الممكن بقليل من الجهد (حسناً، بكثير من الجهد) أن تفسر بدون اللجوء إلى الاصطلاحات الاقتصادية المعقدة. ولكن لا تأتي التفسيرات دائماً سريعة، فنحن مهنة ليس لديها من يعممها للجمهور.

الآن دعونا نتمهل لحظة، أليس هناك بعض الخبراء الاقتصاديين ممن لديهم نفوذ وتحقق كتاباتهم أعلى المبيعات؟ نعم، ولكنهم ليسوا من المشاهير بمعنى الكلمة.

أما ساجان فقد كان ممن يمتلكون تلك القدرة، فقد وجد السبيل الذي يجعل الموضوعات الجادة المتعلقة بعلم الفلك - مثل الاكتشافات والنظريات - أشياء عامة وشاملة وممتعة بالنسبة لقطاع عريض من الجمهور، على الجانب الآخر لم يستطع علماء الاقتصاد المشاهير إعطاء القراء القدرة على ملاحظة الأحداث التي يتم البحث فيها عن كثب، ودون استثناء لأحد، أجد أنهم يستخدمون مؤلفاتهم فقط للتحايل على الهيكل الطبيعي للعلم، حيث يستخدمون للوعظ بعض الأفكار المتفق عليها من قبل القليل من علماء الاقتصاد الجادين، وغالباً ما تكون تلك الأفكار خاطئة بطريقة واضحة، وأحياناً ما تكون ساذجة بالفعل، وليست فقط مخالفة للرأي الجماعي، ذلك على الرغم من أنها قد تبدو أفكاراً جيدة للقارئ غير المحنك.

في الواقع فإن معظم الناس بمن فيهم هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم على قدر كبير من الدراية، وممن يشاهدون وسائل الإعلام ويطلعون على المجلات الثقافية يعرفون كيف تبدو الاقتصاديات.

.. وأفكار غامضة!!!

بول كروجمان

أما ما يخص المقالات التي يشتمل عليها هذا الكتاب فهي عبارة عن محاولات لعمل شيء بهذا الصدد. فقد قمت بمعظم ما يمكن أن يقوم به الدارسون والأكاديميون من خلال حياتي العملية. قمت بتدريس بعض المحاضرات وكتبت مقالات للصحف المتخصصة وتحدثت عامة مع أكاديميين آخرين، حيث كنت مهتماً جداً بالوصول إلى الحقيقة لإقناع الجماهير المنتقاة ممن لديهم القدرة على النقد والحكم على الأفكار بأنني كنت على صواب، وهذا ما كان يعنيني. وهنا يظهر دور شخص آخر عليه أن يقوم بتوصيل تلك الحقيقة للقاعدة العريضة من الجمهور. وللأمانة فإنني سوف أعود إلى أيام البراءة الأولى إن كان باستطاعتي، حيث إنني أشعر وكأنني طُردت من الجنة. ولكن ليس هناك رجوع، فأنا واعٍ تماماً إلى أن الحقيقة لا تنتشر دائماً، حيث إن المشعوذين والذين يمتلكون القدرة على جعل الناس يصدقونهم من الناحية الظاهرية غالباً ما تكون لديهم القدرة على إقناع عظماء الرجال الأخيار بأنهم مثال للحكمة تماماً كما تبدو الأفكار الاقتصادية عميقة جداً بالنسبة لأي شخص غير محنك، إلا أنها تبدو لي أشياء ساذجة دون الحاجة لبرهان على ذلك. كما أنني لا أستطيع أن أعتمد على شخص ما كي أبني الأفكار الاقتصادية التي أعتقد بها، فكل ما علي يجب أن أفعله بنفسي.

ولحسن الحظ فإنه على الرغم من أنها مهنة شاقة إلا أنها ليست مستحيلة، فإذا أُخذ هذا العمل مأخذ الجد فسوف يكون بإمكانك إيجاد طريقة أو مثل أو حتى قول مجازي أو زاوية معينة كمدخل لتسهيل فهم جزء ما من العلوم الاقتصادية عسرة الفهم. كما أن حرفية الكتابة عن موضوع تقني بطريقة واضحة تدعو للسرور والبهجة الخالصة.

وقد وجدت نفسي بالفعل متجهاً لشيء ما يشبه حياة عملية ثانية منذ عدة سنوات قليلة، هي كتابة نوعية من المقالات المجمعة في هذا الكتاب، فغالباً ما أكتب بعض المقالات مستغلاً بعض الأحداث الجارية كنقطة بداية، فقد كنت غالباً ما أفجر بعض الأفكار المقبولة إلى حد ما كي تبدو غير صحيحة والعكس، ولكن هدفي أيضاً كان توضيح معنى أن تفكر، خاصة التفكير الفعلي في العلوم الاقتصادية.

ولكن تلك الحياة العملية الثانية لم تكن دائماً تجعلني مقبولاً لدى الناس، حيث إن بعض الناس لديهم معتقدات قوية فيما يخص الاقتصاديات، وجزء من تلك المعتقدات يرجع إلى الخبرة اليومية في الإنفاق والحصول على الأموال، لكنها أحياناً ما تعطي فكرة خاطئة عن الموضوع بشكل عام، وذلك لأنه من السهل جداً الإقناع بالنظريات الاقتصادية التي تلائم آراءنا السياسية المسبقة.

بناء على ما سبق كيف يمكن لأشخاص بتلك المعتقدات الراسخة أن تبدو عليهم أي استجابة عندما يخبرهم



باحث اقتصادي بأن معتقداتهم الواضحة هي معتقدات خاطئة تماماً، مثل الطب الشعبي الذي يرى أن الإصابة بالقرحة تكون نتيجة للقلق الشديد، أو تخبرهم أن الأفكار التي لا تروق لهم هي أفكار غير غامضة وصحيحة تماماً مثل مبدأ الانتخاب الطبيعي الخاص بنظرية التطور. ربما يعترف الناس بالجميل لإنارة عقولهم، ولكن ذلك عادة لا يحدث، بالإضافة إلى ذلك فهناك الكثير من الكتاب والمتحدثين ذوي النفوذ والذين قد أفنوا معظم حياتهم العملية ليختلقوا بل ليخترعوا بعض الأفكار مستخدمين حلو البيان لإخفاء قصور تلك الأفكار، لذلك فلا هم ولا من انجذبوا لأفكارهم سيروق لهم توضيح تلك الحقائق، كما أن هناك ببساطة بعض الناس الذين يشعرون بالإهانة لمجرد الاقتراح. إن التفكير العميق في علم الاقتصاد سوف يجعلهم يتساءلون عن مبادئهم السابقة التي قد كتبها مؤلف في حالة غضب، ودون تسامح وهي «اتهامات الأمية» هذا الاتجاه هو ما أشار إليه كينز عندما كتب أنه عندما تكون علوم الاقتصاد موضوعا شاقا وتقنيا «لن يؤمن بها أحد».

كذلك يمكنني التحدث عن موضوع معين أثناء مناقشة هذا الموضوع فأحياناً أجد أنه من الضروري أن أذكر بعض الأسماء أو أن أوضح فكرة ما قد تكون سيئة من خلال إعطاء بعض الأمثلة الواقعية لمشاهير الأشخاص الذين اعتنقوا تلك الفكرة وذلك لتحقيق هدف جاد بالفعل. وعلى الرغم من أن هذا يبدو مكراً إلا أنني لدي هدف أود تحقيقه بالفعل، وقد كنت أرى دائماً أن مروجي الأفكار الاقتصادية التافهة غالباً ما يلعبون لعبة «الطعم أو الإغراء للتحكم» من خلال وعد الجماهير بالتحاليل السفسطية الكاذبة، ثم تزويدهم بعد ذلك بالحكايات البسيطة بدرجة فجة تفتقد الخبرة. أما الشيء الأكثر سوءاً من ذلك فهو حينما يحاول شخص مثلي أن يناقض تلك الأفكار أو الحكايات البسيطة فيجد الرد هو أن «ما من أحد يصدق ما تقول»، وذلك يتبع في نفس اللحظة بتكرار لنفس الفكرة التي يعاد إقرارها بطريقة طفيفة.

الآن ماذا على المجادل المحترف أن يفعل؟ حسناً فقد اتضح أن ذلك قد يجعل هؤلاء يوقعون بأنفسهم في الفخ. جزء من ذلك يعتمد على أنني أحتاج إلى إثبات أن هناك بعض الناس المهمين الذين يتحكمون في وجهات النظر التي أنتقدها وأنني لست أواجه خصوما وهميين. كما أنني وجدت أنه إذا تم توضيح مدى سهولة التضليل والإقناع بوجهة نظر تبدو جادة ثم تجدها بعد ذلك غير ذات قيمة وبسيطة، سأكون قادراً على إقناع القارئ بأنه يحتاج بالفعل إلى الإنصات لما سوف أقول، فإما أن ينصت أو يرسل لي بخطاب مهين، وهو الاختيار الذي يفضله البعض القليل.

على الرغم من أنني لم أستطع تكوين صداقات من خلال تلك الحياة العملية الثانية، إلا أنني أحب من وقت لآخر الاعتقاد بأن هناك من هم متأثرون بالأفكار على الأقل. أما الأجزاء المجمعة في هذا الكتاب فمصدرها مقالات قد تمت كتابتها في الفترة ما بين خريف عام ١٩٩٥ وصيف عام ١٩٩٧. حيث كانت فترة مليئة بالأحداث (أليست كل السنين كذلك؟!) كما كانت فترة خصبة للهراء يميناً ويساراً. فالقطعة الأولى من هذه المجموعة قد كتبت رداً على الهراء الشديد الذي انتشر بواسطة زعيم أغلبية الحزب الجمهوري الأمريكي المنتخب حديثاً، فهو قليلاً ما يستجيب للأفكار العاطفية، ولكن لسوء الحظ فقد كان مساوياً في سذاجة الأفكار لرئيس وزراء فرنسا الاشتراكي المنتخب.

على كل حال فاليمين واليسار ليست بالاتجاهات ذات النمط المناسب، فهناك اتجاه آخر قد تم الوقوف عليه من خلال تلك المجموعة وهو ببساطة عدم إثبات المعتقدات التقليدية لكل من التحرريين والمحافظين، وكثيراً ما يكره الناس سماع الحقيقة.

إن ما يقرب من نصف تلك المقالات قد تم نشره في مجلة «سليت» الإلكترونية، والتي ينشر لي بها عمود شهرياً بانتظام تحت عنوان «العلم الكئيب»، أما باقي المقالات فمعظمها قد تم نشره من خلال الإعلام الخاص بالمطابع الرسمية مثل «واشنطن مانثلي، فورن أفيرز، نيويورك تايمز»، فيما عدا قليل من المقالات فما زالت حديثة ولم تنشر بعد، وعلى الرغم من أن بعضها قد تمت كتابته إلى حد ما كرد فعل لأحداث جارية، إلا أنني لست مراسلاً صحفياً إذا كان لدي ما أدخله في نقاش للأخبار، لكن ذلك يتأتى من خلال صياغة تلك الأخبار أو تحويلها إلى مقال أطول عمراً من مجرد خبر. لذلك أرجو أن يجد القراء أن تلك الأجزاء غير مؤرخة حتى يبقى جميعهم مناسبا وسديدا.

على الرغم من جدية هدفي، فقد استمتعت بكتابة تلك الأجزاء، ولو أن كل تلك الأفكار المستهلكة حقيقية بالفعل، فكتابة ١٣٠٠ كلمة من خلال مقالات تكتب بلغة واضحة لعامة الناس تحتاج لوقت أكثر من الذي تحتاجه كتابة ٥٠٠٠ كلمة في صورة معادلات تملأ الورق لصحيفة متخصصة. على ذلك أود أن يحصل القارئ من خلال تلك المقالات على المتعة والثقافة معاً، فقط عليك أن تجرب. ■

جيفارا 80

قراءة يابانية



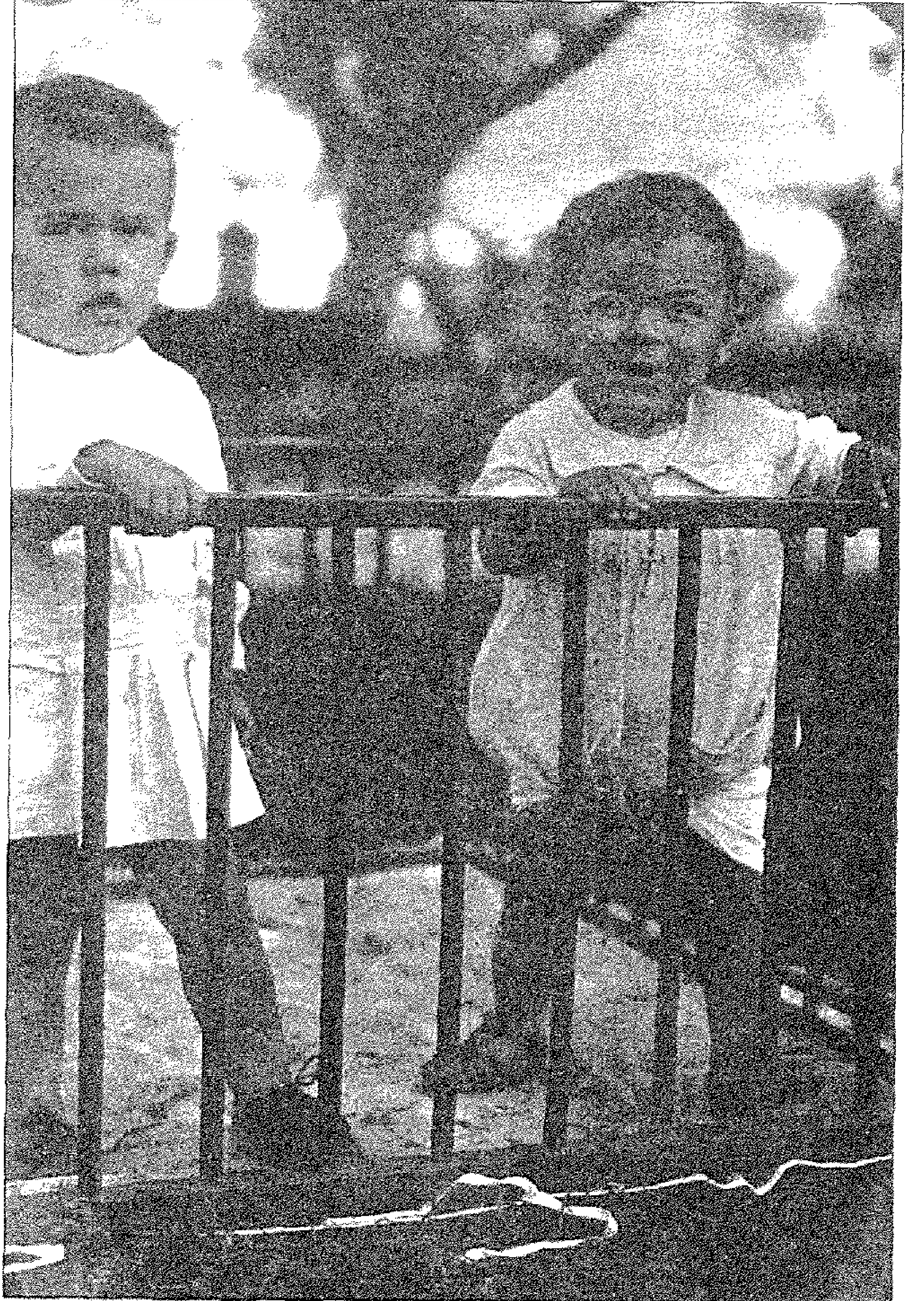
وليد عبدالناصر



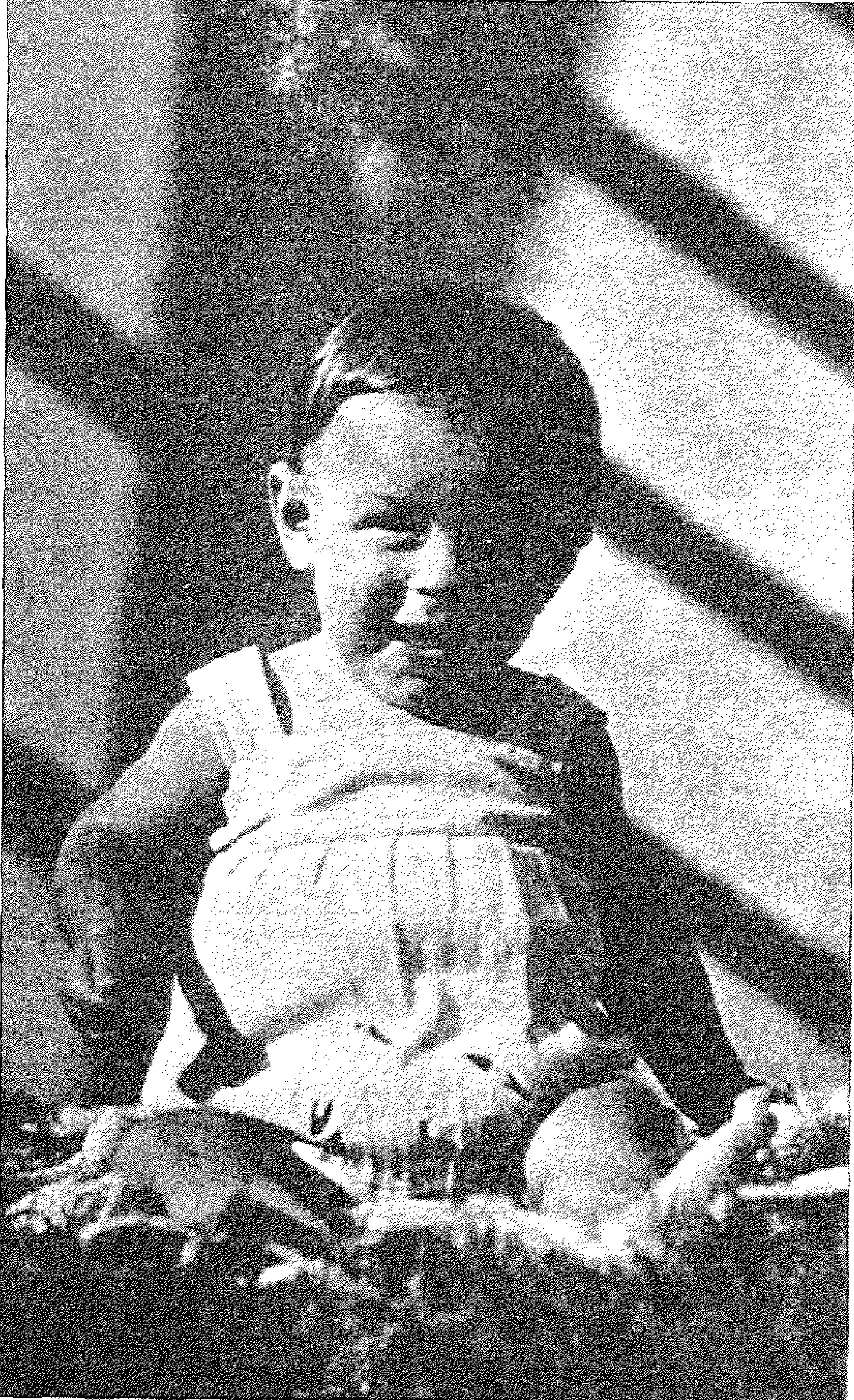
الترجمة اليابانية
لرسائل جيفارا إلى ابنته
صدرت قبل أسابيع



■■ شهدت مختلف بلدان وأقاليم العالم خلال عام ٢٠٠٨ أشكالا مختلفة ومتنوعة من إحياء الذكرى الثمانين لميلاد المناضل اللاتينى الأممى اليسارى الثورى الراحل الأرجنتينى الأصل إرنيستو تشى جيفارا الذى تحول منذ عقود، وخاصة بعد مصرعه خلال القتال فى بوليفيا منذ حوالى ٤١ عاماً، إلى ما يشبه الأسطورة التى يختلط عند الحديث عنها الواقع بالخيال، وتتأثر الحكاية برؤية البشر عبر العالم لها أكثر مما حدث حقيقة على الأرض. وفى إطار هذه الاحتفاليات، فى مصر على سبيل المثال تم عرض الفيلم التسجيلى المنتج مؤخراً «جيفارا عاش»، والذى حاول معداه ومخرجه ربط جيفارا بخصوصيات النضال العربى من وجهة نظرهم. وجاء ذلك بعد عقود من أغنية الشيخ إمام عيسى الشهيرة «جيفارا مات» ومسرحية الكاتب الكبير الراحل «ميخائيل رومان» فى عقد الستينيات من القرن العشرين «ليلة مصرع جيفارا». وقبل ذلك، وفى الغرب كان قد عرض الفيلم الشهير «يوميات دراجة بخارية» الذى تناول السنوات الأولى من شباب جيفارا وتعرفه على العالم المحيط به فى أمريكا اللاتينية وأوضاعها الاجتماعية وما اعتراها من ظلم وتمييز مما مهد لمرحلة لاحقة فى حياته اتسمت بالثورية وقيادة حرب العصابات وتبنى أطروحات راديكالية للتغيير. أما فى اليابان، فقد أخذ إحياء هذه الذكرى شكلاً مختلفاً تركز فى قيام ابنة جيفارا بزيارة لطوكيو وعدد آخر من المدن اليابانية وتحدثها فى العديد من الاحتفالات التى أقيمت على شرفها وبمناسبة إطلاق الترجمة اليابانية من الكتاب الذى كتبته ونشر باللغة الإسبانية عن والدها وتضمن الخطابات المتبادلة بين والدها ووالدتها، علماً بأن الطبعة اليابانية



ارنست جيفارا (حوالى عام ١٩٢٩)



ارنست جيفارا (حوالى عام ١٩٣٠)

قرر أن يصبح طبيبا لمساعدة الفقراء والضعفاء.. وهكذا فعلت ابنته



ستكون الطبعة الثانية بعد الإسبانية، وحتى قبل الطبعة الانجليزية. وفى خضم إحياء ذكرى ميلاد جيفارا فى العاصمة اليابانية، نظم منتدى «هيلسايد» الفكرى والثقافى المتميز ورشتى عمل بهذه المناسبة، تحدث فيهما مفكرون وكتاب ومثقفون وفنانون وسياسيون ونقابيون وناشطو مجتمع مدنى، شباباً ونساء ورجالاً.

ومن وحى هذه المصادر، ومع الاستعانة بكتب ومقالات وأحاديث وذكريات وأفلام وثائقية أخرى ظهرت فى اليابان عن جيفارا خلال الفترة الأخيرة ما بين إحياء الذكرى الأربعين لمصرعه والاحتفال بالذكرى الثمانين لميلاده، نعرض هنا لرؤى يابانية لسيرة هذا الرجل الأسطورة الذى صارت صوره وكتبه وخطبه مثار إعجاب الملايين عبر العالم، خاصة من الشباب. مع تعدد لغاتهم وثقافاتهم. وحتى إن لم يكونوا جميعاً مدركين لتفاصيل دور جيفارا فى التاريخ المعاصر للإنسانية، ولكنهم يعلقون صوره فى غرف نومهم ومكاتبهم وعلى سياراتهم أو حتى دراجاتهم البخارية. وما زال جيفارا يمثل أيقونة عصر حتى الآن. وتعتبر صورته الأكثر انتشاراً فى العالم. فهى ما زالت تطبع على القمصان، وتوضع على الأبنية، وترفرف على الرايات. بل ورسم لاعبو كرة قدم أرجنتينيون، بمن فيهم دييجو مارادونا وهوان سباستيان بيرسون وآخرون، وجه بطل وطنهم الأم جيفارا وشماً على أكتافهم. وفي دوري كرة القدم اليابانى تطبع صورة جيفارا على أعلام تشجيع حمراء لفريق «أوراوا دياموند ريدز» أحد أكبر أندية كرة القدم اليابانية.

كانت ولادة «إرنيستو تشى جيفارا» في ١٤ يونيو ١٩٢٨، وهو الابن البكر لأبيه إرنيستو جيفارا لنتش وأمه سيرا دى لاسيرنا. وسمى الصبى، الذى كان منذ أبصر النور ينظر مباشرة في وجه أى شخص على خلاف أى رضيع آخر، ارنيستو جيفارا دى لا سيرنا. وقد عانى جيفارا، ذو البنية الضعيفة بسبب ولادته المبكرة، من مرض رئوى بعد ولادته بخمسة وأربعين يوماً. وأصيب بمرض «ربو تحسسى» في الثالثة من عمره. وبذل والداه الثريان كل ما فى وسعهما لعلاجه. ولم يكن والداه من النوع الذي يهتم بالعادات والمظاهر الاجتماعية. فقد كرها الإحساس بالتميز الطبقى لدى الأثرياء الأرجنتينيين وكذا التمسك بالقيم المحافظة، واختارا أن يعيشا حياة حرة وذات طابع عملى. كان الأب رجلاً ليبراليا وكانت الأم امرأة مثقفة، وأنجبا جيفارا وربياه مدللاً باسم «تيتى». وبالرغم من ذلك فإن الروح الصلبة التي زرعها صراع مع مرض مزمن، وتنقله بين عدة بيوت في طفولته المبكرة، شكلا إطار شخصية جيفارا وأثرا على طريقة حياته بقوة بعدئذ.

ومن المفارقات أن جيفارا اختار لاحقاً، برغم مرضه بالربو، أن يعيش فى أماكن تتصف بدرجة عالية من الرطوبة، مثل الغابات، وهي العدو اللدود لمرضى الربو.

وقد دخل جيفارا مدرسة حكومية في عام ١٩٤١. وفي عام ١٩٤٦، تخرج جيفارا من المدرسة الثانوية فى الثامنة عشرة من عمره، ولكنه لم يدخل الجامعة مباشرة. فلقد ظل جيفارا طوال حياته ممتناً للحب الشديد الذى لقيه من أبويه والبيئة المريحة اقتصاديا التى تربى بها، ولكنه كان مصراً على ألا يعتاد هذا النعيم إلى الأبد.

وفي كل مرة كان يقوم 

Ernesto GUEVARA (Che) 1963 - © Rene Burri , MAGNUM

فى دورى كرة القدم اليابانى تطبع صورة جيفارا على أعلام تشجيع حمراء لفريق «أوراوا دياموند ريدز»، أحد أكبر أندية كرة القدم اليابانية

جيفارا 80

فيها جيفارا برحلة كان يسعى للتعرف على حقائق الواقع الاجتماعي المحيط به، كما كان يشعر أيضاً بإحساس بالذنب تجاه مجتمعه الذى كان يعانى أغلب سكانه من تدنى مستويات المعيشة فى مقابل بيئته المريحة من الناحية المادية. وهذا الشعور الذى يمكن وصفه بـ «مركب مضاد» أصبح هاجساً لديه طوال حياته، التي حاول خلالها وضع نفسه بإرادته فى ظروف حياتية قاسية باختياره العيش قريباً من أفقر شرائح المجتمع.

وقد دخل جيفارا، الذى قرر أن يصبح طبيباً لمساعدة الضعفاء والفقراء، خاصة فى ضوء تجربته الخاصة فى المعاناة من الربو، كلية الطب في جامعة بوينس أيرس بالعاصمة الأرجنتينية فى عام ١٩٤٨.

وفي ديسمبر ١٩٥١، حين بلغ من العمر ٢٣ سنة، قام جيفارا برحلة حول القارة الأمريكية الجنوبية على دراجات بخارية بصحبة صديقه الطبيب ألبيرتو جرانادوز، الذى كان عمره حينذاك ٢٩ سنة. كان طموحهما كبيراً لأنهما اعتزما عبور القارة الأمريكية الجنوبية بالتحرك شمالاً على امتداد الشريط الساحلي من المحيط الهادى بعد دخول تشيلى من الأرجنتين بالذهاب عبر «الأنديز» إلى الغرب، وفكروا فى تمديد رحلتهما إلى القارة الأمريكية الشمالية طبقاً للتطورات. ولكن المال الذى كان بحوزتهما لم يكن كافياً، ولم يكونا على علم بتفاصيل الأماكن التى يتوجهان إليها. وبالرغم من نقص الإمكانيات المادية واللوجستية اللازمة للسفر، بدأ الاثنان رحلتيهما بدافع فضولهما القوى.

كانت تلك الرحلة أفضل مدرسة لجيفارا لما صادفه خلالها من تجارب مع رعاة بقر أشداء على مروج «بانبا» الوافرة العشب، وبحارة ودودين يعبرون البحر، وعمال مناجم فى الصحراء يبحثون عن عمل، وسكان أصليين يمشون منحنية ظهورهم لإحساسهم بالفشل، ومرضى داء «هانسين» Hansen الذين يعيشون في الغابات. والتقى جيفارا ورفيقه وودعا أناساً أجبروا على العيش فى ظروف قاسية لكنهم بالرغم من ذلك واجهوا الحياة بقوة. وكان لكل ذلك دور أساسى فى تنشئة جيفارا وتربيته الفكرية.

وبعد عودته إلى الأرجنتين من رحلة استغرقت ثمانية أشهر، تخرج جيفارا من كلية الطب بعد سنة واحدة تقريباً. ومضى يبدأ رحلته الثانية فوراً. وفي رحلته تلك التى بدأها في يوليو ١٩٥٣، شاهد معارك بين بوليفيين وجواتيماليين مناهضين للولايات المتحدة وبين الدكتاتوريات القائمة فى بلدانهم حينذاك. وبدأ إحساس الغضب ينمو لديه تدريجياً كمجرد مسافر شاهد على ذلك العصر. وخلال هذه الرحلة، قابل جيفارا المرأة البيروانية «إيلدا جاديا أكوستا» وتزوجها. وعندما عرفته «إيلدا» على الكوبى أنطونيو نيكو لوبيز، ناداه الأخير باسم «تشي»، ومنذ ذلك الحين أطلق عليه اسم «تشى جيفارا». وأصبح إرنيستو جيفارا دى لاسيرنا يعرف باسم «تشي» جيفارا وهو فى الخامسة والعشرين من عمره.

و«تشي» هو اسم يطلق على لهجة منطقة قرطبة فى الأرجنتين، وهي كلمة «رمزية» عندما يستخدمها الناس لمناداة شخص بطريقة ودية، وقيل أن جيفارا استعملها مراراً وتكراراً عندما كان يتحدث مع أصدقائه المقربين.



ظهر فيدل كاسترو، زعيم الكوبيين فى المنفى فى ذلك الوقت، فى حياة جيفارا، الذي عاش في خطر بعد أن أصبح مصوراً جوالاً فى المكسيك. وبعد اعتقاله لمسئوليته عن قيادة انتفاضة مسلحة فاشلة ضد الديكتاتور «باتيستا» حاكم كوبا حينذاك، وكان كاسترو حينذاك محامياً يبلغ من العمر ٢٧ عاماً، وسرعان ما خرج كاسترو من السجن فى إطار عفو عام. فى ذلك الوقت، كانت كوبا تحت نظام دكتاتورى عسكرى بقيادة الجنرال «فورنهيشيو باتيستا»، وكانت الولايات المتحدة هى الحاكم الفعلى للبلاد من خلف الكواليس.

وفى مايو ١٩٥٦، دعا كاسترو جيفارا للانضمام إلى حرب التحرير الكوبية، وكان ذلك فى نفس اليوم الذى التقيا فيه للمرة الأولى، وقرر جيفارا الذهاب مع كاسترو. وفى ٢٥ نوفمبر ١٩٥٦، أبحرت السفينة «جرانما» من المكسيك وعلى متنها ٨٢ رجلاً، لتصل إلى كوبا في ٢ ديسمبر بعد عبور البحر الكاريبى العاصف. ونجح حزب كاسترو وجيفارا، الذى تراجع عدد أعضائه إلى ١٢ فرداً فقط بعد هجمات قوات «باتيستا» عليه، فى إيجاد عمق قوى له فى جبال «سييرا مايسترا» الواقعة فى المدخل الشرقى لكوبا، وفى إطلاق حرب عصابات من هناك.

وأصبح جيفارا، الذى أنضجته كفدائى شجاع وصلد حرب ضد ٢٠ ألفاً من قوات «باتيستا»، واحداً من أبرز القادة. وحاز ثقة الكوبيين بعد انتصاره فى قيادة المعركة فى «سانتا كلارا»، وهرب الجنرال «باتيستا» ومعاونوه إلى جمهورية الدومينيكان في الأول من يناير ١٩٥٩ بينما انهار النظام العسكرى الحاكم فى كوبا بعد استمراره لمدة سبع سنوات. وفي ٨ يناير من العام نفسه، دخلت الهيئة الرئيسية للقوات الثورية هافانا. وكان عمر كاسترو ٣٢ عاماً، بينما بلغ عمر جيفارا ٣٠ عاماً آنذاك.

ولم تنته الثورة عند هذا الحد، بل بدأت عندما قاتل جيفارا ورفاقه ضد باتيستا. لم يكن من السهل بناء دولة عادلة ومنصفة للشعب الكوبى، لكنه بالنسبة لجيفارا كان عملاً قيماً ومغامرة كبيرة تستحق التضحية. لقد عمل جيفارا، الذى أصبح زعيماً فى مركز القلب من النظام الثورى الجديد فى هافانا، بدون كلل وسهر الليالى من أجل كوبا جديدة وكان مستعداً لخدمة العمال والفقراء حتى في أيام العطلات. وكان موقف كاسترو وجيفارا ثابتاً ومنسجماً فى أن الزعماء يقفون فقط في المقدمة عبر تكريس حياتهم لخدمة شعوبهم.

وبعد انتصار الثورة الكوبية بستة أشهر تقريباً، كان زواج جيفارا الثانى، وهذه المرة من «أليدا ماروسى»، وجاء ذلك بعد أن استلمت زوجته الأولى «إيلدا» ورقة طلاقها فى المكسيك، حيث تزوجت هناك فيما بعد. وبالرغم من أن حب جيفارا لزوجته الثانية كان عارماً منذ التقيا لأول مرة فى «سانتا كلارا»، فقد كان للزوجين الجديدين القليل من الوقت المتاح. فبعد عشرة أيام من مراسم زفاف عادية مع «أليدا»، توجه جيفارا فى جولات أخذته إلى أفريقيا، والشرق الأوسط، حيث زار مصر والتقى بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وآسيا كسفير نوايا حسنة بطلب من كاسترو. وفي إطار جولته الآسيوية، زار جيفارا اليابان فى ١٥ يوليو ١٩٥٩، وكانت رحلة بغرض اكتساب المعارف والأفكار من الأمم الأخرى لإعادة بناء كوبا، حيث كان يقوم من الناحية العملية بدور وزير الخارجية.

وعلى الصعيد الداخلى فى كوبا اتسمت المرحلة بالثورية، حيث صادر كاسترو الأراضى من كبار الملاك الزراعيين، وألغى الاعتراف بحقوق الطبع والنشر والتأليف باعتبارها حقوقاً رأسمالية تكرس الاستغلال، وجمد الأصول الأمريكية ثم أممها. واتخذت الولايات المتحدة إجراءات مضادة بفرض حصار اقتصادى ضد كوبا، التي أصبحت دولة اشتراكية على مرمى حجر من الحدود الأمريكية، وما لبثت واشنطن أن قطعت العلاقات مع هافانا. وحدث ذلك وسط أجواء الحرب الباردة بين الشرق والغرب، حيث كان عصر تنافس وصراع بين المعسكر الشرقى الاشتراكى بزعامة الاتحاد السوفيتى السابق والمعسكر الغربى الرأسمالى بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، بما فى ذلك التنافس فى مجال سباق التسلح.

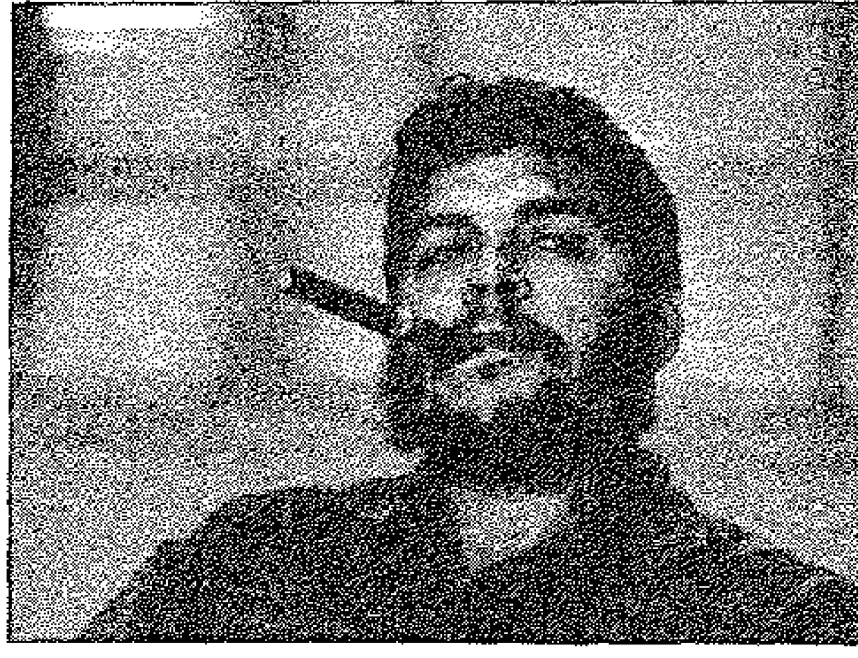
وفى ٥ مارس ١٩٦٠ غرقت سفينة الشحن «لا جوبرو» بفعل عمل إرهابى فى ميناء هافانا، وأقيمت مراسم الحداد على الضحايا حيث ألقى كاسترو خطاباً، وحضر المراسم جيفارا بالطبع، وكذلك كل من الفيلسوف الوجودى الفرنسى الراحل «جان بول سارتر» وصديقته الكاتبة الفرنسية «سيمون دى بوفوار».

وكانت كوبا، التى دخلت فى عداء صريح مع الولايات المتحدة، قد اضطرت للاعتماد على مساعدة الاتحاد السوفيتى. وفي عام ١٩٦٢، حدثت «أزمة الصواريخ فى كوبا» عندما اكتشف الأمريكيون نشر الاتحاد السوفيتى صواريخ فى كوبا. واستمر التوتر، الذي حمل فى طياته خطر اندلاع حرب عالمية ثالثة، لمدة أربعة أيام، لكن الأزمة انتهت بعد محادثات سرية بين الزعيم السوفيتى حينذاك «خروتشوف» والرئيس الأمريكى «جون كنيدى». وتولدت لدى جيفارا شكوك حول طبيعة الصفقة التى تمت بين القوتين العظميين لتفادي التوتر، وهو الأمر الذى أدى تدريجياً إلى نشأة عدم ثقة بالاتحاد السوفيتى السابق لدى جيفارا.

ففي فبراير ١٩٦٥، انتقد جيفارا الاتحاد السوفيتى بشكل صريح فى مؤتمر دولى عقد فى الجزائر ووصفه بأنه يتصرف كقوة إمبريالية لأنها كقوة عظمى، حتى وإن كان أمة اشتراكية، تفرض رأيها من طرف واحد على بقية القوى الاشتراكية فى العالم. وأحرج تصريح جيفارا كاسترو، الذى كان يريد تفادي إثارة استياء الاتحاد السوفيتى من القيادة الكوبية فى ذلك الظرف التاريخى الصعب لهافانا.







وبعد عودته من جولاته الخارجية، عقد جيفارا لقاءات مطولة مع كاسترو قرر على أثرها مغادرة كوبا وتركها لصديقه اللدود كاسترو وللشعب الكوبى، ولهدف محدد، ألا وهو تنفيذ افكاره الداعية لتحرير وتوحيد أمريكا اللاتينية بأكملها.

وقد اختار جيفارا الكونغو فى أفريقيا مكاناً لنشاطاته الجديدة، لكن المنطق والمنهج اللذين زرعهما جيفارا هناك لم ينجحا، فانتهى مشروعه إلى الفشل. وبعد عودته إلى كوبا من إحدى جولاته الخارجية، تسلل جيفارا إلى بوليفيا فى نوفمبر ١٩٦٦، واختار بوليفيا لأنها تقع وسط قارة أمريكا الجنوبية، ومجاورة لخمس دول. وكان نصور جيفارا أن وهج النضال سينتشر فى مختلف أرجاء القارة اللاتينية إذا أسس قاعدة صلبة لنشاطات حرب عصابات هناك.

وبعد حوالى ١١ شهراً من بدء جيفارا قيادة نشاطات فدائية في بوليفيا، قتله جنود القوات الرسمية البوليفية رمياً بالرصاص بعد ظهر ٩ أكتوبر بعد أسره في معركة «وادى تشولو» في ٨ أكتوبر ١٩٦٧. وكان عمره حينذاك ٣٩ عاماً. ولأن القوات الرسمية البوليفية أبقت مكان قبره سراً خشية أن يتحول إلى مزار مقدس، فقد استغرق الأمر ٣٠ سنة حتى تم الكشف عن رفاته. وفى ١٢ يوليو ١٩٩٧، استقبلت كوبا بأكملها رفاته استقبال الأبطال، التى استعيدت للمرة الأولى بعد ٣١ سنة. وترقد رفاته بهدوء فى ضريح فى مدينة «سانتا كلارا».

وفى بوليفيا رافق المثقف الفرنسى «ريجى دوبريه» تشى جيفارا وفرق المقاتلين فى حرب العصابات، ودفع الثمن بعد ذلك عندما حكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين عاماً بعد اعتقاله بواسطة القوات الحكومية البوليفية، ولكن مساعى لإطلاق سراح «دوبريه» أسفرت عن الإفراج عنه، وبعد سنوات طويلة صار «دوبريه» مستشاراً للرئيس الفرنسى الاشتراكى الراحل «فرانسوا ميتران». ورغم مشاركة «دوبريه» فى المعارك فى بوليفيا، فإنه يبدو أنه حاول مغادرة المقاتلين هناك، حتى أن تشى جيفارا كتب فى مفكرته: «أن هذا الرجل الفرنسى يحاول ترك الفدائيين بأسرع ما يمكن، وسأدعه يذهب»، حيث كان «دوبريه» عديم الخبرة بحرب العصابات، وكانت طبيعة المعركة على ما يبدو مختلفة عن النمط المعتاد للمثقفين الفرنسيين فى ذلك الوقت. وقد ألف «دوبريه» لاحقاً كتاباً بعنوان «الثورة داخل الثورة» عن كوبا، وظهر منه جلياً مدى إعجاب «دوبريه» بجيفارا، وتقديره له لدرجة أنه ذهب إلى بوليفيا عندما علم أن جيفارا هناك، ولكنه بات على قناعة بأن جيفارا لن يكون قادراً على السفر إلى خارج بوليفيا حياً، وأنه إذا تعرض للقتل فى بوليفيا، فإنه سيمجد كشهيد.

ومن جهة أخرى، فإن كلاً من المصور الكوبى «ألبرتو دياز جيتيريز» الشهير بـ «كوردا» والإيطالى «فيلتورينيرى» هما صاحبا الفضل فى نشر أشهر الصور والملصقات عن تشى جيفارا فى مختلف أنحاء العالم، وذلك بعد أيام قليلة من وفاة جيفارا. ومن أطرف هذه الملصقات ورقة نقدية بقيمة خمسة دولارات عليها وجه تشى جيفارا مع ابتسامة. وأدى نشر صور جيفارا إلى شعور عميق بالألم لدى الملايين عبر العالم، إلى درجة أن بعضهم شبه نظراته الأخيرة بنظرات السيد المسيح، مما أوحى لهم بأن جيفارا ذو قوة غامضة وسيعود إلى الحياة من جديد ومنحته قدراً هائلاً من الخلود. وعقب وفاة تشى جيفارا، أقبل المعجبون به، خاصة من الشباب، على شراء أعلام عليها صوره، وساعات يد تحمل اسمه وصورته، بما فى ذلك فى محلات فى كوبا يستطيع الناس شراء سلع أجنبية منها.

أما عن صورة تشى جيفارا فى عيون أصدقائه، فلا شك أنه جذب الاصدقاء إليه، وقد قام الكاتب اليابانى «جيوجاتو توى» بعقد عدة مقابلات مع عدد من أصدقاء ومساعدى «جيفارا». كان أول اللقاءات فى مقهى يطل على البحر عبر نافذة زجاجية كبيرة فى فندق فى هافانا مع الطبيب «ألبرتو جرانودوز» الذى رافق جيفارا الشاب فى أولى رحلاته الخارجية، وعلق «جرانودوز» بالقول بأن «تشى أبداً لم يمت»، وأضاف أنه بعيداً عن حالات الشذوذ، فمن الوارد أن يحب رجل رجلاً آخر من منطلق صداقة وأخوة حميمة. وروى أوقاتاً صعبة عاشها مع جيفارا، واستذكر أنه بعد ست سنوات من العودة من الجولة الخارجية الأولى لجيفارا، تلقى رسالة منه تقول: «أرجو أن تأتى فوراً، نحن بحاجة لأطباء ومعلمين». واعتبر «جرانودوز» الدعوة جذابة، واعتقد أنها قد تكون مغامرة كبيرة جديدة بتكريس كل طاقاته لتأسيس بلد مثالى سوياً مع جيفارا. فتخلى «جرانودوز»، الذى كان طبيباً ناجحاً، عن حياته في فنزويلا بدون تردد، وتوجه إلى كوبا مع زوجته وأطفاله. ويقول «جرانودوز» أن التجربة كانت قاسية جداً، لكنه وجيفارا عملا ليل نهار وبذلا جهوداً مستميتة لجعل كوبا أمة تسير على الطريق الصحيح. ويرى «جرانودوز» أن تشى جيفارا كان يجمع بين الهدوء والحرارة معاً، ولا يوافق على جعل جيفارا مؤلهاً أو أسطورة، ولكنه يقر أنه كان رجلاً مختلفاً كلية عن أى رجل آخر. ويركز «جرانودوز» على إبراز عناد جيفارا فى متابعة تنفيذ ما يحدده من أهداف، وكذلك تميز مستوى ذكائه. ويرى «جرانودوز» أن «فترة حياته بجوار جيفارا كانت سوية، حيث كانت حياة بسيطة وحقيقية لوجود صديق بجواره».



وبالإضافة إلى «جرانودوز»، فهناك ثلاثة رجال كوبيين يمكن تسميتهم «مثلث أصدقاء جيفارا» لم تتزعزع صداقتهم له بعد واحد وأربعين عاماً على مصرعه، وهم: «هارى فيليجاس تامايو» (كان اسمه الحركى كمقاتل «بومبو») الذى أصبح مقاتلاً وهو فى الخامسة عشرة من عمره، وشارك فى أنشطة مع جيفارا، ثم غادر كوبا متوجهاً إلى بوليفيا بعد الثورة، والثانى هو «أورلاند بوريجو» الذى عمل ليل نهار كمساعد لجيفارا بعد الثورة. أما الثالث فهو الطبيب «عمر فرنانديز»، والذى كان يصغر جيفارا بعامين وسافر معه كنائب لسفير النوايا الحسنة.

ويتذكر «تامايو» جيداً تفاصيل لقائه الأول مع جيفارا منذ نصف قرن تقريباً. ولم يكن «تامايو» يعرف القراءة والكتابة فى ذلك الوقت، ولذا أجبر على دخول مدرسة لمحو الأمية أسسها معسكر القوات الثورية. ويستذكر «تامايو» اهتمام تشى جيفارا الشديد بالتعليم، كما يستحضر ما قاله له جيفارا بأنه لتحقيق تقدم الثورة لا يجب تعلم إطلاق النار فقط، بل على الفدائيين أن يكونوا مصلحين اجتماعيين، لذلك يجب أن يتعلموا أشياء مختلفة، وينشأوا ويتطوروا كبشر، وأكد جيفارا أن الثوار ليسوا مخربين بل بناة، ويتعين عليهم تحرى الحذر لتجنب ارتكاب الأخطاء. ويشير «تامايو» إلى مغادرته كوبا إلى بوليفيا، حيث طرح عليه فيديل كاسترو السؤال عما إذا كانت لديه نية للذهاب إلى بوليفيا بصحبة تشى جيفارا. وبالرغم مما كان قائماً من خلاف بين «تامايو» وتشى جيفارا حول عدة قضايا، فإن «تامايو» كان مشبعاً بعقيدة أممية تدفعه لتقديم المساعدة إذا طلبها شعب آخر. وكان القرار بشأن الذهاب مع جيفارا يعود لـ «تامايو» نفسه بإرادته الحرة، وكان يمكنه الرفض، لكنه اختار الذهاب إلى بوليفيا مع تشى جيفارا، ولم يندم أبداً على هذا الاختيار.

أما الصديق الثانى لجيفارا «بوريجو»، فكان شاهداً على العلاقات بين جيفارا وكاسترو في مرحلة مبكرة من الحرب الثورية. ويذكر أن كاسترو كان يعتقد أن جيفارا شجاع وجرىء بأكثر من اللازم أحياناً، ولذا كثيراً ما كان يشعر فى تلك الفترة بعدم الارتياح تجاه ذلك. وعندما أصبح جيفارا قائداً لمجموعته نبهه كاسترو إلى ضرورة أن يتصرف بدرجة أكبر من الحذر. ويشير «بوريجو» إلى أنه بعد الثورة، لم يكتف جيفارا بأداء واجباته الرسمية فقط، بل كان يتطوع أيضاً للعمل في بعض أيام العطلات، فقد كان لدى جيفارا قناعة راسخة ودائمة بأن على القائد اتخاذ المبادرة وتكريس نفسه لخدمة شعبه فى أى موقع.

ويستذكر «بوريجو» أنه فى أحد الأيام وبعد عمل متواصل لأيام متتالية لعدة سنوات، أخبر تشى جيفارا مساعديه أنهم يعملون بكد وتعب، لذا دعاهم للانتهاء من العمل فى اليوم التالى عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، مما أثار بهجة مساعديه وتطلعهم إلى قليل من الراحة والاستمتاع بالحياة، ولكن هذه الفرحة لم تكتمل فقد وردت مكالمة هاتفية لتشى جيفارا، وعلى أثرها طلب من «بوريجو» الاستعداد للمساهمة فى جنى محصول قصب السكر فى اليوم التالى بدءاً من الرابعة صباحاً! ويضيف «بوريجو» أنه يتذكر لقطات تتعلق بجيفارا عدة مرات في اليوم الواحد، وأنه عندما لا تكون الأمور على ما يرام وتوجد مشكلة امامه، فإنه يتذكر تشى جيفارا ويفكر فى كيفية تصرف جيفارا حيال هذه المشكلة، فما زال جيفارا يمثل دليل حياته، وبالنسبة له فإن جيفارا لم يمت أبداً.

أما الصديق الثالث «فيرنانديز»، الذي جاب العالم مع جيفارا مساعداً له أيام شبابه، فيروى أنه خلال زيارة تشى جيفارا لمصر أقام

سيعيش تشي جيفارا إلى الأبد كرمز لفقراء العالم ومهمشيه الباحثين عن العدل والإنصاف، طالما بقي الظلم قائماً

جيفارا 80

معه في غرفة واحدة بناء على طلب جيفارا، بالرغم من أن الحكومة المصرية وفرت لهما غرفتين منفصلتين في مصر. وكان جيفارا يمضي الليل ليتحدث لرفيقه حتى الصباح حول قضايا ومشاغل ومخاوف تهمه كإنسان وكمسئول عن عائلة وكرجل حول أسلوب حياته وآماله. وبعدما انتهى جيفارا من الكلام ذكر لرفيقه أن ما ناقشاه طوال الليل يجب أن يبقى سراً، مؤكداً أن أسرار أصدقائه ستذهب معه إلى القبر دون أن يبوح بها، ومعتبراً أن هذا من مقتضيات الصداقة ومتطلباتها. وعندما سئل «فرنانديز» عن افتراض أنه إذا كان جيفارا مازال حياً حتى الآن ودعاه للقيام برحلة خارجية فهل سيلبي دعوته، أكد بلا تردد أنه كان سيفعل ذلك بدون التفكير في أي شيء آخر.

وبالإضافة لأصدقاء جيفارا ورفاقه، فهناك خواطر مزارع بوليفي، يدعى «مانويل»، صادف جيفارا وآخرين من رفاقه أثناء أحد المهرجانات. ويصف تلك التجربة بأنها بدأت بالخوف نظراً للدعاية التي كانت الحكومة البوليفية ٦٣ تحلسلا اهتاوقوبثها عن الثوار وتصفهم بأنهم «شياطين السرقة والقتل». لكن سرعان ما تبين له أنهم ليسوا أشراراً، حيث أكد جيفارا للمواطنين أن الثوار لن يؤذوهم بل جاءوا ليكافحوا من أجل الفقراء ولذا يجب ألا يخافوا منهم، وطلب جيفارا عزف موسيقى فولكلورية تسمى «كويكا» وقام للرقص على أنغامها ودعا رفاقه ثم بعض الأطفال للانضمام إليه ووزع قوالب سكر على الجميع.

وكان منزل الفلاح «مانويل» يقع بجوار المدرسة التي قتلت فيها القوات البوليفية جيفارا. وفي ذلك اليوم، دخل «مانويل» المدرسة بعد سماع صوت طلقات رصاص، وهناك وجد جسد جيفارا ملقى في حمام وغارقاً في دمائه. واعتبر «مانويل» أنه بالرغم من أنه لا مفر من الموت في الحرب، فإن قتل رجل رمياً بالرصاص وهو مغلول اليدين والقدمين كان فعلاً جباناً. وعندما نظر «مانويل» إلى جثة جيفارا الهامدة، تمنى لو كان هو ومواطنوه قد قابلوا جيفارا وعرفوه مبكراً، فلربما لم تكن قد حدثت هذه المأساة غير القابلة للإصلاح، وكان من المؤكد أن الفلاحين وجيفارا كانوا سيكونون أصدقاء.

ولا يمكن التحدث عن اصدقاء جيفارا ورفاقه دون التحدث عن صديقه الأبدي فيدل كاسترو. في ٤ ديسمبر ٢٠٠٢، فعندما قابل الكاتب الياباني «توي» الرئيس فيديل كاسترو في قصر الثورة في هافانا وسلمه كتابه عن حياة تشي جيفارا، وقال له أنه سافر إلى أماكن كثيرة على دراجة بخارية عندما كان يعد الكتاب. وبينما كان كاسترو يحدق في وجه جيفارا المرسوم على الغلاف الأمامي للكتاب، تذكر أن جيفارا أيضاً كان يسافر على دراجة بخارية عندما كان شاباً. وظهرت على وجهه تعبيرات شخص أحب صديقاً قديماً ويشعر بغيابه. وعندها أيقن الكاتب الياباني أن الصداقة بين كاسترو وجيفارا استمرت حية. ففي ١٧ أكتوبر ١٩٩٧، ألقى كاسترو الخطاب التالي في مراسم الحداد عند استعادة رفات جيفارا من بوليفيا إلى كوبا:

«نأتي هنا لنرحب لا لنودع تشي ورفاقه، تشي عملاق الأخلاق، إن الوجود الإنساني، النقي مثله، والجدير بالاحترام الحقيقي، يبرز بشكل واضح في العصر الحالي حيث يسود السياسيون الفاسدون والمنافقون. ولو تحقق هدف تشي، لكان العالم اليوم مختلفاً وأفضل».



ولا شك أنه إذا كان المقاتلون يموتون، فإن الافكار لا تموت. فسيعيش تشي جيفارا إلى الأبد كرمز لفقراء العالم ومهمشيه الباحثين عن العدل والإنصاف، طالما بقي الظلم قائماً، حيث كان ما دفعه وحركه إلى الأمام هما الانتماء الانساني والرغبة في تحقيق العدالة، ورفض أن يلطخ قناعاته بالفساد ودفع ثمن هذه القناعات بشجاعة ودون ندم. وكل هذا أثار هذا الإعجاب العارم والمستمر به عبر العالم، رغم أنه بعد واحد وأربعين عاماً على مصرع جيفارا، لم يتحقق حتى الآن الهدف المثالي، وربما النبيل، الذي سعى إلى تحقيقه مخاطراً بحياته، ألا وهو العدالة، بل إن العالم طبقاً لكثيرين أصبح مكاناً أكثر ظلماً وسوداوية عما كان في زمن جيفارا. وبالتالي، ينظر هؤلاء اليوم بشوق إلى وجود جيفارا بينهم ويعتبرون هذا الوجود ضرورياً نظراً لأنه رجل المبادئ. بل إنه بالنسبة لهؤلاء فإن جيفارا ما زال حياً. وبين الذين عاشوا في القرن العشرين، ربما كان تشي جيفارا هو الرجل الأكثر شهرة وحيازة على الحب في العالم. وقد قال عنه «جون لينون» بطل فرقة البيتلز الغنائية الشهيرة «إنه أذكى رجل في العالم»، بينما وصفه الفيلسوف الفرنسي الوجودي «جان بول سارتر» بأنه «الإنسان الأكثر مثالية في العالم».

أما الروائي الياباني «تورو ميوشي»، فقد ذكر أن العديد من الثورات قد حدثت في القرن العشرين، ولكن يمكن القول أنه لم يكن هناك مثل جيفارا. ففي كل الثورات يناضل الثوار حتى إنجاز الثورة مخاطرين بحياتهم، ولكن عندما تنجح الثورة، ينحدرون إلى الصراع على السلطة مع أعداء جدد، وبكلمة أخرى، يسعى الرفاق السابقون، مثل القيادات السوفيتية السابقة، للحصول على الامتيازات والاستمتاع بحياة رغيدة. لكن وحده جيفارا كان مختلفاً، فكان يراجع تصرفاته بحجم انسجامها مع قناعته بأن مصير الثوري الحقيقي هو واحد من اثنين: الموت في سبيل قضيته أو النصر. وبالتالي، عاش وتصرف جيفارا على طريقة الأبطال بما عجز الآخرون عن مجاراته فيها، كما اتصف برومانسية جذبت الناس إليه بشدة.

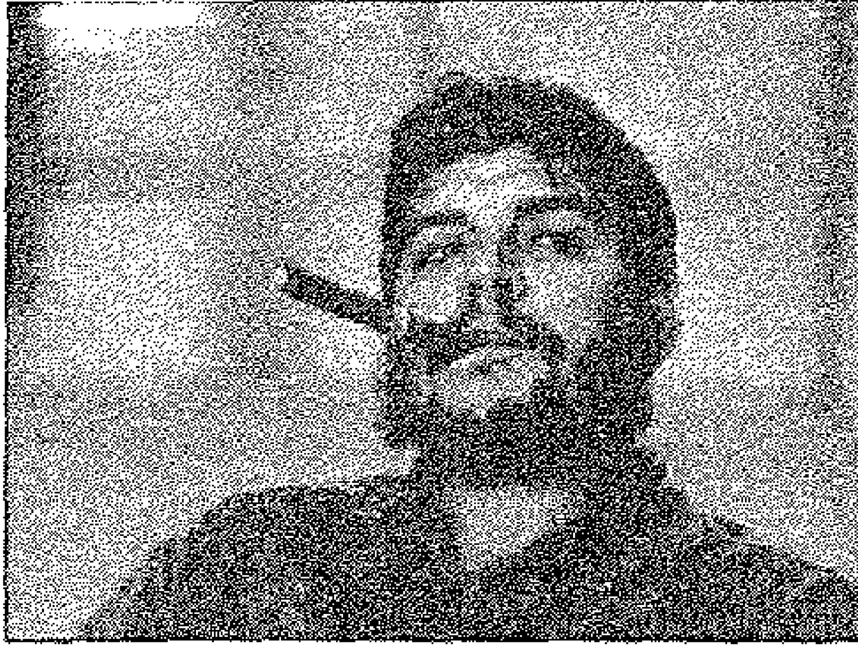
وقد ملأ جيفارا الأمل في تحرير بلدان أمريكا الجنوبية من استغلال الولايات المتحدة لها ولبناء مجتمع عادل، كان ممتلئاً بالغضب من الظلم والنفاق، وحالماً بعالم مثالي. ويواصل «تورو ميوشي» روايته عن تشي جيفارا مشيراً إلى أنه بعد نجاح الثورة الكوبية، وبينما أدى جيفارا مهام سياسية كوزير للصناعة، كان يصر على القيام بأعمال يدوية مثل الخروج في ساعات الصباح الأولى للمساهمة في حصاد قصب السكر، كما كان يعمل في المصانع حتى وقت متأخر من الليل، ويستذكر الكاتب الياباني مقولة جيفارا «ما لم يتصرف من يدعي أنه ثوري بشكل صحيح، فإنه ليس سوى شخص انتهازي». وبإصراره على تبني هذا المسلك، تصرف جيفارا وفقاً لصورة الثوري المثالي التي رسمها لنفسه.

ويوضح «تورو ميوشي» أن هدف جيفارا كان إدراك عالم عادل وحقيقي بلا زيف. وحتى بعد نجاح الثورة الكوبية، لم ينته عمله، وخرج يبحث عن ميدان قتال جديد وعن أرض ثورة جديدة، فأخفق في الكونغو، وأخيراً قتلته رصاصات في بوليفيا. وكان جيفارا محباً للسيجار والنساء والكتب والتصوير، وتصرف مثل الرجال الكبار تاركاً جاذبية السلطة ومناصب الحكومة الرفيعة ساعياً وراء هدف مثالي آخر. وقد يفكر من يسمى بـ «الواقعيين» في جيفارا، الذي سقط في منتصف الطريق، باعتباره مثالياً لا يمكن أن تصبح أحلامه حقيقة في هذا العالم، فمن المحال أن يختفي الظلم والزيف من العالم. ولكن يوجد لدى نفس هؤلاء الواقعيين شعور بالذنب في مكان ما داخل قلوبهم: إنهم يحسدون جيفارا، وهو الذي عاش حياته أميناً مع نفسه باتجاه تحقيق هدف مثالي بدون التخلي عنه حتى آخر لحظة. ولهذا أصبح إرنيستو تشي جيفارا محبوباً إلى الأبد، ويتوق الكثير من الناس إلى مبادئه ويعتبرونه حياً.

وكان «كوندو أكيتوشي» هو المصور الياباني الوحيد الذي التقط صوراً لتشي جيفارا، بل الصورة الملونة الوحيدة في العالم لجيفارا وكاسترو، بحيث أصبح جيفارا مشهوراً في اليابان بعد مصرعه. ويقول «كوندو أكيتوشي» أنه عندما نجحت الثورة الكوبية في عام ١٩٥٩، كان كاسترو مشهوراً، لكن ما من أحد في اليابان كان يعرف جيفارا. وزار «كوندو أكيتوشي» كوبا عام ١٩٦٣ للمرة الأولى، بناء على إعلان الحكومة الكوبية في سبتمبر ١٩٦٢ عن تنظيمها لمسابقة تصوير فوتوغرافي دولية إحياء لذكرى الثورة الكوبية، ووجهت الدعوة لمشاركين من كافة أنحاء العالم. وكان مقرراً دعوة الفائزين في المسابقة إلى كوبا في عيد الثورة في الأول من يناير ١٩٦٣، على أن يسمح لهم بالإقامة هناك لمدة شهر كامل لالتقاط الصور. وقد دخل المصور «كوندو أكيتوشي» المسابقة بصور تركز على المعارضة اليابانية ضد توسيع القاعدة الأمريكية في «تاشيكاوا» في أطراف طوكيو. وكان «كوندو أكيتوشي» ضمن الفائزين العشرة في المسابقة.

إلا أن أزمة الصواريخ الكوبية اندلعت في أكتوبر ١٩٦٢، ونسي المصور الياباني موضوع المسابقة، وفجأة اتصلت به السفارة الكوبية في طوكيو وطلبت منه الحضور في أبريل ١٩٦٣، حيث دعوه لزيارة كوبا لشهر واحد، وسلموه تذكرة للسفر عن طريق أوروبا بحيث يتزامن تواجده مع احتفالات عيد العمال. وبالفعل وصل إلى هافانا يوم ٣٠ أبريل ١٩٦٣. ولكن فيديل كاسترو لم يكن في هافانا في ذلك الوقت لأنه كان مدعواً لزيارة موسكو بمناسبة عيد العمال. وشعر المصور الياباني بخيبة الأمل وساده





اعتقاد بأنه لن يتمكن من رؤية كاسترو ولقائه. ومضى «كوندو آكيتوشي» يلتقط صوراً في أماكن مختلفة في كوبا لمدة شهر تقريباً، وكانت أول صورة التقطها لجيفارا عندما التقط صورة لرجلين يقفان على رصيف في احتفال عيد العمال، ولم يكن يعرف أن هذا الرجل هو جيفارا، ولكن أحد من شاهدوا الصورة ذكر له أن هذا هو تشي جيفارا الشهير.

وقبل أيام من مغادرة كوبا، أخطرت وزارة الخارجية الكوبية المصورين أن فيديل كاسترو عاد إلى هافانا وسيلقي خطاباً متلفزاً في اليوم التالي وسيتمكن من لقاء المصورين مما جعل شعورا بالسعادة يسود لدى المصورين. وفي اليوم المحدد، ذهب المصورون إلى استوديو تليفزيوني وتم استقبالهم بشكل حماسي. وفي مقاعد المشاهدين، اصطف زعماء الثورة الكوبية ليأخذوا مقاعدهم. وكان جيفارا جالساً في الصف الأمامي. وبينما كان «كوندو آكيتوشي» يلتقط الصور، نظر له في البداية جيفارا باشمئزاز، ولكنه سرعان ما نظر إليه مجددا وهو يتابع التقاط الصور بهمة، وتولد لدى المصور الياباني انطباع أن جيفارا بدأ ينظر إليه كرجل مثابر في عمله.

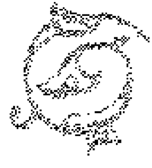
وبعد انتهاء خطاب كاسترو، نهض جيفارا وتوجه إلى المنصة ليتحدث مع كاسترو لمدة عشرين دقيقة تقريباً. وأعد «كوندو أكيتوشي» الكاميرا مقترباً منهما بذهول، ولم يحاول أحد إيقافه. مما جعله يلتقط العديد من الصور لهما، ومن هذه الصور أربع نشرت في اليابان بعد ذلك. كما نشرت بعض هذه الصور في مجلد صور لجيفارا صدر في اليابان، بجانب شرائط خطبه المسموعة والمرئية وأفلام وثائقية صدرت عنه جميعها في اليابان ما بين الذكرى الأربعين لمصرعه والذكرى الثمانين لميلاده. ولاحقاً، عُرضت إحدى تلك الصور على طول جدار مبنى من خمسة طوابق لوزارة الدفاع الكوبية. وظهرت تلك الصورة، التي ظهر فيها كاسترو وجيفارا في حديث جدي وجهاً لوجه عدة مرات بعد ذلك في مطبوعات كوبية. وكما أصبح جيفارا رمزاً تاريخياً، كذا أصبحت صور «كوندو أكيتوشي» رموزاً تاريخية أيضاً. وبشكل خاص الصورة الملونة التي ما زال أصلها الوحيد بين يدي المصور الياباني، وهي الصورة الملونة الوحيدة المتبقية في العالم التي تعرض لقطتين لجيفارا وكاسترو معاً.

ولكن ماذا عن الصلة بين تشي جيفارا واليابان؟

كما ذكرنا من قبل، فلقد زار جيفارا اليابان في ١٥ يوليو ١٩٥٩، بصفته سفير نوايا حسنة مرسلاً من كاسترو بعد انتصار الثورة الكوبية في محاولة لتأسيس علاقات صداقة مع كل دول العالم ولإجراء محادثات معهم حول ترويج التجارة وأغراض أخرى. وكان قد غادر هافانا في ١٢ يونيو، وزار الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا المتحدتين في ذلك الوقت)، وسيلان (سريلانكا الآن)، الهند وبورما (ميانمار الآن) قبل وصوله إلى اليابان. وكانت وسائل الإعلام اليابانية في ذلك الوقت إما غير مبالية أو مستهجنة لزيارة البعثة الكوبية.

وعلى سبيل المثال، كان العنوان البارز لمقال غطى أنشطة البعثة نشرته صحيفة «أساهي شيمبون» اليومية اليابانية الأكثر انتشاراً في ٢٧ يوليو هو «كاسترو ذو الشوارب يزور طوكيو» واستهل المقال بالقول: «رمز شعبي جديد يضاف إلى كوبا المشهورة بالسكر ورقصة المامبو». وبالإشارة إلى وصول البعثة، قالت الصحيفة «وصلت عدة نسخ (!) من كاسترو بالشوارب إلى طوكيو في طائرة مقاتلة خضراء، وهم الرائد إرنيستو تشي جيفارا وحاشيته كمبعوث خاص لرئيس الوزراء كاسترو بعد زيارة مصر والهند». وصور المقال البعثة كمجموعة مصغرة مستنسخة من كاسترو، وتعاملت مع جيفارا والآخرين كأنهم متطابقون. وبالرغم من أن مقال جريدة «أساهي» جاء ليسخر منهم، فقد كانت الأفضل لأنها على الأقل اهتمت بهم، فالعديد من الصحف الرئيسية في اليابان لم تنشر أية تقارير عن البعثة الكوبية.

كما أن الوزراء وكبار مسئولي الحكومة اليابانية الذين أجروا محادثات مع جيفارا كانت توجهاتهم إزاءه تتسم بالبرود أيضاً. وبرغم دعوتهم لشراء السكر الكوبي بأسعار منخفضة، فلم تتصف إجابات الجانب الياباني للبعثة الكوبية بالطابع الإيجابي. ودعا وزير التجارة والصناعة الياباني آنذاك «هاياتو إيكيدا» (والذي أصبح فيما بعد رئيساً للحكومة) جيفارا إلى الفندق الإمبراطوري لاجتماع لمدة ١٥ دقيقة، وبالفعل غادر الوزير الياباني الفندق بعد ١٥ دقيقة تماماً. وبالرغم من ذلك، وللبحث عن أفكار للتجارة الثنائية مع اليابان، واعتماد نموذج اليابان، تلك الأمة الجزيرة المتقدمة في الشرق الأقصى، التي كانت تحاول أن تصبح دولة صناعية رائدة بعد خروجها مدمرة من الحرب العالمية الثانية، وللترويج للصناعة الكوبية، زار جيفارا أماكن مختلفة بشكل اتسم بالنشاط أثناء إقامته في اليابان.



وقد نشر المؤلف الياباني «تورو مايوشي»، الذي أشرنا إليه آنفاً، تقريراً مفصلاً عن أنشطة جيفارا في اليابان في طبعة مايو ١٩٦٩ من المجلة الشهرية «بونجي شونجيو». وطبقاً للتقرير، على سبيل المثال، زارت البعثة الكوبية صباح ٢٣ يوليو خطوط إنتاج الشاحنات وسيارات الجيب في مصنع شركة «تويوتا موتورز» في محافظة «أيتشي». وبعد ظهر نفس اليوم زارت البعثة موقع تصنيع الطائرات في شركة «ميتسوبيشي» للصناعات الثقيلة، ووصلت البعثة مدينة أوساكا مساء نفس اليوم. وفي ٢٤ يوليو، شاهد جيفارا ورفاقه عملية تصنيع ميكنة زراعية في مصنع «كوباتا ستيل» في ساكاي»، وقادوا بالفعل جراراً زراعياً وماكينة رش مواد كيماوية. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، زاروا شركتي «ماروبيني» و«كانيبو». وبعد ذلك حضروا احتفالاً نظمته غرفة تجارة مدينة «أوساكا». وبالإضافة إلى ذلك، توجد صور تظهر زيارة جيفارا وفريقه لمعهد «سوني ترانزستور»، وأنباء أشارت إلى أنهم زاروا مصانع معدات إنشائية وفولاذ وأسمدة وآلات نسيج وكذلك استوديو سينمائيا. وبالتالي كان برنامج الزيارة مكثفاً جداً.

وبالعودة إلى أنشطة ٢٤ يوليو، فقد وقعت حادثة صغيرة ليلاً. فقد كان مقرراً أن تبيت البعثة في «أوساكا»، ومقابلة مسئولين من منتجي النسيج في فندق، ومن ثم الانتقال إلى مدينة «كوبي» في اليوم التالي لزيارة حوض السفن الخاص بشركة «كاواساكي» للصناعات الثقيلة. ولكن جيفارا علم أن مدينة «هيروشيما» ليست بعيدة كثيراً عن «أوساكا». وتذكر أنه عندما كان في مقتبل الشباب، كان يشعر بضيق شديد لإلقاء قنبلتين ذريتين على اليابان من قبل الولايات المتحدة في أواخر أيام الحرب العالمية الثانية ومقتل الكثير من البشر نتيجة لذلك. وبعد سماعه أن المدينة المنكوبة بالقنبلة الذرية قريبة من منطقة «أوساكا/كوبي»، كان جيفارا في حالة من العصبية والإثارة. فقرر جيفارا وأحد مرافقيه والسفير الكوبي في اليابان مغادرة الفندق واشتروا تذاكر قطار ليلي متوجهاً إلى هيروشيما. وفي اليوم التالي ٢٥ يوليو، وضع جيفارا ورفيقاه إكليلاً من الزهور على الضريح التذكاري لضحايا القنبلة الذرية في حديقة السلام بهيروشيما، وزاروا متحف القنبلة الذرية لاحقا». وبعد مشاهدة محتويات المتحف من صور ومواد أخرى، قال جيفارا لمرشد ياباني رافقه في جولة بالمتحف بتعجب: «برغم هول ما فعلته الولايات المتحدة بكم، أنتم اليابانيون ما زلتم ترزحون تحت سيطرتهم، أليس كذلك؟» وفي نفس اليوم، زار جيفارا مستشفى القنبلة الذرية، مما يثبت سعيه الجاد لمحاولة فهم مأساة هيروشيما بشكل متعمق.

وفي ٢٧ يوليو، غادرت البعثة الكوبية اليابان. ولاحقاً زارت إندونيسيا، باكستان، السودان، يوغسلافيا، غانا، المغرب، وذلك قبل عودتها إلى هافانا في ٨ سبتمبر. وفي العام التالي لزيارة جيفارا، أبرمت اليابان وكوبا اتفاقية تجارية. وكانت الاتفاقية ثمرة لجهود إيجابية لجيفارا الذي حاول الاتصال بزعماء الحكومة اليابانية أثناء إقامته في اليابان، وما زالت الاتفاقية سارية حتى الآن.

ولاحقا»، قاد جيفارا سيارة جيب من صنع شركة «تويوتا» اليابانية عندما دخل قاعدة فدائيين، وربما كان ذلك بسبب انطباعه الجيد عن كفاءة السيارات اليابانية منذ زيارته لمصنع «تويوتا» خلال زيارته لليابان في ١٩٥٩. ومع ذلك، فيبدو أن أكبر أثر تركته زيارة جيفارا لليابان لديه كان ذكريات زيارته لمدينة «هيروشيما». فبعد عودته إلى كوبا، عرض العديد من الصور الملتقطة في هيروشيما، بينما كان يتحدث بكثير من التأثر لصديقه فيدل كاسترو عن حجم الضرر الذي خلفته القنبلة الذرية التي ألقيت على إحدى المدن اليابانية. وعُرضت إحدى الصور على الغلاف الأمامي لطبعة صيف ٢٠٠٦ لمجلة «هيروشيما» الفصلية. وكانت صورة بالأبيض والأسود ركزت على النصب التذكاري لضحايا القنبلة الذرية. وكانت الصورة هدية مقدمة من أسرة جيفارا ومن «مركز أبحاث تشي جيفارا»، الذي يمتلك حق نشر المقالات التي كتبها جيفارا والصور التي التقطها. ▩

"CHE"
المصوِّر والأيقونة

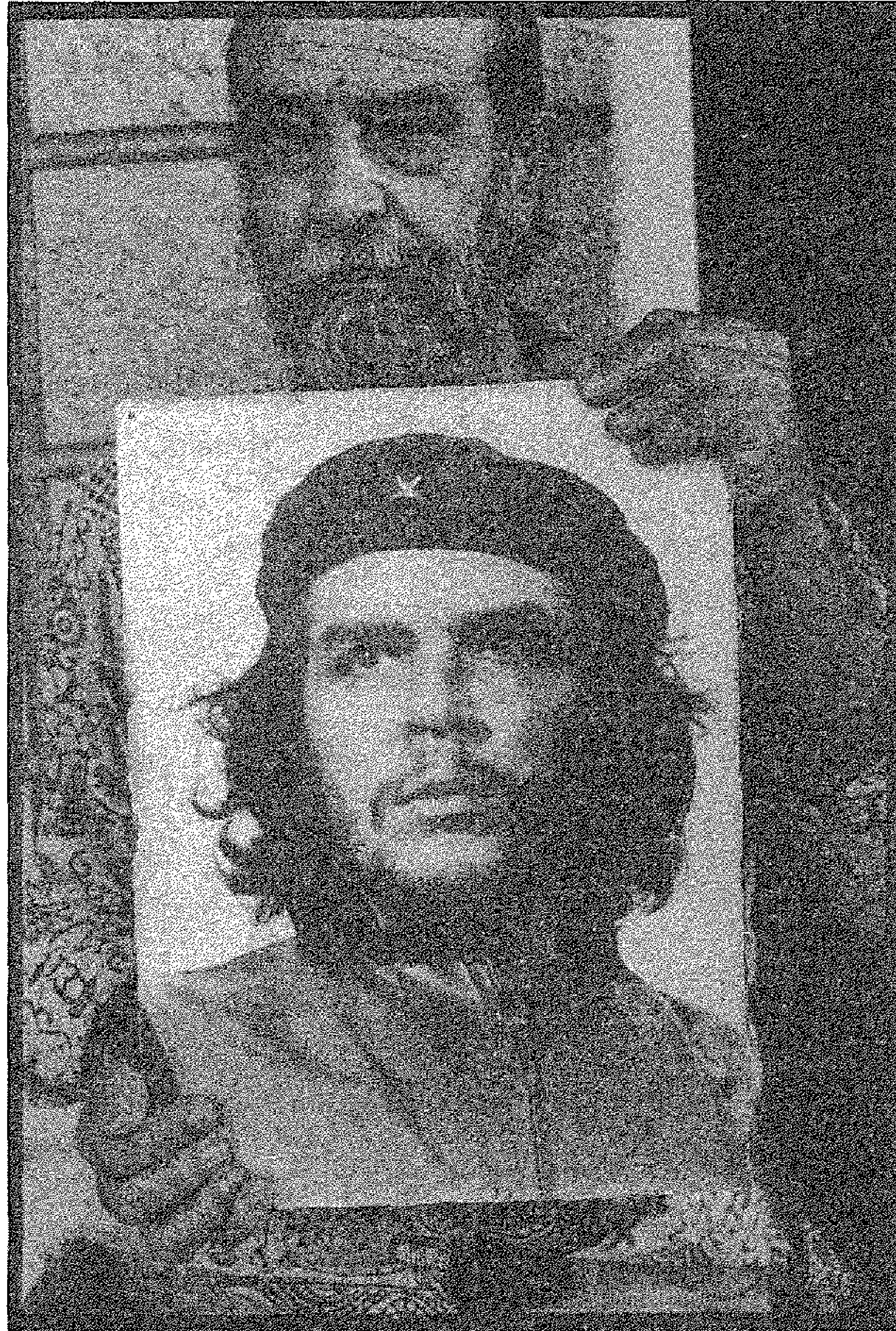


مـايـكـل هـاردر

■■ انفجرت في ميناء هافانا سفينة «لا كوبرا» الفرنسية الحاملة لمجموعة من الأسلحة البلجيكية لتودى بحياة مائة وستة وثلاثين كوبياً في الخامس من مارس ١٩٦٠. كان ألبرتو «كوردا» جوتيريز أحد مصوري فريق عمل الجريدة الكوبية «الثورة»، وهكذا تولى مهمة تغطية مراسم التأبين التالية المقامة في هافانا. كانت سيمون دو بوفوار وجان - بول سارتر من بين أبرز الضيوف. ألقى فيديل كاسترو واحداً من خطبه اللانهائية، وراح كوردا يصور الحضور عندما ظهر تشي جيفارا بغتة على المنصة. سدد كوردا إلى تشي آلة التصوير ماركة لايكا لينجح في التقاط لقطتين قبل أن ينزل تشي من المنصة ويختفي عن الأنظار.

وعند عودة كوردا إلى حجرته المظلمة، كبَّر - من بين صور أخرى - صور تشي. انتقى رئيس تحرير جريدة «الثورة» صورة لكاسترو كي ينشرها في الجريدة ثم أعاد البقية. راقت كوردا صورة تشي فعلقها على حائط الأستوديو المملوك له في هافانا.

لم تزل الصورة معلقة على الحائط حتى عام ١٩٦٧ - وإن تلطخت بدخان التبغ - عندما طرق رجل على باب أستوديو كوردا. لم يُقدِّم الشخص نفسه لكنه سلَّم كوردا خطاباً للتعريف به من أحد أعضاء الإدارة الكوبية بارزي الشأن. طلب الخطاب من كوردا مساعدة هذا الشخص في بحثه عن صورة جيدة لتشي. وعليه أشار كوردا إلى الحائط قائلاً: «هذه أفضل ما عندي». وافق الزائر على أخذها وطلب نسختين. طلب منه كوردا العودة في اليوم التالي، وهو ما حدث. وحين سأله عن ثمن النسختين،



© 1990 Alberto Korda



رغم أن صورة كوردا بيعت بطرق لا عدد لها ولا حصر، لم يحصل كوردا على سنت واحد مقابل إبداعه



أجاب كوردا بأنه «غير مضطر إلى الدفع بما أن الزائر صديق للثورة».

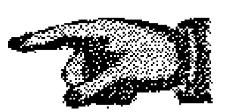
أما ما لم يعلمه كوردا فهو أن الزائر كان الناشر الإيطالي الشهير جيانجياكومو فيلترينيلي. اشتهر جيانجياكومو فيلترينيلي في أوروبا بتهريبه مخطوطة «دكتور زيفاجو» خارج الاتحاد السوفيتي. أتى فيلترينيلي إلى كوبا مباشرة من بوليفيا حيث كان يتفاوض على إطلاق سراح ريجيس ديبري. وبعد أن عرف فيلترينيلي من ديبري أن تشي جيفارا هو قائد الميليشيات في بوليفيا وأن نهايته قد تصير قريبة، أبصر فيلترينيلي فرصة للربح والتجارة بعد الاغتيال المحتمل لتشي، ربح هائل لم يحققه أندي ورهول من قبله.



لم تكن جثة تشي جيفارا قد بردت بعد في بوليفيا قبل أن يتمكن الناس من شراء ملصقات كبيرة تحمل صورة تشي لكوردا في كل بقعة من العالم. أعلنت الملصقات في أحد ركنيها السفليين أن حقوق النشر محفوظة لفيلترينيلي. أبلغني كوردا أن فيلترينيلي باع ٢٠٠٠٠٠٠ ملصق خلال نصف سنة. وبعدها تم تحويل الصورة وتغييرها وتبديلها في كل دول العالم.

لم ينل كوردا سنتاً على الإطلاق وذلك لسبب واحد وحيد - رفضت كوبا توقيع اتفاقية بيرن. فقد وصف فيديل كاسترو حماية الملكية الفكرية «بالخراء» الإمبريالي مما أثر على حقوق كوردا الفنية في نشر الصورة وتوزيعها. غير أن كوبا أقرت في النهاية الاتفاقية عام ١٩٧٧.

صورة جيفارا بعد أن تحوّلت إلى أشهر ملصق
وأكثر الأيقونات السياسية انتشارا





مع وفاة جيفارا انتشرت الصورة فى العالم كله لتظهر على حيطان المبانى والأعلام والأزرار والقمصان القطنية والملصقات وأغلفة الألبومات الغنائية.. وحتى زجاجات الفودكا وعلب السيجار

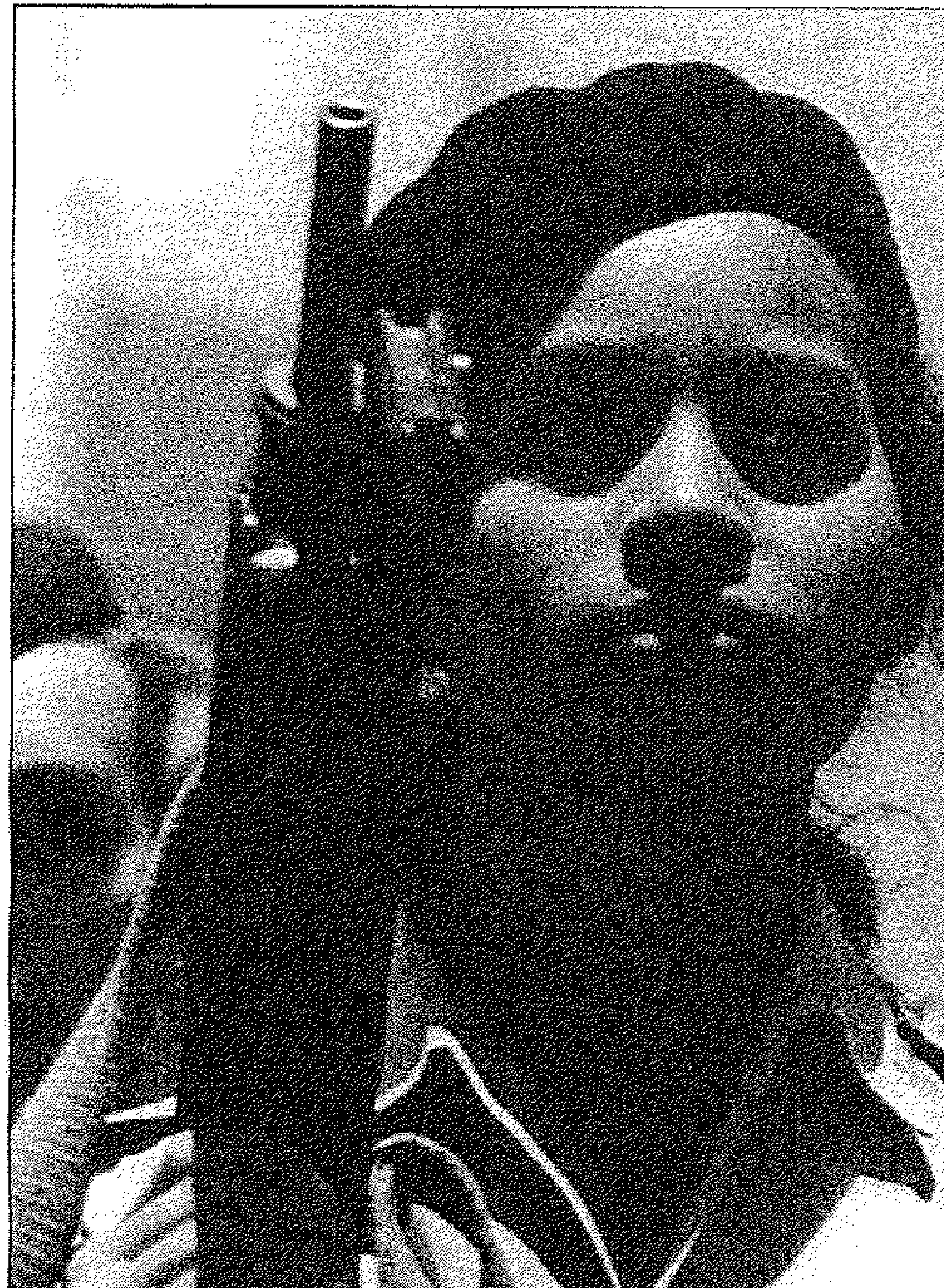
ألبرتو كوردا المصور الكوبى صاحب الصورة الأشهر اعتبرها «معهد ماريلاند الفنى» أشهر صورة فى العالم ورمز القرن العشرين. توفى فى السادس والعشرين من مايو ٢٠٠١.

الصورة الشهيرة التى التقطت فى مارس من عام ١٩٦٠. ظلت الصورة بمنأى عن النشر نحو سبع سنوات. الا أنه مع وفاة جيفارا عام ١٩٦٧. انتشرت

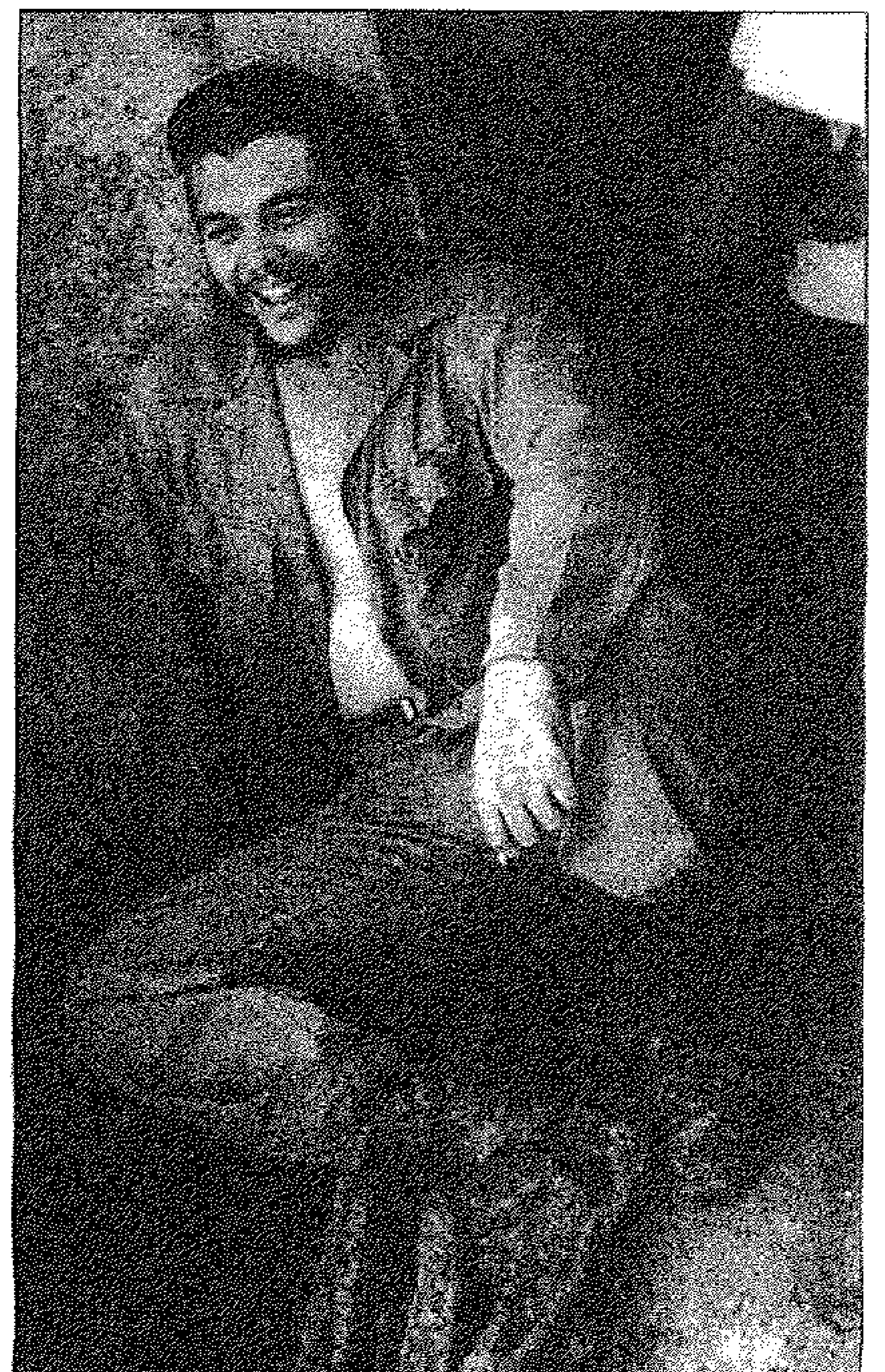




© Alberto Korda - 1962



© Alberto Korda



الصورة كالنار فى الهشيم على هيئة ملصق فى إيطاليا... ومنها إلى كل أنحاء أوروبا وما وراءها. شتى دول العالم لتظهر على حيطان المبانى والأعلام والأزرار والقمصان القطنية والملصقات وأغلفة الألبومات الغنائية. بل إن الفنان آندى وورهول انتفع من صورة كوردا حين طبعها باستخدام شاشة حريرية لتخرج كواحدة من صوره الشعبية.

وعلى الرغم من أن صورة كوردا بيعت بطرق لا عدد لها ولا حصر، لم يحصل كوردا على سنت واحد مقابل إبداعه.



لكن عندما استخدمت شركة سميرنوف للفودكا صورة جيفارا فى أحد إعلاناتها عام ٢٠٠٠ لترويج لأحد منتجاتها، رفع المصور عليها دعوى قضائية.

ولم يكن كوردا معارضا أبدا للاستخدام غير القانونى لصورته، «باعتبارى مؤيداً لمبادئ مات تشى جيفارا من أجلها، لست معارضاً لإعادة إنتاج الصورة من قبل الراغبين فى إذاعة ذكراه وقضية العدالة الاجتماعية فى العالم أجمع غير أنى أقف موقف الرفض التام من استغلال صورة تشى فى الدعاية لمنتجات مثل الكحول أو فى أى غرض سيشوه سمعة تشى». ربح كوردا تسوية خارج المحكمة ضد شركة الفودكا لينال حوالى ٥٠٠٠٠ دولار.

تبرع الفنان بالأموال للنظام الطبى بكوبا قائلاً: «لو كان تشى لا يزال حيا، لفعل نفس الشىء». ■

عينى عليه ساعة القضا من غير رفاقة تودعه

مرثية عربية

مازن النجار

■■ جيفارا مات.. جيفارا مات.. جيفارا مات

آخر خبر فى الراديوهات
وفى الكنايس والجوامع
وفى الحوارى والشوارع
وع القهاوى وع البارات
جيفارا مات.. واتمد حبل الدردشة والتعليقات
جيفارا مات.. جيفارا مات

كانت تلك السطور مطلعاً لرائعة الشاعر أحمد فؤاد نجم، والتى لحنها وغناها الفنان الراحل الشيخ إمام عيسى، فى رثاء المناضل الأرجنتينى الكبير إرنستو تشيه غيفارا، عقب أسره فى غابات بوليفيا من قبل الجيش البوليفى ثم إعدامه قبل ٤١ عاماً فى العاشر من أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٧. لقد شكلت تلك اللحظة صدمة للحركة الثورية العالمية، وحركة التحرر الوطنى بشكل عام. بيد أن مصرع المناضل الأرجنتينى قد أذكى روح الثورة، وأضفى عليها بعداً عالمياً وأفقاً إنسانياً رحباً، يتجاوز بل ويعلو المنطلقات الأيديولوجية النظرية التى أثبتت محدودياتها وقصورها عن استنهاض الجماهير.

أصبح غيفارا رمزاً لحراك وتطلعات المستضعفين فى العالم، ولسعيهم نحو الانعتاق والتحرر من ربقة طاغوت الامبريالية والأوليغاركية والفاشية، خاصة بالنسبة لشعوب أميركا اللاتينية، التى عانت من أسوأ صور القهر والاستغلال والقمع الفاشى، وفرق الموت فى هندوراس والسلفادور وحروب الكونترا ضد حكومة الجبهة الساندينية فى نيكاراغوا بأميركا الوسطى، وما يعرف بالحروب القذرة ضد الحركة الطلابية والقوى الطليعية والنقابية، والتى شنتها الطغمتان العسكريتان فى تشيلى والأرجنتين، بعد الانقلاب على الديمقراطية وصناديق الاقتراع التى أعادت البيرونية إلى الأرجنتين، وجاءت بسلفادور الليندى إلى سدة الرئاسة فى تشيلى. ذهب ضحية هذه الحروب اغتيالاً وخطفاً وتعذيباً حتى الموت مئات آلاف من المثقفين والمناضلين والقادة النقابيين، كما ظهر من المقابر الجماعية ولجان التحقيق فى جرائم تلك السنوات، إضافة إلى اغتيال الرئيس الليندى فى القصر الرئاسى بسانتياغو.

كانت حركة الثورة العالمية التى أصبح غيفارا رمزاً لها محصلة صعود قوى اليسار الأوروبى التى تصدت للنضال ضد الفاشية والنازية بأوروبا إبان الحرب العظمى الثانية، ثم صعود حركات التحرر الوطنى الأفروآسيوية التى تصدت للاستعمار القديم فى أعقاب تلك الحرب، التى أنهكت الامبراطوريات الاستعمارية القديمة وأسقطت هيبتها، وأتاحت لشعوب المستعمرات فرصة تاريخية للتحرر والخلاص. كما ساهمت طفرة الاتصالات العالمية فى اندلاع ما يعرف بثورة التطلعات الكبيرة، أى تطلعات الشعوب إلى الاستقلال والنهضة والتنمية والعدل الاجتماعى والتحديث.

هذه المرحلة ذات الخصوصية المتميزة يسميها أستاذ العلوم السياسية المكسيكى البروفسور غارسيا، مؤلف السيرة الشخصية لأرنستو تشيه غيفارا، مرحلة «الآن.. وهنا»، وهى باللغة الأسبانية: هنا والآن أو «aqui y ahora». لذلك يعتبر غارسيا صعود ظاهرة غيفارا هى ذروة الظهور والتجلى لهذه المرحلة أو بالأحرى لهذه اللحظة الفارقة فى تاريخ العالم المعاصر. فى هذا الإطار، تكتسب ظاهرة غيفارا سياقها ودلالتها وأهميتها فى حقبة الخمسينيات والستينيات، والتى كان أحد رموزها بامتياز. تزامن ذلك مع صعود حركة التحرر الوطنى فى العالم العربى، والتى قدمت تجربة ملهمة لحركات التحرر فى العالم الثالث، (لدى التصدى للعدوان الثلاثى فى ١٩٥٦)، ومنها الثورة الكوبية التى قادها فيديل كاسترو وكان غيفارا أحد قادتها وأبطالها.

لكن هذه السياقات لا تفسر وحدها الروعة واللوعة والفاجعة والعفوية المكثفة فى ثنايا وكلمات مرثية أحمد فؤاد نجم. فهذه القصيدة تنطوى على كثير من تقاليد الرثاء والندب فى الشرق العربى، وهى تقاليد تاريخية موغلة فى القدم، وقد عبرت إلينا المسافات الزمنية التى تفصلنا عن مرثيات مصر القديمة (إيزيس وأوزوريس)، وبلاد ما بين النهرين (ملحمة غلغامش)، وفينيقيا (بعل وعشتار وأدونيس)، وكنعان وآمور، ومرثيات العرب قبل الإسلام (الخنساء ورثاء صخر)، وعصور الإسلام (الحسين وكربلاء)، وتخللت عبر الخبرة التاريخية الممتدة لهذه الأمة، وكأنما أجيالها تولد بهذه التقاليد الثقافية المتواصلة عبر مراحل الشرق ولغاته وأديانه وصيرورته الخالدة. وكأنما رثاء الخنساء لأخيها صخر، يولد من جديد:

وإن صخراً لتأتم الهداة به
كأنه علم فى رأسه نار
حمال ألوية شهاد أندية
هباط أودية للجيش جرار

ينطلق الألم فى مرثية نجم لغيفارا متدفقاً بعفوية حقيقية، ووقار يليق بالفقيد وبالمقام، ولا وقت للإتقان والتجويد. ويأتى وزن القصيدة على تفعيلة «مستفعل» من بحر الرجز، وهو أكثر بحور الشعر بساطة فى الإيقاع وصدقاً فى التعبير ومباشرة فى الشعور وملاءمة للسرد منذ أزمنة العهد القديم وسردياته الكنعانية التى رويت بمعظمها شعراً على إيقاع بحر الرجز، وإلا لما تسنى لها أن تحفظ وتنتقل عبر القرون، وكذلك الأمر فى كثير من مرويات العرب فى مختلف العصور. إنه النعى والألم والحسرة لفقد رجل ليس كالرجال، لمثال يعز نظيره فى الزمان وفى المكان. تتصاعد المشاعر ويحتدم الموقف:

مات المناضل المثال.. يا ميت خسارة ع الرجال



«القاهرة» ١٩٦٩

مات البطل فوق مدفعه جو الغابات
جسد نضاله بمصرعه ومن سكات
لا طبالين يفرقعوا ولا إعلامات
جيفارا مات.. جيفارا مات

أبيات القصيدة ومقاطعها كما لحنها وأداها الشيخ إمام عيسى، (وهو أيضاً ابن تقاليد الشرق العربي القديمة)، تخيم عليها لحظة المصير وهيبة الشهادة ورهبة الموت ويقين النهاية وصمت القبور، برغم الكلمات والنغمات والإيقاعات وترداد النادبين. إيقاعات الندب توحي بأن النادبين يدقون صدورهم حزناً وغماً، كما كانوا يفعلون تقليدياً في المآتم منذ أزمان طويلة. كأننا في مأتم عاشورائي إحياء لذكرى فاجعة كربلاء التي لا تزال أرقاً في الضمير وجرحاً في القلوب. لم يكن لكربلاء أن تقع في العراق دون استدعاء تقاليد الندب والمآتم العراقية القديمة التي شكلت بدورها كثيراً من مظاهر وتقاليد المأتم الكربلائي، بسردياته وإيقاعاته ولهجاته وهمهماته وفقراته التمثيلية التي تصور المأساة متجاوزة تجريد التراجيديا إلى تجسيدها والانفعال بأحداثها وتفاصيلها. عند هذه النقطة على قمة منحنى المأساة يبلغ الندب ذروته عند أحمد فؤاد نجم:

عيني عليه ساعة القضا من غير رفاقة تودعه
عيني عليه.. عيني عليه
يطلع أنينه للفضا يزعق ولا من يسمعه
عيني عليه.. عيني عليه
يمكن صرخ من الألم من لسعة النار في الحشا
عيني عليه..
يمكن ضحك أو ابتسم أو ارتعش أو انتشى
عيني عليه..
يمكن لفظ آخر نفس كلمة وداع لأجل الجياع
يمكن وصية للي حاملين القضية بالصراع
صور كتير ملو الخيال وألف مليون احتمال
لكن أكيد أكيد ولا جدال..
جيفارا مات موتة رجال..

في هذه اللحظة تنتهي إشكالية الموت لتبدأ صيرورة الخلود، خلود المثال والرجولة الحقيقية. لم يعد غيفارا ذلك المناضل المغدور؛ فقد انتهت تجربته على المستوى (الشخصي) النسبي؛ لكن بدأت على التو صيرورة المطلق، فقد تكرس بطلاً ونهجاً ومساراً ومثالاً. إشكالية التعاطي مع الصراع والموت والغياب نجدها أيضاً في قصيدة عمرو بن معديكرب الشهيرة:

كم من أخ لي صالح بوأته بيدي لحدا
ما إن هلعت ولا جزعت ولا يرد بكاي زندا
ألبسته أثوابه وخلقت يوم خلقت جلدا
ذهب الذين احبهم وبقيت مثل السيف فردا

في صيف ١٩٩٧ تمكنت الحكومة الكوبية من استعادة رفات غيفارا من قبره في بوليفيا، وقد تم التأكد أنها له من معطفه الذي دفن فيه ومن عظام ذراعيه اللتين قطعهما آسروه عند إعدامه. أعدت الحكومة الكوبية لرفاته مدفناً ونصباً تذكارياً في مدينة سانتا كلارا التي خاض فيها غيفارا إحدى أهم معاركه، وحقق فيها انتصاراً كان له أثر هام في حسم المعركة وانتصار الثورة الكوبية على نظام باتيستا. استقبلت رفاته ودفنت في حشد جماهيري كبير، ألقى فيه الرئيس كاسترو خطاباً حافلاً بمعاني الصيرورة. من ضمن ما قاله كاسترو: «لماذا يظنون أن الإنسان ينتهي دوره عندما يغيبه الموت.. إنه (غيفارا) حاضر دائماً حيث يكون ظلم أو قهر للإنسان، حاضر في تطلع كل فلاح كادح إلى مستقبل أفضل. إنه الآن يشن حروباً أكثر من أي وقت مضى...».

في الذكرى الأربعين لاغتيال أرنستو تشيه غيفارا، كتب الشاعر عبد الرحمن يوسف مرثية مؤثرة بعنوان «على بعد خلد ونصف، إحياء للذكرى، وللقيمة الكبرى التي يمثلها المناضل الراحل في تاريخ الإنسانية المعاصر، وهنا تبلغ صيرورة غيفارا ذروتها. فهذا الشاعر الذي يرثيه بعد أربعين عاماً من يوم اغتياله، قد ولد بعد سنوات من ذلك اليوم. يقول الشاعر:

على بُعْدِ صُبحٍ ونِصفٍ مِنَ الليلِ كانَ يَقودُ الحَيارى...
يَسيرُ بِخطٍّ شَديدِ الوُضوحِ كَقوسِ الكَمانِ...!
فَيسْري (كَصوتِ الكَمانِ) تَخطي الجِدارِ...
يُصوِّرُ للثائرينَ - كَما يَفعَلُ الأنبياءُ - الجِنانَ...
فَيظهَرُ كالبَدرِ للثائرينَ بِحينٍ
وحيناً يَغيبُ كَبَدرٍ وراءَ الغيومِ تَوارى...
وَ تَبسِمُ في الوَجهِ غَمازَتانِ...
فَيَنطَلِقُ الخَوفُ نَحوَ الأمانِ...
على بُعدِ قَبرٍ ونصفٍ مِنَ الموتِ كانَ يَعيشُ «جيفارا»...! ■

كتاب الزاوية



مالكوم إكس
النصوص المحرمة

لا شك في أن بعض «العقلاء الجدد» سوف يقولون بعد قراءة هذه النصوص المختارة إن مالكوم إكس عنصري، وربما أيضاً ديماغوجي! ولكنه بكل تأكيد ليس كذلك! لأن الواجب تفسير مواقف مالكوم إكس من الرجل الأبيض - التي سترد لاحقًا - في سياق زمانها ومكانها وظروفها، حيث كان السود في أمريكا يعانون من تفرقة عنصرية وحشية بغيضة تتناقض وأبسط حقوق الإنسان.. بل تتناقض والدستور الأمريكي نفسه! ومع ذلك.. لم يتورط مالكوم إكس في أعمال عنف ضد البيض!

إن القارئ الذي يعتقد أنه يعرف هذه الشخصية الأسطورية الفذّة من مجرد مشاهدته فيلم «مالكوم إكس» (الذي أخرجه سبايك لي، وقام ببطولته الممثل القدير دينزل واشنطن وعرض في عام ١٩٩٢) سوف يكتشف - بعد قراءة هذه النصوص - أن مالكوم إكس الحقيقي يختلف عن تلك النسخة «الهوليودية» اختلافاً كثيراً.. بل شاسعًا جدًّا! وهذه النصوص المهمة تقدم صورة واضحة وحقيقية لهذه الشخصية الفذة، التي دافعت بصلابة ورجولة عن حقوق الشعب الأمريكي الأسود ضد الاضطهاد العنصري البشع في الولايات المتحدة الأمريكية، ودفعت حياتها ثمنًا لذلك.

حمد العيسى
المترجم

مصـــــر فى عالم متغير


© Kerry Waghorn

محمــــــــد البــــــرادعــى

■ السيداتُ والسادةُ.

لقد شهد العالمُ تغيرات وتحولات جذرية وسريعةً ومستمرةً فى العقدين الماضيين وبعد انتهاء الحرب الباردة. واسمحوا لى أن استعرض معكم أهمَ ملامح وسمات تلك التغيرات فى عالمنا المعاصر لما لها من انعكاسات واضحة على حاضرنا ومستقبلنا.

أولاً: ترسُخُ قيم إنسانية مشتركة تجمعنا كافةً، بغض النظر عن اختلافاتنا العرقية أو الدينية أو غيرها، وهى قيمٌ تَنْصَبُ على الإنسان أولاً وقبل كلِ شىء،وهى تشمل: حرية التعبير-حريةَ العقيدة - الحرية من الخوف-الحرية من الحاجة. ولو دققنا النظرَ قليلاً لوجدنا أن هذه الحريات الأربعَ، وما يتفرعُ منها من قيم مثل التسامح، واحترام الآخر والتضامن الإنسانى وسيادة القانون والديمقراطية، إنما هى فى واقع الأمر انعكاسٌ واضحٌ لجوهر جميع الأديان والعقائد، التى تكرم وتصون الحياة الإنسانية وقدسيتَها.

ثانياً: تَغيُر مفهوم دور الدولة ومقياس تقدمها، فقد أصبح مقياسُ تقدم الدولة ليس فقط ما تملكه من قوة عسكرية وإنما فى المقام الأول مدى إسهامها فى الحضارة الإنسانية على المستوى العلميِ والفكريِ والاقتصاديِ والاجتماعيِ والسياسيِ، أو ما يطلق عليه القوةُ الرخوةُ Soft Power و قد واكب ذلك بالضرورة تغيرٌ فى مفهوم الأمن القوميِ فلم يَعُد الأمنُ القوميُ مقصوراً فقط على حماية حدود الدولة، بل أصبح أمنُ الفرد ومسئوليةُ توفير الحياة الحرة الكريمة له جزءاً أساسياً من مفهوم الأمن القوميِ للدولة.

ثالثاً: تغيرُ طبيعة معظم المشكلات التى تواجهنا والتى لم تعد محصورةً فى النطاق الوطنيِ أو الإقليميِ، بل أصبحت عابرةً للحدود وذات تأثيرات مترابطة،ولا تحضرنى مشكلةٌ كبرى سواء كانت خاصةً بنزاع إقليميٍ أو بالأمن الغذائىِ أو بالتغير المناخىِ أو بمواجهة الأمراض الخطيرة المعدية أو بالحد من انتشار أسلحة الدمار الشامل، أقول لا تحضرنى أى من هذه المشاكل يمكن أن تواجهها أيةُ دولة، مهما بلغت من القوة، بدون تعاون مع باقى أعضاء الأسرة الدولية.



رابعا: ظهورُ المزيد من التكتلات والتجمعات الدولية والإقليمية المترابطة والقوية، وذلك بهدف دعم مصالح الدول التى تنتمى إليها وتقوية نفوذها، فهاهو الاتحادُ الأوروبيُ، الذى يبلغ عددُ أعضائه ٢٧ دولة كتلةٌ اقتصاديةٌ وسياسيةٌ عملاقةٌ. وها هو حلفُ الأطلنطيِ الذى يبلغ عددُ أعضائه ٢٦ عضواً كتلةٌ عسكريةٌ وسياسيةٌ. وهاهو تجمعُ دول الآسيان الذى يبلغ عددُ أعضائه عشرَ دول، ناهيك عن التجمعات الأخرى الجديدة الاقتصادية والسياسية الآخذة فى التبلور مؤخراً فى مختلف أرجاء العالم بدرجات متفاوتة من حيثُ التماسكُ والفعاليةُ. ففى النظام العالمىِ الجديد بما فيه من تشابك للمصالح والمشاكل فى نفس الوقت أصبحت الدولُ تدرك أكثرَ من أى وقت مضى أنه لابد لها من أن تنخرطَ فى إطار جماعىٍ سواءٌ كان جغرافياً أو سياسياً أو اقتصادياً إذا ما أرادت أن تحمى مصالحها وتدعمها.

خامساً: بزوغُ ثورة الاتصالات والتكنولوجيا التى يشهدُها العالمُ مؤخراً والتى ساهمت بشكل بارز فى إزالة الحواجز بين الدول والشعوب وفى سهولة تنقل الأفراد والبضائع والأفكار. لقد أصبح كلُ إنسان يدركُ ويعى ما يدورُ فى العالم من إيجابيات وسلبيات، وما تَولّد عن ذلك من شعورٍ متزايد بأننا أسرةٌ إنسانيةٌ واحدةٌ، آمالُنا مشتركةٌ ومخاوفُنا واحدةٌ.

من محاضرة بجامعة القاهرة بمناسبة حصوله على الدكتوراه الفخرية فى القانون الدولى - القاهرة ٩ يوليو ٢٠٠٨

استمرار الاعتماد على السلاح النووى كجزء أساسى من منظومة أمن الدول النووية .. فى الوقت الذى تطالب فيه سائر الدول بعدم السعى لامتلاك هذه الأسلحة .. مثال لازدواجية المعايير



السيدات والسادة،

فى الوقت الذى نشهد فيه الكثير من الدلائل على التقدم العلمى والتكنولوجى الذى أحرزناه، والذى هو انعكاس لعظمة العقل الذى حبانا الله به، فإننا لا نستطيع وبكل أسف إلا أن نرى فى نفس الوقت أن هذا التقدم ما زالت تصاحبه أوجه خلل جذرية فى حياتنا الإنسانية.

واسمحوا لى مرة أخرى أن استعرض معكم أهم ملامح هذا الخلل:

أولاً: الفجوة المتزايدة بين الأغنياء والفقراء فى هذا العالم وسوء توزيع الثروة، ففى حين يمتلك ١٪ من سكان العالم ٤٠٪ من أصوله المادية، يقتصر ما يمتلكه ٥٠٪ من سكان العالم على ١٪ فقط من هذه الأصول، ومازال هناك ٤٠ بالمائة من سكان العالم يعيشون تحت خط الفقر، ليس لأننا لا نملك الموارد وإنما لأن أولوياتنا خاطئة. ففى الوقت الذى ينفق فيه العالم ما يتجاوز الألف مليار دولار على السلاح، نجد أنه يتم إنفاق أقل من ١٠٪ فقط من هذه الأموال كمساعدات للدول النامية.

وقد نخطئ إن تصورنا أن هؤلاء المحرومين من سبل الحياة الكريمة لا يدركون الإجحاف والاستغلال اللذين يتعرضون لهما، فهم إذا كانوا فقراء فإنهم ليسوا بأغبياء. وإذا أخذنا فى الاعتبار أن الفقر يرتبط فى الكثير من الأحيان بغياب الحكم الرشيد، فلا يجب أن نندهش إن أحس الإنسان المقهور مادياً ومعنوياً بالظلم والمهانة وبدأ يلجأ إلى العنف للتنفيس عن سخطه وفقدانه للأمل. ودائماً ما أردد أنه ما من شخص يولد إرهابياً، وإنما يولد الإرهاب والعنف من رحم الإحباط والذل والظلم، وأن الفقر هو أقوى أسلحة الدمار الشامل.

ثانياً: ازدواجية المعايير فى التعامل الإنسانى على مختلف مستوياته، الذى يمتد ليشمل قدسية الحياة البشرية ذاتها، فنرى مثلاً كيف يأسى المجتمع الدولى بشكل ملموس لإزهاق أرواح الأبرياء فى العالم المتقدم أو حتى عند أخذ بعضهم كرهائن والتغطية الإعلامية المكثفة له، بينما يتعامل هو - بل ونحن أيضاً للأسف بشكل مختلف تماماً مع إزهاق أرواح الأبرياء فى العالم النامى سواء أكانت فى دارفور أو العراق أو الكونغو، تلك الدول التى أزهقت فيها مؤخراً الملايين من أرواح المدنيين. هؤلاء الضحايا هم مجرد أرقام تذكر بالكاد فى وسائل الإعلام.

ثالثاً: استمرار الاعتماد على السلاح النووى كجزء أساسى من منظومة أمن الدول النووية، فى الوقت الذى تطالب فيه سائر الدول بعدم السعى لامتلاك هذه الأسلحة، أى استمرار نظام قائم على من يملكون ومن لا يملكون، وهو الأمر الذى يؤلمنى أن منطقتنا ما زالت تعانى منه. وفى مجال السلاح التقليدى هناك تزايد فى ظاهرة الاستخدام الأحادى للقوة المسلحة بالمخالفة لميثاق الأمم المتحدة، وهو الأمر الذى رأيناه فى حالات عدة فى السنوات بل الأشهر القليلة الماضية.

رابعاً، تزايد الفجوة والانفصال بين العالم الإسلامى والعالم الغربى وعدم وجود محاولات جدية للتقارب والحوار، وما نراه فى معظم الوقت للأسف هو تعميم وقولبة لمجتمع بأكمله بسبب أفعال قلة من أفراده، ومحاولة عزل مشاكل العالم الإسلامى والعربى وحصارها من ناحية أو محاولة حلها بالقوة من ناحية أخرى بدلاً من العمل على التواصل والحوار والتركيز على حل جذور المشاكل.

ولعل الوضع مؤخراً فى غزة من إنزال عقاب جماعى بالمدنيين الأبرياء وحرمانهم من سبل المعيشة والرزق بدلاً من تضافر جهود المجتمع الدولى والأطراف المعنية مباشرة بمعالجة أصل المشكلة عن طريق الحوار هو أبلغ مثال على الأسلوب الخاطئ وقصر النظر فى معالجة أزمات المنطقة، إذ يقوى هذا الأسلوب من التيارات المتطرفة، التى ينظر إليها العالم الخارجى مرة أخرى على أنها القاعدة فى مجتمعنا وليس الاستثناء.



السيدات والسادة،

هذه مشاكل نعانى منها كمجتمع إنسانى. وبالرغم من أنها معقدة فإننا يجب أن نعى فى نفس الوقت أنها غير مستعصية الحل.

فإذا قرر العالم زيادة الجهود والموارد لدعم التنمية فى الدول النامية لتضييق الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وإذا تعاملنا مع بعضنا البعض كجزء من أسرة إنسانية واحدة، مصيرها مشترك وأفرادها متساوون من حيث حقهم فى الحياة الكريمة الآمنة.

وإذا اعتمدنا مبدأ الحوار وليس استخدام القوة كأسلوب أساسى لحل خلافاتنا وركزنا على معالجة جذور المنازعات لا على أعراضها، وإذا أقمنا نظاماً للأمن الجماعى لا يعتمد على السلاح النووى، بل على مبادئ تكفل الأمن المتساوى والمتكافئ لكافة الدول، بحيث لا يكون أمن أى طرف على حساب أمن الطرف الآخر، وإذا أخذنا بجدية مسئولية المجتمع الدولى فى حماية المدنيين الأبرياء الذين هم أول ضحايا الحروب الأهلية والمنازعات المسلحة، أقول إنه إذا قمنا بكل هذا فسنخلق عالماً يعيش فى أمان مع نفسه، عالماً يركز على الخلق والإبداع وليس على التدمير والخراب.

السيدات والسادة،

يجب أن نكون مدركين أننا جزء من المجتمع الدولى، نتأثر بتياراته وتطوراته. وهى تطورات تفرض علينا تساؤلات وتحديات ملحة. فيجب أن نسأل أنفسنا كيف نتعامل مع التغيرات والتحديات الراهنة. وكيف نستطيع أن نتعامل معها ليس فقط للحد من تأثير سلبياتها علينا، بل كيف نؤثر على هذه التطورات بما يضمن مصالحنا الوطنية والقومية ويحقق آمالنا وطموحاتنا.

لقد بدأت مصر مرحلة النهضة الحديثة منذ أوائل القرن التاسع عشر، وكانت هناك بشائر عديدة لما يمكن أن ينتج عن تلك المرحلة من تطور وتقدم فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، برغم أن تلك النهضة قد جرت فى ظروف احتلال أجنبى جاثم على صدر مصر، وظروف دولية غير مواتية.

ولا يسمح لى المجال هنا أن أتناول بالتحليل حركة النهضة فى مصر فى القرنين الماضيين بإنجازاتها وانتكاساتها.

إنما فى رأيى أن الأهم فى هذه المرحلة ألا نتباكى على أخطائنا أو نغالى من إنجازاتنا، بل يجب أن نركز على أن نبدأ مرحلة جديدة تنطلق من الاعتراف بأن ركب التطور قد سبقنا، وأنه لابد من أن نتخذ خطوات جادة ومدروسة وعاجلة لنلحق بهذا الركب.

و أود أن أطرح هنا بعض الأفكار التى هى، فى تقديرى، أساسية لتحقيق التقدم والتطور الذى ننشده جميعاً:





إنزال عقاب جماعى بالمدنيين الأبرياء فى غزة وحرمانهم من سبل المعيشة والرزق هو أبلغ مثال على الأسلوب الخاطئ فى معالجة أزمات المنطقة



يجب علينا فى البداية أن ننفض عن أنفسنا غبار الماضى وانتكاساته وأن نبدأ مرحلة تتسم بثلاث سمات أساسية: أولا: القدرة على النقد الذاتى، والتحلى بالشجاعة لتحديد عيوبنا وأوجه قصورنا، فتشخيص المرض هو أول خطوة على طريق الشفاء. ثانيا: تغليب الفكر العقلانى دون العواطف فى تشخيص مشاكلنا والتعامل معها، ومعنى هذا تفكير منهجى منفتح وحر من قبل أهل العلم والخبرة.

ثالثاً: رؤية شمولية تتناول مشاكل المجتمع المعقدة والمتشعبة وكذلك مدى ارتباطها بالعالم الذى نعيش فيه، الأمر الذى يلزمنا بأهمية الانفتاح الثقافى والحضارى لنتمكن من فهم حضارات وثقافات وقيم الشعوب الأخرى، والاستفادة من خبراتها وتجاربها والاعتراف -من منطلق الثقة بالنفس- بأن هناك الكثير الذى يمكن أن نتعلمه من الآخرين لنضيف إلى تراثنا ونطوره، دون الاقتصار على التشكك الدائم فى نوايا الآخرين.



فى تقديرى أن المفتاح، لمرحلة النهضة الجديدة التى يجب أن نبدأها اليوم قبل الغد، هو العلم والمعرفة. فتقدم أى مجتمع لا يتأتى إلا بالتعليم المتميز، ونشر المعرفة والثقافة بين كافة أفراد الوطن يجب أن يكون الأسبقية الأولى لكى ترتقى كافة طبقات المجتمع إلى مستويات أعلى فى الثقافة والتعليم، ولكى يحدث التطور الطبيعى فى نسيج المجتمع، فالعلم هو الطريق إلى حرية الإنسان وهو الطريق إلى تقدم الدولة وازدهارها.

ولعل نسبة الأمية فى مصر، التى تصل إلى حوالى ٤٠ ٪ بين البالغين وهبوط مستوى التعليم بكافة مراحله يمثلان أكبر تحد أمام التقدم فى مصر فى وقت يقوم فيه العالم على التنافسية فى مختلف المجالات، هذا العالم الذى لا يمكن أن نكون جزءاً منه بدون تعليم متميز. ويرتبط التعليم بالطبع بإيلاء الأولوية القصوى للبحث العلمى، وتشجيع وتطوير هذا الركن المحورى من أركان الدولة العصرية.

وفى زمن التغيرات السريعة والعولمة فانه إذا لم تقم الدول النامية بالإنفاق الكافى والمتزايد على البحث العلمى لمواجهة مشاكلها التى تختلف فى الكثير من الأحيان عن مشاكل الدول المتقدمة، فسيكون عليها أن ترضى بالفتات من ناتج الحضارة الإنسانية دون أن تضيف إلى هذه الحضارة أو تجنى ثمارها.

من الأهمية بمكان أن يتواجد إصلاح اقتصادى شامل فى المجتمع، إصلاح يضمن زيادة الإنتاجية وخلق قدرة تنافسية للاقتصاد الوطنى ليكون اقتصاداً مندمجاً بقوة وفاعلية فى النظام الاقتصادى والمالى الدولى، إصلاحاً يضمن توفير رأس المال والتكنولوجيا المتقدمة، ويسعى إلى فتح مزيد من الأسواق أمام المنتجات الوطنية. ويجب فى الوقت نفسه أن يتواكب الإصلاح الاقتصادى مع العدالة فى توزيع الثروة وتوسيع قاعدة الاستفادة من النمو الاقتصادى، و بحيث تستطيع مرة أخرى بناء طبقة متوسطة واسعة، تلك الطبقة التى تشكل قيم أى مجتمع وصمام أمانه.

وقبل كل ذلك وبعده يجب إرساء شبكة اجتماعية تحمى الفقير وغير القادر. ويجب أن يكون مفهوماً لدينا دائماً أن الموازنة بين تقوية الحافز الشخصى ومراعاة البعد الاجتماعى هى الصمام الأساسى لأمن المجتمع.

يجب أن نعى أنه لن يكون هناك إصلاح اقتصادى دون أن يتم ذلك بالتوازى مع إصلاح سياسى يعتمد على مبادئ الشفافية والمحاسبة وتحقيق التوازن بين الأمن والحرية. فعندما يشعر الفرد بأنه يشارك فى كل قرار يتعلق بحياته ومصيره وبأن لديه الحرية التامة فى اختيار من يحكمه و يمثله سيستطيع أن يساهم فى حل مشاكل وطنه كشريك مسئول وليس من موقف المتفرج، وسيستطيع كل فرد من أبناء الوطن أن يحلق فى إطار الحرية المسئولة إلى آفاق أوسع وأرحب.

ومن البديهى أن أية عملية إصلاح سياسى لابد أن تنبع من الداخل، ومن البديهى كذلك أنها عملية ستستغرق وقتاً فى ضوء الظروف التى شكلت تاريخ مصر المعاصر، وإنما مع هذا يجب أن نبدأ بخطوات جدية وملموسة وسريعة نحو تطوير نظام سياسى يستظل الجميع بمظلته، نظام قائم على توازن دقيق بين السلطات دون أن تطغى إحداها على الأخرى، نظام يضمن للفرد حقوقه دون استثناء أو تمييز، نظام يحمى ويمكن الأقلية قبل الأغلبية، والمرأة قبل الرجل، والضعيف قبل القوى، نظام يحقق السلام الاجتماعى بين كافة طوائف وفئات شعب مصر.

يجب أن نعيد ترتيب نظرتنا ومفهومنا للأمن القومى، فالتهديدات لم تعد تقتصر على التهديدات الخارجية، وإنما الكثير منها نابع من الداخل، خاصة فى ضوء تيارات التطرف والعنف التى نراها فى بلدنا ومنطقتنا. ومع ذلك يجب أن يكون مفهوماً أن الدستور والقانون يجب أن يكونا السيد والحكم فى كافة الظروف، فالدستور والقانون يجب أن يكونا مصممين لمواجهة مختلف الظروف التى تمر بها الدولة بما فيها الظروف الاستثنائية.

أما بالنسبة للتهديدات الخارجية، فيتعين علينا رؤيتها من خلال وضع تصور واضح لمفهوم الأمن القومى، وتحديد مصالح مصر الوطنية و القومية الثابتة، تصور من شأنه أن يجعلنا سباقين فى الأخذ بزمام المبادرة وقادرين على تحقيق هذه المصالح وحمايتها.

٦ ـ ضرورة التكامل السياسى والاقتصادى والأمنى بيننا وبين الدول التى نرتبط بها ثقافياً وحضارياً وجغرافياً، وفى مقدمتها بالطبع الدول العربية. لقد كانت الجامعة العربية من النماذج الأولى للتجمعات الإقليمية فى العصر الحديث، وكان للعرب دور ريادى فى إنشاء نظام جماعى للأمن الإقليمى.



وإذا قارنا الاتحاد الأوروبى الذى يتكون من أعراق وجنسيات مختلفة ولغات عدة بالدول العربية والمقومات المشتركة التى تجمعها من لغة وتاريخ وثقافة، فلا يسع المرء إلا أن يحزن على وضعنا العربى المتردى، فقد أصبحنا أقل وحدة مما كنا عليه منذ ستين عاماً منذ أنشئت الجامعة العربية، وأصبحت خلافاتنا الداخلية أكثر من خلافاتنا مع العالم الخارجى، وفقدنا قدرتنا، بل وإرادتنا، فيما يخص حل مشاكلنا الإقليمية وتركناها للعالم



الأمية وهبوط مستوى التعليم بكافة مراحله يمثلان أكبر تحد أمام التقدم فى مصر فى وقت يقوم فيه العالم على التنافسية فى مختلف المجالات



الخارجي، واكتفينا بموقف المراقب والمتفرج.

ولعل مما يزيد من حزني، ولكن من أملي أيضاً في مستقبل أفضل، أن لدينا كافة الموارد البشرية والمالية والكفاءات العلمية التي تمكننا بسهولة من أن نكون قوة إقليمية قادرة على أن تشارك بفاعلية واستقلالية في ركب الحضارة الإنسانية وأن توفر لشعوبها حياة حرة كريمة.



السيدات والسادة،

تلك بعض الخواطر التي أطرحها كمصري، فخور بتاريخ مصر وتراثها، غيور على حاضرها وعلى مستقبلها.

وكما ذكرت منذ عامين عند تكريمي بمنحي قلادة النيل العظمى، فإن سعادتي كانت بالغة عندما حصلت على جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٥، ولكن مما ضاعف من سعادتي أنه في هذه المرحلة الحرجة التي ينظر فيها الكثيرون من العالم الخارجي إلى عالمنا العربي نظرة تخوف وريبة واستعلاء، معتبرين أن إسهامنا الحالي في الحضارة الإنسانية لا يتعدى نشر التخلف والدمار، تلك المرحلة الحرجة التي بدأ فيها البعض من أبنائنا يفقد الثقة في نفسه، شعرت بأن حصول مصري على تلك الجائزة قد يكون خطوة متواضعة لإعادة التوازن بالنسبة لرؤية العالم لنا وكذلك رؤيتنا لأنفسنا.

نعم لدينا الكثير من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولدينا التطرف والجمود الفكري، لكن مازال لدينا في الوقت نفسه الاعتدال والعقل المستنير والمثابرة. وفي يقيني أن أهل هذا البلد وشبابه قادرون على تحقيق ما نصبو إليه من تقدم وازدهار ما دمنا أهلناهم علماً وخلقاً ووضعنا لهم الإطار السياسي والاقتصادي والاجتماعي السليم ليفجروا من خلاله طاقاتهم الخلاقة. وأقول لهم من هذا المنبر إن قناعتي تامة في أنهم قادرون على مواجهة التحدي مثل أسلافهم في مصر وأقرانهم في باقي أنحاء المعمورة.

علينا أن نتذكر أنفسنا دائماً بأنه كانت لدينا حضارة ومساهمة ملموسة في التاريخ الإنساني، شملت حضارات فرعونية ويونانية ورومانية وقبطية. وجزء كبير من حضارتنا كان أيضاً في إطار حضارة عربية وإسلامية أثرت العالم بأقطاب الفكر والعلم. ويجب دائماً أن نتذكر أن الدين الإسلامي لا يمكن أن يكون مسئولاً عن ازدهار الحضارة الإسلامية واضمحلالها في نفس الوقت، وإنما قصورنا في الاجتهاد في تفسير العقيدة بما يتلاءم مع تطور الحياة وابتعادنا عن جوهرها -وهو الاحتكام إلى العقل «اقرأ باسم ربك» - والاكتفاء بالمظهر، هو جزء أساسي من المشكلة التي نتصارع معها منذ زمن طويل وهي التوازن بين دور الدين ودور الدولة، هذه المشكلة التي أدت إلى الارتباك الفكري والسياسي الذي نعيشه حالياً في العالم الإسلامي.

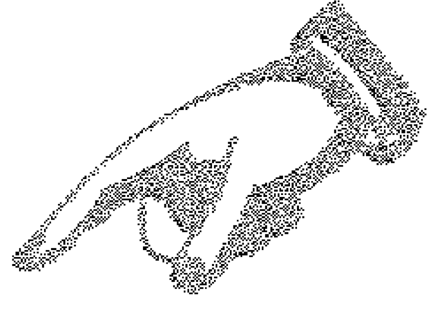
ولذلك، يجب ألا نقتصر على اجترار الماضي، بل يجب علينا أن ننظر إلى حاضرنا ونستشرف مستقبلنا، وأن تطور فكرنا وقيمنا بما يتواءم مع التطور الإنساني. ويجب أن ندرك جيداً أن تغيير رؤية العالم لنا ورؤيتنا لأنفسنا إنما هو بأيدينا، وأن ندرك كذلك أن رؤية العالم لنا لا تتوقف فقط على ما نقوله بل والأهم على ما نفعله وما نقدمه للإنسانية.



السيدات والسادة،

أود أن أكرر قناعتي بأنه لو قادت مصر حركة التقدم في العالم العربي نحو مجتمع قائم على الحداثة والاعتدال، مجتمع قائم على السماحة والتعددية، مجتمع قائم على العلم والحرية، فإن كل مصري، بل وكل عربي، سيكون قادراً على التميز وتحقيق كل ما نصبو إليه كأمة عريقة، فهناك قناعة دائمة ويحق بأنه متى ازدهرت مصر ازدهرت الأمة العربية وتماسك بنيانها.

كتاب الزاوية



مالكوم إكس
النصوص المحرمة

المذيع: (*)بلهجة «متعجرفة» حسناً.. ما اسمك الحقيقي؟

مالكوم: مالكوم.. مالكوم إكس.

المذيع: هل هذا هو اسمك القانوني؟

مالكوم: أنا شخصياً أعتبره اسمي القانوني.

المذيع: هل يمكن أن تخبرني عن اسم عائلة والدك؟

مالكوم: أبي لم يعرف اسم عائلته الحقيقي. أبي أخذ اسم عائلته من جده.. وجده أخذه من جده. الاسم الحقيقي لعائلة أجدادي أخذه منهم الرجل الأبيض عندما سرقهم من أفريقيا، وباعهم عبيداً ثم منحهم اسم عائلة مالك العبيد. وهذا ما نرفضه اليوم، و.. (مقاطعة).

المذيع: هل تعني أنك لن تطلعني على الاسم المفترض أو الممنوح لعائلة والدك؟!

مالكوم: أنا لم - ولن - أعترف به على الإطلاق!

---

*مقطع من مقابلة تليفزيونية



الشرقى بطبعه «لذائذى» فموسيقاه تخاطب اللذة فيه. واللذة بمجرد أن تذوقها مرة أو مرتين تموت.. وأما الغربى فموسيقاه تخاطب العقل.. موسيقى منطقية.. موسيقى ممنطقة..والعقل لا تموت متعته أبدا



أوراقى الخاصة جدا



محمد عبد الوهاب



فى الوقت الذى كان عبد الوهاب فيه حذرا جدا فى أحاديثه وتعليقاته.. نجده فى هذه الأوراق صريحا لدرجة غريبة.

وفى الوقت الذى كان فيه عبد الوهاب يبدو مجاملا فى أحيان كثيرة نجده فى هذه الأوراق قاطعا فى أحكامه.. خاصة ما يتعلق بالفن.. أو السياسة.

فهل اختار عبد الوهاب أن يترك لنا هذه الألغام بعد رحيله.. واكتفى بأن يمتعنا حيا بحديثه وفنه وصوته ومجاملاته.

هل اختار أن يقول كلمته بعد رحيله ويعلن احتجاجه ورفضه لكل ألوان القبح حتى وإن اضطر أحيانا لأن يسايرها وربما يعايشها رغم أنه يرفضها من الأعماق.

هل اختار عبدالوهاب أن يلقى القفاز فى وجوهنا جميعا وأن يقول كلمته ويمضى.

فى هذه الأوراق آراء سياسية حادة جدا.. كتبها عبد الوهاب.. وفى هذه الأوراق آراء فنية جريئة وصريحة وقاطعة.

وفى هذه الأوراق تعرية لجوانب كثيرة فى حياتنا.. كنا أحيانا نخجل من الحديث عنها.

وفى هذه الأوراق شهادات إنصاف كثيرة.

فاروق جويدة



■■ عندما أسمع موسيقى غربية أشعر أن الوقت ليس له قيمة عندى.. وعندما أسمع موسيقى عربية.. أو بمعنى آخر غناء عربيا.. أقول عندما أسمع الغناء العربى أشعر أن الوقت له قيمة عندى.

فعندما أسمع الموسيقى الغربية فأنا أمام عمل وبناء موسيقى هندسى معمارى.. فالجملة التى اختارها المؤلف لعمله الموسيقى أتابعها.. كيف لعب بها.. كيف فكها.. ثم جمعها.. كيف احتفظ بملامح الجملة فى كل العمل الذى أسمعه.. كيف يفاجئنى.. كيف يرتفع بى.. كيف يهبط.. أستمع وأنا مشدود ومأخوذ.. لذلك لا أحس بالوقت.. الوقت لا قيمة له كأننى أستمع إلى قصة وأشعر أننى مشدود لأن أعرف بدايتها ونهايتها.

وعندما أسمع غناء عربيا، فالجملة الواحدة تتردد عشر مرات أو عشرين مرة بنفس اللحن وبنفس الطريقة.. لا جديد.. لا علم.. لا إضافة.. لا هندسة.. لا بناء.. لا مفاجأة.. عند ذلك أحس بالوقت وقيمته.. اللهم إلا إذا كان يوجد صوت خارق القدرة فيضيف بعض التطريز الذى يشجعنى على البقاء قليلا.. هذا هو الفرق.. وما هو العلاج؟ أقول: العلم.. العلم.. العلم.

والموسيقى الكلاسيكية الغربية تبعث على التأمل والمتابعة وتخاطب العقل والإحساس معا ومعبرة وتشد المستمع إليها لتستبقيه معها، ولا ينسى المستمع أبدا وهو يسمعها أنه يسمع موسيقى تدفعه إلى التفكير والسمو.

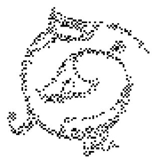
والموسيقى الخفيفة مهدئة تبعث على الاسترخاء اللطيف. وكثيرا ما ينسى المستمع أنه يستمع إلى موسيقى.. وربما تكلم مع زميل له أثناء عزفها، بعكس الموسيقى الكلاسيكية التى لا يمكن للمستمع أن ينشغل عنها بأى كلام.

وأما الموسيقى الجاز فهى تخاطب الجبلة البشرية الطينية وتخاطب الحركة الآلية فى الإنسان.. فإذا أردنا وصف الأفرع الثلاثة بإيجاز أقول: الكلاسيكية توقظك فتظل مستيقظا.. تفكر.. وتسأل.. وتتابع ويدفعك الفضول إلى أن تسأل نفسك: ماذا يريد مؤلف هذه الموسيقى أن يقول؟.. ترتفع معها وهى قوية وتنخفض معها وهى تهمس.. تظل مصغيا لها.

أما الموسيقى الخفيفة فلا تعى إلا أنك تسمع موسيقى ذات جملة حلوة تريحك ويمكنك أن تنام وهى تعزف.

والجاز توقظك بلا تفكير ولا فعل ولا تأمل ولا تساؤل.. إنها موسيقى تحركك بلا هدف.. تحرك فيك النشاط والحياة الأرضية البشرية.

لقد تفنن الغرب فى تلوين أصوات الآلات بحيث إنه لا يمكن أن تتشابه آلة مع آلة أخرى فى طعم صوتها ولونها، حتى فى الفصيلة الواحدة نجد هذا التباين.. فمثلا فصيلة الوتريات صوت الكمان الرقيق العالى غير صوت الشللو الخشن وهو يشبه صوت العجل المذبوح غير صوت الباز بقوته.. وفى جميع الآلات نجد هذا التباين.. الأوبوا غير الكلارنيت غير الفلوت غير الترمبون غير الكرنو غير الترمبيت وهكذا.



هذه الآلات يكمل بعضها بعضا ولكن لكل آلة طعما ولونا مختلفا تماما عن طعم ولون الآلة الأخرى، وهذا يعطى فرصة ميسرة للملحن حين يمزج هذه الآلات ببعضها أن يعبر عن أى شىء.. الغضب.. الفرح.. الحب.. العاطفة.. الهدوء.. الرعب.. لأن كل هذا موجود فى هذه الآلات. والملحن بعلمه وذوقه يستطيع مزج بعضها مع البعض لإبراز ما يريد إبرازه من تعبير.

نصل بهذا إلى أن كل آلة موسيقية لها شخصية فريدة لا شبيه لها.. وفى الأصوات البشرية نجد غير هذا تماما.. فالأصوات البشرية دخلت فى قالب واحد لا يوجد غيره: النفس.. إخراج الصوت فى قالب خاص أو قناة واحدة بحيث تخرج متشابهة فيصعب علينا



للاستزادة:
محمد عبدالوهاب ـ رحلتى.. الأوراق الخاصة جداً
إعداد وتقديم: فاروق جويدة
القاهرة ـ دار الشروق ٢٠٠٧

من أجل أن تجعل موسيقاك عالمية.. أى أن تجد لها جمهورا فى أوروبا يجب أن تتمسك أولا بمحليتك..



أن نفرق بين صوت وصوت خصوصا فى الغناء الكلاسيكى.. الأوبرالى مثلا.

وعندنا فى البلاد العربية أصوات المطربين والمطربات تشبه آلات الغرب الموسيقية، كل صوت له طعم ولون وطريقة.. وذبذبات ونبرات تختلف عن الصوت الآخر، وليس هذا نتيجة علم أو قصد ولكنه نتيجة عضوية.. فكل مطرب أو مطربة تغنى كما تشاء وتتنفس كما تشاء وتخرج الألفاظ كما تشاء.. وتستعمل نبراتها كما تشاء.. لم يعلمها أحد إخراج الصوت أو كيف تتنفس.. أو استعمال النبرات، ولذلك يسهل علينا فى لحظات أن نعرف من يغنى أو من تغنى.

فمثلا صوت عبد الحليم غير صوت فريد، وصوت أم كلثوم غير صوت فيروز، وصوت نجاح سلام غير صوت وردة.. وصوت فايزة أحمد غير صوت شادية.. وصوت محرم فؤاد غير صوت محمد قنديل.

فى لحظة تعرف وتضع يدك على من يغنى.. فهذا قوى.. وهذا ضعيف.. وهذا رقيق.. وهذا عنيف.. وهذا مفرح.. وهذا مشجى.. وهذا له صوت ضيق.. وهذا له صوت جهورى.. وكل منهم يتجاوز منطقة حدود صوته فنسمع صوته فى بعض الجمل التى خارج حدود صوته.. نسمعه وكأنه صوت آخر.. كل هذا جاء من العضوية.. من اللا علم.. ومع ذلك أباركه.. لأنه أوجد لنا أصواتا مختلفة المذاق والألوان.. والطعم.

وربما كان الاعوجاج فى إخراج حرف معين أو خطأ فى إخراج صوت يعطى لنا نبرة حلوة غير مطروقة.

إننى أفضل هذه العضوية الطبيعية عن أن أسمع أصواتا دخلت فى قالب واحد وأخرجت فى لون واحد كوجوه اليابانيين.. كالأشياء الجاهزة مثل الملابس والأحذية، وأكرر أننى شخصيا أبارك أحيانا العضوية والارتجال الذى يبدع لى ما لا يبدعه الفكر والقصد.

واللحن العربى يمكن الإضافة عليه والاختصار منه.. لأنه جملة أو جمل موسيقية متشابكة أو ما نسميه «الميلوديه» وهذه الجمل تعزف أو تغنى





لا أستطيع أن أسمع العزف المنفرد طويلا ولا متكررا.. بعكس العمل السيمفونى.. فالعمل السيمفونى عمل فنى متكامل نشعر فيه بالجمال والذكاء والتناسق البارع فى علم الهارمونى



والموسيقيون أى العازفين يعزفون نفس الجملة أو الجمل مع المغنى سواء بسواء.. فلو اختصر أو أضيف شىء إليه - وليس هناك بناء متكامل - سينهار.

أما الألحان الغربية «فالميلوديه» أى الجمل أو الجملة عندما تعزف وتغنى، فالعازفون لا يعزفون نفس الجملة بل يعزفون أصواتا مختلفة تماما عن أصوات الميلوديه.. أى أن الأصوات الأخرى المصاحبة للحن الأصلى هى ما يسمى بالهارمونى منها.. هذا العلم الواسع الذى يختار منه الملحن ما هو ملائم للحنه.. ويصاغ الهارمونى بقيود وقوانين وعلم ينتقل مع اللحن الأصلى، فلكل نوتة مكانها بكل انضباط.. بحيث إذا حدث أى تغيير فى اللحن الأصلى أو فى أى لزمة انهار البناء الهارمونى كله.

والملحن الأوروبى يضع اللحن ويصوغ له الصياغة الهارمونية ويكتبه.. ومن يعزفه من جيله أو من أجيال أخرى ملتزم بما كتبه الملحن لحنا هارمونيا.. أما الألحان العربية أو التراث كما نسميه، فليس هناك كتابة لأن من يلحنون كانوا لا يعرفون كتابة النوتة.



فليس لهذه الألحان هارمونى لأننا لا نزال حتى فى جيلنا الحاضر لا نستعمل الهارمونى إلا نادرا.. ولذلك يسهل على كل إنسان أن يغير فى هذا التراث لأنه انتهى إلينا بالرواية.. فكذب من يقول أن ما نغنيه الآن من أدوار وتواشيح هى بالضبط ما لحنه صاحب هذه الألحان.. لأن كل مطرب يغنيها بذوقه الخاص ولا شىء يمنعه من أن يزيد أو يحذف أو يغير.

ولكن اللحن الأوروبى بناء مكون من جمل أساسية وتركيبات هارمونية تربط هذا البناء برباط لا يمكن العبث به.. إلا إذا أراد موسيقى أن يأخذ جملة كلاسيكية مثلا ويخضعها للون الجارى.. عند ذلك فقط يمكن له أن يضع لها إطارا آخر يختلف اختلافا كليا من حيث الإيقاع والهارمونى وما يزيده على الجملة من حليات ليدخلها فى نطاق الشكل الجارى.. ويعتبر هذا الموسيقى صاحب فضل كبير فى فكرة تقديم هذه الجملة بالشكل الجديد.

وكما قلت.. فإن اللحن العربى يختلف اختلافا كليا. فاللحن جمل جميلة متصلة بعضها ببعض ويمكن الزيادة والنقصان والتغيير فيها حسب مزاج وذوق من يستخدمها.

والشرقى بطبعه «لذائذى» فموسيقاه تخاطب اللذة فيه، واللذة بمجرد أن تذوقها مرة أو مرتين تموت.. وأما الغربى فموسيقاه تخاطب العقل.. موسيقى منطقية.. موسيقى ممنطقة.. والعقل لا تموت متعته أبدا.. والموسيقى الغربية تحرص على «السيمترية»، ولكن فى الوقت نفسه كسر هذه السيمترية بما لا يجعلها مملة.. كوجه الإنسان فقد أبدعه الله وأودع فيه سيمترية عجيبة.. فهذه عين.. وعين أخرى.. مقابلها.. وهذه أذن.. وأذن فى الناحية الثانية، وهذا حاجب.. وحاجب آخر.. فى الناحية المقابلة، ثم يكسر الله سبحانه وتعالى هذه السيمترية بأنف واحد وفم واحد وجيد واحد.. إنه إبداع ممتع ومعجز.. إننى أعتقد لو أننا مزجنا بين ما فى إحساس اللذة فى موسيقانا الشرقية وبين علم وعقلانية ومنطق الغرب لحصلنا على موسيقى خرافية.

والعزف المنفرد على أية آلة متعة للمستمع بلا شك، وهى غالبا ما تكون عضوية.. فالعزف مرتجل أو على الأقل هذا هو ما ينبغى أن يكون.

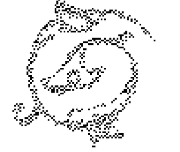
فأنا عندما أسمع العزف المنفرد أتتبع ذكاء العازف وسرعة البديهة.. وسرعة الخاطر وكيف جمع كل هذا فى جمل لحنية جميلة، ومع هذا فأنا لا أستطيع أن أسمع العزف المنفرد طويلا ولا متكررا.. بعكس العمل السيمفونى.. فالعمل السيمفونى عمل فنى متكامل نشعر فيه بالجمال والذكاء والتناسق البارع فى علم الهارمونى.

وأنا لا أمل عند سماعه فى السيمفونية حيث يرتفع بك ويهبط ويتوسط ويعطيك فى أحيان جزءا من آلات، وفى أحيان أخرى يسمعك

نصف الفرقة وفى أحيان ثالثة الفرقة كلها بكل قوتها.. ثم يهبط بك رويدا رويدا حتى تصبح هذه الفرقة الكبيرة وكأنها تهمس همسا.. تحبس أنفاسك لتسمعها.. ويعود ويرتفع بها ثم يعود ويقسمها.. أظل هكذا أستمتع بالجمال والذكاء.

وعندما أستمع إلى سيمفونية أشعر كأننى أستمع إلى ندوة من العلماء والأدباء والفلاسفة فى حوار رائع فيه العلم والجمال والتأمل والفكر.

كل هذا يخاطب روحى وعقلى.. ندوة على مستوى رفيع.. وعندما أسمع العزف المنفرد أشعر كأننى أستمع إلى خطيب.. فالخطيب مهما كان بليغا فلابد لى بعد فترة غير طويلة من أن أتمنى أن يسكت.



ولأضرب مثلا بفننا نحن فى الغناء.. فقد يكون هناك مطرب مشهور بغناء الموال.. فمهما كان هذا المطرب محبوبا، فالموال هنا كالعزف المنفرد يعتمد على الارتجال والعفوية.. أقول مهما كان محبوبا فإنه لا يستطيع أن يأخذ من الزمن المحدد له فى ليلته أكثر من ٢٠٪ وباقى الزمن يغنى فيه دورا أو مونولوجا.. أى أنه لابد أن ينتقل بالسامع إلى عمل فيه دراسة.

هذا هو الفرق بين الخطيب البليغ الذى يخطب بعفوية وارتجال يحرك فى أغلب الأحيان المشاعر وليس المشاعر والعقل معا.. وبين ندوة تستمتع فيها بالعلم.. والبراعة والجمال.

كيف تصل موسيقانا للعالمية؟

الموسيقى الغربية الكلاسيكية هى تشريح للنفس البشرية.. لقد شرح الجراحون جسم الإنسان ليتعرفوا على أعضاء الجسم المذهلة وما تقوم به من مهام خلقها الله تعالى لها.. وأما تشريح النفس البشرية وما فيها من متناقضات غضب ورضا.. عنف ورقة.. تفكير وتأمل.. وجدان.. ضمير.. شذوذ.. إلى آخر هذه الصفات المذهلة التى يشرحها ويعبر عنها الفن.. وهذا واضح فى الموسيقى الكلاسيكية.. إنها تشريح عجيب جميل وذكى.. عميق لها فى داخل الإنسان من متناقضات غريبة متغيرة.. إنى أحس بهذا عندما أستمع إلى الموسيقى الغربية.

لا أرى علاقة مطلقا بين الحركات الثلاث فى السيمفونية.. كل حركة منفصلة تماما عن الأخرى. ولقد قرأت أن السيمفونية هكذا لأن الملحن فى السابق كان يكتب السيمفونية لتعزف فى قصور الأمراء، ولذلك كان الملحن يقسمها على نظام الحفلة، فالحركة الأولى يسمعها الحاضرون فيجب أن تكون هادئة.. ويكتب الحركة الثانية سريعة ليرقصوا.. ويكتب الحركة الثالثة عندما يدخلون للطعام.

هكذا قسمت الحركات ليس لأسباب فنية ولكن للضرورة. إلى أن جاء بيتهوفن ولم يعبأ بهذا وجعل السيمفونية من حركة واحدة حتى أنهم سموا ذلك العهد بعهد بيتهوفن.

من أجل أن تجعل موسيقاك عالمية.. أى أن تجد لها جمهورا فى أوروبا يجب أن تتمسك أولا بمحليتك.. أى أن تذهب وأنت مصرى الموسيقى.. فمثلا إذا ذهبت إلى ألمانيا ومعك موسيقى أوروبية فلن يلتفت إليك أحد. أما إذا ذهبت بموسيقى مصرية متطورة فسوف تجد لها صدى جميلا هناك.. فكن محليا من أجل أن تكون عالميا.

إن البعض منا يتساءل: متى تكون موسيقانا عالمية؟

وهذه الكلمة لا قيمة لها إلا إذا فهمنا أن الغناء أو الصوت البشرى ما هو إلا فرع من فروع هذا الفن الضخم الموسيقى.

فى أوروبا عندما تظهر أغنية بالإنجليزية مثلا.. وتكون موسيقاها وتركيبها وإطارها وجمالها ذات قيمة يحذفون الكلام ويوضع عليه كلام آخر بأى لغة أخرى.. أو تسمع الموسيقى من غير كلام.. ما معنى هذا.. معناه أن الموسيقى هى الأساس. ■

كتاب الزاوية



مالكوم إكس
النصوص المحرمة

(٤)

لو عاد عيسى!

أن تكون مجرماً في الماضي.. هذا ليس عاراً. أن تبقى مجرماً.. هذا هو العار!

أنا كنت مجرمًا سابقًا. أنا لا أشعر بالخجل من ذلك. لا يمكنكم أبدًا أن تهددوني بذلك. إنهم يهددونني بالعصا الخطأ. أنا لا أهتم بهذه العصا!

لقد اتهموا عيسى بالتحريض على الفتنة.. ألم يفعلوا ذلك؟! قالوا: إنه مع الشيطان! قالوا: إنه عنصري، لأنه قال لأتباعه: اذهبوا.. ليس في طريق غير اليهود وحسب، بل اذهبوا يقينًا في طريق النِّعاج الوضيعة.. اذهبوا إلى الناس الذين لا يعرفون هُويتهم.. الذين أضاعوا معرفة أنفسهم.. الغرباء في أرض ليست لهم.. اذهبوا إلى هؤلاء الناس.. اذهبوا إلى العبيد.. اذهبوا إلى مواطني الدرجة الثانية.. اذهبوا إلى هؤلاء الذين يعانون من وحشية قيصر وديكتاتوريته!

لو كان عيسى موجودًا اليوم هنا في أمريكا. فلن يذهب إلى الرجل الأبيض. الرجل الأبيض هو الظالم. سوف يذهب إلى المظلوم.. سوف يذهب إلى الذليل.. سوف يذهب إلى الوضيع.. سوف يذهب إلى المنبوذ والحقير.. سوف يذهب إلى من يسمونه بالأمريكي النيجرو.

"عتبات الكلام"

الهاشم اسمهر

ليس من باب العبث والهذر المعرفي أن نفني سنوات من البحث لدراسة نصوص موازية لمتونها، أو عتبات كتب مختلفة الحمولات والأبعاد. وعلى الرغم من أن الكلمة الفصل تعود لنتائج هذا البحث المحصلة من القراءة والتأمل والتحليل والنقد، إلا أنه من حقنا أن نبدي إن لم يكن رضانا وابتهاجنا. فلا أقل من الإقرار بجدوى ما أقدمنا عليه وأنفقنا في سبيله الكثير من الجهد.. إلى أن يتأكد العكس.

١ - أطروحة البحث

ينهض هذا العمل على الدعوى الآتية: إن الاهتمام بعتبات النصوص - بمختلف أصنافها - ليس وليد اليوم، إنما هو نتاج من تراكم خطرات وإرهاصات نظرية عبر مجالات تداولية متباينة نضجت شيئاً فشيئاً إلى أن صارت إلى ما هي عليه من الوضوح والكفايات. وإذا كان الأمر هكذا، فإن الإنجازات النصية - وقد اخترنا منها المحكي القصير - كانت على بينة من أهمية هذه العتبات، فاستثمرتها بأشكال ودرجات ومقاصد ووظائف متعددة.

تنبني هذه الدراسة - كما هو جلي - على مدماكين:

الأول: نظري ونقدي وتاريخي عملنا على بيانه وتوضيحه في المدخل العام لهذا البحث: إذ تطرقنا إلى تبلور الوعي بأنماط النصوص الموازية في المجالين التداوليين الإسلامي العربي والغربي، وذلك من خلال تتبع أهم الإسهامات في هذا المجال.

المدماك الثاني لهذه الدراسة تطبيقي استكشافي: حيث اخترنا - لدواع سترد بعد حين - الاشتغال على متون متباينة في مضامينها، لكنها متقاربة في سمتها العامة. وكان علينا أن نقارب العتبات المحايثة لهذه النصوص في تجلياتها المختلفة، عاملين على التأكد من أن منتجيها كانوا يصدرون عن وعي حاد - مهما اختلفت مستوياته - بجلال قدر هذه المكونات العتبية.

٢ - مسوغات البحث

لسنا بحاجة إلى أن نحاجج لنبين أن وراء كل عمل بشري تكمن دوافع ذاتية أو غيرية أو موضوعية. وبالنسبة إلينا فثمة مسوغات ذاتية وغيرية وموضوعية لهذا العمل:

- المسوغات الذاتية: يأتي هذا البحث استجابة لنوازع قديمة في وجداننا لتحقيق حلم خجول عبرنا عنه - أستاذ سألنا - ذات مرة بعبارة فيها كثير من السذاجة اللذيذة: «أن أصير كاتباً عمومياً»! لم «نحسن» القول، لكن يبدو أننا أنجزنا اليوم الكتابة على الأقل. وفي مرحلة لاحقة كان الأمر أكثر وضوحاً: صعود أكبر قدر ممكن من الدرجات العلمية. أما اختيار مجال الدراسة وموضوعها، فلاعتبارين اثنين: الرغبة في مواكبة الإسهامات المعاصرة في حقل النصوص الموازية، والانقياد وراء مطمح قوي في ولوج عوالم سردية كانت دائماً مثيرة، فالنصوص الإخبارية تعطينا الإحساس بموقع الذات إزاء الآخرين، والنصوص الكرامية أثثت عالمنا وخيالنا الفتي بما سمعناه حولنا من محكيات وما رأيناه من طقوس كانت تبعث على الرهبة، فكأن الوقت قد حان للكشف و«القصاص». أما النصوص التي تشيع فكاهة، فأردنا منها أن تدخل بعض البهجة إلى حياتنا التي أضحت أكثر ميلاً إلى الثبات والملل!

- المسوغات الغيرية: ثمة أشخاص علينا أن نعترف لهم بالتحفيز على إنجاز هذا العمل: فضيلة الدكتور عبدالنبي ذاكر الذي رعى هذا البحث منذ كان مشروعاً يعوزه الكثير من الدقة، وسايره بتوجيهاته السديدة واقتراحاته النيرة إلى أن اتضحت معالمه، فله جزيل الشكر، ونرجو له حسن الجزاء عند الله تعالى. والأساتذة الأجلاء في وحدة خطاب المقدمات والعتبات في الأدب العربي، لما أبدوه من التفهم والرعاية والنصح، فلهم جميعاً كامل التقدير. ولأخينا الدكتور المحفوظ أسمهر وفير الاحترام على أياديه الكثيرة علينا وعلى تشجيعه وتحمسه المستمر لإتمام هذا العمل.

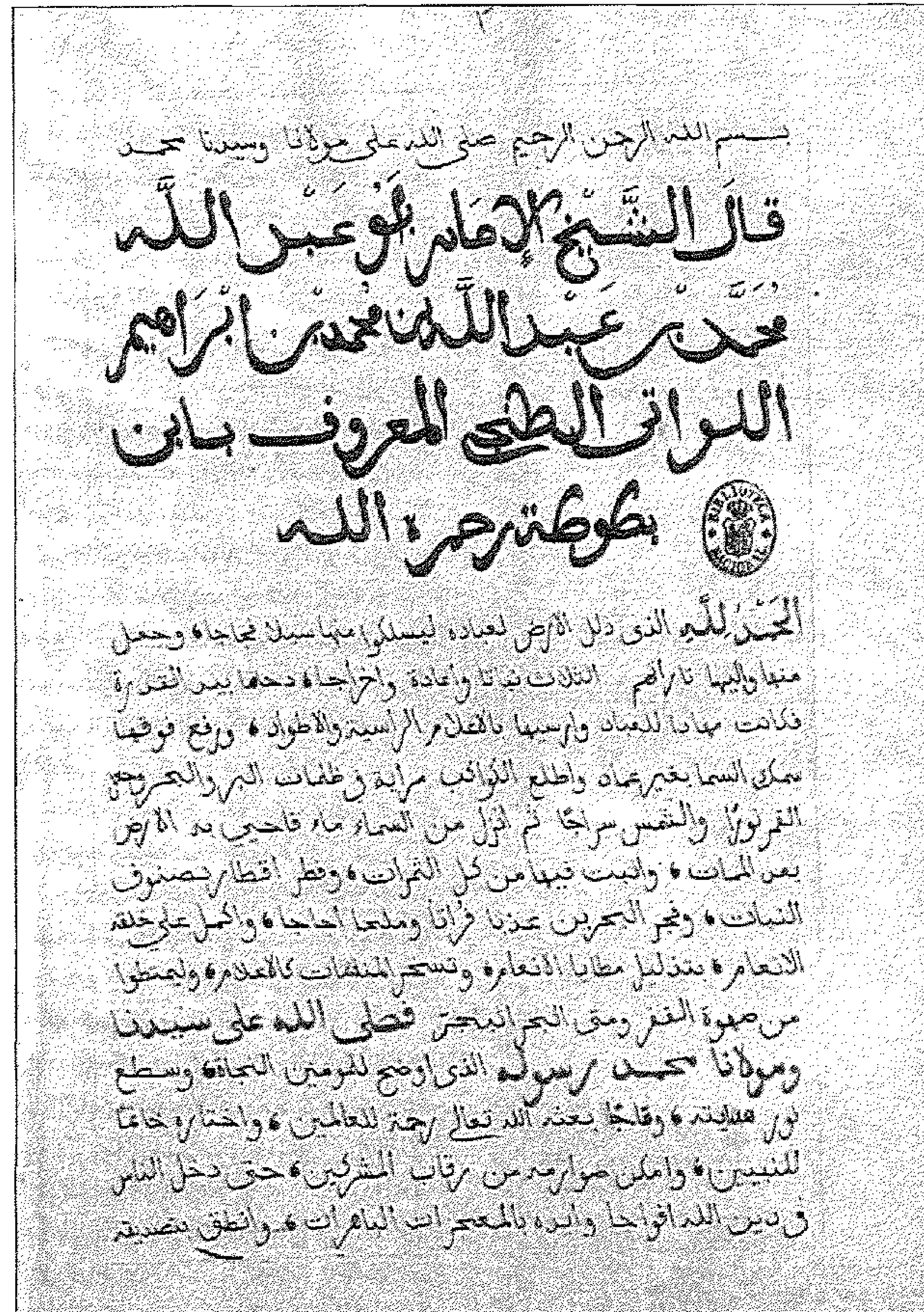
- المسوغات الموضوعية: نجملها فيما أضحى يشكله موضوع العتبات وما يثبته من الجدوائية، على الرغم من أنه مبحث ليس جديداً جدة مطلقة. إضافة إلى ما تطرحه النصوص السردية من القضايا باستمرار، وعدم الإقبال على مقاربة عتباتها، مقارنة مع ما خصص من أبحاث لبنياتها النصية بمختلف المنظورات والمناهج.

٣ - متن البحث

اشتغلنا في هذا العمل على نوعين من المتون: متون نظرية وتأريخية ونقدية، ومتون سردية:

. المتون النظرية والتأريخية والنقدية: وتتمثل في المصادر اللغوية والنقدية والبلاغية، وتلك المتعلقة بعلوم القرآن التي حملت الإرهاصات الأولية على العتبات في المجال التداولي الإسلامي العربي، إضافة إلى المراجع العربية والغربية الحديثة والمعاصرة في الموضوع نفسه. وهي متون مكنتنا من استجماع العناصر والأفكار والتصورات التي تصب في خانة النصوص الموازية.

. المتون السردية: وهي تنقسم إلى ثلاث مجموعات: متون خبرية تمتد عبر مسافة زمنية طويلة (من القرن الثالث إلى القرن الحادي عشر الهجريين). وهي متون تضمنت أخباراً عن فئات مختلفة (الحمقى - الأذكياء - البخلاء - العشاق - الظراف...)، إضافة إلى طابعها المنفتح على موضوعات متعددة. المجموعة الثانية تضم المدونات الكرامية، وهي متون تحفل بكل مظاهر الغرابة وتبعث على التعجب من خلال ما تثبته للأولياء من خرق سنن الحياة وإكراهات الطبيعة. وأخيراً، فإن المجموعة الثالثة تشمل سجلات من الطرف التي تحتفي بالفكاهة وتستثير الضحك (أو الابتسام على الأقل) وتعبث بالمواضعات الدينية


بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على مولانا وسيدنا محمد

قال الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة رحمة الله

الحمد لله الذي ذلل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا وجعل منها وإليها تاراتهم الثلاث نبتا وإعادة وإخراجا دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد وأرساها بالأعلام الراسية والأطواد ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد وأطلع الكواكب هداية في ظلمات البر والبحر وجعل القمر نورا والشمس سراجا ثم أنزل من السماء ماء فأحيى به الأرض بعد الممات وأنبت فيها من كل الثمرات وفطر أقطارها بصنوف النبات وفجر البحرين عذبا فراتا وملحا أجاجا وأكمل على خلقه الإنعام بتذليل مطايا الأنعام وتسخير المنشآت كالأعلام لتمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر أثباجا فصلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي أوضح للمؤمنين المحجة وسطع نور هدايته وبعثه الله تعالى رحمة للعالمين واختاره خاتما للنبيين وأمكن صوارمه من رقاب المشركين حتى دخل الناس في دين الله أفواجا وأيده بالمعجزات الباهرات وأنطق بتصديقه

من مخطوطة لابن بطوطة - المكتبة «الوطنية» (مدريد)

عتبات المحكي القصير
في التراث العربي والإسلامي
الأخبار والكرامات والطرف
د. الهاشم اسمهر
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨، ٤١٦ صفحة

والاجتماعية والسياسية، ساعية إلى الاقتصاص من الجميع.

وإذا كانت المتون الأولى لا تحتاج إلى تبرير الاعتماد عليها، فإن المتون السردية قد تبدو للبعض متنافرة. لكننا نبادر إلى القول إنها مشمولة بالانتماء إلى خانة «المحكي القصير»؛ فأغلب هذه المتون عبارة عن وحدات سردية قصيرة حول شخص محدد متميز - مثلاً - ببخله أو بولايته أو بذهوله وتصلبه. إنها - أخيراً - متون بينها خيط رفيع رابط يبدأ بالفريد (الأخبار) ويمر بالمبهر (الكرامات)، وينتهي بالممتع (الطرف)؛ وهذا يسمح بتتبع عتبات نصوص متنوعة لا يعوزها التكامل.

٤ - «منهج» الدراسة

لم نسعَ في هذه الدراسة إلى الانقياد لمنهج نقدي بعينه مخافة السقوط في شرك السكونية والرتابة والوثوقية. لكننا اتبعنا مسلكاً للتناول والمقاربة يرتكز على أربعة محددات: الوصف والتحليل والنقد والموازنة.

- الوصف: اقتضى منا موضوع بحثنا جرد المكونات العتبية المحايثة (العناوين - الخطب - المقدمات...)، وتقديمها بما يلزم من الوضوح في العرض. لهذا سنفهم لماذا الاستشهادات كثيرة في هذا العمل. ومدار الأمر وأسه أن نترك فرصة للعتبات حتى تشي وتعلن عن نفسها بكل الدقة الواجبة تمهيداً لتحليلها.

- التحليل: عملنا على تفكيك هذه النصوص الموازية إلى عناصرها الجزئية على صعد شتى: النحو والتركيب والدلالة. كما استخرجنا الوظائف والأبعاد والمقاصد والرهانات وأنواع الخطاب.. وفي كل الأحوال كان منطلقنا هو سبر أكبر عدد ممكن من المكونات وتصنيفها وتقسيمها إلى فئات وأنماط ومجموعات قابلة للاستثمار والتمحيص والمساءلة والنقد.

- النقد: إن الخطوة السابقة تجل من تجليات النقد - بمعناه الواسع، لكننا نعني هنا بالنقد كشف بعض مظاهر «الاضطراب» و«القلق» الأسلوبي والمعرفي وكشف بعض مكامن «التخريض» والتهافت، ليس بحثاً عن «نقاء» متوهم على كل حال. ونعترف أننا وظفنا لغة تجللها الدعابة في كثير من المواقف تكسيراً لجفاف التحليل من جهة، وممارسة مشروعة للتقويم من جهة أخرى.

- الموازنة: التجأنا في مواضع عدة من هذا البحث إلى مقابلة معطيات متعددة (سواء في المدخل العام أم في الأبواب الثلاثة أم في خاتمة البحث)، وذلك على سبيل معرفة درجات الحضور والغياب، والخفاء والتجلي، والبساطة والتركيب، والكثرة والقلة.. مع ما في هذا من الترجيح لا بهدف التفضيل والإقصاء، لكن بغاية الكشف والاستنتاج بالدرجة الأولى.

في ثنايا هذا البحث، ترددت مصطلحات لم نر أي عائق إبستمولوجي ومنهجي في توظيفها، وذلك لشيوعها أولاً، ولكفايتها الوصفية والتفسيرية ثانياً، ولطابعها الإجرائي العملي ثالثاً، وهكذا نصادف: المهيمنة - الوظيفة الشعرية - تعدد الأصوات واللغات - أفق الانتظار والتوقع.. لقد أضحت هذه المصطلحات خالية من كل خلفيات فكرانية، أو تكاد تخلو منها.

٥ - صعوبات إنجاز البحث

لا بد من الإقرار بأن البحث يؤاخي - بدرجات متفاوتة طبعاً - إكراهات تحد بنسبة كبيرة من امتدادات البحث وطموحات الباحث. وفي حالتنا، ثمة جملة من العراقيل واجهتنا - بغير قليل من الشراسة - نجملها فيما يلي:

- عدم التنسيق بين المؤسسات الجامعية والعلمية لإرشاد الباحثين إلى النصوص المحققة وتلك التي مازالت تنتظر جهود التحقيق: فكثيرة هي الكتب التي خصصنا قسطاً من الوقت والجهد لمخطوطاتها، قبل أن يتبين لنا أنها محققة. والشيء نفسه بالنسبة إلى الأطروحات الجامعية التي ما أن نطمئن إلى الاستفادة منها وهي مرقونة حتى نفاجأ بنشرها بعد أسابيع أو قبلها بسنوات!

- لا جدية بعض المؤسسات الثقافية التي طلبنا مساعدتها على البحث عن مراجع ومصادر في بلدان أجنبية (من أطرف ما حدث لنا أن مركزاً ثقافياً لدولة عربية اقترح علينا أحد القائمين عليه أن نتوجه إلى الوكالات السياحية لتتكلف بجلب هذه الكتب من دولتها المبجلة.

- غياب المساندة المالية من وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي (بحسب التسمية الجديدة!) التي نحن أحد المنتسبين إليها بسبب نرجو ألا ينقطع يوماً ما.. فقد توجهنا إلى المكتب المكلف بالاستيداع طالبين سنة للتفرغ لإنجاز هذا العمل، فكان الجواب أقسى ما يمكن أن يتصوره المرء: نعم، هذا ممكن شريطة توقيف أجرتكم كلية. وشريطة.. لا أحب لكم معرفة المزيد.

وبعد ...

هذا ما استطعنا عمله وما قدرنا على إنجازه، ونرجو صادقين أن يأتي يوماً من يتجاوزه، ويجبر كسوره، ويتجنب عثراته.

كتاب الزاوية



مالكوم إكس
النصوص المحرمة

(٥)

أنت لستَ مُحايداً(*)

المذيع: أنت ولدت في مدينة أوماها (في ولاية نبراسكا).. هل هذا صحيح؟

مالكوم: نعم.

المذيع: وعائلتك غادرت أوماها عندما كنت تبلغ.. ماذا؟! سنة واحدة؟

مالكوم: أعتقد سنة واحدة.

المذيع: لماذا غادرتم أوماها؟

مالكوم: الكوكلوكس كلان أحرقت منزلنا في أوماها، هناك الكثير من الكوك... (مقاطعة).

المذيع: هذا جعل عائلتكم غير سعيدة بالتأكيد.

مالكوم: «غير آمنة».. أكثر من «غير سعيدة»!

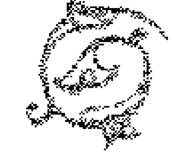
المذيع: ولهذا أصبحت لديك وجهة نظر متحيزة.. رأي شخصي متحيز.. أو بعبارة أخرى: لا يمكنك أن تنظر إلى هذه القضية بتجرد أكاديمي؟!

مالكوم: هذا غير صحيح! لأنه بالرغم من كون هذه الحادثة حصلت في أوماها، فعندما انتقلنا إلى مدينة لانسينج (في ولاية ميتشيجن) قامت الكوكلوكس كلان بإحراق منزلنا مرة أخرى! وفي الواقع، الكوكلوكس كلان قتلوا والدي!

---

* مقطع من مقابلة تليفزيونية

يوســـــف الشـــــريف



مجهـــولو المشـاهير

"الأمير عمر طوسون"





تصـــدر اســـمه قائمـــة الملفـــات الســـرية الخـاصـــة لـوزارة الخـارجيـــة البـريـطـانـيـــة عـــن عـــام ١٩٣٧ ويحمـــل عنـــوان «الشـــخصيات الرئيســـيـة فـــي مصـــر»



■■ هناك ولا شك صفحات مضيئة لكنها منسية في تاريخ مصر لعدد من الشخصيات المتميزة التي أسهمت في تقدمها وتراثها الحضاري على أكثر من صعيد، وبينهم الأمير عمر طوسون حفيد الخديو سعيد، ذلك الباحث والسياسي الوطني والقومي الغيور، الذي لا يزال في مسيس الحاجة لاستجلاء صورته الوضيئة وسبر أغوار سيرته الذاتية العطرة، إذ على ما تبدو الشواهد أن غالب ما تناولته الصحافة والسينما أو المسرح حول حياة أسرة محمد علي إثر اندلاع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، شابه قدر من التجني والابتسار لأدوار ومواقف مشرفة لعدد من الأمراء والأميرات، ممن يشي تاريخهم بالوطنية والاستنارة والعطاء في مجالات العمل السياسي والاجتماعي، ورعايتهم للفنون والآداب وحدبهم على الاكتشافات العلمية!

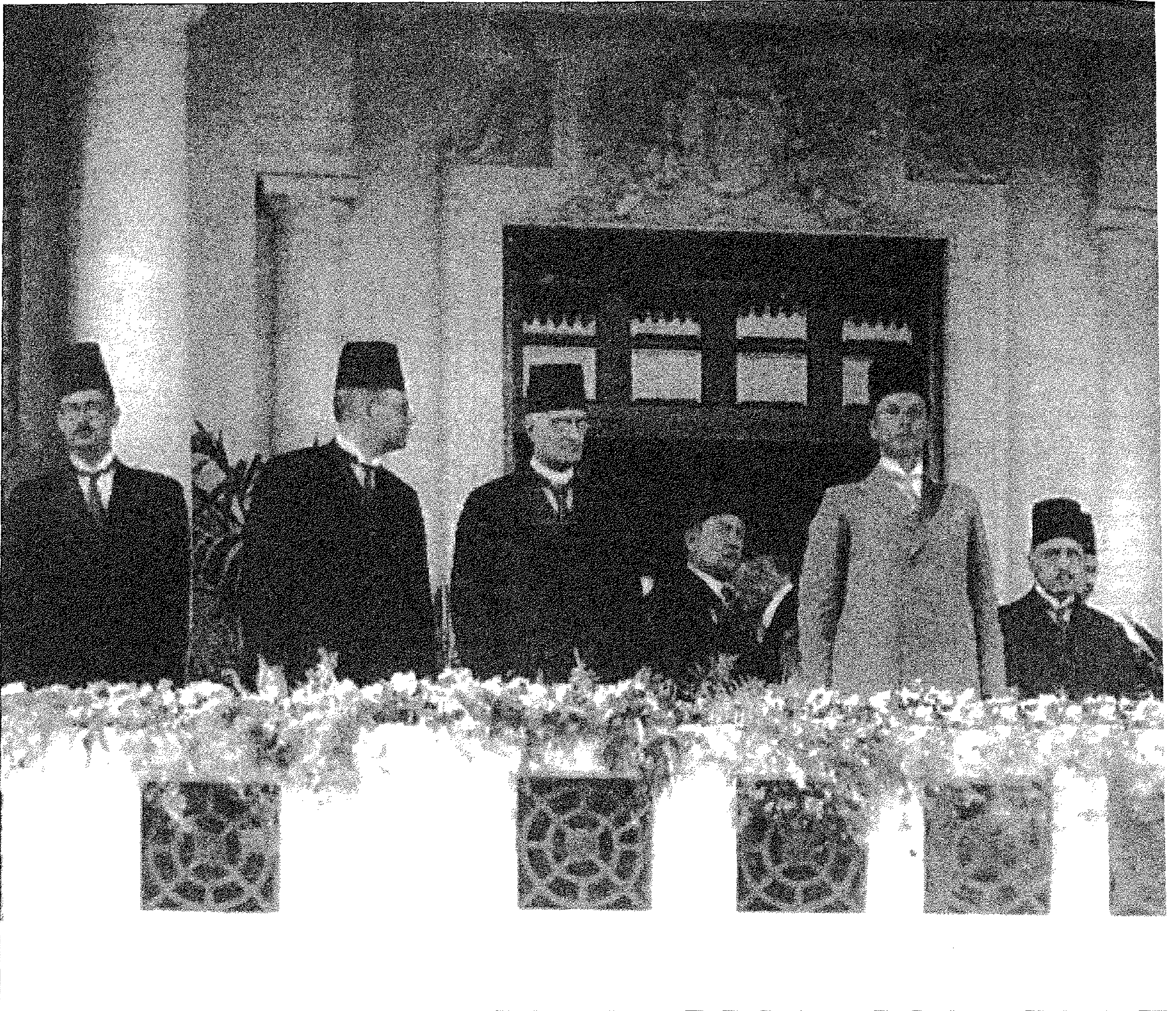
والحقيقة أن الكثير من الوقائع الإيجابية الثابتة قد شدتني تباعاً وعلى نحو خاص لإنصاف ذلك البعض من الأميرات والأمراء في سياق اهتمامي بتقصي أبعاد السيرة الذاتية العطرة للأمير عمر طوسون الذي ساد وصف حاشية الملك فؤاد له بالأمير الخطير، ويبدو أن ذلك كان اعتقاد الاحتلال البريطاني أيضاً، فقد تصدر اسمه قائمة الملفات السرية الخاصة لوزارة الخارجية البريطانية عن عام ١٩٣٧ ويحمل عنوان «الشخصيات الرئيسية في مصر» Leading Personal ties in Egypt ويضم ١٣٢ من الشخصيات العامة بينهم أربعة من الأسرة المالكة وهم الأمير محمد علي ولي العهد والأمير عمر طوسون والنبيل عباس حليم، ثم الأمير يوسف كمال!

كان عدد أفراد الأسرة المالكة قد حدده الأمر الملكي الصادر في ٤ يوليو ١٩٢٢ بنحو ثمانين شخصية، بينهم ٢١ أميراً و١٩ من الأميرات و١٥ من النبلاء و١٤ من النبيلات، بينما لم يكن لمعظمهم شأن يذكر، إذ كان شغلهم الشاغل ممارسة هواياتهم الخاصة واقتناء التحف الثمينة والاستمتاع بالرفاهية، والسفر خارج مصر إلى أوروبا وخاصة إيطاليا وفرنسا، حيث اقتنوا في الدولتين وكذا البوسفور في تركيا قصوراً رحيبة فخمة!

وحسبما جاء في الملف السري البريطاني فقد اشتهر الأمراء الأربعة بالبروز في جانب بعينه من جوانب العمل العام:

الأمير محمد علي ابن الخديو توفيق أكبر أبناء الأسرة المالكة، كان ولوعاً برحلاته الاستكشافية الخارجية، خاصة جنوب أفريقيا والهند وجاوة، ثم الكتابة عنها بعدة لغات، فيما كانت هوايته الأثيرة الاهتمام بالمحافظة على طرز البناء الإسلامي كما في قصره المنيف بمنيل الروضة وحديقته البديعة المرصعة بالتماثيل البرونز والرخام، ورعاية الحرفيين المتخصصين في فنون الأرابيسك بأنواعه من المقرنصات والمأموني والفاطمي والكنيسي المليان والكنيسي الفاضي والتطعيم بالصدف وعاج الفيل، وكان قد اختار فنان إيطالي اسمه برويز للإشراف على هذا النشاط، أما التشغيل فكان لأحمد السيد المنيلاوي كبير الحرفيين في فنون الأرابيسك الذي خلف وراءه تحفاً نادرة في هذا الفن، وإلى ذلك كانت عضوية الأمير محمد علي في الجمعية الماسونية حتى استقال منها في ظروف غامضة!

النبيل عباس حليم حفيد الأمير محمد علي عبدالحليم ابن محمد علي، وقد لعب دوراً مختلفاً عبر انغماسه في الشأن السياسي بشكل غير مسبوق ولا معهود في الأسرة الملكية، فهو قد أصدر بياناً عام ١٩٣٠ يطالب الملك بإعادة حزب الوفد إلى الحكم، بل وينذره بالمخاطر التي تترتب على عدم الأخذ بنصيحته، والتي كانت تصل في تقديره إلى الحرب الأهلية، فيما كان العمل النقابي نصب حياته وعطائه، عبر الانتصار لحقوق



الأمير فاروق ولي العهد يشاهد مباراة للكرة في ملعب بلدية الإسكندرية وعلى يمينه الأمير عمر طوسون وأنجاله وعلى يساره رئيس الوزراء وأمناء الملك

العمال والسعي إلى إنصافهم وضمان أجورهم العادلة، وتحديد ساعات عملهم اليومي بشكل إنساني، والتأمين على حياتهم ضد العجز والمرض وإصابات العمل، ولذلك كان موضع عداء كبار الرأسماليين والقصر الملكي والإنجليز، فكان أن ألقي في السجن فترة من الوقت، وتنزيل رتبته من نبيل إلى مجرد أفندي عادي كأي موظف حكومي بسيط!

أذكر عندما كان رئيساً منتخباً لنادي السيارات، عنايته الشخصية الفائقة بمظهر ضباط و«كونستبلات»، وعساكر المرور، وتنظيم دورات تثقيفية لرفع مستوى أدائهم الحضاري، وتوزيع المكافآت عن حسن تعاملهم مع ركاب السيارات ونجاحهم في انسياب حركة المرور، وكان يدفع من حر ماله مبالغ كبيرة لتوزيعها جوائز على المميزين بينهم، فضلاً عن إشرافه الدوري للتأكد من عمل إشارات المرور ووضع كتيبات وخرائط للشوارع والميادين والمؤسسات الحكومية، وتركيب اللافتات الإرشادية الأنيقة في كل مكان بالعاصمة والإسكندرية حتى إن السائح كان يصل عبرها إلى المكان الذي يقصده بسهولة دون حاجة إلى السؤال كما لو أنه في لندن أو باريس!

البرنس كمال الدين حبيب

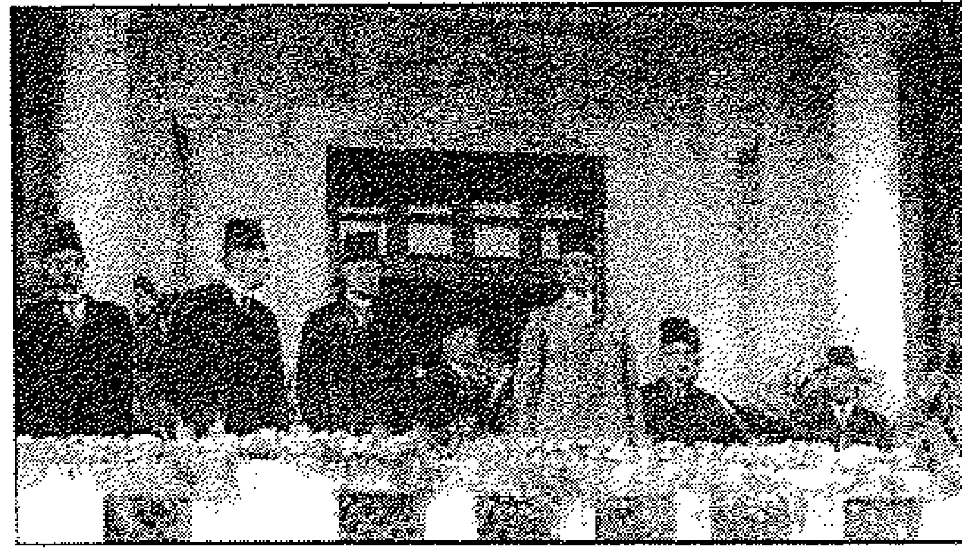
وتشاء مصادفات العمل الصحفي مشاركتي في ثمانينيات القرن الماضي في بعثة علمية ضخمة نظمها الدكتور محمد البهي العيسوي مدير هيئة المساحة الجيولوجية آنذاك، إلى منطقة «الجلف الكبير» وهو المثلث الصحراوي الذي يقع بين الحدود المصرية والسودانية والليبية وكانت القافلة تضم علماء وخبراء في الجيولوجيا والفلك وعلوم الفضاء من مصر وأمريكا وهولندا وبريطانيا والسويد، وكانت للبعثة ثلاث مهام: الأولى استكشاف بقايا نيزك انفجر في الفضاء منذ آلاف السنين، وعبر سقوط أشلائه من الارتفاعات الشاهقة اختلطت برمال الصحراء وهي ساخنة، حيث تشكلت قطع بلورية شفافة تسمى «سيلكا جلاس»!

المهمة «الثانية» للبعثة كانت محاولة البحث عن بقايا نباتية وحيوانية ومائية متحجرة منذ كانت هذه المنطقة الصحراوية مأهولة بالسكان وغزيرة الأمطار ومزروعة للقمح حتى أيام الغزو الروماني لمصر.. وأدركت أن هؤلاء العلماء يتوقعون دورة قادمة للمناخ قد تعيد هذه المنطقة إلى سالف عهدها بالناس والزراعة والصيد!

أما المهمة «الثالثة» فترتبط بالمهمة السابقة، وتعنى باستقراء الطبيعة لحالة المناخ ودرجة الحرارة المتوقعة خلال القرنين ٢١ و٢٢، مما قد يهدد بذوبان الجليد في القطب الشمالي، إذ ما ارتفعت الحرارة درجة أو أكثر، وغرق أوروبا ودمار الحضارة الأوروبية بالتالي، وربما العديد من المناطق المنخفضة عن سطح البحر في أفريقيا.

ولأن منطقة الجلف الكبير قارية المناخ، مرتفعة الحرارة نهاراً وشديدة البرودة ليلاً، وهي لذلك قفر من أي مظهر للحياة الإنسانية والحيوانية أو النباتية، وحين دخلها قمبيز على رأس جيشه العرمرم في طريقه إلى شمال أفريقيا، كان مصيره الفناء بعدما تاه في الصحراء وفرغت الجرار الفخار من أي نقطة ماء!

الوحيد الذي دخل هذه المنطقة في القرن التاسع عشر كان عالم جيولوجيا ألمانيا اسمه زيتل، كان الخديو إسماعيل قد استدعاه لإعادة اكتشاف الجلف الكبير ووضع خريطة جيولوجية للمنطقة، وكان قد سبقه إليها فريق من البدو على الجمال، حيث تركوا في كل منطقة على خط سير رحلة زيتل جراراً فخارية من الماء، فكاد مصيره أن يلحق بجيش



مجهولو المشاهير

قمبيز عندما فرغت كذلك من أي نقطة ماء، ومن ثم أسرع قبل أن يلقى هو ومعاونوه حتفهم إلى كتابة تقرير مفصل عن مهمته وكلمة وداع لأسرته ووضعه داخل زجاجة فارغة، ثم إذا به يلمح فجأة عن بعد، شجرة مخضرة الأوراق، وراح ومعاونوه يحفرون بهمة إلى جوارها بكل ما لديهم من قوة وتشبث بالحياة و... حتى وصلوا إلى المياه الجوفية وكتبت لهم الحياة!

أما بعثة هيئة المساحة الجيولوجية المصرية فكانت قد أعدت عدتها لمواجهة كل الاحتمالات، ومن عجب أن تفشل كافة طرز سيارات الدفع الرباعي في تسلق كثبان الرمال الناعمة التي يطلق عليها الجيولوجيون اسم «غرود»، وأن تنجح فحسب سيارات الجيب الروسية المتهالكة التي تخلفت عن مشروع السد العالي في المهمة بكفاءة عالية!

فجأة طالعتنا آثار جنازير مدرعة لا تزال محفورة على صفحة الرمال، وتوقعنا بالتالي أن تكون قوات مدرعة من الجيش قد سبق ارتيادها للمنطقة منذ فترة قصيرة، لكن الدكتور البهي العيسوي قال إن هذه الآثار دالة على رحلات البرنس كمال الدين حسين لهذه المنطقة في الأربعينيات، وأن هذا الأمير كان مولعاً بدعوة أصدقائه وصديقاته الأجانب لصحبته في استكشاف المناطق الصحراوية المجهولة ثم الكتابة عنها في الدوريات الجيولوجية وأدب الرحلات. وضماناً للنجاح في تسلق الغرود، كلف شركة «كاتر بيللر» الأمريكية بتصنيع عربات ذات دفع رباعي تمشي على سيور من الجنازير أشبه بالمدرعات!

راعي الفنون الجميلة

وإذا كانت مصر قد احتفلت مؤخراً بالعيد المئوي لإنشاء جامعة القاهرة، فقد بدأت عهدها عبر التعاون في بنائها بين رموز الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل وعدد محدود من أمراء وأميرات الأسرة المالكة، حيث تبرعت الأميرة فاطمة إسماعيل بأثمن ما تملكه من المجوهرات المرصعة بالماس، وكذا القصر الذي كانت تسكنه آنذاك وسمي من بعد «قصر جناكليس» وتشغله الجامعة الأمريكية الآن، وهي التي استحثت العائلات المصرية الثرية وخاطبت ملوك وأمراء أوروبيين وكبار المهندسين للمساهمة في بناء الجامعة عام ١٩١٤، فكان افتتاحها باسم الجامعة المصرية عام ١٩٢٥، وحتى تحول اسمها من بعد إلى جامعة فؤاد الأول، ثم جامعة القاهرة مع بداية ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢.

على أنه سبق افتتاح الجامعة المصرية افتتاح أول مدرسة للفنون الجميلة بحي درب الجماميز في مايو ١٩٠٨، حيث تضافر على بنائها شخص واحد هو الأمير يوسف كمال حفيد إبراهيم باشا الذي تبرع بقصر يملكه مقراً للمدرسة، وتكفل بكل أعباء التجهيز والتأثيث، وإلى ذلك كانت إسهامات الأمير في دعم المؤسسات العلمية والثقافية أواخر القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، فضلاً عن إنفاقه السخي على ترجمة الكتب الأجنبية المهمة، بل وقام شخصياً بتأليف موسوعة جغرافية ضخمة حول علاقة مصر بأفريقيا عرفت باسم «الموسوعة الكمالية»!

على أن مدرسة الفنون الجميلة لم تنشأ من فراغ، إذ كان المجتمع المصري تواقاً مترقباً لها منذ عصر محمد علي باني مصر الحديثة، حيث شهد عصره إنشاء «مدرسة العمليات» عام ١٨٣٩، حتى تغير اسمها ودورها فيما بعد إلى «مدرسة الفنون والصنايع»، والتي تعد سلفاً لكلية الفنون التطبيقية الحالية. وقد مهد لظهورها ذلك الدور الرائد للنهضة الحديثة على يد رفاعة الطهطاوي، عبر كتاباته القيمة في وصف المتاحف ودور الآثار التي سبق وشاهدها خلال بعثته الدراسية في باريس، حيث ظهرت مجموعة من التماثيل البديعة لأول مرة لعدد من الشخصيات التاريخية البارزة مثل محمد علي وإبراهيم باشا ومحمد بك لاظوغلي والخديو إسماعيل، وكما زينت تلك التماثيل الميادين والحدائق العامة، رافقها كذلك مجموعة الجداريات الفنية البارزة والغائرة، ولا شك أن هذا الزخم الحضاري ساهم في ترقية الذوق والتذوق الفني وأصبحت علامات ثقافية لدى الطبقات العليا المستنيرة ورافدا للثقافة الشعبية بوجه عام، خاصة وقد أجيزت شرعية الإبداعات الفنية من الإمام محمد عبده الذي أكد أن الفنون الجميلة مثل الرسم والنحت ضرب من الشعر الذي يُرى ولا يُسمع، وقد تأثر الأمير يوسف كمال بهذه الآراء، فمضى حثيثاً إلى الاستعانة بصديقه المثال الفرنسي لابلاني الذي تحمس لمشروع مدرسة الفنون الجميلة وتعهد برعايتها، إضافة إلى عدد من الأوروبيين المقيمين في مصر من المتخصصين في ضروب الفنون في وضع مناهجها الدراسية.

يقول بدر الدين بوغازي في كتابه القيم «مختار.. حياته وفنه» إن مدرسة الفنون الجميلة فتحت أبوابها للدارسين بالمجان دون التقيد بشروط الحصول على شهادات دراسية، فالتحق بها نحو ٤٠٠ طالب دون التقيد بالجنس أو السن أو البيئة، ثم تقلص عددهم تباعاً عبر اختيار الموهوبين والنوابغ من بينهم تحت إشراف الأساتذة الأجانب مثل لابلاني وفورشيلا وبيرون، وكان من بينهم محمود مختار ومحمد حسن وراغب عياد ويوسف كمال، حيث تخرجت الدفعة الأولى عام ١٩١١ بعد أن نالوا قسطاً من التعليم العالي في فرنسا على نفقة الأمير يوسف كمال، وأقاموا أول معرض لإبداعاتهم في نادي «الأتوموبيل المصري»، وبعدها انتقلت المدرسة إلى مقرها الحالي في فيللا عبود باشا بالزمالك، فكانت فاتحة لعصر جديد في تاريخ الفن المصري الحديث، حسبما أرخ لها الدكتور عبدالمنعم الجميعي في كتابه الوثائقي «مدارس عليا ساهمت في إنشاء الجامعة المصرية».

أفـــــراح الأنجــــــال

أما الأمير محمد طوسون حفيد محمد علي باشا النجم اللامع في الأسرة الملكية، فقد قدر له أن يقود حملة عسكرية إلى أراضي الحجاز ولم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وهو كان أشهر عريس ملكي في احتفالية «أفراح الأنجال» أواخر القرن التاسع عشر، وشهدت زواج فاطمة ابنة الخديو إسماعيل، وهي الأميرة التي سبق ونوهنا بتبرعها لبناء الجامعة المصرية سواء بمجوهراتها والأرض التي أقيمت عليها، في الوقت الذي شملت أفراح الأنجال كذلك زواج ثلاثة من أولاد الخديو إسماعيل هم محمد توفيق وحسن وحسين كامل!

كان الأمير محمد طوسون قد سبق له الزواج وأنجب بين أولاده عمر الذي ظل وفياً للإسكندرية التي شهدت مولده في سبتمبر عام ١٨٧٢، بينما فضل معظم أمراء أسرة محمد علي الإقامة بالقاهرة مركز الحكم والنفوذ، وعلى نهجه كان ابنه الأمير الحفيد عمر طوسون الذي لقب بأمير الإسكندرية، فضلاً عن العديد من الألقاب الدالة على ميوله ونشاطاته السياسية والاجتماعية والثقافية المتباينة، وبينها نصير الفقراء ونصير فلسطين ونصير السودان ونصير العلم... إلخ.

فقد الأمير والده وهو في الرابعة من عمره، وتولت تربيته جدته لأبيه التي حرصت على أن ينال أرقى تعليم آنذاك في قصره عبر مجموعة من المدرسين الأكفاء، وبعدها استكمل تعليمه الأكاديمي في سويسرا، ولم تسمح جدته بعودته إلى مصر قبل أن يقوم بجولة لكسب المعارف ميدانياً في ربوع أوروبا، حيث أجاد اللغات الإنجليزية والفرنسية والتركية، كما نهل قسطاً وافراً من العلوم والثقافة والفنون التي أهلته للقيام بدور مقدر في نهضة بلاده بعد عودته إلى مصر، حيث تفرغ في البداية لإدارة أملاكه الزراعية وتطويرها حتى تضاعفت ثروته، وهي نفس البدايات الناجحة في حياة جده الخديو إسماعيل، مما حدا بالبعض من الأمراء أن يسندوا إليه إدارة تفاتيشهم الزراعية!

ورغم أن تلك النجاحات كانت تعود عليه بالمنافع الشخصية، إلا أنه كان حريصاً على النفع العام، حيث استوعب في إدارتها الآلاف من الفلاحين والمهندسين والفنيين الذين تعهدهم بالتعليم والتدريب، كما فتح أبواب الوظائف للمسيحيين والسوريين «الشوام» انطلاقاً من إيمانه بالوحدة الوطنية القومية!

كان الأمير عمر طوسون يختلف عن أمراء الأسرة العلوية في حسن التعامل والاختلاط بالعوام من أبناء الشعب المصري، وأكثرهم فهماً وتجاوباً مع الفلاحين الذين كانوا يعملون في مزارعه، حيث أسقط عنهم الضرائب والديون التي كانت تسود حياتهم وتكبل طموحهم، بل وتنازل لهم عن مساحات شاسعة من أملاكه الزراعية، بقدر انفتاحه السياسي من بعد على القضايا الوطنية والعربية والإسلامية، فهو الذي أهاب بالمصريين مد يد العون السياسي والإنساني لنصرة الإمبراطورية العثمانية إبان خوضها الحرب ضد إيطاليا، ثم في حربها الثانية ضد البلقان، لكن تشاء تصاريف القدر أن ينتصر الحلفاء وتُحتل عاصمة الخلافة العثمانية ويسقط السلطان عبدالمجيد، فيما يذكر له التاريخ دوره الشخصي ضمن صفوف المقاومة العربية في الدفاع عن طرابلس الغرب «ليبيا» عام ١٩١٠،

أمام الشائعات حول أطماعه في العرش انصرف الأمير عمر طوسون إلى بدائل للعمل السياسي



وقيادته حملة الهلال الأحمر لإغاثة منكوبيها، ثم التفرغ للدفاع عنها في الصحف والمحافل الدولية.

القضية الفلسطينية والحركة الصهيونية

كذلك حظيت القضية الفلسطينية بدعمه، حيث شن حملاته السياسية الدعائية المعارضة لسياسات بريطانيا التي كانت تمالئ الحركة الصهيونية، وإليه يرجع الفضل في طرح فكرة تشكيل الوفد المصري لعرض حقوق مصر الوطنية في الاستقلال عن بريطانيا على مؤتمر الصلح في فرساي عام ١٩١٨، فلما طرح الفكرة على سعد زغلول وافق عليها وتبناها بالفعل لكنه استبعده من بين شخصيات الوفد، وحتى كتب سعد زغلول في مذكراته يعترف بانفراده بالفكرة بعيدا عن صاحبها وأنه كان يستحق عليها تمثالاً من الذهب، وكان عمر طوسون قد استاء من هذا الاستبعاد، لكن سعد زغلول عاود الاتصال به واسترضاه، فكان دعمه له بلا حدود إبان ثورة ١٩١٩، فيما كان دوره مشهوداً في قيام حزب الوفد، رغم أنه كان من أنصار الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل.

ويذكر التاريخ أن أكثر الرجال إنفاقاً في هذه المرحلة كان الثري الأمثل أحمد باشا المنشاوي الذي أوقف ألف فدان على الأعمال الحربية، بينما كان الأمير عمر طوسون يوظف تبرعاته السخية بشكل مؤسسي على نشاطات الجمعية الخيرية الإسلامية بعدما تعثرت مالياً وكادت تتوقف عن أداء رسالتها، بل وامتد عطاؤه بالتوازي في دعم مشروعات الجمعية القبطية، كما تبرع لمدرسة البطريركية الأرثوذكسية وعلى المشغل البطرسي وعلى جمعيات الشبان المسلمين والمواساة والعروة الوثقى!

الأورطة المصرية في المكسيك

إلى ذلك كان نشاطه غاية في الحيوية والأهمية على صعيد الترقية النوعية للزراعة في مصر، إثر رئاسته للجمعية الزراعية الملكية التي كان قد أسسها السلطان حسين كامل، وخصص مكافأة مالية قدرها خمسة عشر ألف جنيه لمن يبتكر علاجاً لإبادة دودة القطن الذي كان يمثل عماد الدخل القومي وقتئذ!

على أن الأمير عمر طوسون كان له شأن ثقافي رفيع، فهو كان ضليعاً في اللغة العربية واعيا بتراثها ونثرها وشعرها وكان له أسلوب رصين ورشيق. وقد تجلى ذلك في مؤلفاته ومقالاته العديدة بالعربية والفرنسية، وبينها ما يتعلق بالشئون العسكرية مثل كتابه عن الجيش المصري في عهد محمد علي بعنوان: «صفحات من تاريخ مصر والجيش البري والبحري» ثم كتابه عن «الأورطة المصرية في حرب المكسيك»، و«الجيش المصري في الحرب الروسية» المعروفة آنذاك بحرب القرم، وكتابه عن «الصنائع والمدارس الحربية»، ثم مذكراته عن تاريخ نهر النيل و«مصر في العصر العربي»، ثم كتابه الخطير عن ضحايا مصر في السودان الذي كشف مؤامرة الإنجليز في الوقيعة بين مصر والسودان. وكان قد أولى السودان بالدراسات العلمية والميدانية وبينها كتابه عن المديرية الاستوائية، وهو إلى ذلك كان يقتفي أثر رفاعة الطهطاوي عبر اكتشاف النجباء من أبناء السودان وتعهده برعايتهم وتعليمهم على نفقته الخاصة بمصر وأوروبا، إذ كان يرى مصر امتداداً شمالياً طبيعياً للسودان، كما أن السودان امتداد جنوبي طبيعي لمصر، وأن كلا البلدين لهما تاريخ واحد وأمن قومي متصل لا يتجزأ. وهو قد اختار في العشر سنوات التي سبقت رحيله في يناير ١٩٤٤ أن يهدي مؤلفاته ومكتبته النادرة إلى المتحف الحربي بالقاهرة والمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية وإلى بلدية القاهرة، حيث ورثت مكتبة الإسكندرية في عهدها الجديد كل هذا الزخم المعرفي والإبداعي!

أما على صعيد رحلاته الاستكشافية فينسب له شخصياً اكتشاف رأس تمثال الإسكندر الأكبر في خليج العقبة، ورغم صفحات العطاء بلا حدود التي خلدت الأمير عمر طوسون، فقد كانت له كبوة سياسية وطنية اعتذر عنها بعد فوات الأوان، حين تخلى عن دعم الاقتصادي الكبير طلعت حرب في النهوض بمشروع بنك مصر، لكنه كفر عن خطيئته بعدئذ عبر دعم «مشروع القرش» الذي دعا إليه أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة لإنشاء مصنع لإنتاج الطرابيش محلياً، إذ كان يتم استيرادها آنذاك من الخارج!

ويلاحظ أن الأمير عمر طوسون كان يتحاشى استياء الملك فؤاد من نشاطه السياسي. فكان يوظف طاقاته الفكرية والإبداعية في الكتابة تباعاً خاصة في صحيفة الأهرام التي رحبت بعرض مواقفه وآرائه منذ العشرينيات، وهي الفترة التي تزامنت مع ذلك العهد الذي هيمن على أوضاعه السياسية والأمنية إسماعيل صدقي عبر رجله زكي الإبراشي صاحب القبضة الحديدية!

المؤامرة على تقسيم السودان

وهكذا أمام كم وألوان الشائعات حول أطماعه في العرش انصرف الأمير عمر طوسون إلى بدائل للعمل السياسي، وأعطى اهتماماته للدراسات التاريخية، والتعبير عن آرائه الاجتماعية وكانت أقرب إلى مواقف الحزب الوطني، بالتوازي مع جهوده المتصلة في سبر أغوار المسألة السودانية، ويسجل عدد صحيفة الأهرام الصادر يوم ١١ أبريل ١٩٣٤ تلك الخطابات المتبادلة بينه والسيد علي الميرغني زعيم طائفة الختمية في السودان، ونعرف من خلالها كم كان الميرغني حريصاً على تمتين لحمة العلاقات التاريخية والأواصر الاجتماعية والثقافية والروحية بين الشعبين السوداني والمصري، وأن كليهما شركاء في السراء والضراء، ثم يشير إلى هبات الأمير السخية في إعمار المساجد وافتتاح المدارس والمعاهد بالسودان، وتلك المبرة الخيرية لخدمة الفقراء بأم درمان التي كان يتبرع لها بألف جنيه سنوياً.

ولعل ما يشي بمكانة السودان وأهميتها في جهود الأمير طوسون بناؤه لأول مسجد في مدينة واو بجنوب السودان وفتح قصوره بالإسكندرية والقاهرة لاستضافة زوار مصر من أهل السودان، ودعوته لإقامة كرسي أكاديمي باسم السودان في الجامعة، وقوله المأثور: «إذا لم نحكم السودان فليحاكمنا السودان».

قانون المناطق المقفولة

كان الأمير يستشعر المؤامرة الإنجليزية المبنية التي تهدد وحدة السودان في مقاله بالأهرام يوم ٢٩ مايو ١٩٣٣، حيث كشف الستار عن الأهداف الاستراتيجية المشبوهة وراء قانون المناطق المقفولة Closed Distiricts، وأنه عنوان يخفي وراءه سياسة بريطانيا الجنوبية The Southern، وهو ما دفعه إلى كشف الألاعيب الاستعمارية في جنوب السودان عام ١٩٣٧ عبر ثلاثة مجلدات من تآليفه بعنوان: «تاريخ مديرية خط الاستواء»، مؤكدا بالوثائق التاريخية والشهادات الثبوتية على الدور والمصالح المصرية في جنوب السودان مؤكدة على هويته السودانية المصرية!

ويؤكد الأمير في مؤلفه أن مصر تملك شواطئ بحيرة فيكتوريا وفقاً لمعاهدة ١٨٩٩ عندما كانت أوغندا تحت الإدارة المصرية. ووصف بسط بريطانيا حمايتها على أوغندا بأنه عمل غير شرعي، وأن بريطانيا بالانفراد بالمديرية الاستوائية فإنها تصبو بالتالي إلى فرض هيمنتها على نهر النيل من المنبع حتى مصبه في البحر الأبيض.

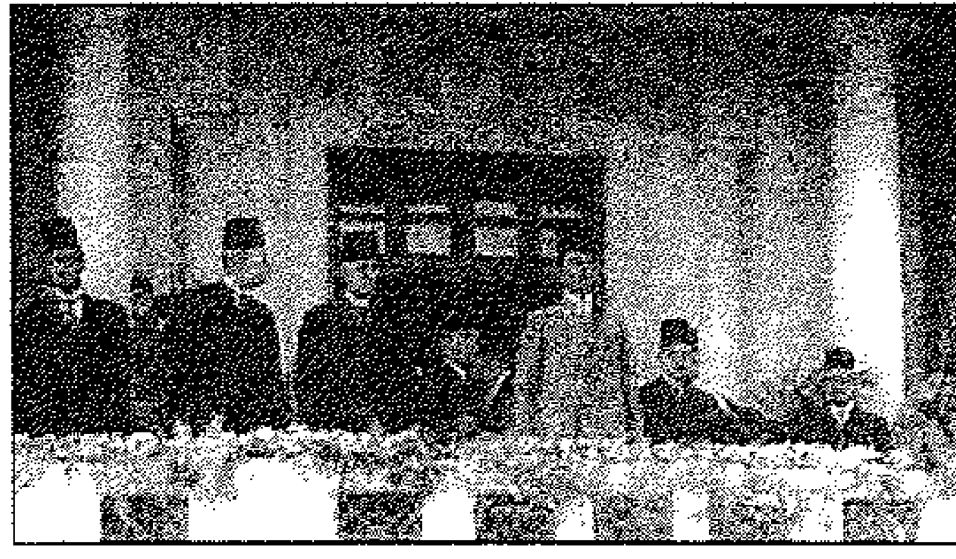
وساق واقعة تاريخية غير مهمة حول ضابط أمريكي يدعى شابي لونج كان قد أرسله الخديو إسماعيل لوضع تقرير ميداني عن جنوب السودان، وانتهت مهمته بوضع كتاب بعنوان: «مصر ومديرياتها المضيعة» أكد فيه اعتراف أمتيزا ملك أوغندا بأنه وضع مملكته تحت الحماية المصرية، وكيف جرى إلحاق جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة البرت بالحكم المصري مع فتح البحيرتين وروافدهما للملاحة.. وذلك يعد أوضح دليل على أن لمصر حقوقاً في تلك الأقطار على عكس المزاعم البريطانية.

كذلك كانت عناية الأمير عمر طوسون بجمع الوثائق والشهادات الدالة على ما كان للحكم المصري في هذه الأقطار من سياسات حضارية، وبينها كتاب «رحلة إلى أفريقيا» للرحالة الروسي الدكتور جونكر الذي شهد قائلاً: يرجع الفضل إلى المسلمين، الذين يعزي إليهم المثالب والمطاعن - في إلزام الزنوج بالعيش في سلام متحابين ومتعاونين مع غيرهم من القبائل المجاورة لهم، والإقامة في دورهم وزراعة حقولهم، وهو نهج إنساني عادل في الحكم يستحق التقدير!

أما المبشر فلكون الذي وضع كتاباً بعنوان: «أوغندا وسودان مصر» فيقول: يمكنني القول وأنا مطمئن الضمير هادئ البال عن هذه الأقطار الجنوبية التي يتولى سلطاتها أمين باشا مدير مديرية خط الاستواء، أن الأهالي يعيشون تحت رعايته في حالة أكثر رغداً وطمأنينة مما كانوا يعيشونه تحت رعاية ملوكهم الهمج!

ويذكر للأمير عمر





مجهولو المشاهير

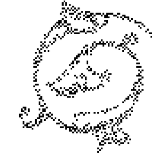
طوسون حثه للشيخ مصطفى المراغي رئيس جماعة الدفاع عن الإسلام في دعوة نشرتها الأهرام في ٦ يوليو ١٩٣٣ إلى ضرورة التصدي للسياسة البريطانية التي أباحت انفراد منظمات التبشير الاستعمارية بجنوب السودان والعمل على تنصير السكان وإجبارهم على الحديث بالإنجليزية أو الرطانة الأفريقية، وطالب جماعة علماء المسلمين بنشر الإسلام واللغة العربية، مشيراً بشكل ضمني إلى أن الإنجليز يؤسسون لجنوب زنجي مسيحي موال للغرب كحاجز بشري وعرقي لمنع التواصل الثقافي بين العرب والمسلمين وبين الأفارقة، توطئة لفصل الجنوب عن السودان الأم، وذلك ما نشهد بوادره اليوم عبر اتفاقية نيفاشا للسلام في جنوب السودان عام ٢٠٠٥ التي كرست قيام نظامين متقابلين في شمال وجنوب السودان!

وإذا كان التاريخ المصري يستنكر قيام سعيد باشا بإرسال أورطة من الجيش المصري من ذوي البشرة السمراء لدعم الجيش الفرنسي في حرب المكسيك بناء على طلب الإمبراطور نابليون الثالث، بدعوى ضعف مناعة الجيش الفرنسي من ذوي البشرة البيضاء أمام الأوبئة المنتشرة هناك، خاصة أنه لم يكن لمصر ناقة ولا جمل في هذه الحرب، إلا أن الأمير عمر طوسون أولى اهتماماته البحثية لهذه القضية، ورأى فيها محاولة من الخديو سعيد لتأكيد استقلال مصر عن الخلافة العثمانية، خاصة أن مهمة الأورطة المصرية لم تلق أي اهتمام تاريخي لاستجلاء دورها إثر الاحتلال البريطاني لمصر!

الوفد المصري إلى فرساي

على أن دور الأمير عمر طوسون الوطني على المسرح السياسي يستحق ولا شك مزيدا من الاهتمام والتنويه، فإلى جانب متابعاته النووية وكتاباته وبحوثه المهمة عن السودان، فقد شغل بالتوازي بالقضية الوطنية، فهو قد أقنع عدداً من الأمراء بإصدار بيان سياسي في سبتمبر ١٩٢٠ يستنكر «مشروع لجنة ملنر» كونه ينافي استقلال مصر والسودان، ويذكر أنه دعا إلى اجتماع للنخب السياسية وأعضاء الجمعية التشريعية والأعيان يوم الثلاثاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩١٨ في سراياه بشبرا للتداول حول اقتراحه الخاص بتشكيل وفد إلى مؤتمر الصلح في فرساي للمطالبة باستقلال مصر كما أسلفنا، لكن السلطات العسكرية بناء على الأحكام العرفية السائدة وقتئذ حالت دون عقد الاجتماع، فكان البديل دعوته إلى جمع آلاف التوقيعات من أعيان الشعب ورموزه السياسية والاجتماعية بالموافقة على تشكيل الوفد!

وفي الأول من مايو ١٩٢١ دعا في الأهرام إلى تفعيل النهج الديمقراطي الليبرالي الذي يتمثل في نظام الشوري بمصر، وقال إنه يعتقد أن الشورى هي الدواء الحاسم لكل خلاف، وهي الوسيلة الوحيدة لتقرير أمور الأمم ومصالحها العامة وقطع أسباب الاختلاف بينها، وقد فرضتها الشريعة الإسلامية، وأقرتها الأمم الراقية وبذلت في سبيل تقريرها المهج والأرواح.



بعدها بيومين كانت الإسكندرية قد شهدت اضطرابات وتجاوزات سياسية خلال المعركة الانتخابية وقتئذ، حيث بادر الأمير إلى شجب ما حدث وقال: «ما كنا ننتظر صدور هذا الشغب عبر قذف بيوت بعض المخالفين السياسيين بالطوب وفي الشوارع، وما كنا ننتظر صدور هذه الأفعال الشنعاء من أي مصري ونحن قوم نريد الاستقلال ونطالب بالحرية، وأساس هذا المبدأ احترام كل فريق لرأي الآخر وعدم الحظر على أحد وإن شذ في رأيه، وإذا لم نحترم هذا المبدأ فلماذا إذن نشكو من ضغط الإنجليز على حرياتنا!

وكتب لدولة حسين رشدي باشا رئيس لجنة الدستور يقول: «إن لجنة الدستور يجب أن يكون عملها مطابقاً لرغبات الأمة، وأن مسألة السودان من أمهات القضايا الشاغلة للرأي العام المصري، وأنه لذلك يذكر دولته بوجوب اعتبار السودان ضمن حدود البلاد، وأن يتم انتخاب نواب للسودان يؤدون دورهم على قدم المساواة والندية مع نواب الوجهين البحري والقبلي، وأن يعمل الجميع للمصلحة المشتركة التي لا انفصام لها أبدا!!

وحول رأيه في قانون الانتخابات قال: «إنني لست ممن يوافقون على تمييز بعض المصريين على البعض الآخر، وقصر حق الانتخاب على فريق دون الآخر، بعدما سوى الدستور بينهم وجعلهم في التشريع المصري متساوين في كل شيء، حتى إن القانون لا يعفي أحدا من المسئولية الجنائية، فإذا كانوا في الغرم سواء، يجب أن يكونوا كذلك في الغنم في كل ما يتعلق بالحقوق العامة!

وللأمير دعوة وطنية شهيرة على إثر استقالة وزارة ثروت باشا، وأنه من المتعين أن تكون الحكومة القادمة ائتلافية للعبور فوق الخلافات السياسية، ولأنها ضمانة للاستمرار حتى لا تلقى مصير ما جرى من حل البرلمان ونشر الفوضى في البلاد!

البطالة في الثلاثينيات

كان الأمير عمر طوسون قد أتحف عالم المطبوعات عام ١٩١٨ بسفر نفيس ضم آراءه في شئون مصر وشجونها وظروفها وأحوالها وإرهاصات المستقبل الذي ينتظرها، وعلى ما يبدو أنه كان متأثراً بظروف الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت العالم في ثلاثينيات القرن الماضي وانعكاساتها في مصر على صعيد تفاقم مشكلة البطالة، فراح يدعو المرأة إلى الانصراف لشئونها المنزلية والتفرغ لتربية الأولاد فحسب، حتى يجد الرجال فرصتهم في شغل الوظائف العامة، رغم قسط الأمير الوافر من الثقافة الأوروبية التي ساوت بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات دون تمييز.

والملاحظ أن الأهرام نشرت ذلك المقال بالتزامن مع مقال آخر في جريدة «الريفورم» التي كانت تصدر في القاهرة باللغة الفرنسية، ورصد فيها ما يحدث في الولايات المتحدة من آراء حول ظاهرة مزاحمة المرأة التي طغت على نصيب الرجل في ميدان الأعمال، إلى حد أن أحد الأساتذة ألقى محاضرة في الجامعة الأمريكية قال فيها: «إن الخطر كل الخطر على مدنيتنا ليس في الآلات الحديثة وإنما النساء العاملات اللاتي يتسببن في كارثة بطالة الرجال!».

معروف أن الأمير عمر طوسون درج على تربية نجليه وفقاً للتقاليد المصرية والنهل من معين الثقافة والعلوم الإسلامية، والحرص على مصاحبتهم له في جولاته الميدانية واستكشافاته الصحراوية مع ثلاثين من رجاله وحاشيته، حيث كانت تسبقه إليها عملية إعداد الخيام والخرائط والسيارات الجيب، فكان يقطع في اليوم الواحد ١٢٧ كيلو متراً، بادئاً رحلاته كالعادة من الواحات البحرية أو واحة الفرافرة، وهو أول من نبه إلى ضرورة استغلال منخفض القطارة عن سطح البحر بنحو ٢٤ متراً في مشروع لتوليد الكهرباء، ومد شبكة من الطرق للوصول إلى الواحات بسهولة والعناية بثرواتها من التمر وتنميتها زراعياً مع توافر المياه الجوفية، وكذا استغلال مياه العيون الباردة والدافئة في العلاج الطبيعي!

وللأمير ضمن ثمار استكشافاته الميدانية كتاب تاريخي باللغة الفرنسية عام ١٩٣١ عن أديرة ورهبان وادي النطرون، مسترشداً فيه بذاكرة وتوجيهات الأنبا يؤانس، ثم ألحقه بكتاب آخر بالعربية عن تاريخ البطاركة والأديرة البحرية، وكلا الكتابين يمثل مرجعاً مهماً حول نشأة حركة الرهبنة لأول مرة في العالم بوادي النساك أي وادي النطرون!

ثم تمضي ٦٦ عاماً على رحيل الأمير عمر طوسون في ٢٦ يناير ١٩٤٢ مخلفاً وراءه ذكرى عزيزة وسجلاً حافلاً بالعطاء الوطني والقومي، ونموذجاً يحتذى به في التواضع والتجرد من غطرسة وأنانية الأمراء عهدئذ، وكما هائلا في المواقف السياسية والاجتماعية المشرفة والإبداعات والاستكشافات غير المسبوقة، ثم تشاء مصادفة الاحتفال التسعيني بإنشاء الجامعة المصرية، أن يلبي عزيز حفيد الأمير عمر طوسون الدعوة لحضور المناسبة، حيث تسلم بنفسه درع الجامعة نيابة عن الأميرة الراحلة فاطمة ابنة الخديو إسماعيل اعتزازا بإسهاماتها في بنائها، ولم يكن ليتسنى له ذلك لولا إعادة الجنسية المصرية لأسرته التي حرمت منها وبقية أمراء وأميرات الأسرة العلوية، فكان حريصاً على زيارة مدرسة شبرا الثانوية التي كانت قصراً لجده الأمير عمر طوسون، حيث فوجئ بالعامة والبسطاء يصافحونه ويحتفون به في كرم ومودة، لكنه استاء خلال زيارته لقصر جده المنيف في حدائق أنطونيادس بالإسكندرية الذي شغلته في البداية ثلاث كليات تابعة لجامعة الإسكندرية، وإذا به اليوم مخزن بائس لمخلفات المدارس الحكومية، واستقطعت مساحة من حديقته الغناء في بناء مساكن شعبية قبيحة! ■

الكتب

وجهات نظر

رسائل وآراء

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

نحن وتركيا وأوباما

قرأت مقال «كيف ينتخبون رئيس العالم؟» للباحثة د. منار الشوربجي، عدد نوفمبر ٢٠٠٨ وفي الحقيقة فقد ذكرني هذا المقال بمقالها المنشور في عدد ديسمبر ٢٠٠٦ من «وجهات نظر» بعنوان «الديمقراطيون قادمون.. أين العرب؟» على إثر هزيمة الجمهوريين وحزب بوش في انتخابات التجديد النصفي. والذي يكتفي بقراءة المقال أو يسعى نحو الاستزادة فيطلع على كتاب الكاتبة الذي يشير إليه المقال سيفهم كثيرا من أغوار السياسة الأمريكية ودهاليزها، حيث هناك شركات عابرة للقارات وبنوك ومؤسسات مالية وميديا إعلامية جبارة. ناهيك عن اللوبي اليهودي وأخطبوطه، فجاء هذا الكتاب ليضع النقاط الحقيقية فوق الحروف الحقيقية بعد امتلاء الساحة العالمية بفعل الميديا الإعلامية كما أسلفنا بحروف مزيفة ونقاط مزيفة، ولذا كنا نأمل من المجلة أن تفرد صفحات أكثر لهذا الموضوع الذي واكب إجراء أهم انتخابات أمريكية شهدها العالم وأحدثت دويا هائلا وتمخضت لتخرج علينا بفوز رجل أسود اسمه أوباما كان فوزه أقرب إلى أمنية يستحيل تحقيقها.

هل أوباما سيراعي المصالح العربية أم لا، وهل سيحل القضية الفلسطينية أم لا؟ أثناء كتابة هذا السرد جاء خبر أن صباح اليوم قام الرئيس الأمريكي المنتخب باراك أوباما بتخصيص منصب كبير موظفي البيت الأبيض وهو منصب مهم جدا ليهودي إسرائيلي، كان أبوه زعيم عصابة في الأرجون في أربعينيات القرن المنصرم، وهو رام كمونتيل وهو يعتبر رئيس الطاقم السياسي لأوباما.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

في عدد أكتوبر ٢٠٠٨ من مجلة «وجهات نظر» وبمدخل فكري غير تقليدي حدثنا د. حلمي محمد القاعود عن مدينة كانت في يوم من الأيام عاصمة الخلافة الإسلامية «القسطنطينية»، وبدأ المقال بتعريف المدينة وأسمائها وتاريخ فتحها على يد السلطان محمد الفاتح والذي بفتحه هذه المدينة كما يقول الكاتب حقق نبوءة النبي- صلى الله عليه وسلم- عندما قال في حديثه الشريف: فلتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها، كما يقول أيضاً بأن هذا الفتح كان بشارة الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، ثم يلج بنا الكاتب إلى سرد كل ما عرفه وشاهده في هذه المدينة وذلك في مستهل حضوره مؤتمرا علميا هناك. ففي سياق المقال يقص علينا وقائع ومشاهدات كثيرة، ولا ينسى الكاتب المهموم بشئون بلده مصر بأن يتحسر على ما وصلت إليه الحياة في أرض الكنانة، مقارنة بما وصلت إليه الحال من ازدهار وتحسن في أرض الخلافة، والتي كانوا يسمونها زمان بالرجل المريض، وكانت تتصف برمز التخلف العلمي والجهل. فيقارن الكاتب بما رآه في اسطنبول من توفير وبكميات هائلة لرغيف الخبز وبما يراه ورآه المهتمون بطابور الخبز عندنا في مصر حتى أصبحت هناك أزمة، وهناك شهداء سموا لأول مرة شهداء الخبز وهذا نتيجة لعاركهم للظفر بعشرة أو خمسة أرغفة للأسرة، ثم قارن بحال الطرق والمواصلات عندنا وعندهم ثم تطرق إلى مقارنة رجال الأعمال عندنا وعندهم، فرجال الأعمال عندهم ينهضون بالبلد ويقيمون المشاريع، فهم أكسير الحياة في اسطنبول، أما عندنا فهذه الطبقة أو هذا اللفظ من رجال الأعمال أصبح سيئ السمعة، حيث أصبحوا رموزا للنهب والسرقة والاحتيال والهروب من الأحكام، وكيف تحقق كل هذا بفعل حزب العدالة والتنمية. ويبين الكاتب كيف تحقق على يديه الكثير من الخيرات لهذا البلد وكيف فعل الحزب الحاكم الوسطي المعتدل والذي أرضى كل الأطراف في بلد تتنوع مذاهبه الفكرية من علمانية وغيرها.





هذا المقال يشحذ الهمم لشعوبنا العربية، خاصة مصر للتشبه بهذا البلد العريق وهذا الحزب المعتدل وبنوه لدعاة الفكر والأيديولوجية الإسلامية في مصر أن يعدلوا من أفكارهم بما يتواءم مع ركب الحضارة والعولمة كما فعل أردوغان وصعد وصار إلى ما وصلت إليه البلاد، ولكن عندنا في العالم العربي وخاصة مصر، الأمثلة واضحة أمامهم ودعاة الإصلاح كثيرون ولكن للأسف يصدق فيهم قول القائل:

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

تحياتي للكاتب ولإدارة المجلة.

صابر محمد عبدالواحد
سوهاج - أخميم

▪ ▪ ▪

الحقبـة الهيكليـة

أسعدتنا مشاركة أستاذنا الكبير سلامة أحمد سلامة في عدد أكتوبر الماضي بعد نأي وابتعاد عز علينا جميعاً لأنه صاحب قلم عاقل عفيف هادئ متزن.. ندعو الله أن يمتعه بالصحة التي أدى اعتلالها لابتعاده عنا نحن قراء «وجهات نظر».. وكان من الطبيعي أن تكون عودة الأستاذ سلامة للكتابة هي مناسبة الاحتفال ببلوغ أستاذنا الأكبر هيكل الذي أصبح منارة سامقة لا تخبو شعلتها عبر السنين تهدي الحيارى والتائهين في زمن ضبابي داكن، بل حالك الظلمات شاع فيه الجهل والجهلاء والزيف والتسطيح.. لكن وسط كل هذا فإن نصف القرن الماضي يمكن أن يسمى «الحقبة الهيكلية» لأن الأستاذ هيكل مازال يمثل الذاكرة الموثقة للوطن ورأيه هو الأفضل بين حكماء الوطن..

أستاذنا هيكل.. متعك الله بالصحة وأمد الله في عمرك كي تنفعنا أكثر وينتفع بك أبناؤنا وشكراً للمجلة..

د/ سمير عنتر
استشاري الحميات - الهرم



المسيري.. والسادات

نعم، الكتب.. وجهات نظر «ربما إلا قليلا»، والمقالات أيضا.. «ربما بمستوى قطعي»، فالأصل هو أن من حق أي إنسان، أن تكون له وجهة نظر.. لكن مسألتي الإعلان والتبليغ بالنسبة لوجهة النظر أمر آخر تماماً.

أستطيع أن أقف في أي مكان.. شارع، مسجد، كنيسة، مقهى، غرزة، خمارة.. وأعلن وجهة نظري متحملاً كل المسئولية.. لكن أن أكلف شخصا أو جهة بإعلان وتبليغ وجهة نظري للآخرين.. فهنا يستحيل التمسك بحقي وحريتي.. لأني لم أعد مسئولاً وحدي عن وجهة نظري. حتى العبارة المشهورة بأن.. رأي الكاتب لا يعبر بالضرورة عن رأي الصحيفة أو المجلة هي عبارة مشبوهة.. لأن أي صحيفة أو مجلة، مفروض أن لها رسالة تحدد شكل ومضمون ما تنشره.

في عدد أغسطس يتكلم الأستاذ فضل النقيب عن المسيري.. وهناك نمط واجب لمثل هذا التناول لا يعطيه حق الخروج لقضايا خلافية لم ولن تحسم، ليدلي فيها برأي (عن الثورة والسادات وغيرهما).

نعم هو حر في رأيه وفي صياغته.. لكنك لست حراً في نشره...

لا نريد تغيير ذلك المذاق الجليل لمجلتكم.. فأرجوكم أرجوكم التدقيق.

أبو مجد - محمد الفطايري

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

من هم اليهود وما هى اليهودية؟

عبدالوهاب المسيرى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٣٩٤ صفحة



هذا هو الموضوع الأثير الذى خصص له الراحل الكبير عبدالوهاب المسيرى، جل جهاده الفكرى، باحثاً فى أصل اليهود واليهودية، وتجليات العقيدة التى تم تشويهها وتسييسها على مدى قرون فى حياة هؤلاء الناس، الذين توزعوا على قارات العالم أجمع، وكانوا بمثابة إشكالية كبرى سعى الغرب إلى تصديرها إلى مجتمعاتنا، وصدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ٩٧ وتوالت طبعاته بزيادات وتنقيحات أملاها الجهد البحثى المتواصل للمؤلف ومجموعة الباحثين الذين يعملون تحت إشرافه.

يخصص المؤلف الباب الأول للجماعات اليهودية، كاشفاً عن تنوع هوياتها وثقافتها ومآربها: السفارديم، الأشكناز، يهود الهند، يهود الصين، يهود القوقاز، اليهود السود، الخرز، المارانو، وجماعات صغيرة أخرى، ويلاحظ المؤلف تبايناً كبيراً بين هذه الجماعات برغم كونها جميعاً يهودية، ويفرد فصلاً فى هذا الباب، يخصصه للهويات اليهودية وخريطتها العامة، واندثار بعضها.

ويدرس فى الباب الثانى تواريخ وثقافات وفنون الجماعات اليهودية، من رقص وغناء وتشكيل وفلكلور وأزياء وموسيقى، ويطرح فى الباب الثالث تساؤلات حول أزمة الهوية اليهودية، خصوصاً الإشكالات المتعلقة بالمسألة الديموجرافية والجغرافية السياسية وتعريف اليهودى والهولوكوست وقانون العودة وغيرها، وفى الفصل الثالث من هذا الباب يناقش عدداً من المظاهر التى تؤكد غياب المرجعية الأخلاقية والمعايير الحاكمة للمجتمع اليهودى مثل التهويد العلمانى والشذوذ الجنسى وتصاعد التوجه نحو اللذة وغيرها.

وينفى المؤلف فكرة انهيار المجتمع الصهيونى من داخله استناداً إلى أزماته المتنوعة والمتصاعدة، كما ينفى أن يكون بدراسته لتناقضات المجتمع الصهيونى ورصده لمشاكله وهزائمه، يتبنى ويبشر بهذه الفكرة، فهذا على حد قوله أبعد ما يكون عن الحقيقة، فالمجتمع الصهيونى برأيه لن ينهار من الداخل، لأن مقومات حياته ليست من داخله، وإنما من خارجه، إذ يوجد عنصران يضمنان استمراره رغم كل ما يعتريه من تناقضات، وهما الدعم الأمريكى والغياب العربى.

وينبه المؤلف قارئه، إلى اعتماده أسلوب «الوحدة الفضفاض» فى الكتاب، بديلاً عن الوحدة العنصرية، أى أن بعض الأجزاء قد تبدو غير مترابطة ظاهرياً، وإن كان النظر إليها فى الإطار الأشمل يسير إلى ترابطها مع الأجزاء الأخرى، وميزة هذا الأسلوب برأيه، أن يسمح باستحضار كل المعلومات والمعطيات وعدم إغفال بعضها لتحقيق الوحدة العضوية للكتاب، حتى وإن بدت بعض الأجزاء غير مترابطة مع سواها.

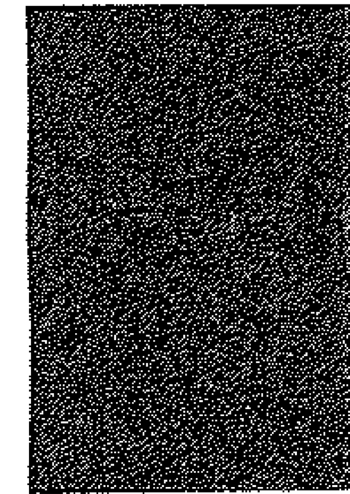
■

مريم المسلمة

ميشيل دوس

ترجمة: عبود كاسوحة

بيروت: شركة قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨



إن الولاء لمريم بكل ورع وخشوع يغوص عميقاً فى إيمان المسيحيين وعبادتهم، حتى ليشعر بعضهم بشىء من العناء، ناهيك عن التحفظ، حيال التصور بأن وحياً آخر، وهو هنا القرآن، يمكن أن يعلن بدوره عن نصيبه فى هذا الولاء استناداً إلى قرينته الخاصة. فكيف لصورة مريم أن يتم إدماجها ضمن بيئة تدوينية غير بيئة الأناجيل، من دون أن يؤدى هذا الواقع وحده إلى النيل منها أو التقليل من قيمتها؟

تظهر صفحات هذا الكتاب كيف أن صورة مريم فى القرآن ليست أقل تمجيداً عنها فى الأناجيل، وأن سرها لا يقل مركزية، بل إن مكانتها فى إيثار الله للناس وقصده حيالهم، ماثل فيه ضمن بعض المقاطع، مثولاً أكثر توسعاً وتفصيلاً.

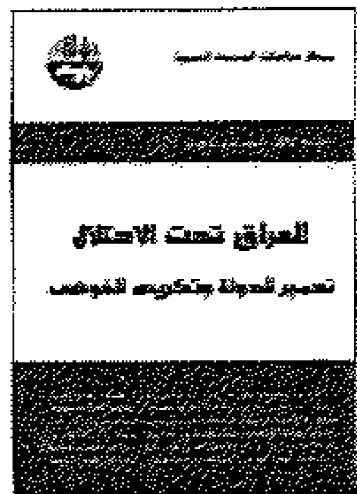
يعتمد ميشيل دوس الأستاذ فى تاريخ الديانات، والاختصاصى فى الديانات التوحيدية الإبراهيمية، على النص القرآنى، ليبين كيف أن تراكب الصور هذا، يجعل القرآن يسترجع العلاقة بين التوراة والإنجيل. وهو يلقى إضاءة جديدة على وضع المرأة فى نظر الله، وعلى العهد والاصطفاء والنذر، والعلاقة الفعالة بين المعبد والبرية، وتبرز صورة مريم، لدى الانتهاء من هذا التحليل الدقيق، أحد المفاتيح الرئيسية فى تفسير القرآن.

■

العراق تحت الاحتلال: تدمير الدولة وتكريس الفوضى

مجموعة من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ٤٣٠ صفحة



أضحى الوضع بأسره فى العراق اليوم كارثة بحد ذاتها، بكل ما تحمله هذه الكلمة من أبعاد ودلالات: كارثة يدفع ثمنها العراق وشعبه ومستقبله، وكارثة يدفع ثمنها المحيط الإقليمى للعراق والوضع العربى وأمريكا فى أبنائها ومالها ونفوذها الذى أصابه الوهن والتراجع. ولذا فإن كل ما يكتب اليوم فى إطار حالة العراق لا يخرج من توصيف تداعيات الاحتلال ونتائجه. والدروس المستنبطة من ذلك هى حزمة الحقائق التى لا يمكن إغفالها، وفى المقدمة من ذلك أن المشروع الاستعمارى، أى مشروع، وفى كل زمان ومكان محكوم بنهاية واحدة، فلم يشهد التاريخ أن حقق الاستعمار، مهما كانت صيغه وأشكاله نجاحاً دائماً، بل إن نهايته، وإن تباينت أشكالها وتفاوتت مواقيتها، محكومة بالزوال. ولا تبقى إلا حقيقة واحدة ثابتة، هى قدرة الشعوب على تجديد تاريخها بفواصل زمنية محكومة بالتضحيات الكبيرة وموسومة بالانتصار والظفر الحاسم. ومركز دراسات الوحدة العربية، وفى إطار اهتماماته الفكرية بقضايا النضال القومى، قد وضع قضية العراق فى صلب اهتماماته ومحور نشاطاته، ليس لأن العراق بلد عربى تعرض للاحتلال والتدمير فحسب، بل لأن قضية العراق ترتبط بالنضال القومى التحررى ضد الهيمنة والعدوان، كما هو الحال فى قضية فلسطين، وكل قضايا النضال القومى التحررى من المحيط إلى الخليج.

ودراسات هذا الكتاب تعرض جوانب عديدة من قضية العراق فى مواجهة الاحتلال وتداعياته، كتبت بأقلام أجنبية، وعربية ومنها عراقية، وهى شهادات توثق قدرة الأمة العربية على المقاومة والمجابهة، وتؤكد حتمية انتصار شعب العراق والأمة العربية إزاء كل محاولات الاحتواء والمصادرة والهيمنة.

إنها شهادات عن مرحلة حاسمة فى نضال الأمة العربية، والعراق بشكل خاص، من أجل الحرية والكرامة.

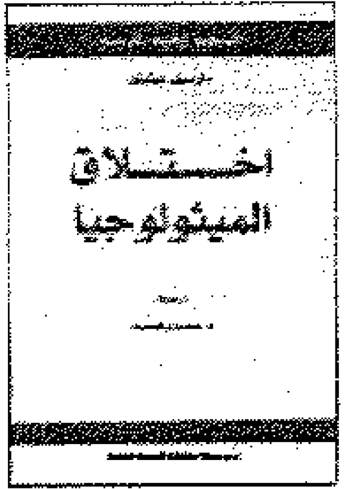
■

اختلاق الميثولوجيا

مارسيل ديتيان

ترجمة: د. مصباح الصمد

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨



من اختلق الميثولوجيا؟ وما هى حدود هذا الميدان المسكون بحكايات لا يطالها النسيان، وتبقى مقترنة بلذة روايتها وبالحرص على تفسيرها وتأويلها؟ وإذا كان صحيحاً أن كل قارئ فى العالم يعتبر الأسطورة أسطورة بالفعل، فما الذى يجعل علم الأساطير لا يزال عاجزاً عن التمييز، بدقة بين قصة وأسطورة؟

وعلى غرار سمكة ذائبة فى مياه الميثولوجيا، فإن الأسطورة شكل لا يمكن العثور عليه، فلا هى نوع أدبى، ولا هى سرد ذو خصوصية، لكن الحديث عن الميثولوجيا كان ولا يزال، وبصورة مباشرة أو موارية، يعنى الحديث بالإغريقية أو انطلاقاً من بلاد الإغريق.

من هنا كانت ضرورة البحث فى نسب الميثولوجيا، لكى نعيد التفكير فيها، كمادة معرفة، ومادة ثقافة أيضاً.

■

احجز مقعدك فى الجنة

جمال الشاعر

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ١٦٠ صفحة



يخوض جمال الشاعر، بكتابه الجديد «احجز مقعدك فى الجنة»، الصادر عن الدار المصرية اللبنانية، مناطق إيمانية ودينية

يغفل الكثيرون عن الانتباه إليها، فعبر ثلاثين طريقة يمكن للمؤمن أن يحجز مقعده فى الجنة إذا اتبعها، وكلها أمور بسيطة لا تكلف الإنسان شيئاً سواء بالقول أو الفعل، الكتاب ليس بحثاً فى الدين أو اقتراباً من الفتوى، إنه تذكرة من صديق يهمس فى أذنك: الجنة فى انتظارك، فتعال معنا لنحصل على الجائزة الكبرى، وهى كما قال الشيخ الشعراوى: «رؤية النعمة فى الدنيا والمنعم فى الآخرة».. وقبل أن تحجز مقعدك فى المنصب، أو تجلس فى مقعد رجل الأعمال أو.. أو.. ابحث عن مقعدك فى الجنة بعد أن تجيب عن هذه الأسئلة التى هى شرط هذا الحجز:

- هل تصلى الفجر حاضراً؟
- كيف تصلى الصلوات الخمس؟
- ماذا تفعل حين يمرض أحد جيرانك أو زملائك أو أقاربك؟
- على أية شاكلة تفضل التصدق.. علانية أم سراً؟
- أين تضع المصحف الشريف.. فى السيارة، فى المنزل، أم فى قلبك؟ قال صلى الله عليه وسلم: «من ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب».
- كيف تستعد لصيام رمضان؟ هل تحسن الصيام؟ هل تقوم ليلة القدر؟ هل تصوم الاثنين والخميس والليالى القمرية؟

وهكذا يجعل جمال الشاعر بحس الفنان، وروح المؤمن من حجز مقعد فى الجنة أمراً يسيراً وبسيطاً، فهو لا يفتى بل ينصح.. لا يأمر، بل يشير إلى الطريق، لا يعقد الأمور كما يفعل بعض الدعاة، بل يفضفض بأسلوب رشيق وتأملات عميقة حول سعة الإسلام ويسره، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يفرح بعبده التائب أكثر من فرحة الأم بابنها، وإليك خريطة الطريق للحصول على مقعد فى الجنة:

- أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن.
- المؤمن لا يقرب الشبهات: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك.
- سد الذرائع مقدم على جلب المنافع.
- ديمومة الإخلاص.
- إغاثة الملهوف، وفك كرب المكروب، والمعسر، وستر أسرار الناس.
- التحفيز على فعل الخيرات، فالدال على الخير كفاعله.
- مخالطة الصالحين.

وفى شرح ذلك يذهب جمال الشاعر إلى مشاهد واقعية تصادفنا فى الحياة اليومية، يمكن أن نخرج منها بزاد روحى وفير، بدل أن نجعلها سبباً فى معصية، حتى إنه يذهب إلى عفاريت الإنترنت والثقافة الأمريكية الشائعة بين الشباب، من خلال الجنس الإلكترونى، فبدل أن نستفيد علمياً وثقافياً نذهب إلى الطريق الآخر، والحل أن نذهب إلى الأطفال ونعد لهم برامج دينية مناسبة لهم، فمن يستطيع أن يجذب الأطفال إلى الدين فسيغير شكل المجتمع.

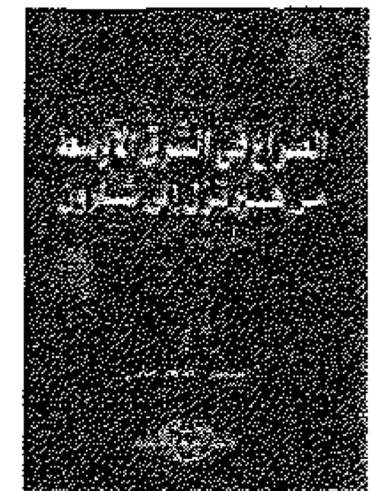
كما أن العلم، وهو الفريضة الغائبة فى حياتنا، يعد واحداً من أهم الطرق التى تقربنا من الله، وهو الأداة التى تجيب عن السؤال الأهم: لماذا تقدم الآخرون وتأخر المسلمون؟ فهل نحن لدينا إحساس عميق بالعجز فى مواجهة العلم، بدعوى أن كل اكتشافات الغرب قديمة لأنها موجودة فى الإسلام؟!

كتاب جمال الشاعر «احجز مقعدك فى الجنة»، سياحة روحية مع الأفكار الإسلامية ومشكلات المسلمين، وهذه طبعته الثانية، بعد أن نفدت الطبعة الأولى فى شهور قلائل. يقول جمال الشاعر: فى مكة بجوار الحرم قابلت مهاجرين مسلمين أمريكيين قرأوا الطبعة الأولى وطلبوا المزيد، ومن كندا جاءتنى رسائل تطلب طبعة ثانية، ومن السعودية، ومن دول عربية وإسلامية مختلفة، وهذه الطبعة هديته مع الدار المصرية اللبنانية إلى القراء الكرام.

الصراع فى الشرق الأوسط من هيرتزل إلى شارون

طاهر شاش

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨، ٢٣٠ صفحة



فى حربى ١٩٥٦ و١٩٦٧ قتلت إسرائيل الأسرى المدنيين المصريين العزل بدم بارد وبوحشية بالغة.. أمرتهم بحفر قبورهم بأيديهم، وأطلقت الرصاص على رءوسهم.

فى عام ١٩٤٧ و١٩٤٨، طردت إسرائيل ٧٥٠ ألف فلسطينى ليصبحوا لاجئين، ورفضت عودتهم فى حين فتحت أبوابها لليهود القادمين من جميع أنحاء العالم.

منذ يونيو ١٩٦٧ فرضت إسرائيل احتلالها غير المشروع للأراضى العربية، وقامت بفرض الأمر الواقع فيها.. بإحداث التغييرات الجغرافية والسكانية والإدارية لتتمكن من ضم أجزاء كبيرة منها، وأخضعت الشعب الفلسطينى لأقسى أشكال القمع.

ضربت عرض الحائط بمبادئ القانون الدولى وقرارات الشرعية الدولية، على الرغم من توجه العرب للسلام وتقديمهم التنازلات بما فى ذلك مبادرة القمة العربية فى بيروت، لا تزال إسرائيل تعرقل كافة المساعى، وتواصل العمليات الاستيطانية وإجراءات التهويد فى الأراضى العربية المحتلة.

ترتبط إسرائيل مع الولايات المتحدة بعلاقات خاصة تتمثل فى دعم الدولة العبرية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، ويلعب اللوبى الإسرائيلى دوراً خطراً فى توجيه السياسة الأمريكية لخدمة الأهداف الإسرائيلية، الأمر الذى أدى إلى غزو العراق والتهديد بضرب إيران وحصار سوريا.

وهذا الكتاب هو محاولة موضوعية لشرح أبعاد هذه السياسة العدوانية وتفسير أسبابها، الأمر الذى اقتضى إلقاء بعض الضوء على التراث الدينى والتاريخى لليهود وعلى الحركة الصهيونية وأهدافها ووسائلها، فضلاً عن علاقة هذه الحركة ودولة إسرائيل بالدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

المسلمون والديمقراطية

معتز بالله عبدالفتاح

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٣٠٣ صفحات



يسعى هذا الكتاب للإجابة عن تساؤلات تؤرق النخبة والعامة معاً فى العالم الإسلامى، الذين لا تحظى دولهم فى عمومها بما يحظى به «الغرب الصليبى العلمانى» من حرية وديمقراطية، ومن ثم فإن التساؤلات حول الديمقراطية على دقتها وتعقيدها تبقى مشروعة، ومنها مثلاً: هل القيم الإسلامية بطبيعتها ضد الديمقراطية، وهل لهذه القيم أسانيد فى الشريعة الإسلامية وفى الأصل القرآنى، فإذا كانت الإجابة بلا، وهى فعلاً كذلك، يحق لنا أن نتساءل عن العوامل الأخرى التى تحول بين ديار المسلمين والتحول الديمقراطى.

هذا الكتاب يحاول الإجابة عن هذه التساؤلات عبر الجمع بين أساليب ثلاثة فى جمع البيانات، أولاً: تحليل مضمون الكتابات التى تربط بين الإسلام ونظام الحكم، إضافة إلى مقابلات شخصية مع مجموعة من أصحاب هذه الكتابات، وثانياً: دراسة وتحليل عدد من استطلاعات الرأى التى تكشف عن توجهات الأفراد نحو الديمقراطية والعوامل التى تشكل هذه التوجهات، وثالثاً: مناقشات معمقة مع مجموعات نقاش مركز فى أحد عشر مجتمعاً ذى أغلبية مسلمة.

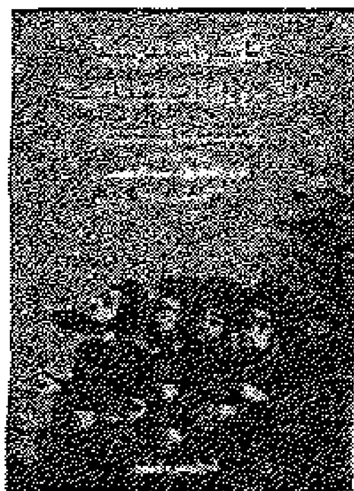
بين الاستنتاجات الدالة مثلاً التى أفرزها التعرف على آراء النخبة والأفراد فى التحول الديمقراطى، أن الطبقات الوسطى قد تكون أقل تأييداً للديمقراطية إذا كانت تترقب ثروة قادمة، أو كانت تعتمد فى تكديس هذه الثروة على مزايا حكومية، هذا فى المجتمعات الغربية، أما فى المجتمعات الإسلامية فإن وجود الثروة أو غيابها ليس له تأثير بالإيجاب أو السلب على الديمقراطية، وهذا يمثل استثناء واضحاً، إذ تزدهر الديمقراطية فى دول العالم التى يزيد فيها دخل الفرد. وفى المجتمعات الإسلامية، هناك تباين واضح فى هذه المسألة من مجتمع إلى آخر. ويلاحظ المؤلف أن هناك تأثيراً سلبياً لارتفاع مستوى التعليم على التوجه نحو الديمقراطية فى السعودية والإمارات. أما الأولى فلأن مناهج التعليم تكرس فكرة عدم التسامح مع الآخر، ويرجح المؤلف أن يكون السبب فى عدم قبول الديمقراطية لدى المتعلمين فى الإمارات إلى العمر، إذ يميل الأشخاص الأكبر سناً إلى عدم التسامح أو قبول الآخر.

وفيما يتعلق بتأثير التدين على قبول القيم الديمقراطية وشيوع التسامح، يشير المؤلف إلى أن التدين فى ذاته لا يقف عائقاً ضد تبنى المسلمين لقيم الديمقراطية، وإنما ارتباطه بخطاب متشدد أو منغلق يزيد الفجوة بين أبناء الوطن الواحد. استنتاجات علمية غزيرة ومعمقة يقدمها المؤلف فى هذا الكتاب، تجيب على السؤال الأهم: لماذا تغيب الديمقراطية عن بلاد المسلمين؟

تأثيرات عربية فى روايات إسبانية

عبداللطيف عبدالحليم

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ١٦٦ صفحة



قدم الامتزاج العربى الأندلسى أكبر نموذج على اختلاط الحضارات والثقافات، وذلك بسبب سيطرة الخلافة الإسلامية لمدة ثمانية قرون على الأندلس، فانتقل الأدب العربى بكل أجناسه كالمقامة والشعر والنثر إلى اللغة الإسبانية، مما قدم إلى العرب والإسبان وليمة تراثية جديدة

ينهلون منها حتى يملأوا كتبهم ودواوينهم، وذلك لاختلاف طبيعة المكان والشخوص، ويرصد المؤلف هنا عددا من الحكايات التى انتشرت فى إسبانيا وهى من أصول عربية مثل حكاية أكل الترمس الذى جاء عليه العيد دون أن يكون معه ما يأكله إلا حبات الترمس، فأخذ يسأل أهناك من أرق منى حالاً فإذا بأحد المارة يلتقط قشر الترمس ليأكله فعرف أنها رسالة من الله انتقلت إلى كتاب له عن خوان مانويل متحولة إلى رسالة نصح، ومن كتاب الملح الإسبانية التى جمعها باث وميليا قدم المؤلف حكاية التينات الثلاث، والخطيب الذى يرتج عليه، والمحارب الذى لا مخ له. ويقدم المؤلف الأصول العربية لهذه الحكايات وغيرها كحكايات اللصوص فى الأدب الإسبانى فى القرن السابع عشر. لقد لعبت المصنفات الشعبية العربية دوراً ملموساً فى مصنفات الأدب الشعبى الإسبانى، وينبغى أن تفهم أن الشعبية هى مصنفات فصيحة يتناقلها «الشعب»، ترضى نزعته الفنية والخلقية والشخصية، التى تروق لها النادرة، والقصة بمفهومها الساذج، والمثل المأثور، وبين الشعر الرائق، والحكمة البليغة وكتب هذا النوع من العربية كثيرة منها: فاكهة الخلفاء لابن عربشاه، وسراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى، وغيرها مما ساهم فى تغيير أو تحويل مسار الفكر والحضارة الأندلسية لفترة زمنية ليست بالوجيزة.

■

فضفضة
كتّاب ومفكرين
عماد الغزالى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ٢٧٩ صفحة



يكتسب فن الحوار الصحفى، فى المجال الثقافى بخاصة، أهمية بالغة، فى العصر الحديث، كونه نافذة ضوء باهرة على شخصية المفكر أو الأديب المحاور، كما أنه من ناحية أخرى يكشف عن شخصية الصحفى الذى أجرى الحوار، لأن المفكر أو الأديب قد يسكت عن بعض الآراء فى كتاباته، ويكتمها خوفاً أو رهباً، أو مداراة لظروف سياسية واجتماعية، فيأتى الصحفى لينبش فى المسكوت عنه، وإذا تأملنا حوارات الكتاب الغربيين، التى يصدر أغلبها فى كتب، ورأينا مدى العمق والقضايا الشائكة التى تتناولها، لعرفنا أهمية هذا الحقل الثقافى، الذى يتعامل معه بعض مثقفينا على أنه منة يتفضلون بها على الصحفى، بينما العكس هو الصحيح، ومن ناحية أخرى يتعامل بعض المسئولين فى الصحافة مع فن الحوار على أنه أسهل أنواع العمل الصحفى، وهو اعتقاد خاطئ، وغير مهنى.

إنها قضايا كثيرة، يثيرها الكاتب الصحفى عماد الغزالى بكتابه الجديد «فضفضة.. كتاب ومفكرين» الصادر أخيراً عن الدار المصرية اللبنانية بغلاف الفنان محمد حجى، فى طبعة أنيقة وفاخرة، حرصت عليها الدار فى المرحلة الأخيرة، وهو كتاب يحتوى على ثمانية عشر حواراً، تغطى كل وجوه ثقافتنا المصرية، ومن بين الذين حاورهم عماد الغزالى: السيد يس، إسماعيل سراج الدين، جلال أمين، سلامة أحمد سلامة، أدونيس، محمد سليم العوا، سمير مرقص، قاسم عبده قاسم، جهاد الخازن، وحيد عبدالمجيد، جابر عصفور، نبيل عبدالفتاح، أنور عبدالملك، رياض نعسان أغا، محمود أباظة، طارق البشرى، جمال الغيطانى، عبدالرحمن الأبنودى.

وهى حوارات نشرت فى جريدة «الوفد» فى عامى ٢٠٠٦ و ٢٠٠٧ والكتاب أهداه الكاتب إلى المفكر طارق البشرى «المفكر والإنسان كما ينبغى أن يكون».

الكتاب من جانب آخر سياحة فكرية فى عقول أبرز مثقفينا وأدبائنا، يمزج بين العام والخاص، لا يترك قضية دون أن يوفيها حقها، وليشبعها أسئلة وبحثاً وإلحاحاً على الإجابة، وهو بهذه الصفة يخرج من عابرية الحوار الصحفى إلى الوثيقة الفكرية، التى ترقى بدورها إلى دور: شهادة على العصر، تكشف عن أن كتابنا وأدباءنا ومفكرينا لديهم الحلول الناجحة لكل المشكلات التى تعانى منها مصر، والوطن العربى بما لديهم من جرأة فكرية وتصورات دخول المستقبل كأمة حضارة لها وزنها بين الأمم.

■

وقفة قبل المنحدر
علاء الديب
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ١٠١ صفحة



صدر هذا الكتاب لأول مرة فى عام ١٩٩٥، وكان بديلاً كما يقول مؤلفه، الأديب البارز فى جيل الستينيات الأدبى، للهروب مع أى شيطان أو الانتحار، وهى أوراق عن السنوات من ١٩٥٢ حتى ١٩٨٢، والمدهش أنك حين تقرأها، أو تقرأ ما كتبه المؤلف عنها، يخيل إليك أنها تخص عصرنا، وأنه يقصد سنواتنا لا هذه السنوات التى مضى عليها الآن ربع قرن، أو أنه يعنينا نحن البشر العائشين فى العقد الأول من الألفية الثالثة لا العقدين الأخيرين من الألفية الثانية، وإذا كان المؤلف يتعجب مما حدث للناس والبلد فى هذه السنوات الثلاثين، ويتعجب كذلك أن يستطيع إنسان تحمل كل الذى جرى من تقلبات وتحولات، فما المدى الذى يمكن أن يصل إليه فى اندهاشه إن كتب عما جرى من تحولات فى ربع القرن الأخير، يقول صاحب «زهر الليمون»: يقول الناس كل يوم له شيطان، وشيطان تلك الأيام كان يعمل بجد واجتهاد، لكى لا تكتمل الأعمال ولا تتحقق الأحلام، يعمل لكى يسود صراع دام بين الناس، وأن تصل لنهاية يومك منهكاً مهدوداً، وأنت فى الحقيقة لم تحقق شيئاً، تغيرت معانى الكلمات ووجوه الناس، وخطوط الأفق فى القرى والمدن، تغير الصوت والصدى، الظاهر والباطن حتى النخاع، والتغير سنة الكون منذ كان، لكننى أعتقد أن التغير لم يكن يحدث من قبل بهذه القسوة والسرعة والفظاعة.

يحكى علاء الديب بعضاً من تجاربه المريرة، منها تجربته فى الإبعاد عن العمل الصحافى، وقد جرى ذلك معه مرتين، فى المرة الأولى أبعد عن عمله فى مجلة صباح الأخير بعد اتهامه بالاشتراك فى مؤامرة لا يعلم عنها شيئاً، وفى المرة الثانية، ألقت به التجربة فى أتون حزن غامر.. لم أفقد فى التجربة الأمان فقط، أو ثقتى فى مهنة الصحافة أو الكتابة، ولكنها كشفت لى عن معنى يتراكم فى واقع حياتنا، ونحاول دائماً أن نتجاهله وهو: أن المعنى الحقيقى لكلمة مواطن مازال مفقوداً، ومازلنا نبحث عنه. كم ليلة أمضيتها وأنا أشعر أننى بلا وطن.

يحكى المؤلف عن هذه التجارب وغيرها، عن موت عبدالناصر وأثر ذلك عليه وعلى الناس، عن تجربته القصيرة للعمل فى إحدى صحف الخليج، عن أصدقاء تحولوا من النقيض إلى النقيض، عن الأبطال الذين سقطوا، والكبار الذين باعوا كل شىء من أجل حفنة أموال، يقول: أفقدنى التغير السريع المضطرب قدرتى على الانتماء، قدرتى حتى على التصديق، لم أكن مشاركاً ولم أكن مطلوباً عندما تحطم المشروع الكبير، تحول إلى كابوس وصنع بعض الناس الشطار من أشلاء المشروع وشظايا الكابوس مؤامراتهم الخاصة، الجريئة منها والدنيئة، أما أنا فقد وقعت بعد ٦٧ ميتاً.

■

ثقافة التطرف
التصدى لها والبديل عنها
حمزة المزينى
بيروت: الانتشار العربى، ٢٠٠٨، ٢٩٩ صفحة



شهدت السنوات الست الماضية نشاطاً غير مسبوق فى الحوار بين مختلف الأطياف الوطنية فى المملكة العربية السعودية التى كانت تعبر عن وجهات نظرها بمستويات من الصراحة والشفافية غير معهودة. وكان معظم هذا الحوار يتركز حول كثير من القضايا الفكرية والدينية التى تختلف الاجتهادات المشروعة فيها.

وتصور الصحف السعودية فى هذه الفترة مدى اتساع هامش الحرية الفكرية والتعبيرية الذى أتاح لكثير من الأصوات الوطنية من مختلف التيارات الفكرية والثقافية أن تشارك بآرائها فى مناقشة هذه القضايا. وكانت هذه التيارات تعبر عن الاختلافات فى اجتهاداتها مما يتيح لملاحظ السياق الثقافى والفكرى السعودى أن يكتشف مدى التنوع الذى يزخر به وطننا.

وكانت القضايا الدينية أبرز القضايا التى دار حولها الحوار، ذلك أن كثيراً من الكتّاب وجدوا الجو ملائماً للتعبير عن اختلافهم مع كثير من الاجتهادات الدينية السائدة التى تنطلق من رأى واحد يرى أنه هو الرأى الصحيح فى كثير من القضايا التى تحتمل اجتهادات متعددة.

ومن المهم أن ألاحظ هنا أن الإسهامات فى هذه الحوارات جوبهت فى بداية هذه الفترة بكثير من الاستنكار والرفض والاعتراض، لكن هذا كله أخذ فى الانحسار مع استمرار الحوار وتعود الفرقاء المختلفين على الاستماع إلى الآراء المخالفة لآرائهم. لقد خفت، أو كادت تختفى، تلك الحدة التى كانت تقابل بها الاجتهادات المخالفة للسائد. بل إننا نشهد الآن أن بعض الأصوات المحافظة أخذت فى التخلى عن بعض الاجتهادات المتشددة التى كانت تعدها الحق الذى لا مراء فيه.

وأجدها مناسبة هنا أن أجمع بعض المقالات التى كتبتُها إسهاماً فى ذلك الحوار الوطنى الثرى رغبة فى أن تكون شهادة على هذه الفترة الخصبة من الحوار الذى لم يكن ممكناً فى الأجيال السابقة.

وقد نشرت هذه المقالات كلها، إلا عدد محدود منها، فى صحيفة «الوطن» السعودية التى تميزت بأنها الصحيفة الأكثر جرأة فى نشر المقالات النقدية

■

والمقالات التى تتبنى الآراء المعارضة لها.

وأرجو أن تقرأ الأجيال القادمة من السعوديين هذه النقاشات على أنها مصدر للمتعة بعد أن تصبح القضايا محل النقاش فى هذه الفترة تاريخاً لا واقعاً، والله أسأل أن يستمر هذا الحوار ويتعمق من أجل مصلحة الوطن ورفعته.

الأصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية

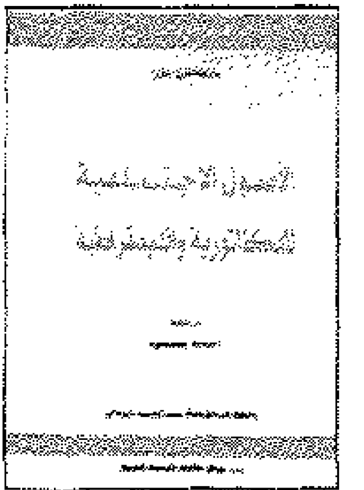
اللورد والفلاح فى صنع العالم الحديث

تأليف: بارينجتون مور

ترجمة: أحمد محمود

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨، ٦٥٢ صفحة

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية بدعم من مؤسسة عبدالحميد شومان



فى هذا العمل الكلاسيكى من التاريخ المقارن ونظم الحكم، يستكشف بارينجتون مور الابن أسباب تطور بعض البلدان فى العصر الحديث كديمقراطيات، بينما تطور البعض الآخر كديكتاتوريات فاشية أو شيوعية. هو يبحث فى الأدوار السياسية التى قامت بها الطبقات العليا المالكة للأراضى وطبقة الفلاحين باعتبارها مجتمعات زراعية تطورت إلى مجتمعات صناعية حديثة.

«يفعل مور ما يحلم الكثير من المؤرخين بعمله: فهو يرى الحقائق العامة فى المواقف التاريخية الفريدة. وقد كتب عملاً يتسم بالمعرفة التراكمية العميقة بالقوى التى تصنع عصرنا المضطرب».

نيو ريبابليك (New Republic)

«يأخذ بارينجتون مور على عاتقه فى هذا الكتاب الكبير رسم خريطة للمسارات التاريخية التى سارت فيها دول الغرب والشرق الرئيسية كى تصل إلى مرحلة المجتمع الصناعى الحديث.. وكتابه علامة بارزة فى التاريخ المقارن وتحد للباحثين من كل البلدان الذين يحاولون معرفة كيف وصلنا إلى ما نحن عليه الآن».

سى فان وودورد، يل ريفيو (Yale Review)

«خلال أجزاء الكتاب المختلفة هناك عمل مستمر لعقل علمى وأصيل يتسم بأندر موهبة، وهى الإحساس العميق بالواقع البشرى.. وسوف يؤثر هذا الكتاب فى جيل كامل من المؤرخين الأمريكيين الشبان ويضع أيديهم على أعظم المشكلات أهمية». (New York Times Book Review)

أسرار الصندوق الأسود.. وديع حداد - أنيس النقاش - جورج حبش - كارلوس

غسان شربل

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨، ٤٤٠ صفحة



يتألف الكتاب من أربعة أقسام تتناول حياة أربع شخصيات تقاطعت أعمالهم فى النصف الثانى من القرن العشرين واستطاعوا مجتمعين ومنفردين أن يهزوا ضمير العالم ويذكروه بالظلم اللاحق بالفلسطينيين. وتميزوا عن غيرهم باعتمادهم للمرة الأولى عمليات نوعية وجريئة أهمها خطف الطائرات.

لا يدعى غسان شربل التأليف وتدبيج العبارات. إنه يمارس «هوسه» الصحفى فى كشف الأسرار وجمع المعلومات وتقديمها للقارئ بأسلوب سهل ومشوق فى آن.

فها هو يحاور كارلوس «أشهر مطلوب فى العالم» قبل أن ينتقل اللقب إلى أسامة بن لادن فى القرن الحالى. يقول المؤلف فى مقدمة الكتاب «لم يسمح لى القضاء الفرنسى بزيارة كارلوس فى سجنه. حاورته عبر محاميته. فلم تطفئ أجوبته عطشى. راح يكشف يخفى». لكن غسان شربل نجح فى استفزاز مشاعر كارلوس وحصل منه على معلومات ووثائق بخط يده تنشر للمرة الأولى.

فى هذا الكتاب يحاور المؤلف رجالاً ألفوا العمل السرى، خطفوا طائرات، احتجزوا رهائن، زرعوا عبوات، زوروا باسبورات.. إنهم رفاق الدكتور وديع حداد مسئول «المجال الخارجى» فى «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، وكذلك قائدها الراحل الدكتور جورج حبش. طالبان فلسطينيان التقيا على مقاعد الدراسة فى الجامعة الأمريكية فى بيروت. أغرقتهما النكبة فى أسئلة حول حال الأمة ومستقبلها، فعاشا من أجلها وماتا فى سبيلها.

هذا الكتاب حصيلة آلاف من ساعات العمل والأسفار فى اتجاهات مختلفة ويجد فيه القارئ ما يشفى غليله عن أولى العمليات النوعية للمقاومة: فى مطار الثورة فى عمان. مطار اللد. خطف وزراء أوبك فى فيينا. عملية عنتيبى. وكذلك عن أنيس النقاش وعلاقته مع وديع حداد وكارلوس ومهماته الإيرانية، والدور الفلسطينى فى الحرب الأهلية اللبنانية.

وأخيراً وليس آخراً: جورج حبش والبدايات: نواة حركة القوميين العرب، والثورة فى عمان وبيروت.. إلى تونس.

ألفاظ عامية فصيحة

محمد داود التير

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٢٤٥ صفحة



عندما وصل الحال إلى اختلاط الحابل بالنابل، ضاع الأصل وظلت الصورة ذات الدلالات والمضامين المفقودة، أو غير الواضحة، هذا ما حدث بالفعل فى تراثنا العربى، بعد انتشار الدواخل اللسانية، وشيوع الانتهاك اللغوى القوى، والذى تتربى عليه الأجيال الراهنة.

قدم المؤلف موسوعته لجمع حوالى ألف وأربعمائة كلمة من العامية، يعتبرها العرب ليست فصحى لكنها ذات جذور عربية أصيلة، ولكن أحياناً ما يختلف الاستخدام ككلمة حاتى وهى تعنى الكثير الشرب. فحتى التراب أكثر منه. والناس فى مصر يطلقونه على صانع الكباب ولا يعلم أصل ذلك، فالكلمة صحيحة والاستعمال خاطئ.

وما لم ينتبه بنو العروبة للثروة الغالية التى بين أيديهم والتى تنثال من بين أصابعهم يوماً بعد يوم، ولا سيما مع انحدار مستوى التعليم، فالأمر سيكون جد خطير، ويقدم المؤلف تصحيح طوائف كثيرة من الألفاظ العربية التى حرفتها العامة ونطقت بها على غير وجهها العربى السديد، منها تسهيل العامية فى الهمزة كما فى استاهل بدلاً من استأهل والبير بدلاً من بئر، وتبدل العامية الثاء بالتاء، مثل التلت بدلاً من الثلث، ومن هنا اتجه المؤلف لجمع الكلمات العامية وردها إلى أصلها العربى الحقيقى مع بيان معناها، وإزالة ما بها، كما أنه يحاول تأهيل الكُتّاب إلى استخدام الفصحى البسيطة ولا يتقعروا فيزيدوا الناس بعداً عنها مما يسبب نسيانها والنسيان هنا هدم للهوية وللحضارة العربية والإسلامية بكل معانيها.

التربية والأيديولوجيا

دراسة فى العلاقة بين التربية وبنية النظام السياسى

شبل بدران

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات، ٢٠٠٨، ٣٣٥ صفحة



يعالج د. شبل بدران، وهو واحد من أهم خبراء التعليم فى الوطن العربى، قضية بالغة الخطورة، وهى العلاقة بين النظام السياسى السائد، وبين التعليم كقيمة تربوية. فكيف يؤثر النظام بمكوناته المتناقضة، والمتصارعة أحياناً، فى العملية التعليمية، هل يوظفها لخدمة أغراضه، وتكريس الأوضاع السائدة، أم أنه حريص فعلاً على خلق نظام تعليمى قوى يرسخ قيم الحرية والديمقراطية، وثقافة حقوق الإنسان، ولماذا يلجأ إلى المنظمات الأجنبية لتمويل نظامه السياسى، وما الذى جرى فى التعليم المصرى منذ عام ١٩٨٥ وحتى عام ٢٠٠٧، هى الفترة التى شهدت اضطراباً واضحاً فى سير التعليم المصرى، وخروج الجامعات المصرية من تصنيف الجامعات الأهم فى العالم، هل الدور السياسى فى إضعاف التعليم سبب فى ذاته، أم أن انفصال التعليم عن الواقع، وعدم تحديد الهدف من العملية التعليمية، ماذا نريد بالضبط لخلق مواطن عصرى، على خلفية التعليم الذى تلقاه.

ولتوضيح فكرته قسم د. شبل بدران كتابه إلى ثمانية فصول ليحيط بكل الأسباب والعلاقات المتشابكة بين التعليم والنظام السياسى، وكيف يغرس هذا النظام نوعاً من التربية يسهم فى خلق مواطن مصرى صالح من عدمه، فالإطار الذى يتحرك فيه النظام التعليمى وما يتخذ من سياسات واستراتيجيات وتوظيف للتعليم قد يجعل منه وسيلة لتحقيق أغراض أحد طرفين: طرف يجعله أداة لإعادة إنتاج العلاقات القائمة من خلال مناهج تنتج نمط الشخصية المتكيف والمطيع والقانع والمنفصل، والمغيب الوعى، والمغترب، لكى ينسجم ويتسق مع أيديولوجية السلطة السياسية التى تسيطر على مقاليد الحكم، ويتخذ لذلك أسباب الترويض الفكرى والإذعان والاستسلام والقهر وأحياناً ليضمن ما عُرف بالوظيفة المحافظة للنظام التعليمى، ويصطنع فى سبيل ذلك ما يراه مناسباً من أنواع المعارف ومتطلبات التفكير، وأنواع

المقررات والامتحانات وغيرها من المناهج الرسمية، فضلاً عما يتخذه من مناهج وأساليب خفية مستترة ومتضمنة بين ثنايا العملية التعليمية والمناخ الدراسي.. والوقائع التي تدين نظام التعليم المصري في ذلك كثيرة وغير خافية واستدعى بعضها تدخل الرئيس شخصياً كما جرى مع آلاء التي كتبت رأيها الشخصي في موضوع إنشاء في الامتحان، وكيف تزلزل المسئولون وحققوا معها، وما جرى مع التلميذ الذي كتب عبارة يشتم منها رائحة سياسية مثل جملة: شعب مظلوم وحاكم ظالم، وما جرى له ليس بعيداً عن الأذهان. وما خفي كان أعظم.

هل يعطينا تعليم كهذا مواطناً يصلح لأي شيء؟

وهل يمكن أن يكون التعليم، والقيم التربوية المتضمنة فيه نقيض ذلك، أي يحقق ما يصبو إليه الطرف الآخر، سعياً للتحرر والإتقان والإبداع في سياق نظام سياسي اجتماعي ينشد دفع حركة التطوير المجتمعي، مؤكداً تنمية طاقات الفرد إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه، ومستهدفاً تكوين الإنسان الواعي بذاته وبما حوله، وذلك بجعله كائناً فاعلاً قادراً على صناعة مجتمعه وتاريخه، وفي سبيل ذلك لا يتخذ من المعلومات المقررة إلا ما هو مادة لتنمية العقل الناقد والإرادة الفاعلة.

هذان الطرفان في النظر إلى العملية التعليمية شكلا صورتها فيما يزيد على خمسة وعشرين عاماً، يضاف إليهما ما تطلبه المنظمات الدولية من نوع محدد للتعليم المصري، تقدم بناء عليه معوناتها له. فكيف ستنتهي بنا الحال؟ د. شبل بدران يشخص المرض وكيفية علاجه في هذا الكتاب المهم الذي يأتي في سياق البحث عن نظام تعليم قوي للمجتمع المصري.

■

المستبد العادل

محمد عفيفي

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨، ٩٣ صفحة



يحمل تعبير المستبد العادل تناقضه في داخله، إذ كيف يكون المستبد عادلاً، وكيف يكون الحاكم العادل مستبداً؟ هي إذن خرافة، أو محاولة يهرب بها الإنسان من أزمات واقعه.

المؤلف يتابع هذه الفكرة في واقعنا المعاصر، بدءاً من صاحبها الإمام محمد عبده، والتي أطلقها في مقال نشره في عام ١٨٩٩ في مجلة الجامعة العثمانية تحت عنوان «إنما ينهض بالشرق مستبد عادل»، وكان الهدف من المقال هو الرد على دعاة إصلاح أحوال الشرق بالأخذ بالحياة النيابية والحريات الديمقراطية، ووفقاً لمنهج الإمام محمد عبده في الإصلاح التدريجي، فقد كان يخشى إن نحن أخذنا بهذا المنهج ألا نحقق شيئاً بل يقود الأمر إلى انتكاسة خطيرة، وكانت دعوة الإمام هذه علامة فارقة في تاريخ الفكر العربي والإسلامي، فقد كانت علة العلل التي يعاني منها الشرق برأيه هي افتقاره إلى الزعامة الرشيدة، التي تتميز بالقوة والقدرة على اتخاذ القرار بسرعة وتوحيد الصف، أو بحسب قوله.. «مستبد يكره المتناكرين على التعارف ويقهر الجيران على التناصف، وهي مهمة ستأخذ من صاحبها خمس عشرة سنة، يستطيع خلالها أن يحشد حوله المؤمنين بفكره في الإصلاح.

ويضع الإمام برنامجاً تدريجياً لتحقيق الإصلاح الديمقراطي يبدأ بالمجالس البلدية، فمجالس الإدارات، وصولاً إلى المجالس النيابية. لكن الأهم في هذه المسألة كلها، هو وجود الإمام العادل الذي «لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذي يحكمه، فهو لهم أكثر مما هو لنفسه».

وجاء الانتقاد الأساسي لفكرة المستبد العادل على يد أحمد لطفي السيد الذي يمكن اعتباره بدرجة أو بأخرى من تلاميذ الإمام، لكنه كان أكثر انحيازاً للفكرة الليبرالية في صيغتها الغربية، حتى إنه عرف بأنه أبو الليبرالية المصرية، وقد هاجم لطفي السيد في مقالة شهيرة هذه الفكرة وأصحابها «الذين يظنون حكومة المستبد العادل هي خير الحكومات»، وكتب في مقالته التي صدرت في ١٠ يناير ١٩١٤ تحت عنوان: «حقوق الأمة» رافضاً الجمع بين فكرة الاستبداد والعدل في نموذج واحد، واعتبرها فكرة خيالية لا أساس أو سند لها في الواقع.. «ما أظن مذهب الاستبداد العادل في عقول أنصاره إلا أمنية يتمنونها لمثل أعلى من حكومة موحدة الكلمة قوية البطش بعيدة عن الشهوات الحزبية والفردية سريعة الحركة لا بطيئة كالحكومات النيابية».

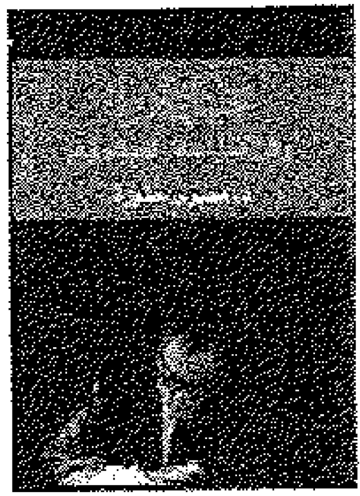
ويقدم المؤلف كذلك إسهامات المفكر السوري عبدالرحمن الشهبندر في الموضوع، ثم يتناول في الفصل الرابع نموذج الرئيس جمال عبدالناصر، باعتباره تجسيداً لفكرة المستبد العادل من وجهة نظر أصحابها، مستنداً إلى مذكرات ثروت عكاشة وزير الثقافة في الستينيات، وينتقل إلى الكيفية التي تناول بها الشاعر نزار قباني الفكرة وعبر عنها في قصائده، وينهي كتابه بملاحق تضم مقال محمد عبده ومقال أحمد لطفي السيد ومقال الشهبندر، وقصائد لنزار قباني.

■

نجيب محفوظ وفن صناعة العبقرية

مصري حنورة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٢٩٩ صفحة



قضى نجيب محفوظ عمره باحثاً عن شيء تصور أنه يمثل رسالة الإنسانية في الحياة، ألا وهو تقديم المثال للباحثين عنه، والمثال الذي كان يرسمه المؤلف كان دائماً مثالاً لا إنسانياً، إنه يعري هذا الإنسان المغترب ويحاول أن يقترب ما أمكن مما بداخله.

بهذه الكلمات يقدم المؤلف لكتابه الذي جاء ثمرة علاقة مميزة مع نجيب محفوظ امتدت لأكثر من ثلاثين عاماً، كان خلالها محفوظ يصنع عبقريته الفريدة.

ويعترف المؤلف بأن مصطلح صناعة العبقرية نفسه ينطوي على تناقض بنيوي، إلا أنه يقرأ أيضاً بأنه قصد هذا المصطلح، ليبرهن على أن عبقرية محفوظ على وجه الخصوص خاصية مكتسبة بجهد إرادي ووعي موجه.

قسم المؤلف كتابه إلى أربعة أبواب، يدرس في الأول منها مفاتيح العبقرية عند نجيب محفوظ، والثاني شخصية العبقري، والثالث العملية الإبداعية عند نجيب محفوظ، فيما يخصص الفصل الرابع للتحليل الإبداعي لبعض أعماله وخصوصاً «قلب الليل» و«رحلة ابن فطومة».

الفكرة الأساسية هنا أن نجيب محفوظ لم يولد عبقرياً في الأدب والرواية، بل كان إنساناً عادياً يهتم بالسياسة ويبجل زعيمه سعد زغلول مفجر ثورة ١٩١٩، ولم ينتبه أصلاً إلى إمكانية السير في طريق الأدب إلا بعد التخرج بعامين، ومن هنا يمكن القول إن منشأ العبقرية عنده كان هادئاً، ونما في سياق طبيعي يمكن أن نطلق عليه السياق الإنساني، ومن هذه التلقائية الإنسانية نبعت مواهبه التي استخلصها أكثر من باحث في مجال الدراسات النفسية الخاصة بالإبداع والتذوق الفني، فالمبدع الحقيقي شخص قادر على أن ينخرط في نشاط ترويحي فكاهي، كما أن كثيراً من المبدعين يتميزون بالسخرية من الواقع ومن الآخرين ومن أنفسهم أحياناً. لكن نجيب محفوظ بعد أن قرر الاتجاه إلى الأدب، بدأ يقراه بشكل منتظم مثل تعلم الفلسفة في كلية الآداب بشكل منتظم - أي أنه كان يأخذ نفسه بالصرامة الواجبة للتعلم، ومثلما وجد نفسه يطرق أبواب الأدب، اهتدى بعد محاولات عدة إلى أن فن الرواية هو المجال الذي يمكنه أن يبدع فيه أكثر من أي جنس أدبي آخر، وكان أن انصرف إليه دون سواه، وهذا ملمح مهم في عبقرية محفوظ، فهي ليست موروثة عن أسلاف، وليست نتاج ظروف اجتماعية مهيأة للإبداع، إنما هي صيغته الخاصة، وضع أسسها بنفسه ورعاها خطوة فخطوة.

■

الاتجاه القومي في الأغنية الوطنية العربية

مصطفى عبدالغني

القاهرة: دار العالم العربي، ٢٠٠٨، ١٦٨ صفحة



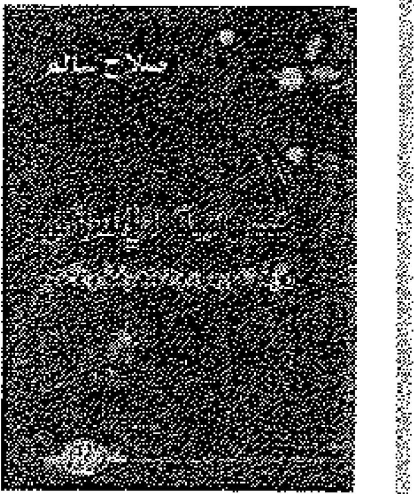
منذ القدم كان الشعر مرآة العرب، ومازال الأدب ديوان العرب حتى يومنا الحالي، اختار المؤلف منه فن الأغنية، لتكون نموذجاً يحتذى في التعبير عن الحياة الاجتماعية والسياسية، فواكبت الأغاني جميع مراحل وطننا العربي مروراً بالأزمات الاستعمارية، وفي لحظات الاستقلال وفي الانتكاسات العسكرية، وفي حمل مضامين عميقة وترسيخ مبادئ كالعروبة والمواطنة وغيرها من الشعارات التي حملتها الأغاني وفي الفصل الأول من هذا الكتاب يقدم المؤلف الفنان محمد عبدالوهاب كمثال تطبيقي، على تطور أدائه من تلحين القصائد الفصحى إلى تلحين أغان عامية مصرية ولبنانية وغيرها حملت المعاني الوطنية، مساهمة منه في الدور الفعال واعترافاً بعمق وتأثير الفن على الشعور العام، وقدم المؤلف أيضاً عبدالحليم حافظ كفنان ناصر الثورة مع الزعيم الراحل جمال عبدالناصر، وكان من أهم أبنائها، والذين تغنوا لها وغنوا لكل المعاني التي قامت من أجلها الثورة، كما يؤكد الكتاب على دعم الفنانين الكبيرين (محمد

عبدالوهاب) و(عبدالحليم حافظ) لثورة يوليو وللأنظمة العربية المتحررة من خلال أغانيهما التى كان لها دور بارز فى تأييد الشعوب العربية، ورصد لجهودهما الفنية فى زمن الحلم القومى مقدماً نماذج عديدة لهذه الأغانى.

كونية الإسلام

صلاح سالم

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨، ٦٠٨ صفحات



للإسلام دعوة كونية، دور عالمى وتبشيرى هدفه هداية الإنسانية جميعاً، وربما لهذا السبب - كما يقول المؤلف - يتصادم مع المسيحية، أى أن الصدام بينهما ناتج عن تفتحهما لا عنصريتهما.

غير أن الصراع الجوهرى فى حقيقته يدور الآن بين الإسلام باعتباره ديناً سماوياً يمتلك عقلانيته المؤمنة وعبقريته الخاصة ورؤيته المميزة فى التعامل مع قضايا الحياة والبشر، وبين الحداثة التى صارت هوية الغرب الحديث، بعد هزيمة مسيحية بولس الرسول واندثارها طوال قرون النهضة والإصلاح الدينى.

وبعكس كونية الحداثة الغربية الهادفة إلى الهيمنة والسيطرة على العالم بزعم نشر الحريات والديمقراطية، فإن كونية الإسلام طابعاً أصيلاً فى صلب عقيدته. وهى واضحة جلية فى القرآن والسنة، وفى تجربة دولة الإسلام الأولى فى عهد الرسول والخلافة الراشدة. وينبع الوعى الكونى للإسلام من مكونات ثلاثة أساسية تشكل معالم «عهد الاستخلاف» بين الله والإنسان: وهى العقلانية والعالمية والتسامح. والإسلام يقدم للإنسان صورة بالغة الحيوية، عبر صورة بالغة السمو للألوهية، فالله هو الواحد الذى ليس كمثله شىء فى الأرض أو فى السماء، وصورة بالغة العقلانية للنبوة، تتفق مع نضج العقل البشرى فى التاريخ، وكون أن محمداً هو الرسول الخاتم لسلسلة أنبياء الإسلام.

يرفض الإسلام فكرة الخطيئة الأولى كما تبدت فى العقيدة المسيحية الكاثوليكية ويرفض فكرة المخلص، وطريق المسلم للتخلص من آثامه وشروره ليس سوى قوة إيمانه وتوبته والإيمان بعدل الله ورحمته، وهو ما جعل عبادة الشخص المسلم فردية، لا طقوس جماعية فيها، ولا سلطة فيها لأحد عليه ولا كهنوت يربطه بسلطة دينية مهيمنة. ولهذا يشعر المؤمن بإمكانية تحقيق ملكوت الله على الأرض، وبأن الله وضع نظاماً علمياً واقعياً له قوانين تاريخية ومجتمعية، وضمنه بنود عهد الاستخلاف ليسير البشر بمقتضاه على الأرض، وهو ما يعطى للجهاد - بمعناه الحضارى الشامل لا العسكرى فحسب - قيمته الحقيقية، إذ يمنح هذا الفهم للجهاد المسلم الحقيقى الشجاعة اللازمة لتقويم عجلة التاريخ كلما انحرفت عن جادة الصواب.

موازين الشعر ومحاولات التجديد

محمد أبو عامود

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٨ ٢٤٨ صفحة



تغلمت العرب الشعر فطرة وسجية معبرة عما جاشت به مواطنها من حب واشتياق ولوعة وفراق، كما تغنى فرسانها ببطولاتهم وانتصاراتهم وحروبهم التى امتلأت مجداً وشموخاً، وكان ذلك على مر العصور وحتى الزمن الراهن، لذلك كان بديهياً، أن يهتم مفكرو اللغة على دراسة هذا الشعر، وتفصيله مقدمين علم عروض وهو علم موازين الشعر، يتعرف القارئ من خلاله على أبحر الشعر المعروفة كالطويل والمديد والرمل والرجز وغيرها، وشكلها الشعرى السليم ومجموعة العلل والزحافات التى تدخلها، فتقطع هذا البحر أو تغير فى بنيته الشكلية، وقدم التجديدات التى حلت على الشعر فى العصور المختلفة كالإسلامية والموشحات والشعر الغنائى وغيرها، وهذا لما للشعر فى التاريخ الإسلامى من مكانة مرموقة، حيث إنه يحرك الأفئدة ويقوى السواعد وفى كل الأزمات حاز الشعراء مكانة متميزة عند الحكام والسلاطين، وقد قام على ذلك مهن عديدة، وساعد الشعراء فى إعلاء سلطان مكان آخر، وتحريك جيوش بأكملها، وإلى يومنا هذا يقوم الشعراء برسم الحياة الاجتماعية والسياسية فى أبيات تحمل آراءهم وأفكارهم، وأحياناً ما تكون لسان البسطاء حاملة أحلامهم وآمالهم ومشكلاتهم.

كيف تكتب السيناريو؟

محمد السيد عيد

القاهرة: أخبار اليوم، ٢٠٠٨، ١٨١ صفحة



يقدم المؤلف فى بداية الكتاب تعريفاً شاملاً وافياً، لمعنى الدراما بمنظور واسع وتاريخى، وما تبع هذا التعريف من تطورات، وتغييرات وتشكيل أدخلته عليه الحضارات المختلفة، وأردف موضوع الدراما بالمكملات كالزمان والمكان وأهمية هذا بالنسبة للحدث، وكيف أن تحديد زمان الحدث كأن يكون تاريخياً قديماً أو وسطاً، وأنه لابد من رسم المكان أو تنفيذ هذا ليساعد المشاهد المتابع للدراما لاستيعاب الأحداث، فأهمية الزمان والمكان تبرز الحدث الدرامى وتساعد المخرج فى رسم الشخصية المؤدية، وهذا هو الضلع الثالث فى مثلث العمل الدرامى، وتناول المؤلف الشخوص بالتفصيل النفسى والفسيولوجى ليساهم فى إعداد الممثل أو المؤدى للعمل الدرامى، بالطريقة الأكثر صحة وسلامة شارحاً ذلك منذ العصور اليونانية القديمة ومروراً بأزمنة مختلفة وأعمال درامية متنوعة اجتماعية وتاريخية وسياسية ودينية وعسكرية.

كما احتوى الكتاب على نماذج من الحوادث والمشاهد الكاملة، لتقريب المفهوم من القارئ، ومحاولة عملية لاطلاعه على مسرحيات ونصوص مكتوبة ومشاهد ممثلة.

البترول ذروة الإنتاج وتداعيات الانحدار

حاتم الرفاعى

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٨، ٢٠٢ صفحات

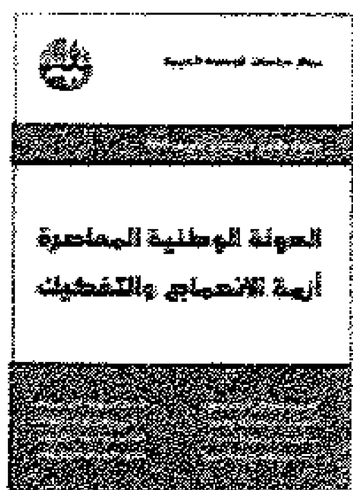


فى بانوراما سريعة يعرج المؤلف من خلالها على مشكلة نضوب البترول من خلال عرضه لمفهوم «سنوات الذروة»، وكيف أن المشكلة لن تمهلنا فى سنوات الذروة فهى تبدأ من الآن حيث بدأ العالم استهلاك أكبر للوقود من الحد المتعارف عليه، كما أن هناك آباراً عديدة جف منسوبها وهى من أجود الآبار العالمية. يقدم المؤلف البداية من خلال حديث مطول عن تاريخ البشرية، وقبل وبعد استخدام الطاقة وصولاً إلى البترول وتأثيره السريع فى النمو الاقتصادى والسياسى والاجتماعى، وكيف أصبح أحد أدوات وأسباب الصراعات العسكرية فى العصر الراهن، ومع انتهاء معين البترول ستنتشر مشاكل اجتماعية عديدة كالفقر والبطالة والجوع والانعزالية، ومشاكل سياسية واقتصادية ستواجه الأنظمة دون رحمة أو هوادة. يحاول المؤلف طرح العديد من بدائل الطاقة معلناً - أهمية محاولة استخدامها، وتطبيقها فى مجالات الحياة المختلفة، ولابد من شفافية حقيقية بين الشعوب والأنظمة حتى تساهم فى الحل وفى تفادى وجود أزمة حقيقية سيقف الجميع أمامها، كما أن البشرية تحتاج إلى عقود قادرة على ابتكار حلول خلاقة لمشاكل غير مسبوقة، وقدرة عالية على التأقلم على أسلوب مختلف للحياة يتفاعل مع معطيات جديدة، إن الإصرار على الجمود على أسلوب الحياة الذى اعتدناه هو أقصر طريق لانتحار الشعوب وفناء الأمم.

الدولة الوطنية المعاصرة: أزمة الاندماج والتفكيك

مجموعة من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ١٦٦ صفحة



شهدت العقود الأخيرة من القرن الماضى وبدايات هذا القرن تراجعاً فى فكر وبنية الدولة الوطنية فى أكثر من منطقة فى العالم، حتى أضحى مصطلح التفكيك أو الاحتواء والتفتيت يترافق مع التصورات المعروضة إزاء قدرة المؤسسات الحاكمة على تطوير كياناتها وتأسيس مشروعها التحديثى لضمان استمرارها وثباتها.

وإذ سجلت حقبة التحرر والاستقلال الوطنى إنجازات ذات أهمية خاصة فى إطار صياغة العلائق الاقتصادية والاجتماعية الضامنة للقدرة على التطور والبناء، إلا أن هذه الحلقة استمرت بالتناقص والتراجع أمام أهم عناصرها، وهو بناء التجربة الديمقراطية التى تضمن المشاركة فى

صناعة القرار، وتعزيز الهوية الجامعة التي تجسد الإرادة العامة وخدمة المصالح المشتركة.

لكن، سيبقى موضوع الدولة الوطنية، ومستقبلها، تحدياً مفروضاً على الكيان العربي، ذلك أن تصاعد وتنوع تحديات العولمة والهيمنة والاستعمار الجديد لا يمكن أن يواجه دون عمل فكري، وجهد قومي، موحد.

ولعل في موضوعات هذا الكتاب، وعلى اتساع وتنوع القضايا التي تناولها، ما يشكل مساهمة فكرية هادفة وموضوعية في سياق اهتمامات مركز دراسات الوحدة العربية ببناء الدولة في بعديها الوطني والقومي، والعمل على رفد مستقبلها بمقومات البقاء والتطور.

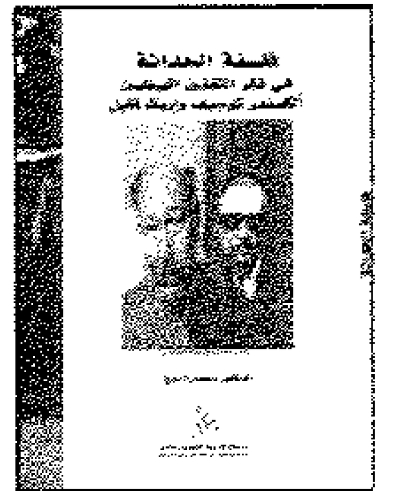
وقد رصدت البحوث الثمانية المختارة لعنوان هذا الكتاب ما يسلط الضوء على الدولة الوطنية، من حيث إعادة الإنتاج في مواجهة التفتيت، ومن حيث التطور الديمقراطي.

■

فلسفة الحداثة في فكر المثقفين الهيغليين ألكسندر كوجيف وإريك فايل

محمد الشيخ

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨، ٦١٥ صفحة



ثمة زمرة من المثقفين الهيغليين الكبار كان من قدرهم أن غمطوا حقهم من جهة عناية الدارسين بفكرهم، وبين شهرة فلسفة الأب الروحي النظرية - هيغل، وشهرة فلسفة الابن الروحي العملية - ماركس، بقي هؤلاء في طي الغمرة. يجد القارئ في هذا الكتاب، محاولة للنظر في فكر اثنين منهما - ألكسندر كوجيف وإريك فايل - اللذين نظرا في أمر «الحداثة» بأدق نظر، تجرأ على إعلان «نهايتها»، بل «نهاية الفلسفة» و«نهاية التاريخ»، وذلك بما لم يجرؤ عليه أحد من قبلهما، وبما لم يدركه أحد من بعد غور بعدهما. وهو نظر لم يكتف فيه المؤلف بمجرد الوقوف على أنظار هذين المفكرين الهيغليين - اللذين أسسا لأحد أعرق مدارس الفكر الفلسفي الحديث التي صارت تعرف اليوم باسم «المدرسة الهيغلية الفرنسية» - في شأن «الحداثة» بالوصف والتحقيق، وإنما تجاوز ذلك إلى محاولة «تأصيل» أنظارهما، بدءاً من «بسائط المفاهيم» التي استندا إليها، و«استشكال» أمر نظرهما في شأن «الحداثة»، وذلك ليس بتتبع «ما فكرا فيه» ونظرا، وإنما أيضاً لاستطلاع «ما لم يفكرا فيه» وأعرضا: عنينا ظاهرة «العدمية» - ذاك الضيف غير المحبوب الذي ما فتئ يهدد الحداثة أكبر تهديد.

يتألف الكتاب من مقدمة واثني عشر فصلاً، في قسمين، يعالج القسم الأول موضوع نظرية الحداثة في فكر ألكسندر كوجيف، والقسم الثاني يعالج نظرية الحداثة في فكر إريك فايل.

■

أزمـــة العـــلـــوم الأوروبيـــة والفنومينولوجيا الترنسندنتالية: مـــدخـــل إلـــى الفـــلـــســـفـــة الفنومينولوجية

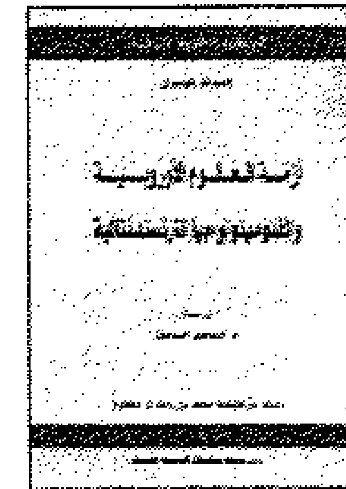
إدموند هوسرل

ترجمة وتقديم: د. إسماعيل المصدق

مراجعة: د. جورج كتورة

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨، ٦٧٠ صفحة

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم



يحلل هوسرل في هذا الكتاب أزمة المعنى والتوجهات في الثقافة الأوروبية في العصور الحديثة. إنه يرى أن النزعة «الموضوعية» التي تسيطر على هذه الثقافة تفهم العلم فهماً ضيقاً يقصي الأسئلة الحاسمة بالنسبة إلى الوجود البشري: أسئلة المعنى والغاية، الحرية والتاريخ. وهي تبرر هذا الإقصاء بأن العلم لا يمكن أن يعالج إلا ما يعطى بكيفية موضوعية ودقيقة، أي باستقلال عن كل وضعية ذاتية نسبية. ولتبديد هذا التصور، يبين هوسرل أن العلوم الوضعية الحديثة ترتكز، بالرغم من دقتها وموضوعيتها، على التجارب اليومية التي تعطي كيفية ذاتية نسبية، في أفق عالم العيش. إن النزعة الموضوعية تقوم إذاً على نسيان هذا العالم بصفته الأفق الذاتي النسب لكل إمكانيات تجربتنا، والأرضية التي تنشأ عليها كل ممارساتنا، بما فيها الممارسة النظرية العلمية. وعليه لا يمكن الخروج من الأزمة إلا عن طريق إعادة ربط العلوم الحديثة بأساسها المنسي، أي بعالم العيش.

■

نبلاء الإنسانية: أعلام الفكر والفلسفة والفن (١٦٣٣ - ١٩٩٨)

صدقي إسماعيل

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨، ٣٦٠ صفحة



يتضمن الكتاب نبذاً عن العديد من الأدباء والشعراء والفلاسفة والفنانين العالميين الذين تركت أعمالهم أثراً كبيراً في الأوساط الثقافية العالمية، وهي نماذج فذة للتجارب الأدبية والفنية لألمع الشخصيات العالمية، ولطليعة الكتاب الذين كانت لهم رؤية معينة في كل ما يتعلق بمصير الإنسان.

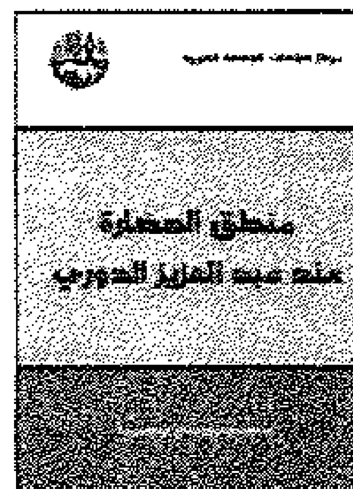
ويجد القارئ تعريفاً بعدد كبير من العباقرة ما بين عامي ١٩٣٣ و١٩٩٨، نشأتهم، أعمالهم، وأسباب تميزهم وشهرتهم، كما يطالع مقابلات شخصية مع معظمهم تحت بطاقة تعريف بكل منهم ثم نبذاً عن أهم أعمالهم وإضاءاتهم، يعينه على ذلك الفهرس المثبت في آخر الكتاب والذي يحتوي على أسمائهم بالترتيب الأبجدي.

■

منطق الحضارة عند عبدالعزيز الدوري

إيناس صباح مهنا

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ٢١٥ صفحة



يُعدّ العلامة الدكتور عبدالعزيز الدوري من أبرز مؤرخي زماننا الحاضر، فقد وضع لنا محاولات لفلسفة التاريخ العربي (الحضاري)، أو لنقل الوصول إلى فكرة شاملة تعبر عنه. وهو ما يمكن أن نعتبره استكمالاً لفلسفة الحضارة، وامتداداً للمدرسة الخلدونية في العصر الراهن.

ويُعدّ البحث في فلسفة التاريخ العربي - الإسلامي، مدة ستة عقود، من أهم انشغالات العلامة الدوري، فضلاً عن كونه مفكراً قومياً يؤمن بدور الأمة العربية - الإسلامية في صنع الحضارة الإنسانية وتعزيز دورها بين الأمم الأخرى. وهو يرى أن الوصول إلى فلسفة التاريخ الحضاري العربي - الإسلامي لا يتم إلا عن طريق تاريخ التأريخ أو تحقيب التاريخ العربي - الإسلامي، لكي يتمكن من الوصول إلى فكرة (أو فلسفة) لهذا التاريخ تعبر عن هويته الثقافية وخصوصيته الحضارية.

لقد حاولت المؤلفة أن تصل إلى معظم آراء الدوري وقراءاته لمنطق التاريخ العربي - الإسلامي (أو كما يسميه ابن خلدون بعلم العمران/ الحضري) عبر مؤلفاته ودراساته، لاسيما ذات الصلة بفلسفة التاريخ والحضارة، إلى جانب المقابلات الفكرية التي أجريت معه طوال نصف قرن بالصحف والمجلات الفكرية.

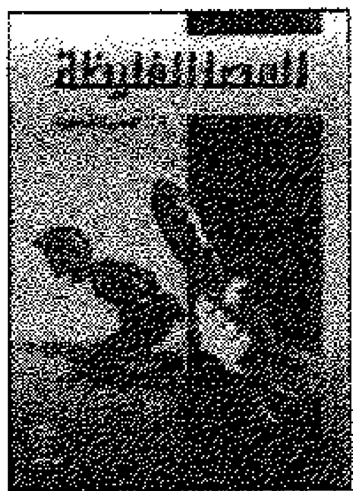
وتخلص الباحثة إلى القول: إن العلامة الدوري، في منظوره الحضاري - المعاصر، إنما يقيم دعائم منظوره الفلسفي على قواعد جدلية - عضوية، أساسها فكرة القومية والدين، وركائزها: جدل الأجيال، ممثلاً الأصالة والمعاصرة، وجدل النهضة والانحطاط، وجدل الذات والآخر، محتفظاً له بموقف متميز بين الأجوبة العربية لموضوع النهضة - الدينية - والليبرالية والشيوعية والقومية، خرج منها برؤية تكاملية معاصرة، تنتقد، وتتجاوز إلى حيث يجب أن تكون النهضة المنشودة.

■

العصا الغليظة ثلاثية الاستبداد والقهر والتخلف

حلمي محمد القاعود

القاهرة: كتاب المختار، ٢٠٠٨، ٢٢٤ صفحة



هذه الكلمات كانت صدى لأحداث جرت في الفترة القريبة الماضية، وتمثل نتائج لواقع مؤسف تعيشه أمتنا عامة، وشعبنا المصري خاصة، منذ مطالع القرن العشرين، ومازال مستمراً حتى اليوم، ويزداد سوءاً كلما مر بنا الوقت، مما يعطي انطباعاً بالتشاؤم والإحباط وفقدان الأمل في المستقبل!! ويمنح هذه الكلمات مشروعية القراءة والتأمل حتى تتغير الأحوال!

شعوب العالم كلها، حتى تلك التي لم يكن لها اسم على الخريطة الدولية، عرفت كيف تتعايش وتتوافق وتؤسس لبناء حضاري في الصناعة والزراعة والتجارة والاقتصاد والعلم والمعرفة

وتجديد الدماء السياسية والفكرية والثقافية، ولكننا نخطو إلى الأمام خطوة، ونعود إلى الوراء خطوات.. وسبب ذلك واضح لا يخفى على أحد، وهو «العصا الغليظة» التي تستخدمها السلطة ضد شعبها، ترفعها مؤقتاً في بعض الأحيان، ولكنها تعود وتستخدمها بشراسة أشد ووحشية أكبر، مما جعل «المصري» بلا قيمة ولا ثمن، داخل وطنه وخارجه على السواء، مهما علت مكانته وارتفع مكانه..

إن ثلاثية الاستبداد والقهر والتخلف تمسك بخناق الشعب، والأمة، مما أعطى لأعدائنا وخصومنا فرصة العمل «الآمن» داخل أوطاننا، وصرنا «معرة الأمم»، لولا ومضات تبرق هنا وهناك تبشر بالأمل في العمل والمقاومة والتضحيات، وهو ما يضع على عاتق شعوبنا مهمة صعبة وشاقة في مقاومة الاستبداد والقهر والتخلف جميعاً..

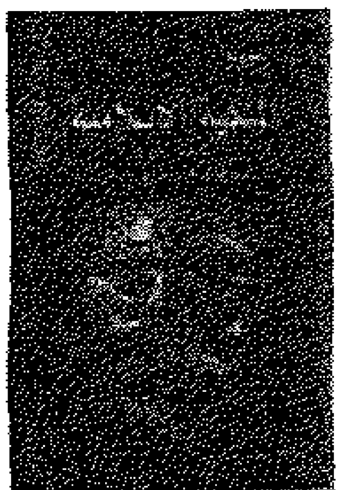
لقد شهدنا على مدى عامي ٢٠٠٤ ، ٢٠٠٥ حراكاً سياسياً ملحوظاً، ولكنه كان مقصوراً على نخبة محدودة، دفعت ثمناً باهظاً لمواقفها، في ظل قسوة بوليسية مفرطة، وتهالك إداري واضح، وفساد غير محدود، وكذب مفضوح تقوم به أبواق مأجورة من مثقفي السلطة وكتابها، ومع توالي الكوارث والمصائب التي تصيب المصريين مثل غرق العبارات، وتصادم القطارات، والإصابة بأوبئة الطيور والحيوانات.. فإن الأمور في حاجة إلى استنهاض الهمم واستثارة العزائم لمعالجة أوضاعنا المتردية والانهيار الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والتعليمي والتربوي.. والعلاج يبدأ بوصفة بسيطة جداً وسهلة للغاية اسمها: «الحرية».. وبالحرية يمكن أن نبني وطناً حقيقياً، وأمة واحدة..

■

عزيز العظمة: المَلَكية الإسلامية، السلطة والمقدس في أنظمة الحكم الإسلامية والمسيحية والوثنية

ترجمة: عدنان حسن

قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨ ، ٣٧٤ صفحة



يبين الكتاب أن تكون مجموعة متنوعة من الأنماط الإسلامية على وجه التخصيص لتعبير السلطة قد تطلب عدداً من القرون، وأنها لم تكن بأي حال من الأحوال فريدة من نوعها، وأن التعبيرات الإسلامية للسلطة، وحتى تأكيدات قداستها، لم تكن بالضرورة من مهمة الخطاب الديني على وجه التحديد، أو محصورة بالمؤسسات الكهنوتية السنية أو الشيعية.

إن الخطاب السياسي الإسلامي وجماليات السلطة الممارسة تاريخياً في أنظمة الحكم الإسلامية تصوران هنا على أنهما متنوعان ومتمايزان وعلى درجة عالية من التغيرية. ارتباطاً بذلك، يتبين أن تعبيرات السلطة الإسلامية تمتلك مجالاً للإنتاج والتداول أعرض بكثير من فئة علماء الدين الذين تنسب إليهم هذه التعبيرات على نحو عادي في الدراسات المعترف بها، وأن آراء هؤلاء الأفراد من ثم لم تكن على الدوام أساساً ولا معيارية.

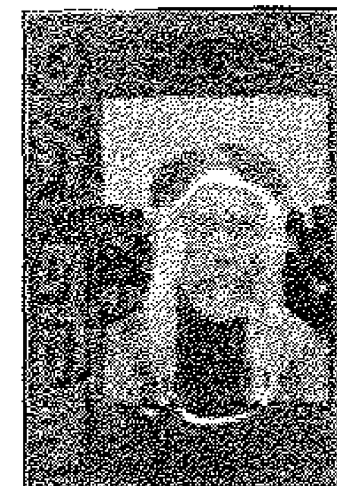
يتفحص الكتاب أيضاً الشروط التاريخية والنصية الملموسة للخطابات الإسلامية والتعبيرات الأخرى للسلطة، وهي جزئياً نتيجة لضيق شديد من الحالة لمعرفة وتحليل التصورات السياسية الإسلامية، وحالة معرفة الشروط التاريخية والنظرية والخطابية لهذه التصورات.

■

العـــائلة

محمد الشارخ

بيروت: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨



العائلة في رواية محمد الشارخ مجاز، فهي قد تشير إلى عائلة محددة وإلى سلطات حاكمة في آن. كانت كياناً موحداً دخل في طور التفكك والتداعي.

تبدأ لغة الاستهلال التقريرية، التي توحي بسيرة ذاتية تسبغ على النص كثيرا من الصدق والمصداقية.

أما لغة النثر فهي تصف، من دون إملال أو تزيد، لقاء الإنسان الخليجي بذلك الهولندي المليء بالتناقضات، الذي أعطى وجوده مجالاً، أو ذريعة، للحديث عن الإسلام.

وما قد يثير القارئ السيطرة الكتابية المدهشة عن موضوع أسرى جوانتانامو في عوالمهم الداخلية ومعاناتهم الخارجية، التي تدل على حساسية أدبية عالية.

إضافة إلى ذلك، هناك الوصف الحي الدقيق لعائلة عبداللطيف النصر في تناقضاتها التي لا تنتهي: يسر الخارج وعسر الداخل: الأمان الاقتصادي والقلق الروحي، تنوع الشخصيات داخل الوحدة العائلية، البحث المستمر عن الهرب إلى اتجاهات مختلفة: هرب إلى الداخل وهرب إلى الخارج، وهرب إلى لا مكان.

نص (العائلة) محمل بثقافة عالية، مس ذلك الدين الإسلامي في تأويلاته، أو القضية الفلسطينية والصهيونية والنازية، أو أحال إلى العلاقة الوثقى بين الاستبدادين السياسي والديني.

ربما تكون رواية «العائلة» هي النص الروائي العربي الذي ذهب بموضوع «الآخر» إلى حدوده الأخيرة، وذلك في اقتصاد لغوي بعيد عن البلاغة والتبسيط.

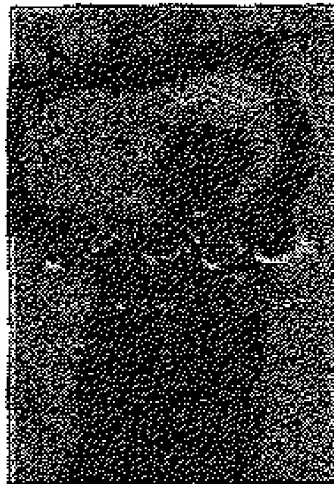
محمد الشارخ شخصية ورجل أعمال كويتي قد عرفه العرب عبر شركة صخر للكمبيوتر والبرامج العربية التي أسسها في ثمانينيات القرن الماضي، حتى صار اسم الحاسوب مرادفاً لاسم صخر. فدخل عن طريقه ملايين العرب للعالم الرقمي. كما حصلت على براءات اختراعات أمريكية للترجمة والتخاطب الآليين وقراءة النصوص آلياً باللغة العربية وهي المبادرة الوحيدة في العالم العربي للحصول على براءات اختراع في مجال مكننة اللغة العربية واستخدامها في العصر القادم.

اهتمامه بثقافة الحاسوب وتعريبه لم يكن بذخاً أو ملحقاً، بل جزء لا يتجزأ من شخصيته الثقافية العربية، وهاهو محمد الشارخ يجدد العلاقة الشخصية بالثقافة ويطل علينا عبر هذه الرواية، التي تلي مجموعات قصصية نشرها من قبل في كتب ومجلات وفصليات أدبية عربية مختلفة.

■

هذيان تحت الاحتلال

بيوت: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨



الاحتلال جريمة بشعة تدفع بالإنسان إلى الجنون والهذيان والشرشرة، وتخلق منه إنساناً آخر وذات أخرى.

تحت الاحتلال، يهذي الناس بشكل غير طبيعي ويثرثرون بشكل غير طبيعي، ويسلكون سلوكاً آخر تعبيراً عن رفض الغزو ونتاجه غير الإنساني والأخلاقي.

عندما وقعت بغداد تحت الاحتلال، هذت بغداد ذاتها مثلما هذى (البغادد) أنفسهم هذياناً لم يشهد له مثيل في تاريخ الأمراض النفسية التي تصيب النفس البشرية إثر حالة مرفوضة.

هذيان تحت الاحتلال عمل أدبي تشكله مجموعة من هذيانات لأشخاص واعين وغير واعين، يهذون تحت تأثير الاحتلال: يهذي مقاتل عراقي مقاوم للمحتل حتى النخاع، يهذي العميل المحتقر لنفسه ولذاته، يهذي كل الذين اغتيلوا بطريقة خاطئة، تهذي امرأة مفجوعة بفقدان الأبناء والزوج، يهذي شاعر فقد قصائده، يهذي العشاق الذين سلبوا حق ممارسة الهوى في أوطانهم، يهذي مدير الطب العدلي في بغداد وهو لا يستطيع أن يكتم عدد القتلى في ثلاجات الموت، يهذي القاتل والمقتول، يهذي الشهداء الأحياء عند ربهم، يهذي خلفاء بغداد وأمراؤها واحداً بعد الآخر، يهذي علماؤها ومثقفوها وكفاءاتها العلمية، يهذي الأغبياء والمغفلون.

يهذون أمام المرآة، أمام الحواجز والجدران الأسمنتية التي امتلأت بها شوارع بغداد وطرقاتها، يهذون عبر المحمول، يهذون أمام البيوت الكثيرة التي طمرها صاروخ أطلقه جندي أمريكي خطأً من طائرة أمريكية بدافع القضاء على الإرهابيين.

هذيان لحظة الصمت الذي تعقبه عاصفة شديدة، وهذيان لحظة العنف الأمني الذي أحال ليل بغداد ونهاره إلى جحيم لا تطاق.

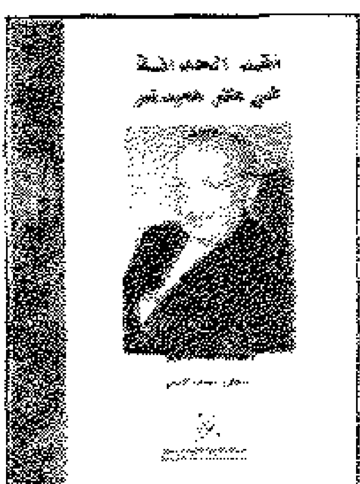
سيهذي العراقيون إلى أن تتحرر بلادهم وتزال من شوارعها وطرقاتها الجدران الكونكريتية والحواجز التي تُعيق حرية مرورهم إلى حياة آمنة.

■

نقد الحداثة في فكر هايدجر

محمد الشيخ

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨ ، ٦٩٤ صفحة



عادة ما كان يصف المفكر الألماني مارتن هايدجر (١٨٨٩ - ١٩٧٦) الحواريين أهل النظر بأنه حوار «أوداء» و«أخلاء» و«أصفياء». وقد حاول المؤلف في هذا الكتاب أن ينظر في الكيفية التي حاور بها هذا المفكر - الذي عد أحد أكبر مفكري عصرنا - مفكري الحداثة ومنظريها، وأن نحاوره بشأن نظرياته في نقد الحداثة الحوار الجميل. والحال أنه لئن كان لمفكر معتكف الغابة السوداء «ما فكر فيه»، فإن له أيضاً «ما لم يفكر فيه». وما أعظم «ما فكر فيه» الفيلسوف! لكن أعظم منه «ما

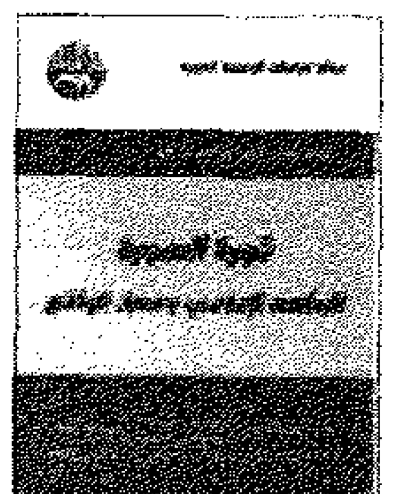
لم يفكر فيه»! وهذا الكتاب، أولاً وقبل كل شيء، نظر في «ما فكر فيه» هايدجر، وذلك قبل أن يكون هو سعياً إلى التفكير في «ما لم يفكر فيه». لقد فكر هايدغر في شأن «الحداثة» بأعمق فكر يكون أوجده وأبدعه. على أنه بنى نظره هذا على مقدمات كادت أن تخفى على الكثير من الذين إن هم وقفوا على نتائج أفكاره فما وقفوا على أصول أفكاره. ولهذا يقترح هذا الكتاب إعادة بناء فكر هايدجر في «الحداثة» بدءاً من بسائط المفاهيم التي استند إليها الرجل، ثم إنه ليأخذ بيد القارئ أخذ الرفقة إلى أن يفضي به إلى النتائج التي انتهى إليها هايدجر في نقده للحداثة. وقد قاد المؤلف في هذا تحد وجيه: محاولة إنطاق أفكار هايدجر لغة الضاد بما يضمن اختفاء رطانة هايدجر داخل العربية.

▪

ثورة الصورة المشهد الإعلامي وفضاء الواقع

مجموعة باحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨ ، ١٧٤ صفحة



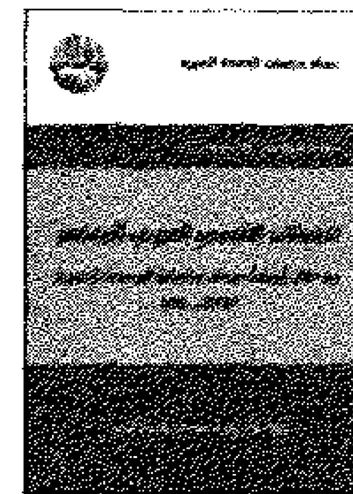
مع كل البدهيات التي غدت معروفة حول دور وسائل الاتصال واتساع دائرة التأثير المباشر للإعلام، إلا أن الحضور الحاد والمؤثر للإعلام في صياغة أسلوب حياتنا اليومية، أضحى ظاهرة تستحق التأمل والملاحقة والبحث عن وسائل التعامل معها، وتحليل نتائجها وأبعادها، إذ لم يعد كافياً الحديث عن الظواهر الإيجابية أو السلبية في بنية المجتمعات الراهنة ومدى قدرة الإعلام في التأثير فيها، بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى البحث عن معنى المسئولية الأخلاقية والمهنية لوسائل الإعلام، والوقوف إزاء ظاهرة عولمة الإعلام أو فساد الإعلام وغيرها من المقولات للوصول إلى تحديد ملامح المشهد الإنساني من أطرافه المختلفة: القيمية والعقائدية، ثم القوى الفاعلة في التأثير المباشر برسم السياسات، وصولاً إلى تأثير حدود ومعالم حلقة التواصل على مختلف المستويات وعبر تنوع الوسائل، ويستمر المؤتمر موضحاً إلى جانب هذا راسماً صورة للحرية الإعلامية وهو موضوع مثير للجدل والمدى الذي وصلت إليه وسائل الإعلام في سبيل التحرر من الرقابة والقيود. وقدم فاضل البدراني واقع الصحافة العراقية في زمن الاحتلال الأمريكي، وتابع خالد علي الهمداني دور وسائل الإعلام في الانتخابات ومدى التأثير الذي تمارسه عليها. ويتناول المنصف وناس القيم المدنية من خلال الفضائيات العربية قراءة تفكيكية في بعض التجارب وغيرها من الموضوعات التي تسهم في إلقاء الضوء على الإعلام في الزمن الراهن، وإلى أي مدى تأثر الشارع العربي على اختلاف أصعدته.

▪

الخطاب القومي العربي المعاصر من خلال أبحاث مركز دراسات الوحدة العربية (١٩٧٥ - ١٩٩٠)

الطاهر المناعي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨ ، ٦١٥ صفحة



شاء الباحث طاهر المناعي أن يختار الخطاب القومي العربي المعاصر من خلال أبحاث مركز دراسات الوحدة العربية، موضحاً لنيل درجة الدكتوراة: بدافع ذاتي قومي أولاً، وبدافع علمي، يجد ما يبرره في الثقافة العربية نفسها: فالفكر القومي جزء من النشاط الفكري العام في الوطن العربي، ومن أقدم تجلياته.

ويرى الباحث أنه بإنشاء مركز دراسات الوحدة العربية حدثت نقلة نوعية في خطاب الفكر القومي العربي، وفي آليات تعامله مع الواقع. وهو يرى أن القوميين العرب وجدوا في هذا المركز فضاءً ثقافياً ملائماً لتجسيد طموحاتهم، فأضحى بفضل نشاطهم وعطاءاتهم البحثية أغزر المراكز إنتاجاً، وأكثرها جدية، وبالمقابل بعث المركز روحاً جديدة في الفكر القومي العربي من خلال تخطيطه وتحديد رؤاه، وإنتاجه الضخم والمتنوع، مما جعل هذه المؤسسة الفكرية عمارة رائدة في مسيرة الحركة القومية العربية.

في هذا المناخ استنطق الباحث النصوص المنشورة، الصادرة عن المركز، خلال السنوات (١٩٧٥ - ١٩٩٠) (وهي فترة موضوع الرسالة)، فوجه عنايته أولاً إلى دراسة تأسيسية الخطاب القومي العربي التقليدي، ليتعرف إلى ظهور مرحلة تالية خصص لها القسم الثاني من الدراسة، حيث تعمق بخطاب المركز من حيث القضايا والمشاغل، في تحليل ضاف لجوانب هذه المشاغل السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، تلك التي استحوذت على اهتمام الباحثين العرب، ولاسيما المتعاملين منهم مع المركز.

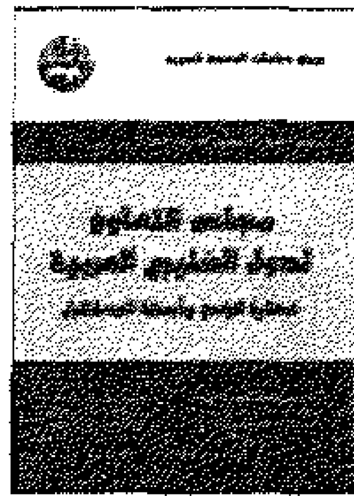
وفي القسم الثالث من الكتاب نهض الباحث بدراسة طبيعة الخطاب القومي العربي من حيث الأسس والمناهج ومن حيث الأبعاد والحدود.

▪

مجلس التعاون لدول الخليج العربية: قضايا الراهن وأسئلة المستقبل

مجموعة من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨ ، ٢٨٠ صفحة



اتسمت مسيرة مجلس التعاون لدول الخليج العربية التي اقتربت من ثلاثة عقود من الزمن، بالعمل من أجل تأكيد فكرة اللقاء الجامع (مجلس التعاون) وضمان دور وفاعلية الشركاء حول كينونته القانونية والمادية، والعمل من أجل تأكيد حضوره في إطار ثلاث منظومات سياسية مؤثرة في محيطه: المنظومة الأولى هي انتساب هذا التجمع عملياً لمنظومته الأكبر وهي الوطن العربي، باعتباره يعبر عن هوية الدول الأعضاء في ذلك المجلس، والمنظومة الثانية هي الوجود الجغرافي في منطقة إقليمية شهدت ومنذ عقد الثمانينيات من القرن الماضي اختلالات وصراعات كبيرة، ومازالت قائمة على موازنات قلقة تهدد باحتمالات غير متوقعة من الصراع، والمنظومة الثالثة هي المنظومة الكونية، فالدول المنضوية في إطار مجلس التعاون الخليجي تشكل مداراً سياسياً وجغرافياً يوصل بين نقاط حيوية ضمن مناطق شديدة التوتر والحساسية في إطار احتدام الصراع الدولي على المصالح، وفي المقدمة منها الصراع من أجل الوصول والهيمنة على مصادر الطاقة الوفيرة في منطقة الخليج العربي.

ومركز دراسات الوحدة العربية، في إطار اهتماماته بقضايا الوطن العربي بشكل عام، وبالأطر القانونية (الدستورية) للأنظمة العربية ونقاط اللقاء والتوحد، وكذلك المشكلات والتحديات، ومنها تجارب العمل التوحيدية على اختلاف صيغها ومستوياتها، فقد أولى اهتماماً متواصلاً بالتطورات التي شهدتها منطقة الخليج العربي، وبتجربة مجلس التعاون لدول الخليج العربية، باعتبارها إطاراً جامعاً يمكن أن يشكل تجربة لعمل وحدوي قابل للنمو والتطور والتكامل. وهذه الدراسات والبحوث التي كتبت في فترات زمنية مختلفة، وتناولت قضايا وموضوعات متصلة باهتمامات وواقع مجلس التعاون لدول الخليج العربية، إنما تشكل مساهمة فكرية في إغناء تلك الموضوعات، وتضيء جوانب من الواقع، وتثير أسئلة مشروعة حول آفاق ذلك التجمع العربي ومستقبله وتأثيره في مستقبل تلك المنطقة، وفي وحدة الأمة وتطورها وكفاحها من أجل الحرية والسيادة.

▪

مخنوقة

رحاب أبو العلا

القاهرة: دار الفاروق، ٢٠٠٨، ١٤٣ صفحة



قدمت المؤلفة فضفضة لشعور داخلي، تموج به نفسها في سن اقتربت من الثلاثين وحياة ملأها الملل وتسرب إليها اليأس لغياب العاطفة، التي تحتوي النفس وكذلك المشاعر الخاصة بالفتيات وهي الأمومة: فتحاول الفتاة رسم الواقع محللة أغلب المشاكل التي تجدها في طريق العمل، سواء مشكلات سياسية أو اجتماعية أو غيرها، كما أنها تلقي نظرة على العلاقات التي تمر في حياة الإنسان تاركة آثارا مختلفة، وتعلم في مسيرة الفرد كما أنها قد تغير رؤية الإنسان لأمور بعينها، وترى المؤلفة أن الحياة تفقد متعتها وقيمتها إذا شعر الإنسان بأنه فقد حريته وسعادته فيها، وعاش في خنقة واكتئاب، ومن العجيب أن هناك علاقة قوية بين الشعور بالاكتئاب من جهة وازدياد وسائل الترفيه والتكنولوجيا الحديثة من جهة أخرى، كأنهما مرتبطان معاً.. فأجدادنا كانوا أكثر سعادة رغم بساطة حياتهم.

وكلما تقدم العلم وقدم للإنسان ما لم يكن يحلم به.. انسحبت السعادة من حياته شيئاً فشيئاً وكأن يد الحياة تطبق على رقبتنا كل يوم.. ولكل شيء ضريبة.

▪

Bahgory: An Egyptian Artist's Words and Pictures

بهجورى: كلمات فنان مصرى ولوحاته

Georges Bahgory
Translated by Humphrey Davies

جورج بهجورى
ترجمة: هامفرى ديفيز

American University in Cairo Press 2008. 128 pp. $34.95



يلقى هذا الكتاب نظرة على الروح الخلاقة لواحد من أشهر الفنانين المصريين، روح عبر عنها من خلال الصور والكلمات. ينوه الرسام جورج بهجورى ببيكاسو ولوحات الفيوم باعتبارها أعظم المؤثرات فى عمله؛ يخلق بهجورى آثاراً فنية تجريدية أخاذة تشد الرائى إلى عالم قد تخيم عليه الظلمة والغرابة. وبوصفه مراقباً واعياً للأحداث المتلاحقة من حوله، ألف أن يضع رسوماً تخطيطية يصف بها انطباعاته فى هيئة مذكرات. تبرز العديد منها مشاهد للشوارع المصرية يمكن لأى شخص مطلع على الحياة اليومية للقاهرة التعرف عليها: رجل يركب دراجة ويحمل العيش فوق رأسه، الصبية وهم يلعبون كرة القدم، النساء فى السوق، مرتادو المقاهى، الموسيقيون. ترافق تلك المجموعة الجديدة من لوحات الفنان مقتطفات رواية تحكى سيرته تحت عنوان «أيقونة فلتس». يتحول بهجورى بعدها من الفرشاة إلى القلم ليبدع صوراً نثرية موجزة، كل واحدة منها مشهد مقتضب فوق نسيج غنى من السرد المتخيل. يخالج وصفه وعى حاد الذهن لمناظر طبيعية حسية تسهب فى لغته الفنية. يعبر بهجورى عن نفسه بالكلمات فى حماسة لا تقل عن حماسة تعتريه وهو يعبر عن نفسه فى اللوحات، وهو هنا يمنح القارئ بعداً آخر من أبعاد روحه الإبداعية فى كتاب «بهجورى: كلمات فنان مصرى ولوحاته».

جورج بهجورى: ولد فى الأقصر عام ١٩٣٥. درس فى كلية الفنون الجميلة بالزمالك وكلية الفنون الجميلة بباريس. يستقر فى باريس منذ خمسة وثلاثين عاماً، ويقيم فى مصر فترات مؤقتة من حين لآخر. عرض أعماله فى فرنسا ومصر وبريطانيا والعراق والأردن وتونس وإيطاليا.

هامفرى ديفيز: مترجم رواية علاء الأسوانى «عمارة يعقوبيان» ومجموعته القصصية «نيران صديقة» (دار نشر الجامعة الأمريكية فى القاهرة، ٢٠٠٨) ورواية «بوابة الشمس» لإلياس خورى التى فازت بجائزة بانيبال للأدب المترجم.

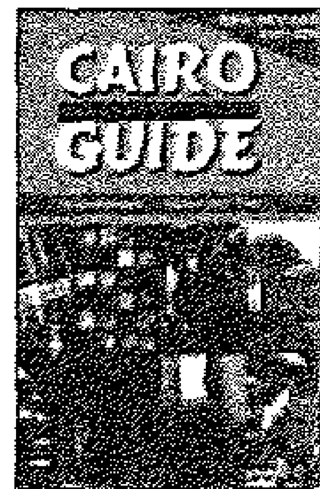
Cairo: The Practical Guide

القاهرة: الدليل العملى

Compiled by Claire E. Francy
Edited by Lesley Lababidi

تجميع: كلير إى. فرانسى
تحرير: ليزلى لابابيدى

American University in Cairo Press" 2008" 256 pp." $17.59



كتاب تصفه جريدة ذا نيو يورك تايمز بأنه لا غنى عنه. كتاب يملأ فراغاً حيوياً قد يجده المغتربون والقاهريون على حد سواء ممن يحتاجون إلى يد المساعدة لتنظيم فترات الإقامة فى القاهرة والاستمتاع بتحدياتها. أساسيات الحياة اليومية: إيجاد شقة، نقل الأغراض الشخصية، الاستقصاء عن خيارات مدارس الأطفال، الالتفاف حول بيروقراطية القاهرة الشهيرة، تعقيدات إطعام الفرد لنفسه وأفراد أسرته وإلباسهم من الأسواق المحلية، كلها بتفصيل ما بعده تفصيل فى هذا الكتاب. جمع الكتاب نصائحه من مجموعة متنوعة من المطلعين، منهم القاهرى ومنهم الأجنبى، وهى توفر للقارئ مخزوناً هائلاً من الحقائق الحالية حول الأسعار والأحياء والمنتجات المتاحة وفرص العمل والتجارة ونطاق لا نهاية له من مناسبات ثقافية وترفيهية تشتهر بها القاهرة. خاطبت بينة هذه النسخة وتصميمها حاجات السياح المائلين إلى الاستقلالية بالإضافة إلى الأجانب المقيمين بأن أضافت دليلاً من A إلى Z للبضائع والخدمات والاهتمامات مقسماً من حيث الأحياء؛ وجزءاً لغوياً يتناول أساسيات اللغة القاهرية؛ وتفاصيل التسوق والأماكن السياحية من منظور المقيم القاهرى. إن كتاب «القاهرة: الدليل العملى» - الآن فى نسخته الخامسة عشرة - هو المفتاح لفك شفرات تعقيدات الحياة والعمل والاستمتاع فى واحدة من أكثر مدن العالم الكبرى إثارة وتعقيداً.

تعمل كلير إى. فرانسى معالجة نفسية اجتماعية ومستشارة اتصالات.

ربت ليزلى لابابيدى ثلاثة أطفال فى القاهرة. ألفت كتاب «القاهرة: دليل الأسرة» وكتاب «لا صمت بعد اليوم: أصحاب الحاجات الخاصة فى مصر» (دار نشر الجامعة الأمريكية فى القاهرة، ٢٠٠٢) وكتاب «قصص شوارع القاهرة: سبر التماثيل والميادين والجسور والحدائق ومقاهى الأرصفة فى المدينة» (دار نشر الجامعة الأمريكية فى القاهرة، ٢٠٠٨)

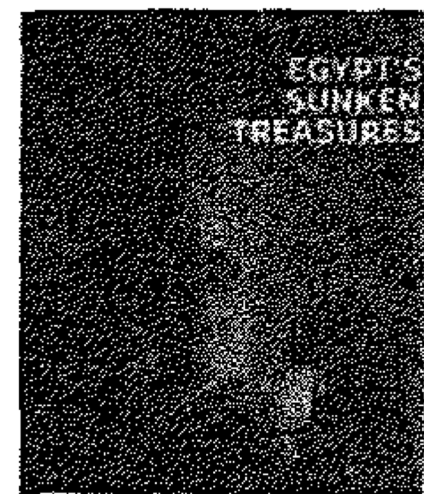
Egypt's Sunken Treasures

كنوز مصر الغارقة

Edited by Franck Goddio and David Fabre
Photography by Christoph Gerigk
Foreword by Zahi Hawass

تحرير: فرانك جوديو وديفيد فابر
تصوير: كريستوف جيريك
تقديم: زاهى حواس

American University in Cairo Press" 2008" 464 pp." $37.96



يعرض الكتاب فى نسخته المزيدة والمنقحة صوراً كاملة ملونة لبعثة استكشافية تسبر الآثار الغارقة تحت الماء، بعثة رائدة غيرت خرائط التاريخ. ففى المياه الضحلة لخليج أبو قير على الساحل المصرى تقبع أطلال ثلاث مدن عتيقة ازدهرت على سواحل البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الإسكندرية: الإسكندرية وهيراقليون وكانوبس، مدن غمرتها مياه البحر منذ العصور القديمة. يشرح الكتاب تعاملات جرت بين المدن الثلاث، وبين المصريين واليونانيين القدماء، وما خلفته كل حضارة على الأخرى من مؤثرات.

كذلك كشفت تلك الآثار الغارقة مؤخراً النقاب عن الحقيقة الكامنة وراء أحلام استثارتها هذه الأماكن الغامضة. إذ تحمل تلك البعثة فى جعبتها دلائل قيمة على الطريقة التى عاش بها مواطنوها وعبدوا آلهتهم. اكتشف عالم الآثار الغارقة الفرنسى فرانك جوديو آثاراً عتيقة تتضمن مجموعة تماثيل ومجوهرات وقواصر وألواحاً حجرية وأجزاء من مبان، كلها مفقودة منذ ألفى سنة تقريباً. وعلاوة على صور فوتوغرافية مذهلة لعملية استكشاف الآثار، أثار هذا الكتاب عقلية القارئ بأن ربط بين الآثار وحيوات هيلين ملكة طروادة وكليوباترا ومارك أنطونيو. يقدم الكتاب للقارئ القصة المثيرة لهذه الاكتشافات من قاع البحر: تمثال ملكة تتصور فى صورة إيزيس أفروديت، تمثال قسيس يحمل برقة جرة أوزوريس-كانوبس، تماثيل ضخمة لملك وملكة، منحوتة هائلة للإله حابى، أطلال الكائن الخرافى السفينكس، ساحات من الأعمدة المتكسرة وكأن يد عملاق بعثرتها. لقد سلطت كل هذه الاكتشافات الضوء على عالم ملغز ساحر. تمت هذه الاستكشافات باستخدام أحدث المناهج المتطورة واعتمدت على معرفة وثيقة بالتاريخ. إنه كتاب مثير موجه لكل مهتم بالتاريخ القديم، فهذا الكتاب الغنى بالصور هو أشمل الكتب - حتى الوقت الحالى - التى تناولت اكتشاف المدن المفقودة تحت خليج أبو قير.

ولد فرانك جوديو عام ١٩٤٧. هو مؤسس ورئيس المعهد الأوروبى للآثار الغارقة فى باريس. ألف عدة كتب ومقالات علمية حول مشاريع الأبحاث واستخراج الآثار الغارقة، وكان موضوع العديد من الأفلام الوثائقية التليفزيونية.

Granada

غرناطة

Radwa Ashour
Translated by William Granara

رضوى عاشور
ترجمة: ويليام جرانارا

American University in Cairo Press" 2008" 128 pp." $19.96



كانت مدينة غرناطة الأسبانية تضم مجتمعاً مسلماً قبل القرن الخامس عشر. لكن حين اجتاح ملكا قشتالة وأراجون المنطقة، جلبا معهما محاكم

التفتيش.' إذ حظرا الثقافة الإسلامية وآدابها وأرغما السكان على التحول عن الإسلام. الأرجح ألا يكون قارئ الإنجليزية مطلعاً على تاريخ غرناطة، لذا قد تبث تلك الحقيقة بالإضافة إلى الهوامش التوضيحية شيئاً من الملل فى نفس قارئ الإنجليزية. لكن حالما يتأقلم القارئ مع الإيقاع الناعم للقصة، سيجدها فى منتهى الإثارة. سوف يعجب كل من يستمتع بالقصص الرومانسية بشخصيات مثل الحفيدة العنيدة سليمة فيما قد تبدو أحياناً كلمات مثل «الإرهابى» و«المسلم المحارب فى سبيل الحرية» خارجة عن السياق التاريخى أو محشورة فى الحبكة للتأكيد على إيحاءاتها المعاصرة، وليس من أجل القصة. إلا أن اللغة فى المجمل غنية تستثير الذكريات والعواطف، والشخصيات الجذابة.

«غرناطة» رواية مؤثرة عن ثقافة مختلطة تواجدت فى جنوب أسبانيا قبل طرد العرب واليهود. تحيك رضوى عاشور بقلم ماهر تاريخ حكم غرناطة وعالماً عربياً فى رواية تستدعى فقدان الإرث الثقافى وتلاشى شرائح سكانية مقهورة. تتتبع الرواية أقدار أبى جعفر المسلم - زعيم ذائع الصيت ووراق يمتلك حانوتاً فى حى الوراقين ويسكن فى حى البيازين - وزوجته وكنته الأرملة وولداها وتلميذه. تشغل حيوات تلميذى أبى جعفر وولدى ابنه الراحل قلب الرواية. شهدوا جميعاً كريستوفر كولومبس وحاشيته فى موكب المنتصرين وهم يعرضون نباتات وحيوانات غريبة وأسرى بشريين من 'العالم الجديد'. تدمج المؤلفة فى الحكاية الاستعدادات لزواج سعد، واحد من التلميذين، وسليمة حفيدة أبو جعفر - سيناريو يتكشف بكل رشاقة فى عدد من المشاهد المتوازية. وبينما يصادر حكام غرناطة الجدد الكتب ويحرق المسئولون مجلدات كاملة، ينقل أبو جعفر مكتبته الزاخرة بالمطبوعات إلى خارج البلدة. يكافح المسلمون المضطهدون لتشكيل حكومة مستقلة إلا أن الضغوط الاقتصادية والثقافية على عرب أسبانيا والحكام المسيحيين تتعاظم من جراء ثورات المسلمين. إنها حكاية لا تخلو من عزيمة أو أسى. سوف تروق هذه الرواية القراء المهتمين بالأدب الأسبانى والعربى، وكل معنى بالعلاقات المسيحية-الإسلامية.

كتبت رضوى عاشور سبع روايات وثلاث مجموعات قصصية وأربعة كتب نقدية. تعمل أستاذة للغة الإنجليزية بجامعة عين شمس.

ويليام جرانارا مترجم ومؤلف وأستاذ للغة العربية بجامعة هارفارد.

■

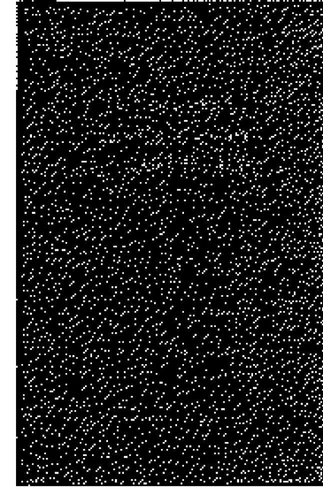
Islam and Textbooks in the Middle East: Comparing Curricula

الإسلام والكتب المدرسية فى الشرق الأوسط: مقارنة للمناهج

Edited by Eleanor Abdella Doumato and Gregory Starrett

تحرير: إيلينور عبد الله دوماتو وجريجورى ستاريت

American University in Cairo Press" 2008" 272pp." $19.96



لقد قيل الكثير عن الدور الذى لعبه النظام التعليمى بالسعودية فى تعزيز شعور بالكراهية أفضى إلى هجمات ١١ سبتمبر. لكن هل تستحق المناهج الدراسية السعودية أن تلام على غرز العنف فى نفوس التلاميذ؟ وهل تسللت الأفكار الوهابية إلى نصوص إسلامية تُدرسها المدارس العامة فى الشرق الأوسط؟ وفى محاولة لمواجهة تلك الأسئلة يسبر هذا الكتاب الأولويات السياسية والاجتماعية الكامنة وراء التعليم الدينى فى تسع دول بالشرق الأوسط، وعليه يكشف اختلافات مثيرة فى طريقة تقديم المناهج الدراسية للإسلام ليعكس التاريخ المحلى لكل دولة وسياساتها. كذلك يوضح الكتاب قدرة الدين الإسلامى المدهشة على التكيف فيما يجاهد القادة للتوفيق بين الهوية الإسلامية وحقوق المواطنة والحقيقة المعاصرة لعالم مستقل تهيمن عليه العولمة. من بين المساهمين فى الكتاب: تفريد القدسى وأوزلم الطان وبيتى أندرسون وناثان براون وسيف دانا وإيلينور عبد الله دوماتو وجريجورى ستاريت ومحمد إس. عيسى وجوشوا لانديس وماندانا إى. ليمبرت وجلنار مهران وجيمز إيه. تورونتو. إن هذا الكتاب يُقدم على حد قول مجلة ميدويست بوك ريفيو «تدقيقاً وافياً قيماً ولا سيما فى أعقاب هجمات ١١ سبتمبر والاتهامات بتسرب الكتب المدرسية المشجعة على العنف إلى المملكة العربية السعودية والعالم الإسلامى».

إيلينور عبد الله دوماتو زميلة زائرة فى معهد واتسون للدراسات العالمية بجامعة براون. شاركت فى تحرير كتاب «النساء والعولمة فى الشرق الأوسط العربى: الجنوسة والاقتصاد والمجتمع» و«الحصول على إذن الله: النساء والإسلام والشفاء فى المملكة العربية السعودية والخليج العربى».

جريجورى ستاريت أستاذ مساعد فى علم الإنسان بجامعة نورث كارولينا بمدينة شارلوت. ألف ستاريت كتاب «تفعيل الإسلام: التعليم والسياسة والتحول الدينى فى مصر».

■

Khan al-Khalili

خان الخليلى

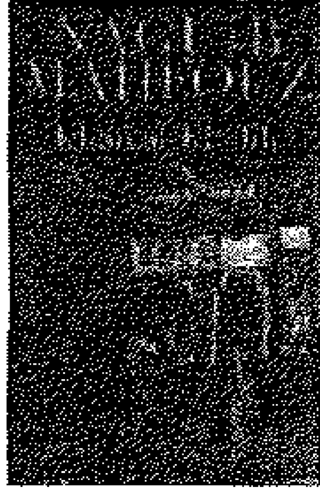
Naguib Mahfouz

Translated by Roger Allen

نجيب محفوظ

ترجمة: روجر آلان

American University in Cairo Press" 2008" 312pp." $24.95



كان اكتمال رواية «خان الخليلى» عام ١٩٤٥ بمثابة نقطة تحول فى مسيرة نجيب محفوظ المهنية. إذ انصرف بها عن موضوعات تقليدية تتناول التاريخ المصرى القديم وتميز أعمال الكاتب الأولى. تعكس «خان الخليلى» اهتماماً عميقاً بحيوات المصريين المعاصرين ومشاكلهم. تقع أحداث الرواية فى عام ١٩٤٢ حين كانت الحرب العالمية الثانية فى ذروتها و«حملة أفريقيا» تحتدم بطول الساحل الشمالى وصولاً إلى العلمين. تسرد الرواية فى خلفية من الجيشان العالمى حكاية أسرة عاكف، أسرة تنتمى إلى الطبقة المتوسطة التجأت إلى حى خان الخليلى التاريخى الصاخب. اعتقدت الأسرة أن القوات الألمانية لن تقذف أبداً مثل تلك البقعة الدينية من المدينة، وعليه التمس أفرادها الأمان وسط حوارى الخان المزدحمة ومقاهيه الغاصة بالناس ومساجده العتيقة المجاورة لمنطقة أمضى فيها محفوظ معظم أيام شبابه. يُقدم محفوظ بعينى أحمد - الابن الأكبر لعاكف ومحور الرواية الأساسى - رؤية ثرية للخان متكلاً على ذكرياته فى حشد مجموعة مفعمة بالحياة من الشخصيات، تلك الشخصيات التى تتقيد حيواتها بمناظر بيته فى الطفولة وروائحه وطعومه. لقد ضحى أحمد الموظف بتعليمه وطموحه الشخصى كى يعول أسرته الصغيرة، وهو هنا يتفاعل مع أهل خان الخليلى وتقاليده ليبزغ جدل يتعارك فيه القديم مع الجديد، التاريخ مع الحداثة، الإيمان مع العلمانية. تعالج هذه الرواية واحداً من أبرز أسئلة العصر الحديث، فمحفوظ يسأل: هل يجب أن يتزامن التقدم بالضرورة مع تدمير ملامح الماضى. لقد رسم محفوظ حبكة جذابة الإيقاع حساسة اللغة لعائلة تقف عند مفترق الطرق بين القديم والجديد.

■

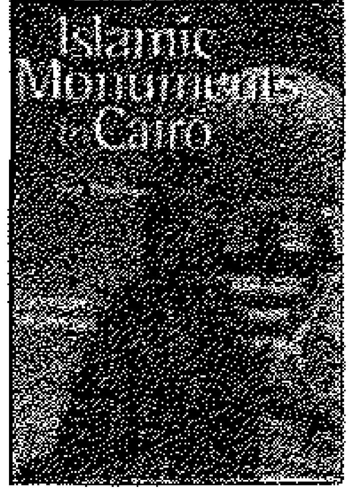
Islamic Monuments in Cairo: The Practical Guide

الآثار الإسلامية فى القاهرة: الدليل العملى

Caroline Williams

كارولين ويليامز

American University in Cairo Press" 2008" 316 pp." $24.95



تعتبر آثار القاهرة الإسلامية جزءاً من إرث متواصل يمتد إلى أكثر من ألف سنة من التشييد. لا يمكن لأية مدينة إسلامية أخرى أن تضارع القاهرة فى إرثها الرائع أو تتتبع التطور التاريخى للعمارة الإسلامية بمثل ذلك الوضوح. إن اكتشاف هذا الجوهر التاريخى، أولاً بصرياً بعيون الفنانين الغربيين فى القرن التاسع عشر ثم فكرياً بأقلام متخصصى الفن الإسلامى فى القرن العشرين، ينتظر الآن إبهاج الزائر من العامة. لا تزال هذه النسخة الجديدة المنقحة بالكامل من الدليل المبسط المفيد «الآثار الإسلامية فى القاهرة» تساير الزائر عبر مائتى أثر من أكثر الآثار الإسلامية تشويقاً. كما أنها لا تهمل مبادرات الترميم الحديثة والآثار المفتتحة مؤخراً مثل قصر الأمير طاز ومنزل الست وسيلة. ينصح جوناثان إم. بلوم فى مجلة المركز الأمريكى للأبحاث فى مصر «ألا تخلو حقائب كل زائر إلى القاهرة من هذا الكتاب. علاوة على أن محبى معمار القاهرة ودارسيه سيجدونه مرجعاً سريعاً دقيقاً وكذلك تذكاراً عزيزاً بالعديد من الرحلات الممتعة وسط الآثار القاهرية». إنه دليل وصفه موقع لونلى بلانيت بالممتاز.

أتمت كارولين ويليامز دراساتها العليا فى تاريخ الشرق الأوسط من جامعة هارفارد والفن الإسلامى من الجامعة

الأمريكية فى القاهرة. تقيم فى القاهرة أو تزورها من حين لآخر منذ عام ١٩٦١.

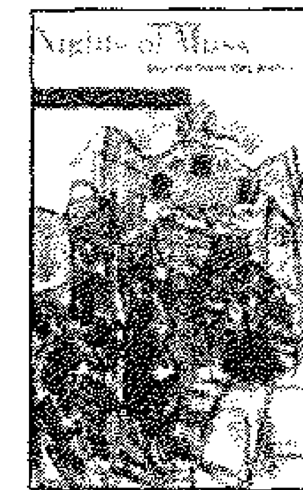
Nights of Musk: Stories from Old Nubia

ليالى المسك: قصص من النوبة القديمة

Haggag Hassan Oddoul
Translated by Anthony Calderbank

حجاج حسن أدول
ترجمة: أنتونى كالدربانك

American University in Cairo Press" 2008" 136pp." $17.95



لا تعوز تلك المجموعة القصصية الحدة أو الصنعة الأدبية المتقنة. تحيى الزوال المأساوى للحياة التقليدية للنوبة وثقافتها. لو تسببت السدود المبكرة التى شيدها المصريون عبر نهر النيل خلال النصف الأول من القرن العشرين فى تزايد أعداد النوبيين المهاجرين إلى القاهرة والإسكندرية للعمل كخادمين ونُدل وبوابين، فإن استكمال السد العالى فى عام ١٩٦٤ أعلن وفاة شعب النوبة. فبينما نُقل معبد أبو سمبل بتكلفة باهظة وحرص ما بعده حرص، لم يلحظ الكثيرون غرق الأرض العتيقة لشعب النوبة مع ضفتىَ النهر. يسلط عمل حجاج حسن أدول ضوءاً مشحوناً بالحنين على إرث النوبيين وطريقة حياتهم بالإضافة إلى توثيق المأساة الشخصية لأفراد تورطوا رغماً عنهم فى تغيير اجتماعى هائل: رقص النوبيين المكلل بالإيقاعات، ونساؤهم الجميلات، وحس الفكاهة المترع بالحيوية عند العجائز، والمركزية الشديدة لتقاليدهم وأرواحهم التى شاركوا فيها بيئتهم. تَعرض قصتان من هذه المجموعة، «زينب» و«ليالى المسك»، رؤية ريفية نافذة كما الحلم لعالم تبدد إلى الأبد تحت المياه القابعة خلف السد. وفى الوقت نفسه توثق قصتان أخريان، «جدة عديلة» و«أناس النهر»، لرحيل رجال تركوا نساءهم ليأخذوا بأسباب حياة يابسة. لا يملك أفراد الجيل الثانى والثالث ممن ولدوا فى مدن الشمال إلا حكايات الجدات التى تذكرهم بلغة عربية ركيكة بتراث راح وانقضى.

ولد حجاج حسن أدول فى الإسكندرية عام ١٩٤٤ لأبوين تركا موطنهما - قريتهما فى منطقة النوبة - متجهين شمالاً. اشتغل عامل تشييد فى مشروع بناء سد أسوان ثم خدم فى الجيش المصرى خلال حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر ١٩٧٣. بدأ الكتابة فى سن الأربعين ليكتب القصة القصيرة والرواية والمسرحية. فازت «ليالى المسك» بجائزة الدولة للقصة القصيرة عام ١٩٩٠.

عاش أنتونى كالدربانك فى مصر عدة سنوات، وهو معنى باللغة العربية وآدابها. ترجم رواية «رادوبيس» لنجيب محفوظ (دار نشر الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٣)

Tales from Dayrut: Modern Arabic Stories

حكايات من ديروط: قصص عربية معاصرة

Mohamed Mustagab
Translated by Humphrey Davies

محمد مستجاب
ترجمة: هامفرى ديفيز

American University in Cairo Press" 2008" 210pp." $22.95



تحوى هذه المجموعة أقصوصة واحدة وأربع عشرة قصة قصيرة مترابطة. يتعمق بنا مستجاب من رواية «التاريخ السرى لنعمان عبد الحافظ» إلى صعيد مصر فى قرية ديروط الشريف مسقط رأسه حيث يصور عالماً يستبد به الفقر والجهل والأخذ بالثأر ومبادئ شرف لا سبيل إلى تغييرها. وهنا يستعين مستجاب بحس الكوميديا السوداء وسخرية خليقة بأعمال جوناثان سويفت، سخرية عالم ببواطن الأمور يدرى كل خافية فى مجتمعه. وعندما يتحطم سكون آخر اليوم بطلقة واحدة، يندمج الجمال المتناهى بالرعب، وعندما يجد رجل شرطة - ساعيا إلى حل لغز جريمة قتل - أشلاء لا تعد ولا تحصى من حوله، ينقلب العنف بكل سهولة إلى مسرحية هزلية. وفى المجمل يسبر خيال المؤلف السريالى من آن لآخر ألغاز مكان تتردد إليه النساء المغريات على طرقه المغبرة وقد يجد فيه أحد الرجال نفسه مسحوقاً كالدودة تحت رجل آخر. تترامى آفاق «قريتى» فى مقاطع أخرى من النص لتشمل دولاً أخرى (عمل المؤلف عدة سنوات فى الخليج العربى) حيث تفضى الحماقة وخداع الذات إلى نتائج لا تقل فى شؤمها. إن صوت مستجاب الأدبى - غير المعهود لقارئ الإنجليزية - صوت أصيل يبعث الاضطراب فى القلوب.

وُلد محمد مستجاب فى بلدة ديروط بصعيد مصر عام ١٩٣٨. توقف دراسياً عند مرحلة الثانوية العامة لكنه حاز مكاناً فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة وترقى إلى درجة مدير عام. نشر قصته الأولى فى مجلة الهلال عام ١٩٦٨. حاز جائزة الدولة التشجيعية عن رواية «التاريخ السرى لنعمان عبد الحافظ» عام ١٩٨٤، وتم اختيارها كواحدة من أجمل مائة رواية عربية خلال القرن العشرين. توفى مستجاب عام ٢٠٠٦.

The Golden Years of Egyptian Film

السنوات الذهبية للسينما المصرية

Edited by Sherif Boraie

تحرير: شريف برعى

American University in Cairo Press" 2008" 240pp." $49.95



بلغت صناعة السينما المصرية أوجها ما بين العقد الرابع من القرن العشرين والعقد السابع منه. فقد أنتجت مئات الأفلام المعروضة بالأبيض والأسود، الكوميدية والدرامية والرومانسية، أفلام أضحت كلاسيكيات لا يطالها الزمن فى أرشيف السينما المصرية. إنها أفلام يعشقها الملايين ويشاهدونها المرة تلو المرة فى جميع الدول العربية. ومهما قدمت تلك الأفلام من مواضيع، يظل الحب دائماً هو الموضوع الأساسى - الحب المثالى، الحب المستحيل، انتصار الحب، فشل الحب. يجمع شريف برعى - ناشر قاهرى - أكثر من مائة صورة دعائية لما يربو على ثمانمائة فيلم مصرى رائع فى هذه المعالجة السخية ذات القطع الكبير. وفى درجات الأبيض والأسود البهية، راح النجوم المشاهير - من كازابلانكا إلى بغداد - يكشرون أو يعبسون، ينكمشون خوفاً أو يستجدون، يحكمون قبضاتهم أو يدندنون بالنغمات، يتآمرون أو يعلنون الانتصار. إنهم نجوم أو مطربو الصف الأول: أم كلثوم وليلى مراد وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش، والبطلات: فاتن حمامة وسعاد حسنى، والأبطال: عمر الشريف ورشدى أباظة، والراقصات: نعيمة عاكف وتحية كاريوكا، والأشرار: توفيق الدقن ومحمود المليجى، والكوميديون: مارى منيب وإسماعيل ياسين. هذا فضلاً عن النجمة الطفلة فيروز وبطل الشعب فريد شوقى والمذهلة هند رستم. يُقدم شريف برعى كتابه باللغتين الإنجليزية والعربية لينعم النظر بمقالات لرفيق الصبان ومصطفى درويش وياسر علوان إلى أجمل ما عرضته السينما المصرية. سوف يروق الكتاب محبى الأفلام الكلاسيكية فى كل مكان.

Kallimni 'Arabi Bishweesh: A Course in Spoken Beginners Egyptian Arabic 1

كلمنى عربى بشويش: منهج للمبتدئين فى العربية المصرية الشفهية ١

Samia Louis

سامية لويس

American University in Cairo Press" 2008" $24.95pp." $24.95



درّست سامية لويس اللغة العربية خمسة عشر عاماً فى المعهد العالمى للغات بالقاهرة (ILI). تلتزم لويس بمنهج عملى يهدف إلى إبداع مجموعة من الكتب المبتكرة الألمعية لدراسة العامية المصرية - لهجة يدرسها الكثير من غير المتحدثين بالعربية ويفهمها الوطن العربى بأكمله. تستند الكاتبة إلى سنوات خبرتها كمدرسة لغة عربية ومطورة للمناهج التعليمية. وقد أضافت الآن إلى السلسلة ثلاثة كتب جديدة. تم تصميم الكتب وفقاً لتعليمات المركز الأمريكى لتعليم اللغات الأجنبية (ACTFL).

يدرب كل كتاب من كتب «كلمنى عربى بشويش» الطلبة على استيعاب دروس غنية البنية فى المهارات الحيوية مع التشديد على الاستماع والتحدث. تستخدم الكتب مواقف وتعابير من الحياة الواقعية. ويشتمل القرص

المضغوط المصاحب للكتاب على تسجيلات لحوارات وتمارين سجلها مصريون. يعلق ديفيد ويلمسين، أستاذ مساعد في الجامعة الأمريكية ببيروت، على الكتب قائلاً إنها «توفر أفضل المقررات العربية المتاحة... فهي أفضل بمراحل من أغلب الكتب الأخرى».

■

The Loved Ones

المحبوبات

Alia Mamdouh

Translated by Marilyn Booth

عالية ممدوح

ترجمة: مارلين بوث

American University in Cairo Press" 2008" 288pp." $18.95



إنها الرواية الفائزة بميدالية نجيب محفوظ للأدب عام ٢٠٠٤. ترقد سهيلة المهاجرة العراقية في غيبوبة بأحد مستشفيات باريس. 'المحبوبات' هن كوكبة الصديقات اللاتي يهرعن إلى فراش سهيلة من كل أنحاء العالم كي يطوقنها بدفء الصداقة الذي قد ينقذ حياتها في النهاية ويمكنها من الانبعاث. تكشف القصص المحكية عن سهيلة أبعاد شخصيتها: إسرافها في كل شيء وحبها للرقص والنبيذ والشعر على الرغم من سنوات أساء فيها زوجها العراقي معاملتها وما استشعرته من قسوة النفي عن الوطن وما عراها من إحباط منبعه الابتعاد عن ابنها الوحيد. تتدفق ذكريات مدوية معذبة مشحونة بالعناد في حكايات متداخلة برواية عالية ممدوح الخامسة. وبعد أن تقع سهيلة - راقصة سابقة ساحرة لكنها تنزع إلى الاكتئاب - فريسة لغيبوبة، تلتف «المحبوبات» حول فراشها بالمستشفى ليرفعن الصلوات بالشفاء. كما يخلف نادر الكئيب زوجته وابنه الصغير في كندا ليعتني بأمه المغتربة سهيلة. يستحضر نادر طفولة خنقها هوس سهيلة به ويتدبر رجولة يعذبها وطن مزقته الحرب التي أودت بأبيه. وفي نفس الوقت تلوم صديقات سهيلة نادراً لهجرانه لأمه ويؤكدن أنها ستعود من أجل ابنها. وبينما تغدق النساء كل الحب على جسد سهيلة الخامل بالحاح ميلودرامي، يفطن نادر المحتار الحاضر إلى إجلالهن لأمه فيعتريه اشتياق جامح إليها، اشتياق يحجب أفكاره عن أسرته الصغيرة.

تتراءى تأملات المؤلفة المكتوبة في المنفى حول أم وابن يقاوم حياة كاملة من الحرب والاغتراب في مثل تلون رقصات سهيلة وفي مثل غموض جسمها الصامت النائم. سوف يجد القارئ «المحبوبات» قصة محركة للمشاعر متعددة الأصوات، تسرد معضلات التشرد والترحال، حكاية مفككة وأحياناً مشوهة تخلط عصوراً متباينة يتحد بها الماضي والحاضر والمستقبل ويتشابكوا وينضفروا. «المحبوبات» ترنيمة تمجد الصداقة وعطاء لا نهائي يجدد الحياة - إنها قصة عن الذاكرة والتاريخ تقف بقوة أمام النسيان.

ولدت عالية ممدوح في العراق وتلقت شهادة في علم النفس من الجامعة المستنصرية عام ١٩٧١. عملت رئيسة تحرير مجلة الراصد من عام ١٩٧٠ وحتى ١٩٨٢. تعيش الآن في باريس. ألفت رواية «نفثالين: رواية عن بغداد» (دار نشر الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٥).

مارلين بوث مترجمة رواية «الباب المفتوح» للطيفة الزيات (دار نشر الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٢) ورواية «أوراق النرجس» لسمية رمضان (دار نشر الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٢) ورواية «حارث المياه» لهدى بركات (دار نشر الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٣)

■

Vintage Alexandria: -Photographs of the City" 1860 1960

إسكندرية العتيقة: صور للمدينة، ١٨٦٠-١٩٦٠

Michael Haag

مايكل هاج

American University in Cairo Press" 2008" 152pp." $39.95



يستعين مايكل هاج في كتاب «إسكندرية العتيقة» بصور عتيقة ترجع إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. حصل على العديد منها من ألبومات عائلية شخصية. وهو يحيي في هذا الكتاب عالماً تبددت فيه إسكندرية العتيقة، تلك المدينة الأنيقة العالمية النابضة بالحياة، صاحبة أضخم ميناء في البحر المتوسط كان في يوم من الأيام ممراً مزدهراً بين مصر والعالم. سوف يتطلع القارئ إلى مواقع بيوت السكندريين القدامى وحدائقهم، وشوارع المدينة وشواطئها، ووجوه هؤلاء السكندريين المنسيين وقد عادت إلى الحياة: اليونانيين والإيطاليين واليهود وكل هؤلاء القادمين من شواطئ البحر المتوسط ممن أسهمت طاقاتهم وخبراتهم في تحديث مصر وتطويرها وزرعوا جذورهم العائلية في قلب المدينة. كانت هذه هي المدينة المترفة المثيرة التي احتفى بها كونستانتين كفافي وإي. إم. فورستر ولورانس دوريل، وقد تواجدوا أيضاً بين هذه الصفحات إلى جانب صور لمشاهد وأناس ألفوهم وخبروهم.

يتتبع كتاب «إسكندرية العتيقة» تطور المدينة وازدهارها، ويسبر حكاياتها عبر الأحداث الدرامية لحربين عالميتين، وهو يوفر قبل كل شيء خلفية معرفية عن مكانة المدينة في التاريخ الثقافي للقرن العشرين، وذلك من خلال عيون المواطنين السكندريين العالميين أنفسهم. ومن بين هؤلاء المواطنين الذين أقاموا بالمدينة وظهروا بين صفحات الكتاب: أنتوني بيناكي (تاجر قطن يوناني شكلت مجموعته الفنية أساس متحف بيناكي الشهير في أثينا) وروبرت كوخ (عالم عزل فيروس الكوليرا وطور لقاحاً في أحد معامل الإسكندرية) وبينلوبي دلتا (كاتبة كتب الأطفال اليونانية) وكلود فينسيندون (الزوجة الثالثة للورانس دوريل) وفيكتور إيمانويل الثالث ملك إيطاليا وإيف كوهن (الزوجة الثانية للورنس دوريل وموضوع روايته «جاستين») وصافيناز ذو الفقار (التي تزوجت بالملك فاروق تحت اسم الملكة فريدة) ورودولف هيس (نائب هتلر الدارس في الإسكندرية) وجين دو ميناس (أفضل مترجمي تي. إس. إليوت) ومانفريد فون ريشتهوفين (البارون الأحمر) والمفكر الفلسطيني إدوارد سعيد والمخرج السينمائي يوسف شاهين والنجم السينمائي العالمي عمر الشريف والملك حسين ملك الأردن وروما هازارد (رسامة تنتمي إلى حركة الانطباعية المتأخرة) وأحمد حسنين باشا (المستكشف والدبلوماسي المصري) ونويل كاوارد (كاتب ومفكر إنجليزي غني في النادي البحري بالإسكندرية وتجمهر حوله البحارة.) سوف يبث هذا الكتاب الفضول في نفوس القراء بصور أرشيفية تكشف عن القلب المنسي لمدينة عالمية عظيمة.

مايكل هاج كاتب ومصور يستقر في لندن. ألف كتاب «الإسكندرية: مدينة الذكرى».

■

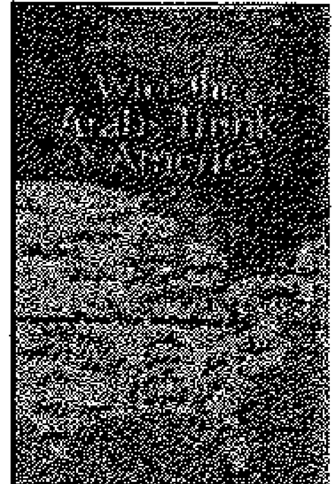
What the Arabs Think of America

كيف يفكر العرب في أمريكا

Andrew Hammond

أندرو هاموند

American University in Cairo Press" 2008" 258pp." $29.95



تستفز أمريكا والأمريكيون في هذه الأيام آراء حادة من العرب بشتى توجهاتهم، من السياسيين والصحفيين إلى العامة في شوارع الدول العربية. لا تبلغ أصواتهم دوماً الغرب إلا أن الصحفي البريطاني أندرو هاموند المقيم في الشرق الأوسط ينصت إلى أحاديثهم منذ ما يفوق عقداً من الزمان. فآراؤهم الواردة في هذا الكتاب مسموعة بكل وضوح وجلاء. تصطبغ الكثير من القضايا بالطابع السياسي. كيف يرى العرب الدعم الأمريكي لإسرائيل أو العلاقات الوثيقة بين أمريكا والسعودية؟ ما هو رد فعلهم على التدخلات الأمريكية في الشرق الأوسط واحتلال أمريكا للعراق؟ بيد أن التأثير الأمريكي على العالم العربي لا يقتصر على السياسة. ما هي آراء العرب في السينما والتليفزيون وموسيقى الهيب-هوب والراب في أمريكا. بل وكيف ينظر العرب إلى الأمريكيين أنفسهم وأسلوب حياتهم ومواقفهم وشخصياتهم؟ يدمج المؤلف في الكتاب حواراته مع أفراد من جميع أنحاء العالم العربي، وهكذا يعبر كتاب «كيف يفكر العرب في أمريكا» عن الصوت الخافت لشريك يدخل في علاقة متأزمة. تتلون الآراء أحياناً بالغضب وأحياناً بالإعجاب ودائماً بالحماسة. وصفت مجلة ماليتيكالشيرال ريفيو الكتاب بأنه «رائع التوثيق جاء في وقته» فيما قالت عنه مضاوي الرشيد، مؤلفة كتاب «تاريخ المملكة العربية السعودية» إنه «الصحافة الملتزمة في أفضل حالاتها».

أندرو هاموند صحفي كتب كتابات موسعة عن الشرق الأوسط وعمل مراسلاً بالعديد من الدول من بينها مصر والسودان وإسرائيل وفلسطين والعراق. ألف كتاب الثقافة الشعبية في العالم العربي (دار نشر الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٧).

■

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 120 - January 2009

مجلة شهرية . العدد المائة وعشرون . السنة العاشرة . يناير ٢٠٠٩ . الثمن عشرة جنيهات

غزَّة

الطريق إلى الأزمة !

سياحة الليل .. وسياحة النهار !

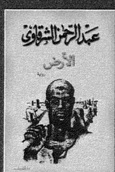
حيث لا مكان للحمائم !



كنائس مصر

أحدث إصدارات

دار الشروق



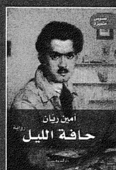








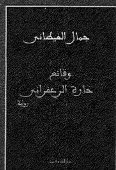






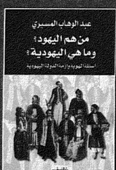
















وبأجنحة دار الشروق بمعرض الكتاب الدولي فى الفترة من ٢١ يناير إلى ٥ فبراير

وسط البلد: ١ ميدان طلعت حرب ت: ٢٣٩٣٠٦٤٣ - ٢٣٩١٢٤٨٠
مصر الجديدة: ١٥ شارع بغداد - الكوربة ت: ٢٤١٧١٩٤٥ - ٢٤١٧١٩٤٤
الإسكندرية: سان ستيفانو مول ت: ٠٣/٤٦٩٠٣٧٠ - ٠١٠١٦٣٣٦٨٥
مدينة نصر: سيتي ستارز مول ت: ٢٤٨٠٢٥٤٤ - ٠١٦٥٥٤٨٧٢٩
الجيزة: فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة ت: ٣٥٧٣٥٠٣٥ - ٣٥٦٨٦١٨٧
الإدارة: ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر ت: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com email: dar@shorouk.com

السنة العاشرة
العدد ١٢٠
يناير ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى



الكتب وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- ألفت أحمد الخشاب.. باحثة فى التاريخ.
- امتياز دياب.. كاتبة فلسطينية تقيم فى جنيف.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- بشير نافع.. كاتب وأكاديمى فلسطينى مقيم بلندن.
- خالد محمد ياسين أبو الهيجاء.. قارئ.
- زكى سالم.. كاتب مصرى يحمل درجة الدكتوراه فى الفلسفة.
- ليسا ون.. باحثة أكاديمية في الأنثروبولوجيا بجامعة ماكوير - أستراليا.
- مارك دانر.. كاتب فى النيويوركر.
- محمد يوسف عدس.. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.
- مينا بديع عبد الملك.. أستاذ الرياضيات بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية.
- هاشم النحاس.. ناقد سينمائى.

رسوم العدد للفنانين
James Gallray, Nerilicon





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

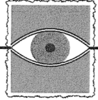
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



ومـازالت الحمـائم

■ كان الوقت صيفًا، وكان العام ٢٠٠٣ قبل خمسة أعوام كاملة. حين التقط مصور وكالة «رويتر» تلك الصورة لأسراب حمام «فلسطينية» تَفزَعُ واجفةً أمام مجنزرة «إسرائيلية».

المكان (حسب البيانات المرفقة مع الصورة): الأرض الفلسطينية المحتلة.

والزمان (الذى بات شعاره «القوّة فوق العدل»): هو هذا الزمان الذى يبدو أن لا مكان فيه لوداعة، أو سكينة، أو سلام.. أو حمام.

والتاريخ (حسب روزنامة الصراع الذي لاينتهي في الشرق الأوسط) هو عشية انهيار «هدنة» من بين عشرات تم الاتفاق عليها بوساطة عربية أو غيرها. وذلك بصاروخ انطلق - كالعادة - من طائرة آباتشي «إسرائيلية» ليصيب سيارة مهندس الهدنة ذاته هذه المرة «إسماعيل أبوشنب»، ليخرج جثمانه متفحما مع رفيقيه. ويمشى فى جنازته مائة ألف يطالبون بالثأر.

بقي أن نُذكّر كل المتسائلين اليوم عن المتسبب في «إنهاء التهدئة» أن إسماعيل أبوشنب، خريج جامعة المنصورة فى مصر كان الأكثر اعتدالاً بين قادة حماس جميعًا. (والتعبير ليديعوت أحرونوت الإسرائيلية). كما أنه كان مهندس الهدنة الأول. بل إنه - كما لابد أن يذكر كل من اقترب من المشاورات التى سبقت إعلانها، إن فى القاهرة أو غزة - ساعد فى إقناع قادة تنظيمات أخرى بقبولها، رغم قناعتهم التى بدت بعد ذلك صحيحة بأن الإسرائيليين الذين يعتقدون أنهم الأقوى لن يحترموها. وأن الأمريكيين؛ الرعاة المفترضين لن يضمنوها. (للاطلاع على قائمة كاملة بانتهاكات الجيش الإسرائيلي لاتفاقات الهدنة مع الفلسطينيين يمكن الرجوع إلى سجلات منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية B'Tselem على موقعها على الإنترنت)



لماذا نقلب في صفحات الماضي «القريب»؟

ببساطة، لأن لا شيء يتغير. أمامي مقال كتبه قبل أشهر فقط (مايو ٢٠٠٨) الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر (لاغيره) عقب عودته من زيارة إلى «السجن الكبير» كما أسماه. يقول فيه نصا:

«إن العالم يشهد الآن جريمة بشعة في حق الإنسانية على أرض غزة، حيث يعيش ١.٥ مليون إنسان داخل سجن كبير، ولا سبيل أمامهم للخروج، سواء بحراً أو جواً أو براً. إنه عقاب جماعي وحشي لأهل المنطقة بالكامل».

ليس هذا فقط - يضيف كارتر - فالقنابل والصواريخ الإسرائيلية تضرب بشكل دوري منتظم هذه المنطقة المعزولة المحاصرة. (هناك ١٠٦ فلسطينيين قتلوا في غضون بضعة أيام فقط، من السابع والعشرين من فبراير إلى الثالث من مارس، بينهم ٢٥ من الصبية والأطفال).

لماذا كل ذلك؟

يجيب كارتر: «إن إسرائيل بدأت في تصعيد إساءاتها البالغة واضطهادها للفلسطينيين من أهل غزة، على نحو غير مسبوق وبدعم من الولايات المتحدة، لأن مرشحين سياسيين يمثلون حماس فازوا بأغلبية المقاعد في برلمان السلطة الفلسطينية في انتخابات العام ٢٠٠٦. رغم أن كافة المراقبين الدوليين كانوا قد أجمعوا يومها على نزاهة وصحة الانتخابات».

كيف كان رد الإسرائيليين والأمريكيين على تلك الانتخابات «النزيهة»؟

يجيب الرئيس الأمريكي الأسبق بالأرقام: «تستضيف سجون إسرائيل الآن ٤١ من مرشحي حماس الـ ٤٣ الذين فازوا بالانتخابات والذين كانوا يعيشون في الضفة الغربية، علاوة على عشرة وزراء في حكومة الائتلاف التي لم تدم طويلاً».

ولم يكن هذا - سياسيا - كل شيء، فالكل يعرف - والشهادة هنا للرئيس الأمريكي - أن إسرائيل والولايات المتحدة رفضتا قبول حق الفلسطينيين في تشكيل حكومة وحدة وطنية بين حماس وفتح. ووقفتا بكل وسيلة ممكنة أمام محاولات «أشقاء عرب» للبحث عن «الصيغة الوسط». الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى سلطتين «فعليتين» إحداهما في غزة تستند في شرعيتها إلى صندوق الانتخابات والأخرى في رام الله تستمد شرعيتها من الاعتراف الإسرائيلي/ الأمريكي.. ومن ثم اعتراف الآخرين.

كما أنه - سياسيا - لافارق على الأرض بين ماجرى في صيف ٢٠٠٣ ومايجري في شتاء ٢٠٠٨ غير بعض التفاصيل، لاجديد في كلام الرئيس الأمريكي الأسبق. فكلُ متابع للقصة (تعرضها «وجهات نظر» في المقال التالي) يعرف تطوراتها. ويعرف كيف عاقب الجميع الفلسطينيين على اختيارهم «الديموقراطي» بدءا بالتجويع.. وليس نهاية بالترويع الذي تتولاه حاليا الـ (F16) ودبابات الميركافا.



أيا ماكان أمر مايجرى، أو ما ستنتهي إليه الأمور، تبقى ملاحظات (ولا أقول حقائق) ربما غابت وسط الركام وأصوات الانفجارات و«حسابات» المجتمعين تحت قبة الجامعة العربية، أو أولئك المعلقين على شاشات التليفزيون.

١ - إن قطاع غزة - طبقا للقانون الدولي - أرض محتلة. وأن إسرائيل هي دولة الاحتلال. وأن لذلك مترتباته ومسئولياته (كما أكد الرسميون المصريون)، إلا أن ذلك يعني أيضا أن «مقاومة الاحتلال» بأي وسيلة كانت، تبقى حقا مشروعا (طبقا للشرعية الدولية ذاتها)

٢ - إن «الحصارَ التجويعي» في التعريف العسكري عملٌ من «أعمال الحرب». يبيح الرد بأي وسيلة كانت «دفاعا عن النفس».

٣ - إن مرحلة ما سمي «التهدئة» (وهو مصطلحٌ آخر يضاف إلى مئات المصطلحات التي أضيفت إلى ملف القضية والتي يبدو وكأنها نحتت خصيصا للايحاء بأن هناك جديدا) كانت في حقيقتها على الأرض «عدوانا مسكوتا عنه». كانت - بواقع الأمور - عدوانا يرد عليه بتهدئة.

٤ - إن جون دوغارد، المقرر الخاص للجنة حقوق الإنسان لدى الأمم المتحدة لم يكن مبالغا عندما وصف الصورة في غزة: أكثر مناطق العالم اكتظاظاً بالسكان (٣٨٢٣ نسمة في كل كيلومتر مربع) : «غزة عبارة عن سجن وإسرائيل هي السجان الذي ألقى بمفتاح السجن بعيداً».

٥ - إن إسرائيل رفضت بكل إصرار - ومازالت - العروض المتكررة من جانب حماس بوقف إطلاق النار في مقابل رفع الحصار عن غزة. ورغم أن استطلاعات الرأي التي نشرتها صحيفة هآرتز اليومية الإسرائيلية أشارت إلى أن ٦٤٪ من الإسرائيليين يؤيدون إقامة حوار رسمي مع حماس. إلا أن السياسيين الإسرائيليين لحسابات ضيقة رفضوا على الدوام ذلك.

٦ - أن لا أحد فعليا - عدا محاولات شعبية لم يكتب لمعظمها النجاح - جرؤ على كسر هذا الحصار. (هناك قرار من الجامعة العربية صدر بالإجماع بكسر الحصار الاقتصادي على غزة إلا أنه لم ينفذ قط).

٧ - إن العرب الذين تنادوا إلى القمة عجزوا عن عقدها في نهاية المطاف (على الأقل حتى كتابة هذه السطور) في حين لم يكن صعبا على الأوروبيين أن يلتقوا في اجتماع وزاري طارئ لبحث الأزمة.

٨ - إن أي عارف بالخصوصية الفلسطينية، يعلم علم اليقين أن محاولات الفصل بين حماس «كفصيل» وبين الفلسطينيين «كشعب»، باستخدام الآليات المستخدمة مع جماعات أخرى في غير نظام عربي، غير قابلة للتطبيق. أو على الأقل النجاح. فالخط الفاصل هنا غيره هناك. والمنظومة السياسية الفلسطينية عبر رحلتها «العرفاتية» الطويلة اعتادت التنوعَ؛ واقعا و«أسلوبا نضاليا». وهي التي نحتت تعبير «الفصائل».. وهو مصطلحٌ له - بمقتضى اللغة - دلالئله ومعانيه. وأنه كأي حركة مقاومة، فإن عوامل الوحدة تساوي بالضبط عوامل الفرقة والخلاف حول الأسلوب الأمثل لتحقيق المطامح الوطنية. حدث هذا قبلا بين جماعتي الحسيني (الراديكالية) والنشاشيبي (الأكثر اعتدالا) في ثلاثينيات القرن الماضي.، كما حدث هذا كثيرا في الستينيات والسبعينيات قبل أن تظهر حماس ذاتها على الساحة الفلسطينية.

٩ - إن «حماس» حديثة العهد بالدبلوماسية ومناوراتها، والتي تبدو أحيانا مفتقرة لخبرة سياسية مطلوبة، لها أخطاؤها بلا شك. وإن كان خطؤها الأول (وهي حركة مقاومة) أو بالأحرى حركة للكفاح المسلح، كان يوم قبلت - أو ربما استدرجت - إلى الانخراط في عملية سياسية داخلية. إذ لم تكن «حركة الكفاح

... تبحث

أيمن الصياد



المسلح، بحاجة أبدا إلى شرعية صندوق الانتخابات، وهي حائزة - بحكم واقع الأشياء - وبحكم كونها حركة مقاومة، على شرعية الدم والبندقية.

١٠ - يخطئ من يعتقد بأن لدى «ساسة» إسرائيل رغبة حقيقية في السلام، أو بالأحرى «خريطة طريق» واضحة لذلك السلام. يذكر العرب - أو دعنا نقول - يتناسى العرب المتنادون اليوم إلى قمتهم، أنهم قبل سنوات في بيروت، عندما طرحوا مبادرتهم للسلام معلنينه «خيارا استراتيجيا»، لم ينجحوا في أن يجبروا الإسرائيليين على أن يفرجوا عن زعيم أوسلو «المعتدل» المحتجز في المقاطعة.. «حتى الموت». وكان هذا ردًا بالغ الدلالة على مبادرة العرب واختيارهم الاستراتيجي.

١١ - إن الحقائق على الأرض تقول إن عدد المستعمرات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة بلغ ٢٥٠ مستعمرة يسكنها نصف مليون نسمة. كما أنه في العام الأخير فقط، ورغم كل الآمال الزائفة التي أحاطت بمؤتمر أنابوليس في نوفمبر ٢٠٠٧ - يذكرنا كارتر في مقاله - أعلنت إسرائيل عن تشييد تسعة آلاف وحدة سكنية جديدة في المستعمرات الإسرائيلية القائمة على الأراضي الفلسطينية، كما تزايد عدد حواجز الطرق المقامة داخل الضفة الغربية، وأصبح حصار غزة أشد إحكاما(!)

١٢ - إن شعار «لا نريد أن نكون فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين» الذي يجري تسويقه عربيا، يحتاج إلى إعادة نظر بعد تدقيق - مطلوب - للتعريف.

١٣ - إن شعار «الشرعية الدولية» أيضا يحتاج من العرب إلى أن يوضع في مكانه الصحيح. يسخر روبرت فيسك في الاندبندنت من مساواة الغرب بين الفلسطينيين والإسرائيليين في المطالبة بضبط النفس، كما لو «كانت الدبابات الفلسطينية في شوارع تل أبيب». ويذكرنا الكاتب البريطاني بأنه في الوقت الذي كان الجيش الجمهوري الأيرلندي يقوم بإطلاق قذائف الهاون على أيرلندا الشمالية، وتقوم مجموعاته بعبور الحدود لمهاجمة نقاط الشرطة والبريطانيين البروتستانت، لم تقم بريطانيا بإطلاق سلاحها الجوي لضرب الجمهورية الأيرلندية. ويتساءل: «هل قام سلاح الجو الملكي بقصف الكنائس وناقلات البترول ونقاط الشرطة وقتل ٣٠٠ مدني لتلقين الأيرلنديين درسا؟». مجيبا: إن هذا لم يحدث «لأن العالم كان سيعتبر هذا سلوكا إجراميا». أما في الحالة الفلسطينية فالأمر يختلف (!)



ماذا بعد؟

الأمر السيئ.. أو الأسوأ في نتائج ما جرى/ أو سيجري (كُتب هذا المقال في اليوم الرابع للعدوان) أن أوراقا كثيرة قد اختلطت. وأن حسابات آنية إقليمية وداخلية قد تدخلت وتداخلت. وأن الرغبة في تبرئة النفس أمام نهر الدماء الجاري، وعداد الضحايا الذي لا يتوقف، بدت أحيانا أنها «الأولى بالاعتبار» بغض النظر عن الآثار والنتائج. وقبل ذلك.. عن الوسائل.

ماذا بعد؟

ربما يكون صحيحا تماما ماذهب اليه محلل «الواشنطن بوست» حين اعتبر أن إسرائيل أرادت من عمليتها التي قصدت بها محاكاة «الصدمة والترويع» الأمريكية في العراق، استباق قدوم الإدارة الأمريكية الجديدة بتوجيه ضربة لحماس، واستغلال الفترة المتبقية لإدارة الرئيس جورج بوش المؤيد للعدوان الإسرائيلي قبل مجيء أوباما الذي لا تستطيع التنبؤ بمواقفه. الا أنه يبقى من المشكوك فيه تماما أن تنجح إسرائيل في «إزالة حماس من الخريطة» كما أعلنت أو تمنت ذلك تسيبي ليفني وزيرة الخارجية الإسرائيلية الأنيقة الأكثر تطرفا. والتي تقول عنها «الجارديان» أنه إذا كانت زعيمة حزب العمل تظن أن تمهيد الطريق أمام إنشاء دولة فلسطينية معتدلة يكون عبر التصفية الجسدية لقيادة نصف الشعب الفلسطيني. فهي، باختصار وبساطة مخطئة..

ثم ماذا بعد؟

إننا قد لا نعرف بالضبط عدد ضحايا الضربة الجوية الأولى صباح السبت، ولكننا نعلمُ على وجه القطع أن الضحية الأولى هي ذلك «السلام» الذي كانوا يتحدثون عنه.



في عشاء على هامش ندوة خليجية قبل سنوات، كان على طاولتنا «لورد باتين» المفوض الأوروبي السابق للشئون الخارجية (يشغل حالياً منصب رئيس جامعة أكسفورد) وكان طبيعيا أن يتطرق الحوار إلى الأزمة التي تبدو وكأن لا أحد يعرف لها حلا؛ «الشرق الأوسط». فعنَّ لأحدهم أن يسأل الضيف البريطاني: ما الذي يجعل ما نجح بالفعل في أيرلندا الشمالية. بضغط من الولايات المتحدة على بريطانيا. مستحيل الحدوث في الشرق الأوسط؟

لم يشأ الأكاديمي والدبلوماسي المخضرم يومها إلا أن يجيب على السؤال بسؤال. قال «تعلمون جميعا أن الأمن هو هاجس الإسرائيليين الأول.. وأتفهم ذلك. ولكني لا أفهم كيف يؤدي تحطيم مكاتب رخص القيادة في فلسطين إلى الحفاظ على الأمن الإسرائيلي؟ وكيف يتسنى الحفاظ على ذلك الأمن بتخريب ممرات الطائرات، واقتلاع أشجار الزيتون، وتسميم مياه الآبار؟

....

سؤال اللورد البريطاني الذي طرحه علينا في ذلك المساء البعيد، أظنه ما زال قائما. وأظنه ما زال بلا إجابة. بالضبط كما أن الحمائم التي أفزعتها الجنزرات الإسرائيلية في هذا اليوم من صيف ٢٠٠٣، مازالت هائمة تبحث عن مكان.. أو بالأحرى عن أمان. ■

انفجار الانقسام بالطريقة التي انفجر بها لم يكن مخططاً من أي من طرفي الصراع



حماس.. الطريق إلى الأزمة

بشير نافع

■ بين التاسع والرابع عشر من يونيو/ حزيران ٢٠٠٧، حسمت مجموعات من الجناح العسكرى لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، والقوة التنفيذية الموالية للحركة، الصراع الدائر منذ شهور فى قطاع غزة بالقوة العسكرية.

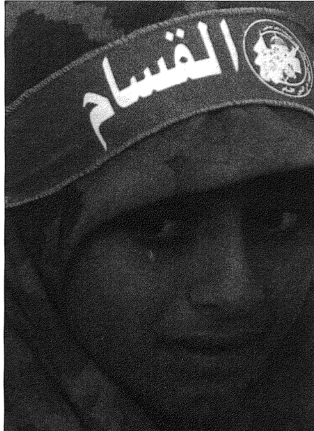
وكانت المناطق الفلسطينية الواقعة فى نطاق الحكم الذاتى شهدت توتراً متزايداً منذ فوز حماس فى الانتخابات التشريعية فى مطلع ٢٠٠٦، ومن ثم تأهلها لتشكيل الحكومة الفلسطينية.

وصل هذا التوتر ذروته فى الاشتباكات التى شهدها قطاع غزة خلال الأسابيع السابقة على عقد اتفاق مكة.

جانب من هذا التوتر يعود إلى الحصار السياسى والاقتصادى الذى فرضته الدولة العبرية والقوى الغربية عامة على المناطق الفلسطينية بعد فوز حماس وتشكيلها الحكومة؛ ولكن الجانب الذى لا يقل أهمية عن ذلك يعود إلى سعى قوى وشخصيات داخل حركة فتح والطبقة الفلسطينية الحاكمة منذ أوسلو، وسعى قيادات ومؤسسات أمنية داخل سلطة الحكم الذاتى إلى تقويض دور حماس فى الحكم وإخراجها نهائياً من جسم السلطة.

أثار حسم الصراع فى قطاع غزة لصالح حماس ردود فعل سياسية سلبية، فلسطينياً وعربياً ودولياً، كما أثار جدلاً فكرياً حاداً فى الساحتين الفلسطينية والعربية. فقد شابت عملية الحسم تجاوزات بالغة من الطرفين، سواء من القوات الموالية لحماس أو تلك التابعة للأجهزة الأمنية؛ كما مثلت لحظة مؤلمة أخرى من الاشتباك الفلسطينى - الفلسطينى، وأضافت انقساماً فلسطينياً وطنياً إلى الانقسامات العربية الداخلية المتفاقمة فى العراق ولبنان ولكن دلالات الحسم السياسية هى الأهم بالتأكيد، سواء فيما يتعلق بالموقع الذى تحتله القضية الفلسطينية عربياً وإقليمياً ودولياً، أو بعملية التحول المرتبكة التى تشهدها المجتمعات العربية والإسلامية ودور القوى الإسلامية السياسية ومستقبلها فى هذه العملية.

لقد قادت حركة التحرر الوطنى الفلسطينى «فتح» النضال الوطنى الفلسطينى منذ سنة ١٩٦٩؛ وبالرغم من التعددية السياسية والأيديولوجية التى تتسم بها الساحة الفلسطينية، كانت فتح هى من يحدد الاتجاه العام للحركة الوطنية طوال ربع القرن الماضى، ولكن دور فتح أخذ فى التراجع منذ الانتفاضة الفلسطينية الأولى. وفعلا قدم فوز حماس فى الانتخابات التشريعية الأخيرة فى الضفة والقطاع مؤشراً ملموساً على التراجع الفتحاوى وعلى صعود التيار الإسلامى السياسى. وهناك مؤشرات عديدة أخرى تشير إلى أن حجم ودرجة التحول بين فلسطينيى الشتات لا يقلان عنهما فى الضفة والقطاع.



اتجهت الأزمة السياسية التى ولدتها عملية الحسم فى قطاع غزة نحو التعقيد، سواء لرغبة دوائر معينة داخل السلطة الفلسطينية فى إبقاء الأوضاع على ما هى عليه، أو للضغوط التى تمارسها الإدارة الأميركية والحكومة الإسرائيلية على رام الله، أو لأن المفاوضات الجارية منذ نهاية ٢٠٠٧ حول تسوية نهائية ما للصراع على فلسطين تتطلب استبعاد حماس عن مواقع القرار للسلطة الفلسطينية، وأصبحت هذه الأزمة، بذلك، مفتوحة على احتمالات عدة. ولكن من الخطأ التعامل مع الأزمة الفلسطينية باعتبارها مجرد حلقة جديدة فى سلسلة التداعيات التى عاشتها الساحة الفلسطينية منذ انتصار حماس فى الانتخابات التشريعية. هذه أزمة ذات جذور عميقة فى التاريخ السياسى الفلسطينى؛ ومن غير الممكن التوصل إلى قراءة صحيحة للحظة الفلسطينية الراهنة، وللتحول الذى يشهده المجتمع الفلسطينى واتجاهاته، بدون قراءة السياق التاريخى لبروز حركة فتح والاتجاه الإسلامى الفلسطينى، وبدون استطلاع دقيق لشروط التحولات السياسية فى السياق الفلسطينى. وبالنظر إلى أن صيف ٢٠٠٨ شهد بدايات حوار وطنى لمعالجة الأزمة وعواقبها، فإن من الصعب تصور إعادة بناء اللحمة الوطنية الفلسطينية بدون إعادة نظر فى النهج السياسى لقيادة سلطة الحكم الذاتى، لحركة فتح، ولحركة حماس على السواء.

الطريق إلى الأزمة

ساهمت الأجواء السلبية التى واجهت فوز حماس فى إخفاق محاولة تشكيل حكومة وحدة وطنية جامعة، لاسيما بعد رفض فتح، والفصائل الأخرى، الانضواء فى حكومة تقودها حماس. وربما لم تعمل قيادة حماس فى الضفة والقطاع بشكل كاف من أجل التوصل إلى حكومة وحدة وطنية، وانتهت إلى تشكيل حكومة حماسوية بقيادة إسماعيل هنية، حازت ثقة المجلس التشريعى وبدأت عملها فى نهاية فبراير/ شباط. وفر الفوز فى الانتخابات وتشكيل الحكومة شعوراً قوياً بالشرعية لدى حماس، وتصور عدد من قياداتها ووزرائها أن بإمكان الحركة أن تقدم إنجازاً ما على

للاستزادة:
الوضع الفلسطيني..
الأزمة والمصالحة ومستقبل الحركة الوطنية
بشير موسى نافع
مركز الجزيرة للدراسات
الدوحة - قطر ٢٠٠٨



صعيد الحكم والإدارة. ولكن الواقع كان أكثر تعقيداً. تعرضت الحكومة الجديدة لمقاطعة دولية أثرت تأثيراً بالغاً على حجم الموارد المتوفرة، وهو ما حاولت تعويضه بالحصول على مساعدات من دول عربية وإسلامية صديقة. ولكن المشكلة الأكبر تعلقت بصراع الصلاحيات الذى انفجر بين الحكومة ورئيس السلطة الفلسطينية، لاسيما فيما يتعلق بالأجهزة الأمنية. وبينما تزايدت المؤشرات على توجه القيادات الفتحاوية فى الأجهزة لإفشال الحكومة، أعلن وزير الداخلية عن تشكيل قوة أمنية جديدة، باسم القوة التنفيذية، فى إبريل/ نيسان. وبالنظر إلى أن نفوذ حماس فى الضفة الغربية كان أضعف نسبياً عنه فى قطاع غزة، فقد نجح تشكيل القوة التنفيذية فى القطاع فقط.[1] وسرعان ما شهدت الأشهر التالية لتشكيل الحكومة انفجار حالة أقرب إلى الفلتان الأمنى، لاسيما فى قطاع غزة.

بعض من الحوادث الأمنية اندلعت على خلفية من خلافات عائلية، ولكن أغلبها كان سياسى الطابع، مثل تصاعدا فى التوتر بين حماس وفتح، أو بينها والأجهزة الأمنية التى تسيطر عليها فتح. وقد لعب جهاز الأمن الوقائى، الذى يدين بالولاء للقيادى الفتحاوى محمد دحلان، دوراً ملموساً فى تفاقم حالة انهيار الأمن وغياب الأمان فى شوارع ومدن القطاع، خصوصاً بعد تشكيل القوة التنفيذية. وبينما شهد شهر اكتوبر/ تشرين أول أسوأ الاشتباكات بين القوة التنفيذية وأجهزة السلطة الأمنية فى قطاع غزة، أصبح واضحاً أن العلاقة بين حكومة حماس وقيادة السلطة وأجهزتها انهارت إلى حد كبير، وأن الوضع الفلسطينى السياسى ذا الرأسين غير المتوافقين غير قابل للاستمرار.

تمحور الجدل الذى أسس لدخول حماس الانتخابات التشريعية حول مسألتين رئيسيتين: الأولى أن حماس وقوى المقاومة الأخرى مهددة بهجمة أمنية قريبة، يفرضها تقدم العلاقات بين السلطة والإدارة الأميركية وتوجهات السياسة الأميركية فى المنطقة ككل، وأن فوزاً فى الانتخابات ومشاركة فى الحكم ستمنع هذه الهجمة؛ والثانية، أن حماس باتت القوة الرئيسية فى الساحة الفلسطينية وأن من حقها أن تكون الطرف الرئيس فى الحكم وأن تشارك بالتالى فى تحديد جدول الأعمال الفلسطينى. المشكلة أن حماس لم تعمل على تحديد المهمات المطروحة على الحركة الوطنية الفلسطينية خلال المرحلة بعد الفوز فى الانتخابات، ولم تقدم رؤية واضحة لتصورها حول إمكانية الجمع بين المشاركة فى جسم السلطة والتصدى للمهمات الملقاة على كاهل القوى الوطنية والإسلامية الفلسطينية. ليس ثمة شك فى حق حماس السعى إلى المشاركة فى السلطة، بغض النظر عن أسس الشرعية التى تستند إليها سلطة الحكم الذاتى: إذ إن حماس لم تكن تستطيع الاستمرار فى تمثيل قطاع واسع من الشعب بدون أن تكون فى موقع يسمح لها برعاية مصالح هذا القطاع. هذا، وقد أصبحت سلطة الحكم الذاتى أمراً واقعاً. ولكن القضية الوطنية ككل كانت، ولا تزال، تواجه مهمات ملحة أكبر، أبرزها الجدار، تهويد القدس، تقطيع أوصال الضفة الغربية، وتوسع نطاق الاستيطان اليهودى فيها منذ توقيع اتفاقية أوسلو.



والحقيقة أن لا حكومة حماس، ولا الجهاد وقوى المقاومة الأخرى، تحركت بجدية كافية للتعامل مع المهمات الوطنية، وظلت المواجهة مع الاحتلال محكومة بردود الفعل. بكلمة أخرى، لم تستطع حماس إيجاد صيغة توفق بين متطلبات وشروط المشاركة فى حكومة سلطة الحكم الذاتى وحمل أعباء المسألة الوطنية: بل إن تشكيل حكومة حماس تم بتسرع نسبى، وبدون إعطاء وقت كاف لتشكيل حكومة وحدة وطنية، كان يمكن أن تخلص الفلسطينيين من الكثير من صعوبات وأعباء المقاطعة الدولية والعربية وتؤسس للمشاركة السياسية على أسس قوية. وبدا لبعض الوقت أن حماس تقدم المشاركة فى الحكم على التصدى للقضية الوطنية. ليس فقط على مستوى السياسات، بل أيضاً على مستوى الثقافة والخطاب.

بعد أسابيع قليلة فقط على تشكيل حكومة حماس، لم يعد خافياً أن الوضع الناجم عن الانتخابات التشريعية لا يمكن تنظيمه بدون حكومة وحدة وطنية. وفى الوقت الذى كان الوفد الأمنى المصرى فى قطاع غزة يحاول تهدئة الأوضاع، ولجنة الحوار الوطنى تحاول التوصل إلى صيغة للتفاهم حول حكومة وحدة وطنية تقبل بها حماس والرئيس عباس، كان السجين الفتحاوى البارز مروان البرغوثى يعمل على جمع سجناء بارزين آخرين من كافة التنظيمات الفلسطينية فى سجن هداريم. وفى مطلع مايو/ أيار توصل السجناء إلى وثيقة للتفاهم الوطنى، بصيغة فتحاوية، رحب بها عباس وأبدت قيادة حماس تحفظاً على بعض بنودها، خصوصاً تلك المتعلقة بالتزام الاتفاقات الدولية والمبادرة العربية.[2] أدى تباين المواقف من الوثيقة إلى مزيد من التأزم فى العلاقة بين الرئيس ورئيس وزرائه، وفاقم من حالة التوتر قيام القوات الإسرائيلية بحملة اعتقالات واسعة طالت عشرات عناصر حماس ونوابها فى الضفة الغربية. بعد قيام قوات القسام ومجموعتين أخريين بعملية «الوهم المتبدد» فى حزيران/ يونيو، التى انتهت بوقوع جندى إسرائيلى أسيراً لدى المهاجمين الفلسطينيين. فى النهاية، توصلت لجنة الحوار الوطنى إلى اتفاق حول صيغة جديدة لوثيقة التفاهم الوطنى، أبدت فيها حماس مرونة جزئية تجاه البند محل الإشكال، الذى أصبحت صياغته: «وضع خطة فلسطينية للتحرك السياسى الشامل، توحد الخطاب السياسى الفلسطينى على أساس الأهداف الوطنية الفلسطينية، كما وردت فى هذه الوثيقة وقرارات الشرعيتين العربية والدولية المنصفة لشعبنا...»[3]

بيد أن الاتفاق على وثيقة التفاهم الوطنى لم يضع حداً للخلافات بين الرئيس وقيادة حماس، واصطدم البحث عن حكومة وحدة وطنية بسلسلة لا آخر لها من المشكلات المتعلقة بتوزيع الحقائب الوزارية، بخطاب التكليف، وببرنامج الحكومة. اعتقد الرئيس عباس وعدد من مستشاريه أن حكومة حماس تسير نحو الانهيار، ولم يبد رغبة حقيقية فى التوصل إلى حل سريع. وسرعان ما اتضح أن التفاؤل الذى أحاط بالاتفاق على وثيقة التفاهم الوطنى كان مبالغاً فيه، وتصاعدت حالة التدهور الأمنى فى قطاع غزة، لتحصد أرواح العشرات من أبناء فتح وحماس أو من المواطنين الأبرياء.

خلال شهرى يوليو/ تموز وأغسطس/ آب، هدأت الأوضاع الأمنية والسياسية قليلاً على خلفية من الحرب الإسرائيلية على لبنان وحزب الله. ولأن الحرب أدت إلى مزيد من الانقسام العربى بين من وقفوا إلى جانب حزب الله أو من تعاطفوا معه (مثل سورية وحركتى حماس والجهاد)، ومن حمل الحزب مسؤولية اندلاع الحرب (مثل مصر والسعودية والأردن)، فقد بدا كأن نجاح إسرائيل فى توجيه ضربة مؤلمة لحزب الله لن تؤدى إلى تقرير مصير الأزمة اللبنانية وحسب، بل إلى تغيير المناخ الاستراتيجى فى المنطقة ككل. ولعل هذا ما قصدته وزيرة الخارجية الأميركية عندما رفضت القيام بمطالبة إسرائيل بوقف إطلاق النار، واصفة معاناة اللبنانيين بأنها «مخاض شرق أوسط جديد». انتهت الحرب بقرار مجلس الأمن الدولى ١٧٠١، الذى وفر لإسرائيل وجوداً دولياً إضافياً فى الجنوب اللبنانى بصلاحيات أعلى من الوجود الدولى السابق، الذى كانت مهماته تقتصر على الرقابة وحسب. ولكن الضغط الأميركى لصالح الدولة العبرية فى مجلس الأمن لم يستطع إخفاء الهزيمة التى تعرض لها الجيش الإسرائيلى فى الجنوب اللبنانى. وبدلاً من أن تؤدى



لم تتوقف الوساطات الفلسطينية والعربية، التي اتفقت جميعها على أن المخرج يتمثل في تشكيل حكومة وحدة وطنية







أخطاء حماس حين قدمت الانتصار على الأجهزة الأمنية باعتباره انتصاراً عقائدياً. وحين صورت الاشتباكات باعتبارها صراعاً بين الإسلام والكفر



الحرب إلى تغيير المناخ الاستراتيجي في المنطقة لصالح التوجهات الأميركية - الإسرائيلية. فقد أدت إلى تعزيز هائل في معنويات حزب الله والقوى المؤيدة له. في لبنان، تعمق الانقسام؛ وفي فلسطين، اعتبرت حكومة حماس أن انتصار حزب الله هو انتصار لها أيضاً، أو على الأقل لما تمثله.

لم تستطع الوساطات العربية، القطرية والمصرية، إيصال الطرفين الفلسطينيين إلى اتفاق. وقد شهد اكتوبر/ تشرين أول تصاعداً في حدة الاشتباكات بين القوات التابعة لحماس وحكومتها وتلك التابعة للأجهزة الأمنية أو جناح فتح المرتبط بمحمد دحلان. وبانفجار الوضع الأمني، وقيام وزيرة الخارجية الأميركية بإبلاغ الرئيس عباس بأن واشنطن غير معنية بوثيقة التفاهم الوطني الفلسطيني، لم يعد عباس يبدي اهتماماً كبيراً بالوثيقة. ومنذ نهاية اكتوبر/ تشرين أول قطع الرئيس ما تبقى من صلات مع رئيس حكومته، إسماعيل هنية.[4] وقد تبلور موقف الرئيس عباس في خطاب صاحب ألقاه أمام اجتماع للمجلس التشريعي في ١٦ ديسمبر/ كانون أول ٢٠٠٦، أعلن فيه قراره إجراء انتخابات رئاسية وتشريعية مبكرة. وبالرغم من الدفاع المستميت الذي قدمه مستشارو عباس، فقد كان الجميع يدرك أن الرئيس لا يملك صلاحية حل المجلس التشريعي، وأن الطريق الوحيد للخروج من الأزمة الفلسطينية الداخلية هو تفاهم حقيقي وجاد بين قطبي الأزمة الرئيسين: قيادة السلطة وحركة حماس. ما أضعف موقف عباس في الدعوة لانتخابات مبكرة، كان ضعف التأييد العربي الرسمي لهذه الدعوة، لاسيما من مصر، الجهة العربية الرئيسية المعنية بالوضع الفلسطيني الداخلي. والحقيقة أن الموقف المصري ظل منذ ما بعد الانتخابات التشريعية غير واضح تماماً. فمن ناحية، حافظت القاهرة على اتصالاتها التقليدية الوثيقة بقيادتي حماس في الداخل والخارج. ولكن حكومة هنية لم تلق ترحيباً يليق بها من نظيرتها المصرية؛ وكأن القاهرة لم تكن ترغب في استفزاز الإدارة الأميركية، أو أنها لم تكن تريد إسباغ شرعية عربية كاملة على حكومة تقودها حماس. ظل المسئولون المصريون في غزة والقاهرة يعملون بجد على محاصرة التدهور الأمني، وكانوا يعرفون بالتأكيد حقيقة توازن القوى بين فتح المنقسمة على نفسها وأجهزة السلطة الأمنية، من ناحية، وحركة حماس والقوات الموالية لها، من ناحية أخرى. ولذا، فإن التوجه الأساسي للسياسة المصرية كان العمل على أن تتوصل الأطراف الفلسطينية المختلفة إلى تفاهم وطني. وليس حتى بداية العام التالي، ٢٠٠٧، عندما ظهرت بوادر خطة أميركية أمنية للتعامل مع الوضع الفلسطيني، أن برزت مؤشرات على انحياز القاهرة لمشروع إطاحة حماس من الحكومة الفلسطينية.



في يناير/ كانون ثاني ٢٠٠٧، أخذت الاشتباكات في قطاع غزة طابعاً حاداً ومنظماً وأكثر بشاعة. أعلنت الإدارة الأميركية عن تخصيص ٨٦,٤ مليون دولار لإعادة بناء الأجهزة الأمنية الفلسطينية، تحت إشراف المبعوث الأمني الأميركي الجنرال كيث دايتون. في رام الله، أصدر الرئيس عباس مرسوماً ينص على عدم شرعية القوة التنفيذية، التي شكلتها حكومة حماس في قطاع غزة، وفي مهرجان لإحياء ذكرى انطلاقة فتح في مدينة غزة، وجه دحلان تهديدات سافرة لحركة حماس.[5] لم تتوقف الوساطات الفلسطينية والعربية، التي اتفقت جميعها على أن المخرج يتمثل في تشكيل حكومة وحدة وطنية؛ ولكنها لم تحقق نجاحات تذكر. وفي نهاية يناير/ كانون ثاني، قام الرئيس عباس بزيارة لدمشق، اجتمع خلالها بالرئيس بشار الأسد وكبار المسئولين السوريين، ومن ثم برئيس المكتب السياسي لحركة حماس خالد مشعل. وفي حين بدا وكأن لقاءات دمشق حققت تقدماً ملموساً، طرح الوفد الأمني المصري في غزة مبادرة لوقف العنف. ولكن سرعان ما فوجئت الأطراف المختلفة بإعلان مسئولي السلطة الأمنيين في القطاع عن اكتشاف مؤامرة لاغتيال عباس أعدت لها حماس بحفر أنفاق قرب مقره بمدينة غزة.[6] أنكرت حماس الاتهام الموجه إليها، جملة وتفصيلاً. ولكن اللغة التي استخدمها الرئيس في أحاديثه بعد ذلك أظهرت اقتناعه بوجود تلك المؤامرة بالفعل. وبينما تلبدت أجواء العلاقة من جديد بين الحكومة والرئيس وبين حماس وأجهزة السلطة الأمنية، طرح العاهل السعودي، الملك عبدالله، مبادرته، التي تضمنت دعوة الطرفين الفلسطينيين المتصارعين إلى مكة.

عقد مؤتمر مكة بين ٦ و٩ فبراير/ شباط ٢٠٠٧، بحضور عباس ودحلان وقيادات فتحاوية أخرى، وخالد مشعل وإسماعيل هنية وقيادات حمساوية أخرى. وقد توصل الطرفان إلى اتفاق عرف بـ «إعلان مكة»،[7] الذي أكد حرمة الدم الفلسطيني وتضمن تفاهماً تفصيلياً على تشكيل حكومة وحدة وطنية، وعلى توزيع الحقائب في هذه الحكومة، وعلى بيان التكليف الذي سيوجهه الرئيس عباس إلى رئيس حكومته. عكس الاتفاق مرونة كبيرة من جانب حماس؛ فبالرغم من أنه أكد تولي هنية رئاسة حكومة الوحدة الوطنية، فقد أقر توزيع حقائب الوزارات الرئيسية على شخصيات مستقلة، كما حمل قبولاً صريحاً من حماس بدولة فلسطينية على حدود ١٩٦٧ (ولا يمكن اعتباره موقفاً جديداً، على أية حال)، وصيغة وسطية لتوضيح موقف الحكومة من القرارات الدولية والعربية المتعلقة بالقضية الفلسطينية التي تقبلها منظمة التحرير وتبنى عليها قيادة السلطة تحركها السياسي. خلال الأيام العشرة التالية، شكل هنية حكومة الوحدة الوطنية (التي شملت القيادي والنائب الفتحاوي، عزام الأحمد، نائباً لرئيس الحكومة؛ كما شملت عدداً من المستقلين)، وحصلت الحكومة الجديدة على ثقة المجلس التشريعي، وسط أجواء تفاؤل وأمل فلسطينية شعبية واسعة. ولكن لا على الصعيد الأمني، ولا على صعيد مواقف الرئيس من حكومته، بدا أن الأوضاع تغيرت كثيراً. كما كان عباس موزعاً قبل الانتخابات بين عقدها في موعدها أو تأجيلها، كذلك أصبح موقفه من الحكومة بعد فوز حماس في الانتخابات. لم يكن الرئيس الفلسطيني يريد انهياراً أمنياً شاملاً، ولكنه لم يكن قادراً على تجاهل الموقف الأميركي السلبي (والأوروبي، بدرجة أقل) من حكومة تقودها حماس. وبعد أن أبلغته وزيرة الخارجية الأميركية أن واشنطن غير معنية باتفاق مكة، وأنها ستواصل مقاطعتها لحكومة الوحدة الوطنية، بدا عباس يميل إلى المعسكر الداعي إلى إخراج حماس من جسم سلطة الحكم الذاتي، ولو بالقوة.

في مطلع مارس/ آذار، وقبل أن يجف حبر اتفاق مكة، أعلن الرئيس عباس تعيين محمد دحلان مستشاراً لشئون الأمن القومي؛ بمعنى تسليمه ملف القوى الأمنية الفلسطينية بالكامل.[8] وبالنظر إلى مواقف دحلان المعلنة من حماس، والدور الذي يلعبه جهاز الأمن الوقائي الموالي له في الصدامات المسلحة في قطاع غزة، فقد كان طبيعياً أن تستشعر حماس الخطر. أعلنت حماس معارضة قرار الرئيس على أسس دستورية، كون دحلان نائباً في المجلس التشريعي ومن المفروض ألا يتسلم موقعاً أمنياً تنفيذياً. ولكن عباس لم يتراجع. في منتصف إبريل/ نيسان، نشرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية تقريراً حول ما أسمته بـ «خطة دايتون»،[9] التي يفترض أنها تحمل تصور الجنرال الأميركي المشرف على الأوضاع الأمنية الفلسطينية لكيفية إعادة بناء أجهزة سلطة الحكم الذاتي الأمنية وتأهيلها لمواجهة قوة حماس المتصاعدة.

خلال الشهر التالي، تدهورت الأوضاع الأمنية في قطاع غزة بتكرار الصدام بين عناصر الأجهزة الأمنية، لاسيما الأمن الوقائي، وعناصر القوة التنفيذية. وسرعان ما انفجرت أوضاع فتح الداخلية في القطاع عندما وجه القيادي الفتحاوي أحمد حلس أصابع الاتهام إلى جناح انقلابي في فتح. لم تجد محاولات الوفد الأمني المصري في القطاع نفعاً في محاصرة التدهور الأمني، وقد تحولت الصدامات خلال الأيام العشرة الأولى من يونيو/ حزيران إلى اشتباكات واسعة ودموية، طالت الجامعات والمساجد. وفي ١١ يونيو/ حزيران، تعرض مكتب رئيس الوزراء في





سارع الرئيس عباس بعد هزيمة الأجهزة الأمنية إلى القيام بانقلاب دستوري على مجمل الأسس التي يرتكز إليها نظام سلطة الحكم الذاتي



مدينة غزة لاعتداء مسلح، فيما أصدرت مركزية فتح بياناً غير مسبوق شنت فيه هجوماً حاداً على حركة حماس.(١٠) ولكن ما إن حل مساء ١٥ يونيو/ حزيران حتى كانت القوات الموالية لحماس قد حسمت الوضع نهائياً لصالحها فى كافة أنحاء القطاع. فى أغلب الحالات، تسلمت قوات حماس مواقع السلطة الرئيسية بلا قتال، بينما ترك قادة الأجهزة الأمنية قواتهم ومراكز عملهم، وفروا عبر الحدود إلى مصر، أو سمحت لهم السلطات الإسرائيلية بالذهاب إلى الضفة الغربية عن طريق المعابر الإسرائيلية. فى حالات أخرى، لاسيما فى معركة السيطرة على مقر قيادة الأمن الوقائى، سقط العشرات من الطرفين فى قتال نظر إليه أغلب الفلسطينيين باعتباره حلقة مؤلمة فى تاريخ نضالهم الوطنى.

من المنظور السياسى المباشر، كان تفاقم الأزمة الفلسطينية، ومن ثم حسم حماس العسكرى للوضع فى قطاع غزة، تعبيراً بالغاً عن انهيار اتفاق مكة، الذى ولد ضعيفاً على أية حال. فبالرغم من المساندة العربية عموماً للاتفاق، فإن القاهرة لم تخف امتعاضها من تولى السعودية شأناً اعتبر على نطاق واسع من شئون مصر الخاصة. من ناحية أخرى، لم تستطع السعودية تسويق الاتفاق دولياً أو الدفاع عنه فى مواجهة المعارضة الأميركية، ولم تتخذ إجراءات عربية عملية لكسر الحصار المالى على الفلسطينيين. ومن ناحية ثالثة، كان ثمة قوة نافذة داخل السلطة الفلسطينية وفى حركة فتح لم تقبل مطلقاً بمشاركة حماس فى جسم السلطة الفلسطينية، ورأت فى هذه المشاركة خطوة أولى نحو تغيير بنية الطبقة السياسية المسيطرة كلية. مشكلة هذه الدوائر أن توازن القوى الداخلى كان قد أفلت من يدها منذ زمن، وفى حين أنها خسرت الانتخابات بجدارة، فإنها لم تكن قادرة على فرض إرادتها العسكرية على مجمل الوضع الفلسطينى. ولكن الحسم العسكرى فى قطاع غزة لا يعنى أنه حسم الموقف السياسى الوطنى لصالح حماس.

بين مؤتمر مكة فى فبراير/ شباط والحسم العسكرى فى قطاع غزة فى يونيو/ حزيران، أخذت الأخطاء المتراكمة فى الارتداد على الساحة الفلسطينية السياسية وعلى دور وموقع حماس الوطنى. كان من الممكن، مثلاً، إعطاء مؤتمر مكة طابعاً وطنياً بالإصرار على مشاركة القوى الفلسطينية الأخرى، ولكن اقتصار المؤتمر على فتح (السلطة) وحماس أظهره كمؤتمر للاتفاق على تقاسم النفوذ والحكم بين الطرفين. قد تكون التنظيمات الفلسطينية خلاف حماس وفتح صغيرة بالفعل، ولكن اعتبارات الإجماع الوطنى لا تقاس بالحجم التنظيمى فقط، بل بالتأثير الإعلامى والسياسى أيضاً؛ وفى أحيان كثيرة من تاريخ الشعوب لا تقل الدلالات الرمزية عن دلالات الواقع الملموس. التباعد الذى أسسه اتفاق مكة بين حماس والتنظيمات الأخرى المختلفة، من ناحية، وما مثله الاتفاق من استفزاز للدور المصرى، من ناحية أخرى، أضعف مواقع حماس العربية عشية عملية الحسم فى قطاع غزة. ولا ينبغى تجاهل وقع عملية الحسم على مجمل النظام العربى الرسمى، الذى وجد نفسه أمام حالة غير مسبوقة من انتصار إسلامى مسلح (وإن كان جزئياً) على مؤسسة حكم رسمية (وإن كانت لا تمتلك شروط الدولة). إضافة إلى هذا كله، فإن عملية الحسم صاحبتها ممارسات فعلية وتصرفات رمزية شككت فى مؤهلات حماس لقيادة المشروع الوطنى، ابتداء من عمليات قتل ثأرى غير شرعية وغير قانونية، وتقديم الانتصار على الأجهزة الأمنية باعتباره انتصاراً عقائدياً، وقيام قناة الأقصى ببث خطاب تعبوى دينى، واختفاء العلم الفلسطينى عن المواقع التى سيطرت عليها حماس لعدة أيام، إلى تصوير الاشتباكات باعتبارها صراعاً بين الإسلام والكفر. منذ الاشتباكات السابقة على مؤتمر مكة، لم يعد هناك شك فى مقدرة حماس على الحسم العسكرى فى قطاع غزة. وعندما أخذ قرار الحسم مع الأجهزة الأمنية فى قطاع غزة، لم توضع العملية فى إطار وطنى بحت، يجعل من حماس وريثة لنضال وطنى طويل، من الحاج أمين الحسينى إلى ياسر عرفات، وحارسة لوحدة الشعب واتجاه بوصلته النضالية؛ بل كان أقرب إلى صراع فصائلى على الحكم.

بيد أن الحسم العسكرى فى قطاع غزة وما نجم عنه من انقسام فلسطينى كبير لا يجب أن ينظر إليه باعتباره حدثاً غير مسبوق فى تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، أو أنه جاء نتيجة لمخطط انقلابى. شهد التاريخ الفلسطينى حدثين انقساميين لا يقلان خطورة عن أحداث يونيو/ حزيران ٢٠٠٧، إن لم يفوقا تلك الأحداث: تمثل الأول فى انقسام الجسم الفلسطينى خلال الشهور الأخيرة من ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩، عندما تحالف قطاع واسع من معسكر النشاشيبيين مع الاحتلال البريطانى ضد الثوار ومعسكر المفتى الحاج أمين الحسينى. وقد ساهم ذلك الانقسام، الذى شهد اشتباكات دموية وحوادث اغتيال متعددة، مساهمة مباشرة فى إخماد الثورة. أما الانقسام الثانى فقد تمثل فى تحالف جزء من قادة فتح العسكريين وبعض من مثقفيها، إلى جانب الجبهة الشعبية - القيادة العامة، مع سورية لطرد القوات الموالية لياسر عرفات من لبنان فى انشقاق فتح الدموى فى ١٩٨٣. فى كلتا الحالتين، كان ثمة خلافات سياسية عميقة وتدبير وتخطيط سبقا الانقسام الفلسطينى.(١١) خلف أحداث غزة ٢٠٠٧، كان هناك بالتأكيد خلاف سياسى جوهرى، وصراع مصالح ونفوذ، لكن انفجار الانقسام بالطريقة التى انفجر بها لم يكن مخططاً من أى من طرفى الصراع. والأرجح أن ما ذكره دحلان فى مقابلته مع معد تقرير «فانتى فير» الأميركية كان صحيحاً،(١٢) بمعنى أن دحلان وقادة الأجهزة الأمنية فى قطاع غزة قدروا أن هزيمة حماس عسكرياً كانت هدفاً غير ممكن التحقق، وأنهم أرادوا بهجماتهم المتكررة على القوات الموالية لحماس خلق انطباع وهمى بقوتهم. المشكلة فى هذا التصور للأمور لم يكن فى فقدانه البعد الأخلاقى وحسب، بل وأيضاً فى فقدانه أى مستوى من الكفاءة الاستراتيجية. سفك الدماء لمجرد صنع انطباع وهمى فى صراع داخلى لم يكن له من مسوغ، بل كان عملاً غير أخلاقى بلا شك. ولكنه عبر عن سذاجة استراتيجية كذلك: فقد كان من البديهى أن يأخذ مخططو نهج الاشتباكات رد فعل حماس على الفوضى الدموية المصطنعة (والإصرار على تقويض حكومة الوحدة الوطنية) فى الحساب. وقد جاء رد فعل حماس كما هو معروف بالحسم العسكرى.

بالنسبة إلى حماس، ما ساعد على تخفيف وقع الأبعاد السلبية لعملية الحسم العسكرى فى القطاع، فلسطينياً وعربياً، أن الرئيس عباس سارع بعد هزيمة الأجهزة الأمنية إلى القيام بانقلاب دستورى على مجمل الأسس التى يرتكز إليها نظام سلطة الحكم الذاتى، وإلى إدارة ظهره كلية تقريباً للمطالب العربية الرسمية بالحوار الفلسطينى الداخلى، لاسيما تلك الصادرة من القاهرة والرياض. أعلنت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير قراراً بإقالة حكومة هنية، إعلان حالة الطوارئ، تشكيل حكومة انفاذ حالة الطوارئ، وإجراء انتخابات مبكرة.(١٣) ونظراً لأن القانون الأساسى الفلسطينى، الذى هو بمثابة دستور للحكم الذاتى فى الضفة والقطاع، لا يشرع لأغلب هذه الإجراءات، فقد نظر رئيس الوزراء هنية إلى أن القرارات غير شرعية، واعتبر حكومته لا تزال قائمة كحكومة تسيير أعمال. كلف الرئيس عباس الاقتصادى سلام فياض، الذى يحظى بتأييد أميركى وأوروبى، رئيساً لوزراء حكومة الطوارئ. وقد سارع الأخير إلى تشكيل حكومة من التكنوقراط والنشطين السياسيين السابقين، لاسيما من الموالين لياسر عبد ربه، نائب رئيس اللجنة التنفيذية. فى ٢٢ يونيو/ حزيران. وبعد أن أدرك الرئيس عباس صعوبة السيطرة على المجلس التشريعى، أصدر مرسوماً يلغى فقرة فى القانون الأساسى تنص على ضرورة موافقة المجلس على أية تعيينات وزارية.(١٤) بذلك، كان الرئيس قد أكمل انقلاباً مدنياً على أسس النظام الذى يرأسه. وكما كان الرئيس قد عمل على إحياء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير كمصدر شرعية مواز للمجلس التشريعى والحكومة على السواء، فقد سارع إلى إحياء المجلس المركزى للمنظمة كمؤسسة تشريعية بديلة بالكامل عن المجلس التشريعى.





لرغبة دوائر معينة داخل السلطة الفلسطينية في إبقاء الأوضاع على ما هي عليه، اتجهت الأزمة السياسية في غزة نحو التعقيد



تعرضت المؤسسات المدنية والخيرية وصناديق الزكاة المشكوك بصلاتها مع حركة حماس، أو التي يديرها إسلاميون، في الضفة الغربية لحملة أمنية منظمة. اعتقل العشرات من مؤيدي حماس والجهاد، وأغلقت مدارس وروضات أطفال وجمعيات خيرية ومراكز خدمات اجتماعية وصحية. وأعطيت هذه الإجراءات صبغة قانونية بصدورها عن قرارات لوزارة فياض. وقد أطلقت حكومة فياض حملة واسعة للقضاء على مجموعات المقاومة المسلحة في الضفة الغربية، بما في ذلك تلك الموالية لحركة فتح. أصدرت حكومة فياض قراراً بإنهاء الجماعات المسلحة، وعرضت إغراءات مالية لكل من يسلم سلاحه؛ بينما وعدت بالحصول على عفو إسرائيلي عن العناصر المطاردة من القوات الإسرائيلية. بعض من الإجراءات التي اتخذت في الضفة الغربية تم عبر ادعاء خشية إدارة رام الله من قيام حماس بالسيطرة على الضفة كما سيطرت على القطاع، ولكن بعضها الآخر عكس توجهاً حثيثاً لاستجابة رام الله لشروط التفاوض الإسرائيلية - الأميركية بقيام سلطة الحكم الذاتي بالتحكم الأمني في المناطق الخاضعة لها. وفي سياق تحضيرات السلطة لمستقبل غير واضح المعالم، اعتمد الرئيس الفلسطيني قانوناً انتخابياً جديداً في مطلع سبتمبر/ أيلول، ألغى ثنائية العملية الانتخابية بقصرها على التمثيل النسبي للقوائم، واشترط التزام المرشح للانتخابات ببرنامج وسياسة منظمة التحرير الفلسطينية.(١٥)

ما بعد الانقسام

لم يكن من السهل، بالطبع، تجاهل الأخطار التي يمكن أن تنجم عن انفصال سياسي بين الضفة والقطاع؛ ولكن المرجح أن الرئيس الفلسطيني تعرض لضغوط أميركية وإسرائيلية كبيرة من أجل إبقاء حالة القطيعة مع حماس، ومع قطاع غزة كذلك. ولكن عباس فاجأ كافة الأطراف المعنية عندما أطلق في الأسبوع الأول من يونيو/ حزيران ٢٠٠٨ دعوة إلى بدء حوار فلسطيني وطني شامل، يعالج كافة الملفات الفلسطينية العالقة، بما في ذلك القطيعة والانقسام بين الضفة والقطاع. أثارت الدعوة أجواء من التفاؤل بالنظر إلى أن قلة فقط في الساحة السياسية الفلسطينية تجد مصلحتها في حالة الانقسام المستمرة منذ عام كامل بين غزة ورام الله. خلال الأيام القليلة التالية لصدور تصريح الرئيس الفلسطيني، تصاعدت الآمال وتراجعت طبقاً لردود الفعل العربية والدولية. ثم جاءت جولة عباس العربية، التي بدأت بزيارة الرياض والقاهرة، وتوكيد كل من قيادة السلطة وقيادة حماس على دور مصر المركزي في إدارة عجلة الحوار الوطني المرتقب، لتشير إلى أن الأمور في طريقها إلى التحرك، وإن ببطء. السؤال الهام هو: لماذا أخذ عباس مثل هذه الخطوة وفي هذا الوقت بالذات.

منذ سيطرة حماس على قطاع غزة في يونيو/ حزيران ٢٠٠٧، قاوم الرئيس عباس كل دعوة فلسطينية أو عربية للحوار الوطني ومحاولة العمل على تفاهم ينهي الانقسام الفلسطيني الداخلي، بما في ذلك الدعوات من داخل حماس أو من أطراف فتحاوية. وحتى الرياض، والقاهرة على وجه الخصوص، كانتا ترغبان في ألا تستمر حالة الانقسام وألا تتحول إلى أمر واقع. ولأن القاهرة والرياض تمثلان قوة الدعم العربية الرئيسية للسلطة الفلسطينية ولقيادة عباس، فإن عجزهما عن إطلاق عملية المصالحة أشار إلى أن العقبات لم تزل كبيرة، والجانب الأكبر من هذه العقبات تعلق بالموقف الأميركي - الإسرائيلي. فقد واجهت السياسة الأميركية خلال ٢٠٠٥-٢٠٠٦ نكستين متتاليتين في منطقة المشرق العربي، إلى جانب الأزمة العراقية المستحكمة: أولها، كان فوز حماس في الانتخابات الفلسطينية، وثانيها الهزيمة الإسرائيلية في الحرب على لبنان. في ٢٠٠٧، حاولت الإدارة الأميركية استيعاب النكستين، ومن ثم فرض التراجع على خصومها العرب. وعندما أجهض مشروع إطاحة حكومة حماس، تحولت سياسة الاستيعاب إلى المحافظة على الانقسام الفلسطيني الداخلي ومحاصرة غزة. أما الجانب الإسرائيلي فقد رحب بالانقسام بين غزة ورام الله لأن فيه إضعافاً للطرفين؛ ورحبت به الدوائر الفلسطينية المعادية لحماس لأنها اعتقدت أنه سينتهي بثورة شعبية في غزة تضع نهاية لحركة حماس، أو تؤدي إلى إضعافها على الأقل. أما السلطة الفلسطينية، فقد قدمت لها وعود كبيرة بالتوصل إلى اتفاق سلام فلسطيني - إسرائيلي قبل نهاية ٢٠٠٨. وبالرغم من تردد العواصم العربية الرئيسية، وانتقاداتها المعلنة ونصف المعلنة لإطار أنابوليس، فقد اقتنعت على هذا النحو أو ذاك، بدعم عباس والمفاوضات التي يجريها وخيار الانقسام الفلسطيني ومحاصرة غزة، أو السكوت على هذا الخيار، مقابل إيجاد حل نهائي للمسألة الفلسطينية قبل اختتام ولاية الرئيس بوش.

بيد أن النتائج لم تأت كما ترغب الأطراف المختلفة، بل وأثارت أسئلة كبرى حول مصداقية سياسة الانقسام/ الحصار/السلام، ليس فقط في الساحة الفلسطينية ولكن أيضاً في المجال العربي المشرقي ككل. أخفق الحصار في فرض الاستسلام على قطاع غزة؛ وبالرغم من الضغوط الاقتصادية والاجتماعية الهائلة، ومن الضغوط العسكرية الإسرائيلية التي لم تنقطع عن نشر الموت والدمار، كانت الانتفاضة الوحيدة التي يشهدها القطاع هي الانتفاضة ضد الحصار. لا القوى الدولية، لا الأنظمة العربية، ولا الطبقة الفلسطينية السياسية، فهمت المزاج الشعبي الفلسطيني. ولكن الأمور لم تتوقف عند إخفاق سياسة الحصار، بل ورافق هذا الإخفاق تراجع حثيث في أفق الوعود التي أطلقت قبل وأثناء مؤتمر أنابوليس. ثمة من رأى أن القبول العربي - الفلسطيني بعملية سلام لا مرجعية دولية لها سوى مرجعية الوساطة الأميركية كان خياراً محفوفاً بالأخطار منذ البداية. وهذا صحيح بالتأكيد، ولكن حتى الوعود التي أطلقتها واشنطن أخذت في التبدد. ومع بداية صيف ٢٠٠٨، وعدم تبلور أي اتجاه أميركي للضغط على الإسرائيليين، واقتراب إدارة الرئيس بوش من محطة الأفول، بدأ عباس يدرك صعوبة التوصل إلى اتفاق سلام.

من جهة أخرى، واجهت الإدارة الأميركية عثرات كأداء في ثلاثة مواقع أخرى بالغة الحساسية من المشرق العربي. فقد أثبت النظام السوري أنه أقدر على البقاء مما كان يظن قبل عام أو عامين، وسرعان ما فاجأ العرب والأميركيين بفتح خط تفاوضي مع الإسرائيليين عن طريق تركيا، بدون أن يخرج عن ثوابته التفاوضية المعروفة. وبغض النظر عن دوافع الطرفين الحقيقية من فتح هذا الخط التفاوضي، فليس ثمة شك أن المفاوضات مع سورية تؤشر إلى انحسار الجدية الإسرائيلية في التفاوض مع الفلسطينيين. وفي لبنان، وبالرغم من تفاقم الأزمة الداخلية خلال شهر مايو/ أيار ٢٠٠٨، فقد أسفر تصاعد الأزمة عن حل في مباحثات الدوحة، ولو جزئيا ومؤقتا، سمح بانتخاب رئيس للجمهورية والاتفاق على حكومة تآلف وطني. وفي العراق، بدأ المقترح الأميركي لاتفاقية تنظيم العلاقات الأميركية - العراقية طويلة المدى في مواجهة معارضة شعبية واسعة النطاق، عززتها ضغوط إيرانية معلنة على حكومة المالكي لرفض الاتفاق. المهم في كل هذه الحالات أن الدور الأميركي الشرق أوسطي أظهر تراجعاً ملموساً؛ إذ أن ثمة شواهد على أن واشنطن فوجئت بحجم الوساطة التركية في المفاوضات السورية - الإسرائيلية، كما أن اتفاق الدوحة كان في جوهره انعكاساً لرغبة لبنانية وإرادة عربية. وبالرغم من الوجود العسكري الهائل في العراق، تبدو واشنطن وكأنها مجبرة على أخذ المعارضة الشعبية الوطنية والضغوط الإيرانية في الاعتبار، بعد أن كانت في موقع صاحب القرار المتفرد في الشأن العراقي.

لم يكن من الصعب على القيادة الفلسطينية رؤية جملة المتغيرات المتلاحقة، وقد وصلت إلى قناعة بأن قبولها بحالة الانقسام لم يعد مسوغاً، لا على صعيد عملية التفاوض، ولا على صعيد البقاء الفلسطيني الوطني. استمرار الانقسام بدون ثمن تفاوضي هو في الحقيقة دفع بسياسة الرئيس عباس نحو الانهيار الكلي. وربما قدر الرئيس عباس أن الدعوة للحوار ستفيد في كلتا الحالتين؛ فمن ناحية، تمثل الدعوة وسيلة ضغط على واشنطن وعلى الجانب الإسرائيلي لدفع عملية التفاوض المتعثرة إلى الأمام، ومن ناحية أخرى، تحفظ له

خيار التوصل إلى مصالحة وطنية حقيقية فى حال أخفق المسار التفاوضى. بيد أن المشكلة لم تكن فى جدية الدعوة وحسب، بل فى تصور كل من الطرفين الفلسطينيين لمادة الحوار الوطنى ومسائله، وللتحولات المتسارعة والملموسة فى الساحة الوطنية الفلسطينية.

على المدى القصير، يمكن رؤية جملة من الإشكاليات، أهمها بلا شك يتعلق بالموقف الأورو-أميركى، الذى يعبر عنه أحياناً من خلال اللجنة الرباعية، والذى يعمل باتجاه إبقاء حالة الانقسام من خلال وضع شروط تعجيزية على حماس. من ناحية أخرى، يعكس إصرار الرئيس عباس على ضرورة تراجع حماس عن «انقلابها» وإعادة الأجهزة الأمنية إلى القطاع، تصورات غير واقعية للحوار الوطنى. إن كان مطلب «التراجع» شرطاً للحوار، فمن الصعب انطلاق هذا الحوار ابتداء، بعد أن أكدت حماس، ومعها عدد من القيادات والتنظيمات الفلسطينية الأخرى، أن الحوار الوطنى لابد أن ينطلق بلا شروط مسبقة. كما أن الدعوة إلى «تراجع» إدارة حماس فى القطاع عن مجمل الإجراءات التى اتخذتها بعد السيطرة على القطاع، بدون إشارة إلى تراجع إدارة رام الله عن الإجراءات التى تعهدتها، ينم عن مقاربة غير عادلة وغير متوازنة للملف الوطنى. الأوضاع فى قطاع غزة لن تعود إلى ما كانت عليه، ليس لأن حماس لا تريد وحسب، بل لأن أهالى القطاع يرفضون ذلك أيضاً. وليس ثمة شك فى أن عودة القيادة الفلسطينية إلى مطالبها السابقة بضرورة الموافقة على كافة الاتفاقات التى وقعت عليها منظمة التحرير، والإقرار بأن المنظمة فى صيغتها الحالية هى الممثل الشرعى والوحيد، سيشكل حجر عثرة كبيرا فى طريق الحوار. الأكثر واقعية وعقلانية، ربما، إطلاق عملية الحوار على مرحلتين: تعالج الأولى ما نجم عن حال الانقسام فى المنطقتين، ليس فقط على صعيد مؤسسات السلطة، ولكن أيضاً على صعيد القرارات ذات الطابع الدستورى والقانونى التى استهدفت العزل والتضييق السياسى، فى صورة مباشرة وغير مباشرة. وتعالج المرحلة الثانية كيفية التوصل إلى اتفاق حد أدنى بين كافة القوى والاتجاهات الفلسطينية حول إطار مرجعى للعمل الفلسطينى الوطنى. هذا إن كان لدى عباس من إرادة كافية لمواجهة الضغوط الخارجية، الإرادة التى تحتاج بالتأكيد دعماً وغطاء عربياً، لاسيما من مصر والسعودية.

ما أصبح واضحاً فى صيف ٢٠٠٨ أن الحوار الوطنى الفلسطينى بات حاجة لجميع الأطراف: حاجة لإدارة حماس فى غزة، التى يحيط بها وبالشعب حصار يشارك فيه العرب والعالم؛ وحاجة لإدارة رام الله، التى يخيب ظنها تدريجياً بوعود اتفاق السلام، والتى توشك على مواجهة استحقاق انتخابى رئاسى يستحيل إنجازه بدون عودة الوحدة بين جناحى سلطة الحكم الذاتى؛ وحاجة عربية، لأن العرب، وعلى رأسهم مصر، كانوا يقفون موقفاً لا يحسدون عليه فى منطقة فراغ قرار بين الشعب الفلسطينى، من ناحية، والدولة العبرية والحليف الأميركى، من ناحية أخرى؛ وحاجة فلسطينية وطنية جامعة بعد أن أصبح الانقسام عامل إضعاف للطرفين الفلسطينيين.

بيد أن الإشكاليات الأكثر تعقيداً هى تلك التى تتعلق بكيفية تعامل كل من فتح وحماس والجسم الفلسطينى السياسى عامة مع عملية التحول التى تشهدها الحركة الوطنية منذ أكثر من عقد. بدون مراجعة شاملة من كافة الأطراف المعنية، فحتى إن استطاع الفلسطينيون تجاوز حالة الانقسام الحالية، فإن المستقبل سيظل محفوفاً بأخطار الأزمات الداخلية المتكررة والانقسامات. ■

---

(١) حول الأزمات المتلاحقة التى واجهتها حكومة هنية، انظر بشير موسى نافع، «الوضع الفلسطينى الداخلى: سنة التغيير والحصار، فى محسن صالح (محرر)، التقرير الاستراتيجى الفلسطينى: ٢٠٠٦ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والنشر، ٢٠٠٧)، ٢٨-٣٦.

(٢) نص الوثيقة فى السفير، ٢٧ مايو/ أيار 2006.

(٣) القدس العربى، ١٩ يونيو/ حزيران.2006

(٤) نافع، «الوضع الفلسطينى الداخلى».7-46

(٥) الحياة، ٧ و٨ يناير/ كانون ثانى.2007

(٦) الحياة، ٢٩ يناير/ كانون ثانى.2007

(٧) الشرق الأوسط، ٩ فبراير/ شباط.2007

(٨) الحياة، ٣ مارس/ آذار.2007

(٩) هآرتس، ١٧ إبريل/ نيسان.2007

(١٠) الشرق الأوسط، القدس العربى، الحياة، ١٢ يونيو/ حزيران.2007

(11) Basheer M. Nafi, Arabism, Islamism and the Palestine Question: 1908-1941 (Reading: Ithaca Press, 1998), 261-4; Sayigh, Armed Struggle, 561-73.

(12) David Rose, "The Gaza Vanity Fair, April 2008.,Bombshell,

(١٣) الحياة، ١٥ يونيو/ حزيران.2007

(١٤) الحياة، القدس العربى، الشرق الأوسط، ٢٣ يونيو/ حزيران2007

(١٥) القدس العربى، ٣ سبتمبر/ أيلول.2007

كتاب الزاوية



التحدث بنعمة الله

جلال الدين السيوطى

سيرة ذاتية، صاحبها عالم مصرى هو جلال الدين السيوطى. جاء اختيار العنوان (التحدث بنعمة الله) انطلاقًا من إيمان المؤلف بأن كتابة الإنسان تاريخ حياته هى نوع من الإقرار بنعمة الله عليه، إضافة إلى شكره عليها. الأمر اللافت فى هذه السيرة هو انصراف صاحبها الكامل إلى العلم، فالعلم وقضاياه والدفاع عن الصواب والحق ومقاومة الخطأ والباطل، وإعظام شأن الاجتهاد وتسفيه الركون إلى التقليد، والتمسك بأخلاق العلماء فى الخلاف والرد والمناظرة.. هى المحاور التى يدور عليها الكتاب. هذا إلى إشارات طريفة تؤكد أن مصر هى مصر.. بعظمتها وأخطائها.. عظمتها حين تنجب مثل هذا العالم الفذ، وأخطائها - المتكررة - التى يشير السيوطى إلى بعضها، كالسرقات العلمية وبيع الوظائف والبناء على شاطئ النيل بطريقة تضر بالنهر العظيم. تحقيقًا لقول الشاعر (من الحب ما قتل) وتأكيدًا لحقيقة أن بعضنا (يحب) مصر على نحو غير مفهوم.

وقد حقق الكتاب المستشرقة الغربية الدكتورة إليزابيث مارى سارتين، وكان التحقيق جزءًا من رسالتها للدكتوراة من جامعة كيمبردج عام ١٩٦٨. وصدر الكتاب ضمن سلسلة الذخائر للهيئة العامة لقصور الثقافة بمقدمة للدكتور عوض الغبارى أستاذ الأدب المصرى بكلية الآداب جامعة القاهرة. وتنشر «وجهات نظر» مقتطفات من الكتاب.

«صفحات من التاريخ»

حدود مصر

أطماع صهيونية قديمة

■ إن الدراسات المتعلقة بالحدود السياسية للدول عامة، تعتبر من الموضوعات والمجالات البحثية التى مازالت تستغرق وتستحوذ على قدر كبير من اهتمامات الباحثين فى مختلف فروع العلم. يعزى ذلك إلى عدة اعتبارات: الاعتبار الأول المتمثل فى كون الحدود السياسية هى التى تعين النطاق الإقليمى الذى تباشر من خلاله الدول مختلف مظاهر السيادة بوصفها شخصا قانونيا ودوليا. الاعتبار الثانى: وهو المتمثل فى حقيقة أن الحدود الدولية تضطلع، ولا شك، بدور أساسى فى مجال تدعيم قوة الدولة سلبًا وإيجابًا. والاعتبار الثالث: هو الاعتبار الاقتصادى أى ما يحويه الإقليم الذى تعنيه الحدود من ثروات وموارد. الاعتبار الرابع: هو الاعتبار الجغرافى وهو العامل الثابت الخاص، بالموقع الجغرافى وانعكاساته بالنسبة لتدعيم أو إضعاف الأمن القومى. والاعتبار الخامس: هو الاعتبار الإستراتيجى والأمنى وهو يتمثل فى حقيقة أن المنازعات بشأن الحدود غالبا ما تؤدى إلى إضعاف الدول المتنازعة وتبدد مواردها.

إن دراسة الحدود الدولية هى مجال يحظى بأولوية كبيرة رغم التراجع النسبى المحدود فى أهمية هذه الحدود ووظائفها بفعل عوامل التقدم غير المسبوق فى علم الاتصالات على المستوى العالمى. والواقع أن التطورات النوعية العديدة التى شهدها المجتمع الدولى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، أخذا فى الاعتبار التطورات الراهنة فيما يسمى «النظام الدولى الجديد» أو العولمة، فقد طرحت تساؤلات عديدة لمستقبل الحدود السياسية الدولية عامة، وبالخصوص فى شأن العولمة وتأثيرها على الحدود الدولية ووظائفها. أيضا ما هى طبيعة الحدود الدولية بين أطراف الحد السياسى الفاصل فى ظل علاقات غير متوازنة، وفى ظل تفوق عسكرى أى عدم توازن تسليح، وفى ظل طرف جار للحد السياسى يعتمد عقيدته العسكرية سياسة للتوسع الإقليمى، بغض الطرف عن الاعتبارات القانونية والسياسية والتاريخية والجغرافية، وبغض النظر عن قواعد القانون الدولى التى استقر عليها المجتمع الدولى. وبالتطبيق على العرض السابق، نجد أن حدود مصر من جهة الشرق تحتل مكان الصدارة من بين حدودها الدولية على مختلف الجهات. ولا تقتصر أهميتها الإستراتيجية على الخبرة التاريخية فحسب بل تستمدها من كونها الحد الوحيد مع دولة غير عربية باعتبار أن الحد الشمالى يتعلق بالبحر المتوسط.

لقد أثبت التاريخ دوما أن الخطر على أمن مصر إنما يأتى من جهة الشرق، ومن هنا كان الاهتمام الإستراتيجى الأول متعلقا بهذه الحدود، وكان الإدراك دائما وواضحا أن الحد الشرقى يمثل الدرع الواقية ضد أية أطماع توسعية، وأنها فى ذات الوقت مصدر رئيسى لتهديد أمن الوطن «مصر».

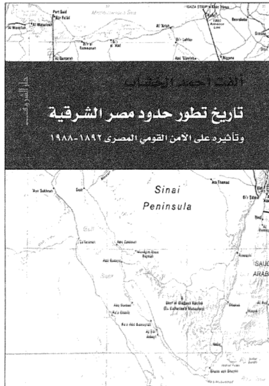


حقيقة لقد تعرضت مصر لبعض الاعتداءات والحملات العسكرية من اتجاه الغرب، ويثور أحيانا قدر من المنازعات حول حدود مصر الجنوبية، واتخذت الحدود الشمالية «البحر المتوسط» قاعدة لانطلاق أعمال عسكرية عدائية عن طريق البحر، ولكن، تبقى دائما الحدود الشرقية هى مصدر الخطر الدائم على أمن مصر، وقد ثبت ذلك تاريخيا وتأكد ورسخ بعد أن أصبحت هذه الحدود تفصل بين مصر وإسرائيل وهى تمثل تكتلاً بشريًا وعرقيًا وثقافيًا مختلفًا، وتمثل قاعدة استعمارية هدفها الأصلى «مصر» وممارسة دورها من على أرض فلسطين. أيضا ارتبط الحد الشرقى لمصر بالصراع العربى الإسرائيلى منذ عام ١٩٤٧ وحتى اليوم.

إن الهدف من هذه الدراسة هو البحث فى المراحل التاريخية لنشأة الحد الشرقى المصرى، وتأصيل هذه المراحل لإثبات أن هذا الحد وهو يبدأ من نقطة رفح على البحر المتوسط فى خط مستقيم تقريبا إلى نقطة على خليج العقبة رأس طابا وتبعد ٣,٧٥ ميل عن ميناء أم الرشراش على الخليج، هو حد مصر الذى مارست عليه السيادة الكاملة وفق الاعتبارات العسكرية والجغرافية والسياسية والتاريخية والديموجرافية.

إن أهمية هذه الدراسة إنما تأتى فى كونها دراسة تاريخية وثائقية مرفقة بتحليل سياسى واف لدحض أى ادعاء بحقوق فى أرض شبه جزيرة سيناء، ولدحض فكرة التشكيك فى مصرية سيناء كاملة، ولدحض أى ادعاء بحق تاريخى أو حق دينى أو حق سياسى، أو حل سياسى تحت جميع المسميات الإنسانية لتسوية قضية العرب.

لذلك تناقش وتعرض البدايات الحقيقية لأزمة فرمان ١٨٩٢، وأصولها التاريخية وأسبابها السياسية، كما تناقش الدراسة ما هى الأسباب الحقيقية وراء صناعة الخط الحدودى الشرقى لمصر، وهل أضافت اتفاقية ١٩٠٦ لمصر أراضى أم أنها وثقت الحد الفاصل بين الممتلكات العثمانية والممتلكات المصرية؟ هل تمت الاتفاقية برضاء الطرفين، وفق القواعد الدولية المعمول بها فى تعيين وتعليم الحدود الدولية، وهل اتصفت هذه الحدود بالدولية ونالت الاعتراف الدولى؟ هل مارست مصر سيادتها كاملة؟ هل هذا الخط الحدودى أو الحد الفاصل أدى إلى عزل مصر، وهل هذا الحد هو صناعة بريطانية استعمارية؟ لماذا لم تجر



تاريخ تطور حدود مصر الشرقية وتأثيره على الأمن القومى المصرى (١٨٩٢ - ١٩٨٨)
د. ألفت أحمد الخشاب
دار الشروق ٢٠٠٨ ـ ٥٣٦ ص

الشــــرقيـــة

ألفــت أحمـــد الخشـــاب

بريطانيا - وهى دولة الانتداب على فلسطين، ودولة المحتل فى مصر. أية تعديلات على الحد الشرقى. وما هو موقف وزارة الخارجية المصرية الثابت تجاه هذا الخط الحدودى؟ هل الحد السياسى بين مصر وفلسطين فى ظل وجود إسرائيل كان رادعا ضد أى عدوان، وما هو الموقف الدولى تجاه تجاوز إسرائيل عام ١٩٤٨، وعام ١٩٥٦، وعام ١٩٦٧، وعام ١٩٧٣ حتى معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية ١٩٧٩. ما هى أهم ملامح معاهدة السلام فى البنود الخاصة باسترداد شبه جزيرة سيناء كاملة السيادة؟ هل قيمة الخط الحدودى فقط فى علاماته الحدودية المرقمة، أم أن قيمة الخط الحدودى تنبع من قوة الدولة بالمفهوم الشامل؟

اعتمدت هذه الدراسة على عدة نقاط تتمثل فى قراءة التاريخ قراءة حركة إنسانية، وهو حركة تغير وتطور، أى أن مادة التاريخ العلمية متسعة للرصد والتسجيل للحصول على صورة متكاملة الأحداث. أيضا إن دراسة علم التاريخ باعتباره - ملفًا أغلق - ليس مفصولاً عن الحاضر، وإنما بداخله جزء ديناميك ونشط، فإذا ما أحسن قراءته ودراسته، يمكن التفاعل مع الحاضر، ويمكن استشراف المستقبل. لاشك أن تاريخ الأمم يمثل مخزونًا هائلاً ومتراكمًا وهو مدد فكرى، ومعين لا ينضب، لذا لا يجب أن يتجمد، وإنما لابد أن يتفاعل مع كل معطيات العصر. للتطبيق على ما سبق، فإن الدراسات التاريخية لتطور الحدود السياسية هى إحدى وسائل تكريس مشاعر الوطنية والولاء، وهى وسيلة لاستنفار الوجدان المصرى لأهمية حدوده السياسية وزيادة وعيه القومى، ووعيه بالتهديدات التى تواجه مصر وبالخصوص الحد الشرقى لكونه الحد الوحيد مع دولة غير عربية تعتمد عقيدتها السياسية والعسكرية على التوسع الإقليمى وفرض الهيمنة.

إن هذه الدراسة ترتكز على الوثائق البريطانية، ومن ثم يمكن استشعار قيمة وأهمية الوثيقة التاريخية كمرجعية هامة، فإن الحقوق لا يمكن الحفاظ عليها، أو استردادها فى حال فقدانها، فقط بالقانون والجغرافيا والسياسة والآلة العسكرية، وإنما لابد من مرجعية تاريخية ووثائق لها مكانة هامة ولعبت دورا فى تاريخ الأمم. هذا بالتحديد ما يبدو واضحا من دراسة تاريخ تطور الحد الشرقى المصرى، حيث إن الأمر ذو طبيعة شديدة التعقيد. لماذا؟ أولا: لأن طبيعة الحد ذات طابع قانونى، جغرافى، وسياسى وعسكرى وتاريخى وديموجرافى. ثانيا: لأن الطرف المجاور للحد هو إسرائيل ولديها من الأطماع التوسعية سواء فى البر أو البحر الكثير، لكى تتمكن من الهيمنة على المنطقة العربية بمواردها الغنية المتنوعة، مما يؤهلها لتكون قوة إقليمية لها دور فاعل فى الهيكل الدولى. ثالثا: هناك فارق هائل أن يكون الطرف المجاور للخط الحدودى عربيا، لأن طبيعة وأهداف أى نزاعات حدودية عربية - عربية مختلفة كل الاختلاف، وهى عادة ما تثار لأسباب داخلية، أو أسباب شخصية أو لأسباب اقتصادية، أو لأسباب لم يراع فيه الخط الحدودى الطبيعة الديموجرافية للمناطق الفاصلة، وبالنهاية يمكن تهدئة هذه النزاعات الحدودية العربية - العربية بشكل ودى، دون حل جذرى ونهائى. ولكن تظل بين جنبات أمة عربية واحدة. ما عدا حالة العراق. معنى هذا أن هناك فارقًا هائلاً بين أن تكون دول الجوار الحدودى عربية، أو أن تكون إسرائيل ملاصقة للخط الحدودى وهى فى حالة استعداد وتأهب للفوز بغنيمة من الأرض العربية.

ولا شك أن شبه جزيرة سيناء لها أهمية قصوى، فهى جناح مصر الشرقى، وهى الجناح الآسيوى الذى يربط قارة آسيا بقارة أفريقيا، ولاشك أن المصريين بذلوا كل نفس ونفيس من أجل سيناء، ونحن نجهل الكثير عن تاريخ سيناء، وعن تاريخ صناعة الحد السياسى الفاصل بين مصر وفلسطين، ونجهل الكثير عن جغرافية سيناء وخيراتها ومواردها، التى تفوق المعلومات المتاحة كقرى ومنتجعات سياحية شهيرة مقصورة على طبقة شديدة الثراء. إننا نتغنى بأرض الفيروز، ونفخر بتضحيات أبناء الوطن حفاظا على سلامة مصر الإقليمية، دون أن نعتنى بدراسات تاريخية، وسياسية تغذى الفكر الوطنى المصرى وتغذى مشاعر الانتماء الوطنى، والفكر القومى العربى.



وتحتوى هذه الدراسة على سبعة فصول تمتد تاريخيا منذ عام ١٨٩٢ حتى عام ١٩٨٨، أى على مدى قرابة القرن. يتناول الفصل التمهيدى، وهو فصل مفاهيمى يتعرض لمفهوم الحدود السياسية وأنواعها وتصنيفاتها ووظائفها، كما يستعرض الحدود فى الأديان، مع تعريف بتاريخ وجغرافية شبه جزيرة سيناء. ويتناول الفصل الأول الخلفية التاريخية للمسألة الشرقية والمسألة المصرية ونظام توازن القوى الأوروبية، وكيف أثرت المسألة المصرية على النظام الأمنى الأوروبى، وهو ما يعتبر الخلفية التاريخية والسياسية الحقيقية وراء التدخل الأوروبى ضد مصر، وهى البداية الأساسية لتحجيم دور مصر ومشروعها العربى، ومن ثم محاولة الشد والجذب بين الدولة العثمانية والقوى الأوروبية بشأن مصر مما أدى إلى إصدار فرمان ١٨٩٢ حيث ينتقص من مصر أغلب شبه جزيرة سيناء، والفصل الثانى يستعرض كيف أصبحت شبه جزيرة سيناء ساحة للصراع الدولى حيث إنها البعد الإستراتيجى لقناة السويس. ويتناول بالتفصيل أزمة طابا الأولى ١٩٠٦ التى أدت إلى تعيين وتعليم الحد الفاصل الإدارى بين الممتلكات العثمانية والممتلكات المصرية وهو ما يتناوله بالتفصيل اليومى من خلال الوثائق البريطانية عن كيفية مسح وتعيين الحد الفاصل، وكيفية سير المفاوضات الرسمية وصولا إلى اتفاقية ١٩٠٦، مع التوضيح لطبيعة هذا الحد الفاصل. ويتناول الفصل الرابع تداعيات أزمة طابا الأولى ١٩٠٦ على الرأى العام المصرى الذى تأرجح بين مظاهر الوطنية القطرية والولاء الدينى للدولة الإسلامية المركزية. وأثناء الحرب العالمية الأولى، لعبت شبه جزيرة سيناء دورا هاما مما أدى إلى تغيير وضع مصر السياسى، كما مارست دورا مختلفا أثناء الحرب العالمية الثانية، وزادت أهمية شبه جزيرة سيناء من المنظور الإستراتيجى والأمنى وبخاصة بعد ظهور إسرائيل على الساحة الدولية، ومقيمة على أرض فلسطين العربية وهذا ما يتناوله الفصل الخامس بشأن إرهاصات الفكر الصهيونى بشأن إقامة الدولة اليهودية، وكيف أن شبه جزيرة سيناء جزء أصيل فى الفكر الإسرائيلى التوسعى، وهو ما ظهر واضحا فى تصريحات بن جوريون بعد العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦. ويستعرض الفصل السادس أزمة النظام الثورى المصرى وكانت شبه جزيرة سيناء هى الثمن. ويستعرض كيف تواطأت الإدارة الأمريكية مع الهدف والداخل الإسرائيلى لضرب التيار القومى العربى فى مصر، وضرب مصر الدولة القائد للمنطقة العربية.

كانت هزيمة حرب يونيو ثمنا فادحا تحملته مصر بسبب الداخل المصرى المأزوم، وبسبب المواقف العربية ضد التيار القومى. كما يتناول هذا الفصل حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة، وكيف أثرت على أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر، وكيف حطمت ثوابت فكرية إسرائيلية وهزت المجتمع الإسرائيلى ودفعته لإعادة حساباته بشكل واقعى وحقيقى.

ويتناول الفصل السابع والأخير كيف أن استرداد شبه جزيرة سيناء كاملة السيادة، وأن الحفاظ على سلامة مصر الإقليمية حتى الخط الحدودى. وفق اتفاقية ١٩٠٦ - بين مصر وفلسطين كان هدفا مستمرا للسياسة الخارجية المصرية، ومن أجل ذلك أقدمت مصر على مفاوضات سلام وعقدت اتفاقية كامب ديفيد ومعاهدة سلام مع إسرائيل.

واستطاعت مصر إجبار إسرائيل على التراجع خلف حدود مصر الدولية، رغم أن

لإسرائيل محاولات عديدة للإفلات بغنيمة من الأرض وبخاصة فى منطقة رأس النقب وطابا. ودارت معركة بأدوات وآليات مختلفة لا تقل شراسة عن حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وحصلت مصر على أراضيها كاملة وأذعنت وتراجعت إسرائيل خلف حدود مصر الدولية عام ١٩٨٨.

أما الخاتمة فتشتمل على ملاحظات وتوصيات عامة خاصة بشبه جزيرة سيناء، وكيف أنها هدف مستمر للتوسع الإسرائيلى، وكيفية إكساب هذا الجناح الشرقى المصرى مناعة حقيقية تكون درعا حاميا لسلامة مصر الإقليمية، وسلامة المنطقة العربية.

الصهيونية وحدود الدولة اليهودية

قامت الحركة الصهيونية السياسية على أساس الإيمان بأن اليهودية ليست مجرد ديانة، وإنما حركة علمانية للرد على نزعة العداء للسامية، ودعوة مقاومة الاندماج، حيث ترى أن اليهود يشكلون عنصرا متميزا بجنسه وثقافته وتاريخه، وبالتالى هم يكونون شعبا له الحق فى وطن مستقل يشملهم ولهم الحق فى تكوين دولة. استهدفت الصهيونية السياسية التأكيد على أن اليهود أمة واحدة مهما اختلفت أعراقهم وجنسياتهم وهم يشكلون شعبا، كما استهدفت إضفاء صفة القومية على هذا الشعب، ثم إنشاء الدولة اليهودية تمارس سيادتها على الشعب اليهودى فى الوطن اليهودى. كان الهدف الأكيد للصهيونية السياسية هو إنشاء الدولة اليهودية بغض النظر عن أية اعتبارات خارج أوروبا أو داخلها مثل قضية اضطهاد اليهود، تلك الورقة الرابحة التى أحسنت الصهيونية السياسية استغلالها والترويج لحركتها[١].

قبل التعرض للفكر الصهيونى اليهودى التوسعى، لابد من الإشارة إلى عدة محددات[٢] لعبت دورا مؤثرا فى الفكر الصهيونى بشأن حدود الدولة اليهودية، منها الإمكانيات البشرية والاقتصادية التى تؤثر على النشاط الصهيونى للإقليم المراد الاستيلاء عليه، أيضا تواؤم وتشابك المصالح المشتركة بين الحركة الصهيونية والدول الاستعمارية، إضافة إلى رد فعل المقاومة تجاه الاستعمار الاقتلاعى الاستيطانى الصهيونى، وإحلال يهود ذوى جنسيات مختلفة أو أعراق وثقافات وبيئات متباينة بدلا من شعب واحد له تاريخ أصيل على أرضه.

رغم أن الأفكار الصهيونية الخاصة بحدود الإقليم المزمع استيطانه ليكون وطنا قوميا لليهود لم تتبلور إلا اعتبارًا من عام ١٩١٧، إلا أنه يمكن رصد الكثير من الأفكار الصهيونية التى تعكس التطلعات الإقليمية لقادة الفكر الصهيونى.

بدأت إرهاصات الفكر الصهيونى بشأن إقامة الدولة اليهودية التى تؤصل للأطماع اليهودية منذ عام ١٦١٩ كدعوات فكرية تؤهل مشروعاتها للاستيطان فى شبه جزيرة سيناء، وعليه يمكننا رصد الكثير من الأطروحات الفكرية الصهيونية التى تعكس التطلعات الإقليمية لقادة الفكر الصهيونى، ثم يمكننا رصد المحاولات اليهودية الفعلية لاستيطان شبه جزيرة سيناء.

فى عام ١٦١٩ نشر السيد هنرى فنش كتابه بعنوان «نداء اليهود» ليكون أول دعوة فكرية علنية لإنشاء وطن قومى ليهود العالم. كما نشرت رسالة بعنوان «إلى إخوانى فى الدين» طالب فيها كاتب الرسالة بإقامة دولة يهودية تمتد حدودها من عكا إلى البحر الميت، ومن جنوب البحر الميت إلى البحر الأحمر، وطالب بضم جنوب مصر.

أما الحاخام زفى هيرش كاليشر ١٧٩٥ - ١٨٧٤، فقد نشر كتابه «البحث عن صهيون» ودعا فيه إلى استيطان فلسطين بمساعدة دولية عن طريق إنشاء منظمة تقوم بشراء الأراضى الزراعية، وهاجم التدين وانتظار المسيح، كأسلوب لحل المشكلة اليهودية، وطالب اليهود بأن يبحثوا عن قوميتهم مثل الإيطاليين والمجريين وغيرهم[٣]. كما شاركه فى فكرة البحث عن الهوية القومية لليهود (موسى هيس ١٨١٢ - ١٨٧٥)[٤] وأصدر كتاب «روما والقدس» عام ١٨٦٢، وأعلن رفضه لفكرة الاندماج والذوبان فى المجتمعات، وطالب بالاقتناع بوجود قومية يهودية. كما دعى لورانس أوليفانت إلى استعمار سوريا الجنوبية، وقد أعد كتابا عن فلسطين، وأرفقه بخريطة تشتمل على نطاق لهذه الدولة حيث تمتد من جبيل إلى غزة على طول الساحل، ومن بعلبك مرورا بدمشق ومنطقة الجولان وحوران حتى طريق قوافل الحج المتجهة صوب مكة والحجاز[٥].



كما أصدر ليوبنسكر ١٨٢١ - ١٨٩١ كتابه «التحرر الذاتى»، والذى قال فيه: إن التحرر الحقيقى يكمن فى خلق قومية يهودية يعيش شعبها على أرض محددة. فقد تحول ليوبنسكر وهو طبيب روسى - يهودى من إيمانه بفكرة الاندماج إلى التعصب اليهودى القومى بسبب حوادث ١٨٨١ - ١٨٨٢.

لم تكن شبه جزيرة سيناء بغائبة عن فكرة الكاتب أرثور ستانلى «فى سيناء وفلسطين» عام ١٨٥٦، وأرفق بكتابه خريطة لكل من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حيث يرى الوطن القومى لليهود يمتد من صيدا على ساحل البحر المتوسط ودمشق فى الداخل حتى رأس محمد جنوب شرم الشيخ حتى خليج السويس.



بدأت إرهاصات الفكر الصهيونى بشأن إقامة الدولة اليهودية التى تؤصل للأطماع اليهودية منذ عام ١٦١٩ كدعوات فكرية تؤهل مشروعاتها للاستيطان فى شبه جزيرة سيناء



أما المحاولات الفعلية ذات المرجعية التوراتية، ويمكن أن نطلق عليها محاولات فردية، فقد بدأت منذ عام ١٥١٧. شعر السلطان سليم الأول عقب دخول مصر بالأطماع اليهودية فى سيناء فأصدر فرمانًا للحد من أطماع اليهود، ثم ألحق سليمان القانونى هذا الفرمان بآخر مؤكدًا الأول وذلك عام ١٥٢٠. ولكن لابد من رؤية الموقف العثمانى فى إطاره الحقيقى، فالدولة العثمانية قد اعتمدت ومارست مبدأ التسامح الدينى إزاء أهل الكتاب، واستوعبت اليهود المطرودين من أسبانيا وبريطانيا فكانت ملاذًا ووطنا بديلا. لاشك فى أن هناك فارقًا هائلاً بين استيعاب الدولة العثمانية لمضطهدين ومطرودين من بلادهم، وبين السماح لهم باستيطان واستقطاع جزء من الممتلكات العثمانية لصالح جماعة دينية محددة.

وبعد وفاة سليمان القانونى، تولى سلاطين ضعاف، فنشطت الأطماع الصهيونية لتجد لها ثغرات للتسلل، وبدأت موجات متتالية للهجرة اليهودية إلى الطور، ويطلق على هذه الموجات الاستيطانية جماعة إبراهام، وقد نجحت فى التسلل فى صمت وهدوء حتى لا تثير حفيظة الدولة العثمانية، وتفطن إليهم، لولا حادثة عارضة، فقد اشتكى رهبان دير سانت كاترين إلى السلطان العثمانى لتعرضهم للأذى من جماعة إبراهام وتم طردهم، ومن ثم صدرت ثلاثة فرمانات منذ عام ١٥٨١ إلى ١٥٨٥ لمنع الهجرة اليهودية.

ومع ما سبق، لم تتوقف محاولات التسلل اليهودية إلى شبه جزيرة سيناء لاستيطانها. ففى عصر محمد على وتحت شعار البحث عن الفحم الحجرى، حضر عدد من المهندسين الإنجليز إلى مصر، ولكن بعد البحث والتدقيق فى أغراضهم الحقيقية، تأكد أن الهدف هو إقامة مستعمرة تجارية فى الطور، فأمر محمد على بمنع بيع ولو شبر واحد من الأراضى لهذه البعثة.

أيضا محاولة بول فريدمان عام ١٨٩٠ الذى حاول استيطان بعض الأراضى فى جزيرة العرب وبالتحديد فى المويلح «مدين» على ساحل البحر الأحمر وعلى مقربة من خليج العقبة. فقد اختار الرجل موقعا ساحليا لأهميته، ويتوسط الأرض العربية ليمتد وطنه ليضم شبه جزيرة سيناء، وخليج العقبة ويكون على مقربة من فلسطين، أى امتدت رؤية

فريدمان الواسعة لتشمل مساحة شاسعة ضمت جزءاً من جزيرة العرب، وشبه جزيرة سيناء وخليج العقبة بإطلالته على البحر الأحمر. كان الرجل طموحا متطلعا معبرا بشدة عن معتقدات وطموحات اليهودية تجاه وطنهم القومى المزعوم، مستوحيا رؤيته للوطن من التوراة. فقد نشر كتابا بعنوان «أرض مدين» طارحا إمكانية استعمار هذه الأرض، وطرح فكرة حفر قناة تربط بين حيفا والبحر الأحمر عن طريق العقبة لضرب وتحطيم أهمية قناة السويس كممر دولى وبالتالى ينزع عن مصر إحدى مميزاتها الحيوية، وما تدره عليها من أموال طائلة، علاوة على ضرب بروز مصر كدولة لها شأن فى العلاقات الدولية. ولكن وبناء على شكوى من عربان المنطقة من سوء معاملتهم، بالإضافة إلى خشيتهم على أراضيهم، فقد تم طرد فريدمان وجماعته المسلحة وفشلت محاولاته الاستيطانية فى المويلح، وهى نقطة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر وكانت تحت الإدارة المصرية فى القاهرة. ومن ثم أصدر السلطان عبد الحميد ثلاثة فرمانات لمنع الهجرة اليهودية، وإعادة المتسللين إلى بلادهم الأصلية.

شبه جزيرة سيناء فى الفكر الصهيونى

ازدادت المطامع الاستعمارية بشبه جزيرة سيناء لكونها خلفية إستراتيجية لحماية قناة السويس. تحركت تلك المطامع مع المطامع الصهيونية، ووضع اليهود أنفسهم فى خدمة الاستعمار البريطانى أملا منهم فى تحقيق أهدافهم بالمساعدة على توطيد أركان الاستعمار، وسعت الصهيونية متمثلة فى تيودور هرتزل فى تحقيق وطن قومى لليهود فى شبه جزيرة سيناء لتجمع غالبية يهود العالم.

استغل هرتزل مشكلة هجرة اللاجئين اليهود المضطهدين فى أوروبا الشرقية وروسيا، والمتدفقين على بريطانيا، وعرض على الحكومة البريطانية فى يونيو ١٩٠٢ الدخول فى مفاوضات من أجل الحصول على أرض يتجمع فيها اليهود المضطهدون. كان هرتزل يعلم جيدا أن بريطانيا برئاسة حكومة المحافظين فى مأزق، ولا يمكنها إيقاف الهجرة بمقتضى السياسة الليبرالية التى هى من تقاليد الإمبراطورية، وذلك أيضا ما سيعارضه الرأى العام البريطانى. أما الجانب الآخر والأكثر إلحاحا على حكومة المحافظين، فإن الأفواج اليهودية المتدفقة على المجتمع البريطانى سوف تساهم بشكل سلبى على مشكلة البطالة بين العمال البريطانيين[٦].

قدم هرتزل حلا للحكومة البريطانية وهو تحويل وترحيل هذه الأفواج اليهودية المهاجرة إلى إنجلترا إلى منطقة يتفق عليها بشرط أن تكون صالحة لاستيطان اليهود لإقامة وطن قومى. بداية كرر هرتزل طلب استيطان قبرص وذلك بالتنازل عنها من قبل بريطانيا لليهود، ثم يقايض اليهود قبرص بفلسطين وفق ما جاء فى مؤتمر بازل الخامس. وكان هذا القرار قد صيغ بعبارات غامضة مثل «تسعى الصهيونية إلى تحقيق وطن قومى لغالبية اليهود فى فلسطين وفى الأراضى المحيطة بها تلك التى تؤمنها من جميع الوجوه»[٧].

وترى الدراسة أهمية قصوى لهذا القرار، حيث يمثل هدفا إسرائيليا. بعد قيام إسرائيل. مستمراً حتى الآن. لم يكن هدف الصهيونية فلسطين فقط، وإنما أراض محيطة بها، أى يمكنها الاستيلاء على أجزاء من لبنان ومن سوريا، ومن شرق الأردن وشبه جزيرة سيناء، إضافة إلى قبرص تلك النجمة الذهبية فى البحر المتوسط وهى مركز إستراتيجى فى غاية الأهمية، وهدف الصهيونية هو تحقيق الأمن المطلق، لأنها تعلم أن عملية استيطان يهودى يعنى اقتلاعا عربيا، يعنى خلق أعداء محيطين بهذا الكيان الاستيطانى الغريب.

تقدم هرتزل إلى اللورد رودتشلد وعرض مطلبه لإنجلترا بالتنازل عن أحد الممتلكات البريطانية لصالح إنشاء مستعمرة يهودية فى الأماكن التالية: شبه جزيرة سيناء. فلسطين المصرية[*]. قبرص.

فشلت المفاوضات بشأن قبرص[٨] سواء مع الحكومة البريطانية لاعتبارات إستراتيجية، لصالح بريطانيا، ولاعتبارات ديموجرافية خاصة بالتكوين السكانى لجزيرة قبرص. كما فشلت المحاولات الصهيونية مع الحكومة العثمانية سواء بالضغط أو بغواية المال والذهب.

ولكن استمرت المفاوضات هذه المرة بين الصحفى اليهودى جاكوب جرينبرج ووزير المستعمرات البريطانى جوزيف تشمبرلين المعروف بنزعاته الاستعمارية، وأيضا المعروف بميوله المعادية لليهود. كانت المفاوضات بشأن العريش وشبه جزيرة سيناء[٩]. كان جوزيف شمبرلين يرغب بشدة فى التخلص من اليهود القادمين إلى بلاده والاستفادة بهم فى الخارج. ولكن لأن شبه جزيرة سيناء ليست فى دائرة اختصاص وزير المستعمرات، وإنما فى دائرة اختصاص المعتمد البريطانى فى مصر وهو اللورد كرومر. تبنت الحكومة البريطانية المشروع الصهيونى رغم كونهم من الممتلكات العثمانية. كانت الحكومة البريطانية تعتبر وجود الأعداد المتزايدة من اليهود القادمين من روسيا وأوروبا الشرقية تهديدا للمصالح البريطانية، لذا كان مشروع استيطانهم فى شبه جزيرة سيناء يخدم المصالح البريطانية، ويساهم فى مد النفوذ الاستعمارى نحو فلسطين فى حال الانهيار القريب للدولة العثمانية.

كما لوح هرتزل بتولى الدولة اليهودية مهمة حماية الضفة الشرقية لقناة السويس، ومهمة عزل مصر عن الولايات العربية المشرقية.

عرض هرتزل المفاوضات الجارية على المؤتمر الصهيونى السادس فى أغسطس ١٩٠٣ فى مدينة روزيلك، وأقرها المؤتمرون داعين إلى التفاوض المباشر مع الحكومة المصرية، مع السعى للحصول على توصيات من الحكومة البريطانية بتحقيق هذا الغرض. وتدعيما للآمال الصهيونية اقترحت الحكومة البريطانية على هرتزل إيفاد بعثة فنية إلى مصر لدراسة المنطقة، وتحديد صلاحيتها لإنشاء مجتمع بشرى. كما زودت المستر جاكوب جرينبرج بالتوصيات اللازمة. وكاتبت وزارة الخارجية البريطانية اللورد كرومر تطلب منه استقبال البعثة الفنية، وتقديم جميع المساعدات والتسهيلات للقيام بمهمتها، وبتمهيد السبيل أمامها مع الحكومة المصرية، كانت وجهة النظر الصهيونية هى أن شبه جزيرة سيناء هى دولة المستقبل، فهى المكان المناسب لأنها مركز شبكة الخطوط الجديدة للعالم، وسوف تشارك مع قناة السويس الدور، وقد تحل محلها للوصول بين أفريقيا وآسيا وأوروبا. ■



كانت الحكومة البريطانية تعتبر وجود الأعداد المتزايدة من اليهود القادمين من روسيا وأوروبا الشرقية تهديدا للمصالح البريطانية، لذا كان مشروع استيطانهم فى شبه جزيرة سيناء يخدم المصالح البريطانية



هـــــوامـــــش

(١) أحمد طربين. فلسطين فى خطط الصهيونية. والاستعمار. ١٨٩٧ ـ ١٩٢٢. معهد البحوث والدراسات العربية. القاهرة. ١٩٧٠. ص ٤٥.

(٢) عادل محمود رياض. الفكرالإسرائيلى وحدود الدولة. معهد البحوث والدراسات العربية. القاهرة. ١٩٧٠. ص ٣٧.

٣) أحمد طربين. فلسطين فى خطط الصهيونية. والاستعمار. ١٨٩٧-١٩٢٢. معهد البحوث والدراسات العربية. القاهرة. ١٩٧٠. ص٤٠ .

(٤) محمد عبد الرؤوف. الصهيونية فى مائة عام. محاضرات. معهد البحوث والدراسات العربية. القاهرة. ١٩٩٩ .

(٥) سعد رزوق. إسرائيل الكبرى. سلسلة كتب فلسطينية. منظمة التحرير الفلسطينية. مركز الأبحاث. بيروت. ١٩٦٨. ص٦٢ .

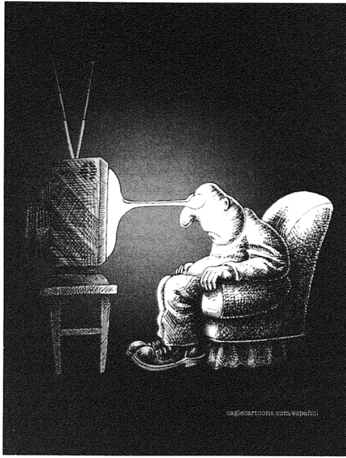
(٦) صموئيل أتينجر. اليهود فى البلدان الإسلامية (١٨٥٠-١٩٥٠). عالم المعرفة. ١٩٧٤. ص١٠ .

(٧) إبراهيم أمين غالى. مرجع سابق. ص٢٦٦.

(❖) كثيرا ما يطلق على شبه جزيرة سيناء «فلسطين المصرية» فى الأدبيات الإسرائيلية وبعض قليل من الأدبيات العربية. انظر. مها بسطامى حدود فلسطين والسيادة فى سيناء. شئون فلسطين. عدد ٢٠٢.

(٨) المرجع السابق. ص: ٢٦٧ : ٢٦٨ .

(٩) أحمد طربين. مرجع سابق. ص٧٥ .



إعلام الفضيحة



مارك دانر

■■ إن الفضيحة هي الصناعة النامية في دولتنا. فالكشف عن دلائل الآثام لا يفضي إلى تحقيق وعقاب وتكفير واضح لا لبس فيه إنما إلى المزيد من الفضائح. فضيحة دائمة. فضيحة مجمدة. أسلحة دمار شامل اتضح عدم وجودها. تعذيب لمعتقلين سوف يمكثون معتقلين إلى الأبد. فصل نائب عام سوف يظل قيد التحقيق إلى ما لا نهاية. إن هذه الفضائح وغيرها من فضائح مجمدة أخرى تنبث وتتشعب وتكرر نفسها بنفسها كي تستنسخ البرامج الإخبارية في الفضائيات وعالَم المدونات والمكتبات. قصة تدغدغ المشاعر دون أن تصل إلى حد قط، حوار طويل لا نهاية له بين المختصين، هدية لا تكف عن العطاء: فالمستعصي على التدمير والتحليل والتكفير ذو قيمة يجب أن تتحول إلى مصدر للربح. إن فضيحة لا يكفر عنها المذنب ولا تقبل الحل لا بد أن تتجاوز الواقع السياسي لتصبح حقيقة تجارية.

يستحضر العديد منا عهداً مختلفاً. ومهما نظرنا إلى ماضينا السياسي بعين السخرية، سوف نجد فيه جنتنا السياسية: فيتنام ونتيجتها على المستوى المحلي المتمثلة في ووترجيت، ذروة فضيحة مختلفة أنهت حرباً وقوضت رئيساً. ومع التطلع إلى الماضي سوف تتكشف تلك الأحداث بمنطق واضح خليق بحلم من أحلام المدينة الفاضلة. في البداية الكشف: يفضح صحفيون جُسر جرائم سقيمة متشابكة اقترفتها إدارة نيكسون. وبعدها التحقيق: ليس بواسطة الصحافة فحسب - فهي لم تكن إلا نذيراً، الشرط الأساسي - لكن من قِبل الكونجرس والمحاكم. وعليه فإن تحقيقات الحكومة عملت من خلال مؤسساتها على بناء قصة حقيقية كالحة يمكن للمواطنين جميعهم قبولها. وفي النهاية التكفير: إصدار الأحكام واقتياد السياسيين في الأصفاد إلى السجن ثم الانغماس المفرط في التوبة أمام العامة. نسيان العار وتطهير النظام السياسي والعودة إلى دولة سمتها الاحترام الاجتماعي مهما خلت من كمال.

لا شك أنها أسطورة لكنها أسطورة جميلة. تستند إلى مفاهيم القوة والصحافة وشعب ينسجم مع ما نتوق إليه جميعاً - العدالة والبطولة والخير المطلق الكامن في شعب يصر بمجرد تحذيره من إثم على تقويم الأوضاع. تقف عقبة واحدة أمام هذا التطهير الذاتي الطبيعي لحياتنا السياسية، ألا وهي جهل الناس. لأنهم لو أحاطوا بالفساد وتتابعت الفضائح، كيف لنا أن نطلق عليهم خيِّرين؟ لا، لا بد أن المفقود إذن هو الوضوح والصراحة حسبما توحي الأسطورة. المفقود هو الحراس على جهلنا الواجب عليهم تعرية الفضيحة وإظهار كل شيء أمام الناس، ومن ثم وضع الدولة على طريق عدالة لا تشوبها شائبة. المعلومات هي كل شيء. إذ تؤدي المعلومات بالإضافة إلى إحساس الناس الطبيعي بالخير والحق إلى الكفارة والتطهر المحتوم للمجتمع.

ومهما تعنت صانعو الأساطير في مجتمعنا - ولا سيما الصحفيين الذين يُمثلون في النهاية نجوم هذه الدراما المثالية - في التمسك بهذا السيناريو السعيد، لم يبدد التاريخ الحديث ودا تجاهه. فهو يتكل على صورة صحفيين وصحافة صارت على أقل تقدير عتيقة، صحفيين ناكرين للذات في سعيهم إلى الحقيقة ودفاعهم عن ضمير المجتمع: لو صدق هذا الوصف حتى أثناء ووترجيت، فهو بالكاد يشبه الآن العالم المتاجر بالفضيحة في برامج الفضائيات وحوارات المثقفين المطولة، عالَم تُقدَم فيه الفضيحة - التي كلما زادت اشتعالاً زادت جمالاً - حكايات ضخمة معقدة تجسد قوام الحياة لدوائر الأخبار على مدار الساعة. ومثلما تسببت حرب الخليج الأولى في بزوغ قناة سي إن إن على الساحة، كذلك أبرزت شفتا مونيكا لوينسكي العابستان قناة فوكس نيوز.

كلما تعقدت الفضائح واغتنت حبكتها، تجملت وتواصلت واستمرت. إن الفضائح توفر الوقود لمواجهات تجري على الهواء مباشرة وكذا الهجوم اللفظي وردود الأفعال عليه - وهو ما يبرع فيه التليفزيون باعتباره وسيلة شنيعة لتوصيل أية معلومة معقدة برخص التراب. فالفضائح تزود المتفرجين بالحبكة الفرعية والشخصيات الثانوية والنتائج غير المتوقعة. وتزود الصحفي البطل المشهور المهندم زميل الأقوياء بالمسرح الحقيقي للممارسة المثلى لفنه، أستوديو التليفزيون. وهل من الممكن أن تبتعد الحقيقة عن مسرحية هاوارد هوكس Howard Hawks مساعدته His Girl Friday (١٩٤٠)؟

إن هذا الفن يعتمد على الفضيحة، أو على أية حال يزدهر بها. فالفضيحة تنم عن النجاح. تدل على أن الشخص المعني ينجز عمله على خير وجه. الفضيحة ما هي إلا مصدر للثروة. فهي تُمثل حلم عصر الإعلام، القصة الأبدية. يمكن إفراغ الفضيحة في قالب جديد، ويمكن إثارة الجدل حولها وتصويرها من مصدرها الرئيسي حتى عملية القبض على المتهمين وجلسات الاستماع والمحاكمة والاستئناف. تُقدَم الفضيحة تياراً لا نهائيا لما تسعى إليه التجارة في النهاية: الأخبار. فكما يقول الناس: ما هو الجديد؟ تجلب الفضيحة فورة تضخ معها القلوب الدماء ويتجرع بها الناس الأنفاس. فورة من حماسة بلا انقطاع، حتى نعلم أن آلهة الأحداث الجسام أقبلت أخيراً من الأعالي كي تتداخل في عالمنا المنحل. تجسد الفضيحة الحركة، تجسد التصدع المسموع للثلوج. ومع ذلك فهي وهم الأوهام، فأسفل القطار المتحرك سريعاً «لآخر الأخبار» المصحوبة بالدعاية المبهرجة، أسفل كل المجادلات الهامة اللاهثة أمام أعمدة المباني العامة، أسفل سلسلة الأوهام الحلزونية للفضيحة يكمن نوع من الركود البائس. كل شيء يتغير ولا شيء يتغير.

جشيماني Gethsemane

مسرحية من تأليف ديفيد هير افتتحت بالمسرح القومي بلندن في نوفمبر ٢٠٠٨.

«جشيماني» في الكتاب المقدس هو بستان في شرق أورشليم كان المسيح يتردد إليه طلباً للعزلة، وهو الآن مكان مقدس لأنه كان مكان القبض عليه من قبل الرومان.

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

«ثمة شيء خطأ... ثمة شيء خطأ تماماً. لا يعنيني أن أحدد إذا ما كانت حكومتك هي العرض أم أنها المشكلة الوسخة. أيا كانت، فهي قبيحة...»

جشيماني

ليست المعلومات هي المعضلة، إنها السياسة. لو كنا تعلمنا أي شيء خلال هذا العقد الفائت فهو أن «الشعب»، ذلك المستودع المتباهي من الحق العام - «يكتشف دوماً الحقيقة» - أن الشعب مستعد وقادر على التعايش مع الكثير والكثير. إنهم يقرؤون المطبوعات ويشاهدون التليفزيون ثم ينصرفون إلى حيواتهم. والفضل يعود إلى عصر الفضيحة في معرفتنا الحالية لما قد يتعايش معه العامة. «لقد أظهرتَ الآن استقلالية، استقلالية جديرة بالثناء» هكذا أبلغ باراك أوباما جون ماكين أثناء مناظرتهما الثالثة، «فيما يخص بعض القضايا الأساسية - التعذيب على سبيل المثال». لقد تم مسخ صورة التعذيب خلال هذه السنوات القليلة الماضية ليتحول من جريمة حرب مقيتة إلى «قضية رئيسية»، من شيء تحرمه الاتفاقيات الدولية ويدينه القانون المحلي إلى... شيء يدور حوله الجدل. شيء يمكن للمرء أن ينحاز إليه أو عنه. شيء بمقدورنا التعايش معه.

أما قصة كيفية حدوث هذا فطويلة ومعقدة لكن الجلي هو أنها لم تقع بسبب الافتقار إلى الصراحة. تفجرت فضيحة أبو غريب في ربيع عام ٢٠٠٤. وسرعان ما أصبحت صور الرجل ذي القلنسوة والرجل ذي المقود والكلب وهو يهدد الرجل صوراً «رمزية»، لتغدو أبرز اللقطات الإخبارية في نهاية العام وتتحول إلى لوحات جدارية باهتة على حيطان المدن الصغيرة بالشرق الأوسط. وفي تلك المرة الأولى والأخيرة التي تجلى فيها التعذيب واضحاً، بزغت الفضيحة المثمرة - مع اعتبار التعذيب بفضل الصور من أثمن المنتجات: الفضيحة المتلفزة - في ربيع وصيف ٢٠٠٤ لتخلف محصولاً من الصور والوثائق المُسرَّبة. إن تلك الوثائق - المئات من الصفحات التي روت بالتفصيل الممل الدقيق قصة مسئولين أمريكيين، بدءاً من الرئيس وحتى الأقل منه نفوذاً، أمروا الأمريكيين بتعذيب المعتقلين في أعقاب هجمات ١١ سبتمبر - ما لبثت أن نشرها صحفيون وكُتاب، وأنا من بينهم، توقعوا ولا شك أن تلحق بها سريعاً لجان التحقيق وجلسات الاستماع المتلفزة والأحكام بالسجن.

وعندما وقع ما وقع، أجريت التحقيقات بالفعل، اثنا عشر تحقيقاً أو أكثر، وقد ساهمت كثرتها نفسها في تحويل القصة من جريمة مذهلة إلى خبر لا نهاية له ثم إلى قصة ثانوية وفي النهاية إلى «قضية رئيسية». لكن بالنسبة لحفنة من الجنود قليلي الحظ - أصغر السمك الصغير - لم تعقد محاكمات فعلية ولم يلتقط المصورون صوراً لمسئولين كبار تكبلهم الأصفاد. لا بد أن خيبة أمل عميقة نزلت بمسربي الصور المخاطرين بمستقبلهم من أجل إذاعة هذه الوثائق أمام العامة. إذ اتفق أنهم قد ارتكبوا واحدة من أفدح جرائم العصر: المثالية غير المحمية. وهكذا استمر التعذيب المعلوم وغير المعلوم في جوانتانامو و«المواقع المظلمة» والعديد من الأماكن حول العالم فيما تراءت المحاكم وكأنها تتمسك بأفكار أخرى. وفي غضون كل هذا أجاد المراسلون نقل القصة ولا سيما في الجرائد - فبعد هذه الفورة من الصور التي سرعان ما أضحت أكليشيهات، لم تظهر أية قصة مثيرة بما يكفي لترتفع إلى المستوى الذهبي للقصة المرئية المتلفزة - وعليه توالى نقل الفضيحة حتى عندما دلفت إلى مرحلة التحول المعقدة الغامضة التي استحالت فيها جريمة الحرب إلى «قضية رئيسية».

لا بد من الإقرار بأن العامة - ذلك المستودع من الحق - أبدوا اهتماماً قليلاً نسبياً في أثناء كل هذا. وكذلك حذا السياسيون حذو ناخبيهم. أتى جون كيري، المرشح للرئاسة في أعقاب «أبو غريب»، بالكاد على ذكر المسألة. (وعليه فإن اعتراف باراك أوباما «بالقضية الرئيسية»، مهما كان عرضياً يُعتبر تقدماً واضحاً).

الحق أن أوضح آثار لجوء أمريكا الرسمي إلى التعذيب على الضمير العام خلال هذه الفترة هي النجاح الساحق لمسلسل ٢٤ الذي تعرضه قناة فوكس. فقد ضمت كل مجموعة من الحلقات في ذروتها حالة تعذيب واحدة على الأقل وأحياناً العديد من حالات التعذيب الرهيبة التي ترعاها الحكومة. إذ يقوم العميل الخارق جاك باور - العامل على إنقاذ البلد من كارثة وشيكة - بكل ما يقدر عليه في سبيل إنجاز المهمة. أنا شخصياً أفضل مشهداً يأمر فيه الرئيس كبير عميلي الاستخبارات بتعذيب مدير وكالة الأمن القومي لشكه في خيانته داخل بدروم البيت الأبيض باستخدام صادم كهربائي يدوي على حين يتفرج القائد الأعلى للقوات المسلحة على الأحداث من خلال دائرة تليفزيونية مغلقة. ربما لا ينبغي أن تُوقع فينا هذه الحماسة الدهشة: فقد وقفنا من قبل على الأثر المطمئن لصورة السلطة المنحلة على العامة، على الأقل منذ نجاح فيلم كلينت إيستوود Clint Eastwood هاري القذر Dirty Harry (١٩٧١). غير أن هاري كان شرطياً شاذاً عن غيره يهيج ضد «النظام» في مستهل العقد الثامن من القرن العشرين؛ أما جاك باور فهو يعمل عند الرئيس مباشرة كما ذكرنا المسلسل مئات المرات.

«لذلك فإن عمل المرء في السياسة مثير غاية الإثارة في هذه الأيام. آسف، لكنك لا بد أن تثق بنا. فلا خيار آخر لديك.»

جشيماني

لا يمكن أن تكتمل أية ملاحظات عن الفضيحة بدون ذكر فضيحة عصرنا الكبرى الأساسية، الحرب. إن المرء لا يستخدم الأحرف الغليظة للإشارة إلى مجموعة من الأحداث المنفصلة - مجموعة أناس تقتلهم أو تفجرهم أحداث عنيفة محددة خلال أوقات محددة - إنما للإشارة إلى حالة عقلية. لم يعد الخطر مجرد درع سياسي لكنه صار في نهاية الأمر ما هو أخطر: صار مصدراً لتبرير الذات يتعذر فهمه. لا يكمن الخطر في إصرار قادتنا المتصل أنهم على حق بل في اعتقادهم أنهم على حق. إذ صرح جورج بوش للعالم بجملته المؤكدة الفخورة أنه قد ولد ثانية «كرئيس حرب».

ألقى جورج أورويل George Orwell نظرة شاملة على هذا الموضوع منذ أمد طويل في روايته الأشهر ١٩٨٤، في حربه السرمدية بين إستيجيا ويوريجيا وأوشيانيا، صراع أبدي لا يسلم المنخرطون فيه من التبدل والتحول. صراع لو حكمنا عليه استناداً إلى معايير الحروب السابقة، سوف يلوح مجرد دجل وخداع. فهو أشبه بمعارك تنشب بين حيوانات مجترة بقرون مضبوطة في زوايا معينة يعجز معها الحيوان عن جرح الآخر. لكن على الرغم من افتقار هذه الحرب إلى الواقعية فهي لا تعدم المغزى... فهي تساعد في الحفاظ على جو عقلي خاص يحتاجه المجتمع الهرمي.

يعد محتلو قمة «المجتمعات الهرمية»، الحروب قيمة هائلة لأنهم يزودون السلطة بأساس منطقي حيوي لبقائها وتعاظمها. وفي الوقت ذاته يكبحون الأسئلة ولا سيما بتقييد معلومات يجب أن تعتمد عليها هذه الأسئلة. لا شك أن الحرب على الإرهاب لم تخل مطلقاً من الدماء. فقد جسدت نفسها في حربين «حقيقيتين» على الأقل - شُنت واحدة منها في أفغانستان كرد فعل مباشر على الهجوم؛ والأخرى في العراق لتحقيق أهداف أقل تحديداً وأكثر عجرفة - وكذلك جسدت نفسها في عدد ضخم من عمليات سرية ذات مطامح متباينة جرت «في الخفاء». ومع ذلك برغم عدم انحصارها مكانياً وزمنياً وكونها أساساً منطقياً ملائماً لا ينضب للسلطة المركزية المتزايدة، اقتربت الحرب على الإرهاب أكثر ما اقتربت حتى الآن من حرب أورويل الأبدية المتخيلة لتتفاقم سلطة الحاكمين الملازمة للحرب إنما بدون خسائرها اللا نهائية. ربما تعرضوا لتلك الخسائر لولا أن جلبت الحرب في أذيالها فضيحتها المجمدة.

«ثمة إحساس عام بالغرابة - حروب تستمر إلى الأبد بلا هدف. وسياسات ما هي إلا لغة منمقة... لا علاقة لها بالحقائق...»

جشيماني

كيف سيختار التاريخ تفسير حرب اندلعت بغرض تخليص العالم من أسلحة للدمار الشامل تبين عدم وجودها؟ إنه سؤال معذب. هل ستحتل حرب العراق مكانتها بوصفها أعجوبة تاريخية إلى جانب حرب جوانو في القرن التاسع عشر وحرب كرة القدم في القرن العشرين؟ وكيف سيهتم أبناؤنا برد فعل حكومتنا الديمقراطية: إجراء تحقيقات بطيئة للغاية شأنها شأن ديناصورات ترفع نفسها من حفر الوحل. وبعد سنوات من الجهود المتثاقل - مئات الساعات من الشهادات وفحص آلاف الوثائق - اكتشفت... ماذا؟ في النهاية لا وجود للأسف «لأي دليل».

إنها إرث آخر لووترجيت، تلك الصورة الملتقطة لعرضها في عصر أبسط. حينما تمكن رجل مخادع كريتشارد نيكسون بكل لا مبالاة من تسجيل كل كلمة نطق بها. وفي عهدنا الأقل سعادة، بمقدورنا أن نتأمل مذكرة داوننج ستريت Downing Street Memo الواضحة البينة وأعداداً لا حصر لها من وثائق مشابهة تسربت سريعاً من أصحاب السلطة، لكننا قد نجدها وفقاً لقواعد لعبة الفضيحة ضخمة ضخامة وواضحة وضوحاً لا يمكن معها أن تعني لأي شخص طبيعي ما تعنيه بالضبط، ألا وهو أن أصحاب السلطة - الراغبين في الحرب لا الدبلوماسية والعاملين باجتهاد من أجل «خداع صدام» لشن الحرب كما توضح مذكرة داوننج ستريت بمنتهى الجلاء - كذبوا علينا لتوريطنا في الحرب. وقد تورطنا الآن في حرب لا ضرورة لها ولا نهاية لها.

لا ريب أن «قانون الدلائل القاطعة» ينهي إلينا بأن تلك القضية، مهما اتضحت حقيقتها لأعيننا جميعاً، لا يمكن إثباتها قط إثباتاً لا يتطرق إليه الشك. (في حال عدم اكتشاف شريط تسجيل نسمع فيه الرئيس الأمريكي ورئيس الوزراء البريطاني وهما يقهقهان كالشياطين على تمثيلية كبرى يوشكان على ارتكابها في حق جماهيرهما). يعني قانون الفضيحة المجمدة أن القضية لا بد أن تظل مفتوحة على الدوام، «مزعومة» على الدوام، وقوداً لا ينضب لآلاف التقارير وآلاف الاكتشافات التي تكشف ما هو معلوم بالفعل. هل تعجز عن سماع عجل الفضيحة الدائر؟ إنه موسيقى عصرنا. ■

فى الدفاع عن الاقتصاديين

■■ هذا أحدث كتب الدكتور جلال أمين، وعنوانه بالكامل «فلسفة علم الاقتصاد - بحث فى تحيزات الاقتصاديين وفى الأسس غير العلمية لعلم الاقتصاد»

وأول ما نتوقف أمامه هو ما يقوله المؤلف عن استخدامه لكلمة « فلسفة » إذ يذكر أنه يستخدمها بمعنى تلك النظرة أو الرؤية الخاصة التى رأى من خلالها العالم رواد علم الاقتصاد الأوائل. أو طريقة الاقتصاديين فى النظر إلى الأمور، ونوع نظرتهم إلى النشاط الاقتصادى.

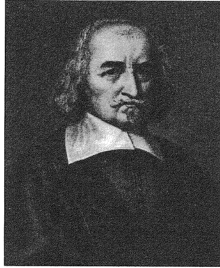
أما العنوان الفرعى فهو منهج الكتاب وطريقته فى التعامل مع الرؤى الاقتصادية المختلفة عبر تاريخ هذا العلم الحديث نسبيا، فالكتاب فى الحقيقة لا يقدم فقط عرضا لفلسفة علم الاقتصاد، ولكنه دراسة نقدية فى الأسس التى قام عليها هذا العلم، أو هو بحث دقيق فى نظرية المعرفة بالمعنى الفلسفى، ومن الجدير بالذكر هنا الإشارة إلى العلاقة بين «أم العلوم» وعلم الاقتصاد. فكل منهما قائم على نسق متماسك من الأفكار أو التصورات العقلية، ولذلك ليس غريبا إن كان أبو علم الاقتصاد من رجال الفلسفة، ففى عام ١٧٧٦م. ظهر كتاب آدم سميث (Adam Smith) أستاذ الفلسفة فى جامعة جلاسجو والمتخصص فى علم الأخلاق «بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم» An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations

وقد عد هذا الكتاب بداية لظهور علم جديد هو علم الاقتصاد.

والحديث عن الفلسفة والمنطق يدعونا للإشارة إلى التناقض الواضح فى تعبير د. جلال «الأسس غير العلمية لعلم الاقتصاد» إذ كيف يبنى علم على أسس غير علمية؟! وإذا صح كلامه أن علم الاقتصاد قام على أسس غير علمية، فهل يصح أن نطلق عليه اسم علم؟!

ويتضمن هذا الكتاب بداخله بحثا آخر عن طبيعة العلاقة بين علم الاقتصاد وعلم الأخلاق الذى يعد التخصص الدقيق لآدم سميث، ففى دراسة د. جلال سعى دائم إلى فهم أعمق للإنسان ومتطلباته، وثمة محاولة إلى الوصول لدرجة أكبر من الحكمة فى التعامل مع الموارد الطبيعية وثمرات العمل الإنسانى.

فلسفة علم الاقتصاد «بحث فى تحيزات الاقتصاديين وفى الأسس غير العلمية لعلم الاقتصاد»
جلال أمين
دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٨



توماس هوبز
١٥٨٨ - ١٦٧٩

زكي سالم

قبل عددين نشرت «وجهات نظر» مقالا مهمًا للدكتور جلال أمين أستاذ الاقتصاد. وقدمنا له بأنه «يعود بكاتبه إلى أكاديميته» ليستكمل مابدأه قبل سنوات بكتابه المهم «كشف الأقنعة» عن نظريات التنمية الاقتصادية. وتوقعنا أن المقال الذي ضمه كتاب صدر لاحقا عن «دار الشروق» من شأنه أن يثير جدلا أكاديميا «مطلوبا»... وقد كان.

هنا تعقيب و«مناقشة» لما ورد في المقال/ الكتاب من أفكار.

وجهات نظر

بداية من المقدمة يقرر المؤلف أن للاقتصاديين تحيزات وأهواء، فيما يدعون إليه من سياسات اقتصادية، وفيما يقدمونه من نظريات تقصر عن الإحاطة بالحقيقة! وهذا كلام يثير فى الذهن سؤالا فلسفيا، وهو : من الذى يمكنه أن يحيط بالحقيقة؟!

أما تأثر الفكر الاقتصادى بالأحوال الاقتصادية، والظروف الاجتماعية، ومجموعة الأفكار والمفاهيم السائدة فى عصر ما، أو فى مجتمع ما، فهذا أمر طبيعى ولابد منه، إذ إن الاقتصاد كعلم لم ينشأ فى أوروبا فى أواخر القرن الثامن عشر، إلا بسبب نشأة تحيزات جديدة، وهذه التحيزات والأهواء لم تكن أكثر من عواطف جياشة، أو معتقدات عامة، أو أفكار مسبقة اعتنقت بلا دليل، واعتبرها هؤلاء الاقتصاديون من المسلمات التى لا تحتمل الجدل. ومازال علم الاقتصاد، كما يدرس اليوم، يحمل نفس الملامح التى كانت له فى نشأته الأولى! وكل هذا الذى يؤكده المؤلف مراراً وتكراراً يعد جزءا من طبيعة العلوم الإنسانية جميعا.

ويأمل المؤلف فى تحرير علم الاقتصاد من قيود استمر مكبلا بها لأكثر من ثلاثة قرون. وإذا كان هذا الأمل - فيما أرى - بعيد المنال، فإبراز بعض التحيزات غير العلمية للحضارة الغربية الحديثة، يساهم فى تحرير أبنائنا من الاعتقاد بعمومية هذه الحضارة، ومن الاعتقاد بصلاحية كل ما نأخذه منها كمسلمات نافعة لكل زمان ومكان.

وبعض أفكار هذا الكتاب المهم أختلف معها اختلافا كبيراً، فحينما يعبر المؤلف بلغة شديدة الجمال والجاذبية عن شعوره - وشعور بعض طلابه فى الجامعة - بخيبة الأمل فيما تعلموه من علم الاقتصاد الذى اتضح لهم أنه ليس علما أصلا، كالبناء الجميل المقام على رمال متحركة، أى على أسس غير علمية، ومن ثم شعر الطلاب مثلما شعر أستاذهم بالتحرر منه، وكأنهم كانوا فى أسر حب جارف نحو شىء غير جدير بهذا الحب، وبعد اكتشاف عدم جدارته، انطلقوا أحرارا! وأصبحوا على استعداد لرؤية وتقدير أوجه الجدارة والاستحقاق فى أشياء أخرى جميلة، لم يمنعهم من رؤيتها من قبل غير ذلك الحب الأعمى القديم!

فهل يتناسب مثل هذا الكلام الرومانسى مع التحليل النقدى لأسس علم من العلوم؟! وهل علاقاتنا بعلم الاقتصاد هى علاقة حب أعمى؟! أم أن طبيعة التطور العلمى أنه قائم على الفحص والنقد والتمحيص من أجل تعديل المنهج وتصحيح الرؤية؟

فكلما تقدمنا خطوات فى نقد مناهج البحث



Edmund Burke



Adam Smith (1723-1790)



David Hume (1711-1776)



Montesquieu (J1689-1755)

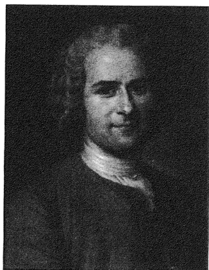


SIR W. PETTY.

Sir William Petty (1623-1687)



A-R-J Turgot (1727-1781)



Jean Jacques Rousseau (1712-1778)



Erich-Fromm



Knut-Hamsun-Postcard (1910)

العلمى، كلما اقتربنا أكثر من المنهج العلمى السليم القادر على أن يقربنا من الحقيقة، وكلما كشفنا بعض نقاط الضعف فى جانب من جوانب النظرية الاقتصادية، كلما اقتربنا أكثر من الوصول إلى رؤية اقتصادية أكثر صحة، ودقة، وشمولا.

هذا، واتفق تماما مع ما قاله د. جلال من أن صاحب التحيز هو أقل الناس قدرة على اكتشافه، ومن ثم فالكشف عن هذه التحيزات وهذه الأسس غير العلمية، وإبرازها له فائدة كبيرة، ولا تقل عن فائدة دراسة علم الاقتصاد نفسه، لأنها جزء مهم من هذا العلم، وهو يسعى - من خلال هذه البحوث والدراسات النقدية - إلى تصحيح مناهجه وتطوير نظرياته.

وعالم الاقتصاد لا يرى الأشياء نقية صافية، ولكنه يراها كما يراها سائر البشر، مختلطة بما فى ذهنه من أفكار مسبقة وبما فى قلبه من مشاعر دفينة. ونحن عادة نتبنى هذه الأفكار والمشاعر كمسلمات لا تقبل المناقشة، لا نشك فيها ولا نتفحصها للتحقق من صحتها، ومن ثم فمن أصعب الأمور أن يكتشف المرء تحيزاته الخاصة التى يحملها معه كمسلمات، وهذه المواقف المسبقة مواقف شخصية أو ذاتية لا موضوعية. وهنا يذكر المؤلف تعريف كارل بوبر karl Popper للكلام العلمى بأنه ذلك الكلام الذى توجد طريقة لإثبات إذا كان خاطئا. ومن ثم فكثير مما يفرضه الباحث على الظاهرة محل البحث، لا يمكن اعتباره من قبيل الكلام العلمى.

وهذا الإقحام لمشاعر وأفكار وتحيزات مسبقة على الظاهرة التى نقوم ببحثها، وما يترتب عليه من تأثيرات على نتائج البحث، يبدو وكأنه أمر حتمى لا فكاك منه، على الأخص فى العلوم الاجتماعية، ولعله أيضا أمر حتمى فى أى علم من العلوم بما فى ذلك العلوم الأكثر انضباطا وموضوعية. ومن ثم فالمطلوب فى البحث العلمى ليس غياب التحيزات والأفكار المسبقة، فهذا يكاد يكون مستحيلا، لكن فى الوقت نفسه لا يصح أن نطلق العنان لتحيزاتنا وأهوائنا ثم نتمسح بثياب العلم! بل المطلوب فقط الاهتمام بمراعاة الأمانة العلمية والنزاهة العقلية.

ويشير د. جلال إلى ظاهرة نراها فى بعض الكتب والرسائل الجامعية التى تعترف فى المقدمة أن الظاهرة محل البحث تعود إلى عوامل كثيرة، أو تحدث آثارا عديدة غير العوامل أو الآثار التى يناقشها البحث، ثم يهمل أصحاب هذه الكتب والرسائل هذه الحقيقة المهمة فى بقية الكتاب أو الرسالة! وهكذا تسقط العوامل والآثار الأخرى من حساب القارئ كما سقطت من حساب الباحث بسبب تحيزاته واهتماماته الخاصة.

وتتجلى التحيزات والأفكار المسبقة فى أمور عدة، كنوع الأسئلة التى يختار الباحث إثارتها والبحث عن أجوبة عنها، وكذلك نوع الإجابة المقدمة عن السؤال المطروح، ثم اختلاف موضع التأكيد الذى يركز عليه الباحث أو الأهمية التى يوليها لعامل من العوامل دون غيره، وأيضا الطريقة التى يختارها الباحث لتصنيف العناصر أو الظواهر التى يقوم ببحثها.

وأخيرا لنتأمل فى اللغة التى يستخدمها الباحث عند إجراء البحث وحينما يعرض نتائجه، لنتبين مدى خضوع البحوث العلمية لأثر اللغة والتعبيرات المستخدمة، ولنتأكد أنها أكثر بكثير مما نتصور، لأننا - كما يقول المؤلف - وثنيون أكثر بكثير مما نظن، بمعنى أن لدينا ميلا إلى التعبير عن الأفكار المجردة وكأنها أشياء محسوسة، أى تجسيد المجردات فى محسوسات، وهذا الاستخدام للصور المحسوسة يفسح مجالا واسعا لنقل التحيزات والأفكار المسبقة من الكاتب أو المتكلم إلى القارئ أو المستمع.



وفى صفحة (٣٨) يعلق المؤلف على التطور الذى حدث بظهور كتاب سميث الشهير «ثروة الأمم» بقوله: لم يكن بالضبط هجرانا لمواقف غير علمية فى شرح الظواهر الاقتصادية وإحلالاً للموقف العلمى محلها، بل كان فى الحقيقة أقرب إلى إحلال نظرة غير علمية محل نظرات أخرى غير علمية بدورها. ثم فى صفحة (٤٠) يتحدث عن الجزء التقدمى أو الأقرب إلى روح العصر الحديث الذى تبناه سميث فى كتابه وأضاف إليه وجعله أكثر علمية! وطبعا المؤلف كان يقصد هنا شيئا، وهناك شيئا آخر، ولكن الأمر كان بحاجة إلى ايضاح أكثر.

أما الظروف التى نشأ وترعرع فيها علم الاقتصاد فظروف خاصة جدا، ذات سمات اقتصادية واجتماعية وثقافية وتكنولوجية معينة، لبلاد بعينها، فى فترة تاريخية محددة، وبالتالى يصعب تكرارها بحذافيرها فى بلاد أخرى، أو فى فترات تاريخية مختلفة.

وهذه السمات تعكس أهواء مجتمع معين، وتحيزات طبقة معينة داخل المجتمع، ومن ثم ظهرت تأثيرات كثيرة لكل هذه المؤثرات فى مختلف النظريات الاقتصادية.

ويشير المؤلف إلى بعض الفروض التعسفية لدى الاقتصاديين، كتصور «الإنسان الاقتصادى» Economic Man الذى يحركه العقل وحده، وكذلك السعى إلى تحقيق المصلحة الخاصة فقط لا غير! فالأنانية هى المحرك الوحيد للسلوك الاقتصادى! ثم افتراض أن سعى المرء لتحقيق مصلحته الخاصة يؤدى دائما إلى تحقيق المصلحة العامة للمجتمع ككل. بينما ثمة أمثلة كثيرة تؤكد على تعارض المصلحتين فى ظروف وأحوال كثيرة جداً.

والسبب وراء مثل هذه الفروض التعسفية، هو أن التركيز على الصفات «الآلية» فى الإنسان يسمح بالوصول إلى تعميمات أكثر دقة، ويسمح بالقول بوجود قوانين تحكم السلوك الإنسانى، أشبه بتلك التى تحكم الظواهر المادية، بعكس الجوانب الإنسانية التى يؤدى الاعتراف بها إلى صعوبة صياغة قوانين منضبطة عن السلوك الإنسانى، وبالتالى صعوبة التنبؤ به.

وإذا نظرنا إلى فكرة «نظام السوق» الذى يعد حصيلة تفاعل إرادات المنتجين والمستهلكين، ويعمل بطريقة آلية، وكأنه مدفوع بقوة عمياء ليصل إلى نتيجة مستقلة عن كل هذه الإرادات! هذه النظرة الميكانيكية للسلوك الاقتصادى قد سمحت بصياغة قوانين أقرب إلى الدقة، لكنها فى الحقيقة أبعد عن الواقعية، وأقل حكمة.



ويقدم الاقتصادى تعريفا لعملية الإنتاج بقوله: «الإنتاج هو خلق منفعة أو زيادتها» to create or increase utility لكنه لا يلتزم بهذا التعريف حين يتجاهل بعض أوجه النشاط التى يتوفر فيها شرط خلق منفعة أو زيادتها، كالأعمال المنزلية وغيرها لمجرد أنها غير صالحة للبيع! وهذا تحيز لا يقوم على أى أساس من المنطق أو العلم.

وعند تحليل الاقتصادى لعناصر الإنتاج نرى فيها من التحيز أكثر مما فيها من العلم، ثم القول بأن الباعث على الإنتاج «تحقيق أقصى ربح» لا يبدو صحيحا كتفسير لعملية الإنتاج التى لا تتم بقصد البيع، وقد يكون الباعث الأقوى شيئا مختلفا عن تحقيق الربح، فكثيرا ما يضحى المنتج بأقصى ربح إذا تعارض مع اعتبارات أخرى أكثر أهمية، كالتضحية - مثلا - ببعض الربح فى سبيل مبدأ أخلاقى.



وبعد ٢٢ عاما من صدور كتاب «ثروة الأمم» ظهر كتاب روبرت مالتس (Robert Malthus) مقال عن مبدأ السكان «An Essay on the Principle of Population» وأثار ضجة واسعة بسبب القانون الذى يتضمنه الكتاب عن العلاقة بين زيادة السكان والإنتاج الغذائى، ويفسر المؤلف سر الاهتمام بنظرية مالتس لمدة تزيد على قرنين من الزمان - على الرغم من أنها تكاد تكون بديهية - أن علم الاقتصاد يحتوى على كثير من المقولات التى لا تكتسب مكانتها من دقة أو صحة وصفها للواقع، أو من اكتشافها لشىء لم يكن معروفا من قبل، بقدر ما تكتسبه من مجاراتها لبعض الأهواء والمصالح القوية التى لا علاقة لها بالعلم. فثمة فريق من شراح مالتس حاولوا استخدام نظريته لإعفاء الرأسماليين من أى مسئولية عن فقر العمال، كما حاول الداروينيون الاجتماعيون استخدام نظرية دارون Charles Darwin صاحب كتاب «أصل الأنواع» The origin of species لخدمة تحيزاتهم الطبقية، فاعتبروا الرأسمالى الناجح هو «الأصلح» داروينيا، والرجل الفاشل اقتصاديا، محكوم عليه بالفشل لأسباب طبيعية وحتمية!

أعلن بوضوح عن اختلافى التام مع تصورات المؤلف المستقبلية، وكذلك مع رأيه القائم على أفكار مسبقة، ومشاعر دفينة، وتحيز واضح من ناحيته تجاه الفكر اليسارى



وعند هذه النقطة يطرح السؤال نفسه : وهل المؤلف ذاته يخلو من أفكار مسبقة ومشاعر دفينة، أو أهواء وتحيزات؟ والإجابة عن هذا السؤال بسيطة وواضحة للغاية، فلا أحد منا يخلو من الأهواء والتحيزات، والمؤلف فى حديثه - مثلا - عن طبقة الرأسماليين (الأغنياء) يبدو منحازاً للغاية إلى جانب العمال (الفقراء)، وكذلك عند كلامه عن الحضارة الغربية يبدو انحيازه الشديد لبلاده التى تعرضت لسنوات طويلة من الاحتلال واستنزاف ثرواتها.



وإذا رجعنا إلى العصر الذهبى للفلسفة اليونانية، سنجد أن الفيلسوفين الكبيرين أفلاطون وأرسطو قد أثارا قضية الملكية العامة والملكية الخاصة، ففضل أفلاطون الأولى تجنبا لسبب من أسباب النزاع والمنافسة، ومال أرسطو إلى الثانية لأنها تحفز الإنسان على بذل المزيد من الجهد.

أما الدكتور جلال أمين فينظر إلى موضوع الملكية الخاصة من خلال رؤيته الذاتية المستمدة من علمه الغزير، وثقافته الواسعة، وخبرته الشخصية المتنوعة. فهو يذكرنا بالمعتقدات الشائعة عن الملكية الخاصة كنظام طبيعى يستجيب لحاجة أصيلة عند الإنسان، ومن ثم فهو نظام قديم بل لعله كان موجودا منذ وجد الإنسان، وسيظل كذلك ما بقى الإنسان على الأرض. وقد تم إسباغ نوع من القدسية على نظام الملكية تجعل الاعتداء عليها بمثابة خروج على مبدأ دينى. ثم يؤكد لنا المؤلف أن كل هذه المعتقدات المتداولة غير صحيحة! فالملكية الخاصة نظام نشأ فى ظروف تاريخية معينة، وتغيرت صوره عبر العصور، والأرجح أن هذا النظام ستلحقه تغيرات أخرى بسبب التطور التكنولوجى، وربما اختفى اختفاء تاما!!

ويساير المؤلف ماركس وإنجلز عندما قدما تفسيرهما لنشأة نظام الملكية الخاصة، وربطا بين ظهوره، وظهور نظام الزواج! ثم بصيغة السؤال يطالبنا أن نتوقع أن تطرأ على مؤسسة الزواج تغيرات مهمة بتغير نظام الملكية الخاصة! ويذكرنا بارتفاع معدلات الطلاق، وما طرأ من ضعف على النظرة التقليدية للزواج كعلاقة أبدية لا تنتهى إلا بالموت! ومن ثم يرى أنه لابد ستتغير نظرتنا كذلك إلى جريمة السرقة، بل قد يصبح ارتكاب هذه الجريمة غير متصور أصلا لاختفاء الملكية الخاصة!!!











وهنا لابد أن أعلن بوضوح عن اختلافى التام مع تصورات المؤلف المستقبلية، وكذلك مع رأيه القائم على أفكار مسبقة، ومشاعر دفينة، وتحيز واضح من ناحيته تجاه الفكر اليسارى، ولا أنكر - أيضا - أفكارى المسبقة، ومشاعرى الدفينة، وتحيزا واضحا من ناحيتى تجاه الفكر الدينى القائم على احترام الملكية الخاصة، والمجرم لفعل السرقة، والداعى إلى تقديس مؤسسة الزواج.



يقول المؤلف : «لاحظت على تلاميذى فى بداية عهدهم بدراسة الاقتصاد، وقبل أن يتعرضوا لأى نوع من غسيل المخ الذى يتعرضون له بالتدريج مع تقدم دراستهم لهذا العلم، أنهم فى هذه المرحلة المبكرة من دراستهم يتمتعون بقدر عال من البراءة والاستعداد لاستلهام البديهية بدلا من ترديد ما سبق لهم تعلمه، وأنهم لذلك قد يعطون إجابات عن الأسئلة التى توجه إليهم، قد تكون أفضل، بسبب هذه البراءة نفسها، مما يقدمه علماء الاقتصاد». وهذه ملاحظة رائعة، ولكن برغم استخدام المؤلف لفظ «قد» مرتين إلا أن فكرة أفضلية إجابات الطلاب الجدد على إجابات العلماء أمر يحمل قدرا من السخرية - فيما أرى - أكثر مما يحمل من دقة العلم!

إذ إن الاقتصادى يصر على تحديد هدف واحد ينطبق على جميع صور الاستهلاك، وهو : «تحقيق أكبر قدر من المنفعة، أو أقصى قدر من الإشباع». بينما إجابات التلاميذ أن الهدف يختلف من سلعة لأخرى، وهو - كما يرى المؤلف - أفضل! أما تعريف عالم الاقتصاد فيراه بالغ العمومية وخاليا من المضمون!!

ثم يؤكد المؤلف على أن المستهلك فى الواقع أبعد ما يكون عن صورة «المستهلك الرشيد» الذى يفترضه الاقتصادى. ويشير د. جلال إلى ملاحظة ثاقبة تخص السلوك البشرى عامة، وهى أننا نتصرف أحيانا كما يتصرف الأطفال الذين لا يستطيعون تأجيل استهلاكهم إلى الغد، وكأننا سنموت غدا. فنتصور أننا إذا لم نحصل على السلعة الآن فلن يكون لنا فيها منفعة، وأحيانا نتصرف بالعكس بالضبط، أى كما لو كنا سنعيش إلى الأبد. فنستمر فى تأجيل الاستهلاك، على أمل أن نستمتع به فى المستقبل، ثم نفاجأ بأن الفرصة المتاحة لهذا الاستمتاع قد ضاعت، بالمرض أو الشيخوخة أو الموت! ومن ثم فمن الحماقة أن نتخذ قرارات الاستهلاك بفرض أننا نموت غدا أو أننا نعيش إلى الأبد.

ويجنح المؤلف فى بعض الأحيان إلى نغمة ساخرة، وهى بالفعل شيقة ومعبرة، ولكنها تقوده - فيما أرى - إلى المبالغة التى تتجاوز الحقيقة، إذ يقول مثلا : «إن الإعياء الذى أصبح يصيب المستهلك (أو المستهلكة) وقد عاد (أو عادت) من رحلة الاستهلاك كثيرا ما يزيد على الإعياء الذى يصيب الرجل العامل أو المرأة العاملة عند عودتهما من يوم أنفق فى الإنتاج». وهذه بالتأكيد مفارقة ومبالغة، وإن صدقت فى بعض الأحيان. فستعبر عن انحياز واضح إلى طبقة عالية جدا، لا تعمل إلا فى أجواء من الرفاهية المطلقة.

وقد دأب الكتاب الاشتراكيون على الكلام عن الاستغلال، وكأنه يتمثل فقط فى علاقة المنتج الرأسمالى بالعمال. ولم يشر أكثرهم إلى استغلال الرأسمالى للمستهلك الذى يتعرض لعمليات تأثير وخداع واسعة من وسائل الدعاية والإعلان حتى يخضع ويشترى ما قد يحتاجه، وما لا يحتاجه أيضا!

وثمة مفارقة ومبالغة أخرى حين يقول : «إن نظام التعليم يتحول الآن، أكثر فأكثر، إلى نظام وظيفته تخريج (المستهلك الكفء) الذى يتطلع إلى نفس ما يتطلع إليه المجتمع بأسره، وقد لا يجيد العمل ولكنه يجيد الاستهلاك والتمتع بالحياة». وهنا نسأل: عن أى نظام تعليم يتحدث المؤلف؟ إنه - كما فهمت - يقصد نظم التعليم جميعا. فهل يمكن أن نضم نظام التعليم عندنا مع أى نظام للتعليم فى أى دولة متقدمة؟!

ويشير المؤلف إلى ظاهرة مثيرة للتأمل، وهى وجود أعداد متعاظمة من الناس قد أصبحوا يحصلون على دخول كبيرة جدا لا تتناسب على الإطلاق مع ما يساهمون به من إنتاج! فشخص عصرى، يجيد الحديث فى الحفلات، ويحسن اختيار ملابسه وطعامه، وينطق بالكلمات المناسبة فى المجتمعات، ويعرف أكثر من لغة، ولا يتساءل عن الهدف مما يعمل، ويرسل بأطفاله إلى مدارس أجنبية، سوف يدعى إلى كثير من المؤتمرات، بصرف النظر عما إذا كان لديه شىء ذو بال

يقوله، ولعدد من الرحلات مدفوعة التكاليف، ولن يكون هناك حد أقصى لما يمكن أن يصل إليه راتبه، بصرف النظر عما يؤديه من عمل! وتأمل التوسع الهائل فى عدد موظفى الهيئات الدولية، ولتقارن مرتباتهم بما يؤدونه بالفعل من عمل، أو فلتتأمل ركاب الدرجة الأولى فى الطائرات أو نزلاء الفنادق الذين لم يدفعوا شيئا من تكاليف سفرهم أو إقامتهم، وعدد المؤتمرات التى تعقد فى كل عواصم العالم دون أن تنتهى إلى شىء، أو بدلات السفر السخية التى يحصل عليها موظفو الدولة الكبار أو ممثلو الشركات فى تنقلاتهم اليومية، إن القدرة الحقيقية التى يحوزها هؤلاء جميعا ليست هى القدرة على الإنتاج بل هى القدرة على الاستهلاك!

والحقيقة أن هذه الظاهرة العجيبة جديرة بدراسة مستقلة تقودنا إلى فهمها وتفسيرها بطريقة علمية دقيقة.



بعد أرسطو بنحو ستة عشر قرنا عبر القديس توماس الإكوينى (T.Aquinas) عن رأيه فى بعض الأمور الاقتصادية، وميز بين الثمن العادل وغير العادل، وبين الأجر العادل وغير العادل، ومناقشته هذه تعبر عن رؤية أخلاقية بحتة، أو انحياز كامل للجانب الأخلاقى. ثم جاء الفيلسوف جون ستيوارت ميل John Stewart Mill الذى اعتبر أن علم الاقتصاد لا يمكن تصور وجوده ما لم نفترض وجود نظام المنافسة الكاملة الذى يؤدى إلى تفاعل كل من العرض والطلب للوصول إلى الأثمان الحقيقية للسلع والخدمات.

أما ماركس (K. Marx) فقد اعتبر أن الاقتصاديين التقليديين مجرد أبواق للرأسمالية، ورأى أن دعوتهم إلى الحرية الاقتصادية مجرد دفاع عن مصالح البرجوازية، وهكذا سار على خطى ريكاردو (Ricardo) فى اعتبار العمل الإنسانى هو المحدد للثمن، وفى القول بأن اختلاف ثمن سلعتين لا يفسر إلا باختلاف كمية العمل الذى يحتاجه إنتاج كل منهما.

وهذا التصور يتفق أيضا مع الاعتبارات الأخلاقية، ويتضمن إثبات حق العمال دون غيرهم فى الحصول على كل ما ينتج من سلع، وهذه الإضافة تتمثل فى نظرية ماركس فى مفهوم «فائض القيمة».

ولعل أبلغ رد على هذا التصور - المبنى على انحياز واضح - جاء من خلال تعبير مدهش لأحد الاقتصاديين المحدثين حين قال: «إن اللؤلؤ ذو قيمة عالية لا لأن الناس يغوصون فى الماء بحثا عنه، بل إن الناس يغوصون فى الماء بحثا عنه لأنه ذو قيمة عالية». فتحديد ثمن السلعة لا يقاس فقط بنفقة الإنتاج، إذ ثمة تفسير شخصى أو نفسى للقيمة.

ويشير د. جلال إلى ملاحظة مهمة خاصة بافتتان كثير من الاقتصاديين بعلم الرياضيات، واشتداد الميل إلى تقديم تفسيرات للسلوك الاقتصادى فى صياغة رياضية، لإكساب نظريتهم مسحة مما تتمتع به العلوم الطبيعية من درجة عالية من الدقة واليقين، ومن القدرة على التعبير عن قوانينها تعبيرا رياضيا. ومن ثم فكثيراً ما توضع معادلات رياضية، وجداول حسابية، ورسوم بيانية لا تكاد تضيف أى شىء إلى معلوماتنا، ولا تقدم لنا فى الحقيقة سوى مجموعة من البديهيات!

ثم يذكر المؤلف عبارة كاشفة عن مفارقة حين يقول: «من الممكن أن تحول ببغاء إلى اقتصادى بتلقينه كلمتين فقط: العرض والطلب»، وفى هذا التعبير الساخر يكمن رفض لهيمنة فكرة السوق على تفكير الكثير من الاقتصاديين. إذ إن جاذبية نظرية العرض والطلب مرتبطة باستقلال كل من جانبى الطلب والعرض عن الآخر، وقد تطور الأمر فأصبح أحدهما تابعا للآخر، ومن ثم لابد من إعادة صياغة نظرية الثمن لتؤكد على جانب المنتج والبائع وتهمل جانب الطلب.



وثمة ما يعرف بقانون ساى Say فى الأسواق، ويمكن تلخيصه فى هذه العبارة: «العرض يخلق الطلب». وقد وصفه جون ستيوارت ميل بأنه: «أشد مبادئ الاقتصاد وضوحا وأقربها إلى الحقيقة». حتى جاء جون مينارد كينز J. m. keynes فى ١٩٣٦م. وقلب الأمر رأسا على عقب، إذ قال: «إن الطلب هو الذى يخلق العرض». ويعلق المؤلف على هذا التناقض بقوله: «الأرجح أن رغبة شديدة فى الوصول إلى نتائج عملية معينة، دفعت الاقتصاديين إلى التحيز لسياسة أو فلسفة اقتصادية دون غيرها، وأن هذا التحيز هو الذى دفعهم إلى تبنى نظرية معينة تؤدى منطقيا إلى اتخاذ هذه السياسات الاقتصادية المفضلة».

ويشير المؤلف إلى تكرار ظاهرة حدوث انقلاب عسكرى أو سياسى فى دولة بعد أخرى من دول العالم الثالث، يظهر بعد حدوثه أنه أتى لحساب شركات عملاقة ترغب فى وضع يدها على بعض الأصول، أو توجيه السياسة الاقتصادية إلى صالحها. فثمة أسبقية للمصالح العملية على التفكير النظرى، أو أسبقية للأهواء على العلم.



ولعل من أجمل وأهم فصول الكتاب تلك التى تتناول مشكلة الفقر، وأساليب التنمية الاقتصادية، وتوزيع الدخل.

ويعرض الكتاب صورتين للفقر، الأولى: هى العجز عن إشباع الحاجات الضرورية، والأخرى: الشعور بالفقر بالمقارنة بأشخاص آخرين. ومنذ أقدم الحضارات - ومع ما تحث عليه الأديان - تتدخل الدولة لإجبار الأغنياء على التنازل عن جزء من مالهم لتوزيعه على الفقراء. أما ماركس وأتباعه فدعوا الفقراء إلى الثورة، لأن الرأسماليين لن يتنازلوا عن ملكياتهم إلا بالقوة.

فمع قيام الثورة الصناعية وظهور علم الاقتصاد، انحاز الاقتصاديون لصالح مالكى الثروة، واستتر هذا التحيز برداء العلم، ومن ثم ظهر فى مواجهتهم الفكر الاقتصادى الماركسى الذى لم يكن أقل تحيزا ولا أقرب إلى العلم. وفى نظر المؤلف لا تستحق أى من النظريتين: الاقتصادية الاشتراكية، ولا الرأسمالية، أن توصف بالعلمية.



ولا أنكر - أيضا - أفكارى المسبقة، ومشاعرى الدفينة، وتحيزا واضحا من ناحيتى تجاه الفكر الدينى القائم على احترام الملكية الخاصة، والمُجرِم لفعل السرقة، والداعى إلى تقديس مؤسسة الزواج



ويؤكد د. جلال على ملاحظة شديدة الأهمية، وهى أن زيادة الدخل القومى، أى التنمية الاقتصادية، ليست بالشرط الكافى ولا الضرورى لحل مشكلة فقر الفقراء. فالتنمية قد تنتهى بزيادة دخول الأغنياء فقط دون أى تحسن فى أحوال الفقراء، وقد تتحسن أحوال الفقراء على حساب الأغنياء، ودون أى زيادة فى الدخل القومى.



ولفهم ظاهرة الفقر فى البلاد المتخلفة لابد من النظر إلى طبيعة علاقاتها مع الدول المتقدمة، وقد اهتم المؤلف ببيان أثر التدخلات الخارجية على استمرار مستويات الفقر فى الدول النامية. فالنظام الاستعمارى القديم قد حل محله نظام جديد، حيث لا تزال بواعث الاستعمار التقليدية قائمة، فمازال الحصول على المواد الأولية الرخيصة، وعلى قوة العمل البخسة، وعلى مجالات مجزية لاستثمار فوائض رؤوس الأموال، كل هذه البواعث مستمرة فى العلاقة بين البلاد الأكثر تقدما والأقل تقدما، مع الأهمية النسبية للوصول إلى أسواق جديدة لتصريف فوائض السلع المنتجة فى البلاد المتقدمة، وهذه السلع تطورت كثيرا جداً، من السيارة الخاصة والمشروبات الغازية وأدوات التجميل إلى الأسلحة ومختلف الآلات والأجهزة الحديثة. ومن ثم أصبح تحقيق زيادة فى متوسط الدخل فى البلاد المتخلفة شرطا لاستمرار معدل النمو المرتفع داخل الدول المتقدمة.

ومن هنا لابد من انتشار ظاهرة «التغريب» لاكتساب الميول والعادات التى تتفق مع استهلاك هذه السلع الغربية. ولابد من خلق طبقة عليا - فى الدول المتخلفة - تسعى وراء السلع المستوردة، وتسهل فى الوقت ذاته تطبيق السياسات الاقتصادية الملائمة لمصالح القوى المسيطرة. ومن ثم قد يزيد متوسط الدخل زيادة كبيرة، مع عجز شرائح واسعة من السكان عن إشباع بعض حاجاتهم الضرورية!

وصحيح أن تراكم رأس المال شرط ضرورى من شروط التنمية، ولكن الأكثر فائدة فى حالة كثير من البلاد المتخلفة الاهتمام بإصلاح التعليم، والقضاء على الفساد، وتحقيق استقلال سياسى واقتصادى.

فعند بحث مشكلة الفقر فى بلادنا لا يصح - فيما أرى - أن نركز فقط على الأسباب والعوامل المترتبة على التدخلات الخارجية، وثمة أسباب داخلية كثيرة،

لعل أهمها هو الاستبداد السياسي، ونهب ثروات البلاد لصالح طبقة الحكام وأتباعهم، وتفشي الفساد بشكل غير مسبوق، وضعف أو انعدام القدرات الإدارية لمن يتحكمون ويديرون دفة الحكم على هواهم. وقد شاهدنا مجتمعات أخرى تتغلب على المؤثرات الخارجية، وتنهض وتنتقل من الفقر إلى الغنى في خلال عقد واحد، أو عقدين من الزمن.



وإذا رجعنا إلى سنوات الخمسينيات والستينيات، لتذكرنا أن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، كانا متفقين على أن للدولة دوراً مهما في دفع عجلة التنمية في الدول المتخلفة، وهذا يعتبر الآن مذموما! لماذا؟ لتغير مصالح الدول الكبرى. فقد عاد من جديد الشعار القديم «دعه يعمل، دعه يمر» لضمان استمرار النمو الاقتصادي دون توقف. أما الأهداف الإنسانية الأخرى، مثل إشباع الحاجات الأساسية، أو خلق المزيد من فرص العمل، ناهيك عن حماية العلاقات الاجتماعية ونوعية الحياة من آثار النمو الاقتصادي السريع ونمو المجتمع الاستهلاكي، فقد توارت عن الانظار!

ويلخص المؤلف رؤيته بقوله : «إنه خلال التاريخ الطويل للفكر الاقتصادي فيما يتعلق بالنمو والتنمية، لم تكن الأسئلة المطروحة للبحث، ولا الإجابات التي قدمت عن هذه الأسئلة صادرة عن فكر محايد وغير متحيز، بل كانت الأسئلة والأجوبة على السواء صادرة عن عقائد طارحي الأسئلة والأجوبة، عقائد تتخذ من البداية كمسلمات بديهية غير قابلة للمناقشة، وتنبع في معظم الأحوال من غلبة بعض المصالح الأنانية الضيقة».

وهنا يحسن بنا أن نشير إلى ما قد يفرضه الواقع بقوته على مختلف نظريات الفكر الاقتصادي، كما حدث في الأزمة الاقتصادية العالمية في الثلاثينيات، وكما يحدث الآن بفعل الأزمة المالية الأمريكية، والتي تلقي بظلالها القاتمة على اقتصاديات العالم أجمع.



في محاضرة ألقاها ستانلي فيشر (Stanley Fischer) كبير الاقتصاديين في صندوق النقد الدولي، جاء ذكر لسؤال مهم : هل توجد نظرية اقتصادية واحدة، يجمع كل الاقتصاديين على صحتها، دون أن تكون بديهية ومجرد تحصيل حاصل؟ وهذا يعني أن النظريات الاقتصادية ليست أكثر من تعبير عن تحيز شخصي، فلابد أن يختلف حولها الاقتصاديون لاختلاف تحيزاتهم! وإذا كان الأستاذ فيشر أنكر هذا، وقال إن لديه الكثير من الأمثلة على نظريات اقتصادية ليست تحصيل حاصل، ويجمع الاقتصاديون على صحتها، وفي مقدمة هذه النظريات نظرية المزايا النسبية في التجارة الدولية. فقد حاول الدكتور جلال عبر صفحات عدة أن يبين لنا أن هذه النظرية ما هي إلا تحصيل حاصل من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الاقتصاديين غير متفقين على صحتها!

وأحب أن أتوقف هنا لنتأمل معا فكرة كثيرا ما تتردد عن الاتفاق أو الاختلاف بين الاقتصاديين، وكأنما مجرد اختلافهم، أو عدم اتفاق رؤيتهم يعني ضمنا أنهم على خطأ! وهذه في الحقيقة نظرة غير صحيحة للفكر الاقتصادي، وللنظريات الاقتصادية المختلفة. فعندما يتناقض - على سبيل المثال - ما قاله أفلاطون مع ما قاله أرسطو، هل هذا يعني أنهما على خطأ؟! أو أن أحدهما بالضرورة على خطأ؟! وهل عدم اتفاق الفلاسفة جميعا على فلسفة واحدة يعني فساد كل ما قدموه لنا، أو ضلال كل ما وصلوا إليه؟!

إن الفكر الاقتصادي كالفكر الفلسفي يحتمل التباين والتنوع والاختلاف، كما يحتمل التضاد، بل ويحتمل التناقض أيضا، ليس فقط لاختلاف الأهواء والتحيزات كما يقول المؤلف، ولكن لاختلاف المواقف الفكرية، وتغير الأحوال والظروف، وتنوع المنطلقات النظرية والعملية، وتباين زوايا النظر والرؤية، وتعدد الوسائل المتبعة والأهداف المرجوة. إن الفكر الاقتصادي يحمل بداخله تعدد وتنوع وثراء ورحابة الفكر الإنساني العظيم القابل لاحتواء شتى الاختلافات والتضادات والمتناقضات معا.

ومن الموضوعات الحديثة نسبيا في علم الاقتصاد، موضوع «تحليل النفقات والمنافع» (Cost / Benefit Analysis) أو دراسة الجدوى (Feasibility Study) فللحكم على صلاحية أي مشروع يتم حصر كل نفقاته، بمختلف أنواعها، وتقييمها بالأرقام، وجمعها، وحصر كل المنافع التي يمكن تحقيقها منه، بجميع أنواعها، وتقييمها بالأرقام، وجمعها. ثم مقارنة مجموع النفقات بمجموع المنافع، فإذا زادت المنافع على النفقات اعتبر المشروع مبررا.

ويعلق المؤلف على ذلك بقوله : إنها تبدو لأول وهلة فكرة بريئة ومقنعة، وربما بدت سهلة التنفيذ، ولكنها لا سهلة، ولا بريئة، وتنطوي على التحيز لمصالح دون أخرى. فكثير من النفقات والمنافع لا يمكن قياسها بدقة، وهي نادرا ما تتحقق في وقت واحد، بل عبر فترة زمنية ممتدة، ويكتنف أي تقييم للمنافع والنفقات على الكثير من التحيزات التي نادرا ما يعترف بها القائم بالتطبيق.

ويتوقف المؤلف عند المفكر البريطاني جيريمي بنثام (Jeremy Bentham) مؤسس مذهب المنفعة (Utilitarianism) والذي يمكن تلخيصه في: «أكبر قدر من السعادة لأكبر قدر من الناس». The greatest happiness for the largest number

لكن أي تطبيق لهذا المبدأ سينطوي بالضرورة على تحيزات وأهواء شتى غالبا لن يدركها من يحاولون تطبيقه.

ثم ينهي المؤلف كتابه بتعليق لجون مينارد كينزي (J. m. keynes) على مبدأ بنثام في المنفعة بأنه «كالدودة التي لا تكف عن التهام أحشاء الحضارة الحديثة، والمسئولة عن انحطاطها الأخلاقي الراهن». وهذه النهاية للكتاب إنما تعني ضمنا انحيازا واضحاً من جانب المؤلف نحو الاعتبارات الأخلاقية.



وفي النهاية أحب أن أعبر عن سعادتي بقراءة ودراسة هذا الكتاب المثير للتأمل، والذي يعد علامة بارزة في إنتاج مفكرنا الكبير الدكتور جلال أمين، كما يعد إضافة حقيقية لكل الباحثين والدارسين لعلم الاقتصاد بمختلف مدارسه.

وهذا الكتاب - من ناحية أخرى - يعد كتابا في الثقافة الحديثة، فهو يعرض وينقد مختلف الحركات الاقتصادية والفلسفية خلال عصر النهضة وحتى العصر الحديث والمعاصر. والكتاب محمل بحصيلة رؤية ثقافية واسعة وعميقة، ومن ثم فهو ضروري ومهم لكل من يريد أن يعي، ويدرك، ويتعلم الكثير عن حركات التطور الفكري، والعلمي، والاقتصادي، والسياسي، والثقافي عبر عقود وقرون عدة.

ولأن الكاتب مفكر موسوعي. لا يحصر نفسه في داخل الفكر الاقتصادي وحده، ولكنه ينطلق إلى آفاق واسعة للفكر الإنساني بمختلف تجلياته، فلا يجد غضاضة - مثلا - في الاستشهاد برواية أدبية لإبراز حقيقة اقتصادية.

ويكاد لا يوجد كتاب من الكتب المهمة التي أثرت وغيرت وحركت العقول منذ عصر النهضة، وحتى الآن، ولم تتم الإشارة إليه، وتقديم خلاصته ببساطة ووضوح للقارئ غير المتخصص.

وأرى أن شبابنا في أشد الحاجة للتعلم من هذه الروح النقدية المتألقة، والتي تسيطر على كل صفحة من صفحات هذا الكتاب القيم، إذ إن نظامنا التعليمي العقيم لا يقدم لهم سوى مواد صماء للحفظ والتلقين، فلا يؤهلهم للابتكار، ولا إعمال الفكر، ولا فحص ما يعرض عليهم بدقة وتحليله ونقده.

والكتاب يمتاز بلغة أدبية بديعة، بعيدة تماما عن جفاف اللغة العلمية التي اعتدنا عليها في البحوث والدراسات الاقتصادية. فاللغة هنا شديدة الجمال، والوضوح، والجاذبية، إذ تأخذ بيد القارئ العادي ليتعلم ببساطة من أستاذ قدير قضى سنوات طويلة في البحث والدرس والفهم، ثم خرج علينا ليقدم لنا خلاصة علمه الغزير، وثقافته الواسعة، وخبرته الحياتية، ورؤيته الخاصة بتواضع، وبساطة، وحكمة. ■



ويجنح المؤلف في بعض الأحيان إلى نغمة ساخرة، وهي بالفعل شيقة ومعبرة، ولكنها تقوده - فيما أرى - إلى المبالغة التي تتجاوز الحقيقة



عن ماذا يبحث الخليجيون والأوربيون في مصر؟!

ليسا ون

■■ فلنتخيل مصرين، الأولى منهما أرض غامضة عتيقة، صحراء فسيحة متلألئة شطرها شق ضيق امتلأ اخضرارًا متفجرًا قطعها من الشمال إلى الجنوب، وعلى طول أهداب وادي النيل الخصيب استلقت آثار حضارات عريقة، تعود لأكثر من خمس ألفيات، صانت أهراماتها ومعابدها وأضرحتها عبر القرون الرمال والمناخ الصحراوي الجاف. تضم الأهرامات ممرات خفية ومسالك منخفضة لا يمكن للمرء أن يعبرها إلا بنفسه حيث تنفتح إلى حجرات خبيئة داخلية فيها توابيت فارغة. أما الجادات العتيقة فتحرسها المسلات وتماثيل أبو الهول، وهناك يرى المرء أشعة الشمس التي جمّدها الأفضل أن يخلد للنوم باكرًا ويستيقظ مع طلوع الشمس، كي يتسنى له أن يرى النصب والمعالم التاريخية صباحًا قبل أن تعكس الصحراء الزجاجية أشعة الشمس التي تبهر الأبصار وتجعله يذوي في قيظ الظهيرة. لكن المساءات تختلف، فهي مكرسة للجولات في خان الخليلي والسوق الذي يشبه متاهة. هناك يمكن للمرء أن يشتري الحلى الذهبية والفضية وأن يكتب اسمه عليها بالهيروغليفية، ويساوم أصحاب المحلات على التذكارات التي يصنعها فنانون محليون، شأن الصناديق والعلب المرصعة بأصداف تشبه اللآلئ، أو الزهريات التي صنعت من المرمر، أو القوارير الزجاجية موكب تشييعها، وبكى «الستّ» العالم العربي برمته. مصر هذه قوة سياسية كان على رأس ديبلوماسيتها وزير خارجية واضح وصريح (يترأس الآن الجامعة العربية) اعتاد أن يتوسط في النزاعات الإقليمية. وثمة مطرب شعبي حقق نجومية بين ليلة وضحاها في كل أرجاء العالم العربي بأغنيته الوحيدة «أنا بكره إسرائيل». تذكرنا مصر هذه برؤى الراقصات الشرقيات الفاتنات اللواتي يرقصن بأزياء لامعة تتلألأ مثل سطح نهر النيل في الليل عندما يعكس أضواء القاهرة الملونة.

وهناك يرى المرء دينا الراقصة الجميلة ترصع قدمها اللؤلؤة، ماسةٌ والذهاب إلى المطاعم والمسارح والديسكوتيك ميزة لليل هنا. ومن الممكن للمرء أن يذهب مع عائلته في العوامات التي تبحر في النيل لمشاهدة الراقصات. إضافة إلى الفرجة على «العرض الروسي» حيث مجموعة من خمس أو ست حسان من الكتلة الشرقية يضعن على خصورهن سيورًا كالأسود فوق جوارب مخرمة، وأغطية للرأس صنعت من الريش، ويؤدين رقصة متزامنة لافتة هي مزيج من ألحان عربية وغربية. ربما لا يزور المرء الأهرامات لكنه يراها من البعيد، من شارع الهرم الذي يقصده البشر وكأنهم يقصدون الأمكنة المقدسة في رحلة حج. وتتسابق الملاهي الليلية والكباريهات

سياحة الليل .. وسياحة النهار

الحجر. كما تهيمن التماثيل الجرانيتية المهولة لملوك وملكات قضوا منذ أمد طويل، على قاعات واسعة تردد صدى معابد في الجنوب. للمرء أن يعبر هذه الآثار التي هيمنت عليها أعمدة جبارة رصعتها نقوش أزهار اللوتس، ويردد صدى طرق عقبيه على الأرض الحجرية ويتخيل بأنها كانت قصورًا لعرق من سحرة عمالقة انقرض منذ أمد بعيد. كان لأولئك البشر العريقين معرفة وافرة ودقيقة بعلم الفلك، فقد بنوا نصبهم ومعالمهم لتتماشى مع الشمس والنجوم في الانقلاب الشمسي والاعتدال الربيعي.

يسكن أرض مصر الحاضر أبناء سلالات أولئك الفراعنة. الشتاء هو الوقت الأمثل لزيارة تلك الآثار. لكن إن رغب المرء بزيارتها صيفًا، فمن

تصدر الدراسة قريبا عن دار قدمس للطباعة والنشر - دمشق بعنوان: «أهرامات وشارع الهرم: أنثروبولوجيا السياحة الأوروبية والخليجية في مصر»

ترجمة: صخر الحاج حسين
مراجعة: زياد منى.

الدقيقة المصنوعة يدويًا وتحوي زيوتًا عطرية هي ذات الأريج الذي عطّر أجساد نفرتيتي، وكليوباترا على ذمة الباعة.

أما مصر الأخرى فهي نابضة بالحياة، وما آثارها الفرعونية سوى خلفية لدراما أكثر حداثة. تُعد الأهرامات الواقعة على أطراف القاهرة أمكنة لقاء رومانسية، يراها المرء في العديد من الأفلام المصرية حيث يختلس العشاق القبل على كومات من أحجار منخفضة. في مصر هذه، تقبع القاهرة القلب النابض للعالم العربي، وهي مثل هوليوود ونيويورك، تتحول إلى مدينة كبيرة مغبرة مكتظة يقطنها أكثر من خمسة عشر مليون نسمة. في أحياء المهندسين والزمالك الأنيقة التي تقع بجوار القاهرة، يبقى البشر العاديون عيونهم مفتوحة علهم يرون ممثلاً أو مغنيًا مشهورًا. لابد أن الناس يتذكرون أن عمر الشريف ومنذ أربعين عامًا خلت، هام بالممثلة المصرية فاتن حمامة حتى أنه اعتنق الإسلام ليتزوج بها. لكنهما انفصلا بعد ذلك بسبب ماقيل عن إدمانه القمار. أما الآن فيمكث عمر الشريف في شقة في حي المهندسين بعد أن تقاعد. عندما توفيت أم كلثوم في عام ١٩٧٥ احتشدت الملايين في الشوارع لتمشي لأكثر من ميل في وزنها أربعة قراريط. أشيع أن أحد الأثرياء من المعجبين بها، أهداها تلك الماسة التي شبكتها بخاتم ألبسته إصبع قدمها، ازدراءً له.



في مصر هذه، الصيف هو الوقت المناسب للزيارة، إذ تأتي الحشود من كل أرجاء العالم العربي إلى القاهرة طلبًا لقضاء العطلات والإجازات. النهارات هنا مضجرة وقائظة ما يجعل المرء يمضيها في النوم ليستيقظ في وقت متأخر من الظهيرة و يذهب إلى المقاهي المنتشرة في حدائق الفنادق من أجل وجبة إفطار تحتوي على الفول المدمس الساخن. ويجلس هناك ويراقب الصبايا اللواتي يتبخترن بين الطاولات بينما يسترخي يدخن الشيشة (النرجيلة) التي تنبعث منها روائح التفاح. تنهض مصر هذه من غفوتها بعد الغروب، عندما يتبدد اللون الأسمر لهذه المدينة المغبرة ويتحول إلى ليل عذب بارد ذي لون نيلي مخملي، ترقطه بقع من ضوء ينبعث من مصابيح الشوارع وأبنية تضم المكاتب الحكومية العملاقة ومن لافتات المحلات الكهربائية. كما أن السهر طوال الليل المشهورة على جانبي الشارع الطويل الذي يمتد إلى مسافة طويلة من القاهرة إلى الأهرامات والتي تشرع أبوابها من ساعات المساء المتأخرة حتى السادسة أو السابعة من الصباح. وهناك يجود الزبائن بإعجابهم براقصتهم المفضلة ويمطرونها بالنقود، ويمنون برزمة من نقود من فئة العشرة جنيهات على مدير الصالة الذي يدب فيهم الحماس من خلال تلويحه بالنقود، ليسمح لهم أخيرًا بأن يتدفقوا وينتشروا على جسدها وهي ترقص، لكن النادل لهم بالمرصاد حيث يرجعهم في الوقت الذي تخطو فيه إلى طاولة المعجبين وتشكرهم بابتسامة وإيماءة. ويحين وقت المغادرة عندما تبدأ الشمس تنشر خيوطها الأولى، وينكفئ الزوار العرب إلى فنادقهم، في الوقت الذي تمتلئ فيه حافلات السياح الذين قدموا من الغرب الذاهبين إلى أهرامات الجيزة أو سقارة أو إلى المتحف المصري.

تُعد الأهرامات آخر اهتمامات الخليجيين الذين يزورون مصر. فالعرب عمومًا ينعمون بصور وخيالات معاصرة فيما يتصل بثقافة مصر التي تأصلت واشتهرت بترويجها للمغنين والمغنيات والراقصات الشرقيات ونجوم السينما في تلك الأرجاء من العالم العربي. يعرف عن السياح


حلمي التوني
2008

سياحة الليل وسياحة النهار



القادمين من المملكة السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة بأنهم يمضون أوقاتهم في ملاهي شارع الهرم الليلية. فالسياحة العربية والخليجية سياحة ليل أما سياحة الغرب فهي سياحة نهار، إذ تبدأ رحلات السياح الغربيين إلى الأهرامات باكرًا في الصباح لتجنب قيظ الظهيرات، بينما لا تنتهي أمسيات الملاهي الليلية حتى خيوط الفجر الأولى.

يفترق العرب عن الغربيين في نظرتهم إلى مصر. فما يرونه يتأثر بثقافة ودين ولغة وتاريخ وسياسات كل منهم. لقد شكلت هذه الصور المتباينة عن مصر، صورة لمصر عن ذاتها هي، خالقة طبقات متداخلة من الهوية، فمصر هي أرض الفراعنة، والأهرامات والمومياءات، كما أنها قلب السينما العربية، والموسيقى العربية والرقص الشرقي أيضًا. لقد أنتجت قرون من الحوار العابر للأمم طبقات من الخيالات والصور عن مصر.

تكشف هذه الرؤى المتباينة عن مصر الكثير عن الغربيين والخليجيين بقدر ما تكشف عن مصر نفسها. فالافتتان الغربي بمصر الفرعونية لا يمكن أن يفهم من دون معرفة الطريقة التي انضفر فيها علم المصريات مع تاريخ الامبريالية الأوروبية. والصورة النمطية المصرية عن الخليجيين وهم يمضون الليالي بلعاب يسيل على الراقصات الشرقيات إن هو سوى عرض (أمارة) على اقتصاد هجرة اليد العاملة الشرق أوسطية والذي لونته الفروق الثقافية والاستياء من سوء توزيع الثروة النفطية. يحاول كتابنا هذا أن يستكشف التجربتين المتوازيتين العربية والغربية مع مصر، بوصفهما طريقة للتأمل والتفكير بالاختلافات والتشابهات.

هردُت الدليل السياحي:

لألفيات خلت درج تقليد لرحالة غربيين، من الإغريق إلى الرومان إلى أوروبيي القرن التاسع عشر تجلى في قراءة هردُت كنوع من كتيب سياحي يعين الناس إلى مصر. لقد سافر «أبو التاريخ» ذاك إلى مصر حوالي ٤٦٠-٤٥٥ قبل التأريخ السائد (ق ت س) وأنتجت رحلاته مزيجًا خاصًا من التاريخ، وحقائق لافتة، وشائعات وأساطير. فقد وصف أقدم عجائب الدنيا السبع، هرم الجيزة الأكبر، وزعم أن ابنة فرعون موّلت بناءه بجعل باحتراف البغاء.

لقد ردد غُستف فلُبير صدى افتتان هردُت بالأبنية التذكارية الضخمة وفانتازياه الإيروتيكية لما هو غريب بعد أكثر من ألفيتين، والذي زودتنا رسائله بحكاية أسفاره في نهر النيل حيث رصّع وصفه لتسلق الأهرامات بتقارير مصورة عن زياراته لفتيات راقصات وعاهرات. بعد أن قرأ فلبير ما كتبه هردُت بأن هرم منقرع (أطلق عليه الإغريق ميكينيروس) بني بأمر محظية إغريقية تدعى ردُبس، أصر على تسميته هرم ردُبس (سافر فلوبير عبر نهر النيل في عام ١٨٤٩. لمزيد من الاطلاع على فانتازيات فلوبير الشرقية التي تضعهم ضمن سياق الإمبراطورية الأوروبية، انظر إدوارد سعيد Said ١٩٧٨ وتوكر Tucker ١٩٨٥ ورنا قباني Kabbani ١٩٨٦ و بوناڤنتورا Buonaventura ١٩٨٩ وكرياني Karayanni ٢٠٠٥. المؤلفة).

لقد كان للخيال الأوربي الاستشراقي فيما يتصل بجنسانية الشرق الأسطورية الوضيعة والذي كتبت عنه رنا قباني وإدوارد سعيد وآخرون، أصل موغل في القدم فعلاً (انظر لقمان Lockman ٢٠٠٤ لاستعراض تاريخ الاستشراق).

من هردُت إلى فلبير إلى سياح اليوم، تبع الرحالة طريقًا آمنة تبدأ من الإسكندرية إلى نصب الجيزة ومعالمها التاريخية وإلى ممفيس (سقارة)، ومن ثم إلى نهر النيل والكرنك وطيبة (الأقصر) وأسوان. شُحن الافتتان الغربي القديم بالنصب والمعالم التاريخية في الحقبة الحديثة مع غزو نابوليون للبلاد في عام ١٨٩٨، وصُورت الروح الإمبريالية الفرنسية على أنها حملة علمية، عنيت من بين أشياء أخرى، بالتنقيب والبحث في النصب والمعالم التاريخية القديمة. بوصفه مؤرخًا، نوه ربُرت تغنر بأن هذا ما منحها نسب التقدم الذي أحرز في عصر التنوير ‹Tignor 1993:1-15›. وبوصفها إرث إمبراطورية وجهت صناعة السياحة في مصر الحاضر السياح الغربيين لرؤية مصر قديمة تبعثرت فيها نصب ومعالم تاريخية أخرجت من ماض فرعوني.



يبدو سحر السياحة في مصر القديمة جليًا للغربيين على خلاف السياح من الخليجيين الذين نادرًا ما يقضون بعض وقت في زيارة المواقع الفرعونية وهم لا يشكلون أي مقدار مئوي من السياح الذين يبحرون في النيل للذهاب إلى الأقصر. إنهم يتجنبون الأهرامات وينخرطون بصور وخيالات عصرية للثقافة المصرية.

ضمن بيئة شرق أوسطية، تعد مصر عملاقًا ثقافيًا وإعلاميًا معاصرًا، تبث أفلامها، ومسلسلاتها التلفزيونية، وموسيقاها الشعبية إلى العالم العربي برمته ‹Armbrust 1996, Abu-Lughod 2004›. بحسب العرب تستحضر مصر صورًا وخيالات ليس عن الأهرامات فقط، ولكن أيضا عن سياسيين مشهورين شأن جمال عبد الناصر المعروف بنزوعه إلى القومية العربية، وقامات أدبية شأن نجيب محفوظ الأديب الحائز على جائزة نوبل ومطربين محبوبين شأن أم كلثوم وعمرو دياب ساحر الجيل صاحب الأغنيات الجماهيرية، وممثلين كوميديين شأن عادل إمام وعلاء ولي الدين وممثلات وممثلين دراميين شأن نادية الجندي وأحمد زكي، وراقصات شرقيات شهيرات مثل فيفي عبده ولوسي ودينا (ما يدعو للأسف أن أحمد زكي وعلاء ولي الدين - وهما من المفضلين عندي - اثنان من أكبر نجوم السينما المصرية توفيا أثناء عملي الميداني في مصر بعد أن انتهيت من كتابة هذا الفصل. المؤلفة).

جميع العرب يعرفون الأهرامات، لكن الصورة التي تستحضرها مصر في الأذهان هي اللهجة المميزة التي طرقت أسماع الجميع في الأغنيات والأفلام والمسلسلات التلفزيونية منذ الطفولة.

مع أني أمريكية، ونشأت على صور الأهرامات ومومياءاتها، فقد بدأت عنايتي واهتمامي بموضوع السياحة في مصر عندما كنت أعيش في المملكة السعودية وأسمع حكايات وقصصًا عن الإجازات والعطل التي تمضيها صديقاتي السعوديات في القاهرة. المملكة السعودية ملكية تحكمها عائلة سعود، وهي مكان لأقدس مدينتين عند الإسلام جعلت منها ثروتها النفطية الهائلة محط أنظار عمال مهاجرين من كل أصقاع العالم. كنت في العشرين من العمر عندما مضيت إلى المملكة السعودية. فقد كان والدي وهو جيوفيزيائي، يعمل هناك. قررت أن أترك المدرسة وأقيم لبعض الوقت في المملكة السعودية مع عائلتي. بعد أن جاءت حرب الخليج بصور شبه الجزيرة العربية إلى الأميركيين، دخل في أذهان أصدقائي في نيويورك بأنها مكان بائس ولا يمكن العيش فيه، لكنني لم أهتم بل على العكس فقد بدت لي تجربة جديدة تمامًا و فرحت بذهابي إليها.

لا ريب في أن المملكة السعودية تمثل شيئًا غريبًا لأمريكي. يلتزم الرجال (يكاد الأمر يقتصر عليهم) بعقود للعمل هناك، وإن حدث واستلموا مناصب هامة في شركاتهم، فيجلبون عائلاتهم. يعيش المغتربون الغربيون في مجمعات خلف أسوار عالية مارست وظيفة أمن وحماية لهم في السنوات الأخيرة مع تزايد عنف المعارضة للاحتلال الغربي لبلدان الشرق الأوسط. بدت تلك الأسوار في تسعينيات القرن المنصرم، حيث كنت



يبدو سحر السياحة في مصر القديمة جليًا للغربيين على خلاف السياح من الخليجيين الذين نادرًا ما يقضون بعض وقت في زيارة المواقع الفرعونية



أعيش هناك آنذاك، وكأنها شيدت لتفصل فيما بين الثقافات. كانت للنساء خلفها حرية ارتداء ما يرغبن من دون أى إساءات أو نظرات متطفلة.

عندما كنت أعيش فى المملكة، كان من الصعوبة بمكان أن تجد المغتربات عملاً فيها. لذا انصرف العديد منهن إلى رياضة التنس أو إلى السباحة فى مسابح المجمعات. وغالبًا ما كانت أسر المغتربين وعائلاتهم تتخذ قرارها بالذهاب إلى هناك عندما يصبح لديهم أطفال صغار، وهناك تترك الأم عملها فى بلادها لتنصرف إلى تربية أطفالها. أما الرجال فيعملون مع زملائهم السعوديين، ويصبحون على صلة من خلال حوار بين ثقافى مع زملائهم.

كانت الشركة التى يعمل فيها والدى تتلقى وجبات طعام سعودية تقليدية تحوى لحم الضأن والكبسة. لقد علّم السعوديون الأجانب فن تقطيع شرائح اللحم وصنع كرة من الأرز باليد اليمنى من دون أن يستخدموا أى أدوات طعام. قيل للأجانب إن مقلتى الخروف تُعدان من الأطعمة الشهية والمترفة، وتذوقها يُعد ضربًا من شجاعة. كنت أسمع فى الغالب مغتربين لايتناولون لحم الماعز عادة يتحدثون عن طرق مختلفة للشى يطلقون عليها بالإنجليزية goat grabs (فى إشارة تعنى أن الطريقة من الأكل غير متحضرة) هناك شهدوها وذكروا بالاسم من تناول مقلتى الخروف.

تتميز الحياة فى المملكة السعودية بفصل صارم فيما بين الجنسين. ففى الوقت الذى يعمل فيه الأجانب من الرجال ويقيمون علاقات اجتماعية مع زملائهم السعوديين فى العمل، فهم لا يلتقون بنساء سعوديات. كما أنهم يقعون فى محظور السؤال عن صحة زوجة السعودى، فذلك يعد وقاحة حتى لو طرح السؤال بتهذيب جم. فى سن السادسة يذهب صبية السعوديين وفتياتهم إلى مدارس منفصلة، وأما الرجال والنساء هناك فلا يختلطون فى العمل إلا فيما ندر (وحتى فى تلك الحالات النادرة يبقون الأمر سرًا لتجنب غضب المطاوعة الذين يفرضون الدين والتقاليد كما أن السعوديين يتجنبون الاحتكاك مع زوجات الأجانب من زملائهم فى العمل وبناتهم انطلاقًا من تهذيب وبالتالى لا تتسنى للنساء الأجنبيات فرصة التعرف على النساء السعوديات، بما أنهن لا يتعرفن إلى زوجات زملاء أزواجهن فى العمل. تُعد النساء السعوديات لغزًا وأحجية لجميع الأجانب الذين يعملون فى المملكة، كما عبر عن ذلك أميركيون استخدموا عبارتين للإشارة إلى النساء السعوديات UBOS. Unidentified Black Objects أى «أشياء سوداء مجهولة» أو أنهم يستخدمون عبارة «أكياس قمامة سوداء تمشى/ walking black trash bags» ازدراء للعباءة الحريرية السوداء والطرحة اللتين تظهر بهما السعوديات فى الأسواق والمحلات. وما يزيد فى توسيع الهوة فيما بين السعوديات والأجنبيات ويكرس الحواجز الثقافية التى تحول دون أى تفاعل أن القليل جدًا من الغربيين من يتحدث العربية (بالفعل فى الوقت الذى أشار فيه العديد من الكتاب المعروفين وعلماء الاجتماع إلى أهمية إماطة اللثام عن الصندوق الأسود للثقافة والمجتمع السعوديين. ثمة مشروع آخر يعادل إظهار الثقافة السعودية إلى العلن أهمية يتجلى فى توصيف وتحليل ثقافة المغتربين الأجانب فى المملكة السعودية والطريقة التى تفعل تجسد بها وتستهلك صورًا تتصل بأشكال اللباس للآخر السعودى (كما يتجلى ذلك فى الدمى الصغيرة التى تملكها أسر وعائلات المغتربين الأجانب، بمن فيهم أسرتى، والتى تظهر رجالاً ونساء سعوديين يرتدون لباسهم التقليدى. المؤلفة).

ذات يوم وبعد وصولى إلى المملكة بوقت قصير، اتصلت بى إحدى النساء الأمريكيات، زوجها زميل لوالدى فى العمل، تعرف واحدة من السعوديات عاشت سنوات عديدة فى ولاية كلُرادو الأمريكية. كانت السيدة السعودية تبحث عن مدرِّسة تصوير وأخرى تعلم اللغة الإنغليزية لمدرسة بنات كانت هى مديرتها. تقدمت لكلا العملين. ودرّست لعام كامل اللغة الإنغليزية للصفوف الرابع والخامس والسادس، كما درست فن التصوير من الصف السابع إلى الثانى ثانوى.

فى ذلك العام تعرفت إلى مدرسات أخريات فى المدرسة وأصبحت علاقتى حميمة مع بعض طالبات قسم التصوير، اللواتى كنت أكبرهن ببضع سنوات فقط. كما تعرفت إلى سوزان أيضًا وهى المسؤولة عن دروس التصوير فى المدرسة.

سياحة الليل وسياحة النهار

كنت فى العشرين من العمر عندما أخبرنى والدىّ بأننا سوف نرحل إلى المملكة السعودية. فى ذلك الوقت كنت أجهل العالم العربى. «أليست هى البلاد حيث مكة؟ إذًا دعونا نزور مكة». كان على والدى أن يشرح لى بأن مكة مكان للمسلمين فقط. لم أكن أعرف هذه الحقيقة عن الإسلام أو عن السعودية.

كنت فرحة ومصرة على الذهاب إلى مكان جديد وغريب كلية. وما بدا بأنه غريب وأجنبى، سرعان ما أصبح مألوفًا. درست عن السعودية والإسلام وعرفت الكثير عنهما. كما حصلت على عمل فى مدرسة للفتيات هناك واشتغلت مصورة فوتوغرافية مع إحدى السيدات السعوديات. فى الوقت الذى كانت هناك فيه فروق كبيرة بيننا فيما يتصل بالدين والثقافة، كان هناك الكثير مما نشترك به. فقد نشأت فى بيئة مسيحية محافظة تشبه بيئة الإسلام فى العديد من النواحى. صارت بعض زميلاتى وطالباتى صديقات حميمات وبقينا على اتصال. حتى عندما غادرت المملكة وذهبت إلى مونتريال لأنهى تعليمى الجامعى. ولصيفين، رجعت لزيارة والدىّ فى جدة. ومن خلال طالباتى السعوديات نمّيت اهتمامًا أكاديميًا بالطريقة التى يتواعد فيها الشبان والشابات السعوديون سرًا غير هيابين. يتحدون معايير جيل الآباء الثقافية.

عندما مضيت إلى الجامعة، أردت أن أنجز ورقة بحثى فى مكان ما من العالم العربى، لكننى لم أعرف أين. ثم وذات صيف مضيت إلى مصر لأدرس اللغة العربية ووقعت فى حب «أم الدنيا»، كما فعل كثيرون من قبل. فى القاهرة، وجدت كل شىء تحت الشمس. فقد سحرنى تنوع القاهرة وتناقضاتها. كما آلفت البشر هناك حميمين بمزاج طيب. اتخذت قرارى حينئذ أن أقوم ببحثى الأنثروبولوجى فى القاهرة. ولأننى أيضًا أعرف أن العديد من أصدقائى من السعودية يمضون إجازات الصيف هناك. بدا لى ذلك فرصة طيبة كى أدرس جانبًا من المجتمع والثقافة السعوديين اللذين يتجسدان خارج حدود المملكة. سرعان ما خطرت لى فكرة القيام بمشروع بحث أنثروبولوجى عن السياحة والنزعة العابرة للأمم/والحدود فى مصر.

عندما احتضنت الفكرة فى البداية، اعتقدت بأننى أعرف مسبقًا محصلة بحثى. فلقد عزمت على أن أجرى مقارنة بين الخليجيين والسياح الغربيين فى مصر. كما اعتقدت أن المفارقة ستبدو واضحة، بل وفاقعة. فالخليجيون يشتركون باللغة والدين والثقافة. ولسوف يتفاعلون مع مصر المعاصرة. أما الغربيون، فيفتقدون إلى اللغة والثقافة ومثقلون بتاريخ من الغزوات الاستعمارية. وسينصب اهتمامهم على التاريخ الفرعونى من دون أن يولوا أى اهتمام بالحياة والمجتمع فى مصر. باختصار، توقعت اختلافات بسيطة بين مصر الميتة وتلك الباقية على قيد الحياة.

وكما هو الحال دائمًا، يبدو الواقع أكثر تعقيدًا من التوقعات والآمال المبسطة. وبينما من الصحيح أن الغربيين نهمون جدًا بمصر الفرعونية، وجدت أيضًا علماء المصريات الغربيين الذين عزموا على التغلب على ارتباطات مهنتهم بالاستعمارية، والذين اهتمت بحوثهم بالسياسة المصرية المعاصرة وبالنزعة القومية/العصبية.

كما وجدت أن المواقف حيال الزوار من الخليجيين كانت مختلطة. وخلافية إلى حد ما. فالعديد من أصدقائى وصديقاتى المصريين كانوا متشككين فى الأسباب التى تدفع الخليجيين إلى القدوم إلى مصر فى الإجازات. لكننى كنت أعلم بحكم علاقاتى الوثيقة بصديقاتى السعوديات أن إجازاتهم فى مصر لم تكن أبدًا لممارسة الرذائل. عندما وضعت كتابًا حول هذا، قررت أن أصور وجهات النظر جميعها على نحو منصف ومتعاطف مع كلا الطرفين.

أجريت هذه الدراسة كأمريكية تعشق العالم العربى وعندما طرحت فكرة نشر أطروحتى تلك بالعربية، بلغت سعادتى أقصاها. لكن خشية انتابتنى فى آن. ماذا لو أسىء فهمى؟. ثمة أناس قالوا لى: إن الكتاب سيصبح محط جدل وسيثير الخلافات لأن موضوعه السياحة الخليجية فى مصر. لكننى أعتقد أن القراء سيجدون فضائح أقل بكثير مما يتوقعون. ليس فى الكتاب أبطال ولا أنذال. ما يحويه فقط هو مزيج من وجهات نظر وآراء وسلطات سياسية واقتصادية. وآمل أن يُظهر لنا الطريقة التى تجعلنا نحترم كل الآراء، حتى لو لم تعبر عن وجهة نظرنا.

يهمنى أيضًا أن أنوه أننى كتبت هذه الدراسة بوصفى طالبة أدرس العلوم الإنسانية والثقافة والشرق الأوسط، وشأن جميع الطلاب. فأنا لاأزال أكتسب المعرفة والعلم. ولذا أرجو من القارئ العزيز أن يغفر لى أى أخطاء أو زلات وقعت فيها.

ليسا ون

سدنى - أستراليا تموز ٢٠٠٨

سـياحة الليـل  وسـياحة النهـار

كانت توثّق أحداث المدرسة والعديد من حفلات الخطوبة للطلاب بالصور الفوتوغرافية. عملت معها في تصوير حفلات الخطوبة والأعراس عندما كانت تلتزم بتصوير إحدى المناسبات. بعد عام أمضيته في التدريس، عدت إلى الكلية، لكنني كنت قد أمضيت موسمي صيف في المملكة قبل أن أبدأ دراستي الجامعية. اعتدت لقاء أصدقائي السعوديين وأعمل في الصيف مع سوزان.

بدأتُ علاقة حميمة مع عائلة مريم إحدى طالباتي السابقات. اعتدنا الخروج مع والديها في العديد من أمسيات الصيف عندما يخلي القيظ مكانه لجو بارد منعش. كنا نذهب إلى مراكز التسوق الضخمة ونشتري الآيس كريم لأشقاء مريم الصغار ونتجول بين المحلات المختلفة. أما والدها بوجهه الضاحك الذي تجمعت كل تجاعيد الدنيا في عينيه، فقد كان دائم النصح لي بأفضل ما يمكن سماعه من الغناء العربي. برأيه كان راشد الماجد مطرباً جيداً لكن الأفضل ودائماً بحسب رأيه، هو المطرب المصري محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ. مرة ذهبنا بسيارته إلى الكورنيش حيث ترجلنا ومشينا ليغمرنا النسيم العليل هناك. كنت أرتدي الزي السعودي التقليدي العباءة والطرحة كما مريم. أما والدها فاكتسى جلابيته البيضاء واعتمر كوفيته الموشاة بمربعات حمر وبيض. كنا نتشبث بيدي شقيق مريم الأصغر الذي ارتدى بنطالاً وتي شيرت. مرت بنا مجموعة من الشبان يلبسون الجلابيات ويتنزهون بين العشب الفاصل بين الطريق ورصيف المشاة. عندما حاذيناهم انطلقت شفاههم بتهليل ومديح. جذبت مريم طرف طرحتها بخفر وحياء وغطت بها وجهها الذي تكشف عن ابتسامة عندما أخبرتني بأنهم كانوا يرددون بعضاً من شعر يمتدحون فيه حسننا. تجاهل والدها بكل لباقة كلمات الغزل التي كانت تلاحقنا. هكذا كنا نمتع أنفسنا في الصيف.

التقيت بعمر الذي عرفني على العديد من أصدقائه، ذكوراً وإناثاً، بمن فيهم اثنان غير متزوجين كانا يتواعدان في السر بالطبع، لكن ذلك لم يكن جديداً على كلية، ذلك أنني علمت أن بعضاً من طالباتي السابقات في المرحلة الثانوية كنّ يواعدن أصدقاءهن عبر أصدقاء آخرين أو في المراكز التجارية في جدة، أو على الشواطئ في منطقة «أبحر»، وهي منتجع مائي يقع إلى الغرب من جدة حيث الأرض ملكية خاصة مما يمنع المطاوعة «الشرطة الدينية»، من أن يفرضوا فصلاً صارماً بين الجنسين كما هو الأمر في أمكنة أخرى.

ثمة مكان آخر يلتقي فيه شبان وشابات المملكة ويتواعدون في إجازات الصيف، إنها القاهرة. وفي الغالب يخطط الأصدقاء السعوديون لإجازاتهم من أجل أن يلتقي بعضهم ببعض خارج البلاد. مصر هي المكان الذي يكثرون من التردد عليه حيث يذهبون إلى القاهرة والإسكندرية، وأحياناً إلى شواطئ الغردقة.

كانت مريم قد أمضت جانباً من الصيف مع خطيبها في مصر، كما التقت هناك أصدقاء وصديقات لها عرفتهم في جدة. واحدة من صديقات مريم التقت بصاحبها، أصبح فيما بعد خطيبها، أثناء إجازة في القاهرة.

ما كنت أسمعه أذهلني. سألت صديقاتي من السعوديات ما كن يفعلنه في مصر، وما هي الثياب التي كنّ يلبسنها (أو كن يرتدين العباءات والطرحات)؟ وكيف كنّ يلتقين أصحابهن من الرجال. وكيف يتدبرن ويهربن من آبائهن ليخرجن مع شلة مختلطة صبية وصبايا. لا أزال أحتفظ بصورة أعطانيها عمر التقطت له في آخر مرة كان فيها في إجازة في القاهرة مع أصدقائه السعوديين. تظهر الصورة عمر وصديقه المقرب عبد الله في غرفة في أحد الفنادق في مصر. كان عمر قد عاد لتوه من المسبح يرتدي الشورت وتي شيرت أصفر أو برتقاليا بشعر مموج أقرب إلى الطول منه إلى القصر. ما جعله يعلق على شعره آنذاك الذي جعله يبدو وكأنه ريفي قدم من منطقة جيزان (مقاطعة في جنوبي غربي السعودية). يظهر عمر في الصورة وهو متكئ على خزانة في غرفته في الفندق بساقين متصالبتين كيفما اتفق عند الكاحلين، مطلقاً ابتسامة عريضة. أما عبد الله فيبدو على سيمائه الجد وتكسو وجهه ملامح غطرسة. كان شعره طويلاً في مؤخرة رأسه وقصيراً في المقدمة وعلى الجانبين ووسم وجهه شاربان رفيعان. كان يرتدي قميصاً حريرياً من نوع فيرزاتشي Versace مونّس بالأحمر والأصفر والأخضر. من الواضح في الصورة أنه كان يهم بالخروج. أذهلتني الاختلافات بين هذه الصورة وتلك التي للسياح الغربيين الذين أعرفهم و زاروا مصر. فصور أولئك الأخيرين تبرز الأهرامات وأبو الهول والمعابد الفرعونية. أما الصور التي بحوزة عمر فلم تظهر أياً من النصب والمعالم التاريخية، هناك فقط الفنادق والمسابح.



حكى لي عمر عن قصص مدهشة في أثناء إجازاته في مصر. وكنت سمعت حكايات أثارت في دهشة أكثر في أثناء وجودي في السعودية، لكنها في هذه المرة جاءت على لسان النخبة الليبرالية من الطبقتين الوسطى والعليا. (في الطرف الآخر كانت صديقتي نجوى، وهي امرأة سعودية محافظة متزمتة تغطي وجهها بخمار وطرحة، وحتى عينيها لم تسلما من اللون الأسود، فقد قبعتا تحت نظارة سوداء خشية أنظار الرجال الغرباء المتطفلة). لقد زعزعت الحكايات التي كنت أسمعها قناعاتي بالنزعة المحافظة الصارمة السائدة في المملكة، وجعلتني أرى بأن الجيل الأصغر من النساء والرجال العزّب كان يتحدى المعايير الثقافية السائدة التي تفصل فيما بين الجنسين والتي فرضها النظام بالقوة.

لم يكتف الشبان والشابات بالمواعدة للحصول على بعض من متع، بل أفلحوا أيضاً في التخلص من الزيجات المرتبة وفي أن يختاروا شركاءهم بملء إرادتهم Wynn، ١٩٩٧ (تضم الأعمال التي عالجت الفروقات الثقافية فيما بين الأجيال في المملكة السعودية التركي ١٩٨٦- الرشيد ٢٠٠٢ العريبي ١٩٩٤ دوماتو Doumato ٢٠٠٠ واليماني ٢٠٠٠. المؤلفة).

عندما انتسبت إلى الجامعة لأدرس الأنثروبولوجيا، انتابتني شكوك بأنني لن أتمكن من الحصول على إذن يمكنني من البحث العلمي والعمل الميداني في السعودية، لكنني لم أتخل عن الفكرة. فبإمكاني القيام بإنجاز بحث إثنوغرافي عن السعودية، لكن موقع عملي الميداني سيكون مصر. قمت بعملية سبر واستكشاف للإجازات الصيفية التي يقضيها السعوديون في مصر بوصفها نافذة مشرعة تمكنني من الولوج إلى التغيرات والتحولات التي طرأت على الأجيال في الثقافة السعودية والاستقصاء إلى أي درجة دعم فيها السياح السعوديون المعايير الثقافية في بلدهم أو انحرفوا عنها في أثناء وجودهم في إجازاتهم في بلد عربي أكثر ليبرالية.

عندما حاولت أن أعثر على أدب أكاديمي غربي يتحدث عن السياحة العربية في مصر، أخفقت، إذ لم يكتب سوى القليل عن هذا الموضوع. اعتقدت للوهلة الأولى أن مرد ذلك هو قلة الكتابات نسبياً في العلوم الاجتماعية حول المملكة السعودية بشكل عام. وفي الوقت الذي يوجد فيه كثير من «الاختصاصيين» الذين كتبوا عن مصر، ليس هناك سوى حفنة من علماء الاجتماع ممن كتب عن المملكة السعودية، وقلة منهم قامت ببحوث في البلاد وحتى فيما يتصل بالغربيين الذين يتحدثون العربية، فإن اللهجات المحلية في السعودية ليست معروفة إلا على نطاق محدود جداً. (بعض أفضل الدراسات في العلوم الاجتماعية التي



مصر هي المكان الذي يكثرون من التردد عليه حيث يذهبون إلى القاهرة والإسكندرية، وأحياناً إلى شواطئ الغردقة



سياحة الليل  وسياحة النهار

تناولت المملكة السعودية ونشرت باللغة الإنغليزية كتبتها ثلاث أنثروبولوجيات سعوديات ثريا التركي ومضاوي الرشيد ومي اليماني. المؤلفة)

عندما غرقت في ماكتب عن السياحة، أدركت أن غياب أي نقاش حول السياحة الخليجية في مصر لايعزى إلى ضآلة الدراسات الأكاديمية والمنح الدراسية باللغة الإنغليزية حول بلدان الخليج، بل له علاقة بالافتراضات الضمنية التي صورت السياحة عموماً على أنها ظاهرة غربية. كي نجيب عن هذا السؤال من المفيد لنا أن نقوم بمراجعة سريعة لكتابات العلوم الاجتماعية التي تناولت السياحة.

قوم زائفون:

في عقد الستينيات من القرن المنصرم، بدأ علماء الاجتماع بالكتابة عن السياحة والتنظير لها بوصفها صنفاً فريداً من الترحال. جون فرستر كان واحداً من الأوائل الذين كتبوا في هذا الميدان عندما قال إن صناعة السياحة خلقت «قوماً زائفين» جنباً إلى جنب مع «ثقافة فولكلورية زائفة» ‹Forster 1964: 217-227›. عندما تتحول المناسبات إلى «فرجة» للاستهلاك السياحي، أو عندما يرتدي الناس أزياء تقليدية ويصرون على أن يدفع لهم السياح نقوداً مقابل الصور الفرتوغرافية التي يلتقطونها لهم. بحسب فرستر كان ذلك هو الأسلوب الذي حولت فيه السياحة التفاعلات الاجتماعية العامة إلى سلع وبضائع تباع وتشرى ما هدد بتدمير الأصالة الثقافية.

في العقدين التاليين، أي في السبعينيات والثمانينيات ردد العديد من المنظرين صدى جدال فرستر حول اللاأصالة الثقافية التي ولدتها السياحة. معتبرين أن تسليع الأشكال الثقافية (وليس تسليع اللباقات فقط) هو ما صير الثقافات التقليدية إلى ثقافات غير أصيلة وبالتالي إلى ثقافات لامعنى لها.

في هذه الكتابات، تم تصوير الحداثة على أنها حالة تغريبية، كما جعل الناس في المجتمع الصناعي (حيث يخلو العمل من المعنى) يبحثون عن المعنى والأصالة في الثقافة. اتخذ هذا السعي لبوس السياحة بما أن نظرة المرء إلى ماضيه التاريخي (كما يحدث في مواقع السياحة التاريخية شأن تلك التي تسعى إلى إعادة خلق الحقب الاستعمارية أو قرية الفايكنغ)، أو ماضياً معاصراً آخر هو أسلوب في الحياة أقل تعرضاً لسيرورة التصنيع يمد الناس الآخرين بالأصالة الثقافية كبديل عن فقدان المرء لأصالته هو. في هذا المنظور، يتم سجن السائح والمساح في ديالكتيك مفاده، الأصالة خسرت وسعى إليها، استهلكت على نحو تلصصي وبالتالي تآكلت. من غير المدهش، أن هذه الكتابات صورت السياحة على أنها تفترس الثقافة التي كانت تدمر ما تستهلكه.



من الممكن أن نأخذ افتراض أولئك المنظرين الذي يقول إن السائح شخص غربي بالحسبان ولكن على نحو جزئي بالتأسيس على فكرة أن المجتمع الغربي فقط هو الذي يمتلك الأساس الاقتصادي لإنتاج سياحة شعبية لكن الافتراض ذاته مستمد أيضاً من اقتران السياحة بالحداثة وبموقف متفرد حيال السياحة بوصفها وقت فراغ. رغم ذلك يشكل عرب الشرق الأوسط وشمال أفريقية تقريباً ثلث الزوار الأجانب إلى مصر كل عام، نصفهم سياح خليجيون (هذه الأرقام هي لعام ١٩٩٨ مصدرها الكتاب السنوي للحكومة المصرية عن السياحة). وعلاوة على ذلك، يمكث السياح القادمون من الخليج لوقت أطول من نظرائهم الغربيين وينفقون نقوداً أكثر منهم، ما يجعل السياحة العربية عاملاً هاماً في دعم الاقتصاد السياحي. لا يكتفي السياح العرب بالظهور في مصر فقط، بل يتدفقون إلى بيروت ومراكش وإلى مدن أوربية وأمريكية أخرى صيفاً. إن الإقرار بمقولة السياح العرب على جانب من الأهمية ليس لأن ذلك يمارس تحدياً لصورة عن السائح عفى عليها الزمن، بل لأنه يزعزع الافتراضات التي تدور حول العلاقة بين الحداثة والثقافة الغربية.

أصالة مراوغة أم خادعة؟

بحسب منظري السياحة شأن كثلين آدمز وفالين سمث ودين مكانل تعرضت الأصالة الثقافية لعملية تآكل ليس من خلال تسليع الثقافة فقط، بل من خلال الطريقة التي تعيّن فيها السياحة المادة المناسبة لفرجة السائح. فالسائح يرغب في رؤية طقوس ثقافية أصيلة لزام أن تؤدى له. لكن وفي اللحظة التي تؤدى فيها هذه الطقوس، تكف عن كونها أصيلة. إن سعي السائح للأصالة يؤدي إلى تفتيشه في الكواليس - كل أداء طقسي محضر لجمهور سياحي يولد بحثاً عن الحقيقة الاجتماعية الكامنة خلف الأداء. لكن الكواليس مراوغة وهي تنزلق دائماً من متناول السائح. في الواقع لا يمكن إيجاد ما خلف الكواليس، لأنه وفي اللحظة التي تقع فيها عينا السائح عليه، يكف عن كونه خلفاً حقيقياً.

(رغم ذلك، فإن مكنل محق بالإشارة إلى أن هناك نوعا محددا من السياحة يدور حول سعي إلى أصالة أبداً مراوغة وجلية. هذا التوق الحديث إلى تجربة تجسد الأصالة والإرث والثقافة تنتج حالة مفارقة لا يمكن إنجاز الأصالة فيها أبداً. ذلك أنها وفي اللحظة التي يتم فيها وسمها بهذه الطريقة ستكف عن كونها أصيلة).

وكما أشارت جودث بتلر (١٩٨٩ - ١٩٩٣) في تطبيقها النسوي لمفهوم الأدائي فالعلاقة بين الأداء والهوية هي سيرورة تتداخل مع السلطة (انظر أيضاً ‹Mitchell 2002›). تعد هذه النقطة حاسمة في تناولي السياح العرب والغربيين بالدراسة والتمحيص في مصر. فكلاهما في موقع من السلطة وجهاً لوجه مع معظم المصريين. إذ يشكل السياح الغربيون سلطة اقتصادية مقابل غالبية المصريين الذين يعملون في اقتصاد السياحة، كما أن للاهتمام الغربي بالأوابد الفرعونية جذورا تمتد إلى قرون بل حتى إلى الفيات من الإمبريالية في مصر إن وسعنا من كلامنا ليشمل قدامى الإغريق والرومان. إن الخليجيين أيضاً، هم في موقع من السلطة مكنتهم فيه ثروتهم النفطية التي جعلت من المصريين شغيلة في الخليج، وحولت مصر إلى ملعبهم الصيفي. يتناول المصريون السياح العرب بالنقد والتحليل ويتهمونهم باستغلال ثروتهم لنشر الفساد الأخلاقي، بدءاً بالاستغلال الجنسي للنساء المصريات، إلى رعايتهم للأعمال المسرحية السوقية البذيئة التي تخبأ إلى حين الصيف بانتظار الجمهور العربي القادم من الخليج.

إن سلطة جائرة غير متكافئة بين السائح والمساح تجبر البشر على الخضوع إلى تعريفات خارجية للأصالة الثقافية تهدف إلى إشباع آمال السائح وفانتازياته.

ثمة نقطة شبيهة أخرى يمكن تطبيقها على مصر، حيث ساهمت السياحة العربية والغربية فيها في تطوير هوية قومية مصرية. يتفحص هذا الكتاب الطريقة التي تشابك فيها تاريخ الارتحال الغربي والاستعمارية والسياحة وكيف ساهمت جميعها في خلق صورة ذات مصر القومية المعاصرة بوصفها دولة فرعونية بالغة القدم. منذ ثلاثة قرون لم يبد المصريون اهتماماً بالأهرامات سوى بالحد الأدنى، حتى عندما كانت أوربا تمر بمرحلة «الهوس بمصر/ الإيجبتومانيا».

لكن الحال تغير، ففي أيامنا



يشكل السياح الغربيون سلطة اقتصادية مقابل غالبية المصريين الذين يعملون في اقتصاد السياحة، كما أن للاهتمام الغربي بالأوابد الفرعونية جذورا تمتد إلى قرون



سياحة الليل  وسياحة النهار

هذه بدأ المصريون ينظرون إلى الأهرامات بوصفها جزءاً من إرثهم القومى كما أن العديد منهم يعتز بأمجاد الماضى الفرعونى. لقد ساهم الافتتان الغربى التاريخى بمصر القديمة من دون ريب فى توسيع وتضخيم الهوية المصرية بوصفها أرضاً فرعونية قديمة.

لكن الماضى الفرعونى ليس سوى مكون واحد فقط من الهوية القومية المصرية لمعظم المصريين، فمصر هى موطن أم كلثوم بقدر ما هى موطن الأهرامات. وليست المسألة فى إيجاد مصدر أو مصدرين للهوية المصرية أو اكتشاف أى هوية هى الأكثر أصالة، بل هى رؤية الطريقة التى خلقت فيها الهويات المتعددة المتصارعة أحياناً وحددت عبر نقاط من الاحتكاك العابر للأمم مع الدخلاء.

إثنوغرافيات السفر والسياحة

عندما انتسبت إلى الجامعة فى منتصف عقد التسعينيات كان بعض المنظرين يدعون لإثنوغرافيا بغية الامتداد إلى أبعد من دراسة القرية المحلية التقليدية. لذا شرعوا يدرسون حركة الشعوب والأشياء رافضين أفكار الثقافة والسكنى المحددة الثابتة زماناً ومكاناً. تأتى أنا تسنغ فى كتابها Realm of The Diamond Queen 1993 بمثال عن هذه المقاربة. مقاربة أخرى كنت قد وقعت فى غرامها هى إثنوغرافيا أميتاف غوش (Amitav Ghosh) الذى وصف قرية فى دلتا نهر النيل على أنها ابتليت «بكل القلق المحموم الذى يستولى على مسافرى الخطوط الجوية القابعين فى ردهة العبور (الترانزيت)»، Ghosh 1992, cited in Clifford 1997:I.

كان لجيمس بون وهو أحد أساتذتى، فهم تاريخى على نحو أفضل فيما يتصل بالكتابات الأنثروبولوجية، وأشار إلى بكياسته بأن جيلى من الأنثروبولوجيين، وجيله، لم يكونوا أول من كتب عن الهويات الهجينة والشعوب المتنقلة. وبالعودة إلى عام ١٩٥٥ كان كتاب كلود ليفى شتراوس ‹Tristes Tropiques› واحداً من أول وأعظم الإثنوغرافيات فيما يتصل بالسفر والترحال التى صورت الموضوع الإثنوغرافى بوصفه منزاحاً وهجيناً على قدم المساواة كما هو حال الأنثروبولوجى. لقد وصف شتراوس، عندما قدم لأول مرة إلى مدينة ساو باولو وبدأ يبحث عن أناس كى يدرسهم، « لقد أرضت فضولى الأنثروبولوجى قرية بدائية تبعد حوالى خمسة عشر كيلومتراً عن ساو باولو لسكانها المهلهلين شعر فاتح وعيون زرقاء أظهرت أصولهم الجرمانية حديثة العهد» Levi-Strauss 1981 " 1955" I39.

قبل توجهى إلى الميدان مباشرة التهمت كتاب جيمس كلفرد ‹Routes› الذى صدر فى عام ١٩٩٧ فى أثناء ذلك الوقت، عدت إلى جامعة برنستون بعد أن أمضيت سنوات فى هذا الميدان، وأدركت فى وقت متأخر، أن إرث الأنثروبولوجيين الذين يكتبون حول السفر والترحال لم يترسخ بما فيه الكفاية.



فى ظنى أن أحد الأسباب التى ساهمت فى عدم إتاحة الفرصة للسياحة أن تتحول إلى مسألة على جانب كبير من الأهمية فى الأنثروبولوجيا يكمن فى أن السياح هم أقرباء نوع، فهم يتصرفون شأن مرآة مطقطقة نستطيع من خلالها أن نرى شيئاً من النظام الاجتماعى الذى يفرخ أنثروبولوجيين إضافة إلى سياح. وعلاوة على ذلك، يذكرنا السياح ببعض السياقات والدوافع والالتباسات التجريبية والبلاغة التى تشترك فى جعل المرء أنثروبولوجياً ‹Ibid:78›.

رغم ذلك وفى الوقت الذى يستخدم فيه كرك مفهوم السياحة، حيث الأصالة دائماً مسألة عالقة، بوصفه طريقاً لتحدى أصالة الأنثروبولوجى وسلطته كمؤول وناطق ثقافى، يستخدم جيمس بون ‹James Boon 1992› المقارنة «لاستكشاف الإمكانيات العابثة للمواجهات غير الأصيلة المتقاطعة ثقافياً التى تتبنى سلطة أكثر اكتمالاً». ويقترح أنه، ومن خلال قبولنا بالمواجهات السياحية بوصفها موضوعات صالحة للدراسة الإثنوغرافية، فمن الممكن لهم، أى: الأنثروبولوجيين أن يفلحوا فى الكشف عن بعض من أفكارنا التى أقامتها الأعراف حول ما يؤسس لمصدر معلومات أصيل وهو لقاء ميدانى ملائم ومادة حقيقية لملاحظات ميدانية. فى هذه الدراسة، مدى واسع من الهجناء/ مصادر المعلومات، بمن فى ذلك راقصة أسترالية تَحدت قانوناً جديداً فى المحكمة المصرية يحظر على غير المصريات ممارسة الرقص فى مصر وقروية من نزلة السمان - قرية تقع بجوار الأهرامات- والتى عاشت لعقود طويلة فى الغرب كمهندسة أقمار صناعية صغيرة وعادت الآن لتفتتح « بازاراً » سياحياً على بقعة من أرض رغب الإيجبتولوجيون بها وأرادوا أن يحفروا هناك بحثاً عن بقايا فرعونية وجيولوجية أمريكية دخلت فى جدال أشبه بالنزاع بشأن تأريخ إيجبتولوجى لنصب الجيزة ومعالمها التاريخية والتى جاءت إلى القاهرة من أجل القيام ببحوث وإلقاء محاضرات عن مصر العريقة بالاشتراك مع كاتب نيوايجى (New Age) حركة حديثة تؤكد على العامل الروحى فى الحياة. ظهرت هذه الحركة فى عقد الثمانينيات وأكدت على الوعى الروحى ويؤمن أتباعها بالتقمص وعلم الفلك وممارسة التأمل. New Age traveler أى مسافر نيواجى وهو عضو فى حركة ثقافية نيوايجية يسافر فى الغالب ضمن مجموعات فى أمكنة لها دلالات روحية.المترجم) وامرأة سعودية شابة أمضت أيام الصيف فى مصر حيث كان والدها يعيش ووالدتها التى كانت تجىء وتروح ما بين عملها فى جدة وأسرتها فى القاهرة. وهذا يعنى أن نرى ارتحال هذه الشخصيات وهوياتهم الهجينة على أنها جوانب أصيلة للمجتمعات والثقافات فى نهاية القرن وليس بوصفهم أناسا كوسموبولوتيين على نحو استثنائى وأن نضعهم مقابل شخصيات أصيلة على الصعيد الثقافى.

وهكذا فقد أثارت دراسة السياحة مسألتين نظريتين رئيستين فيما يتصل بالأنثروبولوجيا. إحداها موقع الهوية، وربما موقع « الثقافة» بحد ذاتها. تكشف مقارنة التجارب العربية والغربية فى مصر عن الطريقة التى خلقت فيها الهويات القومية عبر اللقاءات مع الهويات الأخرى.

أما المسألة النظرية الثانية التى أثارتها الدراسات السياحية تلك التى تتصل « بالأصالة» الثقافية وموقع الأنثروبولوجيا بحد ذاتها: ماذا يجدر بالأنثروبولوجيين أن يدرسوا وما عليهم أن يوجزوا فى وصفهم «ثقافة» أو شعباً؟.

لقد أكد عدد من الأعمال النظرية الحديثة كيف أن السفر واللقاءات المتقاطعة ثقافياً ساهمت فى إنتاج ذاتيات فى مشروعات بناء الأمة. عندما تلتقى جماعةٌ جماعة أخرى، تعرِّف كل منهما الذات والآخر، وترسمان الحدود وتفهمان الاختلاف. وبحسب ملاحظة كريس برينتس «إن تأسيس «الذات» و«الآخر» لا ينفصل عن إفسادهما لبعضهما البعض» ٥٠: ١٩٩٤.

من المفيد أثناء دراستنا للسياحة أن نجمع مجاز الاستهلاك إلى مجازات السفر والاحتكاك المتقاطعة ثقافياً بغية فهم سيرورات بناء الهوية التى تلى ذلك. رغم أن للسياحة الغربية فى مصر جذورها فى اللقاءات الاستعمارية المفروضة فيما مضى، وأحيانا عنيفة، لذا للسياحة فى أيامنا هذه أساس مختلف من السلطة: السلطة الاقتصادية التى استخدمتها ببراعة طبقة المستهلكين العالمية التى تشتغل فى بلد فقير حيث ريوع (الدخل الناتج عن) السياحة تأتى فى طليعة المصادر الثابتة التى تعود على البلد بالنقد الأجنبى. هذا لايعنى الحديث عن



أكد عدد من الأعمال النظرية الحديثة كيف أن السفر واللقاءات المتقاطعة ثقافياً ساهمت فى إنتاج ذاتيات فى مشروعات بناء الأمة



سياحة الليل  وسياحة النهار

الاستهلاك بالمعنى الذى اقترحه بعض المنظرين الأوائل للسياحة، حيث يلوث التبادل الاقتصادى مع السياح ثقافة أصيلة محلية إلى حد ما، بل يهنى رؤية الكيفية التى هيأ فيها السياح المستهلكون الدوافع لأولئك الذين يشتغلون بالسياحة، فى الصناعات الخدمية و الإنتاج الثقافى وحتى فى علم الآثار (من الراقصات الشرقيات إلى «رقص الدراويش» الذى يؤدى أمام جمهور من السياح الغربيين قرب خان الخليلى إلى الإنتاجات المسرحية للسياحة الصيفية العربية)، ليشتركوا فى خيال بعينه عن مصر.

فى بداية هذا الفصل تقريباً، كنت قد وصفت الطريقة غير المباشرة التى جعلتنى أهتم بموضوع بحثى، بعد أن مكثت وعائلتى فى المملكة السعودية (فى أثناء ذلك كنت سائحة فى اليمن والأردن). إن الوصف المؤلم للجالية المغتربة فى جدة والتى كنت أشكل جزءاً منها، مع حماستنا للتسابق على الفوز بأكبر قطعة لحم، والدمى الإثنية السعودية والوصف المزدرى للسعوديات ليست مجرد انحراف غريب الأطوار فى لحظة محرجة من ماضىّ قبل أن «أصبح أنثروبولوجية»، ومن المفترض أننى اكتسبت منظوراً أكثر تطوراً وثقافة فيما يتصل بالفروق الثقافية. فالتأسيس لسردى الخاص هنا فى تاريخ محدد من الخيالات العابرة للأمم هو جهد مدروس، وهو أيضاً رسالة تذكير لى بأن الأنثروبولوجيا فى الشرق الأوسط تمشى يداً بيد مع أشكال أخرى من اكتساب المعرفة والحوارات السياسية والاقتصادية فى المنطقة، وحتى الاحتلال العسكرى الغربى. إن المغتربين والسياح أنسباء للأنثروبولوجيين، فهم يتصرفون مثل «مرآة مهشمة نستطيع أن نرى فيها شيئاً من النظام الاجتماعى الذى يفرخ أنثروبولوجيين وسياحاً» ‹Crick 1985: 78›. وكما يتشبث المبحث المعرفى بالطرق التى اشتغلها أنثروبولوجيو الحقبة الاستعمارية من مواقع بعينها كانت مزيجاً من التعاون مع السلطة الاستعمارية، والاعتماد عليها، ومعارضتها. يجدر أيضاً بأنثروبولوجيى الشرق الأوسط المعاصرين أن يأخذوا فى الحسبان الطرق التى كان فيها دخولنا إلى العالم العربى مشروطاً وممكناً ومعاقاً من خلال الغزوات العسكرية الأوروبية والأمريكية على المنطقة وبالتالى الهيمنة عليها ثقافياً ‹Asad 1991›. وما قدومى المبكر إلى العالم العربى بوصفى تابعة لعالم أمريكى فى المملكة السعودية إلا جزء من ذلك.

إذا كانت مشاهد الوصول هى مادة أيقونية خام للكتابات الإثنوغرافية التى تصور الاحتكاك الأول الذى قامت به تلك الإثنوغرافيّة (التى هى أنا) مع موقع عملها الميدانى الذى تم التخطيط له سابقاً ‹Pratt 1986› فإن الأنثروبولوجيين المعاصرين لا يمتلكون فى الغالب سوى القليل من مشاهد الوصول، حتى قبل أن ينطلق العمل الميدانى الرسمى، بما أن اكتساب المعرفة الأنثروبولوجية يتم افتراسه دائماً من قبل أشكال حداثية (ومابعد حداثية) أخرى من اللقاءات الثقافية، شأن أولئك الأنثروبولوجيين الذين زاروا موقع عملهم الميدانى بداية كسياح أو موظفين لوكالة تطوير دولية أو منظمة غير حكومية، أو مدرسين للغة الإنغليزية، أو راقصة شرقية أو . . (ويمكن أن تستمر لائحة من « اللقاءات الأولى» إلى ما لا نهاية). ولأنثروبولوجيين«أصلانيين» ‹Limon 1991› و«نصفيين»[1] ‹Abu-Lughod 1991› يُعدّ العمل الميدانى عودة أكثر منه لقاء أول أو ثانيا أو أخيرا. بالانسجام مع هذه الحالة المعاصرة من الاستقصاء الإثنوغرافى، فإن مشهد الوصول الذى وصفته فى بداية الفصل الثانى، «الكنز المدفون»، هو مشهد من سلسلة وصولات تعود إلى اللحظة التى قررت فيها أن أرافق والدى إلى المملكة السعودية. تلك الحقيقة وجوانب أخرى من الظروف التى أحاطت ببحثى فى مصر تستحق مزيداً من التوضيح، وهكذا قبل البدء فى التوصيف الإثنوغرافى يجمع الفصل الأول، هذا الخيط ثانية مع نقاش «علم الأخلاق ومنهجية الأنثروبولوجيا عابرة الأمم». يناقش هذا الفصل الظروف التى أحاطت بإقامتى فى مصر والبحوث التى قمت بها هناك وبعض المسائل الأخلاقية فيما يتصل بالقيام ببحوث إثنوغرافية بين جماعات صغيرة من كبار المثقفين والمشهورين من مصادر المعلومات الذين يمكن أن تتأثر حيواتهم الشخصية ومهنهم بنشر هذه الدراسة الإثنوغرافية. كما يتصدى هذا الفصل لبعض المشكلات المنهجية الكامنة فى الإعداد لإثنوغرافيا عابرة للأمم متعددة المواقع فى بيئة مدينية.



كما تصديت للقضايا المنهجية فى الفصل الثانى، حيث سردت بعض المشكلات التى صادفتها أثناء محاولتى لإيجاد مصادر معلومات يتسنى لهم الوقت للتحدث إلى أنثروبولوجية غير ملمة بمادتها التى تعمل عليها، وفى الفصل الرابع، حيث ناقشت صعوبة دراسة السياح، خصوصاً لأنثروبولوجية أمريكية تريد أن تعرف لم يأتى السياح الخليجيون إلى مصر.

يراجع الفصل الثانى « الكنز المدفون» تاريخ علم المصريات الذى انطلق فى تلك الأيام حيث كان سعياً وراء كنز مباح لجميع الأوروبيين أكثر منه سعياً وراء علم الآثار. ثمة حكايات هامة لزام أن نسردها، شأن سباق على طراز إنديانا جونز بين عالم أركيولوجيا ألمانى وآخر فرنسى للحصول على دائرة بروج دندرا(سلسلة من الأفلام قام ببطولتها الممثل الهليوودى هرسن فورد وأخرجها ستيفن سبلبرغ. تتحدث هذه السلسلة من الأفلام عن عالم آثار مغامر يهرب من الخطر فى اللحظة التى يقع فيه. إنديانا جونز وهو اسم البطل فى الفيلم شخصية مغامرة تركب المخاطر يشدها شغف البحث عن كنوز العالم.المترجم).

إنهم مسلمو العصور الوسطى بالماضى الفرعونى، وعدوه دليلاً على عرق قديم من السحرة- العماليق. لكن الغربيين تسيدوا ميدان علم المصريات لقرون عديدة، وحتى فى أيامنا هذه لايزال علماء المصريات المصريون مجبرين على نشر كتاباتهم باللغة الإنغليزية والفرنسية والألمانية، فى الوقت الذى تتحدث ثلة من علماء المصريات الغربيين العربية وقليل منهم من يكتبها. لا يُفسر ذلك بقلة الاهتمام الذى يبديه العرب بمصر الفرعونية، بل يفسر تاريخ الاستعمارية الغربية فى مصر وسيطرتها على المؤسسات التى تنظم عصور مصر القديمة.

إن النزعة الفرعونية التى تتماهى مع مصر التاريخ القديم، هى أصل رئيس للنزعة القومية المصرية الحديثة. فقد هللت الصحافة المصرية لاكتشاف عالم المصريات زاهى حواس قبور بُناة الأهرامات فى تسعينيات القرن المنصرم لإقامته الدليل على أن من بنى الأهرامات هم عمال مصريون وليسوا عبيد بنى إسرائيل، وهى لحظة مجد فى وجه مزاعم إسرائيلية تقول إن أسلافهم هم من بنى الأهرامات. لكن وبحسب مصريين آخرين لا يستحضر «فرعون» ماضياً ثقافياً يدعو للفخر، بل على العكس فهو يثير فيهم قرفاً مردّه الطغيان والاستبداد الوثنى. لقد صرخ من اغتال الرئيس المصرى السادات بفخر«مات الفرعون!»، كما رفض بعض السياح المسلمين أن يزحفوا عبر الممرات الداخلية الضيقة للأهرامات، خشية أن يظهروا وكأنهم ينحنون لفرعون. سيتفحص هذا الفصل والفصل الذى يليه هذه المواقف المتصارعة حيال المجد والعزة القومية فى ماضى مصر الفرعونى.

يعالج الفصل الثالث « أطلنطس والزئبق الأحمر» سياسات علم الآثار من زاوية مختلفة، ويدرس إعادة كتابة النيوإيجيين للتاريخ الفرعونى. للعرب والغربيين خيالات غامضة فيما يتصل بمصر



رفض بعض السياح المسلمين أن يزحفوا عبر الممرات الداخلية الضيقة للأهرامات، خشية أن يظهروا وكأنهم ينحنون لفرعون



القديمة، كما يراجع هذا الفصل نطاقًا واسعًا من الأساطير والخرافات عن مصر القديمة، من أيام أطلنطس أفلاطون إلى الوسيط الروحي (النفس الرائية) إدغر كايس الذي كان يعتقد بأنه تقمص لأحد كبار الكهنة المصريين في تلك الحقبة القديمة، وتنبأ بأن حجرة مع أسرار حضارة ضائعة ستكتشف تحت مخلب «أبو الهول». يظهر هذا الفصل السبب الذي جعل نظريات النيوايج تمارس أذيتها على المصريين الوطنيين كما يفسر هذا الفصل بعضًا من نظريات المؤامرة التي طورها النيوايجيون فيما يتصل بمستنقع البيروقراطية التي تغمر أولئك الراغبين بالحفر والتنقيب في ماضي مصر. لكنه يظهر أيضًا أنه ثمة ما يجمع عالم المصريات ومنظري النيوايج، بغض الطرف عن محاولات علماء المصريات الجادة بالابتعاد عن المنظرين النيوايجيين، فقواسمهم تبدأ من التاريخ الكولونيالي المشترك الذي يمارس تأثيره على السردين الأكاديمي والشعبي لمصر القديمة، إلى جمهورهم المشترك من السياح الغربيين الذين يستهلكون نظريات كلا الطرفين.



ويظهر الفصلان الثاني والثالث أن جوانب مصر والهوية المصرية التي تسلم بها الغربيون وكأنها أشياء طبيعية كانت قد تأسست على مر التاريخ. فالغربيون يزورون الأهرامات ليس لأنها نصب ومعالم تاريخية فقط، بل لأن تلك النصب والمعالم أقيمت من خلال السيرورات الاستعمارية الأوروبية ومبحث علم المصريات والطريقة التي يُشيد فيها تاريخ الحضارة من قبلهما. كما يستكشف هذان الفصلان الطريقة التي ارتبط فيها علم الآثار بمشروعات سياسية وثقافية واجتماعية شأن النزعة القومية.

ويلتفت الفصل الرابع وهو بعنوان «حفلات الجنس الجماعية، الأمير الغازي، وشائعات أخرى عن السياحة الخليجية» إلى اللقاءات التي تمت بين المصريين والخليجيين وتمثلاتها. تنتشر بين المصريين صورة نمطية عن الخليجيين مفادها أن الأخيرين يأتون إلى مصر للانغماس بما هو محرم ومحظور في بلادهم من السعي وراء المومسات إلى الانخراط في حفلات جنس جماعي، واحتساء الكحول وصولاً إلى القمار. ومن هنا فهم يرتبطون في التصور العام للمصريين مع ملاهي شارع الهرم الليلية. كما أن قصصًا وحكايا تنتشر عن حفلات جنس جماعية خليجية تقام في الفنادق. في عام ١٩٩٩ عُدت مآثر أمير سعودي يعيش في القاهرة مع حاشية كبيرة من الخدم والحراس الشخصيين اشتهروا بعنفهم ومخاشنتهم لكل من يعترض سبيلهم مادة لحديث راج بين المصريين. إن أساطير المدينة هذه حول الجنس والقوة والثروة والاستغلال حولت هذا الأمير إلى نموذج بدائي أسطوري لصورة العربي الثري الخليجي النمطية الذي يعتقد بأنه يستطيع شراء كل شيء. هذه الصور السلبية عن الخليجيين يمكن أن تفهم فقط في سياق الهوية العربية والسياسة وهجرة اليد العاملة والاقتصاد السياسي الإقليمي. لقد قمت باستكشاف هذه الصور النمطية عن السياحة العربية ضمن سياق بحث وتحقيق أنثروبولوجيين لأساطير وشائعات وثرثرات مدينة.

في الفصل الخامس وهو بعنوان «مواعيد عابرة للأمم» تُرى السياحة الخليجية من منظور مختلف لشابتين سعوديتين. إن الصورة النمطية المصرية الشائعة عن السياح الخليجيين تشي بأنهم يأتون إلى مصر للانغماس في نشاطات مخزية، إضافة إلى أنهم يستغلون المصريين الفقراء. لكن نظرة إلى الشباب السعودي الذين يمضون إجازاتهم في مصر تظهر أن إجازة هؤلاء السياح العرب الصيفية في مصر غايتها لقاء السعوديات، إضافة إلى الاستفادة من الحريات التي توفرها لهم البيئة المصرية. كما أن الشابات السعوديات يرغبن بالمجيء إلى مصر بغية مواعدة الشبان في جو أكثر تحررا من مملكتهم رغم ذلك لا يزال هذا الجو محكومًا بالمعايير الثقافية والاجتماعية السعودية. وبوصفها ظاهرة ثقافية سعودية في الأساس وتحدث خارج حدود المملكة، فإن إجازة الصيف في مصر هي مثال غير عادي على الثقافة العابرة للأمم.

يصور الفصلان الرابع والخامس اللقاءات بين المصريين والخليجيين بغية إجراء مقارنة بين الخيالات التي يكونها كل من الطرفين عن الآخر. إن لحظات الاحتكاك الثقافي تصبح فرصًا لتعريف الذات والآخر. فالمصريون يغذون الصور النمطية التي يجسد من خلالها الخليجيون انتهاك الآداب الاجتماعية، بينما يرى السعوديون المصريين على أنهم مرتزقة خانعون. وتصور كلتا المجموعتين بعضهما الآخر على أنه مفترس جنسيًا. لقد خطط للفروق اللغوية والثقافية بين المصريين وأهل الخليج على أساس اقتصاد إقليمي لونته هجرة اليد العاملة والتباين الشديد في الثروات.

وفي كلا الفصلين، تظهر هويتا الذات والآخر على أنهما شأن مركزي. رغم ذلك فنقاش الهوية ليس غاية بحد ذاته، بل هو استراتيجية لدراسة «الثقافة» وهي الميدان التقليدي للبحث الأنثروبولوجي. كنت قد عنيت بوصف لحظات الاحتكاك المتقاطع ثقافيًا والتي تدفع البشر إلى صحوة وإدراك، وبطرق أخرى إلى تقاليد ثقافية مغفلة من خلال المقارنة مع تقاليد الآخرين، ومن ثم عنيت باستكشاف ما يفعله البشر بهذه الفروق. فمثلاً، أبين في سردي للحكايات الأسلوب الذي يصف فيه المصريون الطريقة التي يتناول فيها الخليجيون طعامهم ويرتدون لباسهم، وكيفية سلوكهم في المجتمع، أو الطريقة التي ينتقد فيها الخليجيون مفردات التهذيب التي يستخدمها المصريون عندما يتوجهون بكلامهم إلى شخص آخر وكيف واجهتني هذه المؤشرات الصغيرة على الاختلاف الثقافي الذي يكشف عن المعايير الثقافية لكل منهما. ثم أظهرت كيف أثارت هذه الفروق والاختلافات نقاشات عما تعنيه شأن هذه المؤشرات، فكلا الطرفين يتخذان هذه الفروق وتلك الاختلافات دليلاً على تواريخ سياسية وحضارية من بين أشياء أخرى. باختصار جليت الطريقة التي ارتبطت فيها الثقافة بالسرديات الحضارية، أو الطريقة التي ارتبطت فيها «العادات والتقاليد» «بالحضارة».[٢]

أما الفصل الأخير وهو بعنوان «مستنسخات مخطوطات قديمة، الحفريات، الغرافيتي، صور» فيتفحص ظاهرة الراقصات الشرقيات الأجنبيات (من غير العرب أو المصريات) في مصر. لقد بات الرقص الشرقي شائعًا، بل ومرغوبًا خارج العالم العربي والنساء الأمريكيات والأوربيات واليابانيات اللواتي احترفن الرقص الشرقي في أوربة والشرق الأوسط يؤدين في جميع أرجاء أوربا والشرق الأوسط، لكن غايتهن المنشودة هي أن يرقصن في القاهرة. فبحسبهن، من ترقص في القاهرة ستتمكن من الرقص في أي مكان آخر. تجمع هذه الظاهرة بفرادة عناصر الخيالات والصور الشرقية والغربية منها عن مصر. فالراقصات الشرقيات يقدمن استعراضاتهن لجمهور السياح عربًا وغربيين، في فنادق القاهرة وملاهيها، وعواماتها التي تعبر نهر النيل. كما أن العديد من الراقصات جئن إلى القاهرة في البداية بوصفهن سائحات. ورحلتهن تلك كانت نقطة علام قدمتهن في البداية إلى الرقص الشرقي. يكشف



يكشف التمحيص في جذور الرقص الشرقي في مصر أن تاريخًا من اللقاءات المتقاطعة ثقافيًا ساهم في تشكيل هذه الظاهرة الثقافية



التمحيص فى جذور الرقص الشرقى فى مصر أن تاريخًا من اللقاءات المتقاطعة ثقافيًا ساهم فى تشكيل هذه الظاهرة الثقافية «الإرثية»[٣] بين مصر والغرب ومصر والعالم العربى، تلك اللقاءات التى أجرت تغييرات جوهرية على شكل الفن كما يؤدى اليوم.

رغم أن مادة البحث تركز على القاهرة، فإن هذا الكتاب يقتفى أثر الشخصيات عبر المواقع والأمكنة ويعبر المعمورة من الشابات والشبان السعوديين الذين يأتون إلى مصر فى الصيف لينطلقوا إلى مواعداتهم الدسمة وطقوس الغزل والتودد، إلى العلماء آثار وجماعات النيوايجيين الذين ينتجون تواريخ متصارعة لأهرامات الجيزة لعرضها على التلفاز، إلى الراقصات الشرقيات الأوربيات اللواتى يحاولن خلق اسم وصيت لهن فى القاهرة. تسعى هذه الفصول لرسم بعض النقاط بالتفصيل فيما يتصل بمسارات شبكات متنوعة عابرة للأمم تتقاطع عبر القاهرة حيث تشكل السياحة قاسما مشتركا لجميع تلك الشبكات. لكن هناك أكثر من مجرد تصنيف نظرى للسياحة، كما أن الأنثروبولوجى يجمع هذه المواضيع المتباينة. هذا الكتاب دراسة لصور وخيالات[٤] مختلفة عن مصر كشعب وثقافة وتاريخ. فهو يقيم صلة بين التاريخ السياسى، والاقتصاديات الإقليمية والدولية، والإنتاج الثقافى مع سيرورة راهنة من بناء هوية قومية. هذا الكتاب رسم قلق لشبكات عابرة للأمم ولقاءات متقاطعة ثقافية بين شعوب وقوميات ولغات وطبقات وأديان وأيديولوجيات وخيالات وصور مختلفة تتشابك جميعها فى مصر.



إن تاريخ الأنثروبولوجيا هو تاريخ السفر والترحال واللقاءات المتقاطعة ثقافيًا. كما أن السياحة تنويع على أنواع السفر والصفقات المتقاطعة ثقافيًا والإمبريالية، والاستعمارية والحجيج الفكريين والرحلة الكبرى[٥] وعلم الآثار والأنثروبولوجيا وأكثر، والتى كانت لقرون عديدة عناصر حاسمة فى بناء الأمم والذاتيات. بإمكاننا البدء بفهم الكيفية التى تأسست فيها فكرة مصر ومُكّنت بوصفها مكانًا، وثقافة، وتاريخًا، وشعبًا وبلدًا وأمة من خلال أخذنا بالحسبان هذه السيرورات التى تؤسس لتاريخ من اللقاءات العابرة للأمم. ■

هـــوامـــش

(١) Halfie ويمكن أن نترجمها إلى «النصفى» وهو استخدام اضطرنا إلى اللجوء إليه بما أن كلمة «هجين» Hybrid لا تفى بالغرض. فالنصفى فى الأنثروبولوجيا من له جنسيتان. وفى رسالة من المؤلفة إلى المترجم أثبتت شرحها للكلمة كالتالى: «ابتكرت هذه الكلمة الأنثروبولوجية ليلى أبو لغد وهى وعلى حد تعبير المؤلفة، نصفها فلسطينى ونصفها الآخر أمريكى، وبالنتيجة لن يطلق عليها صفة المواطن الأصلى (الأصلانى). فعندما تكون «ليلى» فى فلسطين أو فى العالم العربى ينظر إليها بوصفها أمريكية والعكس يصدق أيضًا فعندما تكون فى الولايات المتحدة ينظر إليها بوصفها فلسطينية. وأضافت المؤلفة، بأن ليلى أبو لغد هى أول من استخدم المفردة كتابةً للتعبير عن «الأنثروبولوجيين النصفيين» فى مقالتها الكلاسيكية «الكتابة ضد الثقافة Writing against Culture. وتقر ليلى أبو لغد أنها استقت فكرة استخدام المصطلح من أنثروبولوجية أخرى هى كرين نارايان Kirin Narayan) من خلال اتصال شخصى)». المترجم

(٢) Culture and culture فى سؤالى للمؤلفة عن قصدها من استخدام المفردة ذاتها Culture لدلالتين كان جوابها التالى: «ترتبط الدلالة الأولى وهى التى يستخدمها الأنثروبولوجيون على وجه التحديد وتعنى العادات أو الطريقة التى ينظر المرء من خلالها إلى العالم بما فى ذلك الطقوس اليومية ومعايير الاحتكاك بين الناس. أما الدلالة الثانية وهى الشائعة والتى لايستخدمها الأنثروبولوجيون فتشير إلى التهذيب والكياسة إضافة إلى المدنية Civilization. ومن هنا ارتأينا أن نترجم الأولى بالعادات والتقاليد والثانية بالحضارة. المترجم

(٣) Traditional د رجت العادة على استخدام المفردة Tradition بوصفها «تقليد» و«Traditional تقليدى». لكن فى ميادين شأن الأنثروبولوجيا وعلم الآثار والإثنوغرافيا وحتى فى الدراسات التاريخية والتوراتية تميل هذه المفردة إلى الدلالة على المتوارث ومن هنا يمكن لنا أن نضع المقابل لكلمة، Tradition إرث، و«traditional إرثى». المترجم.

(٤) آثرنا استخدام «صورة أو صور» مقابلاً للكلمة الإنغليزية images) و«خيالات وصور» مقابل الكلمة الإنغليزية «imaginations» المترجم.

(٥) The Grand Tour أى الرحلة التى يتم فيها زيارة العديد من الأمكنة، أو تلك التى يتم فيها مسح كامل لجميع أصقاع المكان. المترجم.

كتاب الزاوية



التحدث بنعمة الله

فضل الشكر

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى. وبعد: فإن التحدث بنعمة الله تعالى مطلوب شرعًا. قال تعالى: «وأما بنعمة ربك فحدث». وأخرج عبدالله بن أحمد فى «زوائد السند»، والطبرانى، وابن أبى الدنيا فى «كتاب الشكر»، والبيهقى فى «شعب الإيمان» عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر». وأخرج ابن جرير الطبرى فى «تفسيره» عن أبى نضرة، قال: «كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يُحدث بها». وأخرج سعيد بن منصور فى «سننه» عن عمر ابن عبدالعزيز، قال: «إن ذكر النعم شكر». وأخرج ابن أبى الدنيا، والبيهقى عن الحسن البصرى، قال: «أكثروا ذكر هذه النعمة فإن ذكرها شكر». وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى عن الجريرى، قال: «كان يقال إن تعداد النعم من الشكر». وأخرج البيهقى من طريق مالك بن أنس عن يحيى ابن سعيد، قال: كان يقال تعديد النعم من الشكر».

والتحدث بنعمة الله تعالى يورث المزيد منها لأنه شكر كما ثبت ذلك بالأدلة المذكورة. والشكر يقتضى الزيادة لقوله تعالى: «لئن شكرتم لأزيدنكم» أخرج ابن مردويه فى «تفسيره عن ابن مسعود رضى الله عنه، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أعطى الشكر لم يحرم الزيادة لأن الله تعالى يقول: «لئن شكرتم لأزيدنكم».

يحيا الحب


ستوديو مصر يقدم
نجم مصر الأول
يوسف وهبي
نابغة الفن
اسمهان
في
غرام وانتقام


منتخبات بهنا فيلم (بهنا اخوان)
تقدم
رواية
انشودة
الراديو
(الفنانة الكبيرة)
نادرة
موزعو الفيلم
في العالم
منتخبات بهنا فيلم
(اخوان بهنا)

أسئلة فى تاريخ
السينما المصرية



هاشم النحاس



لا أطمح من هذه المقالة الموجزة، إلى أكثر من وضع إطار مناسب، يكون بمثابة مدخل لدراسات متعمقة عن بدايات السينما المصرية وبدايات ازدهارها. وهى البدايات التى ظلت حتى الآن تحتاج إلى نظر، أو إعادة النظر، أملا فى الوصول إلى تأريخ صحيح للسينما المصرية.

عن البدايات:

ظل حتى عهد قريب الاعتقاد السائد بأن عام ١٩٢٧ هو بداية تاريخ السينما المصرية. وهو العام الذى عرض فيه فيلم «ليلى» إخراج استيفان روستى أول فيلم مصرى روائى طويل. ثم اكتشف أحمد الحضرى بعد ذلك فى كتابه «تاريخ السينما فى مصر» أن أول فيلم مصرى روائى طويل ظهر قبل فيلم ليلى هو فيلم «فى بلاد توت عنخ آمون» إخراج فيكتور روسيتو الذى عرض عام ١٩٢٣.

كما رأى الحضرى أن بداية تاريخ السينما المصرية لا يجب أن يرتبط بأول فيلم روائى وإنما بأول إنتاج لفيلم مصرى حتى وإن كان قصيرا. ومن ثم ذهب إلى أن بداية تاريخ السينما المصرية يجب أن يكون عام ١٩٠٧ وهو العام الذى ظهر فيه أول فيلم مصرى قصير إنتاج محلات عزيز ودوريس بالإسكندرية وعنوانه «زيارة الجناب العالى إلى المعهد العلمى بمسجد أبى العباس بالإسكندرية». وتم اعتماد ذلك التاريخ باحتفال السينما المصرية بمئويتها العام الماضى ٢٠٠٧. بينما يذهب محمود على فى كتابه الذى ظهر مؤخرا «فجر السينما فى مصر» إلى أن أول الأفلام المصرية القصيرة يرجع إلى عام ١٩٠٥، ويتمثل فى جريدة «فى شوارع الإسكندرية» التى كان ينتجها مسيو إدوارد دى لاجارين. والخلاف مازال قائما بين الباحثين على هذه البداية لتاريخ السينما المصرية. وقد تأتى الأيام باكتشافات جديدة، وإعادة النظر فى تحديد البداية التاريخية للسينما المصرية.

ولكن من المؤكد- فى رأيى- أن عام ١٩٣٥ هو البداية الحقيقية لوجود السينما المصرية، بغض النظر عن بدايتها التاريخية المختلف حولها. وهو العام الذى افتتح فيه استديو مصر. ويعد عاما فارقا فى تاريخ السينما المصرية. فالسينما المصرية لم تعد بعده كما كانت من قبله، حيث كانت فى الغالب تقوم على جهود فردية يغلب عليها روح المغامرة وتأكيد الذات. ولعل هذا ما يفسر لنا - نوعا ما- ظهور الأفلام التى تنتجها الممثلات: بهيجة حافظ وآسيا ومن ممثلات المسرح عزيزة أمير وفاطمة رشدى، بينما بدأت السينما المصرية بعد ١٩٣٥ طريقها نحو المنهجية والاعتماد على المؤسسية.

وتوفر للسينما المصرية منذ هذا التاريخ شروط النجاح الأربعة التى لابد من توافرها لنجاح أى صناعة حديثة والسينما واحدة منها. وأول هذه الشروط توفر رأس المال المناسب، وهو ما تحقق على يد شركة مصر للتمثيل والسينما التابعة لبنك مصر. وكانت الشركة قد بدأت منذ ١٩٢٥ فى إنتاج أفلام تسجيلية قصيرة للدعاية لشركات بنك مصر برأس مال قدره ١٥ ألف جنيه، ثم بدأت بضخ الميزانيات اللازمة لإنتاج الأفلام الروائية الطويلة (رفعت رأس مالها عام ١٩٣٦ إلى ٤٠ ألف جنيه، ثم ارتفع عام ١٩٣٧ إلى ٧٢ ألف جنيه، ثم وصل إلى ١٠٠ ألف جنيه عام ١٩٤٣). وكان أول إنتاجها هو فيلم «وداد» ١٩٣٦ إخراج فريتز كرامب وبطولة أم كلثوم. ومن شركات الإنتاج الكبيرة نسبيا التى توالى ظهورها بعد ذلك، شركة استديو الأهرام عام ١٩٤٦ برأس مال قدره ٢٢٠ ألف جنيه، والشركة الشرقية للسينما فى نفس العام برأس مال ٢٥٠ ألف جنيه.

وإذا كانت أى صناعة حديثة لا تقوم إلا إذا توفر لها المصنع الذى يحتوى على المعدات والأجهزة الحديثة، فقد تحقق هذا المصنع لأول مرة للسينما المصرية بإنشاء استديو مصر الذى استورد أحدث أجهزة التصوير وغيرها من المعدات اللازمة. وبعده ظهرت استديوهات كبيرة أخرى مثل جلال ١٩٤٤، والأهرام ١٩٤٥، ونحاس ١٩٤٨.

ولتوفير الشرط الثالث لنجاح هذه الصناعة وهو توفر الكفاءة البشرية أرسل استديو مصر مبعوثيه للخارج (أحمد بدرخان وموريس كساب ومحمد عبد العظيم وحسن مراد)، واستعان بالخبراء الأجانب والمصريين الذين درسوا بالخارج(نيازى مصطفى وولى الدين سامح ومصطفى والى) أو اكتسبوا الخبرة من خلال عملهم فى المحاولات السابقة (محمد بيومى وأحمد سالم وكمال سليم وأحمد كامل مرسى). ولم يقتصر عملهم على الأفلام المنتجة من خلال استديو مصر ولكن من خلال أفلام أخرى تابعة لشركات أخرى (كما فعل أحمد بدرخان بإخراج فيلم «نشيد الأمل»).

ويأتى الشرط الرابع والأخير لنجاح المشروع

رأى الحضرى أن بداية تاريخ السينما المصرية لا يجب أن ترتبط بأول فيلم روائى وإنما بأول إنتاج لفيلم مصرى حتى وإن كان قصيرا

الخاص بإنتاج أى سلعة صناعية حديثة وهو توفر منافذ للتوزيع، وتتمثل هذه المنافذ بالنسبة للسينما فى دور العرض التى أخذت فى التزايد بعد عام ٣٥ حتى وصلت إلى ٣٤٠ دارًا للعرض عام ١٩٥٢ ويمكن إدراك ضخامة هذا العدد بالنسبة لعدد السكان وقتها الذى لم يتجاوز ٢٠ مليون نسمة، وخاصة عند مقارنته بعدد دور العرض الآن التى تقل عن هذا الرقم رغم تزايد عدد السكان إلى أكثر من ٧٥ مليون نسمة.

ولعل توفر هذه الشروط الأربعة لقيام صناعة السينما فى مصر بداية من عام ١٩٣٥، لا يؤكد فقط أن هذا التاريخ هو البداية الحقيقية للسينما المصرية، وإنما يشير أيضا إلى الازدهار المبكر الذى حققته السينما المصرية فى هذه الفترة فى ما بين ١٩٣٥ - ١٩٥٢ .



عن الازدهار المبكر

«بين النوعى والكمى»:

يتجلى ازدهار السينما المصرية فى المرحلة ما بين ٣٥ و١٩٥٢ فى عدة مظاهر، أولها ارتفاع مستوى الإنتاج سواء من الناحية التقنية (التصوير والمونتاج خاصة) التى وفرها استديو مصر والاستوديوهات الجديدة الأخرى من بعده، أو من ناحية التعبير الفنى الذى تحقق بتوفير الكفاءة الفنية (الإخراج والتمثيل خاصة).

ومن الملاحظ أن بعض المراجع السينمائية تجمع على أن الفترة بين ١٩٣٥ و١٩٤٥ تمثل فجر الازدهار الفنى للسينما المصرية، وتمثل المرحلة التالية ٤٥-١٩٥٢ مرحلة هبوط فنى بسبب التزايد الكبير لعدد الأفلام المنتجة التى أصبح معظمها يدور حول موضوعات مكررة بعينها وتعانى من ضعف البناء الدرامى، بينما أميل إلى وضعهما معا فى مرحلة واحدة باعتبارها مرحلة ازدهار نوعى لحق به ازدهار كمى. فلم أجد فى الازدهار الكمى ما يتناقض مع الازدهار النوعى، وما يؤكد هذا هو تواصل إنتاج الأفلام الجيدة كما تكشف عنه قوائم أهم الأفلام المصرية على مدى تاريخها ونتعرض لها تفصيلا فيما بعد.

والتزايد الكمى نفسه فى إنتاج الأفلام كان أحد مظاهر الازدهار البارزة فى هذه المرحلة، فقد وصل الإنتاج عام ١٩٥١ إلى ٥٢ فيلما، بينما لم يتجاوز ٧ أفلام عام ١٩٣٤. ووصل متوسط إنتاج الأفلام فى الأعوام السبعة الأخيرة من المرحلة إلى ٥٠ فيلما فى العام. وهو متوسط مرتفع لم تستطع السينما المصرية أن تحافظ عليه دائما ولم تتجاوزه إلا فى حالات محدودة.



ومن مظاهر هذا الازدهار، التدفق البشرى للعاملين فى هذا المجال، ويكفى أن نذكر أن عدد المخرجين الجدد فى السنوات السبع الأخيرة من هذه المرحلة بلغ ٤٥ مخرجا جديدا (مدخل إلى تاريخ السينما العربية - سمير فريد ٢٠٠١) ومنهم أسماء تركت بصماتها الواضحة فى تاريخ السينما المصرية أمثال أحمد بدرخان ونيازى مصطفى وكمال سليم ويوسف وهبى وحسين فوزى وأنور وجدى وبركات وحسن الإمام وصلاح أبو سيف ويوسف شاهين. ومنهم من استمر عمله فى المرحلة التالية (بعد ١٩٥٢) ومثلت أعمالهم دعامات السينما المصرية على امتداد تاريخها كله.

ولعل التزايد الكمى لدور العرض كما سبق ذكره يعتبر مؤشرا واضحا على الاستيعاب الواسع للأعداد الغفيرة من جمهور السينما الذى يؤكد ازدهارها بدوره (٢ مليون عام ١٩٣٨ ثم ٤٢ مليونا عام ١٩٤٦ ثم ٩٢ مليونا عام ١٩٥١). (محمود على- بحث «البنية الاقتصادية للسينما المصرية»).

ويزداد هذا الاتساع لجمهور العرض إذا ما أضفنا التوزيع الخارجى، الذى بدأ مع بداية السينما الناطقة وخاصة مع الأفلام الغنائية (الوردة البيضاء ١٩٣٣) الذى حقق أكبر دخل لفيلم وقتها. وقد أخذ هذا التوزيع فى التزايد على نطاق العالم العربى كله على أثر الإقبال على الأغانى المصرية التى يؤديها أصحاب الأصوات الغنائية المشهورة «ووجد الشعب العربى فى الفيلم المصرى تعبيرا عن روح قومية تريد أن تعلن عن نفسها» كما يقول أحمد يوسف فى كتاب «مائة سنة سينما».

وتعتبر الأفلام الغنائية التى تم تطعيمها بالرقص الشرقى من أهم الملامح المميزة لأفلام هذه المرحلة، حيث أدى نجاحها المتزايد فى الداخل والخارج إلى تزايد عددها بحيث أصبحت تمثل النسبة الأكبر بين أنواع الأفلام الأخرى التى تم إنتاجها فى هذه المرحلة، كما شجع نجاحها المنتجين على إثراء السينما بالعديد من المغنين والمغنيات الذين قاموا بأدوار البطولة ووصل عددهم فى هذه المرحلة إلى رقم قياسى بالنسبة لتاريخ السينما المصرية كله، ومنهم: محمد عبد الوهاب ، أم كلثوم ، ليلى مراد ، فريد الأطرش ، محمد فوزى، شادية ، نجاة على ، رجاء عبده ، نور الهدى، عبد العزيز محمود ، نجاح سلام، هدى سلطان وغيرهم. ومازالت هذه الأسماء تمثل قمما فى عالم الغناء العربى حتى الآن وهو ما ضمن النجاح لأفلامهم حتى وإن قامت على موضوعات بسيطة أو مكررة.

وإلى جانب هذا الملمح الأساسى من أنواع الأفلام التى انتشرت فى هذه المرحلة وميزتها، نجد الأفلام الكوميدية التى شارك فى بطولتها أعلام الكوميديا المصرية أمثال نجيب الريحانى وعلى الكسار بالإضافة إلى شالوم وفوزى الجزايرلى وشرفنطح وفؤاد شفيق ولحق بهم إسماعيل ياسين الذى أصبح نجما لامعا فيما بعد.

ومن الأنواع البارزة فى هذه المرحلة على نحو لا نجد له مثيلا فى المراحل التالية نوع الأفلام التراثية ومنها ما قام على أحداث تاريخية مثل شجرة الدر ٣٥، صلاح الدين الأيوبى ٤١، كليوباترا ٤٣، شمشون الجبار و فتح مصر كلاهما ٤٨، ظهور الإسلام ٥١، انتصار الاسلام ومصطفى كامل و حكم قراقوش ٥٢. وأخرى دارت فى جو تاريخى عام مثل وداد ٣٦، ليلى البدوية ٣٧، لاشين و شىء من لاشىء ٣٨، دنانير ٤٠، سلامة ٤٥، أمير الانتقام و الصقر ٥٠، ومنها أيضا: قيس وليلى وألف ليلة وليلة ورابحة ومغامرات عنتر وعبلة وشهرزاد والشاطر حسن.

كما كان من الأفلام المميزة للمرحلة الأفلام الاجتماعية، ومن أبرزها العزيمة ٣٩ والسوق السوداء ٤٥ والنائب العام ٤٦. ومنها أفلام قلب المرأة ، حياة الظلام، البؤساء ، الجيل الجديد ، بابا أمين، الافوكاتو مديحة ، الأستاذة فاطمة، الاسطى حسن.

وغلب على أفلام المرحلة الطابع الميلودرامى لإثارة مشاعر الجمهور. وكان جمال مدكور أول من عالج قضية الفقر والغنى فى فيلم «الحياة كفاح»، وكان الدفاع عن الفقراء يقابل من الجمهور بالتصفيق. ومن الأفلام الميلودرامية البارزة فيلم «رجاء» إخراج عمر جميعى الذى وصلت الميلودراما فيه إلى أقصاها. و «هذا ما جناه أبى» إخراج بركات ورغم غثاثة الموضوع إلا أن التقنية والأداء جعلا

القيمة الفنية ليست المعيار الوحيد لأهمية الفيلم. هناك من القيم الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية وغيرها ما يضفى الأهمية على الأفلام

من الفيلم تحفة الموسم الفنية (رسالة فى تاريخ السينما العربية - جلال الشرقاوى).

عن اختلاف معيار الأهمية:

حظيت مرحلة الازدهار المبكر للسينما المصرية فيما بين عامى ٣٥ و٥٢، بعدد لا بأس به من الأفلام الهامة. ويلاحظ القارئ بوضوح أن هذه الأفلام تتواصل على امتداد المرحلة كلها، مما يؤكد وحدة المرحلة على خلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين. ونحرص على ذكرها لنضعها فى بؤرة الاهتمام لتكون موضعا للدراسة. ونعتمد فى تحديدها على مصادر ثلاثة موثوق بها، وإن اختلفت معايير الأهمية فى ما بينها.

فى الاستفتاء الذى أجراه مهرجان القاهرة السينمائى الدولى عام ١٩٩٦ عن أهم مائة فيلم فى تاريخ السينما المصرية، كان نصيب هذه المرحلة ١٣ فيلما. وفى كتاب «أهم مائة فيلم فى السينما المصرية» الذى أصدرته مكتبة الإسكندرية مؤخرا يذكر منها ١٣ فيلما منها ٧ أفلام مكررة مع قائمة مهرجان القاهرة. وبإضافة ما ذكره سمير فريد فى كتابه «مدخل إلى تاريخ السينما العربية» عن الأفلام الهامة التى تخص هذه المرحلة يصل عددها «إجمالا» إلى حوالى ٥٠ فيلما.

يتميز كتاب «أهم مائة فيلم» إلى جانب ذكر بيان العاملين فى الفيلم بتقديم ملخص قصة الفيلم ثم تحليل مركز له يذكر فيه أسباب أهميته ومن ثم أسباب اختياره. ونكتفى بذكر السبب الأهم منها.

والأفلام هى حسب ترتيبها التاريخى الذى حافظ عليه الكتاب:

١- نشيد الأمل عام ١٩٣٧ إخراج أحمد بدرخان: أول أفلام المخرج الذى أصبحت له أهمية فى تاريخ السينما المصرية، كما اتسم الفيلم بتصرفات سينمائية مميزة.

٢- سلامة فى خير ١٩٣٨ نيازى مصطفى: أول أفلام المخرج، حوار بديع خيرى، مشاهد مثيرة للضحك دون الاعتماد على حوار. تمثيل نجيب الريحانى.

٣- عثمان وعلى ١٩٣٨ توجو مزراحى: يصل الفيلم إلى درجة ملحوظة من الإتقان. تمثيل على الكسار.



٤- لاشين ١٩٣٨ فريتز كرامب: أضخم إنتاج فى حينه وأول فيلم سياسى، مستوى فنى غير مسبوق، عناية خاصة بالديكورات.

٥- العزيمة ١٩٣٩ كمال سليم: قدم صورة واقعية غير مسبوقة، يعتبر نقطة تحول فى تاريخ السينما المصرية، ذكره الناقد الفرنسى جورج سادول ضمن أحسن مائة فيلم فى تاريخ السينما العالمية.

٦- غرام وانتقام ١٩٤٤ يوسف وهبى: الفيلم الثانى والأخير لأسمهان تمثيلا وغناء، ويضم ستا من أغانيها الكلاسيكية.

٧- عنتر وعبلة ١٩٤٥ نيازى مصطفى: براعة فى نوعية أفلام الفروسية والحركة.

٨- السوق السوداء ١٩٤٥ كامل التلمسانى: من كلاسيكيات السينما السياسية فى مصر والعالم.

٩- لعبة الست ١٩٤٦ ولى الدين سامح: فيلم جميل لا يمله الجمهور. به ثلاث أغنيات أصبحت من كلاسيكيات الغناء الشعبى... يعبر بامتياز عن مصر الليبرالية «٢٠ - ١٩٥٢».

١٠- النائب العام ١٩٤٦ أحمد كامل مرسى: من كلاسيكيات السينما المصرية كما هو مذكور فى جميع المراجع. ونموذج لإتقان التمصير عن مسرحية ألمانية.

١١- غزل البنات ١٩٤٩ أنور وجدى: درة الأفلام الغنائية لمخرجها، جمع باقة من عمالقة السينما والغناء، يوسف بك وهبى وعبد الوهاب وليلى مراد، نموذج فريد لتمثيل نجيب الريحانى، والقصة والحوار لبديع خيرى.

١٢- مصطفى كامل ١٩٥٢ أحمد بدرخان: أول فيلم عن حياة زعيم سياسى، أسلوب رصين فى الإخراج، كتب قصته فتحى رضوان.

١٣- لحن الخلود ١٩٥٢ بركات: يمتاز رغم تعدد الأغانى فيه بإيقاع جيد متوازن وبقدرة حقيقية على خلق جو رومانسى مثير، ربما كان أكبر نجاحات فريد الأطرش فى مجال السينما.

أما الأفلام الهامة التى تخص هذه المرحلة ضمن قائمة استفتاء مهرجان القاهرة السينمائى الدولى، فيما عدا ما سبق ذكره فهى:

دنانير ١٩٤٠ أحمد بدرخان، سى عمر ١٩٤١ نيازى مصطفى، أمير الانتقام ١٩٥٠ بركات، المنزل رقم (١٣) ١٩٥٢ كمال الشيخ، زينب ١٩٥٢ محمد كريم، ابن النيل ١٩٥٢ يوسف شاهين.

ويقسم سمير فريد هذه المرحلة إلى قسمين الأول من ١٩٣٦ حتى ١٩٤٤ ومن أهم أفلامها (مع عدم تكرار الأفلام التى سبق ذكرها) أفلام عبد الوهاب الغنائية (٧ أفلام)، الهارب بدر لاما ١٩٣٦، ليلى بنت الصحراء ١٩٣٧، قيس وليلى وكلاهما لإبراهيم لاما ١٩٣٩، وأفلام ليلى مراد (٧ أفلام منها ٥ إخراج توجو مزراحى)، الفرسان الثلاثة ١٩٤٠ وألف ليلة وليلة ١٩٤١ والفيلمان من إخراج توجو مزراحى، صلاح الدين الأيوبى ١٩٤١ إبراهيم لاما، عريس من استانبول ١٩٤١ يوسف وهبى، العامل ١٩٤٢، بنت الشيخ ١٩٤٣ والفيلمان من إخراج أحمد كامل مرسى، رابحة ١٩٤٣ نيازى مصطفى، البؤساء ١٩٤٣، شهداء الغرام ١٩٤٤ والفيلمان من إخراج كمال سليم.

ومن الأفلام الهامة فى القسم الثانى من هذه المرحلة «حسب تقسيم سمير فريد» (٤٥-١٩٥٢): مغامرات عنتر وعبلة ١٩٤٨، دايما فى قلبى ١٩٤٦ والفيلمان من إخراج صلاح أبو سيف، شهرزاد ١٩٤٦ فؤاد الجزايرلى، أفلام فريد الأطرش وخاصة حبيب العمر ١٩٤٧ ولحن الخلود ١٩٥٢ والاثنان من إخراج بركات، فتح مصر والشاطر حسن ١٩٤٨ فؤاد الجزايرلى، فتاة من فلسطين ١٩٤٨ محمود ذو الفقار «أول فيلم سياسى»، الأفوكاتو مديحة ١٩٥٠ يوسف وهبى، بابا أمين ١٩٥٠ يوسف شاهين، بابا عريس ١٩٥٠ حسين فوزى «أول فيلم ألوان»، ظهور الإسلام ١٩٥١ إبراهيم عز الدين «أول فيلم دينى»، الأستاذة فاطمة ١٩٥٢ فطين عبد الوهاب.

ومن الملاحظ أن الأفلام التى سبق ذكرها اقتصر الاختيار فيها على الناحية الفنية. ورغم العدد الكبير المذكور منها فهو لا يعنى أنها الأفلام الوحيدة الهامة ومن حق اى ناقد أو مؤرخ أن يضيف إليها أفلاما أخرى يكتشف فيها قيما فنية.

كما أن القيمة الفنية ليست المعيار الوحيد لأهمية الفيلم. هناك من القيم الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية وغيرها ما يضفى الأهمية على الأفلام. والأفلام التى يقبل عليها الجمهور تكتسب أهميتها من قيمتها فى التعبير عن ذوق الجمهور واتجاهاته حتى وإن تدنت مستوياتها الفنية. وإن كانت القيمة الفنية تظل هى المعيار الأساسى لمكانة الفيلم فى مسار التاريخ الفيلمى، إلا أن اختلاف المعايير يوسع/يفرض من نطاق دراسة هذه الأفلام وغيرها على قدر ما بها من تنوع. ■

”فرحت بالقائلين لي

"إلى بيت الرب نذهب"

كنائس مصر

كنائس مصر

مينا بديع عبد الملك
تصوير: شريف سنبل

■■ كتاب من القطع الكبير يقع فى حوالى ٣٢٥ صفحة مزود بأكثر من ٣٠٠ صورة بعدسة المصور الفنان شريف سنبل، قام بتحرير مواده العلمية «جودت جبرة» المدير السابق للمتحف القبطى بالقاهرة والمؤلف للعديد من الكتب التى صدرت عن دار النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى موضوعات مصر المسيحية، كنوز الفن القبطى الموجودة بالمتحف القبطى بالقاهرة. وحاليا يعمل أستاذًا زائرًا فى الدراسات القبطية بمعهد كليرمونت بولاية كاليفورنيا الأمريكية. أيضًا «جرترود فان لون» المتخصصة فى الفن القبطى والآثار القبطية، وتعمل حاليا باحثة بجامعة ليدن الهولندية. وقام بإعداد الكتاب ومتابعة طباعته كارولين لودفيج مؤلفة كتاب كنائس لوس أنجلوس الصادر عام ٢٠٠٣ .

«بعد المقدمة وتاريخ المسيحية فى مصر الذى سجله جودت جبرة، عمارة الكنائس القبطية التى سجلتها دارلين بروكس هدستورم، الفن فى الكنائس القبطية التى سجلتها جرترود فان لون، تم عرض شامل للكنائس فى مصر بقسمين:

القسم الأول: خاص بكنائس مصر السفلى وسيناء. وهذه الكنائس موجودة بالمدن الآتية: بورسعيد، بلقاس، الإسكندرية، سخا، القاهرة، بالإضافة إلى أديرة وادى النطرون ثم سيناء.

The Churches of Egypt: From The Journey of the Holy Family to the Present day
(كنائس مصر: من رحلة العائلة المقدسة حتى اليوم)
Gawdat Gabra, Gertrud J. M. VanLoon, Carolyn Ludwig
Photographs: Sherif Sonbol
American University in Cairo Press, 368pp., $59.95, 2007

القسم الثانى: خاص بكنائس مصر العليا والموجودة بالمدن الآتية: الفيوم، بنى سويف، المنيا، أسيوط، أخميم، سوهاج، نقادة، الأقصر، أسوان، بالإضافة إلى أديرة البحر الأحمر.



بأسلوب شيق تعرض كارولين لودفيج قصة هذا الكتاب الذى قامت بإعداده ومتابعة طباعته فتقول: خلال زياراتى العديدة لأرض مصر فى الخمس والعشرين سنة الماضية، أعجبت شديد الإعجاب بالحضارة المسيحية التى نسجت عبر التاريخ بتاريخ مصر. هذه العظمة يعود تاريخها إلى الأيام الأولى للمسيحية فى مصر حينما حضرت إليها - قادمة من الناصرة - العائلة المقدسة هربًا من بطش الطاغية هيرودس. ومن هنا أصبحت هذه الزيارة جزءًا أساسيا فى الثقافة المصرية المحبوبة لدى المسيحيين والمسلمين على حد سواء.

لقد تأثرت كثيرًا بالنواحى الإنسانية الرائعة فى الروايات التى مازالت تتردد عن تلك الأيام التى قضاها السيد المسيح فى أرض مصر، بالإضافة إلى اهتمام المصريين والسائحين بالكنائس والأماكن المرتبطة بزيارة العائلة المقدسة لهذا البلد العظيم مصر. كما تأثرت أيضًا بالبساطة المتناهية التى كانت عليها الكنائس الأولى فى مصر التى على النقيض تمامًا من الكنائس المقامة بالمرمر والمحلاة بالذهب والموجودة بكنائس روما. فالكنائس الأولى مبنية من الحجر الجيرى والطوب وأسقفها مصنوعة من الخشب وألوانها متطابقة مع رمال الصحراء الشاسعة المحيطة بها، وأيقونتها اللامعة معلقة على شبابيك خشبية أو بداخل قبو صغير بالهيكل المقدس والتى يمكن - فى بعض الأحيان - رؤيتها بصعوبة.

قصة زيارة العائلة المقدسة لأرض مصر جاء ذكرها بالتفصيل فى إنجيل القديس متى ومنها نستنتج أن العائلة المقدسة أقامت فى مصر نحو ثلاث سنوات ونصف السنة.

فى عام ٢٠٠٠ اهتم قداسة البابا شنودة الثالث ومعه أساقفة الكنيسة القبطية بالاحتفال بهذه الزيارة التاريخية والتتبع الدقيق لمسار هذه الزيارة. لهذا اصطحبت معى المصور الفنان شريف سنبل ليسجل بنفسه صور هذه الأماكن المقدسة والتى تم طبعها فى هذا الكتاب.

ثم اختتمت قصتها فى تسجيل هذا الكتاب بقولها: (آمل أن تشاركنى فى إعجابى ببساطة وجمال تلك الأماكن المقدسة التى صمدت لسنين عديدة حامية للمسيحية فى مصر فى الماضى وهى البوابة نحو المستقبل).

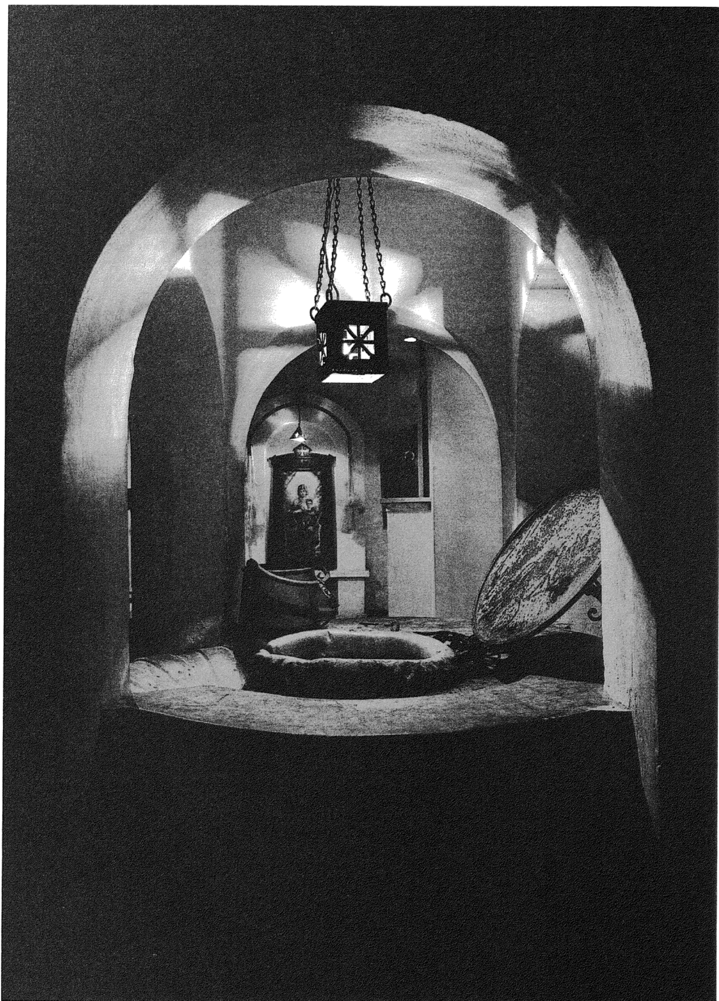
لقد أهدت مصر إلى العالم المسيحى وإلى الحضارة ثلاثة مظاهر لذلك الإيمان الذى تغلغل فى قلوب المصريين واختلط بدمائهم وهى: معلم اللاهوت والشهيد والناسك



مصر والمسيحية

كلمة «أقباط» جاءت مباشرة من الكلمة العربية «قبط» المحورة من الكلمة اليونانية «إيجبتوس» أى «مصر» والتى جاءت بدورها من اللفظ الفرعونى القديم «هكبتاح» التى هى أحد أسماء «ممفيس». وفى البداية كانت الكلمة تشير إلى غير الناطقين بالعربية غير المسلمين.

وكما يسجل أوسابيوس - فى القرن الرابع الميلادى - أن القديس مرقس كرز بالمسيحية فى الإسكندرية وكان أول من أسس كنائس فى أرض مصر. بعد ذلك انتشرت المسيحية بالتدريج فى أنحاء ربوع مصر بفضل مدرسة الإسكندرية اللاهوتية التى تأسست نحو عام ١٨٠م والتى تولى إدارتها عظماء العلماء والمعلمين والكتاب وذلك فى نهاية القرن الثانى الميلادى وبداية القرن الثالث والذين منهم بنتينوس وكليمنفس واوريجانوس وديونسيوس. فمدرسة الإسكندرية هذه كانت ميدانًا تجلى فيه بشكل واضح حيوية الكنيسة المصرية من الناحية الفكرية، إذ تكون فيها للمرة الأولى آداب مسيحية وافرة المحصول، قوية المبنى. ويحتوى تاريخها على صفحات رائعة لمعلمى الكنيسة الأوائل، تلك الشخصيات التى ذاع صيتها وتركت لنا آثارًا خالدة. كانت الإسكندرية فى ذاك الوقت من أكبر مدن العالم، فى ملتقى ثلاث قارات، وكانت المركز الرئيسى للثقافة الفلسفية فى العالم بعد أن تدهورت



القديس مرقس كرز بالمسيحية فى الإسكندرية وكان أول من أسس كنائس فى أرض مصر. بعد ذلك انتشرت المسيحية بالتدريج فى أنحاء ربوع مصر بفضل مدرسة الإسكندرية اللاهوتية التى تأسست نحو عام ١٨٠م



كنائس مصر

المكانة الأدبية لأثينا. فكانت تصب فيها القيادات الفكرية من الشرق والغرب، فحوت أناساً من أمم مختلفة، نتج من احتكاك أفكارهم وأخلاقهم ودياناتهم وغليانها زبد عجيب. فكانت فيها مدارس فلسفية وثنية كان يتردد فيها على وجه الخصوص اسم أفلاطون، ومدرسة فلسفية يهودية يرأسها الفيلسوف فيلون الذى كان معاصراً للقديس بولس الرسول، كان متشبعاً بالفلسفة الأفلاطونية ومتعمقاً فى دراسة الكتاب المقدس.

وعندما جاء القديس مرقس إلى مدينة الإسكندرية وجد نفسه أمام مناهج فلسفية يهودية أو وثنية، فكان عليه أن يوضح ما يتنافى من مناهج هذه الفلسفات مع تعاليمه، وبذلك تجنب القديس مرقس منذ بدء نشاطه فى الإسكندرية أن تختلط تعاليم المسيحية أو تمتزج بالمذاهب الأخرى التى كانت منتشرة، وضمن بقاءها فى وسط ذلك الخضم ديانة سماوية قائمة بذاتها. من هنا كان دور مدرسة الإسكندرية فى البداية هو إعداد الداخلين فى المسيحية سواء من اليهودية أو الوثنية، وكان على علمائها أيضاً الدفاع عن المسيحية ضد مهاجميها. وإلى علمائها يرجع الفضل فى محاربة الهرطقات التى انتشرت فى القرن الثانى فى الإسكندرية وأهمها الغنوسطية والأفلاطونية الجديدة بعد ذلك. حتى إن الإمبراطور هادريان - الذى زار الإسكندرية حوالى عام ١٣٠م - قال: (إنا لا نجد هناك كهنة مسيحيين لم يكونوا علماء ورياضيين).

كانت البشارة بالمسيحية أولاً فى الإسكندرية باللغة اليونانية، وكان لابد من إيصالها إلى المصريين الذين يتكلمون القبطية، ويكاد يكون مؤكداً أن اللغة المصرية كانت لغة التبشير فى الدلتا، وكان ذلك مؤكداً دون شك فى مصر العليا، ولم ينته القرن الثانى حتى كانت المسيحية قد انتشرت انتشاراً واسعاً بين المصريين الوطنيين. ولذلك تمكن علماء مدرسة الإسكندرية اللاهوتية من استحداث ما نسميه الآن باللغة القبطية، التى هى فى الواقع اللغة المصرية الدارجة لذلك العهد، كتبت بحروف إغريقية، وأضيفت إليها سبعة حروف مأخوذة عن الديموطيقية، ثم وضعت لها قواعد النحو والهجاء، فكان عملاً فنيا رائعاً، قام به ولا شك لغويون على جانب كبير من الخبرة اللغوية. ويظن أن بنتينوس كان أحدهم.

ما إن أشرق القرن الثالث الميلادى، حتى بدأ بعض المسيحيين يولون ظهورهم للعالم، ويتوغلون فى الصحراء، لينفردوا فى خلوة مع الله، وليمضوا البقية الباقية من حياتهم، فى صوم وصلاة، وما أسرع أن انتشرت هذه الدعوة فى أرض مصر. وبعد تلك الحياة المرحة، حياة الدعة والترف التى اشتهر بها المصريون فى عهد الوثنية، انقلب كثير من المصريين - فى تلك الأيام - إلى نساك يعيشون فى الصحارى والقفار فى فقر وجهاد، ويقضون معظم أوقاتهم فى صلوات وابتهالات، بالإضافة إلى أعمال يدوية ليقتاتوا منها.

ومؤسس الرهبنة المسيحية هو الأنبا أنطونيوس لا بسبب أنه كان الأول الذى توحد فى الصحراء، إذ سبقه آخرون إلى ذلك أهمهم الأنبا بولا، ولكن بسبب كونه الأول الذى تجمع حوله جمهور من النساك برغبة اتباع تعاليمه، لم يكن لهم من قوانين سوى ما تمليه عليهم ضمائرهم وكانوا يتتبعون خطوات معلمهم فى القيام بواجبات النسك والعبادة. واستمرت الحال كذلك إلى أن قام بتنظيم تلك الحياة القديس الأنبا باخوم بقوانينه وأنظمته الرهبانية وهو المشهور بلقب أب الشركة الرهبانية.

لقد أهدت مصر إلى العالم المسيحى وإلى الحضارة ثلاثة مظاهر لذلك الإيمان الذى تغلغل فى قلوب المصريين واختلط بدمائهم وهى: معلم اللاهوت والشهيد والناسك.

عمارة الكنائس

ينحصر تخطيط الكنيسة عامة فى ثلاثة أنواع رئيسية، هى التخطيط البازيليكى والتخطيط البيزنطى والتخطيط القبطى. والكنيسة القبطية استمدت عناصرها من الطرازين البازيليكى (الذى تعود أصوله الأولى إلى أنواع العمائر الرومانية القديمة التى كان يمثلها أساساً ساحة العدل عند الرومان) والبيزنطى (الذى استمد اسمه من اسم الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطية).

تخطيط الكنيسة القبطية قائم أساساً على البازيليكا، وأهم التغييرات المعمارية التى طرأت على جوهر التخطيط البازيليكى تكمن فى النهاية الشرقية من جسم الكنيسة. ففى النهاية الشرقية من جسم الكنيسة توجد عدة هياكل يختلف عددها من كنيسة إلى أخرى، وإن كان يغلب وجود ثلاثة هياكل فى البناء الكنسى، بينما يوجد فى بعض الأحيان خمسة هياكل وأحيانًا سبعة هياكل. كذلك توجد لكل هيكل من هذه الهياكل عناصر معمارية ثابتة تتمثل فى: حنية صغيرة تتوسط الضلع الشرقى للهيكل، يتقدم هذه الحنية مدرج رخامى، يغطى هذه الهياكل قباب لها مميزات خاصة. كما تنفصل هياكل الكنيسة فى الناحية الشرقية عن جسم الكنيسة الرئيسى فى الناحية الغربية بواسطة أحجبة خشبية تعرف باسم «حامل الأيقونات» وتعد هذه من أدق خصائص الكنيسة القبطية.

ومن العناصر المعمارية الثابتة فى الكنيسة القبطية، تيجان الأعمدة القبطية. فالعمود القبطى يتألف من ثلاثة أجزاء: القاعدة، البدن، التاج. وتتخذ قاعدة العمود القبطى الشكل المربع أو المستطيل ويتخللها زخرفة محفورة نباتية أو هندسية. أما بدن العمود القبطى فتميزت بوجود زخارف مختلفة جمعت بين الكتابات القبطية والزخرفة النباتية وأهمها أوراق الأكانتس، بالإضافة إلى أشكال للصليب المقدس، هذا بالإضافة إلى حفر بعض مناظر القديسين. أما تاج العمود القبطى فقد تمت زخرفته بأشكال الرموز القبطية المتنوعة.

أما بالنسبة للأديرة، فالدير - من الناحية المعمارية - هو عبارة عن مجموعة من الأبنية المتعددة ذات الطابع الدينى، وهو يضم بداخله مجموعة من الأبنية تشمل الكنائس والقلالى والحصن والمائدة والطواحين والمكتبة، بالإضافة إلى الأسوار والتى تعد من العناصر المعمارية المهمة وهى التى تحيط بالعناصر المعمارية الداخلية، وتبنى عادة بارتفاع كبير حتى لا يمكن تسلقها أو اختراق الدير. ومعظم أسوار الأديرة القديمة بنيت من مادة الطوب اللبن مثل سور دير القديس الأنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر، وذلك لجودة مادة الطوب

اللبن والتى تقاوم البرودة والحرارة فى آن واحد.

الفن فى الكنائس القبطية

تميزت الكنيسة القبطية بالبراعة فى استخدام مادة الأخشاب الجيدة فى صنع وزخرفة ما يعرف بالأحجبة الخشبية (حامل الأيقونات) والتى تفصل هياكل الكنيسة فى الناحية الشرقية عن الأروقة الطولية فى الناحية الغربية، وهى بذلك قد انفردت فى هذا العنصر المعمارى الزخرفى عن الكنائس المسيحية الأخرى زخرف الفنان كل الحشوات الخشبية على مسطح حامل الأيقونات، بواسطة الحفر البارز العميق. وقد شملت هذه الزخارف مناظر آدمية وحيوانية وأشكال الطير ونباتية وهندسية. هذه الأشكال المتعددة من الزخارف كان يقصد من ورائها توضيح العقيدة المسيحية وإبراز دور شهداء الكنيسة فيها، بالإضافة إلى ما عرف فى الفن القبطى من استخدام الرمزية ولاسيما فى أشكال الحيوانات والطيور.

ففى الزخارف النباتية تظهر الأوراق النباتية المختلفة كالورقة ذات الفص الواحد والفصين وأوراق العنب الثلاثية والخماسية والمحاطة بتفريعات نباتية والمراوح النخيلية وأنصافها، كذلك الأوراق التى تظهر بها التعرقات النخيلية والمثقوب فصها الأوسط والورقة الكأسية الثلاثية والأوراق الرمحية وثمرة الرمان، وغير ذلك من العناصر النباتية العديدة التى تظهر بكل وضوح بكنائس منطقة مصر القديمة.

وفى الزخارف الآدمية والحيوانية، نجد أن الحشوات التى تزينت بها الأخشاب تمثل شخصيات دينية ذات تاريخ مهم، يتضح فيها عدم مراعاة النسب التشريحية لجسم الإنسان، حيث تعمد الفنان القبطى حفر الشخصيات الرئيسية بحجم أكبر من الشخصيات الثانوية. ومن أمثلة هذه الحشوات: حشوة الميلاد التى تمثل قصة ميلاد السيد المسيح وهو موضوع شاع وجوده على التحف المختلفة. وحشوة العشاء الأخير أو العشاء السرى وهو يتعلق بالمشهد الأخير من حياة السيد المسيح، وحشوة تمثل قديسا على صهوة جواده وهى بذلك تمثل حال القديس الفارس كانتصار المسيحية على الوثنية وتخليد ذكرى هؤلاء القديسين الذين كان لهم دور كبير فى الاستشهاد المسيحى. أما أشكال الطيور فقد كان لمنظر الطاووس الغلبة على بقية الطيور إذ إنه يرمز إلى الفردوس.

أما فى الزخارف الهندسية والكتابية فإنه من المعروف أن الفن القبطى يأتى فى مقدمة الفنون التى تميزت بوضوح الزخرفة الهندسية، إلى حد كبير، وفى هذه الزخارف تظهر أشكال الدوائر وأنصافها والمربعات والمعينات والمستطيلات والأشكال الخماسية والسداسية وأشكال العقود بأنواعها المختلفة والأشكال النجمية والمتعددة الرؤوس وأشكال الأوانى والزهريات، بالإضافة إلى استخدام عنصر الصليب فى الزخرفة.

وفى الزخارف الكتابية، فإن الكنيسة القبطية تميزت كتاباتها بوضوح الطابع الكنسى، سواء فى الكتابات القبطية أو العربية، إذ إنها مستمدة من الكتاب المقدس. فمن أمثلة الكتابات التى تزخر بها الكنائس: «فرحت بالقائلين لى إلى بيت الرب نذهب».



كان على القديس مرقس أن يوضح ما يتنافى من مناهج الفلسفات القديمة مع تعاليمه

نماذج من الكنائس

(أولاً): كنائس منطقة مصر القديمة

(١) كنيسة القديس مرقوريوس: تقع هذه الكنيسة شمال حصن بابليون وتحمل اسم الشهيد القديس مرقوريوس المعروف بأبى سيفين.

هذه الكنيسة الكبيرة تتميز بكثير من العناصر والتفاصيل المعمارية والزخرفية والتى تجعلها تختلف عن كثير من كنائس منطقة مصر القديمة. الكنيسة بها ثلاثة مداخل متماثلة. ويقابل المدخل الأوسط محور حنية الكنيسة الرئيسية. يعلو المداخل، الصف الأول من فتحات النوافذ، حيث يشاهد ثلاث نوافذ متماثلة، يتكون كل منها من فتحتين مستطيلتى الشكل، يتوسطهما عمود رخامى له تاج وقاعدة، ويعلو النوافذ عتب خشبى.

تنتهى أروقة الكنيسة الرئيسية فى الناحية الشرقية منها بثلاثة عقود كبيرة ممتدة تفتح على الهياكل الثلاثة. الأوسط منها هو عقد الحنية الرئيسية، ويتميز بارتفاعه عن العقدين الجانبيين، ويرتكز هذا العقد على عارضة خشبية سميكة تقوم على عمودين رخاميين تيجانهما كورنثية الطراز.

(٢) كنيسة أبى سرجة: تقع هذه الكنيسة وسط الحصن الرومانى تقريباً، واتخذت تسميتها على اسم قديسين لهما شهرة كبيرة فى تاريخ الاستشهاد الدينى المسيحى فى أوائل القرن الرابع الميلادى وهما القديسان سرجيوس وواخس اللذان استشهدا فى عهد الإمبراطور الرومانى مكسيميانوس.

وفى هذه الكنيسة احتمت العائلة المقدسة. أثناء زيارتها لمصر. بالمغارة التى تقع أسفل الكنيسة.

والكنيسة من الناحية المعمارية تتكون من وحدتين أساسيتين، الكنيسة الكبيرة الرئيسية ومغارة الكنيسة. فالكنيسة الرئيسية مستطيلة الشكل تتكون من الواجهة والأروقة الداخلية الرأسية والمستعرضة ثم فى النهاية الشرقية من البناء حنية الكنيسة الرئيسية. يعلو المدخل الأوسط الرئيسى والمدخل الجنوبى نافذتان تتكون كل منهما من فتحة مستطيلة من الرخام المفرغ بالزخارف الهندسية ويتوسطهما عمود رخامى له تاج وقاعدة هرمية الشكل، كما يعلوهما عتب خشبى يبدأ من عنده الطابق الثانى للكنيسة.

أما مغارة الكنيسة فتقع على عمق ٩٠,٣ متر من مستوى أرضية الكنيسة، وتخطيطها مستطيل ويبلغ ارتفاعها ٤٠,٢ متر محفورة فى صخر جبل المنطقة ويغطيها قبو حجرى محدب. وهى مكونة من ثلاثة أروقة رأسية، وتتميز أعمدة هذه المغارة بعدم وجود طراز معين لشكلها باستثناء عمود قديم واحد من الطراز الكورنثى.

(ثانيا): كنائس وأديرة مركز نقادة

تبقى من عمائر الأديرة والكنائس فى مركز نقادة حاليا سبعة أديرة، حيث تقع فى الناحية الغربية وتكاد تكون على محور واحد من الشمال إلى الجنوب فى الصحراء الشاسعة، وفى جبل معروف عند الأقباط باسم «جبل الأساس المقدس»، فقد كانت هذه الصحراء فى وقت ما مأهولة بنساك ومتعبدين مثل القديس إيليا (قديس جبل ببشواو) والقديس صموئيل (قديس جبل نهدب).

وقد ورد فى الكتاب عرض رائع لخمسة أديرة من مجموعة أديرة مركز نقادة وهى: دير الصليب، دير القديس أندراوس (المعروف باسم أندراوس أبوالليف)، دير مارجرجس، دير القديس بسنتاؤس، دير القديس بقطر، ودير الملاك ميخائيل.

(١) دير الصليب: يقع هذا الدير حاليا فى قرية حاجر دنفيق. إحدى قرى مركز نقادة. يمتاز هذا الدير بوجود ثلاث كنائس على صف واحد من الناحية الشرقية من سوره القديم أهمها الكنيسة الجنوبية من الناحية المعمارية، فهى مستطيلة الشكل مقسمة إلى ثلاثة أروقة رأسية تنتهى من الناحية الشرقية بثلاثة هياكل، والهيكل الرئيسى للكنيسة مغطى بقبة. يقسم أروقة هذه الكنيسة صفان من البائكات إلى ثلاثة هياكل، بكل صف مجموعة من الأعمدة الحجرية، حيث يقوم فوقها عقود حجرية نصف دائرية الشكل تحمل قباب الكنيسة.

(٢) دير مارجرجس المعروف بدير المجمع: هذا الدير يعد من أهم أديرة مركز نقادة من الناحيتين التاريخية والمعمارية. تسميته بدير المجمع ربما يعود إلى أنه الدير الوحيد بالمنطقة الذى يوجد به خمس كنائس قديمة والتى اختصت ببعض الظواهر المعمارية الفريدة فى الكنيسة القبطية. وهذا الدير يتوسط أديرة جبل الأساس المقدس، وفيه كان يتم تجميع المؤن الخاصة بهذه الأديرة وتوزيعها عليها.

(٣) دير القديس بسنتاؤس: يبعد هذا الدير عن دير المجمع بحوالى مائتى متر، إلى الجنوب الشرقى منه. ويعد القديس بسنتاؤس من أشهر قديسى مصر العليا عامة ومنطقة نقادة خاصة، فقد كان أسقفاً لمدينة قفط فى القرن السابع الميلادى.

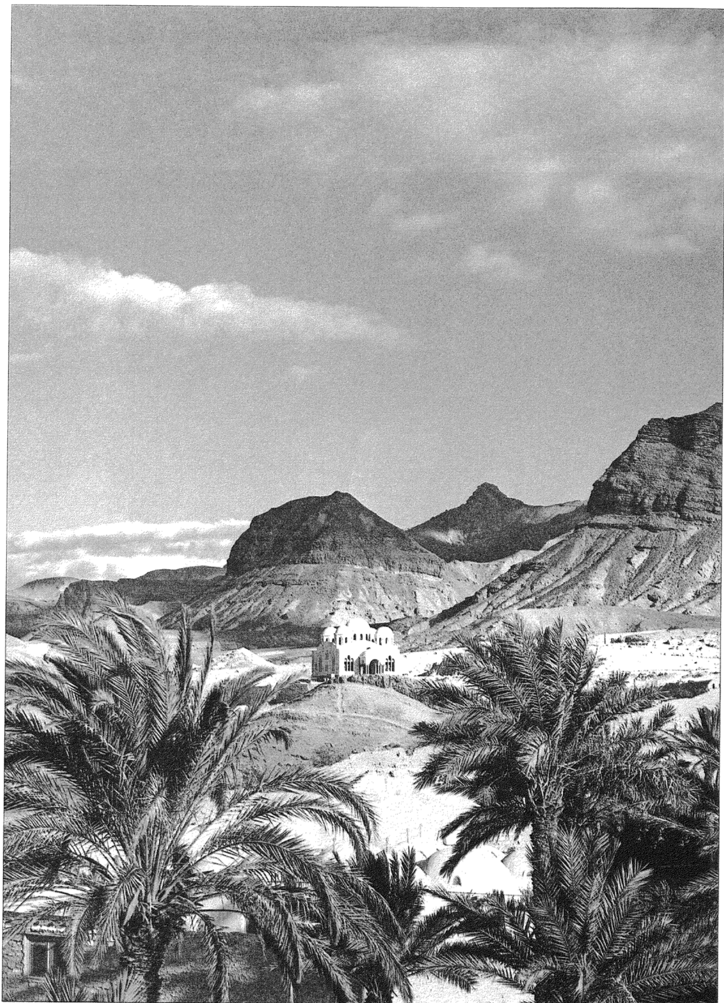
تعتبر كنيسة هذا الدير الأثر الوحيد الباقى حاليا من آثار عمارة الدير القديم، بالإضافة إلى بئر الدير القديم.

الكنيسة من الداخل مقسمة إلى ثلاثة أروقة رأسية، تنتهى فى الناحية الشرقية منها بثلاثة هياكل متميزة. الهيكل الأوسط يتميز بسمك جدرانه فى الناحية الشرقية والذى يصل إلى حوالى مترين!! وقد فصل هذا الهيكل عن الهيكلين الجانبيين فى الناحيتين البحرية (أى الشمال) والقبلية (أى الجنوب) بواسطة جدران قصيرة لا يتعدى ارتفاعها ٣٠,١متر، الهيكل البحرى يتميز بتجويف جداريه الشرقى والبحرى ويتوسط الجدار الشرقى حنية مماثلة لحنية الهيكل الأوسط، أما الهيكل القبلى فهو يشبه الهيكل البحرى إلا أنه يوجد به مدخل قديم مصمت يبلغ ارتفاعه ٧٥ سم كان يعلوه فى الأصل عقد نصف دائرى الشكل، وذلك فى الجدار القبلى. يغطى هذا الهيكل قبة مماثلة للقبتين السابقتين اللتين تعلوان الهيكل الأوسط والبحرى.

أما بئر الدير القديم فتقع فى الناحية الجنوبية الشرقية بالنسبة لكنيسة الدير وهى بئر واسعة يبلغ قطر فوهتها حوالى ٤م ويتوسطها عقد قديم نصف دائرى.

الكتاب فى مجمله رحلة شيقة إلى كنائس مصر المختلفة وأديرتها وبالأخص فى الأماكن التى زارتها العائلة المقدسة واستقرت بها فترة من الزمن. بالحقيقة سجل إشعياء النبى كلمته المأثورة: «مبارك شعبى مصر». ■





"أن تورّث الحكم لشخص ما.. فكأنك تورّثه شعبا

by James Gillray, Published by: H.Humphrey, March 2nd 1795



كما يُورّثُ قطيعا من الأغنام أو البقر

«توماس بين»

قصة ديموقراطية



محمد يوسف عدس

■■ «توماس بين» الكاتب البريطانى كان واحدا من أعظم الكُتّاب الثوريين فى القرن الثامن عشر.. لم يقتصر تأثيره على بريطانيا فقط بل امتدّ تأثيره إلى الثورة الفرنسية التى انطلقت فى صيف عام ١٧٨٩ وإلى الثورة الأمريكية ضد الاحتلال البريطانى (١٧٧٦-١٧٨٣) رحل إلى باريس ليغذّى لهيب الثورة هناك كما لحق بصديقه جورج واشنطون لينخرط معه فى العمل الثورى بقلمه ونفسه...

كان له أصدقاء آخرون فى كل من بريطانيا وفرنسا، ظن فى مرحلة مبكّرة أنهم يشاركونه فكره الإصلاحىّ الديمقراطىّ، ولكنه وجد نفسه فى تصادم مباشر معهم عندما اكتشف حقيقة توجّهاتهم العنصرية وعدائهم للحرية والديمقراطية. من أشهر هؤلاء «الماركيز دى لافايت» الفرنسىّ و «إدموند بروك» عضو البرلمان البريطانىّ.. نشر الأخير كتابا بعنوان: «تأملات فى الثورة الفرنسية» عبّر فيه عن مدى كراهيته للانتخابات العامة وعمق انتمائه الطبقى وغطرسته واحتقاره (للعوام) الذين أدلوا بأصواتهم لأول مرة فى انتخابات البرلمان الفرنسى إذ وصفهم بأنهم مجرد فلاحين (جرابيع) لا يتمتعون بالحكمة التى تتمتع بها الصفوة وفى هذا يقول: «المثقفون وحدهم هم الذين يمكنهم اكتساب الحكمة.. فهؤلاء لديهم متسع من الوقت ويتمتعون بالاسترخاء والتأمل.. فكيف يكسب الحكمة من يسير خلف المحراث وهو مشغول بالعمل اليدوى طول الوقت.. وكل حديثه لا يدور إلا حول الثيران والأبقار...!؟».. كان إدموند بيرك يسخر من مطالبة الفقراء والبسطاء بحقهم فى اتخاذ القرارات السياسية والمشاركة فى اقتسام الثروة الوطنية.. فمن رأيه أن هذه أمور تخص الفئة المالكة فالملكية عنده هى معيار القيمة الأعلى للإنسان (قل لى كم تملك أقل لك كم تساوى) وبناءً على هذه النظرية المادية الخالصة يعتبر أن الغنىّ العاطل هو النموذج الأعلى للإنسان.

ردّاً على هذا الموقف العنصرى المفرط فى غلوائه ألف «توماس بين» كتابا نُشر فى فبراير سنة ١٧٩١ «بعنوان حقوق الإنسان» يعتبر من أشهر الكتب التى ظهرت فى تاريخ بريطانيا كله.. افتتح الكتاب بهجوم كاسح على صديقه السابق بيرك واتهمه بأنه مُنوّم تنويماً مغناطيسياً.. فهو عاجز عن أن تمتد رؤيته الطبقية خارج النظام الملكى السابق فى فرنسا.. ولا يستطيع أن ينتزع خياله المتسمّر فى النظام البرلمانى العفن فى

The Vote: How It Was Won and How It Was Undermined
Paul Foot
Not Avail, 2005
—
CAPTIVE STATE: the corporate takeover of britain
George Monboit
Macmillan (2000)
—
The Blair Revolution
Peter Mandelson and Roger Lidelle .
London :Facer , 1996

بريطانيا وليس عنده ذرة من (الإحساس) بالمجتمع الحقيقى فى بريطانيا أو فرنسا.. طُبع هذا الكتاب فى سنة واحدة ست طبعات وبيع منه خمسون ألف نسخة وقد شجع هذا الإقبال الشديد على الكتاب على نشر الجزء الثانى منه سنة ١٧٩٢ تعميقاً للموضوع الأصلى ولكن بلهجة أقوى وأكثر ثقة وثباتاً.. يقول فيه توماس بين:

«إن كل الحكومات (الوراثية) بطبيعتها لا يمكن إلا أن تكون حكومة استبدادية.. فالتاج الموروث أو العرش الموروث ليس له إلا معنى واحد وهو أن الإنسان مجرد ملكية يمكن توريثها.. أن تورث الحكم لشخص ما فكأنك تورثه شعباً كما يُورثُ قطيع من الأغنام أو البقر.. يَخلف الحكام الواحد منهم تلو الآخر فتنتقل الشعوب إرثاً مملوكاً.. لا ككائنات عاقلة ولكن كحيوانات مملوكة...!..

فى تاريخ الشعوب الحية نقاط انطلاق محورية تبدأ بعدها عملية تغيير كبرى وتحولات مشهودة فى بعض تجليّاتها، وتحولات أخرى ربما أكثر أهمية تجرى فى العقول والأنفس.. ولا شك أن ظهور مفكرين وكتّاب ثوريين من دعاة الحرية والنضال الشعبى من أمثال «توماس بين» و«شيلى» وغيرهما كان يمثل نقطة انطلاق هامة فى مسيرة النضال من أجل الديمقراطية فى بريطانيا.. هذه المسيرة التى صبغت حياة الشعب البريطانى على مدى قرن من الزمن حتى برزت الديمقراطية بالصورة التى انبهر بها العالم...

ولكن تمكّن أعداء الديمقراطية من استخدام أساليب ماكرة فى الصراع حتى استطاعوا مؤخراً القفز إلى عربتها ليقبضوا على زمامها وتوجيهها لخدمة مصالحهم الإمبريالية الفاشية.. فاشية حقيقية رصدت بعض ملامحها الأساسية فى أمريكا وكتبت عنها مقالاً بعنوان «الفاشية الناعمة».

كنت أظن أن الديمقراطية البريطانية ربما تكون محصّنة ضد هذا التطور المأساوى.. ولكنى (للأسف) لاحظت شواهد دالّة على عكس هذا الظن عززته دراسة متأنية ومتابعة للحياة السياسية من موقع إقامتى فى لندن قرابة عقدين من الزمن..

وقد هالنى أن بريطانيا فى عهد رئيس الوزراء السابق «تونى بلير» قد تحولت إلى النموذج الأمريكى حيث تسيطر على اتخاذ القرارات المصيرية قوى من خارج البرلمان، (يعنى) قوى غير منتخبة من قِبل الشعب.. وبدا نواب الشعب المنتخبون فى حالة من العجز المزرى والارتباك المهين.. وهذا ما يعكسه كتاب بالغ الأهمية بعنوان: (الصوت الانتخابى: كيف اكتسبناه، وكيف بددْناه..؟) لمؤلفه «بول فوت»..

استغرق بحث موضوع هذا الكتاب وتأليفه تسع سنوات أو تزيد قليلاً.. فترة فاقت كل توقعات المؤلف، فقد ظن بعد ثلاث سنوات من القراءات الواسعة أنه قد حصّل من المعرفة فى موضوع بحثه ما يكفى لتأليف الكتاب ولكنه اكتشف كما يقول: «أننى مازلت أجهل الكثير مما ينبغى علىّ أن أعرفه..» فعاد إلى استئناف بحثه للموضوع وتحمل فى ذلك الكثير من العناء والتضحيات.. وفى حالة بول فوت بلغت تضحياته حد المرض والإعاقة البدنية التى تحداها بروح قوية.. ولكن أسلمه المرض فى النهاية إلى الموت..

إنها قصة مأساوية لكاتب وصحفى مقتدر آلمه أشد الإيلام أن يشهد بداية عصر احتضار الديمقراطية البريطانية ويشعر بأن قرناً كاملاً من النضال والتضحيات فى سبيل الحرية والديمقراطية يتبدد أمام ناظريه..

الإصلاحيون ومحنتهم:

كان كتاب حقوق الإنسان لـ «توماس بين» جزءاً من موجة عارمة تدعو إلى الإصلاح فى بريطانيا، ومع انتشار هذه الموجة فى الأوساط الشعبية زادت حدة القمع فى كل أنحاء بريطانيا.. فلما أعلنت فرنسا الحرب على بريطانيا سنة ١٧٩٣ اتخذت الحكومة البريطانية هذا الإعلان ذريعة لمزيد من القمع الذى شمل كل من يشيد بالثورة الفرنسية من الكُتّاب ودعاة التغيير السياسى باعتباره خائناً للوطن.. وفى تلك الفترة سادت مقولة على الألسنة فى الأوساط الشعبية مؤداها: أن حكومة هذه البلاد تحتكرها عصابة من أصحاب الأملاك لهم وحدهم حق التمثيل فى البرلمان وحق التصويت.. وعلى هذه العصابة المتميّزة أن تحمل ممتلكاتها على كتفها وترحل عن هذه البلاد.

قامت الحكومة باعتقال عدد من قادة الإصلاح وحكمت عليهم بالنفى فى مستعمراتها الأسترالية لمدة أربع عشرة سنة.. وقد استطاع عدد منهم الهرب من قبضة الشرطة وظل متخفياً حتى استقر فى فرنسا ليعيش فى منفاه الاختيارى بعيداً عن وطنه.. وكان هؤلاء أسعد حظاً من الذين أُرسلوا إلى أستراليا.. فمات بعضهم هناك وعاد بعضهم إلى بريطانيا سنة ١٨٠٩ وقد تحطمت عقولهم وأجسامهم تحت وطأة القهر والإذلال والأشغال الشاقة..

وفى عام ١٧٧٤ أسس أربعة من الإصلاحيين الإنجليز على رأسهم الكاتب الإنجليزى الشهير «توماس هاردى» جمعية للترويج لأفكارهم التحررية فاعتقلتهم السلطات وقدموا إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى.. وقد اشتمل قرار المحكمة بالإدانة على الفقرة التالية: «إن من يروج لفكرة الإصلاح البرلمانى يساوى المتآمر لاغتيال جلالة الملك...!»

وخلال فترة الحرب النابليونية اشتدت الهجمة على الإصلاحيين وكثرت القيود والإجراءات القمعية بدعوى (أن الأمة تحتاج إلى توحيد الصفوف خلف جيشها لهزيمة نابليون)، وعندما انتهت حرب نابليون اعتقد الناس أن حجة الحكومة قد انتهت بعد هزيمة فرنسا وعودة السلام إلى انجلترا.. ولكن مع السلام جاءت أزمات اقتصادية أشد وانتشر الجوع والفقر فى أنحاء البلاد.. وعادت حركة الإصلاح البرلمانى أقوى مما كانت عليه من قبل.. ومرة أخرى تهب السلطات متذرعة بحجة جديدة فتخفض أجور العمال لمواجهة الأزمة الاقتصادية.. وكانت الاستجابة الفورية من الشعب الذى استيقظ: اضطرابات واحتجاجات انطلقت فى طول البلاد وعرضها اعتراضاً على تقليص الأجور.. واستمرت الاضطرابات مشتعلة لأكثر من ثلاثة أعوام اعتباراً من سنة ١٨١٥.. حيث تركزت الثورة فى مناجم الفحم، من أغرب الملابسات فى تاريخ هذه الفترة أن الشعب سجّل أسماء جميع الذين قادوا حملات القمع ولا تزال مسجلة حتى اليوم لتعتبر بها الأجيال ولا تنسى أسماء الذين كانوا أسواطاً وجلادين فى يد الطاغية المستبد...!

ففى مانشستر سنة ١٨١٩ قرر العمال الإضراب عن العمل معبرين عن احتقانات متراكمة فى صراعهم مع أصحاب الشركات المدعّمين بقوة السلطة الحاكمة.. احتشد فى إحدى هذه المظاهرات ستون ألفاً فى مسيرة سلمية فإذا بقوات عسكرية من سلاح الفرسان تقتحم المظاهرة وتقتل أحد عشر شخصاً من المتظاهرين.. فاشتعل الصدام بين الجماهير الغاضبة وبين القوات العسكرية.. وانتشر التمرد فى كل مكان..



توالت الكوارث الاقتصادية بعد الحرب العالمية الثانية فمات فى أيرلندة من الجوع أكثر من مليون شخص فيما بين سنة ١٩٤٥ وسنة ١٩٥١.. وجاء خبراء السياسة والاقتصاد ليغسلوا أيديهم من تبعاتهم ومسئولياتهم (كالعادة دائماً) فنسبوا المجاعة إلى سوء المناخ.. ووضعوا اللوم على الضحايا أنفسهم..

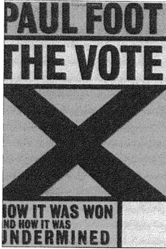
يقول بول فوت: «لم تكن التصريحات الرسمية لتتطرّق إلى الأسباب الحقيقية لنقص مواد الغذاء وغلاء المعيشة التى ترجع إلى أساليب الاستغلال والاستعباد والقهر التى تمارسها على الشعب حكومات تنفذ سياسة «السوق الحرة» بحذافيرها دون مراعاة لحاجة المستضعفين والفقراء...!!

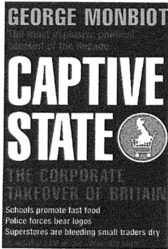
كانت تحركات الجماهير تجرى فى إطار سلمى وتلتزم بالقوانين وتعلن عن مطالبها بأساليب مشروعة منها مثلاً تقديم الشكاوى إلى البرلمان وقد جُمعت فى ذلك ملايين التوقيعات كما حدث سنة ١٨٣٩ إذ بلغ عدد هذه التوقيعات

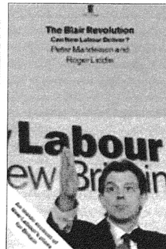
«إن كل الحكـــومات (الوراثيــة) بطبيعتهـا لا يمكـن إلا أن تكـون حكـــومة اســتبدادية»

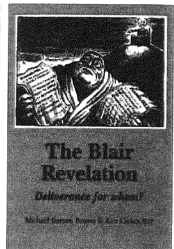
توماس بين











ثلاثة ملايين ونصف مليون توقيع.. وكانت استجابة البرلمان بالمماطلة ثم الإهمال..

وهنا يتبادر إلى الذهن هذا السؤال: لماذا الاحتقار والإهمال لمطالب الجماهير؟ أليس من المفروض أن البرلمان يعبر عن مصالح الشعب ويلبى مطالبه..؟ والإجابة المباشرة هى أن هذا البرلمان فى ذلك الوقت كانت عضويته مقصورة على النخبة الغنية.. وكان حق التصويت احتكاراً مقصوراً على المالكين وليس حقاً لكل أبناء الشعب.. ومن ثم استمرت القوانين تصدر من البرلمان لصالح القلة الثرية من أصحاب الأملاك وضد مصالح الأغلبية المحرومة من حق التصويت.. وفى هذا يعلق بول فوت قائلاً: «لقد تم كل هذا تحت سقف البرلمان ببجاحة شديدة وتحدٍ سافر لمشاعر الجماهير الشعبية...!».

كان شعار الحركة الإصلاحية حتى هذه النقطة من التطور التاريخى للديمقراطية البريطانية هو (رجل واحد صوت واحد) ولم يكن هناك إشارة أو ذكر لحق النساء فى التصويت فلم تكن الحركة النسائية قد تبلورت بعد فى بريطانيا..

الحركة النسائية نحو الديمقراطية:

كان الشاعر شيلى يتساءل فى استنكار: «هل يمكن للرجل أن يكون حراً إذا كانت المرأة رقيقاً..!؟» وجدير بالذكر أن سنة ١٨٨٤ شهدت انفراجاً كبيراً حيث قدم إلى البرلمان مشروع بقانون للإصلاح السياسى تحول إلى قانون أصبحت فيه الانتخابات العامة متاحة لـ ٦٠٪ من الرجال البالغين.. بمعنى أن هؤلاء الرجال من حقهم التصويت لاختيار نوابهم وحكومتهم.. أما المرأة فقد استمرت محجوبة عن صندوق الانتخابات لمدة ٣٤ سنة أخرى.. ففى سنة ١٩١٨ قدم الفيلسوف (عضو البرلمان) «جون استيوارت مل» مشروعاً لمنح المرأة حق التصويت.. ونلاحظ هنا أن عوامل اجتماعية أخرى معقدة كانت تسيطر على علاقة الرجل بالمرأة بعيداً عن معايير العنصرية البريطانية المتمثلة فى الأرستقراطية البريطانية.. بعيداً عن صراع الأغنياء مع الفقراء.. صراع المالكين مع المعدمين.. فقد ساد خوف الرجال من أن إعطاء المرأة حق التصويت قد يؤدى إلى أن يفقد الرجال سيطرتهم على ممتلكات زوجاتهم..

كان الاعتقاد السائد بين الرجال فى ذلك الوقت لا يزال متأثراً بأفكار طرحها عضو برلمان سابق سنة ١٨٦٧ قال: «ينبغى على المرأة المتزوجة أن تمنح زوجها كل ما تملك بما فى ذلك نفسها فى السراء والضراء على السواء.. وينبغى عليها أن تكون تحت سيطرة زوجها بصفة كلية ومطلقة.. ليس فقط فيما يتعلق بممتلكاتها ولكن فى كل ما يتصل بحركتها الشخصية.. فإذا تمردت عليه فإن من حق زوجها أن يحبسها...» ثم يتابع قائلاً: «ويرى بعضهم ضربها.. إلا أننى لا أنصح بذلك.. وإذا سألنى أحدهم باعتبارى محامياً قانونياً فلن أنصحه بالضرب.. ولكن لا شك عندى أن الزوج له حق الهيمنة الكاملة على شخص زوجته وعلى ممتلكاتها...»

ويحاجج «هنرى أيرتون» عضو البرلمان البريطانى لا ضد حق النساء فقط بل يلحقه بحق الفقراء أيضاً فيقول: «لو أن كل إنسان حصل على حق التصويت فإن الأغلبية الفقيرة ستلجأ إلى مصادرة ممتلكات الأغنياء»، وعلى هذا المنوال احتج عضو آخر بقوله: «إذا نالت النسوة حق التصويت فسوف تسحب الزوجات ملكياتهم من الأزواج.. وأسوأ من هذا أن يتشبثن بحقهن أن يكون لهن رأى خاص مستقل عن أزواجهن...» ثم يستنكر متعجباً: «ماذا يحدث لو أن المرأة خالفت رأى زوجها.. إنها لمصيبة!؟ والأسوأ من كل هذا أن تنتخب الزوجة ضد رغبة زوجها...» ويخلص الرجل إلى النتيجة المنطقية فيقول: «وعلى ذلك لابد من منع المرأة من التصويت فى الانتخابات.. وإلا فستفقد النساء حياءهن ورقتهن وعواطفهن وكذا مؤهلاتهن المنزلية...» وهكذا هزم مشروع جون إستيوارت مل...!

حظيت بعض النساء من صاحبات الأملاك على حق التصويت سنة ١٨٦٩ لا فى البرلمان ولكن فقط فى المجالس المحلية.. ومع قانون التعليم الصادر سنة ١٨٧٠ حصلت النساء على حق التصويت فى انتخابات مجالس الآباء المدرسية والترشيح لعضوية هذه المجالس.. وكان طابع الحركة النسائية فى هذه المرحلة يغلب عليه سمات نساء الطبقة الغنية، لذلك اقتصرت على الاجتماعات والندوات والخطب.. وتقديم الشكاوى من وقت لآخر لأعضاء البرلمان والحكومة..

ظهور الطبقة العاملة النسائية:

ظهرت الطبقة العاملة النسائية فى بريطانيا فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.. ووجدنا نساء يقتحمن البرلمان والاجتماعات الحزبية العامة ويطالبن بالكلمة.. أو يصحن فى وجه أعضاء البرلمان: «لم لا تمنحون المرأة حق التصويت..» وهنا تتدخل الشرطة لتخرج النساء من قاعة البرلمان ويقبض عليهن ثم تقدمهن إلى المحكمة بتهمة (تعكير صفو السلم الاجتماعى) فتحكم المحكمة عليهن بالسجن أو الغرامة.. وغالباً ما كن يرفضن دفع الغرامة فيودعن فى السجن..

تطورت حركة النساء السياسية لتبلغ قمة اشتعالها فى عامى ١٩٠٨ و١٩٠٩م.. وفى هذا كتبت واحدة من رائدات الحركة النسائية فى بريطانيا تصف هذه الحالة من تأجج الحماس:

«شعرنا فى ذلك الوقت بأننا جزء من حركة الحياة المتدفقة فأصبح لنا هدف ومعنى نسعى لتحقيقهما.. كنا نتحرك فى كل مكان ونوزع منشورات ونتحدث إلى الناس لنشرح قضيتنا..» وفى ٢١ يونيه سنة ١٩٠٨ دعا الاتحاد النسائى إلى اجتماع فى «هايد بارك» وصف بأنه أكبر اجتماع نسائى حدث فى تاريخ بريطانيا.. إحتشد فيه مئتان وخمسون ألف متظاهرة، وبرزت هنالك متحدثات جماهيريات يمتلكن قوة البيان وسحره مما جعل أعداء الحركة ينصتون إلى قوة المنطق ويتعاطفن مع أهداف الحركة النسائية..

ومما هو جدير بالذكر كدليل على الإصرار والاستعداد للتضحية أن النساء كن إذا قبض عليهن لا يستسلمن ولا يخضعن لقهر الشرطة بل كن يتحدين السلطات ويرفضن دفع الغرامات ويؤثرن على ذلك الاعتقال وهذا ما زاد من تأجج الحركة النسائية بالغضب والثورة ضد الأوضاع القائمة..

استمر الصدام واستمر إيداع النساء فى المعتقلات والسجون حيث كثر عددهن فبدأت حركة إضرابات نسائية داخل السجون لسوء المعاملة.. وشمل هذا التمرد الإضراب عن الطعام مما اضطر سلطات السجون إلى اللجوء لقهر النساء على تناول الطعام بالقوة دون جدوى.

ولمعالجة هذه الحالة صدر فى سنة ١٩١٣ واحد من أغرب القوانين فى تاريخ بريطانيا سمى «قانون التسريح المؤقت» بمقتضاه يتم تسريح النساء اللائى أشرفن على الهلاك، ثم إعادتهن مرة أخرى إلى السجن بعد أن يستردن عافيتهن فى منازلهن.. ولذلك أطلق عليه الناس «قانون القط والفأر».

من أبرز الحالات التى تم تسجيلها فى تاريخ الحركة النسائية حالة «مارى ريتشارد سون» التى احتجّت على هذا القانون بإلقاء زجاجة حبر فى نافذة قسم الشرطة..فحُبست وأضربت عن الطعام فأفرج عنها لمدة خمسة أيام ثم أعيدت إلى السجن فاستأنفت الصيام مرة أخرى حتى أوشكت على الهلاك فأخرجت لخمسة أيام أخرى ثم أعيدت إلى السجن.. واستمر الحال على هذه الوتيرة لمدة عام كامل.. إلى ما قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ببضعة أيام حيث سُرّحت من السجن لإصابتها بالتهاب حاد فى الزائدة الدودية (وقد ظهر على جسدها كدمات وعلى فمها تمزّقات بأظافر بشرية من آثار التعذيب ومحاولة إجبارها على تناول الطعام قسراً.. كان إصرار مئات النساء على الإضراب رغم ما أصابهن من جراء التعذيب يتصاعد متحدياً إصرار ووحشية السلطات الأمنية.. واعتبر هؤلاء النسوة فى تاريخ بريطانيا أبطال حقوق النساء فى التصويت..

ضغط العوامل الاقتصادية:

أثناء الحرب العالمية الأولى قفزت أعداد النساء العاملات فى المصانع البريطانية خصوصاً فى الصناعات الحربية والهندسية وذلك لتجنيد أعداد كبيرة من الرجال فى الحرب، والمهم أن بول فوت يستخلص من التجربة الديمقراطية البريطانية أن اقتصار حركة الإصلاح على العمل من خلال الدستور فقط، والمقاومة السلمية لم يكن ليحقق النتائج الناجحة التى وصلت إليها هذه الحركة عندما قام المقهورون بالعمل الثورى المباشر فى وجه الطغاة.. ويرى أن أكبر ظهير للطغاة فى هذا الصراع هو استسلام المقهورين وسلبيتهم...! كما يرى أن النصر الذى تحقق للديمقراطية سنة ١٩١٨ لم يكن ليحدث بدون سنوات طويلة من النضال.. هذه المقاومة الطويلة المتواصلة والمثابرة هى التى خفّفت أولاً من التعصب التقليدى للرجل البريطانى ضد المرأة..

وثانياً: عندما قرّر الرجال أن يكسروا أسلوب حياتهم المعتادة ويعلنوا المقاومة والعصيان المدنى تحقق لهم ما يريدون.. وهكذا حصل البريطانيون رجالاً ونساءً على حق التصويت فى الانتخابات العامة عبر صراع طويل ومقاومة عنيدة ضد طغيان السلطات الحاكمة. صراع اتّسم بالعنف والتضحيات..!

تفكيك الديمقراطية:

هنا نقلب هذه الصفحة من الكفاح والنصر لننظر فى الصفحة الأخرى ونرى قصة الوهن الذى دبّ فى عضد الديمقراطية البريطانية، وكيف تم تفكيكها تدريجياً عبر صراع شرس وهجمات متواصلة من جانب تحالف قوى المال والأعمال وسطوة الشركات الزاحفة.. حتى تم تفجير الديمقراطية فى عهد تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا السابق.. ومن داخل حزب العمال نفسه الذى كان فى الماضى نصيراً صلباً للديمقراطية وحقوق الطبقات العاملة وصاحب مبادئ الديمقراطية الاشتراكية...؟! النصف الثانى من هذا المقال إذن يتناول الإجابة على سؤال «بول فوت»: كيف تم تبديد الصوت الانتخابى..؟

فى سنة ١٩٦٤م وفى بداية فترة حكومة عمالية كان يرأسها «هارولد ويلسون» زعيم حزب العمال، هبط عليه فى مقره بداوننج إستريت «لورد كرومر» مدير بنك لندن المركزى (لاحظ أنه بنك مستقل له نفوذه الهائل على الحركة المالية والاقتصادية.. ولكن مديره لا يخضع لسلطة رئيس الوزراء...!).. إنه يمينى من حزب المحافظين سلطوى حتى النخاع.. جاء ليظهر قلقه من عجز موازنة المدفوعات الذى ورثته الحكومة العمالية من حكومة المحافظين السابقة نتيجة سياسة وزير ماليتها تسببت فى عجز مالى مقداره ثمانمائة مليون جنيه إسترلينى..

اجتمع كبار أعضاء الحكومة لدراسة مقترحات «لورد كرومر» والنظر فى حلول للخروج من هذه الأزمة.. ثم قرّروا ألا تلجأ الحكومة إلى تخفيض سعر الجنيه الإسترلينى أو تعويمه.. فقد كانت هذه السياسة السبب فى سقوط حكومة العمال السابقة، حيث أدت تلقائياً إلى تخفيض أجور العمال.. ومن ثم اكتفى «جالاهان» وزير المالية بإجراءات سياسية لوقف النزيف المالى.. وبذلك اضطر إلى إرجاء كل الوعود التى قطعتها حكومة العمال على نفسها أثناء الانتخابات..

لم يُعجب هذا التصرف لورد كرومر.. واستمر فى بيع الإسترلينى.. حتى تدهور الاحتياطى النقدى فى البنوك..

ويصف هارولد ويلسن فى مذكراته (بعد ذلك) الحوار الذى جرى بينه وبين لورد كرومر فى اجتماعهما يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤م قال: «لقد وصلنا إلى نقطة كان ينبغى أن نعود فيها إلى الشعب لانتخاب حكومة مخوّلة بصلاحيات أكبر بعد أن نحيطهم علماً بأن حكومتنا مضطرة (بسبب موقف مدير البنك المركزى) للتراجع عن سياستها التى انتخبها الشعب لتنفيذها.. وأن عليها أن تنفذ سياسة حزب المحافظين التى عارضتها من قبل معارضة شرسة..» ويمضى هارولد ويلسون فيقول: «كان جواب مدير البنك المركزى صريحاً فى تأكيده أن هذا هو الحقيقة!!» يقول ويلسون: «لقد سألته حينئذ: هل معنى ذلك أن أى حكومة بقيادة أى حزب وتحت أى شعار أو برنامج مُعلن.. ومهما تكن السياسة التى خاضت الانتخابات بغية تنفيذها يستحيل عليها أن تستمر ما لم تتحول فوراً وبصورة مطلقة إلى سياسة حزب المحافظين..؟!» لقد اعترف الرجل بأن هذا تماماً هو ما يقصده من حججه التى ساقها أثناء المناقشة.. وبرر ذلك بأن هذا هو ما تمليه الحتمية الاقتصادية على موقف الذين بيدهم السلطة السياسية والاقتصادية جميعاً». وحجته فى ذلك: أنه تحت وطأة وحجم أزمة اقتصادية من العيار الثقيل لابد من تعليق العملية الديمقراطية..! وكان رد ويلسون حاسماً وشجاعاً بالرفض.. بل هدده بأنه ليس أمامه خيار إلا أن يعتصم بالديمقراطية إلى أقصى المدى، ومن ثم لابد من العودة إلى الناخبين للحصول منهم على صلاحيات أكبر للتعامل مع الأزمة.. وفى حالة مصارحة الشعب بتفاصيل الموقف فسوف يكون هناك إجماع شعبى بل زلزال يقلب الأمور على وجهها الصحيح.. وكان رد لورد كرومر بأن هذا قد يكون صحيحاً.. ولكنه لن يكون فى صالح الإسترلينى ولا فى صالح بريطانيا..».

يقول ويلسون: «غادر كرومر مقر مجلس الوزراء.. واستطاع أن يجمع ثلاثة مليارات دولار قرضاً لبريطانيا من البنوك المركزية.. وحقق بذلك وقفاً مؤقتاً لأزمة الإسترلينى..».

قصة هذا الصدام التاريخى المفتوح بين رجال البنوك وبين الحكومة المنتخبة هى وصف دقيق لحالة الخصومة الأبدية بين رجال المال والأعمال وبين الديمقراطية أو الحكومات الديمقراطية التى تحاول الالتزام بمصالح الطبقات العاملة أو الأغلبية المستضعفة التى انتخبتها للسلطة.. وكان جالاهان وزير المالية العمّالى كلما أعلن زيادة فى الإنفاق الحكومى لتدعيم الخدمات جاءته التحذيرات تترى من رجال البنوك الدائنة بالكف عن هذه السياسة الخاطئة.. وأنهم كانوا يتوقعون من الحكومة مسلكاً مختلفاً للحد من التضخم المالى..

يصور جالاهان صعوبة المأزق المالى فيقول: «كان الأمر بالنسبة لى كالسباحة فى أمواج هائلة كلما خرجنا من موجة عاتية أعقبتها موجة أعتى منها فتلطمنا قبل أن نتمكن من التقاط أنفاسنا..!».

بداية التنازلات:

من أهم الكتب التى تكشف عن قصة التنازلات العمالية المتدرِّجة كتاب «كلايف

«إذا نالت النسوة حق التصويت فسوف تسحب الزوجات ملكياتهم من الأزواج.. وأسوأ من هذا أن يتشبثن بحقهن أن يكون لهن رأى خاص مستقل عن أزواجهن..»

هنرى آيرتون عضو البرلمان البريطانى ١٨٦٧

قصة هذا الصدام التاريخى المفتوح بين رجال البنوك وبين الحكومة المنتخبة هى وصف دقيق لحالة الخصوة الأبدية بين رجال المال والأعمال وبين الديمقراطية



بونتنج» بعنوان: «النكوص عن الوعود: العمال فى السلطة ١٩٦٤ - ١٩٧٠».. نشرته دار «هامش هاملتون» سنة ١٩٨٩.. فقد كشف لأول مرة عن خلفية اتفاقية سرية بين حزب العمال البريطانى وبين الولايات المتحدة الأمريكية (تساعد أمريكا بمقتضى هذه الاتفاقية حكومة العمال البريطانية للخروج من أزمة الإسترلينى فى مقابل تدعيم الولايات المتحدة فى حربها بفيتنام.. وإبقاء عدد كبير من القوات العسكرية البريطانية شرقى السويس.. وغير ذلك من الشروط..) وكلها شروط مناقضة لسياسة حزب العمال التقليدية المعلنة.. فهذه السياسة كانت دائماً ضد المشاركة فى حرب فيتنام، وضد الاستمرار فى الإنفاق الباهظ على القوات الإمبراطورية.. وضد الإجراءات الاقتصادية التقشفية مثل خفض سقف الإنفاق الحكومى بحجة محاربة التضخم المالى.. وهكذا تنازلت حكومة العمال تحت تأثير الضغوط الاقتصادية وتلاعب رجال البنوك مع الولايات المتحدة لتتراجع عن السياسات التقليدية لحزب العمال.. وإنها لتفعل ذلك ضد قناعتها الدستورية والديمقراطية..!.. ولأول مرة (فى هذا المناخ التنازلى) تضطر حكومة عمالية لمواجهة إضراب عمال النقل البحرى بعنف شديد غير معهود.. ولا تستجيب لمطالبهم العادلة، وكان السبب هو تنفيذ الشروط السرية التى وضعتها أمريكا على القرض الذى قدمته للحكومة العمالية..!

التحدى السافر:

كان هم حكومة المحافظين الأول فى سنة ١٩٧٠ هو كبح جماح الاتحادات العمالية واستخدام القوانين لتدعيم هذا الاتجاه.. ولكن عاد العمال مرة أخرى إلى السلطة سنة ١٩٧٤ وجاء معها «تونى بن» وزيراً للصناعة.. وكان يعتزم اتخاذ إجراءات حكومية لضبط سلوك الشركات التابعة للقطاع الخاص.. وقد أعلن عن ذلك فى مذكرة مفصلة.. ولم تكن هذه الشركات لتستسلم لهذا الضبط الحكومى ولو كان باسم مصالح الشعب وإرادته التى تبلورت فى انتخاب هذه الحكومة..!

يحكى لنا «تونى بن» فى مذكراته عن واقعة ذات دلالة كاشفة حدثت فى يوليه ١٩٧٤، فقد دُعى إلى حفل عشاء أقامه مديرو الشركة العملاقة لصناعة الصلب والصناعات الهندسية (GKN).. فى تلك الليلة هدده سير «راى بروك» رئيس مجلس إدارة الشركة بأنه إذا لم ترفع الحكومة اسم شركته من قائمة الشركات التى تعتزم الحكومة تأميمها فإن شركته ستضطر إلى إلغاء كل برامج استثماراتها المخططة للعام القادم.. يقول «تونى بن»: «لم أصدق ما سمعت من تهديد سافر بهذه الجرأة على الحكومة.. فطلبتُ من سير «راى بروك» أن يُعيد على مسامعى هذا التهديد المفاجئ.. فأعاده بهدوء وبرود شديدين».. كان ردّ «تونى بن» بأنه لا توجد لدى الحكومة أى قوائم من هذا القبيل.. ولكن الدرس الذى استخلصه من الموقف: أن الرأسمالية تحتشد ضد إجراءات الضبط والرقابة التى تنوى حكومة العمال اتخاذها.. وتتحدى الحكومة بل تهددها بالسقوط.. ولها فى ذلك أساليبها وحيلها التى لا تنفد..

إحتشاد قوى المحافظين

فى عهد مسز ثاتشر:

فاز حزب المحافظين برئاسة «مسز ثاتشر» فى انتخابات ١٩٧٩ واستمرت فى السلطة قرابة ست عشرة سنة متواصلة.. وفى عهدها تبلور نوع من الفاشية الجديدة فى قلب النظام الديمقراطى العريق..!

كان حزب المحافظين طوال فترة حكومات حزب العمال المتعاقبة منذ سنة ١٩٦٥ يدرس ويحتشد للقضاء على ركائز السياسات العمالية.. واستطاع الحزب أن يجمع صفوفه تحت قيادة جريئة تؤمن بفلسفة أكثر جسارة وحدة.. قدرت ألا تقوم لحزب العمال قيامة بعدها أبداً..

تم فى داخل حزب المحافظين انقلاب سياسى هادئ نُحّى فيه «إدوارد هيث».. وكان يُعتبر من أكثر قيادات الحزب يمينية بمقاييس عصره التقليدية.. وتربعت مسز ثاتشر فى مقعد القيادة.. فجاءت معها بفريق من المستشارين المتطرفين فى أفكارهم اليمينية.. جميعهم كان متأثراً بفلسفة جديدة تقضى بتنفيذ برنامج عنيف لصالح الطبقة التى ينتمون إليها.. وكان من بين هؤلاء أستاذ نمساوى يُدعى «فردريك هايك»..

لم تُخف مسز ثاتشر إعجابها بأفكار هذا المفكر النمساوى (الرائعة).. وخلاصتها: أن النظام الرأسمالى قام على أساس من الحرية.. وأن أى منظمة أو مؤسسة كاتحاد العمال تهدد التوازن فى المنظومة الرأسمالية فهى خطر على



Thomas Paine
(1737 - 1809)



John Stuart
(1806 - 1873)



Edmund Burke
(12 January 1729 - 1797- 1873)



Marquis De Lafayette
(1757 - 1834)



Mary Richardson
(1889 - 1961)

الحرية.. ثم تطرق إلى النظام البرلمانى فقال: إن شكلاً من أشكال المجالس الديمقراطية المنتخبة ضرورى.. (ولكن بدون أن تتدخل فى شئون حرية السوق أو تعوق آليات السوق..!).

كان من رأى هايك أن اتحادات العمال لابد من تكبيلها بالقوانين بحيث تفقد فاعليتها، وهكذا صدرت قوانين أكثر رجعية حرمت العمال من حقوق كانوا قد اكتسبوها منذ سنة ١٩٠٦ منها مثلاً حرمان العمال من حق الإضراب أو التظاهر تأييداً لمطالب فئة أخرى من العمال...!

وكالعادة المتبعة فى كل النظم الفاشية قُدمت مشروعات هذه القوانين القمعية باسم: (مقترحات لإصلاح الاتحادات العمالية..).. وفى الحقيقة لا علاقة لها بالإصلاح من قريب أو بعيد.. وإنما كان القصد منها تقوية جانب أصحاب الأعمال والأثرياء فى مواجهة القوى العاملة وإضعاف قدرة اتحادات العمال على تنظيم أنفسهم ضد الإجحاف الواقع عليهم من أصحاب الأعمال..

بهذه القوانين لم تستهدف حكومة ثاتشر تكبيل الاتحادات العمالية بالقيود فقط ولكنها هزمتهم شر هزيمة.. وانعكس هذا سلباً على مواقف قيادات حزب العمال.. مثلاً: «نيل كينوك» زعيم الحزب كف عن معارضة هذه القوانين القمعية.. ودفن قادة الحزب التزاماتهم تجاه اتحادات العمال..

كان قادة الحزب يعارضون الخصخصة بقوة (سواء فى الصناعة أو الخدمات).. وطالما وعدوا الجماهير بأن كل صناعة أو خدمة قام المحافظون بخصخصتها سيتم إعادتها إلى الملكية العامة.. وأبرز مثال على هذه المعارضة الواضحة والمستمرة تجلى فى خصخصة الكهرباء.. حيث قام «تونى بلير» فى البرلمان (وكان فى ذلك الوقت وزير ظل) ليقدم رؤية حزب العمال فقال: «نحن فخورون بأننا أخذنا الصناعة فى الملكية العامة.. وسوف نعيد الكهرباء للملكية العامة لخدمة الشعب البريطانى.. ولن تُدار الكهرباء أبداً كمشروع تجارى خاص..» وفى المؤتمر السنوى للحزب قال «تونى بلير» مرة أخرى: «الخصخصة معناها ارتفاع الأسعار وأعباء جديدة على عاتق الطبقات العاملة..».

ولكن رأينا فى أوائل التسعينيات من القرن الماضى أن الحماس والمعارضة القوية لخصخصة الكهرباء والغاز والمياه تهدأ وتتراخى.. ولم يعد أحد يتحدث عن إعادة

تأميمها.. واختفت كل الوعود السابقة من برنامج حزب العمال خلال انتخابات سنة ١٩٩٧.. وقد ساعد على هذا التراجع المذهل الهزائم المتعاقبة لحزب العمال فى كل الانتخابات.. وهكذا قطع حزب العمال علاقته بالجذور..!

وفى سنة ١٩٩٤ مات جون سميث خليفة نيل كينوك فى زعامة الحزب بالسكتة القلبية وكان آخر قيادى عمالى يعلن ارتباطه بالقيم الاشتراكية والتزامه بالملكية العامة والتوظيف الكامل للقوى العاملة.. فلما رحل فجأة كان هناك إجماع صحفى على ترشيح تونى بلير زعيماً لحزب العمال..!

كانت النغمة الجديدة لتونى بلير: أن العمال لا يمكن أن يكسبوا الانتخابات إلا بالتغييرات التى بدأ يبشّر بها فى أوساط الحزب.. لقد أضعفت سنوات الهزائم عضوية الحزب وأجبر عدد كبير من اليساريين على مغادرته.. وخلال ثلاث سنوات تفرّد «تونى بلير» بمخاطبة جماهير الحزب وقواعده فى مؤتمراتهم السنوية بدون معارضة تُذكر.. فها هو شاب لامع يجيد سبك الكلام والعبارات المؤثرة ومعه أسرة شابة يرتفع إلى مقعد زعامة حزب العمال بلا منازع..!

ثورة تونى بلير:

استطاع تونى بلير أن يحدث تحولاً فكرياً فى سياسات حزب العمال.. فما هو الأساس الأيديولوجى الذى وقع بمقتضاه هذا التحوّل الحاسم والمفاجئ فى الحزب؟

فى سنة ١٩٩٦ نُشر كتاب بعنوان: (ثورة بلير: هل حزب العمال الجديد قادر على العطاء..؟ : إستراتيجية حزب العمال الجديد) من تأليف «بيتر مندلسون» و«روجى ليدل».. وهما شخصيتان غريبتان عن حزب العمال تماماً.. كانا ينتميان إلى الحزب «الديمقراطى الليبرالى».. ثم أصبحا فجأة مستشارين لتونى بلير.. وفى حقيقة الأمر كانا هما المخططين للتحوّل السياسى فى حزب العمال الجديد.. وكانا صانعَى قرار على أعلى مستوى فى السلطة.. وهى منزلة كانت موضع حسد واندهاش من جانب الوزراء الرسميين وأعضاء البرلمان المنتخبين.

يكشف الكتاب من أول صفحة عن حقيقة حزب العمال الجديد عندما يقرر «أن هذا الحزب يبدأ مسيرته من حيث انتهت حكومة مسز ثاتشر.. لا هدم كل ما جاءت به.. وعلينا أن نكون واضحين وفاهمين لما أحسن فيه المحافظون وأجادوا..».

الكتاب يتألف من ٢٧٤صفحة إذا قرأته، فلن تجد فيه إشارة واحدة عن شىء أخطأت فيه حكومة المحافظين.. وعليك أن تخوض (خلال القراءة) فى عبارات فضفاضة وشعارات مطاطة لا تتبين فيها أى شىء من سياسة حزب المحافظين يمكن التخلّى عنها..وكأن حزب العمال الجديد ليس إلا امتداداً لحزب المحافظين وتأكيداً لسياساته.. ويمكن أن تفهم من خلال السياق العام الحقائق التالية:

جميع القوانين التى اتخذتها حكومة المحافظين ضد اتحادات العمال قوانين تستحق الثناء ولا غبار عليها..

خصخصة الخدمات أثمرت تحسينات ملحوظة وبعضها زادت إنتاجيته..

بعض الخدمات التى تمت خصخصتها مثل البريد والغاز ارتفعت إلى المستوى العالمى الذى يستحق الفخر به...!!

إنه لا يجب إعادة الشركات التى تمت خصخصتها إلى الملكية العامة..

يؤمن المؤلفان إيماناً مطلقاً بآليات السوق التنافسية.. وهما مهتمان بأن تجد حكومة حزب العمال وسائل لتدعيم اقتصاد السوق... والخلاصة النهائية أنه لا تأميم ولا اشتراكية ولا يحزنون...!!

يروج الكتاب لفكرة أصبحت حجر الأساس لسياسة حزب العمال الجديد الاقتصادية.. وهى المزاوجة فى المشروعات بين القطاعين العام والخاص.. وأنه ليس للحكومة أن تتدخل فى الاقتصاد ولا أن تشترى جزءاً من الاقتصاد ليبرر تدخلها للسيطرة أو الضبط على الشركات أوالمؤسسات المالية.. (لاحظ أن هناك الآن تراجعاً تاماً عن هذا الخط الرأسمالى المتطرف بعد الأزمة الاقتصادية العالمية)..

أما المؤلفان فيعتقدان أنهما بفلسفتهما إنما يبشران بمجتمع مثالى تتحقق فيه الكفاءة والعدالة الاجتماعية معاً.. ولكن كيف يكون هذا من الناحية العملية..؟ لا إجابة على هذا السؤال وإنما هناك تأكيد دائم على كلمة سحرية متكررة: الاستقرار.. الاستقرار..! فلا شىء ذا فائدة يمكن تحقيقه إلا بالاستقرار الاقتصادى..!

وهناك حماس منقطع النظير أن تتجنب حكومة العمال أى إجراء يعكر مزاج الأثرياء وأصحاب القوة الاقتصادية والمالية، ونقد شديد لمواقف حكومات حزب العمال السابقة تجاه القضاء على الجريمة.. ومن ثم اقتراح بوجوب تشديد العقوبات وتدعيم السجون.. (تحسباً لظهور اضطرابات عنيفة من جانب العمال..).

وفى النهاية سوف يذهل القارئ الذى لديه قدرة على مواصلة قراءة هذا الكتاب للمدى الثورى الذى يقترحه.. فإن بناء الفكر النظرى لحركة العمال البريطانية وإنجازاتها فى مائة عام تقريباً تنقلب فى هذا الكتاب رأساً على عقب.. وليس أدل على ذلك من الدور الذى رسمه الكتاب للحكومة العمالية التى انتخبها الشعب وهو دور يمنعها من أن تتدخل فى الاقتصاد لصالح الذين انتخبوها وإنما لتدعيم الأغنياء والأقوياء وتقصر نقمتها وسيطرتها على الناس الذين يعيشون فى قاع المجتمع.. وبهذا الدور كان التأثير على العملية الديمقراطية مدمرًا..

نعم.. قد تستطيع العملية الانتخابية تغيير الحكومة ولكن أى حكومة عمالية منتخبة على أساس فلسفة «مندلسون» و«ليدل» لا يمكن أن تعد بأى تغيير أو إصلاح حقيقى.. وقد حاول اثنان من دعاة الاشتراكية فى حزب العمال تنبيه الحركة العمالية إلى خطر ما هى مقبلة عليه جراء سياسة تونى بلير الجديدة.. إنهما «كِن كوتس» و«مايكل باريت» فى كتاب نُشر لهما سنة ١٩٩٦ بعنوان The Blair Revelation (انكشاف بلير).. نزعا فيه عن «مندلسون» و«ليدل» الهالة التى أحاطتهما بها وسائل الإعلام وكشفا تدليسهما وزيفهما الفكرى.. كما نبّها إلى بدايات الانحراف الذى ظهر على الحزب منذ عهد جون سميث.. ولكن تحذير القلة الواعية من أصحاب التوجه الاشتراكى فى حزب العمال ضاع فى خضم الرغبات العارمة للكثرة التى تشبثت بأمل جديد فى الفوز بالانتخابات بعد حرمان طويل خارج السلطة بلغ ستة عشر عاماً هى مدة حكم مارجريت ثاتشر.. وبدأت عملية إغواء للقيادات العمالية باحتوائهم فى جنة الرأسمالية ليذوقوا بعض نعمها.. ففى ١٢ مايو ١٩٩٤ اليوم الذى توفى فيه زعيم العمال جون سميث حصلت «باتريشيا هيويت» وكانت السكرتيرة الصحفية لنيل كينوك ثم نائبة لجنة تعديل حزب العمال الجديد.. حصلت على وظيفة مدير مركز أبحاث واحدة من أكبر مؤسسات الاستشارات الصناعية والمالية (أندرسون كونسلتنج)..

وفى صيف سنة ١٩٩٦ عُقد اجتماع فى أكسفورد لمائة من وزراء الظل والقادة من حزب العمال لتحاضرهم مجموعة من خبراء هذه المؤسسة كيف يكونون أصدقاء لرجال الأعمال لا أعداء لهم..

وفى حمى النصر الموعود التى اجتاحت كل ركن من أركان حزب العمال سلم الحزب نهائياً برامجه واستراتيجياته ليرسمها بلير ومندلسون وليدل وبطانتهم...!

وهكذا رأينا الحزب الذى أعلن سنة ١٩٧٩ بأنه فخور بأن يكون اشتراكياً يعلن سنة ١٩٩٧ بأنه فخور بأنه ليس اشتراكياً..!

لم يعد «حزب العمال الجديد» حزباً للعمال على الإطلاق.. حزب جديد حقاً ولكن لا علاقة له بالعمال ولا بمصالح العمال..! وقد كُتب المانفستو الجديد بطريقة أشعرت رجال المال والأعمال بأنه موجه إليهم ومن هنا تداعوا إلى قصعة العمال ليلتهموا وليمتهم الثمينة..!

ومرة أخرى يسقط الاشتراكيون فى وهم جديد: أن هذا الاتجاه الأيديولوجى المستحدث ليس إلا تكتيكاً ذكياً للوصول



«بناء الفكر النظرى
لحركة العمال البريطانية
وانجازاتها فى مائة عام تقريباً
تنقلب الآن رأساً على عقب»

بيتر مندلسون



إلى السلطة ثم يعود الحزب إلى سابق عهده.. ولكن هيهات..! فقد اكتسح العمال صناديق الانتخابات بنصر هائل وأغلبية هائلة سنة ١٩٩٧.. ولكن لوحظ أن بعض من دخلوا على مراكز السلطة لم تكن لهم وجوه عمالية معروفة وإنما وجوه «ليبرال ديمقراط» سابقين، كان منهم: «روجر ليدل» و«بيتر مندلسون» اللذان أصبحا مستشارين (فوق العادة) لرئيس الوزراء لشئون الدفاع والشئون الأوروبية، و«ديريك سكوت» للاقتصاد.. وعدد آخر من المستشارين والخبراء أحاطوا ببلير كما يحيط السوار بمعصم اليد..

بلير يدمّر التقاليد الديمقراطية لحزب العمال:

فى كتاب للصحفى والكاتب البريطانى «جورج مونبيوت» بعنوان: «دولة أسيرة... Captive state» نشر سنة ٢٠٠٠م، يتضمن سجلاً بأسماء رجال الأعمال الكبار الذين شغلوا مراكز قوة بالغة التأثير فى حزب العمال الجديد.. ومن بين تأثيراتهم ظهور احتكارات هائلة.. إذ أصبحت شركة واحدة تملك وتهيمن على خدمات الغاز والكهرباء التى تدخل كل بيت فى بريطانيا.. وفى النصف الثانى من كتاب «دولة أسيرة» يصف «مونبيوت» الصراع الخفى بين القوى غير المنتخبة صاحبة المال والأعمال وبين حكومات حزب العمال المنتخبة.. ويناقش أثر حق التصويت فى الاقتراع العام على تطور الحركة العمالية فى بريطانيا.. ويتابع الحكومات العمالية خلال القرن العشرين فيحلل أسباب نجاحاتهم وإخفاقاتهم فى مجال تحقيق الهدف الأساسى المعلن لتحويل بريطانيا من الرأسمالية إلى الاشتراكية.. ثم ينتهى إلى القول بأن هذا الهدف ظل يضمحل تدريجياً حتى أعلن استسلامه النهائى على يد بلير وبطانته.. ويحاجج الجناح اليمينى فى حزب العمال بأن بريطانيا نفسها قد تغيّرت وأن على حزب العمال أن يغيّر سياساته بالتبعية، وأصبحت الأولوية الآن لأى حكومة عمالية عادلة ومهذّبة، أن توازن بين مصالح الأغنياء والفقراء ولا ينبغى أن تكون (بعد الآن) معنيّة بتوزيع الثروة والسلطة..

يقول المؤلف: إن كل ما يراهن عليه بلير الآن هو الاعتماد على كرم وإنسانية الأغنياء فى توزيع الثروة والسلطة وفى إتاحة فرص التعليم والخدمات الصحية.. وبناء منازل مهذّبة للفقراء وتأمين معاشات للعاجزين وكبار السن..! (يعنى عملية تسوّل..!)

وهكذا عادت بريطانيا لتصبح مجتمعاً منقسماً قسمة حادة: بين ملايين كثيرة من الفقراء بلا ملكية ولا كرامة ولا أمل.. محرومون حتى من نتاج عملهم فى الصناعة، وبين قلة ضئيلة تستحوذ على السلطة والثروة جميعاً..

ويرى المؤلف أن هذه القسمة أصبحت تتجلى بوضوح مذهل على الساحة العالمية الواسعة فقد أصبح أكثر من خُمسَى سكان العالم يعانون من الحرمان وعدم القدرة على الحصول على ما يسدّ رمقهم من الطعام.. وأكثر من هذه النسبة عاجزة عن الحصول على ماء نظيف للشرب..

وأن هذه الكثرة الهائلة تعيش جنباً إلى جنب وتحت رحمة قلة قليلة تزداد يوماً بعد يوم قسوة وثراء.. ولا يتورع هؤلاء عن استخدام ثرواتهم ووسائل إعلامهم وقواتهم الأمنية بل وجيوشهم أيضاً لحماية ممتلكاتهم وامتيازاتهم وسلطتهم الفاشية.. وأبعاد هذا التقسيم اللاإنسانى أكثر من أن يصدقّها عقل.. والقادم على الطريق أبشع وأهول، فإن الهوة بين الأغنياء والفقراء فى اتساع متواصل..!

ويركز كثير من المراقبين على الهوّة السحيقة بين الدول الغنية والدول الفقيرة وهم على حق.. ولكن الهوة بين أغنياء كل دولة وفقرائها أشد وأبشع.. وقد استطاعت هذه القلة الغنية ترويض الأنظمة الديمقراطية والتعايش مع إفرازاتها إذ استطاعت أن تجعل حكوماتها المنتخبة عاجزة.. وجعلت برلماناتها غير قادرة على المحافظة على حقوق الجماهير التى وضعت فيهم ثقتها..!

وأكبر حجة يتذرع بها الأغنياء المحظوظون هى أن الثروة التى يحصلون عليها فى القمة من شأنها أن تنحدر إلى أسفل ليحظى بشىء منها الكثيرون ممن يعيشون على السفح أو فى القاع.. ولكن هذا لا يحدث أبداً لأن الثروة (بقدرة قادر) تندفع كالنافورة فقط إلى أعلى لتبقى هناك فى القمة.. فى قبضة الأغنياء وحدهم ولا تنحدر منها سوى قطرات شحيحة لا تسمن ولا تغنى من جوع..!

لقد أقام هؤلاء الأغنياء فيما بينهم تضامناً حصيناً لحماية أنفسهم رافعين شعار: لكى تحافظ على ثروتك ينبغى أن تتأكد أن البرابرة محجوزون خارج البوابة الحديدية فهؤلاء الذين حرمهم الله من الثروة يجب عزلهم بعيداً عن الأعين ولكن ليس بعيداً عن السيطرة..! ■

كتاب الزاوية



التحدث بنعمة الله

نسب والدى

والدى هو الإمام العلامة ذو الفنون الفقيه الفرضى الحاسب الأصولى الجدلى النحوى التصريفى البيانى البديعى المنشئ البارع كمال الدين أبوالمناقب أبوبكر بن ناصر الدين محمد بن سابق الدين أبى بكر بن فخر الدين عثمان بن ناصر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبى الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيرى الأسيوطى. هكذا وجدت هذا النسب فى صداق لابن عم والدى. وأخبرنى ابن عم والدى المشار إليه، واسمه نور الدين على بن جمال الدين عبدالله بن سابق الدين أبى بكر، عن أسلافه أن جدنا الأعلى الشيخ همام الدين كان أحد مشايخ الصوفية وأرباب الأحوال والولايات، وأنه كان فى مبتدأ أمره على طريق غير مرضية، وأنه حج فلما أحرم وقال: لبيك وسعديك، لبيك اللهم لبيك، سمع صوتًا: لا لبيك ولا سعديك. فتاب من ثم وأقلع ورجع إلى بلاده، فأقبل على التزهد والعبادة مدة، ثم حج مرة أخرى، فلما أحرم وقال: لبيك اللهم لبيك، سمع صوتًا: لبيك وسعديك. ولجدنا هذا ضريح بأسيوط يزار ويتبرك به. وأما نسبته بالخضيرى، وهو بضم الخاء وفتح الضاد المعجمتين مصغرًا، فلا أتحقق ما تكون إليه هذه النسبة. وهذا من بدائع قدرة الله أن يعجز العلماء بأنساب الناس عن معرفة أنسابهم ليقفوا عند حدهم ويعترفوا بالعجز والقصور ويقولوا: «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا». وقد وقع ذلك للحافظ الكبير أبى سعد عبدالكريم بن السمعانى، فإنه صنف كتابًا حافلاً فى الأنساب فى ثلاثة مجلدات ضخمة، بين فيه أنساب العلماء لماذا هى، لقبيلة أو جد أو بلد أو غير ذلك. وعجز فى نسب نفسه فلم يدر السمعانى نسبة لماذا.

البحث عن محمود درويش فى كردستان
البحث عن كردستان فى محمود درويش

امتيـــــاز ديـــــاب



«بـــين ريـــتـــا وعـــيـــونـــى.. بـــنـــدقـــيـــة»

[١]

أفاقت مدينة السليمانية وجبالها ما زالت محتفظة بغطاء رقيق من الضباب، بدأ بالتبعثر مع زحف أشعة الشمس، التى ما زالت مبتلة بأمطار تشرين. اغتسلت سطوح البنايات الإسمنتية التى بنيت على عجل، بفضل قانون النفط مقابل الغذاء.

جلس فرهاد على طاولة مع رجلين، كان أحدهما يتصارع مع حبة برتقال، رفضت الاستسلام لسكين غير ملائم لقشرة طرية وقديمة، كانوا يتحدثون عن قانون تعدد الزوجات، مرره للتو برلمان إقليم كردستان،الذى يشترط على الراغب فى زوجة ثانية أن يثبت أن زوجته مريضة وغير قادرة على ممارسة حقوق الزوج أو أن تكون عاقرا. انفجرت البرتقالة بين يدى هيوا»، وانتشر عصيرها على يديه ووجهه وثيابه، ولعن الفنادق فى الشرق، التى تدعى أنها خمسة نجوم، وهى لا تساوى نجمتين فى أوروبا.

ثم نظر إلى كومة من الملاعق والشوك، وضعها أحد الخدم فى وسط المائدة، وكأنها ذاهبة إلى التنظيف، وقال: أتوا بمدير من لبنان للفندق، ولكن ما أبعد مستوى الخدمة عن لبنان.

عرفنى هيوا على الرجلين فى وسط الحديث، وكأنى وصلت للتو.

انتهت أغنية (على باب الله يا صنايعية)، وتبعتها أغنية (ريتا) لمارسيل خليفة. قال الرجل الثانى الذى عرف بنفسه قائلاً أن اسمه سواره: هذه الأغنية من كلمات محمود درويش، هل تعرفينه؟

قلت: «طبعاً اعرفه».

ثم انطلق سواره يحدثنى بعينين حادتين صغيرتين، توسطتا وجهاً نحيلاً: «كنت أعتقد أن محمود درويش كردى». وعندما رأى نظرة الاستغراب والدهشة فى عينى، قال: «بدأت قراءة محمود درويش عندما كان عمرى اثنى عشر عاماً، كان صعبا على أن أدرك أن هناك من يعانى مثل الشعب الكردى، فاعتقدت أنه تحدث عن عذاب الأكراد، وفى ذات يوم، وعندما كان عمرى ستة عشر عاما، كنت فى سوق الكتب فى طهران، رأيت كتابا عليه اسم محمود درويش، ولكن باللغة العربية، فسألت البائع، «لماذا كتب على الكتاب باللغة



العربية؟ قال لى حينها: لأن محمود درويش عربى من فلسطين».

سكت سواره عن الحديث، ونظر فى عينى وانتظر، ثم قال لى همساً، بكلمات من قصيدة درويش:

«بين ريتا وعيونى .. بندقية».

ثم انحنى ليلتقط حقيبته، وأخرج جريدة عليها صورة محمود درويش، فتحها بين يدين مرفوعتين لكى أرى بوضوح، ثم قال لى: «هل تعرفين شيركو بيكه»؟ ودون أن ينتظر الإجابة، أردف: «شيركو هو محمود درويش الأكراد، كتب هذه القصيدة فى رثاء درويش».

وبحماس ترجم لى:

لماذا مات هذا النهر فجأة؟

لماذا اسودَ تل الزعتر هذا فى طرفة عين؟

لماذا ؟ سقطت قصيدة البدر المتلألئ

من سماء حيفا وغرقت فى البحر واختفت؟

يا ترى!

ثم نظر نحو هيوا وقال: «يمكن لهيوا ترجمة الباقى لك أفضل منى».

لكنه تابع الترجمة وقال:

من هنا

وعلى هذه الأرض المنكوبة لكردستان

من هنا

ومع تبرعم وتساقط أوراق شعرنا

من هنا

وفى هذه الأمسية من شهر أيلول

تذكرت محمود درويش.

يا ترى!

نظر فرهاد متسائلا: «هل تريدين اللقاء مع شيركوبيكه»؟

[٢]

التقيت كاكا شيركو بيكه مرتين، مرة فى مكتبه، ومرة ثانية جاءنى إلى الفندق لنذهب إلى تناول العشاء معاً.

فى المرة الثانية، قلت له مازحةً: «عندما التقيت بك فى المرة الأولى، أهديتنى قصيدة، ولم تكن تعرفنى، هل كتبت لى قصيدة بعدما عرفتنى»؟

سحب من جيب سترته ورقتين، فتحتهما، وقرأت الجزء الأخير:

أنا من الجيل الذى تربى فى السبعينيات على كلمات الشاعر. وكانت قصيدة «سجل أنا عربى» تمثل لنا نحن تلميذات وتلاميذ مدرسة طمرا الابتدائية من قرى الجليل الغربى، النشيد الوطنى السرى الذى تنساب موسيقاه فى قلوبنا وعقولنا وضمائرنا كلما سمعنا النشيد الوطنى لدولة إسرائيل.

وجاء وقت تعرفت فيه شخصياً على الشاعر فى أوروبا، بعد أن عملت فى مهنة الصحافة وانتقلت من فلسطين إلى جنيف فى سويسرا. وجاء وقت شجعنى فيه الشاعر على متابعة تسجيل اللقاءات التى أجريتها. والانطباعات التى عشتها، فى فلسطين أيام الانتفاضة الأولى عندما قام بنشر تلك الانطباعات فى مجلة الكرمل.

وجاء وقت قام بنشر ما كتبته من لقاءات وانطباعات عن أيام الانتفاضة الأولى والثانية فى مجلة الكرمل.

ثم جاء ذلك اليوم من حزيران الذى كنت فيه فى الجليل وشهدت فيه وداع فلسطين للشاعر.

بعد ذلك بأيام، وعدت بكتابة مقال للعدد الخاص الذى تصدره إحدى المجلات الأدبية عن الشاعر. وبعد أيام أخرى قررت ألا أكتب ذلك المقال.

وفى أكتوبر الماضى سافرت إلى كردستان العراق فى مهمة صحفية. وفى تلك الرحلة مارست عادتى فى تسجيل لقاءاتى وانطباعاتى بشكل يومى، وفيما يلى جزء مما كتبت.



أكتب بورقة عُشب
فأقرأ غابة.
أرى قطرة مطر
فأسمع زمجرة بحر.
فى كفى حبة قمح
وفى روحى بيادر.
أحمل شعرة من ضفيرة حبيبتى
وبجانبى المحبة
عندى بيت واحد من شعر (نالى)
وأملك كردستان كلها!

كان مطعم أبو سناء مزدحماً، عندما لمحوا شاعر كردستان، وقف معظمهم احتراماً، رفع يده بالتحية دون أن ينظر لأحد بشكل خاص، تبعته رافعة يدى بالتحية وكأنى نجمة مثله، ونظرت إلى الوجوه بإصرار لا أدرى كنهه، لم ألمح وجه امرأة واحدة. عندما لحقت به على عجل. وبسرعة البرق، جهزوا مائدة أنيقة، فى ركن بعيد نوعاً ما، جلسنا على زاويتين متجاورتين.

نظر شيركو نحوى بعينين مبلولتين، وقال لى بعد أن لمس شاربا كان أشقر، أو صار أشقر:

«تحملنى غيمة بيضاء، وتنقلنى إلى الأنفال، وكنت أرى الفتيات والشباب المطمورين تحت التراب، وأرى القمر فوقهم، أرى عذابهم حياً بلحمه ودمه، لم يصل ألم الأنفال إلى العالم العربى وكأنهم رأوا حلماً عادياً، إن ألم مذبحة الأنفال لم يختلط بقلوب الآخرين».

أشعل كاكا شيركو سيجارة للمرة العاشرة فى ظرف دقائق، ثم مال علىّ وهمس بشعر لمحمود درويش: «نسيت أننى قُتلت».

«كانت أمريكا تقول بأن الأنفال من صنع إيران، أمريكا عملت لصالحها، ومصلحتها مع صدام. أمريكا ما زالت تعمل لمصلحتها». «ملف القضية الكردية مفقود، أوباما مهم، لكن السياسة الأمريكية لا تنظر فى القضايا الإنسانية، سواء القضية الفلسطينية أو الكردية».

جاء النادل وغير المنفضة بأخرى نظيفة، وأراد أن يملأ كأس كاكا شيركو، لكن كاكا صرفه عن ذلك، فانسحب معتذراً. وضع شيركو يده على يدى التى كانت تمسك بالقلم، وقال لا تكتبى، لم الكتابة؟ دعينا نقرض الشعر، لكنه أضاف: «هناك قضايا لم تحسم بعد، مسألة كركوك، كركوك هى قدس العراق، ومسألة دولة كردية. كردستان ليست سليمانية ودهوك وأربيل، بعد الحرب العالمية الأولى قسمت المناطق بين النفوذ الفارسى والإنجليزى والتركى، كانت الموصل تابعة للدولة التركية، وألحقت بالعراق قسراً، كل هذه التقسيمات تمت بإشراف عصبة الأمم».

ثم نظر شيركو نحوى متسائلاً، «لماذا يعتقد العرب أن كردستان جزء من العالم العربى؟».

لا ينتظر إجابتى ويسترسل، «أنا لا أومن بالمقاومة المسلحة، أنا أومن بالحوار والتوافق، أنا مع الحوار الفلسطينى - الإسرائيلى، يعيبون على الأكراد علاقاتهم مع إسرائيل، بينما هذه العلاقة لا يختلف مستواها عن العلاقة المصرية أو الأردنية مع إسرائيل! هل هذا حلال لهم وحرام علينا؟»

على صوت أم كلثوم (أعطنى حريتى أطلق يدىّ، إننى أعطيت ما استبقيت شيئاً). علت أصوات طربت لصرخة كوكب الشرق، استدار شيركو ونظر حوله مبتسماً وقال: «إن الذين لا يحبون أم كلثوم، ما هم إلا أغبياء القلوب».

انتظر شيركو حتى خفتت الأنّات، وتابع: «المثقفون العرب يعتبرون الأكراد جزءاً من الوطن العربى، وهذا فكر محدود، عشرون مليون كردى فى تركيا، ثمانية ملايين كردى فى ايران، ومليون فى سوريا، وأربعة ملايين فى العراق، أى أربعين مليون كردى، صدام واد ودمر ودفن وذبح مئات الألاف كانوا يعيشون فى أربعة آلاف وخمسمائة قرية، دمرها، وحرق الجبال، حشر ما تبقى فى مجمعات سماها بالمجمعات العصرية، كان عليه تسميتها، مجمعات قسرية، أين كان المثقف العربى حين ذاك؟ وأين هو الآن؟».

اعتقدت بأن شيركو بيكه سيتهاوى أمامى، أسند ظهره على مقعده، وأنصت بأذنه نحوى، بحثت عن شىء لأقوله، وأثناء بحثى، أسعفتنى أم كلثوم: «وإعرف حكايات مليانة آهات.. ودموع وأنين».

أغمض عينيه، وكأنه يغفو، لكن، وكأن شفتيه تمتمتا مع ام كلثوم:

يا ما ظلمتو الحب وقلتو وعدتو عليه،
مش عارف ايه...
العيب فيكم، يا فى حبايبكم

أما الحب؟! أما الحب؟! يا روحى عليه.. يا روحى عليه».

ودون أن يفتح عينيه قال: «العرب يعرفون لوركا، ولا يعرفون شاعراً كردياً واحداً، لا يعرفون شيئاً عن الفن الكردى».

ثم فتح عينيه، وقال وكأنه ما زال يتمم كلمات أغنية الأمل لأم كلثوم: «جميع المآسى التى حصلت فى منطقتنا تأتى من الأيديولوجية المتطرفة، الشمولية، ولهذا لن نتوصل إلى أفق رحب، السبب هو الفكر، وليس فى الأشكال الأخرى، فى إيران يقولون كلنا إيرانيون، وفى العراق يقولون كلنا عراقيون، لكن هل هذه هى الحقيقة؟

صمت شيركو، وأحرق سيجارة بأكملها، قبل أن ينظر لى فى عتاب ويقول: «قصائد الشعراء الأكراد تتغنى بفلسطين وبمحمود درويش، أين كانت الأقلام المناضلة فى مذبحة حلبجة؟ وهذه نقطة سوداء فى تاريخهم، والسؤال: لماذا أنتم صامتون؟ والصمت للأديب والمثقف هو قبر».

قلت لشيركو مدافعة: «محمود درويش كتب ليس للكردى إلا الريح».

رد شيركو: «باللغة انتصرت على الهوية».

قلت للكردى: «باللغة انتقمت من الغياب».

فقال: «لن أمضى للصحراء».

قلت: «ولا أنا ...»

ونظرت نحو الريح:

- عمت مساء

- عمت مساء!

واستدرك شيركو بيكه «ليس الجميع، سعدى يوسف، هادى العلوى، هناك الكثيرون الذين رفضوا الصمت، لكن هناك الكثيرين فضلوا الصمت، نزار قبانى لم يكتب جملة واحدة عن الجرائم التى ارتكبت ضد الشعب الكردى، أنا أيضا أوجه الانتقاد إلى الحكومة الكردية بأنها لم تترجم الأدب الكردى إلى اللغة العربية».

«لماذا أصبح الكردى أقرب للمثقف الألمانى منه إلى المثقف العربى»؟ سألنى شيركو.

إلا انه أجاب على سؤاله بنفسه «فى المهرجانات التى تقام فى مصر، لا يدعون شاعراً كردياً واحداً، حتى سليم بركات لم يدع، مع أنه كتب باللغة العربية، وهو كاتب رائع».

فرغ المطعم من زبائنه، لم يكن فى المطعم سوى أم كلثوم التى قالت: «ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم...بعد أن عز اللقاء.. وإذا أنكر خل خلّه....»

قال شيركو وهو ينهض «ربما هناك..فى كل بلد محمود درويش آخر، محمود درويش كردى».

أجابته أم كلثوم: «ومضى كلٌ إلى غايته..لا تقل شئنا فإن الحظ شاء.....»

[٣]

وقفت بنت كردية، تحت ضوء القمر الذى اتكأ على كتف جبل، ولون أكواخ القرية البريئة. أشعلت عود الثقاب فالتهم ثوبها الكردى المبلول بالنفط.

رفرفت طائرة ورقية فوق اللهب، اختطفت روح الجميلة الكردية، وناولتها هدية للقمر، الذى اشتد ضوؤه وتحول إلى شمس، أيقظ سكان الأكواخ الذين تركوا براءتهم فى مخادعهم.

وسألوا ما الخبر؟

قال الأب: تمرد قلبها عليها.

قالت الأم: أراد لنفسه بنتاً مثلها، فقدمها مهراً لأب مثله.

قال الحبيب: الموت لا يعنى لنا شيئاً، نكون فلا يكون.

قال الأب: النسيان ضرورى لذاكرة المكان.

قال الحبيب: الموت لا يعنى لنا يكون فلا نكون.

هذا ما فهمته من فيلم كتبه وأخرجه المخرج الكردى هالكاوت، من بغداد.

«ازدادت حوادث الانتحار بين الصبايا الكرديات، وما أن يهربوا لمنعها من تمرد قنبها عليها، أو من مقايضتها مقابل صبية مثلها، لمتعة والدى الصبيتين، حتى يشتعل عودا ثقاب فى ثوبيهما. ويبقى الحبيب ليحكى قصة الموت على طريقة محمود درويش».

عاد هلكوت من المنفى، ليحكى فى أفلامه قصة موت آخر، لا وقت لأحد ليحكيه للآخرين، ولا مجال فى النشرات الإخبارية لهذا النوع من الموت فى العراق.

رنا هلكوت نحو شاب

وشابة جلسا في إحدى زوايا المقهى، تشابكت يداهما تحت الطاولة على عجل، بحثت الصغيرة بعينيها لتتأكد بأن أحداً لم يلتقط تلك اللحظة العجولة. لم تلحظ هلكوت الذي سارع ليلتفت نحوي قائلاً:«يخافان الفرح».

نظرت بدوري متلصصة على لحظة حب، تعلقت بين وجهين هائمين على صوت غناء تارا جاف تصاحبها قيثارة:

(هي اران ياران ، دوس يارندي دي...
يارو نازارام بي نيشان ديديا).
يا حبي الجميل، يا حبيب الروح
أحلامي في الليل لا ترتاح دونك
عندما أفكر بك أنوح مرّة أخرى..

تنهد هلكوت، وحول نظراته نحو جبل أزمر، وقال فجأة: «أحن إلى قهوة أمي.. في صباح بغدادي عادي».

«عندما كتبت هذه السطور مما استذكرته مع هلكوت ، جاءني خبر وفاة والدته في بغداد».

[٤]

شوانه ديي لدروازي هوشم أديت
تاتين في الليل. وتطرقين باب إحساسي

أنشد سامان على جيتاره حزينا على فراق حبيبته، عندما كنا نسير على طريق دوكان، بمحاذاة جبل بيره مكرون. عبرنا أمام قلعة سوسي، التي حولها الأمريكان إلى سجن، هرب منها سبعة أشخاص، ولم يجدوا مكانا للاختباء، في السهول التي ترامت حول القلعة عند أقدام جبل سارة، ماتت قرى السهول التي سكنت هنا حرقاً.

وغنى شيركو لهذه السهول:

(إنها قصيدة ترتدي الحداد في تابوت ابنها، وتنام).

تململت سارة في مضجعها، وتدحرجت منها دمعة لدى سماعها موسيقى(كوردو)، الذي أنّت جيتارته بلحن فردي، وشجا صوته باكياً يقول: «كلما قصرت المسافة نحو سارة، انتفض القلب خشوعاً». لذلك الحب الذي اندفن عند أقدامك.. سارة.

دارت الطريق بعد قمة سارة، وتغير المشهد، حيث جلست تلال وكأنها ملفوفة حول بعضها، طلباً للدفء. ثم حاذينا جبل كوسرت،الذي سبقنا إلى قمته متسلقاً صوت شفان:

«ايه يا فرات أي فرات
سر كما أريدك
اجر كما أريدك
أنت تريد الحرية مثلي»

عندما وصلنا إلى خلكان، تسارعت أصابع شفان على البُزق وقال:

وايلي مي .. وايلي مي.. وايلي مي
يا ويلاه، يا ويلاه
دابرابن.. دابرون
انهضوا.. تقدموا
سارفراسكن.. راي ازداي
ارفعوا راية الحرية

فتح جبل جناروك ذراعيه، وكأنه يريد حماية جبل هيبة سلطان، الذي التحم بظهره تماما.

وقف جنين في حديقة المطعم، التي أشرفت مصطبتها على مدينة رانية، عند أقدام جبل قنديل.

لم يكن في المطعم أحد، وكأنه مهجور. جلست وجنين على طاولة في طرف المصطبة، سألني جنين بعد الكثير من الصمت، لماذا أردت لقائي؟

قلت له وأنا شاخصة بنظري إلى قمة قنديل: لكي أسألك، لماذا سموك جنين؟

نظر جنين نحو الجرف الذي يفصلنا عن قنديل، وبصوت طيب قال:كان أبي جندياً في الجيش العراقي، ذهب مع الجيش العراقي إلى فلسطين عام١٩٤٨ ، كان في جنين عندما وصلته برقية من أربيل تبشره بخبر مولدي، وأرسل لهم بأن يطلقوا على اسم جنين، إحياء لذكرى تحرير المدينة. وصمت جنين، واعتقدت بأنه سينهض ثم يذهب، ثم بحث في جيبه قليلاً، فأخرج هاتفه المحمول، وتحدث بالتركمانية، وعندما رآني أنظر إليه متسائلة، قال لي دون أن يضع يده على السماعة، هذه ابنتي، ثم عاد للحديث بالتركمانية. دقيقة وأغلق هاتفه وهو يقول: ممنون.

يا أخي الثائر، ردد جنين: «أخي الثائر، قصيدة محمود درويش التي مدح فيها الأكراد».

سألت جنين عن سبب حديثه باللغة التركمانية وليس بالكردية، قال بابتسامة أختصرت عشرات السنين من سنين عمره الستين: أنا كردي متزوج من تركمانية، عندما اجتمع مع أبناء عمومتي، نجلس ولا نجد لغة توحدنا جميعاً، منهم من لا يعرف الكردية، أو لا يعرف العربية ويتحدث باللغة الآشورية. كانت دراستنا باللغة العربية، وبالكردي السوراني، الآن يستعملون فقط اللغة الكردية، لكن مع مصطلحات لاتينية.

دقق جنين النظر في أوراقي ، وتردد لحظة قبل أن يقول: شكراً لياسر عرفات.

وعندما لاحظ أنني لم أفهم عما يتحدث، قال:« ياسر عرفات، هو الذي رفض مناقشة مشروع ترحيل الأكراد، وإرسالهم إلى السودان، كان ذلك ربما في القمة العربية الثانية، قال ياسر عرفات (لا نريد مناصرة الشعب الفلسطيني وتدمير شعب آخر). أنا عرفت ذلك لأنني كنت أعمل في وزارة الإعلام، لكنني تقاعدت في عام ١٩٨٥، بعدها طورت الإذاعة وتليفزيون المستقبل في كردستان، بمساعدات من فلسطين».

وقف جنين منهياً اللقاء، وقال: «يجب أن أعود للبيت الآن» مشى عدة خطوات ثم عاد وقال «حرام ما يحدث للفلسطيني في العراق، حرام أن يتشردوا الآن في الصحراء، كان صدام يستعملهم، أكثر مما





**قال لي جنين:
ذهب أبي مع الجيش العراقي إلى فلسطين عام ١٩٤٨، كان في جنين عندما وصلته برقية من أربيل تبشره بخبر مولدي، وأرسل لهم بأن يطلقوا علي اسم جنين، إحياء لذكرى تحرير المدينة**



خدموه. الأكراد استفادوا من علاقاتهم مع الثورة الفلسطينية، جميعهم تدرب هناك، وعن طريقهم كانت تأتي الأموال إلى بشمركة الجبال، حرام ما يحدث لهم الآن. على الحكومة الكردية أن تستضيفهم في كردستان، لكي تشكر ياسر عرفات، على ..الأقل».

في كل منفى من منافيهم بلادٌ لم يصبها أي سوء..
صنعوا خرافتهم كما شاءوا، وشادوا للحصى ألقَ الطيور
وكلما مروا بنهر.. مزّقوه، وأحرقوه، من الحنين..
وكلمَ مرّوا بسوسنه بكوا وتساءلوا: هل نحن شعب أم نبيذٌ
للقرابين الجديدة؟

رواندوز، مصيف رواندوز، مقابل جبل كورك، ومن وراءه على مدى البصر جبال زوزك وهندرين وخلف كورك شلال بيخال. نزل كامران حافي القدمين ورقص تحت المطر، ونظر إليه رومان وفرهاد و هيوا سعداء بسعادته الطفولية. توقف كامران عن الرقص فجأة وهرع إلى آلة التصوير، ووضع عدسة هائلة الطول، أسند العدسة على كتف رومان وكأنها آربي جيه، وبدأ بتصوير القمر،الذي اعتلى نهاية الجرف المطل طريق هاملتون. كان هيوا يشير بيده إلى كل الجهات على الطريق القديم لهاملتون، وكأنه لا يريدني أن اغفل عن أية بقعة من جباله التي عشقها، وسكن قممها والده، عندما كان مع البشمركة، يترك مقود السيارة ليتأكد من أنني نظرت بالاتجاه الصحيح،وأنا أصاب بالدوار، لم ينتبه على لوني المصفر تماما،وذلك لدواعي سروره باهتمامي بجمال الجبال.

اقترح رومان بأن نقضي ليلة أخرى في رواندوز.

تدفقت القصص من فم فرهاد، أحيانا أتابعه، وأحيانا لا أملك ذلك،أسمعه يقول ونحن على حافة خطرة، هنا قتل سعيد عبد الله، أول شهداء سوران، من البارزانيين الذين يتعممون بالعمامة الحمراء.

أما عندما قلت له، بأن جبال كردستان هي أجمل من جبال سويسرا، وكنت صادقة في ذلك، عندما شرحت له بأن جبال سويسرا هي حقاً أجمل بقاع الأرض، لكن إذا سكنتها، أو جلست مقابلها، تنسى أنها موجودة بعد فترة، لأنها مثل الجميلة الصامتة، بينما هذه الجبال بإمكاني الاستماع إلى أنفاسها، وكأني نمت ليلة على الشاطئ، وصوت الأمواج يهدهدني، وهذه الجبال لها صوت هدير البحر. قال لي فرهاد بكل صدق: «أنت مثل الوطن».

ثم تابع هيوا محاولاً ألا يهول الأمور،لكن صوته خانه، وعلا صوته قليلاً، وكأنه الناطق باسم جبال كردستان:

«على هذه الجبال الساحرة، على هذه الجبال القاسية ببردها بوعورتها، وشلالاتها المتجمدة، وثلجها المتجلد، شرد ثلاثة ملايين إنسان، تركوا المدن لتسكنها

الأشباح. صعدوا الجبال. بعد تحرير قصير للبيشمركة للمدن الكردية، الذين استغلوا حالة الوهن التى أصيب بها جيش صدام، بعد فشله فى احتلال الكويت.

جاء انتقام صدام، دموياً. وسقط عشرات الآلاف، من الجوع . من البرد، من المرض، من على الكيماوى». ودون أن يتوقف هيوا لأخذ أنفاسه استطرد فرهاد: «استمر العذاب والخوف حتى معركة كورى، على مضيق كورى، وانهزم صدام وأوقفت دباباته»..

سكت فرهاد عن الكلام، وأدار لى ظهره، ونظر نحو طريق الآلام طريق هاملتون، وقال بصوت خفيض، لكنه واضح:«أنا حبة القمح التى ماتت.. لكى تخضر ثانية وفى موتى حياة ما».

ثم زفر مرة أخرى وقال: وأنت تعود الى البيت بيتك..فكر بغيرك

وأنت تعود إلى البيت بيتك..فكر بغيرك

«أنا فكرت فى فلسطين عندما كنت عائداً إلى البيت»

ركض القمر وراءنا. اختفى أحيانا وراء غيمة مبعثرة، صدح صوت هاشرى متأوهاً:

لا أريد من الحب غير البداية
يغفو الحمام..

بدا شبح مجمع بيره مكرون، ينظر إلى جبل سارة التى احترقت فى المنام، عندما غنى عزيز:

أكريم بوبختى خوم..
أبكى على حظى.

وتلاعبت الرياح مع أنفاس الجبال، التى خلت سماؤها من العصافير، مرت سحلية تائهة، نظرت قليلاً نحو المنحدر، ثم اختفت فى ثقب، لم يرغب أحد بإزعاج الصمت، وسارت السيارة بهدوء نحو المنحدر.

[٥]

مطعم مظلم فى مدينة أربيل،خلى من النساء، كان الزبائن يتحدثون همساً، كما هو الحال فى جميع أنحاء كردستان،اعتقدت فى البداية أن سمعى قد خف فى هذه البلاد، ولكن حين سمعتهم يردون على كل سؤال أسأله بهشش، أنتبه بأن هذا يعنى أننى تحدثت بصوت أعلى من المسموح به فى كردستان.

قال (زهير وهو عربى عراقى) بصوت أعلى من صوت رامان يرد على تذمره من فقر طلابه للمعلومات العامة، حتى إنهم يعتقدون بأن تشيه جيفارا لاعب كرة: «قل لهم بأنه مقتدى الصدر أمريكا اللاتينية». انفجر الجميع ضاحكين، لفتت قهقهاتهم أنظار الجالسين فى المطعم. سارع رامان بإطلاق الهشهشة مرة أخرى، وقال:« غريب بأنهم لا يعرفون تشيه جيفارا ولكنهم يعرفون محمود درويش! . ربما هذا يعود لأن شعار المقاومة الكردية هو الأدب الفلسطينى. الشباب هنا لايعرفون الشعر الجاهلى. بينما الجميع يعرفون محمود درويش ومارسيل خليفة.

قال زهير: «معاناة الفدائى الكردى شابهت حياة الفدائى الفلسطينى. الفرق بينهما، هو أن معاناة الفلسطينى كانت فى الساحل. بينما معاناة الكردى كانت فى الجبال».

التقط د. أحمد الحديث« بين اربيل والسليمانية موجود مائتان وخمسون ألف فلسطينى. قال كاكا مسعود البارازانى، بأن أى فلسطينى فى كردستان هو ضيفى. كنت يوماً فى بيت عبد الرازق، سمعت ابنه يدندن بأغنية أحن إلى خبز أمى. فسألته هل تعرف مارسيل خليفة؟ فقال لى لدى جميع أغانيه وغنى لى سجل أنا عربى، أنا هنا أعامل باحترام أكثر من أى بلد عربى ذهبت إليه فى حياتى».

مال على د. أحمد وهمس: «أرجو ان لا تذكرى اسمى، أنا هارب من بغداد، بعد أن قتل زملائى الأطباء، وكنت آخر من هرب، أتانى شخص ونصحنى بترك بغداد، لان الميليشيات تبحث عن الأطباء، وأنا فلسطينى. فهربت ولم يبق فلسطينى واحد فى بغداد، الميليشيات حولت الهوية الفلسطينية إلى جريمة. فى كردستان العراق الحال مختلف،عندما يستقبل مام جلال السفراء العرب، ويصل دور الفلسطينى بالسلام، يقول له أنا كنت فدائياً فلسطينياً».

سألنى رامان: «هل تعرفى بأن صلاح الدين كان كرديا»؟.

ثم أنشد بهمس: هل خرَّ مهرك
ياصلاح الدين.. هل هوت البيارق
هل صار سيفك.. صار مارق
ونقول فلتحيا العروبة
مرى اذاً فى أرض كردستان
مرى ياعروبة

جلس سعيد آغا روستى أمير عشيرة بالك ، على كنبة فى غاية الأناقة ببساطتها، فى غرفة تشبه فى أثاثها مطعما فى موسكو الشيوعية، لكن فى بيت رئيس البرلمان الكردستانى. تعمم روستى بكوفية فلسطينية بيشمركية، حجبت جبهته، وأظهرت عينين حادتين لمعتا ببريق ساهم بإضاءة غرفة الجلوس شاحبة الضوء،حمل فى يده سبحة خضراء بلون زيت الزيتون الطازج، بيد حملت تجاعيد ثمانين عاماً على أقل تقدير، وتمنطق بزنار عريض لفه بأناقة حول خصره النحيل.

رطن بالكردية مع عدنان المفتى رئيس البرلمان، الذى لم تختف ابتسامة لا تتناسب وتعابيره الجدية، سألت كنعان عن موضوع المحادثة؟ قال كنعان وهو يبتسم : «يتحدثون عن حق المرأة بطلب الطلاق، فى حال تزوج زوجها بامرأة أخرى، فى ظل القانون الجديد».

سألته ولماذا يهم الأمير روستى هذا الموضوع؟

كنعان: «لانه يريد الزواج من امرأة ثانية، وهو يقول بان زوجته مريضة».

وسألت كنعان ان يسأل روستى، «أى امرأة ستقبل بالزواج من رجل دخل العقد التاسع من عمره، وهل هو قادر جسدياً على ذلك»؟

رطن كنعان بالكردية مع روستى قليلاً. ثم قال لى: «يعرض عليك الزواج، ومهرك بستان ملىء بأشجار الفاكهة».

وسألته «وهل يحق لى الزواج من رجل ثان فى ذات الوقت»؟

ضحك روستى متجاهلاً سؤالى، وقال: «مكانك هنا، انهضى معى الى البيت، وإن كنت زوجة لا تقوم بواجبها نحو زوجها، سأتركك».

وقلت له «ألا يعطينى مهلة للتفكير»؟

قال روستى: «على النساء أن يدعن التفكير».

ذهب روستى مع أبنائه الذين ضحكوا من قلب رائق على والدهم الذى طلب يد ضيفة الشخص الذى كان وراء قانون منع تعدد الزوجات، عدنان المفتى .

جلست مقابل عدنان . وسألته عن علاقة كردستان بإسرائيل، وإذا ما كانوا يعتقدون ان الطريق الى امريكا هى عبر إسرائيل؟

اختفت الابتسامة عن ملامح عدنان الجدية، وقال تاركاً سبحته من يده، وكأن جدية الجواب لا تحتمل التسبيح «لا توجد علاقة كردية مع إسرائيل، ربما كان هناك بعض الاتصالات والتى إن وجدت لن تكون بذات قوة العلاقة الموجودة مع مصر أو الأردن. دخل طبيبان إسرائيليان الأراضى الكردية بعد المذابح فى الستينيات، دخلا فى حين لم تأت مساعدة عربية واحدة، ماذا نقول لهم نحن لسنا بحاجة؟ ونحن نموت»؟.

ودون أن يتخلى عن همسه، الذى اضطرنى أن أغير مكانى وأجلس إلى جانبه فى ذات الكنبة تابع همسه«. انقطعت العلاقة العربية مع الأكراد مع عبد الناصر، الذى افتتح إذاعة كردية فى مصر،عبد الناصر التقى طالبانى، ومن خلال علاقات عبد الناصر ذهب إلى بيروت، لكن دعم العرب للنظام العراقى أجهض هذا التقارب، وانقسمت الحركة الكردية،لا توجد علاقة إسرائيلية - كردية، الإسرائيليون ربما يدخلون إلى كردستان، مثلما يدخلون الدول العربية، لكن اتحداك أن تجدى إسرائيليا واحداً فى كردستان، وأنا لم ألتق فى حياتى مع إسرائيلى واحد، لكن التقيت ومحمود عثمان، مع ياسر عرفات فى منتصف الثمانينيات فى برلين الشرقية قبل سقوطها بأربعين يوما وكان محمود درويش حاضراً فى الاجتماع ، طلبنا من ياسر عرفات التدخل وان يرى مع صدام إذا ما كان هناك طريق للحوار، قال عرفات بالحرف الواحد هذا متعجرف ومغرور جداً ومع ذلك سأحاول، وبالفعل ذهب إلى بغداد، وأرسل لنا رسالة قال فيها (كما قلت لكم فى لقائنا الغرور هى اللغة السائدة). ثم بحدة تجاوزت الهمس قال عدنان المفتى: «ليس لنا أصدقاء بين العرب، والأكراد بحاجة إلى أصدقاء، لم يبق لنا عند العرب سوى بعض الشعراء. سميح القاسم صديق الشعب الكردى. هناك قواسم مشتركة بين العرب والأكراد.

[٦]

دعانى حماغا إلى حفل لتسليم جائزة أفضل فندق وأفضل مطعم فى كردستان. كان مكان الاحتفال، على بقعة ناصعة الاخضرار، لا يتناسب اخضرارها والجبال الرمادية المحيطة بها، وكأن الحشيش زرع على عجل لهذه المناسبة. انتشرت موائد مع كراسى بلاستيكية بيضاء. جلس حول الطاولات رجالٌ تتوسط وجوههم شوارب كثة، وصلت بين حافتى شفاههم.

على المنصة المرتفعة . حجلن راقصات بفساتين فسفورية الخضار، أمام شباب تمنطقوا بزنانير رمادية. على السراويل الكردية، واعتمروا كوفيات الفدائى الفلسطينى وفدائيى البيشمركة.

بعد التصفيق، زعق رجل فى الميكرفون بالكردية، ثم فجأة زعق بالعربية:« كتب محمود درويش عن الطفل الفلسطينى فى كردستان، وعن الطفل الكردى فى فلسطين»....

وقفت منتصبة أبحث عن محمود درويش، بين الناس ، ثم على منحدرات الجبال، ثم بحثت على قمة جبل سفين، وبدأت أسمع كلمات لم أفهمها لكن ترعد فى صدرى

هايلى فرمانه...هوار
ثم صوت بكاء و أنين يسكن الأحشاء
ويلولو ويلولو
ولول شفان على أوتار السهول المُقتلعة أشجارها وجبالها المُحترقة والموؤود أهلها
وشىء آخر
فرمالى هوار هوار هوار
وتركت كويا تتنهد ببيوتها المطلية بالطين
وهمست مستجدية :
جانى.. جانى
عاد صدى الصوت ليهوى أمام هيبة سلطان
وصهلت الرياح على أوتار شفان.
تركت سارة نائمة وفى حضنها أطفال تلفعوا فى الصمت
وآباء فى انتظار.. على صخور كورك
وأمهات يشهقن فى عويل مبحوح
وأشجار على سفر
وأنهر تبحث عن الغرق
وبحر غير موجود
ومحمود درويش
ينادى عليه شيركو بيكه: يا أخى!
أنا رفيقك «سميح»
ماذا دهاك؟
لم لا تنهض ■

أعـــوام مـــحـفـــوظ

■■ فرغت من قراءة المجلدات العشرة الضخمة التى أصدرتها دار الشروق بالقاهرة عام ٢٠٠٦ وضمنتها الأعمال الكاملة للأديب العربى الراحل الأستاذ نجيب محفوظ، وقد اشتملت المجلدات العشرة على كل ما نُشر للأستاذ نجيب محفوظ من كُتب خلال حياته الطويلة، لم ينقص منها إلا كُتيب «مصر القديمة»، وهو ترجمة لكتاب ألفه كاتب إنجليزى ليس بذى شهرة - اسمه جيمس بيكى - James Baikie ونشره عام ١٩١٢ .

ولقد أنفقتُ فى قراءة المجموعة بضعة أشهر، ما أكاد أنصرف عنها إلى قراءة شىء غيرها حتى أكرّ راجعًا إليها، أجوس عالمًا من الجمال والمتعة والحكمة يُغرى والجه بألا يفارقه حتى يذره من أدناه إلى أقصاه.

وها أنا ذا وقد خرجت من هذه الحديقة الغناء - وما أحسب إلا أنه سيكون لى إليها عود بعد عود ما أضاء سراج هذا العُمر - أطوف مع القارئ الكريم - فى إيجاز، غاية الإيجاز - أرجاء من هذا العالم الزاخر القائم بذاته من أدب الأستاذ نجيب محفوظ، وأضع بين يديه بعض ملاحظاتى وخواطرى، ولعل الدارسين لأدب الأستاذ والمعنيين به يجدون فيما يقرأون من هذا الحديث شيئًا من الفائدة ولو نزرًا، من أيما ضرب كانت تلكمُ الفائدة.

مجموعة «همس الجنون» - بشائر الموهبة:

قيمة هذه المجموعة أنها تحوى بعض الأقاصيص القصيرة التى كتبها الأستاذ نجيب محفوظ فى مطلع حياته الأدبية صدر شبابه، وهى آية بينة على موهبة قصصية لا شك فيها، من حيث إن الموهبة القصصية تتضمن - أو يتضمنها - خيال خصب، وسهولة - وكدت أقول خفة - فى القص، ولحظ لأدق تفاصيل الحياة الإنسانية ومفارقاتها، وبراعة فى ضفر الأحداث ونكثها. والمجموعة - عندى - من أجمل ما كتب الأستاذ نجيب من مجموعات قصصية فى حياته كلها وأكثره إمتاعاً.

الروايات التاريخية الثلاث:

وهى روايات «عبث الأقدار» و«رادوبيس» و«كفاح طيبة»، وقد أصدرها الأستاذ نجيب تباعًا فى بضع سنين، وتجرى أحداثها فى الأعصر الفرعونية، وهى روايات خيالية فى تفصيلاتها تكسو هيكلاً جاسئًا من الواقع التاريخى. ونهج الأستاذ نجيب فى رواياته الثلاث هذه مزيجا من المنفلوطية والزيدانية: فيه من المنفلوطى عبارته المشرقة ذات العذوبة، ومن جرجى زيدان براعته التى عُرفت عنه فى ضفر الأحداث ونقضها.

ولقد أحسن الأستاذ نجيب صُنعًا بأن انصرف بعد كتابته لهذه الروايات الثلاث عن هذا الفن من القصص، إذ إنه فن - على جمال تلك الروايات الثلاث الذى لا يُجحد - لم يكن بالفن الذى يستوفى موهبة هذا الكاتب القصصية، التى بلغت مداها وتمطت كما يتمطى المارد الجبار فى الفن الذى خُلق له الأستاذ نجيب ولم يُخلق لغيره من فنون الأدب، وهو فن القصص الاجتماعى الواقعى.

روايات الأربعينيات - مرحلة التجويد الفنى - مأساة الإنسان:

وهى خمس: «القاهرة الجديدة» - وكان اسمها قبل «فضيحة فى القاهرة» - و«خان الخليلى»، و«زقاق المدق» و«السراب»، و«بداية ونهاية». وهذه الروايات الخمس - مع الثلاثية - هى روائع نجيب محفوظ غير منازعة، فلو لم يكتب من القصص غير هذه لضمنت له فى الأدب العربى وفى فن القصة خاصة مكانًا عليًا.

وميزة هذه الروايات الخمس - فيما أرى - على ما تلاها من أعمال للأستاذ نجيب محفوظ روح الأناة المهيمن عليها، إذ هى روايات تجرى أحداثها وتتضح معالم شخوصها على هيئة تلذ القارئ الشغوف بالأدب، المحترف لهذا الفن العزيز - فن القراءة - أكثر مما تلذه أعمال مثل «اللص والكلاب» و«الطريق» و«السمان والخريف»، التى تهوى فى مجراها هُويًا.

ومن هذه الميزة نفسها كانت لهذه الروايات الخمس ميزة أخرى على ما تلاها من روايات هى متانة اللغة وجودة الأسلوب. ولعل هذا الفارق بين هذه الروايات وبين ما تلاها إنما نشأ من أن الأستاذ نجيباً بعد هذه المرحلة كان قد قارب الخمسين من عُمره ثم جازها، فانتابه - كما ينتاب كثيرًا من الناس عند بلوغ هذه السن وربما قبل بلوغها - هاجس أن فسحة الزمن التى بقيت له ليقول ما يريد أن يقول ويبدع ما يود أن يبدع - أمست محدودة. وأحسب أن عمل الأستاذ الطويل فى كتابة «سيناريوهات» الأفلام السينمائية قد كان له أثر فى هذا التطور.

وهذه الأعمال الخمسة إن يكن بينها من جامع، فلست إخاله إلا عنصر المأساة الذى يرين عليها جميعاً، وإن شئت فقل: ضعف الإنسان أمام سطوة المارد الجبار، مارد القدر، وهو ما يجعل منها روايات واقعية باستحقاق: إذ حياة الإنسان فى جوهرها مأساة لا شك فيها، وختامها مأساة المآسى وهو الموت، الذى تتساوى فى حضرته الرهيبة كل متشابهات الحياة ومتناقضاتها، وتتكافأ فى ظلاله القاتمة كل القيم من أدناها إلى أسماها، أو تصبح كلها لا قيمة! يطمح الإنسان فيجد من الواقع كبولاً على طموحه تلحقه بهذيان المحمومين (طموحات أحمد عاكف وأحلامه فى «خان الخليلى» - طموح محجوب عبدالدايم فى «القاهرة الجديدة» - طموح حسنين فى «بداية ونهاية»).. يُحب فإذا محبوبه يفلت من يده ليحب سواه (كما أفلتت حميدة من عباس الحلو فى «الزقاق»، وكما أفلتت نوال من أحمد عاكف فى «الخان»، أو يخونه أقبح خيانة (كما خانت رباب بطل «السراب»)، أو هو يجد نفسه عاجزًا عن الحب نفسه بمعناه الذى يفهمه ويتطلبه منه المحبوب، ومنشأة عجزه ذاك ظروف نشئ فى ظلها لم يكن له يد فى صنعها أو مقدرة على دفعها (كامل روبة لاظ فى «السراب»).

أنفقتُ فى قراءة المجموعة بضعة أشهر، ما أكاد أنصرف عنها حتى أكرّ راجعًا إليها

أما الموت الذى ذكرناه فهو بطل مقيت من أبطال هذه الروايات جميعها، لا تغيب ظلاله عن واحدة منها - ما خلا رواية «القاهرة الجديدة»: فى «خان الخليلى» يغول الموت أحد أبطال القصة وهو رشدى عاكف، الذى يقضى بعد إصابته بداء السل وهو فتى فى ينع فتوته ومحب فى وهج حبه. وفى «الزقاق» يهلك - بأيدى بعض الجند الإنجليز - عباس الحلو الفتى البائس والمحب الذى عبث به. وفى «السراب» تهلك أم البطلة كامل روبة - وهى من أرق شخصيات نجيب محفوظ وأدناها إلى قلب القارئ - هلكة تحفظ القارئ على البطل الذى قسا عليها قسوة لم تكن تستحقها، كما تهلك زوجه رباب.. وفى «بداية ونهاية» تهلك الفتاة البائسة المحرومة نفيسة مُلقية بنفسها فى غمار النيل، ضحية لمجتمع لا يرحم، ولمقادير قدرت عليها - منها أنها كانت عُطلاً من حلية الجمال - لم يكن بملكها أن تغيرها أو تقفز من فوق جدارها المنيع، ولن يفهم القارئ هذا الإجمال إلا إذا قرأ الرواية فى نصها.

الثلاثية - الفلسفة المحفوظية:

هى روايات ضخمة صدرت فى ثلاثة أجزاء عامى ١٩٥٦ و١٩٥٧، مع أن الأستاذ

الأعمال الكاملة
نجيب محفوظ (١٠ مجلدات)
دار الشروق ٢٠٠٦

... الروائيـــــــــة

خالد محمد ياسين أبو الهيجاء



فرغ من كتابتها قبيل انقلاب يوليو عام ١٩٥٢ . ويبلغ عدد الأئمة من شخوص الرواية نحو الأربعين، وتدور حوادثها على امتداد نحو ثلاثة عقود، من أخريات الحرب العالمية الأولى إلى أخريات الثانية، فهي على هذا من نوع الروايات التي يسمونها روايات الأجيال، والتي كان الأستاذ نجيب محفوظ يضرب لها مثلاً من أدبنا العربي الحديث رواية «شجرة البؤس» للدكتور طه حسين، التي أملاها في لبنان عام ١٩٥٤ .

والجزء الأول من الثلاثية «بين القصرين»، وهو أطول أجزائها وأجملها - يبدأ من شهر أكتوبر عام ١٩١٧ وينتهي في أعقاب ثورة عام ١٩١٩، وجزؤها الثاني «قصر الشوق»، وهو يلي الأول في الروعة - يبدأ عام ١٩٢٤ وينتهي يوم وفاة سعد زغلول في الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٩٢٧، أما جزؤها الثالث «السكرية»، وهو أقصر أجزائها وأقلها تلاحماً وأطولها في الفترة الماضية التي يجري فيها - فيبدأ من منتصف الثلاثينيات وينتهي عام ١٩٤٤ . وأسماء الأجزاء الثلاثة هي أسماء أحياء قديمة في القاهرة تجري فيها أحداث الرواية.

ولا تزال الثلاثية معدودة بين أفضل ما كتب الأستاذ نجيب محفوظ إن لم يكن أفضله على الإطلاق، والجزء الأول منها هو أفضلها عندي، لأنه الجزء الذي خلص للقص، فلم يكد يعمد فيه الكاتب إلى بسط فلسفة خاصة أو فكرة، على نحو ما فعل في الجزءين اللذين تلياه.

ففي هذين الجزءين، يعرض الأستاذ نجيب فلسفة في قضية الوجود، يعرضها من خلال بطله كمال أحمد عبدالجواد الذي لم نعرفه في الجزء الأول إلا صبياً شكساً ظريفاً، وهذه الشخصية في الرواية هي - عندي - نقطة ضعفها الكبرى، وذلك أنها قد تظهر - بل لا بد أن تظهر - بمعيار النهج الواقعي الذي كان ينتهجه الأستاذ نجيب في كتابته لهذه الرواية خاصة شخصية نموذجية، بمعنى أن كل مفكر حر مستنير، يطلع على شيء من الفلسفة، فإن ذلك صائر به لا محالة إلى الإلحاد واحتقار الأديان والهزء بالأنبياء، وليس هذا لعمري من الحق في شيء.

وما بالقارئ من حاجة إلى كبير فطنة ليعرف أن هذا الفكر إنما هو فكر الأستاذ نفسه، وذلك أنه عاد فبينه أوضح تبيان في روايته

الضخمة «أولاد حارتنا» التى كتبها بُعيد صدور ثلاثيته، والتى سنختصها بحديث وجيز.

فهذه الرواية - «أولاد حارتنا» - تلخص على ضخامتها فى كلمات معدودات: أن الديانات الكتابية - بله غير الكتابية - جميعها أساطير، وأن فكرة «الله» نفسها على هيئتها التى جاءت بها الديانات فكرة سخيفة، وأن العلم هو دين هذا الزمان الذى لا دين غيره، والذى قضى - أو ينبغى أن يقضى - على سخف الأديان الذى كبل عقول البشرية وأضل تصوراتها ألوفًا من السنين - كما قضى «عرفة» - رمز العلم والمعرفة فى هذه الرواية - على «الجبلاوى» الذى رمز به الأستاذ نجيب إلى الله تبارك اسمه كما صورته الديانات الكتابية.

وأنا إنما أنقد فلسفة الأستاذ نجيب فى ثلاثيته لا عن تدين، ولا عن عقيدة راسخة فى النفس يسوؤنى ويؤلمنى أن يرميها رام بالسخف وأن يزرى بها مزر، وإنما أنتقدها بمقياس النهج الذى انتهجه الأستاذ فى كتابة جل ما كتب - وفى هذه الرواية خاصة - وهو النهج الواقعى. وأن الأستاذ ليبلغ من إغراقه فى واقعيته فى الثلاثية أن يسف أحيانًا ويدير على ألسنة شخوص روايته من هُجر الكلام ما تنقبض له نفس القارئ المهذب، ولا أعرف له مسوغًا من فن القص نفسه، ولا من النهج الواقعى فى القصص، ودع عنك الكثير جدًا من المواضع التى يقتبس فيها الأستاذ الجليل آيات كريمة من القرآن وعبارات من الحديث الشريف هازئًا ساخرًا، معلقًا بها على معان مبتذلة، جنسية وغير جنسية، ما كان أجدر الكاتب الكبير أن يربأ بالقرآن وحديث النبى عن حمأتها. وذلك - مثلاً - كالذى جاء على لسان أحد أصحاب ياسين: «الخمار للخمار كالبُنيان يشد بعضه بعضًا»!

وغير كمال يجعل الأستاذ نجيب فى ثلاثيته غلمة لم يبلغوا العشرين من سنيهم أصحاب فلسفات راسخة، ويلقى على ألسنتهم سيلاً دافقًا من الهُزء بالأديان والملائكة والنبى نفسه. فهذا أحد ابن خديعة شيوعى، يزعم متفكها أنه لا يعبد الله، وهو لعله لم يبلغ العشرين سنًا، وهذه صديقته سوسن - فتاة شيوعية ابنة عامل مطبعة - تسخر من أن يذكر لها نبى الإسلام فى معرض اقتران الجهاد فى سبيل المبدأ بأخذ الحظ من مُتع الحياة، فتتساءل ساخرة: أى نبى؟ وتذكر مفضلاً عليه كارل ماركس «الذى عكف على تأليف «رأس المال» تاركًا زوجه وأولاده للجوع والبهدلة».

أما كمال ففتى لم يكد يبلغ العشرين، وهو بعد اطلاعه على «الفلسفة» يُنكر الأديان جملة، ويُعلن إعلانًا لا رجعة فيه أنه لن يكون من المصلين ولا صائمى رمضان، ويربع على هذه الفلسفة إلى آخر الثلاثية، وقد انسلخ من عُمره سنون وسنون، كما ظل الآخرون كذلك على فلسفاتهم. وما أدرى - والله - أى فلسفة هذه التى أتيح لفتى فى العشرين أو دونها أن يقرأها ويهضمها ويكون لها من قوة الأثر فى نفسه وعقله ما يدوم على حال إلى سن الكهولة! فهذا - وأيم الله - أثقب ذهنًا من المسكين أبى حامد الغزالى!!

وأين يقع ذلك كله؟ فى أحياء القاهرة العتيقة..

وأنا أعلم علم اليقين أنه ما من مثقف - وربما غير مثقف - لم يعش فى صدر شبابه هذه الحيرة التى عاشها كمال، ولم يشك فى بعض أحيانه فى كل شىء، ولم يُمتحن عقله وضميره بهذه الأسئلة الخالدة عن الله، والدين، وعالم الغيب، وغاية الوجود، ومعنى الألم، والقدر والجبر... ولكن كم من نموذج مثل كمال هذا يمكن أن يعثر به الإنسان؟ نموذج غلام لا يبلغ العشرين، يزعم - أو يزعم له الأستاذ نجيب - أنه قرأ واطلع على الفلسفة، ينتهى إلى الإلحاد واحتقار الدين وعباداته وشعائره، ويصبح ما بين عشية إلى ضحاها وماء حياته الخمر، وخبزُها لحوم الغوانى، وتغبُر عليه على معتقده هذا الجديد سنون من بعد سنين؟

وأنا أزعم - ولعل لى من التجربة ما يُعطينى الحق أو بعضه فى أن أزعم - أن حيرة المفكر المثقف الحق لا يمكن أن تكون نهايتها الإلحاد، على هذا النحو القاطع اليسير الذى شاءه الأستاذ نجيب لبطل روايته، وأزعم أن حجة الإيمان لن تبرح أقوى من حجة الإلحاد، وأن أحير الحائرين - فى بيئتنا الإسلامية خاصة - لن يغلب الإلحاد على الإيمان فى نفسه وعقله، أو أنهما - الإلحاد والإيمان - سيظلان على درجة من القوة واحدة فى نفسه، فلا تبرح تجده طورًا آويًا إلى كنف الدين، وآونة ضاحيًا فى عراء الشك والإلحاد، أما أن ينسلخ عن دينه كله فجأة - صنيع كمال - وينفض يديه منه آخر الدهر كأن الدين عنده لا يعدو أن يكون ثوبًا بلى فاستعاض عنه بغيره، فهذا فيما أرى فيه عن الواقع جنف.

ومما يتصل بهذا الخط الفكرى - وينبغى أن أنبه ههنا إلى أننى لا أحاكم فكر الأستاذ فى جوهره أى نوع من المحاكمة وليس لى موقف منه فى بحثى هذا غير موقف الحياد المطلق - «ظاهرة» نلحظها فى هذه الرواية وفى كثير غيرها مما كتب الأستاذ وهى السخرية العميقة بكل ما يسمونه أخلاقًا.

فالأستاذ نجيب مولع فى هذه الرواية وغيرها بانتقاء أكثر أبطاله من أخس النماذج البشرية (أذكر محجوب عبدالدايم وحسين كرشة وياسين وسعيد مهران وعيسى الدباغ وصابر سيد سيد الرحيمى - وهؤلاء جميعًا من روايات صدرت كلها بين عامى ١٩٤٥ و١٩٦٤)، وما أرى ذلك إلا مقصودًا قصدًا، وهو فرعٌ فيما أرى من السخرية بالدين، إذ إن الأخلاق عنصر من عناصر الدين أصيل، هذه واحدة، ثم إنها من أخص خصائص بنى الإنسان وأرفعها، ولما كان الإنسان عند الأستاذ وعند سائر الماديين لا يعدو أن يكون حيوانًا راقيًا، أو سُلالة قردية، إذ هو بمقتضى نظرية التطور evolution التى وضع أساسها دارون قبل مائة وخمسين سنة أخو الغوريلا والشمبانزى، نماه وإياها أب واحد - لما كان ذلك كذلك فمن السخف أن يميز على سائر البهائم بهذا الشىء الذى هو فى حقيقته أعز وأنفس ما امتاز به الإنسان، ألا وهو الخلق، وهو معنى أعم فى الدين وارتباطه بسر أسرار هذا الكائن البشرى: الإرادة.

فمن يقرأ رواية الأستاذ من غير العرب يسر إلى نفسه اعتقاد بأن الشعب المصرى كله شعب سكير خمير، فالصغير والكبير، والأنثى والذكر، والصالح والفاسد - كلهم لا متاع لهم أشهى من الكأس و«المزة»!

ويتصل بهذه الناحية إغراق الأستاذ الشديد فى وصف الحالات الجنسية والانجذاب البهيمى للذكر والأنثى أحدهما إلى الآخر، وأحسب أن أكثر من قرأوا الثلاثية لم يفطنوا إلى المغزى البعيد الذى قصد إليه الأستاذ من وراء ذلك، وهو مرتبط أوثق ارتباط بفلسفته المادية، إذ هو ولا ريب هجوم من جانب آخر على الناحية الخُلقية عند الإنسان، فالإنسان كما يظهر من رواية الأستاذ ليس أكثر من بهيمة: تعرض الأنثى للذكر - أى ذكر - فلا يكون منه إلا أن ينزو عليها دون تلبث أو تلدد، كما ينزو الليث على اللباة فى الموسم المعلوم، ويعرض الذكر للأنثى فلا يكون لها من هم إلا الظفر به وقضاء لُبانتها على يده، أو على جسده على الأصح. وليس ينكر امرؤ ما لغريزة الجنس عند الإنسان وسائر الأحياء من خطر، ولكن الأستاذ قد أسرف فى هذه الناحية إلى حد ممجوج؛ فياسين - أحد النماذج الخالدة للإنسان عند الأستاذ نجيب - يذهب إلى أم مريم ليخطب إليها ابنتها فتغويه الأم، ويتخذها خليلة أيامًا معدودات، وهى كانت من قبل خليلة لأبيه! ثم يحتويها ويرجع فيخطب ابنتها ويبنى عليها. والسيد أحمد نفسه - أبو ياسين - يتعلق بزنوبة العوادة ويكترى لها عوامة على النيل، ثم تتزوج زنوبة من ابنه ياسين، فيكون شعور السيد القصى - على خلاف ما قد يتوهمه القارئ - شعور الارتياح، ويعد ظفر ابنه بالمرأة التى عذبته هو واستعصت عليه زمنًا له هو: ما دام ياسين ابنه!

والقاص لا يُطلب إليه أن يكون واعظًا خلقيًا، ولكنه ليس له من الجانب المقابل أن يُشهر معوله ويُعمله فى أساس الأخلاق هدمًا، لا لشىء إلا ليثبت فلسفة مادية، ويرى أن هذا الإنسان إن هو إلا بهيمة لا تمتاز عن العقارب والقنافذ والمعزوينات آوى إلا بميزات بيولوجية هى عند التحقيق عرضية، وأن الدين والأخلاق الإنسانية إن هى إلا خرافات سخيفة وخيالات سقيمة خيل إلى الإنسان أزمان كان طفلاً يحبو فى مدارج الحضارة أنها شىء!

وتُلقى شجرة الحزن بظلالها الكئيبة على الثلاثية كما ألقت بها فى روايات الأربعينيات، ولا نفتأ بين الحين والحين

نسمع حفيف أوراقها اليابسة على غصونها الجاسئة. وقد هزتها ريح الأقدار. يعزف لحن الأسى الخالد الذى وُلد مع الإنسان يوم وُلد.

ففى نهاية الجزء الأول من الثلاثية يقضى الأستاذ نجيب محفوظ بلا رحمة على شخصية من أحب شخصيات الرواية إلى القارئ وهو فهمى ابن السيد أحمد عبدالجواد، طالب الحقوق النجيب المفعم بالروح الوطنى، الذى يقتل برصاص الإنجليز. فتى فى فوعة الفتوة وأملاً يهتز رونقًا وبهجة ويفيض تبشيرًا ووعدًا - فى مظاهرة سلمية سارت فى أعقاب ثورة عام ١٩١٩، وبموته ينتهى الجزء الأول من «الثلاثية». وقد بلغ الأستاذ نجيب فى الفصل الأخير من هذا الجزء ذروة الذرى فى فنه القصصى. ولا سيما وهو يصف السيد أحمد عبدالجواد وهو يتلقى النبأ الجلل ثم وهو يروح به إلى بيته.

وقريب من تلك المأساة مأساة عائشة إحدى ابنتى السيد أحمد، التى قضى المرض على زوجها وابنيها فى نهاية الجزء الثانى، ثم قضت ابنتها الوحيدة الباقية - نعيمة - فى الجزء الأخير وهى على فراش الولادة، فآلت إلى حال هى أبعد ما تكون عن الحال التى يراها عليها القارئ فى الجزء الأول من الرواية، حال الفتاة المنعمة المكسال، المدللة بصباها الغض وجمالها الخالب.

وحتى السيد أحمد نفسه - بطل الثلاثية الأول غير مُدافع - يقضى عليه الأستاذ نجيب بميتة بائسة فى أخريات الجزء الثالث عقب غارة من غارات الحرب العالمية الثانية.

ومما يلحظه القارئ لا محالة فى الجزء الأول من الثلاثية خاصة - «بين القصرين» - ولا نجد له نظيرًا فى تواتره فى عمل آخر من أعمال الأستاذ نجيب محفوظ هذه التشبيهات التى يكيلها الأستاذ فى أثناء سرده كيلاً، وكأنما هو يؤدى امتحانًا فى فن البلاغة! وهى تشبيهات وإن تكن فى عمومها موفقة دقيقة فإن فن القصة لا يفتقر إليها، ولا ينتقص شيئًا من جماله أن تعز فيه، بل إن كثرتها على النحو فضول غير محمود.

وثلاثية الأستاذ نجيب محفوظ حد كبير فاصل بين مرحلتين من مراحل الإنتاج الروائى للأستاذ: مرحلة الأعمال المجودة التى سبقتها والتى ذكرناها آنفًا، ومرحلة أعمال الإيقاع السريع - إن صح التعبير - التى لحقت بها، وفى الثلاثية ملامح من المرحلتين، كأنها كانت نهاية مرحلة وبداية أخرى، وقد يؤكد هذا أن الأستاذ أخلد إلى الراحة بعدها فسلخ بضع سنين لا يكتب شيئًا.

«أولاد حارتنا» - الفلسفة المحفوظية بوضوح أشد:

هى أول ما كتب الأستاذ نجيب محفوظ من قصص بعد الثلاثية، وقد نشرها مسلسلة فى صحيفة «الأهرام» فى أخريات الخمسينيات من القرن المنصرم، ولم يتنبه القارئون أول الأمر إلى حقيقة مغزاها، وهو سرد سير الأنبياء الثلاثة الكبار موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم ومن قبلهم أبيهم آدم فى صيغة روائية إطارها الحارة القاهرية على حالها التى كانت عليها فى النصف الأول من القرن العشرين. واتباع ذلك بما يبين منه أن العلم قد قضى على عهد الديانات وأضحى هو ولا سواه - أو ينبغى أن يضحى - الدين الجديد الأوحد للبشرية.

ولا ريب أن دافع الأستاذ نجيب إلى كتابة هذه الرواية إنما كان دافعًا فكريًا صميمًا: فهو قد كتبها ليفصح عن فكر ارتآه، ولم يجد صيغة هى أوفق له وأطوع بين يديه من الصيغة الروائية، ولعله لو لم يكن كاتبًا روائيًا لما فكر فى صياغة ذلك الفكر على صورة من الصور.

والرواية من الوجهة الفنية عمل ممتع وجميل، ولكن لأن الأستاذ لم يكن مُطلق الخيال فى كتابتها فقد جاءت موهبته فيها مكبوحة على نحو لا خفاء فيه، فلم تنطلق انطلاقًا فى هذا العمل الجليل إلا قليلاً.

أعمال الستينيات - العهد الناصرى - عبقرية رسم الشخصية - الحوار فى قصص محفوظ - فن الأقصوصة:

وعددها عشر، وهى: «اللص والكلاب» - «السمان والخريف» - «دنيا الله» - «الطريق» - «بيت سيئ السمعة» - «الشحاذ» - «ثرثرة فوق النيل» - «ميرامار» - «خمارة القط الأسود» - «تحت المظلة». وهى - مع «أولاد حارتنا» - جماع ما كتبه الأستاذ نجيب محفوظ فى العهد الناصرى، وأربع منها مجموعات قصصية.

و(السمان) المذكور فى عنوان الرواية الثانية هو النطق العامى المصرى لضرب من الطيور، ينطقونه بكسر السين وتشديد الميم، وهو طائر السمانى - بضم السين وتخفيف الميم مقصورًا، وهو المسمى بالإنجليزية quail، ونسميه نحن فى بلاد الشام (الفرى) - بكسر الفاء وتشديد الراء - ويقال إنه هو طائر السلوى المذكور فى القرآن الكريم .

وهذه الأعمال آيات بينات على نضج فن الأستاذ القصصى، بمعزل عن اللغة التى كتبها بها وعن سرعة التواتر التى تجرى بها أحداثها. فالأحداث فى هذه الروايات تجرى فى سلاسة وقوة كما تجرى الأحداث فى رواية الحياة، بغير تكلف ولا فضول، وشخوصها تتضح من خلل السرد والحوار والحوادث اتضاحًا ينسى القارئ أنها شخوص من نسج خيال مؤلف صناع، ويترك لها فى نفسه وخياله من الأثر مثل ما تتركه الشخوص الحية التى يخالطها فى حياته الواقعة.

وليست المسألة ههنا مسألة الإطناب فى رسم الشخصية وتوضيحها، ولكنها مسألة الموهبة والقدرة على التصوير بالإطناب كمثله بالإيجاز، فـ«عم مهران» مثلاً فى «اللص والكلاب»، وهو أبو بطل الرواية سعيد مهران، وهو متوفى فى الرواية لا يُذكر إلا استذكارًا - لا تزيد جملة ما ذكر به فى الرواية كلها على أسطر معدودات، ولكنه على ذلك شخصية حية فى خيال القارئ لا تكاد تقل حياة ووضوحًا عن شخصية ابنه نفسه، التى لم تغب فى صفحة واحدة من صفحات الرواية. وقريب من هذا يمكن أن يقال عن شخصية (الجد) فى «السراب».

ومن أصالة موهبة هذا الكاتب أنه يُخيل إليك أحيانًا أن الشخصية تخرج من بين يديه لتحيا حياتها الذاتية، وما ذاك إلا لقوة وضوحها وصدق تصويرها. فسعيد مهران بطل «اللص والكلاب» - مثلاً - يتبدى للقارئ من الماعات قليلة متفرقة فى الرواية رجلاً نهماً أكولاً. ولست على يقين أكان الكاتب واعيًا لهذه الخلة عند بطله أم أنها صورت نفسها بنفسها بقوة الخلق وإلهام الموهبة؟!



أما الحوار فى أدب الأستاذ نجيب محفوظ، فجانب من أكثر جوانبه إمتاعًا. وهو يتسم - على العموم - بالاختصار والحسم وشىء من الظرف والسخرية ينسى معها القارئ نفسه، وهذا هو الروح العام الذى يطبع حوار نجيب محفوظ فى كل ما كتب من أعمال هذه المرحلة وما تلاها، وهو الروح الذى ينقص حظه من الواقعية - على متعته التى لا تنكر -: إذ هو نغمة تكاد تكون واحدة، أو صدى من صوت واحد، لم يفلح الكاتب - ولعله لم يفطن - فى أن يضفى عليه شيئًا من التلوين، وهذا أثر آخر - فيما أرى - من آثار معالجة كتابة «السيناريو» السينمائى. فكاتب السيناريو يخط ما شاء من حوار على الورق عارفًا أو غير عارف بأن ممثلاً سينطق به ويبث فيه من روحه ما يجعل له امتيازًا من كل حوار سواه - فى السيناريو عينه - يجرى على ألسنة غيره من الممثلين، وليس الشأن كذلك فى قصة أدبية تكتب لجمهور القارئين.

وأعمال الستينيات هذه ينبغى أن تُدرس وأن تفهم فى ضوء الفترة التى كُتبت فيها - فترة الحكم الناصرى - التى قد يطول الكلام فيها إلى غير ما نهاية، وقد كانت فترة تحولات اجتماعية كبرى فى المجتمع المصرى، شهدت فيها البلاد لونًا من الحكم وضربًا من الزعامة لم تعرفهما من قبل، وذاقت فيها حلاوة أمجاد، وتجرعت مرارة هزائم·· وما من ريب فى أن روايات مثل «اللص والكلاب» و«السمان والخريف» قد كان لها من المذاق والإيحاء عند قارئ الستينيات ما لن يكون لها شبهه عند قارئ شاب يقرؤها فى هذه الأيام.

وقد يختلف الناس فى تفسير بعض مغازى هذه الأعمال اختلافًا كبيرًا، فرواية «الشحاذ» عندى - مثلاً - تصوير لقلق إنسان الحضارة، الذى شبع من لحم الحياة المادية المترفة حتى غثت نفسه، فتلفت من حوله يبحث لروحه ولجسده عن زاد جديد، أو يبحث عن قيمة للحياة أو فى الحياة، إن كان لتلك القيمة من وجود!

ولقد سجلت مرحلة الستينيات هذه نبوغ الأستاذ نجيب محفوظ فى كتابة القصة القصيرة، فهو فارس من فرسانها المعدودين فى

أدبنا العربى الحديث، ولعله أن يكون كذلك فى الآداب العالمية قاطبة. وكثير من قصص الأستاذ القصيرة ليست محض «حكى» قد يقرأ للتسلية وإزجاء الفراغ كما قد يخيل لبعض الناس، ولكن فيها عبرًا من أجل عبر الحياة ودروسًا يستشفها القارئ من أعز دروسها، ففى مجموعة «خمارة القط الأسود» على سبيل المثال تجد أقصوصة (الخلاء). وعبرتها سخف فكرة الانتقام والتعارض الأبدى بين مشيئة الإنسان ومشيئة الأقدار. وفى أقصوصة (المتهم) من المجموعة عينها تجد كذلك لغز القدر حاضرًا بين يديك إن كنت عنه من الغافلين، وتجد العجيبة الكبرى التى يعيشها بنو البشر منذ خلقهم الله وإلى اليوم لم يتعلموا منها، وهى أنهم يتخيلون أكثر مما يحسون ويفكرون، ويسيرون حياتهم وفقًا لما يتخيلون ويتوهمون، فيصيبهم الخسار ويصيب غيرهم ممن لا ذنب له. (وإنما أعنى هنا موقف الفلاحين الذين أصفقوا على أن بطل الأقصوصة هو الذى داس الشاب بسيارته، برغم أنهم لم يشهدوا الحادثة، وإن السائق - كما يعلم قارئ الأقصوصة - لبرىء).
















أعمال السبعينيات - العهد الساداتى - عبقرية صوغ الأسماء - (الفتوة) فى أدب نجيب محفوظ:

وهى اثنا عشر عملاً: «حكاية بلا بداية ولا نهاية» - «شهر العسل» - «المرايا» - «الحب تحت المطر» - «الجريمة» - «الكرنك» - «حكايات حارتنا» - «قلب الليل» - «حضرة المحترم» - «الحرافيش» - «الحب فوق هضبة الهرم» - «الشيطان يعظ».

وهذه المرحلة فى سيرة الأستاذ الأدبية تشبه سابقتها فى الظهر شبهًا غير قليل؛ فنحن نجد ههنا نسبة المجموعات القصصية إلى الروايات الطويلة هى عين النسبة فى الحقبة السابقة، ونجد التواتر السريع فى القص، ولعله ههنا قد زاد سرعة. ولكن بين أعمال الحقبتين اختلافًا بينًا نجم من أن هذه الأعمال الاثنى عشر قد كتبت فى عهد جديد غير العهد الناصرى، وهو عهد الرئيس أنور السادات الذى اختلف عن عهد سلفه - ولا سيما بعد حرب أكتوبر - اختلافًا بينًا، بل إن من أعمال هذه الحقبة عملاً - هو رواية «الكرنك» - كتب نقدًا لمعايب النظام السابق، وفى طليعتها ما هو معروف مشهور مما وقع فى ذلك العهد من تنكيل بالمناوئين وبكل من ارتيب فى ولائه تنكيلاً انتهكت فيه حقوق الآدمية أشنع انتهاك.

ونلحظ فى أعمال هذه الحقبة ولا سيما فى المجموعات القصصية أن موهبة الكاتب وخياله قد خفا - مع الشيخوخة التى هى مظنة الثقل - فطارا أحيانًا إلى ما وراء أفق المعقول (أقاصيص مجموعة «شهر العسل»)، وهى ملاحظة ستتوكد فيما تلا هذه الحقبة من أعمال. وستنيئ آخر الأمر إلى أحلام خالصة هى «أحلام فترة النقاهة» التى اختتم بها الأستاذ نجيب محفوظ حياته الأدبية، وسنتحدث عنها فى آخر هذا الحديث.

وكتاب «المرايا» بين هذه الأعمال ليس برواية، وإنما هو فصول وجيزة كتبها الأستاذ فيما يبدو عن أناس عرفهم فى واقع الحياة، بعضهم قد يعرفه القارئ مثل «عبدالوهاب إسماعيل» كما سماه المؤلف، فهذا هو الأستاذ سيد قطب ما فى ذلك عندى من شك. وهذا الكتاب قد يثقل على القارئ - ولا سيما من غير المصريين - بكثرة فصوله وتقاصرها وزحام الأسماء التى سميت بها. ولكنه قد يكون مناسبة صالحة للحديث عن جانب من عبقرية الأستاذ نجيب محفوظ فى فنه الأدبى، لا أعرف أن أحدًا قد أشار إليه، وهو عبقريته العجيبة فى اختراع أسماء الشخصيات، وهى آية من الآيات على أصالة موهبة هذا الكاتب القصصية التى لا يمارى فيها ممار، فهو يختار للشخصيات الرئيسة والثانوية أسماء تعجب كيف اتفقت له، وتأتى ممتزجة بروح الشخصية امتزاجًا لا انفصام له، حتى لو أنك جربت أن تختلق للشخصية اسمًا غير الذى اختاره الأستاذ لها لأعياك ذلك.. سعيد مهران - رءوف علوان - أحمد عبدالجواد - كمال - حميدة - أمينة - عباس الحلو - السيد رضوان الحسينى - أحمد عاكف - عيسى الدباغ - حليمة الكبش - إحسان شحاتة - زينب دياب - عاشور الناجى... إلخ. أى اسم هو أوفق من أى اسم من هذه الأسماء للشخصية التى اختير لها؟ وقد يظن ظان أننى أقول هذه المقالة بنوع من تأثير العادة، ولكن دونك روائيًا آخر هو صاحب رواية «رد قلبى» المشهورة، وهى رواية ضخمة فى مثل نصف حجم الثلاثية، وانظر الاسم الذى اختاره لبطل روايته «على عبدالواحد»، فأين هذا الاسم الساذج المصنوع من أسماء نجيب محفوظ بلا استثناء لواحد منها، وأين هو من الشخصية التى ألصق بها من أسماء الأستاذ نجيب محفوظ من شخصياته؟! ومما يشهد لهذه الملاحظة أن الأفلام السينمائية التى أخذت عن روايات الأستاذ نجيب وأقاصيصه احتفظت كلها للشخصيات بأسمائها التى جعلها الأستاذ لها.



وأشهر أعمال الأستاذ فى هذه الحقبة هو ولا ريب روايته الضخمة التى أسماها «الحرافيش»، وكانت من أحب أعماله إليه، وقد صدرت عام ١٩٧٧، وهى مجموعة من الروايات القصيرة المتوالية، أبطالها فتوات تحدروا من السلف ذى القصة العجيبة الذى تبدأ به الملحمة وهو عاشور الناجى، وقد كان فتوة طيبًا يسخر قوته فى إنصاف المظلوم والانتصاف من الظالم، وأخذ المال من الموسرين وإراحته على المقترين.

أما «الحرافيش» التى سميت بها الرواية فهى - كما سمعت من حديث إذاعى للأستاذ نجيب - كلمة تطلق على الرعاع والفقراء من أبناء الحارات الشعبية، وهى منحوتة من كلمتين: (الحارة + فيش)، فهؤلاء فى الحارة ولكنهم من هوان شأنهم كأنهم ليسوا فيها!

ولم يحفل كاتب قصة مصرى بهذه الشخصية الشعبية - شخصية الفتوة - كما حفل بها وكتب عنها الأستاذ نجيب، سواء أكان ذلك فى الروايات الطويلة كـ «الحرافيش» و«أولاد حارتنا»، أم كان فى كثير من القصص القصيرة مثل مجموعة «حكايات حارتنا» وغيرها. والفتوة - كما يصوره نجيب محفوظ - رجل شديد البأس، غليظ القلب، بذىء اللسان، لا يتورع عن فعل شىء أو التنكيل بإنسان إذا ما تجاسر على المساس بهيبته أو تحدى سلطته، ولا يزعه شىء عن نول شهواته ومآربه، ولا سيما إن كانت الشهوة والمأرب امرأة ذات حسن، ويحيط به ثلة من الأعوان الأذناب الذين يتقنون فن الملق، والذين يتفرقون ويتوارون فى العادة إذا ما سقط فتوتهم، أو ينضمون إلى فتوة جديد.

وقد أراد الأستاذ لهذا العمل أن يكون ملحمة كما أسماه، وأحسب أنه لم يوفق إلى ما أراد كل التوفيق، فالرواية تبدأ بداية طيبة، ولكن أحداثها تتسارع من بعد، والعهود التى تجرى فيها تتمطى وتطول، بل إنها تفقد بساطتها أحيانًا وتزل إلى خيال غريب لا صلة له بنوع الواقع الذى تصفه، وذلك مثل التأملات الفلسفية للفتوة المسمى بجلال صاحب الجلالة، فمثل هذه التأملات كثيرة فيما أرى على شخصية شعبية ساذجة من هذا النوع.

أعمال الثمانينيات - نوع من التجديد - الطبيعة فى أدب نجيب محفوظ:

وعددها أربعة عشر، أربعة منها مجموعات قصصية، وهذه الأعمال هى: «عصر الحب» - «أفراح القبة» - «ليالى ألف ليلة» - «رأيت فيما يرى النائم» - «الباقى من الزمن ساعة» - «أمام العرش» - «رحلة ابن فطومة» - «التنظيم السرى» - «العائش فى الحقيقة» - «يوم قتل الزعيم» - «حديث الصباح والمساء» - «صباح الورد» - «قشتمر» - «الفجر الكاذب».

ويلفت النظر فى هذه المجموعة ما عمد إليه الأستاذ نجيب فى بعضها من تجدد، نجد لبعضه أشباهًا فى مراحل ماضية، ونجد بعضه جديدًا تمام الجدة. وكأن الأستاذ فى هذه الحقبة - وقد كانت هى الحلقة الثامنة من سنى عمره - قد كان يبحث فى أغوار نفسه وموهبته فى لهفة وعجل عما عساه قد يكون متبقيًا فيها من منابع للإبداع، عارفًا بأن ما تبقى له من فسحة العمر جد قليل.

وأول ما يلحظ على أعمال هذه المرحلة قصر النفس وتسارع إيقاع الأحداث، وحسبك برواية «عصر الحب» على هذا مثلاً، حتى إن القارئ قد يعجب كيف يكون كاتب الثلاثية وكاتب هذه الروايات القصيرة واحدًا! ولكنه عند التأنى لا ينبغى له أن يعجب، فليس فتى فى الثلاثين أو كهل فى الأربعين كشيخ فى السبعين أو فى الثمانين، ليسا سواء فى كل ناحية من نواحى النفس والعقل والجسد. وروايات هذه المرحلة - على قصرها النسبى - تمتد على مساحات من

الزمن شديدة الاتساع: فرواية «الباقى من الزمن ساعة» رواية جيلين لا جيل واحد، وهى تبدأ من عقد معاهدة عام ١٩٣٦ بين مصر وإنجلترا على عهد الملكية وتستمر إلى زمن عقد اتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩، أى أن الرواية تمتد على فسحة من الزمن تربو على الأربعة عقود. ورواية «قشتمر» تمتد على زمان يكاد يكون ضعف ذلك الزمان، إذ إنها تبدأ عام ١٩١٥ وتستمر إلى وقت صدور الرواية عام ١٩٨٨!

وإذا ما أخذنا الروايات الاجتماعية الواقعية من روايات هذه المرحلة، فهذه الروايات فيما أحسب ليست خير ما كتب الأستاذ نجيب محفوظ وعندى أن رواية «أفراح القبة» هى خير ما كُتب فى هذه المرحلة من روايات هذا الطراز الذى برع فيه الأستاذ ما لم يبرع فى غيره.

وفى هذه الرواية يعيد الأستاذ نجيب تجربة فريدة فى القص عرفنا نوعًا منها من قبل فى رواية «ميرامار» - وهى من أعمال الستينيات -، وذلك أن أبطال القصة يروونها فى فصول متتابعة، كلٌ فى موقعه وزاويته، فتتقاطع الروايات وتكتمل جوانب الصورة تدريجيًا عبر الفصول. وهذا نهج فى القص يشهد للكاتب بالبراعة وقوة الصنعة، ويلذ القارئ ما فى ذلك من شك. ولهذه الرواية ناحيتها التربوية، فهى تُظهر أثر الظروف التى يُنشأ تحت وقرها الإنسان فى شخصيته وفى حياته كلها، وهى ظروف لا يد له فى صوغها ولا مقدرة على دفعها، بل لا إدراك له فى سنى طفولته الغضة بأن هذه الظروف مما ينبغى أن يدفع ومما يقدر على دفعه أو لا يقدر. والرواية تُشبه من هذا الجانب رواية «السراب» التى صدرت قبلها بثلث قرن. وهى تعرض جوانب مشرقة من إنسانية الإنسان، بخلاف روايات مثل الثلاثية لا تكاد تعرض من الإنسان إلا إلى الجانب الحيوانى البحت، وكأن هذا الجانب هو حقيقته كلها التى لا يفترق بها عن أية بهيمة، وقد ينحط بها عن البهيمة.

فشخصية (حليمة الكبش) مثلاً - وهى أم بطل الرواية (كرم عباس يونس) - شخصية تستحق احترام القارئ وتهيج فى نفسه شعور العطف والرحمة؛ فلقد قست عليها الحياة أشد قسوة فعملت فى مسرح، واغتصبها صاحب المسرح، وعندما جاءها عباس يونس خاطبًا آثرت أن تتركه يقف على الحقيقة وكانت على خداعه لو شاءت من القادرين، ولم تستسلم من بعدُ للغواية عندما ألقت بحبالها. وهذه الشخصية بلا امتراء من أشرف وأرق شخصيات الأستاذ نجيب محفوظ فى أعماله الروائية كلها.

وثمة عملان من أعمال هذه المرحلة يخرجان عن الخط الاجتماعى الواقعى الذى سار عليه الأستاذ نجيب فى المراحل السابقة، ويكادان يلحقان بالنمط الأسطورى الذى نعرفه فى سفر «ألف ليلة وليلة»، وهذان العملان هما «ليالى ألف ليلة» و«رحلة ابن فطومة».

فـ «ليالى ألف ليلة» تحوى أقاصيص على نمط حكايات «ألف ليلة وليلة»، وهى تستخدم شخصيات من تلك الحكايات القديمة نفسها كالسندباد والإسكافى معروف، مع عرض أحداث جديدة وإعادة بعض أحداث رُويت فى «ألف ليلة وليلة» كمثل حكايات السندباد عن مغامراته وراء البحار. وهذه الرواية تشهد للأستاذ نجيب محفوظ بأنه كان لا يزال عند كتابتها وقد نيف على السبعين محتفظًا ببراعته كقاص وبخصب خياله الروائى.

أما «رحلة ابن فطومة» فرواية رمزية لسنا ندرى إلى أى عهد من الزمان ولا إلى أى البلاد ينتمى بطلها محمد قنديل العنابى الشهير بابن فطومة. كما دعاه إخوته لأبيه.. ولكن من البين أن أحداثها تجرى فى عصر إسلامى سبق العصور الحديثة: ففى صفحاتها الأولى ذكر للوالى والحاجب. والبلاد التى يرتحل إليها بطل الرواية بلاد خيالية: دار المشرق، دار الحيرة، دار الأمان... وفى الرواية نقد لا يخفى لواقع الأمة الإسلامية ومباينة حياتها لما يقتضيه دينُها وشريعتُها، وفيها نظرات وآراء فى الاجتماع والسياسة والدين. وفى الرواية نوعٌ من النسبية قد يذكر القارئ برواية «رحلات غاليفر» الخالدة: وذلك أن كل مجتمع يعتد نفسه الأصل والقاعدة وما عداه هو الفرع والشذوذ، ففى كل بلد يحل به البطل يؤكد له أهله أن قانونهم وشرعتهم هما القانون والشرعة المُثليان!

وطلاقة هذه الرواية من حدود الزمان والمكان يبدو أنه كان حالة عامة انتابت فن الأستاذ نجيب بعض انتياب فى هذه المرحلة، وكأنه قد ضاق بالخط الواقعى الملتزم ورأى ألا جُناح فى أن ينفلت الفن من قبضته القاسية بعد انفلات: فرواية «عصر الحب» - وهى من القصص الاجتماعى الواقعى - كذلك لا نعرف على وجه الدقة حدود الزمان الذى تجرى فيه. ومثل ذلك يمكن أن يقال عن «حضرة المحترم» - من أعمال السبعينيات .. وكأن الأستاذ كان فى ذلك مستجيبًا لطبيعة المرحلة العمرية التى كان يمر بها، وهى مرحلة الشيخوخة، فلقد يعمد بعض الشيوخ أحيانًا إلى شىء من الخفة أو العبث، يتعاضون بهما عن عجز الجسد ووهن العظم، وقد يُعيدون النظر - فى ضوء الشيخوخة الباهت العميق - فى بعض القيم التى كانت قبل عندهم حقائق أو مسلمات.

أما «أمام العرش» فليس برواية، ولكنه حوارات متخيلة تدور فى محكمة أوزوريس - إله العالم الآخر عند الفراعنة الذى يعتده بعض علماء المصريات محور الديانة الفرعونية بأسرها - مع نخبة من حكام مصر وأكابر رجالها بدءًا بمينا موحد القطرين ورأس الأسرة الفرعونية الأولى وانتهاء بأنور السادات الذى كتب الكاتب بعيد اغتياله. وفى تلك المحكمة يسأل أوزوريس أولئك الرجال ويحاورهم، ويُحاور بعضهم بعضًا، ويقضى لأكثرهم بالخلود. ويذهب ببعضهم إلى الجحيم، ويُرسل بعضهم إلى مقام التافهين، ويعطى بعضهم - مثل الرئيس جمال عبدالناصر - ممن عاشوا بعد الأعصر الفرعونية تزكية قد تكون نافعة له أمام محكمته الدينية الخاصة التى ستُعقد له من بعدُ على حدة بمقتضى عقيدته الدينية التى كان يدين بها فى حياته الدنيا. فهذا الكتاب إنما هو نوع من التقويم - من وجهة نظر الكاتب - لأبرز شخصيات مصر التاريخية، وهو يبين عن ثقافة الكاتب التاريخية، وقد قرأ الكاتب - كما نعلم من سيرته - تاريخ مصر الفرعونية فى صدر شبابه.

ومما يلحظ فى الكتاب أنه أسقط كل حكام الأسرة العلوية بعد رأسها وسلفها محمد على، وقد دام حكمها أكثر من مائة سنة، فلم يجعلهم ممن حوكموا. ويلحظ فى الكتاب كذلك أن الكاتب قد فضل فى تقويمه الرئيس السادات على الرئيس عبدالناصر تفضيلاً أبين من أن يدل عليه.

















أما «العائش فى الحقيقة» فعمل بين أعمال الأستاذ نجيب فريد، فإذا ما اعتددنا روايات «عبث الأقدار» و«رادوبيس» و«كفاح طيبة» روايات تاريخية، فهذا السفر ينقلب معه الوصف، إذ هو تاريخ روائى، وهو يحكى قصة الفرعون الشهير إخناتون - أمنحوتب الرابع أو أمينوفيس الرابع كما يسمى بالإغريقية -، وهو صاحب الحركة الدينية المشهورة فى التاريخ المصرى العتيق، تلك الحركة التى أراد بها أن يُلغى ديانة آمون إله طيبة (الذى أضحى الإله الأعظم لمصر فى عهد الدولة الحديثة الذى تلا طرد الهكسوس من البلاد) وغيره من الآلهة المتكاثرين الأقل شأنًا، ويستبدل بها بديانة توحيدية ابتدعها، الإله فيها قرص الشمس آتون.

والرواية عبارة عن بحث واستقصاء يقوم عليهما - بُعيد انقضاء عهد إخناتون ورجوع الأمور فى مصر إلى ما كانت عليه - فتى مصرى اسمه مرى مون من أسرة علية من مدينة سايس، يسعى بتزكية مكتوبة من والده إلى لقاء أكابر الشخصيات المصرية التى عاصرت الملك الراحل وحركته، مثل كبير آلهة آمون، وماى قائد حرس الحدود، وحور محب قائد الجيش المصرى، وآى الشيخ والد نفرتيتى، ونفرتيتى نفسها زوج إخناتون ومناصرته فى حركته. وينتج من ذلك البحث والاستقصاء رواية واضحة عن ذلك الفرعون العظيم وعهده وحركته الدينية. والرواية - وإن يكن أساسها تاريخيًا صرفًا - إلا أنها تحمل رؤية الكاتب نفسه، الأستاذ نجيب محفوظ وتصوره للأحداث والشخصيات التى تتناولها الرواية، وهى رؤية وتصور تشهد بخيال روائى خصب وبراعة فى فن القص بمعناه الأشمل، لا بمعناه الضيق من حيث هو سرد لأحداث تتتابع، فالرواية من قمة تُحفة فنية أدبية، ولكنها ليست بوثيقة تاريخية أو شبه تاريخية.

وتتذبذب آراء من سُئلوا فى الرواية ما بين قدح الفرعون الهال وثلبه أشنع ثلب إلى الثناء عليه أطيب ثناء. أما رأى الأستاذ نجيب محفوظ نفسه فى إخناتون فأعرفه من حديث له إذاعى سمعته يصف فيه الفرعون الراحل بأنه «أعظم نبى فى التاريخ»!

وكما انتقد الأستاذ نجيب محفوظ فى المرحلة الماضية عهد الرئيس عبدالناصر فى رواية

«الكرنك» بعد مهلك ذلك الرئيس نجده فى هذه المرحلة التى نتحدث عنها ينتقد خلفه الرئيس أنور السادات بعد مقتله كذلك بسنوات معدودات، وذلك فى رواية «يوم قُتل الزعيم». فالزعيم ههنا هو الرئيس السادات نفسه، الذى تجرى الرواية فى عهده وتنتهى مع نهايته، ففى الرواية نقدٌ جلى وإن يكن موجزًا للحقبة الساداتية وما عاناه المصريون فى أثنائها من محن بلغت أوجها فى الغلاء الذى جاء مع «الانفتاح»، وفيها نبز قاس للرئيس الراحل يجرى على ألسنة الأبطال من مثل وصفه بالبهلوان، وبأنه يتزيا بزى هتلر ويعمل عمل شارلى شابلن!

ونلحظ فى روايات هذه المرحلة أن الأستاذ نجيبًا قد عاد فيها أكثر من مرة. على ألسنة أبطال الروايات ـ إلى استعراض ونقد عهدى الرئيسين عبدالناصر والسادات.



وما أحب أن أفرغ من الحديث عن أعمال هذه المرحلة ولم أعرض بالذكر لعمل منها أراه من أجمل وأثرى ما كتبه الأستاذ نجيب محفوظ، وذلك هو كتابه «حديث الصباح والمساء»، وليس هو برواية كمثل جُل روايات الأستاذ، ولكنه تاريخ مُقتضب لعائلة مصرية فى بضعة أجيال، يبدأ من عهد حملة نابليون وولاية محمد على قبل مائتى سنة ويستمر إلى حين صدور الرواية فى منتصف الثمانينيات من القرن المنصرم. وينبغى التنبيه ههنا إلى أمر ذى خطر، وهو أن القارئ إن تناول هذا الكتاب ليقرأه عجلاً كما تعود أن يقرأ سواه من كتب الأستاذ فهو لن يطيق المضى فى قراءته أكثر من صفحات معدودات: إذ سيدركه ملل شديد، وسيكل ذهنه ويعيا من تتابع الفصول والشخوص والأحداث والصور، وسيجد نفسه غريقًا فى وابل من الأسماء له أول وليس له آخر! ولكن الأمر لا يعود كذلك إذا ما جعل القارئ إلى جانبه من بدء قراءته صحيفة أو صحائف يرسم عليها لنفسه شيئًا فشيئًا ـ تبعًا لما يظهر له من قراءته ـ أجمة نسب لهذه العائلة المتشعبة الفروع. ومما يزيد من ثقل الرواية وعدم انتظام صورتها لأول الأمر أن الكاتب يؤرخ لأفراد العائلة على حسب ترتيب أسمائهم الهجائى، فلا يجرى العصور من ثمة على نسق. والكتاب كما ذكرت ليس رواية بالمعنى الفنى التقليدى، وإنما يصح أن يُعد قطعًا إنشائية تلذ القارئ بطلاوة أسلوبها وبعض أحداثها ومواقفها التى يقتضبها الكاتب اقتضابًا.





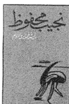
























ويبدأ الكاتب هذه البداية الشعرية الجميلة: «فى السماء زرقة صافية، وعلى الأرض تغفو ظلال أشجار البلخ، وأديم الميدان العتيق يُشرق بنور الشمس»... ومن سمات أدب الأستاذ نجيب محفوظ التى لا نجد مناظرًا لها عند معاصريه من كتاب القصة المصرية مثل هذه الالتفاتات إلى الطبيعة، وعلى قلتها وتفرقها ووجازتها فى أعماله الروائية، وهى تُضفى على العمل ولا ريب ظلالاً رقيقة من الجمال، وأى شىء أحب إلى الإنسان وأخلب للبه من مشاهد الطبيعة؟

بقية الأعمال ـ روح الظرف فى أعمال الأستاذ نجيب ـ أدب الأحلام:

وهى ستة: «أصداء السيرة الذاتية» ـ «القرار الأخير» ـ «صدى النسيان» ـ «فتوة العطوف» ـ «أحلام فترة النقاهة» ـ «المسرحيات».

وهى كلها مما يمكن إلحاقه بالمجموعات القصصية، فليس من بينها رواية واحدة، وما فى الأمر من عجب: فقد كان الأستاذ فى هذه المرحلة قد بلغ من الكبر عتيًا، وضعف سمعه وبصره، وأصيبت يده اليمنى بشبه شلل إثر الحادث الغادر الذى تعرض له من مجرم جهول أثيم فى خريف عام ١٩٩٤.

أما «الأصداء» فلست أدرى ما الصلة بين هذه القطع الوجيزة وبين سيرة الأستاذ الذاتية، ولعل كل إنسان قادر على أن يعُد كل خاطر يخطر له صدى من أصداء سيرته الذاتية! وعندى أن الكتاب يأتى فى ذيل كُتب الأستاذ من جهة القيمة: فما هو غير قطع موجزة بعضها غامض لا معنى له، وبعضها يبلغ من شدة وضوحه وضحالة معناه أن يضحى هو وسابقه سواء!

أما المجموعات القصصية فيظهر منها أن موهبة الأستاذ القصصية كانت لا تزال على حظ من القوة لا بأس به وهو فى سنه تلك العالية، وأن ملكة الفكاهة التى يعرفها قارئه حق المعرفة كانت لاتزال كذلك على حال طيبة، وهى تظهر فى أقصوصة (العودة) من مجموعة «القرار الأخير» وأقصوصة (الأرض) من مجموعة «صدى النسيان».

وما ينبغى أن تفوتنا الإشارة لهذه المناسبة إلى أن روح الظرف تشيع فى كل ما كتب الأستاذ نجيب محفوظ، وهى سمة أصيلة من سمات أدبه، لا نكاد نجدها بهذا الوضوح وهذه الأصالة عند قصاص آخر غير الأستاذ توفيق الحكيم. ويحسب القارئ أن يذكر محاورات ياسين النسوية مع نفسه وهو يرصد بعض النساء ـ فى الثلاثية ـ أو غزله مع بعض فرانسه منهن، أو يذكر حديثه مع بعض صحبه عن حديث الزعيم سعد زغلول إليه فى جنازة أخيه فهمى، والزعيم قد عاش ومات ولم يقع له على ياسين بصرا!

أما مجموعة «المسرحيات» فمن البين أن الأستاذ كتبها فى شيخوخته وأن بعضها ضُم من أعمال له صدرت من قبل، وهى كلها (تجارب) ما أحسب أن الأستاذ أصاب فيها كبير نجح، إذ هى من أثقل ما كتب وأغمضه، ولا يمكن مقارنتها بحال ـ ولو من أشد البعد ـ بمسرحيات الأستاذ توفيق الحكيم القصيرة، أستاذ المسرح العربى الأدبى الحديث. وقارئ هذه المسرحية يحار أيلحقها بعبث الشيخوخة الذى أشرنا إليه آنفًا أم يعتدها ضربًا من مسرح اللامعقول؟!

ولأن الحوار فى المسرحية هو الركيزة الأولى، ولأن الأستاذ نجيبًا كانت موهبته قصصية عامة ولم تكن موهبة حوارية ـ جاءت هذه المسرحيات شديدة الثقل على القارئ والإعنات له.

ونخلص إلى العمل الأخير «أحلام فترة النقاهة».

وقصة الأستاذ نجيب محفوظ مع الأحلام تسبق صدور هذا الكتاب ـ عام ٢٠٠٤ ـ بزمن طويل. ففى «خان الخليلى» نجد حلمًا طريفًا ـ وليس يخلو حلم من طرافة ـ يراه البطل الكهل أحمد عاكف. ومن بعدها فى «اللص والكلاب» نجد حلمًا آخر للبطل سعيد مهران، ثم نجد حلمًا آخر فى «الطريق» يراه بطل الرواية السكندرى صابر سيد سيد الرحيمى الذى كان يبحث عن أب له ظل يحسب إلى عهد جد قريب أنه ثاو تحت الرجام! ثم نجد فى آخر مجموعة «رأيت فيما يرى النائم» التى صدرت عام ١٩٨٢ سبعة عشر حلمًا مصدرة كلها بعبارة (رأى فيما يرى النائم).

وهذه الأحلام تُعجب القارئ بما فيها من طرافة، وهى فرعٌ من موهبة الأستاذ نجيب القصصية الأرنة وخياله الخصيب.

أما مجموعة «أحلام فترة النقاهة» فعمل فريد للأستاذ يستحق به أن يُسجل فى تاريخنا الأدبى بصفة أنه مبدع نوع جديد من الأدب هو أدب الأحلام، فالمجموعة كلها أحلام صرفة يعرف مذاقها كل فرد منا نوع بنى الإنسان، حيث تتداخل الأزمنة والأمكنة، ويتلاقى الأحياء والأموات وجميع المتشابهات والمتفارقات على صعيد واحد. وهذه المجموعة للأستاذ هى ـ فى المقام الأول ـ معرض لنشاط الخيال، فمن هذه البابة وحدها قد تكون متعة للقارئين. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

حياتى
تأليف: أحمد أمين
القاهرة ـ دار الشروق ٢٠٠٨



قال طه حسين عن هذه السيرة الرائعة لواحد من أهم رموز النهضة العربية الحديثة: «إذا لم يكن أحمد أمين مثلاً رائعاً للجد المنتج، والنشاط الخصيب، والمثابرة التى لا تعرف كلالاً ولا مللاً، والمقاومة التى لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً، والثقة التى لا تعرف شكًا ولا تردداً، فلا ينبغى للمصريين أن ينتظروا مثلا رائعاً من أى مواطن آخر».

وقال عنها أحمد حسن الزيات: «يجمع بين حسن الفكرة وجمال الصورة، ويلائم بين رزانة المعنى ورصانة اللفظ. وربما كان ذلك أظهر ما يكون فى كتابه «حياتى» فإن تصويره البيت والسقاء والمحدث والكتّاب والأزهر، وفى وصفه لأبويه وأخويه، وصديقيه عبد الحكيم محمد وعلى فوزى، وأستاذيه عاطف بركات ومس بور، لنماذج من البيان المطبوع الذى يشرق بنور العقل، وينبض بروح العاطفة، ويزهو بألوان الفن».

■

تحدى البديهة: الحكمة غير المألوفة لعلم الاقتصاد
ستيفن لاندسبيرج
More Sex Is Safer Sex: The Unconventional Wisdom
ترجمه من الانجليزية للعربية مجدى عبد الواحد عنبة
كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨، ٢٩٤ صفحة



لا يهدف علم الاقتصاد إلى دراسة المال وإنما يهدف إلى دراسة القيمة، وتحدد قيمنا كل شىء، وهنا وفى هذا الكتاب سيجد القارئ كل شىء. يثبت ستيفن لاندسبيرج فى هذا الكتاب أنه أفضل من أى شخص آخر فى أن يجعل من علم الاقتصاد مصدرا لاهتمام غير الاقتصاديين.

يستخدم لاندسبيرج أسلوبا استفزازيا ومازحا فى مهمته لإظهار كيف أن فهم الاقتصاد سيغير الطريقة التى تعيش بها حياتك اليومية. يستخدم لاندسبيرج فى هذا الكتاب حسابات المنفعة والتكاليف ليجادل لمصلحة التمنيط العرقى لارتكاب الجرائم أو لإعطاء سبب لتبرير عدم وجوب مبالاتنا بسرقة متاحف العاصمة العراقية بغداد، وهو بذلك يحتفل بكل ما هو مخالف وأصلى وغريب.

يجبر لاندسبيرج القراء المنطقيين على مواجهة أوضاع غير مريحة عن طريق وضع عدة حلول للمشاكل المثيرة مثلما يحدث فى الفصل الأول من الكتاب حيث يجادل بأن على المواطنين الذين يتحلون بالعفة أن يتحللوا أخلاقيا وبالتالى يضعفون من فرصة الإصابة بمرض الإيدز.

تستنتج فصول الكتاب من دون إصرار كما يستهجن الكاتب أنه «ليس من السهل الفصل بين الأسباب والآثار»، ويشك المرء فى أن عالم اقتصاد آخر يمكن أن يفضح بسرعة الكثير من حجج لاندسبيرج مثل ذلك الفصل الذى يمدح فيه البخلاء (الذين ينتجون ولا يستهلكون) على افتراض أن جميع الموارد محددة ونهائية. وفى الوقت الذى يقوم فيه بعرض قضية مسببة للأرق وهى «أنه دائما توجد مناسبة للفرح عندما ينجب الآخرين المزيد من الأطفال»، فإن القارئ ربما سيكون فى مزاج لبعض من المسلمات القديمة.

■

الولايات المتحدة الأمريكية بين القوة الصلبة والقوة الناعمة
رفيق عبد السلام
أوراق الجزيرة - مركز الجزيرة للدراسات
الدوحة - قطر ٢٠٠٨



تهدف هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على واقع القوة الناعمة الأمريكية، وصلتها بظاهرة الهيمنة الواسعة التى كانت ومازالت تتمتع بها الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على إثر تراجع القوى الأوروبية التقليدية التى كانت تستأثر حظوظ السيطرة على مقدرات العالم. كما تعمل هذه الورقة على رصد المتغيرات الحاصلة فى المناخ الدولى العام عقب صعود المحافظين الجدد إلى سدة الحكم، ثم أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وتأثير هذه المتغيرات فى النفوذ الأمريكى فى الساحة الدولية ورؤية شعوب العالم، وخصوصا فى منطقة الشرق الأوسط، لدور القوة الأمريكية ومدى مشروعيتها الأخلاقية والمعنوية. ورغم أن مصطلح القوة الناعمة يعد من المصطلحات المحدثة فى مجال الحقل الأكاديمى والخطاب السياسى والإعلامى إلا أنه قد شهد انتشارا واسع النطاق منذ أن صك الباحث والسياسى الأمريكى جوزيف ناى Joseph Nye هذه الكلمة بداية تسعينيات القرن المنصرم.

■

إزيدورا.. والأتوبيس وقصص أخرى
محمد سلماوى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨



تحتفل «الدار المصرية اللبنانية» من خلال هذا الكتاب، بربع قرن من السرد القصصى للكاتب الكبير محمد سلماوى، فقد صدرت المجموعة القصصية الأولى لمحمد سلماوى عام ١٩٨٣م بعنوان: «الرجل الذى عادت إليه ذاكرته»، ثم تتابعت بعد ذلك مجموعاته القصصية: «كونشرتو الناى» فى عام ١٩٨٨م، و«باب التوفيق» فى عام ١٩٨٤م، و«رسائل العودة» فى عام ٢٠٠٠م، و«وفاء إدريس» فى عام ٢٠٠٢، و«شجرة الجميز» فى عام ٢٠٠٢م.

وقد تنوعت المجموعات القصصية لمحمد سلماوى ما بين الواقع والخيال، وما بين الحاضر والتاريخ، وما بين الموضوعات الاجتماعية والسياسية والعاطفية الحالمة، كما تنوع أيضا الأسلوب الفنى الذى انتهجه فى كل من هذه القصص ما بين السرد الواقعى والقصص الرمزى والواقعية السحرية.

وتقدم «الدار المصرية اللبنانية» فى «إزيدورا.. والأتوبيس» بعض أجمل القصص التى وردت فى المجموعات القصصية، التى صدرت لمحمد سلماوى، بالإضافة إلى بعض القصص الجديدة التى لم تنشر من قبل، والأخرى التى نشرت فى الصحف والمجلات، لكنها لم تصدر فى أى من المجموعات السابقة، وهى قصص يجمع بينها أنها شاهدة على موهبة أدبية متميزة فى السرد القصصى لكاتب كبير نتمنى له دوام الإنجاز فى السنوات المقبلة

■

أدباء ومفكرون
عبدالرشيد الصادق محمودى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨، ١٦٠ صفحة



كتبت هذه المقالات التى تتناول مجموعة من رجال الأدب والفكر فى أوقات متفرقة، ونشرت فى مصادر صحفية مختلفة. وهى إذ تجمع هنا تنشر على حالتها الأولى باستثناء تعديل بعض العناوين، بحيث تطابق ما كتبه المؤلف أصلاً بعد أن غيرها رؤساء التحرير لتناسب الأغراض الصحفية.

ورغم أن المقالات تعالج قضايا أدبية وفكرية وتتضمن فى بعض الأحيان تحليلاً ونقدًا لأعمال الأدباء والمفكرين المعنيين، فقد استهدفت القارئ العادى منذ البداية ولم تكتب للمتخصصين. ولذلك حرصت فيها على أن أبتعد قدر الإمكان عن أسلوب الدراسة الجاف، وأن أضفى على الكتابة طابعا أدبيًا أو ذاتيًا (يتعلق بشخصى وميولى ورؤيتى للأشياء). وأرجو أن أكون قد نجحت فى ذلك وأن تفوز هذه المقالات لدى القراء بوصف «المقالة الأدبية» التى لا تتخلى عن مهمة الإمتاع الفنى.

ومما ساعد على اتباع هذا الأسلوب ودفع إليه أننى عرفت بعض أولئك الأشخاص، وأردت إذن أن أكتب على سبيل التذكر أو العرفان بالفضل أو التحية والتكريم، وأن أرسل صورة محسوسة بقدر الإمكان للأديب أو المفكر المعنى. والأمر شبيه إذن بما يحدث عندما تشعر بالوحشة فتستدعى صورة صديق ليؤنسك، أو عندما تشعر بالبهجة فتستدعى صورة للصديق احتفالاً به وبالحياة التى سخت به عليك.

غير أننى لم أهجر ذلك الأسلوب «الأدبى» حتى فى حالة الأدباء أو المفكرين الذين لم أعرفهم معرفة شخصية. فأنا لم أعرف مثلاً زكى مبارك، ولكننى عرفت كتابته وأنا مازلت طفلاً وفتنت بقدرته على إطلاق الأحاديث ذات الشجون، وبمرحه الجارف وجموحه وبوهيميته الفنية وكسره

للحواجز القائمة بين الأنواع الأدبية. وهو مازال ماثلاً في ذاكرتي ومخيلتي، ومازال نموذجه حاضراً في عالمي الأدبي مثله مثل النماذج الأدبية المستقاة من كاتب مثل زكي نجيب محمود أو عثمان أمين. كذلك لم أعرف علي عبدالرازق، ولكنني أردت في حالته أن أعبث ببعض من كتبوا عنه لولعهم بالنظريات «الشيطانية» في تفسير الأعمال الأدبية.

وأنا لم أعرف وجيه غالي، ولكن ظروفاً قاسية جمعت بيني وبينه وأقامت بين الطرفين علاقة وثيقة وإن كانت متوترة. فقد عشت في لندن وفي المنطقة التي كان يسكنها وانتحر فيها في الستينيات من القرن الماضي، وعرفت روايته وأطرافاً من حياته في ظل هزيمة ٦٧ وما أعقبها من كوارث على الصعيد القومي والوطني والنفسي. ووجيه غالي ينتمي إذن إلى عالم في المكان والزمان أعرفه جيداً. وأججت قصته منذ البداية فضولي بقدر ما أثارت نفوري - لأسباب شرحتها في المقالات المخصصة له. ولكني رأيت أن أعاند شعوري بالنفور وأخضع «شياطين» وجيه غالي لسيطرة الكتابة. وحاولت إذن أن أفهمه من داخل عالمه فهماً «جوانياً» وفقاً للمصطلح الذي صكه أستاذنا الدكتور عثمان أمين، أو كما يجاهد الروائي في فهم شخصيات قصته أياً ما كان موقفه الأخلاقي أو السياسي منها.

وقد كتبت هذه المقالات بالاستناد إلى شهادات بعض الأحياء الذين شهدوا أحداث القصة واشتركوا فيها. وبناء على تقص شامل وتمحيص للمصادر والوثائق الأصلية، ونشرت في صحيفة «القاهرة». ولكنها لم تحظ باهتمام الكُتاب الذين سارعوا - عن غير علم واعتماداً على الشائعات - إلى الكتابة عن وجيه غالي بمناسبة صدور الترجمة العربية لروايته. وأرجو أن تساعد إعادة نشر المقالات هنا على وضع الأمور في نصابها وتبديد ما أحاط بقصة وجيه غالي من غموض ولغط.

■

ما فعله العيان بالميت

تأليف: بلال فضل

القاهرة - دار الشروق ٢٠٠٨



يقول الكاتب الساخر بلال فضل في تقديم هذا الكتاب: «طلبت مني دار الشروق مشكورة مأجورة أن أكتب نبذة عن نفسي كما جرت العادة، التي يزعم أهل دار الشروق أنها عادة حسنة، وأزعم أنا أنها ليست كذلك.

الكذب خيبة، هذا ليس موقفاً مبدئياً ضد حق النبذة في الوجود. فالحقيقة ببساطة أنني بعد لأي «لأيت» نفسي عاجزاً بالجملة والقطاعي عن كتابة تلك النبذة المتمنعة، وأنا الذي ما شكوت يوماً بفضل الرب من كتابة نبذ الغريب قبل نبذ القريب.

لذلك وبدلاً من إعلان فشلي قررت أن أتمرد على مشيئة دار الشروق فأنبذ فكرة كتابة أي نبذة عن نفسي، ليس غروراً لا سمح الله ولا ثقة إن شاء الله، بل لسبب بسيط، هو أنك بعون الله لو قرأت قصصي التي تضمها هذه المجموعة ولم تعجبك فلن تجدي أي نبذة في الدنيا في تعويضك عن وقتك الذي ضاع وفلوسك التي راحت، ولن تكون بحاجة إلى مَن يقول لك نبذة عن المؤلف، بل إلى من يشد على يدك ويقول لك عوضك على الله.

أما إذا قرأت قصصي وأعجبتك كما أظن. فأظن عيباً جداً أن تطلب بعد ذلك نبذة عني. وفي الحالتين، حصلت لنا البركة».

■

عباس العقاد

في تاريخ الصحافة المصرية

أ. د. راسم محمد الجمال

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨،

٤٠٠ صفحة



إنني منذ بلغت سن الطفولة، وفهمت شيئاً يسمى المستقبل، لم أعرف لي أملاً في الحياة غير صناعة القلم، ولم تكن أمامي صورة لصناعة القلم في أول الأمر غير صناعة الصحافة.

هذه العبارة التي كتبها العقاد عن نفسه، تظهر عشقه المبكر للصحافة، التي مرت علاقته بها بمراحل متعددة وذلك هو موضوع الكتاب المهم «عباس العقاد.. في تاريخ الصحافة المصرية» من تأليف الأستاذ الدكتور «راسم محمد الجمال» وصدر حديثاً عن الدار المصرية اللبنانية، في طبعة أنيقة وفاخرة، تليق بعملاق الفكر العربي في القرن العشرين عباس محمود العقاد.

يحتوي الكتاب على عشرة فصول أحاطت بتاريخ العقاد الصحفي وتأثير الصحافة في فكره، وعلاقته بالصحافة الحزبية، إلى أن استقر أخيراً كاتباً صحفياً مستقلاً، نشر معظم كتبه على حلقات في الصحف المصرية، فقد كان العقاد شخصية صحفية تتسم بالاتساع والشمول، الذي جمع في داخله عناصر متناقضة، جمعت بين القوة والعنف من جانب، والسخرية والفكاهة من جانب

افتتاحيات.. لماذا أنشر؟

مجلة الآداب

بيروت: العدد ١٢ (ديسمبر ٢٠٠٨) - السنة ٥٦



أنشر لأنني لا أعرف مهنةً أخرى أعيش منها بشرف وكرامة (غير التعليم الذي أكرهه).

أنشر لأن أبي وأمي أورثاني كميات هائلة من الكتب والمجلات. وأورثاني معها مستودعاً رطباً ورفوفاً صدئة وصناديق ونستون ومارلبورو مليئة وفارغة. ولا يخلو الأمر أيضاً من بضعة صراصير وفئران اقتاتت على وجودية سارتر وإباحية مورافيا وكولن ويلسون زمناً طويلاً.

أنشر لأنني أعجزُ عن الكتابة أحياناً، أو لأنني أقرأ مادة تعبر عما كنتُ سأقوله بنفسي فإذا بها تقوله بجمال أكبر أو قوة إقناع أعظم.

أنشر لأني أبلغُ أحياناً قمة التشاؤم من الوضع العربي، أو لأنني أحلق أحياناً عند ذروة التفاؤل (والحالة الأخيرة لا تتعدى الهنيهات).

أنشر (وأكتب) لأنني مازلتُ أومن بدورٍ للكلمة في مواجهة أعداء الحرية، كالعسكر ورأس المال والناطقين باسم الله. وبكلام آخر: أنشر كي أسهم في «نشر عرض» القامعين والمنافقين وتجار المرأة والوطن والدين.

أنشر، طولاً وعرضاً، من بيروت إلى أستراليا، ومن العربية إلى اليابانية، كي لا يصدق اللبنانيون أن بلدهم هو صانع الحضارة (يعني السيفيليزاسيون) الأوحد، وخاتم أنبيائها، ومحطم أرقامها القياسية، أو كي لا يتوهموا أن العالم بأسره منقسم إلى معسكرين: ١٤ آذار و٨ آذار.

أنشر (وأترجم) لأن الآداب الأخرى التي أنشرها (وأترجمها) تُثري لغتي العربية، التي لا أرى لي وطناً ولا حياة خارجها.

أنشر (وأكتب) كي تعرف ابنتاي الصغيرتان أن العربية لم تتحول (بعدُ) إلى ديناصور منقرض على شاشات حاسوبهما الصغير، وأن ثمة كتباً لاتزال تصدر فعلاً بلغات غير «الإنجليش» و«الفرانسيه».

أنشر كي أسهم في ألا تبقى هذه المهنةُ النبيلة في يد ناشرين، كثيرٌ منهم خدَمُ سلاطين، وتجارٌ بلا قلب ولا رسالة، وقراصنة جشعون، ومزورون نصابون، ومذهبيون، وطائفيون.

أنشر كي أعزز الخيارات العلمانية والقومية - اليسارية وسط طوفان التنظير للواقعية و«القطرية» و«الليبرالية»، ولأدفع قدماً بالأدب الراقي الممتع والجريء في خضم الرداءة والاستسهال والقيود.

أنشر لأن لا نشر أو ناشرين، كما أنه لا حرية بلا كتابة. فلو لم يكن ثمة ناشرون صلبون لما عَرفت الثقافة العربيةُ «نقد الفكر الديني» لصادق جلال العظم (دار الطليعة)، و«الإسلام في الأسر» للصادق النيهوم (دار رياض الريس)، و«أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ (دار الآداب)، و«أحد عشر كوكباً» لمحمود درويش (دار الجديد)، و«هوامش على دفتر النكسة» لنزار قباني (مجلة الآداب)، وعشرات الإبداعات الجديدة الممنوعة في أوطانها في الأمس القريب واليوم.

أنشر لأني أحب أن أشرك الآخرين في قراءة ما يصلني من مواد، سواء للمجلة أو للدار (هاكم أحد الأسرار: أحياناً أنشر مادة لا لأنني أحببتها، بل لأنني أحسست بأن غيري قد يحبها؛ فإن حصل ذلك بعد النشر فعلاً، زهوت بنفسي وسعة صدري).

أنشر وفاءً وحباً لمن اعتبروا النشر جزءاً متمماً لعملهم في الكتابة والثقافة والسياسة، فعانوا الرقابة وإتلاف الكتب والنفي والتهميش.. ثم غادرونا وهم يخشون أن يلتفتوا إلى الوراء.

سماح إدريس

آخر، وبين التفكير العميق فى أحيان كثيرة، وبين السطحية فى بعض الأحيان، وبين الديمقراطية والاستبداد بالرأى، وبين الوقار والتهييج والمهاترات.

اعتمدت الدراسة التى امتدت إلى أربعمائة صفحة من القطع الكبير، كما يقول المؤلف د. راسم محمد الجمال: على تحليل كتابات العقاد السياسية فى الفترة من عام ١٩٠٤ إلى عام ١٩٦٤، وعلى المراحل التاريخية والسياسية التى تناولت تطور الحياة السياسية فى مصر خلال تلك الفترة.

ستون عاماً، إذن، قضاها العقاد يكتب للصحافة بدأت، وهناك عوامل ساعدته على الاستمرار فى الكتابة متألقاً متوهجاً، منها: عوامل عقلية وثقافية، وأخرى مزاجية ونفسية، عوامل بيئية من جهة ثالثة.

لم يقع د. راسم محمد الجمال فى مأزق عشق الشخصية التى يكتب عنها، كما تعودنا من المؤلفين الذين يكتبون عن شخصيات فكرية فيقعون فى هواها ويلتمسون لها الأعذار، ويضعونها فى مصاف القديسين الذين لا يخطئون، فالمنهج العلمى المنضبط الذى اتبعه المؤلف، رغم إعجابه بالعقاد، لم يمنعه من القول: إن العقاد لم يكن يتوخى الحق دائماً فيما يكتب، فالحقيقة أنه كان يستغل عمق فكره فى تبرير وجهة نظره، أو موقف الحزب أو الجهة السياسية التى يؤيدها مهما يكن موقفها من القضية التى يدور حولها الرأى، كما اتسمت بعض كتابات العقاد بالسطحية خصوصاً فى عقد العشرينيات من القرن الماضى، عندما كان يعالج بعض القضايا الاقتصادية والاجتماعية، أو القضايا المتعلقة بسياسة مصر الشرقية ويمكن إرجاع ذلك - فى رأى المؤلف، إلى أنه لم يكن يصدر فى هذه الكتابات عن ثابت أو عن معرفة حقيقية بها.

هذا الكتاب مرجع موسوعى لا غنى عنه، لمعرفة رحلة العقاد الصحفية، وتطور فن الصحافة فى مصر.

■

كيف تبيع أى شىء لأى إنسان: مهارات البيع والتعامل مع العمل

تأليف: جو جيرارد، ستانلى براون

ترجمة: أحمد عبد الوهاب

القاهرة - دار الشروق ٢٠٠٨



- ضاعف ما تبيعه ٢٥٠ مرة.
- حول الصفقة الخاسرة إلى خطة للمكسب التالى.
- تعرف على الطرق الخمس التى تحول بها الصفقة من مجرد احتمال إلى عملية بيع وشراء.
- تعلم وضع عقبات البيع وراء ظهرك أنت والعميل لإنهاء الصفقة بنجاح
- بع بالخسارة واصنع بذلك حظاً سعيداً

استطاع جو جيرارد عبر سنوات عمله الـ ١٥ لدى شركة «فورد» أن يحقق رقماً قياسياً عالمياً، أدخله موسوعة «جينيس» ببيعه لعدد ١٣٠٠١ سيارة لعملاء أفراد. لم يكن جيرارد حاصلاً على شهادة متخصصة فى المبيعات، لكنه تعلم بتواجده فى معمعة العمل اليومية أنه لا يمكن تعويض الصورة الكلاسيكية لرجل المبيعات، وأصر دائماً على القول بأن البناء على المبادئ الأساسية للثقة مع العميل، والعمل الدءوب، سيمكنان أى شخص أن يحقق ما وصل إليه هو.

هذا الكتاب الذى تصدر لسنوات طويلة قائمة الكتب الأكثر مبيعاً، ساعد الملايين من القراء أن يصلوا لأهدافهم، كما سيحدث معك أنت أيضاً. يضع جو جيرارد أمامك الوصفة التى تستطيع بها أن تحقق الحد الأقصى للبيع فى كل صفقة، باستخدامه لتقنيات وضعها هو وعرفت باسمه وحقق بها إنجازه القياسى، الذى تستطيع تحقيقه أنت أيضاً.

■

غاندى - السيرة الذاتية: قصة تجاربى مع الحقيقة

مهنداس كارامشاند غاندى

An Autobiography:-Gandhi The Story of my Experiments with Truth

ترجمه من الإنجليزية للعربية محمد إبراهيم السيد

كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨،

٥٤٤ صفحة



يُعد غاندى من أكثر الشخصيات الملهمة فى العصر الحديث. يسرد غاندى فى سيرته الذاتية قصة حياته وكيفية تطويره لمفهوم الساتياجراها أو «المقاومة السلمية»، وهى مجموعة من المبادئ التى تقوم على أسس دينية وسياسية واقتصادية فى آن واحد ملخصها الشجاعة والحقيقة واللاعنف، وتهدف إلى إلحاق الهزيمة بالمحتل من خلال إبراز ظلمه أمام الرأى العام. وقد كانت الساتياجراها بمثابة المحرك لنضال الشعب الهندى من أجل الحصول على الاستقلال، ليس ذلك فحسب بل وكانت المحرك الرئيسى للعديد من عمليات المقاومة السلمية فى القرن العشرين.

لقد كان غاندى يبحث عن الحقيقة المتجلية فى الإخلاص للإله. كما عزا نقاط التحول فى حياته والنجاحات التى حققها والتحديات التى واجهها إلى إرادة الإله. كانت مساعيه للتقرب أكثر من تلك القوة الإلهية عظيم الأثر فى سعيه نحو الصفاء من خلال الحياة البسيطة والعادات الغذائية والتحكم فى شهوات النفس واللاعنف. لذلك أطلق غاندى على كتابه «قصة تجاربى مع الحقيقة»؛ ليكون مرجعاً لمن يرغبون فى اتباع نهجه من بعده.

■

أفغانستان
عودة طالبان واحتمالات المستقبل

مطيع الله تائب

مركز الجزيرة للدراسات

الدوحة - قطر ٢٠٠٨



إن أى محاولة لفهم قضية شائكة بحجم الأزمة الأفغانية، تتطلب وقوفاً طويلاً أمام مكونات الصراع وخلفيته والعناصر المؤثرة فى استمراريته وتحديد دور كل عنصر من العناصر الفاعلة. وإذ تتزاحم الأسئلة حول عودة طالبان إلى المعترك الأفغانى، وأسباب هذه العودة وحجمها وتأثيرها على مستقبل أفغانستان والمنطقة، نجد أنفسنا أمام سيناريوهات متعددة وتوقعات شتى، ترسمها حقائق الواقع وحسابات كل طرف. وما يزيد من تعقيد اللوحة الأفغانية كثرة الخطوط المتداخلة، بعد أن تحولت إلى ساحة رئيسية لما يسمى بالحرب على الإرهاب، وأصبحت أول حقل تجارب لعمل حلف الناتو خارج أوروبا، كما تحولت إلى ساحة للصراع على النفوذ والسيطرة على منابع الطاقة فى المنطقة بين الولايات المتحدة وأوروبا والصين وروسيا. هذا بجانب استمرار أهمية أفغانستان فى الملفات الإقليمية /الدولية الساخنة، مثل الملف الإيرانى والصراع الهندى - الباكستانى وملف المخدرات.

وتشكل حركة طالبان رقماً صعباً فى هذه اللوحة المعقدة، بعد أن كانت كابول وواشنطن وعواصم دولية أخرى تتحدث عن ذهابها بلا عودة فى أعقاب انهيار نظامها بفعل القصف الأمريكى العنيف وتقدم قوى المعارضة نحو العاصمة كابول، بعد شهرين فقط من هجمات ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١م، وضمن هذا السياق تطرح أسئلة كثيرة نفسها لفهم هذه العودة وحجمها وأسبابها وآثارها على أفغانستان وعموم المنطقة. ولمحاولة تفسير ما يجرى فى الواقع الأفغانى تسعى هذه الدراسة المختصرة إلى استكشاف القوى والحقائق التى قد تساعد على فهم خلفية الصراع فى أفغانستان.

كما تستهدف هذه الدراسة إلقاء بعض الضوء على تكوين طالبان كحركة، وعلى تاريخها وحاضرها، مع التركيز على أسباب عودتها الحالية إلى الساحة الأفغانية، وحضورها القوى والملموس فى الجنوب والشرق الأفغانى. وتحاول هذه الدراسة فى محورها الأخير استشراف المستقبل، عبر التطرق إلى السيناريوهات المحتملة للأزمة الأفغانية، فى ضوء ما يجرى من متغيرات على الصعيد الأفغانى نفسه، وعلى صعيد المنطقة والعالم بشكل عام. لقد ركزت الدراسة على حركة طالبان كعنصر رئيس فى منظومة المعارضة المسلحة التى تقود العمليات العسكرية ضد حلف الناتو والجيش الأفغانى، ولم يتم التطرق بالتفصيل إلى بقية الأطراف. ولاشك أن هذه مجرد محاولة أولية لفهم الأزمة الأفغانية وتعقيداتها الراهنة، وأن الإلمام الشامل بهذه الأزمة ومكوناتها يتطلب المزيد من الدراسات المستفيضة.

■

حرب اللغات والسياسات اللغوية

تأليف: لويس جان كالفى

ترجمة: د. حسن حمزة

مراجعة: د. سلام بزى - حمزة

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨،

٤٤٦ صفحة

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم



صورة التعدد اللسانى تعود، فى اللاوعى، إلى أسطورة بابل، ذلك أن التعددية اللسانية البعيدة عن الفهم، باعتبارها ثراء، هى معيشة على أنها التباس أو خلط بين اللغات، وعلى أنها عقاب إلهى يوقف بناء البرج، وذلك بوضع عراقيل للتواصل بين الشعوب. هذا هو خيال اللسانيين الذين يحاولون إيجاد استعمال للغة وحيدة داخل حدود الدول أو ابتداع لغات كونية اصطناعية.

اعتماداً على تحقيقات ميدانية، وعلى دراسة حالات أفريقية ولاتينو - أمريكية وأوروبية وآسيوية، يحلل المؤلف رهانات السياسات اللسانية ويدعو إلى احترام التنوع اللسانى.

■

الدفتر السياسي والديني.. قراءة عصرية

د. زهير محمد جميل كتبي
المملكة العربية السعودية - مكة المكرمة:
توزيع دار مصر المحروسة، ٢٠٠٨، ٢٠٠ صفحة



صدر كتاب الدفتر السياسي والديني قراءة عصرية للكاتب السعودي الدكتور زهير محمد جميل كتبي. والكتاب هو بعض المقالات الصحفية الجريئة والشجاعة التي كتبها ونشرها المؤلف في جريدة السياسة الكويتية، وأثار بعضها الكثير من المشاكل والمعارك في الصحافة بين مؤيد ومعارض.

تناولت المقالات عدة موضوعات كانت الكتابة عنها في الماضي تدخل تحت نطاق «الخطوط الحمراء» مثل مقالة «هل المسلمون أفضل أمة؟». أكد المؤلف أننا لسنا أفضل ولا نملك مقوماتها، بل نملك عكس مقومات القوة من الكذب والنفاق والرياء والضعف والمهانة. ثم يتناول دور وسيطرة شهوة المال والحكم في هذه الحياة. ويتناول في عدة مقالات دور الفساد العربي عبر شخصية القائد العربي الأموي الحجاج بن يوسف الثقفي، وكيف أفسد في تاريخ أمتنا العربية وذكر المؤلف نماذج كثيرة ومتعددة لفساد الحجاج وخاصة قتل الأبرياء من المدنيين المسلمين. ثم يتناول موضوع غلو وتعصب المثقف الديني وعدم قبوله للرأي الآخر. وتعنده في مواقفه وآرائه. ثم يتناول بالحديث عن قضية مهمة وهي مشاركة الرعية في الإصلاح في الوطن، ثم يميل لتناول موضوع حيوي وحساس وهو طاعة ولي الأمر، ويصر الدكتور زهير كتبي على عدم طاعة ولي الأمر إلا بشروط حددها في هذا الكتاب وفق منظور إسلامي. ثم مشيرا الى أن من حق أي مواطن نقد السلطة. و يكتب عن موضوع المؤسسة الدينية الخليجية، مذكرا بكثير من مواطن الفساد والضعف والتجاوز في تلك المؤسسة وعدم تطورها.

ويؤكد مؤلف الكتاب أن الإقدام على الاجتهاد والخطأ في الكتابة والنقد والتحليل هو واجب ديني ووطني وثقافي ومبدئي على كل مثقف وكاتب، وأن الكاتب النظيف مأجور على جهده واجتهاده وفعله ومحاولته الوصول إلى الصواب. ويدعو في الكتاب إلى الحوار والمتابعة والتقويم والمراجعة والمناصحة والنقد من قبل أهل الثقافة والفكر والقلم، ويقول إنها بؤرة الفاعلية في الساحة العربية.

■

القلعـــــة

تأليف: أنطوان دي سانت إكسوبري
ترجمة: أحمد علي بدوي
القاهرة - دار الشروق ٢٠٠٨



القلعة هي حكاية أمير ورث مملكة عن أبيه. ومن خلال تأملاته في أحوال شعبه يصحبنا في رحلة فلسفية ممتعة في أغوار النفس الإنسانية يقدم لنا فيها خلاصة خبرته وتجاربه.

ومع أن أنطوان دي سانت إكسوبري اشتهر بروايته الجميلة «الأمير الصغير» والتي نشرت بأكثر من مائة وخمسين لغة عبر العالم كله إلا أن كثيرا من النقاد يعتبرون رواية القلعة هي رائعته الحقيقية والتي جمع فيها فلسفته وحكمته التي استغرقت عمرا بطوله.

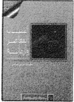
ولد أنطوان دي سانت إكسوبري عام ١٩٠٠ بفرنسا وكان طيارا ومغامرا جاب بقاع العالم كله بطائرته الصغيرة، وكتب العديد من القصص والروايات. نشر له منها ١٠ روايات قبل أن يلقى حتفه إثر سقوط طائرته أثناء رحلة جوية في شمال إفريقيا عام ١٩٤٤.

وقد نشرت روايته القلعة بعد وفاته فأكدت مكانته الأدبية البارزة على الساحة العالمية؛ حتى قيل إن حجم ما كتب عنه في السنوات العشر التي أعقبت وفاته قد بلغ ضعف ما نشره وهو على قيد الحياة.

■

علم النفس الأكاديمي المعاصر
الشباب المعاصر وأزماته
دراسات نفسية ميدانية

أ. د. محمد حسن غانم
القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٨، ٤٣٢ صفحة



الشباب المعاصر وأزماته.. دراسة نفسية ميدانية، كتاب يطرح سؤالاً مهماً، عن دور علماء النفس والاجتماع في التصدي للمشكلات التي يعانيها الشباب، وفي تفسير الكثير من الظواهر التي تسود المجتمع المصري، ويتهم فيها الشباب. الكتاب يأتي ضمن سلسلة مهمة خصصتها الداران، مكتبة الدار العربية للكتاب، والدار المصرية اللبنانية لعلم

أوراق بحثيـــــة

الوضع الفلسطيني..
الأزمة والمصالحة ومستقبل الحركة الوطنية

بشير موسى نافع
مركز الجزيرة للدراسات
الدوحة - قطر ٢٠٠٨



بين التاسع والرابع عشر من يونيو/ حزيران ٢٠٠٧، حسمت مجموعات من الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، والقوة التنفيذية الموالية للحركة، الصراع الدائر منذ شهور في قطاع غزة بالقوة العسكرية.

وكانت المناطق الفلسطينية الواقعة في نطاق الحكم الذاتي شهدت توتراً متزايداً منذ فوز حماس في الانتخابات التشريعية في مطلع ٢٠٠٦، ومن ثم تأهلها لتشكيل الحكومة الفلسطينية.

وصل هذا التوتر ذروته في الاشتباكات التي شهدها قطاع غزة خلال الأسابيع السابقة على عقد اتفاق مكة.

جانب من هذا التوتر يعود إلى الحصار السياسي والاقتصادي الذي فرضته الدولة العبرية والقوى الغربية عامة على المناطق الفلسطينية بعد فوز حماس وتشكيلها الحكومة؛ ولكن الجانب الذي لا يقل أهمية عن ذلك يعود إلى سعي قوى وشخصيات داخل حركة فتح والطبقة الفلسطينية الحاكمة منذ أوسلو، وسعي قيادات ومؤسسات أمنية داخل سلطة الحكم الذاتي إلى تقويض دور حماس في الحكم وإخراجها نهائياً من جسم السلطة.

أثار حسم الصراع في قطاع غزة لصالح حماس ردود فعل سياسية سلبية، فلسطينياً وعربياً ودولياً، كما أثار جدلاً فكرياً حاداً في الساحتين الفلسطينية والعربية. فقد شابت عملية الحسم تجاوزات بالغة من الطرفين، سواء من القوات الموالية لحماس أو تلك التابعة للأجهزة الأمنية؛ كما مثلت لحظة مؤلمة أخرى من الاشتباك الفلسطيني - الفلسطيني، وأضافت انقساماً فلسطينياً وطنياً إلى الانقسامات العربية الداخلية المتفاقمة في العراق ولبنان و لكن دلالات الحسم السياسية هي الأهم بالتأكيد، سواء فيما يتعلق بالموقع الذي تحتله القضية الفلسطينية عربياً وإقليمياً ودولياً، أو بعملية التحول المرتبكة التي تشهدها المجتمعات العربية والإسلامية ودور القوى الإسلامية السياسية ومستقبلها في هذه العملية. لقد قادت حركة التحرر الوطني الفلسطيني «فتح» النضال الوطني الفلسطيني منذ سنة ١٩٦٩؛ وبالرغم من التعددية السياسية والأيديولوجية التي تتسم بها الساحة الفلسطينية، كانت فتح هي من يحدد الاتجاه العام للحركة الوطنية طوال ربع القرن الماضي، ولكن دور فتح أخذ في التراجع منذ الانتفاضة الفلسطينية الأولى. وفعلا قدم فوز حماس في الانتخابات التشريعية الأخيرة في الضفة والقطاع مؤشراً ملموساً على التراجع الفتحاوي وعلى صعود التيار الإسلامي السياسي. وهناك مؤشرات عديدة أخرى تشير إلى أن حجم ودرجة التحول بين فلسطينيي الشتات لا يقلان عنهما في الضفة والقطاع.

اتجهت الأزمة السياسية التي ولدتها عملية الحسم في قطاع غزة نحو التعقيد، سواء لرغبة دوائر معينة داخل السلطة الفلسطينية في إبقاء الأوضاع على ما هي عليه، أو للضغوط التي تمارسها الإدارة الأميركية والحكومة الإسرائيلية على رام الله، أو لأن المفاوضات الجارية منذ نهاية ٢٠٠٧ حول تسوية نهائية ما للصراع على فلسطين تتطلب استبعاد حماس عن مواقع القرار للسلطة الفلسطينية، وأصبحت هذه الأزمة، بذلك، مفتوحة على احتمالات عدة. ولكن من الخطأ التعامل مع الأزمة الفلسطينية باعتبارها مجرد حلقة جديدة في سلسلة التداعيات التي عاشتها الساحة الفلسطينية منذ انتصار حماس في الانتخابات التشريعية. هذه أزمة ذات جذور عميقة في التاريخ السياسي الفلسطيني؛ ومن غير الممكن التوصل إلى قراءة صحيحة للحظة الفلسطينية الراهنة، وللتحول الذي يشهده المجتمع الفلسطيني واتجاهاته، بدون قراءة السياق التاريخي لبروز حركة فتح والاتجاه الإسلامي الفلسطيني، وبدون استطلاع دقيق لشروط التحولات السياسية في السياق الفلسطيني. وبالنظر إلى أن صيف ٢٠٠٨ شهد بدايات حوار وطني لمعالجة الأزمة وعواقبها، فإن من الصعب تصور إعادة بناء اللحمة الوطنية الفلسطينية بدون إعادة نظر في النهج السياسي لقيادة سلطة الحكم الذاتي، لحركة فتح، ولحركة حماس على السواء.

تستعرض الدراسة تاريخ حركة فتح «من الفكرة الى التحرر الوطني إلى السلطة»، وكذلك تشكيل حركة حماس، وصعودها الحثيث في الساحة الفلسطينية، ثم كيف كان الطريق الى الأزمة الحالية، والى أين نحن ماضون بعد ماجرى من انقسام.

النفس الأكاديمى المعاصر، تحت إشراف الناشر محمد رشاد رئيس مجلس إدارة الدار المصرية اللبنانية، وبهيئة تحرير مكونة من الأستاذ الدكتور مصطفى سويف، ود. خالد عبدالمحسن بدر، وفى تقديمه لهذه السلسلة يقول الناشر محمد رشاد إنها راعت أن تنقل إلى القارئ أحدث المعلومات التى استقرت فى الموضوعات التى تتصدى هذه الكتب لمعالجتها وهو أمر لا تزال المكتبة النفسية فى أشد الحاجة إليه، كما تقدم هذه السلسلة كل ما يعتبر إسهامًا جادًا فى العلم سواء كان هذا الإسهام مصرى المنشأ أو عربيًا أو عالميًا، والجدير بالذكر فى هذا الصدد - والكلام لمحمد رشاد - أن لدينا الآن من أهل الاختصاص مَنْ ترقى إنجازاتهم إلى مصاف إنجاز العلماء الكبار فى العالم.

يحتوى الكتاب على خمس دراسات كبرى، الأولى بعنوان الصورة المدركة للطالب العدوانى فى المجال الدراسى، لدى عينة من طلاب المدارس الثانوية، بينما جاءت الثانية تركز على السلوكيات المراد تعديلها لدى عينة من طلاب وطالبات الجامعة، فى سياق نفسى اجتماعى، وخصصت الدراسة الثالثة لاتجاهات الشباب نحو الزواج وقضاياه التى باتت ظاهرة وملحوظة مثل ارتفاع معدلات العنوسة، وزيادة حالات الطلاق، وتناقش القضية الرابعة ظاهرة ختان الإناث وعلاقته ببعض متغيرات الشخصية، أما الدراسة الأخيرة فهى أزمات الحياة بشكل عام، وكيفية معالجتها.

■

محـــب

تأليف: عبد الفتاح الجمل
القاهرة - دار الشروق ٢٠٠٨



سيدرك القارئ أن وراء هذه الكتابة محبة فريدة، ومعرفة عميقة بالنفس البشرية، وبالطبيعة فى جميع صورها. إن عبد الفتاح الجمل يمارس حواسه الخمس فى فنه، مجتمعة دائمًا متآزرة، تتبادل القوى والدلالة بأسلوب ساحر لا ينفد جماله أو ثراؤه. إنه يريد أساسًا أن يمسك بالحياة، وأن يصنع بالفن حياة موازية لها، وهذا هو هدفه الأول ومقصده الأعلى.

وهكذا، تصبح سيرة «محب» عملاً فنيًا فريدًا، يمسك بالحياة وبالطبيعة إمساكًا يجعل الحياة طبيعة، والطبيعة حياة، ويحيلهما معًا إلى مادة فنية واحدة تتلقاها النفس، فتعيشها لتبقى فيها وكأنها تجربة مباشرة أو ذكرى عزيزة غائرة. قد تنتمى هذه السيرة التى كتبها المؤلف لقريته إلى فن القصة القصيرة أو الرواية، ولكنها فوق ذلك تسجيل حى للقرية بتاريخها وجغرافيتها ولسكانها من بشر وطير وحجر وبلغاتهم جميعًا.

■

العوامل الخمسة لخلل العمل الجماعى

باتريك لينسيونى
The Five Dysfunctions of a Team
ترجمة من الانجليزية للعربية محمد عبد الرءوف العوجى
كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨.
١٩٤ صفحة



فى كتاب «العوامل الخمسة لخلل العمل الجماعى» The Five Dysfunctions of a Team، يعرض لينسيونى من جديد قصة عن أفضل السبل لقيادة فريق عمل ناجح تماثل فى روعتها وإفادتها كتابيه السابقين اللذين حققا أعلى المبيعات، وهما The Five Temptations of a CEO و The Four Obsessions of an Extraordinary Executive، غير أنه هذه المرة يتحول بكل طاقته الإبداعية القصصية والفكرية إلى عالم فريق العمل الملىء بالتعقيد والغموض.

ففى هذا الكتاب، تواجه كاثرين - المديرة التنفيذية الجديدة - أصعب أزمة قيادية من الممكن أن تواجه قائدًا فى بداية عمله، ألا و هى محاولة توحيد فريق عمل فى حالة من الفوضى تهدد بانهيار المؤسسة بأكملها. فهل يا ترى ستنجح فى مهمتها؟ أم سيتم طردها من العمل؟ هل ستنهار المؤسسة؟ إن الحكمة الأبدية التى تنتهى إليها تلك القصة التى حاك لينسيونى خيوطها ببراعة فائقة هى أن القيادة مهمة تتطلب قدرًا من الشجاعة بقدر ما تتطلبه من بصيرة نافذة.

ومن خلال أحداث القصة، يكشف لنا لينسيونى عن أخطر خمس نقاط ضعف تصيب كيان كل فرق العمل - حتى أفضلها - بالخلل والتصدع. ثم يرسم لنا نموذجًا للفريق الناجح من خلال خطوات عملية تعين الفريق على تخطى العقبات وبناء كيان قوى متماسك.

وكما هو الحال مع كتب لينسيونى السابقة، فقد نجح فى نسج قصة ممتعة ومشوقة تحمل رسالة مؤثرة - على الرغم من بساطتها البادية - إلى كل قائد يكافح من أجل تكوين فريق عمل فذ.

■

نقد العقل العملى

إمانويل كَنْت
ترجمة: غانم هنا
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ٢٩٥ صفحة



شغلت العلاقة بين العقل العملى والعقل النظرى كل من تابع كَنْت، منذ ظهور نقد العقل العملى قبل مائتى عام، لكن أوسع النظريات المعاصرة فى الأخلاق انتشاراً تضع هذا الموضوع جانبًا لتأخذ بانتقائية تضفى على أبحاثها صفة التجديد، من دون العودة إلى هذه القضية الأساسية فى الفلسفة الكنتية. هكذا فعلت «أخلاق الخطاب» ليورجن هابرماس ونظرية جون رولز فى العدالة، وكذلك نظرية الأخلاق النفعية وغيرها. من لم يرغب، أو لم يستطع أن يتبع الأخلاق الكنتية، لأسباب تعود إلى أيديولوجية أو إلى مواقفه الدينية أو الاجتماعية أو حتى السياسية، لابد من أن يعترف لكَنْت، بشكل عام، بأنه ثبت أن للأخلاق، بكل بساطة، قانونًا موضوعيًا، وأن لها صفة مميزة هى قابلية مسلماتها للتعميم، وأن أصلها الذاتى يقع فى استقلاله الإرادة، ثم إن إشكالية الخير الأسمى - إذا لم يرد الإنسان أن يتناساها أو يكبتها - لن تُحل إلا عن طريق وجود الله، وخلود النفس، والحرية. وبذلك يمكن أن يلقى السؤال حول تعيين إرادة الإنسان حلاً، وكذلك حول تعيين عقله مطلبه للسعادة. وهذا هو مجمل موضوع الأخلاق، بالمعنى الفلسفى النقدى.

■

يحدث فى مصر الآن

تأليف: يوسف القعيد
القاهرة - دار الشروق ٢٠٠٨



يقول الناقد الكبير د. على الراعى عن هذه الرواية «يحدث فى مصر الآن»: عمل روائى فى المحل الأول، تسجل له بساطته الشديدة فى الفضح واللذع والتندر، ويحمل فى أرجائه أنفاسًا من فن جوجول فى «المفتش العام»، وشيئًا من كابوس كافكا فى «المحاكمة»، وشبهًا قريبًا من توفيق الحكيم فى «يوميات نائب فى الأرياف». ومع كل هذا الانتساب، يظل للعمل طابعه الخاص. قدرة يوسف القعيد على الفضح دون زعيق، والإدانة دون خطابة، والانحياز إلى جانب الفقراء والمعدمين دون تحيز لهم.

إن «يحدث فى مصر الآن» «هجائية» سياسية ممتازة تنبع من القرية المصرية موضوعًا وشكلًا وتثبت أن الرواية السياسية تستطيع أن تكون ضاحكة حينًا، ساخرة حينًا، دون أن تفقد شيئًا من جديتها، بل لعلها تزيد من عمق هذه الجدية بالتناول الذى يبدو سهلاً ولكنه لا يلبث أن يغوص إلى أعماق القارئ.

■

التسلّح ونزع السلاح والأمن الدولى الكتاب السنوى ٢٠٠٨

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية والذى يصدره معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولى «سيبرى»، ٢٠٠٨، ٩٤٢ صفحة



يعتبر الكتاب السنوى التسلّح ونزع السلاح والأمن الدولى الذى يصدره معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولى (سيبرى)، أبرز التقارير الدولية الاستراتيجية، كمرجع شامل للتطورات العالمية فى كل شأن يتعلق بمصير السلام على الأرض.

يوثق هذا الكتاب - المرجع، فى تقارير شبه مسحية وبيانات وجداول وإحصاءات دقيقة، مجمل التطورات فى العام ٢٠٠٧، فى شتى مجالات الأمن، والصراعات، والإنفاق العسكرى والأسلحة.

وهو يسعى إلى توفير مصدر موثوق، ومستقل، يمكن لمراكز القرار، والبحث، والقراء المعنيين، الرجوع المطمئن إليه، لبيان أوضاع العالم السياسية والاستراتيجية والأمنية، وماذا دار خلال السنة المعنية من حوارات ونقاشات، وما صدر من قرارات وما تشكل من لجان، تُعنى بالصراعات، وكيف حلّت (إذا كانت قد حلّت).

وللعام السادس على التوالى، يقدم مركز دراسات الوحدة العربية إلى القارئ العربى، فى هذا المجلد، الطبعة العربية، وذلك بالتعاون مع المعهد السويدى بالإسكندرية. وتبقى الطبعة العربية، لهذا الكتاب السنوى، محافظة، إلى درجة عالية من المسئولية والحرفية، على ما جاء فى النص الأصلى للكتاب (باللغة الإنجليزية)، وهو نهج يلتزم به مركز دراسات الوحدة العربية فى إنتاجه الفكرى، مما يُبقى المعهد موصولاً مع القراء العرب.

■

OBRAS COMPLETAS I: POESIA¨ CUENTO¨ NOVELA

الأعمال الكاملة١: شعر، وقصة ورواية

Hernandez Efren
488 pp. $ 44.75
Mexico
FCE..2008



يجمع الجزء الأول لهذا الكتاب بين الشعر والقصة والرواية لأعمال الكاتب المكسيكي «إيفرين إرنانديث»،كما يراه الناقد وكاتب المقال أليخاندرو توليدو: «لديه اتجاه هامشي وله موهبة نادرة». فاتجاه وموهبة الشاعر تنتج كتابات مثيرة وموحية للبانوراما الأدبية بالقرن العشرين في المكسيك أي أنه عمل لا غنى عنه على مر الزمن وفقاً لذوق ورأى الأجيال الجديدة من القراء والنقاد.

Movimiento de mujeres. Mujeres en movimiento

حركة نسائية . نساء في انقلاب

Bego´na Zabala
292 pp. euro 7
Txalaparta, 2008



في هذا العمل يرجع المؤلف بيجونيا ثيابادا بنظرته لثلاثين سنة للوراء حيث منظمة الانقلاب النسائي في إقليم الباسك . إنها قصة شخصية وجماعية من تاريخ متطلبات النساء وإنجازاتهن. فمن أجلهن اختارت المؤلفة اثنى عشر طلبا نادين بها مرات كثيرة في مظاهرات أو مطبوعة في الدعاية لمعالجة الكثير من القضايا الهامة لنضال المرأة : «يسقط العمل»، «لا يوجد عنف بدون تشهير»، «لا يوجد عداء دون رد» oli, oli ، «المرأة ستنتصر»، «الكي والكنس ola لجميع الناس»... هكذا قدمت المناقشات والمجادلات عن قضايا الاضطهاد من جانب السلطة حيث تكون في: العمل والأمومة والحرب والعنف والبغاء ولا سيما الحركة النسائية.

Los Premios Grammy 1958-1982 "25 a´nos de música"

جوائز جرامي ١٩٥٨-١٩٨٢، ٢٥ عاماً للموسيقى»

Xavier Gállego. F, 2008, Lenoir
256 pp. euro 23



أول كتاب مرشد لجوائز Grammy بأمريكا الشمالية من عام ١٩٥٨-١٩٨٢ وفقاً لصنفات الموسيقى الحديثة (بوب،روك، جاز، البلد، ريجبي،...إلخ) .
«في هذه الطبعة التي تغطي فجوة الأدب الموسيقي ببلاد إسبانيا، نستطيع أن نكتشف هنا معلومات عن ماهو الجرامي وما يضمنه كما نكتشف بيانات عن أحداث في كل مرة يتم فيها تسليم الجوائز. ونستطيع أن نعرف من هم المرشحون والفائزون ونستطيع معرفة أهمية الفائزين بالجوائز وغير المعروفين بالأكاديمية . فكتاب «جوائز جرامي» لا يترك أحداً إلا وشد انتباهه . ها أنتم لديكم الفرصة للمعرفة أكثر».

HERMANAS

الأخوات

خوسفينا الديثوا

Aldecoa, Josefina
232 pp. euro 38.18
Alfaguara, 2008



يعيشان إيزابيل وأنا مع بعضهما منذ بضع سنين . فبالرغم من أن طفولتهما معاً تأثرت بالأم الحاضرة دائماً معهما في ذهنهما على الرغم من غيابها، فكل أمنياتهما المتنوعة بين أيديهما: السعادة والعائلة من جهة والحرية والاستقلالية من جهة أخرى، مما رسم طريقة حياتهما ومصيرهما.
في المستقبل تقع الأختان في حب نفس الرجل مما يؤدي لوجود منافسة بينهما ويضع علاقتهما في خطر.
تطلق الكاتبة عنان أفكارها المنعكسة والمذكرة في قصة هاتين الأختين اللتين تمثلان بشكل بارع نوعين من النساء حيث وضعت حالة الأختين في سلسلة من

التعقيدات ومشاعرهما المتماثلة والمختلفة وخبراتهما المشتركة وخبرات كل واحدة فيهما على حدة، مما يخلق مشاعر مركبة ومعقدة بنهاية مفاجئة أو غير متوقعة.

LA DAMA AZUL

السيدة الزرقاء

SIERRA, JAVIER
400 pp. euro 19.20
Planeta, 2008



لا يوجد عمل خيالي كشف عن كثير من الحقائق الخفية .. فالعمل الروائي لتاريخ إسبانيا الغامض يضع تحت المراقبة صحفية، وجاسوسة تعمل بالمخابرات بأمريكا الشمالية، ومجموعة مختارة لحكمة الملك بالفاتيكان وتواجههم بواسطة العمل بمراقبة المعلومات عن إمكانية إضعاف إيمان ملايين المسيحيين.
يبدأ اللغز في أمريكا عام ١٦٢٩ عندما وصل لأول مرة الفرانسيسكان إلى المكسيك الجديدة واكتشفوا أن أحدا ما سبقهم .
الهنود الحمر الذين رحبوا بقدومهم، حكوا لهم عن السيدة الزرقاء الغامضة التي جاءت لمقابلتهم خلال شهور.
أعطى بابا أوربانو الثامن والملك فيليب التاسع أوامر بإجراء استقصاءات عنها وانتهوا بأن هذه السيدة الغامضة ليست إلا راهبة تعيش حياة الرهبنة من سوريا التي بشمال إسبانيا تدعى الأخت ماريا María Jesús de Agreda خيسوس دي أجريدا وبدون أن تترك زنزانتها أبداً ، أصبحت قادرة على أن تظهر لبعد أكثر من ١٠ الاف كم . ولكن كيف فعلت هذا ؟، عن طريق مرض الحمى من اجل إخفاء سر الراهبة ووجود Coronovisor أو الجدول الزمني للمراقبة، فهو اختراع عبقري متطور في عهد بيو الثاني عشر في روما من أجل استعادة الصور وأصوات الماضي وغموض امرأة وقعت في اشتباك بين العمل لدى قسم الدفاع ورؤيتها غير العادية اللذين يتلاقيان معاً، جعل الرواية بها إثارة أكثر . حيث يوجد أشخاص يستطيعون أن يكونوا في مكانين في نفس الوقت، فأحداث الرواية بها غموض وأسرار.

Epistolario Mara´nán-Unamuno-Ortega

رسائل مارانيون - أونامونو - أورتيجا

Edición crítica de Antonio López Vega
308 pp. euro 23.90
Espasa, 2008



يجمع هذا الكتاب جميع الرسائل لأهم كتاب ومفكري القرن العشرين بإسبانيا : جريجوريو مارانيون، ميجيل دي أونامونو، وخوسيه أورتيجا إي جاسيت. كما يشير أنطونيو لوبيث بيجا في دراسته إلى مقدمة لأول مرة رسائل كاملة ومحللة في كتابه.
قام لوبيث بيجا بتحريرها حيث إنه مؤرخ والسكرتير الحالي لمؤسسة مارانيون التي من خلالها استطاع أن يصل لتلك الرسائل مباشرة .

Los papeles de agua

أوراق الماء

Antonio Gala
450 pp. euro 22
PLANETA, 2008



يرجع أنطونيو جالا لقصص الحب العظيمة عن طريق أوراق الماء.
لم تكن قط السيدة «أسونسيون مورينو» سهلة الفهم. وحتى عندما أصبحت كاتبة باسم ديانيرا الأركون الناجحة بكتابتها. حتى انتصرت احداهما على الأخرى وقررت ديانيرا الذهاب إلى البندقية بإيطاليا لتحدد مصيرها بحياتها .
فكتابتها على أوراق مذكرتها بالبندقية كانت من أجل فهم نفسها من خلال مضى الأيام ومع مرورها أهملت نفسها .
تعكس هذه المذكرة امرأة تحاول أن تعيش من خلال كتابتها بعد أن تركت من قبل ذلك «نوعا من الكتابة الأدبية التي تخدم فقط الأدب». فإنها امرأة استطاعت أن تنسى نفسها عندما اكتشفت في النهاية أنها لم تعش الحياة أبداً.
يعتبر هذا الكتاب اعترافا دون حياء.

فلم تعرف الكاتبة النور إلا عند هروبها منه لتحديد مصيرها.

■

Espejos
Una historia casi universal
مرايات
تاريخ عالمي

Galeano, Eduardo
364 pp, euro 19
Seglo Xxi De Espaa, 2008
Editores, S.A.



بعد أربع سنوات نشر الكاتب جاليانو عمله الجديد الذى يستعرض فيه تاريخ الإنسانية حتى اليوم والذى يكتبه من منظور أحداث وأشخاص غير معروفين فهم ليسوا بالصحف اليومية أو فى الصور. فكما هو مذكور بالعنوان الثانوى الذى يحكى عن تاريخ عالمى وعن إحصائية عامة بالعالم التى تظهر مضيئة بواسطة هذا الكاتب القادر على ربط الأحداث اليومية والأحداث الفعالة والشكاوى بشكل أكثر بساطة وبما لديه من الفكاهة وبأبرع ما لديه من سخرية . ففى هذا الكتاب يتم إدماج الحكايات التى تحملنا كما لو أننا عناوينها، كالمشار إليها من «مؤسسة الذكور»، «إحياء يسوع»، «سنوات خوانا دى لوكا»، أو «التعليم فى عصر فرانكو» حتى «الحقوق المدنية لألعاب كرة القدم».

■

Te daré la tierra
سأعطيك الأرض

Lloréns, Chufo
752 pp, euro 21
Plaza & Janés Editores, S.A, 2008.

بارشلونا



بارشلونا بالعصور الوسطى بين أسوارها قصتان كلتاهما عن الحب والطموح : حيث تحكى عن شاب فلاح يريد أن يغير مصيره، فأمله الوحيد هو أن يعيش حياة رغدة وأن يصل للمدنية وبهذا سيكون جديراً بحب فتاة مدينة الكورنيا ولكن علاقات غرامية لكونت بارشلونا تضع المدينة فى خطر سياسى.

رواية «سأعطيك الأرض» تتحد فيها البراعة والخيال والتاريخ لتوضح الحياة الرغدة المنعشة لمدينة بارشلونا حيث تصبغ فيها المعاهدات والنسب ومكائد القصر والطموح التجارى والتعايش بين مختلف الأديان، بمشاعر اكثر توهجاً: كالعاطفة والصداقة والحسد والشرف والانتقام . فهى رواية عاطفية وبها طموح مما يجعل القارئ يخوض عصر بدايات بناء مدينة بارشلونا.

■

La Casa de Dostoievsky
بيت دوستوفسكى

Jorge Edwards
336 pp, euro 23
Planeta, 2008



الرواية حائزة على جائزة Iberoamericano Planeta-Casa América للرواية عام ٢٠٠٨ فهى رواية عظيمة معاصرة لجورجى إدوارد، تتحدث عن الحب والشعر والالتزام السياسى.

تتحدث الرواية عن كاتب وشاعر شاب أفنى حياته كلها بين الشرب وعلاقته الغرامية بسانتياجو فى شيلى بعد الحرب.

عشق تيريزا وذهب على أثرها إلى باريس فى الستينيات، فكلاهما يحبان بعضهما فى السر، ولذلك هما فى خطر دائم خوفاً من انكشافه.

و بعد وقت انتقل إلى كوبا حيث عاش هناك فى أوقات سياسية مضطربة وثورية كما أنه خاف من الرجوع إلى بلاده بشيلى لأنه سيقع فى يد الديكتاتور بينوشيه.

هذه الرواية معاصرة للأجيال الذين لديهم التزامات وطموحات نحو حريتهم، فهم يدفعون ثمن طلبهم للحرية التى دائماً ما ترى على أنها شىء ليس من حقهم ويجب العقاب عليه من قبل المدعين بأنهم أصحاب الفكر السياسى السليم .

فالرواية تكريم للشعر والإبداع الفنى . فهى من أروع روايات جورجى إدوارد الذى يمتاز بأسلوب بارع ونضجه ككاتب يكشف الجوهر الأدبى لهذا الكاتب البارع الذى له اهمية كبيرة بأدب أمريكا اللاتينية.

■

El documento Salda´na
وثيقة سالدانيا

Pedro de Paz
300 pp, euro 19.18
Planeta, 2008



تحكى الرواية عن الطامح ميجيل كورتيس الذى يقبل جميع أنواع العمل ولكن فى حدود القانون. فقد تلقى فى يوم طلبا خاصا: وهو استعادة ووضع وثيقة قديمة مكتوبة من قبل رجل اعمال شهير فى بدايات القرن الماضى.

وعلى أساس العرض الاقتصادى السخى، قبل «كورتيس» بالمهمة التى ستحمله إلى الاختراق فى لعبة المرايا المثيرة للقلق حيث ستوصله إلى لا شىء، وسينتهى به الأمر إلى الخرافة التراثية الفنية المختفية فى بدايات نشوب الحرب الأهلية الإسبانية والتى فقدت للأبد ..

■

EL PAPA MAGO
بابا ماجو

RUIZ MONTA NEZ MIGUEL
576 pp, euro 21.50
EDICIONES MARTINEZ
ROCA, S.A.,2008



تحكى الرواية عن فرنسا الحالية بمنطقة شامباين.

يكرس أمير مدينة ديفينشى «بيير دوبوا» حياته للبحث عن ماكينة تعمل على تغيير الألفية والمخبأة منذ آلاف السنين حيث اخترعها الأب سيلفيستر الثانى، بابا الماجو . ولكن بعد أيام من اكتشافها، اختفى بيير دوبوا .

فاختفاؤه المفاجئ أدخل ابنته والمخبر فى دوامة من الأحداث الخطيرة مما حملهما لكثير من البلدان المختلفة ومغامرات غرامية .

الرواية «بابا ماجو» تعتبر رواية مليئة بالألغاز والإثارة تدخل القارئ فى عصر غير معروف ومثير لسنة ألف . ويقدم لنا احد الأشخاص المهمين وغير المعروفين وهو الأب سيلفيستر الثانى.

■

El ao que mi abuelo vio llover
العام الذى رآه جدى ممطراً

Toms Molina
280 pp, euro 18.5
Planeta, 2008



التغير المناخى فى إسبانيا

رواية «العام الذى رآه جدى ممطراً» يضع أمام القارئ الشواهد والبيانات عن المشاكل التى تعانى منها إسبانيا عن التغيير المناخى والمشاكل التى يجب مواجهتها بإسبانيا والعالم عامة كنتيجة للتزايد السكانى والتغير المناخى وكافة تقلبات عصرنا. وجميع الأشياء الرئيسية لمعرفة ما الذى يحدث بإسبانيا حالياً.

بدون انحياب والتنبؤ بكوارث، هاهنا قصة الظروف الحالية بإسبانيا وظروف مستقبلها، فى عمل لا يقترح البحث عن حلول ولكن يقوم بحلها.

■

El judo de Shanghai
يهودى شنجهاى

Emilio Calderón
320 pp, euro 21
Planeta, 2008



الرواية حائزة على جائزة فيرناندو لارا للرواية. وهى مليئة بالإثارة والمغامرة والعاطفة والحب أثناء الحرب العالمية الثانية . بعد عام ١٩٤٣، أسس الجيش اليابانى الذى حكم مدينة شنجهاى كاملة، وحدة الجيتو اليهودية بالعالم التى لم تكن فى أيدى النازية .

وصول العريسين ليون ونورا اليهوديين من بلد Blumenthal إلى شنجهاى عام ١٩٣٩ عندما كانت هذه المدينة ميناء لفرانكو وكانت لاتزال محتفظة بجمالها الساحر، حيث إنهم منعزلون بالتحديد فى هذه المنطقة لأنهم ليس لهم وطن.

يجب على العروسين مقابلة الكولونيل فوكودا، رئيس المخابرات البوليسية اليابانية، واللذين من أجلهما حكى مع نوبى بيرفومادة Nube Perfumada المثيرة جنسياً التى تعمل كعبدة للجيش اليابانى والتى أصبح لها دور رئيسى فى هذه الرواية المثيرة والعاطفية.

■

وجهات نظر

الكتب

فى الثقافة والسياسة والفكر

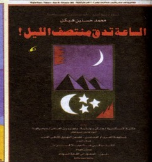
Weghat Nazer - Volume 11 - Issue121 - February2009

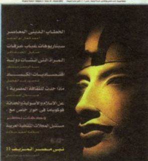
مجلة شهرية العدد ١٢١ - السنة الحادية عشرة - فبراير ٢٠٠٩ - الثمن عشرة جنيهات



































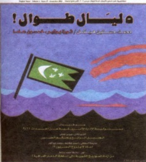








وجهات نظر



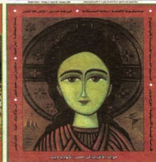
ليال طوال !

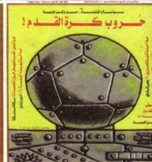


قراءة فى أوراق هيكل
فى انتظار ما لا يأتى وحده !



محمد حسنين هيكل
دفاتر أزمة !
حريم الغرب وحريم الشرق





حروب كرة القدم !





محمد حسنين هيكل
حريق أمريكى وعالمى

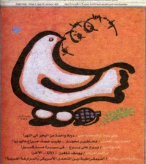




حدود السلاح !
محمد حسنين هيكل



نيكولا ساركوزى.. مشاهد الحرب والحب





"وقفة مع الصديق الأمريكى"
محمد حسنين هيكل











عمال مصر .. المغانم والمظالم
إسرائيليون فى واشنطن
نساء فى حياة المقريزى





الأقباط .. و الإسلاميون











الإرهاب.. الصحافة.. الإصلاح.. الإنسان ؟!



إلى أين ؟!

السنة الحادية عشرة
العدد ١٢١
فبراير ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

كتَّاب العدد :

- **جيمى كارتر**.. رئيس أمريكى أسبق.
- **حسونة المصباحى**.. صحفى تونسى.
- **خالد عزب**.. مدير إدارة الإعلام بمكتبة الإسكندرية.
- **داليا توفيق سعودى**.. مدرس اللغويات الفرنسية والترجمة
- **دين راسك**.. وزير الخارجية الأمريكى الأسبق.
- **زكى نجيب محمود**.. فيلسوف مصرى راحل.
- **سلامة أحمد سلامة**.. صحفى.
- **سناء محمد حمودى**.. باحثة فى العلوم السياسية من لبنان.
- **شيرين ابو النجا**.. أستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة.
- **طارق البشرى**.. كاتب ومؤرخ.
- **على جمعة**.. مفتى الديار المصرية.
- **كريستوفر هتشنز جيفرسون**.. كاتب وناقد اجتماعى.
- **كوامى أنطونى أبياه**.. أستاذ بجامعة برينستون.
- **مازن النجار**.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- **مينا بديع عبد الملك**.. أستاذ الرياضيات بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية.
- **هنرى سيجمان**.. مدير مشروع أمريكا والشرق الأوسط وأستاذ زائر بجامعة لندن.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى





المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٢ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

مجلة مختلفة..

رسالة



القاهرة في ٣١ يناير ٢٠٠٩

عزيزي الأستاذ «أيمن الصياد»

اسمح لي أن أهنئك بعام جديد على صدور «وجهات نظر». وهي مجلة تظل في فكري وفي قلبي تذكرة بلحظة فكرنا فيها جميعا في مجلة تعني بالكتاب الذي يبقى فيما أتصور أهم عارض وحافظ للأفكار والمعارف والتجارب الإنسانية.

في تلك الأيام كنا جميعا نحلم بأن يكون في العالم العربي مثيل لنماذج نافعة تابعناها في عواصم الثقافة الحية في العالم، وعلى وجه التحديد مجلات الكتب في لندن ونيويورك، وبعد بحث ودرس ونقاش شاركنا فيه جميعا آملين التوصل إلى شكل ومضمون نرتضيه ـ خشي بعضنا من أن لفظ الكتب وحده عنوانا للمجلة قد يصد قارئا تباعد عهده بالكتاب، وكذلك اخترنا للصدارة عنوان «وجهات نظر» وأضفنا إليه يومها على استحياء كلمة «الكتب»، وظهرت المجلة ونحن جميعا في قلق يخشى على الفكرة من ضغوط أزمنة أخذها عصر السرعة إلى حالة من اللهفة لم تترك لدى القارئ وقتا يطلبه الكتاب، مع أن «وجهات نظر» حاولت مع الكتب، أن تعرض وتنقد بما يوفر ويختصر.

ثم بدا أن دواعي الطمأنينة تزيح دواعي القلق حين ظهر أمامنا أن القارئ العربي كان أفضل حالا مما تصور بعضنا، وأنه برغم طغيان السرعة، فإن هذا القارئ لم ينفد صبره في اختبار القيمة، ثم إن صخب الوسائل الإعلامية الجديدة لم يستطع العدوان على حق هذا القارئ في الاتساع والعمق.

إنني سعدت أن كان لي حظ المشاركة في «وجهات نظر» بخمسين مقالا حاولت فيها تجربة أسلوب المقال المستطرد الذي يركز باستمرار على كتاب أو كتب، ثم استجد في مرحلة معينة من العمر ـ ولأسباب غير ذلك شرحتها في وقته ـ أن استأذنت في الانصراف عن الكتابة، محتفظا بحقي في الكلام، وعندها فارقت مناخا أنست إليه وشرفت بصحبة رفاقه.

إنني أعلم أن الظروف ألقت إليك باستحقاق مسئولية «وجهات نظر»، ووضعتك مؤتمنا عليها، وكان ذلك في ظني قدرا سعيدا، ومع أني ألمس حجم الجهد الذي تبذله وفاءً لأمانة تستشعرها، فإني أعلم أن العبء جسيم، والمهمة مرهقة، وفي نفس الوقت أعرف من إخلاصك للفكرة وتفانيك في تجسيدها عددا بعد عدد وشهرا بعد شهر، في مواسم الجفاف التي يعيشها عالمنا العربي ما يدعوني إلى المتابعة من بعيد، والرجاء من القلب أن تظل حماستك متقدة، وجهدك متفانيا، وتظل «وجهات نظر» مساحة خضراء بالخصب والنماء – مجلة مختلفة لقارئ مختلف كما جرى التقديم لها من أول يوم.

أرجوك أن تقبل تهنئتي بعام جديد، وأن يتسع صدرك لأملي في سنوات مجيدة قادمة.

وتقبل موفور احترامي.

محمد حسنين هيكل

الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الأول . السنة الأولى ١ فبراير ١٩٩٩ . الثمن عشرة جنيهات

كلينتون وستار



محمد حسنين هيكل

يكتب عن :

السياسة والقانون

والحب والحرب فى عصور مختلفة

توفيق الحكيم وغرام آخر العمر !

أسرار العلاقة بين البابا والمخابرات الأمريكية

ادوارد سعيد : الكتابة هى وطنى

صورة من قريب لآخر ملوك مصر

كريم ثابت: مذكرات لم تنشر

الطبقة الوسطى تدهور أم اتساع ؟

«نون»: سلامة أحمد سلامة

مأزق إسرائيل وأزمتها

من الداخل

وليس من

الخارج



العدد الأول ـ فبراير ١٩٩٩م

رغم كل شيء، لماذا يتحيز الغرب لإسرائيل؟ لماذا صوت الفلسطينيون لصالح حماس؟
بعد ستين عاما، لماذا لا يفهم المثقفون العرب إسرائيل؟ هل الفلسطينيون مواطنون من الدرجة الثانية؟
لماذا لا يمكننا تشبيه الإسرائيليين بالنازيين؟ هل الإسرائيليون عنصريون؟

ألان جريش

هل تخلى اليهود عن صهيونيتهم الحقيقية؟ لماذا كل هذا التطرف؟
ماهو الاختلاف - على الأرض - بين فتح وحماس؟ من هم الذين خنقوا غزة؟
لماذا اغتالوا أحمد ياسين؟ إذا غابت حماس.. هل يأتي السلام؟

حوار: داليا توفيق سعودى

هذا حوار مع «ألان جريش».

وقد يبدأ البعض تعريف الرجل بذكر مناصبه. فيقول إنه نائب رئيس مجلس إدارة صحيفة «لوموند ديبلوماتيك» العريقة، ورئيس تحريرها فى سنوات عديدة سابقة، ورئيس رابطة الصحفيين الفرنسيين المتخصصين فى شئون المغرب العربى والشرق الأوسط(AJMO)، وعضو مجلس إدارة معهد العالم العربى بباريس (IMA)، وغير ذلك. لكن أهمية «ألان جريش» لا تكمن فى مناصبه ، بقدر ما تكمن فى اضطلاعه المتميز بمهمة الصحفى. الصحفى كـ«مؤرخ للحظة»، بمقتضى التعبير المنسوب لألبير كامو.

على الجسر المعلق فوق الهوة الفاصلة بين الشرق والغرب، يقف ألان جريش منذ ولد فى مصر عام ١٩٤٨، ليشب كـ«خواجة» فى قاهرة ناصرية مفعمة بآمال التحرر من الاستعمار، قاهرة كانت مازالت محتفظة بكوزموبوليتانيتها وبتعدد ألوان أطيافها، حين كان جميع التلاميذ يقفون – على اختلاف أديانهم لينشدوا فى طابور الصباح، فى المدرسة الفرنسية المؤممة: «الله فوق كيد المعتدى..». وفى ٥٦، رأى الصبى أفعال المعتدى. وبقيت فى ذاكرته و– فيما بعد – فى كتاباته، وهو يشرح للقارئ الغربى الأبعاد المغيبة عنه فيما يتعلق بشرق أوسط «يسكن قلبه»على حد تعبيره.

فى بداية الستينيات، انتقل ألان جريش للإقامة فى باريس، حيث حصل على الماجستير فى الرياضيات من جامعة باريس VII (١٩٧١)، ثم شهادة فى الدراسات العربية، من المعهد الوطنى للغات والحضارات الشرقية (١٩٧٧)، ثم شهادة الدكتوراه فى موضوع «منظمة التحرير الفلسطينية»، من مدرسة الدراسات العليا فى العلوم الاجتماعية(١٩٨٣).

وطوال ثلاثة عقود، لم يكف الكاتب اليسارى عن كتابة المقالات، وإلقاء المحاضرات، وإجراء التحقيقات عن شرق أوسط تغيب بشأنه لدى الغرب المعلومة الصحيحة والرؤية الصادقة، موليا القضية الفلسطينية النصيب الأوفر من اهتمامه، مناصرا حقوق الشعب الفلسطينى فى مواجهة الاحتلال الإسرائيلى ، إلى جانب اهتمامه بدراسة الإسلام السياسى وعلاقته بالدولة العلمانية فى فرنسا، وبالعالم المعاصر.تقوده فى أطروحاته مشاعل العدالة الاجتماعية، وأنوار العقل والمنطق.

وهى اتجاهات أكدتها كتبه ، وعلى قائمتها : «منظمة التحرير الفلسطينية، الكفاح من الداخل» (١٩٨٦)، «فلسطين ٤٧، التقسيم المجهض» (١٩٨٧)، و«١٠٠ مفتاح للشرق الأوسط» (مع دومينيك فيدال، ١٩٩٦)، و«الخليج:مفاتيح حرب معلنة» (١٩٩٠)، و«الإسلام فى أسئلة» (مع طارق رمضان، ٢٠٠٠)، و«إسرائيل، فلسطين: حقائق حول نزاع» (٢٠٠١، وأعيد إصداره فى طبعة مزيدة عام ٢٠٠٧)، و«الإسلام، والجمهورية، والعالم» (٢٠٠٤)، وكتاب «١٩٠٥-٢٠٠٥: رهانات العلمانية» (٢٠٠٥).

قد يرى البعض فى شخصية جريش مفارقات: فهو ابن عائلة ثرية، لغتها الأم الفرنسية ، ولكنه يختار منذ نعومة أظافره مناصرة شعوب العالم الثالث فى سعيها إلى التحرر من المستعمر الأجنبى. وهو ابن عائلة تعرضت للتأميم، وللمنع من السفر، وللمضايقات، ولكنه لم يتخل عن هوى ناصرى لازمه. وهو ابن حارث بذور الحزب الشيوعى فى مصر وفى السودان، ومع ذلك تربطه صداقة وشراكة فكرية وطيدة بالأكاديمى الإسلامى طارق رمضان حفيد الشيخ حسن البنا. وهو يرفض الحنين إلى الماضى، ويرى أن الشرق لم يكن يوما الوطن، ولكنه يقول فى موضع آخر إنه مسكون بهذا الشرق، وإنه يود لو يورث ما للمشرق من حب فى قلبه لأبنائه.متناقضات عديدة تجدها فى شخص ألان جريش، ولكن أوليست تلك سمة دعاة التعايش بين البشر؟

هذا حوار مع« ألان جريش».

قبل أيام من المحاولة الإسرائيلية الأخيرة «لاغتيال غزة» كان هذا الحوار.. وهنا الجزء الأول منه.

.. سعودى



■■ رغم كل المذابح وكل الصور التليفزيونية دائما ماتتعثر أى حركة للتضامن مع الشعب الفلسطينى فى الغرب.. لماذا؟

ـ أولا: وقبل كل شىء، هناك شعور الغرب بعقدة الذنب إزاء الإبادة النازية لليهود. لكن ثمة سببا آخر بالغ الأهمية، ألا وهو الطريقة التى اتبعتها الحركة الصهيونية طوال تاريخها فى مخاطبة الرأى العام العالمى: فهنا غربيون يتحدثون إلى غربيين. فالصهيونية حركة غربية بالأساس.فعندما يلقى نتانياهو خطابا يبثه التليفزيون الأمريكى لا تكون هناك حاجة للاستعانة بترجمة أسفل الشاشة. وعلى العكس، أذكر خطابا ألقاه عرفات وكانت به جملة يقول فيها:«مليون شهيد وشهيد من أجل تحرير القدس». بالطبع، كلانا يعلم جيدا ما فى الجملة من مبالغة مجازية، لكنها حينما ترجمت، ترجمة حرفية لا التواء فيها، راح المشاهد الغربى يتساءل:«أهو مجنون هذا الرجل، أيريد قتل مليون شخص لكى يحصل على القدس؟!». إنها مشكلة ثقافية بالغة الأهمية.

فى عام ٤٧، حينما تشكلت لجنة الأمم المتحدة المكلفة بمناقشة مسألة تقسيم فلسطين مع العرب واليهود، كان هناك إجماع مبدئى داخل اللجنة ضد التقسيم، لكن الصهاينة نجحوا فى النهاية فى تحقيق مأربهم.لماذا؟ لسببين: الأول هو مقاطعة الفلسطينيين للجنة، أما الثانى فهو تنفيذ اليهود لخطة ذكية: كانت تلك اللجنة تضم ثلاثة عشر عضوا من مختلف الدول، فما كان من اليهود إلا أن عينوا لكل واحد من هؤلاء الأعضاء مرافقا يهوديا من ذات الجنسية، حتى رئيس اللجنة القادم من السويد عينوا له مرافقا يهوديا سويدى الجنسية. رافقوهم فى حلهم وفى ترحالهم، خاطبوهم بلغاتهم، حتى أقنعوهم بكافة حججهم. وبالطبع حين وضعوا لهم ميكروفونات التصنت فى قاعات المداولة، كانوا متيقنين مسبقا من النتيجة. هكذا كانوا منذ البداية: غربيون يتحدثون إلى غربيين.

وفى ٤٨، كان هناك تعاطف عام فى الغرب مع اليهود. وفى ٥٦، تحول التعاطف إلى تضامن ضد عبد الناصر. خاصة فى فرنسا، إبان حرب الجزائر، حيث راجت فكرة «عبد الناصر هو العدو وإسرائيل هى الحليف». وجاء العام ٦٧، فكانت القطيعة. فبغض النظر عن موقف ديجول والشيوعيين، مازلت أذكر كيف كان الإعلام والرأى العام يعزفان معاً لحن الموالاة التامة لإسرائيل.

لكن هذا الوضع قد شهد تطورا فى العقود الثلاثة الماضية، وهو أمر يجدر فهمه جيدا. ذلك أن العالم العربى لديه فكرة راسخة حول وجود لوبى يهودى خارق، يحرك الإعلام وأسواق المال ويتحكم فى كل شىء. ولكن علىّ أن أقول إنه فى نهاية التسعينيات، كان الإعلام يهم بالتعاطف مع الفلسطينيين، لولا تراجع أصابه إثر الانتفاضة الثانية وملابسات كامب ديفيد. ثمة تحفظ سيبقى حول هذه المسألة بسبب «تابو» المحرقة، الذى صار من المحرمات الراسخة والغائرة فى الضمير الغربى، حتى أن الأوروبيين لن يتمكنوا أبدا من التعامل مع إسرائيل وكأنها دولة عادية بين سائر الدول، أو أن يحاكموها وفقا لنفس المعايير التى يستخدمونها للحكم على بقية الدول. ثم هناك أيضا وحدة الخطاب الغربى تلك التى تربط بين أوروبا وإسرائيل فى مقابل الفلسطينيين...

كل ذلك. إضافة إلى وجود روابط عائلية قائمة. ولقد لمست ذلك بنفسى، فى عامى ٢٠٠٠-٢٠٠١، إبان عمليات التفجير الفلسطينية الكبرى. إذ كان هناك قلق بالغ بين يهود فرنسا بسبب وجود أقرباء لهم فى إسرائيل. بالطبع فى حقيقة الأمر كان الفلسطينيون هم الأكثر تضررا والأفدح خسارة، وليس الإسرائيليين. ولكن المشهد بدا مختلفا انطلاقا من الأراضى الفرنسية.

● *هل لنا أن نقول أيضا إن الخطاب الذى استخدمته المقاومة الفلسطينية كان غير ناجح لكونه اتخذ طابعا قوميا أو دينيا، فأبى أن يتفهمه جمهور غربى ذو ميول عالمية علمانية؟*

ـ المشكلة هى لمن يتوجه الخطاب. وهو أمر معقد. فمنظمة التحرير الفلسطينية، شأن كل الحركات والأحزاب السياسية، كان لها خطاب موجه للشعب الفلسطينى، وخطاب آخر موجه للرأى العام الدولى. وبالطبع، كانت رؤية العالم من خلال وسائل الإعلام الكبرى تتم بعيون غربية، فكان الخطاب الفلسطينى يتعثر فى طريقه إليها لأن صياغته لم تكن تتم بصورة سليمة. وهى مسؤولية تقع برأيى على عرفات.ففى أثناء مفاوضات واشنطن التى أعقبت اجتماع مدريد فى ٩١، تبين لنا أن هناك فلسطينيين مثل حيدر عبد الشافى، وحنان عشراوى، وليلى شهيد، ممن يجيدون حمل



الخطاب الفلسطيني إلى الغرب. لكن للأسف، لم يتم توظيفهم جيدا، وبقيت قدراتهم في موازنة الخطاب الإسرائيلي ضئيلة للغاية. وعلى سبيل المثال، في فرنسا، هناك ٢١ سفارة عربية وسفارة إسرائيلية واحدة، لكن هذه السفارة الوحيدة تقوم بعشرة أضعاف ما تقوم به السفارات العربية كلها مجتمعة، فالمؤسف أن السفارات العربية هناك لا تجيد التعامل مع وسائل الإعلام، بل إنها لا تكاد تقوم بأي نشاط فعلي باتجاه الإعلام، على عكس السفارة الإسرائيلية التي تمارس نشاطا منظما ومكثفا وعالي الكفاءة باتجاه الإعلام.

لابد أن ندرك أن في الإعلام، الأهم ليس الوقائع وإنما الطريقة التي يتم بها تفسير الوقائع. فاليوم، ثمة قراءة للنزاع الفلسطيني الإسرائيلي راسخة لدى مجموع وسائل الإعلام الفرنسية، مفادها أن هناك شعبين متنازعين، وأن الفلسطينيين قد ارتكبوا اعتداءات رهيبة، والإسرائيليين أيضا، ليسوا طهرة الأيدي، بدليل ما يحدث في غزة. وتلك قراءة. وهي بالطبع ليست القراءة السليمة. لأن القراءة السليمة الوحيدة برأيي هي أن نقول بأن هناك طرفا محتلا وطرفا تحت الاحتلال. ولا يعني أن أفسر أية أحداث أو وقائع خارج إطار تلك القراءة. إذن، في الإعلام، الأمر لا يتوقف فقط على «ماهية المعلومة التي تمر أو لا تمر»، وإنما يتوقف بالأساس على «مستوى الفهم الذي ترسخ لدينا حول النزاع». وعليَّ أن أقول أن اتفاقيات أوسلو قد زادت من ترسيخ تلك القراءة الخاطئة للنزاع الفلسطيني الإسرائيلي لدى الإعلام الغربي، لأنها أعطت انطباعا بأن هناك شعبين على قدم المساواة، وبأن المفاوضات قد بدأت، وأن الاحتلال قد انتهى... وهذا غير صحيح لأن الاحتلال لم ينته. وهو ما لا يكاد يراه أحد.

لكن، في ذات الوقت، يجب ألا تكون رؤيتنا مختزلة. فاليوم، فيما يتعلق بغزة، كتبت وسائل الإعلام الغربية الكثير ومازالت تكتب. صحيح أنني أرى أن ما يكتب ليس كافيا، وأن ثمة حاجة ملحة لبذل المزيد، من أجل إدانة هذه الجريمة التي تعد واحدة من الفضائح الكبرى في مجال حقوق الإنسان، ولكن تجدر الإشارة أيضا إلى أن أحدا في وسائل الإعلام لدينا لم يحاول تبرير سياسة إسرائيل في غزة.

(ملاحظة: أجري الحوار قبل الحرب الأخيرة على غزة).

على موقع مدونتك الالكترونية، ثمة إشارة إلى بيان بثه، في ٢ مايو ٢٠٠٨، أبناء مقاومي النازية من اليهود، في ذكرى انتفاضة جيتو وارسو، تضامنا مع حق الشعب الفلسطيني في المقاومة، وإدانةً للنظام الصهيوني «الذي يمارس سياسة قمع استعمارية شرسة مشفعة بسياسة تمييز عنصري (apartheid)». ولقد لفت انتباهي ما في الكلمات من مقارنة ضمنية للصهيونية، تارة مع النازية وتارة أخرى مع نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. وفي مجال المقارنة الأولى، أود أن أسأل: ألا تبدو لك غزة اليوم وكأنها «أوشفيتز» جديدة، أو مخيم إبادة إسرائيلي على غرار جيتو وارسو النازي؟

- لقد عارضت دوما تشبيه أو وصف إسرائيل بالدولة النازية، فهذا الوصف لا



يبدو لي صحيحا. فالدولة النازية كانت تتصف بخواص عدة: فهي أولا دكتاتورية عنيفة بحق الشعب الألماني ككل؛ وهي ثانيا، قد طبقت سياسة إبادة بالمعنى الحرفي للكلمة، ليس فقط لإبادة اليهود وإنما أيضا الروس والغجر والمعوقين... ولا يسعني أن أقول إن السياسة الإسرائيلية سياسة إبادة- حتى في غزة- بمعنى إعدام بضعة مئات من الآلاف من البشر في بضعة أشهر مثلما فعل هتلر باليهود... من العسير دوما عقد مثل تلك المقارنات. ولكن، لو كان عليَّ أن أقارن السياسة الإسرائيلية بسياسة مشابهة لها، فسأقارنها بالسياسة الفرنسية في الجزائر: فكلاهما سياسة استعمارية أسفرت عن وقوع الآلاف المؤلفة من القتلى، سياسة قمع، وتدمير للقرى، واحتيال من أجل طمس الهوية الوطنية. أما المقارنة مع النازية، فهي غير سليمة وأرى أنها من الناحية السياسية غير ذكية لأنها تحمل دلالة تثير رفضا تاما في الأوساط الغربية.

● *ولكن، في كتابه الشيق «هزيمة هتلر»، كتب الرئيس السابق للكنيست، أفراهام بورج، أن بعض الدعائم القيمية في المجتمع الإسرائيلي اليوم شبيهة بتلك التي قام عليها المجتمع الألماني عشية وصول هتلر إلى الحكم في ١٩٣٣. فهل تتفق معه؟*

- نعم. فقد قرأت الكتاب في نسخته الفرنسية. وهو بالفعل شيق. إذ يحكي فيه بورج أولا قصة والده، الذي كان يهوديا ألمانيا، ويوضح كيف انتهت إسرائيل إلى تدمير تلك الهوية، وكيف قامت الصهيونية بمناصبة العداء لهذا الجزء من الثقافة اليهودية. ولكن، علينا أن ننتبه جيدا: فما يقوله بورج في كتابه هو أن المجتمع الإسرائيلي اليوم يذكّر بالمجتمع الألماني إبان حكومة «فايمار»، أي تلك التي سادت بدءا من نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى ١٩٣٣، لوجود ركائز مشتركة، مثل تنامي العصبية القومية، وتصاعد حالة من العنصرية المتطرفة ضد العرب، وتحول المجتمع إلى مؤسسة عسكرتارية: وهو ما يعني أن هناك «احتمالات» أو «مخاوف» من أن يشهد المجتمع الإسرائيلي تحولا مماثلا.

وهنا أيضا، أرى أن العالم العربي لديه رؤية شديدة التبسيط للمجتمع الإسرائيلي. الفلسطينيون هم الذين يتمتعون بالرؤية الأوضح لذلك المجتمع لأنهم عايشوه من الداخل. فالمجتمع الإسرائيلي مجتمع ديمقراطي بالنسبة لليهود، والإسرائيليون اليوم بوسعهم أن ينتقدوا وأن يدينوا أشياء في مجتمعهم بدرجة أكبر بكثير مما كان متاحا للفرنسيين إزاء سياسة بلادهم الاستعمارية في الجزائر. لذلك، عندما يقول أفراهام بورج بأنه من الممكن عقد مقارنة بين الحالة الصهيونية وحالة مجتمع ألمانيا «فايمار»، فذلك لا يعني بالضرورة أن إسرائيل ستنتهي إلى ما انتهت إليه ألمانيا الهتلرية. ولكن، بطبيعة الحال، تؤدي استطالة فترة الحرب إلى توفير بيئة ملائمة للعناصر الأكثر تطرفا، وللتيارات الاستبدادية، وهو ما يمثل خطرا كبيرا داخل المجتمع الإسرائيلي.

● *ولكن لو عدنا إلى الأسس الأيديولوجية لكلا الحركتين، الصهيونية والنازية، ألا ترى تقاطعا ما بينهما، لاسيما فيما يتعلق بفكرة الشعب الأوحد المختار، وفكرة الدم، والأرض، وكراهية الأغيار، «ارتز يسرائيل»، أرض ميعاد الشعب العبري دون كل الشعوب، الخ...؟*

- كلا. النازية كانت تقوم على أيديولوجية مكتوبة وملقنة للشعب بشأن الكراهية العنصرية لجميع المغايرين للجنس الآري. صحيح أن الصهيونية في ممارساتها كانت دوما ممارسة ضد الفلسطينيين، لكنني أرى أن التجربة الصهيونية مؤلفة من وجهين: الأول هو أنها حركة قومية، على غرار القوميات الموجودة في أوروبا الشرقية، والوجه الثاني هو الوجه الاستعماري القائم على التخلص من السكان الأصليين لاحتلال أرضهم. وعلى عكس النازية، التي كانت تمثل تيارا موحدا تماما، تعد الصهيونية أيديولوجية متعددة التيارات. فهناك، على سبيل المثال، تيار «ها شومر هاتزائير»، الذي كان ينتمي إلى أقصى اليسار في الحركة الصهيونية، وكان منذ بدايته يؤمن بفكرة قيام دولة ثنائية القومية على أرض فلسطين، يعيش فيها العرب واليهود جنبا إلى جنب...

● *ولكن تيار الها شومر هاتزائير، يمثل أقلية ضئيلة في إسرائيل اليوم.*

- نعم ولكن في الماضي، وإن كانوا أقلية، فلقد كانوا يمثلون مع سائر اليسار المتطرف حوالي ٣٠٪ من عدد الناخبين. واليوم، يعد أولئك الذين يدافعون عن فكرة، ارتز يسرائيل » هم الأقلية. أعتقد أن هناك تغيرا كبيرا في عقلية الإسرائيليين. ففي العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، كانت الحركة الصهيونية مرادفة لاحتياز الأرض. أما اليوم، ففيما عدا الأصوليين والمنتمين إلى اليمين المتطرف، لم يعد أحد من شباب إسرائيل يريد أن يذهب إلى الضفة الغربية لفلاحة الأرض. حتى بالنسبة للمستوطنات، فاليوم هناك حوالي ٥٠٠ ألف مستوطن في الضفة، و٢٥٠ ألفا في القدس وحدها، معظمهم يعملون في إسرائيل ولكنهم يسكنون في مستوطناتهم، لأن السكن هناك أقل كلفة منه في إسرائيل بنسبة ٣٥٪. وهو وضع دبرت له الحكومة الإسرائيلية، بتعمد رفع أسعار السكن لحمل مواطنيها على الذهاب إلى المستوطنات، لأنها كانت تعلم أن النداء الأيديولوجي غير كاف وأنه سيخفت مع الوقت. فكثير من الناس مؤيدون لفكرة

بسبب «تابو» المحرقة، الذى صار من المحرمات الراسخة والغائرة فى الضمير الغربى، لن يتمكن الأوروبيون أبدا من التعامل مع إسرائيل وكأنها دولة عادية مثل سائر الدول

تسليم المستوطنات، فيما عدا المستوطنين الذين يؤمنون بالقومية اليهودية. هؤلاء يذهبون حقا من أجل الأرض. والصهيونية -كما قلت- حركة قومية، وهى- شأن كل الحركات القومية- محملة بقدر من العنصرية، فالقومية بمقتضى التعريف: «نحن ضد الآخرين». كل الحركات القومية فى أوروبا حملت تلك الفكرة: الصرب ضد الكروات، المجريون ضد السلوفاكيين. والصهيونية كذلك، لهذا نجد فى ظروف المواجهة العصيبة هذه، من يستبطنون أيديولوجية الرفض الكامل للآخر، وبدلا من أن تتراءى العنصرية القومية فى صورتها المخففة ، التى عبرت عنها شعارات مثل «نريد وطنا لليهود»، راحت تظهر فى صورتها القصوى برفع شعار «كراهية العرب وكراهية الفلسطينيين».

● *فى كتاب صدر مؤخرا لفرانك بارا، وضم حوارا مزدوجا مع كل من نعوم تشومسكى وايلان بابيه، تحت عنوان «مجال الممكن» (Le champ du possible)، عندما سئل المفكران عن وجود تشابه بين الصهيونية ونظام التمييز العنصرى (apartheid)، أشار كل منهما إلى وجود أوجه للتشابه وأخرى للاختلاف. لكن فى الوقت الذى ذهب فيه بابيه إلى أن بعض جوانب الاحتلال الفلسطينى تعد أسوأ بمراحل من واقع التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا، رأى تشومسكى أن بعض جوانب الأبرتايد فى جنوب أفريقيا تعد أشد ظلما مما يقع فى إسرائيل، مع الاعتراف بوحشية الممارسات الإسرائيلية.*

والسؤال: أى من الرجلين تشاطره الرأى؟ ولماذا؟

- أميل إلى مشاطرة رأى تشومسكى. ولكن، أرى أنه لا حاجة أبدا لعقد مثل تلك المقارنات لكى نقول إلى أى مدى صار الوضع فى غزة غير مقبول.الحالة فى غزة تصنف كجريمة حرب وجريمة ضد الإنسانية، وينبغى لذلك إدانتها والعمل من أجل الحيلولة دون استمرارها.

● *نعم، بالطبع ، لكن المقارنة هنا لا تهدف إلى استدرار الإدانة بقدر ما هى تسعى لمزيد من التحليل والاستيضاح ، لا سيما أن مصطلح «أبارتا يد» قد تردد فى الأونة الأخيرة بكثرة فى هذا السياق ، حتى أن رئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة، ميجيل بروكمان، قد دعا مؤخرا لاستخدامه بغير حرج لوصف الممارسات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين.المصطلح مستخدم فى الصحافة اليومية. حتى من قبل أن يستخدمه الرئيس جيمى كارتر عنوانا لكتابه الشهير. إذن... لماذا تنحاز لرأى تشومسكى بدلا من بابيه؟*

- لنأخذ حالة عرب إسرائيل، أى الفلسطينيين من ذوى الجنسية الإسرائيلية. هم مواطنون من الدرجة الثانية، لكنهم فى الوقت نفسه لديهم حق التصويت. السود فى جنوب أفريقيا لم يكن لديهم أبداً حق التصويت. إذن، نظريا، الفلسطينيون داخل إسرائيل يمثلون نوعا من القوة السياسية؛ ورسميا، لديهم نفس الحقوق التى يتمتع بها اليهود. ولكن، أنا لا أقول أبدا أن، على أرض الواقع، هناك «مساواة» حقيقية بين العرب واليهود، وإنما هناك «حديث عن المساواة»، لم يكن يوما موجودا فى جنوب أفريقيا، حيث كان الظلم قانونا، وعدم المساواة شريعة. الفلسطينيون لديهم- نسبيا- حقوق أكثر من تلك التى كانت للسود.

المظهر الديمقراطى النسبى لإسرائيل، بالطبع مقارنة بجنوب أفريقيا، مهم أيضا. ففى جنوب أفريقيا، كانت حركات المقاومة التى تضم مواطنين بيضا غير موجودة، أو سرية، أو مقموعة. وبإمكان عرب إسرائيل اليوم أن يكون لهم أحزابهم ونوابهم بالبرلمان، وفى وقت من الأوقات، لعبوا دورا مهما، حيث ساعدوا على تكوين غالبية لمساندة حكومة رابين فى مفاوضات أوسلو، وللتأكيد على أن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى للفلسطينيين... إلخ.

هناك مظهر آخر للاختلاف: جنوب أفريقيا كانت تحيا على تشغيل السود، كان ٤ ملايين من البيض يعيشون على تشغيل ٢٠ مليونا من السود. لو تعطل هؤلاء لانهار المجتمع بأسره، أما إسرائيل فهى تستطيع العيش بدون عمل الفلسطينيين. وهو ما يصنع قوتها .فبعد اتفاقيات أوسلو، أغلقت إسرائيل على نفسها، واستغنت عن العمالة الفلسطينية، فإن احتاجت عمالة أجنبية، استقدمتها من آسيا، كما يفعل الأوروبيون..

● *رغم ذلك فهناك أوجه للشبه بين الوضع فى فلسطين ونظام الأبارتايد أراها خاصة فى الأراضى المحتلة، حيث يتم إقرار نظامين مختلفين للكيل بمكيالين.ما الذى تعنيه كلمة «أبارتايد» فى الضفة الغربية.*

- بالنسبة لى تعنى وجود ٥٠٠ ألف مستوطن لا يخضعون لنفس القوانين التى يخضع لها الفلسطينيون. والمثال الصارخ على ذلك هو تلك الطرق المخصصة للإسرائيليين فقط. فهناك طرق لليهود وحدهم، وأخرى للفلسطينيين. هنا حقا نظام تمييز عنصرى.. ناهيك عن نقاط التفتيش التى أراها بمثابة ظل من ظلال القهر الاستعمارى الذى يقع تحته الفلسطينيون.

ثم يأتى جدار العزل بعد ذلك كله ليلعب دورا مزدوجا: إذ له بالطبع دور نفسى، وان كان يهدف بالأساس إلى إعادة رسم حدود إسرائيل، ومصادرة المزيد من الأراضى.

● *فى كتاب «جدار فى فلسطين» للصحفى الفرنسى رينيه باكمان، صرح العقيد شاؤول أريبلى، الذى كان مسئولا عن إدارة السلام فى وزارة ايهود باراك ، إبان مفاوضات كامب ديفيد، قائلا: «إن جدار الاسمنت والحديد الذى بنيناه ليفصلنا عن الفلسطينيين هو نتاج الجدار الذهنى الذى حبس فيه الإسرائيليون أنفسهم، لاسيما بعد فشل كامب ديفيد». إلى أى مدى يبدو لك المجتمع الإسرائيلى حبيسا خلف جدار ذهنى؟*

. إلى مدى بعيد جدا .فبعد فشل كامب ديفيد، وبعد اندلاع الانتفاضة الثانية، قامت الأغلبية الساحقة من المجتمع الإسرائيلى بإلقاء المسئولية كاملة على عرفات. وأرى أن مسئولية عرفات تقتصر على إخفاقه على المستوى الإعلامى، ولا تمتد إلى ما حدث فعلا أثناء المفاوضات، لأنه عجز عن شرح ما حدث للرأى العام الإسرائيلى والغربى. ولقد أدى ذلك إلى أمرين: الأول هو احتباس المجتمع الإسرائيلى خلف جدار ذهنى، والثانى، هو نمو نوع من الاستخفاف الصلف إزاء ما يحدث من انتهاكات فى الأراضى المحتلة. إذ صار الإسرائيليون يقولون اليوم: «نعم، نحن على علم بما يحدث فى «الأراضى»، ولكن سبق أن عرضنا عليهم السلام، وهم الذين رفضوا، ليدفعوا إذن الثمن...»

● *هناك جانب آخر، يراه البعض، لما يظهره المجتمع الإسرائيلى من احتباس ذهنى ونفسى، من حيث ارتهان هذا المجتمع لماضيه، وإصراره- رغم تحوله إلى مجتمع عسكرتارى- على أن يرى نفسه فى صورة الضحية المستهدفة فى الماضى والحاضر والمستقبل. فما رأيك؟*

- نعم، هذا صحيح تماما. ولكن، النزاع عمره الآن ٦٠ عاما. ولو حسبنا من ٦٧، فعمره ٤٠ عاما. وأحيانا ما أتساءل فى نفسى عما كان سيؤول إليه المجتمع الفرنسى لو كانت الحرب مع الجزائر مازالت مستمرة. ففى فرنسا، كانت أعوام حرب الجزائر أعوام كبت للحريات الديمقراطية-وأنا أتحدث عن فرنسا وليس عما كان يتعرض له الجزائريون من فظائع- وكانت أعوام جمود راديكالى لدى الرأى العام، وتنامى المشاعر العدائية ضد العرب...الخ.

أربعون عاما من الحرب، من الطبيعى جدا أن تخلق مثل هذا السلوك، وهذا الانغلاق على الذات، وهذا القدر من التطرف، ومن التمييز ضد العرب...

● *برأيك، هل استفادت المقاومة الفلسطينية على مر تاريخها من الدروس التى قدمها تاريخ مناهضة التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا؟*

كلا . عندما تكونت «فتح» فى ٦٥، كانت الفكرة المسيطرة هى تحرير كل فلسطين.المعتدلون بينهم كانوا يرون ان اليهود سيرحلون عبر البحر عودة إلى بلادهم، أما المتشددون فكانوا يريدون إلقاء اليهود فى البحر. وبعد هزيمة ٦٧، عندما بدأت انطلاقة المقاومة الفلسطينية، وراحت تتصل باليسار فى أوروبا، وبالبلدان الاشتراكية التى ترفض نوع الخطاب الذى يرغب فى «إلقاء اليهود فى البحر»، حدث تطور فى موقف «فتح» التى أصدرت نصها الشهير«الثورة الفلسطينية واليهود»، والتى تصرح فيه عن رغبتها فى قيام دولة ديمقراطية واحدة يتعايش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود... ولكن، على ان أقول أن ذلك كان محض شعار لم يجد من يترجمه على أرض



الواقع. إذ لم تقم أبدا أية بادرة لأن يفعل الفلسطينيون كما فعل حزب المؤتمر الوطنى الإفريقى (ANC) فى جنوب أفريقيا: «البيض موجودون هنا معنا على نفس الأرض، وهم سيبقون، بل نحن نريدهم أن يبقوا، لأننا رأينا أمثلة انجولا وموزامبيق، وأيضا الجزائر، حينما رحلت عنهم الأقليات البيضاء، وارتهنت بلدانهم إلى الكوارث، وعليه يجب أن ندمج البيض فى نضالنا المناهض للتمييز العنصرى». الفلسطينيون لم يحاولوا أبدا إشراك الإسرائيليين فى كفاحهم من أجل التحرر.فى حالتى الجزائر وفيتنام مثلا كان هناك إشراك للرأى العام الفرنسى والأمريكى على التوالى من أجل الضغط على الحكومات لسحب قواتها.لكن ذلك لم يحدث فى الحالة الفلسطينية. لا سيما أنه، بدءا من العام ١٩٧٢-١٩٧٣، كان هناك سعى لتحقيق فكرة دولة فلسطينية منفصلة فى الضفة وغزة، وإن لم يكن ذلك معلنا ، ولكن عرفات، بدءا من ذلك العام كان قد اتخذ هذا القرار الاستراتيجى ، وفى هذا السياق، لم يهتم بالوصول إلى المجتمع الإسرائيلى.ولو كان علىّ أن أوجه انتقادا لمنظمة التحرير الفلسطينية بهذا الصدد، فهو إغفالها مخاطبة الرأى العام الإسرائيلى.

● *تنتقد خيار الدولتين المنفصلتين، ولكن أو ليس خيار الدولة الواحدة الثنائية القومية يعد ضربا من ضروب الخيال؟*

. هو بالفعل أمر خيالى لاسيما أنه ليس هناك أى نضال مشترك . وإلى اليوم، نرى فى حالة جنوب أفريقيا إلى أى مدى تعد فكرة الدولة الواحدة صعبة التنفيذ. فتواجد البيض مع السود فى دولة واحدة ما زال إشكاليا، بسبب مشكلات العمل، وغياب العدالة الاجتماعية، لكون البيض قد راكموا الامتيازات، ولكون هناك حاجة لإعادة توزيع الثروات على أساس غير عنصرى. باختصار الوضع فى جنوب أفريقيا صعب حقا، ولكنه يبدو هينا للغاية لو تمت مقارنته بالنزاع الإسرائيلى الفلسطينى.

● *برأيك، هل حصلت القضية الفلسطينية يوما على نيلسون مانديلا (إذا أذنت لى اللغة العربية بهذا الإسناد)؟*

. لست أدرى... ولكن عرفات، كان يمكن أن يلعب هذا الدور بصورة عامة، رغم كل الانتقادات التى يمكن أن توجه له، وهى انتقادات جد كثيرة، منها ما قام به من تفريغ لمنظمة التحرير الفلسطينية من روحها، وتفريغ للحياة الديمقراطية من جوهرها، وعجزه لدى عودته إلى فلسطين عن تأسيس هيكل حقيقى للدولة، إلخ...ومع ذلك فأنا لا أرى فى المشهد السياسى الفلسطينى من كان يملك أن يلعب هذا الدور.من الممكن التفكير فى شخصية مرموقة مثل الدكتور حيدر عبد الشافى؛ لكن عرفات كان يمتاز بأنه رجل سياسة وصاحب شعبية كبيرة لدى الفلسطينيين. كان هناك من هم «أفضل» منه ولكنهم لم يكونوا يتمتعون بما كان له من سطوة سياسية فى الشارع الفلسطينى. ومع ذلك أرى أنه قد اقترف أخطاء فادحة، وبخاصة أثناء مفاوضات أوسلو، التى كانت محض هراء: فلم يكن هناك مستشار قانونى واحد من جانب الفلسطينيين، الذين جاءوا وهم يظنون أنهم يوقعون الاتفاقية مع إسرائيل مثلما كانوا يوقعون الاتفاقات فى لبنان فى ٦٩، بمعنى التوقيع على اتفاقات ظنوا أن أحداً لن يحترمها. لكن عرفات قد فوجئ بأن إسرائيل قد أعدت له جهازا سياسيا وقانونيا بالغ الإحكام، فأدرك أنه محاصر. ولكن ينبغى القول بأن عرفات لم يكن وحده المسئول عما حدث فى أوسلو...

● *وما رأيك فى إدارة الرئيس عرفات للسلطة؟*

. لقد كانت أشبه بالكارثة، ولكن تلك الكارثة ما كانت لتقع لولا ما كان من تعمد لغض الطرف عنها.فالأوروبيون، الذين كانوا قد قدموا مساعدات مالية ضخمة للسلطة، لم يتخذوا أى إجراء لضمان الشفافية، لأن الشىء الوحيد الذى كان يهمهم هو أن تكون هناك قوة شرطة جبارة، للسيطرة على من يسمونهم بال«متطرفين». وبالمناسبة، إن ما صنع قوة «حماس» المتنامية لم يكن قوة الشرطة أو ضعفها، بل كان تأخر المفاوضات وتردى الحالة الاقتصادية للفلسطينيين... إلخ

فى المقابل كان الشيخ أحمد ياسين سياسيا من طراز رفيع. ويمكن القول بأن سياسة الاغتيالات التى تنتهجها إسرائيل ضد قادة «فتح» و«حماس» معا هى التى أفرزت الوضع الذى آلت إليه الأمور اليوم. ففى كل التنظيمات السياسية، عندما يُقتل كوادر الصف الأول، يخلفهم كوادر الصف الثانى، الذين يكونون «درجة ثانية» فى كل شىء، فيكونون أضعف موهبة وأقل حنكة.

ربما لم يكن الشيخ ياسين «نيلسون مانديلا» القضية الفلسطينية. ولا أعتقد أن ذلك كان ممكنا، ولكن كان بوسعه أن يلعب دورا ايجابيا للغاية فى التوصل إلى حل سلمى شامل لأنه ببساطة كان يملك تلك الشعبية اللازمة بين الفلسطينيين. عندما تم اغتياله، لفت انتباهى التصريح الذى أدلى به الدكتور رياض سراج، الذى، وإن لم يكن منتميا فكريا أو سياسيا إلى حماس، قد رثى الفقيد بكلمات مفعمة بالتكريم، وأعتقد أنه كان محقا فى كل ما قاله عن الشيخ ياسين. وهنا تجدر الإشارة إلى ملمح هام تتميز به «حماس» بوجه عام: ألا وهو نزاهة كوادرها وبعدهم عن الفساد. إذ يجدر بى أن أقول إن إحدى أكبر المشكلات التى تعانى منها السلطة الفلسطينية هى مستوى الفساد الذى يغرق فيه الجميع. وأعتقد إذا كانت الناس قد صوتت لصالح حماس فى يناير ٢٠٠٦، فذلك راجع لسببين: أولهما فشل فتح فى مفاوضات السلام، وثانيهما هو فساد السلطة. وللأسف هذا هو الحال فى العالم العربى بصورة عامة. وهى مشكلة كبرى.

● *ما هى قراءتك لما آلت إليه الأمور بين فتح وحماس؟*

. للإجابة على هذا السؤال، ينبغى الرجوع إلى الوراء كثيرا.منذ البداية، مثلت نشأة «حماس» مشكلة بالنسبة لـ«فتح» لأن خطاب منظمة التحرير الفلسطينية كان قائما على فكرة أنها «الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى». ولكن، حتى وإن كانت هناك بنيتان متوازيتان، كان الملحوظ، أثناء الانتفاضة الأولى، أن «حماس» قوة ميدانية هامة آخذة فى التنامى. وبعد اتفاقات أوسلو، التى رفضتها «حماس»،كانت هناك فترات شديدة التوتر، وبخاصة فى ٩٦ وقت تزايد الاعتداءات من جانب«حماس»، والتى استتبعت فوز نتانياهو فى الانتخابات. فى تلك الفترة طبق عرفات سياسة قمع ضد «حماس». ولكن لم تحدث قطيعة كاملة بين الطرفين، لكون الطرفين كانا على وعى تام، فى ذلك الزمان، بأن القطيعة الكاملة تعنى نهاية القضية الفلسطينية. ثم جاءت مرحلة ما بعد عرفات، وجاءت معها ضغوط غربية لإجراء الانتخابات. وهنا حدث أمر بالغ الأهمية، وهو أن «حماس» وافقت على المشاركة فى الانتخابات، وهو ما كان بمثابة تغير ثورى، لأن فى ذلك اعترافا ضمنيا من جانب حماس باتفاقيات أوسلو-و هو ما لم تتوقف عنده الصحافة الغربية كثيرا للأسف.لكن، كانت تلك خطوة ايجابية، وقد خاضت «حماس» حملة سياسية شديدة الانفتاح، بمعنى أنها كانت حملة مخالفة بالمرة لما جاء فى ميثاق الحركة من أفكار. وأعتقد أن لحظة فوز «حماس» فى الانتخابات كانت لحظة تاريخية ضيعها ما تعارف على تسميته بـ«المجتمع الدولى»، إذ كان من الممكن الاستفادة منها لتأييد إقامة حكومة وحدة وطنية وإبرام اتفاق مع إسرائيل. وإن ظل أى اتفاق سلام مع إسرائيل عصيا على التنفيذ، لوجود كم هائل من المشكلات المعلقة. وبعد فوز حماس، أبدت أوروبا والولايات المتحدة موقفا متعنتا بأن رفضت الاعتراف بنتائج الانتخابات.

......

المشكلة بين «حماس» و«فتح» - فى رأيى- مبعثها أمران اثنان. الأول هو أن هناك فئة داخل «فتح» لا تريد التخلى عن الحكم، ولا عما يدره هذا الحكم من مال وسلطة وفساد. وهى فئة موغلة فى تطرفها. وأذكر عندما ذهبت إلى رام الله بعد الانتخابات، لمست بنفسى ما فى النفوس من كراهية قد تصل إلى حد الاستعلاء الطبقى ضد أولئك «الصعاليك» الفقراء الذين جرؤوا على مزاحمة سادة البرجوازية الفلسطينية الوجهاء.

أما الأمر الثانى، هو أن «حماس» كما تتراءى لى حركة بها اتجاهات عدة، شأن أى حركة سياسية، ولكنها بها صفة تجمع بين جميع رجالها، ألا وهى انتماء كافة كوادرها إلى غزة، وهم جميعا لم يخرجوا أبدا من غزة، وأرى أن فهمهم لأبعاد السياسة الدولية به شىء من القصور. وهذا أمر طبيعى، وهو لا يرجع أبدا لنقص

اتفاقيات أوسلو قد زادت من ترسيخ قراءة الغرب الخاطئة للنزاع الفلسطيني الإسرائيلي، لأنها أعطت انطباعا بأن هناك شعبين على قدم المساواة، وبأن المفاوضات قد بدأت، وأن الاحتلال قد انتهى

فى قدراتهم الذهنية، بالعكس. ولكن حينما ينغلق الإنسان فى دائرته الضيقة ولا تكون له اتصالات، فهو يصبح بالضرورة محدود الفكر. وعندما يحجم الغرب عن التعامل مع «حماس»، فهو يعزز من بين رجالها الأقصر نظرا، الذين يرغبون فى تأجيج الموقف.

إذن، فما حدث فى غزة هو نوع من التصعيد بين موقف شديد التطرف عبر عنه دحلان على وجه الخصوص، الذى كان مستفزا للغاية، والذى كان يريد كسر شوكة «حماس»، وبين موقف مجموعة من «حماس» قد قالوا: «يكفى هذا، علينا أن نصفى حساباتنا معهم...». وهم بالفعل قد نجحوا تماما فى تصفية حساباتهم معهم. فلو نظرنا من الناحية العسكرية، كان هناك حوالى ٣٠ ألف شخص مع دحلان، وخمسة آلاف رجل من حماس. وهو مؤشر جيد لفهم ما وصلت إليه كلتا المنظمتين: إذ صارت «فتح» جهازا فارغا، بينما «حماس» جهاز سياسى حقيقى يحركه رجال متفانون فى خدمته. والأمر الجيد حقا فيما فعلته حماس، هو أنهم أعادوا الأمن إلى نصابه بعد ذلك. ولكن، يجدر القول بأن «حماس» تمارس السلطة السياسية بصورة لا تختلف كثيرا عما تقوم به «فتح»: من ناحية عمليات الاحتجاز التعسفية، والتعذيب، وغير ذلك.

● *سؤال اعتراضى: هل ثمة صفات مشتركة بين «حماس» و«حزب الله» فيما يتعلق بنوعية الرجال؟*

- أعتقد أنهم فى «حزب الله» أنبه وأكثر انضباطا. وهذا راجع بالأساس إلى حالة المجتمع الفلسطينى، فهم انعكاس لتفكك هذا المجتمع، بعد أربعين عاما من الاحتلال، والاحتجاز، والسجن، وإضعاف البنى، الخ. ولكن، هناك صفة مشتركة بين الحركتين: هى النزاهة، ويجب القول بأن تلك ظاهرة عامة فى الحركات الإسلامية فى العالم العربى، لأن تلك الحركات هى أساسا حركات معارضة وطنية، يتميز رجالها بعدم الفساد. وهذا لا يسرى على إيران، حيث رجال الحكم غارقون فى الفساد. وهذا يعنى أن الإسلاميين كلهم أو الشيعة كلهم ليسوا بمنأى عن الفساد بمقتضى التعريف. ففى حالتى حماس وحزب الله، نحن بصدد حركات وطنية أكثر منها إسلامية. فما هو خطاب «حماس» اليوم؟ إنه نفس خطاب منظمة التحرير بالأمس.

عندما أتحدث إلى جمهور غربى، أستخدم لغة كاريكاتورية وأقول: «إن ما يصنع قوة حماس ليست رغبة الفلسطينيين فى أن يعيشوا فى مجتمع مثل مجتمع طالبان. فلقد صوت الشعب الفلسطينى لحماس لأسباب تتعلق بمكافحة الفساد والقدرة على إدارة المقاومة الوطنية. وأعطى مثالا على ذلك أنه، أثناء الانتخابات البلدية التى أجريت قبيل الانتخابات العامة، حققت «حماس» نجاحا كبيرا، ومن بين المناطق التى فازت فيها مدينة قلقيلية. ولكن أول قرار اتخذه العمدة الحمساوى الجديد كان منع حفل موسيقى كبير. وبعد ثلاثة أشهر، عندما أجريت الانتخابات العامة، لم ينجح أى من مرشحى «حماس» فى تلك المنطقة. وهو ما يدل على ان الناس لم تختر حماس رغبة فى أسلمة مظاهر الحياة بل لأنهم يرون فيهم أناسا فاعلين بوسعهم تحسين أوجه المعيشة للشعب الفلسطينى.

● *برأيك، هل يتم خنق غزة الآن بأيدى الإسرائيليين وحدهم (أجرى الحوار قبل الحرب الأخيرة على غزة)؟*

- بخلاف أيدى الإسرائيليين، هناك أيضا أيدى «فتح»، لأنها لا تفعل شيئا، بل من الواضح أن أعضاءها يتعاونون صراحة مع إسرائيل، بل يشاع أيضا -ولست أكيدا من هذا- أنهم يضغطون على إسرائيل لكى تبقى المعابر مغلقة. مسئولو «فتح» عليهم تبعة عظيمة فى هذا الجرم، وإلا كيف يفسرون قبولهم المفاوضات بينما هناك مليون ونصف المليون من شعب فلسطين واقع تحت هذا الحصار؟ هذا غير مقبول.

وبالنسبة للأنظمة العربية، نفس الكلام. حتى أولئك الذين يدينون بقوة هذا الحصار، نجدهم لا يفعلون شيئا من أجل إزالته. فما من موقف عربى موحد. أنا لا أفهم لماذا لم تتخذ الدول العربية قرارا مشتركا بفتح معبر رفح، فهذا قرار سياسى وليس عسكرى. لماذا لا تفتح مصر معبر رفح؟

ثم هناك أيضا أيدى أوروبا التى لم تكتف بسلبيتها المعهودة، بل قررت تعزيز شراكتها مع إسرائيل. وهناك طبعا الولايات المتحدة الأمريكية التى تؤيد الحكومة الإسرائيلية بغير قيد أو شرط. إذن فهناك تواطؤ عام من كافة أطراف المجتمع الدولى فى هذه الجريمة الكبرى. فهناك شعب يتم خنقه فى اللحظة الراهنة، ليس بمعنى انه سيكون هناك الكثير من القتلى، وإنما نحن بصدد جرم يتم فيه تجريد شعب من مستقبله. فأى مستقبل ينتظر الأجيال الصاعدة الآن فى غزة؟ حتى لو حل السلام غدا، فماذا عساه أن يفعل هذا الجيل الذى حرم من كل شىء؟

● *السؤال هو: هل سيكون هناك سلام مقبل بعد أن تتم تصفية المقاومة؟*

- حقا، ولكن إذا نظرت جيدا إلى ما يحدث فى غزة، فستدركين، على الرغم من تباين موازين القوى، أن «حماس» تتدبر أمرها جيدا حتى الآن. وأننا مازلنا بعيدين عن فكرة تصفية المقاومة.

فى كتابه «نهاية عملية السلام»، كتب ادوارد سعيد أن عملية السلام تلك هى «إهانة حقيقية للروح الفلسطينية». فى ظل حصار غزة، برأيك، لماذا تصر السلطة الفلسطينية على مواصلة تقبل هذه «الاهانة»؟

ادوارد سعيد أدان خيار الدخول فى مفاوضات ٩٢-٩٣، وكان ضد اتفاقيات أوسلو منذ البداية. لكننى اختلف معه فى جزئية بسيطة، بمعنى أننى أرى أن الأمر كان يستحق المحاولة رغم كل شىء. ذلك أن إخفاق المفاوضات، وإتمامها فى ظروف سيئة، لا يعنى انه لم يكن يجدر بنا المحاولة. ولكن المؤكد انه فى لحظة ما، لاسيما بعد الانتفاضة الثانية، بدا للجميع أن تلك العملية لم يعد لها أى وجود على أرض الواقع.

● *فلماذا إذن تصر السلطة الفلسطينية على البقاء على طاولة المفاوضات؟*

- الإجابة قدمها الكاتب الكبير «رجى دبريه» فى مقال نشرناه فى «لوموند ديبلوماتيك»، قال فيه إن من مصلحة الجميع أن يكون هناك إيحاء بأن المفاوضات مازالت مستمرة: من مصلحة السلطة الفلسطينية، لأنها بذلك تستمر فى الحصول على أجرها؛ ومن مصلحة الإسرائيليين، لكسب المزيد من الوقت، ومن مصلحة المجتمع الدولى أيضا، لكى يستطيع أن يقول: مهلا، ثمة مفاوضات دائرة، لا تتعجلوا، المشكلة اليوم مع أبى مازن، وغدا مع أولمرت، وهكذا دواليك...». وأخيرا من مصلحة الأنظمة العربية، التى لا تريد تحريك ساكنا. إذن، ثمة تواطؤ عام لكى يستمر الوضع على ما هو عليه.

● *فيما يتعلق بحصار غزة، هل ما نراه هو ببساطة تصفية للقضية الفلسطينية؟*

- لا أعتقد أن الإسرائيليين قد انتصروا حقا على المقاومة الفلسطينية بمفهومها الواسع. وأنا دائما ما أسوق مثال بلدة سدروت تأكيداً لرأيى. فطوال قرابة عامين ونصف، وبرغم قدراتها العسكرية المحدودة، راحت «حماس» تمطر تلك البلدة بصواريخها، وإسرائيل عاجزة عن الرد. ولقد صرح المعلق العسكرى الإسرائيلى الشهير، زيف شيف، على ذلك بأن قال صراحة بأن تلك هزيمة إستراتيجية لإسرائيل، ونصر لحماس بالمقابل. وأنا أشاطره الرأى تماما. فإلى اليوم، لم تجد إسرائيل حلاً ناجعا. يعنى حماس ليست هى من تطلب استمرار الهدنة، بل هى إسرائيل التى تريد استمرار وقف إطلاق النار. وبالطبع، من وقت لآخر يخرج علينا باراك بتصريحات من قبيل: «سنعاود احتلال غزة». ولكننى أتساءل: حتى وان كانوا قادرين عسكريا على ذلك، أنى لهم معاودة احتلال غزة؟ ان ذلك يعنى بالضرورة حشد عشرات الآلاف من الرجال مرة أخرى، والدخول إلى أتون لا ينطفئ... مشكلة الفلسطينيين الحقيقية اليوم هى انقسامهم. وحتى لو غابت «حماس» عن الصورة لا يستطيع أبو مازن التصرف وفقا لهواه، فانا لا أعتقد ان بمقدوره التوقيع على اتفاق استسلام، لأن ذلك يعنى أنه لن يبقى أسبوعا واحدا بعده. بالطبع، تسديد الضربات إلى حماس فيه تعزيز لقوة أبى مازن وإنهاك لقوى المقاومة... ولكن، حتى الآن، بعد عامين ونصف من الانتخابات، وعام ونصف من انفراد حماس بالسلطة فى غزة، لم تجد إسرائيل بعد الطريقة السحرية لتصفية المقاومة الفلسطينية. ■

....

فى العدد القادم: الجزء الثانى من حوار «وجهات نظر» مع ألان جريش: حول مصر والإخوان ومبارك

مسألة التيار الأساسي هي امتداد لحركة المشروع الوطني العام، تمت بلورته عن طريق الاستخلاص من الواقع الحي للحركة السياسية والثقافية القائمة في المجتمع

تعالوا إلى كلمة سواء

طارق البشري

في البحث عن المشترك

يستند التيار الأساسي لبلد ما إلى أكبر قاسم مشترك بين التيارات السياسية والاجتماعية والثقافية في هذا البلد، ويعني الملامح العامة المتضمنة في أطروحات تيارات عديدة ومتنوعة. وهذه الملامح تختزل ما تتفق عليه هذه التيارات في سياق تعاطيها مع متطلبات المرحلة التاريخية.

تمثل فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى من تاريخ مصر حالة قياسية تجلي صورة مفهوم التيار الأساسي. رغم كثرة التحديات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في هذه المرحلة الحساسة، كان مطلب جلاء المستعمر يمثل أولوية ملحة وشرطا ضروريا للشروع في عملية نهوض حقيقية. ويكاد هذا المطلب أن يكون مشتركا بين كل القوى السياسية والاجتماعية المصرية. إن التيارات السياسية والفكرية، وإن اختلفت غاياتها وتنوعت، تلتقي عند غاية النهوض باعتبارها المدخل الرئيس لمستقبل أفضل لمصر. لقد شمل هذا الفهم مكونات الحركة الوطنية سواء كانت شخصيات تاريخية فاعلة، أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد والشيخ عبد العزيز جاويش، أم أحزابا ناشطة في الحقل السياسي آنذاك.

نعم، كان هناك اتجاه آخر يقول: إن ضعفنا هو الذي أغرى المستعمر بنا وزين له القدوم إلى بلادنا واحتلالها ومصادرة قرارها وخيراتها، ومن هنا يكون الأجدر بنا تدارك نقاط الضعف وتقوية الجبهة الداخلية أولا، ثم صنع شروط القوة لأنفسنا قبل المطالبة بجلاء المستعمر.

من الممكن أن نقر بوجود رؤيتين: فأما الأولى فمن الممكن أن نصفها بالثورية نظرا لتركيزها على مطلب التخلص من الاستعمار، وأما الثانية فمن الممكن أن ننعتها بالإصلاحية لكونها تجعل من مراجعة الذات واستصلاح أحوالها على رأس غاياتها. ونظرا للهوة التي تفصل بين هاتين الرؤيتين، فقد نشب صراع بين التيارين ليستمر الصراع بينهما إلى ما يزيد على عقد من الزمن. ومع ذلك، فقد قدر للهدفين أن يلتقيا سنة ١٩١٩، فيتصالح المطلب التحرري مع المطلب الإصلاحي ليكونا الإطار العريض المستوعب لمكونات الحركة الوطنية في كنف الاحترام لكلتا الرؤيتين اللتين أصبحتا وجهين لعملة واحدة هي الحركة الوطنية.

لقد كان جديرا بكل طرف أن يعترف بالقيمة الموضوعية للطرف الآخر، حيث إن كليهما عبر بطريقته ومن الزاوية التي اعتقد فيها الصلاح عن الوضع في البلاد، وعن المطالب الوطنية التي كانت ترمي إلى تحريك عجلة النهضة وتوجيهها نحو الأهداف المنشودة. فالمساحة المشتركة التي نضجت من خلال التدافع والتلاقي بين النظرتين هي ما يمكن أن نطلق عليه تسمية التيار الأساسي، لأن المصريين، على اختلاف مشاربهم، كانوا معنيين فعلا بمطلبي التحرر والإصلاح، نظرا إلى أن العلاقة بين هذين القطبين هي علاقة تلازم، يقتضي الواحد منهما وجود الآخر.

بلورت تلك المرحلة التاريخية، بما شهدته من جدل ثري وساخن بين الاتجاهين أحيانا، تجربة اتسعت لتعبيرات مختلفة وجدت نقطة الالتقاء فيما بينها، حيث جسم التقاؤها ذاك تنظيما حشد الجهود منذ عام ١٩١٩ وحتى ١٩٥٠ خدمة للهدف الوطني المشترك الكبير.



في هذا السياق، يمكننا أن نعطي مثالا ثانيا متعلقا بفترة الخمسينيات، أي أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات. حيث كان المعترك السياسي خلال تلك الأيام يجمع في ساحته أحزابا من قبيل الوفد التقليدي المتمسك بالمفاوضات كسبيل أفضل من وجهة نظره لإخراج المستعمر مع الاحتفاظ بما يعتبره مكاسب ديمقراطية لمصر. كما كان يجمع في الوقت نفسه أيضا الإخوان المسلمين، الذين كانوا يطرحون الإسلام كمرجعية للحركة الوطنية. وفضلا عن الوفد والإخوان، كان هناك الحزب الوطني الذي كان يرفع مطالب أكثر تحديدا وتشددا، تتعلق بالمطلب الوطني المتمثل في إجلاء المستعمر والتخلص من نفوذه. كما كانت هناك أيضا الحركة الاشتراكية التي تطالب بقدر أكبر من العدالة الاجتماعية.

إن التأمل في مختلف المكونات السياسية يدفعنا إلى القول بأن التيار الأساسي لم يتشكل في تلك الآونة، الشيء الذي فوت عليها فرصة ذهبية للجمع بين محاور الوطنية والاستقلال والديمقراطية والمرجعية الإسلامية والعدالة الاجتماعية في نضالها السياسي. لقد مثلت تلك المطالب العناوين الكبرى التي كان الشعب المصري يتطلع إلى تحقيقها على أرض الواقع بغية تحقيق إطار أساسي ينظم العلاقة بين هذه المكونات المختلفة ويتسع لمختلف التعبيرات دون التنكر للأولويات الوطنية التي تقتضيها المرحلة التاريخية.

شهد عام ١٩٥١ بوادر تشكيل ذلك التيار الأساسي حيث كانت القوى المضادة تدرك الدلالة القوية لانبعاث مثل هذا التيار كما تعي جيدا حجم التداعيات التي كان من الممكن أن تنجم عن تجسده في الواقع.... بقدر ما عبرت ثورة الثالث والعشرين من يوليو عن فكرة هذا التيار وجسدتها تجسيدا منحها الزخم والطاقة اللازمين للانطلاق والاستمرار - بالرغم من العوائق الذاتية والموضوعية الكبيرة التي اعترضت مسيرتها الصعبة - كذلك دفعت الثورة باتجاه التقوقع داخل منطق الدولة والاستسلام لإكراهاتها، حتى ابتعدت من أهدافها الأولى وتنكرت لشعاراتها الواعدة.

من المؤكد أن فكرة التيار الأساسي أكبر من أن يجليها سرد لبعض الأمثلة، ولكننا بهذا السرد إنما أردنا الاستدلال على تحققها الموضوعي في لحظات معينة من التجربة السياسية في مصر الحديثة.

ولعل الأهم في هذا المقام هو الوقوف عند الملامح العامة لفكرة التيار الأساسي، هذه الفكرة التي قد يعبر عنها بتعبيرات مختلفة من قبيل المشروع الوطني العام للأمة. إن التيار الأساسي ليس فكرة عرضية مسقطة، وإنما هي نتاج لاستقراء تجربة سياسية واسعة، ذات مكونات وعوامل متنوعة. إن فكرة التيار الأساسي فكرة يستعصى تحقيقها من خلال المبادرات الفردية لكونها تولد من رحم التفاعلات السياسية والفكرية المتنوعة، حيث لا معنى لها مع غياب الاختلاف ينتهي إلى صناعتها وطرحها تتويجا لجدل يحيط بها.

مكونات التيار الأساسي

ما هي المعوقات التي تحول دون تبلور التيار الأساسي اليوم؟

قبل الخوض في الحديث عن طرائق صناعة التيار الأساسي، يجدر بنا طرح السؤال المتعلق بمعوقات هذا التيار. وما دام التيار الأساسي صناعة جماعية ووطنية عامة، فعلينا أن نحدد مدى قابليته للتكوين، بحيث يمكن أن نستخلصه من الحركة الثقافية والاجتماعية والسياسية القائمة اليوم، كما ينبغي أن نقف عند المعوقات التي تحول دون تبلور هذا التيار بالصورة التي نريدها ونطمئن لها....

فلو رصدنا خريطة الفكر السياسي في مصر بشكل عام خلال السبعين أو الثمانين سنة الماضية، لوجدنا أربعة تيارات رئيسية وهي: التيار الإسلامي، والتيار القومي، والتيار الليبرالي، والتيار الاشتراكي. والجدير بالذكر هو أن هذه التيارات التي

للاستزادة:
طارق البشري
أوراق الجزيرة: نحو تيار أساسي للأمة
مركز الجزيرة للدراسات، الطبعة الأولى - الدوحة - ٢٠٠٨



شهد عام ١٩٥١ بوادر تشكيل ذلك التيار الأساسى حيث كانت القوى المضادة تدرك الدلالة القوية لانبعاث مثل هذا التيار كما تعى جيدا حجم التداعيات التى كان من الممكن أن تنجم عن تجسده فى الواقع



فى البحث عن المشترك

أفرزتها البيئة المصرية خلال تلك الفترة، والتى كان لها أثر بالغ فى تكوين المشهد السياسى والثقافى فى مصر الحديثة، لم تبرز فى وقت واحد وبصورة مفاجئة، بل كانت الحصيلة النهائية لحركة تاريخ مصر منذ سنة ١٩١٩.

بالوقوف عند هذه التجارب الكبيرة، يمكننا الوصول إلى الاستنتاجات الأساسية التالية:

نلاحظ أولا أن التيار الإسلامى يدعو ويؤكد على فكرة مرجعية وجامعة سياسيا، مع تقديم بند المرجعية على الجامعة السياسية كجانب أساسى فى دعوته. أما التيار القومى فيشدد على فكرة «الجامعة سياسيا» فحسب، على خلاف التيار الليبرالى الذى يركز على الجانب الاقتصادى دون إهمال الجانب السياسى ذى الصلة الوثيقة بقضية نظام الحكم. وهكذا يبدو أن غالبية تلك التيارات تشترك فى طرح الهموم والقضايا السياسية والوطنية المتعلقة بالمرحلة السياسية التى أفرزتها، وإن أنتجت مقاربات مختلفة بخصوص القضية الواحدة. حتى التيار الاشتراكى الذى بات فى غاية الضعف نتيجة المتغيرات المرتبطة بتجربته الخاصة وبعموم التجربة الاشتراكية عبر العالم، يندرج فى هذا المساق. يظل تأكيد هذا التيار على الجانب الاجتماعى وتوسله بأدوات تحليل تعلى من شأن الصراع الطبقى كمدخل لفهم تحولاته، أمرا جديرا بأن يؤخذ بعين الاعتبار، مثله كمثل التيارات التى تمت الإشارة إليها بوصفها كبريات العوائل الفكرية والسياسية التى توزعت الساحة السياسية فى التاريخ المصرى الحديث.

بالنظر إلى أفكار ونضال تلك التيارات الكبيرة، يحق لنا أن نطرح المسألة الوطنية كعنوان جامع منتظم لجهودها ومؤطر لجدالاتها الطويلة المضنية. لقد استهلك هذا الشأن طاقات هذه التيارات كلها منذ عقود طويلة متتالية. لقد كان قدرا لنا ولآبائنا أن نعايش عصر الاستعمار ومقاومته، باحثين عن سبل تخليص الوطن والمواطنين مما يكبلهم ويصادر حرياتهم ويعطل طاقاتهم المتطلعة إلى التقدم وكسب معركة التنمية فى مختلف أبعادها. كما قدر لنا أن نعيش تلك المعركة القاسية حتى غدت الحاكم والرابط لكل المسائل المختلفة التى ترتبط بها وحيث تظهر فى شكل جدول أعمال يستغرقه فى نهاية المطاف ما نطلق عليه تسمية المسألة الوطنية.

لقد تحول هذا المعطى إلى قيمة موضوعية ومقياس للخطأ والصواب يمكن أن نقيس به مختلف المواقف السياسية والاجتماعية داخل الساحة المصرية.

ونلاحظ ثانيا أن المرجعيات الفكرية المختلفة، بل والمتناقضة أحيانا، لم تطمس مقاومة الاستعمار كمشترك تداعت له تلك الأطراف بعد أن تبنته وصاغت نظرتها إليه على ضوء أدواتها الفكرية. حتى بعد مرور حين من الزمن، تظل تصفية الاستعمار تحافظ على مركزيتها، وخاصة أن تقهقر الاستعمار المباشر لم يفض إلى تصفية أشكاله الأخرى غير المباشرة. الكل لا يزال مشغولا بالتحرر من التبعية للأجنبى وبقضية فلسطين باعتبارها شأنا يعنى الوطن الكبير الذى ينتمى إليه القطر المصرى؛ لذلك لم يوجد عند تلك التيارات من فصل بين التحرر الوطنى وبين واجب نصرة حركات التحرر الفلسطينية على اعتبار أن كلا من معركة فلسطين والسعى نحو التحرر من التبعية استحقاقا للمعركة الطويلة ضد الاستعمار بأبعاده المتعددة. وعلى صلة بقضية التحرر، تأتى التنمية باعتبارها من تفريعات المسألة الوطنية التى تشمل فيما بعد الوضع الثقافى ومدى استقلاليته.

وكذلك يأتى سؤال الدولة ودورها، وعلاقتها بالأمة، وهو السؤال الذى يجب الوقوف عنده وقفة مطولة، نظرا لأنه سيظل بغير جواب لأمد غير محدد فى اعتقادى، حيث يصعب إدراك كيفية إدارة العلاقة بين الدولة والأمة فى المستقبل المنظور على الأقل. من أجل الوقوف عند الدور الذى قامت به الدولة وكذا الدور الذى قامت به الأمة، علينا استحضار تاريخنا الطويل بمنعرجاته الحديثة؛ وبوضع هذا التاريخ تحت المجهر يمكننا أن ندرس مدى احتمال إقامة علاقة صحية ومستديمة بين الدولة والأمة والكيفية التى تكون عليها هذه العلاقة.

يتبين مما سبق أن مسألة التيار الأساسى هى امتداد لحركة المشروع الوطنى العام، تمت بلورته عن طريق



الاستخلاص من الواقع الحى للحركة السياسية والثقافية القائمة فى المجتمع. كما أن التيار الأساسى هو نتيجة حوار دائم، والحوار ليس مجرد عقد مؤتمرات أو إجراء ندوات فى الصحف والكتب، بل هو حوار يشمل كل أشكال الالتقاء والتحاور بين الحركات السياسية ونشاطها السياسى نفسه. بهذا المعنى تصبح المعركة الانتخابية حوارا، وتصير نتائجها المستخلصة بغض النظر عن الأرقام والنسب، مرآة تعكس ما قد تتفتق عنه تفاعلات الحركة السياسية والاجتماعية والثقافية فى المجتمع بتياراتها المختلفة.

أزمة التيار الأساسى

من أجل الوصول إلى اكتشاف ملامح المشروع الوطنى العام وتحديد القواسم المشتركة بين مختلف التيارات، نحتاج إلى دراسة تاريخية مقارنة تجلى السمات التى حكمت مختلف المراحل التاريخية الأخرى وأثرت بسماتها تلك سلبا أو إيجابا فى مسار ما أطلقنا عليه تسمية التيار الأساسى حتى فى المرحلة التى سبقت ظهوره الفعلى. ففى هذا السياق، يمكننا اعتبار الفترة الفاصلة بين سنة ١٩٨٢ و١٩٨٤ فاصلة بين فترتين فى الحوار الذى جمع التيارات الكبيرة الإسلامية منها أو الليبرالية أو القومية أو الاشتراكية.

ما هى القضايا التى كانت تناقش وتستحوذ على الاهتمام فى تلكما الفترتين؟ لا شك أن المسائل متداخلة زمنيا إلى حد كبير، ونحن نقوم بهذا التحديد التاريخى الفاصل زمنيا لا لشىء إلا لتبسيط عملية التحليل. فما قبل سنة ١٩٨٢ أو سنة ١٩٨٤، كانت بؤرة الاهتمام المتعلق بالأمة قضايا مثل: اتفاقية كامب ديفيد، ومشكلة بيع هضبة الأهرام أو تعميرها، ومسألة دفن النفايات النووية، وقضية فلسطين بجميع تداخلاتها، وقانون ومحكمة القيم. نستحضر هذا الموضوع وما دار حوله من جدل كبير وكذا جملة الاحتجاجات التى ناهضت صدور قانون باسم «قانون القيم» فى ذلك الوقت باعتباره عدوانا على الديموقراطية.

كانت هناك أيضا قضية المحكمة الدستورية وصياغتها وبلورتها ووضع السلطة القضائية واستقلالها، والجدل حول قانون الأحزاب، وإلى أى حد تتاح أو تقيد عملية تكوين الأحزاب، ثم قضية الشريعة الإسلامية وتطبيقها واعتبارها المصدر الرئيس للتشريع، ثم قضايا الهوية، مثل عروبة مصر أو فرعونيتها؛ هذه كانت القضايا التى اختلفنا أو اتفقنا حولها قبل سنة ١٩٨٢. بعد سنة ١٩٨٢ وحتى عام ١٩٩٥ و١٩٩٦، وإلى يومنا هذا، أثيرت قضايا كثيرة منها: قضية شقة الزوجة وهى ليست قضية متعلقة بالشريعة الإسلامية كفكرة، حيث أصبح الجدل الدائر يجرى حول وضع شقة الزوجة هل هو من الشريعة أم ليس منها. لم تعد القضية تتعلق بصلب الموضوع الذى يخص الإسكان. ليس موضوع شقة الزوجة موضوع شريعة، مع ذلك تم اختزال قضية الشريعة فيه، وحدث حوله نوع من الاستقطاب الفكرى بين أطراف وأخرى على هذا الأساس.

شغل الرأى العام بقضايا مثل قضية سلمان رشدى، وقضية أولاد حارتنا، وقضية تسليمة نسرين، ومجلة إبداع، ونصر حامد أبو زيد، وشركات توظيف الأموال وقد تكون أكثر هذه القضايا جدية قضية شركات توظيف الأموال لأنها مست الجانب الاقتصادى، وسواء كنا نختلف حولها أو نتفق، يظل السؤال هل تستأهل هذه القضايا أن تستقطب مواقفنا، وتستنزف طاقاتنا فى الخلاف حولها لهذا الحد، لأنها لم تكن ذات أولوية فى أوضاعنا السابقة كما هى آنذاك، وهناك أيضا موضوع تعديل قانون الأحوال الشخصية، وهو الموضوع الذى أخذ جهدا كبيرا ودارت حوله مناقشات كثيرة.

فى الواقع، لم ألمس فيما قرأته من المناقشات الدائرة فى الصحف آنذاك وجود طرف مهتم بمعرفة حجم المشكلة الحقيقى من الناحية الاجتماعية: فما هى نسبة قضية الزوجة الثانية والثالثة

لو رصدنا خريطة الفكر السياسى فى مصر بشكل عام خلال السبعين أو الثمانين سنة الماضية، لوجدنا أربعة تيارات رئيسية وهى: التيار الإسلامى، والتيار القومى، والتيار الليبرالى، والتيار الاشتراكى



فى المجتمع لكى نستطيع أن نقدر حجم النقاش الذى تستحقه، لأنه قبل أن ننخرط فى النقاش الدائر حول مشكلة ما، لا بد من معرفة حجمها. صحيح أن كل قضية قابلة للنقاش، وأن كل رأى بخصوصها لا بد أن يحظى بالاهتمام، لكن مع ذلك يبقى من المشروع التأكد من أن يكون متناغما مع الحجم الحقيقى لتلك القضية، مراعاة لترتيب الأولويات، خصوصا أن القضايا مرتبطة ببعضها البعض. فمثلا ما هو حجم قضية الطلاق حتى نحدد المستوى الذى تستحقه من الجدل مقارنة مع غيرها من القضايا المطروحة. على ضوء ذلك تتخذ الدراسات التى تتمحور حول هذه المسألة بعدها الموضوعى وتستأثر بالاهتمام الذى تستحق من قبل عامة الناس وخاصة الباحثين.

لقد كان لنقابة المحامين قبل عام ١٩٨٢ دور هام وتأثير بالغ فى توحيد التيارات المختلفة حول مشاكل من النوع الأول وذلك من خلال عقد الندوات وتنظيم المؤتمرات. أذكر هنا كيف نجح الأستاذ عبد العزيز الشوربجى، رحمه الله، بما اجتمع له من التأييد بدءا من - رحمهما الله - «نبيل الهلالى» المنتسب إلى الشيوعيين وحتى «شمس الشناوى» من الإخوان المسلمين. لقد أزعج هذا التحالف الرئيس أنور السادات - رحمه الله - فوقف متعجبا من هذا الاجتماع بين الفرقاء على شخص الأستاذ الشوربجى. لقد مثل ذلك الائتلاف الانتخابى نموذجا للطريقة التى كانت تعالج بها التيارات المختلفة التحديات التى كانت تعترض طريقها فى فترة ما قبل سنة ١٩٨٢.

أعادت القضايا الجديدة من قبيل قضية سلمان رشدى وتسليمة نسرين ونصر حامد أبو زيد، من حيث لا ندرى، توزيع أدوار سياسية وثقافية بين الاتجاهات المختلفة، فأنتجت بصورة مختلفة صور الاتصال والانفصال فى الواقع بمختلف تعبيراته. أذكر كيف أن أحد الأحزاب أدار حينها (سنة ١٩٨٧ أو ١٩٨٦) مناقشة حول أولويات العمل السياسى، طارحا السؤال حول ماهية أولوية هذا العمل، مروجا لفكرة العداء للتيار الإسلامى........لقد انقسم الرأى حول هذه المشكلة التى اعتبرت ذات أولوية ووصفت بأنها تتعلق بالدفاع عن عقل مصر والمنافحة عن استقلالها. صيغت القضية كلها بعبارات ومواقف جسدت إعادة توزيع القوى السياسية بأشكال متنوعة على ضوء اختلاف مواقفها من هذا الأمر فى تلك الظرفية بالذات.

بعيدا عن المستوى الداخلى، تجوز المقارنة أيضا على المستوى الدولى فيما يخص أوضاع ما قبل عام ١٩٨٢ و١٩٨٤. فقبل ١٩٨٢ كانت المسائل المطروحة قضايا من قبيل حقوق الأمم وحقوق الجماعات السياسية وقضايا التحرر وتقرير المصير، ومبدأ عدم التدخل فى الشؤون الداخلية للأمم وللدول والشعوب، وهى كما يبدو من القضايا المتعلقة بالحقوق ذات السمة الجماعية (حقوق الجماعات والأمم). بعد سنة ١٩٨٤، أى بعد المرحلة التى سيطرت فيها القضايا الدولية على الساحة الإعلامية والثقافية، سلط الضوء على قضايا أقل عمومية بكثير، فصار العالم ينتبه لمسائل من نوع حق المرأة فى مواجهة الرجل، وحق الزوجة فى مواجهة الزوج، والإبداع الفردى للفنان أو الكاتب والحريات الفردية فى الفكر والتعبير؛ وبذلك تحولت القضية من حقوق الجماعات إلى حقوق الأفراد، ولا زلنا مهووسين بهذا التوجه دوليا وداخليا إلى حدود اليوم.

تناقضات الحياة الفكرية والثقافية:

هناك ثلاثة أنواع من التناقض تمزق حياتنا الفكرية والثقافية والسياسية يجب التركيز عليها فى هذا السياق:

١- التناقض بين حركة الإصلاح الفكرى وحركة الإصلاح المؤسسى، وقد ظهر هذا التناقض منذ أيام محمد على. حيث شهدت تلك الحقبة حركة إصلاح فكرى قوية تزامنت مع حركة الإصلاح المؤسسى التى نشأت فى إستانبول والقاهرة. فى حين كان محمود الثانى فى إستانبول يؤسس جيشا حديثا ومدارس، قام محمد على بنفس الأشياء ولكن بصورة أنجع، ذلك أن محمد على كان متخففا من أعباء الانكشارية وكل القوى القديمة التى كانت تثقل كاهل الدولة العثمانية. لقد استطاع محمد على، فى خلسة من الزمن، أن يصنع شيئا جيدا وقويا ويستفيد من مركزية الدولة وقوتها فى مصر، لكن هذه الحركة التى تنتمى إلى حركات الإصلاح المؤسسى تضاربت مع حركة الإصلاح الفكرى القائمة فعلا. كانت الفكرة السائدة آنذاك فكرة إسلامية عالية الصوت فى المجالين الثقافى والسياسى، وكانت ترتبط بأسماء من قبيل محمد بن عبد الوهاب، والسنوسى، والشوكانى، والدهلوى، والألوسى فى المدى الزمنى الممتد من ١٧٥٠ حتى ١٨٥٠. من يمعن النظر فى هذه الفترة، يجدها تزخر بمجموعة من كبار المجددين فى الفكر، ولو أن هذه المجموعة كانت تتحرك فى الأطراف: فى العراق والسودان وليبيا على سبيل المثال. وهذا على الرغم من أن محور الدولة وثقلها كان يدور حول إستانبول، ودمشق، والقاهرة، والحجاز. ولما كان عمود السلطة فى الدولة ينتصب فى هذا المركز، فإن القوى المحافظة كانت هى المسيطرة فيه طبعا، ومن ثم نشأ التجديد بعيدا عن مركز الدولة.

نعلم جميعا أنه إذا كان الوضع الاجتماعى والسياسى سيئا، والوضع الفكرى السائد لا يستجيب بصورة جيدة لدعوات الإصلاح ولا يملك القدرة على تحدى الاختلالات ولا يقدم حلولا مبتكرة، فإن ذلك سيؤدى إلى بروز رد فعل عام تتحرك فى نطاقه أطروحات حركة الإصلاح السياسى، تلك الأطروحات التى تنادى بإصلاح المؤسسات، وهى أطروحات ترمى فى نهاية المطاف إلى إصلاح الدولة سواء بأسلوب عنيف أو سلمى، وفق أحوال كل بلد.

كان من المفترض أن تعطى الأولوية لتجديد الفكر قبل بذل الطاقات فى عملية البناء، بيد أن ما حدث شىء آخر. لقد أملت علينا التداعيات السريعة الناتجة عن الخوف من الهجوم الغربى الكاسح من الغرب سيرا للأمور يخالف مقتضيات الترتيب الطبيعى. لقد ضمت روسيا تحت زعامة كاترين الثانية أراضى وشعوبا من الدول العثمانية والفارسية منذ قرن تقريبا، كما شهدت مصر مجىء نابليون ومحاولته استعمارها، وظهر إحساس بالخطر الداهم كان وراء إطلاق حركة إصلاح مؤسسى بقيادة رجال الدولة وهم، كما نعرف، يمتطون آلة الدولة التى تعمل باستمرار دون انتظار بروز أفكار أو مفكرين. إن كبر التحدى كان يستعجلهم ويجعلهم يطلبون حلولا جاهزة. وهذا ما صنعه كل من الوالى محمد على والسلطان محمود فى بلديهما، حيث شرعا فى تكوين الجيش، الأمر الذى دفعهم إلى الاهتمام بالتنمية الاقتصادية. وكان هذا الضرب من التنمية بدوره يحتاج إلى تعليم يسنده، وهكذا جعلت عجلة الإصلاح تدور لتحدث تداعيات عملية سريعة. لقد تم كل ذلك مع وجود حركة إصلاح فكرى لم تتفاعل مع تلك الحركية منهجا وتطبيقا. يبدو أن هذه المرحلة شكلت منعطفا حدث معه نوع من أنواع الشرخ والانفصال بين التكوين المؤسسى للدولة من جهة، وبين حركة الإصلاح الفكرى من جهة أخرى. وبالتدريج صارت المسافة تتسع بينهما ليسير كل واحد فى جهة معاكسة للآخر.

كان هذا أول تناقض، وهو تناقض بين متطلبات الأمة الفكرية وحاجة الدولة إلى مؤسسات تكفل التكوين والتنظيم الضروريين لإعطائها القوة والهيمنة. إن عدم اجتماع الأمرين فى نسيج فكرى واحد أسقطنا فى أزمة تحتاج أن نفكر فيها مليا.

تحدثت فى البداية عن صلة الدولة بالأمة وقلت أن هذه المسألة تحتاج إلى معالجة، إذ لا يكفى معرفة أسباب معضلة ما كى نقول أننا على وشك اكتشاف الحلول المناسبة لها. وأشرت إلى أن التأثير الفكرى زمن الضباط الأحرار تركز داخل مؤسسة الجيش. ومعلوم أنه عندما يؤثر فكر الأمة على الدول على نحو الارتشاح، فإن ذلك يعبر بشكل ما عن وضع غير طبيعى. هذه نقطة جديرة بأن تحظى بوافر اهتمامنا.

٢- أما التناقض الثانى فقد دب داخل الفكر الإسلامى عندما حدث الغزو الفكرى الأوربى وجاءت الدعاوى العلمانية والوضعية وكل ما أتى منذ بداية القرن العشرين ونهاية القرن التاسع عشر من المقتطف والمقطم ومن الجامعة الأمريكية فى بيروت ومن لطفى السيد بصورة أقل. لقد أدى هذا الغزو إلى توجه حركة التجديد داخل الفكر الإسلامى صوب المحافظين والجامدين فى الفكر الإسلامى. كان من المفترض أن يؤدى وجود فكر أجنبى وغربى، إلى جانب الإحساس بالخطر المحدق بأصول الفكرة القائمة، إلى تقوية الفكر المحافظ وإمداده بوظيفة اجتماعية ثقافية يقوم بها. فمثل هذه التحديات تشكل فرصة للفكر المحافظ لأن يكف عن أن يكون فكرا محافظا ومتجمدا. الأصل أن تتاح لهذا الفكر وظيفة بالغة الأهمية داخل المجتمع تكمن فى المحافظة على أصول عقيدته التى يتهددها الاجتثاث. ففى واقع الأمر، لقد قام الأزهر بهذا الدور المقدر، وهو الدور الموصوف بالمحافظ. لكن الصدام بين المحافظين والمجددين جعل حركة التجديد تتجاوز جدران الأزهر وتتحرك خارجها. حيث لم يقدر للطرفين أن يلتقيا

يمكننا اعتبار الفترة الفاصلة بين سنة ١٩٨٢ و١٩٨٤ فاصلة بين فترتين فى الحوار الذى جمع التيارات الكثيرة الإسلامية منها أو الليبرالية أو القومية أو الاشتراكية



فى البحث عن المشترك

إلى أنهما كانا يخدمان ويعززان فكرة واحدة. فعلى العكس من المأمول، تعارضت الوظيفتان فى هذا الظرف وتحاربتا رغم أن كلا منهما يخدم العقيدة الواحدة نفسها.

يمكننا اعتبار هذا التناقض أضعف التناقضات الثلاثة، لذلك فمصيره الزوال. لقد مثل الشيخ محمد الغزالى -رحمه الله- علامة بارزة فى سياق الدعوات التجديدية التى سبقته والتى أتت من بعده. فمع هذا الرجل نجد أنفسنا ندافع عن الأصول ونجدد فى نفس الوقت، بطريقة تدل على إمكانية زوال التناقض، وهو الأمر الذى يبعث على الاطمئنان أكثر من أى وقت مضى. إن إطلالة على الإنتاج الفكرى فى هذا المجال على مستوى الفكر السياسى طيلة الأربعين أو الخمسين عاما الماضية تكشف لنا عن الجهد الكبير المبذول فى سبيل الوصول بهذا الفكر إلى قدر أكبر من الرصانة والاستقرار.

٣- التناقض الثالث ونتج عن نشوء الحركة الوطنية العلمانية من بعد الحرب العالمية الأولى، ومعها وبجوارها الحركة الوطنية الإسلامية. كان الدفاع عن الهدف الوطنى يتم من خلال خطاب علمانى من جهة، وآخر إسلامى من الجهة الأخرى، وسرعان ما تضاربت الحركتان بطبيعة الحال، فى حين أنهما يبغيان استقلال وطن واحد. يجب ألا نغفل، مرة أخرى، أن الهدف كان موحدا وقد تحرك من أجل بلوغه توجه وطنى علمانى أكسب العلمانية شرعية فى المجتمع بموجب أنه كان يكافح الاستعمار والتبعية ويبغى الاستقلال. فمن ينظر إلى مصطفى كامل، يجد الوطنية والإسلامية مجتمعتين ومتعايشتين فى تفكير الرجل ومواقفه دون مشاكل. ومع عبد القادر الجزائرى نجد نفس الشىء. حيث لم تبرز الهوة بين العلمانى الوطنى والوطنى الإسلامى إلا مع ١٩١٩، أو قبل هذا التاريخ بقليل، الأمر الذى يطرح علينا السؤال التالى:

إلى أى حد يمكن إجراء التقارب بين هذين المكونين؟ إلى أى مدى يمكن الوصول إلى تكوين مشترك؟ إلى أى حد يمكن بلورة دائرة تمثل قائما مشتركا بين الاثنين؟ هذا ضرب من التحديات القائمة فى مواجهتنا والتى تنتظر منا حلولا. وظنى أن اندماج المحافظة والتجديد الإسلاميين يحلان المشكلة على مستوى الفكر السياسى فيما يتعلق بانفتاح الوطنية الإسلامية على عناصر الأمة، بيد أن هذه المسألة تحتاج إلى بذل جهود كبيرة.

تناقض الأمة والدولة:

إن التناقض الأول المرتبط بعلاقة الأمة بالدولة يحتاج منا إلى نظرة أعمق؛ فالتجديد والمحافظة قد يوجد بينهما خلاف كبير عند تدقيق النظر. كما أن الوطنية العلمانية والوطنية الإسلامية تحتاج إلى بذل جهد كبير من أجل وضع اجتهاداتهما فى خدمة الأمة.

تبقى مسألة علاقة الأمة بالدولة فى حاجة إلى مزيد من التدبر؛ فالأمة هنا ليست بالمعنى السياسى، أى بمعنى وجود أحزاب وانتخابات وما إلى غير ذلك. فهذا شىء موجود وليس جوهرا للقضية. هناك جزء من نشاط الدولة يحتاج إلى مزيد من التوضيح: فالدولة القومية كما ظهرت فى أوربا أدت إلى مركزية الدولة بشكل لم يكن موجودا من قبل. استمدت هذه المركزية القوة من العلم والاتصالات ومن حركة السوق الواحدة وما أتت به التكنولوجيا. أما الدولة المصرية التى كانت طوال تاريخها دولة مركزية ينقصها فقط التحول إلى دولة حديثة ودولة قومية وقوية، فقد رسخت مركزيتها على حساب النشاط الأهلى. وليس المقصود بالنشاط الأهلى هنا المنظمات غير الحكومية (NGOs)حسب ما هو معروف فى الآونة المعاصرة، بل المقصود هو التكوينات التى تشكل وحدات انتماء فرعية فى مجتمعنا والتى يتعين أن يكون لها وجود حقيقى وفاعل فى المجتمع، سواء كان أساسها الإقليم أو النقابات أو الملة أو المذهب أو الحرفة، كالنقابات المهنية ونقابات العمال والمحليات والحرف وكل ما يتعلق بوحدة مذهب (الأوقاف-الطرق-المذاهب-المدارس)، أو وحدة عقيدة (كالملل والنحل والطوائف) أو وحدة إقليم (كالقرية أو المدينة أو الحى). كل هذا ينبغى أن يكون له شخص يدير شؤونه كما هو الحال فى المجتمعات التى عرفت ذلك قديما وحديثا، كما فى أوربا نفسها. ففى المقابل، نجد أن الدولة الحديثة فى بلادنا تميل إلى إزهاق هذه التكوينات بغرض الحلول محلها. وأثناء عملية الإزهاق والإحلال هذه، يزداد الناس سلبية وبعدا عن الدولة وتزداد الدولة عزلة عن الناس، فلا يتحقق التوازن المطلوب بين سلطة الدولة وبين الجماعات الأخرى.

يتعين علينا الوقوف عند هذه النقطة من أجل بحث ماهيتها ومصيرها ومستقبلها، فالجماعات الفرعية مهمة ولا تعمل بالسياسة وإن كانت مواقفها توزن بالميزان السياسى بوصفها جماعات ضغط. ولن تكون تلك الجماعات حكومة لأن وظائفها لا تتعلق بالحكم، بل تتعلق بإدارة الشؤون الذاتية لكل جماعة، ولذلك ليست السلطة أصلا من شواغلها. بهذا المعنى تخفف الجماعات المستقلة من أعباء ثقيلة جدا على الدولة وتقلل من عبء التضخم البيروقراطى الحادث فى جهاز الدولة، وتجعل من المجتمع وحدات يمكن التنبؤ بسلوكها وتوقع مواقفها المختلفة، لأن هناك مجموعة من التجمعات التى يتبلور لكل واحد منها موقفه واتجاهاته على الأصعدة الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية. ومن خلال خلفيات وأجندة تلك الجمعيات الأهلية، يستطيع المرء أن يعرف حجم كل مشكلة فى المجتمع، مما يتيح رسم السياسة المناسبة لمعالجتها. على سبيل المثال، نجد أن «كرومر»-فى فترة ما- لم يبق فى مصر سوى بضعة آلاف من جنود الاحتلال البريطانى، مما يشير على أن دقة العملية السياسية وتوازناتها وصلت إلى الحد الذى يتيح للقوى السياسية والاجتماعية التوقع والتحسب لأى طارئ اجتماعى أو اقتصادى أو سياسى. للمجتمع قواه المعروفة والمحسوبة بصحافتها وأحزابها وجمعياتها وطرقها الصوفية، كل منها معروف وكل مواقفه واضحة، فما على المرء إلا إجراء حسابات للتوصل على ضوئها إلى تحقيق التوازن المطلوب وتحسين الأداء السياسى فى تسيير حياة الناس. هناك تجارب هامة متعلقة بترتيب اقتصاديات وتكلفة عملية الحكم تحتاج إلى وقفة تأمل.

ليست قضية حلول الدولة محل العمل الأهلى وليدة اليوم أو الأمس القريب، أو حتى منذ خمسين سنة، بل هى حركة تمتد بجذورها إلى مائة وخمسين عاما من تاريخ مصر، منذ عهد الخديو إسماعيل، حيث بدأت الدولة تحل محل الجماعات الأهلية فى إدارة الشؤون الذاتية للمجتمع. لقد شكل هذا التحول مشكلة تحتاج إلى علاج من جنس العلاج الذى يختص بتصحيح علاقة الإصلاح المؤسسى بالإصلاح الفكرى.



أما النقطة الثانية فتتعلق بالبحث فى كيفية وإمكان تحقيق توازن اجتماعى بين سلطة الدولة المركزية وبين الهيئات المعبرة عن التكوينات الفرعية فى المجتمع. المهم عندنا على هذا الصعيد هو الدولة فى طبيعتها العامة، أما مواقفنا من السياسات التى يتم تقريرها فى لحظة من اللحظات أو بالنسبة لحدث من الأحداث فليست بذات القدر من الأهمية هنا.

لقد آثرت الحديث عن جملة النقاط هذه وكلى يقين أن إشكالية الاستقلال ستظل القضية المحورية والمركزية فى معالجة هذه القضايا. ليس الاستقلال مقصورا على ما يترتب على وجود الإنجليز أو الأمريكان على أرضنا فحسب بل هو أوسع من ذلك. لقد أصبحت قضية فلسطين منذ عام ١٩٤٨ لب الحركة الوطنية العربية وأساس الحركة الوطنية العربية الإسلامية فى بلدنا. سواء شئنا ذلك أم أبينا، فقد كان تعاملنا معها كشعوب عربية وكتاريخ عربى على هذا النحو، سواء كنا نؤيدها كقضية أو نعارضها تماما، مثلما كان هناك من هو مع الاستعمار ومن هو ضده. رغم هذه التجاذبات، بقى الثقل الأكبر ومركز الانتباه هو الاتجاه التحريرى الذى يجمع الأمة العربية

أعادت القضايا الجديدة من قبيل قضية سلمان رشدى وتسليمة نسرين ونصر حامد أبو زيد، من حيث لا ندرى، توزيع أدوار سياسية وثقافية بين الاتجاهات المختلفة



إلى اليوم. أقول هذا وأنا مثقل جدا بما يجرى الأن من محاولات لتصفية هذه القضية فى توجه قبيح ومخيف جدا يتوجب مقاومته والوقوف فى وجهه. هذا الهدف وهذه المقاومة هما لب ما يجب أن يقوم عليه التيار السياسى السائد فى بلادنا فى هذه المرحلة التاريخية الراهنة.



خاتمة

أولاً: إن مستقبل الديمقراطية فى بلادنا مشروط بعدد من الأدوار تشكل البنية الأساسية للبناء الديمقراطى، والتى بها يكون هذا البناء أكثر ثباتًا وأكفل اطرادًا واستقرارًا. أول هذه الأمور هو الوعى العميق بالتلازم غير المنفك بين هدف الاستقلال الوطنى والهدف الديمقراطى. إن أى تصور لا يضع فى حسبانه الأهداف الوطنية العليا لبلادنا من حيث الاستقلال والنهوض، إنما يكون تصورًا شكليًا صوريًا يعزل الديمقراطية عن سياقها التاريخى وعن أدائها الوظيفى، وهو يفيد استحالة التحقق لها فى التطبيق العملى، فلا ديمقراطية تتحقق بغير تحقق الاستقلال السياسى.

الاستقلال الوطنى يفيد حرية الإرادة السياسية، والديمقراطية تفيد التكون الصحيح لهذه الإرادة السياسية الحرة، ومن جهة أخرى: فإن الديمقراطية تفضى بالضرورة إلى استهداف الصالح الوطنى، لأن الديمقراطية تفيد التعبير الأمثل عن الصالح الشعبى وهو بالضرورة معيار لتحقق الصالح الوطنى.

إن دور الديمقراطية فى المجال الوطنى، انبثاقًا ومآلاً، إنما يستوجب تصنيف القوى السياسية فى المجتمع على أساس من هذا الارتباط غير المنفك بين الديمقراطية والوطنية، وإن خصوم الحركة الوطنية هم بالضرورة خصوم الديمقراطية.

قوى الحركة الوطنية بتياراتها المتنوعة هى ركائز البناء الديمقراطى وإن بدا لدى بعضها ضمور فى إدراك هذا الارتباط، فإن العمل السياسى لابد أن يتجه إلى تنمية إدراكها فى هذا الشأن استكمالاً لعناصر القوة الاجتماعية والكفاءة السياسية فى تحقق نماء المجتمع.

ثانى هذه الأمور: أن مفهوم المواطنة هو ما يشكل البنية الأساسية للبناء الديمقراطى، والمواطنة هى الوصف الجامع للأفراد والجماعات الذين تتشكل منهم الجامعة السياسية وتقوم بهم الدولة.

إن الوصف الجامع والذى تقوم به المواطنة هو ما يتعين أن يقوم به معيار التسوية بين المواطنين، وحيثما توافر هذا الوصف وجبت التسوية التامة بين من يتوافر فيهم ووجبت الصلاحية للمشاركة فى النشاط العام بينهم جميعاً.

لا يقوم بناء الديمقراطية إلا على أسس من التسليم الصادق بالمساواة بين الجماعة السياسية التى تشخصها الدولة فى إطار الأوصاف التى تصنفت بها هذه الجماعة، فالمساواة هى حلقة الوصل بين المواطنة والديمقراطية، تقوم فى إطار من تجمعهم الجماعة السياسية التى صيغت الدولة على أساسها وتفضى إلى المشاركة فى بناء هيئات الدولة التى تشخص وتحكم الجماعة السياسية.

إن الدولة هى المشخص العام للجماعة السياسية فى عمومها، وسلطتها تنبعث من تمثيلها وتشخيصها لهذه الجماعة، وبموجب هذا الانبثاق تعمل على حراسة هذه الجماعة والسهر على مصالحها الكلية وتأمينها فى مواجهة مخاطر الخارج وتحقيق الاستقرار والنماء لها فى نطاق التوازنات الجماعية بين مكونات هذه الجماعة من أقوام أو طوائف أو طبقات أو فئات، وذلك بما يكفل لكل من هذه العناصر والمكونات وجودها الأمن المطمئن ومصالحها النامية فى إطار الجماعة السياسية الأشمل.

إن أول شروط ذلك هو تحقق المساواة بين من يشملهم إطار المواطنة وتسعهم الجماعة السياسية المعنية. وأن يكون معيار المواطنة هو ما به تكفل الصلاحية لتولى الشؤون العامة والولايات العامة فى الدولة والجماعة، فلا يستبعد من صلاحية التولى لهذه الشئون العامة ولا يحرم من فرص تبوء الولايات العامة بسبب اللون أو العرق، أو انتمائه إلى جماعة دينية أو لغوية أو عشائرية من الجماعات الفرعية التى تندرج فى عداد من تشملهم الجماعة السياسية.

للدولة حدود إقليمية وللجماعة السياسية المشمولة بها نطاق بشرى، كما يوجد إطار فكرى عام يحيط بالجماعة السياسية كلها أو بالغالب من مكوناتها. وهو يشكل القاسم المشترك الأعظم لها من حيث الأهداف والغايات التى تتراضى عليها الجماعة السياسية وترى فيها تحقيقًا لمصالحها العامة المشتركة والحيوية فى المرحلة التاريخية المنظورة، منظوراً فى ذلك إلى التحديات الكبرى التى تواجه الجماعة وإلى المخاطر التى تكون محدقة بها وإلى الأهداف التى تصبو إليها. ومنظوراً فى ذلك أيضاً إلى الجماعات الثقافية والسياسية والاجتماعية التى تصبو إلى هذه الأهداف والتى تتماسك مع بعضها البعض بما يكفل لها الشعور بالأمن فى الوجود الثقافى والمادى.



إن هذا الإطار الفكرى العام لا يكون مفروضاً على الجماعة السياسية ولا على أى من عناصرها الفرعية. وإنما يكون مستخلصاً من المشترك العام لمصالحها الجماعية وموظفًا فى تحقيق هذا المشترك العام فى ضبط إيقاع الخلافات بشأنه وفى إفساحه للتنوع والتعدد والتباين فى وجهات النظر الثقافية والبرامج السياسية والاجتماعية والمصالح الخاصة بالجماعات الفرعية، وهو إطار متحرك من حيث التوجه، ومن حيث السعة والضيق ومن حيث الأوزان النسبية لمكوناته، حسبما يطرأ من مستجدات المخاطر والمصالح بعيدة المدى وحسبما يطرأ فى أطر العلاقات بين مكوناته من العناصر السياسية والاجتماعية والثقافية المذهبية من تطورات.

ثانياً: تتشكل الديمقراطية من حيث القوى السياسية والاجتماعية والثقافية وفقًا لعلاقات التوازن بين الأساسى والجوهرى من هذه القوى، وهى تقيم العلاقات المتوازنة بين هذه القوى على ضوء نسبة حجم كل منها فى الواقع الاجتماعى والسياسى والثقافى، وبنسبة دور كل منها وفاعليته، وهى تقيم هذه العلاقات المتوازنة بطرق أساسية:

١. طريق المشاركة كل بنسبة حجمه ودوره

٢. طريق المداولة فى أوضاع اتخاذ القرار، فيتحقق التوازن المطلوب بتداول السلطة فترات زمنية محددة.

٣. طريق الضغوط السياسية الاجتماعية التى تمكن من مراعاة المصالح الضاغطة والتنبه إلى هذه المراعاة حتى ممن يصدرون القرار فى خارج إطارهم الاجتماعى الثقافى. وأن كلاً من هذه الطرق وغيرها يحتاج إلى وجود تنظيم مؤسسى وإتاحة فرص التعبير والتنظيم وغيره، على ما سيبدو فيما بعد.

إن مفهوم التوازن السياسى الذى يقوم بين القوى السياسية ذات الفاعلية فى المجتمع، يقتضى تعدداً فى القوى السياسية ذات الشأن فى المجتمع وإتاحة الوجود والحركة والنشاط والفاعلية لكل منها. فالديمقراطية لا تعنى فقط أبنية دستورية ومبادئ قانونية ونصوصاً تشريعية: إنها فضلاً عن ذلك كله تتطلب وجوداً فعلياً ونشاطاً عملياً للقوى السياسية تتولد وتتواجد فى ظروف المرحلة التاريخية المعيشة، وكما أن الضمانات القانونية والتشريعية تفيد هذه القوى وتحميها من التعسف والاستبداد، فإن هذه القوى السياسية والاجتماعية الواقعية هى ما يخلق الضمانات القانونية والتشريعية بمحتواها الحق وبمضمونها العملى الواقعى.

يتطلب التنظيم الديمقراطى سبق وجود قوى سياسية متعددة ومتنوعة فى المجتمع، وإن علاقات التوازن بين هذه القوى هى ما تقوم به الهياكل الديمقراطية بتنظيمها ورسم قنوات التحاور والتجادل بشأنها والتمكين لها من التنافس وأن يحدّ كل منها سلطة الآخر عندما يتولى الحكم سواء بالمشاركة أو بالتوالى الزمنى أو بالضغوط السياسية والاجتماعية، وواجب التشكل الديمقراطى هو أن يرسم القنوات والهياكل التى تمكن من ترشيد هذه العمليات السياسية وتنظيم حركتها وأساليب التبادل والتداول بين هذه القوى.

إن الديمقراطية نظام لا يقوم فقط على إدارة الدولة ومؤسساتها الحاكمة، ولكنه أيضاً نظام يقوم على إدارة المجتمع كله، ذلك أن الدولة لا تتشكل ولا تدار بمعزل عن حركة المجتمع وقواه وتنظيماته الشعبية والأهلية، بل إن التنظيم الديمقراطى هو الذى يحقق بالضرورة وبالأساس تنظيم أبنية الدولة وحركتها مع حركة المجتمع وفئاته وطوائفه وطبقاته. تقاس كفاءة التنظيم الديمقراطى بقدرة هياكله وقنواته على تحقيق هذه

نلاحظ بروز ظاهرة الخلاف داخل التنظيمات السياسية بخصوص فهم ومعالجة أحداث مرحلة ما بعد ١٩٨٤ على المستويين العالمى والداخلى، وهو ما ظهر بصورة واضحة فى حرب العراق سنة ١٩٩١



الصلة العضوية بين الدولة وبين المجتمع، وبين سياسات الدولة المتبعة وبين توجيهات الرأى العام فى المجتمع خارج نطاق الدولة. ومن ثم يتعين النظر إلى الديمقراطية لا فى مجال تشكيل الدولة فحسب، وإنما فى مجال تشكيل المجتمع الأهلى أيضاً لطوائفه وفئاته وطبقاته.

تقوم أسس البناء الديمقراطى على عدد من المبادئ تعد بمثابة أركان البناء وقوائمه:

١. مبدأ التمثيل الانتخابى، فلابد أن تكون أجهزة التقرير ورسم السياسات والرقابة على التنفيذ مشكلة بالانتخاب، لأن ليس لفرد أو جماعة أن يفرض قرارا له على آخرين، إلا إذا كانوا هم من اختاروه فصار مفوضاً عنهم فيما يصدره من قرارات بشأنهم، ولا تقوم ولاية لشخص أو لجماعة على شخص آخر أو جماعة أخرى إلا إذا توافرت هذه الصفة التمثيلية على الآخرين.

إن مبدأ التمثيل الانتخابى لا يتعلق فقط بكفاءة التنظيم الديمقراطى، ولكنه، وهذا هو الأهم، يتعلق ما يتعلق بشرعية السلطة السياسية وشرعية ما تتخذه من قرارات وإجراءات تتصل بصميم المصالح الوطنية وبمصائر الجماعات الشعبية.

إن مصداقية التمثيل الانتخابى وصدق أدائه هو فقط ما به تعتبر السلطة مشروعة وبغيره لا تعتبر كذلك.

إن مبدأ التمثيل الانتخابى لا يصدق فقط على أبنية الدولة ولكنه يصدق أيضاً على كل تكوين أو تشكيل جماعى تشارك فيه جماعة من البشر لتحقيق أهداف معينة، وتختار لإدارة شأنها المشترك جماعة منها تنوب عنها فى التقرير والتنفيذ ورسم الخطط وتحقيق السياسات، سواء تعلق ذلك بنشاط اجتماعى كالجمعيات الخيرية أو الثقافية أو بنشاط اقتصادى كالشركات المساهمة وغيرها.

٢. مبدأ الجماعية فى اتخاذ القرار، فإنه بالمشاركة الجماعية فى اتخاذ القرار وحدها يكتسب القرار صفته العامة لأن الشأن العام يبقى دائماً شأنا جماعيا يتعلق بصالح الجماعات، وأن الفرد لا يستطيع التخلص من فرديته إلا بمشاركة آخرين له فى التفكير والتقرير، ولا يتناسب مع عموم المصالح إلا عموم النظر وعموم التقرير بشأنها.

هذا من حيث أصل المشروعية فى اتخاذ القرار، ويضاف إلى ذلك: أنه بالجماعية يمكن أن تتكاثر وجهات النظر حول سائر القضايا، وفحص جوانب المسائل المطروحة والمدروسة، وبها يمكن أن تتشارك اتجاهات متعددة لمصالح اجتماعية متنوعة فى ضبط الحلول وتحقيق أفعل أداء بأقل أعباء اجتماعية وبغير إفراط ولا تفريط، وبها أيضاً يمكن أن تتكامل فى دراسة الموضوعات والتقرير بشأنها عدة تخصصات عملية وفنية تمكن من تحقيق العلمية والموضوعية فى فحص الأمور وفى إدراك الحلول.

٣. مبدأ التعددية، فلا توازن بغير التعدد، لأنَ سلطة الدولة تؤول إلى الاستبداد ما بقيت الدولة هيئة واحدة تتمثل فى جهاز واحد أو فى هيئة حتى وإن كان جماعى القرار، تصير له ذاتية خاصة تحيط أفراده وتشملهم ، فيصير الأمر بين استبداد الفرد واستبداد الجماعة المحددة فى هذا التكون، وتجارب الأمم والدول فى هذا الشأن أكثر من أن يشار إليها. التعددية المقصودة هنا، هى أن تتوزع سلطة الدولة على العديد من الهيئات والمؤسسات التى تتشارك فى الأداء التام من بعد للعمل العام، تحقيقاً وتقريراً وتنفيذاً ومراقبة. والدولة بوصفها الهيئة المشخصة للجماعة السياسية والحارسة لمصالحها بعيدة المدى والمحققة لنفعها، لابد أن تتوزع سلطتها بما يكفل لها التوازن الداخلى وحماية أجهزتها ضد الاستبداد، ومراقبة نشاطها وهيئاتها ومؤسساتها بعضها البعض، وإن سلطة الدولة المقيدة غير الطليقة لا تقوم بحصر السلطة جميعاً فى أى من هيئاتها أو مؤسساتها وإنما تكون بإقامة الدولة ذاتها على أساس جملة من الهيئات والمؤسسات التى تقيد بعضها بعضاً وتحد بعضها من إطلاق البعض وهذا ما تعارف عليه الفكر السياسى والدستورى باسم: السلطات الثلاث: التنفيذية والتشريعية والقضائية ثم ما يرد بعد ذلك من هيئات للرقابة.

إن تنوع الهيئات والمؤسسات التى تتكون منها الدولة يوجب رسم سلطات كل منها واختصاصاته على أساس من



ضمان قيام التوازن بين بعضها البعض، وضمان استبقاء هذا التوازن، ولا يقوم كل منها بواجباته فى الحد من السلطات الأخرى، إلا بأن يكون محدود الاختصاص ومستقلاً فى تكوينه وفى استمرار وجوده عن السلطة التى يحدها. فلا يقوم توازن إلا بقيام الأوجه المعتبرة من استقلال كل من الهيئات المتوازنة عن الأخرى، سواء فى أصل تشكيله المؤسسى أو فى استمراره وأن يكون محكوماً ومنظماً بما لا يتوقف على رغبة الهيئة الأخرى وإرادتها.

إن ما تعارف الفكر السياسى والدستورى على تسميته بـ«السلطة التنفيذية» أو بـ«الحكومة» هى من يسيطر وحدها على أدوات تنفيذ السياسات، وهى من ثم تسيطر وحدها على أدوات العنف المشروع، وعلى مالية الدولة جباية لها وصرفاً لها فى النفقات المرسومة، ومن ثم فهى من يملك أهم وسائل السطوة والنفوذ والقدرة على إمضاء المشيئة، وهى كذلك تملك من يستوجبه التنفيذ من تنظيم هرمى وحشد للكفاءات وأهل الخبرات الفنية، وهى تملك أيضاً السيطرة على أهم أجهزة جمع المعلومات مما يزيدها سلطة وقدرة، وهى من ثم قوية بذاتها، وما تملك وتسيطر عليه من مال وسلاح وتنظيم هرمى وخبرات فنية ومعلومات.

إن ما يوازن هذه السلطة من هيئات الدولة الأخرى يحتاج إلى مزيد من العناية والاهتمام لدعم وجوده المستقل وتقوية نفوذه على أجهزة التنفيذ. تحت شعار: إن من لا يسيطر على القوى المادية من هيئات الدولة ومؤسساتها، يتعين أن يكون هو المسيطر على هيئات التنفيذ الحائزة لهذه القوى المادية، ولا تتأتى هذه السيطرة إلا بدعم مبدأ سيادة القانون، وإحاطة الحكومة بقوى الرأى العام وتنظيماته وهيئاته الأهلية ذات الاتصال الوثيق بسلطة التشريع الرقيب الشعبى الرسمى على سلوك الحكومة ونشاطها، ولا يتأتى ذلك أيضاً إلا بدعم استقلال القضاء وإحاطته بضمانات التسيير الذاتى لإرادته دون تدخل فى شؤونه القضائية أو الإدارية، وإن الدولة بما تملك من وسائل الهيمنة المادية لا تعمل إلا من خلال مبدأ الشرعية الذى تقبض عليه هيئة التشريع المنتخبة من الشعب بما تصدر من تشريعات وبما تراقبه من تشكيل لوزارات السلطة التنفيذية، وهو ذاته المبدأ الذى به يحسم القضاء المنازعات ويراقب الحكومة فى تصرفاتها.

ثالثاً: إن من أهم ما تفتق عنه التنظيم الحديث للدولة العصرية هو الفصل بين شخص القائم بالعمل العام وبين العمل الذى يقوم به، وذلك حتى لا تتخصص المهام العامة للجماعة وتنحصر فى أشخاص محددين لمدة طويلة تندمج فيها الوظيفة العامة فى الشخص، ويندمج الشأن العام فى الشأن الخاص.

إن ما سبق ذكره عن مبدأ الجماعية فى اتخاذ القرار، وعن مبدأ التعددية فى إجراء الشئون العامة، إن ذلك مما يشكل الالتزام به كوابح هامة ضد الاندماج بين الشأنين الخاص والعام، وضد هيمنة الفرد على شئون الجماعة، وإن نظم الإدارة الحديثة تحرص كل الحرص على هذا الفصل والتمييز بين الشخص المكلف بالعمل العام وبين العمل العام ذاته، حتى من حيث المكان الذى يؤدى به العمل ومن حيث زمانه وأدواته.

من أهم وسائل هذا التمييز وضمان استقلال العمل العام عن شخص من يمارسه، هو مبدأ التأقيت فى شغل الوظائف العامة للجماعة، فلا يستمر شخص واحد فى أداء عمل واحد مدة طويلة، وهذا مبدأ يستوجب الاتباع فى كل شأن عام، سواء كان الشخص يشغل موقعه بالتعيين أو بالانتخاب، وسواء كان عمله تنفيذياً أو تشريعياً.

لا يصدق ذلك على الأشخاص الطبيعيين فقط، ولكنه يصدق أيضاً على الهيئات والمجالس، ومن ثم وجبت الدورية والتأقيت فى تولى الأفراد للأعمال وفى بقاء المجالس التمثيلية أيضاً. فلا يزيد الوجود ولا شغل الأعمال

كيف يمكن أن نتفادى الوقوع فى هذا الارتباك لنتخلص إلى التفكير بهدوء فى قضايانا المصيرية؟ هذا هو السؤال الذى يطرح على النخب لتجيب عنه



للفرد ذاته أو للهيئة ذاتها عن سنوات تتراوح من الأربع سنوات وسبع سنوات حسبما يظهر من استقراء نظم الحكم والإدارة.

إن التأقيت يستوجب التداول للسلطة على أساس أن مثل هذا التداول يعد أصلا من الأصول الواجبة الصون والاتباع لضمان التحقق العملى للنظام الديمقراطى، ولكيلا تصير الهياكل الديمقراطية التنظيمية محض تصورات وواجهات لأن طول المكوث الشخصى فى أعمال الدولة يؤول فى الغالب الأعم إلى الهيمنة الفردية فيشكل اختراقا لضوابط العمل الموضوعى العام المتميز عن شخوص القائمين به.

يمثل التداول نوعا من أنواع المشاركة فى الشأن العام بين عديد من الأفراد، وتأتى تلك المشاركة بفعل تنوع الشخوص المشاركين وتنوع مواقفهم السياسية والاجتماعية والفنية والعلمية عبر الزمان. والأهم من ذلك أن تأقيت تولى الأعمال العامة وضمان تداولها هو الشرط الضرورى المسبق للوجود الفعال للنظام الحزبى، ولا يقوم نظام حزبى إلا بتعدد الأحزاب، ومن ثم كان مبدأ الحزبية إما أن يقوم بالتعدد وإما ألا يوجد أصلاً فى الواقع الفعلى لأن الحزب الواحد يندمج فى الدولة وتصير هى ذات السيطرة عليه وينتقل القائمون على الحزب إلى مراكز الحكومة مستخدمين سلطاتها حتى على الحزب ذاته، لأن الحكومة هى الأقوى مالاً وعتاداً وتنظيماً، وهى إن انفرد بها حزب واحد استوعبته وأذابته فى هياكلها، وإن عصمة الأحزاب إزاءها أن تتكاثر وتتعدد وتتشارك فى مداولة سلطة الحكومة بتأقيت التولى وتداوله معاً.

يشكل النظام الحزبى رابطة الوصل الضرورية بين الدولة وسلطاتها وبين الجماعة السياسية المعبر عنها باسم «الشعب»، لأن الحزب هو ما ينشأ فى إطار جماهير الشعب، وهو ما يعبر عن أى من تيارات الشعب الاجتماعية أو الثقافية ويبلورها ويصل بمصالحها ومطالبها إلى مؤسسات الدولة، وهو التعبير السياسى عن جماعات الشعب ذات التميز الاجتماعى أو الثقافى ومفاد كونه تعبيراً سياسياً لأنه ينقل رؤية هذه الجماعة ومطالبها ومصالحها إلى أجهزة التقرير والتنفيذ فى الدولة.

إن ما يصل الجماعة السياسية الشعبية بالدولة عبر قنوات التنظيم الديمقراطى للمجتمع هو التشكلات الحزبية من جانب المجتمع الأهلى وحركته وفئاته وطوائفه وطبقاته وفرقه، وهو المؤسسة التشريعية للدولة من حيث هى ما يجرى تشكيله بالانتخاب، وهى ما يفرض شرعية قراراته التشريعية على الأجهزة التنفيذية، وهى ما يراقب سلطة التنفيذ ويمنحها ثقته فتبقى قيادتها أو يحجب الثقة عنها فتزول، والمؤسسة التشريعية التمثيلية والأحزاب السياسية هى معاً جسر التواصل بين الشعب والدولة من الجانب التنظيمى.

من هنا تظهر أهمية تأقيت تولى المهام العامة وتداولها لأنه بغيرها لا تقوم تعددية حزبية فعلية، وبغير التعددية الحزبية لا يقوم اتصال بين الجماعة السياسية والدولة، وتضمر مؤسسة التشريع بوصفها سلطة مستقلة من سلطة التنفيذ وتستوعب فى الجهاز الإدارى للحكومة. ما دامت الأحزاب هى التعبير السياسى عن الجماعات الاقتصادية والثقافية والإقليمية والعشائرية الشعبية، فإن حراك المجتمع يشملها على الدوام لأن الجماعات المشمولة بالشعب فى كل دولة إنما تتنوع مصالحها وطلباتها فى كل من مراحل التاريخ التى تمر بها الجماعة، وتتعدد الأوضاع بتغير الظروف السياسية والاجتماعية، وتتعدل موازين القوة والضعف فى علاقة كل منها بغيرها فى داخل الجماعة السياسية المشمولة بالدولة، وكل ذلك يقتضى تعديلاً فى الموازين السياسية والاجتماعية وتنويعاً فى الرؤى والمطالب.



إن كل ذلك يقتضى إتاحة الحرية فى تكوين الأحزاب بغير موانع تملكها الدولة والسلطة التنفيذية أو يملكها الحزب الحاكم بالنسبة لما تم إنشاؤه من أحزاب وتنظيمات سياسية جديدة.

إن حرية التكوين الحزبى لا تفيد فقط فى تيسير تشكل الاتجاهات السياسية الجديدة التى يسفر عنها التطور الاجتماعى التاريخى فى أى مجتمع، وإنما تفيد أيضاً فى أنها تشكل تحدياً دائماً للأحزاب الموجودة لكى تبقى على صلة بالجماهير وأن تراقب بحرص ما يطرأ من تغيرات فى البيئة السياسية للمجتمع، كما تجتهد فى تعديل برامجها وسياساتها وتشكيلاتها وفقاً لذلك بما يستبقى فاعليتها وحيويتها.

وإذا أمكن لحرية تكوين الأحزاب أن تفضى إلى نوع من التكاثر الصورى بلا عائد سياسى للشعب من ورائه، فإن هذا الوجه السلبى لا يعادله الوجه السلبى الذى يفضى إليه حتماً منع وجود أحزاب جديدة أو التضييق عليها، لأن ذلك من شأنه أن يحرم المجتمع من جهود جماعات فنية تواقة للعمل والتعامل مع الجديد، كما أنه قد يفضى إلى ترهل الحركة الحزبية القائمة واسترخائها وجنوحها إلى الوجود الصورى والعمل الرتيب.

رابعاً: إن التعدد لا يستفاد منه ولا ينتج أثره بتعدد مؤسسات الدولة وهيئاتها ولا بالتعدد الحزبى، سواء اجتمع هذان النوعان أم افترقا، ولكنه يلزم له أن تكون القاعدة الاجتماعية للجماعة السياسية مبنية على أساس من تعدد التشكيلات والتكوينات الاجتماعية الشعبية، كما أن هذه التكوينات الشعبية ليست تكوينات سياسية بطبيعتها مثل الأحزاب، ولكنها تجمعات شعبية اجتماعية تقوم عليها الحياة الحزبية وتشكل البنية الاجتماعية الأساسية التى تقوم عليها الأحزاب.

إن الناس لا يحيون أفراداً متذررين، بل هم فى جماعات تُصَنَّف وفقاً لمعايير متعددة، ومن هذه المعايير الطبقى الاقتصادى الذى تظهر منه النقابات العمالية واتحادات الفلاحين والحرفيين، كما يظهر منه أيضاً جماعات أصحاب الأعمال وغرف التجار والصناع، ومن هذه المعايير: المعيار المهنى الذى تظهر به وتُصنف النقابات المهنية، ومنها كذلك المذاهب المختلفة داخل أهل كل دين وملة، ومنها أيضاً معيار القرابات النسبية وبها تُصَنَّف القبائل والعشائر. منها كذلك المعيار اللغوى حيث يقوم به خلاف داخل الجماعة السياسية، ومعيار التحدد الإقليمى الجزئى حيث يكون مميزاً لجماعة فرعية معينة فى داخل المجتمع.

إن هذه التشكيلات الاجتماعية على تعددها وتنوعها موجودة فى المجتمعات دائماً ومنها تنبثق الجماعات الفرعية المشمولة بالجماعة السياسية العامة التى تقوم الدولة على تشخيصها، وبها يتماسك نسيج المجتمع لحمته وسداه، وبها أيضاً تتشابك العرى الاجتماعية لما تقوم به هذه الجماعات كعناصر تماسك اجتماعى شريطة أن يكون لكل من هذه التشكيلات الاجتماعية المؤسسات المشخصة لها الراعية لوجودها ولمصالحها وتكون على قدر من انتظام يكفل للمندرجين تحتها إمكانية التعبير الصادق عن أنفسهم، وأن يكون كل منها فى تكوينه المؤسسى القادر على إدارة شئونه الذاتية فى إطار مراعاة الصالح العام للجماعة السياسية الشاملة للجميع.



إن تجارب الأمم والشعوب تكشف أن هذا الانتظام المجتمعى فى الفئات والطوائف والطبقات فى الهيئات الفرعية التى تجمع كلاً منهم، هو مما يشكل البنية الأساسية للنشاط الشعبى الديمقراطى المنظم، وإنه بقدر ضعف هذه التكوينات أو غيابها بقدر ما يكون النشاط الحزبى بعد ذلك معوقاً وبقدر ما يكون الوزن النسبى للجماعات الشعبية فى مواجهة الحكومات وزناً مختلاً لغير صالح الإرادة الشعبية. وإذا كان يخشى من القوة الزائدة لهذه الجماعات أن يضعف معها الانتماء الشعبى الشامل للجماعة السياسية، فإن العكس يخشى منه أيضاً خفوتاً للإرادة الشعبية وضعفاً للأحزاب ولسائر الجماعات الأهلية وتزايداً فى سيطرة الدولة المركزية، إن الشعب الذى تتناثر إرادته أفراداً هو أصلح البيئات لتوليد الحكومات المستبدة المستندة إلى الإرادة المطلقة للحاكم الفرد.

خامساً: ينبغى التنبه إلى أنه لا مخالفة بين الديمقراطية والشورى، فالديمقراطية نماذج تنظيمية أسفرت عنها تجارب الشعوب، وهى نماذج تطرح نفسها على الشعوب كلها لتأخذ منها وتنتفع بما تراه نافعاً لها فى العصر الذى تعيش فيه، فنظم الانتخاب مثلاً هى أساليب تنظيمية لتحقيق مبدأ التمثيل السياسى واختيار الجماعات لمن يتولى شأنها العام فى كل مرحلة، والأحزاب هى التشكيل المؤسس الحديث للفرق السياسية ولذوى المذاهب ولتجمعاتهم فى كل زمان ومكان، والتعددية السياسية هى ما تعددت به مذاهب المسلمين فى السابق، وجاء ذلك توسعة عليهم وتنويعاً للحلول والبدائل بتنوع المجتمعات والبيئات وتغير الأحوال والأزمان.

وحدات المجتمع المدنى هى ما كان للمجتمعات السالفة السبق فى تشكيلها وما كان يعود



إليها الفضل في الإدارة الذاتية لشؤون الجماعات الفرعية وتوفير الخدمات وإدارة المرافق لأهل كل بيئة وصقع؛ أما الشورى فمبدأ عام يتصل بالأكثرية في دراسة الأمور والبحث فيها وفي إصدار القرارات من بعد.

يتحقق المبدأ العام بأشكال متعددة وبأساليب تطبيق ونماذج تُنظم وتتغير وتُعدل حسب احتياجات البيئة والأوضاع والظروف التاريخية، وقد جاء الأمر بالشورى في القرآن الكريم أمراً مجملاً بالمنهج القرآني في إجمال ما يتغير من الأحكام وتفصيل ما لا يتغير، فجاء إجمال الأمر بالشورى كاشفاً عن السعة في التغيير والتعديل في النماذج التنظيمية التي تتشكل بها الشورى ويتحقق بها المبدأ المأمور به في الشريعة الإسلامية.

إن الفقه الإسلامي فيما بلغه فقهاء المسلمين المحدثون في بلادنا قد ترجح به هذا النظر، وترجح لديهم التمييز بين الإطار المرجعي للفقه الإسلامي وأحكام الشريعة الإسلامية ووجوب الصدور عن أصولها ومبادئها، وبين أساليب الترجيح بين الآراء فيما تسعه نصوص الشريعة من تنوع في الأحكام الموضوعية وتعدد المذاهب والآراء، وبين النماذج التنظيمية التي يمكن بها تشكيل مؤسسات الشورى وفقاً لمبادئ التمثيل والجماعية والتعددية وهي مقبولة كلها ومتبعة في الراجح من مذاهب المسلمين بل هي لازمة لأن بها في العصر الحديث يتحقق التطبيق الأمثل لها.



سادساً: الخلاصة:

إن موضوع الديمقراطية لهو موضوع يتعلق بكيفية تحقق الإدارة الذاتية للجماعة السياسية، وتحقق الأهداف المشتركة لها.

أولاً: إن البناء الديمقراطي يقتضي أسسا لا تقوم له قائمة من دونها، ومن ذلك:

استقلال الذات الحضارية للجماعة من حيث التكون العقدي والثقافي والتوحد في اللغة والتكوين النفسي المشترك وبما تبلورت به الجماعة من تشكل ثقافي تاريخي.

الاستقلال السياسي الذي يتمثّل في تأكيد تحرر الإرادة السياسية للجماعة من إمكانات الإملاء الخارجي عليها. واستبقاء التحرر والسعي لكفّ الضغوط الخارجية، فإذا كانت عرفت نظم حكم مستقلة غير ديمقراطية فإنه يستحيل قيام نظم ديمقراطية غير مستقلة.

الاستقلال الاقتصادي باعتباره من الوجوه الأساسية لتحقق الأمن القومي للجماعة السياسية، وهو يشمل السعي لتوفير إمكانات التنمية الاقتصادية المعتمدة على الذات وتجنب أكبر قدر من الضغوط تأتي من هذا الجانب.

مراعاة اعتبارات الأمن القومي الإقليمي بالسعي لتحقيق التوازن السياسي والعسكري الذي يمنع التهديد الخارجي بما يشكله من ضغوط على الإرادة الوطنية.

ثانياً: إن الفاعلية الديمقراطية مشروطة بما يلي:

وضع الجماعة السياسية وما تتمتع به من قوة تماسك وترابط وتمثيلها لسائر الجماعات الفرعية ذات الأثر في المجتمع بما يتناسب مع حجمها ووزنها الاجتماعي.

الأهداف المشتركة التي تلتقي عليها الجماعة السياسية بقواها وجماعاتها الفرعية المتنوعة ووفقاً للثقل النسبي لكل منها إزاء الأخريات.

الإقرار بشرعية القوى ذات الأثر في الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية واعتبارها كلٌ منها عناصر تكون الجماعة والإقرار بمساهمتها المشتركة في الصالح العام للجماعة السياسية.

كفاءة الأجهزة المؤسسية المساعدة التي تنتظم فيها الجماعات والقوى المتنوعة ذات الأثر في الحياة العامة، وقدرة هذه الجماعات على التعبير عن الذات من خلالها.

ترابط مؤسسات الدولة والانسجام بين أجهزتها. ■

ثقافة الهوية

مازن النجار

حتى بداية عصر التنظيمات في القرن التاسع عشر - كانت الدولة تشغل مساحة محدودة في حياة الأمة، بينما تشغل الجماعة الأهلية بمؤسساتها وعلمائها وتجارها وأصنافها (أهل الحرف) وطرقها الصوفية ونقاباتها وأوقافها ومدارسها معظم مساحات الحياة والحراك الاجتماعي والاقتصادي والثقافي. أدى ذلك ولا زال إلى تحرير الإنسان والمجتمع من محاولات الهيمنة على روحه وضميره وإرادته أو محاولة استعباد.

■ عندما تتعرض الأمم للبغي والإبادة والعدوان الهمجي، فإنها تدخل مراحل بالغة الحرج؛ فيتهدد وجودها الإنساني وبقاؤها الحضاري ومقومات حياتها، وحقوقها ومصالحها؛ وقد تتعرض الأوطان والشعوب للاحتلال والاغتصاب والإذلال؛ ويصبح مستقبلها وكرامتها وحريتها على المحك. في ظل تلك التحديات الكبرى، تتمايز الحضارات في قدرتها على الصمود وصد العدوان وبذل التضحيات، كما تظهر الحقيقة حول جوهر الأمم وصلابة معادنها وقدراتها على المقاومة والانتصار. في هذا السياق يهتم طلاب التاريخ والاجتماع البشري بدراسة عوامل الصمود والمقاومة لدى الأمم والحضارات واكتشاف مقومات وخبرات ما نسميه «ثقافة المقاومة».

الثقافة بشكل عام هي حالة جامعة وواسعة، فيها الأفكار والمعتقدات، والتقاليد الحضارية، والأمثال والمأثورات، وخبرات وحكمة الأمم، ووصفات الطبخ، والأغنيات المعبرة عن روح الشعوب، ورؤية الناس لأنفسهم وتصوراتهم عن غيرهم وعن العالم، وطرائق تفكيرهم حول كافة القضايا والهموم الإنسانية. أما ثقافة المقاومة فهي حالة وخبرة تحياها الأمم النبيلة الحية، التي تتصدى للبغي والعدوان. ولذلك فهي تنهض في وجه التحديات عبر مختلف وسائل ومستويات المواجهة، من أبسط آليات وأدوات الكفاح، ووسائل الدفاع المدني، إلى التحليل الاستراتيجي الثاقب الذي يعطي كفاح الأمم مسارا ورؤية ومعنى.

وعندما تتعرض هذه الأمة للعدوان، وتمر بمنعطفات وتحديات مصيرية، فإنها تستمد قدرتها من إيمان راسخ ومخزون حضاري بالغ الثراء وخبرات مواجهة وانتصار متعددة ومتنوعة. فهي



التـــاريخ ليس مجـــرد ذكـــريات أو حكايات أو معلومات عن الماضى، بل هو مساحة الفعل والخبرة والحضارة التى يعيش عليهـــا الإنســـان والجمـــاعة



أمة التاريخ المتصل لآلاف السنين دون انقطاع، ولا يشبهها الآن فى ذلك إلا الصينيون. بل تتميز أيضاً بأن لها امتدادات ثقافية وإنسانية عميقة ومتسعة أفقياً ورأسياً، وقدرات مشهودة على التواصل والتجدد. فهى الأمة التى ساهمت فى إثراء التراث الإنسانى روحياً ومادياً ومعرفياً، وقدمت للعالم الإيمان والأبجدية والأنسنة والعلوم والتجارة والتواصل بين الأمم، عندما كان معظم البشر يعيشون فى دياجير الظلام.

هى أمة التوحيد القديمة الخالدة، وتجربتها التاريخية الطويلة الممتدة مكنتها عبر مراحل وابتلاءات عديدة من أن تستعصى على الفزع والانهيار والإبادة؛ وأتاحت لها تحقيق الصمود والانتصار والبقاء. هذه الحقائق والمعطيات المتعددة تحتم عليها الآن أن تستعيد إيمانها وثقتها بذاتها، وتحتفظ برباطة الجأش والثبات على الحق، وتتجاوز برؤيتها تحديات ومخاطر الواقع إلى آفاق الصمود والانتصار. المعادلة بسيطة ومعجزة فى آن واحد، مصيران لا ثالث لهما: إما نصر أو شهادة. وعقيدة واثقة بأن الآجال والأرزاق مقدرة من لدن إله أزلى قادر ومتجاوز ومطلق الإرادة سبحانه وتعالى. إيمان راسخ يعصمنا من التوتر والقلق والانهيار، فنحن أمة تأوى إلى ركن شديد.

أمة تؤمن بأن العيش ينبغى أن يكون حياة بعزة وكرامة، لأن الموت فى إيمانها لا يعنى الأيلولة إلى حالة فناء أو غبار تتلاشى فى العدم، فمن عند الله كان البدء، وإليه تكون العودة. هذا اليقين يضىء تجربتها كأمة؛ يعصمها من حالة انعدام الوزن، ويخفف التوتر والقلق الإنسانى غير المبرر؛ فتصمد وتتحدى وتقاوم، حتى مع اختلال ميزان القوة المادية لصالح العدوان.

يعلمنا التاريخ والتجربة الإنسانية الرحبة أنه مهما بلغ جبروت وغطرسة العدوان، لا يزال ممكنا هزيمة سيفه بالصبر النبيل وبذل التضحيات. قد يوغل العدوان فى الدمار وسفك الدماء، بل إن «الكف لا يصد فى وجه المخرز»؛ هذا صحيح على مستوى التفاصيل. وربما تبدو المقولات متعارضة لدى التغاير فى مستوى التحليل، فقد نتناول قضية ما على مستوى التحليل التاريخى، أو المستوى الاستراتيجى، أو المستوى التكتيكى، أو المستوى العملانى، لكنها متسقة فى التحليل النهائى أو التفاعل الكلى. وغالبا ما كانت مسيرة الحق عبر التاريخ الإنسانى هى رحلة الدم الذى هزم السيف. فالعبرة -فى النهاية- بمآلات الأمور ومستقبل الشعوب ومصائر الأوطان. ولولا تضحيات الأمم وصبرها وإصرارها، ما تحرر وطن ولا أضاءت الخبرة البشرية ولا أشرق العدل والإحسان فى التجربة الإنسانية. ثقافة المقاومة تبدأ من فكرة الإيمان، الإيمان بالحق والقسطاس الذى قامت به السماوات والأرض، وبأن الظلم منبتٌ لا يدوم، وأن الله أنزل العدل وأقامه، فالعدل منظومة كونية شاملة.

لا تنحصر ثقافة المقاومة فى انتماء فكرى أو أيديولوجى أو دينى أو طائفى بذاته. بل يضم معسكر المقاومة كل الشرفاء الذين ارتقى وعيهم إلى مستوى التحديات، وأدركوا البوصلة الحقيقية للمرحلة، وانتموا إلى روح الأمة وتطلعات الشرق نحو النهوض والتحرر والتنمية، بصرف النظر عن انتماءاتهم أو خصوصياتهم أو معتقداتهم، فمصادر الفكر المقاوم متعددة وليست أحادية. ويعزز ذلك أن المستضعفين من شعوب العرب والمسلمين، وكثير من شعوب آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، لم يتم احتلال وجدانها أو إفساد ضميرها أو إخضاع إرادتها أو تزييف وعيها، بل لا زالت تقاوم الظلم والاحتكار والاستغلال والهيمنة الامبريالية بمختلف تعبيراتها. ورغم تغول الدولة الحديثة وسعيها للسيطرة على كافة مناشط الحياة والاجتماع والاقتصاد، وتقويضها للجماعات والمؤسسات التقليدية، واحتكارها لوسائل القوة والعنف؛ فإنها أخفقت فى قمع وتشكيل وعى الأمة والفرد بما يؤدى إلى التسليم الكامل لها كما حدث فى التجربة الغربية.

تعبر ثقافة المقاومة عن عبقرية الأمة، وتنوع مخزونها من بدائل وخيارات المقاومة والحراك. فمثلا، منذ بداية المشروع الصهيونى الاستيطانى، اتخذت مقاومة هذا المشروع أشكالا وتعبيرات متعددة: سياسية واجتماعية وأيديولوجية. فتغير الأفكار وتعدد التوجهات التى انخرطت فى كفاح الأمة على الساحة الفلسطينية هى تعبيرات لحركة وطنية واحدة متجددة. فالأمة فيها خير كثير وفطرتها لا تخطئ، ولا تجتمع على باطل، وتتجاوز بمبادرة فاعلة المواقف الفئوية والتصورات الانعزالية. وعندما تنخرط فى مقاومة حقيقية، فإنها تتحفز وتنتفض وتصبح أكثر قدرة على المواجهة، مما يعزل الخطاب الانهزامى الذى هو -بالتعبير القرآنى- شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار؛ ذلك أنه يتناقض مع وعى الأمة وضميرها وروحها، ويسخر منها، ويراهن على هزيمتها وذلها وركوعها.

ولا شك أن نجاح وسائط الإعلام فى تقديم صورة حية للعدوان فى فلسطين ولبنان والعراق، مثلاً، والاستجابة الشعبية إزاءه يظهر نقلة نوعية فى وعى الجماهير ونضجها وارتقاء شعورها بالمسؤولية وقدرتها على الفعل والمبادرة، كما يعجل التفاعل بين شعوب الأمة ونمو وعيها وحراكها بوتائر جديدة. الأمر الذى يعنى أننا نشهد تسارعاً أو تصعيداً فى حركة التغيير والتاريخ مقارنة بالمراحل السابقة. هكذا هى الصورة بالنسبة للجمهور العربى خارج مسرح الفعل والاستجابة، أما فى فلسطين أو لبنان أو العراق، فهى لوحة أو حالة حقيقية يعيشها الإنسان المقاوم بكافة تفاصيلها وتضميناتها، وتشكل وعيه، كما ترسخ ثقافته المقاومة. وهنا نرى أن الإنسان المقاوم يستجيب فى الحال للحدث - الذى يرى صورةً من بعيد- عبر التماسك الداخلى والفعل الايجابى معا.

بيد أن هذه الصورة تلقى على الجماهير العربية أعباء أخلاقية ثقيلة. فاللبنانى والفلسطينى أو العراقى يصمد ويتحمل التضحيات أمام أعينها كل يوم وكل ساعة، بينما تراقب هذه الجماهير المشهد بحسرة أو بعجز أو بإحباط، يخشى معه من الوقوع فى حالة تسمى فى العلوم السلوكية «العجز المكتسب بالتعلم». لكن الإنسان المتمثل لثقافة المقاومة، لا تنكسر إرادته، بل يصمد ويثبت رغم الدمار والقتل والخراب ودخان القصف المتصاعد، والدليل على ذلك ساطع فى عبارات وتعبيرات الإباء والإصرار والصمود لضحايا العدوان الذين تعرضوا للقصف والموت والدمار، وانهارت منازلهم وأحلامهم وسبل عيشهم وأمانهم، لكنهم يقولون سنصمد ونقاوم. هذه التعبيرات هى الأصدق والأعمق والأحق بالبقاء والاستمرار.

ثقافة المقاومة هى حالة استنهاض إنسانى، تتوجه ضد كل اعتداء على الإنسانية، ضد الاحتلال والاستيطان، ضد أنظمة التمييز أو الفصل العنصرى، ضد التغول والاستغلال الاقتصادى، ضد اللا أخلاقية والإباحية المهينة لكرامة الإنسان، ضد اضطهاد الأطفال والنساء وسائر الضعفاء، وحرمانهم من الحياة الكريمة.

بيد أن نقطة البدء ومحصلة المآل فى ثقافة المقاومة هى الإنسان الذى اصطفاه وكرمه الله، وأنطقه بالبيان، وعلمه الأسماء كلها، واستخلفه فى الأرض، وأوحى إليه آياته وبيناته، وقدسه بالشرائع والشعائر، وكرس حرمته وحقوقه، وحرم ظلمه واضطهاده، وحرره بالتوحيد من كل طاغوت، وسخر له الكون كله. بذلك، تميز الإنسان عن باقى مخلوقات الله، فهو يفكر ويتأمل، ويتلقى من الله، ويتعرف عليه ويتصل به، ويتقرب إليه، ويمتثل له، ويتفاعل معه.

فمن تعريف الإنسان نصل لمفاهيم ومضامين متعددة وغنية حول ثقافة ومهام المقاومة. فقد يكون دور ثقافة المقاومة هو وقف التدهور فى بيئة الحياة الإنسانية بكل الأشكال، وهى قضية راهنة وهامة عالميا، وقد تكون ثقافة ضد الظلم الاجتماعى،أو تكون مقاومة ضد التحلل الأخلاقى، انتصاراً لكرامة الإنسان، وما مقاومة الاحتلال والعدوان على الإنسان والأوطان إلا وجه واحد من وجوهها.



التاريخ ليس مجرد ذكريات أو حكايات أو معلومات عن الماضى، بل هو مساحة الفعل والخبرة والحضارة التى يعيش عليها الإنسان والجماعة. فالذاكرة (أو التاريخ)، إضافة إلى اللغة، هما المحددان الرئيسان للهوية. بهذا المعنى، يصبح الإنسان هو الكائن التاريخى الوحيد على الأرض، كما أنه بتعريف الراحل الكبير على عزت بيغوفيتش، الرئيس المؤسس لجمهورية البوسنة والهرسك، هو الكائن الوحيد الذى يعيش دواراً (اهتماماً) ميتافيزيقياً، أى يتطلع إلى



السماء متجاوزاً عالم المادة حوله لاستجلاء قصة الكون الكبرى. فليس الإنسان مجرد حالة طبيعية (بيولوجية) لأنه مستخلف من الله، متجاوز للطبيعة، وهو ليس إلهاً لأنه حادث زمنياً (له بداية ونهاية)، وغير مطلق أو مخلد فى الأرض.

الحيوان فقط يعيش بدون تاريخ ولا هوية ولا رؤية ولا دور خارج البرنامج الطبيعى أو التاريخ الطبيعى (البيولوجى). والإنسان -بدوره- لا يمكن أن يعيش بدون تاريخ أو هوية؛ ومن يحاول تجاهل أو تنحية التاريخ، يريد فى الحقيقة تجاوز تاريخ الأمة المحدد لهويتها باتجاه التماهى فى تاريخ الآخر، تكريساً للتبعية والاستلاب والانسلاخ.

فى الحضارات الراسخة والأمم العريقة، ليس هناك تاريخ قديم وتاريخ معاصر. فالتاريخ فى الخبرة العربية الإسلامية كله معاصر، كله حاضر فى وجدان الأمة، ورؤيتها الكونية، ومثالها التاريخى، وتمثلها لذاتها ولدورها فى مسار ومصير الإنسانية. هو حالة مستمرة وحية ومتصلة، نحن نعيش التاريخ؛ نتمثله، ونعتبر به، ونتعلم منه، ونتسلى به، ونعيش فى ظله، بل كثيرا ما تكتسب رؤيتنا وأفعالنا واختياراتنا معناها منه. علاقتنا بالتاريخ ليست حالة ماضوية فردوسية، وليست حنيناً (أو نوستالجيا) إلى صورة الماضى الجميل؛ بل علاقة مستمرة تفاعلية. لكنه ليس حالة نستدعيها وفق الحاجة، أو ثوباً يفصل على قياس النخب الحاكمة، لتبرير اختياراتها أو نزواتها والتغطية على كبواتها ومآزقها. فهذه ليست علاقة مع التاريخ، بل استغلال له أو إساءة إليه.

يعتبر المفكر والمؤرخ الكبير المستشار طارق البشرى بحق أن القرنين الماضيين هما بامتياز قرنا الاستعمار والكفاح ضد الاستعمار. لذلك، كانت البوصلة - فى معظم الأحيان- واضحة، وتتجه نحو المهام الرئيسة لـ الجماعة الوطنية: المحافظة على الذات والهوية والتصدى للاختراق وإنجاز الاستقلال.

تعانى منطقتنا من هشاشة استراتيجية وقابلية للاختراق، كونها تقع فى ما يسمى «هلال الأرض الداخلى» بتعبير ماكيندر، أو «هلال الأزمات» بتعبير زبيغنيو بريجنسكى، أو «منطقة الارتطام» بتعبير المفكر الكبير الراحل جمال حمدان، بين القوى المتصارعة للسيطرة على منطقتنا التى هى سُرَّة الأرض، بموقعها الاستراتيجى الفريد ومواردها الهامة وأسواقها الضخمة ومكانتها الرمزية فى الميراث الإنسانى. ووقوعنا فى جوار القوى الأوروبية الغازية -خاصة القوى البحرية منها- فاقم هشاشة المنطقة استراتيجيا؛ كما فاقم مخاطر وقوعها تحت هيمنة الامبراطوريات الأوروبية، منذ إمبراطورية الرومان وصولاً إلى إمبراطوريات الأنغلوسكسون.

تتضاعف المخاطر والتهديدات نظرا لأن الامبريالية الأوروبية تنطلق من تصورات عنصرية فوقية حول «عبء الرجل الأبيض» تجاه الارتقاء بالشعوب الأخرى من حضيض التخلف، ومن رؤية «داروينية» صراعية تكرّس فكرة البقاء للأقوى القادر على امتلاك أدوات الإبادة وممارستها. واتخذت هذه الأعباء والممارسات تعبيرات غير مسبوقة تاريخياً من حروب إبادة، واختطاف عشرات ملايين الأفارقة لاستعبادهم فى مزارع قصب السكر والقطن فى الأميركتين وحوض الكاريبى، وتفكيك الثقافات الوطنية والمنظومات الاقتصادية الأصيلة، وإقامة كيانات الاستيطان الإحلالى وأنظمة الفصل العنصرى، وإلحاق الشعوب الملونة بمنظومة تبعية سياسية واحتكارات اقتصادية وثقافات مشوهة.

بعد انحسار الاستعمار الأوروبى التقليدى، بدأت مرحلة الاستعمار الجديد فى صورة اختراق للمؤسسات، واحتكارات واستثمارات، وأحلاف عسكرية، وتبعية سياسية واقتصادية وثقافية؛ وتمثلت أدوات المرحلة بمجموعة البنك الدولى وقواعد عسكرية وبرامج قروض ومساعدات وشركات عابرة للجنسيات والقارات وبرامج تدريبية وتعليمية. كما ترافق ذلك مع محاولة اختراق الضمير أو الوعى، وهى المنطقة الحرجة من الأمة؛ فتمكّن من استمالة حلفاء من بين النخب، لكن هذه الشريحة لم تتسع يوماً لتصبح أغلبية، تكسر إرادة الجماهير والأوطان. فقد تتعرض صورة الأولويات أحيانا للاختلال أو الاضطراب، لكنها غير قابلة للانقلاب. فى أبعد الأحوال، هناك أغلبية مقاومة وأقلية منهزمة، وسيبقى دعاة الهزيمة وثقافة الاستسلام ضمن فئة صغيرة معزولة.

فى سياق هذه الابتلاءات التاريخية الكبرى، تتوافق مقولة المؤرخ البريطانى الراحل أرنولد توينبى حول تفسير الحركة التاريخية العامة بمبدأ «التحدى والاستجابة» مع المفهوم القرآنى للكسب (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت)، والمبدأ القرآنى حول «التدافع» (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض...). وهو مبدأ إلهى يتجلى فيه دور وعمل الغيب فى الخبرة التاريخية، دون إلغاء الإرادة البشرية ودور الفعل الإنسانى. فالأمم تستجيب بالمقاومة كلما ظهرت تحديات البغى والعدوان، وإن لم تكن ذات قدرات مثالية فى هذا المجال. وغالبا ما تكون استجابة الأمة عبر مختلف فئاتها الاجتماعية وتياراتها السياسية وتعبيراتها الثقافية التى تشكل مجتمعة مخزونها التاريخى واحتياطها الاستراتيجى. وتُظهر التجارب أن كل الحركات والأفكار التى اكتشفت مبكراً بوصلة الأمة الحقيقية وحددت أولوياتها وفقاً لذلك، وسارت فى نهجها، نمت وازدهرت واتسعت وتطورت، وأصبحت عنواناً للمرحلة ومعبراً عن إرادة الأمة، والعكس صحيح كذلك.

تقدم هذه المفاهيم بعداً تاريخياً راسخاً وأساساً متيناً لثقافة المقاومة؛ فهى ليست حالة عاطفية أو عشوائية منبتة عن تجارب وتقاليد الحراك الإنسانى، بل هى سنة من سنن الله فى الخلق والاجتماع الإنسانى، وفكرة مجربة وفاعلة فى الخبرة البشرية، وضمان يؤكد جدوى وفعالية هذا النهج.

فى ذلك السياق، تتجاوز الأمم محدوديات واقعها الراهن، وتكتسب طاقات متجددة ومهارات عالية وقدرات واسعة على الاستجابة للتحديات والفعل التاريخى؛ وقد ظهر ذلك فى أكثر من تجربة. فقد استنهضت تحديات الإبادة (التى تعرض لها شعب البوسنة والهرسك) استجابات وحيوية ترقى إلى مستوى المأساة والمجازر والدمار الذى لحق بشعب أعزل وادع لم يكن مستعداً يوماً لمثل تلك التحديات. وعبر هذه المأساة، أعاد البوشناق اكتشاف الذات، وأنجزوا عملية تحول ثقافى وصمود إنسانى، واستردوا القدرة على الفعل والمبادرة، وانتصروا على عنف وهمجية الفاشية والعنصرية.

فى فلسطين، ومع بدايات المشروع الصهيونى، كان معظم المجتمع الفلسطينى ريفيا بسيطا وادعاً، يفتقد إلى تركيب وإبداع المدينة (المتروبوليتان) التى هى أكثر قدرة على تجسيد وممارسة ثقافة المقاومة نظراً لعبقريتها وحيويتها ومؤسساتها وتنوعها الإنسانى والاجتماعى والحرفى. بيد أن الشعب الفلسطينى استجاب للتحديات بسرعة؛ فأنجز نهوضا وطنياً، وثورات ومقاومات، وصموداً مشهوداً. وبعد النكبة أنجز الشعب نهضة تعليمية واسعة أنقذته من الانهيار والانقراض



يعتبر المستشار طارق البشرى بحق أن القرنين الماضيين هما بامتياز قرنا الاستعمار والكفاح ضد الاستعمار. لذلك، كانت البوصلة ـ فى معظم الأحيان ـ واضحة



فقد تتعرض صورة الأولويات أحيانا للاختلال أو الاضطراب، لكنها غير قابلة للانقلاب. فى أبعد الأحوال، هناك أغلبية مقاومة وأقلية منهزمة

والتلاشى، ورفدت حركته الوطنية بإمكانات وموارد هامة.

كانت معظم المدن العربية حتى بداية العصر الحديث محصنة بقلاع وأسوار وتقاليد قتال عريقة. ورغم انقضاء عصر الأسوار والقلاع، استمرت تقاليد المواجهة والمصابرة والمثابرة والصمود فى وجه الحصار ودحر الغزاة فى الانتقال عبر الأجيال، كما تواصل ميراث أبناء المدينة من تقنيات ومهارات وأدوات حرب الشوارع والحوارى والأزقة التى يشارك فيها الرجال والنساء والشبان وكافة أصناف الجماعة الأهلية. وقد تنوعت تلك الأدوات من المقاليع التى ترمى المحتلين بالحجارة، والخطافات والحبال التى تنهال من أسطح الحوارى لتأسرهم، وقدور المياه المغلية التى كانت ترميهم بها السيدات من شرفات المنازل، إلى استخدام أسطح المنازل كطرق للانتقال والمناورة، ونصب الشرك واستدراج الأعداء إليه. كانت هذه التقاليد فى أحياء المدن العربية العتيقة حالة مشتركة وممتدة من حى القصبة بمدينة الجزائر فى زمن مقاومة الاحتلال الفرنسى إلى حى القصبة بمدينة نابلس خلال الانتفاضتين الأولى والثانية.

تستدعى هذه التجارب إلى الذاكرة صمود وانتصار مدينة عكا -بقيادة أحمد باشا الجزار- ضد حصار نابليون حتى انتشر الطاعون بين جنده، فانهار الحصار واضطر للانسحاب. ونتذكر قبل ذلك صمود مدينة الإسكندرية -بقيادة السيد محمد كريم- أمام حملة نابليون واستبسال أهلها فى الدفاع عنها، وثورتى القاهرة الأولى والثانية بقيادة نقيب الأشراف السيد عمر مكرم وعلماء الأزهر الشريف ضد الاحتلال الفرنسى، وانتصار أهل رشيد الباهر ومحيطها على حملة فريزر البريطانية، وثورة دمشق الكبرى عام ١٩٢٥، وغيرها من الملاحم التى سطرتها مدن العرب. بل إن صمود المدن الفلسطينية والعراقية واللبنانية اليوم فى وجه حرب التدمير الهمجية هى صفحات مجد ناصعة فى تاريخ ونضال المدينة العربية.

تتجلى عبقرية المدن والمجتمعات العربية فى كثافة وتعدد وتنوع تنظيماتها الاجتماعية ومؤسساتها الثقافية والاقتصادية، وحيوية شرائح المجتمع، وفعالية العلاقات والروابط فيما بينها، وكل ذلك نتاج إيمان راسخ وخبرة حضارية عريقة. هذه العبقرية لا تزال حية وقابلة للاستنهاض والتفعيل فى وجه التحديات الكبرى.

المفارقة الغريبة هى أن الشعوب والجيوش والإدارات التى كانت تمارس الاحتلال أو الاستعمار هى التى وقعت بالفعل تحت احتلال المنظومة المعرفية الامبريالية العلمانية وسيطرة الدولة القومية الحديثة التامة. فالأولى تنزع القداسة عن الإنسان وتدعو لغزوه وتسخيره وإخضاعه وتتبنى علمانية تعزل القيم المعرفية والأخلاقية عن الحياة. وتحتكر الثانية وسائل القوة والعنف، وتهيمن على كافة مناشط الحياة، وتقوض استقلال الجماعات والمؤسسات التقليدية. تشكل الأولى روح وعقل الثانية، بينما يمثل المشروع الامبريالى الاستعمارى نقلاً أو تعميماً للمنظومة المعرفية والأخلاقية العلمانية من الغرب إلى العالم.

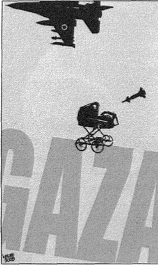
فى المقابل يُظهر النموذج التاريخى التقليدى للدولة السلطانية فى العالم الإسلامى -حتى بداية عصر التنظيمات فى القرن التاسع عشر- أن الدولة كانت تشغل مساحة محدودة فى حياة الأمة، بينما تشغل الجماعة الأهلية بمؤسساتها وعلمائها وتجارها وأصنافها (أهل الحرف) وطرقها الصوفية ونقاباتها وأوقافها ومدارسها معظم مساحات الحياة والحراك الاجتماعى والاقتصادى والثقافى. أدى ذلك ولا يزال إلى تحرير الإنسان والمجتمع من محاولات الهيمنة على روحه وضميره وإرادته أو محاولة استعباده. ولكن العامل الأهم هو عقيدة التوحيد التى تنفى أى قداسة أو عصمة عن غير الله تقدست أسماؤه وكتبه ورسله، مما يطيح بأى محاولة لمأسسة أو منهجة الطغيان المتلبس بالمقدس أو بغيره من الظهور واستعباد الإنسان أو المجتمع.

هنا نقطة البدء فى بناء ثقافة المقاومة كمشروع ونموذج لتحرر الإنسان من الطاغوت، وتحرر الأوطان من الاستعمار والهيمنة. ■

كتاب الزاوية



غزة On Line



رغم حصار اعلامى حرصت الآلة الحربية الاسرائيلية على فرضه على مايجرى فى قطاع غزة بمنعها المراسلين الأجانب من الدخول الى القطاع. ورغم غياب التغطية «المكافئة للحدث وعدد الضحايا» عن عديد من وسائل الاعلام الغربية «التقليدية» فى الأيام الأولى للمجزرة، الا أن «الاعلام الجديد» كان حاضرا وبقوة من اليوم الأول. احتلت الشعارات والرسوم مواقع الانترنت. وملأت مقاطع الفيديو «الدموية» المواقع المخصصة للبث (أكثر من ٥٨ ألف مقطع على يوتيوب وحدها).

الأكاديميون والصحفيون الكبار لم تغب مقالاتهم وآراؤهم أيضا عن الشبكة العنكبوتية. سواء منها مانشر أيضا فى الصحف، أو مااقتصر نشره على مدوناتهم.

ورغم أن بين السياسيين والاعلاميين العرب من حمل الفلسطينيين مسؤولية ماحدث، فقد كان لافتا «ومهما» أن أكاديميين اسرائيليين (مثل آفى شلايم) كانوا أكثر عدلا وموضوعية.

«وجهات نظر» اختارت لزاويتها هذا الشهر بعضا من تلك الكتابات والآراء. كما حرصت على أن يكون من بينها ماكان شديد التحيز لصهيونيته (مثل الأستاذ فى جامعة هارفارد الان م ديرشويتز)، حتى تكتمل أمامنا صورة مايقرأونه هناك.





اللورد كرومر الذي ادعى الدفاع عن حقوق النساء في مصر كان من أبرز الأعضاء فى اللجنة المناهضة لحصول النساء البريطانيات على حقوقهن السياسية



ذاك الانشغال بالنساء!

شـيـريـن أبـو الـنـجـا

■■ لا أعتقد أن هناك فترة تاريخية ولحظة سياسية انشغلت فيها كافة الخطابات -على المستويين السياسى والدينى من جهة والرسمى والمعارض من جهة أخرى - بالنساء كما يحدث الآن. إلا أنه من الملاحظ أيضاً أن هذا الانشغال يقتصر على حدود مادية ضيقة، حيث يسعى كل طرف مشارك فى المشهد السياسى إلى وضع لافتاته على تلك الحدود: إما فى محاولة لاستلابها، أو فى محاولة لإعلان مواقف عبر توظيف النساء. وهو ما يلغى بالتالى ذواتهن الفاعلة، بما أن هناك دائماً من يحدد لهن الخطاب والمسار.

ربما يقال أن هذا كلام ليس بجديد، لكن الأمر ليس كذلك إذا أكدنا أن هذه الحدود الضيقة التى تنشغل بها كافة الخطابات فى اشتباكها مع النساء[1] تتمركز حول الوجود الفيزيقى الذى يتخذ عدة أشكال: يتجلى الشكل الأول- وهو السائد- منذ منتصف التسعينيات تقريباً فى التنبه إلى ضرورة وجود امرأة أو اثنتين فى أحسن الاحوال، فى كافة المؤتمرات الرسمية، أو تلك المتعلقة بالأمم المتحدة، وهو غالباً ما يكون اختياراً سريعاً وعشوائياً مما يقلل من إمكانية الإضافة الفكرية القادرة على تغيير الرؤية السائدة. بتكرار ذلك النمط من الإضافة الشكلية السطحية تظهر آلية تصفها المفكرة الهندية جاياترى سبيفاك أنها تعتمد على مجرد اضافة النساء شكلا وليس مضمونا مما لا يغير الوضع القائم[2]. أما الشكل الثانى الذى يتجلى فيه ذاك الانشغال بالنساء على ذات المستوى الفيزيقى الضيق فهو ما يمثل مشكلة تاريخية، إنه الجسد. فلقد تحولت أجساد النساء إلى منطقة صراع وتفاوض. هل نغطى أجساد النساء وبذلك نكون رجعيين من وجهة نظر العقلانيين، ولكننا مسلمون نلتزم بالفرائض. أم نكشف أجسادهن وبذلك نكون أكثر تقدماً من الغربيين ومناهضين للانغلاق؟ وقد تعمدت استخدام ضمير «نحن» المضمر للإشارة إلى عدم إعطاء النساء حق المشاركة فى الجدل القائم حول هذا الاختيار. وما أعنيه هنا ليس الاختيارات الفردية التى تقوم بها بعض النساء فى ارتداء الحجاب من عدمه، لكننى أقصد التوجهات السياسية التى تعمد إلى توظيف النساء قسرا لفرض شكل ما من الهيمنة الثقافية. وقد أثبت التاريخ السياسى للمنطقة العربية والإسلامية أن النساء هن دائما المفتاح لامتلاك هذه الهيمنة.

يبرز فى هذا الصراع الخفى مصطلح «الحجاب» الذى لاينافسه فى كثرة الاستخدام والتداول سوى مصطلح «الديموقراطية». فلم ينشغل مجتمع بالحجاب كما انشغل - ولا يزال - المجتمع المصرى والعربى. تتقاطع المسارات وتتعقد فى هذه الاشكالية. فهناك اتجاه ينادى بالحجاب ويحث عليه انطلاقاً من أرضية إسلامية تستشهد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، وهناك من يؤكد أن الحجاب لم يفرض إلا على نساء النبى (صلى الله عليه وسلم)؛ وهناك اتجاه علمانى يعتبر الحجاب علامة على العودة إلى الخلف بتأثير فكر وهابى قادم من شبه الجزيرة العربية ودليل على صعود النزعة الإسلامية فى المنطقة، وهناك تيار عقلانى يرى أن الانشغال بالدعوة للحجاب يهدف إلى التعتيم على قضايا سياسية هامة[3]، وهناك من يرى أن الحجاب أو السفور يندرجان فى بند الحريات الشخصية، وهناك من يرى أن الحجاب ليس إلا تعبيرا عن أحد أشكال التواطؤ الاجتماعى والنفاق المقدس ويدلل على ذلك بصدور أفعال غير لائقة سلوكياً من بعض المحجبات (ناسين أنهن جزء من المجتمع)، وأخيراً هناك اتجاه فكرى يؤمن بأن الحجاب ليس سوى رمز أيديولوجى يستخدم لإعلان موقف، بمعنى أنه علامة تمثل خطاباً مستقلاً بذاته لا يحتاج إلى شرح ولا ينقصه محتوى، فالمحتوى هو الشكل والعكس صحيح.

فى كل هذه الاتجاهات التى تحتل الساحة بقوة، تدور عجلة الصراع أو التفاوض بشكل مكتوم يوشك على الانفجار (أو ربما قد انفجر فعليا). فالخطاب الشعبى السائد يؤيد الحجاب بلا جدال وهو ما يسمح لكافة التيارات الدينية أن تعلن تأييدها المطلق له دون أى حسابات وبدون أى محاذير ولذلك يأتى الصوت المخالف وكأنه نشاز[4]. فى ظل هذه الثنائية غير المتكافئة ينحصر النقاش فى خانة فقهية خالصة تقع فى اختصاص رجال الدين فقط على مستوى الدراسة، أو تتجلى فى شكل فتاوى الفضائيات والمقالات الصحفية. الغريب فى كل هذه الضجة (مع الإقبال المتزايد على ارتداء الحجاب) هو ضآلة، بل ندرة، الدراسات العلمية والبحثية الجادة، ووحدهم الفقهاء هم من يتناولون وعلى نطاق واسع موضوع الحجاب. وهكذا ظلت المسألة حتى يومنا هذا منحصرة ما بين خطاب فقهى يؤكد أن الحجاب فرض وما بين خطاب (سمه ما شئت) مناهض للحجاب يتوازى انتشاره مع انتشار تيارات دينية «محافظة».

فى وسط هذا الصراع الفكرى الذى يتم تأجيجه عبر الصحف والفضائيات وساحات المحاكم[5] تبرز الصور كوسيلة محركة للأفكار. قد تكون للصورة حياة خاصة بها، وقد تكون أحد الدوافع المحركة للأحداث وللصراعات وللأفكار. فى بداية القرن الحادى والعشرين لا يمكن التقليل من شأن الصورة التى تكون دائما محملة بخطاب مؤكد للواقع أو ناف له أو مفارق

للاستزادة:

الحجاب: بين المحلى والعولمى. هوية سياسية أم دينية
شيرين ابو النجا
المركز الثقافى العربى. الدار البيضاء. المغرب ٢٠٠٨

رمزية الحجاب: مفاهيم ودلالات
عايدة الجوهرى
مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ٢٠٠٧

تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط
زكارى لوكمان
دار الشروق. القاهرة ٢٠٠٧

الصورة للمصورة الايرانية Shadi Ghadirian





التوجهات السياسية التي تعمد إلى توظيف النساء قسرا لفرض شكل ما من الهيمنة الثقافية

عنه. لقد تحولت الصورة إلى وسيلة لاختزال الخطاب، أو لتشويه خطاب آخر أو حتى لبناء خطاب جديد. والصورة لا تعبر فقط عن محتواها، أى المفردات التى تقدمها، بل تعبر أيضا عن النظرة gaze التى انتقت تلك المفردات بعينها والشكل الذى تقدمه بها. فى هذه الصورة يتحول الجسد المكشوف أو المغطى إلى «كيان بلاغى بمجرد ما يتأطر بالتحولات التصويرية، وبمجرد ما يغدو جسدا خطابيا. إنه يغدو جسدا مثاليا ونموذجيا، خاصة حين يتعلق الأمر بتعميم صورة وحيدة له. بيد أن تاريخية النموذج وتغيراته ليست فجائية ولا تتأثر إلا قليلا، وتدريجيا، بالتحولات السياسية والاجتماعية. ذلك أن متخيل الجسد منغرس فى الذاكرة الليبيدية والخطابية للفرد»، كما يشرح فريد الزاهى تفصيلا فى كتابه «الجسد والصورة والمقدس فى الإسلام» (١٠٨-١٠٩).

عند هذه النقطة يبدو «الغرب» طرفاً رئيسياً فى هذا الجدل ولو بشكل ضمنى، فالاشكالية لا يؤججها مجتمع مرتكز على بنية أبوية تعمد إلى ترويج وجودها السياسى فقط. فهذا المنظور الأحادى تتبناه معظم التفسيرات والرؤى الغربية التى سادت منذ القرن السابع عشر. وهى الرؤى التى كانت (ولايزال البعض منها) يتجاهل الاستعمار وما خلفه من آثار لم تمح حتى الآن. تبدو النظرة الغربية لمسألة الحجاب متشعبة الأطراف ومختلفة باختلاف السياقات. فأحيانا يستخدم الحجاب- بالإضافة إلى الختان وتعدد الزوجات- كإحدى وسائل التحقير للثقافة الإسلامية وهو ما يدفع العديد من المشتغلين فى المجال الحقوقى السياسى إلى اتخاذ رد فعل اعتذارى أو دفاعى. يخفت هذا التحقير أو يعلو طبقاً لمقتضيات اللحظة السياسية. ومع خفوت النبرة وصعودها تتأرجح مجتمعاتنا لتلبى نداء زائفاً لا علاقة له بالجوهر الذى يتم على أساسه نسج علاقات القوى. فبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر سارعت مصر- وبقية العالم العربى- إلى ابتداع آلية «تحسين صورة الإسلام». لم تنتبه الأطراف التى شاركت فى هذه الحملة إلى أن التنديد بالحجاب والختان وتعدد الزوجات وفصل الجنسين ليس بالأمر الطارئ والمستجد. كل ما فى الأمر أن النبرة التى كانت خافتة بعض الشىء عادت بقوة مع انهيار البرجين عام ٢٠٠١، كانت اللحظة تستدعى نبرة عالية لخدمة أهداف سياسية لا تتعلق بالنساء أو حجابهن مطلقاً.

معظم ما يحدث الآن له جذور تاريخية فى سياسات استعمارية حملت دائماً غايات وأهدافا. وقد قام المفكر الفلسطينى ادوارد سعيد بتقديم شرح واف وتحليل عميق لهذه الإشكالية فى كتابه «الاستشراق» والذى أثار صدوره عام ١٩٧٨ ضجة كبيرة لأنه كشف الكيفية التى صنع بها الغرب ما يسمى «الشرق». هو الشرق الذى تحول إلى مكان يقدم للغرب إمكانية صنع هوية واضحة عبر الآخر، وهو الذى مكن الغرب من صياغة ثنائيات متضادة ينتمى الشرق فيها للجزء السلبى. كان صنع الشرق- وهى صناعة ارتكزت كثيرا على الصور- ضرورة ملحة ليتم تبرير السياسات الاستعمارية ولإقناع المستعمر (بفتح الميم) بخوائه التاريخى. فى هذه الصناعة تحتل النساء جزءاً هاماً بل رئيسياً.

مع مجىء الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ واجهت الأنا الآخر بشكل مباشر. ولم يدخر الغرب أى جهد ليصور المنطقة وكأنها تضم مجموعة من الشعوب الهمجية التى لا تتبنى التفكير المنطقى ولا ترقى إلى مستوى الغرب وقدراته، والأهم أنها منطقة تقطنها شعوب تعتنق الإسلام الذى هو السبب فى كافة أشكال التخلف عامة، وتخلف أوضاع النساء بشكل خاص. بالطبع لم يكن كل ذلك سوى محاولات لتبرير الاحتلال. فإذا رسخت صورة المصرى بوصفه متخلفاً فهذا يسهل الكثير من التبريرات للذات وللآخر. وقد ظهرت تلك الآلية جلية فى خطاب اللورد كرومر- المندوب السامى البريطانى آنذاك. والحقيقة أنه من أكثر الأطراف التى أوقعت الضرر بالنساء فى حينها، وذلك عندما رفع مصروفات الدراسة فأحجم المصريون عن تعليم البنات الذى كان قد بدأ ينتشر بشكل محدود، كما أنه لم يسمح سوى للقابلات بالالتحاق بمدرسة الحكيمات. ورغم ذلك فقد كان هناك بعض النساء اللواتى سمحت لهن ظروفهن أن يحصلن على قدر جيد من التعليم. فى ظروف الاحتلال التى أدت إلى نفور المصريين من كل ما هو بريطانى (كرمز للاستعمار) وفى محاولة للتشبث بثوابت (وهو رد فعل طبيعى لأى استعمار) كان من الطبيعى أن يتم النظر إلى النساء بوصفهن رمز الأمة، وهو الأمر الذى لم يتوقف حتى يومنا هذا- للأسف. تمادى اللورد كرومر فى وصمه للمرأة المسلمة - وللإسلام بشكل عام. ففى كتابه «مصر الحديثة» الذى أصدره فى جزءين، جاء رأيه صادما من ناحية، ومن ناحية أخرى مؤكداً لنظرية ادوارد سعيد فيما يخص الاستشراق الذى يهدف إلى الحط من الآخر لتحصل الذات (البريطانية فى هذه الحالة) على مكانة أكثر رفعة وتميزاً. بل إنه يصل إلى مرحلة إلصاق صفات جوهرية بالإسلام تحط من شأن المرأة وذلك مقابل جوهر المسيحية التى تعلى من شأن النساء. بمعنى آخر، يرى كرومر أن أوضاع النساء فى مصر آنذاك كانت تعود إلى الدين (٥٣٨- ٥٤٠). وفى مكان آخر من الكتاب يستشهد كرومر بقول ستانلى لين بول أن الإسلام دين عظيم من الناحية الروحانية لكنه فاشل تماماً كنظام اجتماعى. ويفسر كرومر أسباب هذا الفشل بالتأكيد على فكرة أن أوضاع النساء هى أول وأهم هذه التجليات (١٣٤).

وكأن - والأمر فعلاً خادع - اللورد كرومر يدافع عن النساء! بإجراء تحليل سريع لخطابه يتبين أنه يقارن وضع المرأة الإنجليزية المتميز بوضع المرأة المصرية المتدنى (لذلك لم يأت كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» ١٨٩٩ من فراغ). وربما كان خطاب اللورد كرومر تجاه النساء هو البذرة الأولى التى ترسخت فى اللا وعى المصرى وجعلته يساوى تحسين أوضاع النساء بالتطبيع مع المحتل الامبريالى، وهو الأمر الذى تطور فى العصر الحديث واتخذ شكل معاداة أى خطاب نسوى، بوصفه خطابا متغربنا. لكن ما لم ينتبه له البعض هو أن اللورد كرومر نفسه كان من أبرز الأعضاء فى اللجنة المناهضة لحصول النساء البريطانيات على حقوقهن السياسية - أى الترشيح والتصويت فى الانتخابات. الرجل كان بالفعل معادياً لحقوق النساء ولكن من أجل تبرير الاحتلال وتصوير الآخر بوصفه الوحشى الهمجى لم يكن لديه أية غضاضة فى أن يرتدى ثوب المدافع عن المرأة المصرية التى سلبت منها حقوقها عبر الدين الإسلامى، أى عبر الرجل غير المتحضر.

ارتداء الحجاب كعلامة:

فى كل مكان كان الاستعمار يخترع من البيئة ذاتها مبرراً لاحتلاله هذا المكان أو ذاك. فما فعلته بريطانيا فى مصر- من اتخاذ وضع النساء تكئة لتبرير الاستعمار- تكرر فى الهند، إذ تم وصم نساء الهند بالتخلف بسبب طقس الساتى sati (حرق الزوجة التى يموت زوجها). وفى هذا الوصم تجاهل المستعمر البريطانى أن الهندوسية ليست إلا واحدة من ديانات الهند، كما تظاهر أيضاً أنه مدافع عن حق النساء فى الحياة رغم كل ما له من مطامع رأسمالية استدعت دائماً انتهاك كافة الحريات. كانت الخطة إذن تقتضى ربط التواجد الاستعمارى بقضايا النساء ليبدو الأمر كما تقول سبيفاك «أن الرجال البيض .. ينقذون النساء السمراوات من الرجال السمر» (٢٩٦). وفى الكتاب الذى أعدته كل من رملة خالدى وجوديث تاكر، تذكر المؤلفتان أن هناك سمات محددة للاستعمار فى العالم الثالث:

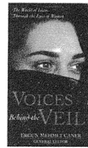
فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين دائماً ما استخدمت القوى الاستعمارية قضية النساء لتدفع بأجندتها فى المنطقة. فقد كان منطقهم يقول إن قهر النساء يبرر التدخل الاستعمارى، وأن المشروع الامبريالى سوف يرتقى بالنساء إلى

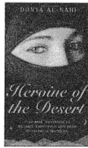


تبدو النظرة الغربية لمسألة الحجاب متشعبة الأطراف ومختلفة باختلاف السياقات

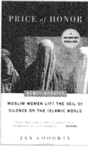












مصاف المساواة الموجودة في أوروبا الشمالية. وإذا نحينا جانباً مدى صدق ومشروعية هذه الادعاءات، سوف نجد أن ربط قضية النساء بالتدخل الغربي مع القول بمعايير غربية لا بد أن يطمح الكل إليها قد خلقت ميراثاً سيئاً من عدم الثقة.

ربما يجب أن نفسر قليلاً أشكال «عدم الثقة» الكامنة بقوة حتى الآن في ثقافتنا. فعبر قرون من الخبرات السيئة، وعبر سياقات قدم فيها المستعمر نفسه بوصفه محرر النساء كان لا بد من معاداة التغريب والغرب ولو على مستوى الصور الذهنية. ولم تكن هذه المعادلة سهلة إلا إذا اختزلت في النساء، أو بالأحرى صورة النساء. عندما تتحول المرأة إلى رمز الوطن والشرف والأمة، ويصبح عليها عبء الحفاظ على هوية الوطن. وهذه العداوة (التي غالبا ما تكون قائمة على ازدواجية) تتحول أحيانا إلى أحد الأسس التي يقوم عليها خطاب تبرير انتشار الحجاب والأهم أنها عداوة تحول الحجاب إلى إحدى دعائم الهوية عبر نسج خطاب تراكمي يعمق الهوة بين ثنائية الأنا المتمسكة بالفضيلة والآخر الذي هو مكمن الرذيلة.

وإذا كانت منظومة «الهوية» هي ما كان يتم نسجه في العالم الثالث عبر النساء ومن ثم التشبث به في وجه المستعمر (الجزائر هي أشهر نموذج لذلك) فإنه في مراحل ما بعد الاستعمار وتدريجيا وبظهور النظام العالمي الجديد تحول الحجاب إلى إحدى دعائم الهوية المجتمعية، بمعنى أنه تحول إلى علامة تدل وتؤشر على الانتماء لجماعة ما داخل المجتمع بأكمله. في كتابها القيم «رمزية الحجاب: مفاهيم ودلالات» قدمت عايدة الجوهري، الباحثة اللبنانية، تحليلا وافيا لهذه النقطة ووصلت إلى فكرة مفادها:

إن للحجاب قيمة اجتماعية رمزية كبيرة الأهمية، يدل على الهوية الاجتماعية لحاملاته، إذ مهما تكن الدرجة التي تلعبها ذاتية الواحدة منهن في اختيار الحجاب المناسب لها بحسب ذوقها الشخصي، فإنه يحدد إلى درجة كبيرة الفئة الاجتماعية والمجال الاجتماعي الذي تنتمي إليه، كما يعتبر مؤشرا على تمثل للتوجهات المعرفية والدينية والحضارية التي ترتسم في المجتمع، والهادفة إلى تثبيت شخصية اجتماعية محددة (ص٤٥).

يفهم من هذا التحليل أن الحجاب تحول إلى علامة تمايز اجتماعي بشكل عام أو بالأحرى علامة توافق اجتماعي مع الأفكار السائدة المتعلقة بعفة وشرف النساء المستمدين من «تغطية الشعر» وهو ما يظهر في شكل الحجاب السائد المتعدد الألوان والأشكال. لكن الملاحظ أيضا أن الحجاب قد تحول إلى علامة تمايز سياسي أيديولوجي، علامة تؤشر على انتماء سياسي بحت يتخذ من العقائدية مرتكزا يساهم في التحالفات وأشكال التضامن (وبالتالي الإقصاء)؛ واقتصادي بمعنى طبقي يؤشر بوضوح على التمايز في الانتماء الاجتماعي، ويعمق الفجوة بين الطبقات في المجتمع، بل يتحول الحجاب في هذه الحالة إلى رمز للسطوة والثروة نافيا تماما الهدف الأصلي المنشود وهو «المساواة». وبالتدريج أصبحت النساء أنفسهن ينتجن خطابا ضمنيا مشابها لفكرة الحرائر والإماء وهو ما يتجلى في فكرة استحقاق غير المحجبة لكل ما يقع من أذى وتحرش في المجال العام باعتبارها ترتدي «ملابس غير لائقة».

خلع الحجاب باعتباره علامة:

عندما قامت الولايات الأمريكية المتحدة بدك أفغانستان للقضاء على حركة طالبان، كان أول ما قام اللاوعي العسكري الأمريكي بتقديمه إلى العالم هو إظهار سيما سامار وزير شئون المرأة وهي لا ترتدي الزي الذي فرضته طالبان، بل ظهرت على كل الفضائيات بوصفها النموذج الذي تمكنت أمريكا من صنعه - المرأة المحررة من القيود: سواء كانت قيود الملبس فهي ترتدي زياً غربياً، أو قيود الحركة فهي تلقى كلمة بمكتبة جون كيندي بأمريكا، أو قيود التعبير عن الرأي وذلك باعتبار الصورة التقطت لها أثناء فعل الكلام. بصورة واحدة أوصلت أمريكا رسالتها إلى العالم: الغزو تمكن من تحرير النساء من التخلف الذي كن عليه من قبل.

ويشرح الناقد روبرت يانج المتخصص في مجال الدراسات مابعد الكولونيالية أن «الحجاب قد أصبح بشكل متزايد مركز اهتمام كل من يسعى إلى علمنة المجتمعات الإسلامية» (٢٠٠٣:٨٣). ويسوق الجزائر مثالا صارخا لذلك، حيث ابتدع الفرنسيون هناك «معركة الحجاب»، وهناك أيضا إيران التي أصدر فيها الشاه قرارا بحظر ارتداء الحجاب تأسيا بالمجتمعات الغربية ومن ثم كان فرض ارتداء الحجاب مع الثورة الإسلامية رد فعل طبيعيا لذلك الحظر، ويعتبر «فرض» الحجاب- من وجهة نظري- وجها آخر للتطرف مما يثير العديد من الإشكاليات المتعلقة بمفهوم الحرية والاختيار في الإسلام.

بكل تلك المعاني المتعددة الناتجة عن سياقات سياسية وتاريخية مختلفة يتغير معنى الحجاب تلقائيا كعلامة، فهو أحيانا علامة تحد وسيطرة واختيار وأحيانا أخرى، علامة خضوع وقمع أو سيادة لقيم غربية. إلا أن الملاحظ أنه في الحالتين، حالة فرض ارتداء الحجاب (الجزيرة العربية وإيران) أو حالة فرض عدم ارتدائه (إيران الشاه وتركيا) تتحول النساء إلى مساحة تختزل فيها كافة القيم ويزداد تكثيفها ليصل الأمر إلى تنصيب الحجاب (سواء ارتداؤه أو خلعه) باعتباره هوية. وهذه هي بالتحديد إحدى أهم الاشكاليات التي لابد من التعامل معها لمحاولة إزاحة العبء الملقى على كاهل النساء والذي يختزل إنسانيتهن في رمز أوحد يعتمد على تأجيج الصراع بين الشرق والغرب، هذا بالإضافة إلى تحويلهن لمجرد أداة طيعة تعلن عن علاقات القوى السياسية.

من الاستشراق إلى مابعد الاستعمار:

مع أفول شمس القرن التاسع عشر ومن بعده القرن العشرين، لم يغير الغرب نظرته الراسخة للآخر وقد ساعدته على ذلك الظروف السياسية التي أدت إلى تصاعد تيار يميني محافظ في العالم أجمع. كل ما في الأمر أن المناهج الاستشراقية التي ازدهرت منذ القرن التاسع عشر تغير اسمها، وبالتالي تغيرت منظومة المصطلحات النقدية الخاصة بها. فظهر مجال الدراسات الثقافية الذي ينهل من كافة المجالات التخصصية المختلفة interdisciplinary (علم الاجتماع، علم النفس، علم تحليل العلامات، النظرية النقدية الأدبية، السينما.... إلخ)، وهو المجال الذي يمكن أن يخضع أي ظاهرة للتحليل والقراءة، بل هو المجال الذي يمكنه طرح أي سؤال. فكما يوضح المفكر البريطاني تيري ايجلتون: «بدلاً من سؤال هل لهذه القصيدة قيمة؟ تسأل النظرية الثقافية، ماذا نعني بقولنا إن القصيدة جيدة أو رديئة». وبذلك حل المنظر الثقافي محل ما كان يعرف بالمثقف وذلك بعد استيلاء ما بعد الحداثة على مساحة الحداثة. لكل هذه الظروف يهتم الغرب الآن بالتنظير ودراسة ثقافة المجتمعات الأخرى[٦] من خلال ممارسة كل آليات الاستشراق الكلاسيكي ولكن هذه المرة تحت مسمى «الدراسات الثقافية» التي تحتل فيها النساء النصيب الأكبر. بمعنى آخر، تحول العالم العربي - المناطق المتاحة منه - إلى مكان يوفر بكرم شديد المادة الخام للعقل الأكاديمي الغربي الذي يقوم بصياغة النظرية - وبذلك يتم الاستحواذ على إنتاج المعرفة (الناتج الطبيعي للسيادة الاقتصادية والسياسية والعسكرية).

بنظرة سريعة على معظم الأبحاث المنتجة في الغرب حول الحجاب، نجد أنها في جوهرها - بمعنى رؤيتها المعرفية - لاتختلف عن معظم ما كتب في القرن الثامن عشر والتاسع عشر عن الحريم.

فهناك النظرة التي تحاول أن تخترق المختفي سواء في



كثيرا مايستخدم الحجاب - بالإضافة إلى الختان وتعدد الزوجات - كإحدى وسائل التحقير للثقافة الإسلامية







فى كل مكان كان الاستعمار يخترع من البيئة ذاتها مبرراً لاحتلاله هذا المكان أو ذاك. فما فعلته بريطانيا فى مصر - من اتخاذ وضع النساء تكئة لتبرير الاستعمار - تكرر فى الهند



حالة الحجاب أو فى حالة أماكن النساء الخاصة - لتمتلك المعرفة. والحقيقة أننى لا أشير هنا إلى كل الدراسات التى تصور الحجاب بوصفه علامة على التخلف - فهى كثيرة ولا تحصى ولاتشكل علامة بارزة فى التحليل الأكاديمى الغربى إلا بقدر مساهمتها فى تثبيت صور نمطية. بل إننى أتحدث عن المنهج والرؤية المعرفية التى يتناول بها البحث الغربى موضوعه، وهو التناول الذى لم يتخلص من آثار المناهج الاستشراقية، وإن كانت المسميات قد تغيرت تماما بفعل الاتساع الشديد فى مصطلحات علم الأنثروبولوجيا. ويؤدى تراكم هذه الموضوعات إلى إنشاء أقسام أكاديمية يقوم تخصصها على تقسيم العالم إلى مناطق، مثل قسم دراسات الشرق الأوسط، قسم الدراسات الإسلامية، أو قسم دراسات العالم الثالث. وهو المجال الذى عرف فى الغرب باسم area studies والذى تتحول فيه حياة الشعوب رهن الدراسة إلى مجموعة من الصور - سواء الفوتوغرافية أو السينمائية أو التشكيلية النابعة من صور ذهنية ونفسية ونمطية، وغالباً ما تكون هذه الصور مصحوبة بملاحظات ومقابلات ميدانية أجراها الباحث بالإضافة إلى المنحة التى يتلقاها من جامعته لزيارة البلد محل الدراسة.

لا ينفى هذا النمط المنهجى السائد وجود مناهج مناهضة تحاول تفكيك النمط الأوحد للحداثة الغربية عبر قراءة علاقات القوى. لابد من الإشارة هنا إلى واحد من أفضل الأبحاث التى قامت بتتبع تاريخ الاستشراق منذ ظهور الإسلام، وهو كتاب الباحث الأمريكى اليسارى زكارى لوكمان Zachary Lockman وعنوانه «تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط»[٧]. يحلل الكاتب الأطر والطرق التى تم بها التعامل مع الإسلام منذ زمن الإغريق والرومان، حتى يصل إلى اللحظة الحالية. ويبدو الأمر بشكل عام مرتكزا على السيطرة الاقتصادية وطرق التجارة. الا أن حلول الاستعمار كان يستدعى القيام بأبحاث تشرح تلك المناطق المستعمرة، ومن هنا ظهر تدريجيا الاستشراق الكلاسيكى، ذاك المنهج الذى يتعامل مع الإسلام بوصفه كيانا لا تاريخيا، مصمتا، أحاديا، ثابتا، غير متفاعل مع الزمن، ومعتنقوه هم بالطبع حاملو صفات معينة لا تتغير، من قبيل الهمجية واللاعقلانية. وبذلك أصبح الباحثون يتكلمون عن ما يسمى «الإنسان الإسلامى». وهى الآلية التى يسميها لوكمان «الجوهرانية الثقافية». بمعنى أن المسلم يتحول إلى حامل لصفات جوهرية متأصلة فيه مما يضعه خارج الزمان والمكان، ويسهل اختزال الثقافة الإسلامية بأكملها فى عدد محدود من الصفات السلبية، وهو الاختزال الذى يمهد تشكيل صورة الغربى باعتباره المتفوق والأعلى شأنا. يسرد لوكمان أمثلة تفصيلية لمثل هذه الرؤى التى كانت محركة للسياسات الغربية تجاه الآخر والتى تشترك جميعها فى التعتيم على واقعة هامة فى التاريخ وهى واقعة الاستعمار.

بحلول القرن العشرين، وبالتحديد منتصفه، بدأت الادارة الأمريكية فى انشاء أقسام متخصصة لدراسة «تلك» الشعوب ولغاتها، مما جعل البحث العلمى تابعا وخاضعا للمصالح السياسية فى المنطقة. وهذا هو السياق الذى ظهر فيه على سبيل المثال برنارد لويس، أشد المستشرقين شراسة، وصموبل هنتنجتون بنظريته المعروفة عن صدام الحضارات، وتوماس فريدمان الذى تحول إلى نجم إعلامى. يرصد لوكمان التحول الجذرى الذى حدث فى العلاقة بين باحثين فى الجامعات والسياسة الأمريكية بدءا من الثمانينيات. فقد أصبحت التبعية لوكالة المخابرات المركزية سببا للشجب والإدانة والنبذ الأكاديمى، وتدريجيا اتسعت الفجوة بين الطرفين وأصبح البحث العلمى فى مجال دراسات الشرق الأوسط محترما ونزيها. إلا أنه - كما يقول لوكمان - كل شىء له ثمن. ففى حين رفض الباحثون التعاون مع دوائر صنع القرار السياسى، كان هناك الكثير من الذين قبلوا ذلك، ومن هنا ظهرت مستودعات الأفكار think tanks التى ظلت توظف نفس آليات الاستشراق الكلاسيكى تحت مسميات مختلفة، وبآليات تبدو وكأنها محايدة وموضوعية. وهو السياق الذى استعاد فيه برنارد لويس نجوميته التى كانت قد بدأت تخفت أمام صعود فكر أكاديمى جديد يرفض الجوهرانية الثقافية ويعمد إلى تحليل المجتمعات من منظور الاقتصاد السياسى والطبقة والنوع ولا يغفل مطلقا المنظومة الاستعمارية.

ما أهدف إليه من هذا العرض السريع لكتاب لوكمان هو التأكيد على أنه لا يصح أن تتعامل مع الغرب بوصفه كيانا واحدا مصمتا معاديا للإسلام وللعرب. فهذا يعتبر تطرفا وتشويها أكاديميا بحتا يعبر عن نزعة شعوبية تعيد انتاج مقولة هنتنجتون. بالاضافة إلى أنه يعتبر مجرد «استشراق معكوس»[٨] كما قال المفكر صادق جلال العظم فى معرض اشتباكه النقدى مع كتاب إدوارد سعيد، أى أنه تقديس للشرق على حساب الغرب «المنحل الفاسد». بل إن هذا هو خطاب بعض الجماعات السلفية وخطاب منظمة القاعدة فى الصراع السياسى الآن. إلا أن ما تتعامل معه هذه الدراسة هو كافة الصور المنتشرة الآن فى الغرب عن الإسلام والمسلمين بشكل عام وبالتحديد فى سوق الكتاب وفى الإعلام وفى كافة دوائر صنع القرار السياسى وبالتالى الأبحاث الخاضعة له التى تقدم له المادة الخام التى يبنى عليها القرار. وهى كلها صور لازالت تنتمى لمنهج الاستشراق الكلاسيكى القديم الذى ينحو إلى اختزال الثقافة الإسلامية - الآن - فى الحجاب القسرى وتعدد الزوجات والهجمات الإرهابية ضد منشآت غربية. فالخطاب اليسارى الجديد الذى تطور واكتسب وزنا محترما فى الدوائر الأكاديمية الخاصة بحقل دراسات الشرق الأوسط لم يؤثر بشكل واضح على الخطاب الشعبى والإعلامى والسياسى، وإن كان هناك تأثير فهو محدود للغاية. ولذلك فإن من المهم تناول تلك الصور التى يتم الترويج لها بوصفها الشكل «العولمى» للمرأة المسلمة ومقارنة ذلك بالمحلى المطروح.



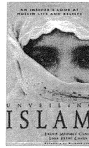
أصبحت هناك آلية «لتحسين صورة الاسلام» - تقوم على التنديد بالحجاب والختان وتعدد الزوجات وفصل الجنسين (٤)

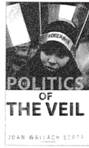


صور الواقع الافتراضى:

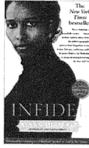
فى سياق واقع افتراضى تنتشر الصور عبر كافة الوسائط والوسائل الإعلامية التى تعمل بدورها على تشكيل موقف سلبى من العولمة. فإذا كانت الصورة قد لعبت دورا هائلاً فى القرن التاسع عشر من ناحية التنميط وتشكيل الهوية الغربية عبر خلق آخر دونى، فإن الصورة قد تحولت الآن بعد قرنين تقريباً إلى آلية رئيسية فى الفعل السياسى. فهى قد تكون وسيلة كشف وإدانة (صور سجن أبو غريب)، أو وسيلة لكسب التأييد فى قضية (كل الصور القادمة من فلسطين)، أو وسيلة ترهيب (التدريب فى معسكرات القاعدة)، أو حتى وسيلة استهلاك (الفيديو كليب حيث يلعب شكل وجسد المرأة دورا رئيسيا). وقد أدى تصاعد قوة الصورة إلى تغيير شكل علاقات القوى بين الأطراف المختلفة، فقد أصبح تحطيم أو مصادرة الكاميرات من الأمور المعتادة فى مجتمعاتنا الغاضبة مؤخراً. الكاميرا هى التى تمثل الخطر، خطر التقاط صورة، فيما يعنى أن الخطر يكمن فى الصورة. لم تستسلم الصورة لهذه المصادرات، بل راوغت الشكل وتمكنت من الانتقال إلى مجتمعات استهلاكية بحتة، مفارقة فى وجودها، لأنها تحولت إلى جزء رئيسى من الحياة اليومية، وبالتحديد كاميرات أجهزة التليفون المحمول. هذه الكاميرا هى التى كشفت عن منهجية واستيطان التعذيب الجسدى فى أقسام الشرطة، بل أكثر من هذا، كانت هذه الكاميرا هى الدليل الرئيسى أمام المحكمة لإثبات وقائع امتهان الجسد فى قضية «عماد الكبير».

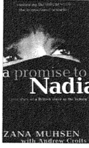
تفعل الصورة فعلها فى سياقات أخرى، أو بالأحرى تقوم بتشكيل سياقات جديدة لم تكن مطروحة من قبل. فالصورة الآن قادرة على خلق مجتمعات متخيلة على غرار ما تناوله من قبل بندكت أندرسون فى كتابه الذى يحمل الاسم نفسه، ولكنها مجتمعات تشترك فى الرؤية الفكرية وليس فى البعد











الجغرافى. فالتحالفات التى تقوم مؤخراً لمناهضة الصهيونية وللتضامن مع فلسطين والعراق تتشكل بفعل الصورة، وتضم أطرافاً محلية وإقليمية ودولية ربما تكون مختلفة حول العديد من القضايا الأخرى لكنها تجتمع تضامنا مع الوضع المنتهك الذى تقدمه الصور.

وقد أوضح أرجون ابادوراى Arjun Appadurai فى كتابه الشهير «الحداثة على اتساعها: الأبعاد الثقافية للعولمة» الذى صدر عام ١٩٩٦، كيف تقوم الوسائط الإعلامية بتدوير الصور مما يخلق دوراً هاماً للخيال. والخيال هنا لا يعنى تبنيا لأساطير أو الانغماس فى طقوس لاعلاقة لها بالواقع أو حتى الخيال بوصفه وسيلة بلاغية، ولا هو الخيال الذى يكون مجرد رد فعل على يقين الواقع. بل هو الخيال الذى يؤسس مشاريع اجتماعية جديدة ويحول جمود المكان إلى قوة ديناميكية تدفع مجموعات كبيرة لارتجال آليات تحالف ومقاومة. وبذلك لا يصبح الخيال مقصورا على الإبداع- كما هو سائد- بل يتحول إلى جزء أصيل فى النشاط اليومى للبشر.

وعندما يكتسب هذا الخيال صفة جمعية collective فإنه يتمكن من التحفيز على الفعل (مظاهرات - بيانات - انتفاضة - إصلاح ...). بمعنى آخر، يؤسس هذا الخيال المستمد من والمبنى على الصورة مجتمعاً مشتركا من الرؤى والعواطف والفعل والهدف. وفى كل هذه النظرية يخالف ابادوراى نقاد مدرسة فرانكفورت، والتى قام ماكس فيبر بتأكيدها وهى أن الخيال سيكون قاصراً ومحدوداً بمرور الزمن، وذلك بتأثير التسليع الاستهلاكى والرأسمالية الصناعية وانتشار العلمانية بشكل عام، بمعنى خفوت دور الدين. بالطبع لا يزال رأى فايبر به قدر كبير من الصحة لأنه يتحدث عن الخيال الإبداعى المعبر عن التجارب الروحية كما يتجلى فى الفن والأدب، وهذا بالفعل تم تسليعه. أما خيال الصورة المصنع فعليا فيمكنه أن يكون إيجابيا وأن يكون سلبيا لأنه مجال لصراع القوى. ينتهى أبادوراى فى كتابه إلى أن هناك أدلة متزايدة على أن استهلاك الوسائط الإعلامية يؤدى إلى خلق مقاومة بأشكال مختلفة. باختصار، يؤدى إلى تشكيل القدرة على الفعل الذاتى الإرادى agency وهى الفكرة التى لابد أن يتم اختبار صحتها فى سياقات متعددة.

ورغم ذلك فإن هذه الوسائط الإعلامية التى تعتمد على الكلمة والصورة والتى تساعد على إقامة تحالفات وتفرز أشكالا من المقاومة، تعمل أيضاً على الناحية المعاكسة. فهى تتمتع بقدرة تشكيل صور للآخر ترسخ صورا قديمة، وكأن الوسائط الإعلامية تختزن التاريخ وتعيد إنتاجه صوراً فى اللحظة الملائمة طبقاً لأهداف معينة. بمعنى آخر، يساهم الواقع الافتراضى فى تدعيم المركزية الغربية التى تعمد إلى قياس حداثة المجتمعات الأخرى من موقعها متجاهلة تعدد أشكال الحداثة فى المجتمعات الأخرى. ومن هنا تعود النظرة لتكتسب أهميتها فى مسألة تحديد المركز والهامش. ما يعنينى هنا هو كيفية تحول هذه الهوامش إلى بؤر صغيرة تتحول بفعل التحالفات إلى مراكز مقاومة. لايحدث هذا التحول إلا فى سياقات الأزمة. كما أنه يتم التعتيم على هذه البؤر من طرف المركز والذى يفرض توقعاته المبنية على صور نمطية مدعومة بأدبيات ودراسات أكاديمية يتم الترويج لها كحقائق.

كسر الحداثة المركزية:

فى العقد الأخير انتشرت الوسائط الإعلامية الإلكترونية مما ساعد على إلقاء الضوء وجذب الاهتمام إلى الهوامش التى تتفاعل مع المركز «سلباً» أو إيجاباً. وهو التفاعل الذى نبع من تاريخ طويل امتلأ عن آخره بوسائط غير الكترونية (صور، لوحات، مذكرات، أدب، رحلات، .. إلخ) تروج لصورة ثابتة لا تتغير للمرأة المسلمة - كجزء من الترويج لصورة دين بأكمله على غرار ما فعله اللورد كرومر - لم تتغير ملامحها إلا أقل القليل من أجل اكتساب بعض المصداقية وإثبات القدرة على متابعة الواقع. يثير مصطلح «المرأة المسلمة» العديد من الإشكاليات فى هذا السياق. ما أقصده هو العلامة التى تحملها «الصورة» لتعلن عن المرأة بوصفها «مسلمة»، وهى غالبا ما تكون علامة متعلقة بالزى الظاهر فى الصورة. فتتحول الثقافة بأكملها إلى أرشيف من الصور التى يتم استخدامها بشكل ملائم للحظة السياسية.

هناك الكثير من العوامل التى شجعت على التفاعل بين ما يقدم على أنه المركز وبين ما يقدم على أنه الهامش. فهناك الشعور بالمرارة والإحباط الذى يسود العالم العربى بشكل عام نتيجة انتشار الفساد فى الداخل وازدياد شراسة الهجمة الغربية اليمينية. وبشكل خاص هناك حنق وغضب الأجيال الجديدة على الخطاب الاعتذارى فى الداخل وعلى الشعور بتهديد عولمة لا ترحم استقرار المجتمعات. فكان أن اشتبكت هذه الأجيال مع كافة الصور بهدف خلق مساحة منتزعة من ترهل ثقافى بالداخل وهجمة عولمية من الخارج تسعى لإعادة التنميط عبر استخدام مصطلحات خادعة تنتمى لمدرسة ما بعد الحداثة. تلك المدرسة التى تزعم أنها تقبل فسيفساء الاختلاف وهو ما يحول «المسلمة» مرة أخرى إلى سلعة رائجة فى سوق الفولكلور الغرائبى، وبذلك يبقى الغرب هو المعيار الرئيسى الذى تقاس عليه الحداثة.

من أجل كسر مركزية تلك الحداثة الغربية - المتخفية فى رداء ما بعد الحداثة- تشكلت العديد من بؤر المقاومة فى الهوامش الثقافية، بعضها تشكل عمداً والبعض الآخر ظهر بتلقائية. وساهمت الوسائط الإلكترونية والإعلامية فى تحويل كافة الصور القادمة من «هنا» و«هناك» إلى نصوص متحركة - بتعبير أبادورى. منها على سبيل المثال الرسوم الدانماركية التى طافت العالم إلكترونياً، ويضرب أبادورى مثلاً برواية سلمان رشدى «آيات شيطانية» التى تحولت إلى نص متحرك mobile يقيم تحالفات ويهدم أخرى. ففى كل الأحداث والتبعات التى ارتبطت بهذا النص وقع التصادم بين إسلام راديكالى وجماليات ليبرالية - وقع التصادم بين نيودلهى ونيويورك (أبادوراى ٩). ينطبق الأمر أيضاً على كافة الصور المتعلقة بالمرأة المسلمة - سواء المقيمة فى الداخل أو المهاجرة - والتى تضغط عليها موجة العولمة مما يولد ردود أفعال تسعى لاحتواء كل تلك الضغوط الخارجية فى مساحات ومجالات مسيسة بالفعل، وهو ما يؤدى إلى إنتاج المحلى فى شكل عولى جديد. وليس أدل على ذلك من الدمية الإيرانية «سارة» التى صنعتها إيران لتواجه نظيرتها الأمريكية «باربى» التى ابتكرت عام ١٩٥٩. فالقول أن سارة هى دمية إسلامية يعد تبسيطاً مخلاً. إذ إن سارة (والتى تبعتها فلة الخليجية عام ٢٠٠٣ من ابتكار منار طرابيشى) تعتبر آلية لمقاومة نص باربى المتحرك الذى طاف العالم بأكمله، كما أن سارة تم إنتاجها فى مكان بعينه فى لحظة بعينها لتحمل رسالة سياسية. فهى إذن نص محلى نتج عن ضغط عولى ولكنه نص بكل ما فيه من محلية يظهر عبر طرق عولمية جديدة. كان الهدف المعلن من إنتاج تلك «الدمى» الإسلامية هو الحفاظ على الثقافة المحلية، وقد تم ذلك عبر تقديم الزى الإسلامى، وتغيير الاسم، وإلغاء وجود صديق «باربى» وتم الإعلان أنه سيتم البحث عن زوج مناسب لفلة وأيضا لسارة. وكأن «باربى» تحولت إلى امرأة تحمل كل رمزية الثقافة الغربية التى لابد أن تتم مناهضتها عبر «تصنيع» دمية أخرى تحمل الصفات الإسلامية.

يتجلى الصراع مرة أخرى عبر دمى ترمز بشكل أو بآخر إلى ما يجب أن يكون عليه شكل المرأة، الشكل المثالى الذى ينظم أيضا شكل العلاقات. ففلة لا تخرج الا برفقة أخويها بدر ونور عكس باربى التى لديها أصدقاء رجال وصديق حميم. هكذا تحولت لعب الأطفال إلى ساحة للصراع على ما يسمى «الهوية»، أو على الأقل هكذا بدا الأمر. إذ إن القصة برمتها قد أخذت منحى آخر يسعى إلى التربح على حساب متطلبات ثقافية تتبلور فى شكل سلع استهلاكية. فكما ذكرت صحيفة الحياة فى عددها الصادر بتاريخ ٢٠ سبتمبر



بعد القضاء على طالبان قام الأمريكان بتقديم الوزيرة الأفغانية للكاميرات «دون حجاب» بوصفها النموذج الذى تمكنت أمريكا من صنعه



٢٠٠٧ أن ظهور فلة وسارة أديا إلى ظهور باربى المغربية وليلى الجارية المسلمة فى قصر الخلافة العثمانى، واللافت للنظر هو قيام شركة أمريكية فى ولاية ميشجان بتسويق دمية محجبة اسمها رزان تباع للمسلمين فى أمريكا وبريطانيا.

بالتأكيد لا تسعى هذه الدراسة (الحجاب: بين المحلى والعولى) إلى طرح أى مناقشة فقهية عن الحجاب، كما أنها لا تضع فى اعتبارها تقديم أى خطاب مناهض للخط الغربى فهذا شأن لا يقع فى اختصاصها. إذ إن الخوض فى مسألة التمثيل الخاطئ أو مجابهة الصور النمطية ليسا سوى مهام تاريخية بالمعنى الحرفى. فالتاريخ الاستعمارى الاستشراقى الذى روج لهذه الصور وأبى أن يعترف بالتغيرات التى طرأت على المجتمعات فى مرحلة ما بعد الاستعمار، بل أبى أن يعترف بما فعله الاستعمار، لن يتم محوه بكتاب أو مؤتمر، بل لابد له من تاريخ مواز ينطلق من المحلى لينتشر عبر العولى.

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل الفجوة القائمة بين الواقع وبين الصورة. بمعنى آخر، تتخذ هذه الدراسة من «الصورة» نصا أساسيا ورئيسيا لتحليل الكيفية التى تشكل «النظرة» فتجعلها متسقة مع الواقع أو مفارقة له. بالإضافة إلى فكرة إطلاق الصور التى تدعم/ تناهض خطابا سياسيا بعينه، والصور التى تظهر بوصفها استجابة لمتطلبات السوق (الخيال المصنع) متخفية فى ذلك بغطاء عقائدى سياسى.

حيث يتم تناول الكيفية التى أصبحت بها هذه الصور آلية مقاومة ما بعد استعمارية، وذلك عبر مساءلة وتحليل الممارسات الثقافية اليومية- وأحياناً السياسية- التى تغير مسار الخيال فى السياق المحلى، وذلك فى عالم تحكمه العولمة بكل أبعادها. وفى محاولة تتبع التغيير الذى طرأ على صورة شهرزاد القرن التاسع عشر حتى القرن الحادى والعشرين، وتأثير ذلك على التشكل الثقافى والاجتماعى لصورة النساء.

وعندما تعمل الدراسة على قراءة «النظرة الغربية» لابد من الأخذ فى الاعتبار عمومية كلمة «الغربية» كما ذكرنا سابقا، فالغرب ليس كتلة واحدة يمكن بسهولة الغاء اختلافاتها وتنوعاتها. إذا كانت صور الحجاب الآن تمثل للنظرة الغربية علامات على التطرف والتخلف وبها تأكيد على استمرار فكرة «الحريم»، وإذا كان هناك إصرار على إعادة إنتاج هذه الصور حتى الآن مع تجاهل السياق الذى ينتجها، فإنه لابد من تحليل الأسباب الدافعة لذلك. وهو ما يؤدى إلى فهم الآلية التى ينتج بها الاستشراق المعكوس.

والخلاصة أنه يشكل علينا أن نضع فى اعتبارنا مركزية النساء وحجابهن فى إدارة العديد من الصراعات بين الفصائل السياسية المختلفة من ناحية، وبين النظرة العربية الإسلامية والنظرة الغربية من ناحية أخرى. وهو الصراع الذى يعلن عن نفسه عبر الصور. بتطور الدراسات الأنثروبولوجية الثقافية وتحليلات مجال السميوطيقا والتحولات الهائلة التى طرأت على مجال الصور المرئية لم يعد بالإمكان تجنب التأمل فى صور «الحجاب» الذى يشغل الداخل والخارج ويتم تعيينه كمؤشر لقياس الحداثة وشكلها. ■

---

(١) تختلف المسميات: قضية المرأة، قضايا المرأة، وضع المرأة ... إلخ من تلك التسميات التى لاتحوى أى مضمون أو رؤية لتلك المرأة المشار إليها.

(٢) وبعد فترة تحول الأمر إلى اقتران عجيب ذى أساس واه وأصبح القول الدارج «المرأة والأقباط»، وهو اقتران يثير الدهشة فواو العطف تساوى بين نوع وديانة (وذلك على أساس انتهاك الحقوق بعد أن كان الأمر قائما على أساس فكرة الأقلية. وقد تم صك مصطلح «المرأة والأقباط» فى الغرب للضغط على النظام الحاكم فى مصر. فكان أن استوعب النظام هذا المصطلح وأعاد انتاجه بأشكال مختلفة للتدليل على الوعى بوجود هاتين الفئتين. بتصاعد حدة التوتر السياسى العام، أفردت مجموعة الاخوان المسلمين بندا خاصا فى برنامجها يحظر تولى المرأة أو القبطى رئاسة الجمهورية.

(٣) انظر المقالات فى مواقع ريزجار وايلاف وسؤال التنوير والعلمانيين العرب.

(٤) من أشهر الأصوات التى خالفت السائد فقهياً جمال البنا فى كتابه «الحجاب» (القاهرة: دار الفكر الإسلامى، ٢٠٠٢)، وإقبال بركة فى كتابها «الحجاب : رؤية عصرية» (القاهرة: مؤسسة روزاليوسف، ٢٠٠٢).

(٥) قام أحد المحامين مؤخرا برفع قضية ضد عدة ممثلات خلعن الحجاب، كما قامت حركة «حماسنا» الالكترونية بحث صابرين زوجة لاعب الكرة الشهير عصام الحضرى بإعادة ارتداء الحجاب.

(٦) تلك المجتمعات التى أشهرت سلاح الأصولية فى محاولة للحفاظ على الهوية من الانهيار حيث تنهار كل الحدود الثابتة وتتفسخ كل التقاليد، بالاضافة إلى موجات الهجرة الكبيرة المصاحبة لكل ذلك. فى وسط هذا الانهيار العظيم عادت المجتمعات ومنها قطاعات كبيرة فى مصر - إلى توظيف كل آليات مناهضة الاستعمار، ولكن هذه المرة أصبح اسمها آليات ما بعد الاستعمار.

(٧) وقد صدر عام ٢٠٠٤ وقام الباحث المصرى شريف يونس بترجمته وصدر عن دار الشروق المصرية عام ٢٠٠٧.

(8) Sadik Jalal al-Azm, "Orientalism and Orientalism in Reverse," Khamsin 8 (1981): 5-26.

كتاب الزاوية



غـزة (١)

تعالوا نلوم الضحية (!)

آفى شلايم

إنى أكتب باعتبارى شخصا خدم بإخلاص فى الجيش الإسرائيلى فى منتصف الستينيات.. ولكن ما أرفضه تماما هو المشروع الاستعمارى الصهيونى وراء الخط الأخضر، والذى كانت نتيجته احتلالا عسكريا هو من بين الأطول والأكثر وحشية فى العصور الحديثة.

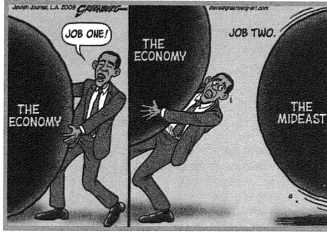
تود إسرائيل أن تصور نفسها باعتبارها جزيرة للديمقراطية فى بحر من الاستبداد. ومع ذلك، لم تفعل إسرائيل شيئا طوال تاريخها لنشر الديمقراطية على الجانب العربى، بل فعلت الكثير لتقويضها. إن لدى إسرائيل تاريخا طويلا من التعاون السرى مع الأنظمة العربية الرجعية لقمع القومية الفلسطينية. ورغم كافة العراقيل، نجح الشعب الفلسطينى فى إقامة الديمقراطية الحقيقية الوحيدة فى العالم العربى، ربما باستثناء لبنان. ففى يناير عام ٢٠٠٦، جاءت انتخابات حرة وعادلة للمجلس التشريعى للسلطة الفلسطينية إلى الحكم بحكومة ترأسها حماس. ومع ذلك، رفضت إسرائيل الاعتراف بالحكومة المنتخبة ديمقراطيا، زاعمة أن حماس لا تعدو أن تكون مجرد منظمة إرهابية.

لم تتورع أمريكا والاتحاد الأوروبى فى الانضمام لإسرائيل لنبذ حكومة حماس باعتبارها شيطانا، ومحاولة إسقاطها من خلال حجب عائدات الضرائب والمساعدات الأجنبية عنها. وبذلك نشأ موقف غريب قام فيه جزء كبير من المجتمع الدولى بفرض عقوبات اقتصادية على من احتلت أرضهم وليس على من احتلها، على المقهور وليس على الطاغية.

وكما هو معتاد دائما خلال التاريخ المأسوى لفلسطين، فقد ألقى اللوم على الضحايا بسبب نكباتهم. وأججت آلة الدعاية الإسرائيلية باستمرار مفهوم أن الفلسطينيين إرهابيون...وأن حماس مجرد مجموعة من المتطرفين الدينيين، وأن الإسلام لا يمكن أن يتوافق مع الديمقراطية. ولكن الحقيقة البسيطة هى أن الشعب الفلسطينى شعب عادى له طموحات عادية.

Avi Shlaim أستاذ العلاقات الدولية بجامعة أوكسفورد

ترجمة: عادل فتحى



أوباما الفرصة الأخيرة



هنرى سيجمان
Henry Siegman



ضياع فرصة الحل القائم على أساس قيام دولتين من شأنه أن يفسد المصالح القومية الهامة للولايات المتحدة



الرئيس المنتخب أوباما سيكون آخر رئيس أمريكى تتاح له فرصة حل النزاع الفلسطينى- الإسرائيلى على أساس قيام دولتين. وفى حالة عدم تحقق هذا الهدف خلال السنة الأولى من فترة رئاسته، فمن المحتمل أن يتلاشى الحل القائم على أساس دولتين نهائيا وهو الحل الذى كان يسعى له جورج دبليو بوش بطريقة غير موفقة. ولذلك فإن عدم قيام الرئيس الجديد أوباما بأى خطوة سريعة فإن النتائج لن تكون أفضل مما حققته مبادرات السلام الأمريكية السابقة والتى لم تحرز أى تقدم وخاصة إذا ما تعامل الرئيس أوباما ومستشاروه مع القضية من منطلق إيمانهم بالحاجة إلى وسائل أخرى لصناعة السلام وبناء الثقة من أجل تحقيق الهدف.

هذا ولم يستطع الدور الأمريكى طوال السنوات العديدة الماضية الوصول إلى حل للنزاع الفلسطينى-الإسرائيلى بسبب نقاط ضعف فى الإجراءات المتبعة أو ندرة الأفكار. حيث نجد أن الشروط الواردة فى أى اتفاقية يمكن التوصل من خلالها إلى حل النزاع وخاصة ما جاء فى ما يسمى بمعايير كلينتون فى ديسمبر ٢٠٠٠ وتناولتها بإسهاب مباحثات طابا فى يناير ٢٠٠١ - هى شروط معروفة جيداً وتتمتع بدعم من العالم كله تقريباً. فهى تدعو إلى بعض التعديلات الثانوية فى خط الهدنة لعام ١٩٤٩ والذى كان بمثابة حدود إسرائيل قبل عام ١٩٦٧ من أجل السماح لإسرائيل باستبقاء مجموعة من المستوطنات القريبة على أساس تبادل متساو ومتفق عليه للأرض على جانبى الحدود؛ وبناء عاصمة للدولة الفلسطينية الجديدة فى القدس الشرقية العربية؛ وعودة محدودة للاجئين الفلسطينيين إلى منازلهم فى إسرائيل بأعداد يتفق عليها حتى لا يحدث خلل فى توازن إسرائيل العرقى والدينى؛ وتأسيس دولة فلسطينية ليس لها صبغة عسكرية والتى تراعى شئون الأمن الإسرائيلى وفى نفس الوقت تحترم السيادة الفلسطينية، بالإضافة إلى وجود قوات دولية بقيادة الولايات المتحدة والتى تضمن الأمن وتساعد فى بناء الدولة الفلسطينية فى مرحلة الانتقال.

ولكن الحلقة المفقودة فى كل هذه الأفكار هى غياب الإرادة السياسية التى تدفع الأطراف للعمل وفق هذه المعايير؛ فغياب الإرادة السياسية والمعنوية حكم على كل الجهود السابقة بالهلاك. وهذا الفشل ليس نتيجة للجهل بل عدم الشجاعة- والتجاهل المتعمد من إسرائيل والحكومات الأمريكية المتتالية وكذلك معظم المجتمع الدولى لبعض الأسس التى لا يمكن تغييرها والتى تتعلق بإنهاء النزاع. ولذلك فإن مبادرات السلام التى تتجاهل هذه الأسس والتى تسعى لاتفاق على أساس سهل لا يمكن أن تنجح.

والجدير بالذكر، أن ما يتناوله هذا المقال لا يقصد به تبرير الاختيارات المبتورة التى كثيراً ما قدمها الفلسطينيون فى صراعهم من اجل سيادة دولتهم- بدءاً من الإخفاقات الواضحة فى بناء المؤسسات، ثم العنف القاتل ضد المدنيين الأبرياء، ثم الحرب والنزاع بين فتح وحماس حيث يقع فى معظم الأوقات اللوم على فتح لرفضها قبول الاختيار الديمقراطى للشعب الفلسطينى فى الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٦، وكذلك التحريض الأمريكى لهذا الرفض. ولكن يجب التوضيح أنه لن يتسنى للفلسطينيين اتخاذ أية إجراءات لحل المشكلة الفلسطينية إلا إذا التزمت إسرائيل بإنشاء دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة بجوار الدولة الإسرائيلية على اعتبار أنها حق للشعب الفلسطينى وليست هبة من إسرائيل. كما أن الاعتراف بهذه الدولة يجب أن يتصدر الشروط المدونة لإقامتها ولا يأتى كنقطة تالية.

إن عدم التزام إسرائيل التزاما صريحا بإنشاء دولة فلسطينية حتى يومنا هذا، يكشف عن النوايا الإسرائيلية واللامبالاة الأمريكية والأوربية أكثر بكثير من فشل أية وسائل أخرى متبعة تهدف لبناء الثقة والتى لم تسفر عن أى تغير فى وضع الفلسطينيين وهو الشعب الذى يعيش تحت وطأة الاحتلال الساحق والذى ليس له نهاية. وقد تبددت أى مصداقية تضمنتها دعوة الرئيس بوش عام ٢٠٠٢ من أجل قيام الدولة الفلسطينية، وذلك بفضل خطابه لرئيس الوزراء الإسرائيلى إيريل شارون عام ٢٠٠٤، والذى نادى فيه باحتفاظ إسرائيل «بكبرى المناطق السكنية الإسرائيلية الموجودة بالفعل» فى الضفة الغربية.

وفى لقاء عقد مؤخرا معه عقب توليه منصب رئاسة الوزراء، فاجأ إيهود أولمرت، أحد صقور الجناح الأيمن فى الليكود والذى طالما ساند البقاء الإسرائيلى «لإسرائيل العظمى» وعارض معاهدة السلام مع مصر، فاجأ الإسرائيليين بالتصديق على آراء اليسار المتشدد فى إسرائيل. ومن بين التصريحات المفزعة التى جاء بها مثل اعتقاده أن إسرائيل لن تنعم بالسلام إلا إذا رفضت إعادة «كل، أو ما يقرب من كل» الأراضى المحتلة وكذلك رفضها السماح بإقامة عاصمة الدولة الفلسطينية فى القدس الشرقية، وقد قال أولمرت أن السبب فى وصول إسرائيل لاتفاقية السلام مع مصر، بالمقارنة بفشلها فى تحقيق أى اتفاق مع ياسر عرفات أو

بترتيب خاص مع مجلة:
«The Nation»

ترجمة: د. محسن يوسف

فى الحقيقة فإن الفلسطينيين وحدهم هم من قدموا تنازلات مؤلمة



مع الأسدين السوريين. لم يكن زيارة الرئيس السادات التاريخية للقدس كما هو معتقد. ولكن السبب الحقيقى هو أنه قبل زيارة السادات، سلم رئيس الأركان ووزير الدفاع الإسرائيلى الشهير موشى ديان فى اجتماع سرى مع مبعوث السادات فى المغرب الرسالتين التاليتين من رئيس الوزراء مناحم بيجين: «أولاً، أن إسرائيل على استعداد لإعادة كل شبر من الأراضى المصرية الواقعة تحت الاحتلال الإسرائيلى. ثانياً، إننا مستعدون للتفاوض على تنفيذ هذا الهدف». وقال أولمرت، أن هذا أمر رفضت إسرائيل التفوه به إلى الفلسطينيين وهذا سبب أن كل المفاوضات السابقة لم تحرز أى تقدم.

وعلى النقيض، فعندما طلب من ديان عام ١٩٦٨ وصف خطته لمستقبل الأراضى المحتلة، رد قائلاً: «الخطة يتم تنفيذها من خلال الوضع الحالى. فما هو كائن الآن يجب أن يبقى كوضع دائم فى الضفة الغربية». وبعد عقد من الزمان وفى مؤتمر فى تل أبيب، عندما سئل عن الحل للاحتلال، أجاب «إن السؤال ليس ما هو الحل؟ ولكن كيف نعيش بدون حل؟» وكما لاحظ جيفرى آرنسون من مؤسسة السلام فى الشرق الأوسط، والذى أشرف على مشروع التسوية منذ بداياته، أن «إسرائيل كانت تعتقد أن الحل دون حل، كما هو الوضع الآن، مفتاح زيادة منافع الغزو للحد الأقصى والوصول بالأعباء ومخاطر الانسحاب أو الانضمام العسكرى إلى الحد الأدنى».

وبالطبع فى أثناء فترة توليه لم يقم أولمرت بأى عمل يتفق مع قناعاته الجديدة. بل على العكس، فقد أيد بشكل شخصى وحتى اللحظة الأخيرة إجراءات مثل الترخيص للمزيد من أعمال البناء فى المستوطنات والقدس الشرقية، الأمر الذى عمق إحساس الفلسطينيين باليأس وجعل من الحل القائم على أساس دولتين يبدو مستحيلا.

وبالعودة إلى المحاور الأساسية، نجد أن أولها وأكثرها أهمية هو التعارض الهائل بين القوى والنفوذ التى تحدد العلاقة الإسرائيلية الفلسطينية. فمن النادر بالنسبة لدولة لها من الهيمنة العسكرية والمزايا الدبلوماسية والاقتصادية التى تتمتع بها إسرائيل أن ترضخ لمطالب خصم واهن إلى حد ما بدون طرف ثالث قوى يعيد بعضا من التوازن بين الاثنين. وفى هذه الحالة، فإن القوة الخارجية الوحيدة القادرة على استعادة هذا التوازن هى الولايات المتحدة لأن مساندتها أمر لا يمكن أن يرتاب أو يشك فيه الإسرائيليون كما أن الجميع يفهم أن هذه المساندة تعتبر من أهم مصادر الأمن لإسرائيل- وأنه مصدر أمن لا يمكن الاستغناء عنه.

إن الديناميكية الاستعمارية التى دامت أربعة عقود والخاصة بمشروع الاستيطان قد أسفرت عن توسع شامل للكثافة السكانية الإسرائيلية داخل الأراضى الفلسطينية من أجل استحالة قيام الدولة الفلسطينية. وفى الواقع كان هذا هو هدف إسرائيل. ولكن هل يمكن تغيير هذه الحقائق على أرض الواقع والتى ابتدعتها إسرائيل من جانب واحد.

إن إمكانية تغير هذه الحقائق تعتمد تماماً على ما إذا كان الرئيس أوباما مهيأ لأن يعتمد على العاصمة السياسية الكبيرة التى عملت الولايات المتحدة على تشيدها طوال الستين عاماً الماضية بدعمها المتناهى لإسرائيل حتى لا يدع مجالاً للشك فى عزمه على إنهاء الصراع على أساس الإجماع الدولى القائم بالفعل، وفى نفس الوقت يقوم بتأييد -والمشاركة فى- الإجراءات الضرورية لتمكين إسرائيل من التعامل مع تحديات الأمن التى سيخلقها هذا الاتفاق. ومهما كانت هذه الإجراءات معقدة أو مكلفة فهى تحمل فى طياتها وعداً أكبر بحماية الأمن الإسرائيلى داخل حدودها وبتكلفة مادية ومعنوية أقل وأفضل من استمرارية الاحتلال.



ولقد حذر صانعو السلام فى الحكومات الأمريكية السابقة مراراً وتكراراً من أن أى اتفاق يتم فرضه على الأطراف من قبل قوى خارجية سينهار سريعاً. وأعتقد أنهم مخطئون، فمعايير الوضع الدائم التى يدافع عنها الرئيس أوباما والمجتمع الدولى قائمة أساساً على المبادئ التى أقرتها إسرائيل والفلسطينيون عندما قاموا بالتوقيع على قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ و٣٣٨، واتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، وخارطة الطريق عام ٢٠٠٣، واتفاقيات أنابوليس. وفى الواقع فإنه فى النهاية ستطالب الولايات المتحدة والمجتمع الدولى - بعد أربعين عاما من عدم الإذعان الإسرائيلى الفلسطينى- أن يتم تنفيذ هذه الاتفاقية.

ولكى تكون هذه المبادرة الأمريكية الجديدة فعالة يجب أن تقوم أساساً على إعادة تأكيد المبدأ الرئيسى فى خارطة الطريق وغيرها من الاتفاقيات الأخرى. فهذه الاتفاقيات تنص على أنه بالرغم من أن التغيرات فى موقف ما قبل ١٩٦٧، سواء ما يخص الأرض أو غيرها، قد تكون حتمية، فلن تجد هذه التغيرات الدعم أو الاعتراف الأمريكى بها إذا تمت من جانب واحد ومن أحد الأطراف. وهو المبدأ الذى طالما أكد عليه بوش ووزيرة الخارجية كونداليزا رايس مراراً ولكن لم يعملوا به أبداً.

وهناك مطلب مضلل ومدمر طالما تردد وهو أن يقدم الفلسطينيون تنازلات خاصة بالأرض تعادل «التنازلات المؤلمة» التى قال القادة فى إسرائيل أنهم مهيئون لتقديمها. إنها معادلة تكشف عن سوء فهم بالغ أو تشويه مخطط لتاريخ الصراع، إنها معادلة ستسفر عن نتيجة غير عادلة لصالح جانب واحد ولا يمكن الدفاع عنها.

لم يطلب الفلسطينيون من إسرائيل أن تقدم تنازلات خاصة بالأرض - مثل أن تتنازل عن أى من الأراضى التى سيطرت عليها إسرائيل ما بين اتفاق الهدنة فى ١٩٤٩ وحرب ١٩٦٧ - كما لم تذكر إسرائيل أبداً أنها قد تعتزم فعل ذلك تحت أى ظرف. إن ما طلبه الفلسطينيون هو أن ترد إسرائيل الأراضى الفلسطينية التى أقامت عليها إسرائيل المستوطنات بصورة غير قانونية ونقلت إليها السكان الإسرائيليين والتى خرقت فيها الالتزامات والمعاهدات والقانون الدولى. إن وصف إعادة الأراضى الفلسطينية التى تمت مصادرتها بصورة غير قانونية بأنها «تنازلات» إسرائيلية تهاون فى حق القضية الفلسطينية حتى قبل بدء المفاوضات.

وفى الحقيقة فإن الفلسطينيين وحدهم هم من قدموا تنازلات مؤلمة. فقد كان شرطاً لقبول إسرائيل اتفاقات أوسلو أن توافق المنظمة الفلسطينية رسمياً على الاعتراف بشرعية الأراضى التى كسبتها إسرائيل فى حرب ١٩٤٨. إن هذا التنازل قد خفض نصف الأراضى المخصصة فى الأصل للسكان العرب بفلسطين بموجب خطة تقسيم الأمم المتحدة عام ١٩٤٧. وبهذا التنازل الفلسطينى الكبير عن الأراضى، فإن أى مبادرة جديدة لا تأخذ فى الاعتبار خط هدنة ما قبل١٩٦٧ وتتوقع من الفلسطينيين أن يتخلوا عن أكثر من ٢٢ بالمائة من الأرض التى تبقت لهم ستكون مبادرة فاشلة منذ البداية.



والخلاصة فإنه، وبينما يعتبر التوقف عن العنف شرطاً ضرورياً من أجل مفاوضات سلام ناجحة، فإن وجود آلية دولية مستقلة تراقب الاختراقات التى يقوم بها الجانبان يعتبر هدفا غير موجود حتى الآن ولم يتم تنفيذه حتى الآن. وإنه إذا ما استمرت القوة المحتلة - بمدافعها المصوبة نحو الشعب المحتل والقيام بدور القاضى والجلاد، كما كانت طوال الأربعين عاما الماضية فإن استمرار العنف يعد أمرا لا مفر منه وستظل عملية السلام بعيدة المنال.

إن هذه القواعد الأساسية والتى أشرنا إليها سابقا ستحدد الفرصة الأمريكية الأخيرة للوصول إلى الحل القائم على أساس دولتين. كما أن ضياع هذه الفرصة سيكتب نهاية إسرائيل وكونها دولة ديمقراطية أو يهودية، فمع ظهور أغلبية غير يهودية فى الأراضى التى تقع تحت السيطرة الإسرائيلية، ستكون النتيجة أن إسرائيل لن تستطيع أن تظل ديمقراطية ويهودية معاً. لذلك فإنه من الصعب تفسير لماذا يعتقد البعض أن دعم هذا الخيار هو انحياز لدولة إسرائيل أو الشعب اليهودى.

وإن ضياع فرصة الحل القائم على أساس قيام دولتين من شأنه أن يفسد المصالح القومية الهامة للولايات المتحدة. ففى العالم العربى والإسلامى، مازال التحيز الأمريكى الواضح لإسرائيل واللامبالاة للحقوق والمعاناة الفلسطينية يعزز مشاعر المعاداة تجاه أمريكا. وقد حذر كل من جيمس بيكر ولى هاملتون اللذين ترأسا مجموعة دراسة العراق عام ٢٠٠٦ من أن نجاح الولايات المتحدة فى العراق يعتمد جزئياً على التقدم لحل الصراع العربى الإسرائيلى. قد استغلت إيران المأزق الفلسطينى من أجل مكاسب سياسية، وسوف تواصل الترحيب بفشل حل الصراع من أجل تعزيز مكاسبها الاستراتيجية. وفى نفس الوقت سيستغله حزب الله ليبرر استخدامه المستمر للقوة العسكرية المستقلة فى لبنان. أما الفشل فى العراق فسيزيد من المآسى والأحزان والذى بدوره سيساعد على استمرار التعاطف والدعم لتنظيم القاعدة وجذب ناشطين جدد فى صفه. وفيما يخص تنظيم القاعدة، فضياع الحل القائم على أساس قيام دولتين سيكون منحة ليس لها مثيل لتنظيم القاعدة.

إن الدرس الذى يجب أن تتعلمه الإدارة الأمريكية الجديدة من أحداث الفشل السابقة هو أن صناعة السلام لن تحرز أى تقدم إذا ركزت على عملية صناعة السلام وبناء الثقة فى غياب معايير واضحة تحدد نهاية اللعبة. وأن هذه الإستراتيجية ظهرت نتيجة لعدم قدرة الحكومة الأمريكية على مواجهة إسرائيل بأن استغلالها لغياب اتفاقية للسلام للاستمرار فى مصادرة الأراضى الفلسطينية هو أمر لن يقبله المجتمع الدولى.

إن أية مبادرة أمريكية تهدف للبعد عن سياسة «التسهيل» الفاشلة التى اتبعتها الإدارة الأمريكية السابقة لتتبنى دبلوماسية محددة وفعالة يمكن أن تحقق الحل القائم على أساس تأسيس دولتين. ولكن فقط الرئيس الأمريكى الذى تمتد رؤيته المعنوية والسياسية بعيدا عن الاهتمام المتمركز فى نتائج انتخابات الكونجرس والذى يفهم جيدا أنه فى نفس الوقت الذى سوف تتم فيه الانتخابات سينتهى وإلى الأبد إمكانية الوصول إلى الحل القائم على أساس دولتين، إن مثل هذا الرئيس هو الذى يمكنه أن يأمل فى إنهاء هذه المأساة التى يعانى منها العديد من الأجيال. ويبقى أن نرى ما إذا كان أوباما هو ذلك الرجل. ■

الرئيس!

ديـن راسـك
Dean Rusk

■■ إن ما تفعله أو لا تفعله الولايات المتحدة يشكل فرقا كبيرا فى تاريخ الإنسان فى هذه الحقبة. لو تطلبت الواقعية أن نتجنب أوهام القدرة الكلية، فمن المهم بنفس القدر ألا نهدر قيمة الفرصة والمسئولية النابعتين من قدرتنا على الفعل والتأثير وتشكيل مسار الأحداث. إن الانخراط فى الشئون الدولية ليس مجرد أمر مفيد لرفاهية الآخرين بل لشكل العالم الذى يجب علينا نحن أيضا أن نعيش فيه. إن لدى أمتنا مجالا واسعا للقيام بخيارات مدروسة. ولو لم نحدد تلك الخيارات بروية، فسوف نحددها بالغفلة أو نفوض القرارات لآخرين لن يكونوا على دراية بمصالحنا. عندما يقع محور المناقشة بثقله الشديد - من وجهة نظرى - على قيود السياسة، فإنى أسترجع من طفولتى المبكرة نصيحة الواعظ الطواف: «صل كما يحب الله، واعمل كما تحب أنت».

منذ الحرب العالمية الثانية كانت السياسة الخارجية للولايات المتحدة - بعبارات تاريخية فضفاضة - مسئولة وبناءة. من المؤكد أننا نستطيع القول - بهدوء وبين أنفسنا - أنه ليس من المنطقى أن أمة لديها كل تلك القوة تستخدمها بمحدودية وللأهداف التى تسود تلك الديمقراطية العظيمة. ولو كانت هناك بالخارج شكوك عارضة تجاه دوافعنا، فإنها تنشأ - جزئيا - بسبب صعوبة إدراك مثل تلك الظاهرة العجيبة. من جهة أخرى، فإن قدرتنا وآمالنا وطموحات الآخرين وضرورات موقفنا قد فرضت علينا معاييرا سياسية وسلوكية عالية جدا. ولكن من غير المرجح أن نحقق تحسنا فى علاقاتنا الخارجية بمجرد طرح أفكار جديدة، وإنما بالاهتمام الجاد بالأسلوب الذى نصوغ به سياستنا ونترجمها إلى أفعال. هناك رجال من أصحاب الخبرة الطويلة فى فرعى الحكومة التنفيذى والتشريعى لديهم شكوك قوية حول ما إذا كانت إجراءاتنا الحالية تتناسب مع المجريات العامة فى علاقاتنا الخارجية عبر ربع القرن القادم. أنا شخصيا أرى أن هناك الكثير مما يمكن عمله ضمن التدابير الدستورية الحالية وأن مهمتنا الأولى هى استنفاذ تلك الإمكانيات قبل إعادة توجيه طاقاتنا إلى مجادلات خلافية عميقة حول التعديل الدستورى.

إن الملاحظات السابقة تكتسب أهمية إضافية لأننا نعيش الآن بالفعل فى زمن يتميز بتحولات جوهرية أكثر سرعة مما اختبرناه فى السابق كأمة أمريكية. إن الشعور بالأزمة هو ظاهرة متكررة فى الشئون الإنسانية، ولكن هناك على الأقل عاملان يشيران إلى أن زماننا هذا ربما يتسم - على وجه الخصوص - بحبس الأنفاس. العامل الأول هو وتيرة تطور العلم والتكنولوجيا. والعامل الثانى هو ظهور أعداد كبيرة من الأمم المستقلة التى لم تستقر بعد فى مسارها، وتضاعف أعداد أولئك الذين يجب أخذهم فى الاعتبار.

إن تلك الوقائع الثلاثة تفرض واقعا رابعا، ألا وهو أن مهامنا وتدابيرنا الدستورية الفريدة والمحيط الخارجى تضع قيمة عالية خاصة على الزعامة. إن لدى ثقة - أكثر من بعض المعلقين - فى حكمة شعبنا وقدرته على إدراك ضرورات السياسة. ولكن الرأى العام لا يستطيع أن يرسم السياسات أو ينفذها. كما أنه لا يستطيع أن يناقشها بفعالية ما لم توضع القضايا فى إطاراتها وتطرح للمناقشة مدعمة بالخلفية الواقعية. بل أن الرأى العام - فى مثل مجتمعنا - لا يستطيع أن يتبع أو يؤيد ما لم يكن يعرف إلى أين نحاول أن نتجه. إن الرئيس يمثل الزعامة فى علاقاتنا الخارجية، يساعده فى ذلك وزير الخارجية ويسانده الكونجرس. والانتقادات - المباشرة أو الضمنية - أمر حتمى فى مناقشة تلك المسألة، ولكن المشاكل تتعلق بكلا الحزبين. إنى أحاول أن أنظر إلى تلك التعليقات - وآمل ألا يكون ذلك تجاوزا بل تحجيما للنظرة الحزبية - باعتبارها موجهة إلى الإدارة القادمة مهما كان لونها السياسى.

رغم أن تعليق «ترومان» بأن «الرئيس هو الذى يصنع السياسة الخارجية» لا يعبر عن القصة كلها، إلا أنه مفيد جدا إذا كنا نرغب فى تناول الموضوع فيما لا يزيد عن ست كلمات. لقد أدرك الكثير منا منذ زمن بعيد أن سلطات ومسئوليات مؤسسة الرئاسة قد نمت بصورة كبيرة منذ عام ١٧٨٩ من خلال التأويلات والتشريعات والأعراف الدستورية والظروف المتغيرة. ولكن ما لم يدركه الكثيرون منا بالكامل هو مدى تحول المنصب عبر العقود الثلاثة الماضية تحت تأثير منعطفين تاريخيين. المنعطف الأول هو الانخراط الهائل للحكومة الاتحادية فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأمة، وهو انخراط التزم به كلا الحزبين السياسيين. أما المنعطف الثانى فهو التحول الثورى فى العالم من حولنا وفى موقعنا منه. ورغم أن رجالا مثل «جاكسون» و«لينكولن» و«تيودور روزفلت» و«ويلسون» ساعدوا فى تخفيف صدمة التحول، إلا أن الرئاسة الحديثة تحت قيادة «فرانكلين روزفلت» و«ترومان» و«أيزنهاور» قد أضحت منصبا ذا مسئوليات يمكن بالكاد تحملها.

وحتى منذ أن أصبح للكلمات القديمة والمألوفة معان جديدة تماما، فربما كان من المفيد أن نتذكر بإيجاز حجم الأعباء عندما يقسم رجل أنه «سوف يؤدى مهام منصب رئيس الولايات المتحدة بإخلاص». ولكى نوفر الوقت وننظر إلى كافة أوجه المنصب مجتمعة، فلنرسم بفرشاة خفيفة وسريعة، مع أخذ كثير من التفاصيل التى يجب أن تكون - أو هى بالفعل - ملكية شائعة لمواطنين مثقفين، كأمر مسلم به.

إن الرئيس هو زعيم دولتنا، وهو القائد الرسمى والرمزى للأمة الأمريكية. وهو يجسد أمام باقى العالم كرامة وسيادة الإتحاد الفيدرالى، ويعول عليه كثيرا فيما يتعلق بصورة أمريكا خارج الحدود. ويقود الرئيس شعائرنا المهيبة ويحدد لون حياتنا القومية. وسواء تحركنا فى شئوننا العامة والخاصة بحيوية وثقة أو تثاقلنا فى تبلد وحيرة، فإن ذلك يعتمد إلى حد كبير على الحالة المعنوية القادمة من البيت الأبيض. إن الانصياع الغريزى للمنصب وللرجل الذى يتبوأه هو فى حد ذاته مصدر للقوة والنفوذ ويزيد من قدرته على الفعل والإقناع وتسوية الخلافات.

الرئيس هو المسئول التنفيذى الأول لحكومة الولايات المتحدة، وهو الرئيس الإدارى لوزاراتها العشر وعشرات من الوكالات المستقلة والتى يعمل بها حوالى مليونين وربع مليون موظف مدنى. وبالنظر إلى أنه مكلف من قبل الدستور بـ «التأكد من تنفيذ القوانين بدقة»، فعلى الرئيس تعيين قيادات مؤهلة للجهاز الإدارى الهائل للحكومة، وأن يبث فى الهيئة الفيدرالية - من خلال اهتمامه ومتابعته - روح الإخلاص والعزة والحماسة لتحقيق أداء جيد. ونظرا لعجز تسلسل القيادة الإدارية - لأسباب جدية وأخرى سيئة - عن إعلام الرئيس بكل مجريات الأمور، فعليه أيضا أن يستغل خطوط اتصال أخرى، مثل مساعديه الشخصيين وسيل البريد الوارد إلى البيت الأبيض والصحافة وملاحظات أعضاء الكونجرس وزملائه فى الحزب. ولمقاومة زخم ذلك الجهاز الهائل، عليه أن يبقيه نشطا ومتنبها من خلال توجيه الأسئلة المناسبة إلى وزرائه والقيام باتصالات هاتفية مفاجئة وتوجيه مذكرات قصيرة للإطراء أو النقد والإدلاء بتعليقات فى مؤتمرات صحفية.

وسرعان ما يكتشف الرئيس أن صنع السياسات ليس هو نهاية المطاف بالنسبة لمهامه، وأن السياسات يمكن إبطالها بما أطلق عليه «إليهو روت» بلطف «مرؤوسين غير متعاونين». وسوف يكتشف فى الجهاز الإدارى اتجاهات وممارسات تتحول إلى قوانين غير معلنة للإدارة العامة. ومن أمثلة ذلك، أنه عندما يكون هناك تركيز مبالغ فيه على التفويض فإن المسئولية - مثل الرواسب - تسقط إلى القاع. والآن فى وجود البروفيسور «باركنسون» بيننا، فربما يقبل بالقانون الذى ينص على أنه فى أى منظمة كبيرة تتناسب كمية الوقت المنصرف فى المهام المحورية عكسيا مع الارتقاء فى السلم الإدارى. ومن الأمثلة الأخرى، القانون صاحب الجذور شبه المحترمة، والذى ينص على أنه لا يجوز العمل فى أى إدارة أو وكالة بواسطة إدارة أو وكالة موازية أخرى، فمن المهين الانصياع أفقيا وليس رأسيا. ومثال آخر هو القانون الذى ينص على أن أى شخص يتأثر بقرار ما يجب أن يشارك فى صنعه.

إن كلا من إدارات ووكالات الحكومة تركز اهتمامها على جزء من كل. ويجب على الرئيس - بمساعدة موظفى البيت الأبيض والمكتب التنفيذى - أن يوحد الأجزاء فى مجهود وطنى فعال. وهو لا يستطيع أن يأمل فى تحقيق انسجام

إن ما تفعله أو لا تفعله الولايات المتحدة يشكل فرقا كبيرا فى تاريخ الإنسان فى هذه الحقبة



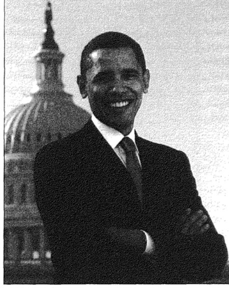
للاستزادة:
مجلة الشئون الخارجية
Foreign Affairs.
عدد مارس/أبريل ١٩٦٠

ترجمة: عادل فتحى

فى مقال يعود للعام ١٩٦٠، يستعرض «دين راسك» دور رئيس الولايات المتحدة فى وضع وتنفيذ السياسة الخارجية

لطيف فى قيادة شعب يتسم بالحيوية والتعدد وتنتابه هموم المصالح والطموحات المتعارضة، ولكن الرئيس يستطيع أن يحاول تحقيق اتساق سياسى عام فى الاتجاهات الرئيسية للحركة والإقلال من تبديد الجهد والإحباط الذى يحدث عندما تهدم يد ما تحاول اليد الأخرى باجتهاد أن تبنيه.

إن الدستور يقرر أن «الرئيس سيكون هو القائد الأعلى لجيش وبحرية الولايات المتحدة». إن تلك الفقرة - المستعارة من قوى الحكام الاستعماريين والتى ربما تأثرت باحتمالية أن يكون «جورج واشنطون» هو أول رئيس للولايات المتحدة - هى مصدر مستقل للسلطة الدستورية وتضع الرئيس شخصيا ومباشرة كقائد للقوات المسلحة. ورغم أن «وودرو ويلسون» لم يفعل ذلك، إلا أن كلا من «لنكولن» و«فرانكلين د. روزفلت» و«ترومان» تولوا شخصيا قيادة ما أصبح يطلق عليه «الإدارة العليا للحرب». إن الأمة تتوقع من الرئيس أن يلعب الدور الرئيسى فى تحديد نمط ومدى القوة العسكرية التى تحتاجها للدفاع عن نفسها ولدعم سياستها. وهو لا يستطيع التنصل من المهمة الحاسمة لتقييم المخاطر والأعباء وتحديد الخط المراوغ المجازف بين الأقل من اللازم والأكثر من اللازم. ويجب عليه أن يرعى معنويات جنودنا وأن يؤكد لهم تقدير الأمة ودعمها لهم وأن ينمى شعورهم بالفخر تجاه جهودهم الشاقة. ومن جهة أخرى، يجب على الرئيس أن يؤكد بحزم على مبدأ أن المهمة الأولى لأى رجل يرتدى الزى العسكرى هى أن ينفذ ما يؤمر به بغض النظر عن عدد النجوم على كتفيه، وعلى أن المؤسسة العسكرية هى أداة للسياسة وليست صانعة لها. والرئيس فقط هو الذى يستطيع حل المنافسات والمنازعات بين أفرع القوات المسلحة حول دور كل منهم، وعليه أن يسعى - بالاشتراك مع الكونجرس - إلى كبح نمو جماعات سياسية مستقلة تدعم أفرع معينة فى القوات المسلحة، حيث أن ذلك يناقض بشدة نظامنا الدستورى. وباعتباره القائد الأعلى، يستطيع الرئيس نشر القوات المسلحة وإصدار الأمر لها بالدخول فى عمليات قتالية. وفى عصر الصواريخ والرؤوس الهيدروجينية، فإن نفوذ الرئيس لا يحده سوى متطلبات الموقف، وربما كانت العواقب التى يتعين عليه التعايش معها هى الأكثر رعبا. وفى عصر يتلمس فيه الإنسان طريقه نحو السيطرة على الأسلحة وتغيرت طبيعة الحرب فيه إلى ما لا يمكن تصوره، فإن دور الرئيس كقائد أعلى دخل مرحلة جديدة.



الرئيس هو زعيم حزبه السياسى. وبالفعل فإن انتخابه هو السبب الرئيسى لوجوده كحزب وطنى، ولقد كان الأمر كذلك منذ أيام «جيفرسون». إن بنياننا الفيدرالى وشروط المنصب التى وضعها الدستور تحرم زعامة الحزب من بعض الأدوات المعروفة لدى النظم البرلمانية للسيطرة على الحزب. وبمجرد انتهاء فترة الوحدة رباعية السنوات، تهيم أحزابنا بلا هدف وتظهر شقاقات المصالح الإقليمية أو الخاصة وظروف الطموح الشخصى. ولكن الحزب الذى ينتمى إليه الرئيس يمكن أن يتوقع معيارا للزعامة. إن حزب الرئيس يتضامن لمصلحته المشتركة فى الاستجابة الشعبية لأداء الرئيس والنفور المشترك تجاه فكرة أن الأوغاد على الجانب الآخر ربما يحددون اسم خليفته. إن الرئيس يستطيع أن يقنع ويتملق وأن يهدد ويؤنب وأن يقدم حوافز عرضية من الإمتيازات السياسية. ولكن سطوة حزبيته عادة ما تحدها حاجته لعبور الطريق سعيا للحصول على الدعم لسياساته من قبل المعارضة، خاصة عندما تسيطر الأخيرة على أحد أو كلا جناحى الكونجرس.

الرئيس هو كبير مشرعينا. وتشكل مقترحاته جدول الأعمال الرئيسى للكونجرس. وتصاغ القوانين الهامة بواسطة أو بالتشاور الوثيق مع الوزارات التنفيذية ووزارة الخزانة. إن نقاط تأييد التشريعات التى تظهر قبيل انتهاء الدورة البرلمانية تستخدم لقياس أداء كلا من الكونجرس والرئيس. إن سلطة الاعتراض (الفيتو) لدى الرئيس، وزعامة حزبه وقدرته على حشد الدعم الشعبى لوجهة نظره، كل ذلك يجعل منه شريكا رائعا فى العملية التشريعية.

الرئيس هو المسئول الأول عن ميزانيتنا. ويناقش الكونجرس الميزانية التى يقدمها الرئيس، وعندما يخفت ضجيج المناقشة، يمررها مع بعض التعديلات الطفيفة. إن الميزانية الفيدرالية - التى تشكل خمس الدخل القومى - والسياسات المالية والنقدية للحكومة، تؤثر جميعا وبشكل كبير على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للبلاد، على دوافعها وعلى أولوياتها وعلى اتجاهات النمو وعلى الاستثمار العام والخاص وحتى على طبيعة ومدى الجهود التطوعية.

لقد رأى الآباء المؤسسون بوضوح أن سلامة واستقرار إجراءاتنا السياسية سوف تعتمد على دور الرئيس كحام للدستور. لقد اصطفوه لقسم غليظ بأنه سيفعل كل ما فى وسعه لـ «المحافظة على دستور الولايات المتحدة وحمايته والدفاع عنه». إنه يسيطر على القوة الغاشمة للدولة - القوات المسلحة ومكتب التحقيقات الفيدرالى ووكالة الاستخبارات المركزية والخدمة السرية وضباط الشرطة الفيدراليين. من الممكن للكونجرس أن يمرر القوانين، حتى رغم فيتو الرئيس، ولكن الرئيس يجب أن يراقب التطبيق الحكيم والنزيه لتلك القوانين. ومن الممكن للمحكمة العليا أن تلتزم بالدستور عند الفصل أمامها بين النزاعات، ولكن على الرئيس أن يهذب سلوك الحكومة بما يتوافق مع تفسير المحكمة للقانون الأساسى. إن الاحترام القومى للعملية الدستورية هو المادة اللاصقة التى تضمنا، وهو فى الغالب الشاغل الأكبر للرجل الذى يشغل المنصب الأول فى البلاد. فى ظل نظام دستورى لا يستطيع العمل ما لم يصمم الذين يمارسون سلطاته على أن يعمل، فإن الرئيس عليه أن يتنبأ بالأزمات الدستورية ويحشد كل طاقات منصبه لمنع المواقف التى لن يكون لها حلول مقبولة. لقد وجهت الأمة لوما شديدا للرئيس «فرانكلين د. روزفلت» بسبب لجوئه لخطة وضعها أحد أتباعه السياسيين لتسوية مشاكله مع المحكمة العليا، وأخفق الرئيس «أيزنهاور» فى الاستفادة من إمكانيات منصبه لمنع الحاجة للجوء إلى السلاح فى «ليتل روك».

بعبارة بليغة، فإن الرئيس هو القيم على المصلحة القومية. وبانتخابه قوميا من قبل مجموع الناخبين، فإنه يتحدث إلى الكونجرس وإلى الشعب حول احتياجات الأمة بصورة إجمالية. ومن المفهوم أن جمهوره يهتم أكثر بالشئون الشخصية والمحلية أو الإقليمية. ويحتاج إلى مساعدة الرئيس لتفهم ما هو مطلوب من مواطنى الولايات المتحدة.

ولكن الرئاسة الحديثة لا تستطيع أن تضع لنفسها حدودا ضيقة الأفق للمصلحة القومية. فكما هو مسجل فى المعاهدات الهامة ومتأصل فى المصالح والظروف العامة، فإننا شركاء فى تحالف عظيم يضم الآن أكثر من أربعين أمة. لقد إقتطعت قوتنا من سيادتنا، ويجب أن تأخذ قراراتنا فى الاعتبار احتياجات وآمال أولئك الذين ترتبط مصائرهم بمصيرنا. ولو أخفق الرئيس فى الوفاء بمتطلبات زعامة أمة متحالفة مع آخرين، فإن ولايات متحدة مترددة أو ممانعة لا يمكن أن تقاد بواسطة آخرين وسرعان ما ستتفكك التحالفات القائمة حاليا.

كنت أصف قدرات ومسئوليات أعلى منصب فى أمة تعمل وتتحرك بتوافق الرأى. ليس الرئيس فى وضع يسمح له بالقيادة المطلقة، بل أن جوهر نظامنا جعل الدستور يمنحه رخصة للقيادة. لو فكرنا فى الرئيس باعتباره مسئولا تنفيذيا يجلس فى مكتبه ويشطب قرارات عظيمة، فيجب أن نوازن ذلك بصورة الرئيس كخادمنا الأعظم الذى يجب - مثل كلب الغنم تقريبا - أن يجمع شعبا حرا ويقنعه بالتحرك فى اتجاه معين لفترة طويلة بما يكفى للعمل طبقا لسياسة معينة. ولا يعنى ذلك أن الرأى العام - كما يراه أو يخشاه - يفرض عليه قيودا.

إن الشعب الذى انتخبه قادر

على الفهم والاهتمام وسيكون متجاوبا مع قيادته على الأرجح. وفى حالة وجود قضايا حساسة وكانت هناك شكوك هامشية، فإن الكثير منها يتم حله عندما يتوجه الرئيس إلى الأمة ويطلب مساندتها. وعند تقييم إمكانيات العمل بالقياس إلى الرأى العام، فمن الضرورى أن ندرك الفرق بين الانطباعات العرضية وردود الفعل تجاه القيادة الفعالة.

إن القدرات والمسئوليات التى كنا نناقشها هى تلك المتعلقة بفكر ووقت وطاقة الرئيس نفسه. من الممكن من خلال التشريع والنظام التنفيذى صياغة فقرة خاصة بالتوسع فى تفويض المهام، ولكن المسئولية النهائية تقع ثانية على المنصب، مما دعا البعض إلى أن يصف حكومتنا بـ «نظام رئاسى». إن وجود الرئيس أمر ضرورى، حتى ولو كان من الممكن استبداله.

إن الغياب الجسدى للرئيس عن موقعه فى واشنطون له من العواقب ما يكفى لأخذه فى الحسبان. إن الرئيس متنقل مثل طائرة نفاثة ولكن ليس من الواضح أن الرئاسة كذلك. من الممكن أن يتقبل المرء الوهم اللذيذ والضرورى بأن البيت الأبيض هو حيثما يكون الرئيس، ويقر فى الوقت نفسه بأن الغياب المطول عن واشنطون يضعف من الأداء الفعال للمنصب. وما لم تكن هناك وسيلة للاتصال بالرئيس فإن القرارات بشأن القضايا الهامة يتم تأجيلها من قبل المرؤوسين المتعاطفين أو يتم التصرف فيها على مستوى الإدارات والوكالات المختصة. ومن جانبه فإن الرئيس سيفقد الاتصال جزئيا بمجلس وزرائه وموظفيه الشخصيين ومصادر معلوماته المعتادة وزعماء الكونجرس وزعماء حزبه. وبالإضافة لذلك فإنه لا يستطيع أداء العديد من الجوانب الرسمية وغير الرسمية لمنصبه والتى ناقشناها سلفا. يجب أن يكون الرئيس حرا فى مغادرة واشنطون للعمل أو للأجازة، ولكن تأثير غيابه هو أكبر مما قد يقنعه به موظفيه الشخصيين. إن الرئاسة لا تكون تماما فى «وورم سبرنجز» أو «القاهرة» أو «كى ويست» أو «بوتسدام» أو «أوجوستا» أو «موسكو» أو «كابول» أو «سنتياجو»، كما هى فى واشنطون العاصمة.

إننا لا نناقش هنا قضايا فنية خالصة.

فى خريف عام ١٩٤٣ دخل «روزفلت» و«تشرشل» و«ستالين» فى جدل مطول بشأن مكان عقد لقاء للثلاثة الكبار. وقد فضل «ستالين» إيران واستشهد بواجباته فى إدارة شئون الحرب على الجبهة الشرقية. وفضل «روزفلت» شمال أفريقيا وأصر مرارا على ضرورة وجوده قريبا بدرجة كافية من واشنطون حتى يتمكن من التعامل مع مشاريع القوانين التى يرسلها إليه الكونجرس فى خلال الأيام العشرة التى ينص عليها الدستور. وكان اعتراضه على طهران يرجع إلى أن ظروف الطيران المتقلبة فى تلك الفترة ربما تعيق بخطورة واجبه الدستورى. وقد رفض «ستالين» أن يتزحزح ولو حتى إلى البصرة، وتم عقد اللقاء فى طهران. وبعد أن استسلم فى النهاية، قال «روزفلت» لـ «ستالين»: «سيسرك أن تعلم أننى قد توصلت إلى طريقة تتيح لى إذا ما نما إلى علمى أن هناك مسودة قانون مررت فى الكونجرس وأرسلت لى لإبداء اعتراض، أن أطير إلى تونس لتلقيها ثم العودة إلى المؤتمر». ولابد أن هذا الحل السحرى قد أكد لـ «ستالين» أن تلك النقطة لم تكن خطيرة. فلا يجب أن تكون هناك صعوبة فى عمل ترتيبات مع زعماء الكونجرس - كنوع من التناغم الدستورى - لتعليق إرسال مشروعات القوانين للرئيس عندما يكون خارج البلاد أو - فى حالة فشل ذلك - فى الإصرار على أن عداد الأيام العشرة لا يبدأ فى العمل حتى تصل مسودة القانون إلى الرئيس أينما يكون. إن مثل تلك المشاكل لن تتحمل العبء الذى حاول «روزفلت» أن يلقيه عليها، فالقضايا الحقيقية أكثر أهمية.

يتذكر البعض منا أن الوقت كان عاملا حاسما لقرار تدخل القوات الأمريكية ضد العدوان فى كوريا. ولو تأجل اتخاذ سلسلة القرارات لمدة ٢٤ ساعة على سبيل المثال، كنا سنواجه موقفا مختلفا تماما فى شبه الجزيرة الكورية. ومع ذلك استطاع الرئيس «ترومان» - الذى كان فى ميسورى عندما وصل إلى واشنطون التقرير الأول عن الهجوم - أن يحيل الأمر فورا إلى مجلس الأمن، ويصل إلى واشنطون عصر اليوم التالى لتولى المسألة برمتها بنفسه. لقد قلل الانتقال بالطائرات النفاثة من الفارق بين ميسورى و - على سبيل المثال - أوروبا الغربية، ولكن الصواريخ الموجهة والقاذفات السريعة قد ألغت تقريبا الجانب الآخر من معادلة الزمن. ونظرا لأن الإجراءات الدستورية قد وضعت لتغطى العديد من حالات الطوارئ التى - لحسن الحظ - لا تقع أبدا، فإن القول بأن الوضع الإستراتيجى الحالى يضع أهمية كبرى على التواجد الفورى للرئيس والقائد الأعلى. إن غيابه خارج الولايات المتحدة - فى وضع شخصى ليس مؤكدا أنه هو نفسه يستطيع السيطرة عليه - يشير إلى «عجز محتمل عن تولى سلطات وواجبات» منصبه، ويطرح من جديد - فى ظل ظروف مختلفة - مناقشة نفس النقطة التى أثيرت عندما قام «ويلسون» بزيارة أوروبا. من المنطقى أن نأخذ فى الاعتبار - حتى لو رفضنا فى النهاية - إمكانية أن ينص القانون على أن نائب الرئيس يصبح قائما بأعمال الرئيس أثناء غياب الرئيس خارج الولايات المتحدة، تاركين للاثنين حرية تقرير أى المسائل - باستثناء الطوارئ الخطيرة - سوف يرسل إلى الرئيس لإبداء رغباته أو يبقى لحين عودته. إن الإدارات الكبيرة فى الحكومة تضع بنودا لتولى المسئولية أثناء غياب رؤساء تلك الإدارات، وهذا الأسلوب شائع فى الشركات والمؤسسات الخاصة. ومهما كان احتمال الطوارئ بعيدا - كما نأمل - فمن الصعب أن نتخلص من القلق الضمنى تجاه احتمال تعليق أحد أهم واجبات الرئيس بسبب عدم إمكانية الاتصال به، أو إخفاقه بسبب فشل كبار مرؤوسيه فى العمل بانسجام، أو اغتصابه بواسطة جنرال مستهتر سياسيا. إن وجود فقرة تنص على أن نائب الرئيس يقوم بأعمال الرئيس أثناء غياب الرئيس بالخارج سوف يعنى بالتأكيد أن الرؤساء لن يسافروا للخارج إلا فى أندر المناسبات - وهذا فى رأيى أفضل جوانب الموضوع.

إن تشكك الدبلوماسى تجاه حسنات اجتماع رؤساء الحكومات ووزراء الخارجية أمر معروف تماما. إن نصيحة «فيليب دى كومينز» فى القرن الخامس عشر بأن «الأميرين اللذين يرغبان فى إقامة علاقات شخصية طيبة فيما بينهما يجب ألا يلتقيا أبدا وجها لوجه، بل أن يتواصلا من خلال سفراء أكفاء وحكماء» يناظرها فى زمننا الحالى تحفظات السير «هارولد نيكولسون» تجاه «عادة الاتصال الشخصى بين رؤساء الدول فى العالم». ومع التحفظ الشديد الذى يصب فى صالح الانحياز المهنى تتجه الآراء إلى تعميم يرتكز على أساس سليم. وإذا ما فكرنا بصورة عامة وعلى المدى الطويل، فإن الحكمة تكمن فى الإقلال من تأثير الحوادث الشخصية على العلاقات بين الدول. ربما نتذكر برضى الانسجام الشخصى الذى ساد جهود «جورج مارشال» و«إيرنست بيفين» و«روبرت شومان» لتوحيد الحلفاء، وربما نحاول نسيان العواقب المؤلمة للمشاكل الشخصية بين «أنتونى إيدن» و«جون فوستر دالاس». ولكن أيا من الصداقة أو الجفاء لا يشكلان أساسا سليما للسياسة العليا. إن الصفات الشخصية تتغير، وبصورة سريعة أحيانا، ولكن المهام الكبرى لبناء نظام عالمى مقبول سوف تبقى، والمصالح الوطنية أهم كثيرا من خصوصيات أصحاب المناصب العامة.

لابد أن أعترف أن هناك أفكارا وتخمينات باطلة حول المدى الذى قد تكون تأثرت به الشئون الدولية بسبب مرض أصحاب المناصب العامة منذ أيام «وودرو ويلسون» مثلا. أقول «باطلة»، لأنه ربما كان من المستحيل غالبا عزل تأثير المرض، كما أننا لا نستطيع أن نعرف كيف كانت ستؤول الأمور. ولكن القائمة الدولية لأولئك الذين تحملوا مسئوليات جسيمة أثناء مرضهم هى قائمة طويلة، وهناك لمحات خاطفة لقرارات ربما كانت للصحة الجيدة تأثير مختلف عليها. لقد ذكرت تلك النقطة لأن من بين أهداف الدبلوماسية - بما فى ذلك المناخ الرسمى المسهب والأسلوب الراقى - هو استبعاد العديد من الأشياء غير ذات العلاقة - والنابعة من الضعف البشرى - من الشئون الرسمية الهامة.

فلنلخص الأمر بإيجاز. إن ما نقوله والكيفية التى يجب أن نظهر بها هما أمران قليلا الأهمية مقارنة بكيفية مزاولة العمل العام فى شئوننا الداخلية والخارجية. ليست هناك دعاية فعالة مثل السمعة المستحقة لمجتمع حيوى يوفر فرصا غير محدودة لمواطنيه ويؤسس علاقاته مع بقية العالم على أساس من الاحترام المتبادل والكياسة الضمنية. لو كان لنا أن نقيس ثقتنا بأنفسنا، فإن هناك مشاكل ملحة تحتاج لاهتمامنا: تضامن حلفائنا، وعلاقاتنا مع الشعوب المستقلة حديثا، تناسب قواتنا المسلحة مع احتياجاتنا، والنمو المنظم لاقتصادنا، والموقف التنافسى لمنتجاتنا بالخارج، وحاجاتنا الملحة فى التعليم، والتدهور فى قطاع النقل وفى مراكزنا الحضرية الكبرى، وقبول أقلياتنا كمواطنين متساوين، ونقص الرجال المؤهلين للقيادة فى كل مهنة وحرفة ومرفق. ويمكن لكل منا أن يضع قائمته الخاصة.

إن الإسهام الهام الضرورى الذى يمكن أن يقدمه الرئيس لإدارة شئوننا الخارجية هو أن يمارس صلاحيات منصبه بالكامل، ويستخدم سلطاته ويقبل مسئولياته، ويقود شعبا قادرا على التجاوب مع التزامات المواطنة. إنه يشغل منصبا فريدا بطريقة دستورية فريدة تتيح له سلطات هائلة مقابل الزعامة - سلطات مفتوحة بقدر ما يتطلب الأمر. وبتعاطف عميق يمكننا أن نقر بأن سلطاته هى أعباء لا يجب أن يطلب من أى إنسان تحملها، وأن المشاكل التى يواجهها قد تتفاقم إلى حد يتجاوز قدرته على التفكير، ويمكننا أن نشعر بالامتنان لوجود رجال لديهم شجاعة السعى نحو المنصب.

إن احترام الرئيس هو الذى يقودنا للاعتقاد بأن الزيارات إلى عشرين أو أكثر من البلدان فى خلال شهور قليلة تخللتها فترات من الإعداد والراحة، تستنفد الكثير من الرجل ومن منصبه. إن النظام الرئاسى لا يستطيع أن يتأقلم بسهولة مع فترة انتقالية، إن أمة تتحرك بمثل هاتين الكتلة والسرعة الكبيرتين تحتاج إلى مهندس عند دواسة الوقود.

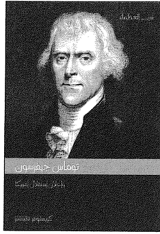
وفى النهاية فعلى الرئيس أن يعد نفسه لتلك اللحظات المهيبة عندما يتوجب عليه - بعد تلقى كل النصح من جميع الاتجاهات - أن يرتقى برجه الوحيد ويقرر لنا ما يجب أن نفعله. هناك مثل تلك اللحظات التى يحبس فيها العالم كله أنفاسه ويكون مصيرنا فى يديه. وعليه عندئذ أن يسخر كل خبراته، وكل ما قرأه وتعلمه، وفهمه لأمته وللعالم من حوله، وإيمانه وضميره وشجاعته. من هذا المنطلق - وليس النقد التافه - يمكننا أن نغار من وقته وطاقته ومقاومته لكل تأثير يقف حائلا بين الرجل وبين أعبائه. ■

توماس جيفرسون

كريستوفر هيتشنز
Christopher Hitchens

لنبدأ القصة من نهايتها: في الرابع والعشرين من يونيو/حزيران من عام ١٨٢٦م، كتب توماس جيفرسون Thomas Jefferson خطابه الأخير. ومن منزله بفيرجينيا، الذي يطلق عليه مونتيتشيللو Monticello، أرسل جيفرسون ذلك الخطاب رداً على دعوة وجهها له روجر سي ويتمان Roger C. Weightman - رئيس مجلس إدارة إحدى لجان واشنطن - لحضور الاحتفال الوشيك آنذاك بالذكرى الخمسين لإعلان الاستقلال Declaration of Independence. وقد أعرب جيفرسون عن عميق أسفه لعجزه عن السفر إلى العاصمة بسبب التدهور السريع في حالته الصحية. وعبر عن أسفه هذا تعبيراً مفصلاً على النحو الآتي:

«الواقع أنه كان ينبغي أن أكون أكثر الناس سعادةً بالحضور وتبادل التهاني بصورة شخصية مع تلك المجموعة الصغيرة التي تضم من تبقى من الرجال العظماء، الذين اشتركوا معنا ذلك اليوم في اتخاذ ذلك القرار الجريء الذي أحاطته الشكوك وقتها. والذي كنا بصدد اختياره لدولتنا؛ وهو إما الخضوع والاستسلام أو رفع سيوف المقاومة. وكان ينبغي أن أستمتع معهم بتلك الحقيقة التي نجد فيها بعض العزاء، وهي أن إخواننا من المواطنين - بعد مرور نصف قرن من التجارب والرخاء - ما زالوا يؤيدون القرار الذي اتخذناه من قبل. وليكن هذا القرار - كما أومن أنه سيكون - للعالم كله (أو بعض أجزائه في البداية، والبعض الآخر لاحقاً، ولكنه سيشمل العالم كله في نهاية الأمر) رمزاً لنهضة الرجال لتحطيم تلك الأغلال التي حرضهم الجهل بالدين والإيمان بالخرافات على تقييد أنفسهم بها، وليستمتعوا بعدها بنعمة الحكم الذاتي وما يحققه من أمان. إن هذا النموذج الجديد الذي أحللناه محل القديم يرد إلينا حقنا المطلق في ممارسة التفكير العقلاني وحرية الرأي بلا قيود. لقد تفتحت العيون كلها، أو ما زالت تتفتح، على حقوق الإنسان. وإن نور العلم الذي انتشر وشاع قد فتح الأبواب بالفعل أمام الجميع لرؤية تلك الحقيقة الواضحة؛ وهي أن عامة البشر لم يولدوا وهم يحملون السروج على ظهورهم، ولم تولد قلة مصطفاة تنتعل الأحذية طويلة الرقاب والكعوب المدببة ليكون لها حق شرعي في التحكم في بقية الناس. وتلك هي الأسس التي ينبع منها الأمل لبقية الأشخاص. أما نحن، فلتكن الذكرى السنوية المتجددة لهذا اليوم فرصة ننشط فيها ذاكرتنا بتذكر تلك الحقوق، وبمعاهدة أنفسنا على الالتزام بها بنفس الإخلاص إلى الأبد».



توفي توماس جيفرسون في الرابع من شهر يوليو/تموز التالي مباشرةً نتيجةً لإصابته بإسهال حاد وعدوى التهاب في المسالك البولية. وكانت آخر كلماته: «هل اليوم هو الرابع من يوليو؟»، وفي نفس اليوم، توفي أيضاً خصمه اللدود جون آدامز John Adams، في كوينسي Quincy بماساتشوسيتس Massachusetts، وكانت آخر كلمات تفوه بها:

«توماس جيفرسون لا يزال حيّاً»، أو على أقل تقدير: «توماس جيفرسون...» فقط. ومن المؤكد أن الكثير من القصص التي تروي الكلمات الأخيرة التي يتفوه بها الرجال العظماء قبل موتهم هي قصص مختلقة أو هي تلفيق وتدليس محض، إلا أن القصتين السابقتين تبدوان على قدر من المصداقية.

لقد توقف جيفرسون في الخطاب السابق عند كل المحطات الرئيسية في حياته السياسية. فهو لم يكن في حاجة إلى ذكر حقيقة قيامه بصياغة إعلان الاستقلال، الذي يعد بمنزلة المقدمة التي تأسست عليها فكرة حقوق الإنسان لأول مرة في تاريخ البشرية، باعتبارها قاعدة لقيام الجمهورية. وإنما أصر على تكرار ذكر وجهة النظر التي تقول بأن الثورة الأمريكية تأسست على مبادئ عالمية، ومن ثَمَّ فمن المؤكد أنه يمكن تصديرها للدول الأخرى. وأعاد التأكيد على أهمية العلم والابتكارات العلمية باعتبارهما شرارة حركة التنوير، وقارنهما - باحتقار شديد - بالإيمان عن غير فهم، وسذاجة تفكير. إلا أن شكه المُعلن في مسألة الدين يعد أكثر نقطة مثيرة للدهشة نظراً لأنه كتب وصيته بالفعل قبل ذلك التاريخ، وصمم شاهد قبره، وصرح لأطبائه بأنه صار على أتم الاستعداد لملاقاة الموت.

توجد سيرتا حياة فقط يستطيع المؤلف منهما دراسة الفكرة الكلية لقيام الولايات المتحدة منذ بدايتها، وإعادة النظر فيها أيضاً: وهما سيرة حياة كلٍ من توماس جيفرسون وأبراهام لنكولن. ولنكولن - الذي كان لا يزال في السابعة عشرة من عمره وقت وفاة جيفرسون - كان حينئذٍ يقسم وقته ما بين العمل كحطاب والتجديف بالمراكب والعبارات، صرح في وقت لاحق عام ١٨٥٩م قائلاً:

«المجد كله لجيفرسون: للرجل الذي امتلك - في ظل الضغط الهائل الذي صنعه صراعه من أجل تحقيق الاستقلال القومي لشعب واحد - رباطة الجأش، والقدرة على التنبؤ الصحيح، والقوة الكافية لتقديم الحقيقة المجردة في وثيقة ثورية بحتة، تلك الحقيقة التي يمكن تطبيقها على كل الرجال في كل زمان. لقد نجح في حفظها في تلك الوثيقة، لتظل حتى يومنا هذا، وإلى الأبد، صوتاً موبخاً وحجر عثرة في طريق أية بادرة شؤم تلوح في الأفق وتنذر بظهور الاضطهاد والطغيان على السطح مرة أخرى».

ولاحقاً، عندما تساءل لنكولن في خطابه الشهير في جيتسبيرج Gettysburg عما إذا كان النموذج المثالي الأمريكي يستطيع الصمود لوقت طويل، لم يتركز اهتمامه الأخلاقي على الدستور الفيدرالي Federal Constitution، بل على إعلان الاستقلال الذي صاغه جيفرسون (قبل عام ١٨٦٣م بسبعة وثمانين عاماً). وقد كان هذا كرماً بالغاً منه. أما اليوم، فإذا كنا ننظر بعين الرضا إلى تلك العبارات التي أنهى بها جيفرسون خطابه والتي تستنكر فكرة أن بعض الناس «يولدون بسروج على ظهورهم، وقلة منهم فقط يولدون منتعلين الأحذية الطويلة الرقاب ذات الكعوب المدببة»، فعلينا أيضاً أن ننتبه إلى أن جيفرسون نفسه لم يكن بحاجة لأكثر من مجرد النظر عبر نافذة غرفته كي يرى العبودية المتوارثة تتحقق بالفعل. ولكنه تعمد تأجيل تصفية هذه القضية المؤسفة تماماً، بل حملّها بكامل وعيه للأجيال التالية باعتبارها جزءاً من إرثه الذي تركه للأجيال التالية. وبعد سبعة وثلاثين عاماً من وفاة جيفرسون، وضع قتلى معركة جيتسبيرج وجرحاها (وهي معركة دارت أحداثها عشية الرابع من يوليو/تموز) معياراً جديداً لمفهوم الرهبة والخوف في الحروب الحديثة.

ومع ذلك، فلولا جهود جيفرسون، لما وُجد الاتحاد الأكبر Grand Union، ولو كان «نصفه من الأحرار ونصفه الآخر من العبيد»، كي يناضل من أجل تحقيقه كلٌ من لينكولن ودوجلاس، ولاحقاً لينكولن ودافيز، وفي النهاية جرانت ولي. وفي الرابع من يوليو/تموز من عام ١٨٠٣م، نشرت صحيفة ناشونال إنتليجنسر National Intelligencer بواشنطن أنباء صفقة شراء لويزيانا Louisiana Purchase، التي ربما تكون أعظم صفقة شراء أرض تمت في التاريخ، وافق نابليون بونابرت بموجبها على بيع كل المنطقة الواقعة بين نهر الميسيسيبي وجبال روكي للولايات المتحدة، وهي مساحة من الأرض لم يكن لها آنذاك موقع على الخريطة بكامل امتدادها شمالاً. ولم تؤد تلك الصفقة - التي جاءت نتيجة للمحاولات الدبلوماسية السرية والحذرة، والمعالجة الذكية السريعة لبعض المعوقات التي وضعها الكونجرس والدستور - إلى توسيع مساحة الولايات المتحدة بقدر ما أدت إلى تبدلها فعلياً. فعلى أية حال، لقد تضاعفت مساحة أراضيها بتكلفة أربعة سنتات للفدان فقط. ولاحقاً في نفس اليوم، تلقى الكولونيل ميريويذر لويس Colonel Merriwether Lewis آخر خطاب اعتماد له من الرئيس جيفرسون، واستعد للشروع في أكثر المغامرات التي يمكن تخيلها طموحاً لاستكشاف مفهوم التنوير، دعك من محاولة تحقيقه! إن يوم الرابع من يوليو/تموز من عام ١٨٠٣م، يستحق مكانة أكبر من تلك التي يحصل عليها عادةً في قائمة الأحداث الفاصلة أو التواريخ الحاسمة في تاريخ البشرية. ولكن هذا التاريخ لا يمثل يوم حدوث واقعة معينة، وإنما هو يوم استكملت فيه خطة دقيقة وبُدِئَ في أخرى. وفي حين يميل مؤرخو العصر الحديث وما بعده إلى استخدام تعبيرات على غرار «ابتكار أمريكا» أو «تخيل أمريكا»، فإنه من الأصدق أن نقول: إن توماس جيفرسون قد «صمم» أمريكا، أو أنه صاغها.

ومن الجلي، والحال هكذا، أن جيفرسون يضم في شخصه بعض التناقضات الحقيقية أو الظاهرية. وهذا ينطبق على جميع الناس، وعلى كل الأشياء. بل إنه سيكون من المدهش حقاً أن نجد شخصية تاريخية بارزة، أو بالأحرى أن نجد أمة، «لا» ينطبق عليها هذا القانون. إن جيفرسون لم يجسد المتناقضات في شخصه، وإنما كان «هو» التناقض بعينه، وسيبدو هذا واضحاً جلياً في كل خطوة من تلك القصة التي تحكي أحداث حياته.

للاستزادة:
Thomas Jefferson: Author of America
توماس جيفرسون وإعلان استقلال أمريكا
كريستوفر هيتشنز
كلمات عربية، القاهرة، ٢٠٠٨

كوامى أنطونى أبياه
KWAME ANTHONY APPIAH





كيف صنع المس

■ يرجع مفهوم المتوسط كملتقى لثلاث قارات إلى اليونان الكلاسيكية . لكن الأمر تطلب لقفزة فكرية أخرى لإدراك شعوبها كجماعة. أصبح بالإمكان التفكير فى أوروبا، وأفريقيا، وآسيا لكن دون التفكير فى الأوروبيين، والأفارقة، والآسيويين كشعوب من نوع خاص.

يكشف لنا ديفيد ليفرينج فى كتابه القيم والجذاب «بوتقة الرب» أن عاملين جعلا الأوروبيين يفكرون فى أنفسهم كشعب. الأول هو إقامة الإمبراطورية الرومانية المقدسة مترامية الأطراف التى أسسها ملك فرنجى محارب غليظ الرقبة، مسترسل الشعر، يبلغ طوله ٨٨. ١٨٢ سم،

GOD'S CRUCIBLE:islam and the making of modern Europe,570 - 1215
BY/DAVID LEVERING LEWIS
«بوتقة الرب» : الإسلام وقيام أوروبا الحديثة ٥٧٠ـ١٢١٥ م
ديفيد ليفرينج لويس
NORTON,473PP.,$29.95

بترتيب خاص مع:
THE NEW YORK REVIEW OF BOOKS

ترجمة : وليد سليم

نعرفه باسم شارلمان. العامل الثانى هو تطور ثقافة إسبانيا الإسلامية فى شبه الجزيرة الأيبيرية التى كان العرب يطلقون عليها اسم الأندلس، على الحدود الجنوبية الغربية لملكته.

فى هذه العملية التى تحولت من خلالها عدة قبائل أوروبية إلى شعب واحد، كان أمراً مهماً ما تحمله هذه القبائل من صفات مشتركة وكذلك ما يميزها عن جيرانها من المسلمين . هذه فكرة أصبحت الآن مألوفة. ولكن كتاب بوتقة الرب يقدم اقتراحا مدهشا، أنه فى تشكيل الحضارة التى ورثها الأوروبيون المحدثون، كان الإرث الثقافى للاندلس لايقل أهمية عن إرث الفرنجة الكاثوليك. باستعارتهم من الآخر العظيم، ملأوا فراغ الذات الأوروبية.

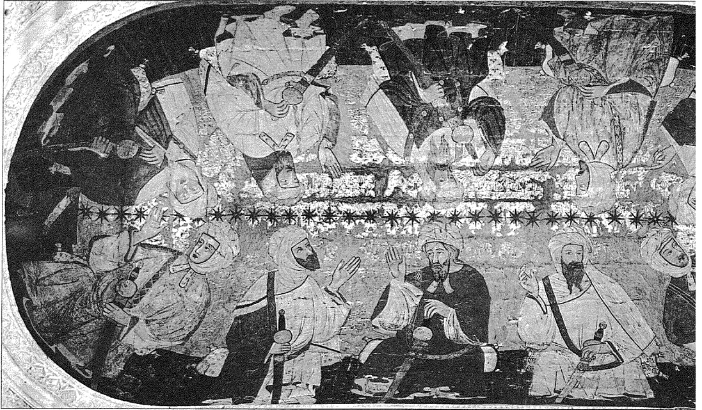
وقد ضمت إمبراطورية شارلمان فى ذروة اتساعها معظم فرنسا، وسويسرا، وبلجيكا، وهولندا، وغرب ألمانيا، وإيطاليا جنوبا حتى روما، وقطاعا من شمال إسبانيا، وأجزاء من المجر والبلقان. بلغت مساحة إمبراطوريته ما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف المليون ميل مربع، أى ما يفوق مساحة الولايات المتحدة الأمريكية. وقد فرض شارلمان الكاثوليكية المتشددة على الوثنيين الساكسون فى الشرق بحد السيف، وأباد الآلاف ممن قاوموا، وبنفس الحماس قمع الهرطقة فى الأراضى الفرنجية. وأسس شارلمان الأديرة كمراكز تعليمية، جاذبا الدارسين من جميع أنحاء إمبراطوريته ومن خارجها، وبعد قرون من الجهل التى أعقبت أنهيار الامبراطورية الرومانية فى بلاد الغال وجرمانيا كانت أعمال رجال مثل الكوين من نورثمبيريا(وهوشاعر ولاهوتى أعاد احياء الدراسات الكلاسيكية) هى التى قامت عليها النهضة الشارلمانية.

وربما جعلت تلك الإنجازات شارلمان يعتبر نفسه مؤهلا ليصبح وريثا لروما فى الغرب، وصانعا لتجديد الإمبراطورية الرومانية RENOVATIO ROMANI IMPERII. وعندما سافر إلى روما فى ديسمبر عام ٨٠٠ ، بعد أكثر من ثلاثين عاماً فى الحكم، ذهب للدفاع عن ليو الثالث كبابا لروما : ورد له صاحب القداسة صنيعه بتتويجه إمبراطوراً على الرومان يوم عيد الميلاد (مما أثار ضيق إيرين الحاكمة البيزنطية التى لقبت نفسها إمبراطورا، بدلاً من إمبراطورة، اعتقاداً منها ان اللقب من حقها).

كان شارلمان عسكريا عظيماً، وكاثوليكياً مخلصاً، وإداريا طموحاً، وراعياً للعلم. وله أن يفخر عن جدارة بميراث ما سيصبح نهضة شارلمانية لامعة : ويكفى أن نتأمل فى قطع العاج المنقوشة الرائعة الموجودة فى خزائن متحف المتروبوليتان أو فى رشاقة المخطوطات المكتوبة بأحرف شارلمانية دقيقة أو فى ديوان ألكوين المكتوب باللاتينية عن تاريخ يورك. لكن لويس يرى بصرامة أن الإمبراطورية التى أسسها شارلمان كانت «متعصبة دينيا، وفقيرة فكرياً ، ومتكلسة اجتماعياً، وبدائية اقتصاديا». تحكمها فئة محاربين منغلقة على نفسها يفرض نفوذها رجال الاكليروس. فبرغم العملة الجديدة، كان الاقتصاد قائماً على المقايضة، وكان ما يمكن اعتباره مدنا قليلا جدا، وكان معيار الثروة هو الأراضى، والفلاحون، والعبيد.

ولم يكن لدى شارلمان نظام لتحصيل الضرائب. واعتمد على النهب وما تنتجه ضياعه الخاصة. وما كان يدين له به السادة الإقطاعيين هو الخدمة العسكرية. فكانوا ملزمين بالذهاب سنوياً أواخر الربيع فى كامل عتادهم للقيام بحملة عسكرية، إذا رأى شارلمان ضرورة لذلك (وكثيراً ما فعل). وقد تبدل حال الفرنجة فبعد أن كانوا مزارعين ينعمون بالحرية نسبياً، اصبحوا أمة من الأقنان يعملون جنباً إلى جنب مع العبيد الذين كان كثير منهم سلافيين من بوهيميا والسواحل الجنوبية للبلطيق .

كان قصر شارلمان الملكى فى عاصمته الجديده «آخن» يضم خمسين فداناً من المبانى المدنية والدينية، ويمثل أضخم بناء حجرى شمال جبال الألب. ولكنه لا يصمد إذا قورن بالعظمة المعمارية لبيزنطة أو روما. وزود شارلمان المكتبات بالمئات من المخطوطات لم يعهدها الفرنجة من قبل. ولكنها (كما لاحظ جيبون)، تثير الرثاء إذا قورنت بآلاف الوثائق فى مكتبات إيطاليا أو إسبانيا. وقد استحدث نظاماً بيروقراطياً بإرسال موظفين ملكيين إلى كل مقاطعة من



مقاطعات مملكته الثلاثمائة والخمسين لتسليم أوامره، أو للاستماع للقضايا، أو أستدعاء المواطنين للحرب عند الضرورة. ولكن كما يقول لويس: القدر الأكبر من هذه المركزية الملكية لم يكن أكثر من مجرد رقعة مكتوبة فى عالم من الأمية المطبقة، والارتياب والاستياء العميقين من جانب طبقة النبلاء، والتفاوت الشاسع بين الموارد والأهداف.

والحقيقة أن إمبراطورية شارلمان، رغم أنها تثير الإعجاب، فقد كانت تفتقر الى العديد من مقومات ما نعتبره الحضارة: مثل المدن، والتجارة، والمكتبات الضخمة، والنخبة المثقفة. ويبدو هذا واضحاً إذا عقدنا مقارنة بين العالم الذى صنعه شارلمان وبين المجتمع المثقف لجيرانه الجدد المسلمين.

ومثل إمبراطورية شارلمان، كانت الأندلس نتاجاً لآلة حرب . ففى القرن السابع بدأ الإسلام فى الانتشار بسرعة مذهله خارج حدود الجزيرة العربية فى جميع الاتجاهات. فبعد وفاة الرسول عام ٦٣٢م، نجح العرب خلال ثلاثين عاما فحسب فى هزيمة أكبر إمبراطوريتين تقعان إلى الشمال من أراضيهم، الإمبراطورية الرومانية المسيحية فى بيزنطة والإمبراطورية الفارسية الزرادشتية التى أمتدت عبر آسيا الوسطى إلى حدود الهند. وبتولى الأمويين الخلافه الإسلاميه عام ٦٦١ م، اندفعوا باتجاه الغرب نحو شمال أفريقيا وشرقاً نحو آسيا الوسطى. وفى أوائل عام ٧١١م ، قاد طارق بن زياد بأمر، من سادس الخلفاء الأمويين فى دمشق، جيشاً من البربر عابراً مضيق جبل طارق إلى إسبانيا، وهناك هاجم القوط الغربيين الذين حكموا أغلب ولاية هيسبانيا الرومانية لقرنين من الزمان. وفى العام التالى انضم إلى الهجوم جيش قوامه ثمانيه عشر ألفا، أغلبهم من عرب اليمن.. وخلال سبعة أعوام أصبح معظم شبه الجزيرة الأيبيرية فى قبضة المسلمين؛ ولم تعد شبه الجزيرة بكاملها الى الحكم المسيحى حتى عام ١٤٩٢. أى بعد ما يقرب من ثمانمائة عام .

وبعد الانتصارات المبكرة التى حققها المسلمون، رد مسيحيو شمال شبه جزيرة أيبيريا الهجوم، فدعموا مملكة أستورياس خلال عشرينيات القرن الثامن، واستعادوا جليقية من الحكم الإسلامى بحلول نهاية العقد التالى. وفى الجبال الواقعة شمال غرب شبه الجزيرة، على الساحل الجنوبى لخليج بسكاى الذى تجتاحه العواصف، كانت القبائل المسيحيه قادرة إلى حد كبير على مقاومة التغلغل الإسلامى . كذلك لم يكن الحكم الإسلامى آمنا أبداً فى إقليم الباسك الذى يقع على الجانب الجنوبى من جبال البرانس. وكانت المستنقعات (أو الأراضى الحدودية) العليا، والوسطى، والسفلى تقع بين قلب الأندلس، الإقليم المحيط بقرطبة، وهذه الممالك المسيحية فى الشمال الشرقى، من جهة، وبين الفرنجة عبر الجبال الشمالية الشرقية، من جهة أخرى . وكانت المستنقعات عرضة لخطر الهجوم على الدوام، لكونها متاخمة لحدود الأستوريين والفرنجة.

إلا أن الأمويين لم يعتزموا التوقف عند جبال البرانس. ولكن محاولتهم الأولى للاستيلاء على أكوتين AQUITAINE، الدوقية الفرنجية الجنوبية، تم إحباطها عام ٧٢١ م عندما اجتاح الدوق «أودو» بخيوله القوية معسكرا للجيش الإسلامى خارج عاصمته فى تولوز. ولكن، بعد ما يربو على العقد عاود أمير الأندلس الجديد عبد الرحمن تولى هذه المهمة، على رأس جيش كبير، منضبط ، ومحنك من المغاربه . ودحر أودو قرب بوردو وزحف شمالاً باتجاه بواتييه فى منتصف المسافة تقريباً بين البرانس وباريس .

وبالقرب من بواتييه، قابل جيش المسلمين خصمه. وفى أكتوبر٧٣٢ م زحف شارل مارتل (جد شارلمان) بجيشه من أقاصى الدانوب لينضم إلى الدوق أودو، ونجحا فى القضاء على معظم قوات الأمير عبدالرحمن. وقد أطلق كاتب مسيحى، فى مخطوط لاتينى كتب فى عام ٧٥٤م على المنتصرين فى معركة بواتييه اسم الأوروبيينEuropenses ، وهذا هو أول استخدام مسجل لكلمة لاتينية للتعبير عن أناس أوروبا . وقد تم صكها فى الأندلس.

وقد نسب المؤرخون المسيحيون لاحقاً أهمية تاريخية فاصلة لمعركة بواتييه (بلاط الشهداء م).

فقد علق جيبون قائلاً : لو أن المغاربة كانوا قد قطعوا مسافة تعادل تلك التى قطعوها من مضيق جبل طارق، فربما كانوا قد نجحوا فى الوصول إلى بولندا أو الهايلاندز الأسكتلندية.

ربما اعتقد جيبون أن الأمير عبد الرحمن لو كان قد انتصر فى المعركة «لأصبح القرآن يدرس الآن فى مدارس أوكسفورد، ولكانت المنابر تفسر لشعب مختون قداسة وحقيقة الوحى المحمدى» . فى رأيه أن مصير المسيحية كان على المحك . فقد كتب بعد أسبوع من المعركة «لقد قهرت الشرقيين قوة ومكانة الجرمان، الذين فرضوا الحريه المدنية والدينية للأجيال اللاحقة»[1].

ولكن، كان يبدو غريباً فى ذلك الوقت اعتبار أن انتصار شارل مارتل قد كفل الحرية الدينية. فالطائفة اليهودية قليلة العدد واسعه النفوذ فى إيبيريا كانت تتمتع بالتسامح فى إسبانيا حين كان سادتهم الإقطاعيون القوطيون الغربيون آريين هراطقة يحكمون رعايا كاثوليكا ويهود؛ لكن اليهود بدأوا يعانون الاضطهاد فى عام ٥٨٩ م، حين تحول القوط الغربيون إلى الكاثوليكية. ومن هنا، كان الغزو الإسلامى ، الذى جلب حكاما يمارسون التسامح تجاه اليهود وكذلك تجاه المسيحيين والزرادشتيين،

...لمون أوروبا!؟

موضع ترحيب من جانب اليهود. وخلال الفترة الأولى من حكم المسلمين، أدرك المسيحيون بدورهم أنهم سوف يحظون بحريه عقيدتهم كاليهود طالما لم يحاولوا جعل المسلمين يرتدون عن دينهم، أو ينتقدوا الإسلام. وما من تباين أشد إثارة للدهشة. كان الوسواس المسيطر على الحكام الكاثوليك بشأن التشدد الدينى أحد الأسباب التى جعلت العصور المظلمة. كما أطلق بترارك على الفترة من القرن الخامس إلى القرن العاشر. حالكة الظلام.

ولم يبد واضحاً فى ذلك الوقت أن معركة بلاط الشهداء قد وضعت نهاية لأحلام المسلمين فى غزو أراضى الفرنجة، فلمدة ثلاثين عاماً تقريباً حافظ العرب على سيطرتهم على سبتيمانيا - لانكدو Languedoc حاليا- فى جنوبى فرنسا يحكمونها من عاصمتهم فى ناربون. وفى العقد التالى، حاول عدد من الأمراء المتوالين التوغل بشكل أكثر عمقا فى الأراضى الفرنجية فتواصلت الهجمات والانسحابات بشكل شبه منتظم. فى وسط كل هذا الكر والفر، لا يبدو منطقيا بدرجة كبيرة اختيار معركة بلاط الشهداء كنقطة التحول.

فى الواقع، ثبت أن الانقسامات بين المسلمين كانت أكبر عائق حال دون التوسع الإسلامى وهى التى أدت إلى وجود صراع شبه دائم فى الأندلس. وقد بدأ الخلاف فى عالم الإسلام فى المجتمع القبلى الذى خرج منه الدين. جاء النبى من قبيلة قريش المكية التى كان أفرادها يتمتعون بحظوة خاصة لدى المؤمنين. وقد كانت تنعم عشيرة محمد بمجد متميز بين العشائر فى قبيلة قريش. وجاء الخلفاء الأوائل جميعا من قريش، لكن أول عائلة حاكمة لم تأت من عشيرة محمد وإنما من بنى أمية.

حين اغتيل «على» رابع الخلفاء - ابن عم النبى وزوج ابنته - وخلفه خليفة أموى، بدأ صراع طويل بين العشائر. فى عام ٧٥٠، قضت الثورات فى الإمبراطورية الإسلامية الجديدة على حكم الأمويين، وشرع الخليفة العباسى الجديد فى قتل أى شخص من شأنه أحياء النسب الأموى، لذلك لم يأت تلقيبه بالسفاح من فراغ.

لكن إراقة الدماء لم تستكمل مما أدى إلى إحباط مساعيهم للسيطرة على الإمبراطورية. نجح عبد الرحمن - أكبر أحفاد الخليفة الأموى هشام الأول والذى كان يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً - فى الهروب من الأسر وتمكن من الوصول إلى المغرب. وعبر المضيق بين المغرب والأندلس، خطط عبد الرحمن لإخضاع مجتمع مسلم يدين حكامه بمكانتهم إلى فضل أسلافه الأمويين.

و فى عام ٧٥٥ وصل عبد الرحمن إلىّ غرناطة على رأس ألف من الفرسان البربر، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وخلال عام فى قرطبة نصب نفسه أميراً على الأندلس.

ولكن قبضته على الحكم كانت ضعيفة، ففقد موطئ قدمه فى شمال البرانس فى ٧٥٩م لبيبن القصير(والد شارلمان) لأنه كان يواجه تمرداً فى غرب إمبراطوريته. وأمضى معظم ولايته على ظهر فرسه مقاتلاً المقاومين لحقه كأمير.

وعندما هزم عبد الرحمن الأمير العباسى فى عام ٧٦٣م، أمر بإعدام جميع أسرى الحرب، وبنفسه أشرف على قطع أيدى وأرجل ثم عنق الأمير، وبعد حفظ رؤوس القادة فى المحاليل تم إرسالها إلى مكة. كتب لويس: أنه عندما وردت تلك التفاصيل الدمويه للخليفه المنصور قال: «حمد لله الذى وضع بحراً بيننا».

على الرغم أو ربما بسبب تلك البدايات الدموية، حظيت فترة ولاية عبد الرحمن وأسلافه ببعض الاستقرار النسبى، فأى أمير كان عليه أن يكون مستعداً فى أى وقت للدفاع عن مقاطعته، لكن بجانب التزامات الحرب كان باستطاعته ممارسة فنون السلام: فالساحه الأصلية للجامع الكبير فى قرطبة والتى مازالت قائمة حتى اليوم، والتى بنيت لعبد الرحمن فى اندفاع مدهش من التوهج المعمارى الواضح بين٧٨٥ و٧٨٦م. ذات الـ ١٥٢ عمودا منتظمة فى إحدى عشر ممراً، مكونة من جزءين، ساحة كبيرة للمصلين على مساحة ما يقرب من ثلثى فدان ومواز لها فناء بنفس المساحة ملئ بصفوف من أشجار البرتقال، يكونان معاً مربعاً تبلغ مساحة جوانبه ما يقرب من ٢٤٠ قدماً، والنتائج التى أضيفت عبر العصور لازالت مبهرة.

كتب لويس: ابتكر أبناؤها فن وعلم تحويل المادة إلى ضوء وشكل، كان مسيحيو العصور الوسطى الأكثر افتقاراً للقدرة على إدراكها، فالابتكار غير المسبوق للأساتذة بنائى الجامع الكبير كان فى تعلية السقف ذى الزخارف الغائرة لارتفاع أربعين قدم عن قصد لتكون كصف علوى لعقود نصف دائرية والتى يبدو بوضوح أنها مثبتة بإحكام بالصف الأسفل من عقود على شكل حدوة حصان مستقرة على عواميد. بعبقريته البنائية، كان التأثير البصرى للعقود المزدوجة منذ لحظة اكتمالها واحدة من أكثر الخبرات الجمالية ارتفاعاً بالذوق.

ولو كان الجامع الكبير أكبر مثال مادى واضح لحضارة العرب فى إسبانيا، فإنجازاتهم الفكرية كانت أكثر إبهاراً. بدايه من عهد عبد الرحمن سعى الأمويون لمنافسة خصومهم العباسيين فى بغداد ثقافياً، فخلال القرون اللاحقة امتلكت قرطبة وحدها المئات من المساجد والآلاف من القصور وعددا لا حصر له من المكتبات. خلال القرن العاشر احتوت تلك المكتبات على مئات الآلاف من المخطوطات تضاءلت أمامها أكبر مكتبات أوروبا المسيحية. وسبقت جامعة قرطبة جامعة بولونيا أول جامعة أوروبية بأكثر من قرن.

كانت الأندلس عالما من المدن، بخلاف أوروبا التى كانت عالما من ولايات ومدن صغيرة، وفى نهاية الألفية كان تعداد سكان قرطبة نحو ٩٠ ألفا، أى أكثر من ثلاثه أضعاف أى مدينة فى المنطقة احتلت ذات مرة من قبل شارلمان. فى هذه المدن يهود ومسيحيون ومسلمون وعرب وبربر وقوط غربيون وسلاف وآخرون لايحصون، خلقت نوعا من الثقافة كمرق اللحم والخضروات - خليط مفعم بالحيوية من تنوع واضح لمكوناته - الذى نتج عنه كوزموبوليتانية (كونية) حقيقية.

ولم يكن هناك حاخامات يهود أوعلماء مسلمون معروفون فى بلاط شارلمان، لكن فى مدن الأندلس كان يوجد أساقفه وجماعات يهودية فهناك RACEMONDO (ربيع بن زيد) أسقف الفيرا الكاثوليكى والذى كان سفيرا لقرطبة بالقسطنطينية وآخرون، وHASDAI IBN SHAPRUT وحاسداى ابن شابروت رئيس الطائفة اليهودية فى قرطبة فى أواسط القرن العاشر لم يكن فقط عالما كبيراً فى الطب بل كان أيضاً رئيس مجلس أطباء الخليفة، وعندما أرسل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع نسخة من كتاب DIOSCORIDES ديوسقوريدس (الحشائش) MATERIA MEDICA DE أرسل الخليفه فى طلب راهب يونانى للمساعدة فى ترجمته للعربيه. تلك المعرفة التى توافر عليها أطباء الخليفة جعلت قرطبة واحدة من أعظم مراكز الخبرة الطبية فى أوروبا.

وفى عهد خليفة عبد الرحمن، الذى حمل نفس الاسم «عبد الرحمن الثالث» أمير الأندلس فى القرن العاشر كانت لديه الجرأة بإعلان نفسه خليفة، وريثا للرسول، وضمنيا قائد للعالم الإسلامى.

كشارلمان، كان منصب الأمير فى جزء منه دينياً، ومن المفترض أن يكون متدينا (وغالباً ما كان). ولكن تقوى الأمير لم تعن - كما فعلت مع الإمبراطور الرومانى المقدس - فرض عقيدة معينة على الآخرين. فى أول الأمر تقبل أمراء الأندلس تغيير العقيدة ولكن لم يطالبوا بها. بالطبع كانت هناك بعض الضغوط لتغيير العقيدة، فالرعايا غير المسلمين - وكانوا يسمون أهل الذمة - مطالبون بدفع ضرائب استثنائية؛ ومن الممكن لغير المسلمين أن يستعبدوا لفترة. على الأقل نظرياً -، وهو ما كان غير ممكن بالنسبة للمسلمين. ربما استغرق الأمر ما يقرب من قرنين من وفاة عبد الرحمن فى عام ٧٨٨م ليصبح المسلمون أغلبية فى الأندلس(٢). كان فى مدن الأندلس علماء من الأديان الثلاثة، وإمكانية لتعلم علوم العالم القديم التى ورثها العرب وأحضروها للغرب، وأدى تجمع وانتقال المعرفة وانتعاشها فى أوروبا إلى خلق النهضة.

خلال عام ٧٧٧م أصبح عبد الرحمن فى منتصف الأربعينيات ألا أنه كان لا يزال محارباً قوياً، باسطاً سيطرته على ما يقرب من ثلثى شبه الجزيره. ولكن لم يكن كل مساعديه راضين. فمن الواضح أنهم أملوا فى احتوائه، فأمير برشلونه، وولاة سرقسطة وهويسكا المسلمين إجتازوا ما يقرب من الألف ميل إلى الساكسون للتآمر مع شارلمان ضده.

حدث ذلك فى الوقت الذى كان فيه الملك قد جمع نبلاءه، وقادة الأكليروس فى مجلس بادربورن لتلقى فروض الطاعة والولاء من قبائل الساكسون وليشهد تعميد الكثير من قادتهم. وبدا هذا التزامن تدبيراً إلهياً. بحضور ثلاثة أمراء مسلمين يعرضون ولاءهم لملك الفرنجة واللومبارديين والذى أصبح مؤخراً حاكماً على الساكسون أيضاً. كانت قفزة لطموحات شارلمان. كتب لويس: «إعادة التجانس لأرض الفرنجة المحصورة بين شبه جزيرتين محتلتين (من المسلمين م) بدت إضافة لقب ملك الإسبان إلى لقب ملك الفرنجة واللومبارديين كأمر لا يقاوم».

فى٧٧٨م أعد شارلمان جيشاً من الفرنجة والبافار والبورجاند واللومبارد والسيبتمان وآخرين - ربما بلغ عددهم ٢٥ ألف رجل بأسلحتهم - ليبدأ هجومه على هيسبانيا. للمرة الأولى فى التاريخ، يخرج جيش مسيحى لغزو عالم الإسلام، وبدعوة وبتحالف مع مسلمين.

أعد عبد الرحمن جيشه ولكنه لم يضطر لاستخدامه. فالحشود الضخمة لشارلمان جعلت حاكم سرقسطة يعيد النظر، فعند وصول الجيوش الفرنجيه هناك، متوقعين أن يكونوا موضع ترحيب، بقيت أبوابها موصدة، أنباء أكثر سوءا وردت من أقاصى الشمال: فالساكسون الذين احتفل بالانتصار عليهم فى بادربورن قاموا بالتمرد. وعندما سعى شارلمان للجوء إلى بانبلونا مدينة الباسك القديمة ازدراه رفاقه الكاثوليك. وحنقاً، دمر بانبلونا. فى النهاية كانت مدينة مسيحية هى الضحية الرئيسية لخطة هجومه على الإمارة المسلمة.

أثناء انسحاب شارلمان عبر البرانس، هوجم من الباسكيين الذين لم يكنوا أى مودة للملك الفرنجى الذى خرب مدينتهم؛ وفى أحد الجبال عبر الرونسفال قضى على حراس مؤخرة الجيش الفرنجى. أدرج

فى تشكيل الحضارة التى ورثها
الأوروبيون المحدثون، كان الأرث الثقافى للأندلس لايقل أهمية عن إرث الفرنجة الكاثوليك

أينهارد أول كتاب سيرة شارلمان فى قائمة القتلى رولان ROLAND أمير «بريتون» الحدودية، هذه الخساره المروعة للمسيحية، لرفاق مسيحيين - كاثوليك فرنجة ذبحوا بواسطة كاثوليك باسكيين. تحولت بعد ثلاثه قرون فى ملحمة أغنيه رولان CHANSON DE ROLAND إلى صراع دموى بين الإسلام والمسيحية.

فى الملحمة يرى شارلمان مذبحة زهرة فرسان الفرنجة، ويدمر جيشاً أرسل من الطرف الآخر للعالم الإسلامى. فى الواقع، حول شارلمان غضبه الشديد إلى المرتدين الساكسون، فخلال صيف عام٧٧٩ أعد جيشاً ضخماً عازماً على حسم تغيير عقيدة الساكسون من الوثنية، فى فيردن عام ٧٨٢م، طبقاً لإينهارد، أشرف شارلمان على ذبح ٤٥٠٠ سجين من الساكسون، وتمت هزيمة جيوش الساكسون فى عام ٧٨٥م. هدد شارلمان الذين رفضوا التعميد بعقوبة الموت. فى أواخر عام ٨٠٤م، اقتلع شارلمان عشرة آلاف من المتمردين الساكسون من جذورهم ووطنهم فى غرب مملكته.

بعد أربعة عقود ونصف فى الحكم توفى شارلمان فى عام ٨١٤م. تزامن حكمه مع العشرين عاماً الأخيرة من إمارة عبد الرحمن الأول وشملت الاثنى عشر عاماً لحكم هشام الأول، وأيضاً فترة من الثمانية وعشرين عاما لحكم الحفيد الذى وحد الحكم الأموى.

إن نقاط الضعف فى بناء دولة شارلمان وضحت عند وفاته، كانت لديه خطط، متبعاً لتقليد فرنجى، بتقسيم المملكة بين أبنائه الثلاثة الشرعيين. ولكن لويس الورع كان الوحيد المتبقى على قيد الحياة عند وفاته. وقادت محاولات لويس لتقسيم الإمبراطورية بين أبنائه إلى سلاسل من الحروب الأهلية، نتج عنها تفتتا لإمبراطورية شارلمان، تم تخطيطه فى معاهدة فيردن عام ٨٤٣م. تمزقت الإمبراطورية الفرنجية إلى شرق ووسط وغرب فرانسيا. أصبحت المملكة الشرقية قلب الإمبراطورية الرومانية المقدسة (الجديدة)، وضمت معظم المانيا - الحالية - ،والمملكة الغربية وضمت قلب فرنسا الحالية، والمملكة الوسطى وضمت بورجندى وايطاليا والأراضى الواطئة. أنهت فيردن بشكل فعلى الإمبراطورية الفرنجية التى وحدت غرب أوربا للمرة الأولى منذ الرومان.

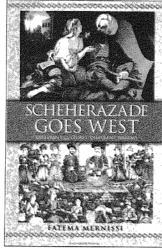
بنجاح أكبر نسبياً، حافظ خلفاء عبد الرحمن كأمراء لقرطبة على تماسك الأندلس. لكن خلال ثمانينيات القرن التاسع، وأثناء تولى حفيد حفيد ابنه غير الفعال، ضعفت الإمارة بسبب العصيان ومطالب الاستقلال بالحكم الذاتى للأقاليم التى جعلت من سريان أوامره إلى ما هو أبعد من قرطبة يتم بشق الأنفس.

وتطلب من ابن الأمير، عبد الرحمن الثالث، لتعزيز سلطة الأمويين فى شبه الجزيرة ومدها حتى شمال إفريقيا ما يقرب من نصف قرن من ٩١٢ حتى ٩٦١ م، ورسخ من قرطبة كمركز للحكم، مشيداً مجمع قصور «مدينة الزهراء» التى أرهبت كل من زارها من حكام المدن الحدودية، لسفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

بعد الهزيمة فى الرونسفال لم يعد شارلمان إلى إسبانيا أبداً. وفى عام ٧٩٨م طلب حاكم برشلونه مساعدة فرنجية للحصول على الاستقلال عن حفيد عبد الرحمن، وأقر شارلمان بحملة تحت قيادة ابنه لويس. وأعيد غزو برشلونه فى عام ٨٠١م بعد حصار دام عامين. وخلال عام ٨١٢م ، بعد سلسلة من الحملات الفرنجية، وافق الأمير فى قرطبة أن تكون حدوده عند نهر إيبرو EBRO، الذى يمر عبر سرقسطة فى الجزء الشمالى الشرقى لشبه الجزيرة.

إنهارت الخلافة الأموية فى القرن الحادى عشر، وآل الحال بإسبانيا المسلمة إلى خليط من الممالك الصغيرة(الطوائف) حكم العرب بعضها، وبعضها البربر، والسلاف البعض الآخر. فى عام ١٠٨٥م استولى الفونسو السادس ALFONSO VI ملك ليون وقشتالة المسيحى على طليطلة. وبخلاف الفرنجة، الذين عرف أفضل منهم كيف يفرض الكاثوليكية على الشعب بقوة السيف. ولقب نفسه «بملك الديانتين» - يعنى الإسلام والمسيحية - ولكنه تسامح مع اليهود أيضاً: فطبيبه، جوزيف نازى فيروزيل JOSEPH NASI FERRUZIEL كان يهودياً. إن روح التعايش التى خلقها العرب ظلت حية بعد رحيلهم. وتطلب الأمر ما يقرب من أربعة قرون أخرى للتغلب عليها منذ عهد ملك الديانتين إلى التعصب القاسى لمحاكم التفتيش الإسبانية.

اختلف الأمراء البربر - المرابطون والموحدون - الذين سيطروا فى نهاية الأمر على قرطبة وإشبيلية وأعادوا تأسيس ولاية مسلمة وحيدة فى الثلث الجنوبى من شبه الجزيرة من القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر، تماماً عن أسلافهم العرب: فالتعصب المتشدد الذى كان يقودهم جعل من المستحيل استمرار قرون الانفتاح الفكرى القديمة التى جعلت من إسبانيا الأموية مركزاً للمعرفة الفلسفية والعلمية. صحيح أن الفيلسوف ابن رشد - المعروف باسم AVERROES فى العالم المسيحى - كان يحظى برعاية أول أمراء الموحدين، إلا أنه قبل وفاته بثلاث سنوات، أبعد إلى قرية بالقرب من قرطبة عام ١١٩٥م ، وأدينت أفكاره الفلسفية من قبل الفقهاء المسلمين المحافظين المسيطرين حينئذ على المجتمع. كابن ميمون MAIMONIDES أكبر مفكرى اليهود فى الأندلس، الذى اضطرت عائلته



لمغادرة قرطبة عام ١١٤٨ هرباً من إسبانيا إلى الإسكندرية عن طريق المغرب وفلسطين.

ومن غير ابن رشد الذى أسماه الأكوينى AQUINAS بالشارح (لأرسطو كما هو مفهوم)، ومن دون ابن ميمون، بلا شك - كما يصر لويس - كان التاريخ الفكرى لأوروبا سيختلف جذرياً. ودون القرون الأموية، ما كان يمكن تخيل وجود كلٍ من ابن ميمون وابن رشد.

تصاعدت وتيرة غزو إسبانيا من قبل تحالف أمراء الكاثوليك بسرعة كبيرة، والتى أطلقوا عليها حرب الاستعادة، لأنهم اعتبروها بمثابة عودة لقوة الكاثوليكية فى شبه جزيرة إيبيريا بعد قرون طويلة من فقدان القوط الغربيين للسيطرة عليها.

فى القرن الثالث عشر تخلى الموحدون عن غرناطة كآخر سلالة مسلمة حاكمة فى إسبانيا. خلال عقد أصبحت غرناطة ولاية خاضعة لقشتالة الكاثوليكية. وجاءت نهاية الأندلس بخضوع آخر أمرائها عام ١٤٩٢م لفرديناند FERDINAND ملك أراجون، وإيزابيلا ISABELLA ملكة قشتالة. ومنذ ذلك الحين ولقرابه ثلاثه قرون بعدها، أعاد الصليبيون تحديد مفهوم التباين بين المسلمين والمسيحيين، محولين بؤرة الصراع باتجاه الشرق.

وانتهى رسمياً التسامح الذى أظهره الفونسو السادس - سلف إيزابيلا - للديانتين اللتين شاركتا إسبانيا مع الكاثوليك لقرون عديدة ،فالطرد أو تغيير العقيدة فرضا على كل مسلمى ويهود إيبيريا . وأعيد تطبيق نموذج شارلمان كما عرفته أراضى الساكسون مرة أخرى، مع مباركه البابوات.

كان هناك أوروبيون قبل أن يكون هناك فرنسيون أو ألمان أو إيطاليون أو إسبان لأنه كان هناك عالم من الممالك فى البقايا الغربية من الإمبراطورية الرومانية تربطها الكاثوليكية بروما، والتواريخ التى صنعت فرنسا وألمانيا وايطاليا وإسبانيا، ناهيك عن البرتغال وبلجيكا وسويسرا والنمسا أو هولندا تمر جميعها من خلال إحدى أو كلتا الإمبراطوريتين اللتين صنعهما شارلمان وعبد الرحمن. ويكشف «بوتقة الرب» كيف أن العالم الذى ورثناه هو نتاج لهويات خلقت منذ أمد بعيد فى أنهار من الدم ونشأت من مذبحة جرت فى الغالب فى نطاق المسيحية أو الإسلام مثلما جرت عند حدودهما.

لكن هناك رسالة مطمئنة. فبرغم أن المسيحيين واليهود كانوا خاضعين للمسلمين فى الأندلس فقد تمكنوا رغم ذلك من المشاركة فى كنوزها الذهنية والمادية متعددة الجوانب. ولو لم تعمل الديانات الثلاث معا مستعيرة من التقاليد الوثنية لليونان وروما، لكان ما نسميه الغرب مختلفاً تماماً عما هو عليه الآن. وفى عصر يزعم فيه البعض أن الصراع بين ورثة المسيحية وبين ورثه الخلافة هو النزاع المعنى، يكون من الأمور الطيبة أن نتذكر هذا التاريخ من التعايش المثمر.

فى وقت سابق من هذا العام، زرت مركزاً للثقافة المعاصرة فى برشلونة ومقره فى دير قديم، عند بوابة الدخول كانت مجموعة من الناس ترتدى بحرية ثياب شمال أفريقية، الرجال فى جلابيب طويلة، والنساء مغطاة رؤوسهن بمناديل حريرية ويتحدثن بمرح. وكان وجودهم بمثابة تذكير لى بأن مشروع شارلمان لخلق أوروبا كاثوليكية خالصة قد باء بالفشل، وقد بدأ هذا الفشل من الداخل فى حركة الإصلاح وساد فى التنوير، رغم وجود أسلاف آخرين ورثوا التقاليد الفلسفية التى انتقلت من خلال الأندلس. وبينما الأطفال المسلمون يتقافزون حول آبائهم فى مساء ربيعى دافئ، خطر لى أنه فى تاريخ مختلف بدون حرب الاستعادة كنت سأتمكن من رؤية أناس يشبهون أولئك كثيراً عند ذلك المدخل أو عند مدخل آخر يشبهه، ولما كنت قد قرأت «بوتقة الرب»، فقد قررت أنه فى ذلك التاريخ الآخر لم يكن القطالونيون المسيحيون الذين يتجولون فى المكان سيبدون فى غير مكانهم. ■

(1) -EDMUND GIBBON, the decline and fall of the roman empire (p.f collier &son ,1899),p.288

(١) إيدموند جيبون : انحدار وسقوط الأمبراطورية الرومانية .

(2) RICHARD W.BULLIET,conversion to islam in the medieval period:an essay in quantitative history (Harvard university,1979),p.124

(٢) ريتشارد بولييه: التحول للإسلام فى فترة العصور الوسطى، مقال فى التاريخ الكمى.



والحقيقة أن إمبراطورية شارلمان، رغم أنها تثير الإعجاب، فقد كانت تفتقر إلى العديد من مقومات ما نعتبره الحضارة



فى ألبوم الملك

في عام ١٨٣٩ أعلن زعيم الحزب الجمهوري الفرنسي «فرنسوا أرغو» أمام الجمعية الوطنية الفرنسية عن اكتشاف «التصوير الشمسى» وشراء الحكومة الفرنسية لهذا الاكتشاف وتقديمه للإنسانية، وكصورة من صور مسايرة مصر لأحدث اكتشافات الغرب التقطت أول صورة فوتوغرافية فى المنطقة العربية فى الرابع من نوفمبر عام ١٨٣٩ بحضور محمد على باشا فى مدينة الإسكندرية، ومنذ التقاط الصورة الأولى فى الإسكندرية، دخلت المنطقة العربية مرحلة جديدة من التوثيق البصرى، وأخذ مئات المصورين بالتدفق على مصر وسورية، والتقطت آلاف الصور للمعابد والهياكل القديمة للمدن والقرى، وصورت عدسات المصورين مختلف المناظر ومظاهر الحياة الاجتماعية.

لاقت تلك الصور رواجًا كبيرًا فى السوق الأوروبية، وخلال القرن التاسع عشر فقط نشط أكثر من ثلاثمائة مصور فى مصر وبلاد الشام، وكان معظمهم من الفرنسيين والبريطانيين، وبعض الألمان والأمريكيين.

وقد شهدت مدينة القاهرة حالة من الازدهار المعمارى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، عكسته لنا مجموعة الصور الشمسية التى ضمها ألبوم لمجموعة من الصور كانت تحتفظ به مكتبة الملك فاروق الأول، والتى حفظت بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م فى مكتبة وزارة السياحة، ثم أهدتها وزارة السياحة المصرية إلى مكتبة الإسكندرية فأصبحت ضمن مقتنياتها، تلك المجموعة التى تمكن المطلع عليها من التعرف على ما كانت عليه كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية فى مدينة القاهرة منذ عام ١٨٤٩ حتى أوائل القرن العشرين.

تحوى هذه المجموعة صورًا شمسية لمناظر شوارع وميادين القاهرة القديمة، كميدان محمد على وميدان الأوبرا وميدان العتبة الخضراء وحى جاردن سيتى وشارع عماد الدين وشارع شبرا، بالإضافة إلى صور لعديد من السرايات والقصور التى اتخذتها أسرة محمد على مقرًا للحكم، كسراى عابدين وسراى القبة وقصر النيل، والمطلع على هذا الألبوم يمكنه متابعة التحول العمرانى الذى أحدثه الزمن بعروس الشرق من خلال مجموعة صور لأعرق الفنادق بالقاهرة كفندقى الكونتيننتال وشبرد، بالإضافة إلى صور لدار الأوبرا القديمة والمتحف المصرى وكوبرى قصر النيل وكوبرى أبو العلا، ومجموعة صور لحديقتى الأزبكية وروستى، ومجموعة صور لأقدم مساجد القاهرة، والقناطر والبرك التى أقيمت وحفرت بالقاهرة آنذاك.

القاهرة في القرن التاسع عشر
(مجموعة صور شمسية)
من مقتنيات مكتبة الإسكندرية

تعد تلك المجموعة من الصور الشمسية لمدينة القاهرة بمثابة كنز ينطق بما شهدته مدينة القاهرة من رقى معمارى وتخطيطى، وقد التقط تلك الصور فنانون مروا وأقاموا فى مصر، ومنهم الفنان مكسيم دى كامب، الذى قام بنشر مؤلف زوده بمائة وخمسين صورة شمسية واهتم فيه بتسجيل مشاهداته عن الآثار المصرية التى بهرته، والذى قام برحلة إلى الشرق طاف خلالها فى آسيا الصغرى، كما زار إيطاليا والجزائر، واستطاع فى عام ١٨٤٨ وهو فى السادسة والعشرين من عمره أن ينشر كتابه «ذكريات أدبية» الذى أهداه إلى زميله جوستاف فلوبير، بالإضافة إلى مجموعة من الفنانين منهم فرنسيس فريث، بيشار، والفنان ليكيجيان.

تقدم لنا هذه المجموعة تصورًا للحياة فى مدينة القاهرة خلال ما يقرب من مائة عام، ونستطيع من خلالها أن نشاهد ما كانت عليه أحياء المدينة من رقى وعمران خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، كحى الإسماعيلية المعروف اليوم بميدان التحرير، والذى كان يعد من أزهى أحياء القاهرة التى خطت فى عهد الخديو إسماعيل، وحى شبرا وكيف كان هذا الحى محاطًا بأندر النباتات والزهور وأشجار النخيل، حتى وصفت شبرا بأنها «فردوس القاهرة»، هذا بالإضافة إلى حى روض الفرج الذى كان يعد قديمًا مركزًا للمسارح، وحى جاردن سيتى والذى وصف بأنه «سلة أزهار انبثقت منها القصور والدور البديعة»، وكذلك حى الزمالك الذى ظهر فى القرن الخامس عشر، هذا بالإضافة إلى أحياء أخرى كحى الأزبكية وحى الفجالة.

أما فيما يتعلق بميادين القاهرة فتعطينا مجموعة صور مدينة القاهرة صورة حية لما كانت عليه ميادين هذه المدينة من روعة وتخطيط، ومنها ميدان عابدين الذى كان فى بادئ الأمر مجرد منطقة متواضعة، عبارة عن مجموعة من البرك الراكدة والمستنقعات، ثم أعيد تخطيط هذا الميدان بفضل «على باشا مبارك» فردمت هذه البرك وأصبحت تلك المنطقة بعد تخطيطها من أجمل مناطق القاهرة الحديثة.

وهناك مجموعة من الصور لميدان محمد على، وميدان الأوبرا الذى يعد أحد الميادين الرئيسية فى وسط القاهرة، بل نستطيع الحكم من خلال صور مدينة القاهرة خلال القرن التاسع عشر على أن هذا الميدان كان مثالا بارزا للتنظيم والتنسيق الدقيق.

هذا بالإضافة إلى مجموعة صور تصف لنا الحياة فى العديد من ميادين القاهرة كميدان باب الحديد «محطة القاهرة»، وميدان الملكة فريدة «العتبة الخضراء»، وميدان مصطفى كامل والذى يمتد منه اليوم شارع قصر النيل أحد شوارع القاهرة المميزة، وكذلك ميدان الخازندار وميدان باب الخرق «الخلق».

وإذا انتقلنا إلى مجموعة الصور التى تخص شوارع القاهرة، فنجد تصورًا رائعًا لتلك الشوارع، ومنها شارع عماد الدين الذى تركزت به معظم المحال الهامة مثل المسارح ودور السينما والغناء، وشارع كلوت بك حيث تظهر به عدد من الفنادق والحانات والبارات، وشارع شبرا الذى توضح لنا الصور الفوتوغرافية أنه كان طريقًا ممهدًا، وكانت الأشجار تحف به، وشارع الهرم الذى لا يزال قبلة السائحين من كل حدب وصوب، وشارع بئر الوطاويط الذى لا يزال معروفًا حتى اليوم بهذا الاسم، وموقعه بجوار جامع أحمد بن طولون بشارع الصليبة، هذا بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الصور لعدد هائل من الشوارع كشارع الموسكى، وشارع سليمان باشا، وشارع الملكة فريدة، وشارع نوبار باشا، وشارعى الصاغة وسوق السلاح، وغيرها من الشوارع التى تشير بحسن تنسيقها وروعة تخطيطها إلى أن القاهرة كانت حقًا «باريس الشرق».

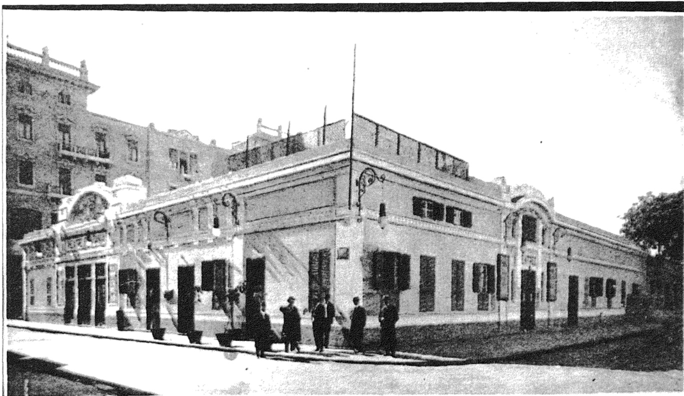
وفيما يتعلق بقصور القاهرة، فتبدو لنا مدينة القاهرة فى أجمل صورها من خلال مجموعة القصور التى قام ببنائها أسرة محمد على باشا لتضارع القاهرة باريس فى جمالها وتنسيقها، فتكون عاصمة ومقرًا مناسبًا لعظمتهم.

ومن هذه القصور قصر عابدين والذى شيد على طراز النهضة الفرنسية الذى كان سائدًا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والذى يعد أيضًا من أهم قصور محمد على باشا التى شيدت فى القرن التاسع عشر على الإطلاق، وسراى القبة التى شهدت ميلاد الخديو عباس حلمى الثانى، وسراى شبرا وسراى قصر النيل وسراى الوالدة باشا وسراى شريف باشا، كل هذه القصور التى يصورها لنا هذا الكم الهائل من الصور.

وهناك مجموعة الصور الخاصة بكبارى مدينة القاهرة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ومنها كوبرى الإنجليز الأول «كوبرى الجلاء» الذى شيد ليربط منطقة الدقى وبولاق الدكرور بالزمالك، وكوبرى قصر النيل الذى يعد أول كوبرى شيد على نيل القاهرة، والذى لايزال قائمًا حتى اليوم، وكوبرى بولاق «أبو العلا» وكان معجزة هندسية يربط بين القاهرة وجزيرة الزمالك.

هذا بالإضافة إلى مجموعة صور نادرة للخليج المصرى، ومجموعة صور أخرى تنشر لأول مرة للقناطر التى أنشئت عليه وهى قنطرة درب الجماميز، وآق سنقر، وقنطرة الأمير حسين والموسكى، والحفنى، وقنطرة الذى كفر، وقنطرة بين السورين وشاهين وقنطرة ثابت باشا، وقد كان لهذه القناطر أكبر الأثر فى تعجيل نمو وازدياد التعمير على الضفة الغربية للخليج التى كانت معظم أراضيها بساتين وحقولاً، كما كانت هذه القناطر موضع تنزه فى العصرين المملوكى والعثمانى، هذا بالإضافة إلى مجموعة صور لبركتى الأزبكية والفيل، ومجموعة لترعة الإسماعيلية التى كانت توصل مياه النيل إلى مدينة السويس حتى نمت كثير من أراضيها.

خالد عزب



تياترو برنتانيا
شارع ألفي بك ١٩١٢

في ألبوم الملك



أول تياترو بحديقة الأزبكية ١٨٦٩



١٩٠٨

في ترتيب الأولويات..

يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى الْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ — وَلِذَا دَعَوْتُكَ فَاسْتَجِبْ لِي سَيِّدِي
وَاجْعَلْهُ شَافِعَنَا بِفَضْلِكَ فِي غَدٍ — وَأَنَا الْمُحِبُّ وَمُهْجَتِي لاَ تَنْثَنِي
وَلَقَدْ عَرَفْتُكَ مُنْعِماً مُتَفَضِّلاً — عَنْ وَجْدِهَا وَغَرَامِهَا بِمُحَمَّدٍ(1)

■■ يخرج علينا بين الحين والآخر من يثير موضوعات تخالف ما استقر في وجدان الناس عبر قرون طويلة، فيثيرون بذلك نوعاً من الغبش الكثيف على ترتيب أولوياتنا، فمثلا نحن نهتم بقضية البطالة وكسر حاجز الفقر وبناء العقلية العلمية ونشر ثقافاتها محاولين أن نحطم عقلية الخرافة، وأن نحاول أن نشارك في الحضارة العالمية على قدر يتناسب مع مشاركة آبائنا وأجدادنا فيها، حيث كانوا رواداً في نقل العلم وعمارة الدنيا، نهتم كثيرا بقضايا التنمية والحرية المنضبطة المرتبطة في نفس الوقت بالمسئولية، نهتم كثيراً بامتلاك زمام البحث العلمي التطبيقي وبحسن الإدارة وبموقف قوي من العولمة نستفيد من إيجابياتها ومميزاتها ونتقي بقدر المستطاع مفاسدها وأضرارها، نحاول أن نعيش عصرنا وأن تبقى لنا هويتنا، ولذلك عند ما قرأت جدلا حول ثبوت الشفاعة في الإسلام رأيته موضوعاً من هذه الموضوعات التي تُثار بطريقة تغبش علينا طريقنا.

أعلم أن كل ما يتعلق بعقائد المسلمين فهو مهم، ولكن تحويل المسألة إلى قضية والقضية إلى منهاج حياة، أسلوب خاطئ مخطئ، لا يصل بنا إلا إلى تهويمات عقلية وطرق مسدودة ودائرة مفرغة، ندعو الله أن يخرجنا منها وأن نقدر على كسرها، والمصيبة أن مثل هذه الآراء لا يقدمها أصحابها على أنها اجتهاد ضمن اجتهادات أخرى أو هو رأي معروض للمناقشة بل إنهم يختزلون الإسلام والمسلمين في هذه القضية أو تلك، هذا إذا ما سلمنا أصلاً أنهم من أهل الاجتهاد وإذا كان الإنسان ليس من أهل الاجتهاد فكان ينبغي أن يصوغ همه في صورة أسئلة يسأل بها أهل الفكر والعلم، لا أن يقرر ما يحتاج إلى علوم مختلفة وتخصصات متباينة بدون تسلح، كمن قرأ مجلة «الدكتور» أو «طبيبك الخاص» وحرص على الاطلاع على الكتاب الطبي ثم ادعى بأنه طبيب بكل ثقة ومن غير تأنيب ضمير، بل إن الأمر من حقه ضمن حرية الرأي وحرية التعبير والله أعلم أن هذا لم يقله أحد من البشر بل إنه كما وصف سارتر في مقدمته لكتاب «معذبو الأرض» نقول هنا «أخوة» فيصيحون هناك «خوة خوة».

وكذلك ما جرى أخيراً بالنسبة إلى أسماء الله الحسنى وقضية النقاب، وجواز التدخين في رمضان أو جواز القبلة للشباب والشابات فيما بينهم وغيرها من المسائل العجيبة التي لولا عدم اقتناعي بنظرية المؤامرة لكانت مثالا صالحا لهذه المؤامرة المزعومة، ولذلك عندما استجبت لأكتب شيئا حول هذا المَوضوع وكلام العلماء الذين بحثوه وقتلوه بحثا بطريقة علمية عبر القرون بمئات العقول ومن جميع الجهات، فإنني رأيتني ألقي بالمقال أياماً طويلة على مكتبي لا تسمح نفسي بأن أشارك في هذه الظاهرة التي أعترض عليها، حتى جاءني طلب لائم من أخي، رئيس تحرير «وجهات نظر» الذي أعتز به وأعتز بها، فدفعت إليه هذه الكلمات:

لماذا ينكرون الشفاعة:

■■ ١ - أجمع علماء الأمة على ثبوت الشفاعة في الآخرة، ولم ينكر الخوارج أو المعتزلة الشفاعة بإطلاق كما يظن المنكرون لها حديثا، لكنهم اعترفوا بشفاعات وأنكروا أخرى، اعترفوا بالشفاعة العظمى في المحشر للنبي محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، واعترفوا بشفاعته في رفع درجات المؤمنين في الجنة. ثم اختلفوا لمن تكون شفاعته، أتكون للمؤمنين المستحقين للثواب، أم تكون لأهل الكبائر المستحقين للعقاب، واتفقوا على أنها ليست للكفار.

٢ - يتصورونها محاباة وظلما ومحسوبية، قياسا على حال الشفاعة في الدنيا عند الخلق، وهذا ينكره الجميع، بل الشفاعة في الآخرة ترجع إلى أصل العمل والاجتهاد، فتجبر التقصير والخطأ. ويتصورونها ضد العدل، وليس الأمر كذلك، بل الشفاعة الثابتة شرعا كلها عدل، ولا نثبت منها وجها فيه ظلم أو جور. يتصورونها تؤدي إلى الفوضى وضياع الحقوق، وليس الأمر كذلك، فهي توازن الخوف والوجل من الحساب وشدته بالرجاء في الرحمة والعفو.

٣ - والشفاعة سابقة للحكم والفصل بين الخلق، وتكون سببا في التخفيف، وليست تالية للحكم تُغَيِّرُه أو تبدله ؛ لأنه ليس للشافع من الأمر شيء، إنما الأمر كله لله. فالشفاعة ليست معارضة لإرادة الله ولا مغيرة لحكمه، بل هي سبب من خلق الله، تَصِلُ به الرحمة إلى مستحقيها، وتُظْهِرُ بها كرامةُ الشافع وتشريفه.

٤ - إن في الشفاعة جمعا بين الرجاء والأمل في قبولها، والخوف والحذر من ردها أو عدم الإذن بها. وفيها ترغيب في عفو الله وتجاوزه عمن حوى قلبه أصل التوحيد بشهادته ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، مما يدعو إلى الانتماء إلى أمة الإسلام لمن كان في خارج دائرتها أملا في نوال تلك الشفاعة، وهذا ما جعل النبي يرغب عمه أبا طالب أن يشهد بكلمة التوحيد ؛ ليشفع له بها عند الله. والشفاعة أيضا تجعل من كثرت ذنوبه وكبائره من المسلمين لا يقنط من رحمة الله، فيستوي لديه الإيمان والكفر في الحرمان من الرحمة، فتجعله الشفاعة على الأقل يحتفظ بأصل الدين ولا يخرج عن جماعة المسلمين، ويأمل في نيل المغفرة بتوبة يحدثها، ويحرص على الاقتراب من أسباب ينال بها الشفاعة والرحمة.

● فالاعتقاد بالشفاعة المقيدة بشروط معقولة كما أثبتها الإسلام يبعث الأمل في نفوس العصاة، ويردهم عن الإسراف في الذنب، ويجعلهم يغيرون سلوكهم ليكون موازيا لشرائط الشفاعة حتى لا يُحرموها.

٥ - حاجة الخلق كلهم إلى الشفاعة والرحمة في الآخرة، تدركهم بدعوة نبي أو صالح، لأنه «لَنْ يُنْجِيَ أَحَداً مِنْكُمْ عَمَلُهُ» (البخاري - كتاب الرقاق باب القَصْدِ وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْعَمَلِ، ومسلم) (كتاب صفة القيامة - باب لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ بَلْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى). إذن النجاة من العقاب في الآخرة على الذنوب يحتاج إلى الرحمة، والعمل في حاجة أن يُشفع بإحسان الله وفضله، حتى ندرك الجنة بلا مؤاخذة.

ولا حرج في ذلك أو بُعد ؛ لأننا خلق الله ابتداء تَفَضَّلَ علينا بالوجود لعلة الإحسان، ووهب لنا النعم، وسخر لنا الكون بكافة مخلوقاته، وتكفل لنا بالأرزاق وأسباب المعيشة، ثم لا نفع يعود عليه من عذابنا إن شكرنا إحسانه وآمنا بتوحيده وأحقيته في الألوهية والربوبية.

● فالشفاعة هي الرحمة الجابرة للعمل، فالصالح مهما بلغ صلاحه رهنٌ ومحتاجٌ إليها تأتيه من الله أو يطلبها له رسول الله أو يشفع له من عمله صيام أو قرآن أو رعاية ليتيم ومساعدة لمسكين، وغير ذلك من الأعمال التي يَطَّلِعُ الله على حاله حين يؤديها، فينميها ويجعلها سببا للشفاعة ووصول الرحمة له، وما الشفاعة إلا سبب ووسيلة من تدبير الله وخلقه، شاءها تشريفا لبعض خلقه، وجعلها جزاء ومكافأة لهم تسبق تنعيمهم في الجنة.

● فشفاعة النبي والشهيد والولي والعالم والصالح جزءٌ من نعيمه في الآخرة، يُظْهِرُ الله شرفَهُ وكرامته عنده



«لم يخل تاريخ الفكر الاسلامي يوما من نقاش واختلاف في قضايا فكرية شتى. وكانت رحابة الاسلام في عصور الازدهار والحضارة لا تجد غضاضة في اختلاف بين «الفقهاء» بمدارسهم المختلفة تحسمه دائما قولة لا خلاف عليها «والله تعالى أعلم» ينتهي بها كل رأي. ويحسم بها كل نقاش.

في عدد سبتمبر الماضي نشرت «وجهات نظر» مقالا يتناول موضوع «الشفاعة في الاسلام». وكان أن انتهج المقال نهجا بدا مغايرا لما هو معروف وسائد». واليوم يناقش مفتي الديار المصرية المسألة من زاوية أخرى قد لايكتمل فهم المسألة «العقيدية» إلا بها.

وجهات نظر



علـــــــى جمعـــــــة

بأن يجعله سببا في فيض الإحسان والفضل إلى الخلق.

● إن الله ادخر تسعة وتسعين جزءا من رحمته ليوم القيامة لعلمه بحاجة الخلق أجمعين إليها، فهم خطاءون وليسوا بمكافئين، وليست أعمالهم مهما بلغت كثرة تجعلهم ذوي استحقاق عند الله، وإنما الجزاء برحمة الله وفضله.

٦ - ولا تتعارض الشفاعة مع إرادة الله ومشيئته، فإن الله قد قضى وحكم وشاء خروج فلان من النار بعد قضاء حقبة فيها، وجعل شفاعة الشفيع سببا في هذا الخروج، والسبب لا يخرج عن قضاء الله وإرادته. فهي لا تخضع لإرادة بشر بل خاضعة لاختيار الله ورضاه عن الشافع والمشفع فيه.

● والداعي لجعل الشفاعة سببا في تحقق الإرادة القديمة بالرحمة لبعض الخلق يوم القيامة هو التشريف للشافع وإظهار كرامته، وتحقيق وعد الرسول محمد بهبته مقاما محمودا بين الخلق، وإظهار كرامة وعلو منزلة كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله التي لا يثقل معها شيء.

الشفاعة عند علماء اللغة:

قال ابن الأثير في «النهاية»: تَكَرَّرَ ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ في الحديث فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأُمُورِ الدنيا وَالآخرة وهي السُّؤَالُ في التَّجَاوُزِ عن الذُنوبِ والجَرائِمِ. يقال: شَفَعَ يَشْفَعُ شَفَاعَةً فَهُوَ شَافِعٌ وَشَفِيعٌ. وَالمُشَفِّعُ الَّذِي يَقْبَلُ الشَّفَاعَةَ وَالمُشَفَّعُ الَّذِي تُقْبَلُ شَفَاعَتُهُ.

وفي القَامُوس: وَشَفَّعْتُهُ فِيه تَشْفِيعًا حِينَ شَفَعَ كَمَنَعَ شَفَاعَةً: قَبِلْتُ شَفَاعَتَهُ. وَاسْتَشْفَعَهُ إِلَيْنَا: سَأَلَهُ أَنْ يَشْفَعَ.

وفي تاجِ العروس: (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا) (سورة النساء: آية ٨٥) أي مَنْ يَزِدْ عَمَلاً إِلَى عَمَلٍ مِنَ الشَّفْعِ الزِّيَادَةِ. وَقَالَ الرَّاغِبُ: أَيْ مَنِ انْضَمَّ إِلَى غَيْرِهِ وَعَاوَنَهُ وَصَارَ شَفْعًا لَهُ أَوْ شَفِيعًا فِي فِعْلِ الخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ فَعَاوَنَهُ أَوْ شَارَكَهُ فِي نَفْعِهِ وَضُرِّهِ. وَقِيلَ: الشَّفَاعَةُ هُنَا أَنْ يَشْرَعَ الإِنْسَانُ لِلآخِرَةِ طَرِيقَ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَيُقْتَدَى بِهِ





فصار كأنه شفع له. قال عليه الصلاة والسلام: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ومن سن سنة قبيحة فله إثمها وإثم من عمل بها» (مسلم) كتاب العلم - باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة). وقوله تعالى: (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) (سورة المدثر: آية ٤٨). وقوله عزوجل: (ولا تنفعها شفاعة) (سورة البقرة: آية ١٢٣) وكذا قوله تعالى: (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) (سورة طه: آية ١٠٩) وكذا قوله تعالى: (لا تغن عني شفاعتهم شيئا) (سورة يس: آية ٢٣). قال ابن عرفة: نفي للشافع أي ما لها شافع فتنفعها شفاعته وإنما نفى الله تعالى في هذه المواضع الشافع لا الشفاعة. ألا ترى إلى قوله: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) (سورة الأنبياء: آية ٢٨). والشفيع كأمير: الشافع. وهو صاحب الشفاعة، والجمع شفعاء. وهو الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب.

مفهوم الشفاعة الثابتة شرعا:

إن من الألفاظ العربية ألفاظا اختارها الشارع للدلالة على معان عظيمة لا تتحملها كاملة الألفاظ ؛ لأن اللغات حدت بحدود.

ومن تلك المعاني ما سيتضح ويتجلى لنا في الآخرة، وذلك كالشفاعة والحشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، ومنها ما سيبقى غيبا محجوبا إدراكه عن عقولنا، وإن كنا سندرك في الآخرة قدرا مما غاب عنا في الدنيا، وذلك كذات الله وصفاته وأفعاله، مثل صفة العلم في حقه سبحانه، كيف هي، وكيف نسبتها إلى المعلوم، وقدرته وكمالها، وحكمته، وعدله، وقضائه، وجماله، وجلاله تبارك وتعالى.

ولطالما أوقع تشوف عقول البشر إلى إدراك تلك المعاني الغيبية في حيرة واضطراب، ونزاع وجدال، ونحن مطالبون شرعا بالإيمان بكمال هذه المعاني، وتنزيهها عن النقص والعيب قدر استطاعتنا، بتدبرنا ما أخبرتنا به النصوص، وذلك لأنه لا حيلة لمعرفة الغيب أو فهم معانيه إلا بالنصوص الشرعية التي أشارت إليه. وبدون تنطع أو تكلف في الفهم.

وتأتي صعوبة تحديد مفهوم صارم للشفاعة بسبب أنها غيب، وأحداثها محلها يوم القيامة، ولأن مفهومها



يختلف باختلاف أشكالها وأنواعها ومحالها. ولكن في الجملة لا بد من تفسيرها بما فيه صلاح الإنسان والعمران، حيث أمرنا ربنا بهذا الصلاح والإصلاح وجعله أساس دينه الذي أنزله للناس، فلا يصح تفسيرها بضد ذلك.

فالشفاعة في الدنيا تختلف عنها في الآخرة، الأولى فيها معاني تغيير الحكم والإرادة تبعا للشافع، والذي يطلب الشفاعة فيها مؤثر ومغير، ومرجعها مصلحة ومنفعة تعود على قابل الشفاعة، إما بستر عيبه أو جلب ود الشافع ونصره أو رد فضله ومعروفه. والثانية رحمة في عدل، متفقة مع العلم والإرادة الإلهية، ليس للشافع فيها منة على الله ولا يملك قبولا ولا ردا.

إنما الشفاعة عند الله دعاء بالخير يسأله الأنبياء والملائكة وعباد الله الصالحون بإذن ربهم أن يرحم المؤمنين ويعفو عنهم. وتتحقق الشفاعة في الآخرة بكيفية تتفق مع عدل الله وحكمته وعلمه المحيط، وليس فيها ظلم لأحد أو محاباة لآخر، وهذا ظن محال على الله القائل: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) (سورة الأنبياء: آية ٤٧)

نؤمن بالشفاعة ؛ لأنها غيب أخبرت به النصوص الثابتة عن الله ورسوله، وليس في الغيب الذي يأتي به المصدق لم؟ وكيف؟ ولكن غاية الأمر فهم الشفاعة التي ذكرت في الأحاديث الصحيحة تبعا للمفهوم العام الذي صاغه وحدده القرآن للشفاعة وغيرها من أمور الغيب.

فالشفاعة إذن بلاء واختبار للخلق : لأنها غيب فيه رجاء ووعد بالرحمة، وليس فيها تعيين لمستحقيها، فمن اعتمد عليها واتكل فانطلق يفسد في الأرض ويرتكب الموبقات لم ينلها، ومن عمل واجتهد فقصر أو أهمل قليلا فهو في دائرتها وداخل في احتمال قبولها فيه، وذلك إن علم الله في قلبه ونفسه استحقاقا لها.

ولو جعلنا اتكال بعض الخلق واعتمادهم على الشفاعة في الآخرة سببا في إنكارها، لأنكرنا بعض الأعمال البسيطة التي وعد الشارع القائم بها غفران الذنوب جميعها أو بعضها، فمثلا صيام يوم عرفة: يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ. (مسلم - كتاب الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس). والحج: مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ. (البخاري - كتاب الحج باب فضل الحج المبرور) لأنه قد يعتمد بعض الناس على أداء تلك الأفعال البسيطة. والتي ستكون سببا في محو ذنوبه. فيرتكب من الآثام ما شاء. ولكن الله غيب عنه إتيانها وحضوره وقتها، وقد لا يوفق إلى فعلها، وقد لا تقبل منه، ولذلك فلا يصح له جعلها سببا في استهتاره وتخاذله.

والشفاعة الثابتة شرعا يدور مفهومها حول الرحمة، والإحسان، والفضل، وزيادة الأجر والثواب للطائعين، والتجاوز والعفو عن بعض المذنبين من الموحدين، في ذنوب قضت إرادة الله أن يعفو عنها لعلمه بحالهم وأعذارهم، أو يعاقبهم عليها عقابا غير أبدي في مراحل الحساب الأولى، ثم يصيرهم إلى رحمته وجنته، وتكون شفاعته أو شفاعة بعض خلقه سببا وعلة ظاهرة في تلك الرحمة الثابتة في علمه القديم.

أركان الشفاعة:

١ - الشافع وهو طالب الشفاعة.

٢ - المشفوع له وهو من تُطلب له الرحمة.

٣ - موضوع الشفاعة وهو الذنب.

٤ - قابل الشفاعة وهو الله.

ولا بد أن تكون الأركان الثلاثة الأولى مقبولة ومرضيا عنها لدى الله، حتى تنفذ الشفاعة وتؤتي أثرها وفاعليتها في وصول الرحمة إلى المشفوع له.

الشفاعة في القرآن بين النفي والإثبات:

١ - قال تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) (سورة البقرة: آية ٤٨)

قال الطبري في تفسيره: فيها تحذير من الله عباده الذين خاطبهم بهذه الآية عقوبته أن تحل بهم يوم القيامة. واتقوا يوما لا تقضي نفس عن نفس حقا لزمها لله جل ثناؤه ولا لغيره، ولا يقبل الله منها. أي من النفس العاصية. شفاعة شافع، فيترك لها ما لزمها من حق.

قيل: إن الله عز وجل خاطب أهل هذه الآية بما خاطبهم به فيها ؛ لأنهم كانوا من يهود بني إسرائيل، وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه، وسيشفع لنا عنده آباؤنا. فأخبرهم الله جل وعز أن نفسا لا تجزي عن نفس شيئا في القيامة، ولا يقبل منها شفاعة أحد فيها حتى يستوفى لكل ذي حق منها حقه. فآيسهم الله جل ذكره مما كانوا أطمعوا فيه أنفسهم من النجاة من عذاب الله - مع تكذيبهم بما عرفوا من الحق وخلافهم أمر الله في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به من عنده - بشفاعة آبائهم وغيرهم من الناس كلهم ؛ وأخبرهم أنه غير نافعهم عنده إلا التوبة إليه من كفرهم والإنابة من ضلالهم.

● إذن فالشفاعة التي كان يعتقدها اليهود شفاعة مطلقة من كل شرط في الشافع أو المشفوع له، وهي شفاعة مرفوضة في الإسلام ؛ لأن الشفاعة في نظره لا تعتمد على نسب أو فداء، إنما يخلص المرء إيمانه وطاعته وحبه ثم بعد ينتظر شفاعة يؤذن بها في حقه فتصيبه الرحمة.

٢ - قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (سورة البقرة: آية ٢٥٤)

قال الطبري: يوم لا مخالة فيه نافعة كما كانت في الدنيا، فإن خليل الرجل في الدنيا قد كان ينفعه فيها بالنصرة له على من حاوله بمكروه وأراده بسوء، وقد آيسهم تعالى ذكره من ذلك، لأنه لا أحد يوم القيامة ينصر أحدا من الله، بل (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) (سورة الزخرف: آية ٦٧)، وأخبرهم أيضا أنهم يومئذ. مع فقدهم السبيل إلى ابتياع ما كان لهم إلى ابتياعه سبيل في الدنيا بالنفقة من أموالهم والعمل بأبدانهم،

نؤمن بالشفاعة؛ لأنها غيب أخبرت به النصوص الثابتة عن الله ورسوله. وليس في الغيب الذي يأتي به المُصدَّقُ لِمَ؟ وكيف؟



وعدمهم النصراء من الخلان والظهراء من الإخوان. لا شافع لهم يشفع عند الله كما كان ذلك لهم في الدنيا، فقد كان بعضهم يشفع في الدنيا لبعض بالقرابة والجوار والخلة، وغير ذلك من الأسباب، فبطل ذلك كله يومئذ، كما أخبر تعالى ذكره عن قيل أعدائه من أهل الجحيم في الآخرة إذا صاروا فيها: (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) (سورة الشعراء: آية ١٠٠ - ١٠١).

وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عام والمراد بها خاص، وإنما معناه: من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة. لأهل الكفر بالله؛ لأن أهل ولاية الله والإيمان به يشفع بعضهم لبعض.

● فالشفاعة المنفية في الآية نوع أو مفهوم خاص من الشفاعة، وليس مطلق الشفاعة، وذلك بحكم السياق الذي نفى الخلة بمفهوم خاص أيضا لا خلة للكافرين ولا خلة للمذنبين الذنوب العظام التي تخرجهم عن ملة الإسلام، والخلة ثابتة للمتقين الموحدين، ولها نفعها وتأثيرها في الآخرة، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «المرء مع من أحب» (البخاري - كتاب الأدب باب علامة حب الله عزّ وجلّ)، ومسلم (كتاب البر والصلة باب المرءُ مع مَنْ أحبّ). ولقوله في خاتمة الآية: (والكافرون هم الظالمون)، ولذكره في الآية التالية: (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) مثبتا للشفاعة بإذنه سبحانه.

٣ - قال تعالى: (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (سورة الأعراف: آية ٥٣)

قال الطبري: يقول الذين ضيّعوا وتركوا ما أُمروا به من العمل المُنْجيهم ممّا آل إليه أمرهم يومئذ من العذاب، من قبل ذلك في الدنيا: قد جاءت رسل ربنا بالحق. أقسم المساكين حين عاينوا البلاء وحلّ بهم العقاب أن رسل الله التي أتتهم بالنّذارة وبلغتهم عن الله الرسالة قد كانت نصحت لهم وصدَقَتْهُمْ عن الله، وذلك حين لا ينفعهم التصديق، ولا ينجيهم من سخط الله وأليم عقابه كثرة القال والقيل..... هل لنا من أصدقاء وأولياء اليوم فيشفعوا لنا عند ربنا، فتنجينا شفاعتهم عنده مما قد حل بنا من سوء فعالنا في الدنيا.

● فهؤلاء قوم غلب عليهم النسيان والغفلة عن ذكر ربهم واتباع أمره، يبحثون يوم القيامة عن مخرج لهم. بشفاعة أو بردهم إلى الدنيا فيحسنوا ما أفسدوه من قبل، وفي كل ذلك خسارة لهم؛ لأنهم كانوا مفترين.

● فهل في هذه الآية نفي للشفاعة عن المؤمنين الموحدين بإذن الله؟ إن من بالغ حسرة الكافرين في الآخرة وخسارة مسعاهم بحثا عن شافع لهم ألا يجدوا من يعتبرهم أو يرغب في الشفاعة لهم، في حين يجدون المؤمنين الموحدين تعرض عليهم الشفاعة، وتُقبل فيهم، وتنجيهم من حال إلى حال، ففي هذا كمال الخيبة والعذاب للغافلين وكمال الفوز والرحمة للمؤمنين.

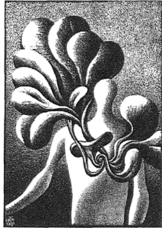
٤ - قال تعالى: (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) (سورة الشعراء: الآيات ٩٧-١٠١)

فهؤلاء قوم عبادُ أصنام، جعلوها نداً لرب العالمين، وأضلهم قوم مجرمون باتباعهم لهم، فمن يشفع لهؤلاء؟ يبدو أنهم بحثوا كغيرهم عن شافع ثم عادوا منكسين الرأس يعترفون بأنه لا شافع لهم ولا صديق صالح مخلص ينجيهم بدعوته؛ لأنهم اتبعوا مَنْ هو أضل منهم وفي الغي والإجرام أشد.

٥ - قال تعالى: (عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) (سورة المدثر: الآيات ٤١-٤٨)



إن الله تعالى ينفي عن هؤلاء المجرمين نفع الشفاعة، أي وإن وجدوا لهم شافعين يقدّمون لله شفاعة بشأنهم، على حسب علمهم وغلبة ظنهم باستحقاقهم الشفاعة، فيردُّ الله شفاعتهم ويخبرهم عن سوء فعالهم، فيتبرؤون منهم، وهذا أشبه بما يحدث للنبي عند الحوض، حيث يشفع لقوم فتُرَدّ شفاعتُه، قال صلى الله عليه وسلم: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ». فَيَقُولُ «إِنَّهُمْ مِنِّي. فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي». (البخاري - كتاب الفتن باب مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى



(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)، ومسلم (كتاب الفضائل باب إِثْبَاتِ حَوْضِ نَبِيِّنَا صلى الله عليه وسلم وصفاته).

إذن فالشفاعة لا تنال الكافرين يوم القيامة، ولا يؤذن لهم فيها، وذلك لأنهم قطعوا كل العلائق بينهم وبين الله، ولم يَعُدْ لهم ارتباط روحي بشفعاء صالحين؛ وذلك لترديهم في الفساد والضلال. وهذا أمر اتفق عليه القرآن والسنة، وليس ثمة تعارض بين القرآن والأحاديث في ثبوت الشفاعة، والمعارضة في أمر الشفاعة لا تقوم على فهم حقيقي لكتاب الله.

ولا يجوز لأحد أن يؤاخذ الإسلام على مفاهيم خاطئة لشفاعة بات يرفضها وينفي نفعها لأصحابها، وليس نفي المفهوم الخاطئ للشفاعة بمستلزم نفي الشفاعة مطلقا بكل مفهوم حسن أو سيىء، فالشفاعة جزء من الحساب في الآخرة، وكما يُحرمُها المجرمون، ينالها المتقون الموحدون.

بل هذا يتفق مع المنطق العام للحساب في الآخرة، فالله كما أخبر نبيه يكافئ الحسنة بعشر أمثالها ويزيد، والله يضاعف لمن يشاء، ويجعل السيئة بمثلها ويعفو إن شاء. ولم يقل أحد أن هذا يتعارض مع العدل أو المساواة، فمنكر الشفاعة بكل وجه قاسي القلب، ومثله يقال له: دعوهم لو خلقتموهم لرحمتموهم.

٦ - وقال تعالى: (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (سورة الزمر: آية ٤٤).

وفيها إثبات لوجود الشفاعة، وبيان أن مرجع الشفاعة إلى الله هو صاحبها ومالكها وحده، لا يملك غيره منها شيئا. يأذن فيها لمن شاء، ويقبلها في حق من شاء حسب علمه المحيط وعدله الكامل. أذن فيها للملائكة، وأذن فيها للأنبياء والصالحين من عباده في حق من ارتضى من المؤمنين الموحدين، وهذا بشكل عام، أي دون تعيين من تُقبلُ الشفاعةُ في حقه ومن تُرد، ولم يقل مسلمٌ عالمٌ ولا جاهلٌ أن الشفاعة تُقبل برغم من الله وفي حق الجميع. ولكنها خاضعة لإرادته تعالى، إذا أذن بها كانت، وإن لم يأذن بها لم تكن، وليست رجوعا للمولى عن حكمه من أجل الشافع.

٧ - قال تعالى: (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (سورة الزخرف: آية ٨٦)

والآية جمعت بين النفي والإثبات، النفي بمفهوم، والإثبات بمفهوم آخر، فهي تنفي الشفاعة عن الشركاء، الأصنام التي اتُّخذتْ أنداداً من دون الله، وتُثْبتُها وتملّكها بإذنه لمن شهد بالحق من الأنبياء والأولياء الصالحين.

وما يملك هؤلاء شيئا إلا بتمليك الله سبحانه لهم، والشفاعة في هذا مثل الرزق قد جعل الله بعض الخلق سببا في وصول رزقه إلى البعض، وليسوا لهم برازقين، كذلك جعل الله بعض خلقه المكرمين لديه يوم القيامة سبباً في إيصال رحمته وعفوه إلى بعض المحتاجين إليها المستحقين لها.

ومن مقتضيات التوحيد في الأفعال الاعتقاد بأنه لا تأثير إلا لله سبحانه، فلا يوجد مؤثر مستقل سواه، وإنما جعل سبحانه الأسباب مؤثرة على وجه التبعية لإرادته.

٨ - وقال تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) (سورة البقرة: آية ٢٥٥)

نعم هذه الآية تثبت بمفهوم المخالفة وجود شفعاء يشفعون عند الله بإذنه، ولكنها بدلالة النص اللازمة تثبت وجود الشفاعة في الآخرة؛ لأنه لو لم توجد شفاعة أصلا لما تحدث عنها الحق أن تكون بإذنه أو بغير إذنه.

٩ - قال تعالى: (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) (سورة سبأ: آية ٢٣)

وفيها تصريح بوجود الشفاعة في الآخرة، ووجود شفعاء يؤذن لهم فيها، ولكنها تنفي أن يعود نفع هذه الشفاعة إلا على من



يأذن له سبحانه في هذا النفع. ولو لم تكن ثمة شفاعة أو شفعاء لما نفى سبحانه نفعها أو أثبته.

شروط قبول الشفاعة وعودها بالنفع على المشفوع له:

١ - تُطلب من صاحبها والقادر على قبولها وهو الله، بمعنى ألا تُطلب شفاعة صنم أو إله مزعوم يعجز عن نفع نفسه أو ضرها.

٢ - يَشْفَعُ له من شهد بالحق والتوحيد بإذن الله: (إلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

٣ - أن يعهد الله للشافع بالشفاعة: (لاَّ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) (سورة مريم: آية ٨٧)

٤ - أن يأذن الله للشافع ويرضى له قولا: (يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً) (سورة طه: آية ١٠٩).

٥ - أن يكون المشفوع له موحدا. فلا شفاعة لكافر لأنه فقد أساس الثواب، وهو الإيمان الصحيح.

٦ - ألا يكون المشفوع له ممن استحل فعل الكبائر.

٧ - وألا يُصر على فعلها؛ لأن الإصرار على فعل الكبائر يعني المكابرة والعناد والاستباحة لحرمات الله. قال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (سورة آل عمران: آية ١٣٥)، والإصرار على ارتكاب الذنب وإن كان صغيرا قد يخرج صاحبه عن صبغة الإيمان؛ لأنه يعد استهانة بأمر الله وعدم توقير لشأنه وحكمه.

٨ - الانتهاء عن مواصلة الذنب عند التذكر أو التذكير، فيتوب ويرجع ويستغفر، فالمؤمن صاحب حال وتذكر، أما صاحب الغفلة أو التغافل الدائم فليس بمؤمن ولكنه ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فغرقوا في المعاصي متعدين على محارم الله قال تعالى: (وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) (سورة النساء: آية ١٤)

وليس للمسلم أن يعول على شفاعة إذا أهمل الواجبات وترك الفرائض واستهان بأمرها.

فقد نهى الله نبيه أن يشفع للكافرين والمنافقين حيث أخبره بعدم قبول شفاعته في حقهم مهما كثرت فقال: (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا



بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (سورة التوبة: آية ٨٠) ثم بعد ذلك نهاه عن الشفاعة لهم ابتداء؛ لأن فيها تعاطفا مع موقفهم وإيماء لاحتمال قبولهم ورحمتهم، وهذا محال. قال تعالى: (وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ) (سورة التوبة: آية ٨٤) وقال: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) (سورة التوبة: آية ١١٣)

● وآيات الشفاعة لم تُعيّن أفراد من تنالهم الشفاعة، ولم تعين الذنوب التي تُقبل فيها الشفاعة، ولذلك فستبقى كل نفس وجلة أن تفوتها كل شفاعة بلا نفع، فلا تُقدم على ذنب خوفا أن يحرمها من الرحمة والشفاعة، ثم إن الإيمان بإله رحيم يسعى لوصول رحمته إلى عباده يجعلهم يقبلون على عبادته ويتجنبون معصيته.

● وإنما يسعد بقبول شفاعة المصطفى فيه يوم القيامة من قال لا إله إلا الله، خالصا من قلبه أو نفسه. فالقول يتبعه الإخلاص واليقين، مما لا بد آخذ بصاحبه إلى اتباع الأمر واجتناب النهي، وإن زل وعصى.

أنواع الشفاعة المفصلة في القرآن والسنة:

١ - شفاعة في الدنيا:

● مقبولة: تعني الستر عن المذنب والعفو عنه؛ شريطة ألا يتعلق جرمه بآخرين وألا يفتضح أمره عند الحاكم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تَعَافَوا الحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ». (أبو داود (كتاب الحدود باب العَفْوِ عَنِ الحُدُودِ مَا لَمْ تَبْلُغِ السُّلْطَانَ))

● مرفوضة: تعني المحاباة والمحسوبية ومراعاة مكانة المجرم عند العقاب، وتعني أخذ حقوق الغير وإعطاءها لمن لا يستحق، وهي صورة لأكل أموال الناس بالباطل والرشوة. قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا». (البخاري (كتاب أحاديث الأنبياء باب حدثنا أبو اليمان)، ومسلم (كتاب الحدود باب قَطْعِ السَّارِقِ الشَّرِيفِ وَغَيْرِهِ وَالنَّهْيِ عَنِ الشَّفَاعَةِ فِي الحُدُودِ))

٢ - شفاعة النبي في الدنيا وهي خاصة بالرحمة والإمهال:

فمن كرامة النبي محمد وشرفه أن بعثه الله رحمة للعالمين، فكان رحمة للمؤمن والكافر بأن أخر الله عنهم العذاب على معاصيهم وكفرهم ولم يعاجلهم بما يستحقون، قال: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (سورة الأنفال: آية ٣٣)



وأخبر النبي عن تلك النعمة والمنة فقال: «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لأُمَّتِي». (الترمذي - كتاب تفسير القرآن باب ومن سُورَةِ الأَنْفَالِ).

والأمة هنا بمفهومها العام أي كل من كُلف الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم. ولكنها بعد وفاته لا تنفع إلا من استغفر وآمن.

٣ - شفاعة في الآخرة:

● شفاعة الملائكة:

قال تعالى: (بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (سورة الأنبياء: آية ٢٧-٢٨) أي لمن رضي الله أن يُشفع له.

وقال: (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى) (سورة النجم: آية ٢٦).

وقال: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) (سورة غافر: آية ٧)

وهذا الاستغفار شفاعة مطلقة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

● شفاعة النبي محمد في الآخرة:

أ - الشفاعة العظمى:

إن نصوص الشرع لم تجعل لشفاعة حتمية القبول إلا الشفاعة العظمى، وذلك لأنها وعد للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بالمقام المحمود الذي يحمده فيه كل الخلق ويشهدون له بالفضل والكرامة عند الخالق، وهي تشريف للنبي، ثابتة له خاصة، أشار القرآن إليها بالمقام المحمود قال: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) (سورة الإسراء: آية ٧٩)

وتكون بسؤاله الله سبحانه أن يقضي بين الخلق جميعا ليستريحوا من هول الموقف والمحشر، فيستجيب الله له، فيغبطه الأولون والآخرون، ويظهر لهم فضله على العالمين خاصة أنهم يلجئون إليه بعد أن يطلبوها من الأنبياء أولي العزم والذين يوجلون من غضب الله ويحيلونهم إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: أنا لها أنا لها. لعلمه أنه وعدها من قبل.

قال صلى الله عليه وسلم: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي... وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ». (البخاري - كتاب الصلاة باب قَوْلِ النَّبِيِّ «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»)، ومسلم - كتاب المساجد باب حَدَّثَنِي أَبُو كَامِلٍ). ويلاحظ في قوله تكرار صيغة الفعل «أعطيت» لبيان أن الشفاعة إنما هي هبة وهبها النبي خاصة، وهي من تفضيل الله له، وقد قال: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) (سورة البقرة: آية ٢٥٣).

ب - شفاعة النبي في عصاة المؤمنين الذين يدخلون النار فيعاقبون على ذنوبهم، ثم تدركهم الشفاعة فيدخلون الجنة ليأخذوا ثواب توحيدهم، قال صلى الله عليه وسلم: «فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ... فَأَقُولُ يَا رَبِّ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ أي وجب عليه الخُلُودُ». (البخاري - كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار)، ومسلم (كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها).

الشفاعة أساسها عمل صالح ومحبة في الدنيا يعود أثرها على العبد في الآخرة. وليست الشفاعة نائلة المتواكلين أو المفرطين بل المجتهدين



وهذا نص في غاية الوضوح والدلالة على أن الشفاعة إنما هي إرادة الله ؛ لأنه هو الذي يُعلِّمُ النبيَّ ألفاظ الدعاء وصيغةَ الشَّفاعة بما فيها من محامد وتعظيمات حتى تنال القبول، دل على ذلك قوله: يُعلِّمُنيه ربِّي.

كذلك لم يقل النبي أنه يخرج من شاء من النار فيدخلهم الجنة، ولكن قال: فَيَحُدُّ لِي حَدًّا. أي الله يقدر له ويعين من يستحق الخروج بشفاعته. وكذلك فالنبي ينتهي عند من أوجب عليه القرآن الخلود في النار وحقت عليه كلمة العذاب، لا يَطلُبُ لهم شفاعة ولا إنقاذًا لعلمه بانتهاء الحساب والحكم. والنبي في تلك الشفاعة إنما هو طالب وداع بالرحمة والإحسان للمؤمنين، ليس له من الأمر شيء، إنما الأمر لله في قبول طلبه أو رده.

● وليس أمرا مستبعدا أن يكون النبي سببا يوم القيامة في وصول رحمة الله ومغفرته وعفوه لعباده المؤمنين، فكما جعله الله سببا في الدنيا لوصول الهداية والرشاد إلى العباد، ومن بعده العلماء والأولياء والصالحون حملوا للخلق الهداية، فلا غرو أن يكونوا سُبُلاً للعفو عن العصاة والمقصرين يوم الحساب. وقد قال تعالى لنبيه: (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (سورة التوبة: آية ١٠٣)

● ولا تعارض بين حديث القرآن عن الخلود في النار وحديث السنة عن تعذيب عصاة المؤمنين فيها في مراحل الحساب الأولى، ثم خروجهم بالشفاعة أو بقضاء عقوبتهم فيها على ذنوبهم، ودخولهم الجنة في مرحلة الخلود ؛ جزاء لما حوت قلوبهم، ولو ذرة واحدة من الإيمان قال تعالى: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (سورة الزلزلة: آية ٧-٨)

● شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض:

أ - شفاعة المؤمنين لمن سبق من إخوانهم قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ) (سورة الحشر: آية ١٠) وفيه شفاعة المؤمنين لمن سبقهم بالإيمان وكان دليلا وهاديا، وهي شفاعة نافعة لهم ساعة الحساب، وأساسها العمل الصالح وهو السبق بالإيمان.

ب - شفاعة المؤمنين لميتهم في صلاة الجنازة، وهي دعاء وطلب من الله بالتخفيف عنه مشاق الحساب ورفع درجاته وإنزال الرحمة عليه، قال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ إِلاَّ شُفِّعُوا فِيهِ» (مسلم - كتاب الجنائز باب مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ مِائَةٌ شُفِّعُوا فيه).

● ومرجوع تلك الشفاعة إلى العمل الصالح والسيرة الزكية التي يتركها الميت بين المؤمنين، فالمسلم لا ينال الدعاء المخلص بالمغفرة والرحمة من المؤمنين الصادقين إلا إذا علموا منه إحسانا وصلاحا حال حياته.

● وهذا شبيه بما يبقى من عمل المرء بعد رحيله عن الدنيا يَشفعُ له عند الحساب، مثل الصدقة الجارية والعلم النافع والولد الصالح الذي يدعو له، فكل ذلك جزء من عمله.

ج - شفاعة المؤمنين لمن يتبعون جنازته، قال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً لاَ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلاَّ شَفَّعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ». (مسلم - كتاب الجنائز باب مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ شُفِّعُوا فِيهِ).



● فالله يقبل شفاعة بعض المؤمنين في بعض، فلا نستبعد شفاعة خير الخلق ورحمة الله للعالمين بالذين آمنوا بنبوته؟!

● ومثل هذه الشفاعة تكشف العلاقة بين الشهادة والشفاعة، فالمؤمنون يشهدون على بعضهم، ويشهدون على الناس جميعا، ولكنهم لا يشفعون إلا للمؤمنين. عن أنس: «مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ «وَجَبَتْ». ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ «وَجَبَتْ». فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه -: مَا وَجَبَتْ ؟ قَالَ: هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ» (البخاري - كتاب الجنائز باب ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَى الْمَيِّتِ). وقال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (سورة البقرة: آية ١٤٣). وقد استثنى الرسول البعض من تلك الشهادة أو الشفاعة، لأنها كرامة وتشريف لا ينالها إلا من يستحقها، قال: «لاَ يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (مسلم (كتاب البر باب النَّهْيِ عَنْ لَعْنِ الدَّوَابِّ وَغَيْرِهَا)

أعمال صالحة توجب لصاحبها الشفاعة:

١ - الدعاء للنبي بالرفعة والمنزلة العليا، قال «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاَةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (البخاري - كتاب الأذان باب الدعاء عند النداء).

وهذا ذكر لله ودعاء للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو يكشف عن حب المؤمن لنبيه مما يوجب له شفاعته يوم القيامة.

فالشفاعة أساسها عمل صالح ومحبة في الدنيا يعود أثرها على العبد في الآخرة، وليست الشفاعة نائلة المتواكلين أو المفرطين بل المجتهدين، وإن كانت أعمالهم بسيطة كدعاء ونحوه يقبلها الله وينميها، ويقبل الشفاعة لفاعلها.

٢ - الحب في الله يشفع لصاحبه، ليس في العفو والغفران فقط، ولكن في بلوغ حب الله تعالى، قال صلى الله عليه وسلم: «خَرَجَ رَجُلٌ يَزُورُ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا مَرَّ بِهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ. قَالَ: أُرِيدُ فُلاَنًا. قَالَ: لِقَرَابَةٍ. قَالَ: لاَ. قَالَ: فَلِنِعْمَةٍ لَهُ عِنْدَكَ تَرُبُّهَا. قَالَ: لاَ. قَالَ: فَلِمَ تَأْتِيهِ ؟ قَالَ: إِنِّي أُحِبُّهُ فِي اللَّهِ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ أَنَّهُ يُحِبُّكَ بِحُبِّكَ إِيَّاهُ فِيهِ». (مسند أحمد عن أبي هريرة)

٣ - شفاعة المؤمن لأخيه حينما يدعو له بظهر الغيب، ومعلوم أن دعاءه لأخيه لا بد راجع لخير وإحسان وصلاح علمه من حاله، قال النبي: «دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ». (مسلم - كتاب الذكر والدعاء باب فَضْلِ الدُّعَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ).

٤ - شفاعة العمل الصالح:

أ - شفاعة القرآن لمن يقرأه ويحفظه، والصيام لمن يخلص في أدائه، قال النبي: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (مسند أحمد عن عبد الله بن عمرو).

ب - رحمة خلق الله، فقد ورد عن النبي أن رجلا دخل الجنة بشفاعة كلب، قال: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي. فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ» (البخاري - كتاب الأدب باب رَحْمَةِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ). وهذه حالة، وقد تكرر، علم الله من قلب صاحبها الرحمة والشفقة على خلق الله، بتحمله المشقة والمخاطرة ونزوله البئر : ليرفع للكلب الماء : لئلا يهلك. والكلب روح خلقها الله، شفعت للرجل عند خالقها وطلبت له الغفران، فاستجاب الله لها فغفر له، بعمله ثم بشفاعة تلك الروح.

ولا شك أن الرحمة تستحق الشفاعة والرحمة، وفيه حض على المحبة والسلام بين الإنسان وأخيه وبين الإنسان وبقية المخلوقات.

طلب الشفاعة من النبي:

١ - طلب الشفاعة دلت عليه نصوص القرآن، قال: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا) (سورة النساء: آية ٦٤) وقال مخبرا عن المنافقين: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ) (سورة المنافقون: آية ٥)

٢ - وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: سَأَلْتُ نَبِيَّ اللَّهِ أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: «أَنَا فَاعِلٌ». (الترمذي - كتاب صفة القيامة باب مَا جَاءَ فِي شَأْنِ الصِّرَاطِ).

٣ - طلب الشفاعة من المؤمن الصالح، طلبها عمر بن الخطاب حينما قدَّم العباس عمَّ النبي للاستسقاء لهم، وقد جاء في صحيح البخاري كتاب الاستسقاء: باب إِذَا اسْتَشْفَعُوا إِلَى الإِمَامِ لِيَسْتَسْقِيَ لَهُمْ لَمْ يَرُدَّهُمْ، وباب إِذَا اسْتَشْفَعَ الْمُشْرِكُونَ بِالْمُسْلِمِينَ عِنْدَ الْقَحْطِ.

ويَتْبَعُ طَلَبُ الشفاعة بالابتهال إلى الله لقبولها والإذن بها، نقول: ربنا شفِّع فينا نبينا يوم القيامة، وشفع فينا الصالحين من عبادك. ■

(١) قصيدة الشفاعة للشيخ إبراهيم أبي خليل، مطبعة أحمد مخيمر، ط٤/١٩٥١م.

حســــــونة المصبـــــاحى



وينتقد برتراند راسل الشـيوعيـة بشـدة ذلـك أن النظـام الـذى أنتجتـه لا «يمنـح أيـة حـريـة» ولا «يسـمـح بالجـدل الحـر»



برتـرانـد راسـل..

■■ ضمن سلسلة «المكتبة الفلسفية»/ صدر مؤخرا عن «دار المعرفة للنشر» بتونس، كتاب من صنف الكتب التنويرية المهمة والمفيدة حمل عنوان: «الفلسفة وقضايا الحياة»، وهو عبارة عن حوار مسهب أجراه للتلفزيون البريطانى عام ١٩٥٩، الصحفى والمعلق وورد رويات على مدى أربعة أيام مع الفيلسوف والمفكر الشهير برتراند راسل الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٠، والذى اشتهر خلال القرن العشرين بمواقفه الإنسانية الكبيرة المناهضة للحرب والفقر والظلم، والمساندة بقوة وحزم لقضايا الحرية والعدالة الاجتماعية والتضامن بين الشعوب من اجل مستقبل أفضل للإنسانية برمتها.

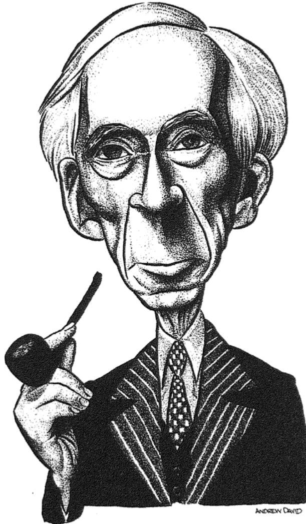
فى جامعة هارفارد. وفى عام ١٩٢٠، قام بزيارة إلى روسيا، والتقى بفلاديمير ايليتش لينين غير أنه لم ينبهر بالثورة البلشفية كما هو الحال آنذاك بالنسبة لنسبة كبيرة من المثقفين الغربيين، بل أدانها بشدة وانتقد جانبها التسلطى ووصف زعيمها، أى لينين، بـ «الرجل القاسى».

أواخر العشرينيات من القرن الماضى، أسّس برتراند راسل مع زوجته دورا «بايكون هيل سكول»، وهو معهد أراد من خلاله تطبيق أفكاره التحررية فى مجال تربية وتعليم الأجيال الناشئة. وقبل اندلاع الحرب الكونية الثانية، سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليلتقى هناك

وينتمى برتراند راسل المولود فى ١٨ مايو/ أيار ١٨٧٢ إلى عائلة أرستقراطية عريقة. وكان جدّه هو الذى رفع إلى البرلمان عام ١٨٣٢ العريضة التى تضمنت قانون الإصلاح الهادف إلى تنازل الأرستقراطية البريطانية عن الامتيازات التى كانت تتمتع بها مجنّبة بذلك البلاد المذابح والإضرابات الدموية التى عرفتها فرنسا خلال ثورة ١٧٨٩ لما رفضت الأرستقراطية التخلّى عن امتيازاتها.

وكان فى الثالثة من عمره لما تكفلت جدته بتربيته مخصّصة له مدرسات خصوصيات فى البيت، الشىء الذى ساعده على الحصول على معارف عميقة فى مجالات معرفية مختلفة ومتنوعة. وفى هذه الفترة المبكرة من حياته، تعلم اللغتين الفرنسية والألمانية.

وبعد أن درس الرياضيات والفلسفة فى جامعة كامبردج من عام ١٨٩٠ إلى عام ١٨٩٥، عمل أستاذا فى نفس هذه الجامعة حيث حصل على لقب الامتياز الأعلى من الفلسفة. وفى عام ١٩٠٠ حضر مؤتمر الرياضيات بباريس وانبهر بقدرات عالم الرياضيات الإيطالى بيآنو فدرس نظرياته وأعماله بتمعّن وعمق ليكتب عقب ذلك مؤلفه الأول «مبادئ الرياضيات» الذى حصل به على شهرة واسعة. وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى، انضمّ إلى حركة أنصار السلام المعادين للحرب الشىء الذى جلب له متاعب كبيرة إذ فصل من الجامعة عام ١٩١٦ ليمضى بعد ذلك بضعة أشهر فى السجن. كما منع من السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية للتدريس



بالعديد من المفكرين والعلماء الفارين من النازية مثل البرت أينشتاين. وقد خصّص برتراند راسل السنوات الأخيرة من حياته للدفاع عن القضايا الكبيرة والخطيرة التى تشغل الإنسانية، فعارض بشدة القنبلة الذرية، ومع الكاتب والفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر، أسّس «محكمة راسل». بهدف التحقيق فى جرائم الحرب فى فيتنام، والقمع فى بلدان أمريكا اللاتينية.

وكان المترجم التونسى على مصباح المقيم فى برلين منذ عقود عدة، على حق عندما لاحظ فى التقديم المختصر الذى خصّصه للكاتب المذكور بأن الأسئلة العفوية التى طرحها الصحفى والمعلق التليفزيونى وورد رويات، والأجوبة الدقيقة والواضحة الخالية من التعقيدات ومن التجريد النظرى، يتيسر على القارئ حتى ولو كان محدود الأفق معرفيا وفلسفيا فهم القضايا الكبيرة فى مجال الفلسفة والعلوم والقضايا الفكرية والسياسية الكبيرة التى واجهها العالم خلال القرن العشرين. فقد حرص برتراند راسل على أن يكون «دقيق الملاحظة، صارم الرأى، لا يداور ولا يمعن فى التستّر وراء التعقيدات الذهنية المجردة»، بل هو يذهب إلى هدفه مباشرة وبلغة بسيطة وأدوات معرفية لا ترهق القارئ العادى، حتى ولو كان تلميذا فى المعاهد الثانوية، بل تتيح له النفاذ إلى أعماق الأفكار والقضايا المتعصبة على الفهم. بالإضافة إلى هذا كله، حرص برتراند راسل أيضا على أن يظل فى هذه المحاولات وفيًا للأفكار والمبادئ التى قامت عليها حياته الفكرية والفلسفية، فلازاغ عنها، ولا تنكر لها، بل دافع عنها بحماس وجراة، مدلّلا بذلك على روح فكرية عالية، وعلى صراحة نادر وجودها فى عالم القرن العشرين المتقلب. وشخصيا وجدت فى هذا الكتاب، أى «الفلسفة

المكتبة الفلسفية: الفلسفة وقضايا الحياة
وورد رويات
دار المعرفة للنشر - تونس ٢٠٠٨

وقضايا الحياة، ما هو مرتبط شديد الارتباط بقضايا الساعة في عالم اليوم وهو يخطو خطواته الأولى في الألفية الجديدة حاملا معه أوجاعا وهموما وقضايا وتقلبات خطيرة ورثها عن القرن العشرين.

وفي هذه المحاورات يتعرض برتراند راسل إلى قضايا ومسائل مهمة مثل الفلسفة والدين والشيوعية الرأسمالية والسلطة ومفهوم السعادة ومفهوم القومية ومكانة بريطانيا بعد انقراض «الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس» ودور الفرد في المجتمع، ومخاطر القنبلة الهيدروجينية ومستقبل الإنسانية. ومعرفا الفلسفة هناك مسائل على غاية من الجدية لا يستطيع العالم مقاربتها مؤقتا على الأقل». ومن حيث أيضا أنها «تدعو الناس إلى مزيد من التواضع الفكري يفضلها يكونون واعين لأن كثيرا من الأمور التي كانت تعدّ مسائل يقينية في ماض قد اتضح خطؤها، وأنه لا يتمكن الوصول إلى العمل عبر أقصر الطرق».



وفي محور الدين، يتعرف برتراند راسل بأنه كان شديد التديّن في سنوات طفولته ومراهقته غير أنه تخلّى عن قيصر كانت مشروعة. فالأول حسب رأيه تمكن بفضل غزواته من بسط نفوذ الثقافة الهيلينية في منطقة الشرق الأوسط، ونشر اللغة الإغريقية والمحافظة على الموروث الثقافي لليونان. أما الثاني فقد غزا بلاد الغال بهدف إلحاقها بالعالم المتحضّر. وقد نتج عن ذلك ظهور اللغة الفرنسية. وهو أمر جدّ مهم بالنسبة لبرتراند راسل الذي يصرّ على أن معارضته للحرب الكونية الأولى كانت صحيحة ومشروعة. ومحاولا تفسير موقفه هذا، هو يقول بأنه لو ظلت بريطانيا محايدة لما طالت الحرب ولما تسبّبت في خسائر فادحة خصوصا في الأرواح، كما أن الوضع في روسيا كان نوايا طيّبة حاكما ستنمحي تدريجيا إلى الاندثار. ويعترف برتراند راسل بأن خيبة أمله كانت كبيرة بعد الزيارة التي أداها إلى روسيا اثر انتصار الثورة البلشفية. وبالرغم من أنه يصف لينين بـ«الشجاع» وبـ«الصادق» ويؤكد أنه «حديدي العزيمة» و«كثير الثبات» فإنه يرى ان معتقده كان «ضيقا بكيفية جعلته يكون متعصبا وغير قادر بالمرة على التفكير خارج دائرة الماركسية».

وبالنسبة لبرتراند راسل فإن المصدر الأساسي للقومية هو أن كل دولة هي أساسا تنظيم مؤسّس بهدف قتل الأجنبي. وهذا ما ينعكس في جلّ الأناشيد الوطنية الرسميّة. كما أن

.. حوار الأيام الأربعة

بطريقته الانجلو ساكسونية الواضحة هو يقول بأنها - أي الفلسفة - «النظر في مواضيع لا تزال المعرفة الدقيقة بها غير ممكنة». وهو يعتقد أن لها غرضين. الأول هو «تربية العناية بالنظر العقلي في المواد التي لا نستطيع إخضاعها دوما إلى المعرفة العلمية» لأن هذه الأخيرة في رأيه لا تقدم سوى أجوبة جدّ محدودة عن المواضيع التي تهمّ الإنسانية ذلك ان العالم لا يعرف في شأنها إلا الشيء القليل. أما الغرض الثاني للفلسفة بحسب برتراند راسل فهو «توسيع مجال الرؤية التخيلية للعام عن طريق الفرضية» وأيضا تبيين أن هناك أشياء كنا نعتقد أننا نعرفها ونحن لا نعرفها». ومحددا العلاقة بين الفلسفة والعلم، يقول برتراند راسل بأنها - أي الفلسفة - يمكن أن تخدم العلم في جوانب وفرضيات معيّنة، كما أنه بإمكانها أن تستقل عنه، ذلك أن العلم ليس باستطاعته معالجة العديد من المسائل التي تشغل بال الإنسانية، والمتصلة بالقيم أساسا. واعتمادا على رأيه هذا، يرفض برتراند راسل الفلاسفة الذين يقبلون أن يكونوا سندا للأنظمة القائمة، وأيضا أولئك الذي يتخذون على عاتقهم قلبه أو تقويضه مثلما هو الحال بالنسبة لكارل ماركس لأن الشأن الحقيقي للفيلسوف في نظره ليس «تغيير العالم» بل «فهمه». كما يرفض «الفلسفة اللسانية» التي يعتبر أصحابها أن الأهم ليس أن يجيب الفيلسوف عن سؤال ما، بل أن يسلّط أكثر مما يمكن في الإضاءة على معنى ذلك السؤال. أما عن مستقبل الفلسفة، فيقول أنه لا يمكن أن تكون لها نفس الأهمية التي كانت عليها في زمن الإغريق أو في العصر الوسيط ذلك أن هيمنة العلوم أصبحت طاغية. مع ذلك هي لن تفقد دورها، ولا مكانتها من حيث أنها تجعلنا «يقظين وتذكرنا دوما بأن إيمانه في ما بعد وأسرع ينتقد المسيحية بشكل لاذع مؤكدا في جميع أطروحاته الفكرية والفلسفية أن الدين كان مضرا عبر التاريخ وأن نتائجه كانت في أغلبها سلبيّة ذلك أنه «كرّس المحافظة والانتصار إلى تقاليد الماضي، وأباح الحقد وعدم التسامح في كثير من الأطوار والحقب التاريخية في القارة الأوروبية بصفة خاصة. ويقول برتراند راسل بأن الخوف هو الذي يدفع بالإنسان إلى الارتماء في أحضان الدين ذلك أنه يخشى قوى الطبيعة التي يمكن أن تصعقه أو تبتلعه أو تغمره بزلزال، وما يمكن أن يفعل به البشر الآخرون، كأن يجروه إلى حرب يقتل فيها. وما ينتج عن انفعالاته وأهوائه التي لا يستطيع كبتها أو لجمها أو الحدّ من غلوائها. ولكن هل ستظلّ المؤسسة الدينية مواصلة أحكام قبضتها على الإنسانية؟ مجيبا على هذا السؤال، يقول برتراند راسل بأن هذا الأمر مرتبط حسب اعتقاده بالحلول التي سيجدها الناس أو لا يجدونها لمشاكلهم الاجتماعية. فإذا ما تواصلت الحروب والنزاعات الكبرى والنظام بمختلف أنواعها وأشكالها، وإذا ما ظل القسم الأكبر من البشرية يعيش تحت وطأة الفقر والبؤس، فإن سيطرة الدين على أغلبية الناس ستظل قائمة الذات.

ومن محور الدين، ينتقل برتراند راسل إلى محور الحرب ليقول بأنها - أي الحرب - يمكن أن تكون مشروعة إذا ما كان الأمر متعلقا بغزو أجنبي. ومع ذلك، هو يرى أن احتلال البيض لأمريكا الشمالية كان في مجمله «أمرا جيدا» بالرغم من الغياب الكامل للشرعية القانونية. كما أنه يعتقد أن الحروب التي خاضها في الأزمنة القديمة غزاة كبار مثل الإسكندر المقدوني ويوليوس يمكن ان يتشكل بطريقة أخرى إذ كان بالإمكان أن تحصل ثورة على غرار تلك حاولت أن تحدث عام ١٩٠٥. كما كان بالإمكان أن ينتصر الاشتراكيون الديمقراطيون فيقطعون الطريق على البلاشفة، وبذلك يجنّبون روسيا الكوارث التي عرفتها في ما بعد، ويسيّرون البلاد على نحو أفضل من الشيوعيين. ومن المتحصل بحسب وجهة نظر برتراند راسل أن تخرج ألمانيا من الحرب الكونية الأولى قوية. لكن ليس بالقوة الضاربة على جميع المستويات. وبذلك يخسر النازيون المعركة التي أوصلتهم على السلطة. أما الحرب الكونية الثانية فقد كانت مبررة بالنسبة له ذلك أن هتلر كان «فظيعا فظاعة مطلقة». و«الرؤية النازية بكليتها كانت قطعية للغاية». وهو يرى أنه لو كتب على النازيين أن يبسطوا نفوذهم على العالم كما كانوا ينوون بصفة واضحة (مؤكدة، فإن الحياة في عالمنا «ستتحول إلى جحيم». لذا كان التصدي لمثل هذا الخطر «واجبا».



وينتقد برتراند راسل الشيوعية بشدة ذلك أن النظام الذي أنتجته لا «يمنح أية حرية، ولا «يسمح بالجدل الحر»، ولا «يسمح بتعاطي أي نشاط علمي دون تقييدات». كما أنه «يشجع الدوغمائية واستعمال الإكراه من أجل ترويج آرائه» وفي سلوكاته شيء مما لا يمكن أن يطيب مذاقه البتّة» لواحد «ليبرالي عريق مثله». ويضيف برتراند راسل قائلا بأن الخطأ الأساسي في الشيوعية هو «الاعتقاد في الاستبداد الهادف إلى الخير» ذلك أنه إذا ما جعل شعب من الشعوب من رجل ذي تعاليم القومية تتمثّل في تلقين الناشئة أن الوطن مجيد، وأنه كان دوما على حق في جميع المجالات بينما البلدان الأخرى على خطأ وعلى ضلال مبين. لهذا السبب هو دعا دائما وأبدا إلى إنشاء قوة عسكرية واحدة، لهاقدرات قومية للحفاظ على السلام وعلى الأمن العالميين. ويرى برتراند راسل أن هناك علاقة بين القومية والعنصرية. وتلعب هذه العلاقة دورا «عندما يكون هناك اختلاف عرقي بين أمتين متجاورتين». وهو يضيف قائلا: «أن الفكرة العنصرية المسبّقة يمكن أن تمتزج بالمشاعر القومية وتقويها. وهي تختلف عن القومية. لكن بإمكانها أن تغدو بسهولة حليفة لها».

ولأن الحوار أجرى معه في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، أي في تلك الفترة التي كان فيها المد القومي العربي في أوجه، وكان الرئيس المصري جمال عبد الناصر يتصرف كما لو أنه زعيم لكل الشعوب العربية فإن برتراند راسل يعلق على ذلك قائلا بأنه طالما أن هذا المد القومي يساهم في غرس الشعور بالكرامة لدى العرب، ويساعدهم على التفكير بأنهم قادرون على إنجاز أشياء عظيمة فإن هذا «على غاية ما يرام». لكن إذا داخلته مشاعر الحقد على الآخر، وعلى من ليسوا عربا، فإنه لا يعتبر ذلك «جيدا».

ويحتل موضوع التعصب والتسامح مكانة هامة في تفكير برتراند راسل الذي يؤكد في الحوار المسهب الذي أجرى معه أن التعصب كان دائما وأبدا هو المهيمن عبر مختلف الحقب التاريخية، والمحرك الأساسي لمشاعر الناس والشعوب والطوائف العرقية والدينية حتى أثينا القديمة لم تكن متسامحة بالقدر الكافي رغم أنها كانت أكثر تسامحا

كتاب الزاوية



غــزة
(٢)

لنمتدح إسرائيل (١)

ألان م ديرشويتز
The wall street journal

إن الإجراءات الإسرائيلية فى غزة يبررها القانون الدولى، ويجب امتداح إسرائيل لدفاعها عن النفس ضد الإرهاب.

منذ أنهت إسرائيل احتلالها لغزة، أطلقت حماس على جنوب إسرائيل آلاف الصواريخ المصممة لقتل المدنيين. ولا يتوافر لسكان سديروت - التى تحملت وطأة الهجمات - سوى ١٥ ثانية تقريبا منذ إطلاق الصاروخ وحتى اللجوء للمخابئ.

إن حماس تعلم أن إسرائيل لا يمكن أبدا أن تطلق النار على منزل به مدنيين. وهى تعلم أيضا أنه لو كانت السلطات الإسرائيلية تجهل وجود مدنيين فى المنزل وأطلقت النار عليه فإن حماس ستحقق نصرا فى العلاقات العامة من خلال عرض جثث القتلى. ولكن إسرائيل امتنعت دوما عن إطلاق النار. أما صواريخ حماس التى كانت فى حماية الدروع البشرية فقد استخدمت ضد مدنيين إسرائيليين.

مارست حماس تلك الأساليب الخسيسة استهداف مدنيين إسرائيليين مع الاختباء خلف مدنيين فلسطينيين... وبينما تقوم إسرائيل بتركيب أنظمة إنذار وبناء ملاجئ، فإن حماس ترفض القيام بذلك، لأنها تحديدا ترغب فى زيادة أعداد المدنيين الفلسطينيين الذين يقتلون عن غير قصد نتيجة للإجراءات العسكرية الإسرائيلية إلى أقصى حد. إن حماس تعلم بخبرتها أنه حتى عندما يقتل عدد قليل من المدنيين الفلسطينيين الأبرياء بغير قصد، فسيوجه الكثيرون فى المجتمع الدولى إدانة مريرة لإسرائيل.

Alan M. Dershowitz، أستاذ القانون بجامعة هارفارد
ترجمة: عادل فتحى

مماً كانت عليه دول العصور الحديثة لما قبل القرن الثامن عشر. فقد حكم بالإعدام على سقراط. كما أن مفكرين وفلاسفة آخرين اضطروا إلى الهروب من أثينا خوفا من بطش حكامها. أما البلد الذى مارس التسامح حقا فهو هولندا خلال القرن السابع عشر. لذا لجأ إليها عدد هام من أصحاب العقول الكبيرة. ولو لم يفعلوا ذلك لتمت تصفيتهم. ويرى برتراند راسل أن أفضل وسيلة للتخفيف من حدة التعصب هو «السعى إلى إحلال نوع من التوازن فى العالم». ويتوقف برتراند راسل طويلا عند موضوع القنبلة الهيدروجينية مشيرا إلى أن حدوث حرب هيدروجينية أمر ممكن إذا ما ظل العالم يعيش تقلبات وصراعات ونزاعات عنيفة أيديولوجية وسياسية واقتصادية ودينية وغيرها. وأخطر شىء يعيشه العالم راهنا بالنسبة إليه هو سباق التسلح الذى عادة ما يؤدى إلى الحرب. ومن الإجراءات التى يقترحها برتراند راسل لإبعاد خطر حرب هيدروجينية، إيقاف التجارب النووية، والاتفاق على أن لا يكون بوسع أية قوة جديدة أن تحوز على القنبلة الهيدروجينية، وبعث حكومة عالمية تحتكر امتلاك كل الأسلحة الهامة، ويتمثل عملها فى الانكباب على كل الخلافات بين الدول، واقتراح الحلول وفرض تطبيقها إن لزم الأمر، ويكون فى حوزتها ما يلزم من القوة بحيث لا يكون باستطاعة أية دولة متمردة ان تتصرف ضد إرادتها.

ومن أطرف ما نقرأ فى كتاب: «الفلسفة وقضايا الحياة»، حديث برتراند راسل عن السعادة حيث يشير إلى أنه كان «شقيا جداً جداً» فى فترة المراهقة حتى كان يفكر أحيانا فى الانتحار. وذات مرة سقط مريضا وحلم أنه على شفا الموت. ولما استيقظ، وجد أستاذا له كان قد ترجم أفلاطون إلى اللغة الإنجليزية واقفا بالقرب من سريره. فلما أبلغه برغبته فى الموت فى أقرب وقت ممكن، قال له «سوف لن تقول مثل هذه الحماقات عندما تغدو أكبر سناً بقليل». وبالفعل كف برتراند راسل نهائيا عقب ذلك عن التفكير فى الانتحار، ومعرفًا سعادته هو يقول: «يمكن أن تكون سعادتى متأتية عن تدبير فى ما يتعلق بعملى. وفى ما عدا ذلك فقد تركت الأمر لاندفاعاتى الغريزية وللصدف. وعلى أية حال، فقد اتبعت كما ينبغى المخطط الذى وضعته من أجل أن أكون سعيدا فى عملى». وعنده ترتبط السعادة بأربعة عناصر. والعنصر الأول هو الصحة. والثانى هو توفر الوسائل الضرورية للتحصن من الحاجة. والثالث علاقات جيّدة مع الآخرين. والرابع هو النجاح فى العمل. أما العوامل التى تتعارض مع السعادة فهى انشغال البال بالهواجس، والحسد، والقلق أمام مشاكل الحياة اليومية.



وفى نهاية الحوار المسهب الذى أجرى معه، يتحدث برتراند راسل عن مستقبل الإنسانية ويقول أن أكبر خطر يتهددها هو أن تتم عسكرة الشعوب كليًا»، الشىء الذى يفتح الباب واسعا أمام الحروب والنزاعات القاتلة والمدمرة. وهو يضيف قائلا بأن المعضلة الأساسية فى العالم الحديث تكمن فى «نفسية الأفراد وفى مكر الأهواء الفردية». وإذا ما أردنا مستقبلا أفضل للإنسانية فإنه يتوجب على حكومات العالم بأسرها العمل على الخلاص من الفقر، وعلى التركيز من مناهج التعليم على «أن فكرة الإنسانية عائلة موحدة ذات مصالح مشتركة، وأن التعاون أهمّ بكثير من المزاحمة، وأن حبّ القريب ليس فقط مجرد واجب أخلاقى من تلك الواجبات التى تلقن داخل الكنائس، بل هى بالأحرى السياسة الأكثر حكمة من وجهة نظر السعادة الخاصة بالفرد».

ويختتم برتراند راسل حديثه الشيق والممتع والمفيد بتوجيه رسالة إلى الانسانية ناصحا إياها بالتعامل مع ما وفرته لها الحضارة الحديثة من وسائل من اجل نشر الخير والسلام والمحبة. فإذا ما تمّ لها ذلك فإن العالم حسب رأيه سيكون «أكثر فرحا، وأكثر ثراء بسعادة الخيال والوجدان من أىّ عالم آخر عرفه الإنسان قبل الآن».

لقد برهن برتراند راسل من خلال هذا الحوار المسهب الذى أجراه معه وورد رويات بأنه احد أهمّ حكماء القرن العشرين، وأحد أعمق وأبرز المفكرين والفلاسفة الذين عرفهم العصر الحديث، ومن أكثرهم توجها وفهما وإدراكا لحاضر الإنسانية ولمستقبلها أيضا. ■

تعادلية الحكيم

[١]

وقفة الأديب ووقفة الناقد مختلفتان، اختلاف المرحلتين اللتين تكمل إحداهما الأخرى، لا اختلاف الضدين اللذين ينفى أحدهما ما يثبته الآخر، فالأديب يصور الإنسان تجسيدا فى أفراد ومواقف، وأما الناقد فيتناول بالتحليل هذه الأفراد والمواقف لعله أن يقع على مبدأ كامن وراءها، يكون هو عندئذ مبدأ الأديب قد أضمره فى طويته ليخرجه للناس متجليا فيما خلقه لهم من تلك الأفراد والمواقف، فوقفة الناقد من أدب الأديب ومخلوقاته، أشبه ما تكون بوقفة العالم من الطبيعة وكائناتها: كل منهما يجد نفسه بإزاء كثرة من وقائع وحقائق، فيحاول استقطابها فى أم واحدة تربطها جميعا بصلة الرحم.

وكثيرا ما يكون الأديب والناقد رجلين، يفحص أحدهما عمل الآخر، وقليلا ما يجتمع الأديب والناقد فى رجل واحد، يكون اليوم أديبا ثم يصبح فى غد ناقدا لأدبه، مستخرجا منه أصوله ومبادئه، وقد كان توفيق الحكيم بكتابه «التعادلية» واحدا من هؤلاء القلة، التى التقى فيها خلق الأديب وتحليل الناقد، فقد جاءته - فيما يروى لنا - رسالة من قارئ جاد، يسأله فيها عن مذهبه فى الحياة والفن، مستخلصا من كتبه، ليرى صاحب هذه الرسالة إن كان قد أصاب أو أخطأ فى استخلاص ذلك المذهب لنفسه، ذلك أن ذلك السائل قد انتهى بعد قراءته لكتب الحكيم إلى رأى، هو أن تلك الكتب فى مجموعها تحاول تفسير «الإنسان» فى وضعه العام من الكون بزمانه ومكانه، وفى وضعه الخاص من المجتمع بأجياله وبيئاته، فانتهز أديبنا الحكيم فرصة سؤال السائل، وهمَّ بالإجابة ليعدها للنشر، لأنها ربما جاءت على صورة محددة يمكن وصفها بأنها مذهبه فى الحياة والفن، فكان هذا الكتاب الذى بين أيدينا: «التعادلية».

[٢]

قرأت الكتاب، فخيل إلىّ وأنا ماض بين صفحاته، أننى إنما أستمع إلى فيلسوف من فلاسفة اليونان الأقدمين، يتكلم العربية ويرتدى ثياب أوروبا العصرية.



د. زكى نجيب محمود

التعادلية بصفحاتها التى لا تكاد تزيد على مائة وثلاثين صفحة من القطع الصغير، سياحة تطوف بك على ميادين الفكر، لتقف بك عند كل ميدان منها لحظة، تعطيك فيها الجرعة المركزة الموجزة؛ ربما تفجرت فى نفسك بعدئذ تساؤلات وتأملات

لكن الفكر واللغة والثياب لم يكن بينها - مع ذلك - تنافر، بل جاءت كلها فى وحدة متسقة تنسيك اختلاف وجوهها. فأديبنا الحكيم فى «تعادليته»، ينظر إلى الكون وإلى الإنسان، النظرة نفسها التى نظر بها فلاسفة اليونان، وهى نظرة تحاول جمع الأضداد فى وحدة، وهل تستطيع أن تقرأ نظرات الحكيم فى هذه المحاولة، فلا يرد على خاطرك قول هرقليطس - مثلا - بأن حقيقة الكون أضداد تتعادل: النهار والليل، والشتاء والصيف، والحرب والسلم، والشبع والجوع، والبارد والحار، والرطب واليابس، واليقظة والنوم، والحياة والموت؟ أو هل تستطيع أن تقرأ تعادلية الحكيم، ثم لا تذكر قول انباذقليس فى المحبة والكراهية، فى التجاذب والتنافر، اللذين يعلل بهما هذه الحركة الدائبة فى الكون من اتصال وانفصال يسببان كون الأشياء وفسادها؟ أو هل تستطيع أن تقرأ تعادلية الحكيم دون أن يمثل أمام بصرك مبدأ «الوسط الذهبى» الذى يتوسط المتطرفات فيكون هو الفضيلة والحكمة؟ وهكذا أخذت أصداء الفلاسفة اليونان الأقدمين تتردد فى سمعى كلما مضيت بين صفحات التعادلية.

فالتعادلية بصفحاتها التى لا تكاد تزيد على مائة وثلاثين صفحة من القطع الصغير، سياحة تطوف بك على ميادين الفكر، لتقف بك عند كل ميدان منها لحظة، تعطيك فيها الجرعة المركزة الموجزة؛ التى ربما تفجرت فى نفسك بعدئذ تساؤلات وتأملات! إنها سياحة تطوف بك على الميتافيزيقا والأخلاق والجمال والاقتصاد والاجتماع والسياسة والبيولوجيا وغيرها من فروع العلم والمعرفة، ليدلك المؤلف عند كل واحد منها عن موقفه إزاءه، وكيف يراه بالعين التى تجمع الضدين فى فعل واحد موحد، بديهى أن هذه السياحة السريعة لا تمكن الدليل من الوقوف الطويل عند كل منظر وكل أثر ليطنب القول ويسهب، فهو مضطر أن يخطف الحجة خطفا، وإذا لم يكن هذا يكفيك فى إقناع العقل، فالمعول عندئذ إنما يكون على القلب الذى قد ترضيه نغمة الإيمان فى إيجازها ما دامت تفوح بالصدق وبالعمق فى آن معا.

أما المسألة الميتافيزيقية فيطرحها المؤلف فى سؤالين: يسأل أحدهما عن الإنسان إن كان فى هذا الكون وحيدا؟ ويسأل الآخر عن حرية الإنسان فى هذا الكون؟ وقبل أن يدلى الحكيم بجوابه عن السؤالين، يقدم الرأى الذى يسود عصرنا، ثم يعلله،

نشر هذا المقال للمرة الأولى قبل أربعين عاما (فبراير ١٩٦٨ - الهلال)
التعادلية مع الإسلام
توفيق الحكيم
دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٨



وبعدئذ ينقضه برأيه الذى يقيمه على «التعادل».

فلقد أجاب العصر الحديث فعلا عن هذين السؤالين، فيما يقول أديبنا الحكيم «بأن الإنسان وحده لا شريك له فى هذا الكون، وأنه إله هذا الوجود، وأنه حر تمام الحرية، وبهذا الجواب الذى قضى على تعاليم الأديان ختم العصر الحديث على نفسه بطابع المادية»... ذلك هو جواب العصر، وأما تعليله - كما يراه الحكيم. فهو «أن التعادل الذى كان قائما حتى مطلع القرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب، أى بين نشاط التفكير ونشاط الإيمان، قد اختل منذ ذلك الوقت، بتوالى انتصارات العلم العقلى، واستمرار جمود الجانب الدينى». ويلحظ الحكيم أن هذا الاختلال فى التعادل بين العقل والقلب، قد «كانت له نتيجته الطبيعية التى لا بد أن تلازم كل اختلال فى التوازن.. وهو القلق».

هكذا شخص الحكيم اعتلال عصرنا، وهكذا رد الاعتلال إلى علته، ثم استنتج منه نتيجته الطبيعية، وأردف موضحا كيف كانت العلاقة بين العقل والقلب، تعادلا أو اختلالا للتعادل ، هى موضوع مسرحيته «أهل الكهف»، وذلك عندما وضعت تلك العلاقة فى إطار مشكلة الزمن. كما كانت هى موضوع مسرحيته «شهرزاد»، وذلك عندما وضعت تلك العلاقة فى إطار مشكلة المكان. وينتهى الحكيم من ذلك كله إلى تحديد موقفه من السؤالين السابقين: فليس الإنسان فى هذا الكون وحيدا ومسيطرا سيطرة مطلقة، بل هنالك إلى جانبه قوى غير منظورة، من شأنها أن تحد من حريته، وإن تكن حافزة له على الكفاح نحو الأرقى، أما القوى غير المنظورة فإدراكها عنده يكون بإيمان القلب، وأما فكرة الأرقى التى تتطلب الكفاح، فإدراكها يكون بالعقل، ولا بد من إيمان وعقل يعملان معا فى تعادل.

وعلى هذه القاعدة الأساسية - قاعدة التعادل بين الإيمان والعقل - يستأنف الحكيم حديثه عن الحرية الإنسانية: فيقول: إن الجانب العقلى من الإدراك كفيل وحده بأن يشهد بالحرية للإنسان دون الحيوان، وما العقل إلا مشاهدات واستدلال من المشاهدات، أما المشاهدات فى هذا الصدد فتقوم على أن الحيوان كله يولد مكبلا بمعرفة محددة معينة - هى الغرائز - يتصرف على أساسها فيما يصادفه من مواقف، بغير حاجة منه إلى تعلم وتدريب، على خلاف الإنسان الذى يولد عاجزا حتى عن المشى والكلام، ولا يختزن فى جوفه حضارته كما يفعل النحل والنمل، ولذلك كان علمه اكتسابا، وكانت حضارته من صنعه وبإرادته. تلك هى المشاهدات، وأما النتيجة التى تستدل منها فهى أن الحيوان مجبر والإنسان حر، وعندئذ يتولد سؤال جديد عن هذه الحرية الإنسانية: أمطلقة هى أم مشروطة ومقيدة بحدود؟ هى حرية - عند الحكيم - مقيدة بقوى خارجية «أسميها أحيانا القوى الإلهية.. حرية الإرادة فى الإنسان عندى إذن مقيدة، شأنها فى ذلك شأن حرية الحركة فى المادة».

تلك هى النتيجة التى ينتهى إليها إذا نظر إلى الأمر بأداة العقل، فإذا ما استدار إلى الأداة الإدراكية الأخرى - القلب - ليرى ماذا تقول فى ذلك، وجد عندها النتيجة نفسها، وهى أن الإنسان حر الإرادة حرية قد تتدخل فيها القوى الكونية المجهولة، وإذن فهى نتيجة لا اختلاف عليها بين عقل وإيمان، ومن ثم كانت هى إحدى الأفكار الرئيسية التى بنيت عليها مسرحياته؛ أعنى أنها هى «مأساة الحياة كما تتكشف عن عجز الحرية الإنسانية»، فتستطيع أن تقول هنا إن «إرادة الإنسان فى كفة تعادلها الإرادة الإلهية فى كفة أخرى، والعقل البشرى فى كفة يعادله الإيمان فى كفة» وبهذا التعادل بين القوى يعيش الإنسان. ويسوق المؤلف لمثل هذا التعادل أمثلة من «أهل الكهف» و«شهرزاد» و«سليمان الحكيم» وغيرها.

[٣]

تلك هى وقفة الحكيم الميتافيزيقية فى حقيقة الإنسان بالنسبة إلى الكون وإلى حريته بإزاء هذا الكون، وهو موقف يترتب عليه موقفه الأخلاقى، فما دام الإنسان حر الإرادة - ولو إلى حد محدود - فهو إذن مسئول عما يفعل، وما دمت قد ذكرت المسئولية الخلقية فقد أثرت مشكلة الخير والشر «والخير والشر فى رأيى لا شأن لهما بالإنسان المفرد؛ ولا وجود لهما إلا بالمجتمع»، وهو رأى نثبته هنا كما أراده صاحبه، ولكنه رأى يدعو إلى شىء من التأمل قبل قبوله، فهل يا ترى يجوز للمنعزل وحده فى جزيرة أن ينتحر مثلا؟ فإذا قلنا: إن ذلك لا يجوز، لأن فيه افتئاتا على الحياة التى ليس هو وحده صاحبها، فقد قلنا بذلك إن الانتحار شر حتى ولو لم يكن المنتحر فرداً فى مجتمع. لكننى أترك أمثال هذه الوقفات الجانبية لأنصرف إلى رأى الحكيم كما أراده فى تعادليته. فالخير - عنده - لا يكون إلا فعلا إراديا يؤدى إلى نفع الغير، والشر هو الفعل الإرادى الذى يؤدى إلى ضرر الغير؛ أى أن أديبنا الحكيم - إذا نسبناه إلى إحدى مدارس الأخلاق - انتمى إلى مدرسة المنفعة، التى تقيس الفعل نفسه. ولست أريد أن أستطرد هنا مرة أخرى لأقول إن القائلين بهذا المذهب هم عادة الفلاسفة الذين يركنون فى عملية الإدراك إلى الحس والعقل وحدهما، لا الفلاسفة الذين يعترفون بإدراك القلب، إذ لهؤلاء قول آخر يجعل الخير والشر صفتين فى الأفعال نفسها بغض النظر عن نفعها وضررها، وبغض النظر عن انعزال الإنسان أو اشتراكه مع غيره فى مجتمع.

ومهما يكن من أمر فالحكيم فى تعادليته يرى أن الخير والشر كليهما ضرورى، ليعادل أحدهما الآخر، ويضرب أمثلة من مسرحياته كيف جمع الطرفين فى كل شخصية من شخصياته، وينتقل المؤلف إلى فكرة العقاب، ليرى فيه رأيا طريفا، هو أن فعل الضرر بالناس لا ينبغى أن يقابله سجن يحرم صاحبه من حريته، إذ التعادل لا يكون بين الشر والحرية، وإنما يكون بين الشر والخير، ومؤدى ذلك هو أن أجعل الشرير الذى فعل فعلا ضارا يؤدى فعلا نافعا ليتعادل نفعه للناس مع ضرره.

وفكرة الخير والشر تنتج عنها فكرة الضمير، وهنا يحاول الحكيم أن يحدد معنى «الضمير» بقوله «إنه شعور الذات بشر لحق الغير لم يقدم عنه حساب»؛ فالمذنب الذى يعاقب على ذنبه لا يؤنبه ضميره على شىء، كأنما الضمير لا يتحرك إلا إذا كان صاحبه مدينا إزاء المجتمع بضرر ألحقه به ولم يدفع مقابله من النفع ما يتعادل معه، وهذا التعادل بين الضرر والنفع؛ أى بين الشر والخير، هو ما يسميه المجتمع بالعدل: إذن «فالعدل هو المظهر الأخلاقى للتعادل، والضمير إذن هو الشعور بالعدل»؛ وكما يقال إن للفرد الواحد ضميرا كذلك يقال إن للمجتمع بأسره ضميرا، يؤدى المهمة نفسها، أعنى أنه يؤرق المجتمع إذا ما أحس أنه أوقع الضر بغيره، أو أحس بأن طائفة منه أضرت بطائفة أخرى من أبنائه، ومن هنا تقوم الثورات الاجتماعية لترد للمظلوم حقه.

[٤]

ويعتقد الحكيم أن مسألة الضمير هذه مقصورة على الأفراد داخل الجماعة الواحدة، أما إذا انتقلت إلى السياسة وإلى الاقتصاد: فإنك ها هنا تجد التعادل قائما بين الأطراف المتضادة، قيامه فى دنيا الحيوان والنبات، ففى السياسة لا بد أن تتعادل القوى، ومحال أن تقوم فى العالم قوة واحدة بغير قوة أخرى تعادلها، ويضرب المؤلف لنا أمثلة من التاريخ، تدل على أنه حتى إذا قامت قوة واحدة، تراها على الفور قد انقسمت على نفسها شطرين يتعادلان كما حدث للإمبراطورية الرومانية مثلا.

والأمر فى السياسة الداخلية شأنه شأن الأمر فى السياسة الخارجية، لأنه فى السياسة الداخلية لا بد من تعادل بين الحاكم والمحكوم، ولما استطاع الشعب فى العصور الحديثة أن يحكم نفسه بنفسه نشأت الأحزاب التى يعادل بعضها بعضا «فإذا تغلبت طائفة فى النهاية وابتلعت كل ما عداها من الطوائف والطبقات واتحدت فى قوة واحدة تشمل الدولة كلها، فإن هذه القوة أيضا لا تلبث أن تولد قوة أخرى خفية تعارضها وتجاهد فى الظهور، وقد





تعادلية الحكيم

تخنق وتكبت وتهزم وتخفق، ولكنها لا بد يوما أن توجد، لأن قانون التعادل الذى نرى مظهره فى الشهيق والزفير هو الذى يعمل هنا أيضا، ونرى مظهره فى وجود حركة توازن حركةً، لأن هذا هو شرط الحياة».

ذلك هو شأن السياسة - خارجيها وداخليها على السواء - أما فى الاقتصاد فإن قانون التعادل يفعل كذلك فعله بصورة واضحة، فلا بد أن يكون هناك توازن بين العرض والطلب، كالتوازن بين الشهيق والزفير، وكذلك الأمر فى ضرورة التعادل بين الصادرات والواردات، وبين الإيرادات والمصروفات، وهكذا.

وإن فكرة التعادل هذه لنراها فى الطبيعة نفسها على صورة الفعل وردّ الفعل، فكل فعل له الفعل الذى يردّ عليه ليحدث التعادل، مهما يكن المجال الذى يحدث فيه ذلك الفعل.. إذن فالتعادل هو قانون الطبيعة، وقانون الإنسان معاً.

[٥]

وهذا ينقلنا إلى الميدان البيولوجى لنرى أن عملية الحياة نفسها وتطورها قائمة على التعادل، فضلا عن التعويض الذى تلجأ إليه طبيعة الكائنات الحية لتوازن بجوانب القوة جوانب الضعف، ولتعوض النقص هنا بالزيادة هناك، فإذا كانت النحلة رقيقة الجناح، فهى حادة الإبرة، أقول إنه فضلا عن عملية التعويض هذه، فإن الطبيعة فى تطورها تستخدم أداة الفعل ورد الفعل فى سيرها قدماً وإلى أعلى وأقوى، فإذا رأيت الشجرة تنتقل من خضرة يانعة فى الربيع إلى صفرة ذابلة فى الخريف، ثم إلى خضرة يانعة فى الربيع التالى وهلم جرا، فقد تظن أن سيرها يتم فى خط مستقيم، أو أنها تسير فى خط يدور على نفسه فلا يتقدم خطوة إلى أمام، وبذلك لا يكون ثمة «تطور»، لكن حقيقة الأمر هى أن هذه الدورة تلازمها دفعة إلى الأمام يظهر أثرها فى الأجيال القادمة من الكائن الحى، وحتى أجرام السماء فى سيرها تتحرك فى هذين الاتجاهين معا: تدور حول نفسها وحول الشمس، لكنها فى الوقت نفسه «تسير فى الفضاء إلى الأمام فى إطار المجموعة الشمسية بأكملها»، وقل شيئا كهذا فى الإنسان وحضارته، فقد يتعاوره الظلام والنور فى حركة كحركة الليل والنهار، ولكنه مع ذلك يسير إلى الأمام خلال دورات من الفعل وردّ الفعل، وإنك لتجد هذه الفكرة عن التطور فى مسرحية شهرزاد.

[٦]

ويطبق الحكيم فكرة التعادلية فى ميدان علم الاجتماع، كما طبقها فى ميادين الميتافيزيقا والأخلاق والسياسة والاقتصاد والبيولوجيا، فيجىء التطبيق هنا على صورة التضاد بين الفكر والعمل تضادا لا بد أن ينتهى إلى التعادل بينهما، ولولا أنى أوثر ألا أعرقل سير الفكرة التعادلية باعتراضات جزئية ترد على خاطرى كلما مضيت فى صفحات هذا الكتاب، لوقفت هنا وقفة أناقش فيها هذه القسمة إلى فكر بلا عمل وعمل بلا فكر - هذا إذا أخذنا الفكر الذى بمعناه يأبى أن يدخل فيه أحلام اليقظة وشطحات الوهم - لكن الحكيم على كل حال يضاد بينهما، إلى الحد الذى قد ينتصر أحدهما على الآخر فيخضعه لسلطانه، وهنا تجد إما أن رجل الفكر خاضع لرجل العمل، وإما أن تجد رجل العمل خاضعا لصاحب الفكر، ولكن هذا التضاد قد يقف عند حد التعادل بين الضدين، فلا خضوع لجانب منهما للجانب الآخر، وعندئذ يتم التعادل وتصلح الحياة.

وإن التعارض بين العمل والفكر، لهو الذى تراه - فيما يقول أديبنا الحكيم - فيما نشأ من صراع على طول التاريخ بين الملوك من جهة ورجال الدين من جهة أخرى، ولئن استطاع الفكر فى صورته الروحية هذه أن يصمد لأصحاب السلطان، فقد عجزت صور الفكر الأخرى، كالفلسفة والأدب والفن، عن هذا الصمود، ولذلك ترى أصحابها قد ذلوا لأصحاب السلطان، وهنا يقترح الحكيم اقتراحا جميلا: وهو أن سر ضعف رجال الفكر أمام أصحاب الحكم، هو تفككهم، ولو تكاتفوا وتآزروا، لتكونت منهم قوة تعادل قوة الحكام. ولنلاحظ أن رجال الحكم فى عصرنا هذا، برغم أنهم جاءوا إلى مراكز الحكم بانتخاب الشعب، إلا أن شعور الجفوة ما زال قائما بين رجال التنفيذ من جهة ورجل الفكر من جهة أخرى، لما يخشى أن يواجهه رجل الفكر من نقد وتوجيه.

ويستطرد الحكيم هنا، فيقول إن عصرنا الراهن قد ابتكر طريقة يستطيع بها رجل السلطان أن يسكت رجل الفكر، فهو اليوم لا يعذبه ولا يسجنه كما كان يفعل الحكام السابقون، لكنه يستدرجه إلى حظيرة السياسة العملية، فيلغى بذلك وجوده؛ لأنك إذا أدمجت الفكر فى العمل لم يعد فكرا ... «فواجب رجل الفكر إذن أن يحافظ على كيان الفكر، وأن يصون وجوده الذاتى حرا مستقلا».

ولكن ذلك لا يعنى أن «ينعزل» الفكر، فاستقلال الفكر شىء وانعزاله شىء آخر، إذ المنعزل لا يؤثر فى غيره ولا يتأثر به، فكأنه معدوم بالنسبة إلى الآخرين، ولا فرق بين فكر ينعزل عن العمل وفكر يبتلعه العمل ويذيبه، لأنه فى كلتا الحالتين مفقود معدوم، أما استقلال الفكر عن العمل - بغير انعزال - «فهو أن يكون له كيان خاص وإرادة خاصة فى مواجهة العمل، حتى يستطيع أن يتأثر به ويؤثر فيه».

[٧]

وأخيرا يجىء ميدان الأدب والفن، فها هنا يكون التعادل بين التعبير والتفسير، بين الأسلوب والموضوع، «فالأثر الأدبى أو الفنى لا يكتمل خلقه ولا ينهض بمهمته إلا إذا تم فيه التوازن بين القوة المعبرة والقوة المفسرة، لكن هذا قول يريد شرحا، فيشرحه المؤلف شرحاً أسهب فيه، أما التعبير فيقصد به شيئا غير «الشكل» لأنه الشكل مضافا إليه شىء آخر هو الموضوع نفسه الذى سيق فيه، التعبير هو الشكل، والشىء الذى يتشكل فيه هو الأسلوب والموضوع معاً، فإذا تعادل الأسلوب والموضوع، وإذا تعادل الشكل والمضمون، كان لنا بذلك «تعبير» قوى، أما إذا طغى أحد الطرفين، كأن نزخرف الأسلوب ولا موضوع، أو أن نضع الموضوع العظيم فى شكل سقيم، ففى كلتا الحالتين لا نظفر بتعبير له شأن فى دنيا الأدب والفن.

ولئن كان التعبير بالمعنى الذى يتعادل فيه الشكل والموضوع هو - كما يقول الحكيم - «كل شىء فى نظر الفن»، فهو ليس كل شىء فى نظر التعادلية، «فقوة التعبير عند التعادلية يجب أن تقترن فى الأدب والفن بقوة التفسير»، والمراد بالتفسير ذلك الضوء الذى يلقيه الأديب أو الفنان على موضع الإنسان فى الكون ومكانه فى المجتمع، أو بعبارة أخرى، فإن التعادلية تتطلب من الأدب والفن أن يضيف إلى عالَمَى المتعة والجمال ضوءا كاشفا يهدى الإنسان فى طريقه إلى الكمال، أعنى أن يكون للأدب والفن «رسالة»، فإذا اكتفينا بالتعبير وحده، كان لنا بذلك «فن للفن»، وإذا اكتفينا بالتفسير وحده، كان لنا بذلك فن ملتزم برسالته وكفى، لكن المطلوب تعادل بين خصائص الشكل الأدبى والفنى ومضمون الرسالة المراد نشرها فى آن معاً.

وهنا يجد الكاتب نفسه أمام موضوع الالتزام وجها لوجه، ويرى لزاماً عليه أن يرى كيف يكون التعادل بين حرية الأديب والتزامه، وفى رأيه أن الالتزام واجب، شريطة ألا يكون مصدره غير ذات الفنان، لأنه لو جاء من خارج الفنان، كان إلزاما، وفقد الأديب حريته، وفقد الأدب كيانه. لا بل التزام الأديب برسالته هو، لا ينبغى أن يطول به الأمر، إذ لا بد من مراجعة الرسالة المراد تبليغها آنا بعد آن، وإلا أصبح الأديب عبدا لشىء مضى أوانه وتغيرت عليه الظروف.

ألا إن فلسفة الأمة هى مجموع فلسفات أبنائها الذين استطاعوا أن يتخذوا موقفا فكريا، واستطاعوا أن يصوغوا ذلك الموقف فى عبارة يتبادلها الناس، ويحملها الزمن إلى الأجيال الآتية. وإذا كان هذا هكذا، فإننا لن نذكر الفلسفة العربية بعد اليوم، إلا وفى أذهاننا فكرة التعادلية التى بسطها أديبنا الحكيم فى كتاب له بهذا العنوان. ■



إن عصرنا الراهن قد ابتكر طريقة يستطيع بها رجل السلطان أن يسكت رجل الفكر... بأن يستدرجه إلى حظيرة السياسة



الصحافة فوق صفيح ساخن



الصحافة
فوق صفيح ساخن

عزيزي سلامة: لقد جاء كتابك في وقته فهذه المهنة التي أحببناها معاً تتعرض لتهديد ثنائي الخطر: من الداخل بسبب أحوالها الراهنة، ومن الخارج بسبب أحوال تكنولوجيا جاءت بها أزمنة جديدة.

إن كتابك عن "الصحافة فوق صفيح ساخن"، يعكس أسلوبك المستغني عن الإلحاح، فهي لمحات تعرض نفسها على الناس، وتقوم بمهمتها في التنوير على طريقة الفنار في اتساع البحر وعمقه، صرح يقوم شامخاً في قلب جزيرة من الصخر، وهو يدور على ما حوله بومضات من ضوء نافذ إلى بعيد يهدي السائرين في الظلمات.

دعني- يا صديقي العزيز- أؤكد لك أن كل السائرين في هذا الليل الطويل ينتظرون الشعاع، لا يضيق بومضاته غير القراصنة الصغار، فهم يفضلون البحر ظلاماً دامساً معتماً، لكي يتسللوا تحت خفاته، كما يفعل هؤلاء الذين نسمع عنهم من قراصنة البؤس على سواحل الصومال.

اكتب- يا صديقي- وانشر وتكلم، ودع الأمواج تتكسر على الصخر، ودع ومضات النور تلمع على سطح البحر في كل اتجاه، وتنير كل بقعة تصل إليها، وأما الأمواج فليس في مقدورها غير أن تغسل الصخور كل مساء، وترتد عنها كل صباح.

سلمت- يا صديقي- وسلم عطاؤك نوراً وتنويراً.

محمد حسنين هيكل





■ أمور تمر وعيش يمر
ونحن من اللهو فى ملعب
وصحف تطن طنين الذباب
وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير
ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير
ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين
على غير قصد ولا مأرب
تضيع الحقيقة ما بيننا
ويصلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الإمام الحكيم
ويكرم فينا الجهول الغبى

حافظ إبراهيم

من مقدمة
الصحافة فوق صفيح ساخن
سلامة أحمد سلامة
تقديم: محمد حسنين هيكل
دار العين ـ القاهرة ٢٠٠٩

عندما كتب حافظ إبراهيم قصيدته تلك، كان يقدم صورة شعرية لأوضاع الصحافة فى مصر فى بدايات القرن العشرين؛ حيث كان التنافس على أشده بين الخديو والمعتمد البريطانى، وقد انقسم مجتمع النخبة إلى فريقين أو ثلاثة: بعضهم وجد حماية فى ظل رضا الأسياد والبيت العالى والبعض الآخر اجتذبته إغراءات السلطة التى يتصرف فيها الغير باسم الإمبراطورية البريطانية، أما الفريق الثالث فهو اللاعب على الحبال، والممسك بالعصا من المنتصف، فهو يصبح مؤيداً لهذا مرة، ولذاك مرة أخرى دون أن يدرى من أمره شيئاً أو يحقق هدفاً؛ وقد انعكست هذه الأوضاع على الصحافة فعلا صوتها فى الجو مثل طنين الذباب لتضيع الحقيقة ويتفرق دمها بين الصحف.

لم تتغير الصحافة المصرية كثيراً عن هذا الوصف الشعرى التحليلى طوال القرن العشرين. ربما شهدت مراحل ركود أعقبتها مراحل ازدهار أو العكس. زاد عددها أو نقص وتضاعف عدد صفحاتها أو تقلص وتقدمت تقدماً مشهوداً فى فنون الطباعة والتبويب والإخراج وخرجت عمالقة من الكتّاب والأدباء والصحفيين الذين أثروا الحياة الثقافية والفكرية والسياسية؛ ولكنها أبداً لم تكسر حاجز الصدأ الذى نجحت السلطة فى إقامته ودعمه وتعلية أسواره، ولم تتحول إلى مؤسسات مستقلة تعتمد على نفسها بنفسها وتنهض بواجبها المهنى والتنويرى دون أن تفقد استقلاليتها.

مرت الصحافة فى عصرها الحديث فى النصف الثانى من القرن العشرين بثلاث مراحل مختلفة. المرحلة الأولى ما قبل الثورة وفيها تعددت أشكال الصحف وألوانها ما بين مستقلة وحزبية؛ ولكنها ظلت خاضعة بدرجة أو بأخرى لنفوذ القصر الملكى أو لتأثير الأحزاب والقوى السياسية الشعبية واعتمدت إلى حد كبير على الطبقة الوسطى من المثقفين وأصحاب المهن وموظفى الحكومة. ثم كانت المرحلة الثانية عندما جرى تأميمها فى عهد الثورة فانطفأت شعلة التفكير المستقل والرأى الحر، ليحل محلها تيار الأممية وسيطرة الدولة والحزب الواحد. وحاولت الصحافة فى هذه الحقبة أن تكون أكثر شعبوية واهتماماً بمشكلات الجماهير وما سمى بالطبقات الكادحة. ولكن حيث تغيب الحرية أو تضعف تغيب النزعة إلى القراءة والاطلاع الحر.

وفى المرحلة الثالثة لم تستمر القيود التى فرضتها الدولة على الصحافة طويلاً، وتغير شكل السيطرة على الصحف القومية من التدخل المباشر من الدولة إلى التدخل بطريقة الريموت كونترول ولأن النظام السياسى نفسه لم يتطور من السلطوية إلى الديموقراطية؛ فقد بقيت الصحافة خاضعة لخليط من التشريعات والممارسات، التى تسمح

سلامة أحمد سلامة

بإنشاء صحف خاصة مستقلة إلى جانب الصحف الحزبية والصحف القومية ولكنها جميعًا تخضع لقوانين تشرع للحبس فى عدد كبير من جرائم النشر وهى جرائم غامضة فى التعريف، سهلة فى التطبيق والإثبات، تناقض روح الحرية وتعوق انطلاق الفكر. وهذه القوانين بقدر ما تضيق الخناق على الكاتب وتحرمه من حقه فى الحصول على المعلومات بقدر ما تترك القارئ أو المتلقى نهبًا لكثير من التجاوزات التى تعرى حياته الشخصية وتتدخل فى خصوصياته دون حسيب، وتحرمه من حقوقه المدنية.

كان يغلب التصور عن الكتاب أو المهنيين الذين احترفوا الصحافة بأنهم أدعياء؛ يعرفون أنصاف الحقائق، يأخذونها من على ألسنة العامة أو صغار الموظفين أو ربات البيوت والبارع منهم هو الذى ينجح فى الاقتراب من واحد من ذوى السلطة والنفوذ يطلع منه على الأخبار والأسرار التى تحرص الدولة على إخفائها وعدم الإفصاح عنها وعلى العلاقات الداخلية والصراعات المكتومة داخل أروقة السلطة، ثم ينقلها على صفحات الجريدة بأسلوب جميل ولغة جذابة تغرى القارئ وتشغله وتلهيه عن شئون الحياة وشجونها وعما يمكن أن يجعله مسئولاً أو شريكًا فى تحديد مصيره ومستقبله.

ولكن لم يمض وقت طويل حتى توارت تلك الحقبة وظهرت حقبة جديدة يلعب فيها الإعلام دورًا فى صياغة العقول والأفكار، وكانت الحرب العالمية الثانية هى البيئة التى ترعرعت فيها البدايات الأولى للإعلام بمفهومه الحديث. فقد بدأت الجماهير الواسعة من متعلمين وغير متعلمين تتابع أنباء المعارك التى تقع على مقربة منهم فى بلاد مجاورة، وأصبح الراديو إلى جانب الصحيفة مصدرًا مهمًا للمعلومات والأفكار والمبادئ. وأصبح من السهل وضع الصورة بجانب الكلمة أو الصورة تعبيرًا عن الكلمة فحدثت ثورة فى طريقة التفكير غيرت العالم وكانت مقدمة لدخول التلفزيون والفضائيات بعد ذلك. ليتحول إنسان القرن الواحد والعشرين إلى مخلوق فضائى أو إلكترونى يختلف اختلافًا جذريًا عن المخلوق الذى اعتاد أن يضىء شمعة ليحصل على الضوء أو على البخار ليدير آلة.

ولقد تطور الصحفى أو الكاتب أو المفكر مع تطور وسائل الإعلام وأساليب الاتصال وأذكر أن جيلنا من الصحفيين الذين دخلوا عالم الصحافة فى الستينيات من القرن العشرين لم يكونوا يعرفون من وسائل الاتصال غير التليفون والراديو واللاسلكى. وكان من أسهل الأمور أن تنقطع هذه الاتصالات ويذهب ضابط إلى مقر الإذاعة أو إدارة الاتصالات السلكية واللاسلكية ليكون الجو مهيئًا لإحداث انقلاب يغير نظام الحكم وهو ما عرفته دول عربية عديدة.

كان الصحفى المخبر Reporter يضطر إلى الانتظار بالساعات تحت رحمة وسائل الاتصال ليملى على جريدته خبرًا من الصعيد أو من دمشق أو حتى من لندن. وفى مثل هذه الظروف يتسع المجال للخيال واختلاق القصص والتفاصيل وتضيع الحقيقة كما يقول حافظ إبراهيم.

وإن كانت هناك صور وأسباب أخرى لضياع الحقائق وتشويه التاريخ بعضها يُسأل عنه الصحفى الذى يروى والبعض الآخر يسأل عنه المصدر الرسمى أو الجهة الحكومية التى تكتم الحقائق وتغطى على الأسرار.

ولسنوات طويلة وبالأخص بعد قيام ثورة يوليو لعبت الرقابة وقوانين الطوارئ دورها فى حجب المعلومات ونسخ الأخبار ومصادرة الصحف. وما زالت لهذه القوانين والممارسات ذيول تشريعية قائمة حتى اليوم فى ثنايا قانون العقوبات.. ربما ألغى نظام الرقيب الذى يجلس فى كل صحيفة باسم وزير الداخلية أو الحاكم العسكرى، وكان من حقه أن يشطب أو يعدل ما يشاء من أخبار ومقالات. ولكن نظام الرقابة الداخلية ما زال يفعل فعله فى كثير من الصحف حتى الآن. حيث يصبح رئيس التحرير أو من ينوب عنه هو الرقيب الداخلى يمارس مهمة الحذف أو التعديل أو الإبراز أو الإهمال تحت مسميات أخرى مختلفة مثل «السياسة الداخلية» أو «ميثاق الشرف»، وليس بالضرورة بناءً على تعليمات تأتيه من الحكومة أو المخابرات أو المباحث.

والواقع أنه حتى فى أكثر الدول الغربية التى تتمتع بنظم ديموقراطية مستقرة، وبمؤسسات إعلامية راسخة، مطبوعة أو مرئية وبأكبر قدر من الحرية الإعلامية، فإن الصحف والمؤسسات الإعلامية تخضع لضوابط وخطوط عامة متفق عليها، وتكون جزءًا من عقد العمل بين المؤسسة والصحفى يلتزم بها الطرفان، ولا يحق لأحد تغييرها إلا بموافقة جماعية بين الناشر أو المالك وبين الصحفيين أو العمال.

ولكننا فى مصر والدول العربية عمومًا، مازلنا نفتقد وضوح الرؤية فى إقامة علاقات سليمة مقننة بين إدارة التحرير فى الجريدة وبين المحرر أو الصحفى، بما يحفظ للصحفى حريته ويحافظ للجريدة على صورتها ومكانتها لدى القارئ بحكم ما تبوح به أرقام التوزيع وما تكشف عنه رغبات القراء وتوقعاتهم من الجريدة.



الصحافة مهنة شاقة ولكنها ليست مستحيلة. وبعض صغار الصحفيين والمبتدئين يظنون أنها لا تكلفهم جهدًا ولا مشقة فى المتابعة والبحث والتحرى وتقديم الحقائق وصياغتها. وقد اعتقد بعضهم مثلاً أنه يكفى أن يتفرج على مباراة لكرة القدم ويقدم وصفًا لها ليصبح خبيرًا رياضيًا فى كرة القدم. أو يصاحب ضباط الشرطة فى أقسام البوليس ويحصل منهم على تفاصيل جريمة أو حادث ليصبح محررًا قضائيًا أو محررًا للجريمة. ولو أتيح لواحد منهم أن يسافر إلى بلد عربى ويعمل فيه لبعض الوقت فقد يظن نفسه محررًا أو خبيرًا للشئون العربية وهكذا يتم تبسيط المسائل والقضايا إلى درجة بالغة السذاجة، تضيع فيها الحقائق ويُختزل التاريخ وتُستخلص النتائج الخاطئة من مقدمات خاطئة.

ولكن الصحافة لو أخذت مأخذ الجد، فإنها تصبح وسيلة للتثقيف والتنوير والتغيير، وهى تؤخذ بالفعل مأخذ الجد فى الديموقراطيات العتيدة التى تحافظ وتدافع عن حرية الإعلام وتعدد الآراء وتنمية القدرة التعبيرية لدى الشعوب والأفراد لأنها بذلك تضمن استمرار التغيير والدفع بدماء جديدة إلى الأمام.

ولهذا السبب لا تتضخم الأسماء والألقاب فى الصحافة الغربية كما يحدث عندنا. بل يستمد الصحفى مكانته وقيمته من دقة التحليل ونفاذ الرؤية وصدق المعلومات وعمق الخبرة واستقلال الرأى ولا تستطيع حكومة أو حزب كما لا يستطيع ناشر أو مؤسسة أن تفرض صحفيًا أو كاتبًا لا يسنده تقدير القراء وإعجابهم وثقتهم.

تقفز الصحافة المصرية الآن فوق صفيح ساخن تتصادم بسببه كثير من المعايير المهنية وتختلف الآراء حول المدى الذى يجب أن تذهب إليه حرية الصحافة: مما أفضى إلى مواجهة قضائية بين بعض الصحف المستقلة والنظام العام أو ما اعتبره البعض خروجًا على النظام العام.

فى عام واحد (٢٠٠٨) وقعت ثلاث مواجهات: الأولى كانت حول ما نشرته الصحف بشأن مرض الرئيس مبارك وتزيدت بعض التقارير لتتحدث عن عدم قدرته على الحكم وهو ما أحدث بلبلة كان يمكن - فى رأى الذين أقاموا الدعوى القضائية - أن تؤثر على النظام العام والأوضاع الاقتصادية فى مصر.

وفى الثانية أدى اللغط الشديد والفوضى العارمة فى نشر تفاصيل المحاكمة الجارية لأحد كبار رجال الأعمال (هشام طلعت مصطفى) بتهمة المشاركة فى قتل مطربة لبنانية، إلى أن تصدر المحكمة قرارا بحظر النشر. لم تلبث بعض الصحف أن تحايلت عليه فقدم رؤساء تحريرها للمحاكمة.

وفى الثالثة أفضى اختلاق الوقائع ونشر الأكاذيب والمبالغات فى حادث مقتل ابنة مطربة مغربية (ليلى غفران) وصديقتها فى مدينة ٦ أكتوبر إلى رفع عشرات الدعاوى من أهالى القتيلتين ضد صحف أسرفت فى اختلاق الوقائع التى اعتبرت نهشًا فى أعراض الضحيتين.

ومعنى ذلك ببساطة أن التمييز بين الخطأ والصواب وبين المسموح والممنوع فى النشر قد اختلط على كثير من الصحفيين، كما أن المؤسسة القضائية قد تعوزها الحكمة فى الموازنة بين حق المجتمع فى معرفة الحقائق والحفاظ على ضمانات العدالة دون تدخل أو تأثر من وسائل الإعلام والنشر. وبعبارة أخرى هناك مشكلة تعانى منها الصحافة ولابد من معالجتها.

على مر سنوات ظلت مشاكل الصحافة تحتل جانبًا رئيسيًا من اهتماماتى فيما أكتبه وأنشره وأفكر فيه. وقد وجدت نفسى متجهًا لما يمكن أن يكون حياة عملية ثانية، عن طريق نشر مقالات مجمعة تتناول موضوعًا يفرض نفسه على أى صحفى وربما اهتم القارئ بأن يعرف كيف يفكر الصحفى أو الكاتب. ومن أين تبدأ أفكاره عند نقاط عملية محددة تقع فى محيط حياته وقراراته أو ممارساته اليومية.. حيث تظل مهمة البحث عن الحقيقة هى الشغل الشاغل لكل من الكاتب والقارئ وللنظام السياسى الذى نعيش فى كنفه! ■

"القائد.."

سناء محمد حمودي

"قدم هذا الكتاب في الأساس كأطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية في كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية في الجامعة اللبنانية في بيروت في سبتمبر عام ٢٠٠٥. وقد كانت هناك توصية من الأساتذة المشرفين والمناقشين بضرورة نشر هذا العمل الذي تناول موضوع القيادة السياسية في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني.

تحتل مسألة القيادة حيزاً مهماً في الدراسات الاجتماعية، وبخاصة تلك التي تدخل في إطار العلوم السياسية، فباتت «القيادة السياسية» تستحوذ على اهتمام كثير من الباحثين في هذا المجال، ولاسيما في الدول الغربية. وبما أن القيادة ظاهرة مشتركة بين المجتمعات كافة، كان لابد للباحثين في دولنا، أي دول العالم النامي، من الالتفاف إلى دراسة عامل «القيادة» كما في الدول الأخرى.

لكن الأمر الذي تجدر ملاحظته هنا أن الدول التي صنفت بالعالم النامي، أو الدول النامية، كانت بمعظمها خاضعة لاستعمار واحتلال الدول العظمى، ومازال معظمها، إن لم نقل جميعها، يخضع لنوع آخر من الاستعمار الاقتصادي يجعلها تدور في فلك التبعية الاقتصادية، وبالتالي السياسية.

وهنا يتبادر إلى الذهن دور القيادات في هذه الدول، من حيث قدرتها على ممارسة الدور القيادي في بلد لا يملك سيادة نفسه، وهذه المسألة برأينا غاية في الأهمية، إذ إنها تعكس الطبيعة السياسية المختلفة للدول التي تخضع للاستعمار، سواء أكان عسكريًا أم سياسياً أم اقتصادياً.

إن الإشكالية التي تطرحها مسألة القيادة السياسية في الدول غير المستقلة، تضعنا أمام كثير من علامات الاستفهام، وبالتالي تحفزنا على مزيد من الدراسة والبحث في أساليب القيادة، والدور الذي تلعبه القيادات في مصائر الشعوب المستعمرة. ومن هنا كان اختيارنا لفلسطين، إذ هي الدولة الوحيدة التي خضعت ومازالت تخضع للاحتلال والاستعمار بوجوهه كافة.

تهدف هذه الدراسة إلى طرح مسألة القيادة السياسية في فلسطين خلال فترة الانتداب البريطاني من زاوية «القائد» أي من خلال تسليط الضوء على عملية القيادة السياسية والدينية التي كان يجسدها الحاج أمين الحسيني، فنتعرف بذلك إلى إيجابيات وسلبيات العمل القيادي في دولة خاضعة للاحتلال، كما نركز على أهمية العلاقة بين القيادة والشعب في العمل الوطني الهادف إلى إنهاء الاحتلال والاستعمار.

لهذه الغاية، عمدنا إلى دراسة وتحليل مراحل العمل الوطني في فلسطين خلال فترة الانتداب، واضعين مسألة القيادة في المقام الأول، بحيث يتلازم عرض الحدث مع دراسة دور القائد في ذلك الوقت.

تبرز أهمية هذه الدراسة من حيث طرحها لمسألة القيادة في فلسطين من خلال الأبعاد أو المحاور الثلاثة التي تعاملت معها القيادة، ونعني بها: البعد الداخلي، والبعد العربي - الإسلامي، والبعد العالمي.

وبما أن مشكلة حرية القيادة في فلسطين لا تزال مطروحة، وهي حالة مستمرة منذ فترة الانتداب البريطاني حتى يومنا هذا، فإن طرح هذه المسألة له أهمية خاصة على صعيد القضية الفلسطينية والأزمات التي تمر بها.

إن فترة الانتداب البريطاني على فلسطين، هي من أغنى الفترات التاريخية في مسار القضية الفلسطينية، من حيث تسلسل الأحداث وتأثيرها في مصير فلسطين والشعب الفلسطيني. لهذا فإن دراسة ظاهرة «القائد» خلال تلك الأحداث تطرح أمامنا تساؤلات عدة، وهي:

- هل تختلف عملية القيادة بين الدول المستقلة وغير المستقلة؟
- هل باستطاعتنا تطبيق النظريات العامة «للقيادة» على القيادة الفلسطينية في فترة الانتداب، وخصوصاً أن فلسطين دولة غير مستقلة وخاضعة للاحتلال؟
- كيف تعاملت قيادة الحاج أمين الحسيني مع الانتداب البريطاني والخطر الصهيوني؟
- كيف تعاملت الدول والشعوب العربية مع قيادة الحاج أمين الحسيني؟
- ما هو أثر قيادة الحاج أمين الحسيني في القضية الفلسطينية؟

نظراً إلى طبيعة البحث التي تتداخل فيها الأحداث التاريخية مع الدراسة العلمية لدور القائد السياسي، كان لابد من استخدام أكثر من منهج، فاتبعنا في القسم الأول منهجاً نظرياً تحليلياً، ومن خلال تركيزنا على الشق النظري وعرض



الحاج أمين الحسيني - ١٩٤٧ John Phillips

مفهوم القيادة السياسية في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني
(قيادة الحاج أمين الحسيني)
الدكتورة: سناء محمد حمودي
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨

النظريات الخاصة بالقيادة، ومن ثم عرض لطبيعة المجتمع الفلسطينى الذى يشكل مسرح البحث، لكننا فى باقى الكتاب آثرنا أن نتبع المنهج التاريخى التحليلى، وهو ما فرضته علينا طبيعة الدراسة، فقيادة الحاج أمين الحسينى كانت تظهر وتتبلور مع تصاعد الأحداث فى فلسطين، لا ننسى هنا أهمية المقابلات الشخصية التى أجريناها مع عدد من الشخصيات التى عايشت الحاج أمين الحسينى، ومنها أقرباء له، كبناته وأفراد من عائلة الحسينى.

لابد أن نذكر هنا، أننا على الرغم من اتباعنا للمنهج التاريخى التحليلى، إلا أن أولوية وحدة الموضوع تقدمت على التسلسل التاريخى للأحداث، لهذا كنا نعود فى بعض الأحيان إلى أحداث سابقة بغض النظر عن تسلسلها تاريخيًا. كما أن الخوض فى العديد من الأحداث وتفصيلها كانا ضروريين للتوصل إلى تحديد المسئولية عن تلك الأحداث، وبالتالى تعريف القارئ بحقيقة ما كان يجرى فى فلسطين.



يتوزع الكتاب على أربعة أقسام، يحتوى كل قسم منها على فصلين، القسم الأول، تمهيدى نظرى، بحيث يتناول المفهوم العام للقيادة السياسية والنخب، والمفهوم الخاص للقيادة والنخب فى فلسطين، أما الأقسام الثلاثة الباقية فتتناول مراحل القيادة السياسية، أى قيادة الحاج أمين الحسينى وصولاً إلى نكبة فلسطين عام ١٩٤٨. وقد وجدنا من المناسب لموضوع الدراسة إدراج بعض الملاحق التى تتضمن عدداً من الأوراق الخاصة التى تمكنا من الحصول عليها.

بالنسبة إلى المصادر، فعلى الرغم من وفرة الكتب التى عالجت القضية الفلسطينية والقضايا العربية بشكل عام، إلا أن موضوع «القيادة السياسية» كمفهوم مستقل، ودراسة مستقلة، لم يلق الكثير من اهتمام الكتاب والباحثين، فلا نجد إلا القليل من الأبحاث التى تناولت هذا الموضوع. لهذا تم التركيز على المصادر الأجنبية المخصصة لدراسة القيادة السياسية كمفهوم نظرى، وهى عديدة ومتنوعة فى هذا المجال، لكن هذه الصعوبة لا تنفى من ناحية ثانية وجود عدد من المراجع التى خصصت لقيادات معينة، وذلك فى إطار المذكرات والسير الذاتية. وفى مجال دراستنا هناك عدد لا بأس به من المراجع التى تناولت قيادة الحاج أمين الحسينى.

أضف إلى ذلك أن معظم القادة السياسيين الذين عايشوا فترة الانتداب البريطانى قد توفوا، وهو ما يحرمنا من مصدر مهم لهذا البحث، عنينا به التاريخ الشفهى. وهو منهج بات من المناهج المهمة فى الدراسات المخصصة لدراسة الأحداث والحقبات التاريخية، نظراً لما يكشفه من حقائق قد لا تذكرها المراجع. وقد اكتفينا فى هذه الحالة بمذكرات بعض هؤلاء القادة أو ما عايشهم، إضافة إلى عدد من المقابلات الخاصة التى تمكنّا من إجرائها مع بعض أفراد عائلة الحاج أمين الحسينى، وبعض الشخصيات التى عايشت تلك الفترة فى الأردن وبيروت.

لقد تم الاعتماد على كثير من الدراسات العربية والأجنبية التى تناولت فترة الانتداب البريطانى على فلسطين بشكل عام، وحاولنا أن نستخلص منها كل ما يتعلق بموضوع الأطروحة، وبخاصة فيما يتعلق بالحاج أمين الحسينى.

ومع كثرة المراجع التى تناولت فترة الانتداب البريطانى على فلسطين، إلا أن هناك مراجع كانت لها أهمية خاصة من حيث تعاطيها مع الأحداث اليومية فى فلسطين، أو من خلال التركيز على قيادة الحاج أمين الحسينى. وهنا نذكر أهمية المذكرات واليوميات الخاصة نظراً إلى وفرة المعلومات التى تغطيها.

الجدير ذكره بالنسبة إلى مصادر ومراجع الكتاب أن معظمها تطرق إلى قيادة الحاج أمين الحسينى بشكل أو بآخر، ففى حين كان بعضها مخصصاً لهذه الناحية، كان البعض الآخر يتضمن ذكراً لها على أساس أن قيادة الحاج أمين الحسينى ارتبطت أصلاً بالحركة الوطنية الفلسطينية منذ نشأتها مع بداية الاحتلال العسكرى البريطانى لفلسطين.

كتاب الزاوية



غزة (٣)

الإعلام اللطيف (٤)

بريان غلوغلى

للأسف لن يمكنك رؤية الصورة المرعبة لأطفال موتى وأمهاتهم الذاهلات الصارخات فى غزة إلا إذا شاهدت الجزيرة، وهذا أمر شبه مستحيل فى الولايات المتحدة.

السيدة ليفنى لا تريدنا أن نراهم وكذلك معظم الحكومات الغربية. لقد صرحت: «عندما ترى جانبا واحدا من الصور فى غزة فإنك لا تساعد السلام، فأنا أفهم أن هذه الصور تخلق استفزازا يؤدى إلى الغضب والعدائية بين المواطنين، ولكننا نريد مستقبلا أفضل لهذه المنطقة».

بكلمة أخرى لاتنظر إلى صور تخبرك بالحقيقة لأنها ستجعلك غاضبا على الأشخاص الذين يفجرون الأطفال إلى أجزاء ممزقة، فليفنى تقول إن ما لا نراه لن يؤذينا وهى الفكرة فى الرقابة المتسلطة عبر السنين.

هذه المرأة بكل ما تحمله من مشاعر القرش الهائج الذى شم رائحة الدماء من الأجساد المبعثرة فى الماء غاضبة لأن الصور قد أضحت بالعلن وهى التى تظهر الأجساد المشوهة الدامية للأطفال الذين ذبحتهم دولتها فى نوبة من القصف والتفجير العنيفين، ولكنها لن ترى من قبل الأغلبية فى الغرب لأن وسائل الإعلام ببساطة لاتريد إزعاج قرائها أو مشاهديها. وبالطبع لاتريد أيضا إزعاج إسرائيل، أنه ذاك الحصن من الأخلاق اللطيفة الذى يملك الكثير من السيطرة على سياسيى الولايات المتحدة الذين لا يجرؤون على الحديث ضد الغارات الجوية التى تقتل أطفالا.

قالت ليفنى: إنه قبل الهجوم الجوى قامت إسرائيل بإعلام كل القاطنين فى المنطقة المستهدفة وحثتهم على المغادرة. وسألها أحدهم: يغادرون إلى أين؟ (إلى أين يمكن أن يذهبوا فى غزة الصغيرة، الصحراوية بشكل أساسى، والبالغ عدد سكانها مليونا ونصف المليون) وبالطبع لم تجب على السؤال لأن الغارة كانت سرية وهى كاذبة بوقاحة.

BRIAN CLOUGHLEY جنرال استرالى متقاعد متخصص بشؤون آسيا

ترجمة: رندة القاسم

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

شخصيات مصرية فذة

تأليف: جلال أمين
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ١١٢ صفحة



الشخص الفذ هو المتفرد فى مكانته أو كفايته. وهذا الكتاب يضم ثلاثة عشر فصلا، يتناول كل منها شخصية، يعتبرها المؤلف، ومعظم من يعرفها من المصريين، شخصية فذة بمعنى الكلمة.

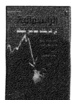
إن مجالات تألقهم وتفردهم مختلفة ومتنوعة، من الكتابة الصحفية والأدبية، إلى العمل السياسى، إلى التمثيل السينمائى والغناء، إلى كتابة الشعر والرسم، إلى التأليف الاقتصادى والقانونى.

وهم فضلاً عن ذلك يتمتعون، بدون استثناء، بحب غامر من الناس وتقدير عميق لأشخاصهم، كما يحظون بهذا التقدير لمواهبهم. لهذا كانت الكتابة عنهم مصدر سرور للكاتب والناشر معاً، ونرجو أن تكون أيضًا مصدر سرور وفائدة لمن يقرؤها.

■

الرأسمالية فى طريقها لتدمير نفسها

باتريك آرتو ومارى بول فيرار
ترجمة: سعد الطويل
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨، ١١٠ صفحات



هل الرأسمالية فى طريقها لتدمير نفسها؟ قد يبدو السؤال مثيراً للدهشة، بل استفزازيا فى وقت تعلن فيه كُبرى الشركات فى العالم، بما فيها فرنسا، عن أرباح غير مسبوقة، وتمنح مديريها مكافآت مجزية جداً، وتوزع على حملة أسهمها أرباحاً قياسية..

وفى حين يصاب النمو الاقتصادى - فى أوروبا على الأقل - بالركود، ويكثر نقل المصانع للبلدان البازغة، وتزداد البطالة، وعدم استقرار العمالة، نفهم جيداً لماذا يزداد ويحمى الجدل حول شرعية الاستيلاء على هذه الثروات.

وفى هذا الكتاب الذى يجلو البصائر بوضوحه، لا يتردد المؤلفان فى شرح هذه المفارقة، ففى الوقت الذى تبدو فيه الرأسمالية فى أوج ازدهارها، نجدها تتعرض لأكبر الأخطار، ونحن معها، فهى رأسمالية بلا مشروع، لا تستخدم ملياراتها فى أى شىء نافع، ولا تستثمر، أو تعمل من أجل المستقبل. وفى مواجهة القلق الاجتماعى، لا تعالج الحكومات عادة إلا الأعراض، حيث لا تصل إلى أعماق المشكلة.

وتكمن المشكلة فى لا معقولية تصرفات كبار المستثمرين الذين يطلبون من الشركات تحقيق نتائج مرتفعة للغاية، والنتيجة أنها تبحث عن العائد بعد ثلاثة شهور بدلاً من الاستثمار طويل المدى، وأنها تلجأ لنقل المصانع، والضغط على أجور العمال، وتتخلى عن خلق فرص العمل فى الزمن الحاضر، وفى بلدها الأصلى. ولهذا يرى المؤلفان ضرورة الإسراع بإصلاح سياسة الادخار بعمق، وفرض قواعد جديدة لحسن إدارتها، سواء على المديرين أو أجهزة الإشراف. ودون هذه الإجراءات لن يمكن تجنب حدوث أزمة جديدة للرأسمالية، مع كل ما يعنيه ذلك من نتائج.

والكتاب لا يصدر من وجهة نظر معادية للرأسمالية، بل بالعكس، فهو يبصر الرأسماليين بخطورة التوجهات الحالية، التى تدعمها الرأسمالية المعولمة فى شكلها النيو ليبرالى المتوحش السائد حالياً. وهو يدعوها للتوقف عن اللهاث وراء الأرباح السريعة عن طريق المضاربة على الأوراق المشتقة وغيرها من الأدوات المالية والرجوع للطريق التقليدى عندما كانت الرأسمالية تقود عملية الإنتاج، وبالتالى تلعب دوراً إيجابياً فى تنمية المجتمع.

والكتاب يشرح بالتفصيل، وبالكثير من الأمثلة الحية، الاتجاهات الخاطئة، بل المنحرفة، التى تؤدى للمخاطر المحيقة بالرأسمالية حالياً، والتى بدأت بالفعل أزمة للنظام الرأسمالية تتضاءل أمامها الأزمة المالية العالمية لعام ١٩٢٩، فهو يحلل أزمة النمور الآسيوية (الفصل الخامس) وآثار «التقليد الرشيد» الذى يجعل جميع المستثمرين يشترون معاً ذات الأوراق، ويبيعون فى الوقت ذاته أوراقاً أخرى بعينها، والتقلبات الخطيرة التى تنشأ عن ذلك. وهو يكشف بالتفصيل فضائح الشركات الكبرى المدلسة، حيث خسر مساهمو شركة إنرون، ومن بينهم الكثير من موظفيها وكذلك صندوق معاشاتهم، ٤٠ مليار دولار. كما خسرت البنوك المقرضة لشركة وورلد كوم أكثر من ٦ مليارات دولار. أما شركة برمالات فقد زورت ميزانيتها لإخفاء ديون مقدارها ١٢ مليار دولار، واضطرت الحكومة الإيطالية للتدخل لإنقاذها حماية لمئات الآلاف من عمالها والمتعاملين معها.

ولعل هذا الكتاب يقنع بعض الرأسماليين المصريين اليوم بتتبع خطى طلعت حرب وجيله من الرواد، والتوقف عن سياسة سحب الأموال العامة من البنوك والهرب بها للخارج سواء للمضاربة أو الاختزان. وبالطبع، فهذا يقتضى توقف الحكومة عن اتباع سياسات صندوق النقد الدولى بترك الحرية المطلقة لانتقال رءوس الأموال للخارج، وسياسات منظمة التجارة العالمية التى تلغى أية حماية جمركية لصناعاتنا الناشئة بحجة حرية المنافسة فى سوق لا مجال فيه إلا للكبار، ولسنا منهم. ولعل فى نكبة استيراد القمح هذا العام بعد أن تخلت الحكومة عن شراء المحصول بأسعار مجزية فى العام الماضى ودفعت الفلاحين بذلك لزراعة محاصيل التصدير المزعومة، واضطرت هى لاستيراد القمح بأضعاف ثمن القمح المصرى، لعل فى ذلك درساً تستوعبه الحكومة، ولا يبدو أنها استوعبته، فقد قال وزير المالية فى حديث تليفزيونى مؤخراً: إن الأسعار العالمية للقمح قد انخفضت كثيراً، والحكومة ستستفيد من ذلك الانخفاض لتخفيض أعباء دعم الخبز!

■

محمد أسد
سيرة عقل يبحث عن الإيمان

محمد يوسف عدل
القاهرة: كتاب المختار، ٢٠٠٨، ١٥٠ صفحة



كان مغامراً جسوراً عاشقاً للسفر والترحال والاختلاط مع الناس على اختلاف أعراقهم ولغاتهم وأديانهم، اشتغل بالصحافة، فكان صحفياً متميزاً ناجحاً، وعمل فى الدبلوماسية فكان دبلوماسياً فذاً، ألف عدداً من الكتب فقرئت باللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية والهولندية والسويدية والأردية والعربية.

وكان من أشهر كتبه وأكثرها رواجاً سيرته الذاتية التى وضعها تحت عنوان «الطريق إلى مكة»... إنه مفكر إسلامى من طراز رفيع، وداعية إسلامى بطريقته الخاصة، وإلى جانب كتبه المشهورة نُشر له عدد كبير من المقالات المهمة والجريئة فى الشئون العربية والدولية، وقد توج أعماله الفكرية بترجمة معانى القرآن الكريم بلغة إنجليزية رصينة تحت عنوان «رسالة القرآن».

إنه محمد أسد المفكر الذى هجر دينه وثقافته واعتنق الإسلام والثقافة الإسلامية.. وإذا تأملنا تطور الفكر الإسلامى فى النصف الأول من القرن العشرين فلن نجد فى أوروبا مثل محمد أسد، من حيث إخلاصه فى فهم الإسلام واستيعابه، وفى محاولة إيقاظ المسلمين، وفى بناء جسور بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى.

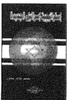
وليس هناك من المفكرين الأوروبيين من يفوقه فى ذلك باستثناء المفكر الإسلامى العظيم «على عزت بيجوفيتش» الذى صرح فى بعض أحاديثه أنه استقى الكثير من معارفه عن مشكلات المسلمين وأوضاعهم فى العالم الحديث من محمد أسد.

ولكن رغم كل هذه الآثار الفكرية والمواهب الفذة والإخلاص لرسالة الإسلام ولنهضة المسلمين.. يبدو أنها لم تكن كافية لتدفع المسلمين إلى تقدير جهد محمد أسد والتعرف عليه بالقدر الذى يستحقه.

■

استراتيجية إسرائيل الجديدة

طاهر شاش
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨، ٢٢٣ صفحة



فى شهر أغسطس ١٨٩٧م، وضع المؤتمر الصهيونى الأول - المعقود فى مدينة بازل السويسرية - استراتيجية إقامة الدولة اليهودية فى فلسطين. وقد حدد المؤتمر هدف الصهيونية بأنه «إنشاء وطن للشعب اليهودى فى فلسطين يضمنه القانون العام»، كما حدد وسائل تحقيق هذا الهدف بتنمية الاستيطان الزراعى والصناعى والمهنى، وتنظيم هجرة اليهود من الدول المختلفة، وتقوية شعورهم القومى، والحصول على الموافقة اللازمة من الحكومات. وتولت المؤتمرات الصهيونية المتتالية تنفيذ المشروع الصهيونى بإنشاء صندوق الائتمان والصندوق القومى (كيرين كريمى)، ومكتب فلسطين وغيرها

من المؤسسات المشتغلة بعمليات الهجرة والاستيطان.

وكان من المبادئ الأساسية الثابتة للصهيونية منذ نشأتها التحالف والاعتماد على إحدى الدول الكبرى والاستعانة بها فى تنفيذ المشروع الصهيونى اليهودى، الأمر الذى بذل تيودور هيرتزل جهوداً مضنية من أجل تحقيقه، ومات دون أن تنجح مساعيه، ثم واصل حاييم وايزمان هذه المساعى حتى حصل على تصريح بلفور عام ١٩١٧م.

وعلى مدى ربع قرن، تولت بريطانيا حماية المشروع الصهيونى وتولت سلطات الانتداب البريطانية بالتعاون مع الوكالة اليهودية بناء الوطن القومى اليهودى بمؤسساته وجيشه حتى أصبح قادراً على التحول إلى دولة إسرائيل.

كانت المشكلة الكبرى التى تواجه بناء الدولة اليهودية هى وجود الشعب العربى الفلسطينى الرافض للمشروع الصهيونى، وحاول وايزمان الحصول على موافقة عربية عليه، فأبرم مع الأمير فيصل بن الشريف حسين اتفاقاً عدل عنه الأمير ورفضته الحركة القومية العربية، ثم حاول دافيد بن جوريون إقناع الزعماء الفلسطينيين بالموافقة على المشروع تحت إغراء تنمية البلاد ولكنه قوبل بالرفض.

ومع تصاعد المقاومة الفلسطينية، تبنت الصهيونية استراتيجية الردع بالقوة تحت شعار «الجدار الحديدى» لفرض الدولة اليهودية على عرب فلسطين.

وعندما عجزت بريطانيا عن تنفيذ تصريح بلفور، وفشلت فى التوفيق بين التزاماتها تجاه اليهود والفلسطينيين، اتجهت إلى تقسيم البلاد بين الجانبين، وتبنت الأمم المتحدة هذا الحل فقبلته الحركة الصهيونية بصفة مرحلية، ونجحت فى توسيع الرقعة المخصصة لها فى قرار التقسيم خلال حرب ١٩٤٨م والحصول على توقيعات الدول العربية على اتفاقات الهدنة العامة معها.

وكانت الحركة الصهيونية قد نقلت مركز نشاطها إلى الولايات المتحدة، حيث أقامت معها علاقة خاصة تتمتع من خلالها بدعمها العسكرى والسياسى والاقتصادى.

واصلت إسرائيل منذ إنشائها تنفيذ استراتيجية الردع بالقوة فى علاقاتها مع الدول العربية، فلم تكن خطوط الهدنة مع هذه الدول تحقق لها هدف إقامة الدولة اليهودية على «أرض إسرائيل» التاريخية، كما أنها ظلت محرومة من اعتراف الدول العربية بها والعلاقات معها وممنوعة من الملاحة فى خليج العقبة وقناة السويس. وبدلاً من تقديم التنازلات التى تفرضها عليها قرارات الأمم المتحدة، لجأت إسرائيل إلى شن الحروب ضد العرب لفرض السلام بشروطها عليهم، وحققت لها انتصاراتها فى حرب ١٩٦٧م والتوسع على حساب الدول العربية، ولكن الانتصارات التى أحرزتها القوات المصرية والسورية فى حرب ١٩٧٣م مهدت الطريق أمام المفاوضات السياسية بين الجانبين.

كان همّ إسرائيل هو إخراج مصر من دائرة العداء معها، ومن ثم قبل مناحيم بيجن استردادها لسيناء مقابل عقد معاهدة السلام معها، فى حين اعتبر بقية الأراضى العربية المحتلة - فى فلسطين وسوريا - أراضى إسرائيلية محررة.

أما حزب العمل الإسرائيلى، فقد كان يرى اقتسام تلك الأراضى بضم ما تحتاجه إسرائيل من أجل ضمان أمنها ورد بقية الأجزاء إلى دولها.

كان الخلاف بين الليكود والعمل أساسه تغليب هدف إقامة إسرائيل الكبرى بضم الأراضى العربية المحتلة، أو هدف الحفاظ على الطابع اليهودى للدولة بالتخلص من الأراضى ذات الكثافة السكانية الفلسطينية.

وقد رسم أرييل شارون استراتيجية إسرائيل الجديدة على أساس الدمج بين الفصل والضم، فقام بتنفيذ خطته بشأن فك الارتباط بالانسحاب من قطاع غزة، وبناء الجدار العازل فى الضفة الغربية، وتكثيف الاستيطان وخاصة فى كتل المستعمرات الرئيسية وحول القدس، مع الإعلان عن عزم إسرائيل على الاحتفاظ بهذه الأراضى، واشتراط اعتراف العرب بيهودية دولة إسرائيل. وحصل شارون على ضمانات الولايات المتحدة لهذه الخطة.

ويتناول فى هذا الكتاب، من خلال متابعة تطورات النزاع العربى الإسرائيلى، عرض المراحل التى مرت بها الاستراتيجية الصهيونية منذ نشأة الحركة لبناء الدولة اليهودية ثم نموها وتوسعها، وانتهاء بتبنى استراتيجية الفصل العنصرى، ثم تناول الأوضاع الإقليمية والدولية التى يجرى فيها تنفيذ هذه الاستراتيجية ودور إسرائيل فى الشرق الأوسط - ونختتم الكتاب بفصل عن المقاومة والتسوية ومستقبل مفاوضات الوضع الدائم الفلسطينى.

■

بين المعداوى وفدوى طوقان: صفحات مجهولة فى الأدب العربى

تأليف: رجاء النقاش

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ٢٣٨صفحة



سبع عشرة رسالة كتبها الناقد أنور المعداوى إلى الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان: جمعها وعلق عليها الناقد الكبير رجاء النقاش. رسائل مهمة: تكشف جانباً من الحياة الشخصية السرية لواحدة من أهم شاعرات العرب وأهم ناقد مصرى فى نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات، وأنه قد قامت بينهما علاقة أفلاطونية أضافت للأدب العربى هذا النص الجميل والممتع والنادر من نوعه. كما تلقى هذه الرسائل الضوء على جوانب عديدة من حياة المثقفين فى ذلك العصر: أفكارهم، وعلاقاتهم، ومعاركهم. وهو الأمر الذى زاد متعة وثراء بفضل التحليل الشيق والبحث الدءوب الذى أجراه رجاء النقاش: ليقدم لنا شخصية المعداوى فى مقدمة ضافية، ثم بأسلوبه الفريد، ولغته السلسة يتناول نصوص الرسائل بالتحليل مفصلا الكلام حول هذه السنوات الثرية فى تاريخ الأدب والثقافة العربية.

■

ألفريد فرج فى دنيا الكتابة

تقديم: نبيل فرج

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٩، ١٩٥ صفحة



يتألف هذا الكتاب من مجموعة مختارة من مقالات ألفريد فرج عن الكتابة، يتحدث فيها عن حياته وإبداعه والقضايا العامة المتصلة بها، نشرت فى الدوريات الصحفية، ولم تجمع من قبل فى كتب.

وللقيمة التى تنطوى عليها هذه المقالات رأيت جمعها فى هذا الكتاب، كما جمعت من قبل عدداً من المقالات المختارة للكُتاب محمد فريد أبو حديد وعلى أدهم ولويس عوض.

وإذا سلمنا بأن الكتابة هى حوار الفرد مع المجتمع والعصر، فإن الاختيارات فى كل كتاب من هذه الكتب كان محكوماً بطبيعة هذا الحوار، كما يتمثل فى الاهتمامات والأفكار والمضامين والآفاق التى يعبر عنها كل كاتب، وتعبر عنه فى نفس الوقت الشروط التاريخية التى تصدر فيها هذه المختارات.

ولكن الأمانة تقتضى أن أذكر أن اختياراتى مع ألفريد فرج كانت مختلفة للتقارب الفكرى بيننا، ولأن ظلالاً خافتة من روحه وذوقه وشمائله كانت تسرى فى تكوينى، لا أظن أنها تتشابه مع نفسى مع هؤلاء الكُتاب، أو مع أى أحد آخر من الكتاب.

وكل ما أرجوه أن يكون هذا الكتاب إضافة متميزة للمكتبة العربية، يمكن للنقاد والمهتمين بألفريد فرج وبكتاباته أن يفيدوا منه فى دراسة شخصيته وأعماله، وفى نفس الوقت فى دراسة تاريخنا الثقافى الحديث الذى كان ألفريد فرج أحد رموزه الذين صاغوا ملامحه خلال النصف الثانى من القرن العشرين، ولو أن هذه الغاية لن تتحقق إلا إذا جمع كل إنتاج الكاتب المتناثر فى الدوريات، وهو مطلب على ضرورته بعيد المنال، ليس من السهل بلوغه فى ظل الأوضاع الثقافية الراهنة التى يعانى فيها الكتاب الأحياء من مصاعب النشر وقرصنة الناشرين، فما بالكم بالكُتاب الراحلين الذين يتحول إنتاجهم إلى كلأ مباح، مهما علا سمتهم فى دنيا الكتابة والكتاب!

وهذه قضية أخرى عرض لها ألفريد فرج فى بعض كتبه، ولا تزال تنتظر من يدافع عنها وعن حقوق الملكية الفكرية.

على أن الوضع بالنسبة لألفريد فرج كان أكثر سوءاً، لأنه، من جهة، رجل بلا نسل، ليس له ولد، ولأنه من جهة أخرى سلم كل شىء لزوجته وحدها، بحسب الوصية المسجلة بالشهر العقارى التى كتبها فى ١٩٩٤ إلا أنها لم تفعل شيئاً.

ولولا أنى كنت أحتفظ بهذه المقالات فى مكتبتى الخاصة، ضمن اهتمامى بالثقافة المصرية المعاصرة، لما كان من الممكن إصدار هذا الكتاب الذى فضلت أن يكون عنوانه «فى دنيا الكتابة»، وليس «فى عالم الكتابة»، لأن كلمة دنيا أكثر دوراناً فى كتابات ألفريد فرج بما فيها مقالات هذا الكتاب. وهى بالطبع كلمة عربية فصيحة لا غبار عليها.

ولعل أهم صفحات هذا الكتاب ما كتبه ألفريد فرج فى مقاله «الحرية والأديب» عن محنة الاعتقال التى كابدها من ١٩٥٩ إلى ١٩٦٣، دون اتهام أو محاكمة، وما كتبه أيضاً عن علاقته بألف ليلة وليلة التى استلهمها فى عدد كبير من أعماله، وفيها يذكر ألفريد فرج أن الكتابة المعاصرة تشمل التاريخ والأسطورة من خلال الإغراب أو الابتعاد من أجل التقريب وكشف الواقع، بما يحمله هذا الواقع من خطاب فكرى وانفعالات نفسية لا يعدو التاريخ والأسطورة أن يكونا قناعاً له يتجاوز الكتاب به النسق أو البناء الذى يعرفان به، ويوضع فيهما كل شىء فى النسق والبناء الجديد.

ولهذا تعتبر رحلة ألفريد فرج فى التاريخ والأسطورة رحلة إلى الحاضر الذى لم ينفصل عنه، لا عودة أو انسحاباً من الحاضر إلى الماضى.

كما نلتقى فى صفحات هذا الكتاب بكثير من القضايا التى شغلت ألفريد فرج فى ضوء مفهومه للإبداع والمبدعين كظاهرة اجتماعية وسياسية وحضارية، وليس فقط كظاهرة فنية أو ثقافية.

وفى مقدمة هذه القضايا التقاليد الفنية التى يجب أن تراعى أو لا تراعى فى كل إبداع، وإدارة الإنتاج المسرحى الذى ينبغى أن توضع له خطة لا تقتصر على العواصم، وإنما يجب أن تغطى العواصم والأقاليم، وتغطى العالم الخارجى بالرحلات الفنية والمنتظمة، وأن تجمع العروض المقدمة دائماً بين النصوص

الكلاسيكية وبين الأعمال الحديثة ذات القوالب المتطورة.

وتشكل هذه الرحلات الفنية للبلاد الأجنبية، عند ألفريد فرج، أهميتها البالغة فى تبادل التأثير والتأثر مع المسارح الأخرى، وفى تثبيت مقومات الاستقلال القومى، بعدم الانكفاء أو التقوقع على الذات المرادف للغرور.

وتعتبر الترجمة، فى هذا السياق، ضرورة للتواصل مع العصر، وسبيل النهضة والتقدم.

ولألفريد فرج تجارب فى الترجمة قدمها فى الخمسينيات، فى بداية حياته الأدبية، ولكنه انصرف عنها بعد وقت قصير حتى لا تجوز الترجمة على ملكة التأليف، أو تشغله عنه.

وقراءات ألفريد فرج فى الأداب الأجنبية اعتمدت أولاً على الترجمات العربية، قبل أن يتقن الإنجليزية والفرنسية، ويقرأ بها الآداب العالمية.

وكما أن حديث الكاتب عن الكتاب الآخرين يكشف عن ذاته، فإن حديثه عن نفسه يعبر كذلك عن رؤيته للآخرين.

وألفريد فرج يرى فى الإبداع سلسلة متصلة من الحلقات، يعترف فيها بفضل الأجيال السابقة، ويرى فى المبدعين أسرة أو عشيرة واحدة. وكان يعتبر نفسه واحداً من هذه الأسرة أو العشيرة التى تمتد من هوميروس وشيكسبير وامرئ القيس والجاحظ إلى طه حسين والحكيم ونجيب محفوظ وبريخت وآرثر ميللر، مثلما يعتبر أدبه منتسباً للتراث والكلاسيكيات انتسابه للأدب المعاصر.

أما مضمون الإبداع فكان يشترط فيه ألا تطغى العقيدة أو المذهبية السياسية على القيم الفنية والجمالية. من أولى المقالات المخطوطة التى كتبها ألفريد فرج فى حداثته، ولم تنشر إلا بعد رحيله، يقول «أحببت الجمال فى كل شىء».

ومن ناحية مقابلة يجب ألا تستأثر العناصر الفنية والجمالية بمادة النص ودلالته وتطمس رؤيته الإنسانية، لأن الشكل الفنى لا يغنى عن الموضوع والفكر، كما لا يغنى الموضوع والفكر عن الجمال.

هذا ما حاوله ألفريد فرج باقتدار فى إنتاجه الذى رشحه لكثير من الجوائز المصرية والعربية.

ومع تقبل ألفريد فرج الواضح للتكنولوجيا ولاستخدام الآلات الحديثة فى المسرح، فإنه ظل ينظر بإكبار إلى التراث الفنى القديم، الذى ارتقت عروضه قمم الإبداع من غير مؤثرات الإضاءة والمناظر المحدثة، اعتماداً على الأداء التمثيلى والحوار فقط، أى على الكلمة والفعل، وهما جوهر هذا الفن الذى لا يستغنى فيه الجديد عن القديم، ويكتسب فيه القديم من معارف وتقنيات العصر الحديث ما يكشف أسراره ويزيد ثراءه.

من أجل هذه الغاية قام ألفريد فرج بعدد كبير من الجولات الفنية فى الشرق والغرب، يطالع القراء بعضها فى هذا الكتاب، التقى فيها بمؤلفين ومخرجين وممثلين عتيدين فى المسرح العربى والعالمى، وشاهد عروضاً وتجارب باهرة، قدم خلاصتها إلى القراء.

ولا أظن أن هناك ضرورة للحديث عن منهج ألفريد فرج فى الكتابة عن نفسه، لأنه من السهل جداً على من يتصفح هذا الكتاب معرفة هذا المنهج الموضوعى، ومعرفة الغايات القومية والإنسانية التى يقيم على أساسها الآثار الفنية.

■

جذور الفساد الإدارى فى مصر: بيئة العمل وسياسات الأجور والمرتبات فى مصر

تأليف: عبد الخالق فاروق

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٣٧٤ صفحة



بلغة الأرقام يقدم الكتاب المهم الذى بين يديك إجابات علمية وموثقة تكشف جذور الفساد الإدارى المستشرى فى مصر، مقسماً على ثلاثة محاور تكشف عن ظروف وبيئة العمل الحكومى فى مصر من حيث نوع الإدارة والمنشآت وكذا الخدمات التى تقدمها الدولة للعاملين، ثم يرصد الكتاب. بمزيد من الإسهاب وبمناهج علمية حديثة. عمليات تطور سياسة الأجور المصرية منذ عام ١٩٤٤ وحتى عام ٢٠٠٢، كما يقف بنا على عملية الإنفاق فى حياة الأسرة المصرية وكيف ترتبط بالدخل، متناولاً بعض أنواع الدخل الخفى وغير الرسمى والتى أصبحت مصادر لتكوين الثروات. وينهى المؤلف كتابه بمحاولة فيها كثير من الاجتهاد لتصور استراتيجى لربط الأجور بالأسعار، وحل المشكلة التى تمثل إحدى معضلات الحياة الاقتصادية المصرية.

■

كأنى هُوَ (شعر)

فريد أبو سعدة

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٩



شاعرنا الروائى بامتياز يشرع جناح خياله المخترق ليطوف به على مشاهد الحياة ويكتشف ما فيها من عبث وحكمة، من جد ولهو من نور وظلمة عبر مسح سردى مركب فى بنية الشعر ومقطر فى مصفاته؛ فهو ليس بحاجة مثل بعض الشعراء لأن يهجر أرضه ليختبئ فى ساحة الرواية الرائجة، بل يخوض معركته فى تشعير السرد، وتوظيف الملائم من تقنياته فى الحكى والتنقل ومنظور الراوى فى صلب الأداء الشعرى للقصيدة المتوالية أو المتقطعة.

وتقدم القصائد مجموعة من المشاهد التى تمزج الخاص بالعام، والعشق بالسياسة، والحياة العائلية بأشواق الخلود الإبداعى، فى سبيكة شعرية نادرة، تضج بعرامة الوعول التى شغف بها الشاعر وتميز بإطلاقها فى قصائده، كما تتميز لغته بدرجة عالية من التركيز والتكثيف والاقتصاد، وكأنه يضرب بفرشاته خطوطاً عريضة فى مشهد تشكيلى بارز.

والتدوير فى الرؤية الشعرية من بداية الديوان إلى نهايته يجعل مشاهد القصائد تكتسب طابعاً رمزياً مثيراً للتأمل، وقابلاً بل وداعياً للتأويل؛ حيث يمتص الشعر جماليات السينما والمسرح، ويبتلع بعض تقنياتهما ورموزهما أيضاً، وتسيل فيه دلالات تفيض على حافة الكلمات الوجيزة لتبلل جفاف المواجهة المباشرة باستدعاء الذاكرة التراثية والأسطورية، وما منحته للإنسان فى مقاومة العدم وتأكيد الوجود.

■

أركيولوجيا العقل العربى البحث عن الجذور

شوقى جلال

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٩



رحلة أو تغريبة هى فى ظاهرها رحلة إلى أعماق النفس والتاريخ، إلا أنها تتجه معنى ودلالة إلى الحاضر والمستقبل بحثاً عن أسباب حالنا الراهنة، وعن العقل الاجتماعى الموروث الفاعل، وكذلك التساؤل عن كيف نبنى عقلاً جديداً ناقداً يدعم المسيرة الحضارية، ويحفز إلى النهوض تأسيساً على منطق الواقع.. رحلة هدفها سبر أغوار العقل بحثاً عن كوامن خافية ثاوية فى الباطن تمثل بداية الحدث، ولكن تجلياتها واضحة فى الظاهر.. فاعلة مؤثرة وحاكمة تشكل ما يمكن أن نسميه بنية المعنى أو الإطار الثقافى الفعال الذى نرى من خلاله صورة الوجود، ويصوغ لنا طبيعة السلوك، ويضفى فى النفس شعوراً بالرضا والاكتفاء والانكفاء.

رحلة غايتها إجابة عن تساؤل: كيف «نفكر» و«نعمل» فى حياتنا أفراداً وجماعات قانعين بثقتنا المطلقة فى رصيد ثقافى موروث بدلاً من بحث ودراسة ما يجرى من تغيير، وإيمان بمرجعية العقل العلمى؟ لماذا عاش الموروث أسطورة وتعطل الفعل والعقل الإبداعى وتعطل إنتاج فكر جديد؟

لماذا لا نعود إلى الموروث بعقل ناقد وشك بناء؟ لماذا ننكر على أنفسنا الحق فى بناء تراث جديد مثل كل المجتمعات حين تعبئ قواها الفكرية والمادية للنهضة؟

إن سهم الزمان لا يرتد إلى الوراء، ولا يثبت فى مكان، وإنما يمضى منطلقاً إلى أمام مخلفاً وراءه من تقاعسوا عن الشك الحافز إلى التجديد، وأقالوا العقل الناقد الإبداعى.

ولهذا.. الكتاب صوت نذير.

■

المُقدّسُ والمُدنّسُ الدينى والسياسى فى فكر الحركات الإسلامية

د. محمد حلمى عبدالوهاب

تقديم: د. عمار على حسن

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٩، ١٩٥ صفحة



يضم هذا الكتاب «المُقدّسُ والمُدنّسُ الدينى والسياسى فى فكر الحركات الإسلامية»، مجموعة من الأبحاث والدراسات والمقالات حول «الظاهرة الإسلامية» الراهنة باعتبارها حاصل ضرب النص القرآنى والنبوى فى الواقع المعيش. ورغم أن هذا المسار فى التأليف يبدو كما لو كان نوعاً من جمع المتفرق؛ إلا أن مؤلف الكتاب الدكتور محمد حلمى عبدالوهاب يمتلك ذوقاً فكرياً وفلسفياً أعانه على تعميق ما هو معروض على قارعة الطريق من أطروحات ومقولات حول الحركات الإسلامية، كما مكنه من أن يمسك بيده خيطاً متيناً ينتظم فيه، أو على جانبيه، كافة الموضوعات التى يحتويها الكتاب.

وهذا الخيط: إما أن يحال بالكلية إلى انتماء كل ما يطرحه المؤلف إلى الرؤى العامة حول ظاهرة «الإحياء الإسلامى»، أو يعزى إلى وحدة المنطلقات التى تتأسس عليها كل جزئيات الكتاب واتساقها مع بعضها البعض. وهو فى كل أولئك ليس منبت الصلة عن أفكاره وانحيازاته كما تشى بها أبحاثه الأخرى ومقالاته المنشورة فى صحف ودوريات عديدة.

بيد أن أول ما يلفت الانتباه هنا هو

احتواء الكتاب على موضوعات مهمة في اللحظة الآنية والزمن الآتي، تغطي أغلب ما يتم تداوله سواء حول التنظيمات والقوى والأحزاب التي ترفع الإسلام شعاراً سياسياً لها، أو بعض الجماعات الدعوية التي تركز على الامتلاء الروحي والحفاظ على طقوس العبادات.

ومن ثم يقرأ في هذا الكتاب حول مسائل متفاوتة، يمكن القول إنها تتراوح ما بين الجذري من قبيل: «الديني والسياسي في الإسلام»، و«المرجعية الدينية والتشيع السياسي»، والإجرائي من قبيل: «الدستور في فكر الحركات الإسلامية»، و«الدعاة الجدد وما بعد الحداثة»، و«قراءة لبرنامج الإخوان المسلمين في مصر»، و«الصوفية ودورهم الموزع بين خدمة الحكام وإصلاح الأنام»، و«قراءة في فكر أيمن الظواهري من خلال كتابه الأخير»، مروراً بالمقارن مثل: «الحق في المقاومة بين الإسلام والمواثيق الدولية»، و«تساؤلات حول الشريعة في زمن العولمة».

ثاني الأمور التي تجذب الذهن في هذا الكتاب هو أسلوب مؤلفه، والذي يحمل على عمقه بساطة آسرة، من شأنها أن تجلي كل غامض وتثير تساؤلات جوهرية حول كثير من المسكوت عنه، وتنحاز دوماً إلى الحق والحقيقة كما يفهمها صاحبه، الذي ينتمي، كما يبدو من سطوره، إلى تيار بدأ يتعافى ويستوي على سوقه يخلع عن أفكار وممارسات الجماعات والتنظيمات السياسية ذات الإسناد الإسلامي أي قداسة، ويفرق تفريقاً ظاهراً بين الإسلام «الصراطي» المتمثل في «النص» بجلاله وقدسيته وثباته وتجاوزه للأزمنة والأمكنة، وبين أداء وسلوكيات «الإسلاميين» ممن ينظرون إلى الإسلام باعتباره ديناً ودولة، ويأتون لهذا أفعالاً بشرية متعددة يريدون أن يقدموها بوصفها الحقيقة الخالصة، أو الفريضة الواجبة.

لكن المؤلف وقع في خلط بين أمرين، شأنه شأن الغالبية العظمى ممن يتصدرون لهذا الموضوع، الأول: هو علاقة الدين بالسياسة، والثاني: هو ارتباط الدين بالسلطة. ومن هنا، يرفض المؤلف إقحام الدين في السياسة باعتبارها مسألة متصلة بالسلطة في كل الأحوال، وهذا في حقيقة الأمر تعريف فوقي وجزئي للسياسة التي تنتمي في بنائها النظري ومساراتها التطبيقية إلى عالم أوسع من السلطة بكثير. ومن ثم، فإن فصلها عن الدين يعد ضرباً من المستحيل، لكن ما يجب أن يحدث، ومن الضروري أن يتم، إنما هو إبعاد الدين عن السلطة وإبعاد السلطة عن الدين، لمصلحة الدين أولاً، والذي حوله السلاطين من «مقدس» إلى «مدنس» حين عكفوا عن تأويله بما يخدم مصالحهم، ويجلب لهم الشرعية، ويبرر للناس سلوكياتهم المعوجة وتغولهم على الناس والحق.

والحال، أن المزية الكبرى لهذا الكتاب إنما تكمن في قدرة مؤلفه على طرح التساؤلات وهز الكثير من المسلمات السياسية لدى الحركات الإسلامية، ومن يمضي على دربها ويعجب بها أو يروق له مسلكها. وفي كل الأحوال، لا يدعي المؤلف في أي موضع أو موقع من كتابه القدرة على تقديم إجابات جامعة مانعة، بقدر ما يفكر دوماً بصوت عال ليشرك كل من يهمه الأمر في النقاش حول «الظاهرة الإسلامية»، تلك التي باتت تشغل العالم كله، لاسيما بعد حادث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ .

■

في سوسيولوجيا الثقافة والمثقفين من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل الاجتماعي ومن منطق العقل إلى منطق الجسد (أو التطبع)

الدكتور عبدالسلام حيمر

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٣٠٣ صفحات



عندما نحاول التفكير في مفهوم مجرد مثل مفهوم «الثقافة»، لا يمكن التفكير فيه إلا من خلال مقابلته لمفاهيم تدخل معه في علاقات يكتسب منها معناه ودلالته، لا في حقلي اللغة والفكر فقط، بل في سياق الحياة الاجتماعية للبشر أيضاً.

تمثل هذه العلاقات لأول وهلة أمام الذهن في صيغة «ثنائيات»، ولكن هذه العلاقة لن تكون ممكنة، إلا بحضور حد ثالث، يبقى مضمراً بينهما، هو الحداثة.. ولم تظهر كلمة «ثقافة»، وكلمة «أيديولوجيا»، ولم تظهر فكرة «الطبيعة»، بمفهومها الوضعي العقلاني الرياضي والتجريبي، أم بمفهومها الفلسفي الحقوقي والإنساني، إلا في سياق تكوّن الحداثة في أوروبا بكل ما تتضمنه الحداثة من نزعة أنوارية إنسانية وزمنية، التي لا تعني شيئاً غير مكونات أساسية من مكونات الحداثة.

وكما الثقافة والأيديولوجيا والطبيعة، يصدق الموضوع على النخبة الثقافية والمثقف والمثقفين التي ظهرت لتدل على ظواهر اجتماعية جديدة.

فما هي الثقافة؟ وما علاقتها بالحداثة؟ وما علاقة الثقافة بالنخبة الثقافية والمثقفين؟ وما علاقة المثقفين بالحداثة؟ وما علاقة الثقافة بالأيديولوجيا؟ هذا ما تدور حوله فصول هذا الكتاب، الذي قسم إلى قسمين وتضمّن أربعة فصول، القسم الأول حول الثقافة والحداثة، والقسم الثاني حول النخبة الثقافية، المثقفون والحداثة.

■

يوم الإسلام

تأليف: أحمد أمين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ١٨٨ صفحة



يقول المفكر الكبير أحمد أمين في مقدمة هذا الكتاب: أردت أن أبين في هذا الكتاب أصول الإسلام وما حدث له من أحداث، أفادته أحياناً، وأضرته أحياناً، وأبين فيه كيف كان يعامل غيره من أهل الأديان أيام عزه وسطوته، وكيف يعامله غيره أيام ضعفه ومحنته.

واقتُرح عليّ أن أسميه اسماً يتناسب مع فجر الإسلام وضحاه، ففكرت طويلاً ثم سميته: «يوم الإسلام»، لاشتماله على الإسلام أصوله وعوارضه في عصوره المختلفة إلى اليوم. وأهم غرض منه شيئان. الأول: أن نتبين منه الإسلام في جوهره وأصوله، وكيف كان. والثاني: أن كثيراً من زعماء المسلمين أتعبوا أنفسهم في بيان أسباب ضعف المسلمين. فرأيت أن خير وسيلة لمعرفة أسباب هذا الضعف الرجوع إلى التاريخ، فهو الذي يبين لنا ما حدث مما سبب ضعفه، وبذلك نضع أيدينا على الأسباب الحقيقية، حتى يمكن من يريد الإصلاح أن يعرف كيف يصلح. والله المسئول أن ينفع به كما نفع بسابقه.

■

المجتمع العربي المعاصر بحث في تغير الأحوال والعلاقات

الدكتور حليم بركات

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٦٣٨ صفحة




يبحث هذا الكتاب مجموعة من المسائل التي تطرحها مهمات التعامل مع معضلات التنوع والاندماج الاجتماعي السياسي داخل كل بلد عربي، وفيما بين البلاد العربية.

والكاتب، يصر على الاعتراف بوجود مختلف النزاعات والتوجهات التي تتجاذب العرب بين الوحدة والانكفاء الذاتي، بين التقليد والحداثة، بين المطلق المقدس والنسبي العلماني، بين الغرب والشرق، وبين المستقبل والماضي، وبين الخاص والعام، وبين الانتماء إلى الجماعة والانتماء إلى الأمة.

وقد اقتضت مهمة بحث هذه المسائل الشائكة أن تناولها المؤلف في سياقها الاجتماعي والتاريخي، وقدم لها تفسيراً بنائياً، فركز على دراسة البنية الطبقية والاختلاف في أنماط المعيشة، وما يترتب على ذلك من تنوع في التنظيم الاجتماعي. وسعى من ثم إلى دراسة الثقافة بمختلف تشعباتها وتنوعاتها، كما تناول قضايا مستقبلية تتعلق بالتغيير التجاوزي، ومن خلال ذلك كله، قصد تلمس مختلف جوانب التحولات في البنى الاجتماعية، كما في الحياة الثقافية.

ما يذكر في حق هذا الكتاب، والمؤلف، أن هذا العمل هو نتيجة ما يزيد على ثلاثة عقود صرفها المؤلف بالمواظبة على إجراء الأبحاث والدراسات الاجتماعية والثقافية.

■

مسألة اللاجئين جوهر القضية الفلسطينية

الدكتور واصف منصور

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر



عن التعمق في مسار القضية الفلسطينية من نكبة ١٩٤٨، يتبين أن كل قضايا الصراع كان في الإمكان التوصل إلى حل ما بشأنها، إلا قضية اللاجئين وحقهم بالعودة. كما يتبين أن سبب فشل كل مشاريع التسوية التي قدمت، أنها لم تكن تتضمن تنفيذ قرارات الشرعية الدولية التي تنص على حق العودة وبخاصة القرار الأممي رقم ١٩٤ .

وعند الغوص أكثر في أعماق القضية الفلسطينية، يصدم الباحث بعقدة عصية. فالمجتمع الدولي كان هو الساحة التي شهدت فصول انتزاع الأرض الفلسطينية من يد أصحابها الشرعيين، ومن ثم الاعتراف بقيام كيان آخر على حساب الشعب الفلسطيني، مما أدى إلى نشوء ما سُمي بمأساة اللاجئين الفلسطينيين.

كما يُصدم الباحث بأن المجتمع الدولي لم يكتف بما حصل، بل تعداه إلى إزالة اسم فلسطين من الخارطة السياسية العالمية عندما تعامل مع

القضية الفلسطينية باعتبارها قضية إنسانية وليس قضية شعب له حقوق وطنية مثل باقي شعوب العالم.

لذلك يطرح المؤلف مجموعة من الأسئلة منها: هل لليهود حق في الاستيلاء على فلسطين؟ هل ترك اللاجئون الفلسطينيون بلدهم بمحض إرادتهم؟ ما دور المجتمع الدولي في خلق القضية الفلسطينية وحلها؟

يتألف الكتاب من ثلاثة أقسام وتسعة فصول وخلاصة. يعالج القسم الأول موضوع منطلقات الصراع العربي الفلسطيني ـ الصهيوني، والقسم الثاني يتناول موضوع القضية الفلسطينية في الأمم المتحدة، أما القسم الثالث فيحاول من خلال الوقائع والحقائق والشهادات تفنيد الرواية الصهيونية حول مسألة اللاجئين.

■

في سوسيولوجيا الخطاب من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل

الدكتور عبدالسلام حيمر

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٤٧٢ صفحة



الموقع، الموقف، الاستيعاب، الاختيار، التجاوز، التماثل، الاختلاف والتميز، الرؤية الجديدة... إلخ. هذه الألفاظ والمفاهيم وما يشاكلها من ألفاظ أخرى تتثال على أقلامنا كلما رمنا الحديث عن الكون الثقافي، عن علم من أعلامه، أو نظرية من نظرياته، أو منهج من مناهجه، أو فكرة أو مفهوم من مفاهيمه، تحيلنا في الواقع إلى معنى الفضاء والمسافة والبعد والقرب، وإلى معنى التباين والاختلاف والتميز والصراع بكل ما يتضمنه من اتخاذ للمواقف ورسم للاستراتيجيات وتقدير للأرباح والخسائر، ذلك أن كل حديث عن مفهوم أو فكرة أو منهج أو عن علم من الأعلام أو عن عمل من الأعمال الثقافية بصفة عامة، يفترض على سبيل الوجوب الحديث عنه في علاقاته بغيره، بما يماثله وبما يخالفه، بما يتضمنه وبما يتجاوزه، بما يثبته ويؤكده وبما ينفيه ويلغيه... إنه لا يتحدد إلا وقد تموقع في نقطة ما من شبكة علاقات يتخذ نظامها صيغة فضاء هندسي، لا يمكن أن نصفه لا بكونه واقعياً يمس باليد، ولا بكونه خيالياً، لأنه بكل بساطة، فضاء نظري افتراضي بنيوي علائقي رمزي، يسمو على الخيال ولا يقل عن الواقع المحسوس في موضوعيته وواقعيته.

يتألف الكتاب من قسمين وستة فصول، يعالج القسم الأول موضوع الخطاب وسوسيولوجيا التمثلات، ويتناول القسم الثاني موضوع الخطاب وسوسيولوجيا الفعل (من شتراوس وفوكو إلى بيير بورديو).

■

بحار الحب عند الصوفية

تأليف: أحمد بهجت

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٢٤٦صفحة



يوضح الكاتب الكبير أحمد بهجت ماهية هذا الكتاب كالتالي: في بحار التصوف ألف سؤال وسؤال، وألف غريق وغريق، وألف لؤلؤة ولؤلؤة، وألف محارة فارغة ومحارة مليئة بطين القاع.. وثمة حكايات لها العجب مثل حكايات الأساطير في ألف ليلة وليلة، وبدلا من قصص الجن وعجائبه سنجد قصص الأولياء وكراماتهم، وهي أيضاً عجائب.. وهناك احتمال كبير أن نغرق في هذا البحر لو لم نكن نجيد السباحة.. أو نستخدم أدوات الملاحة الصحيحة..

نفرد أشرعة الروح البيضاء ونبحر..

ما دمنا نسبح في بحار القوم فلا مفر من استخدام أساليبهم في هذه البحار.. ولا بد أن نبدأ رحلتنا البحرية وأشرعتنا مفتوحة لكل الرياح القادمة من أبواب الكون.. ونريد عقلا محايداً قبل كل شيء.. لا نريد أحكاماً مسبقة أو أفكاراً جاهزة للحكم على التصوف قبل الخوض في أمواجه.

■

قراءة سياسية لحزب الله من حسن نصر الله إلى ميشال عون

فايز قزي

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٤٠ صفحة



يتألف الكتاب من مقدمة عامة وأربعة أقسام تتناول منهج حزب الله، ويعرفه المؤلف بأنه الإسلام وتحديداً الإسلام الشيعي الإيراني، ويرتكز على مشروع الدولة الإسلامية والجهاد في سبيل الله وولاية الفقيه الشاملة والمطلقة. وفي التنظيم يتناول مفهوم الأمة والشورى والمقاومة.

في القسم الثاني يتناول المؤلف محطات بارزة في تاريخ حزب الله، منها أولوية حصر استعمال السلاح ورفض اتفاق الطائف والتناغم مع الدولة، تفاهم نيسان بين حزب الله وإسرائيل برعاية أمريكية... وصولاً إلى تفاصيل علاقة الحزب بإيران وعلاقاته مع أمريكا والغرب الأوروبي.

القسم الثالث يتناول مستقبل حزب الله ومن عناوينه: لبنان ولاية لا دولة ـ الإسلام عقيدة شاملة للدولة والمجتمع ـ الجهاد صيغة المقاومة المسلمة ـ ونصر الله للأئمة الوارثين.

أما القسم الرابع فاستنتاجات المؤلف التي سماها استحالات، أهمها وأساسها استحالة التفاهم مع حزب الله كدولة.

وفي الكتاب ملاحق عدة أهمها الوثائق التي استند إليها المؤلف ومنها استقى معلوماته، علماً أن أهم ما تناوله بالنقد والتحليل كتاب للأمين العام للحزب الشيخ نعيم قاسم بعنوان «المنهج والتجربة والمستقبل»، بالإضافة إلى ورقة التفاهم الشهيرة بين حزب الله والتيار الوطني الحر الموقعة بتاريخ ٦ شباط ٢٠٠٦ و«الرسالة المفتوحة للمستضعفين» الموجهة من حزب الله في ١٦ شباط ١٩٨٥.

وقد يبدو عنوان الكتاب مستفزاً للكثيرين، وهو كذلك لحساسية الموضوع ودقته، لكنه يمكن أن يكون بداية حوار جدي، خصوصاً أن المؤلف يقول في مقدمته: «إنني قصدت من هذه القراءة التواصل والتكامل والتفاهم، وليس الانقطاع والتنافر والتخاصم... ورغبت خاصة بمشاركة القارئ معي، فأسهبت بالقراءة واختصرت بالنقد».

■

إزار الهنديات الحمر

خوان خوسي سواريث لوسادا



بدأ خوان خوسي سواريث لوسادا بهذا الكتاب «إزار الهنديات الحمر» نوعاً أدبياً خاصاً به: توالي التفكر بسرعة مرور الزمن، تفاهة العلاقات الشخصية، وتجزؤ الحياة بأسلوب أنيق، وفي بعض الأحيان بشكل مضمر، يعاد خلق تصاوير المجريات اليومية، فقدان الود، للرحلات وللمدن، على ضوء خفيف بطعم التبغ، موسيقى الجاز، تذاكر سفر بالطائرة ممزقة، وبعض من قطع الملابس الحميمة المنسية تحت الشراشف في فندق ما.

هناك عالم ينشأ، العالم الخاص بالمؤلف، على مدى فترة حياته التي قضاها في الملاحظة والتأمل. إنها نثريات قصصية بصورة الشعر، ذات إلهام سينمائي، استقصاء حول الهوية. خوان خوسي سواريث لوسادا هو كاتب عدل، كان جامع أعمال فنية، وكيل مصارعة ثيران، شرب وتذوق أفضل أنواع الخمور، وعزف على البوق، سافر كثيراً وسجل أحداث حياته بشكل موجز وبقليل العبارة، بشكل ذهني فياض، مع أن ما يكشف عنه الضوء هو حطام حياة وحيدة ومتباعدة.

■

بيروتيات.. قصص شعبية

محمد أمين فرشوخ

بيروت: دار الكوكب، ١٦٠ صفحة



يكتب المؤلف هذه القصص التي أخذ أكثرها عن الرواة، فلا يفعل ذلك لمجرد الفخر والتعصب، وإنما وفاء وانفتاحاً ومحاولة للوصل بين الماضي والحاضر، حيث التراث الجميل والقيم.

هي حكايات تراثية شائقة، أشخاصها حقيقيون وأحداثها واقعية عن الضيافة والكرم والإيمان والبيع والشراء والحماة والكنة والقبضاي والوجيه والظريف..

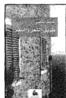
ويلفت في بداية الكتاب مسرد بالمصطلحات والأقوال العامية الواردة في الكتاب مع شرحها، وفي ذلك فائدة توضيحية ولغوية.

■

طريق الشعر والسفر

أمجد ناصر

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١١٢ صفحة



يتألف الكتاب من قسمين: الأول بعنوان: «من دندنة الكلمات الأولى إلى قصيدة الكتلة ورواية الحقيقة»، والثاني: «طرق منحرفة إلى قصيدة النثر».

ويحار القارئ في تصنيف كتابات أمجد ناصر، ففيما يراها هو أقرب إلى السير الذاتية لأنه لم يغادر «ذلك المنجم الفقير الذي اسمه حياتي» يرى كثيرون أنه كاتب مجلٍّ في أدب الرحلات.

فى هذا الكتاب يجمع أمجد ناصر بين السيرة وأدب الرحلة، حيث سيرته فيها الكثير من الحل والترحال يصف من خلالها بيروت السبعينيات والثمانينيات بحواريها ومقاهيها ومَن أمها فى ذلك الوقت من الشعراء والمثقفين، محللاً وناقداً. كذلك يلتقى فى الكتاب طريق الشعر وطريق السفر، حيث يعلل الكاتب انتقاله من قصيدة الوزن إلى قصيدة الشعر، مشيراً إلى أن كثيرين لاحظوا «أننى بدأت قوياً فى قصيدة الوزن» فيما قال محمود درويش «معلقاً على طورى النثرى قائلاً: إننى لم تكن لى مشكلة مع الوزن».

■

الأرض

تأليف: عبد الرحمن الشرقاوى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨ ، ٥٥٨ صفحة



الأرض هى ملحمة عبد الرحمن الشرقاوى الخالدة.. أبطالها يسكنون ذاكرتنا جميعا، محمد أبو سويلم وعبد الهادى، وصيفة ومحمد أفندى، الشيخ يوسف والعمدة، هى شخصيات حقيقية أكثر من كونها روائية. أضافت الأرض كثيرا إلى الرواية العربية واعتبرها العديد من النقاد النموذج الأبرز لمذهب الواقعية الاشتراكية. هنا قدم الشرقاوى القرية المصرية. ولأول مرة. بعيدا عن النظرة الرومانسية التى صورتها جنة زاهية، ليضع أيدينا على ما كان يصيب الريف وناسه من تناقضات الإقطاع والاحتلال والفساد، التى وصلت بهم إلى حدود الصراع من أجل البقاء.

■

رحلة السفرجل

وليد إخلاصى

بيروت: دار الكوكب، ١٨٠ صفحة



الكتاب الذى صنفه المؤلف بدقة علمية «حكاية» هو عبارة عن حكاية حياة البطل «معين السفرجل». والرحلة (فى القطار) إنما هى رحلة الحياة. ويستخدم الروائى إخلاصى أسلوب المقاربة هذا ليعالج الثنائيات. المتناقضات التى تطرح أسئلة لا تبرح مخيلة أى إنسان: الفرح - الحزن، البداية - النهاية، الحياة - الموت، الغضب - الرضا... وفى إحدى المقاربات، فى مقابلة بين التعاسة والسعادة يقول: «تعاسة مكتوبة تتخللها لحظات نادرة من المتعة، أو أنها السعادة، ثمرة حلوة تضمر سريعاً وتعجز عن مقاومة الزمن، فتتأهب للسقوط فى أى لحظة».

عبارة وليد إخلاصى فى هذه الحكاية - كما فى أعماله السابقة - متينة، جملته لا تُتعب القارئ. وقد استطاع عبر هذه الحكاية إعادة طرح قضايا شائكة حار فيها الإنسان منذ وجوده ولا يزال. وفى الوقت نفسه لا تخرج عن كونها حكاية يستمتع بقراءتها القراء على اختلافهم.

■

نهاية الأصولية ومستقبل الإسلام السياسى

فرج العشّة

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٢٠ صفحة



يتناول هذا الكتاب مفهوم الأصولية منهجاً ورؤية وفكرة وممارسة، ويتوقف عند تجربة الإسلام السياسى الإيرانى، حيث «تتصادم شرعية الولى الفقيه الثورية بشرعية رئيس الدولة المدنية»، ويبحث فى الحالة الجزائرية «عند منسوب فائض الدم والجثث»، وينظر فى بنية خطاب الاستبداد الشمولى مقارناً بين بنية «الاستبداد فى أيديولوجية الإسلام السياسى والأيديولوجية الشيوعية، حيث لا فرق جوهرياً بين «الإخوان» و«الرفاق»، إلا فى طقوس الامتثال ومسروداته».

وفى القسم الثانى والأخير من الكتاب يتناول المؤلف واقع الإسلام السياسى بعد ١١ سبتمبر، فيطرح السؤال: إلى أى مدى هى متمكنة «البنلادينية» فى أذهان الشبيبة الإسلامية، مختتماً بفصل يعمد فيه إلى تحليل «روح الإسلام» فى فضائه الحضارى، انطلاقاً من كونه حمّال أوجه... بحيث يمكن للأصولى أن يستخرج لنفسه تأويلاً يرضى قناعاته، ومواقفه كما يجد فيه المعتدل ما يعتدل به والوسطى ما يتوسط به والتنويرى ما يتنور به، «مرشحاً القراءة التاريخية العقلانية «بحسبانها الأنجع منهجياً للاستقراء التحليلى فى حركية الخطاب الإسلامى».

■

الدين: الأسس

مالورى ناى

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٣٦٨ صفحة



هل الدين مثله مثل الثقافة؟ ما هو موقعه فى حياتنا المعاصرة؟ هل علينا أن نؤمن به لكى ننتمى إليه؟ بدءاً من حملات التنصير على القنوات التليفزيونية إلى ارتداء الحجاب فى مصر وبريطانيا، بدءاً من ظهور الوثنية حتى ما بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، نجد فى هذا الدليل السهل، مختلف طرق تفاعل الدين مع أمور حياتنا اليومية، فهذا الكتاب ما هو إلا محاولة تعريف شاملة تبحر بنا فى عالم الدين ونجده يغطى مختلف النواحى، ومنها: الدين والثقافة، ما مدى تأثير السلطة على الدين؟ القضايا الخاصة بالجنسين، دور الإيمان والشعائر والنصوص الدينية، وأخيراً الدين فى عالمنا المعاصر.

الكتاب يقدم استعراضاً قيماً محددا لكل من يرغب فى التعرف على المزيد من المعلومات بشأن هذا الموضوع الشيق، ويتألف من ثمانية فصول تتناول الدين: ملامح رئيسية، الثقافة، السلطة، الجنس (جندر)، العقيدة، الطقوس، النصوص، والأديان المعاصرة والثقافات المعاصرة.

■

الشيخ الظواهرى والإصلاح الأزهرى

الدكتور محمد الجوادى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩، ١٩٨ صفحة



يجد الكاتب لسيرة الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى نفسه فى موقف صعب نسبياً، ذلك أن هذا الشيخ وجد وعاش ونشط فى عهد ثورة مستمرة، وكانت هذه الثورة تتوجه فى كثير من الأحيان ضده هو أيضاً.

فالطلاب ومن قبلهم شباب العلماء، بل بعض شيوخهم، يطالبون بخروجه من منصبه حتى يعود شيخ آخر كان قد أخرج من هذا المنصب بعدما بدأ سياسة إصلاحية، وكانت الدعوة للشيخ الآخر طاغية لا تبقى ولا تذر.

وهكذا أصبح كل أمل فى إصلاح هنا أو هناك يرتبط تلقائياً مع المطالبة بعودة المراغى إلى مشيخة الأزهر وخروج الظواهرى، على الرغم من أن طبائع الأمور لا تحتمل مثل هذا الربط.

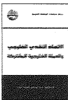
ويبدو الظواهرى وكأنه كان من السياسيين الذين يكتفون من المبادئ العامة للمذاهب السياسية بالولاء للحاكم والإخلاص للنظام فحسب، ولهذا فإنه عاش ومات دون أن يقحم نفسه فى خصومة حزبية، أو فى صداقة حزبية كذلك، وكان يرى نفسه أبعد الناس عن هذا كله. وسنجد فى حياة الظواهرى مزيجاً من الجد والتوفيق، ومزيجاً آخر من الحظ والكفاح، ومزيجاً ثالثاً من الإدارة والمواكبة(!!) لكننا فى كل هذه الأمزجة نحس روحاً فردية لا تخرج عن روح المجتمع، ونحس بنزعة شخصية لا تخرج عن روح المؤسسة ولا عن مجالها فى الفكر والنشاط.

■

الاتحاد النقدى الخليجى والعملة الخليجية المشتركة

الدكتور عبدالمنعم السيد على

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ١٩١ صفحة



كان لقرار رؤساء دول مجلس التعاون الخليجى، فى اجتماع القمة فى مسقط، فى نهاية عام ٢٠٠١ بإقامة اتحاد نقدى بعملة واحدة مشتركة، بحلول الأول من يناير ٢٠١٠، الدافع الأساسى لإجراء هذه الدراسة حول نظرية التكامل النقدى عموماً، والوحدة النقدية الخليجية، والعملة الخليجية المشتركة خصوصاً، فى ضوء ما يُسمى بـ «منطقة العملة المثلى»، ومدى انطباق شروطها على دول مجلس التعاون الخليجى. وقد عُنى المؤلف، بشكل معمق، بدراسة إمكانات الاتحاد النقدى الخليجى ومتطلباته والتحديات التى تواجهه، ومن ثم أساليبه الممكنة، وصيغه المختلفة، مع عناية إضافية بدراسة صيغة العملة الخليجية المشتركة، ونظام سعر الصرف المناسب.

كما اهتم المؤلف بمتابعة مسيرة التكامل الاقتصادى الخليجى، من حيث إنجازاته ومعوقاته، ومتابعة مسيرة الاتحاد النقدى الخليجى ومستقبله، والعوائق التى تقف أمام إصدار العملة الخليجية المشتركة، وما تم إنجازه فى هذا الشأن، حتى منتصف عام ٢٠٠٨ .

وخلصت الدراسة إلى أن إحلال عملة واحدة محل العملات القطرية الخليجية

الحالية هو هدف يستحق المحاولة لأنه سيساهم فى تعزيز الكفاءة الاقتصادية لبلدان المجلس، ويعمق من تكاملها الاقتصادى، ويعزز من تطوير قطاعاتها الاقتصادية غير النفطية.

■

مزرعة الحيوانات

تأليف: جورج أورويل
ترجمة: شامل أباظة
مراجعة: ثروت أباظة
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ١٢٠ صفحة



مزرعة الحيوانات هى رائعة جورج أورويل الخالدة.. اختيرت دائمًا ضمن أفضل الأعمال الأدبية فى القرن العشرين.. تُرجمت لأكثر من سبعين لغة.. وقرأها الملايين فى كل أنحاء العالم.. طُبعت هذه الرواية الأشهر لكاتبها للمرة الأولى فى عام ١٩٤٥ .. وتحكى عن مجموعة من الحيوانات قررت القيام بثورة ضد مالك المزرعة لتحكم نفسها بنفسها وتتولى شئون حياتها. وهنا برع أورويل فى أن يُجرى نوعًا من الحكمة السياسية الساخرة والممتعة على ألسنة الحيوانات، تكشف التناقض الحاد بين الشعارات الثورية وممارسات الحكام بعد الثورة، على خلفية نقده اللاذع للديكتاتور السوفيتى جوزيف ستالين.. لكنه يتجاوز ذلك أيضاً ليغوص بعيداً فى أعماق الحيوانات التى منها، وليس على رأسها، الإنسان.

يعتبر جورج أورويل ١٩٠٣، ١٩٥٠ من أهم الكُتّاب البريطانيين فى القرن العشرين. ولد فى الهند وعمل فى بورما بالشرطة البريطانية، عاش فقرا مدقعا فى لندن وباريس، وتطوع عام ١٩٣٦ ليحارب فى صفوف الجمهوريين فى إسبانيا ضد قوات فرانكو الفاشية، ثم عمل بهيئة الإذاعة البريطانية وكمحرر وصحفى حتى نهاية حياته. اهتم أورويل طوال حياته بالدفاع عن المظلومين والحق والديمقراطية ومحاربة الدكتاتورية والفقر والظلم. وكتب الشعر والمقال الصحفى والمذكرات والرواية.

■

لماذا المسيح ومحمد؟

د. شريف وهبى
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩، ٢٩٢ صفحة



ليس هذا الكتاب تأريخاً للمسيح، ولا تأريخاً للرسول، وإنما هو تبيان لموقفهما من الإنسان ومن الحياة، فالإنسان هو الموضوع الذى تحدث عنه المؤلف؛ لأنه هو محور الوجود كله، وهو سيد فى هذا الكون، وهو سبب فى هذا الكون، فكل شىء فى هذا الوجود مسخر له، والديانات كلها جاءت من أجله، والقرآن والإنجيل يدوران حوله وقد حاول المؤلف تصحيح بعض المفاهيم بطريقة موضوعية ومنطقية.

ويتعرض الكتاب لنماذج من أخلاق المسيح ومحمد يبين فيها نقاء هذين الرسولين وسماحتهما وعظيم خلقهما مع الإنسان، وأنهما لم يأتيا لفرض مشيئتهما على الأرض، وإنما جاءا ليبذلا السلام للعالم، وأنهما احترما الحياة فى كل حى فى الإنسان والحيوان والطير.

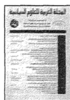
وإيتاء العظمة حقها لازم فى كل أونة، وبين كل زمان.. ولكنه فى هذا الزمان وفى عالمنا هذا الزم منه فى أزمنة أخرى، لأن الناس قد اجترءوا على العظمة فى زماننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها.. فإن شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناساً من صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة.

ومن سلوك المسيح ومحمد، وتوجيهاتهما، سيأخذ المؤمنون بالإنسان وبالحياة، زاداً باقياً، وحسبنا هذا، حين نذكرهما فى مقام التأريخ والتمجيد.. وفى مقام القدوة والتأسى.

دوريات

المجلة العربية للعلوم السياسية
مجلة دورية محكمة

تصدر عن الجمعية العربية للعلوم السياسية بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية
العدد ٢١ ـ شتاء ٢٠٠٩م



تبدأ المجلة بافتتاحية للدكتور عدنان السيد حسين: «أزمة عالمية متمادية»، ويليها ملف بعنوان: «إيران فى الشرق الأوسط»، يتضمن بحثين اثنين:

- «المواجهة النووية الحقيقية: هل تهدد الولايات المتحدة شرعية معاهدة حظر الانتشار النووى؟» لدانييل رويتشو وفيليبا وينكلر.
- «التحالف السورى ـ الإيرانى: تاريخه، حاضره، مستقبله» لعياد البطنيجى.

أما الدراسات فهى:

- «صنع القرار فى دولة الكويت: جدلية العلاقة بين النخب السياسية والاقتصادية» لسامى ناصر خليفة وحسن عبدالله جوهر.
- «التطورات فى البنية الدولية وتأثيرها فى ظاهرة الإرهاب» لمحمد المصالحة.
- «مشروع الاتفاقية الأمنية بين الولايات المتحدة وحكومة العراق فى ضوء القانون الدولى، ومسئولية المحامين العرب» لضياء السعدى.
- «قيادة عسكرية أمريكية جديدة لأفريقيا" فرصة أمريكية ومحنة أفريقية» لخيرى عبدالرزاق جاسم.
- «الاغتيال والقتل المتعمد: قراءة قانونية فى أحكام المحكمة العليا الصهيونية» لمحمد خليل الموسى.

وفى باب آراء:

- «حاجة المغرب إلى مراكز الدراسات الاستراتيجية لتطوير أدائه فى السياسة الخارجية: قراءة فى الدواعى والعوائق» ليوسف عنتار.
- «الانتخابات التشريعية المغربية لسنة ٢٠٠٧: أية مكانة للمرأة فى المجالس المنتخبة؟» لعبدالقادر لشقر.

وفى باب كتب، مراجعة للكتب الآتية:

- تعليق المؤلف على عرض كتابه «انفجار المشرق العربى» لجورج قرم.
- «دور إسرائيل فى تفتيت الوطن العربى» (أحمد سعيد نوفل) أعدها مسعود موسى الريضى.
- «الأتراك فى مصر وتراثهم الثقافى» (أكمل الدين إحسان أوغلو) أعدها سيد قاسم المصرى.

وفى باب نشاطات:

- «تقرير عن: مؤتمر «تجديد الفكر القومى والمصير العربى» دمشق، ١٥ ـ ٢٠ أبريل ٢٠٠٨» أعده أحمد حلوانى.
- «تقرير عن: ندوة «مستقبل المفاوضات العربية ـ الإسرائيلية ومخطط التطبيع» ٢٦ سبتمبر ٢٠٠٨» ٢٦ سبتمبر ٢٠٠٨ أعده عبدالهادى الزيدى.

بالإضافة إلى «يوميات عربية ودولية مختارة»، و«ببليوغرافيا مختارة».

■

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، يناير ٢٠٠٩



يتضمن العدد مقابلة مع الدكتور خير الدين حسيب بعنوان: «العراق" إلى أين»، وخمس دراسات هى:

١ ـ «سيناريوهات الصراع والتعاون على المياه بين العراق وتركيا بعد إنشاء سد اليسو التركى على نهر دجلة» لنوار جليل هاشم.
٢ ـ «محاكمة الإسرائيليين على حصار قطاع غزة» لمحمد أبو الرب.
٣ ـ «النشء اللبنانى والصراع العربى ـ الإسرائيلى» (دراسة فى المناهج المدرسية الجديدة) لأحمد مفلح.
٤ ـ «صورة المرأة الليبية من خلال المدونات التاريخية والسير الذاتية (عناصر تحليل أولية)» لـ «المنصف وناس».
٥ ـ «بمناسبة الذكرى الستين للإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصدامات السبعة على حلبة حقوق الإنسان» لغسان سلامة.

أما فى باب آراء ومناقشات فقد كتب راشد الغنوشى عن: «الإسلام والعلمانية»، كما كتب آرا خاجادور عن كلمة بصدد «السياسة فن الممكن».

وفى باب كتب وقراءات، مراجعة للكتب الآتية:

- «الحسن بن الهيثم: بحوثه وكشوفه البصرية» (مصطفى نظيف ـ تقديم رشدى راشد)، أعد المراجعة محمد البغدادى.
- «تهويد المعرفة» (ممدوح عدوان)، أعد المراجعة عادل الفريجات.
- «تاريخ العراق» (تشارلز تريب)، أعد المراجعة سعد ناجى جواد.
- إضافة إلى كتب عربية وأجنبية وتقارير بحثية مختارة.

وفى باب المؤتمرات تقرير عن:

- اجتماع اللقاء الوطنى العراقى للتحرير والديمقراطية، بيروت، ٢٩ ـ ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٨ .

هذا بالإضافة إلى موجز يوميات الوحدة العربية، وببليوغرافيا الوحدة العربية، والملف الإحصائى (١١٢) بيانات إحصائية عن الطاقة فى الوطن العربى والعالم، إعداد: كابى الخورى.

■

Murder in the Tower of Happiness

جريمة فى برج السعادة

Tawfiq .M .M
Translated by the author
م. م. توفيق
ترجمة المؤلف
American University in Cairo Press, 2008, 348 pp., $24.95



جريمة فى برج السعادة رواية بوليسية لا تنقصها الكوميديا السوداء ولا التعقيد. تبدأ تلك القصة المثيرة بإيقاع سريع داخل أرجاء المدينة، تتخللها فكاهة واقعية تأخذنا إلى داخل برج السعادة، إحدى ناطحات السحاب الراسخة شأنها شأن الأجساد الغريبة وسط الحقول على طول النيل جنوب القاهرة، وتصحبنا إلى الحيوات الدنيئة لسكانها الأثرياء المشهورين وأسلوب حياتهم الفخم. يتم اكتشاف جثة أحلام . ممثلة جميلة شابة . عارية ومخنوقة فى أحد المصاعد، وبينما تجرى تحقيقات الشرطة، نقابل العديد من شخصيات البرج العجيبة: وكيل المالك، رجل بدين الجسد يغطى صلعته بشعر مستعار ويتزين بالسلاسل الذهبية؛ والمقاول الثرى عبد التواب مبروك باشا (يدعوه أصدقاؤه بتوتو باشا!) الذى حاق به الأرق بعد مقتل أحلام؛ وعبد الملاك، طبيب نفسى يحمل شهادة الدكتوراه فى الهندسة الوراثية من معهد ماسيتشوسيتس للتكنولوجيا؛ وفرح، حبيبته السابقة التى أضحت واحدة من الدمى التى تكن لها كل الاحتقار؛ والراقصة الشرقية لولا حمدى التى يسعها رؤية مدينة تمبكتو لو وقفت على كومة أموالها؛ وسيدة المجتمع القادمة من شيلى؛ والدكتور محجوب، رجل قبيح لم يكن فى ثراء جيرانه. وهناك بالطبع عنتر، ولد شقى يجوب البرج ليدخل الشقق ويسترق السمع إلى الحوارات ليُقلق السكان الفاسدين ويفضح علاقاتهم المشبوهة.

وُلد م. م. توفيق فى القاهرة عام ١٩٥٦. حصل على شهادة فى الهندسة المدنية من جامعة القاهرة وشهادة فى القانون الدولى من جامعة باريس وشهادة فى العلاقات الدولية من المعهد الدولى للإدارة العامة فى باريس. اشتغل فى مجالات الهندسة والدبلوماسية والكتابة. عضو فى اتحاد الكُتاب المصرى وجمعية بن العالمية وجماعة الكُتاب فى جنيف وكتاب إيه سى تى فى أستراليا. يدير ورشة إلكترونية للكتابة، وهو محرر بالموقع الأدبى arabworldbooks.com. أصدر روايتين وثلاث مجموعات قصصية بالعربية. نُشرت مختارات من مجموعاته القصصية باللغة الإنجليزية فى القاهرة عام ١٩٩٧ تحت عنوان يوم هبوط القمر.

■

The Illustrated Dictionary of Ancient Egypt

القاموس المصور لمصر القديمة

Ian Shaw and Paul Nicholson
إيان شو وبول نيكولسن
American University in Cairo Press, 2008, 368 pp., $39.95



بين يدى القارئ أخيراً قاموس مصور جدير بالثقة. يقدم القاموس تفسيرات بينة وتصويراً مفصلاً للأفكار والأحداث والشخصيات المؤثرة عبر أربع آلاف سنة من الحضارة المصرية القديمة. يفهرس الكتاب ما يزيد على ٦٠٠ بند فهرسة شاملة من A إلى Z ليتيح للقارئ معلومات تفصيلية ودقيقة حول كل جوانب مصر القديمة والنوبة خلال العصور الفرعونية والإغريقية . الرومانية. يتبع كل بند ببليوجرافيا، وتحوى كل صفحات القاموس صوراً مشرقة ورسومات تخطيطية وتصاميم للمواقع بالإضافة إلى الخرائط. يتوخى هذا الكتاب «معايير ينبغى أن تضاهيها كل الكتب الأخرى وتجاهد من أجل الالتزام بها»، على حد وصف مجلة دراسات الشرق الأدنى. إذ يجمع بين «ميزتين أساسيتين: دليل أساسى لن يشوه مائدتك وكتاب مصور لا يعوزه التأثير»، كما تصفه مجلة تايمز هاير إديوكيشن سابليمنت. فالقاموس «يجيب عن أى سؤال يمكن تخيله عن المصريات»، وفقاً لمجلة نيو ستيتسمان.

إيان شو محاضر فى علم الآثار المصرية فى كلية الآثار والآداب الكلاسيكية والمصريات بجامعة ليفربول.

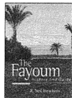
بول نيكولسن محاضر فى علم الآثار بكلية التاريخ والآثار بجامعة كارديف.

■

The Fayoum: History and Guide. New Revised Edition

الفيوم: تاريخ ودليل. نسخة جديدة منقحة

Neil Hewison .R
آر. نيل هيوسن
American University in Cairo Press, 2008, 124pp., $19.95



تُشكل الفيوم منخفضاً ضخماً حافلاً بالخصوبة فى صحراء مصر الغربية. تقع جنوب غرب القاهرة وتبعد عنها بتسعين كيلومترا. تتصف المنطقة بثرائها التاريخى وجمالها الطبيعى الأخاذ. يشتمل إرثها التاريخى على معابد وأهرامات وبلدات ترجع إلى المملكة الوسطى والعصر البطلمى علاوة على كنائس وأديرة ومساجد تعود إلى عهود تالية. يسجل نيل هيوسن فى هذا الكتاب تاريخ الفيوم (والفيوم ما قبل التاريخ) وبحيراتها ليصف حال الزراعة والحياة الريفية فى المنطقة ثم يقود القارئ إلى أرجاء الإقليم ليزور كل المواقع بلا استثناء دون أن يعزف عن التحول عن طريقه إلى كل ما هو مثير.

صدر الكتاب لأول مرة عام ١٩٨٤، وسرعان ما اعتبر النقاد هذا الدليل إلى إحدى أجمل المناطق المصرية دليلاً كلاسيكياً. تم تحديث النص ومراجعته مراجعة دقيقة لنشر هذه النسخة الحديثة، وعليه ضم الكتاب قسماً جديداً عن موقع وادى الحيتان، موقع أعلنته اليونسكو مؤخراً كمنطقة تراث طبيعى عالمى ليصبح أول محمية فى مصر. يحوى الكتاب صوراً ملونة وخريطتين، وقد أشاد به موقع لونلى بلانيت السياحى.

درس آر. نيل هيوسن اللغة الإنجليزية فى الفيوم من ١٩٧٩ وحتى ١٩٨٢. يعمل الآن فى القاهرة ويعيش بها. ترجم روايتين معاصرتين من العربية إلى الإنجليزية: مدينة الحب والرماد ليوسف إدريس (دار نشر الجامعة الأمريكية، ١٩٩٨) وليلة عرس ليوسف أبو رية (دار نشر الجامعة الأمريكية ٢٠٠٦).

■

The Lodging House

وكالة عطية

Khairy Shalaby
Translated by Farouk Abdel Wahab
خيرى شلبى
ترجمة: فاروق عبد الوهاب
American University in Cairo Press, 2008, 440pp., $18.95



تتحطم أحلام شاب بمستقبل أفضل حين كان طالباً بمعهد المعلمين بعد أن تهجم على أحد أساتذته. سخر الأستاذ منه باعتباره واحداً من الرعاع الحفاة، واحداً من جيل الفلاحين وسكان المدن الفقراء الذين يظهرون مع اتساع رقعة التعليم. يبدأ الشاب من لحظتها بالانحدار إلى عالم الرذيلة والإجرام. يلتجئ معدماً إلى وكالة عطية، خان تاريخى كان شهيراً فى يوم من الأيام لكنه الآن متهدم بالكامل. بات الخان الكائن خارج مدينة الإسكندرية مأوى لأفراد المدينة من المهمشين والفقراء. تمتد الرواية فى أبعاد ملحمية حين يرافقنا الراوى فى رحلة إلى عالم الجريمة مصوراً. وهو يغوص عميقاً فى علاقاته المعقدة. العديد من الشخصيات المقيمة فيه. ومن خلال متاهة من الحكايات المذكرة بالحكى العربى الشعبى، نتعرف إلى هؤلاء السكان، سكان تتأرجح حيواتهم بين الواقع والخيال؛ المعاصر والسرمدى. وعلى حين يبدأ الراوى كمتفرج على هذه الشخصيات، لا يلبث أن يمسى جزءاً لا يتجزأ من مجتمع المتشردين فى وكالة عطية. وكالة عطية رواية مشحونة بالحكمة والفوضى والبذاءة والعاطفة، خلاصة وافية للحياة فى أخطر صورها وأكثرها اهتياجاً.

وُلد خيرى شلبى فى كفر الشيخ عام ١٩٣٨. ألف سبعين كتاباً تتنوع بين الروايات والقصص القصيرة والحكايات التاريخية والدراسات النقدية. فازت الرواية بميدالية نجيب محفوظ للأدب عام ٢٠٠٣.

ترجم فاروق عبد الوهاب. محاضر ابن رشد بجامعة شيكاغو. العديد من المؤلفات الأدبية العربية بما فيها رواية امرأة ما لهالة البدرى (دار نشر الجامعة الأمريكية ٢٠٠٣) ورواية الزينى بركات لجمال الغيطانى (دار نشر الجامعة

الأمريكية، ٢٠٠٤). فاز النص الإنجليزى لرواية وكالة عطية بجائزة بانيبال للترجمة عام ٢٠٠٧.

■

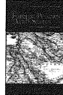
The Foreign Policies of Arab States: The Challenge of Globalization

السياسات الخارجية للدول العربية: تحدى العولمة

Edited by Bahgat Korany and Ali E. Hillal Dessouki

تحرير بهجت قرنى وعلى الدين هلال دسوقى

American University in Cairo Press, 2008, 528pp., $39.50



صدرت نسخة جديدة منقحة من السياسات الخارجية للدول العربية، كتاب حيوى فى دراسات الشرق الأوسط. أشاد النقاد بأول نسخة من هذا الكتاب بوصفه «معلماً للأبحاث الحالية والمستقبلية حول السياسات الخارجية للعرب والعالم الثالث، حسبما كتبت مجلة أمريكان بوليتيكال ساينس ريفيو، و«معاوناً لا غنى عنه لدارسى السياسات الخارجية للشرق الأوسط المعاصر ومعلميها»، على حد قول مجلة إنترناشونال جورنال أوف ميدل إيست استاديز. لقد أصبح هذا الكتاب دليلاً قياسياً فى مناهج دراسات الشرق الأوسط فى كل أنحاء العالم. تشتمل هذه النسخة الثالثة على مواد حديثة تعكس أحداثاً هزت العالم فى نهاية الحرب الباردة واستمرار وتيرة العنف والإرهاب. يناقش الكتاب السياسات الخارجية لتسع دول عربية فى سياق العولمة. أسس المحرران أولاً إطاراً تحليلياً لتقييم السياسة الخارجية ثم طبقاه مع المساهمين الآخرين فى كل الفصول على مصر والسعودية والأردن وسوريا لبنان والسودان والإمارات والجزائر والعراق.

بهجت قرنى أستاذ العلاقات الدولية والاقتصاد السياسى بالجامعة الأمريكية فى القاهرة ومدير منتدى الجامعة الأمريكية فى القاهرة.

يعمل على الدين هلال دسوقى أستاذاً فى العلوم السياسية بجامعة القاهرة. كان أستاذاً زائراً فى العديد من الجامعات منها جامعة كاليفورنيا فى لوس أنجلوس وجامعة برينستون.

■

Heads Ripe for Plucking

أوان القطاف

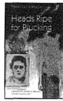
Mahmoud Al-Wardani

Translated by Hala Halim

محمود الوردانى

ترجمة: هالة حليم

American University in Cairo Press, 2008, 176pp., $22.95



أوان القطاف حكاية طليعية لقطف الرؤوس الفعلى والمجازى. صرح الطاغية العربى الحجاج بن يوسف الثقفى فى يوم من الأيام بمقولته الشهيرة: «إنى أرى رؤوساً قد تطايرت، وقد حان أوان قطافها». وفى ثنايا رواية محمود الوردانى عن الطغيان والقهر، يسعى أحد الرؤوس المقطوعة لإيجاد السلوى حين يروى بلايا تحملها وهو متجسد فى شخصيات أخرى. وهنا ننصرف إلى قطع الرؤوس الحرفى وقطع الرؤوس البلاغى، فالتعذيب والقتل والإعدام وغسل الأدمغة ما هى إلا مواضيع لست قصص سوف تتكشف أحداثها داخل صفحات الرواية. يأخذ الراوى بيد القارئ ليقوده إلى أولى حوادث قطع الرأس فى التاريخ العربى الإسلامى، قطع رأس الحسين حفيد المصطفى، ثم قطع الرؤوس فى سجون جمال عبد الناصر، وقطع رأس مراهقة قاهرية تورطت بغير قصد فى أحداث الشغب عام ١٩٧٧، وجسد ممزق فى حرب الخليج عام ١٩٩١، وإعدام مجرد من الدماء فى عشية الألفية الجديدة، وبعدئذ يحملنا المؤلف إلى مستقبل تتمزق فيه الرؤوس بانتظام كى تخضع لعمليات الصيانة وتحميل البرامج!

وُلد محمود الوردانى فى القاهرة عام ١٩٥٠. الوردانى كاتب وصحفى ثقافى. ألف ست روايات وثلاث مجموعات قصصية.

تُدرس هالة حليم فى جامعة نيويورك. فازت ترجمتها لرواية محمد البساطى صخب البحيرة (دار نشر الجامعة الأمريكية ٢٠٠٤) بجائزة الدولة التشجيعية.

Arab Women Writers: A Critical Reference Guide, 1999-1873

الكاتبات العربيات: مرجع نقدى، ١٨٧٣-١٩٩٩

Edited by Radwa Ashour and Ferial Ghazoul and Hasna Reda-Mekdashi

Translated by Mandy McClure

تحرير رضوى عاشور وفريال غزول وحسناء رضا مكداشى

ترجمة: ماندى ماكلور

American University in Cairo Press, 2008, 540pp., $59.50



إن كتاب الكاتبات العربيات مرجع جديد لا غنى عنه واستعراض نقدى للكاتبات العربيات خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نهاية القرن العشرين. شرعت المرأة العربية فى الكتابة فى العصر الحديث مع مجىء عائشة التيمورية ووردة اليازجية وزينب فواز والأخريات من رائدات القرن التاسع عشر فى مصر والمشرق. صدرت هذه الدراسة الفريدة لأول مرة بالعربية عام ٢٠٠٤ لتلقى الضوء على مؤلفات هؤلاء الرائدات ثم تتتبع تطور أدب النساء العربيات حتى نهاية القرن العشرين. تشتمل الدراسة على ببليوجرافيا محكمة شاملة لمؤلفات الكاتبات. يتفحص النقاد العرب فى الجزء الأول – تسع مقالات – نشأة كتابات المرأة وتطورها ليغطوا الشرق الأوسط العربى من المغرب إلى العراق ومن سوريا إلى اليمن ثم يتدبر النقاد أعمال الكاتبات فى كل دول المنطقة ليتناولوا الأدب والشعر والدراما والسيرة الذاتية. يضم الجزء الثانى من الكتاب مداخل ببليوجرافية لما يزيد على ١.٢٠٠ كاتبة عربية بدءاً من الربع الأخير للقرن التاسع عشر وحتى عام ١٩٩٩. يحوى كل مدخل سيرة قصيرة لكل مؤلفة وببليوجرافيا لكتبها. كذلك يتضمن هذا الجزء كتابات لنساء عربيات باللغتين الفرنسية والإنجليزية بالإضافة إلى ببليوجرافيا للأعمال المترجمة إلى الإنجليزية. إن هذا الكتاب بمداه الواسع وأبحاثه الشاملة مصدر نفيس لكل مهتم بالأدب العربى ودراسات المرأة والأدب المقارن. من بين المساهمين عماد أبو غازى ورضوى عاشور ومحمد برادة وفريال غزول وصبحى حديدى وحيدر إبراهيم وسعاد المانع وأمينة رشيد وهدى الصدة وحاتم الصقر.

رضوى عاشور كاتبة مصرية ألّفت سبع روايات وثلاث مجموعات قصصية وأربعة كتب نقدية. أشرفت على الترجمة العربية للمجلد التاسع من تاريخ النقد الأدبى (٢٠٠٦) وحررتها. تعمل حالياً أستاذة فى اللغة الإنجليزية والأدب المقارن بجامعة عين شمس.

فريال غزول دارسة وناقدة ومترجمة عراقية. تعمل أستاذة فى اللغة الإنجليزية والأدب المقارن فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ورئيسة تحرير مجلة ألف: مجلة البلاغة المقارنة. تناقش كتاباتها القضايا الجندرية فى الأدب الحديث وأدب العصور الوسطى. ألّفت كتاب البلاغة الليلية: ألف ليلة وليلة فى سياق مقارن (دار نشر الجامعة الأمريكية، ١٩٩٦).

حسناء رضا مكداشى ناشرة لبنانية وعضو مؤسس ومدير عام لنور: مؤسسة المرأة العربية للأبحاث والدراسات فى القاهرة. كانت مديرة سابقة لدار نشر كتب الأطفال دار الفتح العربى. ابتدأت مجلة نور الفصلية وساهمت فى تحريرها. استهلت معرض الكتاب الأول للنساء العربيات فى القاهرة عام ١٩٩٥.

■

al-Kitab al-asasi fi ta'lim al-lugha al-'arabiya li-ghayr al-natiqin biha.

الكتاب الأساسى فى تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها

El-Said Badawi

السعيد بدوى

American University in Cairo Press, 2008, 404 pp., $34.95



يُعلم هذا المنهج المؤلف من جزءين العربية الفصحى المعاصرة لغير الناطقين بها. استخدمته الفصول بنجاح فى المراكز التعليمية العربية حول العالم منذ إصداره لأول مرة عام ١٩٨٧. يتناول الكتاب اللغة العربية من خلال سلسلة من الموضوعات الرئيسية،

يتعاطى الجزء الأول منه مع الحياة اليومية للعالم العربي والأمور المتعلقة بها، ويركز هنا بالأساس على مهارات الاستماع والتحدث، بينما يسلط الجزء الثاني الضوء على الحضارة والثقافة والإرث العربي المعاصر بإضافة فقرات تدور حول هذه المواضيع كالقرآن ودراسات الحديث الشريف والقانون والشريعة الإسلامية والسياسة والحكم والمالية والاقتصاد والأدب والفنون والعلوم والطب والهندسة والرياضيات والفلك. تتزايد المفردات في كل جزء على حين يقدِّم الكتاب شتى التراكيب والاستراتيجيات ليتدرب عليها الطلبة مع مقدمة بسيطة في النحو. تزخر نهاية الكتاب بفهرس كامل للمفردات تصحبه معان بالإنجليزية والفرنسية. يتميز الكتاب بسهولة الفهم والاستيعاب، بالتنوع والذكاء، ويُعتبر أساساً مثالياً لتدريس منهج اللغة العربية في أي مكان من العالم.

■

As Doha Said

قالت ضحى

Bahaa Taher
Translated by Peter Daniel

بهاء طاهر
ترجمة: بيتر دانيال

American University in Cairo Press, 2008, 152 pp., $22.95



يبزغ فجر عهد جديد في مصر بيد أن الفجر يتخذ منعطفاً مشئوماً. أعلن الرئيس جمال عبد الناصر للتو أول قرار من قرارات التأميم، تم إغلاق بورصة الأسهم ليتفرس عامل الموقف في الفقر المدقع. يستقر في الجانب المواجه للشارع مكتب وزاري يغلفه صمت مخيف. يقع الراوي- واحد من الشاغلين الباقين لهذا المكتب الحكومي الميت- في غرام الشاغل الآخر، ضحى- مسالمة، واسعة المعرفة، لغز الألغاز، ذات صلة روحية بالآلهة المصرية القديمة (تعد الرواية أصدق محاولة لبعث التراث المصري القديم، فقد جعلت من أسطورة «إيزيس وأوزوريس» جزءاً من النسيج الحي للعمل الفني). يجسد بهاء طاهر في هذه الرواية راقية الأسلوب غنية البنية أحاسيس اللامبالاة واليأس، الشجاعة والتضحية بالذات، الطموح والإغواء، خيبة الأمل والإيمان السياسي، وفوق كل شيء الالتزام والخيانة.

بهاء طاهر مؤلف رواية الحب في المنفى (دار نشر الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٥). فاز بأولى جوائز بوكر العربية عام ٢٠٠٨.

بيتر دانيال مترجم مستقل درَس العربية كلغة أجنبية في القاهرة لعدة سنوات.

■

The Western Desert of Egypt: An Explorer's Handbook. New Revised Edition

صحراء مصر الغربية: كتيب الاستكشاف. نسخة جديدة منقحة

Cassandra Vivian

كاساندرا فيفيان

American University in Cairo Press, 2008, 470pp., $29.95



أحدثت اكتشافات زاهي حواس في وادي المومياوات الذهبية بواحة البحرية دعاية ضخمة في العالم الغربي لتوجه الانتباه إلى منطقة قلما عهدها المسافرون. فباستثناء الفيوم، يزور تلك المنطقة قليل من السياح، وعليه لا يدهشنا أن أغلب الكتب لا تقدم عنها إلا أقل القليل من المعلومات. تملأ فيفيان الفجوات بهذه النسخة المطورة من كتابها الكلاسيكي جزر السعداء (١٩٩١). إنه الدليل الوحيد للمسافرين إلى صحراء مصر الغربية وواحاتها. وهو بالفعل أشمل الكتب على الإطلاق عن صحراء ما غرب النيل. تم تحديث الكتاب الآن لخدمة آخر جيل من أجيال مغامري القرن الواحد والعشرين. يتزود الدليل بخمسين خريطة وتصميماً وما يربو على مائتي وسبعين رسماً. يغطي كلاً من التاريخ الطبيعي (الفصل الأول: «العالم الطبيعي») والتاريخ البشري للصحراء والواحات (الفصل الثاني: «أهل الصحراء ومستكشفوها») ثم يسبر الفصل تلو الفصل واحات الخارجة والداخلة والفرافرة والبحرية والمناطق الصحراوية للضفة (الطرف الشمالي شبه القاحل للصحراء) وطريق درب الأربعين جنوباً والعوينات (بما فيها الجلف الكبير) في الجنوب الغربي. تتضمن هذه الفصول مقاطع تاريخية وجيولوجية وجغرافية، وتصور بالتفصيل حرف سكان المنطقة الأصليين.

يكتمل وصف الطرق والمواقع والناس بمعلومات عملية حول أماكن الإقامة والأكل وملء خزان الوقود وقواعد السفر في مصر (فصل «معلومات عملية»). أضيفت نقاط للنظام العالمي لتحديد المواقع (GPS) وذلك لتعيين الطرق الرئيسية وتلك الفرعية. وإن لم تظهر نقاط للمواقع النائية بهدف حماية الآثار غير المحروسة. تقترح فيفيان مناطق للتجول على السياح الذين سيخططون رحلتهم بأنفسهم. الكتاب موسوعي النطاق، وهو الدليل الوحيد الذي ينتمي إلى مكتبة كل مسافر غربي إلى الصحراء الغربية.

كاساندرا فيفيان كاتبة ومصورة عاشت في القاهرة العديد من السنوات، وسافرت في طول البلاد وعرضها وبخاصة الصحراء الغربية. تعيش الآن في ولاية بنسلفانيا.

■

Twilight Visions in Egypt's Nile Delta

رؤى الشفق في دلتا نيل مصر

Ann Parker
Text by Muhammed Afifi Matar

صور آن باركر
نص محمد عفيفي مطر

American University in Cairo Press, 2008, 136pp., $39.95



صور جميلة جمالاً لا سبيل إلى نسيانه، صور شعرية لمسرح الحياة الريفية المصرية. تحتفي آن باركر المصورة الأمريكية في هذا الكتاب الفني الساحر بحياة تحاذي طريقاً يخترق قرى نموذجية بدلتا النيل المصرية في بداية القرن الواحد والعشرين. غير أن صورها ليست مجرد وثائق تسجل فترة معينة أو مكاناً محدداً؛ إنها تسمو فوق الاثنين حين تأسر لحظات خالدة في عالم سرمدي وتقدم إلينا موكباً مطلقاً رائعاً من مشاهد حية تظللها سماء الأصيل. يمر اليوم بعد الآخر. وفي نفس الساعات القليلة التي تهبط فيها الشمس. ومن نفس تلك البقعة المواتية على مقعد خشبي خارج منزل العمدة، تجلس باركر صابرة في انتظار التقاء الأشكال بالأحداث فيما يسميه هنري كارتييه بريسو «اللحظة الحاسمة»، لحظة يؤطرها جذعا شجرتين وتتهدل عليها الأغصان الرقيقة. النتيجة هي هذه المجموعة المبهرة من الصور- مائة صورة بنية مترعة بالأشخاص والمواقف. وشأن المتفرجين في أحد المسارح، نشاهد ذهاب القرويين والحيوانات والعربات وإيابهم في الطريق أمامنا. لقد نجحت باركر بمهارة فنية عالية في توثيق ما تخلف من حياة تقليدية غنية في منطقة ريفية تضرب جذورها في أعماق التاريخ، ومع هذا الكتاب المتقَن بين أيادينا، يمكننا نحن الآخرين الاستمتاع برفاهية الجلوس بهدوء جانبها على دكة العمدة.

يُعلق على الصور الشاعر محمد عفيفي مطر بكلمات ما هي إلا مقتطفات تأملية من سيرته الذاتية. وُلد مطر في قرية صغيرة بدلتا مصر ونشأ بها، قرية تشبه إلى حد كبير قرى صورتها كاميرا آن باركر. تتلون ذكرياته عن طفولته ومراهقته في الريف المصري بالدفء أحياناً وبالقسوة أحياناً أخرى لكنها لا تخلو أبداً من نفاذ البصيرة واستفزاز العقل.

حصلت آن باركر على بكالوريوس الفنون الجميلة من جامعة ييل. أقامت ما يزيد على ٥٠ معرضاً منفرداً في المتاحف وصالات العرض في الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا وجمهورية الدومنيكان وأوروبا وأستراليا والقاهرة. تستقر صورها في مجموعات متعددة من بينها مجموعات متحف الفن الحديث في نيويورك ومتحف ويتني للفن الأمريكي ومتحف المتروبوليتان للفنون ومركز التصوير المبدع ومتحف الفن بسان أنطونيو. رؤى الشفق في دلتا نيل مصر كتابها الثاني عن مصر؛ يحمل الأول عنوان لوحات الحج: الفن الشعبي لرحلة الحج العظيمة (١٩٩٧). باركر محاضرة وكاتبة ظهرت مقالاتها في مجلات أمريكان هيريتيدج وأمريكان فوتوجرافر وآرت إن أمريكا ولايف وناتشورال هستوري. باركر متزوجة من مصري وتعيش في مصر.

وُلد محمد عفيفي مطر في قرية رملة الأنجب عام ١٩٣٥. يعتبر واحداً من أهم الشعراء المصريين، وقد نال جائزة العويس عام ١٩٩٩.

■

«مصــــر يا ولاد!»

■■ الكتاب يقع في نحو ٤٠٠ صفحة من القطع المتوسط، يحتوي على ٤٢ موضوعاً مسجلاً بأسلوب راق جاد. فقد استطاعت الأستاذة سناء البيسي أن تضع يدها ـ بكل براعة ـ على مظاهر سلبيات المجتمع المصري. فكان قلمها بمثابة مشرط جراح بارع، بطارية كشاف ماهر، فكر مثقف واع، وقلب مخلص ينبض بحب مصر.

من بين هذه الموضوعات الشتى والمتنوعة اخترت: ثقافة الكذب، سلامة الذوق، لعبة الكراسي، الشباب الضائع، مصر أرض السلام.

الكتاب يقدم صورة أمينة وصادقة للواقع المؤلم الذي نعيشه ونحياه يومياً وسط أمثال شعبية مدمرة، وأفكار متخلفة، ومواقف مخزية. وفي مقابل هذا تقدم باقة جميلة لما كنا عليه في الماضي القريب، ونحن نحيا حياة هادئة مستقرة.

في ثقافة الكذب

لقد أصبح الكذب هو القاعدة والصدق هو الاستثناء، وغدا يمارس يومياً في البيت والعمل وبين الزملاء والأصدقاء، حتى تؤكد الدراسات أننا نقول يومياً ما لا يقل عن ٢٠٠ كذبة، بمعدل مرة كل ٥ دقائق، بدءاً من مجاملة في غير محلها، كأن نقول لواحد نتمنى أن يغور في ستين داهية: وشك ولا وش القمر. ونقول لواحدة تقاطيعها مخاصمة بعضها. إيه الحلاوة دي! امسكوا الخشب. إلى اختلاق أعذار وأسباب لعدم الذهاب للعمل، وبات الصادق بيننا عملة نادرة، بل كاد يكون نادرة من النوادر. هذا بينما يولد الإنسان في الأصل صادقاً ليكتسب الكذب من ثقافة تشيع بين الناس.. ثقافة كذب، منابعها سلوك الأم والأب والمدرس والبائع والجار والمحافظ والوزير والدولة والجريدة..

ويختلف الكذب شرقاً وغرباً باختلاف المعمار، كما يقول العالم الدكتور مأمون فندي، فالمعمار الأوروبي والأمريكي والياباني له صفة الصراحة والأماكن المفتوحة، بينما معمار الشرق فلسفته الكتمان والسرية بالدهاليز والتخفي والحرملك والمشربيات، والإيحاء بالغنى والتمسك بالمظاهر ومن بره هالله هالله ومن جوه يعلم الله، ولبس البوصة تبقى عروسة، والاستدانة لعمل الوليمة..

مصر يا ولاد
سناء البيسي
نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
ـ القاهرة ٢٠٠٨

في سلامة الذوق

في ظني أن إحدى مشاكلنا الأساسية في مصر عامة أن أصبحت لا هوية لها في مسألة الذوق والطراز.. ضاعت هويتنا.. سُرقت هويتنا.. شخصيتنا.. سماتنا.. واجهتنا.. كلها غدت ممزقة لا تستطيع تحديدها.. صحيح أنها هوية مركبة ومعقدة بتركيبتها التاريخية التي تحوي أكثر من أربع طبقات فيها المصري والقبطي والعربي والمسلم، إلى جانب موروثات فرعونية وبيزنطية.. إلا أن مصر لم تكن بمثابة الحصان الذي تغير عليه عدد من المسافرين أثناء الرحلة أو عدد من الركاب أثناء سياق التتابع، وإنما استمر راكبه ـ المصري القديم والمعاصر ـ هو الأول والأخير والوحيد طوال الرحلة دون أن يتغير، وأقصى ما تغير فيه رداؤه ولونه وجلده..

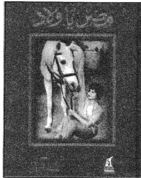
مجتمع تستشعر فيه عدم الانتماء والتوهان الذي من جرائه جاء الافتقار للذوق في بيوتنا وشوارعنا وملابسنا ومظهرنا ومخبرنا وفنوننا وموسيقانا..

أين مني الآن مصر.. مصر «ندوة» العقاد و«صالون» تيمور و«جامعة» طه حسين و«إني راحلة» للسباعي و«ظرف» محمد عفيفي و«فكرة» علي أمين و«صراحة» محمد حسنين هيكل و«أسألوني» لأمينة السعيد و«الضاحك الباكي» لفكري أباظة و«رومانسية» عبدالحليم عبدالله و«نكتة» جاهين و«كاريكاتير» من رسم رجائي و«غلاف» لكنعان و«تمثال» لحشمت و«بنات بحري» لمحمود سعيد..

مصر أمن الضواحي وسكة السلامة وها.. مين هناك؟ زعقة شاويش المغربية وحق الجار وهدوء الجوار وغض البصر وعودة البنت وحدها مطمئنة في ضوء القمر والشوارع فاضية والدنيا هادية ونادية، ووزير الداخلية في حفلة خيرية، وفرقة البوليس في كشك الموسيقى والباشا القائمقام ماشي قدام المحمل..

الظروف الحالية لا ترسم مرحاً أو حتى استعداداً للضحكة، فكيف يتأتى انبثاقها في ظل أمور مثل التي نحن فيها من البطالة الطافحة والفصل المكدس والطعام المسرطن وشياطين الإرهاب وتبادل السباب وتكثيف المعارضة والناس اللي بادعاء القانون داخلة وخارجة وتفتيش الشنطة والعربات الناسفة والبوابات الكاشفة.. و... إلخ؟! مثل تلك الظروف المؤسفة المتوارثة بررها يوماً الرئيس السادات في عهده بعد خروج الدكتور كمال أبوالمجد من الوزارة ليعمل أستاذاً في الجامعة، فلاقاه السادات في إحدى المناسبات ليسأله عن أخبارها فأجابه: الجامعة تعبانة يا ريس وحالها حال، فأجابه السادات: شيء طبيعي جداً.. الأتوبيسات مايلة والمجاري ضاربة، لازم كمان تكون الجامعة بايظة!

بلد به ٧٠ مليوناً، وجامعات تخرج أفواجاً لساحات البطالة، لابد معها أن يكون المجتمع فيها مشغولاً بقوته وليس مشغولاً بذوقه.. الذوق شيء لا يباع ولا يشترى ولا له دعوة بغني أو بفقير، ومطالبتنا بالذوق هنا لأنه بالفعل كان عندنا وراح لغيرنا.. كان في إيدنا ووقع من إيدنا.. كان ملك يميننا وأعتقناه.. كان وكان، وغاب من زمان..



كان سامرنا وانفض سامرنا.. وعندما تراجع الذوق تصاعدت قيم النذالة والانتهازية والتسيب والاضطهاد..

ومع انعكاسات سلبية تراجع الذوق ومد سيقان الفهلوة إلى أن أصبحت هناك أعداد كثيرة من طلبة الجامعات، يتعمدون الآن الرسوب في سنواتها كي لا يتخرجوا فيها إلى الشارع للبطالة، للطريق، لتأنيب العائلة، للدوران على الأبواب لقبول وظيفة ساع أو جرسون، للإحباط..

لقد صرنا نستحق ما قالته مجموعة من الفنانين الألمان الذين زاروا الأهرامات وتنزهوا في مركب شراعي بين ضفتي النيل.. قالوا لنا: البلد دي خسارة فيكم..

القيادات التي تشيع مبدأ التسامح والقيم ولا تفتح آذانها للنميمة تخلق أجواء من التصالح مع النفس، وبالتالي الهدوء النفسي وفضيلة التذوق، أما سياسة القمع والتشدد وانتشار الفساد فلا طريق للجمال، وبالتالي الذوق الرفيع، وبالتالي تدني الأذواق حتى على جانب المعارضة التي تنقد معلنة شعار التجريح الملطخ بدماء الذبائح، والمثل الإنجليزي الشهير يقول: كل حكومة تفرز المعارضة التي تستحقها!

المحروسة أرض الكنانة، بلد التراث والأصالة لم يعد فيها نمط معماري نشير إليه. ليس لنا طابع يمنحنا وصفه، ليس من وهج يفصح عن جوهر السمات، ليس من دفاع عما لا طعم ولا لون ولا رائحة له..

في لعبة الكراسي

التغير الذي حدث أن مصر المحروسة كانت بلد شهادات صحيح، لكنها بمضي الكحت والكبت والسحت والنكت والنحت والفحت والشحت والتحت تحولت إلى بلد الكراسي.. مصر التي كان رمزها النوراني تمثال الكاتب المصري الفرعوني الجالس متربعاً بساقيه خلف خلاف يرقد عليهما في دعة الكتاب العملاق رمز الاطلاع والعلم والمعرفة.. وهيئة الكتاب! مصر التي كان مفهوم الشهادة فيها قيمة وسيما وحاجة عظيمة حتى إنها كانت عاصمة شهادات الإخوة العرب يحجون إليها زرافات ووحداناً لينالوا من معاهدها وجامعاتها شرف أرقى الشهادات العلمية والأدبية والدينية التي يفاخرون بها أقرانهم عندما يعودون لأوطانهم لينالوا بحملها أرقى الوظائف والدرجات، حتى أصبح أمراً بديهياً زي ورقة البوستة أن تكون أكبر كبير من الحاكم للوزير في بلاد العروبة خريجاً في جامعات عين شمس أو القاهرة أو الأزهر الشريف ومعاهده، قد تمت مناقشة رسالته في مدرجاتها على أيدي أساتذتها العظام..

مصر الشهادات تهاوت فيها أهمية الشهادة عندما زاد فيها العرض واحتلت الكراسي مكانها، ليغدو مفهومنا المتداول: مادام أنت ع الكرسي فلتتراجع أمام سيادتك أعظم شهادة وعلى من لم يجد له (كرسي) يقعد عليه أن ينحني ويسمع الكلام.

مصر التي أصبح مفهومها أنه ما ينول ويطول إلا اللي في البلد مسئول وله كرسي، ومادام أنت قاعد عليه فأنت رجل مهم.. أنت مهم بالكرسي الذي غدا مصدر الشرعية الوحيد بعدما اختلف المفهوم الثقافي في بلدنا.

وعندما انقلب الحال زي فردة الشراب من الشهاداتية إلى الكرسية في مصر تراجع العديد من تعاقدات الهيئات الرسمية في المؤسسات القومية أمام نفوذ أصحاب الكراسي، وأصبح مجرد تليفون من صاحب كرسي يشيل ناس ويحط ناس، ويقدم ناس على ناس ويكرم ناس ويعري ناس، ويكوم ناس ويفرد ناس، ويبطط ناس ويزأطط ناس، وينقط ناس ويموت ناس، ويشتري ناس ويكسر ناس، ويشخلع ناس ويبشبش ناس، ويشخشخ ناس ويرمي طوبة ناس، ويفسح ناس ويدوس ناس، ويجوز ناس ويطلق ناس، ويكفر ناس ويشتت ناس. وينكد على ناس ويهيص ناس بمجرد تليفون صغير منه..

في الشباب الضائع

مصر السكان قبل أي شيء، والمحصول البشري أكبر وأقدم محصول مصري.. وبما أن قطاع الشباب يمثل القوة السكانية الضاربة فمن حقنا جميعاً أن نقلق عليه خاصة بعدما انشغل الجميع عنه ليصبح مسئولية الأمن وحده.. دفء الأسرة دخل الثلاجة، والمدرسة ٦٠٪ من تلاميذها قاعدين على الأرض، والمدرس لا يخاطبهم إلا بأبوك وأمك، والتلميذ بيعزم على المدرس بسيجارة وقليلها ما يلف له واحدة..

تخلى الجميع عن الشباب ليربيه الشارع والإنترنت والفضائيات ورفقة السوء.. لا بيت يحتمله ولا نادي يستوعبه ولا ساحة شعبية في المدينة والضاحية مهتمة بغير كرة القدم.. شبابنا غالبيته في الشارع.. شارع الضلال والهيافة.. شباب الشارع إجازة مدارس.. شباب الشارع الخط مقطوع مع الماما والبابا.. شباب الشارع النادي اشتراكه بالألوف.. شباب الشارع ممنوع عليه الوقفة ع الناصية والتجمع المريب وحرية إطلاق سوالفه أو ذقنه أو تجارة على الرصيف.. شباب الشارع جزء من البطالة إن لم تكن الغالبية التي بلغت في تقديرات القوى العاملة ٩٠٪..

وعلى مسيرة تخلي البيت والمدرسة والدولة عن الشباب، فقد تركناهم نهباً لبعض دعاة الفضائيات الجدد، حيث لا تركيز على دعامات قيم الدين: العدل والحق والحرية.. وإنما أغرقناهم في الشكليات وسفاسف الأمور مما أصابهم بالإحباط الشديد، فقد أصبحت كل حاجة ذنباً وجريرة..

في مصر أرض السلام (مصر يا ولاد)

أتحدى أي مصري مسلماً كان أم قبطياً يوقظه أذان فجر أو صليل أجراس كنيسة.. أي مصري بقطبي الأمة تمددت رئتاه لحظة مولده بأول نفحة هواء من سماء مصر الصافية، فصرخ من قسوة دخولها وسط الدم واللحم لترتاح بعدها فاطمة أو مريم من بعد آلام المخاض، ويحتضن كل من حسن ووليم بعضهما تهنئة بقدوم المولود..

مصر يا ولاد.. أدور باللحن المؤثر أهيب به. أتسول به. أُحمِّس به. أنهر به. أصرخ به. ألطم به. ألكم به. أصفع به. أستحث به أولاد مصر في أحياء الإسكندرية العريقة.. في باب سدرة ومحرم بك وغيط العنب وقايتباي والقباري والأزاريطة والأنفوشي وزنقة الستات.. لحن أحمله ما بين الجوانح لحي الحسين بشبرا للكاتدرائية للسيدة زينب لدير سانت كاترين لكنيسة القديسين ومار جرجس لملوي وبني مزار ودشنا وأسيوط وسوهاج وطنطا والدير المعلق والحدود.. مصر النهاردة ناقصها الحب، مصر تحكم على القليل وعايزة الكثير، عايزة سرعة التئام الشرخ، عايزة الشرخ يبقى سطحي قبل ما تمتد الجذور سرية تحت الأرض متاهات وتنظيمات وتطرف وإرهاب وسلاح أبيض وأسود وناسف ومخطط وشبكات جنون.

مصر يا ولاد مش عايزة بعد اللي حصل مجرد شجب في اجتماعات الحزب والنادي واللجنة والمؤتمر، وختام الجلسات ونهايات أحاديث في أمور أخرى ما تهمش حد بعدما أخذ تمادى أحداث إسكندرية أبعد حد..

مصر يا ولاد.. مصر السلام وأرض السلام وليست أرض البلطجية والمطاوي والسيوف والتكفير وسب الأديان..

مصر يا ولاد حلو فيها القسم بصدقيني التي اقتبستها حفيدتي من زميلاتها المسيحيات بدلاً من أغلظ الأيمان في المليانة والفارغة.. وعلينا البحث عن هزار آخر غير جليطة وسخف العبارة عندما يشرد القادم عن تحية الموجودين فنقول له: انت داخل على كنيسة. ولابد لنا من التخوف والانتباه وعدم إلقاء مصائبنا فوق كاهل عساكر الأمن الغلابة وحدهم المسلمين والمسيحيين، وذلك بحقن عقول العيال بمفاهيم خاطئة مستوردة، طول عمر مصريتنا ووطنيتنا ما شعرت بها. فتنخر في جذور البراعم البريئة الجاهزة للتلقي المرددة كالببغاوات لتتحول في الكبر إلى مفاهيم الفرقة والتفرقة بين محمد ومرقس، وزينب وأنجيل..

.. لابد أن تأخذ دور العبادة مهامها الحقيقية في شرح تعاليم الدين السمحة لا أن تتحول إلى كيانات لها رؤى سياسية وشطحات ترهيبية تحاول الهيمنة على الأفراد بفتاوى الجهل وقيود التزمت، فنحن بذلك نساهم بسلاح الميكروفونات المدوية في ترسيخ مفاهيم التطرف بالصوت الحياني..

يا ريته يقرأ يتثقف يتنور يستنير بآراء العلماء ويخاطب العقول لا أن يستنفر العداء ويغذي بجهله وتكفير الخلق نار الفرقة التي لن تفرق ساعة الحريق الكبير بين مسلم وقبطي، فسنكون جميعاً نحن وآباؤنا وعيالنا وجيراننا وآمالنا ومستقبلنا وتاريخنا ومنجزاتنا وقودها.. لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهنوته، ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا عليه.. ولا يطأ أرضهم جيش، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر.. ولا إدخال شيء من بنائهم في شيء من أبنية المساجد ولا منازل المسلمين..

مصر يا ولاد.. أفشوا السلام.. فإن الحال إذا ما استفحل عما يجري الآن من سوء الحال فعلى الدنيا السلام!

الكتاب دعوة صادقة لإعادة بناء مصر على أساس من الحب والتسامح والصدق والأمانة والإخلاص والوفاء والفكر المستنير والقلب النقي والنفس الصافية والأمل والمرح والفرح والسعادة.. الكتاب أنشودة حلوة في حب مصر التاريخ والحضارة والأرض والزرع والنيل والمعبد المصري القديم والكنيسة القبطية الوطنية والجامع الأزهر الشريف. ■

مينا بديع عبدالملك

الطبعة السادسة

ماذا حدث للمصريين ؟

في سنة ١٩٩٦ فتحت مجلة الهلال ملفا بعنوان «ماذا حدث للمصريين؟»، طلبت فيه من عدد من كتابها أن يدلى كل منهم بدلوه فى الإجابة عن هذا السؤال، من أى زاوية يشاء، إذ قدرت المجلة أننا، ونحن على أعتاب القرن الواحد والعشرين، يجدر بنا أن نتأمل ما طرأ على الحياة الاجتماعية فى مصر من تغيرات، وأن يحاسب المصريون أنفسهم على ما ارتكبوه من أخطاء، على أمل أن يبدأوا صفحة جديدة فى القرن الجديد يحققون فيها ما فشلوا فى تحقيقه من قبل.

وقد رحبت بالمساهمة فى النقاش، واخترت أن أكتب عما طرأ على مركز المرأة فى مصر خلال الخمسين عاما الماضية، من خلال ما حدث من تطورات لمستها من خبرتى أنا الشخصية، فقارنت بين مركز ثلاثة أجيال من النساء فى أسرتى : جيل أمى، وجيل أختى، وجيل ابنتى. وحاولت أن أفهم الخاص من خلال العام، والعام من خلال الخاص، إذ مزجت بين تجربة أسرتى الخاصة بتجربة المجتمع المصرى بصفة عامة، ووجدتهما، كما توقعت، متطابقتين. وقد شجعنى ذلك، كما شجعتنى أهمية الموضوع، على أن أتناول ناحية بعد أخرى من المجتمع المصرى فأتتبع تطوره فى الخمسين عاما الماضية، هى عمر وعيى وإدراكى لما يحدث حولى، مازجا دائما بين تجاربى الشخصية وما أعرفه من دراستى الأكاديمية للاقتصاد والمجتمع المصرى. وقد خرجت من ذلك بحصيلة من المقالات وجدتها جديرة بالجمع والنشر فى مجلد واحد.

على أنى كنت كلما كتبت مقالا جديدا فى هذه السلسلة استرعى انتباهى بشدة ما أجده من أثر عميق لما يسميه علماء الاجتماع «الحراك الاجتماعى»، على كل جانب تقريبا تناولته فى هذه المقالات من جوانب المجتمع المصرى، وكأن هذا العامل، الحراك الاجتماعى، هو العامل الأساسى الذى حكم تطور المجتمع المصرى خلال نصف القرن. والحقيقة أننى لم أتعجب من هذا، فالحراك الاجتماعى، أى ما يطرأ على المركز النسبى للطبقات والشرائح الاجتماعية المختلفة، صعودا وهبوطا، ظاهرة شديدة الصلة ببعض من أقوى النوازع الاجتماعية، كالرغبة فى اكتساب احترام وتقدير الآخرين، أو الرغبة فى التفوق على الآخرين، أو الرغبة فى إشباع الميل إلى السيطرة، أو الخوف من فقدان كل ذلك. فظاهرة الحراك الاجتماعى قد يكون لها فى تفسير تطور المجتمعات ما لهذه النوازع الطبيعية من أهمية فى تفسير السلوك الفردى. أضف إلى هذا أن فترة الخمسين عاما الماضية شهدت معدلا للحراك الاجتماعى لعله أعلى مما شهدته مصر طوال تاريخها الحديث كله على الأقل.

هذا الخيط المتصل الذى وجدته يربط بين معظم هذه المقالات التى كتبتها لمجلة الهلال خلال العامين ٩٦ - ١٩٩٧، ذكرنى بمقالات قليلة أخرى كنت قد كتبتها من قبل عن ظاهرة الحراك الاجتماعى فى مصر فى نصف القرن الماضى، فرأيت من المناسب أن أضم هذه إلى تلك، أملاً فى أن يؤدى هذا الضم إلى إلقاء صورة أوضح وأدق وأشمل، من مقالات الهلال وحدها.

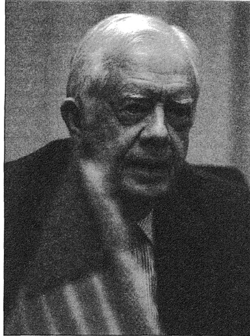
هذا إذن هو مضمون هذا الكتاب. سوف يجده القارئ مزيجا من التحليل الأكاديمى والانطباعات الشخصية، وهو مزج من شأنه فى رأيى أن يزيد من فهمنا لظاهرة أعتبرها من أهم الظواهر التى شكلت التاريخ الاجتماعى المصرى فى النصف الثانى من القرن العشرين، إن لم تكن أهمها على الإطلاق.

جلال أمين
القاهرة ١٩ أكتوبر ١٩٩٧

هذا المقال (المنشور فى الموقع الالكترونى الرسمى لصاحبه) كتبه الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر قبل سبعة أشهر كاملة.. ويوما وصف الوضع فى غزة «تحت الحصار» بأنه «جريمة فى حق الإنسانية» وكنا فى العدد السابق قد أشرنا إلى المقال فى افتتاحية رئيس التحرير. وكان أن وصلتنا رسائل من قراء يستغربون أن يكون لرئيس أمريكى ـ حتى وإن كان سابقا ـ هذا الموقف، طالبين منا نشر المقال كاملا.

وجهات نظر

جريمة فى حق الإنسانية فى غزة



أطلانطا. إن العالم يشهد الآن جريمة بشعة فى حق الإنسانية على أرض غزة، حيث يعيش ١,٥ مليون إنسان داخل سجن كبير، ولا سبيل أمامهم للخروج، سواء بحراً أو جواً أو براً. إنه عقاب جماعى وحشى لأهل المنطقة بالكامل.

لقد بدأت إسرائيل فى تصعيد إساءاتها البالغة واضطهادها للفلسطينيين من أهل غزة، على نحو غير مسبوق وبدعم من الولايات المتحدة، منذ فاز مرشحون سياسيون يمثلون حماس بأغلبية المقاعد فى برلمان السلطة الفلسطينية فى انتخابات العام ٢٠٠٦. وكان كافة المراقبين الدوليين قد أجمعوا على نزاهة وصحة الانتخابات.

ثم رفضت إسرائيل والولايات المتحدة قبول حق الفلسطينيين فى تشكيل حكومة وحدة وطنية بين حماس وفتح، والآن وبعد نزاع داخلى، أصبحت حماس وحدها تسيطر على غزة. وتستضيف سجون إسرائيل الآن ٤١ من مرشحى حماس الـ٤٣ الذين فازوا بالانتخابات والذين كانوا يعيشون فى الضفة الغربية، علاوة على عشرة آخرين تقلدوا بعض المناصب فى مجلس وزراء حكومة الائتلاف التى لم تدم طويلاً.

بصرف النظر عن الاختيار الشخصى لأى طرف من طرفى النزاع الحزبى الدائر بين فتح وحماس داخل فلسطين المحتلة، فلابد أن نتذكر أن العقوبات الاقتصادية والقيود المفروضة على تسليم المياه والمواد الغذائية والطاقة الكهربية والوقود إلى غزة كانت سبباً فى المعاناة الشديدة التى يعيشها الأبرياء فى غزة، علماً بأن ما يقرب من المليون من سكان غزة من اللاجئين.

وتضرب القنابل والصواريخ الإسرائيلية بشكل دورى منتظم هذه المنطقة المعزولة المحاصرة، فتوقع عدداً هائلاً من الخسائر فى الأرواح والإصابات، ولا تفرق بين المقاتلين والأبرياء من النساء والأطفال. قبل مقتل أم وأطفالها الأربعة فى الأسبوع الماضى، وهى الواقعة التى حظيت بتغطية إعلامية مكثفة، كانت منظمة «بيتسليم» (B,Tselem)، وهى المنظمة الإسرائيلية الرائدة فى مجال حقوق الإنسان، قد أشارت إلى هذا النمط الوحشى من القتل فى تقرير سابق لها، والذى أكد أن ١٠٦ فلسطينيين قتلوا فى غضون بضعة أيام فقط، من السابع والعشرين من فبراير إلى الثالث من مارس، وأن ٥٤ من هؤلاء القتلى كانوا من المدنيين الذين لم يشاركوا فى القتال الدائر، وأن ٢٥ منهم كانوا تحت سن الثمانية عشر عاماً.

أثناء زيارتى الأخيرة إلى الشرق الأوسط حاولت أن أتوصل إلى فهم أفضل لهذه الأزمة. وكانت إحدى زياراتى إلى سيدروت، عبارة عن تجمع سكانى يضم عشرين ألف نسمة فى جنوب إسرائيل، والتى تتعرض دورياً للصواريخ البدائية التى تُطلق صوبها من غزة القريبة منها. ولقد أدنت هذه الهجمات باعتبارها عملاً إرهابياً بغيضاً، لأن أغلب الضحايا الثلاث عشرة الذين سقطوا نتيجة لهذه الهجمات أثناء السنوات السبع الماضية كانوا من غير المقاتلين.

وفيما بعد التقيت بعدد من قادة حماس، ووفد من غزة، وكبار المسئولين الرسميين فى دمشق بسوريا. ولقد أكدت لهم إدانتى لتلك الهجمات، وناشدتهم أن يعلنوا عن وقف إطلاق النار من جانب واحد، أو أن ينسقوا مع إسرائيل للتوصل إلى اتفاق متبادل يقضى بوقف كافة الأعمال العسكرية داخل وحول غزة لمدة مطولة.

ولقد ردوا علىّ بأن مثل هذه التحركات من جانبهم فى الماضى لم تُقابَل بأى تحرك مماثل من جانب إسرائيل، ثم ذكَّرونى بأن حماس كانت فيما سبق قد أصرت على وقف إطلاق النار فى فلسطين بالكامل، بما فى ذلك قطاع غزة والضفة الغربية، وهو ما رفضته إسرائيل. ثم قدمت حماس اقتراحاً عاماً بوقف متبادل لإطلاق النار فى غزة فقط، وهو ما رفضته إسرائيل أيضاً.

كثيراً ما نستمع إلى الأصوات المتحمسة من كل من الجانبين، والتى تدين الافتقار إلى السلام فى الأرض المقدسة. لقد احتلت إسرائيل واستعمرت الضفة الغربية الفلسطينية، والتى تشكل تقريباً ربع مساحة دولة إسرائيل كما اعترف بها المجتمع الدولى. وتزعم بعض الطوائف الإسرائيلية الدينية حق إسرائيل فى الأرض على كل من جانبى نهر الأردن، ويزعم آخرون أن المستوطنات التى بلغ عددها ٢٠٥، والتى يسكنها حوالى نصف مليون نسمة تشكل ضرورة لضمان «الأمن».

ولقد وافقت كل الدول العربية على الاعتراف الكامل بإسرائيل إذا ما التزمت بالقرارات الأساسية الصادرة عن الأمم المتحدة. كما وافقت حماس على قبول أى تسوية سلمية يتم التوصل إليها بالتفاوض بين رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس ورئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود أولمرت، بشرط موافقة الشعب الفلسطينى على هذه التسوية فى استفتاء عام.

وهذا فى الحقيقة يعد بتقدم فى العملية السلمية، ولكن على الرغم من الجعجعة والتصريحات الإيجابية التى شهدها مؤتمر السلام الذى انعقد فى شهر نوفمبر/تشرين الثانى الماضى فى أنابوليس بولاية ماريلاند، إلا أن العملية تراجعت إلى حد خطير. فقد أعلنت إسرائيل عن تشييد تسعة آلاف وحدة سكنية جديدة فى المستوطنات الإسرائيلية القائمة على الأراضى الفلسطينية، كما تزايد عدد حواجز الطرق المقامة داخل الضفة الغربية، وأصبح حصار غزة أشد إحكاماً.

قد يكون من المقبول أن يذعن بقية زعماء العالم لموقف الولايات المتحدة فيما يتصل بمفاوضات السلام الحاسمة، ولكن لا يجوز للعالم أن يقف ساكناً بينما يلقى الأبرياء مثل هذه المعاملة الوحشية القاسية. لقد حان الوقت لكى تعلو الأصوات القوية فى أوروبا، والولايات المتحدة، وإسرائيل وغيرها لإدانة هذه المأساة الإنسانية التى يتعرض لها الشعب الفلسطينى.

جيمى كارتر

أطلانطا - مايو ٢٠٠٨

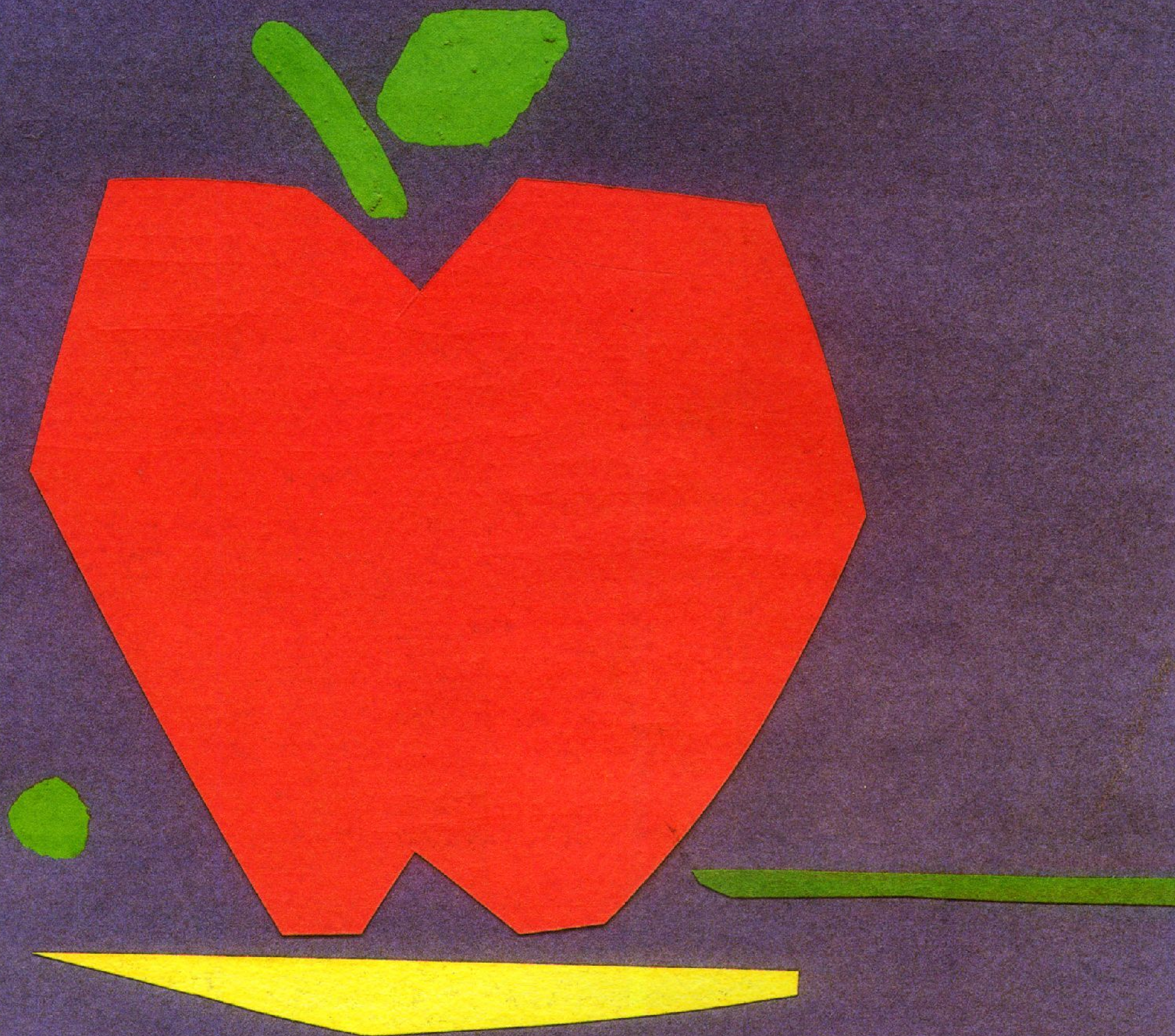
ترجمة: إبراهيم محمد على

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 122 - March 2009

مجلة شهرية العدد ١٢٢ - السنة الحادية عشرة - مارس ٢٠٠٩ - الثمن عشرة جنيهات

لعنة آدم !
هل ينقرض الرجال ؟!!



■ ثلاثون عاماً على اتفاقية السلام

فضل النقيب / محمد العليمى / سعد مرتضى / وليد سيف

■ آلان جريش (حوار) / داليا السعودى

■ الغيطانى وتجليات الحياة والموت / جون فرنسوا كليمان

■ Google ومستقبل الكتب / روبرت دارنتون



السنة الحادية عشرة
العدد ١٢٢
مارس ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



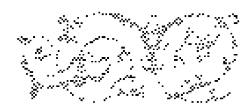


محتويات العدد:

كتاب العدد:

- بريان سايكس.. أستاذ فى علم الوراثة بجامعة أكسفورد.
- جون فرنسوا كليمان.. أستاذ فى جامعة ليون.
- جون ميرشايمر.. أستاذ العلوم السياسية بجامعة شيكاجو.
- داليا توفيق سعودى.. مدرس اللغويات الفرنسية والترجمة بجامعة الملك سعود.
- روبرت دارنتون.. مؤرخ ثقافى أمريكى.
- سعد مرتضى.. دبلوماسى مصرى.
- صالح النعامى.. صحفى فلسطينى يقيم فى غزة.
- فضل مصطفى النقيب.. أستاذ بجامعة واترلو.
- محسن يوسف.. خبير فى التعليم والموارد البشرية بالبنك الدولى واليونسكو.
- محمد بيلى العليمى.. كاتب مصرى.
- مصطفى إبراهيم فهمى.. أستاذ الكيمياء الإكلينيكية بالأكاديمية العسكرية.
- وليد سيف.. أكاديمى وكاتب عربى.
- وليد محمود عبدالناصر.. كاتب مصرى.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى - © Kerry Waghorn





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

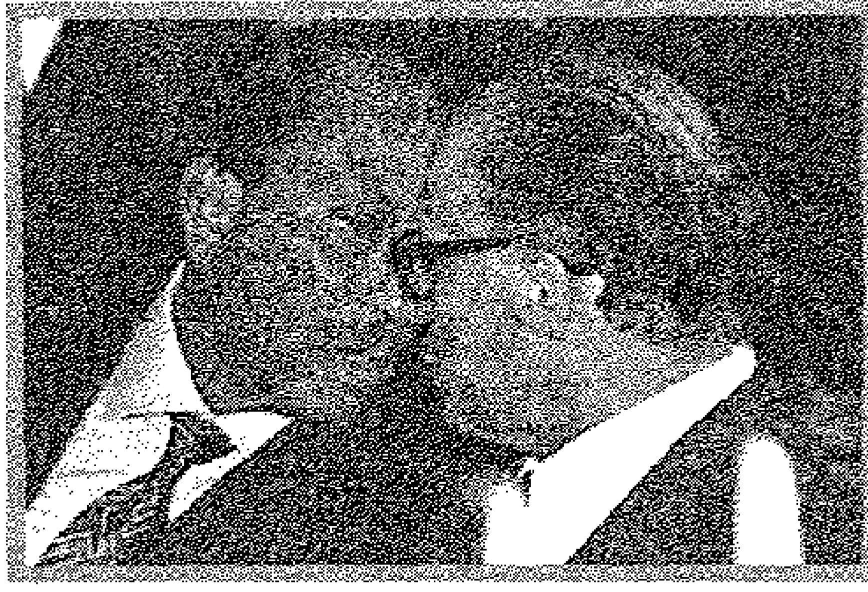
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy; EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



أمراء السّلام!

قراءة فى «نهج الاعتدال العربى»

فضل مصطفى النقيب

■■ يهدف هذا المقال إلى قراءة كتاب «نهج الاعتدال العربى» للدكتور مروان المعشر بصورة جدية ومنهجية. وذلك بأن نعرض للأطروحات الرئيسية فى الكتاب بدون أى أحكام مسبقة، ثم نقوم بفحص صدقيتها على أساس المحاكمة المنطقية والأدلة المتوفرة بما فى ذلك الشواهد والأحداث التاريخية المعاصرة.

الدعوة إلى الجدية لا تنبع فقط من كون المؤلف قد شغل مناصب عديدة هامة ذات اتصال مباشر بموضوع الكتاب فهو أول سفير للحكومة الأردنية فى إسرائيل، ثم سفيرها فى الولايات المتحدة وكان وزيراً للإعلام، ووزيراً للخارجية ونائباً لرئيس مجلس الوزراء، المكلف بشؤون الإصلاح، وهو الذى يشغل الآن منصب نائبَ رئيس البنك الدولى.

الدعوة إلى الجدية فى التعامل مع كتاب الدكتور المعشر تنبع من أن المؤلف يمثل ظاهرة أصبح لها وجود متنام فى معظم الحكومات العربية، ومن المفيد التوقف عندها بجدية.

يمثل مروان المعشر ظاهرة الأفراد الذين لهم مراكز قيادية فى حكومات بلادهم والذين يتمتعون بكفاءات عالية تم صقلها خلال سنوات الدراسة فى أفضل الجامعات الأمريكية، وما يميز هؤلاء عن غيرهم من حملة الشهادات العالية الذين لهم مناصب قيادية فى نفس الحكومات، هو أنهم يعترفون بأن الفساد يستشرى فى تلك الحكومات، وإن يكن بصورة متفاوتة بين الدول، ويكرس نظاماً يعيد إنتاج التأخر بشكل مستمر، وأنهم يسعون فى تلك الحكومات من أجل تحقيق إصلاح تدريجى من الداخل، على أساس أن إحجامهم عن العمل فى تلك الحكومات يعنى تركها تحت سيطرة ما يمكن تسميته مع شىء من التعميم برجال «الحرس القديم» المجندين بشكل مستمر للوقوف ضد أى تغيير فى النظام القائم لأن ذلك يهدد مراكزهم ومصالحهم، وهم يخشون أن يقود بقاء النظام القديم على حاله إلى سقوطه بيد الحركات الإسلامية الاصولية التكفيرية.

وهم يرون أن أهم عقبة تقف فى وجه تيار الإصلاح العقلانى الذى يلتزمون به، هى مشكلة الصراع العربى ـ الاسرائيلى، على أساس أن ذلك الصراع يكرس جواً معاديا للتقدم والإصلاح، إضافة إلى المآسى والكوارث الإنسانية التى يجرها بشكل يومى على الشعب الفلسطينى، والشعوب العربية المجاورة. إنهم يرون أن أوضاع الصراع والعنف تكرس أجواء الخطر التى تساعد رجال «الحرس القديم» على منع التغيير، كما أن انحياز الولايات المتحدة لإسرائيل يغذى أجواء العداء لأمريكا والكراهية للغرب وانتشار الفكر التكفيرى. إنهم يرون أن أحداث ستة عقود من الصراع قد أثبتت بشكل لا يقبل الشك بأنه ليس بمقدور إسرائيل أو العرب تحقيق الانتصار العسكرى الذى يفرض نهاية للصراع، وأن الحل الوحيد الممكن هو الحل الذى يأخذ بعين الاعتبار المصالح الحيوية للفريقين، وأن مثل هذا الحل ممكن إذا تمكن المعتدلون فى العالم العربى والمعتدلون فى إسرائيل، وبرعاية أمريكية، من تكوين جبهة متماسكة ضد المتطرفين العرب والمتطرفين الإسرائيليين الذين يعادون السلام.



© Kerry Waghorn

نهج الاعتدال العربى: مذكرات سياسية ١٩٩١ ـ ٢٠٠٥.
مروان المعشر.
دار النهار، بيروت ٢٠٠٨

يرى المؤلف أن تحالف مصر والسعودية والأردن شكل «لأول مرة في العالم العربي تحالفاً فعالاً من أجل السلام عمل على التأثير في سياسات الولايات المتحدة والغرب، بدلاً من الاكتفاء بردود الأفعال عليها»



يعترف أصحاب مدرسة الاعتدال بأن غالبية الناس في العالم العربي لا تشاركهم ذلك الشعور المتفائل؛ إذ إن خيبة الأمل المتكررة منذ عقود لم تترك عند الناس أي أمل في الإصلاح التدريجي لأنظمة الحكم العربية، أو في حدوث أي تغيير في الموقف الأمريكي الداعم لإسرائيل. وبالرغم من ذلك فهم يصرون على أن تفاؤلهم مبني على أرضية الفهم الموضوعي للمصالح الحقيقية لأطراف النزاع الثلاثة: العرب، إسرائيل والولايات المتحدة، وأن لغة العقل والحداثة والتسامح ستنتصر في النهاية لأنها اللغة الوحيدة التي تعبر عن روح العصر.

لذلك دعونا نقرأ الكتاب بجدية لنرى ما هو المعنى الحقيقي لهذه الظاهرة؟

[١]

تسيطر على كتاب «نهج الاعتدال العربي» فكرتان محوريتان، يعمل المؤلف على إثبات صدقيتهما، من خلال روايته لأحداث عايشها وكان له أحياناً دور في التأثير على مسارها.

الفكرة الأولى هي أن نهج الاعتدال العربي الذي شاع صيته في السنوات الماضية، بعد أن انقسم العالم العربي إلى «معسكر الاعتدال» و«معسكر الممانعة»، هو في جوهره نهج أردني، وأن الأردن هو البلد العربي الوحيد الذي ظل مخلصاً لذلك النهج منذ بداية الصراع العربي-الإسرائيلي وحتى اليوم.

يعيد المؤلف نشأة نهج الاعتدال إلى حكمة القيادة الأردنية (الملك عبد الله أولاً ثم الملك حسين) التي التزمت، منذ تأسيس إمارة شرق الأردن عام ١٩٢١، العمل على توثيق العلاقات مع العالم الغربي حتى أصبح للأردن دور امميز في العالم العربي، حيث كانت الدول الغربية تنظر إليه طوال سنوات الحروب العربية-الإسرائيلية كواحة للاعتدال و«كجسر بين الغرب والعالم العربي». ثم يرى المؤلف أن ذلك الدور قد تطور بعد توقيع معاهدة السلام الإسرائيلية-الأردنية عام ١٩٩٤، «حيث ذهب إلى أبعد من كونه جسراً بين الشرق والغرب ليصبح نموذجاً للتسامح تفتقر إليه المنطقة منذ وقت طويل» (صفحة ٢٤).

ويرى المؤلف أن صواب ذلك النهج قد اتضح بشكل جلي في السنوات القليلة الماضية وذلك عبر النجاحات الكبيرة التي حققها الأردن وكرست له مكاناً إقليمياً وعالمياً مرموقاً يفوق بدرجات ما يسمح به حجمه الصغير وإمكاناته المادية والبشرية المتواضعة.

ويذكر المؤلف من هذه «النجاحات»، نجاح الأردن في توقيع اتفاقية التجارة الحرة مع الولايات المتحدة في الوقت الذي لم تستطع فيه دولة أكبر وأقوى مثل مصر توقيع مثل تلك الاتفاقية، كما يذكر نجاح الأردن في أخذ المكان الذي كانت تحتله سوريا، لسنوات طوال، في التحالف غير الرسمي (إضافة إلى السعودية ومصر) الذي يعمل على قيادة إجماع عربي تجاه قضايا المنطقة.وهو يرى أن تحالف مصر والسعودية والأردن شكل «لأول مرة في العالم العربي تحالفاً فعالاً من أجل السلام عمل على التأثير في سياسات الولايات المتحدة والغرب، بدلاً من الاكتفاء بردود الأفعال عليها» (صفحة ١٥٥).

ولكن الكتاب لا يتوقف طويلاً أمام هذا النوع من «النجاحات» التي يعرفها الجميع، إنه يهتم بنوع آخر من «النجاحات» غير المعروفة للناس، النجاحات التي أنجزتها الدبلوماسية الأردنية بصمت، وسمع عنها الناس غالباً على أنها إنجازات دول أخرى.



من الأمثلة الهامة عن تلك «النجاحات» قصة المبادرة السعودية من أجل تحقيق السلام بين العرب وإسرائيل، وفق مبدأ «انسحاب إسرائيل الكامل من الأراضي العربية، مقابل التطبيع الكامل معها» وهي التي أصبحت تعرف بالمبادرة العربية بعد أن تبنتها الدول العربية في آذار/ مارس ٢٠٠٢ في مؤتمر القمة في بيروت.

لقد سمع الناس أول مرة عن المبادرة السعودية في ٦ شباط / فبراير ٢٠٠٢، من مقال في جريدة النيويورك تايمز للصحافي الأمريكي توماس فريدمان اقترح فيه أن تعرض ٢٢ دولة عربية على إسرائيل إقامة علاقات دبلوماسية كاملة، وتطبيع التجارة، وضمانات أمنية، مقابل الانسحاب الإسرائيلي الكامل إلى حدود ٤ حزيران / يونيو عام ١٩٦٧. وبعد بضعة أيام، نشر فريدمان مقالاً تحدث فيه عن مقابلة أجراها في الرياض مع ولي العهد السعودي الأمير عبد الله، عرض عليه خلالها فكرة «الانسحاب الكامل مقابل التطبيع الكامل»، فما كان من الأمير عبد الله إلا أن أتهم الصحافي، عن طريق الدعابة، بأن تلك الفكرة هي فكرته وأن الصحافي حصل عليها عبر سرقة أوراق مكتبه، لأن المملكة العربية السعودية في الطريق إلى القيام بمبادرة من أجل السلام مبنية على أساس «الانسحاب الكامل مقابل التطبيع الكامل». وبعدها، قامت السعودية بإخطار الأمين العام للأمم المتحدة بأنها ستتقدم بالمبادرة إلى مجلس القمة العربي لنيل موافقة الدول العربية عليها، وهذا هو ما حصل، في الواقع، بعد أسابيع في مؤتمر القمة في بيروت.

وفي الكتاب نقرأ تفاصيل القصة «الحقيقية» وراء تلك المبادرة. فهي، حسب المؤلف، لم تبدأ مع مقال توماس فريدمان في شباط/ فبراير ٢٠٠٢، بل إبتدأت في عام ١٩٩٨ ومع الملك حسين. ففي ذلك الوقت أخذ الملك يبدي ضيقه من الجمود الذي أصاب العملية السلمية بين الفلسطينيين وإسرائيل، ثم توصل إلى قناعة مفادها أن أسلوب تحقيق السلام بشكل تدريجي على مسارات مختلفة، لم يعد مجدياً، وأنه لابد من انتهاج أسلوب آخر تشترك فيه الدول العربية في مسار واحد يهدف إلى إنهاء الصراع، على أساس «الانسحاب الكامل مقابل التطبيع الكامل»، وأنه عرض الفكرة على الرئيس حسني مبارك حتى تقوم مصر بتبنيها وإقناع بقية الدول العربية بالموافقة عليها، وأن مبارك تحمس للفكرة ووعد بالدعوة لعقد مؤتمر قمة عربية لتبنيها. ولكن ذلك لم يحصل، لأن وزيرة الخارجية الأمريكية وقتها، مادلين أولبرايت، طلبت من مبارك عدم الدعوة لعقد مؤتمر قمة لأنها رأت أن مثل ذلك المؤتمر سيعمل على إجهاض الجهود الأمريكية من أجل تحقيق السلام. (صفحة ١١٥) ثم مضت أربع سنوات قبل أن يعاد طرح الفكرة من جديد ضمن رسالة أرسلها الملك عبد الله الثاني إلى الرئيس جورج بوش في ٨ سبتمبر / أيلول ٢٠٠١ حتى يتسنى له مناقشتها في الاجتماع الذي كان مقرراً عقده بين الرجلين في ٢٠ سبتمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١. ولكن ذلك الاجتماع لم يتم بسبب أحداث يوم ١١ سبتمبر. ولم يتم إحياء الفكرة من جديد إلا في ٢٨ نوفمبر/ تشرين الثاني لعام ٢٠٠٢ وعلى مائدة إفطار في أحد فنادق واشنطن حيث قام مروان المعشر، وكان سفيراً للأردن في الولايات المتحدة، بشرح الفكرة لتوماس فريدمان، كما جاءت في مقاربة الملك حسين عام ١٩٩٨، وفي رسالة الملك عبد الله الثاني إلى الرئيس جورج بوش عام ٢٠٠١. فتحمس فريدمان للفكرة بشدة، ويبدو أنه قرر في ذلك الصباح أن يطير إلى الرياض ويقوم بسرقتها من مكتب الأمير عبد الله.

وفي الكتاب قصص «حقيقية» وراء «نجاحات» أخرى كثيرة، من أهمها القصة التي كانت وراء إطلاق ما أصبح يعرف باسم «خارطة الطريق»، إذ نقف على تفاصيل المحاولات المضنية التي قام بها المؤلف،كوزير للخارجية، مع اللجنة الرباعية (الولايات المتحدة، الاتحاد الأوروبي، روسيا، الأمم المتحدة) ومع وزارة الخارجية الامريكية، تارة، ومع البيت الأبيض، تارة أخرى،من أجل التوصل إلى اتفاق على «خطة محددة ومفصلة تنفذ ضمن مهلة زمنية محددة لتحقيق السلام» (صفحة ١٤٤). وكم من مرة ووجهت تلك المحاولات بعدم الاكتراث أو الرفض الصريح حتى نجح أخيراً المؤلف في أن يعرض الموضوع على الرئيس بوش الذي قال له غاضباً «ماذا يريد الفلسطينيون مني؟ أعطيتهم تصوراً. ما الذي يريدونه بعد؟» (صفحة ١٦٨) فقال له «سيدي الرئيس، يشك معظم الفلسطينيين في إمكان تحقق هذا التصور، جل ما نطلبه هو ترجمة تصوركم بحرفيته إلى خطوات عملية. لا نطلب أي التزامات إضافية من جانبكم» (ذات الصفحة) وعندئذ، فكر بوش للحظة، ثم نظر إلى المعشر وقال «لا مشكلة لدي في هذا»، ثم خاطب مساعد وزير الخارجية وليم بيرنز: «لم لا تستنبطان شيئاً ما؟». وكان ذلك هو الأمر الرئاسي الذي أطلق مشروع خارطة الطريق. فبعد ذلك الاجتماع عقدت الاجتماعات والمداولات والرحلات المكوكية بين عواصم العالم حتى تم التوصل إلى الصيغة الرسمية لخارطة الطريق التي تبنتها اللجنة الرباعية وأعلنت السلطة الفلسطينية موافقتها



عليها على الفور، بينما وافقت عليها الحكومة الإسرائيلية مع أربعة عشر تحفظاً.

الآن، كلنا يعرف أن بعض القراء يعتبرون تلك «النجاحات» إنجازات حقيقية، وأن بعضهم الآخر لا يعتبرها كذلك، ولكن من المؤكد أن جميع القراء سيستغربون عند قراءة الكتاب من كثرة عدد تلك «النجاحات»، ومن قصر المدة التى يعيشها كل واحد منها . لماذا هذه الكثرة؟ ولماذا لا يعيش أى واحد من تلك «النجاحات» إلا فترة قصيرة جداً؟



الواقع أن أهمية كتاب «نهج الاعتدال العربى» هو أنه يقدم أجوبة مقنعة لهذه الأسئلة، إذ يستطيع أى قارئ للكتاب، حتى وإن كان غير ملم بتفاصيل العملية السلمية فى الشرق الأوسط، أن يكتشف بسرعة، و من الطريقة التى يصف المؤلف بها المخاض العسير لولادة أى واحد من تلك «النجاحات»، أن كل «نجاح» يتحقق، يكون فى واقع الأمر بمثابة «مكسب» بالنسبة لبعض اللاعبين فى الصراع، و«خسارة» بالنسبة للاعبين آخرين، وفى خلال أسابيع أو أشهر تتمكن الأطراف الخاسرة من تحطيم مكاسب الأطراف الرابحة، وذلك لسبب بسيط وهو أن كل طرف من أطراف النزاع الثلاثة: العرب، إسرائيل، والولايات المتحدة يضم دوماً رابحين وخاسرين فى الوقت ذاته تجاه أى اتفاق يتم بينهم. وذلك لأنه ليس هناك طرف واحد من هذه الأطراف الثلاثة يملك وجهة نظر واحدة تجاه القضايا المحورية للصراع. ففى الولايات المتحدة غالباً ما تكون وجهة نظر وزارة الخارجية على تناقض تام مع وجهة نظر البيت الأبيض، ومع وجهة نظر أعضاء أقوياء فى الكونغرس وفى إسرائيل هناك وجهات نظر كثيرة ومتنافرة لعدد كبير من الأحزاب وللمؤسسة العسكرية ومؤسسة المخابرات إضافة إلى قوى المستوطنين. أما فى الطرف العربى، فإضافة إلى الانقسام الحاد بين معسكر «الاعتدال» ومعسكر «الممانعة»، هناك وجهات نظر متنافرة داخل كل معسكر، بل داخل كل دولة. الانقسام فى الجانب الأمريكى يخص طبيعة النظام الأمريكى.. والانقسام فى إسرائيل يخص طبيعة الحركة الصهيونية. ولذلك فإن ما يهمنا هنا هو الانقسام فى الجانب العربى، ولا نقصد الانقسام بين معسكر «الاعتدال» ومعسكر «الممانعة»، ولكن الانقسام داخل كل طرف من أطراف معسكر الاعتدال. والمؤلف يعرض بشكل تفصيلى للانقسام الحاصل فى الأردن، حيث يقول بوجود «مدرستين». المدرسة السياسية التى تؤيد قيام دولة فلسطينية، وكان يرعاها الملك حسين وهى على صلات جيدة مع حزب العمال فى إسرائيل، والمدرسة الأمنية التى تعارض قيام دولة فلسطينية، وكان يرعاها الأمير الحسن ولها صلات مع حزب الليكود فى إسرائيل. وعندما كان المؤلف سفيراً فى إسرائيل، كان الملك حسين يطالبه بعدم الاجتماع بزعماء الليكود الذين كانوا فى المعارضة تلك الأيام، بينما كان الأمير الحسن يؤنبه لأنه لا يجتمع بهم. وأخيراً عندما اجتمع المؤلف بزعيم الليكود بنيامين نتنياهو بادره الأخير بالقول إن إسرائيل والأردن يلتقيان على مصلحة واحدة وهى عدم قيام دولة فلسطينية، وعندما عارض المعشر هذا القول وتحدث بمنطق المدرسة السياسية التى تجد أن من مصلحة الأردن قيام دولة فلسطينية قال له نتنياهو: «سعادة السفير، أظننى أفهم الموقف الأردنى أفضل منك». (صفحة ٧٢)

ووجود أكثر من «مدرسة» تجاه مواضيع القضية الفلسطينية بشكل خاص، ومواضيع الصراع - العربى الإسرائيلى بشكل عام، قائم بشكل حاد، وإن كان غير معلن، فى المملكة العربية السعودية، كما أنه قائم بشكل حاد ومعلن فى السلطة الوطنية الفلسطينية.



وهكذا يتضح لنا أن أى «نجاح» يتحقق كاتفاق بين الأطراف الرئيسة الثلاثة للصراع يكون فى واقع الأمر عبارة عن تأجيج للصراع بين القوى المختلفة داخل كل طرف من أطراف الصراع. ومن الطبيعى أن يقود ذلك الصراع إلى إضعاف التزام الأطراف الثلاثة بأى اتفاق. ولهذا نشهد انهيار الاتفاقات واحداً بعد الآخر، وتحول «النجاحات» إلى فشل بعد فشل.



ولهذا كله فإن سرعة تحول «النجاح» إلى «فشل» تتناسب طرداً مع أهمية «النجاح»، فكلما كان «النجاح» كبيراً، كان سقوطه يتم بسرعة كبيرة. ومن الأمثلة المهمة على ذلك، النجاح الذى حققه المؤلف فيما هو وزير للخارجية، فى التوصل مع موظفى البيت الأبيض إلى صياغة رسالة من الرئيس بوش إلى الملك عبد الله الثانى فى عام ٢٠٠٤.

كان الرئيس بوش قد التقى برئيس الوزراء الإسرائيلى شارون فى ١٤ إبريل/ نيسان من ذلك العام، وتبادلا رسائل علنية. وكانت رسالة بوش لشارون كارثة من وجهة النظر العربية، حيث إنها شكلت تراجعاً عن السياسة الأمريكية المعلنة وانحيازاً كاملاً للموقف الإسرائيلى. وقد شعرت الدبلوماسية الأردنية بحرج شديد من تلك الرسالة، فالغى الملك عبد الله الثانى زيارة كانت مقررة لواشنطن، وقام المعشر، وزير الخارجية، بزيارة واشنطن والاجتماع بموظفى البيت الأبيض لصياغة رسالة يقوم الرئيس بوش بتوجيهها للملك عبد الله تعمل على إيجاد توازن مع رسالته لشارون، حتى يتمكن الملك من الحضور لواشنطن. وبعد مفاوضات طويلة، وجهود مضنية، تمكن المعشر من الاتفاق مع المسئولين فى البيت الأبيض على صياغة رسالة اعتقد أنها تدحض ما جاء فى رسالة بوش لشارون. وقد شعر بالاعتزاز من هذا النجاح الكبير، وخصوصاً عندما عرض الرسالة على وزير الخارجية الأمريكى كولن باول الذى قال له بصراحة «ما كانت وزارة الخارجية لتحصل على رسالة بهذه القوة». (صفحة ٢١٣).

وقد مهدت تلك الرسالة لزيارة الملك لواشنطن والاجتماع بالرئيس بوش وعقد مؤتمر صحفى فى البيت الأبيض، فى السادس من أيار/ مايو ٢٠٠٤. وعلى أثر ذلك المؤتمر اتصل كبير المفاوضين الفلسطينيين صائب عريقات ليهنئ المعشر ويقول له «انه افتخر كثيراً بالملك عند مشاهدته حفل حديقة البيت الأبيض على شاشة التلفزيون» (صفحة ٢١٦).

بعد أسابيع قليلة من ذلك النجاح الكبير، النجاح الذى حرك، وفق رواية المعشر، شعور الاعتزاز عند الدبلوماسية الأردنية، وشعور الفخر عند السلطة الفلسطينية، وشعور الحسد عند وزارة الخارجية الأمريكية، استقبل الرئيس بوش الملك عبد الله الثانى وقال له: «لقد سئمت من المسألة الفلسطينية- الإسرائيلية» (صفحة ٢١٧).

كان المسئولون الأمريكيون يسأمون فى أحيان كثيرة من العملية السلمية فى الشرق الأوسط، فيعمدون إلى إيقاف تدخلهم المباشر فيها، وكان المسئولون الإسرائيليون يعلنون، بين الحين والآخر، عن خيبة أملهم من العملية السلمية وتوصلهم إلى القناعة بأنه لا يوجد لهم شريك للسلام فى الجانب الفلسطينى فيعمدون إلى تعطيل المفاوضات مع السلطة الفلسطينية. ولم يكن يخفى على أى مراقب محايد أن سأم إدارة بوش لم يكن أكثر من الإمعان فى سياستها الثابتة فى إطلاق العنان لليمين الاسرائيلى لفرض سياسات الأمر الواقع دون تدخل والتظاهر بأن الأمر يعود إلى ارادة الطرفين كما أن سأم الحكومة الإسرائيلية ليس إلا تعبيرا تضليليا عن رفضها من الناحية الفعلية التفاوض بصورة جدية مع أى طرف فلسطينى مهما كان معتدلا لأن أقصى ما يمكن أن تقدمه هو أقل بكثير من الحد الأدنى الذى يمكن أن يقبل به الشعب الفلسطينى أو أى شعب آخر يسعى لنيل حريته.

أما رباعية الاعتدال العربى (مصر والسعودية والأردن والسلطة الفلسطينية) فإنها لا تصاب بالسأم ولا بخيبة الأمل، وعلى العكس فإن حيويتها ونشاطها يزدادان بعد كل نكسة تحل بالعملية السلمية فيبدأ فرسانها بالزيارات المكوكية لعواصم العالم، والاجتماعات التى لا تنتهى حتى يتمكنوا من القضاء على السأم الأمريكى، أو خيبة الأمل الإسرائيلية

هم يرون أن أهم عقبة تقف فى وجه تيار الإصلاح العقلانى الذى يلتزمون به. هى مشكلة الصراع العربى ـ الإسرائيلى، على أساس أن ذلك الصراع يكرس جواً معاديا للتقدم والإصلاح



وتعود العملية السلمية إلى مسارها من جديد.

وبعد أن يأتى الكتاب على تكرر ذلك المشهد شهراً بعد آخر، وسنة بعد سنة، يصبح من الواضح لأى قارئ جاد للكتاب أن هناك شبهاً كبيراً بين ظاهرة أصحاب النفوذ فى أنظمة بلدان الاعتدال العربى الذين يصرون على التمسك بالعملية السلمية بشكل دائم ومستمر ومطلق.. وبين ظاهرة «أمراء الحرب».

من المعروف أن ظاهرة «أمراء الحرب» تحدث فى الحروب الأهلية بعد انهيار السلطة المركزية للدولة وقيام أشخاص أقوياء، يتمكنون من السيطرة على مناطق معينة من البلاد وفرض سلطتهم عليها بقوة السلاح، وحينئذ تنشأ لهؤلاء المتنفذين الأقوياء مصالح اقتصادية وسياسية لا يستطيعون الاحتفاظ بها إلا عن طريق الاستمرار فى الحرب، وفى شكل مشابه فنحن نرى أنه بعد أن انهار إجماع النظام الرسمى العربى بالنسبة لقضية العرب المركزية،فلسطين، ظهرت فئات عديدة داخل تلك الأنظمة تعمل على حماية مصالحها الاقتصادية والسياسية عن طريق الحصول على التأييد الأمريكى. وهو تأييد لا يستطيع هؤلاء ضمانه إلا عبر الحصول على التأييد الإسرائيلى لهم، والذى يدفعهم إلى الاستمرار بشكل دائم فى العملية التى أصبحت تعرف باسم «العملية السلمية» ويقود هذه الفئات أشخاص يمكن وصفهم بأنهم «أمراء السلام» على أساس أن مصالحهم أصبحت مرتبطة بأستمرار «العملية السلمية»، تماماً كما أن مصلحة «امراء الحرب» مرتبطة باستمرار الحرب..

كيف نشأت ظاهرة «أمراء السلام» وكيف ارتبطت مصالح الذين يمثلونها باستمرار «العملية السلمية»؟

[٢]

لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال بدون أخذ الفكرة المحورية الثانية فى كتاب «نهج الاعتدال العربى» فى الاعتبار.

يرى المؤلف أن تكرار مبادرات السلام العربية قد نجحت فى إقناع العالم «بطريقة لا يرقى إليها الشك، أن قوى الاعتدال العربى موجودة فعلا»، وأنها «هى التى أطلقت معظم المبادرات السياسية فى الأعوام الخمسة الماضية ـ لا سيما مبادرة السلام العربية وخارطة الطريق ـ من أجل الخروج من المأزق ودفع عملية السلام نحو الأمام» (صفحة ٢٥٨).

وهو يرى أن اهم ما يهدد قدرة قوى الاعتدال العربى على الاستمرار فى نهج الاعتدال هو أن تلك القوى كرست نهج الاعتدال فى عملية السلام ولم تكرسه فى «مشاغل أخرى مثل الحاكمية الرشيدة والرفاه الاقتصادى والمشاركة فى صنع القرارات» (ذات الصفحة).

وهذا هو المحور الثانى للكتاب الذى ينتقد فيه المؤلف حكومات الاعتدال العربى فى أنها لم تعمم سياسة الاعتدال التى اتبعتها فى العملية السلمية على أوضاعها الداخلية، وهو يقول:

«التعايش والتنوع والاعتدال، قيم لا تنطبق على عملية السلام فقط، بل يجب أن تمارس أيضاً داخل المجتمعات العربية. فالحكومات العربية لا تستطيع أن تطلب من العرب الموافقة على إقامة علاقات مع إسرائيل، الدولة العدوة منذ ستة عقود، بينما تأبى القبول بالأحزاب المعارضة فى بلدانها، فهذا يفقدها الصدقية فى عيون شعوبها» (صفحة ٢٦٠).

والمعنى الواضح لهذا الكلام هو إعتقاد مؤلف كتاب «نهج الاعتدال العربى» أن أنظمة الاعتدال العربى قد نجحت فى سياستها «الخارجية» وفشلت فى سياستها «الداخلية». وهو قول غريب جداً إذ إنه يتناقض مع طبائع الأمور ومع أبسط مفاهيم المنطق السياسى، كما أنه يتناقض بشكل كامل مع السجل التاريخى للعلاقة بين «السياسة الخارجية» و«السياسة الداخلية» لأنظمة «الاعتدال العربى».

يبدو غريباً جداً أن يكون هناك من يعتقد أن الدول تختار «سياستها الخارجية» بشكل مستقل عن «سياستها الداخلية». فطبائع الأشياء تفرض أن تكون السياسة الخارجية تعبيراً عن متطلبات السياسة الداخلية. فالدولة، فى أى بلد، تعمل على حماية مصالح معينة(قد تكون المصالح الوطنية، وقد تكون مصالح طبقة معينة أو فئة معينة)، وهى تختار السياسات التى تعتقد أنها تضمن حماية تلك المصالح، فتقوم بتطبيق بعض تلك السياسات فى الداخل، والبعض الآخر فى الخارج. وهناك مقولة من القرن التاسع عشر، لا يكل الأستاذ محمد حسنين هيكل من ترديدها فى أحاديثه الأسبوعية على شاشة الجزيرة، تقول: «ليست هناك سياسة خارجية لأى بلد، ولكن هناك سياسة داخلية تفرض أسلوب التصرف الخارجى للبلد». وفى منتصف القرن العشرين اكتسبت مقولة «كل السياسة هى سياسة محلية» (All politics is local) لرئيس مجلس النواب الأمريكى المشهور توماس أونيل (١٩١٢ ـ ١٩٩٤) شهرة طاغية فى الأوساط الأمريكية، إذ أنها أعادت صياغة مقولة القرن التاسع عشر بلغة السياسة الأمريكية. وهى مقولة تؤكد حقيقة أن ما تتخذه حكومة أى بلد فى العالم من مواقف، تجاه بلدان العالم الأخرى، ما هو فى الواقع إلا امتداد للمواقف التى اتخذتها تلك الحكومة تجاه أوضاع بلدها الداخلية، أى أن الممارسات الخارجية لأى دولة تأتى دوماً تعبيراً عن الممارسات الداخلية فى تلك الدولة. ولذلك فالقول بأن دول «الاعتدال العربى» نجحت فى «اختيار» سياستها الخارجية وفشلت فى اختيار سياستها الداخلية. هو قول لا معنى له من الناحية المنطقية.

كما يرون أن الحل ممكن إذا تمكن المعتدلون فى العالم العربى والمعتدلون فى إسرائيل، وبرعاية أمريكية، من تكوين جبهة متماسكة ضد المتطرفين العرب والمتطرفين الإسرائيليين الذين يعادون السلام





وهم يصرون على أن تفاؤلهم مبنى على أرضية الفهم الموضوعى للمصالح الحقيقية لأطراف النزاع الثلاثة: العرب، إسرائيل والولايات المتحدة، وأن لغة العقل والحداثة والتسامح ستنتصر فى النهاية لأنها اللغة الوحيدة التى تعبر عن روح العصر

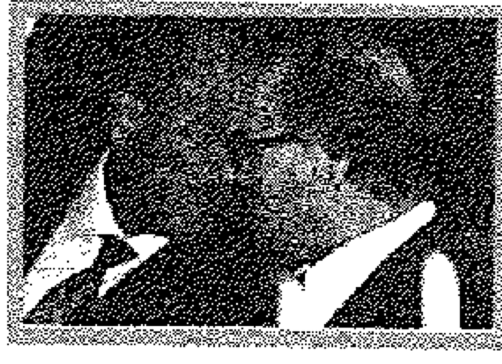


ومن ناحية تاريخية، فالعلاقة بين نشوء ما يدعوه المؤلف بنهج «الاعتدال العربى» وتطوره وبين تطورات الأوضاع الداخلية لبلدان دول الاعتدال علاقة واضحة لا التباس فيها.

لنأخذ مصر، وسنرى أن تطور سياسة «الاعتدال» فيها تجاه الصراع العربى- الإسرائيلى كان تعبيراً عن تطور الاوضاع الداخلية لمصر. ومن الممكن المرور السريع على ثلاث مراحل مميزة فى ذلك التطور.

المرحلة الأولى تخص العهد الملكى،حيث كان عنوان المشهد السياسى هو النضال لتحقيق الاستقلال من الاستعمار البريطانى، وحيث كان هناك ملك، وحزب أغلبية (الوفد) وأحزاب أقلية (السعديين والأحرار الدستوريين)، أحزاب عقائدية (الإخوان والشيوعيين). ومن المعروف أن الحكومة عام ١٩٤٨ كانت بيد الأحزاب الأقلية (حكومة النقراشى) وأن تلك الحكومة رأت أن من مصلحة مصر عدم خوض الحرب فى فلسطين ولكن هذه الحكومة اضطرت إلى دخول تلك الحرب تحت ضغط الرأى العام الذى كان يرى أن المعركة ضد الاستعمار والمشروع الصهيونى هى معركة واحدة. أى أن السياسة الداخلية المتمحورة حول قضية التحرر الوطنى فرضت السياسة الخارجية فى دخول الحرب.

المرحلة الثانية كانت



مرحلة ثورة ٢٣ يوليو، ومن المعروف أن النهج الذى اختطته الثورة فى سنواتها الأولى كان نهج العمل على تحقيق جلاء القوات البريطانية وتكريس سياسة التحرر وعدم الانحياز، وتحقيق التنمية الوطنية بشكل يعيد توزيع الدخل القومى لصالح الأغلبية الفقيرة. ولم يكن فى أولويات الثورة، فى تلك السنوات، أى مكان للصراع العسكرى مع إسرائيل. والذى حدث أن الدول الاستعمارية وإسرائيل عارضت مشروع التحرر والتنمية المستقلة فى مصر وشنت عليها حرب ١٩٥٦، وهكذا كان اختيار الثورة لسياسة داخلية تعتمد على التنمية المستقلة هو الذى عكس نفسه فى سياسة خارجية كرست الصدام مع إسرائيل.

المرحلة الثالثة كانت مرحلة الارتداد على سياسة التنمية المستقلة، وتكريس نهج التبعية للرأسمال العالمى، التى قادها أنور السادات، ولقد كان من المستحيل المضى فى تلك السياسة بدون تكريس التبعية للسياسة الأمريكية التى تتطلب أول ما تتطلب الصلح مع إسرائيل. وهكذا نرى أن سياسة الصلح مع إسرائيل، كانت كسياسة الصدام مع إسرائيل، تعبيراً عن متطلبات السياسة الداخلية فى مصر.

ولنأخذ السعودية، ثانياً، وسنرى أن علاقتها بالصراع العربى - الإسرائيلى قد مرت بأربع مراحل، وأن تلك المراحل كانت تعبيراً أميناً على تطور الأوضاع الداخلية فى المملكة فى العقود الماضية.

المرحلة الأولى تخص الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى، عندما كانت الأوضاع الداخلية فى المملكة توصف بالهادئة والآمنة والمستقرة وذلك بفضل الثروة الهائلة التى بدأت تنهال على المملكة من عائدات النفط من ناحية، وبفضل نظام القرون الوسطى الذى كرسته العائلة السعودية، وهو نظام وصفه الروائى عبد الرحمن منيف، الذى نزعت عنه الحكومة السعودية الجنسية، بقوله «... نحن نعيش فى نظام لا يمنع فقط حرية المعارضة، إنه يمنع أيضاً حرية التأييد» وفى تلك المرحلة لم تكن الأسرة المالكة تشعر بأى تهديد لشرعيتها ولذلك كانت تأخذ موقفاً متشدداً فى مجال الصراع العربى - الإسرائيلى وإن كان فى عمومه موقفاً لفظياً.

المرحلة الثانية كانت المرحلة الضبابية التى اتخذت فيها الأسرة السعودية مواقف متناقضة من الصراع العربى - الإسرائيلى. بدأت تلك المرحلة عندما بدأت الأسرة السعودية تشعر برياح التغيير تهب فى المنطقة بعد قيام ثورة اليمن عام ١٩٦٢ ولم يعد بإمكانها البقاء خارج حلبة الصراع العربى - الإسرائيلى كما كانت فى المرحلة السابقة.

ولكن متطلبات الحفاظ على الأوضاع الداخلية للمملكة بدون تغيير تبدلت فى بداية السبعينيات حين ظهر التعاطف الشعبى العربى الهائل مع المقاومة الفلسطينية ثم الإجماع العربى الهائل على الوقوف مع سوريا ومصر فى حرب عام ١٩٧٣، وقد قاد هذا الأسرة السعودية إلى اتخاذ موقف معاد للمعسكر الأمريكى-الإسرائيلى وتبنى سياسة قطع إمدادات النفط عن الولايات المتحدة الامريكية (هناك من يعتقد أن ذلك الموقف الذى قاده الملك فيصل كان وراء اغتياله، ولكن ليس هناك إثبات على ذلك)



المرحلة الثالثة التى اتصفت باتخاذ الأسرة السعودية دوراً نشيطاً فى الصراع العربى - الإسرائيلى، وقد تجلى ذلك النشاط فى مبادرة الملك فهد للسلام التى طرحتها المملكة على القمة العربية المنعقدة فى فاس عام ١٩٨٢. فلقد جاءت تلك المبادرة مع مابدا من ظهور تحديات لشرعية العائلة فى المملكة، إذ شهدت سنوات آخر السبعينيات ظهور تصدع فى التحالف الذى قامت على أساسه المملكة عام ١٩٣٢ بين العائلة السعودية والمؤسسة الوهابية وتجلى هذا الصدع فى حادث احتلال الحرم الشريف فى مكة فى نوفمبر / تشرين الثانى عام ١٩٧٩ الذى انتهى بإعدام قائد المتمردين جهيمان بن محمد بن سيف العتيبى مع عدد من اتباعه. وفى الوقت ذاته ظهر التحدى الذى مثلته الثورة الإسلامية فى إيران وظهور الحركات الإسلامية المعادية للولايات المتحدة. وقد كان من تداعيات تلك التحديات تعاظم قوة اتجاه جديد فى الأسرة السعودية يقوده الأمير بندر بن سلطان (وهو من ظل سفير المملكة فى واشنطن لحوالى عشرين سنة) وكان يرى أن التصدى للتحديات التى تواجهها الأسرة السعودية لا يتم إلا عبر تطوير العلاقة السعودية - الأمريكية إلى تحالف استراتيجى كامل فى كل الشئون السياسية والعسكرية والأمنية والاقتصادية، وأن مثل هذا التحالف لا يتحقق إلا إذا أظهرت السعودية مرونة فى موضوع الصراع العربى - الإسرائيلى. بدت بوادره فى مبادرة الملك فهد للسلام فى مؤتمر القمة العربى فى فاس.

المرحلة الرابعة، التى ابتدأت بعد أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول لعام ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة، وفيها أخذت الحكومة السعودية فى لعب دور قيادى فى تبنى العملية السلمية وفق الرؤية الأمريكية، ففى هذه المرحلة تعرضت الأسرة السعودية لأخطر تحد واجهته منذ تأسيس المملكة. وجاء هذا التحدى من ثلاثة مصادر. الأول من الكونغرس الامريكى، الذى رأى أن الحكم السعودى المتزمت أوجد تربة خصبة لولادة الحركات الأصولية الإرهابية فأخذ يطالب الأسرة السعودية بالقيام بإصلاحات سياسية تفسح المجال أمام الأمراء الشباب الذين تلقوا تعليمهم فى الجامعات الأمريكية لتسلم مهام قيادية فى الحكومة. وكان ذلك يثير قلق الكثيرين من أفراد الأسرة السعودية الآخرين. أما المصدر الثانى فجاء من الحركات الأصولية التى أخذت تقوم بعمليات إرهابية داخل المملكة، وكان المصدر الثالث للتحدى هو نمو ظاهرة المعارضة من أعداد متنامية من المثقفين ونخب الطبقة الوسطى. وفى هذا السياق قام الأمير ثم الملك بتقديم المبادرة السعودية للسلام مع إسرائيل وفق مبدأ الانسحاب الكامل مقابل التطبيع الكامل، كما أخذ يتخذ مواقف من نهج المقاومة فى فلسطين ولبنان ويقود ما أصبح يعرف بنهج «الاعتدال العربى».

يتضح من هذه المراجعة التاريخية السريعة أن السياسة الخارجية لمصر والسياسة الخارجية للسعودية، تجاه قضايا الصراع العربى - الإسرائيلى تطورتا فى نحو شكّل تعبيراً صادقاً عن تطور الأزمة فى نظام حكم البلدين، وفى هذا السياق يتضح أن مقولة المؤلف فى أن نهج «الاعتدال العربى» كان فى الواقع نهجاً أردنياً هى مقولة صحيحة على أساس أن سؤال الشرعية الذى يبدو أنه طرح مصريا فى السبعينيات، ثم سعوديا أواخر الثمانينيات، كان مطروحا فى الأردن قبل ذلك بعقود، بل وربما منذ ولادة الدولة الأردنية ذاتها فى سنة ١٩٢١ لأسباب يراها البعض مرتبطة بشكل عضوى بمتطلبات الرعاية البريطانية للمشروع الصهيونى، ومن هنا نفهم طبيعة المأزق الذى واجهه ملف الكتاب فى الواقع المعاش، فالمعشر، عندما أصبح نائباً لرئيس الوزراء مسئولاً عن قضايا الإصلاح، حاول بجهد وصدق أن يغير من «السياسة الداخلية» فى الأردن حتى تتلاءم مع سياسة الاعتدال الخارجية، الا أن الحقيقة التى فرضت نفسها فى نهاية المطاف تمثلت فى أن سياسة «الاعتدال» الخارجية التى يتحمس لها، كانت فى الواقع تعبيراً عن سياسة «الاستبداد» التى يمقتها ويعمل على تغييرها. «الاستبداد» فى الداخل و«الاعتدال» فى الخارج ما هما إلا وجهان لعملة واحدة.

ربما كان سؤال الشرعية وحده هو ما يفسر إصرار «أمراء السلام» على التمسك بالاستمرار فى العملية السلمية بشكل دائم، ومطلق، على أساس أنها المصدر الوحيد الذى يمنحهم «شرعية» يعتقد ناصحوهم أنها قد تكون كافية لتعويضهم «وضمان استمرارهم».

وربما يفسر هذا ما يبدو أحيانا بحثا دائما ومحموما عن الشرعية فى الخارج، من مؤتمر إلى آخر، ومن مبادرة سلام إلى أخرى.

ويبدو الأمر فى نهاية المطاف، كأننا أمام شخص يعيش فى بلد ما على أساس تأشيرة إقامة مؤقتة. ولذلك فإن من المفروض عليه كلما انتهت صلاحية التأشيرة أن يكرس كل جهده للحصول على تمديد لها لفترة أخرى.

وهنا يبرز السؤال الجوهرى: ما هو اسم البلد الذى يعيش فيه «أمراء السلام» العرب بتأشيرة إقامة مؤقتة.



يستعرض الكتاب النجاحات التى أنجزتها الدبلوماسية الأردنية بصمت،وسمع عنها الناس غالبا على أنها إنجازات دول أخرى



[٣]

من الواضح أن اسم ذلك البلد هو «ميونخ»، بالمعنى السياسى الاصطلاحى للكلمة وليس المعنى الجغرافى.

من المعروف أن مدينة «ميونخ» الألمانية قد اكتسبت، منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر / أيلول ١٩٣٩ مضموناً سياسياً دخل فى قاموس الاصطلاحات السياسية، فعندما يوصف أى «اتفاق سياسى» على أنه «ميونخ جديدة»، فذلك يعنى أن الأيام ستثبت بسرعة أن الطرف القوى فى الاتفاق قد غرر بالطرف الضعيف، وأن النتيجة الحتمية للاتفاق ستكون استمرار الطرف القوى فى الممارسات التى وعد فى الاتفاق أن يتوقف عنها.

ويعود هذا المضمون السياسى لاسم مدينة ميونخ إلى الاتفاق الذى تم توقيعه فى نهاية المؤتمر الذى انعقد فى المدينة فى ٣٠ سبتمبر/ أيلول عام ١٩٣٨، وضم أدولف هتلر عن ألمانيا، وبنيتو موسلينى عن إيطاليا، وادوارد دالادييه عن فرنسا، ونيفيل تشمبرلين عن بريطانيا. ونص هذا الاتفاق على تقسيم دولة تشيكوسلوفاكيا (التى لم تدع إلى حضور المؤتمر) حيث تضم ألمانيا منطقة السوديت، ويتم إجراء استفتاء شعبى لتقرير مصير بقية المناطق، وبذلك وافقت بريطانيا وفرنسا على تمزيق تشيكوسلوفاكيا وإعطاء هتلر كل ماكان يطالب به، مع أن فرنسا كانت مرتبطة بمعاهدة دفاع مشترك مع تشيكوسلوفاكيا.

وعندما عاد رئيس الوزراء البريطانى تشيمبرلين إلى مقره فى ١٠ داونينغ ستريت فى لندن خاطب الجماهير التى أتت لتحيته : «أيها الأصدقاء الكرام، للمرة الثانية فى تاريخنا نعود من ألمانيا إلى داوننغ ستريت بالسلام مع الشرف، إن عصرنا هو عصر السلام» (كانت المرة الأولى عندما عاد رئيس الوزراء البريطانى بنيامين دزرائيلى (١٨٠٤-١٨٨١) من مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨ بمعاهدة السلام).

ولقد وصفت جريدة التايم اللندنية يومها عودة تشيمبرلين بالقول: «.. لم يحدث أن عاد فاتح من ميدان القتال بإكليل غار أنبل من الإكليل الذى عاد به تشيمبرلين من ميونخ». ومن المعروف أن ذلك الإكليل قد تمرغ فى الوحل بعد شهور قليلة من ذلك عندما تبين أن تشيمبرلين عاد من ميونخ بدون سلام وبدون شرف. فهتلر لم يتوقف عند احتلال منطقة السوديت، كما نص اتفاق ميونخ، بل إنه قام فى ١٥ مارس / اذار ١٩٣٩ باحتلال كل تشيكوسلوفاكيا (اى بعد ستة أشهر من مؤتمر ميونخ) وبعد أن انتهى هتلر من ذلك، قام فى ١ سبتمبر/ أيلول ١٩٣٩ بالهجوم على بولندا. وعندها وجدت بريطانيا وفرنسا أنهما مضطرتان لإعلان الحرب على ألمانيا فبدأت الحرب العالمية الثانية. ومنذ ذلك الوقت أخذ اصطلاح «ميونخ» السياسى يتضمن ثلاث نقاط.

الأولى تخص التصرفات السياسية الناجمة عن خداع النفس. فلم يكن هناك أى مبرر لتشمبرلين ودالادييه فى الاعتقاد بان هتلر سوف يلتزم بالاتفاق الذى وقعه فى ميونخ، أو الاعتقاد بأن هتلر قادر على أن يعيش بسلام مع جيرانه. فدالادييه نفسه قال قبل المؤتمر: «إن هدف هتلر الحقيقى هو السيطرة على كل القارة الأوروبية، اليوم تشيكوسلوفاكيا، وغداً بولندا ورومانيا، وعندما يحصل على الزيت والقمح الذى يريده من الشرق سيتوجه نحو الغرب». وقد علق وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا على اتفاقية ميونخ يوم توقيعها بقوله «لقد ضحت بريطانيا وفرنسا بتشيكوسلوفاكيا من أجل السلام، ولكنهم لن يحصلوا إلا على الحرب». والنقطة الثانية هى أن خداع السياسيين الفرنسيين والبريطانيين أنفسهم لم يكن قضية شخصية تخص أصحابها ولكنها كانت تعبيراً عن المناخ العام الذى يعيش فيه البلدان ويتسم بالضعف العام وعدم وجود رؤية قومية واضحة ومحددة فى كلا البلدين، فانهيار حكم تحالف الاحزاب اليسارية (الجبهة الشعبية) فى فرنسا عام ١٩٣٨ وبعد أقل من ثلاث سنوات على قيامه كان دليلاً على ضعف القوى الديمقراطية وتعاظم قوة الأحزاب الفاشية. وكذلك فالوضع فى بريطانيا لم يكن أفضل من ذلك، حيث كان فى صفوف حزب المحافظين من له ميول فاشية واضحة ويرى ضرورة التفاهم مع هتلر وتشكيل تحالف ضد الشيوعية. أما النقطة الثالثة وهى الأهم، فهى أن «ميونيخ» أثبتت أنه من المستحيل التعايش السلمى مع حركات التاريخ السوداء (الفاشية والنازية) حيث إن السلام مع تلك الحركات لا يؤدى إلا إلى تشجيعها على العدوان.

كانت هناك مدرستان الأولى تؤيد قيام دولة فلسطينية، وكان يرعاها الملك حسين وهى على صلات جيدة مع حزب العمال فى إسرائيل، والمدرسة الأمنية التى تعارض قيام دولة فلسطينية، وكان يرعاها الأمير الحسن ولها صلات مع حزب الليكود فى إسرائيل



تلك القوى كرست نهج الاعتدال فى عملية السلام ولم تكرسه فى مشاغل أخرى مثل الحاكمية الرشيدة والرفاه الاقتصادى والمشاركة فى صنع القرارات»



ومن الواضح أن هذه النقاط الثلاث تنطبق، بشكل كامل، على ما أصبح يعرف باسم «العملية السلمية فى الشرق الأوسط». فعندما أقدم أنور السادات على انتهاج سياسة الصلح مع إسرائيل وقفت كل مؤسسة وزارة الخارجية المصرية ضده، فاستقال وزير الخارجية إسماعيل فهمى أحتجاجاً على زيارة السادات للقدس، وبعد ذلك استقال وزير الخارجية، محمد إبراهيم كامل، احتجاجاً على توقيع معاهدة الصلح. والذى يقرأ ما كتبه الرجلان من مذكرات[1] يرى بوضوح أنهما اعتبرا عملية الصلح مع إسرائيل، على أنها بالشكل الذى تمت به، عملية خداع للنفس. وكذلك كان الحال مع ياسر عرفات عندما أقدم على توقيع أتفاقية أوسلو التى اعترف فيها بحق إسرائيل بالوجود دون أن تعترف الأخيرة فى حق الشعب الفلسطينى فى تقرير المصير.. ويكفى قراءة ما كتبه إدوارد سعيد عن ذلك الاتفاق لمعرفة مدى عملية خداع النفس التى مارستها قيادة منظمة التحرير عندما أقدمت على توقيع تلك الاتفاقية[2]. يلاحظ المراقبون أيضا صلة بين كل تلك التطورات وبين الأوضاع الداخلية العربية. فليس صدفة أن الأول قام بزيارة القدس (١٥ نوفمبر ١٩٧٧) بعد أشهر من انتفاضة الخبز فى ١٨ و ١٩ يناير لعام ١٩٧٧. كما أنه ليس من الصدفة أن الملك فهد قام بأول تبنٍ لمبادرة من أجل السلام مع إسرائيل بعد الهزة السياسية التى حدثت فى المملكة بعد أحداث الحرم الشريف فى مكة. وليس صدفة أن ياسر عرفات شرع فى فتح قناة أوسلو للتفاوض السرى مع إسرائيل بعد أن ظهرت قيادات فلسطينية جديدة فى الضفة والقطاع (حيدر عبد الشافى وفيصل الحسينى وحنان عشراوى) التى خشى أن تنافسه على تصدر القيادة.. كما أخذت قطاعات كبيرة من الفلسطينيين فى الضفة والقطاع تلتف حول حركة المقاومة الإسلامية (حماس) التى انطلقت عام ١٩٨٧.

ولكن الأهم من كل ذلك هو أن العملية السلمية برهنت، بشكل قاطع، على أن شهية الحركة الصهيونية للعدوان والتوسع تزداد مع ازدياد عمليات التصالح معها،



تماماً كما برهنت «ميونيخ» على أن شهية النازية للعدوان والتوسع تزداد مع ازدياد التفاهم معها.

إذا أخذنا النشاط الاستيطانى فى بناء المستعمرات اليهودية على الأراضى الفلسطينية كمؤشر على التوسع الصهيونى، فإننا نلاحظ أنه ما بين حرب ١٩٦٧ وزيارة السادات لإسرائيل (١٩٧٧)، كانت عمليات الاستيطان فى الضفة الغربية تتم ببطء وتتمحور بشكل رئيسى حول الاستيطان لأهداف أمنية وعسكرية ودينية. وفى تلك السنوات بلغ متوسط عدد الزيادة فى عدد المستوطنين اليهود السنوى أقل من أربعة الاف فى السنة، وبعد زيارة السادات لإسرائيل، حصل تطور تاريخى إذ أخذ النشاط الاستيطانى يخرج من الإطار الدينى والأمنى ويتحول إلى استيطان مدنى يشمل شرائح مختلفة من المجتمع، كما بدأت الدولة تشرف على وضعه الإدارى والخدماتى وبناء بنيته التحتية، وفى السنوات التى امتدت ما بين زيارة السادات للقدس وبين توقيع اتفاق أوسلو (١٩٩٣) بلغ متوسط الزيادة السنوية فى عدد المستوطنين ما يزيد على ١٤ ألف مستوطن، أى أن فترة السلام مع مصر شهدت ازدياداً فى المتوسط السنوى للاستيطان بأكثر من ثلاثة أضعاف المتوسط السنوى لفترة الحرب. كذلك حصلت نقلة نوعية أخرى فى النشاط الاستيطانى بعد توقيع اتفاقية أوسلو، ففى خلال ستة أعوام من توقيع الاتفاقية تضاعف عدد المستوطنين. اليهود فى الضفة الغربية.

أما من ناحية شهية العدوان الإسرائيلى فى ارتكاب المجازر فيكفى أن نتذكر أن مجازر صبرا وشاتيلا؛ وقانا والحرم الإبراهيمى وجنين وخان يونس وغزة كلها مجازر حدثت فى عهد العملية السلمية.

وهكذا نجد أنه كما فهم هتلر اتفاقية «ميونخ» على أنها ضوء أخضر لممارسة التوسع فى أوروبا، فإن إسرائيل فهمت من توقيع اتفاقية السلام المصرية -الإسرائيلية ثم من توقيع اتفاقية أوسلو على أنهما أضواء خضراء لممارسة التوسع الصهيونى فى الأراضى الفلسطينية. بهذا المعنى يكون العرب المتمسكون بخيار السلام الإستراتيجى مع إسرائيل قد أستوطنوا فى «ميونخ» منذ عام ١٩٧٧ وحتى يومنا الحاضر.

وهو استيطان يستدعى الحصول على تأشيرة تجديد إقامة بين الفترة والأخرى. فكلما أقدمت إسرائيل على عملية توسع استيطانى جديد، أو قامت بتنفيذ عدوان جديد، أو ارتكاب مجزرة جديدة، كلما شعرت حكومات الاعتدال العربى بزيادة عزلتها عن شعوبها وتآكل شرعيتها ووجدت نفسها مضطرة لتقديم تنازل جديد لإسرائيل يضمن لها إستمرار «الشرعية الأمريكية» لمدة أطول.



وهناك شبه آخر بين «ميونيخ» و«العملية السلمية»، ففى الأيام التى تلت التوقيع على اتفاقية ميونخ كانت الجرائد الإنكليزية تصف ما حدث على أنه Appeasement أى «استرضاء» ولم يكن لهذه الكلمة أى مضمون سيئ، إذ كان معناها قريباً من معنى كلمة Compromise أى مساومة، ولكن بعد أن اتضح أن ما حصل فى ميونيخ كان عبارة عن استسلام للعدوان، أصبح لتلك الكلمة مضمون سيئ إذ أصبحت تعنى الاسترضاء على حساب المبادئ وهو تماماً ما حصل مع كلمة «اعتدال» فى اللغة العربية. فقبل العملية السلمية، كان لتلك الكلمة مضمونٌ جيدٌ يعنى عدم التطرف، ولكن ذلك المضمون اختفى فى السنوات الماضية إذ أخذت الكلمة ترمز للتبعية والاستسلام.

وعندما نلاحظ أن بريطانيا وفرنسا لم يستوطنا فى «ميونيخ» إلا سنة واحدة



(من سبتمبر ١٩٣٨ إلى سبتمبر ١٩٣٩) بينما مضى على استيطان حكومات الاعتدال العربى فى نفس المدينة ما يزيد على ثلاثين سنة، فإننا ندرك حجم المأساة العربية.

[٤]

فى رأينا إذن أن «العملية السلمية» فى الصراع العربى - الإسرائيلى: ما هى فى واقع الأمر إلا عملية تقوم بها الأنظمة العربية للحصول على شرعية دولية تعوضها عن الشرعية الوطنية التى تبدو مهددة أحيانا. كما اتضح أن نهج «الاعتدال العربى» ما هو فى واقع الأمر إلا «السياسة الخارجية» التى تحمى وتدعم سياسة الـ «لاتغيير» الداخلية.

وهذه حقائق معروفة للجميع، فلو وقفت على ناصية أى شارع فى أى مدينة عربية، وسألت المارة عن «العملية السلمية» أو عن «نهج الاعتدال العربى» فإن الغالبية العظمى من الإجابات ستأتى معبرة عن ارتباط «الاعتدال» و«الاستبداد» ببعضهما البعض. أما الذين يعملون كمستشارين عند «أمراء السلام» فى العالم العربى فهم الوحيدون الذين لهم آراء مختلفة. وإذا حصل، وتوقف بعض هؤلاء المستشارين ليحاول أن يتعرف على اراء الناس، فإنه يخسر وظيفته ويصبح بلا عمل، أو يحصل، بحكم علاقاته الدولية السابقة، على وظيفة فى إحد المؤسسات الدولية. والواقع أن الأمرين كليهما حصلا مع المؤلف الذى حاول بإخلاص أن يعمل من أجل قضية الديمقراطية ومن أجل قضية الإصلاح والحكم الرشيد فوجد نفسه خارج الأردن وقد حظى بعمل فى فى البنك الدولى.

وهناك كلمة أخيرة تتعلق بثقافة مستشارى «أمراء السلام». فكما قلنا إن معظمهم تلقى التعليم العالى فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، ومن المعروف أن هناك ثلاثة أنواع من الطلبة العرب الذين درسوا فى تلك الجامعات فى سنوات الستينيات والسبعينيات والثمانينيات .النوع الأول هو الذى عاد إلى وطنه وقد اقتنع أو تبنى النهج الأمريكى فى الفكر والسلوك بشكل كامل، والنوع الثانى الذى عاد رافضاً لكل لذلك النهج بشكل مطلق.

والنوع الثالث الذى عاد بوجهة نظر نقدية تتماهى مع ما تمثله إسهام التجربة الأمريكية بالحضارة الإنسانية، وتعادى النهج الأمريكى الذى يراه معبرا عن أيديولوجية الإمبراطورية الإمبريالية .فى الوقت الحاضر. ويبدو أن مؤلف الكتاب الذى بين أيدينا، مثل معظم مستشارى «أمراء السلام» ينتمى إلى الفريق الأول. المقتنع بالمقاربة الأمريكية للصراع العربى - الإسرائيلى، ويراه صراعا بين فريقين يحتاج إلى «عقلاء» من الطرفين لإنهائه، وهو لا يتوقف لحظة واحدة ليحدد ما هى طبيعة الطرف الذى يعتقد أن التوصل إلى السلام معه عملية مقدسة.، فإسرائيل كما هو معروف دولة تستمد شرعيتها. بنظر الغالبية اليهودية فيها من الأيديولوجية الصهيونية، فما هى هذه «الصهيونية» برأى هذا الفريق «المتعقل»؟ هل هى حركة تحرر وطنى؟ هل هى حركة استيطان استعمارى؟ هل هى حركة إنسانية متسامحة؟ هل هى حركة تمييز تمارس يومياً عمليات التطهير العنصرى؟

كيف يمكن أن يدعو المؤلف القارئ إلى العمل على تحقيق السلام مع حركة سياسية بغض النظر عن طبيعة وماهية وبنية تلك الحركة؟

وهناك مثل آخر لتبنى المؤلف لوجهة نظر الامبراطورية الأمريكية. فالمؤلف يصف العمليات الفلسطينية الاستشهادية بأنها عمليات إرهابية. وليس فى ذلك مشكلة.فكثير من أصحاب النوايا الحسنة يشاركونه فى ذلك الرأى. إلا أنه لم يكتف أبدا بذلك. فعلى سبيل المثال، مرةً بعد أخرى، يقول فى معرض حديثه عن المبادرة السعودية للسلام،أنه كان يعارض بشدة منتقدى المبادرة الذين كانوا يصرون على تضمينها حق عودة اللاجئين الفلسطينيين، لأنه يعتقد أن ذلك «من التفاصيل» التى تضعف من قوة المبادرة.

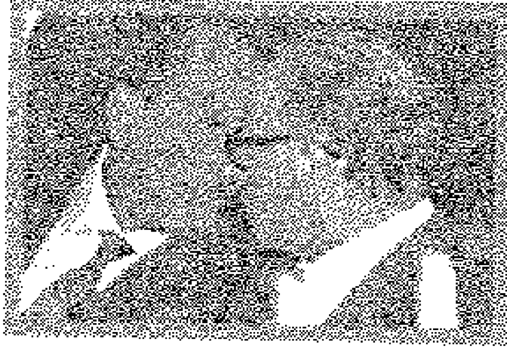
هل حق تقرير المصير لملايين من البشر، هو مجرد تفاصيل؟؟؟

وهناك أمثلة أخرى... كثيرة ■

---

(١) «التفاوض من أجل السلام فى الشرق الأوسط: رؤية عربية» كتاب إسماعيل فهمى و«السلام الضائع فى كامب ديفيد» هو كتاب محمد إبراهيم كامل

(٢) انظر كتاب إدوارد سعيد «غزة - أريحا: سلام أمريكى» (١٩٩٤)



بين ستينية الصراع و ثلاثينية التسوية



محمد بيلي العليمي

١٠ سبتمبر ١٩٧٧ (جتيزبرج - بنسلفانيا - الولايات المتحدة الأمريكية / أثناء مباحثات كامب دافيد): من اليمين الى اليسار: عزرا وايزمان، الياهو روبنشتاين، موشي ديان، بطرس غالي، أنور السادات، محمد كامل، جيمي كارتر، مناحين بيجين، روزلين كارتر، حسن التهامي ثم أليزا بيجن

من الناحية القانونية، تغيرت مرجعيات التسوية أكثر من مرة، تبعا للحالة التى يكون عليها ميزان القوى



على الرغم من مرور ثلاثين عاما على توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، بعد أكثر من ثلاثين عاما من الصراع بين الطرفين، فلم تنته العلاقات بين القاهرة وتل أبيب إلى تطبيع على نحو ما كانت تأمل إسرائيل؛ إذ فى حين كانت المعاهدة ضرورة للمصلحة القومية المصرية؛ بغية استعادة باقى الأرض المحتلة التى لم يكن السلاح وحده بقادر على استردادها، كان الالتزام القومى المصرى تجاه القضية الفلسطينية يقف فى معسكر مواجه للتصرفات العدائية الإسرائيلية حيال جيرانها، وخاصة الفلسطينيين.

ربما كانت الفرصة سانحة لتطور العلاقات المصرية الإسرائيلية بشكل إيجابى خلال ثمانينيات القرن الماضى؛ حيث لم يكن مداد المعاهدة قد جف، وكانت ثمة آمال معقودة عليها من قبل الطرفين، كما كانت عضوية مصر معلقة بجامعة الدول العربية، ما جعل من المنطقى وجود رغبة مصرية فى إثبات رجاحة خيار السلام، غير أن ثمة أحداثا ذات دلالة، نأت بالجانبين عن توقع جنى ثمار سريعة من شجرة السلام، لعل أهمها كان الخلاف الذى أثارته إسرائيل حول طابا واجتياحها لبنان فى يونيه ١٩٨٢، ما أدى إلى استنفار مصرى على المستويين الدبلوماسى والشعبى؛ لرفض توسيع رقعة الصراع العربى الإسرائيلى، ولخوض معركة التحكيم حول طابا، الأمر الذى ما كاد يقارب تمامه حتى اندلعت انتفاضة الحجارة فى التاسع من ديسمبر ١٩٨٧، والتى جذبت تعاطفا شعبيا جارفا فى مصر وبقية العالم العربى.

لذلك كان بديهيا أن لا تفلح العلاقات الدبلوماسية بين البلدين فى إقامة تطبيع سواء على الصعيد الثقافى أو الاقتصادى. فثقافيا، ما زال التيار القومى هو السائد بين أوساط المثقفين المصريين بحكم أن نشأة الدولة فى العالم العربى ارتبطت بالتسويات الاستعمارية، ولم تكن انعكاسا لتنامى شعور قومى كما كان عليه الحال فى أوروبا إبان إبرام صلح وستفاليا عام ١٦٤٨، ونتيجة لذلك فمن الصعب الحديث عن ثقافة معاصرة فى مصر منفصلة عن الثقافة العربية[1] نظرا لأنه وببساطة شديدة لا توجد لغة مصرية، وإنما تشكل اللغة العربية وعاء الإنتاج الثقافى المصرى. وبناء عليه، يتبنى اتحاد الكتاب المصرى، وهو أكبر نقابة للأدباء المصريين، موقفا رافضا للتطبيع، بل وقام بإلغاء عضوية الكاتب المسرحى على سالم صاحب «مدرسة المشاغبين» الذى قام بعدة زيارات لإسرائيل منذ عام ١٩٩٤، كان من تبعاتها عدم عرض أى عمل مسرحى له فى مصر منذ ذلك الحين.

وعلى الصعيد الاقتصادى، يعد التبادل التجارى بين مصر وإسرائيل محدودا، لا سيما فى ظل تواصل الاعتداءات الإسرائيلية على الشعب الفلسطينى، والتى استتبعت انطلاق حملات المقاطعة للسلع الأمريكية والإسرائيلية، بتأثير من المثقفين ورجال الدين. ولم توفق عملية برشلونة التى انطلقت عام ١٩٩٥ فى صهر جبل الجليد بين الدول العربية جنوب المتوسط، وفى مقدمتها مصر، وبين إسرائيل. وعلى الرغم من تشجيع الطرف الأوروبى لإقامة تجمعات إقليمية فى إطار عملية برشلونة، فقد تبلورت استجابة جنوب المتوسط لذلك التشجيع فى اتفاقية أغادير فى ٢٥ فبراير ٢٠٠٤ بين مصر والأردن وتونس والمغرب، ومن ثم لم تستطع إسرائيل الاستفادة كثيرا من عملية برشلونة فى النفاذ إلى الأسواق العربية.

وقد استغلت الولايات المتحدة انتهاء نظام الحصص الذى كان معمولا به فى السوق الأمريكية بحلول عام ٢٠٠٥- والذى كان يمكن بموجبه للصادرات المصرية من المنسوجات والملابس الجاهزة النفاذ إلى السوق الأمريكية معفاة من التعريفة الجمركية فى حدود حصة كمية معينة، كانت تفوق الحجم الفعلى لتلك الصادرات - لتستبدله ببروتوكول المناطق الصناعية المؤهلة (Qualified Industrial Zones QIZ)، الذى وقعته مصر فى ١٤ ديسمبر ٢٠٠٤ مع الولايات المتحدة وإسرائيل، وكان الهدف منه منح ميزة تنافسية من خلال الإعفاء من التعريفة الجمركية وشروط الحصص الكمية لصادرات المنسوجات والملابس الجاهزة المصرية إلى الولايات المتحدة، شريطة أن تحتوى تلك الصادرات على مكونات إسرائيلية، لا تقل عن ١١,٧٪، تم خفضها خلال الربع الأول من العام الماضى إلى ١٠,٥٪.

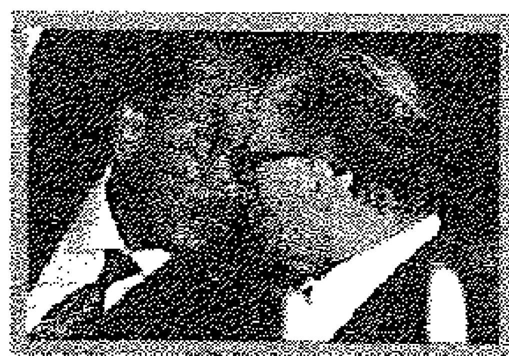


ويمكن القول إن العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإسرائيل ظلت مرتبطة بمجريات الصراع العربى الإسرائيلى وانعكاساته على الشارع المصرى، ما حال دون تطور تلك العلاقات إلى علاقات طبيعية على مختلف المستويات الاقتصادية والثقافية، حيث تظل القضية الفلسطينية بأبعادها الدينية والقومية عامل رفض للتطبيع مع إسرائيل بدون التوصل إلى تسوية شاملة للصراع فى الشرق الأوسط، الأمر الذى لعبت فيه مصر دورا أساسيا من خلال توظيف علاقتها بالولايات المتحدة والقوى الدولية والإقليمية المؤثرة من أجل إنجاح عملية السلام فى الشرق الأوسط، واحتواء أية توترات قد تنشأ فى المنطقة، فيما عبر عنه بجلاء الدور المصرى إبان حرب غزة التى اندلعت فى ٢٧ ديسمبر الماضى، والذى نجح بالتوازى مع الإدارة الأمريكية الجديدة فى التوصل إلى وقف إطلاق النار، ما يدحض ما يقال عن خروج مصر من معادلة القوة العربية، رغم خروجها رسميا من الصراع مع إسرائيل.

وعلى الرغم من أن ثمة معسكرا رافضا لمفاوضات كامب ديفيد كان قد نشأ، فيما عرف بجبهة الصمود والتصدى، التى نجحت فى عقد قمة عربية ببغداد عام ١٩٧٨، قامت بتعليق عضوية مصر بجامعة الدول العربية، ونقل مقر الجامعة إلى تونس، إلا أن الدول الأعضاء بالجامعة لم تلبث أن سعت إلى معاودة فتح مسار التسوية السلمية مع إسرائيل من خلال مبادرة فهد التى أقرتها قمة فاس فى سبتمبر ١٩٨٢ على الرغم من الاجتياح الإسرائيلى للبنان قبل ذلك بنحو ثلاثة أشهر. وحاولت إسرائيل من جانبها استغلال ذلك المسعى من أجل نيل الاعتراف بها من محيطها العربى، والدخول فى علاقات دبلوماسية تنتهى بالتطبيع.

وبالإضافة إلى مصر، تمكن الأردن من عقد معاهدة وادى عربة مع إسرائيل عام ١٩٩٤، فى العام التالى لتوقيع معاهدة أوسلو بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ومن ثم خرج الأردن من الصراع مع إسرائيل، ونشأت علاقات دبلوماسية بين الطرفين. كذلك، فقد قامت موريتانيا بإقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل فى أكتوبر ١٩٩٩، قامت بتجميدها كإحدى نتائج قمة غزة الطارئة بالدوحة فى ١٦ يناير الماضى.

وقد سعت إسرائيل إلى تطبيع علاقاتها بهاتين الدولتين من خلال المشروعات الاقتصادية المشتركة، فضلا عن العلاقة العضوية التى تربط الاقتصاد الفلسطينى بالاقتصاد الإسرائيلى، حيث تعتبر أراضى السلطة الوطنية الفلسطينية سوقا مفتوحا للمنتجات الإسرائيلية، ومنجما للعمالة الرخيصة لإدارة عجلة الاقتصاد الإسرائيلى. وكان الأردن قد سبق مصر فى توقيع معاهدة لإعفاء بعض الصادرات الأردنية إلى الولايات المتحدة من الجمارك، شريطة احتوائها على مدخلات إسرائيلية، كما تم إبرام اتفاق لتنظيم الاستفادة من المياه بين الأردن وإسرائيل. فضلا عن التعاون السياحى بين الطرفين فى منطقة العقبة - إيلات، وكذلك التعاون الأمنى. من جهة أخرى، تسمح الجسور المنشأة على نهر الأردن بالانتقال بين جانبى الحدود، لا سيما للفلسطينيين سواء من الضفة الغربية أو من داخل الخط الأخضر (عرب



بوجه عام، فإن أية تسوية قادمة ستجد إشكالية فى تحديد المرجعية التى ستستند إليها



التساؤل الذى يفرض نفسه هو هل ترغب الأجيال القادمة بالفعل فى السلام؟ سيكولوجيا لا يبدو ذلك



٤٨). وقد نادى البعض بإعلان البحر الميت موقع تراث عالمى ثقافى ومحمية محيط حيوى فى الوقت ذاته[٢] بإدارة مشتركة أردنية فلسطينية إسرائيلية، فيما يعرف بمحميات السلام، والتى يروج لها الاتحاد الأوروبى كآلية للحد من النزاعات بين الدول المتجاورة، على غرار المحمية العابرة للحدود التى أعلنت بين ولاية مونتانا الأمريكية ومقاطعة ألبرتا الكندية عام ١٩٣٢، وتحتفل سنويا بذكرى إعلانها تحت شعار «مصافحة عبر الحدود».

وفيما عدا الحالة الأردنية، فلم يكن ثمة تعاون اقتصادى فعال بين إسرائيل والدول العربية التى ترتبط بها بعلاقات دبلوماسية. حيث لم يقم على سبيل المثال بين موريتانيا وإسرائيل سوى بعض المشروعات الزراعية المشتركة، فضلا عن الخدمات الأمنية، والتى تعتبرها إسرائيل منطلقا للتأثير فى عدد من الدول الإفريقية.

بالتوازى مع ذلك، فقد نشأت علاقات تجارية رسمية (أى تبادل للمكاتب التجارية) بين إسرائيل وأربع دول عربية هى تونس والمغرب وقطر وعمان. وتشترك الأخيرة مع إسرائيل فى مشروع مركز أبحاث لتحلية مياه البحر، بتعاون مع جهات يابانية وأردنية وفلسطينية. وعلى الرغم من إغلاق المكاتب التجارية لهذه الدول الأربع فى إسرائيل إبان اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية (انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠)، إلا أن المشروع العمانى الإسرائيلى لم يتوقف خلال تلك الفترة، كما لم تقم إسرائيل خلالها بإغلاق مكتبها التجارى بالدوحة.

علاوة على ما سبق، فثمة توجهات إسرائيلية إلى إقامة علاقات مع عدد من الدول العربية، لعل من أهمها العراق الذى أصبح منذ حرب الخليج الثالثة ٢٠٠٣ ساحة مفتوحة لمصالح العديد من القوى الدولية والإقليمية، يأتى فى مقدمتها الولايات المتحدة وإيران. وكانت أنباء قد ترددت عن مشاركة الموساد فى تدريب عناصر البشمرجة التابعة لحكومة إقليم كردستان العراق، فضلا عن التواجد الإسرائيلى فى بعض مشروعات إعادة الإعمار فى العراق.

وداخل شبه الجزيرة العربية، فقد اعتبر سماح اليمن بقيام اليهود من أصل يمنى بزيارة اليمن مؤشرا لاحتمال قيام عناصر منهم ببناء قناة اتصال بين تل أبيب وصنعاء. كذلك لا تخفى التوجهات الإسرائيلية بالتوصل إلى إطار رسمى لعلاقة مع السعودية، الأمر الذى حاول أرييل شارون التقاط طرف الخيط فيه لدى إطلاق المبادرة السعودية، التى تحولت إلى مبادرة عربية باعتماد قمة بيروت لها عام ٢٠٠٢. ثم اعتبر البعض إيفاد جامعة الدول العربية لوزيرى الخارجية المصرى والأردنى إلى إسرائيل فى يوليو ٢٠٠٧ لعرض المبادرة التى أكدت عليها قمة الرياض فى مارس من ذلك العام قناة غير مباشرة بين الرياض وتل أبيب بحكم رئاسة الأولى لدورة جامعة الدول العربية خلال تلك السنة. فضلا عما اعتبره البعض قناة اتصال بين إسرائيل والنظام الإقليمى العربى على الصعيد الرسمى، ممثلا فى جامعة الدول العربية.

ويعد مؤتمر حوار الحضارات والأديان، الذى دعت إليه السعودية، وعقد بمقر الأمم المتحدة بنيويورك خلال الفترة من ١١ إلى ١٣ نوفمبر الماضى، محطة لا يمكن إغفالها فى استخدام دبلوماسية المسار الثانى Track ٢ - Diplomacy فى التفاعلات العربية الإسرائيلية: إذ قرأ فيه الكثيرون محاولة لإقامة قناة بين إسرائيل وما كان يطلق عليه دول المساندة (فى مقابل دول المواجهة أو دول الطوق)، من خلال الالتفاف عبر حوار الحضارات - الذى اعتبره العرب بوابتهم للنفاذ إلى دوائر صنع القرار الغربية لدرء الشبهات عن الإسلام، لا سيما فيما بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ - حيث عملت إسرائيل على استغلال هذا المؤتمر إعلاميا إلى حد كبير، فقد صرح الرئيس الإسرائيلى شيمون بيريز بأنها المرة الأولى التى يواصل فيها عاهل سعودى الجلوس والاستماع لكلمة زعيم إسرائيلى. كما وصفت صحيفة «يديعوت أحرنوت» المؤتمر بأنه «لقاء نادر يجمع عبد الله وبيريز».

وقد أشاد الرئيس الإسرائيلى خلال كلمته بالمؤتمر بالدور السعودى فى المنطقة ومبادرة السلام العربية، التى كان العاهل السعودى عبد الله بن عبد العزيز قد طرحها، حينما كان وليا للعهد. غير أن بيريز أردف بضرورة إدخال تعديلات على المبادرة، الأمر الذى فصلته وزيرة خارجيته تسيبى ليفنى، بدعوتها إلى إغفال حق عودة اللاجئين، واعتبار القدس عاصمة أبدية لإسرائيل.



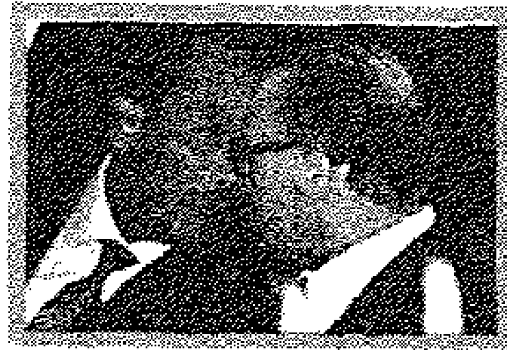
وعلى الرغم مما يمكن أن تلعبه الدبلوماسية بمساريها فى تسوية الصراع العربى الإسرائيلى، إلا أن استشراف ملامح أية تسوية مقبلة، استنادا إلى تتبع مراحل عملية السلام، يبرز عددا من الأزمات، التى ألقت بظلالها على عملية التسوية، وساهمت فى جعل الصراع واحدا من أطول الصراعات السياسية، لعل أهمها أزمة المرجعية التى تعد أبرز عوامل ديناميكية الصراع: إذ أن المرجعيات التى تحكم تعاطى الأطراف المعنية تغيرت على نحو دراماتيكى أكثر من مرة، سواء المرجعيات السيكولوجية والأيديولوجية أو المرجعيات القانونية.

ويعد تغير مرجعيات التسوية أحد انعكاسات تغيير الأهداف المرجوة من التسوية. فلم تكن تلك الأهداف محددة specific، ولا خاضعة لمقاييس للنجاح measurable، وفى بعض الأحيان كانت دوجماطيقية رغم أن الاعتبارات السياسية كانت تقتضى أن تكون دالة function من متغيرات عدة، أهمها ميزان القوى، مع بقاء الثوابت محفوظة. كما أن عدم مراعاة معيار الوقت أدى إلى تغيير الظروف، وبالتالى تغيير شكل الدالة، ومن ثم استمرار حالة عدم التحديد للأهداف.

فالعرب الذين كانوا يصرون على التمسك بفلسطين التاريخية، ورفضوا توطين المهاجرين اليهود، وعارضوا قرار التقسيم، سرعان ما وجدوا أنفسهم حيال أمر واقع فرضته حرب ١٩٤٨، منح إسرائيل أكثر مما منحها قرار التقسيم. وإذ أصر العرب على رفض الاعتراف بذلك الأمر الواقع كوضع قانونى دائم، فإنهم قاموا - مصر على وجه التحديد - نتيجة لنكسة ١٩٦٧ بالاعتراف بإسرائيل لاسترداد سيناء، وحتى لا يتبدد الانتصار المصرى فى حرب المفاجأة فى أكتوبر ١٩٧٣، والتى لم يكن ميزان القوى العسكرى يسمح فيها باسترداد كامل الأراضى المصرية المحتلة عن طريق السلاح، الأمر الذى كان يدركه صانع القرار السياسى المصرى فى حينه، وقرر استكمال الحرب بالعمل الدبلوماسى بغية الوصول إلى تسوية، اعتبرت فرصة نادرة للعرب.

على الجانب الآخر، فإسرائيل التى بنت أحلامها على عودة اليهود إلى أرض المعاد، التى تزعم أن الله وعد بها خليله إبراهيم - عليه السلام - فى العهد القديم، وعلى التوسع المطرد، وعلى حدود تمتد إلى آخر مدى تصل إليه قواتها، اضطرت إلى التنازل عن شبه جزيرة سيناء بأكملها. وبعدما كانت تعتبر الفلسطينيين حفنة من البدو منضوين تحت لواء منظمة إرهابية: اضطرت بعد فشل سياسة تكسير العظام فى قمع الانتفاضة الأولى إلى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية والتعامل معها كشريك فى عملية السلام.

وبينما لم تضع إسرائيل لنفسها دستورا ولم ترسم لتوسعها حدودا، واعتمدت مبدأ بوتقة الانصهار فى استقبال المهاجرين اليهود وتوطينهم دون تحديد دقيق لماهية اليهودى، فقد وجدت نفسها محاصرة فى حدود ديموجرافية، فرضها التوجس من أن يصبح اليهود أقلية داخل دولة ذات حدود متسعة فى ظل الترويج الإسرائيلى لصورة ذهنية، تقوم على اعتبارها واحة الديمقراطية فى الشرق



لم يستطع الثنائى عباس - أولمرت القيام بإنجاز أية تسوية؛ نظرا لافتقادهما إلى تأييد شعبى حقيقى يقبل تقديم التنازلات



الحكومة الإسرائيلية الوحيدة التى تمكنت من التوصل إلى معاهدة سلام جريئة مع العرب كانت الليكود بقيادة مناحم بيجن



فليس ثمة من يملك قرارا بتقديم تنازلات بالنيابة عن الشعب الفلسطينى، متحملا فى ذلك مسؤوليته أمام التاريخ



الأوسط. ويعتبر الهاجس الديموجرافى السبب الرئيس وراء الرفض الإسرائيلى الدائم لعودة اللاجئين الفلسطينيين، كما كان وراء عدم القبول بفكرة الدولة الواحدة العلمانية التى طرحها المفكر الراحل إدوارد سعيد، بل واضطر رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق أرييل شارون إلى إعلان خطة الانسحاب الأحادى من غزة فى ١٨ ديسمبر ٢٠٠٣.

وكان رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود أولمرت، وتحت تأثير الهاجس الديموجرافى أيضا، قد طرح مبادرة عندما كان نائبا لرئيس الوزراء الإسرائيلى، تقوم على الانسحاب الإسرائيلى من قطاع غزة ومن ٨٥٪ من أراضى الضفة الغربية، والأحياء العربية المحيطة بالقدس مثل أبوديس والسواحرة والرام وكفر عقب وضاحية البريد، وإزالة عشرات المستوطنات فى الضفة وعلى المعابر، فى مقابل السيطرة الإسرائيلية على القدس والمستوطنات الكبرى، وأن تكون الدولة الفلسطينية منزوعة السلاح.



من الناحية القانونية، فقد تغيرت مرجعيات التسوية أكثر من مرة، لتكون ميراثا ضخما من القرارات والمبادرات. وغالبا ما كان تجدد المرجعية القانونية يمثل انخفاضا للسقف التفاوضى تبعا للحالة التى يكون عليها ميزان القوى؛ حيث إنه على الدوام، كان ثمة اختلال فى ذلك الميزان كسمة للصراع وحاكم لتفاعلاته. بيد أن ذلك الاختلال كان سببا فى اختبار نظرية طغيان الضعيف Tyranny of Weak، التى أثبت نجاحها فى حالات عدة، مثل حرب أكتوبر ١٩٧٣، وانتفاضة الحجارة، والمقاومة اللبنانية والتى نجم عنها الانسحاب الإسرائيلى من الجنوب اللبنانى عام ٢٠٠٠، الأمر الذى كان يؤدى فى كل من الحالات السابقة إلى إعادة هيكلة الموقف السياسى خارج أطر المرجعيات القانونية، فى سبيل الوصول إلى تطبيق تلك المرجعيات.

وتمثل أزمة الإدراك ثغرة فى تعاطى أطراف الصراع مع متغيراته المختلفة، بل تتعدى ذلك إلى ضبابية فى التمييز بين الثوابت والمتغيرات. كما أن التقديرات الاستراتيجية التى يضعها كل طرف كانت فى بعض الأحيان أسيرة لأزمة الإدراك، الأمر الذى كان يؤدى بطبيعة الحال إلى اشتباك خاطئ wrong engagement. فالتباين فى الإدراك العربى إزاء التسوية مع إسرائيل فى أواخر السبعينيات أدى إلى اضطرار العرب فيما بعد إلى القبول بسقف أدنى للتسوية فى ظل ظروف مغايرة لتلك التى أوجدتها حرب أكتوبر ١٩٧٣ وزيارة الرئيس السادات للقدس عام ١٩٧٧، حيث كانت حرب الخليج الثانية ٩٠-١٩٩١ قد غيرت طبيعة التفاعلات الإقليمية فى المنطقة، بما أدى إلى حالة من التدويل لشؤونها، الأمر الذى ساعد عليه انهيار الاتحاد السوفيتى وبزوغ ظاهرة العولمة.

ويمكن القول إن إسرائيل هى المتسبب الرئيس فى إيجاد أزمة المصداقية تجاه التسوية السلمية، من خلال تصعيد الصراع، وعدم احترام مبادئ القانون الدولى. فمحاولات إسرائيل المستمرة للالتفاف حول المرجعيات القانونية للتسوية وابتداع مرجعيات جديدة وخلط الأوراق أدت إلى إرجاء التسوية من مرحلة إلى أخرى، وبالتالى إطالة أمد الصراع، واستخدام أجيال جديدة وقودا لصراع، بدأه الآباء دونما مبرر يراه الأبناء مقبولا للتضحية بالسلام. ولعلنا لا نبالغ إذا ذهبنا إلى أن جميع الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة منذ انطلاق التسوية السلمية عام ١٩٧٧ ماطلت فى الوصول إلى أية حلول واقعية، وماطلت أكثر فى وضع تلك الحلول موضع التنفيذ. وخير دليل على ذلك الموقف الإسرائيلى من قضية طابا، والتى بت فيها التحكيم الدولى بعودتها إلى السيادة المصرية.

ربما يكون الاستثناء الوحيد ممثلا فى رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق إسحاق رابين، فعلى الرغم من أنه كان أيضا مفاوضا يتسم بالمماطلة، إلا أنه أدرك بحكم خبرته كعسكرى وسياسى استحالة التعاطى مع الطرف العربى بقوة السلاح، وبالتالى فلا سبيل سوى التفاوض والتنازل للحصول على مقابل.

ويرتبط بأزمة المصداقية التى أوجدتها إسرائيل سعيها الدائم إلى تقسيط التسوية وعدم سداد التزاماتها تجاهها دفعة واحدة، والعمل على تغيير ظروف التسوية من خلال إيجاد وقائع جديدة على الأرض. وبالرجوع إلى الأساس الذى بنيت عليه التسوية فى مؤتمر مدريد من تقسيم السلة التفاوضية إلى مسارات، فقد تم الانتهاء من المسار الأردنى، والمماطلة فى المسار الفلسطينى، وتأجيل المسار السورى، ومحاولات خلق مسار لبنانى منفصل، لا سيما بعد انسحاب القوات السورية من لبنان عام ٢٠٠٥.



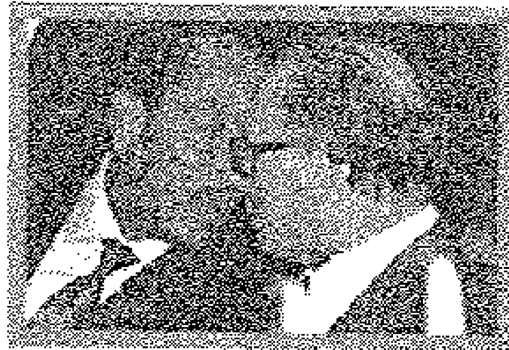
وفى هذا الصدد على وجه التحديد، فثمة اعتقاد بأن إسرائيل تكبدت خسائر أكثر مما أفادت من تأجيل التسوية على المسار السورى اللبنانى؛ إذ أعطى ذلك سندا شرعيا لحزب الله للاحتفاظ بسلاحه فى مواجهة إسرائيل، الأمر الذى كان من تداعياته الانسحاب الإسرائيلى من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠، ما جعل الرأى العام العربى يذهب إلى أن إسرائيل لا تقدم تنازلات إلا إذا ووجهت بقوة السلاح، وعضد ذلك الاتجاه قرار شارون بالانسحاب الأحادى الجانب من قطاع غزة تحت وطأة انتفاضة الأقصى - بالإضافة إلى الهاجس الديموجرافى الذى ذكرناه آنفا.

علاوة على ذلك، فبقاء سورية خارج إطار التسوية السلمية تعتبره دمشق مبررا من منظور تفاوضى لممارسة الضغط على إسرائيل من خلال دعم حزب الله فى لبنان، وحماس فى قطاع غزة؛ بما يشتت الانتباه الإسرائيلى، فى الوقت الذى تعمل فيه إيران على تطوير برنامجها النووى، الذى تراه إسرائيل تهديدا مرتقبا لأمنها القومى.

على الصعيد الدولى، فمن الإنصاف أن نذكر أن إسرائيل برعت فى التسلل إلى وسائل التأثير على صناعة القرار السياسى فى الدول العظمى، منذ ارتباطها بالإمبراطورية البريطانية وحتى تحولها إلى الاستفادة من الولايات المتحدة. ونظرا لما يلعبه الإعلام من دور فاعل فى صناعة الرأى العام، ومن ثم صياغة توجهات النخب السياسية، فقد حرصت إسرائيل على وجود جماعات ضغط موالية لها ذات اتصال وثيق بدوائر الإعلام، الأمر الذى يمكن تجلى آثاره من الربط الإسرائيلى بين الحرب الأمريكية على الإرهاب وعمليات المداهمات والاغتيالات والتوغل التى تقوم بها القوات الإسرائيلية فى صفوف الفلسطينيين، بل إن الأداة الإعلامية الإسرائيلية ساهمت فى نكوص إدارة بوش الابن عن التعاون الذى بدأته إدارة كلينتون مع عرفات، رغم القبول الدولى الذى حظى به الرجل خلال عقد التسعينيات فى أعقاب توقيع اتفاق أوسلو، الذى لم يكتمل تطبيقه إلى اليوم.

ولا تقل أزمة التمثيل خطورة فى عملية التسوية عن أزمات المرجعية والإدراك والمصداقية، لا سيما أنها ترتبط بفكرة الشرعية، وبالتالى الصلاحيات الممنوحة للممثلين السياسيين بصفة عامة، وللمفاوضين بصفة أخص.

وقد وقع العرب فى خطأ تاريخى عندما استسلموا لفكرة إلحاق الضفة الغربية بشرق الأردن، ووضع قطاع غزة تحت الإدارة المصرية؛ حيث ضاعت فرصة مواتية لإنشاء دولة فلسطين على باقى الأراضى العربية التى لم تحتلها إسرائيل عام ١٩٤٨، واضطلاعها بتمثيل الشعب الفلسطينى والدفاع عن قضيته. وتم الاكتفاء بتشكيل حكومة عموم فلسطين، التى مثلها أحمد حلمى عبد الباقى فى جامعة الدول العربية. كما أن ذلك الخطأ التاريخى الذى وقع فيه العرب لم يحل



العرب الذين عارضوا قرار التقسيم، وجدوا أنفسهم حيال أمر واقع فرضته حرب ١٩٤٨، منح إسرائيل أكثر مما منحها قرار التقسيم



إسرائيل التى بنت أحلامها على عودة اليهود إلى أرض المعاد، اضطرت حيال أمر واقع فرضته حرب ٧٣ إلى التنازل عن سيناء بأكملها



ستينية الصراع

دون الاعتداء على الأراضى الفلسطينية، فالغارة الإسرائيلية على غزة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥ لم يتم الرد عليها بشكل حاسم. كما أن عبد الله بن الحسين كان قد أعلن عام ١٩٥٠ ضم قطاع غزة إلى شرق الأردن، لتكتمل المملكة الأردنية الهاشمية، الأمر الذى أحدث فى حينه أزمة داخل أروقة جامعة الدول العربية.

وعندما أريد أن يكون للفلسطينيين ممثل شرعى، فقد قام العرب باختيار أحمد الشقيرى فى القمة العربية الأولى بالقاهرة عام ١٩٦٤، وتم إعلان قيام منظمة التحرير الفلسطينية قيادة معبئة لقوى الشعب الفلسطينى فى المؤتمر الفلسطينى الأول الذى عقد بالقدس خلال الفترة ٢٨ مايو - ٢ يونيه من نفس العام، دون أن يتم تشكيل سلطة وطنية فلسطينية، حتى ولو سلطة حكم ذاتى تحت السيادة المصرية أو الأردنية.

وبين الحين والآخر، فقد كان ثمة انتقاد يوجه إلى المنظمة، يقوم على اعتبارها كيانا يمثل فلسطينيى الخارج الذين كانوا يعيشون فى مصر ودول الخليج، ويمارسون أعمالا مدنية لا علاقة لها بالسياسة ولا بالعمل العسكرى، ولا يعايشون الظروف التى يعيشها فلسطينيو الداخل. وقد تم استغلال ذلك الانتقاد فى مؤتمر مدريد للسلام الذى تم تدشينه فى أكتوبر ١٩٩١، حيث تم تمثيل الفلسطينيين بمجموعة من فلسطينيى الداخل، ضمت أسماء اشتهرت فيما بعد، مثل فيصل الحسينى وحيدر عبد الشافى وحنان عشراوى، تم إلحاقهم بالوفد الأردنى المشارك فى المؤتمر.

وبعد تأسيس السلطة الوطنية الفلسطينية إثر اتفاق أوسلو، وبتنظيم انتخابات يناير ١٩٩٦، التى جاءت بياسر عرفات على قمة السلطة، بدا أن ثمة تغيرا فى شرعية التمثيل من الشرعية النضالية Legitimacy of Struggle إلى الشرعية الانتخابية Legitimacy of Election، غير أن تلك الأخيرة عانت من أزمة تمثيل أخرى داخل صفوف السلطة ذاتها؛ نتيجة ضغوط الإصلاح المزعوم، التى مارستها إدارة بوش الابن على عرفات، وكان هدفها البارز تعيين رئيس وزراء للسلطة الفلسطينية، وتفويضه صلاحيات التفاوض مع إسرائيل، فى ظل أدلجة الإدارة الأمريكية السابقة للصراع العربى الإسرائيلى من منظور الحرب على الإرهاب، ونجاح آلة الدعاية الإسرائيلية فى توصيف عرفات للرأى العام الأمريكى على أنه إرهابى، لا يصلح شريكا فى عملية السلام.

الأمر تغير بعد رحيل عرفات؛ إذ بوصول محمود عباس إلى مقعد رئاسة السلطة، اختفت الأصوات المنادية بتطبيق النظام البرلمانى فى السلطة الفلسطينية، وتم التعاطى مع عباس دوليا كممثل شرعى للفلسطينيين، إلا أنه مع فوز حماس فى الانتخابات التشريعية التى تم تنظيمها فى يناير ٢٠٠٦، وقيامها بتشكيل الحكومة الفلسطينية، عاد الجدل من جديد حول الاعتداد بالشرعية الانتخابية المستندة إلى اتفاق أوسلو - الذى ترفض حماس الاعتراف به - أم بشرعية منظمة التحرير الفلسطينية المستندة إلى نضالها التاريخى - الذى سبق مرحلة التسوية السلمية التى انخرطت فيها فتح.

وزاد من حدة ذلك الجدل الفساد الذى استشرى داخل منظمة التحرير، وبخاصة فى صفوف حركة فتح أكبر فصائلها، الأمر الذى عزا معه كثير من المراقبين نتائج الانتخابات التشريعية الأخيرة إلى معاقبة الشارع الفلسطينى لفتح، وليس إيمانه ببرنامج حماس، فى حين ذهب آخرون إلى أن الشعب الفلسطينى انتخب أبا مازن خلفا لأبى عمار أملا فى استمرار مسيرة عرفات، ولما رزئ بخيبة أمل نتيجة تعثر التسوية السلمية واستشراء الفساد الذى طال بعض أبرز وجوه فتح المقربين من عباس، قرر الشارع الإتيان ببديل نظيف اليد، وإن كان أقل خبرة فى المعترك السياسى.

إسرائيل لم تنج أيضا من أزمة التمثيل، فبينما كانت النخبة التى أسست الدولة يسارية بالأساس، بدأ اليمين يكتسب قطاعات من الشارع الإسرائيلى، إلى أن تمكن تكتل الليكود من الفوز على حزب العمل فى الانتخابات العامة التى تم تنظيمها فى مايو ١٩٧٧ على خلفية الفضيحة المالية، التى اضطرت رئيس الوزراء الإسرائيلى آنذاك إسحاق رابين الذى خلف جولدا مائير إلى الاستقالة والدعوة إلى انتخابات مبكرة.

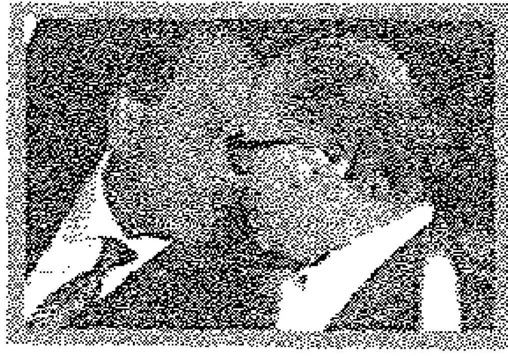
وهذا يقودنا إلى ملمح آخر من ملامح أزمة التمثيل السياسى فى إسرائيل، وهو غياب الثبات الحكومى Governmental Instability؛ إذ غالبا ما يتوجه الناخبون إلى انتخابات مبكرة، فيما يعد ضريبة متوقعة لوجود إسرائيل محاطة بدول معادية، وعدم جدية الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة - إن لم يكن عدم سعيها - فى إنجاز تسوية للصراع العربى الإسرائيلى، على النحو الذى يوفر لإسرائيل الأمن الذى تنشده وتضل طريقه.

كما أن النظام السياسى فى إسرائيل تعرض لصفقات غير معهودة فى النظم الديمقراطية، كما حدث خلال الثمانينيات من تناوب إسحاق شامير (الليكود) وشيمون بيريز (العمل) على مقعدى رئاسة الوزراء ووزارة الخارجية بالتبادل. ومع تباين التوجهات السياسية للرجلين، كان لابد أن يلقى ذلك بظلاله على خطوط السياسة الخارجية الإسرائيلية، ومن ثم على فكرة التسوية.

من جهة أخرى، فثمة أزمة للتمثيل فى الحالة الإسرائيلية، تماثل النزاع بين الشرعية الانتخابية وشرعية منظمة التحرير فى الحالة الفلسطينية، وهى النزاع بين الشرعية الانتخابية وشرعية المؤسسة العسكرية. فالجيش فى إسرائيل هو الذى أسس الدولة، ولم تقم الدولة بتأسيس الجيش كما فى الدول التى تنشأ نشأة تاريخية طبيعية، الأمر الذى استتبع نفوذا متعاظما للمؤسسة العسكرية فى الحياة السياسية الإسرائيلية، رغم بقائه رسميا بعيدا عن الظهور فى المشهد العام فى إطار الديمقراطية البرلمانية التى ينتهجها النظام السياسى الإسرائيلى. كما أن ذلك النفوذ يبدو مستندا إلى تأييد من الشارع الإسرائيلى، الذى يرى فى الجيش حاميه من المحيط العربى، الذى يتم تصويره فى إسرائيل متربصا باليهود مستعدا للفتك بهم.

وعلى سبيل المثال، فسياسى مخضرم مثل شيمون بيريز، الذى يعتبر أبا للبرنامج النووى الإسرائيلى، واجه على مدى حياته السياسية صعوبات فى الوصول إلى مقعد رئاسة الوزراء من خلال انتخابات عامة. وعلى الرغم من قيامه بعملية عناقيد الغضب فى لبنان عام ١٩٩٦، والتى كان من مآسيها البشرية مذبحة قانا الأولى، إلا أنه مع ذلك فشل فى تأمين أغلبية تسمح له بتشكيل الحكومة. غير أن الغريب أن الناخب الإسرائيلى، الذى دائما ما اعتبر بيريز ابنا غير شرعى للمؤسسة العسكرية، نأى باختياراته تماما تلك المرة عن تلك المؤسسة، واختار الدبلوماسى السابق بنيامين نتنياهو زعيم حزب الليكود رئيسا للوزراء.

ويعتبر رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق أرييل شارون بسجله اليمينى المتشدد آخر رجال إسرائيل الأقوياء. وباختفائه من الحياة السياسية، برز تساؤل حول مصير القيادة فى إسرائيل بعد غياب الآباء المؤسسين والقيادات التاريخية. ولعل أولى النكسات التى عانتها إسرائيل جراء ذلك كانت التورط فى حرب غير مدروسة مع حزب الله فى يوليو ٢٠٠٦؛ فى محاولة من القيادة الجديدة للظهور بمظهر الصقور، إلا أن تحمير العين الإسرائيلية أسفر عن استقالة رئيس الأركان دان حلوتس، والإطاحة برئيس حزب العمل ووزير الدفاع عامير بيريتس، واضطرار رئيس الوزراء إيهود أولمرت إلى توسيع ائتلافه الحكومى ليشمل حزب إسرائيل بيتنا اليمينى، وزعيمه المتطرف أفيجدور ليبرمان، الأمر الذى شكل عاملا تردد رئيس فى مواقف الحكومة الإسرائيلية الحالية، حيث إن تكدس



إسرائيل هى المتسبب الرئيس فى إيجاد أزمة المصداقية تجاه التسوية السلمية، بعدم احترامها مبادئ القانون الدولى

إصرار الإسرائيليين على توجيه أصواتهم لصالح اليمين يعكس شعورا إسرائيليا عاما بضرورة الاحتكام إلى القوة فى مواجهة العرب



الهاجس الديموجرافى وراء الرفض الإسرائيلى لعودة اللاجئين، كما كان وراء عدم القبول بفكرة الدولة الواحدة العلمانية التى طرحها إدوارد سعيد



اليمين (إسرائيل بيتنا) واليسار (العمل) والوسط (كاديما) فى حكومة إسرائيلية واحدة اعتبر مفوضا لأية خطوة واسعة قد تتخذها بشأن التسوية السلمية.

فضلا عن ذلك، فاتهامات الفساد التى لوثت سمعة الساسة الإسرائيليين أوجدت حالة من التآمر داخل الكنيست والحكومة الإسرائيلية ذاتها، بل وداخل حزب كاديما، الحزب الأكبر فى الائتلاف الحاكم، على النحو الذى سمح لأسماء جديدة بالظهور بمظهر المنافس كوزيرة الخارجية تسيبى ليفنى. وانتهى الأمر إلى تقديم أولمرت استقالته فى ٢١ سبتمبر الماضى، ومن ثم أضحت الحكومة الإسرائيلية الحالية حكومة تسيير أعمال، وبالتالى أرجئت التسوية إلى أجندة الحكومة الجديدة.

وقد انعكست أزمة التمثيل السياسى، لا سيما على الجانب الفلسطينى، وتأثرت بمجمل التفاعلات الإقليمية خلال المرحلة الراهنة. فالقيادات الفلسطينية أسهمت فى جعل قضية بلادها مزادا للتجاذبات الإقليمية الدولية، من خلال انقسامها الداخلى واستقوائها بالمحيط الخارجى فى خصومتها السياسية، الأمر الذى تبدى من انقسام الأنظمة العربية إلى ما يعرف بمحور الاعتدال ومحور الممانعة، الأول تقوده القاهرة، والآخر توجهه طهران، الأمر الذى ينحى مفهوم العالم العربى لصالح مفهوم الشرق الأوسط، الذى طالما رفضه العرب إبان المد القومى.

ودائما وكما اعتاد العرب من حروبهم المتكررة مع إسرائيل، فإن عدم سقوط النظام يعد مبررا مقبولا للحديث بالانتصار، الأمر الذى عبر عنه خالد مشعل رئيس المكتب السياسى لحماس بعيد حرب غزة، متناسيا كم الدمار الذى أصاب غزة.

ثمة دور لا ينكر للمجتمعات - خاصة فى الدول الديمقراطية، وسواء كانت تلك الديمقراطية مكتملة أو ناقصة - وهو ما يدفعنا إلى القول بقابلية بعض المتغيرات الدولية للتفسير من المنظور السوسيوبوليتيكى. وفى هذه اللحظة التاريخية الحاسمة، قد تبدو إسرائيل قريبة الشبه من الاتحاد السوفيتى السابق، الذى انفجر من الداخل؛ نتيجة تستر القوة العسكرية السوفيتية على كيان مجتمعى هش، وتشوش العقيدة القتالية لدى العسكريين، الذين ألقى بهم فى حرب طاحنة، استمرت عقدا من الزمن دون هدف محدد أو مصلحة حقيقية.

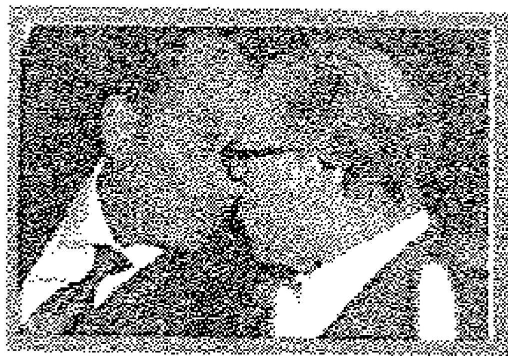
وفى الحالة الإسرائيلية، تبدو الخريطة الاجتماعية فسيفسائية متعددة الأطياف السياسية والإثنية والدينية والمذهبية، على نحو يستحيل معه الإجماع الوطنى إلا فى ظل خطر أمنى، الأمر الذى يشى باستمرار سيطرة المؤسسة العسكرية على الحياة العامة فى إسرائيل؛ انطلاقا من كونها الجهة الوحيدة القادرة على إيجاد التوافق المجتمعى المفقود، إلا أن تلك المؤسسة بدورها تعرضت لحالة من التخدير فيما بعد النتيجة الضبابية التى تمخضت عنها حرب يوليو مع حزب الله، وغياب مصداقية الأهداف التى ترسمها تلك المؤسسة؛ بسبب النتيجة التى تمخضت عنها حرب غزة مع حماس.



من ناحية أخرى، فهوية إسرائيل أصبحت مثار جدل داخل الأوساط السياسية والأكاديمية الإسرائيلية. فدولة الجيش الديمقراطية العلمانية الحاضنة ليهود العالم دخلت فى تيه فكرى، صاحبه تيه مجتمعى، أدى إلى ما يطلق عليه «الخروج الثانى» فى تعبير عن هجرة اليهود من إسرائيل.

واستنادا إلى غياب القيادات التاريخية عن العمل السياسى الإسرائيلى، وكذلك غياب القيادة التاريخية للشعب الفلسطينى، ووجود أمر واقع قائم على كيانين منفصلين فى الضفة والقطاع، فلم يستطع الثنائى عباس - أولمرت القيام بإنجاز أية تسوية؛ نظرا لافتقادهما إلى تأييد شعبى حقيقى يقبل تقديم التنازلات. وإذا كان الأمر واضحا بالنسبة لأولمرت الذى قدم استقالته فى سبتمبر الماضى، وسيغادر مقر الحكومة الإسرائيلية وشيكا، فإن ملامح القيادة القادمة على الساحة الفلسطينية تبدو غائمة. فعلى الرغم من افتقاد عباس للكاريزما التى اكتسبها عرفات على مدى مشواره السياسى - رغم بعض أخطائه التقديرية التى كلفت الفلسطينيين الكثير - إلا أنه على ما يبدو باق فى مكانه، وسيتمكن من الفوز فى أية انتخابات رئاسية قادمة؛ حيث تبدو الساحة الفلسطينية خلوا من أية قيادات بالصف الثانى مرشحة لاستكمال التسوية السلمية بالاستناد إلى تأييد شعبى. فحتى حماس التى عول عليها الفلسطينيون لإنقاذ السلطة الوطنية من الفساد المستشرى مارست السلطة بنهم، عبر عنه الانقلاب الذى قامت به فى يونيه ٢٠٠٧. علاوة على ذلك، فبقية الفصائل الفلسطينية عدا فتح وحماس تبدو محدودة التأثير فى الشارع الفلسطينى، وبالتالى فلا يتوقع أن تفرخ قيادات قوية تحظى بالتوافق، رغم أن منها قيادات وطنية، لا يرقى إليها الشك.

بعض الأسماء يبدو أن ثمة توافقا فلسطينيا حولها، مثل مروان البرغوثى الذى يقبع خلف أسوار السجون الإسرائيلية، وثمة أنباء تتردد عن احتمال إطلاق سراحه. كما أن الدكتور مصطفى البرغوثى أصبح وجها معروفا، يحظى بالاحترام داخل أروقة النظام السياسى الفلسطينى، ويبدو ملما بقواعد اللعبة على الصعيدين الداخلى والدولى، إلا أنه مع ذلك لا يستند إلى قوة قطاع عريض من الشارع الفلسطينى.



الجيش فى إسرائيل هو الذى أسس الدولة، ولم تقم الدولة بتأسيس الجيش كما فى الدول التى تنشأ نشأة تاريخية طبيعية



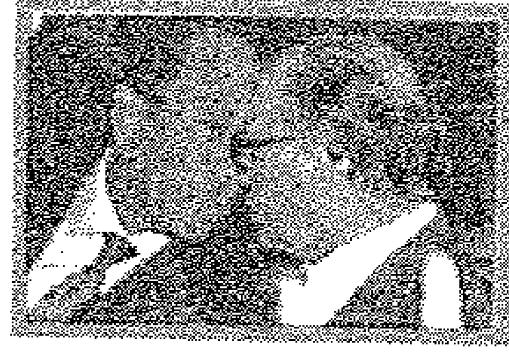
باختفاء شارون من الحياة السياسية، برز تساؤل حول مصير القيادة فى إسرائيل بعد غياب الآباء المؤسسين والقيادات التاريخية



ويغدو الحل للانقسام الداخلى الفلسطينى هو الاحتكام إلى صناديق الاقتراع للخروج من الحالة الضبابية التى نجمت عن تضارب الشرعيات، بإجراء الانتخابات التشريعية الفلسطينية مع الانتخابات الرئاسية خلال العام الجارى، حيث إنه فى ضوء اكتمال حلقتى العنف الداخلى (انقلاب حماس فى يونيه ٢٠٠٧) والخارجى (حرب غزة فى يناير ٢٠٠٩)، فمن المتوقع أن تكون اختيارات الشعب الفلسطينى أكثر وضوحا، على نحو يوجد تجانسا بين مختلف السلطات. فضلا عن ذلك، وإذا كان إصلاح السلطة الوطنية الفلسطينية مطلبا أمريكيا فى أواخر عهد عرفات، فإن إصلاح منظمة التحرير الفلسطينية يعد مطلبا فلسطينيا ملحا؛ فى سبيل إنهاء الازدواجية بين شرعية السلطة وشرعية المنظمة، وبما يمثل سائر القوى الفلسطينية، ويعبر عن موقف فلسطينى واحد إزاء التسوية.

ولكن التساؤل الذى يفرض نفسه هو هل ترغب الأجيال القادمة بالفعل فى السلام؟ وتتوزع الإجابة عن هذا التساؤل على أكثر من صعيد. فسيكولوجيا لا يبدو ثمة تقارب، بل على العكس، تمترس كل من الطرفين فى قلاع الأفكار اليمينية الدينية والقومية. وعلى الرغم مما يروج له الإعلام الغربى من رغبة الشعب الإسرائيلى فى التعايش بسلام مع جيرانه العرب، إلا أن إصرار الإسرائيليين على توجيه أصواتهم لصالح اليمين يعكس شعورا إسرائيليا عاما بضرورة الاحتكام إلى القوة فى مواجهة العرب، وعدم تقديم أية تنازلات من أجل إنجاح العملية السلمية. ولعل هذا يرتبط ارتباطا وثيقا بنشأة أجيال من الإسرائيليين داخل إسرائيل، ومن ثم اعتبارهم إياها وطنا، لا يجوز التفريط بجزء منه، رغم الشعور الدائم بالخطر الوشيك، والذى يدفع الكثير من الإسرائيليين إلى الاحتفاظ بجنسياتهم الأصلية، وربما اكتساب جنسيات جديدة، تحسبا للخروج الثانى الذى تناولناه آنفا.

فى المقابل، فالفلسطينيون منقسمون إلى فريقين، فلسطينيو الداخل، وهؤلاء شعروا بالفعل بالإنهاك جراء ما ذاقوه من صنوف العسف من خلال الحصار والتجويع وما صبته عليهم الآلة العسكرية الإسرائيلية من حمم، فضلا عما نشب بينهم من صراع دام على السلطة. أما فلسطينيو الخارج، فأغلبهم تمكن من شق طريقه فى البلدان التى استقروا بها، ومن ثم لا تمثل لهم العودة إلى ديارهم سوى



ستينية الصراع

قيمة رمزية، ليس إلا. واستنادا إلى ذلك، فليس ثمة من يملك قرارا بتقديم تنازلات بالنيابة عن الشعب الفلسطيني، متحملا في ذلك مسؤوليته أمام التاريخ.

ويبرز هنا التباين بين رؤيتين لمستقبل تسوية الصراع العربي الإسرائيلي، إحداهما تقوم على تجميد عملية السلام، وهو ما كان قد تناوله ريتشارد هاس مستشار الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب في مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs في سبتمبر ١٩٩٦؛ استنادا إلى عجز أطراف الصراع العربي الإسرائيلي عن تقديم تنازلات حقيقية. وقد التقت أصوات عربية مع ذلك الرأي، خاصة تلك الرافضة لعملية التسوية السلمية والمنادية باستمرار النضال المسلح ضد إسرائيل.

ويبدو أن إدارة بوش الابن قد فضلت ذلك الخيار، تفاديا للانزلاق إلى محاولات غير موفقة للتسوية على نحو ما تمثل في مفاوضات كامب ديفيد ٢٠٠٠، التي رعتها إدارة كلينتون، غير أن أحداث ١١ سبتمبر استرعت انتباه الأمريكان إلى المنطقة أكثر من ذي قبل، الأمر الذي دفع الإدارة الأمريكية السابقة إلى طرح خريطة الطريق، متضمنة رؤيتها لحل الدولتين؛ في محاولة لإبقاء شيء من الحياة في العلاقات مع الأطراف العربية بالتوازي مع غزو العراق عام ٢٠٠٣، إلا أنه نظرا لما أبدته تلك الإدارة من عدم جدية في هذا الصدد، فقد دعت توصيات مجموعة دراسة العراق Iraq Study Group، والتي عرفت بلجنة بيكر - هاملتون، الإدارة الأمريكية إلى ضرورة معالجة الصراع العربي الإسرائيلي باعتباره أساس أزمة الشرق الأوسط.

ومع اندلاع حرب غزة، فقد بدا جليا أن إسرائيل ما زالت تقدم لغة القوة على لغة الحوار، وبدا أن الآثار السيكولوجية للحرب لا تنبئ بقبول المفاوض الإسرائيلي تقديم تنازل، كما تتجاوز قدرة المفاوض الفلسطيني على تقديم مثل ذلك التنازل، الأمر الذي تختلف معه الرؤية الأخرى لمستقبل التسوية، والتي تعتبر أن الصراع قد وصل إلى درجة من النضج، مثلتها حرب غزة، بما يجعل أطراف الصراع أكثر رغبة في تسويته.

ومع الاعتقاد السائد بأن وجود حكومة يمينية في إسرائيل سيؤدي إلى تعثر عملية السلام، الأمر الذي خبرته تلك العملية إبان عهد نتنياهو (١٩٩٦-١٩٩٩)، فقد تبدو الرؤية من زاوية أخرى مختلفة تماما؛ إذ أن الخبرة التاريخية أثبتت أن الحكومة الإسرائيلية الوحيدة التي تمكنت من التوصل إلى معاهدة سلام جريئة مع العرب كانت حكومة الليكود بقيادة مناحم بيجن؛ وذلك نظرا لما لدى اليمين الإسرائيلي من رصيد من التشدد لدى الإسرائيليين، بما يستبعد اتهامه بالتخاذل في حال توصله إلى مقاربة للسلام، على العكس من الحكومات التي ليس لديها مثل هذا الرصيد كحكومة أولمرت، التي اضطرت إلى خوض مغامرتين في لبنان ضد حزب الله وفي غزة ضد حماس من أجل ترميم نظرية الردع والظهور بمظهر الصقور، كما أسلفنا.

واستراتيجيا، فقد يبدو مستبعدا تورط إسرائيل في معارك فرعية لمدد طويلة خلال المرحلة المقبلة؛ بالنظر إلى استعدادها لمواجهة ما مع إيران، ما يدفع إسرائيل إلى التمسك بالتهدئة مع الفلسطينيين في حال التوصل إليها، الأمر الذي بالإضافة إلى كونه يساعد على الحد من تصعيد الصراع العربي الإسرائيلي من جهة، فإنه من جهة أخرى قد يدفع إسرائيل إلى اجتراح مقاربة لإبرام تسوية مع سورية؛ بغية إفساح الطريق بين تل أبيب وطهران.

وبوجه عام، فإن أية تسوية قادمة ستجد إشكالية في تحديد المرجعية التي ستستند إليها، إلا أن أيا من المرجعيات التي سيتم اعتمادها لن تتضمن خريطة الطريق التي ولدت مشوهة الملامح، وإن كان حل الدولتين قد لاقى ما يشبه التوافق حوله. وقد يكون وجود إدارة ديمقراطية في البيت الأبيض مؤشرا إلى إمكانية العودة إلى مرجعية مدريد، التي وضعت في أواخر عهد بوش الأب، وبنيت عليها مبادئ التسوية خلال التسعينيات، والتي تتضمن قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ ومبدأ الأرض مقابل السلام. كذلك، فقد يكون ثمة حديث عن المضي على نهج أوسلو، واستكمال مراحل تطبيقها. إلا أنه من المتوقع أن تحاول إدارة أوباما الإتيان بجديد يرسم خطا بين مقاربتها ومقاربة إدارة كلينتون، الأمر الذي يلقي على عاتق العمل الدبلوماسي مهمة التحرك للحفاظ على سقف المطالب الذي تؤمنه أركان مرجعية مدريد الثلاثة.

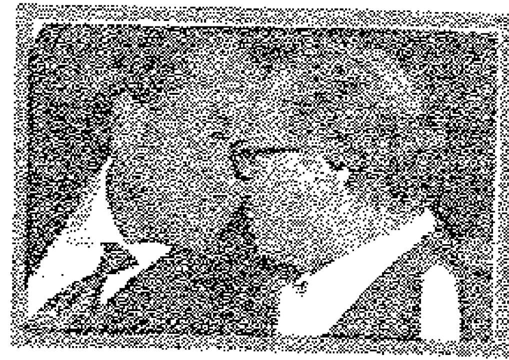


وعلى الرغم من التوافق السياسي حولها، إلا أن ثمة أصواتا ترى أن فكرة الدولتين تبدو اليوم غير قابلة للتطبيق: استنادا إلى كونها نشأت لخلق كيان يقوم بدور مستودع للتضخم الديموجرافي الفلسطيني، يفتقد إلى الأركان التقليدية لقيام الدولة في القانون الدولي. فالدولة الفلسطينية المنتظرة مفتقدة إلى الامتداد الجغرافي: نظرا لتخللها بالمستوطنات الخاضعة للسيادة الإسرائيلية، كما أن السلطة ذات السيادة التي من المفترض أن تقوم ببسط سلطانها على تلك الدولة لا تستطيع من الناحية العملية ممارسة تلك السيادة؛ نظرا لعدم امتلاكها لمقومات الدفاع، وبالتالي اعتمادها على الحبل السري الذي يربطها بالدولة القائمة من الناحية الواقعية، والتي تحتل الأراضي التي من المفترض أن تقام الدولة الفلسطينية عليها.

ومن ثم تستلهم تلك الأصوات، في المناداة بخيار الدولة الواحدة الديمقراطية لجميع أبنائها، التجربة التاريخية على غرار التسوية التاريخية للتمييز العنصري بجنوب إفريقيا. ويمثل هذا الحل تسوية سوسيوبوليتيكية لصراع، كانت أطروحات تسويته في الغالب تدق ناقوس الخطر بالنسبة للاجئين الفلسطينيين، وحقهم في العودة. كما أن هذا الطرح يمثل ضمانا لاندماج الإسرائيليين في المنطقة من خلال تمتعهم بحق المواطنة في دولة تتمتع بعلاقات طبيعية مع جيرانها.

ربما يكون من مزايا حرب غزة أنها قفزت بالتسوية في الشرق الأوسط إلى مقدمة أولويات الإدارة الأمريكية، الأمر الذي اتضح من زيارة الرئيس الأمريكي باراك أوباما خلال اليوم الثاني لممارسته مهام منصبه إلى مقر الخارجية الأمريكية، وتعيين جورج ميتشيل مبعوثا خاصا للشرق الأوسط. كما أكد أوباما في حديثه لقناة العربية في ٢٧ يناير الماضي على أنه لن ينتظر إلى نهاية ولايته للتعامل مع السلام الفلسطيني الإسرائيلي، بل سيبدأ على الفور.

إن ستين عاما من الصراع كفيلة بجعل الشعوب تعيد النظر في أسبابه، وتبحث جديا عن أسباب للالتقاء والتفاهم، تسهم في بناء السلام، والانطلاق إلى آفاق التنمية. غير أن استمرار الصراع في الوقت ذاته يولد حالة من الاستنفار المستمر، تدفع إلى رسم أبعاد سوسيولوجية بل وسيكولوجية للصراع، وبالتالي إيجاد فرصة ذهبية للمتطرفين من جميع الأطراف لتوجيهه على النحو الذي قد لا يكون في مصلحة أي منهم. إن إدراك أن القوة لن تكون الوسيلة الناجعة لحسم الصراع سيكون أول مفاتيح التعاطي معه من أبعاد جديدة واكتشاف آفاق للتسوية بعيدا عن لغة السلاح. ※



الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠، جعل الرأي العام العربي يذهب إلى أن إسرائيل لا تقدم تنازلات إلا إذا ووجهت بقوة السلاح



إيفاد جامعة الدول العربية لوفد إلى إسرائيل في يوليو ٢٠٠٧ اعتبر قناة اتصال بين إسرائيل والنظام الإقليمي العربي على الصعيد الرسمي



---

(١) هذا لا يتنافى مع استناد الثقافة في مصر إلى تراث متراكم من العصور التي سبقت الفتح الإسلامي واستقرار العرب في مصر؛ وذلك نتيجة ظهور مصر (كحالة خاصة في العالم العربي) كدولة ذات سيادة منذ قام مينا (نارمر) بتوحيد القطرين.

(٢) تتبع مواقع التراث العالمي الثقافي والطبيعي الاتفاقية الدولية لصون التراث العالمي الثقافي والطبيعي التي اعتمدها المؤتمر العام لمنظمة التربية والعلوم والثقافة التابعة للأمم المتحدة (اليونسكو) عام ١٩٧٢، في حين تتبع محميات المحيط الحيوي برنامج الإنسان والمحيط الحيوي (الماب) Man and Biosphere (MAB)؛ والذي كانت اليونسكو قد أنشأته عام ١٩٧١.

مهمتى فى إسرائيل!



سعد مرتضى



سعد مرتضى مع شارون على طاولة عشاء

■■ كيف استقبلوك فى إسرائيل؟ كيف تعاملت معهم وكيف عاملوك؟ أسئلة كثيرة من هذا النوع كان أصدقائى ومعارفى فى مصر، ومن العالم العربى، يوجهونها إلىَّ، ويضيف البعض.. «لا بد أن المهمة كانت شاقة.. فالمعروف عن اليهود أنهم متشددون وفيهم خشونة..».

وكما قلت فى البداية كانت هذه الأسئلة تنم عن التعطش لمعرفة الكثير عن هذه الدولة وهذا الشعب الذى باعدت بيننا وبينه الحروب المتواصلة فى السنوات الماضية، كما تدل على الرغبة الملحة فى معرفة ما إذا كان هؤلاء الذين سالمناهم - رغم كل العقبات والصعاب - يبادلوننا «مشاعرنا» ورغبتنا فى السلام.

والإجابة على ذلك تستلزم شيئا من التفصيل قد لا يكون هنا مجاله، ولكن الذى لا شك فيه أن المجتمع أو الشعب اليهودى بأسره يود أن يعيش فى سلام مع الدول العربية المحيطة به.. إنها ليست فقط رغبة، بل هذه أمنيته التى يأمل أن تتحقق ولو بعد سنين طويلة.. وهل يوجد شعب لا يريد السلام.. ألا يريد العرب بدورهم أن يعيشوا فى سلام؟ ولكن ثمن السلام هو الذى نختلف عليه.. فالعرب يريدون استعادة حقوقهم فى فلسطين ويتمسك شعب إسرائيل، ليس فقط بما يؤمن به من تاريخ ودين وحقه فى «أرض إسرائيل»، بل وأيضا بنتائج الانتصارات العسكرية التى حققها.. العرب يريدون استرداد كل الأرض والممتلكات المفقودة، وإخراج قوات «العدو الصهيونى» من أرضهم.. من خلال أعمال المقاومة والفدائيين الذين يسمونهم فى إسرائيل إرهابيين.. ومن خلال المفاوضات غير المباشرة تحت مظلة دولية.. وعن طريق المؤتمرات الدولية التى تحضرها الدول الكبرى.. ولكنهم فى إسرائيل يريدون الاحتفاظ بكل - أو ببعض - المكاسب مقابل السلام.. والسلام الدافئ الذى يتضمن تطبيعا كاملا للعلاقات، وإلا فإن قواتهم المسلحة قادرة على فرض السلام «البارد».. مع بعض التضحيات!!

أعود بعد ذلك إلى المجتمع الإسرائيلى، وكانت أول فرصة لى للالتقاء مع أعداد كبيرة من الإسرائيليين خلال حفل أقامته جمعية «آل سام» التى تكافح انتشار المخدرات فى المجتمع، وتلقيت دعوة من السيدة سالى لويس حرم السفير الأمريكى صمويل لويس، وأقيم الحفل فى القاعة الكبرى للاحتفالات فى فندق هيلتون تل أبيب، وبلغ عدد الحاضرين أكثر من خمسمائة شخص.. وكان قد مضى أسبوع واحد على وصولى إلى إسرائيل.

ولم أكد أقترب من مدخل القاعة حتى تدافع الكثيرون نحوى بعد أن تعرفوا علىَّ من الصور التى نشرتها الصحف والتليفزيون، ومن رجال الأمن الإسرائيلى المحيطين بى، كلهم يمد يده ويريد مصافحتى.. وتجاذبنى عدد آخر ليعبر عن سروره وترحيبه بسفير السلام.. وقدم البعض نفسه على أنه من مواليد القاهرة.. لقد عاشوا فى مصر قبل الهجرة إلى إسرائيل وكانت مصر طفولتهم وصباهم وحياتهم السعيدة الأولى قبل أن يتفجر الصراع العربى الإسرائيلى وخاصة بعد سنة ١٩٦٧.

لقد فاق هذا الترحيب ما كنت أتصور، وتأثر بعض هؤلاء اليهود المصرى المولد، وأذكر أن رجلاً متقدم السن منهم تشبث بذراعى إذ غلب عليه الانفعال حتى جذبته ابنته برفق بعيداً عنى.. كنت بالنسبة لهم حلما تحقق!

ودخلت إلى القاعة واتخذت مكانى على مائدة طويلة ضمت السفير الأمريكى وزوجته، وجلست عن يمينى السيدة «آراما خنيس» رئيسة الجمعية فى ذلك الوقت، وجلس معنا بعض زملائى فى السفارة المصرية وآخرون من أفراد المجتمع الإسرائيلى.. ولم أكد أجلس حتى أحاط بى عدد كبير من المدعوين وقفوا خلفى، كلهم يريد أن تؤخذ له ولأسرته أو أصدقائه صورة معى (ولا شك أنها كانت فرصة مريحة للمصور الذى كان يحمل كاميرا «بولارويد»)، ويتقدم كل منهم بصورته.. حتى أوقعها على سبيل

للاستزادة:
مهمتى فى إسرائيل
سعد مرتضى
القاهرة - دار الشروق ٢٠٠٨ - ٢٣٤ صفحة

لقد أمضيت سنوات طويلة فى خدمة السلك الدبلوماسى المصرى قبل سفرى إلى إسرائيل. ولم أر خلالها مثل هذا الترحيب وتلك الحفاوة بأى شخص آخر..



التذكار! ولا أذكر عدد الصور التى وقعتها ولكن حرم السفير الأمريكى قالت إننى لا بد وقعت ما يقرب من مائة صورة فى تلك الأمسية!

كانت الحفاوة والترحيب غير عاديين، وخلال الحفل أشار مقدم البرامج إلى وجودى، وصفق الحاضرون إعرابًا عن فرحتهم بالسلام مع مصر، وطُلب منى إلقاء كلمة قصيرة فعبرت عن شكرى وتقديرى لهذه الحفاوة البالغة التى اعتبرتها دليلاً على ترحيبهم بالسلام بين مصر وإسرائيل، وقلت إننى أعتبر شخصى تجسيدًا لهذا السلام.

لقد أمضيت سنوات طويلة فى خدمة السلك الدبلوماسى المصرى قبل سفرى إلى إسرائيل، ولم أر خلالها مثل هذا الترحيب وتلك الحفاوة بأى شخص آخر.. ولم يقتصر ذلك على تلك الحفلة بل إننى كلما دخلت مطعمًا يتعرف الحاضرون علىَّ ويعرض صاحبه أحيانًا أن أكون ضيفه وأعتذر شاكرًا، وأذكر أننى دخلت مطعم فندق هيلتون تل أبيب فى صحبة وفد من الصحفيين المصريين للعشاء، وصفق الحاضرون عند رؤيتى، مما أدهش الصحفيين وجعلوا يتساءلون عن سبب ذلك الاهتمام وتلك الحفاوة.. وربما كان فيما تقدم إجابة شافية لمن سألنى كيف استقبلنى شعب إسرائيل، ولقد تكررت مظاهر الترحيب، وكنت أشعر بهذا «المركز المتميز» طيلة فترة عملى فى إسرائيل.



وكان ذلك الاهتمام بسفير مصر يبدو حتى فى الشارع، عندما تتوقف سيارتى عند أضواء المرور، فيحدق أصحاب السيارات المجاورة لى ويحيوننى، وترفع بعض الأمهات أطفالهن ليشاهدوا سفير مصر، وكأن هؤلاء الأطفال يدركون أهمية ذلك.. ولكنها الفرحة الشعبية العامة فى إسرائيل بالسلام مع مصر.. لقد أصبحت إسرائيل أخيرًا «مقبولة» من أكبر دولة عربية مجاورة.

كذلك حرص الكثيرون على التعرف بى كلما أتيحت لهم الفرصة.. ودعيت إلى منازل كثيرة وكنت ألبى الدعوات كلما أمكن، حتى أتعرف من خلال لقاءاتى على هذا المجتمع الذى يريد أن يبدد الصورة السابقة عنه فى أذهان المصريين من أنه «العدو الصهيونى».. ولقد حرص كثيرون على دعوتى إلى مصانعهم أو المتاجر الكبرى والمستشفيات ودور الصحف.. وتعرفت خلال هذه اللقاءات على عدد كبير من الإسرائيليين.

وكان طبيعيًا أن تنشأ صداقات بينى وبين بعض الأفراد أو العائلات فى إسرائيل، بعيدًا عن مجال العمل الرسمى، ومع ذلك كانت بعض الأحاديث تتعرض لنواح سياسية أحيانًا، لأن الشعب هناك، مثل سائر الشعوب الواعية، يهتم بكل ما يدور حوله.. كنت أرى بعض شباب هذه الأسر يميل إلى التطرف، ويؤيد أحزابًا مثل «هتحيا» التى تعارض التخلى عن سيناء والمستوطنات حتى بعد السلام.. إن تطرفهم الدينى أو السياسى يدفعهم أحيانًا للاعتقاد بأن سيناء ليست مصرية.. وأن إسرائيل استولت عليها فهى لها «بحق الفتح»! ولم تكن كثير من الأسر تشارك أبناءها تطرفهم بل كانت سعيدة بالسلام وترى فى إعادة سيناء لمصر ثمنًا معقولاً، وتتمنى لو تم السلام مع الدول العربية الأخرى ولو بثمن مماثل!!

مع اليهود فى أعيادهم

كنت لا أزال مقيمًا فى فندق هيلتون تل أبيب عندما حان عيد الفصح فى شهر إبريل سنة ١٩٨٠، وفى المساء شاهدت زحامًا غير عادى، والرجال والنساء يرفلون فى أفخر ملابسهم، ويحرصون على الاحتفال بعيد من أهم أعيادهم. ويحضر الكثيرون ممن يقيمون خارج إسرائيل لزيارة أهلهم وأقاربهم فى هذا العيد الذى يحيى ذكرى «العبور» Poss Over، عندما عبر موسى بقومه من مصر إلى سيناء. ويحتفل اليهود فى هذا العيد بتحررهم من «العبودية التى فرضها فرعون مصر على بنى إسرائيل»، كما تقول صلواتهم فى كتاب «الهاجاداه»، وبعد أربعين عامًا فى شبه الجزيرة المصرية، وصلوا إلى أرض الميعاد، لكن موسى لم ير هذه الأرض أبدًا، لأن الله لم يكن راضيًا عنه تمامًا.

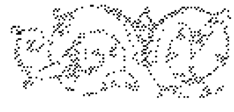
فى هذا العيد دعانى المستر شيمون بيريز، رئيس وزراء إسرائيل الحالى وكان فى ذلك الوقت زعيمًا لحزب العمل المعارض، لحضور الحفل فى مسكنه، وهو شقة تتضمن وسائل الراحة مع البعد عن أى ترف. واجتمعت أسرته كبارًا وصغارًا حول مائدة طويلة وضع عليها طعام خاص بالغ التقشف ومذاقه لا يشجع على الإقبال عليه بشهية، حتى يذكرهم بأيام المعاناة التى مروا بها قبل الخروج من مصر. (ويأكلون خبزًا خاصًا غير متخمر يسمى «الماتزا»..).

وتلا رب البيت جزءًا من كتاب «الهاجاداه» الذى يروى قصة الآلام التى





كنت أشعر بهذا «المركز المتميز» طيلة فترة عملى فى إسرائيل



عاناها اليهود على أيدى «المصريين»، ثم طلب إلى أحد أفراد الأسرة أن يقرأ جزءًا آخر وهكذا حتى يشترك الجميع فى القراءة، وينشدون بين القراءة والأخرى فقرات تكرر تلاوتها.. وكرب بيت مجامل اعتذر لى المستر بيريز عما فى تلك الصلوات من إساءة للمصريين وقلت له إننى لا أمثل مصر الفراعنة، ولكننى أمثل مصر الحديثة! ولاحظت أن جميع الحاضرين من الذكور يضعون على رءوسهم غطاء الرأس اليهودى المعروف باسم «الكيبا» كما تقضى التقاليد اليهودية فى كل المناسبات الدينية.. وفى اليوم التالى نشرت إحدى الصحف رسمًا كاريكاتوريًا يمثل المستر بيريز وعلى رأسه الكيبا.. ويمثلنى إلى جواره وعلى رأسى «الهرم» على شكل «كيبا»!!

وفى عيد رأس السنة العبرية، أقام رئيس الدولة إسحاق نافون الحفل السنوى المعتاد، ودعا إليه رؤساء البعثات الدبلوماسية، وألقى عميد السلك الدبلوماسى، وكان سفير دومنيكا، كلمة باسم زملائه، تحية لرئيس الدولة وللشعب الإسرائيلى فى هذه المناسبة. وأجابه رئيس الدولة بكلمة شكر وأشار خلالها إلى أن هذه هى المرة الأولى التى يحضر فيها سفير مصرى هذا الحفل.

ثم مر رئيس الدولة أمام السفراء لمصافحتهم وتوقف عند بعضهم ليدلى بكلمة تنم عن تقديره، وتوقف أمامى وكلفنى أن أبلغ الرئيس السادات تحياته.

كان ممثلو الإعلام الإسرائيلى ينقلون هذا الحفل إلى الجمهور وطلبوا أن أوجه كلمة تهنئة لشعب إسرائيل بمناسبة العام العبرى الجديد سنة ٥٧٤٢ (والمفروض أن هذا هو عدد السنين التى مضت منذ خلق الله آدم)(١). وهو عيد دينى يحتفلون فيه بالصلوات فى المعابد وينفخون فيه فى «الشوفار»، وهو نفير من قرون الكباش.

ويرتبط يوم كيبور (عيد الغفران) فى ذهنى بذكرى حرب أكتوبر.. وفى أول عيد للغفران قضيته فى إسرائيل شاهدت الكثيرين يصومون عن الأكل والشرب لمدة ٢٤ ساعة، من مغرب اليوم السابق حتى غروب شمس يوم كيبور. وعرفت أن التعاليم اليهودية تعتبر الليل سابقًا للنهار، ويحسبون الشهور وفقًا للنتيجة القمرية. ويتوجه اليهود إلى المعابد سعيًا على الأقدام، ويضع الرجال على منكبيهم «الطالى» وهو عبارة عن شال أبيض عليه خطوط سوداء. ويمتنع على الجميع فى إسرائيل (بمن فى ذلك غير اليهود) استخدام السيارة، وإلا تعرض المخالف للقذف بالحجارة. باستثناء سيارات الخدمة العامة مثل الشرطة والإسعاف والحريق.

وأذكر أننى فى السنة الثانية لوجودى فى إسرائيل، وفى عيد الغفران، اضطررت للتوجه إلى السفارة التى تبعد كثيرًا عن دار السكن، فما كان من حراس الأمن الإسرائيليين إلا أن وضعوا مصباحًا أزرق مثل مصابيح سيارات الشرطة، فوق سيارتى، وهكذا تمكنت من الوصول إلى السفارة وأداء عملى فى يوم الغفران.



ويحتفلون فى شهر ديسمبر بعيد النور أو «الهانوكا»، إحياء لذكرى انتصار «جوداس مكابيوس» على أنطاكيوس الرابع «السورى» وإعادة بناء المعبد فى القدس سنة ١٦٥ قبل الميلاد. ويستمر العيد ثمانية أيام، يشعلون خلالها «المينورا» وهى شمعدان ذو ثمانية فروع، رمزًا لمعجزة تروى اشتعال مصباح زيت صغير لمدة ثمانية أيام.. وقد اختارت إسرائيل شعار «المينورا» الذى يوضع على كل أوراقها الرسمية.. كما يحتفلون بعيد «البوريم»



مهمتى فى إسرائيل!

الذى يرمز لذكرى خلاص اليهود من المذابح على يد الأشوريين فى إيران ويتلون فيه كتاب «استر» التى خدعت زعيم الفرس وخلصت شعبها.. كما يرتدون ملابس تنكرية.

أما عيد «السوكوت» أو عيد الأسواق. الذى يرمز للاحتفال بجنى المحاصيل الزراعية فيتوجهون بالشكر لله على ذلك، وتقيم كل أسرة خيمة من الخوص، يضيئها البعض ليلاً بمصابيح، ويفرح الصغار بهذا العيد ويقضون أوقاتا طويلة فى خيمتهم، ملوحين بالسعف Luiav الذى يذكرهم بالخيام التى أقاموها فى سيناء بعد خروجهم من مصر وقبل وصولهم إلى «أرض إسرائيل».. وفى نهاية الأيام السبعة للعيد، يحتفلون «بفرحة التوراة» رمزًا للانتهاء من قراءة التوراة.

ولليهود من شمال إفريقيا عيد خاص يسمى «الميمونا» نسبة إلى الفيلسوف اليهودى المغربى المعروف «ابن ميمون»، وقد دعيت فى السنة الأولى لوجودى فى إسرائيل إلى هذا العيد الذى يحتفلون به فى القدس (وفى أماكن أخرى) حيث تجتمع حشود من يهود شمال إفريقيا فى حديقة واسعة يقيمون فيها الخيام، ويطهون المأكولات على طريقة أهل المغرب، ويستمعون إلى موسيقاهم فرحين بهذا العيد وفى هذا الحفل حضر رئيس الوزراء السابق المستر بيجن مجاملة ليهود المغرب إذ كان يهتم بالحصول على أصوات السفاراد فى الانتخابات المقبلة وقتها، وجلس رئيس الوزراء الأسبق على المنصة العالية المعدة له وأجلسنى إلى يمينه، وبين هتافات الجماهير له وللسلام طلب منى المستر بيجن أن أوجه لهم كلمة باللغة الفرنسية، فارتجلت كلمة لتهنئتهم بعيد الميمونا، وتعالت هتافاتهم بحياة مصر والسلام والرئيس السادات، ثم قدموا لرئيس الوزراء جلبابًا وطربوشا مغربيًا إعرابا عن تقديرهم وتأييدهم له.

تل الربيع

كنت أتردد يوميًا طوال مدة عملى فى إسرائيل بين مكاتب السفارة الواقعة فى شارع «بازل» فى وسط مدينة تل أبيب، وبين ضاحية كفار شمارياهو حيث تقع الدار التى أسكنها. ولم يكن تعداد سكان تل أبيب يزيدون عن سبعمائة ألف، ولكن شوارعها النظيفة كانت تنبض بالحياة والحركة والنشاط.. فالمقاهى والمطاعم على جوانب الشوارع تزخر بالرواد من الإسرائيليين والسائحين الأجانب، وفى هذه المدينة الصغيرة توجد المطاعم التى تقدم المأكولات من مختلف بلاد العالم: مطاعم فرنسية وإيطالية.. وأخرى روسية أو مجرية.. إضافة إلى المطاعم الصينية. وكنت أتردد بصفة خاصة على المطعم الصينى القريب من منزلى، وكثيرا ما كان صديقى موريس نبين، وهو من رجال الأعمال الذين عاشوا صباهم فى مصر واحتفظ بالجنسية البريطانية، يدعونى للغداء معه فى أحد المطاعم الصينية أو الفرنسية.. ومن بين الأطباق اليهودية التى لم أستسغ طعمها «الجفلته فيش» وهى سمك أعد بطريقة يهود شرق أوروبا.

والمحلات التجارية كانت مليئة بالسلع المحلية والمستوردة، إذ لم تكن إسرائيل فى ذلك الوقت تفرض قيوداً على الاستيراد لكنها كانت ترفع الجمارك على السلع المستوردة بنسبة تجعل المستهلك يفضل ما يقابلها من سلع محلية إن وجدت.

والمكتبات كثيرة فى المدينة ومن أشهرها مكتبة «سيماتسكى» ذات الفروع العديدة فى تل أبيب وغيرها من مدن إسرائيل، التى تضم كل أنواع الكتب بكل اللغات المتداولة. ويقبل الشعب الإسرائيلى كثيراً على الاطلاع والقراءة، كل يختار الفروع المحببة إلى نفسه أو التى تفيده فى عمله. أما المعارض الفنية (الجاليرى) للرسوم والتماثيل المنحوتة والتحف القديمة فكثيرة ولها مستويات فنية مختلفة، والكثير منها ذو مستوى فنى عال يتمشى مع أسعارها .ويقبل الناس على الاستماع إلى الموسيقى سواء كانت الأغانى الحديثة أو الألحان الكلاسيكية الخالدة.. وفى قلب تل أبيب يوجد مركز ثقافى كبير يضم قاعات كبيرة تعزف فيها فرقة الفيلارسونيك بقيادة شخصيات إسرائيلية أو عالمية معروفة مثل نيكاسزوكرمان وزوبن مهتا .وتعرض الأفلام الهامة أو تقام المعارض الفنية المتنوعة. وقد شاهدت أحد الأفلام التى أخرجها بولانسكى، المخرج البولندى الأصل والذى يعيش فى فرنسا، وذلك فى حفل خاص حضره بنفسه وحضرته معه الممثلة الأولى، ودعى إليه مسئولون من إسرائيل من بينهم دكتور إلياهو بن إليسار (سفير إسرائيل الأول فى مصر) كما دعيت لحضور هذا الحفل، وتحدث بولانسكى عن الأيام التى كان اليهودى يلقى الإهانات فى بولنده لأنه يهودى، وأبدى سعادته لوجوده الآن فى إسرائيل.

أما المسرح، وصناعة السينما فى إسرائيل، فلم يصلا بعد - فى رأيى - إلى التقدم والتفوق الذى حققته الموسيقى.. وتوجد أكثر من مدرسة لرقص الباليه الكلاسيك والمودرن، وقد حققت هذه الجهود الفردية مستويات فنية متفوقة، وزرت بعضها وأعجبت بما يبذلونه من جهد تقدره الجماهير.

والناس يسيرون فى شوارع تل أبيب دون اهتمام كبير بأناقة مظهرهم، فالزى الأوروبى رداء الجميع، ويرتدى كل فرد ما يريحه ويناسبه. فى الصيف يرتدون القميص والبنطلون الطويل أو القصير.. والسيدات أيضا يرتدين ملابس الصيف التى تكشف عن الكثير، مما يتباين بشدة مع ملبس السيدات فى الدول العربية المجاورة. ولا يلتفت أحد هناك إلى تلك المناظر فقد ألفتها عيونهم ولم تعد تجد فيها ما يلفت النظر أو يدير الرءوس.

مشيت مرات قليلة فى شارع «ويزنجوف» وهو مركز النشاط التجارى فى وسط المدينة، كما مررت كثيراً فى شارع «هايركون» - المسمى باسم النهر الصغير الذى يخترق تل أبيب - والشارع الأخير يمتد بحذاء شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وشاهدت الشباب يسيرون عليه صيفًا بملابس الاستحمام أحيانًا.. ولكن الشتاء بارد نسبيًا ويرتدون الملابس المناسبة لهذا الفصل ويدفئون المنازل مستخدمين أجهزة التدفئة بالطاقة الشمسية بكثرة تسترعى النظر، ولا يقتصر هذا على تل أبيب وجدها، بل تنتشر كذلك فى كل مدينة أو قرية فى إسرائيل، اقتصاداً فى الطاقة.. إن منظر هذه الأجهزة فوق كل المساكن تقريبا مما تتميز به إسرائيل!

لقد تحرروا فى إسرائيل - صيفًا - من الجاكته ورابطة العنق، حتى وزارة الخارجية الإسرائيلية وزعت منشورا على السفارات الأجنبية يعفى الدبلوماسيين من ارتداء رباط العنق صيفًا عند مقابلة الرسميين فى الوزارة. وأعتقد أن شخصين فقط فى إسرائيل لم يخلعوا رباط العنق فى «عز» الصيف.. إنهما رئيس الوزراء السابق المستر بيجن ووزير الداخلية الأسبق (ووزير الأديان الآن) الدكتور يوسف بورج.

وفى الشهور الأولى عقب وصولى إلى إسرائيل، لم يكن من اليسير أن أتجول على قدمى فى شوارع المدينة دون أن يلفت ذلك أنظار الكثيرين، وخاصة بسبب حراس الأمن الذين كانوا يرافقوننى فى كل مكان.. والمواطن الإسرائيلى يعبر عن مشاعره فى بساطة وتلقائية، فكان بعضهم يتقدم نحوى مادًا يده لمصافحتى قائلاً إنه مواطن إسرائيلى «بسيط» يريد أن يحيى سفير مصر إعرابًا عن سروره وتقديره للسلام وللرئيس السادات، وكان البعض يطلب توقيعى لأنه من هواة جمع التوقيعات.

ولقد أصدرت إحدى الهيئات فى إسرائيل مظروفا وضعت عليه صورة سفيرى مصر وإسرائيل على شكل طابع بريد وذلك بمناسبة مضى عام على تبادل التمثيل الدبلوماسى بين البلدين، وكان الكثيرون يحرصون على الحصول على توقيع السفيرين على ذلك المظروف.

ولاحظ الكثيرون أن وسائل الإعلام فى إسرائيل تنشر عنى الكثير، بل إن بعضهم ذهب إلى حد القول بأن سفير مصر الجديد أصبح محل الاهتمام الصحفى أكثر من السفير الأمريكى.. وكان هذا فى نظرهم منتهى الإطراء لأن السفير الأمريكى فى إسرائيل أهم من أى سفير آخر، بل ومن أهم الشخصيات بصفة عامة، بسبب المركز الممتاز الذى تحتله أمريكا فى إسرائيل.

وقد أثار ذلك حساسية عدد من الإسرائيليين الذين ساءهم أن يحصل سفير مصر على هذا الاستقبال والترحيب، فى الوقت الذى لا يلقى فيه سفيرهم فى القاهرة معاملة مماثلة. كان الدكتور بن إليسار يتمكن من مقابلة «الرسميين فقط.أما المجتمع القاهرى فقد قاطع السفير تقريبا واعتذر عن قبول دعواته، بسبب مواقف حكومة الليكود، فضلاً عن شخصيته الحزبية المؤمنة بمبادئ جابوتنسكى[٢] المتطرفة. وطالب بعض المغالين فى إسرائيل



أما المجتمع القاهرى
فقد قاطع السفير الاسرائيلى تقريبا واعتذر
عن قبول دعواته



حرص كثيرون على دعوتى إلى منازلهم مصانعهم أو المتاجر الكبرى والمستشفيات ودور الصحف..



بوجوب معاملة السفير المصرى بالمثل، لكن الوضع لم يتغير لا فى القاهرة ولا فى تل أبيب!

الاشتراكية الاختيارية فى الكيبوتس

تنفرد إسرائيل بين دول العالم بتطبيق النظرية الاشتراكية على نحو خاص، لا يفرض سيطرة البروليتاريا على المجتمع، إنما يترك الانضمام إلى هذه المجتمعات للاقتناع والاختيار الحر.

ولقد زرت خلال عملى فى إسرائيل عدداً من «الكيبوتس»، مثل «لاقوت هبا شان» و«أشدوت ياكوف» وغيرهما.. ورغم تفهمى لما تستهدفه هذه النظرية من تحقيق العدالة أو المثل العليا، ورغم نجاح «الكيبوتس» فى الإنتاج وقيامه بدور يفوق حجمه، فإننى لم أقتنع بأن هذه النظرية يمكن تطبيقها عملياً على نطاق واسع، بدليل أن هذا النظام لم ينتشر فى إسرائيل..

لقد وجدت أن الحياة فى الكيبوتس ليست طبيعية وإنما هى نمط علمى مرسوم، وقد لا يكون فى ذلك وحده ما يدعو للنقد، ولكن المشاهد أن هذا النمط لا يتمشى مع طبيعة الإنسان أو طموحه الذى هو فى تقديرى أساس كل نجاح عملى..

وتعتز إسرائيل بهذا النمط من المجتمعات التى تضم نحو ١٠٠ ألف إسرائيلى (أقل من ٣٪ من مجموع السكان)، ويعيشون فى نحو ٢٣٠ قرية جماعية فى مختلف أنحاء إسرائيل. ويقوم الكيبوتس على أساس اقتناع فئة محددة بهذه الأفكار الاشتراكية، فهم يسكنون معاً ويتعلمون معاً ويزرعون حقولهم أو يزاولون العمل فى مصانعهم بطريقة جماعية، فلا يملك أحد شيئاً ولا يتقاضى أحد أجراً.. وفيم الأجر، والكيبوتس يكفل لمن يعيش فيه كل احتياجاته المادية من سكن وملبس ومأكل وتعليم وترفيه ورياضة وعلاج!

وتشتمل بعض الكيبوتس على بحيرات صناعية لتربية الأسماك، وحظائر للمواشى والدواجن ومصانع للألبان، ورغم قلة عدد السكان فى الكيبوتس، فإن منتجاتهم الزراعية والصناعية تشكل نسبة عالية من صادرات إسرائيل..

والحياة الجماعية فى الكيبوتس تتمثل فى الأكل فى مطعم واحد كبير يتناول الجميع فيه كل وجباتهم، ويقيمون فى غرف متلاصقة، ويعهد بالأطفال الصغار طوال النهار إلى مشرفة ترعاهم أو إلى مدرسة تعلمهم، قبل أن يعودوا إلى مساكنهم لقضاء الليل مع والديهم.

وللكيبوتس مشرفون ينتخبون من بينهم (سكرتير وأمين صندوق ومشرف على الإنتاج..) ويشكلون لجاناً خاصة لبحث مشاكلهم، ويجتمعون بصفة دورية لاتخاذ قرارات فيما يهمهم من شئون، على صعيد المشاكل اليومية، أو تنظيم العمل.

ويتمتع الكيبوتس بنفوذ كبير فى إسرائيل فى أوساط عديدة: فيحظى الكيبوتس فى الكنيست برعاية حزب العمل، ويؤيد حزب المابام نوعاً آخر من الكيبوتس أكثر التزاماً بالنظرية الماركسية. ومن ناحية أخرى، يعطى عدد قليل من الكيبوتس اهتماماً خاصاً بالنواحى الدينية، وتؤيده الأحزاب الدينية. كذلك للكيبوتس نفوذ فى أوساط الهستدروت (اتحاد عمال إسرائيل) وتلتحق نسبة كبيرة منهم بالجيش، جنوداً وضباطاً، بسبب نشأتهم الخشنة التى تجعل منهم جنوداً غلاظ القلب..

ورغم كل المزايا والضمانات التى يحققها الكيبوتس لسكانه، فإن عدد سكان الكيبوتس فى إسرائيل لم يزد كثيراً منذ إقامة دولة إسرائيل، ومعظم سكانه من الشباب الذين تجذبهم المثل العليا، ولكن بعد التخرج من الجامعة. التى يتحمل الكيبوتس نفقات تعليمه فيها. فإنه يميل إلى العمل بعيداً عن الكيبوتس.. ويعود بعضهم أحياناً إلى الكيبوتس.. وهناك من الكبار من يختار الإقامة فى الكيبوتس عن قناعة، ويقيم المتزوجون منهم فى أماكن توفر لهم أسباب الراحة، وشعار الكيبوتس «من لا يعمل لا يبقى فيه»، وهذا هو «ثمن» الضمانات الاجتماعية التى يحققها الكيبوتس لأعضائه.

وأميرة السلام

عندما عقدت اتفاقات السلام بين مصر وإسرائيل رقص الناس فرحاً فى المدن الإسرائيلية، ورأوا فى ذلك نهاية للحروب وبداية لعهد جديد يسمح بقيام الصداقة.

وفى مصر كذلك، عندما رحبت غالبية الشعب بالسلام مع إسرائيل، كان الاعتقاد السائد أن ذلك سوف يؤدى إلى السلام الشامل والعادل الذى يعيد كل الأراضى العربية المحتلة منذ ١٩٦٧.

ولقد اعتقد البعض فى إسرائيل أن السلام الوليد سوف يتخذ كل مظاهر «الود» مع مصر، وأن أطرافاً عربية أخرى سوف تنضم إلى مسيرة السلام. وتعبيراً عن هذه المشاعر، قام المستر «سلومو كوهين» وهو مهاجر من أصل مصرى بتأليف «جمعية الصداقة المصرية الإسرائيلية».. وشكلت السيدة «ليتانا زامير» المولودة فى حلوان (قرب القاهرة) جمعية أخرى أطلقت عليها «جمعية التفاهم المصرى الإسرائيلى» وفكر المستر «سعديا يوسف» وهو أيضاً ممن ولدوا فى مصر، فى إنشاء «اتحاد يهود شباب مصر».. ولم ينضم مصرى واحد إلى هذه الجماعات.

ومع ذلك كانت اجتماعات هذه الجمعيات تتوالى، وتوجه الدعوات إلى أعضاء السفارة المصرية لحضور حفلاتها، وكنا نلمس أمل هؤلاء الأشخاص ورغبتهم الشديدة فى أن ينضم عدد من المصريين إلى تلك الجمعيات فى ظل السلام، ولكن السياسة الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة كانت عقبة تحطمت عليها كل أمانى التفاهم أو الصداقة.

وفى ظل هذه المشاعر والآمال، تلقيت دعوة من رئيس بلدية حيفا، المستر اريبل جور، الذى أعد لى استقبالا خاصاً وزيارة لمعالم المدينة (التى يوجد فيها المعبد البهائى الشهير ذو القبة الذهبية المتميزة) ومتاحفها البحرية..

وحدثنى المستر جور بشىء من الاعتداد عن زيارة الرئيس السادات لحيفا، وأنه اقترح فى ذلك الوقت على السادات فكرة التآخى أو التوأمة بين الإسكندرية وحيفا، وأضاف أن الرئيس الراحل وافقه على هذا الاقتراح.. وطلب رئيس البلدية منى أن أعيد طرح الفكرة حتى يتم تنفيذها.

وفى جو العلاقات بين البلدين، الذى كانت المواقف الإسرائيلية فى محادثات الحكم الذاتى تعكره، لم يكن هناك أى تجاوب مصرى، واقتصر الأمر على توجيه الدعوة إلى عدد من رؤساء البلديات الإسرائيلية لزيارة مصر، وبعد عودتهم وجهوا بدورهم الدعوة إلى عدد من المحافظين فى مصر لزيارة إسرائيل.. ولكن الفرصة لم تسنح لاتمام تلك الزيارة!

وفى إطار الإقبال الإسرائيلى، غير المتبادل من الجانب المصرى، على إبراز ما تحقق من سلام، أقيمت فى حيفا مسابقة لانتخاب «أميرة السلام»، وحضرت الفتاة الفائزة إلى السفارة المصرية فى تل أبيب، يرافقها بعض منظمى المسابقة، وكانت جائزة الفوز تذكرة سفر بالطائرة من تل أبيب إلى القاهرة مع العودة، قدمتها السفارة. واهتمت بعض الصحف الإسرائيلية بنشر أنباء «الأميرة»، وتكررت المسابقة فى العام التالى وسافرت فتاة أخرى إلى مصر أيضاً.. ولم تنشر صحف القاهرة شيئاً عن المسابقة ولا عن أميرة السلام، باستثناء مجلة اكتوبر التى أشارت إلى ما حدث بإيجاز.

وهكذا توالى الإحباط فى مشاعر الجماهير على الجانبين، فالإسرائيليون مقبلون على السلام والصداقة والتآخى، والمصريون لا يستطيعون تقبل ذلك فى الوقت الذى تستمر فيه حكومة الليكود على متابعة سياستها فى الأراضى العربية المحتلة.. ■

هوامش

(١) لما كان المعروف علمياً أن ملايين السنين قد مرت منذ وجد الإنسان على الأرض فقد استفسرت عن كيفية التوفيق بين العلم والدين فى هذا الأمر، وجاءتنى الإجابة بأن «السنة» فى الماضى ربما كانت بألف سنة (أو يزيد) من السنوات التى نعيشها الآن.

(٢) فلاديمير جابوتنسكى زعيم صهيونى متطرف آمن به بيجن كذلك، وخرج على قيادة بن جوريون.



عندما عقدت اتفاقات السلام بين مصر وإسرائيل رقص الناس فرحاً فى المدن الإسرائيلية



الأسماء والأشياء الثوابت والمتغيرات

تحريف الكلم عن مواضعه

وليد سيف

ستون عاما.. وهل يحيى الإنسان ذكرى آلام مازال السابق منها لم يلد اللاحق، واللاحق منها يحيل على السابق؟ وهل تَجُبَّ المظالم الراهنة المظالم المتقادمة التي هي جذر الراهن وأصله؟

ستون عاما.. والماضي هو الآن: وإذ يبحث الشاهد والشهيد في عمق وجدانه النازف عن كلمات تروي حزنه وغضبه وملحمته، لا يجد الآن بعد ستين عاما أصدق وأحسن من كلمات المعجم الأول.. معجم السنوات الأولى العجاف.. النكبة.. نعم بكل محمولها الدلالي والوجداني والتاريخي الذي شكل وعينا المبكر ورشح في أحلامنا وأغانينا وقصائدنا، وحتى في لغونا وشتائمنا وفوران غضبنا الجامح.. نعم النكبة والوطن السليب وحلم العودة والتحرير، وكل ما أعقب ذلك على مدى ستين سنة، تفاصيل وفروع. ستون عاما.. وليس أفظع من اغتصاب الأرض إلا محاولات اغتصاب التاريخ والرواية.. ولا أشد من التهجير القسري من الوطن، إلا محاولات تهجير الوطن من الذاكرة.. وليس أخطر من الصراع على الأرض إلا الصراع على المعاني.

الأسماء والأشياء

فبالمعاني والمفاهيم يتمثل العالم في وعينا.. والتفاعل الاجتماعي والإنساني ليس ممكنا بغير منظومات المعاني والمفاهيم المشتركة التي نُعرِّف بها الأشياء والوقائع، ونُؤوِّل بها المواقف، ونبني بها روايتنا عما جرى ويجري. فالعالم الموضوعي الخارجي لا ينعكس في وعينا بصورة آلية مباشرة، وبغير وساطة المعاني والرموز الثقافية التي تبتدعها الذات الاجتماعية لتمثيل الموضوع وتعقله. فلو كان الأمر كذلك لما اختلف البشر في فهم الواقع وتأويله وطرق الاستجابة لمؤثراته، ولما تطورت المعارف وتغيرت صورة العالم والأشياء والظواهر في وعينا مع تطور معارفنا ومفاهيمنا وتعريفاتنا، ولما تطور المعجم اللغوي ومحتواه الدلالي الذي يسهم في تشكيل رؤيتنا للعالم والأشياء. ولكن الحاصل أننا في مواقف التفاعل الاجتماعي والإنساني حول الوقائع والأشياء والأغراض نستدعي من مخزون المعاني المشتركة في وعينا ما نسقطه على الموضوع لتأويله وتعريفه وفهمه، وبناء على ذلك تتحدد استجابتنا العملية له في الفضاء الاجتماعي الإنساني. وإذ نصدُر عن نظم المعاني والتعريفات المشتركة في مرجعنا الثقافي العام، فإننا نخلق الإحساس الضروري بأننا ننتمي إلى الهوية الثقافية نفسها والنظام الاجتماعي ذاته، وهو شرط ضروري للاجتماع البشري. على أننا في الوقت نفسه نختلف في أغراضنا ومصالحنا ومقاصدنا جماعات أو أفرادا داخل المجتمع الواحد. كما أننا نتفاوت في ذخائرنا المعرفية على الرغم من المساحة المشتركة من المعاني والمفاهيم. ومن ثم فإن تأويلاتنا وتعريفاتنا للأشياء والوقائع يمكن أن تتضارب بتضارب الأغراض والمصالح والمقاصد. إذ يسعى كل طرف من أطراف التفاعل إلى استدعاء المعاني التي تخدم أغراضه لتعريف الوقائع والأشياء وتأويلها، ويفاوض بصورة مضمرة أو معلنة لفرض تعريفاته وتأويلاته. وفي الظروف العادية لا يكون الخلاف هنا حول المعاني والقيم المشتركة على المستوى النظري المجرد. فلا خلاف على القيمة الإيجابية للشجاعة والكرم والوفاء مثلا، ولا على القيمة السلبية للجبن والبخل والخيانة.

ولكن الخلاف هو في إنزال هذا المعنى أو ذاك على واقعة بعينها وتعريفها به. فما يعرِّفه أحد الأطراف بالشجاعة، يعرِّفه آخر بالتهور، وما يعرِّفه طرف بالكرم، ربما يعرِّفه آخر بالإسراف.. وهكذا، وبذلك يتمكن الفاعلون الاجتماعيون من تحقيق هدفين متعارضين معا في آن:

- الحفاظ على الحس المشترك بالانتماء إلى نفس النظام الاجتماعي كما يتمثل في نظم المعاني والمفاهيم والقيم المشتركة التي يصدرون عنها، من جهة،

- وخدمة تنازعهم على المصالح والأغراض من خلال توظيف معان مختلفة من المرجع المشترك نفسه لفرض تعريفات مختلفة للوقائع، من جهة أخرى.

ولكن التنازع على التعريفات والتأويلات لا يجري بصورة متكافئة. هنا تتدخل علاقات القوة بكل تجلياتها المادية والمعرفية والروحية والسياسية، ليتمكن الطرف الأقوى من فرض تعريفاته وتأويلاته وتوصيفاته على عقول الآخرين. وبذا يتمكن من السيطرة على العقول والأفئدة، وتشكيل نظرتها للعالم وإدارة سلوكها واستجاباتها بناءً على ذلك. هكذا يتشكل خطاب القوة Discourse ورواية القوى Narrative.

المعاني والخطابات بهذا المفهوم ليست مجرد تمثيل للواقع، بل هي الواقع نفسه كما يتمثل في عالم الوعي والتصورات. وتغيب المسافة بين ثنائية الأسماء والأشياء، أو الدوالّ والمدلولات، لتصير الأسماء هي الأشياء بقدر ما تتعرف الثانية بالأولى. وبذلك يكون الصراع على المعاني والخطاب هو الصراع على العقول والمدركات، وهو في آخر المطاف الصراع على امتلاك الواقع وتشكيله.

ولكن خطاب القوة والسيطرة يخلق شرط الإمكان لتشكل خطابات المقاومة، في لحظات تاريخية مفصلية، تتمكن فيها الأطراف المقهورة من التحرر من إكراهات الخطاب السائد وكشف آليات التحكم والسيطرة التي يمارسها. وبقدر ما ينطبق هذا على القوى الاجتماعية في داخل المجتمع الواحد، فإنه ينطبق على العلاقة بين الثقافات والمجتمعات،



الصراع على المعاني والخطاب هو الصراع على العقول والمدركات، وهو في آخر المطاف الصراع على امتلاك الواقع وتشكيله



بترتيب خاص مع مركز الجزيرة للدراسات - الدوحة

وبخاصة فى هذا العصر: عصر العولمة والمعلومات والاتصالات والاعتمادية المتبادلة والنظام الدولى وهيمنة الإمبراطورية الأمريكية الشاملة.

تحريف الكلم عن مواضعه

ستون عاما.. ولم يتحقق حلم التحرير والعودة، ولم تتحقق بعد حزمة الأحلام العربية الأخرى التى تحيط به وتتشابك وتتشارط معه: الوحدة والتحرير والنهضة والعدالة والديمقراطية بوجهيها الاجتماعى والسياسى. ولكن الأخطر من عدم تحقق الأحلام فى الواقع هو المحاولات المنظمة لمصادرة الأحلام نفسها، وإعادة تعريفها لتعنى «الأوهام» غير القابلة للتحقق أصلا بحكم طبيعتها الجوهرية. بل الذهاب أبعد من ذلك إلى إسقاط المسوغات الأخلاقية والتاريخية لتلك الأحلام/الأوهام.

فهى - حسب هذا الخطاب- ليست مرفوضة فقط بمعيار الضرورة التى تجعلها غير قابلة للتحقيق، ولكنها مرفوضة بالمعايير المبدئية والعقدية. وإن لم يكن هذا كافيا، جرى تحميلها مسئولية النكبات والخيبات والانكسارات والانحطاط والعجز عن اللحاق بركب الحضارة العالمية. فبدلا من أن تكون تلك الأحلام مشاريع استجابة حضارية للتحديات التى تستهدف وجود الأمة وهويتها تصبح بهذا المنطق أساس المشكلة وأصل النكبات.

هكذا إذن بعد أن يطمئن العدوّ إلى تمكنه فى الأرض، وتغلبه فى معركة السلاح، ينقل الصراع إلى ساحات المعانى والمفاهيم، ليستكمل غزو الأرض واغتصاب الوطن بغزو العقول واغتصاب الأحلام وفرض خطابه ومعانيه وروايته. وهذه المرة يتطوع النظام العربى نفسه - بعضُه أو كله - وتيارات سياسية عربية تصف نفسها بالليبرالية، لتنهض بالمهمة. ذلك لأن نظام المعانى التحررية لا يواجه الرواية الصهيونية إلا بقدر ما يحرج النظام العربى ويتحدى تيارات الإذعان والخضوع التى تتقنع بدعاوى الاعتدال والواقعية والعقلانية، فضلا عن الليبرالية.

ألا ترى كيف صرنا نتردد فى استعمال صفة «العدوّ الإسرائيلى» خشية أن يحيل ذلك إلى لغة الشعارات الثورية القديمة والإعلام الانفعالى؟ إن لم يكن الاغتصاب والاحتلال والتشريد والإذلال والقتل والبطش أسبابا كافية لتعريف مقترفيها بالعدوّ، فما معنى العدوّ إذن؟ ألا ترى كيف استتبع ذلك أن نتردد فى استعمال مفاهيم المقاومة والجهاد ومعانى التحرر والتحرير والشهادة والاستشهاد لأنها تلتبس مع الإرهاب والتطرف، وتطيح بفرص السلام المقدس، وتردنا إلى ماضى التجارب «القومجية» الفاشلة أو إلى حاضر التيارات «الإسلاموية» المتطرفة؟!

ألا ترى كيف يتجنب الكثيرون استعمال مصطلح «الوطن العربى» والأمة العربية، ويفضلون بدلا منها مصطلح «الشرق الأوسط» و«شعوب المنطقة»؟! ألا ترى أيضا كيف يتجاهل الكثيرون رواية اغتصاب فلسطين عام ١٩٤٨ ويفضلون أن تبدأ الرواية بحرب حزيران عام ١٩٦٧ مع التركيز على المسئولية العربية عن قرار الحرب وأوزارها؟!

ألا ترى كيف تحولت القضية الفلسطينية من قضية عربية يقف فيها العرب جميعا طرفا فى الصراع، إلى قضية تخص الفلسطينيين، وإن كان للعرب دور فيها فيُختزل فى «مساندة الشعب الفلسطينى» فى أحسن الأحوال مع التحذير بأن تعطيل الحلول السياسية يمكن أن يهدد أمن المنطقة. وتهديد أمن المنطقة فى هذا السياق لا يشير إلى الخطر الإسرائيلى، بقدر ما يشير إلى ردود الفعل الشعبية العربية التى يمكن أن تغذى حركات التطرف والعنف.



الثابت الإسرائيلي والمتغير الفلسطيني!

الصراع على المعاني ليس ظاهرة جديدة في الفضاء السياسي العربي، ولكنه استعلن بصورة شرسة منذ معاهدة كامب ديفيد، وقبل ذلك، تقدم مفهوم «الاحتلال» لا ليضاف إلى مفهوم الاغتصاب والإحلال، ولكن ليصبح بديلا عنه، ومعه حل الحديث عن الأراضي المحتلة مكان الحديث عن الوطن السليب. كيف يصبح الاحتلال بديلا عن «الاغتصاب»، اغتصاب وطن بكامله؟ ألا يحيل الاحتلال في سياقنا العربي الفلسطيني إلى جزء من الوطن وإلى قوة محتلة لا يطرح السؤال حول شرعية وجودها في حدود دولتها، وإن طرح حول شرعية احتلالها لأراض خارج حدودها؟ حتى إذا استقر هذا المعنى للاحتلال في الوعي الجمعي مكان اغتصاب الوطن برمته، بدأ العمل على تغييب معنى «الاحتلال» نفسه على ما فيه من اللبس والتلبيس وإسقاط السابق باللاحق، ليحل مكانه الحديث عن «النزاع العربي الإسرائيلي» ثم «النزاع الفلسطيني الإسرائيلي». وإذ بالصراع صراع حول حقوق متنازع عليها، بين شعبين حدث اتفاقا أنهما يتجاوران في الإقليم نفسه. فلا ثمة وطن مغتصب ولا استعمار صهيوني إحلالي استيطاني فرض بفعل القوة القاهرة، وكأن إسرائيل معطى ثابت قديم قدم الأرض، وما وقع عام ١٩٤٨ هو -كما تنص الرواية الصهيونية- استقلال الشعب الإسرائيلي من الاستعمار البريطاني الطارئ المؤقت على نحو ما استقلت دول أخرى كمصر والهند وسوريا والجزائر بعد حين. ثم كان على الشعب الإسرائيلي الذي أحرز استقلاله بعد صراع مرير مع الاستعمار(:) أن يتعامل مع تطلعات جماعات قومية أخرى اتفق أنها تعيش معه في الأرض نفسها، وتصر على أنها تمثل هوية وطنية مستقلة وتتطلع إلى الاستقلال بهويتها في دولة خاصة بها على جزء من الوطن الإسرائيلي، تدعي أنه حقها.

وإذن فهو صراع حول حقوق متداخلة متنازع عليها بين طرفين قد يجور أحدهما على الآخر، ويتبادلان العنف والعنف المضاد فيستويان في المعيار الأخلاقي. هل قلت يستويان في المعيار الأخلاقي؟ لا ليس هذا واقع الحال وفقا للقوى الدولية الغاشمة المتواطئة التي تعتبر العنف الإسرائيلي دفاعا عن أمن إسرائيل في مواجهة عنف الجماعات الإرهابية المتطرفة من الجانب الفلسطيني. وهذه نتيجة منطقية لمقدمات التحريف المنظم للرواية التاريخية.

فإذا كان ما وقع عام ١٩٤٨ هو استقلال الشعب الإسرائيلي من القوة الاستعمارية الطارئة على وطنه(:)، ولا ثمة اغتصاب للوطن الفلسطيني، ولا ثمة إحلال لجماعات أجنبية طارئة مكان شعبه، ولا ثمة تشريد وتهجير قسري وإلغاء لشعب كامل يسمى نفسه الشعب الفلسطيني، ولا حتى احتلال تال، وإنما هي حقوق متنازع عليها بين دولة شرعية مستقرة ثابتة وجماعات مغايرة تعيش على نفس الأرض وتصر على أنها تمثل شعبا مستقلا يستحق دولة مستقلة، إذا كانت هذه هي مقدمات الرواية التاريخية، فلا بد أن تكون النتيجة المنطقية اعتبار العنف الفلسطيني إرهابا وتطرفا وعدوانا وتهديدا لأمن إسرائيل، يسوغ لها الدفاع والرد بعنف مشروع. فالتنازع على حقوق ملتبسة لا يقتضي الالتجاء إلى السلاح وممارسة العنف بدلا عن العمل السياسي والتفاوض السلمي.

وإذن فإن أصل الرواية ليس اغتصاب الوطن الفلسطيني واقتلاع الشعب الفلسطيني منه وإحلال الإسرائيليين فيه، وإنما هو تنامي التطلعات الفلسطينية الوطنية نحو الاستقلال والدولة على أراض متنازع عليها بين الثابت الإسرائيلي المفروغ منه، والمتغير الفلسطيني المختلف عليه. وفي سياق هذه الرواية لا بد أن ينسب البدء في دورة العنف إلى الجانب الفلسطيني، ويكون العنف الإسرائيلي هو الرد المشروع. إلى هذا الحد يبلغ تحريف الرواية التاريخية ومعها نظام المعاني. فلا يكفي ظلما أن توضع الضحية والجلاد على صعيد أخلاقي واحد تحت عنوان «الحقوق المتنازع عنها» و«دورة العنف المتبادل بين طرفي النزاع» حتى يبرأ الجلاد من المسئولية الأخلاقية، وتدان الضحية لأنها لا تعرف كيف تموت بصمت لا يزعج الجزارين والشهود الصامتين. وفي أحسن الظروف والمواقف الموصوفة بالتوازن بل بالتعاطف مع التطلعات الفلسطينية، تصير مهمة الحكماء المعتدلين في الجانبين وفي المحيط الدولي والإقليمي الترويج لثقافة السلام والتعايش والتسامح وقبول الآخر ونبذ الكراهية لبناء عالم أجمل وأنبل للأجيال القادمة. وكأن أصل الصراع وحله يكمنان في النظم الثقافية: بين رفض الآخر وقبوله، بين ثقافة التنابذ والتفاصل والإقصاء والكراهية والعنف وثقافة التبادل والتكامل والتعاون والتعارف والحب والسلام. ويجري في هذا السياق تغييب قيم العدل والحق. ومن الطبيعي في هذا الفضاء إلغاء معنى «المقاومة» مع التغييب المنظم لأشراطها: اغتصاب الوطن واحتلاله وتشريد شعبه.

الصراع على المعاني



الفلسطينيون «أيضا» لهم حقوق؟

تحقق المشروع الصهيوني عام ١٩٤٨ وانتصرت إسرائيل على الجيوش العربية في ذلك الحين، ثم في حزيران ١٩٦٧. ومع ذلك، كان الخطاب الدولي والإسرائيلي نفسه يتوجهان ضمنا إلى إقناع العرب والفلسطينيين، على الرغم من هزائمهم، بأن يتقبلوا أخيرا إسرائيل باعتبارها أمرا واقعا وحقيقة قائمة لا قبل لهم بإلغائها. فإن لم يتقبلوا ذلك مبدئيا فإن عليهم أن يتقبلوه بحكم موازين القوى التي لا يمكن أن تعتدل لصالح موقفهم. الجلاد، على قوته وشراسته وتفوقه، يحتاج إلى اعتراف الضحية به. حتى إذا تقبل النظام العربي هزيمته المؤيدة، وعجزه النهائي عن تحقيق شعارات التحرير، وأعلن من ثم أن السلام هو خياره الإستراتيجي الوحيد، بما يتضمنه ذلك من قبول إسرائيل باعتبارها حقيقة قائمة تجب معايير العدل والحق، انقلبت المعاني مجددا، فصار المطلب الآن إقرار إسرائيل بوجود شعب فلسطيني له حقوق في تقرير المصير والاستقلال والدولة إلى جانب الثابت الإسرائيلي الذي خرج نهائيا من حيز السؤال عن شرعيته. فإذا كان ذلك، فلا معنى لاستدعاء رواية اغتصاب الوطن الفلسطيني والطرد والإحلال.

هكذا في زمن العجز والإذعان والخضوع والخنوع، تعيد النهايات والمآلات البائسة كتابة البدايات لتنسجم معها، بدلا من أن تؤسس البدايات للغايات والنهايات والمآلات. حسب نهايات زمن العجز، فإن جذر المشكلة يبدأ ببروز هوية وطنية فلسطينية تطالب بأن يكون لها بعض ما لإسرائيل من الحقوق. وعلى الثابت الإسرائيلي أن يتعامل مع هذا الطارئ الطارق الذي لا يكف عن الإزعاج والإلحاح وتهديد الأمن واللجوء إلى العنف، شأنه في ذلك شأن أي أقلية قومية تطالب بحق تقرير المصير. وهنا يصبح مطلب الدولة الفلسطينية على جزء صغير من الوطن السليب، بديلا عن الوطن. وفي أحسن الأحوال يصيح أحد الحكماء من ذوي الضمائر النزيهة: «الفلسطينيون أيضا لهم حقوق» مع التركيز على كلمة «أيضا» التي تضمر أن الحق الإسرائيلي أمر مفروغ منه، وإنما السؤال حول حق فلسطيني هو في ذاته محل اختلاف من حيث تعريفه وحدوده، ويخضع من ثم لتغييرات وتأويلات متباينة متضاربة، وتحاصره التحفظات والاعتبارات الأمنية والاشتراطات السياسية وفقا للمرجع الإسرائيلي الثابت. فإن كان كذلك فإن تعريفه النهائي مؤجل حتى تقضي به المفاوضات بين الطرفين المتنازعين.

وهنا يجري السكوت عن حقيقة أن المفاوضات السياسية تحكمها وتكيف نتائجها موازين القوى على الأرض. ولكي يموه الجانب الأضعف في العملية السياسية على هذه الحقيقة يبتدع مصطلح «الاشتباك السياسي» ليوهم المتشككين، وربما ليوهم نفسه، بأن جهوده التفاوضية شكل من أشكال النضال لا يقل شراسة عن الكفاح المسلح، وأنه سيكون طريقه لانتزاع الحقوق



ألا ترى كيف صرنا نتردد
في استعمال صفة «العدو الإسرائيلي»
خشية أن يحيل ذلك إلى لغة الشعارات
الثورية القديمة
والإعلام الانفعالي



انتزاعا من الخصم العنيد، حتى لو كان الخصم فى واقع الحال يتمتع بهيمنة كاملة بكل المعايير العسكرية والسياسية والاقتصادية، ومن خلفه قوى دولية طاغية لا تدعمه فقط، بل هى وصيه وشريكه وطرف معه. كيف يكون التفاوض هنا اشتباكا سياسيا لانتزاع الحقوق من براثن عدوٍ هو الذى يحدد مواصفات الشريك اللائق فى العملية التفاوضية السياسية فيمنح الصفة لمن يشاء وفق معاييره، ويسقطها عمن يشاء، فى الوقت الذى يشاء؟! فإن أسقطها كان له أن يحاصر رأس الطرف الأضعف فى عقر مقره، ويلزمه المكوث فى غرفة واحدة فيه تحت سطوة السلاح والجرافات العسكرية، ولا يسمح له بأن يغادر مكانه إلا إلى قبره، الذى يرجح أنه هو الذى أرسله إليه بصمت مريب؟!

كيف يمكن أن يكون التفاوض سبيلا إلى انتزاع الحقوق أو شراكة بين طرفين، حين يكون أحدهما غالبا والآخر مغلوبا، ويكون أحدهما حاكما والآخر محكوما: حين يكون فى وسع أحدهما أن يفرض على الآخر قراره وإرادته دون رادع، فيوسع المستوطنات أو يزيدها متى شاء، ويقتحم المدن والقرى والمخيمات أو يقصفها متى شاء، وينصب الحواجز بالمئات ويتحكم بحركة الناس بين المدن والقرى كيف شاء، بل إنه ليس فى وسع القادة الفلسطينيين التنقل داخل أرضهم إلا بأذون خاصة منه؟

حتمية تاريخية جديدة!

كيف يمكن فى ظل هذه الموازين المختلة أن ينتزع الضعيف ما قنع بقبوله من حقوق منقوصة أصلا فى اشتباك سياسى موهوم؟ ألا يكفى أن الجانب الفلسطينى قد رضى بالجزء الأقل الذى احتلته إسرائيل عام ١٩٦٧، ورضى بالاحتكام إلى قرارات الشرعية الدولية المتواطئة، حتى يصبح هذا الجزء محل تنازع، لا يجوز تعريف الحق الفلسطينى به مسبقا إلى أن تقضى به المفاوضات مع الطرف المتغلب؟ فإذا أصر الفلسطينيون، أو بعضهم، على تعريف مسبق لا يتجاوز حدود القرارات الدولية: تُهم بالتطرف والتشدد، وسقطت عنه صفة الشريك المقبول، وحمّل مسئولية إحباط العملية السياسية؟.

ومن جديد يجرى تذكيرنا بطبيعة المفاوضات السياسية وجوهرها القائم على تقديم تنازلات مؤلمة من الطرفين، للتوصل إلى حل وسط يرضى جميع الأطراف، وأية تنازلات مؤلمة يفترض أن يقدمها الطرف الإسرائيلى المهيمن؟.

أما تنازلات العدوّ المفترضة فهى من حساب الأراضى التى احتلها عام ١٩٦٧، الأراضى التى قنع الطرف الآخر باختزال حقوقه التاريخية فيها، وأما التنازلات المطلوبة من الجانب الفلسطينى فمن حساب تلك الأراضى وتلك الحقوق المختزلة أصلا ومعها حق العودة. فأى تكافؤ وأى شراكة فى السلام وأى تنازلات متبادلة مؤلمة:

فإن صاح صائحنا: «وأين العدل، وأين روايتنا التاريخية؟» قام من بيننا من استدخل المعانى المستحدثة التى أنتجها القوى المتغلب، فذكرنا بالحكمة المسترجعة «كفى بكم شعارات عاطفية وأحلاماً كاذبة»، ولا تعودوا إلى تفويت الفرص التاريخية التى برعتم بها منذ قام المشروع الصهيونى، حتى ألزمتكم الظروف المتغيرة أن تطالبوا أخيرا بأقل مما عرض عليكم أولا، وقياسا بتجارب الماضى، فإنكم إن رفضتم اليوم ما تتنازل لكم عنه إسرائيل، حتى لو بدا لكم مجحفا، فسيكون عليكم فى المستقبل أن تقنعوا بما هو دونه: حتمية تاريخية من نوع آخر، ونواميس كونية حاكمة لا قبل لنا بتغيير مسارها، فلا مفر من الإذعان لها باعتبارها الأمر الواقع. ونقيضها الأحلام الكاذبة، والأوهام المدمرة والأيديولوجيات المضللة وشعارات الماضى التى لم تنتج إلا الهزائم والانكسارات والخراب. أما هذا الأمر الواقع فيبدو فى هذا المنطق وكأنه معطى خارجى موضوعى ثابت، ثبات قوانين الطبيعة، تنعدم معه المسئوليات الإنسانية والخيارات الأخلاقية. الأمر الواقع بهذا المعنى ليس نتاج الفعل الإنسانى وعلاقات القوة المتغيرة التى تنتج جلادا وضحية يمكن أن تستسلم ويمكن أن تقاوم، وتنتج الخيانة والتواطؤ وخطابات الإذعان كما تنتج فى مقابلها خطابات المواجهة والمقاومة والنهوض.

العجز العربى قدر مقدور وأبدى كما التفوق الغربى والإسرائيلى، وإن كان لا بد من التماس العوامل والأسباب، فدع عنك الحديث عن الغرب والاستعمار والامبريالية، فهذه مشاجب نعلق عليها خيباتنا، ومعاذير نبرر بها أزماتنا، والتمسها فى الذات المجبولة على التخلف والانحطاط، وأمعن فى جلدها كما تشاء.

لا بأس إذن، سنمضى مع هذا المنطق، ونعتبر الغرب والاستعمار والإمبريالية رواية متخيلة اختلقتها الخطابات القومية الفاشلة والاشتراكية الشمولية والإسلامية الرجعية لتسوق برامجها التى ثبت إخفاقها، وسنعتبر إخفاقها دليلا قاطعا على بؤس روايتها عن الاستعمار والإمبريالية ودورهما فى إخضاع العرب وإحباط مشاريع النهضة العربية وخلق المشروع الصهيونى وإسرائيل، وسنعزو كل تلك التهم الموجهة إلى الغرب ودوره إلى نظرية المؤامرة التى تنتجها ثقافة العجز والخمول: فلا ثمة قوى استعمارية احتلت أوطاننا بقوة الدبابة والطائرة الحربية والبارجة، ولا عملت على تقطيع أوصاله ونهب ثرواته وربطه بالمركز الغربى وتعطيل شروط نهوضه الذاتية. وإن لم يكن مفر من الإقرار بذلك فإن نجاح الغرب الاستعمارى الإمبريالى فى مشاريعه ضدنا كان نتيجة طبيعية لتفوقه الحضارى، وانحطاطنا الحضارى والثقافى. وإذن فإن تغلبه جائز يستحقه، إذ هو نتاج حضارته العقلانية العلمية الديمقراطية التى تمنح هيمنته براءة أخلاقية، وفى المقابل فإن هزائمنا أمامه عقوبة نستحقها، إذ هى نتاج ثقافتنا الغيبية العاطفية اللفظية البلاغية غير العقلانية، ونتاج عجزنا عن تبنى الأسباب التى تفوق بها الغرب وعن احتذاء أنموذجه دون تحفظات.

القوة والغلبة دليل على الصواب والحق، والضعف والهزيمة دليل الباطل. وعلى ذلك فبدلا من إنتاج خطابات العداء للغرب تحت شعارات معاداة الاستعمار والامبريالية، يجدر بنا أن نروج للقيم الحضارية الغربية باعتبارها القيم الكونية المنتجة للتقدم والتحضر والتطور. ثنائية الصراع، حسب هذه الرواية، ليست بين المستعمِر: بكسر الميم، والمستعمَر: بفتح الميم: ، فهذه ثنائية عفا عليها الزمن وسقطت مع سقوط خطابات الثورة العالمية والاشتراكية الدولية والحركات القومية وانتصار القيم الليبرالية الرأسمالية انتصارا مؤيدا يثبت أنها نهاية التاريخ. وعوضا عن ذلك فإن ثنائية الصراع ينبغى أن تكون بين واقعية عقلانية ليبرالية يمثلها الغرب المتغلب وقيم التخلف الذاتى والانحطاط وتجارب الماضى الفاشلة: القومية الفاشية والاشتراكية الشمولية والثورية الرومانسية مع ما صاحبها من شعارات غير واقعية كالوحدة والعدالة الاجتماعية والنهضة المستقلة والتحرير.

سياسة تفويت الفرص!

ومن الطبيعى فى سياق هذه الرواية الليبرالية الجديدة، أن تسقط عقيدة الصراع مع إسرائيل والمشروع الصهيونى ومعها الرواية التاريخية للاغتصاب والإحلال والتشريد. إذ لا يمكن تغييب الرواية التاريخية عن الاستعمار والإمبريالية، مع إثبات الرواية التاريخية عن اغتصاب الوطن الفلسطينى والطبيعة الاستعمارية الإحلالية الاستيطانية للمشروع الصهيونى، الذى ينتظم تاريخيا فى المشروع الاستعمارى الامبريالى الغربى. لا يمكن الدفاع عن سياسات الولايات المتحدة وتحسين صورتها والترويج لسياسات الانحياز أو الإذعان لها بأى دعوى: مع المحافظة فى الوقت نفسه على عقيدة العداء والصراع مع إسرائيل، وإن تعاظم تجبرها وبطشها بدعم مطلق من الولايات المتحدة. فإن لم تترك لك الجرائم الإسرائيلية المتجددة مجالا للصمت والتغافل، فوضعتك فى موقف حرج، فإن لك مخرجا فى أن توزع اتهامك بين الاتجاهات المتشددة فى إسرائيل والاتجاهات



الصراع على الوجود





ألا ترى كيف استتبع ذلك أن نتردد فى استعمال مفاهيم المقاومة والجهاد ومعانى التحرر والتحرير والشهادة والاستشهاد لأنها تلتبس مع الإرهاب والتطرف



المتطرفة العنيفة في الجانب الفلسطيني. ولا بأس أن تتحدث قليلا عن أخطاء سياسات اليمين المحافظ في الولايات المتحدة، على أن تذكر في الوقت نفسه بظاهرة الإرهاب العربية الإسلامية التي ينبغي أن يلتقي العالم على مواجهتها، ثم استعمل ظاهرة الإرهاب المدانة للتلبيس على مفاهيم المقاومة والجهاد وتلويثها، واعمل على تنفيس مشاعر العداء المتنامية ضد إسرائيل وجرائمها بالتركيز على الخطر الإيراني المقدم على كل خطر، فهي لا تهدد إسرائيل إلا بقدر ما تهدد العرب، أو أنها تتوسل العداء لإسرائيل والولايات المتحدة ذريعة للتغطية على هدفها الحقيقي: التمدد في المجال العربي وتهديد أمنه القومي. وعلى الرغم من أن : الدين: بوصفك ليبراليا ملتزما لا يمثل في الظروف الأخرى مرجعا لمواقفك السياسية، فمن المفيد هنا أن تستدعي الخلاف التاريخي الطائفي بين السنة والشيعة، وأن توظف نفسك ولو مؤقتا للدفاع عن أهل السنة والجماعة والتخويف من المد الشيعي الإيراني. فإن أدى ذلك بالضرورة إلى أن تلتقي مع إسرائيل والولايات المتحدة في مركب واحد / محور واحد ضد الخطر الإيراني، فهو أمر تمليه التقاطعات السياسية ومعطيات الواقع وفقه الأولويات السياسية والأمنية. وبالإحالة، يمكنك الآن أن تجد مسوغا آخر للطعن في مصداقية المقاومة والجهاد في فلسطين، باعتبارها جزءا من المحور الإيراني الذي يضم سوريا وحزب الله والمقاومة الإسلامية في فلسطين التي يمكن أن تصورها الآن بأنها تطبق أجندة إيرانية معادية للعرب أكثر من عدائها لإسرائيل. فالاغتصاب والاحتلال والتشريد والحصار والتجويع والتركيع والقتل والتجريف والتدمير والقصف ليست أسبابا كافية للمقاومة، وإنما المقاومة أداة وورقة في يد إيران وبرنامجها المعادي للعرب في آخر المطاف. فإذا وصلت الرواية الليبرالية الجديدة إلى هذا الحد، فما الذي يتبقى من عقيدة الصراع مع إسرائيل ومقاومة الاحتلال ورواية الاغتصاب والإحلال والاحتلال.

عودا إذن إلى الأمر الواقع: إسرائيل أمر واقع ونهائي لا مجال لتغييره، ولا مفر من قبوله ولا جدوى من مواجهته، ولا حل إلا بالتفاوض السياسي، وإن شئت فقل «الاشتباك السياسي»، ضمن معطيات الواقع ومحدداته، مهما يكن ميزان القوى مائلا ضدك ولمصلحة خصمك. ولا تقل من خلق هذا الواقع، ولا تتحدث عن إمكانية تغيير ظروفه وشروطه. فهذا وهم ينبغي تجاوزه: لم يكن ممكنا في الماضي، وليس ممكنا الآن، ولن يكون ممكنا في المستقبل. فارض إذن بما يمكن أن يقسمه لك هذا الواقع مهما بدا لك ضئيلا قياسا بادعاءات الماضي. ولا تعد إلى تفويت الفرص الذي أملى عليك اليوم أن ترضى بأقل مما أتيح لك في الأمس. لا تقل في

الصراع على المعاني



عام ١٩٤٨ اغتصب وطنك وأخرجت منه طريدا شريدا، ولكن اذكر بدلا من ذلك أنك فوّت الفرصة التي أتاحها لك قرار التقسيم في ذلك الحين بأن تقاسم إسرائيل وطنك فتكون لك دولة كما لها.

لا تقل إن اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل قد جنت على الموقف العربي والفلسطيني حين أخرجت أهم دولة عربية من مركز الصراع، وفتحت الباب على الاستفراد بكل قطر عربي كان جزءا من دائرة الصراع، فضلا عن الجانب الفلسطيني، واذكر بدلا من ذلك أنك هنا أيضا قد فوّت فرصة أخرى لتحصيل ما لم تعد قادرا على تحصيله الآن. تفويت الفرص: هذه هي العبارة السحرية التي تصرف التهمة عن الجلاد وتردها إلى الضحية. فما آل إليه حال الضحية لا يتحمل مسئوليته إلا الضحية نفسها التي أبت أن تقر بالأمر الواقع وتكيف مطالبها وفق شروطه التي يصنعها الخصم وحده منفردا، واعتصمت بدلا من ذلك بالأحلام والأوهام عن الحق والعدل والمقاومة والثورة والجهاد والتحرير والتغيير والوحدة والنهضة ومواجهة المشروع الاستعماري الصهيوني، ووصمت أصحاب السياسات الواقعية العقلانية بصفات التخوين والعمالة والخضوع والإذعان والاستسلام.

ولا تسل هنا: كيف يمكن الجزم حسب رواية تفويت الفرص بأن إسرائيل كانت مستعدة دائما منذ قيامها للامتثال لقرارات الشرعية الدولية لولا تفويت العرب لتلك الفرص التاريخية؟ ولا تذكّر بكل تلك القرارات الدولية التي تجاهلتها إسرائيل فضلا عن تهربها من استحقاقات أوسلو وتجاهلها أخيرا للمبادرة العربية؟ فلعل هذه قد وصلت متأخرة فجاز لإسرائيل أن تنبذها وراء ظهرها.

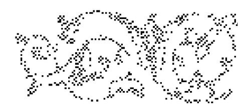
حسب هذه الرواية التي تتوسل الحكمة بأثر رجعي، فإن على الشعب الذي يغتصب وطنه ويطرد منه إلى المنافي أن يذعن لإملاءات هذا الواقع ويرضى بما قسم له مهما كان مجحفا، ويفك ارتباطه بوطنه وذاكرته التاريخية وجذوره، دون مقاومة، لأنه كان عليه أن يستشرف المستقبل، ليرى أحلامه المنكسرة بعد ستين سنة، وليعلم مسبقا أن واقع الاغتصاب الجديد سوف يبقى هو الواقع ذاته بعد ستين سنة، وربما إلى الأبد. فإذا كان كذلك، فلمَ يطيل معاناته وعذاباته ويورط الآخرين معه؟ فليكن منذ اللحظة الأولى ما سوف يكون بعد عقود متطاولة من المآسي والمنافي والقتل والتشريد والتجويع والتركيع.

التحرير ممكن إلا.. في فلسطين!

وإن كان ثمة أوطان أخرى في العالم قد تعرضت للاحتلال ثم كافحت وغيرت شروط الواقع حتى نجحت أخيرا في تحرير أراضيها فإنها لا تصلح مثالا يتأسى به الفلسطيني.. فالتحرير ممكن في كل التجارب التاريخية إلا في تجربة الفلسطيني، وإن كان جزءا من أمة عربية تعدُ مئات الملايين، كانت القضية الفلسطينية قضيتها المركزية بقدر ما هي قضية الفلسطيني، وكانت تنظر إلى المشروع الصهيوني باعتباره جزءا من مشروع الهيمنة الاستعمارية الامبريالية على مجمل الوطن العربي، وفي المقابل ترى أن مشروع التحرير ينتظم في مشروع التحرر والنهوض العربيين، ثم ترى أن لهذا المشروع المزدوج الذي يتشارط فيه هدف التحرير مع هدف التحرر والنهوض، عمقا إسلاميا يمتد إلى أكثر من مليار مسلم، ثم عمقا إنسانيا في جبهة تحررية عالمية تتسع لأكثر من نصف العالم.

كان على العربي وهو يستقبل النكبة عام ١٩٤٨ أن يتجاهل كل هذه الاعتبارات فيذعن لواقع الاغتصاب ويرضى بما قسم له الواقع المؤبد، ويعلم مسبقا أن التحرير ممكن في كل تجارب الاحتلال والاغتصاب إلا اغتصابا تقترفه الصهيونية، فهذه خارج حسابات التاريخ.

ولا تقاس بأي مثال آخر. بل ينُهى الفلسطيني حتى عن التأسي بعدوه الذي مر بفلسطين قبل آلاف السنين كالكلام العابر، ثم خلق من أساطيره القديمة مشروعا دمج نفسه بالمشروع الاستعماري الغربي مكنه أخيرا من اختلاق شعب ووطن، على حساب شعب ووطن. أما في الحالة العربية الفلسطينية فتكفي تسع عشرة سنة هي الفاصل بين الاغتصاب الأول عام ١٩٤٨ والاحتلال الثاني عام ١٩٦٧ لكي نطالَب بنسيان الضائع الأول، إن كنا نرجو أن نسترجع الضائع الثاني، ونُدعى إلى إعادة تعريف القضية الفلسطينية وموضوع الصراع والأراضي المحتلة. ثم تكفي عشرون أو ثلاثون سنة أخرى كي نطالب من جديد بأن نسقط من معجمنا مفاهيم المقاومة والجهاد والتحرير وخيار السلاح والحق والعدل، ونقنع بدلا منها بخيار السلام الإستراتيجي الأوحد تحت مظلة الراعي الأمريكي الذي يمثل الخصم والحكم معا، ويمتلك تسعا وتسعين بالمائة من أوراق اللعبة، ويحتكر مع الحليف الإستراتيجي الإسرائيلي تعريف المشكلة وأبعادها وحدودها وشروط حلها بوصفها قضية حقوق متنازعا عليها يقتضي حلها تنازلات مؤلمة متبادلة من الطرفين، أحدهما يتنازل عن شيء مما لغيره، والآخر يتنازل عن الكثير مما بقي له. فإن لم يفعل وقع من جديد في خطيئة تفويت الفرص التاريخية: حتى لو كانت الفرصة المتاحة تسقط حق العودة وتحتال على موضوع القدس الشرقية بصيغ مضللة، وتقطع أوصال الدولة المنشودة العتيدة وأراضيها بالمستوطنات



بعد أن يطمئن العدوّ إلى تمكنه في الأرض، وتغلبه في معركة السلاح، ينقل الصراع إلى ساحات المعاني والمفاهيم



الإستراتيجية، وتقضم من حدودها وسيادتها.

وفى هذا السياق، نُستدرج إلى تقديم مفهوم : الدولة، على مفهوم : الوطن، ويختزل الحلم الفلسطينى فى حق الفلسطينى فى أن يعبر عن هويته الوطنية فى دولة ما، لا فى تحرير وطنه واسترجاع حقوقه فى إطار وطنه العربى. وهذه نتيجة منطقية لفك الارتباط بين القضية الفلسطينية وعمقها العربى، بين هدف التحرير وهدف التحرر والنهوض العربيين: وهو نتيجة منطقية لتكريس واقع التجزئة القطرية العربية والاستفراد بكل قطر على حدة، وإزاحة القضية الفلسطينية عن مركزها القومى، حتى اختُزل الدور العربى من كونه فى مجموعه طرفا فى الصراع مع المشروع الصهيونى الذى ينتظم فى المشروع الامبريالى الشامل ضد الأمة العربية، إلى أن يكون فى أحسن الأحوال مساندا للشعب الفلسطينى ومؤيدا لحقوقه، وربما ارتضى أحيانا أن يكون وسيطا محايدا بين طرفى الصراع والتنازع: إسرائيل والفلسطينيين. وربما انحط أحيانا إلى مستوى الضغط على الجانب الفلسطينى لقبول العروض الأمريكية الإسرائيلية، واتهام المقاومة، والمشاركة فى الحصار: وذلك كله ينسجم مع الموقف الأمريكى الذى يذكر الشعب الفلسطينى فى كل آن أن انسياقه وراء تيارات التشدد والتطرف والعنف التى تصف نفسها بالمقاومة، لا يفضى إلا لتطاول معاناته وتعطيل مشروع دولته؛ فالدولة هى الغاية حتى لو كان ثمنها التنازل عن جل الوطن والحقوق التاريخية وحرمان ستة ملايين لاجىء فلسطينى من حقهم فى العودة.

دعوة صريحة إلى الاستسلام .

البديل عن ذلك حقوق أقل، فى فرصة أخرى، فى زمن آخر، إن كانت ثمة فرصة أخرى. ودع عنك القول: هذا هو الإذعان والخضوع والاستسلام فى جوهره، فتلك أحكام أخلاقية لا تسمن ولا تغنى من جوع، ولا مكان لها فى فضاء السياسة العقلانية الواقعية، وهى تنتمى إلى معجم الشعارات الثورية التى لم تجلب علينا إلا الكوارث. وإن شئت أن تلح على معنى «الاستسلام»، فليكن: الاستسلام، نعم. ومن قال إن «الاستسلام» موقف مرفوض مرذول؟ هكذا يذكرنا أحد الكتاب الصحفيين فى إحدى كبريات الصحف العربية بعنوان ينقل معركة المعانى والخطابات والروايات إلى مداها الأخير، فهو لا يدعونا إلى إسقاط هذا المعنى من معجم التوصيفات السياسى، وإنما يدعونا إلى إعادة تعريفه وشحنه بدلالات جديدة، تم تبنيه والاحتفاء به بوصفه السبيل إلى تحرير العقل السياسى العربى من آخر الأوهام الثورية البائسة.

الصراع على الوجود



كان ثمة حرب خضناها وخسرناها، وقد آن للمهزوم أن يقر بهزيمته النهائية ويكف عن المحاولات العبثية لإطالة حرب لا أمل له فى كسبها ولن يأتيه منها إلا المزيد من الخراب والهزائم. أما إعلان «الاستسلام» فهو السبيل الوحيد إلى استدبار الماضى والانصراف إلى البناء والتنمية والتعمير والتقدم.

ثم يستدعى التجربة اليابانية فى الحرب العالمية الثانية، وكيف كان استسلام اليابان مقدمة ضرورية للتفرغ لانجاز المعجزة اليابانية التى نشهدها الآن : هكذا والله! ويتجاهل الكاتب - قصدا على الأرجح أننا لا نتهم ذكاءه- كل الفروق التاريخية الموضوعية بين الحالة اليابانية والحالة العربية الفلسطينية. يتجاهل أن الصراع بيننا وبين المشروع الاستعمارى الصهيونى ليس صراعا بين قوى إمبراطورية على التوسع والنفوذ فى المجال الكونى، وإنما هو صراع بين المستعمِر (بكسر الميم) والمستعمَر (بفتح الميم)، بين قوى الاغتصاب والاقتلاع والاحتلال والتشريد والعدوان والإلحاق، والأمة التى تكافح أو ينبغى لها أن تكافح، من أجل التحرر والتحرير. وهب أننا أخذنا بالنصيحة وأعلنا الاستسلام، فمن هو الطرف المتغلب الذى ينبغى أن نوقع معه وثيقة الاستسلام: الغرب كله؟ الإمبراطورية الأمريكية؟ إسرائيل؟! ومن هو الطرف العربى الذى سيوقعها عن الأمة العربية والشعب الفلسطينى؟ الجامعة العربية مثلا. أم يكفى الشعب الفلسطينى لهذه المهمة العظيمة؟ وهب أننا فعلنا ذلك على نحو ما، فهل نتوقع بعد ذلك أن تنفتح لنا أبواب النهضة والتقدم والديمقراطية لنصير فى أعوام معدودة ما صارت إليه اليابان؟ ومن نحن الذين سنبلغ هذا المبلغ من الرقى والتقدم التقنى والقوة الاقتصادية العالمية المنافسة؟ فاليابان دولة واحدة ونحن دول؟ أم أن كل قطر من أقطارنا سيكون «يابانا» برأسه، من الصومال إلى السودان إلى مصر إلى الأردن إلى موريتانيا..؛ وإذن لا يتسع العالم لإمبراطورياتنا الاقتصادية العظمى:

كل هذه الفروق والاعتبارات لا تردع كاتبنا الفذ من عقد المقارنة بين التجربة اليابانية والحالة العربية! فليس بيننا وبين إنجاز نهضتنا المنشودة إلا الاستسلام. هكذا تحدث حكيمنا الليبرالى الواقعى العقلانى.

وإن قيل إن اقتراح حكيمنا ذلك، غلو استثنائى، لا يقاس به، فإن المنطق الذى بنى عليه يمثل مكونا هاما فى الرواية الليبرالية الجديدة، برز إلى السطح بعد اتفاقيات كامب ديفيد المصرية الإسرائيلية فى سياق الخطاب السجالى الذى تصدى للدفاع عن الاتفاقيات والترويج لها، فى إطار حملة إيديولوجية شاملة ضد الفكر القومى برمته، والفكر اليسارى، ثم الفكر الإسلامى فى رزمة واحدة، مع تسويق تيار ليبرالى منحاز للغرب والولايات المتحدة ومدافع عن الواقع القطرى باسم الروح الوطنية، وعن اقتصاد السوق عوض الاشتراكية. فمن بين الدعاوى الرئيسية التى ساقها وما زال يسوقها ذلك التيار الليبرالى، أن المشاريع الفاشلة ومعاداة الغرب وحالة الصراع والحرب مع إسرائيل هى المسئولة عن تعطيل عملية التنمية والتقدم والرفاه الاجتماعى على المستوى القطرى، وفى المقابل فإن السلام مع إسرائيل فى إطار الانفتاح على الغرب والولايات المتحدة كفيل بأن يحرر الطاقات والموارد ويصرفها فى عملية البناء الداخلى والتقدم والرفاه والديمقراطية. وكفى الله المؤمنين القتال.

وطالما أن العملية السلمية لم تشمل المنطقة العربية فى مجملها، ولم تحل أصل الصراع: القضية الفلسطينية، فإن هذا المنطق يتجاهل مفهوم الأمن القومى والإقليمى، ويختزله فى الأمن القطرى، ويجعل الولايات المتحدة ضامنه الأول، مهما تفجرت بؤر الصراع والتوتر من حول النطاق القطرى. وعلى أى حال، قد كان ما قيل: أعنى السلام بين مصر وإسرائيل منذ زهاء ثلاثين سنة كافية لاختبار ذلك المنطق، ولم يرجع علينا أصحابه بتقويم المآلات ليقيموا علينا الحجة القاطعة. فأين التقدم والرفاه والديمقراطية؟! وأين أمن المنطقة وكل ما وقع ويقع فيها يهدد بتفجيرها؟ ولم يحق لأمريكا أن تعتبر العالم كله مجال أمنها القومى الذى يستدعى تدخلها فى أى قطر فيه، بينما يصر بعضنا على التقوقع القطرى إلا أن تكون المشاركة فى المشاريع الأمنية الإقليمية مطلبا أمريكيا وجزءا من محور تباركه الولايات المتحدة ويتوافق مع أمن إسرائيل.

نعم، ربما كان السبب فى عجز عملية السلام عن تحقيق وعودها فى التقدم والرفاه والديمقراطية وإنجاز تجربة يابانية أخرى، أنها لم «ترق» إلى مستوى الاستسلام حسب كاتبنا الصحفى اللوذعى! أو أن الشعوب الساذجة لم ترقَ بعد إلى مستوى قادتها - صانعى السلام- لتقبل على السلام وتنخرط فيه دون تحفظ.

الصراع على المعانى ليس ظاهرة جديدة فى الفضاء السياسى العربى، ولكنه استعلن بصورة شرسة منذ معاهدة كامب ديفيد



المعجم الليبرالى العربى الجديد!

الخطاب الليبرالى الجديد، يبنى مسوغاته على أخطاء التيارات الأخرى وعورات التجارب القومية واليسارية السابقة، شأنه فى ذلك شأن الأيديولوجيات الأخرى فى الفضاء السياسى العربى. فكل منها يقيم حجته بالسلب لا بالإيجاب: بما أخفق الآخرون فى إنجازه لا



بما نجح هو في إنجازه. وإذ يدين التجارب العملية الفاشلة فإنه يحتج بذلك على المبادئ نفسها.

فشل مشاريع الوحدة مثلا لا يستدعي نقد التجارب العملية وتحليل أسباب الفشل وإعادة النظر في الإستراتيجيات والأساليب، مع سلامة المبدأ وضرورة الغاية، وإنما يجب أن يعزى إلى جوهر المبدأ وصميم الغاية والفكر الذي يحيط بهما، والبديل هو تكريس التجزئة القطرية التي بدأت تدخل الآن في مرحلة جديدة عنوانها: تجزئة المجزأ أيضا. والهزائم العسكرية ليست وقائع ظرفية تاريخية يمكن تحليل عواملها الموضوعية الداخلية والخارجية سعيا وراء تغيير الشروط والظروف، وإنما هي دليل نهائي على ماهية ثقافية عربية ساكنة ثابتة تعيد إنتاج الانحطاط والعجز والهزيمة فيما يشبه الحتمية التاريخية التي لا فكاك منها. والبديل هو الخضوع والإذعان والاستسلام والتنازل عن الحقوق تحت مسميات السلام.

وانهيار التجارب الاشتراكية صك براءة للرأسمالية المتوحشة التي يمكن القول الآن إنها تمثل نهاية التاريخ. وانتشار ظواهر التطرف والإرهاب لا يستدعي تحليل العوامل البنيوية والسياسية التي أسهمت في خلقها، فإن ذلك يحيل من جديد إلى مظالم الإمبراطورية ووكيلها الإسرائيلي فضلا عن إخفاقات النظام العربي، والأجدر أن تنسب إلى مصادر ثقافية عربية إسلامية، وربما إلى جوهر الإسلام نفسه وصولا إلى تعميم التهمة على كل التيارات والاتجاهات الإسلامية وعلى مفاهيم المقاومة والجهاد مطلقا. وكل ذلك يتناغم مع التساؤل الأمريكي الشهير: «لماذا يكرهوننا»، ومع الإجابة الذكية الفورية «حسدا من أنفسهم لما تنعم به من الازدهار والحريات وأساليب الحياة المتقدمة». أما لماذا لم تنصرف هذه الكراهية إلى اليابان مثلا، وهي التي لا تفتقر إلى الازدهار والتقدم والحريات وأساليب الحياة المتقدمة، فسؤال يتم تجاهله.

تبقى الثنائيات المتفاصلة أساسا لفكر سياسي عربي ذي طبيعة اختزالية. وكل طرف من تلك الثنائية يستمد مسوغاته من أخطاء الطرف الآخر وثغراته وإخفاقاته. نعم، ينبغي أن نراجع تجارب الماضي وخطاباته مراجعة نقدية جريئة. فنُقر أنه بدعوى أولويات المشاريع القومية (الوحدة واستكمال مشاريع الاستقلال والتحرر من التبعية ومواجهة المشروع الصهيوني والتحرير)، تم تغييب الحريات والديمقراطية والمشاركة السياسية، وتكريس الدولة البوليسية والنظم الشمولية وقتل روح المبادرة. فكانت المحصلة، أننا أخفقنا في تحقيق الأهداف القومية وخسرنا حرياتنا المدنية في الوقت نفسه. ولم يدرك الكثيرون منا أن هذا من ذاك، وأن الحريات المدنية والمشاركة السياسية

الصراع على المعاني



ليست بديلا عن تلك المشاريع القومية، بل هي شرط لها. ثم جاء الخطاب الليبرالي الجديد، ليقتات على تلك الأخطاء، وليعكس المعادلة، فيجعل مطلب الازدهار الاقتصادي والتفرغ للتنمية والديمقراطية والحريات المدنية مسوغا للتخلي عن المشروعات القومية وعن إدارة الصراع مع المشروع الصهيوني والقوى الامبريالية التي ينتظم فيها، والجنوح إلى السلام مهما يكن ثمنه. فماذا كانت المحصلة؟ من جديد، تم إسقاط الأهداف القومية الكبرى ولم تتحقق وعود الازدهار والديمقراطية والحريات المدنية.

والأنكى من ذلك، أن ذلك التيار الليبرالي الأمريكي الهوى والوجهة الذي نصب نفسه داعيا للحريات المدنية والديمقراطية، باعتبارها العصا السحرية الكفيلة بحل مشاكل المنطقة قد انتهى في الكثير من الأحيان حليفا للسلطة مدافعا عنها محرضا لها ضد تيارات المعارضة، حين بدا أنها الأقدر على المنافسة في العملية الديمقراطية إذا ما أتيح لها ذلك في ظل انتخابات نزيهة. وظاهر الحال أن هذا التيار، وفقا للسياسة الأمريكية، يريد عملية ديمقراطية تفضي إلى وصول القوى الليبرالية المقبولة أمريكيا إلى السلطة، أما إذا كانت النتائج المتوقعة بخلاف ذلك فالأفضل تجميد العملية وعدم الإلحاح عليها. والحال، أن هذا التيار الليبرالي المتطرف على الرغم من كل ادعاءاته الديمقراطية يفضل نظاما علمانيا عسكريا على نمط الأتاتوركية يفرض برنامجه، على عملية ديمقراطية حقيقية يمكن أن تأتي بتيارات المعارضة التي ما زالت متمسكة بمعاني المقاومة والتحرر والتحرير والوحدة والأمن القومي والعدالة الاجتماعية والنهضة والقرار المستقل.

حقيقة الأمر، أن حملة هذا التيار على النظم البوليسية والديكتاتورية السابقة التي خنقت الحريات، لا يستهدف الديكتاتورية نفسها بقدر ما يستهدف الخطاب القومي ومفرداته السياسية التي اقترنت بتلك النظم، بحيث يبدو أن هناك تلازما شرطيا بين طبيعة ذلك الخطاب القومي وطبيعة تلك النظم، وأن أحدهما يحيل إلى الآخر بالضرورة. ومن هنا لابد من إضافة صفة «الفاشي» إلى عبارة «الفكر القومي» بصورة متلازمة، أو تحريف «كلمة قومي» «وقومية» إلى «قومجي» و«قومجية» بقصد التبخيس والازدراء، فضلا عن تحريف كلمة «إسلامي» إلى «إسلاموي» للغرض نفسه. أما اغتيال الحريات والتضييق على المعارضة في ظل أنظمة مقبولة أمريكيا، فيجري السكوت عنها. فالمشكلة الجوهرية ليست في الديكتاتورية وقمع الحريات، ولكن في البرنامج السياسي والمحتوى الأيديولوجي للنظام، وإلا فلماذا يختار هذا التيار أن ينضم إلى القوى المحلية والإقليمية والدولية في حملتها المنظمة ضد نتائج العملية الديمقراطية النزيهة -بشهادة الجميع- التي جاءت بحماس إلى الحكومة في فلسطين؟

ولماذا يذكرنا بطغيان نظام صدام حسين، ويصمت عن الدمار الذي أحدثه الغزو الأمريكي للعراق وأدى إلى مقتل ما يزيد على المليون وتهجير زهاء أربعة ملايين، ورد العراق إلى ما قبل الدولة الحديثة (ليبرالية كانت أم غير ليبرالية) لتصير دولة قائمة على الأنصبة الطائفية والعرقية، فضلا عن إخراجها من المنظومة العربية في واقع الحال؟! لماذا يدين هذا التيار المقاومة اللبنانية مذكرا بهويتها الشيعية وارتباطها بإيران ويؤيد في المقابل القوى السياسية العراقية الحاكمة المتضامنة مع الغزو الأمريكي، متجاهلا هذه المرة هويتها الشيعية وعلاقتها التاريخية بإيران؟ لماذا لا يذكر الرابط الإيراني حين يتقاطع مع مواقف الولايات المتحدة ويذكره فقط حين يتصادم معها؟ لماذا لا يبذل جهدا في التمييز بين الإرهاب الذي يستهدف المدنيين في العراق وغيره، وبين شرعية المقاومة ضد الاحتلال الأمريكي، ولو من حيث المبدأ؟ ولماذا يتجنب ابتداء وصف الوجود الأمريكي في العراق بالغزو والاحتلال غير الشرعي، ويفضل الكلام عن «قوات التحالف»، متجاهلا أن قرار الحرب تم خارج الأمم المتحدة وأنه واجه رفضا عالميا، وأن ذرائعه قد ثبت بطلانها، فضلا عن فضائح التضليل المتعمد بشأنها؟ ولماذا يدين هذا التيار التدخل الإيراني في العراق ويتغافل عن حقيقة أن الاحتلال الأمريكي هو الذي أتاح لإيران وحلفائها العراقيين فرصة التمكن هناك؟ وكيف يمكن الجمع بين المطلبين الأمريكيين: دعم القوى الحاكمة في العراق ومواجهة حليفها الإيراني في الوقت نفسه؟

في الديمقراطية:

الشرق شرق والغرب غرب!

من الواضح أن معيار الفرز والاصطفافات والتحيزات ليس مبادئ الليبرالية والحريات المدنية، بقدر ما هو العامل الأمريكي. والعامل الأمريكي هو بالضرورة العامل الصهيوني الإسرائيلي! وكفى تمويها في معركة المعاني! وأعظم تمويه هنا هو انتساب هذا التيار الأمريكي الهوى والبرنامج إلى «الليبرالية» بل اختطافه لهذا المصطلح ومعناه. ففي واقع الحال والممارسة يقترب هذا التيار من طروحات «المحافظين الجدد» في الولايات المتحدة أكثر من اقترابه من التيارات الليبرالية الأمريكية نفسها التي تشن حملات نقدية شرسة



ألا ترى أيضا كيف يتجاهل الكثيرون رواية اغتصاب فلسطين عام ١٩٤٨ ويفضلون أن تبدأ الرواية بحرب حزيران عام ١٩٦٧



الصـــراع عـلــى الــوجــود



ضد السياسات الأمريكية المحافظة لا نجد بعضها عند الليبراليين العرب الجدد.

نعم، آن الوقت لكى نحرر التسميات والمصطلحات والمعانى من الالتباسات التى تعمل على تلويثها، ومن القوى والتجارب التى اختطفتها ثم شحنتها بدلالات سلبية محرفة صرفتها عن معانيها الأولى. فمعركة المعانى مع التيار الليبرالى الجديد الذى حاولنا تفكيك خطابه ومقاصده، يجب ألا تذهب بنا إلى التعميم على الليبرالية بإطلاق أو على الليبراليين بعامة ولا إلى رفض مبادئ الليبرالية النظيفة المتحررة من الإملاءات والأجندات الأمريكية ومعاييرها المزدوجة. بل إن الرد الأمثل على الابتزازات الأمريكية بدعوى الحريات الليبرالية يتمثل فى تبنى قيم الديمقراطية والمشاركة السياسية وتطوير مؤسسات المجتمع المدنى والاحتكام إلى صندوق الاقتراع والتناوب السلمى على السلطة، فى إطار عملية ديمقراطية نزيهة وحراك سياسى مستقل، دون إقصاء مسبق لأى تيار سياسى يعمل بالطرق السلمية.

والحال أن الإلحاح الأمريكى على مسألة الديمقراطية والحريات المدنية بعد عقود من دعم الولايات المتحدة لنظم عسكرية ديكتاتورية شديدة البطش فى أماكن مختلفة من العالم، وتدبيرها الانقلابات العسكرية على حكومات مدنية وصلت بالانتخابات الحرة، هذا الإلحاح لم يأت نتيجة لصحوة ضمير، ولا التزاما برسالة أخلاقية، ولكن لرفع الحرج الذى تسببه لها أنظمة حليفة غير ديمقراطية، ولأنها توهمت أنه بعد انحسار تيارات اليسار المعادى للولايات المتحدة، مع انهيار المركز السوفيتى، فإن العملية الديمقراطية يمكن أن تأتى بالتيارات الليبرالية الصديقة. والأهم من ذلك أن المطلب الديمقراطى جاء على خلفية التساؤل الشهير حول أسباب موجة التطرف والإرهاب والكراهية من الولايات المتحدة، فكانت إحدى الإجابات المقترحة: غياب الديمقراطية الذى يدفع الشعوب إلى معاداة حكوماتها، ليمتد العداء إلى راعيها الأمريكى. وبذلك تصرف الولايات المتحدة التهمة عن دور سياساتها الخارجية فى إطلاق موجة الكراهية والتطرف، وتصرفها، بدلا من ذلك، إلى أسباب محلية داخلية. وهكذا تقلب الحقيقة تماما، وهى أن العداء لأمريكا بسبب سياستها الخارجية، هو أحد أهم أسباب عداء الشعوب لأنظمتها المحلية المتهمة بالتواطؤ مع الولايات المتحدة والخضوع لإملاءاتها وليس العكس.

أما النظام العربى نفسه، فينطوى على مفارقة كبرى فى هذا السياق. إذ يبقى ممتثلا للإملاءات الأمريكية معظم الوقت، باسم المصالح المشتركة والسياسات الواقعية العملية، حتى إذا طالبه الراعى الأمريكى بمزيد من الحريات المدنية وحقوق الإنسان والديمقراطية (بغض النظر عن المقاصد والغايات)، وجد الشجاعة الغائبة أخيرا للاعتراض على التدخل الأمريكى والدفاع عن السيادة والقرار المستقل. وربما تذكر هنا فقط أن الشرق هو الشرق، والغرب هو الغرب، لأنهما قد يلتقيان على كل شىء ماعدا الديمقراطية «الدخيلة» التى تتعارض مع خصوصياته الثقافية وهويته الحضارية: لا خطر على هويتنا الثقافية ووجودنا الحضارى من الهيمنة الغربية الأمريكية إلا فى مجال واحد: الديمقراطية والحريات، والواقع أن هذه المفارقة تنسجم تماما مع الطبيعة الأيديولوجية للنظام العربى الرسمى الذى يمسك العصا من الوسط، فيحتفظ بقدر معلوم من العلمانية الغربية يكفى لقمع المعارضة الإسلامية باسم التقدم والاستنارة ومواجهة الرجعية والظلامية، وبقدر معلوم من الإسلام يكفى لقمع المعارضة العلمانية باسم الدفاع عن الهوية الحضارية والخصوصيات الثقافية والدينية. ثم لا يكون هذا ولا ذاك!

وهذا يفسر، من جهة أخرى، لماذا تجد بعض القوى الليبرالية نفسها أحيانا فى صراع مع النظام، وربما عمدت إلى الاستقواء بالقوى الخارجية أحيانا، ثم تجد نفسها حليفا له ومدافعا عنه فى وجه المعارضة لسياسات الولايات المتحدة، سواء أكانت إسلامية أم قومية أم يسارية. معايير مزدوجة تطبع الأقانيم الثلاثة: الولايات المتحدة، ووكيلها المحلى الرسمى، والليبراليين المتطرفين الجدد دعاة الانفتاح على الطريقة الأمريكية.

تحـريـر المـعـانـى

ويقدر ما يملى علينا صراع المعانى أن نُحرر معنى الحريات الليبرالية والديمقراطية ممن اختطفوها وحرفوا مقاصدها، فقد آن الأوان أيضا لأن نسترد المعانى القومية والإسلامية والتحررية ممن اختطفوها منا، وقدموا من خلال أخطائهم وممارساتهم المتطرفة المسوغات التى يحتج بها المروجون لثقافة الاستسلام والإذعان والخضوع للبرامج الأمريكية الصهيونية فى المنطقة. آن الأوان لنُحرر تلك المعانى والمبادئ من عبء التجارب الفاشلة الماضية. وفى الوقت نفسه، آن الوقت لنتحرر من شرك الثنائيات الأيديولوجية المتفاصلة التى تتبادل الإقصاء، وأن نستعيد المبادرة فى معركة المعانى:

- فندين «الإرهاب» بالإسلام فى مواجهة من يتوسلون ظاهرة الإرهاب لاتهام الإسلام نفسه.

- وإذ ندين «الإرهاب»، فإننا نقاوم الرواية الأمريكية التى ترد ظاهرة «الإرهاب» إلى مصادر ثقافية تربوية عربية إسلامية، لتخفى دور العوامل البنيوية التى أسهمت إسهاما جوهريا فى إطلاق الظاهرة، وخلقت الظروف المادية والنفسية المناسبة لنموها: وفى مقدمتها المظالم التى ارتكبتها وترتكبها الإمبراطورية الأمريكية ودعمها المطلق للسياسات الإسرائيلية وتجاهل الحقوق العربية والفلسطينية وتخاذل النظام العربى وخيباته. ولا ننكر هنا أن ثمة منابع فكرية أسهمت فى إنتاج ظاهرة التطرف ومن ثم الإرهاب، وأنه ينبغى معالجتها على الصعد الثقافية والتربوية والدينية، ولكن حصر الأسباب فى هذه المنابع تضليل وتلبيس.

- كما أن علينا أن نقاوم التعريف الأمريكى الضيق للإرهاب الذى يجعله اختصاصا عربيا إسلاميا ويحصره فى التنظيمات والجماعات المعنية. فإن أى تعريف للإرهاب يتجاهل إرهاب الدولة والإرهاب الإسرائيلى وإرهاب السياسات الخارجية الأمريكية، يفتقر إلى المصداقية والقبول.

- كذلك ينبغى ألا نخضع للابتزازات التى تلوح لنا بتهمة «الإرهاب»، لنسقط من معجمنا معانى المقاومة والجهاد، أو نستعملها بصوت خفيض خجول، مع استدراكات اعتذارية دفاعية تبريرية خشية التباسها مع «الإرهاب» والتطرف. ألا ترى كيف عملت الرواية الليبرالية الأمريكية على تلويث معنى الجهاد بخلطه قصدا مع «الإرهاب»، حتى صار بعض كتابها يستعملون مصطلح «الجهاديين» و«الجماعات الجهادية» وصفا للحركات «الإرهابية»؟! علينا من جديد تحرير المصطلح ممن اختطفوه منا، ليبقى الجهاد ضد الاحتلال والغزو ذروة سنام الإسلام، ولتبقى المقاومة المشروعة أنبل صور النشاط الإنسانى. إن إسقاط معانى المقاومة والجهاد يضمر تغييب الشروط والأسباب والسياقات التى تملى استدعاءها وإنزالها على الواقع. فالمقاومة لا تتعرف بذاتها، وإنما تتعرف بنقائضها وأضدادها: الاحتلال والغزو والإذعان والاستسلام. ولذا فإن تغييب معانى المقاومة يضمر تغييب واقع الاحتلال والاغتصاب والغزو من فضاء التصورات والمعانى والخطابات، لتحل مكانه توصيفات أخرى مضللة كالتنازع على الحقوق.

أما التأكيد على معانى «الاحتلال» و«الغزو» فهو تأكيد على معنى «المقاومة» المشروعة فى المقابل، والتأكيد على معنى المقاومة يستدعى التأكيد على نقيضه وشرطه: الاحتلال والغزو. مثلما يذكر بنقيضه الآخر فى الجبهة الداخلية: الإذعان والخضوع والاستسلام.

وبالمثل، فإن علينا أن نرد الاعتبار للمعانى المبدئية التى تعرضت وتتعرض لهجوم شنيع من خلال الربط المتعسف بينها وبين التجارب الماضية الفاشلة ربطا شرطيا. فكما أن علينا أن نسترد الإسلام من

انظـر كيف يحتفـل الإسـرائيليون بما وقـع عـام ١٩٤٨ على أنه استقلال الشعب الإسرائيلى من القوة الاســتعمارية البريطـــانية الطارئة على وطنـه(؟!)

تيارات التطرف والإرهاب التي اختطفته، فإن علينا أن نسترد معاني الوحدة والعروبة والعدالة الاجتماعية والتحرر من التبعية وتحرير الأرض من تجارب النظم البوليسية القمعية التي رفعت تلك الشعارات ثم أخفقت في إنجاز وعودها وانتهت بنا إلى الكوارث المشهورة. فالبديل عن الطغاة ليس الغزاة، بل إن الطغاة في التاريخ كانوا دائما شرط الغزاة. وكيف ندين أشكال المعارضة الداخلية العنيفة المتطرفة ضد الأنظمة المتسلطة ثم نرضى بالتدخل العسكري الأجنبي لتحريرنا منها بقوة الغزو والسلاح؟

إن البديل المجدي للتطرف باسم الدين، هو الفهم الوسطي المعتدل له. والبديل عن التجارب الفاشلة للوحدة، ليس إسقاط المعنى والمبدأ وتكريس واقع التجزئة القطرية، إنما هو تطوير إستراتيجيات واقعية حكيمة لخدمة المبدأ وتحقيق الغاية، وإن البديل عن جملة الإخفاقات في مواجهة المشروع الصهيوني ليس الإذعان له والتنازل النهائي عن الحقوق، ولكنه مراجعة أسباب الإخفاقات واستثمار القدرات والإمكانيات العربية الكامنة وتصويب الاختلالات السياسية والمادية والثقافية والاجتماعية التي أفضت إلى هزيمة النظام العربي أمام العدو، وإلى هزيمة الشعوب العربية أمام النظام العربي. وإن البديل عن انهيار التجارب الاشتراكية ليس الرأسمالية المتوحشة بأشكالها الجديدة المتطورة ولا استئثار القلة بثروات العالم وسحق الغالبية الضعيفة الفقيرة، وإنما البديل نظام عالمي ومحلي متوازن يحقق مبدأ العدالة الاجتماعية والإنسانية والتضامن والتكافل دون أن يجني على الحريات أو يصادر الحقوق وروح المبادرة.

وفي هذا السياق من معركة المعاني، ينبغي ألا تدفعنا الرواية الأمريكية إلى الخجل من استعمال مصطلحات الاستعمار والامبريالية والاستغلال الرأسمالي في وصف الواقع السياسي الاقتصادي الدولي، خشية أن تحيل هذه إلى الشيوعية الدولية المنحسرة والتجارب الاشتراكية الفاشلة في الدول النامية وشعارات الثورة العالمية في عقد الستينيات. فالاستعمار والامبريالية لم يكونا اختراعا سوفيتيا عملت الآلة الدعائية على الترويج لهما في سياق الحرب الباردة، حتى إذا انهار الاتحاد السوفيتي، انهارت معه تلك المعاني والأوهام. حقيقة الأمر، أن الإمبريالية الرأسمالية كانت قبل الاتحاد السوفيتي، وأثناء وجوده، وازدادت تغولا وشراسة بأشكال جديدة بعد انهياره. فهل يجب أن ننتظر حتى تنفجر أزمات النظام الرأسمالي الامبريالي بمستوى كارثي كي نعيد الاعتبار لمعاني العدالة الاجتماعية في مقابل الاستغلال الرأسمالي والهيمنة الامبريالية؟!

بعد ستين سنة من النكبة المستمرة، لم تتغير حقائق الصراع مهما اجتهد

الصراع على المعاني



الخطاب الامبريالي الأمريكي الهوى في تحريف الرواية وتشويه المعاني.. إسرائيل مشروع استعماري إحلالي استيطاني ودولة وظيفية تنتظم في البرنامج الاستعماري الامبريالي الشامل ضد الأمة العربية ومشروع نهضتها وتوقها للتحرر من التبعية وتحرير الثروات والوحدة واستئناف دورها الحضاري في الفضاء الإنساني. وإذا كانت الاستجابة على قدر التحدي، فإن القضية الفلسطينية في المقابل تبقى القضية المركزية للعرب ولا تنفصل عن عمقها العربي، وهي بذلك تنتظم في مشروع النهوض العربي بكل جوانبه المادية والثقافية والروحية والسياسية التي تتضمن شرط التحول الديمقراطي الصحيح غير المرتهن للأجندات الأجنبية والذي يجمع تعريفه بين البنى الاجتماعية والسياسية والثقافية، فلا يُقصي الحريات المدنية والسياسية انطلاقا من مفهوم ضيق للديمقراطية الاجتماعية، ولا يتجاهل الحقوق الاجتماعية بدعوى المبادئ الليبرالية.

نزعم أن هذا التصور ليس مجرد خيار أيديولوجي، بقدر ما هو تمثيل لحقائق الواقع التاريخي، ولذا كان من الطبيعي أن ينتظم صراع المعاني حول القضية الفلسطينية في الإطار الأوسع لصراع المعاني حول الوضع العربي بعامة.

الرواية الفلسطينية هي بالضرورة عقدة رئيسة في الرواية العربية الشاملة. والخيارات في صوغ مفرداتها وتعريف معانيها هي الخيارات التي يتبناها هذا الطرف أو ذاك في توصيف الواقع العربي وتشكيل مساره. فالمعجم السياسي الذي يتضمن معنى المقاومة والتحرير هو نفسه الذي يتضمن معاني الأمة العربية والوطن العربي والوحدة والتحرر والنهوض والديمقراطية الحقيقية والتكامل والتنمية المستقلة والعدالة الاجتماعية والأمن القومي، ورفض سياسات الإذعان والاستسلام والهيمنة الامبريالية والتبعية والاستغلال والفساد والديكتاتورية.

والمعجم المقابل لا يسقط معاني المقاومة والتحرير إلا ليسقط معها كل المفردات الأخرى السابقة، ليحل مكانها منظومة من المعاني تشمل القطرية الضيقة بدعوى الهوية الوطنية، والشرق الأوسط، والسلام الذي لا يتأسس على العدل ويضمر الإذعان للأمر الواقع، والانفتاح الذي يبطن التبعية والرأسمالية المتوحشة غير المنضبطة بمحددات العدالة ومنع الاستغلال وحماية الطبقات الفقيرة والرعاية الاجتماعية... الخ.

هل يعني دفاعنا عن نظام المعاني التحررية، أننا ندعو إلى دق طبول الحرب، والانغلاق على الذات أو العمل بمقولة «الكل أو لاشيء» كما يحب أصحاب المعجم الآخر أن يصوروا منظومة المعاني التي نتمسك بها؟



ولكن الأخطر من عدم تحقق الأحلام في الواقع هو المحاولات المنظمة لمصادرة الأحلام نفسها، وإعادة تعريفها لتعني «الأوهام» غير القابلة للتحقق أصلا



إعادة الاعتبار للثوابت الفلسطينية

نعلم أن الطريق ما زال طويلا، وأن موازين القوى لا تعمل الآن لصالحنا وأن النظام العربي لا يملك القدرة ولا الإرادة السياسية ولا القرار المستقل، وأنه جزء من المشكلة أكثر منه جزءا من الحل. ولكننا نعلم أيضا أن هذا الواقع ليس نهاية التاريخ وليس قدرا محتوما ومؤبدا لكي نؤسس عليه خياراتنا النهائية بدعوى العقلانية والواقعية. وإن قيل إن السياسة هي «فن الممكن» فإن هذا لا يعني أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، بل إن جوهر المشكلة أننا لم نستثمر إمكانياتنا الكامنة لخلق واقع جديد حتى تحت سقف النظام العربي القائم. الواقع الراهن ليس نتاجا للإمكانيات، بقدر ما هو نتاج لتعطيلها. فإن قيل: «هل يعني هذا أن نرفض مبادرات السلام والتسوية السياسية حتى نستكمل مشروع النهضة والتقدم وتعتدل موازين القوى»، قلنا: امضوا على بركة الله، لن نهرب من الحاضر إلى المستقبل. ولن ندعو إلى تعطيل فرص التسوية المرحلية أو تخريبها، ولكننا نطالب بالإجابة عن سؤالين:

- ماهي حدود التنازلات التي ترضون بتقديمها للقوة المتغلبة من أجل تسوية سياسية مقبولة في الظرف التاريخي الراهن؟ هل يشمل ذلك التنازل عن القدس وحق العودة لستة ملايين لاجئ مثلا؟!
- وإن أصرت إسرائيل وحليفها الأمريكي على تلك التنازلات وعلى تعطيل قرارات الشرعية الدولية، فأحبطت بذلك عملية السلام، فما هي خطتكم البديلة، أو خياركم البديل، وقد أعلنتم من قبل أن السلام هو الخيار الإستراتيجي الوحيد، وعملتم على إقناعنا بأنه لا قبل لنا بتغيير شروط الواقع القائم؟

هذه ليست أسئلة تعجيزية سجالية. أولَيس هناك مبادرة عربية للسلام ارتضت بالأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ مقابل اعتراف عربي كامل بإسرائيل مع ما يستتبع ذلك من استحقاقات التطبيع؟ أين ذهبت تلك المبادرة ومن هو الطرف الذي تجاهلها وفوت ما تمثله من «فرصة تاريخية للحل»؟ وما الذي يمكن أن نقدمه من تنازلات أكثر من تلك المبادرة المنسية؟

وأين ذهبت قبلها اتفاقيات أوسلو وتداعياتها؟ الحقيقة التي لا يريد تيار «الاعتدال العربي» مواجهتها أن التيارات «القومجية» و«الإسلاموية» و«اليسارية» ليست مسئولة عن تعطيل الخيار الإستراتيجي الوحيد وإنما هي «إسرائيل» تحديدا، وأن تفويت الفرص، منذ رضي العرب والفلسطينيون بمبدأ

التسوية السياسية فى إطار قرارات الشرعية الدولية، هو صناعة إسرائيلية أمريكية بامتياز.

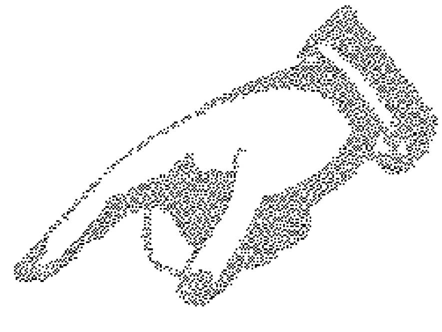
بعد ستين سنة من النكبة، فإن التعنت الإسرائيلى وغطرسة القوة، وإخفاق تيار «الاعتدال» العربى، حسب التعريف الأمريكى، فى إنجاز وعوده فى السلام العادل والشامل والازدهار والرفاهية والتقدم فى ظل السلام، يكفينا ذلك كله مهمة السجال مع نظام المعانى الذى عمل التيار الليبرالى المتطرف على إنتاجه والترويج له، ويلزمنا بالقدر نفسه أن نعيد الاعتبار لنظام المعانى التحررى النهضوى بكل مفرداته، بتعريفات جديدة تحرره من عبء التجارب الفاشلة والأخطاء الماضية، وبصوت قوى واضح لا تشوبه النبرة الاعتذارية الدفاعية تحت وطأة الابتزازات المعنوية التى يمارسها الطرف الآخر. وهب أن جهود التسوية أثمرت حلا مرحليا ما للقضية الفلسطينية، يقنع به الفلسطينيون تحت وطأة الظروف القاهرة، فهل يعنى ذلك أن الأمة العربية قد أنجزت مشروع تحررها ونهضتها وحققت أهدافها الكبرى ليكون مسوغا للتخلى عن معجم المعانى التحررية؟ بل لنفترض جدلا أنه لم يكن ثمة قضية فلسطينية أصلا، أوَ لَيس للأمة العربية قضية كبرى وأهداف إستراتيجية تاريخية نهضوية تنموية تصطدم بعوامل التخلف الذاتى والبنى الاجتماعية التقليدية مثلما تصطدم بظروف التبعية والإلحاق والتجزئة القطرية وقوى الهيمنة الامبريالية؟! من جديد، نستذكر أن المشروع الصهيونى ينتظم فى المشروع الغربى الاستعمارى الامبريالى الذى يستهدف الأمة العربية بجملتها، وأن أهداف التحرر والنهضة والتكتل العربى والديمقراطية ليست مجرد شروط مطلوبة لمواجهة المشروع الصهيونى، فإذا وجدت القضية الفلسطينية حلا فلن تنتهى دواعى تلك الأهداف والغايات القومية الإسلامية، ومعها نظام المعانى التحررية المرتبطة بها. بل نزعم أن التوصل إلى حل سياسى للقضية الفلسطينية فى ظل المحددات القائمة، يدعو التيارات النهضوية العربية الإسلامية إلى مزيد من النشاط المنظم للدفاع عن تلك المعانى وتوظيفها من أجل التغيير، ولمواجهة الاختراق الإسرائيلى للوطن العربى فى إطار استحقاقات السلام: وللتمسك بالرواية العربية الفلسطينية التاريخية عن اغتصاب الوطن الفلسطينى والمشروع الصهيونى، ولحماية الذاكرة التاريخية الفلسطينية ومكوناتها الرمزية. فالوطن الفلسطينى يبقى الوطن الفلسطينى حتى لو أملت الظروف المرحلية القاهرة ألا تتطابق حدود الدولة المحتملة مع حدود الوطن التاريخى. وما حدث عام ١٩٤٨ ليس «استقلال إسرائيل» وإنما هو اغتصاب الوطن الفلسطينى وتشريد شعبه.

وإذا لم يكن فى وسع يهود العالم أن يغفروا لهتلر والنازية جرائم المحرقة، فلن يكون فى وسع الشعب الفلسطينى والأمة العربية أن يغفروا لإسرائيل جرائم الاغتصاب والإحلال والاحتلال والتشريد والبطش والتجويع، حتى لو تم التوصل إلى تسوية سياسية ما. وهذه المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج هى الوطن العربى الذى يتعرف بهويته الحضارية العربية الإسلامية، وليس ما تريد لها التعريفات الجيوسياسية الملغومة أن تكون: الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، لإسقاط هويتها القومية العربية الإسلامية إلى الأبد، وإعادة تعريفها بما يتيح لإسرائيل الاندماج بها من موقع مركزى متحكم.

على أن إحياء نظم المعانى التحررية النهضوية يقتضى من تيارات المعارضة المختلفة أن تتحرر من عبء صراعاتها الأيديولوجية الماضية وأن تلتقى على أمر جامع وكلمة سواء. إذ إن الدفاع عن نظم المعانى التحررية ومدافعة نظام المعانى النقيض يشكلان مساحة مشتركة للتلاقى والتعاون. أما الخلافات الأيديولوجية فإن التوافق على العملية الديمقراطية الحرة والاحتكام إلى خيارات الشعب، كفيل بإدارة الحراك السياسى وتنظيم التدافع العقدى السياسى بطرق بناءة تحول دون الإقصاء المتبادل.

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من الممارسات السلوكية المرذولة كالكذب والسرقة والبخل والخيانة والجبن. ولكن هذه تبقى معانى وقيما سلبية مرفوضة فى المرجع الثقافى المشترك وما يشتمل عليه من نظم المعانى والمفاهيم والقيم. وحتى من يمارسها فإنه لا يُعلن بها ولا يُتفاخر بها كيلا يتعرض للوصمة الاجتماعية أو يفقد عضويته فى الهيئة الاجتماعية، وفى أسوأ الظروف فإنه يلتمس لها تأويلات وتعريفات أخرى تخرجها من المعانى المرفوضة اجتماعيا إلى المعانى المقبولة، فيدعو التخاذل مثلا حكمة وتقيَّة أو واقعية وعقلانية، والبخل اقتصادا وتدبيرا، والسرقة استرجاعا لحقوق ممنوعة، وقس على ذلك. ومعنى ذلك أن المجتمع مازال يحتكم إلى منظومته القيمية الجامعة حتى لو انحرفت بعض الممارسات العملية عنها. ولكن الكارثة الكبرى هى أن تنقلب المعانى إلى أضدادها: فيصير الكذب والجبن والخيانة قيما مقبولة لا تعيب صاحبها ولا يستتر منها، بل ربما فاخر بها. حينئذ، يصبح «التطهر» تهمة يستحق «الموصومون» بها عقوبة الطرد والإقصاء. أفلم يقل قوم لوط فى نبيهم ومن معه (آخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون)/ الأعراف الآية ٧. عندئذ فقط تأتى الخاتمة المريعة وتصبح الجماعة خبرا من الماضى وأثرا بعد عين. الصراع على نظم المعانى، هو فى آخر المطاف، صراع على الوجود.. لا على الحدود. ■

كتاب الزاوية



ترشيد العمل الجهادى فى مصر والعالم

سيد إمام الشريف

قبل عامين بالضبط تحديدا فى ٨ مارس ٢٠٠٧ كتب «سيد إمام الشريف» الشهير بالدكتور فضل، الأمير الأول ومنظّر تنظيم الجهاد فى مصر وثيقة «ترشيد العمل الجهادى فى مصر والعالم». الوثيقة التى أثارت فى حينه جدلا كبيرا ، جاءت فى أكثر من ١٠٠ صفحة. وبدأها كاتبها بمقدمة يشير فيها إلى السبب الذى دعاه إلى مراجعة أفكار تنظيم «الجهاد»، وهو انتشار المخالفات الشرعية فى ممارسات الجماعات الإسلامية أثناء صداماتها المتكررة مع السلطات، إذ استندوا إلى مبدأ التترس المعروف فقهيا: ليسفكوا الدماء ويتلفوا الأموال، حتى وصلوا إلى قتل الناس على الجنسية وعلى المذهب وبسبب ألوان شعرهم.

«الدكتور فضل»، الذى عُرف لاحقاً باعتباره مفتى تنظيم «القاعدة»، كان قد زامل أثناء دراسة الطب الدكتور الظواهرى فى جامعة القاهرة التى تخرج فيها العام ١٩٧٤ فى ذروة مباركة الرئيس الراحل أنور السادات عمل التيار الإسلامى فى الجامعات المصرية.

ولم يخرج اسم الشريف إلى العلن إلا بعد إحالة «قضية الجهاد الكبرى» عقب قتل السادات إلى القضاء، إذ وجهت إليه تهمة «كتابة الأبحاث لتحديد فكر الجماعة» خصوصاً الموقف من بعض التيارات الفكرية الإسلامية فى الساحة. لكن المحكمة برأت ساحته غيابيًا، بعدما كان قد وصل إلى باكستان، التى بدأ فيها رحلته الطويلة التى انتهت الى كتابةالوثيقة التى ننشر - مع كثير من التحفظ - أجزاء منها هنا:

إســـــــرائيــــل..

صـــالـــح الــنــعـــامــي

■ ذهلت السيدة عندما اندفع طفلها مذعوراً باكياً الى داخل المنزل، وجارها ضخم الجثة يطارده. ولما لم تسارع الام الواقعة تحت هول الصدمة لنجدته، اندفع طفلها نحو الحمام، فما كان من الجار إلا أن اقتحم الحمام في أثره حتى أمسك به، وأخرجه، وأمام ناظري أمه قام بضربه بشكل مبرح وبعد ذلك قام بعضه. وقع هذا الحادث قبل سبع سنوات، في مستوطنة «نوكديم»، الواقعة في محيط مدينة «بيت لحم». لم يكن هذا الجار المتوحش سوى مفاجأة الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة افيغدور ليبرمان، رئيس حزب «إسرائيل بيتنا»، اليميني المتطرف الذي سجل مفاجأة كبيرة عندما فاز بخمسة عشر مقعداً، ليحل في المرتبة الثالثة بعد حزبي «كاديما»، و«الليكود»، ويتفوق على حزب العمل بزعامة إيهود براك، وهو الحزب الذي بنى الدولة وقادها على مدى عقود من الزمن. في هذه الانتخابات حقق اليمين فوزاً واضحاً إذ أن مجموع ما حصلت عليه الأحزاب اليمينية بشقيها الديني والعلماني هو ٦٥ مقعداً في الكنيست، وهذا ما يعني أن أي حكومة ستشكلها ستحظى بأغلبية مستقرة. وفي المقابل فان أحزاب ما يعرف بـ «يسار الوسط» و«اليسار» ممثلة في حزبي كاديما والعمل وحركة «ميريتس» قد حصلت مجتمعة على ٤٤ مقعدا فقط. وقبل الاستفاضة في رصد وتحليل الأسباب التي أدت إلى هذه النتائج، فانه يتوجب التنويه إلى نقطة بالغة الأهمية، وهي أن تصنيف الأحزاب الإسرائيلية الى يسار ويمين هو تصنيف مضلل. فعلى صعيد السياسات الاجتماعية الاقتصادية، نجد أن أحزاب اليسار الإسرائيلي وبخلاف كل الأحزاب اليسارية في العالم تدافع عن اقتصاديات السوق والخصخصة. وإن كان الانتماء لليسار يعني تبني موقف معتدلة من الصراع مع العرب، نجد أن تحالف أحزاب يسار الوسط ممثلة في «كاديما» والعمل هو الذي أدار الحرب الإجرامية على قطاع غزة، وهي الحرب التي لم تجرؤ أي حكومة في إسرائيل على شنها.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا انهار اليسار الإسرائيلي على هذا النحو غير المسبوق، ولماذا تعاظمت قوة اليمين؟، هل الصراع مع العرب وتداعياته هو العامل الرئيسي المؤثر على تعاظم اليمين وتهاوي اليسار في إسرائيل؟. نحن هنا سنحاول رصد الأسباب التي أرست موازين القوى في الحلبة الحزبية الإسرائيلية على هذا النحو.

التغيرات الديموغرافية والإثنية

الباحث والمؤرخ الإسرائيلي شلومو بن عامي الذي شغل منصبي وزير الخارجية والأمن الداخلي سابقاً يرى أن أهم الأسباب التي قادت الى تعاظم اليمين الإسرائيلي وتراجع اليسار هو التغيرات الديموغرافية والإثنية التي طرأت داخل إسرائيل، وليس بتأثير الصراع العربي الإسرائيلي. ويشير بن عامي الى أنه خلال العقود الثلاثة الماضية أسفرت التغيرات الديموغرافية عن تبلور ثلاثة قطاعات سكانية رئيسية داخل إسرائيل، وهي: المهاجرون الروس الجدد، والشرقيون، والمتدينون، منوهاً إلى أن هذه التجمعات أصبحت تضم حوالي ٨٠٪ من المستوطنين اليهود في إسرائيل. ويضيف بن عامي أن قوى اليسار لم تنجح في اختراق هذه التجمعات، التي خضعت منذ البداية إلى تأثير نخب مثقفة ذات توجهات يمينية صرفة. حسب بن عامي فإن المهاجرين الروس لوحدهم يشكلون ٢٠٪ من إجمالي عدد المستوطنين في إسرائيل، ولا يوجد لليسار تأثير يذكر على هذا التجمع السكاني الكبير.

من ناحيتها أشارت النسخة العبرية لموقع صحيفة «هارتس» على شبكة الانترنت إلى أن حسب النتائج، فأن المهاجرين الروس قد منحوا حزب ليبرمان ١٠ مقاعد من أصل ١٥ مقعداً حصل عليها في الانتخابات، وهذا يعني الدور الحاسم للروس في تعزيز قوة اليمين المتطرف.

البرفسور سامي ساموحا، استاذ علم الإجتماع السياسي في جامعة حيفا يتفق مع بن عامي ويضيف أن هناك عاملين دفعا المهاجرين الروس الجدد لتبني التوجهات اليمينية المتطرفة، وهما:

أولاً: الرغبة في التميز عن المهاجرين المخضرمين، منوهاً الى أنه يكاد يكون أمراً مسلماً أن يندفع المهاجرين الجدد لتبني المواقف اليمينية المتطرفة، واتخاذ مواقف عنصرية من العرب للتدليل على اخلاصهم لـ«الوطن الجديد»، على اعتبار أن المواقف العدائية من العرب ينظر إليها كدليل على «الوطنية»، مشيراً الى أن الذي يدلل على الرغبة في التمايز هو حرص المهاجرين الجدد على التطوع للخدمة في الوحدات المختارة والخاصة في الجيش الإسرائيلي عندما يحين موعد خدمتهم العسكرية الإلزامية. ويضيف ساموحا: «تبني المواقف المتطرفة هي ماركة الوطنية المسجلة في إسرائيل بالنسبة للمهاجرين الجدد.

ثانياً: التعرض لتأثير النخب المتطرفة، ففي الوقت الذي أهمل اليسار الإهتمام بالمهاجرين الجدد، فأن اليمين حرص على احتضان النخب المثقفة لديهم، ومساعدتها على بناء منابر اعلامية خاصة بها. فمثلاً الأغلبية الساحقة من هيئات تحرير الصحف الروسية الصادرة في إسرائيل وقنوات التلفزة ومحطات الإذاعة باللغة الروسية، وكذلك الصحافيون والمعلقون العاملون في وسائل الإعلام هذه يتبنون المواقف اليمينية المتطرفة. وإذا عرفنا أن الأغلبية الساحقة من المهاجرين الروس الجدد لا يتحدثون العبرية رغم أنه مضى على الكثير منهم حوالي عقدين من الزمن، ويعتمدون على وسائل الإعلام باللغة الروسية استقاء المعلومات، فإن هذا يعني أنه سيظلون عرضة لعمليات غسيل المخ باللغة الروسية، الأمر الذي يعزز فقط الميول اليمينية المتطرفة لدى هذه الشريحة الكبيرة.

وفيما يتعلق بالشرقيين، فان البروفيسور يهودا شنهاف وهو رئيس جميعة «قوس قزح شرقي»، التي تدافع عن حقوق اليهود الشرقيين في إسرائيل يرى أن معظم الشرقيين يرون أن الأحزاب اليمينية هي الكفيلة بالدفاع عن حقوقهم ومصالحهم و« إنصافهم من الغبن الطائفي» الذي يعانون منه منذ الإعلان عن الدولة، منوهاً الى أن الاستلاب لهذه القناعة دفع اليهود الشرقيين لمنح ولائهم بشكل أساسي إما لحزب الليكود، أو حركة «شاس» الأرثوذكسية ذات التوجهات المتطرفة التي رفعت راية رفع الغبن ومواجهة التمييز ضد الشرقيين.

وفيما يتعلق بالمتدينين، فأن المرء لا يحتاج أن يستفيض في شرح أسباب اندفاعهم نحو التوجهات المتطرفة، لخضوع المتدينين بشقيهم الصهيوني والأرثوذكسي لتأثير مرجعيات دينية متطرفة.

رواج نظرية «انعدام الشريك»

من ناحيته يرى المفكر والكاتب الإسرائيلي عكيفا الدار أن أحد أهم الأسباب التي دفعت الرأي العام الإسرائيلي للانجراف نحو التطرف هو اعتقاده أنه لم يعد هناك شريك فلسطيني أو عربي في أي تسوية مستقبلية للصراع. وفي تحليل لنتائج الانتخابات الإسرائيلية يشير الدار الى مفارقة هامة تتمثل في حقيقة أن ايهود براك زعيم حزب العمل، والذي يصف نفسه بـ«زعيم معسكر السلام»، هو المسؤول عن رواج نظرية «انعدام الشريك». ويضيف الدار أنه في مطلع العام ٢٠٠١، بعد انهيار مؤتمر «كامب ديفيد»، الذي جمع براك وكان وقتها يشغل منصب رئيس الوزراء الإسرائيلي والرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات، واندلاع انتفاضة الأقصى، خرج براك للجمهور الإسرائيلي وأطلق عبارته الشهيرة: «أقر واعترف أنه لا يوجد شريك فلسطيني في التسوية، لقد عرضنا على عرفات القمر، لكنه اختار أن يرد علينا بالإرهاب». وسائل الإعلام الإسرائيلية التي كانت تشرف عليها النخب ذات التوجهات اليسارية تلقفت أقوال براك وتبنتها وروجت لها، فتسربت



الجمهــور الإســرائيلي يعي أنــه لا يوجــد فــي الحقيقــة ثمــة فــروق بيــن أحــزاب اليســار واليميــن في إســرائيل



اليمين القادم



فى ظل وجود حكومة اليمين لن يكون بوسع «محور الإعتدال» بمواصلة التبشير بثمار «المسيرة السلمية»



لوعى الجمهور الإسرائيلى كحقائق مسلم بها. ويشير إلدار إلى أنه على الرغم من أن الجمهور الإسرائيلى يؤمن بأن حل الصراع يتطلب تسوية سياسية ما على الرغم من عدم استعداده لدفع الثمن المطلوب لإنج، فأنه بات لا يؤمن أصلاً بوجود شريك. لكن الكاتب والباحث اربيه شافيت وإن كان يتفق مع الدار حول حقيقة تلقف الجمهور الإسرائيلى لفكرة «اللاشريك»، فإنه يرى فى المقابل أن الجمهور الإسرائيلى لم يعد يؤيد حتى مجرد وجود عملية سياسية، فلسان حاله يقول «ما الجدوى من مفاوضات مادام ليس هناك شريك». ويستخلص شفيت من ذلك أن المزيد من القطاعات الجماهيرية فى إسرائيل قد حولت ولاءها لليمين وأحزابه، مشيراً إلى أن هذا كرس قوة اليمين مع مرور الزمن، متوقعاً أن تزداد قوة اليمين. تسفى هارئيل المعلق فى صحيفة هارتس يرى أن تشرب نظرية «انعدام الشريك» أدى الى تحمس الجمهور الإسرائيلى للإجراءات القمعية ضد الفلسطينيين.

الحرب على غزة

من المفارقة ذات الدلالة أنه على الرغم من أن الحرب الإجرامية التى شنتها إسرائيل على غزة أشرفت عليها حكومة تدار من قبل يسار الوسط واليسار، وعلى الرغم من الشعور بالرضا العارم الذى اجتاح المجتمع الإسرائيلى فى اعقاب الحرب، فإن هذه الحرب تحديداً قد أدت إلى ارتفاع أسهم اليمين الإسرائيلى. الباحث زئيف سيجل يقول أنه يمكن تفهم هذا التوجه الذى يبدو لأول وهلة غير منطقى؛ لأنه كان من المفترض أن تؤدى الحرب الى ارتفاع أسهم حزبى كاديما والعمل اللذين أدارا الحرب، منوهاً إلى أن هذا لم يحدث لأن الحرب فتحت شهية المجتمع الإسرائيلى الذى تحطمت كرامته فى حرب لبنان الثانية لخيار القوة، وهو يرى أن الإسرائيليين يعتقدون أن قادة اليمين يمكنهم أن يتصرفوا فى الحرب القادمة بشكل أكثر وحشية وقوة وحسماً من اليسار ويسار الوسط. ويؤكد تسفى بارئيل أن الذى يدلل على ذلك أكثر من أى شىء آخر، هو حقيقة أن حزب «إسرائيل بيتنا» الفاشى بقيادة ليبرمان حصل على أكثر الأصوات فى كل المدن والمستوطنات التى تعرضت للقصف من قبل حركات المقاومة الفلسطينية. ويقول عوزى بنزيمان رئيس تحرير مجلة «العين السابعة»، التى تعنى بشؤون الإعلام فى إسرائيل أن اليسار ضعف ليس بسبب أدائه وانما بسبب تعمق وترسخ الميول المتشددة فى الرأى العام الاسرائيلى. نتائج الانسحاب من لبنان والحرب على غزة تعتبر فى نظر الجمهور برهانا أكيدا عن عداء العرب الدائم لاسرائيل ودليلاً على فشل نهج المصالحه. اما شلومو غازيت، الجنرال المتقاعد، والباحث المعروف فيرى أن انتهاء حرب غزة بدون خسائر كبيرة للجانب الإسرائيلى ساهمت فى تكريس قناعة الجمهور الإسرائيلى بأهمية عوائد الحرب، وهو ما فاقم التوجه نحو اليمين.

تآكل الفروق الأيديولوجية

الباحث ميرون بنفنستى يرى أن أحد أهم العوامل التى دفعت نحو انهيار اليسار هو حقيقة أن الجمهور الإسرائيلى لم يعد يلمس وجود فروق أيديولوجية ذات مغزى بين أحزاب اليسار واليمين، ويضيف بنفنستى أنه عندما يجلس حزب العمل الى جانب حزب الليكود فى حكومة شارون الأولى والثانية، ويجلس حزب العمل الى جانب حزب «اسرائيل بيتنا» فى حكومة أولمرت، فأن الجمهور الإسرائيلى يعى أنه لا يوجد فى الحقيقة ثمة فروق بين أحزاب اليسار واليمين فى إسرائيل. ويشير بنفنستى الى أنه من ناحية ايديولوجية، فإن اليسار واليمين يجمعان على قداسة اسطورة الاستيطان ويرفعان البيت والبؤرة الاستيطانية والشجرة المغروسة الى درجة قيمة عليا. وأشار إلى أن اليسار الإسرائيلى يواصل طرح شعارات فارغة دون أن يدلل ولو بفعل واحد أن



لديه طرحا آخر مغايرا لما يطرحه اليمين، وحتى عندما يطرح اليسار حل الدولتين. فإن هذا الحل غير ممكن، حسب حكم الجمهور الإسرائيلي. ويضيف « من المريح طبعا مواصلة الكفاح التقليدي ذلك لأنه لا يوجد ابسط من اجترار شعارات رنانة معروفة. وعندما يتعلق الامر بشعارات قديمة لا يوجد اكثر من شعار «تقسيم البلاد الى دولتين قوميتين «تضليلاً لأنه يراهن على طرح حل متكافيء لتطلعات الاسرائيليين والفلسطينيين القومية»، على حد تعبيره. ونود بنفنستي إلى أن اليسار هو « الذى تحمس لفكرة اقامة جدار الفصل العنصرى فى قلب الضفة الغربية الذى حاصر الأرض الفلسطينية، وجعل منها مناطق معزولة غير قادرة على الوصول للعالم الخارجى من خلف الجدران الفاصلة ومن دون قدرة على تطوير بنية تحتية مادية معتمدة اعتماداً كليا على احسان الخارج وصدقاته. فى هذه الظروف يصبح شعار الدولة الوطنية الفلسطينية مهزلة تعبر عن النفاق والتصنع»، على حد تعبيره .

من ناحيته يقول وزير الخارجية الإسرائيلى الأسبق شلومو بن عامى إن الذى زاد الأمور تعقيداً ومس بالثقة باليسار وتحديداً حزب العمل، هو حقيقة تحول هذا الحزب الى لعب دور مقاول للأعمال القذرة من خلال تولى قادة الحزب منصب وزير الحرب فى الحكومات التى يرأسها الليكود أو كاديما. ويضيف بن عامى أن الجمهور الإسرائيلى لديه القدرة على التمييز بين الأشياء، فعلى الرغم من أن قادة حزب العمل يقومون بالعمل القذر، فإن الذى حصل على ثمار هذا العمل هو الحزب الذى يرأس الحكومة.

نفـاق اليســار

ويجزم الكاتب والمفكر جدعون ليفى أن نفاق اليسار وتردد قادته أدى الى تهاوى ثقة الجمهور الإسرائيلى به. ويشير ليفى إلى مثال واضح وصارخ يدلل على ذلك، وهى يولى تامير القيادية فى حزب العمل والتى تشغل حالياً منصب وزيرة التربية والتعليم فى حكومة أولمرت، والتى كانت رئيسة حركة «السلام الآن» وكانت تناضل ضد المستوطنات ومن أجل التسوية السلمية. ويتساءل قائلاً «هل كان يخطر ببال احد من قادة حركة السلام الآن، بأن رفيقته تامير ستصبح وزيرة فى الحكومة التى تفرض حصاراً وحشيا على غزة منذ عامين؟ وهل كان ليخطر ببال اى من الاباء المؤسسين لهذه الحركة بأن رفيقتهم الهامة والبارزة ستصبح بعد حين وزيرة بارزة فى الحكومة التى تنفذ سياسة الاغتيالات على غرار القتل بدم بارد الذى اقدم عليه مقاتلو حرس الحدود قبل اسبوعين فى بيت لحم بأمر من وزير الدفاع»، على حد تعبيره.

ويضيف ليفى أن اليسار الاسرائيلى مات فى عام ٢٠٠٠، بعد اندلاع انتفاضة الاقصى و« جثته الهامدة تدحرجت على رؤوس الاشهاد منذ ذلك الحين الى ان صدرت بالامس شهادة الوفاة وفقا للمراسيم»، على حد تعبيره. واكد ليفى أن زعيم حزب العمل ايهود براك هو الذى اعدم اليسار فى عام ٢٠٠٠، وهو الذى دفنه فى عام ٢٠٠٩، عندما اقنع الرأى العام الإسرائيلى أنه لا يوجد شريك فلسطينى فى عملية التسوية. واعتبر ليفى أن اليسار يحمل اسم معسكر السلام «زوراً وبهتاناً »، مشيراً الى أن هذا المعسكر ممثل فى حزبى العمل وكاديما هما اللذان قادا حربين فى عامين. وجزم ليفى أن قيم اليسار تتنافى مع الصهيونية. وقال «من يريد يسارا ذا أهمية عليه ان ينفى الصهيونية ويخرجها من داخله، لن يكون هناك يسار عريض إذا لم يقم التيار المركزى باعادة تعريف الصهيونية. لا يمكن ان يكون الواحد يساريا وفى نفس الوقت صهيونيا».

ويسخر عكيفا إلدار من نفاق اليسار، منوهاً إلى أن كل من يكرر شعارات اليسار يصبح لديه الحصانة الأخلاقية لارتكاب الجرائم ضد الفلسطينيين. وأضاف «لقد حول قادة اليسار السلام الى علامة تجارية مظفرة، والاسرائيليون اكتشفوا بأنه لا توجد مادة تطهر الضمير افضل من انشودة للسلام. عندما اعلن عن نفسى «مؤيدا للسلام» يكون أسهل جدا على التعايش مع الاحتلال. وعندما اشارك فى مظاهرات السلام يكون أسهل جدا على أن اخدم فى الحواجز العسكرية التى تحول حياة الفلسطينيين الى جحيم».

ويضيف الدار «الجمهور الإسرائيلى جمهور ذكى وفطن وهو يلحظ معالم نفاق اليسار، فيبتعد عنه لتأييد اليمين بسبب وضوحه وصراحته».

المواقف العنصرية من فلسطينيى ٤٨

دلت نتائج الإنتخابات الإسرائيلية على أن أحزاب اليمين واليمين المتطرف قد حظيت بأغلبية الأصوات فى جميع المدن الإسرائيلية المختلطة التى يقطن فيها فلسطينيو ٤٨ والمستوطنون اليهود. فقد حصل حزب « إسرائيل بيتنا» بقيادة الفاشى ليبرمان على أكثر الأصوات فى مدن اللد والرملة، ويافا والناصرة العليا وعكا. كما حصلت أحزاب اليمين على أغلبية الأصوات فى مدن حيفا ويافا وبئر السبع. وقال امنون أبراموفيتش كبير المعلقين فى قناة التلفزة الإسرائيلية الثانية أن المفارقة تكمن فى حقيقة حصول حزب «إسرائيل بيتنا» الذى يمثل اليمين المتطرف على الترتيب الأول من حيث عدد الأصوات فى هذه المدن التى تعتبر من المدن الكبرى والهامة فى إسرائيل، مشيراً إلى أنه فى حال حافظ الحزب على هذه الوتيرة فى الانتخابات المقبلة، فأنه قد يصبح الحزب الأكبر فى إسرائيل. وفى تحليل قدمه أشار أبراموفيتش إلى أن تصويت اليهود فى هذه المدن لصالح ليبرمان يدلل على تعاظم المواقف العنصرية تجاه فلسطينيى ٤٨، على اعتبار أن ليبرمان قد وعد اليهود بتخليصهم من فلسطينيى ٤٨ عبر تجريد فلسطينيى ٤٨ من حقوق المواطنة، وعلى رأسها الحقوق السياسية والحق فى الحصول على مخصصات الضمان الاجتماعى. القناة العاشرة فى التلفزيون الإسرائيلى بثت تحقيقاً حول تفسير المستوطنين الذين يقطنون المدن المختلطة لتصويتهم على هذا النحو لصالح اليمين المتطرف. ولعل الذى لفت نظر معد التحقيق هو التحول الذى طرأ على توجهات رئيس بلدية اللد مكسيم ليفى وهو شخصية سياسية كانت معروفة باعتدالها السياسى، إلا أنه عشية الإنتخابات التشريعية إنضم إلى حزب «إسرائيل بيتنا»، وتجند مع جميع أفراد عائلته لصالح الحزب، حيث أصبح نجله الأكبر يرأس فرع الحزب فى المدينة. أما راحيل بنت ليفى فقد قالت فى التحقيق أنها صوتت لصالح ليبرمان لأنها لا تريد اياً من العرب فى المدينة. وأضافت «يجب أن ينتهى كل شىء، يجب أن تتجند كل القوى الصهيونية من أجل سن قانون يسمح بطرد العرب من المدينة، لا أريد رؤية أى عربى هنا، رؤيتهم تثير حنقى وغضبى». ونفس الموقف عبر عنه الكثيرون من المستوطنين الذين أجريت معهم مقابلات خلال التحقيق. يغآل مستوطن يبلغ من العمر ٦٨ عاماً هاجر من العراق ويقطن مدينة الرملة قال «يتوجب استغلال كل فرصة من أجل طرد العرب، وجودهم أمر لا يطاق، هم أعداؤنا، بدلاً من أن نسمح لهم بالمشاركة فى الانتخابات يتوجب أن نقذف بهم خلف الحدود».

السياسات الاقتصادية والاجتماعية

من ناحيته قال البرفسور دان غوفتاين استاذ العلوم السياسية فى الجامعة العبرية أن سياسة الخصخصة التى اتبعت فى اسرائيل الحقت اكبر الضرر باليسار لأنها أوجدت مشاكل اقتصادية كبيرة، ساهمت بصعود نجم اليمين. وفى مقال تحليلى فى صحيفة « هارتس »، قال غوفتاين «كلما تم تطبيق سياسة خصخصة، والتوقف عن تقديم مخصصات الرفاه الاجتماعى للجماهير يزداد شعور لدى الناس بعدم الامن الاقتصادى والاجتماعى، الذى يزداد عقب الازمة الاقتصادية العالمية، مما يدفعهم لليمين». واكد أن افضل وصفة لتنامى اليمين هو الجمع بين ازمة اقتصادية والشعور بعدم الأمن لأنه يولد شوقاً لوجود زعيم قوى يحل محل الديموقراطية. واكد أنه بدلاً من أن يواجه اليسار سياسة الخصخصة تواطأ فى فرضها وغض الطرف عن مساوئها فقط من أجل أن يضمن مقاعد لقادته حول طاولة الحكومة.

وتتفق الباحثة بمبى شيلغ مع هذا الطرح قائلة أن قطاعات واسعة فى المجتمع الإسرائيلى تشعر بان اليسار الإسرائيلى ليس معنيا حقا بالمجتمع الإسرائيلى الواسع، ولا يطرح تقليص



صعـــود اليمـــين للحكـــــم ســـــيكون مصـدر حـرج أيضـاً للإدارة الأمـريكيـة والاتحـــــــاد الأوروبـــى



الفقر والفوارق الثقافية وغيرها على رأس جدول اعماله. وتضيف «لهذا السبب لن ينجح اى حزب يسارى اذا لم يعرض جدول اعمال مختلف وواسع مما عرض حتى اليوم. فاليسار لن يصل الى قلوب جموع جماهير إسرائيل الجوعى، لأن هذا الجمهور لا يرى أن فى اليسار قيادة لديها احساس بالرسالة والالتزام». أما سيفر بلوتسكير، المعلق الاقتصادى فى صحيفة «يديعوت أحرنوت» فيقول أنه فى الوقت الذى تتعزز فيه قوى اليسار فى جميع أرجاء العالم، فإن اليسار الإسرائيلى ينهار وتتعاظم قوة اليمين بشكل غير مسبوق. وعزا بلوتسكير إنهيار اليسار الصهيونى إلى «القيادة الفاشلة» لإيهود براك لتجاهله التركيز على القضايا الاقتصادية والانكباب بدلاً من ذلك على القضايا الأمنية، مؤكداً أن هذا المنحى اضعف اليسار. واضاف «لقد هبط حزب العمل الى رتبة حزب هامشى، والسبب هو القيادة المختلة لزعيم الحزب باراك والجماعة المحيطة به، لقد أخفى باراك ورفاقه الرسائل الاقتصادية والاجتماعية لحزبهم اخفاء تاماً. ونجحوا فى التهرب من عرض خطة شاملة لمواجهة الازمة الاقتصادية التى تهدد اسرائيل، وهذا كان خطأ كارثيا، فبدلاً من أن يقول براك لعشرات الاف من الاسرائيليين الذين يخافون من أن يفقدوا أماكن عملهم فى القريب العاجل أنه لن ننضم إلى أى حكومة لا تضع محاربة البطالة فى رأس جدول اعمالها، فأنه أخذ يوزع التعهدات بالعمل حتى يعود الى منصب وزير الدفاع فى الحكومة القادمة».

تداعيات الانتخابات الإسرائيلية عربياً

هناك ما يبرر انزعاج أنظمة الحكم فى دول ما يسمى بـ «محور الإعتدال» امن نتائج الانتخابات الإسرائيلية ليس لأن صعود اليمين الصهيونى سيضر بالقضية الفلسطينية، بل لأن صعود اليمين، ويحد من قدرتها على تبرير مواقفها.

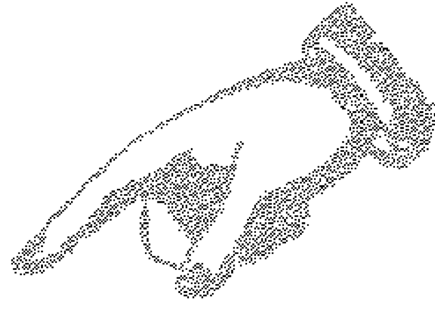
فى ظل وجود حكومة اليمين لن يكون بوسع «محور الإعتدال» بمواصلة التبشير بثمار «المسيرة السلمية»، فإن كانت حكومات الوسط واليسار فى إسرائيل قد حولت المفاوضات العبثية إلى هدف بحد ذاته وهو ما راق لأنظمة «الاعتدال»، التى ظلت تواظب على تحميل حماس المسؤولية عن إفشال جهود التسوية، فأن الأخبار السيئة لـ«المعتدلين» العرب تتمثل فى أن حكومة اليمين لن تقبل مواصلة مجرد المفاوضات رغم عبثيتها. نتنياهو فى أحسن الأحوال سيعود لمعزوفة «السلام الإقتصادى»، أى العمل على تحسين ظروف حياة الفلسطينيين مقابل تنازلهم عن حقوقهم الوطنية، ومقابل كل ذلك، فأن حكومة اليمين ستطالب العرب بالتعاون معها فى القضاء على حكم حماس، وضرب المشروع النووى الإيرانى.

فى ظل حكومة اليمين لن يكون بوسع النخب فى العالمين العربى والإسلامى سواء الحاكمة أو المثقفة تسويغ مشاركتها فى مؤتمرات والتطبيع والتقارب بين الأديان التى تجمع المسؤولين الصهاينة بالمسؤولين العرب والمسلمين. فالكثير من قادة أحزاب اليمين الدينى التى ستشارك فى الحكومة القادمة يؤمنون بحكم «علقيم» التوراتى، والذى ينص على أنه يجوز قتل الفلسطينيين سواء كانوا شيوخاً أو أطفالاً أو نساء وحتى الدواب. وعندما يسيطر الخطاب الصهيونى فى نسخته الأكثر عنصرية وتخلفاً لن يكون من السهولة بمكان على الرئيس الإسرائيلى شمعون بيريس نفث أكاذيبه وتمرير أحابيله وتضليله.

سيحرج عرب «الاعتدال» ولن يتمكنوا من تسويغ تطبيعهم للعلاقات مع إسرائيل فى ظل وجود حكومية يمينية، لسبب بسيط أن الساسة اليمينيين فى إسرائيل لا يولون اهتماماً نحو التطبيع مع العرب. ففى العام ٢٠٠٤ رفض ليبرمان وكان وزيراً للبنى التحتية دعوة من قطر لحضور أحد المؤتمرات التى عقدت هناك، قائلاً إن إسرائيل ليست فى حاجة لعقد مثل هذه المؤتمرات.

صعود اليمين للحكم سيكون مصدر حرج أيضاً للإدارة الأمريكية والاتحاد الأوروبى وسيفضح المعايير المزدوجة وسياسة الكيل بمكيالين التى تحكم السياسات الأوروبية والأمريكية فى كل ما يتعلق بالعلاقة مع العرب وإسرائيل. لقد لعب الغرب دوراً هاماً ومحورياً فى فرض الحصار على الشعب الفلسطينى ومنع عنه الطعام والدواء وحرم أطفاله من الحليب فقط من أجل دفع الشعب الفلسطينى للتمرد على حركة حماس، لكن هذا الغرب أعلن بشكل واضح وجلى أنه سيواصل التعاون مع الحكومة اليمينية الجديدة فى إسرائيل. على الرغم من هذا الموقف إلا أنه سيكون من الصعب أيضاً على الغرب تسويغ نفاقه، وسيكون عليه اتخاذ موقف أكثر أخلاقية عندما يعبر قادة الحكومة الإسرائيلية الجديدة عن مواقفهم العنصرية الواضحة والجلية، والتى تهون الى جانبها مواقف النازية والفاشية. ■

كتاب الزاوية



ترشيد العمل الجهادى فى مصر والعالم

سيد إمام الشريف

تنبيهات على كل ما كتبت (١)

١) إننى لست عالما ولا مفتيا ولا مجتهداً فى الشريعة. وما فى كتبى ليس من باب الفتوى وإنما هو مجرد نقل العلم إلى الناس وهذا لا يشترط له بلوغ مرتبة الاجتهاد. فقد قال النبى ﷺ: «ليبلغ الشاهد الغائب» متفق عليه. وفى الصحيح أيضًا قال ﷺ: «بلغوا عنى ولو آية» رواه البخارى. ومعلوم أن من علم آية واحدة لا يكون من العلماء ومع ذلك فهو مأمور بتبليغها، وأوضح من ذلك قول النبى ﷺ: «نضر الله امرءا سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها. فرب مبلغ أوعى من سامع. ورب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» رواه الترمذى وحسنه. فدل هذا الحديث على أنه قد يحمل إنسان شيئًا من الفقه وهو غير فقيه، وهو مع ذلك مأمور بتبليغه، وما ذلك إلا لتوسيع دائرة نشر علوم الشريعة فى الناس.

٢) فأنا لست عالمًا ولا مفتيًا وكل ما فى كتبى هو نقل للعلم إلى الناس. وليس من باب الفتوى. والفرق بينهما أن العلم يُكتب لكل الناس فى كل زمان ومكان كما كتب أسلافنا العظام رحمهم الله ومازلنا نتتلمذ على كتبهم، أما الفتوى فهى اختيار ما يناسب من هذا العلم العام لواقع معين أى لأناس معينين فى مكان معين وزمان معين. فالفتوى هى معرفة الواجب فى الواقع. وما يظهر فى كتبى أنه من باب الفتوى فهو من آرائى الخاصة التى لا ألزم بها أحداً، وهى ما رأيته الحق إلى وقت كتابتها. فإذا وجدت خيراً منها بالدليل الشرعى الصحيح السالم من المعارض تركت رأيى لما هو أحسن منه امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿... فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ (الزمر: ١٧، ١٨)، جعلنا الله وإياكم منهم.

من الصعب أن نصدق مدى جرأة وانحياز وسائل الإعلام الأمريكية ناهيك عن المدى الذى وصل إليه ساستنا فى إتقان فن القوادة لصالح الدولة اليهودية



لقد انتهت المحرقة

كتاب آفراهام بورج الجديد



جون ميرشايمر

■■ بالنسبة للقارئ الأمريكى، فإن الفضيلة الكبرى لكتاب «آفراهام بورج Avraham Burg» الهام الجديد هى أنه يذكر أشياء عن إسرائيل والشعب اليهودى نادرا ما تسمع فى الحوار السائد فى الولايات المتحدة. من الصعب أن نصدق مدى جرأة وانحياز وسائل الإعلام الأمريكية فى تغطية أخبار إسرائيل، ناهيك عن المدى الذى وصل إليه ساستنا فى إتقان فن القوادة لصالح الدولة اليهودية. لقد تردت الأوضاع خلال الحملة الرئاسية الأخيرة إلى درجة أن صحفيين من أمثال «جيفرى جولدبرج Jeffrey Goldberg» و«شموييل روزنر Shmuel Rosner» وكلاهما من المدافعين الأوفياء عن إسرائيل - كتبا مقالات بعنوان «كفانا إسرائيل».

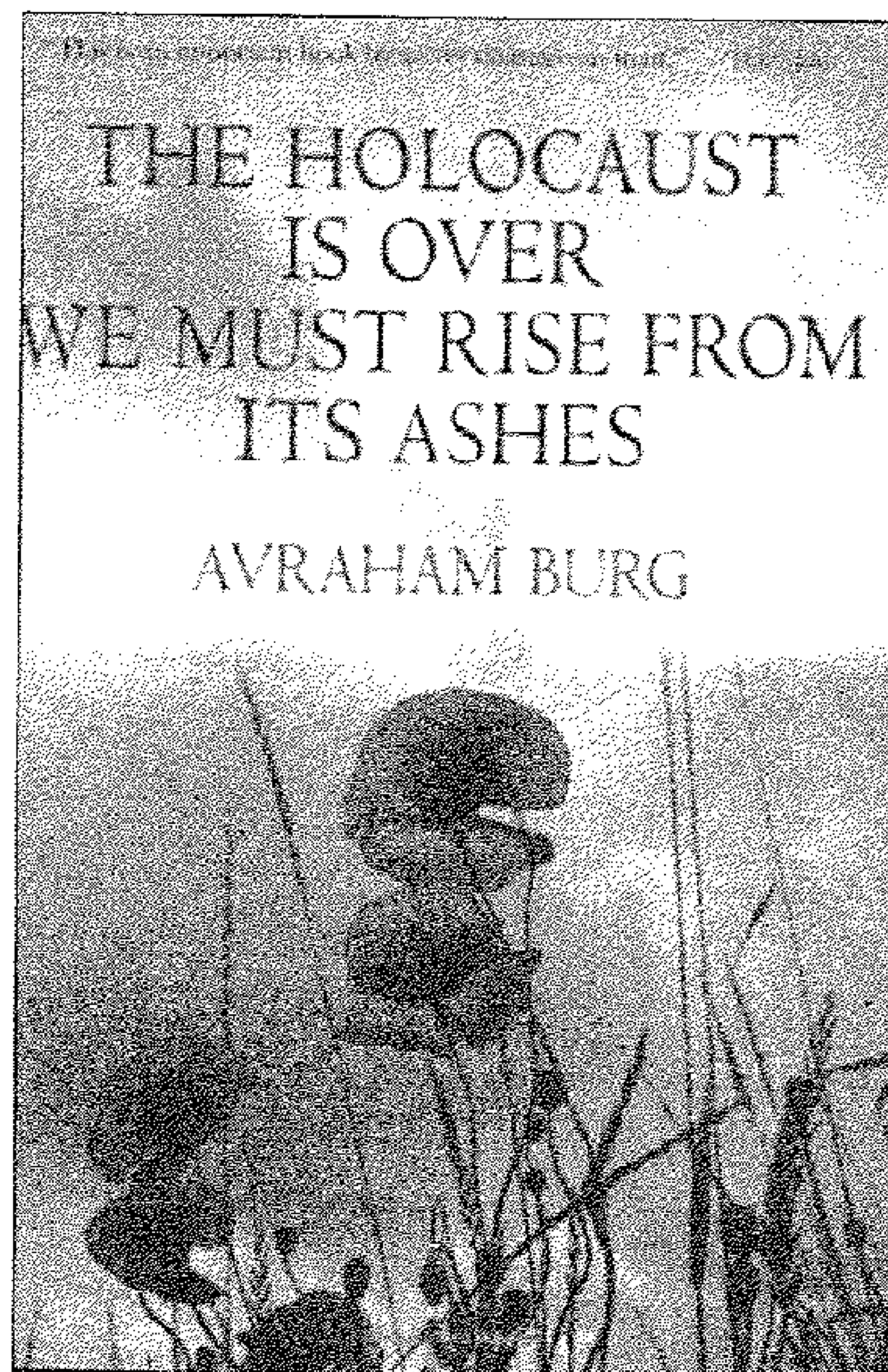
لنأمل أن يحقق كتاب «لقد انتهت المحرقة» نسبة عالية من القراءة والمناقشة، لأنه يطرح آراء تستحق أن يسمعها ويتأملها الأمريكيون على اختلاف معتقداتهم، وخاصة أولئك المرتبطين بشدة بإسرائيل. وحقيقة أن «بورج» كتب هذا الكتاب هى أيضا على قدر كبير من الأهمية. فلا يمكن طرح «بورج» جانبا بسهولة باعتباره يهوديا كارها للذات أو غريب الأطوار، حيث إنه ينحدر من عائلة إسرائيلية بارزة وكان منغمسا فى الشئون السياسية الإسرائيلية العامة لفترة طويلة من حياته. بل إن حبه لإسرائيل واضح للعيان.

يطرح «بورج» العديد من النقاط الوجيهة فى كتابه، ولكنى أود أن أركز على ما اعتبره آراءه المحورية. إن جوهر رسالته هى أن إسرائيل تعانى من مشاكل خطيرة فى الداخل وأن هناك أسبابا وجيهة للاعتقاد بأن الأمور قد تسوء كثيرا فى المستقبل. وهو يؤكد على أن إسرائيل تغيرت كثيرا منذ العام ١٩٤٨. ويستشهد «بورج» بوالدته فى تلك النقطة: «ليس هذا هو نفس البلد الذى بنيناه. لقد أقمنا دولة مختلفة عام ١٩٤٨، ولكننى لا أعرف أين اختفت تلك الدولة». وكتب «بورج»: «إسرائيل اليوم تشبه بشكل مخيف الدول التى لم نرغب أبدا أن نشبهها». وفى حديثه عن تحول إسرائيل نحو اليمين تدريجيا، يدلى «بورج» بملاحظته المفزعة «لقد أصبح اليهود والإسرائيليون سفاحين».

The Holocaust Is Over; We Must Rise From its Ashes
Avraham Burg
Palgrave Macmillan (October 28, 2008)

Talking Points Memo, TPM Blog

ترجمة: عادل فتحى السيد



يوضح «بورج» بجلاء أنه لا يقارن سلوك إسرائيل فى الماضى بما حدث فى ألمانيا النازية، ولكنه يرى تشابها مقلقا بين إسرائيل و«ألمانيا ما قبل هتلر». ويطرح ذلك السؤال الواضح: هل يمكن أن ينتهى الأمر بإسرائيل إلى شن حملة قتل ضد الفلسطينيين؟ يعتقد «بورج» أن ذلك ممكن. وكتب: «من الخطورة الشديدة أن نعتقد بأن ذلك لا يمكن أن يحدث لنا لأن تاريخنا كشعب مضطهد يحصننا ضد الكراهية والعنصرية. إن نظرة واحدة داخل إسرائيل تكشف أن التآكل قد بدأ بالفعل». بل إن «بورج» يطرح إمكانية اندلاع حرب أهلية داخل إسرائيل «لن تكون حربا بين أفراد الشعب اليهودى على اختلاف درجاتهم الإيمانية، بل صراعا مريرا بين الأخيار والأشرار فى كل مكان».

يعى «بورج» أن العديد من اليهود الأمريكيين سوف ينبذون آراءه لأنهم فى صراع شديد مع صورة إسرائيل فى أذهانهم. ولذلك فإنه يذكر القارئ: «لقد جئت من هناك، ولا يزال أصدقائى وأقاربى هناك. أنا أسمع حديثهم وأعرف طموحاتهم وأشعر بدقات قلوبهم. أنا أعلم إلى أين يتجهون». وهو يشعر بقلق عظيم تجاه الطريق الذى يسيرون فيه. وهو يخشى - مرة ثانية - أن الأمر سينتهى بإسرائيل إلى اقتفاء خطى ألمانيا، حيث «غيرت تحولات بطيئة مفهوم الحقيقة إلى درجة أن الجنون أصبح أمرا طبيعيا، ثم تمت إبادتنا. لقد حدث ذلك فى أرض الشعراء والفلاسفة. كان ذلك ممكنا هناك، وهنا أيضا، فى أرض الأنبياء. إن إقامة دولة يديرها الحاخامات والجنرالات ليست كابوسا مستحيلا. أنا أعلم مدى صعوبة المقارنة، ولكنى أرجوكم أن تفتحوا آذانكم وعيونكم وقلوبكم».

يعتقد العديد من اليهود الأمريكيين أن إسرائيل اليوم فى خطر بسبب العداء للسامية أو لأنها محاطة بأعداء خطرين يهددون وجودها. إن اليهود أنفسهم - كما يذكرنا «بورج» - يحبون التأكيد على أن «العالم كله ضدنا». إنه ينبذ تلك المعتقدات المتطرفة: «إننا اليوم مدججون بالسلاح ومجهزون أفضل من أى جيل آخر فى التاريخ اليهودى. لدينا جيش جرار وهاجس الأمن وشبكة أمان الولايات المتحدة. إن فكرة العداء للسامية تبدو سخيفة بل وتافهة مقارنة بقوة الشعب اليهودى اليوم».

يعتقد «بورج» أن مشاكل إسرائيل نابعة من داخلها. ويؤكد على وجه الخصوص أن السبب الرئيسى وراء تلك المشاكل هو تركة المحرقة التى هيمنت تماما على الحياة الإسرائيلية. يقول «بورج» فى كتابه: «لا يمر يوم دون التطرق

إلى «إبادة اليهود» فى الجريدة الوحيدة التى أقرأها (ها آرتز Ha'aretz). وبالفعل فإن الأطفال الإسرائيليين يتعلمون فى المدرسة «أننا جميعا ناجون من الإبادة». والنتيجة هى أن الإسرائيليين (ومعظم اليهود الأمريكيين فى هذا الخصوص) لا يمكن أن يفكروا بشكل سليم فيما يتعلق بالعالم من حولهم. إنهم يعتقدون أن الجميع يستهدفونهم، وأن الفلسطينيين لا يختلفون كثيرا عن النازيين. وطبقا لهذا المنظور المخيب للآمال، يعتقد الإسرائيليون أن أى وسيلة تقريبا لمجابهة أعدائهم هى مشروعة. إن المغزى وراء آراء «بورج» هو أنه لو كان هناك تركيز أقل على المحرقة، لكان حريا بالإسرائيليين أن يغيروا أفكارهم بشأن «الآخرين» بصورة جوهرية، مما يسمح لهم بالتوصل لتسوية مع الفلسطينيين ويعيشون حياة أكثر أمانا وسعادة.

هناك بعض الحقيقة فى تلك الحجة النفسية الدفاعية، ولكن «بورج» يأتى أيضا بدليل واضح لتفسير مختلف لعلاقة المحرقة بالحياة الإسرائيلية. وهو يوضح على وجه الخصوص أن المجتمع الإسرائيلى قد ابتلى بعدد من المشاكل الخطيرة التى تهدد بتمزيقه، وأن المحرقة هى أداة فى خدمة الشعب اليهودى» يستخدمها لحماية إسرائيل من النقد وللمحافظة على قوى الطرد المركزية تلك تحت الحصار. وهو يحدد ثلاث مشاكل رئيسية:

الإسرائيليون منقسمون بشدة فيما بينهم: «لقد كان للعالم اليهودى دائما خلافات هائلة بين رموز كبيرة».

الخطر الجسيم من هجرة أعداد كبيرة من الإسرائيليين إلى أوروبا وشمال أمريكا.

الاحتلال الذى كان له تأثير مدمر على المجتمع الإسرائيلى واستقطب النقد من كافة أنحاء العالم.

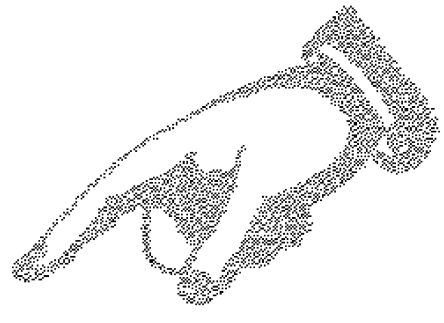
يوضح «بورج» أن هناك اعتقادا بأن اللعب بورقة المحرقة هو أفضل السبل لمعالجة تلك المشاكل. وهو يستشهد بالكاتب الإسرائيلى «بواز إيفرون Boaz Evron» لدعم وجهة نظره: إبادة اليهود «هى ذخيرتنا الرئيسية اليوم. هذا هو الشىء الوحيد الذى يمكن من خلاله أن يحاولوا إسكات الأمميين (غير اليهود)». وهناك بالطبع أداة أخرى كثيرا ما تستخدمها إسرائيل والمدافعون عنها ألا وهى تهمة معاداة السامية.

ولتأكيد حجتى الذرائعية بصورة أفضل، يقدم «بورج» الدليل على أن السبب الرئيسى وراء قيام الإسرائيليين ومؤيديهم باستدعاء المحرقة باستمرار هو الاحتلال والفظائع التى ارتكبتها إسرائيل وتستمر فى ارتكابها بحق الفلسطينيين. إن إبادة اليهود هى السلاح الذى يستخدمه الإسرائيليون ومؤيدوهم فى الشتات لمواجهة النقد والسماح لإسرائيل بمواصلة ارتكاب الجرائم ضد الفلسطينيين. كتب «بورج»: «كل شىء يقارن بإبادة اليهود ويتضاءل أمامها، ولذلك فكل شىء مباح، سواء كان ذلك أسيجة أو حصارا أو قمعا أو حظر تجول أو حرمانا من الطعام والماء أو عمليات قتل غير مبررة. كل شىء مسموح به لأننا تعرضنا للإبادة ولن نسمح لأحد بأن يملى علينا ما نفعله».

إن أقوى الشواهد على أن الهاجس الإسرائيلى تجاه المحرقة مرتبط بالاحتلال موجود فى حديث «بورج» عن تطور الفكر الإسرائيلى تجاه المحرقة نفسها. فهو يوضح تماما أن النظرة الإسرائيلية تجاه «إبادة اليهود» قد تغيرت كثيرا بمرور الوقت. إن زعماء الاستيطان «لم يفعلوا سوى أقل القليل كرد فعل على إبادة يهود أوروبا وقت حدوث ذلك. فهم لم يرغبوا بإهدار الموارد العاطفية التى كان من الممكن توجيهها بدلا من ذلك نحو بناء الدولة اليهودية». بل إن الإسرائيليين لم يلقوا اهتماما كبيرا بالمحرقة خلال العقد الأول بعد عام ١٩٤٨ ولم يظهروا تعاطفا يذكر مع الناجين الذين وصلوا إلى إسرائيل بعد الحرب. ولكن كل ذلك تغير فى الستينيات بدءا من محاكمة «أيخمان Eichmann» (مهندس المحرقة) ثم الحصول على زخم كبير بعد غزو إسرائيل للضفة الغربية وغزة عام ١٩٦٧ وبدء الاحتلال. كتب «بورج»: «ولكى نعى المنعطف الخطأ الذى سلكناه، يجب علينا العودة إلى الستينيات ومحاكمة «أيخمان» وحرب الأيام الستة وكل ما يقع بين ذلك». بل إن «بورج» يذهب أبعد من ذلك ويشير إلى أن التسعينيات - تذكر أن الانتفاضة الأولى اندلعت فى ديسمبر ١٩٨٧ - كانت «عقد التحول من أساطير الدولة الأولى إلى الرحلات المحمومة إلى مسرح الجريمة». يبدو النمط واضحا: كانت المحرقة هى السلاح الرئيسى الذى استخدمه الإسرائيليون (ومؤيدوهم فى الخارج) لتوفير غطاء للفظائع التى ارتكبتها إسرائيل بحق الفلسطينيين فى المناطق المحتلة.

وخلاصة القول أن السبيل الأفضل لإنقاذ إسرائيل من مأزقها ليس ببساطة مجرد تجاوز المحرقة، بل إنهاء الاحتلال. وبعد ذلك سوف تقل كثيرا الحاجة للحديث المستمر عن المحرقة وسوف تصبح إسرائيل بلدا أكثر عافية وأمنا بدرجة كبيرة. وللأسف فليست هناك نهاية للاحتلال فى المستقبل المنظور، ولذلك فمن المرجح أن نسمع المزيد - وليس الأقل - عن المحرقة خلال السنوات القادمة. ■

كتاب الزاوية



ترشيد العمل الجهادى فى مصر والعالم

سيد إمام الشريف

تنبيهات على كل ما كتبت (٢)

٣) كل ما فى كتبى من أحكام شرعية هى من باب الحكم المطلق وليست من باب الحكم على المعينين. والفرق بينهما: أن الحكم المطلق هو حكم على الفعل الذى هو سبب الحكم، أما الحكم على المعين فهو حكم على الفاعل أى تنزيل الحكم المطلق على فرد أو أفراد معينين وهذا يحتاج بعد معرفة الحكم المطلق (على الفعل أى السبب) إلى النظر فى شروط الحكم وموانعه فى حق المعينين، بحسب قاعدة (يترتب الحكم على السبب إذا توفر الشرط وانتفى المانع)، وهذا فى الأغلب الأعم فلا يجوز تنزيل ما فى كتبى من أحكام على المعينين بدون مراعاة هذه القاعدة من المؤهلين للنظر فى ذلك.

٤) لم أكتب كتبى لأجل جماعة معينة وإنما لكل الناس من المسلمين وغيرهم وهم (أمة الدعوة) دعوة النبى (ص) كما ذكرته فى البند الأول، وكذلك لم أكتب هذه الوثيقة لنقد جماعة أو أفراد معينين وإنما هى مسائل فقهية عامة بأدلتها الشرعية للتنبيه على مخالفات جسيمة ترتكب بدعوى الجهاد فى سبيل الله. ولا يجوز الاحتجاج بشىء من كتاباتى لارتكاب مخالفات شرعية فأنا لا أقول بذلك، وأى شىء فى كتاباتى يخالف الشريعة فأنا راجع عنه.

.. أى مستقبل للكتب..!!؟

روبـــــرت دارنـــــتـــــون
Robert Darnton

هل قرأتم الاعلان الذى نشرته شركة google قبل أسابيع فى مختلف الصحف العربية، مخاطبة فيه الناشرين والمؤلفين وكل ذوى العلاقة؟ كثيرون اتصلوا بنا بعد أن صعب عليهم التعامل مع اللغة القانونية «المترجمة» للاعلان. والذى جاء بمجمله لافتا وغير مألوف فى وسط العرب المعنيين بصناعة النشر. «وجهات نظر» من جانبها اتصلت بجوجل. كما اتفقت مع The New York Review of Books على نشر الترجمة العربية للمقال الذى ستنشره حول الموضوع. وهنا القصة كاملة.

المحـــرر

كيف ستتمكن من الإبحار فى المحيط المعلوماتى الناشئ حديثا؟ هذا السؤال هو الآن أكثر إلحاحا من أى وقت مضى، فى أعقاب التسوية الأخيرة بين «جوجل» وبين المؤلفين والناشرين الذين كانوا يقاضونها بزعم خرق حقوق الملكية الفكرية. فطوال السنوات الأربع الماضية، دأبت «جوجل» على تخزين ملايين الكتب رقميا، ومن بينها العديد التى تتمتع بحقوق الملكية الفكرية ضمن مجموعات مكتبات الأبحاث الكبرى، كما أتاحت «جوجل» النصوص للبحث على الإنترنت. وقد اعترض المؤلفون والناشرون بأن التخزين الرقمى يشكل انتهاكا لحقوق ملكيتهم الفكرية. وبعد مفاوضات مطولة، توصل المدعون و«جوجل» إلى تسوية سيكون لها أكبر الأثر على الأسلوب الذى تصل به الكتب إلى القراء فى المستقبل المنظور. ماذا سيكون شكل هذا المستقبل؟

لا أحد يعرف، لأن التسوية معقدة إلى درجة يصعب معها الإحاطة بالتضاريس القانونية والاقتصادية للساحة الجديدة. ولكن أولئك منا المسئولين عن مكتبات الأبحاث لديهم رؤية واضحة لهدف مشترك: إننا نريد أن نكشف عن مجموعاتنا ونتيحها للقراء فى كل مكان.

كيف يمكن أن نحقق ذلك؟ ربما كان الأسلوب العملى الوحيد شديد الحيطة: أنظر إلى أبعد ما يمكنك، وبينما تبقى عينك على الطريق، تذكر أن تلقى نظرة على المرآة الخلفية.

عندما أنظر للخلف، فإنى أركز بصرى على القرن الثامن عشر وعصر التنوير وإيمانه بسلطان المعرفة وعالم الأفكار الذى كان يديره، وهو ما أشار إليه المتنورون بـ «جمهورية الأدب Republic of Letters».

لقد تخيل القرن الثامن عشر «جمهورية الأدب» كمملكة بلا شرطة ولا حدود ولا تفرقة بين البشر إلا بمقدار الموهبة. ويمكن لأى فرد الانضمام لتلك المملكة إذا توفرت لديه خاصتا المواطنة الرئيسيتان وهما الكتابة والقراءة. كان الكتاب يصوغون الأفكار بينما يحكم عليها القراء. وبفضل سلطان الكلمة المطبوعة، انتشرت الأحكام فى دوائر متزايدة الاتساع، وكان الفوز للحجج الأقوى.

وقد انتشرت الكلمة أيضا من خلال الخطابات المكتوبة، حيث كان القرن الثامن عشر حقبة رائعة من تبادل الرسائل. وإذا تصفحنا مراسلات «فولتير Voltaire» و«روسو Rousseau» و«فرانكلين Franklin» و«جيفرسون Jefferson» ـ والتى يملأ كل منها حوالى خمسين مجلدا ـ فسوف نشاهد التطبيق العملى لـ «جمهورية الأدب». وقد ناقش الكتاب الأربعة كافة قضايا عصرهم فى سيل منتظم من الرسائل ساد أوروبا وأميركا من خلال شبكة معلوماتية عبر المحيط الأطلنطى.

تروق لى على وجه الخصوص الرسائل المتبادلة بين «جيفرسون» و«ماديسون Madison». لقد ناقشا كل شىء، وخاصة الدستور الأمريكى الذى ساعد «ماديسون» فى وضعه فى فيلادلفيا بينما كان «جيفرسون» يمثل الجمهورية الجديدة فى باريس. لقد كتبا كثيرا عن الكتب، حيث كان «جيفرسون» يعشق التردد على متاجر بيع الكتب فى عاصمة «جمهورية الأدب»، وكثيرا ما ابتاع الكتب لصديقه. ومن بين ما اشترى كانت موسوعة «ديديروت Diderot» التى ظن «جيفرسون» أنها كانت صفقة رابحة، رغم أنه اعتقد خطأ أنها النسخة الأولى بينما كانت فى الواقع نسخة معاد طبعها.

رئيسان مستقبليان يناقشان الكتب من خلال شبكة معلوماتية لعصر التنوير، إنه مشهد مثير. ولكن قبل أن تشوش العاطفة تلك الصورة من الماضى، على أن أضيف أن «جمهورية الأدب» كانت ديمقراطية فى المبدأ فقط. أما فى الواقع، فقد هيمن عليها سليلو العائلات الكبيرة والأغنياء. وبعيدا عن إمكانية كسب العيش من نتاج أقلامهم، كان على معظم الكتاب التودد للرعاة والسعى للمناصب المريحة المريحة والمناورة للحصول على وظائف فى الصحف التى تسيطر عليها الدولة ومراوغة الرقباء وتلمس طريقهم إلى الصالونات والأكاديميات حيث تتحقق الشهرة. وقد انقلبوا على بعضهم البعض، بينما كانوا يعانون المهانة على أيدى من هم أعلى منهم فى المنزلة الاجتماعية. والمشاجرة بين «فولتير» و«روسو» تكشف عن مزاجهما. فبعد قراءته لكتاب «روسو» «حوار حول جذور التفرقة Discourse on the Origins of Inequality» كتب «فولتير» إليه: «سيدى، لقد تلقيت كتابك الجديد ضد الجنس البشرى... إنه يجعل المرء يود لو أنه مشى على أربع». بعدها بخمس سنوات، كتب «روسو» إلى «فولتير»: «سيدى، إنى أكرهك».

لقد امتزجت الصراعات الشخصية بالفروق الاجتماعية. وبعيدا عن أن تكون «جمهورية الأدب» تطبيقا عمليا كساحة للمساواة، فإنها عانت من نفس المرض الذى قضى على كافة مجتمعات القرن الثامن عشر: الامتيازات. لم تقتصر الامتيازات على النبلاء. ففى فرنسا، هيمنت الامتيازات على كل شىء فى عالم الأدب، بما فى ذلك الطباعة وتجارة الكتب، والتى كانت تهيمن عليها نقابات حصرية، وكذلك على الكتب نفسها، التى لم يكن من الممكن ظهورها قانونيا دون امتياز ملكى ومصادقة الرقيب مطبوعة بالكامل داخل النص.

ومن بين طرق إدراك تلك المنظومة الاعتماد على دراسة سلوك المعرفة، وخاصة مفهوم «بيير بوردو Pierre Bourdieu» عن الأدب باعتباره مجال نفوذ يتكون من مواقف متنافسة ضمن قواعد لعبة تخضع بدورها للقوى المهيمنة إلى حد كبير على المجتمع. ولكن المرء لا يحتاج للالتحاق بمدرسة «بوردو» لعلم الاجتماع كى يعرف الصلة بين الأدب والسلطان. ومن منظور اللاعبين، فإن حقائق الحياة الأدبية كانت تناقض المثل الرفيعة لعصر التنوير. وعلى الرغم من المبادئ التى قامت عليها «جمهورية الأدب»، فإنها ـ فى الواقع ـ كانت عالما مغلقا فى وجه المعدمين. ومع ذلك فإنى أود الاستشهاد بعصر التنوير كدليل على الشفافية بوجه عام وإتاحة المعلومات بوجه خاص.

إذا تحولنا من القرن الثامن عشر إلى الوقت الراهن، فهل نرى هنا فى عالم مكتبات الأبحاث تناقضا مشابها بين المبدأ والواقع؟ إحدى زميلاتى هى سيدة هادئة صغيرة الحجم، ربما تستدعى صورة «ماريون أمينة المكتبة Marion the Librarian» (الشخصية الرئيسية فى فيلم «رجل الموسيقى The Music Man» إنتاج عام ١٩٦٢، المترجم). وعندما تقابل الناس فى الحفلات وتفصح عن شخصيتها، فإنهم أحيانا يصرحون بغطرسة: «أمينة مكتبة، كم ذلك لطيف. أخبرينا، ماذا يكون شعور المرء كونه أمين مكتبة؟». فتجيب: «فى الأساس، يتعلق الأمر كله بالمال والسلطة».

نعود إلى «بيير بوردو». مع ذلك فربما تتبنى الغالبية منا المبادئ المنقوشة فى الأماكن البارزة من مكتباتنا العامة. «متاح مجانا للجميع»، هذا هو المكتوب أعلى المدخل الرئيسى لمكتبة بوسطون العامة، وتقول كلمات «توماس جيفرسون» المنقوشة بحروف من ذهب على حائط غرفة الأوصياء بمكتبة نيويورك العامة: «انظر إلى انتشار الضوء والتعليم باعتبارهما المصدر الرئيسى الذى يعتمد عليه لتحسين الظروف المؤدية إلى نشر الفضيلة والاهتمام بسعادة الإنسان». لقد عدنا إلى التنوير.

لقد نشأت جمهوريتنا على أساس الإيمان بالمبدأ الرئيسى لـ «جمهورية الأدب» فى القرن الثامن عشر: انتشار الضوء. وبالنسبة لـ «جيفرسون»، فقد تحقق التنوير من خلال الكتاب والقراء والكتب والمكتبات ـ وخصوصا المكتبات ـ فى «مونتيسيللو» وجامعة فيرجينيا ومكتبة الكونجرس. ويتجسد هذا الإيمان فى دستور الولايات المتحدة. فالفقرة الثامنة من المادة الأولى تقر بحقوق الملكية الفكرية وبراءات الاختراع «لمدة محددة» فقط، ووفقا للهدف الأسمى لتشجيع «تقدم العلم والفنون المفيدة». وقد أقر الآباء المؤسسون بحق المؤلفين فى عائد عادل لجهدهم الفكرى، ولكنهم وضعوا المصلحة العامة أمام المكسب الخاص.

بترتيب مع
The New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحى

كيف يمكن حساب الأهمية النسبية لكلتا القيمتين؟ كما كان يعلم واضعو الدستور، فإن حقوق الملكية الفكرية بدأت فى بريطانيا العظمى من خلال «تشريع آن Statute of Anne» (نسبة إلى الملكة آن، المترجم) عام ١٧١٠ بهدف كبح جماح الممارسات الاحتكارية لـ «شركة لندن للناشرين London Stationers' Company»، وكذلك كما أعلن عنوان التشريع - «لتشجيع التعليم». فى ذلك الوقت، حدد البرلمان فترة حقوق الملكية الفكرية بأربعة عشر عاما قابلة للتجديد مرة واحدة. وقد حاول الناشرون الدفاع عن احتكارهم لنشر وتجارة الكتب مطالبين بحقوق ملكية فكرية أبدية، وذلك من خلال سلسلة طويلة من القضايا أمام المحاكم. ولكنهم خسروا فى النهاية نتيجة للحكم الحاسم فى قضية «دونالدسون Donaldson» ضد «بيكيت Becket» عام ١٧٧٤.

عندما اجتمع الأمريكيون لوضع مسودة الدستور بعد ثلاثة عشر عاما، فإنهم عموما فضلوا وجهة النظر السائدة آنذاك فى بريطانيا. فقد بدت فترة ثمانية وعشرين عاما كافية تماما لحماية مصالح المؤلفين والناشرين. وفيما وراء ذلك الحد، يجب أن تسود المصلحة العامة. وفى عام ١٧٩٠، اتبع أول مرسوم لحقوق الملكية الفكرية. والمكرس أيضا لـ «تشجيع التعليم» - العرف البريطانى بتحديد فترة أربعة عشر عاما قابلة للتجديد لنفس المدة.

ما هى فترة حقوق الملكية الفكرية اليوم؟ وفقا لـ «مرسوم سونى بونو لتمديد مدة حقوق الملكية الفكرية Sonny Bono Copyright Term Extension Act»، الصادر عام ١٩٩٨ (والمعروف أيضا باسم «مرسوم حماية ميكى ماوس» لأن «ميكى ماوس» كان على وشك الخروج للملكية العامة)، فإن حقوق الملكية الفكرية تستمر طوال حياة المؤلف بالإضافة لسبعين عاما أخرى. وفى الواقع، فإن ذلك فى العادة قد يعنى أكثر من قرن من الزمان. ومعظم الكتب التى نشرت فى القرن العشرين لم تخرج بعد إلى الملكية العامة. وفيما يتعلق بالتخزين الرقمى، فإن حرية الوصول إلى تراثنا الثقافى تقف عموما عند الأول من يناير عام ١٩٢٣، وهو التاريخ الذى تخضع بعده أعداد هائلة من الكتب لقوانين حقوق الملكية الفكرية. وسوف يبقى الأمر على حاله ما لم تتول المصالح الخاصة عملية التخزين الرقمى وتوفيره للمستهلكين وتضفى على الباقات عروضا قانونية وتبيعها لصالح حملة الأسهم. وواقع الأمر الآن على سبيل المثال، أن رواية «بابيت Babbitt» لـ «سنكلير لويس Sinclair Lewis» المنشورة عام ١٩٢٢ هى الآن ضمن الملكية العامة، بينما رواية «جسر إلمر Elmer Gantry» لنفس المؤلف والمنشورة عام ١٩٢٧ لن تخرج إلى الملكية العامة قبل عام ٢٠٢٢ (مرسوم تمديد فترة حقوق الملكية الفكرية لعام ١٩٩٨ مدد الحقوق عشرين عاما للكتب المتمتعة بالحماية بعد الأول من يناير عام ١٩٢٣. ولسوء الحظ فإن موقف حقوق الملكية الفكرية بالنسبة للكتب المنشورة فى القرن العشرين معقد نتيجة للتشريع الذى مدد الحقوق إحدى عشرة مرة خلال الخمسين عاما الأخيرة. وإلى أن صدر مرسوم للكونجرس عام ١٩٩٢، كان على أصحاب حقوق الملكية الفكرية تجديدها. وقد ألغى مرسوم ١٩٩٢ ذلك الشرط بالنسبة للكتب المنشورة بين عامى ١٩٦٤ و١٩٧٧، حيث ستمتد حقوقها طوال حياة المؤلف بالإضافة إلى خمسين عاما. وقد مدد مرسوم عام ١٩٩٨ تلك الحماية إلى حياة المؤلف بالإضافة إلى سبعين عاما. ولذلك فإن جميع الكتب المنشورة بعد عام ١٩٦٣ تبقى تحت الحماية، كما يبقى أيضا تحت الحماية عدد غير معروف من الكتب المنشورة بين عامى ١٩٢٣ و١٩٦٤ - والعدد غير معروف بسبب عدم دقة المعلومات بشأن وفاة المؤلفين وأصحاب حقوق الملكية الفكرية. راجع مقال «جاريد روبين Jared Rubin» و«بول ا. دافيد Paul A. David» «تقييد حرية الولوج إلى الكتب على الإنترنت: بعض التأثيرات غير المتوقعة للتشريعات الأمريكية لحقوق الملكية الفكرية»، مجلة «استعراض البحث الاقتصادى حول قضايا حقوق الملكية الفكرية Review of Economic Research on Copyright Issues»، المجلد ٥ العدد ١ (٢٠٠٨)).



إن الانحدار من المبادئ السامية للآباء المؤسسين إلى ممارسات الصناعات الثقافية اليوم يعنى التخلى عن ملكوت التنوير للرأسمالية التجارية الصاخبة.

ولو طبقنا سلوك المعرفة على الحاضر - كما فعل «بوردو» نفسه. فسنكتشف أننا نعيش فى عالم شرس قام بتصميمه «ميكى ماوس»، أحمر الأسنان والمخالب.

هل تجعل هذه النظرة الواقعية من مبادئ التنوير كما لو كانت وهما تاريخيا؟ فلنرجع إلى التاريخ. بينما خبا نجم التنوير فى بدايات القرن التاسع عشر جاءت الاحترافية. وفى إمكاننا متابعة الأمر من خلال مقارنة موسوعة «ديديروت» التى نظمت المعرفة فى وحدة أساسية تسودها ملكة العقل، بـ «الموسوعة المنظمة Encyclopedie Methodique»، التى تلتها فى نهاية القرن الثامن عشر، والتى قسمت المعرفة إلى مجالات يمكننا التعرف عليها اليوم: الكيمياء والفيزياء والتاريخ والرياضيات وغيرها. فى القرن التاسع عشر تحولت تلك المجالات إلى مهن موثقة بشهادات الدكتوراة وتحميها الجمعيات المهنية. وتحولت بعد ذلك إلى أقسام فى الجامعات، وبحلول القرن العشرين كانت قد تركت بصمتها على أحرمة الجامعات، فبقيت الكيمياء فى هذا المبنى والفيزياء فى ذلك الآخر والتاريخ هنا والرياضيات هناك، وفى وسط ذلك كله مكتبة مصممة عادة لتبدو كمعبد للتعليم.

فى الوقت نفسه، ازدهرت الصحف المحترفة فى المجالات الرئيسية والفرعية. لقد أنتجت المجتمعات المتعلمة ذلك ثم ابتاعته المكتبات. وقد نجح هذا النظام لمدة مائة عام تقريبا. ثم أدرك الناشرون التجاريون أن بإمكانهم تحقيق ثروة من خلال بيع



Google

اشتراكات الدوريات. وبمجرد أن تشترك مكتبة جامعة، فإن الطلبة والأساتذة يتوقعون فيضا غير منقطع من أعداد المطبوعات. ويمكن أن تتزايد أسعار الاشتراك دون أن يتسبب ذلك في إلغاء الاشتراك، لأن المكتبات - وليس الأساتذة - هي التي دفعت الاشتراك. وأفضل ما حدث أن الأساتذة عملوا بصورة مجانية أو شبه مجانية. فقد كتبوا المقالات وقاموا بتقييم الرسائل العلمية وخدموا في مجالس التحرير، وذلك - من جانب - لنشر المعرفة على طريقة التنوير، ولكن - في الأساس - لتطوير مستقبلهم المهني.

تظهر النتيجة في ميزانيات الاقتناء لكل مكتبة أبحاث: فـ«جريدة علم الأعصاب المقارن Journal of Comparative Neurology» تكلف الآن ٢٥,٩١٠ دولار كاشتراك سنوي، بينما تكلف جريدة «رباعي الأسطح Tetrahedron» ١٧,٩٦٩ دولار (أو ٣٩,٧٣٩ دولارا إذا كانت ضمن مجموعة كباقة)، وتبلغ متوسط تكلفة جريدة كيميائية ٣,٤٩٠ دولار، وقد قوض تأثير تقلب الأسعار الحياة الفكرية في عالم التعليم. وبسبب الأسعار الفاحشة للدوريات، فإن المكتبات التي اعتادت إنفاق ٥٠٪ من ميزانية الاقتناء على الدراسات المتخصصة monographs أصبحت الآن لا تنفق عليها سوى ٢٥٪ أو أقل. أما مطابع الجامعات التي تعتمد على البيع للمكتبات، فإنها لا تستطيع تغطية نفقاتها من خلال نشر المطبوعات المتخصصة. وبالنسبة لشباب العلماء الذين يعتمدون على النشر لتطوير مستقبلهم المهني، فهم الآن عرضة للانقراض.

لحسن الحظ، فتلك الصورة لحقائق الحياة القاسية في عالم التعليم هي بالفعل آخذة في التغير. فلم يعد علماء الأحياء والكيمياء والفيزياء يعيشون في عوالم منفصلة، وكذلك هو حال علماء التاريخ والإنسان والأدب. إن الخريطة القديمة للحرم الجامعي لم تعد تتطابق مع أنشطة الأساتذة والطلاب. فالخريطة يعاد رسمها في كل مكان، وتتحول التصميمات المتشابكة في العديد من المواقع إلى تركيبات متماسكة. المكتبة باقية في قلب الأشياء، ولكنها تضخ الغذاء إلى أنحاء الجامعة، وعادة إلى المدى الأبعد للأنظمة الحديثة من خلال الشبكات الإلكترونية.

لقد تحولت «جمهورية أدب» القرن الثامن عشر إلى «جمهورية تعليم» مهنية، وهي الآن مفتوحة للهواة، بالمعنى الأفضل لكلمة هواة، عشاق التعليم من بين عامة المواطنين. وتسود الشفافية في كل مكان بفضل مستودعات «حرية الولوج» للمقالات المخزنة رقميا والمتوفرة مجانا، مثل Open Content Alliance، وOpen Knowledge Commons، و OpenCourseWare، وInternet Archive، وكذلك مشاريع الهواة المفتوحة مثل «ويكيبيديا Wikipedia». إن ديمقراطية المعرفة هي الآن عند أطراف أصابعنا على ما يبدو. وباستطاعتنا إحياء نموذج التنوير على أرض الواقع.

عند تلك النقطة، ربما يكون هناك شك في أنني قد تحولت من مذهب أمريكي «أدب النواح» إلى آخر «حماسة المدينة الفاضلة». أعتقد أنه ربما كان من الممكن للاثنين أن يعملا معا كنوع من الجدل المنطقي، ولو حتى بسبب خطر الاستغلال التجاري. فعندما تنظر شركات مثل «جوجل» إلى المكتبات، فإنها لا ترى مجرد معابد للتعليم. بل ترى ثروات محتملة أو ما تسميه «محتوى» جاهز للاستخراج. إن مجموعات المكتبات، التي تكونت عبر قرون وبتكلفة هائلة من الأموال والجهد، يمكن إجمالا تخزينها رقميا بتكلفة ضئيلة نسبيا، ملايين من الدولارات بالتأكيد، ولكنها ضئيلة مقارنة بالاستثمار الذي وضع فيها.

لقد وجدت المكتبات لتحقيق المصلحة العامة: «تشجيع التعليم» وإتاحته «مجانا للجميع». أما الشركات التجارية فقد وجدت لجني المال لحملة الأسهم، وهي أيضا مفيدة لأن المصلحة العامة تعتمد على اقتصاد رابح. ومع ذلك فلو سمحنا باستغلال محتويات مكتباتنا تجاريا فلابد من حدوث تناقض جوهري. إن تخزين المجموعات رقميا وبيع المنتج بطرق لا تضمن حرية الانتشار سيكون تكرارا للخطأ الذي وقع عندما استغل الناشرون سوق الدوريات العلمية، بل سيكون ذلك على نطاق أوسع كثيرا، لأن ذلك سيحول الإنترنت إلى أداة لخصخصة المعرفة التي تنتمي إلى الفلك العام. لن تتدخل يد خفية لتصحيح الخلل بين الصالح الخاص والعام. الجمهور فقط هو الذي يستطيع ذلك، ولكن من الذي يتحدث باسم الجمهور؟ بالطبع ليس مشرعي مرسوم حماية «ميكي ماوس».

لا يمكن التشريع للتنوير، ولكن من الممكن وضع قواعد للعبة لحماية المصلحة العامة. إن المكتبات تمثل الصالح العام. إنها ليست أعمالا تجارية، ولكن عليها أن تغطي التكلفة. وهي تحتاج إلى خطة عمل. فلنتذكر الشعار القديم لشركة «Con Edison» (شركة للطاقة تأسست عام ١٨٢٣ لتوزيع الكهرباء والغاز والبخار. المترجم) عندما اضطرت لشق شوارع نيويورك للوصول إلى البنية التحتية أسفلها: «علينا أن نحفر». المكتبات تقول: «علينا أن نخزن رقميا». ولكن ليس بأية شروط. علينا فعل ذلك للمصلحة العامة، وذلك يعني أن من يقومون بعملية التخزين الرقمي سيكونون مسئولين أمام مجموع المواطنين.



سيكون من السذاجة أن نساوي بين الإنترنت والتنوير. إن لدى الإنترنت الإمكانية لنشر المعرفة إلى أبعد من أي مدى كان يمكن أن تتخيله «جيفرسون»، ولكن بينما كان يتم بناؤها رابطا تلو الآخر، لم تقبع المصالح التجارية بلا حراك على جانب الطريق. إنها تسعى للسيطرة على اللعبة والاستيلاء عليها وامتلاكها. بالطبع فإن المصالح التجارية تتنافس فيما بينها، ولكن بضراوة شديدة تصل إلى حد القضاء على بعضها البعض. إن صراعها من أجل البقاء يؤدي إلى تضييق المنافسة، وأيا كان الفائز فإن النصر سيعني هزيمة الصالح العام.

أرجو ألا يساء فهمي، أنا أعلم أن المصالح التجارية يجب أن تكون مسئولة أمام حملة الأسهم. كما أني أومن أن من حق المؤلفين الحصول على عائد لجهدهم الخلاق وأن الناشرين يستحقون المال مقابل القيمة التي يضيفونها إلى النصوص التي يقدمها المؤلفون. وأنا معجب بسحر الأجهزة والبرمجيات ومحركات البحث والتخزين الرقمي وما يستتبع ذلك من تكنولوجيا راقية. أنا أقر بأهمية حقوق الملكية الفكرية، رغم أنني أعتقد أن الكونجرس عالج الأمر عام ١٧٩٠ على نحو أفضل مما فعل عام ١٩٩٨.

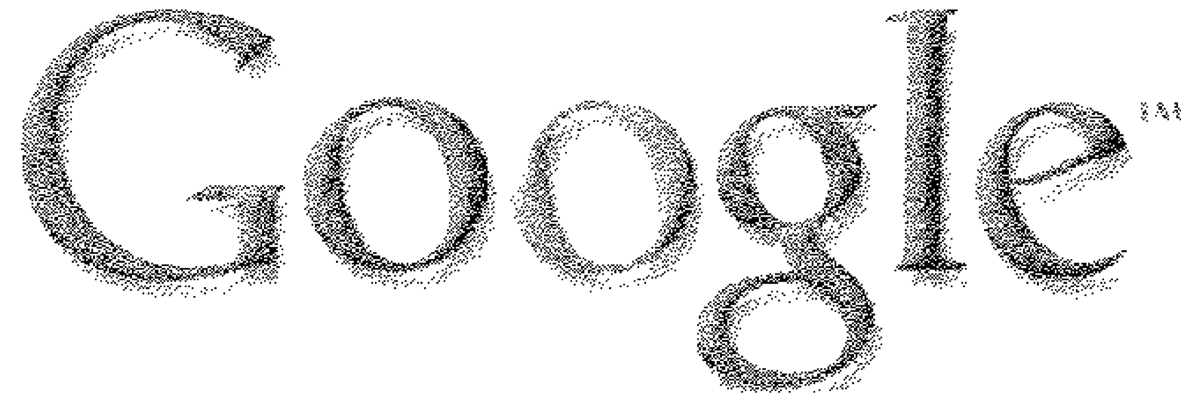
لكننا نحن أيضا لا نستطيع الجلوس على جانب الطريق كما لو كان يمكن الوثوق بأن قوى السوق سوف تعمل للصالح العام. علينا أن نشارك ونقاتل ونستعيد الملكية العامة المستحقة. وعندما أقول «نحن» فإنني أعني نحن الشعب الذي وضع الدستور والذي يجب عليه أن يجعل من مبادئ التنوير وراء الدستور مرشدا للحقائق اليومية لمجتمع المعلومات. نعم، علينا أن نخزن رقميا. ولكن الأهم أن علينا أن نكون ديمقراطيين. علينا أن نتيح حرية الوصول لتراثنا الثقافي. كيف؟ من خلال إعادة كتابة قواعد اللعبة وإخضاع المصالح الخاصة للصالح العام ومن استلهام الجمهورية الأولى لكي نخلق «جمهورية رقمية للتعليم».

ما الذي أثار انعكاسات أدب النواح والمدينة الفاضلة؟ إنها «جوجل». فمنذ أربعة أعوام بدأت «جوجل» في تخزين الكتب رقميا من مكتبات الأبحاث، متيحة البحث عن نصوص كاملة وموفرة كتب الملكية العامة على الإنترنت بدون أي كلفة على المتصفح. فعلى سبيل المثال، من الممكن الآن لأي شخص في أي مكان أن يستعرض ويقوم بتحميل نسخة رقمية من الطبعة الأولى عام ١٨٧١ لـ «منتصف مارس Middlemarch» (رواية لجورج إليوت George Eliot، وهو اسم الشهرة للروائية ماري آن إيفانز Mary Anne Evans، المترجم)، والتي تقع ضمن مجموعة «مكتبة بودليان Bodleian Library» في جامعة أوكسفورد. وقد استفاد الجميع، بما في ذلك «جوجل» التي حققت عائدات من بعض الإعلانات الخفية المرفقة بخدمة «جوجل» للبحث عن الكتب (Google Book Search). وقد خزنت «جوجل» رقميا أيضا أعدادا متزايدة من كتب المكتبات التي تحميها حقوق الملكية الفكرية، وذلك كي توفر خدمة البحث التي تعرض مقاطع صغيرة من النص. وفي سبتمبر وأكتوبر من عام ٢٠٠٥، قامت مجموعة من المؤلفين والناشرين برفع دعوى قضائية جماعية ضد «جوجل»، مدعين بانتهاكها حقوق الملكية الفكرية. وفي الثامن والعشرين من أكتوبر الماضي، وبعد مفاوضات مطولة، أعلنت الأطراف



توصل المدعون و«جوجل» إلى تسوية سيكون لها أكبر الأثر على الأسلوب الذي تصل به الكتب إلى القراء في المستقبل المنظور. ماذا سيكون شكل هذا المستقبل؟





المتنازعة الاتفاق على تسوية تخضع لموافقة محكمة المقاطعة الجنوبية لنيويورك (يمكن العثور على النص الكامل للتسوية على www.googlebooksettlement.com/agreement.html. وبالنسبة للإشعار القانوني لـ «جوجل» بخصوص التسوية، راجع صفحة ٣٥ من هذا العدد لمجلة The New York Review of Books).

تؤسس التسوية مشروعا تجاريا يعرف باسم «سجل حقوق الكتب Book Rights Registry» يمثل مصالح أصحاب حقوق الملكية الفكرية. وسوف تبيع «جوجل» حق الولوج إلى بنك معلومات هائل يتكون في الأساس من كتب لم تعد تطبع وتتمتع بحقوق الملكية الفكرية مخزنة رقميا من مكتبات الأبحاث. وسوف تتمكن الكليات والجامعات والمنظمات الأخرى من الاشتراك من خلال دفع مبلغ مقابل «رخصة مؤسسات» تتيح الولوج إلى بنك المعلومات. أما «رخصة الولوج العامة» فسوف تتيح تلك المواد للمكتبات العامة حيث ستوفر «جوجل» استعراضا مجانيا للكتب المخزنة رقميا على جهاز كمبيوتر طرفي واحد فقط. وسوف يتمكن الأفراد أيضا من الولوج وطباعة نسخ رقمية من الكتب من خلال شراء «رخصة مستهلك» من «جوجل»، التي سوف تتعاون مع السجل لتوزيع كل العائدات على أصحاب حقوق الملكية الفكرية. سوف تحتفظ «جوجل» بنسبة ٣٧٪، بينما يقوم السجل بتوزيع ٦٣٪ على أصحاب الحقوق.

في الوقت نفسه، ستستمر «جوجل» في توفير كتب الملكية العامة مجانا للمستخدمين للقراءة والتحميل والطباعة. ومن بين السبعة ملايين كتاب التي يعتقد أن «جوجل» قد خزنتها رقميا بحلول نوفمبر عام ٢٠٠٨، يقع مليون منها ضمن الملكية العامة، ومليون آخر تتمتع بحقوق الملكية الفكرية ويعاد طبعها، وخمسة ملايين كتاب تتمتع بحقوق الملكية الفكرية ولكنها لم تعد تطبع. والفئة الأخيرة هي التي ستشكل كم الكتب التي سيتم توفيرها لرخصة المؤسسات.

لن تتوفر في بنك المعلومات العديد من الكتب التي تتمتع بحقوق الملكية الفكرية ويعاد طبعها، ما لم يقرر ذلك أصحاب الحقوق. وسوف يستمر بيع تلك الكتب بالطريقة العادية كنسخ مطبوعة، وكذلك يمكن تسويقها للمستهلكين الأفراد كنسخ رقمية يمكن الولوج إليها من خلال رخصة المستهلك للتحميل والقراءة، وربما في النهاية على أجهزة قراءة الكتب الإلكترونية مثل جهاز «Kindle» من «أمازون Amazon».

بعد قراءة التسوية واستيعاب بنودها - وتلك ليست مهمة يسيرة، حيث إنها تصل إلى ١٣٤ صفحة بالإضافة إلى خمسة عشر ملحقا من الكتابة القانونية المعقدة. يرجح أن يصاب المرء بالذهول: فهذا العرض يمكن أن يؤدي إلى ظهور أضخم مكتبة على وجه الأرض. من المؤكد أنها ستكون مكتبة رقمية، ولكن من الممكن أن تتضاءل أمامها مكتبة الكونجرس وجميع المكتبات الوطنية في أوروبا. والأكثر من ذلك أن «جوجل» - بمتابعة بنود التسوية مع المؤلفين والناشرين - يمكنها أيضا أن تصبح أضخم تجارة كتب في العالم - ليست سلسلة من المتاجر، بل خدمة تزويد إلكترونية يمكن أن تطيح بـ «أمازون».

من المحتم لمشروع تجاري بمثل هذا الحجم أن يثير ردود أفعال من النوعين اللذين كنت أناقشهما: من جهة، حماسة المدينة الفاضلة، ومن جهة أخرى، النواح تجاه خطر تركيز السلطة للسيطرة على حرية الوصول للمعلومات.

من يمكن ألا يشعر بالإثارة تجاه إمكانية وصول كل الكتب بالفعل من أكبر مكتبات الأبحاث الأمريكية إلى متناول كافة الأمريكيين، وربما في النهاية إلى كل شخص في العالم يملك الدخول إلى الإنترنت؟ لن يقتصر الأمر على توفير الكتب للقراء من خلال سحر «جوجل» التكنولوجي، بل إنه سيتيح أيضا فرصا غير مسبوقة للأبحاث، مجموعة كاملة من الفرص بداية من البحث المباشر عن كلمة وحتى الاستخراج المعقد للنصوص. وتحت ظروف معينة، ستتمكن المكتبات المشاركة من استخدام النسخ المخزنة رقميا من كتبها لعمل نسخ بديلة من الكتب التالفة أو المفقودة. كما ستقوم «جوجل» بهندسة النصوص بطريقة تساعد القراء من أصحاب الاحتياجات الخاصة.

لسوء الحظ فإن التزام «جوجل» بتوفير ولوج مجاني لقاعدة بياناتها على جهاز طرفي واحد فقط في كل مكتبة عامة مكبل بالقيود: فلن يكون بمقدور القراء طباعة أي نص تحميه حقوق الملكية الفكرية دون دفع رسم لأصحاب الحقوق (رغم أن «جوجل» عرضت الدفع لهم منذ البداية)، وجهاز طرفي واحد لن يكفي بالكاد لإشباع الطلب في المكتبات الكبرى. ولكن كرم «جوجل» سيكون هبة لقراء مكتبات «كارنيجي» في المدن الصغيرة، والذين ستتاح لهم كتب أكثر من المتوفرة حاليا في مكتبة نيويورك العامة. إن «جوجل» قادرة على تحقيق حلم التنوير.



ولكن هل ستفعل «جوجل» ذلك؟ لقد رأى فلاسفة القرن الثامن عشر في الاحتكار عقبة رئيسية أمام انتشار المعرفة - ليس الاحتكار على إطلاقه، والذي أعاق التجارة وفقا لـ «آدم سميث» (فيلسوف سكوتلاندي، ١٧٢٣-١٧٩٠) وأنصار الاقتصاد الزراعي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (Physiocrats)، ولكن احتكارات معينة مثل «شركة لندن للناشرين» ونقابة بائعي الكتب في باريس، والتي قضت على حرية تجارة الكتب.

شركة «جوجل» ليست بنقابة، وهي لم تنشأ لخلق احتكار، بل على العكس من ذلك، فإنها سعت إلى هدف حميد: المساهمة في تيسير الوصول للمعلومات. ولكن سمعة الدعوى القضائية الجماعية التي لحقت بالتسوية تجعل «جوجل» عرضة للمنافسة. فغالبية المؤلفين والناشرين الذين يملكون حقوق ملكية فكرية أمريكية يستفيدون تلقائيا من التسوية، بمقدورهم الخروج منها، ولكن مهما فعلوا فلا يمكن تأسيس مشروع تجاري جديد للتخزين الرقمي دون الحصول على موافقتهم الواحد تلو الآخر، وذلك مستحيل عمليا، أو دون التورط من جديد في دعوى قضائية جماعية أخرى. وإذا حظيت التسوية بموافقة المحكمة - وهي عملية قد تستغرق عامين من الزمن - فإنها ستمنح «جوجل» السيطرة على عملية التخزين الرقمي لجميع الكتب التي تتمتع بحقوق الملكية الفكرية في الولايات المتحدة.

لم تكن تلك النتيجة متوقعة في البداية. وعند مراجعة تاريخ التخزين الرقمي منذ التسعينيات، يمكننا الآن اكتشاف ضياع فرصة كبيرة منا. فمن خلال إجراءات الكونجرس ومكتبته، أو تحالف ضخم من مكتبات الأبحاث يدعمه اتحاد للمؤسسات، كان من الممكن إنجاز المشروع بتكلفة مقبولة وتصميمه بطريقة تضع المصلحة العامة أولا. ومن خلال توزيع الكلفة بطرق مختلفة - إيجار على أساس معدل استخدام قاعدة البيانات، أو خط غير مكلف في «الوقف الوطني للدراسات الإنسانية National Endowment for the Humanities» أو مكتبة الكونجرس - كان في إمكاننا توفير دخل مشروع للمؤلفين والناشرين والإبقاء على مستودع معلومات متاح مجانا أو برسوم معقولة. كان في إمكاننا إنشاء مكتبة رقمية قومية تكافئ - في القرن الحادي والعشرين - مكتبة الإسكندرية. لقد فات الوقت الآن. إننا لم نخفق فقط في إدراك تلك الإمكانية، بل الأسوأ من ذلك أننا نسمح للدعاوى القانونية الخاصة بتقرير قضايا تتعلق بالسياسة العامة - السيطرة على الوصول للمعلومات.

بينما كانت السلطات العامة تغط في سبات عميق، أخذت «جوجل» بزمام المبادرة. إنها لم تسع لتسوية شئونها في المحكمة، بل باشرت عملها في المسح الضوئي للكتب في المكتبات. وقد مسحت الكتب بكفاءة عالية لإثارة شهية الآخرين للحصول على نصيب من الأرباح المتوقعة. لا يجب أن يعترض أحد على مطالب المؤلفين والناشرين في الحصول على دخل من حقوقهم التي لا نزاع عليها، ولا يجب أن يفترض أحد إصدار أحكام متسرعة على الأطراف المتنازعة للدعوى القضائية. إن قاضي محكمة المقاطعة سوف يصدر حكمه بشأن مشروعية التسوية. ولكن تلك في الأساس مسألة تتعلق بتوزيع الأرباح وليس بتحقيق المصلحة العامة.

وكإحدى النتائج غير المقصودة، سوف تتمتع «جوجل» بما يمكن فقط تسميته باحتكار - احتكار من نوع جديد، ليس للسكك الحديدية أو الصلب بل لحرية الوصول للمعلومات. ليس في مواجهة «جوجل» منافسون خطيرون. فقد تخلت «ميكروسوفت» منذ عدة أشهر عن برنامجها الرئيسي



لو طبقنا سلوك المعرفة على الحاضر - كما فعل «بوردو» نفسه - فسنكتشف أننا نعيش في عالم شرس قام بتصميمه «ميكي ماوس»، أحمر الأسنان والمخالب



Google

لتخزين الكتب رقميا، أما المشاريع التجارية الأخرى مثل «Open Knowledge Commons» (كانت تسمى فى السابق «Open Content Alliance») و«Internet Archive»، فهى صغيرة وغير فعالة بالمقارنة مع «جوجل». تمتلك «جوجل» وحدها إمكانيات التخزين الرقمى على نطاق واسع. وبعد إجراء التسوية مع المؤلفين والناشرين يمكن لها استغلال قوتها المالية من وراء حاجز حماية قانونى، لأن الدعوى القضائية الجماعية تغطى كل طبقة المؤلفين والناشرين. ولن يتمكن أى متعهد جديد من تخزين الكتب رقميا ضمن هذا النطاق المحمى، حتى لو استطاع تحمل الكلفة، لأنه سيتوجب عليه دخول معارك حقوق الملكية الفكرية كلها مرة ثانية. وإذا أيدت المحكمة التسوية، فإن «جوجل» فقط هى التى ستتمتع بالحماية من مسئولية حقوق الملكية الفكرية.

يشير سجل «جوجل» إلى أنها لن تسىء استغلال سطوتها المالية-القانونية الجبارة. ولكن ماذا سيحدث لو باع رؤساؤها الحاليون الشركة أو تقاعدوا؟ سيعرف الجمهور الإجابة من الأسعار التى ستتقاضاها «جوجل» فى المستقبل، وخاصة سعر رخص اشتراك المؤسسات. إن التسوية تتيح لـ «جوجل» حرية التفاوض حول الصفقات مع كل من عملائها. على الرغم من إعلانها لمبدأين إرشاديين: «أولا، تحقيق عائد بمعدلات السوق لكل كتاب ورخصة لصالح أصحاب الحقوق، ثانيا، تحقيق ولوج على نطاق واسع للكتب بواسطة الجميع، بما فى ذلك مؤسسات التعليم الأعلى».

ماذا سيحدث لو انحازت «جوجل» إلى الربحية على حساب حرية الولوج. إذا كنت قد قرأت بنود التسوية على نحو صحيح، فلن يحدث شىء. وحده السجل، الذى يعمل لصالح أصحاب حقوق الملكية الفكرية، هو صاحب السلطة لإجراء تغيير فى أسعار الاشتراك التى تتقاضاها «جوجل»، وليس هناك من سبب يدعو لتوقع اعتراض السجل إذا كانت الأسعار عالية جدا. قد تختار «جوجل» أن تكون كريمة فى أسعارها، ولدى من الأسباب ما يجعلنى آمل أن تفعل ذلك، ولكنها قد تطبق أيضا أسلوبا يمكن مقارنته بذلك الذى أثبت فعاليته الشديدة فى رفع أسعار الدوريات العلمية: أولا، إغراء المشتركين بأسعار مبدئية منخفضة، ثم رفع الأسعار بعد ذلك إلى أعلى ما يمكن تحمله بعد أن تم اصطيادهم.

قد يجادل أنصار السوق الحرة بأن السوق سوف يستدرك الخطأ. فإذا تقاضت «جوجل» أكثر من اللازم فإن المستهلكين سوف يلغون اشتراكاتهم وسوف ينخفض السعر. ولكن ليست هناك صلة مباشرة بين العرض والطلب فى الآليات التى تحكم رخص المؤسسات كما تتصورها التسوية. إن الطلبة والكليات ورعاة المكتبات العامة لن يدفعوا الاشتراكات. إن النقود سوف تأتى من المكتبات، وإذا ما أخفقت المكتبات فى تدبير المال الكافى لتجديد الاشتراك فربما تثير احتجاجات عنيفة من القراء الذين اعتادوا على خدمة «جوجل». ولمواجهة الاحتجاجات، من المرجح أن تلجأ المكتبات إلى الاقتطاع من خدمات أخرى، بما فى ذلك اقتناء الكتب، مثلما فعلت عندما رفع الناشرون أسعار الدوريات.

لا يستطيع أحد أن يتنبأ بما سيحدث. ليس فى إمكاننا سوى أن نقرأ بنود التسوية والتخمين بشأن المستقبل. إذا قامت «جوجل» . بسعر معقول . بتوفير مجموع ممتلكات جميع المكتبات الأمريكية الرئيسية. فمن الذى لن يصفق؟ ألن نفضل عالما نتمكن فيه من الوصول بحرية إلى تلك المجموعة الهائلة من الكتب الرقمية، حتى ولو بأسعار عالية، على عالم لا يتوفر فيه ذلك؟

ربما، ولكن التسوية تحدث تحولا جوهريا فى العالم الرقمى من خلال تركيز السلطة فى أيدى شركة واحدة. فباستثناء «ويكيبيديا»، فإن «جوجل» تسيطر بالفعل على وسائل الوصول للمعلومات على الإنترنت بالنسبة لمعظم الأمريكيين، سواء كانوا يريدون الاستعلام عن أشخاص أو سلع أو أماكن أو أى شىء تقريبا. وبالإضافة إلى «جوجل الكبير Big Google» الأصلى، فلدينا «جوجل الأرض Google Earth» و«جوجل الخرائط Google Maps» و«جوجل الطعام Google Food» و«جوجل الرياضة Google Sports» و«جوجل الصحة Google Health» و«جوجل الفحص Google Checkout» و«جوجل التحذيرات Google Alerts» ومشاريع «جوجل» تجارية أخرى عديدة فى الطريق. وبعد «Google Book Search» بإنجاز أعظم مكتبة وأكبر مشروع تجارى للكتب موجود على الإطلاق. وسواء فهمت التسوية على النحو الصحيح أم لا، فإن بنودها مترابطة بإحكام تام لدرجة أنه لا يمكن الفصل بينها. وعند تلك النقطة، ليس من المرجح أن تقوم «جوجل» أو المؤلفون أو الناشرون أو محكمة المقاطعة بتعديل التسوية بصورة جوهرية. ومع ذلك فإن تلك أيضا نقطة تحول فى تطور ما نطلق عليه مجتمع المعلومات. ولو لم نحقق التوازن فى تلك المرحلة فربما ترجح كفة المصالح الخاصة على الصالح العام فى المستقبل المنظور ويصبح حلم التنوير وهما كما كان دوما.

من google

كيف تنظر شركة google للموضوع؟

فى السطور التالية ترجمة لفحوى رد الشركة على استفسارات «وجهات نظر»:

هى تسوية غير مسبوقة توصلت إليها «جوجل» مع المؤلفين والناشرين من شأنها أن تيسر الوصول إلى ملايين الكتب وتخلق سوقا جديدا للمؤلفين والناشرين لبيع أعمالهم.

حول خدمة البحث عن الكتب

من خلال زيارة books.google.com، يمكن للقراء البحث خلال ملايين الكتب التى تم تخزينها رقميا من خلال برنامجنا للشراكة ومشروع المكتبة. وتوفر الخدمة قائمة من الكتب ذات العلاقة وفقا لموقفها من حقوق الملكية الفكرية أو ما يسمح به أصحاب تلك الحقوق.

وبرنامج الشراكة هو برنامج لـ «جوجل» يستخدمه أكثر من عشرين ألف ناشر فى أنحاء العالم للترويج لكتبهم. ووفقا للبرنامج، يقدم لنا الشركاء (أى الناشرين) نسخا من كتبهم كى نخزنها رقميا ونضعها على الإنترنت للاستعراض وفى تلك الحالة، فإننا نعرض عددا محدودا من صفحات الكتب للمستخدمين. وإذا لقى كتاب اهتماما، يستطيع المستخدم النقر على موقع الناشر أو تاجر التجزئة ويقوم بشرائه. كما أننا نوجه القراء إلى المكتبات القريبة منهم حيث يمكن العثور على الكتاب.

وكجزء من مشروع المكتبة، تقوم المكتبات أيضا بتزويدنا بالكتب من مجموعاتها كى نخزنها رقميا. وفى الوقت الحالى

- يستطيع المستخدمون قراءة وتحميل جميع الكتب غير المحمية بحقوق الملكية الفكرية.
- بالنسبة للكتب المحمية بحقوق الملكية الفكرية، يستطيع القراء استعراض معلومات ثبت المراجع المتعلقة بالكتاب بالإضافة إلى بعض الفقرات.

حول الاتفاقية

إن الاتفاقية التى تم الإعلان عنها فى أكتوبر ٢٠٠٨ بين «جوجل» وطائفة كبيرة من أصحاب حقوق الملكية الفكرية سوف تفتح المجال للوصول إلى ملايين الكتب فى الولايات المتحدة وتخلق سوقا جديدة للمؤلفين والناشرين لبيع أعمالهم. وتنهى الاتفاقية الدعاوى القضائية المرفوعة من قبل نقابة المؤلفين وغيرهم بالإضافة إلى خمسة من كبار الناشرين يمثلون عضوية جمعية الناشرين الأمريكيين. وإجمالا تحقق الاتفاقية المصلحة الدائمة للمؤلفين والناشرين والقراء على السواء أكثر مما كان يمكن أن نحققه بصورة فردية.

وفى حالة إقرارها من قبل المحكمة، ستوفر الاتفاقية ما يلى:

١ـ إتاحة الوصول لملايين الكتب

ستزيد الاتفاقية بصورة كبيرة من حرية الوصول إلى الكتب فى الولايات المتحدة، وخاصة فيما يتعلق بالكتب التى لم تعد تطبع أوتلك التى تتمتع بحقوق الملكية الفكرية. وتندرج الغالبية العظمى من كتب العالم ضمن تلك الفئة الأخيرة من الأعمال ـ كتب تحت حماية حقوق الملكية الفكرية وكتب مجهولة الموقف من تلك الحماية. ونتيجة لذلك فإن ملايين الكتب المنشورة فى أنحاء العالم والتى تمثل قرونا من الدراسة والخبرة والثقافة سوف تظل عصية المنال.

وسوف توفر «جوجل» الخيارات التالية للوصول إلى الكتب:



إلى «وجهات نظر»

● الاستعراض: يمكن للقراء - مجانا - استعراض ما يصل إلى ٢٠٪ من صفحات معظم الكتب التى لم تعد تطبع. ومثل عملية التصفح فى المتجر، يمكن للقراء تقليب بضع صفحات لمساعدتهم فى تقرير إذا ما كان الكتاب مناسبا لهم للشراء.
● البيع للمستهلك: يمكن للقراء شراء الحق الكامل للولوج لكتاب عبر الإنترنت. ويعنى ذلك أن شخصا فى الولايات المتحدة يستطيع أن يقرأ كتابا كاملا من أى جهاز كمبيوتر متصل بالإنترنت إذا ما اشترى حق الولوج للكتاب.
● اشتراك مؤسسة: يمكن للمنظمات الأكاديمية والحكومية وغيرها شراء اشتراك يسمح لأعضائها بالولوج عبر الإنترنت إلى النص الكامل لملايين العناوين.
وبالنسبة للكتب التى لم تعد تطبع وما زالت تتمتع بحقوق الملكية الفكرية، فسيتم «تشغيل» نماذج الولوج الجديدة تلك تلقائيا، ما لم يقرر صاحب الحقوق فى كتاب إيقافها. ويعنى ذلك أنه بمجرد الموافقة على هذه الاتفاقية فسوف يتمكن القراء من بحث واستعراض وشراء حق الولوج الكامل لملايين الكتب التى يصعب جدا اليوم العثور عليها أو شراؤها.

وبالنسبة للكتب التى ما زالت تطبع وتتمتع بحقوق الملكية الفكرية، فسيتمكن القراء من البحث عنها والعثور عليها، ولكنهم لن يستطيعوا استعراض أى جزء من الكتاب تلقائيا. وباستطاعة أصحاب الحقوق اختيار تفعيل نماذج الولوج الجديدة من خلال مشاركتهم فى الاتفاقية أو من خلال برنامج الشراكة للبحث عن الكتب. ومن المهم الإشارة إلى أن الكتب فى برنامج الشراكة سوف تظل متاحة للاستعراض كما هى اليوم، وسيتمكن الشركاء من تفعيل خدمة البيع للمستهلك - إن كانت متوفرة - وكذلك اشتراك المؤسسات.

سيبقى القراء أيضا قادرين على استعراض وتحميل جميع الكتب المدرجة خارج نطاق حماية حقوق الملكية الفكرية.

٢- خلق سوق جديدة للمؤلفين والناشرين

بالإضافة إلى توسيع نطاق الولوج إلى الكتب، تخلق الاتفاقية فرص عائد جديد للمؤلفين والناشرين. وسوف يحصل أصحاب الحقوق على معظم العائد عندما يشترى القراء حق الولوج للكتب.



● وبالنسبة للكتب التى لم تعد تطبع ولا يوجد لها فى معظم الحالات سوق تجارية، فإن تلك الاتفاقية تتيح فرص عائد جديد لم يكن موجودا فى السابق. وفى ظل هذه الاتفاقية يمكن إتاحة تلك الكتب من جديد للعامة، وسوف يربح أصحاب الحقوق مالا من خلال إتاحتها.
● وفيما يتعلق بالكتب التى ما زالت تطبع، توسع الاتفاقية السوق الإلكترونية لبيع الكتب فى الولايات المتحدة دون تحميل أصحاب الحقوق أية تكاليف، كما أنهم - بقليل من الجهد - سيتمكنون من الاستفادة من نماذج ولوج القارئ الجديدة. وفى أى وقت، يمكن لأصحاب الحقوق اختيار تشغيل أو إغلاق نماذج الولوج الجديدة فيما يتعلق بكتبهم.

٣- إنشاء سجل لحقوق الملكية الفكرية للكتب.

بالإضافة لذلك، ستقوم «جوجل» بتمويل إنشاء سجل مستقل غير ربحى لحقوق الملكية الفكرية للكتب يديره المؤلفون والناشرون ويكون مسئولا - كجزء من هذه الاتفاقية - عن الوصول لأصحاب الحقوق وكذلك تحصيل وتوزيع المال المكتسب. ويعمل هذا السجل لصالح المؤلفين والناشرين الأمريكيين والأجانب الذين تم تخزين أعمالهم رقميا بواسطة أحد شركاء مشروع مكتبة البحث عن الكتب. وسيعمل السجل أيضا لصالح أصحاب الحقوق فى البرامج المماثلة (المبادرة الأوروبية للتخزين الرقمى European Digitization Initiative على سبيل المثال) التى قد تدشنها شركات أو مؤسسات أخرى. ونعتقد أن هذه الاتفاقية ستساعد فى تخفيض أعداد الكتب «اليتيمة» (مجهولة المؤلف أو الناشر) لأن أصحاب الحقوق سيكون لديهم حافز اقتصادى حقيقى للتقدم والمطالبة بأعمالهم حتى يربحوا المال بعد ذلك. وتوفر الاتفاقية سبيلا أمام أصحاب الحقوق للحصول على تعويض إذا ما أراد شخص ما استغلال عملهم مثل - على سبيل المثال - أن يرغب كاتب سيناريو فى عمل فيلم عن كتاب لم يعد يطبع. سوف يحتفظ السجل بقاعدة بيانات دقيقة عن أصحاب الحقوق، مما يجعل من التعرف على أصحاب الحقوق والاتصال بهم أمرا أكثر سهولة. كما سيتمكن السجل من تمثيل مصالحهم - إلى المدى الذى يخولونه - عند الترخيص لخدمات طرف ثالث آخر.

ماذا يعنى ذلك بالنسبة للمستخدمين وأصحاب الحقوق خارج الولايات المتحدة؟

من الممكن أيضا للمؤلفين والناشرين الدوليين الذين تم تخزين كتبهم رقميا من شريك بمشروع المكتبة الأمريكى أن يفيدوا من تلك الصفقة. فكجزء من برنامج إشعار عالمى، سيتصل مدير التسوية بالمؤلفين والناشرين فى أنحاء العالم لإبلاغهم بحقوقهم فى ظل التسوية. والتى تتضمن الحق فى عدم تطبيق التسوية عليهم وإمكانية التسجيل لدى سجل حقوق الملكية الفكرية للكتب لتحقيق السيطرة والتربح من وراء الولوج لكتبهم عبر الإنترنت.

وعلى أية حال، فحيث إن تلك الاتفاقية هى نتيجة لدعوى قضائية أمريكية، فهى لا تؤثر سوى على تجربة البحث عن الكتب بالنسبة للمستخدمين الذين يدخلون الموقع من داخل الولايات المتحدة. أما خارج الولايات المتحدة، فلن تتغير تجربة المستخدمين مع خدمة «جوجل» للبحث عن الكتب، ما لم يصرح صاحب الحق فى كتاب بتقديم مثل تلك المنتجات والخدمات.

وبينما تتعلق تلك الصفقة بالكتب المخزنة رقميا فى الولايات المتحدة فقط، فإن «جوجل» تعتقد بشدة أن نفس الفرص للمستخدمين وأصحاب الحقوق يمكن أن تنجح فى دول أخرى كذلك، وأنها سوف تتحدث إلى الناشرين والهيئات المؤسساتية المهتمة بتلك الاتفاقية. كما أننا نعتقد أيضا أن سجل حقوق الملكية الفكرية للكتب قد يشكل مصدرا هاما للمعلومات التى يمكن أن تفيد جهودا أخرى لتخزين الكتب رقميا وإن كانت غير متصلة بـ «جوجل».

فى النهاية، من المهم أن نلاحظ أن عرض جميع الكتب المتمتعة بحقوق الملكية الفكرية والتى ساهم بها المشاركون فى برنامج الشراكة سوف يبقى بلا تغيير. فسوف يستمر المستخدمون فى الولايات المتحدة وخارجها فى رؤية عرض محدود لأعمال برنامج الشراكة مع إمكانية النقر إلى موقع الناشر أو موقع البيع بالتجزئة وشراء الكتاب. وبالمثل، لا تؤثر هذه الاتفاقية على الكتب التى لم تعد تطبع، والتى ستظل متاحة للمستخدمين مجانا وبالكامل.

بالنسبة لأولئك الذين يمتلكون أو يعتقدون أنهم ربما يمتلكون مصالح تتعلق بحقوق الملكية الفكرية فى الولايات المتحدة، فهناك مزيد من المعلومات حول الاتفاقية على موقع تسوية المطالبات http://books.google.com/booksrightsholders.

كما يمكن الحصول على مزيد من المعلومات العامة للمستخدمين على هذا الموقع http://books.google.com/agreement.

الجزء الثاني

لدي اعتقاد راسخ بأن إقامة دولة فلسطينية في الضفة وغزة سيخدم مصالح الولايات المتحدة في المنطقة/ غلبة الدين تعكس إخفاق الخطاب الاشتراكي في التكيف مع احتياجات الجماهير العربية./ أعتقد أن كراهية الإسلام مؤشر على الأزمة التي تعيشها قوى اليسار في أوروبا/ لدى الجاليات المسلمة في فرنسا، ثمة عودة حقيقية إلى الإسلام تتسم بأنها أعمق فكرا وأكثر تنظيما/ بسبب طارق رمضان

ألان جريش: «صديقي المصرى تحول من الشيوعية إلى الإخوان المسلمين»

قام اليسار الراديكالي بمقاطعتي/ أعتقد أنه من المهم أن يعلم المسلمون أن المرء قد يكون بلا ديانة، ولكنه يبقى مع ذلك قادرا على أن يكون متفقا معهم./ الناس في مصر لم يعد لديهم إلا فكرة واحدة، هي السعي إلى الهجرة.. وذلك يعني غياب الأمل/ أنا أعتقد أنه يجب فتح المجال أمام الإخوان المسلمين لكي يصلوا إلى الحكومة

حوار: داليا توفيق سعودى

في العدد الماضي من «وجهات نظر» نشرنا الجزء الأول من هذا الحوار المطول والمعمق مع «ألان جريش» نائب رئيس مجلس إدارة «لوموند ديبلوماتيك»، ورئيس تحريرها لسنوات عديدة. في الجزء الأول، أجاب الكاتب اليسارى المتميز على أسئلة تناولت بالأساس الصراع العربي الإسرائيلي: لماذا لايفهم المثقفون العرب إسرائيل؟ لماذا صوت الفلسطينيون لصالح حماس؟ لماذا يتحيز الغرب لإسرائيل؟ و لماذا ابتليت المنطقة بكل هذا التطرف؟

في الجزء الثاني من الحوار الذى ننشره هنا، يتحدث جريش عن قضايا المسلمين فى أوروبا، وعن أزمة اليسار الفرنسي، وعن المشكلات التى جلبتها له علاقته بطارق رمضان. كما يعرض رأيه فى الإخوان المسلمين، ومستقبل النظام فى مصر. وهذا نص الحوار

المحــــرر

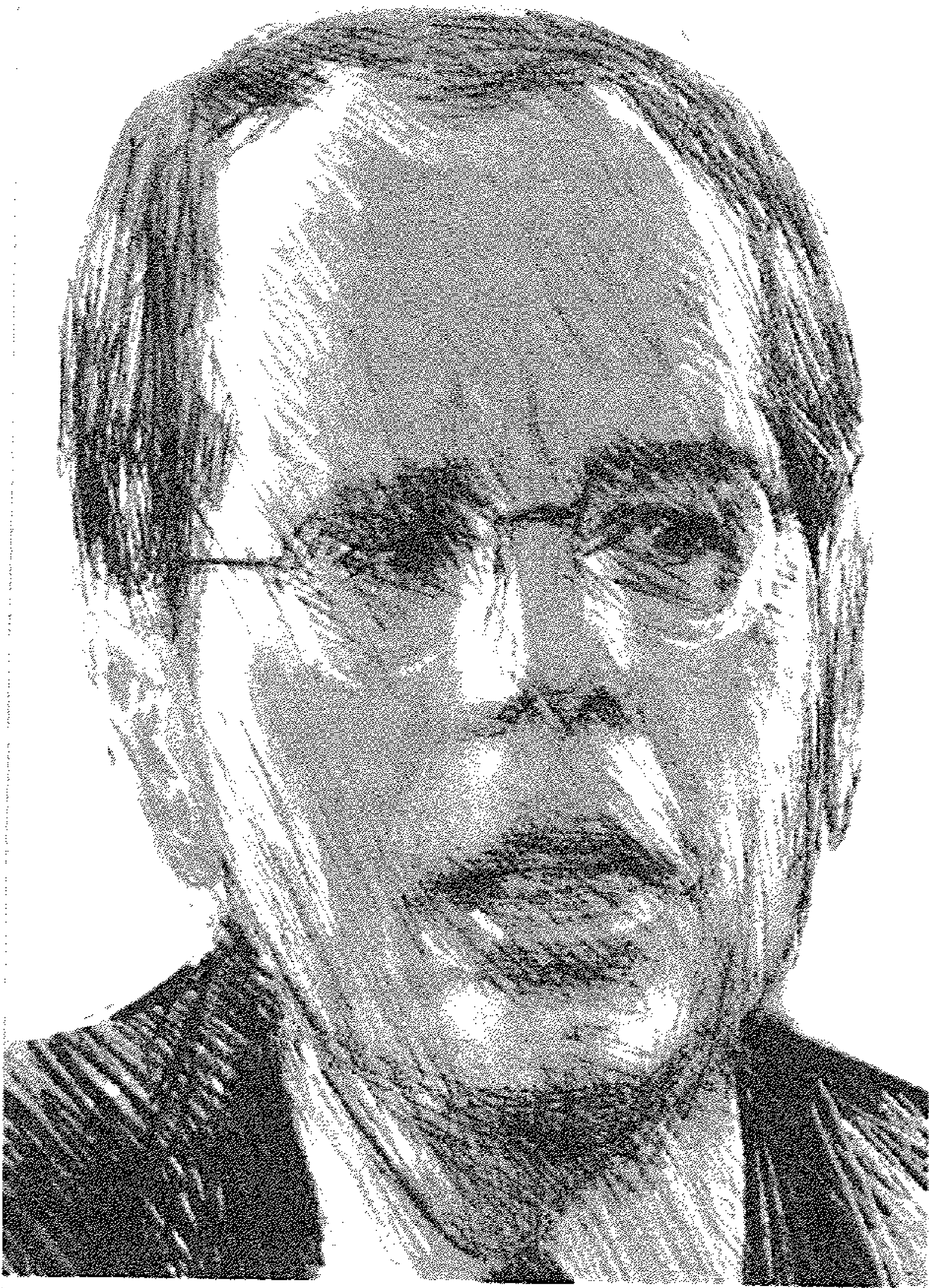
■■ فى كتابه «آخر محرمات أمريكا» (America's last taboo)، تحدث ادوارد سعيد عن الصهيونية الأمريكية، بوصفها عنصرا متجذرا فى السياسة الأمريكية. فهل هناك أى تغيير فى هذا الوضع مع وصول الرئيس أوباما إلى الحكم؟ هو سؤال روتينى نطرحه كلما أتى رئيس جديد إلى البيت الأبيض..

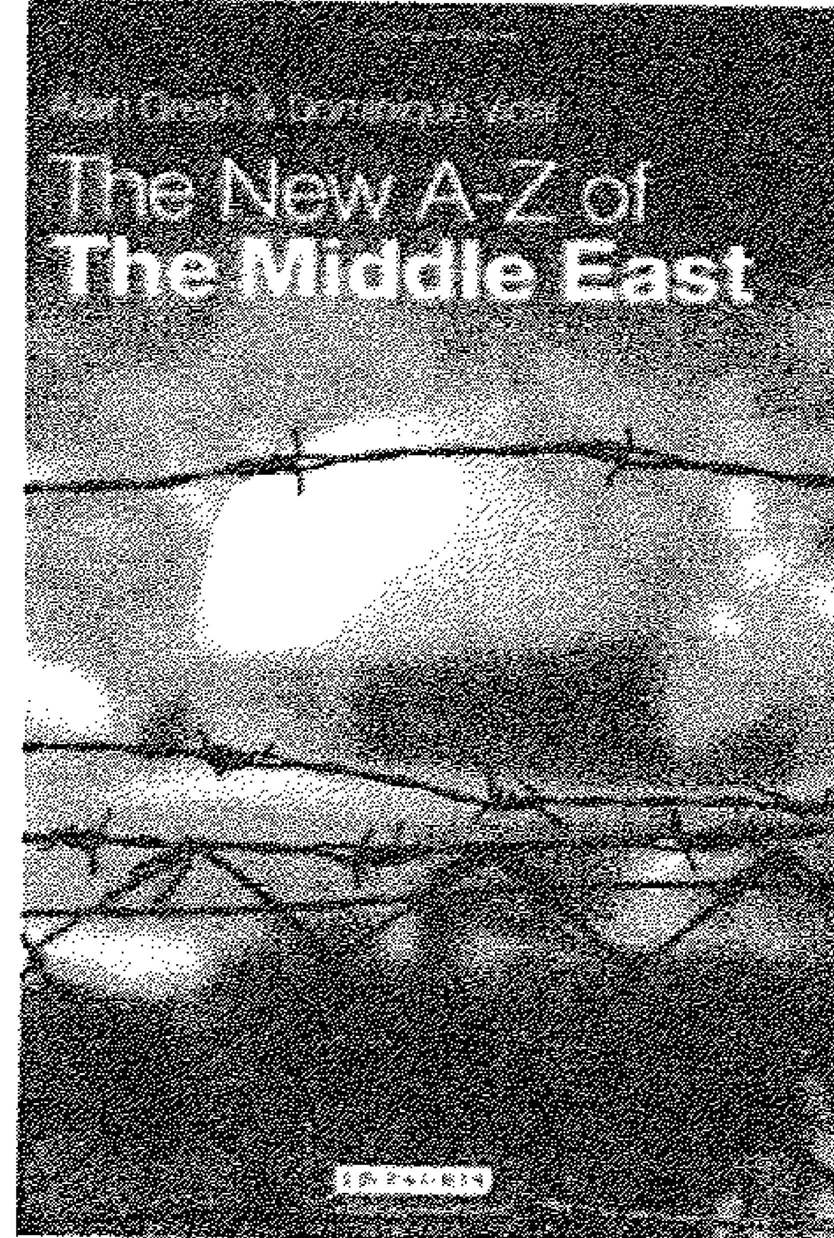
لو كان السؤال عن تغير جذرى، فالإجابة هى «لا»، بلا أدنى شك. ولكن إذا كان السؤال عن تعديلات فى المسارات، فهذا ممكن. فلقد قدمت الإدارة الأمريكية الأخيرة دعما لا مثيل له لسياسة إسرائيل المعتدية، أحسب أنه سيكون هناك عدد من التغيرات مع مقدم الإدارة الجديدة، وإن لم تكن تغييرات كبيرة برأيى، لم يتعرض التحالف الاستراتيجى القائم بين أمريكا وإسرائيل منذ قرابة ثلاثين عاما للاهتزاز. مع ذلك، ثمة أصوات فى المجتمع الأمريكى بدأت تتساءل بشأن هذا التحالف، وبشأن نوعية السياسة التى يجدر بأمريكا تأييدها فى إسرائيل.

منذ زمن طويل، وأنا لدى اعتقاد راسخ بأن إقامة دولة فلسطينية فى الضفة وغزة سيخدم مصالح الولايات المتحدة فى المنطقة. و لكن، يبقى ذلك مطلبا صعبا لأن الأمريكيين لا يملكون فى أيديهم زمام كل شيء. فالسياسة الأمريكية نفسها منقسمة، والسياسة الإسرائيلية أيضا منقسمة، والعالم العربى منقسم، والفلسطينيون منقسمون. كل ذلك لا يسهل التوصل إلى السلام وإلى إقامة دولة فلسطينية.

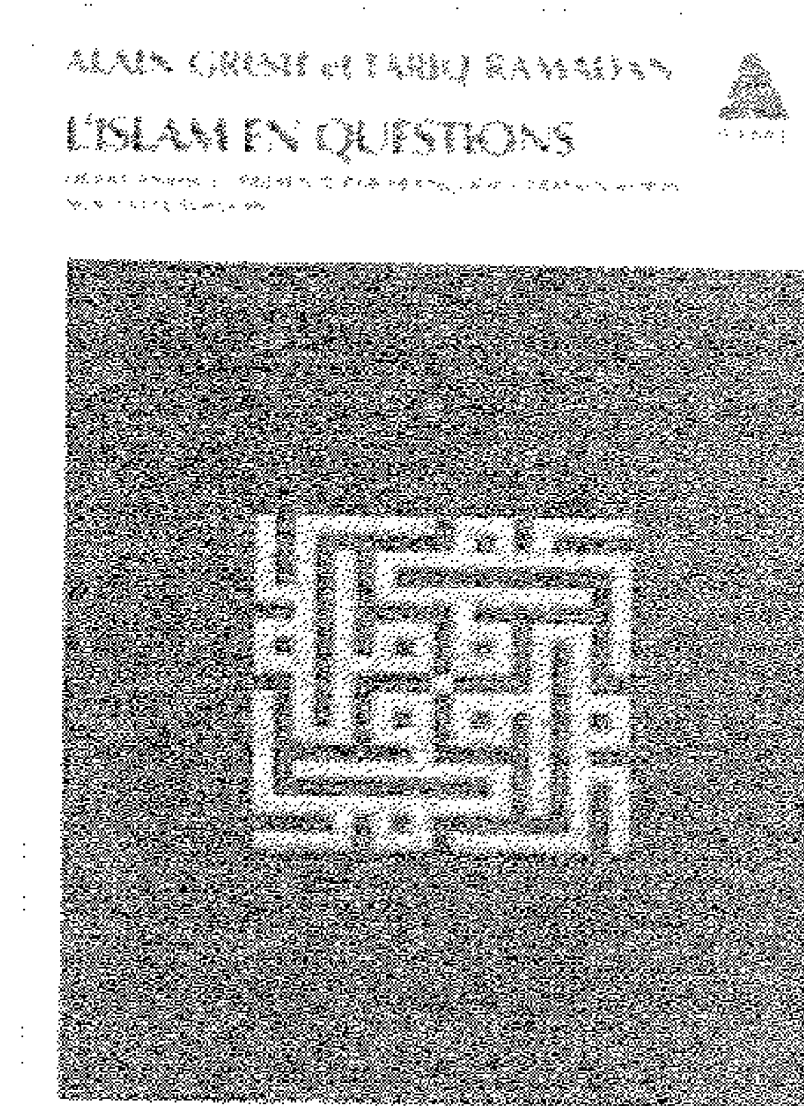
هل سيشهد عصر أوباما عودة إلى ما يسمى بـ«القوة الهادئة أو اللينة» أو (The Soft power)؟ التى يمكن تعريفها على أنها نشر للنموذج الأمريكى، بإعمال خليط محكم من الجاذبية والإقناع والنشاط الدبلوماسى؟ أم أن اللحظة الراهنة أشد «قساوة» من أن تتقبل سياسة «لينة»؟

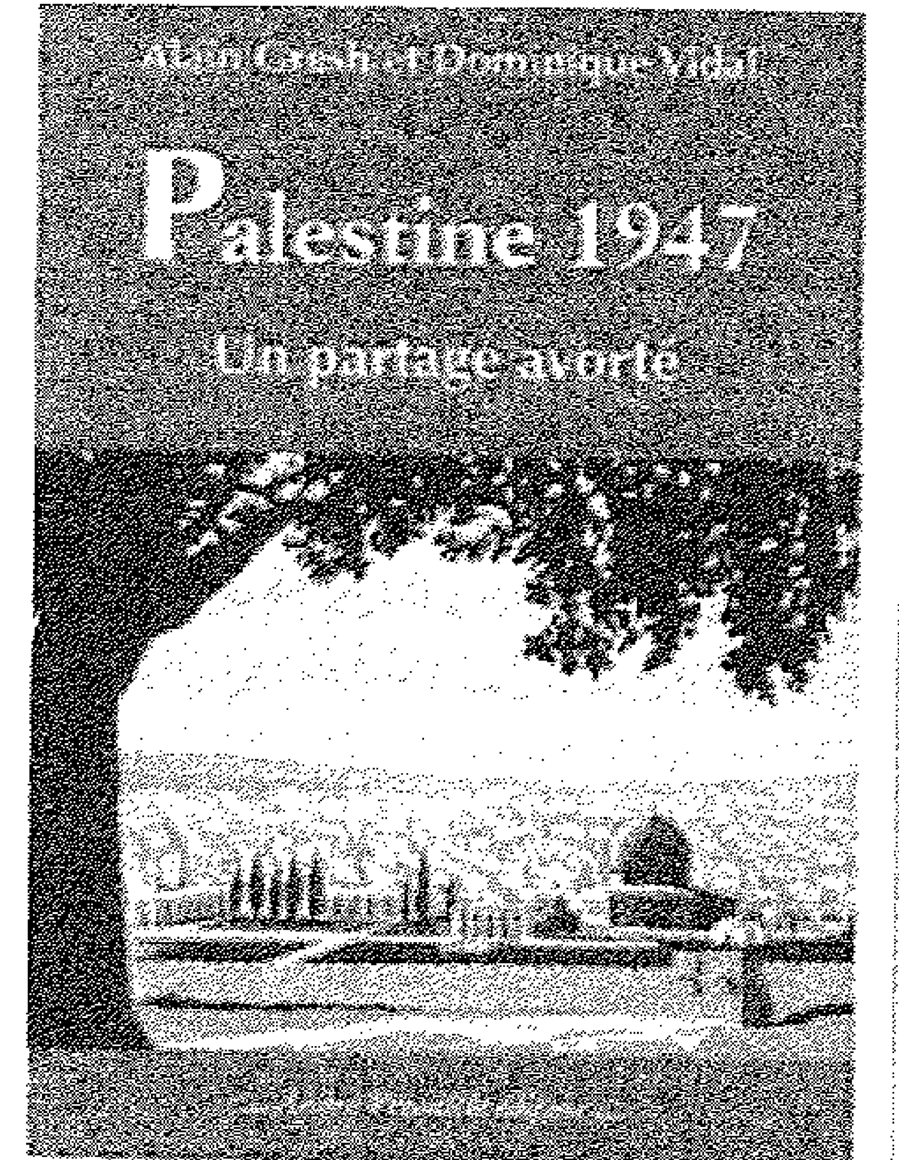
من الأكيد أن أوباما يتمتع بمزية











لم تتأت لبوش فى أى وقت من الأوقات، آلا وهى الشعبية الدولية الجارفة. فى فرنسا مثلا، لو أجريت استطلاعات للرأى، فسيصوت أكثر من ٨٠٪ من الفرنسيين لصالح أوباما. لذا فهو سيبدأ عمله وهو محمل برصيد كبير من الثقة، وهو ما يوسع من آفاق نجاحه بصورة كبيرة. و لكن هل سيترجم ذلك على أرض الواقع؟ هذا ما سنعرفه مستقبلا.

أما فيما يتعلق بسؤالك عن النموذج الأمريكى فى هذه اللحظة العصيبة، فالمشكلة التى تواجه هذا النموذج حاليا هى ركائزه الاقتصادية، لأنها هى التى تهزه بعنف الآن. فما يهتز اليوم ليس مجرد النموذج الذى خلفه بوش، بل هو ذلك النموذج الأمريكى الذى تم إرساؤه منذ عهد ريجان، والذى استمر مع كل من تبعه من الرؤساء سواء الديمقراطى منهم أو الجمهوريين. ذلك النموذج القائم على خلق نوع من السوق الحرة، ورؤوس الأموال الحرة، مع مضاربة منفلتة، ليهتف معها أرباب هذا النظام قائلين: «ها نحن صرنا أغنياء، أغنياء بلا حدود...».

إن ما يشهده اليوم النظام الرأسمالى من انهيار تام، وما تشهده «وول ستريت» من أفول- ذلك الرمز الراسخ للسيطرة المالية الأمريكية على العالم - سوف يضعف حتما النموذج الأمريكى. وإن كان أوباما- كما أسلفت- يبدأ برصيد إيجابى للغاية.

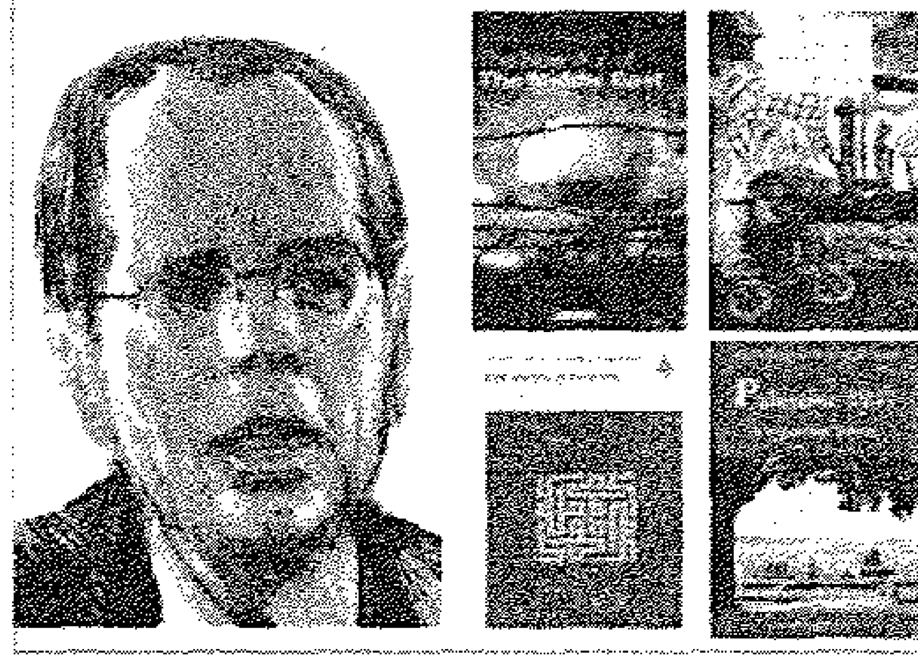
● *عصر «ما بعد أمريكا»، مفهوم روج له فريد زكريا فى كتابه الذى حمل الاسم نفسه، فهل توافقه الرأى؟*

- نعم، أعتقد أنه محق تماما فيما ذهب إليه. الكتاب تم تأليفه قبيل الأزمة. وأظن أن ما يقوله من أفكار سيزداد عسرا بسبب تلك الأزمة التى لا يعلم أى منا ما ستكون عواقبها. لكن زكريا ينطلق فى كتابه من وجهة النظر الأمريكية دون غيرها، ليتساءل حول الوضعية المثلى التى يجدر بالولايات المتحدة اتخاذها للحفاظ على هيمنتها على العالم. لكن ما يقوله صحيح إلى حد بعيد. فالمؤكد إننا ندخل فى حقبة يضم فيها العالم عدة مراكز للقوة. بالطبع، ستظل الولايات المتحدة لفترة طويلة هى القوة المهيمنة، ولكن سيكون هناك من حولها قوى أخرى كالصين، وروسيا، والهند، والبرازيل. هذه الدول لن تتبع سياسة مواجهة مع أمريكا. إذ لن نشهد عودة إلى الحرب الباردة. ولكن سياساتها ستتجه إلى حماية مصالحها الوطنية. وفى حال تعارض مصالحها مع المصالح الأمريكية، فسترجح تلك الدول كفة مصالحها، كما فى حالة روسيا فى جورجيا، أو الصين والتبت، أو أيضا الصين وتايوان.

كما أن هناك انقلابا اقتصاديا مهم فى العالم. فاليوم، صارت آسيا المركز الرئيسى للإنتاج الاقتصادى. ومن ناحيتى أرى أننا نعيش الآن نهاية الهيمنة الغربية، وليس فقط، نهاية الهيمنة الأمريكية كما يقول زكريا. بمعنى أننا نشهد ختام عقدين كان العالم فيهما تحت سيطرة الغرب وحده، وكانت بقية القوى كلها غير واقعة فى الحسبان. أما اليوم، فنحن نتجه نحو عالم لا يتسم فقط بأنه متعدد الأقطاب، وإنما سنرى فيه صعود دول كانت مستعمرة فى الماضى لتحتل الصف الأول مثل الهند.

● *هل سيكون هذا العالم الجديد أكثر توازنا؟*

- ليس بالضرورة. فقد يصبح أكثر فوضوية، لاسيما أن المواجهة الأيديولوجية ستكون غائبة. إبان الحرب الباردة، لم يكن العالم يعانى من الفوضى، كانت المواجهة قائمة، ولكن، إجمالا، كان كل من اللاعبين الرئيسيين يعرف حدوده جيدا. فى عالم متعدد الأقطاب، لن توزع الأدوار الرئيسية على الدول وحدها، ولكن سنرى أيضا القوى المالية، ورؤوس الأموال، والجماعات المسلحة، وكبرى وسائل الإعلام من الجزيرة إلى CNN، والمافيا، الخ.. وهنا لا يمكن التكهن



بالمسار الذى يمكن أن يتخذه مثل هذا العالم . فبالفعل، يمكن أن يفقد عقله وأن يسير نحو المزيد من التشوش.

الأمريكيون لا يسعهم أبدا أن ينظروا لبلدهم على أنه بلد عادى. فهناك اقتناع راسخ بين النخب الأمريكية بأنهم ليسوا كسائر الشعوب، وبأن الله قد اختارهم، وبأن ثمة مهمة كبرى عليهم أن يقوموا بها، وبأنهم يقومون بمهمتهم تلك على الوجه الأمثل. والآن، أعتقد أن القيادة الأمريكية الجديدة ستتفهم موازين القوى بصورة أفضل، وستحسب حساب مصالح الآخرين بصورة أفضل، وستكف عن الاعتقاد بأن مصالح الآخرين شر مطلق . إذن، أرى أنه سيكون هناك توجه نحو شىء من الواقعية، وهنا أحد التحديات التى سيواجهها الرئيس أوباما.و على كل حال، لم يعد أمامهم خيار آخر، لأنه بات من المستحيل مواصلة سياسة بوش، إذ لم يعد لديهم نفس الإمكانات العسكرية، ولا الإمكانات الاقتصادية، فهى سياسة مأزومة فى أفغانستان وفى العراق.

الإسلام والغرب

● فى عالم اليوم، يبدو أن الدين قد حل محل الأيديولوجية. فبم تفسر ذلك؟

- فى العالم العربى، ثمة تأكيد أكبر لأهمية الدين. وهنا من الواضح تماما أن التعثر الذى شهدته إيديولوجيات كالقومية العربية، والبعثية، والناصرية، والشيوعية، وكل تلك الأفكار «العلمانية »، قد خلف فراغا كبيرا، بينما الشعوب مازالت مأزومة. بهذا المعنى يمكن للدين أن يقدم إجابة شافية للشعوب. ولكنه أيضا قد يمثل صورة للانغلاق على الذات.فمثلا، فى المخيمات الفلسطينية فى لبنان، تتراءى تلك المشكلة، حيث الناس يقعون تحت وطأة كم هائل من الضغوط، فيتحول التدين إلى مزيد من الانغلاق على الذات.

ومن ناحيتى، أرى فى ظاهرة التدين أيضا ملمحا ثقافيا. فبصورة ما، أرى فى ظاهرة انتشار الحجاب فى القاهرة نوعا من رفض الهيمنة الثقافية الغربية. بمعنى رفض لهؤلاء الناس الذين يريدون أن يفرضوا أزياءهم، ونمط حياتهم، وأسلوب تفكيرهم.

و قد يكون الالتجاء إلى الدين اختيارا لا علاقة له بالسياسة، بوصف الدين وسيلة لمقاومة صعوبات حياة صارت بالنسبة للبعض لا تطاق.

ولكن ما من شك أن غلبة الدين تعكس إخفاق الخطاب الاشتراكى أو الشيوعى فى التكيف مع احتياجات الجماهير العربية. لى صديق مصرى:



تحول من الشيوعية إلى الإخوان المسلمين، قال لى فى حديث إنه فى الماضى كان يضطر فى بداية محاضراته الشعبية لتخصيص نصف ساعة لشرح من هو ماركس وما هو فكره، أما الآن-كما يقول- فلم تعد هناك حاجة للشرح طالما هو يتحدث باسم الدين، وهو يتناول نفس القضايا عن العدالة الاجتماعية وغير ذلك. كان ماو تسى تونج يقول: «ينبغى إلباس الماركسية ثوبا صينيا». وبالمثل، كان هنرى كورييل يقول: «ينبغى إلباس الماركسية ثوبا مصريا».و هو ما لم تتمكن الحركات اليسارية من تحقيقه فى العالم العربى.فهناك إذن كل تلك العوامل التى اجتمعت لتجعل للدين دوراً أكبر فى حياة الناس فى هذه المنطقة.

● كيف تفسر أن فرنسا، التى عارضت بشدة غزو بوش للعراق، قد كونت كل هذا القدر من مشاعر كراهية الإسلام تحت تأثير النظرية الأمريكية لصدام الحضارات؟ فكيف يمكن رفض حرب مع الاعتراف بمسوغاتها الفكرية؟

- بالنسبة لمسألة العداء للإسلام، أنت محقة تماما فى الإشارة إلى هذا التناقض.و هو تناقض من الصعب تفسيره، وإن كنت أعتقد أن هذا الوضع لم يتم «تحت تأثير نظرية صدام الحضارات» المباشر. أعتقد أن كراهية الإسلام مؤشر على الأزمة التى تعيشها قوى اليسار، فى فرنسا كما فى بلدان أوروبا عامة.بالنسبة لى، أكثر ما أدهشنى، هو موقف الحزب الاشتراكى فى فرنسا، الذى لعب دور المحرك فى قصة استصدار قانون ضد الحجاب. ولقد بدأ ذلك فى مؤتمر للحزب عام ٢٠٠٣، حيث رأينا لوران فابيوس، الرجل الثانى فى الحزب، يخصص جل خطابه للحديث عن العلمانية. وأرى أن الحزب الاشتراكى الفرنسى قد صار حزبا مجردا من الأيديولوجية، وبالنسبة للمسائل الاقتصادية نراه يقترب كثيرا من اليمين. واجتماعيا، صار حزبا للطبقة الوسطى. ولقد كانت العلمنة دوما فى فرنسا شعارا لليسار. لذلك حين يعاود الحزب رفع هذا الشعار اليوم، فهو بذلك يحاول استعادة هوية يسارية آخذة فى الأفول.

لكن مشكلة العداء للإسلام أكثر شمولية، إذ تحمل وجهين متلازمين: وجه داخلى متعلق بمشكلة المهاجرين، وآخر دولى استتبعته أحداث الحادى عشر من سبتمبر. ولقد ذكرت فى كتابى «الإسلام والجمهورية والعالم»، أنه فى أعقاب هجمات سبتمبر، هرع الناس إلى المكتبات لشراء المصاحف. فكان رد فعلى الأول هو أننى وجدت ذلك أمرا جيدا. ولكننى استدركت متسائلا: ما الذى سيبحث عنه الناس فى القرآن؟ أيحسبون أنهم سيجدون بين آياته ما يفسر أحداث برجى التجارة؟

● برأيك، هل ما يسمى بـ«الخطر الإسلامى» أمر حقيقى الوجود، أم أنه وهم من الأوهام التى صنعها الغرب؟

- بالطبع هو غير موجود. فحينما يقال لنا إننا نخوض حربا عالمية ثالثة، وإننا بعد أن هزمنا النازية والشيوعية، يجب علينا أن نهزم الجماعات الإسلامية الإرهابية، ينسى من يقولون هذا أن يعرفوا لنا من الذى يقف وراء هذا«الخطر الإسلاموى». فالنازية كانت وراءها ألمانيا الهتلرية التى كانت واحدة من القوى العالمية فى زمانها، والشيوعية كان وراءها الاتحاد السوفيتى والصين. ولكن من الذى يقف وراء «التهديد الإسلاموى»؟ بالنسبة إلى، ليس هناك إسلام واحد.بمعنى أننا لا نستطيع أن نضع فى خانة واحدة إيران، وطالبان، والإخوان، ونقول إنهم جميعا يمثلون إسلاما واحدا.

وهناك أمر مهم فى موقفى، فأنا لا أتحدث عن صحيح الإسلام، لأن التعريف بصحيح الدين يقتضى أن أتحدث من داخل هذا الدين، لكى أستطيع الدفاع عنه، وهذا ليس موقفى. ولكن ما أقوله هو أن هذا الخطر الإسلامى المزعوم لا وجود له. لأنه ببساطة صناعة أمريكية.فمنذ التسعينيات، كان هناك من رجال الفكر السياسى فى أمريكا من يجتهدون فى اختلاق هذا العدو البديل. وأعتقد أن أجهزة العسكرية والشرطة هى المستفيد الأول من وجود هذا العدو. لأنه فى غياب العدو لن تحصل هذه الأجهزة على حصتها الهائلة من التمويل من ميزانية الدولة. بالطبع هذا التفكير لا يتم بشكل واع ولكنه موجود. فهذا النوع من المؤسسات يحتاج لهذا النوع من التفكير لكى يبرر وجوده.

● لماذا يشهد إدماج المهاجرين المسلمين فى المجتمع الفرنسى نوعا من الإخفاق؟

هذا الخطر الإسلامى المزعوم لا وجود له. لأنه ببساطة صناعة أمريكية. فمنذ التسعينيات، كان هناك من رجال الفكر السياسى فى أمريكا من يجتهدون فى اختلاق هذا العدو البديل

. لا نستطيع القول بأنه قد أخفق تماما. فهناك الكثير من المسلمين الذين ينجحون تماما فى الاندماج. ولكن صحيح أن ثمة نوعا من تكون الجيتوات المسلمة فى فرنسا. وتزداد هذه الظاهرة بروزا بسبب عدم وجود أى تعبير سياسى عنها. فنحن لا نرى فى الأحزاب السياسية أو النقابات أية وجوه تنتمى إلى هذه الفئة من المهاجرين، فيما عدا استثناءات نادرة. وعلى العكس، شهد الاتحاد العام للعمل على مر تاريخه فى فرنسا كثيرا من البولنديين والإيطاليين واليهود القادمين من وسط أوروبا، والذين لعبوا جميعا دورا هاما فى العمل النقابى. وكان ذلك راجعا إلى سبب بسيط، هو أن إدماج هؤلاء المهاجرين تمت عبر العمل العمالى. ولكن العمل العمالى هذا قد تم تدميره بدءا من السبعينيات. ففى ٦٨، كان الرمز الأكبر لليسار هو مجموعة «رينو بيانكو» (Renault-Bianco) ذات الثلاثين ألف عامل. أما اليوم فلا وجود لذلك. فاليوم أكبر مصنع فى فرنسا لا يضم أكثر من ستة آلاف عامل، معظمهم موظفون، أما مصانع السيارات فتقوم على التعاون مع مصانع صغيرة تتكون كل منها من ١٠ إلى ٢٥ عاملا، ومن الصعب جدا إدماج المهاجرين فيها. إذن لم يعد هناك تلك الهياكل الاجتماعية والسياسية التى كانت تتيح للعمالة المهاجرة الاندماج فى المجتمع.

● *هل الإسلام سلاح موجه ضد العلمانية الفرنسية؟*

ـ لا، إطلاقا. فهذا الادعاء يندرج أيضا فى إطار البحث عن عدو افتراضى أو عن كبش فداء للتضحية به فى موقف الأزمة. ففى ختام كتابى «الإسلام والجمهورية والعالم»، أقول أننا نعانى اليوم فى فرنسا من أزمة فى إيجاد هوية وطنية. بمعنى أننا نواجه صعوبة فى تعريف من هو الفرنسى. فلفترة طويلة للغاية، كان ذلك يعنى الانتماء إلى دولة قوية عدوها هم الألمان. أما اليوم، فالوضع قد تغير. إذن يعد إيجاد العدو المشترك بمثابة تقوية للهوية الوطنية. ولكن، مرة أخرى: فى فرنسا، التهديد الإسلامى لا وجود له.

إذن من المفترض ألا تكون هناك مشكلة...

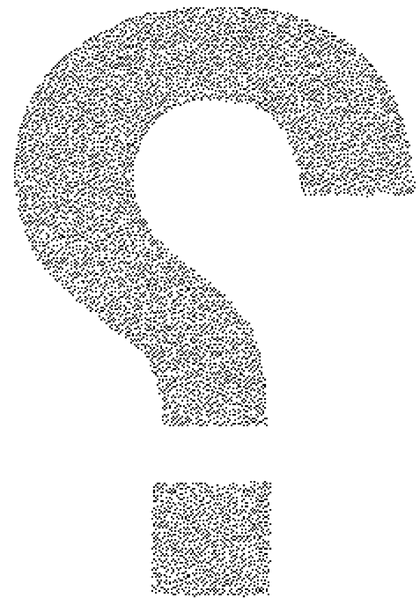
نعم، ولكن هناك عاملا تجدر الإشارة إليه: فى الجاليات المسلمة فى فرنسا، لاسيما الأجيال الجديدة منها، ثمة عودة حقيقية إلى الإسلام. فلقد كان آباؤهم، القادمون غالبا من أوساط شعبية جدا فى بلدانهم، يمارسون الإسلام بصورة مبسطة للغاية. لكن اليوم هناك ممارسة للإسلام تتسم بأنها أعمق فكريا وأكثر تنظيما، سواء بين أرجاء «اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا»(UOIF) أو فيما بين الإخوان المسلمين. إجمالا، ثمة ممارسة أكثر تنظيمية وأكثر وضوحا للدين الإسلامى فى فرنسا. وهو أمر يثير صدمة لدى الفرنسيين لكون كل هؤلاء الشباب المسلمين الصغار قد تلقوا تعليمهم فى المدارس الحكومية، ومن المفترض أنهم قد شبوا على قيمها، ولكن لا أحد يفهم سر تمسكهم بالدين. فعلى سبيل المثال، بالنسبة للحجاب، كان مفهوما أن تأتى الجدات فى الماضى بحجابهن، ثم كان أن خلع جيل الأمهات الحجاب لدى استقرارهن فى فرنسا، ولكن ها نحن اليوم نرى البنات الصغيرات اللاتى يعتبرن فرنسيات ١٠٠٪، واللاتى تعلمن بمدارس الجمهورية، يقررن ارتداء الحجاب. وهذا ما لا يستطيع الفرنسيون فهمه.

● *ما هى التكاليف التى تَوَجّب عليك دفعها نظير شراكتك الفكرية مع الأكاديمى الإسلامى طارق رمضان؟*

ـ كانت بالفعل تكاليف باهظة للغاية. فلقد خلق هذا التعاون تجاهى عداء ونبذاً يفوق ما أصبت به من جراء موقفى المؤيد للقضية الفلسطينية، لأن قسما من اليسار، لاسيما اليسار الراديكالى قد قام بمقاطعتى. وأنا أقول دائما ألا مشكلة فى أن يهاجمك أعداؤك ولكن حينما يهاجمك أقرباؤك وأخلاؤك فتلك مشكلة حقيقية. إذن هناك بالفعل ثمن باهظ سددته وما زلت أسدده، ولكنى غير نادم. فهكذا الحياة.. «C'est la via».

● *طارق رمضان، ما رأيك فى مشروعه؟*

ـ لا أعتقد أنه يسعنى الحديث عن «مشروعه» بقدر ما أفضل الحديث عن «خطابه». إذ أرى أن خطابه يقوم على أساس محاولة إعادة قراءة الإسلام انطلاقا من الواقع الذى يعيشه المسلمون فى أوروبا. وأعتقد أن هذا أمر إيجابى جداً، لأن خطابه يأخذ جيدا فى الاعتبار أهمية القضايا الاجتماعية، وأهمية القضاء على المظالم، سواء على المستوى الدولى، مثلما فى حالة القضية الفلسطينية، أو على المستوى الداخلى. إن خطابه يبعث فى نفوس شباب المسلمين الشعور



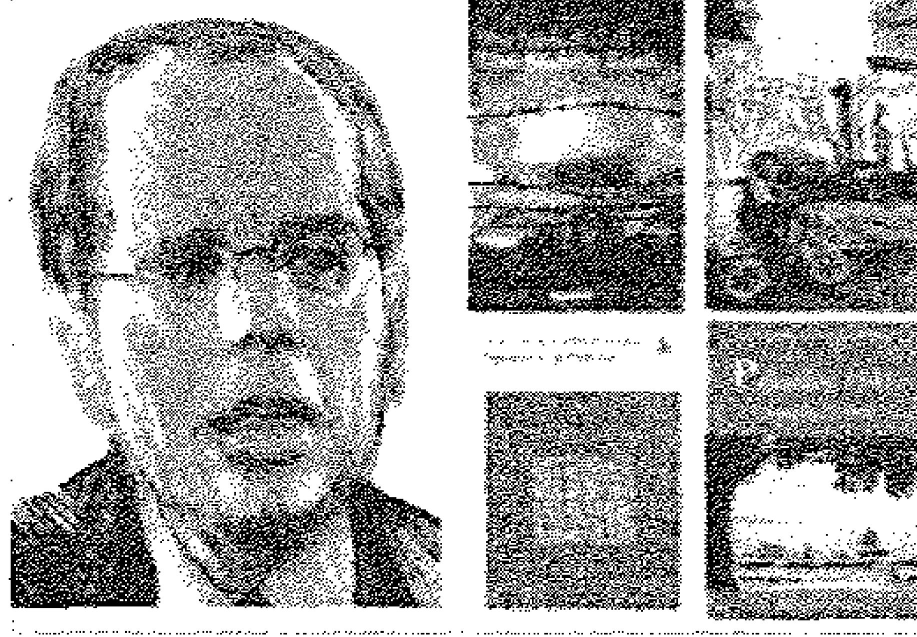
بالفخر لأنهم مسلمون، فهو يعيد إليهم الثقة فى أنفسهم، فى وقت يعانون فيه من مشكلة حقيقية داخل مجتمع يكن لهم قدرا لا بأس به من الازدراء. رمضان يتمتع بتلك القدرة على المحاورة، ومقابلة الحجة بالحجة، بقوة وثبات، وهو ما يخلق تواصلا كبيرا بينه وبين الشباب.

● *ما هى العوامل التى تقرب بينكما إلى الحد الذى يجعل خطابيكما بمثل هذا التجانس الذى بدا من خلال كتابكما المشترك «الإسلام فى أسئلة»؟ يعنى: ما الذى يجمع بينكما، وهو حفيد الشيخ حسن البنا، وأنت ابن هنرى كوريل مؤسس الحزب الشيوعى فى مصر؟ ألا ترى حجم التناقض؟*

ـ بل هو هذا التناقض الذى دفعنى إلى أن أعرض عليه فكرة الكتاب، لأنى وجدت فى ذلك عامل جذب للقارئ. ولكن ثمة أسبابا أخرى. فلقد كانت لنا تجربة سابقة فى العمل معا من خلال إحدى اللجان التى لعبت دورا مهما فى فرنسا وكانت تسمى بلجنة «الإسلام والعلمانية». كانت تلك أول لجنة تعنى، منذ بداية التسعينيات، بمسألة إدماج الإسلام فى فرنسا، كديانة أولا، بمعنى أنها بدأت بالنظر فى المشكلات المرتبطة بالدين، مثل توفير اللحم الحلال، والعمل على بناء المساجد، إلخ. ثم ما لبثت أن تحولت شيئا فشيئا إلى لجنة تبحث فى إشكالية ما إذا كان هناك تضارب بين الإسلام والعلمانية من الناحية العقدية، وتناقش مشكلات المسلمين فى المجتمع، بعيدا عن الإطار الدينى. إذن أتيح لنا هذا النوع من التعاون المشترك الذى أوحى لى بفكرة الكتاب.

ولكن صحيحا أن التناقض الذى أشرت إليه كان عاملا أساسيا فى بلورة الحوار بيننا. وفى الكتاب، تجدين أن النقطة التى ظهر عندها خلافنا الأكبر هى عندما تحدثنا عن مصر الناصرية. ففيما يتعلق بتحليل أوضاع النظام المصرى اليوم، لا خلاف تقريبا بين رؤيتى ورؤيته. ولكن عاطفيا، حينما يتعلق الأمر بعبد الناصر، يتضح حجم التباين بيننا، فهو قد ولد فى ٦٢ خارج مصر، ولم يعرف عبد الناصر، وإنما بقى له من عهده ذكرى المنفى، وسجن الأهل، والتعذيب، أما أنا فقد عاصرت حرب السويس، ونهاية عهد الاستعمار فى مصر، وأحداث تلك الفترة الغنية..

ولكن ما يهمنى فى جدالى مع طارق رمضان هى المسائل السياسية، فعندما بدأنا قلت له لن نتناقش فى الدين، فهذا أمر لا يهمنى. فالدين ليس ـ و لم يكن يوما ـ عاملا يقربنى أو يبعدنى من كائن من كان. فأثناء حرب الجزائر، كنت أرى أن أى قس يساعد جبهة التحرير



الوطنية الجزائرية خير وأقرب إلى نفسى من ملحد يساند فكرة «الجزائر فرنسية». فما يشغلنى هى القضايا الدولية، ومسألة العدالة الاجتماعية، الخ. وفى فترة حوارى مع رمضان كنت منشغلا بدمج المكون الإسلامى فى حركة التفاعل العالمى، ولازلت أعتقد أنه أمر هام، فبمثل ما توجد منظمات مسيحية ويهودية مشاركة فى هذه الحركة، يجب أن تكون بها أيضا منظمات إسلامية.بالنسبة لى هذا هو مغزى حوارى مع رمضان.

● *البعض يتهمك بتزويد الحركات الإسلامية بغطاء أو ضمانة تقدمية وعلمانية. فما رأيك فى مثل هذا الكلام؟*

ـ هناك طريقتان لتوجيه هذا الاتهام إلىّ، هذه إحداهما، والأخرى حين يقال لى: «أنت تساعد رمضان على استغلالك والتلاعب بك». وطريقتى فى الرد هى أن أقول: «إن كان رمضان يتكلم معى فهذا أدعى إلى أن يفقد هو الثقة، لا أن أفقدها أنا». فأنا ملحد.و لقد أكدت ذلك فى حواراتى معه كثيرا أمام جمهور من المسلمين، لأننى أعتقد أنه من المهم أن يعلم المسلمون أن المرء قد يكون بلا ديانة، ولكنه يبقى مع ذلك قادرا على أن يكون قريبا منهم، أو متفقا معهم. وأرى أيضا أن رمضان حين يتكلم معى أو مع اليسار بوجه عام، فهو يعرض نفسه لهجوم من بعض التيارات الإسلامية. وإلى كل من يقول إننى أزوده بضمانة أقول: «أنتم تقولون إنه متطرف، فهل يحتاج المتطرف لضمانة يكفلها له اليساريون؟ فهو لا يسعى أصلا لذلك.و أنا أرى أن اختلافى معه فى التيار الفكرى لا يكفل له ضمانة هو فى غنى عنها من الأساس. ولكن هذا لا يعنى أننى متفق معه فى كل شىء. ولكننى أحسب أن الحوار قيمة ايجابية لتطوير حياة البشر.و للأسف ينبغى أن أقول أن مثل هذا الحوار قد شهد فشلا فى فرنسا، ولكنه قد ينجح فى مكان آخر.

● *هل تشعر بأنك ورمضان قابعان معا فى نفس الخندق فى مواجهة نفس العدو؟*

ـ لا أستحسن كثيرا استخدام الاستعارة العسكرية. ولكن، نعم، لقد تواجدنا معا فى معارك عدة، حول فلسطين، وحول العديد من القضايا الدولية، إلى جانب القضايا الاجتماعية. وأعتقد أن الأمر عادة ما يكون أسهل حينما نتناول المسائل الدولية، لكون المسلمين - فى اعتقادى - لا يهتمون كثيرا بالمسألة الاجتماعية، لأن لديهم رؤية ترجح وحدة الأمة، وتجعلهم يرون أن الجميع يجب أن يكونوا معا أغنياء وفقراء.. و فى كلامى مع رمضان ذكرت له جملة قالها بومدين - و هو ما لم يرق له كثيرا لما يرمز إليه بومدين-، وهى أن «هناك



إسلام للأغنياء، وإسلام آخر للفقراء». فمن الواضح أنه ليست لدى التنظيمات الإسلامية تأملات حقيقية بشأن هذه المسائل المتعلقة بالعدالة الاجتماعية . وهو موضوع يهمنى كثيرا.

● *منذ تقديم لجنة «ستازى» مقترحاتها للحكومة الفرنسية قبل عدة سنوات،ازداد الجدل الدائر حول الحجاب بصورة كبيرة، لماذا برأيكم تثير هذه المسألة كل هذه الضجة فى فرنسا؟*

ـ مسألة الحجاب مسألة تثير حساسية شديدة جدا فى فرنسا. وللأسف لا يمكن القول بأننا قد أحرزنا تقدما منذ اشتعال هذا الجدل قبل بضعة أعوام. وهى تثير رد فعل علمانيا ورد فعل نسويا. وهذا الأخير أقل عقلانية وأشد حساسية.فالفرنسيات مقتنعات بأن الحجاب رمز لقهر المرأة. ويعد هذا الاتجاه فى رفض الحجاب أشد قوة من الاتجاه العلمانى. وهذا راجع إلى كون الناشطات النسويات يصدرن أحكامهن من دون سابق نقاش مع أية فتاة محجبة.لذلك يتصف خطابهن بأنه شديد التجريد. فالفكرة الراسخة لديهن هى أن الحجاب قرار يفرضه الزوج أو تمليه الأسرة على الفتاة. ولكن بالطبع هناك حالات تشبه هذا فى الواقع، حيث نجد نوعا من الضغط الاجتماعى فى محيط المرأة لكى ترتدى الحجاب.

ولكن من جانبى، أعتقد أن مسألة الحجاب هذه معركة زائفة.فالحجاب «يحجب»، فى واقع الأمر، المعارك الحقيقية، لأنه يستخدم لصرف الأنظار إلى أمور ثانوية، بدلا من التركيز على المشكلات الحقيقية، وعلى المعارك التى يراد إلهاء الناس عنها.

الحال فى بر مصر

● *صرح وزير الخارجية البريطانى، ديفيد ميليباند، بأن عام ٢٠٠٩، سيكون عام «التغيير». فهل ترى، فى ظل الوضع الحالى للأمور، أن ذلك «التغيير» سيصب فى مصلحة الشعوب العربية؟*

ـ ربما. الطريقة الوحيدة التى يمكن أن يحدث بها التغيير.هنا هو أن يكون «هدية من السماء».

يواجه العالم العربى نوعين من المشكلات: الأول هو الأزمات فى فلسطين، وفى لبنان، وفى العراق، الخ..حيث تحتل الأزمة الفلسطينية موقع الصدارة لكونها الأزمة المحورية، فمن المهم حلها لأنها تلقى بظلالها على الحياة اليومية للإنسان العربى. ولكن المشكلات الكبرى فى العالم العربى هى مشكلات داخلية تتعلق بالقدرة على إدارة البلد، وبشفافية الإدارة السياسية، وبتناوب السلطة، وبالتنمية الاقتصادية، وبإعطاء الشباب قدرا من الأمل وقسطا من التعليم الجيد. الانطباع السائد لدينا هو أنه - مقارنة بكافة مناطق العالم باستثناء إفريقيا- تعانى منطقة العالم العربى من عدم القدرة على الخروج من أزمتها طوال خمسين عاما مضت. وأرى أن النزاع الإسرائيلى الفلسطينى قد أفضى بصورة أو بأخرى إلى تيبس الأنظمة العربية وبقائها فى أماكنها، لهذا أظن أن التغيير الرئيسى الذى يجب أن يحصل هو التوصل إلى السلام لأن ذلك سيغير أشياء كثيرة فى المنطقة.

● *لو طلبتُ إليك عقد مقارنة بين مصر التى اضطررت أن ترحل عنها فى الستينيات، ومصر التى تتراءى لك اليوم. ماذا ستكون ملاحظاتك؟*

ـ أستطيع تلخيص الإجابة فى عبارة بسيطة، وهى اختفاء الأمل.

فى الماضى، كان بيتنا فى القاهرة يقع فى وسط البلد فى شارع سليمان باشا. كانت العمارات جميلة وأنيقة ولكل منها «بواب». وكان حارس عمارتنا - أو «البواب» - رجلا من صعيد مصر. واذكر فى تلك الأعوام الناصرية كم كان هذا الرجل البسيط فخورا لأن ابنه يتعلم فى الجامعة، فلقد كان هذا الأمر قبل ذلك بعشرين عاما ضربا من ضروب المستحيل. كان هناك نوع من الأمل فى تلك الفترة لدى أبناء الشعب بأنه سيكون هناك مزيد من العدالة، ومزيد من النمو والازدهار للوطن.أما اليوم، فالانطباع الذى بات لدى هو أن الناس فى مصر لم يعد لديهم إلا فكرة واحدة، هى السعى إلى الهجرة، إذ لم تعد هناك سوى حلول فردية لكل المشكلات، والدولة انسحبت تماما ولم تعد تنصت لمطالب وتطلعات الشعب لاسيما الشباب. وهذا وضع مؤسف يؤدى إلى انزواء الأمل.

● *فى مستهل كتابك «إسرائيل فلسطين: حقائق حول نزاع»، كتبت: «أحمل الشرق الوسط فى قلبى أينما ذهبت»، ولكن فى موضع آخر*

ألان جريش

التطورات التى تشهدها الجماعة (الإخوان المسلمون) إن لم تجد تعبيرا عنها من خلال انتخابات جديدة، فستعود بالجميع إلى خانة الصفر، وستجد البلد نفسها فى طريق مسدود. وهو ما قد يؤدى إلى مزيد من التطرف

نجدك تكتب: *«على الرغم من جنسيتى المصرية إلا أننى لم أشعر قط بأننى مصرى، واليوم لا يجرفنى الحنين إلى الماضى، ولا تطربنى أغنيات أم كلثوم...». أهو تناقض آخر من تناقضاتك؟*

- ربما. لكنى كنت قد نشأت فى أسرة لغتها الأم هى الفرنسية وليست العربية. وكان ينظر إلى على أننى «خواجة». ولكن فى الماضى كانت مصر بلدا كوزموبوليتانيا لأقصى حد. فى فصلى بالمدرسة الفرنسية، كان ثلث التلاميذ من المسيحيين، والثلث من اليهود والثلث من المسلمين. كنا نحيا حياة جميلة...نتزاور ونمرح معا فى نادى الجزيرة. ولقد كنت مسيَّسا منذ صغرى، وذلك بفضل أمى، التى كانت من أصل روسى. كنا فى البيت نؤيد عبد الناصر، وهو أمر نادر فى أوساط البرجوازية المسيحية. وفى المدرسة أيضا، كنت فى فصلى الطالب الوحيد الذى يحب عبد الناصر. وأذكر كم بكيت أثناء العدوان الثلاثى حينما علمت باستسلام بورسعيد فى ٥٦. كان لدى ارتباط سياسى وثيق بأحداث مصر، وكانت عندى نفس مشاعر وتطلعات أبناء الشعب، لكن فى الوقت نفسه، كنت أعلم بأن سفرى إلى فرنسا حتمى. وهناك لم يكن لدى وقت للنوستالجيا. واندمجت تماما فى معيشتى الفرنسية.

● *ما الذى أدى إلى اختفاء الأمل فى مصر على حد تعبيرك؟*

- بالطبع ٦٧ لعبت دورا مهما، لكن فى الوقت نفسه، كانت تلك فترة غليان واختمار، استتبعت جدلا واسعا، وإعادة تقييم شاملة. وأعتقد أيضا أن عبد الناصر يتحمل جزءا من المسئولية بسبب النظام الذى أرساه: نظام الحزب الواحد، والقيادة البيروقراطية، ونظام الدولة البوليسية، لكنه لا يتحمل وحده كل التبعة. فالاختيارات الاقتصادية التى كانت تتخذ مسوحا اشتراكية قد تمت إدارتها بشكل بالغ السوء من قبل أشخاص تنقصهم الكفاءة. كما لم تكن هناك نقابات حرة، ولا صحافة حرة، ولا حوار داخلى حقيقى. فليس من الممكن بناء دولة صلبة فى غياب جدل حقيقى بشأن خيارات المجتمع.

وهناك بالطبع العامل الديموجرافى الذى كان له وزنه فى هذا الوضع. فعندما رحلت عن القاهرة، كان تعدادها مليونى نسمة. وهو ما ضاعف من عجز الحكومة عن تلبية حاجات كل تلك الجماهير.

وأعتقد أن النزاع الإسرائيلى الفلسطينى قد منح فرصة عظيمة لجميع الأنظمة العربية. فلقد أتاح لها التمسك بسياسات منغلقة واستبدادية ومتحجرة، انطلاقا من فكرة «أننا فى حرب، وأننا لذلك لا نستطيع تطبيق الديمقراطية... إلخ».

اليوم، أرى أن مسألتى تنظيم المجتمع وحرية التعبير، هما العنصران الأهم لإتاحة الفرصة أمام المجتمعات العربية لكى تتقدم. ولا ننسى بالطبع ما تعانى منه الدولة من أعراض تيبس القيادات فى مواقعها، حتى بين قيادات المعارضة. فهى مجتمعات نصف عدد السكان فيها ممن هم دون العشرين عاما، لكن الشباب فيها لا يمثلون أى وزن فى القوى السياسية. ولنتذكر أن الضباط الأحرار حين قاموا بثورة يوليو كانوا فى عقدهم الثالث. ونفس الظاهرة نلاحظها فى كوبا مع كاسترو ورفاقه. فى ذلك الزمان كان ثمة تجدد فى الأجيال، وأمل ينبعث فى نفوس الشباب..

● *فى رأيك هل سيكون وصول الإخوان المسلمين إلى الحكم - إذا كان ذلك واردا - أكثر إضرارا بمصر من أى من السيناريوهات الأخرى؟*

- بالطبع لا. السيناريوهات التى يتوقعها البعض هى الأسوأ بلا أدنى شك. وهى التى ستقضى على أى بارقة أمل فى أى تطور مجتمعى. أنا أعتقد أنه يجب فتح المجال أمام الإخوان المسلمين لكى يصلوا إلى الحكومة-. وهذا الرأى يسرى على مصر وعلى البلدان الأخرى. فلو أجريت الانتخابات غدا، وحصل الإخوان على الأغلبية، فليتولوا المسئولية، وليظهروا لنا قدراتهم. هم يقولون: «القرآن دستورنا والإسلام هو الحل»، كلام جميل، ليظهروا لنا من خلال الحكومة ماذا يعنى ذلك. فقد يثبتون جدارة، ولدينا النموذج التركى ماثلا فى الأذهان، صحيح هو نموذج مختلف كل الاختلاف، ولكن حزب العدالة والتنمية استطاع أن يثبت أنه أكثر فاعلية من الأحزاب التقليدية، وأنه أقل فسادا، وأكثر ديمقراطية، كما أنه قد أجرى عددا من الإصلاحات التى لم يجرها أحد من قبله...

وفى الوقت نفسه، الواضح أن سياسة الإخوان المسلمين فى السنين الأخيرة صارت سياسة حذرة إلى حد بعيد: فهم



لا يسعون رغم كل شىء إلى أية مواجهات مع النظام، كما لم يشاركوا فى حركات الإضراب الواسعة التى شهدناها هذا العام. فهم لم يعد ينظر إليهم على أنهم قوة معارضة راديكالية.

● *هل غيرهم الزمان أم أنها أيضا عودة القوة الهادئة (soft power)؟*

- هناك عدة عوامل: منها مسألة «القوة الهادئة»، ولكن هناك أيضا عامل الانقسامات الداخلية. فالإخوان المسلمون منقسمون جدا فيما بينهم. فهم لديهم أكثر من مشروع. لكن ليس لديهم مشروع موحد. إذن سيكون مثيرا للاهتمام أن يتولوا الحكومة، لأن هذا سيحملهم على توضيح ملامح سياستهم، وأعتقد أنهم لا يريدون حقا مثل هذا التوضيح، لأن القاعدة العامة تقول إنه كلما قل التوضيح كلما زادت الشعبية، لأن ذلك يساعدك على كسب أناس من اتجاهات مختلفة. لكن معنى الوجود داخل الحكومة هو الاضطرار إلى الإقدام على اختيارات محددة.

لكن المشكلة، كما تتبدى لى، هى أن التطورات التى تشهدها الجماعة، منذ انخراطها قبل بضع سنوات، فى التفكير حول مسائل مثل مرجعية السيادة، هل هى الله أم الشعب، وخوضها لتجربة الانتخابات، وغير ذلك من التطورات، إن لم تجد تعبيرا عنها من خلال انتخابات جديدة، فستعود بالجميع إلى خانة الصفر، وستجد البلد نفسها فى طريق مسدود. وهو ما قد يؤدى إلى مزيد من التطرف، أو مزيد من العنف المجتمعى، لأن الناس سيجدون الوضع فوق مستوى الصبر والاحتمال.

● *فأى مستقبل ترونه لمصر؟*

- لا أدعى بأننى عليم بخبايا السياسة المصرية، ولكن الأرجح هو أن القادم سيأتى من داخل النظام الحالى، بحيث يتم اختيار شخص من محيط القيادة الحالية. هل سيكون الابن أم أحدا غيره؟ لا أعرف. ولكننى أرجح أنه سيكون الابن. فهذا هو التصور الأقرب إلى الواقعية، ولكنه أيضا التصور الأكثر كارثية، لأن ذلك يعنى استمرار نظام مستقر منذ ثلاثين عاما، نظام تتبدى علامات انهياره فى انهيار هضبة المقطم على قاطنى الدويقة. إن ما أدهشنى حقا وأنا أتابع تغطية هذا الحدث على قناة الجزيرة، هو ما قاله الناس البسطاء، الذين تشهد أقوالهم بأنهم ما عادوا ينتظرون أى شىء من الحكومة. فهم يعلمون أن أحدا لن يأتى لكى ينتشل لهم موتاهم، أو ليرفع الأنقاض من فوق رؤوسهم، يعلمون ذلك ويصبرون، فكلماتهم لا تشى بأى تمرد على هذا الانهيار، انهيار الصخرة وانهيار البلد. وهذا هو المأساوى. هل سيستمر الوضع على ما هو عليه؟ لست أدرى حقا، فلست أملك الجواب... ■

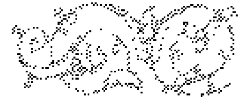
لعنـــة آدم..!



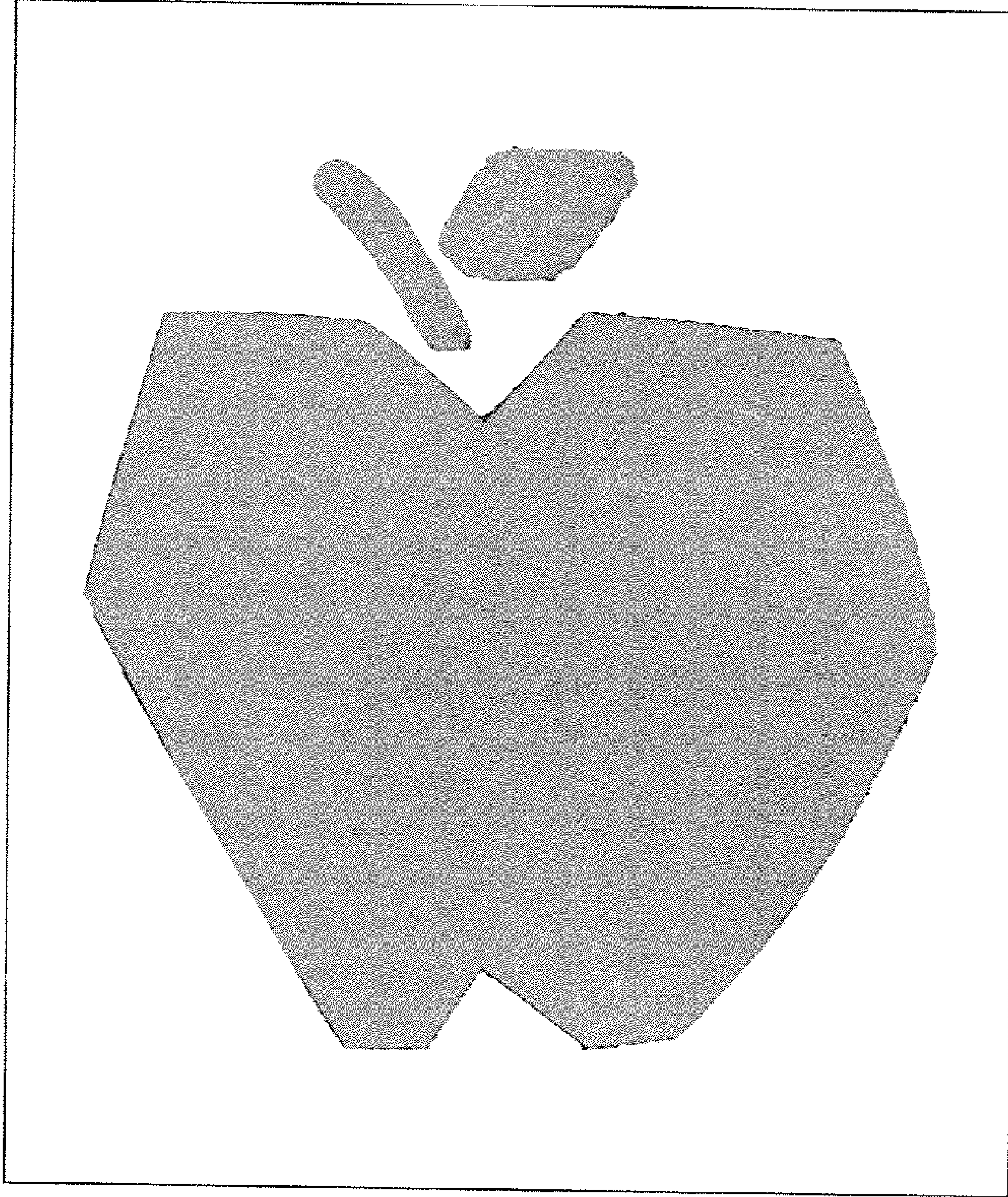
بـــريـــان ســـايـــكـــس
Bryan Sykes



هل من الضرورى أن يكون للرجال دور فى الإنجاب، أو أنه يمكن التكاثر بغير حاجة لهم، وبالتالى ينقرض الرجال ويختفون وتختفى معهم لعنة آدم؟



■ بدأت كباحث فى علم الوراثة اهتمامى المهنى بالجنس منذ ما يزيد على عشر سنوات عندما أخذت أولا استخدام هذا العلم فى الكشف عن بعض أسرار الماضى البشرى. اخترت للملاحة فى هذه الألغاز أداة هى قطعة من (دنا) تورث على نحو خالص بأن تنحدر فى خط السلالة الأنثوى من الأم إلى ابنتها جيلا بعد جيل وهى تمر مباشرة من أسلافنا حتى يومنا الحاضر. لم يكن سبب هذا الاختيار أنى أهتم من جانبى بالنساء أكثر من الرجال، وإنما كان السبب ما لهذه القطعة من (دنا) من صفات خاصة. هذا الامتداد من (دنا) يكشف بالذات عن تاريخ النساء أكثر مما يكشف عن تاريخ نوعنا. وبالهذا التاريخ. إنه تاريخ يبين أن كل واحد منا مرتبط بخيوط أموية لا تنقطع، ويمكن متابعة مساره بواسطة (دنا) ليصل إلى امرأة سلف واحدة من بين نساء معدودات من السلف عشن منذ آلاف، بل وحتى منذ عشرات الآلاف من السنين[1]. استطعت أيضا أن أتابع مسار تنقلات أسلافنا عبر الكرة الأرضية وأن أحل بعض الأحاجى التى حيرت الباحثين لقرون. من بينها أصول سكان جزر البولينيز، ومصير



النياندرتاليين[2] وطبيعة أول من استوطنوا أوروبا من أفراد «الهوموسابينز» (الإنسان العاقل) قبل آخر عصر جليدى.

كنت منتبها تماما إلى أنى قد استخدمت (دنا) المتوارث أمويا، ولهذا فإن تفسيرى لأحداث الماضى يتأسس بالكامل على التاريخ الوراثى للنساء ويحتاج لتأكيده واستكماله بدراسة مكافئة للتاريخ الوراثى للرجال عندما أصبح ذلك متاحا من الوجهة التكنيكية. على أنى كنت واثقا من أن الأحداث الرئيسية قد فُسرت بصواب، وأنه على الرغم من أنه يمكن تماما مراجعة الاستنتاجات التى توصلت إليها، إلا أنها لن تتغير تغيرا جوهريا عندما يصبح تاريخ الرجال معروفا. وعلى كل فإن الرجال والنساء لابد لهم من أن يوجدوا معا فى المكان نفسه أثناء الوقت نفسه. كنت راضيا تماما بأن أترك لغيرى مهمة الكشف عن تاريخ الرجال وأخذت أحول انتباهى لمشروعات أخرى. ثم وقع حدث بالصدفة غيّر من مسار أبحاثى ومضى بها لتدور فى دوامة فى اتجاه جديد. أعاد ذلك وراثيات الرجال مباشرة إلى صميم البؤرة من رؤيتى.

كما يحدث كثيرا، بدأ تسلسل الأحداث بمهاتفة تليفونية. مهاتفة لم تكن فى حد ذاتها بشىء خارج عما هو معتاد. أعمل فى معهد الطب الجزيئى فى أوكسفورد كأستاذ للوراثة، وكان يُطلب منى من آن لآخر أن ألقى أحاديث عن هذه المادة فى شركات الأدوية. كانت هذه المهاتفة بالذات من شركة جلاكسو - ويلكوم (وهى الآن جزء من شركة جلاكسو - سميث كلين) لأنضم إلى مجموعة من العلماء الآخرين من أوكسفورد لحضور مؤتمر فى مقر رئاسة الشركة. أدركت شركة جلاكسو - ويلكوم، مثل الكثير من شركات الدواء فى منتصف تسعينيات القرن العشرين، أن اكتشاف جينات جديدة فى «مشروع الجينوم البشرى» الذى كان وقتها قد جرى العمل فيه لزمن له قدره، سوف يؤدى إلى تعيين أهداف جديدة تدور حولها تصميمات الأدوية. ذلك أنه إذا أمكن اكتشاف أن جينات الأمراض القاتلة الكبيرة - أمراض القلب، والسكرى، والسرطان، وما إلى ذلك - موجودة فى مكان ما من (دنانا) فإن هذه الجينات قد توضح لنا ماذا يحدث بوجه الخطأ عند وقوع هذه الأمراض، ويمكن بهذا تصميم أدوية جديدة لتصحيح هذه الأخطاء. هكذا كانت النظرية على الأقل.

كان ما جعل لهذه الدعوة بالذات علاقة مهمة بقصتى هو أن رئيس شركة جلاكسو - ويلكوم وقتها كان سير ريتشارد سايكس. وكما يمكن للقارئ أن يتصوره، فقد سئلت مرات عديدة من أفراد شركة جلاكسو - ويلكوم المنظمين للاجتماع عما إذا كانت هناك صلة قرابة بينى وبين سير ريتشارد. وقتها كان ريتشارد سايكس الوحيد الذى أعرفه هو ابنى أنا؛ وفى

للاستزادة:
لعنة آدم: العلم الذى يكشف مصيرنا الوراثى
بريان سايكس
ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمى
دار العين للنشر - القاهرة ٢٠٠٩

The Seven Daughters of Eve
by Bryan Sykes
W. W. Norton & Company, 2002

ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمى

مدى ما أعرفه لم تكن هناك أي صلة قرابة مطلقا بيني وبين رئيسهم. يستطيع المرء أن يعرف من لهجة سير ريتشارد أنه نشأ في يوركشير بشمال انجلترا. وأنا من الجانب الآخر أمضيت طفولتي في لندن ولدي اللهجة التي توافق ذلك. وجه الشبه الوحيد بين سير ريتشارد وإياي، بخلاف أننا نحن الاثنين نعمل بالعلم، هو أن لدينا اللقب نفسه، لم أفكر في الأمر بأكثر من ذلك.

عندما دخلت إلى السيارة التي وصلت لتأخذني إلى المؤتمر، سألني السائق مرة أخرى السؤال نفسه. لا أدري سببا لما حدث بعدها، ذلك أني هذه المرة كنت على وشك أن أكرر إنكاري البسيط، ولكني فجأة دار بذهني خاطر. لعلنا على أي حال أقرباء أنا وسير ريتشارد، «ولكن من غير أن ندرك ذلك». ولعل الأكثر أهمية في الأمر أني ربما أستطيع إثبات ذلك بإجراء اختبار وراثي. طلبت من السائق أن ينتظرني، واندفعت لأعود إلى المعهد، واختطفت إحدى الفرش الصغيرة التي استعملها لجمع عينات (دنا) وجريت عائدا للسيارة. سيكون سير ريتشارد موجودا في المؤتمر؛ سوف أطلب منه عينة من (دنا) وأقارنها بعينة مني. إذا كنا أنا وهو أقرباء حقا سوف نتشارك نحن الاثنين معا في قطعة خاصة جدا من (دنا). سيكون لدينا كروموسوم (واي) نفسه، تلك القطعة من (دنا) التي يعطيها كل أب لابنه.

عندما عدت في اليوم التالي إلى معملي، أخذت الفرشاة الصغيرة من صندوقها. كانت خلايا سير ريتشارد التي أخذتها بالفرشاة من داخل خده في الأمسية السابقة، تلتصق غير مرئية بشعيرات النايلون في الفرشاة. على الرغم من أن عدد الخلايا كان مئات قليلة فحسب، إلا أنها ستكون أكثر مما يكفيني للحصول على بصمة وراثية لكروموسوم (واي) لدى سير ريتشارد. قطعت الشعيرات لأفصلها عن جذع الفرشاة وأنا أحرص بشدة على ألا ألمسها، وأسقطتها في أنبوبة اختبار صغيرة. كانت الخلايا قد جفت أثناء الليلة الماضية، إلا أن (دنا) مادة بالغة المتانة لدرجة تجعلني لا أشك في أنه سيبقى سليما. وعلى أي حال فقد أمكنني في أبحاث سابقة أن أحصل على (دنا) من حفريات بشرية يزيد عمرها على عشرة آلاف عام، وبالتالي لم أكن قلقا بشأن عينة «ماتت» فحسب من ساعات قليلة. يقع كروموسوم (واي) الخاص بسير ريتشارد في المركز من الخلية، ولابد من أن انزع عنه باقي الخلية حتى أصل له. حيث إن (دنا) مادة قوية هكذا، فإن في استطاعتي أن أستخدم لإنجاز ذلك وسائل كيميائية بالغة الخشونة. وبدأت هذه المعالجات القاسية في التو. غطيت الخلايا بقطرات قليلة من الماء، ثم غليتها غليانا شديدا لعشر دقائق. أعاد هذا إرواء الخلايا وأدى لتفجر الغشاء الرقيق الذي يحيط بالنواة، صميم مركز الخلية حيث يختبئ كروموسوم (واي) الخاص بسير ريتشارد. غدا الكروموسوم الآن بعد معالجته بالماء المغلي عاريا مكشوفا ويمكن فحصه بدقة عن طريق التفاعلات الجزيئية المعقدة التي تكشف عن بصمته الوراثية بدقة. سوف أذكر فيما بعد الكثير عن هذه العملية، ولكن كل ما نحتاجه الآن هو أن نعرف أنها نجحت نجاحا مثاليا بالنسبة لهذه العينة المهمة.

بعد يومين اثنين من البحث كنت قد توصلت إلى تفاصيل البصمة الوراثية لسير ريتشارد من (دناه) المنقى. ثم استدعيت إلى جهازي للكمبيوتر بصمة كروموسوم (واي) الخاصة بي التي قرأتها منذ شهور عديدة سابقة. إنها تشبه الخطوط العمودية لبطاقة شفرة الأسعار، سلسلة من خطوط عمودية قاتمة وباهتة تعين هوية فريدة. وضعت ذلك موازيا لبصمة سير ريتشارد وأخذت أمر عبر النمط، لأتفحص خطا عموديا واحدا في كل مرة. كانت كلها تتماثل بالضبط. كروموسوما (واي) لدينا نحن الاثنين يتوافقان توافقا كاملا.

يبرهن هذا على أننا نحن الاثنين أقرباء. ولكن كيف؟. أنا وسير ريتشارد ورثنا كروموسومي (واي) من أبوينا، اللذين ورثاهما من أبويهما، وهكذا دواليك للوراء عبر الزمان. كروموسوما (واي) لدينا يتابعان مسار خطين مباشرين من سلالة سلف أبوي يمتدان وراء في الماضي إلى مدى أبعد وأبعد. حيث إن كروموسومي (واي) لدينا متطابقان، فإن هذا يعني ولابد أن خطي السلالة اللذين نتابع مسارهما وراء من خلال آبائنا، وأجدادنا، وأجداد أجدادنا، وهلم جرا، يجتمعان عند نقطة ما على رجل واحد فقط. هذا الرجل، أيا من يكون، هو سلفنا الأبوي المشترك، رجل نستطيع أن نتابع المسار إليه أنا وسير ريتشارد من خلال كروموسومي (واي) لدينا، في صلة وراثية لا تنقطع. لما كنا قد ورثنا أيضا لقبينا عن الطريق نفسه، فإن من المرجح لأقصى حد أن هذا الرجل، جدنا المشترك، كان أيضا يُدعى سايكس. في ضربة واحدة أثبت كروموسوما (واي) لدينا ما يوجد بيننا من صلة ارتباط لم تطرحها قط أي وثائق. بل وحتى حاليا، بعد مرور سنوات، مازلنا لا نعرف بالضبط طريقة صلة قرابتنا، وربما استغرق الأمر سنين من البحث بصبر لمتابعة مسار الصلة بيننا من خلال سجلات المواليد والزواج والوفيات - هذا إن كان يمكن بأي حال إجراء ذلك. إلا أنه على نحو ما بدا أن ليس في ذلك ما يهم. فخيط العلاقة الوراثية مباشر ومتصل، بصرف النظر عن أجيال الرجال التي مر من خلالها.

استطعت أيضا أن أتابع مسار تنقلات أسلافنا عبر الكرة الأرضية وأن أحل بعض الأحاجي التي حيرت الباحثين لقرون

كنت راضيا تماما بأن أترك لغيري مهمة الكشف عن تاريخ الرجال وأخذت أحول انتباهي لمشروعات أخرى

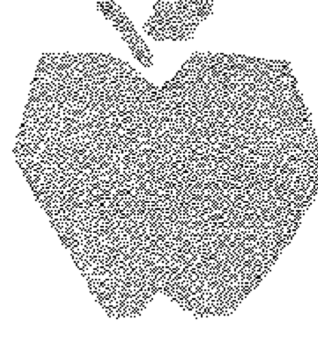
بعد أن بينت الصلة الوراثية بيني وبين سير ريتشارد أخذت أتساءل عن عدد الأفراد الآخرين الذين يحملون اسم سايكس ولهم صلة قرابة مماثلة. هل من الممكن أنني وسير ريتشارد نكون كل من يوجد من هؤلاء؟ كم يخجلني أن أقول أنني وقتها لم أكن أعرف شيئا تقريبا عن أصل لقبي. يكاد يكون كل ما أعرفه عن ذلك هو أن جدي كان جنديا في الحرب العالمية الأولى وأن عائلته أتت من مكان ما في هامبشير بجنوب إنجلترا، وفي حدود ما أعي، ليس هناك أي صلة بيوركشير يمكن فيما يحتمل أن تربط عائلتي بعائلة سير ريتشارد. هل حدث أن انتقلت عائلتي من يوركشير إلى هامبشير في بعض زمن من الماضي؟ أو أن سير ريتشارد هو الذي ذهب في الاتجاه المضاد من هامبشير إلى يوركشير؟ أين بأي حال يعيش معظم من ينتمون لاسم سايكس؟ لم يكن لدى أي مفتاح عن ذلك.

وصلني وقتها تقريبا خطاب مرسل بالبريد إلى منزلي. كان هذا دعوة لشراء كتاب بعنوان طنان فخيم «كتاب آل سايكس». في الأحوال العادية يكون مصير نشرة كهذه أن ألقيها مباشرة في سلة المهملات. ولكني وقد ثار فضولي لأول مرة لمعرفة المزيد عن اسم سايكس، أرسلت في طلب شراء الكتاب. توقعت سبرا عميقا لتاريخ العائلة، ولكني تلقيت بدلا من ذلك ملفا فيه دعاية عامة مبالغ فيها كل المبالغة عن الألقاب، وشمار نبالة مظهره يثير الشك، ثم في الخلف قائمة بأسماء وعناوين رجال سايكس، مرتبة حسب المقاطعات. لو كنت مهتما فحسب بالاسم، لأصابني الإحباط. ولكني وإن كنت لم أعرف أكثر مما كنت أعرفه من قبل حول تاريخ وأصول القائمة التي في ظهر الكتاب، إلا أن هذه القائمة كان فيها ما يلزمني بالضبط. عندما نظرت فيها رأيت في التو أن هناك عددا من حاملي اسم سايكس يعيشون في يوركشير أكثر إلى حد بعيد مما في أي مكان آخر. وهكذا بدا وكأن أسلافي أنا هم الأفراد الذين انتقلوا من موطنهم وليس أسلاف سير ريتشارد. التقط عشوائيا ٢٥٠ فردا باسم سايكس من يوركشير والمقاطعات المجاورة بلانكشير وتشيشير، وكتبت لكل واحد منهم أسأله إعطاء عينة من دناه. لما كنت شخصيا واحدا باسم مستر سايكس يكتب لآخرين بالاسم نفسه، لم يبد كثيرا أن الأمر فيه نوع من التطفل كما كان سيبدو بغير ذلك. ضمنت داخل كل خطاب فرشاة (لدنا) وخلال شهر واحد تلقيت ردودا بما يقرب من ستين عينة من (دنا) أفراد سايكس.

اسمحوا لي عند هذه النقطة أن أقول أني أعرف الآن بالخبرة المريرة، أنه على الرغم من أنه لا يوجد ما يخلب اللب أكثر من التاريخ العائلي الخاص بالمرء، إلا أنه ليس هناك ما هو أكثر إثارة للملل من التاريخ العائلي لشخص آخر. وبالتالي، أرجو أن تغفروا لي أن أقص عليكم بعض أمور عن أسرة سايكس. وأنا لا أفعل ذلك إلا من باب التوضيح فحسب وليس من باب إعطاء المعلومات، وعندما أنهي ما أقصه لكم كل الحرية في أن تنسوا كل شئ عن عائلتنا هذه.

أجريت القليل من الأبحاث الأخرى عن الاسم واكتشفت أن اسم سايكس مشتق من كلمة «سايك = Sike» في يوركشير، وتعني نوعا معينا من جداول في ارض سبخة. ليس في هذا تدفق مياه عظيم جارف؛ الكلمة في أكثرها تعني مجرى هزيلا بطيئا في خنادق، وجداول «سايك» هذه كثيرا ما كانت علامة للحدود بين رقع الأرض المتجاورة. لم يكن في هذه الأنباء ما يشجع بالنسبة لما كنت آمله من أن أبرهن على أن كل الأحياء الذين يحملون اسم سايكس على صلة قرابة وأتابع في النهاية مسار أصولهم وراء حتى المؤسس الوحيد للعائلة.

معظم الألقاب الإنجليزية، إلا عند الأرستقراطية، قد تم إدخالها عندما يقرب من القرن الثالث عشر، وكان ذلك أساسا كأداة لإدارة الإقطاعيات الزراعية. في ذلك الوقت، كان الكثير من القطر كله مقسما إلى رقع كبيرة من اقطاعيات لأراضي



الزراعية. وكان هذا تراثا مباشرا للغزو النورماندى فى ١٠٦٦ بواسطة وليم الفاتح الذى منح هذه الإقطاعيات لأصدقائه وأنصاره. السيد المالك الإقطاعى كان يتحكم فى كل أرض الإقطاعية ويوزع الأرض الزراعية بين مستأجريها من المزارعين، وكانت إيجارات هؤلاء تكفل للمالك وأسرته المباشرة العيش بالأسلوب الفخم الذى تعودوا عليه بسرعة بالغة. كانت هذه بنية محكمة التنظيم، وكان يُحتفظ بسجلات تفصيلية - مازال بعضها موجودا للآن - ترد فيها قائمة بحجم كل قطعة أرض وإيجارها ومعها اسم المستأجر.

المشكلة هى أنه بدون ألقاب، يكاد يستحيل على موظفى الإقطاعية أن يتابعوا مسار الأحداث. الأفراد فى القرى الصغيرة يعرف كل واحد منهم الآخر، ويكون من السهل على السكان أن يتغلبوا على صعوبة أن هناك أفرادا عديدين يحملون الاسم نفسه، فهم يعرفونهم كأفراد وكثيرا ما يعرفونهم أيضا بكنيتهم. أما مديرو الإقطاعية فيلقون فى ذلك صعوبات هائلة. كثيرا ما يكون مستحيلا عليهم أن يميزوا بين جون أو آدم أو مارى أو مود والآخرين الذين بالاسم نفسه. وكان الحل الذى يلجأون إليه للتمييز بين الأفراد أصحاب الاسم المتماثل هو أن يضيفوا اسما آخر - أى يضيفوا لقبا. سرعان ما أصبحت هذه الألقاب الجديدة بعدها متوارثة. بحلول منتصف القرن الثالث عشر، سُمح للمزارعين المستأجرين أن يمرروا حيازاتهم لأبنائهم عند موتهم، وبالتالى أصبح من الطبيعى فى هذه الظروف أن يغدو اللقب متوارثا، مثله مثل الحيازة نفسها. هذا الجانب العملى للغاية فى إمساك دفاتر الحسابات فى العصور الوسطى هو الأساس لأصول معظم الألقاب الإنجليزية. من هذه البدايات البيروقراطية، أعطى لكل رجل فى النهاية لقب؛ النساء عند الزواج يتخذن أسماء أزواجهن. أحيانا كانت هذه الألقاب تُستقى من المهنة - مثل النجار، أو الحداد، أو الجزار؛ وأحيانا كانت الألقاب تنشأ عن الكنية، وهى غالبا كنية فيها توصيف، مثل الأشقر أو القصير. هناك ألقاب أخرى كان فيها مجرد إضافة لكلمة «Son = الإبن» إلى اسم الأب لتشكل اسم الأسرة مثل جونسون (ابن جون) أو آدمسون. وهناك فئة رابعة من الأسماء مشتقة من معالم المنظر الخلوى - التل، والدغل، والغابة، وفى يوركشير هناك سايكس.

كان هذا هو الجانب المحبط من التوقعات. لما كان هناك بالمعنى الحرفى آلاف من جداول سايكس فى يوركشير، فإن احتمال أن رجلا واحدا فقط قد قرر اتخاذ «سايك» كلقب له يبدو احتمالا ضئيلا لأقصى حد. كانت نتائج اختبار كروموسوم (واى) تطرح بكل تأكيد أنى أنا وسير ريتشارد على الأقل ننحدر من الرجل نفسه. وعلى الرغم من ذلك إلا أن احتمال أن تكون نسبة كبيرة من العينات العشوائية التى جمعتها من الأفراد الآخرين حاملى اسم مستر سايكس عينات لأفراد على صلة قرابة مماثلة، لهو احتمال يبدو بعيدا حقا. إلا أننى عندما أنهيت فك شفرة البصمة الوراثية لكروموسومات (واى) عندهم وجدت أن النتائج مذهلة حقا. كان هناك نصف بالكامل من عينات حاملى اسم سايكس التى جمعتها عشوائيا من ثلاث مقاطعات فى يوركشير، ولانكشير وتشيشير، تحوى بالضبط نفس البصمة الوراثية. ليس هناك إلا تفسيرا واحدا ممكنا لهذه النتائج الرائعة غير المتوقعة. الأفراد المتطوعون بمن فيهم أنا وسير ريتشارد، والذين لديهم البصمة الوراثية نفسها لكروموسوم واى، لابد أنهم قد ورثوها من سلف مشترك. لابد أننا جميعا يمكننا أن نتابع مسار خط سلالة مباشر للأب - الابن يرجع وراء إلى رجل واحد. ولكن من يكون هذا الرجل؟ هل هو مستر سايكس الأصلى؟ ثم يساوى ذلك أهمية أن نجيب عن سؤال عن شأن ذلك النصف الآخر من عينة حاملى اسم سايكس، ماذا عن هؤلاء الرجال الذين لا يشاركون فى هذه البصمة لكروموسوم (واى)؟

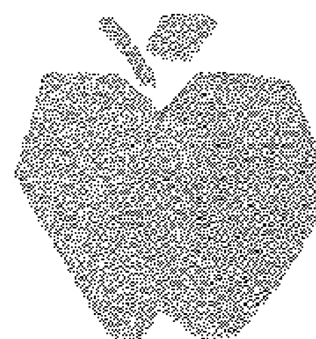
دعنا نتناول السؤال الثانى أولا. كروموسومات (واى) التى لم تتوافق مع بصمة آل سايكس، وهو الاسم الذى أخذت الآن أسميهم به، كانت تنقسم إلى فئتين. كان هناك عدد قليل من الكروموسومات هى وإن كانت لا تتوافق تماما مع كروموسوم (واى) لدى آل سايكس إلا أنها قريبة جدا منه. أما الكروموسومات الأخرى فلديها «شفرة خطوط رأسية» مختلفة تماما وليس لها بالكامل أى علاقة بكروموسوم (واى) لدى آل سايكس فى حدود ما أمكننى رؤيته. وليس هذا فحسب، بل إنها أيضا لايوجد بين الواحد منها والآخر أى علاقة واضحة. لم يكن هناك أى تجمعات أخرى من كروموسومات (واى) ذات علاقة أحدها بالآخر لتطرح أننا عثرنا على سلالة لمستر سايكس «أصلى» ثانى. ما هو تفسير هذا النمط، حيث نصف الرجال المسمين بسايكس يتشاركون فى البصمة نفسها لكروموسوم (واى) بينما النصف الآخر لديهم خليط من كروموسومات (واى) لاتوجد أى علاقة واضحة بين الواحد منها والآخر؟



نحتاج عند هذه النقطة من القصة إلى أن نطرح العامل الذى يشير إليه باحثو الوراثيات تأدبا بأنه «عدم الأبوة». المصطلح الذى يستخدم عندما يكون والد الطفل، حسب الاسم فى شهادة الميلاد، ليس والده البيولوجى. عندما يحمل طفل لقب أبيه ولكنه لا يحمل جيناته لايكون متاحا سوى تفسيرات معدودة. أكثر هذه التفسيرات مباشرة وبراءة، هو أن الابن متبنى وقد أخذ لقب أبيه بالتبنى. وبالطبع يحدث الشىء نفسه للبنات المتبنيات، ولكنهن فى أغلب ما يرجح لا يمررن هذا الاسم لأطفالهن، كما أنهن ولاريب لا يمررن أيضا أى كروموسوم (واى). لا تمرر كروموسومات (واى) بأى حال إلا من الأب للابن. الأمر فحسب أن النساء ليس لديهن هذه الكروموسومات. التفسير الثانى هو أن الأسرة كلها قد اتخذت لقبا جديدا. لم يكن هذا بالإجراء الشائع فى انجلترا العصور الوسطى ولكنه ولا ريب كان شائعا فى اسكتلندا، حيث كثيرا ما كان الرجل يتخذ اسم رئيس العشيرة الذى يعيش هذا الرجل فوق أراضيه أو الذى يحارب فى جيشه، وذلك دون أى صلة قرابة بينهما. يبقى لنا بعد ذلك التفسير الثالث والأخير لعدم التوافق بين اللقب وكروموسوم (واى)، خيانة زوجية من المرأة أو ربما اغتصابها. البيولوجيون لديهم اسم فظ نوعا لذلك، وهو «الجماع مع غير الزوج». إذا كان للمرأة طفل من رجل غير زوجها وإذا نشأ هذا الطفل داخل العائلة وأعطى له اسمها، تكون الصلة منقطعة بين الاسم والجينات. إذا كان هذا الطفل ولدا، سوف يرث لقب أبيه المزعوم، ولكنه لا يرث منه كروموسوم (واى). فهذا يكون قد مرر إليه من عشيق أمه أو مغتصبها وليس من زوجها. وعندما ينجب هذا الولد أبناء من صلبه، يكون ما يمرر لهم هو كروموسوم (واى) الخاص به. بل وحتى إذا لم تقع أحداث من «عدم الأبوة» فى الأجيال اللاحقة، إلا أن هذا لن ينقذ الصلة بين كروموسوم (واى) واللقب الأصلى. لقد انقطعت هذه الصلة نهائيا.

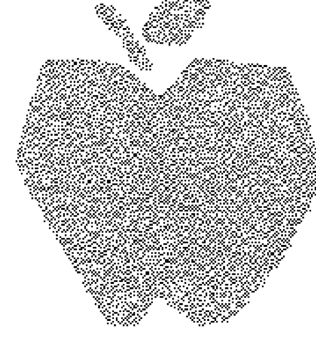
حسب بحث المسح الذى أجريناه، والذى نقر بأنه محدود، تقع كروموسومات (واى) لدى حاملى اسم سايكس فى فئتين متساويتين تقريبا. المجموعة الأولى أفرادها على صلة قرابة حميمة أحدهم بالآخر ويكاد يكون من المؤكد أنهم قد توارثوه دون انقطاع من مستر سايكس أصلى واحد. النصف الآخر من المتطوعين قد ورثوا كروموسومات (واى) مختلفة تماما عن كرموسوم سايكس «الأصلى» كما أنها يختلف أحدها عن الآخر. من الممكن أن تكون كروموسومات (واى) الأخيرة هذه قد أصبحت مرتبطة بالاسم من خلال خيانة زوجية، أو اغتصاب، أو تبنى وقع أى حدث منها عند نقطة معينة بعد بدء الاسم. أو قد تكون كروموسومات (واى) هذه منتمية إلى أفراد عديدين مختلفين من الرجال «الأصليين» كل منهم يحمل اسم سايكس؛ وظل كل كروموسوم منهم يمرر منحدرا حتى وقتنا الحاضر من خلال خط سلالة أبوى مباشر لا تقطعه أحداث عدم أبوة. من المستحيل بناء على هذه الأدلة وحدها أن نميز الفارق بين هذه الاحتمالات؛ وعلى أى حال إذا كانت هذه الكروموسومات من أصول مختلفة، فإن أيا منها لم يكن يقترب بأى صلة من كروموسوم آل سايكس الرئيسى.

على الرغم من أنه لا توجد طريقة لنميز منهجيا بين هذه الاحتمالات



أدركت شركة جلاكسو - ويلكوم، أن اكتشاف جينات سوف تؤدى إلى تعيين أهداف جديدة تدور حولها تصميمات الأدوية





المختلفة. إلا أننى رأيت أننا نستطيع فيما ينبغى أن نستنبط رقما لما يمكن أن يسمى، إذا شئنا، بأنه المعدل التراكمى لأحداث عدم الأبوة. سيكون هذا تقديرا لنسبة حالات عدم الأبوة، من أى نوع كانت، التى وقعت منذ القرن الثالث عشر حتى تعطينا النمط الحالى، حيث نصف الرجال حاملى اسم سايكس يتشاركون فى البصمة نفسها لكروموسوم (واى) فى حين يظهر فى النصف الآخر خليط من بصمات وراثية من الواضح أنها ليس على صلة قرابة. لا حاجة بى لأن أزعج القارئ بالحسابات؛ الإجابة تصل إلى أن هناك فى كل جيل نسبة ٣,١ فى المائة من أحداث عدم الأبوة. يعنى هذا أنه عبر سبعمائة سنة، كان متوسط معدل حالات التبنى والأبناء غير الشرعيين مما لا يمكن أن يتجاوز فى كل جيل نسبة الواحد فى المائة إلا بقدر هين. لو كانت النسبة أعلى كثيرا من ذلك لكان النمط الذى نراه الآن بين كروموسومات آل سايكس المحدثين نمطا قد أصابه التفسخ منذ زمن طويل. حتى نصوغ الأمر بطريقة أخرى، فإن هذا المعدل يعنى أن نسبة ٩٩ فى المائة من آل سايكس قد أحسنوا السلوك تماما. أو كانوا محظوظين تماما، طيلة الأعوام السبعمائة الأخيرة. والحقيقة أنه حيث أن رقم ١,٣٪ يتضمن أيضا إمكان وجود مؤسسين مستقلين آخرين للاسم فإنه بهذا يعد «الحد الأقصى» لتقدير عدم الأبوة، وحينما نبقى فى أذهاننا أن بعض هذه الأحداث يمكن أن تكون حالات حقيقية من التبنى، فإن معدل الأحداث غير الشرعية يهبط حتى لما هو أقل. كيف يقارن ذلك بمعدل عدم الأبوة فى أيامنا هذه؟ مما يثير الدهشة أنه لا توجد قيمة مُتفق عليها عموما للمعدل الحالى، إلا أن التقديرات (التى تتراوح بين ٥ - ٣٠ فى المائة) فى الدراسات المختلفة بالمملكة المتحدة كلها أعلى كثيرا من القيم التاريخية التى حصلنا عليها من نتائج آل سايكس.

بل وحتى مع صعوبة تمييز تأثير أحداث عدم الأبوة عن تأثير المؤسسين المستقلين المختلفين، إلا أن النتيجة بوجه عام كانت مذهلة. أغلب المتطوعين، إن لم يكن كل المتطوعين، من المقاطعات الثلاث بيوركشير، ولانكشير، وتشيشير قد نالوا الاسم من رجل واحد. ونصف هؤلاء مازالوا يحملون كروموسوم (واى) الخاص بهذا الرجل. هل كنت محظوظا إلى حد لا يصدق بالنسبة لاسم سايكس؟ لا أظن ذلك. أعدت خلال العامين الماضيين إجراء هذه الدراسة على عشرات من الأسماء. لم تظهر كل هذه الأسماء علاقة وثيقة بين الألقاب وكروموسوم (واى) مثل العلاقة التى ظهرت عند آل سايكس. إلا أن معظمها كان له هذه العلاقة، بل كان بعضها أكثر إثارة للدهشة. وجدنا بالنسبة لأحد الأسماء، الذى سأعود إليه فى فصل تال، أن هناك نسبة تصل بالكامل إلى ٨٧٪ ممن يحملون الاسم حاليا لديهم كروموسوم (واى) نفسه أو كروموسومات (واى) صلتها وثيقة جدا. بمدى ما أستطيع رؤيته حتى الآن، فإن أغلبية الألقاب، فى انجلترا على أى حال، ترتبط ارتباطا واضحا جدا بكروموسوم (واى) واحد أو بعدد قليل جدا منها.



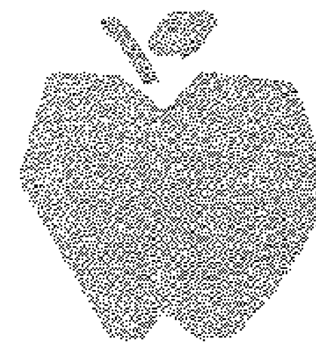
لاريب أن الحظ كان له دوره؛ ولم يكن ذلك الدور إلى حد كبير فى أن هناك أسماء أخرى ربما ما كانت تنجح هكذا. وهذا أمر وارد - وإنما كان للحظ دوره لسبب غير علمى بالكامل. لو أن رئيس شركة جلاكسو . ويلكوم لم يكن اسمه سايكس لما فكرت أبدا أول كل شىء فى إجراء هذه الدراسة. الجانب الثانى من حسن الحظ أن سايكس اسم من يوركشير ويتصادف لا غير أن يوركشير موطن لواحد من أحسن خبراء الألقاب فى كل انجلترا - وهو د. جورج ريدموندز. لولا جورج، لانتهى الأمر بأن يكون دراسة كروموسوم (واى) عند حاملى اسم سايكس مجرد تقرير علمى رسمى بارد؛ سيكون هذا التقرير بلا ريب مثيرا للاهتمام، ولكنه ليس له صلة حقيقية بذلك التاريخ وذلك المنظر العام اللذين كنت الآن متنبها إلى أنهما كانا موطن أسلافى بالوراثة أثناء أكبر جزء من الأعوام الألف الماضية. كنت أشعر أنه يحق لى الآن أن أطلق اسم بلاد آل سايكس على ذلك الجزء من يوركشير الغربية فى جنوب غرب هدر سفيلد، وهى بلاد منظرها العام الطبيعى هو لأرض سبخة قاحلة تقطعها وديان أنهار جوانبها شديدة الانحدار. عند النظر من أعلى الأرض السبخة المرتفعة تبدو المنطقة مهجورة تقريبا، والتلال تنحدر بعيدا إلى مسافات نائية فى كل اتجاه. تقع القرى الصغيرة لأسفل قليلا على المنحدرات، حيث أكواخ النساجين تنشب قبضتها وقد تجمع كل منها حول بيت المزرعة. ثم هناك على مستوى لا يزال أكثر انخفاضا مدن المصانع القديمة وهى مقصورة على قيعان الوديان وتختفى تماما عن الأبصار من قمة التلال، وهى مدن من نوع حضرى بالكامل، ومليئة بالضجة والقذر.

يعيش جورج فى منطقة مرتفعة أعلى الأرض السبخة ومعرفته بالمنطقة - بمشهدها العام، وتاريخها، وبوجه خاص تواريخ عائلاتها - معرفة لا تقل عن أن تكون موسوعية. عندما يركب المرء معه فى جولة بالسيارة حول هذا المشهد العام الخشن فإنه يبعث فيه الحياة بحيوية. هكذا فإن خطا غير ملحوظ لجدار حجرى جاف متكسر فوق سفح تل بعيد يصبح فى أصله محاولة فاشلة من مزارع فى العصور الوسطى دُفع به لأعلى وأعلى خارج الوادى، وهو يحاول أن يزرع أبأس الأراضى. ثمة قمة صخرية - مرتفعات وولفستون (صخرة الذئب) - هى مع جورج لا تكون بعد مجرد اسم على الخريطة ولكنها تذكر بزمن ليس ببعيد جدا، عندما كانت هناك حقا ذئاب تعيش على الأرض السبخة.

التقيت وجورج أول مرة عندما كنا نصنع سلسلة من برامج الراديو لهيئة الإذاعة البريطانية عن موضوع الألقاب، والجينات وعلم الأنساب (وكان ينتجه فرد آخر من المسمين بسايكس. وهى ساندرا سايكس) وبدأ جورج عندها يبحث عن أقدم السجلات التى ورد فيها ذكر اسم سايكس. عثر جورج خلال فترة زمنية قصيرة على إشارة فى جداول المحاكم فى ١٢٨٦ إلى من يسمى هنرى ديل سايلك. عرض جورج علىّ بعض هذه السجلات، وكانت حالتها رائعة تماما. كانت منقوشة فوق رق من جلد العجول مما يجعلها متينة المتانة الكافية، حتى بعد مرور مئات عديدة من السنين، بحيث يمكن تداولها دون أن تتفسخ. لو أنها بدلا من ذلك كانت مكتوبة فوق ورق لتفتتت إلى تراب منذ زمن طويل. سجل المحكمة هذا بالذات الذى عثر عليه جورج يشير إلى نزاع على الحيازة دخل فيه هنرى ديل سايلك بشأن أراض قريبة من قرية فلوكتون، جنوب هاردسفيلد بأميال قليلة. لاتزال القرية موجودة هناك ومازال هناك آل سايكس فى فلوكتون، على أن بحثا سريعا خلال جداول الانتخابات أوضح أن هناك عددا من آل سايكس أكثر كثيرا فى بلدة سليثويت الصغيرة التى تبعد بما يقرب من تسعة أميال عن فلوكتون. سليثويت، كما كان جورج يعرف من قبل، كانت مستوطنة أصغر عمرا بكثير عن فلوكتون. وهى تقع عند القاع من واد جوانبه شديدة الانحدار، على ضفاف نهر كولن. كانت هذه الوديان فى العصور الوسطى تحتشد فيها الغابات الكثيفة، والمستنقعات، ومليئة بالحيوانات البرية. جعلها ذلك صعبة فى الزراعة، ولهذا أُنشئت الكفور والقرى على مستوى أعلى مرتفع فوق جوانب الوادى حيث تكون الأرض بتصريف جيد للمياه وخالية من الأشجار إلى حد كبير. لم تصبح قيعان الوديان مسكونة بكثافة إلا فى وقت متأخر عن ذلك بكثير، أى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، عندما أصبح هناك تصنيع لإنتاج الغزل والنسيج. كان يلزم بناء المصانع القائمة بالقرب من الأنهار لعطشها للمياه لغسل الصوف ولتغذية محركات البخار التى تزود الأنوال بالطاقة.

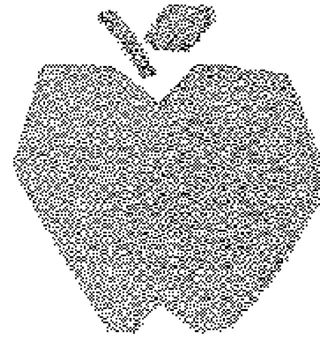
كان لدى جورج سؤال واضح. هل كان آل سايكس القدامى فى فلوكتون على صلة قرابة بآل سايكس فى سليثويت؟ عثر جورج على أدلة على أن آل سايكس عاشوا بين المستوطنتين فى القرن الرابع عشر ووجد تفسيرا مقنعا لسبب ممكن لانتقالهم بعيدا عن فلوكتون. إنه «الموت الأسود» - الطاعون الدبلى - وقد اتخذ طريقه حاصدا أرواح سكان أوروبا فى ١٣٤٨ أول مرة، ثم فى أوبئة تالية أقل عنفا عبر السنوات المائة التالية. قتل أول وباء ما بين ثلث إلى نصف السكان فى مدى ثمانية





إذا كان للمرأة طفل من رجل غير زوجها وإذا نشأ هذا الطفل داخل العائلة وأُعطى له اسمها، تكون الصلة منقطعة بين الاسم والجينات





عشر شهرا. من الصعب تصور ما يكون لوباء بهذا المقياس من تأثير رهيب فى أسلافنا. ما من عائلة نجت أثناء اندفاع الخوف والموت فى اكتساح للأرض مثل شبح أسود يجرى سريعا بخفة. بعد أن أخمد الوباء وقود نيرانه بنفسه وعجز عن أن يجد عددا كافيا من الضحايا المستهدفين الباقين على قيد الحياة ليقيموا أوده، وجد الباقون أحياء أنفسهم فى مشهد اقتصادى عام جديد. ووجه الملاك الإقطاعيون بنقص حاد فى العمالة فأجبرهم ذلك على تحسين الأجور وتحسين ظروف معيشة مستأجرى أرضهم وأقنانهم. أصبحت هناك أراض أخلاها الموت الأسود من شاغليها فغدت متاحة لشاغلين جدد. يرى جورج ريموندز أن هذه الفرصة للاستقرار فوق أرض جديدة هى التى حثت بعض آل سايكس على مغادرة فلوكتون والتماس حظهم فى مكان آخر. فجأة أصبح لدى علم الوراثيات الآن ما يتيح لجورج فرصة اختبار فكرته. إذا كان آل سايكس فى سليثويت قد أتوا أصلا من فلوكتون، سنجد عندها أن كروموسومات (واى) عند المجموعتين لابد أن تتوافق. كتبت لرجال آل سايكس فى سليثويت وفلوكتون طلبا لعينات من دناهم - وعندما حللنا كروموسومات (واى) لديهم، وجدنا أن بصماتها الوراثية متماثلة تماما. كان حدس جورج صحيحا، وقد ثبتت صحته بما يتجاوز أى شك بواسطة هذا الاختبار الوراثى الجديد.

وددت أن أرى الموقع الأصلى بالقرب من فلوكتون الذى ربط جورج بينه وبين أول الأولين من آل سايكس فى السجلات. كان ذلك فى يوم بارد فى أوائل أبريل عندما خرجنا من السيارة بجوار جدول يجرى عبر قاع أحد الوديان. لم تكن الأشجار بعد مورقة، وانتصبت أشجار السنديان الضخمة عارية فيما يقابلها من حقول خضراء. تؤدى هذه الأراضى العشبية لأعلى إلى جرف يبتعد بما يقرب من ثلاثمائة ياردة حيث تمتد فلوكتون نفسها بطول حافة التل تماما مثلما كان حالها دائما. إلى اليسار منا، وراء جدار حجرى جاف، كان هناك حقل صغير مسور غير مزروع مفعم بالحياة بزهور عشب الحوذان الذهبية فى الأرض السبخة القريبة من الجدول. الجدول نفسه صاف ومزبد إلا أن قاع النهر فى موات، وقد اختنق برواسب المغرة[3] ذات اللون الصدئ، الصرف الملوث الذى لا يزال يتدفق من مناجم خام الحديد المهجورة من زمن بعيد.

يمر أحد الدروب عبر الجدول، وقادنى جورج أسفله من بين الأشجار الطويلة للحور والرجراج التى تحتضن المياه. انتصبت عند منعطف فى مسار المياه أطلال مصنع قديم مهجور من زمن طويل. حدد جورج هذا الموقع بالذات تحديدا دقيقا بأن وجد أن هنرى ديل سايك كانت له حيازة للأرض على جانبى الجدول، تقع فى أبرشيات[4] مختلفة. لم يكن هناك أى أثر لبيت المزرعة الذى كان يشغله جدى، أول الأولين من آل سايكس، ولكن حتى مع هذا، ملأنى إحساس رائع تماما لوجودى هاهنا. عندما أخذت أنظر من حولى إلى المصنع القديم، والدرب والجدول، بدا وكأن شيئا لم يتغير كثيرا فى المشهد العام. بل إنه لم يتغير فعلا. الحقل وحدوده على حالهما مثلما كانا فى القرن الثالث عشر عندما كان هنرى ديل سايك يعيش ها هنا. وقفت هناك وأنا أكاد أسمع أصوات الأطفال. أسلافى - وهم يضحكون بينما يقذفون الحصى فى الجدول. حتى من غير أدلة (دنا)، سيكون فى الأمر خبرة فيها ما يكفى من الإثارة عندما يرى المرء المكان الذى عاش فيه أول مستر سايكس مسجل. ولكنى عندها كنت سأشعر بأنى بعيد الصلة عنه. كنت سأعرف أن هناك ارتباطا من نوع ما بينى وبين المكان، ولكنه ارتباط مصنوع من خلال العقل، الاستنتاج المنطقى لعملية توفق بين الاسم الوارد فى شهادة ميلادى مع اسم آخر فوق قطعة من ورق جلدى أصفر. أما وأنا أعرف أن كروموسوم (واى) الذى أحمله فى كل خلاياى كان موجودا بالفعل ها هنا، فى هذا المكان، فى هذه الحقول بجوار الجدول، فإن فى هذا إحساسا مختلفا اختلافا كليا. أشعر الآن وكأنى أخبر تاريخ جزء حقيقى من ذاتى، مكانا كان يعيش فيه بالفعل بعض جزء منى؛ جزء لا ريب أنه قد فعل ذلك.

---

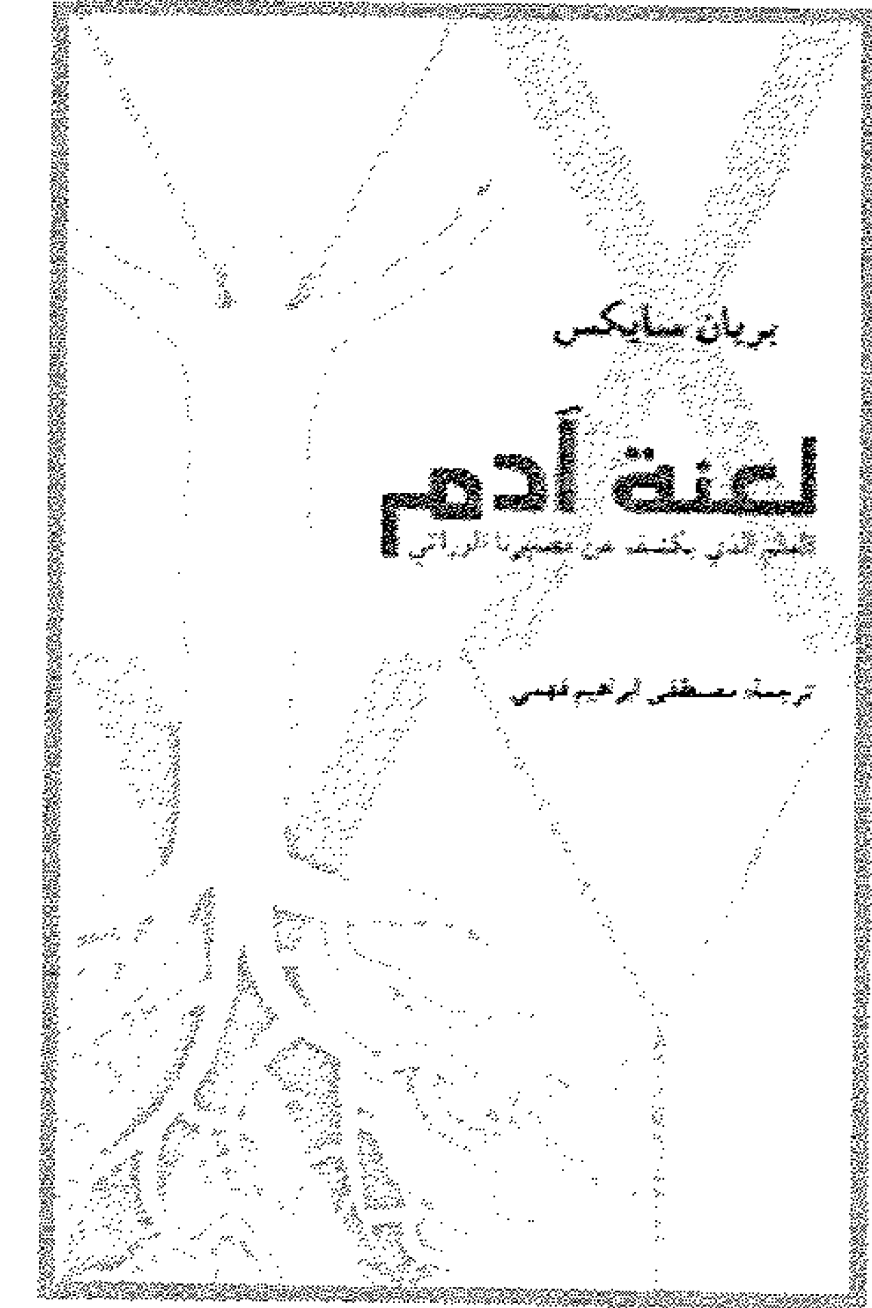
(١) يشير المؤلف هنا إلى كتابه الرائع «سبع بنات لحواء»، وقد ترجمناه إلى العربية وصدرت طبعته الأولى ٢٠٠٣ عن دار العين بالقاهرة، وطبعته الثانية ٢٠٠٣ عن مكتبة الأسرة بالقاهرة. وأساس أبحاث هذا الكتاب هو ما يسمى (دنا) الميتوكوندريا الذى يوجد فى سيتوبلازم الخلية وذلك بخلاف (دنا) التقليدى الذى يوجد فى النواة، كما يختلف (دنا) الميتوكوندريا بأنه يتم توارثه عن النساء فقط وليس عن النساء والرجال مثل (دنا) النواة. (المترجم)

(٢) النياندرتاليين: نوع من الإنسان من العصر الحجرى القديم وجدت بقاياه لأول مرة ١٨٥٧ فى كهف بوادى نياندرتال بألمانيا. (المترجم)

(٣) المغرة: أكسيد حديد مائى طبيعى لونه عادة أحمر أو أصفر. (المترجم)

(٤) الأبرشية: تقسيم إدارى للمقاطعات فى بريطانيا يتفق عادة مع حدود الأبرشيات الكنائسية. (المترجم)

الكتاب والكاتب

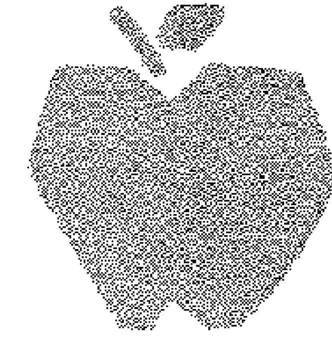


مصطفى إبراهيم فهمى

بريان سايكس مؤلف هذا الكتاب أستاذ للطب الوراثى الجزيئى فى جامعة أوكسفورد، والجزيئى تشير إلى أنه يصل فى أبحاثه الوراثية إلى مستوى الجزيئات التى تكون مواد الجهاز الوراثى وأهم هذه الجزيئات هو الحامض النووى (دنا) أو دى أوكسى ريبونيوكلييك، وهو المكون الأساسى للجينات أو المورثات.

يرى البروفيسور سايكس أن الطريق لمعرفة ماضى البشر وتاريخ تطورهم لا يقتصر على دراسة الماضى نفسه وإنما نستطيع أيضا معرفة ماضينا وتاريخ تطورنا عن طريق دراسة الحاضر، باستخدام علم الوراثة. ذلك أن الأحياء من البشر الذين يعيشون حاليا يحملون داخل أجسادهم مكونات بالجهاز الوراثى تدل على أحداث الماضى. وهكذا فإن دراسة تركيب حامض (دنا) تؤدى إلى معرفة مؤشرات تدل على ماضينا وعلى هويتنا وهوية أسرنا وأجدادنا. الجينات أو المورثات التى تتكون أساسا من (دنا) تنتظم كحبات عقد فوق خيوط فى نواة الخلية، وتسمى هذه الخيوط بالكروموسومات. هناك ٢٣ زوجا من الكروموسومات فى نواة خلية الإنسان أحدها هو كروموسوم (واى) الشهير، العامل الوراثى الأساسى لذكورة الرجال. كروموسوم (واى) يورث من الأب وحده وليس من الأب والأم معا مثل باقى كروموسومات النواة، وإذن فإن دراسة كروموسوم (واى) تقودنا إلى معرفة الآباء السلف، وتمكننا من التعرف على تسلسل النسب من الابن إلى الأب إلى الجد... حتى الجد الأعلى الذى بدأت به مجموعة أو عشيرة معينة من السكان، كما أن دراسة أنواع التركيبات المختلفة لهذا الكروموسوم الذكورى تمكن من التعرف على الأقارب الذين ينتهون إلى جد سلف بعينه ويتشابهون كلهم فى خصائص معينة من تركيب دناهم تثبت قرابتهم. كان سبب بدء البروفيسور سايكس لأبحاثه على كروموسوم (واى) هو أنه تصادف أن دُعى إلى مؤتمر أعدته شركة أدوية كبيرة يرأسها مدير اسمه أيضا سايكس. أخذ الكثيرون يسألون البروفيسور سايكس إن كان على صلة قرابة برجل الأعمال سايكس. واستفزه ذلك لأن يبدأ بحثا فى تركيب كروموسوم (واى) عنده هو شخصيا وعند رجل الأعمال ثم عند كثير من الأفراد الملقبين باسم سايكس، وأثبت فى النهاية أنه وسايكس رجل الاعمال والكثيرين من الأفراد الملقبين بسايكس ينتمون فعلا لسلف واحد. أمكن للعلماء بعد إجراء أبحاث مماثلة رسم شجرة نسب كل عشائر سكان العالم فى أجزائه المختلفة تبين صلات القرابة فيما بينهم.

إلى جانب أهمية كروموسوم (واى) فى متابعة النسب الأبوى وتحديد هوية الأفراد الأقارب فى عشيرة واحدة، فإن له أهميته أيضا فيما



يسميه المؤلف بأنه «لعنة آدم»، ويقصد به أن الرجال مدفوعون بنشاط كروموسوم (واى) الذكورى إلى محاولة اجتذاب النساء بما يماثل ميكانزم الانتخاب الجنسى الذى وصفه داروين كعامل سريع لتطور الكائنات الحية. المثل الشهير لطرائق الانتخاب الجنسى هو ذيل ذكر الطاووس الذى كلما زاد جمالا ونموا زاد اجتذابه لإناث الطاووس. أما عند الرجال فإنهم بدلا من ذيل الطاووس يحاولون إغراء النساء بما يجمعونه من الثروة والسلطة حتى يصلوا إلى جمع أكبر عدد من النساء. اشتد طغيان لعنة آدم هذه مع ظهور الثورة الزراعية التى واكبها ظهور الملكية الخاصة وزيادة احتكار الثروة والسلطة، كما واكبها التنافس العنيف بين الرجال أنفسهم مع استخدام العنف والقتال والحروب، واستغلال الأقوياء للضعفاء سواء من الرجال أو النساء. ومازال الاستغلال والقتال يجرى حتى الآن بما يؤدى إلى هلاك البشر، وتخريب بيئتهم بأيديهم هم أنفسهم، وربما سيؤدى إلى انقراضهم. ترى إلى أين ستقودنا لعنة آدم وهل من سبيل لتفاديها؟

هناك أسئلة أخرى يثيرها التاريخ التطورى للجنس الذى انتهى بانقسام البشر إلى الجنسين، الإناث (الأصل) والذكور (الطارئين) وما يدور بينهما من حرب علنية ظاهرة اجتماعيا، وحرب أخرى خفية تدور سرا بين كروموسومات الذكورة وكروموسومات الأنوثة.

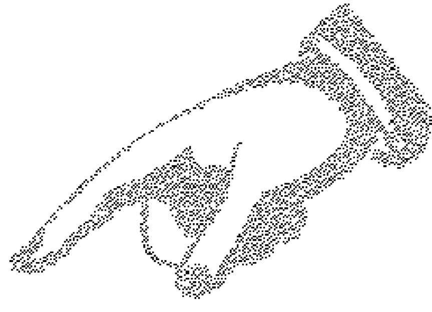
إحدى المشاكل المهمة التى يتناولها الكتاب ما تدل عليه الدراسات الحديثة من وجود تدهور وضعف مستمر فى الحيوانات المنوية للرجل بالنسبة لحيويتها وأعدادها، وهو ضعف يزداد من جيل للآخر، ويصحبه زيادة متواصلة فى حالات العقم بين الرجال. ترى هل ينتج هذا الضعف عن عامل وراثى متأصل فى كروموسوم (واى)، أم أنه نتيجة عوامل بيئية مثل تناول الاطعمة الملوثة بالهرمونات الأنثوية التى تستخدم لزيادة حجم المنتج الغذائى، أو أنه يرجع للعوامل الوراثية والبيئية معا؟

ثم هناك تساؤل عما إذا كان من الضرورى وجود الذكور لاستمرار الحياة البشرية؟ يرى الكثيرون من العلماء أنه من الممكن من الوجهة النظرية أن يتم إخصاب بويضة أنثى ببويضة من أنثى أخرى، وتتنامى هذه البويضة المخصبة إلى جنين ليولد كائن بشرى جديد هو بالطبع أنثى بدورها، وهكذا يتم الانتقام من كروموسوم (واى) الذكورى، ويختفى الرجال من الوجود حيث لا تعود هناك حاجة إليهم للإنجاب، وبهذا تختفى أيضا لعنة آدم للأبد!

بالإضافة إلى هذه الأسئلة هناك دائما دراسات مقارنة لتطور الجنس فى شتى أنواع الكائنات الحية من الأبسط إلى الأكثر تعقيدا، وترد فى هذه الدراسات المقارنة غرائب وعجائب الحقائق العلمية الأكثر إثارة من الخيال الروائى، مثل الدودة البحرية التى يعيش ذكرها قابعا داخل رحم الأنثى التى تعوله، أو كيف أن تحديد الذكر والأنثى عند أنواع من السلاحف والتماسيح لايتحدد بالوراثة وإنما يتحدد بعامل بيئى هو درجة حرارة مكان وضع البيض. أو سمك اللبروس الذى يمكن أن تتغير إحدى إناثه إلى ذكر عندما يختفى لسبب ما الذكر المسيطر على مجموعة حريمه، فالجنس هنا يتقرر حسب ظرف اجتماعى وليس بالوراثة والكروموسومات.

هكذا يقودنا المؤلف خلال هذه الآفاق كلها فى رحلة عملية فيها فائدة ممتعة وإثارة متواصلة، وهو ينسج معا ببراعة خيوطا من علوم شتى كالتاريخ والكيمياء الجزيئية والجيولوجيا وعلم الاجتماع والوراثيات التى تتداخل جميعا فى منهج بينى للمعرفة، ويتبع المؤلف فى سرده لهذا كله أسلوبا رشيقا يجعل أبحاثه وكأنها قصة بوليسية ممتعة مفعمة بما فيها من ألغاز وحركة وإثارة وحبكة تنتهى بحل اللغز، وهو فى كل هذا أديب فى أسلوبه بمثل ما هو عالم فى أبحاثه. وإذن، هيا بنا إلى هذه الوليمة من الثقافة العلمية والمتعة. ■

كتاب الزاوية



ترشيد العمل الجهادى فى مصر والعالم

سيد إمام الشريف

(٣)

وتعددت مسالك المسلمين فى السعى نحو تحكيم شريعة الإسلام فى عصرنا الحاضر، وفى التصدى للدول العظمى التى لا ترضى إلا بإذلال المسلمين وإضعافهم، ولجأت بعض الجماعات الإسلامية إلى الصدام مع السلطات الحاكمة فى بلادها أو مع الدول العظمى ورعاياها باسم الجهاد فى سبيل الله تعالى من أجل رفعة شأن الإسلام. وانتشرت الصدامات فى مختلف البلدان من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وقد خالطت هذه الصدامات كثير من المخالفات الشرعية مثل القتل على الجنسية والقتل بسبب لون البشرة أو الشعر والقتل على المذهب، وقتل من لا يجوز قتله من المسلمين ومن غير المسلمين، والإسراف فى الاحتجاج بمسألة التترس لتوسيع دائرة القتل، واستحلال أموال المعصومين وتخريب الممتلكات، ولا شىء يجلب سخط الرب ونقمته كسفك الدماء وإتلاف الأموال بغير حق، وهذا من موجبات الخذلان فى الدنيا والحرج والمؤاخذة فى الآخرة. قال تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ (النور:٦٣).

لم يكن مفاجئًا للكثيرين فوز الأديب جمال الغيطانى بجائزة الشيخ زايد للكتاب فى فرع الآداب للدورة الثالثة ٢٠٠٩ عن رواية «رن» الصادرة عن «دار الشروق» وهو الدفتر السادس من دفاتر التدوين، ويذكر أن كتاب «رن» يروى رحلة الكاتب عبر الذاكرة إلى مصر القديمة عبر سبره فى أساطيرها وتراثها المنسى، والرحلة الروحية تتوازى مع رحلة واقعية يقوم بها الكاتب منطلقاً من هضبة الهرم باتجاه جنوب مصر، لا يحمل معه إلا تهويماته التى يحملها عن أماكن بعينها لم يزرها وأشخاص لم يلتق بهم، لكنه يحاول تخليقهم من خلال الاسم ومن هنا جاء العنوان «الرن» من الكلمة الشعبية «شنة ورنة»، حيث الشنة هى الاسم والرنة ماهيته أو كينونته.

وكانت مجموعة «التجليات» للغيطانى التى صدرت أيضا عن «دار الشروق» قد نالت عند صدورها باللغة الفرنسية فى فبراير ٢٠٠٥ اهتمام نقاد وجمهور الأدب فى فرنسا على السواء. فالرواية كما يقول خالد عثمان، الذى تولى ترجمتها الى اللغة الفرنسية بحرفية شديدة ساعدت على حصولها على جائزة لور باتايون Laure Bataillon كأحسن رواية مترجمة فى عام صدورها، مثلت محاولة ناجحة لإبداع شكل روائى خاص باللغة العربية. «كتاب التجليات» كان محوراً لدراسة علمية قام بها كليمان تطرح سؤالاً أساسياً: ماذا تعنى رواية عربية؟. هنا نقدم ترجمة لمقاطع من خاتمة الدراسة ولبعض القراءات التى قدمها الباحث الفرنسى لمفاهيم أساسية فى الرواية: الأب، الغربة والموت.

المترجـــم

تجليَّـــات الحيَـــاة والمـــوت



جـون فـرنـسوا كـليـمـان
Jean-Francois Clement

يمكن دراسة هذه الرواية بأكثر من طريقة وفقاً لما تعنيه بالنسبة لمؤلفها أو للقراء المحتملين الذين لن يكتفوا بقراءة النص فى ظل غياب أى رؤية تفسيرية الأمر الذى يبقى مع ذلك ممكناً. ويندرج هذا النص ضمن مجموعة أعمال يحاول مبدعوها المختلفون جداً فيما بينهم أن يبتكروا فيها أشكالاً متطورة من الكتابة. نتذكر بالتأكيد الحائز على جائزة نوبل نجيب محفوظ وأيضاً صنع الله إبراهيم، المقرب جداً من جمال الغيطانى، كذلك إلياس خورى، إميل حبيبى أو إدوارد شارات. تمثل نصوص هؤلاء الكتاب تغيراً فى الشكل وفى المضمون. وهو ما نجده على سبيل المثال فى أسلوب الغيطانى المميز جداً فيما يخص إستخدام الاستعارات المتعددة والتنويع الكبير فى التشبيهات: كل عنصر يعود الى سلسلة شبه لا نهائية من عناصر اخرى عن طريق الانتقالات المتتابعة للمعنى (...)

يمكننا أيضاً، وهذا ملمح بوسع قراء فضوليون محتملين التوقف عنده، دراسة توظيف الألوان فى هذا العمل الذى كتبه صانع قديم للسجاد تعلم فن الصبر خلال ست سنوات هى مدة عمله فى هذه الصناعة. الإشارات الى فن العمارة، المتكررة جداً فى «متون الأهرامات»، يمكن أيضاً الكشف عنها لأنها هى أيضاً عنصر مهم ومحجوب بشكل كامل فى عملية الكتابة.

انطلقنا من إشكالية ترتبط بالنقد الاجتماعى المعاصر. ما هو الشكل الذى اختاره الكاتب لينقل أو ليسجل أفكاره التى يريد أن ينشرها؟ كيف تحقق التماسك فى حكايته وهل تم ذلك ضمن الشكل الروائى كما تم تعريفه فى الغرب؟ ولطرح مثل هذا السؤال لابد من الانطلاق من فكرة أننا لا نعرف مقدماً، حتى لو قيل لنا ذلك، النوع الذى سيُسبك فيه النص. لابد إذن من الارتياب فى التوضيحات التى يقدمها الكاتب، أن نرتاب حتى فى ارتيابه هو. فبعد كل شىء يبقى لنا الحق فى التساؤل. هل هذه الرواية رواية أم سيرة مُتخيلة أم هى ببساطة سيرة ذاتية؟ ربما لن يصنفها كل القراء فى فئة واحدة بعينها، وربما يعتبرها البعض مزيجا من هذا كله كما حدث مع «نجمة» كاتب ياسين التى كانت فى الوقت نفسه رواية، سيرة ذاتية، ملحمة دولة ورسالة هجاء سياسية.

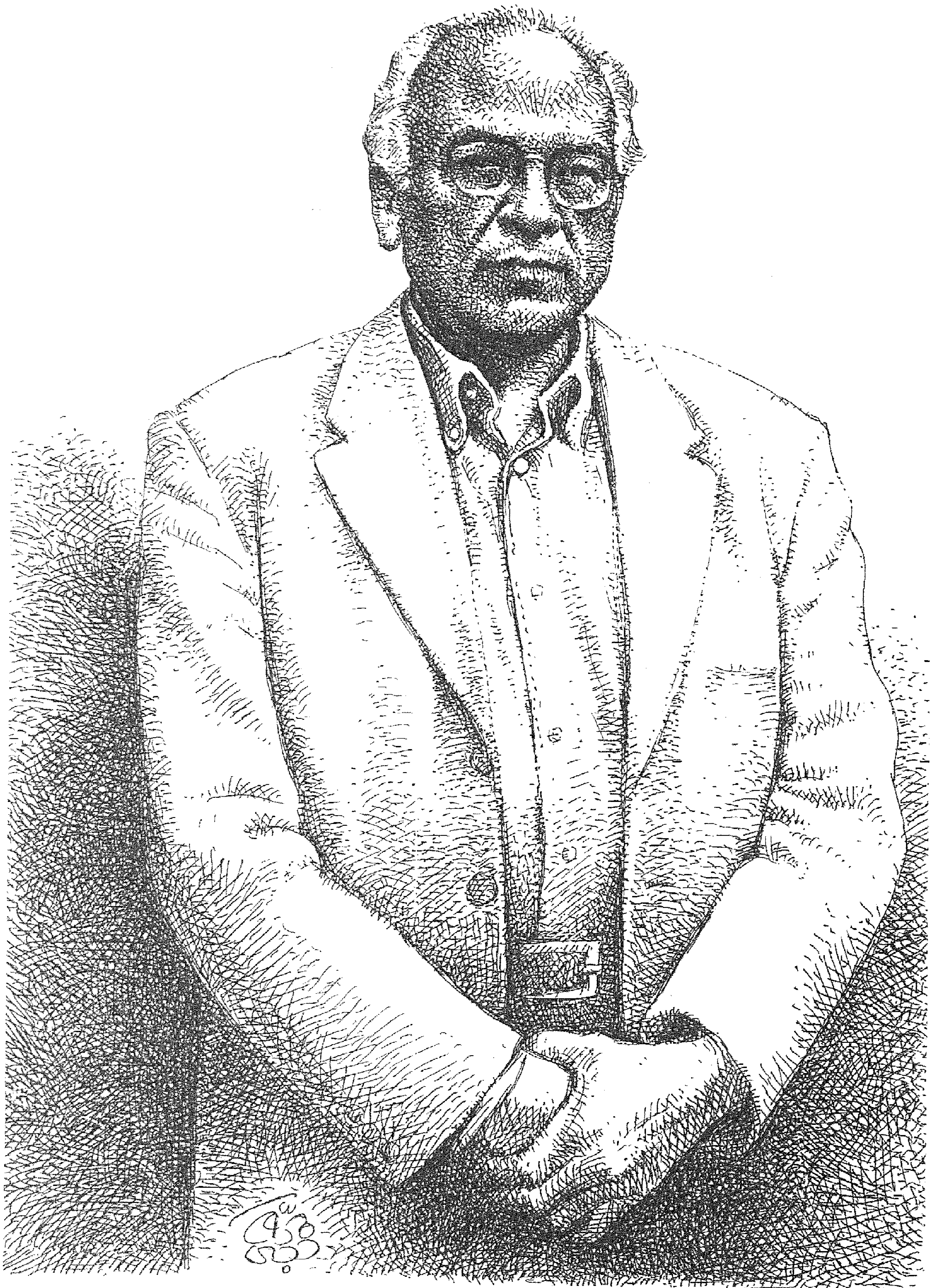
يقودنا هذا السؤال الشكلى الى مستوى ثان من الأسئلة تتعلق بالمضامين المتتابعة للنص فكان لزاماً اختبارها. إننا فى الواقع داخل سياق تاريخ الأشكال الأدبية وتنويعاتها. الغيطانى روائى سيضع حكاية فى قوالب وصياغات. سيُبدع إذن شخوصاً ومتواليات أحداث ستشكل سردية النص. هكذا سنجد تحققاً ظاهراتياً للنص نتج أولاً من خلال متطلبات اللغة وهو يمثل أول أنظمة التشكيل، ثم عبر النوع الذى تم اختياره والملائم للوسط الاجتماعى الذى يتطور داخله. رواية تُعنى بالبحث عن الأب مثل رواية الغيطانى هى على النقيض من رواية تسعى الى تدمير نفس هذا الأب، أن تقتله مرة ثانية كما نجد ذلك عند عبد الحق سرهان فى رواية «مسعودة» بعد أكثر من محاولة خجولة لإدريس شارابى. يمنح الكاتب/الابن إذن فى نوع من الكتابة التنفيسية الفرصة للثأر من الأم بعد وفاتها. يمكن أن تتوفر لدينا نصوص تستدعى كامو، اللامبالاة لوفاة الأم كما فى تلك الرائحة لصنع الله إبراهيم أو، على العكس، التبلد الكامل للحس تجاة موت الأب. كل الألعاب البنيوية ممكنة. ويكمن هنا شروط إنتاج الملفوظات التى تدفع النص بقوة نحو الأعالى كما أن من الممكن لتنوع الاستجابات أن تدفعه بقوة الى الأسفل. وقد كان يتعين بعد ذلك التساؤل



> نحن بصدد رواية سيرة ذاتية وليست رواية لسيرة مُتخيلة

«ماذا تعنى رواية عربية؟. عن كتاب التجليات لجمال الغيطانى»، ٢٠٠٧
Qu'est-ce qu'un roman arabe?
A propos du Livre des Illuminations, 2007
بحث ألقي في إطار «الدورة الدولية للقاءات والموسيقى الصوفية»
مايو ٢٠٠٨
مراكش ـ المغرب

ترجمة: أيمن عبد الهادى





عن التماسك الداخلي لهذا المنتج.

نحن بصدد رواية سيرة ذاتية وليست رواية لسيرة متخيلة. هي ليست سيرة متخيلة حتى لو كانت الشخصية الأساسية للحكاية مشتركة مع المؤلف على الأقل في الاسم. في الواقع، نحن لا نبدع تخيلاً لأحداث تقدم كوقائع حقيقية. يتعلق الأمر بما يعرف في الإنجليزية باعتباره تخيلاً مبنياً على وقائع fact-fiction . ليس ثمة وقائع هنا بل استيهامات، توليدات لمتخيل يتعذر تحقيقه في العالم المادي. يتم إذن تغليب اللاوعي في سرد الذات لكن بأهمية أكبر مما يحدث في السيرة المتخلية. هكذا، يمكننا الحديث عن نوع فرعي من رواية السيرة الذاتية التي تتخذ من شخصية حقيقية ومن تاريخها موضوعات في رحلة متخيلة تماماً مستعينة بتقنيات سردية روائية بشكل أساسي وتقنيات أخرى غير روائية بشكل ثانوي. تمنح الأولوية هنا الى العنصر الذاتي وذلك بعد إسقاط الوقائع التي يمكن التحقق منها والتي تمثل كل ما هو سيرة ذاتية. تطغى الحياة النفسية للكاتب على حياته الحقيقية أو التاريخية. ولو كنا منتبهين للشكل العام، فسنجد أنفسنا بإزاء رواية تستوعب كل شيء، من الأشعار المندرجة في النص حتى مقاطع من النصوص الصوفية. إننا بإزاء السلالة البروستية (نسبة الى الفرنسي مارسيل بروست) فيما يخص الكتابة الأصيلة حتى لو كان تماهي الشخصية مع المؤلف أكثر وضوحاً عند الغيطاني. لو كانت التفاصيل فقط هي التي تهمنا سنكون خارج الشكل الروائي.

وهكذا لم تكن الشخصية المركزية بأي وجه من الوجوه فاعلاً. لم تكن «شخصية روائية» بالمعنى الغربي لهذا التعبير. لم تكن هي التي تصنع الحياة، توقفاتها، حالاتها. هي بالعكس قد صنعها القدر أو لاوعي المؤلف. هي تحت رحمة، كما في كل رحلة زمنية، أحداث صدفوية تجعلها تقفز بشكل عنيف من عصر الى عصر لتدخل في عصر آخر. لا تتحكم لا في فضائها ولا في زمانها (...)

في الحقيقة ربما لا يكون هذا النص رواية بالنسبة لمؤلفه الذي ربما استخدمه كعلاج ذاتي. كان إنتاجه بالنسبة إليه بمثابة كتابة وجودية أكثر من كونها بحثاً عن أب استخدم في نهاية الأمر كوسيلة من أجل تحقيق غاية مختلفة تماماً. ستتمثل تلك الغاية بالنسبة له في تجنب ميل للانتحار لحظة إحباط.

(...)

والكاتب، حتى بالتمييز بينه وبين السارد، شخص ثالث: شخصية من خيال أو «كائن من ورق» مكلف بالكلام، يبتعد هو نفسه عن شخصيات جمال المختلفة التي يكتفي برؤيتها، هذا الكاتب هو من حرك السارد والشخوص. وقد فعل ذلك بشكل معقد بما اننا في حضرة حكاية تتعدد حبكتها الداخلية حيث كل شخصية من شخصيات جمال يكون بوسعها الإدلاء برأيها حول نفس المشهد، حكاية ذات حبكة داخلية لأن القارئ والسارد لا يعلمان كل شيء عن الشخصية. يضاف الى ذلك أن القصة تتم حكايتها مرة بواسطة السارد، ومرة أخرى بضمير المتكلم، عبر شخصية أو أخرى من الشخصيات الذين، زد على ذلك، لا يشكلون إلا واحداً وهو السبب وراء التردد بين الحديث بضمير المتكلم والحديث بضمير المخاطب. لن يكون بوسعنا إذن تصنيف هذه الرواية وفقاً لفئات السرد التي يختفي فيها السارد من القصة، أو الى سرد يكون فيه السارد حاضراً وذلك كما وضعها جينيت. هل يمكننا القول أننا إزاء شكل آخر ما بعد حداثي أكثر من العودة الى الحكاية؟

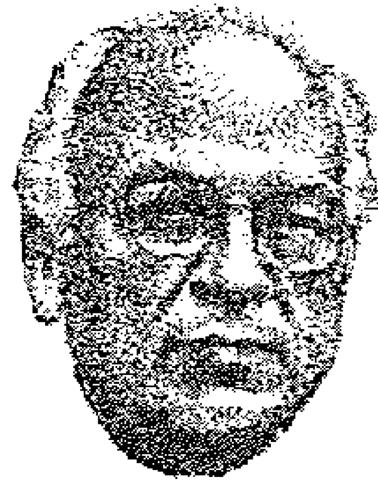
في عمله، يبدو جمال الغيطاني حراً، متخلصاً بوجه خاص من أي أعراف أدبية تخص الطبقات الوسطى. ينجزه من دون محاكاة لعمل آخر، جاد أو هزلي ولا حتى محاكاة ساخرة. قام بإعادة تكييف نماذج سردية قديمة ضمن مشروع شخصي للتصالح مع رموز سابقة سواء كانت نخبوية بشكل صريح أو شعبية في الغالب. لكن مثل تلك الرواية بزويعتها المتعلقة بالهوية وفنها الخاص بالتقطيع الزمني لا يمكن أن توجه لأشخاص معتادين على مشاهدة مسلسلات التليفزيون المصري. لأجل هذا حظيت باهتمامنا. يمكننا أيضاً الإشارة الى أنه لا معنى من وراء عقد أهمية مفرطة للآداب الفرنكفونية في العالم العربي وأن نبالغ، على الأقل في فرنسا، في تقدير الآداب المغربية مقارنة ببقية الآداب العربية. يتعين دون شك اتخاذ تدابير نرغم بها أنفسنا لرؤية ما ظل حتى الآن خفياً مع إمكانية توجيه النصح للطلبة المغاربة من الشباب كي لا يختاروا موضوعات مغاربية (للدراسة).

حاز نجيب محفوظ جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨. جمال الغيطاني يمكن، بسبب هذه الرواية التي تعد قبل كل شيء عملاً كبيراً، إن لم يكن أثراً، أن يكون مرشحاً مصرياً آخراً لهذا الاعتراف العالمي. ألهذا تعد هذه الرواية عملاً مؤسساً؟ لابد أن نشرع أولاً في التساؤل عن معنى هذا. العمل المؤسس ليس فقط إبداعاً يخلخل القناعات. لابد أن يكون أيضاً، كما قال كوستاريادس، «نافذة على الفوضى»، على الجنون الذي ربما يسكن الفرد والجماعة التي ينتمي إليها على السواء. لابد أن يمثل سبراً لليم. لكن لابد أن يفعل ذلك أيضاً عبر إبداع عالم آخر حيث تعمل أشكال متماسكة يسمح النظام فيها برؤية ما هو غائب في العالم الذي يعتبر تبعاً للمعتاد عالما متماسكا. يعني هذا تحويل الرؤية العادية للكون الى رؤية فوضوية. يتعين أن يكون الفن هو ما يشوش الرؤية أو السمع ليؤسس علاقات أخرى أكثر عمقاً مع العالم. لو كنا مقتنعين بعقلانية العالم المعاصر أو، على العكس، لو كنا نعتقد في قيمة كل شيء، فليس ثمة أي ضرورة لإنتاج الأعمال الفنية ولا للسعي وراء إبداع أعمال رائعة.

وبما أن هذه الضرورة تظل حاضرة بالنسبة لجمال الغيطاني فإن ذلك يسمح لنا بالقول بأننا إزاء واحد من كبراء كتاب اللغة العربية الأحياء.

قراءات لمفاهيم الأب والغربة والموت

تشرح شخصية جمال في الرواية تألمها لفقدان الأب الذي توفي في القاهرة عام ١٩٨٠ حين كان متواجداً بالخارج. ويشير الكاتب في حوار منشور في جريدة الأهرام في ٣١ أغسطس عام ٢٠٠٥ الى أن تلك الواقعة تنتمي لسيرته الذاتية : «كتبت هذا العمل كمحاولة للتآمر على الموت إثر حالة من حزن عضال امتدت في الفترة من ١٩٨٠ حتى ١٩٨٦» (...) يعني سؤال البداية إذن في كيفية السيطرة على معاناة تتعلق بموت الأب. بالكتابة تمثلت الإجابة. كتابة استمرت طوال فترة القلق تلك. تتطلب ذلك من المؤلف ستة أعوام من العمل. سنكون هنا أمام نص جديد أنتجته الكآبة. تنطلق هذه الحكاية، على الأقل في أصلها، من تلك المعاناة، على أية حال كبداية، لأن صنعة الموت تلك سريعاً ما تغطي تاريخ مصر كله. سيكون هذا العمل بالتأكيد





إننا في حضرة سلسلة
من حكايات الرؤى تعد إمتدادا
لنصوص السهروردي



وسيلة أفضل لمعرفة هذا الأب وإعلامه بعد وفاته بالحب الذي لم يكن ممكناً التعبير عنه. سيكتب المؤلف إذن سيناريو آخر لكي يُعيد صنع التاريخ، لكي لا يكتفي فقط بالذي جرى، أن يكون بمثابة طريقة فعلية للتخفيف من معاناة نفسية حقيقية. سيتم الاستعانة بوسائل مُتخيلة من أجل الحصول على تأثيرات واقعية.

(...)

على كل حال، ذكر الكاتب في الندوة التي خُصصت له (لمناقشة الكتاب) في فبراير ٢٠٠٥ في القاهرة سبباً آخر مُمكناً للإحباط الدافع لإبداع الرواية: «صُدمت ليس فقط بموت أبي المفاجئ لكن أيضاً بنهاية عصر في مصر. عصر كان يستند إلى قيمة وأهمية المعرفة البشرية. لقد غير عصر الانفتاح الاقتصادي الذي بدأ في عهد السادات نحو ١٩٧٥ كل هذا، وأصبح تقييم الإنسان مرتبطاً بالمال الذي يمتلكه وليس بمعارفه التي اكتسبها. لهذه الأسباب كتبت الرواية». وفاة، تخُص الأب يمكنها إذن أن تُخفي موتاً آخر يتعلق بعصر ينتهي (...) ثمة وعي يتغير، حقيقي أو متخيل، للعصر. ظن جمال انه سيشهد ثورة معيارية. وربما لم يكن تزامن فقدان القيم القديمة مع موت الأب إلا صدفة، أن يحل زمن الرأسماليين محل زمن العلماء (...) تعين على جمال نسيان أحلام الشباب الماوية (الثورية) بشكل نهائي. ربما كان هذا الموت أيضاً وبوجه خاص هو سبب هذا الكتاب، لكنه موت يتعلق بالذات، الأحلام التي فقدت. هوية تتهدم ويتعين إحلالها بأخرى عبر عناصر أخرى. «تجربتي في الصوفية أنقذتني من الانتحار في تلك الفترة». نظن أننا نواجه مسألة تتعلق بموت الآخرين في حين أننا نكون في مواجهة مشكلة تتعلق بموتنا الخاص.

رؤية مزدوجة للموت هي التي سيتم التعبير عنها في هذه الرواية، تأخذ في البداية على الأقل شكل البورتريه الثري جداً للأب، طريقة لبعث الحياة في هذا الأب الراحل. طريقة لعقد علاقة تتجاوز الموت. لكن هذا ليس إلا حجة لأن العلاقة مع هذا الأب سريعاً ما تنتهي (...) نرى إذن أن موت الأب لم يكن هو التجربة الوحيدة للموت.

(...)

إننا في حضرة سلسلة من حكايات الرؤى تعد إمتداداً لنصوص السهروردي. نحن في إطار تلقين روحي. روح ترتحل... تلتقي بشخصيات أخرى وهكذا تؤسس معرفة «حقيقية» عن ذاتها عبر تفسير تجارب الرؤى المتتابعة. ستعبر الروح إذن من مكان الى آخر، في فضاء لا ينتمي الينا، بل يقفز من الحاضر الى عصور أخرى في زمن لا ينتمي هو أيضاً الى زماننا. وكل تجربة، التي تعد من مزاياها ألا تكون قد اختبرت بعد، تنتج معرفة. إذن ثمة تجارب ممكنة خارج التجارب التي تمنحها الحياة (...) تتواجد الروح بشكل متتابع في مواجهة مرايا، متعددة، كل منها يُمثل فرصة لتعلم شيء ما من جديد. يبقى أن نعرف ما إذا كانت هذه المعرفة تأتي بالفعل من الخارج أم أنها ليست إلا إنعكاساً يأتي من الداخل ثم يعود إليه في شكل وعي تكميلي يُضاف إلى الوعي السابق (...)

يمكننا أن نُضيف حكايات الرؤى هذه إلى ما كان يُمثل المادة الأولية للروائيين في الغرب، معرفة التجارب «المادية» للحياة، محن التعلم، أو أولئك الذين يهتمون بالتحليل النفسي، الأحلام، الزلات أو الأفعال الخائبة، الذين يكشفون عن نشاط خارج السيطرة للعقل الواعي. لدينا هنا مادة أولية أخرى، أو على الأقل يمكن اعتبارها أخرى بسبب نقص في التنظير للاوعي. ليس الوعي المسبق أو اللاوعي هو من يولد الاستيهامات، وحتى التصورات التخيلية الخادعة. لكنه الوعي الذي يتلقى حكايات الرؤى والذي يعطيها معنى عبر تنظيمها في إطار التحليل الإنساني المستخدم في الغرب.

تخرج الروح من ذاتها لكنها تحتفظ بوحدتها. ستذهب إلى ما هو خارج عن المألوف بالابتعاد عن هويتها، وهو ما يُسمى الغربة أو النفي.

سيكون المنفى الوسيلة التي ستنتج سلسلة معتبرة من الحكايات المعتمدة على الرؤى. لكن النفي سيُستخدم أيضاً كأداة لا غنى عنها حتى يصبح الموضوع تعدداً في المنطوقات (...) سيصبح الموضوع إذن على مدار ارتحاله موضوعاً متجاوزاً للفرد. سيصبح أيضاً موضوعاً - لا واعي يكتسب معرفته بذاته من خلال الآخرين - سيكتشف هكذا ما أسماه كوربان عالم المثال، ليس صوراً بل تجارب تعتمد على الرؤى التي تتحقق في الملكوت أو عالم الأرواح.

١ ـ أوراق شاب عاش منذ ألف عام (مجموعة قصصية)
١٩٦٩ ـ نفقة المؤلف

٢ ـ أرض.. أرض (مجموعة قصصية)
١٩٧٢ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣ ـ الزويل (رواية)
١٩٧٤ بغداد ـ وزارة الإعلام

٤ ـ الزيني بركات (رواية)
١٩٧٤ دمشق ـ وزارة الثقافة

٥ ـ وقائع حارة الزعفراني (رواية)
١٩٧٦ القاهرة ـ دار الثقافة الجديدة

٦ ـ الحصار من ثلاث جهات (مجموعة قصصية)
١٩٧٥ دمشق ـ اتحاد الكتاب العرب

٨ ـ ذكر ماجرى (مجموعة قصصية)
الطبعة الأولى ١٩٧٨ القاهرة ـ مكتبة مدبولي

٩ ـ الرفاعي (رواية)
١٩٧٨ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب

١٠ ـ خطط الغيطاني (رواية)
الطبعة الأولى ١٩٧٨ بيروت ـ دار المسيرة

١٢ ـ إتحاف الزمان بحكاية جلبي السلطان (مجموعة قصصية)
١٩٨٥ القاهرة ـ دار المستقبل العربي

١٣ ـ رسالة في الصبابة والوجد (رواية)
١٩٨٧ القاهرة ـ روايات الهلال

١٤ ـ دفتر العشق والغربة
١٩٨٨ ـ هيئة الكتاب

١٤ ـ رسالة البصائر في المصائر (رواية)
١٩٨٨ القاهرة ـ روايات الهلال

١٥ ـ شطح المدينة (رواية)
١٩٩٠ القاهرة ـ روايات الهلال

١٦ ـ هاتف المغيب (رواية)
الطبعة الأولى ١٩٩٢ القاهرة ـ روايات الهلال

١٧ ـ ثمار الوقت (مجموعة قصصية)
الطبعة الأولى ١٩٨٩ القاهرة ـ كتاب اليوم

١٨ ـ منتصف ليل الغربة (مختارات قصصية)
١٩٨٤ ـ الهيئة المصرية للكتاب

١٩ ـ أحراش المدينة (مختارات قصصية)
١٩٨٥ القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم ـ كتاب اليوم

٢٠ ـ نفثة مصدور
١٩٩٣ سعاد الصباح

٢١ ـ شطف النار (مجموعة قصصية)
١٩٩٦ القاهرة ـ هيئة قصور الثقافة

٢٢ ـ مطربة الغروب (مجموعة قصصية)
١٩٩٦ القاهرة ـ دار الحضارة العربية

٢٣ ـ سفر البنيان (رواية)
١٩٩٧ القاهرة ـ روايات الهلال

٢٤ ـ مقاربة الأبد (نصوص قصصية)
١٩٩٧ ـ نهضة مصر

٢٥ ـ حكايات المؤسسة (رواية)
١٩٩٧ القاهرة ـ دار الشروق

٢٦ ـ خلسات الكرى (دفتر التدوين الأول)
١٩٩٨ القاهرة ـ دار شرقيات

٢٧ ـ دنا فتدلى (دفتر التدوين الثاني)
الطبعة الأولى ١٩٩٩ القاهرة ـ دار الحضارة العربية

٢٨ ـ متون الأهرام (مجموعة قصصية)
١٩٩٤ القاهرة ـ دار شرقيات

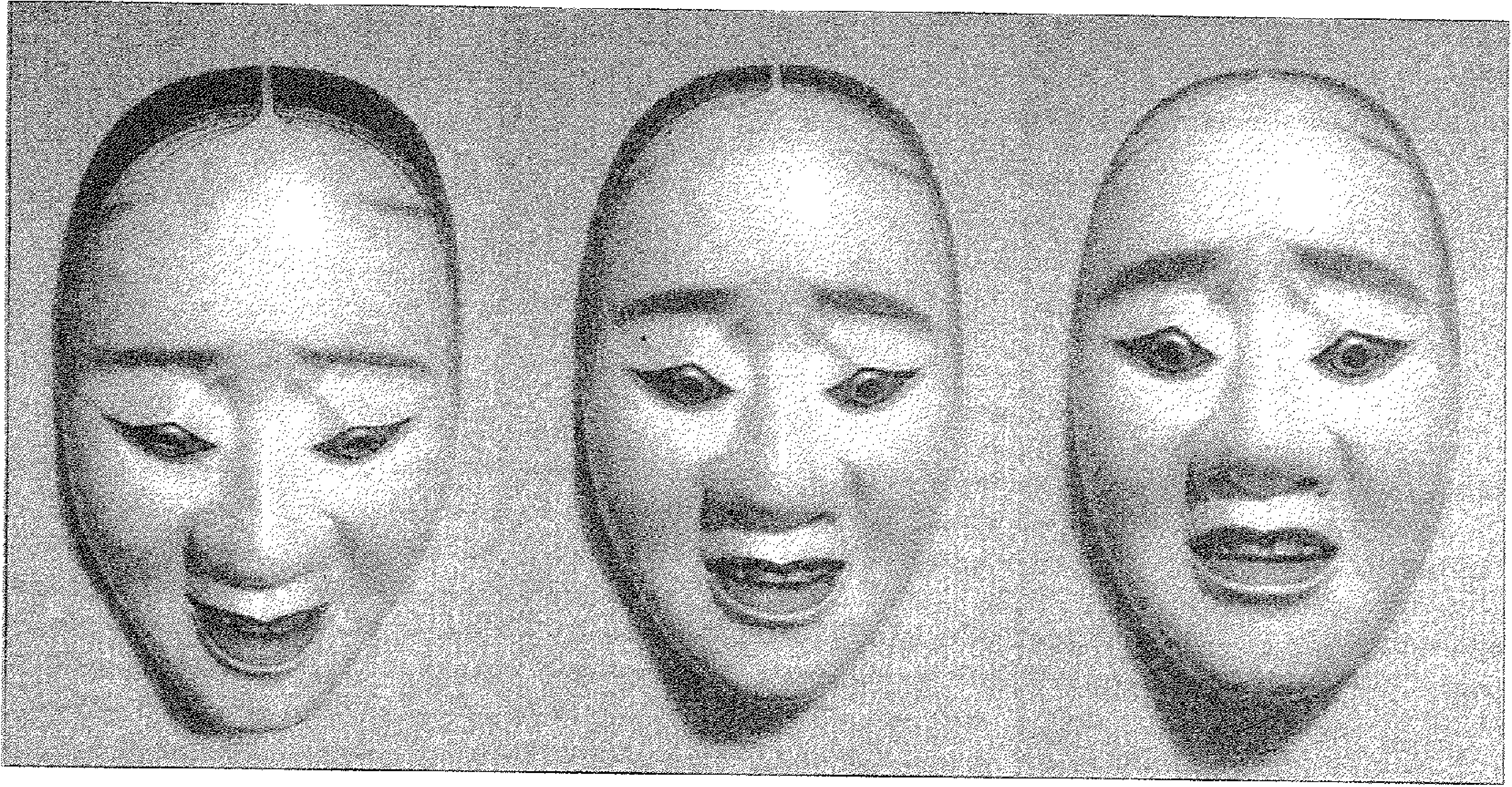
٢٩ ـ حكايات الخبيئة (مجموعة قصصية)
٢٠٠٢ القاهرة ـ دار الشروق

٣٠ ـ رشحات الحمراء (دفتر التدوين الثالث)
٢٠٠٣ القاهرة ـ دار الشروق

٣١ ـ نوافذ النوافذ (دفتر التدوين الرابع)
٢٠٠٤ القاهرة ـ دار الشروق

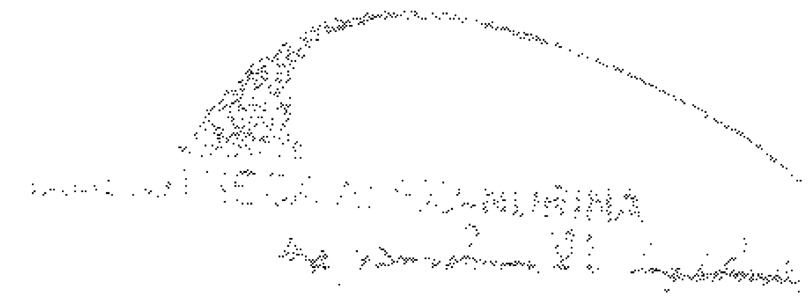
٣٢ ـ نثار المحو (دفتر التدوين الخامس)
٢٠٠٥ القاهرة ـ دار الشروق

٣٣ ـ رن (دفتر التدوين السادس)
٢٠٠٨ القاهرة ـ دار الشروق



ثلاث صور لقناع واحد تبين كيف يتغير تعبيرات الوجه بتحريك الرأس الى أعلى وأسفل

فنون يابانية





وليد محمود عبد الناصر

يتسم الشعب اليابانى بخاصية تميزه عن غالبية شعوب الأرض الأخرى، وأعنى هنا هذا العشق المتناهى واللا محدود للفنون، وهذا التذوق رفيع الحس لكافة تنويعاتها. يصدق هذا على الفنون التقليدية والحديثة على حد سواء، كما يصدق على الصغار والكبار، الرجال والنساء، الأغنياء والفقراء، أهل الريف وسكان الحضر. ويقول البعض أن هذا الولع بالفنون ناتج عن كون اليابانيين ينتمون إلى حضارة عريقة تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ، وبالتالى فهم، مثل المصريين، لديهم تراكم تاريخى من إتقان الفنون، أداء ومتابعة ومشاهدة وتفاعل، والانجذاب اليها والاحساس بها والتوحد معها فى تجربة شعورية متكاملة واندماج عاطفى نشيط.

سنكتفى هنا بثلاثة أمثلة على سبيل المثال لا الحصر لفنون يابانية أجادها اليابانيون عبر التاريخ، أولها فن تقليدى يابانى هو مسرح «النوه»، أو فن الاقنعة، أما الفنان الأخران فهما معاصران وهما السينما والموسيقى الحديثة.

أولاً: مسرح «النوه» اليابانى وجدل العلاقة بين المطلق والمعاش:

يتميز الشعب اليابانى بقدرته على الحفاظ على موروث ثقافى وفنى ثرى ومتنوع فى آن واحد. حافظ اليابانيون على هذا الموروث، بل وطوروه وسعوا للترويج له فى بقية أنحاء العالم عبر تطبيق عملى لمفهوم «دبلوماسية الثقافة»، وذلك بالرغم من جهودهم التحديثية التى بدأت فى القرن التاسع عشر، وأيضاً بالرغم من الحديث عن تعرضهم لرياح التغريب بقوة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

ويضم هذا الموروث الثقافى نطاقاً متنوعاً من الأنشطة والفنون، من بينها «فن الأقنعة»، نظراً لأن المؤدين الرئيسيين فيه يرتدون أقنعة تمثل وجوه الشخصيات التى من المفترض أنهم يؤدونها مع تواجد أعضاء فرقة العزف الموسيقى بالآلات التقليدية المصاحبة للعرض وبعض المؤدين الفرعيين بدون أقنعة، وهو فن يطلق اليابانيون عليه أيضاً تعبير مسرح «النوه». وقد جاء هذا الفن أصلاً إلى اليابان قادماً من الصين فى القرن الرابع عشر الميلادى. وجاء ملتصقاً بشكل واضح بالديانة البوذية، التى جاءت بدورها أيضاً من الصين ضمن دول أخرى وردت البوذية إلى اليابان منها، مثل كوريا والهند ومنغوليا وأفغانستان. وبالرغم من هذه الأصول البوذية لمسرح «النوه»، فإنه سرعان ما اختلط فى اليابان بالديانة الأصلية لليابانيين، ألا وهى الشينتوية، بحيث أصبح يخلط فى موضوعاته بين المعابد البوذية والأضرحة الشينتوية وبين الحديث عن حكمة بوذا وتعاليمه وتماثيله من جهة وبين «آلهة» و«أرواح» الديانة الشينتوية من جهة أخرى. وتميز فن «النوه» منذ البداية حتى الآن بعدم لعب النساء أى دور فيه، اللهم إلا العزف الموسيقى فى الخلفية ضمن الجوقة الموسيقية المصاحبة للعرض والمتواجدة عادة فى خلفية خشبة المسرح أو أحد جانبيها. ولا يعنى هذا عدم وجود شخصيات نسائية فى العرض ذاته، ولكن يؤدى أدوار هذه الشخصيات النسائية رجال يرتدون أقنعة نسائية بحسب طبيعة وخصائص الشخصية المطلوب أداء دورها.

ويقترب هذا الفن من جهة من فن الأوبرا أكثر من اقترابه من فن المسرح التقليدى، وذلك نظراً لأن مسرح «النوه» يوظف خليطاً متناغماً من الموسيقى والغناء والرقص هادئ الخطوات، ولكنه راسخها، مع اللجوء أيضاً على فترات إلى الحوار الذى يتراوح بين الحوار المسرحى والتقليدى والحوار الأوبرالى. إلا أنه بالمقابل، وعلى الصعيد الموضوعى، فبينما ترتبط فصول الأوبرا ببعضها البعض بوحدة الموضوع، فإن مسرح «النوه» يقدم فى كل فصل من فصوله قصة مختلفة غير ذات صلة بالقصتين أو أكثر اللتين يتم تناولها فى بقية فصول نفس العرض. كما يتصف الاداء على خشبة مسرح «النوه» بخصوصية أخرى هى أن خطوات المؤدين على الارض يفترض أنها تعكس انطلاق أصوات الرعد فى السماء، وهو أمر يعود مرة أخرى، فى جزء منه على الاقل، إلى الطابع الدينى الأصلى لفن «النوه». كما أن عدد هذه الخطوات تعتبر ذات دلالة فى سياق العمل الفنى المقدم على المسرح. كذلك يصف المتخصصون فى فن «النوه» بداية العمل المعروض بأنه يتسم بالرتابة وطول المقدمة والتمهيد مما يصيب أحياناً بعض المشاهدين بقدر من الملل قبل أن يصبح العرض جاذباً للانتباه والتشويق.

وتتعدد الموضوعات التى تتناولها عروض فن «النوه» المسرحى، فهناك بالطبع الموضوعات ذات الطابع الدينى، وهو أمر مفهوم فى ضوء المنشأ الدينى لهذا الفن أصلاً، ولكن حتى عندما تتناول العروض موضوعات دينية، فإنها تربطه فى الغالب بموضوعات دنيوية، وقليلاً ما تقيد الموضوعات فى حدود المطلق المنفصل الصلة عن الواقع المعاش. ومن أمثلة المزج بين الدينى والمعاش، إبراز أن تجول رجال الدين - سواء بوذيين أو شينتويين (وهما الديانتان الرئيسيتان فى اليابان) - فى أنحاء اليابان لا يأتى فقط بغرض زيارة معابد بوذية أو أضرحة شينتوية فى مدن أو قرى أخرى فى مناطق مختلفة من اليابان، وإنما باعتبارها جزءاً من رحلة رجال الدين هؤلاء للبحث عن الحكمة والتطلع للمزيد من المعرفة، بالإضافة إلى التعرف على عادات وتقاليد دينية، ولكن أيضاً ثقافية واجتماعية، لسكان أقاليم من اليابان غير الإقليم الذى أتى منه أصلاً رجل الدين الذى يقوم بالتجول. وهناك أيضاً هدف الاطلاع على حقائق جغرافية واقتصادية فى بقية أنحاء البلاد، مثل ملامح الأنشطة التى تجرى على

يضم الموروث الثقافى اليابانى نطاقاً متنوعاً من الأنشطة والفنون، من بينها «فن الأقنعة»



ضفاف الأنهار، أو بين سكان المناطق الجبلية. ونجد فى هذا السياق فى بعض النصوص وصفاً فنياً راقياً لمدى سرعة تدفق المياه فى مجارى الأنهار ولتحول المياه من مجرى جارف إلى قطرات متفرقة ومشهد ذوبان الجليد على قمم الجبال ثم تدفق المياه عبر السفوح لتصب فى مجارى الأنهار وتغير شكل الشلالات. وكذلك نتعرف على دور الرجال والنساء والشباب وكبار السن فى تلك الأنشطة التى تجرى فى البلدات الأخرى.

ولكن بالإضافة إلى الموضوعات ذات البعد الدينى، فهناك حزمة أخرى من القضايا التى يتناولها مسرح «النوه»، من بينها القصص التاريخية القديمة من تاريخ اليابان، وهناك أيضاً قصص الحب الرومانسية الخالدة فى اليابان، خاصة أن اليابانيين يعتزون بأن أقدم قصة حب شهيرة فى تاريخ آسيا - على وزن قصة «روميو وجوليت» الشهيرة فى الذاكرة التاريخية الغربية والعالمية - جاءت من اليابان وليس من الصين، بل وقبل أهم قصة حب فى تاريخ الصين بفترة تمتد من حوالى قرنين إلى ثلاثة قرون. وبجانب قصص التاريخ والحب فهناك موضوعات تعالجها وتقدمها عروض «النوه» مستوحاة من قصص خيالية أقرب للروايات وليس لها أساس تاريخى أو دينى. ومن الموضوعات التى يتم تناولها فى هذا النوع من المسرح هى تلك ذات الطابع الكوميدى، وهى بدورها غير مقطوعة الصلة بما سبق، أى أنها يمكن أن تكون كوميدية مستوحاة من وقائع تاريخية، أو من وحى قصص خيالية، بل قد تكون ذات صلة بموضوعات دينية. وأخيراً هناك موضوعات تتصل بالعلوم وكذلك بالرياضات القتالية، وهى موضوعات هامة فى المجتمع، بحسب اليابانيين، منذ آلاف السنين.

وسنعرض هنا لثلاثة موضوعات كنماذج لما يتم تناوله من قصص فى عروض مسرح «النوه». أما النموذج الأول فيتعلق برحلة كاهن شينتوى ترك الضريح الشينتوى الذى يعمل ويتعبد به ليتوجه فى رحلة طويلة ومرهقة أملاً فى الوصول إلى ضريح شينتوى آخر بعيداً عن موقعه الأصلى يزوره لأول مرة للتعبد فيه. وتستهدف الرحلة البحث عن الحكمة، وهو مسعى نجده مشتركاً لدى مختلف الأديان ولدى رجال الدين على تعدد انتماءاتهم وأزمنتهم. ويصطحب رجل الدين الشينتوى معه فى رحلته اثنين من مريديه وتلاميذه ممن يتطلعون إلى التعلم منه. ويشرح الكاهن الشينتوى لتابعيه كيف أن التضرع إلى الله يفترض وجود نية صادقة لدى الداعى ويقيناً بأن الله قادر على إزالة الشرور من العالم وجعل الأمور على الأرض تسير وفق المعايير السليمة والحقة. وعندما يصل رجل الدين الشينتوى إلى منتهى رحلته، فإنه يعرب عن سعادته بالوصول وزيارة الضريح الشينتوى المقصود بالرحلة، كما يبدى إعجابه بما وجده من مظاهر احتفالات على ضفاف النهر فى البلدة التى يوجد بها هذا الضريح، ولكنه أيضاً يستفسر عن مغزى ارتداء النساء للون الأبيض على ضفاف النهر وعما إذا كان لهذا الأمر مدلولات دينية يهمه التعرف عليها والاستفادة منها. وعلى الجانب الآخر، فإن كهنة الضريح المقصود بالزيارة يبدون سعادتهم بزيارة الكاهن وتابعيه لضريحهم ويعتبرون ذلك الأمر مصدر فخر لهم، ويبدأون فى الرد على أسئلة الكاهن الزائر، ليس فقط من خلال سرد المسائل الدينية، بل اختلاطها بخصائص جغرافية واقتصادية للمنطقة التى يوجد بها الضريح والملامح المميزة لسكانها وطبيعتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأنشطتهم الاقتصادية. ولا تقتصر الردود على إجابات الكاهن الزائر على كهنة الضريح والمعتنين به، بل تظهر «الأرواح» و«الآلهة» الشينتوية ترتدى الأقنعة المختلفة الدالة على ما يجسده كل منها فى العقيدة الشينتوية، وتبدأ بدورها فى التفاعل مع الكاهن الزائر ومريديه. وبالتالى نجد بوضوح فى هذه القصة، أنه بالرغم من أساسها الدينى، فإن الأبعاد الدنيوية تتداخل بالبعد الدينى، ويختلط المقدس بالدنيوى، حيث نرى خلال العرض ظهوراً لبعض «الآلهة» أو «الأرواح» بحسب المعتقدات الشينتوية.

أما النموذج الثانى فيتناول موضوعاً كوميدياً، ولكنه ليس منقطع الصلة بالدين، ولكن هذه المرة يتعلق بالديانة البوذية وليس بالشينتوية. وتكمن القصة هنا فى شخص قروى، محدود الخبرة، لم يغادر قريته من قبل، مؤمن بالبوذية عن صدق واقتناع راسخ، إلى درجة أنه قام ببناء معبد بوذى فى قريته، ولكن يلزمه تماثيل لوضعها فى المعبد، ولم يجد فى قريته أو القرى المحيطة نحاتاً قادراً على نحت تمثالاً كبيراً لبوذا أو لحراس المعبد، الأمر الذى دفعه إلى التوجه إلى المدينة بحثاً عن ضالته. ويلتقى هناك بشخص «محتال» يوهمه أنه نحات متخصص فى تماثيل «بوذا» وحراس المعابد، ويطلب منه سداد قيمة التماثيل مقدماً حتى يتسنى له تسليمه التماثيل المطلوبة. ويوهمه أنه يستطيع تسليمه التماثيل فى اليوم التالى مباشرة(!) ويذهب إلى حد تخيير القروى بين أوضاع مختلفة لبوذا لاختيار ما يفضله منها بحيث يجسده النحات فى التمثال الذى سينحته. ويصدق القروى ما تقدم، ليعود فى اليوم التالى ليكتشف بشكل تدريجى ما تعرض له من خديعة على يد المحتال، وتنتابه الصدمة للحظات من جراء ذلك ولكنه لا يلبث أن يمسك بالمحتال الذى ادعى أنه نحات ويشبعه ضرباً انتقاماً منه. وهكذا نرى فى هذه القصة الاحتيال باسم الدين، وهو أمر ليس مقصوراً على البوذية بل موجود فى كل الأديان، سواء كان هذا الاحتيال لأغراض الكسب المادى أو لتحقيق زعامة سياسية أو سيطرة فكرية أو ثقافية على عقول البشر. كما نجد فى القصة أيضاً رؤية للعلاقة بين الحضر والريف وسكان كل منهما وخصائصهم، مع انتقاد ضمنى للاحتيال من جانب وللبراءة المبالغ فيها التى تقترب إلى حد السذاجة فى بعض الأحيان من جانب آخر.



وثالث النماذج التى نعرض لها هنا فى إطار تصفح قصص تقدم ضمن انتاج مسرح «النوه» اليابانى، هو قصة حب قديمة دارت فى إطار العائلة الامبراطورية اليابانية فى زمن بعيد سابق، حيث نشهد معاناة سيدة تنتمى إلى الأرستقراطية وتتصف بالجمال والأناقة والشباب، ولكنها عانت من هجر حبيبها، ويجىء إليها الناس ليستمعوا إلى قصتها، وكلما روت للمستمعين قصة حبها وما تعرضت له من جفاء الحبيب وتآمر امرأة أخرى تنافسها على حب نفس الرجل، ساءت حالتها المعنوية والنفسية أكثر. ويسعى أحد الكهنة الشينتويين إلى علاج المرأة باعتبار أنه وصف حالتها بأن المرأة التى تنافسها قامت بإعداد «سحر» أو «عمل» لها جعلها مسكونة بالأرواح الشريرة. وبغرض القضاء على مفعول هذا «العمل»، يطلب الكاهن مجيء كاهن آخر متخصص فى إخراج الأرواح الشريرة من أجساد البشر. ويقوم هذا الكاهن الآخر بدوره باستدعاء الأرواح الخيرة والآلهة لإخراج الأرواح الشريرة من داخل السيدة. ونجد على خشبة المسرح السيدة الارستقراطية وبداخلها الارواح الشريرة لا تزال تتصرف بنعومة ورقى وذوق بالرغم من الشيطان الذى بداخلها، وتبرير ذلك فى القصة أن «الارواح الشريرة» من الذكاء بحيث تقلد الطريقة المعتادة لتصرف وحديث السيدة الأرستقراطية فى الظروف العادية حتى لا تثير الشكوك حول وجودها بداخل السيدة. وهنا، وللمرة الثالثة، نرى التداخل فى المعالجة الدرامية بين الدينى والعاطفى والإنسانى والتاريخى والطبقى. كما نتعرف على الدسائس داخل الطبقة الأرستقراطية وفيما بين أفرادها، بما فيها العائلة الامبراطورية ذاتها، خلال حقبة هامة سابقة من تاريخ اليابان.

وبالطبع نرى فى العديد من قصص «النوه» التداخل مع الواقع السياسى أيضاً، ويعود ذلك أولاً للعلاقة بين الدين والسياسة فى اليابان القديمة، حيث كان ينظر إلى الامبراطور باعتباره ذا طبيعة إلهية، وإلى رعاية الامبراطور للدين والحفاظ عليه وحمايته من التهديدات المحيطة به. أما السبب الثانى فهو السعى لاستخدام الدين من جانب البعض للدفاع عن الامبراطور، ثم السبب الثالث وهو اعتبار العائلة الامبراطورية رمزاً للارستقراطية بما يعنيه ذلك من السعى لتقليد طريقة تحدث وسلوك هذه العائلة رجالاً ونساء باعتبار ذلك منتهى الرقى. ولكن على الجانب الآخر، يبحث مسرح «النوه» فى المؤامرات التى تحاك داخل العائلة الامبراطورية والضغائن الموجودة بين أفرادها.

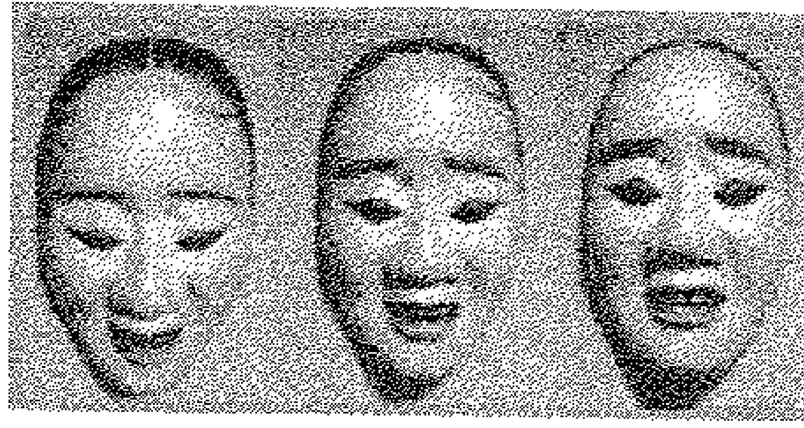
ويظهر تأثير التفاعل مع الأديان والثقافات الأخرى واضحاً بالنسبة لمسرح «النوه»، عندما نرى نصاً يعرض يتناول حالة امرأة انطلق سهم مجهول المصدر على برميل المياه الخاص بها فانتزعته ووضعته فوق سقف منزلها، فإذا بالمرأة تحمل جنيناً فى أحشائها بالرغم من عدم وجود علاقة بينها وبين رجل تؤدى بها إلى هذا الحمل. وأنجبت هذه المرأة طفلاً ذكراً، وعندما بلغ ابنها سن الثالثة سئل «من هو أبوك؟»، فأشار إلى السهم، وفسر الناس ذلك بأن هذا الولد هو «ابن الإله» باعتبار أن هذا السهم المجهول المصدر جاء من عند «الإله»، ومن ثم اكتسبت الأم أيضاً نوعاً من القداسة واعتبرها البعض «إلهة». وهنا يبدو جلياً تأثير العقائد المسيحية، مع بعض الاختلافات بالطبع. علماً بأن هذه القصة اليابانية تعود إلى القرن الحادى عشر الميلادى. كما أننا فى أحد عروض «النوه» نجد امرأة تعظ الآخرين بأن المسح من مياه النهر الذى يمر بالقرية على جبهة





يظهر تأثير التفاعل مع الأديان والثقافات الأخرى واضحاً بالنسبة لمسرح «النوه»





فنـــون يابانيـــة

الإنسان يؤدى إلى تطهير القلب، وهى قناعة نراها أيضاً فى عدد آخر من العقائد الدينية المعروفة.

وخلال مختلف عروض فن «النوه»، فإننا نلحظ ولا نخطىء اعتزاز الشعب اليابانى بجذوره التاريخية وإسهامه الحضارى وحسه الثقافى والفنى المرهف، والجمع بين ذلك وبين السعى للامتاع والاتقان التقنى للعمل من جميع جوانبه.

ويبقى أن نقول أن مسرح «النوه» تم تقديمه فى مصر عام ٢٠٠١، وتحديداً أمام تمثال أبو الهول بمنطقة الأهرامات بمحافظة الجيزة. وقد جسد ذلك أن كلاً من فن «النوه» التقليدى وأبو الهول ينتميان إلى الإرث الإنسانى العالمى المشترك، وتم تقديم هذا العرض ذى الجذور الحضارية والتاريخية التى تعود إلى أكثر من سبعة قرون أمام أبو الهول الذى يمثل إحدى أقدم وأعرق الحضارات الإنسانية وأكثرها إسهاماً فى إثراء البشرية وتقدمها والتى تعود بجذورها إلى أكثر من سبعة آلاف سنة، ألا وهى الحضارة الفرعونية المصرية القديمة.

ثانياً: السينما اليابانية

وننتقل الآن إلى فن حديث ومعاصر، وأقصد الفن السابع، أو فن السينما، حيث احتفل مهرجان طوكيو السينمائى الدولى بمرور عشرين عاماً على انطلاقه فى أكتوبر ٢٠٠٧. وتزامن ذلك مع تقدم الوضعية الدولية والإقليمية لهذا المهرجان. فقد أضحى مهرجان طوكيو أكبر مهرجان سينمائى فى آسيا، كما أنه بات يصنف كواحد من أهم مهرجانات السينما فى العالم فى مصاف مهرجانات كان وفينيسيا وبرلين وغيرها من كبريات مهرجانات السينما العالمية. وبهذه المناسبة شهد المهرجان فى دورته العشرين، بالإضافة إلى الدورة المعتادة لمسابقة الجوائز لأفلام من مختلف أنحاء العالم، مهرجانات متنوعة فرعية اختلفت فى كيفية التناول من حالة لأخرى.

وقد شهد مهرجان طوكيو السينمائى الدولى تطويراً كبيراً على صعيد زيادة عدد النجوم اليابانيين والعالميين المشاركين فيه بالإضافة إلى التنوع الكبير للأفلام المعروضة من خلاله حيث شملت كلاً من الأفلام الروائية القصيرة والطويلة والتسجيلية وكذلك الأفلام الكارتونية المصورة (المانجا/ Animation) والتى تتمتع بشعبية كبيرة فى اليابان، سواء بين الكبار او الصغار على حد سواء، وكذلك غيرها من الأفلام.

وفى إطار المسابقة الرسمية تم عرض خمسة عشر فيلماً، نذكر منهم تحديداً فيلمين من الانتاج المشترك فيهما طرف غير عربى من الشرق الأوسط: وهما فيلم إسرائيلى فرنسى مشترك، وآخر إيرانى يابانى مشترك، وهو أمر يدعو السينما المصرية للعودة من جديد للاستفادة القصوى من فرص وإمكانيات الانتاج المشترك وما يتيحه من مزايا وفوائد تمويلية وفنية وتجارية وجماهيرية، دونما مشروطيات ذات طابع قيمى.

وضمن المهرجانات الفرعية كان هناك مهرجان للأفلام ذات الإنتاج اليابانى الصينى المشترك، عرض لتطور هذا الإنتاج المشترك، سواء مع الصين ككل أو مع هونج كونج، كما سمح بتحليل تطور هذا الإنتاج المشترك من حيث عوامل الإنتاج وأدواته المختلفة، ومساهمة كل جانب فى هذا الانتاج المشترك وطبيعته وعناصره، وذلك بحسب تميز كل من الدولتين فى المجالات المختلفة.

كما كان هناك مهرجان فرعى ثانى قدم رؤية بانورامية لتطور السينما اليابانية، والتى شهدت بدورها طفرة للامام خلال العقود الماضية، وفى العقد الأخير على وجه الخصوص، سواء من حيث الموضوعات التى يتم تناولها أو القدرات الفنية أو الإمكانيات المادية أو النجوم من الممثلين والمخرجين وغيرهم.



كما تم تنظيم مهرجان فرعى ثالث للافلام التى تناولت العاصمة اليابانية طوكيو، وكان الهدف من هذا المهرجان الفرعى الثالث هو رصد التطور الحضرى والجمالى والإيكولوجى والمجتمعى بمدينة طوكيو، بما فى ذلك تطور أنماط العلاقات الأسرية والاجتماعية، وطبيعة الأنشطة الاقتصادية من إنتاجية وخدمية، بالإضافة إلى احتفالات العاصمة وأهلها.

أما المهرجان الفرعى الرابع والأخير الذى أقيم على هامش فعاليات مهرجان طوكيو السينمائى الدولى العشرين، فكان مخصصاً لسينما آسيا والشرق الأوسط وهو الذى شاركت مصر من خلاله بفيلمى «أحلى الأوقات» و«قص ولصق» وكلاهما من إخراج الفنانة المبدعة هالة خليل. كما دعا المهرجان المخرجة للحضور كأحد ضيوف شرف المهرجان. هذا، وقد ساهمت إدارة المهرجان فى تعريف المشاهد اليابانى بالسينما المصرية الراهنة، بل وبمجمل تطور الفنون والثقافة والمجتمع فى مصر المعاصرة بشكل عام، وذلك عبر ترجمة الفيلمين إلى اللغة اليابانية. وكانت آخر مشاركة لأفلام مصرية فى مهرجان طوكيو السينمائى الدولى عام ١٩٩٨ بمشاركة فيلم «المصير» من إخراج الفنان الكبير يوسف شاهين، وبحضور المخرج يوسف شاهين نفسه وإلى جانبه كل من نجمى الفيلم الفنانين هانى سلامة ومحمد منير. وعاد المهرجان فى دورته الحادية والعشرين فى أكتوبر ٢٠٠٨ ليعرض فيلم «باب الحديد» من إخراج الفنان يوسف شاهين بمناسبة رحيله، وكان لى شرف تقديم الفيلم والتعليق عليه وعلى أهميته، سواء فى سياق سينما يوسف شاهين أو فى إطار مجمل نمط تطور السينما المصرية.

والشىء بالشىء يذكر، فهناك إنتاجان سينمائيان مشتركان بين مصر واليابان هما فيلم «عاصفة العرب» بطولة الفنانة الكبيرة «شادية»، وبعده بسنوات طويلة فيلم «النيل» بطولة الفنانة «رانيا يوسف»، والذى شارك فى بطولته عالم المصريات اليابانى الشهير «يوشيمورا»، والذى مثلت ابنته «كانان» بدورها فى عدة أعمال درامية مصرية فى السنوات الأخيرة.

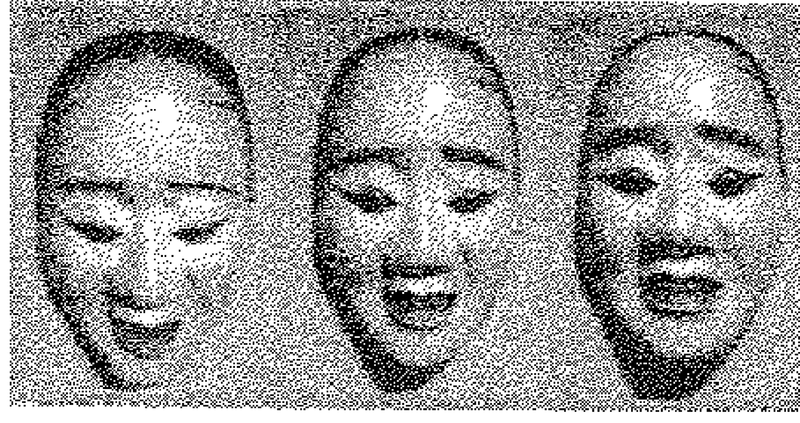
ولا شك أن المشاركة المصرية فى المهرجان والفعاليات الثقافية والفنية المرتبطة به وتلك التى أقيمت على هامشه بعد طول انقطاع قد أسهمت فى تحقيق مزيد من التواصل بين النخب الثقافية والفنية على تعددها وتنوعها فى المجتمعين المصرى واليابانى، كما أنها قدمت صورة عن المجتمع المصرى المعاصر بما يعمل على زيادة وعى المجتمع اليابانى بما يجرى فيه، وبما يتجاوز ويضيف إلى حالة الولع اليابانى بمصر الفرعونية، وهو ولع يستطيع المرء بسهولة تبينه من خلال ما تقدمه وسائل الإعلام اليابانية من برامج وأفلام وثائقية وتسجيلية عن الحضارة المصرية القديمة وإنجازاتها وآثارها.

كما كانت مصر حاضرة بشكل غير مباشر فى الجائزة النهائية للمسابقة الرسمية حيث ان الفيلم الفائز كان من انتاج فرنسى إسرائيلى مشترك بعنوان «زيارة الفرقة الموسيقية»، وهو من إنتاج عام ٢٠٠٧ من تأليف وإخراج المخرج الإسرائيلى «إيران كوليرين» (٣٤ سنة) ويصنف على أنه يجمع بين الكوميديا والدراما، ويتناول الفيلم قصة خيالية عن زيارة فرقة موسيقية مصرية إلى إسرائيل لتقديم عروض موسيقية هناك إلا أنها تضل الطريق فى الصحراء بعدما لا تجد أحداً فى استقبالها بالمطار، ويلتقى أعضاء الفرقة مع سكان قرية منعزلة عن العمران وتتصاعد الأحداث بين الجانبين، ويدور معظم الحوار فى الفيلم إما باللهجة المصرية للغة العربية أو باللغة الانجليزية. ومن الجدير بالذكر أن الفيلم سبق له الفوز بعدة جوائز فى عدد من المهرجانات الدولية آخرها مهرجان كان السينمائى فى مايو ٢٠٠٧، وأشار المخرج الإسرائيلى للفيلم فى تصريحات له للصحافة ووسائل الإعلام اليابانية أن فكرة هذا الفيلم جاءت نتيجة تأثر بمشاهدة العديد من الأفلام المصرية خلال حقبة الثمانينيات من القرن العشرين.

ولم يقتصر التفاعل اليابانى المصرى على الصعيد السينمائى على الدورة العشرين لمهرجان طوكيو السينمائى الدولى، حيث انه ضمن أنشطة المؤتمر اليابانى العربى الموسع الذى استضافته مكتبة الاسكندرية فى نوفمبر ٢٠٠٧، كان قد تم الاتفاق على عرض فيلم روائى سينمائى يابانى وآخر مصرى. وبالفعل تم عرض فيلم «ساموراى الغروب» للمخرج اليابانى الشهير «يامادا» وبحضور المخرج ذاته، كما عرض معه فيلم «المومياء» للراحل الكبير شادى عبد السلام. ويعتبر فيلم «ساموراى الغروب» هو الرد اليابانى على فيلم هوليوود الشهير «الساموراى الأخير» الذى قام ببطولته النجم السينمائى «توم كروز»، حيث يقدم الرؤية السينمائية اليابانية المعاصرة، ذات الجذور فى التقاليد اليابانية، مقابل الرؤية السينمائية الغربية، خاصة الأمريكية، لهذه الفئة الهامة والمؤثرة فى تاريخ اليابان. وكان فيلم «المومياء» هو أفضل مقابل للفيلم اليابانى المعروض لأنه قدم بدوره رؤية مصرية معاصرة، ولكنها أصيلة، للتفاعل داخل المجتمع المصرى مع الآثار الفرعونية وحقيقة الارتباط بين الحقبة الفرعونية بمعطياتها الحضارية وبين المواطن المصرى الحديث والمعاصر.

خلال مختلف عـروض فـن «النـوه»، فإننـا نلحـظ اعتـزاز الشـعب اليـابانى بجـذوره التاريخيـة وإسـهامه الحضـارى





فنـــون يابانيـــة

ثالثاً - عاطف حليم

الفنان عاطف حليم فنان مصرى أصيل ولد فى مدينة الاسكندرية لأب مصرى وأم فرنسية وعشق الموسيقى منذ نعومة أظافره، وتطلع إلى أن تكون هوايته وعمله وحياته كلها، ولكنه رأى أن طموحه فى تعلم وإجادة واحتراف العزف الموسيقى - خاصة الكمان - لا تلبية الإمكانيات الموجودة فى الثغر السكندرى، بل وفى مصر بأسرها. واستمر يتشبث بهذا الأمل - الحلم، وعندما بلغ سن الثالثة عشرة كان قد نجح فى جمع قيمة تذكرة السفر إلى فرنسا عن طريق البحر، وتحديداً لشراء أرخص التذاكر وأقلها قيمة، وهو ما مكنه من أن يحظى بغرفة شديدة التواضع على متن إحدى السفن المتجهة من الاسكندرية إلى أحد الموانئ الفرنسية.

وخلال هذه الرحلة البحرية فوجئ قبطان السفينة بأن عاطف حليم ابن الثلاثة عشر ربيعاً يسافر على السفينة بمفرده ودون أن يكون مصاحباً لشخص آخر بالغ مسافر على نفس الرحلة. ويسأل القبطان الفتى لماذا يغامر ويسافر وحده إلى فرنسا؟ وكان رد الفتى بسيطاً وواضحاً وقاطعاً فى نفس الوقت: بأنه يجيد العزف على الكمان ولكنه يأمل فى أن يصل فى عزف هذه الآلة إلى القمة، وانه يعتبر أن فرنسا هى بوابته لتحقيق هذه الغاية. ويدخله القبطان فى تحدى: ويعرض عليه أن يقدم عزفاً منفرداً فى قاعة الطعام والحفلات على سطح السفينة، وفى حالة إذا ما حاز على إعجاب المشاهدين ينقله إلى إحدى افخر الغرف دون أن يطلب منه دفع الفارق. وبالفعل، أدى عاطف حليم العزف وكان محل تقدير الحاضرين، ومن جانبه وفى القبطان بوعده ونقل عاطف حليم إلى واحدة من أفخر الغرف على سطح السفينة حتى وصلوا إلى فرنسا.

وفى مطلع عقد التسعينيات من الألفية المنصرمة انتقل الفنان عاطف حليم للإقامة والاستقرار فى اليابان إثر تزوجه بواحدة من أشهر مقدمات البرامج التليفزيونية باليابان، وهى نفسها التى تحولت بعد ذلك إلى منتج تنفيذى للفنان تتولى الاتفاق على الحفلات التى يقدمها والترويج الإعلامى له والعلاقات العامة اللازمة لانتشاره الفنى وما إلى ذلك من أنشطة مرتبطة ببزوغ نجم عاطف حليم فى سماء العاصمة اليابانية طوكيو ثم اليابان بأكملها. ويقر اليابانيون المقربون من الفنان عاطف حليم وأسرته والذين عرفوه منذ وصوله لليابان منذ أكثر من خمسة عشر عاماً بأنه أمضى بضع سنوات لا يجد الإقبال الكافى على حفلاته، إلا أنه طور نفسه وأداءه صعوداً بحيث صار الآن بالتأكيد من أشهر عازفى الكمان فى العاصمة اليابانية.

وقد حضرت بالفعل إحدى حفلاته والتى أقيمت بمسرح «اوينو» وهو واحد من أكبر وأعرق المسارح بطوكيو. وشاهدت بأم رأسى المسرح الذى يسع ألف متفرجاً، وهو ممتلئ عن آخره بالجمهور اليابانى من مختلف الأعمار والفئات ولا يوجد فيه موطئ لقدم. وعلمت أن هذا الحضور الجماهيرى المكثف هو قاسم مشترك لكافة حفلات عاطف حليم خلال السنوات الأخيرة. ومن جهة أخرى، تتسم حفلات عاطف حليم بأنها لا تقتصر على العزف المنفرد فقط، بل تشهد عزفاً مشتركاً يختلف من حالة لأخرى، أحياناً مع عازفة بيانو وأحياناً أخرى مع عازف كمان آخر أو عازفى آلات أخرى. كما أن الحضور الجماهيرى لحفلات الفنان يتنوع فى فئاته العمرية ما بين الاطفال والشباب والبالغين والكهول والشيوخ، وكذلك يتوازن الحضور ما بين الذكور والإناث. بل إن بعض العائلات تأتى إلى حفلات الفنان عاطف حليم، خاصة تلك التى تنظم فى منتصف النهار خلال ايام العطلات الوطنية اليابانية أو عطلات نهاية الأسبوع، كوسيلة للترفيه الجماعى والراقى لكافة افراد الأسرة معاً، على تنوع مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية، بحيث يخرجون جميعاً فى نهاية الأمر مشبعين بوجبة فنية وثقافية وروحية دسمة وثرية ومتنوعة تسمو بالروح وتزكى النفس وتفعل العقل وتزيل فى ذات الوقت ضغوط الحياة اليومية ورتابتها، أو على الأقل تخفف منها. كما أن الإقبال على حفلات وعزف الفنان عاطف حليم لا يقتصر على اليابانيين، ولكنه يمتد للأجانب المقيمين على أرض اليابان على اختلاف خلفياتهم اللغوية والثقافية وعلى تعدد انتماءاتهم الجغرافية والإقليمية.

ومن مزايا الفنان عاطف حليم أنه يجيد اللغة اليابانية تحدثاً وفهماً وكتابة وقراءة، بجانب إجادته بالطبع لكل من اللغتين العربية والفرنسية، وبالتالى صار متعدد اللغات، وبالتالى الثقافات، وهو ما أثرى آفاقه ونوع مصادر ثقافاته وينابيع المدارس الفنية التى يستلهمها فى إبداعاته وأدائه الموسيقى. وعندما يعزف الفنان فى حفلاته، فإن المقطوعات التى يعزفها تتنوع ما بين الغربى لبيتهوفن وغيره والشرقى واليابانى، ويجيدها جميعاً بل ينبغ ويبدع ويتفوق على نفسه فى كل مرة يؤديها. وبالنسبة للكثير من المقطوعات التى يعزفها، فإنه صار يحفظها عن ظهر قلب ويتألق فى أدائها إلى حد أنه بات يؤديها بدون الحاجة إلى النوتة الموسيقية أمامه، ويتفاعل معها وجدانياً بشكل يلحظه المشاهد، ويدون أن ينال ذلك من حرفيته. فقد رأيت اليابانيين يغمضون أعينهم ويتأملون ويتيهون فى هذا النغم المنبعث من عزف عاطف حليم على الكمان كفنان على أعلى مستوى عالمى من الحس الفنى والإبداع الموسيقى.

كما أن من حسن طالع عاطف حليم أنه يعيش فى اليابان، ذلك البلد الذى يتسم بدرجة عالية من التسامح تجاه، بل والإقبال على التعددية الثقافية والفنية، نظراً لانفتاحه ومرونته تجاه «الآخر» معرفياً وقيمياً ومنهجياً، بل ويشجع الإنسان اليابانى من تنوع الانتاج الثقافى والأدبى والفنى ويتقبله ويقبل عليه. كذلك فإن المجتمع اليابانى، مثله مثل المجتمع المصرى، يعتز بتاريخه الضارب بجذوره فى التاريخ، ويفخر بإسهامه الحضارى لإثراء مسيرة البشرية عبر مراحل تطورها الطويلة، ويؤمن بان التواصل مع العطاء الإنسانى عبر العالم وابداعاته المختلفة المشارب والمآرب يحقن فى أوصاله الحيوية ويبعث من جديد قدرته على اكتساب ما لدى الآخرين من خبرات وتجارب يستفيد منها اليابانيون على الصعيدين الفردى والمجتمعى. والمواطن اليابانى، أياً كان موقعه أو وظيفته، ذواق للفنون عموماً، وللموسيقى على وجه الخصوص، لأنها تمثل جزءاً لا يتجزأ من تراثه ومن تربيته، بل ومن تكوينه الروحى وتشكيله النفسى. فالموسيقى حاضرة فى الموروث الحضارى اليابانى بأطواره المتوالية، سواء كانت موسيقى منفردة أو مرتبطة بأداء مسرحى تمثيلى أو راقص.

كما أن التربية الموسيقية مكون أساسى فى المناهج الدراسية فى كافة المراحل التعليمية للطفل اليابانى منذ دخوله إلى مرحلة الحضانة حتى مرحلة متقدمة فى مشواره الدراسى. كذلك تمثل الأنشطة الموسيقية، سواء على مستوى التذوق أو التعلم أو العزف، بنداً ثابتاً على جدول أعمال برامج وفعاليات المكتبات العامة ومراكز الخدمة المجتمعية المنتشرة فى احياء المدن أو الريف على امتداد الأرض اليابانية، خاصة فيما يتعلق بالأطفال. ولا ينحصر هذا الاهتمام فى الموسيقى اليابانية، بل يمتد إلى كل مناهل الموسيقى العالمية، بدءاً بالموسيقى المصرية القديمة فى عهد الفراعنة، ووصولاً إلى وقتنا الراهن فى مختلف أرجاء المعمورة، مروراً بالكثير والمتنوع فيما بين الاثنين وبشكل متلازم مع أو موازى لأى منهما.

ووجود الفنان عاطف حليم وحياته الطويلة وبزوغ نجمه فى سماء العاصمة اليابانية طوكيو لم يحل دون ارتباطه بوطنه الأم مصر، بل إنه حرص على إحياء حفل بأحد مسارح دار الأوبرا المصرية بالعاصمة المصرية القاهرة منذ أكثر من خمس سنوات، كما حرص على إحياء حفل مماثل فى دار السفارة المصرية بطوكيو منذ عقد كامل من الزمن، وأبدى استعداده ورغبته فى استئناف التعاون الفنى مع مصر ومع السفارة المصرية باليابان أياً كانت المناسبة أو الحدث. وبات يتردد بانتظام على الاحتفالات التى تقيمها السفارة المصرية فى طوكيو. وحرص الفنان على التواصل مع وطنه واستمرار الارتباط به لا يقف عند هذا الحد بل يتعداه، حيث يصر خلال التقديم لأى من حفلاته داخل اليابان أو خارجها على أن يتم تقديمه باعتباره مصرى الموطن سكندرى النشأة شرقى الهوى متوسطى المزاج. كما أنه فى أى حديث إعلامى أو صحفى معه يؤكد على ما يسميه فضل الاسكندرية عليه من حيث الوحى الفنى والموسيقى الذى استلهمه من عبق الثغر وما تمثله من هجين متناغم ومنسجم وله شخصيته الثقافية المتميزة وخصوصيته الحضارية وإن تنوعت مصادرها وتعددت. كذلك يؤكد دائماً على تأثير الفن الشرقى عموماً، والمصرى على وجه الخصوص، على إبداعاته الفنية وأدائه الموسيقى. وأخيراً، وليس آخراً، يعتز دائماً بهويته المصرية ويفخر بها. هذا إذاً هو الفنان المصرى عاطف حليم البازغ نجمه فى سماء اليابان. ■

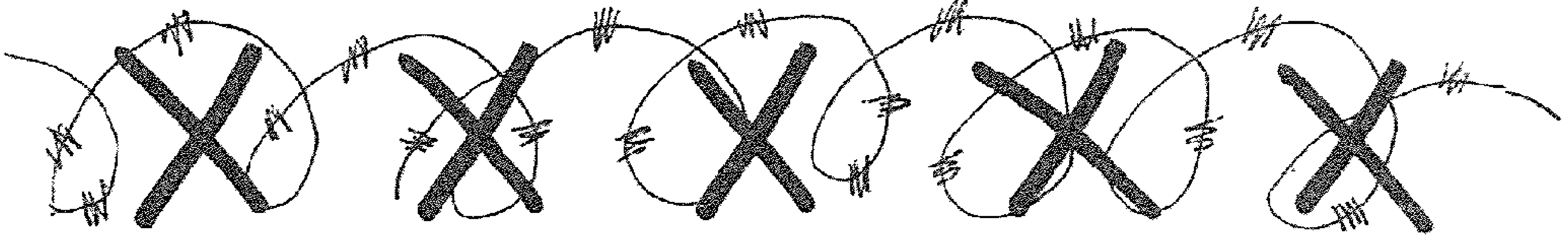


الموسيقى حاضرة فى الموروث الحضارى اليابانى بأطواره المتوالية، سواء كانت موسيقى منفردة أو مرتبطة بأداء مسرحى تمثيلى أو راقص



العالم العربي...

مشكلات أخرى



محسن يوسف

يمر عالمنا المعاصر بالعديد من التحولات الاقتصادية والسياسية التى حولت كوكبنا إلى ما يشبه القرية الصغيرة. وقد تواكب مع هذا، ونتيجة للتعامل غير الرشيد مع المصادر الطبيعية ظهور مشاكل ذات طابع كونى من حيث تأثيرها السلبى على مجمل كوكب الأرض، ولعل مشكلات الطاقة والتغيرات المناخية والتلوث التى باتت تهدد مستقبل الحياة على كوكب الأرض أن تعد نموذجًا لهذا النوع من المشاكل العابرة للقارات والحدود.

وبالرغم من وجود العديد من الظواهر السلبية المصاحبة لسياسات العولمة توجد ظواهر أخرى إيجابية من أهمها تحول ثقافة حقوق الإنسان والديمقراطية بكل ما تحمله من قيم نبيلة إلى ثقافة إنسانية باتت تفرض نفسها على جميع مجتمعات كوكب الأرض.

لقد أصبحت هذه الظواهر والتحولات التى تعيد تشكيل وجه كوكب الأرض فى عملية متسارعة الوتائر تشكل تحديا حقيقيا لمستقبل مجتمعاتنا العربية مما يضعنا أمام أحد خيارين: إما التهميش والخروج بعيدا عن مسار حركة التقدم الإنسانى، وإما التفاعل مع حركة التقدم الإنسانى والإسهام فيها والمشاركة فى صياغة مسيرتها وحصول مجتمعاتنا على عائد مجز من ثمارها.

فى هذا السياق يصبح طرح تساؤل «العالم العربى إلى أين؟» فى ظل تنامى ظاهرة العولمة سؤالا ليس مشروعا فحسب ولكنه حتمى، ويستوجب أولوية الإجابة عليه، لأنه سؤال متعلق بالمستقبل ولذلك تتركز مناقشات المؤتمر السادس للإصلاح العربى والذى يعقد فى الفترة من ١-٣ مارس ٢٠٠٩ بمكتبة الإسكندرية على عدة موضوعات محورية.

العالم العربى المتغير

فى إطار كوكب متغير

هذا الإطار تجرى مناقشة وضع الأصوليات فى العالم العربى وتأثيرها على العلاقات الدولية فى ظل تنامى ظاهرة العولمة. خاصة عقب محاولة الترويج لفكرة صراع الحضارات، أو اقتران الإسلام بالإرهاب، وجعل العالم العربى بؤرة توتر وهدف دائم للهجوم باعتباره منبع الأصولية الإسلامية والتى اصبحت فى الإعلام الدولى الوجه الآخر للإرهاب الدينى.

يعانى العالم العربى من مشكلات كوكب الأرض مثل مشكلات الطاقة والغذاء والتغيرات المناخية والمياه والتدفقات المالية وهى مشكلات حقيقية أصبح لها تداعيات مباشرة. وبالنسبة لمشكلة الطاقة فإن جزءاً كبيراً من دول العالم العربى يعد من المنتجين الرئيسيين للبترول والغاز كما أن عدداً من هذه الدول لديها النصيب الأوفر من الاحتياطى العالمى للنفط. لذلك فإن اقتصادياتها تعتمد بشكل كبير على استخدام وتصدير النفط وبالتالى فإنها تعتبر طرفا مهما فى هذه القضايا خاصة مع تذبذب الأسعار فى النفط خلال الفترة الأخيرة وتأثير ذلك على الاقتصاد المحلى والدولى. لأن معظم الدول العربية تعد دولاً ذات اقتصاد ريعى يقوم على تصدير المواد الخام خاصة الطاقة التى باتت مهددة بالنضوب فى خلال سنوات.

كذلك تعانى بعض الدول العربية الأخرى من مشكلات ندرة المياه أو قلة الغذاء، فى الوقت الذى تتزايد احتياجاتها المائية نتيجة للنمو السكانى المطرد من جهة والإجراءات المصاحبة والخاصة بالتحضر والنمو من جهة أخرى والتى يكون من نتيجتها ارتفاع معدلات استخدام المياه على مختلف أشكالها المنزلية والصناعية والزراعية وهو الأمر الذى يتطلب التفكير فى المستقبل الذى سوف تشح فيه المياه وضرورة التفكير فى خطط لترشيد استخدام المياه وخاصة فى المجال الزراعى حيث يتطلب تغييراً جذرياً فى أساليب الرى المستخدمة حاليا إذ ترتبط غالبا بثقافة وتقنيات متوارثة فى أساليب الزراعة. كذلك ضرورة النظر فى هذا المجال فى عدد من الخطط الأخرى وخاصة ما يتعلق منها بضرورة إعادة معالجة استخدام مياه الصرف بشكل اقتصادى غير ضار بالصحة والبيئة. وكذلك محاولة سد الاحتياجات المطلوبة من خلال مشروعات تحلية مياه البحر. وبالطبع كل ذلك يعتمد على ضرورة النظر فى القوانين والتشريعات الموجودة ومحاولة البحث عن حلول من خلال الابتكار والبحث العلمى والعمل على تغيير ثقافة الإسراف فى الاستهلاك والتى تعد جزءاً من العادات والتقاليد فى كثير من البلاد العربية.

هذا وقد أصبحت المشكلات المتعلقة بالتغيرات البيئية من المشكلات العابرة للحدود وتجاوزت إمكانية علاج التلوث على مستوى مدينة أو بلد ما ولكن يجب التصدى لهذه المشكلات على المستوى العالمى وخاصة مع اتساع عمليات التصنيع والتعامل الجائر مع الغابات. حيث إن كثيرا من الدول أصبحت مهددة بشكل حقيقى بمخاطر الاحتباس الحرارى وما قد يترتب عليه من غرق مساحات واسعة من الأراضى خاصة داخل بعض الدول العربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط وهى مساحات يعيش فيها ملايين السكان وتشكل مراكز رئيسية للإنتاج الزراعى والصناعى فى هذه الدول.

كل هذه المشكلات أصبحت تناقش على نطاق دولى حيث تسعى دول العالم لصياغة اتفاقيات لتنظيم التعامل معها أو مواجهتها، فما هو موقف العالم العربى منها؟ وكيف سيتم التعامل معها؟ وما هى أفضل البدائل التى يجب البحث عنها وكيف يمكن السعى لتوفير المصادر البديلة أو الرخيصة للطاقة أو لمياه الشرب أو للغذاء؟

ولذلك يجب النظر فى مستقبل الدول العربية فى عالم متعدد الأقطاب، خاصة بعد الانهيار الاقتصادى الذى أصاب أسواق المال الأمريكية وكذلك بقية الأسواق فى مختلف أنحاء العالم، مثل الصين واليابان وروسيا ودول الاتحاد الأوروبى، وكيف يمكن التعامل مع هذا الواقع الجديد خاصة إن المنطقة العربية أصبحت مسرحا للعديد من الصراعات الإقليمية الطاحنة، وفى مقدمتها الصراع العربى الإسرائيلى الذى طالما تحدد مساره وتأثر بالوضع الدولى، يضاف إلى هذا ما شاع فى العقدين الماضيين من سياسات حق التدخل الدولى فى بعض الصراعات الإقليمية والتى باتت تتم تحت غطاء دولى كما حدث فى غزو العراق، أو حتى فى الصراعات الداخلية فى السودان والصومال وغيرها من البلاد العربية.

التفاعلات الإقليمية

وبالنظر إلى الواقع الإقليمى العربى والذى أصبح يعج بالمشكلات خاصة تلك التى تتأثر بشكل مباشر بتنامى ظاهرة العولمة وفى مقدمتها: الصراعات والنزاعات

المؤتمر السادس للإصلاح العربى - مكتبة الإسكندرية
من ١-٣ مارس ٢٠٠٩

يعانى العالم العربى من مشكلات الطاقة والغذاء والتغيرات المناخية والمياه والتدفقات المالية وهى مشكلات حقيقية أصبح لها تداعيات مباشرة



السياسية الداخلية فى العراق /لبنان/ الصومال /فلسطين /السودان /موريتانيا وغيرها،والتى وصلت الى حد الحروب الاهلية وخلقت أجواء داعمة لمحاولات التدخل الخارجى، الذى أصبح يتم الآن تحت دعاوى إنسانية تجد من يدعمها أو بحجة تأثيرها على الاستقرار الدولى والإقليمى.

ولذلك فإن مستقبل التكامل الاقتصادى بين البلدان العربية يعتبر أمرا مهما وخاصة ما يرتبط به من سياسات التوزيع وضمان الرفاه الاجتماعى،وسياسات التشغيل وهجرة العمالة العربية، والتجارة البينية بين الدول العربية، خاصة فى ظل التحولات الاقتصادية الهيكلية على الصعيد العالمى، وتزايد معدلات البطالة وانخفاض مصادر الدخل الرئيسية نتيجة نضوب موارد الثروة التى تعتمد على تصدير الخامات، كذلك تنامى ما يعرف باقتصاد المعرفة والذى سوف يحدد موقع الدول العربية على ساحة الاقتصاد العالمى.

هذا وقد أصبحت قضية الفقر من القضايا المهمة التى تؤدى إلى تفاقم الكثير من المشكلات الأخرى. وقضية الفقر لا تبرز فقط من خلال انخفاض مستوى الدخل بأقل مما يضمن الاحتياجات الأساسية للأفراد، ولكن يضاعف من تأثيرها التفاوت الرهيب فى الدخل داخل البلد الواحد وأثر ذلك على التفاوت الاقتصادى غير المقبول مما أصبح يهدد تماسك المجتمع إلى جانب مشكلات أخرى ترتبط بالبطالة وخاصة بين الشباب وانتشار العشوائيات التى تعتبر أحزمة جديدة للفقر داخل المدن الكبرى والتى يمكن أن تكون مكانا وبؤرا للجريمة والانحراف والتطرف وغيرها من الظواهر الاجتماعية السلبية، مما يتطلب وضع رؤية اقتصادية واجتماعية وسياسية جديدة يمكن من خلالها تحديد المسئوليات والأدوار لحماية الكثير من الفئات الاجتماعية الفقيرة والمهمشة الأمر الذى يقتضى ضرورة التعاون والتنسيق بين مختلف الدول العربية. وضرورة التعامل مع قضية الفقر من خلال الأبعاد الاجتماعية والسياسية التى تؤثر وتتأثر بها وخاصة ما يتعلق بانتشار ثقافة الفقر أو فقر الثقافة والتى تتطلب فكرا وأبعادا جديدة للتعامل مع قضية الفقر فى البلاد العربية.

المواطن والدولة والمجتمع

هذا ويتأثر مستقبل العلاقة بين المواطن الفرد والدولة والمجتمع بتنامى ثقافة سياسية عالمية والتى أصبح فيها تصنف دول العالم وفقا لمعايير المساواة وعدم التمييز، ومعايير ضمان الحقوق والحريات المدنية، ومدى رسوخ دولة القانون، وهى المعايير التى اصبحت تحكم إلى حد كبير علاقة أى دولة بمجمل دول العالم الأخرى وتؤثر فيها.

لذلك يجب الاهتمام بالحريات والحقوق المدنية للإنسان العربى، فى ظل التحولات الدولية التى تشهد ما يسمى بموجة التحول الديمقراطى التى بدأت مع انهيار المعسكر الاشتراكى وانتهاء الحرب الباردة، وأصبحت تفرض ضرورة تحول النظم السياسية من النمط الشمولى / الاستبدادى إلى النمط الديمقراطى وما يفرضه هذا من شكل جديد للعلاقة بين الفرد والدولة والذى يقوم على احترام حقوق الإنسان وهى العملية التى مازالت تواجه تحديات هائلة وتتعثر فى الكثير من المجتمعات العربية.

ويعد مفهوم المواطنة بين الممارسة الواقعية والحقوق الدستورية من الأمور التى لا تحتاج فقط إلى القوانين والتشريعات بقدر ما تحتاج إلى ثقافة سياسية سائدة تعظم من قيم المساواة وعدم التمييز على خلفية الدين أو العرق أو الجنس أو الوضع الاجتماعى، وهى الثقافة التى ترتبط إلى حد كبير برسوخ مشروع الدولة المدنية الحديثة، وهو المشروع الذى مازال يواجه تحديات حقيقية فى العديد من البلاد العربية حيث يقوم على ممارسات حقيقية ترتبط بتداول السلطة،واستقلال القضاء، وتحديد موقع الدين فى الحياة الاجتماعية والسياسية، والمشاركة السياسية، وهى كلها قضايا مازالت محل حوار مجتمعى فى العديد من الدول العربية لتذليل العوائق الهيكلية التى تحول دون تحقيقها.

كذلك تعد حقوق المرأة العربية ودورها من الأمور المهمة وخاصة فى ظل ثقافة محافظة مازالت تنكر على المرأة الكثير من حقوقها، على الصعيد القانونى وصعيد الممارسة الفعلية،وهو ما يمكن رصده فى أشكال التمييز على الصعيد الرسمى الذى لم يمنح المرأة حقوقها بشكل قانونى، أو على الصعيد المجتمعى الذى تسود فيه ممارسات التمييز رغم وجود القوانين التى تناهضها.

هذا ومن المهم رسوخ دولة القانون فى الدول العربية لأنه بالرغم من وجود هياكل ومؤسسات قانونية فى البلاد العربية، إلا أن وجود انظمة قضائية غير رسمية موازية فيما يعرف بالقضاء العرفى أو غيرها من الأنظمة الأخرى، وكذلك موضوع استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية، أو ضعف مبدأ المواطنة نتيجة تغليب الولاءات الفرعية (دينية/عرقية)، ووجود نظم قضائية غير طبيعية (مثل محاكم امن الدولة) كل تلك المشكلات تتعارض مع قضية رسوخ واحترام القانون بتحديات حقيقية تضر بجوهر الدولة المدنية الحديثة وبجوهر مفهوم المواطنة القائم على حق التقاضى، وتساوى الجميع أمام القضاء، والحق فى محاكمة المواطن أمام قاضيه الطبيعى. ورغم أهمية هذه الحقوق إلا أن المواءمة بين حرية الفرد فى ظل حقوق الإنسان وحاجة المجتمع إلى حماية الأمن القومى خاصة خلال فترات الاضطراب يعتبر من التحديات التى تواجه كل الدول.

ومن المشاكل المطروحة دور المجتمع المدنى العربى وتركيز نشاطه فى إطار الإغاثة والعمل الخيرى دون التركيز على شراكة حقيقية فى صنع السياسات العامة. إن التراجع العام لدور الدولة فى ظل النظام الاقتصادى الليبرالى، والسعى المنشود لبناء نظم سياسية ديمقراطية، وما يقوم عليه من تحرير المجال العام، كل ذلك يتطلب تصاعد دور المجتمع المدنى كشريك حقيقى فى إدارة شئون المجتمع وهو ما يعنى وجود دور حقيقى له فى صنع السياسات العامة، والمشاركة فى تنفيذها ومراقبتها والضغط من أجل تعديلها. ومن الواضح أن منظمات المجتمع المدنى فى الدول العربية لم تتمكن بعد حتى الآن من أن تقوم بهذا الدور. حيث كثيرا ما ينظر إليها ليس باعتبارها صوتا للشعب، بل باعتبارها منفذا لما تسمح به الدولة أو لما تتخلى عن القيام به، والسؤال المطروح هنا هو كيف يتحول المجتمع المدنى إلى شريك فى صنع السياسات العامة ومراقب لكفاءة تنفيذها كأحد أسس بناء الدولة المدنية الحديثة؟

الخطاب الثقافى والإعلامى

تقوم الثقافة الديمقراطية بدور محورى فى عملية الإصلاح والتغيير، حيث تبنى الأسس التى تشكل القاعدة الصلبة لمبادئ التوافق والتقدم ومسلمات ضرورة إصلاح الأوضاع القائمة، وفى هذا الإطار فإن هناك حاجة ملحة لصياغة جديدة لنوعين من الخطاب المؤثر فى الحياة العامة:

هناك ضرورة جذرية لتجديد الخطاب الدينى بحيث يرتكز على النصوص المقدسة الصحيحة فى توجيه شئون الحياة على أرضية التسامح والقبول بالتعدد مع المساواة وعدم التمييز واحترام النصوص التى أجمعت على إقرارها المنظمات الإنسانية والدولية فى العصر الحديث فى قيم حقوق الإنسان وقواعد الديمقراطية. ويواجه تجديد الخطاب الدينى الكثير من التحديات خاصة فى ظل المحاولات التى تعمل على دفع الصراعات الدولية لأن تأخذ صبغة دينية، وخاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر وبعض المحاولات التى تهدف إلى الربط بين الإسلام والإرهاب وما تعانى منه المنطقة العربية التى يعيش فيها المسلمون وغير المسلمين من انتهاكات تحت مسمى الحرب على الإرهاب، وجعلها ضحية لمزيد من سياسات التدخل والهيمنة، بالإضافة إلى تنامى الخطابات الدينية السلفية المحافظة فى العديد من البلاد العربية مما يساعد بشكل كبير فى عدم الفهم الصحيح للإسلام أو غيره من الديانات والتى تعطى الحجج للتدخل بحجة مكافحة الإرهاب. بالإضافة إلى أن الكثير من الصراعات الداخلية تصوب سلاحها تجاه مشروع الدولة المدنية الحديثة.

كذلك يحتاج الخطاب الإعلامى إلى التطوير فى اتجاه مزيد من الحريات ليواكب التطور الهائل فى وسائل الاتصال بالطفرة التى جعلتها تحول العالم فعلا إلى قرية صغيرة، ليس هذا فقط بل خلقت إمكانيات هائلة لممارسة حرية الاختلاف والتعبير عن الرأى خاصة مع ظهور شبكة الإنترنت بإمكانياتها الهائلة، والمحطات الفضائية، وهو ما يطرح مجددا كيف يكون الإعلام حرا، ومستنيرا، وموضوعيا، وهى القواعد الثلاث التى تشكل الأساس المهنى للإعلام فى العصر الحديث، لأن تجاهل الإعلام العربى فى جملته لأهمية هذه القواعد وضرورة السعى إلى تحقيقها، أو محاولة الالتفاف حولها فى شكل قيود غير مباشرة أو مواثيق تقيد حركتها كل ذلك يدفع المواطن العربى إلى البحث فى عصر السماوات المفتوحة عن إعلام بديل لا يتبنى مصالحه الاستراتيجية ولا يعنيه قضاياه المصيرية فى بناء المستقبل ولذلك يجب إعادة النظر فى طبيعة المؤسسات الإعلامية ونمط ملكيتها وضرورة التخفف من كثير من أشكال ومستويات الرقابة عليها فى الدول العربية.

السياسات العامة وأولوياتها

إن جزءاً من عملية الإصلاح فى البلاد العربية ينصب بالأساس على تغيير العديد من السياسات العامة التى تشكل مرتكزات عملية التنمية والاستقرار داخل كل مجتمع، وفى نفس الوقت تحتاج الدول العربية إلى سياسات عامة بديلة تكون قادرة على التعامل مع المستجدات الداخلية والدولية، خاصة بعد أن اصبحت هناك معايير شبه موحدة تحكم سوق إنتاج السلع والخدمات وسوق العمل، وفى هذا الإطار يجب النظر إلى بعض القضايا المهمة مثل سياسات التعليم فى الدول العربية وإلى أين تتجه مقارنة بما تقدمه مؤسسات التعليم فى الدول المتقدمة ومراجعة مفهوم الأمن القومى برؤية جديدة والنظر إليها بصورة أشمل من خلال مفهوم الأمن الإنسانى والذى يجب أن يركز على سياسات بديلة للاهتمام بكل احتياجات الإنسان وخاصة قضايا التشغيل والاستثمار وتطويع وتطبيق النظام الراسمالى بما يتناسب مع ظروف العالم العربى لتحقيق الحد الأدنى من العدالة الاجتماعية فى الدول العربية. ▩

كـــــــتب إســــبانيــــة

EL LIBRO DEL AMOR ESQUIVO (FINALISTA DEL PREMIO NADAL 2009)
de ABELLA, RUBEN
كتاب عن الحب المتحفظ
(الحائز على جائزة نادال (Nadal) ٢٠٠٩)
المؤلف : روبين أبيا
DESTINO (EDICIONES DESTINO, S.A.),
23.12$



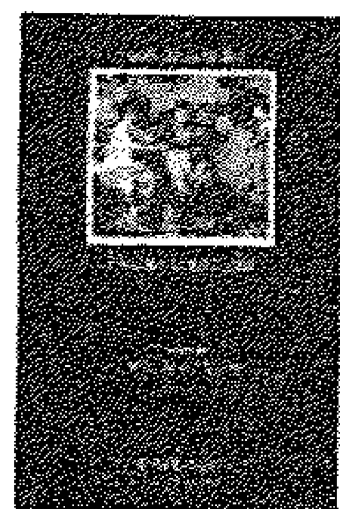
إنها قصة حضرية تحكى عن أصل حقيقة كوننا.

يحاول فيلكس التعافى من الآثار المدمرة لقطع علاقته مع هيلينا ويستغل مظهره المشابه بشكل لامعقول لمظهر دونوفان ملك الأغنية الرومانسية ومعبود المرأة. فيقوم بإنتحال شخصيته خلال ثلاث ليال بمدريد حتى الصباح.

فهى رواية لحياة متشابكة ببعضها فى مدينة مدريد، كتبت بشكل بريق وجذاب، تختلط بها المدونات بداية من الشعر إلى الفكاهة.

فهى قصة حضرية عن الحب والاحتياج والسعادة بالمؤامرة والرغبة وإستحالة إستدامة الخداع. فمن خلال شخصياته، يحكى لنا الكتاب عن وجوه الواقع الملموس والواقع الذى نعتقده ونتخيله أو الذى نحلم به والذين يشكلون بالنهايه حقيقة أصل كوننا وطبيعة فكرنا.

POESIA COMPLETA
ARGUIJO, JUAN DE
الديوان الشعرى الكامل
خوان دى أرجويخو
CATEDRA,Madrid , 2009
12.25$



جون خوان دى أرجويخو (١٥٦٧-١٦٢٢) صاحب ديوان الرابعة والعشرين من أشبيليه التى تعتبر أحد الخلفاء الشرعيين لشعر اريرا «Herrera» ومن أوائل الأشعار التى فتحت أبواب عصر الباروك الإسبانى. فعلاقاته الضيقة بمثقفين أشبيلية المنحدرين من سلاسله ما لاريستا «mal-larista» سمحت له بالدخول للتقليد الأدبى التى أصبحت من أهم ما يمثله. حيث تصنف كأعلى إنتاج شعرى لعصر النهضة الإسبانى والمدرس الفعلى لفن السوناتا. فأسم أرجيخو لم يكن مهملاً أبداً بين نخبة الشعراء أو بالنسبة للشعراء العصر الذهبى. فعمله محظوظ لأنه وضع بذور نشاطه وطوره فى طور التكوين والنضج والتطهير وتحقيق الإمكانيات الداخلية للغة الإسبانية كلغة للشعر. وذاك أصبح إسهام عظيم من الشاعر أرجيخو فى الأدب حيث أخذت سونيتاته الكمال الشكلى.

EL ESPIA IMPERFECTO
de CABALLERO, JOSE LUIS
الجاسوس المعيب
خوسيه لويس كاباييروا
ROCA EDITORIAL DE LIBROS, S.L.
Madrid , 2009
21.25$



فى مكتب صغير ومظلم فى منطقة سانتاندر، ينتظر ميجيل مايسترى مارين عميل CNI وصول إنياكى سارجارزازو الملقب بإنياكى دى موندراجون مدير الإيتا، والمعترف والمتهم بخيانتهم. فرؤساء CNI سلموه إلى مايسترى ليقيمه إن كانت منظمة إيتا تغشهم أو إن كانت الماسة الخام عندهم.

التقى عميل CNI برجل تعيس ومريض ومعذب. فثقة رؤساء CNI قد شرعت فى تقديم نتائج عملية ولكن مايسترى لا يثق فى الدوافع الحقيقية التى حولت إنياكى إلى خائن حيث إنها بعيدة كل البعد عن السياسه أوعن اعترافه. فالوقت يخوض كل مرة فى صراع عنيف مع منظمة الإيتا بشكل متزايد، ولكن ميجيل مايسترى مخلص وأمين، وقد عاهده بأنه سيحميه ليس فقط من منظمة الإيتا التى تبحث عنه لقتله بل من رؤساء CNI الذين يتهمونه بالخيانة.

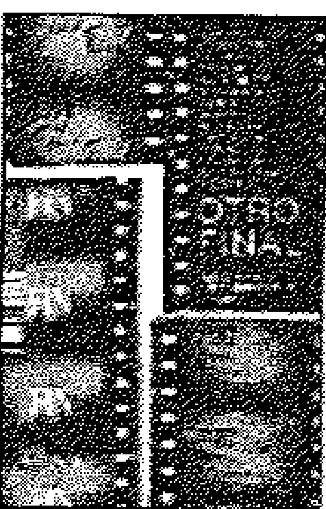
إنها قصة جاسوسية تحكى عن الإخلاص والخيانة فى بلاد الباسك يقوم ببطولتها عميل CNI التى ستحوله مبادئه الأخلاقية إلى عميل معيب.

LIBRO DE HUELGAS, REVUELTAS Y REVOLUCIONES
ARANGUREN, TERESA y CAMPOAMOR, CLARA y BERTOLO, CONSTANTINO
كتاب عن الإضرابات والإنقلابات والثورات
تيريزا أرانجوين، كلارا كامبوأمور، قسطنطين بيرتولوا.
ZARAGOZA, 2009, $28.12



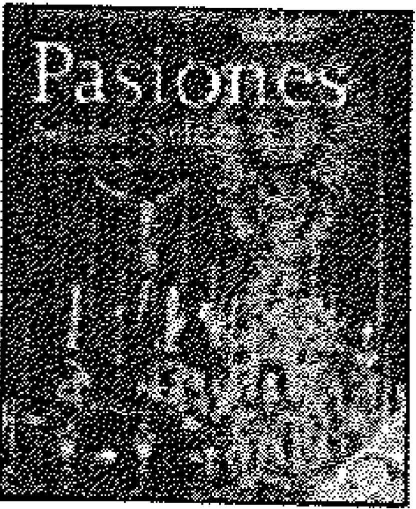
الحكايات الراديكالية تجتمع فى قصة عندما يقع الناس تحت وطأة السيادة. تعبر الثورة بكل قوة عن الإرادة الداخليه فى الرجال والنساء من أجل العيش فى عالم عادل. فى ظل الإنقلابات التحررية، تعبر النصوص والصور بتلك الحكايات المختارة بجميع ألوانها عن الحنق ولكن أيضاً بنقد فكاهى. منذ تمرد لوثر حتى الإنقلابات التى ضد العولمة مروراً بإسبارتاكو، اللجنة الثورية بباريس، الثورة المكسيكية، و٦٨ مايو أو الانتفاضة.

OTRO FINAL
de AMO, ALVARO DEL y CHAMORRO, EDUARDO
نهاية أخرى
ألبارو ديل امو، إدواردو شامورو
2009 , ZARAGOZA
30.62$



لأن الأمور يمكن ان تكون غير ذلك، أقترح خمسة عشر من الروائيين الكبار الحاليين نهايات جديدة لأهم خمسة عشر قصة سينمائية. فهل إنجريد وبوجارت قرروا بألا ينفصلوا ويعودوا معاً إلى باريس من مطار كازابلانكا؟، جاك ليمون كان يستطيع بألا يكون سلبيا عند إغراءات المليونير له؛ وربما بيتريان خرج من باريس للأبد وأستطاع ان ينمو ؛ وقد يفوز فون إيزنباخ بحب تاديثيو له قبل موته فى فينسيا ؛ وربما يتغلب نورمان باتيس على هوس الرعب ؛ وربما لم يستطع ماستر مارشال الإمضاء وقت طويل فى منطقة فيار ديل ريبو «Villar del R?o»........

Pasiones. La Semana Santa en Sevilla
Zamora Moya, José Antonio
عيد أسبوع الآلام. لا سيمانا سانتا باشبيليه
ثامورا مويا، خوسيه أنطونيو
AlGaida , 2009



بدء خوسيه أنطونيو ثامورا الفوتوغرافيا فى عام ١٩٤٨. فكان بداية حياته المهنية إنجذب إلى تصوير الريبورتاج الذى كان يتميز به. يمتلك خوسيه أنطونيو كمية كبيرة من الصور الفوتوغرافيه والتى حوالى ٢٠٠,٠٠٠ صورة، والتى فكرتها عن الأندلس.

حصل على عدة جوائز فى المسابقات القوميه للتصوير وفى المؤسسات العامة (وزارة الثقافة، المؤتمر الأندلسى، بلدية مالاجا أو بلدية أشبيلية) كما فى المؤسسات الخاصة. فقد قدم العديد من المعارض عن ذاك العمل فى إسبانيا وبالخارج.

حيث إنه مؤلف الرسالة الرسمية «عيد لا سيمانا سانتا فى إشبيليه عام ١٩٨٩».

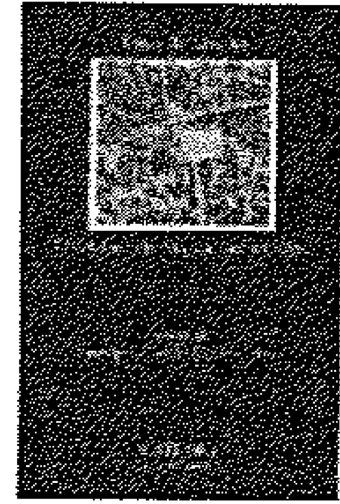
وإنه مؤلف لثلاثة كتب بكتابة نصوصها متضمنة صوره وهم : لحظات. لا سيمانا سانتا بإشبيليه» (ألجايدا ١٩٩٩)»، معرفة خبراتية. الرحله المقدسه «(Algaida، ٢٠٠١)»، و«إشبيليا» (إفيرست ٢٠٠٤)، فهذا الأخير بكتابة كارلوس كولون. والمضيف إليه عنوان رابع وهو «عيد أسبوع الآلام. سيمانا سانتا بإشبيليه».

DON GIL DE LAS CALZAS VERDES
de MOLINA, TIRSO DE

السيد جِل ذو السروال الأخضر

تيرسو دى مولينا

CATEDRA, 2009



تعتبر هذه المسرحية أكثر المسرحيات جاذبية والتى لاقت ناجحاً كبيرا فى وقتنا الحالى، وهى أحد الدلائل الأكثر شمولية على براعة تقنية تيرسو دى مولينو. فنحن أمام خلاصة من الاكتشافات الأصلية الرسمية حيث تجتمع فيها مهارة التوافق بين ما هو مثقف وشعبى وكيفية إستخدام أقصى حد لأدوات الشخصيات من ملابس وصوت وحركة ومن موارد المسرحية المصممه لقوالب الشخصيات، حيث إنها مسرحيه تعتبر حالياً «كلاسيكية» يتخللها روح الفكاهة والتى يمكن أن تقرأ على نحو المراقبة على الممارسات الاجتماعية. يعتبر تيرسو دى مولينا موهبة استثنائية لبناء الجو الإبداعى والمناظر الطبيعية الخلابة.

هذا العمل يقدم رؤيه مدريديه تكشف عن الألفه المدهشه بالحياه الحضريه.

LOS GUARDIANES DURMIENTES
de RODRIGUEZ RIVERA, LUIS

الحراس النائمين

لويس دى رودريجيث

Zaragoda , 2009



إنها رواية للخيال العلمى التى تتنبأ بتدهور الكوكب، والمجتمع والبشرية بأصداء كل من

Isaac Asimov, Philip K. Dick y Ray Bradbury

الرواية تحكى عن حراسين يحرسون مفتاح الخلاص التى تعتبر الأمل الوحيد للعالم الذى يحتضر.حيث فى نهاية القرن الواحد والعشرين يخضع العالم لجماعتين لتناوب السلطة. وهم التجاوزات الرأسمالية التى فى إنقراض جزء كبير من الكائنات الحية، والتهديد بنقص مياه الشرب.

فالرجل والمرأة هم حراس المفتاح البيولوجى لتوليد المنظومة البيئيه للكوكب ووضع حد لهيمنة الجماعات القاسية.

LA PERLA DE AL-ANDALUS
de MOLINOS, LUIS

لؤلؤة الأندلس

لويس مولينوس

ROCA EDITORIAL DE LIBROS, S.L., 2009



كان عهد خليفة الأندلس فى قمة الازدهار خلال النصف الثانى من القرن العاشر. حيث كانت قرطبة حينذاك عاصمة للمسلمين، تثير دهشة العالم لعظمتها وثقافتها. ولكن فجاة حدث بعد ذلك صراع بين الطوائف على السلطة مما أدى إلى تدمير المدينة ثم تابعها فى التدمير جميع المقاطعات الأندلسية.

تحكى هذه الرواية عن توماس بن عبد العزيز الذى ولد فى الأراضى القشتاليه الإسبانية على حدود نهر الدويرو فى عهد الخليفة المنصور المحارب الكبير الذى أستخدم قوته وسلطته فى الخلافة للقضاء على الممالك الإسبانية.

فعندما كان عبد العزيز لديه أربع سنوات تقريباً خطف وتم حمله إلى قرطبة للبيع فى أسواق العبيد. وهناك تم شراؤه بواسطة رجل عجوز يعمل فى صبغ الجلود ليتبناه ويقوم بتربيته وتعليمه تعاليم الديانة الإسلامية. وبعد أن أتم سن النضوج، أصبح اسمه يهز العالم بأسره. وفجأة اكتشف أن المدينة التى تربى بها فى سعادة وأمن، تحولت إلى عدو له تشده وتسحبه لسقوطه.

فى تلك الأوقات كان بعض المحاربين يضعون اللؤلؤ فى ملابسهم اعتقادهم منهم بحمايتهم من الأعداء.

فيقوم توماس عبد العزيز بالبحث عن اللؤلؤه السحرية لإنقاذه من تلك النكبه، متمسكاً بالحب والحياة.

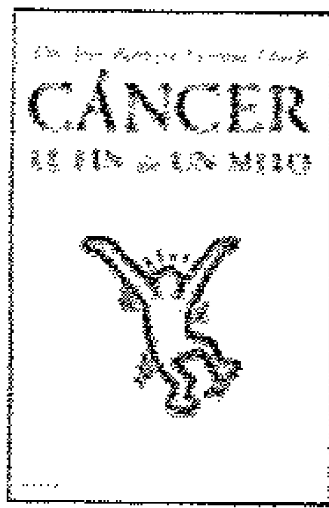
يحمى اللؤلؤ من المحاربين. والشاب الذى يبحث عن هوايته خلال السنوات المأساوية التى تم فيها إنهيار العاصمة الأندلسية. حيث إنهم الأطراف المؤثرين فى هذه الرواية.

Cancer: el fin de un mito
Dr. José Ram?n Germà Lluch

الكانسر: نهاية الأسطورة

دكتور خوسيه رتمون جيرما يوش

Planeta , 2009-02-08



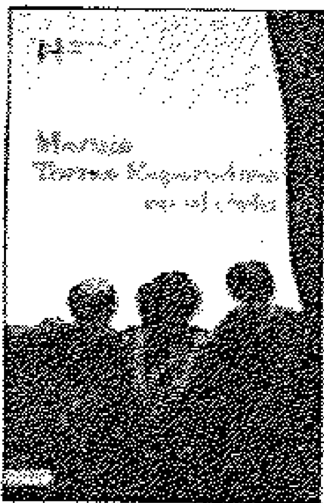
ما هو الكانسر؟ وهل يمكن التغلب عليه؟ وما هى الوسائل الجديدة لعلاجه؟ وكيف يمكن مواجهة الكانسر فى القرن ٢١؟ يجيب الدكتور خوسيه رامون يوش المختص فى مرض السرطان على هذه الأسئلة وأسئلة أخرى أكثر: نهاية الأسطورة «هو كتاب يشرح لنا أهمية التشخيص الدقيق وعلاجه المناسب لكل نوع من أنواع مرض الكانسر، كما يشرح لنا البحوث والإكتشافات الطبيه الحديثة التى تسمح لمواجهة هذا المرض بتفاؤل وأمل أكثر فى العلاج. فمن خلال عدة حالات حقيقية، يدعونا جيرما يوش إلى توضيح هذا المرض وإزالة الخوف ويرشدنا ببحوث بيوتكنولوجية واكتشافات أكثر ابتكاراً مما يعطينا أملاً أكثر فى الحياة وإقبالاً عليها.

Esperadme en el cielo
Marruja Torres

انتظرنى فى السماء

ماروخا توريس

Destino , 2009



حاز الكتاب على جائزة «نادال» «NADAL» عام ٢٠٠٩، «القصه للبالغين حيث تحكى عن السعادة التى لا تنتهى أبداً».

يجتمع الراوى والبطل فى الآخرة «ما بعد الموت» Terenci Moix و Manolo V,zquez Montalb,n مع صديق ثالث. فيذكرون مع بعضهم الماضى ويعيدون مشاهدة مشاهد قصصهم العاطفية أثناء مرحلة التعليم، والنزوح إلى أى مكان يرغبون فيه، من شوارع «رافال» ببرشلونا بعد الحرب العالمية إلى السجادة السحرية، لسابو والوزير الكبير، ومن حدائق «ريتيرو» المدريدى إلى الأحلام الذهبية بهوليوود مروراً بالإسكندرية والتى ليست بعيدة أبداً عن السينمات التى بالمنطقه.

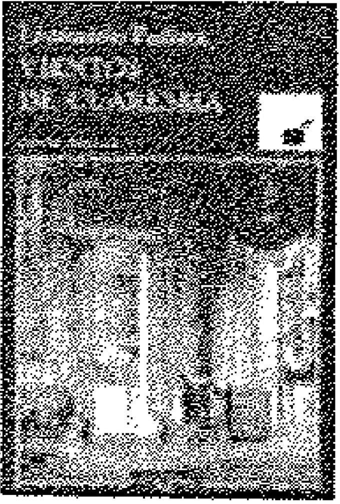
فكل شىء يأخذ الجو السحرى. يعيش الثلاثة أصدقاء فى مغامرة ويكون بطلها بيتر بان واليس فى بلاد العجائب، ولكن لسوء الحظ يواجهون مشكلة كبيرة. فبالرغم من مزايا الدوله التى هم بها عديدة إلا أنهم لا يستطيعون التأثير على الأحياء. ومع ذلك ليس لهم خيار إلا أن يوحدوا قواهم فى جهد حاسم معاً.

Vientos de cuaresma
Leonardo Padura

رياح الصوم الكبير

بيوناردو بادورا

Tusquets,2009



تصادف أيام جو الربيع الجهنمية بسبب هبوب رياح ساخنة من الجنوب، مع عيد الصوم الكبير والتى فيها تم تعارف القائد الشرطي ماريو كونتي، على كارينا وهى سيدة جميلة و رائعة تهوى الجاز وآلة الساكسو، فكل هذا جعله على أن يبحث بدقة عنها بسبب نهايتها الغامضه.

فإنها مدرسة كيمياء في الربيع من عمرها، تقوم بتدريس للذين ما قبل الجامعة والتي كان يدرس فيها ماريو كونتي من قبل بسنوات عديده. تم العثور علي تلك السيدة مقتولة في شقتها بسبب جرعات زائدة من الماريجوانا.

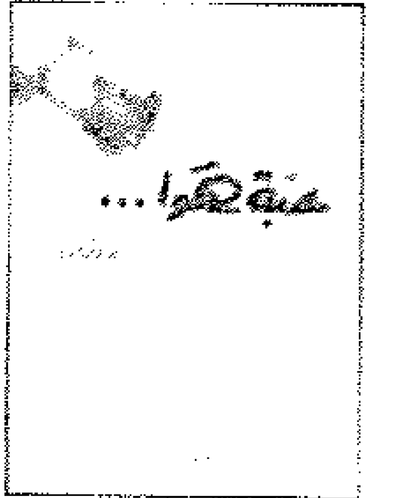
و لهذا كان البحث عن تلك المدرسة إستكشاف أكاديمي و سياسي صرف ، فقد دخل ماريو كونتي عالم الفساد حيث تكشف الوصوليه وتجارة المخدرات وإستهلاك المواد المخدرة و التنوير، عن الجانب المخفى من المجتمع الكوبى المعاصر .

يوازي كل هذا، حب البوليس ماريو كونتي لتلك المرأة الرائعة الجمال حيث يعيش معها قصة حب دون أن يتخيل بأن هناك شيئا قد يمكن ان يدمر هذه العلاقة في يوم ما.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

حبة هوا...

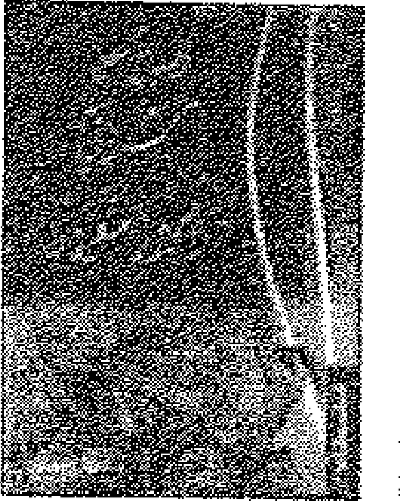
تأليف: وليد طاهر
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ١٤٠ صفحة



يقول الكاتب بلال فضل عن هذا الكتاب الممتع: وليد طاهر واحد من أبرز رسامى الكاريكاتير فى مصر.. يبدع ويتألق دون أن يستعير أصابع أحد.. فهاهو يهندس لنا فى هذا الكتاب البديع فنا معماريا خاصا ومسجلا باسمه يمزج فيه بين الفن التشكيلى والشعر والمعمار.. الفن ستراه والشعر ستقرأه.. أما المعمار فستلمس تأثيره على تعمير دماغك بعد أن تنتهى من القراءة وتعاودها مجددا..

فصول عن شوقى أمير الشعراء

صلاح فضل
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ١٥٢ صفحة



يحتوى الكتاب على عشرة فصول، هى عبارة عن تأملات ناقد مخضرم فى شعر أحمد شوقى، وعلاقته الشخصية بهذا الشعر، حيث كان ديوان شوقى أول ما قرأ صلاح فضل بعد القرآن الكريم، تتجلى فى الكتاب روح الحنين والمحبة الغامرة لهذا الشعر ولهذا الشاعر، الذى جدد فى بناء القصيدة العربية ومنحها حيوية جديدة، كانت باهرة فى عصرها.

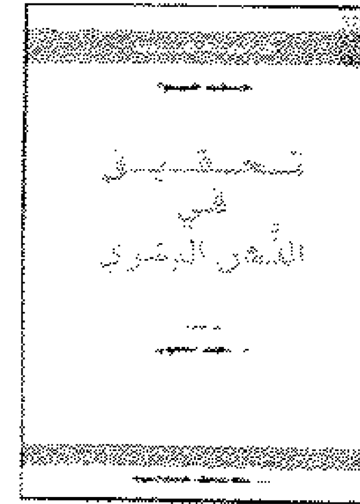
ينطلق الكتاب من سؤال مركزى وهو: ما سر شعرية شوقى التى صنعت عصراً أدبياً كاملاً، وغذت أذواق أجيال متتابعة، وأجبرت أدباء العروبة على الإغضاء عن تنافسهم الشرس وتنصيبه أميراً للشعراء؟

مجمل الفصول هو محاولة الإجابة عن هذا السؤال، والتى تتحدد فيما يرى صلاح فضل فى: وضع الشعر العربى فى مركز الحياة العامة، بامتلاك خطاب النهضة، وبلورة منظومة القيم المعاصرة، والتطور بها إلى درجة عالية من النضج والعصرية. وتبنى الحيوية الدافقة فى لغة الشعر والإسهام فى صناعة أدوات الاتصال الجمالى بالجماهير القارئة واعتماد لغة الغناء سبيلاً لذلك. وفتح باب المسرح الشعرى على مصراعيه، وحفز الأجيال الجديدة على تنميته. وإنشاء أدب الأطفال فى الثقافة العربية، والإفادة من تجارب الآداب العالمية فى تربية النشء وتغذية وجدانهم، وتعويدهم القراءة والتواصل الإبداعى.

من عناوين الفصول الواردة فى الكتاب يتضح أن د. صلاح فضل عاش طويلاً مع شعر شوقى، فخرج بهذا الكتاب الجديد الجميل، الذى يتكون من ١٥٠ صفحة من القطع المتوسط، ومن عناوينه: ارتحالات شوقى - خطاب النهضة فى شعر شوقى، والظواهر الأسلوبية فيه، وتجليات الشعرية فى مسرح شوقى والعيد بين المتنبى وشوقى.

تحقيق فى الذهن البشرى

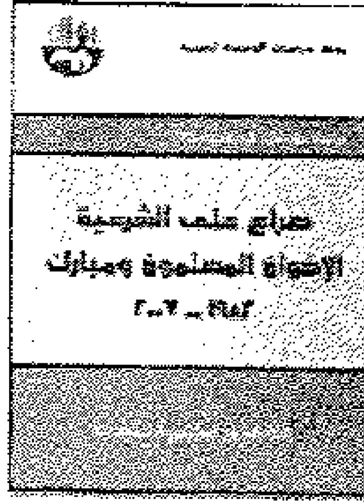
دايفد هيوم
ترجمة: د. محمد محجوب
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٢٣١ صفحة



يظهر إذاً أن الطبيعة قد استصفت من أخلاط الحياة مزيجاً هو أنسبها إلى بنى الإنسان، وأنها قد أسرّت إليهم منذرة ألا يسترسلوا إلى أى من نوازعهم استرسالاً، فيقعدوا منه عجزاً عن غيره من المشاغل والمباهج. تقول لهم: أطلقوا ما شئتم العنان لهيامكم بالعلم ولكن اجعلوا علمكم إنسانياً يمسه التعلق مباشرة بالعمل وبالمجتمع. ألا قد حرمت عليكم كل تفكير مستغلق (على الناس) وكل بحث موغل سحيق، لأسلطن منهما شر العقاب (على من لا يسمع منكم) بما يسوقانه عليكم من وجوم السويداء، وبما يجرانكم إليه من الريبة التى لا تنتهى، وبما ستستقبل به اكتشافاتكم المزعومة من البرود عندما تنشرونها. يا أيها الإنسان كن فيلسوفاً. ولكن، عبر كامل فلسفتك تلك، ابق إنساناً.

صراع على الشرعية: الإخوان المسلمون ومبارك ١٩٨٢ - ٢٠٠٧

هشام العوضى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ٢٩٨ صفحة



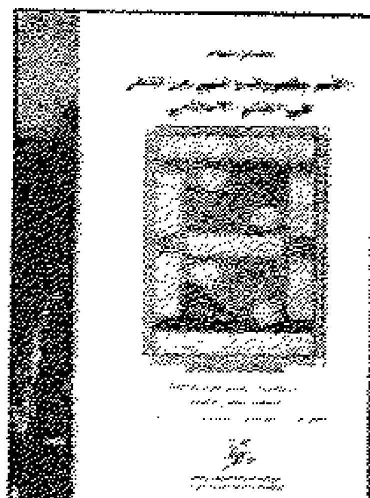
يرى المؤلف أن العلاقة بين «الإخوان المسلمين» ونظام الحكم فى مصر، منذ أيام الملك فاروق وحتى اليوم تتأرجح بين الهدوء النسبى والعنف والتصادم الحاد. وإذ يركز على مرحلة هذا الصراع فى عهد الرئيس مبارك، يشير إلى أن التسعينيات شكلت مرحلة فارقة فى علاقة النظام المصرى بجماعة الإخوان المسلمين منذ العام ١٩٨٢، معتبراً أن السبب الجوهرى فى تفسير هذا التحول والصراع بين الإخوان المسلمين والنظام المصرى هو سعى كل منهما إلى تكريس شرعيته بكافة أشكالها: السياسية، القانونية والمجتمعية.

ثم يتناول المؤلف أبعاد التطورات الجديدة فى علاقة هذا الصراع فى القرن الواحد والعشرين من خلال دراسة التغيرات فى مصر والعالم، والتغيرات داخل النظام، وداخل جماعة الإخوان، وأثر كل ذلك فى مستقبل علاقة الدولة والمجتمع فى مصر.

إنه «عمل يتسم بالعمق والتبصر، ويقدم مساهمة للمعرفة من خلال تقديم معلومات مثيرة وجديدة عن الإخوان المسلمين على وجه الخصوص، وتوضيح خيارات الحركة الإسلامية بصفة عامة» (جيمس بيسكاتورى - مركز الدراسات الإسلامية، جامعة أكسفورد).

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الفكر الإسلامى

مايكل كوك
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩، ٩١٠ صفحات



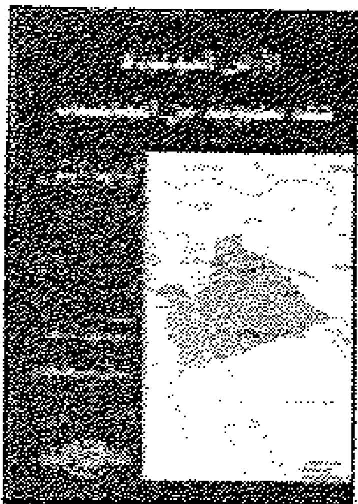
تأثر المستشرق الكبير مايكل كوك بكلام الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين، حيث قال إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو أصل الإسلام، وجوهر الدين، فكان ذلك من دوافع إقدام كوك على بحث هذا الأمر فى الموروث الفقهى والكلامى الإسلامى المكتوب كله. وقد التزم كوك فى عمله ظاهراً بالطرائق الفيلولوجية فاستوعب كل ذكر لهذين المفردين عن طريق القراءة الهائلة، والتنظيم الدقيق. بيد أن إشكالية الكتاب هى المواطنة المعاصرة التى تقول بحق الجميع فى المشاركة والإسهام فى تحقيق الخير العام، والتدخل من أجل التصحيح والتغيير. وهو يرى أنها توافرت فى التجربة الإسلامية الكلاسيكية بسبب إصرار المسلمين عليها ولاتزال لها تأثيرات فى الإسلام الحديث والمعاصر، ولدى سائر الفرق والمذاهب.

إن هذا الكتاب لا يمكن تلخيصه بل لابد من قراءته، والتمعن فى مقاصده، فالنص عميق وشاسع، ويرتكز على مئات المصادر المطبوعة والمخطوطة، التى رجع إليها المؤلف بكفاية ومسئولية عاليتى الوتيرة ولكى يصل إلى استنتاجات بعيدة المدى فى موضوعه، والموضوعات المجاورة.

إن الواقع أن هذا الكتاب فى أحد وجوهه هو قراءة عميقة لروح الإسلام كله، من منظور إشكاليات الضمير الدينى والأخلاقى، وأبعاد المسئولية بين الدولة والمواطن فى التجربة العالمية المعاصرة.

الأرض الموعودة
خطة صهيونية من الثمانينيات

أوريد إينون
ترجمة: إسرائيل شاحاك
ترجمة: ليلى حافظ
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩، ٦٠ صفحة



«مصر منقسمة وممزقة إلى عدة بؤر ذات نفوذ، إذا تفككت مصر، فإن دولاً مثل ليبيا والسودان، أو حتى الدول التى أبعد من ذلك، لن تستمر فى الوجود فى شكلها الحالى، وسوف تنضم إلى سقوط وتحلل مصر. إن التصور بوجود دولة مسيحية قبطية فى مصر العليا متاخمة لعدة دول ضعيفة ذات سلطات شديدة المحلية وبلا حكومة مركزية، هو مفتاح التطور

التاريخى الذى تأخر تحقيقه فقط بسبب اتفاقية السلام، ولكن الذى يبدو حتمياً على المدى الطويل».

هذا أحد نصوص دراسة صدرت فى بداية الثمانينيات، يدعو كاتبها إلى تفتيت الدول العربية حتى يُكتب لإسرائيل البقاء. فمن تفتيت العراق إلى أكراد وسنة وشيعة - وقد تكفلت أمريكا بذلك بغزوها العراق، ثم تكليفها الأمريكى اليهودى نوح فلدمان بوضع دستور العراق.. إلى تفتيت مصر إلى دولة قبطية فى الصعيد.. متاخمة لعدة دول ضعيفة..

والمثير فى الدراسة قول كاتبها بأن نشرها لا يضر.. فالعرب ضعفاء وأعجز من أن يقوموا بأى شىء لوقفها. أما أمريكا فهى لا تسمع إلا للإعلام الصهيونى، ولكننا نقول إن دوام الحال من المحال، فالعرب يستطيعون فعل الكثير، ومن الآن.. وأمريكا تتغير.. ويمكن للعرب أن يغيروها فيما يخص الشرق الأوسط.

أفتوكا لايزو

تأليف: أسامة غريب

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٢٤٢ صفحة



يقول المؤلف: التقيت به فى إحدى السهرات مختلياً بطبق فتة باللحمة الضانى فى ركن قصى من صالة الطعام، وقد فاجأنى فى اللقاء الأول بأنه زعلان منى وعاتب علىّ بشدة، فلما استفسرت منه عن السبب قال: لأننى انتظرت منذ وصولى إلى مونتريال أن «تفيدنى» وطال انتظارى دون جدوى. قلت له مدهوشاً: أفيدك فى ماذا؟ ما هى بالضبط الفائدة التى توقعتها منى ولم تجدها؟ فضحك بشدة وأخذ يقهقه قائلاً: كنت أعلم أنك لن تفهمنى بسهولة مع أن كلامى واضح. قلت له وضح أكثر يا شيخ بنزهير. قال: «تفيدنى» يا أستاذ مشتقة من verb to feed ومعناها بالعربية يُطعم أو يزغط أو يدفع المَم فى الأفواه، وأتوقع منك أن «تفيدنى» معناها أتوقع أن تطعمنى وتذيقنى المَم وأنتظر دعوتك لى على العشاء حتى أقبلها فوراً، وأضاف: لقد سمعت أنك رجل كريم وأن نارك تحت القدور لا تنطفئ.

أدهشنى جراته فى طلب العزومة وضحكت بصوت عال قائلاً: نارى لا تنطفئ؟ فقلت وقد قررت أن ألاعبه على طريقته وأجاريه فى لغته العجيبة: «أفتوك لايزو» يا شيخ بنزهير! فقال: يعنى إيه؟ قلت: ألا تزعم أنك تعرف لغات وتستطيع فك شفرة العفريت؟ قال: غلب حمارى يا سيدى. قلت له: «أفتوك لايزو» يعنى أفتوك كذباً ونصفها الثانى مشتق من كلمة lies وتعنى أكاذيب بالإنجليزية.. «أفتوكا لايزو» هو مصطلح يعنى ضحكوا عليك وباعوا لك التروماى وملأوا خيالك بالوهم.. فهمت يا أستاذ بنزهير؟

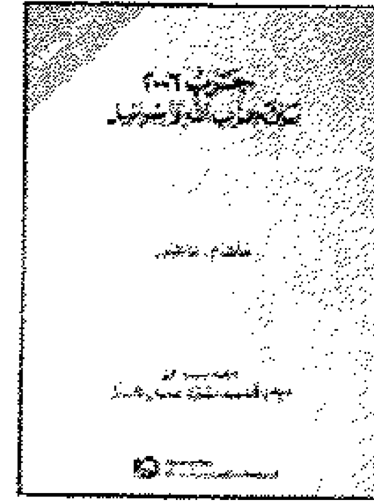
حرب ٢٠٠٦

بين حزب الله وإسرائيل

مات م. ماثيوز

ترجمة: مها بحبوح

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٨



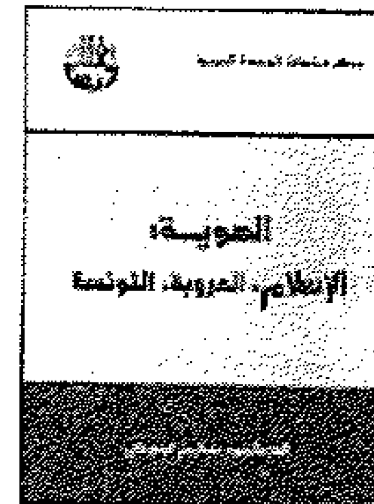
الكتاب عبارة عن تحليل للحرب بين حزب الله وإسرائيل سنة ٢٠٠٦، ويتضمن دراسة للعقيدة القتالية لكل من الطرفين قبل الحرب، ونظرة عامة إلى المشكلات العملياتية والتكتيكية التى واجهها الجيش الإسرائيلى فى أثنائها.

ويوضح الكتاب أن القوات البرية الإسرائيلية وجدت نفسها، بعد أعوام من انشغالها بعمليات مواجهة الانتفاضة فى الأراضى المحتلة، غير مهيأة تكتيكياً وغير مدربة على مواجهة مقاتلى حزب الله الذين لا ينقصهم التصميم والذين نفذوا ما يمكن اعتباره دفاعاً تقليدياً من موقع ثابت.

الهوية: الإسلام.. العروبة.. التونسة

سالم لبيض

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ٢٨٨ صفحة



يهدف هذا الكتاب إلى دراسة موضوع الهوية ومفارقاتها بين المجتمع والدولة فى تونس. وينطلق المؤلف من فرضية أن لكليهما (المجتمع والدولة) هوية خاصة به، وينشأ اختلاف يصل حد التناقض والصراع أحياناً، مردّه أن الدولة صاحبة القوة والنفوذ حاولت أن تطبع المجتمع بهوية من يتولونها، ولكن المجتمع أبى إلا أن يثبت هويته.

وقد اختار المؤلف تتبع دراسة هذه القضية وتجاذباتها من خلال أربعة أنماط رئيسية من خطاب الشرائح الاجتماعية الأكثر فعالية؛ وهى الهوية فى الخطاب السياسى، والهوية فى الخطاب النقابى، والهوية فى الخطاب التربوى، والهـــوية فى الخطـــاب الطلابى، وما انتهت إليه تلك الأنماط من تصورات لمسألة الهوية وقضاياها فى الفعل والممارسة، ثم ختم دراسته بنوع من المقارنة بين هوية بعض النخب وهوية المجتمع، راصداً أيهما أقدر على البقاء.

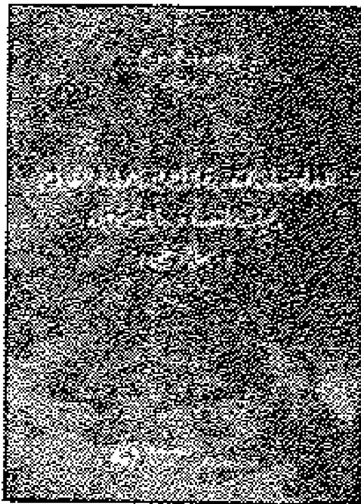
إن هذه الدراسة، فى نهاية الأمر، ليست دفاعاً عن هوية مغايرة مختلفة عن الهويات المرسومة للمجتمع سلفاً من قبل القوى التى تمتلك أدوات صنع الهوية فحسب، وإنما هى، إضافة إلى ذلك، وعى متقدم بأن النهضة الحقيقية لمجتمع ما لا تتحقق خارج هويته الحقيقية، أى خارج منظومته اللغوية والدينية.

المفاوضات المتعددة الأطراف لعملية السلام

بداية مُلتبسة ونهايات مؤجلة (سجل توثيقى)

أحمد قريع (أبو علاء)

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٨



وضع مهندسو مؤتمر سلام الشرق الأوسط، الذى انطلق من مدريد سنة ١٩٩١ مسارين متوازيين للمفاوضات: الأول مسار ثنائى لحل صراعات الماضى، والثانى مسار متعدد الأطراف يركز على المستقبل، من خلال معالجة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية العابرة للحدود.

ومع أن المفاوضات المتعددة الأطراف جزء مكمل لمسيرة عملية السلام، فإن ما يعرف عنها هو الشىء القليل، إذ كانت التغطية الإعلامية ضعيفة والاهتمام العام بها قليلاً. ولقد جرت هذه المفاوضات على مدار سبع جولات فى إطار خمس مجموعات عمل منفصلة للبحث فى قضايا التنمية الاقتصادية الإقليمية، ومصادر المياه، والبيئة، واللاجئين، وضبط التسلح والأمن الإقليمى، وذلك بدءاً من اللقاء الافتتاحى فى موسكو فى ديسمبر ١٩٩٢ بمشاركة ٣٦ دولة، ثم تنقل بين عدد من العواصم، واستمر متقطعاً حتى عام ١٩٩٥.

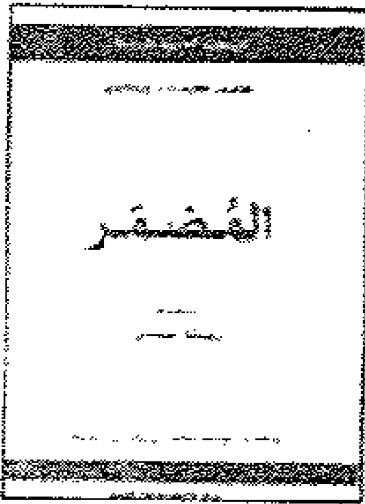
لقد جاء إصدار هذا الكتاب ذى الطابع التسجيلى، مع قليل من العرض والتحليل، بهدف التأريخ لهذه المفاوضات وتوثيق محطاتها الأساسية، وبالتالى زيادة الوعى العام بها، مع إلقاء ضوء كاشف على القضايا التى تمت دراستها فى لجنة التوجيه العامة وفى كل واحدة من مجموعات العمل، بما فى ذلك المشاركة الفلسطينية والأداء الفلسطينى فى تلك المفاوضات. وقد حاول الكتاب تلخيص الإنجازات والإخفاقات، وعرض المساهمة التى قدمها «المتعدد» فى دفع مسيرة السلام.

المُضمَر

كاترين كيربرات - أوريكيونى

ترجمة: ريتا خاطر

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩



لمَ لا نقول دائماً ما نقصده بشكل مباشر، كان ذلك ليكون أسهل على الجميع؟ وبتلازم، لمَ نسعى، تحت طائلة تكبد فائض من «العمل التأويلى»، التى كشف النقاب عن المعانى المُستترة وراء السطور فى أقوال الآخرين فضلاً عن المُضمَنات والأفكار المُبيتة والتى تشكّل، إن جاز التعبير، الأجزاء المغمورة من هذه الأقوال؟

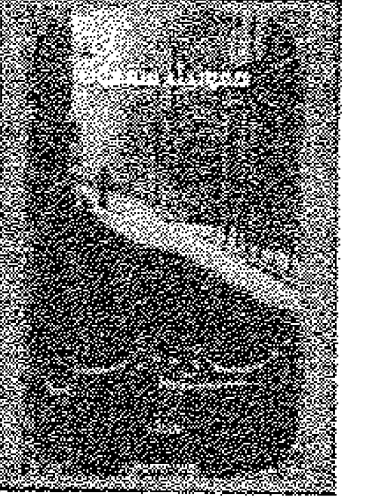
يُحاول هذا الكتاب الإجابة عن هذه الأسئلة وإلقاء بعض الضوء على هذا المستنقع المصطلحى المؤلّف من «افتراضات» و«مُضمَنات» و«علاقات تضمينية» و«استدلالات» و«إلماحات» و«تلميحات» وغيرها من المحسنات البيانية.

كما يُعالج أيضاً موضوع «المُضمَر» ونشأته وما ينتج عنه، أى كيف يُبصر النور، وأى منحى ينتهجه، فضلاً عن دراسة تكونه ومفاعيله التداولية التواصلية، وكيف يعمد المتكلمون إلى استخراج المحتويات المُضمرة من القول وكيفية ارتداد هذه الأخيرة على المتكلمين أنفسهم.

وبهذه الصفة، لا يتوجه الكتاب إلى الاختصاصيين فى مجال الألسنية وحسب، بل إلى كل من يهتم بواقع أن للخطابات فعلها المؤثر (سواء أكانت هذه الخطابات أدبية أم «عادية»، سياسية أم إعلانية)، وأنها تعمل بجزئها الأكبر، خفية ولكن بشكل فعّال، بفضل «المحتويات عابرة السبيل المستترة»، ونعنى بها المحتويات المُضمرة، فى الخطاب الكلامى.

عراقى فى باريس

تأليف: صموئيل شمعون
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٢٥٢ صفحة

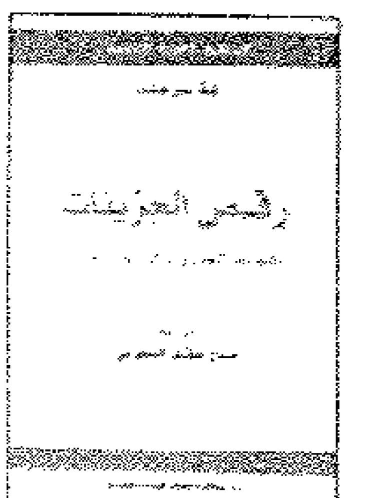


منذ زمن طويل لم نقرأ عملاً أدبياً بمثل هذا الحجم والمستوى. منذ زمن طويل لم نقرأ عملاً يهزنا، يعصف بنا من الداخل (لا يمكن أن تخرج منه سليماً معافى كما دخلت) أقصد بأنك تخرج أفضل بكثير مما كنت سابقاً: تخرج أكثر تسامحاً، وحرية، وانفتاحا على الآخرين، كل الآخرين. منذ زمن طويل لم يضحكنا عمل أدبى. لم يدخل البهجة إلى قلوبنا مثل هذا العمل. لقد ضحكت فى عشرة أيام (حيث قرأته مرتين متتاليتين) أكثر مما ضحكت فى عشر سنوات أو ربما عشرين سنة، أو ربما طيلة حياتى كلها. ضحكت كثيراً إذن حتى كدت أموت من الضحك، وتقريبا فى كل صفحة. ولكنى بكيت أحياناً، نعم بكيت وانتحبت بدون أن أشعر أو بدون أن أفتعل أى شعور. لقد نظفنى هذا الكتاب من نفسى، حررنى من أوجاعى، وساهم فى تفجير المكبوت المحتقن فى داخلى. أعادنى الى الأزمنة الغائرة القديمة.

منذ زمن طويل لم أقع على عمل أدبى يجمع فى طياته بين كل جوانب الحياة العربية: من جنس، وسياسة، ودين، وغرب وشرق، وماض وحاضر، وكوابيس، ومخابرات، وعلاقات فرنسية عربية، ونماذج بشرية مصورة بشكل فوتوغرافى تقريبا: أى بشكل واقعى مقنع تماما. تقريبا لا يوجد أى افتعال فى رواية صموئيل شمعون هذه، ولست بحاجة لأن تبذل أى جهد لكى تقرأها بنهم من البداية وحتى النهاية وأنت تتمنى لو أنها لم تنته. هذا هو العمل الأدبى الحقيقى. وإلا فما معنى الروائع الأدبية؟

رقص الجزيئات

كيف تغير التكنولوجيا النانوية من حياتنا
تد سرجنت
ترجمة: صباح صدّيق الدملوجى
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٢٩٦ صفحة



يركز المؤلف وهو عملية اكتشافية تشق أرض مستقبل التكنولوجيا النانوية، على أن كل الاختصاصات العلمية ابتداء من الطب حتى الرقاقات المايكروية ستجتمع لابتداع مواد تستخدم أصغر المقاسات الممكنة، ألا وهى الجزيئة. وبدلاً من محاولة تخطى العالم الطبيعى، فإن التكنولوجيا النانوية تقتبس كل حركة تؤديها، من الهيكلية المتكاملة والرائعة للطبيعة ذاتها. أما إمكانياتها الكامنة، فتبدو لا نهائية مع مترتبات عملية كفيلة بإحداث ثورة فى طرائق عيشنا وعملنا. وسيقوم الرواد من العلماء من خلال التلاعب بأدق كتل البناء فى الطبيعة بتحسين نوعية الحياة للجميع بطريقة شديدة الأثر.

ألغاز ١١ / ٩

إيان هالشيل
ترجمة: د. سامى الإسكندرانى
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩، ٣٢٨ صفحة



ألغاز ١١ / ٩ من فعلها؟ بن لادن ومجموعته.. أم واشنطن؟.. هل الاثنان؟ أم أكثر من ذلك؟

تغير العالم بعد ١١ / ٩ .. على أساس الرواية الرسمية للإدارة الأمريكية.. لكن تلك الرواية لا تجيب على الأسئلة الضرورية.. فضلاً عن العديد من الثغرات، مثل قيام مجموعة من الهواة بالهجمات، وظهور أحياء وأموات فى القائمة التى أعلنتها الإدارة للمختطفين..

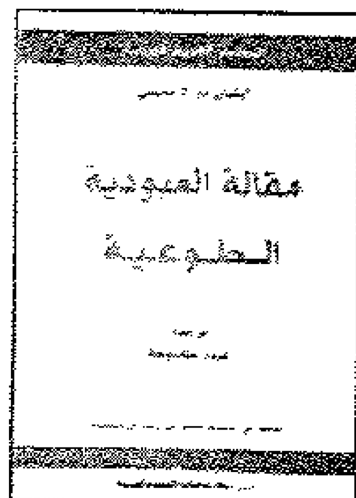
- كيف انهار البرجان التوأم؟ ولماذا رفعت السلطات الأنقاض قبل فحصها؟ مخالفة بذلك القانون الأمريكى؟ ولماذا وكيف انهار البرج السابع؟
- أين الصناديق السوداء؟ كيف لم تعثر عليها السلطات وعثرت على جواز سفر أحد الخاطفين المزعومين؟ وأين حطام طائرتى البنتاجون وبنسلفانيا ومن كان عليهما؟
- كيف تم الاستيلاء على قيادة الطائرات المختطفة سلمياً، دون أن يرسل الطيارون الأمريكيون، ونصفهم عسكريون، إشارات اختطاف لا يستغرق إرسالها ثانيتين أو ثلاثا؟
- طائرة البنتاجون اصطدمت به بعد ٥١ دقيقة من اصطدام طائرة ٨٨ بالبرج الشمالى، وبعد اختطاف الطائرة بحوالى ٤٨ دقيقة، وبعد أن خرجت الطائرة عن مسارها بحوالى ٤٤ دقيقة، وبعد أن أغلقت أجهزة الاتصال بحوالى ٤٢ دقيقة، وبعد أن اصطدمت طائرة يونايتد بالبرج الجنوبى بحوالى ٣٥ دقيقة. كيف طارت كل هذا الوقت دون أن تخرج لها طلعات مقاتلة، ولا انطلقت عليها صواريخ حماية واشنطن؟
- كيف قاد بن لادن فى أفغانستان «مقاتلو الحرية»، و«أبطال الحرية» الذين حاربوا الاتحاد السوفيتى بدعم ومساندة الحكومات العربية وباكستان والولايات المتحدة؟ وإلام تطورت علاقاته بهم؟ وهل مازال حياً؟
- ما علاقة خالد شيخ محمد بالمخابرات الباكستانية، والأمريكية، وبن لادن؟
- لماذا لم تتبع الإدارة الأمريكية القواعد الملزمة للتحقيق فى حوادث الطيران طبقاً لتعليمات منظمة إيكاو الدولية للطيران المدنى؟

هذا جزء صغير من الأسئلة والثغرات للرواية الرسمية، التى بناء عليها، تغير العالم!

وهذا هو موضوع هذا الكتاب

مقالة العبودية الطوعية

إيتيان دو لا بويسى
ترجمة: عبود كاسوحة
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٢٦٢ صفحة



إن شهرة إيتيان دو لا بويسى ترتبط بموضوع صاغه «أيام كان يافعاً»، «يمجد فيه الحرية ضد الطغاة». وفى خضم الاستعداد للمعركة التى هزت الربع الأخير من القرن السادس عشر، أعيد إطلاق تسمية جديدة على تلك الأهجية، هى «ضد الفرد»، نتيجة الرغبة القوية لدى الناشرين. وكلما قامت اضطرابات فى تاريخ فرنسا، ولاسيما حين كانت الأمة تقف فى وجه التسلط الملكى، كانت المقالة تستخدم بوصفها دعوة إلى التمرد.

إن مقاومة البؤس والقهر، لا تمر، حسبما يرى لا بويسى عبر العنف والقتل، لأن عبودية الشعوب عبودية طوعية، فهم الذين «يذبحون أنفسهم بأنفسهم»، وهم الذين بخضوعهم للنير يشوهون الطبيعة البشرية، المفطورة أصلاً على الانعتاق والحرية.

سيتخلص الناس من العبودية الرهيبة، باستعادتهم حقيقتهم الأولية، «لطبيعتهم الحرة»، فيناط بهذه الاستعادة التحول الكبير فى الحياة السياسية التى ستجعل من الإنسان، لا من الله ولا من أوليائه، الفاعل الأوحد فى العالم السياسى، وذلك ضمن إطار تعاقدى حر.

نوافذ الاشتهاء

خيرى رمضان
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ٢٠٠ كلمة



الكتاب يعالج المستجدات التكنولوجية التى أتاحت لفئات الشباب دخول عوامل أخرى مسكوتاً عنها ومحجوبة فى الثقافة العربية مثل الفضائيات، والإنترنت، وكاميرا الموبايل، فهم يشاهدون عليها كل شىء من الأغانى حتى الأفلام الإباحية، الأمر الذى هيأ لهم وشجعهم على الخروج على كل قيم المجتمع متصورين بتأثير ما يرونه أن كل شىء أصبح سهلاً ومتاحاً، ومباحاً، فانطلقت قطعانهم تهاجم الفتيات فى الشارع تحرشاً أو اغتصاباً. فنوافذ الاشتهاء مشرعة أبوابها بلا رقيب ولا حسيب بتأثير مجتمع مطحون اقتصادياً ومأزوماً ثقافياً. يتعرض بوصفه ذلك، إلى غزو تكنولوجى، فى ظاهرة ربما لم تتكرر فى التاريخ، ولن تتكرر وهى أن التقدم العلمى جلس فى ركابه تأخراً أخلاقياً.

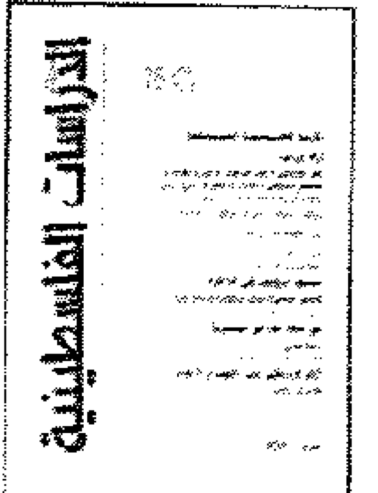
ولأن هذه القضية لها ظلال: يعانيها المتزوجون، نشأت قضية الزواج الثانى، هل هو حق للرجل وحده الذى يتعرض للإغراء فى الشارع والتليفزيون والكمبيوتر والموبايل وما موقف الزوجة التى يريد زوجها الزواج عليها، ولماذا هو حق للرجل وحده؟

يضعنا الكتاب فى مواجهة صريحة مع أزماتنا دون مواربة أو محاولة للتجميل، فهو يرصد مفارقة عبثية تخيم على حياتنا، وهى كما يقول فى مقدمته إننا نتنافس فى بناء المساجد والكنائس، ونتحدث طويلاً فى الأخلاق، وعن الأخلاق، ومع ذلك تنتشر الخطيئة بصورة مفزعة، تخترق حواجز البيوت التى كانت آمنة، تستغل التكنولوجيا الحديثة لتصنع من الخيانة قانوناً جديداً، يحكم العلاقات الزوجية ويقضى عليها بالفشل سواء بالطلاق أو بالقتل أو بتنشئة جيل جديد ممزق، يسمع كثيراً عن الأخلاق ولا يراها، فنوافذ الاشتهاء مشرعة يمكنك الدخول إليها عبر الإنترنت أو المحمول، عبر صورة كاذبة أو كلمات معسولة لا تبحث سوى عن أجساد عطشى أو آذان محرومة لتدنسها، وهى نوافذ تتسع كل يوم، تبحث عن وافد جديد يعتقد أنه فى طريقه إلى السعادة، ليكتشف فى النهاية أنه عضو جديد فى نادى الجحيم، فهل نفكر جميعاً فى كيف يمكننا إغلاق هذه النوافذ؟

دوريات

مجلة الدراسات الفلسطينية

بيروت: فصلية تصدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية، عدد ٧٦



انتظر الفلسطينيون أن تحمل سنة ٢٠٠٨ معها، قبيل انصرامها، تجديد ثلاث شرعيات: شرعية رئاسة السلطة الفلسطينية بالانتخاب، وشرعية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية (م. ت. ف) بعقد المجلس الوطني الفلسطيني، وشرعية قيادة حركة «فتح» بعقد المؤتمر العام السادس. لكن سنة ٢٠٠٨ انتهت والأوضاع الفلسطينية في أسوأ حال لها، فعلى المستوى السياسي وصلت المفاوضات السياسية بين م. ت. ف وإسرائيل إلى الطريق المسدود، وعلى المستوى الوطني انقسمت السلطة الفلسطينية إلى قطعة أخرى في الضفة الغربية، ونشب الاحتراب بينهما، الأمر الذي يشير إلى تداعي المشروع الوطني الفلسطيني برمته.

إن هذه الحال المضطربة والشديدة البلبلة جعلت التفكير في خيارات سياسية بديلة أمراً حيوياً، وصارت فكرة التخلي عن «حل الدولتين» نحو فكرة «الدولة الواحدة» أحد عناصر التفكير السياسي الفلسطيني في هذه المرحلة، وباتت تشكل جزءاً لا بأس به من السجالات الفلسطينية التي تدور في هذه الأيام على هاتين الفكرتين. وقد أثارت مقالة أحمد سامح الخالدي الموسوعة بعنوان: «المأزق الفلسطيني الراهن: كيف وصلنا إلى هنا وما العمل؟» والمنشورة في مجلة «الدراسات الفلسطينية»، العدد المزدوج ٧٤ / ٧٥ (ربيع وصيف ٢٠٠٨)، بعض الردود والمناقشات، وها نحن ننشر هنا، في هذا المحور، ثلاثة ردود تناقش ما أثارته مقالة أحمد سامح الخالدي، وثلاث مقالات تتعرض بالشرح والتفسير للأزمة الفلسطينية الراهنة، بما في ذلك أزمة حركة «فتح» عشية مؤتمرها السادس.

يعترض على الجرباوي على الإسهاب في تشخيص الحالة الفلسطينية الراهنة، لأن ثمة إجماعاً على تفصيلاتها المفجعة، ويرى أن الأحرى هو الإجابة عن الأسباب التي أدت إلى هذه الحال. وفي معرض إجابته يرصد هذه الأسباب التي تتلخص، بحسب رأيه، في هيمنة الشخصنة على الحياة السياسية الفلسطينية، وفي تكلسها، وفي تلف منظومة القيم المجتمعية، ويقدم، في هذا السياق، تفنيداً لبعض الاستنتاجات الواردة في مقالة أحمد سامح الخالدي. ويعرض عمر البرغوثي رؤيته للحل الممكن، فيرى أن الدولة الديمقراطية العلمانية هي الحل التاريخي الذي يمكنه أن يجعل حق تقرير المصير للفلسطينيين وعدم صهينة فلسطين، قابلين للتطبيق، وهو أساس أخلاقي للتعايش بين العرب واليهود في فلسطين التاريخية، ثم يفصل هذا الحل بأبعاده الأخلاقية والقانونية والسياسية. ويطالب بإعادة النظر في مسألة «المقاومة المسلحة». أما جورج جقمان فيعتقد أن مسار أوسلو قد استنفد، وأن «خريطة الطريق» ولدت ميتة، وأن مسار «أنابوليس» كان القصد منه إبقاء الحركة السياسية مستمرة من غير أن تصل إلى أي حل. ولهذا فهو يرى أن «خيار الدولة الواحدة» بات رهاناً على المستقبل حتى لو لم يعرف أحد ما سيؤول إليه هذا الرهان المفتوح على احتمالات قد لا تكون في مصلحة الفلسطينيين. وعلى الرغم من ذلك، فالكاتب يعتقد أنه الخيار الأفضل من منظور أخلاقي، وإن لم يكن هو الخيار الملائم من منظور سياسي. أما مصطفى الحسيني فيناقش فكرة «حل الدولتين» من منظور مختلف لا علاقة له مباشرة بمقالة أحمد سامح الخالدي، بينما يعتقد غسان الخطيب أن الدور التاريخي لمنظمة التحرير الفلسطينية شارف على النهاية، في حين يتناول سميح شبيب المعضلات التي تواجه حركة «فتح» وهي على أبواب مؤتمرها السادس.

شئون عربية معاصرة

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع دار نشر روتلدج، يناير ٢٠٠٩



يتضمن العدد عشرة أبحاث ومقابلة، وهي على التوالي:

١ ـ احتلال العراق ورؤية الخروج من هذا المأزق لـ «خير الدين حسيب».

٢ ـ حوار مع سماحة السيد محمد حسين فضل الله حول عدد من الموضوعات الحساسة والخلافية، كمسألة الحجاب والأصولية الإسلامية، وصولاً إلى العولمة والعدالة في العالم. أجرى الحوار هاشم قاسم.

٣ ـ التراث المعماري العراقي في القرن الماضي تحت رحمة عشوائية التطور لـ «علي الحيدري».

٤ ـ تقييم لمتغيرات القضية الكردية في العراق على مر الزمن لـ «كمال ماجد».

٥ ـ سياسات الإصلاح الاقتصادي ووقعها على الطبقات الفقيرة في المجتمع المصري (دراسة سوسيولوجية ـ اقتصادية) لـ «علي الدين عبدالبديع القصبي».

٦ ـ حقيقة طبيعة النظام والصراع داخل الأسرة الحاكمة في السعودية لـ «مي يماني».

٧ ـ إعادة رسم خارطة الأراضي الفلسطينية تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي لـ «ساري حنفي».

٨ ـ التحول الصامت، كيف يتم «تهويد» القدس يوماً بعد يوم لـ «فاليري زنك».

٩ ـ واقع القوات العراقية الجديدة، للعقيد السابق رعد الحمداني.

١٠ ـ خارطة الحركات والتيارات السنية في لبنان وتفاعلها في الساحة السياسية اللبنانية والإقليمية لـ «عبدالغني عماد».

١١ ـ اليهودي الأخير في بيروت لـ «سعيد أبو ريش».

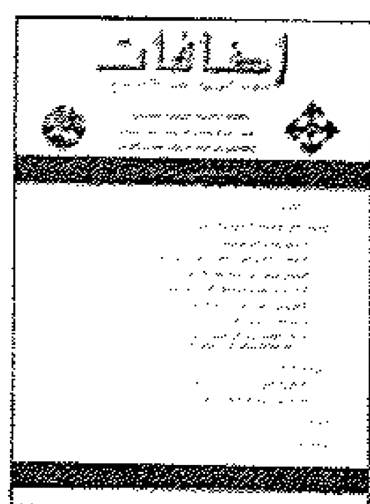
وفي العدد مراجعة لكتاب بول كنغستون: Making Islam democratic: Social movements and the Post-Islam trun، أعد المراجعة آصف بيات.

إضافة إلى ببليوجرافيا ويوميات من آب ـ تشرين الأول ٢٠٠٨، وملف إحصائي يتناول الطاقة في الوطن العربي لـ «كابي الخوري».

إضافات

المجلة العربية لعلم الاجتماع

مجلة أكاديمية فصلية محكمة. شتاء ٢٠٠٩



صدر العدد الخامس ـ شتاء ٢٠٠٩ من مجلة «إضافات» متضمناً افتتاحية: المدينة العربية وعلم الاجتماع الحضري للدكتور سامي حنفي.

وفي العدد تسعة بحوث:

ـ السوق والتمدن في العالم العربي لـ «فرانك ميرميه».

ـ المجالات العامة والفضاء الحضري: مقاربة نقدية مقارنة لـ «فواز طرابلسي».

ـ شوارع بيروت: الذات والمواجهة مع «الآخر» لـ «ستيفن سايدمان».

ـ البداوة والبدائية: إعادة نظر في النموذج الخلدوني لـ «سعد الصويان».

ـ السيميائية: نظرة إلى المستقبل والماضي لـ «دانيال تشاندلر».

ـ سيميولوجيا مدينة تونس لـ محسن بو عزيزي.

ـ الفقر الحضري وارتباطه بالهجرة الداخلية: دراسة اجتماعية لبعض الأحياء الشعبية الداخلية في مدينة الرياض لـ «عزيزة عبدالله النعيم».

ـ العناية الاجتماعية: احتياجاتها وتوفير خدماتها في لبنان لـ «سايكو سوجيتا».

ـ المجتمع المدني في المغرب: المفهوم والسياق لـ «عصام العدوني».

كما تضمن العدد مراجعات الكتب التالية:

ـ البغاء في شوارع الدار البيضاء (سارة كارمونا بنيتو)، أعد المراجعة عبداله هرهار.

ـ إعادة الإنتاج: في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم (بيار بورديو وجان ـ كلود باسرون)، أعدها علي أسعد وطفة.

ـ وقع العولمة في مجتمعات الخليج العربي: دبي والرياض أنموذجان (بدرية البشر)، أعدها باقر النجار.

ـ العلمانية في مواجهة الإسلام (أوليفر روي)، أعدتها ربى صالح.

ـ ما بعد الاستشراق: الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء (فاضل الربيعي)، أعدها يوسف مكي.

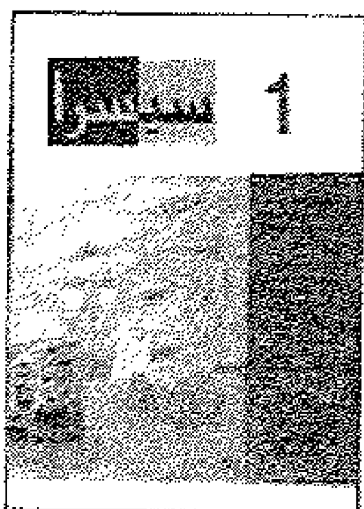
ـ المهن والمجتمع في الشرق الأوسط: أفول النخب وأزمة الطبقات المتوسطة (إليزابيث لونجنس)، أعدها ساري حنفي.

كما تضمن العدد، في باب آراء وردود، نقداً لمقالة رانية سعد «الدوافع والدلالات المتعلقة بموضة الشباب في الحياة اليومية عند اللبنانيين» بقلم رنا مكرزل وصونيا فارس.

سيسرا

المملكة العربية السعودية: نادي الجوف الأدبي الثقافي

أكتوبر ٢٠٠٨



هذا هو العدد الأول من هذه المجلة

الأدبية الجديدة، التى تصدر عن نادى الجوف الأدبى الثقافى، والتى يبدو أن ولادتها كانت صعبة كما هو متوقع فى مثل تلك الأعمال. يقول عبد الرحمن الدرعان فى افتتاحيتها: ليس سراً أن نبدأ افتتاحية هذا العدد بأننا لم نتردد بإلغاء النسخة التجريبية للعدد الذى كان يفترض أن يصدر قبل نحو عام تقريباً باعتباره العدد التجريبى لأسباب ليس هنا مجال الاسترسال فى طرحها من بينها تلك الصعوبات التى لما يزال النادى الأدبى يحاول أن ينازلها منذ تشكيل مجلس الإدارة فى دورته الثانية.

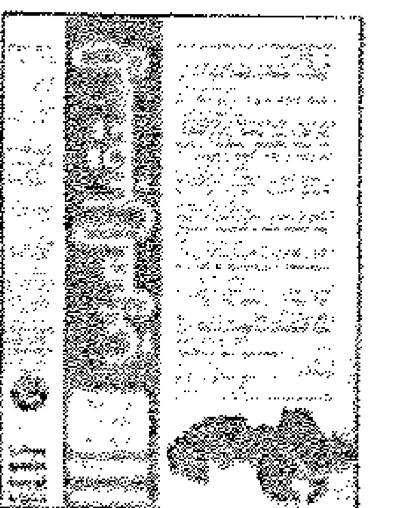
ويعد الدرعان فى افتتاحيته بأننا «سوف نكون على حد سواء مع كل النقد البناء الذى ننتظره بشغف، ذلك النقد الذى يبقينا على حد اليقظة سعياً للوصول إلى الأهداف التى نصبو إليها. ولا نكتمكم سراً بأن الحلم الذى يراودنا منذ ولادة النادى هو العمل على إحياء سوق دومة الجندل كأحد الأسواق العربية الشهيرة الذى لن يكون ممكناً للنادى بمفرده أن يتبنى إعادة إحيائه كمشروع متكامل وهو دعوة لكل المؤسسات الرسمية والأهلية أن تعضدنا وتؤازر طموحنا فى سبيل إعادة إحيائه».

ويضيف «أنه فى الوقت الذى كنا نضع النقطة الأخيرة على مواد هذا العدد بلغنا وفاة الشاعر العربى الكبير محمود درويش التى أحدثت قشعريرة فى الجسد العربى بكامله.. لا نملك ونحن نقف بكامل ذهولنا إلا أن نضع سبع سنابل على ضريحه وأن نمشى صامتين وراء جنازته التى تعود إلى أمها الأرض لتبقى روحه المحلقة كحمامة بيضاء لا تتعب من الطيران فى سماء الشعر العربى الذى خسر بفقدانه أحد أهم الشعراء العرب على الإطلاق».

■

المستقبل العربي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، فبراير ٢٠٠٩



يتضمن العدد افتتاحية بعنوان «حول العدوان الإسرائيلى على غزة: مكاسب تكتيكية وفشل استراتيجى» لرئيس التحرير الدكتور خير الدين حسيب، وستة بحوث، هى:

١ ـ الأزمة المالية العالمية: أسبابها وانعكاساتها لـ «إلياس سابا».

٢ ـ الفيدرالية فى العراق بين الدستور والتطبيق العملى لـ «قحطان أحمد سليمان الحمدانى».

٣ ـ صراع على الشرعية: الإخوان المسلمون ومبارك ١٩٨٢ ـ ٢٠٠٧ (خلاصة تنفيذية) لـ «هشام العوضى».

٤ ـ ناجى العلى: الوطن والفن فى الممارسة السياسية لـ «قادرى أحمد حيدر».

٥ ـ التطهير المكانى: محاولة جديدة لفهم استراتيجيات المشروع الكولونيالى الإسرائيلى لـ «سارى حنفى».

٦ ـ الوطن العربى: انتشار أمراض السرطان والمشكلات البيئية القائمة لـ «كاظم المقدادى».

بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد قسطنطين زريق كتب كل من:

جورج قرم: هل تخطى الزمن فكر قسطنطين زريق؟

زياد حافظ: قسطنطين زريق والفكر القومى: حداثة فكره.

عزيز العظمة: استجلاء العلاقة بين الفكر القومى والسياسة.

جميل مطر: قسطنطين زريق يضع شروط القضاء على التخلف.

ميشال جحا: قسطنطين زريق (١٩٠٩ ـ ٢٠٠٠): سيرته وكتاباته.

كما تضمن العدد تقريراً عن نشاط مركز دراسات الوحدة العربية خلال العام ٢٠٠٨ والمتوقع خلال العام ٢٠٠٩.

أما فى باب آراء ومناقشات، فقد كتب إبراهيم العيسوى عن: «مأساة غزة: العار ورد الاعتبار»، وكتب وحيد عبدالمجيد عن «مأزق القاهرة والاعتدال العربى».

وفى هذا العدد أيضاً ثلاث ترجمات مهمة، وهى:

. الحرب على غزة: انتصارات تكتيكية وهزيمة استراتيجية لـ «أنتونى كوردسمان».

. محرومون ومهددون بالخطر: الأزمة الإنسانية فى قطاع غزة لـ «منظمة «مراقبة حقوق الإنسان».

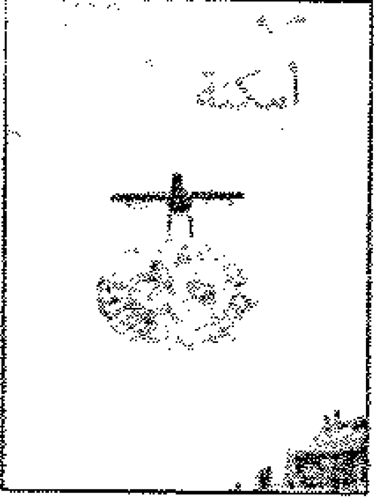
. فضائح إعادة إعمار العراق لـ «جيمس غلانز وت. كريستيان ميلر.

وفى باب كتب وقراءات، مراجعة للكتب الآتية: «الاتحاد النقدى الخليجى والعملة الخليجية المشتركة» (عبدالمنعم السيد على)، أعد المراجعة منير الحمش. و«تطور صورة الشرق فى الأدب الإنجليزى» (ناجى عويجان)، أعد المراجعة ماجد صالح السامرائى. «مذكراتى: ماض لحراسة المستقبل» (سمير أمين)، أعد المراجعة عبدالمالك أشهبون، إضافة إلى كتب عربية وأجنبية وتقارير بحثية مختارة، إعداد كابى الخورى.

وموجز يوميات الوحدة العربية، وببليوجرافيا الوحدة العربية.

■

افتتاحيات.. تحـولات المـدن



أمكنة
تعنى بثقافة المكان

الكتاب التاسع

نوفمبر ٢٠٠٨

من قبل كنا نرصد التحول عبر تلك الانتقالات الحساسة من جيل لجيل، من مرحلة عمرية لأخرى، اختلاف موضات الشعر والملابس، ارتفاع الأسعار. كان الانتقال يستغرق وقتاً، كمرحلة وسيطة يتداخل فيها القديم والجديد. أما الآن فالفجوات ضاقت بين أزمنة التحول هذه، تحت ضغط كثافة الإنتاج والتقدم التكنولوجى الرهيب، وغياب أى نظام فكرى أو حياتى متماسك يقاوم نظام السوق.

ربما كان الحنين إلى الماضى هو أحد منتوجات هذا النوع من التحول الهادى، أما الآن، مع تسارع التحولات التى تحدث على كافة الأصعدة، والمتذبذبة كشاشة البورصة، أصبح الحنين غير مؤثر، ولا يبعث فى النفس هذا العزاء المشبع، لأنه فقد الطريق لهذا الزمن الجميل! وكذلك لا يبعث تلك الحسرة التى يبرق خلالها الماضى بكل شحناته، وكثافته وثقله العاطفى كصورة بالأبيض والأسود. أصبح هذا الماضى بعيداً لا يطاله حنين. لا يمكن التنبؤ بما سيكون عليه دور الحنين فى الأجيال القادمة.

أمام هذا التسارع فى التحولات، لن يسع عمر الفرد، مهما طال، إلا ليشهد على لحظة، سرعان ما تنقلب، لن تمنحه اليقين أو تثبت إيمانه، بل حولته إلى متفرج أعزل. بلا ذنب أصبحنا محرومين من نعمة التنقل بمرح عبر الأزمنة، الماضى، الحاضر، المستقبل. أعتقد أن أجيال أبنائنا وأجدادنا، عاشوا وماتوا وهم غير مهانين فى أعماقهم، أو مصدومين فى حياتهم وما حصلوه منها. كان المجتمع لازال محتفظاً بمفاجآته تحت جلده. أما نحن فنعيش الصدمة منذ البداية، لحظة بلحظة، كبث مباشر لا ينقطع. ليست صدمة التحولات السريعة فقط، ولكن هذا الجو الخانق الذى صاحبها، من فساد وتعصب واستغلال وتسلط، وتحلل للنسيج الاجتماعى، بدون أى مكاسب تعوض هذه التضحيات الإجبارية. جزء من هذا الخطأ يقع علينا، لأننا لم نسهر على «فرديتنا»، ولم نحافظ عليها، وأهدرنا مستوليتنا أمام أنفسنا، فى سبيل العيش وسط هذه الموجات من العزاء الجماعى.

لم يعد هناك مستقبل، كالذى حلمنا به من قبل، كلحظة انتقال نوعى وجنى لثمار الرحلة، أصبح المستقبل هو هذا الحاضر الثقيل الذى نعيشه الآن، بعد أن ضاقت المسافة بيننا وبينه. لقد ساد الشعور بأن ليس هناك نقلة نوعية ستخطوها الإنسانية، وأن العالم سيسير على ما هو عليه حتى النهاية. لقد تجرأنا على المستقبل أكثر مما يجب، وكذلك حملناه أكثر مما يحتمل. أصبح المستقبل سلعة عادية لا جدد فيها ولا جاذبية. المستقبل الذى كان من أهم خصائصه أن يظل مؤجلاً ومختزناً لحلم ما، لطموح ما، لغاية ما.

ربما المدينة، وهى المكان المثالى لمعاينة ورصد التحولات، لم تعد ذلك الفضاء العاقل أو حتى الشاعرى، لقد كان أملنا أن تقوم المدينة بتنظيم تلك العزلات المتجاورة وتخلق منها وعياً جديداً. ولكن «مدينتنا» ساهمت بشكل حاسم فى تأكيد هذه العزلات، بسوء التنظيم، بصلف الأسوار العالية لمدنها المغلقة، بحزن عشوائياتها، بتراكم الثروة والسلطة فى ناحية، وانعدامها فى الناحية الأخرى، وأخيراً يتأجج الصراع العشوائى بين كل الأطراف من أجل السيطرة على هذا الفضاء المدينى. لقد تكاثرت العوائق، التى تعوق السير والاتصال، داخل المدن، بحيث أصبحنا نعيش ونتنقل بين أكثر من مدينة، وهذه الحالة هى فى النهاية نقض لكل لحظات التحرر، ولتلك السماء الموحدة، التى عاشتها أو وعدتنا بها «مدينتنا» القديمة.

إرث المدينة والمدنية يُعاد تقسيمهما الآن على أسس جديدة.

ربما نعيش الآن لحظة فاصلة فى عمر «مدينتنا»، وربما نكون على أبواب مدينة جديدة، ليس لها علاقة بالمدينة القديمة، سوى تناثر الشكوى والحزن والغضب فى أرجائها.

فى فيلم «بين القصرين»، المأخوذ عن رواية نجيب محفوظ المسماة بنفس الاسم، يتلقى الأخوان نبأ وفاة سعد زغلول ليلاً، عبر صوت بائع الجرائد، بينما هما يتحدثان على سطح البيت. عندها يطلب الأخ الأكبر، والذى يقوم بدوره عبدالمنعم إبراهيم، من أخيه الأصغر، والذى يقوم بدوره نور الشريف، المصدوم والذاهل من وقع الصدمة، يطلب منه بمواساة أن يذهب لينام، لأن أمامه فى الغد يوم طويل. ما يفرق هذا الغد عن باقى الأيام، أن شبح الموت يحلق عليه. أشعر أننا مازلنا نعيش فى نهار طويل كهذا حتى الآن، شبيه لذلك النهار، هناك موت منتظر أو موت قد حدث بالفعل. أو هكذا نشعر فى لحظة التحول الحادة.

أجيال مر عمرها وهى مستيقظة.

نحاول فى هذا العدد من المجلة أن نرصد تحولات المدن، ونثبت قيمة التذكر، حتى لا ننسى، ونوثق ما يحدث، أو ما حدث بالفعل فى نهارنا الطويل هذا.

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 123 - April 2009

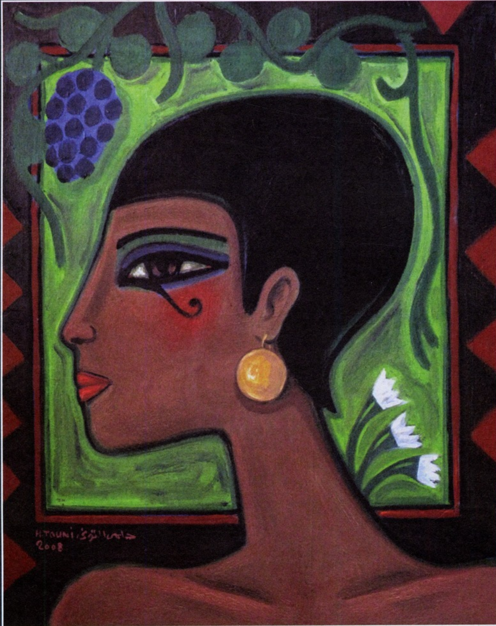
مجلة شهرية. العدد المائة وثلاثة وعشرون - السنة الحادية عشرة - أبريل ٢٠٠٩. الثمن عشرة جنيهات

أسئلة العدالة .. 1 Shot 2 Kills

أيمن الصياد

السادية الأمريكية الرسمية / أنطونى لويس

من يدفع ثمن قهوتك / تيم هارفورد



"نفرتارى وأخوتها"

فى معرض حلمى التونى

السنة الحادية عشرة
العدد ١٢٣
أبريل ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد بهاء شعبان.. كاتب وسياسى مصرى.
- أحمد على الجارم.. أستاذ الطب بجامعة القاهرة وعضو مجمع اللغة العربية.
- أنطونى لويس.. كاتب بجريدة النيو يورك تايمز.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- تيم هارفورد.. اقتصادى وصحفى إنجليزى.
- ستيفن لاندسبيرج.. أستاذ الاقتصاد بجامعة روتشستر.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- مايكل ماسينج.. كاتب فى النيو يورك ريفيو أوف بوكس.
- منال الجسرى.. صحفية.
- ناصر الرباط.. أستاذ الأغاخان لتاريخ العمارة الإسلامية M.I.T
- يوسف الشارونى.. ناقد أدبى.
- يوسف الشريف.. صحفى.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى
لوحة الغلاف: للفنان حلمى التونى
زيت على قماش من معرض «نفرتارى وأخواتها»





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠ / ٢٣٩٣٠٤٩٢ / ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

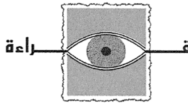
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



1 SHOT 2 KILLS

أسئلة العدالة

أيمن الصياد



لماذا لم تتم محاسبة الإسرائيليين؟ علينا أن نوجه السؤال لأنفسنا قبل أن نوجهه للعالم



■■ أربعة أخبار فى أسبوع واحد:

- فى الشروق المصرية: (التى يُحسب لها أنها سبقت بالخبر)، نبأ الغارة التى قامت بها طائراتٌ (أمريكية أو إسرائيلية لا فرق) على قافلة سيارات داخل أراضى دولةٍ مستقلة ذات سيادة، وعضو فى الأمم المتحدة.

- فى هآرتس الإسرائيلية: خبرٌ صادمٌ عن قمصان T- Shirts انتشرت بين الجنود الإسرائيليين الذين شاركوا فى اجتياح غزة الوحشى الأخير، مطبوعٌ عليها شعارات صادمة. من بينها رسم لأم فلسطينية حامل وتحت الرسم عبارة تقول: «اقتل اثنين برصاصة واحدة» 1 SHOT 2 KILLS (ربما لم يكن أحد منا لينتبه للأمر لولا أن تحدث عنه الأستاذ هيكل فى الجزيرة).

- على ماكينات التيكرز: أوكامبو، المدعى العام للمحكمة الجنائية الدولية يطالب المجتمع الدولى بالتضافر من أجل تنفيذ أمر المحكمة باعتقال «الرئيس» عمر البشير. خاصا بالذكر «الجارتين» مصر وليبيا. معتبرا أن هذه القضية ستمثل «اختبارا حقيقيا للعدالة الدولية».

- فى نيويورك: وجهت منظمة «هيومان رايتس ووتش» اتهامات لإسرائيل بارتكاب جرائم حرب فى غزة. وذلك فى بيان عرض «أدلة موثقة» على قيام الجيش الإسرائيلى بإطلاق قذائف الفوسفور الأبيض بصورة غير مشروعة على مناطق ذات كثافة سكانية عالية فى قطاع غزة.



هل تبدو الأخبار الأربعة ذات صلة.؟ ربما. مصادفة / أو مفارقة.. لا فرق.

لا أحد يجادل فى أن هناك ازدواجا فى المعايير جعل البعض يكفر بالشرعية الدولية. وربما كان هذا جوهر أزمة «المصداقية» فى النظام العالمى الذى صاغه المنتصرون فى الحرب الكونية قبل ستين عاما محتكرين الفيتو والعضوية الدائمة فى المجلس الذى يفترض أنه يقوم على الأمن والسلم الدوليين، فى وقت استدعت فيه دماء ملايين الضحايا، الحاجة إلى الأمن والسلم لتتصدر كل الأولويات قبل قيمة العدل و إنصاف المساواة.

قد يكون ذلك صحيحاً، وهو كذلك. ولكنه لا يبرر أبدا ذلك «التفسير سابق التجهيز» الذى يجرى استدعاؤه دائما - بمناسبة أو بدونها - والذى يلخصونه فى عبارة واحدة مللنا سماعها: «نحن مستهدفون.. لأننا عربٌ، ولأننا مسلمون» يلحُ علينا بالفكرة ذاتها يوميا أصحابُ هذا القول. ومنهم للأسف مثقفون وسياسيون ورجال حكم. حريصون دائما - وهم يصرخون أو يتباكون - على أن يشيروا بأصبع السبابة بعيدا، حتى لا يرى الجمهور خطرا أو يأبه له إلا إذا جاء من الخارج، غافلا عن حقيقة أن أدواء الداخل متمثلة فى غياب الديموقراطية والعدل، والحكم الرشيد، يمكن أن تكون أشد خطرا. فضلا عن أنها غالبا هى التى تستدعى الخطر الذى يأتى من الخارج. متذرعا - بالحق أو بالباطل - بدعاوى إصلاح بات ملحا، أو بحقوق إنسان بدت مهدرة.

هل كان علينا انتظار ست سنوات كاملة، منذ أن اندلعت الأزمة فى دارفور حتى يصل الأمر إلى ماوصل إليه، فيهرع الجميع لإنقاذ مافات وقت إنقاذه؟ ألم يكن قرار مجلس الأمن رقم ١٥٥٦ فى يوليو ٢٠٠٤، قبل سنوات أربع كاملة كافيا لتنبيهنا إلى واقع عالمى جديد؟ بداية، لابد من الاتفاق على أن «المتآمرين الغربيين» لم يكونوا هم الذين افتعلوا أزمة دارفور أصلا قبل ست سنوات، ثم عملوا على تفاقمها كذريعة لاستهدافهم السودان. ربما هناك من استثمرها لغرس «بذور قلق» تتطلبه مصالحه فى هذه المنطقة، أو «لريها» ورعايتها على الأقل. ولكن هذه هى السياسة. فماذا فعل «رجالها» على الجانب الآخر؟! كان من المفترض أن يكون هناك من يزن الأمور بميزانها، مدركا فى أى زمن نعيش، فيعمل على الحيلولة دون نشوب حريق بدا شرره فى الأفق. ولكن الذى جرى أن النظام السودانى استهان بالمسألة كلها، وأن النظامَ الرسمى العربى، الذى اجتمعت قمته على تخومها فى الخرطوم (٢٠٠٦)، شُغل عنها، ربما بحرائقَ أخرى كانت قد اشتعلت فعلا هنا وهناك، أو بانكفاء كلّ «منشغل ببقائه» على ذاته منزويًا فى ركن يظنُّه بعيدا عن العاصفة.

....

....

وكان أن وقعت الواقعة، وصدر قرارٌ قضائى «غير مسبوق» باعتقال رئيس دولة وهو فى الحكم. وكان أن أولَ من صدرَ بحقه مثل هذا القرار، رئيس عربى. ليصبح لنا «السبق» كما كان لنا فى هذا اليوم البعيد «صبيحة الأضحى» حين شاهدنا مع العالم كله، رئيسا عربيا يساق إلى المشنقة.

كان لافتا يومها ملاحظتان: الأولى أن المشهد كاملا تم بثه «أولا» على موقع YouTube قبل أن تنقله محطات التلفزة.

والثانية أن التصوير تم بكاميرا هاتف نقال. وكان فى الملاحظتين - فضلا عن الواقعة ذاتها - إشارة كافية أننا أمام عصر جديد .. وآليات جديدة.

والحاصل أن مابدا تقصيرا وتباطؤا فى التعامل الجاد مع أزمة دارفور منذ يومها الأول يقول بأن هناك من لم يدرك بعد أننا أمام عصر جديد وآليات جديدة. بل كان مثيرا أن ٩٠٪ (ولا أبالغ) ممن علقوا على قرار المحكمة باعتقال البشير فى الصحف أو فى الفضائيات (مسؤولين أو إعلاميين) بدوا وكأنهم لم يكلفوا أنفسهم عبء قراءة بنود «نظام روما الأساسى» الذى يتصرف فى إطاره قضاة المحكمة الجنائية الدولية. فتحدثوا مثلا عن «حصانة مفترضة لرؤساء الدول والحكومات» تحميهم من الملاحقة القانونية.. رغم أن المادة ٢٧ من نظام روما والتى عنوانها نصا «عدم الاعتداد بالصفة الرسمية» تنص صراحة على مايلى:

«١ - يطبق هذا النظام الأساسى على جميع الأشخاص بصورة متساوية دون أى تمييز بسبب الصفة الرسمية، وبوجه خاص فإن الصفة الرسمية للشخص، سواء كان رئيساً لدولة أو حكومة أو عضواً فى حكومة أو برلمان أو ممثلاً منتخباً أو موظفاً حكومياً، لا تعفيه بأى حال من الأحوال من المسئولية الجنائية بموجب هذا النظام الأساسى، كما أنها لا تشكل فى حد ذاتها، سبباً لتخفيف العقوبة.

٢ - لا تحول الحصانات أو القواعد الإجرائية الخاصة التى قد ترتبط بالصفة الرسمية للشخص سواء كانت فى إطار القانون الوطنى أو الدولى، دون ممارسة المحكمة اختصاصها على هذا الشخص».

كما تنص المادة ٢٨ بند ٢ لمن يهمه الأمر - وهم فى الأغلب كثير عندنا - على: «بالإضافة إلى ما هو منصوص عليه فى هذا النظام الأساسى من أسباب أخرى للمسئولية الجنائية عن الجرائم التى تدخل فى اختصاص المحكمة: يُسأل الرئيس جنائياً عن الجرائم التى تدخل فى اختصاص المحكمة والمرتكبة من جانب مرؤوسين يخضعون

الــــذيــــن علقــــوا عـــــلـى قـــــرار المحكمـــــــة، بـــدا أنهـــم لــــم يقـــرءوا أبــــدا قوانينهـــــا

إسرائيل .. والمحكمة

على الذين مازالوا يذكرون النوايا الإسرائيلية المعلنة نحو إبعاد فلسطينيى ١٩٤٨ (الترانسفير) أن يقرءوا جيدا نص الخطاب الرسمى الذى أرسلته تل أبيب إلى الأمم المتحدة فى ٣٠ يونيو ٢٠٠٢ تعلن فيه أنها «لن تصدق» على ميثاق روما للمحكمة الجنائية الدولية. مستخدمة نفس العبارات التى استخدمتها إدارة بوش فى رسالتها المشابهة. وجاء فى نص الخطاب نقلا عن الموقع الرسمى للخارجية الإسرائيلية:

Israel states that it has "deep sympathy" with the goals of the court. However, it has concerns that political pressure on the court would lead it to reinterpret international law or to "invent new crimes". It cites the inclusion of "the transfer of parts of the civilian population of an occupying power into occupied territory" as a war crime as an example of this, whilst at the same time disagrees with the exclusion of terrorism and drug trafficking. Israel sees the powers given to the prosecutor as excessive and the geographical appointment of judges as disadvantaging Israel which is prevented from joining any of the UN Regional Groups.



© Yanai Yechiel

لسلطته وسيطرته الفعليتين نتيجة لعدم ممارسة سيطرته على هؤلاء المرؤوسين ممارسة سليمة.

أ) إذا كان الرئيس قد علم أو تجاهل عن وعى أى معلومات تبين بوضوح أن مرؤوسيه يرتكبون أو على وشك أن يرتكبوا هذه الجرائم.

ب) إذا تعلقت الجرائم بأنشطة تندرج فى إطار المسئولية والسيطرة الفعليتين للرئيس.

ج) إذا لم يتخذ الرئيس جميع التدابير اللازمة والمعقولة فى حدود سلطته لمنع أو قمع ارتكاب هذه الجرائم أو لعرض المسألة على السلطات المختصة للتحقيق والمقاضاة».



أيا ماكانت تفاصيل المواد القانونية، وأيا ماكان الأمر بشأن «حقيقة ماجرى» فى دارفور، وحقيقة الذين يتحملون المسؤولية عن وصول الأمور إلى ماوصلت اليه، فإن سؤال «ازدواجية المعايير» كان مطروحا دائما فى خطاب رد الفعل العربى، تساوت فى ذلك تصريحات رسمية، مع تظاهرات الشارع. وكان السؤال الذى رفعه الجميع لافتة يصرخون حولها، مكتفين بها، هو: «لماذا لم تتم محاسبة الإسرائيليين على ما اقترفوه من جرائم حرب؟»

ورغم أن السؤال جوهرىٌ ومهمٌ ومطلوب، إلا أننى أخشى أن أقول أولا أنه لايمكن «قانونيا» الدفع به. لأن القاعدة القانونية - كما يعرف أهل الاختصاص. أنه «لاتزر وازرة وزر أخرى»، بمعنى أن جريمة فى دارفور (إن كانت قد حدثت، ولسنا هنا فى موضع تحقيق أو إدانة) لايبررها قانونا جريمة فى غزة أو فى أى مكان آخر.

كما أننى أخشى ثانية أن أقول أن علينا أن نوجه السؤال لأنفسنا كما نوجهه للعالم؛ لماذا لم تتم محاسبة الإسرائيليين؟

الإجابة شديدة البساطة: لأن لا أحد منا «جديًا» حاول تقديمهم للعدالة (!)

لم نفعل ذلك يوم اكتشف العالم كله - بالأدلة الموثقة - ماجرى فى قانا (اسألوا بطرس غالى).

ولم نفعل ذلك يوم اعترفوا بأنفسهم بما فعلوه بالأسرى المصريين فى سيناء (ارجعوا إلى التصريحات الرسمية للخارجية المصرية).

ولم نفعل ذلك يوم أن شهد العالم كله على الهواء مباشرة قذائف الفوسفور تضىء سماء غزة، والطائرات تقصف المستشفيات وسيارات الإسعاف ومدارس «الأونروا» التابعة للأمم المتحدة).

كما أننا لم نفعل أى شىء «لتفعيل» قرار محكمة العدل الدولية بعدم شرعية «جدار العزل» العنصرى الذى لم يتوقف الإسرائيليون، رغم القرار الدولى عن المضى فى بنائه.

من يتقاعس عن المطالبة بحقه، لايحق له أن يشكو. أليس كذلك؟

جرى ماجرى فى غزة، قبل ثلاثة أشهر كاملة، ولم يكن هناك خلاف أبدا حول أن ماجرى كان جريمة حرب بكل المقاييس. قال بذلك الجميع، حتى من الإسرائيليين أنفسهم (أرجوكم ارجعوا إلى ماكتبه آفى شلايم وجيمى كارتر ووثائق منظمة «بيتسليم» الإسرائيلية - «وجهات نظر» فبراير ٢٠٠٩)

لاخلاف إذن.. ماذا بعد؟ لا شىء.. لماذا؟ لأن الحق لا يأتى لأصحابه «القاعدين» هكذا على طبق من ذهب.

يومها سمعنا كلاما كثيرا من سياسيين و«متظاهرين» ورجال حكم عن ضرورة تقديم الإسرائيليين الملطخة أيديهم بالدماء إلى «المحكمة الجنائية الدولية». ثم..... لا شىء.

وبدا المشهد كله هزليا.

الصارخون.. والجالسون أمام الكاميرات.. و«المطمئنون لشعوبهم» الثائرة، بدوا كأن لم يقرأ أحدُهم يوما قانون المحكمة، ليعرفوا كيف لهم أصلا اتخاذ هذه الخطوة. وماهى الخطوات اللازمة لذلك. وماإذا كانت ممكنة أم غير ذلك.

وكان الأكثر مدعاة للسخرية، أن أولئك «العرب» الذين صدعوا رؤوسنا بأنهم سيلجأون إلى المحكمة الجنائية الدولية، تناسوا أن جلهم كانوا قد رفضوا ابتداء ولاية تلك المحكمة بعدم التصديق على معاهدتها. (ثلاث دول عربية فقط انضمت لتلك الهيئة القانونية الدولية، بينها جيبوتى وجزر القمر!)

كما كان لافتًا أيضا أن الذين قاموا بجهدٍ «حقيقى» فى إعداد ملفات إدانة الإسرائيليين بجرائم حرب، هى المنظمات الحقوقية الدولية «نفسها» التى نوجه له الاتهامات صباحًا ومساء بأنها منظمات «صهيونية» إذا تطاولت ذات مرة وتحدثت عن الحريات وانتهاك حقوق الإنسان فى بلادنا «العادلة».

....

....

لاشىء «يمكث فى الأرض» إذن. وإنما «زَبدٌ» وكلام مكرر عن المؤامرة «الدولية» على العرب والمسلمين، وعن الأمريكيين «المجرمين» ثم: «لا حظٌ لنا فى هذا العالم المتواطئ..» هكذا قال أحدهم على شاشة فضائية شهيرة (!)

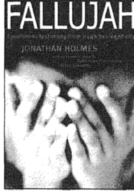
«لا حظٌ لنا»...

هكذا لخصنا المسألة... ثم استدرنا إلى الطاولة «نلعب النرد». ■

حدث في الفلّوجة

يجيب الكاتبان في مقدمتيهما عن السؤال الأهم: لماذا الفلوجة؟

منال الجسري





قبل خمسة أعوام كاملة، وبالتحديد في مثل هذا الشهر (أبريل / نيسان) فاجأت «الفلوجة» العراقية العالم كله، والعسكرية الأمريكية خصوصا، بمعركتها الأولى حينما فشلت القوات الأمريكية عالية المستوى في السيطرة على المدينة الصغيرة، التي أبدت مقاومة لابد أن يذكرها التاريخ. بعد أشهر من المعركة الأمريكية الخاسرة، وبالتحديد في نوفمبر من العام نفسه، ذهبت قوات المارينز للانتقام، وكانت مذبحة مروعة.

اليوم، والعالم كله، بمناسبة دارفور يتحدث عن القانون الدولي الإنساني، نتذكر «الفلوجة» ونعرض هنا لكتب وتقارير وشهادات ووثائق. وننشر مقالا لأنتوني لويس (الكاتب الأمريكي) يذكرنا فيه أيضا بما جرى في «جوانتامو» معتبرا أنه «تبرئة للضمير الأمريكي» ينبغي تقديم بوش، ورامسفيلد للعدالة.

المحرر

■■ في يناير الماضي، استطاع الصحفي بيتر كوكبرن، مراسل جريدة الاندبندنت البريطانية، أن يقوم بزيارة أخيرة لمدينة الفلوجة. وفي مقاله الذي نشر بتاريخ ٢٨ يناير كتب: «إن دخول مدينة الفلوجة أصعب من دخول أي مدينة أخرى في العالم».

الهدف من وراء الصعوبات ليس منع الناس من دخول المدينة فحسب، ولكن أيضا منع حقيقة الانتهاكات التي قام بها الجيش الأمريكي خلال معركتي الفلوجة (أبريل ونوفمبر ٢٠٠٤) من الوصول إلى العالم الخارجي.

ليس أدل على ذلك مما قالته الصحفية الإيطالية جوليانا سجانا: «لا يمكن أن يكون هناك شهود على هذه الحرب لأنها حرب مبنية على الأكاذيب». سجانا كانت أحد الشهود الذين استعان بهم المخرجان سيجفريدو رانوتشي وموريتزيو توريالتا في فيلمهما: فلوجة - المذبحة المخفية، والذي عرض على قناة راي في نوفمبر ٢٠٠٥.

وتضيف سجانا، التي منعها خاطفون من نشر ما رأته في الفلوجة: «لقد سمح الأمريكيون للصحفيين المزروعين فقط بتغطية هذه الحرب».

ولكن بالرغم من أن العالم الغربي لم ير حرب الفلوجة سوى من خلال فتحة صغيرة في جانب الدبابات الأمريكية، يظهر مع مرور الوقت شهود عيان عاشوا هذه الحرب ومستعدون لتقديم شهاداتهم بدون خوف. من أبرز هؤلاء الشهود جندي المارينز السابق جيف ايكلهارت. في فيلم قناة راي، يسأل ايكلهارت عما سيخبر أولاده عن حرب الفلوجة التي شارك فيها، فيجيب: «إنها تمثل القتل الجماعي للعرب».

في العام الماضي، ظهر كتابان جديدان عن حرب الفلوجة. الكتابان يتخذان من شهادات شهود العيان أساسا لهما. الأول هو فلوجة - شهادات من مدينة العراق المحاصرة، وقام بكتابته الكاتب والمخرج والأكاديمي البريطاني جوناثان هولمز. أما الكتاب الثاني فهو معركة الفلوجة - هزيمة أمريكا في العراق، من تأليف مذيع قناة الجزيرة أحمد منصور. بينما قام هولمز بجمع شهادات عن معركة الفلوجة وتحويلها إلى مسرحية واقعية في الجزء الثاني من كتابه، قام منصور بسرد تجربته الشخصية على رأس الطاقم التليفزيوني الوحيد المتواجد داخل الفلوجة خلال حصارها الأول في أبريل ٢٠٠٤.

لماذا الفلوجة؟

يجيب الكتابان في مقدمتيهما عن السؤال الأهم: لماذا الفلوجة؟ كل من شهد هذه الحرب لا يستطيع وصف ما حدث بها سوى أنه عقاب جماعي لأهل الفلوجة. يكتب منصور: «وقد اعترف جنرال ناتونسكي قائد قوات المارينز بأنه حصل على الضوء الأخضر من بوش ورامسفيلد لتدمير الفلوجة على رؤوس من فيها»، وقال في تصريحات نشرت في ١٦ نوفمبر، أي بعد أسبوع من بداية عملية تدمير وحرق المدينة: «حصلنا على الضوء الأخضر هذه المرة أن نقوم بالعمل حتى النهاية بأكبر قدر ممكن من النيران وفي أسرع وقت ممكن بعيدا عن أنظار العالم».

إذن قامت معركة نوفمبر ٢٠٠٤ للانتقام من أهل الفلوجة بعد هزيمة معركة أبريل، حينما فشلت القوات الأمريكية في السيطرة على المدينة بالرغم من قتلها لمئات المدنيين وتدميرها للبنى التحتية والمستشفيات. أما معركة أبريل فقد شنت للانتقام من أهل الفلوجة بعد أن قتلت المقاومة بالمدينة أربعة أفراد من المرتزقة العاملين بشركة بلاك ووتر وبعد تمثيل أطفال المدينة

Fallujah
Eyewitness Testimony from Iraq's Besieged city

فلوجة
شهادات شهود عيان من مدينة العراق المحاصرة
جوناثان هولمز (مع مقال موسع لسيللا الوورثي المرشحة لجائزة نوبل للسلام)
Constable, 2007, 218 pp, (English pound) 7.99

معركة الفلوجة
هزيمة أمريكا في العراق
الكاتب: أحمد منصور
الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ٤٤٥ صفحة

Fallujah: The Hidden Massacre
Duration: 27 minutes
Directed by Sigfrido Ranucci and Mauizio Torealta
Produced by the Rai Channel
Aired Nov. 8, 2005

كـل مـن شـهـد هـذه الحـرب لا يـسـتـطـيـع وصـف مـا حـدث بـهـا سـوى أنـه عقـاب جمـاعى لأهـل الفلوجـة



بجثث هؤلاء المرتزقة أمام شاشات التليفزيون. يكتب منصور نقلا عن مسئول أمريكى: «نحتاج للحصول على نتائج. إذا سمح لهذا الحادث أن يمر دون عقاب أو بدون تحقيق فيه، وإذا تم قبوله ثمنا للتعامل فى الفلوجة، فإن هذا سيكون علامة سيئة».

كان الانتقام فى المعركتين وحشيا. فى الفيلم الوثائقى نرى صورا بالأقمار الصناعية للمدينة بعد معركة نوفمبر. الصور تبين مدينة محروقة بالكامل. المدينة المقاومة كانت لا بد أن تمحى من الوجود، وكان لا بد كذلك أن يمحى أى أثر لما حدث فيها. تتحدث الصحفية باولا جاسبارولى عما حدث للصحفى المستقل مارك مانئغ، الذى استطاع أن يصور بعض أحداث الفلوجة قبل سفره إلى الولايات المتحدة - خلال إقامته بأحد الفنادق عاد مانئغ إلى غرفته ليجد أن شرائط الفلوجة قد سرقت، أما باقى أشيائه (وحتى تسجيلاته فى مناطق أخرى من العراق) فكانت لا تزال موجودة.

لم يكن من المفترض أن تصل للغرب أية معلومات عن حرق المدنيين بالفوسفور الأبيض، ولا عن استخدام النابالم الجديد (مارك ٧٧)، ولا عن قتل المرضى والمصابين والمدنيين المحتمين بالمساجد. ولكن لا بد للحقيقة أن تظهر. وها هى سيللا الوورثى المرشحة لجائزة نوبل للسلام تكتب: «فى تقريره إلى سكرتير عام الأمم المتحدة، سجل مركز دراسات حقوق الإنسان والديمقراطية (SCHRD) أن القوات (الأمريكية) قامت بتكبيل الأطباء وضربهم بالأحذية. لقد تم القبض على المرضى ومنع العلاج عنهم. إحدى عيادتى الفلوجة الوحيدتين قد قصفت، وتم تدمير كل ما فيها من أدوية ومعدات».

شـهـود العـيـان

من أكثر الشهادات حيوية فى كتاب هولمز هى شهادة البريطانية جو وايلدينغ، إحدى ناشطات حقوق الإنسان والمحامية، الكاتبة والمخرجة. فى عام ٢٠٠١ قامت وايلدينغ بكسر الحصار المفروض على العراق كى تقدم للمحاكمة وتتمكن من تسليط الضوء على ممارسات بلدها المعادية للعراق. تكتب وايلدينغ عن مشاهداتها فى العراق فى مدونتها الإلكترونية www.wildfirejo.blogspot.com

كانت وايلدينغ متواجدة فى العراق أثناء معركة الفلوجة الأولى كجزء من مشروع سيرك إلى العراق (Circus2Iraq) الذى حاول إيصال المعونات الإنسانية إلى المناطق النائية من العراق. تكتب وايلدينغ فى مدونتها بتاريخ ١٣ أبريل: «أنا فى الباص لأن أحد الصحفيين دق بابى الأمس فى الساعة الحادية عشرة مساء ليخبرنى أن الأحوال بالفلوجة فى غاية السوء. كان (الصحفى) يساعد فى حمل أطفال فقدوا أطرافهم. كان الجنود يخبرون الناس أن عليهم ترك المدينة قبل الغروب حتى لا يتعرضوا للقتل. ولكن عندما حاول الناس الهرب بمتاعهم القليل كانت القوات تمنعهم من الرحيل».

فى صفحة أخرى من مدونتها تحاول وايلدينغ أن تشرح لماذا قررت الذهاب إلى الفلوجة: «سأعفيكم من معرفة كل تفاصيل عملية اتخاذ القرار، وكل الأسئلة التى نسألها لأنفسنا ولبعضنا البعض. أما أنتم فاعفونى من اتهامات الجنون. فى نهاية الأمر السؤال النهائى هو: لو لم أذهب أنا فمن سيذهب؟»

ذهبت وايلدينغ إلى الفلوجة خلال الأيام الأخيرة الحاسمة من المعركة الأولى، وكانت من أهم مهامها ملازمة سيارات الإسعاف. تطلق الناشطة على نفسها لقب الباسبور، فشعرها الأشقر وملامحها الأوروبية كانا بمثابة جواز سفر لسيارة الإسعاف التى كانت ترافقها عبر الحواجز الأمريكية. بالرغم من ذلك كانت سيارتها تتعرض أحيانا لإطلاق النار. تقول وايلدينغ بعد إحدى هذه المحاولات: «أشعر بالغضب الشديد. نحن نحاول الوصول لسيدة تعانى آلام المخاض بمفردها وبدون رعاية طبية، بدون كهرباء، فى مدينة تحت الحصار وفى عربة إسعاف وأنتم تطلقون علينا النيران. كيف تجرؤون على ذلك؟ كيف تجرؤون؟»

وجود أفراد مثل هذه الناشطة فى وسط الحروب يثبت أن الخير أو الشر ليسا جزءا من منطقة جغرافية بعينها. وحتى المقاومة فى الفلوجة استطاعت أن تميز بين الأصدقاء والأعداء، بعكس القوات الأمريكية التى تقتل بدون تمييز. فى خلال تواجدها فى الفلوجة، تعرضت الناشطة وأصدقاؤها للاختطاف على يد أفراد من المقاومة. تصف وايلدينغ هذه المحاولة قائلة: «أخذونا لأننا أجانب ولأننا كنا نتصرف بشكل غريب فى وسط حربهم. ولكن عندما علموا بما نفعله أطلقوا سراحنا. فى طريق العودة استطعنا أن نفتح الحواجز وتمكن البعض من الخروج من الفلوجة. لو كان هذا كل ما فعلناه فهو أمر جيد. ولكنى فى لحظات الهدوء أهمس بالشكر للملائكة الأنقياء الذين يعتنون بالمهجرين ومتطوعى الإسعاف».

ضاهر جميل شاهد آخر من شهود عيان الفلوجة، ولكنه شاهد رسمى، فهو صحفى كندى مستقل. فى كتابه يجمع هولمز بعض ما كتبه جميل على موقعه www.dahrjamailiraq.com معظم كتابات جميل مبنية على شهادات مباشرة أسر بها أهالى الفلوجة للصحفى. فهو يكتب فى يوم ١٤ مايو: «عندما علم أحد الجيران أننى صحفى، خرج ليحكى لى حكاية فظيعة أخرى. كان له أخ اسمه حسين محمد جرجى فى الثالثة والأربعين من عمره ومصاب بإعاقة عقلية. خرج حسين من بيته فى نفس اليوم الذى قتل فيه المرتزقة. أكمل الأخ حكايته وعيناه مليئتان بالدموع: أصيب أخى بطلقة وهرع إلى داخل المنزل. لحقوا به إلى الداخل، وقطعوا قدميه بسكين كبير، ثم أردوه برصاصة فى رأسه. بعد أن دمروا الأثاث وتبرزوا فى أركان البيت، رحلوا. هذه هى الطريقة التى تصرفوا بها فى كل أنحاء الفلوجة. لقد دفنا قدمى أخى مع جثمانه».

من أهم ما يرويه جميل أخبار عمليات التغطية على أحداث المعركة الثانية، فيشرح كيف قامت القوات الأمريكية بإزالة أطنان من حطام المنازل المدمرة. يحكى أحد مصادر جميل أنه فى بعض المواقع التى تعرضت للقصف بالأسلحة الخاصة، قامت القوات الأمريكية برفع التربة عن مساحات شاسعة تصل إلى ٢٠٠ متر مربع فى كل مرة.

تحكى مصادره أيضا عن سيارات رش غسلت المدينة لمحو آثار المخلفات الكيماوية. يقول أبو صباح لجميل: «استخدم الأمريكيون قنابل غريبة مشعة دخانها يشبه عش الغراب، ترسل قطعا صغيرة فى الهواء لها ذيول طويلة من الدخان». وصف أبو صباح أن قطعا من هذه القنابل كانت تنفجر حارقة لجلد البشر حتى عندما حاولوا إطفاءها بالمياه. يعقب جميل أن هذا هو تأثير الفوسفور الأبيض والنابالم.

كما حكى له أحد الأطباء عما حدث لعائلة من اثنى عشر فردا صدقت ما بثه العدو الأمريكى عن ضرورة إخلاء المدينة، وأن كل من سيتوجه للمعبر حاملا الأعلام البيضاء سيسمح له بالرحيل: «عندما وصلت العائلة للمعبر، سمعوا من يصرخ NOW وعندها بدأ إطلاق النار. كان كل أفراد العائلة ممسكين بالأعلام البيضاء. أحد أصغر أفرادها، والذى عاش ليحكى ما حدث، شاهد الرصاصات تخترق جسد أبيه وأمه، ثم عماته، ثم أخيه. عندما سقط الشاب، حاول أن يرفع جسده ليطلب النجدة، فأطلقت عليه النيران مصيبة جنبه. عندما حاول أن يرفع ذراعه، أطلقوا النار عليها. عندما حاول أن يرفع يده أطلقوا النار على يده. كان هناك طفل فى السادسة من عمره يبكى ناظرا لجثتى والديه، فأطلقوا النار عليه أيضا. كانوا يطلقون النار على كل ما كان يتحرك».

منع السكان من الرحيل، كما قطعت جميع الإمدادات. كان القناصون من أبرز سمات المعركة، مما منع الأهالى من الخروج لدفن موتاهم. يحكى جميل عن القطط والكلاب التى كانت تتغذى على جثث سكان الفلوجة.

كان لا بد للقوات الأمريكية من اللجوء إلى عمليات التجميل بعد نهاية المعركة لتحسين صورتهم أمام العالم. يتذكر جميل ما حكاه له صديقه عما حدث مع قناة CNN التى وجهتها القوات لتصوير الكناسين وهم ينظفون ويجملون شوارع الفلوجة الهادئة، بينما يقوم الجنود الأمريكيون بتوزيع الحلوى على الأطفال.

ولكن ما أبعد هذه المناظر عن الحقيقة. فى ٢٨ أبريل ٢٠٠٥ يكتب جميل لـ Democracy Now: «إن مدينة الفلوجة التى كانت رمزا فى العراق وفى الشرق الأوسط لمقاومة الاحتلال الأمريكى أصبح ٧٠ بالمائة منها مدمرا. المدينة تحيا بلا ماء ولا كهرباء. السكان الذين يودون العودة يجب أن يخضعوا لمسح شبكية العين، ولتقديم بصمات أصابعهم العشرة. بعد التأكد من شخصياتهم يسلمون بطاقات هوية. السكان الذين يعيشون داخل المدينة يطلقون عليها اسم السجن الكبير. إنه وضع شنيع، ترتب عليه مئات الآلاف من اللاجئين. كان الهدف من حصار الفلوجة القبض على الزرقاوى وإعادة الاستقرار

للبلاد استعدادا للانتخابات، ولكن النتيجة الحقيقية هى أن المدينة أصبحت ممزقة. أما المقاومة فقد انتشرت فى جميع أنحاء البلاد». ما حدث لا يمكن أن يوصف بكلمات أدق من تلك التى استهل بها هولز كتابه، مأخوذة عن لسان أحد وجهاء الفلوجة: الفلوجة أصبحت العراق، والعراق هو الآن الفلوجة.

تجربة قناة الجزيرة فى المعركة الأولى

يذهب بعض المحللين إلى أن تواجد طاقم فريق الجزيرة وعلى رأسهم المذيع أحمد منصور داخل الفلوجة أثناء المعركة الأولى (أبريل ٢٠٠٤) كان من أحد عناصر فشل القوات الأمريكية فى إخضاع المدينة. فقد أرادت القوات الأمريكية أن تظهر جانبا واحدا من هذه الحرب من خلال صحفييها المزروعين مع الجنود، ولكن وجود ممثلى قناة ذات اتجاهات عروبية قومية داخل المدينة ضرب بهذا الهدف عرض الحائط. تحولت قناة الجزيرة أثناء المعركة الأولى إلى المصدر المرئى الوحيد للجرائم التى كانت ترتكب داخل المدينة المحاصرة. فى كتابه معركة الفلوجة - هزيمة أمريكا فى العراق، يحكى منصور عن هذه التجربة التى جعلت منه هدفا للقوات الأمريكية، والتى أدت فيما بعد إلى إغلاق مكتب الجزيرة فى بغداد على يد حكومة إياد علاوى.

توجه منصور وطاقم الجزيرة إلى الفلوجة يوم الخامس من أبريل ليجدوا مداخل المدينة مغلقة، ولكنهم تمكنوا من دخول المدينة بمساعدة أحد السكان بسلوك طريق قديم كان يستخدم للتهريب فى الماضى. سرعان ما أعلنت القناة هذا الخبر. يقول منصور: «وقد علمت بعد ذلك أن هذا الإعلان عن قدرتنا على اختراق الحصار ودخول المدينة كان ضربة قاصمة للقوات الأمريكية».

من أبرز ما استطاع منصور بثه للعالم هو وحشية القوات الأمريكية فى ضرب المدنيين وتدمير القدرات الطبية للمدينة. كما استطاع كذلك أن يوصل للعالم أخبار الانتصارات التى كانت تحققها المقاومة. يكتب منصور: «أخبرنا بعض أهل الفلوجة أن رجال المقاومة شنوا هجوما شديدا على القوات الأمريكية التى تغلق طريق النعيمية، وبعد معركة طاحنة مع القوات الأمريكية نجح رجال المقاومة فى تدمير الموقع وأصيب عدد كبير من الجنود وقد جاءت الطائرات المروحية فأجلت القتلى والجرحى وهرب باقى الجنود وأصبح الموقع خاليا والنيران تشتعل فيه».

ويضيف: «أثارت الصور حينما قمنا ببثها ردود فعل واسعة، فقد كانت تأكيدا على أن وضع القوات الأمريكية يسوء حول المدينة رغم إحكامها لحصارها، وقد جن جنون الأمريكيين فأصبحوا يقصفون بشكل عشوائى فى كل اتجاه». بعد هذه الواقعة قامت طائرة أمريكية بقصف بيت فى حى الجولان بالفلوجة، مما أدى إلى مقتل أكثر من عشرين مدنيا معظمهم من النساء والأطفال.

سرعان ما تحول طاقم الجزيرة إلى هدف للقناصة، فقد أصبح أفراد الطاقم شخصيات غير مرغوب فيها من قبل قوات الاحتلال. فى يوم السابع من أبريل تمركزت القوات الأمريكية فى المبنى المقابل لمقر طاقم الجزيرة. ولكن فى يوم التاسع من أبريل أصر منصور على فك الحصار كى يشارك فى التغطية الحية بمناسبة الذكرى الأولى لاحتلال العراق. فى ذلك اليوم توجه إلى النعيمية: «ما إن وصلنا للنعيمية حتى بدا المنظر وكأنه يوم الحشر. آلاف مؤلفة من الناس فى موجة نزوح جماعى من المدينة هربا من الموت وجحيم الحصار». ويضيف منصور: «لقد كان يوم الجمعة الدامى من أكثر الأيام دموية وألما فى حياة أطفال الفلوجة. لقد كنت أبكى من هول ما رأيت، وما كنت أريد أن يسمع أحد صوتى. لم أحتمل المشهد الذى كان مؤلما، لا سيما الأطفال وأشلاءهم الممزقة».

فى ذلك اليوم، بثت الجزيرة خبرا عاجلا من الصباح الباكر مفاده أن الإدارة الأمريكية طالبت بخروج فريق الجزيرة من مدينة الفلوجة كشرط أساسى لقرار وقف إطلاق النار الذى أعلنه الحاكم الأمريكى بول بريمر. كانت الجزيرة تبث طوال ذلك اليوم صورا للشاحنات التى تحمل الامدادات للقوات الأمريكية وهى تحترق على طول طريق أبو غريب الفلوجة.

يكتب منصور عن إحدى مكالماته فى تلك الأثناء مع رئيس غرفة الأخبار أحمد الشيخ الذى قال له: «إن ظهورك على شاشة الجزيرة أصبح مستفزا للقوات الأمريكية يا أحمد بشكل كبير. وأنت المستهدف من وراء كل الضغوط التى يقومون بها، وقد تحدث كيميت عنك تحديدا، لذا أرجو أن تتوقف قليلا عن عمل التقارير والمشاركة فى نشرات الأخبار».

فى حوار مع محمد كريشان، كان القائد كيميت قد اتهم منصور بنشر أكاذيب. يصف منصور هذه المواجهات بأنها حرب كانت دائرة بينه وبين كيميت دون أن يعلم: «معركة ليس بالسلاح ولكن على شاشات التلفزة. هو يدعى ما يريد وأنا أخرج بالصور والحقائق الدامغة المنافية لكل تصريحاته».

أحس منصور بأنه قد أصبح جزءا من المقاومة عن طريق عمله الصحفى، لذلك فهو لا يهتم كثيرا عندما يوصف بأنه غير محايد، فالحياد كما يصفه منصور هو وهم كبير: «أنا منحاز دائما إلى دينى وعروبتى وثقافتى وهويتى. لن أتخلى عنها فى أى موقف مهما كانت الاتهامات التى توجه لى. وحينما يتخلى الصحفى الأمريكى أو البريطانى أو الألمانى أو اليابانى أو الروسى عن الانحياز إلى دينه وثقافته فليأتوا ليتحدثوا معنا عن الحياد».

هولز أيضا يكتب عن النفاق والازدواجية الأمريكية، وهو أيضا لا يهتم إن وصف بعدم الموضوعية. استطاع الكاتب أن يثبت من خلال الشهادات التى جمعها أن الحصار الأمريكى للفلوجة خرق سبعين مادة منفصلة من مواد اتفاقيات جنيف. من أولى هذه المواد المادة الخاصة بالتعامل مع المصابين، حيث يدرج هولز شهادات لجنود مارينز يتحدثون عن طريقة double tapping أو إطلاق رصاصة ثانية على المصاب من مسافة قريبة أو كما يسمونها point blank. يخلص هولز إلى أن ممارسات أمريكا فى العراق، وبالأخص فى الفلوجة، تستدعى تقديم جنرالاتها ورئيسها لمحكمة مجرمى الحرب.

من أفظع الممارسات التى يلقى الكتاب الضوء عليها هى استخدام الأسلحة الكيماوية وتحديدا الفوسفور الأبيض والنابالم. كتب الصحفى المستقل بين كابى عن الاستراتيجية الأمريكية فى حجب معلومات عن استخدام الأسلحة الكيماوية، فأشار إلى أن البنتاجون لم يعد يستخدم النابالم رسميا، ولكنه يستخدم مادة أخرى شبيهة - مادة لزجة قابلة للاشتعال وموجودة فى قنابل مارك ٧٧ النارية. منعت الأمم المتحدة استخدام النابالم عام ١٩٨٠ ولكن الولايات المتحدة لم توقع هذه المعاهدة.

أما جورج مونبيوه الكاتب بجريدة الجارديان البريطانية فيصف من خلال عمله الصحفى ما اكتشفه عن تأثير الفوسفور الأبيض على الضحايا: «الحروق عادة ما تكون متعددة، عميقة، ومختلفة الأحجام، لو أصابت العين تكون النتيجة بالغة السوء. تستمر الجزيئات فى الاحتراق حتى يمنع عنها الأوكسجين». فى الفيلم الوثائقى الإيطالى عن الفلوجة، نرى صورا لجثث محترقة بالكامل. الوجوه تبدو مذابة ولكن لا توجد أى آثار للحريق على ملابس القتلى. الجثث محترقة بشكل غريب، ففى بعض الحالات انفصل الجلد عن اللحم. أحد أشهر صور هذا الفيلم تلك الصورة لجثة متفحمة لامرأة ما زالت ممسكة بمسبحتها. الصور صادمة ومؤلمة، وكذلك الشهادات المسجلة فى كتابينا. أما المثير للدهشة فهو تجاهل العالم بنصفيه الغربى والشرقى لما حدث فى الفلوجة. ■

استطاع الكاتب أن يثبت من خلال الشهادات التى جمعها أن الحصار الأمريكى للفلوجة خرق سبعين مادة منفصلة من مواد اتفاقيات جنيف

على مسافة رصاصة واحدة!

مايكل ماسينج

على مسافة رصاصة واحدة: صُنع ضابط بمشاة البحرية الأمريكية

One Bullet Away: The Making of a Marine Officer

بقلم ناثانيل فيك

Nathaniel Fick

Mariner, 372 pp., $14.95

قتل جيل: كلاب شياطين وقاتل مأجور وكابتن أمريكا والوجه الجديد للحرب الأمريكية

Generation Kill: Devil Dogs, Iceman, Captain America, and the New Face of American War

بقلم: إيفان رايت

Evan Wright

Berkley Caliber, 354 pp., $14.00

بترتيب خاص مع:

The New York Review of Books

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

[١]

يسرد رقيب أول ديفيد بيلافيا - مؤيد متحمس لحرب العراق - في كتابه من منزل إلى منزل: مذكرات ملحمية عن الحرب أن فصيلته كانت تقوم بمهامها أثناء دوريتها الثانية في العراق عام ٢٠٠٤ عندما حاولت شاحنة مدنية تحمل حلوى، الانضمام إلى طابور عرباتنا المصفحة إلا أن العربات اصطدمت بها ودهستها. هرست العربات الركاب بلا سبيل إلى التعرف عليهم. أبصرنا أول مشاهد الموت في صورة رجل وزوجته تمزقت أوصالهما وتقطعت فيما تناثرت أمعاؤهما على صناديق متفرقة من علب الحلوى. لم تكن الفصيلة بأكملها قد تناولت شيئاً منذ أربع وعشرين ساعة. فتوقفت العربات ونهضنا حراساً على الحطام وقد تزايد جوعنا أكثر فأكثر. سرقتُ في النهاية بضع قضمات من واحدة من قطع الحلوى النظيفة. مسح آخرون الدماء المتخثرة والوقود عن أغلفة الحلوى وشاركوني الأكل.

ليس ثمة ما يلفت النظر إلى تلك الحادثة غير توقف الفصيلة؛ فقد بلغني من روايات عديدة تناهت إليّ عن حرب العراق أن أية قافلة أمريكية تدهس سيارة، لا يند عنها في المعتاد سوى مواصلة المسير.

وفي كتاب مطاردة الأشباح يصف بول ريكهوف، خريج من خريجي كلية أميريست قاد فصيلة من قوات الحرس القومي في العراق، كيف كانوا يشنون غارات روتينية على المنازل في صيف ٢٠٠٣. إذ كان رجاله يكسرون الأبواب ويقيدون كل رجل تقع أعينهم عليه. يقلبون الحجرات رأساً على عقب بحثاً عن أسلحة قلما وجدوها. يكتب ريكهوف ليقول: «كانت تلك الغارات عملية قذرة، وكل من استمتع بها فهو مريض. أحياناً ما ران عليّ إحساس بأني عضو في قوات «القمصان البنية» بألمانيا النازية». وكما اكتشف ريكهوف بعدها، دأب بعض رجاله على سرقة ما يجدونه من نقود خلال تلك الغارات - عادة لم تكن بالنادرة حسبما ذكرت روايات أخرى.

وفي كتاب أحب بندقيتي أكثر منك: شابة وأنثى في جيش الولايات المتحدة، تروي كيلا ويليامز - ضابط في الاستخبارات العسكرية تتحدث اللغة العربية - أنها حضرت جلسة استجواب بالموصل في خريف ٢٠٠٣ حيث نزع الجنود الأمريكيون ملابس سجين في قفص ثم رموه بسخرياتهم. «هزءوا من رجولته. هزءوا من قدرته الجنسية. هزءوا من حجم أعضائه التناسلية». نفض الجنود رماد سجائر مشتعلة على السجين وصفعوه على وجهه. نمى إلى علم ويليامز بعدئذ أن سجيناً فارق الحياة في نفس القفص الذي زارته.

لا يرأف الكاتب بقرائه وهو يصف خلفيات أفراد مشاة البحرية. إنه موضوع حساس ولكنه «مهم»



من الممكن أن تتضاعف تلك الحكايات عدة مرات. فقد صدرت من كتب متعددة كتبها جنود أدوا الخدمة العسكرية في حرب العراق. لم يحدث من قبل أن ظهر مثل ذلك العدد من الكتب بقلم جنود فيما لا يزال القتال مستمراً - روايات لم يكتف الجنرالات من أمثال تومي فرانكس بسردها بل أيضاً ملازمون ورقباء وضباط احتياط وجنود. تجاهلت وسائل الإعلام أغلب تلك الكتابات مما يدعو إلى الأسف؛ فهي تزود القارئ بوجهة نظر جنود يحتلون الرتب المتدنية؛ وجهة نظر تتلون في الغالب بثراء وصدق يفوق ما هو متاح في صفحات الجرائد وشاشات التليفزيون.

وبرغم ما يبذله مراسلو العراق من سبر وتقص عنيف، تخضع أخبارهم للكثير من التصفية. ثمة. على سبيل المثال. معايير «المشاهدات العائلية» التي تجعل من العسير على الصحفيين الحديث بصراحة عن الجوانب الحساسة من الحياة العسكرية كاللغة الوضيعة التي ينطق بها الجنود. يشق كذلك على الصحفيين الإحاطة بما يدور في عقول الجنود. لقد حاز المراسلون من خلال تعيينهم لمرافقة الوحدات العسكرية حرية الوصول الفوري إلى القوات بيد أن الإلمام بمشاعر الجنود الفعلية أكثر مشقة بكثير، علاوة على أن من يتكلم بحرية زائدة عن اللازم من الجنود يقع تحت وطأة القوانين الموحدة للعدالة العسكرية.

في النهاية يضع المناخ السياسي عدة حدود تعمل وسائل الإعلام في إطارها. فالصور المفصلة الواقعية أو تلك المزعجة قد تسبب اهتياجاً بين الجماهير. فحينما - مثلاً - نشرت جريدة ذا نيو يورك تايمز في يناير ٢٠٠٧ صورة لجندي أمريكي يرقد على الأرض جريحاً جرحاً مميتاً، اتهم الغاضبون الجريدة بعدم احترام القوات. وبوجه أعم، يظل سلوك الجنود الأمريكيين في الميدان موضوعاً في منتهى الحساسية. إن الهيئات الإخبارية التي تُظهر الجنود في صورة سيئة تخاطر بأن تلتصق بها تهم معاداة أمريكا وعدم الوطنية أو - وهو الأسوأ - «مناصبة القوات العداء». ففي يوليو على سبيل المثال حين نشرت مجلة ذا نيو ريبابليك عموداً كتبه جندي روى عدة حوادث تكشف النقاب عن سلوك الجنود الأمريكيين السيئ، لم يفتأ المدونون المحافظون يهاجمون الجندي والمجلة بضراوة. لا رغبة لمعظم الأمريكيين في الوقوف على الكثير من تصرفات يقوم بها الجنود وهم يحملون أسماءهم، الأمر الذي يردع المحررين والمنتجين ردعاً.

أما الكتب فأقل عرضة لمثل تلك الضغوط، وعليه بوسعها أن تسدد مزيداً من الانتقادات. لا تتسم صورها بالكآبة الشاملة. إذ تصور العديد من المشاهد المؤثرة، مشاهد يبدو فيها الجنود وهم يحاولون فعل الخير كتقديم الإسعافات الأولية وتوزيع الأطعمة وترتيب التخلص من النفايات. وفي الأغلب يلوح الجنود باعتبارهم أمريكيين طيبين يجدون أنفسهم في بيئة غريبة بتدريب يعدم الكفاية وأقل القليل من الاستعداد الثقافي ومهارات لغوية معدومة. يحيق بهم أناس يضمر أكثريتهم لهم الكراهية ويعيشون في خوف يومي من التفجيرات، لذا يسقطون إحباطهم على السكان المحليين من آن لآخر. إن القارئ يتمكن من خلال هذه الروايات المباشرة أن يجد تصويراً قاسياً لضريبة حرب دفعتها كل من القوات الأمريكية والشعب العراقي.

[٢]

لم تبدأ تلك الضريبة بأعمال العنف الرهيبة التي اندلعت بعد سقوط بغداد لكن خلال الغزو نفسه. ثمة كتابان يصفان تلك العملية بجلاء ما بعده جلاء: «على مسافة رصاصة واحدة: صُنع ضابط بمشاة البحرية الأمريكية» بقلم ناثانيل فيك و«قتل جيل» بقلم إيفان رايت. وكما أوردت وسائل الإعلام وفهم أغلبية الأمريكيين، جرت عملية تحرير العراق بسلاسة معقولة. لا شك في وقوع بعض الصعوبات والعقبات لكن في آخر الأمر كان الدمار محدوداً وتجنب الجنود تفشي الإصابات المدنية. إلا أن هذين الكتابين يسردان قصة مختلفة كل الاختلاف.

التحق ناثانيل فيك بقوات مشاة البحرية في فورة من المثالية. كان فيك طالباً بمدرسة كاثوليكية بضواحي مدينة بالتيمور. كان يَدرس الأدب الكلاسيكي في دارتموث حين عقد العزم على الالتحاق بمشاة البحرية. ساقته رغبة في خدمة بلاده وإثبات كيانه. انضم أغلب من انتابتهم نفس تلك المشاعر من الطلبة إلى فيلق السلام أو منظمة «درس من أجل أمريكا» بيد أن قراءاته حول أثينا وإسبرطة أشعلت في نفسه الإلهام فرام تحدياً أعمق - تحدياً قد يقتله أو يخلفه أفضل وأقوى على حد تعبيره.

سمع في إحدى الليالي حديثاً لتوماس ريكس Thomas Ricks الذي كان وقتئذ مراسلاً لجريدة ذا وول ستريت جورنال. كان ريكس قد نشر للتو كتاب صُنع مشاة البحرية، وهو تصوير لا يخلو من تألق لمشاة البحرية الأمريكية، وفي حديثه وصف قوات المشاة باعتبارها آخر معقل من معاقل الشرف في أمريكا. أوقع الكلام في نفس فيك انبهاراً. وبمجرد أن انضم إلى قوات البحرية، رغب في أن يخدم في سلاح المشاة، سلاح «لا تزال الشجاعة فيه لها قيمتها». وعندما صار ملازماً، تم إرساله إلى أفغانستان حيث خدم خلف خطوط العدو ثم تم تعيينه في فرقة الاستطلاع، المقابل البحري للقوات الخاصة وأقوى وحدة في

مشاة البحرية. فرغ فيك من تدريب أشد ما يكون وحشية ثم نهض بمسؤولية فصيلة تتألف من ثلاثة وعشرين رجلاً، وفي الأيام الأولى من فبراير ٢٠٠٣ طار إلى الكويت بصحبة بقية فصيلة الاستطلاع الأولى في انتظار نشوب الحرب.

وفي يوم من الأيام وصلت إلى المعسكر حافلة تحمل دستين من الصحفيين. ومن بينهم كان إيفان رايت، مراسل مجلة رولينج ستون. لم يخل فيك من احتقار عام تكنه مشاة البحرية للمراسلين، لكن بعد لقائه برايت ألفاه عذب الحديث متواضع السلوك. وقد وجد انبهاراً حين علم أن رايت درس تاريخ القرون الوسطى في كلية فاسار. وعندما أنبأه رايت بأنه يقيم في خيمة ضباط من ذوي الرتب العالية، أخبره فيك بأنه ارتكب خطأ كبيراً: لو ود بحق معرفة ما يجري، عليه أن يقضي وقتاً مع الشبان الذين يحاربون من أجل لقمة العيش. كانت الفصيلة قد خططت في البداية أن يرافق رايت الجنود المساعدين بمؤخرة الجيش إلا أن رايت - وقد خلف ذكاء فيك وحماسه في نفسه انطباعاً قوياً - طلب الالتحاق بفصيلته. وبعد أن وافق على تسليم هاتفه العامل بالأقمار الصناعية وقطع كل اتصالاته بالعالم الخارجي، نال مراده.

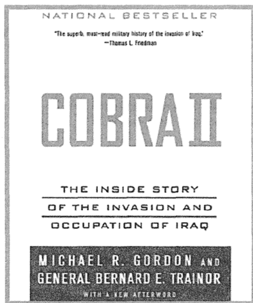
أنفق رايت في المجمل شهرين بصحبة فصيلة فيك. وعقب عودته إلى الولايات المتحدة، وصف تجاربه في ثلاثة مقالات طويلة نشرتها مجلة رولينج ستون ثم حوّل رايت تلك المقالات إلى كتاب. إن روايته بالإضافة إلى رواية فيك تزودان القارئ بوجهتيّ نظر فريدتين تسلطان الضوء على الغزو بأعين جندي وصحفي خدما في نفس الفصيلة. وعند تأمل الاثنتين، سوف يستشعر القارئ أن قصصهما أكثر تعرية للحقائق من غيرها وأكثر إزعاجاً من أغلب عشرات الروايات التي ظهرت حتى الآن.

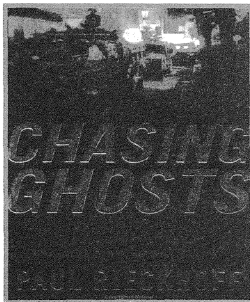
يتحلى رايت بعين تجيد المراقبة. وفي كتاب «قتل جيل» يتمكن من تخطي عدة حواجز تخفي الكثير من جوانب الحياة العسكرية. يصف هنا، على سبيل المثال، زيارته الأولى التي قابل فيها رجال فيك:

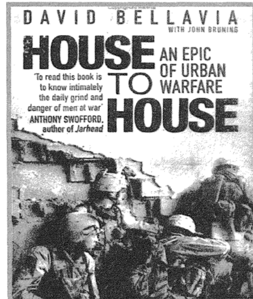
تفوح من الخيمة رائحة ريح وعرق ونتانة مثيرة للغثيان تنبعث من فطريات الأقدام. يمشي الكل في سراويل داخلية وهم يهرشون خصيهم.

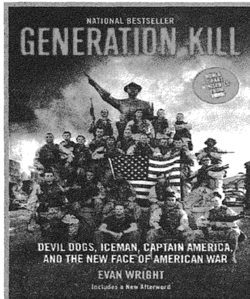
إن هرش الخصى على الملأ عادة شائعة في الجانب القتالي من مشاة البحرية بل وبين الضباط من ذوي الرتب العالية وسط الاجتماعات. الحركة رجولية جريئة مثلها مثل اللغة العامية المتداولة بين مشاة البحرية.

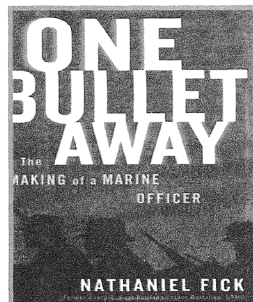
يتفاخر الضباط والمجندون على حد سواء بلغتهم الوضيعة، بكلمات مثل «شاذ»

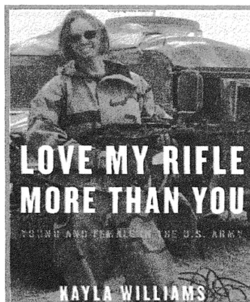












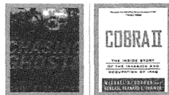
ولوطي» و«ابن وسخة» من بين الكثير من الألفاظ. غالباً ما يتشاجر الجنود ويسردون القصص البذيئة ويقذفون الآخرين بالإهانات المتطرفة ويقرءون المجلات الإباحية ويمارسون الاستمناء. ينخرط جميعهم تقريباً في «تعاطي الحشيش» أو تدخين تبغ لا رائحة له - «المخدر العالمي للمقاتلين الأمريكيين». فعلاوة على إضفائه «نشوة نيكوتين تجعل من سجائر كاميلز الخالية من الفلتر أشبه بسجائر من الحلوى»، يكتب رايت، يجعل هذا التبغ مدخنيه «يفرزون لعاباً وكأنهم كلاب مسعورة» و«يبصقون بلغماً سميكاً من مادة لزجة بنية».

لا يرأف رايت بقرائه وهو يصف خلفيات أفراد مشاة البحرية. إنه موضوع حساس وثمة القليل من الصحفيين على استعداد للخوض في تركيبة جيش يتألف كله من المتطوعين. لا تخالج رايت مثل تلك المخاوف. إذ يكتب ليقول: «سوف يستعصي ثقافياً التعرف على مشاة البحرية بعيون أسلافهم ممن انتموا إلى «الجيل الأعظم» إنهم أطفال تربوا على موسيقى الهيب هوب ومارلين مانسون وجيري سبرينجر». ثمة «أفراد عصابات سابقون وقلة من مسيحيين ولدوا من جديد بالإيمان والكثيرون ممن اعتادوا تعاطي الهيروين يومياً قبل الانضمام إلى الفيلق». وبينما التحق بعضهم بمشاة البحرية بعد المدرسة الإعدادية أو رفضوا منحاً بالجامعات، ما يربو على النصف «قدموا من منازل متفسخة ونشئوا على أيدي آباء غائبين أو عاملين. يرتبط الكثير منهم بألعاب الفيديو وبرامج تليفزيون الواقع والمواقع الإباحية أكثر من ارتباطهم بآبائهم». ثم يذكر رايت أن هؤلاء الأفراد «يمثلون تقريباً أول جيل من أطفال الاستهلاك في أمريكا».

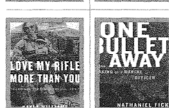
وفيما تولت رايت الصدمة أحياناً لسلوكهم الطفولي، خامره انبهار لما يتسلحون به من روح قتالية. إذ يتراءى أغلبهم مدفوعين «برغبة تكاد تكون طائشة لاختبار أنفسهم في أكثر الظروف صرامة». إن الحياة التي اختاروها تلوح من عدة جوانب رفضاً تاماً لحلم أمريكي استهلاكي لم يفتأ المروجون يروجون له في برامج تليفزيون الواقع وكلمات أغاني البوب... إن أقصى مطامحهم تنحصر في التضحية بالنفس وليس الحفاظ عليها.

تبدو حياة لا تعوزها المثالية إلا أن رايت يسارع إلى التعقيب قائلاً: «إن الفكرة الأساسية القائمة وراء تدريبهم هي الإقدام على المحرم المطلق: ألا وهو القتل. وثقافتهم تستمتع أيما استمتاع بذلك». ففي نهاية اجتماعات الفريق «يشبك جنود المشاة أياديهم ليصيحوا: اقتل! اقتل!».

وكما هو الحال مع فيك وتخيلاته عن







على مسافة رصاصة واحدة!

اليونان القديمة، وفد العديد من هؤلاء الرجال إلى الكويت حافلين بالمفاهيم الرومانسية حول الشرف والبسالة والتضحية. ومع ذلك سوف توضع تلك الأفكار على المحك منذ البداية. يعبر كل من فيك ورايت عما ساورهم من فزع لعدم كفاءة بعض الضباط الكبار الذين ينبغي أن تتعامل معهم فرقة الاستطلاع الأولى. ففي حين فشل رئيس العمليات في إحضار ما يكفي من بطاريات لمعدات القتال الليلي الحيوية، تمتع بحضور الذهن ليجلب كاميرا فيديو شخصية خطط لاستخدامها في تصوير فيلم وثائقي حربي على أمل بيعه بعد الغزو. أما قائدهم، الكولونيل ستيف فيراندو، فقد تبدى أكثر اهتماماً بالمظهر الشخصي لأفراد مشاة البحرية من استعدادهم للمعركة. إذ خاطبهم في صحراء الكويت في عشية الحرب ليأمرهم بحلاقة كل الشوارب عند عبور نهر الفرات. «نحن نتهيأ لغزو دولة، وهذا هو ما يحدثنا به قائدنا؟» علق واحد من الجنود: «الشوارب؟».

[٣]

واجهت مشاة البحرية القليل من المقاومة في غضون هجومهم المبدئي على العراق. أسرعت عرباتهم على طرق العراق السريعة وقابلهم تهليل الأطفال العراقيين المتحمسين. وبحلول اليوم الثالث كانت الفصيلة قد شقت عشرين كيلو متراً بجنوب مدينة الناصرية. توقفوا في الطريق برفقة ١٠٠٠٠ فرد من قوات مشاة البحرية في انتظار الأوامر. وحتى وهم عاطلون، تركوا علاماتهم في صورة زبالة ومخلفات آدمية، مسألة قلما تعاطت معها وسائل الإعلام. «دائماً ما كان التبرز نتاجاً كبيراً في ساحة الحرب»، يعلق رايت.

لا ريب أن العالم المدني يحرص أشد الحرص على القيام بالوظائف الجسدية بمنأى عن العيون. فالتبرز العلني فعلة مخزية بل مجنونة. لكن في ساحة الحرب الأمر معكوس. إذ لا ينبغي للجندي أن يهيم بعيداً بمفرده. فمن الممكن أن تصيبه طلقة قناص من قناصي العدو أو مشاة البحرية عند رجوعه إلى الخطوط الصديقة. لذا يقرفص الكل ببساطة في الهواء الطلق على بعد بضعة مترات من الطريق، يجثمون في الغالب على علب خشبية فارغة كانت تحوي القنابل اليدوية بيد أنها صارت الآن «مراحيض» محمولة. تبعثرت القمامة في المنطقة: آلاف من علب الطعام الجاهز المرمية. ومع وجود الجميع وهم يتسكعون ويأكلون وينامون ويتشمسون ويتغوطون، يبدو المشهد وكأنه نسخة قتالية غريبة من مهرجان روك مقام في الهواء الطلق.

وقفت العجائز في جلابيب سوداء خارج مجموعة بيوت مشيدة بالطين تواجه موقع الفصيلة، «يحدقن في مؤخرة بيضاء شاحبة لأحد جنود المشاة، الذي تعرى من الخصر وراح «يتغوط في فناء بيتهم». باح أحد الجنود إلى رايت: «هل يمكنك تخيل لو انعكس الوضع، لو أتى جيش إلى ضواحي أمريكا وتبرز أفراده في حدائق الجميع؟ إنه جنون مطبق».

وبحلول الصباح التالي، حدثت المعجزة وجمع الجنود كل القمامة. لكن سرعان ما اتخذت الأحداث منعطفاً قاتماً. ففي أول عقبة حقيقية أمام الأمريكيين، انخرطت بضع وحدات من مشاة البحرية في سلسلة من المعارك النارية بمدينة الناصرية وحولها. انتظر أفراد فصيلة فيك بمبعدة عن المعركة وشاهدوا سلاح المدفعية وهو يطلق قذائف عيار ١٥٥ مليمتراً على المدينة. «أفراد مشاة البحرية الذين التقطوا فضلاتهم المبعثرة بكل حرص هذا الصباح يقذفون الآن المدينة قذفاً». دوّن رايت. وبعد مضي وهلة، دنا رجال فيك من جسر يؤدي إلى الناصرية فراعهم أن ترتطم أعينهم برجال مسلحين يمرقون من الأزقة وهم يتشبثون بالنساء كدروع. تمنع قواعد الاشتباك المشاة من إطلاق النيران ما لم يطلق العدو نيرانه أولاً. لكن بمجرد أن يستهل العراقيون إطلاق النيران بالفعل «تبدأ كل بندقية ورشاش وقنبلة يدوية على طول الصفوف في الهدير».

وبينما تراجعت قوات مشاة البحرية، استولى على البعض انتعاش واضح لهذا التعرض المبدئي للمعركة في حين غشي الندم آخرين. «كنت أضمر عظيم الكراهية للعرب قبل أن نحضر إلى العراق»، أفضى أنطونيو إسبيرا، رقيب من كاليفورنيا في الثلاثين من عمره. «لا أعلم السبب في ذلك... لكن حالما وصلنا إلى هنا، زالت كل الكراهية. لا يراودني الآن سوى شعور بالشفقة عليهم. أفتقد ابنتي الصغيرة. لا رغبة لي في قتل أطفال الآخرين». كان رايت يرزح لأول مرة تحت نيران المدفعية الثقيلة، فلم يسلم من الاندهاش لما تولاه من هدوء بيد أن ذهولاً ركبه لضراوة سد النيران الموجه إلى الناصرية. إذ اشتمل على طلقات شديدة الانفجار بمقدورها اختراق الفولاذ والأسمنت علاوة على قذائف عنقودية تتفجر في السماء لتنثر عشرات القنابل المصممة لتمزيق أجساد البشر إرباً.

يشير رايت إلى أن نيران المدفعية تفتقر إلى الدقة حتى في أفضل الظروف مما يدعو إلى التساؤل عن سر عدم انتباه المراسلين والجماعات المناهضة للحرب إليها:

إن جمال الطائرات بالإضافة إلى قدرتها التكنولوجية الهائلة على إحداث الدمار تأسر الخيال. ومن وجهة النظر الصحفية، تتراءى الطائرات النفاثة وهي تخترق السماء مشحونة بالدراما. دراما تعوزها صور المدافع القابعة في الطين وهي تقذف سحب الدخان بين الفينة والأخرى.

لكن الحقيقة هي أن سلاح مشاة البحرية يعتمد بالأساس على قذائف المدفعية وليس على الطائرات التي تسقط الذخائر الموجهة بدقة. وخلال ست وثلاثين ساعة خارج الناصرية أرسلت المدفعية بالفعل ما يقدر بـ ٢٠٠٠ طلقة على المدينة. لا شك أن تأثير تلك القنابل على سكان يبلغ عددهم ٤٠٠٠٠٠ نسمة كان بالغ التدمير.

دخل رايت المدينة برفقة مشاة البحرية فاستطاع أن يرنو إلى آثار الدمار. تموج الدخان خارجاً من أبنية متهدمة ولاحت المنازل المواجهة للطريق طافحة بالفجوات والثغرات. تناثرت جثث المهاجمين العراقيين على الطريق المفضي إلى المدينة. دهستها تكراراً عربات الطريق «فتسطحت وانسحقت أمعاؤها»، أردف رايت:

اجتزنا حافلة، مهشمة ومحترقة، تطل من بعض نوافذها بقايا آدمية متفحمة. ثمة رجل مقطوع الرأس على الطريق وفتاة صغيرة ميتة في حوالي الثالثة أو الرابعة تتمدد على ظهرها. كانت ترتدي فستاناً إلا أن ساقيها كانتا مبتورتين.

نزع الجنود الأمريكيون
ملابس سجين في قفص ليهزءوا من حجم أعضائه التناسلية

جعلت قوات المشاة تتجه شمالاً لتلقي نفسها وسط أشجار النخيل وقنوات الهلال الخصيب غير أن علامات الموت حاقت بهم من كل اتجاه. امتدت على طول الطريق السريع عربات مشتعلة «وجثث متفحمة تستقر بالقرب منها، ركابها الذين زحفوا مسافة عدة مترات قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة في حين لا يزال الدخان يرتفع من أياديهم المطبقة». وبجانب واحدة من السيارات ترقد جثة مشوهة لولد صغير، اندس الوجه في الطين وتمزقت الملابس تمزقاً حال دون تحديد جنس الولد. «لم يعد ذلك المنظر أمراً ذا بال». عقّب رايت. «فمنذ بدء القصف في الناصرية من ثمان وأربعين ساعة: بات إطلاق الأسلحة ورؤية الموتى أشبه بالروتين». استرجع فيك أربع سنوات قضاها بالمدرسة الثانوية اليسوعية ليجاهر بأنه وجد نفسه «ينبس بالمزمور الثالث والعشرين: «رغم أني أسير في وادي ظل الموت...»».

يروي فيك أنهم توغلوا شمالاً مقتربين من بلدة قلعة سكر. تم توجيه الأوامر إليه وإلى رجاله بالاستيلاء على مهبط عسكري قريب. تسلل إليهم الانزعاج؛ إذ لم يتدربوا من قبل على مثل تلك المهام كما أن سياراتهم العسكرية لا تفتقر إلى الدروع فحسب بل إلى الأبواب والأسقف. نزل بفيك المزيد من الضيق عندما نمت إلى علمه قواعد الاشتباك الجديدة: كل مَن يطأ المهبط - سواء كان مسلحاً أو أعزل - يتوجب اعتباره معادياً. يصرح بأنهم في أثناء التدريب «تعرفنا على «مناطق فيتنام حرة النيران» اعترف المسئولون بأنها مناطق غير أخلاقية أعاقت أهداف القوات بدلاً من تحقيقها. أُعلنت قلعة سكر بوصفها منطقة حرة النيران». وبينما تسابقوا صوب المهبط، فتح واحد من رجاله النيران بغتة. تطلع فيك إلى الأفق ليرى صورة ضبابية تضم سيارات وجمالا ورجالا يحملون عصيا طويلة قد يظنها الرائي بنادق.

وصلوا في النهاية إلى المهبط فوجد جنود المشاة المكان مهجوراً. طغى عليهم ارتياح وإن لم ينجوا من الإحساس بعدم الثقة لما أحسوا به من ضعف. ما لبث أن اقترب منهم خمسة عراقيين يسحبون صرتين. في كل منهما صبي مراهق. كلاهما مجروح، وأحدهما جرحه خطر. فحصه الطبيب دوك برايان، ففطن إلى أنه أصيب بطلقات عيار ٥،٥٦ عيار يستخدمه الأمريكيون. «لقد أطلق المشاة النار على هذا الصبي!» جأر. اتضح عندئذ أن الأشكال البعيدة التي أطلق الجنود عليها النيران لم تكن مقاتلين ببنادق بل رعاة بعصي.

ركض فيك إلى مركز القيادة ليشرح لهم ما وقع. أراد أن ينقل الصبيين إلى مستشفى ميداني. أبلغه الرائد الموجود بالخدمة أن الكولونيل فيراندو نائم ولا يمكن إزعاجه. استبد الغضب بفيك:

أردت أن أخبر الرائد بأننا أمريكيون وأن الأمريكيين لا يطلقون النار على الصبية ويتركونهم للموت، وأن رجال فصيلتي يجب أن يتمكنوا من العيش مع أنفسهم لبقية حياتهم.

لقد أفقدته الطريقة المتهورة التي انتشر بها جنوده الثقة في الضباط الكبار:

تفكرتُ في مدنيين أبرياء لا عد لهم ولا حصر قتلتهم نيران المدفعية وهجمات الطائرات خلال الأسبوع الفائت. الفرق الوحيد هو أننا لم نمكث في المكان كي نبصر ما تركته من آثار. لقد ارتدت أفعالنا علينا فيما أخذت القيادة تتنصل من المسئولية لتضعها على أكتاف الصغار الضعاف من القوات.

أصر فيك على إجبار الرائد فأسرع عائداً إلى رجاله. وضعوا الصبيين على محفتين وهرولوا إلى مركز قيادة الفصيلة. وضعوا المحفتين أمام الرائد غير المبالي. وأمام هذا التمرد المحدود، انسل إلى خلفية الخيمة ليوقظ فيراندو. خرج الكولونيل وما لبث أن قيّم الوضع ليأمر بنقل الصبيين فوراً إلى مستشفى ميداني. لم تفارق التعاسة فيك:

خالجني شعور بالاشمئزاز لحال الصبيين، للفتاة مرتدية الفستان الأزرق، ولكل الأبرياء القاطنين في الناصرية والرفاع وبلدات أخرى سوف تلتهمها هذه الحرب. تألمتُ من أجل قوات المشاة، أمريكيين طيبين سوف ينهضون بتلك الهموم بقية حياتهم. ثم تفجعتُ على حالي. لا شفقة على الذات بل تفجعاً على الولد الذي جاء إلى العراق. لقد راح بلا رجعة. فعلتُ كل هذا في الظلام، بعيداً عن الفصيلة، لأن قيادة المعركة هي أكثر المهن وحدة في العالم.

[٤]

لم تفتأ معنويات رجال فيك تنحدر وهم يتابعون سبيلهم شمالاً. برز مصدر جديد للتوتر وذلك لحاجتهم إلى إقامة الحواجز على الطرق لصد خطر الهجمات الانتحارية. ولأن هذه المواقع غير جلية للعيان، يخفق العديد من العراقيين في التوقف عندها. وحين يرسل الجنود الأمريكيون طلقات التحذير، غالباً ما يسرع العراقيون بسياراتهم مما يترتب عليه تصاعد عدد القتلى. أطلقت القوات النار ذات مرة على إحدى السيارات، فذهب جندي مشاة يدعى جريفز لمعاونة فتاة تنكمش في المقعد الخلفي وقد اتسعت عيناها رعباً. وبينما مضى ليحملها «متفكراً فيما قد يحتاج إليه من تجهيزات طبية لعلاجها... انفصلت قمة رأسها وسقط دماغها». كتب رايت. تراجع جريفز مرعوباً فغاص حذاؤه في دماغ الفتاة. «هذا هو الحدث الذي سوف ينال مني عندما أعود إلى البيت». أنهى.

تزايدت خطورة ساحة القتال فخبا ما ساور المشاة في البداية من عزوف عن إطلاق النار، بل إن أي تهديد بسيط قابله الجنود بسلسلة عنيفة من الطلقات. تحمل المدنيون الوطأة العظمى منها رغم صدمة كثير من جنود المشاة ودهشتهم. «إنها لمسخرة كيف يموت هؤلاء المدنيون!» يعلن غاضباً جيفري كارازيلز - وكيل عريف من تكساس - عقب تسديده النار إلى مبنى يحوي مدنيين بوضوح.

إنهم أسوأ حالاً من هؤلاء الذين يطلقون علينا النار. فليست لديهم أدنى فرصة للنجاة. هل تظن أن الناس في أمريكا سوف يرون هذا - كل هؤلاء النساء والأطفال الذين نقتلهم؟ طبعاً لا. إنهم يمجدون هذا الوضع الوسخ، أضمن لك هذا. يقولون إن رئيسنا بطل ابن ستين كلب لأنه أتى بنا إلى ذلك المأزق. بل إنه ليس من تكساس بالفعل.

هوجمت وحدة فيك من ثلاث جهات عند جسر يفضي إلى بلدة الموفقية، فأصيب أحد الرقباء في قدمه وطفق ينزف بغزارة. فتح جنود المشاة النيران على مهاجميهم فقتلوا البعض وأرغموا آخرين على الفرار. انسحبت قوات المشاة عدة كيلومترات ثم ارتفعت شكواها من التهور الذي انتشرت به في المنطقة. وفي غضون ذلك شهدوا المدفعية وهي تدك الموفقية دكاً. إذ نثرت القنابل المتفجرة عناقيد قاتلة فوق مناطق واسعة. انطلقت طائرة نفاثة من طراز أ-١٠ ليعلو ضجيجها على نيران الرشاشات. حلقت طائرات الكوبرا الهليكوبتر على مستوى منخفض يشي بالتهديد ثم شنت هجوماً بالقذائف والقنابل اليدوية. وحين تمكنت الفصيلة من دخول البلدة في آخر الأمر، أبصر أفرادها أجزاء واسعة منها وقد استوت بالأرض. تبينوا فوق الأسقف عدداً من الجثث يستعصي على التحديد - ضحايا شظايا القنابل العنقودية. «أُصيبت قدم رجل من رجالنا ففجرنا بلدتهم بأسرها». أنهى أحد جنود المشاة إلى رايت.

إن سرد رايت لهذا الهجوم لاستثنائي. فمن بين آلاف التقارير المكتوبة عن الغزو، أسهب القليل منها فيما أحدثه الغزو من دمار هائل. بل إن أكثر التحليلات دقة تقلل من أهمية هذا الجانب من الحرب. مثال واضح على ذلك كتاب كوبرا II: القصة الحقيقية لغزو واحتلال العراق بقلم مراسل نيو يورك تايمز مايكل آر. جوردون والجنرال برنارد إي. ترينور. لقد وثّق المؤلفان بكل دقة وإقناع العديد من «الأخطاء الفاحشة» التي ارتكبتها الإدارة الأمريكية والبنتاجون في تخطيط الحرب وتنفيذها. ومع ذلك عند وصف الغزو نفسه، تتصف كتاباتهما بخلوها من الدماء على نحو غريب. ها هي بعض الأمثلة من الكتاب (وقد أضفت إليها تأكيداتي):

- وبينما تهيأت فصيلة ساندرسون للتقدم صوب الطريق السريع I، تعرضت لنيران المدفعية العراقية. وخلال دقائق أطلق الكولونيل دوج هاردينج سداً قاتلاً من النيران المضادة. كان هذا أول نزاع مهم للمدفعية بين الطرفين في الحرب. تفوق فيه الأمريكيون ليخمدوا النيران العراقية مؤقتاً.
- اكتشف ماكلهيني أنه سوف يضطر إلى القتال في مناطق متقاربة ليدمر دفاعات الطيران العراقي الواحد تلو الآخر. استخدم أسلحة عيار ٣٠ مليمترا وصواريخ ليخضع المسجد.
- انتقلت فرقة استطلاع الفوج الثانية إلى حدود البلدة التي كان العراقيون يدافعون عنها ببراعة وتماسك. حمت طائرات الكوبرا قوات المشاة وتوجهت شمالاً نحو البلدة من الجانب الغربي لنهر الغراف الموازي للطريق السريع. تحرك الكولونيل كراباروتا شمالاً و... أخلى البلدة.

البلدة المشار إليها في هذه الفقرة الأخيرة هي الموفقية - نفس المكان الذي أعلن رايت أن مشاة البحرية قد ساووه بالأرض. إن الوصف الوجيز البسيط في كتاب كوبرا II القائل «بإخلاء» الموفقية لا يوحي بأي من الرعب والتدمير والموت المرافقين للهجوم وفقاً لكتاب «قتل جيل». وعلى عكس رايت، لم يتواجد جوردون أو ترينور إبان الهجوم نفسه. وسعياً لإعادة بنية الروايات، اعتمد المؤلفان اعتماداً كلياً على حوارات الجنود المشاركين في الغزو إلا أن شيئاً لم يدفعهم إلى تدبر أوضاع العراقيين العزل الذين ماتوا نتيجة لأفعالهم. لقد انكتب كتاب كوبرا II من وجهة نظر مخططي الغزو ومنفذيه - كما هو الحال مع الكثير من الروايات الأخرى - لينقل إلى القارئ قليلاً مما قد يكون عليه الأمر حين يقع على المرء العنف.

[٥]

وبينما كانت فصيلة فيك تشرف على بغداد، تعاظمت وتيرة القتال. تمزقت بلدات وقرى صغيرة بنيران مدفعية لا تعرف الرحمة ولم ينفك العراقيون العزل



إن الفكرة الأساسية القائمة
وراء تدريبهم هي الإقدام على المُحرم المطلق: ألا وهو القتل

يُقتلون بالرصاص عند حواجز الطرق. وفي أحد المشاهد المؤثرة التي وصفها رايت، انزعج بعض جنود المشاة من العدد الضخم للاجئين القذرين الجياع، فاندفعوا لمعاونتهم لكنهم عجزوا مع بشاعة الحاجة عن صنع الكثير. وفي صباح ٦ أبريل بلغوا في النهاية ضواحي بغداد فجابههم ما سماه رايت مشهد رعب من الجثث الآدمية والبقر الميت المنتفخ ضعف حجمه الطبيعي والراقد في المصارف. انحرفت سيارة الرقيب إسبيرا لتتجنب دهس رأس آدمي يستقر في الطريق. وحين دارت العربة، مد بصره إلى كلب يأكل جثة. «هل من الممكن أن نرى ما هو أكثر إثارة للغثيان؟» تأمل أداء الفصيلة حتى لحظتها فقال: «هل تدرك الخراء الذي عملناه هنا، الناس الذين قتلناهم؟ في بلدنا بالعالم المدني، لو فعلنا هذا، سيكون مصيرنا السجن».

إن فيك ورايت يزودان القارئ برواية تقشعر لها الأبدان، رواية لبغداد وهي تنحط إلى الفوضى. ظهر سيل من العراقيين المرعوبين اليائسين عند مصنع سجائر احتلته قوات المشاة. طفقوا يتوسلون إليهم لوضع حد لأعمال النهب غير أن الجنود لا حيلة لهم في الأمر. وفي الشوارع ليلاً أمسي إطلاق النار من العنف ما حال دون أن يغامروا بالخروج. علم فيك بحلول ذلك الوقت أن الطريقة المتهورة التي انتشر بها جنوده كانت في الواقع خطة جريئة لجذب انتباه نيران العراقيين وتشتيت أذهانهم بعيداً عن قوة غزو أساسية اقتحمت العراق من جهة الغرب. نجحت الخطة لكنها لاحت عاطلة من العزاء على ضوء ما اجتاح بغداد من عدم انضباط. لاحظ رايت أن فيك «فقد على ما يبدو إيمانه بالمهمة هنا». لم يكن السبب الفوضى في حد ذاتها بل اكتشافه أن الأمريكيين ليست لديهم خطة حقيقية لتبديد هذه الفوضى.

ومع اقتراب انتهاء وقت رايت بصحبة الفصيلة، ألقى نظرة على كل ما شهده معها:

لقد كنت متواجداً خلال الستة أسابيع الماضية عندما أزهقت هذه الوحدة الصغيرة نسبياً أرواح العديد من الأشخاص. أبصرتُ بعينيَ ثلاثة مدنيين يُقتلون، تلقى واحد منهم رصاصة مميتة في عينه. إنهم مجرد عينة ليس إلا. لقد قتل مشاة البحرية العشرات في المركة إن لم يكن المئات من خلال إطلاق نيران مباشرة وضربات مدفعية متكررة لم تميز أحياناً أهدافها. والأرجح أن أحداً لن يقف أبداً على عدد القتلى الذين راحوا من جراء ٣٠٠٠٠ رطل تقريباً من القنابل أسقطتها فرقة الاستطلاع الأولى من الطائرات.



على مسافة رصاصة واحدة!

لم يزد رايت على ذلك. وعند تلك النقطة من كتابه لاح موت المدنيين موضوعاً أساسياً، وقد تملكني الأسف لأنه لم يواصل مناقشته. ولكي أعلم بالمزيد من التفاصيل، اتصلت بمارك جارلاسكو، المحلل العسكري بمنظمة مراقبة حقوق الإنسان. (اشتغل خلال الغزو في البنتاجون موصياً بأهداف الضربات الجوية) أنبأني جارلاسكو بأنه وفقاً لأكثر التقديرات قبولاً، راح ١٠٠٠٠ مدني خلال الغزو، أكثرهم ضحايا التحالف. البادي أن القليل من الأمريكيين على دراية بهذا الرقم.

بيد أن رايت أسهب بالفعل في هذا الموضوع أثناء مقابلة أجراها بعد نشر كتابه بفترة قصيرة. إذ صرح «أننا خلال العقد المنصرم» تشبعنا بالمعتقدات التقليدية السائدة عن الجيل الأعظم، عنوان كتاب لتوم بروكو Tom Brokaw يدور حول رجال خاضوا الحرب العالمية الثانية، وقد تطلع الكثيرون إلى هذه الحرب بعين الرومانسية. إذ نزعوا إلى تذكر صور مجلة لايف التي تصور البحار العائد إلى الوطن وهو يقبل خطيبته. لقد نسوا أن الحرب ما هي إلا عملية قتل. وفي اعتقادي انه من المهم كمجتمع أن نتذكر هذا، لأننا لدينا الآن جيل ولد خلال العقد السادس ولم يخدم في حرب فيتنام. احتج العديد منهم عليها وقد كبروا الآن ونضجوا ليتولاهم الضجر من غموضها وانعدام أخلاقياتها ثم بدءوا يتشبثون بهذه الأسطورة المنسوجة حول الحرب العالمية الثانية، الحرب الخيرة.

لم أقرأ قط كتاب توم بروكو لكنك لو رجعت بالذاكرة لتستحضر كتاب الجيل الأعظم الحقيقيين، شخصيات مثل كيرت فونيجيت - مؤلف رواية المجزر-خمسة - وجوزيف هيللر ونورمان ميلر ومعاصريهم ممن حاربوا بالفعل في الحرب العالمية الثانية وكتبوا عنها، تجدها عارية تماماً من أية رومانسية. الحق أن الكثير من مؤلفاتهم تقف موقفاً معارضاً من الحرب.

يضيف رايت أن كتابه «يتعمق في مسألة قتل المدنيين وجرحهم». إن إطلاق الرصاص على المدنيين في العراق تم تبريره بأن الحافلات المدنية تضم مقاتلين فدائيين... لكنك حين تبصر فتاة صغيرة ألبسها أحدهم ملابس جميلة وقد انهرست على الطريق بدون ساقين، لا تفكر، حسناً، أنت تعلم أن الفدائيين قريبون وأنها إصابة ملازمة لإطلاق النار.

يشير رايت إلى أن «مشكلة المجتمع الأمريكي تكمن إجمالاً في عدم استيعابنا الحقيقي لماهية الحرب». فوجهة النظر التي تصل إلى الأمريكيين «معقمة زيادة عن اللازم».

أما عن ناثانيل فيك فقد نال منه القتل كل منال. بعد أن عاد من العراق ترقى إلى رتبة كابتن وحمل لقب ضابط فرقة الاستطلاع الأساسية. ومع ذلك لم تبرح الحرب كيانه. أخذ يسدد نظرات متفحصة إلى الناس في الشوارع منقباً عن أي انتفاخ في ملابسهم يشي بأنهم يحملون مسدساً أو قنبلة. وأحياناً ما كان يبكي بدون أدنى سبب على الإطلاق. «ظننت أني أفقد عقلي». كتب. وهكذا قرر خريج دارتموث الشاب الذي انضم إلى جنود مشاة البحرية في نوبة من المثالية أن عليه مغادرتهم. شرح أن الكثير من جنود المشاة ذكروني بالمصارعين. تشوبهم صفة غامضة تسمح لبعضهم بارتداء دروع الساق والصدور والخوض في الدماء. أضمرتُ لهم احتراماً وإعجاباً وحاولتُ مجاراتهم لكني لم أستطع البتة أن أكون مثلهم. بمقدوري القتل حينما يستدعي الموقف وقد انهمكتُ في فورة القتال شأني شأن أي رجل آخر. لكن لم يسعني أن أتخذ قراراً واعياً بوضع نفسي في ذلك الموقف مراراً وتكراراً طوال حياتي المهنية.

هام فيك على وجهه بعد أن ترك الفيلق. أدرك أن القتال «أفقده تقريباً عقله». الأسوأ كان «تكريم الناس وشكرهم «على ما فعلتموه هناك» الشكر على ماذا؟ أردتُ أن أسألهم: إطلاق الرصاص على الأطفال، الانكماش رعباً خلف أحد الأزقة، إسقاط قنابل المدفعية على بيوت الناس؟

فيك اليوم طالب دراسات عليا بجامعة هارفارد. يسعى إلى نيل شهادة مشتركة في الإدارة العامة والأعمال. يأمل عند تخرجه في يونية أن يعمل في سياسة الطاقة المتعلقة بالأمن القومي. رايت أيضاً محرر مساهم في مجلة فانيتي فير. تحول قناة (إتش بي أو) HBO كتاب «قتل جيل» إلى مسلسل قصير في الوقت الحاضر. سوف يشاهده الملايين ولو نجح في سرد بعض ما وصفه الكتاب من أهوال، قد يعاون على أن يعي الأمريكيون الخسائر البشرية للغزو.

لا ريب أن تلك الخسائر قد تضاعفت عدة مرات منذ الغزو. وفي مقالة تالية أتمنى أن أسبر كيف أنها هي الأخرى ظلت متوارية إلى حد ما عن الأنظار. ■

كتب أخرى ناقشها المقال:

من منزل إلى منزل: مذكرات ملحمية عن الحرب
House to House: An Epic Memoir of War
بقلم: ديفيد بيلافيا وجون آر. برانينج
David Bellavia, with John R. Bruning
Free Press, 321 pp., $26.00

مطاردة الأشباح: إخفاقات وواجهات في العراق: وجهة نظر جندي
Chasing Ghosts: Failures and Facades in Iraq: A Soldier's Perspective
بقلم: بول ريكهوف
Paul Rieckhoff
NAL Caliber, 326 pp., $15.00

أحب بندقيتي أكثر منك: شابة وأنثى في جيش الولايات المتحدة
Love My Rifle More Than You: Young and Female in the US Army
بقلم: كيلا ويليامز ومايكل إي. ستوب
with Michael E..Kayla Williams Staub
Norton, 292 pp., $14.95

كوبرا II: القصة الحقيقية لغزو واحتلال العراق
Cobra II: The Inside Story of the Invasion and Occupation of Iraq
بقلم: مايكل آر. جوردون وبرنارد إي. ترينور
Michael R. Gordon and Bernard E. Trainor
Vintage, 727 pp., $16.00



ثقافتهم هى باختصار «الاستمتاع بالقتل» ففى نهاية الاجتماعات الميدانية يشبك جنود المشاة أياديهم ليصيحوا: اقتل!

السادية الأمريكية الرسمية!

أنطونى لويس

Anthony Lewis

■■ أحضر محمد جواد، وهو أفغانى متهم بإلقاء قنبلة يدوية على قافلة من الجنود الأمريكيين فى كابول فى أواخر عام ٢٠٠٢ مما أدى إلى جرح اثنين، إلى معسكر سجن خليج جوانتانامو فى فبراير من عام ٢٠٠٣. وكان حينذاك فى السابعة عشرة من عمره. وفى ديسمبر من عام ٢٠٠٣ حاول الانتحار. وفى شهر مايو التالى أخضع لما أسماه المسئولون فى جوانتانامو «برنامج المسافر الدائم». فقد كان يكبَّل كل ثلاث ساعات فى النهار والليل وينقل إلى زنزانة أخرى. وهو ما حدث ١١٢ مرة على مدى أربعة عشر يومًا.

نعرف ماذا جرى عمله للسيد محمد جواد لأن المحامى العسكرى المعين للدفاع عنه الميجور ديفيد ج ر. فراكت (من احتياطى القوات الجوية) سعى ونجح فى مسعاه للحصول من القاضى العسكرى على أمر لسجانيه بإبراز سجلات أسره. وقد أوضح الميجور فراكت واقع معاملة جواد فى مناقشته الختامية فى جلسة ما قبل المحاكمة يوم ١٩ يونيو ٢٠٠٨. وهى المناقشة التى كانت عرضًا جديرًا بالملاحظة للشجاعة القانونية والأخلاقية.

سأل الميجور فراكت: «لماذا عذِّب محمد جواد؟، لماذا اختار المسئولون العسكريون صبيًا مراهقًا حاول الانتحار فى زنزانته قبل أقل من خمسة أشهر لإخضاعه لتجربة الحرمان من النوم السادية هذه؟ لقد قال الضباط فى جوانتانامو إنهم لا يعتقدون أن لديه أية معلومات استخبارية قيمة، بل إنه لم يستجوب خلال «برنامج المسافر الدائم». وقال الميجور فراكت: «السيناريو الأرجح هو أنهم قرروا تعذيب السيد محمد جواد للتسلية فحسب، كى يعطوه درسًا، أو ربما ليجعلوه عبرة للآخرين».

ولكن الميجور فراكت لم يتوقف عند من عذبوا محمد جواد. لقد تناول أمر الرئيس بوش الصادر فى ٧ فبراير من عام ٢٠٠٢ بألا يمنح المعتقلون فى جوانتانامو الحماية المنصوص عليها فى معاهدات جنيف، بزعم كونهم أعضاء فى القاعدة أو طالبان أو مؤيدين لهما. وقال إنه فى «٧ فبراير ٢٠٠٢،

The Challenge: Hamdan v. Rumsfeld and the Fight over Presidential Power

التحدى: حمدان ضد رامسفيلد والمعركة حول قوة الرئاسة

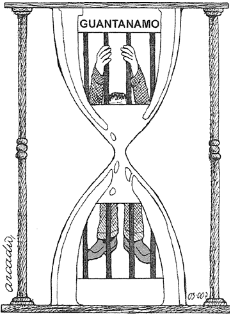
by Jonathan Mahler

Farrar, Straus and Giroux, 334 pp., $26.00

بترتيب مع:

The New York Review of Books

ترجمة: أحمد محمود



لقد خسرنا مكانتنا باعتبارنا المدافع الرائد عن حقوق الإنسان، وكبطل للعدل والإنصاف وحكم القانون

خسرت أمريكا القليل من عظمتها فى ذلك اليوم. لقد خسرنا مكانتنا باعتبارنا المدافع الرائد عن حقوق الإنسان، وكبطل للعدل والإنصاف وحكم القانون. ... ومما يبعث على الأسى أن هذه اللجنة العسكرية «التى كانت تعقد جلسة محمد جواد» لم تكن لديها سلطة عمل أى شىء لمن سهلوا التعذيب مثل جون يو وجاى بايبى وروبرت ديلهانتى وألبرتو جونزاليس ...، وديفيد أدنجتون ووليام هاينز ونائب الرئيس تشينى ودونالد رامسفلد. ...

أثارت إشارة الميجور فراكت إلى «من سهلوا» التعذيب سؤالاً مهمًا، وهو كيف دخلت حكومة الولايات المتحدة فى أعمال تعذيب السجناء؟ ولم يكن الحرمان من النوم التكنيك الوحيد المستخدم مع السجناء فى جوانتانامو وغيرها من الأماكن. فقد شملت التكنيكات الأخرى إجبار السجناء على اتخاذ أوضاع مجهدة، وتعريضهم للأضواء المبهرة والدرجات الشديدة من الحرارة والبرودة، والإهانة الجنسية، والعرى، والغمر بالماء، أو «العلاج المائى» الذى يحدث اختناقًا جزئيًا.

[١]

منذ كشف الإساءة إلى السجناء فى أبو غريب فى أبريل من عام ٢٠٠٤ وحكومة بوش تؤكد أن أى سوء معاملة كان من فعل بعض «التفاح الفاسد». ولم يتخذ أى إجراء ضد أية رتبة كبيرة، عسكرية أو مدنية. ولكن التراكم المطرد للفضائح، التى كان آخرها فى يونيو من خلال تقرير لجنة مجلس الشيوخ وجلسة استماعه، جعلت من الواضح أن المعاملة السيئة للسجناء كانت سياسة متعمدة آتية من أعلى. من البنتاجون ووزارة العدل والبيت الأبيض.

فى يوليو من عام ٢٠٠٢ استعرض المحامى العام لوزارة الدفاع الأمريكية التكنيكات المستخدمة فى برنامج للبنتاجون مصمم لتعليم طرق مقاومة التعذيب بواسطة القوات الأجنبية. (ركز البرنامج بشكل خاص على التكنيكات التى استخدمتها القوات الصينية أثناء الحرب الكورية لحث الأسرى الأمريكيين على الاعتراف زورًا بأشياء مثل استخدام حرب الجراثيم). وفى أغسطس، أصدر مساعد المدعى العام جاى س. بايبى، رئيس مكتب المستشار القانونى بوزارة العدل مذكرة سرية مكونة من خمسين صفحة انتهت إلى أن الرئيس سلطة شاملة وتخول له الأمر بتعذيب السجناء فى الحرب على الإرهاب. وهى تقوم على مذكرة سابقة كتبها جون يو وروبرت ديلاهانتى، التى أقرها ألبرتو جونزاليس، وكان حينذاك المستشار القانونى للبيت

في الربيع الماضي نشر الباحث في القانون الدولي فيليب ساندز كتابه القيم

Torture Team: Ramsfeld's Memo and the Betrayal of the American Values

(فريق التعذيب: مذكرة رامسفلد وخيانة القيم الأمريكية)



الأبيض في عهد الرئيس بوش. وقد أدمجت نتائج بايبي القانونية في مذكرة أعدت لوزير الدفاع رامسفلد.

وفي أكتوبر من عام ٢٠٠٢ ذهب محام كبير في وكالة الاستخبارات المركزية اسمه جوناثان فردمان إلى جوانتانامو وناقش تكنيكات الاستجواب القاسية مع الضباط. وقالت محامية عسكرية، هي اللفتنانت كولونيل ديان بيفر، إن بعض الأساليب التي كانت ممنوعة من قبل مثل الحرمان من النوم كان الجيش يستخدمها مع السجناء في معتقل قاعدة باجرام الجوية في أفغانستان، ولكنها أخفيت عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر عند زيارة ممثليها له. كما قالت إن «اللجنة الدولية للصليب الأحمر هَمٌ خطير». وقال فردمان إن مسألة ما إذا كان بالإمكان تسمية المعاملة القاسية تعذيبًا أم لا «مسألة فهم». كما قال: «إذا مات الشخص المعتقل يكون معنى هذا أنكم تنفذون ذلك بشكل خاطئ».

في نوفمبر من عام ٢٠٠٢ أوصى المستشار القانوني لوزارة الدفاع ويليام هاينز بأن يقر وزير الدفاع رامسفلد رسميًا عددًا من أساليب الاستجواب العدوانية في جوانتانامو من بينها أوضاع الضغط العصبي واستخدام الكلاب المهاجمة والحرمان الحسي. وأصدر رامسفلد موافقته في أمر سري في ٢ ديسمبر عام ٢٠٠٢.

حذر عدد من القادة العسكريين من التكنيكات الجديدة القاسية. وأبلغ ألبرتو مورا المستشار القانوني للبحرية هاينز أنه أمكنهم «الارتفاع إلى مستوى التعذيب». وقال إنه لو لم يكن هناك ما يقيدهم لكتب مذكرة تقول إن بعضهم انتهك «المعايير القانونية المحلية والدولية». وفي ١٥ يناير من عام ٢٠٠٣ سحب رامسفلد موافقته. وفي أبريل وقّع مذكرة أخرى تعدد الأساليب المسموح بها، بما في ذلك «تعديل» النوم، وقال إن أساليب أخرى ستُبحث إذا اقتضى الأمر ذلك.

ونقلت شبكة إيه بي سي نيوز في أبريل من العام الحالي أن كبار مسئولي الأمن في حكومة الرئيس بوش التقوا في عام ٢٠٠٣ لمناقشة أساليب الاستجواب «المحسّنة». ومن بين من حضروا تلك الاجتماعات نائب الرئيس تشيني ومستشاره حينذاك ديفيد أدنجتون ورئيس هيئة الأركان حاليًا، والنائب العام جون أشكروفت، وكوندوليزا رايس التي كانت حينذاك مستشارة الرئيس بوش للأمن القومي، ورامسفلد، وهاينز. وعندما سُئل الرئيس عن التقرير أكده. فقد قال لمارثا راداتز من شبكة إيه بي سي: «الحقيقة أنني أبلغت البلاد أننا فعلنا ذلك. كما أبلغتها أنه قانوني. إن لدينا آراء قانونية مكنتنا من القيام به».

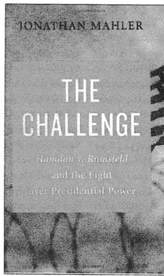
[٢]

بذلت حكومة بوش جهودا حثيثة للتكتم على المعلومات الخاصة بسوء معاملة سجنائها. وقد تم تدمير أشرطة الفيديو الخاصة باستجواب رهيبين على الأقل. وفي جلسات المحكمة في جوانتانامو وأماكن أخرى اعترض محامو الحكومة على نشر أساليب الاستجواب، قائلين إن ذلك سوف ينبه أعضاء القاعدة إلى ما سوف يواجههم إن قُبض عليهم. ومازلنا لا نعرف ما تم عمله لهوسيه جاديلا، الأمريكي الذي احتُجز لسنوات في حبس انفرادي باعتباره مقاتلاً عدواً مزعوماً ويقال الآن إنه يعاني من ضرر نفسي طويل المدى.

بالرغم من ذلك فإن أي أمريكي كان يريد معرفة شيء عن القسوة التي عاملت بها حكومته السجناء وكيف وقعت كان من الممكن أن يعرف قدرًا كبيرًا بحلول هذا الربيع. فقد تكرر نشر عدد من الخبراء في القانون وفي حقائق التعذيب تعليقات في الصحف المطبوعة والمدونات، وقد استفدت استفادة كبيرة مما كتبوه. ففي الربيع الماضي نشر الباحث في القانون الدولي فيليب ساندز كتابه القيم: Torture Team: Ramsfeld's Memo and the Betrayal of the American Values (فريق التعذيب: مذكرة رامسفلد وخيانة القيم الأمريكية) ونشرت مجلة «فانيتي فير» فقرات مطولة منه. ونشرت هيومان رايتس ووتش وغيرها من جماعات حقوق الإنسان تقارير مهمة عن الإساءة للسجناء.



التقى توم لاسيتر وفريق من الصحفيين في صحف ماكلاتشي نظرة جديدة ومهمة على الوضع في سلسلة من خمس مقالات مهمة في شهر يونيو. وقد تخلصت قصصه الإخبارية من بعض الخرافات الرسمية بشأن المعتقلين. على سبيل المثال أنهم كجماعة «أسوأ السيئين» كما قال الوزير رامسفلد. كما قدم لاسيتر بعض الروايات المرعبة عن إساءة معاملة السجناء.



كان أفغاني اسمه نصرت خان في السبعين من عمره عندما وضعه الجنود الأمريكيون في زنزانة انفرادية في السجن الذي بقاعدة باجرام الجوية في ربيع عام ٢٠٠٣. وقد أصيب بسكتتين دماغيتين على الأقل. وقال خان إنهم أبقوه طوال أسبوعين تقريبًا معصوب العينين، وعلى أذنيه سماعتان وبداه مكبلتان وراء ظهره. وقال لاسيتر إنه عندما أخرجوا خان من الزنزانة في النهاية كان «نصف مجنون ولم يكن يستطيع الوقوف بدون مساعدة». وقال إنهم نقلوه إلى جوانتانامو بعد ذلك على نقالة.

أحد منجزات سلسلة مقالات لاسيتر هو أنها ذكّرت القراء بأن جوانتانامو ليست المكان الوحيد الذي كان يُحتجز فيه السجناء، ومازالوا. ففي أفغانستان على سبيل المثال، تحتفظ الولايات المتحدة بسجن في قاعدة قندهار بالإضافة إلى قاعدة باجرام. وقال لاسيتر إنه في كل من هذين المكانين كان السجناء يعرضون بشكل روتيني للإساءة البدنية منذ أوائل ٢٠٠٢. وهناك سجون لا تزال سرية تديرها وكالة الاستخبارات المركزية.

يقول لاسيتر إن الحراس في باجرام كانوا يركلون السجناء ويضربونهم بركبهم ويلكمونهم بوحشية منظمة. وأبلغ الحراس السابقون وكذلك المعتقلون صحفيي ماكلاتشي بما أسماه لاسيتر العنف السادي. فطبقًا لما قالوه، بلغت القسوة ذروتها في شهر ديسمبر من عام ٢٠٠٢ عندما علّق أفغانيان من أرسغهم بسلاسل مدلاة من السقف وضربهما الجنود الأمريكيون حتى الموت.

جرى تحقيق مع جنديين حول أعمال القتل هذه. واعترف جندي الاختصاص ويلي براند أنه ضرب أحد الأفغانيين سبعا وثلاثين مرة. وقد حكم عليه بخفض رتبته إلى نفر. والشخص الآخر الذي أجري تحقيق معه هو الكابتن كريستوفر بييرينج قائد سرية شرطة عسكرية احتياطية بالجيش. وقد وجّه إليه اللوم.

وقد أوصى المحامي الحربي الذي حقق مع بييرينج، وهو اللفتنانت كولونيل توماس بيرج، بالتساهل لأن «الحكومة لم تقدم أي دليل على ما هي تكتيكات وتكنيكات وإجراءات تحظى بالموافقة في عمليات المعتقلين». بعبارة أخرى، لم يعد متوقعاً من أفراد الجيش الأمريكي معرفة أن ضرب سجين حتى الموت يتعارض مع القوانين.

فلماذا كان الجنود على ذلك القدر من الوحشية؟ يشير لاسيتر إلى الغضب من هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ الإرهابية. وإحساسهم بأن رؤساءهم في واشنطن كانوا يريدون «الهجوم بلا هوادة». وكان قرار الرئيس بوش بإلغاء الحماية التي توفرها اتفاقيات جنيف بمثابة رسالة تفيد بأنه ليست هناك قواعد.

أمضت صحف ماكلاتشي ثمانية أشهر في التحقيق وإعداد المقالات. (يذكرنا هذا بأنه من غير المرجح أن يكون لدى المدونين، الذين يقال لنا أحيانًا إنهم مستقبل الصحافة، الوقت والموارد للتحقيق في سلوك الحكومة الخاطئ مثلما تحقق فيها الصحف كأحسن ما يكون.) فقد أجرى صحفيو ماكلاتشي مقابلات مع مسئولين أمريكيين وأفغان وغيرهم. وستة وستين معتقلاً سابقًا.

من بين السجناء الستة والستين كان اثنان وعشرون فقط قد اعتقلتهم القوات الأمريكية في الأصل. أما الباقون فقد سلمهم أفراد قبائل أخرى على نزاع معهم، أو جيران غاضبون، أو أشخاص يريدون تحصيل المكافآت الكبيرة التي تقدمها الولايات المتحدة مقابل «الإرهابيين». وقال توماس وايت وزير الجيش السابق إنه كان من الواضح منذ فتح معتقل جوانتانامو في أوائل ٢٠٠٢ أن ثلث السجناء على الأقل لا ينتمون إلى ذلك المكان.

النقطة الواضحة الأخرى التي أوضحتها مقالات ماكلاتشي هي أن سوء معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالحركات المعادية لأمريكا يغضبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستغربة تنقلها المقالات، إلا أنها تقدم معلومات دقيقة. فقد اقتبست تقريرًا للاستخبارات الباكستانية عن الرجال الذين أطلق سراحهم من جوانتانامو يقول إن لديهم «مشاعر شديدة التطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية».

[٣]

رفضت المحكمة العليا ثلاث مرات خلال الشهور الأربعة الأخيرة دفاعات إدارة بوش القانونية الخاصة ببرنامجها لاعتقال «المقاتلين الأعداء» المزعومين. وفي عام ٢٠٠٤، وفي قضية رسول ضد بوش، رأت أغلبية ٦ ضد ٣ أن بإمكان السجناء في جوانتانامو التحقق من مشروعية اعتقالهم عن طريق التقدم بطلب للمحاكم الفدرالية لاستصدار

السادية الأمريكية الرسمية!

أمر قضائي للنظر في مشروعية حبسهم. وفي عام ٢٠٠٦، في قضية حمدان ضد رامسفلد، رأت أغلبية ٥ ضد ٣ أن محاكمات السجناء أمام اللجان العسكرية في ظل القواعد التي وضعتها حكومة بوش غير قانونية لأن القيود المفروضة على المتهمين تخالف القانون الموحد للعدالة العسكرية واتفاقيات جنيف. وفي شهر يونيو الحالي، وفي قضية بومدين ضد بوش، رأت أغلبية ٥ ضد ٤ أن لائحة الكونجرس التي تحظر على معتقلي جوانتانامو استصدار أمر قضائي للنظر في مشروعية حبسهم مخالفة لضمان الدستور لهذا الحق.

تسببت تلك القرارات في خروج صرخة احتجاج من اليمين السياسي. فقد دعا السناتور جون ماكين، وهو أحد الناجين من التعذيب كأسير في فيتنام الشمالية، وكان في يوم من الأيام منتقداً لممارسات بوش الخاصة بالاعتقال، قرار بومدين «واحداً من أسوأ القرارات في تاريخ البلاد». أما آراء القضاة المعارضة لحكم الأغلبية فقد تنبأت بلغة مدوية أن يلحق القرار ضرراً خطيراً بأمن البلاد.

القاضي أنطونين سكاليا، الذي لديه موهبة خاصة بالمعارضين المثيرين للقلق بلا داع المقدر أن يثيروا هجمات سياسية على قرارات المحكمة، وقد استخدمها على نحو بالغ الأثر في قضية بومدين. فقد تنبأ بأن القرار سوف تكون لها نتائج «مدمرة»، وقال إن «ثلاثين من السجناء على أقل تقدير أطلق سراحهم من جوانتانامو عادوا إلى ميدان القتال». وبالنسبة للرقم ثلاثين اقتبس القاضي سكاليا تقرير لجنة جمهورية معارضة في مجلس الشيوخ اعتمد على بيان ألقاه المتحدث باسم البنتاجون في عام ٢٠٠٧: «تشير تقاريرنا إلى أن ثلاثين على أقل تقدير من معتقلي جوانتانامو السابقين شاركوا في أنشطة عسكرية معادية للتحالف بعد مغادرتهم المعتقل الأمريكي».

غير أن ادعاء سكاليا عودة ثلاثين إلى ميدان القتال فضح زيفه المنتقدون، والبنتاجون نفسه، منذ إعلانه أول مرة. فقد أشار البروفيسور مارك دينبو من جامعة سيتون هول إلى أن وزارة الدفاع نفسها ذكرت أسماء خمسة عشر فقط من المفترض أنهم أصحاب سوابق، وقيل إن ثمانية من هؤلاء لم يفعلوا شيئاً سوى انتقاد سياسة الاعتقال الأمريكية بالكلام. وقد تخلت وزارة الدفاع عن الرقم ٣٠ في وثيقة سلمتها للكونجرس قبل أسبوعين من قرار بومدين. وبعد القرار كتب المحامي من بوسطن سابين ويليت، الذي مثّل اثنين من المعتقلين السابقين جاء اسماهما ضمن الثلاثين، في صحيفة «ذا بوسطن جلوب» مقالاً في صفحة الرأي أن موكليه لم يفعلا شيئاً سوى (أ) نشر مقال في «النيويورك تايمز» و(ب) إجراء مقابلة. وقد حكم البنتاجون على هذه التعليقات العامة بأنها «عدائية».

لوّح السناتور ماكين كذلك بالمقاتلين الثلاثين المفترض أنهم عادوا. وكذلك فعل جون يو كبير صائغي آراء وزارة العدل التي تقول إن للرئيس سلطة مطلقة لتعذيب السجناء. وقال البروفيسور (وهو حالياً يدرّس القانون في جامعة كاليفورنيا ببركلي) إن المحكمة العليا في قضية بومدين فتحت الطريق أمام الأجانب «الذين أسروا وهم يقاتلون ضد الولايات المتحدة، كي يتحدوا اعتقالهم. وقد أعطى ذلك صورة زائفة. لا شك في كونها زائفة عمداً. للمعتقلين في جوانتانامو. فمعظمهم لم «يؤسروا وهم يقاتلون». وكما رأينا فإن معظمهم سلمهم الجيران الأفغان الحاسدون الذين كانوا يرغبون في الحصول على الجوائز الأمريكية. وقد أعتُقل آخرون في أماكن بعيدة جداً مثل زامبيا. والواقع أن مقدمي الالتماسات في قضية بومدين شملوا ستة جزائريين كانوا يقيمون في البوسنة وألقت الشرطة البوسنية القبض عليها. بناءً على طلب المسئولين الأمريكيين. وسلمتهم لهم.

قال كبير القضاة جون روبرتس في رأيه المخالف لحكم الأغلبية في قضية بومدين إن المحكمة ألغت أكثر أنساق الحماية الإجرائية سخاءً التي تم توفيرها للأجانب الذين يعتقلهم هذا البلد كمقاتلين أعداء. وقد صاغت الفروع السياسية هذه الإجراءات وسط صراع عسكري دائر، بعد قدر كبير من البحث المتأني والنقاش المضني.

ولكن في هذا الصراع، على عكس ما سبقه من صراعات، لم يكن للرجال الذين أسروا حق اللجوء إلى ذلك البند من اتفاقية جنيف الذي يطالب بالاستماع المنصف لاكتشاف ما إذا كانوا بالفعل مقاتلين أعداء أم لا. وقد غيرت إدارة بوش الإجراءات على استحياء فقط بعد أن أجبرتها الأحداث على ذلك: أي فضيحة أبو غريب ثم قرارات المحكمة العليا المتعاقبة.

كان مصور الجزيرة سامي الحاج في طريقه إلى أفغانستان في عام ٢٠٠١ عندما أوقفه مسئول باكستاني وسلمه للولايات المتحدة. وقد احتُجز ست سنوات في جوانتانامو. ولم يُسأل عن القاعدة وإنما عن الجزيرة. (وقد أطلق سراحه في عام ٢٠٠٨). وكانت قضيته ضمن قضايا عديدة لم يكن فيها ما يشير إلى أن المعتقل «مقاتل عدو».

لا يعد فتح المحاكم الفدرالية أمام طلبات استصدار أمر قضائي للنظر في مشروعية حبس المعتقلين بإعطائهم تذكرة سريعة إلى الحرية. ولكنه على أقل تقدير بمثابة خطوة أولى نحو المحاسبة. فهو منبر يمكن من فوقه بحث معاملة المعتقل والأسباب المؤكدة لحبسه. وكما كتب جورج ويل في عمود انتقد فيه السناتور ماكين بشدة لما اتسمت به تعليقاته على استصدار الأمر القضاء للنظر في مشروعية حبس المعتقلين من جهل، «يبدأ حكم المحكمة العليا فقط برسم حد لسلطة الحكومة الخاصة باعتقال الأشخاص بلا تمييز التي لولا ذلك لظلت غير محدودة».

المثال المذهل لأهمية لجعل المحاكم تقيد القرارات الرسمية بأن شخصاً ما «مقاتل عدو» هي حالة حذيفة جرهات وهو من المسلمين الأويغور في الصين الموجودين في جوانتانامو. وجرهات الذي زعم الجيش الأمريكي أنه كان في معسكر تدريب في أفغانستان في عام ٢٠٠١، قُبض عليه في باكستان في خريف ٢٠٠١. وقد وجدت لجنة من ثلاثة قضاة من محكمة الاستئناف بدائرة مقاطعة كولومبيا في شهر يونيو أنه ليست هناك أدلة مقنعة تدعم تسمية الحكومة له بالمقاتل العدو. وضمت اللجنة كبير قضاة المحكمة ديفيد سنتل، وهو واحد من أكثر القضاة الفدراليين محافظةً في البلاد. وقد سَخَرَ رأيها من حجة الحكومة، حيث قارنها بعبارة شخصية لويس كارول: «لقد قلتها ثلاثاً: ما أقوله لكم ثلاث مرات فهو صحيح».



أحد منجزات سلسلة مقالات لاسيترهو أنها ذكّرت القراء بأن جوانتانامو ليست المكان الوحيد الذي كان يحتجز فيه السجناء، ومازالوا



[٤]

على عكس جون يو وويليام هاينز، دافع معظم المحامين الأمريكيين الذين أشركوا في قضايا التعذيب والاعتقال غير المحدود عن مُثل العدالة الأمريكية. وكان ذلك على نحو مذهل في قضية المحامين في الخدمات العسكرية، أي القضاء العسكري. والميجور فراكت، الذي أشرت من قبل إلى حجته القوية نيابةً عن محمد جواد، مثال واحد من بين أمثلة عديدة. وقد تطوعت أعداد كبيرة من المحامين الخاصين بوقتهم وكافحوا ضد العقبات الرسمية كي يمثلوا السجناء.

جرى بحث عمل المحامين من أجل المعتقلين في كتاب جوناثان ماهلر The Challenge: Hamdan v. Rumsfeld and Fight over Presidential Power (التحدي: قضية حمدان ضد رامسفلد والحرب على السلطة الرئاسية). ولكنه يزيد كثيراً عن كونه كتاباً عن القانون والمحامين. فهو يحكي قصة الأسير الذي أعطى اسمه لقرار دستوري عظيم: وهو يصف الكفاح الشخصي للمحامين، وشجاعتهم، وأخطاءهم. والنتيجة عمل ذو دراما نادرة.

كان سالم حمدان، الذي أعطى اسمه لقرار دستوري رائد في المحكمة العليا، يمنياً مسكيناً جرى تجنيده للجهاد وأصبح سائق أسامة بن لادن في أفغانستان. وقد ألقت قوات التحالف الشمالية القبض عليه هناك في أواخر ٢٠٠١ وسلمته للولايات المتحدة. وفي مايو من عام ٢٠٠٢ نُقل إلى المعسكر السجن في جوانتانامو. (في ٦ أغسطس، وبعد محاكمة اللجنة العسكرية الأولى في جوانتانامو، أُدين حمدان بتقديم الدعم المادي للإرهاب، ولكن ليس بتهمة التآمر الأكثر خطورة. وحكم عليه بالسجن خمس سنوات ونصف السنة، وهو ما يقل كثيراً عن السجن مدى الحياة الذي سعى إليه المحققون العسكريون طويلاً. وعلاوة على ذلك، فقد صدّقت المحكمة على الشهور الواحد والستين التي أمضاها حمدان في الاعتقال منذ توجيه التهمة، وهو ما يعني أن حكمه سوف يكتمل مع نهاية العام الحالي. ولكن مصيره بعد ذلك غير مؤكد، لأن إدارة بوش تزعم أنه يمكنها الإبقاء على المعتقلين في جوانتانامو. سواء صدرت ضدهم أحكام أو بُرِّئوا في محاكمة عسكرية، أو لم يحاكَموا بالمرة. إلى أن تنتهي «الحرب على الإرهاب».)

إحدى الحقائق البارزة التي كُشفت في هذا الكتاب هي أن حمدان كان أول من استجوبه عميل لمكتب التحقيقات الفدرالي في جوانتانامو كان حريصاً على توطيد العلاقة معه، وفي أثناء ذلك حصل على بيانات مفصلة منه عن القاعدة وبعض قياداتها. وكانت لدى العميل أدلة كثيرة تمكن من التحقيق مع حمدان في محكمة فدرالية، وقد ظن أنه يمكن إقناع حمدان بالشهادة ضد شخصيات أكثر أهمية من القاعدة مقابل تخفيف الحكم.

لم يعد هناك شك فيما إذا كانت إدارة بوش قد ارتكبت جرائم حرب أم لا

ولكن ما أغضبه هو أنه تحددت محاكمة حمدان أمام لجنة عسكرية؛ وعلى الفور فُصل مكتب التحقيقات الفدرالى عنه وفقد شاهداً كان من المحتمل أن يصبح مهماً.



كان القاضى العسكرى الذى عينته السلطات العسكرية ممثلاً لحمدان فى إجراءات اللجنة هو اللفتنانت كوماندر تشارلز سويفت من البحرية. وقد عاد إلى البحرية بعد مدرسة القانون وأمضى جزءاً كبيراً من وقته كمحامى دفاع جرىء فى القضاء العسكرى. وعند فتح قضية حمدان كان لسويفت دور مهم، وهو التعامل مع الموكل. فقد زار حمدان فى جوانتانامو فى محاولة لرفع معنوياته خلال سنوات من التقدم القليل على نحو محبط والمعاملة التى تتسم بالعقاب فى السجن. (أضرب حمدان عن الطعام وكان يُغَذَّى تغذية قسرية لفترة طويلة.) تحدث سويفت كذلك مع الصحافة، بحرية وبإسهاب، عن عدم نزاهة طريقة عمل اللجنة.

وكان زميل سويفت المدنى فى القضية أستاذاً بمركز القانون فى جامعة جورج تاون اسمه نيل كاتايال. وكان دوره هو تولى التحدى الدستورى لشروط اللجنة التى وضعها الرئيس بوش. وكانت تلك مهمة مخيفة، حيث بدأت بضرورة تأكيد حق المعتقل فى رفع الدعوى القضائية وفى الاستعانة باتفاقيات جنيف. وقد قاوم محامو الحكومة الأمرين تماماً.

كان لدى كاتايال دافع قوى للنجاح فى تكريسه لجهوده فى مراحل القضية المختلفة. ويصفه ماهلر وهو يكتب ستًا وعشرين مسودة لمذكرة ويجرب الحجة الشفاهية فى خمسة عشر مسعى قضائياً موضع جدل فى خمس مدن. ويقول ماهلر إنه جاء بمحامين من مؤسسة كبيرة كمحام مشارك ولكنه كان «شديد الغطرسة» بحيث لم يستمع إلى آرائهم. لقد كان يعمل بلا هوادة وينهى المذكرة فى الساعة ٥,٤٥ صباح اليوم الواجب تقديمها فيه. وأثناء ذلك كله كان يشارك زوجته مسئوليات رعاية الأطفال، وقام برحلة إلى الهند للمساعدة فى دفن والده. وقد بلغ تلف علاقته بتشارلى سويفت حد الأزمة تقريباً.

ونحن نقرأ هذا الكتاب نعرف أن المحكمة العليا ستتخذ القرار فى النهاية؛ ولكنى وجدت نفسى داخل دراما صراع المحامين الذى كنت أنتظره، مع قلقهم، لرؤية ما إذا كانت المحكمة سوف ستنظر القضية أم لا، ومن ثم ما الذى سوف تفعله. وعند التوصل إلى حل خرج من المحكمة العليا وقال للصحفيين:

ما حدث اليوم هو أن رجلاً من اليمن، وصل فى تعليمه إلى الصف الرابع متهم بالتآمر مع واحد من أكثر الأشخاص رعباً على هذا الكوكب، يمكنه مقاضاة أكثر رجال العالم نفوذاً، وهو رئيس الولايات المتحدة. وتُنظر قضيته. وهذا شىء على قدر كبير من العظمة فيما يتعلق بأمريكا.

وهو ما أضاف إليه تشارلى سويفت:

«قيمنا هى التى فازت هنا اليوم، مبادئنا الخاصة بحكم القانون...».

[٥]

دفع سويفت ثمناً غالياً فى البحرية مقابل عمله الناجح نيابةً عن حمدان. فقد تخطوه فى الترقية واستقال من تكليفه. وقد أصبح أستاذاً زائراً فى مدرسة إمروى للقانون. ومثّل باعتباره محامياً مدنياً حمدان فى إجراءات اللجنة العسكرية ضده التى بدأت أخيراً فى عام ٢٠٠٨. ولكنه لم يكن الوحيد الذى عوقب للدفاع عن القيم الأمريكية. فالميجور جنرال أنطونى تاجوبا، الذى عيّن للتحقيق فى التعذيب داخل سجن أبو غريب ووجد أن هناك «إساءة إجرامية ماجنة» إلى المعتقلين، أُجبر على التقاعد.

كتب الجنرال تاجوبا مقدمة لكتاب Broken Laws, Broken Lives: Medical Evidence of Torture by US Personnel and Its Impact (قوانين محطمة، أرواح محطمة: أدلة طبية على التعذيب الذى مارسه أفراد الجيش الأمريكى وأثره) وهو تقرير أصدره فى شهر يونيو أطباء من أجل حقوق الإنسان عن الآثار الباقية على المعتقلين لما مورس عليهم، بناءً على الفحوص الطبية التى أُجريت لبعضهم. وقال الجنرال تاجوبا إن «القائد العام وهؤلاء الذين تحت امرته صرحوا بنظام مرتب من التعذيب». وأضاف تاجوبا:

بعد سنوات من الإفشاءات بواسطة التحقيقات الحكومية، والروايات الإعلامية، والتقارير من منظمات حقوق الإنسان، لم يعد هناك شك فيما إذا كانت الإدارة الحالية قد ارتكبت جرائم حرب أم لا. والسؤال الوحيد الذى ما زال بحاجة إلى إجابة هو ما إذا كان الذين أمروا باستخدام التعذيب سيحاسبون أم لا.

حتى الآن، «من سهلوا التعذيب» كما أسماهم الميجور فراكت، فى حال طيبة. ظهر يو وأدنجتون فى شهر يونيو أمام اللجنة القضائية فى مجلس النواب؛ وقد تحاشيا الإجابة عن الأسئلة الخاصة بمسئوليتهما. وعندما سُئل أدنجتون عما إذا كان من المشروع تعذيب ابن أحد المعتقلين قال: «لست هنا لتقديم مشورة قانونية للجنتكم». وظهر ويليام هاينز المستشار القانونى السابق لوزارة الدفاع أمام لجنة مجلس الشيوخ وقال مراراً، رداً على الأسئلة، إنه لا يتذكر. وكان عنوان أحد الأعمدة فى «واشنطن بوست» عن شهادته «أبو غريب؟ لا أتذكر هذا الاسم».

التعذيب بواسطة المسئولين أمر يحظره القانون الجنائى الأمريكى وكذلك معاهدة منع التعذيب الدولية ومعاهدات جنيف. وطبقاً لما جاء فى كتاب جين ماير الجديد، فقد انتهت لجنة الصليب الأحمر الدولية فى تقرير لها فى العام الماضى إلى أن أساليب التحقيق التى استخدمها وكالة الاستخبارات المركزية على مسجون رفيع المستوى تمثل تعذيباً على نحو مطلق. وذكر كتابها The Dark Side: The Inside Story of How The War on Terror Turned into a War on American Ideals (الجانب المظلم: القصة الحقيقية لكيفية تحول الحرب على الإرهاب إلى حرب على المُثل العليا الأمريكية) أن تقريراً للجنة الدولية للصليب الأحمر أرسل إلى وكالة الاستخبارات المركزية، سلطة الاعتقال، التى «كان يشاركها فيها الرئيس ووزير الخارجية». ويقول ماير إن التقرير «نبه إلى أن الإساءة كانت تمثل جرائم حرب، مما يجعل أكبر المسئولين فى الحكومة الأمريكية معرضين لخطر مقاضاتهم».

على الأغلب لن تكون هناك مقاضاة أمريكية لمن سهلوا التعذيب. ولكن ربما لا يكون من الأمان للبارزين منهم أن يسافروا للخارج على نحو شخصى. فمن الممكن أن يحاول شخص ما تأكيد مبدأ الاختصاص الجنائى العالمى بشأن ممارسى الانتهاك الصارخ لحقوق الإنسان الذى تمسك به مجلس اللوردات عندما ألقى القبض على بينوشيه بناءً على أمر قضائى إسبانى.

وقد حذر المعلقون المحافظون بالفعل من أية مقاضاة أمريكية فى المستقبل، قائلين إن هؤلاء المسئولين لم تكن لديهم نية جنائية. بالرغم من المعاملة المستهجنة لبعض المعتقلين. وهذه المقولة غير مقنعة بناءً على الحقائق، لأن الوزير رامسفلد وآخرين حذرهم كبار محامى البنتاجون المدنيين والعسكريين، بمن فى ذلك المستشار القضائى للبحرية ألبرتو مورا، من أن سياساتهم سوف تنتهك القانون. وهى غير مقنعة طبقاً للقانون، لأن الرؤية الخاطئة للقانون ليست دفاعاً فى ظل المبادئ التى وُضعت فى محاكمات نورمبرج. كما أن سوابق نورمبرج تدحض مقولة دين إدلى التى ترى أنه لا يمكن مقاضاة المحامين لتقديمهم مشورة للمسئولين تجعلهم يرتكبون ما هى فى واقع الأمر جرائم. فقد أدين المحامون الألمان فى نورمبرج باعتبار أنهم سهلوا ارتكاب الجرائم بتقديمهم المشورة القانونية للجرائم النازية. وقال الرئيس بوش: «لدينا آراء قانونية تمكننا من عمل ذلك».

ليست المقاضاة مسلكاً مرجحاً بالنسبة للإدارة الأمريكية الجديدة. ولكن هناك خطوات ينبغى اتخاذها لمواجهة الفظائع التى ارتكبتها حكومتنا. إذ يجب علينا على أقل تقدير أن نكشف غطاء السرية عما تم وعما لا تزال مصنفةً على أنها آراء قانونية كانت ترمى إلى إضفاء الصفة القانونية على تلك الأفعال.

إن على هذا البلد أن يعيد بشكل ما تأكيد نفوره من استخدام التعذيب. وربما لا يكون هذا سهلاً. فقد أظهر استطلاع للرأى أُجرى مؤخراً أن تأييد الأمريكيين لتعذيب الإرهابيين المزعومين قد ارتفع من ٣٦ بالمائة ممن سئلوا فى عام ٢٠٠٦ إلى ٤٤ فى العام الحالى. وقد صدمتنا صور أبو غريب. ومنذ ذلك الحين أزيلت من الكثير منا حساسية استخدام التعذيب.

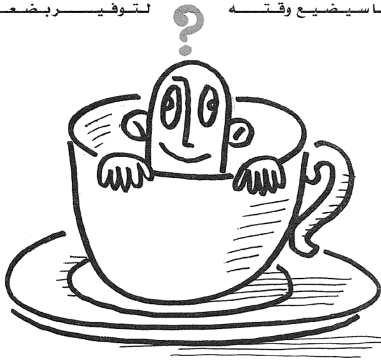
من الواضح أن الرئيس بوش وكبار مسئوليه نجحوا فى إقناع الكثيرين بزعمهم أن «تكنيكات الاستجواب المحسّنة»، كما يسمون التعذيب، توفر معلومات قيمة. والأدلة التى تؤكد هذ الزعم ضعيفة؛ فقد قال السناتور جاى روكفلر استناداً إلى خبرته كرئيس للجنة الاستخبارات فى مجلس الشيوخ:

لم أسمع شيئاً يشير إلى أن المعلومات التى تم الحصول عليها نتيجة لتكنيكات الاستجواب المحسّنة منعت هجوماً إرهابياً وشيكاً. ولم أسمع شيئاً يجعلنى أظن أن المعلومات التى تم الحصول عليها نتيجة لتلك التكنيكات لم يكن بالإمكان الحصول عليه من خلال أساليب التحقيق العادية التى يستخدمها محققو الجيش وتنفيذ القانون.

ولكن على أى الأحوال فقد كان الثمن الذى دفعته سمعة أمريكا، وأمنها القومى، بسبب تلك السياسة هائلاً. إذ أثار كراهية جزء كبير من العالم الإسلامى للولايات المتحدة. كما قوّض إيمان العديد من الأمريكيين باستقامة الأخلاق فى بلدهم.

وفى النهاية يجب أن يأتى العلاج. إذا كان لابد أن يكون هناك علاج، من القيادات التى تعيد تأكيد مكانة القانون الأساسية فى الطابع الأمريكى؛ أى من الرئيس الذى لا يسعى للحصول على سلطة غير مقيدة، ومن النائب العام وغيره من المسئولين الذين يحترمون القانون. ولم يفت الوقت بعد للعودة إلى حكم القانون وليس حكم الرجال. ■

ما من أحد منا سيضيع وقته لتوفير بضعة سنتات



من يدفع ثمن قهوتك؟

تيم هارفورد
Tim Harford

■■ سواء كنت تعيش فى نيويورك أو طوكيو أو أنتويرب أو براغ، يعتبر استخدام المواصلات العامة يوميًا فى الرحلات الطويلة للذهاب إلى العمل والعودة منه تجربة حياتية مألوفة فى مدن العالم الكبرى. وهذه الرحلات اليومية لها تأثير عام وتأثير خاص، على نحو يفقد المرء حماسه. فالتأثير الخاص يحدث لأن كل راكب بمنزلة الفأر الذى يدور فى متاهته الخاصة؛ فهو يقيس الزمن الذى يستغرقه بدءًا من حمام الصباح حتى الوصول إلى ماكينة التذاكر بمحطة المترو. ولكى يسرع من انتقاله بين القطارات المختلفة، تراه يعرف جداول مواعيد القطارات والاتجاه الصحيح للرصيف؛ ويفاضل بين مساوئ الوقوف فى أول قطار يمر عليه وبين الجلوس فى آخر قطار. ومع ذلك، فإن هذه الرحلات اليومية ينتج عنها تأثيرات عامة، مثل ساعات الذروة والاختناقات المرورية، التى يستغلها أصحاب الأعمال لصالحهم فى جميع أنحاء العالم. وتختلف رحلتى اليومية هنا فى واشنطن العاصمة عن رحلتك فى لندن أو فى نيويورك أو فى هونج كونج، ومع ذلك فإنها ستبدو مألوفة على نحو مدهش.

تقع محطة مترو «فاراجوت ويست» Farragut West فى موقع مثالى لخدمة البنك الدولى وصندوق النقد الدولى وكذلك البيت الأبيض. فى كل صباح، يظهر الركاب سريعو الغضب الذين لم ينالوا قسطًا كافيًا من النوم وهم خارجون من محطة فاراجوت ويست قاصدين الطوابق المختلفة فى مجمع «إنترناشيونال سكوير» International Square، بحيث يتعذر أن يحيدوا بسهولة عن طريقهم المعتاد. إنهم ينشدون الابتعاد عن الضجيج والصخب، حول السائحين المتجولين، ويريدون الوصول إلى مكاتبهم قبل وقت قليل من وصول رؤسائهم. وهم لا يرحبون باستخدام أى طريق غير طريقهم المعتاد، ومع ذلك فهناك مكان للسلام والإكرام يمكن أن يغريهم بأن يتأخروا لبضع دقائق. فى هذه الواحة، تقدم بعض الملذات التى يصاحبها ابتسامات من نساء ورجال غرباء وجذابين. فاليوم رأيت ابتسامة نادلة المقهى الفاتنة، التى تضع شارة تفصح عن أن اسمها «ماريا». المقهى الذى أقصده بالطبع هو مقهى «ستاربكس» Starbucks الذى يقع فى مكان يتحتم رؤيته عند المخرج المؤدى إلى إنترناشيونال سكوير. وهذا ليس بشىء غريب تختص به محطة فاراجوت ويست وحدها. فعلى سبيل المثال عندما تخرج من محطة مترو فاراجوت نورث Farragut North المجاورة، ستجد أن أول واجهة تجارية تخص فرعًا آخر من فروع ستاربكس. وفى جميع أنحاء العالم، توجد مثل هذه المقاهى، التى تقع بأماكن

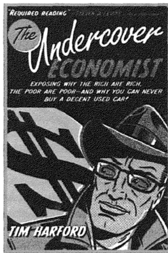
وإذا كنت تشتري مثلي قدرًا كبيرًا من القهوة، فربما تستنتج أن شخصًا ما يثرى ثراءً فاحشًا من وراء ذلك. فمن يكون هذا الشخص؟

للاستزادة:

The Undercover Economist:
Exposing Why the Rich Are
Rich, the Poor Are Poor—and
Why You Can Never Buy a Decent
Used Car!
by Tim Harford
Random House Trade
Paperbacks, 2007

المخبر الاقتصادى
تيم هارفورد
ترجمة: رشا سعد زكى
مراجعة: سامح رفعت مهران
كلمات عربية للترجمة والنشر ـ القاهرة ٢٠٠٨
كلمة: هيئة أبو ظبى للثقافة والتراث





يسهل الوصول إليها، لتلبى احتياجات ركاب فى أشد الحاجة إلى هذا المكان. فتجد مثلا مقهى كوزى Cosi على بعد عشر ياردات من مخرج محطة مترو واشنطن دوبون سيركل Washington Dupont Circle. وتفخر محطة مترو بن Penn بنيويورك بوجود مقهى سياتل كوفى روسترز Seattle Coffee Roasters بالضبط عند مخرج المحطة المؤدى إلى شارع إيث أفنيو Eighth Avenue. أما فى محطة شنجوكو Shinjuku فى طوكيو فيستطيع المرء أن يتمتع بقهوة ستاربكس حتى دون مغادرة ساحة المحطة. وفى محطة ووترلو Waterloo فى لندن تجد كشك قهوة تابعا لشركة أيه إم تى AMT يحرس المخرج المؤدى إلى الضفة الجنوبية لنهر التايمز.

لا يعتبر كوب الكابوتشينو الكبير الذى يبيعه مقهى ستاربكس بسعر ٢.٥٥ دولار رخيصًا، ولكنى أستطيع دفع هذا السعر، فثمن هذا الكوب لا يمثل لى، وأيضًا للكثيرين من مرتادى المقهى، أكثر من الأجر الذى أحصل عليه عن عملى لبضع دقائق. ومن المؤكد أنه ما من أحد منا سيضيع وقته لتوفير بضعة سنتات ليبحث عن مقهى أرخص فى الساعة الثامنة والنصف صباحًا. يوجد طلب هائل على المقهى الذى يحظى بأفضل موقع يسهل الوصول إليه، فمحطة ووترلو على سبيل المثال يمر بها كل عام أربعة وسبعون مليون شخص، الأمر الذى يجعل موقع ذلك المقهى مسألة فى غاية الأهمية.

لا يعتبر موقع مقهى ستاربكس فى محطة فارجوت ويست موقعًا ذا قيمة لأنه يقع على طريق حتمى نشيط لمرور الناس بين أرصفة المحطة فى طريقهم إلى خارجها، وإنما أيضًا لعدم وجود مقاه أخرى على طول الطريق، فلا عجب إذن أن يحقق هذا المقهى أرباحًا طائلة.

وإذا كنت تشترى مثلى قدرًا كبيرًا من القهوة، فربما تستنتج أن شخصًا ما يثرى ثراء فاحشًا من وراء ذلك. وإذا كانت الشكاوى التى تنشر فى الصحف بين حين وآخر حقيقية، فإن البن فى فنجان الكابوتشينو لا يتكلف سوى بضعة سنتات. وبالطبع لا تخبرنا الصحف بالقصة كاملة: فهناك اللبن، والكهرباء، وتكاليف الأكواب الورقية، والراتب الذى يُدفع لماريا كى تبتسم طوال اليوم فى وجه الزبائن كثيرى الشكوى. ولكن لو جمعت كل هذا سيظل الناتج أقل بكثير من سعر كوب الكابوتشينو. يرى أستاذ الاقتصاد براين ماكمانوس Brian McManus أن هامش الربح فى القهوة يكون قرابة ١٥٠٪. فتكلفة إعداد كوب من القهوة المقطرة الذى يباع مقابل دولار لا يتكلف فى الحقيقة سوى ٤٠ سنتًا، أما كوب القهوة الصغير المضاف إليه اللبن الساخن الذى يباع بسعر ٢.٥٥ دولار فيتكلف أقل من دولار. هناك إذن شخص ما يحقق أرباحًا طائلة، فمن يكون هذا الشخص؟



ربما يكون هاورد شولتز Howard Schultz مالك سلسلة مقاهى ستاربكس هو أول من سيتبادر إلى ذهنك. ولكن الإجابة ليست بهذه البساطة. فالسبب الرئيسى فى أن مقهى ستاربكس يستطيع مطالبة مرتاديه بدفع ٢,٥٥ دولار مقابل كوب الكابوتشينو هو أنه لا يوجد مقهى بجواره يبيع هذا الكوب بدولارين. فلماذا إذن لا يوجد مقهى آخر يبيع القهوة بسعر أقل من ستاربكس؟ وبدون أن نبخس السيد شولتز حقه، فالكابوتشينو فى حقيقة الأمر ليس منتجًا معقدًا. لا يعانى السوق أى نقص من الكابوتشينو الصالح للشرب (وللأسف لا يعانى أيضًا أى نقص من الكابوتشينو غير الصالح للشرب). والمرء لا يحتاج إلى الكثير كى يشترى بعض ماكينات إعداد القهوة ومنضدة طويلة، وبناء اسم تجارى ببعض الدعاية وببعض العينات المجانية، وتعيين طاقم عمل مهذب، فحتى ماريا يمكن استبدالها بأخرى.

وفى حقيقة الأمر فإن أهم ميزة يتمتع بها ستاربكس هى موقعه على طريق مشاه يسير عليه آلاف القائمين برحلات يومية جيئة وذهابًا. ولا يوجد اليوم كثير من الأماكن الجيدة التى يمكن أن تلائم إقامة المقاهى مثل مخارج المحطات أو نواصى شوارع مزدحمة. والسبب هو أن ستاربكس ومنافسيه قد التهموا هذه الأماكن. فلو كان لشركة ستاربكس تأثير التنويم المغناطيسى على زبائنها كما يزعم منتقدوها، فما كانت ستحتاج أن تبذل مثل هذا الجهد الهائل كى تجعلهم يرتادون المقهى. فهامش الربح الجيد الذى تجنيه ستاربكس من بيع الكابوتشينو لا يرجع إلى جودة البن أو طاقم العمل، ولكن بسبب موقع المقهى: ثم الموقع، ثم الموقع.

ولكن من يتحكم فى الموقع؟ انظر إلى المفاوضات التى تعقد قبل إبرام عقد إيجار جديد، فمالكة مجمع إنترناشيونال سكوير لا تتفاوض مع شركة ستاربكس فحسب، ولكنها تتفاوض مع شركات أخرى تضم سلاسل مقاه، مثل: كوزى، وكاريبو كوفى Caribou Coffee، والشركات المحلية الأخرى التى لها مقاه فى واشنطن العاصمة، مثل: جافا هاوس Java House، وسوينجس Swing's، وكابيتول جراوندز Capitol Grounds، وتييزم Teaism. فقد توقع مالكة المجمع عقدًا مع كل هؤلاء، أو قد تبرم عقدًا حصريًا مع شركة واحدة منهن فقط. ولكن سرعان ما ستكتشف أنه لا توجد شركة تتحمس لدفع قيمة إيجارية كبيرة مقابل مكان بجوار عشرة مقاه أخرى، لذلك ستحاول أن تحقق أفضل ربح ممكن عند إبرامها العقد الحصرى مع شركة واحدة منها.

وفى محاولتك لاستنتاج من سيجنى كل الأرباح، تذكر ببساطة أن طاولة المفاوضات يوجد على جانب منها نحو عشر شركات متنافسة على الأقل. وعلى الطرف الآخر يجلس مالك الموقع المتميز الذى تنشده هذه الشركات. وبعد أن يجعل صاحب الأرض هذه الشركات متواجهة لتحقيق مصلحته الشخصية، يصبح قادرًا على إملاء شروطه، وإجبار واحدة منها على دفع قيمة إيجارية تستنزف تقريبًا كل ربحها المتوقع. والشركة الفائزة بالمكان سوف تفترض أنها ستحصل على بعض الأرباح وليس أرباحًا كثيرة: فلو بدت القيمة الإيجارية قليلة على نحو يساعد على تحقيق ربح وفير، فسترحب شركة مقاه أخرى بدفع قيمة إيجارية أعلى قليلا نظير حصولها على الموقع. وفى حقيقة الأمر يوجد عدد هائل من شركات المقاهى التى قد تؤجر المكان، وفى الوقت نفسه عدد قليل من المواقع الجذابة لهذه الشركات، وهذا يعنى أن ملاك المواقع لهم اليد العليا.

وهذا بالطبع منطق نظرى محض. لذا يغدو من المنطقى أن نسأل أنفسنا عما إذا كان هذا هو ما يحدث بالفعل فى عالم الواقع أم لا. عندما شرحت لصديقة لى - التى طالما عانت من القهوة - كل المبادئ المرتبطة بالمسألة، سألتنى عما لو كان بإمكانى إثبات ذلك. عندها قلت لها إن هذه مجرد نظرية أو كما يقول شيرلوك هولمز: قدر من «الملاحظة والاستنتاج»، مبنى على الشواهد المتوفرة لنا جميعًا. وبعدها ببضعة أسابيع أرسلت لى مقالاً من صحيفة فايننشيال تايمز Financial Times اعتمد على دلائل قدمها خبراء فى الصناعة، ممن يطلعون على حسابات شركات سلاسل المقاهى. بدأ المقال بجملة: «عدد قليل من الشركات يحقق أرباحًا طائلة» واستنتج أن إحدى المشكلات الرئيسية هى «التكاليف المرتفعة لتشغيل منفذ بيع للمستهلكين فى مواقع متميزة تتمتع بحجم هائل من التجارة العابرة». وفى الواقع فإن قراءة الحسابات أمر يبعث على الكآبة فى حين أن العمل الاقتصادى الاستقصائى هو الطريقة الأسهل للوصول إلى نفس النتيجة.

القوة من الندرة

فوجئت عندما كنت أتصفح كتب الاقتصاد القديمة التى أحتفظ بها فى مكتبة منزلى بأول تحليل اقتصادى عن مقاهى القرن الحادى والعشرين. ومع أنه نشر فى عام ١٨١٧ فإنه لا يتناول بالشرح المقاهى

في محاولتك لاستنتاج من سيجني كل الأرباح، تذكر ببساطة أن طاولة المفاوضات

الحديثة فقط وإنما يتحدث أيضًا عن كثير من أحوال عالمنا الحديث.

كتب هذا التحليل ديفيد ريكاردو David Ricardo الذى صنع من نفسه مليونيرا (بمعايير اليوم) من عمله كسمسار فى سوق الأوراق المالية، ثم أصبح بعد ذلك عضوًا فى البرلمان. كان ريكاردو أيضًا رجل اقتصاد متحمسا يتوق لفهم ما حدث للاقتصاد بريطانيا خلال الحروب النابليونية، التى كانت قد انتهت قبل وقت قصير آنذاك، عندما ارتفعت بحدة أسعار القمح وأسعار إيجارات الأراضى الزراعية، وأراد ريكاردو معرفة السبب.

وأسهل طريقة لفهم تحليل ريكاردو هى تناول أحد الأمثلة التى استخدمها. تخيل إحدى المناطق غير المزروعة بها عدد قليل من السكان ولكنها تتمتع بوفرة من الأراضى الخصبة الصالحة للزراعة، وفى يوم ما يأتى مزارع شاب طموح، يدعى أكسيل Axel، ويعرض على سكانها أن يدفع إيجارًا مقابل حصوله على حق زراعة المحاصيل على فدان واحد من الأرض الخصبة. بالطبع يتفق الجميع بشأن كمية الغلة التى ينتجها الفدان، ولكنهم فى الوقت نفسه يعجزون عن تحديد قدر الإيجار الذى ينبغى أن يدفعه أكسيل. ونظرًا لوفرة الأراضى المحروثة المتروكة دون زراعة، لن يمكن لملاك الأراضى المتنافسين المبالغة فى سعر الإيجار أو المطالبة بإيجار مرتفع على الإطلاق. ولهذا يفضل كل مالك أرض الحصول على إيجار زهيد بدلا من عدم الحصول على أى إيجار من الأساس. من هنا، يخفض كل مالك أرض سعر الإيجار الذى يطلبه عن ذلك الذى يطلبه منافسه، إلى أن يتمكن الشاب من البدء فى الزراعة مقابل دفع إيجار ضئيل للغاية، يكون فى الوقت نفسه كافيًا لتعويض مالك الأرض عن متاعبه.

إن أول درس نتعلمه من هذه القصة هو أن الشخص الذى يمتلك أحد الموارد المرغوبة - وهو مالك الأرض فى تلك الحالة - لا يملك كثيرًا من القوة التفاوضية كما قد يفترض المرء. كما لا تخبرنا القصة عما إذا كان أكسيل فقيرًا للغاية، أم أنه يضع حزمة نقود فى كعب حذائه، وذلك لأن هذا الأمر لا يشكل أى فارق فى مسألة الإيجار. فالقدرة التفاوضية تأتى من الندرة: فالمستوطنون نادرون بينما الأراضى الزراعية ليست نادرة، ولهذا فإن ملاك الأراضى ليس لديهم قوة تفاوضية.

ويعنى هذا أن الندرة النسبية لو انتقلت من شخص إلى آخر، تنتقل معها القدرة التفاوضية أيضًا. فإن حذا العديد من المهاجرين بمرور السنوات حذو أكسيل، فإن مساحة الأراضى الزراعية الفائضة تتقلص إلى أن تنتهى تمامًا. وما دامت توجد أى من هذه الأراضى، فإن المنافسة بين الملاك الذين لم يجذبوا أى مستأجرين لأراضيهم ستبقى الإيجار منخفضًا. ومع ذلك، يأتى فى يوم من الأيام مزارع آخر إلى نفس البلدة، ولنسمه بوب Bob، ليكتشف عدم وجود أى أراض خصبة فائضة ليزرعها، ويجد أن البديل الذى أمامه هو زراعة أرض مغطاة بالشجيرات القصيرة وإن كانت أقل خصوبة إلا إنها متوافرة بكثرة، وهو ليس خيارًا جذابًا. فيعرض المزارع بوب مبلغًا كبيرًا لأى مالك أرض حتى يطرد أكسيل، أو أيًا من المزارعين الآخرين الذين يزرعون الأرض فى الوقت الحالى دون دفع إيجار تقريبًا؛ ليحل المستأجر الجديد محل أى منهم. ولكن مثلما كان بوب مستعدا لدفع المال نظير تأجير الأرض الخصبة بدلا من الأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة، فإن كل المزارعين الآخرين سيكونون على استعداد أيضًا لأن يدفعوا حتى لا يطردوا من الأرض. وهكذا تغير كل شىء، وهكذا أيضًا حصل ملاك الأراضى بسرعة مفاجئة على قوة تفاوضية حقيقية؛ لأن المزارعين صاروا فجأة موردًا متوفرًا نسبيًا فى حين أن الأراضى أضحت موردًا نادرًا نسبيًا.

ويعنى هذا أن ملاك الأراضى باتت لديهم القدرة على رفع قيمة الإيجار، ولكن بأى قدر؟ يجب أن يظل الإيجار كافيًا بحيث يحصل المزارعون على مقدار من الغلة من زراعة الأرض الخصبة بعد أن يدفعوا الإيجار للمالك؛ يساوى مقدار الغلة التى يحصلون عليها من زراعة الأراضى المغطاة بالشجيرات القصيرة دون دفع أى إيجار، فلو كان الفرق فى الغلة التى تنتجها كلتا الأرضين هو خمسة بوشل من الحبوب سنويًا، فإن الإيجار يجب أن يكون أيضًا خمسة بوشل سنويًا. أما لو حاول مالك الأرض المطالبة بأكثر من هذا فسيذهب المستأجر إلى الزراعة فى الأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة. وإن قل الإيجار عن هذا، فسيرغب مزارع الأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة أن يدفع إيجارًا أكبر نظير زراعته للأرض الخصبة.

قد يبدو من الغريب أن يحدث التغيير فى قيمة الإيجار بهذه السرعة فقط لقدوم رجل واحد آخر ليزرع فى المنطقة. تبدو هذه القصة عاجزة عن تفسير ما يجرى حقيقة فى أرض الواقع، ولكنها تحمل بين ثناياها قدرًا كبيرًا من الحقيقة يفوق ظنك حتى لو كانت قصة مفرطة فى التبسيط. توجد بالطبع أمور أخرى على أرض الواقع ينبغى أن تؤخذ فى الحسبان مثل قوانين طرد المستأجر، والعقود طويلة الأجل، وحتى العادات الثقافية مثل حقيقة أن طرد شخص فى يوم ليحل محله مستأجر جديد فى اليوم التالى أمر «غير لائق اجتماعيًا». وفى حقيقة الأمر يوجد أكثر من نوعين من الأراضى فى دنيا الواقع، وسيكون أمام بوب خيارات مختلفة ليعمل فى مجال عمل آخر غير الزراعة. فقد يتجه إلى العمل كمحاسب أو كسائق تاكسى. كل تلك الحقائق تزيد من تعقيد ما يحدث فى عالمنا الواقعى، فهى تبطئ من عملية انتقال القدرة التفاوضية وتغير الأرقام المطلقة المرتبطة بهذا الشأن وتحد من التغييرات المفاجئة فى قيمة إيجار الأرض.

عندما ينظر علماء الاقتصاد إلى العالم يرون أنماطًا اجتماعية مستترة

ومع ذلك فإن تعقيدات الحياة اليومية غالبًا ما تخفى الاتجاهات الكبيرة الكامنة وراء الأحداث، مثلما يحدث عند انتقال قوة الندرة من مجموعة إلى أخرى. ووظيفة الخبير الاقتصادى هى تسليط الضوء على العمليات غير الظاهرة، فلا ينبغى أن نندهش لو تحول سوق الأراضى فجأة ضد مصلحة المزارعين، أو لو ارتفعت أسعار المنازل ارتفاعًا حادًا، أو لو امتلأ العالم بالمقاهى فى غضون أشهر قليلة. ولذلك تؤكد لنا بساطة تلك القصة جزءًا من الحقيقة غير الظاهرة، ولكن هذا بالتأكيد يفيد فى الكشف عن أمر مهم ألا وهو أن الندرة النسبية والقدرة التفاوضية، تتغيران حقًا فى بعض الأحيان تغيرًا سريعًا وتحدثان تأثيرات عميقة فى حياة الناس. ونحن غالبًا نشكو من أعراض المشكلة - مثل التكلفة العالية لشراء كوب قهوة أو حتى شراء منزل. ولكننا فى حقيقة الأمر لن نتمكن من علاج الأعراض بنجاح دون فهم نماذج الندرة التى تعتبر أساس تلك الأعراض.

الأرض «الحدية» وأهميتها المحورية

لا يجب أن تتوقف التغيرات فى القدرة التفاوضية عند ذلك الحد. فبينما يمكن أن تتعقد قصتنا عن الزراعة إلى ما لا نهاية فإن القواعد الأساسية تظل كما هى دون تغيير. فمثلا، لو استمر المزارعون فى الاستيطان بالمنطقة، فسينتهى بهم الأمر بأنهم لن يزرعوا الأرض الخصبة فحسب بل والأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة أيضًا. فحينما يصل مستوطن جديد يدعى كورنيليوس Cornelius فسيجد أن الأرض الوحيدة المتاحة أمامه هى الأرض العشبية الأقل إنتاجية حتى من الأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة. وهنا نتوقع أن تحدث نفس عملية المفاوضات التى تحدثنا عنها آنفًا، سيعرض كورنيليوس المال على ملاك الأراضى فى محاولة منه ليحصل على قطعة أرض مغطاة بالشجيرات القصيرة ليزرعها، وسرعان ما سيرتفع إيجار الأراضى المغطاة بالحشائش القصيرة، وينبغى آنذاك أن يبقى الفرق بين إيجار الأرض الخصبة



والأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة كما هو دون تغيير (وإلا فإن المزارعين المستأجرين للأراضى المغطاة بالشجيرات القصيرة سيرغبون فى الانتقال إلى الأراضى الخصبة) ومن ثم، يرتفع إيجار الأرض الخصبة أيضًا.

ولهذا سيكون إيجار الأرض الخصبة مساويًا دائمًا للفرق فى محصول الغلة الذى تنتجه الأرض الخصبة والذى تنتجه أى أرض أخرى يمكن للمزارعين الجدد زراعتها دون دفع أى إيجار. ويسمى علماء الاقتصاد هذه الأرض الأخرى بالأرض «الحدية» لأنها تقع على الحد بين كونها مزروعة وبين كونها غير مزروعة. (وسرعان ما سترى أن علماء الاقتصاد يفكرون كثيرًا بشأن القرارات التى تُتخذ عن الحد). ففى البداية، عندما كانت الأراضى الخصبة متوفرة على نحو يفوق عدد المستوطنين اللازمين لزراعتها، لم تكن هذه الأرض أفضل أنواع الأراضى فحسب، بل كانت هى الأرض «الحدية» أيضًا لأن المزارعين الجدد كان بإمكانهم استغلالها. ونظرًا لأن أفضل أنواع الأراضى كانت تؤدى نفس دور الأرض الحدية فلم يكن هناك إيجار بخلاف المبلغ البسيط الذى كان يعوض مالك الأرض عن متاعبه. وفيما بعد، عندما زاد عدد المزارعين حتى لم يعد يكفيهم عدد الأراضى الخصبة الموجودة، صارت الأراضى المغطاة بالشجيرات القصيرة هى الأرض الحدية، وارتفع إيجار الأرض الخصبة إلى خمسة بوشل سنويًا - وهو الفرق فى إنتاجية الأرض الخصبة والأرض الحدية (أى الأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة فى تلك الحالة). وعندما وصل كورنيليوس، صارت الأرض العشبية هى الأرض الحدية، وباتت الأراضى الخصبة أكثر جاذبية مقارنة بالأرض الحدية، ولذلك تمكن ملاك الأراضى من رفع قيمة إيجار الأراضى الخصبة مرة أخرى. من المهم أن نشير هنا إلى عدم وجود قيمة مطلقة: فكل شىء يصبح نسبيًا لهذه الأرض الحدية.

من الزراعة إلى أكشاك القهوة مرة أخرى

إنها قصة لطيفة، ولكن قد يفضل أمثالنا ممن يحبون أفلام الغرب الأمريكى تلك الأفلام التى تتناول الشجاعة مثل فيلم Unforgiven، أو شيئًا من العزلة النفسية التى نراها فى فيلم مثل High Noon. لذلك لم أحصل أنا أو ديفيد ريكاردو على جوائز فى الكتابة السينمائية، ولكن ربما لدينا بعض العذر حيث إن القصص التى نسردها تخبرنا بالفعل بشىء مفيد عن عالمنا الحديث.

يمكن أن تكون أكشاك القهوة هى نقطة البدء. لماذا ترتفع أسعار القهوة فى لندن ونيويورك وواشنطن وطوكيو؟ قد تخبرنا فطرتنا أن القهوة غالية الثمن لأن أكشاك القهوة تضطر لدفع قيمة إيجارية عالية. أما نموذج ديفيد ريكاردو الاقتصادى، فيستطيع أن يبين لنا أن هذه الطريقة خاطئة للتفكير فى تلك القضية لأن «القيمة الإيجارية العالية» ليست حقيقة عشوائية من حقائق الحياة، وإنما لها سبب يبررها.

يوضح المثال الذى استخدمه ريكاردو أن ثمة أمرين يحددان القيمة الإيجارية للمواقع المتميزة، تمامًا مثلما يتحدد إيجار الأراضى الخصبة وفقًا للفرق فى الإنتاجية الزراعية بين الأراضى الخصبة والأرض الحدية، وأهمية الإنتاجية الزراعية نفسها. فإذا كان سعر البوشل (مقياس لكيل الحبوب يساوى ثمانية جالونات) دولارًا فإن خمسة بوشل من الحبوب تستحق إيجارًا قدره خمس دولارات. وإن كان سعر البوشل مائتى ألف دولار، فإن خمسة بوشل من الحبوب تستحق إيجارًا قدره مليون دولار. وتستحق الأرض الخصبة قيمة إيجارية مرتفعة مُقيّمة بالدولار إذا كانت الحبوب التى تساعد هذه الأرض على إنتاجها مرتفعة القيمة.

والآن دعنا نطبق نظرية ريكاردو على المقاهى التى تحدثنا عنها. فمثلما تستحق الأرض الخصبة إيجارًا مرتفعًا إذا كانت الحبوب التى تنتجها هذه الأرض مرتفعة القيمة، فإن المواقع المتميزة للمقاهى تستحق هى الأخرى إيجارًا مرتفعًا إذا كان الزبائن سيدفعون أسعارًا مرتفعة للقهوة. وبالطبع يكون زبائن ساعة الذروة فى حاجة ماسة للكافيين. وفى عجالة من أمرهم بحيث إنهم لا يدققون إذا كانت الأسعار التى يدفعونها مرتفعة أم لا. لذلك فإن استعدادهم لدفع أعلى سعر مقابل مقهى يتمتع بسهولة الوصول إليه هو السبب فى ارتفاع القيمة الإيجارية، وليس العكس.

تتشابه الأماكن المناسبة لأكشاك القهوة مع الأرض الخصبة فى أنها أفضل نوعية من الممتلكات العقارية تناسب الغرض المنشود منها ولذلك تنفد جميعها بسرعة. لهذا تجد المتاجر التى تقع على نواصى شوارع منطقة «ميد تاون مانهاتن» تحتجزها شركتا ستاربكس، وكوزى إلى جانب الشركات المنافسة لهما. أما بالقرب من محطة مترو دوبون سيركل Dupont Circle فى واشنطن العاصمة، فتجد مقهى كوزى يحتل البقعة المتميزة عند المخرج الجنوبى للمحطة فى حين يوجد مقهى ستاربكس عند المخرج الشمالى لها، ناهيك عن ادعاء السيادة على الأرض فى الأماكن المواجهة للمحطات القريبة أعلى وأسفل خط المترو. وفى لندن تجد مقاهى شركة أيه إن تى فى محطة ووترلو ومحطات كينجز كروس King's Cross، وماريليبون Marylebone، وتشيرنج كروس Charing Cross، وفى حقيقة الأمر فإن كل محطة مترو فى لندن بها فرع من فروع شركات المقاهى الكبرى. إن تلك المواقع كان من الممكن أن تستخدم فى بيع السيارات المستعملة أو الطعام الصينى، إلا أن هذا لم يحدث ليس لأن محطة المترو غير مناسبة لبيع الطعام الصينى أو السيارات المستعملة. ولكن لأن هناك وفرة فى الأماكن الأخرى منخفضة القيمة الإيجارية والملائمة لبيع السيارات المستعملة أو الطعام الصينى. ولن يكون فيها الزبائن فى عجالة من أمرهم بل أكثر استعدادًا للتنزه أو لطلب الطعام. أما بالنسبة للمقاهى وغيرها من المنشآت التى تبيع الوجبات الخفيفة أو الجرائد، فإن القيمة الإيجارية المنخفضة لا تعوض خسارة وابل الزبائن الذين لا يدققون إذا كانت الأسعار التى يدفعونها مرتفعة أم لا.

نماذج قابلة للتكيف مع مجالات أخرى

استطاع ديفيد ريكاردو أن يكتب تحليلا عن مقاهى الكابوتشينو فى محطات المترو قبل أن تخرج إلى الوجود مقاهى الكابوتشينو أو محطات المترو. وهذا هو نوع الحيل الذى يجعل الناس إما يعشقون علم الاقتصاد، أو ينفرون منه. فالذين ينفرون منه يزعمون أننا لو أردنا فهم كيفية عمل تجارة القهوة فى العالم الحديث لا يجب علينا أن نقرأ تحليلا عن الزراعة نُشر عام ١٨١٧.

ومع ذلك فالكثيرون منا يُغرمون بحقيقة أن ريكاردو، منذ حوالى مائتى عام، استطاع أن يخرج برؤية واضحة تُنير طريقنا اليوم نحو الفهم. فمن السهل أن ترى الفرق بين الزراعة فى القرن التاسع عشر، وبين بيع القهوة ذات الرغوة فى القرن الحادى والعشرين. ولكن ليس من السهل أن ترى أوجه الشبه بينهما قبل أن يقوم أحدهم بتسليط الضوء عليه. يدور علم الاقتصاد بقدر ما حول وضع النماذج الاقتصادية، وحول التعبير بوضوح عن المبادئ والأنماط الأساسية المسئولة عن الموضوعات التى تبدو معقدة مثل إيجار الأراضى الزراعية أو إيجارات المقاهى.

وثمة نماذج أخرى نجدها فى صناعة القهوة، والتى تعتبر نافعة للعديد من الأمور المختلفة، فمثلا قد يكون نموذج التصميم المعمارى للمقهى مفيدًا كدراسة حالة ليدرسها المهندسون العاملون بمجال التصميم الداخلى. وقد يساعد أحد النماذج الفيزيائية فى تحديد الملامح البارزة للآلة التى تولد مقدار ١٠ ضغط

تبسيط النماذج الاقتصادية قد اشتهر بأنه يضلل علماء الاقتصاد



جوى وهو المقدار اللازم لتخمير القهوة الإسبرسو، ونفس النموذج قد يصبح نافعاً عند الحديث عن مضخات الشفط، أو محركات الاحتراق الداخلى. واليوم لدينا نماذج من التأثيرات البيئية التى تحدثها الطرق المختلفة للتخلص من بقايا البن المتخثرة فى قاع الفنجان. وكل نموذج منها مفيد لأمور مختلفة. أما «النموذج» الذى حاول أن يصف فى آن واحد كلا من التصميم والهندسة وعلم البيئة وعلم الاقتصاد فإنه لن يكون أبسط من الواقع نفسه وبالتالى لن يضيف شيئاً لفهمنا.

ويصلح نموذج ريكاردو الاقتصادى لمناقشة العلاقة بين الندرة والقدرة التفاوضية حيث يذهب النموذج إلى ما هو أبعد من القهوة أو الزراعة ثم يفسر لنا فى النهاية كثيراً من أمور العالم التى تحدث من حولنا. فعندما ينظر علماء الاقتصاد إلى العالم يرون أنماطاً اجتماعية مستترة، تصبح جلية فقط عندما يركز المرء على العمليات الجوهرية غير الظاهرة. ويدفع هذا التركيز النقاد إلى القول بأن علم الاقتصاد لا يأخذ فى اعتباره الأمر برمته أو «النظام» بأكمله. ومع ذلك كيف لتحليل عن الزراعة يعود إلى القرن التاسع عشر أن يكشف حقيقة مقاهى القرن الحادى والعشرين، بغض النظر عن إخفاقه فى ملاحظة كل أنواع الفروق المهمة؟ والجواب هو أنه يتعذر فى الواقع فهم أى مسألة معقدة دون التركيز على عناصر محددة تقلل من تعقيدها. يفضل علماء الاقتصاد التركيز على أمور محددة، والندرة هى أحد تلك الأمور، وهذا التركيز يعنى أننا لا نلاحظ الميكانيكا التى تعمل بها ماكينة إعداد القهوة الإسبرسو، واختيار الألوان المستخدمة فى تصميم المقاهى، وغير ذلك من الحقائق المثيرة الأخرى. ومع ذلك فهذا التركيز يفيدنا أيضاً، وأحد الأشياء التى نستفيدها هو فهم «النظام»، أقصد النظام الاقتصادى، الذى يعد أشمل كثيراً مما قد يظن الكثيرون.

ومع ذلك فيلزم هنا قرع جرس تحذير. فتبسيط النماذج الاقتصادية قد اشتهر بأنه يضلل علماء الاقتصاد. حتى إن ريكاردو نفسه كان من أوائل ضحايا هذا التبسيط، فقد كان يحاول أن يمد نموذجه الاقتصادى الناجح والرائع عن المزارعين وملاك الأراضى ليفسر توزيع الدخل فى النظام الاقتصادى بأسره، مثل: كم الدخل الذى يحصل عليه العمال، والدخل الذى يحصل عليه ملاك الأراضى، والدخل الذى يحصل عليه الرأسماليون. ولكن لم يحقق هذا النموذج نجاحاً تاماً فى مهمته: لأن ريكاردو تعامل مع القطاع الزراعى بأكمله وكأنه مزرعة واحدة شاسعة يملكها فرد واحد. فالقطاع الزراعى الموحد لن يستفيد شيئاً من تحسين إنتاجية الأرض عن طريق تعبيد الطرق، أو تحسين الرى؛ لأن تلك الأمور من شأنها أن تقلل من ندرة الأرض الخصبة. ومع ذلك فالمالك الفرد حينما يكون فى منافسة مع ملاك آخرين فسيكون لديه الكثير من الدوافع لعمل تلك التحسينات. وبسبب انشغاله بالتفاصيل الفنية دون غيرها، أخفق ريكاردو فى إدراك حقيقة أن الآلاف من ملاك الأراضى ينافس بعضهم بعضاً مما يجعلهم يتخذون قرارات مختلفة وليس قراراً واحداً.

وهكذا فليس بمقدور نموذج ريكاردو تفسير كل شىء، إلا أننا نوشك على معرفة أن النموذج بمقدوره تفسير أمور لم يتصورها ريكاردو نفسه. لا يفسر هذا النموذج المبادئ الكامنة خلف مقاهى القهوة والزراعة فحسب، وإنما. إذا جرى تطبيقه على النحو الصحيح. يظهر أن التشريعات البيئية يمكن أن تؤثر تأثيراً كبيراً على توزيع الدخل، ويفسر السبب وراء تحقيق بعض الصناعات بطبيعتها للأرباح العالية فى حين تعتبر الأرباح العالية فى بعض الصناعات الأخرى دليلا دامغاً على الاحتيال، وكذلك فهو ينجح فى تفسير السبب وراء معارضة المتعلمين لهجرة أمثالهم من المتعلمين فى حين تشكو الطبقات العاملة من هجرة العمالة التى تعمل فى وظائف لا تحتاج إلى مهارات خاصة.

هل ستبالى إذا بيعت لك سلعة بثمن أكبر بكثير من ثمنها الحقيقى؟

أنا شخصياً سأبالى، فالحياة مليئة بالسلع باهظة الثمن وبالتأكيد هذا الغلاء ما هو إلا نتيجة طبيعية فى بعض الأحيان لما للندرة من قوة. فمثلا، هناك عدد محدود من الشقق السكنية التى تطل على حديقة سنترال بارك Central Park فى نيويورك، أو على حديقة هايد بارك Hyde Park فى لندن. ونظراً لرغبة الكثيرين فى امتلاكها، تصبح أسعار تلك الشقق باهظة الثمن، لذلك ينتهى الأمر بخيبة أمل الكثيرين الذين لا يستطيعون دفع ثمنها. صحيح أن هذه مسألة ليس فيها شر أو أذى، ومع ذلك فليس من السهل فهم السبب فى أن الفشار غالى الثمن للغاية فى دور السينما حيث لم أجد نقصاً فى المعروض من الفشار خارج دور السينما فى آخر مرة تحريت فيها عن هذا الأمر. لهذا فربما يكون أول شىء نرغب فى عمله هو التفرقة بين الأسباب المختلفة التى تتسبب فى غلاء سعر السلع.

وفيما يخص نموذج ريكاردو، ينبغى أن نعرف أن الأسباب المختلفة التى تتسبب فى ارتفاع أسعار الإيجارات: فمعرفة هذه الأسباب قد تكون شيقة بعض الشىء حين نتحدث عن الأراضى الخصبة، (وإذا كنت مزارعاً فحينها ستكون شيقة للغاية)، ولكن معرفة الأسباب تصبح مسألة فى غاية الأهمية عندما يتعلق الأمر بمعرفة لماذا تبدو أسعار إيجارات الشقق السكنية باهظة للغاية، أو معرفة ما إذا كانت البنوك تحتال علينا أم لا. ومع ذلك يمكن أن نبدأ بمسألة الأراضى الخصبة ثم نطبق ما سنصل إليه على نطاق أوسع.

نحن نعرف أن تحديد سعر إيجار أفضل أنواع الأراضى يتحدد بواسطة الفرق فى الخصوبة بين الأرض الخصبة والأرض الحدية. لذلك فإن السبب الواضح فى ارتفاع قيمة الإيجار هو أن الأرض الخصبة تنتج محاصيل عالية القيمة مقارنة بالأرض الحدية. وكما ذكرت آنفاً أنه عندما يكون سعر البوشل من الحبوب دولاراً والفارق فى الإنتاج خمسة بوشل فإن هذا الفارق يستحق إيجاراً قدره خمسة دولارات، ولكن عندما يكون ثمن البوشل مائتى ألف دولار والفارق فى الإنتاج خمسة بوشل فإن هذا الفارق يستحق إيجاراً قدره مليون دولار. وإذا كانت الحبوب غالية الثمن، يصبح من الطبيعى أن تكون الأراضى الخصبة النادرة التى تنتجها غالية الثمن أيضاً.

وثمة سبب آخر يرفع سعر إيجار الأراضى الخصبة، وهو سبب لا علاقة له بالتطور الطبيعى للأسواق، فلنفترض أن ملاك الأراضى قد اجتمعوا معاً ونجحوا فى إقناع عمدة البلدة بضرورة وجود ما تسميه انجلترا «الحزام الأخضر» وهو عبارة عن مساحة شاسعة من الأرض حول المدينة تطوق المدينة بحيث تعرقل بشدة قوانين التخطيط الصارمة استغلالها فى أى مجال من مجالات التنمية العقارية. سيزعم ملاك الأراضى حينها أن من العار إقامة المزارع على تلك الأرض البرية الرائعة، ويطالبون بأن يمنع القانون زراعتها.

وفى الواقع يستفيد ملاك الأراضى كل الاستفادة من مثل ذلك الحظر، لأنه يرفع سعر إيجار كل الأراضى التى لا يمنع القانون زراعتها. وتذكر أن إيجار الأرض الخصبة يحدده الفرق بين إنتاجية تلك الأرض وإنتاجية الأرض الحدية. وبالتالى لو منعنا زراعة الأرض الحدية بأمر القانون فسيرتفع سعر إيجار الأرض الخصبة: فذات يوم كانت زراعة الأراضى العشبية دون دفع أى إيجار هى البديل لزراعة الأراضى الخصبة ودفع إيجار مقابل الزراعة، أما الآن فلا يوجد بديل حيث يتوق المزارعون الآن كثيراً لزراعة الأرض الخصبة لأن زراعة الأراضى العشبية أصبحت أمراً مخالفاً للقانون، وهكذا يرتفع أيضاً سعر الإيجار الذى يكون هؤلاء المزارعون على استعداد لدفعه.

ها نحن قد كشفنا عن سببين وراء ارتفاع سعر إيجار الأراضى: أولهما: هو



هل ستبالى إذا بيعت لك سلعة بثمن أكبر بكثير من ثمنها الحقيقى؟





أن الأمر يستحق أن تدفع مبلغًا كبيرًا من المال مقابل إيجار الأرض الخصبة لأن الحبوب التي تنتجها تلك الأرض مرتفعة القيمة. وثانيهما، أنها تستحق الإيجار المرتفع؛ لأنه ليس أمامك بدائل أخرى.

وهذه النقطة قد تصيب بالدهشة أولئك القراء الذين يؤجرون في الوقت الحالي أي ممتلكات عقارية في لندن، وهي المدينة التي يطوقها «الحزام الأخضر» الأصلي الذي أنشئ في الثلاثينيات من القرن العشرين. فهل السبب في غلاء تأجير أو شراء الممتلكات العقارية في لندن لا يرجع إلى أنها أفضل بكثير من البدائل الأخرى وإنما يرجع إلى أن تلك البدائل أصبحت ممنوعة بأمر القانون؟

في حقيقة الأمر فإن السبب هو خليط بين هذا وذلك: فمسألة أن لندن مدينة فريدة هي مسألة صحيحة لا جدال فيها، وأنها مكان أفضل لأن توجد به الشقق السكنية أو حتى المباني الإدارية على نحو يفوق أماكن أخرى مثل سيبريا أو كانساس سيتي Kansas City، أو حتى باريس. وترجع أسعار الإيجارات المرتفعة إلى ذلك السبب بقدر ما، ولكن السبب الآخر في أن العقارات في لندن باهظة الثمن هو الحزام الأخضر. صحيح أن أحد تأثيراته المحافظة على لندن من التمدد العمراني إلى المنطقة المجاورة وهو أمر يرى الكثيرون أنه جيد. ولكن تأثيره الآخر هو أنه ينقل كمية ضخمة من الأموال من جيوب المستأجرين في لندن إلى جيوب الملاك: فالحزام الأخضر يتسبب في إبقاء أسعار المنازل والإيجارات في لندن مرتفعة بكثير عن المستوى الذي ينبغي أن تكون عليه، وذلك بنفس الطريقة تمامًا التي يبقى فيها حظر الزراعة على الأرض العشبية قيمة الإيجار للأرض الخصبة والأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة مرتفعة بكثير عن المستوى الذي ينبغي أن تكون عليه إذا لم يكن هذا الحظر موجودًا.

وليس هذا نقدًا لفكرة الحزام الأخضر. فهناك فوائد جمة من تحديد عدد سكان لندن عند ما يقرب من ستة ملايين نسمة بدلًا من أن يصبح ستة عشر أو ستة وعشرين مليون نسمة. ولكن عندما نقوم بتقييم مزايا ومساوئ إصدار تشريع مثل تشريع الحزام الأخضر فمن المهم أن ندرك أن تأثيراته أكثر من مجرد الحفاظ على البيئة. فأسعار إيجارات المكاتب في منطقة ويست إند West End في لندن أغلى منها في مانهاتن، أو في وسط طوكيو، وفي حقيقة الأمر فإن أسعار إيجارات المكاتب في منطقة وست إند هي الأغلى في العالم، وبجانب المكاتب، تتصدر المنطقة أيضًا التصنيف العالمي في غلاء أسعار المنازل حيث يوجد بها أغلى منزل في العالم الذي بلغ ثمنه ٧٠ مليون جنيه إسترليني (أي حوالي ١٣٠ مليون دولار). ويرجع هذا إلى أن الحزام الأخضر تسبب في جعل الممتلكات العقارية في لندن نادرة مقارنة بمن يرغبون في استخدامها، وبالطبع فإن القوة تأتي من الندرة.

والآن آن الأوان كي تؤدي أول اختبار في علم الاقتصاد: لماذا يعد التحسين في جودة الخدمات والأسعار في القطار الذي ينقل راكبيه إلى محطة «بن» في نيويورك من الضواحي المجاورة؛ أمرًا يسر كل المستأجرين لممتلكات عقارية في مانهاتن؟ ولماذا ربما يكون ملاك العقارات في نيويورك أقل حماسًا فيما يتعلق بهذا التحسين؟

الإجابة هي أن النقل العام المطور يزيد من البدائل فيما يتعلق بمسألة تأجير عقار في المدينة. فعندما يقل زمن رحلة القطار ليصبح ساعة واحدة بدلًا من ساعتين، ويكون بوسع الركاب أن يجلسوا على مقاعد في القطار بدلًا من الوقوف، سيرى البعض منهم عندئذ أنه من الأفضل توفير المال والانتقال للحياة خارج حي مانهاتن. وعندئذ ستظهر بالسوق الشقق الخالية، وتقل الندرة، وتنخفض أسعار الإيجارات. وهكذا فتطوير الخدمات المقدمة إلى الركاب القائمين برحلات يومية هو أمر لا يقتصر أثره على هؤلاء الركاب فحسب، بل إنه يؤثر على كل المتعاملين في سوق العقارات في نيويورك.

هل نقع ضحايا جشع الشركات؟

من إحدى مشكلات أن تصبح مخبرًا اقتصاديًا، أنك ستبدأ في رؤية «أحزمة خضراء» من أنواع مختلفة في كل مكان. فكيف نفرق بين السلع باهظة الثمن بسبب ندرتها الطبيعية وبين السلع باهظة الثمن بسبب أسباب مصطنعة مثل التشريعات أو اللوائح أو الخداع؟

يمكن أن يفيدنا نموذج ريكاردو في هذه المسألة أيضًا، فنحن بحاجة لأن ندرك التماثل المستتر بين الموارد الطبيعية مثل: الحقول والمواقع التجارية المزدحمة والشركات. فالحقول تقوم بتحويل بعض الأغراض إلى أغراض أخرى، فبها يتحول السماد والبذور إلى حبوب. وهذا ما تفعله الشركات أيضًا. فمصنعو السيارات يحولون الصلب والكهرباء والمكونات الأخرى إلى سيارات. ومحطات الوقود تحول المضخات وخزانات الوقود الكبيرة وأرض المحطة إلى بنزين. والبنك يحول أجهزة الحاسب الآلي وأنظمة المحاسبة المتقدمة والنقود إلى خدمات مصرفية. وبدون أن نعتدي كثيرًا على حقوق الملكية الفكرية، يمكن أن نستبدل بكلمة «إيجار الأرض» في نموذج ريكاردو كلمة «ربح». فالإيجار هو العائد الذي يحصل عليه ملاك الأراضي من أملاكهم، والربح هو العائد الذي يحصل عليه ملاك الشركات من أملاكهم أيضًا.

دعنا نتناول النظام المصرفي كمثال. هب أن أحد البنوك يتقن تقديم الخدمات المصرفية إتقانًا كبيرًا، ويتمتع بثقافة تنظيمية رائعة، وباسم تجاري ذي ثقل، ونجح في تطوير أفضل برمجيات مصرفية متخصصة. ويعمل به الموظفون الماهرون حتى إن الآخرين ينضمون إلى العمل بالبنك ليستمدوا منهم الخبرة. كل هذا يقود إلى ما أسماه خبير الاقتصاد جون كاي John Kay (الذي يشير بوضوح إلى نموذج ريكاردو) بـ«الميزة التنافسية المستدامة» والتي تعني ذلك النوع من التميز التنافسي على المنافسين الذي ينتج عنه تحقيق أرباح العام تلو الآخر.

دعنا نطلق على هذا البنك اسم «مؤسسة أكسيل المصرفية»، ولنفرض أن هناك بنكًا آخر، ولنسمه «بنك بوب للديون والائتمان» وهو بنك لا يتمتع بكفاءة كبيرة، واسمه التجاري أقل ثقلًا، وبه ثقافة تنظيمية مقبولة. وهذا البنك ليس سيئًا، ولكنه ليس ممتازًا أيضًا. ولنفرض أن هناك بنكًا ثالثًا ولنسمه «مؤسسة كورنيليوس للإيداع» الذي لا يتمتع بأي درجة من درجات الكفاءة، وسمعته غاية في السوء، ويعامل موظفوه العملاء بفظاظة، ولا يوجد به أي نظام تحكم في النفقات. فكفاءة «مؤسسة كورنيليوس للإيداع» أقل من كفاءة «بنك بوب للديون والائتمان»، وتنعدم على الإطلاق مقارنته «بمؤسسة أكسيل المصرفية». كل هذا يذكرنا بأنواع الأراضي الثلاثة التي تحدثنا عنها: من أراض خصبة تتمتع بكفاءة في إنتاج الحبوب، وأراض مغطاة بالشجيرات القصيرة أقل كفاءة، وأراض عشبية وهي أدناها كفاءة.

وتتنافس بنوك أكسيل وبوب وكورنيليوس على بيع الخدمات المصرفية بإقناع الناس بفتح حسابات لديهم أو الحصول على قروض منهم. وبالطبع فإن بنك أكسيل غاية في الكفاءة حتى إنه قادر على المنافسة إما ببيع الخدمات المصرفية بتكلفة أقل، أو بتجويد الخدمات وبيعها بنفس السعر. وفي نهاية كل عام يجني بنك أكسيل الأرباح الوفيرة، ويجني بنك بوب، الذي لا يقدم لعملائه نفس جودة الخدمات، ربحًا أقل من أرباح بنك أكسيل، أما بنك كورنيليوس، فبالكاد يغطي تكاليفه. وإذا كانت السوق المصرفية أكثر صرامة، فسيتوقف بنك كورنيليوس عن مزاولة أعماله. أما إذا غدت السوق المصرفية أكثر جاذبية، فسيبدأ بنك كورنيليوس في جني الأرباح وسيدخل إلى المجال بنك جديد ربما أقل كفاءة من بنك كورنيليوس. وهذا البنك الجديد سيكون هو البنك الحدي وسيغطي تكاليفه بالكاد.



يصلح نموذج ريكاردو الاقتصادي لمناقشة العلاقة بين الندرة والقدرة التفاوضية





وبدون تكرار كل خطوة من خطوات التحليل، يمكن أن نذكر أنفسنا بأن إيجار الأرض الخصبة جرى تحديده عن طريق المقارنة بين إنتاجيتها وإنتاجية الأرض العشبية الحدية. وبنفس الطريقة فإن أرباح بنك أكسيل سيجرى تحديدها عن طريق المقارنة بينه وبين بنك كورنيليوس، البنك الحدى، الذى نعرف أننا ينبغى أن نتوقع منه أن يجنى الأرباح القليلة، أو حتى ألا يجنى أرباحا على الإطلاق. فأرباح الشركات مثلها كمثل إيجارات الأراضى تحددها البدائل. فالشركة التى تواجه منافسة قوية تجنى أرباحا أقل من الشركة التى تواجه منافسين غير أكفاء.

قد تظن أن هناك عيبا فى هذه المقارنة، فقد تقول إن أفدنة الأراضى الخصبة عددها محدد، ولكن الشركات يمكنها أن تنمو. ولكن هذا ليس صحيحا تماما، فالشركات لا يمكنها أن تنمو بين عشية وضحاها دون أن تتشوه سمعتها وسمعة المقومات الأخرى التى دفعتها نحو النجاح. من ناحية أخرى، بينما يستحيل أن يتغير عدد الأفدنة، فإن التمييز بين الأنواع المختلفة من الأراضى سوف يتغير بمرور الزمن مع تطور نظم الرى ومكافحة الآفات وتقنيات الأسمدة.

إن نموذج ريكاردو، الذى يتجاهل تلك التغييرات التى تحدث بمرور الزمن، سوف يفسر الاتجاهات فى أسعار المنتجات الزراعية على مدار العقود وليس على مدار القرون، ولكنه سوف يفسر ربحية المؤسسات على مدار السنين وليس على مدار العقود. وهذا التحليل شأنه شأن الكثير من النماذج الاقتصادية سيؤدى وظيفته جيدا عندما يطبق خلال فترة زمنية محددة، وفى حالتنا هذه، تكون الفترة الزمنية على المدى القصير أو المتوسط. أما بالنسبة إلى الفترات الزمنية الأخرى، فهناك نماذج اقتصادية أخرى تفلح فى هذا الصدد.

كل هذا رائع ... ولكن ما علاقة هذا بجشع الشركات؟

كثيرا ما نجد الصحف تتحدث عن الأرباح التى تجنيها الشركات وكأنها تعتبر هذه الأرباح علامة على أنها تغش المستهلك. فهل هذه الصحف محقة؟ ليس دائما. يقول تحليل ريكاردو إن هناك سببين ربما يدفعان متوسط الأرباح التى تجنيها صناعة مثل صناعة البنوك إلى الارتفاع، فلو كان العملاء يقدرون حقا قيمة الخدمة الممتازة والسمعة الطيبة، فسيجنى بنكا أكسيل وبوب الكثير من النقود. (أما بنك كورنيليوس الذى يعد بمنزلة البنك الحدى فسيجنى ربحا ضئيلا.) وسيكون عندئذ بوسع الكتاب فى الصحف أن يشتكوا من الكسب المفرط لهذه الشركات. أما لو كان العملاء يهتمون بالخدمة الممتازة بقدر ضئيل، فسيجنى أكسيل وبوب أرباحا تزيد قليلا عن تلك التى يجنيها كورنيليوس (الذى لا يزال يعتبر البنك الحدى ولا يزال يجنى الربح الضئيل)، وسيصبح متوسط الأرباح منخفضا. وعندئذ سيصمت الصحفيون رغم عدم تغير دوافع واستراتيجيات الصناعة حيث إن الأمر الوحيد الذى تغير هو أن العملاء أصبحوا يهتمون بالخدمة الممتازة بقدر كبير. وهكذا فليس لدينا سارق أو مسروق وإنما يكافئ كل من أكسيل وبوب لأنهما يعرضان شيئا يتميز بالندرة والتقدير الكبير لأهميته فى آن واحد.

ولكن تلك الأرباح العالية لا تتحقق دائما على نحو عادل، فأحيانا يكون غضب الصحف له ما يبرره. هناك تفسير آخر للأرباح العالية للشركات. فماذا لو كان هناك «حزام أخضر» مصرفى يمنع بنك كورنيليوس من دخول السوق منعا تاما؟ يوجد بالفعل على أرض الواقع العديد من الأسباب التى تجعل الشركات الجديدة عاجزة عن الدخول إلى الأسواق والمنافسة. وفى بعض الأحيان يكون العملاء أنفسهم سببا فى هذا، فهم لا يتعاملون إلا مع الشركات ذات المكانة الراسخة فى السوق، ولهذا تجد الشركات الجديدة صعوبة فى دخوله. يفيد جون كاى أن بعض المنتجات «المحرجة» مثل العازل الطبى والفوط الصحية تجنى الكثير من الربح لأن الداخلين الجدد إلى تلك الصناعة يصعب عليهم إحداث ضجة إعلامية عن منتجاتهم. كما يحدث فى كثير من الأحيان أن تضغط الشركات نفسها على الحكومة طالبة الحماية من المنافسة، ولذلك نجد العديد من حكومات العالم تمنح تراخيص احتكارية، أو نجدها تضع القيود الصارمة على دخول سوق الصناعات «الحساسة» مثل البنوك أو الزراعة أو الاتصالات. ولكن تعددت الأسباب والتأثير واحد: تحصل الشركات الراسخة فى السوق وهى فى بعد عن المنافسة على الأرباح العالية. وفى حقيقة الأمر، يطلق علماء الاقتصاد كثيرا على هذه الأرباح اسم «الإيجارات الاحتكارية» monopoly rents نظرا لوجه الشبه بين الإيجار الذى يفرض على الأرض فى ظل وجود عدد قليل من البدائل والأرباح التى تحصل عليها الشركات فى ظل وجود عدد قليل من المنافسين. قد يكون مصطلحا محيرا، ولكن يمكنك أن تلقى باللوم على نموذج ديفيد ريكاردو وعلى نقص القدرة على التخيل عند علماء الاقتصاد منذ ذلك الحين.

إذا أردت معرفة ما إذا كنت قد وقعت ضحية غش متاجر البقالة، أو البنوك، أو شركات الأدوية، يمكننى معرفة كم تجنى تلك الشركات من أرباح. فلو كانت تجنى أرباحا عالية، أبدأ أشك فى أمرهم. أما إن كان من السهل إنشاء شركة جديدة تنافسهم فى مجال عملهم، فسيقل شكى نحوهم. وهذا يعنى أن الأرباح العالية ترجع إلى الندرة الطبيعية: يعانى العالم بالفعل قلة عدد المؤسسات المصرفية الجيدة، ونحن نعلم أن المؤسسات المصرفية الجيدة تتفوق فى كفاءتها كثيرا عن نظيرتها السيئة.



العالم مكان تنافسى بطبيعته، ومن الصعب أن يعمل المرء فيه دون منافسة



«إيجارات» الموارد

لا تقتصر الرغبة فى تجنب المنافسة والحصول على إيجارات احتكارية على ملاك العقارات وأصحاب الشركات. فهذه الرغبة تحدو أيضا كلا من النقابات العمالية وجماعات الضغط ومن يدرسون للحصول على مؤهلات متخصصة بل وحتى الحكومات المحلية. فكل يوم يحاول الناس من حولنا تجنب المنافسة، أو الحصول على نتاج جهد الآخرين الذين نجحوا فى فعل هذا. يسمى علماء الاقتصاد هذا النوع من السلوك «خلق الإيجار» و«السعى وراء الإيجار».

ليس من السهل فعل هذا، فالعالم مكان تنافسى بطبيعته، ومن الصعب أن يعمل المرء فيه دون منافسة. وهذا أمر طيب لأنه إذا كانت المنافسة أمرا يدعو للضيق إذا كنت من المتضررين منها، فهى مفيدة حينما تنتفع منها كأن تكون مستهلكا تستفيد من منافسة الشركات لبعضها. فكلنا نستفيد عندما نتفاعل مع أناس يتنافسون ليقدموا لنا الوظائف والصحف وإمكانية الاستمتاع بعطلة فى مكان ذى طقس بديع تماما مثلما استفاد ملاك الأراضى فى مثالنا الافتراضى من المنافسة بين أكسيل وبوب.

يعتبر التحكم فى أحد الموارد الطبيعية مثل الأراضى الزراعية أحد الطرق لتجنب المنافسة. صحيح أن هناك عددا محدودا من الأراضى الخصبة فى العالم، ولكن بإمكان التقنيات الزراعية المتطورة أن تزيد من هذا الرقم. ولكن الأرض الزراعية ليست المورد الطبيعى الوحيد المحدود فى العالم. فالنفط مورد آخر محدود حيث تنتجه بعض دول العالم بتكلفة منخفضة لاسيما السعودية والكويت والعراق ودول الخليج الأخرى، وعلى النقيض تنتجه بعض الدول الأخرى بتكلفة عالية مثل ألاسكا ونيجيريا وسيبيريا وألبرتا. أما فى أنحاء عديدة أخرى من العالم فترتفع تكلفة استخراج النفط ارتفاعا هائلا حتى إنه لا يوجد أحد يفكر فى استخراجه. وفى الوقت الحالى فإن الأماكن مثل ألبرتا هى المنتج «الحدى» للنفط.

يصلح تاريخ صناعة النفط أن يكون دراسة حالة عند دراسة «نظرية الريع» لريكاردو. فحتى عام ١٩٧٣م كان المعروض العالمى من النفط ينتج بواسطة «حقول النفط الخصبة» التى توجد فى أغلب



الأحيان فى الشرق الأوسط. وبالرغم من أهمية النفط الهائلة للاقتصاديات الصناعية، كان سعر النفط منخفضًا جداً - أقل من عشر دولارات للبرميل حسب قيمة الدولار اليوم - وذلك لأن النفط آنذاك كان متوفرًا بكميات كبيرة وبسعر ضئيل جداً. وفى عام ١٩٧٣ قررت منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) - التى تجلس على معظم حقول النفط الخصبة - أن تدع بعض من حقولها دون عمل، عن طريق توجيه أوامر إلى كل الدول الأعضاء بها بأن يقللوا من إنتاجهم. وعندئذ قفزت أسعار النفط إلى أربعين دولارًا للبرميل، ثم إلى ثمانين دولارًا بعدها وذلك حسب قيمة الدولار اليوم. وبقى سعر النفط مرتفعًا لسنوات وذلك بسبب قلة وجود موارد بديلة للنفط على المدى القصير آنذاك. (يعادل هذا فى مثال ريكاردو الافتراضى التوقف فجأة عن زراعة الأرض الخصبة الأمر الذى يترك فترة زمنية قبل أن يتم تشذيب وحرث الأرض العشبية، مما يتسبب فى نقص مؤقت فى الحبوب إضافة إلى زيادة قيمة الريع).

ومع ارتفاع سعر برميل النفط إلى ثمانين دولارًا، بدت العديد من البدائل أرخص ثمنًا حتى لجأ إليها الكثيرون لسنوات: مثل توليد الكهرباء باستخدام الفحم عوضًا عن النفط، وتصميم سيارات جديدة أكثر كفاءة فى استهلاك البنزين. والتنقيب عن النفط فى أماكن مثل ألبرتا وآلاسكا. ومن ثم حُرث المزيد والمزيد من «موارد الطاقة المغطاة بالشجيرات القصيرة» و«موارد الطاقة المغطاة بالأعشاب». ولإبقاء أسعار النفط مرتفعة، اضطرت الأوبك OPEC إلى قبول أن يكون لها حصة أصغر من السوق العالمية للنفط. وفى النهاية أعلنت السعودية تمردها على ذلك النظام عام ١٩٨٥ وزادت من إنتاجها من النفط حتى انهارت الأسعار عام ١٩٨٦. ولبضعة أعوام مضت كان سعر النفط يغطى بالكاد تكلفة إنتاج حقول النفط الحديثة فى أماكن مثل ألبرتا التى تتراوح بين خمسة عشر وعشرين دولارًا للبرميل. وفى السنوات القليلة الأخيرة أصابتنا الهلاوس بسبب مزيج من الارتفاع المفاجئ فى الطلب على النفط من جانب الصين، ومشاكل الإنتاج فى السعودية والعراق ونيجيريا وفنزويلا. وقد تسبب كل هذا فى ارتفاع أسعار النفط إلى أكثر من خمسين دولارًا للبرميل. ومع ذلك، فحتى مع الأسعار المنخفضة التى سادت فى تسعينيات القرن العشرين، كان إنتاج النفط المستخرج من أرخص الحقول فى السعودية والكويت بتكلفة إنتاج تبلغ بضعة دولارات للبرميل؛ يعد مكسبًا صافيًا.

متى تفيد الجريمة؟

لا يرتبط جانب كبير من اقتصاد العالم ارتباطًا وثيقًا بالموارد الطبيعية المحدودة. ويعنى هذا أن البشر عليهم إيجاد وسائل أخرى لمنع المنافسة.

ويعد اللجوء إلى العنف أحد الوسائل الشائعة وعلى الأخص فى تجارة المخدرات وغير ذلك من ضروب الجريمة المنظمة. يفضل تجار المخدرات عدم وجود منافسين يدفعون أسعار المخدرات للانخفاض. ومن الممكن أن يؤدى قيام عصابة إجرامية بقتل عدد كاف من البشر أو ضربهم ضربًا مبرحًا أن يثنى العصابات المنافسة عن الدخول إلى السوق لتتمتع تلك العصابة بالأرباح الطائلة. وهذه التصرفات غير قانونية بالطبع، ولكن هذا الوصف ينطبق أيضًا على تجارة المخدرات؛ فلو كنت ستخاطر بدخول السجن فى كل الأحوال، لا يوجد مغزى من استخدام أنصاف الحلول. فلو أراد تجار المخدرات التمتع بقوة تمنحها لهم الندرة، فعليهم فعل كل ما فى وسعهم حتى تكون المنافسة نادرة. وبالطبع ليس من المحتمل أن يشكو زبائنهم للشرطة من جشع تجار المخدرات.

ولسوء حظ عصابة المخدرات المبتدئة والعادية أن العنف قد لا يكفى لجنى الأرباح. فالصعوبة تكمن فى أن كلا من الأسلحة والرجال عدوانيى السلوك متوفرون بكثرة. فأى عصابة تكسب جيداً تكون بمنزلة عنصر إغراء يدفع العصابات الأخرى لمحاولة السيطرة على أرضها، وسيكون هناك كثير من المنافسين. استطاع كل من خبير الاقتصاد ستيفن ليفيت Steven Levitt، وعالم الاجتماع سودير فينكاتيش Sudhir Venkatesh تقصى المكاسب التى تجنيها إحدى عصابات الشوارع الأمريكية واتضح لهما أن «جنود المشاة» هؤلاء يجنون أحيانًا مكسبًا ضئيلا قد يصل إلى ١.٧٠ دولار فى الساعة. وهناك بالطبع احتمالات لزيادة هذا الأجر نظرًا للانخفاض المتزايد فى عدد أفراد العصابات، (فمنهم من يترك العصابة، ومنهم من يُقتل، وهذا يحدث طوال الوقت)؛ ولكن حتى مع تلك الاحتمالات يبقى متوسط مكسب الفرد منهم أقل من عشرة دولارات فى الساعة. وهذا ليس بالمبلغ الكبير بالنظر إلى أنه فى فترة عمل تستمر أربعة سنوات، يكون من المتوقع أن يُطلق عليه النار مرتين، ويُعتقل ست مرات، واحتمال بنسبة ٢٥٪ أن يتعرض للقتل.

وتحقق بعض التنظيمات الإجرامية نجاحًا أكثر من هذا. فعصابات المافيا غالبًا ما تمتهن أعمالا مشروعة مثل تنظيف الملابس على اختلاف أنواعها، وهو مجال يمكن أن يحقق أرباحًا طائلة فقط لو مُنع المنافسون من دخوله. وقد يتم ذلك بترهيب المنافسين، وهو أمر فى غاية السهولة حيث إن العثور على الشاحنات التى تحمل الملابس وتدميرها أو حتى تدمير المغاسل نفسها، أسهل بكثير من العثور على كيس من الكوكايين وتدميره. ومن السهل أيضًا ترهيب الزبائن، فالمتابعون لمسلسل ذا سوبرانوز The Sopranos يعلمون أن عصابات المافيا توفر خدمات الغسيل بأسعار مغالى فيها للمطاعم كطريقة لتربح المال. والسبب واضح بالطبع، فالمطاعم على وجه الخصوص معرضة للوقوع ضحية لابتزاز الأموال لأنها لا ترغب فى أن تجلب لنفسها جلبة تبعد عنها الزبائن، وفى الوقت نفسه تغالى تلك المطاعم فى أسعار خدماتها حتى تستطيع أن تدفع منها الضريبة التى تدفعها للمافيا مقابل الحماية. فى العادة تجتذب الأعمال المربحة المنافسة، ولكن فى هذه الحالة فإن المنافسة تؤمن بوجوب وجود وسيلة أكثر أمنًا لكسب العيش.

وهذا يعنى أن هذا النوع من العنف ليس هو الذى يجنى الأرباح المستدامة ويخلق حواجز منع دخول الأسواق، ولكنها فعالية المنظمة التى يملكها بنك أكسيل، ويفتقر إليها بنك كورنيليوس، تمامًا مثلما تفتقر إليها عصابات الشوارع العادية، وتتمتع عصابات المافيا بالكثير منها.

مؤامرات ضد عوام الناس

لحسن الحظ أنه يمكنك فى الأماكن الراقية فى العالم المتقدم الاحتماء ممن يستخدمون العنف لمنع المنافسة، ولكن هذا لا يعنى أن الناس لم يطوروا وسائل أخرى للتخلص من المنافسين.

والنقابات العمالية مثال جلى على هذا، فالغرض من النقابة هو منع العمال من منافسة بعضهم بعضًا على فرص العمل حتى لا تنخفض الأجور وتتدهور ظروف العمل. فلو زاد مثلا الطلب على الكهربائيين مع قلة من يتقنون تلك المهنة، سيصبح لمن يتقنونها قوة مستمدة من ندرتهم، ومن ثم، يحصلون على أجور وظروف عمل ممتازة، سواء كان ذلك فى ظل وجود أو عدم وجود نقابة لهم. أما إن ظهر فى السوق المزيد والمزيد من الكهربائيين، فستنهار تلك القوة، وسيؤدى الكهربائيون الجدد نفس دور المزارع بوب الذى تحدثنا عنه من قبل. صحيح أن وظيفة النقابات العمالية هى التفاوض باسم العمال جميعًا، ولكن من وظائفها أيضًا سد الطريق أمام دخول العمال الزائدين عن الحاجة إلى المهنة.

ومع دخول الآلات فى الصناعة بشكل كبير فى القرن التاسع عشر كان دافع الناس لتشكيل النقابات له مبرراته. فقد كان العمال



ما زال الجدل مستمرا فى التمحور حول نفس السؤال القديم: هل يسرق المهاجرون وظائفنا؟



تعقيدات الحياة اليومية غالبًا ما تخفي الاتجاهات الكبيرة الكامنة وراء الأحداث، مثلما يحدث عند



آنذاك كالسلعة المتوفرة بغزارة، وكانوا يتمركزون جميعًا فى المدن، ويمكن إحلال بعضهم مكان بعض بمنتهى السهولة. وبدون النقابات، كانت ستظل الأجور منخفضة للغاية. أما فى وجود النقابات، فصار من الممكن تجنب دخول المنافسين إلى السوق، وارتفعت أجور العمال الذين مكنهم حظهم من الالتحاق بالنقابة. أذكر أنه فى الولايات المتحدة كان هناك قانون يتصدى للنقابات العمالية، فقوانين مكافحة الاحتكار Antitrust laws التى سُنت لتحول دون تواطؤ الشركات الكبيرة بعضها مع بعض فى عمليات احتكار؛ استُخدمت أيضًا ضد النقابات. ولكن مع تغير المناخ السياسى، أثبتت تلك القوانين عدم قابليتها للتطبيق، وزادت قوة النقابات العمالية.

ولكن إن كانت النقابات العمالية تحقق هذا النوع من النجاح المبهر، فقد نتوقع أن يتمتع الموظفون التابعون للنقابات بالأجور الضخمة - مثلما كان الحال فى صناعة السيارات بالولايات المتحدة خلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين - عندما يكون للنقابات تأثير ملموس. ولكن الواقع أن النقابات العمالية تواجه العديد من العوائق التى تحول دون تحقيقها لهذا النوع من النجاح. فلما نُظر إلى النقابات العمالية على أنها تطالب بمطالب مبالغ فيها متسببة فى زيادة الأسعار إلى درجة لم يقبلها قطاع عريض من الناس الذين، بدورهم، مارسوا ضغطًا على رجال السياسة لإعادة تنظيم النقابات العمالية. وأحيانًا أخرى تهدد المنافسة الدولية الندرة التى تتمتع بها تلك النقابات، مثلما حدث مع مصنعى السيارات بالولايات المتحدة الذى كانوا يتمتعون بالرواتب الممتازة والاستقرار الوظيفى إلى أن استخدم مصنعو السيارات اليابانيون طرقًا أكثر فعالية وبدءوا فى وضع مصنعى السيارات الأمريكيين تحت الضغط.

وفى حالة الصناعات الآخذة فى الانكماش مثل صناعة بناء السفن فى بريطانيا أو صناعة السيارات فى الولايات المتحدة، تختفى فرص العمل بمعدل يجعل النقابات العمالية عاجزة عن الحفاظ على قيمة ندرتها، حيث لا يمكن أن تهدد النقابات بتقليص المعروض من العمال بنفس السرعة التى تتمكن بها من مواجهة تناقص الطلب.

أما فى الصناعات الأخرى فليس تناقص الطلب هو الذى يحد من قوة النقابات ولكنه العمال الماهرون. ففى الولايات المتحدة مثلا تتمتع شركة وول مارت Wal-Mart بقدرة تفاوضية هائلة، فقد كان هناك فرعان للشركة فقط يتبعان للنقابة فى أمريكا الشمالية فى صيف ٢٠٠٤م عندما أعلن المسئولون بالشركة أن أحد هذين الفرعين فى مقاطعة كويبك Quebec الكندية سيغلق؛ لأن النقابة كانت تدمر نموذج عملها. وفى المملكة المتحدة يحصل المعلمون على رواتب منخفضة بالرغم من حقيقة أن هناك نقصا فى المعلمين الأكفاء. ويرجع هذا إلى أن الحكومة، وهى رب العمل الوحيد بالدولة، لديها قدرة تفاوضية هائلة. ففى العادة عندما يوجد نقص فى الأيدى العاملة الخاصة بمهنة ما تتسبب المنافسة بين أرباب العمل فى رفع أجور العمال. فقط رب العمل الذى يحتكر مجالا ما هو الذى يمكنه المحافظة على وضع ينقص فيه بشكل حاد عدد المعلمين فى حين لا ترتفع الرواتب استجابة لذلك النقص. فالمدرسون يتمتعون ببعض القوة التى يستمدونها من ندرتهم، ولكن فى تلك الحالة تتمتع الحكومة بقوة أكبر.

ولقد تمكن أصحاب المهن الأخرى كالأطباء وخبراء التأمين والمحاسبين والمحامين من المحافظة على أجورهم العالية، بطرق أخرى غير النقابات العمالية حيث صنعوا «أحزمة خضراء» افتراضية ليصبح من الصعب على المنافسين المحتملين الدخول إلى السوق ومزاولة المهنة. وتتضمن هذه الأحزمة الخضراء الافتراضية فترات تأهيل طويلة للغاية وضرورة موافقة الهيئات المهنية على قبول أعداد محددة من المتقدمين كل عام. فالعديد من المنظمات التى نتوقع منها حمايتنا من أصحاب المهن «غير المؤهلين» هى فى الواقع تسعى للحفاظ على الرواتب العالية التى يحصل عليها «المؤهلون» الذين يزاولون المهنة بالفعل. وبالفعل كثير منا لا يمانع أن يحصل على استشارة قانونية من المحامين ذوى الخبرة حتى وإن كانوا يفتقرون إلى المؤهلات الرسمية، بل إننا نحصل أحيانًا على الاستشارة الطبية من طلبة كلية الطب، أو الأطباء الأجانب أو المعالجين بالطب البديل. ولذلك يبذل أرباب المهن القانونية والطبية أقصى ما فى وسعهم للتحكم فى عدد من يزاولون تلك المهن من المؤهلين تمامًا، وحظر أى بدائل منخفضة التكلفة بأمر القانون. فمثلا إن لم يكن بإمكانك تحمل دفع إيجار الأرض الخصبة، سيحرمك القانون من استئجار الأرض البور أو الأرض العشبية. لا عجب إذن فى وصف جورج برنارد شو George Bernard Shaw للمهن بأنها «كلها مؤامرات ضد عامة الناس».

والآن ننتقل إلى شىء مثير للجدل

دائمًا ما كانت الهجرة قضية مثيرة للعاطفة فى أمريكا، ومع أن الأمن القومى أصبح مدعاة للقلق مؤخرًا، فما زال الجدل مستمرًا فى التمحور حول نفس السؤال القديم: هل يسرق المهاجرون وظائفنا؟ ربما يكون أحدهم قد سرق وظيفتك، أما وظيفتى فلم يسرقها أحد.

يرحب بالهجرة كل من العمال المتعلمين ذوى الوظائف التى تتطلب المهارة والتدريب، ورجال الأعمال ممن فى حاجة إلى العمالة الرخيصة وذلك كجزء من عملية إثرائية تضيف إلى الحياة الاقتصادية والثقافية لكل دولة. فى حين يرفض غير المتعلمين جيداً أى هجرة جديدة لمهاجرين يعملون فى أعمال لا تحتاج إلى مهارات خاصة، متذرعين بالقول «إنهم يسرقون وظائفنا». ربما يتصف هذا القول بكثير من المبالغة ولكنه يبدو منطقيًا من وجهة نظر أصحاب المصالح.

وباعتبارى أحد العاملين فى أعمال تحتاج إلى المهارة فإننى أستاء من معارضة قدوم المهاجرين، بل أرغب فى رؤية المزيد منهم. ولكن لو كنت من الجانب الآخر، هل كان هذا سيصبح رأيى أيضًا؟ إن احتاجت الدولة إلى عمالة تنجز الأعمال النافعة فى وظائف تتطلب أو لا تتطلب المهارة، فمن مصلحتى المباشرة أن أرى هجرة مزيد من العمالة غير الماهرة إلى دولتى، الأمر الذى يضر بطريقة مباشرة أيضًا بالعمالة غير الماهرة الموجودة بالفعل.

تخيل أننى أنا وغيرى من المواطنين الحاصلين على تعليم عالٍ كمُلاك للأراضى، ولكن استبدل بكلمة «الأرض الخصبة» كلمة «الشهادة الجامعية». فمهاراتى ومؤهلاتى تعد موردًا شأنها شأن الأرض الخصبة. ولكن هل مهاراتى مورد نادر؟ افرض أننى أعمل ضمن الفريق الإدارى لمتاجر وول مارت، فعندما تمتزج مهاراتى (دعنا لا نحدد بالضبط المهارات التى يفترض أن أتمتع بها) بالعمل الجاد للبائعين المساعدين بالمتجر ومنظمى البضاعة على الأرفف نكون قد أصبحنا فريقًا منتجًا. أما مَن منا يحصل على العوائد، فهذا أمر يعتمد على مَن تتمتع مهاراته بالندرة. فإن نقصت بالدولة العمالة غير الماهرة ممن يعملون فى تنظيم البضاعة على الأرفف، يجب عندئذ أن ترتفع أجورهم حتى تجتذب مزيدًا من الناس للعمل فى هذه الوظيفة. أما إذا نقص عدد المديرين المهرة وامتلأت الدولة بمنظمى البضاعة على الأرفف غير المهرة، فسأحصل على أجر مُرضٍ بسبب قيمة ندرتى مثلما يحصل مالك الأرض على إيجار مُرضٍ بسبب ندرة الأرض التى يملكها بمجرد أن يظهر العدد الكافى من المزارعين.

يعزو البعض سبب معارضة الطبقة العاملة لهجرة الأجانب إلى العنصرية. وهناك نظرية بديلة أكثر إقناعًا تقول بأن



هامش الربح الجيد لا يرجع إلى جودة البن أو طاقم العمل





كل إنسان يتصرف وفقًا لمصلحته الشخصية. فظهور العمال الجدد يصب فى مصلحة من يملكون الموارد التى ستصبح نادرة نسبيًا سواء أكانت تلك الموارد أراضى خصبة أم شهادات جامعية؛ ولكن من المفهوم أن ظهورهم أمر يمقته نظراؤهم العاملون بالفعل. وفى حقيقة الأمر فإن المهاجرين القدامى هم أكثر من يتأذون من الهجرة الجديدة ويجدون أجورهم قد انخفضت انخفاضًا هائلا.

وتدعم الحقائق تطبيق نظرية ريكاردو على الهجرة. فالمهاجرون العاملون فى وظائف تحتاج إلى مهارات خاصة يقللون من أجور العاملين من أبناء البلد فى مثل هذه الوظائف، وكذلك المهاجرون العاملون فى وظائف لا تحتاج إلى مهارات خاصة يقللون أجور العاملين من أبناء البلد فى مثل هذه الوظائف. وقد ظلت أجور الممرضات فى الخدمات الصحية الوطنية NHS بالمملكة المتحدة منخفضة بسبب تدفق ثلاثين ألف ممرضة أجنبية؛ فاحتمال حمل شهادة جامعية يزيد عند المهاجرين عن مواطنى المملكة المتحدة بنسبة ٥٠٪. وعلى العكس، ففى الولايات المتحدة التى تستوعب نسبة من المهاجرين العاملين فى وظائف تحتاج إلى مهارات خاصة؛ أعلى بكثير من مثيلتها فى المملكة المتحدة؛ نجد أن أجور العمالة فى وظائف لا تحتاج إلى مهارات خاصة هى التى ظلت منخفضة، إذ لم يتحسن دخل العاملين بتلك الوظائف منذ ثلاثين عامًا.

ما الذى يجدر بعلماء الاقتصاد فعله؟

لقد كنا نفكر تمامًا مثل علماء الاقتصاد طوال هذا الفصل. ولكن ماذا يعنى هذا؟ لقد استخدمنا أحد النماذج الاقتصادية الرئيسية لتعميق فهمنا لعدد من المواقف المختلفة. انتقل الفصل من التحليل الذى يبدو عليه بعض الموضوعية فيما يخص مَن يجنون المال من تجارة الكابوتشينو؛ إلى مسألة سياسية خطيرة عن تنظيم القيود والهجرة.

قد يزعم بعض علماء الاقتصاد أنه لا يوجد اختلاف بين تحليلهم الاقتصادى لإيجار المقاهى وبين تحليلهم الاقتصادى للهجرة. وهذا حقيقى؛ فعلم الاقتصاد يشبه الهندسة إلى حد بعيد، أى أنه يخبرك بكيفية عمل الأشياء، وما قد يحدث لو غيرت هذه الأشياء. وبإمكان رجل الاقتصاد أن يشرح لك كيف يساعد السماح لعدد كبير من المهاجرين من العمالة الماهرة فى تضييق الهوة بين أجور العمالة المدربة وغير المدربة، فى حين أن هجرة العمالة غير المدربة تفعل عكس ذلك. أما ما تفعله المجتمعات وولاة أمورها بتلك المعلومات فهذه قضية أخرى.

ومع ذلك فإن حقيقة أن علم الاقتصاد فى حد ذاته أداة للتحليل الموضوعى لا تعنى أن علماء الاقتصاد يتناولون القضايا من وجهة نظر موضوعية دائمًا. فهم يدرسون السلطة والفقر والنمو والتنمية. ومن الصعب السيطرة على النماذج الاقتصادية التى تكمن وراء هذه الأمور دون التأثر بالعالم الحقيقى الذى يحويها.

لهذا تجد علماء الاقتصاد غالبًا ما يتنحون عن دورهم كمهندسين للسياسة الاقتصادية ليصبحوا أصحاب قضايا. فمثلا كان ديفيد ريكاردو من أوائل المؤيدين للتجارة الحرة. كما شجعه رفيقه جيمس ميل James Mill على ترشيح نفسه فى البرلمان حتى إنه صار عضوًا عام ١٨١٩ عندما أيد إلغاء التعريفات الجمركية الباهظة فى بريطانيا على الحبوب المستوردة من الخارج والتى كانت تعرف بقوانين الحبوب Corn Laws، التى حجمت بشدة من استيراد الحبوب. وأوضحت نظريات ريكاردو أن قوانين الحبوب كانت تحشو جيوب ملاك الأراضى الزراعية بالنقود على حساب باقى المواطنين. لم يرض ريكاردو بمجرد ملاحظة تأثيرات قوانين الحبوب بل إنه رغب فى إلغائها.

واليوم يصل علماء الاقتصاد إلى نتائج مشابهة عن قوانين الحماية، التى تحمى - كما سنرى فى الفصل التاسع - الجماعات الضاغطة التى تتمتع ببعض الميزات على حساب باقى الناس، فى العالم المتقدم والنامى على حد سواء. فقد ينتفع مليارات البشر من السياسات الاقتصادية الجيدة فى حين يموت الملايين من السياسات السيئة. فى بعض الأحيان يكون منطق علم الاقتصاد مقنعًا للغاية بحيث يكون من المستحيل على علماء الاقتصاد عدم اتخاذ موقف. ■

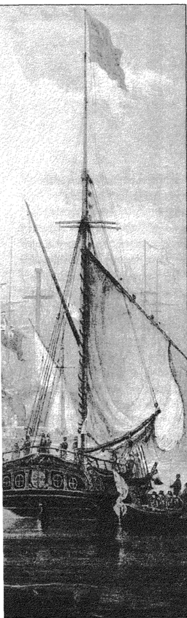
كتاب الزاوية

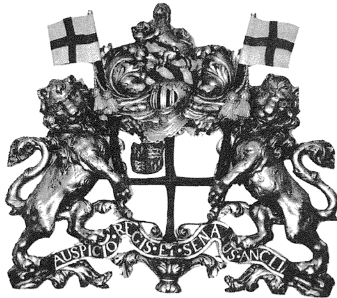


شعراء الصوفية «المجهولون»

عند ذكر الشعر الصوفى، لا يتبادر إلى الأذهان إلا ابنُ الفارض.. وأحيانًا، الحلاَّج وابن عربى! وذلك يعكس جهلنا بعديد من شعراء الصوفية الذين لا تقل مكانتهم عن هؤلاء المشهورين. ولذا، جاءت فكرة هذا الكتاب «شعراء الصوفية المجهولون» (دار الشروق ٢٠٠٨) للباحث المدقق يوسف زيدان، وذلك كمحاولة للتعريف بأولئك المجهولين من شعراء الصوفية.

ولما سبق، فهذا الكتاب لن يتناول شعراء الصوفية الذين نالت أشعارهم شهرةً، وطُبعت دواوينهم. محقَّقةً أو غير محقَّقة. وهؤلاء هم: الحلاَّج، الشِّبْلى، الجيلانى، ابن الفارض، ابن عربى، التلمسانى، النابلسى.. فقد رأيت أن دواوينهم المنشورة، تكفى لمعرفتهم وتؤكد شهرة أشعارهم.





أحمد بهاء شعبان



عندما تبنى الشركات إمبراطوريات

كيف هيمن الغرب على العالم؟

■■ تعلمنا مقولة فرانسيس بيكون: «المعرفة قوة»، القيمة الحقيقية لمثل هذا الكتاب المهم، الذى يضع بين أيدينا قدراً وافراً من المعلومات، المدعمة بالخلفيات التاريخية والأسانيد الفكرية، والمستندات والوثائق، التى عرضها «نك روبينز»، ومكنته من أن ينهض ـ عن جدارة ـ بمهمة مركبة: تفكيك وتحليل وشرح، دور ومسار واحدة من أبرز الظواهر الاقتصادية فى تاريخ العالم.

شركة عملاقة، بحجم دولة كبيرة، زحفت بمخالبها وأنيابها حتى أخضعت عملاقى قارة آسيا، وتحكمت فى شعوبها: أعملت فيها أسوأ أشكال النهب الاستعمارى، والعنف العنصرى الهمجى الممنهج، بهدف استنزاف خيراتها، واسترقاق شعوبها، وتدمير مقوماتها الإنسانية!

واسم «شركة الهند الشرقية البريطانية»، الذى يحكى هذا الكتاب وقائع صعودها الأسطورى، إلى عنان السماء، ثم انحدارها حتى نهايتها المحتومة، يُلخص قصة الاستعمار الغربى كله، الذى بَسَط هيمنته على العالم، فى القرون الماضية، مستنداً إلى تفوق عسكرى، ونزعة لا نهائية لاستباحة الآخر، واتباع لسياسة فرق تسد، وما إلى ذلك من أساليب المكر والخداع، مما أدى إلى تنمية مالية واقتصادية، ومن ثم ثورة صناعية وما نجم عنها من مصادر للقوة، ونهم شديد للمواد الأولية، ثم حاجة مماثلة للأسواق الضرورية لتصدير فائض الإنتاج، وهو ما ترتب عليه اجتياح مسلح متصاعد ومتفاقم لقارات العالم.

ولم يقف فى وجه هذا الاجتياح عائق من منطق أو أخلاق أو حق، بل استباح الغرب، كما تعرض صفحات الكتاب، تدمير المقومات البشرية للشعوب بلا رحمة، ودفعها إلى أتون الموت والمجاعات والأوبئة والرزايا، مع تغييبها عن الواقع وبذر الخلافات والشقاقات فيها، واستنفاد طاقاتها فيما يضر ولا ينفع. حتى تظل مستكينة لـ «قدرها» المحتوم، المزعوم، راضية بمصيرها البائس، عاجزة عن التمرد على واقعها المتردى، أو الثورة على غاصبيها!

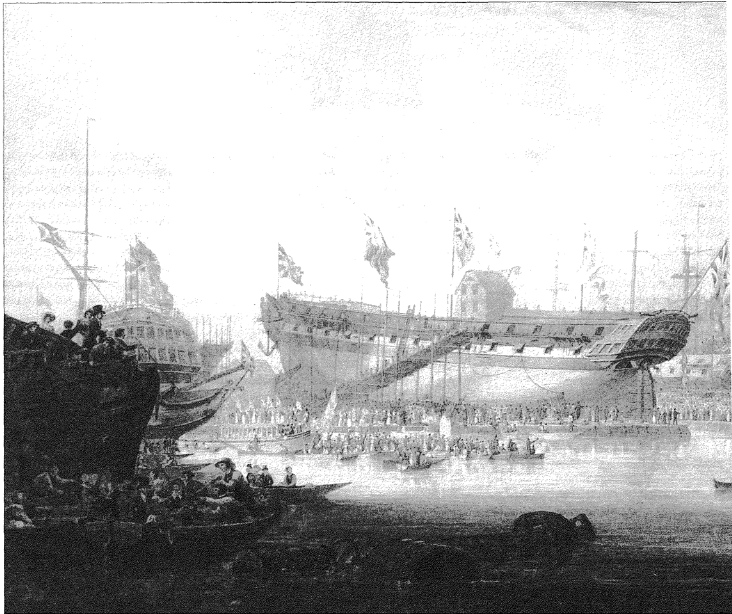
لم تقتصر القصص المريرة التى تفيض بها صفحات الكتاب، على دول آسيا وحسب، بل إنها ـ بحذافيرها ـ تكررت فى قارات عديدة أخرى. على رأسها أفريقيا وأمريكا اللاتينية، بل والقارة الأمريكية ذاتها، التى شهدت إبادة منظمة بالغة الوحشية لعشرات الملايين من سكانها الأصليين، (الذين سماهم الإنجليز الهنود الحمر)، حتى يستقر قرار المستعمرين البيض، ويطيب لهم المقام فى هذه القارة البكر الغنية، كما أن بلادنا العربية، ومصر فى مقدمتها، كانت مسرحاً لحملات مشابهة، وما قصة «شركة قناة السويس» ودورها، الاقتصادى والسياسى، وقصة حفر القناة ذاتها، بما استُنزف فيها من أموال وعرق ودماء مئات الآلاف من المصريين، إلا تكرار مشابه لما حدث فى بقية العالم.

فالاستعمار، كان ولازال، ظاهرة «كوكبية»، منذ موجات «العولمة» الأخيرة، التى نحيا تأثيراتها، ويلفحنا لهيبها، وتدفع شعوبنا أثماناً باهظة، وقُرباناً على مذابحها!

متى وكيف هيمن الغرب على العالم
الشركة التى غيرت العالم
نك روبينز
ترجمة كمال المصرى
مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٩

■■■

The Corporation That Changed the World
How the East India Company Shaped the Modern Multinational
Nick Robins
Pluto Press, 2006



ويُقدِّم هذا الكتاب ملامح الكتابة الغربية الحديثة، التي تفيض بالمعلومات والأرقام والإحصاءات والوقائع، بحيث يُبعد القارئ عن الملل، ويمسك بتلابيبه حتى الصفحة الأخيرة، لكنه أيضًا يحتاج مشاركة نقدية واعية من القارئ، وإعمالاً للعقل، ووعيًا عميقًا بخلفيات القضية المطروحة، ودلالاتها الراهنة، حتى يمكنه استخلاص النتائج الحقيقية، وهو، كما يذكر المؤلف، اتخذ «شكلاً روائيًا»، «يتحرك بين الماضي والحاضر»، أى أنه ليس كتابًا فى التاريخ وحسب، وإنما هو درس «معاصر» أيضًا، يلقى بظلاله على المستقبل وتوجهاته، ومن هنا فهو يحاول استجلاء غوامض تاريخ الاستعمار الغربى للعالم الشرقى، الذى يتعرض لعمليات طمس متعمدة، حتى يغيب عن الأنظار بشروره وكوارثه، وحتى تُستبعد من ذاكرة الشعوب دروسه وخبراته، وهو ما يجعلنا ندرك مغزى تساؤلات الكاتب المندهشة حول «فقدان الذاكرة» المقصود، «الذى يُخيِّم على الدور الذى لعبته شركات كبرى مثل شركة الهند الشرقية فى خلق العالم الحديث».. «ولماذا تم محو تلك الشركة التاريخية على نحو تام، هكذا، من فوق وجه لندن؟!».. ولماذا يتم تدمير تراث هذه الشركة، فى بلاد حريصة على تراثها، مُعتزة بماضيها، وهو أمر مريب بلا ريب، «يثير الشكوك - كما يرى المؤلف - إلى أقصى حد»!

يهتم هذا الكتاب بالتاريخ الدامى لشركة الهند الشرقية البريطانية»، باعتبارها النموذج، «The Model»، الأول، أو ما يُطلق عليه المهندسون والفنيون الـ «Blue Print»، أو الطبعة الأولى، للشركات العملاقة العابرة للقارات، التى تلقى بشباكها على الاقتصاد العالمى الراهن، وتملك قدرات هائلة تنتشر على مستوى العالم أجمع، وحجم أعمال بعضها يفوق ميزانيات عشرات من الدول التى يحيا بين ظهرانيها مئات الملايين من البشر! وهى من جانب آخر تُعتبر «الجد الحقيقى لهذه الشركات الحديثة، بما قدمته من آليات للعمل، وما استحدثته من نظم للحركة، وأهمها فصل الملكية عن الإدارة، وتداول أسهم الشركة فى البورصة، وإدارة الأعمال على الصعيد العالمى، واستخدام وسائل التنظيم والإدارة والاتصال الجديدة.. إلخ.

والأهم من ذلك، أن هذه الشركة كانت الأنموذج للدور المستقبلى الذى لعبه الرأسمال والتجارة التى يحلو للغرب أن يسميها الحرة، وهى فى الواقع تجارة بالإجبار، أو من جانب واحد، فى غزو واستعمار العالم، الشر الذى لا زال ممتدًا - حتى الآن - وإن كان بصور أخرى، فهى - كما يذكر المؤلف - مَثَّلت، فى أواخر عهدها، دور «حاملة راية حكم المال، Moneyocracy»، بل والمدهش أيضًا أنها جسدت المساوئ القاتلة، حتى للنظام الرأسمالى نفسه، فالفساد الذى كان مصاحبًا لكل خطواتها، منذ الميلاد وحتى الوفاة.

هذه الشركة كانت الأنموذج
للدور المستقبلى الذى لعبه الرأسمال والتجارة التى
يحلو للغرب أن يسميها الحرة



والمضاربة، والخداع، والتحايل وغيرها من الممارسات، فضلاً عن نزوعها البنيوى للاحتكار والعدوانية، فى مواجهة الخصوم والمجتمعات التى أتت منها، وتلك التى نشطت فيها، أمر نشهد مثيلاً له كل يوم فى بلدان عديدة!

بل إن الهند ذاتها، التى كانت مسرحاً لنشاط هذه الشركة، كانت أيضاً مسرحاً لنشاط «حفيدة» من حفيدات هذه الشركة، فى ثمانينيات القرن المنصرم، وهى شركة «يونيون كاربيد»، التى تسببت فى مقتل ٢٢ ألف مواطن هندى، وهربت بجريمتها البشعة دون عقاب أو تعويض!.

وأيضاً فيمكننا - فى عالمنا العربى - أن نشهد البصمات الإجرامية لشركات على هذه الشاكلة، ودور شركة «إنرون»، على سبيل المثال (وبعض مسئوليها كانوا من مخططى عملية تدمير العراق واحتلالها، مثل «ديك تشينى»، نائب الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن)، غير خاف أو مجهول!

ولدت «شركة الهند الشرقية البريطانية»، عام ١٦٠٠، واستمرت فى النمو والتوسع والسيطرة حتى عام ١٨٧٤، حينما انتهت من الوجود، أى لما يقرب من قرنين وثلاثة أرباع القرن، بصورة مستمرة بغير انقطاع، وهو امتداد زمنى ضخم مكنها من امتلاك نفوذ اقتصادى هائل، وتأثير سياسى خطير، حتى إن «ناثانيال سميث»، رئيس الشركة، امتلك القوة لكى يطالب البرلمان البريطانى، عام ١٧٨٤، بتقديم مساعدة مؤقتة، وفورية، للشركة، محذراً من أن التأخر فى إنجاز هذا الأمر، سيتسبب «فى حدوث انهيار مالى آخر فى جميع أوروبا..»!، وهو أمر يذكرنا بما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية، أواخر العام الماضى، ولازالت توابعه تترى أمام ناظرينا الآن، مسببةً أخطر انهيار اقتصادى على المستوى العالمى، فى إشارة عميقة إلى «دورية» الأزمة الرأسمالية، ومخاطر ترك «آليات السوق» وحدها تستأثر باقتصاديات الدول والعالم!.. وما أشبه الليلة بالبارحة، ففقاعة «شركة البحر الجنوبى»، عام ١٧١٣ هى بروفة «الفقاعة العقارية» التى هزت الولايات المتحدة والغرب بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون!

وفى خلال هذا العمر الطويل انبنى «مجد» هذه الشركة النافذة، التى وصفها «جورج كورنوال لويس»، عضو البرلمان البريطانى، باعتبار أنه «لم يوجد، على وجه الأرض، نظام حكم متحضر أكثر فساداً، وأكثر خيانة، وأكثر جشعاً! منها».

فقد لعبت هذه الشركة أدواراً رئيسة فى احتلال الهند، وتدمير الصين، وتخريب ونهب البصرة، وبندر عباس، وأخضعت لهيمنتها مدناً وأصقاعاً عديدة فى اليابان وسنغافورة، وغيرهما من البلدان، «فى عصر كانت الأقاليم تباع فيه وتشترى.. شأنها شأن السلع»!

وقد بدأ نمو الشركة بتواتر سريع، بعد فترة وجيزة من إنشائها، إذ إنه بحلول عام ١٦٢٠ كانت الشركة تدير أسطولاً يحمل عشرة آلاف من الأطنان، يقوم على تشغيله أكثر من ألفين وخمسمائة من البحارة، ويعمل على صيانته خمسمائة من نجارى السفن، قبل أن تعمد الشركة إلى استئجار سفن الشركات المتخصصة الأخرى، وهو ما يدل على الحجم الهائل لأعمالها الذى شهد تقدماً غير مسبوق، وانتشاراً غير ملحوق، حتى من كبريات الشركات المنافسة، وفى مقدمتها الشركات البرتغالية، ثم «شركة الهند الشرقية الهولندية المتحدة»، والشركات الفرنسية الأخرى، والتى أُجبرت على الانسحاب من أمام «المخلوق الأكثر رُعباً من أىٍ من الوحوش المفترسة، التى تفزعنا فى معبد «ساليت» بالقرب من مومباى»!، وخلال هذا المسار الممتد، توسعت أعمال الشركة وامتد تأثيرها حتى أصبحت، كما يقول المؤلف «تتفوق، إذا ما قارنّاها بـ«الوحوش المالية» الكبرى فى عصرنا هذا، تفوق شركة «وول مارت» فى قوتها السوقية، وشركة «إنرون» فى فسادها، وتفوق شركة «يونيون كاربيد» فى تدميرها للبشر»!

وعلى عكس الاستراتيجية التى اتبعها رواد التجارة الأسيوية الأوروبيون الآخرون، مثل البرتغاليين، الذين استخدموا استراتيجية الاعتماد على الدولة بشكل مطلق، والهولنديين الذين بنوا شراكة وثيقة بين القطاع الخاص والدولة، نهضت الاستراتيجية البريطانية على إطلاق يد القطاع الخاص فى الانتفاع بثروات الشرق، والوقوف بقوة خلف هذه الشركات، ومنحها امتيازات «شبه سيادية»، من بينها: حق سكّ العملة الخاصة بها فى فروعها الخارجية، والاضطلاع بالسلطة القضائية فى المستعمرات، وحق تكوين الجيوش المسلّحة، والأهم: حقها فى شن الحرب(!)، فمنذ البداية، كما يقول الكتاب: «كانت القوات المسلحة عاملاً أساسيًا لتمكين الشركة من كسب الأسواق الآسيوية والعمل فيها»!.. فالشركة كانت تؤمن بضرورة أن «تمارس التجارة وسيفك فى يدك»!



ولم تتأخر «شركة الهند الشرقية البريطانية»، أبداً، فى استخدام هذا الحق لاحتلال ما أصبح يُعرف بـ «دُرّة التاج البريطانى»، ومفخرة «الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس»: الهند؛ التى كانت بمثابة «مصنع العالم»: «فكانت تنتج حوالى ربع الإنتاج الصناعى فى العالم عام ١٧٥٠، فى حين كانت بريطانيا تنتج ١,٩٪ فقط». وإقليم «البنغال»، التى ولجت عبره الشركة إلى شبه القارة الهندية، كان أغنى مقاطعات الإمبراطورية المغولية، حيث وصفها الإمبراطور المغولى «أورانجزب»، بأنها «جنة الشعوب»!.. فماذا صارت عليه أحوال هذه «الجنة» بعد أن وقعت فريسة بين أنياب «الشركة»؟!

«ببساطة»، كما يقول المؤلف: كانت الشركة تنظر إلى الهند، وفى القلب منها «البنغال»، على أنها «عزبة ضخمة أو مزرعة كبيرة يجب الخروج بأرباحها (منها)، وإيداعها فى خزائن أوروبا، وإنجلترا فى المقام الأول.. واحتاج تحقيق هذه الغاية تحويل «ثلة التجّار»، الذين يقتصر دورهم، المعتاد، على عمليات التبادل التجارى التقليدية المعروفة، إلى «حكومة عسكرية مخيفة فى الهند»، كما طالب «سير جوزيا تشايلد»، أحد أهم المديرين التنفيذيين للشركة، عام ١٦٨٦، وهو ما دفع «ويليام ميرديث»، السياسى البريطانى البارز فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، للإقرار بأنه: «لم يوجد أبداً مثل هذا النظام الذى يؤمن بمبدأ واحد هو الجشع التجارى، ويستخدم وسيلة واحدة للحكم هى القوة!».

ومن الطبيعى، والحال على هذه الشاكلة، أن يزداد عدد أفراد «جيش الشركة» إلى عشرة أضعاف حجمه تقريباً، فى المدة الواقعة بين عامى ١٧٦٣ و١٨٠٥: (من ١٨ ألف جندى إلى ١٥٤,٥٠٠ جندى)!، وبحيث أصبحت «المغامرة العسكرية هى السبيل الوحيد المفتوح أمام الطموحين لتحقيق الثروة فى الهند»، كما يذكر الكتاب، وبواسطة العمل العسكرى، أسقطت إمارات ونهبت كنوز وسُلبت غنائم لا حد لها ولا عد.. وتحت سنابكها اعتصرت الضرائب من الوطنيين البؤساء واحتكُر إنتاج وتوزيع الأقمشة والملح والتبغ والأخشاب والتوابل والقهوة، واغتُصبت الأراضى، وقامت الشركة، «فعليًا»، بخطف العمال الزراعيين، وحولتهم إلى ما يشبه العبيد. وكان جنود الشركة يخطفون الأطفال من عائلاتهم فى منتصف الليل، ويحشون أفواههم بالقماش لمنعهم من الصراخ، ويزيلون العلامات التى تميز طبقتهم الاجتماعية من على أجسادهم!.. ودفع هذا الوضع العديد من «الشخصيات المرموقة»، إلى «إنهاء حياتهم طواعية، حتى لا يعيشوا ويروا عجزهم عن تخفيف آلام أطفالهم الذين يموتون»، كما ذكر سكان «كادا تاناد» فى مظلمتهم إلى الشركة: فـ«لم يحدث أن عانينا نحن ولا أجدادنا، من تلك المظالم، أو صرنا فى مثل تلك الحالة القاسية من العوز الشديد. ونحن لا نستطيع التحمل أكثر من ذلك»!

لقد ضربت الفاقة والأوبئة والمجاعات الهند، بأكملها، بفعل هذا الاستغلال غير الآدمى للبشر والثروة، وهو أمر لم يستطع الحاكم العام البريطانى، «وليم بينتيك»، أن يتجاهله: «لا يوجد فى تاريخ التجارة بؤس مثل هذا البؤس: إن سهول الهند يغطيها اللون الأبيض لعظام نسّاجى القطن»!.



«لم يوجد أبداً مثل هذا النظام الذى يؤمن بمبدأ واحد هو الجشع التجارى، ويستخدم وسيلة واحدة للحكم هى القوة!»



برغم بشاعة صور الاستعمار والاستغلال، فإن شعوب آسيا التى كانت واقعة تحت نير الاحتلال البريطانى، استقلت وتقدمت



بل إنه، وحتى بعد مرور ما يزيد على القرن وثلاثة أرباع القرن على احتلال البنغال، وقهر أهلها واستنزاف مقدراتها، لاحظ الزعيم الهندى «جواهر لال نهرو»، فى كتابه «لمحات من تاريخ العالم»، أن المناطق الهندية التى كانت أكثر خضوعًا للاستنزاف البريطانى، لازالت هى المناطق الأكثر تخلفًا وفقرًا، فى الهند التى كانت تجاهد لنيل الاستقلال، والتى كانت تعيش «تحت سيطرة آلة ضخمة، جشعة، تعصر وتسحق الملايين من الهنود. هذه الآلة هى «الاستعمار الجديد»، الذى ولده رأس المال الصناعى».

ومن هنا، فليس مستغربًا، والحال هكذا، أن يفاخر «روبرت كلايف»، مؤسس جيش الشركة العسكرى، بامتلاكها «أكبر ثروة فى العالم»، التى تقدر بحوالى ٣٨ مليونًا وأربعمائة ألف جنيه استرلينى، ما بين عامى ١٧٥٧ و١٧٨٠، جلها تم جمعه بالقهر من اعتصار الهند والصين وغيرها، وهو الأمر الذى أصبحت معه الشركة مصدرًا لتحقيق «عائدات إضافية لإنجلترا المنخفضة الدخل قبل عصر الثورة الصناعية»، فقد مثلت الشركة «مؤسسة لا يمكن الاستغناء عنها، بسبب القروض التى كانت تمنحها للتاج البريطانى»، وحينما خرجت بريطانيا، وهى على وشك الإفلاس، من حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣)، اعتبر رئيس الوزراء «وليام بيت الكبير» ضرائب «الديوانى» (المجلوبة بفعل القهر من ولايات الهند إلى إنجلترا)، بمثابة: «هدية إلهية لملء الفجوة المتسعة فى الخزانة العامة»!، بينما اعتبر البعض الآخر أن الذى منح بريطانيا ملك إقليم البنغال، هو «الرب الذى يصرف الأمور»!

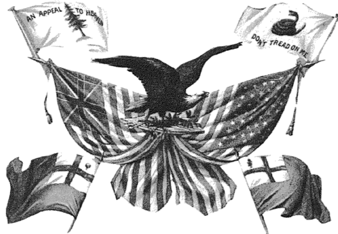
وبفعل هذا الاستغلال المكثف انقلبت الأوضاع، فى الهند ومقاطعاتها، رأسًا على عقب: فبعد أن كان الميزان التجارى، مع كل الدول، لصالح البنغال، قبل معركة بلاسى (عام ١٧٥٧)، التى تمكنت فيها قوات الشركة، بقيادة «كلايف»، من هزيمة نواب (حاكم) البنغال، بواسطة القوة والغدر والخيانة، تم نهب خزائن المقاطعة، التى ملأت حمولة أكثر من مائة مركب من الذهب والفضة!!، وهو ما عنى، أن «كلايف» حقق للشركة «بضربة واحدة ربحًا صافيًا يقدر بـ ٢,٥ مليون جنيه، وحقق لنفسه ربحًا يقدر بـ ٢٣٤.٠٠٠ جنيه، وهذا المكسب يساوى اليوم ما قيمته ٢٣٢ مليون جنيه استرلينى من المكسب الذى لا عناء فيه، و٢٢ مليون جنيه أتعابا لكلايف، جاءت بلا كد»!

وراحت الشركة تتحرك فى سعار لاحتلاب الهند بلا هوادة، فضغطت على «الشاه علم»، إمبراطور المغول المفلس، لكى يمنحها حق الديوانى (حق جمع جميع الضرائب من السكان المحليين) فى البنغال، وهو ما عنى حق «السيطرة على جمع الضرائب من أكثر من ١٠ ملايين نسمة»، واتسعت أعمالها القائمة على النهب المنظم والسلب المكثف، وتحالفت مع تقلبات الطبيعة، من الجفاف إلى الأمطار الغزيرة، فالفيضانات، مخلفة وراءها واقعًا شديد البؤس، وبحيث أصبحت فيه «المجاعة جزءًا أساسيًا للواقع الاجتماعى للهند..» ورغم تكرار وقوع المجاعات على امتداد التاريخ الهندى، إلا أنه، كما يذكر الكتاب، فإن: «معدلات حدوث المجاعات ازداد بشكل كبير تحت حكم الشركة فى البداية، ثم تحت حكم التاج البريطانى، وراح نحو عشرة ملايين نسمة ضحايا لمجاعة عام ١٨٧٧ وحدها(!)، وأحصت الجهات المسئولة «وقوع ٣٤ مجاعة فى الهند، خلال الحكم البريطانى الذى دام لمدة ١٢٠ عاماً، مقارنة بسبع عشرة مجاعة فقط على امتداد الألفيتين اللتين سبقتا الحكم البريطانى»!

وفى إحدى هذه المجاعات أكل الأحياء جثث الموتى(!)، وملأت الجثث المنتفخة نهر «هوجلى».. ولم يشفع هذا الوضع الشنيع للباقين من الأحياء البائسين فى إعفائهم من إرهاب الشركة وجيشها لدفع الضرائب المستحقة قهرًا(!)، واستغلت الشركة ورجالها المحنة فراحوا يتاجرون فى الحبوب التى احتكروها ويرفعون أسعارها، وحينما عرض البعض هذه الاتهامات على مجلس الشركة.. «كان رد الفعل هو.. القهقهات العالية»!

لقد وقعت عائلات بأكملها فريسة، كما يقول «كريم على»، مؤلف كتاب «مظفر نامة»، تحت «براثن من لا يرحمون»!

وكان من الطبيعى والوضع هكذا، ألا تبقى هذه الفترة من حياة الهند، «مجرد تاريخ قديم»، كما يذكر «جواهر لال نهرو»،



فى المرجع المشار إليه، بل على العكس، فلقد ظلت «الأساس الذى بنيت عليه الهند الحديثة التى نعرفها اليوم. فإذا أردنا معرفة الهند اليوم، فعلينا أن نعرف العوامل التى صنعت الهند، فى إعمارها أو دمارها.. وهذه هى الطريقة السليمة التى تمكننا من خدمة الهند ومعرفة السبيل الذى نسير عليه لخدمتها».

ولم يقف الدمار الذى أشاعته «شركة الهند الشرقية البريطانية» فى محيط سيطرتها الحيوى، مقصورا على الهند وحدها، بل امتد أثره إلى العملاق الآسيوى الثانى، الصين!

فضلاً عن تجارة الشاى الذى احتكرت الشركة تصديره من البنغال إلى «كانتون» بالصين، والذى كان يبلغ ملايين الأرطال سنويًا، صدرت الشركة إلى الصين الفضة، قبل أن تنهار كافة السدود أمام زحف «طوفان» أفيون «باتنا - Patan»، والذى كان يتم تهريبه فى صناديق تحمل «بفخر»! العلامة المميزة للشركة، كما يقول مؤلف الكتاب!

واستخدمت الشركة، فى سبيل إنتاج الكميات الهائلة المطلوبة من الأفيون: كما يذكر «تشاندرا براكاش سينها»: «كل أنواع الإكراه والقهر لإجبار الفلاحين على زراعة الأفيون رغم أنفهم»!.. وقطعت مساحات شاسعة من الأراضى المزروعة بالذرة، بالقوة، لكى يتم زراعتها بالأفيون المطلوب تهريبه إلى الصين!، رغم عدم قانونية تهريب الأفيون إلى الصين، لم يجد أحد كبار موظفى الشركة غضاضة فى أن يعلن: «نحن لا نتردد فى الإعلان صراحة أن تجارتنا تعتمد، فى المقام الأول على الأفيون»، الأمر الذى أدى إلى تمريغ الصين فى «الوحل الأجنبى»، والذى زاد زيادة مستمرة خلال عشرينيات القرن التاسع عشر.. ومثل الدخل العائد لهذه التجارة المميتة، بالنسبة للحكومة البريطانية، «الوسيلة الوحيدة لتوفير الأموال اللازمة لواردات الشاى، الذى كانت البلاد تحبه حبًا شديدًا(!)، والتى كانت بدورها تمثل شريحة كبيرة من القاعدة الضريبية لخزينة الدولة عن طريق الرسوم الجمركية على الواردات»!

ولم يتحرج دعاة «التنوير» و«الديمقراطية» المزعومون، وعلى رأسهم «بنيامين دزرائيلى» (١٨٠٤ - ١٨٨١)، رئيس الوزراء البريطانى، من حث الحكومة البريطانية على استخدام القوة لإجبار الصين. كما يذكر المؤلف. على قبول هذا «المنطق المستنير» الخاص بالتجارة الحرة «فى جميع البضائع، وحتى فى الأفيون(!).. واقتضى الأمر إشعال حربين، حتى يتسنى فتح موانئ الصين بالقوة، واستيلاء بريطانيا على «هونج كونج»، و«تشريع» تجارة الأفيون(!).

أما فى الصين: فقد صار وباء إدمان الأفيون يتفاقم، ولقى الملايين من الصينيين حتفهم فى القرن التاسع عشر نتيجة للأفيون... وهى جريمة «لا يعترف أحد. حتى يومنا هذا. بأنها كانت من صنع البشر»!!.. واحتاج الأمر اتخاذ إجراءات عديدة حازمة، بعد انتصار الثورة الوطنية التى قادها الزعيم الصينى ماوتسى تونج، عام ١٩٤٩، حتى يمكن السيطرة على هذا الوباء، ووضع علاج صارم لمواجهته.

ما هى المحصلة العامة، إذن، المترتبة على رحلة «شركة الهند الشرقية البريطانية»، أو «مغامرتها» الآسيوية، التى استمرت ما بين عامى ١٦٠٠، (عام تأسيسها)، وعام ١٨٧٤، (عام تصفيتها)؟!

المحصلة المؤكدة، على المستوى الاقتصادى: غيرت





مجرى التاريخ الاقتصادى، وعكست اتجاه تدفق الثروات من الغرب إلى الشرق، الذى استمر لقرون»، «بعد أن كانت أوربا تقوم بشحن الذهب والفضة إلى آسيا، مقابل التوابل والمنسوجات وغيرها من السلع الكمالية.

لقد انجذب التجار الأوروبيون، كما يشرح الكتاب، إلى الشرق «بسبب ثرائه وتقدمه، فى وقت كان فيه حجم الاقتصاد الغربى صغيراً جداً مقارنة بالاقتصاد الآسيوى».

وعندما زالت الشركة، كان الاقتصاد الأوروبى قد زاد حجمه ليصبح ضعف اقتصاد الصين والهند(!).. وهو عكس الوضع الذى كان سائداً فى عام ١٦٠٠!!

ومن المؤكد، يقول المؤلف: إن «شركة الهند الشرقية البريطانية»، هى أحد العوامل الرئيسية التى تسببت فى ذلك التحول الكبير فى التطور العالمى الذى كان يمثل بداية مولد العصر الحديث».

كانت القوة الغاشمة هى وسيلة «الشركة» لاغتصاب كلٍ من الهند والصين، مع تدمير صحة الشعب الصينى بالأفيون، وفرض أولوياتها - بالقهر - على المجتمعين الشرقيين، اللذين كانا من الممكن أن يكتشفا طريقهما الخاص للتقدم، وهو ما حدث فيما بعده. فلو بقيت بريطانيا والغرب بعيداً عن الهند، كما عبر الزعيم «جواهر لال نهرو»، لكان من الممكن أن تقوم فيها صناعة آلية بفضل التطور الطبيعى.

ولازالت القوة الغاشمة، كذلك، هى وسيلة «الشركات» الاحتكارية المعاصرة، لاغتصاب ثروات العالم، وتدمير صحة مواطنيه، ويكفى - فى هذا السياق - أن نقرأ، بعد نحو أربعة قرون من الوقائع الدامية، التى شرحها بالتفصيل هذا الكتاب، مقولة الصحفى والكاتب الأمريكى، «توماس فريدمان»، نصير «العولمة» المتحمس: «إن اليد الخفية للسوق لن تعمل أبداً بدون قبضة خفية!.. ولا يمكن أن يتحقق الازدهار لـ «ماكدونالدز» دون وجود «ماكدونال دوجلاس»، التى قامت بتصميم طائرات «إف - ١٥» العسكرية!

مرة أخرى: «التجارة باستخدام القوة الباطشة»!، هى القانون الناظم لحركة رأس المال الجشع، المتلمظ، فى عصر «العولمة» و«النيو ليبرالية»، لمزيد من الدم والأرباح والهيمنة والقهر!

وما لم تتحرر البشرية من هذا النظام الاجتماعى - السياسى - الاقتصادى - الثقافى الظالم، ستظل «عولمة» الرئيس الأمريكى، القاطن فى البيت الأبيض، التى يُقايض فيها على مستقبل البشر بسندويتشات «الماكدونالدز»، هى الوجه «الحداثى» لعولمة القرون المنصرمة، «عولمة شركة الهند الشرقية البريطانية»، على طراز الملك «جورج»، التى كان فيها، «كجزء من تجارة العبيد الأفريقية، سريعة النمو، تتم مقايضة الأقطان الهندية، كبضاعة حيوية، بالحمولات البشرية من أولئك العبيد»!



بقى أن نشير إلى مجموعة من الملاحظات الأخيرة.

الأولى: أنه برغم بشاعة صور الاستعمار والاستغلال، التى أشرنا إلى جوانب منها، والكتاب عامر بتفاصيل ضافية عنها، فإن شعوب آسيا التى كانت واقعة تحت نير الاحتلال البريطانى، وغيرها من أنواع الاحتلالات، استقلت وتقدمت، وأصبحت عنوانًا على الرقى الاقتصادى والنهضة العلمية، والفيصل فى تحقيق هذه الغاية هو توفر الإرادة الوطنية، ووحدة العمل الوطنى والإصرار على انتزاع الحقوق، وطرد المحتل، وبناء الأوطان، وإيجاد موقع قدم وسط صراعات الكون الدامية، التى لا تعترف إلا بالأكفاء الأقوياء.

والثانية: آثرت هذه أن تركز قراءتها لمتن الكتاب على ما يفيد شعوبنا وأوطاننا، وهى تجابه العدوان تلو العدوان، وآخرها العدو الصهيونى الإجرامى على شعبنا فى فلسطين وأشقائنا فى غزة، محاولة استخلاص الدروس واستخراج الخبرات، أملاً فى أن نستفيد بها فى مواجهة ظروف شبيهة، مرت بها شعوب أخرى، عانت ما نعانيه من ويلات، لكنها انتصرت انتصارات باهرة، بينما تتعثر خطواتنا المرة تلو الأخرى!

غير أن الكتاب - إضافة لما تقدم - يتضمن شرحاً عميقاً للتاريخ التفصيلى للشركة، ولآليات تطورها الداخلى، ولعناصر ومراحل نموها، ولطبيعة الصراعات التى اعتملت داخلها، وكذلك لنظم عملها وإدارتها، وهو شرح غنى بمادة قيمة يمكن للمتخصصين، أو المهتمين، بهذا الفرع من المعرفة، أن يفيدوا أيما إفادة من مطالعتها، وتتبع تفاصيلها ودقائقها. ■

السماسرة..

كان عام ٢٠٠٠ هو العيد الأربعمائة لتأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية، وكان هو أيضًا العام الذى جئت فيه للعمل فى مدينة لندن، حيث ظل المقر الرئيسى قائمًا لمدة ٢٧٥ عامًا هى عمر الشركة. ومن حين لآخر تشكل مدينة لندن أحد المحاور الرئيسية للأعمال المالية والدولية، ومع دخول الألفية الجديدة، كان نشاط السوق مازال باديًا، على الرغم من بلوغ فقاعة «الدوت. كوم» ذروتها فى آخر يوم من عام ١٩٩٩. لقد كنت داخلاً، آنذاك، إلى عالم الاستثمار الاجتماعى عندما بدأت هذه الموجة من المضاربات فى التفجر كاشفةً عن سوء تصرف على نطاق لم يُرَ مثله منذ عام ١٩٢٩ (وهو العام الذى شهد بداية الكساد الكبير فى القرن الماضى - «المترجم»). وبمجرد أن بدأ تدهور قيم الأسهم، استمر فى ذلك الاتجاه حتى هبطت أسعار الأسهم إلى نصف قيمتها فى ثلاث سنوات. وفى كل لحظة كانت علامات تدهور على المستويات التجارية. وعبر العالم كله، تم إجراء الأبحاث لاكتشاف ما إذا كان هذا الانهيار مجرد قلة من «التفاحات المعطبة» فى شركات إنرون، ووردلكوم، وتايكو هى التى يمكن إلقاء اللائمة عليها، أم أن صندوق رأسمالية المؤسسات ذاته هو المعيب؟!

ورغبة فى الارتياح من شاشات حاسبات التجارة ذات الألوان الحمراء التى كانت تعبر عن الانهيار المستمر للسوق، فقد قمت باستطلاع الشوارع التاريخية فى ميدان مايل، عبر البورصة المالية وبنك إنجلترا، وجنوبًا فى حارة المبادلات، حيث كان سماسرة الأوراق المالية يتجمعون أول الأمر فى المقاهى ليتبادلوا الشائعات ويتاجروا فى الأسهم. وفى أحد الأيام، مشيت نحو الشرق أبعد من كل مرة قاصداً شارع ليدنهول بهدف زيارة المقر الرئيس لشركة الهند الشرقية، قبل أن أرجع للعمل بعد ذلك. وعندما وصلت إلى الركن الواقع بين شارعى ليدنهول ولايم ستريت، حيث بقى مقر الهند الشرقية لأكثر من مائتى عام، لم يكن هناك أى شىء - لا علامة ولا شارة ولا أى شىء - يخبرنا بحقيقة أن هذا المكان كان الموضع الذى كانت تقبع فيه أقوى الشركات المساهمة الكبرى فى العالم فى يوم من الأيام. ولقد حيرنى هذا الغياب، خاصة فى بلد تشربت ثقافة التراث: لماذا تم محو تلك الشركة التاريخية على نحو تام هكذا من فوق وجه لندن؟

هذا الكتاب هو محاولة للإجابة على هذا السؤال، والأهم أنه محاولة لإعادة فحص معنى الإرث الذى تركته الشركة للاقتصاد العالمى فى القرن الحادى والعشرين. وبالتنقيب عن أصول هذه الشركة منذ عصر التنوير، أصبح من الواضح أنها لم تكن مجرد شىء من الماضى، بل مؤسسة ذات ممارسة مألوفة على نحو مدهش. فلقد كانت الشركة رائدة نموذج حاملى الأسهم فى الشركات المساهمة، وهى التى بنت أسس إدارة الأعمال الحديثة. وفى مسعى أنانى للكسب الشخصى والجمعى، حققت الشركة ومديروها التنفيذيون فى النهاية السيطرة على السوق فى آسيا، وحكمت عصابات كبرى فى الهند بحثًا عن الربح. ولكن الشركة صدمت عصرها أيضًا بمدى الفساد الذى بلغه مديروها التنفيذيون، والإفراط فى سوق الأوراق المالية، وقمع البشر. وحسبما أرى، فإن الشركة تتفوق إذا ما قارناها بالوحوش المالية الكبرى فى عصرنا هذا، حيث تفوق شركة وولمارت فى قوتها فى السوق، وتفوق شركة إنرون فى الفساد، وتفوق شركة يونيون كاربيد فى تدمير البشر.

ثمة كتب لا حصر لها تسرد تاريخ شركة الهند الشرقية، إلا أن أيّا منها لا يبحث فى سجلها الاجتماعى كشركة مساهمة كبرى. وهذه فجوة ينشد كتابنا هذا سدها، مستعيدًا فى سياق ذلك فحوى الصراعات الشرسة حول المسئولية المشتركة التى أثارتها الشركة فى القرن الثامن عشر. الأهم من هذا هو أن الكتاب ليس ممارسة لتطبيق قيم القرن الحادى والعشرين على عصر سابق عليه، فلقد بحثت العقليات المستنيرة البارزة فى عصرها ممارسات تلك الشركة ووجدتها غير لائقة. إذ تجد أن آدم سميث، وإدموند بيرك، وكارل ماركس قد اتحدوا جميعًا فى نقدهم - لأسباب مختلفة - لهذه الشركة المسيطرة القاهرة. ومن يمين الطيف السياسى إلى يساره، نجد أن أولئك الذين عاشوا فى عصر الشركة كانوا ينظرون إليها على أنها مؤسسة مُشكلة فى جوهرها؛ فبالنسبة لسميث كانت الشركة واحدة من أكبر أعداء السوق (الاقتصاد) الحر، فى حين كان بيرك يرى أنها تمثل تهديدًا ثوريًا للنظام القائم الثابت فى بريطانيا والهند. ولقد أظهرت الشركة أيضًا سقطات أخلاقية ذات

«لا يوجد فى تاريخ التجارة بؤس مثل هذا البؤس:
إن سهول الهند يغطيها اللون الأبيض
لعظام نساجى القطن»!



والســــــاســــــة

طبيعة جذرية، إذ قال بيرك للبرلمان: إن «كل روبية من الربح صنعها رجل إنجليزى قد ضاعت للأبد فى الهند». وبالنسبة لماركس، الذى كان يكتب بعد ٧٠ عامًا من خطاب بيرك أمام البرلمان، فقد كانت الشركة فى أواخر عهدها، حاملة راية «حكم المال - Moneyocracy» فى بريطانيا، وكانت مخلوقًا أكثر رعبًا من أى من الوحوش المقدسة التى تفزعنا فى معبد سالسيت بالقرب من بومباى. إلا أن ما يجعل قصة الشركة ملهمة على هذا النحو هى الطريقة التى كان يقابل بها شخصيات مثل هؤلاء طلبها المتكرر للحصول على سلطة اقتصادية غير محدودة وكفاحهم لجعلها خاضعة للمحاسبة. ونتيجة لذلك فإن الشركة توفر دروسًا خالدة فى كيفية مواجهة (وعدم مواجهة) إفراط المؤسسات الكبرى من خلال الإصلاح، والاحتجاج، ورفع الدعاوى القضائية، وإصدار القوانين المنظمة، وفى النهاية من خلال إعادة تصميم المؤسسة.

ولكى أستعيد فحوى الوجود المادى للشركة، قررت أن أجرى البحث خارج الدوائر العلمية والثقافية، ورؤية مناطق الشركة الأساسية فى بريطانيا والهند. وكنت آمل بزيارة مقرها الرئيسى ومخازنها ومنازلها وأرصفتها أن أصل إلى فهم أكثر اكتمالاً لشخصية الشركة. يتخذ الكتاب شكلاً روائيًا ولكن يتحرك بين الماضى والحاضر. ولكى أساعد القارئ، قدمت فى أول الكتاب تسلسلاً زمنيًا لأهم الأحداث فى تاريخ الشركة. وبعد ذلك يتعمق الفصل الأول فى إرثها المطعون فيه، ويستكشف الطرق المختلفة التى يتذكر الناس بها الشركة فى أوروبا وآسيا. ويتبع ذلك تحليل فى الفصل الثانى لكيفية عمل الشركة وإدارتها، بالإضافة إلى الصراعات المتأصلة بداخلها والتى أدت فى النهاية إلى انهيارها.

ويعالج الفصل الثالث عملها باعتبارها «تاجر توابل» من القرن السابع عشر، إلى جانب مناقشة العواقب الكارثية لطلبها الأول للحصول على السيادة على السوق فى تسعينيات القرن السابع عشر. ونجاحها فى النهاية فى هندسة الاستيلاء على البنغال فى منتصف القرن الثامن عشر. ويناقش الفصل الرابع أسباب ونتائج هذا الحدث الجلل.

ولكن مثل الكثير جدًا من الشركات العظمى فى تسعينيات القرن العشرين تخطت الشركة إمكانياتها، ويوضح الفصل الخامس كيف اتحد الإهمال مع عدم الكفاءة لإحداث انهيار فى سوق المال، ولإحداث واحدة من أسوأ المجاعات التى ضربت الهند. ولقد خشى الكثيرون فى بريطانيا أن تستخدم الشركة ثروتها حديثة العهد فى إنهاء الحريات التى نالتها إنجلترا بشق الأنفس. يعرض الفصل السادس نقد آدم سميث اللاذع للشركة العظمى، ويضعه فى سياق حركة أوسع من الاحتجاج الشعبى، والنشاط البرلمانى ضدها، وثورة آنية صريحة كان هدفها هو إنهاء انتهاكات الشركة فى سبعينيات القرن الثامن عشر. ولكن العدالة لم تكن قد أخذت مجراها بعد، لذا يبحث الفصل السابع كيف حاول إدموند بيرك أن يضع المسئولية فى قلب مرسوم تأسيس الشركة. إلا أن أوامر الإمبراطورية وليست أوامر الأخلاق هى التى كسبت تلك الجولة. يستكشف الفصل الثامن كيف نجحت الدولة البريطانية فى تحويل الشركة لتتخلى - على نحو متزايد - عن وظائفها التجارية، وتصبح وكيل مصالح التاج البريطانى فى الهند. وقد مثلت الثورة فى الهند عام ١٨٥٧ نهاية وضع الشركة المفارق تاريخيًا، ووضعتها فى منطقة حمرة الغروب قبل أن تغرب تمامًا فى يونية من عام ١٨٧٤ . وأخيراً ينظر الفصل الثامن فى كيفية تحقيق مواجهة أكثر أمانة لتراث الشركة، وما هى الدروس التى يمكن استخلاصها من المواجهة مع المؤسسات الكبرى فى العالم المعاصر.

هناك فقدان ذاكرة جزئى غريب يخيم على الدور الذى لعبته شركات كبرى مثل شركة الهند الشرقية فى خلق العالم الحديث. وأملى أن ينجح هذا الكتاب بطريقة ما فى كشف كيف أثرت شركة واحدة فقط فى تشكيل الماضى العالمى، وكيف يمكننا أن نستخدم هذه المعرفة فى جعل قطاع المؤسسات المساهمة الكبرى فى عصرنا خاضعا للمساءلة فى الحاضر.

ولكى أعطى شئون الشركة أهمية أكبر، قمت بتحويل بعض من الإحصاءات المالية الأساسية إلى القيم الحالية. ولهذا الغرض استخدمت الخدمة الفورية على الإنترنت والتى توفرها جمعية «موارد التاريخ الاقتصادى» على شبكة الإنترنت فى موقعها (www.eh.net)

نــك روبينــز

كـتـــاب الــزاويـــة



شعراء الصوفية المجهولون
(١)

سمنون المحب
(المتوفى ٢٩٧ هجرية)

أفـديـكَ بـل قَـلَّ أن يـفـديـكَ ذو دنـف
هـل فـى الـمـذلَّـة لـلـمـشـتـاقِ مـن عـارِ
بِى مـنـك شـوقٌ لو أنَّ الـصـخـرَ يحـمـلُـهُ
تـفـطَّـر الـصـخـرُ عـن مُـسْـتَـوْقَـدِ الـنـارِ
قد دبَّ حـبُّك فـى الأعـضـاءِ من جسـدى
دبـيـبَ لـفـظـى مـن رُوحـى وإضْـمـارى
ولا تـنـفَّـسـتُ إلا كـنـتَ مـع نـفـسـى
وكـل جـارحـةٍ مـن خـاطـرى جـارى
(البسيط)

وكـان قـلـبـى خـالـيًـا قـبـل حُـبِّـكُـمُ
وكـان بـذكـرِ الـخـلـقِ يـلـهـو ويـمـزَحُ
فـلـمـا دعـا قـلـبـى هـواك أجـابَـه
فـلـسـتُ أراه عـن فـنـائـك يـبـرحُ
رُمـيـتُ بـبـيـنٍ مـنـك إن كـنـتُ كـاذبًـا
إذا كـنـتُ فـى الـدنـيـا بـغـيـرك أفـرحُ
وإن كـان شـىءٌ فـى الـبـلاد بـأسـرهـا
إذا غـبـتَ عـن عـيـنـى بـعـيـنـى يـلـمـحُ
فإن شـئـتَ واصـلْـنـى وإن شـئـتَ لا تـصـلْ
فـلـسـتُ أرى قـلـبـى لـغـيـرك يـصـلـح
(الطويل)

حلمى التونى.. مع
"نفرتارى وأخواتها"



■■ فى حياتى ورحلتى الفنية، مع فن اللوحة، محطات أساسية، أو وقفات تليها مراحل. أهمها وأولها، مرحلة استلهام الفن الشعبى المصرى والعربى.. من رسوم الحوائط فى المناسبات السعيدة، والرسم تحت الزجاج فى اللوحات الصغيرة التى كانت تزين بيوت المصريين البسطاء (ولعلها كانت أول تعامل للمصريين مع اللوحة المعلقة على الجدران).. وأيضا وبشكل أساسى، استلهام نقوش و«رموز الوشم الشعبية».

تلى تلك المرحلة محطة معرض «وجوه جميلة من زمن جميل». وكان المعرض رسالة فنية، أو خطابا يحاول الدفاع عن ماض جميل، تعرض للسب والقذف والإدانة، بل وتم تحميله مسئولية كل السلبيات التى نعانى منها..!

بعد ذلك توقفت عند محطة أخرى ظهرت فى معرض «تحية إلى الفن القبطى»، وجاءت بعد أن لاحظت وتنبهت، إلى غياب المكون الفنى القبطى، الذى كان ثمرة فترة من تاريخ مصر امتدت إلى أكثر من سبعمائة عام، ولا نكاد نلحظ لها أى نصيب فى التكوين الفنى الوجدانى الثقافى المصرى العام وإبداعاته فى مختلف الفنون.

واليوم نقف معا أمام مرحلة جديدة، فكما غاب «المكون القبطى» الفنى المصرى عن سبيكة الإبداع المعاصر، فقد اختفى المكون والعنصر «المصرى القديم» الذى يسميه البعض، خطأ، «العنصر الفرعونى».

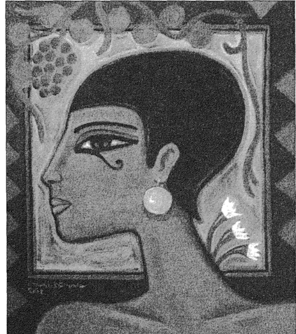
كيف غاب واختفى هذا «الأثر»، فى حين تستطيع العين المدربة فنيا أن تلحظ وتستشعر المكون القديم (الأصلى) فى الأعمال الفنية «الحديثة» لمختلف الشعوب.. فنحن نشعر بروح ونسيم الفن الإغريقى والرومانى فى الإبداعات الفنية للغرب، سواء كانت هذه الإبداعات عمارة، أو لوحة، وكذلك الحال فى إبداعات دول أمريكا اللاتينية (ما قبل كولمبوس).

سنلاحظ فى كل هذه المحطات قصدا واهتماما وانشغالا واحدا.. وهو الانشغال والاهتمام بمحاولة اكتشاف «النفس الحضارية»، إذا جاز التعبير، والتى هى صفة وحق أصيل لكل الشعوب والأمم.. ونحن من بينها.. ولكن لا بد هنا من تحذير واجب... فكل هذا لا يعنى الانكفاء على النفس أو إلى الوراء بالمعنى السلفى الذى يسعى إليه البعض.. لكنه يعنى، ببساطة، محاولة لاستكشاف المستقبل، المستقبل الثابت القوى، الواقف على قاعدة من حضارة و«روح» وإنجاز أجيال وأزمنة تمتد إلى آلاف السنين، حيث إن انكار تلك الروح الخاصة، وفى بعض الأحيان وعند بعض الناس، «ازدراءها»، هو جريمة فى حق النفس والأوطان... بل فى حق الإنسانية جمعاء.

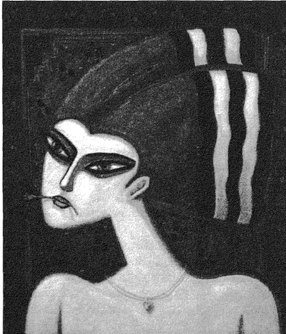
حلمى التونى

«نفرتارى وأخواتها» ٢٠٠٩
لوحات زيتية
قاعدة إكسترا - الزمالك
من ٣١ مارس إلى ١٨ أبريل ٢٠٠٩

ذات الحلق الذهبى

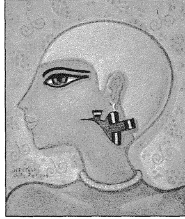


آكلة الأزهار



«اللقيــــة»
زيت على قماش 2008 مقاس 100 X 80 سم



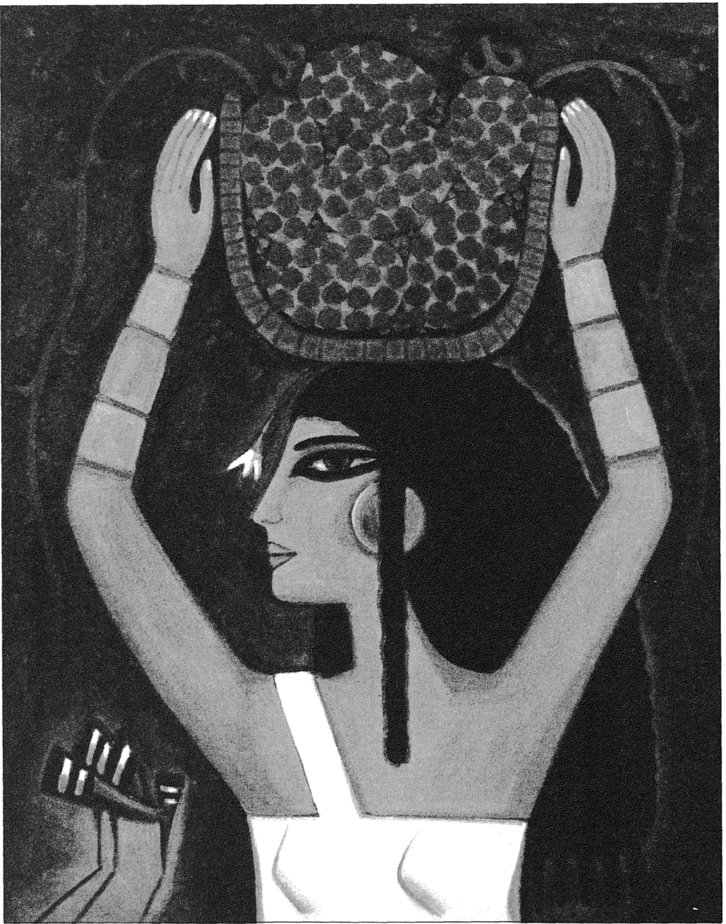


«حلق الهدهد»
زيت على قماش مقاس 60X 70 سم



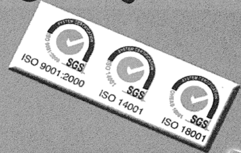
«ذات الضفائر»
زيت على قماش مقاس 60X 70 سم

«الشـــقيقتان»
زيت على قماش 2009 مقاس 85 X 70 سم



«حاملة العنب»
زيت على قماش 2009 مقاس 100 X 80 سم

سجاد أطفال



...دير المنتشرة في كل ارجاء مصر

شرقى

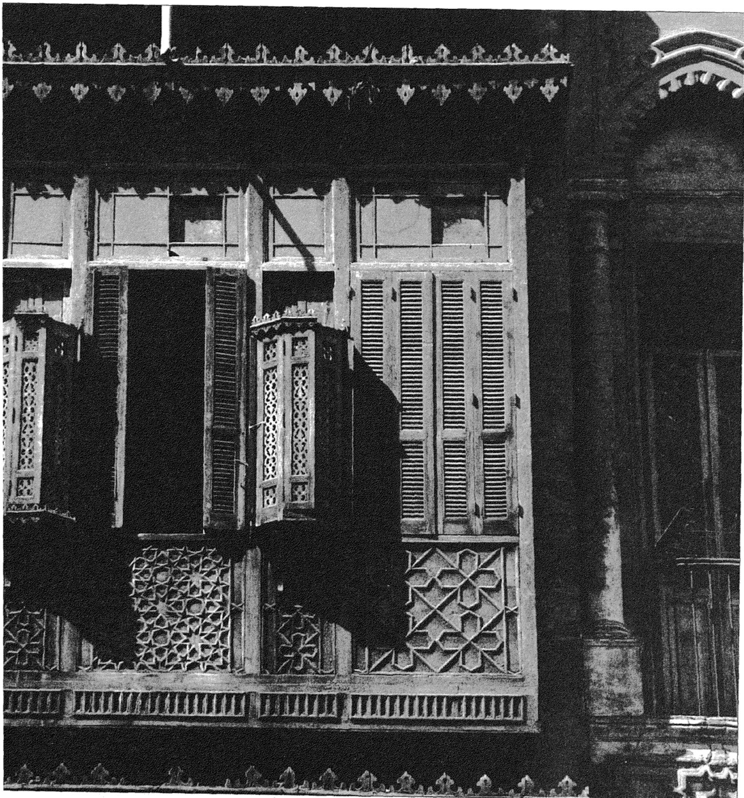
مطبوع

مشايات

...دة صلى

www.maccarpet.com

"بيتى قلعتى" .. هؤلاء



المدافعون عن منازلهم

ناصر الرباط

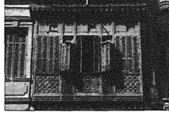


■■ كل دارس للعمارة لابد أن يذهل من ثراء القاهرة بالنماذج المعمارية الفذة التى تعود إلى القرنين التاسع عشر والعشرين، عصر الحداثة والتغريب والانفتاح على الأسواق العالمية والتجارب الاجتماعية والاقتصادية المختلفة التى بدأ المنظرون الطوباويون التقليديون فى الآونة الأخيرة بالنظر إليها أنها غريبة وغربية ومغربة، وبالتالى لاعلاقة لها بتاريخ البلاد الوطنى أو تراثها الإسلامى من وجهة نظرهم. وكل زائر للقاهرة لابد أن يصدم مما آلت إليه معظم هذه المبانى السامقة والبديعة معمارياً فى بداية القرن الواحد والعشرين ، عصر ما بعد الحداثة، عصر رأس المال الدولى والاستثمارات متعددة المصدر ومتعددة المنفذ، والمواصلات الآنية والالكترونية صوتاً وصورة وفعلاً من جهة، وعصر الضياع الفكرى والثقافى والتكدس السكانى الهائل ونمو الحركات الانعزالية المتشددة وضعف البنى التحتية وانخفاض مستويات المعيشة والخدمات انخفاضاً حاداً من جهة أخرى . فهذه النماذج المعمارية التى تنتمى بغالبيتها لطرز «الفن الجديد» والطراز الإسلامى الجديد والأرت ديكو وبعض الباروك والكلاسيكى، تعانى أكثر من غيرها من المبانى التاريخية فى القاهرة التى دخلت رسمياً ضمن «التراث» أى تلك التى مضى على إنشائها أكثر من قرن - ذلك الرقم الاعتباطى الذى لايعنى شيئاً بالنسبة لأهمية العمارة- والتى أصبح لها بالتالى بعض أمل من عناية وترميم واستثمار. فعمارات القرنين التاسع عشر والعشرين بحكم عمرها وموقعها وطرزها ووظائفها وأهواء أصحابها وملاكها وقيمتها العقارية والاقتصادية مازالت ضمن سوق العقارات تخضع لمتطلباته ومضارباته وتدفع ثمناً لذلك من شكلها أو وظيفتها أو أحياناً وجودها كله. ومع أن هذه الإشكالية ظهرت إلى السطح مع تغير التركيب المجتمعى والهيكل الاقتصادى والتوجه السياسى للبلاد إثر ثورة يوليو ، فهى مازالت موضوعاً ساخناً وورشة مفتوحة وميداناً للجدال والصراع والتنافس من دون أى باقة من الحلول الواضحة والمؤثرة التى تحفظ لهذه المبانى وقارها الشكلى وشخصيتها المعمارية وللمدينة تكاملها العمرانى وتركيبها الاقتصادى والاجتماعى.

فالمدينة ككل- بما فيها مناطق وسط البلد وعابدين وجاردن سيتى والمنيرة والزمالك التى نشأت وتطورت فى فترات متقاربة وفق مخططات مثالية أو نفعية مختلفة- مازالت من دون أى مخطط عام أو حتى تصور مبدئى ينظم عمليات الترميم وإعادة التأهيل أو الإسكان والإشغال والإزالة العديدة التى تجرى فيها . والمبانى القديمة نسبياً فيها (أى مبانى القرنين التاسع عشر وبداية العصرين والتى لم تبن أصلاً استجابة للذوق السائد حالياً ولا لمعطيات سوق الاستهلاك السريع) مازالت تعانى من تضارب القيم الاجتماعية والثقافية التى تحكم استخدامها والضغوط العقارية والمالية والقانونية التى تتجاذبها والانفجار السكانى الحاد الذى يخنقها وازدياد حدة المشاكل الاقتصادية التى تهدد كل البنى المعمارية والتحتية، والتى تطال المجتمع والأفراد وتدفعهم إلى مزيد من الاستغلال العشوائى للمدينة ولمبانيها. ليس هذا الخوف مبالغا فيه، فالكثير الكثير من هذه المبانى المهمة تاريخياً ومعمارياً إما مهجور أو مساء استعماله إلى درجة تشويهه إما عمداً أو مع النوايا الحسنة التى تروم انقاذه أو استغلاله أو تحويله بما يتلاءم ومتطلبات الحاضر. هذا هو التحدى الكبير الذى يواجه مخططى مستقبل القاهرة الحديثة ومبانيها المهمة اليوم والذى لابد من مجابهته بشتى الوسائل الممكنة والحلول المتاحة لئلا نجد أنفسنا وقد أنقذنا بعض المبانى بضمها لقائمة الآثار أو بتحويلها لمتاحف ومراكز ثقافية تخدم نخبا صغيرة ولكن الغالبية العظمى من المبانى والمدينة نفسها بقضها وقضيضها قد ضاعت علينا .

هذا لايعنى بالطبع ترك الأمور على عواهنها الآن من دون أى تدخل رسمى أو حكومى بانتظار حل شامل مانع أو بأمل عودة الوعى أو نموه فى صفوف سكان المدينة التاريخية لكى يتكفلوا هم أنفسهم بعملية إحيائها والمحافظة عليها. ومع

إدراكنا بأن سكان المدينة التاريخية هم الدعامة الأساسية لبقائها والحفاظ عليها فنحن لا يمكننا ترك هذه المدينة من دون ضوابط قانونية واضحة ومباشرة تؤطر العيش فيها بما يتلاءم وحالة المبانى الهشة فيها والرغبة العامة بالحفاظ على تلك المبانى. فهناك مثلاً حالة المرور المزرية فى غالبية الأحياء التاريخية التى فقد الكثير منها رصفه القديم وحلت محله طبقة سميكة من الأوساخ والقاذورات دكتها العربات وأقدام المشاة دكاً بحيث أصبحت هى أرضية الشارع. وهناك الوظائف المضرة بالبنى العمرانية والمعمارية كالمعامل والورش الصغيرة التى تفح الملوثات حولها والتى تخلق ضغطاً للتضحية ببعض المبانى التاريخية حولها لكى تبتلعها مخازن ومستودعات وورش جديدة. وهناك حالات لا نهائية من البناء العشوائى وإضافة دور جديدة فوق عمارات قديمة ربما لايمكن لدعاماتها وأساساتها من تحمل الوزن الإضافى. وهناك تكدس سكانى ربما كان سببه الأول غياب الضوابط المعيشية والقانونية فى هذه الأحياء. كل هذه المشاكل وغيرها تتطلب تدخلاً مباشراً وجريئاً وبناء فى آن واحد: تدخل يغرم ويعاقب ويوقف عمليات ضارة، ولكنه أيضاً يقترح بدائل معيشية ملائمة لكل حالة ضارة مما لا يتسبب بالتضحية بالناس أو بموارد رزقهم فى سبيل الحفاظ على العمارة أو العكس. ولنا هنا فى مدن الأندلس المعاصرة المثال الملائم حيث إن العديد منها، كقرطبة وغرناطة، قد حافظت على السكان فى أحيائها القديمة بل إنها ربطتهم اقتصادياً ومعيشياً بهذه الأحياء وجعلتهم الأكثر حرصاً على المحافظة عليها لارتباط مستوى معيشتهم ارتباطاً مباشراً ووثيقاً بها. ولو أن القاهرة أكبر وأعقد من أى من هذه المدن واقتراح حلول مناسبة لمشاكلها الآثارية والسكانية يتطلب دراسات عمرانية واقتصادية وسوسيولوجية متكاملة تتجاوز الحلول المجتزأة وتنظر للفراغ العمرانى ككل بحيث أنها تدعم وتستفيد من البنى الاقتصادية التعاضدية والتكافلية الموجودة على الأرض فى غالب أحياء القاهرة القديمة، كما أكدت دراسات العديد من الأنثربولوجيين المصريين والأجانب، وتستخدمها فى شحذ الشعور بالانتماء وتجذيره من خلال خلق



مقومات هذا الانتماء الاقتصادية والمعيشية والصحية والترفيهية وما إليها. ولعل فى تجربة مؤسسة الأغا خان فى ترميم وإحياء الأحياء ضمن سور القاهرة فى منطقة الدرب الأحمر المحاذية لبارك الأزهر الذى أقامته المؤسسة على كامل مساحة الكيمان الممتدة على طول السور الشرقى للقاهرة الفاطمية، مجالاً لدرس ميدانى مهم حيث إن البارك نفسه خارج النسيج العمرانى التاريخى ولكنه مواز له ومؤثر فيه ومتلق منه، وبالتالى فهو امتداد عمرانى وسكانى له وإن خلا من الأبنية التاريخية، على حين يغص الدرب الأحمر وتفرعاته بأبنية تاريخية تمتد من بداية الفترة المملوكية وحتى بداية القرن العشرين انغمس مرممو الأغا خان فى المحافظة عليها وإحيائها وابتدأوا أيضاً بإشراك سكان المنطقة نفسها فى برنامج الترميم العمرانى الكبير من خلال السعى للحصول على مساهمتهم الفعلية والمادية فى ترميم وإحياء منازلهم وسط هذا المحيط التاريخى وإعادة تأهيله للرقى بحياتهم أنفسهم فيه. ومع أن التجربة مازالت محدودة المدى والنتائج، فهى قطعاً واعدة إذا ما استمرت مؤسسة الأغا خان أو خليفتها فى المنطقة بضخ السيولة المادية اللازمة لضمان استمرار المشروع.

هناك أيضاً ضرورة مهمة أخرى قلما التُفت إليها: تثقيف المواطن العادى المقيم فى القاهرة التاريخية ثقافة تاريخية ومدنية لجعله يشعر أن انتماءه لمدينته مصدر فخر له ومنبع رضا وإحساس بالمسئولية. ولن يمكننا الوصول إلى هذه النتيجة بفرض القوانين الصارمة والغرامات الباهظة فقط كما يقترح البعض، وإن كان بعضها ضرورياً ككابح وكحل أخير. يجب الشروع ببرنامج تثقيفى شامل يطال كل السكان ويتغلغل فى حياتهم عبر القنوات الموجودة والمعتادة: المدرسة، الجامع، البيت طبعاً، وحتى القهوة، ذلك الملتقى الشعبى المفضل. وليس الأمر بحاجة لجهود كبير أو لموازنات ضخمة وإنما يكفى البدء بتدريب بعض الأفراد المهتمين والملتزمين، كخريجى المعاهد والجامعات الذين لايجدون عملاً فى المؤسسات الحكومية المكتظة، لأن يكونوا قدوة ومثلاً ومدرسين فى الأحياء الشعبية لينفحوا فى المواطن والمواطنة حب مدينتهم الفعلى، ذلك الشعور العارم الذى يغمر قلب كل قاهرى وقاهرية، والذى لن يكتمل حقاً إلا باهتمامه بها وحفاظه على معالمها وطرقاتها ونظافتها وما إلى ذلك.



والمواطن العادى حساس ومستجيب إذا وجد أن المدرس أو المثل مخلص وصادق. وهناك اليوم العديد من المؤسسات الأهلية والجمعيات غير الحكومية المصرية والأجنبية، كمؤسسة الأغا خان فى مصر وجمعيات مثل الجمعية المصرية لعمارة الأرض، التى بدأت بجهد فردى أعطى ثماراً واعدة على الرغم من صغر المشاريع وتفرقها وانعدام الغطاء القانونى اللازم لتأطيرها أو الرؤية الشاملة لتعميم تجربتها.



إن أى محـــاولـــة
للحفــاظ على العمــارة يجـــب أن تنبــع
مـن ســكانهــا



ولكننى هنا لن أتوسع فى تحليل الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية الشاملة التى تهدد العمارة القاهرية الحديثة أو فى نقد الحلول المطروحة اليوم، بل سأركز على مبدأ واحد صغير من مبادئ العمارة الحية، مبدأ تجاوزه الكثيرون فى سعيهم لحلول كبيرة وفاعلة ودائمة، هذا المبدأ هو أن «العمارة بسكانها». أى أن أى محاولة للحفاظ على العمارة يجب أن تنبع من سكانها، مستعمليها، ملاكها، الناس الذين يعيشون فيها ويتعيشون منها ويرتبطون بها كمسكن، أو مكان عمل، أو موئل ذكريات والذين يرون فيها الإطار الفراغى الذى يستجيب لمتطلباتهم ورؤاهم وقيمهم. أما الحلول التى يقدمها من لا صلة لهم بهذه العمارة إلا باعتبارها ميدان بحثهم لا ملعب حياتهم فهى ستكون حتماً ناقصة أو مجتزأة أو طوباوية وغير قابلة للتنفيذ. من هذا المنطلق يمكننا أن نلاحظ أن جزءاً كبيراً من مشكلة عمارة القرنين التاسع عشر والعشرين فى القاهرة اليوم نابع من فقدان هذه المبانى لسكانها بالمعنى الشامل الذى أقصده. فهى قد صممت وبنيت فى الأساس لناس من زمن ماض، ذوى توجهات معينة، وأساليب حياة محددة، ورؤية أخلاقية واجتماعية خاصة. ثم جارت عليها عوادى الزمن لتستبدل بسكانها الأصليين أناسا جددا ذوى تطلعات مغايرة وأساليب عيش مختلفة وضرورات ملحة متعارضة تمام التعارض مع ما بنيت هذه العمارة لأجله أو ماتمثله أصلاً. وأنا طبعاً لا أريد أن أجزم أن للعمارة حيزا اجتماعيا واحدا لايتغير بتغير الظروف، ولا أن العمارة غير قادرة على التأقلم مع تغير فى الوظيفة والمعنى والمستخدم. على العكس من ذلك، فالعمارة واحدة من المعطيات الثقافية الأكثر تأقلماً مع التغيير فى حياتنا الانسانية. ولكن لكل تأقلم حدودا، ولكل عمارة طاقة على الاستيعاب تظهر عليها بعده مظاهر الجهد والإرهاق، وبعد ذلك يحل العجز عن استيفاء وخدمة المعطيات الجديدة وتفقد العمارة وظيفتها الاجتماعية. وبعض هذا حصل لعمارة القرنين التاسع عشر والعشرين فى القاهرة مع التغير الحاد فى ظروفها وشروطها ومحيطها العمرانى والاجتماعى-

لعل واحدة من أنجع الطرق هو أن نحاول التوفيق بين العمارة وبين مستخدميها



الاقتصادى فى نصف القرن الماضى.

وعليه فنحن بحاجة لإعادة النظر مع تعاملنا مع فكرة المحافظة على هذه العمارة (أو ترميمها أو إعادة استخدامها أو تحويلها لاستخدامات أخرى) بطريقة تأخذ بعين الاعتبار العتبة الإجهادية التى لاتستطيع العمارة اجتيازها فى محاولتها التكيف مع الشروط الجديدة من دون أن تفقد صفتها كعمارة وكمحيط حياة انسانية. وبالعكس من ذلك، علينا أن نفتش عن أنجع الوسائل التى تسمح لنا بالمحافظة على هذه العمارة بتوظيفها بطريقة قريبة أو مسايرة أو موافقة لما صممت عليه فى الأساس.

ولعل واحدة من أنجع الطرق هو أن نحاول التوفيق بين العمارة وبين مستخدميها بحيث يقارب هذا التوفيق ماكان عليه القصد عندما بنيت هذه العمارة واستعملت فى الأساس. بمعنى آخر: إذا كانت العمارة سكنية أساساً فأفضل طريقة للحفاظ عليها هو فى استخدامها لأغراض سكنية أو شبه-سكنية (فندق مثلاً)، وإذا كانت العمارة فاخرة فأفضل وسيلة للحفاظ عليها هو فى استعمالها لاستعمالات متميزة من قبل مستخدمين قادرين على القيام بنفقات هذا التميز. هذه كلها طبعاً بديهيات. ولكن هذه المقاربة ستوصلنا لاستنتاج جد منطقى وجد بسيط وإن كان نادراً مايدخل ضمن نقاش المخططين والمرممين. أفضل طريقة للحفاظ على العمارة هو أن يكون مستخدموها الأقرب طبقة وذوقاً واستخداماً لمن صممت لأجلهم أساساً، وربما أفضل مقاربة هى أن يسكن فى عمائر القرنين التاسع عشر والعشرين فى القاهرة أناس ينتمون لنفس طبقة مستخدميها الأول، أو بهم أنفسهم أو بأبنائهم وبأحفادهم، أو بمن يرغبون بالتشبه بأساليب حياتهم من مواطنى اليوم وهم قادرون عليها. هذا الأمر تبين لى واضحاً فى مثال رائع من أمثلة المحافظة على العمارة قابلناه خلال جولاتنا (فريق صغير من المهتمين بعمارة الحداثة فى القاهرة) كل يوم جمعة مع أحمد البندارى: سيد سبعينى متواضع يقيم وحده متفرداً فى عمارة من ثلاثة أدوار هجرها كل سكانها وبقى هو وحده يجاهد بشتى الطرق المتاحة له فى سبيل بقاء عمارته التى عاش فيها حيزاً كبيراً من عمره والتى أصبحت الآن معرضة لخطر الإزالة.

هذا النموذج الفذ من العمارة الحية، بل والمكافحة فى سبيل البقاء، مبنى سكنى يحمل الرقم (..) فى منطقة الدرب الأحمر فى حارة القربية المتفرعة عن شارع تحت السور. وهو عمارة قل مثيلها تذكرنا بالابداع المعمارى الذى وصلته قاهرة نهاية القرن التاسع عشر عندما تمكن المصممون استيعاب جماليات العمارة المملوكية والعثمانية وتطويعها لمبادئ الفن الجديد التشكيلية والفراغية. المبنى مكون من ثلاث طبقات للسكن ويقع على ناصية خلف ربع رضوان المرمم أخيراً (ترميماً سطحياً للأسف) تتيح له واجهتين على الشارع تتقاطعان فى زاوية منفرجة مما يضفى على المبنى انطباعاً بالانفلاش والسعة مع أنه فى الحقيقة صغير المساحة لايحوى سوى شقة واحدة فى كل طابق.

هذا المبنى تحفة من تحف التصميم المعمارى القاهرى الهجين السائد فى مبانى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بطرزه المختلطة من الإسلامى الجديد Neo-Islamic بمشربياته وزجاجه المعشق وأقواسه الدائرية ذات النسب المتطاولة المتقاطع مع تأثيرات كلاسيكية محدثة وبعض الفن الجديد فى زخارفه وكسوة فتحاته.

هذا المبنى الذى لم أستطع معرفة بانيه وصاحبه وتاريخ بنائه على وجه الدقة ينسب لعائلة المناديلى التى لم تكن غالباً مالكته الأصلية. وهو يعود على الأغلب إلى أول القرن العشرين (ربما عندما تحولت المنطقة من منطقة فيلات تحيط بقصر العباسية وغيره من قصور أسرة محمد على تحت القلعة إلى منطقة سكنية لتجار وكبار موظفين ابتدأوا بالقبول بالإقامة فى شقق بدلاً من منازل منفصلة. وهو اليوم مهجور



وفارغ من السكان فيما عدا ساكن واحد مشاكس ومقاوم بكل ما للكلمة من معنى، «حسن» صلاح الدين على إبراهيم، يقيم وحيداً منذ أكثر من سنتين فى الطابق الثالث فى شقة اسبرطية فى حين تقيم أسرته فى مكان آخر خوفاً من سقوط المبنى، الذى انهار جزء من سقف طابقه الأول بتدبير عامد، وبعداً عن مشاكله حيث إن مالك المبنى يحاول بشتى الوسائل الحصول على قرار بالهدم. صلاح الدين، خريج كلية الآداب وعمل فى هيئة الكهرباء إلى أن تقاعد. وهو مولود فى هذا المنزل الذى فيه أيضاً ولدت والدته وتزوج فيه جده حسن عبد الكريم التركى الأصل وجدته، اللذان مازالت صورة زفافهما المهيبة فى بداية القرن العشرين مؤطرة فى غرفة جلوس حفيدهما.



استقبلنا السيد صلاح الدين الرجل الجميل والبالغ من العمر سبعين سنة هاشاً باشاً ونزل كل الطبقات الثلاث ليفتح لنا القفل الذى يحبسه فى المبنى ويحبس المبنى عن كل من تسول له نفسه التسلل إليه (ولو أن هذا القفل لم يمنع سارقاً فى ظلام الليل من فك وسرقة لوح خشبى محفور بالأرابيسك فى أسفل باب الدخول ومحاولة سرقة كمرة خشبية فى أعلاه ثبتها صلاح الدين بمسامير غلاظ).

تتميز واجهتا الطابق الأرضى من المبنى بصرامة كلاسيكية وحجر نجيت ونوافذ مؤطرة بخطوط كلاسيكية تشبه إلى حد بعيد القصور المدنية الإيطالية من عصور النهضة والباروك. ولكن الصرامة الكلاسيكية تختفى فى الطابقين الثانى والثالث لتحل محلها خفة دم إسلامية محدثة: مشربيات ذات حنيات وأعمدة دقيقة مزدوجة وأفاريز خشبية مزخرفة ودرفات نوافذ مستطيلة من الزجاج الملون متناغمة فى تشكيل جميل فوق درفات خشبية مزوقة بالرسومات الهندسية المحفورة. أما الداخل فهو لايقل حسن ذوق معمارى عن الخارج، خاصة فى ابتكار رائع فى الحمام الذى يعلوه سقف مكون من قبة مسطحة فيها كؤوس الزجاج الملون التى عرفناها فى الحمامات الإسلامية القروسطية تضفى على المكان طابعاً خاصاً، ولكننا هنا فى عمارة سكنية من ثلاثة طوابق فكيف يدخل النور إلى هذه القباب؟ يدخل عبر الفراغ الذى أمنه المعمار بين سقف الطابق الأدنى وأرضية الطابق الأعلى مما يسمح بمرور الضوء لكى يتسرب إلى الداخل بعد ذلك عبر الكؤوس الملونة. مخطط الشقق عثمانى متأخر تقليدى من طراز «الصوفا» أو الردهة التى تستعمل كموزع على باقى الغرف، مع بعض من تحويرات نابعة على الأغلب من شكل الأرض المستطيل التى أقيم عليها المبنى ومن المسافة المعتبرة المطلة على الشارع فى واجهتيه.

ولكن أهم مافى المبنى رقم (..) فى حارة القربية هو ساكنه الوحيد صلاح الدين على إبراهيم. فهو والعمارة التى يسكنها صنوان. وهو يشعر مع العمارة التى يقيم بها وحيداً لالسبب إلا للمحافظة عليها من اعتداء الطامعين الذين يريدون إما إزالتها أو على أقل تقدير الاستفادة من العناصر التزيينية فيها التى يمكن أن تباع بثمن باهظ فى سوق الأنتيكات. هذا الرجل يشعر أن لديه رسالة خاصة وهى الحفاظ على هذه العمارة وهو فخور بها، حريص عليها، متوجس من مستقبلها، ويفتش عمن يساعده فى تأمين بقائها وإعادة رونقها. وهو، على مايبدو لى، لايروم من وراء ذلك القيام بصفقة مالية كبيرة، فهو لم يتوقف عن ترداد رغبته بأن

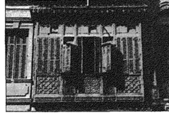


أحمد البندارى بقى هو وحده يجاهد بشتى الطرق المتاحة له فى سبيل بقاء عمارته



يساهم فى ترميم مبناه والوقوف على العاملين على هذا الترميم لكى يتأكد بنفسه من أنه لايشذ عن الأصل. وكان يضيف كل مرة بأنه لايمانع من أن يغادر المبنى، مع تعويض معادل لما يأخذه غيره، لأجل ترميمه على أن يعود إليه زائراً بعد ترميمه ليشاهده فى جلوته المعمارية. وهو يقول أيضاً أن فاروق حسنى سيكون فخوراً يوماً ما بأن يدعو زواره لتفقد هذا النموذج الرائع من عمارة القاهرة الحديثة. وهنا ملاحظة هامة وهى أن صلاح الدين ينظر إلى مبناه نظرة تتجاوز كونه بيته ومأواه، نظرة تعى أهمية المبنى الجمالية والمعمارية مما يجعله يقبل طواعية بمغادرة المبنى إذا كان ذلك سيؤدى إلى ترميمه وإحيائه، وإن لم يتمكن هو نفسه من العودة إلى شقته وحياته فيه. هذه النظرة الغيرية ولكن الواعية معمارياً نادرة الوجود، ولاأظن أن الكثير من سكان المبانى التاريخية فى العالم كله يتمتعون بهذه الدرجة من الحس الجمالى والمعمارى التى تمكنهم من رؤية المنفعة العامة من ترميم المبنى التى غالباً ماستؤدى إلى إجلائهم منه واستعدادهم للقبول بذلك طواعية بغض النظر عن المنفعة المادية المتأتية من ذلك.

لاأعرف ما إذا كان هذا النموذج الفذ من سكان القاهرة التاريخية استثنائيا أم أن مثله كثر، ولو أنى أستبعد ذلك إذا مانظرنا إلى مآل العديد من المبانى المهمة من القرنين التاسع عشر والعشرين التى لم تجد من يهتم بها أو يدافع عنها فانزوت فى غياهب النسيان أو وقعت تحت ضربات معاول الهدم. صلاح الدين على إبراهيم نموذج يجسد فى إرادته وفى قراره البقاء فى منزل نشأته عقلية متميزة تنظر إلى العمارة من منطلق غير مادى، منطلق هو فى الأن نفسه جمالى وذاكراتى وحتى رومانتيكى إلى حد ما، لأن مسكنه من المبانى التى يجب أن يحافظ عليها بمعمارها المعبر وتاريخها العابق. وهذا هو بالضبط ماتحتاج إليه القاهرة التاريخية: أن يكون للمبانى أهل يقيمون بها ويرعونها ويحافظون عليها ويمنحونها من حيواتهم معنى ومبررا للبقاء، وخاصة تلك التى تقع روائعها المعمارية على تخوم التاريخ فى بلد يمتد تاريخه إلى آلاف السنين ويطفح بالأوابد المهمة مما يجعل من مهمة الحفاظ على هذا التراث واجباً وطنياً يجب أن تهتم



به قطاعات كبيرة من الناس الواعين لتاريخهم ولروعة تراثهم المعمارى لا أن يكتفى الواحد منا بالقول أن المؤسسة الحكومية الفلانية أو الإدارة العلانية مقصرة فى واجبها أو أن سكان الحى الفلانى مطحونون ومسحوقون يركضون وراء الرغيف مما لايدع لهم وقتاً أو فكراً للاهتمام بالمحيط العمرانى التاريخى الذى يعيشون فى جنباته، أو أن المتعهدين الجشعين أو ملاك الأراضى الشرهين لايدعون فرصة للكسب إلا واتبعوها وإن أدى ذلك إلى تدمير مبنى أو إخلاء منطقة تاريخية. فكل هذه الشكاوى صحيحة وحادثة، وكلها بحاجة لحلول اقتصادية وتثقيفية وقانونية قد لايكون إنجازها ممكناً فى الوقت الحالى ومن المؤكد أن نتائجها لن تكون بادية للعيان، إن حصلت، إلا بعد زمن طويل قد لا تتمكن المبانى التاريخية المهمة من الصمود خلاله فتتهاوى تحت ثقل الزمن والإهمال والمحسوبيات والصراع على الأرض السكنية فى مدينة حصلت مؤخراً (فى نهاية) على تميز عالمى مشبوه ألا وهو كونها المدينة الأكثر كثافة سكانية والأكثر تلوثاً فى العالم.

هذه المعطيات الانسانية والاجتماعية والمدينية والذاكراتية تمثل الإطار غير المادى المهم واللازم لأى مشروع ترميم وإعادة إحياء عمرانى ناجح وطويل الأجل. فمهما كانت العناية التقنية والمعمارية دقيقة بترميم الأبنية نفسها أو بالحفاظ عليها (وهى ليست كذلك اليوم فى غالب الأحوال)، فهى ستكون ذات أثر ضئيل إذا كانت النظرة إلى الأبنية محصورة بمداها المعمارى الشكلى والاستثمارى من دون التطرق إلى معناها فى محيطها العمرانى والاجتماعى ووظيفتها المعنوية كموئل للذاكرة بكافة تدرجاتها من الخاص إلى العام، ومن الحميمى إلى الاجتماعى، ومن الفردى أو العائلى إلى المدينى فالوطنى أو القومى ثم الانسانى العام والمشترك.



فالعمارة الحقيقية بالنسبة للفرد وللمجتمع ككل تحتوى، فى المقام الأول، على آفاق للمعنى تسمح لكل فرد يتعامل معها بأن ينسج علاقته الخاصة الدافئة بها وأن يخلق صلته الحميمة بها من خلال تركيب ذكرياته من دون أن تفقد أيا من رمزيتها المعنوية والعقائدية الجمعية. فربما أمكننا أن نتعلم من الأشخاص المتميزين مثل صلاح الدين على إبراهيم لتفعيل تحميل مسئولية المدينة لسكانها ومساعدتهم تثقيفياً ومادياً ومعنوياً على المحافظة عليها والاهتمام بها، ولتغيير اللوائح الجامدة التى لاتأخذ بعين الاعتبار الصورة الكلية والوظيفة الفعلية للمبانى. فالعمارة قد وجدت لكى تُستخدم ولكى تؤوى أناساً لهم آمالهم ومطامحهم وهواجسهم ومشاكلهم الصغيرة والكبيرة التى سرعان ماتتخذ لنفسها مأوى وتعبيراً فى العمارة التى يسكنونها أو يعملون بها بما أنها فى المحصلة الأخيرة غلاف الحياة الإنسانية الخاصة والاجتماعية العابقة بالمعنى والذكرى.

ولكنى لن أبقى فى تحليلى وفى اقتراحاتى مقتصراً على المستوى التحليلى أو على الملاحظة المعجبة، على أهميتهما فى الإشارة إلى ماهو إيجابى وفى التشجيع على استخلاص بعض الحلول الممكنة للحفاظ على عمارة القرنين التاسع عشر والعشرين أو على بعضها على أقل تقدير ومحاولة النهوض بالمستوى العمرانى لمحيطها فى مناطق وسط البلد وعابدين وجاردن سيتى والمنيرة والزمالك من دون تدخلات بتارة ومفاجئة إن على الصعيد الانشائى أو الاجتماعى. ما سأشير إليه فى ختام حديثى هنا هو التنبيه إلى حقيقة كلنا ندركها عن القيمة الرأسمالية للعمارة فى وسط البلد وغيرها من الأحياء الحديثة والصراع مابين مردودها المالى كعمارة قائمة وكأرض بناء فضاء يمكن أن تستخدم بطريقة أكثر اقتصادية ويمكنها أن تدر عوائد أكبر على مستثمريها. ولن أتهرب من هذه الحقيقة التى تشكل الخطر الأول والأهم بالنسبة للعمارة التى أدعو هنا للحفاظ عليها. بل إنى سأستخدمها للتأكيد على إمكانية التعامل مع هذه العمارة الرائعة تعاملاً يظهر الترابط التحليلى والمادى بين القيمتين الفنية والثقافية (بالمعنى العريض لمفهوم الثقافة) لهذه العمارة. وكل عمارة بحقيقة الأمر - من جهة وقيمتها المادية من جهة أخرى التى لاتخضع فقط لقيم السوق، ببعديه المالى والاجتماعى وأرضيته الاستهلاكية، وتذبذبها كما يدعيه اقتصاديو الخصخصة، بل تخضع أيضاً لعلاقات إنسانية واجتماعية ومعنوية مهمة أيضاً. وربما تجرأت على التأكيد بأن القيمة الفعلية لأى عمارة بنهاية الأمر هى محصلة عدة عوامل منها المادية والاستهلاكية ومنها الثقافية والتاريخية والجمالية، وأن العلاقة بين هذين المجالين هى علاقة معقدة وربما جدلية، أى أن محصلة القيمة المعمارية مختلفة عن القيمة الفنية والقيمة المادية معاً ولكنها نتاج علاقتهما وتفاعلهما مع بعضهما البعض. وهذا برأيى هو المدخل النظرى الأمثل لتقديم المحافظة على القاهرة التاريخية، تلك الرائعة المعمارية التى تحب، كمشروع رابح اقتصادياً واجتماعياً ومعمارياً وإنسانياً. ■



لاأعرف ما إذا كان هذا النموذج الفذ من سكان القاهرة التاريخية استثنائيا أم أن مثله كثر



"إزيدورا سلماوى"

▪▪ تتكون المجموعة القصصية «إزيدورا والأتوبيس» لمحمد سلماوى من ست عشرة قصة قصيرة، وكما جاء فى تقديم الناشر أنها مختارات من مجموعاته القصصية الست السابقة بالإضافة إلى بعض القصص الجديدة التى لم تُنشر من قبل، وناشرها الدار المصرية اللبنانية.

ولمحمد سلماوى تاريخ إبداعى مع ثلاثة أنواع أدبية: القصة القصيرة، والرواية والمسرحية. لهذا كنت أود أن يُختتم الكتاب بتعريف موجز للكاتب وقائمة إبداعاته، وهو تقليد أود أن تلتزم به دور النشر لفائدته المزدوجة على كلٍ من الكاتب وقرائه.

ملاحظة أخرى كنت أود أن يثبت أ. محمد سلماوى تاريخ كتابة أو نشر كل قصة حتى نتابع من خلال هذه التواريخ تطوره الإبداعى فى القصة القصيرة لأن إغفال هذه التواريخ يدفعنا إلى البحث عن ملامح عامة لقصص المجموعة، وهو ما يتعذر الوصول إليه إذا كانت المنتخبات من ست مجموعات سابقة أبدعها كاتبها فى مراحل متطورة لكتابته القصة القصيرة.

على أية حال واضح أن القصة القصيرة عند محمد سلماوى ما تزال عموما فى شكلها، لكنه يستخدم أكثر من شكل من أشكال الكلاسيكية القصصية، فيلجأ تارة إلى الحقبة الفرعونية فى قصته الأولى إزيدورا وحابى مما يذكِّرنا بروايات نجيب محفوظ الأولى الفرعونية، وهى تعالج القضية الشهيرة قضية الفصل بين حبيبين لعل أشهرها مسرحية روميو وجولييت لشكسبير التى انتهت بمصرع الحبيبين انتحارا. وفى قصتنا نستمع إلى أكثر من صوت، صوت الراوية أولا يقدم لنا ما كتبه الحاكم الرومانى على مصر ووالد الشابة إزيدورا على عمودين يحتضنان باب الغرفة المدفونة فيها مومياؤها. بعدها ننتقل فانتازياً إلى طيف إزيدورا تقص حكايتها مع حبيبها الضابط المصرى حابى (وهو اسم فرعونى أيضا من أسماء النيل) من حرس القائد الرومانى حين جمع بينهما رئيس الحرس- متجاهلا النتيجة المرجحة لتصرفه- وذلك بأن أمر حابى باصطحاب إزيدورا ابنة السابعة عشرة





يوسف الشارونى

يستخدم سلماوى أكثر من شكل من أشكال الكلاسيكية القصصية

فى زورق بالنيل حتى قبيل الغروب (أى أنه هيأ لهما هذا الجو الرومانسى الذى كانت نتيجته محتومة) وبعد ذلك لا يتقبل والدها النتائج التى دبر لها بنفسه مقدماتها بل يعاقبهما بالفصل بينهما، ونستمع إلى صوتى حابى وإزيدورا بالتبادل، وترق شكوى حابى مما نزل به حتى تتنامى إلى لغة الشعر حين نقرأ له: ماذا ألمَّ بك يا إزيدورا؟ كتبت اسمك على أجنحة الحمام علَّه يصل فى طيرانه إليك، كتبت اسمك على رمال الصحراء، وعلى حوائط معبد الكرنك بحروف سرية. (ص١٧) وتنتهى القصة كما تنتهى قصة أى عاشقين تفصل بينهما سلطة تفرض رؤيتها ولا تقيم للعواطف وزنا. وبدلا من أن تكون إزيدورا بين ذراعى حبيبها حابى فإنها تقفز بين ذراعى النهر «حابى» «فأحاطتنى موجاته على الفور وانزلقت بى إلى باطن النهر» (ص١٩). وتُختتم القصة بهذيان حابى «يقولون إننى جُننت.. لست مجنونا، هى معى وستظل دائما معى» (ص١٩)

ومن الحقبة الفرعونية نقفز إلى إنسان معاصر مأزوم مطعون فى ذمته المالية لينتهى أيضا غرقا لكن فى حمام السباحة بالقصر الكبير، نفس ما أنهت به نفسها إزيدورا منذ آلاف السنين تجمع بينهما بشرية واحدة ومبدع واحد وإن تباعدت بينهما الأسباب والسنوات. لكن الصحف واصلت اهتمامها بقضيته بعد هذا التطور المفاجئ الذى ما كانت تحلم به فبدأت فى الأسبوع الأول تتحدث عن وفاته وهل كانت انتحارا، وفى الأسبوع التالى كانت هناك تساؤلات عن ظروف وفاته، وفى الأسبوع الثالث تناولت حجم ثروته، وتُختتم القصة بهذه الجملة التى تربط بدايتها بنهايتها «ولأن الرجال المهمين تبقى سيرتهم بعد رحيلهم، فقد كانت هناك دائما بقية فى الأسبوع المقبل» (ص٣٠) من المؤكد أن إزيدورا وحابى لو كانا يعيشان فى القرن الحادى والعشرين لكانت لقصتهما بقية فى الصحافة كما كانت لأحد مليونيرات القرن العشرين أوالحادى والعشرين.

وهكذا فإن تجاور القصتين فى المجموعة - سواء قصد محمد سلماوى أو لم يقصد- يسَّر لنا أن نكتشف أن نهايتى بطلة القصة الفرعونية وبطل القصة المعاصرة واحدة وهو الانتحار، لكن لأسباب مختلفة تماما، كما أن ما بعد النهايتين مختلف اختلاف زمنين بينهما ألفا سنة.

أما قصة كونشرتو الناى إحدى قصص ثلاث فى المجموعة أبطالها من غير الإنسان. فهذه القصة قصة حياة عود من أعواد الغاب وطموحاته لم تتحقق بل أصبح ينتظر مصيره، حين يترك مكانه فى ذلك المنزل الأنيق بالقاهرة لن يكون للعودة إلى موطنه السابق على ضفة النيل، بل ليُلقى به فى القمامة» (ص٤٠)، ويتساءل القارئ لماذا فضَّل له مبدعه هذا المصير المأساوى من بين أكثر من مصير محتمل، بل بعد أن لوح لنا بمصائر أفضل لأعواد غاب مماثلة حين بدأ يشعر بالحنين لصوت الناى الحزين الذى كان يأتيه من القوارب المارة فى النيل بينما يشكل نقيق الضفادع الخلفية الإيقاعية لذلك اللحن العذب الأصيل (ص٤٠) مصير ليس أفضل من انتحار بطلى القصتين السابقتين وإن كان بيد غيره لا بيده.

قصة أخرى بطلتها شجرة جميز عتيقة، ومصيرها ليس أفضل من مصير زميلها فى عالم النبات عود الغاب السابق، ويبدو أن هذه المأساوية، إن صح التعبير، هى الدافع الإبداعى عند محمد سلماوى، فقد

«ازيدورا والأتوبيس»
محمد سلماوى
الدار المصرية اللبنانية
القاهرة ٢٠٠٨

هناك ثلاثية أخرى مختلفة فى مجموعتنا القصصية هى ما أطلق عليها ثلاثية الصراع العربى الإسرائيلى



كان مصيرها بعد حياتها الحافلة انهيارها على أثر صدمة أسفل جذعها من سيارة يقودها شاب مخمور فوجئ بسيارة نقل قادمة تجاهه فاندفع إلى الجانب الآخر حيث شجرة الجميز فصرخت من الألم صرخة سمعتها بقية أشجار الضاحية (ص٨٣) فى هذه المرة لم تصرخ فلم يكن بها صوت (٨٣). ومبدع القصة لا يحرص على أنسنة شجرة الجميز فقط بل على أنسنة الطبيعة كلها. فالأرض تعيد للشجرة المنهارة الحديث الذى كانت تحبه لكنها لم تكن تجيب، بينما ربتت أشعة الشمس الدافئة على أغصان الشجرة علها تنطق لكنها ظلت بلا صوت ولا حركة (ص٨٣) لهذا انتحبت الأرض، واحتجبت الشمس وراء سحابة سوداء لتدارى دموعها، بينما أسقطت حدائق الحى زهورها حزنا على شجرة الجميز. وتُختم القصة ونحن نستمع لأحد سكان الضاحية يقول وهو ينزل من البيت ويهم بركوب سيارته: لماذا لا يقتلعون تلك الأشجار القديمة التى لا فائدة منها. وهكذا تُصدر الحداثة حكم الإعدام على الأصالة وهو ما سيتكرر فى أكثر من قصة تالية، صحيح أن بطلة القصة شجرة وليست إنسانا، لكن مبدعنا أنسنها.

أما القصة الثالثة «رحيل جواد أشهب» فإن بطلها كما هو واضح من عنوانها من عالم الحيوان وليس من عالم النبات كالقصتين السابقتين، وقد امتدت الأنسنة هنا إلى عالم الجماد المحيط بجوادنا الأشهب «فيه بياض حالم كالسحاب، وتزين جبهته غرة بيضاء كأنها التاج الملكى» بينما الجياد التى من حوله والحاقدة عليه كانت بيضاء كالحة أو سوداء داكنة. هنا نشعر نحن القراء أننا لسنا أمام أنسنة الحيوان بقدر ما نحن أمام حيونة الإنسان، وكأننا نقرأ قصة من قصص «كليلة ودمنة» لابن المقفع، فهى تعكس عن طريق هذا الحصان الأشهب ما يلاقيه الإنسان المتفوق من حقد قاتل من المحرومين مما يتميز به، فلا عجب أن حدث «فى ليل بهيم بينما كان الجواد الأشهب نائما، تسلل إليه بعض الجياد السوداء (لاحظ المغزى المتعارف عليه لهذا اللون مع الاعتذار لإخواننا الأفارقة) فلم يتبينها أحد فى جنح الليل، ثم غرس أحدهم (لاحظ ضمير العاقل البشرى) خنجره المسموم فى كبده وفروا جميعا هاربين.

لكن مبدعنا محمد سلماوى يأبى أن يكون هذا هو مصير الجواد- يقصد الإنسان- المتميز فما يلبث أن يُخرج من الآكل أكلا ومن الجافى حلاوة مستخدما ما يتيحه له الإبداع الأدبى من حرية الانتقال من الواقعية إلى الفانتازية، فما نلبث أن نقرأ أنه مع فجر اليوم التالى كان قد ظهر على جانبى الجواد جناحان كبيران بدآ يتحركان فى بطء إلى أعلى وأسفل حتى ارتفعا بجسده الهزيل عن الأرض شيئا فشيئا وما هى إلا لحظات حتى كان هناك فوق قمم المآذن وفوق ظهر القباب، وفى الصباح شاهده الناس بين السحب فى السماء يصهل وقد أخذ يمطر المآذن والقباب بالورد والزهور والرياحين من كل نوع ولون (ص١٠٦) معلنا عن تميزه حتى فى استشهاده.

ويتساءل القارئ هل تختلف كثيرا نهاية «رحيل جواد أشهب» عن قصصنا السابقة: الأميرة الفرعونية إزيدورا، ومليونير القرن العشرين أو الواحد والعشرين المصرى، وعود الغاب، وشجرة الجميز، تعددت المسالك وتوحدت النهايات.



هناك ثلاثية أخرى مختلفة فى مجموعتنا القصصية هى ما أطلق عليها ثلاثية الصراع العربى الإسرائيلى وهى بعناوين أبطالها الثلاثة امرأة ورجلان مستمدة من تاريخ هذا الصراع (وفاء إدريس، والطفل محمد الدرة، وجهاد المسحراتى) ولكن قلم محمد سلماوى نقلها من التاريخ إلى الفن، مما وقع إلى ما يُحتمل أن يقع.

وإذا كان مصرع كلٍ من وفاء إدريس ثمرة لعملية فدائية قامت بها، وجهاد المسحراتى لمخالفته لقوانين منع التجول التى أعلنها العدو. فإن مصرع الطفل محمد الدرة غير المشارك فى المعارك التى فوجئ بها فى طريق عودته مع والده بعد أن فشلا فى شراء سيارة سوبارو حمراء تحقيقا لحلم الطفل بها فى ذلك اليوم، أقول إن مصرعه كان يرمز لآلاف الأطفال الفلسطينيين الأبرياء الذين راحوا ضحية ذلك الاستيطان العدوانى المتواصل منذ آلاف السنين، منذ اعترفت به توراتهم، على نحو ما نقرأ فى سفر يشوع على سبيل المثال عندما استولى جيشه على مدينة أريحا «وقتلوا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف» (يشوع، أصحاح ٦، عدد ٢١) بينما نجت راحاب الزانية (هكذا لقبها فى التوراة) التى خانت قومها وآوت جواسيس إسرائيل قبيل المعركة التى أبادت شعبها. وهكذا تنتهى قصة محمد سلماوى المأساوية التى يحتشد فيها الواقع والرمز بتساؤل الوالد واحتجاجه: ما ذنب ولدى؟ كل ما كان يريده هو سيارة حمراء. كان يمكن أن يكون حيا الآن..لو كان عندهم رحمة..قليل من الرحمة (ص٢٠٣).

وقد استطاع محمد سلماوى فى القصتين الأخريين المعنونتين باسم بطليهما «وفاء إدريس» و«جهاد المسحراتى» أن ينقلنا من التاريخ إلى الفن حين افتتح كلا منهما بنهايتها: استشهاد وفاء إدريس أثناء قيامها بعمليتها الاستشهادية، واغتيال رصاصات الاحتلال الإسرائيلى لجهاد مسحراتى مدينة نابلس. ثم مضى يقص - بعين الفنان- ما خلف هاتين النهايتين، أو هاتين الحلقتين لما سبقهما وما يليهما. بدأ بالخبر المنقول من وسائل الإعلام ليجعله مجرد باب يدلف منه إلى ما وراءه حيث يزدهر دور الفنان، فقد قام بعملية قص - بالمعنيين لها فى لغتنا العربية: قص الأثر بمعنى تتبعه وقص بمعنى حكى. فروى لنا عن المقدمات التى تَخفى على متلقى النهايتين. وإذا كان الطفل محمد الدرة ضحية واضحة للعدوان الصهيونى حيث أنه فى عمر لا يسمح له بأى نشاط إيجابى، فإن جهاد المسحراتى كان ضحية لتصرف أكثر إيجابية، حيث أنه تحدى تعليمات الاحتلال الإسرائيلى فى مخيم «عسكر الجديد» للاجئين بضواحى نابلس بالامتناع عن إنشاد الأدعية والتراتيل لإيقاظ سكان المخيم لتناول سحورهم الرمضانى، ومما دعا جنود الاحتلال إلى إعلان حظر التجوال فى نابلس وضواحيها. غير أن إصرار جهاد المسحراتى على مواصلة مهمته كان خرقا لحظر التجوال أدى إلى إطلاق النار عليه فسقط على الفور غارقا فى بركة من الدماء، حتى سيارة الإسعاف منعوها من دخول المخيم بدعوى أن حظر التجول يجب أن يُحترم (ص٢١١). (ولا يُحترم إنقاذ إنسان) تنتهى القصة بعلوٍ لفظى وأسلوبى على المأساة حين تقرأ هذه الجملة التى تُختتم بالكلمتين أو اللفظين اللذين يجمع بينهما معنى متشابك «وحين جاء عيد الفطر بعد انتهاء شهر رمضان المبارك فإن مخيم عسكر الجديد بنابلس كان قد خيم عليه حزن مقيم، لكن سكانه كانوا قد صحوا جميعا وأخذوا يستعدون للفلاح - للكفاح». إن هاتين الكلمتين الختاميتين قد أملتها ما أُطلق عليه النشوة الإبداعية التى تعلن أنه إذا كانت القصة قد انتهت فإن الحكى لا يزال متواصلا تعبر عنه هذه الجملة الختامية.

أما مصرع وفاء إدريس فكان ذروة القصص الثلاث، لأنها لم تنتظر ليفاجئها العدوان كما حدث فى مصرع الطفل محمد الدرة الضحية المسالمة السلبية أو المسحراتى جهاد الضحية المسالمة الإيجابية الذى تحدى تعليمات المحتل، بل تجاوزتهما بحركة أكثر إيجابية فى أقصى الطرف، وذلك فى عملية كانت تدرك أن فيها نهايتها لكنها تقتص مسبقا من قاتلى شعبها دون أن تمنحهم سعادة الانتقام لأن جسدها تناثر أشلاء.

ثلاثية ثالثة يجمع بينها ضمير المتكلم هى برج السرطان و«آلو» وهى منولوج متصل و«العرض الأخير». أما «برج السرطان» فتحكى قصة طبيب له

استطاع محمد سلماوى فى القصتين الأخريين المعنونتين باسم بطليهما «وفاء إدريس» و«جهاد المسحراتى» أن ينقلنا من التاريخ إلى الفن



زوجة وأبناء إلا أنه يقع فى غرام محاسن إحدى بنات الليل التى رغم محاولته إنقاذها مما هى فيه -أو هذا على الأقل ما كان يبرر به أمام نفسه استمرار علاقته بها- إلا أن توباتها كانت دائما مؤقتة، ورغم أنه طبيب جراح ناجح إلا أنه لم ينجح هنا فى إجراء العملية التى يجريها فى بعض حالات السرطان..أى الاستئصال فهو «سرطان من نوع جديد يستحوذ على الإنسان ويتغذى عليه جسديا ونفسيا فى الوقت نفسه» (ص٩٤). وبطل القصة هو نفس الشخصية المثقفة لأبطال قصص أخرى فى المجموعة حيث يساورنا الارتياب أن مبدعهم محمد سلماوى يطل علينا من خلالهم. فنحن نقرأ قول الطبيب عن قصته مع محاسن «إنها ليست قصة تاييس (لأناتول فرانس) التى ظن الراهب أنه يستطيع هدايتها إلى الطريق القويم فغوته هى إلى الرذيلة، ولا قصة بيجماليون (فى الأسطورة اليونانية) الذى صنع بيديه تمثالا جميلا ثم طلب من الرب أن تدب فيه الحياة فأجابه الرب إلى طلبه لكنه برغم حبه العظيم لحبيبته ورغم أنه صانعها لم يستطع أن يستحوذ عليها..ولا هى عقدة لوليتا التى يقع بعض الرجال فريسة لها حين يتقدم بهم السن» (ص٩٤). وقد هربت منه محاسن إلى ملهى من الدرجة الثالثة أملا فى ألا يعرف مكانها فلا يلاحقها، لكنه يكتشف الملهى الجديد وأنها تقابل فيه جميع معارفها القدامى، وبالرغم من ذلك فقد سيطرت محاسن على حياته بحيث يعترف أنه يخجل من سرد تفاصيل يومه بقراءة حظها بالصحف تحت برج السرطان (لاحظ استخدام لفظ السرطان بمعان ثلاثة: فبطل القصة طبيب المرض جسديا وعلاقته بالغانية سرطان عاطفى، والتطلع إلى برج السرطان لقراءة حظها) وهذا الثلاثى أحد مكونات الوحدة - مضمونا وشكلا- للقصة. لهذا يعترف بهزيمته فى ختام القصة، وبمحنته مستخدما مصطلحات تخصصه ومزاوجا بين مهنته ومحنته «لم يُجد العلاج..لم يُجد الاستئصال، لم تُجد النقاهة، لقد فشلت العملية الأولى فى حياتى. نسبة حقيقية طبية مهمة أنه فى بعض حالات السرطان المتقدمة، فإن الجراحة لا تقضى على المرض..وإنما على العكس تنشطه، وفى مثل هذه الحالات فإن دور الطبيب ينتهى ويصبح الخلاص الوحيد للمريض من آلامه هو حين يقضى الله أمرا كان مفعولا» (ص٩٩). فهو لا هى أغوته ولا هو نجح فى هدايتها، وهو موقف مختلف عن معظم العلاقات المماثلة فى أعمال أدبية سابقة إما نجح الرجل فيها فى هداية المرأة وإما أن المرأة نجحت فيها فى إغوائها للرجل الذى حاول هدايتها كما فى رواية أناتول فرانس، أو القس مع العمياء جيروترد لأندريه جيد فى روايته «السيمفونية الريفية» عندما استعادت بصرها بفضل مجهوداته ووجد القس نفسه مغرما بها، وقصة «شادى طومسون» مع رجل الدين فى رواية «المطر» لسومرست موم الذى يحاول إنقاذ الغانية وفى اللحظة التى يكاد يتحقق فيها هدفه يكتشف أن محاولته لم تكن لإنقاذ روح الغانية بقدر ما كانت وسيلة لمقاومة رغباته الدفينة التى ما تلبث أن تنتصر عليه. أو ربما مواقف أخرى عكسية أقل نجح فيها الرجل فى هداية المرأة على نحو ما نقرأ فى رواية «جسر الشيطان» لعبد الحميد جودة السحار، بينما فى رواية «الرباط المقدس» لتوفيق الحكيم انتهت العلاقة بين راهب الفكر والسيدة التى زارته فى بيته دون أن تغويه ولا أن يهديها. (انظر دراسة فى رواية جسر الشيطان فى كتاب يوسف الشارونى، رحلتى مع الرواية، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، رقم٧ ١٩٨٦).



القصة الثانية مما أطلق عليه ثلاثية ضمير المتكلم والأدق هنا المتكلمة هى قصة «آلو» لأنه مجرد حديث تليفونى من إنسانة مجهولة الاسم (وإغفال اسم بطل القصة أو بطلتها سمة فى كثير من قصص المجموعة) ردا على مكالمة من حبيبها السابق عادل (ذكر اسم البطل الثانوى سمة أخرى) الذى انقطعت صلته بها «منذ سنة وسبعة وعشرين يوما بالضبط» (ص١٣١)، لكنها من جانبها لم تقطع صلتها العاطفية به. لهذا حين بدأ رده بتوجيه دعوة لها، لم تمهله ليكمل ما بدأ، بل اندفعت تسبق بقية مكالمته. وطبقا لحماسها فى رأب علاقاتها المهزومة المأزومة كان أساس كلماتها (عالم خارجى)، وهواجسها (عالمها الداخلى) التى وضعها محمد سلماوى بين قوسين أن اتصاله مغزاه عودته إليها برغم أنها فى بداية حديثها معه، تقول له: لقد تصورت طوال الوقت أنك سافرت..لم أتخيل أبدا أنك فى نفس البلد أو حتى نفس الدنيا (أى أنك غادرت الحياة)، لكنها تستدرك قائلة: لا لا أقصد..أنت تعرف معزتك عندى (ص١٣٢)، ولأن معظم أبطال قصتنا مثقفون فإننا نستمع إلى بطلتنا وهى تعلن لحبيبها السابق ولقراء قصتها على السواء أنها تفضل تلبية دعوته على العشاء عن الغداء لأن العشاء لا يكون إلا فى الليل، والليل يسدل ستارا على كل متاعب الحياة ولا يعود الإنسان يرى إلا متعة الذى يجلس أمامه على مائدة العشاء، تماما كما فى المسرح الأسود، الذى يختفى من فوقه جميع الممثلين ولا يرى الجمهور إلا ما يحملون من أدوات بيضاء (ص١٣٢) (عاشقة يشكرها كاتب هذه السطور لأنها تقدم له معلومة عن المسرح الأسود كان يجهلها) وكانت قد أعلنت أثناء حديثها أو ثرثرتها التليفونية أنها سعيدة فى حياتها الجديدة التى التقت فيها بشخص آخر «وجدت أنه يحبنى حبا كبيرا وأنا سعيدة معه الآن» (ص١٣٣) لكنها سرعان ما تراجعت معلنة «يجب أن أعترف لك بشىء هذا الشخص الذى حدثتك عنه الآن لا وجود له.. لقد اختلقت هذه القصة لأحفظ كرامتى أمامك» (ص١٣٣) «إننى لم أر أحدا منذ تركتنى..لم يدخل أحد حياتى.. كنت أعرف أنك ستعود» (ص١٣٤).

وتُختتم القصة بهذه المفاجأة حين يعلن لها أنه يدعوها لعرسه، فيعود إليها الصداع الذى أعلنت فى بداية ثرثرتها أنها كانت مصابة به فى البداية «صداع مزمن لكنى تغلبت عليه بعد ذلك وعدت إلى الحياة مرة أخرى» (١٣١).

فالمفاجأة فى نهاية القصة وربط نهايتها ببدايتها من الأساليب الشكلية المتداولة فى الإبداع القصصى، والتى أجاد محمد سلماوى استخدامها فى هذه القصة. أما القصة الثالثة التى استخدم فيها محمد سلماوى ضمير المتكلم فى هذه المجموعة فهى عنوانها «العرض الأخير»، وهى مضادة فى اتجاهها للقصة السابقة لأن ضمير المتكلم هنا هو ضمير المحب الذى يخاطب إحدى المعجبات بتاريخه المسرحى متسائلا هل ستكونين معى هنا فى هذه الليلة..فى العرض الأخير..أم أنك أنت أيضا لن تأتى كالباقين. فهى ليلة ليست كالليالى السابقة لأنها ختام لياليه المسرحية أى حفل وداع.

وتتضمن هذه القصة القصيرة نقدا من هذا الزميل الغارب من المشتغلين بالمسرح للمشتغلين به حاليا حين نسمع بطلنا يعلن أن شخصه المسكين لم يعد يقوى على تحمل عذاب المسرح أكثر من ذلك. «عذاب المسرح الذى لم يعد مسرحا، بل شىء آخر لا أعرفه» (ص١٦٨). لعلها شيخوخة فكر لم تستطع أن تلاحق تطورات الحداثة، ولعلها كلمات وداعية لبطل مسرحى لإحدى المعجبات بفنه وقع فى حبها لأنها -وكما يخاطبها- أنت فقط ظللت على عهدك. تحضرين كل عرض من عروضى، تقابلنى عيناك كل ليلة، مضيئتين كنجمة الشمال التى تؤكد للنواتى أنه على الطريق السليم».(ص١٦٨) برهان آخر يؤكد أن ثقافة محمد سلماوى تطل من خلال ما أبدعه من شخصيات.



بعد هذه الثلاثيات الثلاثة نقرأ قصتين مجزأتين إحداهما رسائل العودة. وهى خمس رسائل، والأخرى باب التوفيق أطول قصص المجموعة وتتكون -مثل بعض القطع الموسيقية الغربية- من ثلاثة أجزاء أو الأدق ثلاث حركات: بطئ حزين، ثم معتدل حالم، وأخيرا سريع متلاحق. نعود إلى رسائل العودة، وهى تتكون من خمس رسائل كلها تطالب بعودة علاقات مقطوعة. الأولى يطالب فيها الحبيب بعودة حبيبته التى - على حد قوله- أخذها منه السأم، ويربط عودتها بحوادث جسام «ستعود تشرق شمس الأندلس، ستعود الجولان..تتحرر فلسطين وتحطم القدس قيودها، وتنتهى القصة والقارئ فى شك هل موت حبيبته هو الذى فصله عنها لأنه يختتم قصته بهذه الكلمات الغامضة: لقد اجتزت يا فتاتى شاطئ الحياة إلى البر الآخر.. عودى إلىّ وإلا فسأترك هذه الدنيا وآتى إليك حيث أنت.

والقصة الثانية رسالة من صديق إلى صديقه الذى أبعدته عنه غربة عقائدية «لا أريد أن أتخيل كيف تكون الآن..يقولون إنك أطلقت

قد تمزقت أوصال الوطن العربي وكاتبها يستغيث بشخصيات من التاريخ الفرعوني والعربي والحديث

لحيتك وأنك لا ترتدي إلا ذلك الجلباب القصير الذي لا يمت للمبسك بصلة» (ص٤٩) هل مرضت أو أصابك مكروه؟ وكانت ظنوني وأسفاه كلها في محلها فقد وقع لك حادث ومرضت وأصابك مكروه..إنه الحادث المباغت الذي لم يكن يتوقعه أحد وهو المرض الخبيث الذي لا يأتي إلا خلسة، وهو المكروه الأكبر الذي يستولي على كيان شاب في مقتبل العمر كان دائما مقبلا على الحياة» (ص٥٠).

وإذا كان انفصام العلاقة الأولى على أساس عاطفي إن لم يكن قدريا فيما يبدو، والعلاقة الثانية على أساس فكري، فإن انفصام العلاقة الثالثة بين أمومة وبنوة ووطن، فالابنان مصطفى وشريف أودعا أمهما الفلسطينية دارا للمسنين وانفصلا عنها. شريف طبيب لا يكاد يراه من يعيش معه في بيت واحد، ومصطفى رحل، ترك البلد كلها وسافر، وهي تعاني في بيت المسنين مع زميلاتها إحداهن تشكو هجرة أقربائها فلم يزرها أحد منذ ثلاث سنوات، والأخرى التي كانت ترقد في السرير الملاصق لسريرها ماتت أول أمس (ص٥٢)، والمزعج أن الممرضة أخبرتها أن أمامها ستة أشهر على الأكثر فأضفت بذلك إزعاجا على إنزعاجها. ونكتشف من مناجاتها لنفسها كم تحن لوطنها الذي أُرغمت على تركه «يأتي الأهل والأصدقاء لزيارتنا من القدس وحيفا ونابلس والخليل» وما تلبث أن نكتشف أبعاد الانفصال في قصتنا حين تدعو السيدة العجوز التي على شفا الموت مطالبة: أعد إلىَ بيتي القديم- أعد إلىَ وطني أعد إلىَ كل ما أخذته مني عنوة ودون وجه حق أعده ولو ساعة واحدة قبل أن تأتي لتأخذ حياتي(ص٥٣) واضح أن محمد سلماوي مهموم بقضية فلسطين نراها تتسلل في أكثر من قصة قصيرة له، وفي روايته المتميزة «الخرز الملون» (ص١٩٩٩) حيث بطلتها الفلسطينية نسرين تهاجر وتموت في مصر.

رسالة رابعة من حبيبة إلى حبيبها الذي هجرها بعد ثلاث سنوات أمضتها تنظر إلى عينيه «كلما التقينا» وبين أحضانه التي طالما اكتنفها دفئها على حد تعبيرها في رسالتها، بل إنها تعزو إليه أنوثتها «لأنك أنت الذي صنعتها بيديك.. بشفتيك بذراعيك.. بأنفاسك.. بقبلاتك» (ص٥٤) وهي تعاتبه لأنه لم يقاوم عندما أصر والده أن يزوجه ابنة شريكه (ص٥٥) ثم ما تلبث أن تشف ثقافة المبدع من خلف بطلة قصته حين نسمعها تقول: هناك من المآسي ما لا يمكن تخطيه، كيف تتخطى البشرية خروج آدم من الجنة؟ كيف تتخطى خيانة صلب المسيح؟ كيف تتخطى عار مقتل الحسين؟ كيف تتخطى كارثة هيروشيما وناجازاكي وتكسير عظام أطفال الانتفاضة في فلسطين؟ (ص٥٦) وذلك رغم ما تلا هذه الكلمات من تبرير يَرد على لسان كاتبة الرسالة حين نقرأ أن ما فعله الطبيب النفسي الذي أخذتها أمها رغما عنها إليه «هو أنه جعلني أتعايش مع المأساة فقط كما تعلّم الإنسان أن يتعايش مع كبريات مآسي التاريخ» (ص٥٨)، ونواصل الاستماع إلى ثقافة مبدعها محمد سلماوي حين نقرأ أن علاقتها بحبيبها كانت في الخفاء. «كحركات المقاومة الوطنية التي تتخفى تحت الأرض لفترة لكنها تعود لتنطلق بعد ذلك لتحرير الأوطان من الظلم والهوان. لهذا نحصر الحب في قمقم مغلق كالجن الملعون..ومضت الأيام وحركة المقاومة ما زالت مخنوقة تحت الأرض والأوطان لم تتحرر، ظلت الأرض محتلة وظل المغتصب مغتصبا، وظل المقهور مقهورا. لم يأت المخلص، أما ذلك الذي عاد إلىَ فقد كان المسيح الدجال» (ص٥٧). وتنتهي الرسالة لا بمناشدته العودة التي لم يعد أمل فيها، بل بتقريعه: كيف تصورت أنك يمكن أن تعود إلىَ بهذا الشكل كالصورة المهزوزة التي ضاعت منها بؤرة التركيز بعد أن اهتزت الكاميرا في يد المصور الرعديد الجبان وكان يجب أن تعود إلى نفسك قبل أن تعود إلىَ (ص٥٨).

أما آخر الرسائل فهي تكشف عما جاء مضمرا ومتناثرا في الرسائل السابقة، وهي بعنوان «متى العودة يا وطن» فهي تلقي معنى سياسيا على الرسائل الأربع السابقة وتجعلها رموزا ممهدة لهذه الرسالة الخاتمة وليست مجرد تنويحات على رسائل يطالب كل صاحب من أصحابها عودة من يهمه الأمر.. فقد تمزقت أوصال الوطن العربي وكاتبها يستغيث بشخصيات من التاريخ الفرعوني والعربي والحديث: مينا وأحمس وصلاح الدين وعبد الناصر: فمن يدعون الإسلام صاروا يقتلون أشقاءهم في الجنوب، ويا من حمّلتنا الوصية بأقباط مصر... ثم هذه الجملة الختامية في إشارة إلى مطالبات العودة السابقة: آه يا وطني متى تعود كما كنت، متى تعود حتى تعود الحبيبة، ويعود الأخ والصديق، ويعود الحبيب(ص٥٧) وأضيف ويعود الأبناء، فثمة علاقة عضوية بين غربة هؤلاء الأحباء وغربة ما يعانيه «الوطن العربي المترامي الأطراف» (ص٥٨) وهكذا أضفت هذه الرسالة الختامية المعنى والوحدة على الرسائل الأربع السابقة.

أما قصة باب التوفيق فبطلها محسن عبدالفتاح مدرس الحساب بإحدى المدارس الإعدادية بالقاهرة القديمة وفي حركتها الأولى نعلم أنه مغرم بزميلته عزة التي لا تبادله مشاعره وتنأى عنه. العم صابر بائع التحف الإسلامية يعرفه محسن ويعرف متجره منذ طفولته، وهو اليوم حزين لوفاة زوجته وسيكلفه دفنها وهو مفلس، فتأبى شهامة محسن إلا أن يقرضه سبعين جنيها من مرتبه الذي لا يتجاوز أربعة وسبعين، سدد بباقيها -وهو أربعة جنيهات- ما عليه من دين عند عليوة البقال الذي عاد بعدها يشترى منه شكك: ولم يستطع العم صابر أن يرد دينه لمحسن إلا بإعطائه إحدى تحفه الأثرية وهو باب التوفيق أحد الأبواب الأثرية للقاهرة والمكتَشف عام ١٩٥٧. وتنتهي الحركة الأولى بهذه الجملة «وبعد فشل المحاولات المستميتة التي بذلها محسن لإثناء عم صابر عن قراره انتقل الباب إلى منزل محسن عبدالفتاح فوق سطح العقار رقم ١٤ بحارة الدرب الأصفر بالجمالية». (ص١٤٧).

أما الحركة الثانية فعنوانها يدل على مضمونها، معتدل حالم، في بداية هذه الحركة يقدم لنا محمد سلماوي مشهدا فانتازيا حين يستمع محسن إلى طرق خفي متكرر يوقظه من نومه ثم يتضح أن مصدره الباب الأثري الذي استضافه في غرفته، لعله دلالة على مدى سيطرة هذا الباب على عقل محسن وانشغاله به. تقول القصة إن محسن عبد الفتاح عندما استيقظ في الساعات الأولى الفاصلة بين الليل والنهار شعر أن حياته تبدأ من جديد. وقد أكد تفاؤله حين استقبله بواب المدرسة معلنا صرف منحة له بسبب إشرافه على نشاط الطلبة في نهاية العام الماضي (ص١٥١) وبذلك حل مؤقتا مشكلة دين عم صابر المستحق لمحسن. كما تلقى دعوة لحضور حفل ميلاد طالبه توفيق (لاحظ اسم الطالب واسم الباب وهل سيلازم بطلنا التوفيق أم سيتخلى عنه) وهو الوحيد من الأساتذة الذين تمت دعوتهم كما كانت عزة الوحيدة من بين المدرسات مما أتاح لهما فرصة لقاء عاطفي تلته علاقة حميمة بينهما (أليس اسم الطالب توفيق؟) بذلك «تغيرت حياة محسن عبد الفتاح. أحس أنه يعيش حياة أخرى غير تلك التي كان يحياها» (ص١٥٦) وقد دفعته تلك العلاقة الحميمة إلى علاقة أخرى حميمة مع باب التوفيق فمضى ينظفه من أمام ومن خلف.

أما الحركة الثالثة، سريع متلاحق، فعلاقة محسن عبد الفتاح بزميلته عزة أصابتها ردة، وكما أنه ليس لدينا المبررات لموقف الجفاء الذي كانت تقفه عزة منه، ولا لماذا تطورت علاقتها به إلى الأفضل، فإننا لا نعرف أيضا لماذا انتكست هذه العلاقة، فلا يقدم لنا الراوي أية مبررات. العلاقات تتوتر وتنفرج ثم تعود فتتوتر في تآلف مع الجو، فمحسن يتساءل كما يتساءل قراء قصته، ماذا حدث وهل حل الشتاء فجأة. صحيح أننا في الأسبوع الأخير من سبتمبر لكن الجو لا ينقلب فجأة هكذا بين يوم وليلة، بذلك يسبق محمد سلماوي قراءه في الاعتراف بأن هذا الانقلاب العاطفي حدث فجأة وبدون أن يكشف لنا عن أي مبرر أو تمهيد. وهكذا انقلبت علاقة عزة به- كالجو- بين يوم وليلة بحجة «الوضع الذي نحن فيه..قل لي بربك ماذا ستفعل لتأمين مستقبلنا؟» (ص١٦٠) كأننا لم تتنبه إلى هذه الحجة إلا الآن، وكأنما معظم الأزواج لا يبدأون حياتهم إلا بعد أن يكونوا قد كونوا أنفسهم على حد التعبير الشعبي. وقبل أن نحتج فإن محمد سلماوي يسبقنا حين يضع على لسان بطلته ما يدور بعقل قارئه عندما يسأل محسن عزة: ماذا حدث؟ لقد تغيرت. فتجيبه: نعم تغيرت. وتكون الإجابة الاستنكارية الاستفهامية: هكذا بين يوم وليلة؟

إزيـــــــدورا ســـــــلماوى



وحتى لا تكون المصائب فرادى، فإن محمد سلماوى يقلب انفراجة الحركة الثانية والتى أعيد عنوانها، معتدل حالم، يعيدها إلى: انقلاب كابوسى، فليت الأمر اقتصر على علاقته العاطفية - بل المستقبلية- بزميلته عزة، بل حتى مع الذين يتعامل معهم وكانت علاقته بهم علاقة ود، فالبقال عليوة يهدده إن لم يدفع ما عليه. حتى باب التوفيق(لاحظ اسم الباب وما آل إليه حال محسن) جاء مَن يتهمه بإخفاء الآثار وجاء من يقول «إنه ليس ملْكاً لك حتى تضعه عندك» (ص٢٦٢) وحتى لا يحالفه التوفيق فإن عبده صابر صاحب باب التوفيق توفاه فجأة مبدعه محمد سلماوى «عم عبده مات؟ كيف مات؟ متى..لقد كان حيا يُرزق بالأمس فقط» (ص١٦٢).

وهكذا فقدنا كل مؤديات التوفيق فى حياة بطلنا: عزه، وصديقه تاجر الآثار الإسلامية عم عبده، حتى عليوة البقال هدده إن لم يدفع الحساب كله وإلا (ص١٦١) وهكذا بدأت القصة بموت زوجة عم عبده بائع الآثار الإسلامية وانتهت بموت البائع نفسه. وقد لاحظت أنه حين عادت عزة إلى محسن دون إبداء الأسباب لم أعترض وفرحت لعودتهما، لكن حين عادت القطيعة من جانبها استيقظت التساؤلات والاعتراضات الأدبية من جانبى لعدم وجود مبرر أو تمهيد لهذه القطيعة الثانية وأظنها الأخيرة.

أما قصة الأتوبيس- وقد أصبحت على شيء من الخبرة بقصص سلماوى بحيث أتساءل عند قراءة كل قصة هل مضمونها إشارة رمزية إلى جانب ما يفصح عنه ويصرح به- هل ركاب هذا الأتوبيس يمثلون المجتمع المصرى أو ربما الإنسانى، وأن الطريق هو النهج الذى يسلكونه والعقائد التى يتصرفون على أساسها، وعندما نسمع الضرير يتحدث إلى الركاب قائلا إن الطريق الذى يسلكه السائق ليس طريقنا، لقد انحرف السائق عن الطريق وأنتم لا تدرون. يتضخم الشك الذى يساورنا برمزية ما نقرأه وقد قذف الأتوبيس بالسائق عندما انحرف فوق حافة الجبل فتولى الكمسارى مسئولية الركاب وهو يوجههم معلنا لماذا تتصرفون وكأنكم تتفرجون. لن ينجو منا أحد مالم تتحد جهودنا فى الاتجاه الصحيح.(ص٦٩).

بينما الرجل الضرير- الذى يرى ما لا يراه المبصرون- يعلن: لا تضيع وقتك يا بنى ولا تبدد طاقات الناس مع هذه السيارة البالية- هل هى مجرد سيارة أم مرحلة من مراحل المجتمع- لهذا فقد غادره جميع ركابه وكان الكمسارى آخرهم ليحاولوا دفعه إلى الخلف لإخراجه من هذا المنحنى الخطر وإعادة عجلاته على الطريق- لاحظ إعادته للخلف- لكن العجوز الأعمى (فلتذكر العراف الأعمى تريزياس فى أسطورة أوديب الذى أعلن أن وباء المدينة بسبب زواج أوديب من أمه) قال على الفور ناصحا: لا تضيع وقتك يا بنى ولا تبدد طاقات الناس مع هذه السيارة البالية، فكان البديل الثانى هو التخلص من هذه العقبة وفتح الطريق أمام السيارات وإلا فستواجه المنطقة كلها أزمة ضارية عندما يطلع النهار (ص٧٢) وما هى إلا دقائق حتى كان الأتوبيس يتدحرج من فوق قمة الجبل ليلحق بسائقه..ونظر الركاب إلى الطريق فوجدوه سالكا تماما. دعوة رمزية إلى التخلص من حطام الماضى لفتح الطريق أمام مستقبل تخلص مما يشده إلى الخلف. أعتقد أن هذه القصة تستمد قيمتها من رمزيتها.



أما قصة الفواخير فهى أيضا قصة انتصار الجديد على القديم، لكنه الجديد النفعى على القديم الأثرى. فأقدم فواخير الفسطاط هى فاخورة عم صالح (ص١١١). أمضى سنوات حياته التى تجاوزت الثمانين يصنع الأوانى الفخارية ما بين قلل وأزيار وقدور، ويتدخل الراوى لإبلاغنا بمعلومات لا يعرفها عم صالح معترفا بذلك حين يبدأ ثلاث فقرات بجملة: لم يكن عم صالح يعلم، كتصوير صناعة الفخار على جدران مقبرة أحد أمراء سقارة، وأنها بقايا ازدهار لم يسبق له مثيل فى صناعة الفخار خلال العصر الإسلامى، وأنها أقدم الصناعات اتصالا بتاريخ الحضارة الإنسانية لذلك تعتبر المقياس الفنى الذى يتخذه المؤرخون لقياس مدى تقدم عمر أى من الحضارات الإنسانية القديمة (ص١١٢)، لذلك لم يستطع عم صالح تقبُّل فكرة هجرة الفسطاط والعيش بعيدا عن هذه الفواخير التى كانت كل فاخورة منها تملؤه شعورا بالفخر والفخار (ص١٣٥) (انظر العلاقة اللفظية بين صنعته- الفخار- وانعكاساتها على شخصيته- الفخر والفخار- وارتباطهما معا بحرف الخاء، وهى إحدى المميزات الأسلوبية عند محمد سلماوى فى أكثر من قصة)، وحين علم بنية المسئولين هدم الفواخير وتمليك أرضها لشركة أجنبية ستقيم عليها مشروعاتها حاول الدفاع عما يمثله عمله الذى يفوق عائده التراثى على أى مشروع حداثى. بدأ بخفير المنطقة متصاعدا إلى قسم الشرطة فالمحافظ الذى فشل فى لقائه، حتى عندما جاء الأجانب لتنفيذ مشروعهم ولم يكن عم صالح يعرف لغتهم، وفشل فى التفاهم مع المصرى الذى يرافقهم بل كان نصيبه التهديد واتهامه بالعمل ضد مصلحة البلاد. ويختتم محمد سلماوى قصته وأصابع بطلها عم صالح قد تشنجت وهى تقبض على التربة بحيث أن الموكب عندما عاد مرة أخرى إلى حيث وقفت السيارات «كان وميض عم صالح قد انطفأ فى التراب» دون أن يلحظ أحد ذلك (ص١٢٠). مصير مأساوى آخر كمصير معظم أبطال قصصنا السابقة.

وتذكرنا هذه القصة بأخرى للكاتب الفرنسى «ألفونس دوديه (١٨٤٠-١٨٩٧) «سر المعلم كورنى» فى مجموعته القصصية رسائل من طاحونتى، وتدور حول مأساة المعلم كورنى صاحب إحدى الطواحين الهوائية التى لم تستطع مقاومة مطحن بخارى أقيم حديثا لتعطل إنجاز طواحين الهواء المسكينة التى حاولت أن تواصل بعض الوقت لكن البخار كان الأقوى مما اضطرها أن توقف مهمتها واحدة بعد الأخرى رغم أن المعلم كورنى كان يحذر أهل قريته من اللجوء إلى المطحن البخارى لأن «البخار رجس من عمل الشيطان بينما أنا اشتغل بريح الشمال نسمة الله الكريم». لكن أحدا لم يستمع إليه. وتنتهى القصة بهذه الجملة «وذات صباح مات المعلم كورنى، (نفس نهاية العم صالح صاحب الفاخورة) فتوقفت عن الدوران آخر طاحونة لنا، وتوقفت هذه المرة إلى الأبد..فإن لكل شيء فى هذه الدنيا نهاية» (ألفونس دوديه، قصص من الريف والمدينة، ترجمة د. أنور لوقا. هيئة القسم الفرنسى بكلية الآداب، القاهرة، ١٩٥٠).

وأضيف: لكن الاستمتاع بهذه المجموعة - كما أرجو- ليس له نهاية.

وختاما نستطيع أن نخلص من هذا العرض إلى السمات الآتية للمجموعة:

- أنها تتضمن ثلاث ثلاثيات إحداها تجمعها شخصيات غير إنسانية: عود من أعواد الغاب، شجرة جميز، جواد. والثانية يجمعها ضمير المتكلم: برج السرطان، آلو، العرض الأخير. والمجموعة الثالثة يتصاعد فيها الصراع العربى الإسرائيلى: الطفل محمد الدرة (لقى مصرعه مجانا)، وجهاد المسحراتى (لقى مصرعه لمقاومته السلمية) ثم وفاء إدريس (هاجمت قبل أن تُهاجَم) هذا فضلا عن قصتين إحداهما قصة «رسائل العودة»، وتتكون من خمس رسائل، والأخرى «باب التوفيق» أطول قصص المجموعة وتتكون من ثلاث حركات موسيقية «بطيء حزين» andante، ثم معتدل حالم، وأخيرا سريع متلاحق scherzo (فى حركة السيمفونية يكون مبهجا راقصا أما فى قصتنا فهو مزدحم بالفجائع).
- تنتهى معظم قصص المجموعة نهايات مأساوية.
- معظم القصص يمكن قراءتها كقصص واقعية وأخرى يشف الرمز من خلالها.
- تتميز بعض القصص باستخدام اللفظ الواحد بأكثر من معنى مما يهبها لونا من الوحدة الشكلية التى تتسرب بين سطورها مثل كلمة السرطان فى قصة «برج السرطان» وكلمة التوفيق فى قصة «باب التوفيق».
- أن ثقافة الكاتب تطل من خلال شخصياته فى أكثر من قصة تماما كما تطل ثقافة الناقد- بحكم العدوى- من خلال رؤيته.

وأخيرا يلاحظ أننى أفترض فى قارئى أحد اثنين: ألا يكون قد قرأ المجموعة فأقدم له خطوطا رئيسية يمكن معها متابعة ما يقرأ، أو يكون قد قرأها فأضيف إليه بعض ما أخصبت وجدانى قراءتى لقصص المجموعة.

إن المجموعة كانت من الثراء بحيث استدعت قراءات سابقة - أنا مدين لها ببعثها واستعادة تذوقها. ■



مـــــــازن الـنـجـــــار

الشرق العثمانى

"زمـــن أوليــــا جـلـــبى"

"١٦٤٩ ـ ١٦٨٣"

■■ أنجبت الحياة الثقافية العثمانية فى قرون ازدهارها عددا من أبرز المؤرخين والجغرافيين والرحالة الذين أثروا الحياة الثقافية العثمانية عموما - وأدبيات التاريخ والجغرافية خصوصا- إثراء متميزا. ويرى المستشرق برنارد لويس - مؤلف كتاب «ظهور تركيا الحديثة» - أن سجايا الأتراك تبدو بوضوح فى مؤلفاتهم من الكتب التاريخية. فقد كان المؤرخون العثمانيون الكلاسيكيون رجالا قديرين، وذوى معلومات متقدمة على عصرهم. إن مؤلفاتهم من أنجح المؤلفات الثقافية العثمانية فى فروعها. أما يلماز أوزتونا، المؤرخ التركى المعاصر، ومؤلف العمل التأريخى الكبير «تاريخ الدولة العثمانية»، فيلاحظ أن المؤلفين العثمانيين لم يتوصلوا فى التاريخ إلى مستوى العرب، لكن يمكن اعتبارهم فى الجغرافية على مستوى واحد مع العرب.

شهد القرن السابع عشر قفزة أخرى فى التأليف الجغرافى والتاريخى، تميز بظهور مؤلفات أكثر شمولاً، إذ جمعت الخرائط والأطالس العثمانية والأوروبية قدراً جيداً من المعارف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. كما امتزجت المعلومات الجغرافية بالمعرفة التاريخية وبمشاهدات الرحالة وملاحظاتهم القيمة، والتى تعكس التكوين الثقافى والتجربة الحضارية للمؤلفين، وما تستند إليه من رؤية كونية وتصور عن الذات والعالم.

برز من مؤلفى القرن السابع عشر شيخ أحمد دهده منجم باشى (١٦٣١-١٧٠٢) صاحب كتاب «جامع الدول» من ثلاثة أجزاء فى تاريخ العالم، وكتاب «صحائف الأخبار» فى تاريخ آل عثمان، وكلاهما باللغة العربية. كما اشتهر من المؤلفين مصطفى أفندى (١٦٠٩-١٦٥٧)، المعروف أيضاً باسم «حاجى خليفة»، وكاتب چلبى صاحب «جهان نامة»، أى كتاب العالم، وهو كتاب فى الجغرافية العالمية، وقد استفاد كاتب چلبى من المصادر والأطالس الأوروبية، كما ترجم أطلس ماير من اللاتينية إلى اللغة التركية. وقد ترجم كتاب كاتب چلبى إلى اللغات الأوروبية لدى صدوره. كما ألف كاتب چلبى كتاب «فذلكة» من مجلدين فى التاريخ العثمانى، و«تحفة الكبار فى أسفار البحار» حول تاريخ البحرية العثمانية، وموسوعة فى السير باللغة العربية بعنوان «كشف الظنون»، وفى الفكر كتاب «ميزان الحق».



قد كتب مؤلفه «سياحتنامه» بأسلوب سهل التناول، ويتسم بالطابع القصصى المشوق الذى يضم المعلومة إلى جانب الحكاية



ثقافة أوليا چلبى وعصره

وعلى العكس من أسلوب كاتب چلبى ذى الطابع الأكاديمى والالتزام الموضوعى، فإن أوليا چلبى (١٦١١-١٦٨٤) قد كتب مؤلفه «سياحتنامه» بأسلوب سهل التناول، ويتسم بالطابع القصصى المشوق الذى يضم المعلومة إلى جانب الحكاية والتجربة الشخصية المباشرة. أمضى أوليا چلبى حوالى أربعين سنة من حياته مرتحلاً فى البلاد العثمانية وغيرها من البلاد المجاورة. وقد قضى فى القاهرة عشر سنوات وزار الشام والسودان وبلاد الحبش، وزار الحجاز لأداء فريضة الحج. سجل أوليا چلبى رحلاته ومشاهداته فى كتابه الشهير «سياحتنامة» أى كتاب السياحة، وهو من عشرة مجلدات تحتوى على عشرة آلاف صفحة، فهو من أغزر المؤلفين العثمانيين إنتاجاً.

ضم المجلد التاسع رحلته إلى بلاد الشام والحجاز، بينما خصص المجلد العاشر لمشاهداته المفصلة ورحلاته إلى مصر وأفريقية. لقد اعتمدت العديد من دراسات التاريخ العثمانى على مشاهدات وتسجيلات أوليا چلبى الغنية بالتفاصيل والمعلومات، وترجت أجزاء عديدة من كتابه إلى معظم لغات العالم. لقد سبقت مشاهداته التى سجلها عن رحلته إلى بلاد السودان والحبش وحتى منابع النيل وبحيرة فكتورية مشاهدات الرحالة الأوروبيين التى لم تبدأ إلا فى أواسط القرن التاسع عشر. ولقد استفاد المؤرخ التركى يلماز أوزتونا فى كتابه الموسوم: «تاريخ الدولة العثمانية» كثيراً من كتاب أوليا چلبى فى الجزء الخاص بالوصف الجغرافى للامبراطورية العثمانية، وساهمت الترجمة العربية لكتاب أوزتونا فى إتاحة هذه الفرصة لتعريف القارئ العربى بهذا المؤلف والرحالة العثمانى، وكتابه الذى هو سجل فريد لصفحات نادرة من التاريخ الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للشرق العربى الإسلامى. وقد ترجم منذ عقود المجلد العاشر منه محمد على عونى، وحققه عبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان، وراجعه وقدم له أحمد فؤاد متولى، وقد أعادت دار الكتب والوثائق القومية



سياحة نامة مصر
الرحالة التركى أوليا چلبى
ترجمة: محمد على عونى
تحقيق: د. عبد الوهاب عزام ود. أحمد السعيد سليمان
مراجعة وتقديم: أحمد فؤاد متولى
دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة ٢٠٠٣

الشرق العثماني

بالقاهرة نشره فى ٢٠٠٣، وجاءت فى ٦٦٠ صفحة.

وبانتظار أن يحظى المجلد التاسع وغيره من مجلدات الكتاب بجهود المترجمين المختصين لنقله كاملاً إلى لغة الضاد، تأمل هذه الصورة المختارة أن تقدم للقارئ العربى بعض اللمحات عن أحوال مصر والشرق العربى فى أوج الحقبة العثمانية.

تقدم مشاهدات وتسجيلات أولياء جلبى صوره للحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للشرق العربى الإسلامى فى مرحلة الذروة من صعود الدولة العثمانية كدولة عالمية وازدهارها وقوتها وامتدادها الهائل وغير المسبوق فى تاريخ حضارات وإمبراطوريات الشرق. وقد لا تتفق هذه الصورة بشكل أو بآخر مع الطريقة التى قدمت بها التجربة العثمانية للأجيال العربية والتركية التى جاءت، بعد انهيار الدولة العثمانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. كما قد لا تتفق مع الرواية الرسمية فى العالم العربى وتركية حول تاريخ علاقات العرب والترك، أو حول تقويم النتائج السياسية والحضارية للتجربة العثمانية ككل، وآثارها على العالم العربى. فكثير ما يتم تحميل التاريخ السياسى ما لا يحتمل، لكى يخدم مقاصد الساسة، وأغراض المرحلة الراهنة، بما تحفل من جماعات وأيدلوجيات وعصبيات غالباً ما تلجأ إلى ساحة التاريخ لكى تحسم الصراع فى ساحة عقل وضمير وذاكرة الأمة موضع الصراع، سعياً إلى امتلاك روح تلك الأمة وإلى الشرعية التاريخية التى تحاول تلك السياسات والعصبيات من خلالها أن تتموضع فى السياق التاريخى العام للأمة، وأن تؤسس شرعيتها الخاصة: شرعية الانقلاب أو شرعية الامتداد!

لذلك تصبح دراسة التاريخ الاجتماعى للأمة، وتناول موضوعاته المختلفة، ومن مصادره الأصلية، منهجية صائبة فى قدرتها على تجاوز الدخن والأدلجة التى شاعت فى أدبيات التاريخ السياسى، وصولاً إلى رسم صوره أكثر دقة وموضوعية لتجربة تاريخية معينة، ومحاولة لرؤيتها كما كانت فعلاً. ويكون ذلك عن طريق تتبع حياة مختلف القطاعات أو الشرائح الاجتماعية وهمومها وقضاياها وأفكارها السائدة ومكوناتها الثقافية والأخلاقية والوجدانية، وتكويناتها الإثنية، ومناشطها الاقتصادية والمهنية، وطرائق معيشتها وتقاليدها، وأنماط العمران والمعمار، وبيئات الاجتماع البشرى، وخطط المدن، وكافة مناحى الحراك الاجتماعى والإنسانى. وخير مصدر لمعارف هذه الموضوعات هى وثائق العصر ذاته من مشاهدات الرحالة، ومصنفات كتاب السِير والأخبار، وكتب الخطط، وأسفار أهل الحرف والصنائع (الأصناف)، وسجلات المحاكم الشرعية من عقود ووصايا إرث وطابو ومعاملات، وتواريخ الأعيان ومذكرات المعاصرين للمرحلة، وأرشيف الدول، ومراسلات القناصل وممثلى الشركات الأروبية، وما أنتجه أهل ذلك العصر من أدب ومأثورات محكية ومدونة.



لقد اتسعت كتابات ومرويات أوليا جلبى، فكانت وعاء لمعارف وأحوال عصره، وقد كان ذلك بسبب طريقة كتابته التى اتسمت بالسلاسة والاسترسال والسهولة مع قوة الملاحظة، مما أكسبها قدرة تسجيلية هائلة لا تتوفر لكثير من المصنفين ذوى النزعة التحليلية أو النقدية أو الانتقائية. كما أن شغف المؤلف بالتفاصيل الصغيرة والكبيرة، وبالحكاية كأساس لهذا النمط من التأليف، ساعد على إغناء نصه، وجعله مصدراً أولياً هاماً للباحثين فى مختلف المجالات، من التاريخ الاجتماعى والاقتصادى إلى التوصيف الجغرافى والثقافة الشعبية والفولكلور وسوسيولوجية المعرفة والإدارة العامة والدراسات السكانية والأنثروبولوجية. وكثيراً ما تختلط مشاهدات المؤلف ومعايناته ومروياته بالمأثورات الشائعة فى ذلك العصر، وهى مؤشرات أو معبرات عن ثقافة الناس ووعيهم التاريخى والدينى وتصوراتهم عن العالم أكثر منها حقائق أو معارف تاريخية ثابتة. لكنها قد تفيد الباحث الذى يتابع فكرة أو ظاهرة أو مغالطة تاريخية معينة، ويريد أن يصل إلى منشأ تلك الفكرة أو الظاهرة، والظروف الاجتماعية والسياسة والثقافية التى نشأت فيها، وصولاً إلى الدوافع والعوامل الكامنة وراءها.

ويلفت الانتباه فى الانطباعات والمشاهدات والروايات التى سجلها أوليا جلبى خلفية المؤلف التى تعبر عن التكوين العام لطبقة المثقفين العثمانيين الأتراك آنذاك، وهو تكوين يعكس كذلك رؤيتهم الكونية للعالم وللذات، كما يدل على توليف ثقافى مركب من التسنن، والعقيدة الأشعرية الماتريدية، والفقه الحنفى، والتصوف المولوى، والتقاليد الإمبراطورية العثمانية، واللغة والتقاليد الاجتماعية التركية، واستانبول كمركز للعالم ونواة الإمبراطورية. ألقى هذا التوليف الفريد آثاره على وعى النخبة العثمانية بذاتها وبالآخر فى عهد قوه وازدهار الإمبراطورية وتفردها كدولة عالمية أولى. يضاف إلى خصائص ذلك العهد حقيقة أن الصعود الأوروبى لم يكن قد بدأ بعد بتحدياته وكوارثه اللاحقة، وأن مراكز ثقل الحضارات والقوى العالمية لا زالت فى قارة آسية عموماً، بل كان معظمها فى حوزة المسلمين خصوصاً، والترك بشكل أخص.

هذا التمثل لتلك الخلفيات والمعطيات جعل المؤلف مسكوناً بالرؤية الإسلامية للعالم كقاعدة وأساس للنظام العالمى، وبدور الترك فى حراسة الدين ونهضة الشرق، وبمركزية السلالة العثمانية أو دور البادشاه (السلطان) كخليفة للمسلمين وإمبراطور للشعوب العثمانية و خاقان للجنس التركى. يضاف إلى ذلك رؤية المؤلف للمذهب الحنفى كأرقى صور التشريع الإسلامى، وما نتج عن تمثله وتطبيقه القانونى فى المجتمع التركى من منظومة اجتماعية وإنسانية وأخلاقية مثلى؛ ولدور التصوف فى التعبير عن الجانب الوجدانى للإنسان والمجتمع؛ وللرقى المعمارى الذى كان مجالاً للإبداع الفنى والتشييد العمرانى المعبر عن الطبيعة الحضارية للتجربة. ويثير الاهتمام أكثر شمولية عناصر ذلك التوليف الثقافى وقدرته على بناء الإجماع اللازم فى عوالمه الثلاثة: الإسلامى والعثمانى والتركى.

لقد حقق ذلك التكوين أو التوليف الثقافى للنخبة (والعامة) التركية - والعثمانية عموماً- حالة التوازن أو التوحد الذاتى إزاء الآخر. سدت تلك الحالة من التوازن منافذ الفراغ والاختلال، ووفرت الشرط الذاتى لانطلاقة الترك نحو قيادة العالم الإسلامى وبناء الدولة العالمية. وحتى فى فترات التدهور والانحطاط، عندما تراجعت الإمبراطورية إلى المرتبة العالمية الرابعة، شكل هذا التوليف الثقافى قاعدة للصمود ومحاولات الاستنهاض. فقد كان مثلاً رجل التنظيمات والإصلاح الكبير بيوك مصطفى رشيد باشا (١٨٠٠-١٨٥٨)، والذى أصبح صدراً أعظم (رئيساً للوزراء) ست مرات، كان يرى أن أسس بقاء الإمبراطورية تنحصر فى أربعة عناصر: ١) الدين الإسلامى، ٢) خاقان من بنى عثمان، ٣) استانبول مدينة للعرش (عاصمة)، ٤) واللغة التركية كلغة رسمية. كما كان الأمر كذلك فى فكر السلطان عبد الحميد خان الثانى الذى عمل بدأب ومهارة عالية على توحيد العوالم الثلاثة الإسلامى والعثمانى والتركى حول السلطان والدولة، الأمر الذى ربما قد أدى إلى زيادة سخط القوى الطامعة فى تفتيت وتجزىء الإمبراطورية. ومنذ أن فقد هذا التوازن وحدث الاختلال فى تكوين النخب التركية والشرقية عموماً، دخل الترك ومعهم الشرق كله فى دوامة التجارب والحلقات المفرغة؛ وتعثرت النهضة.

ملامح الحياة الاجتماعية والثقافية

قام أوليا جلبى برحلتين إلى بلاد الشام: أولاهما فى عام ١٦٤٩، وقد ضمن تفاصيلها فى المجلد الثالث من كتابه. وكدأبه فى وصف سائر أنحاء الإمبراطورية العثمانية، فهو يصف كل ناحية ارتحل إليها من حيث جغرافيتها وموقعها وعدد نفوسها ودورها وقصورها ومدارسها وتكاياها وخاناتها (أسواقها)

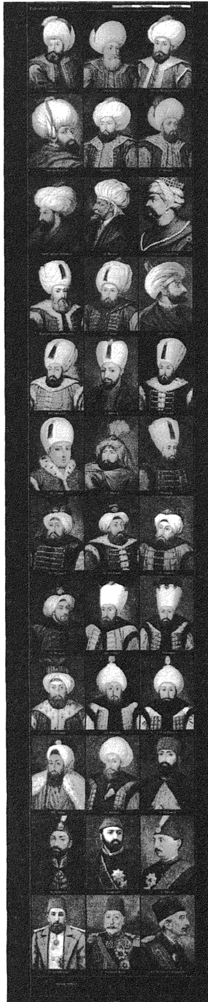
لقد اتسعت كتابات ومرويات أوليا جلبى، فكانت وعاء لمعارف وأحوال عصره



ومساجدها وجوامعها وقبور الشخصيات التاريخية بها، وكل ما فيها من معالم تستوقف الرحالة. كما يذكر أحياناً نبذة عن تاريخ هذه المنطقة وقصة دخولها فى حكم العثمانية، ومن تولى إدارتها من الولاة وتاريخهم الشخصى وأدوارهم فى خدمة الدولة، وقضاة المنطقة ومرتبات الولاة و القضاة ومخصصاتهم الأخرى التى تعكس أهمية المنطقة، ووزنها لدى الحكومة العثمانية فى الأستانة، عاصمة الامبراطورية. وقد اهتم أوليا چلبى كذلك بتسجيل حركة الإعمار التى حدثت فى مختلف المناطق فى عهد دخولها تحت حكم آل عثمان، وما تم تشييده من وقفيات ضخمة وأعمال البر والرفاه الاجتماعى التى قام بها مختلف السلاطين والأمراء والأميرات ورجال الدولة الذين تنافسوا فى إنشاء هذه المشروعات الضخمة.

لقد قامت العديد من المؤسسات الاجتماعية بفضل الأوقاف. والوقف يقام أساساً قربى لله تعالى، وهو ليس مجرد بناء؛ فهو يؤمن كذلك الإيراد اللازم لإدامة هذا الوقف قروناً طويلة. كتب الداماد (صهر السلطان) لطفى باشا، الصدر الأعظم للسلطان سليمان القانونى وزوج أخته، فى مذكراته المعروفة بعنوان «آصف نامة»، وهو من المصادر الكلاسيكية للأدبيات السياسية العثمانية، كتب يقول أن على رجل الدولة المثالى أن يقسم إيراداته إلى ثلاثة أقسام: قسم لنفقاته، وآخر لأعمال الخير، وثالث للادخار. وهكذا كان دأب رجال الدولة والنخبة العثمانية.

وعادة ما يوقف صاحب الوقف (الواقف) مصدراً أو أكثر من مصادر الإيراد لأجل تأمين وإدامة الوقف، من دراهم نقدية أو مزرعة أو خان تجارى أو حمام عمومى أو دار أو غير ذلك. فمثلاً كان فى القاهرة وحدها ٥٥ حماماً كبيراً من الأوقاف التى أوقفها أهل الخير. ويتضمن صك الوقف أو وثيقته الأساسية «وقف نامة» كل ما يتعلق بأغراض الوقف وكيفية تشغيله وإيرادات الوقف، ويسمى مدير الوقف «المتولى»، وكثيراً ما يكون المتولى من نسل الواقف أو من قرابته. وربما كانت تسمية المتولى هى منشأ هذا اللقب الذى تحمله عائلات كثيرة فى المشرق العربى، خصوصاً فى مصر. وتغطى الأوقاف مجالات وأغراض تفوق التصور: من تجهيز بنات الفقراء للزواج إلى رصف الأزقة، وتأمين حاجة إحدى القلاع من البارود، والعناية بطيور اللقالق المعوقة والمريضة، وإطعام الكلاب



والقطط، وسداد ديون المسجونين بسبب عجزهم عن السداد، وتأمين حاجة شيخ الجامع الأزهر وزملائه العلماء من وسائل الانتقال، وغير ذلك مما لا يمكن حصره من مجالات. وقد فقدت الكثير من موارد الأوقاف الضخمة بسبب خروج البلاد التى كانت بها من حوزة العثمانية وديار الإسلام. من ذلك الأوقاف الضخمة بالمجر والتى كانت مخصصة لجامع سليمانية ومؤسساته فى استانبول، والقرى السلوفاكية التى أوقف ريعها للإنفاق على الحرمين الشريفين، والعقارات اليونانية التى كانت وقفاً للجامع الأزهر. وكانت وزارة الأوقاف المصرية حتى السبعينيات تتلقى إخطارات من الحكومة اليونانية بوجود أوقاف للأزهر فى اليونان.

ومن المؤسسات الخيرية الشائعة فى الحياة العثمانية، والمملوكية من قبلها، المطابخ العامة (بالتركية: عمارت)، وهى تقدم الطعام مجاناً للمعوزين والمسافرين وعابرى السبيل. وقد أسست هذه المطابخ فى كل مكان، وكثيراً ما تكون على طريق القوافل، بل كان الفقراء والمسافرون يدعون ويطعمون. وحتى فى القرى النائية، فقد كان ذلك واجباً اجتماعياً يؤديه أشراف كل منطقة. ثم اتخذ الأمر شكله المؤسسى فى صورة المطابخ العامة التى كانت تقدم وجبتين يومياً لأكثر من ٣٠ ألف شخص فى مدينة استانبول وحدها. وقد كان ضرورياً أن تشتمل تلك الوجبات على لحم الضأن. بلغت ميزانية «عمارت مراد الثانى» السنوية فى مدينة مرادية أدرنة (بالروملى) سنة ١٤٣٦ ما يعادل الآن خمسة ملايين دولار، بينما بلغت ميزانية «عمارت سليمانية» السنوية فى استانبول ثلاثين مليون دولار.

كذلك، كان الكروانسراى -منزل القوافل والمسافرين- أشبه بخان كبير جداً، وكان بعضها كالقلاع المستحكمة، وقد شيدت على طرق التجارة الكبرى خارج المدن، وهى تطعم القادمين إليها وتوفر لهم المبيت أيضاً. ويسمى الكروانسراى الصغير خاناً. وبداخل حدود تركية الحالية، شيد السلاجقة ١١٢ كروانسراى، وشيد العثمانيون ٢٢١ كروانسراى ضخماً جداً، وكلها بنايات فخمة وتعتبر آيات فنية من الناحية المعمارية، و هذه الأرقام لا تشمل ما أنشئ من منشآت مماثلة فى أنحاء الإمبراطورية. كذلك يضم الكروانسراى اسطبلاً ضخماً يتسع لمئات أو آلاف الدواب المرتحلة مع القوافل، ويتكفل بأعلافها والعناية

بها. وللكرونسراى كذلك مسجده أو جامعه الملحق به. ومن وظائف الكروانسراى استضافة الجيوش العابرة وقت الحملات وتزويدها بالماء العذب والثلج الذى يصنع عادة فى الكروانسراى.

كانت أوقاف المياه مجالاً هاماً من مجالات عمل الخير. فقد كان جلب المياه من مواقعها إلى أماكن استهلاكها مشكلة حقيقية. لذلك كان حفر الآبار الارتوازية، وتشييد حنفياتها العامة (الجشمة) من أعمال الخير الكبرى، وكذلك حفر الترع وتمديد خطوط الماء من الينابيع والعيون إلى المدن، وبناء خزانات المياه لاستقبال هذه المياه وتجميع مياه الأمطار، كانت كلها من الاحتياجات الأساسية التى سعى المحسنون إلى تأمينها. أنفق السلطان سليمان القانونى مثلاً ما يعادل ١٤٠ مليون دولار لحل مشكلة ندرة مياه استانبول. وكذلك جلب القانونى ماء وفيراً إلى مكة المكرمة لحاجة أهلها وحجيجها، وسقف الحرم الشريف بقباب عددها ٣٦٠ قبة. وقد امتد عمل الخير ليشمل تنظيف مجرى الأنهار، فقد أنفق والى بغداد العثمانى مصطفى باشا من ماله الخاص ما يعادل الآن تسعين مليون دولار لتنظيف مجرى نهر دجلة وصيانته للملاحة وغيرها من الأغراض النافعة.

وإذا كان أهل مصر والمشرق العربى لا يزالون يذكرون بالخير والعرفان ما قدمته بنت الخديو إسماعيل باشا الأميرة فاطمة إسماعيل (رحمها الله) من أفضال وهبات عظيمة لجامعة القاهرة قبيل إنشائها سنة ١٩٢٢، فإنها قد شملت بأفضالها كذلك جامعة استانبول التى وهبتها ثروتها البالغة مليونى ليرة ذهبية، وذلك قبيل وفاتها فى ١٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٠، عن عمر يناهز ٦٧ عاماً الأمر الذى يؤكد أن حب الخير وأعمال البر قد استمرت فى التجربة العثمانية حتى لحظاتها الأخيرة.

ومن المعالم التى اهتم الرحالة أوليا جلبى بتسجيلها فى كل رحلاته هى الجوامع والمساجد فى كل مدينة أو قصبة، وإحصائها، ووصف المشهور منها، وأنماطها المعمارية المتميزة، ومساحاتها، وشخصيات الذين بنوها أو عمروها لأول مرة، وأولئك الذين أصلحوها أو رمموها فيما بعد، وعدد خدمها وقناديلها وقبابها ونوافذها الداخلية والخارجية، وما أنفق عليها لكى تصل إلى الصورة التى كانت عليها. وبالطبع فإن المؤلف يفرق دائما بين المساجد الكبيرة التى تقام فيها الجمعة فهى «جوامع»، والمساجد التى لا تقام فيها الجمعة، ولا تقرأ فيها الخطبة، وليس لها منابر. ويطلق على الجوامع التى شيدها الخلفاء أو سلاطين المماليك أو العثمانيين أو أعضاء السلالة السلطانية اسم جامع سلطانى (بالتركية: سلاطين جامعى). وهذه الجوامع يكون لها عادة أكثر من مئذنة واحدة، فأغلبها له مئذنتان، والقليل منها له أربع مآذن، وهناك جامع السلطان أحمد الأول باستانبول، وهو الوحيد الذى له ست مآذن. وكان لهذه الجوامع السلطانية رتب فى تشريفات الدولة، وهذه الرتب تتلو بالطبع المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى. وبعد الجوامع السلطانية تأتى جوامع الوزراء وكبار رجال الدولة وأهل الخير الآخرين. وغالبا فإن وجود الجوامع والمساجد، ومستواها فى التشريفات وأعدادها، فى مدينة أو قصبة معينة يدل على الأهمية الإدارية والسياسية لتلك المنطقة، ووضعها كعاصمة أو مركز لواء أو قضاء أو ناحية، وكثافة العمران البشرى فى تلك المنطقة، وازدهارها الاقتصادى، وشخصيتها الاجتماعية والثقافية.

كانت استانبول، شأنها شأن القاهرة والشام وبغداد ومكة المكرمة، وغيرها من حواضر العالم الإسلامى الكبرى، مدينة للجوامع، فقد أحصى المؤرخ النمساوى هامر فى القرن الثامن عشر بها ٨٧٧ جامعا بأسمائها، ومنها ١٩ جامعا سلطانيا. ويدهش المرء لضخامة الموارد التى أوقفها مؤسسو هذه المساجد للإنفاق عليها وعلى المعوزين الذين تؤمن حاجاتهم من هذه الموارد. وقد شيدت آلاف الجوامع والمساجد فى تلك الحقب، بعضها تم بناؤه فى القرى المتواضعة. ورغم قيام الروس بتدمير جوامع كثيرة فى شبه جزيرة القرم فى الفترة ١٧٧١-١٨٠٥، فقد بقى فى نهاية تلك الفترة ١٥٥٨ جامعا ولها ٥١٣٩ إماما وخطيبا. أما فى ١٩١٤، فقد كان هناك ٩٤٢ إماما وخطيبا، وبزوال الاتحاد السوفياتى، لم يكن قد بقى جامع أو مسجد واحد. أما فى المجر، فقد بقى جامع واحد فقط، والأمر كذلك فى كثير من الأقطار العثمانية السابقة فى أوروبة.

وبناء على ترتيب الجوامع فى تشريفات الدولة أو الإيالة، فإن الجامع الأول فيها يسمى بالتركية «أولو جامع». وقد كان جامع أيا صوفيا هو الجامع الأول فى عاصمة الخلافة استانبول، وكذلك كان الأمر بالنسبة للجامع الأموى فى الشام، وجامع عمرو بن العاص فى الفسطاط، والجامع الأزهر بالقاهرة. وعند تعدد الجوامع فى المدينة أو القصبة الواحدة، يكون الجامع السلطانى من بينها هو الجامع الأول الذى يؤمه بالذات الوالى أو أمير اللواء أو الحاكم المحلى للمنطقة، ويحظى بدور خاص فى الاحتفالات والشعائر الكبرى، ويكون لخطيبه أو إمامه أسبقية بين أهل العلم.

يحرص المؤلف كذلك على التمييز بين «المكتب» و«المدرسة» عندما يقدم تعداد كل منهما فى أى مدينة أو قصبة. فكان يطلق على المدرسة التى يتلقى فيها التلميذ تعليمه الأولى أو الابتدائى اسم «مكتب»، ويسمى مدرسها «خواجة» أو خوجا كما تلفظ بالتركية العثمانية. كان التعليم الابتدائى (تعليم المكاتب) واسع الانتشار فى القرن السادس عشر، لكنه تردى كثيرا فى القرون اللاحقة، ولم ينهض بعد ذلك إلا بعد بدء عصر التنظيمات فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ورغم صدور فرمانات (أوامر سلطانية) فى عهد السلطان سليمان القانونى والسلطان محمود الثانى تقضى بإلزامية التعليم فى المرحلة الابتدائية، فإن مبدأ التعليم الإلزامى لم يطبق فى أى وقت من الأوقات.

يحرص المؤلف كذلك على التمييز بين «المكتب» و«المدرسة» عندما يقدم تعداد كل منهما فى أى مدينة أو قصبة

كان التعليم الابتدائى بسيطا فى ذلك الزمان، وهو عبارة عن مواد تعلم القراءة والكتابة وإتقان تلاوة القرآن وحفظ بعضه، والعمليات الحسابية الأساسية، والمعارف الإسلامية الضرورية، ثم أضيفت لاحقا مادتا التاريخ والجغرافية. أما فى بعض المدن الكبيرة التى بها مكاتب راقية، فتدرس بها الموسيقى والخط واللغة الفارسية، إضافة إلى اللغتين العربية أو التركية. كان التعليم فى المكتب مختلطا، أى تدرس فيه البنات مع الأولاد، وتبدأ دراستهم بين الرابعة والسادسة، وتستغرق الدراسة أربع سنوات أو أكثر بحسب سن الطفل عند البداية. كان الصبيان والبنات يجلسون فى نفس الفصل الدراسى ولكن على مقاعد منفصلة، وكلهم يغطون رؤوسهم، فالرأس الحاسرة آنذاك كانت علامة على قلة الاحترام وعدم إطاعة النظام.

كذلك كانت مكاتب تحفيظ القرآن (الكتاب) مجالا آخر للتعليم الابتدائى، وكانت كذلك واسعة الانتشار، كما كان فى التكايا مكاتب لتعليم فن الخط. كان عدد تلاميذ المكتب العادى أقل من مائة تلميذ، وبعضها يتراوح عددهم بها بين ٢٠-٣٠ تلميذا. والمكاتب الكبيرة فعلا كانت معدودة، ويسمى الواحد منها «طاش مكتب». بلغ عدد مدارس القاهرة وضواحيها أو مدنها المجاورة فى نهاية القرن السابع عشر حوالى ٦١٧٦ مدرسة (مكتبا)، كما بلغ عددها فى مدينة استانبول (بدون ضواحيها) ١٩٩٣ مدرسة. كان معتادا أن يكون بين مدرسى مدارس القاهرة أو الشام أو حتى مكة المكرمة أتراك من الأناضول، وربما هذا ما يفسر منشأ لقب «خوجة» الذى تحمله بعض العائلات فى تلك الديار إلى اليوم.

أما المدرسة فهى المؤسسة الثقافية التعليمية الرئيسية فى الفترة الكلاسيكية للدولة العثمانية. وهى المؤسسة التى تدرس باللغتين العربية والتركية، وتتكون من قسمين: متوسط وعال. كان إتمام الدراسة الابتدائية (بالمكاتب) أو ما يعادلها شرطا للالتحاق بالقسم المتوسط من المدرسة. كانت

بلغ عدد المدارس المتوسطة والعالية
بمصر حوالى ٣٦٠٠ مدرسة



المدارس ذات المراحل العالية موجودة فى المدن الكبيرة كاستانبول والقاهرة وأدرنة وبغداد والشام وحلب وقونية ومكة المكرمة والمدينة المنورة، بينما كانت المدارس المتوسطة فى كل مدينة وقصبة. كانت شهادة استانبول العالية (وتسمى رؤوس استانبول) لها أعلى اعتبار لدى الدولة، خصوصا من مدرستى سليمانية وفاتح التى شكلت فيما بعد نواة جامعة استانبول. وربما بسبب ذلك فقد قل كثيرا شباب الأناضول الذين كانوا يقصدون مصر والشام والعراق وإيران وتركستان لغرض التحصيل العلمى والتخصص فى مدارسها العالية بعد القرن السادس عشر. كانت الدراسة فى المدرسة تنقسم إلى ١٢ درجة بعد الدراسة الابتدائية، والدرجات الأربع الأخيرة هى مرحلة الدراسة العالية، ويسمى مدرسو المرحلة العالية «كبار المدرسين»، ويطلق على طلبتها «طلبة علوم» أو «صوفتة»، ويلقون احتراما اجتماعيا خاصا. ويسمى طالب العلوم الذى يختاره المدرس مساعدا له «دانشمند»، وهذا بدوره إذا حصل على الشهادة العالية يصبح «معيدا» أى رئيسا للمساعدين، ثم يصبح «ملازما»، ثم يبدأ فى اجتياز درجات المدرسين. لا يمكن لمدرس أن يصبح قاضيا ما لم يحصل على درجة كبار المدرسين.

بلغ عدد المدارس المتوسطة والعالية بمصر فى القرن السادس عشر، أى أواخر عهد المماليك وأوائل عهد العثمانيين حوالى ٣٦٠٠ مدرسة، زال أكثرها فيما بعد. كذلك بلغ عدد مدارس استانبول بدون ضواحيها فى أواسط القرن السابع عشر حوالى ٦٣ مدرسة متوسطة، ومدرستان عاليتان طلابهما ٧٠٠٠ طالب تقريبا. أكثر الطلاب لا يصلون فى الدراسة إلى القسم العالى، بل يتركون الدراسة بنهاية المرحلة المتوسطة ليعملوا فى وظائف الإمامة والتدريس الابتدائى.

تأسست مدرسة فاتح باستانبول سنة ١٤٥٣، وكانت تشتمل على ثمانى كليات تسمى «صحن الثمانى»، وبها ٣٠٠ غرفة، ومطبخها له ٧٠ قبة، ويخدمها ٣٠٠ خادم. أعلى المدرسين درجة فى الإمبراطورية هو مدرس «دار الحديث»، وهو كذلك عميد مدرسة سليمانية التى أنشأها القانونى، وراتبه الشهرى يعادل عشرين ألف دولار بالقيمة الحالية.

اعترى الفساد نظام المدرسة اعتبارا من أواخر القرن السادس عشر، وبنهاية القرن الثامن عشر، أصبح عاجزا عن الوفاء بحاجة المجتمع والدولة، ولا يلائم العصر. بل لم يعد لمدرس القرن الثامن عشر معلومات طالب المدرسة العالية (صوفتة) فى القرن السادس عشر. ولم يعد هناك مناهج منتظمة حتى فى مرحلة الدراسة المتوسطة للعلوم الدينية فى مدارس الشام أو مكة أو المدينة التى أنشأها القانونى كمدارس عالية. الأمر الذى حدا بالدولة إلى تأسيس مدارس جديدة مثل «معلمخانة نواب» فى ١٨٥٤ لتخريج قضاة الشرع، ثم افتتح قسم الدكتوراه بها سنة ١٩١٤، وجعلت مدرسة دار الخلافة العليا باستانبول جامعة دينية نموذجية، وفتح بها من ناحية أخرى قسم دراسة علوم الإلهيات. وكانت الخطة تشمل أيضا تأسيس مدرسة صلاح الدين الأيوبى فى القدس، لتكون كذلك جامعة دينية بالمواصفات ذاتها، لكن اشتعال الحرب العالمية الأولى حال دون ذلك. وبينما كان يؤمل من مدرسة استانبول بأن تكون جامعة أزهر ثانية، ناءت هى كذلك تحت أنقاض الحرب العالمية، وكان بها فى ١٩١٦ أكثر من مائة أستاذ قدير، وكذلك ١٣٥٤ طالبا.



كانت الطرق الصوفية والتكايا احتياجات لاغنى عنها فى الحياة الاجتماعية العثمانية. ففى كل قصبة توجد تكية على الأقل، وهناك تكايا خاصة لطرق عديدة فى كل مدينة، وهى بمثابة النوادى الاجتماعية لذلك العهد. تجرى فى التكايا أحاديث ومسامرات علمية وفنية وتصوفية، واحتفالات وفقا لما تقضيه آداب وأعراف كل طريقة، كما تعلم فيها صناعات وعلوم وآداب ولغات عدة. لقد كانت الطرق والتكايا مؤسسات تربوية وتعليمية لا مثيل لها فى زمنها. كانت الطريقة النقشبندية (النقشية) التى نشأت فى تركستان منتشرة جدا فى الشرق العربى وتركية أيضا. وكذلك كانت الطرق ذات المنشأ العربى كالقادرية (الجيلانية)، والرفاعية، والخلوتية. وكذلك كانت هناك طرق تركية كالمولوية، والبكتاشية، والقلندرية، والسنبلية (فرع الخلوتية)، والجلوتية، والبايرامية، والكلشنية، والملامتية، والعشاقية (شعبة من الخلوتية)، والسعدية (شعبة من الرفاعية). لكن أكثرها انتشارا بين العامة والجند هى البكتاشية، وبين المثقفين هى المولوية. وكان الانكشارية بكتاشيين. تنسب البكتاشية إلى حاجى بكتاش ولى، وتنسب المولوية إلى مولانا جلال الدين الرومى، وكلاهما جاء من خراسان إلى الأناضول فى دور انهيار الدولة السلجوقية.

كان يطلق على التكية الصغيرة زاوية، والكبيرة دركاه، والأكبر آستانة. ولكل تكية شيخ، وهو بدوره ينشأ ويتعلم ويتدرب بانتسابه إلى شيخ آخر أسبق منه. وهكذا تتدرج سلسلة المشيخة حتى تصل أو تتصل بالمتصوفين القدامى (الأقطاب) قبل عدة قرون. كان التصوف عنصرا هاما من عناصر الحياة العثمانية، وكثيرا ما تدور مشيخة الطريقة فى أسرة واحدة، من ذلك مثلا سلالة مولانا جلال الدين الرومى (رحمه الله) التى تولت مشيخة الطريقة المولوية لقرون. يعيش التصوف والطرق فى القلوب كذوق روحانى، وقد كان للمرأة فى الحياة الاجتماعية العثمانية توجه قوى نحو التصوف، وكانت فى التكايا ساعات مخصصة لاستقبال النساء فقط.

كان المسيحيون كذلك يدخلون التكايا لحب الاستطلاع ولشهود بعض الاحتفالات، وأشهرها احتفال المولوية المسمى آيين شريف «مولوى»، وهو طقس موسيقى ورقص صوفى كرقصة السيما، ويجرى الاحتفال بالقراءة والعزف الذى يطلق عليه «سماع». كانت الكلمات التى تنشد فى المراسم منتجات من الشعر الصوفى من ديوان «مثنوى» لمولانا جلال الدين الرومى، وقد لحنها ملحنون قديرون. كان السماع يجرى لمرة واحدة أسبوعيا فى التكايا المولوية، ويسمى «مقابلة». وكان بعض هذه التكايا الكبيرة مدارس حقيقية لتعليم الموسيقى واللغة الفارسية (لغة شعر مولانا جلال الدين الرومى).

كان لكل تكية محبوها أو مؤيدوها الذين يدعمونها وينفقون عليها، ولها كذلك أتباعها وهم الدراويش المحيطون بشيخ التكية ويقيمون بها. إن نظام طاعة الدراويش هو أشبه بنظام الجيش، فأمر الشيخ لايناقش، ولا يفكر فى علته. وباستثناء بعض التكايا التى حافظت على مستواها الأصلى، فقد تدهورت أوضاع التكايا، وأصبحت ملجأ للمسكنة والكسل والبطالة، وضاعت بالتالى الوظيفة والصيغة الأصلية للدراويش والتى أكسبتهم مكانتهم فى التجربة العثمانية، فقد اشتركوا بصورة فعلية فى الجهاد وتأسيس الدولة، ويطلق عليهم الدراويش الغزاة (بالتركية: درفيش غازيلر). وقد أدوا كذلك دورا هاما فى تأسيس المجتمع الإسلامى فى روملى، والحفاظ على حيوية وبناء شخصيته وثقافته.



كثيرا ما يسرد أوليا جلبى أعداد فرسان «تيمارلى سباهى» الذين تقدمهم كل منطقة. وتشكيلات تيمارلى سباهى هى جيش من الخيالة، بل هى أهم صنف خيالة فى الجيش العثمانى. وقد بدأت هذه التشكيلات مع بداية بداية قيام الدولة، فانتشر هذا النظام فى كل أطراف الأناضول وروملى (القسم الأوروبى من الإمبراطورية). والتيمارلى سباهى، أو خيال الأقاليم، لا يتقاضى راتبا من الدولة، بل يقطع أرضا زراعية تسمى «تيمار» إن كانت صغيرة، أو «زعامت» إن كانت كبيرة. ويقوم ضابط السباهى الكبير (زعيم) بجمع الخراج من الفلاحين فى تيماره أو إقطاعيته ويأخذها لنفسه، وذلك مقابل اشتراكه فى القتال مع جنوده من الخيالة بأعداد وتجهيزات متناسبة مع مساحة ومحصول إقطاعيته.

كذلك، يعتبر الزعيم أو



كانت الطرق الصوفية والتكايا احتياجات لاغنى عنها فى الحياة الاجتماعية العثمانية



صاحب التيمار مسئولا عن الأمن فى الأراضى التى يديرها وقت السلم. وقد يكون التيمار قرية بكاملها أو عدة قرى أو قسماً من قرية، ولا يمكن لصاحب التيمار أن يجبى خراجاً أكثر مما تقره القوانين. وعند استدعاء السباهيين (الخيالة) للقتال، يذهب كل سباهى بكامل عدته وجهازه إلى زعيمه الذى ينضم بدوره (ومعه جنوده) إلى مركز آمر الكتيبة (آلاى بك)، وهؤلاء بدورهم يقودون كتائبهم إلى مركز آمر اللواء (السنجق بك)، وهو بدوره يعبىء كتائبه باتجاه مقر الفريق أول (البكلربك). وهو فى العادة أعلى سلطة فى ولايته، فيلتحق و قواته بالسرعسكر، أى قائد ورئيس أركان الجيش العثمانى. تجرى هذه التعبئة ضمن مخطط معين وبسرعة هائلة بمقياس ذلك الزمان.

بدأ نظام الإقطاع (التيمارلى) فى عهد السلاجقة الذين سبقوا العثمانيين إليه، وكان للسلاجقة نوعان من الجند: تيمارلى؛ وقابوقولو أو قوات المركز وهى تتقاضى رواتب. والسباهى هو الخيال الذى لا يملك الأرض بل يديرها، فصاحب الأرض هو الدولة، والقروى يخدم الأرض باسم الدولة. أما التيمارلى فهو الجندى الذى يجمع خراج الأرض ويؤمن نظام الدولة فيها. وفى حالة غياب التيمارلى فى الحملة مع الجيش، ينوب عنه فى إدارة التيمار وكيله المعروف بالـ «قوروجو». وإذا مات التيمارلى، يثبت فى إدارة التيمار ابنه أو أخوه أو ابن أخيه، أما إذا لم يكن هناك من أسرته أو عشيرته من يحل محله، فتسترد الدولة التيمار، وتعهد به إلى أسرة أو عشيرة أخرى. لم يتأسس هذا النظام خارج نواة الإمبراطورية العثمانية فى الأناضول إلا فى إيالات روملى (بعض الجزء الأوروبى) وإيالة الشام. ويذكر أوليا چلبى أنه فى عام ١٦٥٠ كان للدولة من جنود التيمارلى وعلوفه لى (جنود الرواتب) ما مجموعه ٥٦٦ ألفاً. وكانت جيوش البلاد ذات الحكم الذاتى التابعة للعثمانية - كالمجر ورومانيا (أفلاق وبغدان)- ووحدات المتطوعين والمساعدة خارج هذا العدد.

كانت المكون البشرى الأساس لخيالة التيمارلى هى العشائر ذات الأصل التركمانى، وما اتصل بها من أعراق كالتتر والشركس والشيشان والأبخاز (الأباظة)، ولم يعرف عن العرب انخراطهم فى هذا النظام. وكانت العشائر ذات الأصل التركى والتى يطلق عليها «تركمن» إذا انتقلت إلى الأناضول تصبح عثمانية، أما إذا سكنوا مدن الأناضول فيصبحون أتراكاً. لعب السباهية دوراً كبيراً فى أسلمة الأناضول وروملى وصبغهما بالثقافة التركية. وأخذ هذا الصنف من الجيش يتضاءل باستمرار اعتبارا من الربع الأخير للقرن السادس عشر، ثم ألغى عام ١٨٥٠، لأن أهمية المشاة أخذت بالازدياد على مر الزمن بالنسبة للخيالة، بسبب تقدم تقنية البنادق وأسلحة الرمى النارية الفردية والمدفعية.



بعد حل نظام التيمار، اختلت ملكية الأراضى العثمانية، وحل محل سباهية التيمار ملاك استحوذوا على هذه الأراضى بشكل أو بآخر، وزعموا أنهم أصحابها الشرعيون مع أن كيفية حيازتهم لها فى أواخر القرن الثامن عشر فى الأناضول وروملى مجهولة، لكن المعروف أن الإقطاعيين «ده ده بكى» الذين استولوا على الأرض لم يحصلوا عليها بالفتوحات أو الشراء. ومع أن رائد الإصلاحات والتنظيمات العثمانية السلطان محمود الثانى لم يرحم أولئك الإقطاعيين، إلا أن بعضهم تمكن من الحصول على الأرض بعد صدور التنظيمات والتى تم بمقتضاها بيع أو تمليك أراضى الدولة، وتكونت طبقة ملاك الأرض الزراعية من أصول يعود بعضها إلى عشائر التيمار السابقة وإلى إقطاعيى «ده ده بكى»، وغيرهم كذلك.

أما فى بلاد الشام فقد استقرت عشائر تركمانية عديدة واستعربت، وخدمت أدواراً عديدة فى الإدارة وغيرها. من هذه العشائر مثلاً آل العظم أحفاد كميك أوغوللرى، وهو من بكوات التركمان الذين هاجروا فى أواخر القرن السابع عشر من قونية فى الأناضول إلى معرة النعمان فى الشام، وشغلوا مناصب ولاة عثمانيين آماداً طويلة، ثم أصبحوا إحدى عائلات وزراء العثمانيين النموذجية التى قدمت للدولة العثمانية ٢٥ وزيراً و مائة باشا تقريباً.

يلقى نظام التيمار وما تلاه من تطورات ضوءاً على الأدوار التى مرت بها ملكية الأرض الزراعية فى العالم الإسلامى، وهى مسألة هامة شغلت الفكر والفقه الإسلامى قروناً منذ أن فتحت أرض السواد بالعراق على عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، الذى لم ير اعتبارها كباقى الغنائم التى توزع أربعة أخماسها على الجند، واستبقاها لتكون قاعدة اقتصادية لمشروع الفتح فى زمانه، ومصدراً لثروة الأمة مستقبلاً. كما تلقى المسألة ضوءاً على التاريخ الاجتماعى لعائلات كبار ملاك الأرض الذين آلت إليهم ملكية هذه الأراضى بعد اضمحلال وإلغاء نظام التيمار.

ويلاحظ أن بعض الألوية التابعة لإيالة معينة وأحياناً إيالة بكاملها لم تؤسس فيها تشكيلات التيمارلى سباهى، وذلك بسبب عدم وجود الأتراك أو بالأحرى عشائر التركمان بهذه المناطق، ولكون معظم سكانها من العرب. غير أن مصر مثلاً لم تؤسس بها تشكيلات التيمار العثمانى لسبب آخر، وهو وجود نظام الإقطاع العسكرى بها أواخر عهد الأيوبيين، حيث تولى السلطنة بعد نهاية الدولة الأيوبية عهدان من المماليك، والذين سميت سلطنتهم «الدولة التركية» بصورة رسمية. والعهدان هما: المماليك البحرية (١٢٥٠-١٣٨٢)، وهم من أتراك الأوغز والكومان والقبجاق، وقد جُلب أغلبهم من سهل القبجاق، وهى أوكرانية الحالية؛ ثم المماليك البرجية (١٣٨٢-١٥١٧)، وأغلبهم من الشركس والأبخار (الأباظة) الذين استتركوا، أى أصبحوا أتراكاً؛ وغلبت عليهم اللغة والثقافة التركية. فكان الإقطاع العسكرى هو النظام الذى شكل القاعدة الاقتصادية والإدارية لنظام المماليك. ومن المعلوم مثلاً أن ثانى سلاطين المماليك البحرية، الملك المظفر سيف الدين قطز، قد أقطع زميله بيبرس قصبة قليوب لإدارتها وتحصيل خراجها الذى كان يغطى نفقات المماليك التابعين له. والجدير بالذكر أن قطز نفسه لم يكن من مماليك القبجاق بل ينحدر من سلالة خوارزم شاه التى تركزت دولتها فى إيران وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر، وكانت قاعدتها سمرقند. واستمر نظام الإقطاع العسكرى حتى بعد دخول مصر فى حوزة العثمانيين، لأن العثمانية احتفظت بالكثير من إدارة وعساكر المماليك فى مصر، لكنها أرسلت عساكر من استانبول كذلك، وقد تجاوز عددهم ٢٠ ألف جندى فى زمان أوليا چلبى.



يلاحظ كذلك أن نظام إدارة الأقاليم فى المشرق العربى قد استقر إلى حد كبير منذ عهد المماليك والعثمانيين إلى الآن، بما فى ذلك هيكلة المناطق ووحداتها الإدارية من إيالات (ولايات)، وألوية (محافظات)، وأقضية (مديريات)، ونواح، وقرى، على الترتيب. كما يلاحظ أن التغييرات التى حدثت فى تقسيم وإدارة الأقاليم والمناطق، منذ ذلك الزمان وحتى قيام الدولة القومية (الوطنية) المعاصرة، كانت طفيفة فى حالة الدول التى تطابقت فيها حدود الدولة مع حدود الإيالة العثمانية السابقة، مثل مصر. لكنها كانت أعمق أثرا فى حالة الدول التى شهدت حالة من التجزئة والتفتيت لتلائم المخططات الجيوسياسية والمصالح الإستراتيجية للدول الكبرى المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى، كما فى مثال بلاد الشام والعراق «سايكس-بيكو» وامتداداتها التى رسمت معظم حدود التجزئة الراهنة.

من ناحية أخرى، يلاحظ أن التقسيمات الإدارية أو المناطقية للقرى والنواح والأقضية والألوية جاءت متوازية مع حدود الصلات العشائرية والقبلية ودوائر النفوذ والعصبيات المناطقية، والارتباطات القائمة أصلا بين الأطراف والمراكز، وتأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية على العناصر المكونة لكل وحدة إدارية. لذلك، كانت تلك



كان الإقطاع العسكرى هو النظام الذى شكل القاعدة الاقتصادية والإدارية لنظام المماليك



التقسيمات انعكاسا لصورة تلك الأوضاع بأبعادها المختلفة، وتكريسا لها فى آن واحد. كذلك، لم تكن تلك التقسيمات متجمدة عند صورتها فى مرحلة أو حقبة معينة، فكثيرا ما كان يؤسس لواء جديدا، أو يلغى لواء ليضم إلى لواء آخر بسبب تغير العوامل أو الظروف السكانية أو الاقتصادية أو الإستراتيجية ذات الصلة بتشكيل ذلك اللواء. وأحيانا ينقل مركز الإيالة أو اللواء أو القضاء من مدينة إلى أخرى رغبة فى إنماء الأخيرة، أو تعزيزا لوضعها الإستراتيجى، أو اتخاذها قاعدة لمشروع جديد، أو استجابة للحاجات الاجتماعية أو الاقتصادية المستجدة.

كان لإيالة مصر الرتبة الأولى فى التشريفات (البروتوكول) العثمانية، كما كان لواليها الوزير المكانة الأولى بين ولاة الإيالات فى الديوان الهمايونى (الامبراطورى). وتتلو مصر إيالة المجر (بالتركية: بودين، وهو الاسم التركى لبودابست)، وكانت لإيالة روملى الرتبة الثالثة، وبعدها إيالة حبش التى لها الرتبة الرابعة، ثم إيالة بغداد لها الرتبة الخامسة، ولإيالة اليمن الرتبة السادسة، ولإيالة الشام الرتبة السابعة. ويظهر من هذا الترتيب أن الوزن الاستراتيجى للإيالة هو المعيار الأول الذى يحدد أهميتها ومكانتها بين إيالات الإمبراطورية، إضافة إلى وزنها السكانى والاقتصادى ومساحتها، ومكانتها الرمزية أو المعنوية.



كان القاضى العثمانى قبل إعلان وبدء عصر التنظيمات (١٨٣٩) حاكماً فى أمور التقاضى والحقوق، كما كان فى نفس الوقت رئيساً لبلدية موقعه، فكان ينظر فى الدعاوى القضائية قبل الظهر، وفى أمور البلدية بعد الظهر. كما كان القاضى الصغير الذى يسمى نائبا هو الأمر الملكى لناحيته؛ أى أنه مدير الناحية ورئيس بلديتها وحاكمها كذلك. أما الشخص الذى يدعى قاضياً، فكان هو الأمر الملكى لقضائه (إقليمه أو ناحيته)، فهو قائم مقام القضاء، وفى نفس الوقت هو رئيس بلدية القضاء وحاكمه. ويسمى القاضى فى مراكز الألوية (المحافظات) أو مراكز الإيالات (الولايات/الأقطار) «ملا»، وتعنى القاضى. والملا هو رئيس بلدية تلك المدينة كذلك وحاكمها (فى أمور الدعاوى)، لكنه ليس آمرها الملكى. فالأمر الملكى هناك هو أمير اللواء (السنجق بك)، وفى مركز الإيالة هو الفريق أول الوالى (البكلربك). لذلك، عندما يتحدث أوليا جلبى عن مخصصات القضاة، فهو فى الحقيقة يعنى ميزانية البلديات والمحاكم معا، وما يتبعها من أجهزة عدلية وشرطية وبلدية وأنشطة وواجبات ذات صلة.

كان القضاة يحكمون فى القضايا الجزائية والدعاوى العامة دائما بموجب الفقه الحنفى والقوانين الصادرة باسم الخاقان (الإمبراطور). كان من المبادئ الأساسية للإدارة العثمانية عدم امكان صدور الجزاء أو إنفاذه بدون حكم القاضى. يستثنى من ذلك قضايا أمن الدولة، فقد كانت من اختصاص أمير اللواء أو والى الإيالة. كان القرار الذى يصدره القاضى ينفذ على الفور، ما عدا حكم الإعدام، إذ يمثل المحكوم عليه أمام أمير اللواء (أو والى الإيالة) ومعه حجة (حكم) القاضى. فالقاضى لا يمكنه الأمر شخصيا بإنفاذ حكم الإعدام، لأن أمر التنفيذ هو من صلاحيات أمير اللواء أو والى الإيالة. والقرار النهائى يعطيه قاضى عسكر روملى إن كانت القضية فى الجزء الأوروبى من الإمبراطورية، أو قاضى عسكر الأناضول فهو المسئول عن كل قضاة الإمبراطورية الآخرين.

وفى مصر مثلا، كانت القاهرة هى أكثر مدن الامبراطورية سكانا بعد استانبول، وكان يطلق على قاضى القاهرة «مصرقاضيسى» أو «مصرأفنديسى»، أى قاضى مصر. كان أول من تولى قضاء مصر للعثمانيين هو كمال باشزاده أحمد شمس الدين أفندى (١٥١٧)، وهو من أكبر علماء العثمانية، وصار فيما بعد شيخا للإسلام، وصنف مئات الرسائل والمؤلفات باللغات العربية والفارسية والتركية. كان بإمرة قاضى مصر مائة موظف ومائة خادم وثلاث مائة محضر (شرطية عدلية)، وله مستشارون من المذاهب الأربعة. وقد جمعت سجلات المحاكم فى بناية ذات قبة حجرية، وقد تراكمت الوثائق من عهد عمر بن الخطاب (رض) على شكل جبل من الأوراق. إضافة لمسئوليات قاضى مصر كرئيس لبلدية القاهرة، فقد كان يدير فى معيته ثمانين قاضيا من قضاة مصر، أكثرهم لم يكونوا من استانبول، بل مصريون شافعيون، وبينهم كذلك مالكية وحنابلة، لكن قضاة مصر المحليين لا يستطيعون مزاولة القضاء خارج مصر. ■

كتاب الزاوية



شعراء الصوفية المجهولون (٢)

شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِى

(المقتول ٥٨٧ هجرية)

لأنوارِ نورِ اللهِ فى القلبِ أسرارُ
وللسِّرِّ فى سِرِّ المُحبين أسرارُ

ولمَّا حَضَرْنا للسرورِ بمجلسٍ
وحَفَّ بنا من عالمِ الغيبِ إسْرَارُ

ودارتْ علينا للمعارفِ قهوةٌ
يطوفُ بها من جوهرِ العقلِ خَمَّارُ

فلمَّا شربناها بأفْواهِ فَهْمِنا
أضاءَ لنا منها شموسٌ وأقمارُ

وخَاطَبَنا فى سُكْرنا عند صَحْونا
قديمٌ عليمٌ دائمُ العفوِ جبارُ

وكَاشَفَنا حتى رأيناهُ جهرةً
بأبصارِ صدقٍ لا تُواريه أسْتارُ

فَغِبْنَا به عَنَّا ونِلْنَا مرادنا
ولم تبقَ فينا بعدَ ذلك آثارُ

سَجَدنا سُجُودًا حين قال تمتَّعوا
برؤيتِنا إنِّى أنَا لكُمُ جارُ

(الطويل)

فى ذكرياتى ويومياتى ما يقول بأنه كانت هناك مؤامرة مقصودة للتعتيم على الجارم



كان على الجارم محط حسد وبغض كثيرين حاروا فى أمره فلم يجدوا أمامهم غير التعتيم على سيرته. كانت سيرة «على الجارم» فوق مستوى الشبهات ناصعة البياض، لا يطعن فيها حتى من كان فدمًا أو مخبولاً. أم سيقولون أنه وظف شعره لمدح الملكين فؤاد وفاروق، وسيقولون إنه شاعر تقليدى يحافظ على قواعد الشعر العربى الأصيل والرصين وليس مجددًا (أو حداثيًا) ليسلك المناهج الحديثة فى الشعر مثل شعر التفعيلة والشعر الحر، أى الذى بدون قواعد وبدون وزن وبدون موسيقى وبدون هدف؟! أو يقولون إنه شاعر مناسبات أى ليس شاعرًا وجدانيًا، وإنما ينظم فقط لخدمة هذه المناسبات؟! كل هذه التبريرات اخترعت اختراعًا من أجل رسم خريطة التهجم على «الجارم» فى تلك الأيام البعيدة من الخمسينيات والستينيات واستكمالا لمؤامرة التعتيم عليه.

للأدب فلن يضيره ما يرجف به كاتب لا يستطيع أن يقرأ قصيدة عربية صحيحة، ثم يزعم لنفسه ريادة للنقد وتخطيطًا للأدب وقدرة على الهدم دون الإنشاء؛ وهو يقصد الكاتب محمد مندور فى كتابه «الشعر المصرى بعد شوقى» والذى ظهرت أولى حلقاته عام ١٩٥٥ والثانية عام ١٩٥٧ والثالثة عام ١٩٥٨. ويقول مرة أخرى فى مقدمة كتابه «على الجارم شاعر العروبة»: «لقد كان من العجب أن تصدر الدراسات المبسوطة عن شعراء يعدون فى مرتبة التلاميذ للجارم وأن يشيح أصحاب الأقلام عن الإشادة بأدب شاعر تولى الزعامة الأدبية بعد شوقى؛ وجمع الأمة العربية على وحدة هتف بها الشعر قبل أن يسعى لها ذوو السياسة وقد أشرت إلى ذلك فى هذه الصفحات لأحفظ للرجل الكبير مكانه الرائد بين النابهين، وفى

على «مؤامرة الصمت» التى حيكت على «الجارم»، وأخبرنى إنه شاهد على بعض خيوط هذه المؤامرة عندما اقترح عمل ملف دراسى عن «الجارم» بمجلة «الرسالة» فى الستينيات - وكان يرأس تحريرها لعلاقته الوثيقة بالأستاذ فتحى رضوان وزير الثقافة فى هذه المرحلة الزمنية؛ إلا أن التعليمات صدرت لهم من الرقابة بإلغاء هذا المشروع الذى لم يتم بالطبع.

وكان من غباء هذه الرقابة العسكرية فى ذلك الوقت، أن أمرت بحجب دواوين الشعراء الكبار أمثال شوقى والجارم بحجة أن لهم قصائد فى مدح ملوك مصرمتجاهلة أن السيرة الوطنية لأى دولة من الدول سلسلة متماسكة الحلقات ولكل دورها وأثرها فى حياة الأمة.

وأوسع مدى على سيرة بعض فرسان المجمع ورجاله بوصفهم روادًا وقممًا شامخة فى خدمة العربية وأهليها على سواء. وأما الفارسان اللذان تناولت اللقاءات سيرتهما ودورهما فى دنيا اللغة وآدابها وفى حركة التنوير والتثقيف على مستوى راق رفيع، فهما الشاعر على الجارم واللغوى الرائد الدكتور إبراهيم أنيس. «على الجارم» أديب كبير بالطبع لا بالصنع؛ لم يقتصر دوره على فن معين من فنون الأدب: جال وصال فى دنيا الشعر والنثر والرواية؛ وخلف لنا ثروة هائلة ممتعة فى هذه الفنون جميعها؛ ونظمها ورواها بأسلوب يعد نسيج وحده فى دنيا الأدب الحديث. اعتلى شعره القمة فى عصره من حيث الشكل والمضمون. جاء شعره على اتساق بحور الخليل دون تجاوز أو خروج عن



هؤلاء تآمروا على أبى!!

فى عام ١٩٦٧ عندما دعانى الأستاذ أحمد الشايب إلى منزله، وكان تلميذًا للوالد على الجارم فى أغلب مراحل حياته وكان مسكنه فى جزيرة الروضة قريبًا من مسكننا؛ وكانت دعوته لى لأعوده من مرض ألمّ به. وقد ذكر لى حينئذ - وهو ممسك ببعض المذكرات - إنه هو الذى سيسجل أدب على الجارم فى كتاب خاص به اسمه «الجارم الشاعر» وإنه هو الذى سيضعه فى «فاترينة التاريخ» على حد قوله. ولما أتم كتابه دفع به إلى دار النهضة المصرية لطبعه ونشره إلا أن الرقابة العسكرية تدخلت عند الطبع وطالبت بحذف بعض أجزاء من الكتاب واضطر الأستاذ الشايب بملء هذه الفراغات بأشعار للجارم؛ إلا أن بعضها لم يكن متمشيًا مع سياق الكلام (وقد لاحظ الدكتور محمد رجب البيومى ذلك فى مقاله «أحمد الشايب يتحدث عن على الجارم» والذى نشره فى مجلة الثقافة عدد نوفمبر ١٩٧٨)، ولدى فى مكتبتى نسختان من هذا الكتاب؛ النسخة الأصلية والنسخة التى سمحت بها الرقابة العسكرية: أحد الأدلة الدامغة على مؤامرة الصمت على «الجارم» فى هذه المرحلة التاريخية من حياة مصر. وفى نفس هذا المقال يقول الدكتور محمد رجب البيومى: «إذا عرف العقاد ونظراؤه للجارم مكانته العالية

هذا تكريم للمبادئ التى هتف بها قبل أن يكون تكريمًا لذاته وإحياء لمثل يجب أن تبقى بقاء الحياة لتهدى إلى سواء السبيل». ويقول فى نفس الكتاب ص ٩٦: «أخشى أن تكون عروبة الجارم وإسلاميته وتصديه لأعداء العربية أهم أسباب هذا الهجوم الظلوم».



كما أتيح لى أن أتعرف على أبعاد «مؤامرة الصمت والتعتيم» على «الجارم» مرة أخرى عندما قامت مجلة «الفيصل» السعودية بعمل «ملف» عن على الجارم بالعدد ١٩٤ فى فبراير ١٩٩٣ وقرأت به مقالاً للدكتور عبده بدوى بعنوان «الجارم ومدرسة دار العلوم فى الشعر» وكتبت ردًا للسيد رئيس التحرير فى العدد رقم ١٩٨ فى يونيو ١٩٩٣ ص ١٢٢، قائلاً تحت عنوان «الظلمة الجاهلية التى نعيشها اليوم ستنقشع». وتشاء الظروف أن يزورنى فى عيادتى الخاصة بعد ذلك الدكتور عبده بدوى لأمر خاص به وأشار إلى ما كتبته فى ردى

وقد ذكرنى هذا الموقف ببيت شعر للجارم فى قصيدته «الجامعة العربية» التى ألقاها عام ١٩٤٤ بمناسبة إنشاء جامعة الدول العربية يقول فيه:

إذا ضَيَّعَ التَّاريخُ أَبْنَاءَ أُمَّةٍ
فَأَنفُسَهُمْ فى شِرعَةِ الحَقِّ ضَيَّعُوا!

وقد تعرض الشاعر الكبير وشاعر العروبة «على الجارم» - بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ - لادعاء سقيم أنه شاعر الملك، وذلك غير صحيح: فلقد كان الجارم شاعرًا لمصر وشاعرًا للعروبة وشاعرًا للإسلام: ولم يكن مدحه للملك إلا لأن الملك كان رمزًا للوطن. وغنى عن الذكر أن ذلك كان نهج كل الأدباء والشعراء وغيرهم فى ذلك الوقت بل وفى كل الأزمنة.

ولم يطل انتظارنا كثيرًا: ففى عام ١٩٩٧ يقرر المجمع اللغوى بالقاهرة برئاسة الدكتور شوقى ضيف نفسه إقامة أربع ندوات أدبية جماهيرية قال عنها الدكتور كمال بشر نائب رئيس المجمع فى تقديمه لكتاب «ندوات المجمع الثقافية» - الجزء الأول(١) ص د: «هذا بالإضافة إلى ما رأته اللجنة (اللجنة الثقافية بالمجمع) من أهمية إلقاء ضوء أعمق

إطارها المرسوم، مصوغًا بلغة فريدة الاختيار فى مفرداتها؛ عزيزة المنال على غير العارفين، حيث نظمت حبات عقوده من جواهر القديم والحديث وجاءت هذه العقود بألوان مختلفات تحكى ألوان أحداث الزمان ووقائعه وبخاصة فيما يجرى فى العالم العربى حتى سُمِّىَ «شاعر العروبة». ولم يقتصر هذا النهج الفريد على صناعة الشعر، بل كان له وجود واضح متميز فى نثره ورواياته، يشهد بذلك ويؤكده العارفون بصناعة التأليف، من جودة الحبك وامتياز السبك وتنوع الأغراض».

ويفتتح الدكتور شوقى ضيف الندوة الأولى ببحثه عن «الجارم» قائلا: «إنه ليشرفنى أن أتحدث عن علَم شامخ من أعلام الأمة العربية فى عصره. كان مرموق المكانة - ولا يزال - بين شعراء عصره المبدعين الذين تخلب أشعارهم الألباب، وكان معلمًا لناشئة الأمة وأبنائها العربية والبلاغة أجيالاً بعد أجيال؛ وكان كاتبًا قصصيًا طالما ظفر فى قصصه بالإعجاب، وكان إمامًا لغويًا لا يبارى ولا يجارى؛ ولذلك حين جمعت الأمة أعلامها ورجالاتها ليؤسسوا مجمع اللغة العربية تأسيسًا قويمًا، اختارته مع تسعة من المصريين فى العصبة الأولى التى عهدت إليها بإقامة هذا الصرح

أحمد على الجارم

المجمعى اللغوى... وينشر الجارم فى الجزء الرابع من مجلة المجمع بحثًا لغويًا فريدًا بعنوان «المصادر التى لا أفعال لها» ويقول (يقصد الجارم): «اعتاد بعض العلماء أن يعقبوا على بعض الأسماء أو المصادر بأنها لا فعل لها. ولكن الباحث إذا واصل البحث واستقصى كثيرًا من المراجع، وجد من اللغويين من يذكر لها أفعالاً». ويستعرض كتاب «المخصص» وهو معجم ضخم للمعانى لابن سيده كبير علماء العربية بالأندلس ويجده فى المجلد الرابع عشر قد أفرد بابًا لأسماء المصادر التى لا تشتق منها أفعال، وأورد من هذه المصادر تسعة وخمسين مصدرًا ؛ نقل منها ثلاثة وأربعين عن أبى عبيد وأربعة عن ابن السكيت وثلاثة عن سيبويه وثمانية عن ابن دريد وواحدًا عن ثعلب؛ ورد ابن سيده على أبى عبيد خمسة منها فأثبت لها أفعالاً ؛ وبقى أربعة وخمسون مصدرًا لا تزال - فيما نقله - «لا يصح أن يشتق منها أفعال». ويقول الأستاذ الجارم : «قد تناولت هذا البحث بإفاضة واستيعاب وتنقيب فى المعجمات فظهر أن لجميعها أفعالاً ما عدا سبعة منها». وعادة يذكر فيما أكمله منها نص صاحب «المخصص» أولاً ثم يتلو بنص ينقضه من المعاجم، ويورد فى النصوص أفكارًا له وتعليقات لغوية دقيقة. وهو عمل لغوى مجمعى رائع، فقد نقد الأستاذ الكبير على الجارم لا كلمة ولا كلمات من كتاب «المخصص» وإنما نقض بابًا برمته لابن سيده الذى كانوا يقرنونه فى علمه باللغة بأبى العلاء المعرى ويقولون: كان بالمشرق لغوى وبالمغرب لغوى فى عصر واحد لم يكن لهما ثالث : وهما أبو العلاء وابن سيده. وقد نقض الأستاذ الجارم أقوال من نقل عنهم ابن سيده من أئمة العربية الذين نفوا عن بعض المصادر أن لها أفعالاً من أمثال سيبويه وأبى عبيد وابن السكيت وابن دريد وشاهد آخر يحضرنى الآن هو الكتاب الذى كتبه الدكتور أحمد هيكل - عميد دار العلوم ووزير الثقافة الأسبق - تحت عنوان «تطور الأدب الحديث فى مصر» ونشرته له دار المعارف فى طبعتها الأولى عام ١٩٦٨. وفى طبعته الخامسة التى صدرت عام ١٩٨٧ وفى ص ١٠٩ نجده يقول : «وأصبح جيل الشعراء فى هذه الفترة (الحديثة) يسيرون فى نفس اتجاهه (الشاعر محمود سامى البارودى) ويترسمون خطاه: فإسماعيل صبرى وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم ومحمد عبد المطلب وبقية شعراء هذا الجيل التالى من أمثال





أحمد محرم وعلى الغاياتى وغيرهم (لاحظ أنه أغفل ذكر على الجارم أصلاً) قد صاغوا شعرهم على طريقة البارودى». ثم يأتى فى ص ٢٨٨ ويقول: «وقد سار فى هذا الاتجاه الشعرى المحافظ بعد شوقى جيل آخر تمثل فى على الجارم ومحمد الأسمر وعزيز أباظة وعلى الجندى ومحمود غنيم وغيرهم؛ ولكن بموت شوقى سنة ١٩٣٢ ماتت سيادة هذا الاتجاه وظل كل السائرين فى طريقه يحاولون جاهدين أن يقربوا من قمته الشامخة التى علاها كثير من الجليد». وهكذا فقد اختصر الدكتور أحمد هيكل جهود الجارم الأدبية وشعره، والتى تجدها بين دفتى هذا الكتاب إلى مجرد سطر أو سطرين..

ثم تأتى الشهادة الحق - وعدالة السماء لا تغيب - ويكتب الدكتور أحمد هيكل نفسه مقدمة كتاب «الجارم فى ضمير التاريخ» فى طبعته الأولى عام ١٩٩٤ وكأنه يراجع ويناقش ما كتبه قبل ذلك فى كتابه «تطور الأدب الحديث فى مصر» قائلاً: «أما الرائد الكبير الذى يدور حوله هذا العمل، فهو طيب الذكر على الجارم، أحد أعلام الاتجاه المحافظ فى الشعر العربى الحديث، هذا الاتجاه الذى راد طريقه البارودى أولاً، ووصل إلى غايته شوقى فيما بعد، ثم كان الجارم واحداً من الذين تصدروا السائرين فى هذا الاتجاه والمتنافسين على ملء الفراغ بعد رحيل أمير الشعراء؛ بل كان - بحق - السابق إلى محاولة ملء هذا الفراغ، وخاصة فى الجانب المحفلى والرسمى الذى كان من أبرز جوانب إمارة شوقى .. وديوان الجارم ذو الأجزاء الأربعة (فى طبعته الأولى) خير شاهد على هذا العطاء الشعرى الرفيع والغزير، الذى يمثل طبقة سامية من طبقات الشعر المحافظ، تضع صاحبها فى مكان المتصدرين من أصحاب هذا الاتجاه الفنى الرصين».

والجارم أحد أعلام الاتجاه التاريخى فى الرواية الفنية الحديثة. وهو الاتجاه الذى بدأه جورجى زيدان بمجموعة رواياته التى تعتمد فى مادتها الأساسية على موضوعات وحوادث من تاريخ العرب والمسلمين، ثم جاء من طوروا هذا الاتجاه وجودوه، مثل محمد فريد أبى حديد ومحمد سعيد العريان، وكان من المتصدرين بينهم على الجارم، الذى أنجز تسع روايات من بينها: فارس بنى حمدان، وغادة رشيد، وهاتف من الأندلس، وشاعر ملك. وهى روايات تتنوع مسارح أحداثها بين الشام والعراق ومصر والأندلس.

كذلك كان الجارم من رواد التأليف للكتب الدراسية. ومما له فى هذا المجال - بالمشاركة - النحو الواضح، والبلاغة الواضحة، والمجمل، والمفصل، والمنتخب، والمطالعة التوجيهية، وغير ذلك.

ويلفت النظر أن نرى هذا الرائد العظيم من رواد الأدب الحديث شعراً ونثراً، لا يلقى ما يستحقه من إشادة وتكريم، كما لا يلقى إنتاجه الأدبى ما هو جدير به من ذيوع وتعظيم .. وربما كان السبب فيما يتصل بشعره أن كثيراً من هذا الشعر ارتبط بمناسبات معينة، وأن بعضه دار أساساً حول المدح، وأن جزءاً من هذا البعض قد اتصل بالملك فاروق.

أما المناسبات فما كان ينبغى أن تكون سبباً فى تنحية شعر الجارم عن مكانته الفنية؛ لأن المناسبات التى تسىء إلى الشعر هى المناسبات التى لا تحرك وجدان الشاعر، والتى لا تصل فى دفع مشاعره إلى حد التجربة الشعورية. فهنا يكون الشعر المتصل بالمناسبة نظماً أو كلاماً مرصوصاً أشبه بالجسد الذى لا روح فيه .. أما حين تُحرك المناسبة وجدان الشاعر، بحيث ينفعل بها ويصدر عن شعور حقيقى وصادق بسببها: فهنا تتحول المناسبة إلى تجربة شعرية حقيقية، قد لا تفترق عن الإحساس بقدوم الربيع، وقدومه مناسبة طبيعية أو زمنية؛ كما لا تفترق عن الإحساس بلقاء حبيب، ولقاؤه مناسبة شخصية أو اجتماعية .. إن إطلاق مصطلح «شعر مناسبات» على كل شعر قيل فى مناسبة، إطلاق فيه كثير من التعسف أو عدم الدقة فى أقل تقدير. فكل تجربة شعرية هى فى أصلها مناسبة بالمعنى اللغوى، ولكنها تخرج عن هذا المفهوم اللغوى وتسمى فنياً تجربة، إذا ارتبطت بصدق الشعور وحرارة الوجدان..

ومن هنا نقول - قصداً إلى الإنصاف - إن كثيراً من شعر الجارم الذى ارتبط بمناسبات وطنية أو قومية أو عربية، هو شعر سمت فيه المناسبة إلى مستوى التجربة، فجاء شعراً صادقاً، لا يعيبه أن ارتبط بهذه المناسبة أو تلك.



وأما كون بعض شعر الجارم قد قيل فى المدح، فما كان ينبغى أن يكون ذلك سبباً فى إهمال هذا الشعر أو ظلم صاحبه وعدم إعطائه حقه من التكريم والتعظيم. وذلك أن جل الشعراء فى العصر الحديث - وخاصة المحافظين - قالوا مدائح، بل إن بعض أعلام التجديد قالوا شعراً فى المدح كذلك، ومن هؤلاء: العقاد وناجى ومحمود حسن إسماعيل. فالمدح أساساً لا يتنافى مع الشعر الجيد ولا يسىء بذاته إلى الشاعر العظيم، مادام صادق الشعور بعيداً عن شبهة النفاق معبراً بأسلوب شعرى فنى حقيقى .. فالعبرة بالصدق أولاً وبالتعبير الفنى ثانياً. فإذا صدق الشاعر فى عواطفه نحو من يمدحه، وإذا عبر عن هذا الصدق تعبيراً شعرياً فنياً رفيعاً، كان قد صنع شعراً جيداً رغم أنه يدور حول إنسان ممدوح .. إن المرفوض هو الكذب والنفاق وسقوط الشاعر فى النظم الذى قد يخفى ببهرجه وجمالياته البلاغية، مشاعر كاذبة أو مطامع رخيصة. وما أظن أن شعر الجارم فى المدح كان من هذا اللون»

وفى الحلقة الأولى من كتابه «الشعر المصرى بعد شوقى» للدكتور محمد مندور، والذى أصدره عام ١٩٥٥ (توفى الجارم فى فبراير ١٩٤٩) يقول: «وفى الحق إننا لنطالب على الجارم وأمثاله من شعراء التقليد بما لم يكونوا يدركونه من حقائق الشعر والأدب (هكذا) عندما نطالبهم أن يصدروا عن وجدان خاص متميز بأصالته وذلك لأنهم كانوا لا يزالون يؤمنون بأن الشعر لا يعدو أن يكون قدرة على النظم وتوليد المعانى أو الأخيلة دون أن يكون مرآة لجوهر نفسى ومزاج خاص ونظرة متميزة للحياة».

عندما قرأت هذه العبارة لهذا الناقد، وعندما قرأت له قوله فى ص ٢١ من نفس الكتاب: «بل ونرى على الجارم فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه ينص على ما يعتقده من أحد مقاييس جودة الشعر هو «التنقل فى القصيدة فى فنون شتى من القول» وإذا كان قد أضاف إلى العبارة السابقة قوله: «مع المحافظة على الوحدة الشعرية» فالراجح أنه لم يقصد إلى غير وحدة الوزن والقافية. وذلك بدليل ما نلاحظه فى ديوانه نفسه حيث نرى هذه الظاهرة واضحة فى الكثير من قصائده كقصيدته الطويلة التى ألقاها فى المؤتمر الطبى الذى عقد ببيروت فى صيف سنة ١٩٤٤ حيث يستهلها بالغزل فيقول:

أَلْقَيْتُ للغِيدِ المِلاحِ سِلاحِي
ورَجَعْتُ أغْسِلُ بالدُّموعِ جِراحِي

ثم ينتقل إلى وصف الرحلة الذى يبدأه بقوله:

سِرْ يَا قِطارُ فَفِي فُؤادِي مِرْجَلٌ
يُزْجِيكَ بَيْنَ مَتَالِعٍ وبِطَاحِ

وإن يكن من الحق أن نلاحظ أنه لم يقل «سر يا بعير !!».

أدركت حينئذ أنه قد كشف عما فى نفسه من حقد شخصى على «الجارم» وأنه بهذا التعليق السخيف قد فقد موضوعيته فى النقد العلمى الصادق، وإن كل ما كتبه لا يستحق الورق الذى كتب عليه.

وهنا تحضرنى كلمة الدكتور الطاهر مكى التى يقول فيها: «فى نثره كما فى شعره كان يحكم الجارم فى إبداعه مذهب نقدى يؤمن به وهو أن للفن غاية خلقية وهو اتجاه كان يصطدم بقوة مع مذاهب أخرى بدأت تعرفها الحياة الأدبية العربية وافدة إلينا من وراء البحار: مذهب «الفن للفن»، ينكر أن يعنى الأدباء بالنواحى الاجتماعية والسياسية أو أن يوظف الشعر لتمجيد البطولات والمعتقدات لأن الأدب الإبداعى شعراً أو نثراً لا ينبه بالموضوعات الأخلاقية، ولا يشرف بالمواعظ والحكم، وإنما غايته الجمال فحسب. وفى مواجهته مذهب آخر حط رحاله فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية مع بعض العائدين من فرنسا



كان الجارم شاعراً لمصر وشاعراً للعروبة وشاعراً للإسلام؛ ولم يكن مدحه للملك إلا لأن الملك كان رمزاً للوطن



بالذات وهى «الواقعية الاشتراكية»؛ يتجاوز بها دعاتها مبدأ تصوير الواقع الذى تعرفه الواقعية النقدية منذ القرن الماضى، ويرون الفن سلاحًا فى معركة الصراع الطبقى. ومن الواضح أن «الجارم» رفض تطبيق المذهبين، فهو يؤمن أن للفن رسالة جمالية ولكن الغاية الخلقية قمة هذا الجمال ويراه سلاحًا من أجل التحرر والاستقلال وعدم التبعية ولكنه يرفض أن يقيده بمصلحة طبقة دون غيرها. وفى تلك الأيام خلال الحرب وما بعدها كان أصحاب النظريتين كثرة والتقوا معًا عند إضفاء ستار النسيان على شعر الجارم ونثره وكل من سار فى طريقه ونهجه».

وأخيرًا يبقى التهجم الخاص بشعر «الجارم» فى الملك فاروق؛ وهنا استرجع قول الدكتور أحمد هيكل فى تقديمه لكتاب «الجارم فى ضمير التاريخ» إذ يقول: «والحق إن فاروق كان فى سنوات ملكه الأولى محبوبًا جدًا من الشعب المصرى الذى رأى فيه أملاً لمستقبل مصر بعد استقلالها؛ وتوسم فى شبابه - الظاهر الطيبة فى تلك السنوات - ما يستوجب العطف بل ما يستحق الحب. وكان هذا إحساسًا عامًا لدى الشعب المصرى قبل أن ينحرف فاروق وتنكشف سلبياته ومخازيه. وفى ذاك العهد الأول لهذا الملك كان معظم الشعراء يتسابقون إلى قول الشعر فيه، وهم بهذا الشعر كانوا يعبرون عن حب الشعب ويصورون الشعور العام نحو هذا الملك الشاب المتسم فى أول عهده بمظهر الطيبة والصلاح. فلم يكن الجارم شاذًا فى ارتباط بعض شعره بفاروق؛ فقد شاركه فى ذلك جل الشعراء، وهم جميعًا معذورون ومسلكهم مبرر ومتسق مع طبيعة الأمور والشعور العام فى تلك السنين. ومن هنا أرى أن الجارم قد ظُلم كثيرًا حين ربط البعض بينه وبين الملكية الملغاة فحاولوا إلغاءه من سجل الشعراء الرواد. إن الإنصاف يفرض أن نحاسب الشاعر بصدق مشاعره وفنية تعبيره وألا نفصل بينه وبين روح عصره وألا نحاكمه بقيم طارئة عرفت بعد أيام إبداعه؛ حسب الشاعر التعبير عن روح العصر الذى عاش فيه، وحسبه الصدق فى مشاعره والفنية فى تعبيره. وقد كان الجارم بحق معبرًا عن روح عصره صادقًا فى مشاعره فنيًا فى تعبيره، بل إنه بلغ فى ذلك مرتبة عالية سبقه إليها شوقى؛ وسعى نحوها عزيز أباظة ومحمود غنيم وعلى الجندى وغيرهم من الشعراء الكبار المحافظين؛ رحمهم الله أجمعين».

إلا أن شهادة الدكتور أحمد هيكل السالفة الذكر - والرجل قد شغل عدة مناصب مختلفة مثل عمادته لدار العلوم كما كان وزيرًا للثقافة لبعض الوقت، مما أتاح له الفرصة الكاملة للاطلاع على مجريات الأمور - تجعلنى أتهم كل من كان مسئولاً فى قطاعات الثقافة والتعليم والإعلام، من صحافة وإذاعة وتليفزيون فى هذه الدولة وفى هذه المرحلة التاريخية بمحاولة «إلغاء الجارم من سجل الشعراء الرواد» - على حد تعبيره - والمساهمة فى مؤامرة التعتيم ومؤامرة الصمت على «الجارم». ودعنى أحمد ربى الآن بعد مرور كل هذه السنين فقد ظل «الجارم» شامخًا فى مكانته - بعد أن أعدت نشر تراثه كاملاً شعرًا ونثرًا وعلمًا. وللحقيقة والتاريخ أود أن أضيف أن الدكتور أحمد هيكل كان صادقًا فى كل ما ذكره إلا أن الجارم كان قد أدرك ذلك بحسه المرهف وشعوره الصادق وبصيرته النافذة فكف عن نظم الشعر فى فاروق منذ عام ١٩٤٥. وقد تحول معظم أدب الجارم بعد تقاعده عام ١٩٤٢ إلى الإنتاج الأدبى القصصى التاريخى، فكتب قصصه العشر المنشورة فى كتاب «سلاسل الذهب» ابتداء من عام ١٩٤٢ حتى وفاته عام ١٩٤٩، وقد تمكن فى هذا القصص التاريخى من التعبير عن صادق مشاعره وآرائه وأفكاره بكل الأمانة وكل الصدق.

وأخيرًا - أيها القارئ الكريم - ها هو «على الجارم» يتقدم إلى الإله العلى العظيم أولاً؛ وإليك ثانيًا، بصحيفته البيضاء وقد ثقلت موازينه؛ وها هى الدولة - فى مرحلة الرقابة العسكرية وبعملائها اليساريين الذين لا يزال بعضهم يحتل شيئًا من المساحة الأدبية فى مصر حتى الآن - تحيك مؤامرة الصمت والتعتيم عليه!! فهل نجحت فى ذلك؟!

إن «على الجارم» - ولو كره الكارهون والحاقدون والحاسدون - فخر لمصر وفخر للعروبة وفخر للإسلام وفخر للعربية؛ طالما أن هناك أملاً للصدق وأملاً للحقيقة وأملاً للشرف. رحمك الله يا جارم، يا من قلت وأنت فى السادسة عشرة من عمرك:

سَتَنْدُبُنِى الفُصْحَى إِذَا مِتُّ قَبْلَهَا
وَمَاتَ الَّذِى فِى النَّاسِ لَيْسَ لَهُ نِدُّ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. ■

كتاب الزاوية



شعراء الصوفية المجهولون (٣)

أبو علىَ الرُوذْبَارِى

(المتوفى ٣٢٢ هجرية)

روحى إليكَ بكُلِّها قد أجمعتْ
لو أن فيك هلاكَها ما أقلعَتْ
تبكى إليك بكُلِّها عن كُلِّها
حتى يُقال: من البكاءِ تقطَّعتْ
فانظرْ إليها نظرةً بتعطُّف
فلطالما مَتَّعْتُهَا فتمتَّعَتْ

(الكامل)

بكَ كتمان وَجْدهِ بك عَنْهُ
لكَ منهُ، وعنه ما لكَ منْهُ
مَنْ إذا لاح لائحٌ لمشُوقٍ
هامَ وجدًا عليكَ إنْ لم تَكُنْهُ
وإذا أفَلَ الأفُولُ ببَيْنٍ
بانَ عنه فبانَ إنْ لم تُبِنْهُ
يا فتى الحبِّ، بل فتى الحقِّ، سرِّى
عَنْهُ مُسْتَوْدَعٌ لديكَ فَصُنْهُ

(الخفيف)

مَنْ لَمْ يكُنْ بك فانيًا عن حُبِّهِ
وعَنِ الهوى والأُنْسِ بالأحبابِ
أو تَيَّمَتْهُ صبابَةٌ جمعتْ لَهُ
ما كان مفترقًا مِنَ الأسبابِ
فكأنَّهُ بينَ المراتب واقفٌ
لمنالِ حظٍّ أو لحُسْنِ مآبِ

(الكامل)

في تلك المرحلة المبكرة من مشوار الترابي السياسي، راح يجسد تباعاً ملامح شخصية الأمير في كتاب ميكيافيللي الشهير، عبر تسخيره لكافة متناقضات الواقع السياسي في السودان



الترابي
ماذا بعد؟

يوسف الشريف

■■ ربما كان السياسي المخضرم محمد أحمد محجوب - يرحمه الله - أول من تنبأ على حد علمي بدور الدكتور حسن الترابي المثير للجدل على المسرح السياسي في السودان، وكان «البوص» وهو لقب المحجوب غالباً ما يتحلق حوله أنماط شتى من السياسيين والأدباء والصحفيين في سهراته، وصادف وحضرت إحدى تلك السهرات شتاء عام ١٩٦٦، وعلى غير عادته آثر الصمت والتأمل والعزوف عن هوايته الأثيرة في الحوار والحكي وقرض الشعر، لكنه فجأة نطق في غضب وقال: «والله إن هذا الشاب سوف يثير فتنة في السودان لن يخمد لها أوار، وبادره المؤرخ السوداني حسن نجيلة يسأله إن كان الصادق المهدي هو ذلك الشاب، وقال المحجوب: بل صديقه حسن الترابي الذي علمه السحر وزين له الخيارات السياسية المحفوفة بالمخاطر!



والشاهد أن الصادق المهدي توثقت صلاته الفكرية مع حسن الترابي خلال فترة دراستهما العليا في أوروبا، وبينما نال الصادق ماجستير الاقتصاد السياسي في جامعة أكسفورد، حصل الترابي على الماجستير في القانون الجنائي من لندن، وبعدها نال الدكتوراة من جامعة باريس، وكانت أطروحتها حول قوانين الطوارئ المقيدة للحريات في السودان ومقارنتها بتشريعات القهر السياسي في دول العالم الثالث، فلما عاد إلى السودان شغل منصب مدرس للقانون بكلية حقوق جامعة الخرطوم ثم تدرج في سلك التدريس حتى أصبح عميداً لها.

بدأ نجم الترابي يلمع لأول مرة على المسرح السياسي السوداني إثر اندلاع ثورة أكتوبر ١٩٦٤، حيث لعب دوراً مقدراً في تكثيف الضغوط الشعبية المناوئة للحكم العسكري بزعامة الفريق إبراهيم عبود حتى تنازل عن السلطة لجبهة الهيئات، في إطار التحالف بين مختلف القوى السياسية الوطنية، خاصة الشيوعيين والإسلاميين، حيث كانا يهيمنان عهدئذ على وزارات الحركة الطلابية والنقابية والمنظمات الأهلية!

على أنه لم تمض شهور حتى تزوج الترابي بالآنسة مرحال شقيقة الصادق المهدي توخياً للمكانة الاجتماعية، وكشف الستار عن صلاته السياسية والتنظيمية بالحركة الإسلامية ممثلة في «حركة الإخوان المسلمين الوليدة»، وتمكن عبر ذكائه وثقافته من مزاحمة قياداتها البارزين من أمثال الرشيد الطاهر وحسن عمر زعيم الجناح الطلابي، بل ورأى تغيير اسم الإخوان المسلمين بعد وصمها بالإرهاب إثر محاولة التنظيم الأم في مصر اغتيال الرئيس جمال عبدالناصر عام ١٩٥٤، واستبدله باسم «جبهة الميثاق»، حتى تكون وعاء لاجتذاب مختلف التيارات والشخصيات الإسلامية والحركات الصوفية الحادبة على أسلمة الدستور السوداني الوضعي!

هكذا توحدت التوجهات السياسية بين الترابي وبين الصادق المهدي الذي كان يتبنى آنذاك نهج الصحوة الإسلامية، حول خطة مبيتة للخلاص من الحزب الشيوعي السوداني وتصفية شعبيته في أوساط الخرطوم وفي عطبرة معقل عمال السكك الحديدية وغيرهما من المدن ومناطق الوعي، وهو ما أهله للفوز دوماً بمعظم الدوائر المخصصة في الانتخابات النيابية للخريجين من الجامعات والمعاهد العليا و.. لكن كيف؟

يقول الترابي: «انتهزنا خطأ عنصر شيوعي تورط في سب الرسول - عليه الصلاة والسلام - أمام طلبة جامعة الخرطوم، وعلى الفور قمنا بتعبئة الشعور العام ضد الشيوعيين، ثم نقلنا المعركة إلى البرلمان وطالبنا بحل الحزب الشيوعي وطرد نوابه ونجحنا في ذلك، ومن هذا النجاح قدنا حملة بين قواعد الأحزاب لأسلمة الدستور، حتى اضطرت القيادات إلى التسليم بالمبدأ والشروع في صياغة مسودة الدستور الإسلامي إيذاناً بإجازته، لولا اندلاع الانقلاب العسكري الذي تزعمه جعفر نميري في مايو ١٩٦٩، في الوقت الذي خاض الصادق المهدي معركة سياسية ضروس مع عمه الإمام الهادي المهدي عبر مطالبته بفصل الدين عن السياسة، وأن يقتصر نفوذ الإمام على رعاية شئون طائفة الأنصار، ويختص الصادق برئاسة حزب الأمة ورئاسة الحكومة الإسلامية وقتئذ، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره، وهكذا أطيح بمحمد أحمد المحجوب الذي كان يشغل المنصبين!

في تلك المرحلة المبكرة من مشوار الترابي السياسي، راح يجسد تباعاً ملامح شخصية الأمير في كتاب ميكيافيللي الشهير، عبر تسخيره لكافة متناقضات الواقع السياسي في السودان لمصلحته الشخصية وتعزيز زعاماته، وممارسة «فقه الضرورة» أو ما يسمى «فقه التقنية» الذي يظهر من الأقوال والأمثال أكثر مما تنطوي عليه النوايا، حتى لو اقتضى الأمر العبور فوق المبادئ والأعراف المرعية للوصول سريعاً إلى الأهداف، بزعم أن الضرورات تبيح المحظورات!

امتد نشاط الجبهة الإسلامية إلى تأسيس الشركات التجارية والزراعية، وساهم فى تمويل البنوك التابعة لمنظومة الإسلام الأممى



ملكات فذة فى التنظيم والتجنيد والتمويه

ولا شك أن الدكتور حسن الترابى بشهادة الصادق المهدى لديه ملكات فذة فى التأثير ودغدغة عواطف الجماهير واللعب على وتيرة معتقداتها الإيمانية، إلى جانب قدراته على التجنيد والتنظيم والتمويه، وإذا كانت جبهة الميثاق لم تحرز سوى عدد لا يتجاوز أصابع اليد فى الانتخابات النيابية إبان التجربة الديمقراطية الأولى وأكثر قليلاً إبان التجربة الديمقراطية الثانية، فقد استطاعت الحركة الإسلامية تحت زعامته إحراز المرتبة الثالثة فى مقاعد البرلمان بعد حزبى الأمة والحزب الاتحادى فى التجربة الديمقراطية الثالثة بالسودان، وبعدما تخلى عن اسم الإخوان المسلمين عنواناً للتنظيم - كما هى عادته - بعد أن لحق بها الأخطاء والخطايا التى ارتكبتها إبان حكم نميرى، ثم استبدل اسم التنظيم بالجبهة القومية الإسلامية بمجرد عزل نميرى!

ورغم أن الترابى انضم إلى صفوف المعارضة لحكم نميرى، إلا أنه رفض الانخراط فى انقلابها العسكرى الذى حاول إزاحة نميرى عن السلطة عام ١٩٧٦ قيادة العميد محمد نور سعد، وعرف آنذاك باسم «الغزو الليبى» كون ليبيا مأوى ومقر التدريب العسكرى لميليشيات المعارضة، ثم الانطلاق منها للقيام باختراق الخرطوم وفشلت فى الاستيلاء على السلطة، وحتى جاءته الفرصة المواتية لكسب ثقة نميرى عبر مبادرة المصالحة الوطنية التى تبناها رجل الأعمال السودانى فتح الرحمن البشير، وبينما انسحب المهدى وأحمد الميرغنى من المصالحة مع نميرى بعد فترة من الوقت، ظل الترابى يقترب من نميرى ويسبح بحمده ويعلن له الولاء والطاعة حتى عينه نائباً عاماً «وزيراً للعدل»، ثم مساعداً لرئيس الجمهورية، وبعدها زين له الإفتاء والاجتهاد فى الشئون الإسلامية، حتى أصدر نميرى كتاباً ضخماً من تأليفه بعنوان «النهج الإسلامى.. لماذا؟»، ثم تبعه بكتاب آخر ضخم بعنوان «النهج الإسلامى.. كيف؟».

من هنا كان طريق الترابى سالكاً إلى فكر نميرى وإقناعه بأن يمنحه والإخوان المسلمين قنديل الأمان، حتى يتفرغوا لشئون الدعوة والتربية الإسلامية فحسب، مقابل القيام بحمايته من أعدائه ومن السخط الشعبى، فى الوقت الذى نجح الإسلاميون فى غياب الأحزاب وتفكيك النقابات من الانفراد بالشارع السياسى!

والحقيقة أن الترابى التزم بما وعد، بل إلى حد إقناع نميرى بتنصيب نفسه أميراً للمؤمنين وخليفة رسول الله - عليه الصلاة والسلام -، والترابى هو الذى كتب بنفسه صيغة البيعة ودعا المسلمين فى السودان إلى بيعته، وعندما سألته فى حديث صحفى معه عام ١٩٨٦: وهل كانت شروط البيعة تتوافر فى نميرى؟.. قال باستخفاف: ومن بين خلفاء المسلمين كانت تتوافر فيهم شروط البيعة؟!

تلك مجرد أمثلة

يبقى أنه هو الذى أقنع نميرى كذلك بإجازة قوانين عام ١٩٨٣ والتى أفضت إلى قطع أيادى عشرات الفقراء والمعوزين وأرجلهم من خلاف بتهمة سرقة ما يأكلون أو يلبسون، دون أن تطول عتاة اللصوص من كبار المسئولين الذين نهبوا أموال الشعب وعاثوا فى السودان فساداً وجوراً، بل إلى حد تطبيق القوانين سيئة السمعة على المفكر الإسلامى محمود محمد طه وهو الطاعن فى العمر، رغم أن أفكاره معروفة ومؤلفاته منشورة منذ خمسينيات القرن العشرين عبر إفتاء الترابى بردته، بل إن الترابى غض النظر عن تهريب اليهود الفلاشا عبر أراضى وأجواء السودان إلى إسرائيل.

مظاهرات السودان المليونية

أدرك الترابى بذكائه وخبراته السياسية النهاية المحتومة لنظام نميرى فى إطار دورة الحكم الثلاثية التى شهدها السودان منذ استقلاله عام ١٩٥٦، نظام ديمقراطى يخفق فى حل مشكلة الجنوب، تدهمه الانتفاضة أو الثورة الشعبية، يفضى إلى الديمقراطية، وبعدها تنجح الأحزاب التقليدية فى الاستيلاء على السلطة، إلى حين إخفاقها فى حينه حول مشكلة الجنوب، واندلاع الانقلاب العسكرى و... هلم جرا!

ومن هنا كان حرص الترابى أن يكون على أهبة الاستعداد لمواجهة التداعيات السياسية والشعبية المتوقعة باندلاع الانتفاضة، فكان توجهه المحسوب لتجنيد الكوادر السياسية وتدريبها على حمل السلاح والتمويه على نشاطاتها، بالتزامن مع التجنيد داخل القوات المسلحة وقوات الأمن، عبر أسلوب الحركات الشيوعية وتنظيماتها السرية العنقودية، بل وامتد نشاط الجبهة الإسلامية إلى تأسيس الشركات التجارية والزراعية، وساهم فى تمويل البنوك التابعة لمنظومة الإسلام الأممى، والأكثر من ذلك استعداداً لمواجهة تداعيات المستقبل، حرص الترابى على ابتعاث مجموعة من الشباب إلى أمريكا وأوروبا لدراسة فنون الإعلام والدعاية والكمبيوتر!



وكان نميرى قد أدرك خطورة نشاطات الترابى رغم ستار السرية والتحدية، وأنه لم يلتزم بالدعوة والتربية الإسلامية فحسب، ومن ثم قرر اعتقاله وعزله من مناصبه، فلم تمض أسابيع حتى اندلعت الانتفاضة الشعبية فى السادس من أبريل عام ١٩٨٥، ثم لم تمض سوى أيام حتى أصبح طليقاً، واستطاع أن يحول مسارات الانتفاضة لصالحه، وتخلى عن اسم الإخوان المسلمين - كما أسلفنا - واستبدله باسم الجمعية القومية الإسلامية، حتى يتحرر من إلحاح جماهير الانتفاضة التى كانت تطالب بمحاكمة «السدنة» الذين تحالفوا مع نميرى، وزينوا له إجازة التشريعات سيئة السمعة بما فيها القوانين الإسلامية المعوجة التى كانت تهتف باسم العقيد الدكتور جون جارنج زعيم الحركة الشعبية، بالنظر إلى دوره فى مقاومة حكم نميرى والتعجيل بعزله، نظم الترابى مظاهرات «أمان السودان»، مطالبة بتمكين القوات المسلحة من دحر المتمردين، وضمت قرابة المليون سودانى جاء معظمهم من المتأسلمين خارج الخرطوم، ورأيت بأم عينى سيارات مجهزة بالمشروبات المثلجة كانت تواصل إطفاء ظمأ المتظاهرين تحت وهج الشمس ولهيبها، وهى كانت ظاهرة غير مسبوقة فى شتى المظاهرات الشعبية منذ الاستقلال!

ورغم ذلك وربما لذلك لم يجد الصادق المهدى مناصاً من توسيع وعاء حكومته الائتلافية التى كانت مقصورة على حزب الأمة والحزب الاتحادى، لاستيعاب الجبهة الإسلامية واتقاء ألاعيب الترابى، فكان أن أصر على تعيينه وزيراً للخارجية، وكانت فرصته لتصفية خصوم الحركة الإسلامية فى السلك الدبلوماسى السودانى وتعطيل السير قدماً فى حل مشكلة الجنوب سيما عبر المفاوضات السياسية.

مغزى توقيت انقلاب الجبهة الإسلامية

وإذا كانت قيادة الترابى للحركة الإسلامية قد نجحت فى إحرازها المرتبة الثالثة عبر صناديق الانتخابات عام ١٩٨٥، كان



ظل الترابى يقترب من نميرى ويسبح بحمده ويعلن له الولاء والطاعة حتى عينه نائباً عاماً «وزيراً للعدل»، ثم مساعداً لرئيس الجمهورية





"الترابى"

أزاح البشير الترابى فى حركة دراماتيكية مباغتة فى شتى مناصبه فى السلطة والحزب والبرلمان واعتقاله، مع إعلان حالة الطوارئ تحسباً من أى رد فعل غير محسوب



من المرجح كذلك أن تنجح أساليبه الميكيافيللية وقدراته التنظيمية فى الإطار الديمقراطى لانتقال الحركة الإسلامية تباعاً إلى المرتبة الثانية فالأولى، لكنه تعجل الفوز بالغنيمة من أقصر الطرق ضارباً عرض الحائط بميثاق الدفاع عن الديمقراطية الذى أجازته مختلف القوى السياسى إثر نجاح الانتفاضة الشعبية وتحريم الانقلابات العسكرية!

كان الترابى قد أعلن رفضه لاتفاق السلام الذى وقعه السيد محمد عثمان الميرغنى فى أديس أبابا مع العقيد جون جارنج لإحلال السلام فى السودان، وقرر بالتالى الانسحاب من الحكومة، وهكذا فى يوم الجمعة ٣٠ يونيو ١٩٨٩، كان على الحكومة عقد جلسة استثنائية لبحث تجميد قوانين سبتمبر سيئة السمعة، كشرط لوقف إطلاق النار إيذاناً بالتفاوض حول بنود ومراحل عملية السلام، لكن انقلاباً عسكرياً بقيادة العميد عمر حسن البشير كان قد حدد فى نفس الوقت ساعة صفر استيلائه على السلطة!



وبينما نجح انقلاب البشير فى الاستيلاء على السلطة بفصيل من المشاة وخمس دبابات فحسب، تبين فيما بعد الدور الحاسم الذى لعبه التنظيم الإسلامى السرى داخل القوات المسلحة، والميليشيا الشعبية الإسلامية فى دعم الانقلاب، والتمويه على أسلحة وحاميات الجيش السودانى بزعم أن الانقلاب بزعامة اللواء فتحى أحمد القائد العام للقوات المسلحة، والأكثر إعمالاً فى التمويه على هوية الانقلاب، كان اعتقال الدكتور حسن الترابى مع قيادات الأحزاب والزعامات السياسية، وربما لو ظل الترابى طليقاً أو كشف بعد الانقلاب عن هويته الإسلامية لكن مصيره الفشل.

والشاهد أن الترابى عراب النظام الجبهة الإسلامية والمهيمن على مفاصل السلطة بالسودان، كان قد فتح الأبواب ومنح جوازات السفر الدبلوماسية الحمراء وحق الإقامة لعشرات القيادات والكوادر الأصولية الإسلامية فى العالم، وكان من جراء ذلك ارتكاب تنظيم التكفير والهجرة - على سبيل المثال - العديد من حوادث الاغتيال للمصلين فى مساجد جماعة السنة المحمدية، بل ومحاولته اغتيال أسامة بن لادن، مما عجل برحيله من السودان إلى أفغانستان!

وعلى نقيض الشخصية السودانية المعروفة بالسماحة وعلى نقيض المجتمع السودانى العاشق للحب والغناء والشعر وكل جميل فى الحياة، لعب الترابى دوره فى استمرار قوانين الطوارئ والامتناع عن السهر فى الأفراح بعد الثامنة مساء، وشكل خمسة أجهزة أمنية ومخابراتية جديدة لكل منها مجال و تخصص مختلف ومستقل، فضلاً عن ميليشيات الجبهة الإسلامية والشرط الشعبية وتنظيمات الدبابين والدفاع الشعبى، و«بيوت الأشباح» وهو الوصف الذى أطلقه الشعب السودانى على المقرات الأمنية الخاصة باستجواب وتعذيب المشكوك فى ولائهم وراح ضحيتها شخصيات سياسية معروفة.

وكان نظام الجبهة الإسلامية أو ما سمى الإنقاذ الوطنى قد بدأ عهده بإعدام شاب سودانى وهو ابن شقيق المفكر جمال محمد أحمد وزير خارجية السودان الأسبق بتهمة حيازة بضع مئات من الدولارات كان قد تسلمها مقابل تأجير عقار يملكه، ثم تبعه إعدام مضيف جوى سودانى مسيحى بنفس التهمة، فيما جرى تسريح ٢٥ ألفا من الجيش والأمن والخدمة المدنية للاشتباه فى عدم ولائهم للنظام، فيما اضطر زهاء أكثر من ثلاثة ملايين سودانى إلى الهجرة للخارج، تحت وطأة الإرهاب السياسى وسوء الأحوال الأمنية والاقتصادية ومعظم كانت مصر محطتهم الأولى أو الأخيرة!

الحرب الأهلية

ونتيجة استمرار الحرب الأهلية منذ عام ١٩٨٣ وراح ضحيتها أكثر من مليون قتيل، وكبرت ميزانية الدولة نحو مليونى دولار يومياً، اضطر النظام إلى التجنيد القسرى للشباب والرجال على السواء، لسد النقص فى القوات المسلحة.

والأدهى والأمر أن ينهى الترابى أو نظام الإنقاذ نشاط التعليم المصرى فى السودان، ومصادرة المدارس وفرع جامعة القاهرة بالخرطوم، ونادى ناصر الثقافى، والاستيلاء على مقرات الرى المصرى وطرد المدرسين المصريين من بيوتهم كما لو أن السودان تحرر من الاستعمار الثقافى المصرى، ولم يتورع الدكتور الترابى كذلك عن التهديد بتدمير السد العالى وحرمان مصر من مياه النيل، وشن حملة عسكرية لطرد القوات المصرية من مثلث حلايب!

بدا أن الترابى الحاكم الحقيقى للسودان آنذاك من وراء الستار وفى العلن، وكان يجتمع يومياً ودورياً بما كان يسمى «المجلس الأربعينى» الذى يضم أركان النظام والمخلصين من أبنائه الذين رباهم على عينه وبوأهم مناصب السلطة والنفوذ، وكما استفاق نميرى إلى خطورة الترابى كان الأمر كذلك بالنسبة للبشير قبل فوات الأوان!

وهكذا وقع مما لم يكن منه بد، وأزاح البشير الترابى فى حركة دراماتيكية مباغتة فى شتى مناصبه فى السلطة والحزب والبرلمان واعتقاله، مع إعلان حالة الطوارئ تحسباً من أى رد فعل غير محسوب، وبينما كان رهان الترابى خاسراً على دعم أنصاره، كان البشير أكثر حرصاً عبر رهانه على القوات المسلحة وعلى التململ من ممارسات الترابى فى أوساط المجتمع السودانى وكذا دول الجوار، ولعل التصريح الذى أدلى به غازى صلاح الدين وزير الإعلام وقتئذ يعنى الكثير، رغم أنه كان من أخلص تلاميذ الترابى، حيث اتهمه بالانتهازية السياسية وخيانة «الحركة» الإسلامية!

ولم تكن المرة الأولى لاعتقال الترابى فى عهد نظام الإنقاذ، فقد تجدد اعتقاله للمرة الثانية بتهمة ضلوعه فى تأجيج التمرد فى دارفور، وادعى أن الإفراج عنه كان نتيجة ضغوط خارجية بينها ضغوط جون جارنج الذى كان قد التقى بغريمه الترابى فى الخارج وعقد معه اتفاقاً سياسياً يفضى إلى تمكين الجنوبيين من حقوقهم على غير معارضته سابقاً لحل مشكلة الجنوب سلمياً!

معروف أن الترابى عندما كان فى السلطة تمكينه للجنوبيين من حق تقرير المصير عبر الدور الذى لعبه ساعده الأيمن على الحاج، حين التقى فى أوروبا بعدد من أعوان جارنج وبينهم لام أكول وكاربينو، وجرت الموافقة على استبقاء القوانين الإسلامية مقابل منح الجنوبيين حق تقرير المصير، وتكفل رجل الأعمال البريطانى تونى رولاند بتمويل الصفقة من ماله الخاص!

ثم نصل أخيراً إلى ما وراء اعتقاله للمرة الخامسة مؤخراً، ولا شك أن وراء الاعتقال مخاوف سياسية جمة من فرط نشاطه إثر تشكيله لحزب المؤتمر الشعبى فى مواجهة حزب المؤتمر الوطنى الحاكم، ورغم أنه لم يخضع للمحاكمة ما فى كل مرات اعتقاله فى السابق، إلا أن السبب معروف، ويكمن فى تعزيزه وإعلان موافقته على محاكمة الرئيس عمر البشير أمام المحكمة الجنائية الدولية بتهمة الضلوع فى ارتكاب جرائم ضد الإنسانية فى دارفور، وخشية صلاته ونفوذه الدينى والسياسى الوثيق الصلة بممارسات حركات التمرد وفى مقدمتها حركة العدل والمساواة التى يتزعمها الدكتور خليل إبراهيم وسبق وحاولت اقتحام أم درمان عسكرياً وشن معاركها الضروس مؤخراً فى مواجهة اركوميناوى مساعد رئيس الجمهورية وقواته فى مدينة المهاجرية!

من حق الدكتور حسن الترابى ممارسة توجهاته السياسية فى إطار اللعبة الديمقراطية حتى لو اختلف معه خصومه حول أساليبه الميكيافيللية، لكن أن تمتد ممارساته إلى ما اعتبره البعض مسا بالثوابت ، فذلك ما أفقده الباقى فى مكانته، عبر الإفتاء بجواز زواج المسلمة بالمسيحى واليهودى، وإمامة المرأة فى الصلاة، وأن شهادة المرأة تساوى شهادة الرجل، وأن من حق المرأة أن تغطى صدرها فقط وأن يظل رأسها مكشوفاً، كما أن انتظار عودة المسيح لا جدوى منه و.. ومن هنا انهالت عليه انتقادات رجال الدين الإسلامى وفى مقدمتهم الشيخ يوسف القرضاوى رئيس اتحاد علماء المسلمين الذى أفضى ببطلان فتاوى الترابى.

فى كل الأحوال يظل الحكم الفاصل على سير الترابى إيجاباً أم سلباً، معقوداً فى النهاية على حكم التاريخ له أو عليه! ■

الاقتصاد والحياة اليومية

■■ في نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧٤، وبعد مدة وجيزة من وصولي إلى جامعة شيكاغو كي أبدأ دراستي بها، نشرت جريدة وول ستريت جورنال Wall Street Journal سلسلة من المقالات تحت عنوان «وسائل إفحام عالم الاقتصاد». وقد كتبها رجل يدعى جون ترايسي ماكجراث John Tracy McGrath حيث طرح مجموعة من الأسئلة شديدة السهولة عن الحياة اليومية، وكان يظن أن علماء الاقتصاد سيعجزون عن الإجابة عنها. وكان من بين تلك الأسئلة: «لماذا يرتفع ثمن عبوة السجائر التي نشتريها من ماكينة السجائر عن تلك التي نشتريها من متجر الحلوى؟ لماذا لا يستطيع منظمو سباقات الخيل زيادة نسبتهم على كل تذكرة على عشرين سنتًا؟ لماذا يساوي ثمن مشروب صودا البرتقال أربعة أضعاف ثمن البنزين؟»

في تلك الليلة حين اجتمعت مع أصدقائي على العشاء - وكنا جميعا من طلبة السنة الأولى - لم تسلم مقالة ماكجراث من سخريتنا، ولما كانت معرفتنا بعلم الاقتصاد لم تتعدَّ القليل، فقد بدت لنا كل أسئلته آنذاك سهلة.

أما اليوم، وبعد مضي ما يقرب من عشرين عاما ازددت فيها علما ومعرفة، صرت أعتقد أن أسئلة ماكجراث جميعها معقدة ومثيرة للاهتمام. وفيما أذكر، فقد كانت الإجابات التي طرحناها بسهولة في تلك الليلة لا تحوي شيئًا يذكر أكثر من مجرد رفضنا أن نأخذ الأسئلة مأخذ الجد، وأتصور أننا تهربنا من الإجابة عن معظمها بعبارة «العرض والطلب»، وكأنها تعني شيئًا. وأيًا كان تصورنا عن معنى تلك العبارة، فقد كنا آنذاك على يقين من أن هذا هو المعنى الحقيقي لعلم الاقتصاد.

وفيما يأتي تصوري «الحالي» عن معنى علم الاقتصاد؛ أولاً: هو التطلع إلى هذا العالم بحب صادق للمعرفة والاستطلاع والاعتراف بأنه حافل بالألغاز؛ ثانيًا: محاولة حل هذه الألغاز بطرق تتفق مع الفرضية السائدة بأن الإنسان يرمي من وراء سلوكه إلى تحقيق غاية ما. وقد يصعب أحيانًا التوصل إلى حل لهذه الألغاز، مثل ألغاز ماكجراث، ولذلك ندرب أنفسنا عن طريق محاولة حل ألغاز مماثلة في عوالم خيالية من ابتكارنا نسميها «النماذج». فمثلاً إذا كان الهدف هو معرفة لماذا يزيد سعر صودا البرتقال

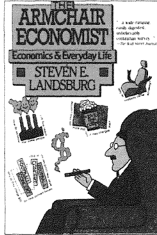


فيلسوف الاقتصاد
الاقتصاد والحياة اليومية
ستيفن لاندسبيرج
ترجمة: رشا سعد زكي
مراجعة: سامح رفعت مهران
كلمات عربية للترجمة والنشر.
القاهرة ٢٠٠٨
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عن سعر البنزين، فقد نبدأ بتخيل عالم لا يبتاع فيه الناس سوى صودا البرتقال والبنزين. أما إذا كان الهدف معرفة لماذا تسعى بعض الحكومات إلى حظر استخدام السيليكون في عمليات تجميل الثدي، فقد نبدأ في تصور عالم يختار فيه الرجل شريكة حياته وفقًا لحجم الصدر فحسب.

إننا لا نفكر بطريقة النماذج لأنها واقعية، وإنما لأن ذلك يعد تمرين إحماء نستعد به للتفكير في عالمنا الذي نعيش فيه، فالهدف دائمًا هو أن نفهم هذا العالم. والخطوة الأولى تجاه تحقيق هذا الفهم - التي لم نخطُها عندما كنا في بدء دراستنا - هي الاعتراف بأن العالم لا يسهل فهمه دائمًا.

هذا الكتاب هو مجموعة من المقالات الموجزة تشرح كيف يفكر علماء الاقتصاد، وتستعرض كثيرًا من المسائل التي نراها غامضة، ولماذا نراها غامضة، وكيف نسعى إلى كشف غموضها، وتصف مسائل أخرى أتصور أنها قد حُسِمَت وأخرى لم تُحسم بعد. إن أسباب دراسة علم الاقتصاد متعددة وكلها أسباب جيدة، ولكن السبب الذي حاولت إبرازه في هذا الكتاب هو أن علم الاقتصاد يعتبر أداة لحل الألغاز الغامضة، وفي حل الألغاز متعة كبيرة.



The Armchair Economist
Economists and Everyday Life
Steven E. Landsburg
Free Press, 1995

أسعدني الحظ خلال الجزء الأكبر من الأعوام العشرة الماضية بأن أتناول غدائي يوميًا مع مجموعة رائعة من جهابذة علم الاقتصاد الذين كانوا دائمًا مصدرًا لإلهامي بحدة ذكائهم، وجرأة أفكارهم، ونفاذ بصيرتهم. فبصورة شبه يومية، يأتي أحدنا بلغز جديد لنناقشه على مائدة الغداء، فتُطرح مئات الأفكار الجديدة والعبقرية، وتطرح مئات الاعتراضات المفحمة، وأحيانًا تجد ردًا عليها. وكنا نفعل ذلك من أجل المرح فحسب.

إن هذا الكتاب هو تسجيل لكل ما تعلمته في تجمعاتنا على الغداء. وإنني أثق أن بعض الأفكار كانت أفكاري الخاصة ولكنني لم أعد واثقًا أيها بالضبط، فقد تعلمت الكثير من الأفكار الأخرى من كل من مارك بيلز Mark/Bils، وجون بويد John/Boyd، ولورين فينستون Lauren/Feinstone، ومارفن جودفريند Marvin/Goodfriend، وبروس هانسن Bruce/Hansen، وهانان جاكوبي Hanan/Jacoby، وجيم كان Jim/Kahn، وكين ماك لوجلين Ken/McLaughlin، وآلان ستوكمان Alan/Stockman، وآخرين ممن انقطعت أخبارهم على مر السنين.

وإنني لأهدي هذا الكتاب لمجموعة الغداء تلك، مع شكري العميق لهم لسماحهم لي بمصاحبتهم في رحلة حياتهم المثيرة.

وأهديه أيضا لبوني بونومو Bonnie/Buonomo، مديرة المطعم التي خلقت الجو المثالي الذي ساعد على تألق المجموعة، كذلك أهديه لمقهى تيفولي بروتشيستر الذي سمح لي، أثناء كتابتي للمسودة الأخيرة، بإقامة شبه دائمة في مقابل ثمن قدح القهوة اليومي، متحديًا بذلك قوانين علم الاقتصاد.

ملاحظة عن فصول الكتاب

تقدم هذه الفصول نبذة عن رؤية عالم الاقتصاد للعالم، وأغلبها يمكن قراءته دون مراعاة للترتيب؛ قد تجد في بعض الفصول إشارة إلى أفكار من فصول سابقة، ولكن تلك الإشارات ليست ضرورية لمتابعة تدفق الأفكار.

إن الغرض من أفكار هذا الكتاب هو تقديم صورة صادقة لأسلوب التفكير الذي يتبناه أصحاب الاتجاه السائد في علم الاقتصاد. وبالطبع، فهناك دائمًا مساحة للاختلاف على التفاصيل، وبالتأكيد قد يرغب أحد علماء الاقتصاد في الاختلاف معي حول بعض ما ورد في الكتاب، ولكنني أثق بأن معظم من قرأه من علماء الاقتصاد سيرون أنه يعكس بدقة وجهة نظرهم العامة.

وسوف يلاحظ القارئ المدقق أن هذا الكتاب يطبق المنطق الاقتصادي على مجموعة هائلة من السلوكيات الإنسانية (وأحيانًا غير الإنسانية)، وسيلاحظ أيضا عند طرح سؤال يتعلق بمدى إمكانية تطبيق أحد المبادئ الاقتصادية أن الكاتب يميل إلى المبالغة في الشمولية حتى إن جازف بذلك بارتكاب الأخطاء. إنني أومن أن قوانين علم الاقتصاد عالمية؛ فهي لا تفرق على أساس الجنس أو العرق. وعلى هذا فأنا على ثقة بأن القارئ المدقق لن يخطئ فهم استخدامي المتكرر للضمائر المذكرة مثل «هو» أو «له» فيظن أن المقصود بها هو جنس الذكور فقط. ■

ستيفن لاندسبيرج

كـــتـــب فـرنـســـيـــة

Debout sur la cime du monde
Manifestes futuristes 1909-1924
وقوفا على قمة العالم
بيان المستقبلية ١٩٠٩-١٩٢٤
Jean-Pierre De Villers et Filippo Tommaso Marinetti
Dilecta; 158pp, 22Euro, 2008



عام ١٩٠٠ انبهر فيليبو توماسو مارينيتي (١٨٧٦-١٩٤٤)، الإيطالي الشاب الذى ولد فى الإسكندرية، بما اكتشفه للتو فى المعرض الدولى فى باريس، بعد أن عاش فى ظل الأهرامات وقبة ميلانو حيث ترك له والده ثروة طائلة.

وها هو يستجيب لنداء الحداثة، بعد أن تعب من المبانى القديمة، ومن خيبة أمله فى عالم غارق فى رسائل الرموز العتيقة. لكن الأمر استغرق ثمانى سنوات أخرى، حتى يبلور رؤية كاملة بشأن هذا العالم الجديد كما يتصوره.

ففى ليلة من ليالى شهر أكتوبر ١٩٠٨، أخذ يدون على أوراق الخطابات الخاصة بفندق «جراند أوتيل دو بارى»، أحد عشر بندا لبيان تأسيس المستقبلية»، لينشر هذا البيان فيما بعد فى الصفحة الأولى من «الفيجارو».

وخلال السنوات التالية، توالى ما يقرب من ثلاثين بيانا لهذا التيار الذى شاع فى أوروبا فى مختلف وجوه الفن من أدب وموسيقى وعمارة.

إلا أن هذه الحركة لم تحافظ على وحدة فنية تجمع خيوطها فى البلاد الأوروبية المختلفة. فسرعان ما أعلن مارينيتى، باعث الحركة، عن نعرة قومية مؤيداً لموسولينى والفاشية، وهو ما سجله فى كتاب بعنوان «المستقبلية والفاشية».

■

Lettres et carnets
رسائل وبطاقات
Hans et Sophie Scholl
Tallandier; 368pp, 23 Euro, 2008



يوم ٢٢ فبراير ١٩٤٣، تم إعدام هانز وصوفى شول إضافة إلى رفيقهما كريستوف بروبست. وبعد أسابيع قليلة، لقى الثلاثة أعضاء الآخرون من «الوردة البيضاء» نفس المصير.

كانت جريمتهم كتابة عبارة «تحيا الحرية» على الحوائط وتوزيع منشورات فى جامعة ميونيخ، تدعو الألمان لمقاومة النازية.

كان هانز وصوفى فى فترة دراستهما الثانوية مقتنعين بالشعارات التى يروج لها النظام النازى، فالتحقا بشبيبة الحزب. لكن فى ديسمبر ١٩٣٧ تم سجنهما لمدة أسابيع فى مدينة شتوتجارت بسبب نشاطهما مع منظمات الشباب، وهى منظمات ذات توجهات اجتماعية غير سياسية مثل الكشافة والجمعيات الدينية وغيرها، إلا أنها كانت ممنوعة من النظام النازى منذ عام ١٩٣٣ وكان الانتماء إليها يؤدى إلى السجن. بعد اعتقالهما بدأ الإخوة شول فى مراجعة قناعاتهما المتعلقة بالحزب النازى، ثم تشكل لديهما موقف رافض لهذا النظام مع بداية الحرب.

درست صوفى الفلسفة فى جامعة ميونخ وتعرفت هناك على زملاء أخيها من طلبة الطب، فكونوا معاً مجموعة من خمسة طلبة وأستاذ جامعى حملت اسم «الوردة البيضاء».

وبالرغم من عدم نجاح أعضاء هذه المجموعة فى إزاحة النظام النازى فإنهم تمكنوا، من خلال منشوراتهم، من الكشف عن الجرائم التى كان النظام يقترفها وفضحه أمام الجماهير التى كانت لا تزال منخدعة فى بطولة هتلر وفضله فى القضاء على البطالة وإعادة الأمجاد لألمانيا.

■

La Mécanique infernale
L'Histoire du XXe siècle à travers le terrorisme
ميكانيكا الجحيم
تاريخ القرن العشرين عبر الإرهاب
Matthew Carr
Héloïse d'Ormesson; 560pp, 25Euro, 2008



يتتبع هذا الكتاب تاريخ الإرهاب منذ أن وضع له الفوضويون الروس تصورا، فى أواخر القرن التاسع عشر، وحتى الصورة التى وصل إليها فى عصر العولمة، والتى تجسدت فى مأساة ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

يستعين ماثيو كار فى كتابه بالأعمال الأدبية بقدر ما يستعين بالمصادر التاريخية. ويبحث المؤلف فى الإرهاب من حيث تعدده وتعقيده. فيستعرض عددا من المنظمات المختلفة بدءا من مجموعة «جناح الجيش الأحمر» الألمانية التى نشطت فى السبعينيات وعرفت باسم عصبة «بادر» نسبة إلى مؤسسها أندرياس بادر، وحتى المنظمات الإسلامية المعزولة، مرورا بـ«الجيش الجمهورى الأيرلندى»، و«الألوية الحمراء» الإيطالية، و«جبهة التحرير الوطنى» الجزائرية، وتنظيم «القاعدة».

ودون أن يبرر الإرهاب، يوضح جذوره ويشير لكثير من آليات تفكيك العنف بإصبع الاتهام. فبخلاف الخطاب السائد يؤكد ماثيو كار على دور المحافظين الجدد فى أمريكا ووسائل الإعلام الغربية، فى إضفاء صورة شيطانية على المتمردين، وفى دعم تدابير طارئة هددت سيادة القانون، وضخمت من شرور الإرهاب.

ميكانيكا الجحيم هو إذا دعوة لليقظة، وتأكيد على دور السياسات القمعية فى تمهيد الطريق أمام التطرف.

ماثيو كار صحفى بريطانى، ولد فى لندن عام ١٩٥٥، يعمل مراسلا لهيئة الاذاعة البريطانية ومحررا فى الأوبزرفر والجارديان. تخصص فى العمل فى مناطق النزاعات بما فى ذلك أمريكا اللاتينية، وصقلية، وخاصة فى فلسطين.

■

L,Europe des lettres
Réseaux épistolaires et construction de l'espace européen
أوروبا الرسائل
شبكة الرسائل وبناء الفضاء الأوروبى
Marie-Claire Hoock-Demarle
Albin Miche; 416pp, 24 Euro, 2008



يتنافس القرنان الثامن عشر والتاسع عشر، بلا منازع، على لقب «قرن المراسلات». فخلال الفترة بين ١٧٨٩-١٩١٤، وضعت الخطوط العريضة لفن كتابة الرسائل، باعتبارها مركزا للاتصال والربط الشبكى بين المناطق الأوروبية المختلفة.

فى هذا المضمار، برزت أسماء لامعة فى الثقافة الأوروبية، كنقاط هامة فى شبكة العولمة الأولى، التى غطت أوروبا عقب مرحلتها الثورية.

فمن جوته لمدام دو ستائل (كاتبة سويسرية اعتمدت فى نظريتها على معرفة العادات والتقاليد والقوانين والشرائع)، مرورا بشتيفان تسفايج (كاتب نمساوى وصف نفسه بأنه كان «يهوديا بالصدفة» واشتهر بمناهضة النازية)، وروموكان رولان (أديب فرنسى حاصل على جائزة نوبل)، تتبع مارى كلير هوك دومارل ميلاد وتطور وتأزم نموذج متكامل، امتزجت فيه الروح الوطنية مع الشعور بالانتماء المشترك للعالم، وتم التجاوز عبره عن الخلافات بين اللغات والأديان، والصراعات السياسية والتوترات الاقتصادية، لتسلط الضوء على العالم الذى اخترعته كتابة الرسائل، وحافظت عليه حتى اليوم.

■

Black Bazar
البازار الأسود
Alain Mabanckou
Seuil; 252pp, 18 Euro, 2009



الراوى أصلا من الكونغو، عاش فى باريس طوال خمسة عشر عاما، يعشق البدل الإيطالية وأحذية وستون، تتغير حياته بين ليلة وضحاها عندما تهجره رفيقته سعيا وراء قارع طبول فى فريق مغمور، فى رحلة تشمل موناكو وكورسيكا. يقضى وقته بين الآلة الكاتبة و«الجيبس»، حانة فى الدائرة الأولى بباريس يرتادها معظم أصدقائه، شخصيات عجيبة ذات أسماء لا تنسى.

الكل يعتقد أنه يكتب للتخلص من حزنه وللتعبير عن غضبه. إلا أنه كان يكتب فى الواقع مذكرات رجل ثائر، قرر الكتابة عن أزمة جنون العالم من حوله.

■

La Condition noire
Essai sur une minorité française
قضية السود
دراسة لأقلية فرنسية
Pap Ndiaye
Calmann-Lévy; 440pp, 21.5 Euro, 2008



خلال السنوات العشر الأخيرة، ظهر السود الذين يعيشون فى فرنسا

المتروبوليتانية، بوضوح على الساحة الوطنية العامة، بحيث أصبح من الممكن التحدث عن قضية للسود فى فرنسا. وتحت هذا العنوان العريض تظهر بعض العناوين الفرعية مثل: استغلال الرياضيين، أعمال شغب فى الضواحى، مناهضة العنصرية والتمييز، الحركة التطوعية.

لكن كيف يمكن تعريف السود الفرنسيين؟ المؤلف يدلل على أن «قضية السود» فى فرنسا هى بالأساس قضية اجتماعية وليست طبقية، أو طائفية، أو مجتمعية، ولكن قضية أقليات، بمعنى أنها تخص مجموعة من الأشخاص ذوى الخبرة الاجتماعية المشتركة تؤدى للنظر إليهم عادة باعتبارهم سودا.

■

La Pensée anti-68

الرؤية المضادة لـ٦٨

Serge Audier
Gallimard; 320pp, 21.5 Euro, 2008



أصبحت كراهية مايو ٦٨ موضوعا شائعا. ولكن لا ينبغى النظر لشعار «ضرورة تصفية ٦٨»، الذى اختاره اليمين خلال انتخابات الرئاسة فى عام ٢٠٠٧، باعتباره مجرد هدف لحملة، ولكن باعتباره فى الأساس نتاجا لسيادة أيديولوجية بدأت فى أعقاب الأحداث نفسها واستمرت من احتفال لآخر بذكراها.

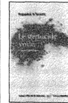
هل يمكن النظر لحمى مناهضة ٦٨، باعتبارها مجرد خطاب رجعى بسيط؟ ما هى مصادر هذا العداء؟ وهل تستحق ٦٨ إطلاق العنان فى نقد، فى الأغلب غير عادل، ولا أساس له من الصحة؟

■

Le Génocide voilé

الإبادة الجماعية «المحجبة»

Tidiane N'Diaye
Gallimard; 288pp, 21.5 Euro, 2008



هيمن العرب على مناطق أفريقية، جنوب الصحراء الكبرى، لثلاثة عشر قرنا دون انقطاع. أثناء ذلك تم ترحيل ملايين الرجال، اختفوا تقريبا بسبب المعاملة غير الإنسانية. إلا أن تلك الصفحة المؤلمة من تاريخ الشعوب السوداء لم تغلق بعد على ما يبدو.

كانت البداية عندما بعث عمرو بن العاص، عبد الله بن أبى السرح لفتح النوبة عام ٦٥٢، لكنه لم يفتحها واكتفى بإجبار ملوكها على توقيع اتفاقية، فرضت عليهم تسليم المئات من العبيد سنويا.

تم انتزاع معظم هؤلاء الرجال من دارفور. وكانت هذه هى نقطة الانطلاق لانتهاك واضح لحقوق شعب لم يتوقف حتى الآن.

■

Seul dans le noir

وحيدا فى الظلام

Paul Auster
Actes Sud; 192pp, 19.5Euro, 2009



على أثر حادث سيارة، يجبر أوجوست بريل الناقد الأدبى المتقاعد على الجمود. ذات ليلة، يجد الملجأ فى مواجهة هواجس الحاضر ووطأة الذكريات التى تحدق به، أثناء أسره السريرى، فى سرد تاريخ مواز للعالم؛ فى هذا التاريخ المتصور، لم تقع أحداث ١١ سبتمبر، ولم تدخل الولايات المتحدة فى حرب ضد العراق، فبدلا من ذلك تعانى من حرب أهلية لا هوادة فيها!

■

Courir

الجـــــرى

Jean Echenoz
Minuit; 144pp, 13.5Euro, 2008



يكرس إميل حياته للجرى، يتمرن حتى يصبح تحسين أدائه هاجسه الأكبر؛ إنه يريد أن يصبح أسرع رجل يجرى على وجه الأرض.

من الخطأ أن نرى فى «الجرى» مجرد هدف لواحد من أهم الرياضيين على مر العصور. فبخلاف هدف إميل، يصور جون إشنو ملامح رجل استثنائى حتى فى حرصه على أن يجرى بسرعة.

يواجه المتسابق المنضبط، الغزو الألمانى، والتحرير، والقمع السوفيتى، بنفس الطريقة التى يواجه بها سخرية الجمهور والظروف المناخية القاسية، يخرج لكل العقبات التى تواجهه لسانه، دون أن يتخلى للحظة عن غطرسته اللامبالية.

■

Day

داى

Alison Louise Kennedy
Paule Guivarch
L'Olivier; 336pp, 23 Euro, 2009



كان ألفريد داى يبلغ ١٥ عاما عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩. هربا من أب مدمن خمر انضم للقوات الجوية الملكية.

وكانت الحرب له مجالا للتعلم: اكتشف الصداقة مع رفاقه فى السلاح، وروايات آرثر كونان دويل، والحب فى أحضان جويس. إلا أن العنف عرف طريقه إليه فى النهاية. فخلال عملية قصف، سقطت طائرته، ولم ينج غيره من طاقمها، فتم أسره من قبل العدو.

وبعد عدة سنوات، أطلق سراحه، إلا أن «داى» ظل أسيرا لذكرياته. وفى عام ١٩٤٩، قرر التصالح مع ماضيه من خلال الموافقة على تجسيد سنوات الحرب والأسر فى فيلم سينمائى. وبين الممثلين فى أزياء الحرب والديكورات الورقية، واجه مرة أخرى خوفه وألمه الدائم.

■

Journal d,une année noire

يوميات عام أسود

John Maxwell Coetzee
Seuil; 300pp, 21.8 Euro, 2008



إم كوتزى الجنوب أفريقى الأصل، فرصة للتعبير عن أرائه فى المواضيع التى يختارها: الموسيقى، الرياضة، الاستغلال الجنسى للأطفال، الخدمة الطوعية، مكيافيللى، الديمقراطية، جوانتانامو، التعذيب، والإرهاب، الخ...

يتعطل المشروع بسبب مرض الناشر، فيعهد بمسودة الكتاب لجارته الشابة الفلبينية، بموهبتها الفطرية وحسها المرهف، تنتقد الشابة الأفكار، وتناقش النصوص، وبالتالى تزيل المواقف الحادة التى اعتمدها المؤلف، وتلهم الناشر بنسخة جديدة «مخففة».

ليخرج النص فى النهاية معبرا عن ثلاثة أصوات، أحيانا فى حالة تناغم وأحيانا أخرى فى حالة تنافر.

■

Ulysse from Bagdad

أوليس من بغداد

Eric-Emmanuel Schmitt
Albin Michel; 313pp, 16 Euro, 2008



يريد سعد مغادرة بغداد، والفوضى التى تعمها، ليذهب لأوروبا، بحثا عن الحرية والمستقبل. ولكن كيف له أن يعبر الحدود دون أن يكون فى جيبه دينار واحد؟

كيف! تماما كما فعل أوليس، واجه العواصف، ونجا من الأعاصير، وهرب من تجار الأفيون، تجاهل إغراءات عرائس البحر، وهرب من قسوة السجن وتخلص من سحر فتاة صقلية.

فى أجواء عنيفة وهزلية ومأساوية بالتناوب، يبدأ سعد رحلة بلا عودة.

مغامرة تصنعها المحن، تتخللها محادثات مع أب رحيم ومؤثر.

تحكى هذه الرواية قصة رجل من بين ملايين ينزحون اليوم، بحثا عن مكان يسعهم على وجه الأرض: باختصار هى يوميات مهاجر غير شرعى.

■

Meltdown

الذوبــــان

Thomas E. Woods Jr.
Regnery Publishing, 2008,
194PP, 27.95$



هل الرأسمالية هي الجاني في الأزمة المالية الحالية؟

في هذا الكتاب يكشف الكاتب عن الأسباب الحقيقية وراء انهيار أسعار العقارات وأسواق المال. فوسائل الإعلام تروج لأن الأسباب الحقيقية وراء الأزمة هي رفع القيود وتحرير الأسواق، وإن هذه الأزمة لن تعالج سوى بإصدار مجموعة من القوانين الفيدرالية التي تنظم هذا. ولكن الكاتب يجادل أن السبب الحقيقي وراء هذا الانهيار ليس قادما من وول ستريت وإنما من واشنطون.

فالكاتب يرى أن محاولات السياسيين لحل الأزمة لا تزيدها إلا سوءا، وهو في هذا الكتاب يحلل كل فترات الازدهار والكساد خلال القرن الماضي، ويقرنها بالسياسات الحكومية المختلفة، مثل سياسة الاحتياطي الفيدرالي التي اتاحت للبيروقراطيين سحب الخيط من القطاع المالي والتحكم في قيمة المال.

إذا كنت تريد معرفة الأسباب الحقيقية وليست الملفقة للأزمة المالية العالمية، فهذا الكتاب سيكون دليلك لهذا الفهم.

■

Out of Captivity

الخروج من الأسر

Marc Gonsalves, Tom Howes,
Keith Stansell, Gary Brozek
William Morrow, 2009, 480PP,
26.99$



في الثالث عشر من فبراير من عام ٢٠٠٣ تحطمت طائرة تحمل ثلاثة مقاولين أمريكيين في الغابات الكولومبية. وفي لحظة خروجهم من الطائرة المحطمة فإذا بهم يجدون وابلا من الرصاص يطلق عليهم ليزيد جروحهم اتساعا، ليكتشفوا أنهم أصبحوا أسرى للقوات المسلحة الثورية الكولومبية، تلك المنظمة الماركسية المسلحة التي يمتد صراعها مع الولايات المتحدة لأكثر من خمسين عاما.

غونسالفيس، وهاوس، وستانسيل يحكون قصة ١٩٦٧ يوما في الأسر، كيف استطاعوا البقاء على قيد الحياة طوال هذه الفترة، وكيف كانت حياتهم، و كيف أنقذوا في نهاية الأمر.

الكتاب يحكون في هذا الكتاب عن أيامهم في الأسر، عن معاناتهم، وقلقهم، وعن تفاعلهم اليومي مع الثوار الكولومبيين، كما يحاولون وصف وتقديم شخصية الثوار الكولومبيين، كيف يفكرون، وما هي أهدافهم، وكيف يتم تجنيدهم.

خمسة أعوام ونصف يناضلون من أجل حريتهم وحياتهم، في واحدة من أطول أزمات اختطاف المدنيين في الولايات المتحدة الأمريكية.

■

The Next 100 Years

المائة عام القادمة

George Friedman
Doubleday, 2009, 272PP,
25.95$



جورج فريدمان ضابط المخابرات السابق، ومؤسس شركة ستارتفورت للتنبؤ الإستراتيجي، التي تعمل في مجال الاستخبارات الخاصة، ولديها أكثر من ٥٠٠ عميل يمثلون حكومات وشركات كبرى، والتي يطلق عليها اسم (ظل المخابرات الأمريكية).

الشركة تقوم يوميا بكتابة تقارير لتحليل الأحداث الدولية اليومية وتوقع تداعياتها المختلفة في المستقبل القريب. ولكن فريدمان في هذا الكتاب يتحدى الجميع ويقدم توقعا لأحداث مائة عام قادمة.

توقعات فريدمان تحمل العديد من المفاجآت، وبعضها يحمل سمة الخيال العلمي فهو يتوقع حروبا أكثر ولكن أقل دمارا، وهو يتوقع زيادة القوة والهيمنة الروسية، وتضاؤل نفوذ الصين الدولي، واشتباكات مسلحة على الحدود الأمريكية المكسيكية، وعهدا ذهبيا أمريكيا في النصف الثاني من القرن الحادي والعشرين، وحربا فضائية بين اليابان وتركيا من جهة والولايات المتحدة وحلفائها من جهة أخرى.

توقعات جريئة، وقراءة مدهشة في أحداث متوقعة لمائة عام مقبلة.

■

The Lost City of Z

مدينة «زي» المفقودة

David Grann
Doubleday, 2009, 352PP,
27.50$



في عام ١٩٢٥ قام المستكشف الإنجليزي الشهير الكولونيل بيرسي فاوسيت ومعه ابنه جاك بمغامرة كبرى للبحث عن مدينة «زي»، أحدى مدن الحضارة الأمازونية القديمة، التي يشكك في وجودها.

فاوسيت وابنه لم يعودا أبدا من رحلتهما، ولكن هذا لم يمنع العديد من المستكشفين الآخرين، والباحثين عن المغامرة، وأساتذة الجامعات، من اقتحام الأدغال للبحث عن أي أثر للمدينة أو لفاوسيت.

الكاتب هو واحد من هؤلاء المستكشفين الذين ذهبوا للبحث عن مدينة «زي» المفقودة. ليقدم في هذا الكتاب قصة رحلته وقصة أدغال الأمازون الغامضة.

■

Happy for No Reason

سعادة بدون سبب

Marci Shimoff
Free Press, 2009, 336PP, 15$



وفقا لمنظمة الصحة العالمية، بحلول عام ٢٠٢٠ سيكون الاكتئاب ثاني أكثر الأمراض انتشارا بعد أمراض القلب في العالم، الكاتبة ترى أن هذا يمكن تغييره إذا ما تعلمنا كيف نزرع السعادة بداخلنا، السعادة التي لا ترتبط بأسباب معينة والتي وجدت لتبقى.

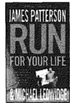
الوصول إلى السعادة في رأي الكاتبة سهل للغاية، فعلى المرء أن يتعلم كيف يتجاهل الأسباب التي تدفعه للاكتئاب وأن يتمسك بإحدى وعشرين عادة تساعد على جلب السعادة. وهي العادات التي استخلصتها الكاتبة من لقاءاتها مع أكثر من مائة شخصية تعد من الشخصيات شديدة السعادة.

■

Run for Your Life

اهرب من أجل حياتك

James Patterson, Michael
Ledwidge
Little, Brown and Company,
2009, 384PP, 27.99$



الكاتب جيمس باترسون بعد كتابه الأول عام ١٩٧٦ أصبح واحدا من أكثر الكتاب شهرة ومبيعا في العالم، فقد بلغ حجم مبيعات كتبه على مستوى العالم ١٤٠ مليون نسخة، كما احتلت عدة كتب ألفها المركز الأول لأكثر الكتب مبيعا. وتوج هذا بفوزه بجائزة ادجار.

في هذا الكتاب يتعاون جيمس باترسون مرة أخرى مع الكاتب مايكل ليدودج بعد تجاربهما السابقة الناجحة، ليخرجا هذا العمل الفني الشيق.

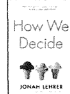
القصة تدور حول قاتل يطلق على نفسه اسم المعلم، يهدد سلام نيويورك ويقتل أغنياءها، ويترك دائما رسالة تقول «تذكر ما فعلت، أو واجه العواقب». وهناك فقط رجل واحد يستطيع إيقافه، هو المحقق «بينت»، الذي يحاول إنقاذ نيويورك من أخطر كارثة في تاريخها.

■

How We Decide

كيف نقرر

Jonah Lehrer
Houghton Mifflin Co, 2009,
256PP, 25.00$



مهارة اتخاذ القرارات واحدة من أصعب المهارات التي يكتسبها الإنسان، وفي هذا الكتاب يحلل جوناه ليهرير عملية اتخاذ القرار، ويقدم تلميحات وطرقا للمساعدة على اتخاذ قرار أفضل.

يتساءل البعض، هل علينا اتباع غرائزنا وفطرتنا أثناء اتخاذ قرار، أم يجب اتباع الطرق التحليلية؟

الإجابة لدى ليهرير هى أن هذا يختلف طبقا للموقف ونوع القرار، مقدما فى هذا الكتاب دليلا لكيفية اتخاذ القرار السليم.

هذا الكتاب يأتى نتيجة لدراسة الكاتب لعقدين من الزمان علم الأعصاب، واقتصاديات السلوك الإنسانى، ليحقق ثورة فى فهمنا لعملية اتخاذ القرارات.

■

Heart and Soul

القلب والروح

Maeve Binchy

Knopf, 2009, 432PP, 26.95$



فى هذه الرواية تقدم الكاتبة ميف بنشى قصة أخرى من الحياة، القصة تدور أحداثها حول كلارا كاسى طبيبة القلب، التى تعانى من زواج مفكك وعمل ينهار.

كلارا قبلت بالعمل فى مستشفى سانت بريجيد على الرغم من انه لم يكن العمل الذى تريده، ولكنها رضيت به للهروب من تذكر زواجها المدمر. ولكنها لن تستطيع به الهرب من ابنتيها المراهقتين اللتين تعتمدان عليها فى كل شىء كما لو كانوا أطفالا صغارا.

من خلال حياة كلارا اليومية تقدم المؤلفة دراما اجتماعية واقعية مليئة بالأحداث.

■

First Family

العائلة الأولى

David Baldacci

Grand Central Publishing, 2009, 464 PP, 27.99$



فى واحدة من أكثر قصصه إثارة، يقدم ديفيد بالدسى قصة مثيرة عن اختطاف ابن الرئيس الأمريكى من داخل استراحة الرئيس بكامب ديفيد.

تبدأ أحداث القصة بعيد ميلاد ابن الرئيس الأمريكى، كل شىء يبدو طبيعيا، الأطفال يلعبون ويحتفلون، وفجأة تنقلب الأمور ويتم اختطاف ابن الرئيس الأمريكى مسببا كارثة للأمن القومى.

السيدة الأولى لا تثق إلا بشخص واحد فقط ليرجع لها ابنها المختطف، شين كنج، عميل مخابرات سابق، والذى سبق له إنقاذ الرئيس من مشكلة سياسية ضخمة، ويعمل الآن كمحقق خاص.

سباق ضخم لإنقاذ ابن الرئيس الأمريكى، عوامل سياسية متعددة تتداخل مع عملية الإنقاذ. وخيط بسيط يفصل بين الأصدقاء والأعداء.

■

١٨٤٨

Mike Rapport

Basic Books, 2009, 480PP, 29.95$



فى عام ١٨٤٨، اجتاحت أوروبا عاصفة عنيفة من الثورات، أطاحت بالمحافظين لتحافظ على سلام القارة المحقق من هزيمة نابليون فى معركة واتيرلو عام ١٨١٥، فى أحداث لم تشهد القارة لها مثيلا منذ الثورة الفرنسية وحتى عام ١٩٨٩ الذى شهد الثورة فى شرق ووسط أوروبا.

فى هذا الكتاب، المؤرخ مايك رابورت يبحث عن جذور الثورة والعنف التى اجتاحت أوروبا، وكيف تسلسلت الأحداث لتولد ثورات عديدة مترابطة فى كل أنحاء أوروبا غيرت مجرى التاريخ.

■

The Gardner Heist

سرقة جاردنير

Ulrich Boser

Collins, 2009, 272PP, 25.99$



فى الساعات الأولى من صباح الثامن عشر من مارس عام ١٩٩٠، تظاهر بعض اللصوص بأنهم من رجال الشرطة، ودخلوا إلى متحف بوسطون ايزابيل ستيوارت جاردنير، وغادروا ومعهم كمية رهيبة من اللوح العالمية، منها ثلاث لوحات لرامبراندت وواحدة لفيرمير، تقدر اليوم بأكثر من ٦٠٠ مليون دولار.

فى هذا الكتاب قصة ما سرق من المتحف، والمحاولات المختلفة التى حدثت على مدار ١٨ عاما للبحث عن المسروقات التى لم تظهر حتى الآن على الرغم من رصد المتحف لمكافأة قدرها ٥ ملايين دولار لمن يدلى بأى معلومات عن السرقة.

■

Obama

أوبـــامـــا

David Elliot Cohen, Mark Greenberg, Howard Dodson

Sterling, 2009, 224PP, 24.95$



كتاب وثائقى ليس له مثيل لتوثيق رحلة الرئيس أوباما إلى البيت الأبيض، الكتاب يحتوى على كلمات وصور أوباما منذ الترشيح الأولى وخلال حملته الانتخابية وحتى تقلده للرئاسة، ليحقق ما كان معتقدا أنه من المستحيل.

الكتاب يحوى مقتطفات من أكثر من ١٠٠ صحيفة ومجلة عالمية ومحلية، وصورا لحملته الانتخابية، ونصوص الكلمات التى ألقاها. ليكون تذكارا للأجيال القادمة.

■

My Hope for Peace

أملى فى السلام

Jehan Sadat

Free Press, 2009, 224PP, 25$



كتاب جديد للسيدة جيهان السادات قرينة الرئيس الراحل لمصر أنور السادات، تدافع فيه عن الإسلام بالدرجة الأولى، مقدمة ردودا على المفاهيم الخاطئة عن الإسلام حول عنف الإسلام وتشدده وحول مكانة النساء فى الإسلام. كما تتعرض لقصة الصراع العربى الإسرائيلى المستمر لأكثر من خمسين عاما، موضحة لجهود السلام المختلفة التى بدأها زوجها منذ أكثر من ثلاثين عاما، مشيرة إلى التعنت الإسرائيلى الواضح فى العملية السلمية.

السيدة جيهان السادات أولت اهتماما كبيرا لأحداث الحادى عشر من سبتمبر التى تراها غيرت وجه العالم وقسمت تاريخه إلى ما قبل الحادى عشر من سبتمبر وما بعده، موضحة أن هذا الحادث استدعى لديها مشهد اغتيال زوجها أنور السادات فى السادس من أكتوبر عام ١٩٨١، فهى ترى أن هناك تشابها بين الحدثين فى كون من قام بهما متطرفين إسلاميين يسيئون إلى الإسلام.

الكتاب قال عنه الرئيس الأمريكى السابق جيمى كارتر «البطل الحقيقى لاتفاقية عام ١٩٧٩ للسلام بين مصر وإسرائيل كان أنور السادات، وكتاب زوجته جيهان هذا يذكرنا أن حلم السادات بسلام المنطقة لا يزال حيا»، كما قال عنه هنرى كاسينجر وزير الخارجية الأمريكية السابق «الكتاب: جزء منه يذكرنا بالسيد الرئيس أنور السادات، ومبادرته للسلام والإعتراف بإسرائيل، والذى دفع حياته ثمنا لها، والجزء الآخر يذكرنا بأن الإرهاب والتشدد الإسلامى هو أمر مرفوض من قبل الغالبية العظمى من المسلمين».

■

Sufism, Mystics, and Saints in Modern Egypt

التصوف والصوفية فى مصر الحديثة

Valerie J. Hoffman

University of South Carolina Press, 2009, 488PP, 32.50$



لقرون عديدة أخذ التصوف الإسلامى دورا هاما فى الحياة الروحانية الإسلامية، والحياة الفكرية والدينية والشعبية، وهذا الكتاب هو دراسة متعمقة فى الصوفية ومعتنقيها فى مصر هذه الأيام. ما هى؟ وما هى مبادئهم؟ وما هو دور النساء فى الصوفية؟ والعديد من الأسئلة الأخرى التى توضح الصوفية ودورها فى مصر.

الكتاب يقدم رسما مفصلا للصوفية، وتجارب حية لمعتنقيها وأفكارهم ومعتقداتهم، مع توضيح للعديد من المعلومات المغلوطة عن الصوفية فى مصر.

■

"تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات."

العميل بابل

تأليف: عمرو الليثي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ١٣٦ صفحة



يقول الصحفي والإعلامي عمرو الليثي في تقديمه لهذا الكتاب: «حملت حقائبي وقلمي.. سافرت إلى موقع الحدث.. إلى لندن.. والدافع الأساسي.. الإجابة عن سؤال: مَن قتل أشرف مروان؟ ولكني في الوقت نفسه كنت أبحث عن إجابة أخرى لسؤال كان مطروحاً من قبل وفاة مروان: هل كان جاسوساً مزدوجاً بين مصر وإسرائيل؟

اتصلت بكل الأطراف.. حاورت الجميع.. سألت مئات الأسئلة.. والنتيجة: أن سبب وفاة أشرف مروان ليس انتحاراً على الإطلاق.. ولكن هناك جريمة وقعت.. وكشفت أيضاً أسئلة لا تقل أهمية عن معرفة القاتل.. أو ماذا كان يفعل مروان مع أجهزة المخابرات؟.. وأؤكد أن تحقيقي توصل إلى أسئلة ونتائج لم أكن أنا شخصياً أتوقعها.. وسيفاجأ بها القارئ»..

المسحراتي

محمد خطاب
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ٢٣٩ صفحة



يجوب «المسحراتي» الحارات والأزقة، ممسكاً بطبلة ليوقظ الناس للسحور، لكنه هنا لا يقف عند حدود المكان والزمان، بل ينتقل بنا من الاستيقاظ إلى اليقظة: اليقظة بمعناها العميق حين تأخذنا عبر لغة بسيطة، لكنها البساطة الآسرة، وما أصدقها حين تقرع طبولها لنقرأ عن انتحار التاريخ، ووفاة المثل العليا، ومكافحة الأمية السياسية، إضافة إلى معان أخرى لا يستطيع أن يوقظها بداخلنا إلا هذا النوع من المسحرين الجادين الذين يعون - في زمن يمتدح الجهل - الدور الذي يجب أن يلعبه «المسحراتي».

فكر الفضاء

جيل غاستون غرانجي
ترجمة: د. علي دعيبس
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٢٨٨ صفحة



لا شك في أن معنى الفضاء هو من صلب تفكيرنا. نحن نفكّر في الأشياء ونراها ونلمسها في الفضاء. لكن هل نفكّر الفضاءَ نفسه؟ هل الفضاء مجرّد شكل أم هو شيء أيضاً؟

يبدو حل المسألة جاهزاً مادام علماء الرياضيات قد أوجدوا، عن طريق التجريد ومنذ زمن طويل، علماً موضوعه الأشياء، باعتبارها موجودةً في الفضاء، وهذا العلم هو الهندسة. لكن هل هذا صحيح؟ وكيف؟

يتناول الفيلسوف غرانجي هذه المسألة المركزية، منذ الفيلسوف كَنْت، متابعاً أعماله المعروفة في مجال فلسفة العلوم.

قاموس التنمية
دليل إلى المعرفة باعتبارها قوة

تحرير: فولفجانج ساكس
ترجمة: أحمد محمود
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨، ٦١٢ صفحة



يمكن تسمية الأربعين سنة السابقة لظهور هذا الكتاب بـ«عصر التنمية»، وباسم التنمية كافح الجنوب من أجل اللحاق بالشمال، وهبط الخبراء على القرى القريب منها والقاصي، وتحول ملايين البشر إلى عمال أجراء ومستهلكين.

ولكن «التنمية» كانت أكثر من مجرد مسعى اجتماعي اقتصادي، فهي إدراك يشكل الواقع، وخرافة تريح المجتمعات وخيال يطلق المشاعر، ويبحث هذا الكتاب «التنمية» باعتبارها رؤية كلية خاصة. في هذه المجموعة الرائدة يستعرض بعض أبرز منتقدي التنمية في العالم المفاهيم الأساسية لخطاب التنمية في عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية. ويبحث كل مقال أحد المفاهيم من وجهة النظر التاريخية والأنثروبولوجية ويلقي الضوء على تحيزه الخاص. وبعد أن يكشف المؤلفون ما تتسم به فكرة التنمية ذات المركزية الأوروبية من عدم مواءمة تاريخية وعقم، فإنهم يدعون إلى هجرها بالكامل. وهم يقولون إن هناك حاجة ماسة إلى ذلك؛ كي نحرر عقول الناس - في كل من الشمال والجنوب - من أجل إيجاد حلول شجاعة للتحديات البيئية والأخلاقية التي تواجه البشرية في الوقت الراهن.

هذه المقالات دعوة إلى الخبراء والحركات الشعبية وطلاب التنمية: كي يتعرفوا على النظارات المعتمة التي يلبسونها حينما يشاركون في خطاب التنمية. وقد تلا كل مقال ببليوجرافيا تعين القارئ على التعرف على موضوعه بشكل أوسع؛ لتشجيع المزيد من الدراسات في التاريخ الثقافي لفكرة التنمية.

طريقُ الشعر والسفر

أمجد ناصر
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨، ١١٠ صفحات



أنا من الأشخاص الذين يعتبرون بيروت تاريخاً فاصلاً في حياتهم على أكثر من صعيد، ولم أستنفد، رغم الاستعدادات المتكررة لتلك الفترة القصيرة من حياتي، المخزون الكامن فيها.

ففي بيروت حصلت على ما لم يكن ممكنًا لي الحصول عليه في عمان. لم تكن مكتبات بيروت تتوافر، فقط على كتب لم تصل إلى عمان، ولكنها كانت أيضاً مكاناً لم يتوقف فيه السجال، رغم الحرب، في الشعر والشعرية اللذين عرفتهما في أواخر الخمسينيات.

هذا وجه من وجوه عبقرية المدينة التي لم تتمكن الحروب والاحتلالات والنزاعات الدامية أو الانقسامات الأهلية من إطفاء جذوتها أو الاستئثار بها.. أو مماثلتها بمحيطها العربي. كان الشعر، والسجال حوله، رغم حرب السنتين الطاحنة، على وشك أن يستأنف طوراً جديداً تواصل نحو عقدين بعد ذلك وأمكن له أن يمتد إلى عواصم أخرى ويشبكها في صخبه. هل أعزو الخلخلة التي أصابت قناعاتي الشعرية في بيروت إلى إيماني الضعيف بهذه القناعات؟ لا أستبعد ذلك، رغم إشارة أكثر من ناقد وشاعر، من بينهم عباس بيضون، إلى أنني «بدأت قوياً» في قصيدة الوزن. وليس بعيداً عن ملاحظة عباس، ذلك الأسى الذي أبداه محمود درويش، يوماً، عندما علق على «طوري النثري» قائلاً إنني لم تكن لي مشكلة مع الوزن!

مقتل فخر الدين

عز الدين شكري
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ٢٤٨ صفحة



الرواية تصلح شهادة حيّة على العصر والظروف التي تحياها شخصياته الروائية، فهو يتعرّض للواقع السياسي العام، وانعكاساته اجتماعياً ونفسياً، بخبرة أتاحها له عمله في السلك الدبلوماسي، ذلك العمل الذي يقول عنه: «عندما تكون دبلوماسياً، لا تصنع الأشياء بالضبط كما تريد، فأنت طوال الوقت تتفاوض في الأمر الذي يلقي بظلاله على الحياة الشخصية، لكن في الكتابة الأمر مختلف، فأنا أصنع ما أريد، أخلق شخصيات وأصنع أزمات، وأدخل الأزمنة في بعضها البعض.. ليس لأحد أي سلطة عليّ.. أنا حر تماماً فيما أريد أن أفعله».

ركّز عز الدين شكري في هذه الرواية على التفاصيل الصغيرة التي تسهم في صناعة الحدث، لتشكل مجموعة من الأنهار الصغيرة، تصب في بحر الرواية الكبير، لتشكل ملامحه عبر تفتيت الحدث إلى مكوناته ودوافعه الأولية، بحيث يبدو هذا الحدث حقيقياً وواقعياً إلى درجته القصوى، لا يدور في فراغ، وليس وليد لعبة روائية قائمة على الصنعة، وهو ما يضفي على فلسفة العنف في مقتل فخر الدين بعداً ميتافيزيقياً: «صمتت بين السريات لحظة، ثم انهال الصوت دامياً متفجراً من كل نافذة ومدخل وسطح.. سقط فخر الدين سقطة واحدة على رصيف الشارع في دمه الأحمر القاني.. أفسح الهواء صدراً لإشارة الصمت فصمتت الرشاشات الآلية.. يطل وجه أحد

الجنود من باب بيت مقابل.. عبر الشارع مسرعاً شاهراً بندقيته باتجاه الجسد الممدد على الرصيف.. دفعه بركلتين متلاحقتين حتى يتأكد من موته، رفع رأسه إلى من فوق السطح وأشار بإبهامه إلى أعلى».

فى هذه الرواية يذهب المؤلف نحو هدفه مباشرة، ليدخل قلب معركة الإنسان الفرد مع الزمن الوجودى بعنفه واصطخابه واشتراطات واقعه التى تحيل الحياة جحيماً لا يطاق، ولتحقيق هذه الرسالة سلكت الرواية طرائق تقنية روائية متعددة، مثل الاقتباسات الشعرية وكلها تقريباً من محمود درويش رمز المقاومة والصمود فى الشعر العربى المعاصر، وكأنها الخلفية الموسيقية التى تساعد فخر الدين على البقاء، فى ظل إحباطاته المستمرة والمتعددة وتعرضه للخيانة من صديقه الشاعر الذى وشى به، ثم دخوله السجن، وتجنيده فى حفر الباطن، يؤطر الشعر إذن هذه الرؤية الروائية ويخرجها من كآبتها وسوداويتها إلى أفق إنسانى أرحب وجودياً، وكأن الشعر هنا هو نقطة الضوء الوحيدة فى روح فخر الدين.

ثم تأتى تقنية السرد المباشر محدد الخط والهدف على لسان السارد المتكلم، أو السارد الواعى بالعمل ككل، تتخلله آلية البوح والاستدعاء، حيث تعمل الذاكرة عمل المنشط الموضوعى، ليستدعى الحدث الآنى تاريخه المتكرر. وهنا يصبح الحوار ضرورة فكرية تظهر مكنون الشخصية الروائية فى تشابكها مع محيطها الأقوى منها القامع لها.

ثم تأتى ثالثاً تقنية الرسائل، وهى تقنية تمنح العمل حيوية وتخرجه من إطار الاصطخاب والعنف الرمزى واللغوى التى تغزو روح فخر الدين فى لحظات عزلته، هذا العمل الذى لم يلق حقه من النجاح والذيوع، جدير بأنه يوضع فى مكانه اللائق به، وبأن يصبح عز الدين شكرى أحد كبار كتابنا المصريين فى فن الرواية.

■

علاقة مستحيلة

جيلان حمزة

القاهرة: عربية للطباعة والنشر، توزيع مكتبة مدبولى، ٢٠٠٦



«علاقة مستحيلة»، رواية تنقسم إلى جزءين، الأول بانوراما على الحياة المصرية تتطور فيه الأحداث السياسية من خلال البطلة «سعاد» فتعايش طفلة تنازل الملك عن العرش وتتألم لذلك وتتوالى المراحل من الرئيس محمد نجيب إلى عبدالناصر إلى زمن السادات.. بعد زواج «سعاد» وإنجابها لـ «منى وكريم» يرحل الزوج وتقف وحيدة.. الرواية تشير بحدة إلى فداحة فقدان الأب.. تكبر ابنتها منى وتتعاطى المخدرات وتختار زوجها من نفس مجتمعها الفاسد رغم مقاومة الأم «سعاد»، شقيقها «كريم» يتخرج من الجامعة بدرجة امتياز.. يتقدم إلى وزارة الخارجية بدافع من أمه «سعاد» ينجح فى كل الاختبارات الصعبة بامتياز ولكنه يعين فى الأرشيف لأنه بلا أب. يسافر مع الدفعة إلى الخارج ويفهم أن الرحلة تعليمية، كثرة أسئلته واستفساراته أقلقت زملاءه والمشرفين على الرحلة، كذلك فالكل يريد إما الترفيه أو التسوق، وخاصة أنها كانت فترة الانفلاق.. يقسون فى معاملته إلى الدرجة التى دفعته لعمل حق لجوء سياسى كما تعلم من كتب السياسة التى درسها وهى سابقة من موظف معين من أسبوعين فقط!! السفارة تتصل بالأم «سعاد» تسافر وتعود به فى رحلة معاناة.. يأتى عمه الذى يعيش فى أمريكا وتشكو له «سعاد».. يقدم «كريم» إلى لواء يعمل فى الخارجية ليسوى حالته ويعود إلى عمله، وفى نفس الوقت يوفق فى ترتيب خطبة لابنة هذا اللواء. إلا أنها تفشل بسبب رجوع الخطيبة إلى طليقها.. يترك «كريم» الخارجية.. يراسل جامعة فى أمريكا ترحب به.. فى هذه الأثناء تنجب شقيقته منى طفلا وتصاب بانهيار عصبى نتيجة لرفض زوجها المدمن الرجوع إليها ولو من أجل الطفل.

يسافر «كريم» إلى أمريكا وبعد عام يرسل لها العم دعوة لزيارته.. ولما كانت «سعاد» تمارس الرسم وكان هذا بالنسبة لها موردا للرزق يعينها إلا أنه كان دوما فى لحظات إبداعها ما يظهر شكل لوجه رجل فى أرضية اللوحة دون قصد منها.. فى مطار «كنيدى» ترى الرجل الذى كثيراً ما يظهر فى أرضية لوحاتها، تتطور الأحداث لتعرف أن اسمه «يوسف» وتعرف أيضاً من الأحداث أنه المشرف على رسالة ابنها «كريم».. العم مشغول بمرض زوجته الخطير يشجعها على الاندماج فى المجتمع الأمريكى حتى لا تشغل ابنها عن دراسته.. الدكتور يوسف يملأ حياتها.. تكتشف «سعاد» أنه يهودى فتُصعق، يعلن د. يوسف عدم قدرته على العيش دونها.. يوسف يقوم بتعريفها على مجموعة من أساتذة الجامعة زملائه وتدور حوارات فى منتهى الثراء من اغتيال السادات إلى ظاهرة الحجاب وعداء المسلمين للمسيحيين.. ومنابع الفكر الإسلامى من فكر الغزالى إلى ابن تيمية إلى المودودى.. تعلو ذروة الرواية والدكتور يوسف يعرض عليها الزواج بأى شكل تريده ويناقشها بالحجة والمنطق فى أنه صاحب ديانة وكتاب منزل.. .... وكانت قادرة على مناقشته بالحجة فحياتها وحيدة أتاحت لها قراءة مستمرة قبل أن يكبر ابناها «منى وكريم».. تعود إلى بيت العم وتعلم نبأ موت زوجته. تسقط محمومة من حقيقة موقفها مع د. يوسف الذى أحبته ومن شدة انفعالها لوفاة زوجة العم.. تستجمع نفسها وتكتب خطاباً إلى الدكتور يوسف: كان يمكن لأشياء كثيرة أن تُسوى، إلا أن أصوات الثكالى والأطفال فى فلسطين تصم أذنى.. وتقرر أن تعود إلى مصر.. يشجعها العم.. يستدعى ابنها من سكنه فى الجامعة.. تسلمه الخطاب وهى تقول بأنه خطاب شكر للدكتور يوسف المشرف على رسالته.

الرواية مكتوبة بأسلوب فيه حشد لأحداث وقضايا معلقة ومؤجلة، كما أن بها حساً ميتافيزيقياً، ما أضفى على العمل رهافة شديدة.

■

على ماهر باشا

تأليف: محمد الجوادى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٣١٢ صفحة



ليس هذا كتاب «تمجيد» ولا «تخليد» بل كتاب «تقييم» و«تحليل» لحياة على ماهر باشا ١٨٨١ - ١٩٦٠ كواحد من أشهر وجوه عصر الليبرالية المصرية، وأكبر رجالات السياسة فيه؛ ظهر مع ثورة ١٩١٩ محركا لقطاع الموظفين بكامله، وشارك فى مفاوضات الوفد المصرى مع لجنة ملنر بعد الثورة، ورحب بتصريح ٢٨ فبراير فدخل فى خلافات طالت مع الوفديين. كان عضو لجنة دستور ١٩٢٣، ثم لجنة ١٩٥٤. تنقل بين الأحزاب والمناصب؛ فقد تولى رئاسة الديوان الملكى مرتين، ورئاسة الوزارة مرات أربع. و كان هو نفسه واضع سيناريو البداية والنهاية لحقبة الملك فاروق فى السياسة المصرية.

يتناول هذا الكتاب شخصية السياسى الكبير؛ فيعرض أولا سيرة حياة وملامح شخصية على ماهر، ثم تدرجه السياسى، من الصعود حتى وصوله إلى قمة المسئولية، ثم كهولته السياسية، محللا علاقاته بأنداده، وأعدائه، وتعبيره عن ذاته فى خواطر كتبها بعد عام من قيام الثورة.

■

زائرة الأحد

عبدالرشيد الصادق محمودى

القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٩



صدرت المجموعة فى سلسلة كتاب اليوم. وقدمت لها رئيس التحرير نوال مصطفى بأن وصفتها بأنها مجموعة قصصية رائعة تحكى عن الإنسان وصراعاته مع رغباته وتطلعاته بين أحلام مؤجلة وآمال محبطة والكاتب عبد الرشيد الصادق محمودى هو مؤلف تلك المجموعة الرائعة صاحب تجربة خاصة فى الحياة وفى الإبداع معا فقد عمل بالأمم المتحدة لسنين طويلة وهو كاتب له العديد من الكتابات والترجمات بالفرنسية والعربية فى مواضيع شتى مثل الأدب والفلسفة، خاصة عن عميد الأدب العربى طه حسين مثل (طه حسين من الشاطئ الآخر)، و(طه حسين بين السياج والمرايا)، و(طه حسين من الأزهر للسوربون)، و(كتابات طه حسين بالفرنسية)، له العديد من الكتب فى مجال الفلسفة مثل (علاقة ابن خلدون بأرسطو)، والمجموعة القصصية (ركن العشاق).

وفى هذه المجموعة القصصية نرتحل إلى أعماق أبطاله من خلال نسيج درامى محكم وحبكة متقنة وشيقة نرتاد أماكن وأزمنة يحكى كل منها القصة من وجهة نظره وبإحساسه الخاص، سبع قصص هى حصيلة هذه المجموعة وهى: من أين تأتى القصص؟، والحياة الجديدة، وسهرة فى مونمارتر، وزائرة الأحد، ورجل الانتظار، وذات الأحفاد، وشعبان والعلامات، عناوين القصص تولد لدى القارئ من أول وهلة شغفاً كبيراً وفضولاً يحاول أن ينزع أستار الغموض ويصل إلى نهاية القصة.

ومن أكثر القصص التى أعجبتنى شخصيًا هى (سهر فى مونمارتر) حيث المكان.. فالمكان الذى شهد أعلام الثقافة العربية ومناقشاتهم فى باريس نراه يلهم الكاتب كما ألهم من قبل توفيق الحكيم الذى كان من رواد مونمارتر وبطلات رواياته شبيهات بالأنثى التى يحلم بحبها. يتجلى هذا فى أسلوب أدبى رصين وصورة متقنة تضعك فى حالة بين الحلم والحقيقة، وأتمنى أن تقرأوا وتستمتعوا بهذه المجموعة الرائعة وتعيشوا مع سطورها وأبطالها ومسارح أحداثها وأجواء الأدب الجميل.

■

ساعات بين الكتب

السيد أمين شلبى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩، ٢٦٤ صفحة



يضم هذا الكتاب مجموعات من الكتب تعالج كل ثلاثة منها موضوعاً

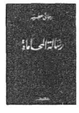
وقضية واحدة فى مجالات الفكر والثقافة والتاريخ.. فالمجموعة الأولى تعرض لأعمال ثلاثة من المفكرين المصريين يعبرون فيها عن علاقتهم واشتباكهم مع الثقافة والحضارة الغربية، وكيف تأثروا بها وإلى أى مدى أثرت فى ثقافتهم التقليدية، وانتمائهم الوطنى، وتعرض المجموعة الثانية، لثلاثة كتب تضمنت رسائل كتبتها شخصيات غربية خلال إقامتها فى مصر فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وسجلوا فيها انطباعاتهم عن الحياة والطبيعة والبشر فى مصر، وتتعرض المجموعات الأخرى لحضارة الشرق الأدنى ممثلة فى الصين والـيابان وخبراتهـم التاريخيـة والمعاصرة، كما يعرض الكتاب لأعمال تناقش قضايا التنوير، والعولمة، وعلاقة الإسلام بالغرب.

■

رسالة المحاماة

تأليف: رجائى عطية

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨ ، ٢٩٤ صفحة



عبر أكثر من نصف قرن جرت أحداث فى نهر المحاماة ونقابتها أكلت من الرصيد الرائع الذى كان للمحاماة والمحامين!

عز على كثيرين أن تبقى المحاماة قوية مؤثرة فى الحركة الوطنية والحياة السياسية، حداهم إلى ذلك أن المحامى طاقة حرة ومؤثرة.. تتأبى على الإذعان أو التطويع، فالمحامى، لا ينتظر راتبا من أحد، وإنما رزقه فى يد الله. عز وجل. وعلى مدى كفاءته وقدراته وإخلاصه، ثم هو صاحب معرفة وحجة ومنطق وقدرة على المنازلة والمقارعة والإقناع، فلا سبيل إذن إليه إلا أن تضرب المحاماة بأسرها، والطريق القريب إلى ضربها: ضرب نقابتها، لذلك استهدفت نقابة المحامين منذ أكثر من نصف قرن.. تغيرت الأساليب والطرق والهدف واحد هو احتواء النقابة.. هذا الكتاب تعريف بالمحاماة، ودعوة للتقدم إليها، بقيمها ومبادئها وعلمها ومعرفتها، لتعود بالمحامين إلى ما كانت وكانوا عليه. لعل هذه هى الفرصة الأخيرة ليستيقظ المحامون وينتبهوا ويتفطنوا لاستخلاص أنفسهم ونقابتهم والمحاماة، واستعادة ما كان من عظمة وجلال.. أردت بإيراد بعض صفحاتها. أن تكون حافزاً للمحامين للتواصل الحقيقى والتقدم بعزم وإخلاص إلى المحاماة!

■

التحول الكبير
الأصول السياسية والاقتصادية لزمننا المعاصر

كارل بولانيى

ترجمة: محمد فاضل طبّاخ

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٥٧٣ صفحة



يحلل كارل بولانيى، فى هذا الكتاب، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى جلبها «التحول الكبير» بعد الثورة الصناعية. ولا يكتفى تحليله بشرح نواقص السوق المنظّمة ذاتيًا، بل يشمل، أيضاً، النتائج الاجتماعية الأليمة الممكنة لرأسمالية السوق الجامحة. وإن ما يستجدّ فى عصر العولمة والتجارة الحرّة يسند لتحليل بولانيى أهمية متجددة.

مع اقتراب الحرب العالمية الثانية من نهايتها فى عام ١٩٤٤ تمّ نشر كتابين مهمّين فى الاقتصاد السياسى، كان أحدهما لهايك (Hayek) وهو: الطريق إلى العبودية، الذى تحدث عن القوة الدافعة وراء تطور السوق الحرّة فى الربع الأخير من القرن العشرين، والثانى لكارل بولانيى، وهو التحول الكبير.. هذا الكتاب يستحق القراءة، فعلاً.

■

حرب بلا نصر
لبنان: ربيع التغيير وصيف الحرب وشتاء الإضراب

أمير سعيد

القاهرة: مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، ٢٠٠٩



يقول الكاتب فى تقديمه للكتاب: أنتم أيها الثوار مثل زبد البحر، متى هدأتم انتهيتم: (القائد اللبنانى المختفى موسى الصدر) بهذه العبارة الموجزة اختزل الصدر مفهوم النضال عند الميليشيا التابعة له آنذاك/ أفواج المقاومة اللبنانية المعروفة اختصاراً باسم (أمل).. ثوار مثل زبد البحر، وهى هنا تعنى حالة دائبة من الحركة أنى اتجهت بهذا البلد الصغير، أكانت إلى الحرب أم إلى الإضراب، من دون أن يتعرض هذا الحراك لقدر من المراجعة والتدقيق فى مدى جدواه ومرتجاه، إذ الحركة ليست دائماً محمودة، ولا السكون كذلك، والعبرة تبقى فى محصلة الحراك، فالحقيقة أن القدرة التأثيرية لا تقاس بما تحدثه من جلبة، وبما تقطعه من أراض فى طريق سيرها، وإنما بمقدار ما تبعد فى النهاية عن نقطة البداية فى طريق النضال أو الفعل، فالسائرون فى الطلقات المفرغة يجهدون كثيراً ويمشون طويلاً، لكنهم يعودون من حيث نقطة البداية أو ربما تقهقروا عنها، ومهما كان وجه منطقهم ناصعاً كما الزبد فإنه عند التحقيق لا يقوى على الاستمرار لأنه فى الحقيقة أجوف لا قلب له.. ويطأ من مطمحهم فلا يتطلع إلى السماء بل إلى الشارع عله يمنحه شرعية يرجو اقتناصها فتضن بها عليه، متى كان الرصيد النفعى مشدوداً إلى الخارج دائماً، والمحصلة فى الداخل الشعبى بكل ما يتمتع به لبنان من تنوع دينى وثقافى وسياسى محدودة، حيث يظل بلداً فسيفسائى التركيب بحاجة إلى التفاهم والتعايش على أرضية حضارية راسخة بعمق تاريخ هذا البلد العريق.

■

آفاق تربوية متجددة
صنع القرار فى السياسة التعليمية الأطراف الفاعلة والآليات

نهى حامد عبدالكريم

تقديم: أ. د. حامد عمار

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ٢٤٠ صفحة



يقع الكتاب فى أربعة فصول كبيرة، تحاول الإجابة على كل الأسئلة المتعلقة بالسياسة التعليمية فى مصر، فصل القرارات التى تخص التعليم يصدرها وزير التعليم أو توصل إليها بالمشاركة مع الفنيين؟ هل هذه القرارات وليدة استطلاعات للرأى العام من المعنيين بالسياسة التعليمية؟ كذلك تشير المؤلفة إلى الدور القانونى والدستورى لكل من السلطات المسئولة عن صنع القرار واتخاذه وتطبيقه فى مجال التعليم.

يوضح د. حامد عمار فى تقديمه للكتاب أن اتخاذ القرار كما يتناوله هذا الكتاب ليس عملية فنية أكاديمية فحسب، وإنما هو قبل هذا وبعده عملية سياسية تتولد من أهداف السلطة ومقاصدها وتوظيفها للنظام التعليمى، ولم تكتف المعالجة بهذه الرؤية النظرية، بل خصصت جزءاً كبيراً ومهماً من الكتاب للاشتباك مع واقعة محددة فى اتخاذ قرار معين، وهو تخفيض عدد سنوات التعليم الابتدائى إلى خمس سنوات بدلاً من ست، وذلك تحت ضغوط الأزمة المالية فى ذلك الحين، ثم عودة السنة الملغاة مرة أخرى، وتأثير ذلك على المدرسين والطلاب معاً، وعلى العملية التعليمية برمتها، ورأت المؤلفة أن الأدلة والبراهين التى ساقها د. فتحى سرور كرجل قانون كأسباب للإلغاء أدلة وبراهين قاصرة لا يعتد بها.

وانطلاقاً من تردى المستوى العام للتعليم تطرقت الدراسة إلى التراجع عن قرار الإلغاء وصدور قرار بعودة الصف السادس كعلاج أو محاولة للنهوض بالتعليم، وتحسين مستوى الثروة البشرية المصرية وتنميتها بصورة تخدم خطة التنمية القومية.

ونظراً للمردود السلبى الذى أحدثه قرار إلغاء الصف السادس، وهو الإلغاء المفاجئ الذى أدى إلى الكثير من المعارضة قامت المؤلفة بدراسة ميدانية طبقت فيها استبيانات استطلاع الرأى لاكتشاف توجهات آراء العاملين فى المجال التعليمى نحو تجربة الإلغاء، اتضح منها أن: صانع قرار الإلغاء استطاع أن يحيِّد المؤسسات التربوية، بل ويحصل على موافقتها لتدعيم وتعزيز مركزه وصورته أمام الرأى العام سواء داخل قطاع التعليم أو فى المجتمع المدنى ككل، وأظهر استبيان رأى معلمى الابتدائى والإعدادى أن قرار إلغاء الصف السادس أضر كثيراً طلاب الدفعة المزدوجة، كما تسبب فى قصور العملية التعليمية والتربوية، وهكذا كان من نتائج مركزية السلطة والتخطيط فى التعليم والانفراد باتخاذ القرارات المصيرية التى تمس حياة الملايين من الطلاب وأسرهم، دون دراسات وافية وتدرج محسوب، أن يستمر الهبوط فى المستوى العام فى المرحلة الإعدادية ويمتد للمرحلة الثانوية.

■

الإسلام الأسس

كولين تيرنر

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٣٦٠ صفحة



إن كتاب «الإسلام الأسس» هو مقدمة موجزة نشر فى الوقت المناسب وتحديداً بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ليقدم «الإسلام» أحد أهم الديانات فى العالم، من خلال معتقداته، ممارساته، مبادئه وأهدافه. إنه محاولة، هدف من خلال المؤلف إلى تقديم صورة واقعية وموضوعية عن «الإسلام» باعتباره أكثر إثارة للجدل خصوصاً بعد أحداث سبتمبر التى جعلت

من الدين الإسلامى دينًا يرمز إلى الأصولية والإرهاب والهجمات الانتحارية.

فى هذا الكتاب مقارنة جديدة لاستكشاف «الإسلام» من خلال الوحى القرآنى من جهة، وعقائد الإسلام من جهة أخرى. وهذه المقارنة نابعة من تفسيرات شخصية اكتسبها المؤلف من دراسته الأكاديمية للقرآن والدين الإسلامى تارة، ومن خبرته العلمية وسط أناس يدعون الإسلام تارة أخرى.

■

قهوة المصريين

تأليف: محمد كمال حسن
تأليف: مصطفى الحسينى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ١٥٧ صفحة



هذا الكتاب يضم مدونة مشتركة للمؤلفين يحكيان فيها مغامراتهما فى عالم القهاوى العجيب والمثير، وصدر ضمن سلسلة «مدونات الشروق»، ويقولان فى تعريفهما لهذا الكتاب «الموضوع مش شوية كراسى وكام ترابيزة وطقطوقة مركونين فى دكانة أو على رصيف أو فى شارع وشوية خلق قاعدة تلعب دومينو وطاولة ولا يتفرجوا على ماتش ويشربوا شايهم ويمشوا، مش بس اتنين أصحاب اتقابلوا اتكلموا شوية ومشيوا، ولا ناس عدت بالصدفة قعدت وقامت.. أنا كنت فاكرها كده، لحد ما فكرت أقعد أتفرج واسمع وبس. واعرف يعنى إيه قهوة ويعنى إيه حكايات...»

■

الجماعة وتحولاتها
التجربة السياسية العربية ـ الإسلامية فى فكر رضوان السيد

شمس الدين الكيلانى
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٣٣٥ صفحة



غلب على دراسات رضوان السيد واهتماماته الانشغال بموضوع «السياسة» فى المجال الإسلامى. وكان قد

أسرار الحديقة الإسلامية

جنات وعيون
دراسات فى عمارة الحديقة الإسلامية

صفى الدين حامد
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩، ١٢٨ صفحة

هذه دراسة بديعة شائقة، لا تصدر إلا من عالم رائد، على درجة عالية من التخصص فى العمارة والتخطيط البيئى. امتلأ وجدانه بعشق الجمال وأقباس الروحانية. من هنا كان اتساعها لما تضمنته من أبعاد حضارية وبيئية وروحية. وامتلاؤها بكيمياء الشعر وحرارته فى نماذج رفيعة فى الإبداع التعبيرى والتصويرى، والمؤلف يأخذ بأيدينا وألبابنا إلى تجليات الحديقة الإسلامية فى تصميمها الذى جمع بين «المعرفة العلمية والنزعة الفنية والامتلاء الروحى».

ولقد أتيح لى فى مستهل حياتى العلمية ـ وأنا بعد معلم للغة العربية فى مدرسة النقراشى النموذجية، فى حدائق القبة بالقاهرة ـ أن أتعرف على مؤلف هذا الكتاب الدكتور صفى الدين حامد، وهو طالب بالسنة الثالثة الإعدادية، وأن أكتشف استعداده المبكر وميله للهدوء والتأمل العميق وسيطرة النزعة العقلية على أسلوبه فى التفكير. وكانت عيناه الناقدتان من خلف نظارته الطبية تكشفان عما تمتلئ به جوانحه ومداركه من وعى يفوق سنوات عمره، يؤكد تمايزه ونضجه المبكر، وتفوقه المعرفى على أقرانه. وعندما ضربت يد السنين بيننا ـ تركت أنا العمل فى التعليم إلى المجال الإعلامى واتجه هو إلى دراسة الهندسة المعمارية فى جامعة القاهرة، منطلقًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على الماجستير والدكتوراه ـ كنت سعيدًا بأن أتلقى منه بعد سنوات طوال من البعاد والانقطاع، بطاقة تحية، تؤكد لى ما توسمته فيه وراهنت عليه عندما كان فى الثالثة عشرة من العمر. لقد أصبح الصبى الطموح أستاذًا فى الجامعات الأمريكية، وأصبح الدكتور صفى رائدًا فى حقول العمارة والتخطيط والبيئة. مشاركًا فى هيئات ومنظمات دولية عديدة، وواضعًا لبرامج علمية تشهدها الجامعات العربية لأول مرة. وأصبح مقدرًا له أن يعود إلى بلده مصر ـ بين الحين والحين ـ خبيرًا ومستشارًا وأستاذًا رائدًا فى مجال تخصصه، وهو أمر ليس بالقليل.

لكن اللافت فى التكوين الإنسانى والمعرفى للدكتور صفى الدين حامد أنه يمثل أصدق تمثيل العالم المسلم المعاصر، فى معادلة مدهشة امتزج فيها العلم بالإيمان والنفس الروحى والحس الفنى المرهف، الأمر الذى يفسر اختياره عمارة



الحديقة الإسلامية مجالاً لهذه الدراسة. واختيار عنوان الدراسة مستلهمًا من آية قرآنية: «جنَّاتٍ وعُيُونٍ»، واتكاء منهجه على أسس راسخة متكاملة تجمع بين عناصر مادية وأخرى روحية، وتتغلغل فى أعمق أسرار الحديقة الإسلامية فى الأندلس ومدن فارس: أصفهان وشيراز وأشف، وإمبراطورية المغول فى القارة الهندية، من خلال رؤية ذات فضاء رحب متكامل ينتظم التنويعات المختلفة للحس الأساسى الواحد فى الجزيرة والمغرب وتونس ومصر وتركيا وصقلية والعراق والجزيرة العربية وأفغانستان والقارة الهندية والصين وأوزبكستان.

وأروع ما فى هذه الصفحات نجاح المؤلف وإبداعه فى الكشف عن العلاقة الوثيقة والتأثير الكبير للعقيدة والبيئة والثقافة فى تصميم الحديقة الإسلامية، من خلال الوصف القرآنى لجنات اليوم الآخر، وتأثير السنة النبوية، وتجليات هذا التأثير من خلال نماذج رائعة ومدهشة تتمثل فى حدائق العالم العربى المفقودة وحدائق قلعة الحمراء فى غرناطة بإسبانيا وبستان شالامار باغ فى باكستان، وحدائق بلاد فارس فى إيران، كما يتجلى فى تقسيم الحديقة أو البستان إلى أربع رياض يفصل بينها عنصر مائى يرمز لأنهار الجنة، على غرار اتساع الرياض الأربع فى الجنة لنزلائها الذين نصت عليهم الآية القرآنية: «ومن يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا» (النساء: ٦٩).

ومؤلفنا ينجز دراسته البديعة والمدهشة وعينه علينا نحن أبناء هذا الزمان المتراجع فى أقطارنا العربية والإسلامية، بهدف فتح عيوننا على المألوف الذى اعتدناه دون تأمله أو نقده أو الرغبة فى تغييره، بعد أن ساد القبح وتراجع الجمال، وسادت العشوائية، وتراجعت الهوية والشخصية، واتسع المجال للتغريب ـ وبخاصة فى مجال العمارة ـ من غير مراعاة للشروط والأوضاع المناسبة لبيئاتنا وثقافتنا وحضارتنا، من أجل تحقيق الانسجام بين البيئة العمرانية المتزايدة يومًا بعد يوم والبيئة الطبيعية التى تتلاشى تدريجيًا، وإعادة الوجه العربى الإسلامى الأصيل لحدائقنا ولتصميم المواقع خلال مدننا، من خلال جهد مشترك ينهض به خبراء عمارة البيئة وأساتذة تاريخ الفن والباحثون فى الحضارة الإسلامية العربية، وبخاصة أن فن تصميم الحديقة الإسلامية قد بلغ ـ عبر عصور تاريخنا الإسلامى ـ مستوى عاليًا من الشمولية الإنسانية، الأمر الذى أرضى جميع الأذواق محققا البعدين: الفنى والجمالى.

الجميل أن المؤلف ـ فى دعوته إلى التمسك بالشخصية الإسلامية العربية فى تخطيط المواقع وتصميم الحدائق ـ لا يدعو إلى استعادة الماضى ومحاكاته وتقليده فى صورة حرفية توقف حركة الإبداع والتجديد. بل هى دعوة حافزة إلى التجديد الواعى، المستوعب فى وقت واحد للأصالة التراثية وابتكارات العصر، فى إطار ملاءمته ظروفنا وتراثنا الروحى ومناخ بيئتنا الصحراوية فى كثير من البلدان، بعد أن سيطرت روح التغريب والتقليد والحيرة الثقافية، وابتعدنا عن التميز الحضارى وعن تراثنا الفكرى الروحى.

فى الكثير من صفحات هذا الكتاب ينسكب على لغة المؤلف ماء الشعرية ووهجها حين يعبر عن امتزاجه عقلاً وروحًا بتجليات فن عمارة البيئة فى منظومته الإسلامية العربية، وحين يعلق على آراء أساتذة عمارة البيئة الأجانب، فنحس أن لغته قد أصبحت لغة شاعر، استطاع بحسه المرهف أن يصغى لصوت العمارة ويستمع لغة الطبيعة ويحاور شتى الكائنات وعناصر الوجود من حيوان ونبات وجماد، وأن يتغلغل بوعيه فى عناصر الجمال ونورانيته المشعة فى الطبيعة والكون، وأن يستغرقه البحث الدائب والولوج المعرفى إلى عالم النصوص الأدبية والشعرية المتناثرة كالعقد المنظوم فى ثنايا هذا الكتاب، تزينه وتجلو حقائقه وتوثق مادته المعرفية، وتضفى عليه طابعًا جميلاً ينظم هذه العناصر، ويصنع منها مادته المعرفية، وعطره الروحى وأقباسه الفنية.

تبقى تهنئة من القلب للصديق العزيز والأخ الكريم الدكتور صفى الدين حامد أستاذ عمارة البيئة وعاشق الجمال وأقباس الروحانية، على إنجاز هذه الدراسة الرائدة، وفتح الطريق أمام من يجيئون بعده من الباحثين والدارسين.

فاروق شوشة

أعد نفسه بحثيًا ومنهجيًا لهذه المهمة الصعبة، من خلال اطلاعه بصورة مبكرة على موضوعات التراث والتاريخ الحدثي والثقافي والسياسي العربي الإسلامي، ومن خلال امتلاك الأدوات العرفية اللازمة التى أهلته لمتابعة الدراسات عن الإسلام مستخدمًا المنهجيات الحديثة فى مجال التاريخ الثقافى، أو فى مجالات اجتماعيات المعرفة التى كانت المدخل الرئيسى لأبحاثه فى ميدان الإسلام، فضلاً عن ذلك، فقد عمل على تفحص المواقف المتضاربة من الإسلام من قبل العديد من الاتجاهات والقوى تنافست على تفسيره وامتلاكه.

من هنا توزعت اهتماماته حول ثلاثة محاور أساسية، موضوعها الرئيس «سياسات الإسلام»، حيث انصرف فى المحور الأول إلى تفحص التجربة السياسية الإسلامية فى العصر الوسيط. وانصرف فى المحور الثانى إلى تحليل ونقد تجربة الإسلام المعاصر فى وجهيها الحركى والنظرى. أما المحور الثالث يتعلق بتطوراته عن المستقبل الممكن والمستحيل الذى ينوس بين التصالح مع العالم والتاريخ، أو التخاصم مع الذات والعلم. فالإسلام والسياسات الإسلامية، هى المواضيع المحورية لأبحاث السيد برمتها، ويحاول هذا الكتاب تتبع أفكاره من خلالها.

■

الفلسفة الأسس

نيغيل واربورتون

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٢٧١ صفحة



شهد العالم العديد من الفلاسفة العظام، الذين وردت مساهمتهم فى معظم الكتب الفلسفية وفقًا لتسلسل تاريخى. وكتاب نيغيل واربورتون، هو واحد من هذه الكتب، إلا أنه يستعمل مقاربة ترتكز على المسائل الفلسفية التى يعيشها البشر باعتبارها مسلمات لا يمكن مناقشتها، وهى المسائل التى تندرج تحت عنوان «معنى الحياة»، ومنها: الدين، الصواب والخطأ، السياسة، طبيعة العالم الخارجى، العقل والعلوم والفنون.

فالفلسفة، برأى المؤلف، هى التفلسف، وهى نشاط يحفز التفكير فى البراهين الأساسية التى يستعملها الفلاسفة وإيجاد براهين أخرى مناقضة لها.

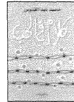
فهذا الكتاب هو موجز لأهم المقاربات الفلسفية لكل موضوع مع عدد من المناقشات لها. ما يمكن أن يكون مصدرًا تستقى منه مقالات إضافية فى هذا المجال.

■

كلام فى الحب

تأليف: محمد عبد القدوس

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ١٣١ صفحة



يقول المؤلف عن كتابه: «أخطر أزمة من وجهة نظرى تواجه بلادى اسمها يتكون من كلمتين: اختفاء الأخلاق! والسبب أن الحب مفتقد بيننا وفى حياتنا برغم كثرة الكلام عنه! وكتابى الذى بين يديك يحاول إصلاح هذا الخلل، وقد بذلت جهدى فى الحديث من الواقع، وابتعدت عن إلقاء دروس فى الأخلاق!!

وحرصت على تناول تلك العاطفة الجميلة من مختلف جوانبها، ولم أركز على العلاقة بين الرجل والمرأة أو روميو وجولييت فقط.

وأخيرًا أقول لك إن هذا الحب الشامل لا يعرفه إلا الإنسان صاحب القلب الذهبى، وأرجو أن تكون حضرتك منهم!»

■

دولة الدم والإرهاب
وثائق الاستيطان الصهيونى
وجرائم المستوطنين فى إسرائيل

أسامة عبدالحق

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩، ٢٤٨ صفحة



تميز إنشاء دولة إسرائيل عن كل المشروعات الاحتلالية والاستعمارية فى أنها قامت على أساس إحلال شعب مكان شعب آخر، فكانت الهجرة اليهودية واستيطان فلسطين، الأساس الاستراتيجى لمشروع دولة إسرائيل، والمستوطنات اليهودية هى تطبيق عملى للفكر اليهودى، انطلاقًا من مقولة «أرض بلا شعب»، فالإجماع الصهيونى الذى يشكل الإطار الإدراكى والأيديولوجى لكل الصهاينة يستند إليها، ومن ثم فإن اليهود، كل اليهود، لهم حقوق مطلقة فيها، والحقوق المطلقة لا تقبل الآخر، هذا الإجماع يتفق عليه كل الصهاينة، بحيث يستبعد من وجدان الصهاينة، فلسطين وشعبها وتاريخها، بل وجغرافيتها.

وهو ما عبر عنه عضو الكنيست الإسرائيلى السابق «يشعياهو بن فورت»، بقوله: «إن الحقيقة، هى لا صهيونية بدون استيطان، ولا دولة يهودية، بدون إخلاء العرب ومصادرة أراض وتسييجها».

إن مبدأ السطو على أرض الفلسطينيين، وطردهم وتوطين قادمين جدد فيها، فكرة تقوم على أساس أيديولوجى، ذات بعد استراتيجى، يجسده مفهوم الاستيطان، وتسانده فتاوى الحاخامات، الذين لا يدعون فقط إلى تطبيق حكم التوراة، الذى نزل فى قوم «عمالق» على الفلسطينيين، الذى ينص على «قتل الرجال والأطفال، وحتى الرضع والنساء والعجائز منهم، وسحق البهائم».

إنها دولة «الدم والإرهاب»، التى قامت، ولا تزال، على حساب الدم الفلسطينى والعربى، من خلال المجازر الوحشية بحق الأبرياء من أبناء فلسطين والعرب.

لذا حاولنا فى القسم الأول من هذا الكتاب أن نقدم توثيقًا للاستيطان الصهيونى فى أرض فلسطين وفلسفته، وجرائم المستوطنين، منذ قدومهم لهذه الأرض، كما حرصنا على تقديم تاريخ فلسطين القديم، والدولة «الإسرائيلية» الأولى، لكشف زيف هذا الادعاء الصهيونى، بأنهم يعودون إلى دولتهم الأولى فى «يهودا والسامرة»، حيث كان وجودهم عابرًا فى هذه الأرض، وقد جاء عبر القتل والتدمير والاغتصاب لأرض كنعان أيضًا.

أما القسم الثانى، فقد خصصناه لمجموعة من الوثائق المهمة فى هذا السياق.

■

نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون

اختارها وقدم لها وعلق عليها: د. محمد العبدة

القاهرة: مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، ٢٠٠٩



يقول الباحث فى مقدمة الكتاب: إن صلتى بالمقدمة ليست حديثة العهد؛ إذ كنت أرجع إليها بين الحين والآخر، أعيد قراءتها فأجد فيها ما يساعد المسلم على تفسير بعض أحداث التاريخ، كما يساعده على التحليل والمقارنة، ثم إنى اطلعت على كثير من الدراسات التى كتبت حول المقدمة، وإذا جُلُّ هؤلاء الدارسين أصحاب اتجاهات بعيدة عن الاتجاه الإسلامى الأصيل، وكل صنف منهم يحاول جر المقدمة إلى جانبه أو إيجاد ثغرة ينفذ منها لتعضيد آرائه وتشيعاته وما كتبه غيرهم لا يقاس إلى غزارة إنتاجهم.

وإذا كانت المقدمة نتاج الثقافة الإسلامية فيجب أن نعيدها إلى موقعها الحقيقى؛ وأصحاب الفكر الإسلامى الأصيل أولى بدراسة المقدمة للاستفادة منها، فالأقربون أولى بالمعروف.

وكان مما شجعنى على اختيار نصوص من المقدمة والتعليق عليها ما رأيت من إعراض بعض من ينتسبون للدعوة الإسلامية فى هذا العصر عن دراسة التاريخ وشئون الاجتماع الإنسانى؛ وهذا مما جعلهم ضعيفى القدرة على التحليل والمقارنة ومعرفة الواقع، والذى لا يعرف الماضى لا يعرف الحاضر.

إن قراءة المقدمة مدخل لفهم ما يجرى حولنا، ومعرفة أسباب التقدم والنهوض، والتعود على التفكير السليم، ومعرفة العلل والأسباب.

■

أمريكا فى عالم يتغير

عاطف الغمرى

القاهرة: المجلس المصرى للشئون الخارجية بالتعاون مع مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٩ ، ١٩٢ صفحة

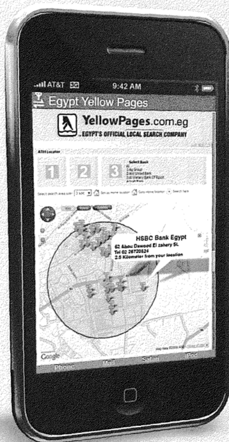


هذا الكتاب يقدم رؤية لأمريكا بعد انتهاء حكم جورج بوش، ويتعرض للتغيير الجارى فى الفكر السياسى للنخبة، والرأى العام، فى الولايات المتحدة، وللتحولات المهمة فى العالم، اللتين تشكلان معًا، ملامح واتجاهات التغيير المتوقع فى سياسة أمريكا الخارجية، ودورها فى العالم فى القرن الحادى والعشرين الذى يخلف ما كان يعرف بالقرن الأمريكى.

ويتناول المعنى الذى رفعه أوباما وهو التغيير شعارًا لعهده، والذى يعبر عن حركة أوسع سبقت أوباما ذاته، وبدأت ملامحها تظهر فى السنوات الثلاث الأخيرة، وظهرت فى دعوة لأكبر خبراء وصناع السياسة الخارجية للاعتراف بأن التغيير يحتاج قفزة خلاقة فى الخيال السياسى الأمريكى، تستوعب الواقع الجديد لعالم يتغير.

■

عايز تعرف أماكن الـ ATM الموجودة حواليك؟



ادخل على YellowPages.com.eg من الكمبيوتر أو الموبايل واستخدم خدمة تحديد مواقع الـ ATM وهتلاقي كل اللي أنت عايزه.



دليلك للأعمال في مصر
YellowPages.com.eg
Print • Online • Mobile

الكتب وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 124 - May 2009

مجلة شهرية . العدد المائة وأربعة وعشرون - السنة الحادية عشرة - مايو ٢٠٠٩ . الثمن عشرة جنيهات

أى شىء .. فى أى وقت ، فى أى مكان !!

الإعلام القادم

■ ما بعد الرأسمالية: هل علينا أن نبحث عن عالم جديد؟ ■ الشارع القاهري: نظام وفوضى .. وصراع سلطة ■ اسبوزيتو يكتب عن أوباما والإسلام ■ توفيق الشاوي: بين القانون والسياسة .. والكتب



السنة الحادية عشرة
العدد ١٢٤
مايو ٢٠٠٩


في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن: الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة



محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- إبراهيم البيومي غانم.. رئيس قسم الرأي العام ـ المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية.
- أمارتيا سن.. أستاذ بجامعة هارفارد وحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد سنة ١٩٩٨
- أيمن الصياد.. صحفي.
- جون اسبوزيتو.. أستاذ الأديان والعلاقات الدولية بجامعة جورج تاون.
- حازم الببلاوي.. الأمين التنفيذي للجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا.
- حسام تمام.. باحث مصري.
- ستيفن لاندسبيرج.. أستاذ الاقتصاد بجامعة روتشستر.
- السيد أمين شلبي.. سفير مصري سابق ـ الرئيس التنفيذي للمجلس المصري للشئون الخارجية.
- عبدالفتاح أبوالفضل.. الرئيس الأسبق لجهاز المخابرات المصري.
- فكري أندراوس.. كاتب مصري مقيم بالولايات المتحدة.
- كريس هيدجز.. صحفي حائز على جائزة بوليتزر.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمي فلسطيني.
- محمد شومان.. أستاذ الإعلام بجامعة عين شمس.
- مصطفى المنشاوي.. صحفي يعمل في هيئة الاذاعة البريطانية.

رسوم العدد للفنان
محمد حجي





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

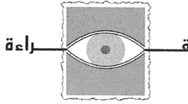
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة



أي شيء.. في أي وقت وفي أي مكان

الإعلام القادم

أيمن الصياد

قد لا يكون عنوان هذا المقال دقيقا مائة في المائة، فالذي نتوقعه أو يصفه بعضنا بأنه «قادم»، ربما يكون قد وصل فعلا. فضلا عن أنه من الحكمة حين ننظر إلى «قادم» حتى وإن كان لا يزال طيفا في الأفق، أن ندرك السرعة التي يتحرك بها. خاصة وقد صرنا في زمن عرف أعشار الثانية، بل ويقيس أحيانا بأصغر من ذلك بكثير. ويكفي لكي نرصد السرعة التي نعني، أن ينظر كل منا وراءه، إلى خبراته الخاصة، ليدرك كم ابتعدت المشاهد والرؤى، كأنما هي صفحات في كتاب قديم.

نحن مثلا من جيل ولد قبل أن يدخل التليفزيون مصر. وأذكر حين بدأ البث في أوائل الستينيات أن التيار الكهربائي لم يكن قد دخل بلدتي الصغيرة بعد، وأن جهاز التليفزيون الوحيد الذي وصل إلى البلدة كان لابد لتشغيله من مولد كهربائي خاص يعمل بالبترول. في هذه الأيام كان الاتصال الهاتفي حتى داخل المدينة ذاتها لا يتم الا عن طريق موظف البدالة.رغم ذلك كان أهل بلدتي محظوظين، لأن البريد كان يصلهم يوميا.(هل تذكرون فيلم «البوسطجي»؟).

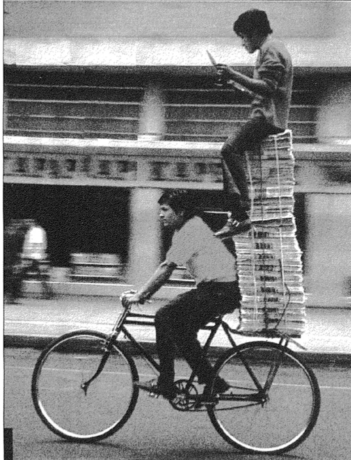
أتذكر هذه الأيام التي تبدو الآن وكأنها تنتمي إلى تاريخ بعيد، حينما أرى البث التليفزيوني المباشر على شاشة الهاتف «النقال» أو حينما أهاتف ابنتي على الجانب الآخر من المتوسط فيصبح بإمكاني أن أرى صورتها في «بث حي» على الشاشة. أو الأكثر من ذلك حينما يكون بإمكاني في أي لحظة من الليل أو النهار أن أحدد «بكبسة زر» مكانها «بالضبط» على خريطة تفصيلية للبلدة التي تقيم فيها على بعد آلاف الأميال. وهل هي «الآن» في فصلها الدراسي أم في غرفتها، أم ذهبت لشراء حاجياتها من المتجر القريب؟

كم هو مدى التسارع إذن في تقنيات الاتصال والتواصل المرتبطة بحياتنا؟

تقول الأرقام إن المذياع احتاج ثمانية وثلاثين عاماً حتى وصل عدد مستخدميه إلى خمسين مليون شخص، أما الفيس بوك FaceBook فقد تجاوز عدد مستخدميه نفس الرقم في غضون عامين فقط.

يؤكد كريس باتن رئيس جامعة أكسفورد، في أطروحة مهمة عن «تحديات المعرفة في عصر جديد» أن نصف ما يتعلمه الطالب الذي يدرس في السنة الأولى من منهج تقني مدته أربعة أعوام سوف يصبح عتيقاً حين يصل إلى السنة الثالثة من ذلك المنهج. ويذكرني رضا خان مؤسس هاكيا ، والمتخصص في الذكاء الاصطناعي ونظم المعلومات. حين التقيته قبل شهرين بحقيقة أنه في المستقبل غير البعيد، سوف يتخرج الطلاب من المدارس الثانوية ربما دون أن يمسوا كتاباً واحداً. رغم أنه منذ عشرين عاماً كان بوسعهم أن يتخرجوا من المدرسة الثانوية دون استخدام الحاسوب الآلي على الإطلاق. مرة أخرى تقول الأرقام أنه قد بات بوسعنا اليوم أن نسجل على القرص الثابت لجهاز كمبيوتر محمول عدداً من الكتب يتجاوز ما تحتويه مكتبة تضم أكثر من ستين ألف عنوان. وأن عدد الصفحات على شبكة الإنترنت تجاوز الخمسمائة مليار، وهو ما يكفي لملء عشر من حاملات الطائرات الحديثة بعدد مماثل من الكتب ذات الخمسمائة صفحة. مشكلة أن نتوه في ذلك الازدحام المعرفي فلا نجد ما نبحث عنه بالضبط هو ما يشغل خان ورفاقه حاليا الذين يحاولون تجاوز إخفاق الحلول «الخوارزمية» لجوجل وأمثاله بأبحاثهم في «التكنولوجيا الدلالية».





أين هو الإعلام.. وأين هي الصحافة «التي عرفنا لعقود» في هذا العالم الجديد؟

أمامي تقريران، والعديد من الأوراق المقدمة لمؤتمرات دولية ذات صلة.

نظرة على الإعلام العربي ٢٠٠٨-٢٠١٢
الإصدار الثاني
نادي دبي للصحافة
PricewaterhouseCoopers.PwC
مايو ٢٠٠٨

Trends in Newsrooms 2008
World Editors Forum,
World Association of Newspapers
Paris, France 2009

الخبر العاجل: للهاتف النقال.. والتغطية المباشرة: للتليفزيون، وكذلك الترفيه.. وستبقى للصحافة التقليدية المطبوعة الدراسات الرصينة والتحليل المتعمق



وفى المشهد الآنى خبران: الأول، قبل ثلاثة أشهر - عن إعلان Christian Science Monitor عن إيقاف طبعتها الورقية.

والثانى - عن وفد أمريكى لمساعدة العراقيين على استخدام «الإعلام الجديد» كما جاء فى عنوان الخبر الذى بثته CNN قبل أسبوع فقط (فى الثانى والعشرين من أبريل). يضم الوفد عشرة من كبار المسؤولين فى كبرى شركات الإعلام الجديد من بينهم جاك دورسى مؤسس ورئيس شركة التدوين الموجز Twitter، فضلا عن مسؤولين فى جوجل و YouTube

التقرير الأول «نظرة على الإعلام العربى ٢٠٠٩ - ٢٠١٢» الصادر عن نادى دبى للصحافة، بالتعاون مع PricewaterhouseCoopers,PwC يرصد التطورات الحادثة فى العالم فى مجال الإعلام الرقمى، محاولا التعرف على التحديات أمام شركات الإعلام التقليدى من صحف وتليفزيونات ومحطات إذاعية، والآفاق الممكنة لفتح أسواق جديدة لمنتجى وموزعى المحتوى عبر آليات جديدة تأخذ فى اعتبارها إيصال هذا المحتوى عبر الأجهزة النقالة المرتبطة بالإنترنت إلى الجيل الجديد من المستهلكين الذين نشأوا مع الشبكة العنكبوتية، والذين يعتبرون الهواتف النقالة جزءاً أساسياً من حياتهم. أخذا فى الاعتبار أن هذا الجيل من المستهلكين ممن تتراوح أعمارهم بين ١٥-٢٥ يكتسب فى منطقتنا خصوصا أهمية متميزة بالنظر إلى التركيب الديموجرافى فى المنطقة.

كان الإصدار الأول من التقرير قد أشار إلى هيمنة القنوات التليفزيونية الفضائية فى عالمنا العربى «الشفاهى»، وإلى استمرار نمو الإعلام المقروء التقليدى رغم الضغوط التى تفرضها على نموه المستويات المرتفعة للأمية الأبجدية. إلا أنه أشار أيضا إلى القيمة الإعلامية للتطور السريع للجيل الثانى من خدمات الإنترنت المعروف باسم (Web 2,0)، بما فى ذلك الشبكات الاجتماعية ومواقع تبادل المحتوى، والتى تغذيها مختلف أشكال المحتوى المنتج من المستخدمين (UGC). وقد أسفرت هذه التطورات عن ظهور مواقع شبكية لتبادل المحتوى الإعلامى أمثال مواقع «فيسبوك» (facebook) و«مايسبيس» (MySpace) و«يوتيوب» (YouTube)، والتى باتت أسماء مألوفة فى كل بيت حول العالم، وتحدت النماذج التجارية الراسخة لتوفير المحتوى الإعلامى، والتى ظلت من دون منافس إلى حد كبير لمدة جيل كامل أو أكثر.

ويركز الإصدار الثانى للتقرير على كيفية قيام التكنولوجيا بما يسميه «تحرير القيمة» بالنسبة للإعلام الحديث والتقليدى على حد سواء. ملاحظا أنه قد أصبح بمقدور المستهلك أن يحصل على المحتوى «الذى يريد» فى «أى وقت» يشاء، وفى «أى مكان» يلائمه. وكيف سينتج هذا الواقع بالضرورة «إعلامه الجديد» الذى لابد له أن يبحث عن قنوات جديدة مبتكرة لتوليد الإيرادات وتخفيض تكاليف إنتاج وتوزيع المحتوى، فضلا عن آليات جديدة لحماية الملكية الفكرية والتعويض بالشكل المناسب على منتجى المحتوى الأصلى. (أمامى خبر عن شركة جديدة تكونت قبل أسبوع فقط لإيجاد آلية توفر للصحف الاستفادة من منصة iTunes)

يلاحظ التقرير كيف يقوم الجيل الحالى من المستهلكين عموما، والمراهقين والشباب بصفة خاصة، بإنتاج وتبادل المحتوى باستمرار، من خلال خدمات التراسل الفورى والمواقع الشبكية الاجتماعية وأجهزة الهاتف المحمول. ويذكرنا بأن صناعة الإعلام العالمية أدركت تلك المتغيرات مبكرا مما أدى عام ٢٠٠٧ إلى إبرام عدد من الصفقات الكبرى بما فيها قيام شركة جوجل (Google) بشراء موقع «يوتيوب» بقيمة ١.٦٥ مليار دولار أمريكى، والتزام شركة مايكروسوفت (Microsoft) بالإعلان فى موقع «فيسبوك» بقيمة ٢٥٠ مليون دولار أمريكى.

ويبدو أن شركات الاتصالات العالمية قد انتبهت بدورها إلى الآفاق الواسعة للجيل الثانى من الإنترنت فبادرت بتوسعة نطاق نماذجها التجارية لتشمل أكثر من مجرد خدمات التراسل الصوتى وبوابات شبكة الإنترنت، وتمتد إلى توزيع خدمات تليفزيونية مصورة عالية الوضوح (HD)، عبر بروتوكول الإنترنت التليفزيونى (IPTV). كما تبنت الشركات الإعلامية بصورة متزايدة «ويب ٢.٠» لإنتاج المحتوى وتوزيعه، كما تحالفت مع شركات الإعلام الجديدة ومنتجى الأجهزة الجدد، للخروج ببرامجها إلى نطاق أبعد من شاشات التليفزيون. ومع استمرار المستهلكين باستقصاء المحتوى (Snack) والمحافظة على حضور شبكى مستمر أكبر من سياق تعددية الوظائف (Multi-Task) بات على فعاليات القطاع التعامل مع قضية كيفية قياس وتحويل قيمة الحجم الهائل من المحتوى الذى يتم إنتاجه إلى عملية تجارية مربحة.

ماذا.. أين.. ومتى؟

«لكل حسب حاجته»

هل تذكرون الشعار الشيوعى القديم؟

نعلم جميعا أنه قد أصبح بإمكان كل منا الآن أن يطبع كل صباح صحيفته «الخاصة جدا» ويعتبر الخبراء أن أكثر ما اقتربت به الصحافة الجديدة من عرش الصحافة التقليدية، هو ابتكار تقنية «التوليف الذاتى» Customization والتى تمكن القارئ من توليف صحيفته اليومية الخاصة (حسب اهتماماته الشخصية) هكذا فعلت Google News وهكذا تبعتها Yahoo. وحتى الصحف التقليدية القديمة وجدت لنفسها أسلوبا مماثلا.

الأمر الثانى كان فى استحداث تقنيات دفع وسحب المحتويات RSS وATOM والتى تسمح بتوزيع المحتوى المنتج أتوماتيكيا على أساس اختيارى. حيث يمكن للمستخدم الاشتراك فى محتويات معينة مختارة من العديد من المواقع ومطالعتها بشكل أسهل من خلال قارئ مركزى واحد.

«ماذا؟»... أصبح بالإمكان إذن أن تصبح ملكا للقارئ وحده.

وليس بعيدا عن ذلك «فالمفهوم يبقى واحدا»، يلاحظ المتابع للتطور الحادث فى تداول المحتوى الإعلامى فى السنتين الأخيرتين، سلسلة من الخدمات الجديدة التى تشكل الحركية والانتقال عبر الزمن وفى المكان (time and place - shifting) العناصر الرئيسية لنموها. من ذلك الخدمات التى تسمح للمستهلكين بنقل الموسيقى عبر الزمان وفى المكان، ومشاهدة الأفلام السينمائية وبرامج التليفزيون. إذ كما نعرف وجربنا جميعا، تتيح لنا خدمات مثل iTunes تسجيل أو تحميل المحتوى على أجهزة الكمبيوتر الشخصية الخاصة بنا لاستهلاكها فى الزمان والمكان المناسبين.(بدأت شركة سونى تعرض مكتبة محتوياتها الضخمة للشراء من خلال منصة sony playstation 3 .

وبشكل عام، يضم «الجيل الشبكى» كما يسميه التقرير مستهلكين شبانا ولدوا بعد عام ١٩٧٧ وترعرعوا بالتزامن مع نمو شبكة الإنترنت وانتشار الهاتف المحمول.والذى لابد للعاملين فى صناعة الإعلام من ملاحظته هو أن أعضاء الجيل الشبكى هؤلاء يتوقعون الحصول على خدمات تتيح لهم التحكم بأوقات وأماكن استهلاكهم للمحتوى. كما



«الإعلام الجديد»
ليس هو «التدوين»
ولا facebook كما قد يفهم البعض.
فالمسألة أكبر من ذلك
وأوسع بكثير



أنهم راغبون فى الوقت ذاته (بل وقادرون أيضا) على إنتاج المحتوى الخاص بهم والذى أصبح بإمكانهم نشره وتوزيعه على أوسع نطاق (لا يحده زمان ولا مكان).

تقول الأرقام الخاصة بسلوك مستهلكى الإعلام اليوم. أنه فى الوقت الذى تقضى فيه الأسرة الأمريكية ٢٠ ساعة أسبوعيا فى مشاهدة التليفزيون، يستطيع أفراد الجيل الشبكى استهلاك ٢٠ ساعة من المحتوى الإعلامى كل يوم، يتم استهلاكه بالتوازى خلال فترة ٧ ساعات. (يتم تحميل فيلم سينمائى مثلا فى الوقت ذاته الذى تستمع فيه إلى أغانيك المفضلة على iTunes وتطالع فيه أيضا التقارير الإخبارية التى تهمك على Google News).



بحلول عام ٢٠٠٧، بات المستهلكون يستطيعون اصطحاب المحتوى إلى أى مكان ومشاهدته فى الأوقات التى تناسبهم، بفضل توافر تشكيلة كبيرة من الأجهزة المحمولة. إلا أن إمكانيات هذه الطريقة الاستهلاكية الجديدة - كما يشير التقرير - لم تُستغل بعد من قبل الإعلام التقليدى، وهى تمثل بالتالى فرصة هائلة لفعاليات هذا القطاع، عبر مواجهة تحديات تصميم المحتوى بحيث تلائم بيئة المشاهدة المتحركة.

بالتأكيد لايمكن إغفال الدور الذى يؤثر به مدى تطور البنى التحتية فى هذا المجال. (تذكرنا بذلك تقارير الأمم المتحدة بشأن «الفجوة الرقمية») وبالتالى يمكننا فهم التأخر الحادث نسبيا فى وصول «موجة الإعلام القادم» إلى بعض شواطئنا العربية. ورغم ذلك لابد لنا نحن أصحاب الشعر الأبيض الذين تعاملوا يوما مع مطابع الأحرف الرصاصية ألا نتجاهل حقيقة ظهور جيل من المستهلكين تربى على استخدام الشبكة لمشاهدة محتوياته المفضلة.

والحاصل أن هؤلاء المستهلكين، تدفعهم اعتبارات نمط حياتهم الجديد، يقومون بإعادة تعبئة المحتوى الذى يستقونه من القنوات التقليدية، وتحويله إلى محتوى رقمى مناسب لأنماط حياتهم، لكى يشاهدوه فى «أى وقت وأى مكان» يناسبهم. بل لابد من ملاحظة أن الأمر لم يعد حتى يحتاج إلى جهاز كمبيوتر على مكتب، أو حتى كمبيوتر محمول Laptop، بعد أن بدأت Apple الثورة الحقيقية فى مجال الإعلام الإلكترونى (الذى يصاحبك حيثما كنت) بجهازها العبقرى iPodTouch ثم الـ iPhone.

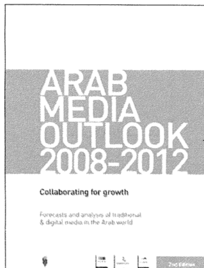
وكان ترقيم المحتويات على نطاق واسع قد أحدث ثورة فى كيفية حصول المستهلكين على مايرغبونه. ومع اكتشاف تقنية MP3 أصبحت أسماء مثل Windows Media Player وiTunes وReal Player واسعة الانتشار. كما انتشرت معها أجهزة MP3 Player والتى سرعان ماانتقلت عدواها إلى أجهزة الهاتف المحمول المزودة بالتقنية ذاتها.

ثم انتشرت برامج تبادل الملفات مثل Bit Torrent بين الأصدقاء أو حتى بين من لايعرفون بعضهم إلا من خلال «مجتمعات افتراضية» تلغى هى أيضا اعتبارات المكان. ورغم تحريك عدد من الدعاوى القضائية الشهيرة بحق مزودى خدمات الإنترنت والأفراد من قبل جمعية قطاع التسجيل الأمريكية وجمعية الأفلام السينمائية، إلا أن الشركات الكبرى تدرك أنه حتى القوانين «التقليدية» لايمكن لها أن تعيش فى عالم جديد، فاختارت أن تنحنى للعاصفة، وبدلا من إضاعة الوقت والجهد فى البحث المرهق عن «فأر مراوغ» لا يمكن اصطياده، قررت أن تركز جهودها «الحقيقية» فى العمل على تلبية هذه الرغبة الجارفة للتحكم بمحتوى الإنترنت، حيث عملت على دمج برمجيات تحميل المحتوى وتبادله فى برامجها الأصلية مثلما فعلت مايكروسوفت.

لم تكن استجابة شركة البرمجيات العملاقة فريدة فى هذا المجال، فكثير من الشركات (تمسكا بالبقاء فى عالم متغير) غيرت من سلوكها الذى دام لعقود. وذلك بالبحث عن طرق جديدة لتوزيع إنتاجها على أن تكون مماثلة للطرق ذاتها التى يستخدمها المستهلك الشبكى. وذلك لمنافسة البرامج التبادلية أو المجانية.

وكان طبيعيا أن تخرج من السوق سريعا كل من تشبث بأساليبه القديمة لتوزيع المحتوى أيا ماكانت طبيعة ماليده. موسيقى أو أفلاما سينمائية. أو حتى أخبارا أو تقارير إخبارية.

تشير الوقائع والتى يعدد بعضها كلا التقريرين (الصادرين عن الاتحاد الدولى للصحف ونادى دبى للصحافة) إلى استجابات متنوعة لصحف ووسائل إعلام تقليدية للتعامل مع معطيات واقع جديد. فيعرض التقرير الأول لمفهوم غرفة الأخبار الجديدة The integrated newsroom' شارحا كيف طبقت التليجراف البريطانية المفهوم الجديد. ويعرض التقرير الثانى لتجربة الايكونوميست فى التعامل مع الوسائط المتعددة.



ويشير إلى كيف تحولت محطات الإذاعة بدورها إلى نقل محتوياتها عبر الزمان وفى المكان من خلال توفيرها شبكيًا واستغلال تقنيات النشر المتزامن فى أكثر من مكان RSS: Real - Simple Syndication لإشعار المستمعين بوجود محتويات جاهزة للتحميل. وكيف مضت صحيفة الفاينانشال تايمز خطوة أبعد من ذلك، من خلال حضور شبكى فائق التطور يتيح للمستخدمين المتميزين حرية الحصول على مجموعة متنوعة من المحتوى الإعلامى الاقتصادى عالى القيمة، من خلال (mobile Clients).

يشار فى ذلك إلى تجربة هيئة الإذاعة البريطانية فى تقديم خدمة BBC iPlayer المتقدمة والتى تتيح للمشاهدين فى بريطانيا، تصفح محتويات إخبارية وترفيهية عالية الجودة مجانًا. كما يأتى فى هذا الإطار الشراكة بين شبكتى التليفزيون المتنافستين NBC Universal و Fox فى إنشاء Hulu.com



قطاع النشر أيضا لم يكن بعيدا عن كل مايجرى. فأمازون الشهيرة لم تكتف بأنها الرائدة فى تسويق الكتب على الإنترنت، بعد أن شعرت أن فى التطورات الجديدة ماقد يهدد عرشها، فطرحت قارئ الكتب الالكترونى Kindle (فعلت سونى الأمر ذاته بجهازها e-Book) وتلك الأجهزة تسمح بتحميل الكتب لاسلكيًا فور صدورها، بغض النظر عن موقع ناشرها فى هذا العالم الواسع، ومن ثم نقلها إلى شاشة عرض تسمح بالقراءة، لا يزيد حجمها على حجم كتاب جيب صغير. وفى عام ٢٠٠٨، طرحت شركة «بلاستيك لوجيك» (Plastic Logic) البريطانية الناشئة، شاشة كبيرة ورقيقة وخفيفة مع ميزة الحبر الإلكترونى (e- ink)، لتخزين وقراءة المستندات، تستطيع إعادة توزيع المستندات الورقية كما تتيح للمستخدمين وضع إشارات على الصفحات التى وصلوا إليها كما يحدث لدى مطالعتهم الكتب الحقيقية.

ويتوقع المتابعون للجديد فى مجال

أيًا ما كان الأمر، ستبقى الصحافة، وسيبقى الصحفيون. ولكنها ستصبح غير تلك التى ألفناها لعقود



الاتصالات أن يتم تفعيل خدمات «فى أى زمان، وأى مكان» عبر الأقمار الاصطناعية أيضا، وخاصة فى المناطق التى لا تزال فيها البنى التحتية للاتصالات غير متطورة، لأسباب اقتصادية وجيو - سياسية. ومع تنامى الطلب على الخدمات المتحركة، تقوم شركات مثل Globalstar و O 3 B Networks المدعومة من قبل شركة جوجل، بتحديث التقنيات التى تستخدمها وبناء شبكات جديدة مرتبطة بالأقمار الاصطناعية، لتوفير الخدمات التى تحتاجها هذه الأسواق.

المواطن الصحفى

ظهيرة السابع من يوليو ٢٠٠٥ (بتوقيت الدوحة) كنت أجلس مع الصديق وضاح خنفر مدير عام قناة الجزيرة نتحدث فى الموضوع الذى كان جديدا وقتها «الإعلام الجديد» وكيفية تلبية حاجاته. يومها دخل علينا من يخبرنا بأمر التفجيرات التى استهدفت ثلاثة من قطارات مترو الأنفاق فى العاصمة البريطانية لندن. وحين طلب منى أن أدخل فورا إلى الاستديو للتعليق المباشر على الحدث، كان أول مالفت انتباهى أن كل الصور التى جاءتنا للحدث التقطها مواطنون عاديون تصادف وجودهم فى مكانه. وعندما عدت إلى القاهرة التى كانت فى ذروة حراكها السياسى. (أو هكذا أمل الكثيرون) كان الهاتف النقال هو الوسيلة الأولى فى تصوير التظاهرات والتحرشات الأمنية، وكانت المدونات هى الوسيلة الأسرع والأكثر انتشارا (وحرية) فى نشر وقائع مايجرى «فى التو واللحظة». وكان المدونون المصريون هم بحق «صحفيو المرحلة». بعدها كان لافتا أن نجد الصحف المطبوعة والبرامج الإخبارية التليفزيونية تتابع أخبارا كان للمدونين وحدهم فضل الإعلان عنها أو بالتعبير المهنى «الإخبار» بها.... ثم جرت فى النهر مياه كثيرة.

أيا ماكان الأمر فإن إشكالية «المواطن الصحفى» احتلت مكانها المناسب فى تقرير Trends in Newsrooms الصادر عن «الاتحاد الدولى للصحف» وفيه ناقش محررو كبريات الصحف الآليات المختلفة للتعامل «بمهنية» مع ما أصبح يسمى citizen journalism على نطاق واسع وذلك من زوايا المصداقية والمهنية والتقاليد الصحفية المتعارف عليها ... وفى ذلك حديث يطول. التقرير أيضا مثله مثل التقرير الصادر فى دبى عرض لتجارب مهمة مثل تجربة NewAssignment.net, والاتفاق الذى جرى بين وكالة الأنباء العالمية Reuters مع شبكة التدوين العالمية Global Voices وكذلك تجربة iReport.com من CNN.

وبغض النظر عن الجوانب المختلفة لإشكالية المواطن الصحفى والتى تستوجب بالضرورة عناية مهنية خاصة، فإن الثابت أن نمو تطبيقات الجيل الثانى من الإنترنت مع بروز ثقافة استقصاء المحتويات والتنوع المتزايد للأجهزة المحمولة منخفضة التكاليف. سوف يعمل على تمكين الشريحة الكبرى من المستهلكين من التفاعل بطريقة تجعل من مستهلك المحتوى منتجًا له فى الوقت نفسه. هل جربتم Wikipedia؟ فى المستقبل، سوف يتسع نطاق هذا التفاعل إلى ما وراء حدود الإنترنت السلكية وإلى مجال الأجهزة المحمولة، نظرًا لاستمرار تواصل المستخدمين مع بعضهم البعض فى سياق حياتهم اليومية. فعلى سبيل المثال تسمح صفحة Yahoo للمستخدمين بدمج الأخبار الواردة من محفظة الأسهم الخاصة بهم لدى شركة Bloomberg ومن ثم إعادة تخزينها فى برنامجهم المالى الشخصى بوساطة جهاز Quicken ومن الأمثلة الأخرى فى هذا المجال، الخدمات الخاصة بتحديد المواقع والتى تقوم على بيانات جرى إدخالها من جانب المستخدمين أنفسهم. ومن ثم يمكن لمن يرغب أن يعثر فورا على أقرب مطعم يقدم البيتسا مثلا، بل ويحدد مكانه والطريق إليه على خريطة تفصيلية تظهر له على هاتفه المحمول. بل ويمكن له أن يتابع فوريا «أخبار» الجالية العربية فى روما التى ينتمى إليها؛ من تزوج.. ومن توفاه الله.. ومن اعتقل صباح اليوم بشبهة انضمامه إلى جماعات إرهابية.

الثابت على أية حال، تتفق على ذلك مشاهداتنا اليومية مع كل التقارير والأوراق البحثية التى أمامى أننا شهدنا خلال الأعوام القليلة الماضية - وربما للمرة الأولى فى تاريخ الإعلام الحديث - تحول مستهلكى المحتوى إلى منتجيه، بالتزامن مع تزايد سهولة تحميل ومشاركة المحتوى على أساس التدفق المتعدد الاتجاهات (many-to-many) للمحتوى الإعلامى، وذلك بفضل الشبكات الاجتماعية والتبادلات الإعلامية. وأدى الانتشار الكثيف لهذا المحتوى تدريجيا إلى تحويل نسبة متزايدة من المشاهدين، بعيدًا عن قنوات المحتوى التقليدية. اسألوا أبناءكم كم من الوقت يقضونه مع facebook أو YouTube.

والثابت أيضا - والذى يشير إليه التقريران - أن إبداع المحتوى لم يكن أسهل مما هو عليه الآن. فقد أحدث الانتشار الكبير للكاميرات الرقمية وكاميرات الفيديو عالية الوضوح وإمكانيات الاتصال المستمر بالانترنت، سلكيا ولاسلكيا، ثورة فى المحتوى الرقمى الذى يوفره المستهلكون، أو بالأحرى الذين كانوا حتى سنوات قريبة مضت «مستهلكين/ متلقين» وفقط..

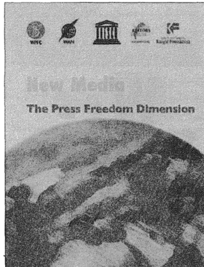
وإضافة إلى ما توفره أجهزة الهاتف المحمولة، يمتلك المستهلكون تشكيلة كبيرة من الأجهزة التى تتيح إبداع محتويات سمعية - بصرية للنشر عبر الشبكة.. ويقوم عدد من كبار منتجى الأجهزة المحمولة يدويا أمثال سونى إريكسون ونوكيا، بتثبيت البرمجيات داخل أجهزتهم بهدف تسهيل أنشطة التدوين التى يقوم بها مستخدم أجهزة الهاتف المحمول، دون الحاجة إلى جهاز الكمبيوتر الشخصى.



نحن اذن أمام إعلام جديد - ربما بالتعريف أيضا. فرغم أن مايقدمه من محتوى، يتاح فوريا بحكم التقنيات الجديدة لكل قاطنى المعمورة، إلا أنه بعكس الإعلام التقليدى - تعريفا - يستهدف «أفراد الجمهور» مدركا خصوصية كل منهم وفرديته، وهو فى هذا يختلف بالضرورة عن ذلك الإعلام الجماهيرى Mass Communication الذى عرفناه تقليديا لعقود طويلة.

الإعلانات

يعلم كل العارفين بصناعة الإعلام، أن إيراد الإعلانات يمثل الدخل الرئيس الذى يضمن لوسيلة إعلامية ما الاستمرار، فى عالم تحول فيه كل نشاط إلى صناعة، تحكمها بحكم التعريف قوانين السوق. والحاصل أن التقنيات الجديدة للإعلام بما توفره من آليات دقيقة لتتبع المتلقين/ المستهلكين، غيرت جذريا من الاستراتيجيات الإعلانية التى استمرت راسخة لعقود. إذ تبين لأخصائيى



الإعلانات، الذين هم فى النهاية الداعم الرئيس لوسائل الإعلام على اختلاف طبيعتها؛ مطبوعة أو مسموعة أو مرئية، قيمة ماتوفره الشبكات الاجتماعية على الإنترنت من بيانات نفسية وسلوكية يمكن استخدامها فى تحسين دقة الاستهداف الإعلانى. وهو الأمر الذى بات الأهم عند أى معلن أخذا فى الاعتبار التشوش والازدحام والتزايد المطرد للوسائل الإعلانية المتاحة أمامه. وبعد أن باتت مواقع الشبكات الاجتماعية أكثر تكاملاً بصورة متزايدة، بفضل برامج مثل Twitter التى تقوم بتحديث مكانة المستخدم عبر العديد من المواقع والمنصات فى الوقت نفسه، تشير الأرقام الواردة فى الدراسة العالمية للآفاق الترفيهية والإعلامية ٢٠٠٨ - ٢٠١٢ الصادرة عن شركة PricewaterhouseCoopers إلى نمو الإنفاق الإعلانى العالمى عبر الإنترنت عام ٢٠٠٧ بنسبة ٣٣.٢٪ ليسجل بذلك رابع سنة متوالية من النمو بمعدلات تفوق ٣٠٪، لتشكل أكثر من ١٠٪ من إجمالى الإنفاق الإعلانى العالمى. وربما كان أحدث توجه تكنولوجى هو أهم تلك التوجهات، ويتمثل فى استخدام بيانات عنونة الصفحات الإلكترونية وتطوير محركات التوصيات لتسهيل تبادل ومشاركة المحتوى المنتج من المستخدمين وتسليم الإعلانات. إذ تقوم مواقع شبكية ناجحة مثل «ميتاكريتيك» metacritic.com بسحب البيانات المعنونة من تشكيلة متنوعة من المواقع الشبكية، بهدف تجميع إحصائيات حول المحتويات المصنفة. وكما يشير المتخصصون فى تقرير نادى دبى الذى يولى أهمية كبيرة لسوق الإعلان الإعلامى: توفر العنونة لمحركات الفهرسة والتوصيات، القدرة على تكوين قوائم شخصية للمحتويات الترفيهية أو المنتجات الخاصة بشخصية معينة. كما تستطيع تلك المحركات تنظيم المحتوى لتوفير البيانات النفسية والسلوكية، بهدف استخدامها فى الإعلانات التى تستهدف شرائح معينة من المستهلكين.

ومع طرح تطبيقات موقع «فيسبوك» تحولت الشبكات الاجتماعية من مجرد كونها وسيلة ممتعة للتواصل مع الأهل والأصدقاء، إلى قاعدة بيانات نفسية وسلوكية هائلة. وهكذا يتم إنتاج تطبيقات إفرادية لقياس سلوك المستهلكين فى مجموعة اجتماعية معينة، ليتم بعد ذلك استخدام النتائج فى توجيه الإعلانات نحو الشرائح المستهدفة بشكل أكثر دقة. ويتم بعد ذلك جمع البيانات النفسية والسلوكية مع تاريخ تصفح المستخدم للمواقع الشبكية وتطور ذلك الاستخدام، للحصول على فكرة متعمقة عن سلوك المستهلك.

وتساهم البيانات النفسية والسلوكية فى تحسين توجيه الإعلانات نحو الشرائح المستهدفة، من خلال تحديد البيانات السلوكية فى إطار مجموعة اجتماعية معينة أو عبر تشكيلة متكاملة من الشبكات الاجتماعية. ويتم تحديد مسارات التصفح الشبكى خلال تنقل المستهلكين بين مختلف المواقع الشبكية، ويتم تفعيل ملفات «كوكيز» التى تحتوى على البيانات الشخصية للمتصفح بهدف الاطلاع على بيانات آخر تصفح شبكى قام به. ثم يتم بعد ذلك استخدام أساليب متطورة لرصد سلوك المستهلكين، بهدف توقع الإعلانات الأنسب أو حتى المواقع الشبكية الأكثر ملاءمة لكل مستهلك خلال تصفحه الشبكى. (لعل أصحاب الحسابات البريدية على جوجل، أو المشترين للكتب من أمازون قد لاحظوا ذلك).



ويعتبر المحتوى المنتج من المستخدمين - كما يشير التقرير - من أهم الوسائل التى تتيح للمعلنين الحصول على البيانات وتحويل تلك الأسواق التخصصية إلى عائدات إعلانية. ومع اشتداد المعركة من أجل استقطاب الاهتمام المحدود، بات التوظيف الذكى للإعلانات محورياً فى سياق الاستفادة من التأثيرات الشبكية للشبكات الاجتماعية. وسيكون المحتوى المنتج من المستخدمين مفتاح تطوير تفاعل أكثر تأثيراً مع المستهلكين وتوفير نتائج أفضل لمشترى الإعلانات. ولا تقوم الشركات بتحسين «خوارزميات» استهدافها الإعلانى بشكل أكثر جرأة على الصعيد الأفقى مثل إعلانات الشامبو فحسب، ولكنها تعظم النتائج على مستوى عمودى محدد مثل إعلانات الصحة والرشاقة الخاصة بالنساء.

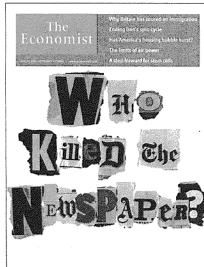
الخلاصة إذن والتى يركز عليها تقرير نادى دبى أن المعلنين ومنتجى المحتوى يعملون بشكل متزايد مع شبكات الإعلان عبر الإنترنت، بغرض استهداف المستهلكين وتجميع بيانات عنهم. وقد شهدت تكنولوجيا الاستهداف الإعلانى تحسناً مستمراً، بلغ درجة دفعت إلى تخصيص نسبة متزايدة بسرعة من الإنفاق الإعلانى وتوجيهها لشراء مخزونات بحث وعرض عبر الشبكة. ويوضح النزاع الأخير بين اتحاد الكتاب واستديوهات التليفزيون والسينما فى الولايات المتحدة الأمريكية، مدى ضخامة النسبة المتزايدة من الإيرادات التى يتم تحقيقها عبر قنوات التوزيع الرقمية والتهافت على تلك الإيرادات.

وبعـــــــد ..

فى حين تؤكد التقارير والأبحاث الغربية على تسارع خطى الإعلام الجديد، وعلى أن الإعلام التقليدى يواجه «تهديدا حقيقيا» يبدو التقرير الصادر فى دبى، أكثر حذرا فى تلك المسألة مشيرا إلى أن «المحتويات التى أنتجها محترفون لا تزال متميزة بشكل واضح عن تلك التى ينتجها الهواة. ومثلما نستطيع تمييز أداء الممثلين المحترفين عن أداء الممثلين الهواة، بفضل الكتاب الجيدون الأمان الذى يوفره العمل لمصلحة دار نشر كبرى. كما يتميز إنتاج المحتويات الصورية عالية الوضوح بالصعوبة البالغة لتصويرها، ويحتاج إلى وقت طويل فى المراحل التحضيرية ما بعد الإنتاج. ولا تزال الحاجة إلى ذلك الجيش من المصورين وفنيى الإضاءة وخبراء الماكياج الذين يعملون فى قطاع الإعلام التقليدى، قائمة لتوفير القيم الإنتاجية العالية مثل الجودة المهنية المستمرة للصوت والصورة، التى طالما تمتع بها المستهلكون.

ويمتلك الإعلام التقليدى الاستقرار المالى والتشغيلى الضروريين لاستخدام التقنيات والموارد العريقة وضمان الجودة الدائمة باستمرار. وربما كان ذلك يشكل أكبر مصدر قوة لجميع أجهزة الإعلام المحترفة».

ويشير التقرير إلى أنه «رغم انتشار التدوين، فستبقى هناك حاجة إلى معلومات ذات مصداقية من مصادر موثوقة وقادرة على التفوق. وهو الأمر الذى يتوافر للمؤسسات الإخبارية التى تمتلك موارد كبيرة للتدقيق فى الوقائع، وهى موارد لا يمتلكها المدونون. إضافة إلى ذلك، لا يلتزم المدونون



مؤسسات إعلامية كبرى وعريقة استوعبت وتكيفت مع تقنيات جديدة وقوانين جديدة لإعلام جديد



بنفس المعايير المهنية التي يلتزم بها الصحفيون، ولا يتعرضون إلى مخالفات عقابًا على حمايتهم لمصادرهم الإخبارية أو لوقوعهم في أخطاء في سياق نقل الأخبار.

والواقع أن ذلك كله قد يكون صحيحا، ولكن يبقى صحيحا أيضا أن «الإعلام الجديد» ليس هو «التدوين» ولا facebook كما قد يفهم البعض (يبدو أن بعض منابر الاعلام العربية التقليدية اعتقدت ذلك)، فالمسألة أكبر من ذلك وأوسع بكثير. كما أنه يبقى صحيحا وضروريا أيضا أن لاننظر إلى الأمر من منظور يفترض بالضرورة وجود استقطابين/ بديلين تجرى المقارنة بينهما. ففي الحياة الواقعية كما في تاريخ التطور كله، واسألوا «داروين» تكون التأثيرات المتبادلة حتمية. ويبقى من «القديم» من ينجح في استيعاب «الجديد» حقائقَ حياة وآفاق مستقبل.

....

....

في الواقع.. تبقى حقيقة أن موقعي YouTube و MySpace نجحا في جذب أسماء كبيرة في الإعلام التقليدي مثل CNN والجزيرة للتعامل معها، جنبا إلى جانب المستخدمين العاديين.

وفي الواقع.. تبقى حقيقة أن الاستخدام الواعي للانترنت من جانب باراك أوباما/ وجه أمريكا الجديد كان أحد عوامل نجاحه. وأن عضو مجلس النواب الأمريكي جون كولبرسون، أثار جدلاً كبيرًا بسبب استعماله خدمات شبكة Twitter، بهدف نشر رسائل قصيرة وتعليقات واستعمال برامج شركة «كويك» لبث ملفات فيديو حية من قاعة البرلمان.

وفي الواقع.. أن وزارة الخارجية الأمريكية - حسب مانشرته الواشنطن بوست قبل حوالي العام - خصصت فريقا دبلوماسيا لمتابعة المدونات العربية «ذات النفوذ» والتعليق على ماتنشره.

وفي الواقع أن مشهد إعدام الرئيس العراقي صدام حسين لم يعرض «كاملا» إلا على الـ YouTube وأن تصوير المشهد ذاته (والملاحظة تبقى ذات صلة) جرى بواسطة «هاتف محمول».

وبالأرقام أن عدد مستخدمي facebook يتجاوز الخمسين مليونا، وأن عدد الذين شاهدوا خلال ساعة واحدة على YouTube الصحفي العراقي منتظر الزيدي يلقي بحذائه في وجه جورج بوش بلغ ٣٦٠ ألفا. وأن عدد الذين شاهدوا اللقاء الأخير بين الشيخ محمد متولي الشعراوي والرئيس مبارك - على الموقع ذاته - اقترب من نصف المليون.

ثم يبقى بعد كل ذلك، وربما قبله، أن مؤسسات إعلامية كبرى مثل AP وCNN وBBC وNBC وTime Magazine والجارديان البريطانية العريقة قد استوعبت وتكيفت مع تقنيات جديدة وقوانين جديدة لإعلام جديد يقوم على ثلاثية لا مناص منها أي شيء .. في أي وقت .. وفي أي مكان.

وفي تفصيل هذا حديث يطول.



Who Killed the Newspaper?

العبارة «الصادمة» كانت موضوعا لغلاف مجلة الإيكونوميست التي نشرت تقريرا «اقتصاديا» قبل سنوات ثلاث رصدت فيه بالأرقام انخفاضا مطردا في توزيع الصحف «الورقية» الصادرة في أوروبا الغربية والأمريكتين وإستراليا، ورغم حقيقة أن تقارير «إحصائية» عديدة صدرت في الأعوام الأخيرة تؤكد أرقام الإيكونوميست، وتذهب إلى ماذهب إليه محرروها، إلا أن ماغاب ربما عن «الإحصائيين» وأرقامهم، هو عن أي صحافة يتحدثون. مرة أخرى عودوا إلى قوانين التطور الباقية منذ الأزل، واسألوا «داروين» الذي لم يقل أبدا إن كل الكائنات مصيرها الانقراض «فقط تلك التي لم تتكيف مع حقائق جديدة لواقع جديد». ثم أرجوكم ارجعوا إلى التقرير السنوي الصادر عن المنظمة الدولية للصحف والذي يرصد «سنويا» الاتجاهات المستقبلية لتحرير الصحف. وهو يشير مثلا بوضوح إلى أنه رغم التراجع في توزيع الصحف «الورقية» السيارة، فإن الأمر يختلف كليا مع المطبوعات التحليلية المتعمقة مثل الدوريات الأكاديمية، أو تلك التي تقترب منها مثل الأمريكية الرصينة:

The New York Review of Books

ولعلكم تسمحون لي - بالقياس - أن أضيف تلك المطبوعة التي بين أيديكم: «وجهات نظر». ■

تجربة Reuters

Changing Trends

- The internet has changed the nature of news gathering
- Publishers no longer decide what people see and when they see it
- You can read, publish, comment and pass on from your laptop

Consumer to Business

- After 150 years of B2B, we went B2C and now embrace C2B!
- Professional and "amateur" content combined
- We cannot restrain technology. We must constantly adapt.

B2B: business-to-business, denoting trade conducted via the Internet-between businesses.

B2C: business-to-consumer, denoting trade conducted via the Internet between businesses and consumers.

C2B: Consumer-to-business is an electronic commerce business model in which consumers (individuals) offer products and services to companies and the companies pay them. This business model is a complete reversal of traditional business model where companies offer goods and services to consumers.

المصدر:

NEWS ONLINE
Monique Villa
Reuters
Feb. 2007

هل علينا أن نبحث عن «عالم جديد»..

أمارتيا سن
Amartya Sen

[١]

■■ كان عام ٢٠٠٨ عاماً حافلاً بالأزمات، أولاً كانت هناك أزمة الغذاء التى هددت الفقراء من المستهلكين وخاصة فى أفريقيا. تزامن ذلك مع الزيادة القياسية فى أسعار النفط التى هددت جميع البلدان المستوردة للنفط. وأخيراً، وتحديداً فى الخريف، جاءت أزمة الكساد الاقتصادى العالمى التى تتسارع الآن بصورة مرعبة. من المحتمل أن ٢٠٠٩ سيزيد أزمة الكساد العالمى حدة، كما يتوقع الكثير من الاقتصاديين حالة من الكساد الشامل فى قوة وضخامة ما واجه العالم فى الثلاثينيات من القرن العشرين. وفى الوقت الذى عانت فيه الثروات الضخمة حالات تدهور حادة، فإن أكثر المتأثرين بها من كانوا يعانون حالة اقتصادية مزرية بالفعل.

بترتيب مع:
New York Review of Books

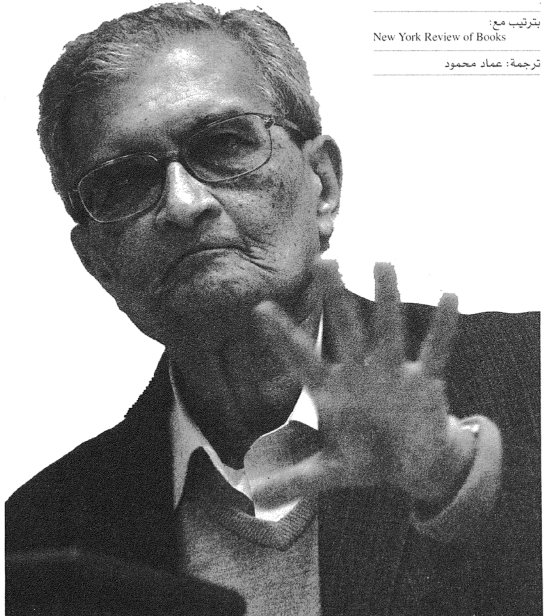
ترجمة: عماد محمود

السؤال الذى يطرح نفسه بقوة الآن يدور حول طبيعة الرأسمالية وما إذا كانت بحاجة إلى التغيير. يقاوم بعض المدافعين عن الرأسمالية غير المقيدة التغيير لاقتناعهم بأن الرأسمالية تتعرض كثيراً للوم بسبب مشكلات اقتصادية قصيرة الأمد. مشكلات تُعزى إما إلى سوء الحكم (على سبيل المثال سوء الحكم بإدارة بوش) أو السلوك السيئ لبعض الأفراد (أو كما وصفه جون ماكين أثناء حملته الانتخابية الرئاسية بـ «جشع وول ستريت»). لكن البعض الآخر يرون عيوباً حقيقية فى الأنظمة الاقتصادية الحالية ويريدون إصلاحها، ويسعون وراء منظور بديل يطلق عليه «الرأسمالية الجديدة».

لعبت فكرة الرأسمالية القديمة والجديدة دوراً شيقاً فى ندوة «عالم جديد، رأسمالية جديدة» التى عقدت فى باريس يناير الماضى باستضافة الرئيس الفرنسى نيكولاس ساركوزى ورئيس الوزراء البريطانى السابق تونى بلير، وألقى الأخيران خطباً بليغة عن الحاجة للتغيير. كما تحدثت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل عن الفكرة الألمانية القديمة «السوق الاجتماعية» - الفكرة التى قيدها مزيج من سياسات الحصول على إجماع الأصوات. كنسخة محتملة للرأسمالية الجديدة (رغم أن ألمانيا لم تبلى بلاء حسناً بشكل أفضل فى الأزمة الأخيرة من اقتصاديات السوق الأخرى).

من الجلى أننا بحاجة إلى أفكار حول تغيير تنظيم المجتمع على المدى البعيد، وذلك بغض النظر عن استراتيجيات التعامل مع الأزمة الراهنة. ما أود أن أقوم به، هو فصل وإبراز ثلاثة أسئلة من بين الأسئلة الكثيرة التى يمكن أن تثار. أولاً، هل نحن حقاً بحاجة إلى نوع من «الرأسمالية الجديدة» بدلاً من نظام اقتصادى غير موحد مبنى على مجموعة من المؤسسات المنتقاة بشكل عملى، ومستند إلى القيم الاجتماعية التى يمكننا الدفاع عنها بشكل أخلاقى؟ وهل علينا أن نبحث عن رأسمالية جديدة أو «عالم جديد» - بحسب التعبير الآخر المذكور فى اجتماع باريس - يأخذ شكلاً مختلفاً؟

يتعلق السؤال الثانى بنوع الاقتصاد الذى نحتاج له اليوم، خاصة فى ضوء الأزمة الاقتصادية الحالية. كيف يمكننا تقييم ما تعلمناه من أساتذة الاقتصاد والأكاديميين كمرشد للسياسة



ما بعد الأزمة
الرأسمالية

الاقتصادية بما فى ذلك إحياء سياسة كينز خلال الشهور الأخيرة بعدما بدأت الأزمة فى النمو بعنف. ولكن أكثر تحديداً، بماذا تخبرنا الأزمة الاقتصادية الحالية عن المؤسسات والأولويات التى يجب أن نبحث عنها. ثالثاً، بالإضافة إلى المضى فى طريقنا لنصل إلى أفضل تقييم للتغييرات التى نحتاج إليها على المدى الطويل، علينا أن نفكر بل ونفكر بسرعة حول كيفية الخروج من الأزمة الحالية بأقل الخسائر المحتملة.

[٢]

ما هى السمات والخصائص التى تجعل من أى نظام رأسمالياً بشكل يقينى سواء قديماً أو حديثاً؟ إذا ما كان النظام الاقتصادى الرأسمالى الحالى سيصلح، ما الذى يجعل النتيجة النهائية هى الرأسمالية الجديدة، بدلاً من أى نظام آخر؟ يبدو أن هناك فرضية عامة تؤكد أنه من الضرورى الاعتماد على الأسواق للصفقات الاقتصادية كشرط أساسى لاقتصاد يطلق عليه رأسمالى. على نحو مماثل، يعتبر حافز الربح ومكافآت الفرد بناء على الملكية الخاصة ترى كمميزات نموذجية أصيلة للرأسمالية. على أية حال، إذا كانت هذه هى المتطلبات الضرورية، هل تعتبر الأنظمة الاقتصادية الحالية، على سبيل المثال، المطبقة فى أوروبا وأمريكا، حقاً رأسمالية؟

كل البلدان الغنية فى العالم تلك التى فى أوروبا، والولايات المتحدة، وكندا، واليابان، وسنغافورة، وكوريا الجنوبية، واستراليا، وآخرون اعتمدوا جزئياً لفترات طويلة على الصفقات الاقتصادية والمكافآت الأخرى التى تحدث بشكل كبير خارج الأسواق. ويشمل هذا معونات البطالة، ورواتب التقاعد، ومميزات أخرى من الضمان الاجتماعى، وبند التعليم، والرعاية الصحية، مجموعة منوعة من الخدمات الأخرى توزع من خلال ترتيبات بعيدة عن السوق. لا تعتمد هذه الخدمات المرتبطة بالتأهيلات الاقتصادية على الملكية الخاصة وحقوق الملكية.

كما لم يعتمد اقتصاد السوق ليظل قائماً على تحقيق أقصى ربح ممكن ولكنه اعتمد أيضاً على العديد من النشاطات الأخرى، مثل الحفاظ على الأمن العام وتقديم خدمات جماهيرية بعضها أعان الناس بالفعل بغض النظر عن كونها صادرة عن اقتصاد يحركه عامل الربح. إن الأداء الموثوق به لما يعرف بالنظام الرأسمالى، عندما تحسنت الأمور، اعتمد على مجموعة من المؤسسات التى تمول علناً التعليم، والرعاية الصحية، ومشاريع النقل الجماعى وذلك على سبيل المثال لا الحصر، والتى ابتعدت تماماً عن اقتصاد سوق قائم على أقصى ربح ممكن وعلى التأهيل الشخصى المنحصر فى الملكية الخاصة.

يقع تحت سقف هذه القضية سؤال أساسى: إذا كانت الرأسمالية مجرد تعبير له استخدامه المحدد اليوم. فإن فكرة الرأسمالية فى الحقيقة لها دور هام وحيوى من الناحية التاريخية، ولكن على ما يبدو أن هذه الميزة أو الفائدة يمكن استغلالها الآن باعتدال وحكمة.

فعلى سبيل المثال، لقد أوضحت الأعمال الرائدة لآدم سميث فى القرن الثامن عشر فائدة وديناميكية اقتصاد السوق، ولماذا وتحديداً كيف عملت هذه الديناميكية. لقد أضاف تحقيق سميث تشخيصاً مضيئاً لأعمال السوق عندما ظهرت هذه الديناميكية بقوة. تعد المساهمة والإضافة التى أضافها ثروة الأمم، والذى نشر عام ١٧٧٦ لفهم أعمق لما يدعى الرأسمالية فى غاية الأهمية.

لقد وضح سميث كم هى مفيدة فكرة تحرير السوق والتى تساعد بشكل كبير فى أغلب الأحيان على دعم وخلق حالة من الانتعاش والرخاء الاقتصادى من خلال التخصص فى الإنتاج وتقسيم العمل وفى حسن استغلال الاقتصاديات واسعة النطاق.

وتبقى تلك الدروس وثيقة الصلة بعالم واقتصاد اليوم (ومن المثير أن العمل التحليلى الرائع والمتطور للغاية عن التجارة الدولية والذى نال من أجله بول كروجمان جائزة نوبل فى الاقتصاد مرتبط بشكل وثيق بتنبؤات سميث بعيدة المدى منذ أكثر من ٢٣٠ عاماً مضت). كما أن التحليلات الاقتصادية التى تلت تلك الشروح المبكرة للأسواق واستخدام رأس المال فى القرن الثامن عشر نجحت فى تأسيس وإنشاء نظام قوى وصلب للسوق فى ظل الاقتصاديات الرأسمالية السائدة.

على الرغم من ذلك، ومع وضوح المساهمات الإيجابية للرأسمالية خلال عمليات السوق والتى تم شرحها وتوضيحها، إلا أن الجوانب السلبية قد أصبحت أيضاً واضحة جلية فى أغلب الأحيان بالنسبة للمحللين ذاتهم. بينما أخذ عدد من النقاد الاشتراكيين، وبشكل خاص كارل ماركس، فى إثبات أحقية اللوم بشكل كبير على الرأسمالية ومن ثم وفى النهاية وجوب استئصالها. ولقد كانت المعوقات الكبيرة للاعتماد كلياً فى السوق على اقتصاد يدفعه الربح واضحة منذ البداية حتى لآدم سميث. فى

الحقيقة، لم يتخذ المدافعون الأوائل لاستغلال السوق، بمن فيهم سميث، آلية السوق البحتة لكى تكون العامل الوحيد للتفوق، كما لم يقروا بأن عامل الربح هو كل ما نحن بحاجة إليه.

وعلى الرغم من أن الناس يقومون بالعمليات التجارية بهدف المنفعة الشخصية (لا يسعون لشىء أكثر من المنفعة الشخصية. كما أوضح سميث بطريقته الشهيرة، مبيناً لماذا يسعى الخبازون، وصانعو الخمور، والجزارون، والمستهلكون للتجارة)، فعلى الرغم من ذلك يمكن للاقتصاد عملياً أن يقوم على عامل الثقة بين الأطراف المختلفة. فعندما تحقق الأنشطة التجارية، بما فى ذلك البنوك والمؤسسات المالية الأخرى، الثقة التى يتعهدون بها والتى يسعون لكسبها، فإن العلاقة بين الدائن والمدين يمكن أن تسير على نحو مشجع بصورة متبادلة، كما كتب سميث:

«عندما يثق الناس فى أى بلد محدد فى الثروة والأمانة والتعقل لمصرف معين إيماناً بأنه مستعد دائماً للسداد بناء على طلب أوراقه النقدية المتعهدة كما يمكن أن تقدم إليه فى أى وقت، على أن تكون هذه الأوراق النقدية من نفس العملة كالعملات الذهبية والفضية مما يمكن أن يكون فى أى وقت كان عندها لهم». [١]

قام سميث بشرح لماذا قد لا يحدث ذلك فى بعض الأحيان، وهو ما قد نجده محيراً للغاية، ولذا فإننى أقترح، ومع الصعوبات التى يواجهها عالم الأعمال التجارية والبنوك فإننا نشكر الخوف وسوء الظن اللذين انتشرا وأبقيا على أسواق الائتمان فى حالة تجمد ومنعا نسق توسع الائتمان.

ولأن الشىء بالشىء يذكر، وخاصة منذ أن ظهرت «دولة السعادة» بفترة طويلة بعد سميث، والذى حاول فى كتاباته المختلفة، التعبير عن قلقه الشديد وقلقه حول المصير السيئ للفقراء والمتضررين بشكل واضح للغاية. يكمن الإفلاس الفورى لآليات السوق فى الأشياء التى يتركها السوق بدون أن تتم وتنجز. نجح تحليل سميث فى ترك كل الأشياء تقريباً



إن الأزمات الاقتصادية الحالية، على ما اعتقد، لن تدعو إلى «رأسمالية جديدة» ولكنها تنادى بفهم جديد للأفكار القديمة كتلك التى قدمها سميث



إلى اليد الخفية لآلية السوق. إنه لم يكن فقط من المدافعين عن دور الدولة فى تقديم الخدمات العامة، مثل التعليم وإعانة الفقراء (سوية مع طلب حرية أكبر للفقراء والذين حصلوا على الدعم من قوانين الفقراء والذى تم تقديمه فى يومه)، ولكنه كان منشغلاً أيضاً بعدم المساواة والفقر اللذين يمكن أن يبقيا فى اقتصاد سوق ناجح عادة.

إن الافتقار إلى الوضوح فيما يخص الفرق بين الضرورة وكفاية السوق كان له دور كبير فى حدوث نوع من سوء الفهم لتقييم سميث لآلية السوق من قبل الكثير ممن يدعون أنهم أتباعه. فعلى سبيل المثال، تمت ترجمة دفاع سميث عن سوق الغذاء ونقده للقيود التى تضعها الدولة على التجارة الخاصة بحبوب الغذاء فى أغلب الأحيان على أنها مجادلة لإثبات أن التدخل الحكومى قد يزيد الجوعى جوعاً ويجعل المجاعة أكثر سوءاً.

لكن دفاع سميث عن التجارة الخاصة أخذ شكل معارضة الاعتقاد بأن إيقاف المتاجرة فى الغذاء يخفف من عبء الجوع. ولكن هذا لا ينكر بأى حال من الأحوال الحاجة إلى دور الدولة فى خلق فرص عمل جديدة وتوفير دخول (من خلال برامج العمل على سبيل المثال). وإذا ما كانت البطالة سوف تشكر بشدة الظروف الاقتصادية السيئة أو السياسة العامة غير الحكيمة، فإن رد فعل السوق لن يكون مماثلاً، فإنه وحده، قادر على إعادة خلق موارد دخل لأولئك الذين فقدوا وظائفهم. كتب سميث عمن فقد عمله لتود: «إما أن يتضور جوعاً وإما أن يبحث عن البقاء من خلال الاستجداء أو فعل أعمال شنعاء وسوف يسود فوراً الشعور بالحاجة والمجاعة والفناء»[٢]. يرفض سميث التدخلات التى تستثنى السوق ولكنه لا يعنى التدخلات التى تتضمن السوق بينما تستهدف إنجاز الأشياء التى تركها السوق بدون تحقيق نتيجة.

لم يستخدم سميث تعبير «رأسمالية» (على الأقل فيما أمكننى تتبعه) ولكن من الصعب أن نجزم بأن أعماله لم تحتو على نظرية تدافع عن احتياج السوق للقوى المتعارضة، أو الحاجة لقبول هيمنة رأس المال. كما تحدث سميث أيضاً عن أهمية القيم الأكثر تحرراً والتى تتخطى فكرة الأرباح فى ثروة الأمم، ولكنه تحقق وتحرى عن الحاجة القوية لمواقف وأعمال تستند إلى القيم التى تتخطى حاجز الربح وذلك فى كتابه الأول، نظرية المشاعر الأخلاقية، والذى نشر بالضبط منذ ربع ألفية ماضية أى تحديداً فى عام ١٧٥٩. بينما كتب أيضاً أن «التعقل» يعد من أهم الفضائل المفيدة للفرد، وظل آدم سميث يتحدث عن أن «الإنسانية، والعدالة، والكرم، وروح الجماعة هى من أفضل الميزات المفيدة للآخرين»[٣].

قام سميث بفحص الأسواق ورأس المال على اعتبار أنهم يبلون بلاء حسناً فيما يتضمن المنطقة الخاصة بهما، ولكن أولاً، فإنهما يتطلبان دعماً من المؤسسات الأخرى، بما فى ذلك الخدمات الحكومية مثل المدارس، إضافة إلى القيم أكثر من طلب الربح الصافى، وثانية، فإنهما بحاجة إلى عملية ضبط وتصحيح من قبل مؤسسات أخرى، على سبيل المثال، تعليمات مالية مبتكرة بدقة ومساعدة من الدولة للفقراء، لمنع عدم الاستقرار، وانعدام الإنصاف والظلم. وإذا أردنا البحث عن طريقة جديدة لفهم منظومة النشاط الاقتصادى والتى تضمنت اختياراً عملياً واقعياً لمجموعة من الخدمات الحكومية والتعليمات المدروسة بعناية شديدة، فإننا سنجد أنفسنا لا نبتعد عن جدول أعمال الإصلاح الذى حدده سميث بينما كان يدافع عن الرأسمالية وفى ذات الوقت، ينتقضها.



بغض النظر عن استراتيجيات التعامل مع الأزمة الراهنة، نحن بحاجة إلى أفكار حول تغيير تنظيم المجتمع على المدى البعيد





[٣]

من الناحية التاريخية، لم تظهر الرأسمالية قبل أن تظهر أنظمة جديدة من القانون والممارسات الاقتصادية تحمى حقوق الملكية وتجعل فكرة الاقتصاد القائم على الملكية فكرة عملية. إن عملية التبادل التجارى لا يمكن أن تحدث عملياً حتى يتم إرساء مبادئ العمل الأخلاقية ونتأكد من كونها مستمرة ورخيصة، بمعنى أنها لا تتطلب مقاضاة دائمة نتيجة لإهمال المقاولين، وذلك على سبيل المثال. لن يزدهر الاستثمار فى الأعمال التجارية المنتجة وتتحدد المكافآت الهائلة للفساد. سعت الرأسمالية الباحثة عن الربح دائماً إلى كسب الدعم من القيم المؤسساتية الأخرى.

لقد أصبح من الصعب تتبع الالتزامات الأخلاقية والقانونية والمسئوليات المرتبطة بالتعاملات فى السنوات الأخيرة، فشكراً للنمو والتطور السريع للأسواق الثانوية التى تتضمن الاشتقاقات والآليات المالية الأخرى. يمكن لأى دائن أن يضلل المستدين ليواجه مخاطر غير متعمدة فيمرر الأصول المالية إلى أطراف أخرى بعيدة عن التعامل الأصلى. وهكذا تصبح المسئولية مفوضة بشكل خاطئ، وتصبح الحاجة إلى عملية إشراف وتقنين أقوى بكثير.

ورغم أن الدور الإشرافى للحكومة فى الولايات المتحدة بشكل خاص، فى نفس الفترة، قد تقلص بشدة، بتأثير الاعتقاد المتزايد فى الطبيعة التنظيمية لاقتصاد السوق. ولنكون أكثر دقة فمع نمو الإشراف الحكومى، فإن الحاجة إلى المراقبة تقلصت. ونتيجة لذلك، كانت هناك كارثة من المتوقع وقوعها، والتى حدثت بالفعل فى نهاية السنة الماضية، وقد ساهم ذلك بالتأكيد وبشكل كبير فى الأزمة المالية العصيبة التى يواجهها العالم اليوم. إن انعدام النظام للأنشطة المالية له نتائجه ليس فقط على التطبيقات غير الشرعية ولكن أيضاً على الميل نحو التروى والتفكر بعمق، وهذا ما يؤدى كما تحدث آدم سميث، إلى ميل البشر فى البحث عن الربح ولو بشق الأنفس.

دعا سميث مروجى الخطر المفرط بحثاً عن الأرباح «مبذرين وعارضين» والذى يعد وصفاً جيداً لمن بدءوا فى تفعيل الرهونات خلال السنوات القليلة الماضية. وفى صدد مناقشة القوانين المضادة للفوائد المضاعفة، على سبيل المثال، أراد سميث أن يقوم الإشراف الحكومى بحماية المواطنين من «المبذرين والعارضين» الذين قاموا بالترويج للقروض غير الثابتة.

وعليه فإن جزءا كبيرا من رأس مال الدولة يصبح بعيداً عن متناول أيد كانت فى الغالب سوف تربح وتستفيد منه، ويذهب إلى هؤلاء الذين فى الغالب سوف يهدرونه ويدمرونه.[٤]

إن الإيمان الضمنى فى قدرة اقتصاد السوق على تصحيح وضعه، والذى يعد مسئولاً بشكل كبير عن إزالة التعليمات المؤسسة فى الولايات المتحدة، يميل إلى إهمال نشاطات المبذرين والعارضين بطريقة صادمة بالنسبة لآدم سميث.

لقد تولدت الأزمة الاقتصادية الحالية بشكل جزئى نتيجة سوء تقدير حكمة عمليات السوق، وازدادت حالة القلق وانعدام الثقة فى السوق المالية وفى الأعمال التجارية واتضح ذلك فى الردود العامة وردود أفعال السوق والذى أدى إلى سلسلة من الخطط التحفيزية، بما فى ذلك خطة الـ٧٨٧ بليون دولار التى تم التوقيع بالموافقة عليها فى فبراير الماضى من قبل حكومة أوباما الجديدة. وبحدوث هذه المشاكل، التى تم تعريفها فى القرن الثامن عشر من قبل سميث، إلا أن المسئولين فى السنوات الأخيرة أهملوها وتغاضوا عنها، وخاصة فى الولايات المتحدة، والذين انشغلوا بالاستشهاد بآدم سميث لمساندة السوق الحر.

[٤]

بينما كان آدم سميث يقتبس كثيراً مؤخراً، حتى وإن كان لا يقرأ بنفس الدرجة، وقد أعيد إحياء جون ماينارد كينز مؤخراً بشكل كبير. بالتأكيد، الكساد المتراكم الذى نلاحظه الآن، والذى يقربنا أكثر إلى حالة كساد كاملة، له ملامح وخصائص واضحة كما أشار إليها كينز، وذلك بأن انخفاض الدخل لمجموعة من الأفراد أدت إلى انخفاض معدل مشترياتهم مما يؤدى بالتالى إلى انخفاض دخول الآخرين.

على أية حال، يمكننا أن نعتبر أن كينز قد يكون المنقذ بالنسبة لنا بشكل جزئى، وعلينا لذلك أن نتطلع إلى فهمه لأزمتنا الحالية. إن أحد رجال الاقتصاد الذى لم يعترف بصلته بالأزمة بشكل كبير هو منافس كينز آرثر سيسيل بيجو، والذى مثله كمثل كينز، كان فى جامعة

كامبردج، وأيضاً فى كلية كينجز، فى نفس وقت كينز. كان بيجو مهتماً بشكل أكبر من كينز بعلم النفس الاقتصادية وكيفية تأثيره على الدورات الاقتصادية ويقوى أو يضعف أى حالة كساد اقتصادى والذى قد يقود إلى حالة كساد كاملة (وهو ما نحن بصدده الآن فى الحقيقة). أرجع بيجو التقلبات الاقتصادية بشكل جزئى إلى «أسباب نفسية» تشمل الاختلافات فى صوت عقل الأشخاص الذين تتحكم أعمالهم فى الصناعة، ويظهر ذلك فى الأخطاء الناتجة عن التفاؤل الذى لا داعى له والتشاؤم الذى لا داعى له أيضاً فى توقعات عملهم.(٥)

إنه من الصعب تجاهل حقيقة أن اليوم، بالإضافة إلى تأثيرات كينز الخاصة بالانحدار المدعوم بشكل متبادل، إننا الآن فى وجود «أخطاء ناتجة عن التشاؤم الذى لا داعى له». ركز بيجو بشكل خاص على الحاجة لحل تجميد سوق الائتمان عندما يكون الاقتصاد فى قبضة التشاؤم المفرط:

لذلك، فإن هناك أشياء أخرى قد تكون متساوية، الحدوث الفعلى لحالات فشل العمل سيكون تقريباً واسع الانتشار، قبول (على السواء) قروض البنوك، تجاه أزمة الطلبات، أقل أو قابل للحصول بسهولة أكثر(٦).

على الرغم من أنه تم ضخ أرقام كبيرة من الأموال إلى اقتصاديات أمريكا وأوروبا، من قبل الحكومات، والبنوك، والمؤسسات المالية رغبة منهم حتى الآن فى حل مشكلة تجميد سوق الائتمان. تواجه الأعمال التجارية الأخرى فشلاً جزئياً أيضاً، وذلك نتيجة انخفاض الطلب أو يمكننا أن نقول المعدوم (عملية «المضاعف» التى ذكرها كينز)، ولكن هذا يأتى كنتيجة أيضاً للخوف من انخفاض الطلب بصورة أكبر فى المستقبل، وذلك فى ظل مناخ يخيم عليه الإحباط (وهو ما أطلق عليه بيجو «التشاؤم المعدى»).

إن إحدى المشاكل التى يجب على إدارة أوباما مواجهتها هى أن تلك الأزمة الحقيقية، والتى نشأت نتيجة سوء الإدارة المالية وبعض التجاوزات الأخرى، تضخمت وتضاعفت عدة أضعاف مع عامل الانهيار النفسى. إن الإجراءات التى تتم مناقشتها الآن فى واشنطن وفى أى مكان آخر لإعادة تجديد سوق الائتمان تتضمن عمليات إنقاذ. مع وجود متطلبات لازمة وقوية تدعم المؤسسات المالية التى تبتاع - من خلال شراء الحكومة للأصول الفاسدة، والتأمين ضد الفشل فى دفع القروض، وتأميم البنوك (أصاب الاقتراح الأخير العديد من المحافظين بالذعر حيث إن السيطرة الخاصة من المال العام المعطى للبنوك تصيب أولئك المهتمين بالمسئولية بحالة من القلق). ويبدو أن رد الفعل الضعيف للسوق على إجراءات الإدارة هو حتى الآن اقتراح أن يتم تقييم كل هذه السياسات بشكل جزئى لتبين تأثيرهم على الحالة النفسية للأعمال التجارية وعلى المستهلكين، خاصة فى أمريكا.

[٥]

إن التفاوت بين بيجو وكينز له علاقة بسبب آخر أيضاً. فبينما انشغل كينز بالإجابة عن سؤال كيف يزيد الدخل الكلى، وانشغل نسبياً بدرجة أقل بتحليل مشاكل توزيع الثروات غير المتعادلة والرفاهية الاجتماعية. فعلى النقيض من ذلك، فإن بيجو لم يكتب فقط الدراسة الكلاسيكية عن اقتصاديات الرفاهية، لكنه ابتكر مقياساً ليقيس عدم المساواة الاقتصادى أيضاً كمؤشر رئيسى للتقييم والسياسة الاقتصادية(٧). ما دامت معاناة الناس الأكثر حرماناً فى كل اقتصاد، وفى العالم كله، تسترعى وتستوجب الانتباه الأشد، فإن دور التعاون المساعد بين القوى الاقتصادية والحكومة لا يمكن أن يتوقف بمجرد حدوث عملية توسع متبادل منظمة للاقتصاد. هناك حاجة ماسة لتوجيه الانتباه إلى المستضعفين فى المجتمعات عند التخطيط لتجاوز الأزمة الحالية، وفى اتخاذ الإجراءات لعملية توسع اقتصادية عامة. لقد أصيبت الأسر والعائلات التى تعانى البطالة فى مقتل مع وجوب ذكر غياب الرعاية الصحية لديهم، إضافة إلى الحرمان الاجتماعى والاقتصادى. يجب الاعتراف بأن نظريات كينز الاقتصادية كانت قاصرة عن معالجة تلك المشاكل.

هناك طريق آخر كان من الضرورى أن يستكمله أحد ما غير كينز وهو ما تعلق بتجاهله للخدمات الاجتماعية - فى الحقيقة كان لدى أوتو فون بيسمارك الكثير ليقوله فى هذا الصدد. ناقش بعض الاقتصاديين البارزين المعاصرين فكرة أن اقتصاد السوق قد يكون سيئاً فى تقديم بعض المصالح العامة (مثل التعليم والرعاية الصحية) وكان من ضمن هؤلاء الاقتصاديين بول صامويلسون وسميث كينيث. (ساهم بيجو فى هذا الموضوع أيضاً بتأكيده على «التأثيرات الخارجية» على تعاملات السوق، حيث لا تنحصر المكاسب والخسائر على الباعة والمشترين المباشرين وحدهم). إنها بالطبع قضية طويلة الأمد، لكن يجدر بنا أن نذكر أيضاً أن التأثير السلبى لحالة الكساد يكون أعنف بكثير إذا لم تتوفر الرعاية الصحية بشكل خاص للجميع.

فعلى سبيل المثال، فى غياب مؤسسة عامة للصحة، فإن كل وظيفة مفقودة تعنى حرمان المزيد من الرعاية الصحية الضرورية، وذلك بسبب خسارة الدخل أو خسارة التأمين الصحى الخاص بالوظيفة. إن الولايات المتحدة تعانى من نسبة بطالة الآن تصل إلى ٧.٦٪، والتى تتسبب فى المزيد من الحرمان الكبير. هنا يجدر بنا أن نطرح سؤالاً هاماً وهو يخص البلدان الأوروبية، بما فيها فرنسا وإيطاليا، وأسبانيا، والتى عاشت لعقود وعقود بمعدلات بطالة أعلى من تلك بكثير، فكيف استطاعت أن تتفادى حدوث انهيار كلى لجودة الحياة. الإجابة بشكل جزئى إنها الطريقة الذى تتبعها الدول الأوروبية الغنية من خلال نظام تأمين للبطالة أقوى من نظيره فى أمريكا بكثير، والأهم من ذلك، وجود توفير الخدمات الطبية الأساسية للجميع من قبل الحكومة.

إن فشل آليات السوق فى توفير الرعاية الصحية للجميع يعد شيئاً مريعاً وصارخاً، وخاصة فى الولايات المتحدة. ولكن أيضاً كان ذلك صارخاً فى قضية تقدم الصحة وطول العمر فى الصين واللذان تليا إلغاء التأمين الصحى فى ١٩٧٩. فقبل تلك التعديلات الاقتصادية فى هذا العام، كان كل مواطن صينى يضمن توفر الرعاية الصحية له من خلال الدولة أو المؤسسات التعاونية، على الأقل المستوى الأساسى للرعاية. وعندما أنهت الصين نظامها والذى كانت له نتيجة عكسية على المجمعات التعاونية الزراعية والوحدات الإدارية والوحدات الصناعية التى يديرها البيروقراطيون، مما أدى إلى ارتفاع نسبة نمو الناتج المحلى الإجمالى بصورة أسرع من أى مكان آخر فى العالم. ولكن فى ذات الوقت، ونتيجة للإيمان الجديد باقتصاد السوق، قامت الصين بإلغاء نظام الرعاية الصحية الشاملة أيضاً. وبعد تعديلات ١٩٧٩، كان على الأفراد شراء التأمين الصحى (فيما عدا بعض الحالات النادرة نسبياً التى قامت فيها شركات كبيرة أو حكومية بتزويد موظفيها بالتأمين الصحى). وبهذا، فإن تقدم الصين فى مسألة طول العمر أخذ فى التباطؤ بحدة.

كانت هذه مشكلة كافية عندما كان الدخل الإجمالى للصين ينمو بسرعة فائقة، لكنه حتماً سيكون مشكلة أكبر بكثير إذا ما كان الاقتصاد الصينى يتقدم ببطء حاد، كما هو الحال الآن. إن الحكومة الصينية تحاول بصعوبة الآن إعادة تقديم الرعاية الصحية بشكل تدريجى للجميع، كما تتعهد الحكومة الأمريكية تحت قيادة أوباما بعمل تغطية صحية كاملة أيضاً. فى كل من الصين والولايات المتحدة، لا يزال الطريق أمام التصحيحات طويلاً، ولكن يجب أن تكون هناك عوامل أساسية لمعالجة الأزمة الاقتصادية، وكذلك لإتمام عملية التحول طويلة المدى لكل من المجتمعين.



على أية حال، يمكننا أن نعتبر أن كينز قد يكون المنقذ بالنسبة لنا بشكل جزئى، وعلينا لذلك أن نتطلع إلى فهمه لأزمتنا الحالية





[٦]

إن إحياء ما قدمه كينز يساهم كثيراً بالنسبة للتحليل الاقتصادى والسياسة، مع الوضع فى الاعتبار أن الجعبة لا يزال بها الكثير والكثير من السهام. فعلى الرغم من أن كينز يرى فى أغلب الأحيان على أن نوعاً ما «ثائر» بالنسبة للاقتصاد المعاصر، إلا أنه فى الحقيقة اقترب من أن يكون من كبار أساتذة ومعلمى الرأسمالية الجديدة، والتى ركزت على محاولة تثبيت



تقلبات اقتصاد السوق (ومرة ثانية دون إيلاء الاهتمام الكافى للأسباب النفسية وراء هذه التقلبات). وعلى الرغم من أن سميث وبيجو يعتبران من أساتذة الاقتصاد المحافظين، إلا أن العديد من الأفكار العميقة التى جاءت حول أهمية المؤسسات غير المرتبطة بالسوق والتى لا تهدف إلى الربح نبعت منهما. ولم تأت من كينز وأتباعه.

إن أى أزمة لا تقدم فقط تحدياً فورياً علينا مواجهته. وإنما تمنحنا الفرصة لمعالجة المشاكل طويلة المدى حتى تكون لدى الناس رغبة فى إعادة النظر فى أمور عديدة. لذا يجب أن نستغل الأزمة الاقتصادية الحالية لمواجهة القضايا طويلة المدى والتى أهملت مثل حماية البيئة والرعاية الصحية، بالإضافة إلى الحاجة للنقل العام والذى أهمل بشكل سيئ جداً فى العقود القليلة الماضية وتم استثناؤها حتى الآن. وبينما أكتب هذه المقالة الآن. وحتى فى السياسات الأولية التى أعلنتها حكومة أوباما. إن قضية قابلية التحمل الاقتصادية هى بالطبع قضية هامة ولكن إذا أخذنا مثال حكومة كيرالا. فإننا نرى أنه من المحتمل أن تكون هناك رعاية صحية مضمونة بتكلفة صغيرة نسبياً. فمنذ أن أسقط الصينيون الرعاية الصحية الشاملة فى ١٩٧٩، واصل كيرالا دعم تقديمها، وتمكن من تخطى الصين من حيث متوسط الأعمار وبعض المؤشرات مثل معدل وفيات الأطفال، على الرغم من أن معدل أو مستوى دخل الفرد لديه أقل بكثير. مما أكد أن الفرصة لا تزال متاحة حتى للبلاد الفقيرة أيضاً.

ولكن التحديات الأصعب والتى تواجه الولايات المتحدة والتى تعد من أعلى معدلات الدول من حيث دخل الفرد وإنفاقه على جانب الصحة بين بلدان العالم، ولكن لا يزال ما حققته فى مجال الصحة ضئيلاً مع وجود أكثر من أربعين مليون شخص بدون ضمان رعاية صحية. جزء من المشكلة يرجع إلى الفهم العام. فهناك تصورات مشوهة بشكل كبير ويجب على مؤسسات الصحة العامة أن تصحح ذلك خلال مناقشاتها العامة. فعلى سبيل المثال، فإن من الشائع عن مؤسسات الصحة الأوروبية أنه غير مسموح لأحد باختيار الأطباء، وهذا غير صحيح.

هناك، على أية حال، حاجة لفهم الخيارات المتاحة الأفضل. فى المحاورات الأمريكية بشأن إصلاح الصحة، كان هناك اهتمام زائد وغير عادى بالنظام الكندى - وهو نظام رعاية صحية عام يجعل من الصعب جداً على أى فرد أن يكون لديه نظام رعاية طبية خاص. ولكن فى أوروبا الغربية، إضافة إلى الرعاية الطبية العامة والتى تتوفر بصورة رسمية، يسمح أيضاً بالتأمين الصحى الخاص، لأولئك الذين يتوفر لديهم المال ويودون إنفاقه على هذا النحو. ولا أدرى لماذا يمكن للأغنياء إنفاق أموالهم بحرية شديدة على اليخوت والسلع الكمالية والترفيهية بينما لا يسمح لهم بإنفاق نقودهم على أشعة الرنين المغناطيسى أو أشعة اختبارية بدلاً من ذلك. إذا أمكننا أن نأخذ نموذجاً من مناقشات آدم سميث الخاصة بتنوع المؤسسات، وتهيئة مجموعة حوافز متنوعة، فإن هناك إجراءات عملية يمكننا حينئذ أن نتخذها مما يحدث فرقاً كبيراً فى العالم الذى نعيش فيه.

إن الأزمات الاقتصادية الحالية، على ما أعتقد، لن تدعو إلى «رأسمالية جديدة» ولكنها تنادى بفهم جديد للأفكار القديمة كتلك التى قدمها سميث، وحتى الأحدث، كالتى قدمها بيجو، والعديد من الأفكار التى تم التغاضى عنها وإهمالها بشكل محزن. ما نحن بحاجة إليه أيضاً هو فهم صافى الذهن لكيفية عمل المؤسسات المختلفة، وكيف أن مجموعة من المنظمات - من السوق إلى مؤسسات خاضعة للحكومة - يمكن أن تتجاوز فى فترة قصيرة المدى وتقدم حلولا للأزمة وتساهم فى إنتاج عالم اقتصادى أكثر احتراماً.

الملاحظات والاحالات

(١) أدم سميث، بحث فى طبيعة ثروة الأمم وأسبابها، حرره آر. إتش. كامبل وأى. إس. سكينر (دار نشر كلاريندون، ١٩٧٦) الجزء الأول والثانى والثالث. ٢٨. صفحة ٢٩٢

(٢) سميث، ثروة الأمم، الجزء الأول والثانى والثامن. ٢٦. صفحة ٩١

(٣) أدم سميث، نظرية المشاعر الأخلاقية. حرره دى. دى. رافاييل وأى. إل. ماكفى (دار نشر كلاريندون، ١٩٧٦) صفحة ١٨٩-١٩٠

(٤) سميث، ثروة الأمم، الجزء الأول. والثانى والرابع. صفحة ٣٥٧

(٥) أى. سى. بيجو، تقلبات صناعية (لندن: ماكميلن، ١٩٢٩) صفحة ٧٣

(٦) بيجو، تقلبات صناعية، صفحة ٩٦

(٧) أى. سى. بيجو، اقتصاديات الرفاهية (لندن: ماكميلن، ١٩٢٠). الأعمال الحالية المتعلقة بعدم المساواة الاقتصادى، بما فى ذلك المساهمات الرئيسية لأى. بى. أتكنسن، قد كانت ملهمة إلى حد كبير بمبادرة بيجو الرائدة: أنظر أتكنسن، العدالة الاجتماعية والسياسة العامة (دار نشر إم آى تى، ١٩٨٣).

الإرهاب الحقيقى: وول ستريت

كريس هيدجز
Chris Hedges

لدينا قدرة ملحوظة على خلق وحوشونا. عقود من التطفل فى الشرق الأوسط مع قريننا الإسرائيلى أتت لنا فى النهاية بحزب الله وحماس والقاعدة وحركة المقاومة العراقية وطالبان المستعيدة لنشاطها، والآن نخرب اقتصاد العالم وندمر النظام البيئى ونجلس لمشاهدة صنيعة أيدينا.

لاحت علامات عالمنا الجديد الشجاع عندما أدلى المدير الجديد للاستخبارات الوطنية الأمريكية

الأدميرال المتقاعد دينيس بلير - بشهادته أمام لجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ. حذر من أن عمق وضع الأزمة الاقتصادية ربما يكون التهديد الأكثر قتامة لنا للأستقرار والأمن القومى، وأضاف دينيس أنها من الممكن أن تحدث عودة «للعنف المتطرف» الذى ميز الفترة بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠.

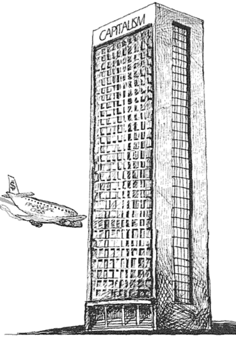
اتضح أن وول ستريت - وليس الجهاديين الإسلاميين - أنتجت أكثر إرهابيينا خطورة، سنشهد إغلاق متاجر التجزئة والمنشآت بشكل متسارع، تضخم ووباء الإفلاس، دورات جديدة من حبس الرهون وطوابير الخبز وبطالة تفوق مستويات الكساد الكبير، وكما يخشى بلير، اضطراب اجتماعى.

تقدر منظمة العمل الدولية التابعة للأمم المتحدة أن ما يقرب من ٥٠ مليون عامل فى أرجاء العالم سيفقدون وظائفهم هذا العام. صاحب الانهيار حتى الآن فقدان ٣.٦ مليون وظيفة فى الولايات المتحدة، ويتنبأ صندوق النقد الدولى أن نمو الاقتصاد العالمى فى ٢٠٠٩ سيكون ٠.٥٪ وهو الأسوأ منذ الحرب العالمية الثانية. خلال العام الماضى، تلقى ٣,٢ مليون عقار فى الولايات المتحدة إنذارات لعدم السداد أو تم استرداده، وهذا الرقم مهيأ للارتفاع فى ٢٠٠٩، خاصة مع بداية تعرض العقارات التجارية الخالية لحبس الرهون. قرابة ٢٠.٠٠٠ بنك من البنوك العالمية الكبرى انهارت أو بيعت أو أممت فى عام ٢٠٠٨، ومن المتوقع أن تغلق قرابة ٦٢.٠٠٠ شركة أمريكية هذا العام.

البطالة - عندما تضيف الأشخاص الذين لم يعودوا يبحثون عن وظائف والعاملين بنصف دوام الذين لا يستطيعون إيجاد وظيفة بدوام كامل - أصبحت تقارب ١٤٪.

لم يتبق لدينا سوى القليل من الأدوات التى يمكن أن نشق بها طريق النجاة . قطاع الصناعة فى الولايات المتحدة دمرته العولمة. المستهلكون - بفضل شركات بطاقات الائتمان وحدود الائتمان السهلة - مدينون بـ١٤ تريليون دولار. تعهدت الحكومة بتريليونات من أجل الأزمة، معظمها مقترض أو مطبوع فى شكل نقود جديدة، إنها تستعير المزيد من التريليونات لتمويل حروبنا فى أفغانستان والعراق، ولا أحد يصرح بما هو واضح: أننا لن نكون قادرين أبداً على سداد تلك الديون. يفترض بنا أن نجد طريقا للخروج من الأزمة عن طريق الإنفاق بشكل أو بآخر، و أن نحافظ على مشروعنا الامبريالى بالائتمان. لندع أبناءنا يقلقون من ذلك. لا توجد أى خطة متماسكة وواقعية - خطة قائمة على مواطن القصور الخطيرة التى لدينا - لوقف النزيف أو لتخفيف الحرمان المتزايد الذى سنعانى منه كمواطنين. قارن ذلك بإستراتيجيات الدولة للأمن

ترجمة: وليد سليم



القومى لكسرالقلق المدنى الكامن وستحصل على لمحة للمستقبل، لا يبدو جيدا.

أخبر بلير مجلس الشيوخ أن «الاهتمام الأمنى الرئيسى للولايات المتحدة على المدى القصير هو الأزمة الاقتصادية العالمية وتداعياتها الجيوسياسية»، وأن «الأزمة مستمرة منذ أكثر من عام والاقتصاديون منقسمون حول ما إذا كنا سنرتطم بالقاع ومتى سيحدث هذا، والبعض يتخوف حتى من أن فترة الركود من الممكن أن تزداد عمقاً و تصل لمستوى الكساد الكبير. بالطبع كلنا نتذكر العواقب السياسية الدراماتيكية التى صنعتها الاضطرابات الاقتصادية فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين والاستقرار والمستويات المرتفعة للتطرف العنيف».

ظهر شبح الاضطراب الاجتماعى فى الكلية الحربية الأمريكية فى نوفمبر فى وثيقة بعنوان «المجاهيل المعروفة: صدمات إستراتيجية غير تقليدية فى تطوير الإستراتيجية الدفاعية».

تنبه الوثيقة إلى أن الجيش يجب أن يكون مستعداً لـ«اضطراب استراتيجى عنيف داخل الولايات المتحدة» يمكن أن يحدثه «انهيار اقتصادى غير متوقع» أو «مقاومة داخلية شديدة» أو «انتشار الطوارئ الصحية العامة » أو «فقدان النظام السياسى والقانونى الفعال». «العصيان المدنى المنتشر» -وفقا للوثيقة - «سيجبر المؤسسة الدفاعية على إعادة توجيه أولوياتها لأقصى مدى للدفاع عن النظام الداخلى الأساسى والأمن الإنسانى». وتستمر الوثيقة، «الحكومة الأمريكية وإدارة الدفاع الراضية وهماً عن نفسها- بسبب نظام أمنى داخلى نعمت به طويلاً- ستكون مجبرة على أن تسحب بعض أو معظم التزاماتها الأمنية الخارجية لمعالجة انتشار عدم الأمان الإنسانى فى الداخل.

وفى أقصى الظروف، قد يتضمن هذا استخدام القوة العسكرية ضد الجماعات العدائية داخل الولايات المتحدة. علاوة على ذلك، قد تصبح وزارة الدفاع بالضرورة محورا أساسيا لتمكين السلطة السياسية من الاستمرار فى ظل أضطرابات أو صراع مدنى فى ولايات متعددة أو فى جميع أنحاء الأمة»، كما تقول الوثيقة.

بلغة واضحة ـ يبدو أن البيروقراطيين والعسكريين غير قادرين على استخدامها - يعنى هذا فرض الأحكام العرفية وإدارة الحكومة بشكل فعلى من وزارة الدفاع، إنهم يفكرون فى ذلك، وكذلك أنت أيها القارئ.



حذر الأدميرال بلير مجلس الشيوخ بقوله: إن ما يقرب من ربع الدول فى العالم عانت بالفعل من مستويات منخفضة من عدم الاستقرار مثل تغيير الحكومة بسبب التباطؤ الحالى، وأشار إلى «أن معظم المظاهرات ضد الدولة» على مستوى العالم والتى شوهدت فى أوروبا والاتحاد السوفيتى السابق لا يعنى عدم إمكانية انتشارها فى الولايات المتحدة، وأخبر أعضاء مجلس الشيوخ أن انهيار النظام المالى العالمى على الأرجح سينتج موجة من الأزمات الاقتصادية فى أسواق الدول الناشئة خلال العام القادم، وأضاف بلير: إن معظم أمريكا اللاتينية ودول الاتحاد السوفيتى السابق وإفريقيا جنوب الصحراء تفتقر لاحتياطات نقدية، أوطريقة للوصول لمساعدات دولية، أو ائتمان، أو أى آليات أخرى للتكيف.

قال أيضا : «عندما تنخفض معدلات النمو تلك، يخبرنى إحساسى بأن هنالك مشاكل ستظهر نتيجة لذلك، ونحن نتوقعها»، وأشار إلى أن النماذج الاحصائية تظهر أن الأزمة الاقتصادية تزيد من مخاطر عدم الاستقرار التى تهدد النظام إذا استمرت مدة أكثر من عام أو عامين.

إن ماقاله بلير هو أحدث المخاوف. فبسبب اقتصاد تنحل خيوطه بتسارع، سيقال لنا إن الإسلاميين المتطرفين الملتحين ليسوا هم من يهددوننا، بل الغوغاء المحليون، والمدافعون عن البيئة، والفوضويون والنقابات والأعضاء الغاضبون من الطبقة العاملة المحرومة، وبالرغم من ذلك، فإن من فى السلطة سيخرج من جرابه المتطرفين الإسلاميين عندما يحتاج إعطاءنا صدمة غرائبية، وكما يحدث دائماً فى أوقات الاضطرابات، سوف تتزايد الجريمة، وأولئك الذين يعارضون القبضة الحديدية لجهاز الدولة الأمنى سيجمعون مع الطبقة الدنيا المجرمة المتزايدة أعدادها فى تقاريرإخبارية مجمعة ماكرة.

لم يعلم تماماً نائب رئيس اللجنة السيناتور الجمهورى عن ميسورى/ كريستوفر بوند CHRISTOPHER BOND ما يفعله بشهادة بلير وقال أنه كان مهتماً بأن بلير كان قلقاً من جعل الظروف فى البلد والأزمة الاقتصادية العالمية بؤرة الاهتمام الرئيسية لمجموعة الاستخبارات.

لقد كشف الانهيار الاقتصادى غباء إيماننا الجماعى بسوق حرة، وسخافة اقتصاد يرتكز على أهداف النمو اللانهائى والاستهلاك والاقتراض والتضخم. لقد فشلت أيديولوجيا النمو اللامحدود فى أن تأخذ فى اعتبارها الاستنزاف الضخم لموارد العالم من وقود حفرى، وماء نقى ومخزون أسماك، و عوامل تعرية. بالاضافة للزيادة السكانية وارتفاع درجة حرارة الأرض وتغير المناخ، فالفيضان الضخم لرؤوس الأموال العالمية أغرق النظام المالى العالمى.

ودولارمقيم بأزيد من قيمته -سوف ينكمش قريباً- تكنولوجيا جامحة، أسهم وفقاعات مالية فى قطاع الإسكان، أطماع بلا قيود، إهلاك القسم الأعظم من قطاعنا التصنيعى ، منح سلطة لطبقة أوليجاركية ، فساد نخبتنا السياسية ، إفقار العمال، ميزانية دفاع لجيش متخم وانغماس فى الائتمان بلا قيود، تآمروا لإسقاطنا . ستصبح الأزمة المالية قريباً أزمة عملة. تلك الصدمة الثانية سوف تهدد إمكانية استمرار نظامنا المالى. لقد تركنا السوق يحكم والآن ندفع ثمن ذلك.

مجموعة اللصوص أولئك الذين أصروا على أن يدفع لهم عشرات الملايين من الدولارات لأنهم كانوا الأفضل والأذكى، كشفوا كممثلين مخادعين، مسئولونا المنتخبون بجانب الصحافة كشفوا كفاسدين و كجماعة من التابعين ضعاف الشخصية . مدارس الأعمال والنخبة المثقفة كشفوا كخدع .

لقد انتهى عصرالغرب.

انظر للصين. رأسمالية «دعه يعمل» دمرت نفسها، حان وقت إزالة الغبار عن النسخ التى لديكم لماركس. ■

«الأصول المسمومة»

حازم الببلاوى



تتضمن أصول أكبر البيوتات المالية العالمية العديد من «الأصول المسمومة» التى يصعب تحصيلها



ظهر اصطلاح الأصول المسمومة Toxic assets مع بزوغ الأزمة المالية العالمية. والمقصود بذلك هو أنه نتيجة للتوسع المحموم فى إقراض مدينين لا يتمتعون بالجدارة الائتمانية الكافية، تضمنت ميزانيات البنوك والمؤسسات المالية أصولاً لمديونيات متعثرة يصعب سدادها. فالقيمة الحقيقية لهذه الأصول أقل بكثير من تكلفتها. فهى أصول «تسمم» دلالة الميزانية عن المراكز المالية الحقيقية للمؤسسة. ولكن هذه «الأصول المسمومة» لم تقتصر على المديونيات المشكوك فيها من جانب المؤسسات المقرضة للعملاء الأقل جودة Subprime، بل إنها امتدت إلى عديد من ميزانيات شركات ومؤسسات لا تتعامل أصلاً مع هذا النوع من المدينين، إنما تحتفظ فى محافظها المالية بأسهم وسندات لشركات أو بنوك أخرى تتعامل بشكل مباشر أو غير مباشر مع هؤلاء المدينين المتعثرين. ولفهم ذلك علينا أن نتذكر أن البنوك والمؤسسات المالية تتداخل فى مختلف جوانب الاقتصاد بحيث أن ما يصيبها من خلل أو انحراف ما يلبث أن ينتقل إلى بقية عناصر الاقتصاد.

الوساطة المالية شبكة متعددة ومتشعبة العلاقات:

الاقتصاد المعاصر ينطوى على مجالين متكاملين، هما الاقتصاد الحقيقى والاقتصاد المالى. أما الاقتصاد الحقيقى، أو العينى، فهو يتعلق بالموارد الاقتصادية الحقيقية، من أراض ومصانع وقوة بشرية، والتى تشبع الحاجات بشكل مباشر أو غير مباشر. وأما الاقتصاد المالى فهو يتكون من الأصول المالية أى المطالبات أو الحقوق على هذا الاقتصاد الحقيقى، مثل النقود والأسهم والسندات والأوراق المالية. وهذه الأصول المالية هى التى تحرك الاقتصاد الحقيقى. وقد أدى الاقتصاد المالى إلى ربط مختلف أجزاء الاقتصاد فى شبكة متداخلة من العلاقات يصعب الفكاك منها. وقامت المؤسسات المالية، وعلى رأسها البنوك، بالدور الأكبر فى هذه العلاقات الاقتصادية المتداخلة. وحتى نفهم درجة التعقيد والترابط بين مكونات الاقتصاد فلا بد أن نبدأ بصورة مبسطة لدور البنوك فى الوساطة المالية، أو التمويل، حتى نصل إلى صور أكثر تعقيداً تقترب من الأوضاع المعاصرة للاقتصاد.

تختصر قضية «التمويل» فى الاقتصاد فى حقيقة بسيطة وأولية، وهى أن الهدف من التمويل فى الاقتصاد هو كيفية نقل مدخرات الأفراد والمشروعات إلى المستثمرين. فالناتج القومى لأية دولة يوزع على المساهمين فى العملية الإنتاجية(فى شكل أجور وأرباح). ويقوم هؤلاء الأفراد بالإنفاق على استهلاكهم، وما يتبقى بعد ذلك هو الادخار. فماذا يفعل الأفراد بهذه المدخرات الزائدة على استهلاكهم المباشر؟ ليس كل الأفراد قادرين على القيام بأنفسهم بمشروعات استثمارية إنتاجية، فضلاً عن أن مدخرات كل فرد على حدة تعتبر صغيرة ولا تكفى للقيام بأى مشروع استثمارى. ولكن هناك على الجانب الآخر، المستثمرون وهم القادرون على إنشاء المشروعات لما لديهم من خبرة وأموال، ولكنهم يحتاجون فى العادة إلى أموال أكبر بكثير مما لديهم. فأين يجدون هذه الفوائض من المدخرات؟ هنا قامت الحاجة إلى المؤسسات المالية الوسيطة وعلى رأسها البنوك، فهى تقوم بتجميع هذه المدخرات وتضعها تحت تصرف المستثمرين. وفى هذه العملية تظهر الصور الرئيسية للأصول المالية. فالمدخر يضع أمواله فى البنك فى شكل «وديعة» أى فى شكل أصل مالى، دين على البنك. والبنك يضع بدوره هذه المدخرات تحت تصرف المستثمر مقابل «قرض» أى أصل مالى للبنك على عميله.

على أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد حيث ظهرت مؤسسات مالية أخرى إلى جانب البنوك تجمع مدخرات الأفراد مثل شركات التأمين وهيئات التأمين والمعاشات وشركات توظيف الأموال والصناديق الاستثمارية. وبذلك تعددت المؤسسات المالية التى تجمع مدخرات الأفراد من أجل الاستثمار.

كذلك لم تقتصر المؤسسات المالية على الوساطة المباشرة بين جمهور المدخرين وجمهور المستثمرين، بل تتابعت عمليات الإقراض والاقتراض فى سلسلة طويلة مع العلاقات الوسيطة غير المباشرة. فصندوق الاستثمار لا يستخدم الأموال التى يجمعها لكى يضعها تحت تصرف المستثمر النهائى بل أصبح يشترى بها أسهما وسندات وأوراقا مالية أصدرتها الشركات المالية الأخرى. والبنك بدوره لم يعد يقتصر على إقراض المستثمرين بل أصبح يوظف جزءاً من أمواله (مدخرات المودعين) فى محفظة من الأسهم والسندات والأوراق المالية الأخرى. كذلك فإن المشروعات الإنتاجية لم تعد تحصر نفسها فى الاستثمار الحقيقى فى المجال الذى تتخصص فيه بل أصبحت تحتفظ هى الأخرى بمحفظة مالية من أسهم وسندات وأوراق مالية تصدرها المؤسسات المالية والشركات الأخرى.

وهكذا أصبح الفرد، وكذا المشروع، دائناً ومديناً فى نفس الوقت للعديد من المؤسسات. فالفرد المستهلك دائن للبنك بما لديه من حسابات فى واحد أو أكثر من البنوك، ولكنه مدين للبنوك برهن على عقاره، وهو أيضاً مدين بما يستخدمه من بطاقات ائتمان أو شراء سلع معمرة بالأقساط. ونفس الشىء بالنسبة إلى البنك فهو دائن ومدين معاً. فهو مدين لعملائه من المودعين ولكنه دائن لعملائه الآخرين من المقترضين، كما أنه دائن حائز لأوراق مالية متنوعة يستثمر فيها. وكذا المستثمر أو المشروع الصناعى فإنه مدين للبنك بما يحصل عليه من قروض، ولكنه دائن للمؤسسات المالية بما يحتفظ به من ودائع فى البنوك أو من محفظة مالية متنوعة.

وهكذا ساعد تنوع وتداخل هذه الأصول المالية المترابطة على اعتماد المركز المالى للفرد أو المشروع على ما يحدث للمراكز المالية للآخرين. وأصبح الاقتصاد المالى، نتيجة للوساطة المالية، شبكة متداخلة من المديونيات والدائنيات المتقابلة، وأى عجز عن الوفاء من أحد المدينين يؤدى إلى سلسلة متتابعة من الخسائر.



على عكس السلع الاستهلاكية، تشترى هذه الأصول المالية، لأنها تمثل «ثروة» قابلة للنمو فى المستقبل



لوحة العواجيز البخلاء
للفنان كونتنيو



انعدام الثقة والانتقال

من النشوة إلى الخوف:

بدأت بوادر الأزمة فى الظهور. على حياء. منذ نهاية ٢٠٠٦ وارتفعت نبرة الحديث عنها منذ منتصف ٢٠٠٧ وانفجرت فى الربع الأخير من ٢٠٠٨. وتبين أن أكبر البيوتات المالية العالمية تورطت. بشكل مباشر أو غير مباشر. فى هذه الأزمة حيث تتضمن أصولها العديد من «الأصول المسمومة» التى يصعب تحصيلها. وكانت الضحية الأساسية فى هذه الأزمة هى «الثقة». فانهارت الأسواق المالية ولم يقتصر الأمر على الشركات المتورطة مباشرة فى هذه الأصول المسمومة وإنما عم البلاء لمعظم الأوراق المالية. ويرجع ذلك إلى الطبيعة الخاصة للتعامل فى الأصول المالية. فهذه الأصول، وعلى عكس السلع الاستهلاكية، تشترى لأنها تمثل «ثروة» قابلة للنمو فى المستقبل. فمن يشترى سهماً أو سنداً مثلاً تكون عينه على المستقبل، فهو يشترى اليوم لكى يبيع غداً آملاً فى تحقيق بعض الربح. فسوق الأوراق المالية هى رهان على المستقبل. فإذا كان المستقبل مبشراً اندفع الجميع على الشراء، وإذا كان المستقبل مظلماً حاول الجميع التخلص مما لديهم من أصول قبل تحقق الأسوأ.

ولذلك تعرف أسواق الأصول المالية عادة إفراطاً فى التذبذب. فإذا عم التفاؤل ارتفعت قيمة هذه الأصول بأكثر مما ينبغى، وعلى العكس فإذا غلب التشاؤم انخفضت قيمتها بأكثر مما هو مطلوب. ولذلك يقال أن هذه الأسواق تتعرض لموجات من الاندفاع Overshooting بالارتفاع غير المبرر فى الأسعار، أو الانهيار غير المقبول فيها. فهى كالثور bullish فى اندفاعها فى لحظات التفاؤل والنشوة، للارتفاع، أو هى كالدب bearish فى حذرها وتخوفها من المستقبل فى لحظات التشاؤم والخوف من المستقبل. وهذه هى العبارات المستخدمة فى الأوساط المالية عن وصف الأسواق فى حالات الانفعالات النفسية المتوترة للأسواق. وليس هناك من شك أن الأسواق المالية عرفت إفراطاً فى التفاؤل فى السنوات الأخيرة أدى إلى اندفاع مجنون فى أسعار الأصول المالية،

ولذلك فإنه من غير المستغرب أننا نعيش الآن رد فعل مبالغا فيه من التشاؤم غلب على معظم الأسواق المالية مما أدى إلى انهيار كبير للأسعار.

سياسات معالجة الأزمة:

تدور سياسات الإصلاح الاقتصادى والمالى خاصة فى الولايات المتحدة حول محورين: أحدهما للمدة الطويلة والآخر للمدة القصيرة، علماً بأن إصلاحات المدة القصيرة هى الطريق إلى الإصلاح فى المدة الطويلة. فما هى أهم الأفكار الموجودة على الساحة فى هذا الصدد ؟

هناك اقتناع شبه كامل بأن الأسواق المالية يعتريها خلل شديد نتيجة لعدم الانضباط وعدم الوضوح وضعف الرقابة والإشراف من جانب الحكومات. فقد كانت هناك ثقة. تكاد تكون عمياء. فى أن نظام «السوق» قادر على تصحيح أخطائه،

وأن هذ «النظام» فى اعتماده على الربح والخسارة قادر على حسن توزيع الموارد بكفاءة. وقد تبين أن هذا الأمر غير صحيح وغير كاف، وبوجه خاص بالنسبة لأسواق الأوراق المالية. فنظراً لأن هذه الأسواق تتعامل فى جوهرها مع المستقبل، فإنها قادرة على ترحيل «الخسائر» إلى المستقبل وإخفائها عن الأنظار لفترات طويلة قبل أن تظهر للعيان. وفى هذه الأثناء تختفى هذه «الخسائر» وراء عبارات محاسبية غير واضحة يمكن أن تقوض من سلامة من البناء الاقتصادى. فهى كمرض السرطان الذى ينخر فى جسم لسنوات دون أن يكتشف، حتى يظهر فجأة فى مراحل متأخرة يصعب معها العلاج. ومن هنا فإن هناك حاجة إلى إعادة نظر كاملة فى أدوات الأسواق المالية ومؤسساتها وعدم تركها كلية لأهواء «اقتصاد السوق». ولا بد من وضع القيود والضوابط لمنع الانحراف والإفراط.

هذا فى المدة الطويلة. فماذا عن المدة القصيرة؟

رأينا أن الأزمة ترجع فى جوهرها إلى مبالغة هائلة فى حجم الأصول المالية، وأن بعضها أصول «مسمومة» لا تعبر عن قيمة حقيقية، وأن هناك بالفعل فقاعة مالية هائلة قد انفجرت ولابد من إعادتها إلى «القيم» الحقيقية لهذه الأصول. ولكن المشكلة بالإضافة إلى ذلك هى أن «انعدام الثقة» وغلبة الشعور بالتشاؤم والإحباط قد أدى فى كثير من الأحوال إلى مبالغة فى ردود الفعل العكسية وأن الانهيار فى أسعار الأصول المالية قد جاوز الحدود المعقولة ولا يعبر عن القيم الحقيقية، ومن ثم وجب إعادة الثقة لعودة النشاط الاقتصادى إلى مساره الطبيعى فى جو صحى.

فالبنوك. مثلاً. وقد راعها ما أصابها من خسائر، فإنها أحجمت عن التوسع فى الإقراض، ليس لنقص فى السيولة لديها أو لعدم جدارة المقترضين، وإنما لأن رد الفعل الطبيعى فى لحظات الأزمة والخوف هو مزيد من الحذر، وغالباً ما يكون ذلك بأكثر من اللازم. وفى نفس الوقت فإن انهيار أسعار الأوراق المالية وما ترتب عليه من ذعر فى الأسواق، قد دفع بالعديد من المستثمرين إلى التخلص مما لديهم من هذه الأصول قبل أن تنهار الأسعار أكثر، بل وأحياناً يضطر الحائزون لهذه الأصول المالية إلى تسييل أصولهم لمواجهة أعبائهم



هناك بالفعل فقاعة مالية هائلة قد انفجرت ولابد من إعادتها إلى «القيم» الحقيقية لهذه الأصول





كتـــاب الزاويـــة



الآخــــر.. فى التلمــــود (١)

درج كتاب غربيون كلاسيكيون على الإحالة للتلمود في سياق التداول الأوروبي حول المشكلة اليهودية في أوروبا، والعداء العنصري لليهود، وفضح ما يعتبرونه مثالب تجرح وطنيتهم وأخلاقياتهم وإمكانية تعايشهم. رغم تطورات تاريخية طالت الجماعات اليهودية، وكان بإمكانها أن تؤدي لاندماجها بمجتمعاتها الأوروبية. من هذه الخلفية، جاءت بروتوكولات حكماء صهيون التي يرجح أنها نتاج لثقافة روسية ومؤسسة قيصرية أرثوذكسية معادية لليهود. والحق أنه لا التلمود ولا أسفار العهد القديم يمكنها تفسير أو اختصار الظاهرة اليهودية الماضية أو المعاصرة، لأنها حالة بالغة التركيب، تتجاوز التفسيرات النصوصية والنماذج الأحادية. لذلك، لا تقصد هذه المقتبسات من التلمود ترذيل اليهود، بل محاولة لفهم حالة ثقافية بالغة القدم، تتصل بتراث وثقافة الشرق الأدنى القديم، كأحد مصادره المدونة. وتقدم هذه المراجعة جوانب تاريخية اجتماعية أنثروبولوجية لصورة الآخر ضمن ثقافة قبلية. يتموضع فيها «الدين» بمركز البنية القبلية، وتصبح شرائعه وعاء للقبيلة وأداة لتماسكها وتميزها واستمرارها. لكن في كل الأحوال تبقى حقيقة أن ربط التلمود بالصهيونية إسباغ للقداسة على مشروع استيطاني بلا قداسة!

المقتبسات من كتاب الآخر في التلمود: ترجمة باب العبادات الأجنبية في التلمود. ترجمة شيماء مجدي حسن، ومراجعة وتقديم الدكتورة ليلى ابراهيم أبو المجد. صدرت هذه الترجمة عن دار العلوم للنشر والتوزيع عام ٢٠٠٧ م.

المالية الأخرى. وفى نفس الوقت فإن المشروعات الكبرى تتوقف بدورها أو تتريث عن القيام باستثمارات جديدة حتى تتضح الصورة. فحالة عدم اليقين تخلق جواً من الشلل العام فى النشاط الاقتصادى، ليس فقط بسبب الفقاعة المالية وحدها، وإنما لإحجام المدخرين والمستثمرين عن التعامل فى الأسواق. ولايقل عن هذا الشعور «بعدم اليقين» uncertainty الذى هو عدو الاستقرار الاقتصادى. ولذلك فإن هدف السياسة فى المدة القصيرة هو إعادة الثقة للأسواق وإعادة الأمل فى الأسواق المالية.

إنقاذ الأصول المسمومة

أم زيادة رؤوس أموال البنوك:

إذا كان من الصعب. إن لم يكن من المستحيل. عودة النشاط الاقتصادى دون وجود مؤسسات مالية قادرة. فقد اتجه الرأى فى أول الأمر إلى ضرورة تدخل الحكومات بتخليص البنوك والمؤسسات المالية من أصولها «المسمومة» لتحسين أوضاعها المالية وبالتالى تمكينها من العودة إلى نشاطها الطبيعى فى دفع معدلات الاستثمار من جديد إلى أوضاعها الطبيعية. وكان وزير الخزانة السابق فى إدارة بوش (بولسن) قد اقترح أن تقوم الحكومة بشراء هذه الأسهم «المسمومة» بأسعار مناسبة. ومع ذلك فقد قامت مشكلة: كيف تقوم هذه الأصول بعيداً عن السوق، وما هى القيمة الحقيقية لهذه الأصول؟ لا أحد يعرف هذه القيمة؟

لذلك رأى جوردن براون رئيس وزراء انجلترا أن الحل ينبغى أن يكون بزيادة رؤوس أموال البنوك من جانب الحكومات حتى تتمكن هذه البنوك من العودة إلى نشاطها برؤوس أموال أكبر. ولكن تبين أن البنوك. حتى مع زيادة رؤوس أموالها. فإنها لا تزال مترددة فى التوسع فى النشاط نتيجة لجو التشاؤم السائد. ولذلك فإن المطلوب هو تحريك أسواق الأوراق المالية وإعادة النشاط إليها لتحفيز البنوك على معاودة دورها.

ولعله من الطريف أن نلاحظ فى هذا الصدد تطوراً فى الاصطلاحات المستخدمة. فبعد الحديث عن «الأصول المسمومة»، فضلت البنوك تسميتها «بالأصول المشكلة» Problem assets، لأنها ليست كلها أصولا فاسدة تماماً بل يمكن أن ترتفع قيمها إذا استعاد السوق الثقة. وفى مقترحات وزير الخزانة الأمريكى الجديد نجده يتحدث عن «الأصول الموروثة» Legacy assets، لأنها ليست بالضرورة «مسمومة» ولا حتى «مشكلة»، ولكنها فقط «موروثة» عن فترة سابقة، ويمكن إعادة إحياء قيمتها فيما لو تحسنت الأحوال الاقتصادية.

ولذلك تقدم وزير الخزانة الأمريكى الجديد بمقترحات تتضمن، بالإضافة إلى المشاركة فى رؤوس أموال البنوك أو حتى العمل على إدماجها مع غيرها من المؤسسات المالية (كما اقترح براون)، السعى أيضاً إلى العمل على رفع قيمة هذه الأصول «المسمومة» فى الأسواق عن طريق تشجيع إنشاء شركات استثمارية جديدة لشراء هذه الأسهم بأسعار أفضل. وفى هذا الاقتراح الجديد تقوم الحكومة بدعم إنشاء شركات استثمارية خاصة جديدة بتمويل من السوق بغرض الاستثمار فى هذه الأصول المالية «الموروثة» للإفادة من المستويات المتدنية فى أسعارها، مع التزام الحكومة بمساعدة هذه الشركات مالياً. فمقابل كل دولار تجمعه هذه الشركات المقترحة من الأسواق، تضع الحكومة دولارين أحدهما مشاركة والآخر قرض للشركة. وبذلك تتجمع لهذه الشركات الجديدة أموال كافية لإعادة النشاط إلى الأسواق المالية. ويهدف اقتراح وزير الخزانة الجديد إلى تحقيق أمرين فى غاية الأهمية، الأول تنشيط الأسواق المالية بتوفير مصادر جديدة للتمويل للاستثمار فيها والإفادة من أسعارها المتدنية مما يرفع من قيمتها، والثانى ألا تتحدد هذه القيم الجديدة للأصول المالية بأسعار تحكمية تفرضها الحكومة وإنما من خلال الطلب والعرض فى السوق.

فهل تنجح هذه السياسات؟ سوف يتوقف الأمر فى نهاية الأمر على مدى استجابة الأسواق لهذه السياسات ومدى قدرتها على استرجاع الثقة المفقودة فى الأسواق المالية. فهى رهان على الثقة فى الحكومة الأمريكية وفى الاقتصاد الأمريكى. والمستقبل كفيل بالإجابة عن هذا الرهان الكبير. ■

تقويض الأساطير المؤسسة

في تحد سافر للأيديولوجية أو بالأحرى للأسطورة المؤسسة للمشروع الصهيونى، أصدر المؤرخ الإسرائيلى شلومو صاند، أستاذ التاريخ الأوروبى بجامعة تل أبيب، كتاباً قبل بضعة أشهر بعنوان: متى وكيف جرى اختراع الشعب اليهودى؟ الصادر باللغة العبرية عن دار رسلينغ الإسرائيلية فى شهر مارس/آذار الماضى. بيد أن ليس هناك من فوجئ أكثر من شلومو صاند نفسه الذى احتل كتابه هذا موقعاً على قائمة الكتب الأكثر مبيعاً فى إسرائيل لمدة ١٩ أسبوعاً متصلة، وقد نال الكتاب هذا النجاح رغم أنه يمس أكبر المحرمات فى إسرائيل.

يجادل الدكتور صاند بأن مفهوم وجود أمة يهودية بحاجة إلى وجود ملاذ آمن، الذى استخدم فى الأصل لتبرير تأسيس دولة اسرائيل، هو خرافة جرى اختراعها قبل أكثر من قرن بقليل. استند المؤلف إلى أبحاث ودراسات تاريخية وأركيولوجية مكثفة للبرهان على هذه المقولة، وأخرى غيرها لا تقل عنها إثارة للجدل. كذلك يجادل المؤلف بأن اليهود لم يتعرضوا أبداً للنفى من الأرض المقدسة، ذلك أن معظم يهود العالم اليوم ليس لهم ارتباط تاريخى بالأرض المسماة إسرائيل، وأن الحل السياسى الوحيد لصراع إسرائيل مع الفلسطينيين هو إزالة الدولة اليهودية.

يُرجح أن يتكرر النجاح الذى حققه كتاب صاند لدى نشره بأماكن أخرى من العالم. فالطبعة الفرنسية التى أطلقت فى سبتمبر/أيلول الماضى قد بيعت بسرعة مما استدعى إعادة طبعها ثلاث مرات. ويجرى ترجمة الكتاب حالياً إلى ١٢ لغة أخرى؛ بما فيها العربية والإنكليزية. لكن صاند يتوقع مساراً وعراً لكتابه عندما يصدر السنة القادمة بالإنكليزية عن ناشره الإنكليزى فيرسو Verso، بالولايات المتحدة. على النقيض، يرى المؤلف أن قراءه الإسرائيليين، إن لم يكونوا مؤيدين تماماً، فهم على الأقل لديهم فضول للاطلاع على الكتاب. فقد وصفه توم سيغيف، أحد أبرز كتاب إسرائيل، بأنه رائع ومثير للتحدى.

المفارقة أن معظم زملاء صاند من الأكاديميين الإسرائيليين قد أحجموا عن مناقشة مقولات الكتاب. الاستثناء الوحيد هو إسرائيل بارتل، أستاذ التاريخ اليهودى بالجامعة العبرية بالقدس، الذى كتب فى صحيفة هآرتز الإسرائيلية مناقشاً الكتاب؛ لكنه أنفق القليل من الجهد فى تفنيد مقولات الكتاب، بينما كرّس معظم المقال للدفاع عن مهنته، أى التأريخ اليهودى. وأشار بارتل إلى أن المؤرخين الإسرائيليين ليسوا جاهلين بالطبيعة المخترعة للتاريخ اليهودى التى حاججها الدكتور صاند.



راودت فكرة الكتاب الدكتور صاند منذ سنوات عديدة، لكنه انتظر طويلاً قبل البدء بالعمل. وهو لا يدعى أى شجاعة خاصة إزاء نشر الكتاب الآن؛ فقد انتظر حتى أصبح أستاذاً (بروفسور) كاملاً. فهناك ثمن ينبغى دفعه فى الأوساط الأكاديمية الإسرائيلية مقابل الإفصاح عن توجهات من هذا النمط.

المقولة الرئيسة للدكتور صاند أنه قبل أكثر من قرن بقليل، كان اليهود ينظرون إلى أنفسهم كيهود فقط لأنهم يشتركون فى دين بعينه. ومع استهلال القرن العشرين، تحدى اليهود الصهاينة هذا المفهوم، وبدأوا يصوغون تاريخاً قومياً باختراع فكرة أن اليهود قد وجدوا كشعب (أمة) وعلى نحو منفصل عن دينهم. وبالمثل، فإن الفكرة الصهيونية الحديثة حول أن اليهود ملزمون بالعودة من المنفى إلى أرض الميعاد، كانت غريبة تماما بالنسبة إلى اليهودية.

لقد بدلت الصهيونية مفهوم «القدس». ففى الماضى، كانت الديار المقدسة تعتبر أماكن يتوق إليها اليهود، لا ليعيشوا فيها. ولمدة ألفى عام، مكث اليهود بعيداً عن القدس، ليس لأنهم لا يستطيعون العودة إليها، ولكن لأن دينهم يمنعهم من العودة إليها حتى قدوم المسيح. وجاءت المفاجأة الأبرز خلال بحثه عندما بدأ النظر فى الأدلة الأركيولوجية التى تعود لعصر التوراة.

يقول صاند أنه لم ينشأ صهيونياً، ولكن شأنه شأن سائر الإسرائيليين اعتقد أن من المسلم به أن اليهود كانوا شعباً يعيش فى اليهودية (بين القدس والخليل)، وأنه تم نفيهم من قبل الرومان سنة ٧٠ ميلادية. ولكن حالما بدأ النظر فى الأدلة، اكتشف أن مملكتى داود وسليمان (فى فلسطين) كانتا مجرد أسطورة. والأمر كذلك بالنسبة لفكرة المنفى. فى الواقع، لا يمكن تبيان معنى اليهودية دون المنفى. ولكنه عندما بدأ البحث فى كتب التاريخ التى تصف أحداث المنفى، لم يجد أى منفى. ولا حدثا واحدا. ذلك أن الرومان لم ينفوا اليهود؛ بل الحقيقة أن اليهود فى فلسطين كانوا بأغلبيتهم فلاحين، وكل الأدلة تشير إلى أنهم بقوا فى أرضهم.

عوضاً عن ذلك، يعتقد صاند أن هناك نظرية بديلة أكثر معقولية أو قبولاً: المنفى أسطورة روّجها المسيحيون الأوائل لتجنيد اليهود فى الإيمان الجديد. فقد أراد المسيحيون لاحقاً أن تعتقد أجيال اليهود بأن أسلافهم تعرضوا للنفى كعقاب إلهى لموقفهم من المسيح.

ولكن حتى لو لم يكن هناك نفى أو منفى، فكيف انتهى هذا العدد الكبير من اليهود إلى التناثر فى جميع أنحاء العالم قبل أن تبدأ دولة إسرائيل الحديثة فى تشجيعهم على «العودة»؟

يرى البروفسور صاند أنه فى القرون السابقة للحقبة المسيحية واللاحقة مباشرة بها، كان التبشير بالدين اليهودى قائماً وكانت اليهودية فى أمس الحاجة إلى معتنقين جدد؛ وهذا مذكور فى الأدبيات الرومانية لذلك الزمن. ارتحل اليهود إلى مناطق أخرى بحثاً عن «مهتدين»، لا سيما فى اليمن وبين قبائل البربر بشمال أفريقيا. وبعد عدة قرون، تحول شعب مملكة الخزر فى ما هو اليوم جنوب روسيا، بشكل جماعى لليهودية، ليصبح ذلك منشأ يهود الأشكناز بأوروبا الوسطى والشرقية.

يشير الدكتور صاند إلى حالة إنكار غريبة يعيشها معظم الإسرائيليين. فقد لاحظ أن الصحافة قد قدمت تغطية واسعة فى الأونة الأخيرة لاكتشاف عاصمة مملكة الخزر المجاورة لبحر قزوين. فموقع صحيفة يديعوت أحرونوت الأوسع انتشاراً فى إسرائيل، يعرض القصة بعنوان: «علماء الآثار الروس يعثرون على عاصمة يهودية فقدت منذ زمن طويل». ورغم ذلك لم تهتم أى من الصحف بأهمية هذا الاكتشاف بالنسبة لروايات التاريخ اليهودى المعتمدة.

السؤال الآخر المترتب على رؤية الدكتور صاند للتاريخ اليهودى، كما يلاحظه هو ذاته: إذا كان معظم اليهود لم يتركوا الأرض المقدسة، فماذا جرى لهم؟

رغم أن ذلك لا يُدرّس فى المدارس الإسرائيلية، لكن معظم القادة الصهاينة الأوائل، بمن فيهم ديفيد بن غوريون (أول رئيس وزراء لإسرائيل)، كانوا يعتقدون أن الفلسطينيين المعاصرين منحدرون من سلالة يهود المنطقة الأصليين؛ وأن اليهود قد اعتنقوا الإسلام لاحقاً. يعزو الدكتور صاند إحجام زملائه الأكاديميين عن الاشتباك معه علمياً إلى اعتراف ضمنى من جانب العديد منهم بأن بنيان التاريخ اليهودى الذى يدرّس بالجامعات الإسرائيلية قد أقيم كبيت من ورق.

تعود مشكلة تدريس التاريخ فى إسرائيل، كما يرى الدكتور صاند، إلى قرار اتخذ فى الثلاثينيات بتقسيم دراسة التاريخ إلى تخصصين: التاريخ العام والتاريخ اليهودى. يفترض تخصص التاريخ اليهودى أنه بحاجة لحقل دراسى خاص نظراً لفرادة الخبرة اليهودية التاريخية!

ليس هناك قسم يهودى للسياسة أو العلوم الاجتماعية بالجامعات الإسرائيلية. إنما هو التاريخ فقط الذى يدرس بهذه الطريقة؛ وهذا ما أتاح للمتخصصين بالتاريخ اليهودى بالعيش فى تحفظ وعزلة تحول دون تأثرهم بالتطورات الحديثة فى البحث التاريخى.

تعرض صاند للانتقاد فى إسرائيل لأنه كتب فى التاريخ اليهودى، بينما كان تخصصه هو التاريخ الأوروبى. لكن كتاباً كهذا الكتاب يحتاج بالفعل مؤرخاً مطلعاً على المفاهيم القياسية المعتمدة فى البحث التاريخى لدى الأوساط الأكاديمية فى بقية العالم.

مازن النجار

Matai ve'ech humtza ha'am hayehudi?

متى وكيف جرى اختراع الشعب اليهودى؟

شلومو صاند

Risling - 2008

كغطاء لمهامى السرية عملت فى السودان كصحفى ومندوب للإعلانات

كنت نائبا لرئيس المخابرات



عبدالفتاح أبو الفضل

بعد التوقيع على اتفاقية الجلاء فى ٢٧/ ٧ /١٩٥٤ انتهت أعمالى فى مكتب مخابرات الإسماعيلية، وعدت للعمل بالقاهرة وهناك علمت أن مهمتى القادمة هى العمل فى السودان وأننى سأعمل كمراسل صحفى لجريدة الجمهورية ومندوبا لشركة الإعلانات المصرية التابعة لدار الجمهورية.

لأجل الغطاء فى عملى بالسودان كمراسل صحفى فقد قمت بتقديم طلب للعمل فى دار الجمهورية وشركة الإعلانات المصرية وصار تعيينى فيها، وقد وضع لى برنامج تدريب دقيق لأجل أن ألم بأعمال المراسل الصحفى ومندوب شركة إعلانات، وقام بتدريبى مع شخص آخر متخصص فى الإعلانات وآخر فى الصحافة ومررت بأقسام الإعلان بجميع فروعها ثم بأقسام التحرير ثم التوزيع، وأصبحت فى خلال شهرين جاهزا للعمل تحت هذا الغطاء وصار استخراج بطاقة صحفية بنفس اسمى وبطاقة Press Collect أيضا.

وقبل توجهى إلى السودان أمضيت شهر ديسمبر سنة ١٩٥٤ فى التعرف على شخصيات مهمة، تعمل فى السودان ولكنها كانت فى مصر حينذاك بسبب مأموريات أو إجازات. من أهم هذه الشخصيات حسين ذو الفقار صبرى عضو مجلس السيادة بالسودان والمرحوم الأستاذ عبد العزيز السيد وكان وقتها يشغل منصب المدير المصرى لجامعة الخرطوم قبل أن يصبح وزيرا للتربية والتعليم وهو أصلا أستاذى فى العلوم الرياضية بالكلية الحربية، كما تعرفت إلى الأستاذ صلاح محمد على مدير وكالة الأنباء العربية بالخرطوم وغيرهم ممن أفادونى كثيرا فى تسهيل عملى الصحفى والسياسى فى السودان بعد ذلك.

ومن خلال دراساتى ومقابلاتى وأحاديثى التى قمت بها تمكنت من وضع ملخص للموقف العام فى السودان وعلاقاته بمصر.

وعلى أعتاب توجهى إلى السودان كانت عوامل كثيرة تعمل ضد صالح مستقبل العلاقات بين مصر والسودان.

للاستزادة:
كنت نائبا لرئيس المخابرات
عبدالفتاح أبو الفضل
دار الشروق - ٢٠٠٨ - ٣٠٠ صفحة



مع بعض قادة جيش التحرير الجزائرى على الحدود المغربية الجزائرية



مع المناضلين الجزائريين فى القاعدة المغربية على الحدود الجزائرية وفى أقصى اليمين الصحفى المرحوم إسماعيل الحبروك

فالحزب الوطنى الاتحادى (حزب الأزهرى ونور الدين) وهو حزب الأغلبية البرلمانية تنكر لمبدئه وهو الوحدة مع مصر وأصبح ينادى بالانفصال عن مصر أملا فى الاستقلال كلية. ونظام الحكم المصرى لا يحظى فى السودان برضاء أحزاب الأغلبية ولا أحزاب الأقلية، وكذلك الرأى العام يؤيد الاتجاه الانفصالى لتأثره بتصرفات ثورة ٢٣ يوليو مع صديقهم الرئيس محمد نجيب. وبريطانيا تلعب دورا مستترا فى محاولة إقناع الرأى العام السودانى بأن أفضل الحلول للسودان هو الحصول على استقلال مرتبط بالتاج البريطانى كالنظام، ولو فى شكل بقاء الحاكم العام البريطانى الذى كان معمولا به فى الهند. وكانت بريطانيا على اتصال وتعاون وثيق مع أتباع المهدى زعيم طائفة الأنصار وحزب الأمة.

وعلى ضوء هذا الموقف تحددت تفاصيل مهمتى وعلى رأسها الإجابة عن سؤال مهم جدا: هل هنالك أمل فى الوحدة؟ أم انقطع الأمل تماما؟ كما كان علىّ أن أدرس جذور الوضع المتردى وموقف التيارات المختلفة ضد الوحدة وأسباب تلك الحقيقة وهى بالتحديد مواقف الأحزاب التى تنادى بالانفصال وتلك التى تنادى بالوحدة، وكذلك مواقف طوائف أتباع المهدى والختامية أتباع الميرغنى.

ولكى أتمكن من الحصول على الإجابات الصحيحة لمهمتى كان لابد لى من تكوين دائرة واسعة من المعارف يكون لها اتصالات وثيقة وقريبة من معظم التيارات السياسية الموجودة فى السودان. وفى أول يناير سنة ١٩٥٥ سافرت إلى الخرطوم بعد أن سبقنى إلى هناك مساعداى، صديقى زميل الدراسة محمد غالب وكان أبوه سودانيا ومساعدى الآخر عبد الفتاح فرج وهو مصرى، وأصلا من قبيلة الدنكا بجنوب السودان.

وعند وصولى للخرطوم توجهت لزيارتهما وكانا قد أقاما بفندق يملكه رجل سودانى خفيف الظل وشهرته (كيشو). وكان الفندق ملتقى الشباب المثقف فى الخرطوم فهو مكانهم المفضل وخاصة اليساريين السودانيين. كما كان المكان المفضل لإقامة أعضاء البرلمان الجنوبيين.

وتوطدت علاقاتى بعدد كبير من شباب السودان المثقفين ومعظم

الحديث الكثير هذه الأيام عن مدى وحدود التزام العمل «السرى» الثورى بالمفاهيم القانونية «التقليدية» لسيادة الدول، يستحضر فى الذاكرة العربية وقائع من قبيل مايرويه هذا الكتاب



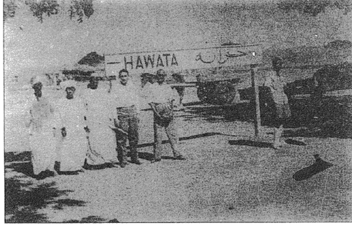
السياسيين الجنوبيين والكثير من عناصر الحزب الوطنى الاتحادى الذين تمسكوا بمبدأ «الوحدة مع مصر ثم استطعت من خلال المعارف والأصدقاء المقربين توسيع دائرة معارفى أكثر لتشمل عناصر الجناح الموالى لمصر (جناح نور الدين) داخل الحزب الوطنى الاتحادى وتمكنت من التعرف إلى بعض أعضاء البرلمان الشماليين والجنوبيين وكذلك شملت دائرة معارفى العديد من المصريين خاصة المدرسين، ومهندسى الرى.

وكانت هذه الدائرة الواسعة من المعارف مصدرا مهما لمعرفة حقيقة الأوضاع بالسودان، وبعد فترة أخرى وجيزة توطدت علاقاتى وصداقاتى بكثير من العناصر السياسية السودانية الذين كانت لهم مواقف معادية من الوحدة مع مصر، ولذلك فقد كانوا فى كل المناسبات يعبرون - بصدق - عن حبهم لمصر وللمصريين. وكنت أعجب لذلك فى بادئ الأمر حتى نبهتنى الواقعة التالية، التى عبر فيها الشعب السودانى - تلقائيا - عن ذلك التناقض.

واقعة سينما الخرطوم

حضرت فى إحدى الأمسيات عرضا سينمائيا بإحدى دور العرض بالخرطوم وحين عرضت الجريدة الإخبارية الناطقة فى بداية العرض، ظهرت ملكة بريطانيا فى إحدى الفقرات وفى إحدى المناسبات البريطانية، وكانت تمتطى صهوة جواد من خيول الحرس الملكى المطهمة وترتدى ملابس الحرس الملكى الملونة الفخمة فتؤدى التحية العسكرية للحرس المصطف أمامها فى خشوع ونظام. عند ذلك ضجت قاعة السينما المحتشدة بالشعب السودانى، وأخذوا يصفقون أثناء هذه اللقطة تصفيقا شديدا ويهمهمون استحسانا، وتلت هذه الفقرة أخرى ظهر فيها جمال عبد الناصر وهو يخطب فى الجماهير المصرية وركزت الجريدة الناطقة الأجنبية عليه وهو فى حالة عصبية ظاهرة ويضرب بيده على المنصة بحماس فما كان من نفس الجمهور السودانى إلا أن ضج بالأصوات المعادية والسخرية لمرأى عبد الناصر.

كان هذا رد فعل تلقائيا لا يعبر عن



أثناء العمل فى السودان

حب أو سخط الشعب السودانى لبريطانيا أو مصر، ولكنه انعكاس صادق لمدى ما صنعه الاستعمار البريطانى فى نفسية الشعب السودانى بحيث شوه العلاقة الأخوية المصرية السودانية.

الحركة الوطنية وتخطى الطائفية

كان للوجود المصرى الحديث فى السودان. وبنفس القدر الوجود السودانى فى مصر - أثر كبير فى نمو الحركة الوطنية الحديثة فى السودان بما عمله من فكر ووعى ثقافى وطنى وسياسى. وساعدت الأزمات السياسية التى كان يفتعلها الاستعمار فى مصر المحتلة والسودان المحتل إلى اشتعال جذوة الوطنية السودانية وإلى الخروج من التقوقع داخل الطرق الصوفية والطائفية التى أعلنت الولاء فجأة للمستعمر البريطانى بعد كفاح طويل واستقلال دام على يدها لمدة ١٣ عاما عندما اندلعت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وذهب الوفد المصرى إلى مؤتمر باريس للمطالبة بالاستقلال.

تجاوبت الحركة الوطنية السودانية الجديدة مع الثورة المصرية وقامت المظاهرات الصاخبة فى السودان مطالبة بوحدة وادى النيل وكان على رأس المتظاهرين الضابط السودانى المتقاعد محمد أمين هديب.

عقب تصريح بريطانيا فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ قامت جمعية «الاتحاد السودانى» وكان لأحد الضباط المصريين (محمد فتوح) علاقة بها وهو فى الوقت نفسه كان صديقا للبطل الضابط السودانى على عبد اللطيف وكانت هذه الجمعية تجمع المثقفين السودانيين ونظمت مظاهرة مطالبة أيضا بوحدة وادى النيل. وأحيل الضابط عبد اللطيف إلى المعاش وكون جمعية سرية جديدة اسمها «اللواء الأبيض» وكان من ضمن تنظيمها عدد كبير من موظفى البريد والتلغراف والتليفونات (حققوا سرعة الاتصال ونشر الدعوة الوطنية). وفى مواجهة التجمع الطائفى الاستعمارى عند نشرهم وثيقة الولاء لبريطانيا، وتأكيدهم فى هذه الوثيقة على اختيارهم لبريطانيا دون مصر. وقادت «اللواء الأبيض» المظاهرات ضد بريطانيا والطائفية المتعاونة معها خصوصا بعد اعتقال السلطات البريطانية لمندوبى «اللواء الأبيض» بسبب السفر إلى مصر للمطالبة بوحدة وادى النيل.

عمت المظاهرات الخرطوم وأم درمان وواد مدنى وحلفا والأبيض وبور سودان ومالكال وكسلا وكان المتظاهرون السودانيون يرفعون العلم الأبيض وخريطة النيل واعتقل على عبد اللطيف فى ١٩٢٤/٧/٤ وحكم عليه بالسجن واندلعت الثورة (سنة١٩٢٤) فى السودان مؤكدة على المطالبة بوحدة «وادى النيل» ومتخطية عمال الطائفة المتعاونة مع الاستعمار. وخرج طلبة الكلية الحربية السودانية فى مظاهرات وطنية نظامية ويشتعل حماس الجماهير لمنظرهم ٩/ ١٩٢٤/٨.

بعد انسحاب الجيش المصرى من السودان سنة ١٩٢٤ طبقا للإنذار الذى قدمه الإنجليز لحكومة مصر على إثر اغتيال السردار، انفرد الإنجليز بالسودان، وأخذوا يثيرون طائفتى الختمية والمهدية الجديدة (المهدى ختمية) لتوسيع شقة الخلاف بين مصر والسودان. ومع ذلك استمرت القوى الوطنية السياسية فى التجمع والانتشار إلى أن تكون أول تنظيم سياسى وطنى عام ١٩٣٨.

فى عام ١٩٣٨ تكون المؤتمر القومى العام للخريجين يضم الخريجين السودانيين من مراحل التعليم المختلفة ووجد هذا التنظيم مقاومة من الحكومة.

فى عام ١٩٤٢ طالب مؤتمر الخريجين السلطة الحاكمة بحق تقرير المصير وقوبل بما يشبه الرفض وعلى أثر ذلك انشق مؤتمر الخريجين إلى:

(أ) المعتدلين: وأغلبهم من العناصر ذات الولاء للمهدى ختمية وكان على رأسهم إبراهيم أحمد وكانوا على صلة بشكل أو بآخر بالحكومة ويؤيدونها.

(ب) المتشددين: وكانوا من القوى السياسية الوطنية وكانوا يطالبون بالحرية وحق تقرير المصير بزعامة إسماعيل الأزهرى وتجاوب الرأى العام السودانى مع الأزهرى فكون حزب الأشقاء وكان هدفه الاتحاد مع مصر. وكانت الختمية فى هذا الوقت تأخذ جانب التقارب مع مصر غيرة من المهدية فكان حزب الأشقاء تحت رعاية الختمية (على الميرغنى) وكانت مصر تؤيد هذا الحزب. والجانب الآخر من الخريجين انضم تحت لواء عبد الرحمن المهدى. وكونوا حزب الأمة برئاسة ابنه صديق المهدى وكان هذا الحزب ينادى باستقلال السودان التام (السودان للسودانيين)..

- سنة ١٩٤٨ قاطع حزب الأشقاء انتخابات الجمعية التشريعية التى أقامها البريطانيون وعارضتها حكومة مصر، ونظم الحزب المظاهرات ضد الجمعية التشريعية واعتقل زعيم الحزب إسماعيل الأزهرى.
- ثم قامت الختمية بتبنى فكرة تكوين جبهة وطنية، وكان ذلك نتيجة صراع داخل حزب الأشقاء وكانت هذه الجبهة الوطنية

تدعو إلى عدم الارتباط الكامل بمصر. وكانت تحت رعاية الميرغني.

• سنة ١٩٥١ تكون الحزب الجمهوري الاشتراكي يعارض الاتحاد مع مصر.

• بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ قام الرئيس محمد نجيب بالمبادرة لحل قضية السودان وعمل على جمع الشمل السوداني واندمج حزب الأشقاء مع الجبهة الوطنية في الحزب الوطني الاتحادي بزعامة الأزهري.

وقد خرج الحزب الوطني فجأة بإعلان استقلال السودان الكامل ومعارضا الوحدة مع مصر مدعيا الظروف السابق الإشارة إليها.

ثالثا: تاريخ اللعبة البريطانية في السودان

بدأت الأطماع البريطانية في السودان عقب احتلالها لمصر عام ١٨٨٢وكان للسودان وضع خاص بالنسبة للوجود المصري بها بموجب «الفرمان السلطاني التركي في ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ بنقل ولاية مصر على السودان». توالت على السودان أحداث الثورة المهدية حتى استطاع محمد أحمد المهدي أن يحقق انتصارات متتالية وكانت الجيوش المصرية تسيطر على أجزاء كثيرة من السودان. وبخاصة في الشرق.

وانتهزت بريطانيا الفرصة لابتلاع السودان من يد الإمبراطورية العثمانية المنهارة، ومن الولاية المصرية المحتلة ففرضت على مصر إخلاء السودان. لكن رئيس الوزراء المصري شريف باشا رفض إخلاء السودان بموجب فرمان ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٨ لأنه يحظر على مصر التصرف في الأقاليم السودانية. كان ذلك بموجب مذكرة أرسلها شريف باشا إلى سير أفلين بارنج في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٣، ثم استقال شريف باشا بضغط بريطانيا وتولى نوبار باشا الوزارة فنفذ ما طلبه الإنجليز بإخلاء السودان سنة ١٨٨٤.

ولأجل الانفراد كاملا باحتلال السودان فرض على الحكومة المصرية سنة ١٨٩٩ الخاضعة تماما للإرادة البريطانية توقيع وثيقة استعمارية بين حكومتي بريطانيا ومصر، ووجدت بريطانيا في رئيس وزراء مصر الضعيف الشخصية بطرس غالي الرجل المناسب لتسليم مقدرات السودان إلى السلطة البريطانية بموجب اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩.

وبعد ستة أشهرمن توقيع الاتفاقية الأولى وكانت مادتها الأولى تعترف بحق رفع العلم المصري فقط على سواكن والتي لم ينسحب منها الجيش المصري طول فترة الثورة المهدية. أبرم كل من كرومر وبطرس غالي مرة أخرى في ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ اتفاقا آخر أنهى شكل الوجود المصري كلية من سواكن أيضا. وهذا هو ما يطلق عليه اتفاقيتي سنة ١٨٩٩.

اللعبة البريطانية بمياه النيل

منذ تثبيت أوضاع الاستعمار البريطاني في السودان وطبقا لاتفاقيتي سنة ١٨٩٩ المشئومتين. فقد أكدت هاتان الاتفاقيتان على أن يكون الحاكم العام للسودان بريطانيا. وفي الوقت نفسه سرداراً للجيش المصري حتى يضمن الإنجليز السيطرة على أوضاع الجيش المصري، وبموجب هاتين الاتفاقيتين تنبه البريطانيون إلى أهمية مياه النيل بالنسبة لمصر بالمقام الأول ثم السودان وإمكان اللعب بها.

وكان المخطط البريطاني والمتحكم في أمور مصر والسودان يختص مصر بالنصيب الأكبر من مياه النيل وبشكل مبالغ فيه لأسباب في نفس يعقوب وليس من أجل مصالح مصر. فمصر اعتبرها الإنجليز منذ الاحتلال مزرعة القطن التي تشغل مصانع الغزل والنسيج في بريطانيا.. وكان من مصلحتهم ازدهار الزراعة في مصر حتى تزدهر صناعة وتجارة المنسوجات في بريطانيا، وفي الوقت نفسه لم تكن السودان وقتها في حاجة إلى كميات كبيرة من المياه لتخلف الأمور الزراعية فيها. ولاعتمادها بصفة رئيسية على مياه الأمطار كما أن بريطانيا درست نفسية الشعب المصري الذي تعد الزراعة بعداً أساسيا في حياته فهي تقدر مدى حرصه على المياه.

في عام ١٩٢٩ أبرمت اتفاقية مياه النيل مع مصر ونالت مصر نصيب الأسد من مياه النيل على حساب السودان حيث تحددت حصة مصر بـ ٤٨ مليار م٣ سنويا والسودان ٤ مليار م٣ سنويا فقط، وهذا التميز ترك آثارا سيئة على نفسية القوى الوطنية السودانية على مر الزمن. في الوقت نفسه عمل البريطانيون منذ وجودهم في السودان على إقامة مشروع الجزيرة وأنشأوا فيها زراعة القطن بغرض منافسة السودان لمصر في هذه الزراعة وطرح إمكانية حصول السودان على نصيب من مياه النيل على حساب حصة مصر المبالغ فيها، لذلك عقب مقتل سردار الجيش المصري وحاكم عام السودان على يد الوطنيين في القاهرة.

قدم البريطانيون إنذارا إلى حكومة سعد زغلول، ومن ضمن شروطهم إعطاء السودان كمية مفتوحة وغير محدودة من مياه النيل، مما أوجد بعض المرارة لدى المصريين وأعطت حقا مستقبلا للسودانيين يصعب استرجاعه منهم بواسطة المصريين.



هذه اللعبة البريطانية الخبيثة خفيت أبعادها في وقتها عن عقلية المصريين والسودانيين، ولكن ثمارها ظهرت بعد اتفاقية السودان (٢فبراير سنة ١٩٥٣) فعندما عقدت مفاوضات مياه النيل بين مصر والسودان بالقاهرة في أبريل سنة ١٩٥٥ ظهرت جذور ما حفره الإنجليز من تناقض بين المطالب المصرية والحقوق السودانية. وفشلت هذه المفاوضات بشكل مأساوي مما كان له أثر بالغ على العلاقات المصرية السودانية بل إنها كانت من الأسباب الرئيسية في استبعاد فكرة الوحدة مع مصر.

أول عملية بالسودان

كان الأستاذ صلاح محمد على رئيس وكالة الأنباء العربية يعمل مع مدير جريدة (Morning News) وهي جريدة باللغة الإنجليزية تصدر في السودان، وكان المدير بريطانيا أقام بالسودان مدة طويلة جدا. وعلمت من صلاح محمد على أن لهذا الرجل نشاطا اجتماعيا ورياضيا واسعا فهو حريص على سباق الخيول ويقوم بالتحكيم أثناء السباق، وعند متابعة أخبار ونشاطات هذا الرجل ساورنا أنا وصلاح شك في أن هذا البريطاني يقود شبكة الجاسوسية البريطانية بالسودان. وعن طريق صديق لنا داخل مصلحة التليفونات السودانية وضعت مكالمات هذا المدير تحت المراقبة.

وبعد مدة وجيزة من وضعه تحت المراقبة تأكدنا من أنه على اتصال مريب بجميع المستشارين البريطانيين في حكومة السودان، فهو يتلقى منهم أدق المعلومات وهم بدورهم يعملون بتعليماته. كما ثبت اتصاله بمعظم وكلاء الوزارة الدائمين بحكومة السودان، وظهر أن معظمهم يتعاون تعاونا كاملا مع بريطانيا. إلا أن أخطر ما تأكدنا منه هو علاقته المريبة برئيس مكتب الاتصال الحبشي بالسودان (ملس عندوم) وكان يعتبر من أخطر عملاء الولايات المتحدة الأمريكية في السودان.

وفي الوقت نفسه تمكنا بعد مجهود شاق من استمالة سكرتير مدير جريدة (Morning News) السوداني للعمل معنا. وقد تمكن هذا السكرتير من الحصول على نسخة من مفتاح خزينة المدير الإنجليزي التي يحتفظ فيها بالأوراق السرية فقمنا بتصويرها وإعادتها إلى مكانها ثانية.

وعن طريق هذه المستندات القيمة تأكدنا من أن هذا المدير رئيس شبكة الجاسوسية البريطانية بالسودان وبالتالي حصلنا على المعلومات التي أثبتت أن «ملس عندوم» الذي تعلم بمصر في مدارس أسيوط على علاقة وثيقة بالمخابرات الأمريكية، وعن طريق التنصت على مكالماته التليفونية تبين لنا أنه على اتصال ببعض العناصر المصرية الأصل والسودانية الجنسية التي يهمها بقاء الاستعمار البريطاني في السودان لازدهار أعمالهم.

وللأسف وعلى الرغم من كشف العلاقة المريبة «ملس عندوم» والتي سجلتها في المخابرات المصرية إلا أن مصر وافقت في وقت لاحق أن يكون سفيرا للحبشة بمصر ولفترة طويلة، وكان عميدا للسلك الدبلوماسي الأجنبي في مصر ثم أكرمته مصر فصار لاجئا سياسيا بعد سقوط هيلاسلاسي. كذلك كشفت هذه المستندات السرية عن الخطط والتدابيرالبريطانية لعزل السودان كلية عن مصر.

ولشغفي بالرحلات والاستكشافات قمت فيما بين فترات العمل بعدة رحلات استطلاعية إلى غرب السودان حتى الأبيض وإلى شرقه فوصلت حتى كسلا وبور سودان. ولحسن الحظ وبطريقة موفقة تكشف لي خلال إحدى هذه الرحلات، أحد الأسرار الاقتصادية الذي جعل من السودان مركز اهتمام بريطانيا وبالتالي جعل بريطانيا تخشى التقارب المصري السوداني.

فى هذه المذكرات أيضا تفاصيل لجوانب أخرى من كواليس العلاقات «التاريخية» بين مصر والسودان، والتى كثر الحديث عنها أيضا هذه الأيام مع تطورات دارفور، وماتم كشفه عن عمليات غامضة استهدفت قوافل ربما كانت تعمل فى تهريب السلاح



خلال رحلتى للأبيض اصطحبت معى مساعدى فى المكتب عبد الفتاح فرج السودانى الأصل الجنوبى.. وفى أحد أيام الرحلة استيقظت مبكرا وبعد أن تناولنا الإفطار خرجنا معا فى جولة بالمدينة، واسترعى انتباهى مبنى على النمط الأوربى الحديث، وفى ملابسهم البيضاء الناصعة أحاطت جموع غفيرة من السودانيين بالمبنى، ولاحظت أحد الأجانب الذين يقيمون معنا بالفندق وهو يقف بجوار المبنى ويتحدث مع فريق من جموع السودانيين.

أثار الموقف فضولى فسألت عن سر المبنى وسبب تجمع الناس من حوله. فعلمت أننا فى موسم لتسويق محصول السودان من الصمغ العربى وأن السودان تستأثر بحوالى ٨٥٪ من حصة الإنتاج العالمى لهذا المحصول.

أما المبنى الحديث هذا فهو مبنى بورصة الصمغ العربى.. والرجل الأجنبى الواقف فى وسط السودانيين مندوب الحكومة البريطانية ويعمل مستشارا لشركات تجارة الصمغ العربى.. وقد اعتاد الحضور كل عام فى هذا الموسم ليشرف على عملية تجارة الصمغ العربى. أما باقى السودانيين ذوى الملابس الوطنية البيضاء فمعظمهم مندوبون للشركات الأجنبية التى تقوم بشراء الصمغ العربى من السودان«والأبيض» تعتبر مركز تجميع هذا المحصول.

ودفعنى الفضول لدخول مبنى البورصة فلم يعترضنى أحد إلا أن الجميع أخذوا ينظرون إلىَّ مستغربين ومستفسرين عمن أكون. وتغاضيت عن هذا ووقفت أراقب ما يحدث، فبدأت المزايدات لشراء وبيع الصمغ العربى، ولاحظت أن ثلاثة فقط من مندوبى الشركات هم أنشط المندوبين حيث تمكنوا من الحصول على معظم المحصول المطروح فى البورصة وبأسعار متفاوتة بنسبة ضئيلة جدا. وعند الاستفسار علمت أن مندوب شركة جلاتلى وهانكى Glatly and Hanky هو الذى تمكن من الحصول على معظم الكمية المطروحة. وأن هذه الشركة البريطانية يرأس مجلس إدارتها الجاسوس البريطانى الشهير فى البلاد العربية «عبد الله فلبى» وكان يشغل فى الوقت نفسه منصب المستشار السياسى للملك سعود. أما ما تبقى من المحصول فقد حصلت عليه أيضا شركتان بريطانيتان وهكذا احتكرت بريطانيا الصمغ العربى.

وعند وجودى فى أول إجازة بمصر اتصلت بالدكتور رياض تركى وكان رئيسا لمركز البحوث القومى وبعد سرد القصة كاملة عليه فكر قليلا ثم أجاب إنه يعلم أن الصمغ العربى له استخدام مهم فى تكنولوجيا استخراج البترول. وأشار علىَّ بزيارة حقول البترول البريطانية فى البحر التابعة لشركة شل (Shell) وأعطانى اسم أحد المهندسين الجيولوجيين المصريين العاملين هناك وهو من تلاميذه وعلمت بالفعل أن الصمغ العربى يستخدم فى عملية حفر آبار البترول، فعندما تدور البريمة بسرعة فائقة خلال عملية الحفر ينتج عن تلك الحركة السريعة حرارة مرتفعة فيبرد بواسطة خليط من الطفلة والصمغ العربى ويسمى هذا الخليط Draga Gum. وكذلك عندما يتأكد من وجود البترول تصنع ماسورة خاصة من نفس هذا الخليط ليمر من خلالها البترول المتدفق من البئر، فهذه الماسورة الخاصة هى الوحيدة القادرة على مقاومة تيار البترول المتدفق واحتكاكاته كما تحمى البريمة أثناء عملية الحفر من التآكل والكسر. وعند عودتى إلى القاهرة واطلاعى على إحصائيات التجارة الدولية تبين لى أن بريطانيا كانت وقتها هى المحتكر الوحيد لتجارة هذه المادة وأنها تعيد بعد ذلك توزيعه وبيعه إلى جميع الدول المنتجة للبترول. وبناء على ذلك رفعت تقريرا يتضمن قصة الصمغ العربى كاملة مع التوصية بأن تحاول مصر فى السنة التالية وفى موسم المحصول أن تقوم بشراء الصمغ العربى عن طريق بنك مصر فرع السودان وهو فرع كان يرأسه الأستاذ عمارة.

وبالفعل فى السنة التالية. وكنت قد تركت العمل بالسودان، علمت أن بنك مصر هناك قد تمكن من دخول المزاد. ونتيجة للمنافسة تسبب فى رفع السعر لصالح المنتج السودانى وحصلت مصر على حصة مجزية من النصيب الذى احتكرته بريطانيا طويلا.

من المطبخ السياسى إلى جزيرة آبا

خلال عملى فى السودان تناقلت أوساط شباب السودان أخبار صالون تتجمع فيه الشخصيات السياسية ورجال الأعمال السودانيون وبعض المستوطنين الأجانب وأعضاء البرلمان وبعض الدبلوماسيين الأجانب. وعلمت من هؤلاء الشباب أن ضيوف الصالون تقدم لهم الخمور وعندما تلعب الخمر برءوسهم تنطلق ألسنتهم بأسرار الدولة السياسية والاجتماعية فتتلقفها الآذان المتنبهة. وفى أمسيات هذا الصالون كان يتم طبخ سياسة السودان العليا كما كان يحدث فى مصر فى «كلوب» محمد على قبل الثورة.



وفى فيلا كبيرة تملكها أرملة أحد أثرياء الأجانب من الإيطاليين الذين جمعوا أثناء عملهم بالسودان ثروات طائلة، كانت تقام أمسيات الصالون. وكان لهذه الأرملة ابنة على جانب كبير من الجمال، ولها نشاط اجتماعى واسع فى السودان وكانت مخطوبة لأحد الشبان اللبنانيين الذى يعمل فى شركة أجنبية كبيرة فى السودان وكان صديقا لمحمود سليم. وأوعزت لزميلى المصرى أن يدخل فيلا المطبخ السياسى بصحبة صديقه اللبنانى. تم ذلك بأسلوب طبيعى جدا.

وكان محمود سليم وسيما وعلى درجة من الثقافة فأمكن بسهولة اكتساب ثقة أعضاء هذا النادى السياسى الاجتماعى، وأصبح من أكثر أعضاء هذا المنتدى الاجتماعى محبة. وساعدتنى المعلومات التى كنت أحصل عليها منه عما يدور من أحاديث وأسرار فى هذا المطبخ السياسى الفريد فى نوعه على الوقوف على حقيقة أى حدث سياسى أو اقتصادى رسمى لا تعلن عنه الصحف. وكانت هذه المعلومات مادة صحفية فى منتهى الكفاءة، وكنت أرسلها إلى جريدة الجمهورية، أما المعلومات ذات الصبغة السرية فكنت أرسلها أولا بأول كتقارير إلى رئاستى.

وثائق اتفاقية مياه النيل

عن طريق أحد أعضاء هيئة التدريس المصريين فى السودان، الأستاذ «نصر الدين السيد» والذى له صلات اجتماعية ممتازة بكبار الموظفين فى الدوائر السودانية المهمة تعرفت على شخصية سودانية بارزة ذات وعى كامل بألاعيب السياسة الاستعمارية البريطانية فى السودان.

وعندما شعر هذا الصديق السودانى بالدور الذى يقوم به المستشار البريطانى «كارل مايكل». وخاصة أثناء مفاوضات اتفاقية مياه النيل سنة ١٩٥٥ والتى كانت تتم بالقاهرة بين وفد حكومة السودان برئاسة خضر حمد وزير الرى السودانى وعضوية مأمون بحيرى وبين الوفد المصرى برئاسة زكريا محيى الدين. أمكن هذا الصديق السودانى الوطنى أن يقدمنى إلى صديق له، يعمل فى أرشيف وزارة الرى السودانية، وكان هو الآخر على درجة عالية من الوعى السياسى.

كان المستشار كارل مايكل يرسل إلى القاهرة يوميا، ودوريا، تقارير إلى وكيل الوزارة مأمون بحيرى. والذى كان يرافق وفد المفاوضات السودانى فى القاهرة، وكان بتلك التقارير توجيهات وإحصائيات كلها تدعو إلى التشدد فى موقف السودان من حصة مياه النيل ومصاغة بدهاء اشتهر به البريطانيون.

كانت كل هذه التقارير ذات السرية العالية تصلنى فى وقت مناسب جدا وكان يتم تصويرها وإعادة المستندات الأصلية. وبالاتفاق مع رجال شركة مصر للطيران كانت صور هذه الوثائق المهمة ترسل أولا بأول لتكون فى متناول يد المفاوض المصرى قبل اجتماعات التفاوض، مما كان له أثر كبير فى كشف المخطط البريطانى، الذى كان يمثله المستشار البريطانى موريس، المرافق لوفد السودان لمفاوضات مياه النيل بالقاهرة، والذى تسبب فى إفشال هذه المفاوضات التى أجريت فى إبريل ١٩٥٥، وتوقفت فى الشهر نفسه. (نجحت تلك المفاوضات عام ١٩٥٩ عندما ابتعد الإنجليز عن الوظائف).

حادث اختناق العمال الفلاتة

وفى مساء أحد الأيام أبلغنى الصديق المصرى صلاح محمد على مدير وكالة الأنباء العربية بالسودان وكان مكتبه بجوار مكتبى الذى استأجرته بالخرطوم. أبلغنى أن برقية وصلته حالا تحمل نبأ سيئا، فقد اختنق أكثر من مائة عامل من الفلاته فى بلدة «كوستى» فى مديرية «النيل الأزرق» وعلى النيل الأبيض،وهم عمال أفارقة يفدون فى مواسم خاصة

إلى السودان أو يمثلون القوة العاملة الموسمية وكانت تفرض عليهم الشركات الزراعية السودانية البريطانية أجورا زهيدة يرضون بها تحت وطأة ظروفهم السيئة. وعندما طالب هؤلاء العمال برفع أجورهم رفضت هيئة مشروع الجزيرة طلبهم واستعدت عليهم السلطات السودانية والبوليس، فاعتقلوا لعدم إمكان التفاهم معهم، ووضعهم البوليس مكدسين فى عنبر واحد وكان عددهم حوالى ١٣٥ عاملا. وبعد مدة من الحجز فى هذا العنبر الضيق المساحة، ماتوا جميعا مختنقين من شدة الحرارة Heat Exhaust.

وأفادنى صلاح محمد على أن هذا الحادث اهتمت به صحافة ووكالات الأنباء العالمية وكلفوا مندوبيهم بالتوجه إلى «كوستى» مكان الحادث لتغطية أنبائه. فاتخذت المبادأة وأسرعت فى تجهيز نفسى وسافرت إلى هناك فى الليلة نفسها.. وبصحبتى زميل صحفى سودانى هو الأستاذ سعد الشيخ ومساعدى عبد الفتاح فرج، ووصلنا إلى هناك بعد منتصف الليل وعلى الفور توجهنا إلى مكان الحادث واجتمعنا فور وصولنا مع قائد البوليس السودانى وجمع من أهالى (كوستى) وكانوا مجتمعين فى شبه ثورة ضد حكومتهم وجاء على لسان أحدهم: «الله يرحم أيام الاستعمار البريطانى» وتبادلت الحديث معهم، وأقنعتهم بعد مناقشة هادئة مستنكرا فضل الاستعمار، وأفهمتهم أن استعداء السلطة على هؤلاء المظلومين هو من فعل موظفين سودانيين ولكنهم فى الحقيقة لحساب شركة ما زالت أصبع بريطانيا تعمل فيها.

وفى الصباح الباكر خرجت من المنزل الذى استضافونى للإقامة به إلى منطقة العنبر المشئوم، وهناك أخذت أقيس العنبر الذى حجز فيه ١٣٥ بائسا اختنقوا عن آخرهم بالخطوة طولا وعرضا حتى يمكن أن أقف على الحجم الكلى له. وأخبرنى الأهالى أن العمال لم يقوموا بأى عمل من أعمال العنف، ولكنهم توقفوا فقط عن العمل وتجمعوا فى أماكن إقامتهم المتواضعة حول الأكواخ فحضر رجال البوليس وأخذوا فى جرهم بقسوة. وربطهم بعضهم ببعض بالحبال وهم يصرخون من شدة الألم وعنف المعاملة ثم ساقوهم إلى هذا العنبر وأغلقوا عليهم الأبواب بإحكام. وبعد نصف ساعة بالضبط أخذ المحجوزون داخل العنبر يستغيثون ولا من مجيب. ثم بعد مدة أخرى علا صوتهم وأخذوا يدقون بشدة على الأبواب واعتقد حراس العنبر القلائل أن المحتجزين فى حالة ثورة فلم يبلغوا رؤساءهم. ورويدا أخذت أصوات الاستغاثة والاحتجاج تخفت إلى أن خمدت مرة واحدة ثم ساد صمت الموتى. وعندما علم الرؤساء بهذا الحادث المفجع أرادوا التستر على الجريمة البشعة فقاموا أثناء الليل وقبل بزوغ النهار بنقل جثث الموتى إلى مقبرة كبيرة جدا بالقرب من العنبر وأهالوا عليها التراب. وقادنى الأهالى إلى مكان المقبرة... وتسمرت مكانى فقد هالنى ما رأيت فلم يسعف الوقت والإمكانيات البوليس لتغطية الجثث بالتراب.. فكانت بعض الأذرع المتدلية والأرجل المستسلمة والعيون الجاحظة تطل من بين الأتربة تصرخ فى صمت بليغ ضد عنف الإنسان وعدم آدميته. وأبرقت من الخرطوم بتفاصيل الحادث المؤلم، وأرسلت الصور إلى جريدتى وإلى إذاعة ركن السودان وهما المصدران اللذان انفردا بتفاصيل هذا الحادث المروع.

رحلة وحوار فى جزيرة آبا

استمرت جزيرة آبا مهد الحركة المهدية تلعب دورها فى تعميق جذور تعاليم المهدى الدينية. وأصبحت هذه الجزيرة أيضا معقل الحركة المهدية الاستعمارية الحديثة والتى ظهرت بشكل مخالف تماما للحركة المهدية الأصلية، حيث اشتهر الزعيم السيد عبد الرحمن المهدى قائد الأنصار وراعى حزب الأمة بمعاداته لمصر وتبنى الدعوة الانفصالية عن مصر. بعكس أفكار المهدى الكبير، وقمت برحلة إلى الجزيرة يرافقنى الأستاذ سعد الشيخ وهو صاحب شركة إعلانات سودانية كانت مندمجة مع شركتنا المصرية، وكان شابا واسع الاطلاع بشئون وتاريخ بلده السودان. وأثناء الطريق روى قصة السيد عبد الرحمن المهدى، وكيف كان يتقن القيام بدوره المزدوج وهو تعميق وتثبيت زعامته الدينية ليغرر بأتباعه لمسايرة السياسة البريطانية الاستعمارية. فبعد أن شب السيد عبد الرحمن المهدى أعادته بريطانيا للحياة فى جزيرة آبا بين أتباعه وأنصاره الذين كانوا يتوافدون من جميع أنحاء السودان للتفرغ للعلم والعبادة حسب تعاليم المهدى الكبير داخل أروقة القصر المعد لهذا الغرض. وكان عبد الرحمن المهدى يتعمد الاختفاء قبل موعد الغروب ويتسلل خارجا إلى البرارى والحقول، يتجول فيها. وعندما يخيم الظلام كان يتعمد أن ينير مصباح يد (بطارية يد) كهربائى من تحت عباءته فيبدو فى الليل ومن بعد كأنه شبح منير. ويرى أتباعه المنتشرون فى أرجاء الجزيرة هذه الظاهرة الغريبة ويعتقدون أنها تدل على الخير والبركة والتقوى وأن روح سيدهم عبد الرحمن المهدى الطاهر تتجول فى الليل، ويصيح الأتباع بأعلى أصواتهم منادين: (سيدى بينور سيدى بينور) ولا يجرءون على الاقتراب منه فترتفع مكانته عندهم، وأصبح إيمانهم به واتباعهم له لا يرقى إليه الشك.



وعند وصولنا إلى مقر المهدى بالجزيرة علمنا بالصدفة أن ابن السيد عبد الرحمن المهدى «الأستاذ الصادق المهدى» قد حضر. وانتهزت هذه الفرصة وطلبت مقابلته ورحب هو بهذا اللقاء. وكنت علمت من زميلى الأستاذ سعد الشيخ أنه خريج جامعات بريطانيا ووجدته شابا لبقا عالى الثقافة يتقن الحوار فى لغة عربية محببة باللكنة السودانية ذات النطق العربى السليم، قدم إلينا الشاى على الطريقة البريطانية. وبدأ الحوار فسألته «عن موقف حزب الأمة قبل بداية مفاوضات مصر مع بريطانيا على المسألة السودانية، وتأييده لهذه الاتفاقية فى اجتماعهم بمحمد نجيب ثم تحولهم وتنكرهم للاتفاقية إلى المطالبة بالانفصال وأن يصبحوا أعضاء فى الكومنولث البريطانى علما بأن تحرير وادى النيل شماله وجنوبه كوحدة واحدة كان هدف المهدى الكبير». فقال: «إن مصر منذ احتلالها من وقت عرابى وجميع ساستها برغم وعيهم التام بأنهم غير مستقلين كانوا يعتبرون ويعاملون السودان على أنه مستعمرة مصرية ويتمسكون بحق الفتح وثابت ذلك من جميع محاضر جلسات المفاوضات المتعاقبة بين المصريين والبريطانيين، فكان المصريون يؤكدون دائما على حق مصر فى السودان (حق الفتح) وضرورة تبعيتها لمصر بشكل أو بآخر ولم يضع زعماؤكم وساستكم أى اعتبار أو وزن لرأى السودان والسودانيين أنفسهم. وحتى أيام الاحتلال البريطانى لمصر والسودان كان الاستعمار البريطانى يدعى أن وجوده فى السودان للمحافظة على حقوق مصر فى السودان وكنتم تصدقونه، وهذا الخضوع الذى يعبر عنه الاستعمار البريطانى كنا فى السودان نعرف جيدا أنه خضوع شكلى. لكنكم كنتم فى مصر كالنعام تخبئون رءوسكم أمام عدوكم معتقدين خطأ أنكم مادمتم لا ترون عدوكم فهو لا يراكم. كنتم فى مصر تصدقون بريطانيا فيما تدعيه لحمايتكم حتى من مطالبة السودانيين بحقهم فى بلادهم، وتتناسون أن فى السودان شعبا وساسة وقادة وزعماء وطنيين ينتمون إلى هذه الأرض». وقال أيضا: «إن الوجود البريطانى فى السودان حقيقة والوجود المصرى فى السودان منذ الاحتلال البريطانى لمصر رمز وشكل دون المضمون. المفروض علينا نحن السودانيين أن نتعامل مع الحقيقة لا مع الشكل».

عند هذا الحد من حديثه بدأ الانفعال يفرض نفسه على نبرات صوته ويبدو أن سؤالى فى هذا الوقت بالذات أصاب منه موجعا برغم أن رده كان به شىء من الواقع والحقيقة المرة فقررت أن أستمر فى محاورته. فأعدت إلى ذاكرته أن مصر عندما أرادت التفاوض مع بريطانيا على الجلاء عن مصر بدأت أولا بالمطالبة بالجلاء عن السودان، وبادرت مصر بجمع شمل الأنصار (طائفتكم) وطائفة الخاتمية ومختلف الأحزاب فى القاهرة وبذلت مصر خالص جهدها لتوحيد كلمتكم واعترفت بكيانكم وبإرادة الشعب السودانى، وبحقكم الكامل فى تقرير المصير لتختاروا الوضع الذى يحقق مصلحتكم. لكن للأسف كان لحزبكم (حزب الأمة) موقف أثر على مجريات الأمور بشكل عكسى مخالفا بذلك لمبادئ وأهداف الحركة المهدية الأصلية على يد المهدى الكبير.

ووافيت القاهرة بهذا الحديث وتعليقى عليه بأنه يكاد يطابق الرأى العام السودانى الذى يتطلع فى هذا الوقت إلى الاستقلال.

معظم النيران من مستصغر الشرر

كنت قد تقدمت منذ وصولى إلى السودان بأوراق رسمية للسلطات السودانية لتسجيل مكتب الجمهورية

قد لايعلم كثيرون عن محاولة جرت لاختطاف الملك طلال من معتقله / منفاه الجبرى فى تركيا، كما لعلهم قد نسوا تفاصيل المساعدات المصرية للمقاومة الجزائرية على الحدود مع المغرب



للإعلانات والصحافة بمستندات سليمة عن طريق مكتب أحد كبار المحامين السودانيين (محمد أحمد محجوب أحد أقطاب حزب الأمة والذى أصبح وزيرا فيما بعد). وقدمت مع صور هذه المستندات طلبا إلى وزارة الداخلية السودانية والجوازات والجنسية لأحصل على تصريح إقامة للعمل. وكنت أتردد على مكتب الوكيل الدائم لوزارة الداخلية السودانية «محمد عثمان يس» للسؤال عن طلب الإقامة. وفجأة وبعد مرور أكثر من ستة شهور على وصولى للسودان استدعانى محمد عثمان يس وكيل الداخلية الدائم بمكتبه. وأخذ يسألنى عن حقيقة اسمى وعملى السابق قبل العمل الصحفى وأجبته بأننى كنت ضابطا بالجيش المصرى برتبة اليوزباشى وقد استبعدت من العمل بالجيش بعد عملية التطهير بعد الثورة. ولكنى تمكنت من الحصول على عمل فى دار الجمهورية فى شركة الإعلانات الشرقية. وأخرج قصاصة ورق من درج مكتبه قرأ فيها اسم يوزباشى محمد عبد الفتاح أبو الفضل. ورقم التليفون وعنوان المنزل. (ادعائى بأننى من الضباط المصريين فى التطهير كان تغطية فقط بطبيعة الحال).

وبثبات كررت عليه ما قلت له، وأفهمته أنه ليس هناك ما يمنع ضابط الجيش بعد استقالته أو استبعاده من العمل العسكرى أن يمارس عملا مدنيا وليس فى هذا ما يثير الشبهات، وقد تركته وأنا شبه متأكد أن هناك وشاية أو تبليغا من أحد، وأنه أخذ يشك كباقى السودانيين أننى موفد من السلطات المصرية فى مأمورية خاصة، ولكنى قبل مغادرتى مكتبه قلت: إن السلطات المصرية إذا كانت هى التى رتبت وضعى بهذه الصورة لم يكن من الصعب عليها أن تزيف اسمى حتى تكتمل الصورة والغطاء.

وقال لى الزميل صلاح محمد على رئيس وكالة الأنباء العربية بالخرطوم إنه فى لقاء خاص بينه وبين وكيل وزارة الداخلية السودانية علم منه أن هناك أحد المدرسين المصريين المعينين بعقد مع حكومة السودان، يتعاون مع الأمن السودانى وأنه هو الذى أبلغهم ذلك بعد أن رجع إلى دفتر التليفون المصرى ووجد به اسمى بالكامل وعنوان منزلى بالقاهرة وأمام الاسم رتبة اليوزباشى.

وتولانى غضب من هذا الشخص الذى وصل إلى هذه الدرجة من الخسة وأردت أن ألقنه درسا بصورة أو بأخرى وكان يملك عربة فاخرة وكثيرا ما يتركها أمام منزله أثناء الليل فى حى الموجرن الهادئ فى السودان وتمكنت من وضع عدة أقراص من السكر فى تنك بنزين العربة. وعندما قام بتشغيل عربته بعد ذلك احترق الموتور وكبده ذلك مبالغ طائلة لإصلاحها.

وكان فى هذا التصرف شىء من الصبيانية، ولكنى كنت شابا وفى بدء حياتى العملية، ولكنى استدعيته بعد ذلك بمدة، وحذرته من مثل هذه الأعمال الخطرة، وأكدت له أننى الذى قمت بتخريب سيارته انتقاما مما قام به من أعمال تصل إلى مستوى الخيانة.

الاحتكاك بالوكيل الدائم

بعد واقعة استدعائى فى الأمن السودانى ومواجهتى لشكوكهم، تصادف ودعيت إلى حفل عشاء فى منزل الصحفى صالح عرابى رئيس تحرير جريدة الصراحة السودانية وكانت تؤيد سياسة مصر إلى حد كبير. وبعد أن بدأ المدعوون فى تناول الأطعمة من البوفيه وأثناء انتقائى لبعض الأطعمة وكنت بالمصادفة وقتها بجوار وكيل الداخلية الدائم محمد عثمان يس، وكان يتبادل الحديث بالإنجليزية مع رئيس تحرير جريدة المورننج نيوز Morning News. وهو فى الوقت نفسه رئيس شبكة الجاسوسية البريطانية فى السودان الذى أشرت إليه قبلا وجه محمد عثمان يس الكلام لى وهو فى حالة سكر: «كيف حال ولد البق»؟ وهذه إهانة بالغة درج عليها أهل السودان عندما يريدون توجيه إهانة إلى أى مصرى على أساس أن حشرة البق موجودة فى البيوت المصرية الفقيرة وحاولت السيطرة على أعصابى وقلت له: إننى أفتخر بأننى مصرى صميم لأنك وصفتنى بصفة مصرية صميمة لا نخجل منها ولكنك لا أكثر ولا أقل من خائن سودانى وولاؤك فى المقام الأول لهذا البريطانى ولبريطانيا. وكنت متأكدا أن رئيس تحرير المورننج نيوز، يتقن اللغة العربية وواصلت توجيه اللوم الشديد له وبصوت مرتفع وتجمع حولنا كثير من المدعوين من السودانيين والأجانب. وحضر الداعى صالح عرابى وأخذ يعتذر لى هو وجمع كبير من نواب البرلمان الأصدقاء، ورفعت الحرج عن موقف الداعى صالح عرابى وقلت له إننى فى منزلى وقد قمت بالتصرف نيابة عنه وفى اليوم التالى حضر لى فى المنزل الأستاذ صالح عرابى ومعه جمع كبير من الصحفيين السودانيين وكثير من أعضاء البرلمان. وكان الاجتماع مثمرا، قام الصديق العزيز محمد عبد الجواد نيابة عنهم بالكلام وقال: إنهم حضروا ليس للاعتذار ولكن بدافع حبهم وتقديرهم لمصر والمصريين وامتدادا لدور الوطنيين السودانيين الذين يؤمنون بضرورة الوحدة مع مصر. وإنهم على يقين من قدرتى على توصيل ما سيعبرون عنه إلى المسئولين فى مصر. وقال محمد عبد الجواد: «إن السودان منذ احتلال البريطانيين لمصر وللسودان بعد إخماد ثورة عرابى اندلعت فيه ثورة محمد أحمد المهدى تحت علم الدعوة الدينية الصادقة بمعاداة المحتل الأجنبى».



وكان المهدى الكبير فى ثورته ضد الإنجليز يقوم بمحاربة الإنجليز والأتراك ولم يقصد المصريين إطلاقا لأنه فى الوقت نفسه كان يعتبر ثورته امتدادا لثورة المصريين بقيادة أحمد عرابى. وبرغم أن الثورة السودانية تمكنت من تحقيق الاستقلال لمدة حوالى ١٣ سنة. فقد قامت الجاسوسية البريطانية داخل صفوف الثورة المهدية بالفتن بعد أن تجاوبت معها الكثير من الدول العربية والإسلامية وتمكنت بريطانيا بعد ذلك من الاستعانة بالجيش المصرى المغلوب على أمره وبقيادة الضباط البريطانيين من إخماد ثورة المهدى ونجحت بريطانيا فى غرس بذور الخلاف بين السودانى والمصرى. ثم استدارت على المهدية نفسها وخلقت زعامة خائنة لتعاليم المهدى من أبنائه هو عبد الرحمن المهدى، كما استعانت بالطائفة الميرغنية والشريف الهندى فى توطيد دعائم حكم بريطانيا ونفس الشىء تكرر بعد توقيع اتفاقية السودان، وفى غفلة من المسئولين المصريين الذين لم يفطنوا لملابسات الألاعيب البريطانية فى تعاملهم مع الثورة المهدية. فقد قامت بريطانيا، وفى غفلة من المصريين، باللعب داخل صفوف الاتحاديين بزعامة الأزهرى الذى كنتم تعتمدون عليه، وفى زيارته لبريطانيا قبل تقرير المصير تم طبخ الدور بالكامل وعاد وهو ينادى بالاستقلال متخليا عن المتفق عليه مع المصريين من تحقيق الوحدة. وبأموال أمريكا. وبتغلغل النفوذ البريطانى فى السودان وسيطرتهم على الوزارات السودانية عن طريق وكلاء الوزارة السودانيين الدائمين وكلهم عملاء لبريطانيا فشلت الوحدة... وبشكل مؤكد ولا أمل لمصر فى تغيير الوضع داخل السودان وكل ما نرجوه منكم هو تحسين وتقوية العلاقات بين شعب مصر والسودان والتى عن طريقها يمكن تحقيق ما هو أقوى وأثبت من الوحدة.

الواقع أننى لم أجد ما أرد به على كلام هذا الصديق المدعم بالأسانيد التاريخية وكان هذا الحديث مجال تقرير شامل لى عن موضوع الوحدة أو الاستقلال. وأعتقد أنه كان من ضمن الأوراق التى استندت إليها مصر فى مباركة رغبة السودان فى الاستقلال.

الصراع فى منطقة الشرق الأوسط

منذ وصولى إلى الخرطوم فى أول يناير سنة ١٩٥٥ وما قبلها بعد إبرام اتفاقية السودان والتطورات التى حدثت فى الرأى العام السودانى منذ إبرام الاتفاقية فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣. ومنذ إبرام اتفاقية الجلاء فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ اتسم الموقف الداخلى فى مصر بالهدوء. كانت مصر مصممة على التفرغ لمعركة التنمية وذلك بالبدء فى تنفيذ مشروع السد العالى. ومنذ عام ١٩٥٣ حاول دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة، ثم إيدن فى فبراير سنة ١٩٥٤ إقناع مصر بضرورة وأهمية اشتراكها فى حلف عسكرى دفاعى لمنطقة الشرق الأوسط (امتدادا لمشروع صدقى بيفن الذى سبق ورفضته مصر قبل الثورة) لسد الفراغ بعد جلاء القوات البريطانية عن مصر على أن يقوم العرب بمساندة هذا الحلف. بمباركة مصر له.

رفضت مصر وعارضت هذا الحلف مشيرة وبكل وسيلة وبخاصة فى وسائل إعلامها وبشكل مركز فى إذاعة صوت العرب المسموعة فى العالم العربى كله بالإضافة إلى الإذاعات الموجهة لدول العالم الثالث وهى مناطق نفوذ الاستعمار القديم والكتلة الغربية. وفوجئت مصر بالدول الغربية العظمى تحاول استئناس مصر وتطويعها لتفرض عليها

التبعية. وكلما كانت تعارض مصر فى قبول ما رسمه لها الاستعمار القديم كالدخول فى أحلاف عسكرية تحتويها، كانت الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة. وطلبت مصر السلاح من الغرب لمواجهة الاعتداءات الإسرائيلية، وأمعن الغرب فى فرض الشروط المجحفة. وحاولت مصر طلب المعونات الاقتصادية والعسكرية من روسيا فلقيت من الغرب التهديد والوعيد، ودخلت مصر فى دوامة.

بعد أكتوبر سنة ١٩٥٤ استخدمت كل من بريطانيا وأمريكا شتى أساليب الضغوط على مصر لتعيد إلى منطقة الشرق الأوسط استكانتها السابقة للاستعمار الغربى خصوصا مع ظهور النفوذ الروسى المتطلع للانتشار وكسر حصار التحالفات الغربية من حوله خاصة فى المناطق حديثة الاستقلال ذات التيارات الوطنية.

كانت المهمة هينة وبسيطة بالنسبة لإنجلترا وأمريكا فى أغلب دول الشرق الأوسط، ولكنها كانت صعبة ومستعصية فى تعاملها مع مصر.

تحسن الموقف فى السودان

كل هذه المواقف الصعبة التى واجهت بها مصر الضغوط المختلفة من الدول العظمى وبخاصة من الكتلة الغربية والولايات المتحدة جعلت الرأى العام العربى يتجاوب مع مواقف مصر المتطلعة لتحرير إرادتها من دوائر التبعية. وحيث إن السودان علاوة على انتمائه للوطن العربى، فإنه برغم ما شاب علاقاته بمصر من تدهور فى فترة تقرير مصيره والتى عاصرت فترة منها، فقد تغير الموقف كلية هناك فى آخر عام ١٩٥٥ ومطلع عام ١٩٥٦ سواء على المستوى الرسمى أو الشعبى. وعادت الثقة المتبادلة بين القطرين الشقيقين.

إجازة بلا عودة

فى الأيام الأخيرة من يونيو سنة ١٩٥٦ حضرت إلى القاهرة فى إجازة وقبل أن أغادر الخرطوم حصلت على فيزا (تصريح) العودة Re - Entery Visa.

بعد الخلاف المستمر بينى وبين وكيل وزارة الداخلية السودانية الدائم محمد عثمان يس تلافيا لاعتراض المسئولين فى قنصلية السودان بالقاهرة على إعطائى تأشيرة الدخول، ومع ذلك فقد كانت آخر إقامة لى بالسودان. وفى مساء ٢٦ يوليو وكنت فى عربتى قرب ميدان السيدة زينب أستمع من خلال راديو السيارة إلى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى احتفالات ٢٦ يوليو بالإسكندرية، وأثناء الخطاب أخذ يشرح ملابسات تمويل السد والظروف والمراحل التى مرت بهذا التمويل، وأعلن فى نهاية هذا الاستطراد قرار تأميم شركة القناة.

وفى يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٦ صدرت لى الأوامر بعدم العودة إلى السودان كى أقوم بمهمة فى مصر بعد تتابع الأحداث نتيجة تأميم قناة السويس.كلفت بإعادة تنظيم المقاومة السرية بمنطقة القناة لأن الموقف الدولى الغربى بدأ يشن حملة مسعورة ضد مصر. توحى بأن هناك عدوانا مرتقبا على مصر كرد على عملية تأميم القناة.

وفى الأيام التالية شكلت بريطانيا وفرنسا وباقى دول الكتلة الغربية هيئة دولية مستفزة أسمتها «هيئة المنتفعين» وعن طريق هذه الهيئة مارس الغرب علينا ضغوطا مختلفة جعلت القيادة فى مصر تعد العدة لأسوأ الاحتمالات. وهو العدوان المسلح.

محاولة خطف الملك طلال

أثناء عملى بتركيا صدر إعلان فى أول مارس سنة ١٩٥٨ عن قيام وحدة بين الدولتين العربيتين العراق والأردن، والمرتبطتين بشكل أو بآخر بالحلف المركزى، وهما ذات نظام ملكى.

كان هذا الإعلان فى ظاهره تحقيق وحدة عربية وفى باطنه يحمل معنى المناوأة للوحدة العربية بين سوريا ومصر، ومع ذلك فقد اضطررنا إلى مباركة هذه الوحدة على أن أى اتحاد بين أى قطرين عربيين ما هو إلا وحدة فى أى صورة، ولكن كان على مصر بالذات أن تكشف أهداف هذه الوحدة.

قادنى تفكيرى من هذا المنطلق لوضع خطة لاختطاف الملك طلال من معتقله بتركيا. على أن يعلن بعد ذلك على لسان هذا الملك الشرعى عدم موافقته على هذه الوحدة (الملك طلال هو والد الملك حسين ملك الأردن الذى ساعدته والدته الملكة زين وزوجة الملك طلال فى عزل زوجها الملك طلال بحجة مرضه العصبى وأودعته مستشفيات أمراض النساء فى إستامبول كمعتقل دائم له).

وكان الملك طلال داخل مستشفى الولادة موضوعا تحت حراسة أحد رجال الياوران الأردنى الضابط صبحى طوقان وهو فلسطينى الأصل. أبلغت رئاستى ووافقت على خطتى وتعاونت مع الملحق العسكرى زكريا العادلى لتنفيذها. أرسل الملحق العسكرى أحد رجاله لمقابلة صبحى طوقان على أنه صحفى مصرى وكان صبحى طوقان حاد الذكاء، وبسرعة غير متوقعة تجاوب معنا وأثناء حديثه مع مندوبنا أفصح له عن كامل استعداده للمساهمة فى عملية إخراج الملك طلال من تركيا وتسليمه لنا بأية وسيلة نراها، وفى أى مكان أو ميناء حيث إنه كثيرا ما يصحب الملك فى نزهات خارج المستشفى تحت مسئوليته هو خصوصا بعد طول ملازمته إياه.



طلب صبحى طوقان الاجتماع مع المسئولين عن هذه العملية وفعلا اجتمعنا معه، واتفقنا على التفاصيل وأجلنا ميعاد التنفيذ بعض الوقت.وكان طلب صبحى طوقان الوحيد منا بعد نجاح هذه العملية هو أن يلجأ سياسيا إلى مصر. ولسوء الحظ فى هذا التوقيت حضر الصحفى المصرى الأستاذ جميل عارف (صحفى بالمصور) فحام حول المستشفى الموجود به الملك طلال وأخذ كثيرا من الصور بآلة التقريب Telephotao من خارج المستشفى كما أحدث بعض النشاط الصحفى المريب حول المستشفى، ثم صدر عدد من مجلة المصور به ريبورتاج بصور تفصيلية عن حياة الملك طلال وحارسه والمحيطين به داخل المستشفى فى صور واضحة، وكأن الصحفى والمصور كانا مقيمين معه داخل هذا المعتقل الصحى.

لم يكن للصحفى المصرى أى هدف إلا تذكير الرأى العام بمأساة الملك طلال التى طال عليها الزمن، ولكن الملكة زين المدبرة الأولى لاعتقال الملك طلال انزعجت مما جاء بالمصور وتوقعت وجود مؤامرة. وأرادت التحقيق مع الحارس صبحى طوقان بعد الاشتباه فى أن له يدا فى وصول الصحفى المصرى لزوجها داخل المستشفى. كنت فى أنقرة وطلبنى صبحى طوقان عن طريق القنصل المصرى فى إستامبول حيث إنه تم استدعاؤه للأردن وأنه لا يرغب فى تنفيذ هذا الأمر ويخشى أن تستعدى الملكة زين الأمن التركى لاعتقاله وترحيله إلى الأردن لمحاكمته.

سافرت إلى صبحى طوقان فى إستامبول وقابلته بمبنى القنصلية المصرية وأفهمنى أن الملكة زين حضرت بنفسها منذ ساعة وأرسلت فى طلبه وأنه رتب هروب أسرته فى عربة جارتهم الصديقة التركية وحضر هو بعربته الخاصة لاجئا إلى القنصلية المصرية فى انتظارى. وتصرفت بسرعة وكان معى مساعدى سعد وفا. جعلت صبحى طوقان يتصل بزوجته وشقيقته ويأمرهما بالسفر بعربة الجارة الصديقة التركية إلى الحدود التركية اليونانية، وقمت أنا بعربتى ومعى صبحى طوقان وقاد عربة صبحى طوقان سعد وفا وتوجهنا إلى أدرنة على الحدود التركية اليونانية حيث تم اللقاء مع أسرة صبحى طوقان، وكان معهم جميع أوراق السفر وتم خروج صبحى طوقان من تركيا عن طريق اليونان واتفقنا على أن نتقابل فى مكان معين فى أثينا وفى ميعاد معين، وعدت إلى إستامبول وقبل بدء العودة وجدت الأمن العام التركى منتشرًا وخارجها حتى نقطة الحدود. ولكن سبق السيف العذل فقد خرج الطير من القفص. وسافرت فعلا بعد يومين إلى اليونان وقابلت صبحى طوقان وزودته بما يلزم من النقود وجميع ترتيبات السفر بعربته وأسرته إلى القاهرة ودخل لاجئا سياسيا فى مصر وأقام طول حياته بعد ذلك فى مدينة الإسكندرية، وفشلت خطتنا فى مساعدة الملك الشرعى للأردن.

رحلة إلى غرب إفريقيا

أثناء عملى بمجموعة المصادر العلنية قمت برحلة إلى غرب إفريقيا وزرت أربعا من دولها واحدة كانت مستقلة من مدة طويلة وهى ليبيريا، ولكن كانت تسيطر على حكومتها شركة دانلوب الأمريكية لصناعة المطاط حيث إن ليبيريا من أغنى بلاد العالم فى خام المطاط الطبيعى، وزرت ثلاث دول مستقلة حديثا هى غينيا وغانا والكاميرون. والملحوظة العامة التى لفتت نظرى عن هذه الدول الإفريقية حديثة الاستقلال أن بها إمكانات كبيرة للتواجد العربى برءوس أمواله البترولية

للاستثمار بصفة عامة هناك ولتواجد مصرى بطاقاته العلمية والبشرية بصفة خاصة.

كان يمكن تزاوج رأس المال العربى مع الخبرة المصرية للمساهمة فى التنمية الصناعية لمشاريع استثمارية تعود على الأطراف الثلاثة (الدول الإفريقية والرأسمال العربى ومصر) بالخير، على الأقل فى مجال المنتجات الاستهلاكية والمثل الصارخ على هذا الخلل الاقتصادى كان واضحا بشكل بارز فى ليبيريا Liberia حيث إن المحال التجارية هناك تعرض للبيع معظم السلع من مواد تموين إلى مفروشات وأثاث والضرورى لجميع مطالب الحياة ولكن معظم خاماته من إفريقيا ولكنها مصنعة فى أمريكا وتباع بأغلى الأسعار إلى المستهلكين هناك وكان المثل على ذلك وجود كراسى الجلوس هناك كلها مصنوعة فى أمريكا من خشب المامبو المنتج والمستزرع فى غرب إفريقيا وليبيريا نفسها، كانت شركة النصر المصرية للاستيراد والتصدير والتى كانت تعمل فى غينيا مثلا ممتازا لهذا النجاح ولو أنها اعتمدت فقط على الاستثمار المصرى.

● فى طريق العودة من هذه الرحلة قمت بزيارة تونس والمغرب. وفى المغرب تصادف ميعاد زيارتى لها أن يكون عقب زيارة المرحوم الملك محمد الخامس لمصر، وعودته على طائرة حربية مصرية يرافقه وفد مصرى صحفى من رؤساء تحرير الصحف وكبار الكتاب المصريين بدعوة من الملك. تقابلت فى الفندق مع هذا الوفد وكنت أعرف بعض أعضائه ودعيت معهم إلى حفل عشاء فى قصر الملك. أثناء الحفل جلس معنا رئيس مكتب جبهة التحرير الجزائرية، وهو صحفى وأخذ يدعو الصحفيين المصريين لزيارة إحدى قواعد جيش جبهة التحرير الجزائرية فى قاعدة له بالمغرب على الحدود الجزائرية. شعرت بعدم حماس معظم الصحفيين المصريين اللهم إلا المرحوم الأستاذ إسماعيل الحبروك رئيس تحرير جريدة الجمهورية فشجعته، وعرضت ذهابى معه.

لم يضيع رئيس مكتب جبهة التحرير الجزائرية الوقت. وأبلغنا أن الرحلة ستبدأ بعد نهاية حفل العشاء مباشرة. وبعد الحفل مر بنا مندوب الجزائر ونحن بعربته على الفندق حيث أخذ كل منا ما خف حمله من حاجيات المبيت لمدة يومين وتوجهنا فى عربة مدنية قوية إلى القاعدة الجزائرية فى داخل أراضى المغرب. واختلطنا هناك مع شباب الجزائر أثناء تدريباتهم ووقف المرحوم إسماعيل الحبروك خطيبا واشتركت أنا معهم فى ضرب النار وجمعتنا بهم موائد الطعام فى مواعيد المعسكر وأخذنا صورا معهم وانتظرنا إلى المساء، وأخذنا عربة إلى ما قبل الحدود المغربية الجزائرية وعلى تل فى العراء وجدنا هناك أحد أفراد قوات المقاومة الجزائرية. حضر باتفاق يبدو أنه تم باللاسلكى من داخل الحدود ليقودنا كدليل فى تسللنا إلى داخل الجزائر. وعلى الحدود جعلنا نزحف، خلال نفق محفور تحت سور الأسلاك الشائكة وعلمت فيما بعد أن مثل هذا النفق يجهز مسبقا عند ما تكون هناك عملية إدخال لقوات من الخارج. ويضطر بعد التسلل إلى إزالته لإخفائه عن العدو الفرنسى.

كان يرافقنا عدد كبير لا يقل عن عشرين فردا ممن تم تدريبهم. وفى الداخل وجدنا مندوبا آخر كان يختبئ فى الليل خلف تل وينتظر وصولنا. قادنا الفدائيون خلال دروب الصحراء مشيا على الأقدام لمدة ساعة ونصف وفجأة وجدنا أنوار قرية صغيرة. دخلنا القرية الجزائرية فى حماية الفدائيين والمرافقين من أبطال تحرير الجزائر. فى الصباح تناولنا مع عدد من كبار أهل القرية الإفطار. وأمضينا وقتا طيبا بينهم أطلعونا على أسباب استقلال هذه المنطقة عن السيطرة الفرنسية. وعلمنا منهم أن جميع التلال المحيطة بهذه القرية تنتشر فيها نقط حراسة حصينة من جيش التحرير. وكثيرا ما قدمت حملات من الجيش الفرنسى لاحتلال هذه القرية، وفشلت جميعها بعد تكبد الفرنسيين الخسائر الجسيمة.

مكثنا إلى وقت الليل فى هذه القرية الصامدة الباسلة. وعدنا من نفس الطريق وبنفس الأسلوب فى أثناء الليل وانتهت الرحلة داخل الجزائر ولكنى مكثت فى القاعدة الخارجية حسب طلبهم بعد أن علموا منى سابق خبرتى فى حرب العصابات فى القتال وكانت لقاءات مثمرة تناولنا فيها تبادل الخبرات واستمرت لمدة أسبوع تعايشت فيه مع هؤلاء المكافحين وقام المرحوم إسماعيل الحبروك عند عودته إلى القاهرة بعمل ريبورتاج بالصور فى جريدة الجمهورية عن هذه الرحلة الفريدة. ■

كتاب الزاوية



الآخر.. فى التلمود (٢)

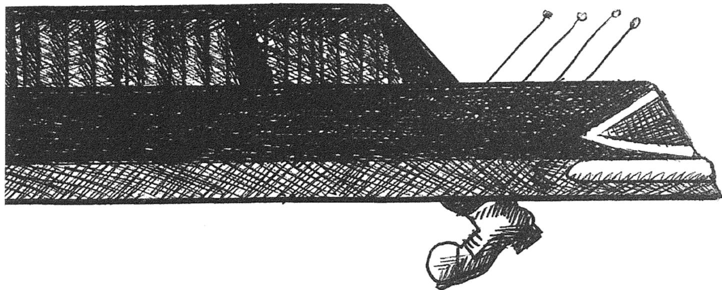
التلمود هو الشريعة الشفاهية لبنى إسرائيل. ويعد فى وقتنا الحاضر المرجعية الدينية لليهود المتشددين فى إسرائيل وخارجها . ويحتل المرتبة الأولى قبل توراة موسى عليه السلام التى تعرف بالشريعة المكتوبة.

والتلمود مؤلف فقهى يقع فى حوالى عشرين مجلداً من القطع الكبير ، ويضم ستة أقسام رئيسية هى : الزروع، المواسم والأعياد ، النساء ، الأضرار أو العقوبات ، المقدسات ، الطهارة.

وكان اليهود قد أحاطوا التلمود بسرية شديدة ، ولم يعرف عنه شىء إلا مع مطلع القرن ١٣م بعد ظهور نسخ مدونة منه. وعندما قدم المتنصر اليهودى نيقولاوس دونين (١٢٣٦ - ١٢٣٨م) للبابا جريجوريوس التاسع بابا الكنيسة الكاثوليكية مادة تلمودية مترجمة للاتينية عبارة عن ٥٥ فقرة مأخوذة من ٢٣ بابا من التلمود ، تجمعت للكنيسة الأدلة التى تدمغ التلمود وتدينه باعتباره كتاباً معادياً للنصرانية ، وسبباً أساسياً لتطرف اليهود الدينى ، فأصدر البابا عام ١٢٣٩م قراراً لملوك فرنسا وإنجلترا وأراجون ونفارا وقشتالة وليون وبرتغال حرم فيه كل أسفار اليهود وأمر بحرقها.

وقد سمح المجمع الكنسى الذى انعقد فى ترنت ١٥٦٤م بتداول التلمود شريطة أن تحذف من طبعاته تلك الفقرات التى تسىء للعقيدة المسيحية ، وفى أعقاب هذا القرار ، طبع التلمود فى بازل تحت رقابة من الرهبان الكاثوليك.

وهذه أول ترجمة عربية لباب من أبواب التلمود اعتماداً على النص الأصلى المكتوب بلغة خليط من الآرامية والعبرية واليونانية ، وتكمن أهمية هذا الباب فى كونه يدور فى معظمه حول موقف فقهاء التلمود من غير اليهود.



نظــــــام.. وفــــــوضـــى

الشــــارع القاهرى



محـــــمـــــد شــــومـــان

■■ حركة الناس والسيارات فى شوارع القاهرة، تجسد خطاباً ذا خصوصية متميزة بكل المعايير. خطاب بالغ التنوع والتفرد والتعقيد، فهو لا يتشابه مع أى خطاب فى أى مدينة أخرى من مدن العرب أو العجم. خطاب يعكس حال المجتمع والناس فى مصر والعلاقات التى تربط بينهم مادياً ورمزياً من ناحية، وتربطهم بالسلطة من ناحية أخرى. كما يعكس الكثير من مكونات ثقافة المجتمع المصرى، وما طرأ عليها من تغيرات بفعل ضغوط الحياة الاقتصادية والمشكلات الاجتماعية التى نجمت عن ضعف وتراجع دور الدولة نتيجة التحول المشوه والمتعثر إلى رأسمالية السوق والاندفاع نحو الخصخصة علاوة على الآثار السلبية للعولمة.

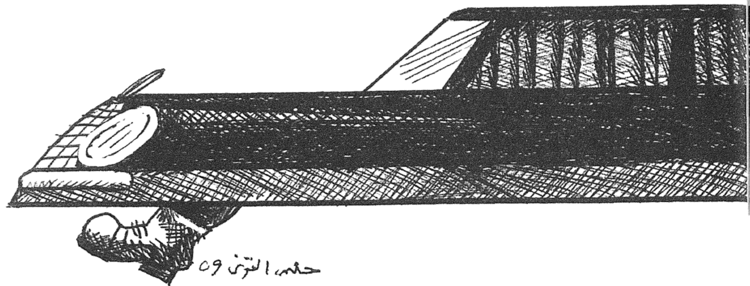
ضجيج وفوضى وأحيانا التزام بالنظام، وتحايل على سلطة القانون والدولة، وممارسة للسلطة كلٍ فى نطاق المساحة التى يتحرك فيها أو يحاول التحرك فيها أو الاستيلاء عليها من فضاء الشارع. إننا أمام خطاب متناقض ومتصارع إلى أقصى حد، ومع ذلك يشارك فيه الجميع ويتعايشون، صراع يتسم بقدر كبير من العنف غير المادى أو اللفظى، وقدر قليل من العنف المادى المباشر، وهى سمة من سمات الشعب الذى لا يميل كثيراً إلى الصدام العنيف.

إن فوضى الشارع وغياب سلطة الدولة وأنظمة المرور يفتح المجال أمام صراع إرادات بين السيارات المختلفة والمارة وأحياناً بعض مجندى الشرطة، كل هذه الصراعات يفترض أن تؤدى إلى أزمة بل كارثة مرورية، وحوادث كثيرة وكبيرة، ومع ذلك لا يحدث شىء من ذلك، ويتكيف الجميع على الضجيج والتلوث والبطء فى التحرك بين أحياء المدينة بل وفى داخل الحى الواحد. والمدهش أن الجميع ركاباً وقائدى سيارات ومارة ورجال شرطة قد تكيفوا مع الأوضاع الأسوأ مرورياً وتقبلوها، فبعد أن كان كل منهم يقطع المسافة من العمل إلى المنزل أو العكس فى نصف ساعة كما كان يعيش لسنوات خلت، تقبل الآن أن يقطع نفس هذه المسافة فى ساعة كاملة. ورتب حياته على هذا التغيير إلى الأسوأ.

والمفارقة أن الجميع يشكون لكنهم لا يحتجون بقوة أو يترجموا شكواهم إلى فعل، أى فعل. بل يتكيفون ويتعايشون ويتعاونون فى حل بعض الاختناقات المرورية أو فض المشاجرات التى تقع فى وسط الطريق. الكل يساهم فى إنتاج خطاب العجائب والمتناقضات فى الشارع المصرى ويشتكى، ولا يبادر لاتخاذ أى فعل، ربما عملاً بحكمة «الصبر مفتاح الفرج» والتى تشكل مكوناً رئيسياً من مكونات الثقافة المصرية والشخصية المصرية، أو ربما لسطوة الأنا والمصلحة الذاتية على العمل الجماعى أوالمصلحة العامة. فالفضاء الخاص هو الأصل، سواء فى الشقة أو السيارة أو مساحة الطريق التى يتمكن منها كل فرد. أما الفضاء العام فهو شأن لا يهم أحدا، فالأنا مالية صارت أحد مكونات الشخصية والثقافة المصرية.. ربما لضعف الوعى أو غياب الثقة فى إمكانية أن يقود العمل الجماعى بين الأفراد، وبينهم وبين الدولة إلى حل لأزمة المرور أو حتى التخفيف منها.

لا أستطيع أن أغلب سببا على آخر، ولكن ربما تكون كل الأسباب السابقة مجتمعة قادرة على تفسير ممارستنا فى شوارع القاهرة وتعايشنا معها وشكوانا الدائمة دون فعل أى شىء. ومشاركتنا اليومية فى إنتاج ذات الخطاب، تارة بقدر أكبر من الشكوى، وتارة بقدر أكبر من التسامح والتعاون، وتارة أخرى بقدر أعلى من التبرم والدعاء على هذا المسئول أو تلك الزيارة الرسمية التى تمنح القاهرة مزيدا من الزحام وتعطل حركة المرور، انتظارا لمرور موكب أو تشييع جنازة مسئول كبير. وفى كل الأحوال يظل الخطاب بكل مكوناته يكرر ذاته، ونظل نحن سكان القاهرة

حركة الناس والسيارات فى شوارع القاهرة
تعكس حال المجتمع والناس فى مصر والعلاقات التى تربط بينهم مادياً ورمزياً



وصـــراع ســـلطة!!!

وزائريها - الذين يتحركون فى شوارعها على طريقة إذا ذهبت إلى روما - ننتج بممارساتنا نفس الخطاب، ونعيد إنتاجه كل يوم.

مكونات الخطاب:

خطاب حركة الشارع فى القاهرة، الناس والمركبات بأنواعها، مثل أى خطاب له بنية ومكونات وتحولات، وبعض تلك المكونات قديمة وموروثة وبعضها حديث، وقد شهد هذا الخطاب أيضاً تحولات سأتوقف عندها أثناء العرض التفصيلى لمكوناته الراهنة. ويظل الخطاب بمكوناته وتحولاته كياناً مترابطاً شديد التنوع والتعقيد والتناقض. وفى محاولة لفهم هذا الخطاب أعرض لبعض مكوناته وتحولاته مع الحرص البالغ على فهم البنية الكلية المتماسكة للخطاب والتى تسم القاهرة بخصوصية فريدة وغريبة تجسد حال الناس والثقافة فى مصر.

١- ضجيج متواصل: فى شوارع القاهرة خليط عجيب وغريب من الأصوات، استحقت به المحروسة أن تكون واحدة من أكثر عواصم العالم صخباً وضجيجاً، صخب تصنعه بلا ملل أو كلل المركبات بأنواعها المختلفة والمشاة والباعة الجائلون ورجال الشرطة والمرور. ومع تدفق السيارات المستمر فى شوارع القاهرة التى صممت أصلاً لاحتواء عشر الأعداد الحالية، تبدو الشوارع بالغة الضيق، وبالتالى ترتفع معدلات التلوث، ويرتفع الضجيج. ومع مرور كل سيارة يضاف نوع جديد من الضجيج والتلوث بحسب عمر ونوع السيارة ومدى تهالكها، ومن المعتاد أن تجد سيارات مضى على تصنيعها أكثر من نصف قرن تسير إلى جانب سيارات حديثة آخر موديل. وهذا المشهد يعكس درجة عالية من التفاوت الاجتماعى بين أصحاب السيارات ويؤكد فى الوقت ذاته إمكانية العيش المشترك بين أفراد وشرائح اجتماعية متفاوتة. بل يبدو أحيانا صراعهم على أولوية السير أو الاستيلاء المؤقت على مساحة من الشارع ليصف سيارته، كأحد مظاهر المساواة بين أفراد مختلفين طبقياً وثقافياً إلى أبعد الحدود.

الضجيج الناجم عن التدفق المستمر للمركبات أو أصوات المحركات المتهالكة قد يبدو أمراً مفروضاً على الجميع، ومتجاوزاً لإرادتهم الفردية. لكن أصوات آلات التنبيه أمر آخر، فهى فعل إرادة، وسمة من سمات قيادة المركبات فى القاهرة، فمعظم إن لم يكن كل قائدى المركبات يستخدمون آلات التنبيه على الفاضى والمليان كما يقول المثل الشعبى المصرى. حتى فقدت دلالاتها الرمزية الحقيقية المتفق عليها فى العالم، وصارت لها معان ودلالات متعددة تختلف بحسب السياق. فمثلاً صار من المألوف أن يستمع المارة إلى آلة التنبيه ولا يكترثون، وأن تستخدم آلة التنبيه بقوة وبشكل متواصل ومرتفع كنوع من الاحتجاج أو إبداء التذمر، أو المناداة على صديق أو عامل فى محل، أو الإعلان عن وصول قائد السيارة سالماً لأهل بيته.

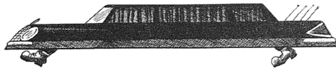
كما أن قائد السيارة المتعجل والذى يريد أن يتجاوز سيارة أخرى يضغط بقوة على آلة التنبيه، ليرفع من صوتها إلى أقصى درجة، ليس بهدف التنبيه على زميله فى الطريق بل لتهديده أو لتخويفه بأنه سيتجاوزه مهما كان الثمن وحتى وإن كانت المسافة لا تسمح. لكن فى بعض الأحيان يكون استخدام آلة التنبيه بصوت منخفض وسريع كنوع من التحية لزميل الطريق الذى انتظره لكى يقطع الطريق أو سمح له بتجاوزه. أما عن استخدام آلة التنبيه فى الشارع للاحتفال بفوز فريق كرة قدم أو الإعلان عن الفرح بزفاف أو خطبة فهو أمر شائع وصار من ضمن العادات المصرية، وقد يشارك فيه كل المارة حتى وإن لم تربطهم علاقة صداقة أو قرابة أو حتى معرفة بالعروسين، فالمشاركة هنا صارت جزءاً من تقليد إنتاج الضجيج واستهلاكه.

الدلالات متعددة وغريبة لكنها تؤكد أن آلة التنبيه أصبح لها استخدامات متعددة، بل يمكن القول إنها صارت عادة أو إحدى قواعد القيادة فى شوارع القاهرة بل وربما فى ثقافة أغلب المصريين، فمن الشائع أن تجد شخصاً يقود سيارة، خاصة سائقى التاكسى والميكروباص، فى منتصف الليل والطريق شبه خال ومع ذلك يستخدم آلة التنبيه كل دقيقة، وقد سألت أحدهم ذات مرة وكان سائق تاكسى عن أسباب استخدامه آله التنبيه فى هذا الوقت المتأخر من الليل. فقال إنها العادة ثم ابتسم وقال: «ويمكن بأسلى نفسى عشان مانمشى». هكذا تصبح آلة التنبيه أداة للحفاظ على يقظة السائق. ولكن الأعجب أن هناك شبه اتفاق على استخدام آلة التنبيه بطرق منغمة، يتم فيها تمديد أو تقطيع صوت آلة التنبيه ليشكل سباباً وشتائم بذيئة يتبادلها سائقو المركبات ويفهمون دلالاتها. أما الذين لا يدركون دلالاتها فيصبحون دون أن يدركوا ضحية لممارسة أحد أشكال العنف اللفظى أو بالأحرى العنف الصوتى.

ولا يقتصر أمر استخدام آلة التنبيه على كونها عادة أو وسيلة للتعبير عن المشاعر لكنها أيضاً وسيلة لممارسة السلطة فى الشارع المصرى، وإعلان الوجود المادى فى صراع الطريق. بل وربما ممارسة نوع من العنف اللامادى فى الطريق وإيذاء الآخرين. فصاحب آلة التنبيه الأعلى صوتاً قد يتمكن من تخويف الآخرين فيفسحوا له الطريق، أو على الأقل يتسبب فى إزعاجهم. لذلك



يعكس الشارع القاهرى درجة عالية من التفاوت الاجتماعى ويطرح سؤالاً عن إمكانية العيش المشترك بين أفراد وشرائح اجتماعية متفاوتة



يبدو أحيانا الصراع على أولوية السير أو الاستيلاء المؤقت على مساحة من الشارع لصف السيارة، كأحد مظاهر الصراع على السلطة، وتأكيد الهوية بين أفراد مختلفين طبقياً وثقافياً إلى أبعد الحدود

من المألوف أن يهتم كثير من المصريين بسلامة وقوة آلة التنبيه، من هنا قد يكون الاستخدام المتكرر وغير المبرر لآلة التنبيه نوعاً من التنفيس عن الذات المحبطة من مشكلات البيت والعمل وزحام الطريق.

وفى ظل غياب القانون والنظام تتعدد أنواع آلات التنبيه وتختلف فى قدرتها على الإزعاج، وتبرز هنا علاقتها بالسلطة عندما يستعمل بعض الأشخاص آلات تنبيه كالتى تستخدمها الشرطة أو سيارات الإسعاف، فيستخدمها عندما يزدحم الطريق ويغيب رجال الشرطة وذلك كنوع من التماهى مع السلطة وممارستها حتى لو تحقق ذلك عن طريق خداع باقى المتصارعين فى الشارع. ويتنافس سائقو التاكسيات والمينى باص وأصحاب السيارات القديمة فى شراء واستخدام آلات تنبيه ذات أصوات قوية لا تستعملها سوى شاحنات النقل، بحيث يبدو ارتفاع صوت آلة التنبيه الخاص بهم كنوع من ممارسة السلطة أو حتى التعويض عن التهميش الاجتماعى ونظرة الاستعلاء التى يمارسها أصحاب السيارات الجديدة أو الفارهة.

وإلى جانب آلة التنبيه يستخدم أغلب قادة المركبات فى مصر على اختلاف أنواعها - بداية من «التوك توك» إلى أتوبيس النقل العام - الراديو أو الكاسيت بطريقة تضيف مزيداً من الضجيج إلى الشارع. فالصوت المرتفع قد يبدو وكأنه عادة لدى البعض، أو إعلاء من شأن صاحب الصوت الذى يستمع إليه كل سائق ويفضله عن غيره، سواء كان مطرباً أو مقرئاً أو داعية أو قسا، لكنه فى الوقت ذاته يعتبر نوعاً من ممارسة السلطة وإعلان الوجود، وفرض ذوقه الخاص على الآخرين، خاصة عندما يتعلق الصوت المنبعث من هذه المركبة أو تلك بأغان أو شعائر دينية. أيضاً يمكن النظر إلى رفع صوت الراديو أو المسجل باعتباره نوعاً من التنفيس عن مكبوت أو إخفاق ما أو هروب من ضجيج أكبر إلى ضجيج خاص. وفى كل الأحوال تبدو التناقضات واضحة لصراعات الصوت المنبعث من كل مركبة عند إشارات المرور وعند الاختناقات المرورية، إذ يتجاور الجميع وتختلط الأصوات وتتداخل فتستمع دون رغبة منك إلى الصوت المرتفع والقوى لمطرب شعبى مثل شعبان عبد الرحيم والذى ينبعث من المركبة المجاورة، ويتصادف أن يتحرك نهر السيارات ببطء ليتجاور مع «شعبله» صوت داعية إسلامى أو رجل دين مسيحى شهير، أو صراخ مطرب أو مطربة شابة من نجوم الفيديو كليب.

قد يبدو هذا التشابك الصوتى بين متناقضات فى الصوت والموسيقى والمضامين وكأنه حلم أو نوع من المجون فى عصر ما بعد الحداثة وضياع المعنى، قد يبدو كذلك.. لكن من الصعب أن نصدق أننا فى مصر نعيش ما بعد الحداثة، لأننا لم ننجز الحداثة بعد. إنها بحق لحظة غريبة وماجنة، غير أنها صادقة وواقعية تماماً، فقد جلبت دون إعداد أو تنظيم مسبق تفضيلات المضامين الغنائية والدينية لعينة عشوائية من المصريين ومن كافة الشرائح الاجتماعية جمعتهم بالصدفة إشارة مرور أو زحام مفاجئ. هى لحظة عابرة تكشف عن تنوع وغرابة ما يستمع إليه المصريون، ويشكل وجدانهم وأذواقهم الفنية وثقافتهم ووعيهم السياسى. والمدهش أن كثيراً مما يستمعون إليه يتعارض مع ما تبثه وسائل الإعلام الرسمية، وما تقدمه لهم مناهج التعليم الحكومية، وكأن كثيراً من المصريين اتفقوا - دون تنسيق بينهم - على اختيار مضامين ترفيهية، وممارسة نوع من التثقيف الدينى أو السياسى، مغاير لما تقدمه لهم الدولة، خلال رحلات السير الطويلة والمعاناة المرورية اليومية.



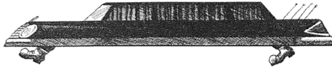
٢- الكتابة والرموز على هياكل السيارات: لا تكاد تخلو مركبة تسير فى شوارع المحروسة من كتابات أو رموز ذات طابع اجتماعى أو ثقافى أو سياسى أو دينى أو مهنى. وكل منها يحمل فيضاً عجيباً من المعانى والدلالات متعددة الطبقات. فبعضها يحمل دلالات طبقية ومهنية فى آن واحد، وبعضها يعكس المكانة الاجتماعية والمهنية والمستوى الثقافى فى آن واحد، وكلها تصنع هويات مشتركة أو تتلمس وجودها فى مدينة مليونية مثل القاهرة، وفى عصر تشظت فيه الهويات وتعولمت. وصناعة الهوية صارت صناعة وتجارة وممارسة سهلة مراوغة لا تتطلب مجهوداً، بل تقتصر على وضع شعار أو حتى كتابة عبارة باللغة العربية أو الإنجليزية.

الأطباء يضعون علامات تميزهم، وكذلك الصحفيون، ورجال القضاء وأعضاء البرلمان بنوعيه، والعاملون فى شركة أو مؤسسة مرموقة. الكل يضع علامته التى تميزه من خلال ملصقات صغيرة على زجاج السيارة الأمامى بشكل واضح وفى نوع من التباهى الاجتماعى، ويبدو أن النقابات وبعض الشركات والأندية ترحب بذلك وتدعمه، فهو إعلان مجانى متحرك عن وجودها ونشاطها من جهة، وتأكيد على هوية فئوية أو مهنية من جهة أخرى. وعلاوة على تلك الملصقات الصغيرة هناك من يتعمد وضع قبعة رأس أو جاكت لضابط شرطة أو جيش، وذلك سواء كان مالك السيارة ضابطاً بالفعل أو مواطنا عاديا، فقوانين الدولة لن تحاسبه، وسيكسب نوعاً من التماهى مع السلطة أو الشعور بذلك، خاصة أن بعض المواطنين أو حتى عساكر المرور قد يخشون تسجيل المخالفات المرورية ضده أو على الأقل يعاملونه بطريقة تليق والرتبة العسكرية التى اختار أن يتماهى معها ويضعها فى سيارته. بل وصل الأمر إلى تبديل لوحة أرقام السيارة بلوحات الهيئات الدبلوماسية حتى يصبح صاحب السيارة بعيداً عن المساءلة ويتماهى مع أصحاب السلطة من الدبلوماسيين الأجانب.

ومن العجيب أن الجامعات دخلت سباق التمايز الهوياتى، وروجت له على نطاق واسع الجامعات الخاصة والأجنبية تحديداً، فكل جامعة توزع على طلبتها - ربما من باب الدعاية لنفسها - ملصقاً أو شعاراً لها يتضمن غالباً اختصاراً بعدة حروف لاسم الجامعة والكلية، وغالباً ما يكون باللغة الأجنبية التى تدرس بها الجامعة، فالجامعة الأمريكية شعارها باللغة الإنجليزية، والجامعة الألمانية بالحروف الألمانية، وهكذا الحال مع كل من الجامعة الفرنسية والروسية. لكن شعار كل جامعة أجنبية أو خاصة محمل بدلالات طبقية صارخة، ليس فقط بين طلبة كل جامعة بل بين هولاء الطلبة وأغلبية المصريين من خريجى الجامعات الحكومية. فأغلب طلبة هذه الجامعات يمتلكون سيارات خاصة بهم أو يستعملون سيارات أحد أفراد الأسرة، كما أن التحاقهم بالدراسة فى هذه الجامعة أو تلك، وبحسب ما هو معروف عن تكلفتها المالية، يعكس المكانة الاجتماعية المتميزة، وهنا تكمن المفارقة مع أغلب المصريين بما فى ذلك طلبة الجامعات المصرية الحكومية الذين تعلموا بالمجان، وحتى إذا امتلك بعض طلبة الجامعات الحكومية سيارات خاصة فأغلبهم لا يفكرون فى وضع شعارات أو ملصقات تعلن عن هويتهم الجامعية التى أشيع عنها وصارت تقدم فى صورة أدنى من الجامعات الأجنبية من الناحيتين التعليمية والطبقية، ولذلك فهم يرون أنها لن تضيف إليهم وربما تنتقص منهم.

وعلى كل حال فإن كثيراً من الملصقات والشعارات يمكن تزويرها، أو ادعاء الانتساب إليها على زجاج السيارات، وقد ظهرت صناعة وتجارة بيع الملصقات والشعارات والرموز من كل نوع، لذلك تحرص بعض النقابات والشركات والجامعات على التدقيق الشديد فى منح تلك الملصقات ذات الدلالات المهنية والطبقية.

وتنشط صناعة الملصقات والرموز وتوزيعها فى مواسم الانتخابات ومع الأحداث السياسية الكبيرة والمواجهات الثقافية الساخنة، فتظهر بعض الشعارات أو الرموز كما حدث أثناء الحملة الرافضة للرسوم المسيئة للرسول الكريم، أو مع الانتفاضة الفلسطينية وأحداث العدوان على غزة وفى غيرها من الأحداث والمواجهات الصاخبة. وكانت الحكومة قد منعت الكتابات والرموز الدينية أو السياسية التى تعلن عن هويات سياسية أو دينية مسيحية أو إسلامية، وقد خفت هذه الظاهرة بالفعل



وصـــل ســـباق التمـــايز الهـــويـــاتى
إلى تبديل لوحة أرقام السيارة بلوحات الهيئات الدبلوماسية حتى يتماهى راكب السيارة مع أصحاب السلطة من الدبلوماسيين الأجانب

لكنها عادت فى رموز لا يمكن معاقبة صاحبها مثل وضع مصحف فى داخل السيارة أو وضع صليب صغير أو صورة تمثال للعذراء مريم أو السيد المسيح.

ملصق المهنة أوالطبقة يتجاور مع الأيقونة الدينية لتصبح هياكل أغلب السيارات الخاصة، إلى جانب نوعها وسنة صنعها طبقية ودينية بامتياز. لكن لا تكتمل أيقنة السيارات الخاصة إلا بالنظر إلى ملصقات تصاريح المرور والتى تلصق عادة إلى جوار ملصق المهنة أو تحل محلها أحياناً، فيتباهى البعض بتصريح دخول وزارة الداخلية إلى جانب تصريح الدخول إلى مارينا، إلى جانب تصريح دخول أحد الأندية الرياضية المرموقة. تتجاور كل تلك الأيقونات فى شكل من أشكال ممارسة السلطة والتمايز عن الآخرين، وأحياناً تغطى أربعة تصاريح مرور أو أكثر جانباً من زجاج السيارة لكنها تكشف مكانة صاحب السيارة أولاً أمام نفسه، وثانياً أمام كل من يشاهده أو يشاهد سيارته. فحتى إذا كانت السيارة واقفة بدون ركاب فإن صاحبها حاضر لدى كل من يشاهدها، إنه حضور معنوى متجاوز الحضور المادى لصاحب السيارة - السلطة، حضور عبر أيقونات تعكس الاقتراب من السلطة وممارستها، فكل الأبواب المهمة مفتوحة أمام صاحب هذه السيارة.

تجليات أخرى للأيقونة وممارسة السلطة تمارس من خلال تركيب ستائر غامقة اللون على الزجاج الخلفى للسيارة، أو تظليل الزجاج «الفيما» مما يضع حاجزاً ذا طابع سلطوى بين الراكب والشارع من حوله بكل ما فيه من مركبات وراكبين ومشاة. ورغم أن هذا الحاجز قد يكون مصطنعاً وزائفاً تماماً، ولايقره قانون المرور إلا أنه يحقق نوعاً من الترضية السلطوية للراكب بمعنى أن الراكب ينجح فى تحقيق أهدافه فهو يتماهى مع رجال السلطة ويمارس السلطة تجاه الآخرين، فرجال المرور يظهرون له قدراً من الاحترام، وقد لا يوقفون السيارة للتدقيق فى سلامة أوراقها، فى الوقت ذاته فإن هذا الحاجز قد يمنع تلصص الأعين على الراكب ويجعل شخصيته المجهولة تثير خيال الآخرين حول من يكون صاحب السيارة وتجعلهم يعتقدون بأهميته لاسيما إذا كانت سيارة حديثة ومن الأنواع التى يقدرها المصريون تماماً كالسيارات المرسيدس، والتى باتت أحد رموز المكانة الطبقية فى مصر بغض النظر عن سنة صنعها وسعرها. والمؤكد أن أيقنة السيارة صارت جزءا من ثقافة أغلبية الناس فى المحروسة، فالمتلقون سواء كانوا من المارة أو أصحاب السيارات الأخرى قادرون ولا شك على قراءة معانى ودلالات تلك الأيقونات المتعددة، وإلا لما كان صاحبها قد اجتهد فى الحصول عليها وحرص على إبرازها. إنها باختصار صارت لغة غير محكية ولكنها مقروءة ومستوعبة ومفهومة على نطاق واسع.

أيقنة ورمزية السيارات الخاصة ربما لم تكن حاضرة أو منتشرة عندما أبدع أستاذى العالم الجليل سيد عويس بحثه الرائد: هتاف الصامتين، عن ظاهرة الكتابة على هياكل السيارات فى ستينيات القرن الماضى، ذلك أنه ركز فى بحثه على الشعارات والكلمات المكتوبة على سيارات النقل والتاكسيات، وكلها تعكس بأمانة حال وثقافة ملاك وسائقى هذه السيارات، كما تعكس فى الوقت نفسه جوانب مهمة من ثقافة المجتمع المصرى كالتدين والصبر ورفض الظلم والإيمان بالحسد والرزق والرضا بالقسمة والنصيب وغيرها من القيم السائدة فى ثقافة المجتمع آنذاك.

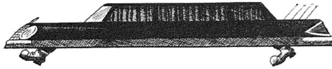
والشاهد أن هذه الظاهرة استمرت وانتشرت على سيارات النقل والأجرة فى المحروسة حتى كتابة هذه السطور. ورغم اختلاف أنواع السيارات وانتشار الميكروباص والسيارات نصف النقل وثلاثة أرباع النقل بل والثلث نقل والتوك توك، إلا أن الظاهرة لا تزال منتشرة مع اختلاف الشعارات والكلمات والرموز. فقد ظهرت مفردات وتراكيب لغوية وشعارات جديدة، بعضها غريب وعدوانى تجاه الآخرين، لكن يظل هيكله العام مسالماً، فهو خطاب الصامتين أو المهمشين الكادحين يومياً وراء أرزاقهم فى مدينة بلا قلب، مدينة تتعملق وتتوحش كأخطبوط كبير من الأسمنت يتحرك بلا عقل أو ضمير. ومن ثم تتضاعف مخاوف هؤلاء المهمشين ومشاعرهم بالضياع والعجز. نحن بحق أمام خطاب مصرى أصيل فى كل مكوناته ورموزه، خطاب يعكس صدق ثقافة ابن البلد، ومعاناته، بعيداً عن التقليد أو التغريب أو رموز وأيقونات العولمة، فهو خطاب لايتباهى بمكانة منتجيه أو وضعهم الطبقى أو الثقافى، كما لا يتماهى مع السلطة بل يخشاها ويخاف من ظلمها ويدعو الله أن يتجنب أذاها ومكر الأيام وتقلب الأحوال، ويدعو بالستر ويتمسك بالإيمان والصبر. لذلك تجد أغلب الكتابات على سيارات الأجرة والنقل والميكروباص تدعو الله بالسلامة أو منع الحسد والشر، وتستعير آيات قرآنية أو أمثالا شعبية وحكما قديمة. ومع الدعوات والأمثال قد تجد اسم أبناء وبنات صاحب التاكسى أو رسما لعين الحسود أو حذاء لطفل صغير أو علم أمريكا أو بريطانيا أو شعار أحد أندية كرة القدم. وقد عبر أحدهم عن كل هذا التخبط واللا معنى عندما كتب على زجاج سيارته الخلفى «ما حدش فاهم حاجة».



٣- كرنفال من المركبات: شوارع القاهرة هى بحق فضاء ثرى وبالغ التعقيد لعشرات الأنواع من المركبات. سيارات خاصة، حافلات فاخرة وشعبية للنقل الجماعى، أتوبيسات النقل العام، سيارات نقل خاصة وعامة، مركبات للجيش والشرطة، عربات كارو تتجاور مع أحدث أنواع السيارات الخاصة وأغلاها ثمناً، دراجات نارية ودراجات هوائية، ومؤخراً أضيف التوك توك (الراكشا الهندية). طيف لا ينتهى من الألوان والماركات والأنواع لمركبات تتحرك فى صخب وضجر، صراع وتوتر لا ينتهى ولا يصل إلى درجة الصدام أو الانفجار. وفى القلب من التعدد والزحام تبرز قيم الحداثة والمعاصرة، ودلالات طبقية وثقافية لكل مركبة ولمن يستخدمها. سيارات خاصة فارهة، وتاكسيات متهالكة، عربات كارو تنقل زبالة القاهرة أو تنقل نساء ورجال وأطفال بين بعض أحياء القاهرة، كل ذلك جنباً إلى جنب مع سيارات نقل عملاقة تحولت إلى ما يشبه القلاع أو السجون الحديدية تستخدم لنقل جنود الأمن المركزى، وسيارات عسكرية عملاقة تنقل مدرعة أو مدفعا ضخما. سيارات نصف نقل وسيارات نقل تنقل مواشى أو أثاثا لأسرة قاهرية فقيرة أو أثاثا جديدا لعروس فقير أو ثرى، ويمكنك أن تتأمل الأثاث وتبارك للسائق أو من يركب بجواره أثناء توقف حركة السير. ويمكنك أيضاً أن تطلب من سيارة نصف نقل تنقل فاكهة أو خضاراً أن يقذف لك ببرتقالة مما يحمله، والمدهش أن الشخص الذى يحرس الفاكهة غالباً ما يستجيب ويلبى طلبك.

أما المركبات السياحية الفاخرة فعادة ما تكون مرتفعة عن بقية مركبات الشارع، وعندما تتطلع إليها بعيونك، تجد عشرات العيون والكاميرات المشهرة نحوك ونحو الآخرين فى الشارع، عيون وكاميرات لسائحين أجانب يتأملون فى استرخاء أو فى دهشة وربما صدمة خطاب الشارع المصرى. المشهد برمته يبدو غريباً للغاية، فالسائحون ببشرتهم البيضاء التى ضربتها حمرة شمس النيل يبدون وكأنهم كائنات فضائية هبطت للتو فى شوارع القاهرة تلاحقهم عيون المارة فى كل مكان. المشهد بالغ التناقض بين بشر تطفح من وجوههم دلالات النعمة والعيش الرغد الكريم والراحة الاختيارية، وبين عامة الناس فى القاهرة من المشاة المكدودين المهمومين. وركاب الأتوبيسات العامة المحشورين كالسردين فى صفيح الأتوبيس الساخن.

عالم من المتناقضات المتجاورة والمتعايشة فى سلام، حياة عابرة أو بالأحرى تعايش عابر بطول رحلة السير فى الطريق، وتنتهى الحياة بعودة كل راكب أو سائق إلى أسرته أوعالمه الخاص، سواء كان داخل القاهرة أو فى إحدى قرى أو مدن الدلتا أو الصعيد. هذا التجاور المكانى لا يتحقق إلا لدقائق، كما أنه لا يتجاور فى الزمن، والزمن هنا بمعنى عصور ومراحل



شهدنا تجليات أخرى للأيقونة
وممارسة السلطة تمارس من خلال تركيب ستائر غامقة اللون على الزجاج الخلفى للسيارة،
أو تظليل الزجاج

التقدم. فالسائح قد ينتمى زمنياً إلى مجتمع أو مدينة حداثية أو ما بعد حداثية، بينما راكب الميكروباص ربما ينتمى زمنياً على المستويين الفكرى والمادى إلى عصر الزراعة أو حتى الرعى. مصريون يعيشون عصور ما قبل صناعية جنباً إلى جنب مع مصرى آخر يعيش فى القاهرة ويركب نفس الميكروباص ويعمل فى شركة متعددة الجنسيات فى مجال البرمجيات، بينما مصرى ثالث يركب إلى جانبهم سيارته الحديثة المزودة بأحدث تكنولوجيا العصر بينما ينتمى ذهنياً وفكرياً إلى عصر الزراعة أو البداوة.

تجاور مكانى ولا تزامن عجيب، لكنه ضمن خطاب الشارع والناس فى المحروسة. وتجاور آخر بدون مساواة أو عدالة اجتماعية. لكن هناك إذا شئنا الدقة مساواة افتراضية، حيث يحقق الشارع القاهرى تجاورًا وتعايشا بين أنواع شتى من السيارات والبشر من طبقات وشرائح اجتماعية متفاوتة، يجمعهم الشارع فقط وتفرقهم الفوارق الطبقية والمهنية والمادية والثقافية، وفى كل الطرقات يسير كل قادة المركبات وبغض النظر عن وضعية كل منهم الطبقية والثقافية ونصيبه من السلطة ورموزها، الكل سواء فى الشارع. ومن حقه أن يحاول المرور قبل الآخر، أو السيطرة على مكان ليصف فيه سيارته. لكن تظل هذه المساواة أمرا افتراضيا فهى زائلة بانتهاء التجاور المكانى لعدة دقائق فى الطريق، حيث سيعود كل شخص إلى عالمه أو طبقته. كما أن سيارة كل شخص ونوعها ورموزها تعكس تراتبية طبقية لها دلالات ورموز ثقافية واضحة. من جانب آخر عادة ما تنهار المساواة الافتراضية عندما يمر موكب وزير أو مسئول كبير، حيث تنقض سيارات الحراسة الرباعية الدفع على الطريق، ويلوح راكبوها من الحراس فى توتر وعنف بأيديهم وبأجهزة الاتصال وأحياناً بالمسدسات للمركبات كافة ليطالبوها بالتوقف أو إفساح الطريق لمرور موكب الوزير أو المسئول. المشهد غريب ويقدم نوعاً من الممارسة الفجة للسلطة فى الطريق بأكثر ما يقدم نوعاً من الحماية والتأمين لشخصية المسئول. وبالطبع هناك عشرات المواكب ومئات الحراس للمسئولين فى الدولة ممن يستخدمون شوارع وطرقات المحروسة، وبالتالى يتكرر المشهد ويصبح ممارسة يومية تنهى أولاً المساواة الافتراضية بين المركبات وراكبيها، كما تنهى صراع السلطة بينهم وتجعلهم سواء فى الشعور بالقهر والضيق والضجر من خضوعهم لسلطة أكبر ظالمة جعلت نفسها فوق الجميع، وتؤكد على أن الشارع هو مجال مميز وعام لممارسة السلطة وقهر الآخرين.



تجاور بدون مساواة فى شوارع المحروسة، بل ربما يكون تجاوراً قهرياً لممارسة السلطة ضد الآخرين، بل وتخويفهم، دون أن يصل الأمر إلى النيل منهم، أو إلحاق الأذى المادى بهم أو بسياراتهم. فى مشهد مواكب السلطة ورجالها نجد التخويف دون إلحاق الأذى المادى. كما نجده فى عدوانية أتوبيسات النقل العام والميكروباص ضد كل المركبات الأصغر اعتماداً على ضخامة الحجم وصعوبة التعامل القانونى مع سائق الأتوبيس أو هيئة النقل العام، علاوة على أن هذا الكائن العملاق (الأتوبيس) الذى يسير طوال ساعات النهار يحمل عشرات المواطنين، وبالتالى يصعب توقيف أو تعطيل مصالح هؤلاء الناس فى حالة حدوث احتكاك بسيط بين الأتوبيس وسيارة خاصة يستعملها شخص بمفرده وإلا واجه ثورة جماعية ضده من ركاب الأتوبيس، وهنا أيضاً ممارسة لنوع آخر من السلطة وهى سلطة الجماعة التى قد تفوق فى قوتها سلطة صاحب السيارة الخاصة. هذا التقابل بين الوجود الفردى لسائق السيارة الخاصة، والوجود الجمعى لراكبى الأتوبيس ربما يخول للأخير مشروعية غير معلنة لكنها متفق عليها ضمناً وتمارس بدون إعلان، وتتعلق بمنح الأولوية فى الطريق لهذا الكائن العملاق بحجمه وبالناس الذين يحملهم. فالأولوية للمجموع مقابل الفرد، بما قد يعنى ممارسة نوع من العدالة الاجتماعية على الطريق.

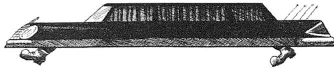
وبغض النظر عن صحة هذا الاتفاق غير المعلن فإنه يمكن تفسير سلوك أتوبيسات النقل العام كشكل من أشكال التعويض أو الانتقام من أصحاب السيارات الخاصة المسترخين خلف مقود سياراتهم المكيفة ولا يعانون من مشكلات الأتوبيس وزحامه.

وتختلف عدوانية الميكروباص عن عدوانية أتوبيس النقل العام، فهى أكثر مراوغة وسرعة، اعتماداً على حداثة كثير من الميكروباصات وتقدمها التكنولوجى وصغر حجمها مقارنة بديناصورات هيئة النقل العام المتهالكة. ومن ثم فإن الأخيرة عدوانيتها فجة ومباشرة وتتسم بالبطء. ويبدو سائقو أتوبيسات النقل العام كمن يقود بعيراً عجوزاً، وفى المقابل فإن عدوانية الميكروباصات واستيلاءها على الطريق تشبه النشل أو الخطف. وهنا قد يبدو الفارق بين الاثنين كالفارق بين حيوية ومغامرة القطاع الخاص وبطء وبيروقراطية القطاع العام. فأتوبيسات النقل العام لها خطوط سير محددة ومحطات معروفة تتوقف عندها. كما أنها لا تسعى للربح فأسعارها أقل بكثير من الميكروباصات. أما الميكروباصات فهى على العكس تعمل بهدف تسديد ثمنها فى شكل أقساط مستحقة للبنوك إضافة إلى تغطية تكلفة تشغيلها وتحقيق ربح للمالك أو الملاك، لذلك فإن أغلب الميكروباصات تعمل على مدار الساعة تقريباً وتلهث مسرعة ليل نهار من أجل بيع خدمة النقل لأكبر عدد من الناس. وهى فى سرعتها وسباقها للزمن تعانى من ضغوط متعددة وإكراهات كثيرة، قد تدفعها إلى ممارسات عدوانية ضد الجميع. فهى عندما تراوغ وتتلوى وتتحايل وتهرب من الزحام عبر طرق جانبية من أجل الحصول على أولوية المرور تحقق شكلاً من أشكال الانتصار أو التعويض عن كل الإكراهات التى تطاردها، فالمسألة معها حياة أو موت عكس عدوانية الأتوبيس التى تبدو كانعكاس لضخامته وتهالك حالته، وكتنفيس طبقى وثقافى لركابه ضد أصحاب السيارات الخاصة.

على مستوى آخر قد يمارس بعض قادة السيارات الخاصة ومعظمهم من الشباب المراهقين عدوانية من نوع ثالث تعتمد على إرهاب الآخرين بهدف استعراض مهاراتهم فى القيادة وقدرات السيارة التى بحوزاتهم والتى غالباً لم يحصلوا عليها مقابل عمل أو جهد، فهى عادة هبة من الوالد أو الوالدة. ويبدو أن استعراض وضجيج هؤلاء الشباب هو نوع من البحث عن المعنى أو إثبات لوجود ضائع لدى فئة محدودة من الشباب المرفه.

ومع الممارسات العدوانية لقائدى المركبات فى شوارع القاهرة، وفى ظل غياب القانون وعدالته البطيئة، من الطبيعى أن تجد هياكل كل المركبات التى تتحرك فى شوارع القاهرة مصابة بكدمة أو خربشات هنا أو هناك. كما أن زجاج مصابيح السيارات الخلفية عادة ما تكون محطمة كلياً أو جزئياً. ومن النادر حقيقة أن تجد هيكل سيارة قاهرية سليما تماماً، وإذا صادفت مثل هذه السيارة فإما أن تكون سيارة جديدة عمرها لا يتجاوز أياما أو أسابيع قليلة أو أن تكون سيارة خارجة للتو من ورشة إصلاح أو تجديد. لذلك فالقاعدة أن تسير المركبات فى شوارع المحروسة وبها تشوهات أو كدمات ناتجة عن الزحام وعدوانية البعض أو عدم معرفة البعض الآخر بقواعد ونظم القيادة فى المحروسة، وهى بالمناسبة نظم تعتمد اللا قواعد واللا قانون أساساً فى القيادة. وبهذا المعنى يعجز كثير من الناس الذين تعودوا على القيادة فى عواصم تلتزم بقوانين المرور عن القيادة فى المحروسة.

وفى هذا الإطار قد تصطدم سيارتان فى القاهرة دون أن يصل الأمر إلى إبلاغ الشرطة أو تحرير محضر بالواقعة للحصول على إذن لإصلاح السيارتين، خاصة أن أغلب السيارات غير مؤمن عليها ضد الحوادث، رغم كثرة الاحتكاكات والمصادمات. ويبدو أن كثرة الاحتكاكات والمصادمات قد جعل الناس فى المحروسة يتعودون على مشاهدة واستخدام سيارات مشوهة أو بها كدمات وخربشات. حتى صار البعض لا يصلح سيارته من أول كدمة وينتظر حدوث كدمة أو اصطدام ثان وربما ثالث حتى



الغريب أن هذا التمايز المصطنع
والمزيف ينطلى أحيانا على رجال المرور فيظهرون قدراً من الاحترام والمعاملة المتميزة لراكب السيارة

يذهب لإصلاح كل التشوهات دفعة واحدة، مما يقلل تكلفة إصلاحها فى إحدى الورش الصغيرة المنتشرة داخل حدود القاهرة وعلى هوامشها، ويعمل بها عشرات الألوف من العمال والصبية الصغار وأصبحت جزءا من حياة القاهرة.

وفى مدينة عملاقة مثل القاهرة ينتشر فى شواعها وبين سكانها وزائريها مظاهر الحرمان أو الإحباط يمارس الآلاف من أطفال الشوارع والمراهقين ذوى النزعات العدوانية لعبة خربشة السيارات بمفتاح شقة صغير أو مطواة، ويتركز هذا السلوك العدوانى على السيارات الحديثة والفارهة التى تقف على جوانب الطرقات أو فى أماكن الانتظار، وذلك كشكل من التنفيس عن غضب طبقى أو إحباط نفسى أو عن الاثنين معاً. من هنا تحمل أغلب سيارات القاهرة الخاصة خربشة ما كدليل على حرمان طبقى أو نزعة عدوانية حبيسة النفوس ولا تنطلق إلى فضاء العام إلا عبر خربشة هياكل السيارات وتشويهها. وهكذا تصبح الخربشات والخطوط التى تشوه كثيرا من هياكل المركبات فى القاهرة، بمثابة خطاب عنف لبعض الفئات الرافضة أو الهامشية لما يدور حولها. غير أن هذه الفئات اختارت هياكل السيارات كفضاء للبوح بخطابها إلى الناس، وهو خطاب لا يحمل علامات أو معانى محددة سوى التمرد والانتقام من أصحاب هذه السيارات الضحية أو المفعول بها. فى الوقت نفسه فإن هياكل السيارات تصبح فضاءً أو مجالاً لصراع السلطة، سلطة أصحاب وقائدى السيارات عندما يحملون تلك الهياكل بفيض من العلامات والدلالات التى تعكس مكانتهم وسلطتهم داخل المجتمع، وفى المقابل يرد أولاد الشوارع والشباب المتمرد وبعض الأشخاص العدوانيين على هذا الخطاب بممارسة خطاب مضاد لسلطة ومكانة أصحاب السيارات، حيث يلجأون ليس فقط لخربشة هياكل السيارات وإنما لخربشة سلطة أصحابها ومكانتهم وتحدى أعراف وتقاليد المجتمع بعدم احترام ملكية الآخرين واحترام خصوصيتهم.

٤- حضور مراوغ للدولة والقانون:

رغم القوة التاريخية والوجود الثقيل للدولة المصرية ومؤسساتها عبر التاريخ إلا أن هذا الوجود بكل تجلياته المادية والرمزية، اتسم فى السنوات الأخيرة بطابع مراوغ شديد الغرابة. فكثير من الشوارع بلا إشارات للمرور، كما يغيب عنها أى وجود مادى أو رمزى للدولة. بينما تجد هناك حضوراً مكثفاً لرجال الشرطة والمرور فى شوارع وتقاطعات أخرى بحسب الأهمية الأمنية أو السياسية لكل شارع أو حى. وفى نفس الشارع تجد فى بعض أجزائه تسامحاً فى تطبيق قوانين المرور خاصة أماكن الانتظار، والتزاماً وتشددا فى أجزاء أخرى. أكثر من ذلك فتطبيق قوانين المرور يختلف بحسب أشهر السنة، وبحسب بعض المناسبات كما يحدث فى شهر رمضان أو شهر ديسمبر.



أما إشارات المرور فهى لا تعمل فى أغلب التقاطعات، بل ومتوقفة فى كثير من الشوارع منذ شهور. وحتى إن عملت فإنها بلا معنى أو دلالة أو حضور، فالإشارة عندما تكون حمراء مما يعنى فى كل العالم توقف عبور السيارات تجد السيارات فى المحروسة تعبر بل وتجد ضابط أو شرطى المرور يشير لك بالعبور. باختصار تلغى آلية وحيادية إشارات المرور، وتدار حركة المركبات والمشاة فى التقاطعات والإشارات المهمة فى القاهرة بشكل يدوى وباستخدام إشارة اليد لشرطى المرور أو الصافرة أو الاثنتين معاً. وفى مشهد غير معروف فى عواصم العالم يقف أحياناً ضابط كبير برتبة لواء فى الشارع وإلى جانبه عدد من الضباط الأقل رتبة لتنظيم المرور. وقد يعلو صراخ هؤلاء إلى جندى المرور فى الطرف الثانى من الميدان لكى يفتح الإشارة أو يغلقها، وبالطبع يقوم الجندى بتنفيذ الأمر يدوياً، أى يشير إلى السيارات، لكن سائقيها قد لا يحترمون الجندى لضآلة رتبته أو لكونه مجرد مجند، وليس جندى مرور عاملا ممن يحق له تسجيل المخالفات المرورية، وبالتالى يضطر المجند المسكين إلى الوقوف بجسمه أمام تدفق السيارات فى الطريق حتى يوقفها.

كان الشارع المصرى قبل ثلاثين عاماً يتسم بقدر مقبول من الانضباط والحضور القوى والمؤثر لسلطة الدولة والقانون، فضلاً عن الالتزام الطوعى للمواطنين بالإذعان لسلطة قانون المرور وعلاماته ورموزه. لكن هذه الأوضاع انقلبت رأساً على عقب، وتبدلت الأحوال إلى النقيض فى معظم شوارع القاهرة، وأعتقد أن اللحظة التى شهدت النهاية الرمزية المادية والمعنوية لاحترام إشارة المرور والإذعان لها، كانت هى بداية ضياع سلطة القانون وضعف الدولة، ومن ثم حضورها المراوغ فى كافة المجالات، بما فيها تنظيم حركة المرور. فقد تنازلت الدولة والمجتمع عن الآلية المنضبطة والمحايدة للقانون، ولإشارة المرور بكل رمزيتها التى تنتمى إلى دولة المؤسسات والدولة الحديثة. وجرى الاعتماد على آليات تنتمى إلى مجتمع ما قبل الدولة الحديثة لتنظيم حياة الناس والمجتمع. فتنظيم المرور يتم بشكل يدوى غير محايد، ومن ثم اتسعت دائرة الأمور النسبية وسادت ثقافة الفهلوة، واحتلت الواسطة والمحسوبية وتوريث المهن والوظائف العامة مساحة أوسع فى حياتنا، وذلك كله عوضاً عن التنظيم الحديث للمجتمع المعتمد على الأداء الاحترافى للبيروقراطية فى كل المجالات بما فيها مجال المرور.

تراجع الأداء إلى ما قبل المجتمع الحديث، وسادت الصافرة والإشارة اليدوية بدلاً من الإشارات الضوئية والعلامات المرورية الثابتة والمتغيرة. وسادت ثقافة الفهلوة المرورية فى سلوك قادة المركبات بأنواعها والمارة ورجال المرور. ولا شك أن ثقافة الفهلوة أصبحت أحد مكونات ثقافة الحياة والناس فى مصر، وعلى كافة المستويات، وهى ثقافة تعادى النظام، وترفض القانون وتتحايل عليه، وتتسم بطابع برجماتى قصير النظر يؤدى عادة إلى وقوع خسائر هائلة وكوارث بالجملة.

ثقافة الفهلوة قادت الفكر والأداء المرورى إلى عدم التصدى لمشكلة ضياع معنى الإشارات المرورية الضوئية، والالتفاف حولها توفيراً للوقت والجهد، ومن ثم اخترع أحد أو بعض الفهلاويين الكبار نظام اليوتيرن، فألغى كثيراً من إشارات المرور عند التقاطعات، واعتمد نظام اليوتيرن، الذى أثبتت التجربة بعد عدة سنوات فشله وتحوله إلى أحد أسباب الأزمة المرورية الدائمة فى القاهرة. فهذا النظام لا يتناسب مع مدينة عملاقة ومزدحمة مثل القاهرة، ولكنها الفهلوة التى أوجدته وسمحت باستمراره، ربما للتخفيف عن كاهل رجال المرور، وربما لأن هذا النظام الذى يفتقر إلى المعيارية والوضوح يتماشى مع الثقافة السياسية السائدة.

اختفت من المحروسة تقريباً النظم الآلية المتعارف عليها لاحترام إشارات المرور، فعند أى إشارة أو يوتيرن تجد أحد ضباط المرور أو جنود المرور حيث يتعايش النظام الآلى مع النظام البشرى اليدوى، وغالباً ما تكون السيادة والغلبة للعنصر البشرى عندما يقع أى تضارب بين النظامين. وغالباً أيضاً ما لا يحترم قادة المركبات أو على الأقل يظهرون قدراً أكبر من الاحترام لجنود المرور وإشاراتهم إلا عندما يقف أحد الضباط عند إشارة المرور، هكذا يتفتت مفهوم ورمز السلطة ونصبح إزاء سلطة يتحايل عليها المواطنون، ويصبح مفهوم السلطة مرتبطا بالرتبة الأعلى أو تحديداً بالقدرة على توقيع العقاب على قادة المركبات.

ومهما تكن مسئولية المواطنين وعدم وعيهم أو محاولتهم التهرب والالتفاف على القانون وفق ثقافة الفهلوة وآلياتها العجيبة، فلا ريب أن هناك مسئولية للدولة التى سمحت بغياب القانون أحيانا أو حضوره فى شكل مراوغ وغير حيادى. ويتجلى الوجود المراوغ للقانون عند تسجيل المخالفات أو تطبيقها على المركبات المخالفة أو قادة المركبات، حيث نجد تفاوتاً واضحاً بحسب نوع السيارة والشخص الذى يقودها ومكان وزمان وقوع المخالفة. من جانب آخر يلعب قادة المركبات دوراً فى إنهاء ما تبقى من سلطة القانون ورمزيته حيث يمارسون السلطة ضد





في القلب من التعدد والزحام
تبرز قيم الحداثة والمعاصرة، ودلالات طبقية وثقافية لكل مركبة ولمن يستخدمها

المنوط بهم تطبيق القانون، خاصة عندما يغيب ضابط المرور ويبقى جنود المرور، عندها نسمع دائماً «إنت مش عارف أنا مين»، و«شوف إنت بتكلم مين». وحتى فى وجود ضابط صغير أو متوسط الرتبة تتكرر نفس العبارات أو تبرز عبارة «اكتب المخالفة أو اسحب الرخصة وانا هأعرف أجيبها إزاى» !!

هكذا تتصارع السلطات وتتجاور وتتصالح أحياناً فى شوارع القاهرة، لكن المدهش أن سلطة المواطنين أو ادعاءاتهم بالسلطة والنفوذ تكون على حساب الحياة الحقيقية والرمزية لقانون المرور نفسه، والجنود والضباط المخولين بتطبيقه على الجميع وعلى قدم المساواة. فتحدث الفوضى متعددة الأبعاد، فوضى مرورية، وفوضى فى ممارسة السلطة ورمزيتها، وفوضى فى امتهان قانون المرور.

هكذا تفتقد شوارع المحروسة للمعنى والمعيارية، ويسودها خطاب سلطة مراوغ ومختل، لا تسيطر عليه أو تمارسه الدولة بل تشاركها فيه سلطات عديدة متنافسة، فهناك أولاً السلطة الأصلية، وهى سلطة الدولة كما تتجسد فى ضباط وجنود المرور، لكن سلطة هؤلاء تتفتت بين الضباط والجنود، وفى كثير من الأحيان يبيع هؤلاء الجنود و بعض أمناء الشرطة - وبمساعدة البلطجية - خدماتهم لمن يدفع من سائقى الميكروباص والتاكسى وعربات النقل، أو يشترى قادة المركبات بأنواعها سلطة هؤلاء الجنود الذين يحصلون على رواتب هزيلة لا تسد الحاجات الأساسية لهم مما يجعلهم يتقاضون الرشاوى والإكراميات بمختلف أنواعها من قادة المركبات، خاصة أن الفوضى عارمة والسلطة مراوغة والوعى القانونى لدى هؤلاء الجنود جد متواضع. وربما تبرز ثقافة الفهلوة لدى قادة المركبات بأنواعها فى ممارسة الرشوة لشراء أضعف حلقات السلطة، كذلك فإن ثقافة الفهلوة وحدها هى القادرة على تأويل الموقف كله من خلال فتوى تزعم أنها دينية بأن الرشاوى الصغيرة نوع من المساعدة أو الصدقة، لذلك تنتشر على نطاق ملحوظ ظواهر توقف المركبات الخاصة لتوزيع نقود على جنود المرور وعمال النظافة فى كثير من شوارع القاهرة. والمدهش أن الجنود وعمال النظافة أصبحوا يبادرون بطلب هذه المساعدات، والتى تتحول إلى ممارسة عامة خاصة فى شهر رمضان من كل عام، حيث يشارك فيها الجميع بحماس وتراحم لا يخلو من متعة ممارسة السلطة وتهميش دورها عبر تغيير مفهوم وصورة الموظف العام.

وهناك ثانياً سلطة قادة المركبات، خاصة عندما تكون المركبة تابعة إلى إحدى جهات الدولة السيادية. وهناك ثالثاً سلطة سائقى الميكروباص وأتوبيسات النقل العام، وسأكتفى بالأخير والذى تمتد سلطته فى قيادة كائن معدنى ضخم ومتهالك فى إرهاب المركبات الأخرى والمشاة والحصول على أولوية المرور. كما أن سلطته تمتد ليمارسها على راكبى الأتوبيس، فقد لا يتوقف عند المحطة المحددة لسبب أو لآخر. وقد يتوقف عند بائع كشرى أو سندوتشات ليحصل على وجبه له وللكمسارى، وقد يتوقف فى غير أماكن المحطات الرسمية ليلتقط من الطريق سيدة عجوزا أو فتاة جميلة أو صديقا.



وهناك رابعاً سلطة سائق التاكسى والتى قد تبدأ باختيار من يقوم بتوصيله حسب مظهره والجهة التى يريدها، وبالتالى توقع المردود المالى من الزبون، وفى بعض الحالات قد يقوم بالتفاوض والاتفاق معه على المبلغ المطلوب. ويمارس سائق التاكسى سلطته أيضاً عبر التقاط راكب ثان وربما ثالث إلى جوارك، وذلك بحسب «تساهيل ربنا» كما يقول، ووجود أكثر من راكب على نفس خط مسار الراكب الأول، وأحيانا لا يكون نفس المسار تحديداً مما يعنى توصيل الراكب الأول فى وقت أطول نسبياً، غير أن سلطة سائق التاكسى تتواصل عبر ممارسة ناعمة لسلطته على الراكب الأول من خلال ابتسامة وكلمة استسماح طيبة عن التعاون وروح الأخوة فى الإسلام مثلاً أو غيرها من العبارات التى تبدو بدون معنى. وبطبيعة الحال لايمتلك الراكب الأول سوى الموافقة أو الصمت. فلا مجال أمامه للتراجع، ففى حالة غياب القانون وسلطة الدولة وانتشار اللا معيارية فى استخدام التاكسى فى شوارع المحروسة يكون من الأفضل للراكب أن يتحمل إلى أن يصل إلى غايته.

فاللقاء عابر، والتجاور مؤقت، ولن يتكرر اللقاء بين الطرفين. وقد يتحمل الراكب الحالة السيئة للتاكسى المتهالك، وأصوات الغناء الهابط أو الداعية السطحى ذى الصوت المزعج المنبعث من كاسيت التاكسى، لكنه مع ذلك قد يمارس سلطته ضد سائق التاكسى عندما تحين ساعه الحساب ودفع الأجرة، وهى عملية تقديرية ونسبية تماماً تتصارع فيها سلطات السائق والراكب. فمع اللامعيارية المهيمنة على شوارع المحروسة بل وربما مناخ السياسة والاقتصاد والحكم فى مصر، لا وجود فعلى لعدادات حساب تعريفة استخدام التاكسى، رغم أنها تعمل، والأهم أنها تعتبر أحد شروط تجديد الترخيص السنوى للتاكسى. لكن التسعيرة غير الواقعية التى تفرضها الدولة، وخوفها أو تقاعسها عن رفع التسعيرة جعل هناك اتفاقا غير معلن بين سائقى التاكسى والمواطنين ورجال المرور على عدم الاحتكام للتعريفة المعلنة من خلال العداد، وبالتالى ينفتح المجال بدون ضابط أو معيار أمام سائقى التاكسى والركاب لممارسة أنواع شتى من الصراع وفى أحيان أخرى التراحم والتعاطف.

وهناك خامساً سلطة السياس الذين ينظمون ساحات انتظار السيارات وجوانب الطريق، وهؤلاء أصبحوا فئة لها حضور مادى ورمزى فى معظم شوارع المحروسة، ويعملون وفق أعراف ونظم غير مدونة، لكن كلا منهم يمارس سلطة فى الشارع ولايخضع لرقابة واضحة أو نظام للمحاسبة. ويبدو أن الدولة فشلت تماماً فى تنظيم أوضاع هذه الفئة أو أن تحل مكانهم فى بعض ساحات الانتظار. لقد اكتفت الدولة بتوظيف بعضهم وفرضت عليهم رسوماً محددة ينبغى عليهم تسديدها، أى استفادت مالياً من وجود هذه الفئة دون أن ترتقى بنوعية الخدمة المقدمة والتى أصبح قادة المركبات بل وشرطة المرور فى حاجة إليها.

وعادة ما يقدم السياس خدماتهم مقابل رسم مراوغ بحسب نوع السيارة وشخصية ومكانة من يستعملها أو مدى كرمه، كما توجد نظم واتفاقات بين هؤلاء السياس وقادة المركبات، فكى تصف سيارتك فى جوار الرصيف وفى المكان المخصص قانوناً عليك أن تأتى مبكراً أو تدفع أكثر، بينما يمكنك فى بعض الشوارع أن تدفع أقل لكى تصف سيارتك صفا ثانيا. ومن ضمن الاتفاقات أيضاً أن تترك السيارة بدون فرامل اليد أو أن تسلم للسايس السيارة ومفتاح التشغيل حيث تخوله فى هذه الحالة سلطة التحرك بها والابتعاد عن مطاردات رجال الشرطة، أو ترقب توافر مكان شاغر لكى يصف فيه سيارتك. ومن الاتفاقات أيضاً أن تدفع للسايس مبلغا كل شهر أو كل أسبوع وهذا النظام يسرى مع قادة المركبات المقيمين فى الشارع أو الموظفين الذين يترددون على الشارع يومياً.

وهناك سادساً أصحاب المحلات وبعض ملاك وساكنى العمارات الذين قرروا التخلص من سلطة السياس بل ومن سلطة الدولة على الطريق العام المار بموازاة ملكيتهم الخاصة. وقرروا ممارسة سلطة من نوع جديد فى الطريق، هى سلطة الاستحواذ على أماكن من الطريق العام والتعامل معها على أنها ملكية خاصة اعتماداً على حق الجوار إذا جاز القول، ونجحوا فى الاستحواذ على مساحات من الطريق العام تخصص لوقوف سياراتهم، وبعض هؤلاء المواطنين وضعوا علامات أو سلاسل حديدية وغيرها لإعلان سيطرتهم أو ملكيتهم لهذه المساحات من الطريق العام. وتعجب أشد العجب من غرابة وطرافة الإعلانات والتحذيرات التى كتبها ملاك المواقف الخاصة - غالباً على لوحات رديئة وبخط سيئ ولغة ركيكة - لحجز مساحة أمام بيوتهم أو محلاتهم، وتحذير المواطنين الآخرين من الاقتراب أو صف سياراتهم، فهناك من كتب «ممنوع الانتظار»، والبعض مارس سلطته وتخويفه للآخرين بكتابة تحذير «ممنوع الانتظار المكان مكهرب»، وهناك من مارس سلطته عبر الاستعطاف فكتب «المكان مخصص لكبار السن»، وفى كل هذه التمظهرات



تجاور بدون مساواة في شوارع المحروسة، بل ربما يكون تجاوراً قهرياً لممارسة السلطة ضد الآخرين، بل وتخويفهم، دون أن يصل الأمر بالضرورة إلى النيل منهم، أو إلحاق الأذى المادى بهم أو بسياراتهم

تتشخص عمليات ممارسة السلطة والصراع، وتغيب سلطة الدولة والقانون عبر استيلاء مواطنين على قسم من الفضاء العام المخصص لخدمة كل أبناء الوطن، غير أن احتكار أهل الجوار لهذه الخدمة العامة يذكر بما كان قائماً قبل ظهور الدولة الحديثة وسلطة القانون من ممارسة السلطة والتملك بوضع اليد وعبر آليات للقوة فضلاً عن شفاعة القرب أو التجاور المكانى.



٥- نفى المشاة: فى إطار قانون المرور الغائب والمغيب، والحضور المراوغ لسلطة الدولة فضلاً عن صراع السلطة بين المركبات فى الشوارع من الطبيعى أن نتصور حال المشاة أو بالأحرى صراع المشاة مع قائدى المركبات على أولوية المرور أو عبور الطريق. فى هذا الصراع المعقد طقوس ورموز وصدام وتصالح وتعاون بحسب حالة الزحام فى الطريق ووقت الصدام وشخصيات المشاة وخبراتهم ونوعية المركبات. طيف بالغ التنوع والتعقيد من الرموز والإشارات التى يستخدمها الطرفان، ولا يدركها سوى أهل المحروسة حتى أن حالة الارتباك والتخبط وأحياناً الحوادث تنتج عن عبور الشارع من قبل ريفى أو قروى زائر للمحروسة، لا يدرك رموز وإشارات التفاهم بين قادة المركبات والمشاة.

والشاهد أن رموز وإشارات التفاهم والصراع والتعاون بين المشاة وقادة المركبات تختلف تماماً عن قواعد المرور الخاصة بالمشاة، وبعض هذه الإشارات والعلامات فيها الكثير من خفة دم المصريين وروحهم الطيبة وتسامحهم، وقدرتهم على العيش المشترك وتعاونهم لمواجهة مصائب الدنيا وظلم السلطة، وزحام الطريق. فى الوقت ذاته تحمل هذه العلامات قدراً من الغضب وممارسة العنف وأحياناً الاستجداء والتعاطف. لكن أياً كانت لغة التواصل والصراع بين المشاة وقائدى المركبات، فمن المؤكد أنها أكثر ليناً من السلوك الممزوج باليأس والتحدى ونفاد الصبر الذى ينتهجه المشاة لعبور الطريق دفعة واحدة بشكل جماعى وأحياناً بمبادرة فردية عندما يقرر شخص أو شخصان عبور الطريق اعتماداً على خفة الحركة والفهلوة فتجده يمر بين السيارات فى تعرجات وقفزات بهلوانية خطرة،ومن عجب أن قائدى المركبات يستطيعون قراءة هذه القفزات المغامرة ويستجيبون لها قدر الإمكان، ربما لأن أغلبهم سبق أن مارسها.

وثمة نقطة التقاء عجيبة تحدث بين المشاة وقادة المركبات عندما تتعطل السيارة وتعجز عن الحركة، ويقف قائدها حائرا فى انتظار مساعدة المشاه، حيث يكون فى احتياج إلى دفع سيارته حتى يدور محركها او ليتمكن من ايقافها على أحد جوانب الطريق. المدهش أن انتظاره لايطول وحيرته تنتهى سريعا فلا تزال قيم مساعدة الآخرين حاضرة رغم كل عنف وجفاء القاهرة. يتجمع عدد من المشاة ويدفعون السيارة إلى الامام وقد يتجشمون جهدا كبيرا فى تحريك السيارة حتى يعمل محركها من جديد. وبمجرد أن تتحرك السيارة يكتفى السائق بتوجيه كلمة شكر عابرة للرجال الذين ساعدوه، أو ينطلق بعد أن يلوح لهم بإشارة تعنى الشكر والامتنان. لكنه لا يفكر أو يعرض عليهم مشاركته فى استخدام السيارة لتوصيلهم إلى الجهة التى يقصدها أو حتى توصيلهم لأقرب نقطة.

هكذا تنتهى أزمة قائد المركبة، وتنتهى نقطة الالتقاء المفروضة على الطرفين والتى جسدت لحظة تعاون وقيمة مشاركة بين المشاة وقادة المركبات، وذلك رغم أن أصحاب الفريق الأخير لايبادلون المساعدة بمساعدة ولا يكملون دائرة التعاون بين الطرفين. ويبدو أن قواعد هذا الالتقاء الإجبارى العابر صارت موضع اتفاق بين الجميع، فلقائد المركبة حق فى الحصول على مساعدة المشاة، بينما هم ليس من حقهم طلب مقابل مادى أو عرض باستخدام ذات السيارة التى كانت متوقفة وعاجزة ولا تساوى شيئا بدون مساعدة وجهد المشاة. ورغم لا منطقية أو توازن هذه العلاقة إلا أنها صارت مألوفة ومتفقا على تراتبيتها الظالمة ضمن مفردات خطاب الشارع وحركة المركبات فى المحروسة.

على الجانب الآخر فإن قادة المركبات يسلكون نفس السلوك المغامر والمتحدى عندما يسرعون أكثر من المطلوب أو يتظاهرون باقتحام الطريق أو رفع صوت آلة التنبيه لإرهاب الجموع التى تعبر الطريق ودفعهم لإفساح الطريق ومنحهم الأولوية فى المرور، كذلك قد تناور السيارة بين زحام المشاة الراجلين فى وسط ميدان شعبى أو طريق مزدحم بالناس. والواقع أن سلوك المغامرة والتحدى على الجانبين هو شكل من أشكال ممارسة السلطة والصراع فى طرقات المحروسة. وهو فى الواقع صراع بين الفضاء العام المتمثل فى فضاء الطريق والمشاة الراجلين، وبين فضاء خاص متمثل فى سائقى المركبات بأنواعها. فريق يسير على الأقدام ويشعر بالتعب وحرارة الجو أو برودته، وفريق أقل تعباً يجلس خلف مقود المركبة أو على أحد مقاعدها. وأفراد كل فريق يتماهون مع الفريق الذى يمثلونه، وذلك رغم عدم ثبات الانتماء لفريق فى كثير من الحالات، فراكبو الأتوبيس العام أو سيارة الميكروباص أو التوك توك يتحاملون على المشاة، ويشجعون قائد المركبة التى تقلهم على سلوكه العنيف تجاه المشاة، بالرغم من كونهم سيهبطون بعد دقائق للانضمام إلى فريق المشاة. وفريق المشاة قد ينتقل بعض أفراده إلى فريق الراكبين، وهكذا تبدو الانتماءات ممزقة ووقتية ونفعية، طالما تغيب عن المحروسة المعايير وقوانين المرور وتسود ثقافة اللانظام والفهلوة والأنامالية.



لكن الثابت أن الغلبة تكون دائماً لثقافة الانتماء إلى فريق الراكبين ضد فريق الراجلين أو المشاة. فتنظيم الشوارع وحركة المرور فى المحروسة تنفى فريق المشاة وتتجاهل وجوده، وفى أحسن الأحوال لا تمنحه الأولوية، بل تمنح فريق الراكبين أولوية المرور، كما توفر له تسهيلات وفرصا أيسر وأسهل على الحركة. فكثير من الشوارع الرئيسية ليس لها رصيف لاستخدام المشاة. وإن توافر الرصيف فإنه ضيق ومحطم ومتخن بالحفر والتكسيرات وغير ملائم للاستخدام الآمن، كما أن المركبات تحتل أقساما كبيرة منه علاوة على الامتدادات والتوسعات غير المشروعة للمحلات التجارية، والحضور الكثيف والعشوائى للباعة الجائلين والأكشاك والمتسولين وأطفال الشوارع.

وتمارس الدولة تمييزاً صارخاً ضد المشاة، فعدد كبير من الشوارع الرئيسية فى أحياء المحروسة المزدحمة وميادينها تحوطه أسوار قبيحة من الحديد تمنع عبور المشاة إلا من أماكن محددة يتطلب الوصول لها السير لمسافات طويلة، أو استخدام كبارى مخصصة أو أنفاق للمشاة ذات تصميم معمارى بائس ينشر القبح فى المحروسة، ولا يشجع المشاة على استخدامه لأنه لا يراعى الحد الأدنى من الاشتراطات الصحية، وعادة ما تكون هذه الكبارى على درجة عالية من القذارة والإهمال، حتى تبدو مهملة فى معظم الأوقات ولا تستخدم إلا على نطاق محدود نتيجة سوء تصميمها والمجهود الكبير الذى تتطلبه، علاوة على الافتقار إلى الشعور بالأمن خاصة أثناء الليل. وقد يثار جدل ونقاش حول مسئولية المشاة فى عدم استخدام هذه الكبارى العلوية والأنفاق المتعبة وارتباط ذلك بثقافة الاستسهال والفهلوة، لكن الأهم هنا تأمل الفكر التنظيمى والمرورى المحرك لتنظيم شوارع المحروسة والذى ينحاز إلى المركبات وليس المشاة كما هو الحال فى كل عواصم الدنيا، فيطلب من المشاة بذل جهد أكبر من المركبات. وليس أدل على ذلك من أن عدد الكبارى والأنفاق المخصص لعبور المشاة فى المحروسة يقل بكثير عن مثيلاتها المخصصة لعبور المركبات وتسهيل حركتها.

نفى الدولة للمشاة من حساباتها فى تنظيم شوارع المحروسة، والمعانى والدلالات الطبقية المرتبطة بتملك سيارة خاصة بغض النظر عن نوعها وحالتها، دفعت بكثير من المصريين لتدبر أمرهم



كان الشـــارع المصـــرى قبـــل ثـلاثـين عـامـاً يـتـسـم بـقـدر مـقـبـول مـن الانـضـبـاط والحـضـور الـقـوى والمـؤثـر لســـلطة الــدولـة والقــانــون

بطريقة أو بأخرى لتملك سيارة خاصة، والفرار من فريق المشاة الدائمين، ومستخدمي المواصلات العامة والجماعية. وبالتالي تأكدت غلبة ثقافة الراكبين ضد ثقافة المشاة، لاسيما أن الأخيرة ارتبطت بمعان ودلالات طبقية غير مرضية. فاستخدام المواصلات العامة والتنقل سيراً على الأقدام لتغيير مواصلة عامة أو المشى من محطة المترو إلى مكان العمل أصبح من علامات الفقر والحاجة. من هنا أصبح السير على الأقدام لا يتم إلا فى ظروف استثنائية لكثير من سكان القاهرة، وأصبح التنقل داخل نفس الحى سيراً على الأقدام أمراً غريباً وربما شبه مستهجن، الأمر الذى يضاعف من مشكلات تكدس المرور وتلوث بيئة المحروسة بالعوادم المنبعثة من مئات الألوف من المركبات التى يسير بعضها فى رحلات قصيرة للغاية أو يسير بغير هدف.

٦- حوادث مرورية آمنة: من أعجب تناقضات حركة الناس والمركبات فى شوارع المحروسة أن عدد حوادث المرور قليل للغاية بالنسبة إلى العدد الهائل من أنواع المركبات الحديثة والمتهالكة والتى تسير بدون التزام بقوانين المرور وتستعمل طرقاً غير آمنة لكثرة ما فيها من مطبات وتعرجات وتقاطعات. وأغلب حوادث المرور التى تقع فى شوارع المحروسة هى من النوع البسيط، فلا قتلى أو جرحى إلا فيما ندر، ومعظم الإصابات تلحق بهياكل المركبات وهى أيضاً من النوع البسيط أو المتوسط، فلا تصل إلى التدمير الكلى للمركبة. باختصار نحن إزاء حوادث مرور آمنة فى عاصمة مليونية مزدحمة، ربما لأن شدة الزحام وتقادم أغلب المركبات فيها لا تسمح لكل أنواع المركبات طوال أغلب ساعات اليوم بالسير السريع، والذى قد تنجم عنه حوادث كبيرة وخطيرة.

والمفارقة أن مركبات المحروسة لا تكاد تخلو من مصحف أو صليب، كما أن سائقيها متدينون للغاية، لكنهم كافرون تماما بكل قوانين ونظم المرور المعمول بها فى العالم. ومع ذلك فإن نسبة الحوادث قليلة، أؤكد هنا ثانية أن الزحام هو بطل هذه المفارقة، فلولاه ربما تغير تماماً عدد ونوعية ضحايا حوادث السير فى المحروسة، وربما أيضاً ونتيجة للزحام كفر السائقون فى المحروسة بقوانين المرور، وأصبح من الصعب أن يستعيدوا إيمانهم بها قولاً وفعلاً.

لذلك أنت فى القاهرة أمام وضع فوضوى، يفتقر إلى المعيارية ويتسع لكافة ممارسات خطاب الشارع بكل تناقضاته وتوافقاته. عاصمة مليونية بشوارع أغلبها ضيق وتم تصميمه لاستيعاب ملايين قليلة، بينما مطلوب منه استيعاب حياة أكثر من ١٥ مليونا، وأكثر من مليونى مركبة بدون جراجات كافية أو أماكن محددة للوقوف. وفى ظل الوجود المراوغ للدولة ترتفع عمارات جديدة عملاقة بدون جراجات، كما تقام على عجل مجمعات سكنية وأسواق تطل على شوارع ضيقة لا توجد بينها وبين هذه العمارات والمجمعات الضخمة أى صلة مكانية أو زمانية.

هذا اللا توازن بين شوارع المحروسة ومبانيها الحديثة وسياراتها التى تنمو بمعدلات مثيرة تخلق مشكلات مرورية صعبة، وتتطلب حلولاً شاملة ورؤية واضحة تعتمد على القانون وتلتزم بتطبيقه بدون تمييز، كما تعتمد على توعية المواطنين بمزايا الالتزام الطوعى والتعاون فى تطبيق قوانين المرور وقواعد السلامة المرورية. لكن ما حدث فعلياً أن الدولة لجأت لحلول جزئية متسرعة وعشوائية، كالتوسع فى المطبات الصناعية التى لا يوجد لارتفاعها مثيل فى العالم - يلاحظ أن سكان كل قرية على الطرق السريعة انتزعوا سلطة الدولة وصنعوا بمعرفتهم مطبات لإرغام السيارات على التمهل الإجبارى والكثير منها لايرى ليلاً - والتوسع فى اليوتيرن بدلاً من الإشارات الضوئية عند التقاطعات. كما تخلت الدولة عن كثير من سلطاتها فى تنظيم المرور وأصبح وجودها مراوغاً ومتراوحاً بين القوة والتساهل، بين التسامح والتشدد. وكان من الطبيعى كما أشرت من قبل أن يحتل المواطنون - كل على طريقته وبحسب كفاءته - المساحة التى تخلت عنها الدولة. لذلك ظهرت عدة سلطات متنافسة ومتصارعة فى الشارع المصرى. وتنافس السائقون فى المحروسة فى استخدام آلات التنبيه بما فيها الخاصة بالشرطة وسيارات الإسعاف، وتوسع السائقون فى استخدام الأنوار المبهرة ليلاً، واستخدامها بطريقة متقطعة سريعة كإشارة تهديد أن السيارة المقابلة لك ستمر شئت أم أبيت.

وتوسع باعة الصحف والشحاذون وأطفال الشوارع فى احتلال أماكن مميزة عند اليوتيرن وأمام المطبات الصناعية، والمدهش أن قادة المركبات بأنواعها يتوقفون لشراء الصحف أو تقديم المساعدة للشحاذين سواء كانوا أطفالاً أم عمال نظافة يعملون لدى المحافظة أو شركات النظافة، وبطبيعة الحال كل هذه الفوضى تضاعف من حدة الزحام، وقد تسبب حوادث مرورية. لكنك من الصعب أن تطالب بتدخل الشرطة أو تحتج لدى الآخرين الذين يقودون سياراتهم، لأنك هنا تبدو فى صورة الأمى الذى لا يشجع الناس على قراءة الصحف!! أو الجاحد الذى يمنع الخير عن الفقراء.

فى كل هذه الفوضى والزحام الخانق تظهر إبداعات المصريين فى قيادة المركبات، وهى إبداعات إن جاز القول كافرة وخارجة عن القانون. فتجد قطع الطريق من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار أو العكس أمراً معتاداً، أو أن تقود سيدة سيارتها وطفلها الرضيع يجلس على قدميها، ويتباهى شخص آخر بأنه يقود السيارة وابنه الذى لم يتجاوز عمره أربع سنوات ممسك بمقود السيارة. كذلك فإن السير عكس الاتجاه يبدو أمراً مألوفاً، والطريف أنك عندما تتأمل طريقة كل سائق فى قيادة مركبته ستجد عدة أنماط غريبة متعايشة فى شوارع المحروسة، فهناك نمط القيادة المقاتلة، وهو الشخص الذى يقود سيارته وكأنه يقاتل الآخرين بل ويقاتل نفسه، فتجده متوتراً ومستنفراً وكأنه يسير على حافة هاوية. أما النمط الثانى فهو القيادة غير المكترثة، وهو الشخص الذى يقود وهو أقرب إلى النوم منه إلى الانتباه واليقظة، وغالباً ما يكون مجهداً ومشتت الفكر والانتباه، غير قادر على التمييز ومع ذلك يسير ببركة الله ودعاء الوالدين. ثم تجد ثالثاً نمط قيادة البعير والذى يجمع الأشخاص الذين يقودون المركبة أياً كان نوعها وكأنه يقود بعيراً، إذ يقود ببطء وبوتيرة واحدة ثابتة لا تتغير، وينظر للناس والطريق من نظرة دونية فهو مرتفع عنهم بسيارته أو خياله. وينتشر هذا النمط بين سائقى الأتوبيسات والسيارات النقل، وبين بعض كبار السن من قادة السيارات الخاصة. أما النمط الرابع فهو قيادة الانتحارى وهو منتشر على نطاق واسع بين الشباب وسائقى الميكروباص. فهو يناور مسرعاً بين السيارات وقد يرتكب حادثا يدمر سيارته. ثم هناك خامساً النمط الحريص والحذر فى القيادة وينتشر بين السيدات وبين بعض كبار السن وأصحاب السيارات الجديدة الذين لم يراكموا خبرة طويلة بفوضى القيادة فى شوارع المحروسة.

فى ظل هذه الأنماط الغريبة من القيادة من المنطقى أن تقع حوادث، ومع الوجود المراوغ للدولة وسلطة القانون تتحول كل حادثة إلى مناسبة لممارسة أنواع مختلفة من الصراع والتنافس والتعاون بما يتضمنه ذلك من تلاسن وتبادل للشتائم والتخويف أو ممارسة للسلطة أو ادعاء باستخدامها ضد الآخرين. وقد يصل الأمر أحياناً إلى الاشتباك بالأيدى، إلى أن يتدخل المشاة وقادة المركبات الأخرى للتوصل إلى تسويات ومصالحات غالباً ما تتم بعيدا عن وجود الشرطة أو رجال المرور الذين يغيبون عادة عن الحوادث التى تقع فى الطرق والميادين غير الرئيسية، وأحيانا يصلون بعد أن تنتهى المشاجرة ويتراضى الطرفان.

ويحتار المرء فى تفسير أسباب غياب السلطة الرسمية عن مسرح حوادث المرور، وهل هو غياب متعمد أم غير متعمد، فقد سمحت لقادة المركبات أن يقوموا بإصلاح سياراتهم بدون الحصول على ترخيص

مع الوجود المراوغ للدولة وسلطة القانون تتحول كل حادثة بسيطة إلى مناسبة لممارسة أنواع مختلفة من الصراع والتنافس والتعاون

مسبق كما يحدث فى معظم دول العالم، ولم تلزم مالكى المركبات بأنواعها بالتأمين ضد الحوادث والأضرار التى قد يلحقونها بمركبات الآخرين. وهى قاعدة مطبقة فى معظم دول العالم، لكن السلطة الرسمية فضلت وعلى غير طبعها الاستبدادى المسيطر وحسها الأمنى المتضخم أن تترك المجال العام لحوادث ومصادمات الطرق للقطاع المدنى يمارس فيه المواطنون كافة أشكال الصراع والتعاون!! ويظهر فيه مالكو السيارات وسائقو التاكسى ثقافتهم وسلوكهم الحقيقى عندما تتعرض مصالحهم للخطر أو لخسارة ما. فى مواقف الحوادث والاصطدامات تنفجر المشاعر الحقيقية من غضب وعدوانية وتعاون وتراحم. وتطفو على السطح القيم الحقيقية للتضحية والإيثار والأنانية وحب الذات والخوف.. باختصار ينفجر فى صخب كل مكبوت اللاوعى أو كل المستتر خلف زجاج سيارة فارهة، أو تاكسى متهالك، أو ما هو خلف الزى وخلف كل الرموز والأيقونات الدنيوية والدينية. ويصبح الجميع فى موضع اختبار.

فى موقف الحوادث والاصطدامات تسقط غالباً الكثير من أقنعة المكانة ومظاهر ممارسة السلطة التى يتصنعها مالكو السيارات الخاصة، وتختلف حدة الصراع ومساراته، وممارسة السلطة أو العدوانية أو التسامح تجاه الآخر بحسب مدى التلف الذى أصاب السيارتين أو إحداهما، وكذلك حسب نوع السيارة وسنة صنعها، وشخصية السائق، فتاة أو فتى، سيدة، ضابط، موظف فى بنك، مسئول فى وزارة أو جهة سيادية. سائق تاكسى أو سائق سيارة خاصة، أو ميكروباص أو أتوبيس للنقل العام. كل هذه العوامل تتدخل وتتفاعل لتصنع فى النهاية إطاراً محدداً لمسار الصراع أو التسوية التى قد يتوصل إليها الطرفان. فقد يتعهد طرف بإصلاح السيارة للطرف الآخر، أو دفع مبلغ معين لإصلاح الضرر الذى لحق بسيارة الطرف المخطئ. وعادة ما يتفق على هذا المبلغ عبر وساطات من سائقين آخرين توقفوا لفض النزاع، وتطوعوا لعقد المصالحة وتهدئة النفوس. وبطبيعة الحال فإن أى حادث وما يتبعه من صراع وتسويات يؤدى إلى تعطل حركة السير خاصة عندما يتوقف عدد من سائقى المركبات للفرجة أو للتطوع لتسوية الصراع.

وفى بعض الحوادث قد يرفض الطرف المتضرر قبول التعويض عملاً بالموروث الشعبى الذى يمنع ويستنكر قبول العوض. وقد يتعاطف صاحب سيارة خاصة مع سائق التاكسى المخطئ فلا يقبل منه أى تعويض بل أحياناً يتبرع له بمبلغ ما وبشكل طوعى لكى يساعده فى إصلاح الضرر الذى لحق بالتاكسى. وفى قليل من الحوادث قد يرفض الطرفان كل جهود الوساطة والمصالحة وينتظران الحضور المتأخر للشرطة حيث يتم تحرير محضر بالحادثة وتتحول إلى النيابة، ويدخل الطرفان فى إجراءات تقاض تستمر لعدة سنوات.

خلاصة القول إن أغلب حوادث وصدامات المركبات بالمحروسة لا تصل إلى حد الصراع الدامى أو الاشتباك بين الطرفين، كما لا تصل إلا فيما ندر إلى القضاء، حيث يسودها نوع من التلاسن الذى تختلف حدته بحسب عوامل كثيرة، ويسوده قدر كبير من ممارسة السلطة ضد الآخر ومحاولة تخويفه أو تهديده، وقد ينتهى الموقف بعتاب والتوصل إلى تسوية ما يلعب فيها المشاة وسائقو السيارات الأخرى دور الوسيط المحايد، والثابت أن مشكلة المشاكل فى حوادث سيارات المحروسة هو عدم القدرة على تحديد المخطئ، فمع غياب سلطة الدولة والكفر البيّن بقوانين المرور وجهل أغلبية السائقين بها تضيع الحقائق، فلا معايير متفقا عليها يمكن الاحتكام إليها فى ظل سوء تصميم الطرق وبعض الكبارى وتدهور حالة الشوارع وعدم صيانتها وكثرة المطبات، علاوة على فوضى اليوتيرن.. مع كل هذه الأمور يدعى كل طرف فى معظم حوادث المرور بالمحروسة أنه على حق تماماً والطرف الآخر هو المخطئ. و يمكن تفسير هذا الأمر فى ضوء ضعف ثقافة المسئولية والاعتراف بالخطأ فى مكونات الثقافة والشخصية المصرية، إضافة إلى اللا معيارية والجهل بقوانين المرور. ■

كتاب الزاوية



الآخــر.. فى التلمــود (٣)

باب العبادات الأجنبية هو الباب الثامن من قسم الأضرار أو العقوبات، ويتكون من خمسين تشريعا جاءت فى خمسة فصول، وقد شغلت هذه التشريعات وما عليها من شروح ١٥٠ صفحة من صفحات التلمود البابلى.

يعكس هذا الباب رؤية فقهاء التلمود للذات اليهودية وللآخر، فلقد وضعوا أنفسهم فى مكانة تفوق غير اليهود، فهم يرون أن الرب فضلهم على غيرهم من الأمم، بل لقد خلق العالم من أجلهم، ومن ثم حفل هذا الباب بأخبار المعجزات والكرامات التى أجراها الرب على يد آباء بنى إسرائيل وقضاتهم وأنبيائهم، بل على يد فقهاء التلمود أنفسهم.

وعلى النقيض من تضخيم الذات اليهودية ومغالاة فقهاء التلمود فى الإعلاء من شأنها جاءت نظرتهم إلى الأغيار، الذين عاش اليهود معهم واحتكوا بهم فى بابل وفلسطين، فلم يعش اليهود فى معزل عن المجتمع، أى فى «جيتو» كما كان حالهم فى أوروبا حتى وقت قريب، ولم يتمتعوا باستقلال سياسى، بل كانوا مجرد طائفة من طوائف المجتمع سواء فى بابل أو فى فلسطين.

لقد نظر فقهاء التلمود إلى الأغيار على أنهم بهائم، بل لقد حكموا عليهم بالنجاسة، ونسبوا إليهم أفعالاً شاذة وحقيرة، وتشككوا فى ذممهم، ووصفوهم بالمكر والخبث، وتنوعت تشريعات هذا الباب بين تشريعات تنضح بالعنصرية، وتشريعات تحض على العداوة والبغضاء، وأخرى تحض على العزلة وعدم مشاركة الآخر أعياده وأفراحه، وتشريعات تدعو إلى الإضرار بالآخر اقتصاديا، وعسكرياً، وتشريعات تبيح التحايل بما يحقق المنفعة الشخصية لليهود، وتشريعات تنفر من الآخر وتحرم طعامه أو الطعام الذى يشترك فى صنعه، وتشريعات تحض على نفى الآخر وإقصائه.

أهميتهـــــا.. فى انتشـــارها

الفضائيات السلفية



■ يمكن النظر إلى الفضائيات السلفية، والإعلام السلفى عموما، كجزء من موضوعة أسلمة الحداثة: ليس عبر البوابة النظرية أو الفلسفية على النحو الذى انشغل به إسلاميو أسلمة المعرفة، وبشكل خاص تجربة المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ولكنه نوع من أسلمة الحداثة عبر توظيف منتجاتها فى نشر الدعوة والفكرة الإسلامية.

وقد شهد الإعلام السلفى تطورا كبيرا وقياسيا فى سرعة توظيف التقنيات الحديثة بدءا من أشرطة الكاسيت التى استخدمت على نطاق واسع وبجودة عالية، مرورا بتأسيس مواقع الإنترنت وقد كان دعاة السلفية وشيوخها الأكثر توظيفا للشبكة وحضورا عليها، ثم انتهاء بالفضائيات التى حازت اهتماما من السلفية باعتبارها الأكثر قدرة على بناء علاقة مباشرة مع المتلقى؛ حيث تتفاعل الصورة مع اللغة بجانب قدر عال من التواصلية ما يسمح بتقديم رسالة إعلامية متكاملة

وبعكس شبكة الإنترنت التى كان الحضور السلفى فيها كثيفا وواضحا ومباشرا فى طبيعته وتمايزات خطاباته كان الحضور السلفى فى الفضائيات أقرب إلى حالة أو تيار أو طريقة تفكير أو حتى مزاج منه إلى بناء أيديولوجى متكامل فضلا عن أن يكون حضورا تنظيميا.

والسلفية فى الفضائيات هى سلفية محتوى وخطاب ومنهجية تفكير أكثر منها توجه أيديولوجى محدد فضلا عن أن تكون ممثلة لتنظيمات أو حركات سلفية محددة، على الأقل بالنظر إلى طبيعة وسيط الفضائيات فى المنطقة العربية، فكلها تبث عبر القمر الصناعى المصرى نايل سات، ومن ثم يمكن أن نتكلم عن حزمة من التدابير القانونية والسياسية جعلت الدخول السلفى للفضائيات محكوما باعتبارات وقيود كثيرة بعكس حالته على شبكة الإنترنت، وهو ما انتهى إلى اختزال الحضور السلفى فى الفضائيات فى تيار السلفية الوعظية دون غيرها من التيارات السلفية ذات الاهتمامات بالسياسة والشأن العام فضلا عن تيارات السلفية الجهادية بالطبع!.

لقد شهدت السنوات الثلاث الأخيرة توالدا سريعا للقنوات «السلفية» بما جعلها من معالم المشهد الإعلامى العربى الجديد، فصار لدينا قنوات مثل «المجد» و«الحكمة» و«الرحمة» و«الحافظ».. وقناة «الناس» التى يمكن اعتبارها التجربة الأقدم والأكثر أهمية

وتأثيرا فضلا عن كونها المفتاح الأهم فى قراءة المشهد الفضائى السلفى.



رغم كثافة الطابع «الرسالى» للحضور السلفى على الفضائيات إلا أنه بإمكاننا أن نقرأ التجارب الفضائية السلفية من زاوية كونها مشروعا استثماريا تأسس لغرض الاستثمار فى قطاعات جماهيرية واسعة سلفية أو آخذة فى التوجه نحو السلفية، أكثر منها إطاراً إعلامياً لنشر الأطروحة السلفية. إنها أقرب لمشروعات تستثمر فى جماهير تحولت بالفعل نحو السلفية أو آخذة فى التحول: أكثر من كونها تحمل رسالة دينية تريد تبليغها، وقناة «الناس» هى النموذج الأكثر دلالة.

يمتلك قناة «الناس» رجل الأعمال السعودى منصور بن كدسة، وهو صاحب استثمارات سابقة فى هذا المجال. لم يكن استثمار الرجل فى هذا المجال مختلفا كثيرا عن غيره ممن دخلوا مجال الاستثمار فى الإعلام وفى الفضائيات بشكل خاص، فقد أطلق الأمير السعودى الوليد بن طلال قناة «الرسالة» الإسلامية ضمن باقة قنوات روتانا الفنية، وسبقه مواطنه رجل الأعمال صالح كامل فى إطلاق قناة «اقرأ» الإسلامية أيضا كجزء من باقة قنوات راديو وتلفزيون العرب (أيه آر تى) المتنوعة، وكان منصور بن كدسة صاحب تجربة مماثلة.

بدأ ابن كدسة استثماره فى الفضائيات بقناة «الخليجية» والتى انطلق بثها واستمرت سنوات كقناة فنية متخصصة فى بث أغانى الفيديو كليب قبل أن تغير مسارها (أو تعلن توبتها!) عقب النجاح الكبير لشقيقتها الصغرى «الناس»، لقد كان نجاح «الناس» كفضائية سلفية مغريا لأن تتحول «الخليجية» هى الأخرى إلى التخصص فى الوعظ الدينى!

وفى بدايتها كانت «الناس» نفسها قد حددت وجهتها كقناة ترفيهية متنوعة تقدم برامج الغناء وتفسير الأحلام وعلاج الجن واكتشاف المواهب وبث حفلات الزفاف وطلبات الزواج والدعاية!. فى تلك المرحلة كان شعارها (قناة الناس لكل الناس)، قبل أن تتحول بداية من يناير ٢٠٠٦ إلى قناة دينية سلفية بالكامل وتنتقل إلى شعارها الجديد الذى يناسب المرحلة (قناة الناس..شاشة تأخذك للجنة)!

لم يكن تحول الفضائيات للوعظ السلفى منفصلا عن قراءة بسيطة ولكن



السلفية فى الفضائيات هى سلفية محتوى وخطاب ومنهجية تفكير أكثر منها توجه أيديولوجى محدد

واعية للخريطة الدينية على الأقل فى بلد كبير مثل مصر، فثمة حالة سلفية صاعدة لا تخطئها العين وثمة جمهور سلفى كبير آخذ فى التزايد لا يجد من يلبى طلبه الدينى «السلفى»، فالخطاب السائد فى الميديا لم يكن يمثله بالضرورة، والمشهد الدينى الفضائى -كان إلى وقت قريب- يتقاسمه خطابات تتغذى من روافد تقليدية سواء أكانت رسمية أزهرية أو حركية متأثرة بالأطروحة الإخوانية، قبل دخول رافد التدين الجديد والدعاة الجدد. ولطالما افتقد الجمهور السلفى لمنبر دعوى خارج المسجد وما يتصل به من وسائط (الكتاب والكاسيت) صارت لا تواكب الثورة الإعلامية التى صار معها بإمكان كل بيت فى مصر مشاهدة الفضائيات إما عبر الأطباق اللاقطة أو عبر «الوصلات» التى لا تكلف إلا جنيهات قليلة.

ومن ناحية أخرى ثمة دعاة كبار لهم جمهورهم وجماهيريتهم ولا يجدون-رغم ذلك- فضاء للدعوة خارج الوعظ المسجدى الذى نجحوا فيه، وهم يمتلكون القدرة على جذب هذا الجمهور إلى قناة فضائية دون أن يكلفوها أعباء مالية كالتى يتطلبها نجوم الوعظ التلفزيونى المعروفون الذين عرفوا الطريق إلى حقوق الملكية الفكرية وصاروا يعتبرون «الدعوة» ملكية يجب أن ينالوا تعويضا عنها يقدر بحسب النجومية والقدرة على الجذب.

لقد وقعت قناة «الناس» على نجوم آخرين فى الوعظ لديهم كل إمكانات نجوم الوعظ التلفزيونى ولكن دون مطالب مالية! فأقصى مطالبهم - على الأقل فى البداية - هو توفير منبر جديد للدعوة!، وكانت طبيعة هؤلاء الدعاة وجمهورهم تسمح بالانطلاق فى استثمار فضائى بأقل الإمكانيات والتجهيزات المادية، فالبساطة والاقتصاد واستدعاء أجواء الوعظ المسجدى الذى يخلو من الديكورات الفخمة وشتى مقتضيات الترف، كل ذلك كان من شأنه تعزيز فرصة نجاح هذه النوعية من الاستثمار.

ثم كانت الضمانة الأكثر أهمية فى إمكانية تحييد السياسة والسياسى من هذا الوعظ تلافيا للمنع أو إثارة النظام، وهو ما أمكن تحقيقه عبر عدد من أبرز شيوخ الوعظ المباشر المعتزلين للسياسة من مثل محمد حسان وحسين يعقوب وأبو إسحق الحوينى ومحمود المصرى وسالم أبو الفتوح وآخرين.



بأقل تكلفة مادية وبشرية: نجحت تجربة قناة «الناس» نجاحا معتبرا حتى صارت الأكثر مشاهدة بين القنوات الدينية، لقد أصبحت القناة عنوانا ليس فقط على تغير المشهد الدينى لصالح السلفية بل وعلى انقلاب المعايير الحاكمة للفضاء الإعلامى فى بلد كمصر تراجعت فيه نسبة مشاهدة التلفزيون الرسمى وقنواته المختلفة (وهو الذى يتوفر فى مبناه الشهير الآلاف من الخبراء والإعلاميين والموظفين والتقنيين) لمصلحة قناة لا يزيد مقرها عن شقة متواضعة فى حى المهندسين. لقد صارت «الناس» عنوانا على (فضائيات بير السلم) التى يتجاوز تأثيرها إمكاناتها الفعلية، بل لقد انتقل تأثيرها إلى كثير من البلاد العربية حتى صار البعض يتندر من أنها اكتسحت المشهد الدينى بالجزائر بالقول أن الشيخ أبا اسحق الحوينى هو الوحيد القادر على منافسة عبد العزيز بوتفليقة، وأنه لو نافسه على رئاسة الجزائر لتفوق عليه!. هذا على الرغم من أنها اعتمدت



كان تقديم الوعظ الدينى والمعرفة الدينية عبر وسيط الفضائيات سببا فى تحولات دينية بالغة الأهمية



بشكل كلى على رموز الوعظ السلفى المصريين.

نجحت قناة «الناس» كنموذج للقنوات السلفية من حيث الانتشار والتأثير، ونجحت الأطروحة السلفية فى تصدر المشهد الدينى والتأثير فى قطاعات واسعة من الجماهير التى بدا أنها وجدت فى الوعظ السلفى ما كانت تفتقده فى الوعظ السائد حتى الجديد منه ورموزه التى ملأت الفضاء الدينى بعد تحريره منذ بداية الألفية الجديدة مع انتشار القنوات الفضائية الخاصة.

ولكن ما يستحق النقاش فعلا فى التجربة السلفية على الفضائيات هو مدى تأثير وسيط الفضائيات على السلفية: هل تأثرت الأطروحة السلفية بانتقالها من وسيط المسجد إلى وسيط الفضائيات؟ وهل جرى تحول فى الرسالة السلفية بعد انتقالها من المسجد والكاسيت وحتى الإنترنت إلى الفضائيات؟

ثمة أطروحة مهمة حول تأثير الوسيط فى المضمون (أطروحة جون ماكلوهين) وأن الوسيط يصبح فى النهاية هو الرسالة دليلا على التأثير الجوهرى للوسيط فى المضمون: فهل ينطبق الأمر نفسه على السلفية وتشهد تغييرا جوهريا فى صلب أطروحتها الدينية أم يمكن أن نتحدث عن الاستثناء السلفى؟



أحدثت الفضائيات تأثيرا جذريا فى المشهد الدينى، وكان تقديم الوعظ الدينى والمعرفة الدينية عبر وسيط الفضائيات سببا فى تحولات دينية بالغة الأهمية كان من أهمها نشأة ما صار يعرف بظاهرة التدين الجديد التى يمكن النظر إليها كوليد لدخول وسائل الاتصال الحديثة (كالإنترنت والفضائيات) كوسيط لنقل المعرفة الدينية، لقد ساعدت ثورة الاتصالات الحديثة على ظهور نمط جديد ومختلف من التدين، فهو تدين فردانى، منفتح فى مرجعياته، منزوع السياسة، غير معنى بقضايا الهوية، ومسكون برغبة عارمة فى الخروج على التقليد الدينى.

لقد كانت الفضائيات «القابلة» التى أخرجت هذا الخطاب للعالم، كما قادته باتجاه نوع من العلمانية غير ذلك الذى طالما دار حوله الجدل فى عالمنا الإسلامى.

لقد تحول الدين فى

الفضائيات السلفية



التدين الجديد من الجماعية إلى الفردانية؛ حيث تتأسس علاقة فردية صرفة بين المشاهد والمعانى الدينية، فيقارن بينها ويختار، وأساس تفضيله دائما هو القناعة الفردية والقرار الذى يتحدد بشكل فردانى ويلبى طموحا فرديا للتدين.

واعتمد التدين الجديد على ما يسمى بالديمقراطية الاتصالية التى تلعب فيها الميديا دورا فى تسريع وتيرة النقاش الدينى فيحول الدين إلى خيارات متعددة ويشرك المشاهد فى بناء الخطاب الدينى.

وكانت «الدنيوية» أساسا لهذا النمط من التدين حيث صارت الدنيا محور الثواب والعقاب، وعنوان القبول والرفض، فى التدين الجديد يلتزم الفرد ويؤدى واجباته الدينية ويصبح مؤمنا صالحا لأن فى هذا سعادته وراحته.. تماما كما فى الإعلان الشهير الذى تبثه قناة اقرأ (أقم صلاتك تنعم بحياتك)، فالثواب فى الدنيا، والنعيم فيها أيضا، وهو الهدف من الصلاة، أو على الأقل هو وسيلة الإقناع.. فى حين كانت الصلاة وغيرها من العبادات هى عمل للآخرة.

وفى التدين الجديد نلحظ تلك العلاقة الاستهلاكية بالدين؛ حيث نصبح بإزاء سوق عرض وطلب دينى يختار منه المشاهد اختياره الدينى (أو وجبته الدينية!) بنفسه، تماما كما يفعل المشاهد أمام الستالايت، يبحث ويختار، واختياره الدينى يتحدد وفق مبدأين: الراحة، والاستهلاكية... أو الاستهلاك لما فيه الراحة.

والدعوة فى التدين تخضع لمنطق السوق؛ فللدعاة أجور وأحيانا أجور خيالية، وثمة حقوق للملكية الفكرية يحمى بها الداعية وعظياته وتحتكرها شركات نشر وقنوات بث، وهو تحول جديد تماما فى التعامل مع دروس الوعظ التى كانت فيما قبل واجبا دينيا، وأخيرا برزت فى سوق الدعوة ظاهرة الداعية «النجم» وكذلك الماركة التجارية الدينية!

فى تأثير وسيط الفضائيات على الأطروحة السلفية يمكن أن نقف عند بعض التأثيرات المشابهة لتلك التى رأيناها فى التدين الجديد أيضا: هناك الطابع الاستهلاكى للقناة السلفية الأشهر «الناس»؛ حيث لا يتوقف سيل الإعلانات التى تستحضر- بسبب من غياب المهنية- منطق السوق الشعبى، ثم الرسائل الاجتماعية والإنسانية والعاطفية أحيانا التى تملأ الشاشة وتكلف صاحبها مقابلا يذهب للقناة، وكذلك الأولوية المطلقة للإعلان وتقديمه على المادة الدعوية إلى حد تخصيص فقرات طويلة بالساعات.

ثم هناك منطق الابتعاد عن السياسة، فالخطاب السلفى الوعظى الذى تقدمه القناة يتجنب القضايا السياسية بما فيها القضايا التى صارت تعرف بقضايا الأمة مثل فلسطين والعراق (وإن كان الوضع تغير استثنائيا ومؤقتا أثناء حرب غزة)، فمازال هناك إصرار واضح على عدم حضور السياسة ولا أهلها ولو كانوا سلفيين!.

وهناك أيضا ابتعاد عن قضايا الهوية مثل قضايا التنصير والخلاف الفقهى والصراع المذهبى؛ على الرغم من أنها قضايا مركزية فى الخطاب السلفى بعيدا عن وسيط الفضائيات.



لكن رغم ما يمكن أن يكون وسيط الفضائيات أحدثه من تغيير فى الخطاب السلفى؛ إلا أن طبيعة هذا التغيير وحدوده تختلف تماما عنها فى حالة الدعاة الجدد.

فالاستهلاكية فى الحضور السلفى على الفضائيات ربما لها صلة بتحول الإعلام إلى صناعة تفرض منطقها، وعلى إدارة القناة بشكل خاص، أكثر منها تعبيرا عن تحول فى بنية الخطاب نفسه، بل وكثيرا ما شهدنا محاولات لكبح جماح تلك الاستهلاكية، فكثير من الشيوخ والدعاة السلفيين رفضوا فكرة الإعلان فى برامجهم، ودار نقاش حول فكرة الراعى كحل فى تدبير التمويل بدلا من ابتذال الإعلان، كما رفض كثير منهم فكرة الفواصل الإعلانية التى تقطع برامجهم، مثلما رفضوا كذلك فكرة توظيف رنات الموبايل بأصواتهم إعلانيا على نحو ما فعلت إدارة القناة بإدخال كلمات أو أدعية بصوت هؤلاء الدعاة وعرضها للتحميل بمقابل مادى وقدمت لها تسويقا مبتذلا باعتبارها: «رنة هتدخلك الجنة»!

نعم حضرت الاستهلاكية وبقوة فى الفضائيات السلفية كما هو الحال فى قناة «الناس»، وتوسلت بالتغطية والدعم الدينى للإعلان حتى لو كان عن «بطاطين وأطقم سرير وأدوات منزلية»، لكن مازال الخطاب السلفى نفسه بعيدا عن منطقها، ولربما كان فى بعض جوانبه ضدها عبر الحديث المستمر عن الزهد.

أما الابتعاد عن السياسة فيبدو له صلة بقرار مبدئى بالكف عنها أو المنع منها على الشاشة لضرورة الحفاظ على استمرارية التواجد ومن ثم تبليغ الدعوة، وليس لكون الخطاب نفسه منزوع السياسة كما فى حالة خطاب الدعاة الجدد منزوع السياسة حتى وهو يتحدث فى قضاياها الكبرى كما كان الحال فى غزو العراق أو حرب غزة التى كان خطاب التدين الجديد خطابا مدنيا لا يقترب من مفردات السياسة، فلا يتكلم مثلا عن المقاومة فضلا عن الجهاد ولو بشروطه الشرعية.

إن الخطاب السلفى فى الفضائيات قد يبتعد عن السياسة لكنه يضمرها، وهو قد يبدو غير مسيس لكنه يحمل بداخله إمكانات سياسية كامنة، يظهر ذلك جليا. على سبيل المثال. فى حالة الشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل، فالرجل له ومازال تجربة سياسية ترشح فيها فى البرلمان ومارس العمل العام ومازال، لكنه يوائم فى حضوره على شاشة القناة فلا يقترب من السياسة..

ورغم أننا نلاحظ بالفعل ابتعادا من الوعظ السلفى فى الفضائيات عن قضايا الهوية مثل التنصير والصراع المذهبى إلا أن هذا لا يعنى غيابها فى عمق الخطاب الذى يستبطن الحجاج العقائدى وخاصة مع مخالفى أهل السنة والجماعة. ربما لا تسمح طبيعة الوسيط بظهور قضايا الهوية كاملة، ولكنها حاضرة بشكل عام لدى رموز الوعظ السلفى خارج وسيط الفضائيات، وحضور هذا الوسيط رهن بتقديره لحجم هذا التهديد ومن ثم ضرورة التصدى له.

ظهرت قضايا الهوية فى الخلاف الشهير بين رموز الوعظ السلفية وبين إدارة قناة «الناس» حين بدأت فى استضافة عمرو خالد أبرز رموز التدين الجديد والداعية الصوفى أحمد عبده عوض، لقد احتدم الأمر بالتهديد بمقاطعة القناة إذا استمرت فى السماح لهؤلاء بالدعوة على شاشتها، وتطور الأمر إلى انسحاب الشيخ محمد حسان نهائيا ومشاركته فى تأسيس قناة الرحمة، وقد اضطرت القناة للاستجابة ولو جزئيا لمطالبهم فأوقفت برنامج الداعية الصوفى وكفت عن استضافة عمرو خالد!



الحق أن السلفية فى الفضائيات مازالت تقاوم تأثير الوسيط على الخطاب، ومازالت تسعى لتكثيف حضورها على الفضائيات والاستفادة منها كمنبر واسع الانتشار ولكن دون أن تخسر كثيرا من أطروحاتها أو تضطر للتعديل فى جوهرها.

مازال رموز الوعظ السلفى يقاومون منطق الميديا، لقد فرضوا منطقهم على إدارة القناة فمنعت الموسيقى تماما بالقناة واستعاضت عنها بمؤثرات صوتية، وأوقفت ظهور المرأة على شاشتها

فى تأثير وسيط الفضائيات على الأطروحة السلفية يمكن أن نقف عند بعض التأثيرات المشابهة لتلك التى رأيناها فى التدين الجديد أيضا



بل وعملها بالقناة، وبدأ النقاش جادا حول تشكيل لجنة شرعية لإدارة القناة تعطى الأولوية للشرعى على مقتضيات السوق، ثمة خلافات حول هذا مع إدارة القناة، لكن تبقى دلالته مهمة فى فهم بعض من أبعاد الحضور السلفى فى الفضائيات.

ثم هناك رفض لعلمنة الخطاب على النحو الذى ذكرناه من العلمنة: فمازال الخطاب السلفى فى الفضائيات يصنعه الشيخ وليس الجمهور الذى لم يتجاوز حضوره أو تفاعله أبعد من طرح الأسئلة والتعبير عن مشاعر الامتنان والتقدير دون التدخل فى بناء الإجابة الدينية، ويبدو الشيوخ السلفيون واعين بهذا ومحافظين على مبدأ أن موقع الجمهور هو التلقى وليس المشاركة.

ومازال الخطاب السلفى يصاغ وفق رؤية مؤسسية، فثمة مدرسة دعوية ينتمى إليها الواعظ السلفى يوصل وعظه عبرها ولا يخرج عنها، مازال الواعظ السلفى يعتمد الإحالة إلى المصدر وإلى المراجع الدينية المعتبرة لديه، ومازال الوعظ السلفى الفضائى مستندا لمراجع على الأرض ولم ينفصل أو يستقل عنها.

والأهم من ذلك كله أن الخطاب السلفى مازال مشدودا إلى الآخرة؛ ولم تصبح الدنيا فى وعظه محل الثواب والعقاب، مازال التخويف بعقاب الآخرة حاضرا، وهو إن غاب فلجهة الترغيب فى ثوابها، ولم يدخل بعد فى الدنيوية، حتى الإعلان التسويقى عن تنزيل النغمات مازال يربط شراءها بالثواب الأخروى (رنة هتدخل بها الجنة)؛ وعلى ما فى هذا الإعلان من توظيف دينى فج ومسف فإن منطق أصحابه أن الجنة وثواب الآخرة هو المقصد.



إن الجمهور فى الوعظ السلفى الفضائى حاضر وموجود، وهو الذى يختار الخطاب السلفى (شعار القناة: شاشتنا يصنعها الناس)؛ لكن اختياره لا يؤسس له الحق فى التدخل فى المضمون أو تعديله، ولا يتحول أبدا إلى جزء من صناعة الخطاب.

إن علاقة السلفية بالجمهور فى الفضائيات تؤكد لنا أن إقبال الجمهور عليها هو فى جزء منه بحث عن المحافظة ضد تحولات عميقة تجتاح المشهد الدينى فى مقدمتها خطاب التدين الجديد الذى يكسر المحافظة بشكل ممنهج ومتعمد.

إن الإقبال على الخطاب السلفى فى الفضائيات هو سعى لاستعادة أطروحة المحافظة التى انتهكها خطاب التدين الجديد سواء فى كسره للتقليد الدينى أو فى طريقة قراءة النصوص الشرعية أو منهجية تفسيرها أو لغة الخطاب. أو فى كسره للهوية الدينية التى تتعرض للانتهاك بدءا من شكل الداعية وملابسه وليس انتهاء بأجندة القضايا التى يطرحها والتى تتنوع بين التنمية وإدارة الذات والحوار مع الآخر والتعايش.. وتكاد تخلو من موضوعات الوعظ الدينى التقليدية.

نكاد نلمس لدى جمهور الفضائيات السلفية حنينا لشكل الشيخ التقليدى وطريقة وعظه، حنين لتقليد دينى تعرض للانتهاك على يد مجموعة شباب، تحولت الدعوة على أيديهم إلى «مسخرة» كما يذهب كثير من المتدينين التقليديين!



ثمة علاقة وثيقة بين الوسيلة الإعلامية ومستعملها، من ناحيتهم يتوافق الدعاة الجدد وخاصة أشهرهم عمرو خالد مع وسيلة الفضائيات؛ ومن ثم يستثمرون فيها من حيث الحرص على الوجاهة، وتوظيفها فى الدعاية للبرامج والمشروعات، ومن حيث تحولها لوسيط اتصال بينهم وبين العالم.

لكن السلفية لا تستثمر كاملا فى وسيط الميديا، ولا تميل لذلك، فقط تحتفظ بهذا الوسيط وتستفيد منه كناقل للخطاب السلفى وليس مؤثرا فى مضمونه.

فى الأغلب يقف السلفيون من الوسيلة الإعلامية ويقفون بها عند حدها الأدنى؛ حيث المظهر الطبيعى، والاتصال المتحكم به مع الجمهور، والسيطرة على تدفق المعلومة باتجاه واحد.

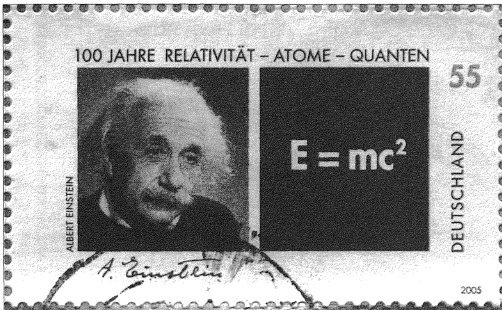
ليبقى الخطاب السلفى أو مازال أقرب للاستثناء فى مقاومة تغيير مضمونه وجوهره بتأثر من الفضائيات وثورة الاتصالات الحديثة. ■

كتاب الزاوية



الآخــــر.. فى التلمـــــود (٤)

كيف يقضى الرب يومه ؟ سوف يجلس الرب ويضحك على (غير اليهود) استنادا إلى ما ورد فى (المزامير ٢/٤): «الساكن فى السماوات يضحك ، الرب يستهزئ بهم»، يقول الربى إسحق: لن يضحك الرب إلا فى هذا اليوم فقط (يوم الدين). إذا كان الأمر كذلك فقد روى الربى يهودا عن راف قوله : إن النهار اثنتا عشرة ساعة ، فى الساعات الثلاث الأولى يعمل القدوس تبارك بالشريعة ، وفى الثلاث الثانية يجلس ويحكم ويحاسب العالم ، وعندما يرى أن العالم مذنب، فإنه ينتقل من كرسى الحكم إلى كرسى الرحمة. وفى الربع الثالث يجلس الرب ويطعم العالم من كبيره إلى صغيره. وفى الربع الرابع يجلس الرب ويلعب مع لوياثان (الحوت) استنادا إلى ما ورد فى (مزامير ١٠٤/ ٢٦) : «لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه». قال الربى نحمان بن إسحق : يضحك أو يلعب الرب مع مخلوقاته ، لكن لا يضحك عليهم إلا فى ذلك اليوم فقط. قال راف آحا لراف نحمان بن إسحق : لم يضحك القدوس تبارك منذ خراب الهيكل. أنى لنا أن نعرف أنه لم يضحك ؟ (نعرف ذلك) مما ورد فى (إشعياء ١٢/٢٢) : «ودعا السيد رب الجنود فى ذلك اليوم إلى البكاء والنوح والقرعة .... » فلعله يشير إلى هذا اليوم - وليس يوماً آخر ... وماذا يفعل الرب فى الربع الرابع؟ يجلس ويعلم أطفال (المعهد الدينى) الشريعة استنادا إلى ما ورد فى (إشعياء ٩/٢٨) لمن يعلم معرفة؟ ولمن يفهم تعليماً ؟ ألمفطومين عن اللبن ، للمفصولين عن الثدى» ومن الذى كان يعلمهم فى البداية؟ يمكنك أن تقول إنه ميتترون (أحد الملائكة المقربين) ويمكنك أن تقول إنه الرب . وفى الليل ماذا يفعل الرب ؟ يمكنك أن تقول: ما يفعله بالنهار .



هل كان أينشتين أهلاً للثقة؟!



ستيفن لاندسبيرج
Steven E. Landsburg

■■ فى عام ١٩١٥ أعلن ألبرت أينشتين Albert Einstein نظريته العامة للنسبية وبعض ما تضمنته من أفكار مذهلة، وقد «تنبأت» النظرية بوجود انحراف فى مدار كوكب عطارد كان قد لوحظ منذ وقت طويل ولكنه لم يُفسر أبداً، وتنبأت النظرية بأمر جديد وغير متوقع يتعلق بالطريقة التى ينحنى بها الضوء للحيود تحت تأثير المجال المغناطيسى للشمس. وفى عام ١٩١٩، قاد السير آرثر إيدينجتون Arthur Eddington حملة استكشافية، وأكد صحة التنبؤ الخاص بانحناء الضوء، وجعل أينشتين شخصية عالمية.

كان التفسير الخاص بمدار كوكب عطارد والتنبؤ الناجح بانحناء الضوء برهانين مذهلين على صحة نظرية أينشتين، إلا أن موضوع انحناء الضوء وحده احتل العناوين الرئيسية للصحف والمجلات العلمية لأنه لم يكن متوقعاً.

ولنتخيل الآن أن السير إيدينجتون قام بحملته فى عام ١٩٠٠ بدلاً من ١٩١٩، إذن لصارت الحقائق المتعلقة بانحناء الضوء راسخة وغامضة بقدر موضوع مدار عطارد قبل أن يبدأ أينشتين عمله بوقت طويل، ولفقد أينشتين التأثير النفسى النابع من تنبؤه بما ليس متوقعاً، وربما لم يكن ليحقق ذلك الأثر المذهل الذى تركه فى مخيلة عامة الناس. وفى عادات الهندام الخاصة بجيل كامل من الفيزيائيين. ولكن بعيداً عن مسألة المجد الشخصى الذى حققه أينشتين، ماذا كان سيحل بنظرية النسبية نفسها؟ هل كان المجتمع العلمى سيتردد فى اعتناقها؟ ولو حدث هذا، فهل سيكون هناك سبب يبرره؟

لنتخيل حدوث العكس؛ بمعنى أن موضوع الانحراف فى مدار عطارد لم يلحظه أحد حتى تنبأ به أينشتين، ثم أكدت الملاحظات اللاحقة هذا التنبؤ، فهل كان التأثير النفسى لتنبؤ آخر غير متوقع سيعمل على تدعيم نظرية النسبية والتأكيد عليها تأكيداً أكبر؟ وهل كان ينبغى أن يفعل هذا؟

طوال أربعمائة عام على الأقل، دأب العلماء والفلاسفة على مناقشة المزايا النسبية لتفسير الحقائق المعروفة (مثل انحراف مدار عطارد) من ناحية، والتنبؤ بما هو غير متوقع (مثل انحناء أشعة الضوء) من ناحية أخرى، وقد تناول الفيلسوفان رينيه ديكارت René Descartes وفرانسيس بيكون Francis Bacon هذه القضية بالبحث، وحتى اليوم لا تزال المناقشات تحتدم حولها فى الصحف الأكاديمية.

ومما لا شك فيه أن التوصل إلى تفسير لإحدى الحقائق المعروفة، والتنبؤ الناجح بحقيقة جديدة؛ ينبغى أن يصب كلاهما فى مصلحة النظرية. وفى بعض الأحيان، يطلق على الحالة الأقوى تأثيراً من الناحية النفسية، وهى التوصل لتنبؤ جديد بنجاح، الدليل «المبتكر» على صحة النظرية. والسؤال هو: هل المفترض أن يعطى ذلك الدليل المبتكر للنظرية ثقلا أكبر مما يفعل الدليل غير المبتكر؟ باختصار، هل مسألة الابتكار هذه تحدث فارقاً؟

الحزب المؤيد لفكرة أن «الابتكار لا يمثل فارقاً» يرى أن الحكم على نظرية معينة يجب أن يعتمد على مزاياها الخاصة بصرف النظر عن الطريقة التى اكتُشفت بها. لدينا هنا النظرية «أ» التى تتفق مع الحقائق «س» و«ص» و«ع»، فلنحكم عليها وفقاً لتلك الحقائق، وما الفارق لو أن الباحث كان يعرف تلك الحقائق قبل ابتكاره للنظرية «أ»؟ ولماذا يكون للحالة الذهنية للباحث علاقة بالموضوع أكثر من تسريحة شعره؟

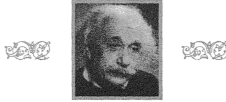
ولنتخيل مثالاً بسيطاً؛ فلو أن نصف الجوارب الموجودة فى درجك الأيسر سوداء اللون، بينما فى درجك الأيمن لا يوجد جورب واحد أسود اللون، فلو أنك اخترت جورباً من الدرج الأيسر، فما هى احتمالات أن يكون لونه أسود؟ بالتأكيد هى النصف. والآن لنفترض أنك معصوب العينين، ومددت يدك على نحو عشوائى فى أحد الدرجين وانتقيت جورباً. ثم أخبرتك زوجتك - التى كانت تراقبك - أنك مددت يدك فى الدرج الأيسر، فما هى احتمالات أن يكون الجورب أسود اللون؟ لا تزال النصف. إن ما يهمنا هنا هو الدرج الذى انتقينا منه الجورب، وليس ما كنت تعرفه أثناء اختيارك له.

إن العالم الذى يختار بين عدد من النظريات المحتملة يشبه إلى حد ما الرجل الذى يختار بين الجوارب، ففى الدرج الأيسر هناك مجموعة من النظريات التى تتفق مع مجموعة محددة من الحقائق، ونصف هذه النظريات صحيح، أما فى الدرج الأيمن فهناك مجموعة من النظريات التى تدحضها الحقائق، وكلها نظريات غير صحيحة. ولنفترض أن

للاستزادة:
فيلسوف الاقتصاد
الاقتصاد والحياة اليومية
ستيفن لاندسبيرج
كلمات عربية للترجمة والنشر - القاهرة ٢٠٠٨
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

ترجمة: رشا سعد زكى

كان التفسير الخاص بمدار كوكب عطارد والتنبؤ الناجح بانحناء الضوء برهانين مذهلين على صحة نظرية أينشتين



إلا أن موضوع انحناء الضوء وحده احتل العناوين الرئيسية للصحف والمجلات العلمية لأنه لم يكن متوقعًا

البروفيسور سميث بدأ بمعرفة كافة الحقائق ثم قام ببناء نظريته التى تتفق مع هذه الحقائق، وأنه راعى عند اختياره للنظرية أن تكون إحدى النظريات الموجودة فى الدرج الأيسر، وهذا معناه أن احتمال كونها صحيحة هو النصف. أما البروفيسور جونز فقد وضع نظريته قبل معرفة الحقائق؛ بمعنى أنه وضع تنبؤًا مبتكرًا، وقد اختار البروفيسور جونز نظريته عشوائيًا وهو معصوب العينين من أحد الدرجين. وبعد أن ثبت أن نظرية جونز تتفق مع الحقائق، اكتشف أنه قد اختارها من الدرج الأيسر. إذن فاحتمالات أن تكون نظريته صحيحة هى أيضًا النصف تمامًا كنظرية البروفيسور سميث.

لا شك فى أن الجوارب والنظريات شيئان مختلفان كليًا، إلا أن كليهما عرضة لنفس القوانين الأساسية للاحتمالات، فلو كان اختيار النظريات لا يختلف فى شىء جوهرى عن اختيار الجوارب، إذن لحسمت المناقشة السابقة الموضوع ولأثبتت أن «الابتكار لا يمثل فارقًا».

ومع أن الآراء المعترضة على أهمية الابتكار تبدو بسيطة ومحكمة، إلا أن الكثير من العلماء المرموقين استقبلوها بالتشكك، وحجتهم فى ذلك أن أى شخص بإمكانه أن يعتمد على بعض الحقائق المعروفة فى اختلاق أو تلفيق نظرية ما تفسر هذه الحقائق، ومن ثم فالتنبؤ المبتكر هو العلامة الفارقة الوحيدة التى تميز الإنجاز العلمى الأصيل. إن هؤلاء العلماء لديهم شعور قوى تجاه أهمية الابتكار، التحدى الفكرى هو محاولة تفسير السبب فى ذلك.

لو أن الابتكار بالفعل يمثل فارقًا، فلا بد أن هذا يعود إلى الاختلاف الواضح بين وضع النظريات العلمية واختيار الجوارب وأنت معصوب العينين. وبالطبع بإمكان أى فرد أن يعد الفروق الواضحة بين النشاطين ـ مثل أن أحدهما يكون فى المعمل والآخر فى حجرة النوم، أو أن أحدهما تدعمه المنح الحكومية ولا تدعم الآخر ـ إلا أنه من العسير جدًا أن تضع يدك على الفارق «الجوهرى» الذى يجعل الابتكار أمرًا يمثل فارقًا.

وقد اقتصرت المناقشات حول مسألة الابتكار على الصحف الفلسفية فقط فى العقود الأخيرة، إلا أن أكثر القضايا المتعلقة بالموضوع وضوحًا هى: «كيف نستطيع الوصول إلى استدلالات فى ظل نقص المعلومات؟» وتلك قضية يعرفها علماء الاقتصاد إلى حد ما.

حتى إذا وضعنا الأمر فى أبسط سياق، نجد أن التنبؤ المبتكر يبدو منطقيًا باعتباره وسيلة للكشف عن المعلومات. لنفترض أن بعض العلماء يتمتعون بالفطرة بموهبة تفوق أقرانهم، وأنه لا توجد أية وسيلة نستنتج عن طريقها من هو الأكثر موهبة من الآخر. وبالطبع فإن العلماء الموهوبين هم ـ على الأرجح ـ الأقدر سواء على وضع نظريات صحيحة، أو على النجاح فى وضع تنبؤات مبتكرة. فعندما يضع البروفيسور جونز تنبؤًا مبتكرًا، فإن ذلك يكشف عن موهبته بعض الشىء، ولو حتى من الناحية الاحتمالية. فالعالم الذى يضع تنبؤًا مبتكرًا وناجحًا هو الأقرب احتمالا لأن يكون موهوبًا، ومن ثم الأقرب احتمالا أن ينجح فى وضع نظرية صحيحة. إذن، فإننا نمنح نظرية جونز مصداقية أكبر مما نمنحه لنظرية سميث، ليس بسبب التأثير «المباشر» للتنبؤ المبتكر، وإنما لأن تبوء البروفيسور جونز المبتكر يشى بشئ عنه.

والقصة لا تنتهى عند هذا الحد، فلم نتطرق بعد للسبب الذى دفع البروفيسور جونز من البداية لمحاولة التوصل إلى تنبؤ مبتكر، فى حين لم يحاول البروفيسور سميث أن يفعل ذلك. فهل فى ذلك دليل على ثقة البروفيسور جونز فى قدراته من ناحية، وعدم ثقة البروفيسور سميث فى نفسه من ناحية أخرى؟ فلو أن الحال هكذا، فقد صار لدينا سبب إضافى يدفعنا لوضع ثقة أكبر فى البروفيسور جونز عن البروفيسور سميث. بمعنى آخر يحق لنا أن نبنى بعض الاستنتاجات ليس فقط بناء على «نجاح» جونز فى التوصل إلى تنبؤ مبتكر، وإنما أيضًا بناء على استعداده المبدئى «للمخاطرة» بوضع تنبؤ مبتكر.

ولنجسد الموقف فى مثال. لنفترض أن العلماء الذين ينجحون فى التوصل لتنبؤات مبتكرة بصورة دورية يحصلون على مائة ألف دولار فى العام، فى حين أن أولئك الذين يحاولون وضع تنبؤات مبتكرة ولكنها غير ناجحة يحصلون على عشرين ألف دولار فى العام، أما العلماء الذين ينأون بأنفسهم عن محاولة وضع أية تنبؤات مبتكرة فيحصلون على خمسين ألف دولار فى العام. إذن فالعالم الذى يقدم على محاولة الابتكار يجازف بدخله؛ فهو مستعد للمراهنة على موهبته الشخصية، وقد يكون تصرفًا عقلانيًا من الآخرين أن يراهنوا معه بأن يعتنقوا نظريته. وبالمثل فإن العالم الذى يختار الحصول على الخمسين ألف دولار المضمونة وينأى بنفسه عن المجازفة يدفعنا دفعًا للتساؤل عما إذا كان ينبغى أن تضع فيه ثقة تفوق ثقته بنفسه.

إن كافة الاستدلالات التى نحصل عليها تتوقف بالتحديد على الحوافز التى يستجيب لها كل من سميث وجونز. والآن نحن فعلا فى نطاق تخصص عالم الاقتصاد. فنحن الآن بحاجة إلى نظرية تحدد لنا أسلوب المكافأة الذى يحتاج إليها كل نوع من العلماء على حدة، وردود الأفعال المحتملة للعلماء على هذا النظام، والاستدلالات التى قد نخرج بها بملاحظة ردود الأفعال السابقة.

إن النظرية المحكمة حول الحوافز لا بد أن تأخذ فى الاعتبار التنافس بين العلماء، والتنافس بين مراكز ومعاهد البحوث، والتنافس بين الرعاة الذين يدعمون الأنشطة العلمية ماديًا والمستفيدين من تلك الأنشطة. هذا التضارب فى المصالح يعطى دفعة لنظام المرتبات الذى يقدم مكافآت متنوعة لمختلف استراتيجيات البحث ومختلف مستويات النجاح. ولكن للأسف فإن استيعاب عواقب تلك النظرية يبدو مهمة مستحيلة.

فلنتراجع إذن إلى مهمة أسهل قليلا. لنتخيل أن هناك قيصرًا قوميًا للعلوم، مسئول عن تصميم نظام يحفز العلماء على العمل بفعالية، ومن الطبيعى أن نأمل فى أن يكون ذلك النظام الذى سيصممه شبيهًا بالنظام الذى يظهر بالفعل فى ظل وجود منافسة. فنحن نعلم جيدًا أن هناك الكثير من النماذج الاقتصادية التى تحقق فيها القوى المتنافسة نتائج فعالة. إذن فلنفكر فيما ينبغى أن يفعله القيصر على أمل أن تكون النتائج قريبة مما نلاحظه بالفعل فى واقع حياتنا. وحتى لو تحطمت آمالنا، فإن جهودنا لن تذهب هباء، فسيظل بإمكاننا أن نعمل مستشارين لأى قيصر جديد فى المستقبل.

أما القيصر: فمن الممكن أن يأمر العلماء إما «بالبدء بالبحث»؛ بمعنى أن يبدءوا أولا باختبار المعلومات كلها قبل وضع النظرية، أو يأمرهم «بالبدء بوضع النظرية»؛ بمعنى أن يحاولوا أولا فرض التنبؤات المبتكرة، ثم تفنيدها والتخلص من النظريات التى تعتمد على تنبؤات خاطئة.

لكن البدء بوضع النظريات هو مضيعة للوقت والجهد، حيث يكرس العلماء الكثير من الموارد لوضع النظريات التى تدحضها الحقائق تمامًا، فى بعض الأحيان على الأقل، أما عندما يجمع العلماء المعلومات مقدمًا، فإنهم يتجنبون الوقوع فى مثل هذه الأخطاء، ويتوفر لهم وقت أكبر للتوصل لنظريات جيدة. إذن فمن المتوقع أن يأمر القيصر الاقتصادى العلماء كلهم بالبدء بالبحث أولا. غير أن هناك أيضًا جانبًا سلبيًا لفكرة البدء بالبحث؛ فقد ينشأ عن ذلك الكثير من النظريات (التى قد تتعارض مع بعضها البعض)، وما من وسيلة لتحديد أيها يبشر بالنجاح أكثر. فمثلا إذا أراد القيصر بناء جسر، فسيجد أمامه فيضًا هائلا من النظريات المتعارضة مع



بعضها البعض حول أساليب بناء الجسر، ولن يتمكن من معرفة أفضلها ليتبعها.

أما عندما يبدأ العلماء بوضع النظريات، فإن الكثير من النظريات تدحضها البراهين بحيث لا يتبقى سوى النظريات التى محصت بدقة عن طريق اختبارات عديدة، مما يؤكد أن واضعها يتمتع بقدر من الذكاء يفوق المتوسط. وبالطبع يحق للقيصر أن يضع ثقة أكبر فى تلك النظريات، وعندما يعتمد عليها فى بناء الجسر، تكون لديه ثقة أكبر فى أن الجسر لن ينهار.

إذن فالموازنة التبادلية هنا تتلخص فى الآتى: إذا بدأ العلماء بوضع النظريات أولا، فإن عملهم سيكون مكلفًا، والقليل فقط من نظرياتهم سيصمد أمام البحث والدراسة، ولن يتم بناء عدد كاف من الجسور المتينة. أما إذا بدأ العلماء بالبحث أولا، فسيكون من المستحيل معرفة النظريات الجيدة من السيئة، ومن ثم يتم بناء الكثير جداً من الجسور الضعيفة التى ستنهار بعدها.

لكن القيصر الذكى ربما يلجأ إلى منطقة وسطى بين مضيعة الوقت والجهد المتمثلة فى البدء بوضع النظريات من ناحية، والنتائج المزرية الناتجة عن البدء بالبحث من ناحية أخرى. فمثلا من الممكن أن يقسم العلماء فيبدأ فريق منهم بوضع بالنظريات، ويبدأ الفريق الآخر بالبحث. ولكن ما هو الأساس المنطقى الذى نحدد عن طريقه أى العلماء ينضم لأى فريق؟

ربما تظهر إجابة محتملة عن هذا السؤال إذا فرضنا أن العلماء يعرفون وحدهم عن بعض قدراتهم الشخصية واستعداداتهم ودوافعهم نحو المشروع المطروح. فمثلا، هناك علماء يثقون بقدرتهم على وضع نظريات جيدة أكثر مما يفعل علماء آخرون. وثقتهم هذه، ولو فى بعض الأحيان، تقف على أساس صلب من القدرة الجيدة على إصدار الأحكام.

ولكى أصل بالفكرة إلى أبسط صورة ممكنة، دعنا نفترض أن العلماء ينقسمون إلى «متميزين» و«تقليديين»، حيث نقصد بالمتميزين أولئك الذين «ترتفع احتمالات وضعهم لنظريات صحيحة عن المتوسط»، وبالتقليديين عكس ذلك. ولنفترض أيضاً (سعياً لتبسيط الفكرة) أن كل العلماء يعرفون قدراتهم تماماً. (وهو تقريب مبدئى للافتراض الأكثر واقعية بأن «بعض» العلماء لديهم «بعض» المعلومات عن قدراتهم).

فى ظل هذه الظروف يصير أحد أهم الأهداف التى يسعى القيصر لتحقيقها هو التفريق بين العلماء المتميزين والتقليديين، وهذه المعلومة تمثل له أهمية كبرى. وذلك لسببين مختلفين تماماً: أولا: لو أنه نجح فى معرفة العلماء المتميزين، فسيعرف أى النظريات يستطيع الاعتماد عليها فى المسائل المهمة مثل بناء الجسور، وثانيًا: إذا استطاع التعرف على العلماء المتميزين، فسيكون بإمكانه أن يكافئهم بإعطائهم أجوراً فى المتوسط أكثر من أقرانهم التقليديين، وهذا من شأنه أن يشجع الأشخاص ذوى المواهب المتميزة على اقتحام مجال العلوم من ناحية، ويثبط أولئك الذين لا يملكون الموهبة المطلوبة.

ولكن كيف يحدد القيصر العالم المتميز من التقليدى؟ أبسط الطرق هى أن يسأل، ولكن للأسف، فبما أنه يخطط لمنح العلماء المتميزين رواتب تفوق رواتب العلماء التقليديين، فإنه لا يستطيع أن يثق بأن الجميع سيجيبون عن مثل هذا السؤال المباشر بصدق، وسيجد نفسه فى حاجة إلى طريقة جديدة يكافئ بها من يقول الصدق.

دعنى إذن أقدم له حلًا، وقد سبق أن أشرت إليه فيما بين السطور، فالحل هو أن يلجأ القيصر إلى إنشاء معهدى أبحاث منفصلين: معهد «البدء بالبحث أولا» ومعهد «البدء بوضع النظريات أولا». فى معهد «البدء بالبحث أولا»، يقوم جميع العلماء دائماً بالبحث والدراسة قبل وضع النظريات، ويتقاضون جميعاً خمسين ألف دولار فى العام، وفى معهد «البدء بوضع النظريات أولا»، يقوم جميع العلماء دائماً بوضع النظريات أولا، فمن تثبت صحة نظرياته لاحقاً يتقاضى مائة ألف دولار فى العام، ومن تدحض الحقائق العلمية نظرياته يتقاضى عشرين ألف دولار فقط.

فإذا جرى تحديد المرتبات بطريقة صحيحة، فسوف يتوجه العلماء المتميزون - الذين يثقون بقدرتهم على وضع تنبؤات مبتكرة ناجحة - للعمل فى معهد «البدء بالنظريات» حيث يتوقعون الحصول على مكافآت مجزية، أما العلماء التقليديون - الذين يدركون جيداً أن تنبؤاتهم المبتكرة غالباً تفشل - فسيقبلون بمرتب الخمسين ألف دولار المضمونة فى معهد «البدء بالبحث». إن أهم نقطة فى هذا الحل هى أنه يدفع العلماء للكشف عما لديهم من معلومات «طواعية»، وهى معلومات مفيدة للقيصر، مع أنه لا يوجد سبب يدفعهم لذلك.

وبالطبع فإن هناك احتمالا أن يتخلى الحظ عن بعض العلماء المتميزين فى ظل هذا النظام فينتهى بهم الحال إلى تقاضى عشرين ألف دولار فقط فى العام. ولكن عموماً سوف يتقاضى العلماء المتميزون أكثر من العلماء التقليديين فى المتوسط، علاوة على أن عدداً أكبر نسبيًا منهم سينجذبون للعمل فى المجالات العلمية. وكذلك فسوف يعلم القيصر لمن يتوجه لطلب الرأى والمشورة حين يهم بالبدء فى مشروع مثل إنشاء الجسر. أما العلماء التقليديون، فمع أن اسهاماتهم ستحترم وسيُعترف بها، إلا أنه نادراً ما سيجرى العمل بها.

إذن فهذا النظام له بعض المزايا المطلوبة بقدر ما له بعض العيوب المقلقة. من ضمن العيوب أن العلماء المتميزين يضيعون الكثير من الوقت والجهد عندما يبدءون بوضع النظريات أولا، ولو أنهم بدءوا بالبحث، لتجنبوا الدخول فى الكثير من الطرق المسدودة. ولكن للأسف إذا بدءوا فعلا بالبحث فإنهم بهذا يقللون من فرص تعرضهم للمخاطر مما قد يشجع بعض العلماء التقليديين على محاولة التسلل ضمن صفوف المتميزين. فالشىء الوحيد الذى يبعد العلماء التقليديين عن معهد البدء بالنظريات هو خوفهم الشديد من احتمال رفض نظرياتهم المقترحة. وبناء عليه فالقيصر، عندما يرغم العلماء المتميزين على تضييع الوقت والجهد، فإنه يشجع التقليديين على الإفصاح عن أنفسهم. وهى معلومة تساوى قيمتها ما يضيع من وقت أو جهد.

ومن ضمن الجوانب الغريبة أيضاً لهذا النظام أن العلماء التقليديين يتقاضون خمسين ألف دولار فى العام مع أنه معلوم سلفاً أن نظرياتهم غالباً لن تكون لها أية قيمة اجتماعية. هذه النقطة أيضاً تنبع أهميتها من أنها تمنع العلماء التقليديين من محاولة التسلل إلى معهد البدء بالنظريات المرموق. فلو أن القيصر امتنع عن توفير الظروف الجيدة للعلماء التقليديين، فسيحاولون التظاهر بالتميز، مما سيسبب للقيصر الكثير من القلق والارتباك.

جدير بالذكر أنه فى حالة ترك مهمة البحث العلمى فى أيدى القطاع الخاص، فإن أغلب المؤسسات ستمتنع عن توظيف العلماء التقليديين الذين لا يقدمون سوى نظريات غير مفيدة. إلا أن الدور الذى تؤديه هذه المؤسسات مهم من الناحية الاجتماعية، لأنها تمنع العلماء التقليديين من التظاهر بالتميز. ولذلك فإنه من المرجح نظرياً أن يكون للحكومة دور ملحوظ فى تنظيم الأنشطة العلمية؛ فإنها الكيان الوحيد الذى يقبل تدعيم الأبحاث التى لا تقدم أية فائدة اجتماعية تذكر!

فإلى أية درجة ترى النموذج السابق واقعياً؟ من المؤكد أنه يحتوى على بعض الصفات التى يمكن تمييزها فى واقع مجال البحث العلمى. فعلى أرض الواقع هناك المعاهد العلمية «المرموقة» التى تعتمد المرتبات فيها اعتماداً كبيراً على نتائج الأبحاث المقدمة، وهناك أيضاً معاهد «ضعيفة المستوى» يعامل فيها الجميع بالتساوى. ويتخذ الكثير من العلماء، إلى حد كبير، قرارهم بالالتحاق بأحد المعاهد بناءً على توقعاتهم الخاصة بقدراتهم، وترجح النظرية أيضاً أن الكثير من العلماء التقليديين يتقاضون رواتب مجزية مقابل تقديمهم أبحاثاً غير مفيدة على الإطلاق، ولذلك فهناك عدد من العلماء التقليديين أكبر بكثير مما يفضله القيصر الكريم. وهذه الاحتمالات تبدو مقنعة بالنسبة لمن اعتاد التعامل مع نظريات العلم الحديث.

إن نموذج العلماء المتميزين مقابل التقليديين لا يعد البرهان الوحيد الذى يدعم التنبؤ العلمى المبتكر، ولكننى أظن أنه الوحيد الذى قُدِّم على هذا النحو المفصل. وأظن أنه من الأفضل أن يجرى تقديم النظريات البديلة على نفس النحو المفصل بحيث تتيسر مناقشة مزاياها جدياً. فبطريقة ما امتد الجدل الدائر حول مسألة «الابتكار» لما يزيد على أربعة قرون دون أن يشعر أىٌ من المشتركين فيه بأهمية تحديد النموذج الذى يعرض رأيه فى مسألة البحث العلمى. فلتحذر المفكرين العظماء الذين يعلنون عما توصلوا إليه من استنتاجات دون أن يُفصحوا عن فرضياتهم. أما أنا فأفضل علم الاقتصاد لأنه لا يقبل سوى أعلى المعايير.■

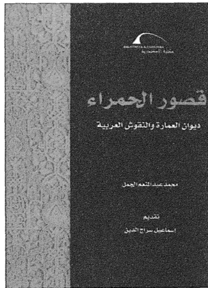


فى حالة ترك مهمة البحث العلمى فى أيدى القطاع الخاص، فإن أغلب المؤسسات ستمتنع عن توظيف العلماء التقليديين



قصــور الحمــراء

ديـوان الـعـمـارة والـنـقـوش الـعـربـيـة



■ يبدأ بتعريف كلمة الحمراء التي وردت لأول مرة في المصادر العربية باسم حصن الحمراء، وكان يطلق على حصن صغير لجأ إليه الثائرون الذين فروا أثناء الفتن التي شبت خلال حكم الأمير عبد الله الأموي، ويبدو أن هذا الموقع قد أصبح في نهاية القرن ٣هـ/٩م حصنا إسلاميا، وكان هذا الحصن قد شيد فيما يغلب في نهاية القرن الثالث الهجري على أطلال رومانية وقوطية قديمة كانت تتخذ من هذا الموقع الاستراتيجي فوق تل السبيكة حصنا ومركزا دفاعيا لها، وقد هجر فيما يبدو في أيام الخلافة حيث لم تذكره المصادر العربية إلا في عصر بني زيري الذين اتخذوه حصنا وموقعا عسكريا، ثم أضافوا إليه منشآت مدنية للسكنى.

والحمراء مدينة ملكية تتخذ شكل الحصن الذي يقام في موقع مرتفع منيع يتميز بحصانته بفضل الأبراج والأسوار المحيطة به ويبلغ ارتفاع الهضبة التي شيدت عليها القصور ٧٣٦مترا، وتشغل نحو خمسة وثلاثين فداناً، وهي في ذلك تشبه إلى حد كبير قلعة الجبل في القاهرة، وقلعة حلب في بلاد الشام، وهذا الطراز من المدن المحصنة أصبح الطابع المميز للعديد من المدن الإسلامية ابتداء من القرن الرابع الهجري.

وتضم الحمراء عدداً من الوحدات المعمارية بعضها قاعات ومجالس وبعضها أبهاء وبساتين تتخللها الجداول والبرك الصناعية خطط لها فوق تل السبيكة الذي عرف بهذا الاسم لتحوله إلى اللون الذهبي عندما تسقط عليه أشعة الشمس.

وقد اتسعت الحمراء بما أضيف من قصور وأبراج وقاعات ومرافق مختلفة ومتعددة الأغراض، حتى أصبحت بحق مدينة ملكية تضم القصور والحمامات والمساجد السلطانية والمتنزهات وصهاريج المياه، وتطوقها الأسوار والأبراج المحصنة.

وأقدم قصور بني نصر التي أقيمت بالحمراء كانت من إنشاء السلطان الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر، الذي وضع النواة الأولى للأسوار والقصبة والقصور فوق القمة المعروفة بـ«السبيكة» ثم تتابعت الزيادات في القصور والمجالس والقاعات على يدي عدد من سلاطين بني نصر شارك كل منهم بالإضافة والزيادة في إنشاء مجموعة قصور الحمراء.

ويمكننا أن نقسم مجموعة الأبنية المؤلفة لقصور الحمراء إلى مجموعتين المجموعة الأولى وتنسب إلى السلطان يوسف الأول (٧٣٣ـ ٧٥٥هـ/ ١٣٣٣ ـ ١٣٥٤م) والمجموعة الثانية ـ وتنسب إلى السلطان محمد الخامس الغني بالله، وتضم مجموعة بهو الأسود أو السباع بالإضافة إلى النافورة التي تتخذ شكل قصعة مستديرة يحملها اثنا عشر أسداً تمج المياه من أفواهها.

أما المجموعات الأخرى من القصور فترجع إلى عدد من سلاطين بني نصر، ساهم كل منهم بالإضافة والتجديد والتعديل في قصور الحمراء فيرجع قصر البرطل إلى السلطان محمد الثالث (٧٠١ ـ ٧٠٨هـ/ ١٣٠٢ ـ ١٣٠٨م) وكذلك مسجد الحمراء، ويرجع الفضل في إنشاء قصر جنة العريف إلى السلطان محمد الثالث واستكمله السلطان أبو الوليد إسماعيل ويرجع قصر أو برج الأميرات إلى السلطان محمد السابع(٨٢٠ـ ٨٥٨هـ)، كما أسهم سلاطين آخرون في الزيادة والتجديد إلى قصور الحمراء ببعض الإضافات في أبهاء أعمالها وبساتينها سواء بالبنيان أو الزخرفة مثل تجديدات السلطان أبو الوليد إسماعيل في قصر البرطل مما يصعب أحياناً تحديد وتمييز أعمال كل منهم عن الآخر.

ونلاحظ أن معظم مسميات القاعات والأبهاء والأبراج، ترجع في معظم الأحيان إلى عصور حديثة وأغلبها يرتبط في كثير من الأحيان بالروايات والقصص الأسطورية، وكثيراً ما يطلق على القاعة الواحدة عدة مسميات.

ويتناول الكتاب الخصائص الفنية للنقوش الكتابية في الأندلس وتطورها:

ويرى الأستاذ ليفي بروفنسال أن شرق العالم الإسلامي كان أكثر ثراء من غربه في النقوش الكتابية المؤرخة التي لا تزال ثابتة في مواضعها الأولى لا سيما في شواهد القبور، ويرجع السبب في ذلك إلى أن إسلام أهل الأندلس والمغرب بوجه خاص كان أكثر رسوخا من حيث الحفاظ على روحه وتعاليمه من أهل المشرق.

وكان لذلك أثر واضح في نظرتهم إلى شواهد القبور وفي تصورهم أنها مكروهة في الإسلام فزهدوا في اتخاذهم له أعلى مقابرهم، وإن كان ذلك لم يمنع من وصول عدد كبير من الشواهد الجنزية الأندلسية إلى المتاحف الإقليمية بالأندلس، أما أهل المغرب فلم يقبلوا على استخدام هذه الشواهد، واستعاض الموحدون عنها بالآيات الكريمة التي أكثروا من نقشها على قبورهم.

وتعرض الكتاب أيضاً لشعراء ووزراء بني نصر وأشعارهم المنقوشة في قصور الحمراء:

حيث نلاحظ أن معظم من تولى الوزارة من سلاطين بني نصر في غرناطة كانوا من فحول الشعراء، وكانت الموضوعات الرئيسية لأشعارهم تدور عادة حول مدح السلاطين والأمراء، ووصف حفلات البلاط والاحتفالات بالأعياد الدينية الكبرى، أو في المناسبات الهامة كالمعارك الكبرى أو عودة الجيش منتصراً أو حفلات الزواج والإعذار، أو أشعار وصفية لغرناطة وحدائق وقصور وبرك ونوافير قصور الحمراء، ومعالمها المختلفة.

وأعظم قصائد هؤلاء الشعراء قيلت في وصف حدائق ومنتزهات ومباني تلك القصور وزاد من قيمة هذا الشعر وخلوده أنه سجل على جدران الحمراء التي تمثل إحدى روائع الفن العالمي، ويستفاد من المصادر الأدبية والتاريخية وأيضاً من دواوين هؤلاء الشعراء أن بعض قصائدهم أعدت خصيصاً ونظمت لهذا الغرض الزخرفي لتنقش على الجدران والنافورات مما يجعلنا نصدق القول بأن الحمراء تسجل لنا أفخم وأعظم طبعة لديوان الشعر العربي على مر العصور، فلم يسبق أن صدر ديوان للشعر مذهب ومطبوع على الجص والحجر والرخام ومزخرف بأروع التشكيلات الهندسية والنباتية من فنون الزخرفة العربية الإسلامية.

ويتحدث الكتاب عن النقوش الشعرية المنسوبة للوزير الشاعر أبي الحسن علي بن الجياب، وكذلك المنسوبة لكل من لسان الدين بن الخطيب وأبي عبد الله بن زمرك.

الأماكن التي تتركز عليها النقوش الشعرية في قاعات وأبهاء الحمراء:

ويعرض الكتاب للمواد الخام والأساليب الفنية المستخدمة في تنفيذ نقوش الحمراء كما يذكر كيف تتوزع نقوش الأشعار المسجلة على جدران الحمراء في مواضع متعددة فهي تمتد في أفاريز متعددة الأشكال داخل القاعات وخارجها وعلى الواجهات والأبواب والنافورات وتتخذ شكل أفاريز طولية وعرضية أو داخل دوائر تنحصر داخل إطارات مربعة الشكل تمتد في مساحات واسعة متناظرة ومتماثلة وتدور على جدران القاعات بحيث لا يخلو جزء من الجدران من النقوش الشعرية بين التوريقات النباتية والزخارف الهندسية المتعددة الأشكال والأنواع. ■

خالد عزب

قصور الحمراء
ديوان العمارة والنقوش العربية
دكتور محمد الجمل
مركز الخطوط ـ مكتبة الإسكندرية

آسيا..

السيد أمين شلبي

■ ■ كيشور محبوباني Kishore Mahbobani هو دبلوماسي سنغافوري عمل لمدة ثلاثة عشر عاما مندوبا دائما لبلاده في الأمم المتحدة بنيويورك، وهو يعمل الآن مديرا لمعهد لي كوان يو للعلاقات الدولية في سنغافورة، وقد أتاحت له فترة عمله الطويلة في الولايات المتحدة فرصة أن يعرف ويدرس عن قرب المجتمع والنظام الأمريكي، وهو ما كرس له كتابه Beyond the Age of

The New Asian Hemisphere,
The Irresistible Shift Of Power To The East
آسيا الجديدة: القوة تتحول الى الشرق
Kishore Mahbubani
Public Affairs, Newyork 2008

Innocence, Rebuilding the first between America and the world,٢٠٠٦ غير أنه مع متابعته للمسرح الأمريكي كان طبيعيا أن يتابع أيضا التطورات في آسيا وهو ما جعله يصدر كتابه Can Asians Think? ثم يتابع تحولاتها وعلاقاتها بموازين القوى في العالم وهو الموضوع الذي احتل كتابه الذي صدر منذ شهور والذي يتنبأ فيه بتحول ميزان القوى العالمية من الأطلنطي إلى الشرق الأقصى والكتاب تحت عنوان The New American Hemisphere: The irresistible shift of Global Power to the East وهو يبدأ من مقدمة أن صعود الغرب قد حول العالم وصعود آسيا سوف يأتي بتحول هام مماثل، وعلى هذا فإن السؤال المحوري الذي يناقشه الكتاب، إلى جانب قضايا أخرى متصلة، هو لماذا صعدت آسيا؟ في إجابته عن هذا السؤال يشير الكاتب إلى أن صعود الغرب حدث بسرعة شديدة خلال المائتي عام الماضية، وكان لآسيا التي تمتلك أكبر نصيب من السكان، أعظم نصيب من الاقتصاد العالمي، وفي ضوء هذا فإننا لا نندهش من الدراسات التي تقول أنه مع عام ٢٠٥٠ فإن ثلاثة من أعظم أربعة اقتصادات في العالم سوف تكون آسيوية وبهذا الترتيب: الصين، الولايات المتحدة، الهند واليابان.

ويعتبر محبوباني أن صعود الغرب قد حول العالم وصعود آسيا سوف يأتي بتحول هام مماثل، وعلى هذا فالكتاب يناقش لماذا تصعد آسيا الآن؟ وكيف ستغير العالم ولماذا سوف يواجه الغرب صعوبات ضخمة في التكيف مع هذه التغيرات كما يقترح بعض التوصيات لإدارة هذه التحديات الجديدة التي تنتظرنا.

ويعتبر الكتاب أن صعود آسيا سيكون أمرا طيبا للعالم، فإن مئات الملايين من الشعوب سوف ينقذون من أغلال الفقر، وقد خفض تحديث الصين بالفعل عدد الصينيين الذين يعيشون من ٦٠٠مليون إلى ٢٠٠ مليون، كذلك فإن صعود الهند له نفس التأثير الهام، وبكل المعايير فإن صعود آسيا يحقق الكثير من الخير للعالم. ويشير الكاتب إلى دعوة روبرت زوليك، المدير المالي للبنك الدولي، في سبتمبر ٢٠٠٥ دعوته للصين أن تصبح «شريكا مسئولا» responsible stakeholder في النظام الدولي، ومنذ هذا الوقت استجابت بشكل إيجابي لهذه الدعوة، وحقا فإن معظم الآسيويين يريدون أن يصبحوا شركاء مسئولين في النظام الدولي، وتدلل الحقب الأخيرة أن الآسيويين قد أصبحوا من أكبر المستفيدين من النظام المتعدد المفتوح،



لماذا الآن؟!!!

هل سيصبح القرن الواحد والعشرون انتصارا تاريخيا للغرب أم هزيمة تاريخية؟



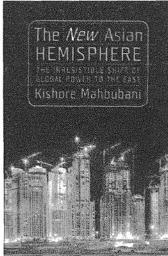
وعلى هذا فإن قلة من الآسيويين اليوم هم الذين يريدون هز استقرار النظام الذى يساعدهم. والأنباء الطيبة للعالم حقا أن تحديث آسيا بدأ ينتشر إلى كافة أركان القارة. وقد بدأت العملية بالنموذج الذى قدمته اليابان ثم قلدتها النمور الاقتصادية الأربعة: كوريا الجنوبية، تايوان، هونج كونج وسنغافورة، وعندما بدأت الصين تعى أن بلدا على حدودها تفعل افضل منها، قررت أن تلحق بهم بإطلاق «برنامج التحديثات الأربعة»، وعلى مدى الحقب الثلاث الأخيرة حققت الصين أسرع نمو اقتصادى فى العالم، وقد ألهم نجاح الصين صعود الهند والآن فإن ملايين الآسيويين يسيرون نحو الحداثة والأخبار الطيبة الأكثر للعالم هى أن المسيرة نحو الحداثة تتجه إلى الدخول فى العالم الإسلامى فى غرب آسيا أيضا وحيث إنه أصبح مسألة وقت فقط أنه من الهند إلى باكستان أيضا ثم إلى إيران بحيث إن كل آسيا سوف يتم تحديثها فى القرن الواحد والعشرين، فإذا حدث هذا فإن إسرائيل لن تكون مركز الحداثة فى غرب آسيا.

فى ضوء هذا يبدو واضحا أن هذا الكتاب الذى كتبه كاتب واقعى يستند على التفاؤل حول دور آسيا فى المستقبل العالمى. من هذا المنظور يعيب الكتاب على الغرب أنهم حين يحدقون فى القرن الواحد والعشرين فإنهم فقط يرون صورا قائمة وليس فجرا جديدا فى تاريخ الحضارة العشرية وهو أمر غريب باعتبار أنه خلال القرون القليلة الماضية كان الغرب هو الذى أطلق مسيرة آسيا نحو الحداثة وعلى هذا كان يجب عليه أن يبتهج لهذا الاتجاه الجديد فى تاريخ العالم وبدلا من هذا فإن العقول الغربية تمتلئ بالخشية والخوف. ويتوقع الكاتب أن آسيا والغرب سوف يتوصلون فيما بعد إلى تفهم مشترك حول طبيعة هذا العالم الجديد، فالحاجة إلى تطوير مثل هذا التفاهم لم يكن أهم مما هو اليوم فنحن ندخل فى أكثر اللحظات طيوعة فى تاريخ العالم، فالقرارات التى نتخذها اليوم سوف تقرر مجرى القرن الواحد والعشرين، وينبه الكاتب إلى أن ٥,٦ بليون من الشعوب التى تعيش خارج نطاق الغرب لن يقبلوا بعد قرارات تتخذ نيابة عنهم فى العواصم الغربية. وعلى هذا

يطرح الكتاب سؤالا مركزيا وهو: هل سيصبح القرن الواحد والعشرون انتصارا تاريخيا للغرب أم هزيمة تاريخية؟ إن الإجابة لا يمكن تقديمها الآن، إنها سوف تعتمد على كيف سوف يكون رد فعل الغرب على صعود آسيا، فعدد الشعوب فى العالم الذين ينشدون حلم الغرب فى وجود مريح للطبقة الوسطى لم يكن أعظم مما هو الآن ولعدة قرون فإن الصينيين والهنود لم يكونوا يأملون فى ذلك، والآن فإنهم يعتقدون أنه فى متناول أيديهم، ومثلهم أن يحققوا ما حققته أمريكا وأوروبا، إنهم يريدون أن يكرروا لا أن يحتلوا الغرب. ورغم أن عالمية الحلم الغربى يجب كذلك أن تكون انتصارا للغرب، ورغم هذا فإن العديد من قادة الغرب يبدأون خطبهم بتسجيل كيف أصبح العالم «خطيرا»، وفى عام ٢٠٠٦ قال الرئيس الأمريكى بوش «إن الشعب الأمريكى يحتاج أن يعرف كيف أننا نعيش فى عالم خطير» وقد قدم قادة غربيون آخرون بيانات مشابهة. وعلى الرغم من اعتقاد الغرب أن الشعوب تتقدم حين لا تكون واقعة فى شرك الأيديولوجية، فإن فى فترة ما بعد الحرب الباردة أصبح الغرب كيانا مدفوعا بالأيديولوجية.



وأحد الأسباب التى تفسر لماذا يتردد الغرب لأن يحتفل بديمقراطية الروح البشرية، فلأنه يدرك أنه إذا ما استمر هذا الاتجاه فإن يوم الحساب سوف يأتى. وبتجميع روح الديمقراطية لقوتها، وبدأ المزيد من الشعوب فى امتلاك مصيرها، فإنهم سوف يتساءلون بشكل متزايد عن النظام العالمى غير الديمقراطى الذى يعيشون فيه.



ويستخلص الكاتب أن تردد العقول الغربية القائدة فى الاعتراف بعدم إمكان استمرار السيطرة الغربية العالمية إنما يمثل أكبر خطر على العالم. وعلى المجتمعات الغربية أن تختار ما إذا كانت سوف تتراجع عن القيم الغربية أو المصالح الغربية فى القرن الواحد والعشرين، وتفضل معظم العقول الغربية أن يعتقدوا انهم يروجون أولاً للقيم الغربية وفى مقدمتها الديمقراطية ولكن معظم العالم يلاحظ كيف يروج الغرب الديمقراطية بشكل انتقائى فليس هناك مجتمع شغوف بالترويج للديمقراطية فى

السعودية خوفا من تهديد إمدادات البترول للغرب مثلا. فى سياق علاقة الغرب بالصعود الآسيوى وكيفية فهمه لها يعبر الكاتب عن يأسه عندما يقرأ فى افتتاحيات صحف مثل النيوزويك تايمز، وول ستريت جورنال لعقول تعتقد أن ١٢٪ من سكان العالم الذين يعيشون فى الغرب يستطيعون أن يستمروا فى السيطرة على بقية الـ ٨٨٪ الذين يعيشون خارج القرى ويعتقد أن قلة فى الغرب استطاعت أن تستوعب المعانى الكاملة للملمحين الأكثر أهمية لفترتنا التاريخية، الأول هو أننا بلغنا نهاية عهد السيطرة الغربية لتاريخ العالم (ولكن ليس نهاية الغرب الذى سيظل أقوى قوة وحيدة لحقب قادمة)، وأما الملمح الثانى فهو أننا سوف نشهد نهضة ضخمة للمجتمعات الآسيوية، وعلى هذا فإن الخطاب الاستراتيجى فى الغرب يجب أن يركز على كيف يجب على الغرب أن يتكيف، ولكن هذا لم يحدث، وما يزيد الأمور سوءا أن الغرب قد اصبح غير كفء فى تناول العديد من التحديات العالمية ابتداء من تهديد الإرهاب إلى التغير المناخى إلى الإبقاء على نظام منع الانتشار حيا، انعدام الكفاءة هذه بكل ما تحمله من نتائج كارثية يزيد من خطورة إحساس الغرب بعدم الأمن، وعلى هذا ففى اعتقاد الكاتب أننا نتحرك نحو أزمة حقيقية فى إدارة نظامنا العالمى ما لم يغير الغرب طريقه وأن يستوعب الحكمة الصينية التى تجمع ما بين «الخطر»، و«الفرصة» فالكثير من العقول الغربية تنظر إلى الخطر، والقلة هى التى ترى الفرص، وعلى هذا فإن الرسالة الرئيسية لهذا الكتاب أن مسيرة آسيا نحو الحداثة تمثل فرصة جديدة أن يتعلم كيف يعمل مع وليس ضد هذه المسيرة، فإن هذا قد يساعد فى جعل القرن الواحد والعشرين واحدا من اسعد القرون فى التاريخ الإنسانى.

ويفصل محبوبانى ما يحدث فى الروح الآسيوية فيعتبر أنه فى قلب الفرصة الآسيوية، وهو غالبا ما يغض النظر عنه، هو تمكين مئات الملايين من الأفراد الذين شعروا من قبل إحساسا كاملا من انعدام القوة فى حياتهم، وبالنسبة له كصبى صغير نشا فى عائلة هندية فى سنغافورة فإنه قد استوعب بشكل طبيعى ☜



تردد العقول الغربية القائدة فى الاعتراف بعدم إمكان استمرار السيطرة الغربية العالمية إنما يمثل أكبر خطر على العالم





الاعتقاد الذى تملك بشكل قوى كثيرا من العقول الآسيوية، إن حياتنا يقررها القدر، ولذلك فإنه من العقم الجهاد أو العمل الشاق فما سوف يحدث سيحدث بقبول الفقر أسهل بكثير إذا كان نتيجة للقدرة ولكن تدريجيا فإن الاعتقاد فى تنمية القدر قد تآكل بفعل التطبيق المتزايد لمبادئ آدم سميث والإحساس بالتمكين الذى خلفته. فحين ينظر العديد من الغربيين إلى الصين فإنهم يعتقدون دمقرطة الروح الجماهيرية التى تجرى فى الصين، فمئات الملايين من الصينيين الذين كانوا يعتقدون أنهم مقضى عليهم بالفقر النهائى يعتقدون الآن أنهم يستطيعون تحسين حياتهم من خلال جهودهم الخاصة.

وأنه لجدير بالملاحظة أن فيلسوفا أخلاقيا إسكتلنديا فى القرن التاسع عشر يستطيع أن يرى بشكل أكثر وضوحا النتائج الأخلاقية لتطبيق مبادئه الاقتصادية أكثر من معظم الاقتصاديين الغربيين المعاصرين وعلماء السياسة. إن القمة الحقيقية لاقتصاديات السوق الحرة ليست مجرد تحسين الإنتاجية الاقتصادية، إنها حول رفع الروح الإنسانية وتحرير عقول مئات الملايين من الناس الذين يشعرون الآن أنهم فى النهاية يستطيعون أن يمتلكوا مصائرهم، وهذا هو السبب فى أن آسيا تسير إلى التعليم وبتحيز كبير للعلم والتكنولوجيا، فكل أب صينى تقريبا يريد أن ينجب اينشتاين وبيل جيتس وكلاهما موضع توقير فى الصين. وكما عبر مؤرخ فى جامعة شنغهاى فإن التاريخ الجديد هو أقل أيديولوجية وهذا يلائم الأهداف السياسية اليوم، وعلى النقيض فإن فى باكستان المجاورة فإن قرابة ١.٥ مليون طالب يعتقد أنهم يدرسون فيما يقدر فى ١٣ ألف مدرسة madrassas دينية. وفى أغسطس عام ٢٠٠٥ فإن المحكمة العليا فى باكستان قد لاحظت أن هذه المدارس لا تزود الطلاب بالتعليم العام الذى يمكن أن يمكنهم لأن يدخلوا فى التيار العام للمجتمع وأن يتنافسوا مع الطبقة المتعلمة من أجل الوظائف أو أهداف أخرى بما فيها الانتخابات.

ويعتبر محبوبانى فى روايته لمسيرة الصين نحو التقدم أن ونج تساو ينج وهو واحد من أعظم المحدثين فى العالم قد أوضح بشجاعة للشعب الصينى مستقبلهم يكمن فى السير نحو الحداثة وقد فتح عيون الشعب الصينى بالسماح للتليفزيون المملوك للدولة أن يطلعوا على مشاهد لبيوت الطبقات الوسطى الأمريكية الواسعة والمريحة والمملوءة بالأجهزة الحديثة وسيارة أو اثنتين فى كل جراج.

وقد أظهر ونج للشعب الصينى العملى أن كل هذا يقع فى متناول أيديهم. وفى الانتقال لتجربة الهند فى الحداثة يصنف محبوبانى التأثير الإنسانى للتحديث من خلال النظر إلى تأثير أداة حديثة على الهند: وهو التليفون المحمول وكيف أنه أحدث ثورة فى الهند، ففى ديسمبر ٢٠٠٦ فقط اشترك ٧ ملايين هندى فى التليفون المحمول فى شهر واحد وهو ما يمثل سجلا عالميا، وتعدت الهند الصين فى ذلك رغم أن الهند مازالت تتخلف عن الصين فى عدد أجهزة التليفون المحمول (١٤٠ مليون مقابل ٤٥٠ مليون)، ويظهر هذا الانتشار للتليفون المحمول فى الهند كيف أن العقل الهندى قد تغير حول الأدوات الحديثة. وفى العقل الغربى فإن بلد آسيوى هى بنجلاديش لها ارتباط تلقائى بالفقر ومع هذا فإن بنجلاديش قد استفادت من انتشار أجهزة التليفون المحمول، ففى عام ١٩٩٣ فإن هذا البلد الذى يتكون من ١٤٢ مليون نسمة كان لديها مجرد ٣ ملايين دولار من الاستثمارات الأجنبية، ولكن كان هذا قبل أن تشهد البلد إطلاق أول شركة تليفون محمول فى عام ٢٠٠٧ اصبح لدى بنجلاديش ٥ شركات تليفون محمول و٢ مليون من الاستثمارات الأجنبية.



ويعيد محبوبانى إلى التأكيد على أن مجرى تاريخ العالم سوف يتقرر برد فعل الغرب تجاه هذه المسيرة الآسيوية المنظمة تجاه التحديث، فأمام الغرب بديلين واضحين فهو يستطيع أن يرقب ويتبنى انتشار التحديث والاستمرار فى العمل مع آسيا فى اتجاه انفتاح النظام العالمى، أما البديل الثالث فهو أن يشعر الغرب بشكل متزايد بالتهديد من نجاح آسيا وأن يبدأ فى التراجع نحو قلقته سياسيا واقتصاديا، ومع ٢٠٠٨ فإن ردود الفعل الغربية كانت؟ كلا البديلين ولكن البديل الثانى كان هو الأقوى، وفى صورة الحماية Protectionism، فكما يقرر مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، فإن الاتحاد الأوروبى ولجوئه إلى الحمائين إنما يجرد الدول النامية بما يقارب من ٧٠٠ بليون دولار من دخل الصادرات سنويا وهو ما يمثل ١٤ مرة مما تتلقاه الدول الفقيرة من المساعدات الخارجية، وهكذا فإن أساليب الاتحاد الأوروبى فى الحماية هى تراجيديا مستمرة تتسبب فى الجوع والمرض، وهكذا فإن الستار الحديدى بين الشرق والغرب قد استبدل بستار من الجمارك بين الشمال والجنوب.

ويشير محبوبانى إلى روح الانتصارات التى عمت الغرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ونهاية الحرب الباردة، ويعتبر أن هذا الشعور كان له ثلاث ثغرات من أهمها هو الاعتقاد بأن الاختلاف فى الثقافات لا يهم باعتبار أن الليبرالية الغربية يمكن تطبيقها فى كل مكان، وأن المجتمعات المسيحية والمسلمة والمجتمعات الكونفوشية والهندوسية مستعدة بشكل متساوى للديمقراطية الليبرالية وأن يعلموا أن الحق فى حرية التعبير ليس مطلقا لا فى النظرية ولا فى التطبيق فى معظم المجتمعات الغربية فثمة موضوعات كثيرة لا يمسها الساسة الغربيون خوفا من نتائجها السياسية ولكن طبعا فإنهم لا يخافون من السجن وإنما فقط من النفى إلى البيداء السياسية.

ويستخلص محبوبانى إلى أنه سيكون من الحكمة للغرب أن يتوقف عند أن يجرى خطوطا حادة بين المجتمعات «الحرة» و«غير الحرة» فالشعب الصينى لم يكن يوما أكثر حرية ففى عدد من الأعمدة التى نوقشت من قبل فإنهم أكثر حرية مما كانوا فى يوم من الأيام، وبالنسبة لأسلافهم فإنهم أكثر حرية مما شهدته الصين من قبل وحين ينظرون إلى المستقبل فإنهم واثقين ومتفائلين أن الأمور سوف تتحسن فهل يستطيع الغرب أن يقول نفس الشىء؟ إن معظم الغربيين وهو ينظرون إلى المستقبل فهم يصبحون أكثر تشاؤما فلديهم خوف حقيقى أن بعض حرياتهم سوف تتضاءل، فمحاطون ببحر من الغضب فى العالم الإسلامى ومدن أوروبية تصبح هدفا للضربات الإرهابية، فإن إحساسهم بالأمن الشخصى قد تضاءل وبصعود الصين والهند فإن معظم الأوروبيين الشباب يخشون أنهم لن يستطيعوا أن يتنافسوا حول الوظائف ضد أقرانهم الصينيين والهنود وبدلا من أن يروا أنفسهم يعيشون فى بيئة غنية ومريحة، فإن العديد من الشباب الأوروبى بدأوا يحسدون الصينيين والهنود الذى يبدو مستقبلهم مضيئا بشكل أكثر. فى ضوء هذا فإن الحكماء والجمهور فى الغرب يحتاجون أن يبدأوا فى التفكير فى بعض الأسئلة المختلفة لكى يحسنوا فهمهم للصين، ومن النماذج الجيدة هى قضية الإصلاح السياسى، ولكى نكون واضحين فإن انتخابا متعدد الأحزاب لم يجر ولا هو من المحتمل الحدوث فى المستقبل القريب ولكن هذا لا يعنى أن التغير السياسى لا يجرى على أساس يومى، فإصلاح الحكم إن لم يكن إصلاحا سياسيا منتظما، قد صاحب الإصلاح من اليوم الأول وكان له نتائج سياسية حتمية.



وعند محبوبانى أن المجتمعات الآسيوية لا تنجح الآن لأنها إعادة اكتشاف بعض جوانب القوة الخفية للحضارات الآسيوية ولكنها تنجح الآن لأنها وعبر عملية مؤلمة فإنها قد اكتشفت أخيرا أعمدة الحكمة الغربية التى قام عليها التقدم الغربى ومكنت الغرب لأن يتعدى أداء المجتمعات الآسيوية خلال المائتى عام الماضية، والشىء الذى يثير الدهشة انه ليس لأن الصين ولا الهند تصعد بسرعة كبيرة ولكن (مع الكثير من المجتمعات

مجـــرى تـــاريــخ
العـــالــم سـوف يتقــرر
برد فعـل الغــرب تجـاه هــذه المسيرة
الآســـيــويـــة المنظــمـــة
تجـاه التحــديـث



مـــادام كل فـــرد فى المجتمـــع هـــو مصـــدر كامـــن فإن الجميـــع يجب أن يعطـــوا فرصـــة متكـافئـــة



الأسيوية) قد اكتشفت هذه الأعمدة بشكل متأخر جدا. وقد اندفعت اليابان أمام بقية آسيا لأنها فهمت رسالة النجاح الغربى قبلها بمائة وخمسين عاما تقريبا.

وفى عام ١٨٦٠ فإن مجموعة من الإصلاحيين فى عهد ميجى - والتى كانت مصممة لإنقاذ اليابان من مصير الاستعمار الغربى أو الهيمنة التى غمرت معظم آسيا، أبحروا إلى كل المجتمعات الغربية القائدة لكى تعيد اكتشاف أفضل تطبيقات الغرب، وقد تعلم اليابانيون بشكل جيد، فقد وجدوا - كم وجدت النمور الأربعة بعد قرن- أن هناك على الأقل ٧ أعمدة للحكمة الغربية التى يمكن أن يكون لها تأثير أقرب إلى الأعجوبة على مجتمعاتها، وكان كل عمود يدعم الآخر، كانت هذه الأعمدة السبعة هى: العمود الأول فى تقدير محبوبانى هو الأخذ باقتصاديات السوق وكانت الصين هى أفضل معمل لدراسة تأثير مبادئ السوق الحرة: ففى النصف الثانى من القرن العشرين طبقت الصين بقوة متساوية كلا من النماذج المتقدمة للنمو الاقتصادى، والتخطيط المركزى واقتصاديات السوق الحرة، وحين كسب ماوتسى تونج السيطرة الكاملة على الصين عام ١٩٤٩ فقد طبق بقوة كبيرة نموذج التخطيط المركزى الذى تعلمه من الاتحاد السوفيتى ولم يكن هذا فشلا كاملا فالنظام السياسى الذى قدمه ماو للصين بعد قرن من الغليان السياسى أدى إلى زيادات فى كل من الإنتاجية الزراعية والصناعية غير أن السخرية الكبيرة لتاريخ الصين الاقتصادى هى أن الصين قد اختبرت القفزة الكبرى إلى الأمام ولكن فقط بعد أن هجرت مبادئ ماو فى التخطيط المركزى وإدخال اقتصاديات السوق الحرة، وكثير من الناس قد علموا عن نمو الصين المدهش ولكن القلة قد فهمت فعلا المعدلات المتفجرة التى نما بها الاقتصاد الصينى.

أما العمود الثانى من أعمدة «الحكمة الغربية» التى استوعبها الآسيويون فهى العلم والتكنولوجيا، ويفسر تحرير الروح الإنسانية فى آسيا لماذا يستوعبون بشغف عظيم هذا العمود الثانى، فحتى القرنين السابع والثامن عشر كان التقدم الآسيوى العلمى على قدم المساواة تقريبا مع أوروبا ثم الاندفاعات الضخمة من الإبداع فى حقول العلم والتكنولوجيا تقدمت أوروبا إلى الأمام، وعبر القرنين الماضيين تطور اقتناع قوى فى العالم أن العقل الغربى مهيأ بشكل فريد لكى يتفوق فى العلم والتكنولوجيا ولا يعرف تماما لماذا قفز الغرب إلى الأمام ولكننا نعلم بعض أسباب لماذا تراجعت آسيا إلى الخلف: إطار عقلى يزدرى العالم المادى، وافتقار إلى الاعتقاد فى فكرة التقدم الإنسانى، وخضوع طبيعى للسلطة وافتقار للتساؤل النقدى، وبدت الفجوة بين العقل الغربى والعقل الآسيوى أبدية.

ولهذا فإنه من المذهل أن نرى الدرجة التى سيطر بها الآسيويون فى العلم والتكنولوجيا، فالعقل الآسيوى كان يبدو معوقا فى هذا المجال قد اندفع بشكل غامر نحو العلم والتكنولوجيا، وفى أكتوبر ٢٠٠٦ حملت مجلة تايم موضوعا عن «تجربة آسيا العظيمة فى التجربة العملية»، وحيث تنبأ أحد الحاصلين على جائزة نوبل فى الكيمياء بأنه مع ٢٠١٠ سيكون ٩٠٪ على درجة الدكتوراه فى العلوم والهندسة يعيشون فى آسيا، فإذا ما تحققت هذه النبوءة فإنها سوف تمثل تحولا ضخما فى الخبرة العالمية فى العلم والتكنولوجيا كما تضمنت المقالة فإن الأمم الآسيوية زادت إنفاق حكوماتها على العلوم : فما بين ١٩٩٥-٢٠٠٥، فإن الصين قد ضاعفت نسبة مجموع الناتج القومى فى البحوث والتنمية حيث ارتفعت من ٠,٦ ٪ إلى ١.٣ بينما ارتفع إنفاق كوريا الجنوبية من ٩.٨ بليون دولار أمريكى إلى ١٩.٤ بليون عام ٢٠٠٤، مثل هذا الاستثمار الضخم قد جذب العديد من الباحثين الآسيويين من الغرب إلى أوطانهم فى الوقت الذى ركدت فيه ميزانيات العلم فى بعض البلدان الغربية بل وانخفضت. وقد كان الانفجار الآسيوى فى العلوم والتكنولوجيا نتيجة لبعض القرارات الحكيمة اتخذت منذ عدة حقب، فقد كان رئيس الوزراء الهندى السابق جواهر لال نهرو لامعا وله جاذبية القائد الذى ساعد فى تأسيس أول معهد هندى IIT فى طارجابور قرب كلكتا عام ١٩٥١ ثم تطورت ٦ معاهد أخرى بعد ذلك فى عدد من المراكز وكان القبول فى هذه المعاهد يقوم فقط على أساس الجدارة. وباعتبار هذا التجمع للموهبة فى الهند، وحيث كان يقبل واحد من كل ٥٠ طلبا فى IIT فإن هذا يؤكد أن هذا المعهد قد انتهى إلى تجميع افضل تجمع للموهبة يوجد فى أى مكان فى العالم. ويعتبر IIT أن الامتحان فيه هو من أكثر المعاهد تشديدا فى القبول فى العالم. وهو الذى جعل بعض البرامج التلفزيونية تعتبره «أهم جامعة قد سمعت عنها»، وذهبت إلى أن «ضع هارفارد وبرنستون معا فسوف تبدأ فى تكوين فكرة عن هذا المعهد فى الهند».

وهذا النجاح الذى نما من الداخل يوحى أن النمو «السحرى» الذى دفع بالعلم الغربى والبحث التكنولوجى إلى الأمام فى القرون القليلة الماضية قد تغلغل الآن فى النسيج الثقافى الآسيوى. ولم يعد الآسيويون الآن يعتقدون أنهم أدنى من الغرب فى العلوم والبحث التكنولوجى، انهم يعتقدون إنهم يستطيعون أن يحققوا بأنفسهم ما يوازى ما حققه الغرب.



وتمثل الجدارة Meritocracy العمود الثالث فى النهوض الآسيوى وهو مبدأ بسيط بشكل مدهش، فهو يعتبر أنه مادام كل فرد فى المجتمع هو مصدر كامن فإن الجميع يجب أن يعطوا فرصة متكافئة لتطوير وتقديم إسهام للمجتمع وعلى هذا فإن أى موهبة يجب ألا تهمل، وحقا فإن كل المنظمات البشرية تتقدم تقريبا لأنها تطبق مبدأ الجدارة بشكل قوى. وقد بدأت الصين فى استخدام المصادر البشرية المتاحة فى قاع المجتمع قبل الهند بكثير وقد تكون ثورة ماو قد فشلت فى عدة طرق، ولكن ثمة مجالا واحدا نجحت فيه ثورته: فقد دمرت العقل الإقطاعى الذى أربك المجتمع الصينى حتى فى بداية القرن العشرين، فقد بث فى الأباء الأسيويين إحساسا ضخما من الكبرياء والمواطنة المتساوية. وبعد ماو فقد توقفوا عن الاعتقاد انهم بشكل طبيعى فى مستوى أدنى. وحين قدم دنج الثورة الاقتصادية مع إدخال اقتصاديات السوق، فإن أحد أسباب لماذا انطلقت الصين بهذه السرعة كان هو أن الثورة الاجتماعية التى أطلقها ماو قد حطمت الحواجز الطبقية نحو التقدم وهكذا أصبح الصينيون من كل الطبقات الاجتماعية راغبين ولديهم الدافع للتحرك إلى الإمام. وقد تعلمت الصين عدة دروس من انهيار الاتحاد السوفيتى، واحد هذه الدروس هو أنه سيكون قاتلا ملأ الصفوف القائدة فى الحزب بعاملين من كبار السن الذين كانوا يستمرون حتى الموت فمثل هؤلاء فسوف يصبحون عوائق أمام التغيير والتجديد.

أما العمود الرابع للنهضة فهو البرجماتية Pragmatism. فقد كانت اليابان أول بلد فى التحديث لأنها بملاحظة أوروبا وهى تستعمر معظم العالم، فقد تحققت بسرعة أن عليها أن تغير وأن تتكيف. وقد كان إصلاحيو عهد الميجى ناجحين بشكل بارع فى تطبيق أفضل الممارسات الغربية وبزغت اليابان بسرعة كقوة كبرى، وبنهوضها السريع فقد هزمت الصين عام ١٨٩٥ وروسيا عام ١٩٠٥ وأصبحت البلد الآسيوى الأول فى هزيمة قوة أوروبية خلال قرون. فلماذا نجحت اليابان فى تطبيق أفضل الممارسات الأوروبية؟ هنا أيضا إجابة بسيطة وهى أن اليابان كانت براجماتية بشكل كامل. فقد تعاملوا مع تحدى تحديث اليابان بدون مفاهيم أيديولوجية وأن يأخذوا أفضل الممارسات الغربية من أى بلد ومستعدون لأن يخلطوا ويسايروا أفضل التطبيقات بطريقة انتقائية وبنفس الروح البرجماتية.

ويقول محبوبانى انه باعتبار أنه عاش فى آسيا فى العقود السابقة فإنه لا يساوره أى شك أن روح البرجماتية والتى تشربتها اليابان فى ١٨٦٠ قد انتشرت الآن بعيدا وعريضا فى المنطقة. وقد شرح الدكتور مهاتير سياسته الاقتصادية البرجماتية فى ماليزيا بقوله إن ماليزيا يجب أن تتبنى سياسته «نظرة إلى الشرق» وأن تتعلم



قد تكون ثورة ماو قد فشلت فى عدة طرق، ولكن ثمة مجالا واحدا نجحت فيه ثورته: فقد دمرت العقل الإقطاعى الذى أربك المجتمع الصينى حتى بداية القرن العشرين





من اليابان وكوريا الجنوبية. وبشكل مشابه، وفى عام ١٩٩١ وحين هوجم مانموهان سنج وزير مالية الهند آنذاك أنه بسماحه للاستثمارات الأجنبية سوف يجعل من الهند تابعة للولايات المتحدة رد قائلا إن قدرة سنغافورة على تحدى رغبات الحكومة الأمريكية فى عدة مجالات (رغم حصولها على أعلى نسبة من الاستثمارات الأجنبية) أظهرت أن القبول البرجماتى للاستثمارات الأجنبية لم يعن فقدان الاستقلال السياسى.

أما العمود الخامس الذى قامت عليه آسيا صعودها فهو ما يسميه محبوبانى صمت المدافع فى المنطقة وهو ما استوعبته آسيا من الحكمة الغربية. فثقافة السلام قد أثرت فى العلاقات بين الأمم الغربية منذ نهاية الحرب الثانية. وباعتبار مئات السنوات من الحروب بينهم، فإنه من الأمور المثيرة أن كل الدول الغربية قد وصلت إلى قمة الإنجاز الإنسانى: ليس فقط نقطة الصفر فى الحروب ولكن نقطة الصفر فى احتمالات الحرب بين اثنين من الأمم الغربية. والعالم يأخذ هذا الإنجاز باعتباره من الأمور المسلمة فى الوقت الذى فيه يندر الاعتراف بأن هذه هى أحد أكثر الإنجازات تأثيرا فى التاريخ البشرى. ومن الأمور التى تثير الدهشة أنه بينما كان الغرب قانعا بالتبشير بفضائل الديمقراطية، وحقوق الإنسان واقتصاديات السوق الحرة لبقية العالم فإنه نادرا ما يذكر شرط السلام الذى حققه. وباعتبار أن أهم قوة صاعدة فى آسيا وفى العالم هى الصين، ويعتقد العديد من المفكرين الاستراتيجيين فى العالم يتملكهم الخوف من بروز الصين كخطر عسكرى، وربما كان هذا ممكنا ولكنه من الواضح أيضا أن هذه ليست رؤية القادة والمثقفين الصينيين.

لقد تعلمت الصين من النموذج الإيجابى والنموذج السلبى للاتحاد السوفيتى والذى تفجر لعدة أسباب من بينها قرار التركيز على التطور العسكرى بدلا من التطور الاقتصادى، وقد قررت الصين أن تفعل العكس تماما. ولم تكن الدروس التى تعلمتها الصين حول الحرب والسلام فى العالم المعاصر لم تكن هى السبب الوحيد ففى الوقت الذى كانت المدافع قد صمتت فى شرق آسيا، فقد برز لاعب حاسم بشكل غير ملحوظ تقريبا وهو الاسيان ASEAN، فمثل الاتحاد الأوروبى EU فقد أنشئ للترويج للتعاون الإقليمى. وإذا كان الاتحاد الأوروبى متقدما بخطوة على الاسيان منذ أن حقق نقطة الصفر فى احتمالات الحرب، ولكن هناك على الأقل بعد واحد التى تتقدم فيها الأسيان على الاتحاد الأوروبى وهو الدبلوماسية، فى هذا الحقل فإن الأسيان تعتبر قوة أعظم superpower أما الاتحاد الأوروبى فهو قوة صغرى minipower ومع نهاية الحرب الباردة فإنه إذا كانت التنبؤات قد جرت حول ما إذا كانت الحرب أكثر احتمالا فى البلقان عنها فى آسيا فإنه ليس هناك شك فى أن المفكرين الاستراتيجيين البارزين كانوا سيتنبأون بالحرب فى آسيا، ومع هذا فإن العكس قد حدث فقد فشل الاتحاد الأوروبى بينما نجحت الأسيان.

ويمثل حكم القانون Rule of law العمود الثالث للحكمة الغربية الذى تبنته آسيا، ففكرة حكم القانون والذى يقف بمقتضاه جميع المواطنين سواء أمام القانون تقف فى العقل الآسيوى ضد ميول الشخص الفطرية، فمعظم الآسيويين عبر القرون قد افترضوا أن الطبقات الحاكمة وخاصة أعضاء العائلات المالكة والأرستقراطية يقفون فوق القانون وحقا فى عقول الطبقات الحاكمة فإن الوظيفة الوحيدة للقانون هى أن تمكنهم بجعل رعاياهم يلتزمون بالنظام. وعلى العكس بالنسبة للعقل الغربى فإن حكم القانون هو أن يحمى المواطن من الاستخدام التحكمى لسلطات الحكومة وهى التطبيق المحدد لقيمة محبوبة وهى قيمة العدالة. والآن فإن الآسيويين يتحولون إلى حكم القانون ليس لأسباب أخلاقية ولكن فى المقام الأول لدواعى وظيفية. وأفضل مثل على ذلك يقدمه قوانين المرور فالتوقف عند الأنوار الحمراء ليس لأسباب أخلاقية ولكن لأنه من الأكثر أمانا أن تفعل ذلك، ويفهم معظم الآسيويين الآن أن طاعة حكم القانون يجب أن يأتى بشكل طبيعى مثل طاعة قواعد المرور فإذا لم يفعلوا فسوف يفشلون لإقامة اقتصاد حديث والذى يمكن أن يعمل فقط إذا ما قدم القانون أساسا يستطيع الناس من خلاله أن يصنعوا اتفاقيات بالثقة فى أن هذه الاتفاقيات يمكن أن تطبق بعدل وفعالية. وتبرهن الصين على هذا بوضوح فالاندفاع فى إقامة نظام قانونى فى الصين يفترض من المفاهيم الغربية مدفوع فى المقام الأول بضرورات اقتصادية، ففى الوقت الذى فضلت فيه الصين اقتصاد السوق على النظام السابق لنظام التخطيط أصبحت القوانين حيوية بشكل متزايد لتنظيم نشاطات الصين الاقتصادية.

ويختتم محبوبانى سرده لأعمدة الحكمة السبعة التى تبنتها آسيا بالتوقف عند التعليم، فالآسيويون قد تبنوا فضائل التعليم الغربى لوقت طويل رغم أن فضل التعليم يصل للجماهير هى ظاهرة حديثة نسبيا.



وهكذا يتضح لنا كيف أنه فى الوقت الذى يتحمس فيه محبوبانى للصعود الآسيوى واعتقاده بتحول مركز القوة العالمى إلى آسيا، إلا أنه يتحمس بنفس القدر للاعتقاد بأن ما أسماه «بالحكمة الغربية» واستيعاب الآسيويين لها، كانت الأساس فى هذا الصعود، وإن كان لا يعطى وزنا كبيرا لاعتبار أنه مع اخذ الآسيويين بمقومات التقدم الغربى إلا أنهم ظلوا إلى حد كبير محتفظين بهويتهم وقيمهم الثقافية، وأن دولة كبرى مثل الصين رغم أنها أخذت بقدر كبير من اقتصاديات السوق إلا أنها ظلت مبقية على عناصر التخطيط المركزى ومراعاة الأبعاد الاجتماعية فى عملية النمو. كذلك يلاحظ أن محبوبانى فى عرضه لعناصر القوة يتغافل عن القوة العسكرية التى ستظل الولايات المتحدة متفوقة فيها ولعدة عقود قادمة.

وهكذا يتضح لنا حماس محبوبانى للصعود الآسيوى وتأكيده على علاقات القوى فى العالم وإن كان يعتبر أن ما نسميه «بالحكمة الغربية» وعناصرها من اقتصاد السوق، واحترام القانون، والعلم، وحقوق الإنسان وتبنى آسيا فى عملية صعودها لهذه الحكمة كانت السبب الرئيسى وراء عملية الصعود. غير أننا نعتبر أن محبوبانى يتجاهل عددا من التحفظات منها ما أورده خبير فى الشئون الآسيوية: بيل اموت Bill Emmot رئيس التحرير السابق لمجلة الإيكونوميست البريطانية فى كتابه الأخير: Rivals, How the Power struggle between China, India, and Japan will Shape our Next Decade وهو ما يوحى بإمكانيات الصراع والتنافس بين هذه القوى والكيانات الآسيوية الكبيرة حول الأسواق والموارد والمزايا الاستراتيجية مما يجعل الصين واليابان والهند يتحفزون ضد بعضهم البعض لأن مصالحهم القومية الآن تتداخل، وفى جزء منها تتنافس، لأن كلا منها تشكك فى دوافع الأخرى ونواياها ولأن القوى الثلاث يأملون فى شق طريقهم فى كل من آسيا وبشكل أكثر اتساعا، وبكل ما يتبعه هذا على فرص الاستقرار والتعاون فى القارة، هذا إذا أضفنا النزاع الطامن المتكرر بين بلدين آسيويتين نوويتين هما الهند وباكستان، وكذلك البرنامج النووى لكوريا الشمالية الذى يخيم على جيرانها وخاصة اليابان وكوريا الجنوبية.

ويعتمد محبوبانى فى تفسيره للصعود الآسيوى على النمو الاقتصادى الذى تحققه قوى آسيوية على أخذها باقتصاديات السوق من ناحية، وتبنيها للقيم الغربية من ناحية أخرى وعلى الرغم من أن هذا التفسير فيه جانبا من الحقيقة إلا أنه يتجاهل بعض الحقائق ومنها ما يعترف به الصينيون أنفسهم من أن عملية النمو تتضمن عددا من الثغرات الاقتصادية والاجتماعية مثلما طغى من فوارق طبقية بين فئات المجتمع الصينى وبين المناطق الريفية والحضرية الصينية، أما على مستوى القيم الثقافية فإنه على الرغم مما أدخله الزعيم دنج تشاونج من تغيير فى نظرة الصينيين وتقديمه النموذج الأمريكى إليهم، الآن القادة الصينيون يتمسكون على صبغ عملية النمو واقتصاديات السوق بالصبغة والخصائص الصينية، وهو ما ينطبق على التجربة اليابانية إذ مازالت القيم الثقافية التقليدية من مقومات النهضة اليابانية. ■

يفهم معظم الآسيويين
الآن أن طاعة حكم القانون يجب أن تأتى
بشكل طبيعى

فكري أندراوس



الصين!

بلد تعداده ١,٣٢ بليون، به ٥٠ أقلية، سبع لغات، ٨٠ لهجة

لعلى أبدأ هذا المقال باثنتين من أكثر النكت شيوعا بين المهتمين بشئون الصين. تقول الأولى: من الممكن أن تقول ما تشاء عن الصين ولكن غالبا ستكون مخطئا. أما الثانية فتقول: من الممكن أن تقول ما تشاء عن الصين دون أن تكون مخطئا. بلد تعداده ١.٣٢ بليون، لاختلاف بيئته الجغرافية وطبيعة شعبه، به ٥٠ أقلية، سبع لغات، ٨٠ لهجة، ديانته الأساسية بوذية وإن اختلفت كثيرا خصوصا فى منطقة التبت، الداوزم والكونفوشيوسية هى فلسفة حياة وإن كان البعض يعتبرها أديانا، بها أقلية إسلامية تعود لعصر عثمان بن عفان تعدادها ما بين ٤٠ إلى ٧٠ مليونا. ولكل ذلك فالصين مرتع لكثير من التناقضات والآراء. لعلى أوفق فى أن ينتمى هذا المقال للواقع الصينى بقدر الإمكان وبدون مغالاة أو انحياز. لقد اعتمدت على آراء الكثير من المتخصصين فى شئون الصين بالإضافة لقضاء شهر متجولا وملاحظا.

الصين التى استضافت الدورة الأوليمبية الأخيرة بلد أذهل العالم، كان ترتيب الصين فى الدورة الأولمبية لسنة ١٩٩٦فى المركزالرابع ثم أصبحت فى المركز الثالث فى دورة سنة ٢٠٠٠، ثم فى دورة ٢٠٠٤ كان ترتيبها الثانى بعد الولايات المتحدة. فى الدورة الأخيرة نالت الصين ٥١ ميدالية ذهبية بينما حصلت الولايات المتحدة على ٣٦ ميدالية ذهبية. مجموع الميداليات التى حصلت عليها الولايات المتحدة ١١٨ ميدالية بينما حصلت الصين على ١٠٧ ميداليات وكانت إنجلترا فى المركز الثالث بحصولها على ٧٠ ميدالية.

ما حدث فى الرياضة فى الصين يحدث مثيل له فى مجالات أخرى كثيرة. الصين أذهلت العالم أيضا بتفوقها الاقتصادى الهائل وبتناقضها الايدولوجى. لم ير العالم دولة حققت هذا التقدم المذهل فى مثل هذه الفترة البسيطة من قبل. غالبا ما يكون التقدم الاقتصادى السريع مصحوبا بقلقلة اجتماعية وإنه لأمر طبيعى أن يحدث هذا فى الصين، ولكن الحكومة وحتى الآن مسيطرة تماما على أمور هذا الشعب العريق والذى قال عنه ابن خلدون «أهل الصين أعظم الأمم إحكاما للصناعات وأشدهم إتقانا فيها».

المنتجات الصينية أصبحت تغزو كل ركن من أركان الأرض. دخل الصين فى العام قبل الماضى (٢٠٠٧) ١.٢ تريليون دولار. الصين تخلق مئات الألوف من فرص العمل كل شهر. لقد رفعت الصين منذ بداية الانفتاح فى أواخر سبعينيات القرن الماضى، دخل ٤٠٠ مليون صينى إلى ما فوق خط الفقر. الصين الآن بها حوالى ٢٠٠٠ مليونير وعدد المليارديرات لا يفوقه سوى عددهم فى أمريكا. ولكن ما زالت بالصين أعداد هائلة تعيش تحت خط الفقر.

لا تكتفى الصين بغمر الأسواق بمنتجاتها الرخيصة، بل أصبح لها نفوذ فى كثير من البلاد القريبة والبعيدة. فى أنجولا مثلا

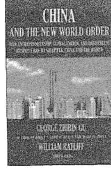
الصين!

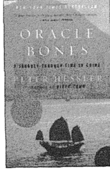
يوجد ٢٢٠٠٠ صينى يشيدون المدارس والمستشفيات والسكك الحديدية والمصانع ويعملون فى قطاع البترول. إنهم يعملون سبعة أيام فى الأسبوع. الصين قدمت لأنجولا قروضا قدرها ٤ بلايين دولار. ما يقال عن الصين فى أنجولا يقال عن بعض الدول الأفريقية الأخرى. الصين تتعامل مع الحكومات دون أن تفرض سيطرتها كما يحدث مع الغرب وخصوصا الأمريكى. ولكن هذا قد يتغير مع تغير موازين القوى العالمية. فى كمبوديا تشيد الصين مصنعا كل شهر خلال العامين الماضيين. إنها أهم دولة تساهم فى تنمية كمبوديا فى غياب يكاد يكون شبه تام للدول الغربية. الصين الحديثة يتسع نفوذها فى جنوب شرق آسيا بينما يتقلص النفوذ الأمريكى الحقيقى. تستورد الصين الكثير من البترول وبعض المواد الخام والمحاصيل. من البرازيل مثلا تستورد الصين فول الصويا بثلاثة بلايين دولار فى العام.

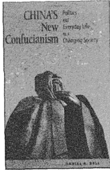
هناك أمثلة عديدة للوجه المضىء للصين الحديثة ولكن هناك صراعات أيديولوجية واقتصادية واجتماعية يطفو بعضها على السطح ويحاول النظام أن يجد لها حلولا. هناك مقولة صينية تقول إن العالم كله ينتفع من المنتجات الرخيصة التى تقدمها الصين ما عدا عمال الصين وفلاحيها (٦٠٪ من الصين ما زالوا فلاحين فقراء). لماذا استمرت الحكومة الشيوعية فى الصين رغم أن أغلب الحكومات الشيوعية اختفت؟ هل هى حقا حكومة شيوعية؟ ما هو مستقبل الشيوعية فى الصين؟ كيف تحولت الصين من عصر ماوتسى تونج إلى الوقت الحالى. ما هو تأثير دخول رجال الأعمال فى الحزب الشيوعى على مستقبل الحزب وعلى الديمقراطية؟ هل ستؤدى التجربة الصينية فى الانفتاح الاقتصادى إلى اشتراكية مثالية أم ستتحول إلى نظام رأسمالى يشابه النظام الأمريكى حيث يتحكم المال فى السياسة؟ ما هى طبيعة العلاقات الاقتصادية الصينية الأمريكية؟ هناك الكثير من المراهنات والتنبؤات وسأتعرض لبعض من ذلك فى هذا المقال.

[١]

الصين على امتداد تاريخها لم يدخلها مستعمر إلا فى منتصف القرن الثامن عشر عندما ابتدأت الثورة الصناعية فى أوروبا وتبعها نفوذ استعمارى أوروبى غزا أو تحكم فى أغلب العالم. دخل الغرب الصين كتجار للشاى والحرير. ثم اكتشفوا الأفيون وروجوا تجارته. كان الأفيون معروفا على نطاق ضيق فى الصين أدخله التجار العرب من تركيا بداية من القرن السابع بكميات بسيطة وكانت تستخدم أساسا للعلاج. أصبحت تجارة الأفيون ما بين الهند والصين التى قادها الأوروبيون وخصوصا الإنجليز هى التى مولت تجارة الشاى والحرير. لتأمين تلك التجارة الرابحة كانت حرب الأفيون الأولى سنة ١٨٤٣ والثانية سنة ١٨٥٦. فرض الإنجليز على الصين أن تفتح موانيها لهذه التجارة الرابحة. تحكم الأوروبيون فى بعض الموانى واحتكروا تجارة الأفيون وفرضوا نظام القضاء المختلط. فى عام ١٧٢٩ كان يدخل الصين حوالى ٢٠٠ تربة أفيون فى العام بعد أن توسع فيها الأوروبيون كان يدخل الصين عام ١٨٨٣، ٤٠،٠٠٠ تربة أفيون. أدى الأفيون إلى تدهور اقتصاد وأخلاقيات الصين وأصبحت تستورد أكثر مما تصدر. حاولت الصين المقاومة ولكنها لم تنجح. انهارت الصين ودخلها المستعمر الغربى واليابانى فى أوائل القرن العشرين. فى هذا المناخ انتهى الحكم الامبراطورى للصين سنة ١٩١١ وأصبح صن يات سن رئيسا للجمهورية الصينية ولكن الصين كانت ممزقة. عام ١٩٢٤ تكون الحزب الشيوعى الصينى برئاسة ماوتسى تونج. استمر الحزب فى النضال العسكرى حتى كتب له النصر سنة ١٩٤٩. هربت بواقى الحكومة الصينية إلى جزيرة فورموزا الصغيرة (الآن تايوان) برئاسة شاى كاى شيك (عديل صن يات سن). ابتدأ الكفاح الشيوعى بما سمى المشوار الطويل، ويقول هنرى كيسنجر فى مذكراته عن سنوات البيت الأبيض إنه فى زيارته للصين مع نيكسون فى السبعينيات لتطبيع العلاقات قال له أحد مرافقى ماوتسى تونج فى المشوار الطويل إنه عندما ابتدأ النضال لم يكن أحد يحلم أن يرى النصر فى حياته، لقد كان كفاحا للمستقبل.







كان قادة الصين الجدد ثوريين ذوى طموح هائل ولكن درايتهم بحكم هذه البلاد الشاسعة كانت سلسلة من التجارب بعضها نجح والآخر لم يوفق أو فشل. بالإضافة إلى أن ظروف الصين السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية كانت صعبة، وأيضا قد حاصرها الغرب اقتصاديا ومنعها من دخول الأمم المتحدة. فى ستينيات القرن الماضى لم تحقق الصين التقدم المرجو، سياسات فاشلة، فيضانات مدمرة، جفاف ومحاصيل فاشلة ولكن مع كل ذلك يعد أهم إنجازات الثورة الشيوعية فى الصين أنها حافظت على وحدة البلاد. ابتدأت شعبية ماو رئيس الحزب ينال منها الضعف وأصبح يرى أن التخلف الفكرى للمثقفين يعد عائقا للتيار الاشتراكى. ومن ناحية أخرى كان ليوتشاوتشى رئيس الجمهورية ذا النفوذ القوى يدعو إلى ما سماه الاشتراكية العلمية ويرى أن المثقفين خدموا الصين القديمة ويمكنهم أن يخدموا الصين الجديدة. لم يكن خلافا أيديولوجيا فقط بل كان صراعا على السلطة. نجح أنصار ماو فى إزاحة المختلفين معه. كانت الثورة الثقافية، طرد المثقفون والمدرسون وأرسلوا للمزارع والمصانع وأغلقت المدارس والجامعات أو على الأقل أصبحت فى غاية الضعف. راح ضحية تلك الحقبة بضعة ملايين واستمرت حتى منتصف السبعينيات. لم يكن ما حدث فى تفكير ماو حيث إن الثورة الثقافية دفعت الاقتصاد الصينى إلى حافة الهاوية.

توفى ماو سنة ١٩٧٦ وخلفه غوفونج ثم بعد فترة قصيرة تولى الرئاسة دنج شياو بينج والذى عانى الأمرين خلال الثورة الثقافية. كان لا بد من تغيير الاقتصاد وكان دنج من أنصار الانفتاح الاقتصادى. ابتدأ التغيير أولا فى قطاع الزراعة وبدون تخطيط من الحزب أو حتى موافقته. ترك الفلاحون نظام الكوميون وعادوا لنظام الزراعة القديمة حيث كل عائلة مسئولة عن زراعة مساحة معينة. تجاهلت الحكومة تلك المحاولة عن عمد، زاد الإنتاج واتسعت التجربة.

أما فى الصناعة فكان الحزب يتحسس طريقه بحذر شديد. ابتدأت تجربة الانفتاح فى بلد صغيرة اسمها تشنذن أهملتها الحكومة عن عمد لقربها من هونج كونج المستعمرة البريطانية فى ذلك الوقت. كانت شنذن بعيدة عن العاصمة والبلاد الكبيرة، فلو فشلت التجربة ستكون غير ملحوظة. أما لو نجحت التجربة فلرخص العمالة وانخفاض مستوى المعيشة وقربها من الحدود وموانى التصدير فستجذب الكثير من رجال الأعمال والمستثمرين. كانت البداية صناعات بسيطة مثل صناعات المجوهرات والبلاستيك، صناعات تحتاج لأيد عاملة رخيصة وغير مدربة. نجحت التجربة اقتصاديا وصدرت المنتجات ودخلت العملة الصعبة. لم يصرح بدخول منتجات شنذن للصين وأحيطت المدينة بالأسوار وان كان ذلك قد تغير فيما بعد. كان رجال الأعمال المساهمون فى تلك التجربة صينيين من هونج كونج وتايوان.

جذبت تلك التجربة انتباه الكثير من المستثمرين ورجال الأعمال. فى فترة وجيزة أصبحت شنذن مدينة صناعية كبيرة وأصبحت وكأنها أنشئت بين عشية وضحاها وقد سميت فيما بعد بمعمل التحديث. شجعت تلك التجربة الحكومة فأنشأت مناطق اقتصادية خاصة تمنح مميزات مغرية لرجال الأعمال. أدى ذلك إلى هجرة الكثير من

كان ترتيب الصين فى المركز الرابع فى أولمبياد ١٩٩٦ ثم أصبحت فى المركز الثالث سنة ٢٠٠٠، ثم الثانى فى دورة ٢٠٠٤ وفى الدورة الأخيرة حصدت الصين ٥١ ذهبية مقابل ٣٦ للولايات المتحدة

الفلاحين والشباب لتلك المناطق. كانت العمالة غير منتظمة أو مضمونة ولكن النجاح النسبى اجتذب العديد من المهاجرين الفلاحين. لم تكن هناك قوانين لحماية حقوق العمال أو حتى للأمن الصناعى. كانت ظروف العمل قاسية ولكنها أعطت فرصة لمن ليس له عمل. اتسعت التجربة لتشمل بلادا عديدة وأدت إلى انفجار اقتصادى لم يشهد العالم له مثيلا.

[٢]

فى البلاد الغربية المتقدمة التطور مرتبط بالديمقراطية وبالدستور فى إطار لا يؤمل بسرعة فى التغيير. أما فى البلاد النامية، فلعدم وجود دستور راسخ ونظام ديمقراطى فالنخبة الحاكمة فى إمكانها إحداث تغييرات جذرية وسريعة قد تكون جيدة أو سيئة، يتوقف ذلك على مدى دراية النخبة الحاكمة ورؤيتها للمستقبل ومدى ارتباطها بالشعب أو بمصالحها الشخصية.

كان أمام الصين بعد ماو خياران، إما أن يكون الاهتمام بالإصلاح الاقتصادى أولا على أن يتبعه الإصلاح السياسى أو العكس. يعتقد بعض الباحثين أن الصين تعد نموذجا للحالة الأولى بينما تعد روسيا نموذجا لأولوية الإصلاح السياسى وما تبعه من مشاكل. كلا الخيارين محفوف بالمخاطر. بل قد يكون كلا الخيارين مغامرة غير مضمونة العواقب، وقد تؤدى ولو فى بادئ الأمر إلى حالة من الفوضى والاضطراب، خصوصا إذا اتسمت بالسرعة فى التنفيذ. وعلى العموم مسيرة الإصلاح السياسى والاقتصادى فى البلاد النامية ليس من السهل التحكم فيها لمدة طويلة أو حتى التنبؤ بمصيرها حيث إن العوامل المؤثرة عديدة ومعقدة.

إذا قيس النجاح الاقتصادى الصينى بمعدل التنمية فقط فهو نجاح مذهل، ولكن لم يكن هذا النجاح بلا ثمن. لقد ابتدأ الحزب الشيوعى يتخلى عن بعض مبادئه وقد قابل ذلك معارضة شديدة من داخل ومن خارج الحزب، ولكن الصين نجحت فى رفع مستوى دخل ٤٠٠ مليون شخص إلى معدل ما فوق خط الفقر وهو إنجاز لا يستهان به. يعود أغلب هذا النجاح للقطاع الخاص. الصين بها أكثر من ١,٥ مليون شركة خاصة بالإضافة إلى ٣١ مليون ورشة صغيرة ودكان. يعمل بهذه الشركات حوالى ٢٠٪ من الصينيين. اصبح بالصين عدد هائل من أصحاب الملايين. أما المليارديرات فعددهم لا يفوقه إلا عددهم فى أمريكا.

عندما أصبح دنج رئيس الحزب وبعد محاولة تشنذن الناجحة قال «لا يهم أن كان القط أبيض أو أسود مادام فى إمكانه أن يصطاد الفأر». لم يهتم دنج إن كان النظام الاقتصادى شيوعيا أو رأسماليا وما دام الاقتصاد يتحسن ومادام الحزب يتحكم فى مصير البلاد. يعد دنج مهندس الانفتاح وإن كانت سياسته المعلنة تعتمد على: المحافظة على الروح الشيوعية، المحافظة على النظام السياسى برئاسة الحزب، المحافظة على الماركسية اللينينية وعلى تعاليم ماو. يذكرنا ذلك بالنكتة الشائعة والتى قيلت بعد أن تولى السادات حكم مصر «إدى إشارة شمال وادخل يمين». لم يحاول النظام أن ينال من أسطورة ماو، بل ما زال ماو رمزا للصين الحديثة وصوره ما زالت على كل الأوراق المالية. والحقيقة التى يعترف بها الكثيرون أنه لولا الثورة الشيوعية بقيادة ماو لما امكن للصين ان تكون الدولة التى نراها الآن. أيضا أعتقد أن الصين دولة تحترم تاريخها .

عام ١٩٩٩ توفى دنج وتولى رئاسة الحزب Jian Zemin، استمرت سياسة الانفتاح. أما السياسة المعلنة للحزب فقد اتخذت شعارات جديدة، أصبح الحزب يمثل الشعب بأكمله بدلا من البروليتاريا (أعلن نيكيتا خروشتشيف سنة ١٩٦١ أن الاتحاد السوفيتى أصبح لكل الناس وليس للبروليتاريا فقط، ولكن جمود القادة السوفييت لم يسمح ببداية التغيير فى ذلك الوقت الأمر الذى أدى إلى انهيار الاتحاد السوفيتى فيما بعد). شجع الحزب دخول رجال الأعمال وأصبح شعار السياسة هو ما يسمى بالتمثيل الثلاثى: (١) تمثيل القوة الاجتماعية العاملة (٢) تمثيل الثقافة الصينية و (٣) تمثيل مصلحة الأغلبية. كتب عن تلك الثلاثية العديد من الكتب وإن كان البعض من داخل وخارج الحزب عارضوا تلك الشعارات التى قد لا تعنى الكثير. لقد أذهل سكرتير عام الحزب هو جيناتو الحاضرين فى أحد اجتماعات الحزب حين قال «ما هى الشيوعية؟ لا أحد يعرف، أنا لا أعرف». استمرت السياسة الفعلية للحزب هى النكتة المصرية القديمة «إدى إشارة شمال وادخل يمين».

[٣]

توفر الصين حوالى ٥٠٪ من دخلها السنوى بينما ما زالت أعداد كبيرة من الصينيين تعانى من الفقر (توفر الهند واليابان حوالى ٢٥٪ فقط من دخلهم القومى). الصين لديها فائض قدره ١,٤ تريليون دولار ويزيد هذا الفائض بليون دولار يوميا. هذا أكبر احتياطى نقدى فى العالم يليه اليابان رغم أن حجم اقتصادها ضعف حجم الاقتصاد الصينى . ماذا تفعل الصين بهذا المبلغ الهائل؟ يعاد استثمار أغلبه فى الولايات المتحدة على صورة سندات على الحكومة الأمريكية بفائدة بسيطة. فى حقيقة الأمر تلك الاستثمارات تعد دينا على أمريكا من الممكن نظريا أن تسحب فى اى وقت. من الممكن تلخيص العلاقة الاقتصادية بين الصين وأمريكا كما ذكرتها مجلة اتلانتك الشهرية: كل أمريكى فى العشر سنوات الماضية استلف ٤٠٠٠ دولار من شخص فقير فى الصين، أى أن الأمريكان يعيشون بمستوى أفضل مما تسمح به إمكانياتهم بينما يعيش الصينيون بمستوى أقل مما تسمح به امكانياتهم. كانت تلك السياسة تحافظ للصين على معدل التنمية العالى حيث أسعار المنتجات الصينية ستظل منخفضة مع التحكم فى معدل ارتفاع الأسعار داخليا مع المحافظة على سعر العملة الصينية منخفضة بالنسبة للدولار. هدف الصين أن يستمر الاستثمار بهذه النسبة العالية فى العقدين أو الثلاثة القادمة حتى تزداد معدل العماله ويتحسن مستوى أكبر عدد ممكن من الشعب. كان ذلك قبل أن تنخفض قيمة الدولار. فى العامين الماضيين يحصل احتياطى الصين من الدولار على فائدة قدرها من ٤ إلى ٥٪ بينما تراجعت قيمة الدولار الحقيقية من ٥ إلى ٦ ٪ . مع انخفاض قيمة الدولار تقل القيمة الفعلية للاستثمارات الصينية فى أمريكا. ليس من مصلحة الصين أن تغير احتياطيا من الدولار إلى اليورو أو الين أو تشكيلة من العملات فى فترة بسيطة لأن ذلك سيؤثر على قيمة الدولار سلبيا ويضر بالرصيد الصينى بالإضافة إلى أن أمريكا تعد أهم عميل صينى للآن. تدهور الاقتصاد الأمريكى سيؤثر مباشرة على الاقتصاد الصينى

العديد من الدول لها رصيد نقدى تستثمره خارج حدودها ويشرف عليه خبراء فى الاستثمار. أنشأت الصين حديثا شركة الاستثمارات الصينية للبحث عن أفضل وسيلة لاستثمار الفائض النقدى وتستعين الصين بخبراء عالميين فى هذا المجال. ما ستفعله تلك الشركة يثير الكثير من التوتر فى الدوائر المالية وخصوصا لعدم وجود وضوح نوايا الصين وعدم وجود شفافية. وإن كان من الواضح أن نسبة الدولار فى الاستثمارات الصينية الخارجية ستقل.

يبدو أن التفاهم السياسى والاقتصادى سيسود العلاقات الصينية الأمريكية فى الأمد القريب إن لم يحدث ما يعكر هذه العلاقات. تؤكد الحكومة الصينية اتجاهها السلمى فى حل المشاكل . الصين لها حدود مع ١٣ دولة والسلام والاستقرار الداخلى من مصلحتها لاستمرار التنمية الاقتصادية. إن أكبر مشكلة سياسية تواجه الصين هى مشكلة تايوان والتى تعتبرها الصين جزءا منها، إلا أن تلك المشكلة كامنة منذ أكثر من نصف قرن. ومن ناحية أخرى ٧٠٪ من الأمريكان يخشون من اتساع الاقتصاد الصينى وتأثيره السلبى على الولايات المتحدة. الأمريكان عندهم الخبرة والقدرة على احداث القلاقل التى تخدم مؤسستهم العسكرية وشركات صنع السلاح .

[٤]

هل الاستقرار السياسى فى الصين سيكون طويل المدى أم هناك قلاقل على الطريق ؟ رغم سيطرة الحكومة على مقاليد الأمور حتى الآن، إلا أن ذلك لم يكن بدون مصاعب والتى قد يستفحل أمرها فى المستقبل. قد يكون أحد معايير الاستقرار فى الصين هو ما يشهده ميدان التينينمن (Tiananmen Square) من مظاهرات فى قلب العاصمة بكين حيث مقر البرلمان وحيث يوجد مزار ماوتسى تونج وحيث يسكن ويعمل قادة الصين وحيث توجد

ما حدث فى الرياضة
فى الصين يحدث مثيل له
فى مجالات أخرى كثيرة. الصين أذهلت العالم أيضا
بتفوقها الاقتصادى الهائل
وبتناقضها الأيديولوجى

أيضا المدينة المحرمة وهى مقر الامبراطور خلال حكمه والذى انتهى عام ١٩١١. كان أول اضطراب يشهده هذا الميدان فى العصر الحديث عندما حاولت عصابة الأربعة السيطرة على الحكم بعد وفاة ماو فكانت مظاهرات تأييد الحكومة ضد عصابة الأربعة. فى مناخ أتيح فيه القليل من الحرية، كان هناك بعض المظاهرات. فى عام ١٩٨٧ تظاهر بعض الطلبة والمثقفين للمطالبة بمزيد من الحريات فى وقت ابتدأ يتفكك فيه الاتحاد السوفيتى. قد يكون أهم المظاهرات التى شهدها هذا الميدان هى التى وقعت بين ١٥ أبريل وحتى ٤ مايو سنة ١٩٨٩. اشترك فى تلك المظاهرة قرابة المليون من الطلبة والعمال والمثقفين طلبا لمحاربة الفساد ولمزيد من الديمقراطية وكان العمال خصوصا يخشون من زيادة نفوذ أصحاب الشركات. استرعت تلك المظاهرات انتباه العالم وكان لها أصداء فى العديد من البلاد داخل الصين. كان هناك خلاف داخل الحزب عن كيفية استقطاب تلك المظاهرات، كان البعض يرى أن الإصلاح السياسى والديمقراطية أصبحا أمرا ضروريا بينما كان آخرون ومن بينهم رئيس الحزب دنج يرون أن استمرار الإضراب سوف يحدث حالة من الفوضى والضياع ستؤثر على حالة الاستقرار والتنمية. سادت آراء دنج واستقال سكرتير الحزب Zhao Ziyang ، دخل العسكر لفض الإضراب واختلف عدد الضحايا ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ قتيل وجريح تبعا لمصادر الحكومة إلى ما بين ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ من مصادر أخرى.

مظاهرة أخرى حدثت فى ميدان تينيمن فى أبريل سنة ١٩٩٩ تستلزم بعض التفصيل حيث إن ما حدث يعطى ضوءا على كيفية تصرف الحكومة وما قد يحدث فى المستقبل. كان نتيجة الفراغ الروحى والدينى الذى خلفته الشيوعية إذ ابتدأ الصينيون يصلحون من أحوال المعابد والمساجد وأن يظهر المبشرون المسيحيون من جديد وأن يبنوا الكنائس. لم يكن هناك اعتراض بل ساعدت الحكومة على ذلك مادام ذلك يحدث بموافقة وتحت نظر الدولة وإن كان هناك بعض الحذر من مبشرى المسيحية لتاريخهم المشبوه. فى ذلك المناخ ظهرت مجموعة تسمى فولون جونج سنة ١٩٨٠ تعتمد على بعض التمارين للتريض الروحى من التحكم فى التنفس وهى مشتقة من البوذية والداوزية (الأخيرة هى فلسفة صينية قديمة) ومبنية أيضا على الصدق والتسامح. رغم أن فولون جونج مسجلة كجمعية رياضية إلا أنها كانت فى واقع الأمر دينية وكان رئيسها ذا شخصية كارزمية كتب بعض الكتب التى نشرتها هذه الجمعية ليصبح أعضاؤها بضعة ملايين. كان هناك بعض المناوشات بين بعض أهل الإعلام وبعض نشاطات تلك الجمعية أدى فى أغلب الأحيان إلى مظاهرات سلمية من أعضاء الجمعية واعتذار أهل الإعلام. هاجر رئيس الجمعية لأمريكا وكتب البعض مقالات ناقدة للجمعية ورئيسها وتظاهر حوالى ١٠,٠٠٠ من أعضاء الجمعية فى مظاهرة سلمية فى ميدان تينيمن، جاء المتظاهرون بها من بلاد مختلفة. اتضح للحكومة أن هذه الجمعية منظمة ولها ولاء وأعضاؤها كثيرون وهذا ما لم تتقبله الحكومة. بعد أيام قليلة من تلك المظاهرة قررت الحكومة إلغاء تلك الجمعية واستعملت بعض العنف وإن لم تحدث إصابات تذكر إلا أن الحكومة سجنت البعض منهم. ما لا تسمح به الحكومة هو أى تنظيم قوى ومنظم قد يؤدى إلى قوة سياسية قد تقلق النظام. من أين ستأتى المظاهرات القادمة؟ سوف تأتى من المطالبين بالمزيد من الديمقراطية وحرية الإعلام، المطالبين بحقوق للعمال والفلاحين، من بقايا اليسار القديم أو يسار جديد يطالب بالعدل فى توزيع الدخل والحد من نفوذ الشركات الكبيرة ومحاربة الفساد. الصين أيضا لن تسمح بحركات انفصالية كما يحاول البعض فى التيبت أو أى حركات يشتم من ورائها نفوذ أجنبى.

تحاول الحكومة أن تعيد الفلسفة الكونفوشيوسية القديمة لتساعد على ملء الفراغ الدينى. لقد حارب النظام الشيوعى القديم الكونفوشيوسية لارتباطها بالإقطاع كنظام سلفى قديم. الكونفوشيوسية تعود إلى كونفوشيوس الذى عاش فى الصين فى القرن الخامس قبل الميلاد. إنها دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع تعتمد على الفضيلة والعمل أو كما عرفها واضعها الأول هى «حب الإنسان». وجدت الكونفوشيوسية صدى فى بعض المبادئ الشيوعية وخصوصا السمو فوق الماديات. بالإضافة إلى أن الكونفوشيوسية ستساعد على ملء الفراغ الدينى من ناحية، فهى أيضا ستساعد على تخفيف حدة الصراع بين الطبقات. فى دراسة حديثة لأكاديمية العلوم الاجتماعية فى الصين وجد الباحثون أن الطبقة الاجتماعية القديمة قد اختفت أو كادت وحل محلها عشر طبقات اجتماعية اقتصادية. فقد الحزب بعضا من تأييد العمال والفلاحين والأقليات الدينية وبعض المثقفين. نشر البحث فى جريدة الشعب اليومية (Renmin Ribao) فى ديسمبر عام ٢٠٠٤. فى نفس العام أنشئت المؤسسة الكونفوشيوسية وأصبحت محل اهتمام الاعلام وتباع كتبها بالملايين. كتاب Ya Dan الذى ألفته Analect Confucius بيع منه ١٥ مليون نسخة وقد يكون أكثر الكتب مبيعا فى الصين. الكونفوشيوسية الآن تدرس فى ١٤٠ جامعة فى ٣٦ ولاية وهى من أكثر العلوم إقبالا عليها بينما دراسة الشيوعية لا يقبل عليها الطلبة إلا إذا كانت مادة إجبارية.

[٥]

الانفتاح الاقتصادى فى الصين أوجد طبقة جديدة من داخل وخارج الحزب مصالحها مرتبطة. يساندها الآن بعض المثقفين وبعض صغار السن من خريجى جامعات الغرب والمتأثرين به. من ناحية أخرى ما زالت هناك نسبة عالية من العمال والفلاحين يعانون من الفقر، بعض الفلاحين تؤخذ أراضيهم (الدولة تملك كل الأرض)، بعض عمال القطاع العام المباع يفصلون من أعمالهم، أصحاب المعاشات تتبخر معاشاتهم لغلاء المعيشة. مع بداية الانفتاح والتغير الاقتصادى والاجتماعى السريع، كثيرون لم يستطيعوا التأقلم للموجة الآتية كالطوفان. أكثر من ٢٠٠ مليون هاجروا من القرى للبحث عن فرص للعمل. هؤلاء فقدوا الترابط العائلى وبعضهم فقد ذاته. نتيجة كل ذلك ينتشر الفساد وتزداد الجريمة والدعارة. فى عام ٢٠٠٣ انتحر حوالى ٦٠,٠٠٠ شخص بزيادة قدرها ستة أضعاف عن إحصائيات ١٩٩٣. الآن يقدر عدد المنتحرين بحوالى ٣٠٠,٠٠٠ شخص سنويا. تزيد نسبة الانتحار بين صغار السن من النساء ما بين عمر ١٥ إلى ٣٤ حيث نسبة الانتحار تعد أعلى نسبة فى العالم. هذا ما يدفعه البعض ثمنا للتقدم الاقتصادى المبهر للصين.

بعد ربع قرن من الانفتاح ابتدأت الصين تهتم بشئون العمال. فرضت على الشركات الأجنبية أحقية العمال فى إنشاء النقابات مع إعطاء النقابات الحرية فى المفاوضات مع الشركات وتوزيع نسبة من الأرباح على العاملين. بالرغم من فقر العمال إلا أن دخل العامل فى الصين الآن حوالى خمسة اضعاف دخل الفلاح بعد أن كان ٢,٦ مرة سنة ١٩٩٩. نتيجة فقر الفلاحين تزداد المظاهرات فى القرى ضد الفساد والضرائب وقلة الخدمات. حتى تمتص الحكومة غضب الفلاحين ابتدأت منذ عام ١٩٨٨ تجرى انتخابات حرة مباشرة فى ٧٠٠,٠٠٠ قرية. ولكن هذه الانتخابات لم تخفف من حدة التوتر إلا قليلا حيث إن أصحاب النفوذ غالبا ما سيطروا على الانتخابات. فى عام ٢٠٠٥ كان هناك حوالى ٨٧٠٠٠ مظاهرة فى القرى !!

لقد قررت الحكومة أن يستمر الإصلاح الاقتصادى وأن تيسر ما يتطلبه ذلك الإصلاح بقدر الإمكان. أمام الحكومة ثلاث طرق لاستمرار سيطرتها لتحقيق التقدم الاقتصادى وهى: (١) بعض الانفتاح السياسى المحكوم، (٢) محاربة الفساد، و(٣) القهر. ويبدو أن الحكومة تستخدم الثلاث طرق حسبما يقتضى الأمر.

هل سيستمر المعدل العالى للتنمية الصينية لعقدين أو ثلاثة كما تأمل الحكومة حتى يرتفع مستوى دخل الكثيرين؟ يتوقف ذلك على أربعة عوامل أساسية: أولا: الاستقرار السياسى فى الصين، ثانيا: حالة السوق العالمية من عرض وطلب، ثالثا: أسعار البترول أو مصادر الطاقة البديلة. إذا استمر تصاعد أسعار البترول وهو أمر متوقع سوف يعاد النظر فى أماكن التصنيع للإقلال من مصاريف النقل، قد تعود بعض الصناعات للغرب أو لشمال أفريقيا وأمريكا اللاتينية، رابعا: لن تستطيع أن تحافظ الصين على أجور العمالة المنخفضة بينما هناك فى الصين طبقة يزداد ثراؤها بشراهة.



هل الاستقرار السياسى فى الصين سيكون طويل المدى أم هناك قلاقل على الطريق؟ رغم سيطرة الحكومة على مقاليد الأمور حتى الآن، إلا أن ذلك لم يكن بدون مصاعب



ارتفاع أجور العمال قد يدفع بعض رجال الأعمال للبحث عن عمالة أرخص فى بلاد أخرى مثل إندونيسيا، الفيليبين، المكسيك وأفريقيا، بعض من هذا ابتدأ يحدث فعلا.

[٦]

هناك مجموعة من المفكرين يرون أن الصين لن تتخلى عن الاشتراكية كحل نهائى هم يرون أن الدول الفقيرة لابد أن تجتاز مرحلة الرأسمالية فى الطريق. وإن كان النظام الرأسمالى ينظر للعامل كوحدة للإنتاج باستخدام التكنولوجيا بغرض إثراء قلة قليلة، إلا أن الرأسمالية تطور الإنتاج أفضل من أى نظام آخر. المنافسة الحرة مع التسويق لفتح أبواب الاستهلاك تهيئ المجال لخلق فائض اقتصادى. بغير هذا الفائض الاقتصادى لا يتحقق النظام الاشتراكى أو الشيوعى. كان كارل ماركس يرى أن النظام الرأسمالى سيسبب بؤس العمال ولكنه فى النهاية سيؤدى إلى النظام الاشتراكى حيث يتحقق مجتمع الكفاية والعدل. فى الحقيقة إن النظرية الماركسية كما مورست بها الكثير من القصور والجمود وليس لها مجال فى الصين الحديثة ويبدو أن الصين ما زالت تبحث عن بديل أخلاقى وسياسى.

هل ستصبح الصين دولة ديمقراطية قريبا؟ هذا ما يتنبأ به الكثيرون. ارتفاع مستوى الدخل، وجود نقابات للعمال، تحسن مستوى التعليم، تحسن المواصلات، ووجود بعض منظمات المجتمع المدنى، كلها مؤشرات قد تؤدى إلى الديمقراطية. يعتقد المتفائلون أن الانفتاح السياسى سيتم خلال العقد القادم. قد يكون أهم ظواهر الديمقراطية هى وجود مؤسسات المجتمع المدنى. لقد ساهمت بعض مؤسسات المجتمع المدنى فى انهيار النظام الشيوعى فى وسط وشرق أوروبا. فى الصين يعتقد البعض أن مؤسسات المجتمع المدنى ابتدأت بعد نهاية فترة ماوتسى تونج وهى التى ساهمت فى مظاهرات ميدان تينيمن فى ١٩٨٩ فى قلب العاصمة والتى اشترك فيها قرابة المليون. الآن لا توجد مؤسسات للمجتمع المدنى لا تسيطر عليها الحكومة حيث إن القانون الصينى يشترط على المؤسسات المسجلة فى الحكومة أن يكون بها ممثلون للحكومة فى رئاسة المنظمة. الصين أيضا تسمح بمنظمة واحدة لكل مهنة. مؤسسات المجتمع المدنى فى الصين ما زالت داخل الرحم أو ابتدأت فى الخروج. قد يهمنا هنا منظمات رجال الأعمال والتى يراهن عليها الكثيرون أنها ستؤدى إلى النظام الديمقراطى. فى مظاهرات ميدان تينيمن لم يشجع المتظاهرين أى من الشركات الكبرى أو رجال الأعمال إلا شركة واحدة اضطر رئيسها للهروب بعد المظاهرات. نتيجة ذلك منع دخول رجال الأعمال للحزب لمدة عشر سنوات وإن كان هذا الحظر للاستهلاك المحلى فقط. هذا الحظر لم ينفذ بدقة لوجود كثيرين من الأعضاء القدامى للحزب الذين أصبحوا أصحاب أعمال وبقاؤهم بالحزب يسهل أعمالهم واعطاؤهم القروض وما إلى ذلك. عندما شجع هو جينتاو فيما بعد دخول رجال الأعمال للحزب، كانت هناك معارضة من الحرس القديم حتى أن نائب رئيس الحزب للتخطيط Yu Yanyau قال: مجرد نقاش دخول رجال الأعمال للحزب عمل غير مسئول» ولكن أقل من ٢٥٪ فقط من أعضاء الحزب أيدوا قرار الحظر. رجال الأعمال لهم الآن وجود داخل الحزب، وهم لا يمارسون مبادئ الحزب داخل أعمالهم، بل غالبا هم غير متعاطفين مع مبادئ الحزب. هل سيكون رجال الأعمال إحدى طلائع الحزب فى المستقبل أم أنهم فى الحزب لخدمة مصالحهم وليكونوا حلقة وصل مع الحزب لتهيئة المناخ الملائم لاستمرار التنمية. رجال الأعمال لن يؤثروا فى مسيرة الديمقراطية بل قد يعارضونها لأن الحكومة متعاونة معهم. ما يهم رجال الأعمال هو الحكومة التى تؤيد طلباتهم بصرف النظر عن أيديولوجية تلك الحكومة. نرى ذلك فى كثير من بلاد العالم بل فى أمريكا مثلا رجال الأعمال هم من يفسد الديمقراطية. أعتقد أن الرهان على أن رجال الأعمال سيساهمون فى تقدم الديمقراطية رهان خاسر. ■

المراجع:

1- The Atlantic January/February 2008" page 35.
2- Clashes and Balances" The transition of Economy and Society in Rural China" Dang Guoying" Foreign Languages (China) Press" 2005.
3- Oracle Bones" A Journey Through Time in China" Peter Hessler" Happer Perennail" 2006.
4- Social Change and Political Reform in China: Meeting the Challenge of Success" John W. Lewis and Xue Litai" The China Quarterly" 2003" page 926.
5- Red Caputalists in Vhina" Bruce J. Dickson" Cambridge University press" 2003.
6- China's New Confucianism" Daniel A. Bell" Princeton University Press" 2008.
7- China and the New World Order" George Zhibin GU" Future Books" 2006

مصطفى المنشاوى

بنجالور: هل تحققت نبوءة نهرو؟

■■ فى عام ١٩٤٧، صعد جواهر لال نهرو إلى المنصة ليلقى خطابه الشهير الذى تنبأ فيه بمستقبل بلاده ووضع به اللبنة الأولى لما بات يعرف فيما بعد بـ«الحلم الهندى».

«عند حلول الظلام - وبينما يغط العالم فى نوم عميق - سوف تستيقظ الهند... سوف تستيقظ لتستنشق نسمات الحياة والحرية».

وبعدها ستأتى «اللحظة التاريخية للانطلاق من القديم إلى الحديث، وحينها ستجد هذه الأمة المكبوتة فرصة التعبير عن ذاتها».

لكن هذه الكلمات لم تكن سوى أضغاث أحلام انتابت نهرو وغيره من قادة العالم الثالث بعد حصول دولهم على الاستقلال، أو هكذا تراءى للكثير من المحللين آنذاك.

فلم يقبل المحتل البريطانى أن يرحل عن البلاد بعد أكثر من ٥٠٠ سنة إلا بعد أن يترك وراءه تركة مثقلة بالهموم والمشكلات الاقتصادية والاجتماعية فى وجه نهرو ونظرائه من السياسيين فى الهند.

بالإضافة إلى الوضع الداخلى المضطرب، ظهرت مشكلات أخرى خارجية. فإلى الغرب، رغب المواطنون المسلمون فى الانفصال بدولتهم الجديدة - الباكستان. هذه الرغبة تسببت فى أكبر عملية تهجير فى التاريخ وحرب دموية بين الجارتين فى أوائل السبعينيات راح ضحيتها الكثير.

ولم يكن غريبا أن يتوقع بعض خبراء السياسة والاجتماع فى العالم أن «سقوط الهند» ليس سوى مسألة وقت.

لكن تلك التوقعات خابت، ليحل محلها توقعات أخرى بصعود الهند كقوة اقتصادية وسياسية كبرى فى العالم.

فما الذى حدث؟ وكيف تبدل الحال عبر تلك السنوات القليلة فى عمر التاريخ؟ وإلى أى مدى تحقق «الحلم الهندى»؟

أسئلة ضمن أخرى دفعنى البحث عن إجابتها إلى قضاء شهر كامل متجولا بين أنحاء متفرقة فى هذا البلد الشاسع والمتنوع جغرافيا وثقافيا وعرقيا.

ولم يخل الأمر من جانب شخصى. فمتابعتى لأخبار الهند دفعنى إلى رسم صورة مشوشة عن البلاد. فهذا خبر يتحدث عن إطلاق الهند مكوكا فضائيا، وذاك خبر يتحدث عن وصول عدد فقراء الهند إلى ٦٠٠ مليون نسمة (أكثر من نصف السكان تقريبا).

وهكذا باتت زيارتى ضرورة ملحة لاستكشاف صورة حقيقية للهند فشل الإعلام العربى والغربى فى استجلائها بعيدا عن أى تشويش أو صور نمطية ثابتة أو تناقض فرضته طبيعة الأخبار القادمة من هناك.

....

بينما كان نهرو يلقى خطابه عن انتظار «اللحظة التاريخية» واقتراب «الحلم الهندى»، كانت بنجالور تقف فى جنوب البلاد كنموذج على واقع مأساوى تعيشه الهند آنذاك.

فالمدينة عبارة عن أحياء فقيرة يسكن فيها ثلاثة ملايين نسمة يتخللها جيوب من بيوت الأغنياء غالبيتهم من المتقاعدين الأجانب الراغبين فى الاستمتاع بطقس المدينة المعتدل طوال العام ورخص الأسعار والخدمات مقارنة بمناطق أخرى حول العالم.

لكن فى بداية التسعينيات، تبدلت الحال بعد قرار الحكومة الهندية تحرير الاقتصاد القومى... قرار مثل خبرا سعيدا لسكان بنجالور... أو هكذا بدا الأمر لهم.

فالمدينة اختيرت مقرا للكثير من الاستثمارات فى قطاع تكنولوجيا المعلومات نظرا لوجود عمالة متعلمة ورخيصة فى نفس الوقت. وتخطى عدد شركات تكنولوجيا المعلومات ١٢٠٠ شركة تقوم بتصدير نصف إنتاج البلاد من تكنولوجيا المعلومات والخدمات المتعلقة بها.

«بدأت رحلتك من المكان الصحيح. فمدينة بنجالور

قصة نجاح حقيقية ودليل واضح على ما وصلت إليه الهند من تقدم مبهر».

هكذا جاء وصف جون هيل، خبير أيرلندى فى تكنولوجيا المعلومات يعمل فى إحدى الشركات الموجودة فى المدينة.

نصحنى هيل بأن أزور شركة «أنفوسيس» التى تعتبر الأكبر فى مجال تصدير تكنولوجيا المعلومات فى الهند.

وهكذا اتبعت نصيحته... لتظهر مفاجأة أخرى ساهمت فى ايضاح الصورة المهتزة عن الهند.

....

استقبلنى «مهنداس باى» أحد أعضاء مجلس إدارة أنفوسيس قبل بداية الجولة، ليرى حماسى الشديد فى السؤال عن سر التحول فى وضع الشركة.

فشركة أنفوسيس بدأت عملها فى ١٩٨١ برأس مال لم يتعد ١٠.٠٠٠ روبية (أقل من ٢٥٠ دولارا) وبعمالة لا تزيد على ٥٠٠ شخص.

لكنها شهدت تطورا كبيرا لتصبح أول شركة هندية تدرج أسهمها فى بورصة «ناسداك» الأمريكية الشهيرة مع زيادة أرباحها وارتفاع عدد موظفيها إلى ٩٠ ألف شخص.

فكيف وقع هذا التغيير؟

«فقط استفدنا من فرصة أتاحتها لنا الحكومة عندما اتبعت سياسة جديدة تمثلت فى الانفتاح الاقتصادى وتحرير الأسواق مع بداية التسعينيات».

«وربما ألخص عليك الأمر .. نرجع نجاحنا إلى العولمة».

واستطرد:

«أعرف أنك قادم من بلاد ترون فيها العولمة شرا مستطيرا. لكننا نختلف معكم فى ذلك... فالعولمة لها جوانب إيجابية خدمت شركتى وخدمت الهند».

كيف؟

حدث ذلك عن طريق توحيد الأسواق مما سمح لنا بالوصول إلى أسواق عالمية كانت بعيدة المنال من قبل. وعليك ألا تنسى أنها خلقت فرص عمل واسعة لسكاننا الذين يتعدون المليار نسمة.... أليس ذلك جيدا؟».

وقبل أن أجيب عن هذا السؤال أو أطرح أسئلة أخرى، قاطعت حديثنا فتاة فى الأربعينيات من عمرها ترتدى الزى الهندى بألوانه المزركشة وترسم على ملامحها ابتسامة الواثق من نفسه.

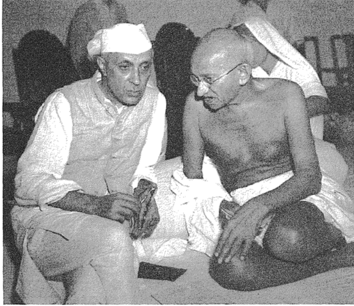
لتبدأ ديبير سانجى حديثها:

«أسفة على المقاطعة: هل تريد أن تبدأ جولتك فى الشركة الآن ... ربما يفضل أن نبدأ الآن فالأماكن التى ستزورها متعددة».

وبالفعل بدأت الجولة داخل مقر الشركة... لتظهر أسئلة جديدة وإجابات غير متوقعة.

....

لابد أن تشعر بالانبهار خلال جولتك داخل الشركة، حيث المساحات الخضراء



الواسعة وسط المكاتب التى تشمل معامل مزودة بأحدث الأجهزة الالكترونية.

وسائل ترفيهية متعددة ومنتشرة فى نفس المكان.... ومنها حمام سباحة وصالة لألعاب رياضية ودار عرض سينمائى ومطعم يقع وسط بحيرة صناعية وملعب جولف.

هذه الخدمات متوفرة أيضا لأسر العاملين فى الشركة خلال عطلة نهاية الأسبوع.

«هل أنا حقا فى الهند؟» قلت مازحا لسنج.

«نعم يا سيدى... نحن نريد أن نوفر الراحة للعاملين فى الشركة لتشجيعهم على الإنتاج أملا بالطبع فى مزيد من الأرباح فى النهاية».

ويبدو أن هذا الأسلوب فى العمل آتى ثماره.

فقد حققت الشركة أرباحا بلغت ثلاثة ملايين دورلار العام الماضى، ويتوقع المسئولون فيها أن يتم التوسع فى نشاطاتها وتوظيف عشرات الآلاف من الأشخاص كل عام.

دعانى مسئولو الشركة إلى مقابلة بعض العاملين فيها الذى كان واضحا أن أعمار معظمهم لا تتعدى الثلاثينيات.

«أنا فرح بونِدرى أعمل هنا فى الشركة ويسعدنى أن أجيب على أسئلتك».



هكذا بدأت تلك الفتاة التى بادرتها بالسؤال عن عمرها بسبب ملامحها التى توحى بصغر سنها فى مكان عمل بدا بالنسبة لى ضخما.

«يبلغ عمرى ٢٢ عاما. أعرف أنك تستغرب من صغر سنى. فهم هنا فى الشركة يعتبرون ذلك ميزة.

رغم أننى لم أدرس الكمبيوتر كتخصص فى كلية الهندسة التى درست فيها، إلا أننى تمكنت من تعلم أشياء كثيرة وبسرعة كبيرة فى هذا المجال الجديد.

كل هذه الخدمات التى تراها أمامك تمنحنا مزيدا من التركيز بل والثقة فى أنفسنا وقدرتنا على التفوق والإنجاز».

وبالفعل، لمحت فى عينى تلك الفتاة ثقة لا توصف ونبوغا بما منحها تلك الثقة ولباقة الحديث. وعرفت منها أنها عاشت فترة فى الخليج حيث كان يعمل والدها. وهنا سألتها عن الفرق الذى وجدته بين الهند والخليج؟

«لديكم فى العمل العربى الكثير من الإمكانات والموارد ربما بشكل أفضل منا... لكنكم تفتقرون إلى شيئين من وجهة نظرى، ينقصكم نظام يضمن استخدام تلك الموارد والإمكانات على الوجه الأمثل... وينقصكم الرغبة فى تحقيق الذات أو العمل على مشروع قومى يتفق عليه الجميع».

قاطعتها:

«لكن الصورة هنا غير وردية فى بلادكم كما أراها وعلى عكس ما ترسمينها. فمع هذه الخدمات الممتازة التى ذهبت إلى حد توفير حمامات سباحة وملاعب جولف لكم فى الشركة، يبدو الوضع مأساويا خارج أسوار هذا المكان».

فعند وصولى إلى بنجالور للمرة الأولى دونت فى مذكراتى: «شوارع المدينة تتسم بالعشوائية الشديدة فى حركة المرور. الكثير من سكان المدينة يعيشون دون توافر الخدمات الأساسية كمياه الشرب أو الصرف الصحى».

ويبدو أن الفتاة قرأت ما يدور فى ذهنى، لتقول:

«من حقك أن تستغرب من هذا التناقض. برأيى، المشكلة فى أن التطور فى قطاع البرمجيات لا يواكبه تطور على المستوى السياسى والإدارى فى الهند».

وهكذا أخذنى الحديث مع تلك الفتاة الصغيرة إلى جانب آخر من صورة الهند ... جانب لا يرغب الكثيرون مثلها فى تسليط الضوء عليه على الأقل عبر وسائل الإعلام ... لأنه ببساطة الجانب المظلم من الصورة.

....

فى شارع إم جى الشهير، يمكنك أن تلحظ المراكز التجارية حيث توجد فروع لأشهر العلامات التجارية ومعارض تبيع سيارات فاخرة مثل بى إم دبليو.

كما يثير دهشتك انتشار الملاهى الليلية فى ذلك الشارع الذى يتجول فيه الكثير من الزوار الأجانب وبعض الشباب الهندى الذين يرتدون أزياء غربية متحررة بعكس السارى مثلا الذى يمثل الرداء التقليدى فى معظم المناطق الأخرى من المدينة.

لكن الحقيقة أن معظم سكان بنجالور ما زالوا من الفقراء، ومازالت المدينة تمتلئ بالمناطق العشوائية التى يقدر عددها بالمئات والتى لا تتوافر فيها أبسط ضرورات الحياة كمياه الشرب أو الصرف الصحى.

فالمناطق العشوائية تزداد، والهوة بين الأغنياء والفقراء فى المدينة تتسع، حسبما استنتج عالم الاقتصاد الهولندى هانز شينز فى دراسة ميدانية عن بنجالور نشرت منذ عدة سنوات قليلة.



بينما كان نهرو يلقي خطابه عن انتظار «اللحظة التاريخية» واقتراب «الحلم الهندى»، كانت بنجالور تقف فى جنوب البلاد كنموذج على واقع مأساوى تعيشه الهند آنذاك



من بين هؤلاء الفقراء هريشنا هريشنا، الذى زرته فى بيته المكون من غرفة واحدة والذى يعيش فيه مع أسرته رغم عدم توفر بعض وسائل الحياة الأساسية كمياه الشرب.

«اضطر إلى الاستيقاظ فى الساعة الرابعة صباحا للوصول إلى منطقة أخرى أحصل منها على المياه التى تلزمنا للشرب ولأغراض أخرى طوال اليوم».

حتى مياه الشرب التى يذهب هذا المواطن بعيدا للحصول عليها غير صالحة للاستهلاك بعد ظهور عدة حالات للإصابة بالكوليرا بسبب تلوث المياه كما قالت صحف محلية مؤخرا.

فلماذا هذا التناقض الذى يجعل وضع أغلبية سكان بنجالور يزداد سوءا رغم زيادة الشركات العاملة فى مجال التكنولوجيا والتى تمثل ٤٠ فى المائة من قطاع تكنولوجيا المعلومات فى كل الهند؟

سؤال بحثت عن إجابته من خلال لقاء مع موراى كلشو، مدير مؤسسة «إم سى سى» العاملة فى مجال المجتمع المدنى فى المدينة.

.....

بعد انتهاء مؤتمر عقد فى إحدى قاعات المؤتمرات فى بنجالور عن «التنمية والعمل الخيرى»، كان موعدى مع كلشو.

خلال المؤتمر، تحدث بعض رجال الأعمال الذين أشاروا إلى مجهوداتهم لعلاج مشاكل المجتمع كالفقر.

«سيختفى الفقر من هنا خلال سنوات... ستصير الهند دولة متقدمة خلال أقل من عشرين عاما... نحن نسير إلى الأمام»، هكذا قال أحدهم بصوت حماسى تأثر به الحضور الذين بدأوا فى التصفيق بحرارة.

بادرت كليشو بالسؤال:

هل الصورة بهذه الإيجابية التى شاهدتها فى المؤتمر؟

فأجاب: «للأسف العكس هو الصحيح. فالصورة تبعث على الحزن والكآبة فى بنجالور.

هناك انتشار واسع للفساد السياسى والإدارى، والذى جعل الحكومة غير مهتمة بمواجهة تلك المشكلات التى تواجه الفقراء ناهيك عن الاعتراف بها».

قلت:

«وماذا عن قطاع تكنولوجيا المعلومات الذى يوظف الكثير من البشر ويعلق عليه الكثير من السكان هنا أحلامهم؟ هل سيغير من ذلك الوضع الذى تصفه بالحزن والكئيب؟

فرد:

«قطاع تكنولوجيا المعلومات والخدمات المتعلقة به يبقى قطاعا محدودا لا يمثل العاملون فيه - وعددهم أربعة ملايين فرد - سوى واحد فى المائة من حجم الأيدى العاملة فى الهند التى ما زالت الزراعة تمثل المصدر الأساسى للدخل.

فى ظل كل تلك العوامل، تبدو لى شركات تكنولوجيا المعلومات أقرب إلى جزر منعزلة فى الهند.

ونصحنى كلشو أن اطلع على بعض الأرقام التى تتحدث عن ذلك التفاوت الذى تعيشه الهند.

وهكذا فعلت.

.....

من ناحية، تعتبر الهند رابع قوة اقتصادية فى العالم بعد الولايات المتحدة والصين واليابان .

لكنها، من ناحية أخرى، ما زالت دولة فقيرة وفق تصنيف الأمم المتحدة، حيث مازال حوالى ٦٠٠ مليون نسمة (أكثر من نصف السكان) يعيشون على أقل من دولارين يوميا..

كما أن أقل من نصف أطفال الهند يعانون من سوء التغذية، وتبلغ نسبة الأمية ٤٠ فى المائة، (وهذه النسبة أكبر من تلك الموجودة فى دولة مثل رواندا).



إضافة إلى ذلك، لا يوجد دورات مياه فى ٧٥ فى المائة من البيوت الهندية، وهو ما يفسر ظهور ذلك العدد الكبير من الأفراد الذين يقضون الحاجة فى شوارع بنجالور والعديد من المدن الأخرى التى زرتها كالعاصمة دلهى - وسط رائحة نفاذة لا تطاق لأى زائر.

لكن هذا يدفع الكثير من الهنود إلى محاولة الخروج من دوامة تلك المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالالتفاف حول مشروع قومى أو كما يسمى هنا «الحلم الهندى».

.....

«الحلم الهندى» تجده ماثلا أمامك فى كل مكان.

فمجرد أن تطأ قدماك أيا من مكتبات الهند، تجد تلك العناوين البراقة مثل «القرن الحادى والعشرون سيكون هنديا» للكاتب بافان فارما أو كتاب وزير التجارة الحالى كمال نات الذى وصف بلاده «بمعجزة القرن الواحد والعشرين» بفضل «العبقرية» الهندية.

يمكنك أن تتصفح كتابا آخر تحت عنوان «العقول المتنورة» لجناب الدين عبدالكلام الذى كان رئيسا للهند ويعتبر أبو القنبلة الذرية الهندية.

يقول عبدالكلام فى كتابه إنه واثق من قدره شعبه على «تحقيق أفضل النتائج حول العالم . فلديه مزيج من الإيمان والمعرفة التى تميزه عن أى شعب آخر حول العالم».

«أريد أن أخبر شعبى أن الحلم يمكن أن يكون حقيقة... وأنه يمكن أن يحصل على حياة كريمة: الصحة والتعليم وحرية تحقيق أهداف أفراده.

وبالفعل وجدت الهنود يعملون بجد نحو تحقيق حلمهم الأكبر.

فهناك جهود كبيرة لتحسين جودة التعليم وتطويره. بل إن الكثير من الفقراء باتوا يعتقدون أن وسيلتهم فى الحراك الاجتماعى هى تعليم أبنائهم.

سمعت ذلك من كريشنا رب الأسرة الفقير الذى يسكن فى بيت متواضع بمنطقة عشوائية.

«ربما تريد أن تسمع منى القول بأن أحلامى لا تزيد على تلبية الحاجيات الأساسية كالانتقال إلى منزل أوسع وتوصيل المياه إلى منزلنا.

لكنى أقول لك إن أحلامى أكبر من ذلك . وهذا ما دفعنى أن أحرص على أن يحصل ابنتى وابنى على تعليم جيد أوفر تكاليفه من عملى البسيط وعمل زوجتى بائعة للزهور».

فالابن يدرس علوم الكمبيوتر، والبنت تدرس إدارة الأعمال، فى إحدى الجامعات الهندية التى باتت تتمتع بسمعة عالمية ومستوى جيد.

سياسيا، ليس غريبا أن يبذل الهنود مساعى مكثفة للدخول ضمن الدول الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن، متباهين أيضا بأن بلادهم تحمل أكبر ديمقراطية فى العالم حتى لو تعكر صفوها بعض التجاوزات.

كما أن الهند تملك قنبلة نووية يعتبرها المحللون كافية لدرء التهديد الباكستانى ولو إلى حين. أما فى المجالات الأخرى، فتسعى الهند إلى فرض وجودها، فمؤخرا دخلت الهند عصر الفضاء بإطلاق أول صاروخ لها نحو القمر.

لكن كيف يستمر الهنود فى السعى إلى تحقيق أحلامهم رغم انتشار الفساد والفقر والمرض والجهل وغيرها من تجاوزات؟

ألم تردع تلك التجاوزات شعوبا كثيرة عن تحقيق أحلامها؟ ألم يتذرع البعض فى دولنا العربية مثلا باستحالة بلوغ تلك الأحلام بسبب عوامل داخلية وخارجية؟

فلماذا تنجح الهند فيما يفشل فيه الآخرون ممن يعايشون نفس الظروف ويقعون تحت نفس الضغوط؟

«لدينا ثقة فى النفس، وثقة فى قدراتنا على تغيير أحوالنا إلى الأفضل سواء على مستوى الأفراد أو الشركات أو حتى الحكومة».

هكذا قال لى مورتى وهو صاحب شركة «انفوسيس» واحدة من أكبر شركات الهند لتكنولوجيا المعلومات.

بدا لى مورتى فى حديثه كأنه نهرو الجديد بتواضعه الجم وحياته البسيطة (استقبلنى مرتديا جلبابا أبيض وحذاء صيفيا أقرب إلى الصندل) ... هذه الهيئة تأتى خلافا لأحلامه الكبيرة التى كررها على مسامعى طوال الحديث الذى قدر له أن يستمر عدة ساعات بدلا من نصف ساعة كما كان محددا له.

بدأ هذا الرجل مشواره المهنى كمهندس كمبيوتر بسيط فى فرنسا ثم أمريكا قبل أن يقرر العودة إلى بلاده ليصبح أحد أهم رجال الأعمال الهنود ومليارديرا تتناقل أخباره وسائل الإعلام.

«عندما بدأت عملى فى فرنسا، كنت أحصل على راتب بسيط. لم أكن أتناول غدائى، وفقط كنت أتناول قطعة رخيصة الثمن من الشيكولاتة أسد بها رمقى».

«لكن أحلامى كانت كبيرة وثقتى فى نفسى كبيرة... وها أنذا حققت الكثير منها بعد عشرات السنوات من بداياتى المتواضعة... وعدت إلى وطنى رغم إغراءات العيش فى الغرب».

وهنا ذكرت مورتى بحوار مشابه دار بين الأستاذ محمد حسنين هيكل وبين رئيسة وزراء الهند الراحلة أنديرا غاندى كما ورد فى كتابه «أحاديث فى اسيا».

حين سأل هيكل غاندى عن سبب الانتصار العسكرى الهندى على باكستان أجابت: «ثقة الشعب بالنفس.. المهم أن تكون لدى الشعب ثقة بنفسه».

ولكن من أين جاءت ثقة الهنود بأنفسهم؟

أجابت غاندى: «من إحساس شعب الهند أنه يشارك فى صنع مصيره. فعندما يشارك الشعب يثق وعندما يثق ينتصر».

استمع مورتى إلى الحديث مظهرا اتفاقه مع ما قالته غاندى قبل أكثر من ثلاثين عاما من الآن.

وهنا قلت:

«بالفعل يا سيد مورتى ... لقد وجدت هذه الثقة بالنفس واضحة فيمن قابلتهم بدءا من ذلك الفقير المعدم الحريص على تعليم أولاده، وتلك الفتاة العاملة فى شركتك رغم صغر سنها وقلة خبرتها.

لكن أسمح لى أن أطرح عليك سؤالا أخيرا: ألا يقلل من بهاء تلك الصورة مشاهد الفقر والفوضى المنتشرة حول هذا الفندق الفخم الذى أقابلك فيه؟».

رد مورتى:

«أرجوك أن تأتى لتزور الهند مرة أخرى... فالمشهد هنا يتغير بسرعة ... الأرقام تقول لنا إن الهند ستوظف كل خريجيها فى قطاع تكنولوجيا المعلومات بل وتحتاج المزيد منهم خلال عدة سنوات قليلة.

الخدمات تتحسن ... والكثير من الهنود يعودون إلى أوطانهم فى ظل تحسن تلك الخدمات وتوفير الوظائف ذات المرتبات المجزية ... هم مكسب كبير لنا..

بعدها وقف مورتى مودعا إياى ومبادرا بالقول:

«أتمنى أن تكون قد لمست اللحظة التاريخية التى تنبأ بها نهرو والتى جئت تبحث عنها هنا؟».

وجاءت الإجابة مقتضبة: «ربما». ■

دعا إلى خطاب عصرى ينسجم مع اللغة التى يفهمها العالم.. وعارض إنشاء تنظيم دولى للإخوان المسلمين

بين القانون والسياسة... والكتب

توفيق الشاوى
رحلة التسعين عاما

■■ ولد الدكتور توفيق الشاوى فى قرية الغنيمية/مركز فراسكور بمحافظة دمياط يوم ٩ المحرم ١٣٣٧ هـ. ١٥ أكتوبر ١٩١٨م، وفاضت روحه إلى بارئها يوم الأربعاء الموافق ١٢ ربيع الآخر ١٤٣٠هـ ـ ٨ أبريل ٢٠٠٩، بعد رحلة امتدت واحداً وتسعين عاماً قضاها فى عمل دائم، وجهاد لم يفتر، وصبر لم ينفد. وقد حكى لى فيما حكى، قال: «والدى كان فلاحاً يملك عشرة أفدنة فى زمام قرية الغنيمية، وعندما ولدت تمهل كثيراً فى إثبات اسمى فى سجل المواليد، خشية أن أموت سريعاً وأنا طفل صغير، وبلغ تأخره عدة سنوات، ثم سجلنى، وسقطت تلك السنوات من حساب عمرى عند الحكومة».

بدأ الشاوى مشواره الطويل طفلاً صغيراً فى كتاب قريته «الغنيمية» فحفظ نصف القرآن الكريم على يد الشيخ «على حواس»، وهو فى السادسة من عمره. وكانت ميزة كتاب الشيخ على حواس هى رفق هذا الشيخ بالأطفال، وقلة عدد الملتحقين بكتابه وعدم اكتظاظه بهم، الأمر الذى ارتاح له «توفيق»، وجعله يداوم على الذهاب إلى الكتاب، ولا يضيق به ذرعاً، مثلما فعل عباقرة آخرون سبقوه، وصفهم الجاحظ منذ قرون بأنهم «أكيس الصبيان»: أولئك الذين لا يصبرون على عصا الشيخ، ولا يتحملون زحام الأطفال وصخبهم الذى لا ينقطع.

انتقل «توفيق» وهو فى السادسة من عمره إلى مدينة المنصورة ليلتحق بالمدرسة الابتدائية. وفاجأ والده ـ على غير عادة الأطفال الصغار فى تفضيلهم اللهو واللعب على الجد والتعلم فى أيام الطفولة والصبا ـ بأن طلب منه أن يختار له شيخاً ليكمل معه حفظ القرآن الكريم بعد أن فارق شيخه «على حواس» وتركه فى القرية. فاختار والده له «الشيخ شمس الدين»، وأتم على يديه حفظ كتاب الله كاملاً قبل أن ينتهى من المرحلة الابتدائية فى المنصورة. ثم انتقل إلى القاهرة فى مطلع الثلاثينيات والتحق بالمدرسة الخديوية الثانوية. وعندما عافاه الله من الالتهاب الرئوى وخرج من مستشفى حلوان، كانت الامتحانات قد انتهت، ونصحوه بأن ينتظر للعام التالى ليستأنف دروسه، ولكنه رفض الانتظار، وأصر على دخول امتحان الملحق فى نهاية الصيف، فدخله ونجح فيه بتفوق. ثم شده الحنين إلى المنصورة فعاد إليها، ليحصل منها على شهادة البكالوريا سنة ١٩٣٧ بترتيب الثالث على المملكة المصرية.

تمنت نفسه الالتحاق بكلية الآداب بجامعة فؤاد (القاهرة الآن)، وخاصة أنه إلى جانب حفظه للقرآن الكريم، كان يحب قراءة كتب الأدب والشعر والتاريخ. وقرأ فى صباه الباكر كتب الإمام محمد عبده، والأفغانى، ودواوين أمير الشعراء أحمد شوقى، وشاعر النيل حافظ إبراهيم، وكتب الرافعى والمنفلوطى، وغيرهم.

ولكن«ما كل ما يتمنى المرء يدركه»: فعمه إبراهيم الشاوى لم يشجعه على ذلك بحجة أنه سيصبح مدرساً مثله إن هو دخل كلية الآداب!، وحثه على الالتحاق بكلية الحقوق بحجة كانت فى ذلك الزمن قوية ومقبولة وهى أن كلية الحقوق هى «التى يتخرج فيها الوزراء والقادة». ولكن الكلية كانت آنذاك تحتاج إلى رسوم قدرها ثلاثون جنيهاً، وأنى للشاوى بثلاثين جنيهاً نهاية الثلاثينيات من القرن الماضى؟!. هنالك نصحه عمه إبراهيم بتقديم طلب للالتحاق بالكلية مجاناً، ففعل وقُبل طلبه لتفوقه فى البكالوريا، ومن ثم عاد إلى القاهرة ليواصل دراسته فى كلية الحقوق ويتخرج بتفوق فى سنة ١٩٤٢ وبترتيب الثانى بعد زميله «محمود جمال الدين زكى».

فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد حدثت النقلة الكبرى التى حددت معالم حياته حتى نهايتها؛ إذ التحق بجماعة الإخوان المسلمين عن طريق طلاب الإخوان فى الكلية نفسها وهو فى السنة الأولى ١٩٣٧/ ١٩٣٨. وبسبب هذا الانتماء لقى كغيره كثيراً من العنت والمحن.

قبل أن يُعين مدرساً فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد، عمل سنتين وكيلا للنيابة ١٩٤٢ ـ ١٩٤٤، تنقل فيهما بين نيابات المنصورة، والسنبلاوين، والمنزلة. وبعد تعيينه فى كلية الحقوق عاد للقاهرة ليذهب سنة ١٩٤٥ هو وزميله محمود جمال الدين فى بعثة دراسية إلى فرنسا؛ وقد نصحه الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين بالعدول عن السفر إلى أمريكا فى بعثة للغرض نفسه: حتى يسهل عليه التنقل بين العواصم الأوربية التى كان يقيم فيها بعض قادة الجهاد ضد الاستعمار عامة، والاستعمار الفرنسى فى بلدان المغرب العربى خاصة، وعلى رأسهم الأمير شكيب أرسلان، ومصالى الحاج، وكذلك الحاج أمين الحسينى الذى كان يخضع للإقامة الجبرية فى باريس بسبب اتهامه بالتعاون مع دول المحور أثناء الحرب العالمية الثانية.

حصل الشاوى على دكتوراه الدولة من جامعة فى باريس سنة ١٩٤٩ فى موضوع «النظرية العامة للتفتيش فى القانون الجنائى الفرنسى والمصرى»، وقد نالت هذه الرسالة جائزة التفوق من جامعة باريس، ونشرتها جامعة فؤاد (القاهرة) سنة ١٩٥٠م ـ ١٣٧٠هـ مع مقدمة للبروفسور هوجينى أستاذ القانون الجنائى بجامعة باريس، كتبها تقديراً لتفوق الشاوى فى رسالته. وعاد الشاوى من باريس سنة ١٩٥٠ ليستمر فى عمله أستاذاً بحقوق القاهرة إلى أن فصل واعتقل مع من تم فصلهم من الجامعة واعتقالهم سنة ١٩٥٤.

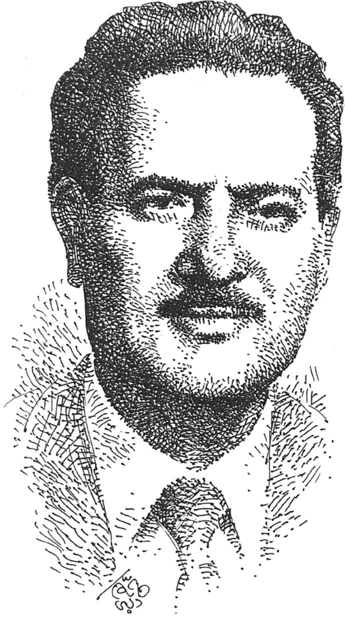


دعا إلى انتهاج «الدعوة» بعيدا عن السياسة و«الحزبية» تجنبا للتوتر الدائم دون مبرر مع السلطات الحاكمة



«نصف قرن من العمل الإسلامى ١٩٤٥ ـ ١٩٩٥»
دار الشروق
القاهرة: ١٩٩٨

إبراهيم البيومي غانم



كاتب هذه السطور بعيد كل البعد عن الاعتقاد بأن عالماً ما مهما علا كعبه فى العلم والاجتهاد منزه عن الخطأ، أو أن آراءه صحيحة وآراء غيره خطأ على طول الخط، فالكل يجتهد ويخطئ ويصيب. ولكن المقام الحالى قد لا يسمح بالتطرق إلى آراء العلامة الشاوى بمنهجية نقدية، هذا من جهة، وليس من اليسير أيضاً، من جهة أخرى، الحديث عن أى جانب من جوانب سيرة الرجل بمعزل عن بقية جوانبها.



بدأ الشاوى انخراطه فى العمل العام بالتحاقه بجماعة الإخوان المسلمين وهى تخطو خطوتها الثانية «سنة ١٩٣٨» بالدخول المباشر فى معترك الحياة السياسية، استناداً على قاعدة واسعة من طلاب الجامعة؛ حتى أطلق عليها فى الأربعينيات من القرن الماضى «حركة الأفندية» لكثرة الذين اجتذبتهم من طلاب الجامعة المصرية الحديثة، وليس من جامعة الأزهر العتيقة على ما كان متوقعاً من حركة تدعو الناس إلى العودة إلى منابع الإسلام الصافية باعتباره ديناً ودولة، ومصحفاً وسيفاً مسلطاً على رقاب الاستعمار الأجنبى.

عمل الشاوى أول ما عمل فى صفوف الإخوان المسلمين فى «قسم الاتصال بالعالم الإسلامى» الذى أنشأته الجماعة لمتابعة قضايا التحرر والجهاد ضد الاستعمار. يقول الشاوى فى مذكراته: «نصف قرن من العمل الإسلامى ١٩٤٥-١٩٩٥»: عندما كنا نتكلم عن إحدى قضايا العالم الإسلامى فإنها كانت جميعاً فى نظرنا قضية واحدة؛ هى قضية الوحدة والحرية للمسلمين جميعاً... وكانت أولها وأهمها قضية فلسطين».

فى سبيل حرية فلسطين أنفق الشاوى قسماً من جهده وبذل من أجلها جانباً من جهاده. وكانت البداية فى منتصف الأربعينيات عندما أسندت إليه قضية فلسطين كمهمة أساسية له فى «قسم الاتصال بالعالم الإسلامى». وقبل أن يسافر إلى باريس فى البعثة أفهمه الشيخ حسن البنا «أن قضية فلسطين ستبقى هى مهمته الأولى». وكانت أولى مهماته أن يتصل بالحاج أمين الحسينى حيث هو فى مقر إقامته الجبرية فى باريس، وذلك بدءاً من سنة ١٩٤٦، ونجح فى توثيق صلته بالإخوان إلى أن نجح فى تهريبه إلى مصر بمعاونة بعض الشخصيات من جنسيات مختلفة، لم يفصح الشاوى عن أسمائهم إلى أن لقى ربه. ثم واصل الشاوى جهاده فى سبيل تحرير البلدان العربية، وخاصة: فلسطين، وليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب. وسجلت لنا مجلة الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات أن مقارعة الاستعمار كانت هم الشاوى منذ أول مقالة ينشرها فى الصحف والمجلات. كانت المقالة الأولى بمجلة الرسالة عن فلسطين، وكانت الثانية عن الجزائر بعنوان ثم كانت الثالثة عن قضية ليبيا بعنوان: وطن الأحرار فى سوق العبيد» (الرسالة - العدد ٧٣٥ - ٨ سبتمبر ١٩٤٧)، ثم توالت المقالات والكتابات وتنوعت بمرور السنين، وتغير الأحوال، ولكن موضوعها الأساسى ظل ثابتاً وهو: المرافعة عن حقوق الأمة، فى شرقها وغربها، والدفاع عن حقها فى الحرية والاستقلال. ويبدو أن هذه القضية الكبرى قد استولت على حياة الشاوى، حتى إنه سخر مكتبه للمحاماة «٢٥ شارع طلعت حرب. القاهرة» للترافع عن قضايا الأمة، وليس عن قضايا المواطنين وأصحاب المظالم، لم أره قط يحضر مرافعة فى قضية أمام أى محكمة أبداً.

انتقل الشاوى سنة ١٩٥٨ إلى المغرب بناء على طلب من الملك محمد الخامس وحكومته ليعمل مستشاراً بالمجلس الأعلى للقضاء، وكان حلقة الوصل بين المغرب وزعماء الثورة الجزائرية الذين اعتقلتهم فرنسا، وظل وسيطاً بينهم وبين القادة المغاربة لحين الإفراج عنهم وإعلان استقلال الجزائر سنة ١٩٦٣. وباستقلال الجزائر انتقل إليها، وعين مستشاراً للمكتب السياسى لقادة الثورة برئاسة بن بيلا، ومحمد خيضر. وفى الجزائر أيضاً، وبعد عدة سنوات، طرح فكرة إنشاء اتحاد للكتاب والمفكرين فى ندوة «قضايا المستقبل» سنة ١٩٩٥، ثم تطورت هذه الفكرة بعد ذلك على يد عدد من العلماء كان فى مقدمتهم الشيخ يوسف القرضاوى، إلى أن تأسس «الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين» سنة ٢٠٠٤.

وظل قادة التحرر وزعماء الإصلاح فى تونس والجزائر والمغرب يقدرون الشاوى ويجلونه، ويعرفون قدره، ويشكرون جهاده ووقوفه إلى جانب قضايا بلدهم لعقود طويلة. (حديث الرئيس أحمد بن بيلا مع قناة الجزيرة).



فى السبعينيات عاد «الدكتور الشاوى» للتدريس فى الجامعة المصرية بكلية الحقوق، أستاذاً ورئيساً لقسم القانون الجنائى. كما عمل فى عديد من الجامعات العربية منها جامعة الرباط بالمغرب، والرياض والملك عبد العزيز بالسعودية. وشارك منذ وقت مبكر فى مطلع السبعينيات من القرن الماضى فى تأسيس المدارس العربية الإسلامية الدولية، والاتحاد العالمى لتلك المدارس التى انتشرت فى عديد من البلدان خارج السعودية مثل مصر، وامتد نشاطها إلى بعض البلاد الأفريقية. ولم تكن هذه هى أهم أعماله فى هذا الميدان؛ بل أهم أعماله هى مؤلفاته وكتاباته الغزيرة التى تعتبر ثروة فكرية وفقهية وسياسية قل نظيرها لدى أى من العلماء والمفكرين خلال نصف القرن الماضى. والقائمة طويلة تحتاج إلى صفحات، فقط نشير إلى أن من أهمها فى مجال الفقه السياسى، والتشريعى المعاصر الآتى:

١. كتاب «فقه الشورى والاستشارة»، الذى نشرته دار الوفاء فى طبعتين سنة ١٩٩٢. (٧٤٠ صفحة).

٢. ترجمة كتاب «الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية»، وهو فى الأصل رسالة الدكتوراه الثانية التى حصل عليها الدكتور عبد الرزاق السنهورى من جامعة ليون بفرنسا سنة ١٩٢٦، وقد نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب فى طبعتين سنة ١٩٩٣. (٣٧٢ صفحة).

٣. كتاب «فقه الحكومة الإسلامية بين السنة والشيعة وقراءة فى فكر الثورة الإيرانية»، وفيه تعليقات على كتاب الخمينى «الحكومة الإسلامية». وفيه أيضاً انتقادات لبعض الأفكار والاجتهادات التى طرحها الخمينى فى كتابه، إلى جانب مقارنات رصينة بين الفقه السياسى الشيعى، والفقه السياسى السنى.

٤. كتاب «الموسوعة العصرية فى الفقه الجنائى الإسلامى». وقد انتهى من المجلد الأول فقط فى أربعة أجزاء، نشرتها دار الشروق سنة ٢٠٠١، (بمجموع ١٥٩٢ صفحة). وهو ثروة فقهية وقانونية، رغم أنه لم يتمكن من إكماله، وقد وضع مخططاً كاملاً للأجزاء والمجلدات الباقية. ولا زلت أحتفظ بهذا المخطط، وقد أراد أن يقدم شرحاً وتأصيلاً لكتاب التشريع الجنائى

لعبد القادر عودة. وفى هذه الموسوعة قدم العلامة الشاوى نموذجاً فى التأليف وإذكاء المطارحات الفقهية والقانونية بين عدد من العلماء منهم الدكتور محمد سليم العوا، والعلامة السيد إسماعيل الصدر الفقيه الشيعى الإيرانى الأصل. وفى هذه الموسوعة خطا الشاوى خطوة واسعة على طريق حل معضلات تقنين الاجتهادات الفقهية وتحويلها إلى مدونات قانونية يسهل على القضاة الرجوع إليها، والاستضاءة بها فى أحكامهم، وفى تنزيل تلك الأحكام على الوقائع المتغيرة.

ليس بوسعنا هنا الخوض فى مضمون كل كتاب من هذه الكتب الأربعة الضخمة. فقط نشير إلى أن كتاب «فقه الشورى والاستشارة» قد أعاد صوغ «النظرية العامة للشورى» وقدم نقلة نوعية هائلة فى الفكر السياسى الإسلامى المعاصر. ولفترة طويلة فى المستقبل، سيظل هذا الكتاب مرجعاً أساسياً للعلماء والباحثين وقادة الحركات الإسلامية: نظراً لجدة الاجتهادات التى تضمنها، ولعمقها ورسوخ جذورها الشرعية، واستيعابها للقضايا المركزية التى تواجه العالم الإسلامى المعاصر.

اللافت فى هذا الكتاب الضخم (٧٤٠صفحة) هو أن أغلب ما فيه جديد وغير مسبوق، ولا تكرار فيه رغم ضخامة حجمه. ومن جديده: التفرقة بين «الشورى والاستشارة»، فالشورى عنده عملية تتعلق بشأن عام من شئون المجتمع والدولة وتنتهى بقرار ملزم فى جميع الحالات، أما «الاستشارة» فهى عملية بناء الرأى، وتثقيف الذهن، وتنوير العامة والخاصة بأمر من الأمور، ولا تفضى إلى قرار ملزم، وإنما توفر عدداً من البدائل التى يمكن الاختيار من بينها، وتؤهل الذين يشاركون فى اتخاذ القرار، باختلاف مستوياتهم، لحسن الاختيار والتقدير: هذه التفرقة تفتح الباب لأول مرة فى تاريخ البحث الفقهى والسياسى للتعامل مع الشورى من منظور اجتماعى، وتربوى، ودستورى فى آن واحد، وبذلك تخرج نظرية الشورى من أسر نظرية الاستبداد التى أسهم فقهاء السلاطين فى تأسيسها، كما تخرج من قمقم الأسئلة البائسة التى حبستها أزمنة طويلة فى الجدل الاستبدادى حول إلزاميتها للحاكم من عدمها.

ومن جديده فى هذا الكتاب أيضاً التمييز بين «الشورى فى الفقه»، و«الشورى فى السياسة»، والكشف عن أن «الحرية» هى المبدأ الأعلى للشورى والاستشارة فى مختلف المجالات، والربط بين «الشورى»، و«شرعية السلطة»، والنظر إلى الشورى على أنها «نظرية المستقبل» فى مختلف النظم السياسية فى العالم، وليس فقط فى البلدان العربية والإسلامية. ولن نستطرد فى تفاصيل أطروحات الشاوى ومطارحاته حول «فقه الشورى والاستشارة»، فهى فى الكتاب لمن أراد الرجوع إليها. ولكن ما قصة تأليف هذا الكتاب؟ ومن أين جاءت للشاوى فكرته، وكيف تطورت حتى نضجت فى ٨٤٠ صفحة؟

موجز القصة هو أن الشاوى أثناء بعثته فى فرنسا سنة ١٩٤٦ عثر فى الحى اللاتينى على نسخة من كتاب «الخلافة الإسلامية» بالفرنسية، وهو رسالة الدكتوراه الثانية التى نالها الدكتور عبد الرزاق السنهورى من جامعة ليون سنة ١٩٢٦، وشرع الشاوى فى قراءتها، ثم فى ترجمتها إلى العربية على مراحل، بعد أن بهرته مهارة السنهورى فى بحث قضية الخلافة. التى كانت قد ألغيت من تركيا سنة ١٩٢٤ أى قبل عامين فقط من تاريخ حصول السنهورى على رسالته سنة ١٩٢٦. وأخذ الشاوى يسجل ملاحظاته وأفكاره حول قضية الشورى على هوامش الترجمة، وعاشت معه الترجمة والتعليقات فى حله وترحاله مدة خمس وأربعين سنة، وبمرور الوقت تراكمت الهوامش فيها وتكاثرت الأفكار، وزادتها الأيام وضوحاً ونضجاً. وخشى الشاوى أن تطغى هوامشه على كتاب السنهورى، أو أن تشوش عليه، لذلك قرر فصلها عن كتاب «الخلافة»، وتقديمها فى كتاب مستقل عن «الشورى».

لب لباب ما قدمه السنهورى فى كتابه «الخلافة» هو أنه ثبت أصل أصول الفكر السياسى الإسلامى المتمثل فى «أن الخلافة واجب دينى لا يجوز للأمة أن تقصر فيها»، هذا من جانب، ودحض من جانب آخر الانتقادات التى وجهت لهذا الأصل بضراوة بعد إلغاء الخلافة، وخاصة ما جاء فى كتاب الشيخ على عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم». وخلص السنهورى إلى وجوب التمييز بين ما أسماه «الخلافة الناقصة»، و«الخلافة الصحيحة». ووجد أن الفرق بين النوعين هو «الشورى»: فحيثما وجدت فثم الخلافة الصحيحة، أو الحكم الرشيد. دون تشبث بلفظ الخلافة. وحيثما فقدت الشورى فثم «الخلافة الناقصة»، أو الحكم المستبد. هنالك برقت فى ذهن الشاوى فكرة أن «الشورى» هى أول أبواب البحث فى نظام الحكم الرشيد، ولكن مع تقدمه فى البحث وصل إلى أن «الشورى هى الأصل، والخلافة فرع عليها»، وشرح كيف أن الشورى مبدأ ثابت لا يتغير، والخلافة هيكل يسرى عليه التغيير ويطاله التطوير. وعلى طول كتابه نراه يتفق ويختلف مع أستاذه السنهورى، ومع غيره من الفقهاء والمفكرين، ونراه يدحض ويثبت، ويقيم حججه على رأيه، ويحضر شهود إثبات يشهدون له، وهو فى كل ذلك ملتزم بأدب العالم والمتعلم، مراعياً لأمانة العلم وأناة الفقيه. وفى نهاية المطاف أنبأنا أن الشورى ترتكز على مبدأ الحرية، وأن الحرية هى أعظم ما جاء به الإسلام لإقامة الحكم الرشيد، وأنه يجب أن يعود فقه الحكومة فى عصرنا إلى الشورى: «أى إلى سلطان الأمة»، وأن المستقبل فى هذا الاتجاه، شاء من شاء، وأبى من أبى.

وفى مجال الكتابة الأدبية والإبداعية ألف الشاوى مجموعة أخرى لها طابع خاص، لعل من أهمها على الإطلاق ثلاثة أعمال هى:

١. مذكراته «نصف قرن من العمل الإسلامى ١٩٤٥ ـ ١٩٩٥»، وقد نشرتها دار الشروق، فى ٥٦٧ صفحة سنة ١٩٩٨.

٢. رواية «هندى فى السجن الحربى»، نشرتها دار التوزيع والنشر بالقاهرة سنة ٢٠٠١.

٣. رواية «كمين فى مطار بيروت»، نشرتها دار التوزيع والنشر بالقاهرة سنة ٢٠٠١.

وله عمل لم يكتمل للأسف كان يزمع تسميته «عثرات وعصايات». وكل هذه الأعمال لا تروى خيالات أدبية مجردة، ولا تسجل تأملات ذهنية نظرية، وإنما مادتها الأساسية هى وقائع حياتية، تصور المرحلة التى عاشها، وتكشف عن جوانب من الأحداث التى عاصرها، وشارك هو فى صنعها، وخاصة فى ميادين الجهاد، وحركات التحرر من الاستعمار الأجنبى فى شمال أفريقيا.

لم يهتم الشاوى كثيراً بسيرته الذاتية، ولا نكاد نجد فى «مذكرات نصف قرن من العمل الإسلامى» شيئاً عن وقائع حياته الشخصية: فقط نجد وقائع مسيرته فى محيطه الاجتماعى والسياسى الذى انخرط فيه، وحمل همومه، وانشغل بقضاياه. صحيح أن مادة هذه الوقائع جامدة، ولكنه استطاع أن يصوغها فى قوالب أدبية بديعة، تؤهلها للتصنيف ضمن الأعمال الأدبية بامتياز، وقد تجد فى يوم من الأيام من يحولها إلى فيلم أو مسلسل درامى، تراجيدى أو كوميدى، أو ميلودراما أيضاً.

فى مذكراته «نصف قرن من العمل الإسلامى١٩٤٥ ـ ١٩٩٥»، نجد القصة الكاملة لجهاده الطويل من أجل الحرية لبلده مصر، ولكل بلدان العالم الإسلامى، وخاصة بلدان شمال المغرب العربى كما ذكرنا. وهذه المذكرات ليست كغيرها من المذكرات التى يكتبها بعض السياسيين والزعماء والعلماء: إذ نجدهم فى الأغلب الأعم يسهبون فى قصص وحكايات طويلة بلا طائل، وذاتية/شخصية تطرح فى نفس القارئ هواجس وما هو أكثر من الهواجس حول الهدف من كتابة المذكرات أهو لإثبات «الأنا الذاتية»، أم لاستخلاص عبرة الحياة، ودروس الزمن من منظور الجماعة الأكبر، والأمة التى ينتمى إليها أصحاب المذكرات.

مذكرات الشاوى هى عبارة عن عمل إبداعى بكل ما تحمل الكلمة من معنى،

فى كتاب «فقه الشورى والاستشارة» أعاد صوغ «النظرية العامة للشورى» وقدم نقلة نوعية هائلة فى الفكر السياسى الإسلامى المعاصر

رغم أنها تسجل مسيرته الحياتية فى ميادين الجهاد الفعلى، والكفاح الدائم لمصاعب الحياة ، وصروف الدهر. وإذا كان جلال أمين يقول إن تجربة حياة كل منا يمكن أن تشكل قصة رائعة تستحق أن تروى، وأنها تحتاج فقط إلى يد نحات ماهر يشذبها ويحدد معالمها كأنه يحدد معالم تمثال جميل، فإن الشاوى فى مذكراته قد كشف لنا عن موهبة أخرى لا يعلمها كثير من الناس وهى أنه مبدع وأديب، وروائى من الطراز الأول. ورغم أن مادة هذه المذكرات هى مثل الجرانيت الصلد : إلا أنه استطاع أن يشكلها فى صورة بارعة وصادقة.

للشاوى كتب وكتابات أخرى كثيرة فى مجال تخصصه الدقيق «القانون الجنائى»، وفى مجال الاقتصاد والبنوك الإسلامية، وفى السياسة الدولية، وفى تحليل ميكيافيلية السياسة الأمريكية تجاه العالم العربى تحديداً له كتاب «الدبلوماسية والميكيافيلية فى العلاقات العربية الأمريكية»، الذى صدر فى طبعتين: الأولى باسم مستعار هو «الدكتور محمد صادق»، من منشورات دار العصر الحديث فى بيروت سنة ١٩٧١، والثانية باسمه الحقيقى نشرتها الدار السعودية للنشر سنة ٢٠٠٦.



قلنا إنه ليس من اليسير الحديث عن أى جانب من جوانب سيرة العلامة الشاوى بمعزل عن بقية جوانبها، وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على الجانب الخاص بعلاقته بالحركات الإسلامية عامة، وبجماعة الإخوان المسلمين خاصة. فانخراطه مع حركات التحرر الوطنى، واشتغاله بالعلم والتأليف والتعليم، وعمله فى صفوف الحركة الإسلامية، كانت كلها جهودا مترابطة، يؤدى أحدها إلى الآخر ولا ينفك عنه.

التحق الشاوى بجماعة الإخوان. كما أشرنا سابقاً . فى بداية دراسته الجامعية بكلية الحقوق جامعة فؤاد(القاهرة) سنة ١٩٣٨/١٩٣٧، وانضم إلى «قسم الاتصال بالعالم الإسلامى» بالجماعة أيام حسن البنا، وتولى ملف فلسطين، ثم ملف شمال المغرب العربى. وأصبح عضواً بالهيئة التأسيسية لجماعة الإخوان. ولا نعرف فى أى سنة بدأت عضويته بها. وظلت عضويته قائمة رسمياً إلى أن حلت الجماعة سنة ١٩٥٤ . وكانت «الهيئة التأسيسية» قد ظهرت ضمن تشكيلات الجماعة بموجب مقررات مؤتمرها العام الثالث سنة ١٩٣٥، واعتبرت «الهيئة» أعلى سلطة فى الجماعة، وخاصة فى مسألة اختيار من يشغل منصب المرشد العام.

وبصفته «عضواً» بآخر تشكيل للهيئة التأسيسية قبل قرار مجلس قيادة الثورة بحل الجماعة سنة ١٩٥٤، تدخل الدكتور الشاوى منضماً إلى الأستاذ عمر التلمسانى، والأستاذ محمد حامد أبو النصر مرشدى الإخوان السابقين، فى الدعوى رقم ١٣٣ لسنة ٣٢ قضاء إدارى، للمطالبة بإلغاء قرار مجلس قيادة الثورة بحل الإخوان. وكانت وجهة نظر الدكتور الشاوى التى برر بها انضمامه هى أن عضويته بالجماعة وبهيئتها التأسيسية، تجعل له «صفة» تسوغ له المطالبة قانوناً بإعادة جماعته، وإلغاء قرار الحل لأنه تسبب فى الإضرار به شخصياً، ومن ثم يكون تدخله فى القضية «من ذى صفة وصاحب مصلحة» بنظر القانون، ولكن الشاوى . رحمه الله . كان يعلم تمام العلم أن المسألة ليست «قانونية» بقدر ما هى سياسية فى المقام الأول.

كان للشاوى . رحمه الله . فكرتان دعا إليهما منذ وقت مبكر جداً، ولعل الأخذ بهما كان من شأنه تحقيق كثير من المصالح ودرء كثير من المفاسد:

١. فكرة إنشاء «هيئة إسلامية عالمية لحقوق الإنسان». وقد قدم فكرته هذه إلى الإخوان المسلمين فى نهاية السبعينيات . وكانت الجماعة آنذاك تعيد ترميم نفسها، وتتطلع إلى تكوين تنظيم دولى . أن يؤسسوا كياناً دولياً باسم «الهيئة الإسلامية الدولية لحقوق الإنسان»، عوضاً عن فكرتهم التى كانوا يعدون لها فى ذلك الوقت وهى إنشاء «التنظيم الدولى للإخوان المسلمين». وقال لى . بعد أن تعرفت عليه . إذا أنشأ الإخوان هيئة عالمية لحقوق الإنسان، سيحققون مكاسب كبيرة جداً للدعوة الإسلامية، وسيجنبونها كثيراً من الهجمات: وخلاصة حججه التى استند إليها فى رأيه هذا هى كالآتى:

أنه يتوقع . ولاحظ أنه يتحدث فى مطلع الثمانينيات من القرن الماضى . أن تتصاعد قضايا حقوق الإنسان عالمياً. وإقليمياً ومحلياً، وأن من مؤشرات ذلك اهتمام إدارة الديمقراطيين برئاسة الرئيس جيمى كارتر بهذه القضية. وأن إنشاء هيئة إسلامية عالمية لحقوق الإنسان ستبرز العمق الإنسانى للإسلام وعظمته وسبقه فى تقريره لهذه الحقوق. وحمايتها، كما ستقدم للعالم خطاباً ينسجم مع اللغة التى يفهمها العالم. ولكن من منظورنا الإسلامى، وأنها ستوجد مجالاً للتعاون مع القوى العالمية من أجل الدفاع عن حقوق الإنسان فيكون قبولها لنا أيسر، واندماجنا فيها أسهل. كما أن إنشاء هيئة عالمية إسلامية لحقوق الإنسان فيه إشارة إلى حجم الظلم الذى عانى منه الإسلاميون أكثر من غيرهم نتيجة انتهاك السلطات الاستبدادية لحقوقهم منذ عقود طويلة. وأنه إذا أنشأ الإخوان هذه الهيئة، فإنها ستكون خير سفير لهم، ولدعوتهم عبر العالم فى الحاضر وفى المستقبل، انطلاقاً من قول الله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

أما إنشاء «تنظيم دولى للإخوان» فسيكون «تهمة جاهزة» لأن من شأنه . حسب رأى العلامة الشاوى قبل أن ينشأ هذا التنظيم فى مطلع الثمانينيات . أن يوفر «ذريعة» ستستخدمها السلطات فى البلدان العربية والإسلامية، وغيرها من البلدان، كى تضع الإخوان تحت طائلة القانون، وتتهمهم بالخروج على الشرعية، والقيام بأعمال يحظرها القانون؛ لأنهم لن يتمكنوا من تسجيل تنظيمهم الدولى هذا لدى أى جهة فى أى دولة مهما كانت مساحة الحرية واسعة فيها، سواء فى أوربا أو فى أمريكا: بعكس ما لو سعوا لتسجيل هيئة عالمية لحقوق الإنسان؛ إذ يمكنهم تسجيلها بسهولة، وتكون قانونية، ولو شاءوا لسجلوها كمنظمة استشارية تابعة للأمم المتحدة.

وما توجس العلامة الشاوى خيفة منه، حدث، وحدث بضراوة فى بعض الحالات.



ميـــز فى كتـــابه
بين «الشـــورى فى الفـقـــه»،
و«الشـــورى فـــى الســـيـاســـة»،
جاعــــلا منهـــا أســـاســـا
لـ «شـرعية السـلطة»



٢. فكرة تمييز الدعوة الإسلامية عن العمل السياسى

خلاصة فكرته هذه هى: أن «تمييز الدعوة الإسلامية عن النشاطات الحزبية هو هدف استراتيجى لا يجوز أن نتخلى عنه، أو أن نفرط فيه». وقال فى مذكراته «إن جوهر حركتنا هو الدعوة الإسلامية. وإذا خيرنا بين الدعوة وبين الحزبية، فلا شك أننا نختار العمل فى نطاق الدعوة الإسلامية، ولو اقتضى الأمر اجتناب النشاطات التى تقصرها القوانين الوضعية على الأحزاب السياسية».

هذا الرأى بات يردده كثيرون دون أن يعرفوا أن الشاوى هو صاحبه الأول. وقد أخذت به حركات إسلامية فى بلدان عدة، وأحرزت نجاحات ملحوظة على طريق الإصلاح، والخروج من حالة التوتر الدائم دون مبرر مع السلطات الحاكمة، وفى مقدمتها: تركيا، والمغرب، والأردن، وإلى حد ما اليمن، والكويت. إلا إخوان مصر. وكان العلامة الشاوى فى طرحه هذه الفكرة بعيد النظر غاية البعد، عندما نبه فى بداية التسعينيات من القرن الماضى إلى القيود التى قد تفرضها السلطة على إنشاء الأحزاب وعلى النشاط الحزبى مثل «النص على عدم استنادها إلى عقيدة دينية»، وهو ما حدث بالفعل فى التعديلات الدستورية التى جرى الاستفتاء عليها فى ٢٦ مارس ٢٠٠٧، حيث أضيفت فقرة إلى المادة الخامسة من الدستور تقول: وللمواطنين حق تكوين الأحزاب السياسية . وفقا للقانون , ولا تجوز مباشرة أى نشاط سياسى أو قيام أحزاب سياسية على أى مرجعية أو أساس دينى ، أو بناء على التفرقة بسبب الجنس أو الأصل».

كانت هذه الرؤية بعيدة النظر للعلامة الشاوى واحدة من رؤى أخرى عديدة وبعيدة النظر أيضاً، قالها باكراً فى الوقت المناسب، ولكنها لم تجد طريقها للتطبيق.

بقيت إشارة إلى رصيده فى ميدان العمل الخيرى، والإيجاز هنا أولى من الإسهاب، إكراماً لرغبته فى أن يستر صدقاته. وغاية القول هو أن أقل صدقاته معروف، وأكثرها خفى لا يعلمه أحد من الناس.

رحل الشاوى عن دنيانا بعد رحلة طويلة من الجهاد المتواصل، والاجتهاد المضنى، والتجديد الخلاق. وترك ثروة من المؤلفات القيمة تستحق أن تصدر فى صورة «مجموعة الأعمال الكاملة للدكتور الشاوى»: لتكون فى متناول الأجيال الجديدة، على غرار الأعمال الكاملة لرواد الإصلاح والتجديد من أمثال الإمام محمد عبده، والأفغانى، وعلى مبارك، والطهطاوى وغيرهم. ■

رحلة فى الأعماق

■■ «لكل داء دواء يستطب به
إلا الحماقة أعيت من يداويها»
إذا كانت الحماقة عصية على العلاج كما قال الشاعر، مما دفع أحد المؤلفين المرموقين أن يتتبع «أخبار الحمقى والمجانين»، فما بال إبراهيم الكندرى يستظل بوحيها فى هذه المجموعة؟ هذا هو التساؤل الذى يبديه قارئه للوهلة الأولى، كما يجعل الإجابة عنه من الصعوبة بمكان، وسنحاول الدخول إلى عالمه بحثا عن بصيص من الضوء يساعدنا على قضاياه التى يعالجها فى هذه المجموعة.



يقودنا إبراهيم الكندرى فى رحلة متعددة الجوانب، ويخلع على كل جانب منها سمة الحماقة، الأمر الذى شهد لمصداقية العنوان، والفضاءات التى يرتادها المبدع فى هذه المجموعة تشكل ثنائية: الداخل/الخارج، والداخل ينشعب إلى دائرتين هما: الحبيبة، وذات الشاعر، وهاتان الدائرتان هما المسيطرتان على فضاء النص، أما الخارج فهو الذى يجىء عرضا وفى حدود، ويتشعب هو الآخر إلى دائرتين، الأولى: الوطن والأمة معا فى دائرة واحدة، والثانية هى: العصر الذى يعيش فيه المبدع، والملاحظ أن هذه الثنائية فى دوائرها الأربع خاضعة لسيطرة الحماقة.

ولما كانت قصة الحب هى كبرى الحماقات فقد كانت حاضرة منذ البداية حتى النهاية، وفى ظلالها تنسرب جميع الحماقات فى الدوائر الأربع، هكذا «ثلاث ساعات منذ الرحيل»، تبدأ معاناة الزمان فى محاولة لاستعادته، كما يشتهى المبدع، «أو ربما كما ينبغى»، وهو استدراك من أجل الأفضل كما تقرره الحقيقة، فيبدأ الزمن - كما يقول إبراهيم - بـ«فصل مجنون/ من فصول قدرى المصاب بالحمق إلى حد الجنون»، فأول الرحلة إذن مصوب إلى الداخل، وهذا أول هجاء فى العمل الأدبى، ويتوجه إلى ذات المبدع.

وإبراهيم الكندرى فى استعادته للزمن يعمل على تثبيت لحظات السعادة، حيث تستحم محبوبته بصوته المبحوح على الهاتف، ينساب بشعر لنزار قبانى أبرز شعراء الغزل فى عالمنا العربى، ناشداً أن يكون قربها، فيذوبان. كما يقول . «قطعتى سكر»، وهو تعبير من مفردات نزار، ولأهمية نزار فى رؤية إبراهيم للحبيبة، يعود قبيل النهاية إلى «قصائد نزار التى لم يفهمها أحد فى حب بلقيس» فى مضاهاة بين حبين، كما يستعين على حبه بصوت «فيروز» هذا الصوت الذى لا نظير له فى روحانيته وشفافيته فى واقعنا العربى، أما أن يزج إبراهيم الكندرى بالشاعر «مظفر النواب» فى هذا السياق فهو خارج عن المسار الذهنى، فالمشهور عنه حملته على الأمة العربية وتقاعسها عن إنقاذ القدس كرمز للقضية الفلسطينية، وكان سياقه الطبيعى أن يؤخره إبراهيم الكندرى إلى حملته على الأمة. مع الوطن. حين قال: «سأضحك من حبى للوطن / للأمة العربية / للوحدة / للنصر المزعوم بعته / ووحل الهزيمة»، وهنا موقع مظفر النواب كما تقتضيه سلامة العمل الدرامى.

مع ملاحظة أن إبراهيم الكندرى فى هجائه للوطن والأمة. ونعتبرهما دائرة واحدة. لا يجمعه فى مكان واحد، بل يوزعه على مسافات الرحلة الممتدة فى الزمان والمكان. وهما إحدى الثنائيات - فيقول فى أوائل النصف الأخير من العمل مخاطبا المحبوبة: «ثم أعود لأبكيك / كما النساء / لأننى رجل، أبى رزين، محترم، مؤدب، ذو شخصية قوية، وكبرياء/ لأننى رجل عربى ببساطة / بكل ما تحمله الكلمة / من حماقة»، ثم بعد ذلك بمسافة طويلة، قبيل النهاية بقليل يعود إلى فقد قدرته «على التواطؤ مع الجميع / فى حب الأرض / الوطن / العلم / النشيد الوطنى».

ومثل هذا التوزيع على مسافات متباعدة ومتعددة يجىء هجاؤه للعصر، ففى البدء يجعل «الحماقة/ هى الوقوف بإباء فى عصر الأغبياء/ مقارعة البلاهة بالحجة/ أو الحجة بالبلاهة» ثم بعد مسافة طويلة فى النص يتحدث عن عجزه وعدم جرأته على الرحيل مع عبق المحبوبة «خوفا من المغامرة/ أو تملقا لعادات مجتمع ردىء»، وفى النصف الأخير من النص يسرق من لمسة يد الحبيبة «لحظات بطعم النبيذ/ فى زمن ردىء/ تعيننى على جوره»، ونرى من هذا التوزيع، كل هذه الهجاءات على دوائر الوطن، الأمة، والعصر، تأتى متناثرة فى ظلال الحماقة الكبرى والأساسية، وهى علاقة الذات بالمحبوبة، وهى التى تعلو وتنخفض، وتتأرجح فى الزمان والمكان بين المديح والهجاء ويدرك القارئ المتمرس أن حماقات الدوائر الصغرى تنبع أساسا من سلبيات الدائرة الأم، ومن هنا جاءت كلها مصبوغة بالهجاء.

ولأن علاقة الحب هى المتجذرة، ظلت الذات تلاحقها فى دورانها بين الزمان والمكان، وهى بين الحين والحين تومئ إلى ومضات مبعثرة فى المدارات المتنائية، وكلما تقدمنا فى الرحلة تلاقينا مع طعم الرمان فى الشفتين والأنف، ولون الفستان، وصدرها المغرى، ومراقبة عينيها، وهى إضاءات جعلت السكون صاخبا، وأخذ فى رقصة التانجو، وتقودنا هذه الومضات إلى الانفجار الكبير فى الألق النفسى «حين اللمس» الذى يعمل عمل السحر، فيتكرر «اللمس» ثمانى مرات، مصحوبا فى كل مرة بدفقة نورانية متلألئة، والجميل فى التعبير أن يعتمد « اللمس» فى كل مرة على الفعل المضارع الذى يسيطر من ثلاثية الزمن على الحاضر، دون أن يغلق الباب على المستقبل، ومع اللمسات الثمانية يتلاحق المضارع حتى يتجاوز الخمسين، وقد يجىء على التوالى دون فاصل «أواصل الحديث/ أسأل، أنام، أصحو، أقبلك/ أقفز، أضحك/ أركض، أقع، أبكى، تحملیننى/ وتقبلين الجرح / فيطيب كما طفل ..»، فكل من المبدع والقارئ يشعر بأنه يلهث وراء الأحداث المتسارعة دون أن يتمكن من التقاط أنفاسه.

وأبلغ من هذا ما يفعله اللمس من إمكان التفجير التعبيرى الناجز - زيادة على التلاحق. من تكرار نفس الفعل، ثم الذروة فى تكرار الحرف فى سبعة أفعال متتالية فى قوله: «حين اللمس / أرفع ذراعى كما نورس / أدور ... أدور ... أدور / أواصل الدوران وأهمهم / أتأتئ ، أبأبئ ، أتمتم، أغمغم / أدندن، ثم أكعكع / فعل هذيان» فالدوران المتكرر أحدث حالة من الدوخة نجم عنها سبعة أفعال متلاحقة، كل منها رباعى الأصل مكون من حرفين متكررين، لا يفصح فى دلالاته اللغوية على غير الاضراب الناجم عن ذروة النشوة بفعل من «اللمس»، فالإبداع أن يسميه المبدع «فعل هذيان».

وعليه فليس عجيبا أن تكون النهاية الطبيعية لهذه الرحلة الاستثنائية مسلما بها على هذا النحو:

«حين اللمس / أختزل جنونى/ لأغزل غطاء لوسادتى/ حين اللمس/ أختزل حمقى / لأغزلك كأس نبيذ وأسكر».

فلنهنئ إبراهيم الكندرى على هذا الضرب من الجنون، ولنبارك حماقته التى يغبطه عليها العقلاء الأسوياء. ■

مختار على أبوغالى

من وحى الحماقة
إبراهيم الكندرى
دار العين - القاهرة ٢٠٠٨

السلام.. السلام.. السلام

السلام.. هذه الكلمة، هذه الفكرة، هذا الهدف.. هو الموضوع الذى يلخص مسيرة حياتى.

أولا، من المؤكد أن تسوية عادلة شاملة بين العرب والإسرائيليين سوف تساعد على القضاء على أحد مصادر الكراهية والتطرف والبؤس فى العالم: تسوية سوف تسمح لسكان هذه الأماكن المقدسة بالعيش جنبا إلى جنب فى جو من المودة والأمن. هذه هى القضية التى كرس لها زوجى أنور السادات حياته. وفى السادس من أكتوبر ١٩٨١ اغتاله متعصبون إسلاميون اعتقدوا أن السلام الذى صاغه مع إسرائيل سوف يتلاشى بوفاته. لم يجانبهم الصواب. إذ استمرت اتفاقية ١٩٧٩ التى وقعتها مصر مع إسرائيل كنتيجة مباشرة لاتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨ قرابة ثلاثين عاما، تذكرة بأن الصدوع التى تبدو فى الظاهر مستعصية على الرأب يمكن إقامة الجسور عليها، وبأن أساسا للحل العادل يمكن تشييده. لقد سئل زوجى فى أحد حواراته الأخيرة عن ثلاث أمنيات يود لو تتحقق خلال حياته. فأجاب: «الأولى، السلام فى الشرق الأوسط. الثانية، السلام فى الشرق الأوسط. الثالثة، السلام فى الشرق الأوسط». لقد انتهى هذا الحلم بالنسبة له، وأصبح الآن حلمى أنا.

أخذت أحاضر وأدرس وأجمع التبرعات لتعزيز هذا الحلم منذ عام ١٩٨٥. وبحكم انتقالى الدائم بين موطنى القاهرة وضواحى واشنطن العاصمة ولأنى أستاذة وناشطة داعية للسلام وسيدة أولى سابقة ومواطنة لا تشغل أى موقع عام، ربطتنى صلة مباشرة بالدائرة الموجعة للتقدم والتخلف فى الشرق الأوسط، ولاحظت كيف صارت أفكار زوجى التى نبذها العالم العربى من جانب واحد فى يوم من الأيام مقبولة على نطاق واسع. والآن مع مرور الذكرى الثلاثين لرحلته التاريخية إلى القدس، والحاجة الملحة إلى مثال جديد واضح تمام الوضوح أمامنا، آن الأوان لإعادة تقييم أعماله.

وبالإضافة إلى نهاية الصراع بين مصر والإسرائيليين، يشير كتاب أملى فى السلام إلى السلام المتأصل فى الإسلام. لست أول من يذكر أن كلمة «السلام» فى اللغة العربية تشترك مع كلمة «الإسلام» فى نفس الجذور الإتيمولوجية ونفس الماهية. يدرك معظم المسلمين هذه العلاقة، ويناضلون، من قبيل المجاز، لعيشها، بينما لا تبدو واضحة بالدرجة ذاتها عند ترجمة الكلمتين، بل إن عالم ما بعد ١١ سبتمبر ينظر إلى الإسلام فى المجمل نظرة شك وعدوانية تامة باعتباره دينا يؤمن به متعصبون. بمقدورى تفهم ذلك على نحو ما؛ لأنى استشعرت آثار مثل هذا التطرف من مصدره المباشر. ومع ذلك يمكننى أن أقطع بأن التطرف ليس من الإسلام فى شىء، لأنى قابلته وجها لوجه. عشت طيلة حياتى مسلمة، وجدت فى إيمانها مصدرا للعون والعزاء الحقيقى، لذا قد يسهل على تمييز هذا الفرق. وبنفس الطريقة يتضح لى بفضل محاضراتى وعملى فى التدريس وإقامتى فى الولايات المتحدة أن هناك ندرة فى المعلومات الحقيقية حول الإسلام رغم تكريس عدد كبير من التغطيات الإعلامية لما يعرف بالجرائم الإسلامية. فحينما تواجهنى صور الرجال الغاضبين وهم يلوحون بالقرآن ويحرقون الأعلام الأمريكية والنساء المتشحات من قمة رءوسهن حتى أخمص أقدامهن بالبراقع وتلك الدمدمة الجاهلة حول «الفاشية الإسلامية»، تصبح العبارة التى نرددها كثيرا من أن «الإسلام دين السلام» بدون فاعلية. علاوة على ذلك ثمة اعتقاد عام بأننا ننخرط، بالإضافة إلى ما يحل بالعالم من صراعات فعلية، فى شىء أشبه بالحرب الموازية، ألا وهى صراع الحضارات المزعوم الذى ينافس فيه الإسلام الغرب فى معركة هدفها فرض السيطرة على العالم. كلام قد يكون مرضيا لكنه ليس دقيقا على الإطلاق.



أملي في السلام
جيهان السادات
ترجمة: هالة صلاح الدين حسين
دار الشروق القاهرة، ٢٠٠٩



My Hope for Peace
Jehan Sadat
Free Press, 2009

وعلى الرغم من أنى لست عالمة دينية، أتمنى أن أصحح وأعدل ما أظنه أكثر الاعتقادات الخاطئة إصرارا وانتشارا حول الإسلام، ألا وهى أن الإسلام حركة تقوم على فكرة قلب نظام الحكم وإخضاع المرأة وتحويل الكفار إلى الإسلام. وأن الإسلام ملازم للعنف؛ دين متعصبين سوف يجيزون أى عمل وحشى تحت اسم الجهاد. وأن المسلمين يبغضون «الحرية» ويعجزون عن ممارسة الديمقراطية بسبب طباعهم أو اعتقاداتهم. أستدعى هنا خبرتى كمؤمنة لتقديم أمثلة على العديد من النقاط، فالإسلام شأنه شأن كل الأديان لا يمكن استيعابه من خلال مجموعة من المعتقدات فحسب، إنما من خلال قدرته على تغيير حياة الأفراد التابعين له وإلهامهم.

الطريقة الثالثة والأخيرة التى تكشف بها السلام فى حياتى كانت شخصية تماما.. كانت بحثا عن السلام الداخلى إن جاز القول. أطلقت أحداث ١١ سبتمبر العنان لوابل من الذكريات لأسباب أوضحها فى الفصل القادم، وقد نتج عن هذه الأحداث أن وجدت نفسى منخرطة فى محاولة لتقييم حياتى. لا شك فى وجود آراء خارجية كثيرة يمكننى استحضارها الآن: أطرى البعض على مبادئى النسوية فيما شجبها آخرون، أثنى البعض على كرائدة فى مجالات حقوق المرأة بالعالم العربى واستنكر البعض مواقفى باعتبارها هادمة للعائلات، ووجهت إلى اتهامات بأنى مجرد ناطقة بلسان زوجى، وأنى أيضا ذات تأثير زائد عن اللازم عليه. كنت فى السراء والضراء شخصية تتعارض حولها الأحكام بسبب أفكارى ونشاطاتى لمصلحة المرأة والأسرة فى المقام الأول. إلا أن كل مثلى «التقدمية» تعرضت للاختبار فى أعقاب وفاة زوجى. كثيرا ما شجعت السيدات المصريات على خلق وعى بالحياة المستقلة، وعليه لم أقو على التراجع والقبوع فى ظل أنور، كان على الوقوف على قدمى. ورغم أنى كنت أستطيع البقاء فى مصر لقضاء بقية حياتى فى حضن عائلتى، خالجنى إحساس بأنى لا بد أن أخلق هوية لنفسى. انتقلت إلى الولايات المتحدة وأتممت رسالة الدكتوراه وشرعت فى التدريس وإلقاء المحاضرات. ساندنى الإرث الأبى للنسوية المصرية، إرث لجأت إليه كثيرا التماسا للإلهام، وعائلتى وإيمانى الذى حض المرأة دوما على التعليم والمساواة. الحق أنى أرى نفسى جزءا من تقليد عماده نساء مسلمات عربيات مصريات قويات، نساء لسن شاذات عن القاعدة أو خائنات لصالح الغرب. واتكالا على خبراتى المهنية المتنوعة، بوصفى زوجة سياسية وسيدة أولى ونصيرة للسلام وحقوق المرأة وأكاديمية، علاوة على خبرتى كزوجة وأم فى مجتمع يتميز بكل من التقليدية والإخلاص، خامرنى إحساس بأنى مؤهلة تماما لدحض عدة أساطير قديمة، عادت للظهور من جديد، عن المرأة الشرقية. نحن لا نرزح جميعا تحت الجهل والقهر، لا نرزح جميعا تحت الخنوع والإرهاب. وبينما تعترض النساء فى العالم الإسلامى العديد من العوائق، فليس الإسلام واحدا منها. وفى حين لا يمكننى ادعاء المسئولية عن جميع المسلمات، يسعنى القول إن الإسلام لا يضمر كراهية للنساء بل يأمرنا بالمطالبة بالمساواة التى وهبها لنا الله.

إن موضوع السلام الذى يدور حوله هذا الكتاب ينطوى على ثلاثة جوانب، وكذلك يتبدى لى أن إحلال السلام يتكشف هو الآخر فى ثلاثة جوانب. يقع الجانب الأول داخل مكاتب الحكومات والمنظمات الدولية الخيرة، وأفرادها يتفاوضون على الاتفاقيات ويناقشون الحلول الوسطى ويصوغون البيانات المكتوبة بكل دقة.

يجرى الجانب الثانى على مستوى العلاقات بين الأفراد وسلوكياتنا وتصرفاتنا تجاه أعدائنا الافتراضيين. وفى مثل هذا السياق ينبغى علينا جميعا، عربا وإسرائيليين، مسلمين وغربيين، أن نتحلى بالحكمة والمهارة والابتكار.

والمساحة الثالثة التى يجب أن نحل فيها السلام، تقع فى داخلنا، فى نوايانا. فالإسلام لا يولى أهمية لصنائعنا فحسب، لكن أيضا لما تخفيه قلوبنا ونحن نضطلع بها. وأذكر هنا الحديث النبوى الشهير «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». لو عزز الناس العاديون النية على السلام، السلام مع أنفسنا، مع كوكب نحيا عليه وأناس نشاركهم هذا الكوكب، فسوف نحقق السلام بإذن الله.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الأنـا والهـو

تأليف: سيجمند فرويد
ترجمة: محمد عثمان نجاتى
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩، ١٠٦ صفحات



بمناسبة الذكرى السبعين لوفاة أبى الطب النفسى الحديث «سيجمند فرويد» صدرت طبعة خاصة من كتابه الشهير والمؤسس «الأنا والهو». وكان كل اهتمام علماء النفس قبل ظهور مدرسة التحليل النفسى متجهًا إلى دراسة الظواهر العقلية الشعورية، ولم يكن أحد منهم يهتم بالبحث عن العمليات العقلية اللاشعورية التى تحرك سلوك الإنسان وتدفعه إلى القيام بصور النشاط المختلفة، السوية والشاذة على السواء. ولقد كان من نتيجة إغفال علماء النفس فى الماضى لهذه الناحية الهامة من الحياة النفسية أن ظل كثير من مظاهر السلوك الإنسانى عصيًا على التفسير، وصعبًا على الفهم، وبعيدًا عن متناول البحث العلمى.

ويرجع الفضل إلى سيجمند فرويد ١٨٥٦ - ١٩٣٩ مؤسس مدرسة التحليل النفسى فى اكتشاف تلك الحقيقة الهامة، وهى أن جزءًا كبيرًا من حياتنا العقلية لا شعورى، وأن لهذا الجزء اللاشعورى من حياتنا العقلية تأثيرًا كبيرًا على سلوكنا ومشاعرنا سواء فى حياتنا السوية أو فيما نتعرض له من اضطرابات وأمراض نفسية.

■

التاريخ المفتّت: من الحوليّات إلى التاريخ الجديد

فرانسوا دوس
ترجمة: د. محمد الطاهر المنصورى
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٤٢٩ صفحة



أصبح التاريخ، منذ سنوات، يشد اهتمام الجمهور الواسع. ويعود هذا فى جزء كبير منه، إلى نجاح «التاريخ الجديد» الذى انطلق منذ ١٩٢٩، بدفع من مارك بلوخ ولوسيان فافر ومجلتهما «الحوليات».

يروى المؤلف، بالاعتماد على وثائق وشهادات عديدة غير معروفة فى كثير من الأحيان، تاريخ هذا التاريخ... وهو يقدم قراءة نقدية وجدالية لعديد من المفاهيم التى تبنتها مدرسة الحوليات: نهاية التاريخ، موت الإنسان، تأثير البنى، التخلى عن المواضيع السياسية... إلخ.

يتميز هذا الكتاب بحيوية أسلوبه، ومن المنتظر أن يثير ردود فعل الكثيرين. إنه كتاب منخرط فى معركة متحمسة من أجل التاريخ، حول تساؤل كبير: ألا نشاهد، اليوم، تفتيتًا للتاريخ، بعد كل جهد الحوليات فى التجديد؟

■

فى الأدب المصرى

أمين الخولى
تقديم: عبدالناصر حسن محمد
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ١٥٢ صفحة



أمين الخولى (١٨٩٥ - ١٩٦٦) علامة بارزة فى ثقافتنا المصرية والعربية، تتلمذ على يديه أجيال ممن أصبحوا علامات وحلقات فى وصل درر العلم، وهو أحد كبار المفكرين الذين توغلوا بجرأة فى قضايا تجديد اللغة العربية ونحوها وبلاغتها، موقنا أن تجديد اللغة لا ينفصل عن تجديد الفكر الإسلامى، فهما دائمًا قطبان متعامدان، فاللغة وسيلة إثبات وجودنا والدين وسيلة تقويم هذا الوجود.

لقد كان الدرس اللغوى همّ الخولى الأساسى والحلبة الأولى لنضاله من أجل الاجتهاد والتجديد وتأثيم التقليد، مستندًا على أصل عريق هو إجماع النحاة القدامى على ذم التقليد، وفى هذا السياق الذى يحتفى بالتجديد سنجد عالمنا الجليل يقوم بنفى سائر التفسيرات الغيبية اللاهوتية اللاعقلانية التى تزعم أن العربية - دونًا عن سائر لغات العالمين - هبطت فجأة من السماء بالغة الكمال، لتظل هكذا إلى قيام الساعة وأيضًا إلى ما بعدها.

من هنا يفتح كتاب - فى الأدب المصرى - باب السؤال من جديد، بوصفه الباب الذى نحتاج إليه فى زمن زاخم بالإجابات الجاهزة، موقنا أن مشروعية السؤال لا تقل أهمية عن مشروعية الإجابة.

■

العلاقات العامة الدولية والاتصال بين الثقافات

راسم محمد الجمال
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ١٩٢ صفحة



يقع كتاب العلاقات العامة الدولية والاتصال بين الثقافات فى تسعة فصول أحاطت بالموضوع من جميع جوانبه، يتناول الأول منها العلاقات العامة الدولية فى سياق العولمة من خلال أربعة موضوعات فرعية تبدأ باستعراض العلاقات العامة الدولية قبل عصر العولمة، ثم تحليل العوامل الاقتصادية والتكنولوجية والدولية التى زادت من أهميتها بعد ذلك، ثم وضعيتها فى عصر العولمة، وأخيرًا عرض لتعريفاتها، ونظرًا لأهمية بيئة الاتصال الذى تمارس فيه العلاقات العامة الدولية، والذى يتسم بالجدلية، فقد جاء فى الفصل الثانى ليعالج هذه القضية باستعراض الرؤى الإيجابية والسلبية التى تتناول هذا الواقع، متبعًا ذلك بعرض رؤية نقدية لهذا الواقع وذلك ليبين الاتهامات المثارة حول إساءة استخدام العلاقات العامة فى البيئات الدولية والمحلية، حيث يوجد فى التراث العلمى لإدارة الأعمال أمثلة كثيرة لنماذج خادعة وماكرة تستخدمها المنظمات متعددة الجنسية للاحتفاظ بقوتها وسيطرتها على فروعها فى الدول الأخرى، منها إعادة تشكيل قواعد وقيم وسلوكيات العاملين بما يتماشى مع رغبات الدول المضيفة والمنظمة الأم، وتتبع هذه المنظمات ثقافة تنظيمية واحدة سواء فى المقر أو فى فروعها لبناء ثقافة تنظيمية متجانسة، وهو ما يشبه عمليات تسويق السلع عالميًا من خلال خلق أذواق وقيم استهلاكية متجانسة، فالعالم الذى يجرى بناؤه الآن لا يخدم سوى مصالح الدول الكبرى وشركاتها متعددة الجنسية، يصدق هذا على السلع كما يصدق على الأفكار والمعتقدات، حتى الأفلام والأغانى وأنماط الملبس.

ويشرح الفصل الثالث نظرية المبادئ العامة والتطبيقات الخاصة، وهى النظرية المعيارية المطروحة الآن للعلاقات العامة الدولية، والتى يجرى اختبارها فى عدد كبير من الدول، وهى نظرية تصف الطريقة التى يجب أن تمارس بها العلاقات العامة على المستوى الدولى أو الطريقة التى يجب أن تؤدى بها بعض أنشطتها، وهذه النظرية بالتحديد لم يتم تطبيقها أو اختبارها فى الدول العربية، ليعرض لنا المؤلف بعد ذلك الانتقادات الموجهة إلى هذه النظرية.

الفصل الرابع، يعتبر مكملاً للفصل الثالث، حيث يشرح فيه المؤلف التغيرات البيئية التى تؤثر على ممارسة العلاقات العامة الدولية فى مختلف الدول من حيث البنية الأساسية للدول المستهدفة بالعلاقات العامة، ونظامها السياسى، ونموها الاقتصادى والقانونى والجماعات والحركات النشطة فيها، والأخيرة هذه هى المجال الأهم والأكثر استجابة فى الدول النامية لإنشاء علاقات شراكة مع منظمات عالمية سلعية كانت أو فكرية، وتعتبر هذه الجماعات والحركات النشطة مع العاملين فى حقلى الإعلام والثقافة أكثر الفئات طموحًا للتعامل مع منظمات دولية حسب النظام العام فى بلدهم.

ويتناول الفصل الخامس العلاقات العامة الحكومية الدولية التى تمارسها الحكومات مع جماهير الدول الأخرى، والتى تعرف بالدبلوماسية العامة، ويبدأ الفصل بشرح مفهوم الدبلوماسية العامة وتعريفاتها، ويدرس بعد ذلك الصور الذهنية كمتغير فى العلاقات الدولية، ويركز بالذات على الدبلوماسية العامة الأمريكية الموجهة إلى الجماهير العربية بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، وإعلان الحرب على ما سمته الإدارة الأمريكية بالإرهاب، ويغوص هذا الفصل كثيرًا فى استراتيجيات الولايات المتحدة وتغيراتها بين كل من تشارلوت بيرز التى عينها كولن باول لتسويق مفهوم أمريكا للإرهاب وهى امرأة قادمة من عالم الوكالات الإعلانية، حيث كانت تتولى الدعاية للسيارات وشركات السجائر، وبين كارين هيوز التى كانت مهمتها تغيير الاستراتيجية من الحرب على الإرهاب باستراتيجية النضال العالمى ضد التطرف العنيف (بتعبير وزارة الخارجية الأمريكية).

وترتبط الفصول السادس والسابع والثامن ببعضها البعض، فهى تتناول الاتصال فى العلاقات العامة الدولية، ليختم المؤلف رحلته بالفصل التاسع الذى يناقش مدى فاعلية العلاقات العامة الدولية، فى تحقيق أهدافها والتأثير على الجماهير التى تتجه إليها وأخلاقيات ممارستها.

■

٥٩ ليست أقل من ٦٠

سامية أبوزيد
القاهرة: دار اكتب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩، ٢٤٤ صفحة



هذا الكتاب ليس من كتب التاريخ ولا من الكتب السياسية المعتادة، وكذلك هو ليس تجميعاً لعدة مقالات تحمل خطًا مشتركًا كدأب كتاب كثيرين.

الكتاب إذن ليس مجرد ملف أجمع فيه مقالات سبق نشرها وأضع لها عنوانًا فتصبح كتابًا، فمع احترامى الشديد لغيرى من الكتاب الذين يفعلون ذلك، وقد يكون لهم بعض العذر فيما يفعلونه وهو صعوبة متابعة كل ما يكتب، أو تيسير الأمور على القارئ أن يجد لديه مقالات فلان متجمعة بين دفتى كتاب إلى آخر كل هذه المبررات، إلا أننى لا أرتاح لفكرة تجميع بضعة مقالات فى ملف ومن ثم طرحها تحت اسم كتاب دون أن يكون فيها شىء جديد ولو بالنسبة لقارئ واحد على الأقل ممن يفترض أنهم تابعوها من قبل.

لذا سوف تجد عزيزى القارئ فى هذا الكتاب تجميعاً لمقالات ولكن.. سوف تجد كذلك تعقيبات عليها، أو على بعضها، وبمعنى أكثر دقة سوف تجد إعادة قراءة لما سبق نشره فى ضوء ما كشفته لنا الأيام، فنتحقق معًا من مواضع الصواب فيما ذهب إليه التفكير من قبل، ونفهم كذلك أسباب الشطط فى التفكير إن وجد. وفى النهاية هى رحلة بحث حر بين الكلمات مثلنا فى ذلك مثل الباحث عن الصدف، فقد يكتفى بتقليب الرمال أو يذرع الشاطئ ذهاباً وإياباً، وقد يضطر حينًا آخر للغوص فى البحر بحثًا عنه. وإذن، فلنغص معًا بين الكلمات والأفكار وما مضى من الأحداث بحثًا عن درر المعانى علنا نثرى.

■

العمالة الوافدة

وأثرها فى الأدب الإماراتى
القصة نموذجًا
عبدالفتاح صبرى
القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ١٤٤ صفحة



مع تشكل الدولة وبدء مرحلة بناء المؤسسات والبنى الاقتصادية التحتية من طرق وجسور ومشاريع عمرانية ضخمة وبناء مدن جديدة، كان لابد من استجلاب عمالة للقيام والمساهمة فى عملية التحديث والبناء، ولكن هذه العمالة رغم دورها غير المنكور فى عملية البناء إلا أنها من زاوية أخرى ساهمت فى إحداث التغيرات السلبية التى هزت مجتمع الإمارات حتى امتدت لتشوه الإنسان وتثنيه رويداً رويداً عن قيمه ومبادئه وتقاليده والتى استخلصها عبر آلاف السنين من حياة مستمرة بوتيرة الصحراء والبحر، وما واكب هذه الحقبة من استجلاب تقنيات ومعها سلوكياتها الجديدة، بالإضافة إلى الانفتاح على العالم الآخر بكل عاداته وقيمه والتى قد لا تتفق بكل تأكيد مع السائد ومع نظرة إنسان هذه الأرض للحياة ومعتقداته الإنسانية والمادة.

■

البرنسيسه والأفندى

تأليف: صلاح عيسى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٦٣٨ صفحة



فى مايو ١٩٥٠ وفى مدينة «سان فرانسيسكو» كبرى مدن الغرب الأمريكى أعلنت «البرنسيسة فتحية» ابنة «الملك فؤاد» وصغرى شقيقات «الملك فاروق» زواجها من شاب مصرى، لا يحمل إلا لقباً متواضعاً يمنحه الناس لبعضهم البعض على سبيل المجاملة، هو «رياض أفندى غالى» الذى كان - فضلا عن ذلك كله - قبطياً ينتمى إلى الكنيسة الأرثوذكسية!

وكان طبيعياً أن يثير إعلان زواج أميرة مسلمة، من شاب قبطى، حملة صحفية شهرت بالسلوك الجنسى للأسرة المالكة وأن يفجر أزمة سياسية، بدأت بأمر ملكى يقضى بتجريد صاحبة السمو الملكى الأميرة «فتحية» ووالدتها صاحبة الجلالة «الملكة نازلى» من ألقابهما الملكية لتصبحا «فتحية هانم فؤاد» و«نازلى هانم صبرى» وانتهت بالقضاء على النظام الملكى بعد ذلك بثلاثة أعوام، وأن يشعل فتنة طائفية بين المسلمين والأقباط، وأن يفجر مناظرة عن المساواة بين البشر وعن حدود حرية المرأة والسقف الذى تتوقف عنده حرية السلوك الخاص للشخصيات العامة!

وهى قضايا تكرر الحوار حولها، بعد ذلك التاريخ بـ ٢٠ سنة، حين أطلق «رياض أفندى غالى» ثلاث رصاصات على رأس زوجته البرنسيسة «فتحية»، وأطلق الرصاصة الرابعة والأخيرة على رأسه!

تلك هى القصة التى يؤرخ لها هذا الكتاب على أصعدتها الشخصية والسياسية والفكرية والاجتماعية.

مؤلف الكتاب «صلاح عيسى» كاتب وصحفى وباحث فى التاريخ... ولد عام ١٩٣٩ وشارك فى إصدار وإدارة ورأس تحرير عدة صحف مصرية. نشرت مقالاته وأبحاثه فى معظم الصحف العربية، نشر ٢٠ كتاباً فى التاريخ والفكر السياسى والاجتماعى من أبرزها «الثورة العرابية» و«مثقفون وعسكر» و«دستور فى صندوق القمامة» و«رجال ريا وسكينة: سيرة سياسية واجتماعية».

■

وردة حمراء.. وردة بيضاء

مختارات من الشعر العالمى
ترجمة: يوسف عبدالعزيز
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ١١٢ صفحة



هذه مجموعة قصائد من الشعر العالمى الحديث لشعراء من أربعة أركان المعمورة، ينتظمها على اختلاف التجارب واللغات هم إنسانى واحد هو الحرية الشخصية والتوق إلى مستقبل أفضل والنظر إلى الماضى باعتباره مرآة نرى فيها أنفسنا على نحو أكثر وضوحاً، والنماذج المختارة تؤكد أن هذا الكون مسكون بالشعر وأن المشاعر الإنسانية لا حدود لها.

■

اليسار المصرى وأجياله العتيدة ضد اليسار الجديد

باعتباره مشروعا أمريكيا صهيونيا يزحف على مصر المحروسة
العامل عطية الصيرفى



ذلك الكتاب وموضوعاته ووثائقه هو كتاب من نوع جديد خطه عامل مصرى باعتباره طلب إحاطة عاجلا وملحا للقوى الوطنية واليسارية والعمالية فى مصر المعاصرة بشأن قدوم مصيبة أمريكية وإسرائيلية مسكوت عنها رغم خطورتها على شعبنا المصرى عماله وفلاحيه وفقرائه ولم يفجرها ويجمهرها مؤلف هذا الكتاب باعتباره عاملا يساريا لا يستبد به الحياء ولا يعتريه أدب الجرسونات ولا يخشى على مصلحة شخصية وذاتية على حد تعبير النقابى اليسارى صابر بركات. فالعامل الذى فجر هذه المصيبة وقدومها إلى مصر قد لمح أن بعض الشيوعيين واليساريين المصريين قد اعتادوا على تأدية العمرة والحج إلى مؤسسة المدى الثقافية ومهرجاناتها الكائنة بكردستان العراق التى باتت محمية أمريكية صهيونية.

ولكن عاد بعض هؤلاء الرفاق يلعنون مؤسسة المدى وثقافتها المنحازة للاحتلال الأمريكى للعراق، بينما راح رفاق آخرون يمدحون مؤسسة المدى هذه التى يديرها الحزب الشيوعى العراقى.

ومن هنا اكتشف ذلك الكتاب أن مؤسسة المدى هذه هى قلعة أمريكية صهيونية وترفرف عليها رايات الشيوعية الحمراء الغرض منها تفريخ ظاهرة اليسار الجديد الداعية إلى الديمقراطية الأوروبية والأمريكية باعتبارها الحل والبديل للمقاومة واليسار الثورى الأصولى فى مصر والوطن العربى.

والكتاب يرى أن اليسار الجديد الآتى من كردستان قد تواجد فى مصر فعلاً بقصد تشويه المقاومة العراقية واللبنانية والفلسطينية وتسميتها بالمقاومة الظلامية كما يحاول تشويه الشعب العراقى حيث يقول: العراق الجديد بدلاً من العراق المحتل، والعراق الديمقراطى بدلاً من العراق المقاوم.

هذا هو اليسار الجديد والعميل فى مصر وغير مصر الذى يطمع فى الإطاحة باليسار الاشتراكى المصرى الأصولى العتيد والمجيد ولكن هيهات هيهات لما تدبره أمريكا وإسرائيل ويسارها الجديد والعميل والمصيبة.

■

الإعلام فى العالم العربى

بين التحرير وإعادة إنتاج الهيمنة
تحرير: عصام الدين محمد حسن
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٤٢٢ صفحة



فى العالم العربى الذى تعانى نظمه السياسية بصورة مزمنة من الافتقار إلى الشرعية السياسية، أو من تآكل تلك الشرعية، كان - ولا يزال - احتكار وسائل الإعلام يمثل أداة رئيسية فى الترويج للسياسات الرسمية، وتعبئة الرأى العام وحشده فى خدمة أهداف القابضين على السلطة. والدراسات التى بين أيدينا تظهر بشكل جلى حجم الهوة الواسعة بين وضعية الإعلام السمعى والمرئى فى كل من مصر والأردن والمغرب من ناحية،

وبين ضمانات ومعايير حرية البث الإعلامى التى عرفتها المجتمعات الديمقراطية.

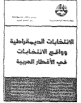
ولا يبدو أن ثورة المعلومات ودخول العرب عصر الأقمار الصناعية والفضائية، ودعاوى إعادة الهيكلة والتطوير لقطاع الإعلام السمعى والمرئى فى المغرب والأردن، والتوجهات المماثلة التى تطرحها الحكومة المصرية مؤخرًا، كفيلة بإحداث قطيعة مع إرث الهيمنة والاحتكار المفروض من قبل الدولة على هذا القطاع، أو برفع سقف التوقعات والطموحات حول الانتقال إلى إعلام تعددى، وحر، ومستقل، كما تعرفه المجتمعات الديمقراطية.

ومن غير شك فإن تحرر قطاع البث السمعى والمرئى، لن يتأتى بمعزل عن تحرير مختلف الوسائط الإعلامية وإطلاق حرية التعبير، وهو طموح يصعب تصور حدوثه إلا فى إطار عملية شاملة للإصلاح الديمقراطى، تقود إلى تعزيز دولة القانون وتقيم توازنًا حقيقيًا بين السلطات، وتعلى من شأن استقلالية القضاء، وتستعيد فى إطارها السلطة التشريعية استقلالها عن ضغوط السلطة التنفيذية.

الانتخابات الديمقراطية وواقع الانتخابات فى الأقطار العربية

تنسيق وتحرير: الدكتور على خليفة الكوارى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٤٣٠ صفحة



يتضمن هذا الكتاب أعمال اللقاء السنوى السابع عشر لمشروع دراسات الديمقراطية فى الأقطار العربية، الذى انعقد فى ١٨ أغسطس ٢٠٠٧، فى جامعة أوكسفورد البريطانية.

فى الكتاب إحدى عشرة ورقة بحثية، ومناقشات، شهدها اللقاء، تناولت فى مجملها طبيعة الانتخابات التى أجريت فى عدد من الأقطار العربية (الجزائر، الكويت، مصر، موريتانيا، فلسطين، لبنان، المغرب) من حيث مقاصدها ووظائفها، ومن حيث الكيفية التى تمت بها هذه الانتخابات، إضافة إلى دراسة خاصة بالديمقراطية والرقابة الدولية على الانتخابات فى الأقطار العربية.

فى البعد السياسى، لحظت أعمال اللقاء ما شهدته العقود الثلاثة الماضية، فى الوطن العربى، من إجراء انتخابات على المستويين البرلمانى والمحلى، وإجراء انتخابات مباشرة لاختيار رئيس الدولة، فى بعض الأقطار العربية. وعلى الرغم من ذلك، لم تفض تلك الانتخابات، بمجملها، إلى تداول سلمى للسلطة، أو إلى انتقال ديمقراطى حقيقى، أو حتى حدوث تغيير حقيقى فى صلب الأنظمة السياسية الحاكمة وطبيعة عملية صنع القرار السياسى. كما لم يتمكن الناخبون فى أى قطر عربى من اختيار حكامهم وممثليهم بمحض إرادتهم، إن من خلال برلمان حقيقى يمثل فئات المجتمع ويعبر عن آمالها ومطالبها بشكل حقيقى بعيدًا عن نفوذ السلطة القائمة، أو على مستوى رئاسة الدولة فى انتخابات تنافسية حقيقية، بلا قيود تعجيزية.

فى البعد النظرى لمفهوم الانتخابات، لحظت الأوراق البحثية ضرورة توفر الإطار الدستورى والقانونى الذى تجرى فى سياقه الانتخابات، من حيث تمكين المواطنين من انتخاب من يكلفونه تحمل إحدى السلطات الدستورية لمدة محددة، وفق إرادتهم الحرة، ودون وصاية من فرد، أو قلة، مهما تكن صفتها ومكانتها. وهذا هو شرط الفاعلية، ويضاف إلى هذا الشرط الجوهرى شرطان يتكاملان معه، ويشكلان ضمانة لتحقيق مقاصد الانتخابات الديمقراطية، وهما شرطا الحرية والنزاهة.

فى غمار السياسة: فكرًا وممارسة

محمد عابد الجابرى

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٣٢٧ صفحة



تعميمًا للفائدة الفكرية، سعت الشبكة العربية للأبحاث والنشر بالتعاون مع الدكتور محمد عابد الجابرى إلى تجميع محتويات سلسلة مواقف، وإصدارها فى كتب تشتمل على مقالات وحوارات سياسية وفكرية، سبق وأجريت مع د. الجابرى. وهذا الكتاب «فى غمار السياسة: فكرًا وممارسة»، هو الكتاب الأول من هذه السلسلة، حيث يتناول نصوصًا هى بمثابة «إضاءات» لكثير من التجارب السياسية التى مرت فى حياة الجابرى وامتدت من الشأن الذاتى إلى الشأن العام. إن هذا الكتاب، وبحسب مؤلفه، يتوجه إلى الجيل الصاعد من الشباب الذى عبر عن رغبته فى معرفة تفاصيل الحياة السياسية، التى عاشها المغرب منذ الاستقلال ومازالت تؤسس الواقع السياسى الراهن.

عرابى ورفاقه فى جنة آدم

تأليف: لطيفة محمد سالم

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩ ، ١٥٦ صفحة



يتناول هذا الكتاب الشائق قصة أحمد عرابى ورفاقه الذين نفاهم الاحتلال الإنجليزى إلى جزيرة سيلان، بعد قيامهم بالتمرد على كل من الحاكم والمحتل. فتقدم لنا المؤرخة الكبيرة د. لطيفة محمد سالم صورة حية للمنفى كموضوع تاريخى وفى الوقت نفسه كحالة معاناة إنسانية قد تدفع الواحد لتغيير جانب من آرائه، أو تدفع التحالف إلى الخلاف بل والعداوة أحيانًا، ورغم أن هذا الموضوع المثير ظل لوقت طويل خارج أجندة البحث التاريخى فإن المؤلفة استطاعت وبحنكة الباحث المدقق أن تصنع من الشذرات المتفرقة فى الكتب والدوريات والوثائق كتابًا تأسيسيًا فى موضوعه.

يفصح الكتاب ـ ولأول مرة ـ عن تفاصيل ما جرى لعرابى ورفاقه الستة، وهم فى المنفى بجزيرة سيلان، وعلاقتهم ببريطانيا، ثم الخلافات التى نشأت بينهم، وسعيهم إنسانيًا وسياسيًا للخلاص من هذه التجربة الأليمة بعد أن سكنتهم الأمراض ولم يعد الأمر يحتمل، حتى إن بعضهم فارق الحياة دون أن يتحقق له أمل العودة إلى الوطن، وكذا عودة بعضهم والمساعى التى بذلت فى هذا الشأن ليعودوا منكسرين كما ذهبوا مهزومين بعد وقوفهم أمام أعتى سلطة خديوية يدافعون عن حرية المصريين، ثم تصديهم لأعتى قوة عالمية، مدافعين عن حرية مصر ضد التدخل الأجنبى.

مدخل فى الموسيقى

محمد قابيل

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩ ، ١٦٨ صفحة



هذا الكتاب يرصد تاريخ الموسيقى هنا وهناك.. كيف كان يعلو قدرها أحيانًا وينخفض فى أحيان أخرى، إذ لا موسيقى بلا آلات، وقد أبدع المصريون فى صنع بعضها ونقلها أهل أوروبا، ثم عادوا فصدروا بعضها لنا بعد التطوير.

وإذا انتقلت الآلة من بلد إلى آخر نقلت معها الطابع والطبيعة الخاصة بها، ومن ثم امتزجت الموسيقات وتناسخت القوالب وتأثرت الأشكال، لكن يظل فى النهاية الشرق شرقا، والغرب غربا، ولكل شعب ذوق وتذوق.

ونحن هنا نأخذ العبرة والعظة من التاريخ لنرسم المستقبل، فلا جديد بلا قديم.

فلسفة الحرية

مجموعة باحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٤٢٩ صفحة



يتضمن هذا الكتاب بحوث الندوة السابعة عشرة، التى نظمتها الجمعية الفلسفية المصرية، بجامعة القاهرة، بعنوان فلسفة الحرية.

والكتاب أقسام ثلاثة، فى القسم الأول: ثلاثة بحوث، تعنى بالإشكال النظرى لمفهوم الحرية ووظائفها وجدواها، وما أقيم حولها من جدل، قديمًا وحديثًا. وفى القسم الثانى: ثمانية بحوث تتناول الحرية فى الفكر الإسلامى الحديث، وفى القسم الثالث: خمسة بحوث تتناول الحرية فى الفكر الغربى.

وتنعقد الصلة بين فصول الكتاب، فترتبط إشكالية الحرية فى التراث الإسلامى ابتداء من مقولة «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!»، ليغدو السؤال اختزالاً للكلام فى أصل الوعى بالحرية، ثم ما جاء عن العديد من المفكرين، مما يعكس طبيعة التعامل مع الحرية باعتبارها عملية تحرر، ومجرد إمكانية، قد تتحقق وقد لا تتحقق اعتمادًا على فعل الفرد وممارسة الحرية، فالحرية علة ومعلول، مقدمة ونتيجة. والفعل الحر هو الذى يحول الحرية من الإمكان إلى الواقع، ومن الفرض إلى الصدق، ومن الخوف والتهيب، والتردد، إلى الثقة والاطمئنان.

ونظرًا إلى أن الموقف الحضارى هو الذى يفرض نفسه، فإنه يمكن ـ كالعادة ـ بيان الموضوع فى الموروث القديم بكل اتجاهاته واختياراته بين الجبر وخلق الأفعال والكسب، ثم فى الوافد الغربى، أيضًا، بين الجبر الطبيعى والحرية العقلية، ثم فى الواقع المعاش، كتجربة إنسانية عامة بين الجبر الاجتماعى والسياسى والقانونى، والأمل فى التحرر منها. ومع ذلك تفرض البنية نفسها على التاريخ: فالجبر والحرية والتحرر واحد فى التراثين، الموروث والوافد. فالبنية هى

الأساس، والتاريخ تحقق لها فى الموروث والوافد والواقع، على حد سواء، ووحدة البنية وتعدد الحضارات أولى من تكرار البنية بتكرار الحضارات.

فى هذا الكتاب، تجمعت أبرز أفكار الفلاسفة، فى مسألة الحرية، عبر قرون من التفكير المتنوع من حيث النظر والاتجاه، إضافة إلى ما جاء من مراجعة غنية، تسهم فى إثارة النقاش، وتدفع بإشكالية الحرية إلى حيِّز التأمل والفعل والموقف.

فلسفة المثل الشعبى

محمد إبراهيم أبوسنة
القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٩، ١٥٢ صفحة



حينما صدر هذا الكتاب فى أواخر الستينيات كان بمثابة نقلة جديدة فى قراءة مفهوم (المثل). اقترابًا من منابع الدراسات الشعبية وبداياتها الأصلية يكتفى الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة بالكتابة عن فلسفة المثل الشعبى بوجه عام. وهو بذلك قد منح الدارسين خلفية ضوئية مستنيرة تمكنهم من إعادة النظر فى تراث المثل الشعبى من وجهات نظر متعددة.

فهم القرآن الحكيم
التفسير الواضح حسب ترتيب النزول (القسم الثالث)

محمد عابد الجابرى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ٤٣٠ صفحة



يختتم المفكر العربى الكبير الدكتور محمد عابد الجابرى، فى هذا الكتاب القسم الثالث، مشروع كتابه التفسير القرآنى: فهم القرآن الحكيم - التفسير الواضح حسب ترتيب النزول.

يعكس هذا العمل الضخم، فى مجمله، النتيجة العامة والعملية التى خرج بها المؤلف من مصاحبة التفاسير الموجودة، وهى أن المكتبة العربية - الإسلامية تفتقر إلى تفسير يستفيد فى عملية «الفهم» من جميع التفاسير السابقة.

والمؤلف، فى سبيل ذلك، يقوم ببناء التفسير القرآنى على أساس ترتيب النزول، ليس فقط على مستوى مسار «الكون والتكوين»، وما يمكن أن نعبر عنه بـ «مسار التنزيل»، بل أيضًا على مستوى مسيرة الدعوة المحمدية والسيرة النبوية.

ويرى المؤلف أن القرآن الكريم نزل منجمًا، وخلال أزيد من عشرين سنة، وأن تسلسل سوره - حسب ترتيب النزول - يباطنه تسلسل منطقى، وبالتالى فإن الرجوع إلى وقائع السيرة جعلته يكتشف أن ذلك المنطق الذى يباطن تسلسل السور، داخل كل مجموعة، يتطابق فى مضمونه مع تسلسل هذه الوقائع، الشىء الذى يتبين منه بوضوح، أن مسار التنزيل مساوق فعلاً، لمسيرة الدعوة.

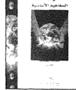
ويسلك المؤلف طريقة فى «الإفهام»، ألصق بالطريقة التى تعتمد اليوم فى الكتابة، إذ شكل استعمال «علامات الإفهام»، جزءًا أساسيًا فى بسط الوضوح لهذا المشروع فى التفسير.

يضم القسم الثالث، والأخير، أربعًا وعشرين سورة، صنفها المؤلف، كلها، ضمن القرآن المدنى. وهى تختلف طولاً وقصرًا، وتتناول موضوعات مختلفة، ظرفية فى الغالب. ومن هنا كان ترتيبها يخضع، غالبًا - لتواريخ الأحداث التى تتحدث عنها.

إنه مشروع جليل، حيث الشعور بالتوفيق يغمر المؤلف فيما سعى إليه، فى قراءة القرآن الكريم بالسيرة النبوية، وقراءة السيرة بالقرآن، وقد مكنته هذه القراءة المزدوجة من التعرف على العلاقة الحميمة بين الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) والقرآن الحكيم.

العـــولمـــة

المفاهيم الأساسية
تحرير: أنابيل مونى وبيتسى إيفانز
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩، ٣٦٧ صفحة



يرتبط مفهوم العولمة، بحسب معظم الأبحاث، بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية... إلخ. إلا أن هذا الموضوع لايزال أمرًا متنازعًا عليه، لذلك حاول هذا الكتاب تعريف بعض المصطلحات الأساسية والمفاهيم الخاصة فى مجال العولمة وتحديد المعالم الرئيسية للمناقشات والمناظرات المركزية التى يثيرها مختلف الدارسين.

فهذا الكتاب يُعتبر نقطة انطلاق إلى عالم العولمة بكل ما فيه من مصطلحات ومدخلات تتيح للقارئ إمكانية التعرف على مصطلحات العولمة وطرق استخداماتها المختلفة.

فوائح الجمال وفواتح الجلال

تأليف: نجم الدين كُبرى
تحقيق: يوسف زيدان
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩، ٢٣٨ صفحة



نجم الدين كبرى الصوفى الفارسى المولود عام ٥٤٠ هجرية، هو واحد من الشخصيات الصوفية الأخاذة فى تاريخ الإسلام.. تجول بين بلاد إسلامية عديدة، وتعلم على يد كبار شيوخ الصوفية حتى أصبح واحداً منهم. تعدد تلاميذه وتوزعوا فى مختلف الأقطار، وتنوع إنتاجه فشمل الرسالة والقصيدة والكتاب، وظل نموذجًا للصوفى المجاهد، حتى استشهد على يد التتار عام ٦١٨ هجرية.

وكتابه فوائح الجمال مخطوطة صوفية نادرة تقدم سيرة صاحبها الذاتية، ورحلته فى مدارج السالكين إلى الحقيقة، بما فيها من رؤى وتصورات ومعاينات، تمثل درسًا عميقًا للمريد، وخبرة كاشفة لمعانى الإشراق الدقيقة. وقد سبقها المحقق الدكتور يوسف زيدان بدراسة حول نجم الدين كبرى تتناول عصره ومدرسته الصوفية، وأبرز شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته.

يوسف زيدان كاتب وباحث متخصص فى التراث العربى والمخطوطات، ولد بسوهاج جنوبى مصر عام ١٩٥٨. قاربت مؤلفاته وأبحاثه العلمية الخمسين كتابا والثمانين بحثًا فى الفكر الإسلامى، والتصوف، وتاريخ الطب والعلوم عند العرب، وفهرسة المكتبات.

أزمة برسيم

ماهر ميلاد
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ١٧٦ صفحة



هذه مسرحية لكاتب غزير الإنتاج، مثلت مسرحياته فى فرق الثقافة الجماهيرية والجامعات والشركات، بالإضافة إلى المسرح الخاص. حيث تتصف شخصياته باللباقة وخفة الظل والفكاهة المرة والذكاء والفصاحة والدهاء والمكر، والسخرية من الحكام، معليًا كلمة الإنسان البسيط والمواطن الكادح الفقير المقهور، الذى يعيش فى مجتمع قاس غليظ شرير، سيطر عليه العفن والفساد والرشوة والجبروت.

نحن بإزاء كاتب يمكن أن يقال عنه إنه يتمتع بفكر ثاقب وبصيرة نافذة، وبجملة حوار بصيرة خفيفة، تحمل قدرًا من خفة الظل والفكاهة العميقة.

وجوه عربية وإسلامية

حلمى محمد القاعود
القاهرة: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ١٥٦ صفحة



هذه صفحات تتناول بعض الوجوه العربية والإسلامية التى أثرت فى الواقع العربى والإسلامى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ورصدت بعض ملامحها وسماتها عن قرب غالبًا، أو من بعيد فى أحيان قليلة، ورأيت فى معظمها إيجابيات يجب أن تتعرف عليها الأجيال الجديدة، كما رأيت فى بعضها بعض السلبيات التى يجب الحذر منها..

لقد سجلت هذه الملامح غالبًا فى وداع أصحابها، وهم ذاهبون إلى دار الخلود، وسجلت بعضها تحية لهم فى دار الفناء، وفى كل الأحوال فهم يستحقون منا أكثر من الكلمات، خاصة أولئك الذين باعوا أنفسهم شهادة لله وقربانًا، وكانوا فى حياتهم مثالاً للعطاء الخالص لوجه الله الكريم، ودفاعًا عن الإسلام والعروبة والوطن.. ومع ذلك أهملهم الإعلام الرسمى والثقافة الرسمية!

قد يرى القارئ الكريم أن هذه الصفحات لم تتضمن هذا الوجه أو ذاك، ولكننى بإذنه تعالى فى سبيل نشر صفحات أخرى لم أستطع إدراجها هنا.

لقد توخيت التركيز على أبرز الملامح لأصحاب الوجوه، مما يعنى أن هنالك ملامح أخرى تحتاج إلى معالجة، وميدانها هو الدراسات المتخصصة والتى تختلف عن هذه الصفحات، وغايتها فى تقديم المعلومة المركزة والملمح الأساسى.

وأسأل الله أن ينفع بما كتبت، وأن يوفقنا إلى ما فيه الخير والصواب..

وصلى الله وسلم على نبينا الكريم وآله وأصحابه أجمعين.

مصر في الحرب العالمية الأولى

تأليف: لطيفة محمد سالم
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩، ٤٤٥ صفحة



مرجع أساسي لكل مهتم بالتاريخ المصري الحديث، يتناول الثمن السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والعسكري الذي دفعته مصر أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨، وهي فترة رغم قصرها ستظل من أكثر الفترات صخبا في التاريخ المصري. حينها وقعت مصر بين مطرقة بريطانيا العظمى وسندان الدولة العثمانية رجل أوروبا المريض. كما تشكلت ملامح واضحة ومكتملة لحركة وطنية صاعدة تستطيع تنظيم المصريين والمطالبة بحقوقهم داخليا وخارجيا. تتبعت المؤلفة د. لطيفة محمد سالم، كل هذا بدقة لتستعرض أهم الأحداث في هذه الفترة المفصلية.

سنقرأ تحليلا وافيا لقصة عزل الخديو عباس حلمي الثاني، وتولية الأمير حسين كامل سلطانا على مصر، ثم اعتلاء الأمير فؤاد عرش السلطنة، ثم نهاية الحرب وتشكيل الوفد. يلقي الكتاب الضوء كذلك على أثر الحرب على الحياة الاقتصادية وأوضاع الأسواق المصرية عموما وسوق القطن خصوصا، محللا الأوضاع الاجتماعية للقوى المصرية المختلفة في ذلك الحين، وكذا أحوال التعليم والثقافة، ومراحل نضج الحركة الوطنية التي قامت على أكتافها ثورة ١٩١٩..

تشاو روبرتا (مجموعة قصصية)

غالية قبّاني
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ١٨٤ صفحة



فارت القهوة وانتشر اللون المحروق على سطح البوتاغاز الأبيض، انشغلتُ بمسح البن الرطب قبل أن يجف. أنجزت ذلك بجسد بدأ يظهر إنهاكه ورغبته في الجلوس.

منذ سنتين وأنا أنجز أعمال البيت بدون ملل، أفعل ذلك كأنني أطير، قبلها كنت على وشك الانهيار وقد التف حبل الضجر حول رقبتي وكاد يقتلني، لولا أحلامي التي بدأت تنتج الأحبّة الهائمين، أغلق الباب صباح كل يوم خلف أحمد والأولاد، يذهبون جميعا وأبقى وحيدة أستعيد تفاصيل الليلة السابقة، أنا وهو بمفردنا، زائر الليل الفائت! لا أحد يرانا، لا الجارة المتلصصة على هسيس الأصوات في البناية، ولا المعارف والأقارب الذين ينبعون في الشوارع وفي كل مكان، أنا وهو بمفردنا، الرجل الذي يأتي بألف لبوس ولبوس، يتشكل بملامح جديدة من حلم لآخر، الرجل الذي أحمل به كل ليلة على شكل حلم. الغريب أنني لا أعرف حقيقة غالبية عشاقي، ليسوا من بين الأشخاص الذين التقيتهم من قبل، وقلة منهم كانوا نجوم سينما وتليفزيون يحبون بطلاتهم في المسلسلات والأفلام برومانسية.

دوريات

المستقبل العربي

العدد ٣٦٢ - أبريل ٢٠٠٩



يتضمن العدد افتتاحية بعنوان: «العراق.. إلى أين؟» لرئيس التحرير الدكتور خير الدين حسيب، وثمانية بحوث، وهي:

١ - «فلسفة الحرية» لحسن حنفي.

٢ - «الطفرة النفطية الثالثة: قراءة أولية في دواعي الطفرة وحجمها: حالة أقطار مجلس التعاون» لعلي خليفة الكواري.

٣ - «أبعاد المضمون القومي العربي في فكر علال الفاسي» لمحمود صالح الكروي.

٤ - «إشكالية الذاكرة السياسية والعدالة الانتقالية في المغرب» لعبدالواحد بلقصري.

٥ - «الاتفاقات الدولية حول الاستثمار: السياق الأفريقي نموذجا» لمحمد أوضبجي.

٦ - «استراتيجيات إدارة التنوع الإثني في السودان» لبهاء الدين مكاوي.

٧ - «الاستراتيجية الروسية بعد الحرب الباردة وانعكاساتها على المنطقة العربية» للمي مضر الأمارة.

٨ - «أطفال العراق: ماضٍ مرعب ومستقبل مجهول (دراسة في وفيات الأطفال ما قبل وما بعد الحرب. مقاربة سوسيولوجية)» لفراس عباس فاضل البياتي.

أما في باب آراء ومناقشات فقد كتب كل من معن بشور عن: «الأمة العربية وتحديات العصر»، وعلي خليفة الكواري عن «لا تقوم الديمقراطية في ظل حكومة دينية مناقشة لرأي الأستاذ راشد الغنوشي»، ومحمود حداد عن «هل النقد مسموح في عالم الثقافة العربية؟».

وفي العدد أيضا مقالة مهمة مترجمة للمجموعة الدولية للأزمات بعنوان: «الاضطراب المتفاقم: مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان».

وفي باب كتب وقراءات، مراجعتان للكتابين الآتيين: «وقع العولمة في مجتمعات الخليج العربي: دبي والرياض أنموذجان» (بدرية البشر)، أعد المراجعة ماجد صالح السامرائي. و«لبنان والعروبة: الهوية الوطنية وتكوين الدولة» (رغيد الصلح)، أعد المراجعة مسعود ضاهر، إضافة إلى كتب عربية وأجنبية وتقارير بحثية مختارة، إعداد كابي الخوري.

وفي باب مؤتمرات تقرير عن «القمة العربية الاقتصادية والاجتماعية الكويت ١٩ - ٢٠ يناير ٢٠٠٩»، أعده مصطفى العبد الله الكفري.

وموجز يوميات الوحدة العربية، وببليوغرافيا الوحدة العربية وفهرس مجلة «المستقبل العربي» للسنة الحادية والثلاثين.

شؤون عربية

عدد ١٣٧ ربيع ٢٠٠٩



صدر مؤخرا عدد جديد من مجلة شؤون عربية يتضمن جزءا كبيرا عن غزة، به مقالات للدكتور عماد جاد بعنوان: «العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة.. هل حققت إسرائيل أهدافها؟»، ومقال للدكتور طلال عتريسي بعنوان: «محور الممانعة: أوهام الطموح الإمبراطوري»، ومقال لماجد كيالي بعنوان: «الحركة الفلسطينية بين خنوع المفاوضين وجموح المقاومين»، ومقال للدكتور عمرو الشوبكي بعنوان: «أي حماس يريدها العرب؟».

ومواضيع أخرى منها «لماذا جاءت النتائج محدودة مقارنة بالآمال العريضة» للدكتور أحمد السيد النجار عن القمة الاقتصادية العربية، وفي الفنون العربية مقال لسليم سحاب عن المسرح الغنائي العربي.

الآداب

عدد أبريل ومايو ويونيو ٢٠٠٩



صدر العدد الجديد من مجلة الآداب يتضمن مقالا بعنوان: «مأساة مماليك مصر ومهزلة (مماليك الجمهورية) الفرنسية: رستم رضا مملوكا وشاهدا على عصر بونابرت» لفيصل جلول.

وملف عن هارولد بنتر مع مسرحيتين مترجمتين بعنوان: «مؤتمر صحفي» و«أصوات أسرة». وملف آخر عن غزة يكتب فيه خريستو المر «دعاية مذبحة: الدعاية الإسرائيلية أثناء مذبحة غزة»، ويكتب بسام أبو غزالة «مذبحة غزة في سياق القضية الفلسطينية»، ماجد كيالي «على هامش حرب إسرائيل: أسئلة السياسة والمقاومة».

وفي باب قصائد تكتب زهرة مروة «قصيدتان»، ودواليا الصالح «أجنة الزمن». وفي باب مذكرات «يد سهيلة: حين صدر العدد الأول!» لسهيل إدريس.

فى فلسفة ما بعد الحداثة

■■ هل من ضرورات العولمة التى هى - من وجهة نظر التحليل الثقافى - تمثل عملية الانتقال الحضارى الكبرى من نموذج المجتمع الصناعى إلى نموذج مجتمع المعلومات العالمى، المراجعة النقدية لأبرز الأيديولوجيات المطلقة التى سادت المناخ العالمى طوال القرن العشرين؟

الإجابة عن هذا السؤال المحورى هى بنعم! وذلك لأنه إذا كان المجتمع الصناعى الذى هو ربيب الثورة الصناعية، قد نشأ وتبلور فى ظل مشروع الحداثة الغربى، فإن مجتمع المعلومات العالمى هو التعبير الأمثل عن عصر ما بعد الحداثة!

ومشروع الحداثة الغربى كان يقوم على دعائم رئيسية هى احترام الفردية، والاعتماد أساسًا على العقلانية، وفتح المجال واسعًا وعريضًا أمام الحرية، والتى تعنى الحرية السياسية والفكرية والتعبيرية والتنظيمية.

وقد شهد عصر الحداثة تبلور أيديولوجيات شاملة، أبرزها الرأسمالية التى كانت تقدس مبدأ حرية السوق، وتنفى حق الدولة فى التدخل الاقتصادى، وتقصر دورها الأساسى على حفظ الأمن وحراسة الحدود!

غير أن الرأسمالية قامت منافسة لها أيديولوجية شاملة أخرى هى الماركسية، التى دعت فى تطبيقها السوفيتى بعد قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧، إلى إلغاء الملكية الخاصة وتأميم المصانع، وقيام الدولة بمفردها دون أى مشاركة من القطاع الخاص بالمهام الإنتاجية.

وبرزت أيضًا أيديولوجيات - وإن كانت مضادة لمسار التاريخ - هى النازية والفاشية التى تم القضاء عليها فى الحرب العالمية الثانية.

ومعنى ذلك أن الصراع الأيديولوجى المحتدم والذى دار طوال القرن العشرين انحصر بين الرأسمالية والماركسية. وكانت المشكلة الكبرى فى هذه الأيديولوجيات التى استقطب كل منها عديدًا من الدول، أن كل واحدة منهما كانت تدعى أنها تمتلك الحقيقة المطلقة! غير أن الانهيار المدوى للاتحاد السوفيتى حوالى عام ١٩٩٣، أدى فى الواقع إلى خلو الساحة الأيديولوجية إلا من الرأسمالية.

وهذه الرأسمالية هى التى تغنى بها «فرانسيس فوكوياما» فى كتابه الشهير «نهاية التاريخ»، والذى زعم فيه أن انتصار الرأسمالية سيجعلها هى عقيدة الإنسانية إلى أبد الآبدين!

والواقع أن إحدى الدعوات الرئيسية لفلسفة ما بعد الحداثة هى سقوط الأيديولوجيات الشمولية مثل الماركسية والرأسمالية، والتى كانت بادعائها امتلاك الحقيقة المطلقة ليست سوى أنساق فكرية مغلقة آن أوان سقوطها، بعد أن قامت على ثنائيات زائفة، من قبيل إما الرأسمالية أو الماركسية، إما القطاع الخاص أو القطاع العام، إما العلمانية أو الدين!

ولذلك تدعو ما بعد الحداثة إلى إبداع أنساق فكرية مفتوحة، قادرة على التأليف الخلاق بين متغيرات كان يظن من قبل أنها متناقضة، ولا يمكن أن تتكامل وتتفاعل فى كل واحد.

ومعنى ذلك أن المراجعة الأيديولوجية ارتبطت بنهاية الحداثة وبداية عصر العولمة.

غير أن عصر العولمة ارتبط أيضًا بالثورة الاتصالية الكبرى وفى قلبها شبكة الإنترنت والتى جعلت العالم كله متصلاً: لقد أدت هذه الثورة إلى نشوء مجتمع جديد هو المجتمع الافتراضى Vitrual Society الذى أصبح يزاحم المجتمع الواقعى فى تأثيره الطاغى على أنساق القيم، واتجاهات الناس، والسلوك الاجتماعى.

وأخذت الديمقراطية وضعًا جديدًا بعد أن ظهرت أنماط مستحدثة لها مثل الديمقراطية الإلكترونية، بالإضافة إلى ظهور أنواع جديدة من الخطابات السياسية والاجتماعية والثقافية أخذت شكل المدونات Blogs وأصبح من يحررونها يطلق عليهم المدونون Blogers، ومن هنا كان لابد لى - باعتبارى مهتمًا بتطبيق منهجية التحليل الثقافى - من التحليل السوسيولوجى المتعمق للمدونات والمدونين.

ونظرًا لتتبعى تحولات المجتمع العالمى منذ نهاية الحرب الباردة، وزوال النظام الثنائى القطبية فى العلاقات الدولية وبروز النظام الأحادى القطبية، أدركنا أن عصر العولمة يفجر من المشكلات أكثر مما يقدم من الحلول!

ومن بين هذه المشكلات أزمة السياسة التى من تجلياتها الانتقاص من سيادة الدولة القومية، وبروز حق التدخل السياسى، والعجز عن مواجهة ظاهرة الإرهاب العالمى.

وإذا كنا أكدنا منذ زمن على أن عصر العولمة سيشهد مراجعات أيديولوجية شاملة، وأن عصر الهيمنة الأمريكية لا يمكن أن يستمر إلى الأبد كما يظن المحافظون الجدد فى إدارة الرئيس بوش، وأن الرأسمالية المتوحشة من المستحيل أن تكون هى المذهب السائد والعقيدة المسيطرة التى تؤثر سلبًا على مصادر البشر فى القرن الحادى والعشرين، إلا أن دهاء التاريخ شاء أن يثبت - فى الواقع وليس فى مجال التنظير - أن نبوءاتنا التى صغناها منذ سنوات فى كتبنا السابقة، قد تحققت. وذلك بوقوع الأزمة المالية الكبرى فى الولايات المتحدة الأمريكية والتى هى قلب العالم الرأسمالى.

انهار النموذج الرأسمالى بصورته التقليدية التى كانت تزيح الدولة عن المجال الاقتصادى، وبصورته المعولمة التى أطلقت سراح الرأسمالية المتوحشة على حساب شعوب العالم فى البلاد النامية خصوصًا.

وإذا كان التدخل العسكرى الروسى فى جورجيا أدى عمليًا إلى إسقاط نظام الهيمنة الأمريكية المطلقة، فإن سقوط النموذج الرأسمالى الأمريكى مؤشر على نهاية عصر وبداية عصر جديد.

وليس معنى ذلك أن الرأسمالية ستنتهى إلى الأبد، ولكن من المؤكد أن مراجعة أيديولوجية بالغة العمق لابد أن تنطلق من الآن لصياغة مذهب اقتصادى عالمى جديد، يقوم على كفالة الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية معًا. مذهب لا يطلق العنان لقوى السوق، ولا ينفى دور الدولة الاقتصادى.

فقد ثبت بعد التدخل الجذرى للدولة الأمريكية، والذى يتمثل فى ضخ ٧٠٠ تريليون دولار لإنقاذ المؤسسات الرأسمالية، وتفادى الانهيار الكامل للاقتصاد الأمريكى وإعلان إفلاسه، أن للدولة دورًا فى الرقابة المالية والاقتصادية من خلال نظام جديد ينبغى إرساء قواعده.

حول هذه الموضوعات الحيوية والبالغة الأهمية، تدور أبحاث كتابنا الذى ينقسم إلى أربعة أقسام مترابطة:

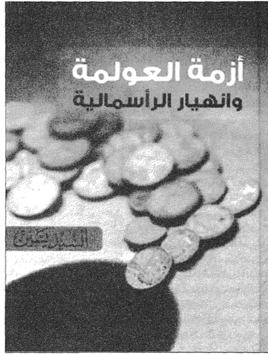
القسم الأول: مراجعة العولمة.

القسم الثانى: الديمقراطية بين المجتمع الواقعى والفضاء المعلوماتى.

القسم الثالث: أزمة السياسة فى عصر العولمة.

القسم الرابع: سقوط الهيمنة العالمية.

السيد يسين



أزمة العولمة وانهيار الرأسمالية
السيد يسين
القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩

32 ways to Be A champion in Business

اثنتان وثلاثون طريقة لتكون بطلا فى عالم الأعمال

Earvan Magic Johnson
Crown Business"2008" 320 pp
$17.13



كما أحرز نجاحاً وشهرة امتدت آثارهما على مستوى العالم فى مجال كرة السلة حقق اللاعب الموهوب إرفين ماجيك جونسون نجاحا منقطع النظير فى مجال الأعمال.

فمن خلال منصبه كمالك ومدير تنفيذى لمؤسسات «ماجيك جونسون» ساعد فى نشأة ونمو العديد من المشروعات التجارية التى تساعد فى نمو وازدهار المجتمع المدنى من خلال إحداث نوع من التفاعل بين تلك المشروعات الصغيرة والمشروعات الضخمة ذات الشهرة العالمية ونالت مؤسسته كما نال هو شخصياً المركز الأول فى خدمة المجتمع المدنى من خلال إنعاش تلك المشروعات.

ويعود ولع ماجيك جونسون بمجال الأعمال إلى طفولته المبكرة حيث كان شديد الإعجاب بوالده وبغيره من صغار المقاولين الذين يعملون فى مجتمع الغرب الأوسط لأمريكا والذين كانوا يوفرون فرص العمل للعديدين. وشاهدهم جونسون كما عمل معهم وكانت تلك هى بداية شغفه بمجال الأعمال الذى برع فيه إلى جانب شهرته كنجم فى اتحاد كرة السلة الأمريكى وساعدته شهرته وازدهار صيته فى كرة السلة على تنفيذ حلمه فى مجال الأعمال.

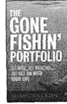
قام جونسون بإحداث نقلة كبيرة فى حياته فقد حول نفسه من لاعب عظيم بكرة السلة إلى رجل أعمال أعظم وذلك بالعمل الجاد والقدرة الرائعة على ملاحقة الفرص واقتناصها. يؤكد جونسون أن المجتمعات المدنية المأهولة بالسكان تعد من أكثر الأماكن التى تترعرع فيها الأعمال التجارية وتزدهر. وكانت مشاركة جونسون فى العديد من الأعمال والمشروعات ذات الماركات المشهورة مثل «ستار باكس» و«تى. جى. آى. فرايديز» سببا فى إعطاء دفعة اقتصادية قوية للمشروعات الصغيرة. قدم جونسون تجربته الناجحة فى مجال الأعمال من خلال كتابه الذى يعرض فيه اثنتين وثلاثين طريقة لإحراز التفوق والبطولة فى عالم الأعمال.

■

The gone fishing portfolio

انتشال ملف الأوراق الضائع

Alexander Green
Wiley"2008" 256 pp $17.44



كيف تكتسب الحكمة وتحقق الثراء وتقتحم الحياة بشكل ناجح ؟ كيف تحقق التوازن بين المخاطر والأرباح عندما تدير أعمالك؟ كيف تصل إلى أفضل الطرق لاستثمار أموالك؟ لن يستغرق منك الأمر أكثر من عشرين دقيقة سنويا لتعيد فيها ترتيب ملف أوراقك وتعيد صياغة خطة أعمالك. هذا مايقدمه الكسندر جرين فى كتابه «انتشال ملف الأوراق الضائع» الذى يتكون من ثلاثة عشر فصلا أوضح من خلالها أن أفضل من يستثمر أموالك هو «أنت» ولذلك فباعتمادك على نفسك سوف تحصل على أعلى عائد من أموالك ويعرض المؤلف فى هذا الكتاب نصائح كبار المستثمرين على مستوى العالم أمثال بيتر لينش، جون تمبلتون، ووارين بافيت، كما يربط بين الادخار- وهو ما يتم توفيره من مال للاستفادة منه عند بلوغ سن التقاعد - وبين الاستثمار، فبدون الأول لن يكون هناك معنى للحديث عن الثانى .ويقدم المؤلف تكنيك «ذكاء إدارة المخاطر» فانت لن تستطيع تجنب المخاطر ولكنك تستطيع التعامل معها بحيطة وذكاء ويعرض فى ذلك آراء بينيامين جراهام الأب الروحى لنظرية القيمة الاستثمارية. ويقدم المؤلف نصائح للقارئ خاصة بالتعامل فى البورصة الأمريكية وذلك فى فصل بعنوان «لا تشتر ما يباع فى وول ستريت» موضحا أفضل الطرق لشراء الأسهم والسندات وتحقيق أكبر فائدة مع تجنب الخسائر . ويذكر المؤلف أن الناس جميعا قد يحتاجون إلى البنوك وشركات التأمين فى بعض الخدمات المالية ولكن السؤال الذى يجب أن نسأله لأنفسنا هو هل نحن نحتاج إليهم لإدارة أموالنا؟ الإجابة هى النفى فالتسلح بمعرفة أساسيات الإستثمار يتيح للجميع تشغيل أموالهم بأنفسهم وهذه هى الإستراتيجية التى قام عليها الكتاب.

■

Michelle: A Biography

ميشيل: السيرة الذاتية

By Liza Mundy
Simon and Schuster" 2008" 224 p"$16.50



قد تكون مرحة وذات حس فكاهى لاذع، قدتكون عاطفية ودافئة، ربما هى امرأة لحوحة ومسيطرة، أسئلة عديدة وضعتها ليزا ماندى صاحبة كتاب ميشيل السيرة الذاتية وبحثت عن إجاباتها من أجل اقتحام شخصية تلك المرأة حديثة العهد بالأضواء سيدة أمريكا الأولى، تُرى من تكون تلك السيدة التى يلقبها أوباما بالزعيمة ؟ قدمت المؤلفة وهى محررة بالواشنطون بوست لوحة فنية معبرة تماما وكاشفة عن شخصية ميشيل أوباما واصطحبت القارئ فى رحلة داخل الحياة الخاصة لها بدءا من زواجها بالرئيس الأمريكى باراك أوباما باعتبارهما الآن أشهر ثنائى على الساحة السياسية. أوضحت ماندى كيف يتبادل الزوجان المجاملات وسلطت الضوء على زواج بطلته زوجة يعرف عنها شدة النظام والإتقان فى العمل وصاحبة فلسفة براجماتية، امرأة عملية وذات شخصية مسيطرة والبطل السياسى الساحر الذى يجيد اختراق المشاعر والاستحواذ عليها ولكنه يتعثر فى جواربه كما ذكرت المؤلفة. وصفت المؤلفة العلاقة بين ميشيل وأوباما بأنهما كالعديد من الأزواج تتميز علاقتهما بأبعاد كثيرة فالاثنان يعملان فى نفس التخصص ولديهما طفلتان . ومما ذكرته المؤلفة عن ميشيل غضبها من انشغال أوباما فى البداية بالعمل السياسى لدرجة أنه بذل مجهودا لإقناعها بضرورة تدعيمه فى حملته الانتخابية للصعود على السلم السياسى وقد سببت له بعض الإحباطات فى هذا الصدد. تحمل قصة حياة ميشيل العديد من الإنجازات غير العادية عانت فيها من التفرقة العنصرية والمعاملة المتدنية للسود. ونشأت فى جنوب شيكاغو لأب لا ينتمى للأغنياء ولكنه يتمتع بعقل متفتح وبتفوقها استطاعت أن تدرس القانون فى جامعة هارفارد. بهذا العرض للسيرة الذاتية لميشيل تكون ليزا ماندى قد سلطت ضوءا ساطعا على امرأة حقا غير عادية مثل ميشيل أوباما.

■

Bad money

أموال رديئة

Kevin Philips
Penguin group,2008
239pp$17.90



كتاب يسلط ضوءا كاشفا على موضوع يشغل أذهان الجميع الآن وهو الأزمة الاقتصادية العالمية والسر وراء حالة الركود والكساد الاقتصادى، قد يكون أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ عند قراءة عنوان هذا الكتاب هى الأموال الرديئة المرتبطة بالتجارات غير المشروعة طبقا لكل قوانين العالم كالمخدرات والرقيق الأبيض وغيرهما . ولكن كيفين فيليبس المؤلف يشير فى حقيقة الأمر إلى نوع آخر ألا وهو الأموال التى تستنزف من خلال سياسات مالية طائشة ومضللة كما يسمى الأموال المغتصبة بواسطة عوامل سياسية فاشلة يقف وراءها التسيب والإهمال والجهل وسوء النوايا بالأموال الخبيثة ويعتبرها إنتاجا مميتا هدفه تعظيم حجم ودور الرأسمالية الأمريكية من خلال العولمة. كيفين فيليبس أمريكى الجنسية وهو أحد صناع الاستراتيجيات السابقين بالبيت الأبيض وله مكانة كبيرة ككاتب ومحاضر طوال ثلاثين عاما كتب لمجلتى هاربرز والتايم، تناول فى كتابه من خلال سبعة فصول موضوع النزيف المالى الذى أطلق عليه الأموال الرديئة ويقول المؤلف فى ذلك أن الأموال التى يتم اكتسابها من خلال عمليات الإنتاج الصناعى المباشرة لا يمكن أن تتجاوز أكثر من أربعة وأربعين بالمائة من إجمالى الأرباح أما الباقى فهو نتيجة نشاطات مالية وأعمال سمسرة ووساطة لا علاقة لها بمنظومة الإنتاج والتسويق الرئيسية. ويفرد فصلا كاملا عن«الكساد العظيم» عام ١٩٣٢كما يتناول حقبة الستينيات التى عاصرت حرب فيتنام ومما لا يعرفه الكثيرون عن هذه الفترة ظهور القروض البنكية الكبيرة وكروت الائتمان وارتفاع قيمة الرهنيات ، وفى السبعينيات حدث الارتفاع الدرامى فى أسعار النفط وفى الخفاء زادت بشكل مرعب تكلفة العقارات وكان عام١٩٨٠ هو الأسوأ فى الاستثمار ذى المردود الملموس داخل المصانع ومراكز الإنتاج وأيضا على مستوى السيولة النقدية وتراكمها.

ويؤكد أن الصين أصبحت تشكل تهديدا كما أن البترول الذى دفع الأمريكيون الغالى والرخيص للسيطرة عليه فى العراق والشرق الأوسط يعطى

■

مدخلا لروسيا لممارسة التحرك والضغط باستخدام ماتبقى من تركة الاتحاد السوفيتى، والهند التى تتنامى بسرعة وتشكل خطرا قادما على الطريق وإيران ووسط آسيا كلها عوامل تمثل تهديدا والضباب ينتشر ويقلل من وضوح الرؤية وذلك يحتم ضرورة أخذ كل هذه العوامل الهامة فى الحسبان.

■

The E.F.T.Manual
دليل أساليب التحرر العاطفى
Gary kraig
Energy Psychology press"2008"
209pp $10.17



عندما يقدم لنا عالم أو طبيب متخصص فى علم النفس كتابا يقتحم به أعماق هذا العلم فهذا هو المتوقع ولكن عندما يقوم بهذا العمل مهندس فهذا هو الجديد. المؤلف جارى كريج أستاذ الهندسة بجامعة هارفارد ألف كتابا استطاع من خلاله أن يبلور العلاقة الرابطة بين الهندسة والطب النفسى وأن يسلط ضوءا ساطعا على طبيعة البناء الهندسى لجسم الإنسان وتأثيره على الحالة النفسية له. يرتبط ذلك بالتطور الهائل فى علم الهندسة الطبية والذى جعل تشخيص العديد من الأمراض ومنها النفسية مرتبطا بوجهة نظر هندسية وهذا يمنح فعالية فى السيطرة على هذه الأمراض. الكتاب يقدم طريقة للعلاج باستخدام الطاقة النفسية وهى تعتمد على تقنية للعلاج مشابهة لأسلوب العلاج بالإبر الصينية، يذكر جارى أن السبب الأساسى فى المشاعر السلبية هو حدوث خلل فى نظام الطاقة الجسدى، وأن جسم الإنسان يحمل شحنات كهربية هى أساس عمل الجهاز العصبى ووسيلة القيام بكافة العمليات الحيوية وهذا «النظام الكهربى» من وجهة النظر الهندسية، يمكن قياسه ومراقبته عن طريق أجهزة رسم القلب ورسم المخ وغيرها من الأجهزة التى تقيس النشاط الكهربى، ويؤكد جارى أن تعديل الخلل فى نظام الطاقة داخل الجسم يمكن أن يعالج العديد من الأمراض النفسية ويتم ذلك بالطرق والربت على مناطق محددة فى الجسم حيث تتواجد نهايات الأطراف العصبية ويؤدى ذلك إلى تحسن سريع، يقدم المؤلف الطريقة التى من خلالها نستطيع تطبيق أسلوب التحرر العاطفى كعلاج ويؤكد أن النجاح فى هذه التقنية يعتمد على قناعة الشخص بجدوى العلاج، كتاب جارى كريج يحمل فكرا جديدا يستحق النظر فيه، هو حقا جدير بالقراءة.

■

The Key: the missing secret for attracting anything you want
المفتاح: السر الخفى لنيل ما تريد
Joe Vitale
John Wiley and sons,Inc 2008
204pp $16.47

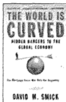


العديد من العقبات النفسية تختبئ داخل الإنسان تعيقه عن التقدم وتسحبه إلى الوراء تسمى مضادات الإنجاز وهى دوافع داخلية غير واعية لها القدرة على منع الإنسان من تحقيق أهدافه وإنجاز ما يريد. هذا هو الخط الرئيسى لكتاب المفتاح للمؤلف جو فيتال الذى يقدم من خلاله عشرة طرق لإصلاح هذا الوضع وإعادة تنظيم المعتقدات المرتبطة بالوعى واللاوعى لمعالجة حالة الإجهاد النفسى التى قد تعوق الإنجاز. يقول المؤلف أن مفتاح النجاح موجود داخل صفحات هذا الكتاب ولكنه أيضا موجود داخل كل إنسان،الخطوة الأولى على طريق النجاح هى الاعتراف أمام النفس أولا بالفشل فى إنجاز شىء ما أو تحقيق هدف معين ومحاولة معرفة سبب هذا الفشل. ففى حقيقة الأمر إن مفردات حياة أى إنسان هى من صنع يديه وحده سواء الأشياء الرديئة أم الجيدة، السر الخفى بناء على ذلك هو مايسمى بوضوح الرؤية، حيث لابد من توفر رؤية واضحة للفرد لذاته فهذا يساعده على تحريرها من قيودها ويخلصها من عوامل الفشل وعندئذ يحدث الانسجام بين العقل الباطن والعقل الواعى. يرى جو أن النجاح هو حاصل جمع مجموعة من الأفعال الصغيرة المتكررة يوما بعد يوم. ومن هذا المنظور فإن «الفعل» عامل مهم لتحويل الرغبات الداخلية إلى خطوات للنجاح، فإذا أحسست بدافع داخلى لعمل شىء ما كشراء كتاب أو حضور ندوة أو Act on it إجراء مكالمة هامة فافعل الآن

ولا تؤجل هذا الفعل وينصح المؤلف القارئ بأن يحدد الأهداف التى نوى إنجازها ولم يفعل - مثل التوقف عن التدخين أو اتباع نظام غذائى لاكتساب الرشاقة - بسبب النسيان أو التكاسل أو التردد وهى كلها مضادات للإنجاز ثم يأخذ قرارا جادا بتنفيذ تلك الأهداف المؤجلة ويبدأ فورا فى التنفيذ، لذا فوضوح الرؤية هو مفتاح النجاح الحقيقى. كتاب جو فيتال حقا كتاب قيم ويقدم بداية عملية للنجاح.

■

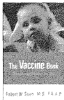
The World is Curved
العالم منحن
David Smick
Portfolio Penguin group 2008
305p p$17.79



بلا شك أن العالم منحن حتى أن أى قمر صناعى يطير فوق الأرض لا يستطيع أن يرى أكثر من النصف المواجه له من سطح الكوكب أما الباقى فإنه يقبع فى الخفاء، ما قام به دافيد سميك مؤلف هذا الكتاب هو اقتحام النصف الخفى من سطح الكوكب ولكن فى مجال أسواق المال والتجارة وسجل حقائق هامة لايمكن تجاهلها وطرح أسئلة عديدة لابد من العمل على إيجاد إجابات لها برغم صعوبة ذلك فى ظل الحجم الضخم والتداخلات المتشعبة لسوق المال والتجارة فى كل أنحاء العالم، يذكر دافيد سميك أن مفردات الإنتاج الصناعى الضخمة وثورة التكنولوجيا الرقمية قامت بتقريب المسافات بين الدول والأسواق المختلفة ووضعت كل الأطراف على طاولة واحدة هى طاولة التجارة العالمية وانتجت عالما يبدو فى ظاهره متقاربا على غير الحقيقة فهذا القرب الزمانى والمكانى استبدل الأسواق المالية، الصغيرة والكبيرة، بسوق واحد عملاق مساحات الحركة فيه أكبر والمساهمات التمويلية أعلى من ذى قبل وهذا يصعب مجال الرؤية، يطالب المؤلف الصين بحسن إدارة عملتها وعملياتها المالية المرتبطة ارتباطا وثيقا بمقدرات التجارة العالمية كما يذكر أن الكثير من المدخرات المالية المتراكمة فى حوزة أنظمة سياسية شمولية وغير ديموقراطية بعضها يتبع الصين والبعض الآخر ينتمى إلى مجموعة الدول المنتجة للنفط بما فيها روسيا. ويقدم المؤلف تفسيرا للانتشار الرهيب للمنتجات الصينية وغزوها الأسواق العالمية على مستوى كافة الأصعدة بدءا من السلع الرخيصة الرديئة ووصولا لأعلى مستويات الأسعار والتكنولوجيا. خطر آخر يتمثل فى الولايات المتحدة الأمريكية وكراهية بقية دول العالم لازدواجيتها السياسية والمالية. ويقول سميك أن العالم الآن يطرح نفس الأسئلة التى كانت تطرح بين عامى ١٨٧٠ و١٩١٤ حينما أصبح العالم مشحوذا لخوض غمار حرب عالمية، حيث دمرت قواعد التجارة العالمية مما أوجد إحباطا عاما ساعد فى نشوب الحرب. الكتاب يعتبر صيحة تحذيرية من المؤلف يقدمها ويوجهها إلى قادة العالم لكى يتم تجاوز الكارثة التى تهدد العالم والتى تحتاج إلى أجندة فعالة وذكية وقيادة حكيمة.

■

The Vaccine Book
الدليل الطبى للتطعيمات
Robert W.Sears
Little Brown and company
Hachette book group2007,278p
P11.19



الدليل الطبى الشامل لطب الأطفال كتاب يتناول قضية هى شديدة الأهمية للآباء والأمهات وهى مسألة تحصين الأطفال ضد الأمراض. قدم د. روبرت دابليو سيرز مؤلف الكتاب الحاصل على البورد الأمريكى فى طب الأطفال التطعيمات الواجب إعطاؤها للأطفال طبقا لما حددته الأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال،الكتاب لا ينتمى إلى الكتب ذات الطابع العلمى البحت ولكنه يقدم المعلومات بشكل مبسط حول تناول الأطفال للأمصال للوقاية من الأمراض فى وقت بدأ يكثر فيه الحديث عن جدوى ذلك الإجراء ومدى خطورته حيث ارتبط ذلك بظهور الآثار الجانبية على بعض الأطفال، يقدم المؤلف للوالدين الطريقة العلمية المفيدة فى شأن القرارات المتعلقة بصحة الطفل والواجب اتخاذها فى التوقيت الصحيح وينصح بتجنب إعطاء الطفل أى نوع من الأمصال فى حالة خضوعه للعلاج بمثبطات المناعة مثل مشتقات الكورتيزون فقد يكون ذلك سببا لظهور أعراض المرض على الطفل بدلا من حمايته منه،ينصح أيضا بتجنب إعطاء الطفل أية عقاقير فى حالة تطعيمه فى خلال النصف ساعة الأولى من الحقن لضمان تحقيق الفعالية.

■

أوباما والعالم الإسلامي

جون إسبوزيتو
John L. Esposito

بعد فشل امتد لعقود من الزمن لعملية السلام الإسرائيلية-الفلسطينية، والتي تجمدت عبر ثماني سنوات من سياسات جورج دبليو بوش التي سببت نفورا عاليا من المسلمين، تحرك الرئيس باراك أوباما بسرعة ليتنصل من تركة بوش معلنا: «إلى العالم الإسلامي، نحن نسعى إلى طريق جديد للأمام على أساس المصلحة المشتركة والاحترام المتبادل». وقد أكد أوباما على الاستعداد «للاستماع» بدلا من الإملاء، وعن رغبته في استعادة «نفس الاحترام والشراكة التي كانت بين أمريكا والعالم الإسلامي منذ ما لا يزيد عن عشرين أو ثلاثين عاما». ولكن هل سيكون هناك نهج جديد وتحول هام في السياسة الخارجية الأمريكية؟

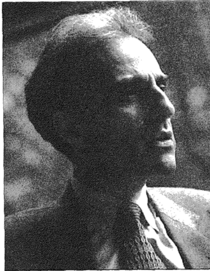
حتى الآن، مازال مسلك أوباما غير واضح. فقد أعلن عن إغلاق جوانتانامو وأرسل السيناتور السابق جورج ميتشيل George Mitchell كمبعوث خاص إلى الشرق الأوسط. ومع ذلك فسرعان ما توازن مع تلك القرارات رد فعل الإدارة تجاه العاصفة النارية والحملة الشعواء من الاتهامات الواهية إزاء تعيين شاس فريمان Chas Freeman السفير الأمريكي السابق لدى المملكة العربية السعودية ومساعد وزير الدفاع رئيسا لمجلس الاستخبارات القومي. لقد هاجمت جماعات الضغط الإسرائيلية - بما فيها إيباك (لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية) - ومؤيديها في الكونجرس بشدة سمعة فريمان الدبلوماسي البارز السابق والذي انتقد بشدة أحيانا سياسات إسرائيل في فلسطين. كان يقود الهجوم ستيفين روزين Steven Rosen المسئول السابق بإيباك والمعين مؤخرا ليشغل فرع واشنطون لمنتدى دانيال بايبس للشرق الأوسط Daniel Pipes' Middle East Forum. ويتعرض روزين نفسه حاليا لاتهام بكشف أسرار لإسرائيل. وقد حذت حذوه مطبوعات مثل «ناشيونال ريفيو» و«وول ستريت جورنال» و«ويكلي ستاندارد»، والصفحة الافتتاحية لـ «واشنطون بوست»، وأعضاء في الكونجرس.

في النهاية سحب شاس فريمان ترشيحه. وقبل الرئيس أوباما استقالته مفضلا ألا يواجه هجوم وسائل الإعلام؛ وقد بقي صامتا مثلما فعل أثناء الغزو الإسرائيلي والحرب على غزة. إن لتلك الوقائع دلائل أبعد كثيرا لمصداقية أوباما في صياغة أسلوبه الجديد للعلاقات مع العالم الإسلامي. لقد نأى أوباما بنفسه - كمرشح رئاسي - عن المجتمعين العربي والإسلامي بينما خطب ود جماعات الضغط الإسرائيلية في سعيه للحصول على أصوات اليهود الأمريكيين. وبينما أدرك الكثيرون الضرورة السياسية لموقفه أثناء حملة انتخابية حامية المنافسة.

فالسؤال الحاسم اليوم هو ما إذا كان الرئيس أوباما سيتخذ الآن قرارات هامة دون الانحناء للضغوط الداخلية من القوى النافذة لأعضاء الكونجرس وفرق الضغط وجماعات المصالح؟ هل سيخاطر سياسيا ويعكس القصور التاريخي لانحياز السياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط والمنعكس مؤخرا جدا في سياسات إدارة بوش والتأثير المفرط لجماعات الضغط الإسرائيلية والصهاينة المسيحيين المتشددين على البيت الأبيض والكونجرس وردود فعل الإدارة تجاه الغزو الإسرائيلي للبنان والغزو الأخير لغزة؟

لا يمكن الإقلال من شأن النكسة المحتملة للحرب في غزة. ورغم أهمية إغلاق أوباما لجوانتانامو، فإن أثر ذلك في العالمين العربي والإسلامي لا يعد شيئا بالمقارنة بسياسات أمريكا في غزة. وقد كشف استطلاع رأي لمعهد جالوب في أكتوبر ٢٠٠٨ قبل حرب غزة أنه بينما قد يحسن إغلاق معسكر اعتقال جوانتانامو من مواقف العالم العربي تجاه الولايات المتحدة، فإنه لا يوازي مستوى التأييد لضغوط أمريكية على إسرائيل. لقد اعتبر المشاركون في استطلاع الرأي القضية الإسرائيلية/الفلسطينية أكثر أهمية لصورة الولايات المتحدة من إغلاق جوانتانامو. وقد ذكر عدد كبير من المواطنين في العديد من الدول العربية (مثل تونس ومصر والمملكة العربية السعودية ولبنان - وكلها دول حليفة لأمريكا) أن نظرتهم للولايات المتحدة قد تتحسن «كثيرا جدا» إذا زاد الضغط الأمريكي على إسرائيل. ويعد الدعم غير المحدود اللاحق للرئيس بوش لإسرائيل في حرب غزة ثم صمت مرشح الرئاسة باراك أوباما فشلا في الاختبار.

سرعان ما سنصل إلى وقت لا يستطيع بعده الرئيس أوباما أن يقول أنه «ورث» تلك «الفوضى» - عليه أن يقود وفورا بعد أن أصبحت الأوراق بحوزته. إن وحشية الحرب في غزة بمحصلة وفياتها غير المتناسبة (١٣٠٠ فلسطيني مقابل ١٣ إسرائيلي) والدمار الهائل لأحياء غزة وجامعاتها ومدارسها إلخ، والمحصلة الدرامية لأرواح الأبرياء من النساء والأطفال، أصبحت رمزا في العالم العربي والعالم الإسلامي الأكبر للازدواج الأمريكي الملحوظ في معايير ترويج الديمقراطية وحقوق الإنسان. إذا ما أرادت إدارة أوباما أن تتنصل بفعالية من إدارة بوش، فإنها سوف تحتاج لأن «تسير في الطريق الذي تتحدث عنه». إن التزام أوباما بسياسة «جديدة» وبالـ «استماع» سوف يتطلب أن تلتقي الولايات المتحدة وتستمع وتعمل مع كافة اللاعبين الرئيسيين في فلسطين وليس فقط فتح وإسرائيل وإنما أيضا حماس - الزعامة التي اختارها الفلسطينيون من خلال انتخابات ديمقراطية نزيهة حرة عام ٢٠٠٦.



وبنفس القدر من الأهمية، لا تستطيع إدارة أوباما متابعة نهج جديد بفعالية ما لم يقر اللاعبون الأساسيون والقوى الإقليمية بالحاجة إلى مثل هذا النهج. على القيادة الفلسطينية - بما في ذلك حماس - أن توضح وتبين أنها أيضا على استعداد ليس فقط للتفاوض بشأن دولة فلسطينية حرة وآمنة بل أيضا للاعتراف بوجود وأمن إسرائيل. يجب أن يكون الفلسطينيون والإسرائيليون على استعداد للاعتراف بأن لكلاهما مطالب شرعية وأن الخيار العسكري ليس حلا وأن الدبلوماسية والتفاوض هما الطريق للمستقبل. وبالنظر إلى الحقائق الحالية ونتائج الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة وحكومة نتنياهو-ليبرمان وانقسام الزعامة في إسرائيل وفلسطين وحقائق السياسات الأمريكية، فإن طريق السلام سيكون شديد الانحدار ووعرا بما يفوق الوصف.

إن مصداقية السيناتور ميتشيل وتأثيره كوسيط سوف تعتمد إلى حد كبير على قدرة الرئيس باراك أوباما (ووزيرة الخارجية هيلاري كلينتون) على تجاوز مخاوف معظم الساسة الأمريكيين وجماعات الضغط التي تدعم السياسات الإسرائيلية المتشددة. إن السياسة الأمريكية «المستثنية لإسرائيل» والمنحازة للمصالح الإسرائيلية والتي - لذلك - فشلت في انتهاج سياسة متوازنة، سيتوجب أن تستبدل بسياسة أكثر توازنا تضع إسرائيل في نفس معايير الدول الأخرى في المجتمع الدولي، بما في ذلك الالتزام بقرارات مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة فيما يتعلق بإعادة المناطق الفلسطينية المحتلة أثناء حرب ١٩٦٧ والضم اللاحق للأراضي وبناء المستوطنات «غير الشرعية».

هل سيرتفع أوباما إلى مستوى الحدث منتهجا سياسة جديدة جريئة؟ الزمن وحده كفيل بالرد على هذا السؤال. إن الاتجاه المستقبلي لإدارة أوباما ما زال غير واضح مثل الحكومة الإسرائيلية والقيادة الفلسطينية. مما لا شك فيه أن الرئيس أوباما لديه الرغبة والرؤية والإدراك للتوجه نحو العالم الإسلامي الكبير. ولكن هل سيفعل ما لم يفعله أي رئيس أمريكي في التاريخ المعاصر ويخاطر سياسيا لمقاومة ضغوط - وفقا لكلمات شاس فريمان - «مجموعة عقدت العزم بوضوح تام على فرض الالتزام بسياسات حكومة أجنبية» ومؤيديها في الكونجرس؟ الزمن وحده كفيل بالرد.

بترتيب خاص مع الكاتب

ترجمة: عادل فتحي